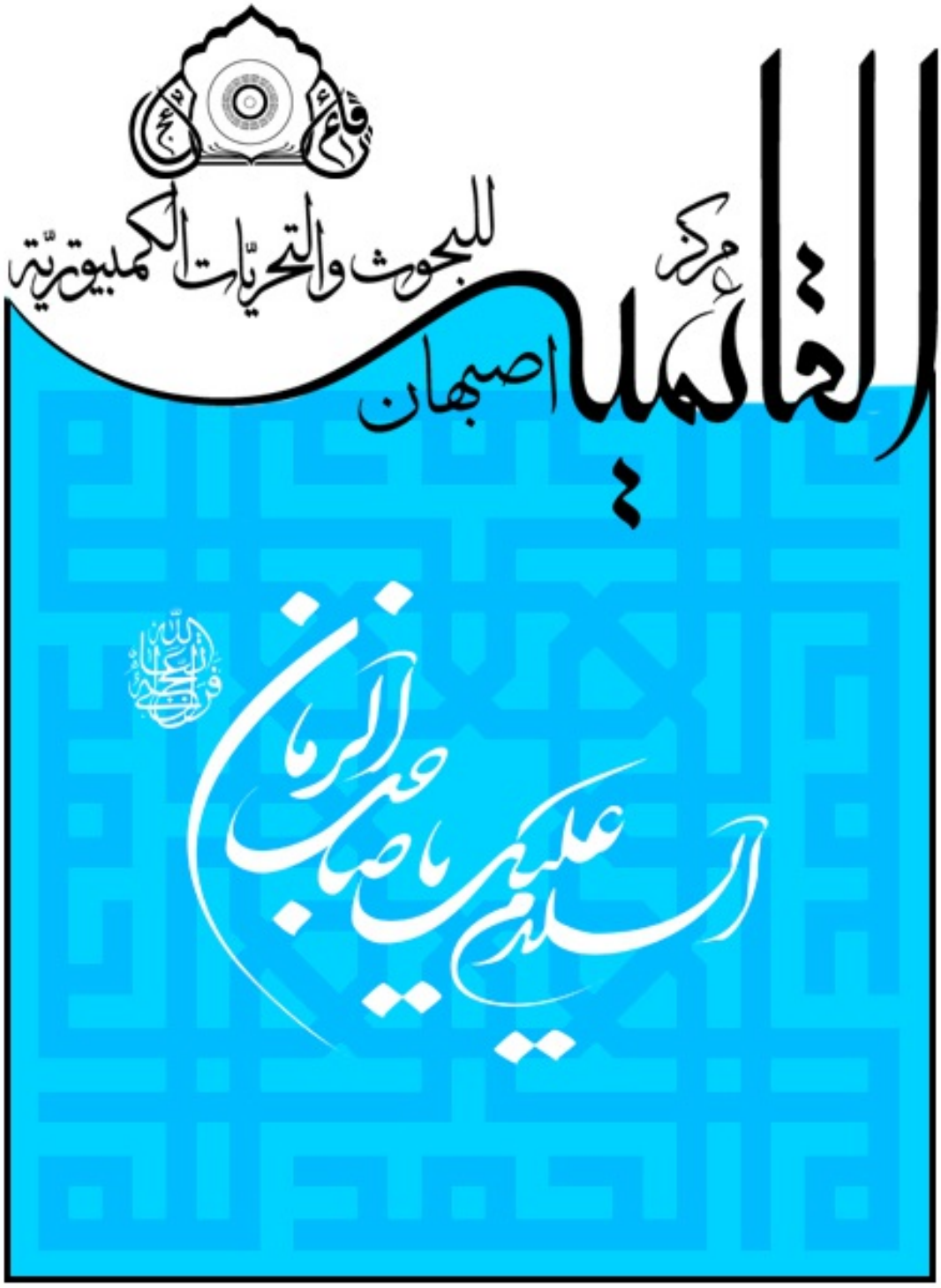

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

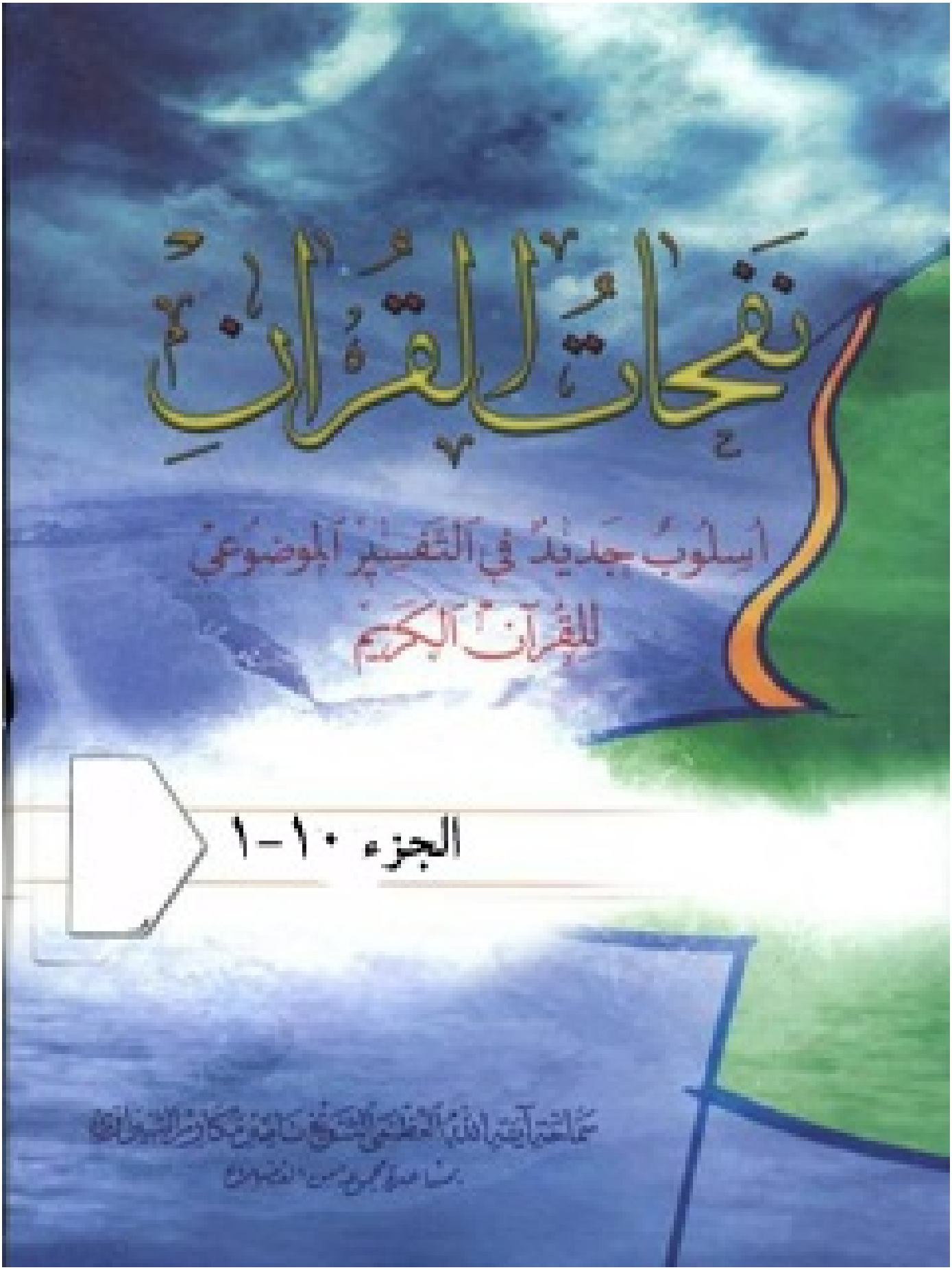
نفحات القرآن
أسلوب جديد في التفسير الموضوعي
للقرآن الكريم
الجزء ١٠-١

بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات القرآن:اسلوب جديد فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

كاتب:

ناصرمكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

موسسه ابى صالح النشر و الثقافه

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
نفحات القرآن ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
الجزء الأول ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
المقدمة: ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۶
أنواع التفسير: ----- ۱۰۶
ما هو التفسير الموضوعی؟ ----- ۱۰۷
ما هی المشاکل التی یُمکن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعی؟ ----- ۱۰۸
تاريخ التفسير الموضوعی: ----- ۱۰۹
التفسير الموضوعی فی کلمات العلماء السابقين: ----- ۱۱۱
الاسلوب الصحيح فی التفسير الموضوعی: ----- ۱۱۲
عقبات تواجه التفسير الموضوعی: ----- ۱۱۳
لماذا لم يتطور هذا الموضوع من التفسير؟ ----- ۱۱۴
کل عمل باسم اللّه ----- ۱۱۵
تمهيد: ----- ۱۱۵
شرح المفردات: ----- ۱۱۵
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۱۷
لماذا نبدأ فقط باسم اللّه؟ ----- ۱۱۷
توضيحات ----- ۱۱۸
۱- الأهمّيّة الخاصة ل «البسملة» ----- ۱۱۸
۲- هل أنّ بسم اللّه جزء لکلِّ سورة؟ ----- ۱۲۰

۳- لماذا لم تُذكر بسم اللّه فی بدایة سورة براءة؟ ۱۲۲
۴- لا تقرنوا اسم اللّه باسم غیره؟ ۱۲۲
نظریةالمعرفة ۱۲۳
تمهید: ۱۲۳
هل هناک عالم خارج أذهاننا؟ ۱۲۳
القرآن وضرورة المعرفة ۱۲۴
تمهید: ۱۲۴
اشارة ۱۲۴
۱- وجوب تحصیل العلم ۱۲۵
۲- التأکید المتواصل علی عدم ترک التفکر ۱۲۶
۳- التأکید علی لزوم التعلیم والتعلم ۱۲۶
۴- العلمُ والمعرفة هما الهدف من خلق العالم ۱۲۶
۵- الهدف من بعثة الأنبیاء هو التعلیم والتربیة ۱۲۷
۶- التفکّر والتدبّر هو الهدف من نزول القرآن ۱۲۷
۷- المعرفة هی الهدف من المعراج ۱۲۸
۸- الدعوةُ للإسلام بدأت بالدعوة للعلم ۱۲۸
۹- العلم نور وضیاء ۱۲۸
۱۰- إدراک أسرار الوجود خاصّ بالعلماء ۱۲۹
۱۱- اللّه أول معلّم ۱۲۹
۱۲- بالعلم یتمیّز الإنسان عن الموجودات الأُخری ۱۲۹
۱۳- درجاتُ القرب من اللّه تتناسبُ مع درجات المعرفة ۱۳۰
۱۴- الأنبیاء یُطالبون بعلم أکثر ۱۳۰
۱۵- المعرفة مفتاح نجاة الإنسان ۱۳۱
۱۶- العلم فخر بجمیع أشکاله ۱۳۱

۱۷- المعرفة شرط أساسی للادارة والقیادة ---- ۱۳۲
۱۸- العلم منبع الإیمان ---- ۱۳۲
۱۹- العلم منشأ تقوی اللّه وخشیته ---- ۱۳۳
۲۰- العلم منشأ الزهد ---- ۱۳۴
۲۱- التطور المادی مرهون بالعلم ---- ۱۳۴
۲۲- العلم مصدرالقوة أو (العلم قوّة) ---- ۱۳۵
۲۳- العلم و التزکیة ---- ۱۳۵
۲۴- علاقة العلم بالصبر ---- ۱۳۶
۲۵- العلم والمعرفة خیر کثیر ---- ۱۳۶
۲۶- أصحاب السعیر هم الجاهلون ---- ۱۳۷
۲۷- الجهل مصدر انحطاط البشر ---- ۱۳۷
۲۸- الجهل عمی ---- ۱۳۸
۲۹- الحیاة مع الجهل هی أرذل العمر ---- ۱۳۸
۳۰- الجهل مصدر الکفر ---- ۱۳۸
۳۱- الجهل السبب الأساسی للفشل ---- ۱۳۹
۳۲- الجهل مصدر لاشاعة الفساد ---- ۱۴۰
۳۳- الجهل أساس التعصب والعناد ---- ۱۴۰
۳۴- الجهل مصدر لاختلاق الحجج ---- ۱۴۱
۳۵- الجهل هو سبب التقلید الأعمی ---- ۱۴۲
۳۶- الجهل عامل الخلاف والفرقة ---- ۱۴۲
۳۷- الجهل هو سبب سوءالظن بالآخرین ---- ۱۴۳
۳۸- سوء الأدب ینشأ عن الجهل ---- ۱۴۳
۳۹- الجهل سبب الندم والمشاکل الاجتماعیة ---- ۱۴۴
۴۰- الجهلُ وتبدّل القیم ---- ۱۴۴

الخلاصة و النتیجة: ۱۴۴
توضیحات ۱۴۵
۱- إمکانیة المعرفة من وجهة نظر فلسفیة ۱۴۵
اشارة ۱۴۵
ما هی شروط الوصول إلی المعرفة؟ ۱۴۵
إیضاح: ۱۴۷
۲- العلم البشری المحدود ۱۴۹
اشارة ۱۴۹
شرح المفردات: ۱۴۹
جمع الآیات وتفسیرها ۱۵۰
نتیجة البحث: ۱۵۲
۳- الفلاسفة والعلماء یشهدون بقصور العلم البشری ۱۵۲
اشارة ۱۵۳
تذکیر: ۱۵۵
مصادر وسُبُل المعرفة ۱۵۶
اشارة ۱۵۶
تمهید: ۱۵۶
۱- الحس والتجربة ۱۵۷
اشارة ۱۵۷
شرح المفردات: ۱۵۸
جمع الآیات وتفسیرها ۱۵۸
النتیجة: ۱۵۹
توضیح ۱۶۰
الفلاسفة ومصدر الحس: ۱۶۰

۲- العقل و التحلیل المنطقی ۱۶۲
تمهید: ۱۶۲
شرح المفردات: ۱۶۳
أفعال العقل: ۱۶۵
جمع الآیات وتفسیرها ۱۶۶
قیمه العقل فی مقیاس القرآن: ۱۶۶
توضیحات ۱۶۹
۱- الإدراکات العقلیة برؤیة فلسفیة ۱۶۹
۲- منزلة العقل فی الروایات الإسلامیة ۱۷۰
۳- المخالفون لتحکیم العقل ۱۷۲
۳- التاریخ والآثار التاریخیة ۱۷۳
تمهید: ۱۷۳
شرح المفردات: ۱۷۴
جمع الآیات وتفسیرها ۱۷۵
توضیحات ۱۷۷
۱- مرآة التاریخ ۱۷۷
۲- جاذبیة التاریخ ۱۷۸
۳- شوائب التاریخ ۱۷۹
۴- فلسفة التاریخ ۱۸۰
۵- التاریخ «النقلی» و «العلمی» و «فلسفة التاریخ» ۱۸۰
اشارة ۱۸۰
الإجابة علی إشکال: ۱۸۱
۶- التاریخ فی نهج البلاغة والروایات الإسلامیة ۱۸۲
آخر الحدیث حول التاریخ المعلِّم: ۱۸۴

۴- الفطرة والوجدان ----- ۱۸۵
تمهيد: ----- ۱۸۵
نقرأ أولًا الآيات الآتية: ----- ۱۸۶
معانى المفردات: ----- ۱۸۶
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۸۷
النتيجة: ----- ۱۸۹
توضيحات ----- ۱۸۹
۱- فروع الفطرة والوجدان ----- ۱۸۹
۲- هل توجد معرفة فطرية؟ ----- ۱۹۰
۳- «الفطرة» و «الوجدان» فى الروايات الإسلامية ----- ۱۹۳
۵- الوحى السماوى ----- ۱۹۴
تمهيد: ----- ۱۹۴
شرح المفردات: ----- ۱۹۴
شرح الآيات وتفسيرها ----- ۱۹۷
الوحى شمس مشرقة: ----- ۱۹۷
توضيحات ----- ۱۹۹
۱- أقسام «الوحى» فى القرآن المجيد ----- ۱۹۹
۲- ما هى حقيقة الوحى؟ ----- ۲۰۰
۳- الوحى عند فلاسفة الشرق والغرب ----- ۲۰۲
۴- فرضية كون الوحى غريزة ----- ۲۰۳
۵- كيف تيقن الرسول بأنّ الوحى من اللّه؟ ----- ۲۰۵
۶- القرآن أغنى مصدر للمعرفة فى الأحاديث الإسلامية ----- ۲۰۶
۷- الوحى الخاص إلى غير الأنبياء (وحى الالهام) ----- ۲۰۷
۸- كيفية نزول الوحى على الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله ----- ۲۰۸

۹- الالهامات الغریزیة ----- ۲۰۹
۶- الکشف والشهود ----- ۲۱۱
تمهید: ----- ۲۱۱
شرح المفردات: ----- ۲۱۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۱۳
النتیجة: ----- ۲۱۸
توضیحات ----- ۲۱۸
۱- نماذج جمیلة من الکشف والشهود فی الأحادیث الإسلامیة ----- ۲۱۸
۲- کیف تُرفع الحجب؟ ----- ۲۲۱
۳- سبعة منامات صادقة فی القرآن المجید ----- ۲۲۳
اشارة ----- ۲۲۳
النتیجة: ----- ۲۲۷
۴- المکاشفات الرحمانیة والمکاشفات الشیطانیة ----- ۲۲۸
حُجُب المعرفة وآفاتها ----- ۲۳۰
تمهید: ----- ۲۳۱
حُجُب المعرفة: ----- ۲۳۱
شرح المفردات: ----- ۲۳۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۳۳
النفوذ التدریجی لآفات المعرفة: ----- ۲۳۳
النتیجة الأخیرة: ----- ۲۳۸
حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصیل) ----- ۲۳۹
تمهید: ----- ۲۳۹
۱- الصفات التی تحول دون المعرفة ----- ۲۳۹
اشارة ----- ۲۴۰

۱- حجاب عبادة هوی النفس ۲۴۰
اشارة ۲۴۰
شرح المفردات: ۲۴۰
جمع الآیات وتفسیرها ۲۴۰
إتباع الهوی یُعمی القلب: ۲۴۰
۲- حبّ الدنیا أحد الحجُب ۲۴۲
اشارة ۲۴۲
جمع الآیات وتفسیرها ۲۴۲
۳- حجاب الکبر والغرور وحبّ السلطة! ۲۴۳
اشارة ۲۴۳
جمع الآیات وتفسیرها ۲۴۳
اشارة ۲۴۳
حجاب الغرور فی الأحادیث الإسلامیة: ۲۴۴
۴- حجاب الجهل والغفلة ۲۴۴
اشارة ۲۴۴
جمع الآیات وتفسیرها ۲۴۴
اشارة ۲۴۴
حجاب الجهل فی الأحادیث الإسلامیة: ۲۴۵
۵- حجاب النفاق ۲۴۶
اشارة ۲۴۶
جمع الآیات وتفسیرها ۲۴۶
المنافقون عمی القلوب: ۲۴۶
۶- حجاب التعصب والعناد ۲۴۸
اشارة ۲۴۸

جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۴۹
الموتی المتحرکون: ----- ۲۴۹
النتیجة: ----- ۲۵۰
۷- حجاب التقلید الأعمی ----- ۲۵۲
اشارة ----- ۲۵۲
شرح المفردات: ----- ۲۵۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۵۳
قومٌ أهلکهم تقلیدهم: ----- ۲۵۳
توضیحات ----- ۲۵۴
۱- أنواع التقلید المختلفة ----- ۲۵۴
۲- شروط التقلید الممدوح ----- ۲۵۵
۳- عوامل التقلید الأعمی ----- ۲۵۵
۸- حجاب حب الرفاه ----- ۲۵۶
اشارة ----- ۲۵۶
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۵۷
اعفنا من الجهاد: ----- ۲۵۷
۹- حجاب الأمانی ----- ۲۵۸
اشارة ----- ۲۵۸
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۵۸
الآمال البعیدة: ----- ۲۵۸
توضیح: ----- ۲۵۹
حجاب الأمانی فی الروایات الإسلامیة: ----- ۲۵۹
۲- الأعمال التی تحجب عن المعرفة ----- ۲۶۰
۱- حجب الذنوب ----- ۲۶۰

اشارة ----- ۲۶۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۶۰
الذنب یُعمی الإنسان ویصمه: ----- ۲۶۰
توضیح: ----- ۲۶۲
إنّ الذنب حجاب فی الروایات الإسلامیة ----- ۲۶۲
۲- حجاب الکفر والأعراض ----- ۲۶۳
اشارة ----- ۲۶۳
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۶۴
لِمَ یحجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟ ----- ۲۶۴
۳- حجاب الاعتداء والعدوان ----- ۲۶۶
اشارة ----- ۲۶۶
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۶۶
۴- حجاب الرؤیة السطحیة وترک التدبر ----- ۲۶۷
اشارة ----- ۲۶۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۶۷
أقفال القلوب الثقیلة: ----- ۲۶۷
۵- حجاب الارتداد ----- ۲۶۹
اشارة ----- ۲۶۹
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۶۹
۶- حجاب الکذب والافتراء ----- ۲۷۰
اشارة ----- ۲۷۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۷۰
خُداع الکذب: ----- ۲۷۱
۷- حجاب الظن القاتم ----- ۲۷۲

اشارة ----- ۲۷۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۷۳
۳- الحُجُب الخارجیة ----- ۲۷۴
۱- حجاب القادة الضالین والمفسدین ----- ۲۷۴
اشارة ----- ۲۷۴
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۷۴
شجار أصحاب النار: ----- ۲۷۴
توضیحان: ----- ۲۷۵
۱- «المستضعفون» و «المستکبرون» فی القرآن المجید ----- ۲۷۵
۲- دور القادة و الامراء فی التأثیر علی الناس ----- ۲۷۶
۲- حجاب الأصدقاء الضالین ----- ۲۷۷
اشارة ----- ۲۷۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۷۷
توضیح: ----- ۲۷۸
دور الأصدقاء فی التأثیر علی طریقة التفکیر عند الآخرین: ----- ۲۷۸
۳- حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعی ----- ۲۷۹
اشارة ----- ۲۷۹
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۲۷۹
الإعلام المسموم: ----- ۲۷۹
توضیح: ----- ۲۸۴
الجوانب المتعددة للإعلام المضلل: ----- ۲۸۴
۴- حجاب وساوس الشیاطین ----- ۲۸۵
اشارة ----- ۲۸۵
شرح المفردات: ----- ۲۸۶

جمع الآیات وتفسیرها ---- ۲۸۶
کیف یُزیّن الباطل؟ وکیف تُسحر العیون؟ ---- ۲۸۶
توضیحات ---- ۲۸۹
۱- من هو الشیطان؟ ---- ۲۹۰
۲- الإجابة عن سؤال ---- ۲۹۰
۳- النقطة المهمّة الاخری ---- ۲۹۱
مؤهلات المعرفة ---- ۲۹۱
تمهید: ---- ۲۹۱
اشارة ---- ۲۹۱
۱- علاقة التقوی بالمعرفة ---- ۲۹۲
اشارة ---- ۲۹۲
شرح المفردات: ---- ۲۹۲
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۲۹۳
اتقوا کی یسطع نور العلم علی قلوبکم! ---- ۲۹۳
توضیحات ---- ۲۹۶
۱- علاقة العلم بالتقوی فی الروایات الإسلامیة ---- ۲۹۶
۲- کیفیة الارتباط بین ینابیع العلم والتقوی ---- ۲۹۷
۳- استغلال العلاقة بین «العلم» و «التقوی ---- ۲۹۸
۲- الإیمان والمعرفة ---- ۲۹۹
تمهید: ---- ۲۹۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۳۰۰
تأثیر الإیمان علی الرؤیة الصحیحة: ---- ۳۰۰
توضیح ---- ۳۰۲
علاقة الإیمان بالعلم فی الروایات الإسلامیة: ---- ۳۰۲

۳- علاقة «الصبر والشكر» ب «المعرفة» ---- ۳۰۲
اشارة ---- ۳۰۲
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۰۳
السير فی الآفاق والأنفس مع الصابرين: ---- ۳۰۳
النتيجة: ---- ۳۰۵
۴- المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة ---- ۳۰۵
تمهيد: ---- ۳۰۵
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۰۶
مالم تكن منّا لن تطلع على اسرارنا: ---- ۳۰۶
النتيجة: ---- ۳۰۷
۴- علاقة الخوف بالمعرفة ---- ۳۰۸
تمهيد: ---- ۳۰۸
شرح الآيات وتفسيرها ---- ۳۰۸
المعرفة والشعور بالمسؤولية: ---- ۳۰۸
النتيجة: ---- ۳۱۰
الجزء الثانی ---- ۳۱۱
البحث عن عظمة اللّه ومعرفته فی القرآن الكريم ---- ۳۱۱
أسئلة مهمة ومصيرية: ---- ۳۱۱
دوافع البحث عن عظمة اللّه ---- ۳۱۲
اشارة ---- ۳۱۲
۱- الدافع العقلی ---- ۳۱۲
تمهيد: ---- ۳۱۲
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۱۳
التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية: ---- ۳۱۳

النتیجة: ۳۱۶
توضیحان ۳۱۷
۱- الدوافع العقلیة لفهم الدین فی الروایات الإسلامیة ۳۱۷
۲- المعاندون الملحّون ۳۱۷
۲- الدافع العاطفی ۳۱۸
تمهید: ۳۱۸
جمع الآیات وتفسیرها ۳۱۸
شکر المنعم سلّم إلی معرفة اللّه: ۳۱۸
شکر المنعم فی الروایات الإسلامیة: ۳۲۱
۳- الدافع الفطری ۳۲۱
تمهید: ۳۲۱
توضیحات ۳۲۲
التبریرات المنحرفة: ۳۲۲
اشارة ۳۲۲
۱- نظریة الجهل ۳۲۳
۲- نظریة الخوف ۳۲۴
۳- نظریة العامل الاقتصادی ۳۲۴
۴- النظریة الجنسیة ۳۲۵
۵- نظریة الحاجات الأخلاقیة ۳۲۶
براهین معرفة اللّه: ۳۲۷
اشارة ۳۲۷
۱- بُرهَان النظم ۳۲۷
التمهید: ۳۲۷
ممیزات برهان النظم: ۳۲۷

أسس برهان النظم: ---- ۳۲۸
العلاقة بين النظام و العلم: ---- ۳۲۸
۱- آياته فی خلق الإنسان ---- ۳۳۰
اشارة ---- ۳۳۰
شرح المفردات: ---- ۳۳۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۳۲
آيات الأنفس الأولی ---- ۳۳۲
التعقيد والدقة فی نظام الخلق: ---- ۳۳۴
۲- آياته فی نمو الجنين ---- ۳۳۶
تمهيد: ---- ۳۳۶
شرح المفردات: ---- ۳۳۶
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۳۷
عالم الجنين الغامض: ---- ۳۳۷
توضيحات ---- ۳۳۹
۱- صورة فی الماء ---- ۳۳۹
۲- فی ظلمات ثلاث ---- ۳۴۰
۳- مقر الأمن والامان ---- ۳۴۰
۴- خصيمٌ مبين ---- ۳۴۰
۵- تغذية الجنين ---- ۳۴۱
۶- مصير الجنين من حيث الجنس ---- ۳۴۱
۷- تغيّرات سريعة ومبهمة ---- ۳۴۲
۸- نظرة الرحم المستقبلية!! ---- ۳۴۲
۹- كساء للعظام ---- ۳۴۲
۱۰- خروج الجنين ---- ۳۴۲

۱۱- التغيّرات المذهلة فی لحظة الولادة ---- ۳۴۳
۱۲- بكاء الأطفال ---- ۳۴۴
۱۳- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال ---- ۳۴۴
۱۴- غذاء الطفل مُعدٌّ قبل ولادته ---- ۳۴۵
۳- آياته فی عالم الحياة ---- ۳۴۶
تمهيد: ---- ۳۴۶
شرح المفردات: ---- ۳۴۷
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۴۸
خَلقُ الحياة آية الخلق: ---- ۳۴۸
توضيحان ---- ۳۵۱
۱- لغز الحياة الكبير ---- ۳۵۱
۲- هل بامكان الإنسان صناعة كائن حی؟ ---- ۳۵۲
۴- آياته فی خلق الروح ---- ۳۵۴
تمهيد: ---- ۳۵۴
شرح المفردات: ---- ۳۵۴
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۵۵
الروح اعجوبة عالم الخلقة: ---- ۳۵۵
توضيحات ---- ۳۵۸
۱- القوى الظاهرية والباطنية للروح ---- ۳۵۸
۲- الروح .. الظاهرة الخفية فی عالم الوجود ---- ۳۵۹
۳- نشاطات الروح المختلفة ---- ۳۵۹
۴- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية ---- ۳۶۱
۵- أصالة واستقلال الروح ---- ۳۶۱
۶- خصوصيات الروح فی القرآن الكريم ---- ۳۶۲

۷- مسک الختام حول الروح ---- ۳۶۲
۵- آياته فی الهداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان ---- ۳۶۳
تمهيد: ---- ۳۶۳
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۶۳
أستاذ الأزل: ---- ۳۶۳
توضيح ---- ۳۶۷
الهداية الفطرية و الغريزية فی العلم المعاصر: ---- ۳۶۷
۶- آياتُه فی حالتی النوم واليقظةِ ---- ۳۷۱
تمهيد: ---- ۳۷۱
شرح المفردات: ---- ۳۷۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۷۲
النوم من آيات اللّه: ---- ۳۷۲
توضيح ---- ۳۷۴
ظاهرة النوم الخفيّة: ---- ۳۷۴
۷- آياته فی بسط السماوات والأرض ---- ۳۷۵
تمهيد: ---- ۳۷۵
شرح المفردات: ---- ۳۷۶
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۳۷۷
ارتفاعُ السماء آية حق! ---- ۳۷۷
النتيجة: ---- ۳۸۳
توضيحات ---- ۳۸۴
۱- عَظَمَةُ ووُسَعَةُ السمَوات ---- ۳۸۴
۲- الدِّقة العجيبةُ فی القوانين التی تحكمُ السماءَ والأرض ---- ۳۸۵
۳- السموات السبع ---- ۳۸۵

۴- لِمَ لا تنظرون إلى السماء؟! ----- ۳۸۷
۸- آياته فی خلق الشمس والقمر والنجوم ----- ۳۸۷
تمهيد: ----- ۳۸۷
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۳۸۸
القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم: ----- ۳۸۸
توضيحات ----- ۳۹۴
۱- هوية الشمس ----- ۳۹۴
۲- البركات العظيمة للشمس ----- ۳۹۵
۳- القمر وبركاته ----- ۳۹۶
۴- الشمس والقمر فی كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام ----- ۳۹۷
۹- آياتُهُ فی خلقِ الليل والنهار ----- ۳۹۸
تمهيد: ----- ۳۹۸
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۳۹۹
النظام العجيب اللّيل والنّهار: ----- ۳۹۹
توضيحان ----- ۴۰۲
۱- أهميّة النور والظلام وفوائد اللّيل والّنهار ----- ۴۰۲
۲- ظاهرة اللّيل والّنهار فی القرآن الكريم ----- ۴۰۳
۱۰- آياته فی خلق الجبال ----- ۴۰۳
تمهيد: ----- ۴۰۳
شرح المفردات: ----- ۴۰۴
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۴۰۴
البركات والأسرار العجيبة للجبال: ----- ۴۰۴
توضيحات ----- ۴۰۸
۱- الجبال والاعجاز العلمی للقرآن ----- ۴۰۸

۲- حدیث للإمام الصادق علیه السلام حول الجبال ---- ۴۰۹
۳- کلامٌ لعالم کبیر ---- ۴۰۹
۴- حدیثٌ اعجازیٌ حول تکوین الجبال ---- ۴۱۰
۱۱- آیاته فی تکوین الغیوم والریاح والأمطار ---- ۴۱۰
تمهید: ---- ۴۱۰
شرح المفردات: ---- ۴۱۱
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۴۱۲
ظاهرة الریح والأمطار والأسرار الکامنة فیها: ---- ۴۱۲
النتیجة: ---- ۴۱۷
توضیحات ---- ۴۱۷
۱- تکوین الریاح وفوائدها ---- ۴۱۷
۲- أسرار تکوین الغیوم وهطول الأمطار ---- ۴۱۹
۳- الریاح والأمطار فی الروایات ---- ۴۲۰
۱۲- آیاته فی حدوث الرعد والبرق ---- ۴۲۲
التمهید: ---- ۴۲۲
شرحُ المفردات: ---- ۴۲۲
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۴۲۳
أسرار خلق الرعد والبرق: ---- ۴۲۳
توضیحان ---- ۴۲۴
۱- الرعد والبرق فی نظر العلم المعاصر ---- ۴۲۴
۲- فوائد وبرکات الرعد والبرق ---- ۴۲۵
۱۳- آیاته فی خلقِ البحار والفُلک ---- ۴۲۶
تمهید: ---- ۴۲۶
شرح المفردات: ---- ۴۲۶

جمع الآيات وتفسيرها ---- ۴۲۷
عجائب البحار! ---- ۴۲۷
توضيحات ---- ۴۲۹
۱- البحرُ مركز لأنواع النِعَم ---- ۴۲۹
۲- البحر عالم العجائب ---- ۴۳۲
۳- البحر فی کلام المعصومین علیهم السلام ---- ۴۳۴
۱۴- آياتُهُ فی خلقِ الظِّلال ---- ۴۳۴
تمهيد: ---- ۴۳۵
شرح المفردات: ---- ۴۳۵
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۴۳۵
هل إنَّ الظِّلَّ نعمةٌ عظيمةٌ؟ ---- ۴۳۵
توضيح ---- ۴۳۸
لو لم تكن هناک الظلال ...؟! ---- ۴۳۸
۱۵- آياتُهُ فی عالم النباتات والثمار ---- ۴۳۹
تمهيد: ---- ۴۳۹
شرح المفردات: ---- ۴۴۰
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۴۴۱
الورق الأخضر للأشجار: ---- ۴۴۱
توضيحات ---- ۴۴۸
۱- التركيب المذهل للنباتات ---- ۴۴۸
۲- فوائد وبركات النباتات ---- ۴۵۰
۳- الأنواع غير المحدودة للنباتات ---- ۴۵۱
۴- عجائبُ عالم النباتات ---- ۴۵۲
۵- أسرار خلق النباتات فی توحيد المفضل ---- ۴۵۳

۱۶- آياتُه فی خلق الأرزاق العامة ---- ۴۵۴
تمهيد: ---- ۴۵۵
شرح المفردات: ---- ۴۵۵
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۴۵۶
الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً: ---- ۴۵۶
توضيحات ---- ۴۶۲
۱- من عجائب عالم الأرزاق ---- ۴۶۲
۲- هل أنَّ الرزقَ مقسومٌ؟ ---- ۴۶۴
۳- إذا كانَ الرزقُ مضموناً للجميع فلماذا يموتُ البعضُ جوعاً؟ ---- ۴۶۵
۴- سعةُ الرزق وضيقه ---- ۴۶۶
۱۷- آياته فی خلق الطيور ---- ۴۶۷
تمهيد: ---- ۴۶۷
شرح المفردات: ---- ۴۶۸
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۴۶۸
الطيرُ يُسبّحُ وأنا صامت! ---- ۴۶۸
توضيحات ---- ۴۷۱
۱- فَنُّ الطيران الْمعقَّد ---- ۴۷۱
۲- «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة» ---- ۴۷۲
۳- الطيور فی خدمة الإنسان والبيئة ---- ۴۷۴
۴- دروس التوحيد فی وجود الطيور ---- ۴۷۵
۱۸- آياتُه فی حياة النحل ---- ۴۷۵
تمهيد: ---- ۴۷۵
شرح المفردات: ---- ۴۷۶
لنزورَ بلاد النحل: ---- ۴۷۶

توضیحات ----- ۴۷۸
۱- حضارة النَّحل العجیبة! ----- ۴۷۸
۲- جمع رحیق الأزهار وصناعة العسل ----- ۴۸۰
۳- العسل غذاءٌ مفیدٌ ودواءٌ شافٍ ----- ۴۸۱
۴- خدماتٌ اخری للنحل أَثمنُ من العسل! ----- ۴۸۳
۵- البناء الجسمی للنحل عجیبٌ أیضاً! ----- ۴۸۴
۱۹- آیاته فی خلق الحیوانات ----- ۴۸۵
تمهید: ----- ۴۸۵
شرح المفردات: ----- ۴۸۶
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۴۸۶
ماذا یجری فی عالم الحیوانات؟ ----- ۴۸۶
توضیحات ----- ۴۹۴
۱- عجائب عالم الحیوانات ----- ۴۹۴
۲- ترویض الحیوانات ----- ۴۹۴
۳- ذکاء الحیوانات ----- ۴۹۵
۲۰- آیاته فی خلق اعضاء جسم الإنسان ----- ۴۹۶
تمهید: ----- ۴۹۶
شرح المفردات: ----- ۴۹۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۴۹۸
الدور الحساس لآلات المعرفة: ----- ۴۹۸
توضیحان ----- ۵۰۲
۱- عجائب أعضاء الجسم ----- ۵۰۲
۲- اللسان، هذا العضو المحترف! ----- ۵۰۳
۲۱- آیاته فی الحیاة الاجتماعیة للإنسان ----- ۵۰۴

تمهيد: ----- ۵۰۴
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۰۵
شرح المفردات: ----- ۵۰۵
تفسيرٌ وتحليل ----- ۵۰۶
الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهيّة: ----- ۵۰۶
توضيح ----- ۵۰۹
هل للمجتمع روحٌ؟ ----- ۵۰۹
كلمة الختام: ----- ۵۱۱
الجزء الثالث ----- ۵۱۱
المقدمة ----- ۵۱۲
الطرق إلى اللّه ....: ----- ۵۱۲
براهين معرفة اللّه ----- ۵۱۳
اشارة ----- ۵۱۳
تمهيد: ----- ۵۱۳
۲- برهان التغير والحركة ----- ۵۱۴
تمهيد: ----- ۵۱۴
شرح المفرادت: ----- ۵۱۵
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۱۵
إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوى: ----- ۵۱۵
العلاقة بين الأفول والحدوث: ----- ۵۱۸
توضيحات ----- ۵۲۰
۱- برهان الحركة ومقدّماته ----- ۵۲۰
اشارة ----- ۵۲۰
أ) تعريف الحركة ----- ۵۲۰

ب) وجود الحرکة ----- ۵۲۰
ج) أرکان الحرکة ----- ۵۲۱
د) مجالات الحرکة ----- ۵۲۱
۲- أدلّة وجود الحرکة الجوهریة ----- ۵۲۲
۳- إثبات وجود اللّه بواسطة برهان الحرکة ----- ۵۲۳
۴- العالم متغیّر وکلّ متغیّر حادث ----- ۵۲۴
۵- حدوث العالم والقوانین العلمیة الحدیثة ----- ۵۲۴
۳- برهان الوجوب والإمکان (الغنی والفقر) ----- ۵۲۵
تمهید: ----- ۵۲۶
شرح المفردات: ----- ۵۲۶
حاجة الجمیع إلی اللّه: ----- ۵۲۷
توضیحات ----- ۵۳۰
۱- برهان الوجوب والإمکان من الناحیة الفلسفیة ----- ۵۳۰
۲- برهان الغنی والفقر فی الروایات الإسلامیة ----- ۵۳۱
۴- برهان العلّة والمعلول ----- ۵۳۲
تمهید: ----- ۵۳۲
شرح المفردات: ----- ۵۳۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۵۳۳
استجواب عجیب! ----- ۵۳۳
توضیحان ----- ۵۳۵
۱- برهان العلّة والمعلول فی الفلسفة والکلام ----- ۵۳۵
اشارة ----- ۵۳۵
۱- تعریف أصل العلّیة ----- ۵۳۵
۲- شمولیة قانون العلّیة وسعة تطبیقاتها ----- ۵۳۵

۳- جذور معرفة قانون العلّية ----- ۵۳۶
۴- أقسام العلّة ----- ۵۳۷
۲- إيضاح برهان العلّية ----- ۵۳۷
۵- برهان الصدّيقين ----- ۵۳۸
تمهيد: ----- ۵۳۸
شرح المفردات: ----- ۵۳۹
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۴۰
القرآن وبرهان الصدّيقين: «۲» ----- ۵۴۰
بزوغ الشمس دليل عليها: ----- ۵۴۱
إحاطة الوجود الإلهي: ----- ۵۴۲
هو الأوّل والآخر: ----- ۵۴۲
هو نور العالم: ----- ۵۴۳
توضيحان ----- ۵۴۴
۱- برهان الصدّيقين فى الروايات الإسلامية والأدعية ----- ۵۴۵
۲- إيضاح برهان الصدّيقين ----- ۵۴۵
۶- الطريق الباطنى لمعرفة اللّه (الفطرة) ----- ۵۴۷
تمهيد: ----- ۵۴۷
شرح المفردات: ----- ۵۴۸
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۴۸
الخلق الثابت والراسخ: ----- ۵۴۸
عند مواجهة الأزمات: ----- ۵۴۹
إقرار المشركين: ----- ۵۵۱
عهد عالم الذرّ: ----- ۵۵۳
حصيلة البحث عن عالم الذرّ: ----- ۵۵۶

توضیحات ----- ۵۵۷
۱- (عالم الذرّ) فی الروایات الإسلامیة ----- ۵۵۷
۲- فطرة العقل أم القلب؟ ----- ۵۵۸
۳- شواهد حیّة علی فطریة الإیمان باللّه ----- ۵۵۹
اشارة ----- ۵۵۹
أ) الحقائق التاریخیة ----- ۵۵۹
ب) الآثار التاریخیة ----- ۵۶۰
ج) الدراسات النفسیة واکتشافات علماء النفس ----- ۵۶۰
د) فشل الدعایة ضدّ الدّین ----- ۵۶۱
ه) التجارب الشخصیة فی الأزمات ----- ۵۶۲
و) شهادة العلماء علی فطریة الدین ----- ۵۶۲
۴- الفطرة فی الروایات الإسلامیة ----- ۵۶۳
وحدانیة الذات المقدّسة «أهمّ أصل فی معرفة اللّه» ----- ۵۶۴
اشارة ----- ۵۶۴
تمهید: ----- ۵۶۴
شرح المفردات: ----- ۵۶۵
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۵۶۷
الذنب الذی لا یُغتفر: ----- ۵۶۷
أعظم الظلم: ----- ۵۶۸
السقوط الموحش: ----- ۵۶۹
الجنّة محرَّمة علی المشرکین: ----- ۵۷۰
اللّه بریء من المشرکین: ----- ۵۷۰
إبراهیم علیه السلام الأسوة الحسنة فی مقارعة الشرک: ----- ۵۷۲
توضیح ----- ۵۷۳

لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضيّة التوحيد والشرک؟ ----- ۵۷۳
دلائل التوحيد ----- ۵۷۴
اشارة ----- ۵۷۴
۱- شهادة الفطرة على وحدانية اللّه (عزّ وجلّ) ----- ۵۷۴
تمهيد: ----- ۵۷۴
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۷۵
حينما يشرق نور التوحيد: ----- ۵۷۵
اللجوء إلى اللّه فى الشدائد: ----- ۵۷۶
النور الوهّاج فى الظلمات: ----- ۵۷۷
۲- تناسُق العالم ----- ۵۷۸
تمهيد: ----- ۵۷۸
شرح المفردات: ----- ۵۷۹
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۸۰
مظاهر التنسيق: ----- ۵۸۰
تعدد الآلهة: ----- ۵۸۰
توضيحات ----- ۵۸۲
۱- النظرة العلمية لوحدة عالم الخلق ----- ۵۸۲
۲- إيضاح برهان التمانع ----- ۵۸۳
اشارة ----- ۵۸۳
الإجابة عن سؤالين: ----- ۵۸۳
۳- برهان الوحدة والتمانع فى الروايات الإسلامية ----- ۵۸۴
۳- دليل صرف الوجود ----- ۵۸۵
تمهيد: ----- ۵۸۵
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۵۸۵

اللّه شاهد على وحدانيهٔ ذاته: ۵۸۵
هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن: ۵۸۶
توضيحات ۵۸۷
۱- إنّه حقيقهٔ لا متناهيهٔ ۵۸۷
۲- الحقيقهٔ اللامتناهيهٔ واحدهٔ قطعاً ۵۸۸
۳- دليل صرف الوجود فى الأحاديث الإسلاميهٔ ۵۸۸
۴- دليل الفيض والهدايهٔ ۵۸۹
اشارهٔ ۵۸۹
تمهيد: ۵۸۹
جمع الآيات وتفسيرها ۵۸۹
دعوهٔ الأنبياء العامّهٔ إلى اللّه الواحد: ۵۸۹
هل تمتلكون دليلًا على الشرک؟! ۵۹۰
توضيحات ۵۹۱
۱- الفيض والهدايهٔ فى الروايات الإسلاميهٔ ۵۹۱
۲- برهان التركّب ۵۹۱
۳- التوحيد والأدلّهٔ النقليهٔ ۵۹۲
مصادر الشرک الهامّهٔ ۵۹۲
اشارهٔ ۵۹۲
۱- إتّباع الأوهام ۵۹۳
تمهيد: ۵۹۳
شرح المفردات: ۵۹۳
جمع الآيات وتفسيرها ۵۹۴
الغور فى عالم الأوهام! ۵۹۴
أسماء بلا عناوين: ۵۹۵

الاستناد إلى الحدس والتخمين: ---- ۵۹۵
۲- اتّباع الحواس ---- ۵۹۷
تمهيد: ---- ۵۹۷
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۵۹۸
لماذا لا نرى اللّه؟ ---- ۵۹۸
طلبوا ذلک من موسى ! ---- ۵۹۸
دعنى أرى اللّه فى السماء! ---- ۵۹۹
أيتوقّعون أن يأتى اللّه إليهم! ---- ۶۰۰
توضيح ---- ۶۰۱
لماذا أُلِفوا عالم الحسّ؟! ---- ۶۰۱
۳- المصالح الوهمية ---- ۶۰۲
تمهيد: ---- ۶۰۲
شرح المفردات: ---- ۶۰۲
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۶۰۳
الأصنام شفعاؤنا؟! ---- ۶۰۳
توضيحات ---- ۶۰۳
۱- منشأ الإعتقاد بالشفاعة ---- ۶۰۴
۲- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان ---- ۶۰۵
۳- عوامل اخرى للشرک وعبادة الأصنام ---- ۶۰۶
۴ و ۵- عاملى التقليد والاستعمار ---- ۶۰۶
تمهيد: ---- ۶۰۶
شرح المفردات: ---- ۶۰۶
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۶۰۷
عبادة الأصنام دين أجدادنا! ---- ۶۰۷

الجواب الدائم للمشركين: ۶۰۹
توضيحات ۶۱۰
۱- التقليد، عامل للتقدّم أم للإنحطاط؟ ۶۱۰
۲- تزيين الشياطين وهوى النفس ۶۱۰
۳- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكرى ۶۱۱
۴- كلمة أخيرة حول عوامل الشرك ۶۱۲
أقسام التوحيد ۶۱۳
اشارة ۶۱۳
التقسيمات الأساسية: ۶۱۳
۱ و ۲- توحيد الذات والصفات ۶۱۴
تمهيد: ۶۱۴
جمع الآيات وتفسيرها ۶۱۵
يامن تعالى عن الخيال والقياس والظنّ والوهم: ۶۱۵
توضيحات ۶۱۸
۱- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات ۶۱۸
۲- مفهوم توحيد الصفات ۶۱۹
۳- الدليل على توحيد الصفات ۶۱۹
۳- التوحيد فى العبادة ۶۲۰
تمهيد: ۶۲۰
شرح المفردات: ۶۲۱
المفهوم الدقيق للعبادة: ۶۲۱
جمع الآيات وتفسيرها ۶۲۲
هو المعبود وحده: ۶۲۲
لا أعبد غير اللّه: ۶۲۳

إن عجزتم عن عبادة اللّه فهاجروا: ---- ۶۲۵
توضیحات ---- ۶۲۷
۱- شجرة توحید العبادة المثمرة ---- ۶۲۷
۲- روح العبادة والإحتراز من الإفراط والتفریط ---- ۶۲۸
۳- توحید الوهّابیین المشوب بالشرک ---- ۶۳۰
۴- توحید الأفعال ---- ۶۳۲
أ) توحید الخالقیة ---- ۶۳۲
تمهید: ---- ۶۳۲
شرح المفردات: ---- ۶۳۳
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۶۳۳
هو الخالق لکلّ شیء: ---- ۶۳۳
خالقیة اللّه للکون: ---- ۶۳۴
توضیحان ---- ۶۳۶
۱- الخطوة الاولی نحو الشرک فی الخالقیة ---- ۶۳۶
۲- خطوة اخری علی طریق الشرک ---- ۶۳۷
ب) توحید الربوبیّة ---- ۶۳۸
تمهید: ---- ۶۳۸
شرح المفردات: ---- ۶۳۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۶۴۰
اللّه سبحانه وتعالی ربّ العالمین: ---- ۶۴۰
هو المدبّر للُامور: ---- ۶۴۲
توضیحات ---- ۶۴۳
۱- التوحید یعنی حذف الوسائط! ---- ۶۴۳
۲- تاریخ الدیانات وخرافة الوسائط ---- ۶۴۴

اشارة ----- ۶۴۴
أ) آلهة الروم ----- ۶۴۴
ب) آلهة اليونان ----- ۶۴۴
ج) آلهة مصر ----- ۶۴۵
د) آلهة ايران ----- ۶۴۵
ه) آلهة الصين ----- ۶۴۵
و) مشركو العرب ----- ۶۴۵
ز) آلهة بلدان أخرى ----- ۶۴۶
ح) الإعتقاد بالمثل الأفلاطونية ----- ۶۴۶
۳- التفويض لون من الشرک ----- ۶۴۷
۴- هل أنّ الملائكة تدبر الامور؟ ----- ۶۴۸
۵- «توحيد الربوبية» فی الأحاديث الإسلامية ----- ۶۴۸
ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية) ----- ۶۴۹
تمهيد: ----- ۶۴۹
شرح المفردات: ----- ۶۵۰
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۶۵۰
اللّه مالک الملک: ----- ۶۵۰
توضيحان ----- ۶۵۳
۱- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية ----- ۶۵۳
۲- إستغلال مفهوم (ملكية اللّه) ----- ۶۵۳
د) توحيد التقنين (الحاكمية التشريعية) ----- ۶۵۴
تمهيد: ----- ۶۵۴
شرح المفردات: ----- ۶۵۵
جمع الايات وتفسيرها ----- ۶۵۵

من لم يحكم بما أنزل اللّه: ----- ۶۵۵
الحكم للّهفقط: ----- ۶۵۶
عند الاختلاف ارجعوا إلى اللّه: ----- ۶۵۸
توضيحات ----- ۶۵۹
۱- حاكمية اللّه فى المنطق العقلى ----- ۶۵۹
۲- الحكومة وديعة إلهيّة ----- ۶۶۰
۳- شرعية الحكومات تستمد من اللّه فقط ----- ۶۶۰
۴- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية ----- ۶۶۱
ه) توحيد الطاعة ----- ۶۶۲
تمهيد: ----- ۶۶۲
شرح المفردات: ----- ۶۶۳
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۶۶۳
إلهنا نطيع أمرك وحدك: ----- ۶۶۳
عبادة القادة والعلماء: ----- ۶۶۵
توضيحان ----- ۶۶۶
۱- اللّه تعالى هو المطاع المطلق ----- ۶۶۶
۲- توحيد الطاعة فى الروايات الإسلامية ----- ۶۶۶
الجزء الرابع ----- ۶۶۷
اشارة ----- ۶۶۷
معرفة صفات جمال وجلال اللّه سبحانه ----- ۶۶۸
اشارة ----- ۶۶۸
تمهيد: ----- ۶۶۸
طريقٌ مملوء بالورود والأشواك: ----- ۶۶۹
شرح المفردات: ----- ۶۶۹

جمع الآیات وتفسیرها ---- ۶۷۰
لیس کمثله شیء: ---- ۶۷۰
نتیجة البحث: ---- ۶۷۳
توضیحات ---- ۶۷۴
۱- لا تشبیهٌ ولا تعطیل ---- ۶۷۴
۲- لم لایصل العقل إلی کُنه ذاته وصفاته؟ ---- ۶۷۵
۳- النهی عن التشبیه فی الروایات الإسلامیّة ---- ۶۷۶
۴- هل إنّ أسماء اللّه توقیفیّة؟ ---- ۶۷۶
أ سماء اللّه الحسنی والاسم الأعظم ---- ۶۷۸
اشارة ---- ۶۷۸
تمهید: ---- ۶۷۸
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۶۷۹
أسماء اللّه الخاصّة: ---- ۶۷۹
توضیحات ---- ۶۷۹
۱- ماهی حقیقة الأسماء الحسنی ---- ۶۷۹
۲- عدد الأسماء الحسنی وتفسیرها ---- ۶۸۰
۳- أی واحد منها اسم اللّه الأعظم؟ ---- ۶۸۵
صفات اللّه تعالی ---- ۶۸۷
اشارة ---- ۶۸۷
أقسام صفات اللّه تعالی ---- ۶۸۷
کما هو المتعارف فإنّ صفات اللّه سبحانه وتعالی تنقسم إلی قسمین: ---- ۶۸۷
أ) صفات جمال اللّه ---- ۶۸۸
اشارة ---- ۶۸۸
۱- علم اللّه المطلق ---- ۶۸۸

تمهید: ---- ۶۸۸
شرح المفردات: ---- ۶۸۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۶۸۹
اللّه عز وجل عالم بکل شیء: ---- ۶۸۹
یعلَمُ نیّاتکم: ---- ۶۹۰
یعلم السر والجهر: ---- ۶۹۱
وعنده مفاتح الغیب: ---- ۶۹۱
إنّه علّام الغیوب: ---- ۶۹۲
موجودٌ فی کل مکان: ---- ۶۹۳
وهو معکم اینما کنتم: ---- ۶۹۴
الخالق علیم بخلقه: ---- ۶۹۴
ولو أنّ ما فی الأرض من شجرة أقلام و ...: ---- ۶۹۵
عنده مفاتح الغیب الخمسة: ---- ۶۹۶
وکل شیء فی کتاب مبین: ---- ۶۹۸
ونحن أقرب الیکم: ---- ۶۹۸
توضیحات ---- ۷۰۰
۱- تأثیر علم اللّه فی بُعدی العرفان والتربیة ---- ۷۰۰
۲- الأدلة علی علم اللّه ---- ۷۰۰
اشارة ---- ۷۰۰
أ) برهان الخلق والنظم ---- ۷۰۰
ب) برهان الإمکان والوجوب ---- ۷۰۱
ج) برهان اللّاتناهی ---- ۷۰۱
۳- إنّ علم اللّه حضوریٌ ---- ۷۰۱
۴- لا حصر ولانهایة لعلم اللّه ---- ۷۰۲

۵- أسئلة مهمة حول علم اللّه ----- ۷۰۲
۶- علم اللّه فی الروایات الإسلامیّة ----- ۷۰۵
أقسام علم اللّه ----- ۷۰۶
أ و ب) إنّ اللّه سمیعٌ وبصیر ----- ۷۰۶
تمهید: ----- ۷۰۶
شرح المفردات: ----- ۷۰۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۷۰۷
هو السمیع البصیر: ----- ۷۰۷
یعلم ما تعملون: ----- ۷۰۸
هو السمیع والعلیم: ----- ۷۰۹
جهادکم: ----- ۷۰۹
إنّه قریب منکم: ----- ۷۰۹
إنّه سمیع الدعاء: ----- ۷۱۰
إنّه تعالی بصیر: ----- ۷۱۰
إنّ اللّه خبیر بأحوال العباد: ----- ۷۱۱
إنّه بصیر بالمشاکل التی تواجه عباده: ----- ۷۱۱
الطَّیرِ فَوْقَهُمْ صافاتٍ: ----- ۷۱۲
نتیجة البحوث: ----- ۷۱۲
توضیحات ----- ۷۱۲
۱- معنی کون اللّه سمیعاً بصیراً ----- ۷۱۲
۲- السمیع والبصیر الواردة فی نهج البلاغة والروایات ----- ۷۱۳
۳- الأثر التربوی للإیمان بکون اللّه سمیعاً بصیراً ----- ۷۱۳
۴- اللّه المدرک ----- ۷۱۵
ج) إنّ اللّه حکیم ----- ۷۱۵

تمهيد: ---- ۷۱۵
شرح المفردات: ---- ۷۱۶
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۷۱۷
قدرته مقرونة بحكمته: ---- ۷۱۷
جميع أفعاله تتسم بالحكمة: ---- ۷۱۸
هو الحكيم الخبير: ---- ۷۱۸
حكيم لأنّه وضع طريقاً للرجعة: ---- ۷۱۹
هو الحكيم الحميد: ---- ۷۱۹
إنَّهُ عليٌّ حَكِيمٌ: ---- ۷۱۹
الطلاق نابع من الحكمة الإلهيّة: ---- ۷۲۰
نتيجة البحث: ---- ۷۲۰
توضيحان ---- ۷۲۰
۱- الأدلة على حكمة اللّه تعالى ---- ۷۲۰
۲- الآثار التربويّة لمعرفة حكمة اللّه تعالى ---- ۷۲۱
د) إرادة اللّه ومشيئته ---- ۷۲۲
تمهيد: ---- ۷۲۲
شرح المفردات: ---- ۷۲۳
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۷۲۳
إرادته نافذة فى كل شيء: ---- ۷۲۳
لا شيء يحول بينه وبين إرادته تعالى ---- ۷۲۴
إرادته سبحانه فى نُصرة المستضعفين: ---- ۷۲۵
يريد اللّه بكم اليسر: ---- ۷۲۵
إنّ اللّه يخلق مايشاء: ---- ۷۲۵
المشيئة الإلهيّة: ---- ۷۲۶

الوحی والمشیئة الإلهیّة: ۷۲۶
توضیحات ۷۲۷
۱- الدلائل العقلیة علی الإرادة الإلهیّة ۷۲۷
۲- مامعنی إرادة اللّه سبحانه؟ ۷۲۷
۳- الإرادة الإلهیّة التکوینیة والتشریعیة ۷۲۸
۴- الإرادة الالهیّة فی الروایات الإسلامیة ۷۲۸
۴- القدرة الإلهیّة المطلقة ۷۲۹
تمهید: ۷۲۹
شرح المفردات: ۷۳۰
جمع الآیات وتفسیرها ۷۳۱
إنّهُ عَلی کُلِّ شیءٍ قَدیر: ۷۳۱
الهدف من خلق الکون هو معرفة قدرته سبحانه: ۷۳۲
بیده الحیاة والموت: ۷۳۲
تطورات الحیاة دلیلٌ علی قدرته تعالی: ۷۳۳
المالکیة والقدرة: ۷۳۳
قدرته تعالی علی اعادة الخَلق: ۷۳۴
قدرته تعالی علی إحیاء الموتی: ۷۳۴
قدرته تعالی علی تبدیل الأقوام: ۷۳۴
وما کان اللّه لیعجزه من شیء: ۷۳۵
هو الوهاب القدیر: ۷۳۵
نتیجة البحث: ۷۳۶
توضیح ۷۳۶
الأدلة علی القدرة الإلهیّة المطلقة: ۷۳۶
۳ و ۴- أزلیّة وأبدیّة اللّه تعالی ۷۴۱

تمهید: ----- ۷۴۱
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۷۴۲
توضیحات ----- ۷۴۴
۱- النظرة الفلسفیة لأزلیة وأبدیّة اللّه تعالی ----- ۷۴۴
۲- أزلیة اللّه تعالی وأبدیته فی الروایات الإسلامیّة ----- ۷۴۵
۳- الإجابة عن سؤال ----- ۷۴۵
اللّه الحی القیّوم ----- ۷۴۷
تمهید: ----- ۷۴۷
شرح المفردات: ----- ۷۴۷
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۷۴۸
اللّه قائم بذاته والإنسان قائم باللّه: ----- ۷۴۸
توضیحان ----- ۷۴۹
۱- حقیقة الحیاة ----- ۷۴۹
۲- الأدلة علی حیاته سبحانه ----- ۷۵۰
ب) صفات الجلال للّه سبحانه وتعالی (الصفات السلبیّة) ----- ۷۵۱
اشارة ----- ۷۵۱
تمهید: ----- ۷۵۱
اشارة ----- ۷۵۱
شرح المفردات: ----- ۷۵۲
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۷۵۲
کل الخلائق تسج للّه: ----- ۷۵۲
توضیح ----- ۷۵۴
«التشبیه» من أعظم الذنوب! ----- ۷۵۴
۱ و ۲- نفی الرؤیة والجسمیّة ----- ۷۵۵

تمهید: ---- ۷۵۵
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۷۵۶
العین لا تُطیق مشاهدة جماله: ---- ۷۵۶
یاموسی ارنا اللّه جهرة! ---- ۷۵۷
عدم امکانیة رؤیة اللّه! ---- ۷۶۰
النتیجة: ---- ۷۶۰
توضیحات ---- ۷۶۰
۱- لماذا تستحیل رؤیة اللّه تعالی؟ ---- ۷۶۰
۲- منطق القائلین بامکانیة الرؤیة ---- ۷۶۱
۳- الروایات الدالّة علی انتفاء رؤیة اللّه ---- ۷۶۲
۴- أدلّة القائلین بالرؤیة الظاهریّة ---- ۷۶۴
۵- اللّه عزّ وجلّ لیس جسماً ---- ۷۶۹
۳- لیس له محل وهو موجود فی کُلّ مکان ---- ۷۷۱
تمهید: ---- ۷۷۱
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۷۷۲
أینما تُولوا فثم وجه اللّه: ---- ۷۷۲
و هو معکم أینما کنتم! ---- ۷۷۳
نتیجة البحث: ---- ۷۷۵
توضیحات ---- ۷۷۶
۱- اللّه عز وجل فوق المکان والزمان ---- ۷۷۶
۲- لا یحلُّ اللّه فی شیء ---- ۷۷۷
۳- معنی حضور اللّه تعالی فی کُلّ مکان! ---- ۷۷۷
۴- لماذا نرفع أیدینا إلی السماء أثناء الدعاء؟ ---- ۷۷۸
۵- نفی المکانیة عن اللّه فی الروایات الإسلامیة ---- ۷۷۹

۶- تبریرات المخالفین ---- ۷۸۱
۷- المتصوّفة ومسألة الحلول ---- ۷۸۳
۲- صفات فعل اللّه ---- ۷۸۵
اشارة ---- ۷۸۵
تمهید: ---- ۷۸۵
اشارة ---- ۷۸۵
۱- الخالق ۲- الخلّاق ۳- أحسن الخالقین ---- ۷۸۶
اشارة ---- ۷۸۶
توضیح وبلاغ: ---- ۷۸۶
۴- الفاطر ۵- البارى ۶- الخالق ۷- البدیع ۸- المصوّر ---- ۷۸۷
توضیح وبلاغ: ---- ۷۸۷
توضیح وبلاغ: ---- ۷۸۸
۹- المالک ۱۰- الملک ۱۱- الحاکم ۱۲- الحکیم ۱۳- الرّب ---- ۷۸۹
توضیح وبلاغ: ---- ۷۸۹
۱۴- الولی ۱۵- الوالی ۱۶- المولی ۱۷- الحافظ ۱۸- الحفیظ ۱۹- الرقیب ۲۰- المهیمن ---- ۷۹۱
توضیح وبلاغ: ---- ۷۹۲
۲۱- الرازق ۲۲- الرزّاق ۲۳- الکریم ۲۴- الحمید ۲۵- الفتّاح ---- ۷۹۴
توضیح وبلاغ: ---- ۷۹۵
۲۶- الرحمن ۲۷- الرحیم ۲۸- أرحم الراحمین ۲۹- الودود ۳۰- الرؤوف ۳۱- اللطیف ۳۲- الحفیّ ---- ۷۹۸
توضیح وبلاغ: ---- ۷۹۹
الرحمة الإلهیّة الواسعة فی الأحادیث الإسلامیّة: ---- ۸۰۰
۳۳- الغافر ۳۴- الغفور ۳۵- الغفّار ۳۶- العفوّ ۳۷- التوّاب ۳۸- الجبّار ---- ۸۰۴
توضیح وبلاغ: ---- ۸۰۴
۳۹- الشکور ۴۰- الشاکر ۴۱- الشفیع ۴۲- الوکیل ۴۳- الکافی ---- ۸۰۷

جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۰۸
۴۴- الحسيب ۴۵- سريع الحساب ۴۶- أسرع الحاسبين ۴۷- سريع العقاب ۴۸- شديدُ العقاب ---- ۸۱۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۱۲
۴۹- نصير ۵۰- نعم النصير ۵۱- خير الناصرين ---- ۸۱۴
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۱۵
۵۲- القاهر ۵۳- القهّار ۵۴- الغالب ---- ۸۱۵
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۱۶
۵۵- السلام ۵۶- المؤمن ---- ۸۱۷
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۱۷
۵۷- المحيى ---- ۸۱۹
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۱۹
۵۸- الشهيد ---- ۸۲۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۲۱
۵۹- الهادى ---- ۸۲۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۲۲
۶۰- خَير ---- ۸۲۳
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۲۴
اللّه خير من كل شيء: ---- ۸۲۸
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۲۸
۱- العالَم مظهرٌ لصفاته وأسمائه ---- ۸۲۸
۲- الصفات الاخرى التى تعتبر من زمرة الصفات الفعليّة ---- ۸۲۹
أ) اللّه المتكلّم ---- ۸۲۹
تمهيد: ---- ۸۲۹
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۸۲۹

۱- ما المقصود من کلام اللّه؟ ۸۳۰
۲- الإستنتاج النهائی ۸۳۰
۳- (التکلّم) فی الروایات الإسلامیة ۸۳۲
ب) اللّه عزّ وجلّ صادق ۸۳۲
تمهید: ۸۳۲
شرح المفردات: ۸۳۳
جمع الآیات وتفسیرها ۸۳۴
توضیح ۸۳۵
دلائل صدق اللّه: ۸۳۵
آخر الکلام حول الصفات الإلهیّة: ۸۳۵
العدل الإلهی ۸۳۶
اشارة ۸۳۶
تمهید: ۸۳۶
شرح المفردات: ۸۳۷
جمع الآیات وتفسیرها ۸۳۹
إنّ اللّه لا یظلم أحداً: ۸۳۹
ما اللّه بظلّامٍ: ۸۴۴
کیف یُمکن أن یُساوی بین المحسن والمُسیء؟ ۸۴۵
ثمرة البحث: ۸۴۵
توضیحات ۸۴۵
۱- مسألة العدل الإلهی لدی المذاهب والفرق الإسلامیة ۸۴۵
۲- الأدلّة العقلیّة علی مسألة العدل الإلهی ۸۴۷
۳- ملاحظتان مهمتان ۸۴۸
۴- الرجوع إلی أدلّة العدل الإلهی ۸۴۹

۵- العدل فی الروایات الإسلامیّة ---- ۸۵۰
۶- أدلّة منکری العدل الإلهی ---- ۸۵۲
نقد وتحلیل ---- ۸۵۳
لنتطرّق الآن إلی نقد وتحلیل هذه الإشکالات: ---- ۸۵۳
الجواب الإجمالی المختصر ---- ۸۵۷
القرآن والجواب الإجمالی علی مسألة الآفات والبلایا: ---- ۸۵۸
الحوادث الألیمة فی الروایات الإسلامیة: ---- ۸۶۰
تحذیر!! ---- ۸۶۱
الجواب التفصیلی عن الحوادث الألیمة ---- ۸۶۱
۱- فلسفة التفاوت ---- ۸۶۱
۲- المشاکل هی من صنع الإنسان! ---- ۸۶۳
اشارة ---- ۸۶۳
القرآن والمصائب الذاتیة الصنع: ---- ۸۶۴
۳- مصائب العقوبات الإلهیّة ---- ۸۶۶
العلاقة بین الذنوب والبلاء فی الروایات الإسلامیّة: ---- ۸۶۸
۴- المصائب الموقظة ---- ۸۶۹
القرآن والمصائب الموقظة: ---- ۸۷۰
وبخصوص آل فرعون ورد ما یلی: ---- ۸۷۱
الحوادث الموقظة فی الروایات الإسلامیّة: ---- ۸۷۲
۵- الإبتلاء عن طریق المشاکل ---- ۸۷۲
القرآن والإبتلاءات العصیبة: ---- ۸۷۳
۶- معرفة النعم فی المصائب ---- ۸۷۴
۷- موقع الخیر والشّر فی عالم الوجود ---- ۸۷۵
اشارة ---- ۸۷۵

۱- ما معنی الخیر والشّر؟ ۸۷۶
۲- هل للشرور حالة عدمیّة؟ ۸۷۶
۳- الخیرات التی تأتی من الشرور ۸۷۷
۴- الخیر والشّر فی القرآن الکریم ۸۷۸
۵- الخیر والشّر فی الروایات الإسلامیّة ۸۷۹
«سؤالان مُهمّان عن العدل الإلهی» ۸۸۱
۱- لماذا طُرِحَ العدل کواحد من أصول الدین؟ ۸۸۱
۲- هل تتعارض هذه الأمور مع العدل الإلهی؟ ۸۸۲
الجزء الخامس ۸۸۵
أهمیّة بحث المعاد ۸۸۵
اشارة ۸۸۵
أهمیّة بحث المعاد فی المنظور القرآنی ۸۸۵
تمهید: ۸۸۵
جمع الآیات وتفسیرها ۸۸۶
التأکید علی المعاد: ۸۸۶
إنکار المعاد هو عین الضَلال: ۸۸۹
نتیجة البحث: ۸۹۱
أسماء المعاد فی القرآن الکریم ۸۹۱
اشارة ۸۹۱
أسماء المعاد فی القرآن الکریم ۸۹۱
تمهید: ۸۹۱
جمع الآیات وتفسیرها ۸۹۲
۱- القیامة ۸۹۲
۲- احیاء الموتی ۸۹۳

۳- البعث ----- ۸۹۳
۴- الحَشْر ----- ۸۹۴
۵- النشر ----- ۸۹۵
۶- المعاد ----- ۸۹۶
۷- لقاء اللّه ----- ۸۹۷
۸- الرجوع إلى اللّه ----- ۸۹۸
النتيجة: ----- ۸۹۹
للقيامة سبعون عنواناً فى القرآن ----- ۸۹۹
اشارة ----- ۸۹۹
للقيامة سبعون عنواناً فى القرآن ----- ۸۹۹
تمهيد: ----- ۹۰۰
اشارة ----- ۹۰۰
القسم الأول: ----- ۹۰۰
اشارة ----- ۹۰۰
۱- يوم القيامة ----- ۹۰۰
۲- اليوم الآخر ----- ۹۰۱
۳- يوم الحساب ----- ۹۰۲
۴- يوم الدين ----- ۹۰۲
۵- يوم الجمع ----- ۹۰۳
۶- يوم الفصل ----- ۹۰۳
۷- يوم الخروج ----- ۹۰۳
۸- اليوم الموعود ----- ۹۰۴
۹- يوم الخلود ----- ۹۰۴
۱۰- يومٌ عظيم ----- ۹۰۴

۱۱- یوم الحسرة ---- ۹۰۵
۱۲- یوم التغابن ---- ۹۰۶
۱۳- یوم التناد ---- ۹۰۶
۱۴- یوم التلاقِ ---- ۹۰۷
۱۵- یومٌ ثقیل ---- ۹۰۷
۱۶- یومُ الآزفة ---- ۹۰۸
۱۷- یومٌ عسیر ---- ۹۰۸
۱۸- یوم الیم ---- ۹۰۸
۱۹- یومُ الوعید ---- ۹۰۹
۲۰- الیوم الحق ---- ۹۰۹
۲۱- یومٌ مشهود ---- ۹۱۰
۲۲- یومٌ معلوم ---- ۹۱۰
۲۳- یوماً عبوساً قمطریراً ---- ۹۱۱
۲۴- یوم البعث ---- ۹۱۱
القسم الثانی: ---- ۹۱۲
اشارة ---- ۹۱۲
۲۵- یومَ نطوی السماء کطیِّ السِّجلِّ للکُتُب ---- ۹۱۲
۲۶- یوم تبدَّلُ الأرضُ غیرَ الأرضِ والسموات ---- ۹۱۳
۲۷- یوم تمورُ السماءُ مَوراً ---- ۹۱۳
۲۸- یوم تشقَّقُ السماءُ بالغمام ---- ۹۱۴
۲۹- یوم تشققُ الأرض عنهم سراعاً ---- ۹۱۴
۳۰- یوم تکون السماء کالمُهل ---- ۹۱۴
۳۱- یوم ترجف الأرضُ والجبال ---- ۹۱۵
۳۲- یوم یَسْمَعُونَ الصیحةَ بالحقِ ---- ۹۱۶

۳۳- یَومَهُمُ الذی فیه یُصْعقون ---- ۹۱۶
۳۴- یوم یُنفخُ فی الصور ---- ۹۱۶
۳۵- یومٌ کان مقدارُهُ خمسین الف سنةٍ ---- ۹۱۷
القسم الثالث: ---- ۹۱۸
۳۶- یومَ یکونُ الناسُ کالفراشِ المبثوث ---- ۹۱۸
۳۷- یوم تبلی السرائر ---- ۹۱۹
۳۸- یوم هم بارزون ---- ۹۱۹
۳۹- یوم ینظُرُ المرءُ ماقدَّمت یداه ---- ۹۲۰
۴۰- یوم تجدُ کُلُّ نفسٍ ما عَمِلَت من خیرٍ مُحضراً وما عملت من سوءٍ ---- ۹۲۰
۴۱- یوماً تتقلَّبُ فیه القلوب والأبصار ---- ۹۲۱
۴۲- یوم تشخصُ فیه الأبصار ---- ۹۲۱
۴۳- یوم یتذکَّرُ الإنسان ما سعی ---- ۹۲۲
۴۴- یوم تأتی کُلُّ نفسٍ تُجادلُ عن نفسها ---- ۹۲۲
۴۵- یومَ یقومُ الناسُ لِرَبِّ العالمین ---- ۹۲۲
۴۶- یوم یقوم الاشهاد ---- ۹۲۳
۴۷- یومَ یقوم الروحُ والملائکةُ صفاً ---- ۹۲۳
۴۸- یومَ لا ینفعُ مالٌ ولا بنون ---- ۹۲۴
۴۹- یوم لا بیعٌ فیه ولا خِلالٌ ---- ۹۲۴
۵۰- ... یوماً لا تجزی نفسٌ عن نفسٍ شیئاً ---- ۹۲۵
۵۱- یوم لا تملکُ نفسٌ لنفسٍ شیئاً ---- ۹۲۵
۵۲- یوم لا یجزی والدٌ عن ولده ---- ۹۲۵
۵۳- یوم تبیضُّ وجُوهٌ وتسودُّ وجُوهٌ ---- ۹۲۵
۵۴- ویخافون یوماً کان شرُّهُ مسطیراً ---- ۹۲۶
۵۵- یوم یفرُّ المرءُ من أخیه ---- ۹۲۷

۵۶- یوماً یجعلُ الولدان شیباً ۹۲۸
۵۷- هذا یومُ لا ینطقون ۹۲۸
۵۸- یوَم یُکشَفُ عن ساقٍ ویُدْعَونَ إلی السّجودِ فلا یستطیعون ۹۲۹
۵۹- یومَ لا ینفعُ الظالمین معذرتهم ۹۲۹
۶۰- یومَ یعضُّ الظالمُ علی یدیه ۹۳۰
۶۱- یومَ یُعرَضُ الَّذِینَ کفروا علی النّار ۹۳۰
۶۲- یوم تقلّبُ وجوهُهُم فی النار ۹۳۰
۶۳- یومَ یُدَعُّونَ إلی نارِ جَهَنَّمَ دَعّا ۹۳۱
۶۴- یومَ نَبْطِشُ البَطْشةَ الکبری ۹۳۱
۶۵- یومٌ لا مَرَدَّ لهُ من اللّه ۹۳۱
۶۶- یومَ یَدْعُ الدّاعِ إلی شیٍ نُکُرٍ ۹۳۲
۶۷- یوم یُسحبونَ فی النّار علی وجوههم ۹۳۲
۶۸- یوم نقول لجهنم هل امتلأتِ ۹۳۳
۶۹- یومَ یقولُ المنافقون والمنافقات ... ۹۳۴
۷۰- یومٌ لا ریب فیهِ ۹۳۴
ثمرة البحث: ۹۳۴
الأدلة علی المعاد ۹۳۵
اشارة ۹۳۵
أدلة إثبات المعاد ۹۳۵
تمهید: ۹۳۵
إمکان المعاد ومنطق المخالفین: ۹۳۶
إشارة: ۹۳۶
جمع الآیات وتفسیرها ۹۳۷
هل یستحیل التراب إلی إنسان مرّة اخری ! ۹۳۷

الإنسان العاقل لا يتحدث بمثل هذا! ----- ۹۳۸
إنّها أساطير فحسب: ----- ۹۳۸
إن هى إلّاحياة واحدة وموتة واحدة: ----- ۹۳۹
نتيجة البحث: ----- ۹۴۰
أدلة إمكان المعاد ----- ۹۴۱
اشارة ----- ۹۴۱
۱- الخلق الأول ----- ۹۴۱
تمهيد: ----- ۹۴۱
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۹۴۲
من يحيى العظام وهى رميم؟! ----- ۹۴۲
ثمرة البحث: ----- ۹۴۴
توضيح ----- ۹۴۵
اليوم الذى خلق فيه الإنسان: ----- ۹۴۵
۲- القدرة الإلهيّة المطلقة ----- ۹۴۵
تمهيد: ----- ۹۴۵
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۹۴۶
إنّه على كل شيءٍ قدير: ----- ۹۴۶
ثمرة البحث: ----- ۹۴۹
۳- آيات إحياء الأرض ----- ۹۴۹
إشارة: ----- ۹۴۹
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۹۵۰
هل رأيتم كيف تحيى الأرضُ الميتةُ؟ فهكذا النشور! ----- ۹۵۰
۴- التطورات الجنينية ----- ۹۵۴
تمهيد: ----- ۹۵۴

جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۵۵
إن شککتم بأمر القیامة فانظروا إلی الجنین! ----- ۹۵۵
ثمرة البحث: ----- ۹۵۹
۵- المعاد فی عالم الطاقة ----- ۹۶۰
تمهید: ----- ۹۶۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۶۰
استئناف عَوْدِ الطاقة یتجدد امام انظارنا! ----- ۹۶۰
النماذج التاریخیة الحیّة للمعاد ----- ۹۶۴
تمهید: ----- ۹۶۴
اشارة ----- ۹۶۴
۱- قصة حیاة عُزیر علیه السلام بعد موته ----- ۹۶۴
۲- إبراهیم علیه السلام والمعاد ----- ۹۶۶
اشارة ----- ۹۶۶
وهنا ینبغی أن نشیر إلی عدّة امور: ----- ۹۶۷
۳- قصة أصحاب الکهف ----- ۹۶۸
توضیحات ----- ۹۶۸
اشارة ----- ۹۶۸
۱- ملخص الحادثة ----- ۹۶۸
۲- قصة أصحاب الکهف فی کتب التاریخ ----- ۹۶۹
۳- مکان الغار ----- ۹۶۹
۴- قصة أصحاب الکهف فی تصور العلم الحدیث ----- ۹۷۰
۵- قصة هزیمة بنی اسرائیل ----- ۹۷۲
قصة قتیل بنی اسرائیل: ----- ۹۷۳
دلائل وقوع المعاد ----- ۹۷۴

اشارة ----- ۹۷۴
تمهید: ----- ۹۷۵
۱- برهان الفطرة ----- ۹۷۵
اشارة ----- ۹۷۵
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۷۵
المعاد یکمن فی أعماق الروح: ----- ۹۷۵
توضیح ----- ۹۷۸
المعاد یتجلی فی الفطرة ----- ۹۷۸
۲- برهان الحکمة ----- ۹۸۰
تمهید: ----- ۹۸۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۸۰
الحیاة بلا معاد لامعنی لها: ----- ۹۸۰
توضیح ----- ۹۸۲
هل یمکن للعاقل أن یعتبر الأیام المعدودة من هذه الحیاة هی الهدف من الخلق؟ ----- ۹۸۲
۳- برهان العدالة ----- ۹۸۳
تمهید: ----- ۹۸۳
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۸۴
العدالة لا تتحقق بدون القیامة: ----- ۹۸۴
توضیح ----- ۹۸۶
العدل هو النظام الحاکم علی الخلق: ----- ۹۸۶
۴- برهان الغایة والحرکة ----- ۹۸۶
تمهید: ----- ۹۸۶
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۸۷
الجمیع یسیر نحو اللّه: ----- ۹۸۷

توضیح ----- ۹۸۹
نهایة المطاف: ----- ۹۸۹
۵- برهان الرحمة ----- ۹۸۹
تمهید: ----- ۹۸۹
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۹۰
۶- برهان الوحدة ----- ۹۹۱
تمهید: ----- ۹۹۱
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۹۲
متی تُحلّ هذه الاختلافات؟ ----- ۹۹۲
توضیح ----- ۹۹۴
۷- برهان خلود الروح ----- ۹۹۵
تمهید: ----- ۹۹۵
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۹۹۵
استقلالیة الروح: ----- ۹۹۵
عن الشهداء فی سبیل اللّه أیضاً: ----- ۹۹۶
عذاب آل فرعون فی البرزخ: ----- ۹۹۷
قبض الأرواح! ----- ۹۹۷
توضیحات ----- ۹۹۹
۱- خلود الروح ----- ۹۹۹
۲- هل الروح مستقلة عن البدن؟ ----- ۱۰۰۰
۳- أدلة الماديین علی عدم استقلالیة الروح ----- ۱۰۰۲
اشارة ----- ۱۰۰۲
النقاط المبهمة فی هذا الاستدلال: ----- ۱۰۰۳
۴- أدلة أنصار نظریة استقلال الروح ----- ۱۰۰۴

أ) خصوصیة کشف الواقع (ای الاطلاع علی العالم الخارجی) ----- ۱۰۰۴
اشارة ----- ۱۰۰۴
ولتوضیح ذلک یجب الالتفات إلی النقاط الآتیة: ----- ۱۰۰۴
ب) وحدة شخصیة الإنسان ----- ۱۰۰۵
اشارة ----- ۱۰۰۵
خطأ ینبغی اجتنابه: ----- ۱۰۰۶
ج) عدم مطابقة الکبیر للصغیر ----- ۱۰۰۶
اشارة ----- ۱۰۰۶
تساؤل: ----- ۱۰۰۷
د) الظواهر الروحیة لا تتلائم مع الکیفیات المادیّة ----- ۱۰۰۷
۵- هل النفس مجردّة؟ ----- ۱۰۰۸
المعاد الجسمانی ----- ۱۰۰۸
اشارة ----- ۱۰۰۸
تمهید: ----- ۱۰۰۹
المجموعة الاولی ----- ۱۰۰۹
اشارة ----- ۱۰۰۹
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۰۰۹
کیف تحیی العظام البالیة؟ ----- ۱۰۱۰
المجموعة الثانیة: ----- ۱۰۱۰
اشارة ----- ۱۰۱۱
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۰۱۱
کیف یُبعث من فی القبور؟ ----- ۱۰۱۱
المجموعة الثالثة: ----- ۱۰۱۲
اشارة ----- ۱۰۱۲

جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۲
من التراب نخرجكم تارة اخرى ----- ۱۰۱۲
المجموعة الرابعة: ----- ۱۰۱۳
اشارة ----- ۱۰۱۳
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۳
المعاد يشبه إحياء الأرض بعد موتها ----- ۱۰۱۳
المجموعة الخامسة: ----- ۱۰۱۴
اشارة ----- ۱۰۱۴
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۴
هل يمكن أن نُخلقُ من التراب ثانية؟ ----- ۱۰۱۴
المجموعة السادسة: ----- ۱۰۱۵
اشارة ----- ۱۰۱۵
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۵
نِعَم الجنّة المادية دليلٌ على تحقق المعاد الجسمانى ----- ۱۰۱۶
المجموعة السابعة: ----- ۱۰۱۷
اشارة ----- ۱۰۱۷
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۷
دليل آخر على كون العذاب المادى فى جهنم ----- ۱۰۱۷
المجموعة الثامنة: ----- ۱۰۱۷
اشارة ----- ۱۰۱۷
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۰۱۸
تكلُّم اعضاء الجسم دليل ملموس آخر ----- ۱۰۱۸
المجموعة التاسعة: ----- ۱۰۱۹
اشارة ----- ۱۰۱۹

ثمرة البحث: ۱۰۱۹
توضیح ۱۰۲۰
المعاد الجسمانی فی مقیاس العقل: ۱۰۲۰
شبهات جاحدی المعاد الجسمانی ۱۰۲۱
اشارة ۱۰۲۱
۱- استحالة «اعادة المعدوم» ۱۰۲۱
۲- شبهة الآکل والمأکول ۱۰۲۲
اشارة ۱۰۲۲
الجواب النهائی لشبهة الآکل والمأکول: ۱۰۲۴
۳- شحّة العناصر الترابیة علی سطح الأرض ۱۰۲۶
۴- هل تسع مساحة الأرض لحشر جمیع البشر؟ ۱۰۲۷
۵- کیف یتلائم الجسم الذی من صفاته الفناء مع الخلود؟ ۱۰۲۸
۶- هل یمکن الجمع بین (معاد) الأجسام والأرواح؟ ۱۰۲۹
۷- ایّ جسمٍ یُعادُ یوم القیامة؟ ۱۰۲۹
ثمرة البحث: ۱۰۳۰
المعاد فی الحضارات السالفة ۱۰۳۰
تمهید: ۱۰۳۰
جمع الآیات وتفسیرها ۱۰۳۱
الاعتقاد بالمعاد خلال العصور المختلفة: ۱۰۳۱
ثمرة البحث: ۱۰۳۷
توضیحات ۱۰۳۷
۱- المعاد لدی شعوب ما قبل التاریخ ۱۰۳۷
۲- المعاد فی ضمیر شعوب ما بعد التاریخ ۱۰۳۸
اشارة ۱۰۳۸

أ) المعاد لدى المصريين القُد ماء ---- ۱۰۳۹
ب) «البابليون» ---- ۱۰۴۰
ج) «السومريون» ---- ۱۰۴۰
د) «الزرادشت» ---- ۱۰۴۰
ه) «الصينيون» ---- ۱۰۴۱
و) «اليابانيون» ---- ۱۰۴۱
ز) «اليونانيُّون» ---- ۱۰۴۲
ح) «الرومان» ---- ۱۰۴۲
۳- الاعتقاد بالمعاد فی‌کتب اليهود «۱» ---- ۱۰۴۲
۴- القيامة من وجهة نظر الأناجيل ---- ۱۰۴۳
ثمرة البحث: ---- ۱۰۴۴
الإيمان بالمعاد وعلاقته بالتربية ---- ۱۰۴۴
تمهيد: ---- ۱۰۴۴
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۰۴۵
الإيمان بالمعاد هو المحفِّز على عمل الصالحات: ---- ۱۰۴۵
الإيمان بالمعاد وتأثيره على الثبات: ---- ۱۰۴۷
إنكار المعاد هو السبب الرئيسى لاقتحام الفجور: ---- ۱۰۴۸
لو آمنوا بالمعاد لما ارتكبوا الذنوب: ---- ۱۰۴۹
الإيمان بالمعاد وعلاقته بالرؤية الواقعية: ---- ۱۰۵۱
ثمرة البحث: ---- ۱۰۵۳
توضيحات ---- ۱۰۵۳
۱- الآثار الإيجابية العميقة للإيمان بالقيامة ---- ۱۰۵۳
۲- الآثار التربوية للمعاد من وجهة نظر الروايات ---- ۱۰۵۵
۳- الإيمان بالمعاد وعلاقته باطمئنان النفس ---- ۱۰۵۶

المدخل إلى عالم البقاء ----- ۱۰۵۷
اشارة ----- ۱۰۵۷
۱- الموت ----- ۱۰۵۸
تمهید: ----- ۱۰۵۸
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۰۵۹
۱- الموت قانون شمولی ----- ۱۰۵۹
۲- حقیقة الموت ----- ۱۰۶۰
۳- ملائکة الموت ----- ۱۰۶۰
۴ و ۵- حال المؤمنین والظالمین عند سکرات الموت ----- ۱۰۶۱
۶- علّة الخوف من الموت ----- ۱۰۶۲
۷- الغایة من الموت والحیاة ----- ۱۰۶۲
۸ و ۹- مقدمات الموت وسکراته ----- ۱۰۶۴
۱۰- تمنّی العودة والإصلاح ----- ۱۰۶۵
ثمرة البحث: ----- ۱۰۶۶
اشارة ----- ۱۰۶۶
۱- الموت هو مدخل عالم البقاء ----- ۱۰۶۶
۲- لماذا نخاف الموت؟ ----- ۱۰۶۷
۳- أسباب الخوف من الموت فی نظر الروایات ----- ۱۰۶۸
۲- البرزخ ----- ۱۰۶۸
تمهید: ----- ۱۰۶۸
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۰۶۹
ماهیة البرزخ وخصوصیاته: ----- ۱۰۶۹
ثمرة البحث: ----- ۱۰۷۴
توضیحات ----- ۱۰۷۴

۱- البرزخ فی الأحادیث الشریفة ---- ۱۰۷۴
۲- البرزخ فی میزان العقل والحس ---- ۱۰۷۶
۳- قبسات من عالم البرزخ ---- ۱۰۷۷
۴- خصوصیات عالم البرزخ ---- ۱۰۷۹
اشارة ---- ۱۰۷۹
أ) سؤال القبر ---- ۱۰۷۹
ب) ضغطة القبر ---- ۱۰۸۰
ج) عن أیّ الامور یُسأل؟ ---- ۱۰۸۱
د) ارتباط الروح بهذا العالم ---- ۱۰۸۱
ه) انتفاع الأرواح بأعمال الآخرین الصالحة ---- ۱۰۸۲
۵- هل یمرّ الجمیع فی مرحلة البرزخ؟ ---- ۱۰۸۳
۶- الغایة من وجود البرزخ ---- ۱۰۸۳
ملاحظة: ---- ۱۰۸۴
الجزء السادس ---- ۱۰۸۴
منازل الآخرة ---- ۱۰۸۴
المقدّمة: ---- ۱۰۸۴
اشارة ---- ۱۰۸۴
۱- علامات القیامة ---- ۱۰۸۵
الفصل الأول: أشراط الساعة ---- ۱۰۸۵
تمهید: ---- ۱۰۸۶
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۱۰۸۶
ظهور علامات القیامة: ---- ۱۰۸۶
إقتربت الساعة: ---- ۱۰۸۷
یوم تأتی السماء بدخان مبین: ---- ۱۰۸۷

الفصل الثانی: العلامات التی تنذر بنهایة هذا العالم ---- ۱۰۸۹
اشارة ---- ۱۰۸۹
۱- تلاشی الجبال ---- ۱۰۸۹
۲- انفجار البحار ---- ۱۰۹۰
۳- الزلزال العظیم المدمر ---- ۱۰۹۰
۴- ذهاب ضوء الشمس والقمر والکواکب ---- ۱۰۹۱
۵- انشقاق الأجرام السماویة ---- ۱۰۹۲
الفصل الثالث: علامات بدء القیامة ---- ۱۰۹۴
۲- النفخ فی الصور ---- ۱۰۹۵
نفخة الموت ونفخة الحیاة: ---- ۱۰۹۶
تمهید: ---- ۱۰۹۶
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۱۰۹۷
نفخة الموت ونفخة الحیاة! ---- ۱۰۹۷
توضیحات ---- ۱۱۰۳
۱- ما المراد ب (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحیاة ---- ۱۱۰۳
۲- تأثیر الأمواج الصوتیة علی الإنسان وسائر الموجودات ---- ۱۱۰۴
۳- إجابات حول نفخة الصور ---- ۱۱۰۴
۱- هل أن نفخة الصور تقع مرتین فقط؟ ---- ۱۱۰۴
۲- مَن الملک المأمور بنفخة الصور ---- ۱۱۰۵
۳- ما هی الفترة الزمنیة بین النفختین ---- ۱۱۰۵
۴- فلسفة نفخة الصور؟ ---- ۱۱۰۶
۳- صحیفة الأعمال ---- ۱۱۰۷
اشارة ---- ۱۱۰۷
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۱۰۸

الكتاب الذى يتكلم: ---- ۱۱۱۰
كتب فى عليين وأخرى فى سجين: ---- ۱۱۱۱
الملائكة المراقبون: ---- ۱۱۱۲
كُتّاب صحيفة الأعمال: ---- ۱۱۱۳
كتاب الأعمال فى اليمين أو فى الشمال: ---- ۱۱۱۴
صحيفة أعمالنا أمام أنظار الجميع: ---- ۱۱۱۶
توضيحات ---- ۱۱۱۶
۱- صحف الأعمال فى الروايات الإسلامية ---- ۱۱۱۶
۲- ماهية صحف الأعمال ---- ۱۱۱۷
۳- فلسفة كتاب الأعمال ---- ۱۱۱۹
۴- أقسام كتب الأعمال ---- ۱۱۲۰
۵- خصائص كتاب الأعمال ---- ۱۱۲۱
۴- حضور الأعمال ---- ۱۱۲۲
تمهيد: ---- ۱۱۲۲
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۱۲۳
يومئذ كلٌ يرى عمله: ---- ۱۱۲۳
استيفاء الأعمال يوم القيامة: ---- ۱۱۲۶
لا تجزون إلّاما كنتم تعملون: ---- ۱۱۲۸
توضيحات ---- ۱۱۲۹
۱- رؤية الأعمال فى الروايات الإسلامية ---- ۱۱۲۹
۲- تجسد الأعمال فى منطق العقل ---- ۱۱۳۰
۳- تجسد اخلاق وسجايا الإنسان ---- ۱۱۳۱
۵- محكمة العدل الإلهى ---- ۱۱۳۲
الشهود والميزان والحساب: ---- ۱۱۳۲

تمهید: ---- ۱۱۳۲
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۱۳۳
الجمیع محضرون فی تلک المحکمة العظمی ---- ۱۱۳۳
شهود المحشر: ---- ۱۱۳۴
میزان الأعمال: ---- ۱۱۳۸
السرعة فی الحساب: ---- ۱۱۴۰
توضیحات ---- ۱۱۴۲
۱- وصف للمحکمة الکبری ---- ۱۱۴۲
۲- شهود یوم القیامة ---- ۱۱۴۳
۳- ماهو میزان العمل؟ ---- ۱۱۴۴
۴- ماهی الأعمال الثقیلة فی المیزان؟ ---- ۱۱۴۵
۵- المسائل التی یسأل عنها یوم القیامة ---- ۱۱۴۶
۶- الیسر والعسر فی حساب المحشر ---- ۱۱۴۷
۶- الصراط والمرصاد ---- ۱۱۴۹
تمهید: ---- ۱۱۴۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۱۴۹
طریق الجنّة یمر عبر جهنّم: ---- ۱۱۴۹
توضیح ---- ۱۱۵۲
ماهی حقیقة الصراط؟ ---- ۱۱۵۲
الجنّة ---- ۱۱۵۴
اشارة ---- ۱۱۵۴
تمهید: ---- ۱۱۵۴
۱- موجبات دخول الجنّة فی المنظور القرآنی ---- ۱۱۵۵
اشارة ---- ۱۱۵۵

۱- الإیمان والعمل الصالح ---- ۱۱۵۵
۲- التقوی ---- ۱۱۵۶
۳- الاحسان ---- ۱۱۵۷
۴- الجهاد والشهادة ---- ۱۱۵۸
۵- نهی النفس عن الهوی ---- ۱۱۵۸
۶- السابقون إلی الإیمان ---- ۱۱۵۹
۷- الهجرة والجهاد ---- ۱۱۶۰
۸- الصبر والتحمل عند الشدائد ---- ۱۱۶۱
۹- الإیمان والاستقامة ---- ۱۱۶۲
۱۰- إطاعة اللّه ورسوله صلی الله علیه و آله ---- ۱۱۶۳
۱۱- الاخلاص ---- ۱۱۶۳
۱۲- الصدق ---- ۱۱۶۴
۱۳- تزکیة النفس ---- ۱۱۶۴
۱۴- الانفاق والاستغفار ---- ۱۱۶۵
۱۵- الخوف من اللّه ---- ۱۱۶۶
۱۶- التولی والتبرؤ ---- ۱۱۶۶
۱۷- الاهتمام بالصلاة ---- ۱۱۶۷
اشارة ---- ۱۱۶۷
الخلاصة: ---- ۱۱۶۷
۲- النعم المادیة فی الجنّة ---- ۱۱۶۸
تمهید: ---- ۱۱۶۸
اشارة ---- ۱۱۶۸
۱- حدائق الجنان ---- ۱۱۶۹
۲- ظلال الجنّة ---- ۱۱۷۰

۳- قصور أهل الجنّة ---- ۱۱۷۰
۴- الفرش والأرائک ---- ۱۱۷۱
۵- الأغذية والأوانی ---- ۱۱۷۴
۶- الشراب الطهور ---- ۱۱۷۵
۷- أفضل شراب أهل الجنّة ---- ۱۱۷۷
۸- الأکواب والصحاف والکؤوس ---- ۱۱۷۸
۹- ألبسة الجنّة ---- ۱۱۸۰
۱۰- حلی الجنّة ---- ۱۱۸۱
۱۱- الحور العين ---- ۱۱۸۲
۱۲- الخدم والسقاة ---- ۱۱۸۵
۱۳- المضيغون ---- ۱۱۸۷
۱۴- النُّزل ---- ۱۱۸۸
۱۵- النعم التی لا تتصور ---- ۱۱۸۸
۳- اللذّات الروحية ---- ۱۱۹۰
اشارة ---- ۱۱۹۰
۱- الاحترام الخاص ---- ۱۱۹۱
۲- اجواء الامن والسلام ---- ۱۱۹۲
۳- الأمان بعد الخوف ---- ۱۱۹۳
۴- الأخلّاء والأصدقاء الأوفياء ---- ۱۱۹۴
۵- العلاقات الطّيبة ---- ۱۱۹۵
۶- الانشراح النفسی ---- ۱۱۹۶
۷- الشعور برضا اللّه ---- ۱۱۹۷
۸- نظر اللّه إليهم ونظرهم إليه ---- ۱۱۹۹
۹- لهم ما يشتهون ---- ۱۲۰۰

۱۰- النعم التی لا یدرکها التصور ---- ۱۲۰۱
۱۱- خلود نِعَم الجنّة ---- ۱۲۰۲
۴- أبواب الجنّة ---- ۱۲۰۳
تمهید: ---- ۱۲۰۳
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۲۰۳
الجنّة فی الانتظار! ---- ۱۲۰۳
توضیحان ---- ۱۲۰۴
۱- أبواب الجنّة فی الأحادیث الإسلامیة ---- ۱۲۰۴
۲- المکتوب علی أبواب الجنّة ---- ۱۲۰۵
۵- سعة الجنّة ---- ۱۲۰۶
تمهید: ---- ۱۲۰۶
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۲۰۷
کعرض السموات والأرض: ---- ۱۲۰۷
۶- هل الجنّة مخلوقة؟ ---- ۱۲۰۹
تمهید: ---- ۱۲۰۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۲۰۹
اعدّت للمتقین! ---- ۱۲۱۰
توضیحات ---- ۱۲۱۲
۱- آراء العلماء المسلمین فی خلق الجنّة والنّار ---- ۱۲۱۲
۲- الوجود الحالی للجنّة والنّار فی الروایات الإسلامیة ---- ۱۲۱۳
۳- جواب علی اعتراضین ---- ۱۲۱۴
۴- أین الجنّة؟ ---- ۱۲۱۵
۷- درجات الجنّة ---- ۱۲۱۸
تمهید: ---- ۱۲۱۸

جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۲۱۹
جنّة أم جنان؟ ---- ۱۲۱۹
۸- أسئلة وأجوبة حول الجنّة ---- ۱۲۲۳
۱- هل أنّ التكرار يولد الملّل؟ ---- ۱۲۲۳
۲- أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟ ---- ۱۲۲۴
۳- هل يوجد في الجنّة تكامل؟ ---- ۱۲۲۵
النّار ---- ۱۲۲۷
اشارة ---- ۱۲۲۷
۱- من هم أصحاب النّار؟ ---- ۱۲۲۷
تمهيد: ---- ۱۲۲۷
اشارة ---- ۱۲۲۷
۱- الكُفّار والمنافقون ---- ۱۲۲۷
۲- الصد عن سبيل اللّه ---- ۱۲۲۸
۳- ترک طاعة اللّه وشق عصا المسلمين ---- ۱۲۲۸
۴- الاستهزاء بآيات اللّه ---- ۱۲۲۹
۵- عدم الاستفادة من العقل والعين والأذن ---- ۱۲۲۹
۶- اتباع الشيطان ---- ۱۲۲۹
۷- الطغيان والتكبر ---- ۱۲۳۰
۸- الظلم والجور ---- ۱۲۳۰
۹- الركون إلى الظالمين ---- ۱۲۳۱
۱۰- نسيان الآخرة ---- ۱۲۳۱
۱۱- حبّ الدنيا ---- ۱۲۳۲
۱۲- اكتناز الذهب ---- ۱۲۳۲
۱۳- الفرار من الزحف ---- ۱۲۳۳

۱۴- قتل الأبرياء ---- ۱۲۳۳
۱۵- ترک الصلاة ---- ۱۲۳۴
۱۶- عدم ايتاء الزكاة ---- ۱۲۳۴
۱۷- أكل مال اليتيم ---- ۱۲۳۵
۱۸- أكل الربا ---- ۱۲۳۵
۱۹- كفران النعم الإلهيّة ---- ۱۲۳۶
۲۰- المطففين ---- ۱۲۳۶
۲۱- الهمز واللمز والغيبة ---- ۱۲۳۷
۲۲- الاسراف والتبذير ---- ۱۲۳۸
۲۳- الجرائم والذنوب ---- ۱۲۳۸
۲۴- تعدّى حدود اللّه ---- ۱۲۳۹
اشارة ---- ۱۲۳۹
الخلاصة: ---- ۱۲۴۰
۲- ماهية جهنّم ---- ۱۲۴۰
تمهيد: ---- ۱۲۴۰
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۲۴۱
تعابير القرآن بشأن جهنّم: ---- ۱۲۴۱
أوصاف جهنّم: ---- ۱۲۴۴
توضيح ---- ۱۲۴۵
فلسفة وجود النّار: ---- ۱۲۴۵
۳- أبواب جهنّم وطبقاتها ---- ۱۲۴۷
تمهيد: ---- ۱۲۴۷
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۲۴۸
ماهو المقصود من أبواب جهنّم؟ ---- ۱۲۴۸

۴- العذاب الجسدی لأصحاب النّار ----- ۱۲۵۰
تمهید: ----- ۱۲۵۰
اشارة ----- ۱۲۵۰
۱- شدّة عذاب أصحاب النّار ----- ۱۲۵۱
اشارة ----- ۱۲۵۱
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۲۵۱
۲ و ۳- الطعام والشراب القاتل لأصحاب النّار ----- ۱۲۵۳
تمهید: ----- ۱۲۵۴
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۲۵۴
الزقوم- الحمیم- غسلین- الضریع- الغساق- الصدید ----- ۱۲۵۴
۴- ثیاب أهل النّار ----- ۱۲۵۹
تمهید: ----- ۱۲۵۹
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۲۵۹
اشارة ----- ۱۲۵۹
سائر العذاب الجسدی لأهل النّار: ----- ۱۲۶۰
تمهید ----- ۱۲۶۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۲۶۱
۵- سائر عذابهم الجسدی ----- ۱۲۶۱
ریاح مهلکه، وظلال محرقة: ----- ۱۲۶۱
زنزانات جهنّم الانفرادیة: ----- ۱۲۶۲
توضیح ----- ۱۲۶۴
لماذا یکون العذاب الإلهی شدیداً إلی هذا الحد؟ ----- ۱۲۶۴
۵- العذاب الروحی ----- ۱۲۶۵
تمهید: ----- ۱۲۶۵

جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۲۶۵
الحزن والهم القاتل والحسرة اللامتناهیة: ---- ۱۲۶۵
کثرة اللوم والتقریع: ---- ۱۲۶۶
۶- خلود العقاب ---- ۱۲۶۹
تمهید: ---- ۱۲۶۹
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۲۷۰
عذاب الخلد: ---- ۱۲۷۰
أبدیة العذاب: ---- ۱۲۷۱
النتیجة: ---- ۱۲۷۳
توضیحات ---- ۱۲۷۳
من هم المخلّدون فی النّار؟ ---- ۱۲۷۳
اشارة ---- ۱۲۷۳
۱- الکفّار ---- ۱۲۷۳
۲- المنافقون ---- ۱۲۷۴
۳- الغارقون فی الذنوب ---- ۱۲۷۴
۴- القتلة والجُناة ---- ۱۲۷۴
۵- آکلو الربا ---- ۱۲۷۵
۶- الظالمون والجبابرة ---- ۱۲۷۵
۷- الذین خفّت موازینهم ---- ۱۲۷۶
۸- المجرمون بشکل عام ---- ۱۲۷۶
النتیجة: ---- ۱۲۷۷
سؤال: هل أنّ مرتکبی الکبائر مخلدون فی النّار؟ ---- ۱۲۷۷
توضیحات ---- ۱۲۷۹
اعتراضات علی خلود العذاب: ---- ۱۲۷۹

اشارة ----- ۱۲۷۹
۱- فناء المادة ----- ۱۲۷۹
۲- هل يمكن للعرضى أن يصير دائماً؟ ----- ۱۲۸۰
۳- ألا يعتاد أهل النّار على العذاب ----- ۱۲۸۰
۴- هل أنّ الخلود نوعى أم شخصى ----- ۱۲۸۱
۵- هل ينسجم الخلود مع العدل الإلهى؟! ----- ۱۲۸۱
القرآن والشفاعة ----- ۱۲۸۳
اشارة ----- ۱۲۸۳
تمهيد: ----- ۱۲۸۳
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۲۸۴
المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة: ----- ۱۲۸۴
اشارة ----- ۱۲۸۴
القسم الأول: الآيات التى تنفى الشفاعة بشكل قاطع ----- ۱۲۸۴
القسم الثانى: الآيات التى تعتبر الشفاعة خاصّة باللّه ----- ۱۲۸۵
القسم الثالث: الآيات التى تؤكّد على أنّ الشفاعة منوطة بإذن اللّه ----- ۱۲۸۶
القسم الرابع: الآيات التى حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له ----- ۱۲۸۷
القسم الخامس: الآيات التى تشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة ----- ۱۲۸۹
النتيجة: ----- ۱۲۸۹
توضيحات ----- ۱۲۸۹
۱- مفهوم الشفاعة ----- ۱۲۸۹
۲- أنواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية) ----- ۱۲۹۰
۳- فلسفة الشفاعة ----- ۱۲۹۱
اشارة ----- ۱۲۹۱
أ) بعث الأمل ومواجهة روح اليأس ----- ۱۲۹۱

ب) إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء اللّه ---- ۱۲۹۱
ج) نيل شروط الشفاعة ---- ۱۲۹۲
د) الاهتمام بسلسلة الشفعاء ---- ۱۲۹۲
۴- متى تكون الشفاعة؟ ---- ۱۲۹۳
۵- الإشكالات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة ---- ۱۲۹۵
اشارة ---- ۱۲۹۵
أ) هل تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟ ---- ۱۲۹۵
ب) لمن الشفاعة؟ ---- ۱۲۹۵
ج) هل تنسجم الشفاعة مع العدل الإلهى؟ ---- ۱۲۹۶
د) ألا تتعارض الشفاعة مع إرادة اللّه؟ ---- ۱۲۹۶
ه) عقوبات القيامة هى الأثر التكوينى للاعمال، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة؟ ---- ۱۲۹۷
و) أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟ ---- ۱۲۹۷
ز) ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد؟ ---- ۱۲۹۷
النقاط الخاطئة فى هذا الاستدلال: ---- ۱۲۹۸
الأعراف وأصحابها ---- ۱۳۰۱
اشارة ---- ۱۳۰۱
تمهيد: ---- ۱۳۰۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۳۰۲
موضع بين الجنّة والنّار: ---- ۱۳۰۲
لماذا هذه المعرفة؟ ---- ۱۳۰۲
توضيحات ---- ۱۳۰۴
۱- الأعراف فى اللغة والتفسير ---- ۱۳۰۴
۲- الأعراف فى العقل والمنطق ---- ۱۳۰۵
۳- الأعراف فى الروايات والأحاديث ---- ۱۳۰۵

اشارة ----- ۱۳۰۶
خاتمة بحث المعاد: ----- ۱۳۰۷
الجزء السابع ----- ۱۳۰۷
اشارة ----- ۱۳۰۸
فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام فی التصور القرآنی ----- ۱۳۰۸
اشارة ----- ۱۳۰۸
القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام ----- ۱۳۰۸
تمهيد: ----- ۱۳۰۸
جمع الآيات و تفسيرها ----- ۱۳۰۹
أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء: ----- ۱۳۰۹
۱ و ۲- التربية والتعليم ----- ۱۳۱۰
۳- إقامة القسط والعدل ----- ۱۳۱۲
۴- حريّة الإنسان ----- ۱۳۱۳
۵- النجاة من الظلمات ----- ۱۳۱۴
۶- البشری والإنذار ----- ۱۳۱۵
۷- إتمام الحجّة ----- ۱۳۱۵
۸- رفع الاختلاف ----- ۱۳۱۶
۹- التذكير (بالنسبة للبديهيات والمستقلات العقليّة) ----- ۱۳۱۷
۱۰- الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة ----- ۱۳۱۸
ثمرة البحث: ----- ۱۳۱۹
توضيحات ----- ۱۳۲۰
۱- فلسفة بعثة الأنبياء والرسل فی الروايات الإسلامية ----- ۱۳۲۰
۲- الغاية من إرسال الرسل فی التصور العقلی ----- ۱۳۲۱
أ) عجز الإنسان عن التقنين الدقيق ----- ۱۳۲۱

ب) التنسيق بين التكوين والتشريع ----- ۱۳۲۳
ج) التربية العلمية ----- ۱۳۲۴
۳- اسلوب المخالفين ----- ۱۳۲۵
الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام ----- ۱۳۲۷
اشارة ----- ۱۳۲۷
جمع الآيات و تفسيرها ----- ۱۳۲۸
۱- صدق الحديث ----- ۱۳۲۸
۲- الالتزام بالعهود والمواثيق ----- ۱۳۲۸
۳- الأمانة ----- ۱۳۲۹
۴- الرغبة والشفقة الفائقتان ----- ۱۳۳۰
۵- الإخلاص والإيثار الكامل ----- ۱۳۳۰
۶- البرّ والإحسان ----- ۱۳۳۱
۷- عدم الخشية من غير اللّه تعالى ----- ۱۳۳۲
۸- التوكّل المطلق على اللّه تعالى ----- ۱۳۳۳
۹- الإخلاص المنقطع النظير ----- ۱۳۳۳
۱۰- اللين والمحبّة وحسن الخُلُق ----- ۱۳۳۴
۱۱- الفوز فى المحن الشاقّة ----- ۱۳۳۵
ثمرة البحث: ----- ۱۳۳۵
شروط الرسالة ----- ۱۳۳۶
اشارة ----- ۱۳۳۶
التقوى والعصمة ----- ۱۳۳۶
تمهيد: ----- ۱۳۳۶
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۳۳۷
كيف يكون المذنبون دعاةً للتقوى؟ ----- ۱۳۳۷

من هم أهل البيت؟ ---- ۱۳۴۲
ثمرة البحث: ---- ۱۳۴۷
تنزيه الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۳۴۷
اشارة ---- ۱۳۴۷
تنزيه الأنبياء ---- ۱۳۴۷
اشارة ---- ۱۳۴۸
۱- آدم عليه السلام ---- ۱۳۴۸
ثمرة البحث: ---- ۱۳۵۰
۲- نوح عليه السلام ---- ۱۳۵۰
۳- إبراهيم عليه السلام ---- ۱۳۵۱
۴- يوسف عليه السلام ---- ۱۳۵۵
۵- موسى عليه السلام ---- ۱۳۵۶
۶- داود عليه السلام ---- ۱۳۶۱
۷- سليمان عليه السلام ---- ۱۳۶۲
۸- يونس عليه السلام ---- ۱۳۶۶
۹- نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ---- ۱۳۶۷
۱۰- الأنبياء السابقون بشكل عامّ ---- ۱۳۷۴
اسطورتا الآيات الشيطانية والغرانيق: ---- ۱۳۷۵
نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرانيق: ---- ۱۳۷۷
ثمرة البحث: ---- ۱۳۷۹
أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۳۷۹
اشارة ---- ۱۳۷۹
يقول فى بحث عصمة الأنبياء عليهم السلام: ---- ۱۳۸۰
الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء عليهم السلام: ---- ۱۳۸۲

اشارة ----- ۱۳۸۲
۱- العوامل الداخلیة- النفسیة- ----- ۱۳۸۲
۲- دلیل الإعتماد ----- ۱۳۸۴
۳- مخالفة الغایة وعدم تحقق أهداف البعثة ----- ۱۳۸۵
۴- لا یمکن الإغراء بالجهل والتشجیع علی الخطأ ----- ۱۳۸۶
۵- عدم أهلیة غیر المعصوم لتلقّی الوحی ----- ۱۳۸۷
۶- أدلّة اخری ----- ۱۳۸۷
أسئلة متعدّدة: ----- ۱۳۸۸
اشارة ----- ۱۳۸۸
۱- هل لعصمة الأنبیاء صفة «جبریّة»؟ ----- ۱۳۸۸
۲- هل تنسجم العصمة مع التقیّة؟ ----- ۱۳۹۰
المنزلة العلمیة للأنبیاء علیهم السلام ----- ۱۳۹۱
اشارة ----- ۱۳۹۱
ما هو علم الأسماء؟ ----- ۱۳۹۲
توضیحان ----- ۱۳۹۴
۱- حدود علم الأنبیاء علیهم السلام ----- ۱۳۹۴
۲- القرآن والعلوم الأخری للأنبیاء علیهم السلام ----- ۱۳۹۵
مصادر علم الأنبیاء علیهم السلام ----- ۱۳۹۸
الأنبیاء علیهم السلام وعلم الغیب ----- ۱۴۰۱
اشارة ----- ۱۴۰۱
تمهید: ----- ۱۴۰۲
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۴۰۲
النتیجة: ----- ۱۴۰۴
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۴۰۴

الثمرة من مجموع آيات علم الغيب: ۱۴۰۸
روايات علم الغيب: ۱۴۱۰
حدود علم الغيب وكيفيته: ۱۴۱۲
إثبات علم القادة الإلهيين عن طريق العقل ۱۴۱۵
اشارة ۱۴۱۵
العلوم الأخرى للأنبياء فى القرآن المجيد: ۱۴۱۶
اشارة ۱۴۱۶
۱- تعلّم موسى من الخضر ۱۴۱۶
۲- اطّلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية ۱۴۱۷
۳- معرفة يوسف بتفسير الاحلام ۱۴۱۷
۴- العلم بمنطق الطير ۱۴۱۸
طرق معرفة سفراء اللّه ۱۴۱۹
اشارة ۱۴۱۹
تمهيد: ۱۴۱۹
اشارة ۱۴۱۹
۱- الاعجاز ۱۴۲۰
اشارة ۱۴۲۰
جمع الآيات وتفسيرها ۱۴۲۱
الإعجاز، أوّل دليل على النبوّة: ۱۴۲۱
ثمرة البحث: ۱۴۲۴
توضيحات ۱۴۲۵
۱- ما هى حقيقة الإعجاز ۱۴۲۵
۲- العلاقة بين الإعجاز والنبوّة ۱۴۲۸
۳- الاختلاف بين معجزات الأنبياء عليهم السلام ۱۴۲۹

۴- السحر لا يضاهى المعجزة ---- ۱۴۳۰
۵- منطق منكرى الإعجاز ---- ۱۴۳۲
۲- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۴۳۵
۳- جمع القرائن ---- ۱۴۳۶
اشارة ---- ۱۴۳۶
روحية المتّهم وسوابقه: ---- ۱۴۳۶
إرشادات القرآن حول هذين الدليلين: ---- ۱۴۳۷
۴- شهادة الأنبياء السابقين ---- ۱۴۳۸
مسألة الوحى ---- ۱۴۴۰
اشارة ---- ۱۴۴۰
«كيفية الإرتباط بعالم الغيب» ---- ۱۴۴۱
تمهيد: ---- ۱۴۴۱
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۴۴۱
طرق الإرتباط بعالم الغيب: ---- ۱۴۴۱
توضيحان ---- ۱۴۴۳
۱- أقسام الوحى وكيفيته فى الروايات الإسلامية ---- ۱۴۴۳
۲- الوحى فى كلمات الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين ---- ۱۴۴۵
إنتقادات ---- ۱۴۴۵
نقد وتحليل: ---- ۱۴۴۶
الاصول العامّة لدعوة الأنبياء عليهم السلام ---- ۱۴۴۷
اشارة ---- ۱۴۴۷
الاصول العامّة لدعوة الأنبياء ---- ۱۴۴۷
تمهيد: ---- ۱۴۴۷
جمع الآيات وتفسيرها ---- ۱۴۴۹

وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً: ----- ۱۴۴۹
ثمرة البحث: ----- ۱۴۵۵
الأنبياء عليهم السلام فى القرآن المجيد ----- ۱۴۵۵
اشارة ----- ۱۴۵۵
الأنبياء فى القرآن المجيد ----- ۱۴۵۵
تمهيد: ----- ۱۴۵۵
اشارة ----- ۱۴۵۵
۱- عدد الأنبياء فى القرآن: ----- ۱۴۵۶
۲- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن ----- ۱۴۵۸
۳- الكتب السماوية للأنبياء ----- ۱۴۶۰
۴- الفرق بين الرسول والنبى ----- ۱۴۶۰
۵- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟ ----- ۱۴۶۲
۶- تكامل الأديان ----- ۱۴۶۳
مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان ----- ۱۴۶۳
الجزء الثامن ----- ۱۴۶۵
الرسول لأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و ظهور الإسلام ----- ۱۴۶۵
اشارة ----- ۱۴۶۵
الرسول صلى الله عليه و آله وظهور الإسلام وسرعة انتشاره: ----- ۱۴۶۵
ممارسة الضغط على المسلمين الجدد: ----- ۱۴۶۷
التهمةُ والاستهزاء: ----- ۱۴۶۷
الهجرةُ إلى الحبشة: ----- ۱۴۶۸
الحصار الاقتصادى: ----- ۱۴۶۹
بداية جديدة فى ابلاغ الرسالة: ----- ۱۴۷۰
الرسول يلتقى أهل المدينة: ----- ۱۴۷۰

اشارة ----- ۱۴۷۰
بیعة العقبة الاولی ----- ۱۴۷۱
بیعة العقبة الثانیة: ----- ۱۴۷۱
الهجرة انعطافٌ جدیدٌ فی تاریخ الإسلام: ----- ۱۴۷۲
صلحُ الحدیبیة فتحٌ کبیرٌ وتقدمٌ للإسلام: ----- ۱۴۷۴
رسائله صلی الله علیه و آله إلی ملوک العالم: ----- ۱۴۷۴
نبیُّ الإسلام فی القرآن ----- ۱۴۷۸
تمهید: ----- ۱۴۷۸
محیط دعوة الرسول صلی الله علیه و آله: ----- ۱۴۷۹
اشارة ----- ۱۴۷۹
۱- الأصنام فی عقائد العرب ----- ۱۴۷۹
۲- تفشی حالة الفقر الشدید بین الناس ----- ۱۴۸۱
۳- عباداتهم العجیبة ----- ۱۴۸۱
۴- الخرافات الاخری لعربِ الجاهلیة ----- ۱۴۸۲
۵- شیوع الفساد الأخلاقی ----- ۱۴۸۳
طفولة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: ----- ۱۴۸۴
بدایة مرحلة البعثة النبویة: ----- ۱۴۸۵
قصة یوم الدار: ----- ۱۴۸۶
الأشهر الأخیرة من حیاة الرسول صلی الله علیه و آله: ----- ۱۴۸۹
الأدلة التی تثبتُ صدق دعوة رسول الإسلام ----- ۱۴۹۰
اشارة ----- ۱۴۹۰
الطریق الأول: اعجاز القرآن ----- ۱۴۹۰
تمهید: ----- ۱۴۹۰
جمع الآیات وتفسیرها ----- ۱۴۹۱

توضیحات ----- ۱۴۹۵
أ) تأثیر القرآن وجاذبیته المنقطعة النظیر ----- ۱۴۹۵
اشارة ----- ۱۴۹۵
۱- قصة الولید بن المغیرة المخزومی ----- ۱۴۹۵
۲- استماع زعماء قریش إلی القرآن ----- ۱۴۹۶
۳- قصة ابن أبی العوجاء ورفاقه ----- ۱۴۹۶
۴- قصة عثمان بن مظعون ----- ۱۴۹۷
۵- قصة اسعد بن زرارة ----- ۱۴۹۷
۶- قصة الأصمعی المثیرة ----- ۱۴۹۹
۷- رد فعل إعرابی تجاه آیة من القرآن ----- ۱۴۹۹
۸- القصة المثیرة للسید قطب ----- ۱۴۹۹
۹- قصة النجاشی وعلماء الحبشة المسیحیین ----- ۱۵۰۰
۱۰- تأثیر القرآن فی اوساط العلماء الاجانب ----- ۱۵۰۱
ب) الذین لجأوا إلی المعارضة ----- ۱۵۰۲
صور اعجاز القرآن ----- ۱۵۰۶
اشارة ----- ۱۵۰۶
تمهید: ----- ۱۵۰۶
۱- الاعجاز القرآنی فی الفصاحة والبلاغة ----- ۱۵۰۷
اشارة ----- ۱۵۰۷
مقتطفات من الأمثلة الاعجازیة للقرآن: ----- ۱۵۱۳
۲- الاعجاز القرآنی علی صعید المعارف الإلهیة ----- ۱۵۱۴
۳- إعجاز القرآن فی تصور العلوم الحدیثة ----- ۱۵۱۷
اشارة ----- ۱۵۱۷
۱- القرآن وجاذبیته العامة ----- ۱۵۱۹

۲- القرآن وخلقُ العالم ----- ۱۵۲۰
۳- القرآن وحرکة الأرض ----- ۱۵۲۲
۴- القرآن وحرکة المنظومة الشمسیة ----- ۱۵۲۳
۵- القرآن واتساع العالم ----- ۱۵۲۴
۶- القرآن ووجود الحیاة فی المجرات الاخری ----- ۱۵۲۵
۷- القرآن وخلق الجبال ----- ۱۵۲۶
۸- عنصر الزوجیة بین النباتات فی القرآن ----- ۱۵۲۹
۹- القرآن والزوجیة العامة ----- ۱۵۳۰
۱۰- القرآن یکشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنین ----- ۱۵۳۱
۱۱- القرآن یتحدث عن الآثار المهمّة للغلاف الجوی للأرض ----- ۱۵۳۳
۱۲- القرآن والغلاف الجوی للأرض أیضاً ----- ۱۵۳۵
۱۳- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج ----- ۱۵۳۶
۱۴- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر ----- ۱۵۳۷
۱۵- القرآن وکشف هویة الإنسان ----- ۱۵۳۹
۱۶- القرآن یکشف الستار عن عظمة خلق السماوات ----- ۱۵۴۰
۴- الاعجاز التاریخی للقرآن ----- ۱۵۴۱
دور التاریخ فی المسائل التربویة: ----- ۱۵۴۱
الخطوط العریضة للتاریخ فی القرآن: ----- ۱۵۴۲
اشارة ----- ۱۵۴۲
۱- کیفیة خلق «آدم» کما ورد فی القرآن وفی العهدین ----- ۱۵۴۲
۲- لقاء إبراهیم علیه السلام بالملائکة ----- ۱۵۴۵
۳- منشأ اختلاف اللغات ----- ۱۵۴۸
۴- عباده العجل من قبل بنی اسرائیل ----- ۱۵۴۹
۵- قصة النبی داود علیه السلام وزوجة اوریا ----- ۱۵۵۱

۶- هل أنّ سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟! ----- ۱۵۵۵
۷- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو ----- ۱۵۵۷
۸- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام ----- ۱۵۵۹
۹- المسيح عليه السلام ودعوى الالوهية ----- ۱۵۶۱
۱۰- حضور المرأة العاصية فى مجلس السيد المسيح عليه السلام ----- ۱۵۶۲
نتيجة البحث: ----- ۱۵۶۴
۵- الاعجاز القرآنى فى سن القوانين ----- ۱۵۶۴
اشارة ----- ۱۵۶۴
ماهى أفضل القوانين؟ ----- ۱۵۶۴
مزايا القوانين القرآنية: ----- ۱۵۶۶
اشارة ----- ۱۵۶۶
أولًا: الشمولية والسعة ----- ۱۵۶۶
ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية ----- ۱۵۶۸
ثالثاً: احترام حقوق الإنسان ----- ۱۵۶۹
رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن ----- ۱۵۷۰
خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية ----- ۱۵۷۱
سادساً: إحياء القيم الروحية ----- ۱۵۷۴
سابعاً: الاصول الثابتة والمتغيرة ----- ۱۵۷۵
۶- الاعجاز الغيبى للقرآن ----- ۱۵۷۶
إشارة وتنبيه: ----- ۱۵۷۶
اشارة ----- ۱۵۷۶
۱- الأخبار عن هزيمة الأعداء فى اقل من عشر سنين ----- ۱۵۷۸
۲- التنبوء عن نصرين هامين آخرين ----- ۱۵۷۹
۳- الغنائم الكثيرة فى المستقبل ----- ۱۵۸۰

۴- التنبّؤ بالهزیمة الساحقة للاعداء ---- ۱۵۸۱
۵- نبوءة اخری عن الانتصار فی معرکة بدر ---- ۱۵۸۲
۶- الوعد بالعودة ---- ۱۵۸۴
۷- لن ینال الإیمان أبداً ---- ۱۵۸۵
۸- إنّا أعطیناک الخیر الکثیر ---- ۱۵۸۵
۹ و ۱۰- أولئک لن یضروکم بشیء ---- ۱۵۸۸
۷- الاعجاز القرآنی فی عدم وجود التناقض والاختلاف ---- ۱۵۸۹
اشارة ---- ۱۵۸۹
خرق العادات والنوامیس الطبیعیة ---- ۱۵۹۱
اشارة ---- ۱۵۹۱
إشکالات حول مسألة شق القمر ---- ۱۵۹۴
اشارة ---- ۱۵۹۴
۱- إشکال من زاویة تاریخیة ---- ۱۵۹۵
۲- من الزاویة العلمیة ---- ۱۵۹۵
۳- انشقاق القمر فی التصور القرآنی ---- ۱۵۹۶
الطریق الثانی: جمع القرائن طریق آخر للاطمئنان ---- ۱۵۹۷
اشارة ---- ۱۵۹۷
تمهید: ---- ۱۵۹۸
جمع القرائن دلیل متداول فی کل العلوم: ---- ۱۵۹۸
اشارة ---- ۱۵۹۸
۱- میحط دعوة النبی صلی الله علیه و آله والظروف السائدة هناک ---- ۱۶۰۱
۲- تاریخ الرسول صلی الله علیه و آله وخصائصه الأخلاقیة ---- ۱۶۰۴
۳- مضمون الدعوة ---- ۱۶۰۵
۴- عمق تأثیره فی محیطه ---- ۱۶۱۰

۵- ما هی الوسائل الکفیلة لبلوغ الهدف ---- ۱۶۱۱
۶- إیمانه وتضحیته فی سبیل هدفه ---- ۱۶۱۳
۷- من هم المؤمنون به؟ ---- ۱۶۱۴
۸- التطور السریع ---- ۱۶۱۵
الطریق الثالث: البشارات والإشارات ---- ۱۶۱۸
اشارة ---- ۱۶۱۸
تمهید: ---- ۱۶۱۸
إنّهم یعرفونه جیداً ---- ۱۶۱۹
التبشیر بظهور النبی صلی الله علیه و آله فی الکتب السماویة: ---- ۱۶۲۲
الخاتمیة فی القرآن الکریم ---- ۱۶۲۷
اشارة ---- ۱۶۲۷
تمهید: ---- ۱۶۲۷
جمع الآیات وتفسیرها ---- ۱۶۲۸
مفهوم خاتم النبیین: ---- ۱۶۲۹
الاجابة عن بعض الاسئلة: ---- ۱۶۳۰
الخاتمیة فی الروایات الإسلامیة: ---- ۱۶۳۳
توضیحات ---- ۱۶۳۶
۱- هل أنّ السیر التکاملی للإنسان ینسجم مع مسألة الخاتمیة؟ ---- ۱۶۳۶
۲- هل أنّ القوانین الثابتة تتماشی مع احتیاجات الإنسان المتغیرة؟ ---- ۱۶۳۷
۳- هل یجب حرمان الإنسان من فیض الارتباط بعالم الغیب؟ ---- ۱۶۳۸
۴- هل تنسجم هذه الآیات مع مسألة الخاتمیة؟ ---- ۱۶۳۸
الجزء التاسع ---- ۱۶۴۰
الولایة والإمامة ---- ۱۶۴۰
اشارة ---- ۱۶۴۰

تمهید: ----- ۱۶۴۰
اشارة ----- ۱۶۴۰
۱- ماهی الإمامة؟ ----- ۱۶۴۱
۲- هل الإمامة من الاصول أم من الفروع؟ ----- ۱۶۴۲
۳- متی بدأ البحث فی الإمامة؟ ----- ۱۶۴۲
اشارة ----- ۱۶۴۲
اصطلاح «الإمام» فی اللغة والقرآن: ----- ۱۶۴۴
۴- عظمة منزلة الإمام فی القرآن الکریم ----- ۱۶۴۵
۵- فلسفة وجود الإمام ----- ۱۶۴۸
۱- الولایة والأمامة العامة فی القرآن الکریم ----- ۱۶۵۱
تمهید: ----- ۱۶۵۱
آیة الانذار والهدایة: ----- ۱۶۵۱
آیة الصادقین: ----- ۱۶۵۴
آیة اولی الأمر: ----- ۱۶۵۶
۲- الولایة والإمامة العامة فی السنة النبویة الشریفة ----- ۱۶۵۹
تمهید: ----- ۱۶۵۹
۱- حدیث الثقلین ----- ۱۶۵۹
اشارة ----- ۱۶۵۹
ترتیب مختصر: ----- ۱۶۶۴
تکرار حدیث الثقلین علی لسان النبی صلی الله علیه و آله: ----- ۱۶۶۴
المسائل المهمّة المستوحاة من حدیث الثقلین: ----- ۱۶۶۶
سؤال أخیر: ----- ۱۶۶۶
۲- حدیث سفینة نوح ----- ۱۶۶۸
اشارة ----- ۱۶۶۸

مفاد حديث السفينة: ----- ۱۶۶۹
۳- حديث النجوم ----- ۱۶۷۰
اشارة ----- ۱۶۷۰
مضمون حديث النجوم: ----- ۱۶۷۱
سؤال: ----- ۱۶۷۳
۴- حديث «الأئمّة الأثنى عشر» ----- ۱۶۷۳
اشارة ----- ۱۶۷۳
مضمون حديث «الأئمّة عليهم السلام اثنى عشر»: ----- ۱۶۷۵
ملاحظة ----- ۱۶۷۷
لا تخلو الأرض من حجّة: ----- ۱۶۷۷
الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة: ----- ۱۶۷۸
الشروط والصفات الخاصة بالإمام ----- ۱۶۷۹
اشارة ----- ۱۶۷۹
تمهيد: ----- ۱۶۷۹
علم الإمام ----- ۱۶۸۰
اشارة ----- ۱۶۸۰
ملاحظة ----- ۱۶۸۲
مصادر علم الأئمّة! ----- ۱۶۸۳
اشارة ----- ۱۶۸۳
۱- العلم الكامل بكتاب اللّه ----- ۱۶۸۳
۲- الوراثة من النبى صلى الله عليه و آله ----- ۱۶۸۶
۳- الاتصال بالملائكة ----- ۱۶۸۷
۴- إلقاء روح القدس ----- ۱۶۸۸
۵- النور الإلهى ----- ۱۶۸۹

عصمة الأئمّة عليهم السلام ----- ۱۶۹۰
تمهيد: ----- ۱۶۹۰
مَنْ هم أهل البيت؟ ----- ۱۶۹۳
أجوابة عن عدّة أسئلة: ----- ۱۶۹۵
شبهات حول العصمة: ----- ۱۶۹۸
خصائص الأئمّة عليهم السلام ----- ۱۶۹۹
اشارة ----- ۱۶۹۹
اللّه فقط الذى يُعيّن الإمام: ----- ۱۷۰۰
الولاية التكوينية للأنبياء والأئمّة عليهم السلام ----- ۱۷۰۱
اشارة ----- ۱۷۰۱
تمهيد: ----- ۱۷۰۱
الولاية التكوينية فى الأحاديث الإسلامية: ----- ۱۷۰۵
الولاية والإمامة الخاصة ----- ۱۷۰۷
اشارة ----- ۱۷۰۷
تمهيد: ----- ۱۷۰۸
القسم الأول: الآيات التى تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر ----- ۱۷۰۹
۱- آية التبليغ ----- ۱۷۰۹
اشارة ----- ۱۷۰۹
شأن النزول: ----- ۱۷۰۹
حادثة الغدير: ----- ۱۷۱۰
مضمون روايات الغدير: ----- ۱۷۱۰
دراسة وتحليل حول آية التبليغ: ----- ۱۷۱۲
توضيحات ----- ۱۷۱۴
۱- معنى الولاية والمولى فى حديث الغدير ----- ۱۷۱۴

۲- آیات أخری فی القرآن تؤید حدیث الغدیر ---- ۱۷۱۵
۳- کیفیة ارتباط هذه الآیة بما قبلها وبعدها ---- ۱۷۱۷
۴- لماذا لم یحتج الإمام علی علیه السلام بحدیث الغدیر؟ ---- ۱۷۱۷
۲- آیة الولایة ---- ۱۷۱۸
اشارة ---- ۱۷۱۸
سبب النزول: ---- ۱۷۱۸
اشارة ---- ۱۷۱۸
کیفیة دلالة الآیة علی الخلافة: ---- ۱۷۲۰
شبهات واعتراضات: ---- ۱۷۲۱
۳- آیة اولی الأمر ---- ۱۷۲۴
۴- آیة الصادقین ---- ۱۷۲۶
۵- آیة القربی ---- ۱۷۲۷
اشارة ---- ۱۷۲۷
آیة القربی فی الروایات الإسلامیة: ---- ۱۷۲۹
القسم الثانی: آیات الفضائل ---- ۱۷۳۲
تمهید: ---- ۱۷۳۲
۱- آیة المباهلة ---- ۱۷۳۲
اشارة ---- ۱۷۳۳
مضمون آیة المباهلة: ---- ۱۷۳۳
المباهلة فی أقوال المحدثین: ---- ۱۷۳۴
أهمیّة المباهلة: ---- ۱۷۳۶
مؤاخذاتهم علی آیة المباهلة: ---- ۱۷۳۸
الجواب: ---- ۱۷۳۸
۲- آیة خیر البریة ---- ۱۷۴۰

۳- آیة لیلة المبیت ---- ۱۷۴۳
۴- آیة الحکمة ---- ۱۷۴۵
۵- آیات سورة هل اتی (الإنسان) ---- ۱۷۴۶
اشارة ---- ۱۷۴۶
هل أتی فی الشعر: ---- ۱۷۴۸
المشککون وسورة هل أتی ---- ۱۷۴۸
۶ و ۷- آیات مقدّمة سورة «البراءة» وآیة «سقایة الحاجّ» ---- ۱۷۵۱
اشارة ---- ۱۷۵۱
الاولی آیات مقدّمة سورة البراءة ---- ۱۷۵۱
اشارة ---- ۱۷۵۱
النتیجة: ---- ۱۷۵۳
الثانیة: آیة سقایة الحاج ---- ۱۷۵۴
۸- آیة «صالح المؤمنین» ---- ۱۷۵۵
۹- آیة الوزارة ---- ۱۷۵۷
اشارة ---- ۱۷۵۷
مضمون آیة وروایات «الوزارة»: ---- ۱۷۵۸
۱۰ و ۱۱- آیات سورة الاحزاب ---- ۱۷۵۹
اشارة ---- ۱۷۵۹
سؤال: ---- ۱۷۶۰
۱۲- آیة البینة والشاهد ---- ۱۷۶۱
۱۳- آیة الصدّیقون ---- ۱۷۶۳
۱۴- آیة النور ---- ۱۷۶۴
۱۵- آیة الانذار ---- ۱۷۶۵
۱۶- آیة مرج البحرین ---- ۱۷۶۷

۱۷- آیة النجوی ----- ۱۷۶۹
اشارة ----- ۱۷۶۹
سؤال: ----- ۱۷۷۲
۱۸- آیة السابقون ----- ۱۷۷۲
اشارة ----- ۱۷۷۲
۱- مَن المقصود من: «قلیلٌ من الآخرین»؟ ----- ۱۷۷۴
۲- مَنْ هو أول مسلم؟ ----- ۱۷۷۴
اشارة ----- ۱۷۷۴
سؤال واحد فقط! ----- ۱۷۷۸
الجواب: ----- ۱۷۷۸
۱۹- آیة «اذُنٌ واعِیَة» ----- ۱۷۷۹
اشارة ----- ۱۷۸۰
النتیجة: ----- ۱۷۸۱
۲۰- آیة المحبة ----- ۱۷۸۱
۲۱- آیة المنافقین ----- ۱۷۸۳
۲۲- آیة الإیذاء ----- ۱۷۸۵
۲۳- آیة الانفاق ----- ۱۷۸۶
۲۴- آیة المحبة ----- ۱۷۸۸
۲۵- آیة المسؤولین ----- ۱۷۹۱
الأئمّة الاثنی عشر ----- ۱۷۹۳
اشارة ----- ۱۷۹۳
تمهید: ----- ۱۷۹۳
اشارة ----- ۱۷۹۳
۱- آیة الصلوات والتحیة ----- ۱۷۹۵

۲- آیة النور والبیوت ۱۷۹۹
۳- الصراط المستقیم ۱۸۰۰
۴- وسیلة قبول توبة آدم علیه السلام ۱۸۰۱
۵- أفضل الحسنات ۱۸۰۲
اشارة ۱۸۰۳
التصریح باسماء أئمة أهل البیت علیهم السلام: ۱۸۰۵
الإمام المهدی علیه السلام ۱۸۰۶
اشارة ۱۸۰۶
تمهید: ۱۸۰۶
اشارة ۱۸۰۶
۱- حکومة الصالحین فی الأرض ۱۸۰۸
۲- آیة سورة النور ۱۸۱۱
۳- آیة ظهور الحق ۱۸۱۳
آثار انتظار المهدی علیه السلام: ۱۸۱۴
حقیقة الانتظار وآثاره البناءة: ۱۸۱۵
والآن تأمّلوا فی هذه الطائفة من الروایات بدقّة: ۱۸۱۵
مفهوم الانتظار: ۱۸۱۶
الانتظار یعنی الاستعداد التام: ۱۸۱۷
اشارة ۱۸۱۷
الفلسفة الاولی بناء الذات فردیاً ۱۸۱۸
الفلسفة الثانیة: أعمال الرعایة الاجتماعیة ۱۸۱۹
الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقیقیون لا یذوبون فی فساد المحیط ۱۸۱۹
الجزء العاشر ۱۸۲۰
العلاقة بین الإمامة والحکومة ۱۸۲۰

ضرورة إقامة الحكومة فی المجتمع البشری ----- ۱۸۲۲
اشارة ----- ۱۸۲۲
تمهید: ----- ۱۸۲۲
ضرورة الحكومة فی الرویات الإسلامیة: ----- ۱۸۲۵
ضرورة الحكومة فی التصور العقلی: ----- ۱۸۲۶
أهداف الحكومة الإسلامیّة ----- ۱۸۲۸
أنواع الحكومات ----- ۱۸۳۱
اشارة ----- ۱۸۳۱
۱- الحكومات الاستبدادیة ----- ۱۸۳۱
۲- الحكومة الدیمقراطیة ----- ۱۸۳۱
۳- الحكومة الإلهیّة ----- ۱۸۳۲
دراسة ونقد لأنواع الحكومات ----- ۱۸۳۴
اشارة ----- ۱۸۳۴
الحكومة تنصیب أم انتخاب: ----- ۱۸۳۵
حقیقة الحكومة الإسلامیة ----- ۱۸۳۷
اشارة ----- ۱۸۳۷
الولایة الخبریة والإنشائیة؟! ----- ۱۸۳۹
الحكومة والوكالة: ----- ۱۸۴۰
العلاقة بین الدین والحكومة من وجهة نظر القرآن الكریم ----- ۱۸۴۰
اشارة ----- ۱۸۴۰
فریقان لا یروق لهما تشكیل الحكومة الإسلامیة: ----- ۱۸۴۴
اشارة ----- ۱۸۴۴
الطّائفة الأولی ----- ۱۸۴۵
والطائفة الثانیة: ----- ۱۸۴۶

والطائفة الثّالثة: ----- ۱۸۴۶
نقد وتحليل: ----- ۱۸۴۷
أركان الحكومة الإسلامية ----- ۱۸۵۰
اشارة ----- ۱۸۵۰
المقدّمة: ----- ۱۸۵۱
الركن الأول: السلطة التشريعية ----- ۱۸۵۲
تمهيد: ----- ۱۸۵۲
جمع الآيات وتفسيرها ----- ۱۸۵۳
هل يمتلک الرسول صلى الله عليه و آله والمعصومون حق التشريع؟ ----- ۱۸۵۷
مجلس الشورى وانتخاب النوّاب ----- ۱۸۶۱
اشارة ----- ۱۸۶۱
أهميّة وضرورة المشورة: ----- ۱۸۶۱
أهميّة الشورى فى الأحاديث الإسلامية: ----- ۱۸۶۳
صفات المستشارين: ----- ۱۸۶۴
كيفية انطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية ----- ۱۸۶۵
اشارة ----- ۱۸۶۶
المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الإسلامى: ----- ۱۸۶۸
الركن الثانى: السلطة التنفيذية ----- ۱۸۶۹
اشارة ----- ۱۸۶۹
النظام التنفيذى للحكومة الإسلامية فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: ----- ۱۸۷۱
صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين: ----- ۱۸۷۱
شروط القائمين على الحكومة فى الأحاديث الإسلامية: ----- ۱۸۷۲
اشارة ----- ۱۸۷۲
۱- العلم والوعى فى أعلى مستوياتهما ----- ۱۸۷۲

۲- سعة الصدر وانفتاح الفكر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة ---- ۱۸۷۳
۳- الوعی بمسائل الزمان ---- ۱۸۷۳
۴- مراعاة العدالة وعدم التفريق بين الناس ---- ۱۸۷۳
۵- الاهتمام بمكافأة المحسنين والعفو عن المذنبين الذين يؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم ---- ۱۸۷۳
۶- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة! ---- ۱۸۷۴
۷- الارتباط العاطفی مع الناس ---- ۱۸۷۴
۸- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم ---- ۱۸۷۴
۹- عدم المصانعة والتعاطی مع أهل الباطل ---- ۱۸۷۴
۱۰- النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه ---- ۱۸۷۴
هيكلية السلطة التنفيذية ---- ۱۸۷۶
اشارة ---- ۱۸۷۶
النظام التنفيذی فی عالم الوجود: ---- ۱۸۷۷
النظام التنفيذی فی عصر النبی صلی الله عليه و آله: ---- ۱۸۷۸
كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين: ---- ۱۸۷۹
الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية ---- ۱۸۸۱
اشارة ---- ۱۸۸۱
۱- رعاية الاصول الأخلاقية فی حرب مع الأعداء ---- ۱۸۸۴
۲- الآداب الإسلامية فی جمع الضرائب ---- ۱۸۸۴
۳- الإقتصاد فی كلّ شیء ---- ۱۸۸۵
۴- المعيار الفضيلة وليس العمر ---- ۱۸۸۶
۵- الرأفة الإسلامية ---- ۱۸۸۶
۶- الإعتماد على الشعب ---- ۱۸۸۶
۷- الإتصال المستمر بالعلماء ---- ۱۸۸۷
۸- الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائی ---- ۱۸۸۷

۹- الإرتباط المباشر مع الناس ---- ۱۸۸۷
۱۰- الإهتمام بالمحرومین ---- ۱۸۸۸
النّتیجة: ---- ۱۸۸۸
کیفیّة انتخاب رئیس الجهاز التنفیذی ---- ۱۸۸۹
الرکن الثالث: السلطة القضائیة ---- ۱۸۹۰
تمهید: ---- ۱۸۹۰
من یکون له حق الفصل والقضاء؟ ---- ۱۸۹۲
تمهید: ---- ۱۸۹۲
صفات القاضی ---- ۱۸۹۴
اشارة ---- ۱۸۹۴
الشرائط الکمالیة: ---- ۱۸۹۵
القرآن وصفات القاضی: ---- ۱۸۹۶
النتیجة: ---- ۱۸۹۷
آداب القضاء فی الإسلام: ---- ۱۸۹۷
فی وظائف القاضی وهی سبع: ---- ۱۸۹۸
تفاوت کیفیة القضاء فی الإسلام عن المدارس المادّیة: ---- ۱۸۹۹
الحدود والتعزیرات فی الإسلام ---- ۱۹۰۰
اشارة ---- ۱۹۰۱
۱- فلسفة الحدود والتعزیرات فی الإسلام ---- ۱۹۰۱
۲- معنی الحدِّ والتعزیر ---- ۱۹۰۲
۳- تعداد الحدود الإسلامیة ---- ۱۹۰۲
اشارة ---- ۱۹۰۲
۱- حدُّ الزنا ---- ۱۹۰۲
۲- حدُّ السرقة ---- ۱۹۰۳

۳- حدَّ القذف ----- ۱۹۰۳
۴- حدُّ المحارب ----- ۱۹۰۳
۵- حدُّ المرتد ----- ۱۹۰۴
اشارة ----- ۱۹۰۴
لماذا کلُّ هذه الصرامة فی المرتدّ؟ ----- ۱۹۰۴
۶- حدّ شرب الخمر ----- ۱۹۰۶
۷- حدُّ اللواط ----- ۱۹۰۶
۸- حدّ المساحقة ----- ۱۹۰۶
۹- حدّ القیادة ----- ۱۹۰۷
۱۰- حدّ الساحر ----- ۱۹۰۷
وتوضیح ذلک: ----- ۱۹۰۸
عدّة نکات مهمّة فی التعزیرات الإسلامیة: ----- ۱۹۰۸
۱- وحدة القرار ----- ۱۹۰۸
۲- عدم اقتصار التعزیر علی الجلد ----- ۱۹۰۸
۳- معنی تخییر الحاکم فی التعزیرات ----- ۱۹۱۰
۴- التعزیرات فی القرآن الکریم ----- ۱۹۱۰
اشارة ----- ۱۹۱۰
أ) قصة المتخلفین عن غزوة تبوک ----- ۱۹۱۰
ب) قصة ثعلبة ----- ۱۹۱۱
ج) آیة الایذاء ----- ۱۹۱۲
د) آیة النشوز ----- ۱۹۱۲
أحکام السجن فی الإسلام ----- ۱۹۱۴
تمهید: ----- ۱۹۱۴
اشارة ----- ۱۹۱۴

۱- تأریخ السجن ----- ۱۹۱۴
اشارة ----- ۱۹۱۴
أولُ سجن أُسّس زمن عمر بن الخطاب: ----- ۱۹۱۵
السجن فی زمن أمیر المؤمنین علی علیه السلام: ----- ۱۹۱۶
۲- فلسفة وأقسام السجون ----- ۱۹۱۶
اشارة ----- ۱۹۱۶
۱- السجن الایذائی ----- ۱۹۱۷
۲- السجن الإصلاحی ----- ۱۹۱۷
۳- السجن الاحتیاطی ----- ۱۹۱۷
۴- السجن التأدیبی ----- ۱۹۱۷
۵- السجن السیاسی ----- ۱۹۱۷
۶- السجن الاستحقاقی ----- ۱۹۱۸
۷- سجن الحفظ ----- ۱۹۱۸
اشارة ----- ۱۹۱۸
۱- السجن الانتقامی ----- ۱۹۱۸
۲- السجون المعدة لقمع التحرر ----- ۱۹۱۸
۳- السجن لعزل القیادة عن القاعدة ----- ۱۹۱۹
۴- السجن لرفع المضایقات ----- ۱۹۱۹
۵- السجن بسبب النزاهة ----- ۱۹۱۹
۳- السجن من وجهة نظر القرآن الکریم ----- ۱۹۱۹
۴- موارد السجن فی الروایات الإسلامیة ----- ۱۹۲۰
اشارة ----- ۱۹۲۰
۱- فی مورد الإعانة علی القتل ----- ۱۹۲۰
۲- الأمر بالقتل ----- ۱۹۲۱

۳- فی مورد تکرر السرقة ----- ۱۹۲۱
۴- فی مورد المرتدة الفطریة: ----- ۱۹۲۱
۵- التعامل الإنسانی مع المساجین ----- ۱۹۲۱
۶- الطرح التّاریخی لأبی یوسف لحمایة السّجناء ----- ۱۹۲۴
الحسبة والأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر ----- ۱۹۲۶
تمهید: ----- ۱۹۲۶
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۹۲۷
خطوة مهمة فی طریق إجراء الأحکام: ----- ۱۹۲۷
الأمر بالمعروف والنّهی عن المنکر فی الروایات: ----- ۱۹۳۰
وهنا ینبغی الإلتفات إلی عدّة نکات ضروریة: ----- ۱۹۳۰
جهاز الحسبة والمحتسب فی الحکومة الإسلامیّة: ----- ۱۹۳۳
توضیح ذلک: ----- ۱۹۳۳
الرّکن الرّابع: التربیة والتعلیم ----- ۱۹۳۶
تمهید: ----- ۱۹۳۶
اشارة ----- ۱۹۳۶
۱- التّربیة والتّعلیم فی الإسلام ----- ۱۹۳۷
۲- أهمیّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدینیّة ----- ۱۹۴۱
۳- تعلّم العلوم المفیدة فی الرّوایات الإسلامیّة ----- ۱۹۴۳
۴- مقام المُعَلِّم فی الإسلام ----- ۱۹۴۶
۵- التّعلیم المباشر وغیر المباشر ----- ۱۹۴۸
۶- صلاة الجمعة وآثارها التّربویّة ----- ۱۹۴۹
۷- الآثار الثّقافیّة لمؤتمر الحجّ العظیم ----- ۱۹۵۱
۸- تأثیر المساجد والأماکن المقدّسة ----- ۱۹۵۲
دور الصحف والمجلات فی الحکومة الإسلامیة ----- ۱۹۵۳

تمهید: ---- ۱۹۵۳
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۱۹۵۴
توضیحات ---- ۱۹۵۵
۱- أهمیّة الکتاب والقلم فی الرّوایات ---- ۱۹۵۵
۲- وصایا مهمة للحکومات الإسلامیة ---- ۱۹۵۶
۳- تأسیس المکتبات ---- ۱۹۵۷
الرکن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة) ---- ۱۹۵۹
تمهید: ---- ۱۹۵۹
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۱۹۶۱
روح الجهاد، دفاعٌ لاغزو: ---- ۱۹۶۱
توضیحان ---- ۱۹۶۷
۱- الجیوش المنظمة والتعبئة الجماهیریّة ---- ۱۹۶۷
۲- السّبق والرّمایة ---- ۱۹۶۸
آداب الجهاد ---- ۱۹۶۹
اشارة ---- ۱۹۶۹
أقسام الجهاد: ---- ۱۹۷۱
اشارة ---- ۱۹۷۱
۱- الجهاد الإبتدائی ---- ۱۹۷۱
۲- الجهاد لإخماد نار الفتنة ---- ۱۹۷۱
۳- الجهاد لحمایّة المظلومین ---- ۱۹۷۲
الحکومة الإسلامیّة والسّلام ---- ۱۹۷۳
اشارة ---- ۱۹۷۳
جمع الآیات و تفسیرها ---- ۱۹۷۴
النَّتیجة: ---- ۱۹۷۷

أسری الحرب ----- ۱۹۷۸
تمهید: ----- ۱۹۷۸
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۹۷۹
الأسری فی الرّوایات: ----- ۱۹۸۱
علاقة المسلمین بغیر المسلمین، الأقلیات الدّینیّة والحکومة الإسلامیّة ----- ۱۹۸۱
تمهید: ----- ۱۹۸۲
جمع الآیات و تفسیرها ----- ۱۹۸۲
قصّة «الجزیة»: ----- ۱۹۸۳
إختیار الأسلوب الأفضل فی النقاش: ----- ۱۹۸۵
الدّعوة إلی أصلٍ أساسی مشترک: ----- ۱۹۸۶
العیش المشترک مع أتباع الأدیان الاخری فی الرّوایات: ----- ۱۹۸۸
تعامل المسلمین مع غیر أهل الذمّة: ----- ۱۹۸۹
الحکومة الإسلامیة والأجهزة الأمنیة ----- ۱۹۹۰
تمهید: ----- ۱۹۹۰
توضیحات ----- ۱۹۹۲
۱- قصة تجسس حاطب وسارة ----- ۱۹۹۲
۲- قصة استخبار حُذیفة ----- ۱۹۹۳
۳- المنظمات الأمنیة فی الروایات الإسلامیّة ----- ۱۹۹۳
۴- إستراق السّمع ----- ۱۹۹۷
۵- التعذیب الجسدی لأخذ الإعترافات! ----- ۱۹۹۸
اشارة ----- ۱۹۹۸
سؤال: هل الغایة تبرر الوسیلة؟ ----- ۱۹۹۹
و الجواب: ----- ۱۹۹۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۲۰۰۰

نفحات القرآن

اشارة

سرشناسه : مکارم شیرازی ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور : نفحات القرآن اسلوب جدید فی التفسیر الموضوعی للقرآن الکریم ناصر مکارم شیرازی بمساعده مجموعه من الفضلا

مشخصات نشر : موسسه ابی‌صالح النشر و الثقافه [۱۳۷۷؟].

مشخصات ظاهری : ج ۶

وضعیت فهرست نویسی : فهرستنویسی قبلی یادداشت : عربی مندرجات : ج ۱. العلم و المعرفه فی القران .-- ج ۲. معرفه الله فی القرآن .-- ج ۳. .-- ج ۴. معرفه صفات و جلال‌الله .-- ج ۵، ۶. المعاد فی القرآن موضوع : تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

رده بندی کنگره : BP۹۸/م۷ن۷ ۱۳۷۷

رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : م۷۷-۱۳۷۱۱

الجزء الأول

اشارة

الاهداء:

إلی الذین أحبّوا القرآن

إلی الذین یریدون أن ینهلوا المزید من معین الحیاة الصافی

إلی الذین یتوقون إلی معرفة القرآن وفهمه أکثر فأکثر.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴

بمساعدة العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمّد رضا الآشتیانی

محمّد جعفر الإمامی

عبدالرسول الحسنی

محمّد الأسدی

حسین الطوسی

سیّد شمس الدین الروحانی

محمّد محمّدی الاشتهاردی

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵

بسم اللّه الرحمن الرحیم

المقدمة:

اشارة

۱- أنواع التفسير.

۲- ما هو التفسير الموضوعى؟

۳- ما هى المشكلات التى يمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعى؟ (و كيفية الاستفادة من هذا النوع من التفسير).

۴- تاريخ التفسير الموضوعى.

۵- الاسلوب الأمثل فى التفسير الموضوعى.

۶- العقبات التى تعترض التفسير الموضوعى.

۷- لماذا لم يتطور هذا اللون من التفسير؟

أنواع التفسير:

عندما نريد الحديث عن تفسير القرآن الكريم يتبادر إلى الذهن التفسير المتعارف (التفسير الترتيبى) حيث تجرى عملية بحث آيات القرآن الكريم بالترتيب ويتمّ توضيح مضمونها وماهيتها، وهو الاسلوب المتَّبع فى تفسير القرآن منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، وقد قام علماء الإسلام بتأليف مئات أو آلاف الكتب تحت عنوان «تفسير القرآن الكريم» على هذه الطريقة.

وهناك نوع آخر من التفسير الرائج إلى حدّ ما والذى يهدف إلى تفسير «مفردات القرآن»

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶

أى أنّه يتناول كلمات القرآن كلٌّ على حدة وبالتسلسل حسب الحروف الأبجدية وعلى هيئة مُعْجم، ومن أبرز نماذج هذا التفسير هو كتاب «مفردات الراغب» و «وجوه القرآن» و «تفسير غريب القرآن» للطريحى، وأخيراً كتاب «التحقيق فى كلمات القرآن الكريم» و «نثر طوبى» أو «دائرة معارف القرآن الكريم».

بينما توجد هناك أنواع اخرى من تفسير القرآن منها «التفسير الموضوعى» الذى يحقق ويبحث آيات القرآن الكريم على أساس مختلف المواضيع المتعلقة باصول الدين وفروعه والامور الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والأخلاقية.

وهناك نوع آخر من التفسير نطلق عليه «التفسير الإرتباطى» أو التسلسلى، حيث يتناول مواضيع القرآن المختلفة من حيث علاقتها ببعضها.

فعلى سبيل المثال، بعد بحث موضوع «الإيمان»، و «التقوى و «العمل الصالح» كلٌّ على حدة فى التفسير الموضوعى تتمّ عملية بحث علاقة هذه المواضيع الثلاثة ببعضها من خلال الإعتماد على الآيات والملاحظات الواردة فى ذلك، ومن المسلَّم أنّ حقائق جديدة سوف تنكشف لنا عن كيفية ارتباط هذه المواضيع ببعضها تكون بالغة الأهمية والفائدة.

إنّ أفضل طريقة للبحث حول عالم الخلقة والتكوين وما يتضمنه ويحويه من كائنات هو دراسة العلاقة بين هذه الكائنات التى تؤلف هذا العالم، ففى الحقيقة أنّ الشمس والقمر والأرض والإنسان والمجتمعات البشرية هى موجودات لا تنفصل عن بعضها البعض وهى تشكِّل فى مجموعها كياناً واحداً مترابطاً، والاسلوب الصائب فى دراستها هو أن نبحثها من حيث ارتباطها مع بعضها.

وهكذا الأمر فى كتاب «التدوين» أى القرآن الكريم، فهنالك علاقات دقيقة وظريفة بين مواضيع القرآن الكريم، ولابدّ من تفسيرها من حيث ارتباطها مع بعضها.

النوع الآخر من التفسير هو «التفسير العام» أو «الرؤية الكونية للقرآن» وهنا يتناول المفسّر جميع مضمون القرآن فيما يتعلق بعالم الوجود، وبتعبير أكثر وضوحاً: يربط كتاب «التكوين» مع كتاب «التدوين» وينظر إليهما معاً، وتتم دراستهما من حيث ارتباطهما

ببعضهما.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷

وعلى هذا الأساس فإنّ هناك خمسة أنواع من التفاسير:

۱- تفسير مفردات القرآن.

۲- التفسير الترتيبى.

۳- التفسير الموضوعى.

۴- التفسير الإرتباطى.

۵- التفسير العام، أو النظرة الكونية للقرآن.

والمشهور والمعروف من بين هذه الأنواع الخمسة هو النوع الأوّل والثّانى، وإلى حدٍ ما النوع الثالث، أى أنّ التفسير الموضوعى لا زال يسير فى مراحله الأولية، على أمل أن يقطع مراحله التكاملية تدريجياً من خلال الإهتمام الذى أولاه علماء الإسلام به مؤخراً ومن خلال المزيد من الجد والمثابرة، وأن يحتل مكانه اللائق فى المستقبل القريب.

أمّا النوع الرابع والخامس من تفسير القرآن فلم يحظيا باهتمام المفسّرين بعد، وهذا العمل يقع على عاتق الجيل الحاضر وأجيال المستقبل بأن يتناولوا هذا الباب بعد تكامل التفسير الموضوعى بما فيه الكفاية، ويقوموا باداء حقّهِ بالقدر المستطاع.

ما هو التفسير الموضوعى؟

قبل الإجابة على هذا السؤال لابدّ من طرح سؤال آخر وهو: لماذا لم يُرتب القرآن باسلوب موضوعى يشبه الكتب المتداولة؟ بل أنّه جمع بشكل يختلف عنها جميعاً.

والجواب هو: إنّ المؤلف أو المؤلفين يأخذون بنظر الاعتبار مختلف المواضيع المتشابهة فى حقل واحد من أجل اعداد الكتب المتداولة، فمثلًا فى علم الطب يؤخذ بنظر الاعتبار «مختلف الأمراض التى ترتبط بمسألة صحة الإنسان» ثمّ تُقسم المسائل المتعلقة بهذه المواضيع على فصول وأبواب (أمراض القلب، الأمراض العصبية، أمراض الجهاز الهضمى، أمراض جهاز التنفس، الأمراض الجلدية وسائر الأمراض).

ومن ثمّ يبحثون كلَّ فصلٍ وكلَّ بابٍ من خلال الاعتماد على المقدّمات ونتائجها وبهذا

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸

النحو يتمّ تأليف كتاب باسم كتاب «الطب».

بيد أنَّ القرآن ليس كذلك، فهذا الكتاب نزل على مدى ۲۳ سنة وفقاً للحاجات والظروف الاجتماعية المختلفة والوقائع المتباينة، والمراحل التربوية المتفاوتة، وكافة شؤون حياة المجتمع الإسلامى، وفى نفس الوقت لم يتعلق بزمانٍ ومكانٍ معينين!

ففى وقت تدور كافة بحوث القرآن حول محور مقارعة الوثنية والشرك وبيان التوحيد بكل فروعه، والسّور والآيات النّازلة فى هذه المرحلة كلّها فى المبدأ والمعاد: (كالسور التى نزلت فى مكّة خلال السنوات الثلاث عشرة الاولى من البعثة).

وفى زمان آخر نرى محور البحث والحديث ساخناً وقوياً حول الجهاد وكيفية مواجهة الأعداء فى الداخل والخارج والمنافقين.

وعندما تقع غزوة الأحزاب فتنزل سورة الأحزاب، وما لا يقل عن ۱۷ آية منها تتحدث عن هذه المعركة والتجارب والقضايا التربوية فيها ووقائعها.

وحينما جرت واقعة صلح الحديبية نزلت سورة الفتح وبعدها فتح مكّة وغزوة حنين نزلت سورة الإخلاص وآيات اخرى.

والخلاصة، فتزامناً مع انتشار الإسلام والتحرك العام للمجتمع الإسلامى كانت تنزل الآيات المناسبة وتصدر الأوامر اللازمة، وهذا ما

كان يكمّل المسيرة التكاملية للإنسان.

واستناداً إلى ما ذكرنا آنفاً، يتضح المغزى من التفسير الموضوعي وهو جمع الأحداث والوقائع المتعلقة بذلك الموضوع وترتيبها لتتجلى وجهة نظر القرآن الكريم بشأن ذلك الموضوع وأبعاده.

فمثلًا، تُجمع الآيات المتعلقة ببراهين معرفة اللّه كالفطرة، وبرهان النظم وبرهان الوجوب والإمكان وباقي البراهين، وحيث إنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضاً تتضح أبعاد هذا الموضوع «۱».

---

(۱). لقد رويت عبارة «القرآن يفسّر بعضه بعضاً» عن ابن عباس، وليس من المستبعد أن يكون قد أخذها عن النبي صلى الله عليه و آله وأمير المؤمنين عليه السلام نتيجة لعلاقته القوية معهما في مسائل القرآن، كما ورد مضمونها في نهج البلاغة حيث يقول: «وَذَكرت أنّ الكتاب يصدّقُ بعضُه بعضاً» (نهج البلاغة، الخطبة ۱۸) وقد أورد بعض العلماء في كتبهم جملة «القرآن يفسر بعضه بعضاً» على أنّها حديثٌ، كما في صفحه ۱۰۶ من كتاب (تنزيه التنزيل) للمرحوم الشهرستاني، إذ وردت هذه العبارة باعتبارها رواية بدون أن ترد عليها مؤاخذة، كما تُلاحظ في نهج البلاغة إشارة اخرى إلى هذا الأمر، حينما يقول بشأن القرآن الكريم: «وينطقُ بعضه ببعض ويشهد بعضُه على بعض» (نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۳).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹

وهكذا بالنسبة للآيات المتعلقة بالجنّة أو النار، والصراط وصحيفة الأعمال، والآيات المتعلقة بالقضايا الأخلاقية والتقوى وحسن الخلق والشجاعة، و ... والآيات المتعلقة بأحكام الصلاة والصوم والزكاة والخمس والأنفال، والآيات المتعلقة بالعدالة الاجتماعية وجهاد الأعداء وجهاد النفس و ...

والمسلّم به أنّ هذه الآيات التي نزلت في‌مناسبات مختلفة، عندما تُجمع كلُّ طائفةٍ منها على حدةٍ وتنظم وتُفسَّر فسوف تنكشف عنها حقائق جديدة، ومن هنا تتّضح أهميّة التفسير الموضوعي، حيث سيأتي الكلام عنه في البحث الآتي إن شاء اللّه.

ما هي المشاكل التي يُمكن حلُّها بواسطة التفسير الموضوعي؟

إنّ الجواب على هذا السؤال واضحٌ للغاية من خلال ملاحظة ما مرَّ ذكره آنفاً، ولكن للمزيد من التوضيح ينبغي الالتفات إلى هذا الأمر وهو:

إنّ الكثير من آيات القرآن الكريم تتناول بُعداً واحداً من أبعاد موضوع ما، فمثلًا، فيما يخص مسألة «الشفاعة» فقد ورد في بعض الآيات أصل إمكان الشفاعة.

وفي البعض الآخر «شروط الشفاعة» (سبأ ۲۳، مريم ۷۸).

وفي بعضها شروط «المشفَّع لهم» (الأنبياء ۲۸، غافر ۱۸).

وفي بعضٍ تُنفى الشفاعة عن الجميع ما عدا اللّه تعالى (الزمر ۴۴).

وفي بعض آخر ثبتت الشفاعة لغير اللّه (المدثر ۴۸).

نجد أنَّ حالةً من عدم الوضوح تحيط بأُمور الشفاعة بدءً من حقيقة الشفاعة وحتى سائر الشروط والخصوصيات الاخرى ولكن عندما نأخذ آيات الشفاعة من القرآن

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰

ونضعهاجانب بعضها ونفسّرها على ضوء بعضها البعض يرتفع هذا الغموض ويحلّ الابهام على أحسن وجه.

وكذلك الآيات المتعلقة بالجهاد، أو فلسفة أحكام وتعاليم الإسلام، أو الآيات المتعلقة بالبرزخ، أو مسألة علم اللّه، وكذلك موضوع

علم الغيب، وهل أنّ العلم بالغيب ممكنٌ لغير اللّه أم لا؟ فلو وُضعت آيات كل موضوع فى جانبٍ فمن الممكن أداء حق هذا الموضوع وحل الإشكالات الموجودة عن طريق التفسير الموضوعى.

وعلى هـذا الأساس فإنّ الآيات المتعلقة ب «المحكم» و «المتشابه» والتى تدعو تفسير «المتشابهات» بالاستعانة «بالمحكمات» يعدُ نوعاً من التفسير الموضوعى.

ومن هنا يبدو أنّه من خلال تفسير الآيات المتعلقة بموضوع ما بالاستعانة بالآيات الاخرى تنبثق عنها معارف وعلوم جديدة، هذه العلوم تكمن فيها معارف القرآن والحلول لكثير من المعضلات العقائدية وأحكام الإسلام.

من هـذا البـاب يُمكن تشبيه آيـات القرآن بالكلمـات المتفرقـة، حيث إنَّ لكـلٍّ منها مفهوماً ذاتيّاً، ولكن حينما تُرتَّبُ وتجمع فى جمل مفيدة فهى تُعطى مفاهيم جديدة.

أو تشبيهها بالعناصـر الحياتيـة مثل «الاوكسـجين» والهيـدروجين» التى حينما تتفاعل مع بعضـها ينتـج عنها الماء الذى هو عنصـر حياتى آخر.

خلاصـة القول إنّه لا يمكن حلّ الكثير من اسـرار القرآن إلّاعن هـذا الطريق، ولا يُمكن النفوذ إلى مكنوناتها إلّامن خلال هـذا السبيل، ونعتقد بأنّ هذا القدر كافٍ لتوضيح أهميّة التفسير الموضوعى.

وباختصار يمكن تلخيص فوائد التفسير الموضوعى فى النقاط التالية:

۱- إزالة الإشكالات التى تبرز فى بعض الآيات للوهلة الولى وحلّ أسرار وأَلغاز المتشابه فى القرآن.

۲- الاطّلاع على خفايا ودقائق وعلل وأسباب ونتائج المواضيع والقضايا المختلفة الواردة فى القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱

۳- الحصول على معلومـات جـامعه لمواضـيع مختلفـة مثـل «التوحيـد» و «معرفـة اللّه» و «المعـاد» و «العبـادات» و «الجهـاد» و «الحكومة الإسلامية» وعلوم مهمّة اخرى

۴- كشف أسرار وخفايا جديدة من القرآن من خلال الجمع بين الآيات.

تاريخ التفسير الموضوعى:

يمكننا ملاحظـة نماذج من التفسـير الموضوعى للقرآن الكريم فى نفس آيات القرآن الكريم حيث أمرت هذه الآيات بتفسـير المتشابه منها بالمحكم، ويعد هذا الاسلوب نوعاً من التفسير الموضوعى.

وفى كلام أئمّـة الهـدى عليهم السـلام أمثلة كثيرة تهدينا إلى اسـلوب جمع الآيات المتعلقة بموضوع معين وترتيبها ثم الاسـتفادة منها، ولأجل إثبات هذا الأمر نكتفى بذكر عدد من الأمثلة:

۱- فى الرواية المعروفة «۱» بعنوان وصيّة النبى صلى الله عليه و آله وموعظته لعبداللّه بن مسعود المذكورة فى بحار الأنوار- وهى رواية طويلـة وكثيرة المضامين، وفيها أمثلة كثيرة بنحو يمكن القول أنّ الرواية تدور حول محور التفسـير الموضوعى- عندما يتكلم صـلى الله عليه و آله عن ذم الـدنيا حيث يقول: «يا ابن مسـعود إنّ الأحمق من طلبَ دنيا زائلـة»، ثم يسـتدل على هوانِ الدنيا وزخارف هذا العالم بالآيات التالية:

«اعلَمُوا أَنَّما الحَيَاةُ الدُنيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتكَاثُرٌ فى الأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ...». (الحديد/ ۲۰)

«وَلَوْ لَـاأَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِـدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُـقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعـارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ* وَلِبُيُوتِهِم أَبْوَاباً وَسُـرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . (الزخرف/ ۳۳ و ۳۴)

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا مَا نَشاءُ لِمَنْ نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلنا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً». (الاسراء/ ۱۸)

وفى محل آخر يتحدث عن (القول بغير علم)، ويقول صلى الله عليه و آله: يا ابن مسعود لا تقل شيئاً

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۹۴.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۲

بغير علم ولا تتفوه بشيء ما لم تسمعه وتراه، ثم يذكر آيات عديدة حول هذا الموضوع:

قال تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا». (الاسراء/ ۳۶)

وقال تعالى: «سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ . (الزخرف/ ۱۹)

وقال تعالى: «مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». (ق/ ۱۸)

وقال تعالى: «وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

وكذلك ذكرت الرواية ابحاثاً حول الذكر والإنفاق فى سبيل اللّه، ومكارم الاخلاق وغيرها اعتماداً على جمع الآيات وتبويبها.

۲- جاء فى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام تقسيم لمعنى «الكفر فى القرآن المجيد»:

إنّ الكفر فى القرآن على أربعة أقسام:

الأوّل: الكفر بمعنى الجحود والانكار، وهو على قسمين:

أ) إنكار اصل وجود اللّه والجنّة والنار والقيامة كما يحكى القرآن عن لسانهم «وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ». (الجاثيه/ ۲۴)

ب) الكفر المقارن للمعرفة واليقين كما جاء فى القرآن:

«وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً». (النمل/ ۱۴)

الثانى: الكفر بمعنى المعصية وترك الطاعة كما أخبر اللّه سبحانه عن قوم من بنى اسرائيل يؤمنون ببعض الكتاب ويكذبون ببعض اذ يقول سبحانه: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرونَ بِبَعْضٍ . (البقرة/ ۸۵)

الثالث: الكفر بمعنى البراءة والتنصُّل كما قال سبحانه عن لسان ابراهيم عليه السلام لعبدة الأصنام «كَفَرْنَا بِكُمْ . (الممتحنة/ ۴)

وقال سبحانه أيضاً «يَوْمَ القيامَةِ يَكْفُرُ بعْضُكُمْ بِبَعْضٍ . (العنكبوت/ ۲۵)

الرابع: الكفر بمعنى عدم شكر النعمة كما قال سبحانه: «لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۳

كَفَرْتُمْ انَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ». (ابراهيم/ ۷)

ثم يجمع عليه السلام الآيات الواردة فى الشرك وأقسامه فى القرآن فيقسمها إلى الشرك فى العقيدة، والشرك فى العمل، والشرك فى الطاعة، وشرك الرياء، ويوضح كلًا منها بذكر الآيات القرآنية «۱».

وكما تلاحظ فإنّ الإمام عليه السلام بتقسيمه لآيات الكفر والشرك يلقى نظرة كلية على هذا الموضوع، ويوضح بأنّ لهذين المصطلحين مفهوماً واسعاً شاملًا، فالكفر يشمل كل اخفاء للحق سواء كان فى العقائد أو فى العمل أو فى المواهب الإلهيّة، والشرك يعنى أن نجعل للّه شريكاً أو نداً سواءً كان فى العقائد أو فى العمل أو الطاعة للقوانين، ويتضح جيداً بهذا العرض الجميل للتفسير الموضوعى فى المثالين المذكورين لكلمات الإمام عليه السلام الدور الكبير لهذا التفسير فى سعة ذهنية الإنسان والفهم العميق للآيات القرآنية.

والنموذج البديع الآخر ما ورد فى كلام الإمام موسى بن جعفر عليه السلام مع هشام بن الحكم.

فالإمام عليه السلام وفى مقام بيان منزلة العقل يذكر الآيات المرتبطة ب «اولى الألباب» ويجمعها كلها ويقول لهشام: «أنظر كيف أنّ اللّه سبحانه وصف اولى الألباب على أحسن وجه وزينهم بأفضل لباس»، ثم يذكر سبع آيات من القرآن المجيد تتكلم عن منزلة اولى

الألباب وهى (البقرة/ ۲۶۹- آل عمران/ ۷- آل عمران/ ۹- المؤمن/ ۵۴) «۲».

فالقيام بجمع هذه الآيات والنظر اليها منضمة بعضها إلى البعض يعطى للإنسان رؤية عميقة يستطيع معها فهم معنى اولى الألباب ومقامهم ومنزلتهم، وهذا عمل لا يتمّ إلّاعن طريق التفسير الموضوعى.

هذه نماذج من اصول التفسير الموضوعى فى كلمات قادة الإسلام العظام، النبى صلى الله عليه و آله وأئمّة الهدى عليهم السلام، وهناك نماذج عديدةٌ اخرى لم نذكرها تجنباً للاطالة.

ج ج

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۱۰۰- ۱۲۰ (خلاصة الحديث).

(۲). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۵ كتاب العقل والجهل.

التفسير الموضوعى فى كلمات العلماء السابقين:

لم يكن التفسير الموضوعى متداولًا إلّافى فترات محدودة وحول موضوعات خاصة، إلّا أنّه ورد كثيراً على ألسنة العلماء السابقين، ولكن يجب الاعتراف بأننا لا نعرف أحداً منهم تناول التفسير الموضوعى فى جميع المجالات.

ومن الروّاد الأوائل فى هذا المضمار، العلّامة المجلسى قدس سره حيث نراه قد تصدى لجمع كل الآيات ذات العلاقة بالموضوع عند دخوله فى كل فصل من فصول بحار الأنوار، ثم يلقى عليها نظرة شاملة وينقل أحياناً آراء المفسرين، ويسعى لتوضيح ما يذكره من الآيات.

فنرى مثلًا فى الجزء ۶۷ عندما يتكلم حول «القلب» والسمع» والبصر» ومعنى كلٍّ منها فى القرآن الكريم، يجمع عشرات الآيات ثم يذكر رواية من الكافى ثم يقوم بذكر بيان جامع لها، فيستغرق بحثه فى هذا المجال عشر صفحات تقريباً «۱».

وفى الجزء ۵۸ فى باب حقيقة الرؤيا وتعبيرها يذكر أولًا أكثر من عشر آيات من القرآن حول هذا الموضوع ثم يبحث فى تفسيرها عدة صفحات «۲».

وفى الجزء ۲۲ فى الباب الأول يبحث عن ما جرى لليهود والنصارى والمشركين بعد الهجرة، فيذكر عشرات الآيات من مختلف السور حول هذا الموضوع ثم يقوم بتفسيرها «۳».

وقد اتبع هذا المحقق العظيم نفس الاسلوب فى الفصول الاخرى من الكتاب.

ومن الأمثلة الاخرى للتفسير الموضوعى فى كلمات المتقدمين، الكتب المؤلفة تحت عنوان آيات الأحكام، ففى هذه الكتب ذكرت الآيات المتعلقة بالأحكام الفقهية، مثل الآيات التى لها ارتباط بأجزاء وشروط الصلاة وأقسام وشروط الصوم، والحج والنكاح والطلاق وأحكام الحدود والديات والقضاء وغيرها، حيث جمعت الآيات وتمّ بحثها على نحو موضوعى بالاستعانة ببعضها الآخر.

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۲۷ إلى ۴۳.

(۲). المصدر السابق، ج ۵۸، ص ۱۵۱ إلى ۱۵۸.

(۳). المصدر السابق، ج ۲۲، ص ۱ إلى ۶۲.

ويبدو أنّ أوّل كتاب أُلّفَ فى هذا المجال هو كتاب (أحكام القرآن) تأليف (محمد بن صاحب الكلبى)، وهو من أصحاب الإمام

الباقر علیه السلام والإمام الصادق علیه السلام والمتوفی سنهٔ ۱۴۶ ه فهو سابق حتی للشافعی الإمام المعروف المتوفی سنهٔ ۲۰۴ ه بتألیف کتاب فی هذا المجال.

وبعده تصدی العدید من الفقهاء والعلماء لتألیف الکتب فی مجال آیات الأحکام (تارهٔ بهذا الاسم وتارهٔ بأسماء اخری وقد ذکر المرحوم المحدّث الطهرانی فی کتاب «الذریعهٔ» ثلاثین کتاباً من هذه السلسلهٔ «۱»، واشهرها بین العلماء والفقهاء المعاصرین کتاب آیات الأحکام للمحقّق الأردبیلی قدس سره المسمی «زبدهٔ البیان»، وآیات الأحکام للفاضل المقداد المسمی (کنز العرفان).

وجاء فی الکتاب الأخیر أنّ مِن المشهور بین العلماء أنّه توجد خمسمائهٔ آیهٔ فی القرآن المجید حول الأحکام الفقهیهٔ، إذا أخذنا فی الحسبان الآیات المتکررهٔ فی هذا المجال وإلّا فالعدد أقل من ذلک «۲».

وقد کُتب فی هذا المجال کتاب «إعجاز القرآن فی العلوم المعاصرهٔ» وفیه الآیات ذات العلاقهٔ بالاکتشافات العلمیهٔ المعاصرهٔ، والتی تعدّ من المعجزات العلمیهٔ للقرآن، وکتاب «المجتمع والتاریخ» و «الحقوق فی القرآن المجید»، وکلها تعبیر عن السعی المستمر فی التألیف فی حقل التفسیر الموضوعی.

کما ألفت کتب حول قصص القرآن تمّ فیها توضیح الوقائع الواردهٔ فی قصص الأنبیاء بواسطهٔ جمع آیات القرآن.

ولکن مع هذا یجب الإذعان بأن کل هذه المحاولات ناظرهٔ للتفسیر الموضوعی فی مجال معین وزاویهٔ محددهٔ، وهی لیست بصدد تفسیر جامع وشامل لکل موضوعات القرآن، وفی الفترهٔ الأخیرهٔ بذلت محاولات وجهود لتفسیر القرآن تفسیراً موضوعیاً واسعاً، وهذه الجهود تستحق کل تقدیر.

---

(۱). الذریعهٔ إلی تصانیف الشیعهٔ، ج ۱، ص ۴۰- ۴۴.

(۲). کنز العرفان، ج ۱، ص ۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶

ومن جملهٔ هذه الکتب یمکن ذکر کتاب «مفاهیم القرآن» وقد صدر عدد من أجزائه بالفارسیهٔ والعربیهٔ وهو کتاب قیّم.

ولکن مع هذه المساعی التی تستحق التقدیر یجب الاعتراف بأَنَّ مسألهٔ التفسیر الموضوعی للقرآن لا زالت فی مرحلهٔ البدایهٔ، وتحتاج إلی زمان کی تحتل المکانهٔ المناسبهٔ لها کالتفسیر الترتیبی، وهذا لا یتم إلّابالسعی المستمر الدائب للعلماء والمفسرین، وبالاستفادهٔ من تجارب الماضین وتنمیتها وایصالها إلی درجهٔ الکمال المطلوب.

وما تراه فی هذا الکتاب هو حلقهٔ من هذه السلسهٔ التی نأمل لها أن تنضمَّ إلی الحلقات المعتبره الاخری والمهم أن یتجنب أصحاب النظر والمعرفهٔ الأعمال المکررهٔ فی هذا المجال، وأن یبادر کل منهم إلی الإبداع والتجدید حتی نتمکن تحت ظل هذه الإبداعات أن نطوی هذا الطریق الطویل.

الاسلوب الصحیح فی التفسیر الموضوعی:

یوجد اسلوبان للتفسیر الموضوعی:

الاسلوب الأول: الذی اختاره بعض المفسرین فی عملهم، وهو أنّهم یتناولون المواضیع المختلفهٔ کالموضوعات العقائدیهٔ (التوحید والمعاد و ..) والموضوعات الأخلاقیهٔ (التقوی حسن الخلق و ...)، وبعد ذکر بحوث فلسفیهٔ وکلامیهٔ أو أخلاقیهٔ یذکرون بعض الآیات القرآنیهٔ المرتبطهٔ بالموضوع بعنوان الشاهد علی ذلک.

الاسلوب الثانی: وهو الذی یتمّ فیه قبل کل شیء جمع الآیات الواردهٔ حول الموضوع من جمیع أجزاء القرآن، وقبل أیّ حکم أو ابداء نظر یتمّ جمع الآیات وتفسیرها مجتمعهٔ، وبجمعها وملاحظهٔ العلاقهٔ فیما بینها نحصل منها علی الصورهٔ الکاملهٔ.

وهنا لا يملك المفسّر شيئاً من عنده مطلقاً، ويسير كالظل خلف آيات القرآن فيفهم كل شيء من القرآن، ويكون كل همّه كشف محتوى الآيات، وإذا أراد الإستعانة بآراء الآخرين

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۷

بل حتى بالأحاديث، فذلك فى المرحلة الثانية وبصورة مستقلة.

وقد إخترنا هذا الاسلوب فى (نفحات القرآن) حيث جمعنا كل الآيات الواردة فى كل موضوع وجعلناها فى مقدمة كل بحث، وجعلنا كل مسائل البحث تسير تحت ظل الآيات، ونعتقد أن هذا هو السبيل الأمثل لإيصالنا إلى حقائق القرآن.

وهذان الاسلوبان متبعان فى التفسير المعتاد (التفسير الترتيبى حسب السور والآيات) فجماعة يحملون آيات القرآن على آرائهم وجماعة اخرى يجعلون آراءهم تابعة لآيات القرآن، ومن الواضح أنّ الاسلوب التفسيرى الصحيح هو الثانى.

القرآن (نور وكتاب مبين) فهو يبين كل الحقائق المرتبطة بسيادة الإنسان: «قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ . (المائدة/ ۱۵)

عقبات تواجه التفسير الموضوعى:

يواجه المفسّر فى طريقه ثلاث عقبات مهمّة.

۱- ليس التفسير الموضوعى بأن تجعل فهارس الآيات أمامك وتجمع الآيات التى ورد فيها ذكر لكلمات المواضيع التى تريد البحث فيها، مثل الجهاد والتقوى لأنّ الكثير من الآيات تتكلم حول هذه المواضيع بدون أن تُذكر فيها كلمة التقوى أو الجهاد، ولا بأس هنا أن نذكر مثالًا واحداً، نحن نعلم أنّ اللّه سبحانه «رحمن» و «رحيم» و «أرحم الراحمين» وهذا المعنى وارد، فى الكثير من آيات القرآن، ولكن توجد آيات تبيّن هذه الحقيقة بدون استعمال مادة «رحم»، منها: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَّا تَرَكَ عَلَيْها مِنْ دَابَّةٍ» «۱». (النحل/ ۶۱)

---

(۱). لابدّ من الإشارة إلى أنّ الآية الاولى تشير إلى ظلم الناس وفى الآية الثانية جاء بدل الظلم الاكتساب، ومن جمع الآيتين معا يظهر أنّ الكثير من الأعمال التى تصدر من الناس ليست خالية من نوع مِن أنواع الظلم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸

ونفس هذا المعنى مع اختلاف يسير ذكر فى الآية ۴۵ من سورة فاطر: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ».

هاتان الآيتان تشيران إلى رحمة اللّه ولطفه المطلق على عباده من غير أن تُستعمل مادة (رحم) فى الآيتين.

۲- العقبة الاخرى التى تعترض التفسير الموضوعى مشكلة جمع الآيات وأخذ النتيجة منها، فهذه العملية تحتاج إلى دقة وظرافة وذوق ووعى كامل واحاطة تامّة بالآيات القرآنية والتفاسير، وعندما تكون الآيات المرتبطة بموضوع ما كثيرة ويكون لكل منها بعدٌ خاصٌ بها فإنّ الجمع سيكون أكثر تعقيداً.

مضافاً إلى ذلك فإنَّ التفسير الموضوعى لا يزال يخطو خطواته الاولى ولم يُبذل فى هذا النطاق جهد وسعىٌ حثيث، وهذا يجعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً بالنسبة للمبتدئين ويختلف كثيراً عن التفسير المعتاد المتّبع منذ نزول القرآن.

۳- العقبة الكبيرة الثالثة: إنّ موضوعات القرآن الكريم، هذا الكتاب الإلهى العظيم لا- حدّ لها ولا- حصر، ففيه المسائل العقائدية والعلمية، وفيه المسائل الأخلاقية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، وآداب العشرة وأحكام الحرب والسلم وتاريخ الأنبياء وامور الكون و .. الخ.

وفى كل واحدة من هذه الامور موضوعات كثيرة بحثها القرآن، ومناقشة كل هذه المسائل تحتاج إلى وقت طويل وصدر واسع.

وأحياناً تبحث الآية الواحدة فى التفسير الموضوعى أبحاثاً عديدة من جهات مختلفة، وفى كل بُعد من أبعادها يجب بحث فصل خاص

به، فی حین تفسر الآیة فی التفسیر الترتیبی تفسیراً واحداً فقط.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹

لماذا لم یتطور هذا الموضوع من التفسیر؟

یبدو أنّ جواب هذا السؤال قد اتّضح من الأبحاث السابقة، فالمشکلات الکثیرة التی تواجه التفسیر الموضوعی، قد منعت من تطوره خاصة، وأنّ التفسیر الموضوعی یحتاج إلی معاجم دقیقة وجامعة بحیث یمکن استخراج الآیة منها بسهولة ولم تکن توجد فی السابق، ولکنها الیوم بحمد اللّه فی متناول الأیدی.

ومن الطریف ما جاء فی مقدمة المعجم القرآنی المعروف ب «المعجم المفهرس لألفاظِ القرآن الکریم» حیث قال: (إنّ المتقدمین اهتموا کثیراً بالعلوم القرآنیة ولکن لم یهتموا باعداد معجم دقیق لتعیین آیات القرآن، والسبب فی ذلک أنّ أغلبهم کان من حفظة القرآن)!

ولا نعلم مدی صحة هذا الرأی، ولو افترضنا کون الإنسان حافظاً للقرآن فهذا لا یجعله مستغنیاً عن المعجم، الذی هو وسیلة لابدّ منها من أجل تسهیل عملیة التفسیر الموضوعی (وإن کانت بوحدها لیست کافیة)، وهذا العمل لم یتم فی السابق إلّابنحو ناقص ودون الطموح أحیاناً.

ولابدّ من الإشارة إلی مسألة هنا وهی أن جمعاً من المفکرین الغربیین والأجانب المحبین للقرآن المجید بذلوا جهوداً من أجل إعداد معاجم لهذا الکتاب السماوی ومن نماذجها المعتبرة کتاب «نجوم الفرقان فی اطراف القرآن» إعداد المستشرق الالمانی «فلوگل» وتألیفات اخری قام بها المسلمون مثل «مفتاح کنوز القرآن» وکتاب «فتح الرحمن».

وبناءً علی ما ورد فی مقدمة «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الکریم» فإنّ هؤلاء هم الذین مکنوا المؤلف من إعداد هذا المعجم الغنی البدیع وجعلهِ فی متناول أیدی علماء الإسلام.

وآخر ما نقوله هنا هو أنّه علی الرغم من جمیع المشکلات والمعوقات الموجودة فی طریق التفسیر الموضوعی، فإنّ برکاته ومعطیاته کثیرة وبنفس النسبة وخاصة بالنسبة للعلماء والمحققین، حیث تنکشف لهم فی ضوئه الحقائق التی تزیدهم إیماناً وقوة ونشاطاً

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰

لمواصلة العمل، وتؤجج فی قلوبهم نار الشوق والمحبة حیث إنّ مَثَل الآیة القرآنیة عندما تتحدث حول موضوع ما لوحدها، کمثل النقطة التی إذا اجتمعت مع نقاط اخری ورتبت کونت شکلًا جذاباً وصورة بدیعة لم تکن موجودة من قبل، وهذا أمر مهمّ جدّاً ویبعث علی النشاط والاشتیاق، وکما ذکرنا فإنّ النبی صلی الله علیه و آله وأئمّة أهل البیت علیهم السلام، أرشدونا منذ البدایة إلی التفسیرالموضوعی ووردت فی کلامهم نماذج مختلفة جمیلة وجذابة وقد أشرنا إلی البعض منها.

ججج

وحیث ننتهی من هذه المقدّمة نجد أنفسنا أمام هذا العمل العظیم المملوء بالمصاعب، ولا ریب فی أننا لا نستطیع- اعتماداً علی أنفسنا- أن نحمل هذه الأمانة ونوصلها إلی الهدف إلّابلطف اللّه وعونه وعنایته، ونحن هنا بکامل وجودنا نتوجه إلی اللّه سبحانه وتعالی ونمد إلیه أیدینا قائلین.

إلهنا! خذ بأیدینا فی هذا الطریق، اهدنا الصراط المستقیم صراط الذین أنعمت علیهم، احفظنا فی هذا الطریق الکثیر المزالق من السقوط فی وادی الضلالة، وتفضل علینا بالتوفیق لإتمام هذا العمل علی النحو الأحسن.

آمین یا رب العالمین

قم- الحوزة العلمیة- ناصر مکارم الشیرازی

۲۶/ محرم الحرام/ ۱۴۰۸ ه

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱

كل عمل باسم اللَّه

تمهيد:

علّمنا القرآن الكريم فى بداية كل سورة (عدا سورة التوبة) وفى آيات كثيرة اخرى أن نبدأ عملنا باسم اللَّه وأن نعطّر أجواء قلوبنا وأرواحنا بطيب اسمه.

باسم «اللَّه» وهو الجامع للصفات الكمالية.

باسم «الرحمن» و «الرحيم».

باسمه الذى هوعلى كل شىء قدير.

باسمه الذى هو بكل شىء عليم.

إنّ هذا الاسم المقدّس ينوّر القلب ويهب للروح الصفاء والقوة والنشاط.

ذِكر رحمته الخاصّة والعامّة تبعث فى الإنسان عالماً من الأمل.

ذكر قدرته وجبروته يبعث فى الإنسان الجرأة لمواجهة المصاعب.

ذكر علمه واحاطته بكلِّ فرد وبكل شىء يُطمئِنُ الإنسان بأنّه ليس لوحده.

فإذا بدأنا عملنا بهذه الروح فاننا سنصل إلى الغاية المطلوبة بلا شك، وكل سعى وجهاد يبذل وفق هذا المنهج فسوف تكون نتيجته الموفقية والفلاح.

لذلك فقد ارتأينا أن أفضل ما نبدأ به بحثنا فى هذا الكتاب هو موضوع (بداية كل عمل باسم اللَّه).

فنبدأ أولًا بمناقشة الآيات ذات العلاقة بهذا المعنى ثم نقوم بعملية التفسير والجمع، وفى المرحلة الأخيرة نذكر بحوثاً مكملة تحت عنوان «توضيحات» وسنواصل اتباع هذا الأسلوب بالترتيب المذكور إلى آخر الكتاب إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲

الآيات:

۱- «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ . (كل سور القرآن عدا سورة براءة)

۲- «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ . (العلق/ ۱)

۳- «وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ . (هود/ ۴۱)

۴- «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* انّهُ مِنْ سُلَيمانَ وَانَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* الَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ . (النمل/ ۲۹- ۳۱)

ج‌ج

شرح المفردات:

«الاسم»: يعتقد الكثير من علماء اللغة أنّ هذه الكلمة فى الأصل مشتقة من مادة «سمو» (على وزن علو) بمعنى الارتفاع، وحيث إنّ التسمية سبب للمعرفة والظهور وعلو المنزلة لكل شىء استخدمت كلمة اسم فى هذا المعنى «۱».

«الرحمن» و «الرحيم»: كلمتان مشتقتان من مادة «رحمة» والمعروف أنّ (الرحمن) يعنى ذو الرحمة العامة الشاملة للجميع، و (الرحيم) يوصف بها ذو الرحمة الخاصة، وعلى هذا رحمانية اللَّه جعلت فيضه ونعمته شاملة للعدو والصديق والمؤمن والكافر، ولكن رحيميته أوجبت للمؤمنين مواهب خاصة فى الدنيا والآخرة فى حين أنّ هذه المواهب محرّمة على الغافلين والبعيدين عن اللَّه.

والشاهد على هذا الاختلاف ما يلى:

۱- «الرحمن» صيغة مبالغة والرحيم صفة مشبهة، وصيغة المبالغة تفيد معنى التأكيد

---

(۱). البعض يرى أنّ الاسم من مادة (وَسْم) بمعنى (العلامة) ولكن يبدو أنّ هذا غير تام لأنّ جمعه على هيئة أسماء وتصغيره ب (سُمّى) و (سمّيه) يدل على عدم وجود (الواو) فى أصله والبعض يعتبره مشتقاً من كلمة (شما) وهى اصطلاح عبرى وعند التعريب صارت بهيئة اسم وسماء (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) ولكن هذا مستبعد أيضاً ولا شاهد عليه، والشاهد الآخر على عدم كون الاسم مشتقاً من مادة (وسم) أنّ الهمزة فى اسم تسقط عند وصل الكلام ولو كانت من مادة (وسم) فالهمزة بدلًا عن الواو ولا ينبغى أن تسقط.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳

بنحو أكثر وتدل على سعة هذه الرحمة، ولكن البعض يرى أنّ كليهما صفة مشبهة أو أنّ كليهما صفة مبالغة، ولكن مع ذلك صرحوا بأنّ الرحمن تفيد معنى المبالغة الكثيرة «۱».

۲- وقال البعض: إنّ الرحيم صفة مشبهة وتُفيد الإستمرار والثبات، لذلك هى مختصة بالمؤمنين، لكن الرحمن صيغة مبالغة ولا تدل على المعنى المذكور.

۳- «الرحمن» اسم خاص باللَّه ولا يطلق على غيره، فى حين أنّ الرحيم يقال للَّه ولغيره، وهذا دليل على أنّ مفهوم الرحمن يدل على رحمة أوسع.

۴- هناك قاعدة معروفة فى الأدب العربى وهى: (زيادة المبانى تدل على زيادة المعانى)، يعنى أنّ الكلمة التى حروفها أكثر فإنّ مفهومها يكون أكبر وحيث إنّ (رحمن) خمسة أحرف و (رحيم) أربعة أحرف فمفهوم (رحمن) أوسع «۲».

۵- كما أنّ البعض استفاد هذا المعنى من آيات القرآن حيث إنَ (الرَّحمن)، ذكر غالباً بنحو مطلق، فى حين أنّ (رحيم) ذكر مقيداً فى كثير من الموارد، مثلًا، قوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ . (البقرة/ ۱۴۳)

وقوله تعالى «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً». (النساء/ ۲۹)

أمّا الرحمن فذكر من غير قيود فهو يدل على عموم رحمته.

۶- وتشهد بعض الروايات على هذا الاختلاف، ففى حديث ذى مغزى ومعانٍ عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ: «الرحمن اسمٌ خاص بصفة عامة والرحيم اسم عام بصفة خاصة» «۳».

ولكن مع هذا لا يمكن أن ننفى استخدام الكلمتين فى معنى واحد، كما ورد فى دعاء الإمام الحسين عليه السلام فى يوم عرفة: «يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما» ويمكن أن يعدّ هذا استثناءً فلا ينافى الاختلاف المذكور.

«مجراها» و «مرساها»: كلتا الكلمتين اسم زمان أو اسم مكان بمعنى مكان الحركة

---

(۱). راجع تفاسير مجمع البيان وروح المعانى والميزان، ج ۱، ص ۲۰ و ۵۵ و ۱۶ على التوالى.

(۲). تفسير شبرّ، ص ۳۸؛ روح المعانى، ج ۱، ص ۵۶.

(۳). تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴

وزمانها، أو مكان التوقف وزمانه «۱».

الاولى مشتقة من مادة (جريان) والثانية من مادة (رسو) على وزن (رَسم) بمعنى الثبات والاستقرار، لذلك يقال للجبال (الرواسى) جمع (راسية) لأنّها ثابتة ومستقرة.

جمع الآيات وتفسيرها

لماذا نبدأ فقط باسم اللَّه؟

فى الآية الاولى (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) التى تصدرت كل سور القرآن (ما عدا سورة براءة) يعنى نعلمكم أن تبدأوا عملكم باسم اللَّه الرحمن الرحيم وتستعينوا به فى أداء عملكم وتنفيذ خططكم «۲».

إنّ أعمالنا مهما تكن فهى فانية زائلة وصغيرة محدودة، أمّا عندما ترتبط بالذات القدسية الباقية الخالدة التى لا حدّ لها ولا نهاية، فانّها ستصطبغ بصبغته وتستلهم من عظمته وازليته.

قدراتنا مهما تكن فهى ضعيفة لا تمثل إلّاقطرة فى بحر، لكن عندما ترتبط تلك القطرات بالبحار العظيمة للقدرة الإلهيّة فانّها ستجد العظمة وتكتسب روحاً جديدة وهذا كله سرُ بسم اللَّه فى بداية كل عمل.

ج‌ج

فى الآية الثانية كلام عن خطاب جبرئيل الأمين فى بداية البعثة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله عندما احتضن النبى وضمه وقال: «إِقْرَأْ بِسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ .

وبهذا فقد بدأ جبرئيل منهاج رسالته عند بعثة النبى صلى الله عليه و آله باسم اللَّه.

ج‌ج

---

(۱). قال بعض المفسرين إنّها اسم زمان فقط كما فى (مجمع البيان) والبعض اعتبرها اسم مكان فقط كما فى (الميزان) والبعض اعتبرها اسم زمان ومكان كما فى (تفسير شبّر).

(۲). البعض يعتقد أنّ هناك جملة محذوفة وهى (ابتدىء)، والبعض قال هى (استعينُ)، نعم فى صورة كون الجملة عن اللَّه سبحانه (كما فى جميع السور عدا الحمد) فحينئذ يتعيّن المعنى الأول ولكن فى خصوص سورة الحمد حيث إنّ الجمله تعبير عن لسان العباد فيكون فيها المعنى الأول أو الثانى أو كلاهما وعلى هذا فإنّ (ب) فى بسم اللَّه إمّا بمعنى الاستعانه أو بمعنى الإبتداء (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵

الآية الثالثة تتحدث عن قصّه نوح عندما حلت لحظة الطوفان والجزاء الإلهى الشديد على قومه الكفرة والطغاة، وعندما استعدت السفينة للحركة وصدر الأمر لأصحاب نوح الذين لم يتجاوز عددهم الثمانين بأن يركبوا فى الفلك قال (بسم اللَّه مجريها ومرسها) ثم استعان بمغفرة اللَّه ورحمته وقال: «إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَحِيمٌ .

ج‌ج

وفى الآية الأخيرة كلام عن كتاب سليمان إلى ملكة سبأ بعد أن أخبره الهدهد عن قوم سبأ وعبادتهم للاصنام.

وعندما تناولت ملكة سبأ الكتاب جمعت أعوانها وافراد البلاط وقالت: «يَا أَيُّهَا المَلَؤُا إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ* إِنَّهُ مِنْ سُلَيمانَ وانَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ* أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ .

ج‌ج

من مجموع الآیات الأربع المذکورة ندرک جیداً أنّ ابتداء کل عمل یجب أن یکون ب (بسم اللَّه)، سواء کان فی التعلیم والهدایة مثل سور القرآن أو کان دعاءً من العباد مع الذات القدسیة مثل سورة الفاتحة، أو بدایة البعثة والرسالة وأول نداء للوحی مثل بدایة سورة العلق، أو أنّه بدایة الحرکة للنجاة من الأخطار والطوفان وبدایة توقف السفینة والنزول منها للابتداء بالمنهج الجدید کما فی قصة نوح، أو ابتداء الکتاب المرسل من أجل الدعوة للتسلیم إلی الحق کما فی کتاب سلیمان لملکة سبأ.

وخلاصة الکلام أنّ العمل سواء کان من اللَّه سبحانه أو من الخلق أو من جبرئیل أو من الأنبیاء مثل نوح وسلیمان أو من عامة الأفراد، یجب أن یبدأ ب (بسم اللَّه) ویرتبط بالذات المقدَّسة ویستمد منه القوّة والعلم والإدراک.

وهذا هو معنی الحدیث المعروف للنبی صلی الله علیه و آله: «کل أمر ذی بال لم یذکر فیه اسم اللَّه فهو ابتر» «۱».

---

(۱). سفینة البحار، ج ۱ مادة (سما).

والأمر الذی ینبغی ملاحظته أنّ الصفات التی ذکرت بعد بسم اللَّه فی الآیات المذکورة تناسب العمل الذی بدأ ب (بسم اللَّه) ففی قصة نوح جاء ذکر (غفور رحیم) وهو إشارة شمول الرحمة الإلهیّة لأصحاب نوح، وفی قصة نزول أول آیة جاء ذکر صفة الربوبیة والخالقیة ونحن نعلم أنّ مسألة الوحی بدایة لعمل تربوی وعلی هذا فإنّ التربیة التشریعیة تقترن بالتربیة التکوینیة.

وبهذا نعلمُ أنّ الاستفادة من ذکر الصفات المناسبة هو بمثابة درس للجمیع حول کیفیة ابتداء أعمالهم ب (بسم اللَّه).

ج‌ج

توضیحات

۱- الأهمیّة الخاصة ل «البسملة»

نلمس فی الروایات الإسلامیة أهمیّة کبیرة لهذه الآیة المبارکة وأنّها فی درجة (اسم اللَّه الأعظم)، کما روی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «بسم اللَّه الرحمن الرحیم أقرب إلی اسم اللَّه الأعظم من ناظر العین إلی بیاضها» «۱».

وفی حدیث آخر عن الإمام الرضا علیه السلام: «أقرب من سواد العین إلی بیاضها» «۲».

إنّ ل (بسم اللَّه) أهمیّة بالغة إلی درجة بحیث أنّ بعض الروایات ذکرت أنّ فی ترکها تعریض النفس للعقاب الإلهی، کما ورد فی روایة أنّ عبداللَّه بن یحیی دخل فی مجلس أمیر المؤمنین علیه السلام وکان أمامه سریر فأمره الإمام أن یجلس علیه فتحطم السریر فجأة ووقع عبداللَّه علی الأرض وجرح رأسه وخرج منه الدم فأمر أمیر المؤمنین علیه السلام بماء فغسلوا الدم ثم وضع الأمیر یده علی الجرح فأحس عبد اللَّه بألم شدید فی أوّل الأمر ثم برىء جرحه فقال الإمام علیه السلام: «الحمد للَّهالذی یغسل ذنوب شیعتنا ویطهرها بالحوادث المؤلمة».

---

(۱). تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۴۱، ح ۲.

(۲). المصدر السابق، ح ۹.

فقال عبد اللَّه: یا أمیر المؤمنین لقد نبهتنی، أخبرنی أی ذنب ارتکبته حتی أصاب بهذا الحادث المؤلم کی لا- أعود إلی ذنبی فإنّ

ذلك يسعدنى.

فقال عليه السلام: «عندما جلست على السرير لم تقل: (بسم اللَّه الرحمن الرحيم) ألم تعلم أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال عن لسان ربِّه: (إنّ كل عمل ذى بال لم يبدأ فيه ببسم اللَّه فهو أبتر ولا ثمرة فيه)».

فقال عبد اللَّه: فديتك لا أدعها بعد هذا أبداً.

فقال الإمام عليه السلام: «إذن ستكون سعيداً» «۱».

ولكن من الواضح أنّ الاسم الأعظم أو بسم اللَّه الذى هو أقرب ما يكون إليه ليس المقصود منه جريان ألفاظه على اللسان، فالتلفظ لوحده لا يحل العقد المستعصية ولا يفتح أبواب الخيرات والبركات ولا ينتظم به شتات الأمور، بل المراد هو التخلق به.

يعنى أنّ مفهوم بسم اللَّه يجب أن يذوب فى روح الإنسان وباطنه، وعندما يتلفظ بها بلسانه يشعر أنّ كامل دقائق وجوده قد دخل فى الحِمى الإلهيّة وصار من أعماق وجوده يستمد من ذاته المقدّسة.

وينبغى الانتباه إلى أنّ التأكيد على الابتداء ببسم اللَّه ليس فقط فى الكلام وإنّما فى الكتابة أيضاً كما فى كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس.

فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «لا تدع البسملة ولو كتبت شعراً» ثم ذكر الإمام عليه السلام أنّهم كانوا يبدأون رسائلهم قبل الإسلام بعبارة (بسمك اللهم).

ولما نزلت الآية الكريمة «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وإِنَّه بِسمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ، بدأوا رسائلهم بعبارة (بسم اللَّه).

وفى حديث آخر نقرأ أنّ الإمام الهادى عليه السلام وصى أحد وكلائه وهو داود الصرّمى الذى قال: أمرنى عليه السلام بحوائج كثيرة فقال لى: قل كيف تقول؟، فلم أحفظ مثل ما قال لى، فمدّ الدواة وكتب «بسم اللَّه الرحمن الرحيم اذكر إن شاء اللَّه والأمر بيد اللَّه، فتبسمت، فقال: «ما

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۳۰۵ مع التلخيص.

لك» قلت خير. فقال: «أخبرنى». قلت: جعلت فداك ذكرت حديثاً حدثنى به رجل من أصحابنا عن جدك الرضا (عليه السلام) إذا مرّ بحاجة كتب: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم اذكر إن شاء اللَّه فتبسمت، فقال لى: «يا داود لو قلت إنّ تاركك التسمية كتاركك الصلاة لكنت صادقاً» «۱».

إنّ لبسم اللَّه أهميّة بالغة وعظيمة بحيث نقرأ فى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا قال المعلّم للصبى بسم اللَّه الرحمن الرحيم (ويكرر الطفل ذلك) كتب اللَّه براءة للصبى وبراءة لأبيه وبراءة للمعلِّم» «۲».

ونختم هذا الكلام، بمقالة مشهورة بين جماعة من المفسرين وهى:

إنَّ معانى كل الكتب الإلهيّة مجموعة فى القرآن.

ومعانى كل القرآن مجموعة فى سورة الحمد.

ومعانى كل سورة الحمد فى بسم اللَّه.

ومعانى بسم اللَّه مجموعة فى الباء «۳».

وتمركز جميع مفاهيم القرآن والكتب الإلهيّة فى باء بسم اللَّه يمكن أن يكون لكون أن كل المخلوقات فى عالم التكوين، وكل التعليمات فى عالم التشريع تستمد وجودها من الذات المقدّسة حيث إنّها علة العلل لجميع الكائنات، ونعلم أن باء بسم اللَّه هى الوسيلة للاستعانة وطلب النصرة من اللَّه وهذه مسألة جديرة بالدقة والتأمل.

۲- هل أنّ بسم اللّه جزء لكلّ سورة؟

لم يعدّ المفسرون وعلماء العلوم القرآنية البسملة من آيات السور عند حسابهم للآيات القرآنيه إلّافى سورة الفاتحة، التى أجمع الفقهاء واتفقوا على أنّ البسمله جزء منها ولذلك

---

(۱). سفينة البحار، ج ۱، ص ۶۶۳، مادة (سما).

(۲). تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۳، ح ۳۲.

(۳). تفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹

فقد ذكروا أنّ آياتها سبع ومنها البسملة.

وكذلك فإنَّ أحد الأسماء المعروفة لهذه السورة هو «السبع المثانى» لأنّها سبع آيات «مثانى»، لأنّها نزلت على رسول اللّه صلى الله عليه و آله مرتين نظراً لاهميّتها.

ولكن مع هذا فإنّ كتابة البسملة فى جميع المصاحف القديمة والجديدة دليل قاطع على جزئيتها للسور.

روى عن عبد اللّه بن عمر، أنّه كان إذا بدأ الصلاة بعد التكبير قرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم، وكان يقول إذا لم تقرأ بسم اللّه الرحمن الرحيم فلماذا كتبت فى القرآن؟! «۱».

واورد السيوطى فى المجلد الأول فى تفسيره الدر المنثور وهو عالم معروف من أهل السنة روايات كثيرة حول جزئية بسم اللّه لسورة الحمد.

وهناك روايات كثيرة من طرق أئمّة الهدى وأهل البيت عليهم السلام وردت فى جزئية بسم اللّه لسورة الفاتحة ولبقية سور القرآن الكريم، لذلك فإنّ علماء الشيعة متفقون ومجمعون على جزئيتها فى جميع الموارد «۲».

ونذكر مثالًا على الأحاديث الواردة من طرق أهل السنة ما ورد عن «جابر بن عبد اللّه» أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال له: «إذا قمت للصلاة فكيف تقرأ؟» فقال جابر: أقول الحمد للّهربّ العالمين (أى بدون بسم اللّه) فقال له النبى صلى الله عليه و آله قل: «بسم اللّه الرحمن الرحيم» «۳».

ومن أجل رفع سوء الفهم والتوهم أصرَّ النبى صلى الله عليه و آله أن يجهر بالبسملة فى كثير من الصلوات، تقول عائشة: «ان رسول اللّه صلى الله عليه و آله كان يجهر ببسم اللّه الرحمن الرحيم» «۴».

وفى حديث آخر يقول أحد أصحاب النبى صلى الله عليه و آله: كنت اصلّى خلف النبى صلى الله عليه و آله وكان

---

(۱). سنن البيهقى، ج ۲، ص ۴۳- ۴۷.

(۲). راجع كتب الخلاف للشيخ الطوسى، ج ۱، ص ۱۰۲ مسألة ۸۲؛ سنن البيهقى، ج ۲، ص ۴۴- ۴۵- ۴۶؛ تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۷- ۸؛ البيان فى تفسير القرآن، ص ۵۵۲.

(۳). تفسير در منثور، ج ۱، ص ۸.

(۴). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰

يجهر ببسم اللّه فى صلوات المغرب والعشاء والصبح وصلوة الجمعة خاصة «۱».

والملفت للنظر ما رواه البيهقى من أنّ معاوية صلى بأهل المدينة فتلا: بسم اللَّه الرحمن الرحيم فى أوّل سورة الحمد، ولكن لم يقرأ بسم اللَّه للسورة التى بعدها ولم يكبر حتى ذهب للركوع، فعندما سلّم للصلاة اعترض عليه جماعة من المهاجرين وقالوا: أسرقت من الصلاة أم نسيت؟ فكان معاوية بعد ذلك يقرأ بسم اللَّه للسورة بعد الحمد أيضاً «۲».

ولكن مع ذلك فإنّ جماعة من علماء السنة لا زالوا يتركون البسملة فى الصلاة وحتى فى سورة الحمد أو يقرأونها اخفاتاً!، ومما يلفت النظر أنّ الفخر الرازى ذكر فى تفسيره تسعة عشر دليلًا على إثبات أنّ بسم اللَّه الرحمن الرحيم جزء من سورة الحمد وأكثرها روايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

الآلوسى مفسّر القرآن المعروف ناقش هذه الادلة فى تفسيره (روح البيان)، ولكنه يصرّح بأنّ البسملة آية مستقلة فى القرآن وإن كانت ليست جزءً من سورة الحمد «۳»!

فهو يعترف بأنّ البسملة جزء من القرآن، لكن لا نعلم لماذا يصر على أنّها آية مستقلة وليست جزءً من سورة الحمد؟

ومهما كان فلا يخفى أنّ البسملة موجودة فى جميع المصاحف طوال التاريخ الإسلامى فى بداية جميع السور إلّاسورة البراءة، ومن المسلَّم أنّ هذا بأمر من النبى صلى الله عليه و آله ولا يمكن أن نعقل أنّ النبى صلى الله عليه و آله أمر أن يكتب فى القرآن شىء ليس منه، وعلى هذا فلا حجّة لنا إذا فصلنا البسملة من السور لأنّ هذا نوع من أنواع التحريف للقرآن الكريم.

ولهذا يقول الإمام الباقر عليه السلام فى مثل هؤلاء: «سرقوا أكرم آيةٍ فى كتاب اللَّه: بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «۴».

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۸.

(۲) ذكر «الحاكم» هذه الرواية فى المستدرك، ج ۱ ص ۲۳۳ واعتدَّ بسندها، وورد نفس هذا المضمون بتفاوت ضئيل فى تفسير درالمنثور، ج ۱، ص ۸؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۹.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۷.

(۴) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۴۲، ح ۱۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۱

ويضيف الإمام الصادق عليه السلام: «ما لهم قاتلهم اللَّه عمدوا إلى أعظم آية فى كتاب اللَّه فزعموا أنّها بدعة إذا أظهروها وهى بسم اللَّه الرحمن الرحيم» «۱»!

ولهذا فقد ورد عن الأئمّة عليهم السلام الاصرار على الجهر ببسم اللَّه الرحمن الرحيم خاصة وفى جميع الصلوات الليلية والنهارية لأجل القضاء على هذه البدعة الموروثة.

وخلاصة الكلام أنّ أهميّة البسملة بين آيات القرآن أوضح من أن تحتاج إلى البحث ولذلك يجب أن نعطيها أهميّة كبيرة، ومن المؤسف أنّ البعض من فاقدى الذوق السليم وخشية من أن تقع كتاباتهم بأيدى الأفراد غير المتوضئين أو أن تُداس بالأقدام أو تقع فى الأزقة والأسواق، يمتنعون من كتابة البسملة فى رسائلهم وكتاباتهم، ويضعون محلها عدداً من النقاط غافلين عن أنّ سيئة ترك بسم اللَّه أشدّ بكثيرٍ من هذه المساوىء.

نحن مأمورون بأن نكتبها، وأن نسعى من أجْلِ المحافظة عليها واحترامها، وإذا لم يراع الآخرون الحرمة اللازمة فلسنا مسؤولين عن أعمالهم، ولا ينبغى لنا أن نترك البسملة لهذا العذر لأنّ الضرر الذى يصيبنا سيكون أكبر.

لذلك ينقل لنا التاريخ أنّ أول سكة ضربت فى الإسلام كانت فى زمان «عبد الملك بن مروان» وبأمرٍ من الإمام الباقر عليه السلام وكتب على أحد وجهيها «لا اله إلّااللَّه» وعلى الوجه الآخر «محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله»، ومن الواضح أنّ هذه السكة تقع فى أيدى عامة الناس حتى غير المسلمين الذين كانوا يعيشون فى محيط الإسلام، فلم تكن مراعاة هذا الأمر مانعة من ضرب السكة

والشعارات الإسلامیة الحیة ولا ینبغی لها أن تکون «۲».

۳- لماذا لم تُذکر بسم اللّه فی بدایة سورة براءة؟

الجواب علی هذا السؤال ورد صریحاً فی حدیث روی عن أمیر المؤمنین علیه السلام: «لم تُنَزَل بسم اللّه الرحمن الرحیم علی رأس «سورة براءة» لأنّ بسم اللّه للأمان والرحمة، ونزلت

---

(۱) تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۴۲.

(۲) تاریخ التمدن الاسلامی، جرجی زیدان، ج ۱، ص ۱۴۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲

براءة لرفع الأمان وبالسیف» «۱» یعنی رفع الأمان عن الکفار الناکثین للعهود.

ویعتقد جماعة بان هذه السورة تتمة لسورة الأنفال لأنّ سورة الأنفال تتکلم عن العهود ولهذا لم یذکر بینهما «بسم اللّه الرحمن الرحیم».

وهذا المعنی ذکر فی روایة عن الإمام الصادق علیه السلام: «الأنفال والبراءة واحدة» «۲».

واحتُمل أیضاً أنّ اللّه سبحانه ومن أجل أن یبیّن حقیقة أنّ البسملة جزء فی جمیع سور القرآن لم یذکرها فی بدایة هذه السورة.

والجمع بین هذه الأقوال الثلاثة ممکن.

وهناک آیات متعدّدة حول البسملة فی القرآن وخصوصاً فی مورد ذبح الحیوانات، والکلام عنها ینبغی أن یکون فی محل آخر.

۴- لا تقرنوا اسم اللّه باسم غیره؟

إنّ القادر المطلق والرحیم الحقیقی هو الذات الإلهیّة المقدّسة سبحانه وتعالی.

وما عالم الوجود إلّامائدة من موائد احسانه، وکل ما لدنیا منه فیجب طلب الحاجة والعون منه والابتداء باسمه، والآیات المتعلقة «ببسم اللّه» والروایات الواردة فی هذا المجال کلها تؤکّد علی هذا المعنی

ولهذا فإنّ الذین یقرنون مع اسم اللّه اسم غیره کالطواغیت الذین یضعون أسماء السلاطین المتجبرین والمتکبرین إلی جنب اسمه سبحانه ویفتتحون بها ویبدأون بها، أو الأشخاص الذین یبدأون أعمالهم باسم (اللّه) و «الشعب»، کل هؤلاء فی الحقیقة مصابون بنوع من الشرک، وحتی اسم النبی صلی الله علیه و آله لا ینبغی أن یُقرن إلی جنب اسم اللّه فی هذا المجال فلا یقال بسم اللّه ونبیّه.

ففی حدیث ورد فی تفسیر الإمام الحسن العسکری (علیه السلام): «إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله کان

---

(۱). تفسیر مجمع البیان، ج ۵، ص ۲ وهذا الحدیث ذکره الفخر الرازی عن ابن عباس عن علی علیه السلام مع اختلاف یسیر وقال علیه السلام هناک: لأنّ بسم اللّه الرحمن الرحیم أمان وهذه السورة نزلت بالسیف ونبذ العهود ولیس فیها أمان.

(۲). تفسیر مجمع البیان، ج ۵، ص ۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳

جالساً یوماً مع أمیر المؤمنین علی علیه السلام فسمعا شخصاً یقول «ماشاء اللّه وشاء محمد» وآخر یقول «ما شاء اللّه و شاء علی».

فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «لا تقرنوا محمداً ولا علیاً باللّه عزّ وجلّ».

ثم اضـاف: «ولكن إذا أردتم فقولوا مـا شاء اللَّه ثم شاء محمـد، ما شاء اللَّه ثم شاء علی»، يعنی اعلموا أنّ مشـيئة اللَّه قاهرة وغالبـة علی كل شـیء فليس لها فی الوجود من مساوٍ أو نظير أو قرين، وما محمـد فی دين اللَّه وأمام قـدرة اللَّه إلّاكطير يحلِّق فی فضاء هذا الكون الواسع وكذلك علی «۱».

---

(۱) إثبات الهداة، ج ۷، ص ۴۸۲، ح ۷۹ (مع قليل من التلخيص).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵

نظريةالمعرفة

تمهيد:

إنَّ أول قضية تواجه الإنسان فی ابحاثه العلمية هی قضية المعرفة، وأول أسئلة تنقدح فی ذهن الإنسان هی:

۱- هـل هنـاك عـالَم موجود خـارج وجودنـا أم أنّ ما نسـمعه ليس إلّاكالرؤيا والأحلام التی نراها فی منامنا وأنّ ما وراء الطبيعـة ما هو إلّاوهم وخيال؟

۲- إذا كان هناك عالم ما وراء الطبيعة فهل بامكاننا إدراكه ومعرفته؟

۳- إذا وجد عالم فی الخارج وأمكننا معرفته، فما هی الطرق التی يجب أن نسلكها للوصول إلی معرفته وما هی مصادر معرفته؟

هل أنّ طريق الاستدلالات العقلية كاف لذلك، أم عن طريق التجربة والعلوم التجريبية الطبيعية؟

أم عن طريق الوحی أو بواسطة طرق اخری وأیّ هذه الطرق أفضل وأكثر اعتماداً؟

۴- أضف إلی ذلك ما هی الوسائل التی نستطيع بها معرفة العالم؟

۵- وبعـد قبول المسائـل المـذكورة يطرح هـذا السؤال وهو: ما هی الأمور التی تؤدّی إلی تقويـة وتوسـيع مجالات وآفاق المعرفـة عند الإنسان، وتجعل روحه وقلبه أكثر استعداداً لتلقی المعارف؟

وما هی الموانع والعقبات التی تقف حائلًا بين الإنسان والمعارف الحقيقية لعالم الوجود، وتجره إلی الحيرة والضلال؟

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۶

هل هناك عالم خارج أذهاننا؟

حول هذه المسألة الأُولی انقسم الفلاسفة إلی قسمين:

۱- «الواقعيون» (رئاليسم).

۲- «المشككون أو المثاليون أو التصوريون» (أيديااليسم).

والقسم الثانی فی الواقع هم فرع من السوفسطائيين المنكرين للحقائق بل إنّ البعض يعتقد أنّ السوفسطائيين هم أنفسهم المثاليون الذين يعترفون بوجود أنفسـهم وأذهـانهم ويعتبرون ما سواه وهماً وخيالًا، وإلّا فكيف يمكن لعاقل أن ينكر كل شـیء حتی وجود نفسه إلّاأن يكون مصاباً بخلل عقلی.

وعلی أيّـة حال فإنّ أفضل الطرق لإدراك ما وراء الطبيعـة هو ايكال الأمر إلی الوجدان، الوجدان العام لكل الناس ولجميع العقلاء، بل حتی وجدان المثاليين أنفسهم شاهد علی هذا المدّعی

لأنّ كـل المخلوقـات عنـدما تشـعر بـالعطش تقوم بـالبحث عن المـاء، فالعطش والماء وتأثير الماء فی رفع العطش امور يـدركها حتی

الأطفال والحيوانات، والسوفسطائيون أيضاً لا يختلفون فى عملهم عن الآخرين، فعندما يريد الإنسان أن يعبر شارعاً مزدحماً يقف جانب الشارع قبل كل شىء وينظر يميناً وشمالًا، وينتظر حتى يخلو الشارع من السيّارات فيعبر الشارع مع الاحتياط، خشية أن تدهسه سيارة فيصاب بأذىً أو جراح.

هذا العمل يتساوى فيه الواقعيون والمثاليون فالكل يعترف بوجود الشارع والسيارات وخطر الدهس والاصطدام والأمور الاخرى، وكلهم يعبرون الشارع مع الحيطةِ والتحفظ.

وهكذا عندما يمرض الإنسان ويرى الآثار غير العادية للمرض فى نفسه، فيراجع الطبيب فيأمره الطبيب بان يجرى له التحليل وبعد ذلك يكتب له الطبيب وصفة الدواء، ويحدد له الغذاء المناسب واوقات تناول الدواء والغذاء ومقاديره، فيرى المريض نفسه مكلفاً بأن يمتثل لهذه الأوامر كى يستعيد صحته السابقة.

وفى كل ذلك لا فرق بين الواقعيين والمثاليين، فالكل يستجيبُون للمرض بواسطة

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۷

ادراكهم الوجدانى ويعترفون بالعشرات من الحقائق العينية، من آثار المرض إلى وجود الطب والطبيب والمختبرات والدواء والغذاء.

وبهذا الدليل نقول «ان المثاليين فى الحقيقة واقعيون»!

وان المشككين عندما يردونَ ميدان الحياة يتناسون كلامهم ويرون أنفسهم امام الواقع العينى فيتعاملون معه وفق ما يقتضيه.

وقد أيّد القرآن الكريم فى آياته الكريمة صحة هذا المعنى فكلّ آيات القرآن تخبر عن الحقائق والواقع العينى الخارجى، من سماوات وأرض وملائكة وبشر وعالم الطبيعة وما وراءه والدنيا والآخرة.

وإنّ هذا الأمر فى القرآن بدرجة من الوضوح والجلاء بحيث لا يحتاج إلى بحث أكثر، لذلك ننهى هذه المسألة وننتقل إلى مسألة إمكان المعرفة «۱».

ج‌ج

---

(۱). نؤكّد هنا مرّة اخرى بأنّ هدفنا فى جميع مباحث هذا الكتاب ليس متابعة الآراء الفلسفية أو التاريخية أو ... بل هدفنا فى الأصل التفسير الموضوعى يعنى متابعة البحث من نظر القرآن ومدى انعكاس الموضوع فى الآيات المختلفة ... وإذا وجدت ضرورة للبحوث الفلسفية وغيرها فسنفرد لها بحوثاً منفصلة بعنوان توضيحات فى الخاتمة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۹

القرآن و ضرورة المعرفة

۴۰ ملاحظة قرآنية حول أهميّة العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۱

القرآن وضرورة المعرفة

تمهيد:

اشارة

لم يعتبر القرآن الكريم مسألة معرفة الإنسان لماوراء الطبيعة أمراً ممكناً فحسب بل اعتبرها من أهم الضرورات.

فالقرآن يدعو إلى معرفة أسرار عالم الوجود وحل رموز الكون والمخلوقات، ويستخدم القرآن فى دعوته لأتباعه- للتزود بالعلم-

الأساليب الصريحة والظاهرة المباشرة وغير المباشرة.

والبحث فيما صرح به القرآن فى هذا المجال يفتح أمام أعيننا افقاً جديداً، ويرينا أنّ أمر المعرفة من الواجبات المؤكّدة وبمستوى عال جدّاً من الأهميّة.

والطريف: إنَّ هذه الدعوة قد جاءت فى زمان ومكان كانت قد غطت الافق فيه سحب الجهل الظلماء، حقّاً إنّ عمق وسعة ماورد فى القرآن يدل قبل كل شىء على عظمة القرآن وصدق المبعوث به.

ومن أجل ذلك نطالع آيات القران ونبحث عن ماورد من تعابير مختلفة فى هذا المجال.

هذه الدعوة لها وجوه متنوعة وبشكل كامل، وقد جمعنا (أربعين أنموذجاً) من الآيات المختلفة وكل واحد منها ينظر إلى هذه المسألة المصيرية من زاوية خاصة.

وفى الضمن ذكرنا فى الحواشى الروايات المعتبرة المتناسبة مع الآيات، ليتضح التنسيق والسنخية الكاملة بين الكتاب والسنة.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۲

۱- وجوب تحصيل العلم

وردت فى (۲۷) آية من القرآن المجيد دعوة صريحة للتزود بالعلم، والاستفادة من جملة «اعلموا» إليكم نماذج منها:

۱- «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (البقرة/ ۲۰۹)

۲- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ۲۳۱)

۳- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (البقرة/ ۲۳۳)

۴- «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الحديد/ ۱۷)

۵- «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرونَ . (البقرة/ ۲۰۳)

۶- «فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ . (المائده/ ۹۲)

۷- «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمتُم مِّنْ شَيءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ . (الأنفال/ ۴۱)

۸- «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنيَا لَعِبٌ وَ لَهْوٌ». (الحديد/ ۲۰)

ج‌ج

الآيات الاولى والثانية والثالثة تنظر إلى الذات الإلهيّة المقدّسة وإلى صفاته الأعم من «صفات الذات» و «صفات الفعل».

الآية الرابعة تشير إلى الحياة والخلق.

الآية الخامسة تتحدث عن القيامة والحشر.

الآية السادسة تتكلم عن النبوة وسالة النبى صلى الله عليه و آله.

الآية السابعة تبين الأحكام العملية الإسلامية.

والآية الثامنة ترينا الوجه الحقيقى للدنيا وتظهر لنا تفاهتها، كأسلوب للدعوة إلى الزهد والتقوى والنجاة من حُبّ الدنيا وما يترتب عليه من ذنوب.

وبهذا نستنتج أنّ كل ما يرتبط بالعقائد والأعمال ومنهج الحياة قد ورد مشفوعاً بكلمة (اعلموا) وهى تتضمّن دعوة للتسلّح بالوعى والمعرفة فى كلّ هذه المجالات «۱».

---

(۱). ورد أيضاً التأكيد الكثير فى الروايات الإسلامية على طلب العلم، والحديث المعروف (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) المروى عن النبى صلى الله عليه و آله شاهد واضح على هذا المعنى، بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۱۷، والإمام الصادق عليه السلام: «طلب العلم فريضة على كل حال»، ج ۲، ص ۱۷۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۳

۲- التأكيد المتواصل على عدم ترك التفكر

تارة يقول سبحانه: «أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام/ ۵۰)

وتارة يقول بعد بيان الآيات الإلهيّة المختلفة الأعم من التكوينية والتشريعية: «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ . (البقرة/ ۲۱۹) و (الاعراف/ ۱۷۶)

وأحياناً يقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا». (الروم/ ۸)

كل هذه الآيات تدلّ على ضرورة التفكر، وهذه الضرورة فى التفكر تدلّ على إمكان المعرفة «۱».

۳- التأكيد على لزوم التعليم والتعلم

جاء فى سورة التوبة:

«فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّيْنِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ . (التوبة/ ۱۲۲)

هذه الآية الكريمة لا تؤكد على تعلّم الدين الإلهى فحسب بل تحث على تعليمه ونشره بعد تعلمه أيضاً.

والتعبير ب (نفر) تطلق على الخروج إلى ميدان الجهاد وقد استعمل فى الآيات القرآنية الاخرى بهذا المعنى وعلى هذا فإنّ أفراد الأُمة الإسلامية فى غير الحالات الضرورية لا يجوز لهم الخروج بأجمعهم إلى ساحة القتال، بل ينبغى على مجموعة منهم أنْ تبقى فى المدينة لتتعلم الأحكام الإلهيّة وتعلّمها للآخرين بعد رجوعهم.

---

(۱). جاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله: «اغدُ عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامس» المحجة، ج ۱، ص ۲۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۴

والتفسير الآخر للآية هو: أنّ المسلمين يجب أن ينقسموا إلى قسمين: قسم يبقى فى المدينة ليحافظ عليها، وقسم يذهب إلى ميدان الجهاد ليُشاهدَ آثار العظمة الإلهيّة والمعجزات والامدادات الغيبية والنصر الإلهى، ثم وبعد رجوعهم يُخبروا سائر الناس بذلك.

وهناك احتمال ثالث فى تفسير الآية وهو ضرورة نفير بعض سكان ضواحى المدينة إليها ليتفقهوا فى أحكام الدين وتبليغها للآخرين عند الرجوع، ومكث البعض الآخر فى تلك المناطق لحفظ نظام الحياة هناك «۱».

ولكلِّ تفسير ميزة لا توجد فى التفسير الآخر «۲».

ولكنْ بغضّ النظر عن الاختلاف فى التفاسير، فإنّ ما نسعى لإثباته- وهو وجوب التعلم والتعليم- ثابت بلا منازع، وتأكيد القرآنِ على هذين الواجبين دليل واضح علىإمكان وضرورة المعرفة «۳».

ج‌ج

۴- العلمُ والمعرفة هما الهدف من خلق العالم

«اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْاَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْاَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا انَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیْءٍ قَدیرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحاطَ بِکُلِّ شَیْءٍ عِلْماً». (الطلاق/ ۱۲)

لقد شرحنا المراد من السماوات السبع والأرضین ما فیه الکفایة فی التفسیر «الأمثل» «۴».

---

(۱). تفسیر الکبیر، ج ۱۶، ص ۲۲۵؛ تفسیر المیزان، ج ۹، ص ۴۲۷؛ تفسیر مجمع‌البیان، ج ۵، ص ۸۳.

(۲). فی التفسیر الأول مرجع الضمیر فی جملة (لیتفقهوا) و (لینذروا) اسم محذوف والتقدیر هو «وتبقی طائفة»، وهذا فیه حذف، والحذف یعتبر خلاف الظاهر. بینما (نفر) جاء بمعنی الجهاد هنا، هذه نقطة قوة التفسیر الأول. فی التفسیر الثانی مرجع الضمیر مذکور وهو (طائفة)، لکنّ الثانی ضعیف لأنّ میدان الجهاد لیس محلًا للتعلم إلّابالتوجیه الذی ذکر، وفی التفسیر الثالث یقدر المحذوف، لکنه یتفق مع الروایات التی تفسر النفیر (بالهجرة للتفقه فی الدین). «ذکر فی تفسیر الثقلین ۹ روایات فی هذا المجال».

(۳). یقول الإمام الصادق علیه السلام: «لوددتُ أن اصحابی ضربتُ رؤوسهم بالسیاط حتی یتفقهوا» (اصول الکافی، ج ۱، ص ۳۱).

(۴). بالنسبة للسموات السبع یرجع إلی ذیل الآیة ۲۹ من سورة البقرة وبالنسبة للارضین السبع إلی ذیل الآیة ۱۲ من سورة الطلاق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۵

وکیفما کان فإنّ الآیة تبین بوضوح حقیقة أنّ أحد أهداف الخلق هو العلم والمعرفة، وتعریف الإنسان بعلم اللّه وقدرته وصفاته وذاته، وهذه الآیة صریحة فی بیان إمکان المعرفة إلی حدٍ بعید «۱».

۵- الهدف من بعثة الأنبیاء هو التعلیم والتربیة

إنّ القران الکریم ذکر هذه المسألة بشأنِ الرسول الکریم صلی الله علیه و آله عدة مرّات، من جملتها ما جاء فی سورة البقرة:

«کَما أَرْسَلْنا فِیکُمْ رَسُولًا مِنْکُمْ یَتْلُوا عَلَیْکُمْ آیاتِنا وَیُزَکِّیکُمْ وَیُعَلِّمُکُمُ الْکِتابَ وَالْحِکْمَةَ وَیُعَلِّمُکُمْ مَا لَمْ تَکُونُوا تَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۱۵۱)

وقد جاء هذا المعنی فی کلّ من الآیات ۱۲۹ من سورة البقرة و ۱۶۴ من سورة آل عمران و ۲ من سورة الجمعة.

فإذا کانت المعرفة غیر ممکنة،: فکیف أمکن أن تشکل المعرفة أحد الأهداف المهمّة لبعثة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله «۲».

۶- التفکّر والتدبّر هو الهدف من نزول القرآن

«کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ مُبارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ وَلِیَتَذَکَّرَ أُولُوا الْاَلْبابِ . (ص/ ۲۹)

«أَفَلَا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُهَا». (سورة محمد/ ۲۴)

---

(۱). جاء فی حدیث أنّ الإمام الحسین بن علی علیه السلام خاطب أصحابه قائلًا: «أیّها الناس إنّ اللّه جلّ ذکره ما خلق العباد إلّالیعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، فإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة ما سواه» (بحار الأنوار، ج ۵۰، ص ۳۱۲).

(۲). یقول أمیر المؤمنین علیه السلام: «کفی بالعلم شرفاً أن یدَّعیه من لا یحسنه ویفرح إذا نسب إلیه وکفی بالجهل ذمّاً أنْ یبرأ منه مَن هو فیه» (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۵).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۶

مادتها (دُبُر) وتعنی ظهر الشیء، ومن ثم استعملت بمعنی التفکّر والتفکیر بعواقب الامور، وذلک لأنّ عواقب الامور ونتائجها تتّضح بالتفکّر.

إنّ الآيـة الاولى أوضـحت أنّ التـدبر هو هدف نزول القرآن كى لا يقتنع الناس بقراءة الآيات ككلمات مقدسة فحسب وينسوا الهدف الأخير منها.

والآية الثانية اعتبرت ترك التدبر دليلًا على أقفال القلوب وتعطيل الحس.

وعلى أىٍّ فإنّ هاتين الآيتين دعوة عامة للتدبر، دعوة تثبت بوضوح إمكانية المعرفة «۱».

۷- المعرفة هى الهدف من المعراج

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الاسراء/ ۱)

ونفس معنى الآية هذه ورد فى سورة النجم، حيث تحدثت عن المعراج بأسلوب آخر، والآية هى:

«لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى . (النجم/ ۱۸)

تبين هاتانِ الآيتان- على الأقل- أحـد الأهـداف المهمّـة لمعراج النبى صـلى الله عليه و آله وهى قضـية رؤية آيات الحق الكبرى الرؤية التى تعتبر أهم مصادر المعرفة «۲».

۸- الدعوةُ للإسلام بدأت بالدعوة للعلم

«اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . (العلق/ ۱- ۵)

إنّ هذه الآيات التى تعتبر أول أنوار الوحى التى شعّت فى قلب الرسول الطاهر صلى الله عليه و آله فى

---

(۱). يقول الإمـام الكـاظم عليه السـلام لهشـام بن الحكم: «ما بعث اللّه أنبياءه إلى عباده إلّاليعقلوا عن اللّه فأحسـنهم اسـتجابة أحسـنهم معرفة». (أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۶).

(۲). للتفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۱۸ من سورة النّجم.

غار «حراء» فى جبل «ثور»، بدأت بقضية المعرفة وختمت بها.

إسـتهلّت الآيـات بِحَث الرسول الأـعظم صـلى الله عليه و آله على القراءة التى هى احـدى وسائل المعرفـة، وختمت بالبحث عن المعلِّم الأعظم للكون أى اللّه الذى يُعتبر الإنسان تلميذه المُبْتَدِىء.

أليست هذه كلها دلائل واضحة على إمكانية المعرفة؟!

ج‌ج

۹- العلم نور وضياء

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد/ ۱۶)

«وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ». (فاطر/ ۱۹ و ۲۱)

إنّ هـذه الآيات جعلت الظلمات فى عـداد العمى والنور فى عـداد البصـر، وهى إشارة إلى أنّ العلم نور وضـياء، والجهل يساوى العمى وهى من أجمل التعابير للتشجيع على المعرفة «۱».

۱۰- إدراک أسرار الوجود خاصّ بالعلماء

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . (الروم/ ۲۲)

«وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ . (العنكبوت/ ۴۳)

فی الآیة الأولی عُدَّ إدراک اسرار کتاب التکوین خاصاً بالعلماء وفی الثانیة عُدَّ فهم کتاب التدوین خاصاً بهم کذلک.

وهذا تشجیع لطلب العلم والمعرفة من جهة، ودلیل علی مسألة المعرفة من جهة أخری

ج‌ج

---

(۱). یقول الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «العلم نور یقذفه اللّه فی قلب من یرید أن یهدیه». (الوافی، ج ۱، ص ۷).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۸

۱۱- اللّه أول معلّم

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا». (البقرة/ ۳۱)

«الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرآنَ* خَلَقَ الإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ . (الرحمن/ ۱- ۴)

«الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق/ ۴)

«عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَم يَعْلَمْ . (العلق/ ۵)

إنّ معلم الکون العظیم تارة یعلم آدم الأسماء، وتارة اخری یعلم الإنسان ما یحتاجه ومالم یعلمهُ (بواسطة التکوین والتشریع).

وتارة یوعز للإنسان بتناول القلم لِتَعلّم الکتابة، وتارةً اخری یجری علی لسانه حرفاً أو حرفین ویعلمه الکلام، وهذا یکشف عن احدی صفاته عزوجل هی تعلیم العباد، التعلیم الذی هو وسیلة للمعرفة.

ج‌ج

۱۲- بالعلم یتمیَّز الإنسان عن الموجودات الأُخری

«قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا انْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ اقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمواتِ وَالْارْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ . (البقرة/ ۳۳)

إنّ هذا الخطاب الذی ورد فی الآیة کان موجهاً للملائکة بعد أن أمرهم بأن یسجدوا ویخضعوا لخلیفته (آدم) عندما خلقه، لکی یوقروه بعد علمهم بمکانته وتفوقه علیهم، وقد فهم الملائکة أهلیة آدم علیه السلام لخلافة اللّه سبحانه وتعالی فی الأرض بعد أن وجدوا فیه القابلیة والاستعداد لتقبل العلم والمعرفة بأقصی درجاتهما، کما أعربوا عن شدید أسفهم وندمهم حیال ما ساورهم من تردد أو استفسار عن أهلیته للخلافة الإلهیّة فی بادیء الأمر «۱».

ج‌ج

---

(۱). یقول الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: «أکثر الناس قیمة أکثرهم علماً وأقل الناس قیمة أقلهم علماً». (بحارالأنوار، ج ۱، ص ۱۶۴).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۴۹

۱۳- درجاتُ القرب من اللّه تتناسبُ مع درجات المعرفة

«يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ . (المجادلة/ ۱۱)

بـدأت الآية بالحديث عن الاصول الأخلاقية فى آداب المجلس، ثم عن درجات العلماء والمؤمنين بعنوان النتيجة والجزاء لعملهم بهذه الاصول الأخلاقية.

«الـدرجات» جمع «درجـة» وهى تسـتعمل للسـلم عنـدما يرتفع إلى الأعلى تقابلها «الدركات» جمع «دركة» التى تسـتعمل لنفس السـلم عندما ينزل إلى الأسفل كسلم السرداب (الطابق الأسفل).

إنّ اسـتعمال «درجات» نكرةً ايحاءٌ إلى عظمة تلك الدرجات، واسـتعمالها جمعاً لا مفرداً يمكنه أن يكون إشارةً إلى اختلاف درجات العلماء.

بالطبع أنّ الرفع هنا لم يقصد به الرفع المكانى، بل السمو فى طريق القرب من الساحة الربانية.

استنتج العلّامة الطباطبائى رحمه الله فى تفسير (الميزان) أنّ المؤمنين قسمان:

قسم (المؤمنون العالمون) وقسم (المؤمنون غير العالمين)، والمؤمنون العالمون أفضل درجة من المؤمنين غير العالمين ثم استدل بالآية:

«هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ . (الزمر/ ۹)

ويحتمل أنّ الآية تشير إلى علاقة الإيمان بالعلم «۱»، وسنشير إلى هذه الآية تفصيلًا إن شاء اللّه «۲».

۱۴- الأنبياء يُطالبون بعلم أكثر

«وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً». (طه/ ۱۱۴)

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۱۶.

(۲). جاء فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الثواب بقدر العقل». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۸۴).

نفحات القرآن ج۱ ۱۰۰

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۰

إنّ الآيـة الكريمـة تخاطب الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله وتدعوه إلى طلب العلم بالرغم من أنّ الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله يحضـى بمقام علمى شامخ وعظيم، وهذا يكشف عن أنّ الإنسان لا تقتصر عملية طلبه للعلم على مرحلة من المراحل، بل إنّ طريق العلم مستمر وليس له نقطة انتهاء.

«قَالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً». (الكهف/ ۶۶)

فموسى عليه السلام بالرغم من أنّه من اولى العزم وبالرغم من انشراح صدره بمقتضى الآية:

«رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى . (طه/ ۲۵)

وبمقتضى الآية «ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً». (القصص/ ۱۴)

وبالرغم من هذا المقام العلمى الرفيع، إلّاأنّه كان مطالباً بأن يخضع أمام «الخضر» ويتعلم منه كالتلميذ.

وعلى أى حالٍ، فإنّ هذه الآيات أدلة واضحة على إمكانية وضرورة طلب العلم، والسعى المستمر فى طريق التعلم والمعرفة «۱».

۱۵- المعرفة مفتاح نجاة الإنسان

«قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا». (سبأ/ ۴۶)

إنّ خطاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى هذه الآية موجه لأعدائه المنغمسين فى الكفر والشرك، ومختلف أنواع الفساد الأخلاقى.

وقد بيّن لهم أنّ مفتاح نجاتهم من هذا المستنقع الخطر هو التفكّر والعلم الذى هو طريق وسبيل المعرفة.

وعلى هذا الأساس بالامكان معرفة جذور أى ثورة وأى تحول أساسى فى المجتمعات البشرية من خلال معرفة ثوراتهم الفكرية والثقافية.

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم ميراث الأنبياء والمال ميراث الفراعنة». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۵).

فلو كانت المعرفة غير ممكنة فلماذا التفكير؟ بالخصوص بعد حصر الموعظة بالتفكّر وذلك باستعمال «إنّما» التى تفيد الحصر، وهنا يثبت أنّ مفتاح النجاة هو المعرفة فقط!

لكن هذا التفكر سواءاً كان- جماعياً أو فردياً- ينبغى أن يكون متزامناً مع القيام للّهوفى سبيله، ولهذا يقول «انْ تَقومُوا للّه أى بعيداً عن التعصب والعناد، والهوى النفسانى الذى سيأتى شرحه فى موانع المعرفة إن شاء اللّه.

وقد أكّد النبى يوسف عليه السلام على هذا الموضوع، وقال عند جلوسه على عرش السلطة فى مصر:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّموَاتِ وَالْارْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ . (يوسف/ ۱۰۱)

من الملفت للنظر هنا هو أن علم تعبير المنام من العلوم ذات الأهميّة القليلة، وبالرغم من ذلك فإنّ قصة يوسف عليه السلام فى القرآن تكشف بوضوح عن أن علمه بتعبير الرؤيا أدّى إلى إنقاذه من سجن عزيز مصر، كما أدى إلى إنقاذ مصر من القحط والمجاعة، لأنّ العزيز رأى مناماً عجيباً عجز المفسرون عن تأويله، إلّاأنّ أحد السجناء الذين قد أُطلق سراحهم وسبق ليوسف انْ فَسَّرَ رؤياه فى السجن كان حاضراً فى البلاط آنذاك فقال: إنّى أعرف من يفسّر الرؤيا جيداً، وعندما فسّر يوسف عليه السلام له ما رآهُ فى منامه الذى يتعلق بالامور الاقتصادية لسبع سنوات مقبلة، أطلق سراحه وتهيَّأت مقدمات حكومته من جهة، ومن جهة اخرى استطاع أن يضع برنامجاً دقيقاً لانقاذ أهل مصر من المجاعة خلال سنوات القحط المقبلة.

إنّ الآية السابقة التى تحدثت عن علم تأويل الأحاديث (فى المنام) بعد حديثها عن ملك يوسف (حكومته)، يمكن أنّها تشير إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

وكيفما كان فإنّ هذه الآية توحى بأنّ مفتاح النجاة هو العلم والمعرفة.

وحتى أنّ أبسط العلوم يمكن أن يكون سبباً لانقاذ دولة «۱».

ج‌ج

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام مخاطِباً كميل: «يا كميل ما من حركة إلّاوأنت محتاج فيها إلى معرفة» (تحف العقول، ص ۱۹).

۱۶- العلم فخر بجميع أشكاله

«وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤمِنِينَ* وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا ايُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ . (النمل/ ۱۵ و ۱۶)

بالرغم من ملك وعظمة «سليمان» و «داود» اللذيْن لم يكن لهما مثيل بل ويحتمل عدم قيام حكومة كحكومتهما على مرّ التاريخ كما فى الآية ۳۵ من سورة (ص) «وَهَبْ لِى مُلْكاً لَا يَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى خصوصاً وأن حكومتهما لم تخص الانس، بل امتدت حتى شملت الجنّ والحيوانات وحتى القوى الطبيعية كالريح، مع هذا كله فاللَّه عندما يَهَبُ نعمه إلى الوالد وولده، يبدأ بنعمة العلم والمعرفة، لذا كانا يشكرانه لما فضّلهما على كثير من عباده (يحتمل أن يكون الشكر بهذا الاسلوب) «على كثير من عباده» لا غير لأنّه كان هناك من أُتُوا علماً أوفر مما أوتىَ سليمان وداود)، والجدير بالذكر هو أنّ (سليمان) بالرغم من ملكه العظيم «بحيث إنّ كل من شك فى ذلك ضحكت على عقله الطيور والأسماك»، رغم هذا، فانه كان يفتخر بعلوم قليلة الأهميّة مثل معرفته بلغة الطيور قبل افتخاره بملكه وحكومته ومواهبه الإلهيّة الاخرى.

إنّ هذه النصوص الجميلة تُبيّنُ عظمة مقام العلم بجميع أبعاده، وهو بنفسه دليل واضح على إمكانية وضرورة المعرفة «۱».

۱۷- المعرفة شرط أساسى للادارة والقيادة

عندما اقترح على يوسف التصدى لمسؤولية مهمة فى حكومة مصر، قال:

«إِجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ . (يوسف/ ۵۵)

عندما أعلن بنو اسرائيل عن استعدادهم لمقارعة الملك الظالم آنذاك «جالوت» الذى شردهم، طالبوا نبيّهم بأن يعين لهم قائداً كى يجاهدوا «جالوت» الظالم، تحت رايته، قال لهم النبى:

---

(۱). جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «العلم أصل كل حال سنى ومنتهى كل منزلة رفيعة» (المحجة البيضاء، ج ۱، ص ۶۸).

«انَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسطَةً فِى الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ . (البقرة/ ۲۴۷)

والجدير بالذكر إنّ «طالوت» الذى كُلِّفَ بمهمة قيادة بنى اسرائيل لمقارعة الملك القوى والظالم، كان قروياً مجهولًا يعيش فى احدى القرى الساحلية وكان يرعى مواشى أبيه ويزرع!

لكنّه كان ذا قلبٍ واعٍ، وجسم قوى، ومعرفة دقيقة وعميقة بكثير ممّا يجرى حوله، ولهذا عندما رآه النبى «اشموئيل» عينّه قائداً على بنى اسرائيل ولم يعبأْ باعتراضاتهم على تعيينه، تلك الاعتراضات الناشئة عن معايير وهمية فى انتخاب القائد كامتلاك الثروة والأموال الطائلة والسمعة والتقاليد الموروثة من الآباء، حيث كانوا يعترضون بأنّه مع ما عندنا من أشخاص ذوى سمعة وثروة، وهم أجدر من طالوت لهذه المسؤولية، فكان يجيبهم النبى: إنّ هذا الاختيار هو انتخاب الهىّ، والكل يجب أن يسلّم لأمره.

إنَّ هاتين الآيتين تدلان بوضوح على أنّ المعرفة والعلم من عناصر القيادة والإدارة، وتؤكدان ما قلناه عن المعرفة حتى الآن «۱».

۱۸- العلم منبع الإيمان

«وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». (سبأ/ ۶)

«إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً* وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِنَا لَمَفعُولًا». (الاسراء/ ۱۰۷-

(۱۰۸)

«فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسى . (طه/ ۷۰)

«وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكَ فَيُؤمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ...».

(الحج/ ۵۴)

---

(۱). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «الملوك حكام على الناس والعلماء حكام على الملوك».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۴

«... وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ . (آل عمران/ ۷)

إنَّ الآية الأخيرة تلقى الأضواء على العلاقة الوثيقة بين العلم والإيمان، وتبيّن بأنّ المطلع والمتبحر هو الأرسخ فى الإيمان والتسليم «۱».

إنَّ هذه الآيات تبين بوضوح أن المعرفة هى إحدى السّبل المؤدية إلى الإيمان، والإيمان الذى ينبع منها سيكون راسخاً قوياً ومتجذراً إلى مستوىً بحيث نقرأ فى قصة موسى عليه السلام السحرة فى عصر فرعون، أنّ إيمانهم بموسى عليه السلام كان بسبب معرفتهم بأنّ ما جاء به موسى عليه السلام لم يكن سحراً، فما كان من فرعون إلّاأنْ هدّدهم بشدّة قائلًا لهم: «آمنتُم لَهُ قَبْلَ أنْ آذَنَ لَكُمْ؟!» فالطغاة يريدون التحكم حتى بعقول الناس وإيمانهم القلبى وفهمهم ولا يتصرف أحدٌ بأى شىء إلّاباذنٍ منهم، وقد جاء فى تهديد فرعون لهم أنّه قال:

«فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ...». (طه/ ۷۱)

لكنهم كانوا بدرجة من الصمود بحيث كانوا يقولون له:

«لَنْ نُّؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ». (طه/ ۷۲)

وفعلًا فقد نفّذ فرعون وعيده الذى قطعهُ على نفسه بالإنتقام من السحرة المؤمنين، واستشهدوا من أجل المعتقد الذى ذابوا فيهِ عشقاً ونالوا مبتغاهم الاسمى وهو الشهادة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسى إنّهم: «كانوا فى أول النهار كفاراً سحرة وفى آخر النهار شُهَداء بَرَرَةٌ».

إنَّ ثمرات العلم له تنحصر بالإيمان فحسب بل تشمل الإستقامة والصمود أيضاً. «۲»، «۳»

---

(۱) ما ذكرناه حقيقة لا تنكر سواء قلنا بأن كلمة «الراسخون» معطوفة على «اللّه»، أو قلنا بأنها مبتدأ وخبرها الجملة اللاحقة، لأنّه على كلا الفرضين، الضمير فى «يقولون» يرجع إلى «الراسخون فى العلم» وبه تتّضح العلاقة بين الإيمان والعلم فى الآية.

. (۲) يعتقد البعض أنّ «العلم» والإيمان» شىءٌ واحد. فإذا كنا نعلم بأنّ هناك خالقاً لهذا العالم وهو قادر وعالم، فنفس هذا العلم إيمان به، لكن المحققين يقولون بفصل الإيمان عن العلم، لأنّ الإيمان يمكن أن يكون ثمرة من ثمار العلم (وليس الثمرة الضرورية والدائمية) لكنه ليس عين العلم والإيمان التسليم القلبى والقبول والاعتراف الرسمى، بينما كثيراً ما يحصل أن يعتقد الإنسان بشىء ولم يسلم به، كما يحكى القرآن عن البعض فى سورة النمل الآية ۱۴ «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمَاً وعُلُوّاً» ..

(۳) يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «العِلمُ حياة الإسلام وعماد الإيمان». (كنز العمال، ج ۱۰، ص ۱۸۱).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۵۵

۱۹- العلم منشأ تقوى اللّه وخشيته

«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ». (فاطر/ ۲۸)

يقول الراغب فى مفرداته «الخشية هى الخوف الذى يكون متزامناً مع التعظيم، وغالباً ما ينشأ عن العلم».

«وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ . (البقرة/ ۱۹۷)

إذ لم تكن هناك علقة بين «العلم» و «التقوى لم يخاطب اللّه سبحانه وتعالى «أولو الألباب» داعيهم للتقوى فى الآية، وهذا الخطاب دليل على هذه العلقة المباركة.

«فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . (المائده/ ۱۰۰)

«كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ . (البقرة/ ۱۸۷)

إنَّ هذا التعبير فى الآية الأخيرة يدل بوضوح على أنّ اللّه تعالى يبين الآيات كمقدمة لإيجاد الوعى لدى الناس، والوعى يكون أحد سُبل التقوى

بالطبع ليس كلما كان العلم كانت التقوى لأنّ هناك علماء غير عاملين، لكن المتيقن أنّ العلم مقدمة وأرضية خصبة للتقوى ويعتبر من المصادر الأساسية للتقوى وَالتقوى غالباً ما تكون قرينة العلم، العلم الذى يكون مقروناً بالإيمان سيكون منشأً للتقوى كذلك.

والعكس بالعكس، فالجهل غالباً ما يؤدى إلى نفى التقوى والورع «۱».

۲۰- العلم منشأ الزهد

«وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ . (القصص/ ۸۰)

---

(۱) يقول أمير المؤمنين عليه السلام «أعظم الناس علماً أشدّهم خوفاً من اللّه». (غرر الحكم، الحكمة ۳۲۶).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۶

أشارت هذه الآية التى جاءت فى أواخر سورة القصص إلى قصة (قارون) ونقلت نصيحة علماء بنى اسرائيل لكافة الناس، الذين تمنوا امتلاك ثروة قارون عند استعراضه لثروته.

فعندما شاهد أهل الورع من علماء بنى اسرائيل تَعَلُّقَ الناس بالدنيا وحبهم الشديد لها وارتباطهم الوثيق بها خاطبوهم قائلين: ويلكم يا عبدة الدنيا! لا تخدعكم الثروة وبهارج الدنيا، فالجزاء الإلهى خير لكم فى الدنيا والآخرة إن عملتم صالحاً وكنتم مؤمنين، لكن لا ينالُ هذا الثواب الإلهى إلّاالصابرون الرافضون الظلم والاغراءات المادية.

إنّ عبارة (اوتوا العلم) تدل بوضوح على وجود علاقة بين (الورع والزهد) من جهة والعلم والمعرفة) من جهة اخرى، وأنّ العارفين بزوال الدنيا وحقارة الثروات المادية فى قبال الجزاء الإلهى وخلود الآخرة، فانّهم لا ينخدعون بالماديات ولم يتمنوا ثروة قارون «۱».

۲۱- التطور المادى مرهون بالعلم

«قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِى . (القصص ۷۸)

الكلام الذى ورد فى الآية الكريمة قاله قارون الغنى والمغرور والأنانى عندما نصحه علماء قوم موسى أن استثمر ثروتك فى مجال منافع العباد ولا تنسَ نصيبك من الدنيا، وأحسن لعباد اللّه كما أحسنَ اللّه اليك ولا تتخذ ثروتك وسيلة للفساد.

لكنه أجاب قائلًا: إنّى جمعت هذه الثروة بفضل علمى ومعرفتى.

والذى ينبغى ذكره هنا هو أنّ اللّه لم ينفِ ادّعاءهُ هذا.

بل يقول تعالى «اوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً». (القصص/ ۷۸)

(۱). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ ممّا خاطب اللّه به موسى بن عمران قال: إنّ عبادى الصالحين زهدوا فيها بقدر علمهم بى». (بحار الأنوار ج ۱۸، ص ۳۳۹).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۷

إنَّ هذا التأييد الضمنى يكشف أنّ لقارون علماً تمكن بواسطته أن يجمع ثروته العظيمة (سواء كان ذلك العلم هو علم الكيمياء- كما يدعى بعض المفسرين أو كان معرفته لقواعد وفنون التجارة والأعمال).

إنَّ المسلَّم به هو أنّ ادعاء قارون لم يصلح حجة لمنع انتفاع الناس بثروته، وذلك أنّ الإنسان مهما كانت لديه من مؤهلات وقابليات، لا يمكنه لوحده أن يكسب ثروة بهذا الحجم فلابدّ أنّه قد استفاد من الآخرين فى سبيل تحصيلها، لذا فهو مَدينٌ للمجتمع ولتعاونهم معه.

وعلى أى حالٍ، فإنّ ما تبينه هذه الآية هو وجود علاقة بين «العلم المادى» والتطور المادى»، وهذا ما نشاهده بوضوح فى عصرنا الحاضر، حيث إنّ أقواماً تقدموا مادياً فى مجال الصناعة والحضارة المادية وذلك بفضل علومهم وتقنيتهم وصناعاتهم «۱».

۲۲- العلم مصدرالقوة أو (العلم قوّة)

«قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى . (النمل/ ۴۰)

هذه الآية لها علاقة بقصة سليمان وملكة سبأ، فعندما أراد سليمان أن يأتى بعرشها، تعهد عفريتٌ من زعماء الجنّ بأن يأتى به قبل أن يقوم سليمان من مجلسه، لكن وزير سليمان «آصف بن برخيا» الذى كان عنده علم من الكتاب، والذى كان علمه يمكنه من القيام بأعمال خارقة للعادة قال لسليمان: إنّى استطيع أن آتى به قبل أن يرتد إليك طرفك وفعل ما قال، فشكر سليمان ربّه على الفضل الذى آتاه إيّاه من الأنصار والأعوان والأصدقاء.

وهذه الآية وإن جاءت فى مورد خاص، لكنها تكشف بوضوح عن العلاقة الموجودة بين العلم والقوّة، وترغب وتشجع على كسب العلم «۲».

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لا غنى أخصب من العقل ولا فقر أحط من الحمق». (اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۹).

(۲). يقول الإمام الصادق عليه السلام: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس». (اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۹۰).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۵۸

۲۳- العلم و التزكية

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . (البقرة/ ۱۲۹)

ما ورد فى الآية الكريمة الذى يعد بمثابة دعاءٍ دَعا به «إبراهيم» و «إسماعيل» عليهما السلام فى ضمن أدعية دعيا بها اللّه، يكشف بوضوح عن العلاقة الوثيقة بين «العلم والحكمة» من جهة، و «التزكية والتربية» من جهة اخرى وقد تقدم العلم هنا على التزكية.

لكن فى الآيتين التاليتين واللتين تناولتا منهج الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بعد البعثة، تقدمت التزكية على العلم فيهما، حيث يقول اللّه تعالى هناك:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ

لَفِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ . (آل عمران/ ۱۶۴)

کما أنّ الآیة الثانیة من سورة الجمعة تشبه الآیة المتقدّمة مضموناً.

الظاهر أنّ الاختلاف فی التعبیر حین یقدم العلم علی التزکیة تارة والتزکیة علی العلم تارة اخری ناشیءٌ من التأثیر المتبادل بین هذین الاثنین، فإنّ العلم مصدر التربیة الأخلاقیة، والتربیة الأخلاقیة تصلح لأنّ تکون فی- بعض مراحلها- مصدراً للعلم.

وعلی هذا، فکل منهما یهیىء الأرضیة للآخر، وهذا هو معنی التأثیر المتبادل للعلم والتزکیة (وسیأتی شرح هذا الموضوع فی بحث مؤهلات المعرفة إن شاء اللّه) «۱».

۲۴- علاقة العلم بالصبر

«وَکَیْفَ تَصْبِرُ عَلَی مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً». (الکهف/ ۶۸)

هذا الحدیث نطق به العالم الربانی (الخضر) مخاطباً به موسی بن عمران، عندما سأله أن

---

(۱). یقول أمیر المؤمنین فی حدیث له حول العلم: «ومن ثمراته التقوی واجتناب الهوی ومجانبة الذنوب». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۶).

یعلمه من علومه، فاجابه الخضر: إنّک لم تَحُط بأسراری وألغاز أعمالی، ولن تتحملها وذلک لقلّة احاطتک ومعرفتک.

وهذا التعبیر یبین بوضوح أنّ عدم العلم والمعرفة یؤدّی إلی نفاد صبر الإنسان.

بالطبع أنّ الصبر قد یکون مصدراً لزیادة العلم والمعرفة، وعلیه فهذان الإثنان بینهما تأثیر متبادل کما یصرح بذلک القرآن فی عدد من الآیات:

«إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیَاتٍ لِّکُلِّ صَبَّارٍ شَکُورٍ».

(ابراهیم/ ۵)، (لقمان/ ۳۱)، (سبأ/ ۱۹)، الشوری ۳۳)

ومن الواضح أن طریق العلم والمعرفة طریق صعب ملیءٌ بالمنغّصات، ولا یمکن أن یدرک العلم إلّابالصبر والتحمل والصمود، وأنّ العلماء والمخترعین والمکتشفین لم یصلوا إلی ما وصلوا إلیه إلّابالمثابرة والصبر.

۲۵- العلم والمعرفة خیر کثیر

«یُؤْتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشَاءُ وَمَنْ یُؤْتَ الْحِکْمَةَ فَقَدْ أُوتِیَ خَیْراً کَثِیراً». (البقرة/ ۲۶۹)

وکلمة «الحکمة» مشتّقة من مادة «حَکْم» علی وزن (خَتْم) وتعنی الصدّ والمنع بهدف الإصلاح ولهذا یقال لزمام الحیوان «حَکَمَة» علی وزن (شَجَرة)، وبما أنّ العلم والمعرفة یحول دون اتخاذ الإنسان سلوکاً مشیناً، فلهذا سمیت «حکمة».

کما أنّ «العقل» یعنی الامساک والحفظ، ولهذا قیل للحبل الذی تُربط به رِجلا الجمل «عقال»، فالعقل قیل له عقلًا لأنّه یصون الإنسان من الانحراف عن جادة الصواب.

وعلی أیّة حال، فإنّ القرآن الکریم وصف العلم بأبلغ وأجمل توصیف حیث قال (خیراً کثیراً)، وهذا التعبیر یشمل جمیع النِعَم والمواهب الإلهیّة المادیة منها والمعنویة.

إنَّ المستخلص من خمسة وعشرین عنواناً ذکر حتی الآن حقیقة بیّنه واضحة وهی: إنّ القرآن وبالاستعانة بعبارات شیقة ولطائف البیان

يحثّ الإنسان على طلب العلم والمعرفة

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۰

ويعدّهما أفضل موهبة ونعمة إلهية، ويستفاد من التعبيرات السابقة بالدلالة الالتزامية أنّ طريق العلم مفتوح للجميع، ولا شيء أنفع منه، وهذا هو الشيء الذى نحن بصدده «۱».

والآن ننتقل إلى عناوين اخرى تدور حول محور «الجهل» وبملاحظة آثاره السلبية والمدمرة، نشق طريقنا نحو العلم والمعرفة وما ينتج عنهما من آثار إيجابية وحيوية.

۲۶- أصحاب السعير هم الجاهلون

«وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ والْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ . (الاعراف/ ۱۷۹)

إنَّ كلمة «ذرأ» مأخوذة من مادة ذَرْء على وزن (زَرْع) وتعنى الخلق، لكن المستخلص من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها يعنى «نثر البذور».

ويحتمل لهذا السبب ذكر الراغب فى «مفرداته» أن معناها الأصلى هو «الاظهار والايضاح»، بينما قال البعض كما فى «التحقيق فى كلمات القرآن»: إنَّ معناها الأصلى هو «النثر والنشر».

فإذا أُريد منها الخلق فيكون معنى الآية: إنَّ أولئك الذين وهب اللَّه لهم السمع والبصر والفؤاد ... (وسائل المعرفة) ولم يستفيدوا منها لا مصير لهم غير جهنم، وإذا كانت «ذرأ» بمعنى النشر والنثر، فالآيةُ تُشير إلى أنّ أشخاصاً كهؤلاء سينثرون فى جهنم.

وعلى أيّة حال فهذه الحقيقة تكشف عن أنّ عاقبة الجهل وتعطيل وسائل المعرفة ليست سوى نار جهنم.

«وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِى أَصْحَابِ السَّعِيرِ* فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ». (الملك/ ۱۰ و ۱۱)

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لا كنز أنفع من العلم». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۳).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۱

نعم إنَّ ذنبهم العظيم هو أنّهم لم يستفيدوا من عقولهم وعطلوها عن النهوض بمهامها، ولم يصغوا لقول الحق وبهذا أغلقوا أبواب المعرفة والعلم، وفتحوا أبواب جهنم ليدخلوها داخرين.

إنّ سياق الآية الثانية التى تنسب الإثم إلى أصحاب السعير وهم يعترفون بأنّ مصيرهم ما كان هذا لو أنهم استفادوا من عقولهم، وهذا الاعتراف الكاشف عن الندم، دليل على أنّ سلوكهم لهذا الطريق كان باختيارهم، وإذا زعم بعض المفسّرين كالفخر الرازى عند تفسيره للآية الاولى أنّها دليل على الجبر، فإنّ الثانية تنفى مزاعمه وتصلح لأنّ تكون مفسرةً للاولى لأنّ «القرآن يفسر بعضه بعضاً».

وعلى أيّة حال فإنّ العلاقة بين «جهنم» و «الجهل» لاجدال فيها فى القرآن وسوف تتضح فى الأبحاث القادمة أكثر «۱».

۲۷- الجهل مصدر انحطاط البشر

«إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَايَعْقِلُونَ . (الأنفال/ ۲۲)

إنَّ هذه الآية والتى قبلها تُشيران إلى موضوع واحد لكن الأخيرة تشير له صراحة والسابقة تلميحاً، والموضوع هو: إنّ الإنسان متى ما ترك الاستعانة بوسائل المعرفة التى منحها اللَّه له فانّه سينحط ويسقط إلى مستوى يجعله أضل من جميع الدواب التى على وجه الأرض، ولَم لا يكون كذلك مَن بإمكانه أن يصل إلى أعلى عليين فى جوار ربّ العالمين، وأن يصل إلى مقام «لا يرى به إلّااللَّه»،

ولكن بتركه جميع المواهب والمِنَح الإلهيّة فإنّه سيسقط إلى أسفل سافلين.

إضافةً إلى هذا، فإنّ الإنسان الذى لا يسير فى جادة الخير والهداية، فانه ربّما يستخدم تلقائياً جميع المواهب والقابليات الإلهيّة فى طريق الشر، وسيرتكب جرائم مفجعة ويخترع

---

(۱). فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «إنّ اللّه أوحى إلىَّ أنّه مَن سلك مسلكاً يطلب فيه العلم سهلت له طريقاًالجنة». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۷۳).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۲

وسائل رهيبة لم يدنُ إلى مستوى وحشيته أىٌّ من الحيوانات المفترسة، كما نشاهد نماذجه فى عصرنا الحاضر عند أُناس بعيدين عن اللّه والبشرية «۱».

۲۸- الجهل عمى

«افَمَنْ يَعْلَمُ انَّمَا انْزِلَ الَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ اعْمَى انَّمَا يَتَذَكَّرُ اولُوا الْالْبَابِ .

(الرعد/ ۱۹)

تضع الآية الكريمة العلماء وذوى الفكر فى مقابل العُمى، والتقابل هذا يكشف عن أنّ العمى والجهل سواء، وقد جاء هذا المعنى فى آيات اخرى بأسلوب آخر:

«وَمَا يَسْتَوِى الْاعْمَى وَالْبَصِيرُ* وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ* وَلا الظِّلُّ وَلَاالحَرُورُ* وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ...» «۲». (فاطر/ ۱۹- ۲۲)

۲۹- الحياة مع الجهل هى أرذل العمر

«وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا ...». (الحجّ/ ۵)

وقد جاء فى سورة النحل الآية ۷۰ نفس ما جاء فى هذه الآية من معنىً مع اختلاف ضئيل.

إنَّ كلمة «أرذل» مشتقة من مادة «رذل» وتعنى الموجود الضال، كما فى كثير من معاجم اللغة مثل «المقاييس» و «صحاح اللغة» و «المفردات» وغيرها، وبتعبير آخر الشىء الذى لا يُعتنى به أو لا قيمة له.

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهل مطية شموس من ركبها زلَّ ومن صحبها ضلَّ». (غرر الحكم، ج ۱، ص ۸۵).

(۲). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «من لم يصبر على ذلّ التعلم ساعة بقى فى ذل الجهل أبداً». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۷۷).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۳

وعليه فالمراد من «أرذل العمر» أيّام وساعات من العمر التى تقلّ قيمةً عن بقية أيّام العمر، وقد نعت القرآن الأيّام الأخيرة من الشيخوخة التى تتزامن مع نسيان العلوم وفقدانها ب «أرذل العمر»، وعليه فأفضل أيّام العمر وساعاته هى الأيّام والساعات التى تكون مقرونه بالعلم والمعرفة «۱».

۳۰- الجهل مصدر الكفر

«وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (الأعراف/ ۱۳۸)

إنَّ ما يثير العَجب هو أنّ بنى اسرائيل شاهدوا بأم أعينهم الإعجاز والعظمة الإلهيّة فى غرقِ الفراعنة، ونجاتهم عندما عبروا النيل، وبالرغم من ذلك كله يقترحون على موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه.

لكن موسى أجابهم أنَّ جهلكم دعاكم إلى عبادة الأصنام.

وفى الحقيقة أنّ عبادة الأصنام دائماً تنشأ عن الجهل، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يعبد ما يصنع بيده؟ وكيف له أن يطلب حل المعضلات والمشاكل الكبرى التى تعترى حياته من قطعة من خَشب أو معدن؟!

إنَّ تاريخ عبادة الأصنام يكشف عن أنّ هذا العمل القبيح نَما وتطور تحت ظلِّ من الخرافات والأوهام، وكلما تقدمت الشعوب فى مجال العلوم والتقنية كلما تراجع الشرك وعبادة الأصنام وازدادت أنوار التوحيد ضياءً:

إنَّ النبى العظيم «هود» كان يصرح لقوم «عاد» بهذا الأمر إلّاأنّه عندما شاهد فيهم الإصرار على عبادة الأصنام طلب من اللَّه سبحانه أن يُنزل العذاب عليهم قال:

«إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَاللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرسِلْتُ بِهِ وَلكِنّى أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ .

(الاحقاف/ ۲۳)

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «الجهل فى الإنسان أضرّ من الأكلة فى الأبدان» (غرر الحكم).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۶۴

إنَّ التعبير ب «تجهلون» أى بصيغة المضارع الذى عادة ما يدل على الاستمرار، يوضح أنّ «الجهل المستمر» كان منبع الشرك وعبادة الأصنام، وفى الحقيقة إنَّ تعاضد ثلاثة أنواع من الجهل ولدت هذه الحالة الاجتماعية، وهى: الجهل باللَّه وبأنّه لا كفو ولا مثيل له، والجهل بمقام الإنسان وأنّه أشرف المخلوقات، والجهل بالطبيعة وأنّه لا قيمة للجمادات فى قبال موجود كالإنسان.

ترى كيف سمح الإنسان لنفسه أنْ يجعل قطعة من الحجر اقتطعت من الجبل تارة فى درجات السلّم فى منزلة يسحقها بأقدامه، وتارة يصنع منها صنماً يركع ويسجد له ويطلب منها حل مشكلاته الكبرى ، يعدون هذا جهلًا «۱»؟

۳۱- الجهل السبب الأساسى للفشل

«يَا ايُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ انْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِأَتَيْنِ وَانْ يَكُنْ مِّنْكُمْ مِأَةٌ يَغْلِبُوا الْفاً مِّنَ الَّذينَ كَفَرُوا بِانَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَفْقَهُونَ . (الأنفال/ ۶۵)

الظاهر أنّ الآية ناظرة إلى معركة «بدر» وعدم تساوى عدد المشركين والمؤمنين فيها، وهى تنفى اسطورة توازن القوى كإيعاز إسلامى إلهى تأمر الآية بعدم التراجع فى المعركة حتى لو كان عدد جنود الإسلام عُشْرَ جنود العدوّ! لكن الذى يسدُّ النقص الكمى فى القوات الإسلامية- كما تصرح الآية- هو شيئان: الأول هو الصبر والاستقامة والثبات عند المؤمنين، والثانى هو جهل وحماقة الأعداء.

وهذا يدل بوضوح على أنّ الاستقامة والصبر هما الطريق للنصر، وأنّ الجهل هو سبب الخسران والفشل.

الجهل بالقابليات والطاقات الإلهيّة المودعة فى ذات الإنسان.

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل لا يرتدع، وبالمواعظ لا ينتفع». (غرر الحكم، ج ۱، ص ۶۸). ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «ليس بين الإيمان والكفر إلا قلّة العقل». (اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۸).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۵

الجهل بقدرة اللّه عزّ وجلّ وعظمته.

الجهل بتقنيات وقواعد المعركة، وأنواع اخرى من الجهالة «۱».

۳۲- الجهل مصدر لاشاعة الفساد

«أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ . (النمل/ ۵۵)

إنّهم قوم لايؤمنون باللّه يجهلون بهدف الخلق وقوانينه، ويجهلون الآثار السيئة لهذا الإثم والعار يعنى «اللواط»

إنّ هذا الحديث الذى نطق به النبى العظيم «لوط» يشير بوضوح إلى أنّ ميل أولئك القوم إلى هذا العمل البشع والقبيح (اللواط) نشأ عن الجهل وعدم المعرفة.

والنبى يوسف عليه السلام يُشير إلى هذا المعنى باسلوب آخر:

«قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِّنَ الْجَاهِلِينَ . (يوسف/ ۳۳)

إنَّ ذكر النساء بصيغة الجمع يدل على أنّ نساء مصر كُنَّ يُردنَ أن يُخرجنَ يوسف عن جادة العفاف وليس امرأة عزيز مصر (زليخا) فقط، ويوسف عليه السلام كان مستعداً لتقبل السجن برحابة صدر على الابتلاء بحبِّ نساء مصر له.

إنَّ الجملة الأخيرة من الآية السابقة تُشير إلى أنَّ العشق الملوّث بالإثم والانحرافات الجنسية (على الأقل فى كثير من الموارد) ناشئٌ عن الجهل، الجهل بالقيم المجبول عليها الإنسان، الجهل بالآثار القيمة للعفاف والطهارة والنزاهة، والجهل بمردودات الإثم، وأخيراً الجهل بالأوامر والنواهى الإلهيّة.

وكما نرى فى قصة يوسف بوضوح أنّ السبب الأساسى فى ارتكاب الجريمة من قِبَلِ

---

(۱). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «من عمل على غير علم كان ما يُفسدُ أكثر ممّا يصلح». (مشكاة الأنوار، ص ۱۳۵).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۶

إخوانه هو الجهل وعدم معرفتهم:

«قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ . (يوسف/ ۸۹)

نعم أنتم الذين عذبتم أخاكم أولًا، ثم ألقيتموه فى الجب عن جهل ثانياً! أنتم الذين كذبتم على أبيكم ذلك الشيخ العجوز وأَدْمَيْتُمْ قلبه عندما أخفيتم ابنه عنه، وفى النهاية بيعه بعدة دراهم بخسة كما يُباع الرق ولم تفوا بعهدكم الذى عاهدتم به أباكم تجاه الأخ الآخر «بنيامين» عندما اتُّهِمَ بالسرقة فتركتموه وحيداً.

وجهلكم هو وحده منشأ جميع هذه الأفعال «۱».

۳۳- الجهل أساس التعصب والعناد

«إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ...». (الفتح/ ۲۶)

إنَّ كلمة «حمية» مشتقة من مادة «حَمْى» على وزن «حَمْد»، وكما يذكر الراغب فى «مفرداته» أنّ معناها الأولى هو الحرارة الناشئة من أشياء مثل النار والشمس والقوة الباطنية فى جسم الإنسان (الحرارة الذاتية والباطنية للأشياء)، ولهذا يقال لارتفاع درجة حرارة المريض (حُمّى على وزن (كُبْرى ، وبما أنَّ التعصب والغضب يولدان حرارة وحرقة فى باطن الإنسان قيل «حمية»، وقد جاء فى كتاب «التحقيق

فى كلمات القرآن الكريم» أنّ «الحميۀ» هى شدۀ الحرارۀ والعلاقۀ والتعصب فى الدفاع عن النفس «۲».

إنَّ هذه الآيۀ نزلت فى حوادث صلح الحديبيۀ وتوضيح قصۀ سبب النزول: أنَّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قصد مكۀ للحج فى السنۀ السادسۀ من الهجرۀ، إلّاأنّ المُشركين منعوا المسلمين من دخول مكّۀ تعصباً لجاهليتهم، مع أنَّ السماح بزيارۀ مكۀ كان مباحاً للجميع

---

(۱). يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «فقيه واحد أشدُّ على إبليس من ألف عابد». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۷۷).

(۲). «هى شدۀ الحرارۀ، والعلاقۀ والتعصب فى الدفاع عن نفسه والتعفّف والترفع». (مادۀ حمى .

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۷

حسب قوانينهم وسننهم المتعارفۀ، فهم بهذا انتهكوا حرمۀ الحرم الإلهى، ونقضوا سنتهم، إضافۀ إلى أنّهم وضعوا حائلًا ضخماً بينهم وبين الحقائق.

إنّ إضافۀ «الحميۀ» إلى «الجاهليۀ» من قبيل إضافۀ «السبب» إلى «مسببه»، التعصب والعناد والغضب ينشأُ عن الجهل دائماً، لأنّ الجهل لا يسمحُ للإنسان أن يفكر بعواقب أعماله، ولا يسمحُ له قبول أن فكرته قد تكون خاطئۀ، وأنَّ هناك علماً أوسع وأكبر من علمه، ولهذا نرى أنّ شدّۀ عناد وتعصّب الأقوام الجاهلۀ أكثر منها فى الأقوام الاخرى، ولهذا السبب نجد أن الأنبياء والرسل عندما يبعثون إلى قوم بالرسالات والأنوار الإلهيّۀ الساطعۀ، يواجهون مقاومۀ عنيفۀ، ويتهمون بمختلف التهم، وقد أورد القرآن الكريم نموذجاً من ذلك:

«وَعَجِبُواْ أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنهُمْ وَقَالَ الكَافِرونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ* أَجَعَلَ الآلِهَۀَ إِلهاً وَاحِداً إِنَّ هَذا لَشَىءٌ عُجَابٌ* وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُواْ وَاصْبِرُواْ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ يُرَادُ* مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِى الْمِلَّۀِ الْآخِرَۀِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . (ص/ ۴- ۷)

حيث ترى أنّ حديثهم مملوء بالعناد، الناشىءُ عن الجهل والغرور «۱».

۳۴- الجهل مصدر لاختلاق الحجج

«وَقَالَ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَۀٌ كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ . (البقرۀ/ ۱۱۸)

هناك قضيۀ تتكرر دائماً فى تاريخ الأنبياء والرسل وهى أنّ الجاهلين والمعاندين يختلقون الحجج الواهيۀ من أجل الهروب من الإيمان بالأنبياء والرسل والتسليم للحق الذى يرونه بأم أعينهم من خلال المعاجز الإلهيّۀ ووسائل الاقناع التى يأتى بها الرسل فتراهم تارۀ يقولون لِمَ بَعثَ اللَّهُ بشراً رسولًا؟ لِمَ لَمْ يأت مَلَك محله؟

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلم أصل كل خير والجهل أصل كُل شر». (غرر الحكم، ص ۲۰ و ۲۱).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۸

وتارۀ يقولون: لِمَ لم ينزل علينا كتاباً نقرأُه؟

و أُخرى يقولون: لن نؤمن ما لَمْ نرَ اللَّهَ والملائكۀ جهرۀ.

وتارۀ اخرى يقولون: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنّۀ من نخيل وعنب وتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، كما فى سورۀ (الإسراء) فى الآيات ۹۰، ۹۳.

كما أنّ هناك أمثلۀ ونماذج اخرى ذكرت فى القرآن الكريم.

فى الحقيقۀ أنّ ذوى العلم يكتفون بدليل منطقى واحد، وإذا تعددت الأدلۀ عندهم ازدادوا رسوخاً وإيماناً.

لكن المتعصبين والجاهلين المعاندين غير مستعدين للتخلى عن عقائدهم وخرافاتهم، فيتمسكون كل يوم بحجّة فى سبيل الهرب من الحقيقة، وإذا ما دُحِضَتْ حجتهم تركوها وتمسكوا بحجة اخرى، ذلك لأنّ هدفهم ليس طلب الحقيقة بل التملص منها «۱».

۳۵- الجهل هو سبب التقليد الأعمى

«إِذْ قَالَ لِابِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الَّتَماثِيلُ الَّتِى انْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنا لَهَا عَابِدِينَ* قَالَ لَقَدْ كُنْتُم انْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ . (الأنبياء/ ۵۲- ۵۴)

إنَّ كلمة «التماثيل» جمع «التمثال» والتى تعنى الموجود الذى له وجه، وتطلق على التماثيل المنحوتة والرسوم.

وكلمة «عاكفون» مشتقة من مادة «عكوف» وتعنى التوجه المستمر نحو شىءٍ والمتزامن مع التعظيم، واصطلاح «اعتكاف» يطلق على العبادة الخاصة المعروفة التى تقام فى المسجد وهى مشتقة من نفس المادة.

نعم، إنَّ عبدة الأصنام لم يكن لهم دليل منطقىٌّ على عملهم القبيح هذا، وغالباً ما كانوا

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «الجاهل صغير وإن كان شيخاً كبيراً والعالم كبير وإن كان حدثاً». (بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۳).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۶۹

يقتنعون بتقليدهم الأعمى ولهذا نعتهم ابراهيم عليه السلام بأنهم وآباءهم فى ضلالٍ مبينٍ.

إنّ ابراهيم عليه السلام فى بقية محاكمته التاريخية لعبدة الأصنام فى بابل يقول: «أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟! ثم يضيف «أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ . (الأنبياء/ ۶۶- ۶۷)

يعنى أنّ هذا التقليد الأعمى ناشىءٌ عن عدم التعقل والتأمل وهو نابع من الجهل، ودليله واضح، فإنّ ذوى العلم يتمتعون باستقلال فكرى، واستقلالهم الفكرى هذا لا يسمحُ لهم بالتقليد الأعمى بينما الجاهلون تراهم مرتبطون بهذا وذاك وبشكل أعمى فيتبعون الآخرين على غير بصيرة.

۳۶- الجهل عامل الخلاف والفرقة

«لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَميعاً الّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ اوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُم جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلِكَ بِانَّهُمْ قَوْمٌ لَّايَعْقِلُونَ . (الحشر/ ۱۴)

إنَّ كلمة «قرى تعنى جمع «قرية» ومعناها الأماكن المعمورة أعم من الأرياف والمدن، وقد تطلق على مجموعة يسكنون فى مكانٍ ما، و «قرىً محصَّنةٍ» تعنى المناطق الآمنة من العدو بسورٍ أو ابراج أو خنادق أو غيرها.

إنَّ هذه الآية تتحدث عن طائفة «بنى النضير» (إحدى ثلاث طوائف يهودية تقطنُ المدينة) حيث تكشف عن فزعهم وخوفهم الباطنى واختلافهم وفرقتهم، فتصرح الآية للمسلمين: إنّكم تحسبونهم جميعاً ومتحدين لكنّ الواقع أنّ شملهم متفرق بسبب جهلهم وعدم معرفتهم.

إنّ الاختلاف ينشأ عن الجهل، والاتحاد ينشأ عن المعرفة دائماً، فالجاهلون لا يجهلون الأخطار الجسيمة للفرقة، ولا يجهلون فوائد الاتحاد وبركاتِهِ فحسب، بل يجهلون اسس التعايش السلمى، واسلوب التعاون وشروط النشاطات المشتركة، وهذه المسألة أدّت بهم إلى الاختلاف والفرقة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۰

إنّ المتعصبين والمعانـدين والمتكبرين والحاقـدين والسـفهاء، لاـ يمكنهم الاتحـاد مع الآخرين، لأنّ كلًا من هـذه الصـفات تكون مانعاً كبيراً امام الوحدة، ويجب أن نعلم بان منشأ جميع هذه الرذائل هو الجهل «۱».

۳۷- الجهل هو سبب سوءالظن بالآخرين

«ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْـدِ الْغَمِّ أَمَنَـةً نُعَاساً يَغْشَـى طَائِفَـةً مِّنْكُمْ وَطَائِفـةٌ قَـدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُـهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ...». (آل عمران/ ۱۵۴)

تحدثت هذه الآية عن الليلة المضطربة والملتهبة التى عاشها المسلمون بعد معركة أُحُد، حيث احتمل بعض المسلمين هجوم قريش فى تلك الليلة مرّة اخرى لتدمير آخر ما تبقى من مقاومة المسلمين بعد ما أُنهكوا فى المعركة نهاراً.

فى هـذه الأثناء أنزل اللَّه على المسـلمين نعاساً مهدئاً لهم، إلّاأنّ ضـعيفى الإيمان قد تاهوا فى أفكارٍ رهيبة فما اسـتطاعوا النوم آنذاك، وكـانوا يتسـاءلون: يـا ترى هـل أن وعود الرسول حقّـةٌ؟ هـل أننـا سننتصـر فى النهايـة مع مـا حصل لنا فى أحـد؟ هل سـننجو من هـذه المهلكة؟ أو أنّ كل ما قيل لنا كان كذباً؟ وما إلى ذلك من الوساوس وإساءة الظن الجاهلى.

لكن الحوادث التى حصـلت فيما بعـد بينت لهم خطأهم الفاحش، وأنّ كافـة الوعود الإلهيّة حقة، ولو أنّهم انفصـلوا عن أفكار الجاهلية تماماً لَما أساءوا الظن باللَّه ورسوله.

والتعبير فى الآيـة يوحى بأنّ الجهل هو أحـد أسـباب إساءة الظن، وأنّ عـدم قدرتهم على التحليل الصـحيح للحوادث جعلهم يسـيئون الظن، ولو كانت لهم القدرة الكافية على تحليل الحوادث وفهمها لما وقعوا فى شباك سوء الظن.

ج‌ج

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لو سكت الجاهل ما اختلف الناس». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۱).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۱

۳۸- سوء الأدب ينشأ عن الجهل

«انَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْقِلُونَ . (الحجرات/ ۴)

كـان البعض يضـايق الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله حيث كانوا يقفون عنـد باب بيته منادين بصوت عالٍ: «يا محمـد!» «يا محمـد! اخرج إلينا» فكان رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله يتأذى من اسـلوبهم هـذا، ولكنّه كان يكظم غيظه وذلك لما كان يتصف به من خُلُقٍ عظيم، إلى أن نزلت هذه الآية، فعلمتهم أدب الحديث مع الرسول ومحاطبتِهِ (فى سورة الحجرات).

والتعبير ب «أكثرهم لاـ يعقلون» إشـارة جميلـة إلى أنّ سوء الأـدب غالبـاً مـا ينشـأ عن الجهل فكلما فُقِد العلم حل سوء الأدب مكانه، وكلما تواجد العلم تواجد الأدب معه.

«وَاذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ انْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ انْ اكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . (البقرة/ ۶۷)

إنَّ الآية تتعلق بقضية قتلٍ حدثت فى بنى اسرائيل كادت أن تجر إلى معارك كبيرة بين قبائل بنى اسرائيل لجهلهم بالقاتل: فأمر اللَّه أن يذبحوا بقرة ويضربوا بقسمٍ منها المقتول كى ينطق ويُعرفهم قاتله.

وبما أنّ هذه القضية كانت معجزة ومدهشة للغاية بالنسبة لبنى اسرائيل، فقد قالوا لموسى ابتداءً: أتتخذنا هزواً؟

فأجـاب موسـى عليه السـلام: أعوذ باللَّه أن أكون من الجاهلين أى أنّ الاسـتهزاء من معالم الجهل ودليل على العجب والتكبر والغرور،

فإنّ الذين يتمتعون بهذه الصفات يتخذون الآخرين هزواً كى يحقّروهم، ونعلم أن التكبر والعجب ينشآن عن الجهل حتى أن كثيراً من الجاهلين يستهزئون بالعلماء «۱».

۳۹- الجهل سبب الندم والمشاكل الاجتماعية

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ان جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا انْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى

---

(۱). يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «العلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم». (بحار الأنوار، ج ۷۸، ص ۸۱).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۲

مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ . (الحجرات/ ۶)

إنَّ هذه الآية تمثل قاعدة أساسية تأمر المسلمين بأنْ يتبيّنوا ويتأكّدوا من كون الرواة ناقلى الأخبار من الثقات ويحققوا فى الخبر الذى وصلهم من فاسق أو شخص لا يُعتمد عليه فلا يستعجلوا باتخاذ الإجراءات على ضوء ما نُقِلَ لهم من خبر، لأنّه قد يوجب لهم كثيراً من الندم والمشاكل والمصائب الاجتماعية.

فمن البديهى أنَّ الجاهلَ لا يُمكنه أنْ يتّخذ موقفاً صحيحاً تجاه مختلف القضايا، وعدم معرفته هذه تؤدّى به إلى كثير من المآسى والمشاكل الاجتماعية والتى نهايتها النّدم.

۴۰- الجهلُ وتبدّل القيم

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى انْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى انْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُو شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمْ وَانْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۲۱۶)

إنَّ نشاطات الإنسان وفعالياته تنسجم دائماً مع القيم التى يعتقد بها، ومعرفة هذه القيم لها دور أساسى فى تبلور وتوجيه نشاطات الإنسان وفعالياته.

فالجهلُ وعدم المعرفة قد يؤدى به إلى الوقوع فى الخطأ عند التمييز بين (القيم) وبين (أضدادها)، أى أنْ يشخص ما هى القيم التى تكون سبباً فى التقدّم والخير والبركة، ويفرق بينها وبين ما هو عامل الشرّ والشقاء والانحطاط.

إنّ الآية السابقة تقول: إنّ للجهاد فى سبيل اللّه قيمة- فهو سبب للعزة وصيانة ماء الوجه والفخر والموفقية-، لكنكم تكرهونه لجهلكم وعدم معرفتكم بآثاره، وتعتبرون القعود وترك الجهاد قيمةً وعاملًا للسلامة والسعادة، لكنه عامل وسبب لشقائكم.

وعلى هذا، فالجهل هو سبب الخطأ فى تمييز القيم، وهو عامل اتخاذ المواقف غير الصحيحة وغير المدروسة تجاه القضايا المختلفة والحوادث المتنوعة التى تحدث فى الحياة اليرمية وعامل للافراط والتفريط «۱».

---

(۱). يقول الإمام على عليه السلام: «لا ترى الجاهل إلَّا مفْرِطاً أو مُفَرِّطاً». (نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ۷۰).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۳

الخلاصة و النتيجة:

إنّ المستخلص من البحوث القرآنية السابقة والتى دُرجت تحت أربعين عنواناً، ولربّما تكون أكثر حيث (لا ندعى تحديدها بهذه

العناوين أبداً) والتى تحثُ على طلب العلم والمعرفة، تمثل اهتمام القرآن البالغ بمسألة المعرفة فى جميع المجالات، سواء فى مجال معرفة الذات والصفات الإلهيّة، أو فى مجال معرفة الكون والسماوات والأرض وجميع الكائنات والإطّلاع على أسرار المخلوقات الأرضية والسماوية الطبيعيّة أو ما وراء الطبيعة، ومعرفة النفس والإلمام بمختلفِ العلوم.

ومن خلال البحث فى الآيات السابقة نستخلص بوضوح الأُمور التالية:

١- إنَّ طريق العلم والمعرفة ميسر للناس كافة، وكلٌّ حسب استعداده وسعيه يستطيع أن يطوى ما أمكنه منه، وبدون ذلك فالدعوة للعلم والتأكيد على أهميته لا معنى لها.

٢- إنَّ قيمة الإنسان لها علاقة مباشرة بمقدار معرفته للّهوأسرار عالم الوجود.

٣- إنَّ أكبر مفخرة وموهبة للإنسان هو قابليته واستعداده لتقبل المعارف بالرغم من ضعفه الجسمانى.

۴- إنَّ طلب العلم هو طريق الانتصار والغلبة على مختلف المشاكل: وهو طريق تزكية النفس.

۵- من أجل مواجهة الشقاء ومختلف المفاسد نحتاج إلى العلم والمعرفة قبل أى شيءٍ آخر.

نؤكّد أنَّ هذه الآيات نزلت فى زمان خيمت فيه غيوم الجهل السوداء، وغطت أفق المنطقة بل العالم ظلاماً، فى حين أنّ شمس العلم قد غابت وغرق الناس فى أمواج الجهل.

حقّاً إنَّه لشيءٌ عجيب أن تكون مثل هذه البيئة مهداً لهذه الرسالة ذات التعاليم السامية أن يكون إنساناً امياً رسولًا لمثل هذه المدرسة العظيمة مدرسة الإسلام الخالد وهذا دليل حى على حقانية القرآن.

إنَّ الملفت للنظر هو احصاء سبعمائة آية من قبل بعض المحققين تتحدث عن العلم

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۴

والمعرفة وأرضياتها ومصادرها، وبالقياس إلى آيات الأحكام والتى تقدر بخمسمائة آية، نستطيع أن نستنتج أن القرآن أولى أهميّة كبرى للعلم والمعرفة فاقت الأهميّة التى أَوْلاها للأحكام الشرعية.

ج‌ج

توضيحات

١- إمكانية المعرفة من وجهة نظر فلسفية

اشارة

إنَّ وجود عالم خارج الذهن أمر مسلم وبديهى لايحتاج إلى برهان، ويعترف بهذا عملياً حتى السوفسطائيون أو المثاليون الذين ينكرون وجود الأعيان الخارجية.

لكن البحث ينصب فى هل من سبيل إلى معرفة هذه الواقعيات؟

وإذا كان الجواب بالايجاب فما هى سُبُل المعرفة ووسائلها؟

ما هى شروط الوصول إلى المعرفة؟

وبتعبير آخر، هل يمكن تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية، أى انعكاس صورة ما فى الخارج عيناً فى الذهن أم لا؟ إنَّ جميع

تعاريف المعرفة والاختلافات الحاصلة حول ذلك ترجع إلى هذا الموضوع «۱».

ومن جهة اخرى فإنّ جذور جميع العلوم والمعارف البشرية تكمن فى الإجابة عن هذا السؤال.

وبالرغم من أنّ أغلب الفلاسفة (سواء الماديين منهم أو الإلهيين) يؤيدون إمكانية معرفة الواقعيات الخارجية، إلّاأنّ البعض منهم لا يعتقد بإمكانيتها، وقد ذكرت أربعة أدلة لإثبات مرادهم:

---

(۱). وعلى هذا يكون تعريف المعرفة عبارة عن: تبديل الواقعيات الخارجية إلى حقائق ذهنية، وانعكاسها فى مرآة الذهن كما هى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۵

۱- إنّ الحواس هى أهم وسائل المعرفة، والبصر يقع فى الدرجة الاولى من حيث الأهميّة، لكننا نجد الكثير من الأخطاء تصدر عن هذه الحاسة!

فالشهاب المشتعل فى المساء نراه كخط من النور الممتد، بينما هو عبارة عن نقطة ضوئية متحركة لا أكثر!

وإذا كنّا نمشى فى شارع مُشجّر الطرفين، وابتعدنا عن الأشجار رأيناها تقترب من بعضها البعض، وتتصل وتشكل زاوية فى نقطة بعيدة عنّا بينما الأشجار لم تلتقِ على طول الطريق ولم تُشكل أية زاوية، والفاصلة بينها متساوية فى جميع نقاط الشارع.

وإذا كانت احدى يديك باردة والاخرى حارة ووضعتهما فى ماء دافىء، فانّك تحس بالحرارة باليد الباردة، وبالبرودة باليد الحارة، فيرتسم فى الذهن إحساسان متضادان اتجاه الماء فى آن واحد.

ولدينا الكثير من الأمثلة عن عدم إمكان الاعتماد على حاسة البصر وبقيّة الحواس (اللامسة وغيرها).

ومع وجود هذا النقص فكيف نعتمد على حواسنا؟! بل إنَّ عالم الخارج يمكن أن يكون وهماً أو أضغاث أحلام ولا غير، وهل أنّ الذى نراه فى الرؤيا ونعتبره حقيقة فى ذلك الحين، يُمثل الحقيقة؟

۲- لا نكاد نرى اثنين من العلماء أو المفكرين فى هذا العالم يتفقان فى جميع المسائل، وما هذه الاختلافات بين العلماء إلّادليلًا على فقداننا الطريق الذى يهدينا إلى معرفة الحقائق.

فالذى رأه واقعاً عينياً قد يكون برأى الآخرين وهماً وخيالًا لا أكثر والعكس صحيح.

وحتى الإنسان الواحد قد تتغير رؤيته وأفكاره تجاه قضية معينة تحت ظروف مختلفة، وهذا يزلزل أسس قضية المعرفة.

۳- إنّ الموجودات فى العالم كلّها فى حركة مستمرة، وينتج عن هذه الحركة تحول أوضاع الموجودات وحتى أفكارنا ومعارفنا وعلومنا خاضعة لهذه الحركة، فكيف يمكن

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۶

أن تحصل لنا معرفة حقيقية لهذه الموجودات والعلاقات بينها، مع أنّ المعرفة تستدعى الاستعاذة بأمرٍ ثابت.

۴- نعلم أنّ العالم يُمثل نظاماً موحداً ومترابطاً، ومعرفة جزء منه تستدعى معرفة الكل، وعليه، فإنّ فقدان حلقة من السلسلة المترابطة للعالم يُخلّ بمعرفتنا ويحول دون معرفة أى جزء منه.

ومن جهة اخرى فإنّ الواقعيات التى لايمكن للبشر إدراكها كثيرة ولا يحصى عددها بالقياس إلى حجم المعلومات البسيطة.

وعلى هذا، فكيف يمكن لنا أن نعد معرفة العالم أمراً متيسراً؟ إذن يجب الاعتراف بأنّ ما فى أذهاننا مجرّد تصورات لها قيمة علمية فقط، وليست لها أية قيمة واقعية.

ج ج

الجواب:

يمكن الإجابة على هذه الاستدلالات بثلاث طرق:

۱- إنّ جميع الذين يقولون بعدم إمكان المعرفة الواقعية، يؤمنون بالكثير من المسائل الواقعية، فهم يمسكون بأقلامهم ليبرهنوا ويستدلوا فى مؤلفاتهم على صحة ما ذهبوا إليه وخطأ مخالفيهم، ومن خلال انكارهم فانّهم عرفوا المئات من المسائل الواقعية، ومن خلال هذه المعرفة دقوا طبول الحرب ضد مخالفيهم واستفادوا فى حربهم هذه من الكثير من الامور الواقعية مثل، القلم، والورق، الخطوط، الكلمات، الجمل والعبارات، الكتب، دور الطبع والنشر والمكتبات، المخالفين أنفسهم، المخاطبين، الأمواج الأثيرية، النور وغيرها، كل ذلك يمثل اموراً واقعية استفادوا منها فى معرفتهم ليشنوا بها حرباً على المعرفة، فلقد استعانوا بالمعرفة ضد المعرفة وهو خطأ فاضح يستدعى الدقة والتأمل.

۲- إنَّ خطأهم الكبير هو عدم تمييزهم بين مسألة كون معرفة الإنسان محدودة وبين أصل مسألة المعرفة، فأن استدلالاتهم لا تنفى إمكانية المعرفة مطلقاً، غاية الأمر أنّها تثبت

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۷

أنّ معرفة الإنسان محدودة أو مقرونة بالاخطاء أحياناً.

أَجَل، لا يمكنهم إنكار وجود «الشهاب» بل إنّ ما يقولونه فى هذا المجال هو أنّ الخط النورانى الذى نراه ليس خطاً نورانياً بل نقطةٌ نورانيةٌ، والتصور الخاطىء هذا نشأ عن خطأٍ فى حاسة البصر، إذ ليس الخطأ فى وجود نفس الشهاب بل فى تصور خطٍ ممتدٍ ملتهبٍ.

كما أنّ الخطأ ليس فى نفس وجود الشارع والأشجار على طرفيه بل الخطأ فى أنّ الأشجار كلما ابتعدنا عنها اقتربت من بعضها البعض فى أبصارنا، وكذا الأمر بالنسبة للماء الدافىء، فليس الخطأ فى نفس وجود الماء ودرجة حرارته المعينة، بل فى تمييز درجة الحرارة.

ولكنّا- كما سبقت الإشارة- لا ندعى إدراكنا لجميع حقائق الوجود، كما لا ندعى أن معرفتنا منزهة عن أى خطأ، بل ما نريد إثباته هو إمكانية المعرفة على سبيل القضية الجزئية، وقد نشأ خطأ أصحاب الرأى القائل بعدم إمكان المعرفة من ادعائهم القاطع الجازم بعد وجود المعرفة.

والملفت للنظر هو أن ما ذكره مخالفو إمكانية المعرفة من أدلة يمكن أن يستخدم كدليل ضدهم، لأنّهم عندما يبحثون مسألة خطأ الحواس، فإنّ مفهوم ادعائهم أن هذه الحقيقة اكتشفناها بحواسنا الاخرى أو بطرق عقلية، فندرك خطأ الحاسة المعيَّنة فى ذلك المورد، وهذا اعتراف صارخ بصحة بعض المعارف.

فعندما نقول مثلًا: إنّ الخط الملتهب الممتد الذى نراه عند ظهور الشهاب فى السماء خطأٌ، فذلك بسبب إنا لاحظنا بحواسنا الاخرى إنَّ الشهاب قطعة حجر تحترق عند وصولها إلى الأرض وذلك لسرعتها واحتكاكها بطبقة الهواء، وعندما تبدو لنا كالنقطة النيرة، وبما أنّها تتحرك بسرعة هائلة فتخطأ العين فى التميز ونراه خطاً ممتداً وملتهباً، مستقيماً منحنياً.

كذلك الأمر بالنسبة للخطين المتوازيين عندما نراهما متقاطعين من بعيد، بينما رأيناهما من قريب متوازيين فعند مقارنة المعلومات التى حصلنا عليها من بعيد ومن قريب نعترف بخطأ أبصارنا من بعيد.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۷۸

إذن يجب القول بأنّ أى حكم بخطأ بعض المعلومات، دليل على معرفة كثيرٍ من الحقائق (دقّق النظر فى ذلك).

۳- إنّهم فى الحقيقة لم يميزوا جيداً بين «البديهيات» و «النظريات» ولا بين «المعرفة الإجمالية» و «المعرفة التفصيلية» ولا بين «الامور المطلقة» و «الامور النسبية»، ولأجل عدم معرفتهم الدقيقة وتمييزهم لهذه المواضيع الثلاثة وقعوا فيما وقعوا فيه من خطأ.

ج ج

إيضاح:

إنّ هناك حقائق لا يشك بها أحد إلّاالسوفسطائيون وكما قلنا سابقاً أنّهم ينكرون الحقائق بالسنتهم ويعتقدون بها فى قلوبهم وهى الحقائق التى لا حاجة إلى التفكير فى إثباتها، فالكل يعرف مثلًا أنّ اثنين زائداً اثنين يساوى أربعة، وأنّه لا يمكن أن يحصل الليل والنهار أو الصيف والشتاء فى آن ومكان واحد، أو شخصاً واحداً يكون فى مكة والمدينة فى آن واحد وحتى أولئك الذين يعدّون اجتماع النقيضين أو الضدين ممكناً، فانّهم يتلاعبون بالألفاظ فقط، ويذعنون لهذه الحقائق قلبياً، فمثلًا بالنسبة ل «اجتماع الضدين» يقولون بإمكان أن يكون الجو ممطراً فى ساعة ومشمساً فى ساعة اخرى، إذن اجتماع الضدين أمر ممكن، أمّا إذا سألناهم هل يمكن أن يكون الجو ممطراً ومشمساً فى ساعة ومكان واحد؟ فسيجيبون: لا.

وفى مقابل هذه المعلومات البديهية هناك قسم آخر من المعلومات وهى «المعلومات النظرية» التى تحتمل الخطأ والترديد، وما ذكره المنكرون من عدم إمكانية المعرفة فانّه يتعلق بهذا النمط من المعلومات.

كما أنّ هناك مجموعة من الحقائق مطلقة ولا نسبية فيها كالأمثلة السابقة (العلاقات الرياضية بين الأعداد وامتناع اجتماع النقيضين والضدين).

ولكن لا يمكن إنكار أنّ هناك مجموعة من المفاهيم النسبية التى تتغير بتغير الظروف،

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۷۹

فمثلًا الحرارة والبرودة أمران نسبيان، فكل شىءٍ حرارته أكثر من حرارة جسم الإنسان فهو حار، وكل شىءٍ حرارته أقل من حرارة جسم الإنسان فهو بارد، فإذا ما تغيرت درجة حرارة أجسامنا تتغير مفاهيم الحرارة والبرودة عندنا، ولهذا قد يجلس شخصان فى غرفة يشعر أحدهما بالبرودة فيطلب تشغيل المدفئة والآخر يشعر بالحرارة فيطلب فتح الأبواب.

بالطبع، فى هذا المجال توجد حقيقتان وهما درجة حرارة الجسم ودرجة حرارة الغرفة وتصورنا عن الحرارة والبرودة ينشأ عن المقارنة بين هاتين الحقيقتين فيختلف الحكم تجاه المسألة.

كما أنّ فى العالم هناك حقائق ثابتة وحقائق متغيرة، والأمثلة التى ذكرناها سابقاً وما شابهها تدخل تحت عنوان الحقائق الثابتة، وحتى الماركسيون القائلون بتغير وتبدل الحقائق فى العالم يستثنون حقيقة التحول والتغير كقانون ثابت، ويعتقدون أنّ كل ما فى العالم فى تحولٍ وتغيّر مستمر إلّانفس قانون التحول والتغير فانّه ثابت دائماً (بالطبع هناك مجموعةً اخرى من القوانين يفرضون ثباتها اضافةً إلى هذا القانون).

وإذا تجاوزنا الأمر السابق فإنّ هناك «معرفةً إجماليةً» ومعرفةً تفصيليةً» هناك حقائق لا نعرف عنها إلّاشيئاً إجمالياً، فلا معرفة لنا بخصائصها وعلاقاتها بالأشياء الاخرى فى العالم تفصيلًا، لكن عدم معرفتنا التفصيلية عنها لا يعنى نفى المعرفة الإجمالية عنها.

فمثلًا العين جزء من الجسم، وما لم نعرف الجسم بجميع أعضائه جيداً لا نتمكن من معرفة علاقة العين بأعضاء الجسم الاخرى، لكن عدم معرفتنا للعين تفصيلًا لا يمنع من معرفتنا لها إجمالياً وأنّها تقع فى الرأس وتحت الجبين، ولها سبع طبقات، وكل طبقة مهمّة خاصة بها، وفائدتها رؤية المناظر واللقطات المتنوعة.

وبالنظر لما تقدم يتضح أنّ أدلة المخالفين لنظرية المعرفة نشأت من عدم دقتهم فى التقسيمات السابقة، فعندما يقولون: إنّ العالم كتلة واحدة، وعدم معرفتنا لمفردة من مفرداته يفقدنا المعرفة بأى جزء منه، فقولهم هذا خلطٌ فى الحقيقة بين المعرفة التفصيلية والإجمالية، لأنّا إذا أردنا معرفة جزءٍ ما فى العالم بجميع علاقاته بباقى أجزاء العالم يجب

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۸۰

علينا معرفة جميع أجزاء العالم بدقّة، فهذه معرفة تفصيلية، بينما المعرفة الإجمالية لا تستدعى ذلك كله، ومعرفتنا للأرض والسماء وأفراد البشر والكائنات التى من حولنا هى كلها من هذا القبيل من المعرفة «۱».

وهناك ايضاحات أكثر فى هذا المجال سنعرض لها فى الفصل اللاحق إن شاء اللَّه تعالى

ج‌ج

۲- العلم البشرى المحدود

اشارة

۱- «وَيَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ امْرِ رَبّى وَمَا اوتِيتُمْ مِّنَ العِلْمِ الَّا قَلِيلًا».

(الاسراء/ ۸۵)

۲- «... وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدَاً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِاىِّ ارْضٍ تَمُوتُ ...».

(لقمان/ ۳۴)

۳- «وَانْ مِّنْ شَىْءٍ الَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّاتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ...». (الاسراء/ ۴۴)

۴- «وَعَسَى انْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى انْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَانْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۲۱۶)

۵- «لَخَلْقُ السَّمواتِ وَالْارْضِ اكْبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ .

(غافر/ ۵۷)

۶- «... لَاتَدْرِى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ امْراً». (الطلاق/ ۱)

۷- «قُلْ لَّاامْلِكُ لِنَفْسى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً الَّا مَا شآءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرتُ مِنَ الْخَيرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ...». (الاعراف/ ۱۸۸)

۸- «... آبَائُكُمْ وَابْنَائُكُمْ لَاتَدْرُونَ ايُّهُمْ اقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً ...». (النساء/ ۱۱)

۹- «وَلَوْ انَّمَا فِى الارْضِ مِنْ شَجَرَةٍ اقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّه انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان/ ۲۷)

---

(۱). قد يقال إنّ منكرى المعرفة لا ينكرونها كلياً، وعلى هذا فالنزاع بينهم وبين المؤيدين لنظرية المعرفة يكون نزاعاً لفظياً.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۱

شرح المفردات:

إنّ كلمة «روح»- وكما جاء فى قواميس اللغة- فى الأصل اشتقت من مادة «ريح» ويطلق على التنفس كذلك، وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة ونفس الإنسان استعملت الروح بمعنى النفس، ومن ثم بمعنى تلك الحقيقة المجرّدة التى يتوقف بقاء الإنسان عليها.

إنّ «روْح» على وزن (لَوْح) تعنى النسيم البارد، وكذلك اللطف والرحمة، ومنه اشتُقّت كلمة «الرائحة» و «المروحة».

وَإنّ كلمة «تفقهون» مشتقة من مادة «فقه» وقد جاءت- كما فى لسان العرب- بمعنى الاطلاع على شىءٍ وفهمه، لكنها تطلق اطلاقاً خاصاً على علم الدين (أو علم الأحكام)، وذلك لرفعة وأهميّة هذا العلم، والراغب فى مفرداته يقول: «الفقه يعنى الاطلاع على شىء خفى بواسطة الاطلاع على أمرٍ ظاهر ومكشوف» وعلى هذا مفهومه أخص من مفهوم العلم.

وَمعنى كلمة «غَيْب»- وكما جاء عن ابن منظور فى لسان العرب- هو «الشك» ويطلق على كل شىءٍ خفى عمله عن الإنسان، (ولعل ذلك بسبب أنّ الأشياء الخفية غالباً ما تقع مجالًا للشك).

يقول الراغب عند تفسيره لجملة «يؤمنون بالغيب»: إنّ الغيب شيء خارج عن دائرة الحس والعقل الابتدائى ويعرف بواسطة إخبار الأنبياء.

وكلمة «نفدت» أُخذت من مادة «نَفَدَ» على وزن (حَسَدَ)، «والنفاد» كما يستخلص من المفردات ولسان العرب- يعنى الفناء والدمار، و «مُنَافِد» تُطلق على الشخص القوى للغاية فى استدلالاته بحيث يدحض جميع حجج خصمه، و «نفاد» جاءت بمعنى نضوب ماء البئر.

جمع الآيات وتفسيرها

كان عدد من المشركين أو أهل الكتاب يسألون النبى صلى الله عليه و آله عن «الروح»، فأمر اللَّه سبحانه الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وكما جاء ذلك فى الآية الاولى أن يجيبهم بأنّ «الروح» من أمر ربى

ويضيف لهم بأنهم ما أُوتوا من العلم إلّاقليلًا، ولهذا فلا قابلية لهم لإدراك حقيقة «الروح» «۱».

وفى هذه الآية إشارة واضحة إلى كون العلم البشرى محدوداً (وذلك لأنّ الروح المقصودة فيها هى روح الإنسان) وهى أقرب شيء إلى الإنسان وذلك لأنّ الإنسان ما استطاع الاحاطة علماً بجوهر روحه التى هى أقرب إليه من الحقائق والموجودات فى الكون، وأنّ ما يعرفه عنها هو معرفة سطحية وإجمالية، فكيف يمكنه معرفة حقائق العالم الاخرى !

ج‌ج

أمّا الآية الثانية والتى هى آخر آية من سورة لقمان، تكشُف عن علوم خاصة باللَّه تعالى وأشارت إلى خمسة منها: قيام الساعة، نزول المطر، الجنين الذى فى رحم الام، الحوادث المستقبلية التى تتعلق بأعمال الإنسان والمكان الذى يموت فيه الإنسان، وقد أُشير إلى هذه العلوم الخمسة فى الروايات تحت عنوان «مفاتيح الغيب الخمسة» التى لا يعرف عنها أحد إلّا اللَّه «۲».

وقد يعلم الإنسان علماً إجمالياً عن هذه الأمور الخمسة بالاستعانة بالقرائن، إلّاأنّ الجزئيات لا تتضح لأحد أبداً، فلا يعلم- مثلًا- ما هى قابليات الجنين الجسمية والروحية وهل هو جميل أم قبيح وأنّه سليم أم سقيم، وحتى جنسه (المذكر والمؤنث) لا يمكنه معرفته إلى مراحل متأخرة من حياته فى الرحم.

إنَّ القرآن يخاطب الإنسان فى هذه الآية ويقول: يا أيّها الإنسان أنّك لا تعلم عن غدك شيئاً ولا تعلم فى أى أرض تموت، وعليه فكيف تتوقع أن تعرف عن جميع ما فى العالم وعلمك محدود؟!

---

(۱). إنّ جملة «ما أُوتيتم من العلم إلا قليلًا» فُسّرت من قبل أغلب المفسرين بكونكم أُوتيتم قليلًا من العلم، إلّاأنّ البعض فسّرها بأنّ قليلًا منكم أُوتى علماً، إلّاأنّ هذا التفسير الأخير يتنافى مع ظاهر الآية التى تجعل المشركين وأهل الكتاب السائلين عن الروح مخاطباً لها فتأمل.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۸، ذيل الآية ۳۴ من سورة لقمان.

وقد تحدثت الآية الثالثة عن تسبيح وحمد جميع الكائنات للَّه، فجميعها بلسان حالها وبالنظام الدقيق والعجيب الذى يهيمن عليها- تحمد وتثنى على اللَّه وتشهد بنزاهته عن أى نقص وعيب، وتملأ العالم بلسان حالها- أو بقولها إضافة إلى لسان حالها- بهمهمة التسبيح والتحميد، وكل ذرة فى هذا العالم بلا استثناء لها عقل وعرفان وشعور خاص بها، تحمد اللَّه وتثنى عليه بمعرفة، وقد شرحنا هذين الرأيين فى التفسير الأمثل «۱».

وعلى أيّة حال، فنحن لا نستطيع فهم لسان حال الموجودات لأننا لا نعرف كل شيء عن أسرار هذا العالم ونظامه، كما لا نستطيع فهم ما تقول أيضاً.

و من هنا يتّضح أنّ العالم مليءٌ بالهمهمة والألحان الإلهيّة ونحن غافلون عن ذلك لأننا لم نحط به خبراً، وهذا دليل واضح على كون علمنا البشرى محدوداً.

ج‌ج

وتحدثت الآية الرابعة عن «الجهاد» وتقول للذين يكرهون الجهاد: أنتم تجهلون «الخير» و «الشر» ولا تميزون بينهما، فانّكم أحياناً ما تكونون فى حرب مع مصالحكم وقد تتقدمون نحو الشر حبّاً ورغبةً فيه، وهذا دليل واضح على علمكم المحدود حيث إنّكم لا تميزون أحياناً بين ما هو شرٌ لكم وما هو خيرٌ لكم، إلّاأنّ اللَّه يعلم ذلك وقد اوضح بواسطة الوحى (الذى هو أحد مصادر المعرفة) وبيّنَ لكم ما فيه خير وما فيه شر.

إنّ الآية الخامسة مع إشارتها إلى عظمة خلق السموات والأرض أشارت إلى حقيقة أن خلقهما أعظم وأهم من خلق الإنسان، وأشارت أيضاً إلى عدم معرفة أكثر الناس لهذه القضية، هذا فى الوقت الذى كانت فيه معلومات الإنسان بصورة عامة وفى الحجاز بصورة خاصة محدودة تجاه خلق السموات والأرض، ولعلهم كانوا يتصورون النجوم آنذاك مسامير فضية فى كبد السماء، واليوم حيث توسعت معلوماتنا تجاه خلق السموات والأرض، فانّها لا زالت محدودة.

---

(۱). التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۴ من سورة الاسراء.

والآية السادسة بعد أن أشارت إلى قضية الطلاق والعدّة وضرورة بقاء المطلقة فى بيت الزوج عند إعتدادها بالعدة الرجعية، تقول: قد يحدث اللَّه أمراً جديداً فى هذه الأثناء أى اثناء مجاورتها لزوجها السابق، الأمر الذى قد يؤدّى إلى الصلح بينهما.

والملفت للنظر هنا هو أنّ مخاطب الآية نفس الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فإذا كان الرسول صلى الله عليه و آله مع علمه الواسع يُخَاطَب بخطاب كهذا فما حال باقى أفراد البشر؟!

وهذا دليل على قصور العلم البشرى إلى مستوى بحيث لا يستطيعون أن يعلموا بمستجدات يومهم اللاحق.

ج‌ج

وفى الآية السابعة يؤمر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بأن يقول: إنّى لا أملكُ لنفسى نفعاً ولا ضرّاً، وأن يعترف:

إنّى لا أعلمُ الغيب (إلّا ما علمنى اللَّه) وانى لو كنت أعلمُ الغيب لاستكثرت وازددتُ من الخير لنفسى وما مسنى ضرٌّ وما حصلت لى مشكلةٌ.

إنّ هذا الحديث قاله الرسول صلى الله عليه و آله عندما كان أهل مكة يسألونه عمّا إذا كان يوحى إليه فلِمَ لا يعلم ما سيؤول إليه امر ارتفاع وانخفاض اسعار السِّلع أو الجفاف وهطول الغيث فى المناطق المختلفة كى يستزيد من الخير وينتفع أكثر، فأجابهم: إنّ عالم الغيب هو اللَّه وهو صاحب العلم غير المحدود.

عندما يعترف الرسول صلى الله عليه و آله مع علمه الواسع حيث يقول اللَّه تعالى فيه «... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ ...». (النساء/ ۱۱۳)

بأنى لا أعلم من الغيب (وهو الأمر الخارج عن الحس) إلّا ما علمنى اللَّه فكيف حال بقيّة البشر؟

ج‌ج

والآية الثامنة بعد أن بينت أحكام إرث الأولاد والأب والأم فى حالات مختلفة ذكرت:

حتى أنفسكم لا تعلمون أيّاً من الأب والأم أو الأولاد أنفع لكم؟ وأيهم أحق بأموالكم كى يخصص له سهم أكثر.

نعم، لستم على بينة بمصالحكم الشخصية، لهذا السبب لا تستطيعون أن تسنّوا قوانين دقيقة تليق بمقام الارث وغيره، إنّ المُقنّن يجب أن يكون الهاً محيطاً بِكل أسرار الوجود، نعم، إنّ قصور علم البشر بدرجة لا يستطيع أن يسن قوانين تحافظ على مصالحه، ولهذا نرى أنّ القوانين البشرية فى حالة تغيير دائمى، فإذا كان الإنسان يجهل مصيره إلى هذا الحد، فكيف به تجاه الموجودات الاخرى الموجودة فى الكون؟

وأخيراً، فإنّ الآية التاسعة والأخيرة فى البحث هذا تحدثت عن العلم الإلهى اللامتناهى، وصوّرت اللانهاية فى الأذهان بحيث يستطيع حتى الذى لم ينل من العلم إلّا القليل بل وحتى الأُمى أن يرسم فى ذهنه صورة عنها، بالرغم من صعوبة تصور اللانهاية حتى للعلماء، حيث قالت: لو أنّ ما فى الأرض من شجر يصير أقلاماً رغم أن الأشجار قد يصل عددها إلى مليارات (بل قد يُصنع الملايين من الأقلام من شجرة واحدة: وبالرغم من أنّ حوضاً صغيراً قد يملأ الملايين من الدواة فكيف بالمحيطات والبحار، وإضافة إلى هذا كله، لو اجتمعت الملائكة وكُتاب الانس والجن على أن يكتبوا بهذه الأقلام وهذا الحبر كلمات اللَّه وعلمه ما استطاعوا وسوف تنصرم الأقلام وينتهى الحبر وما زالت كلمات اللَّه جلّ جلاله وعلومه فى بداية الدفتر، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى فأنّنا نعلم أنّ المراد من كلمات اللَّه هو الكائنات الموجودة فى العالم، وعلى هذا فالآية دليل واضح على سعة العالم وقصور علم البشر.

ج‌ج

نتيجة البحث:

إنّ ما يستخلص من الآيات السابقة هو أنّ معرفة الإنسان وعلومه رغم سعتها بحدّ ذاتها

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۶

ورغم أنّ علوم ومعارف البشر فى حالة ازدياد فى كل يوم بل كل ساعة ولحظة، ورغم امتلاء الدنيا بالمدارس والجامعات والمكتبات ومراكز التحقيق، رغم هذا كله فإنّ هذه المعلومات بالقياس إلى المجهولات كالقطرة بالنسبة للبحر.

إذا لم يكن الإنسان عارفاً بخيره وشرّه ونفعه وضره ولا بِكُنْهِ روحه التى هى أقرب إليه من أى شيءٍ آخر، ولا بالحوادث المقبلة عليه، ولا بساعة موته، فكيف يمكنه أن يعرف ما يدور فى الكواكب البعيدة فى العالم اللا متناهى.

ومما لا شك فيه أنّ جهل الإنسان بهذه الامور لا لعجزه بل لسعة الكون، وقد يكون انكار البعض لنظرية إمكان المعرفة نشأ من خلطهم بين هذه المسألة ومسألة قصور العلم البشرى واقترانه بالاخطاء.

إنّ القرآن كما يدعو إلى العلم والمعرفة ويؤكّد على أن باب العلم مفتوح للجميع، يصرح بقصور العلم البشرى، هذا النقص والقصور اللذان يدعوانه إلى الاعتراف بعظمة الكون وخالقه وبحاجته إلى الرسل وأصحاب الوحى.

ونختم هذا الحديث بمقطع من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المعروف بدعاء يوم عرفة، حيث يقول:

«إلهى أنا الفقير فى غناى، فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى، الهى أنا الجاهل فى علمى، فكيف لا أكون جهولًا فى جهلى».

ج‌ج

۳- الفلاسفة والعلماء يشهدون بقصور العلم البشرى

اشارة

إنّ كون علم البشر محدوداً أمرٌ مسلم به وبديهى ولا يحتاج إلى دليل أو برهان لإثباته، إلّا أنّه بالالتفات إلى النقاط التالية يتّضح لنا الأمر أكثر:

۱- إنّ قدرة حواس الإنسان محدودة، فالعين رغم أنّها أهم وسيلة للمعرفة فى الامور الحسية فهى لا تستطيع رؤية شىءٍ من بعيد، إضافة إلى أنّ عدد الألوان التى يشاهدها

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۷

الإنسان محدودٌ جدّاً لأنّ الألوان ما فوق البنفسجية وما تحت الحمراء بالرغم من كثرتها فلا قدرة للعين على رؤيتها.

كذلك بالنسبة للاذن فانّها لا تسمع كل شىءٍ بل تسمع أمواجاً صوتية محدودة، وبمجرّد ارتفاع أو هبوط درجة تردد الأمواج فسوف لا تسمع شيئاً، وكذا الحال فى بقية الحواس.

إنّنا بالعين المجرّدة نستطيع رؤية عدّة آلاف من النجوم فى السماء فقط، بينما هناك المليارات من النجوم موجودة فى السماء.

صحيح أنّ الوسائل العلمية ضاعَفَت من قدرة الحواس، إلّاأنّها هى بدورها محدودة القدرة أيضاً.

۲- إنّ قدرة إدراكاتنا وأفكارنا محدودة وما وراءها فهو مجهول عندنا على الاطلاق، وهذا الأمر يصدق حتى بالنسبة إلى أكثر الناس علماً وذكاءً فإنّ قدرة فكره وإدراكه تكون محدودة أيضاً.

۳- من جهة اخرى فإنّ العالم واسع بدرجة لا يمكننا استيعابه، ونستطيع أن نقول: إنّ علمنا كلما إزداد، ازدادت عظمة العالم فى أذهاننا.

ولإدراك عظمة هذا العالم (إلى المستوى الذى يصل إليه فكرنا) يكفى أن نعرف أنّ المنظومة الشمسية والنجوم التى نشاهدها حولنا جزء من المجرّة التى تسمى بدرب التبانة (المجرّات أو مدن النجوم مجموعة ضخمة من النجوم التى تشكل عالماً خاصاً بحد ذاتها).

وفى هذه المجرة- على ما يقول العلماء- يوجد أكثر من مائة مليارد نجمة! والشمس بالرغم من عظمتها ونورانيتها فانّها تعتبر من النجوم المتوسطة الحجم فى هذه المجرة.

ونفس هؤلاء العلماء يقرّون- وبالاستعانة بالتلسكوب والحسابات الكمبيوترية- أنّ هناك مليارد مجرة فى هذا العالم تقريباً! «۱»

---

(۱). جاء فى كتاب (هل وكيف ولماذا) أنّ الفكليين يعتقدون بوجود عدد كبير وهائل من المجرات قرب مجرتنا وبعضها أكبر والبعض الآخر أصغر حجماً وقد كشفت التلسكوبات القوية والحاسوبات العادية للنجوم عن وجود مليارد مجرة تقريباً فى هذا العالم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۸

إنّ ذكر هذه الأرقام سهل على اللسان لكن ما أصعب تصورها؟! وينبغى أن لا ننسى أنّ معلوماتنا عن هذه المجرات والنجوم الهائلة تدور حول محور الأرض فكيف بنا إذا تجاوزنا هذا المحور؟!

۴- ومن جهة ثانية فإنّ عالمنا هذا له بداية ونهاية فلا يعلم أحد عن المليارد سنة الماضية ولا عن المستقبل شيئاً، فهو كالسلسلة بدايتها الأزل وتمتد إلى عمق الأبد، وما نعرفه هو حلقة واحدة من هذه السلسلة وهى الحلقة التى نعيش فيها، وما ماضيها أو مستقبلها إلّاكشبح مرسوم فى أذهاننا.

صحيح أن الإنسان- وبدافع من فطرته- فى سعى مستمر لتحصيل علم أكمل وأشمل عن نفسه وعن العالم، وأنه قد جمع خلال آلاف السنين الماضية معلومات كثيرة ادخرها فى خزائن مكتبات العالم الكبيرة والصغيرة.

وصحيح أنّ بعض المكتبات كبيرة إلى مستوى بحيث يصل مجموع طول رفوف الكتب فيها إلى مائة كيلومتر (كما هو الحال بالنسبة

لمكتبة المتحف الانجليزى)! وقد يصل عدد الكتب فى بعضها إلى ستةُ ملايين كتاباً (كما هو الحال بالنسبة لمكتبة باريس)، بل قد يصل عدد الكتب فى بعضها إلى خمسة وعشرين مليوناً (كما هو الحال بالنسبة للمكتبة الأمريكية المعروفة)، وقد تصل فهارس الكتب فيها إلى حجم مكتبة كبيرة، وقد يصل الأمر بالبعض أن يستعمل وسائل النقل للتنقل فيها من مكان إلى آخر! لكن بالرغم من كل هذه المعلومات عن العالم وأسراره، فإنّ مجموعها لا يشكل إلّاكقطرةٍ من محيط كبير للغاية.

ج‌ج

ولا بأس أن نشير هنا إلى شهادات بعض العلماء فى هذا المجال كى يعرف القارىء أنّ ما ذهبنا إليه معترف به عند الجميع.

۱- يقول «كريس موريس» الطبيب والعالم النفسانى فى كتابه «سر خلق الإنسان»:

«عندما نفكر بالفضاء اللامتناهى، أو الزمان السرمدى، أو الطاقة العجيبة المودعة فى

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۸۹

الذرة، أو بالعوالم غير المحدودة والتى تسبح فيها كواكب كثيرة، أو بقدرة تشعشع بعض الكواكب، أو بقوة جاذبية الأرض، أو بالقوانين الاخرى التى يرتبط قوام العالم بها، عندما نفكر بهذه ندرك مدى ضعفنا ونقصان علمنا» «۱».

۲- ويذكر الدكتور «الكسيس كارل» فى كتابه «الإنسان ذلك المجهول»:

«إنَّ المساعى التى بذلت فى العلوم التى اطلع عليها الإنسان لم تصل إلى نتيجة مطلوبة، ومعرفتنا لأنفسنا ما زالت ناقصة إلى حدٍ كبيرٍ» «۲».

ولهذا السبب جعل «الإنسان ذلك المجهول» عنواناً لكتابه القيّم، فإذا كانت معرفة الإنسان عن نفسه محدودة إلى هذه الدرجة، فواضح حال معرفته عن الأكوان والعوالم الاخرى.

۳- ويقول العالم المعروف «وليام جيمس»:

«علمنا قطرة، وجهلنا بحر عظيم».

۴- ويقول الفكلى المعروف «فلا ماريون»:

«أستطيعُ أن أهيىء أسئلة ولمدة عشر سنوات عن مجهولات لا تستطيعون الإجابة عليها» «۳»!

۵- ويضيف فى كلام آخر له:

«نحن نفكر لكن ما هو فكرنا؟ ونمشى، لكن ما هو عملنا العضلى هذا؟ لا أحد يعلم بذلك.

أرى أنّ إرادتى قدرة غير مادية، لكننى عندما أريد أن أرفع يدى أرى أنّ الإرادة غير المادية تحرك يدى والتى هى عضو مادى، كيف يحصل هذا؟ وما هى الواسطة التى تحول

---

(۱). سرّ خلق الإنسان، ص ۸۷ (بالفارسية).

(۲). الإنسان ذلك المجهول، ص ۵.

(۳). على اطلال المذهب المادى، ص ۱۳۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۰

الطاقة غير المادية إلى مادية؟ لا يوجد من يجيب على هذا السؤال» «۱».

إذا كانت معلوماتنا تجاه أوضح وأبسط الامور العادية هكذا، فما هو الحال بالنسبة للقضايا المعقدة أو البعيدة عن متناول أيدينا زماناً ومكاناً.

۶- يقول (انشتاين» الرياضى المعروف والمكتشف للنظرية النسبية والبُعد الرابع، فى أحد كتبه:

«لقد علّمنا كتاب الطبيعة الذى نقرأه الكثير من الأمور وقد عَرفْنَا أَسس لغة الطبيعة ...

لكن رغم قراءتنا للمجلدات وفهمنا لها فإنّنا مازلنا بعيدين عن كشف أسرار الطبيعة» «۲».

وينبغى هنا اضافة هذه الجملة على الشهادات السابقة:

من العجيب حقّاً أن كل اكتشاف جديد يحصل فى هذا العالم يزيد من مجهولات الإنسان، وبعبارة اخرى إنّ اكتشافات العلماء فى مختلف المجالات كاكتشاف مكتبة جديدة، أو اكتشاف كنز قيم فى نقاط مختلفة من الأرض.

وبديهى فإننا إذا اطلعنا على وجود مكتبة فى احدى المدن، أو كنز قيم فى خربةٍ فقد أزلنا النقاب عن مجهول واحد، لكن الآلاف من المجاهيل تكشف عن نفسها من خلال هذا الاكتشاف، مثل عدد الكتب ومحتواها وكُتّابها وشخصياتهم وقضايا اخرى من هذا القبيل، كذا الحال بالنسبة للكنز فإذا اطلعنا على وجوده تبلورت فى أذهاننا مجاهل اخرى عنه مثل نوعيته ومحتواه ....

ولا نذهب بعيداً، فإنّ عالم الكائنات المجهرية (المكروبات والبكتريا والفايروسات) كان فى يوم ما مجهولًا كلياً، وعندما خطا (باستور) الخطوة الاولى عند كشفه لبعضٍ من هذه الكائنات تجلى أمامه عالم كبير من المجهولات.

إنّ اكتشاف الكواكب «اورانوس» و «نبتون» و «بلوتون» فى المنظومة الشمسية وكذا

---

(۱). على اطلال المذهب المادى، ص ۱۳۸.

(۲). خلاصة الفلسفة النسبية.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۱

كشف المجرات الجديدة كلها من قبيل كشف (باستور) لعالم الكائنات المجهرية، ومن هنا يجب الاذعان والاعتراف بأنّ العلوم البشرية كنور شمعةٍ وان حقائق هذا العالم العظيم كنور الشمس بل أعظم من ذلك!

ومن هنا ينبغى القول: «سُبْحانَكَ لا عِلْمَ لَنا إِلّا مَا عَلَّمْتَنا». (البقرة/ ۳۲)

ونختم هذا الحديث بكلام عظيم لمتكلم عظيم ألا وهو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، حيث يقول فى خطبة الأشباح:

«واعلم أن الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم عن اقتحام السُّدَدِ المضروبة دون الغيوب، الاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب، فمدح اللَّه- تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمّى تركهم التعمّق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخاً، فاقتصر على ذلك ولا تُقدّر عظمة اللَّه سبحانه على قدر عقلك فتكون من الهالكين»! «۱».

ج‌ج

تذكير:

إنّ الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً لهُ آثار ونتائج إيجابية بنّاءة، نذكرها هنا:

۱- الحد من الغرور العلمى: نعلم أنّ البشر قد واجه مصائب كثيرة من جراء الغرور العلمى، ومثاله ما ظهر فى حدود القرن الثامن عشر الميلادى فى اروبا فعندما حصلت قفزة فى العلوم الطبيعية آنذاك، تصور بعض العلماء أنّ جميع ألغاز الكون قد حلت وأنّ أسراره قد كُشفت، ولهذا أنكروا كل شىء يكمن وراء معلوماتهم، بل سخروا من جميع الامور التى لا تدخل فى اطار معلوماتهم، وقد وصل انكارهم إلى حدٍ سخروا من وجود الروح حيث قال بعضهم: لا نؤمن بوجود الروح مالم نشاهدها تحت سكاكين الجراحة فى غرفة العمليات، أو بما أنّ اللَّه لا يدرك بالحس فلا وجود له!

إنّ هذا النوع من الغرور خلق مشاكل كثيرة، والأمر الوحيد الذى يمكنه أن يحطم هذا

(۱). نهج البلاغة، الخطبه ۹۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۲

الغرور العلمى هو الالتفات إلى ضآلة العلوم البشرية بالقياس إلى المجهولات، طبقاً للأدلة التى ذكرت سابقاً.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة هو الذى جعل العلماء المتعمقين يعترفون بما قاله أحدهم:

«إنّ علمى وصل إلى مستوىً بأنّى أعلم أنّى لا أعلم» و «معلوماتى صفر والمجهولات بالقياس لها غير متناهية».

۲- الحركة العلمية الأسرع: إنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة يسوق الإنسان نحو السعى الحثيث والجهاد المخلص والمتواصل لحل ألغاز عالم الوجود، خاصة وأنّه يرى أنّ أبواب العلم مفتوحة أمامه، ولا ييأس من الحصول على علوم أكثر.

وَمن الواضح أنّ الإنسان لا يسعى وراء الكمال مالم يشعر بالنقص، ولا يبحث عن الدواء ما لم يحس بألم المرض، ولهذا يقال: إنّ الاحساس بالألم احدى نِعَم اللَّه العظيمة، وان أسوء الأمراض هى تلك التى لا يصحبها الألم لأنّ المريض لا يطّلع على المرض إلّابعد أن ينقض عليه ويهلكه.

إنّ الالتفات إلى ظئالة العلم البشرى يخلق عند الإنسان ردّ فعل إيجابىّ يدفعه نحو التحقيق والتفحص أكثر فأكثر، وقد يكون هذا الأمر هو أحد أهداف القرآن الكريم عند تأكيده على نقصان العلم البشرى.

۳- الالتفات إلى مبدأ أسمى من الآثار الإيجابية التى يتركها الاحساس بالنقص العلمى عند كل فرد هو أن الإنسان شاء أم أبى يجد نفسه بحاجة إلى مبدأ أعظم تكون عنده جميع أسرار العالم مكشوفة، وألغازه محلولة، إنّ هذه القضية تهيىء الأرضية لقبول دعوة الأنبياء، وتفتح أمامه سبلًا للاهتمام بالمصادر والطرق العلمية التى تفوق علم البشر.

على أيّة حال، إنّ الالتفات إلى كون علم البشر محدوداً مع غض النظر عن كونه حقيقة، له آثار تربوية وإيجابية جمة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۳

مصادر وسُبُل المعرفة

اشارة

(مصادر المعرفة الستة)

الحس والتجربة

العقل والتحليل المنطقى.

التاريخ و الآثار التاريخية.

الفطرة والوجدان

الوحى السماوى

الكشف والشهود

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۵

تمهيد:

بعد ما ثبت لنا إمكان المعرفة وإمكانية الوصول إليها إجمالًا، جاء الدور للبحث عن سبل المعرفة، وبتعبير آخر عن مصادرها ومنابعها

التى تمكننا من معرفة الحقائق الموجودة فى العالم، لأنّنا بالاستعانة بهذه السُبُل يمكننا تبديل «الواقعيات» إلى «حقائق»، بواسطة هذه المعالم وذلك لأنّ كلًا من هذه السُبلُ معلم وهادٍ يرفع الحجاب عن أسرار العالم ومجهولاته.

وقبل كلّ شىء ينبغى معرفة رأى القرآن فى هذه المسألة، لأنّ محور دراستنا هذه هو التفسير الموضوعى والتحقيق حول تعليمات القرآن الكريم.

وقد وصلنا بالتحقيق والتتبع الدقيق فى الآيات المختلفة والمنتشرة فى القرآن الكريم إلى هذه النتيجة وهى أنّ طرق المعرفة ومصادرها فى القرآن الكريم تتلخص فى ستة أمور:

۱- الحس والتجربة (الطبيعة).

۲- العقل والتحليل المنطقى.

۳- التاريخ والآثار التاريخية.

۴- الفطرة والوجدان.

۵- الوحى السماوى.

۶- الكشف والشهود.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۷

۱- الحس والتجربة

اشارة

لنمعن النظر خاشعين فى البداية إلى الآيات الكريمة التالية:

۱- «افَلَمْ يَنْظُرُوا الَى السَّمَاءِ فَوقَهُم كَيْفَ بَنَيناهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَها مِنْ فُرُوجٍ . (ق/ ۶)

۲- «اوَ لَمْ يَنْظُروا فِى مَلَكُوتِ السَّموَاتِ وَالارْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىءٍ ...». (الاعراف/ ۱۸۵)

۳- «افَلَا يَنْظُرُونَ الَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وَالَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعتْ* وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ* وَالَى الارْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ . (الغاشية/ ۱۷- ۲۰)

۴- «فَانْظُر الَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الارْضَ بَعْدَ مُوتِها ...». (الروم/ ۵۰)

۵- «فَلْيَنْظُرِ الْانْسَانُ مِمَّ خُلِقَ* خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دافِقٍ . (الطارق/ ۵- ۶)

۶- «فَلْيَنْظُرِ الْانْسَانُ الَى طَعامِهِ* انَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَبّاً* ثُمّ شَقَقْنَا الْأَرضَ شَقّاً* فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً* وَعِنَباً وَقَضْباً». (عبس/ ۲۴- ۲۸)

۷- «اوَ لَمْ يَرَوا الَى الْارْضِ كَمْ انْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . (الشعراء/ ۷)

۸- «اوَ لَمْ يَرَوا انَّا نَسُوقُ المَاءَ الَى الارْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ انْعَامُهُم وَ انْفُسُهُمْ افَلَا يُبْصِرُونَ . (السجدة/ ۲۷)

۹- «سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ انَّهُ الحَقُّ ...». (فصلت/ ۵۳)

۱۰- «اوَ لَمْ يَرَوا الَى الطَّيرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ الَّا الرَّحْمنُ انَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ». (الملك/ ۱۹)

۱۱- «وَفِى الارْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ* وَفِى انْفُسِكُمْ افَلَا تُبْصِرُونَ .

(الذاريات/ ۲۰- ۲۱)

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۸

۱۲- «وَاللَّهُ اخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالابْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشكُرُونَ . (النحل/ ۷۸)

ج‌ج

إنَّ الآيات الواردة فى هذا المجال كثيرة جدّاً، وما ذكر هنا نماذج واضحة فى مجالات مختلفة «۱».

شرح المفردات:

إنَّ كلمة «ملكوت»- على ما يقوله الراغب فى مفرداته- مصدر «مَلَك» وقد اضيفت لها التاء، وتستعمل فى الإشارة إلى (ملك اللَّه) فقط دون غيره، بينما جاء فى «مجمع البحرين» و «لسان العرب» أنّ الملكوت يعنى «العزة والسلطنة»، ويقول البعض: إنّها اشتقت من «مُلك» على وزن «حُكْم» وتعنى «الحكومة والملكية»، واضيفت لها التاء والواو للمبالغة.

وكلمة «قضب» على وزن (جَذْب)- وكما جاء فى لسان العرب- فى الأصل تعنى «قطع» بحيث قال بعض المفسرين: إنّها تعنى الخضروات التى تُحصد فى فصول مختلفة «۲».

وكلمة «جُرُز» تعنى الأرض الفاقدة للنباتات، أو الأرض التى لا ينبت فيها نبات، و «جَرَزَ» على وزن (مَرَض) وتعنى القَطع ونقل صاحب «لسان العرب» عن بعض أئمّة اللغة أنّ الأرض الجرز تطلق على الأرض التى قلع نباتها أو انقطع عنها المطر.

---

(۱). يمكن الرجوع إلى الآيات التالية: الاعراف، ۱۸۵؛ ويوسف، ۱۰۹؛ الروم، ۹؛ غافر، ۶؛ النحل، ۷۹؛ الشعراء، ۷؛ الاحقاف، ۳۳؛ الملك، ۱۹؛ يس، ۷۷؛ الأنعام، ۶؛ النحل، ۷۸؛ المؤمنون، ۷۸؛ ق، ۳۷؛ الاحقاف، ۲۶؛ هود، ۲۴؛ غافر، ۲۱؛ محمد، ۱۰.

(۲). تفسير الميزان، ج ۲، ص ۳۱۶؛ تفسير مجمع البحرين، ج ۱۰، ص ۴۴۰. نُقِلَ عن ابن عباس أنّ المراد من «القضب» فى الآية هو «الرُطَب» الذى يقتطف من النخيل لكن بالنظر إلى الآية الاخرى التى أشارت إلى نفس الكلمة فإنّ هذا التفسير بعيد. وقال البعض: يحتمل أن يكون المراد منها هو فواكه الشجيرات مثل الخيار والرقى، أو جذور بعض المزروعات مثل الجزر والبطاطس.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۹۹

وأمّا كلمة «افئدة» جمع «فؤاد» وتعنى القلب- كما يقول الراغب- إلّاأنّ الفؤاد يطلق على القلب الذى له حالة إنارة وإضاءة، وهذا أمرٌ ملفت للنظر حيث يعد اللَّه القلب المنَّور والمنير من مواهبه، وجدير بالذكر أنّ صاحب «لسان العرب» ذكر أنّ أصلها جاء من «فأد» على وزن (وَعْد) ويعنى المشوى، وعلى هذا تكون كلمة «فؤاد» إشارة إلى العقول التى تتحلى بالأفكار الناضجة!

ج‌ج

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآية الاولى يدعو اللَّه الإنسان إلى الالتفات إلى السموات والأرض وجمالهما وكيفية بنيانهما والنظام الذى يتحكم بهما وإحكامهما واتقانهما وخلوهما من العيب.

وفى الآية الثانية يدعو اللَّه الناس إلى مشاهدة نظام السموات والأرض والكائنات، وذلك لإيقاظ القلوب للسير فى طريق التوحيد ومعرفة الخالق.

والآية الثالثة تلقى نظرة من السماء إلى الأرض حيث تلفت نظر الإنسان إلى شيئين:

أحدهما خلق الإبل وعجائب هذا الخلق (بالخصوص لُاناس يعيشون فى محل نزول القرآن).

والآخر تسطيح الأرض بحيث تصلح الحياة عليها، ويعتبر القرآن المشاهدة فى جميع هذه المراحل منبعاً مهماً للمعرفة.

وفى الآية الرابعة والتى يخاطب اللَّه فيها الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله يلفت نظره إلى مسألة نزول الغيث وإحياء الأرض بعد

موتها ويقول له: «فانظر إلى آثار رحمة اللَّه كيف يحيى الأرض بعد موتها».

وفى الآية الخامسة يشير اللَّه إلى مبدأ خلق الإنسان وأنّه يجب أن ينظر من أى شىءٍ خُلِقَ؟ قد خلق من ماء دافق، ويذكر المشاهدة هنا كوسيلة للمعرفة كذلك.

وفى الآية السادسة يأمر اللَّه الإنسان بأن ينظر إلى غذائه وطعامه كيف نبت وشق الأرض

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۰

وخرج النبت من التربة بواسطة نزول المطر فصارت الحبوب والفواكه والخضروات، فإذا نظرنا إليها ودققنا فى كل ورقة من أوراقها لوجدناها كتاباً وسفراً يحكى لك عن معرفة اللَّه.

ج‌ج

والآيات الست السابقة تدعو إلى «النظر» بينما الآيات الخمس التى بعدها تدعو إلى «الرؤية» بالرغم من أنّ كلًا من هذين الاصطلاحين فى كثير من الأحيان يستعملان بمعنى واحد، إلّاأنّه كما يستفاد من قواميس اللغة المعروفة- يطلق «النظر» على حركة العين والتفحص والدقة فى مشاهدة شىءٍ، بينما تطلق «الرؤية» على نفس المشاهدة «۱»، بالطبع أنّ كلا المفردتين تستعملان بمعنى المشاهدة الحسية تارة وبمعنى المشاهدة الذهنية والفكرية تارة اخرى، إلّاأنّه ينبغى الالتفات إلى أنّ المعنى الأولى لهما هو المشاهدة الحسية.

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية السابعة تدعو المشركين لمشاهدة مختلف النباتات التى تنبت أزواجاً أزواجاً فى أرجاء المعمورة.

والآية الثامنة تدعو المشركين كذلك إلى رؤية مياه البحار ومصدرها تلك القطرات العالقة فى الغيوم وهطولها منها على الأرض اليابسة وخروج الزرع الذى يستفيدون منه هم وأنعامهم.

وقد أشارت الآية التاسعة إلى جميع آيات «الآفاق» و «الأنفس»، وهى آيات اللَّه فى هذا العالم العظيم وفى العالم الصغير وهو وجود الإنسان، وقالت: نحن نريكم آيات الآفاق والأنفس كى يتبين لكم الحق ويتضح.

والآية العاشرة دعت إلى مشاهدة الطيور وكيفية طيرانها فى السماء، فتارة صافّات اجنحتها وتارة اخرى قابضات، وهذا الأمر هو الذى يجعلها تطير فى السماء خلافاً لجاذبية الأرض، كما أنّ طيرانها بسرعة تارة بصف الأجنحة واخرى بقبضها، وكأنّ هناك قدرة خفية تدفعها إلى الأمام، ولكلٍ من الطيور شكلها الخاص بها والوسائل الضرورية لحياتها.

---

(۱). يراجع مفردات الراغب ولسان العرب مادة «نظر».

نفحات القرآن ج۱ ۱۴۹

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۱

والآية الحادية عشرة لفتت الأنظار إلى مسألة خلق الأرض ومن ثم خلق الإنسان الذى يعتبر خلقة عالَماً عظيماً مليئاً بالضجيج رغم صغر حجمه، وأنبّت الذين لا يبصرون رغم أنّهم قادرون على الإبصار بخطاب «أفلا يبصرون».

(ينبغى الالتفات إلى أنّ «البصيرة» جاءت من مادة «بصر» الذى يعنى «العين» إنّ «بصر العين»، ورغم استعمالها بمعنى «النظر» و «الرؤية» إلّاأنّها تختلف عنهما بالتأكيد على عضو البصر وقوته، لكنها كالمفردتين السابقتين قد تستعمل بمعنى المشاهدة الباطنية والفكر).

وأخيراً، فإنّ الآية الثانية عشرة تؤكد على الأعضاء الثلاثة أى الأذن والعين والقلب والتى تعتبر ثلاثة أعضاء أساسية للمعرفة وهذا دليل واضح على اعتبار المشاهدة والحس من المصادر الأساسية للمعرفة.

النتيجة:

إنّ الآيات السابقة والتى غالباً ما تحدثت عن قضية التوحيد ومعرفة اللَّه، أمرت الناس بأن يفتحوا أعينهم أثناء سلوك طريق المعرفة

والتوحيد من أجل الوصول إلى الهدف، عندها سيرون اسم «اللّه» على جبين كل موجود فى هذا العالم، ويشاهدون الأنظمة الدقيقة والغريبة التى تتحكم بالعالم، ومن ثم يصلون- بواسطة برهان النظم- لا إلى معرفة ذات اللّه فحسب، بل صفاته وتوحيده وتدبيره وقدرته وعلمه اللامتناهى.

وبالنظر إلى أنّ أهم مسألة فى الإسلام هى مسألة التوحيد ومعرفة اللّه، وأنّ أهم دليل فى القرآن على المعرفة هو برهان النظم، وأهم منبع لبرهان النظم هو الطبيعة والمخلوقات فمن هنا تتضح أهميّة الحس والمشاهدة والتجربة من وجهة نظر القرآن الكريم.

وقد استعان القرآن كثيراً ب «المشاهدة الحسية» ليس فى مسألة التوحيد فحسب بل فى مسألة المعاد أى ثانى أهم مسألة فى الإسلام أيضاً، وقد صوّر لنا لقطات من المعاد بالاستعانة بنفس الطبيعة المشهودة لنا، كما جاء ذلك فى سورة (ق) حيث يقول تعالى

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۲

«وَنَزَّلْنا مِنَ السَّمَآءِ مَاءً مُّبارَكاً فَأَنْبَتنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ* ... وَاحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ : أى فى يوم القيامة. (ق/ ۹ و ۱۱) كما- وأنّه للكشف عن عاقبة الظلم والجور وأهلهما- دعا اللّه الناس لمشاهدة ما خلّف هؤلاء من آثار ومشاهدة مدنهم الخربة.

هذا كلّه تأكيد من القرآن على ضرورة الاستعانة ب «الحس والمشاهدة» كمصدر للمعرفة.

توضيح

الفلاسفة ومصدر الحس:

هناك اختلاف كبير فى وجهات نظر الفلاسفة فيما يخص قضية اطّلاعنا على العالم الذى يحيط بنا وما هى المراحل التى نطويها للوصول إلى هذه المعرفة؟ ومن أى مصدر تصل أذهاننا؟ إنّ أكثر الفلاسفة عدّوا الحس أحد مصادر المعرفة رغم ظهور قطبين على طرفى الإفراط والتفريط فى هذا المجال.

۱- «الحسيون» حيث يعتبرون الحس الطريق الوحيد للمعرفة وينكرون المصادر الاخرى كالعقل.

«إنّ هؤلاء الذين ظهروا فى القرن السابع عشر أنكروا قيمة البرهان القياسى العقلى، واعتبروا اسلوب التجربة الاسلوب الوحيد والسليم والمعتمد عليه فى هذا المجال، وتعتقد هذه المجموعة بعدم أصالة وتجذر الفلسفة النظرية العقلية المستقلة عن العلوم التجريبية، ويعدون العلم ثمرة الحواس فقط، والحواس لا تتعلق إلّابظاهر وعوارض الطبيعة، إذن لا اعتبار للمسائل الفلسفية الأولية، وذلك لأنّها نظرية وعقلية بحتة وتتعلق بالامور غير المحسوسة، ولا يدرك الإنسان هذه المسائل نفياً أو إثباتاً» «۱».

---

(۱). اصول الفلسفة والمنهج الواقعى للشيخ المطهّرى، ج ۱، ص ۶ (مع تلخيص قليل).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۳

إنّ الماديين ومن ضمنهم أتباع المذهب «الديالكتيكى» من المتحمسين لهذه النظرية، فهم يقولون:

«إذا انقطعت جميع قنوات التأثير الخارجى عن حسّنا، فهذا يعنى أنّا سوف لا نعرف شيئاً، وسيعجز الذهن عن جميع نشاطاته، وتبقى معرفة الواقعيات أمراً محالًا، وعلى هذا فالحس منشأ المعرفة ومبنى أحكامنا اتجاه أى مسألة، فينبغى القول أنّ الحس منبع المعرفة بل منبعها الوحيد» «۱».

۲- المجموعة الاخرى هى التى تقع فى الطرف المقابل للمجموعة الاولى تماماً وهى التى لا تولى أى أهميّة للحس فى مجال المعرفة. يقول «ديكارت»: «لا نستطيع الوثوق بالمفاهيم التى وصلتنا من الخارج بواسطة الحواس الخمسة بأنّ لها مصداقاً خارجياً أم لا، وإذا

كان لها مصداق فلا يقين لنا بتطابقه مع الواقع» «۲».

مسار الحكمة فى اوربا: «يعتقد (ديكارت) أنّ محسوسات الإنسان لا تتطابق مع الواقع، وأنّ الحس هو وسيلة ارتباط بين جسم الإنسان والخارج، ويرسم لنا صورة كاذبة عن العالم، فهو يعتقد أن المفاهيم النظرية هى أساس العلم الواقعى» «۳».

والخلاصة: أنّ هذه المجموعة تعتقد أن المعقولات فقط لها قيمة علمية يقينية، أمّا المحسوسات فلها قيمة علمية غير يقينية «۴».

إنّ المجموعةَ الاولى تستند إلى أخطاء العقل النظرى والاختلاف الفاحش بين العلماء فى المسائل العقلية، بينما تستند المجموعة الثانية إلى أخطاء الحواس، حيث يذكرون أعداداً لا تحصى من أخطاء حاسة البصر التى تعتبر أهم وأوسع حس للإنسان.

---

(۱). المادية الديالكتيكية «نيك آئس»، ص ۳۰۲، (ملخص)- بالفارسية-.

(۲). مسار الحكمة فى اوربا، ج ۱، ص ۱۷۲ (مع تلخيص)- بالفارسية-.

(۳). المصدر السابق.

(۴). اصول الفلسفة، المقالة الرابعة (قيمة المعلومات).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۴

لكن ممّا لا شك فيه أنّ كلتا المجوعتين خاطئتان، ونوضح ما ندعيه بصورة مركزة فنقول:

بالنسبة للحسيين يمكن حصر أهم إشكالاتهم فى النقاط التالية.

۱- إنّ كلّ إنسان عند مشاهدته للموجودات الخارجية يواجه مجموعة من الحوادث والقضايا الجزئية لا يمكن الاستفادة منها للاستدلال، لأنّ كل استدلال يجب أن يستند إلى قضية كلية.

ومن هنا تبدأ مسؤولية العقل، حيث يقوم بصياغة قضايا كلية من هذه الجزئيات، فمثلًا نلاحظ أن قطعة الحجر تكسر الزجاج العادى فى ظروف مختلفة، فهذه الحوادث الجزئية الحاصلة بالحس تنتقل إلى العقل، فيصوغ العقل قاعده كلية تجاه هذه المسألة، وكذلك الأمر بالنسبة للتجربة فى الظروف والازمنة والأمكنة المختلفة التى تكشف عن أن الضوء ينتشر بصورة خط مستقيم، فالعقل يصوغ قاعدة كليّة من هذه الحوادث الجزئية لا وجود لها فى الخارج والموجود فى الخارج هو مصاديقها لا ذاتها.

وعليه فالإدراكات الحسية كالمواد الخام التى قد «تتحلل» وقد تتركب فى مختبر العقل، ومن خلال هاتين العمليتين نحصل على المفاهيم الكلية التى يستفاد منها فى المنطق والاستدلال.

۲- ممّا لا شك فيه أنّه ينبغى الاستفادة من العقل لإصلاح الأخطاء الناشئة من خطأ الحواس، فعندما نقول:

فإذا اخطأ البصر فى رؤية الأشجار المتوازية متقاطعة من بعيد فإنّ المعيار فى تشخيص و إدراك الخطأ هذا هو العقل.

صحيح أن تمييزنا لهذا الخطأ يستند إلى الحس أيضاً حيث إننا ندرك خطأ بصرنا من بعيد لأنا طوينا الشارع من اوله إلى آخره عدة مرّات وشاهدنا الأشجار فى طول الشارع متوازية ولم تلتقِ فى مكانٍ، لكن هذا الاستدلال الذى يستند إلى الحس يقوى عندما يقول لنا العقل إنّ اجتماع النقيضين محال، ويقول بامتناع أن تكون الأشجار متوازية ثم تلتقى فى

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۵

نقطة واحدة، فاستدلالنا بهذا الشكل يثبت لنا خطأ ما نشاهده من بعيد. فى الحقيقة إن قضية امتناع اجتماع النقيضين التى تدرك بالعقل تشكل حجر الأساس لجميع الاستدلالات، وعليه فلا يؤخذ بالدليل الحسى دون الاستناد إليها.

۳- فضلًا عما سبق، فإنّ ما ندركه بالحس هو ظاهر الأشياء، وما نرى من الجسم بالحس مجرد مظهره لا شىء آخر، وعليه فبدون تدخل الإدراكات العقلية لا نستطيع معرفة حقيقة الجسم.

قد يقال: إنّ الحواس لا دور لها لوحدها بل يجب الاستعانة بالإدراكات العقلية حتى فى العلوم التجريبية، لكن ينبغى الاذعان إلى هذه

الحقيقة- وهى أنّ جميع الإدراكات العقلية حصلت بواسطة الحواس وكما يقول «جان لاك» الفيلسوف الانجليزى المعروف: «لا شىء فى العقل لم يوجد قبله فى الحس».

إنّ هذه الجملة التى أصبحت مثلًا وبقيت ذكرى منه تدل على أنّ الذهن كان كاللوحة البيضاء فى البداية وقد ينقش عليها بعد ذلك بواسطة الحواس، وأن لا وظيفة للعقل غير «التجريد» و «التعميم» أو «التحليل» و «التركيب» لمدركات الحواس.

لكن هذا خطأ فظيع، وذلك لأنّ علمنا بأنفسنا (الذى هو علم حضورى) لم يحصل بواسطة الحواس، كذلك علمنا بوجود الحواس، أو علمنا باستحالة اجتماع النقيضين لم يحصل عن طريق الحواس، فنحن ندرك محالة أن نكون موجودين ومعدومين فى آن واحد وإن لم نملك حواساً، كذا الأمر بالنسبة لقضايا أخرى لا حاجة فيها إلى الحواس.

وتوجد أبحاث كثيرة فى هذا المجال لو أسهبنا فيها لابتعدنا عن هدف هذا الكتاب، وتَطَرُّقُنا لبعضها هنا كان بهدف توضيح نظريتى «الحسيين» و «العقليين» الذين حصروا سبل المعرفة فى بُعد واحد، وأن نظريتيهما سقيمتان وأن كلًا من «الحس» و «العقل» يشكلان منبعاً ومصدراً للإدراك، كما انعكس ذلك فى القرآن المجيد.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۷

۲- العقل و التحليل المنطقى

تمهيد:

فى القرآن الكريم تعابير كثيرة استعملت للإشارة إلى هذا المصدر كما يشاهد الكثير من الآيات التى تدعو الناس إلى المعرفة بالاستعانة ب «التفكير».

ونذكر هنا بعض تلك التعابير التى استعملت للإشارة إلى هذا المصدر المهم للمعرفة:

۱- العقل.

۲- اللب (وجمعه ألباب).

۳- الفؤاد.

۴- القلب.

۵- النُهى

۶- الصدر.

۷- الروح.

۸- النفس.

كما أنّ هناك تعابير استعملت فى القرآن لبيان مهمة العقل مثل:

۹- الذكر.

۱۰- الفكر.

۱۱- الفقه.

۱۲- الشعور. نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۸

۱۳- البصيرة.

۱۴- الدراية.

والآن نبحث كلًا من العناوين السابقة فى ضمن بحثنا عن الآيات التى وردت فيها تلك التعابير «۱».

ج‌ج

لنمعن خاشعين أولًا فى الآيات التالية:

۱- «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . (البقرة/ ۲۴۲)

۲- «انَّ فِى خَلْقِ السَّموَاتِ وَالارْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ والنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّاولِى الْالبَابِ .

(آل عمران/ ۱۹۰)

۳- «وَاللَّهُ اخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْابصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . (النحل/ ۷۸)

۴- «وَكَمْ اهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنْ قَرْنٍ هُمْ اشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِى البِلَادِ هَل مِنْ مَّحِيصٍ* انَّ فِى ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ اوْ الْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ». (ق/ ۳۶- ۳۷)

۵- «كُلُوا وَارْعَوا انْعَامَكُمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّاوْلِى النُّهَى . (طه/ ۵۴)

۶- «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجحَدُ بِآيَاتِنَا إلَّاالظَّالِمُونَ .

(العنكبوت/ ۴۹)

۷- «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيه مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ».

(الحجر/ ۲۹) و (ص/ ۷۲)

---

(۱). إضافة إلى العناوين والتعابير السابقة التى اشير إليها، هناك تعابير استعملت فى القرآن وأريد بها مراحل الإدراك مثل: الظن والزعم والحسبان واليقين، وعلم اليقين وعين اليقين وحق اليقين، والتى تبدأ بمرحلة هشة ومتزلزلة من الإدراك وتنتهى باليقين الذى هو أعلى مراحل الإدراك ولا يتصور درجة ومرحلة أعلى منه.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۰۹

۸- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ۷- ۸)

۹- «... وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون . (البقرة/ ۲۲۱)

۱۰- «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الاعْمَى وَالْبَصِيرُ افَلَا تَتَفَكَّرُونَ . (الأنعام/ ۵۰)

۱۱- «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ . (الأنعام/ ۶۵)

۱۲- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ احياءٌ وَلَكِنْ لَّاتَشْعُرُونَ .

(البقرة/ ۱۵۴)

۱۳- «انَّ الَّذِينَ اتَّقَوا اذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَاذَا هُمْ مُّبْصِرونَ .

(الاعراف/ ۲۰۱)

۱۴- «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدَاً وَمَا تَدرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ .

(لقمان/ ۳۴)

شرح المفردات:

«العقل» كما جاء فى لسان العرب ومفردات الراغب- من العقال أى الحبل الذى يُشدّ به ساق البعير لمنعه من الحركة وبما أنّ العقل يردعُ الإنسان عن القيام بالأعمال المشينة اطلقت هذه المفردات عليه.

وقد ذكر صاحب الصحاح أنّها تعنى «الحُجْر» «المنع» بينما قال البعض كصاحب القاموس: إنّها تعنى «العلم بصفات الأشياء كالحسن والقبح والكمال والنقص»، أمّا صاحب مجمع البحرين فقد فسر العاقل بانه: «الذى يستطيع أن يسيطر على نفسه ويتغلب على أهوائه وميوله».

ويظهر أنّ معناه الأولى هو الصد والمنع ولهذا يقال لمن امتنع لسانه عن النطق «اعتقل لسانه» كما يقال «للدية» «عقل» لأنّها تحول دون إهراق دماءٍ أكثر، ويقال للمرأة العفيفة والمحجبة والطاهرة «عقيلة».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۰

يقول «الخليل بن أحمد» فى كتابه «العين»: إنّ العقل يطلق على القلعة والحصن أيضاً.

كما نلاحظ هنا فإنّ مفهوم الحجر والمنع متضمّن لجميع هذه المعانى، وعليه فإن أصلهُ يعنى المنع.

أمّا كلمة «اللب» وجمعها «الألباب»- كما يقول كثير من أهل اللغة- يعنى الخالص والصفوة من كلّ شىء، ولهذا يطلق على المرحلة الرفيعة من العقل «اللب»، فإنّ كل لبٍ عقلٌ لكن ليس كل عقلٍ لُباً، لأنّ اللب هو العقل فى مراحله الرفيعة والخالصة، ولهذا السبب نُسِبَتْ امورُ القرآن الكريم إلى «أُولى الألباب» لا- تدرك إلّابالمراحل الرفيعة من العقل، كما يطلق اللب على باطن كثير من الفواكه لأنّه خالص من القشر «۱».

وإنّ كلمة «الفؤاد»- كما أشرنا سابقاً- من مادة «فأد» على وزن (وَعْد) وفى الأصل معناه وضع الخبز على الرماد أو الحصى الحارة، كى يُخبز جيداً، كما يطلق على طبخ وشوى اللحم «۲».

وعلى هذا فالعقل عندما ينضج يطلق عليه «فؤاد» وجمعهُ «أفئدة».

ويضيف الراغب فى مفرداته: إنّ «الفؤاد» يعنى القلب مع زيادة وهى الإنارة واللمعان.

إنّ «القلب»- كما جاء فى القاموس والمفردات والعين ولسان العرب- فى الأصل يعنى تغير الشىء وتحوله، وغالباً ما يستعمل بمعنيين، فتارة يطلق على العضو الذى يتكفل بضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن، وتارة اخرى يستعمل فيرادُ به الروح والعقل والعلم والفهم والشعور، وجاء هذا الاطلاق من حيث إنّ القلب الجسمانى والقلب الروحى فى حركة وتغيّر مستمرين، وكما يقول بعض أهل اللغة:

ما سمى القلب إلّامن تقلبهوالرأى يصرف بالإنسان اطوارا!

كما أنَّ كلمة «القلب» تطلق على مركز كل شىء مثل: قلب العسكر، لأنّ القلب مركز جسم وروح الإنسان، وقد جاء فى القاموس أنّ خالص كلّ شىءٍ يقال له «قلب».

---

(۱). لسان العرب والمفردات ومجمع البحرين.

(۲). لسان العرب وتاج العروس ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۱

وكلمة «النُهى تَعنى «العقل» ومن مادة «نهى» على وزن (سَعْى) ويعنى المنع من شىء مأخوذ، وقد صرح كثير من أئمة اللغة (كصاحب المفردات ومجمع البحرين ولسان العرب وشرح القاموس) أنّ هذه التسمية جاءت من حيث إنّ العقل ينهى عن الأعمال المشينة.

وَ «الصدر» فى الأصل يعنى القسم الأمامى الذى تحت الرأس (فى الجسم) ومن ثم اطلق على القسم الأعلى والمقدم لأىشىءٍ، مثل صدر المجلس أى أعلاه، وصدر الكلام أى بدايته، وصدر النهار أى أوله (كما جاء ذلك فى المفردات ولسان العرب).

إلَّا أنّه قد يستفاد من بعض الكلمات معنى المقدمية والبداية لكل شىء، وعلى كل حال، بما أنّ العقل عضو مهم ويقع فى الجزء الأعلى من البدن أُطلق عليه صدر، خاصة وأنّ القلب الجسمانى يقع فى وسط الصدر (العضو المعروف من البدن)، وسنذكر فيما بعد أنّ هناك علاقة وثيقة بين انقلاب القلب العضوى والانقلابات العقلية.

أمّا كلمة «الروح» فى الأصل تعنى التنفس، وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بين التنفس وبقاء الحياة، استعملت بمعنى النفس ومركز العقل وفهم الإنسان.

وقد صرح البعض أن كلمتى «الروح» و «الريح» اشتقتا من أصل واحد، وإذا سميت الروح- التى هى وجود مجرّد ومستقل- روحاً فذلك من حيث إنّ الروح كالريح توجد الحيوية والحركة من دون أن تُرى

وَكلِمة «النفس»- وكما يقول الراغب وصاحب القاموس ولسان العرب وكتاب العين- تعنى الروح التى هى مركز إدراكات الإنسان، إلّاأنّ القرآن الكريم ذكر مراحِلَ النفس:

«فالنفس الامارة» هى النفس التى تأمر الإنسان بالمعاصى وترغبه بها، و «النفس اللوامة» وهى التى تندم على المعاصى التى ارتكبها الإنسان وتوبخه عليها، و «النفس المطمئنة» وهى التى تتحكم بجميع الشهوات والميول وقد وصلت إلى مرحلة الاطمئنان.

من مجموع ما سبق، يتبين لنا أنّ القرآن المجيد استعمل مفردات كثيرة للإشارة إلى العقل، وكلٌّ من هذه المفردات تشير إلى جانب من جوانب هذا الوجود النفسانى، وبتعبير آخر كلٌّ منها يتعلق ببعد من أبعاد العقل.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۲

وبما أنّ هذه القدرة الغامضة تردع الإنسان عن الأعمال المشينة وتمنعه عنها قيل لها عقل ونُهى

وبما أنّه فى حال انقلاب وتحول دائم قيل له «قلب»، وبما أنّه فى القسم الأعلى من بدن الإنسان قيل له «الصدر».

وبما أنّ هناك علاقة وثيقة بينه وبين الحياة قيل له «روح» و «نفس»، وعندما يصل إلى مرحلة الإخلاص ويصفو من الشوائب يقال له «لُبّ»، وأخيراً عندما تنضج أفكاره يطلق عليه «فؤاد».

نستنتج من هذا البيان أنّ استعمال هذه المفردات المتنوعة فى القرآن لم يكن اعتباطاً بل كان منسجماً ومتماشياً مع الموضوع الذى فى الآية، وهذا من عجائب القرآن التى يدركها الإنسان عند تتبعه لآيات القرآن وتفسيره لها موضوعياً.

ج ج

أفعال العقل:

إنَ «الذكر» يمثل الاصطلاح المقابل للنسيان، وكما يقول الراغب: إنّه حالة فى الإنسان تمكنه من حفظ ما أدرك واستحضاره فى الذهن عند الحاجة، وهذا المعنى قد يتم بالقلب وقد يحصل باللسان.

وإنّ «الفكر» يعنى فعالية العقل، وعلى ما يقوله الراغب: إنّه قوة تسوق العلم إلى المعلومات، ويعتقد بعض الفلاسفة: أنّ حقيقة الفكر تتركب من حركتين: حركة نحو المقدمات، ثم حركة من المقدمات إلى النتيجة، ومجموع هاتين الحركتين اللتين تؤدّيان إلى العلم والمعرفة يقال لهما «الفكر».

و «الفقه» يعنى «الفهم» بصورة عامة- كما جاء ذلك فى لسان العرب- إلّاأنّ الراغب فى مفرداته يقول: إنّه بمعنى الاطلاع على أمرٍ خفى بالاستعانة بأمرٍ ظاهر وجلى، وعليه فالفقه علم يحصل بالأدلة (بالطبع إنّ الفقه المصطلح فعلياً هو علم الأحكام الإسلامية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۳

أمّا «الشعور» فيعنى العلم والمعرفة- كما يقوله بعض من أئمّة اللغة كصاحب القاموس ولسان العرب ومقاييس اللغة وغيرهم- إلّاأنّ الراغب قال فى مفرداته: يعنى «الاحساس»، وإذا كان المقصود هو الاحساس الباطنى فلا اختلاف مهم بين ما قاله الراغب وما قاله الآخرون فى شرح معنى الشعور، وقد جاء الشعور فى كثير من آيات القرآن وأُريد به (العلم)، إلّاأنّه استعمل فى موضع آخر وقصد به الاحساس الخارجى.

إنَّ كلمة «البصيرة» اشتقت من البصر، وقد جاءت- كما يقول الراغب- بثلاثة معانٍ:

بمعنى العين، وبمعنى قوة العين، وبمعنى قوة الإدراك والعلم.

وقد قال البعض: إنّ معناها فى الأصل هو العلم سواء حصل بالمشاهدة الحسية أو بالعقل «۱».

وتستعمل مفردة «البصيرة» بالخصوص فى «الإدراك القلبى والعلم»، ولهذا جاء فى لسان العرب أنّها تعنى الاعتقاد القلبى، وقد فسرها البعض بالذكاء الذهنى.

وقد استعملت بالمعنى الأخير فى القرآن الكريم حيث يقول: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي «۲». (يوسف/ ۱۰۸)

وكلمة «الدراية» تعنى العلم والخبرة بصورة عامة، أو العلم والخبرة فى الامور الخفية والمستترة، كما قد جاءت بمعنى «الكياسة»، كما يستفاد من قواميس اللغة أنّها فى الأصل تعنى الالتفات إلى شيءٍ ثمّ استعملت وأُريد منها الخبرة بشيءٍ، وقد استعملت فى القرآن الكريم مراراً وقصد بها مفهوم «العلم»، ويستخلص من هذا القسم من بحثنا أنّ الألفاظ التى استعملت للتعبير عن العقل وأريد منها مفهوم العلم والإدراك ألفاظ متنوعة، وكلٌّ منها تُعبّر عن بُعد وجانب من أبعاد وجوانب العقل، وقد استعملت كلٌّ فى موردها!

فعند البحث عن الخبرة مع الدقة استعملت «الدراية»، وعند البحث عن التحليل والعقل

---

(۱). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم مادة (بصر).

(۲). وقد جاءت فى آيات اخرى واريد منها نفس المعنى كما فى الآيات: القيامة ۱۴؛ و الأنعام ۱۰۴؛ الأعراف ۲۰۳؛ الاسراء ۱۰۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۴

استعمل «الفكر»، وعند البحث عن أمرٍ خفى ومعرفته بالاستعانة بأمرٍ محسوس استعمل «الفقه»، وعند البحث عن الخبرة المقترنة بالحفظ والحضور بالبال استعمل «الذكر»، وعلى هذا السياق تستعمل كل مفردة فى محلها وكل لفظ فى مقامه.

وينبغى الالتفات هنا إلى هذه النقطة وهى أنّ التعبيرات التى استعملت فى القرآن لبيان مهام العقل لها مراحل ورتب، تبدأ ب «الشعور» ويراد منه الإدراك البسيط، ثم مرحلة «الفقه» والذى يعنى إدراك المسائل الخفية من المسائل الجليّة، وبعدها تأتى مرحلة «الفكر» ويُراد منه التحليل العقلى، ثم تأتى مرحلة «الذكر» أى الحفظ فى الذهن والحضور فى البال، ثم مرحلة «النُهى التى تعنى الإدراك العميق لحقائق الامور، وتنتهى هذه المراحل بمرحلة «البصيرة» التى تعنى النظر الذهنى العميق.

وهذا هو معنى البلاغة والفصاحة!

ج‌ج

جمع الآيات وتفسيرها

قيمه العقل فى مقياس القرآن:

إنَّ أول آية تناولناها بالبحث هنا تؤكد بان الهدف من نزول الآيات هو العقل والتفكير لدى الإنسان، وتكشف عن هذه الحقيقة بالتعبير ب (لعلَّ) التى تفيد بيان الهدف فى موارد كهذا المورد.

وقد أكدت بعض الآيات على هذا الموضوع وذهبت إلى ابعد من ذلك حيث وبّخت الناس على عدم تفكرهم وتعقلهم وآخذتهم بعبارةٍ كهذه: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ «۱».

وقد تكرر هذا المضمون بصيغة جملة شرطية، حيث يقول تعالى «قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . (آل عمران/ ۱۱۸)

(۱). آل عمران، ۶۵؛ الأنعام، ۳۲؛ الاعراف، ۱۶۹؛ يونس، ۶۱؛ هود، ۵۱؛ يوسف، ۱۰۹؛ الأنبياء، ۱۰ و ۶۷؛ المؤمنون، ۸۰؛ القصص، ۱۰؛ الصافات، ۱۳۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۵

إنّ هـذه التعابير المختلفـة: «لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، أَفَلا تَعْقِلُونَ، إِنْ كُنْتُم تَعْقِلُونَ تكشف بوضوح عن هذه الحقيقة وهى: إنّ اللَّه وهب الإنسان العقل كى يستعين بقدرته على إدراك الحقائق وفهمها، ويستحق اللوم والتوبيخ إذا ترك الانتفاع بهذه القدرة.

والآية الثانية ومن خلال اشارتها إلى آيات اللَّه فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار صرحت: إنّ إدراك هذه الآيات أمر يسير لأُولى الألباب.

وكما أشـرنا سابقاً، فإنّ (اولى الألباب) هم العلماء الـذين خلصت عقولهم من جميع ترسبات الأوهام، فهم يدركون وقائع نظام الخلق، ويرون جمال الخالق من خلالِ المخلوقات، وهذا يكشف عن أهميّة العقل كطريق لمعرفة الحق جل وعلا.

ج‌ج

أمّا الآيـة الثالثـة، فبعـد أن أشارت إلى خروج الإنسان من بطن امّه لا يعلم شـيئاً شـرحت وسائل المعرفـة، فبدأت بحاسة «السـمع» الذى تُعرف علومه ب «العلوم النقليـة»، من خلال الاصـغاء إلى أقوال الآخرين، ثم ذكرت «البصـر» الـذى تميز به الأشـياء بعـد مشاهـدتها ثم ختمت ب «الفؤاد» الـذى تُـدرك به الحقـائق غير المحسوسـة، وقـد قلنـا سابقاً: إنّ الفؤاد هو العقل عنـد نضوجه، فهو أعلى درجـة من العقل.

ج‌ج

والآيـة الرابعـة بعـد إشارتها إلى الأقوام السالفة المقتدرة والتى أُبيدت واهلكت بسبب، وقد أُهلكوا لطغيانهم وفسادهم، ولم يسـتطيعوا الفرار والنجـاة، قـالت: «إِنَّ فى ذٰلِكَ (فى سيادتهم ثـم إبـادتهم) لَـذِكْرىٰ لِمَـنْ كَـانَ لَـهُ قَلْبٌ (أى عقـل) أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ (أى يصـغى للنصائح)»!

والآية الخامسة بعد الإشارة إلى إحياء الأرض الميتة وانبات الزرع فيها الذى يمثل غذاء الإنسان ودوابّه، صـرحت: إنّ هذه الامور آيات يدركها أصحاب النهى

وكنّا قد أشرنا إلى أنَّ النهى هو العقل بما هو ناهٍ عن فعل الأفعال القبيحة.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۶

أمّا الآية السادسة فبعد أن أشارت إلى الآيات العظيمة والبيّنة للقرآن، قالت: إنّ هذه الآيات فى صدور (قلوب) الذين أُوتوا العلم، وكما بيّنا من قبل فانَّ الصدر يعنى الجزء المقدم والأعلى من كل شـىء، وهذا يبيّن أنّ العقل الذى يعتبر من المصادر المهمّة للمعرفة، يشكل أشرف جزء فى الإنسان.

والآية السابعة بعد أن ذكرت قصة خلق آدم عليه السلام خاطبت الملائكة بالقول: «فَاذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ . (۲۹/ حجر) و (ص/ ۷۲)

وهـذه (الروح الإلهيّة) هى (جوهر العقل)، وقد اضـيفت إلى اللَّه لأهميتها (ويقال لهذه الإضافة اضافة تشـريفية) لأنّ اللَّه لا روح له ولا جسم، ولأجل هذه الروح الإلهيّة سـجد جميع الملائكة المقربين لآدم عليه السلام، وإلّا فالطين والتراب لا قيمة لهما، وهذا تأكيد شديد على أهميّة وقيمة العقل.

ج‌ج

والآية الثامنة تشير إلى خلق (النفس) أى الروح والعقل، وتُقسم بخالق النفس، ثم تضيف: إنّ اللّه ألهم وكشف للنفس طريقى الفجور والتقوى بعد أن أوضح لها هذين الطرِيقَيْن، وهذا تلميح جميل إلى الإدراكات الفطرية التى جُبِلَ عليها الإنسان منذ أن بدأ حياته.

كان هذا مجموع العناوين والمفردات الثمانية التى استعملت فى القرآن وأريد بها الإشارة فى كل مفردة منها إلى جانب وبُعد من جوانب وأبعاد جوهر العقل، وقد بينت هذه العناوين الأبعاد المختلفة لهذا المصدر المهم للمعرفة.

ج‌ج

إنَّ ما ذكر سلفاً كان بحثاً فى جوهر العقل، أمّا بالنسبة لنشاط ووظيفة العقل، فهنالك تعابير عديدة فى القرآن كانت قد اختصت بهذا الموضوع وكلٌّ منها تبيّن جانباً من جوانب وأبعاد نشاط العقل، وهى كالتالى:

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۷

الآية التاسعة بحثت التذكر واعتبرته الهدف من بيان آيات اللّه، والتذكّر هو الحفظ والخطور فى الذهن وهو أحد أهم وظائف العقل، وإذا لم يكن التذكر حاصلًا عند الإنسان ما استفاد الإنسان من علومه شيئاً.

وفى هذا المجال نرى تعبيرات مختلفة فى القرآن، فقد يذكر الموضوع الاستعانة بالأداة (لعل) التى تفيد بيان الهدف فى موارد كهذا المورد، وتارةً اخرى يعبر عن الموضوع باسلوب التوبيخ واللوم مثل «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ «۱».

وقد يبين الموضوع باسلوب التوبيخ لأولئك الذين لا ينتفعون بالعقل والفكر، فلا يحفظون الحقائق ولا يتذكرونها، كما هو الأمر فى: «قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُون .

(الاعراف/ ۳) و (النمل/ ۶۲).

ج‌ج

وقد تحدثت الآية العاشرة عن (التفكر) بعد استفهام استنكارى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالْبَصِير»؟ وقد وجهت اللوم بقولها: «أفلا تتفكرون»، وكما أشرنا سابقاً إلى أنَّ التفكير يعنى تحليل وتجزئة المسائل للوصول إلى حقائقها، وهو سبيل للفهم الأكثر والأفضل.

وقد تنوّعت تعبيرات القرآن فى هذا المجال، فتارةً يكون الاسلوب هكذا «لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُون . (البقرة/ ۲۱۹)

وتارة يكون: «لِقَوْم يَتَفَكَّرُون . (يونس/ ۲۴)، و (الرعد/ ۳)، و (النحل/ ۱۱)

وتارة اخرى يكون: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فى أَنْفُسِهِمْ . (الروم/ ۸)

ج‌ج

وتحدثت الآية الحادية عشرة عن «الفقه» الذى يعنى الفهم العميق، حيث قالت: «انظر

---

(۱). كما فى سور الأنعام، ۸۰؛ هود، ۲۴؛ النحل، ۹۰؛ المؤمنون، ۸۵؛ الصافات، ۱۵۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۸

كيف نصرّف الآيات» بأنواع من البينات «لَعَلَّهُم يَفْقَهُونَ فقهاً عميقاً.

وقد جاءت العبارة هنا بصيغة: «لَعَلَّهُم يَفقهُونَ . (الانعام/ ۶۵)

كما قد جاءت فى مكان آخر بصيغة: «لِقَوْم يَفْقَهُونَ . (الأنعام/ ۹۸)

وفى آية اخرى باسلوب: «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . (التوبة/ ۸۱)

وفى اخرى: «بَلْ كَانُوا لَايَفْقَهُونَ الَّا قَلِيلًا». (الفتح/ ۱۵)

وكلها تبين الأهميّة القصوى للفهم والإدراك العقلى.

وكما قلنا سابقاً، فإنّ كلمة «الفقه» تعنى إدراك الامور الخفية بالاستعانة بمشاهدة الامور الجلية، وهذا الإدراك هو أحد أبعاد الإدراك

العقلى.

وتحدثت الآية الثانية عشرة عن «الشعور»، فبعد أن نهت المؤمنين عن نعت الشهداء بالأموات قالت: إنّهم أحياء ولكن لا تشعرون أى لا تدركون.

وقد يراد بالشعور هنا معنى الاحساس الظاهرى، أو الاحساس الباطنى، وقد استعمل بكلا المعنيين فى القرآن المجيد.

وقد ذمّ القرآن فى موارد مختلفة، أولئك الذين لا يشعرون ولا يستخدمون شعورهم «۱».

ج‌ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عشرة عن «البصيرة» بعد ما أشارت إلى المتقين، حيث قالت:

إنَّ المتقين إذا ما ابتلوا بوساوس الشيطان تذكروا اللَّه وأبصروا وادركوا الحقيقة فنجوا من شباك الشياطين.

إنّ «البصيرة» و «الأبصار» هو الرؤية وقد تتم الرؤية بواسطة العين الظاهرة فيكون بصراً حسياً، وقد تتم بواسطة العين الباطنية أى العقل فذلك «الإدراك العقلى»، والمراد من البصيرة فى هذه الآية هو المعنى الثانى.

---

(۱). كما فى الآيات الآتية، الشعراء، ۱۱۳؛ الحجرات، ۲؛ البقرة، ۹؛ آل عمران، ۶۹؛ الأنعام، ۳۶ و ۱۲۳؛ المؤمنون، ۵۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۱۹

إنّ الإنسان على نفسه بصيراً: «بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ». (القيامه/ ۱۴)

والرسول وأتباعه على بصيرة فيما يدعون إليه: «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو الَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى . (يوسف/ ۱۰۸)

وقد استعملت البصيرة فى جميع هذه الموارد بمعنى المعرفة الحاصلة عن طريق العقل قطعاً.

ج‌ج

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن «الدراية» التى تعنى الذكاء والخبرة والاحاطة بالمسائل الخفية أو غير المحسوسة، حيث قالت: «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ . (لقمان/ ۳۴)

وقد استعملت الدراية فى القرآن بصيغ السلب دائماً، ويفيدنا فى هذا أنّ الدراية مرحلة عميقة من الفهم والإدراك لا تحصل لِكلِّ إنسان.

ج‌ج

نستنتج من الآيات السابقة النتائج الآتية:

۱- إنَّ القرآن يعتبر العقل من المصادر الأصلية للعلم والمعرفة، وقد أولاه أهميّة قصوى

۲- القرآن يدعو الجميع للتعقل والتفكّر فى جميع الامور.

۳- التفت القرآن التفاتاً خاصاً إلى ماهيّة الروح الإنسانية وأبعادها المختلفة، وأكّد على كلٍ من هذه الأبعاد.

۴- عبر القرآن عن نشاطات الروح فى مجال إدراك الواقعيات تعبيرات مختلفة، وقد استخدم واستفاد من كل تعبير فى محله.

إلّا أنّ القرآن ذكر موانع عديدة تحول دون الإدراك الصحيح للعقل، سنبحثها فى فصل (حجب المعرفة) إن شاء اللَّه.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۰

توضيحات

۱- الإدراكات العقلية برؤية فلسفية

بالرغم من أنّ أغلب الفلاسفة يعتبرون الإدراك العقلى أحد المصادر المهمّة للعلم والمعرفة، إلّاأنّ الفلاسفة الحسيّين يخالفون هذا الأمر، ولا يعيرون للإدراكات العقلية أهميّة واعتباراً- كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- ويحصرون طرق المعرفة بالتجارب الحسية متذرّعين بالحجج الواهية الآتية:

١- اختلاف الفلاسفة فى المسائل العقلية، فإنّ كلَّ طائفة منهم قدّمت أدلة ظاهرها يوحى بأنّها منطقية لإثبات مدعاها.

٢- وقوع كثير من العلماء بأخطاء معتقداتهم بحيث يضطر البعض فى مواقع عديدة للاعتراف بخطئه ويسعى لتصحيحه.

٣- كما يجب إضافة أمر آخر إلى الأمرين السابقين وهو: إنّ التقدم والتطور السريع للعلوم الطبيعية فى القرون الأخيرة حلَّ الكثير من ألغاز العالم وأسراره عن طريق التجربة الحسية، وهذا الأمر قَوّى فكرة الاستناد إلى التجربة الحسية (فى مجال المعرفة) فقط، وألغى بقيّة الطرق.

ونقرأ فى «تاريخ الفلسفة»: إنّ موضوعاً كهذا الموضوع سبب انكار الحقائق (الحسية وغير الحسية) من قبل السوفسطائيين فى اليونان القديمة، فمن جهة نظروا إلى اختلاف الفلاسفة، ومن جهة اخرى نظروا إلى عوام الناس، فبعضهم يؤيدون ادّعاء وكيلى المتنازعين فى المحكمة، ويعطون الحق لكلٍ من الطرفين وكأن كلا الطرفين على حق، ولهذا قويت عندهم فكرة أن لا حقيقة واقعاً.

وهنا ينبغى الالتفات إلى عدة امور لرفع هذه الالتباسات:

الأمر الاول: هو وجوب فصل «الإدراكات البديهية» عن «النظرية» عند التحقيق فى مسألة الإدراكات العقلية، وذلك لأنّ الاخطاء لا تحصل فى البديهيات، فلا يشك أحد فى أنّ الاثنين نصف الأربعة، أو أن شيئاً لا يمكن أن يكون موجوداً ومعدوماً فى آن واحد ومكان

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۱

واحد، وإذا شاهدنا أشخاصاً يشككون فى هذا الأمر أو يعتقدون، بخلاف ما هو بديهى فهم فى الواقع يتلاعبون بالألفاظ لا أكثر، فيفسرون (النقيضين) أو «الضدين» بمعانٍ غير تلك المعانى المتعارف عليها، والّا فلا خلاف فى اصل الموضوع.

الامر الثانى: لا يخطأ الاستدلال إذا استند إلى مقياس دقيق، فالخطأ ينشأ عندما يستند الدليل إلى مقاييس غير دقيقة، ولهذا لا نشاهد اختلافاً فى مسائل الرياضيات وقوانينها، لأنّها تعتمد على أسسٍ دقيقة، ونمتلك معايير واضحة لمعرفة صحة أو خطأ النتيجة لأى مسألة، والنتائج تكون قطعية كذلك.

الأمر الثالث: إنّ قولنا بوجود أخطاءٍ فى الإدراكات العقلية، دليل على قبولنا للإدراكات العقلية لا على نفيها، وذلك لأنّ مفهوم حديثنا عن الأخطاء فى الإدراكات هو أننا نقلب بعض الحقائق ونخطّىءُ عقائد الآخرين على أساس تلك الحقائق المقبولة لدينا.

مثلًا عندما حكمنا بصحة أحد آراء الفلاسفة المختلفين، فانّنا نعلم أنّ صحة اعتقادين متضادين محال، وهذا إدراك عقلى بديهى، وقضية القائلين: «إنّ الحس لا اعتبار له لأنّه يُخطِىءُ» تماثل هذه القضية، وكما ذكرنا سابقاً، فان تخطئتنا للباصرة فى إدراكها لخط دائرى ممتد ناشئة عن معرفتنا بأن هذا الخط نقطة نورانية متحركة، وبما أنّ «النقطة» تضاد «الخط» حكمنا بخطأ الباصرة فى إدراكها للخط الممتد، وهذا اعتراف ضمنى يوجد حقائق وإمكانية إدراكها.

وآخر الحديث، نقول: فى الحقيقة إنّ جميع المنكرين للإدراكات العقلية يريدون إثبات مدعاهم بنفس الإدراكات، أى أنّهم ينقضون مدعاهم عملياً، وقد هبوا لحرب الإدراكات العقلية بواسطة الإدراكات العقلية.

۲- منزلة العقل فى الروايات الإسلامية

أكّدت الروايات الإسلامية على أنّ للعقل أهميّة قصوى أكثر مما هو متوقع، وأشادت به

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۲

بعناوين مختلفة مثل: أساس الدين، وأكبر غنىً، وأفضل رأس، واعلى قضية، وأفضل صديق، وأخيراً المقياس والمعيار للتقرب إلى اللّه ونيل الثواب الإلهى.

ونكتفى هنا بذكر اثنتى عشرة رواية فقط من بين عشرات بل مئات الروايات المأثورة والمنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، والأئمّة عليهم السلام.

ففى هذا المجال:

۱- قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «قِوامُ المرءِ عَقلُه، ولا دينَ لِمن لا عقلَ لهُ» «۱».

۲- قال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا غنى كالعقل ولا فقر كالجهل» «۲».

۳- وقال فى حديث آخر: «إنَّ اللّه تبارك وتعالى يحاسب الناس على قدر عقولهم» «۳».

۴- وجاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ الثواب على قدر العقل» «۴».

۵- كما جاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «ما قسَّم اللّه للعباد شيئاً أفضل من العقل ... وما أدّى العبد فرائض اللّه حتى عَقَلَ عنه، ولا بلغ جميع العابدين فى فضل عبادتهم ما بلغ العاقل» «۵».

۶- وجاء فى حديث أنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام خاطب هشام بن الحكم قائلًا: «يا هشام! ما بعث اللّه أنبياءه ورسله إلى عباده إلّاليعقلوا عن اللّه، فاحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر اللّه أحسنهم عقلًا، وأكملهم عقلًا أرفعهم درجة فى الدنيا والآخرة» «۶».

۷- وقال الرسول صلى الله عليه و آله فى حديث آخر: «لكل شىء آلة وعُدّة، وآلة المؤمن وعدَّته العقل، ولكلِ شىء مطية ومطية المرء العقل، ولكلّ شىء غاية وغاية العبادة العقل» «۷».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۴، ح ۱۹.

(۲). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة ۵۴.

(۳). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۰۶، ح ۲.

(۴). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۲، ح ۸ (كتاب العقل والجهل).

(۵). المصدر السابق، ص ۱۲، ح ۱۱.

(۶). المصدر السابق، ص ۱۶.

(۷). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۵، ح ۳۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۳

۸- وجاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد اللّه أن يزيل من عبد نعمة كان أول ما يغير منه عقله» «۱».

۹- ويقول الإمام على عليه السلام فى هذا المجال: «العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش الشيطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيّهما غلب كان فى حيّزه» «۲».

۱۰- ويقول فى حديث آخر: «العقول أئمّة الأفكار والأفكار أئمّة القلوب، والقلوب أئمّة الحواس، والحواس أئمّة الأعضاء» «۳»، (وبهذا فإنّ أعضاء الإنسان تستند إلى حواسه وحواسه تستعين بعواطفه، وتعتمد عواطفه على أفكاره، وأفكاره على عقله).

۱۱- وجاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله: «إنَّ الرجل ليكون من أهل الجهاد ومن أهل الصلاة والصيام، وممَّن يأمر بالمعروف

وينهى عن المنكر، ولا يُجزى يوم القيامة إلّاعلى قدر عقله» «۴».

۱۲- وقال الإمام الباقر عليه السلام: «لا مصيبة كعدم العقل» «۵».

۳- المخالفون لتحكيم العقل

إنَّ لهذا الجوهر الإنسانى (العقل) شأناً رفيعاً وصفات إيجابية كثيرة جداً، والملفت للنظر حقاً أنّه بالرغم من اتصاف العقل بهذه الصفات وامتلاكه هذه المكانة المرموقة نجدُ مَنْ يذمّونه وَمَن يتأسفون لأنّهم عقلاء، والأغرب من ذلك أنّهم يمتلكون الحجج- حسب زعمهم- على ادّعاءاتهم الجوفاء!

---

(۱). بحار الانوار، ج ۱، ص ۹۳۰، ح ۲۰.

(۲). غرر الحكم.

(۳). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۹۶، ح ۴۰.

(۴). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۲۴.

(۵). بحار الأنوار، ج ۷۱، ص ۱۶۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۴

فتارة يقولون: إنَّ العقل يحد من تصرفات الإنسان ويسلبه حرّيته، حيث يجعل أمامه موانع تحول بينه وبين ما يريد أن يقوم به من عمل حراماً كان أو حلالًا حسناً أو قبيحاً خيراً أو شرّاً، فلو لم تكن لنا عقول لكنّا أحراراً.

وتارة يقولون: إنّه يسلب راحة الإنسان حيث نرى العقلاء والأذكياء من الناس لا راحة لهم، إلّاأنّ البسطاء من الناس فرحون وسعداء دائماً لانعدام تأثير العقل عليهم.

وإذا قرأنا أشعاراً مفادها ذمُّ العقل أو الانتقاص منه أو الاستهانة به فمن الواضح كونها مزاحاً أو سفسطة أو كناية عن مفاهيم اخرى ويستبعد أن يكون مرادهم ذم العقل، بل إنّهم يقصدون أنّ هناك اموراً مؤلمة تحيطهم، والناس فى غفلة عنها.

أو أنّ قصدهم من الجنون المذكور فى بعض الأشعار كصفة للعقل، هو الجنون العرفانى والمراد منه العشق الإلهى، والتضحية بكل شىء فى سبيله.

وعلى أيّة حال، صحيح أنّ العقل يقيد حرية الإنسان وبعض تصرفاته،

إلّا أنّ هذا فخر له، لأنّه يرشدهُ نحو التكامل، إنَّ هذا الادّعاء يُشْبِهُ ادعاء من قال: «إنّ الاحاطة بعلم الطب يحد من انتخاب الإنسان لأنواع الأطعمة ومن امور اخرى»، وهل هذا نقص؟! أم أنّه ينقذ الإنسان من الاصابة بالامراض وفى بعض الأحيان من التسمم القاتل.

أمّا القول بأن العقل يزيد من هموم الإنسان وأحزانه، فهذا يرفع من منزلة الإنسان، العاقل من يتحسّس آلام المضطهدين والمظلومين ويتألم من سلوك المعاندين وبالتالى فهو دليلٌ على الكمال، وكما جاء فى المثل: (إمّا أن يكون ضعيفاً ونحيفاً كسقراط فى زهده أو سميناً وبديناً كالخنزير).

نعم، إذا غفلنا عن مسألة التكامل الإنسانى واعتبرنا الأصل فى الحياة هو اللذّة المادية، فان ما يتفوه به بعض المؤيدين لأصالة اللذة المادية صحيح، لكن هذا الحديث مضحك ولا قيمة له من وجهة نظر الإنسان الموحّد الذى يؤمن بالرسالة والهدف وتكامل الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإنّ المؤيدين لأصالة اللذة مضطرون لأنّ يسلموا ويخضعوا لكثير من القوانين الاجتماعية الحادة من حرياتهم وتصرفاتهم، وأن يفرضوا على أنفسهم العناء من

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۵

هذه الناحية، ومن هنا ندرك كيف أنّ الإنسان يسقط فى الهاوية عند ابتعاده عن تعاليم الوحى والأنبياء.

إلى هنا ننهى البحث عن المصدر الثانى من مصادر المعرفة (العقل) وننتقل إلى المصدر الثالث بالرغم من بقاء بحوث كثيرة لم تطرح فى هذا الفصل.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۷

۳- التاريخ والآثار التاريخية

تمهيد:

تعرَّض القرآن للقضايا التاريخية باسلوبين:

۱- الاسلوب المدوّن، أى أنّ القرآن المجيد يَسردُ للمسلمين بعض الحوادث التاريخية للأقوام السالفة بألفاظ وعبارات شيقة ودقيقة، ويبين الامور الغامضة والمشرقة من تاريخهم، ويشير إلى عواقب أعمالهم، وذلك لتوعية المسلمين وتعريفهم بالقضايا المختلفة، ولكى يرى الناس حقائق من حياتهم فى مرآة تاريخ السالفين.

۲- الاسلوب الثانى، التكوينى، أى كشف القرآن عن الآثار التاريخية التى خلفتها الأقوام الغابرة، الآثار الصامتة ظاهراً والتى تمثل عالماً صاخباً ومثيراً، الآثار التى يمكنها أن تصوّر لنا التاريخ الغابر، الآثار التى تعتبر مرآة أمام الإنسان يرى فيها وجه حياته فى الحاضر والمستقبل.

ججج

نبدأ أولًا بقراءة نماذج من كلا القسمين فى الآيات التالية:

۱- «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبرَةٌ لِّأُوْلِى الْأَلبَابِ . (يوسف/ ۱۱۱)

۲- «فَاقصُصِ القَصَصَ لَعلّهُم يَتَفَكَّرُون . (الاعراف/ ۱۷۶)

۳- «ذَلِكَ مِنْ أَنباءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائِمٌ وَحصِيدٌ». (هود/ ۱۰۰)

۴- «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ أَحْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا القُرآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبلِهِ

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۸

لَمِنَ الغَافلين . (يوسف/ ۳)

۵- «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبرَةً لِّمَنْ يَخْشَى .

(النازعات/ ۲۵- ۲۶)

۶- «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُم قُلوبٌ يَعقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسمَعُونَ بِهَا ...».

(الحج/ ۴۶)

«افَلَم يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا». (محمد/ ۱۰)

۸- «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ .

(آل عمران/ ۱۳۷)

۹- «قُلْ سِيرُوا فِى الأَرضِ فَانْظُرُوا كَيفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِىءُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (العنكبوت/ ۲۰)

۱۰- «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ . (البقرة/ ۲۵۸)

۱۱- «أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ». (الفجر/ ۶- ۷)

۱۲- «أَلَمْ تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ . (الفيل/ ۱)

شرح المفردات:

۱- إنَّ كلمة «قصص» تعنى التتبع لآثار شيءٍ ما «۱»، وقد سمّيت القصة قصة لأنّ فيها تتبعاً للأخبار والحوادث المختلفة، وعليه فالقصّة لا تعنى الرواية فحسب، بل تعنى- لغوياً- التتبع لآثار الأشياء.

كما تطلق «القصص» على كل شيء متتابع ومتسلسل.

---

(۱). ينبغى الالتفات إلى أنّ (قصص) كما هى مصدر لقصَّ يقصّ، هى جمع (قصة)، والمراد منها فى سورة يوسف فىالآيتين ۳ و ۱۱۱ هو المعنى الثانى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۲۹

وبما أنّ (المِقَصّ) يقص الشعر على التوالى قيل له (مِقَصّ)، والقُصّة، على وزن «غُصّة» وتعنى مجموعة الشعر الإمامى «۱».

۲- أمّا كلمة «عِبْرة» فاشتقت من مادة (عبور) و (عَبْر) وتعنى الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، و «العبور» فى الأصل- يعنى عبور الماء سباحة أو بالزورق أو على الجسر وأمثال ذلك، وقد استعملت هذه المفردة بمعنى أوسع وهو الانتقال من حالة إلى حالة اخرى، ويقال لقسم من الحديث (عبارة) لأنّها تمثل العبور من لسان المتكلم إلى اذن السامع.

أمّا (العبرة) فهى الحالة التى يتوصل بها من معرفة المُشاهِدِ إلى ما ليس بِمُشاهَدٍ «۲».

وقد ذكر البعض أن «العبرة» تعنى الدلالة التى توصل الإنسان إلى مراده «۳».

كما جاءت هذه المفردة بمعنى التعجب «۴» (وقد يكون هذا الاطلاق الأخير لأنّ كثيراً من الامور التى يكتشفها الإنسان عن طريق الحوادث المهمّة والجلية تثير العجب).

۳- كلمة «السير» تَعنى الحركة على الأرض، وإذا قيل (سيروا فى الأرض) فإنّ القيد الأخير تأكيد للسير، وقد قال الراغب فى مفرداته: ذُكِرَ معنيان للسير فى الأرض: أحدهما الحركة الجسمانية على الأرض (ومشاهدة الكائنات وآثارها المختلفة)، والثانى هو الحركة الفكرية ودراسة الكائنات، وقد صرح البعض: إنّ السير يعنى العبور المستمر فى جهة واحدة «۵».

أمّا كلمة «السيرة» فتعنى الطريقة والأسلوب، واستعمالها إشارة إلى تاريخ حياة الأشخاص، وقد أُخذت من هذا المعنى

۴- أمّا «الرؤية» فقد جاءت بمعنيين، أحدهما المشاهدة بالعين، والآخر العلم والمعرفة

---

(۱). لسان العرب، ومفردات الراغب، ومجمع البحرين.

(۲). مفردات الراغب.

(۳). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۷۱.

(۴). لسان العرب.

(۵). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۶۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۰

أو المشاهدة الباطنية «۱»، وقد استعملت فى القرآن الكريم فى موارد كثيرة بالمعنى الثانى أى بمعنى العلم والاطلاع، وأمّا «الرأى» فيعنى الاعتقاد القلبى والنظرية سواء كان اعتقاداً يقينياً أو ظنياً، وأمّا «الرويّة» و «التروّى» فيعنيان التفكير أو السعى والبحث للحصول على

النظرية.

۵- كلمة «نظر» فى الأصل تعنى دوران العين أو حركة الفكر لإدراك أمرٍ ما، أو مشاهدته، وجاء أيضاً بمعنى البحث والتفحص وتارة جاء بمعنى المعرفة الحاصلة بعد الفحص، وقد ذكر صاحب مجمع البحرين ثلاثة معانٍ للنظر: ۱- مشاهدة الشيء، ۲- التدقيق فى الشيء بواسطة العين؛ ۳- التفكير للحصول على العلم أو الظن «۲».

أمّا صاحب لسان العرب فقد شرح النظر بأنّه المشاهدة بالعين والثانى المشاهدة بالقلب، والمفيد أنّه استشهد بعد ذلك بحديث للرسول صلى الله عليه و آله حيث قال فيه: «النظر إلى وجه على عبادة»، وفى تفسير هذا الحديث ينقل عن ابن الأثير أنّه قال: معنى الحديث هو أن الناس حينما كانت أعينهم تقع على علىغ عليه السلام كانوا يقولون:

«لا إله إلّااللَّه ما أشرف هذا الفتى لا إله إلّااللَّه ما أعلم هذا الفتى ...» «۳».

جمع الآيات وتفسيرها

بعد أن أشارت الآية الاولى إلى المصير المؤلم لبعض الأمم السالفة قالت: «لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِم عِبْرَةٌ لِّأُولِى الْأَلْبَابِ فالتفكير فى مصير هؤلاء يُعد الاسلوب الأمثَل لأُولى الألباب لمعرفة عوامل السعادة والشقاء، وتمييز طريق الهلاك عن طريق النجاة.

---

(۱). وفعلها يتعدى لمفعول واحد على المعنى الأول، ومفعولين على المعنى الثانى (لسان العرب والمفردات).

(۲). مفردات الراغب مادة (نظر).

(۳). لسان العرب، مادة (نظر).

ج‌ج

والآية الثانية خاطبت الرسول قائلة ذكرهم بتاريخ ومصير الامم السالفة من أجل أن تبعث فيهم روح التفكير والتأمل: «فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلّهُم يَتَفَكَّرُون وهذا يدل على أنّ البيان الصحيح لتاريخ السالفين موجب لصحوة الأفكار ومصدراً للمعرفة.

ج‌ج

والآية الثالثة بعد أن بيّنت مصير بعض الأقوام السالفة مثل قوم نوح وشعيب وفرعون ولوط وعاد وثمود، قالت: «ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنهَا قَائمٌ وَحَصِيدٌ» (أى من القرى من هو باق لحدّ الآن ومنها من زال وفنى «مَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ . (هود/ ۱۰۱)

ثم أضافت فى النهاية «إِنَّ فى ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ». (هود/ ۱۰۳)

ج‌ج

و الآية الرابعة التى جاءت فى بداية سورة يوسف، هَيَّأَتْ أَذهانَ المخاطبين فى البداية لتلقى وإدراك ما سَيُقال لهم فقالت: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيكَ احْسَنَ القَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا اَلَيْكَ هَذَا الْقُرآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الغَافِلِينَ .

(يوسف/ ۳)

فقد استندت الآيات الأربع إلى موضوع «القصة» والقصص» كوسيلة للمعرفة.

ج‌ج

والآية الخامسة بعد اشارتها إلى تعذيب فرعون قالت: «فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالاولى إِنَّ فى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَنْ يَخْشَى .

إنَّ هذه الآية ذكرت (العبرة) التى تعنى الانتقال والعبور من حالة قابلة للمشاهدة إلى حقائق غير قابلة للمشاهدة واعتبرتها وسيلة

للمعرفة.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۲

وقد أكدت الآية السادسة والسابعة والثامنة والتاسعة على مسألة «السير فى الأرض»، ودعت الناس إليه باساليب خطابية مختلفة، فمرة خاطبتهم ب: «أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ومرة «فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ بعد ما ذمتهم لعدم سيرهم فى الأرض.

وفى آيات أُخَر خُوطِبَ جميع الناس أو المسلمين بالقول: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ .

وفى آية اخرى هناك دعوةٌ للناسِ لأنّ يسيروا فى الأرض للبحث عن بدء الخلق والاستفادة من ذلك للعلم بكيفية النشأة الآخرة.

ج‌ج

وقد أكدت الآيات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة على مسألة المشاهدة و «الرؤية» ليس بالعين الباصرة، بل بالعقل والبصيرة.

إنّ الخطاب فى الآيات الثلاث فى الظاهر موجَّهٌ إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلَّاأنّ المراد بها جميع المؤمنين، بل الناس كافة، والخطاب بصيغة استفهام تقريرى، حيث خاطبه اللَّه تارة بالنحو الآتى:

ألم ترَ إلى الذى (أى نمرود ذلك السلطان الطاغى المغرور) حاجّ ابراهيم فى ربّه، وإلى أىّ نهاية انتهى به المطاف؟ وتارة يخاطبه بهذا الخطاب: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ* إرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ».

وخاطبه تارة اخرى بنحو آخر قائلًا له: «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيْلِ ، مذكّراً بقصة أصحاب الفيل الذين قدموا من اليمن لهدم الكعبة فانزل اللَّه عليهم طيوراً- بالرغم من ضعفها- ترميهم بحجارة من سجيل تحملها بمناقيرها فهلكوا بهذه الأحجار الصغيرة.

ومن المسلم به أنّه لا الرسول ولا غيرَه من المسلمين رأى إبراهيم ونمرود وسمعَ

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۳

محاجتهما، وكذا الأمر بالنسبة لقوم عاد، فلم يروهم ولم يروا مدنهم العامرة يومذاك، وحتى بالنسبة لأصحاب الفيل فإنّ الرسول صلى الله عليه و آله وُلِدَ فى السنة التى هجم فيها (ابرهة) طبقاً للرواية المشهورة، فلم يرَ شيئاً من الحادث وكذا أكثر المسلمين، وعلى هذا فالمراد من الرؤية هو التدقيق فى تاريخهم.

إنّ ما يلفت النظر هنا هو أنّ الآيات الخمس الاولى ركّزت بحثها على التاريخ المدوّن أى ما جاء فى صفحات الكتب التاريخية بينما ركزت الآيات الاربع الأخيرة بحثها على التاريخ التكوينى الحى أى الآثار الباقية عن الأقوام الغابرة فى بقاع مختلفة من العالم.

من الممكن أن تكون الآيات الثلاث الأخيرة فيها إشارة إلى التاريخ المدون أو التاريخ الخارجى أو كليهما، ويتضح من مجموع هذه الآيات (وأمثالها فى القرآن الكريم) الأهميّة القصوى التى أولاها القرآن لقسمى التاريخ كمصدر للمعرفة والعلم.

إنَّ اللَّه عزّ وجلّ يدعو الناس تارةً لأنّ يشاهدوا بأم أعينهم قصور الفراعنة وآثار دمار مدن عاد وثمود وقصور نمرود وأعوانه والبلاد التى جُعِلَ عاليها سافلها التابعة لقوم لوط لكى يعرفوا أنَّ مَصير المتجَبّرين سيؤول إلى هذه النهاية.

وتارة نجد القرآن نفسه يشرح بدقة هذه الحوادث ويسلط الأضواء عليها ويعدُّ العِبَر بعد العِبَر ذاكراً عاقبة (المكذبين) و (الظالمين) و (الكافرين) و (المفسدين) فى ضمن بحوثه التاريخية هذه.

فى الحقيقة إنّ القرآن تارة يأخذ بأيدى الناس إلى «مصر» ويريهم الآثار التاريخية ويصور لهم الراقدين تحت التراب ويضع أمام أعينهم العروش التى عصفت بها الرياح، وتارة اخرى يريهم الذين أُركسوا فى العذاب وهُدّمت عروشهم، والخلاصة: فإنّ القرآن يريهم ما خفى عن العيان من قصص الأسلاف.

إنّه يمضى بهم إلى المدن المُخربة كمدينة (سدوم) مركز قوم لوط ليشاهدوا عن كثب ما حلّ بها ومن هناك إلى جنة شداد، وبلاد بابل، (مركز حكومة نمرود)، ومناطق اخرى.

إنّه يجعل من ايوان كسرى فى المدائن وزخارف كل قصر عبرة لمن اعتبر ونصيحة جديدة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۴

والخلاصة: إنّ القرآن يستند كثيراً فى مجال التعليم والتربية والتوعية إلى التاريخ المدون فى الكتب، وما موجود على وجه الأرض، وهذه، مسألة جديرة بالاهتمام كثيراً.

ججج

توضيحات

۱- مرآة التاريخ

إنّ أهم ما يحصل عليه الإنسان فى حياته هو تجاربه الشخصية، التجارب التى تفتح له بها آفاق جديدة وواسعة من أجل حياة أفضل وجهاد اكثر ليسعى جاهداً للوصول إلى التكامل الأمثل.

لكن ما هو مقدار التجارب التى يستطيع الإنسان الحصول عليها خلال عمره القصير البالغ مثلًا عشرين سنةً أو خمسين أو ثمانين؟

هذا إذا قضى عمره فى ميادين التجربة ولم يِقضِهِ على وتيرة واحدة.

إننا، لو استطعنا أن نجمع تجارب جميع من عاش فى عصر واحد، أو تجارب جميع من عاش فى القرون والعصور الماضية، لَحَصَلْنا على تجارب كثيرة، وستكون تلك التجارب مصدراً مهماً لمعرفتنا وخبرتنا.

إنّ التاريخ- إذا تمّ تدوينه بالطريقة الصحيحة والكاملة- فسوف يقدم للباحثين والدارسين تجارب البشر على مرّ القرون، وحتى إذا كان ناقصاً فانّه يضم بعض تجارب العصور الغابرة.

ومن هنا تبدو أهميّة التاريخ حيث إنّ ما يحدث الآن قد تكرر نموذج أو نماذج منه فى التاريخ سابقاً، وما يقال عن التاريخ من أنّه «يعيد نفسه» حقيقة لا تنكر وقد تستثنى موارد منه إلّاأنّ اكثر الحوادث داخلة فى اطار هذا القانون.

وقد أشار الإمام على عليه السلام لهذا الموضوع بوضوح فى خطبةٍ له، حيث قال فيها: «عباد اللّه

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۵

إنّ الدهر يجرى بالباقين كجريه بالماضين» «۱».

وقد جاء فى حديث شريف أنّ ما يجرى فى الامة الإسلامية قد جرى مثله فى بنى اسرائيل.

ومن هنا تتضح أهميّة ودور التاريخ فى مجال المعرفة والفكر، ونستطيع القول بتحدى:

إنّه بالتحليل والدراسة الدقيقة لتاريخ البشر نجد:

عوامل الفشل والسقوط.

وعوامل الانتصار والفوز.

وعوامل إزدهار الحضارات.

وعوامل سقوط وانقراض الحكومات (الدول).

وعاقبة الظلم والاستبداد.

وعاقبة العدل والانصاف.

ونتائج وحدة الكلمة والحركة والسعى.

ودور العلم والمعرفة.

وعواقب الجهل والبطر والكسل، كلها قد انعكست فى مرآة التاريخ.

وإن أراد أحد أن يمنحه اللَّه حياة ثانية فحرىٌّ بنا أن نقول له: إنّك إذا درست التاريخ بدقة لوجدت إنّك لم تمنح حياة ثانية فحسب، بل وُهِبَت الآلاف المضاعفة.

وما أجمل ما خاطب به الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ولدَهُ الاكبر الإمام الحسن عليه السلام: «أى بنى إنّى وإن لم أكن عُمّرتُ عمر من كان قبلى، فقد نظرت فى أعمالهم، وفكرت فى أخبارهِم وسرتُ فى آثارهم، حتى عُدْت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى اليَّ من امورهم قد عمِّرتُ مع أولهم إلى آخرهم» «۲».

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

(۲). نهج البلاغة، وصيته للإمام الحسن المجتبى عليه السلام.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۶

ومع أنّنا لا ننكر النواقص والإشكالات على التاريخ المتداول بين أيدينا، ولكن رغم هذه النواقص- التى سنشير اليها فيما بعد- فهو غنى بالعلم والمعرفة.

۲- جاذبية التاريخ

لِمَ كان التاريخ معلماً؟ الإجابة عن هذا السؤال ليست صعبة، وذلك لإمكانية تشبيه التاريخ بالمختبر الكبير الذى تخضع فيه قضايا حياة الإنسان المختلفة للتحليل.

وعلى هذا الأساس، فكما أنّ العلوم التحليلية حلت الكثير من مسائلها وقدّمت الكثير من البراهين الحية لإثبات الواقعيات بالاختبار، كذلك التاريخ ذلك المختبر العظيم حيث تختبر فيه الكثير من القضايا والمسائل، حيث يميز فيه الذهب الخالص من الذهب غير الواقعى، وبه تزول الأوهام عن الأذهان.

إذا حللت ظواهر الأجسام أو تركيباتها فى مختبرات الكيمياء والفيزياء، فانّك فى مختبر التاريخ تحلل أسرار انتصار وفشل الأقوام السالفة، وسبب سيادة وتطور أو انحطاط الحضارات، وردود الفعل وصفات ومعنويات الأقوام والأشخاص، واسلوب عملهم بجاذبية وجمال فائق.

وبذلك يكون التاريخ وسيلة مناسبة لدراسة عوامل السعادة وشقاء البشر.

وإذا شاهدنا فى القرآن الكريم تأكيداً على تاريخ الامم السالفة، وشاهدنا فيه من السور الدالّة على المباحث التاريخية حتى أنّ بعض السور تدور معظم آياتها أو كلّها حول تاريخ الأقوام السالفة فذلك كله ناشىء من هذه الملاحظة التى أشرنا اليها.

وقد ينكر المعاندون بعض المسائل النظرية، إلّاأنّه لا يمكنهم انكار واقعيات التاريخ القطعية، وبالخصوص الحوادث التى أشار اليها القرآن حيث نراه يأخذ بأيدى الناس إلى ما خلّفته الأقوام الغابرة، ويروى قصصهم على قبورهم وقمم مدنهم الخربة.

إنّ التاريخ- فى الحقيقة- فرع من المسائل التجريبية، وبتعبير آخر يمكن ادغامه فى مصدر «الحس والتجربة» إلّاأنّه يختلف عن الحس والتجربة اختلافاً طفيفاً فالحس والتجربة يتعلقان بالحاضر لكن التاريخ يتعلق بالماضى، وأنّ الحس والتجربة قد يتعلقان بذات الفرد

فقط بينما التاريخ يتعلق بجميع ذوات البشر.

ولكن الأهميّة الفائقة لهذا الفرع من التجربة تفرض علينا دراسته كمصدر مستقل للمعرفة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۷

۳- شوائب التاريخ

بالرغم من أنّ التاريخ مرآة كبيرة وجميلة تعكس الواقعيات إلّاأنّ المؤسف فيه هو وجود أيادٍ ملوَّثة سعت وتسعى دائماً لتغيير وتشويه الوجه الناصع لهذه المرآة، ولهذا السبب فإنّ هناك كثيراً من الشوائب فى التاريخ تحول دون معرفتنا للحقيقة ودون تمييزنا الصادق من الكاذب منه.

إنّ سبب التشويه واضح، حيث لم يكن المؤرخون محايدين دائماً، بل كثيراً ما يؤرخون التاريخ بالشكل الذى يتناسب مع دوافعهم الشخصية والفئوية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ جبابرة كل عصر سعوا لإغراء المؤرخين وجذبهم ليكونوا تحت سيطرتهم ونفوذهم، ليملوا عليهم ما يحلو لهم فيكتبوا ما يريد هؤلاء الجبابرة.

وبالرغم من المساعى التى تُبذل بعدَ زوال كلٍّ من الحبابرة والظالمين وتوفر أجواء حرة أكثر فى سبيل إصلاح الأخطاء، وتصحيح ما لحق بالتاريخ من فساد، إلّاأنّ المؤرخين قد لا يوفّقون فى هذا المجال لإصلاح الخطأ، أو تكون إصلاحاتهم غير كافية.

والملفت للنظر أنّ قضايا التاريخ تتبدّل كلما تبدلت الحكومات المستبدة ذات الميول والإتّجاهات المتضاربة، ف «بنو امية» مثلًا حرفوا التاريخ الإسلامى بشكل، و «العباسيّون» حرفوه بشكل آخر، كما أنّ الذين خلفوا العباسيين صاغوه بشكل آخر.

إنَّ (استالين) كتب فى زمن ما تاريخ الثورة الشيوعية فى روسيا بشكل، وقد دُرِّس هذا التاريخ فى جميع المدارس آنذاك، والذين خلفوه كانوا يعتبرونه جلاداً مصاصاً للدماء فجمعوا تلك الكتب ودوّنوا تاريخ الثورة بصيغة اخرى، وهكذا فعل كل من خلف الحكومة فى الاتحاد السوفيتى فكتب التاريخ بما يتناسب مع ميوله الشخصى والمذهبى.

ولهذا السبب، فإنّ البعض أساء الظن بالتاريخ وقال فيه- مبالغةً- هذه العبارة: «إنّ التاريخ مجموعة حوادث لم تحدث أبداً، وأقوام لم توجد أبداً»!!

إلّا أنّ الانصاف يفرض علينا أن نعدّ التاريخ أحد مصادر المعرفة بالرغم من الغبار الذى غطّاه، وذلك لأنّ التاريخ كأى خبر آخر منه «المتواتر» ومنه «الموثوق» ومنه «الضعيف» ومنه «المجهول».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۸

ولا يمكن انكار ما تواتر فى التاريخ عن جُند المغول وجيش هتلر والحوادث المفجعة فى «الاندلس»، والمئات من هذه الحوادث، والذى يصلح للنفى والإثبات والإشكال هو جزئيات التاريخ، وهى بدورها إذا ثبتت باخبار الثقات أصبحت صالحة للاعتماد عليها.

بالطبع فإنّ الأخبار الضعيفة فى هذا المجال ليست قليلة.

و هذا حكم عادل بحق التاريخ، فينبغى عدم الأخذ بكل ما جاء فى التاريخ، كما لاينبغى نبذ كل ما ورد فيه.

وقد سَلِمَ قسمان من التواريخ من أى تحريف وتلويث وهما:

التواريخ التى ظلّت فى صورة آثار تكوينية فى الخارج، فلا يمكن تحريفها ببساطة، وقد أكد القرآن المجيد على هذا القسم كثيراً، وآيات «السير فى الأرض» بهدف التعرف على تاريخ الامم السالفة ناظرة إلى هذا القسم منه.

والأكثر من ذلك التواريخ التى وصلتنا عن طريق «الوحى» مثل تواريخ القرآن التى تعتبر أصيلة وخالصة من جميع الرغبات والنزعات، فكما أن اللَّه عزّ وجلّ أفضل مقنّن فهو أفضل مؤرخ كذلك، لأنّه خبير بجميع الجزئيات ومنزه عن الإتّجاهات الفردية والجماعية، ومع

توفر هذين الشرطين فهو أفضل مؤرخ روى لنا التاريخ.

وقد يتعجب البعض ويسأل: لماذا يعيد اللّه تعالى قصة نوح أو موسى أو فرعون أو مواجهة الأنبياء للمستكبرين والجبابرة عدّة مرّات؟ لقد غفلوا عن أن كل حكاية ناظرة إلى الحادث من زاوية واحدة فقد يكون لكل حدث تاريخى زوايا وجوانب متعددة، فقد ينظر- مثلًا- إلى تاريخ بنى اسرائيل من حيث مواجهتهم لطاغوت زمانهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عنادهم لأنبيائهم، وقد ينظر لتاريخهم من حيث عواقب الاختلاف والتشتت وعدم الاتحاد، أو من حيث آثار ونتائج نكران النِعَم، والخلاصة: إنّ كثيراً من الحوادث التاريخية كالمرآة ذات الأبعاد المختلفة، يسلط كلٌّ بعد من ابعادها الأضواء على جانب من الجوانب (وسيأتى شرح هذا بالتفصيل فى بحث تواريخ القرآن).

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۳۹

۴- فلسفة التاريخ

إنّ المهم فى التاريخ هو العثور على «جذور» و «نتائج» الحوادث التاريخية.

فإذا حصلت ثورة فى بقعة ما من العالم- مثلًا- ينبغى أولًا دراسة العوامل التى أدتهذه الثورة والتحقق منها بدقة.

ثانياً النظر فى نتائج هذه الثورة، وهذان الأمران هما اللذان يخرجان التاريخ عن كونه مجرد حكايات مسلّية، ويبدلانه إلى مصدرٍ مهم للمعرفة.

لكن يؤسفنا أن يكتفى المؤرخون بذكر الحوادث التاريخية، فى مرحلة تبلورها فقط، وقلّما يتجهون نحو جذور وعلل الحوادث ونتائجها، ولم يتركوا فى مجال تحليل القضايا التاريخية آثاراً تُذكر.

إلّا أنّ القرآن قرن تدوين الحوادث مع البحث عن أُصولها ونتائجها فتارة بعد ذكره لمقطعٍ تاريخى يقول:

«فَانْظُرُوا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ . (آل عمران/ ۱۳۷)

وتارة يقول: «وَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُفْسِدِينَ . (الاعراف/ ۸۶)

وتارة يقول: «فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ . (النمل/ ۶۹)

وتارة يقول: «انَّ اللَّهَ لَايُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . (الرعد/ ۱۱)

والجدير بالذكر أن للتاريخ فروعاً عديدة أهمّها تاريخ الإنسان والمجتمعات البشرية، وتاريخ الحضارات، وتاريخ العلوم والفنون البشرية، وهى تواريخ محورها الأساس ومحرك عجلتها هو الإنسان.

يالهم من بسطاء أولئك الذين يظنون أن التاريخ- بالرغم من كل فروعه وتشعباته- نتاج قسرى للقضايا الاقتصادية وخاصةً وسائل الانتاج، أى أنّ التاريخ خلقته وسائل الانتاج واجهزته التى صنعها الإنسان بنفسه!

وعلى هذا الأساس يمكننا القول: إنّ هؤلاء بتصورهم الخاطىء وتفكيرهم الشاذ لم يعرفوا الإنسان ولا التاريخ أبداً.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۰

۵- التاريخ «النقلى» و «العلمى» و «فلسفة التاريخ»

اشارة

قسم أحد العلماء المعاصرين التاريخ- من وجهة نظر وزاوية خاصة- إلى ثلاثة أقسام:

۱- التاريخ النقلي: وهو عبارة عن مجموعة من الحوادث الجزئية المعينة التى حدثت فى الماضى، وهو أشبه ما يكون بالفلم الذى يصور حادثة أو حوادث، لهذا فانه جزئى دائماً وليس كلياً، ويتحدث عمّا كان لا عمّا يكون، ويتعلق بالماضى لا بالحاضر، ونقلى لا عقلى.

وهذا الفرع من التاريخ يمكنه- عن طريق المحاكمات- أن يكون معلماً مفيداً، وعبرة من أناس ذلك الزمان، وهو أشبه بتأثّر الإنسان بجليسه، وأشبه بالاسوة التى يذكرها القرآن للناس ليعتبروا منها ويقتدوا بها.

۲- التاريخ العلمى: وهو التاريخ الذى يتحدث عن قواعد وسنن الامم السالفة التى تُستنبط من دراسة وتحليل حوادث العصور السابقة، وفى الحقيقة فإنّ التاريخ النقلى كالمادة الخام لهذا التاريخ.

ومن ميزات هذه السنن هى إمكانية تعميمها، وكونها علمية، وإمكانية جعلها مصادِر للمعرفة، وإحاطة الإنسان- عن طريقها- بالمستقبل. وبالرغم من أنّ هذا النوع من التاريخ كلى وعقلى، فانّه علم بما كان لا بما يكون.

۳- فلسفة التاريخ: وهو علم يتحدث عن تحول المجتمعات من مرحلة إلى أُخرى أو بتعبير آخر: هو علم بما يكون لا بما كان.

ويمكن توضيح هذا بالمثال الآتى:

إنّ «علم الأحياء» علم يبحث عن القواعد الكلية التى تحكم حياة الموجودات الحية، إلّا أنّ نظرية «تكامل الأنواع» إذا قلنا بها- تبحث عن كيفية تحول وتبدل نوع من الحيوانات إلى نوع آخر، إذن، موضوع البحث فى فلسفة التاريخ هو كيفية حركة وتكامل التاريخ، إنّ هذا الفرع من التاريخ يتسم بجانب كلى وعقلى، ورغم ذلك فانّه ناظر إلى مجريات التاريخ من الماضى إلى المستقبل وفائدة هذا النوع من التاريخ لا تخفى على أحد «۱».

---

(۱). ملخص من كتاب فلسفة التاريخ تأليف الشهيد المطهرى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۱

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ ما ذكرناه فى شروحنا للاقسام الثلاثة كان صحيحاً وإن لم يتفق شيئاً ما مع الاستعمالات العصرية لمفردتى «العلم» و «الفلسفة» وأنّ المراد كان ايصال المفهوم إلى أذهان القراء فقط.

فضلًا عما ذُكر سابقاً نضيف هنا القول بامكانية ادغام القسم الثانى والثالث فى قسم واحد، ذلك لأنّ القوانين الكلية التى رسمت التاريخ وتُستخرج وتُستنبط من التاريخ النقلى، تارة تكون ناظرة إلى الوضع الراهن للمجتمعات، وتارة اخرى تكون ناظرة إلى تحول وتكامل المجتمعات.

والمهم هنا هو أنّ القرآن المجيد لم يقتنع بالسرد المجرد لحوادث التاريخ بل أشار أيضاً إلى السنن والقوانين الكلية التى حكمت المجتمعات، القوانين التى يمكنها أن تزيل القناع عمّا كان ويكون، أو عن أى تغير وتحول تاريخى كأىّ تقدمٍ أو سقوطٍ أو فشلٍ حصل للمجتمعات.

يشير القرآن- مثلًا- إلى هذه السنة: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . (الأنفال/ ۵۳)

وينبغى الالتفات إلى أنّ القرآن ذكر هذه السنة بعد ما أشار إلى قصة قوم فرعون وعذابهم بسبب ذنوبهم.

ويقول فى آيات اخر (بعد اشارته إلى تاريخ الأقوام القويّة التى أُهلكت بسبب تكذيبهم الرسل وشركهم وذنوبهم وظلمهم): «فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ ايمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فى عِبَادِهِ . (المؤمن/ ۸۵)

نعم تنبغى الوقاية قبل العلاج، وهذا قانون كلى، لأنّ الإنسان لو ابتلى بجزاء أعماله فلا فرصة حينئذٍ لجبران الماضى.

الإجابة على إشكال:

قد يُقال إنّ قبول وجود قانون كلى فى تاريخ الإنسان يجسد مفهوم الجبر فى تاريخ

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۲

البشر ولا ينسجم وحرية الإرادة والاختيار.

لكن الالتفات إلى نقطة فى هذا المجال يرفع الإشكال بالكامل والنقطة هى:

إنَّ قولنا بوجود قوانين وسنن كلية معناه أن أعمال البشر الاختيارية (سواء الفردية منها أو الجماعية) لها مردودات وانعكاسات قهرية، فمصير الأمم الصامدة والعارفة والمثابرة- مثلًا- هو النصر، ومصير الأمم المشتتة والجاهلة هو السقوط والفشل.

هذه سنة تاريخية، فهل أنّ مفهوم هذا القانون الكى هو أنّ الإنسان مجبور، أم إنَّه تأكيد لتأثير ونفوذ إرادة الإنسان فى تعيين مصيره؟

وهذا الأمر أشبه ما يكون بقولنا: إنّ الإنسان يموت إذا تناول سُمّاً، وهذا المردود قهرى ولا يتنافى واختيار الإنسان وأصل إرادته.

۶- التاريخ فى نهج البلاغة والروايات الإسلامية

بما أنّ نهج البلاغة كتاب عظيم ذا محتوى تربوى غنى جدّاً، وبما أنّ التربية بلا معرفة، والمعرفة بلا تربية أمر محال، فقد أكد هذا الكتاب على القضايا التاريخية كثيراً.

إنّ أمير المؤمنين عليه السلام عند حديثه عن الحوادث التاريخية يصورها وكأنّه يأخذ بأيدى الناس إلى مكان الحدث ويريهم فرعون وجنوده ويقتفون آثار مستضعفى بنى اسرائيل ومن ثم يشاهدون غرقهم فى نهر النيل.

إنّه يصور قوم نوح وقوم عاد وثمود تحت تأثير الدمار الشامل الذى خَلَّفَهُ الطوفان والصواعق والزلازل والحجر الذى أُمطروا به، والناس يشاهدون أخذ هذه الامم الطاغية واللاهية مع قصورهم ومدنهم وبطغيانهم وهلاكهم فى طرفة عين بحيث لم يبق إلّاآثار الخراب والصمت القاتل المهيمن عليها، وكل من سَاحَ فى نهج البلاغة مرَّ بهم ورجع بكنزٍ هائل من العلم والمعرفة والخبرة، إنّ قدرة نهج البلاغة فى تصوير الحوادث قدرة عجيبة حقاً، وكذا الأمر عند بيانه لفلسفة التاريخ.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۳

وقد شرحنا سابقاً كلام الإمام على عليه السلام للإمام الحسن عليه السلام حول تأثير التاريخ على طول عمر الإنسان، طول يمتد بامتداد أعمار جميع البشر من حيث المعرفة والتجربة.

وهناك عبارات جميلة له عليه السلام حول جريان السنن التاريخية حيث يقول:

«عباد اللَّه إنَّ الدهر يجرى بالباقين كجريه بالماضين، يعود ما قد ولّى منه، ولا يبقى سرمداً ما فيه، آخر فعاله كأوّله، متشابهة اموره، متظاهرة أعلامه» «۱».

وفى تفسيره للإيمان باعتباره ذا أربعة أعمدة الصبر واليقين والعدل والجهاد)، يقول:

«اليقين منها على أربع شُعَب، على تبصرة الفطنة وتأوّل الحكمة، وموعظة العبرة وسنة الأولين» «۲».

ويقول عليه السلام فى موضع آخر:

«واعلموا عباد اللَّه أنّكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيل من قد مضى قبلكم، ممن كان أطول منكم أعماراً، وأعمر ديارا، وأبعد آثاراً، أصبحت أصواتهم هامدة، ورياحهم راكدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستبدلوا بالقصور المشيدة، والنمارق الممهدة، الصخور والأحجار المسندة، والقبور اللاطئة المُلْحَدة التى بُنى على الخرب فناؤها وشيّد بالتراب بناؤها» «۳».

ويقول فى خطبة اخرى:

«فاعتبروا بما أصاب الامم المستكبرين من قبلكم، من بأس اللّه وصولاته ووقائعه ومثلاته، واتّعظوا بمثاوى خدودهم ومصارع جنوبهم» «۴».

كما يقول فى نفس الخطبة:

«فانظرو كيف كانوا حيث كانت الأولاد مجتمعة والأهواء مؤتلفة، والقلوب مهتدلة.

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۷.

(۲). المصدر السابق، الكلمات القصار، الكلمة ۳۱.

(۳). المصدر السابق، الخطبة ۲۲۶.

(۴). المصدر السابق، الخطبة ۱۹۲، (الخطبة القاصعة).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۴

والأيدى مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة والغرائم واحدة، ألم يكونوا أرباباً فى أقطار الأرضين؟ وملوكاً على رقاب العالمين؟! فانظروا إلى ما صاروا إليه فى آخر امورهم، حين وقعت الفرقة، وتشتّت الألفة، واختلفت الكلمة، والافئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحاربين، قد خلع اللّه عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقى قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين» «۱».

ويقول فى خطبة اخرى:

«وإنّ لكم فى القرون السالفة لعبرة! أين العمالقة وابناء العمالقة! اين الفراعنة وأبناء الفراعنة «۲»! اين أصحاب مدائن الرّس «۳» الذين قتلوا النبيين، واطفئوا سنن المرسلين، وأحيوا سنن الجبارين؟ اين الذين ساروا بالجيوش، وهزموا الألوف، وعسكروا العساكر ومدّنوا المدائن؟» «۴».

كما أنّ الروايات الإسلامية أولت عناية كبيره لهذه المسألة، واعتبرتها أحد المصادر المهمّة للمعرفة وبالأخصّ للمسائل الأخلاقية، وتهذيب النفوس، والالتفات إلى واقعيات الحياة.

وقد جاء فى رواية أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عندما كان فى طريقه مع عسكره إلى صفين وصل إلى مدينة (ساباط) ثم إلى مدينة (بهرسير) «۵» (المناطق التى كانت مركزاً لحكومة الساسانيين) التفت أحد صحابته فجأة إلى آثار كسرى (والملك الساسانى

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲، (الخطبة القاصعة).

(۲). العمالقة: أقوام قوية ومتمكنة وجبارة وظالمة كانوا فى شمال العراق، وقد فتحوا «مصر» وحكموها لفترة فى‌عهد الفراعنة.

(۳). يعتقد الكثير أنّ أصحاب الرس قوم سكنوا اليمامة جنوب الحجاز، وكان لهم نبى باسم حنظلة، وقال البعض أنّهم قوم شعيب، ويعتقد بعض آخر أنّ مدنهم كانت بين الشام والحجاز (يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۳۸ من سورة الفرقان).

(۴). نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۲.

(۵). يقول البعض إنّها مشتقة من الأصل الفارسى أى (بوارد شير) أو (دهار دشير) وهى إحدى المدائن السبعة التى‌كانت تقع غرب نهر دجلة (معجم البلدان، ج ۱، ص ۵۱۵).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۴۵

المعروف) وانشد البيت:

جرت الرياحُ على مكان ديارهم‌فكأنّهم كانوا على ميعاد

فقال الإمام عليه السلام: «لِمَ لم تقرأ، هذه الآيات: «كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنِعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذلِكَ

وَاورَثْنَاهَا قَوماً آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيهِمُ السَّمَاءُ وَالْارْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ » «۱».

وقد جاء فی حدیث الإمام الصادق علیه السلام: «إنّ داود علیه السلام خرج من المدینة وهو یقرأ (الزبور)، وما من جبل أو حجر أو طیر أو حیوان وحشی إلّاویقرأ معه، وهو مستمر فی طریقه حتی وصل إلی جبل، یعیش علی قمته نبی عابد اسمه (حزقیل)، أدرک مجیء داود عندما سمع ترتیل الجبال والطیور والوحوش، وعندما سأل داود النبیَّ: هل تأذن لی بالصعود إلیک؟ فأجابَهُ النبی العابد: لا، فبکی داود، فأوحی اللَّه إلی (حزقیل) بأن لا یوبّخ داود، وأن یطلب من اللَّه تعالی حسن العاقبة، فقام حزقبل وأخذ بید داود وجاء به إلی محله.

فسأله داود: هل عزمت علی الذنب یوماً؟

فاجاب: لا.

ثم سأل: هل حصل عندک الغرور والعجب لکثرة عبادتک؟

أجابه: لا، ثم سأله: هل رغبت فی الدنیا وهل أحببت شهواتها ولذاتها؟

أجاب: نعم، نعم قد یخطر هذا فی قلبی.

فسأله: ماذا تفعل آنذاک؟ أجاب: أدخل فی هذا الوادی واعتبر بالذی فیه.

فدخل داود الوادی، فرأی أریکة من حدید وعلیها جمجمة متآکلة وعظاماً رمیمة ولوحة مکتوبة، فعرف داود: أن ذلک یتعلق بملک مقتدرٍ حکم سنینَ طویلة وبنی مدناً کثیرة.

وقد بلغ به الأمر إلی ما تراه ...» «۲».

ج ج

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۲۷.

(۲). المصدر السابق، ج ۱۴، ص ۲۲ (ملخص الحدیث).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۶

آخر الحدیث حول التاریخ المعلِّم:

إنَّ ما ذکرناه عن التاریخ کمصدر للمعرفة والعلم مشروط بالامور الآتیة:

أولًا: أن لا یدرس الإنسان التاریخ للتسلیة.

ثانیاً: أن یدرس العلاقة الحقیقیة بین القضایا التاریخیة وأعمال الإنسان، ولا یحُلل القضایا التاریخیة علی أساس التبریرات الوهمیة کالحظ والصدفة، أو المصیر المحتوم أو القضاء والقدر (علی التفسیر الذی یعتقد به الجاهلون، والذی تُسلب علی أساسه قدرة الإنسان فی الاختیار).

ثالثاً: أن یستنبط القوانین التاریخیة الکلیة من الحوادث الجزئیة، وأن یحقق فی اصول ونتائج کل حادثة ثم یجعل نفسه مصداقاً لهذه القوانین ویخرج بالنتیجة.

رابعاً: أن لا یسعی لیجرّبَ الحوادث (التی جربت قبله) بنفسه، وذلک لکی لا یکون مصداقاً لهذا الحدیث «من جرّب المجرَّب حلّت به الندامة».

خامساً: أن یکون ناقداً للحوادث التاریخیة ومیزاً للمسلَّمات من المشکوکات والأساطیر من الواقعیات.

وخلاصة الحدیث هو أن یتلقی التاریخ کمصدرٍ مُلْهِم للمعرفة والخبرة فی حیاته، ولیس بشکله المحرَّف.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۷

۴- الفطرة والوجدان

تمهيد:

عندما يصل الإنسان إلى سنّ الرشد، يتعرف على بعض الحقائق من دون الحاجة إلى معلم كاستحالة اجتماع الضدين أو النقيضين حيث تكون واضحة عنده.

و يدرك حسن وقبح كثير من الامور، مثل: قبح الظلم وحسن العدل والاحسان.

و عندما يقوم بعمل مشين، يناديه صوت الوجدان الرادع الباطنى يؤنبه على عمله، وعندما يأتى بعمل حسن يشعر بالطمأنينة والرضا النفسى.

يستأنس بالجمال ويحب العلم والمعرفة.

يحس فى باطنه ارتباطاً بمبدأ مقدس، وبتعبير آخر: إنّ فى باطنه ما يجرّه ويجذبه إلى اللَّه عزّ وجلّ.

وهذا يكشف عن وجود مصدرٍ للمعرفة فى باطن الإنسان غير المصادر التى قرأنا عنها سابقاً، يطلق عليه «الفطرة»، وتارة «الوجدان» واخرى «الشعور الباطنى».

ولتعيين حدود العقل وحدود الفطرة نتأمل الايضاحات الآتية:

إنّ روح الإنسان تمثل ظاهرة عجيبة ذات جوانب وأبعاد متعددة، ندرك بعضها، ونجهل الآخر، كما أن لها نشاطات مختلفة بمحاذاة جوانبها المختلفة.

وإنّ العقل يشكل قسماً من الروح، ووظيفته التفكير، كما أنّ هناك قسماً آخر وهو الحافظة ووظيفتها حفظ المعلومات وخزنها وتقسيمها وتبويبها واستخراج المراد والمطلوب منها- بشكل معجز- من بين الملايين من المفاهيم والحوادث والذكريات.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۸

والقسم الآخر هو العواطف أو مركز الحب والعشق والعداء والخصومة والبغضاء.

والقسم الآخر هو الأعمال الباطنية كالاختيار والإرادة والعزم والتصميم.

والخلاصة ينبغى القول: إنّ الروح بحر عظيم ملؤُهُ العجائب والغرائب، وإنّ القوانين التى تحكمها قوانين متنوعة ومعقدة للغاية.

إلّا أنّه يمكن تقسيم الروح إلى قسمين كليين:

۱- القسم الذى يتعلق بالتفكير والإدراكات النظرية، أى ما يكتسبه الإنسان عن طريق الاستدلال.

۲- القسم الذى يتعلق بالإدراكات البديهية الضرورية، أى ما هو حضورى ومعلوم عند الإنسان بلا دليل أو برهان.

وكلما تحدثنا عن الفطرة والوجدان، فإنّ مرادنا هو القسم الأخير من الإدراكات.

«الفطرة»: وتعنى الخلقة الاولى أى خلق الروح والنفس ممتزجة مع مجموعة من المعلومات الفطرية.

و «الوجدان»: ما يجده الإنسان فى نفسه من دون حاجة لتعلمه.

و «الشعور الباطنى»: الإدراك الباطنى للإنسان الذى يستلهم منه الإنسان، وعلى أيّة حال، فإنّ ممّا لا شك فيه أنّ هذا الشعور أحد مصادر العلم ومعرفة الحقائق، الذى قد يعبر عنه ب «القلب» وهو يختلف بوضوح عن «العقل» الذى هو مركز الإدراكات النظرية بالرغم من أنّهما فروع لشجرة واحدة وثمرتان لروح الإنسان (فتأمل).

بالطبع، ليس كل ما قيل هنا متفق عليه من قبل الفلاسفة جميعهم، بل أردنا الإشارة إلى هذا الموضوع، وسنعيد الإشارة إليه مرّةً اخرى

بشكلٍ استدلالى إن شاء اللَّه.

وبعد الالتفات إلى هذه الملاحظة، نتأمل فى القرآن لنرى كيف يكشف لنا عن هذا المصدر.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۴۹

نقرأ أولًا الآيات الآتية:

نفحات القرآن ج۱ ۱۹۲

۱- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا* فَالهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ۷- ۸)

۲- «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . (الأنبياء/ ۶۴)

۳- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّموَاتِ والْأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ . (لقمان/ ۲۵)

۴- «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ . (العنكبوت/ ۶۵)

۵- «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ . (البقرة/ ۱۳۸)

۶- «خَلَقَ الْإِنْسَانَ* عَلَّمَهُ البَيانَ . (الرحمن/ ۳- ۴)

۷- «عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ . (العلق/ ۵)

۸- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُون . (الروم/ ۳۰)

ج‌ج

معانى المفردات:

إنَّ كلمة «الهمها» مأخوذة من مادة «الإلهام» أى- كما يصرح به كبار اهل اللغة- الشىء الذى يقع فى قلب الإنسان، ويقول الراغب فى مفرداته: «الإلهام: إلقاء الشىء فى الروع ويختص ذلك بما كان من جهة اللَّه وجهة الملأ الأعلى ، والروع يعنى القلب، أمّا الرَّوْع فيعنى الخوف والانبهار.

ثم استشهد بالآية «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» كدليل على ما قاله.

وقد جاء فى لسان العرب: أنّها من مادة (لَهْم) وتعنى البلع، والالهام يعنى التلقين الإلهى، وهو نوع من أنواع الوحى (الوحى بمعناه العام).

ومع الالتفات إلى أصل هذه الكلمة يمكن العثور على سبب الاطلاق، وكأن الروح تفتح فم الإنسان وتلقى فيه حقيقة بواسطة التعليم الإلهى فيمضغها فمه.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۰

«الفطرة»: جاءت من مادة فَطْر، ويعتقد البعض أنّها فى الأصل تعنى «البَقْر» وهو الشقّ «۱»، بينما يعتقد البعض الآخر أنّها تعنى الشق طولًا، ثم استعملت بمعنى الخلق، وكأنّ ستار العدم يُبْقر ويُمزّق فتخرج منه الموجودات الحية، كما يقال للعمل المنافى للصوم كتناول الطعام (إفطار)، فيقال: إنّ ذلك بسبب بِقْر شىء ممتد ومتصل.

ويقال للنبات الذى يفطر الأرض ويبقرها «فُطر» لأنّه يبقر الأرض ويخرج منها، وقد يطلق على حلب الثدى بالأصابع «فَطْر».

كما أنّ العجين إذا اختمر وصُيِّرَ خبزاً اطلق عليه «فَطْر» «۲».

وعلى كل حال، فإنّ المراد من هذه المفردة فى الآيات هو الخلقة الإلهيّة الاولى والهداية التكوينية نحو حقائق مودعة فى روحِ الإنسان وهو مجبول عليها.

وأمّا كلمة «النفس»- وكما أشرنا سابقاً- فتعنى «الروح» وقد يطلق على ذات الشىء «نفس الشى» كما جاء ذلك فى القرآن الكريم (ويحذّركم اللَّه نفسه) كما قد جاءت هذه المفردة بمعنى «الدم» و «العين» و «الشخص» «۳».

كما أنّها قد تطلق اطلاقاً خاصاً على «النفس الامارة» إلّاأنّها جاءت فى الآيات هنا بمعنى «الوجدان» الذى يشكل قسماً من روح الإنسان.

وكلمة «صِبْغَة» مشتقة من مادة «صَبَغَ» أى طلى لوناً، ويطلق على نتيجة العمل «صبغة»، و «صِبْغ» يعنى الطعام الذى يؤكل مع الخبز بحيث يكون الخبز كالصبغة لذلك الطعام، وادعى البعض أنّه يعنى زيت الزيتون الذى يغمس فيه الخبز ويؤكل.

ويقول الراغب: إنّ «الصبغة» المذكورة فى الآية إشارة إلى العقل الذى جُبِلَ عليه الإنسان وميّزه عن الدواب، وهو كالفطرة «۴».

---

(۱). لسان العرب.

(۲). كتاب العين، ولسان العرب، ومفردات الراغب.

(۳). مجمع البحرين الطريحى، مادة (نفس)، ومفردات الراغب.

(۴). مفردات الراغب، مادة (صبغ).

إنّ التعبير بالصبغة، كما يقول عدد من أئمة اللغة- قد يكون بسبب أنَّ «النصارى يغسلون الوليد بعد اليوم السابع بماء ممزوج بمادة صفراء اللون (غسل التعميد) معتقدين أنّ هذا الصبغ يطهره وينزهه، والقرآن يصرح لهم: إنّ صبغة الإسلام والتوحيد أحسن من هذه الصبغة وأشرف.

وعلى هذا، فالتعبير بالصبغة يتناسب كثيراً مع الفطرة والخلقة الاولى خاصة وأنّ بعض الروايات فسرت الصبغة ب «الإسلام والولاية» «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

فى الآية الاولى بعد أن أقسم اللَّه بالنفس وبالذى سوّاها وما فيها من قابليات، أشار إلى المصدر المُلْهِم للمعرفة وهو «الوجدان الأخلاقى»، وقال: إنّ اللَّه ألهم الإنسان المعرفة فى مجال التقوى والفجور.

وقد جاء فى آية اخرى ما يماثل مفاد هذه الآية، فبعد إشارته إلى خلق الإنسان قال:

وهديناه النجدين.

وينبغى الالتفات هنا إلى أن «نجد»- فى الأصل- المكان المرتفع ويقابله «تَهَامة» أى الأرض المنخفضة، إلّاأنّ النجد هنا- بقرينة ما قبل وما بعد الآية، وبقرينة بعض الروايات التى فسرت النجد- كناية عن الخير والشر وعوامل السعادة والشقاء «۲».

كما أنّ الآية: «إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرَاً وإِمَّا كَفُوراً». (الإنسان/ ۳)

قد تشير إلى نفس المعنى، أو على الأقل تندرج «الهداية الفطرية» فى المفهوم العام للهداية التى جاءت فى هذه الآية.

ج‌ج

---

(۱). تفسير البرهان، ج ۱، ص ۱۶۷- ۱۵۸.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۱۵۵؛ تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۲

والآية الثانية ناظرة إلى تحطيم الاصنام من قبل بطل التوحيد ابراهيم الخليل عليه السلام:

ومحاكمة عبدة الأصنام له فى بابل، فعندما سُئِلَ: «أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ (الانبياء/ ۶۲)

اجابهم عليه السلام: «بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونْ . (الانبياء/ ۶۳)

ثم قالت الآية: «فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ أى ظالمون لأنفسهم ولمجتمعهم وربّهم وخالقهم الذى يغدق عليهم النعم.

يعتقد بعض المفسرين: أنّ عبارة: «فَرَجَعُوا الَى انْفُسِهِمْ تعنى لوم احدهم الآخر، إلّاأنّ هذا خلاف ظاهر الآية، فالتفسير الأول أصح.

نعم، إنّه الضمير الذى يجعل عبدة الأصنام المغرورين يلومون أنفسهم ويوبّخونها.

إنّ التعبير ب «النَّفْس اللَّوّامَة» فى الآية الشريفة: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

(القيامة/ ۲) خاصة وأنّ اللَّه قرنها بيوم القيامة، إشارة واضحة إلى هذه المحكمة الباطنية والوجدان الفطرى.

والآية الثالثة تشير إلى أمر المشركين، حيث يعرضون عن اتباع آيات اللَّه عندما يُدعون إليها ويصرون على اتباع ما كان عليه آباؤهم، فيقول اللَّه فى هذا المجال: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ، وبالرغم من ذلك لم يخضعوا للَّهِ تعالى بل لأصنامهم التى صنعوها بأيديهم لجهلهم: «الْحَمْدُ للَّهِ بَلْ اكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ . (لقمان/ ۲۵)

وجوابهم على هذا السؤال عن خلق السموات والأرض، يمكن أن يكون نابعاً عن «الفطرة»، ويوضّح حقيقة أنّ الأنوار الإلهيّة متأصّلة فى الإنسان منذ تكوينه فطرياً ولكن الناس غافلون عن هذا الحكم الفطرى، فيذهبون عنهُ شططاً.

ج‌ج

وتشير الآية الرابعة إلى نفس المفاد الذى جاء فى الآية الثالثة، فقد وضّحت التوحيد الفطرى الذى يتجلى فى باطن الإنسان عندما يمرّ بالأزمات والشدائد، ومثال ذلك أنّ الناس

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۳

عند ركوبهم السفينة ومواجهتهم الأمواج المتلاطمة والزوابع والعواصف يذكرون اللَّه، لأنّهم لا يجدون أحداً يستطيع انقاذهم آنذاك من الشدائد غير اللَّه.

فعندما تُرفع ستائر التقاليد الخرافية والأوهام والتعاليم الخاطئة وتتجلى فطرة البحث عن اللَّه، يذكرونه ويدعونه بإخلاص كامل.

وما أن يهدأ البحر أو يصلوا إلى الساحل، حتى تساورهم الأفكار الملوثة بالشرك مرّة اخرى وتستعيد الأصنام وجودها فى قلوبهم وتسدل ستاراً على فطرتهم مرّة ثانية؟

ج‌ج

والآية الخامسة، بعد ما عَدَّتْ التوحيد دين وملة إبراهيم وانبياء عظام آخرين كإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى عليهم السلام قالت: «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ .

إنَّ النصارى الذين يعتقدون بالتثليث، ويغسلون أولادهم بغسل التعميد، ويضيفون- احياناً- مادة صفراء إلى الماء الذى يُغسل به، ويقرنون عملهم هذا باسم «الأب» و «الابن» و «روح القدس» يعتبرون هذا العمل مطهراً لهم من الذنوب التى ورثوها من آدم عليه السلام «۱».

إنَّ القرآن أبطل هذه الأفكار جميعها وصرح: إنّ صبغة اللَّه أحسن من هذه الصِبَغ الخرافية، فسلموا لهذه الصبغة لتطهر أرواحكم من

كل شرك وإثم وعبادة للأصنام.

وقد جاء فى الروايات- كما قلنا سابقاً- أنّ المراد من الصبغة هو الإسلام والولاية «۲»، وهذا تأكيد على وجود إلهامات فطرية فى ذات الإنسان.

ج ج

---

(۱). لقد جاء فى قاموس الكتاب المقدس: أنّ غسل التعميد أحد القواعد المقدّسة التى كانت معروفة قبل ظهور المسيح عليه السلام، وهو من فرائض الكنيسة، ويستعملون فيه الماء ويثلثون عليه، ويعتبرونه مطهراً من النجاسات ويعتقد الكثير من المسيحيين أنّ الغسل هذا وجب على أولاد المؤمنين (القاموس، ص ۲۵۷- ۲۵۸).

(۲). تفسير الميزان، ج ۱، ص ۳۱۶؛ تفسير الدر المنثور، ج ۱، ص ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۴

والآية السادسة والسابعة تحدثنا بعد الإشارة إلى خلق الإنسان عن تعليمه البيان وما لم يعلم.

«الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . (العلق/ ۴)

وعلى هذا فهو معلم البيان كما هو معلم بالقلم، وهو معلم الإنسان ما لم يعلم، وهذه التعاليم قد تكون تلميحاً إلى التعاليم الفطرية المودعة فى باطن الإنسان بشكل معلومات ملخصة وأولية، وقد تكون تلميحاً للوسائل والأسباب والمقدمات التى جعلها اللَّه فى الإنسان، والتى تمكنه من اختراع اللغة والخط واكتشاف واقعيات الكون الاخرى.

وعلى المعنى الأول تكون الآيات شاهداً على بحثنا.

ج ج

أمّا الآية الثامنة فى البحث فقد تحدثت عن دين الفطرة وأمرت الرسول بأن: «أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّه .

الجميل هنا أن القرآن لم يذكر كون معرفة اللَّه فطرية فحسب، بل إنّ الدين بجميع أبعاده وجوانبه فطرى.

والأمر كذلك بالضرورة، وذلك لتنسيق الموجود بين جهاز «التكوين» وجهاز «التشريع» أى أنّ ما جاء مفصلًا فى عالم التشريع، جاء بصورة مجملة فى عالم التكوين، وعندما يتفق نداء الفطرة مع نداء الأنبياء والشريعة، فإنّ هذا الاتفاق يجعل الإنسان فى طريق الهدى وسنخوض تفصيلًا فى هذا الموضوع عند بحثنا فى التوحيد الفطرى فى المجلد الثانى إن شاء اللَّه.

النتيجة:

طبقاً لما قرأناه، فإنّ القرآن المجيد يعتبر «الفطرة» أو «الوجدان» مصدراً غنياً للمعرفة، وقد دعا الجميع- بتعابير مختلفة- للالتفات إلى هذا المصدر لأهميّته البالغة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۵

توضيحات

۱- فروع الفطرة والوجدان

إنَّ المعلومات الفطريـة والوجدانيـة لها فروع مختلفة وأهمّها الفروع الأربعة التالية، والملفت للنظر أنّ كل آية من الآيات التى جاءت فى أوّل البحث أشارت إلى فرعٍ من هذه الفروع، وهى:

١- إدراك الحسن والقبح- أى الأخلاق التى يطلق عليها- احياناً- «الوجدان الأخلاقى»، وتعنى أن الإنسان ومن دون الحاجة إلى استاذ أو معلم يعتبر كثيراً من الصـفات حسـنةً مثل «الاحسان» و «العـدل» و «الشـجاعة» و «الايثار» و «العفو» و «الصدق» و «الأمانة» وغير ذلك من الصفات.

وفى مقابل هذه الصفات، صفات قبيحة مثل «الظلم والجور» و «البخل» و «الحسد» و «الضغينة» و «الكذب» و «الخيانة» وأمثالها.

والآية: «فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تشير إلى هذا النوع من التعاليم الفطرية.

٢- إدراك البديهيات العقلية: التى تعتبر أُسس الاستدلالات النظرية، ولا يمكن اقامة البرهان فى أى موضوع من دون الاستناد اليها.

وتوضـيح ذلك: أنّ فى الرياضـيات مجموعـة من القضايا البديهية تنتهى إليها جميع الاسـتدلالات الرياضـية وهى وجدانية، مثل (الكل أكـبر من الجزء)، وإذا تسـاوى أحـد شـيئين متسـاويين مع شـىء آخر، تسـاوى كـلٌّ منهمـا مع ذلـك الشـىء، أو إذا أنقصـنا مقـدارين متساويين من شيئين متساويين أو اضفنا ذلك المقدار إلى كلٍّ منهما فالنتيجة تساويهما كذلك.

وكذلك الأمر بالنسـبة للاسـتدلالات العقلية الفلسـفية، فلا يمكن الاسـتدلال من دون الاسـتناد إلى قضـية اسـتحالة اجتماع الضدين أو النقيضين وغير ذلك.

ويستخدم القرآن- احياناً- هذه الاصول المسلّم بها لاثبات قضايا مهمة، كما فى قوله:

«قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ . (الزمر/ ٩)

ويقول فى آية اخرى: «قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ امْ هَلْ تَستَوى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ». (الرعد/ ١۶)

نفحات القرآن، ج ١، ص: ١۵۶

٣- الفطرة المذهبيـة- أنّ الإنسان يتعلم بعض القضايا والمسائل العقائدية من دون الاسـتعانة بمعلم أو اسـتاذ كمسألة معرفة اللَّه والمعاد وقضايا عقائدية اخرى يأتى شرحها فى المجلد الثانى إن شاء اللَّه.

والآية: «فَاذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ تشير إلى هذا القسم من المعرفة الفطرية.

ولهـذا السـبب نرى الإيمان بمبـدأ مقـدس موجوداً على مرِّ العصور، كما أنّ لـدينا قرائن تثبت تجـذّر هـذا الإيمان عند الإنسان البدائى كذلك ولا يمكن اتساع هذا المعتقد واستمراره عند البشر عبر مرّ العصور إلّاإذا كان متأصلًا فى فطرة الإنسان.

۴- محكمـة الوجدان: توجد فى باطن الإنسان محكمة عجيبة يمكن تسـميتها «القيامة الصـغرى ، تحاكم الإنسان على أعماله، فتشـجعه على الحسـنات، وتوبخه على السيئات، ونجد هذه التشجيعات والعقوبات فى باطننا جميعاً (بالطبع مع وجود اختلاف)، وهى نفسها التى نقول عنها تارة: (إنّ ضـميرنا راضٍ)، وتارة: (إنّ ضـميرنا يؤنبنا) إلى حدٍ حيث يسـلب منا النوم، بل قد يؤدّى- احياناً إلى نتائج مأساوية مثل الانتحار والجنون والابتلاء بأمراض نفسية، والآية: «فَرَجَعُوا الَى انْفُسِهِمْ تشير إلى هذا القسم.

٢- هل توجد معرفة فطرية؟

بالرغم من أنّ الجميع يشـعرون بشـكل عام بوجود هذا المصدر فى ذواتهم، أى يشعرون بوجود مجموعة من الخطابات والالهامات، أو بتعبير آخر وجود إدراكـات لا تحتاج معلماً أو اسـتاذاً، إلّاأنّ بعضاً من الفلاسـفة شـككك فى هـذا المصـدر، وعلى العموم توجـد ثلاث نظريات فى هذا المجال:

أ) نظرية الذين يعتقدون أن كل ما لدى الإنسان من معلومات موجود فى باطنه، وما يتعلمه فى الدنيا، يتذكره فى الحقيقة، لا أنّه يتعلمه

من جديد! هذا ما نقل عن افلاطون واتباعه «۱».

---

(۱). يقول افلاطون: إنّ الروح قبل حلولها فى البدن ودخولها فى العالم المجازى كانت فى عالم المعقولات والمجردات و «المُثل»، أى أنّها أدركت الحقائق ونسيتها بمجرّد دخولها فى عالم الكون والفساد، إلّاأنّها لم تنمحِ عنها بالكامل، فالإنسان كالظل والشبح فما هو فى «المُثل» يتذكره بمجرّد الالتفات إليه، فكسب العلم والمعرفة تذكر فى الحقيقة، وإذا كان الإنسان جاهلًا منذ البدء فلا يمكنه تحصيل العلم (مسير الحكمة فى اروبا ج ۱، ص ۲۳- نظريات افلاطون).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۷

ب) نظرية أولئك الذين يدّعون أنّ المعرفة بجميع أقسامها عند الإنسان فطرية، بالرغم من اذعانهم لِقابلية الإنسان على إدراك القضايا المختلفة، ويتصورون أنّ إدراكهُ الفطرى انعكاس لتجاربه وحاجاته والضرورات الاجتماعية.

اعتبر «فرويد» عالم النفس المعروف «الوجدان الأخلاقى» مجموعة من النواهى الاجتماعية والميول المكبتوتة فى ضمير الإنسان، يقول: إنّ «الوجدان الأخلاقى» لا يمثل سلوكاً ذاتياً وعميقاً لروح الإنسان، بل إنّه رؤية باطنية بسيطة للنواهى الاجتماعية، ولا يوجد فى تاريخ المجتمع ولا تاريخ الفرد تصورات بدائية عن حسن الأشياء وقبحها، وقد تولدت هذه التصورات من البيئة الاجتماعية وتشعبت عنها «۱».

وقد فسر أتباع المذهب المادى (الديالكتيك) الإدراكات الفطرية على أساس مقولتهم المعروفة «كل شىء وليد الظروف والاوضاع الاقتصادية»، فانكروا وجودها.

ج) نظرية أولئك الذين يرون أن قسماً من معلوماتنا فطرية والقسم الآخر مُكتسب، والمعلومات المكتسبة تنتهى إلى تلك المعلومات الفطرية وهى أساسها.

وقد أثبتت الأدلة المنطقية العقلية، والأدلة النقلية من الآيات والروايات هذه النظرية وذلك للاسباب الآتية:

أولًا: أننا نعتقد بوجود قضايا بديهية مُسَلّمٌ بها فى الرياضيات وبدون تلك البديهيات لا يمكن اثبات أيّة قضية رياضية، كذلك الأمر بالنسبة للقضايا الاستدلالية الاخرى، فلابد من اعتمادها على قضايا بديهية مسلّم بها تكون الأساس لكلِّ استدلال.

وبعبارة اخرى: لو أنكرنا القضايا الفطرية بالكامل لأَنكرنا جميع معارفنا، لأنّ جميع القضايا العقلية ستكون مرفوضة، وسنسقط فى النهاية فى وأدّى السفسطة.

---

(۱). أفكار فرويد، ص ۱۰۵؛ ومجموعة ماذا أعلم- للأمراض اخر الروحية-، ص ۶۴ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۸

وإذا أثبتنا- مثلًا- بالحس والتجربة أو بدليل عقلى وجود أمر ما، فإذا كنّا غير واثقين بقضية «استحالة اجتماع النقيضين» التى تعتبر من القضايا البديهية جدّاً، فعندئذٍ يمكننا التشكيك بالأمر، والقول بإمكانية عدم وجود الأمر الذى أثبتنا وجوده!

وإذا أردنا إثبات هذه الاصول البديهية بالتجربة والاستدلال فسينتهى الأمر بنا إلى الدور والتسلسل ولا تخفى سلبيات هذا الأمر على أحد.

ثانياً: فضلًا عمّا سبق، فكما نعترض على السفسطائيين (الذين ينكرون كل شىء) وكذا المثاليين (الذين ينكرون الحقائق الخارجية، ويعتقدون بالامور الذهنية فقط) وبالاستناد إلى الوجدان نقول: إنّ الوجدان يشهد ببطلان مثل هذه العقائد، لأننا ندرك أنفسنا والعالم الخارجى الذى يحيط بنا بوضوح، فكذلك الأمر هنا، لأنّ هذه الضرورة الوجدانية دليل على وجود كثير من الإدراكات الباطنية.

وكما أننا نحس بحاجات جسمية وروحية كثيرة (الحاجات الجسمية مثل الأكل والشرب والنوم، والروحية مثل الميل إلى العلم

والاحسان والجمال والعبادة والقداسة) ويقول بعض علماء النفس: (إنّ هذه المقتضيات تشكل الأبعاد الأربعة لروح الإنسان).

فهذا الوجدان ذاته يصرح لنا بحسن الاحسان والعدالة وقبح الظلم والاعتداء، وفى هذه الإدراكات لا نحتاج إلى مصدر اجتماعى أو اقتصادى أو غير ذلك بل يكفينا الوجدان.

إنَّ حجة أمثال «فرويد» و «ماركس» واضحة، حيث أنّهم يعتقدون بأصل واحد وهو رجوع كل قضية اجتماعية وفكرية إلى الجنس أو الاقتصاد، ويصرون على توجيه كل شيء على ضوء هذا الأصل.

ثالثاً: إنّ الموضوع واضح من جهة نظر توحيدية، لأنا إذا سلّمنا أنّ الإنسان خُلِقَ للتكامل على أساس سنة إلهية، فلا ينبغى الشك فى أنّ وسائل ودوافع مثل هذا التكامل يجب أن تكون مهيئة فى ذاته، وموجودة، وأنّ ما جاء به الأنبياء وما ورد فى الكتب

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۵۹

السماوية متناسب وهيئة الإنسان التكوينية.

وعليه، فحاكم التكوين والخلقة متناسب وفى تناسق كامل مع عالَم التشريع.

أو بتعبير آخر، فإنّ خلاصة هذه التعليمات مودعة فى ذات الإنسان وأنّ ما جاء فى الشرائع السماوية هو شرح مفصل لهذه الخلاصة من التعليمات.

ولهذا، فلا يمكن التشكيك فى التعاليم الفطرية التى يؤيدها العقل والرؤية الكونية التوحيدية.

سؤال:

لقد صرّح القرآن بقوله عز من قائل: «وَاللَّهُ اخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْابْصَارَ والْافْئِدَةَ». (النحل/ ۷۸)

ألا يستفاد من هذه الآية أن لا وجود للمعلومات الفطرية أبداً؟

الجواب:

أولًا: إنّ الإنسان فى ساعات ولادته لا يعلم شيئاً قطعاً، وحتى المعلومات الفطرية ليست فعالة، وعندما يعرف نفسه ويصبح مميزاً يتحسس المعلومات النظرية ويدركها بلا معلم أو استاذ أو حسٍ أو تجربة، وإلّا فكيف يمكن القول بأنّ الإنسان يعلم كل شيء حتى بوجوده الذاتى- بالتجربة وأمثالها «۱».

ثانياً: ألَمْ نقل بأنّ القرآن يفسر بعضه بعضاً؟

حيث إنّ آياتٍ مثل: «فَالْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» و «فِطْرَتَ اللَّه الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها»

---

(۱). نقلت عبارة معروفة عن (ديكارت) قال فيها: «كنتُ شاكاً حتى فى نفسى، ثم رأيت أنى افكر، فأدركتُ أنى موجود» إنّها عبارة مليئة بالأخطاء، لأنّ الذى يقول: أنا أُفكر فانّه يعترف بال (أنا) قبل اعترافه بالتفكير، لا أنّه يعترف بالتفكير قبل الأنا.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۰

التى جاءت فى أول البحث تفسر الآية: «وَاللَّهُ اخْرَجَكُم مِنْ بُطُونِ امَّهَاتِكُم لَاتَعْلَمُونَ شَيئاً»، فتكون المعلومات الفطرية مستثناة من هذه الآية.

سؤال آخر:

وقد يطرح هنا سؤال آخر عكس السؤال الأول وهو: أنّ القرآن الكريم فى الكثير من الآيات أطلق مفردة «التذكير» على علوم الإنسان، مثل: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لِقوْم يَذَّكَّرُونَ». (النحل/ ۱۳)

ويقول فى آية اخرى: «وَمَا يَذَّكَّرُ الّا اولُوا الْأَلْبَابِ . (آل عمران/ ۷)

وفى اخرى أيضاً: «وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . (البقرة/ ۲۲۱)

أَلَمْ يكن المراد من هذه الآيات وهو نفس ما ذهب إليه افلاطون، أى أنّ العلوم عبارة عن تذكير لما هو موجود فى سريرة الإنسان، وحاصل عنده منذ القدم؟

الجواب:

إنّ «التذكير» من مادة «ذكر» ومعناه الأولى- كما يقول أئمّة اللغة- هو الحفظ، وكما يقول الراغب فى مفرداته: الذكر قد يطلق على حالة نفسية تُعين الإنسان على حفظ العلوم والمعارف، وقد يقال لحضور الشىء فى القلب، أو البيان، وما جاء فى لسان العرب قريب لما جاء فى المفردات، حيث قال: الذكر، يعنى الحفظ كما يعنى الموضوع الذى جرى على الألسن.

وعلى هذا، فالذكر والتذكر لا يعنى حضور الشىء فى القلب بعد النسيان أو استعادة الذكرى فقط، بل يشمل جميع المعلومات.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۱

۳- «الفطرة» و «الوجدان» فى الروايات الإسلامية

لقد أُشير فى الروايات الإسلامية إلى هذا المصدر كثيراً ونذكر هنا نماذج من تلك الروايات:

۱- قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى حديث معروف له: «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه وينصّرانه» «۱».

يدل هذا الحديث بوضوح على أن التوحيد، بل حتى الاصول الأساسية للإسلام مودعة فى فطرة الإنسان «۲».

۲- وقد جاء فى حديث أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن الآية: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب الإمام عليه السلام: «التوحيد» «۳».

۳- وفى حديث آخر أجاب عن نفس السؤال بهذا الجواب: «هى الإسلام» «۴».

۴- وقد قال الإمام عليه السلام فى حديث آخر فى هذا المجال: «فَطَرَهُمْ على المعرفة» «۵».

۵- وقد جاءت روايات عديدة عن الإمام الصادق عليه السلام فسرت الآية: «صِبْغَةَ اللَّه وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّه صِبْغَةً» بالاسلام «۶».

۶- وقد جاء فى حديث قدسى: «خلقتُ عبادى حُنَفَاء»، وقال صاحب مجمع البحرين بعد ذكره لهذا الحديث يعنى مؤهلين لقبول الحمد، ثم اعتبر معنى الحديث نفس معنى الحديث المعروف «كل مولود يولد على الفطرة».

وهناك ملاحظة جديرة بالذكر وهى: إنّ الروايات الإسلامية عبرت عن الأعمال الحسنة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۱.

(۲) يأتى شرح هذا الحديث مفصلًا فى، المجلد الثانى من هذا التفسير.

(۳) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲، باب فطرة الخلق على التوحيد، ح ۱.

(۴) المصدر السابق، ح ۲.

(۵) المصدر السابق، ح ۴، والروايات التى جاءت فى هذا المجال كثيرة ويمكن الرجوع إلى المصادر التالية: بحار الأنوار، ج ۳ باب ۱۱ من أبواب التوحيد.

(۶) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۰.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۲

بالمعروف وعن الأعمال السيئة والقبيحة بالمنكر وتطلق هذه المفردة على الأمر المجهول، فقد يُثْبِتُ هذا الاطلاق أنّ الأعمال الحسنة

سلوكات تعرفها الروح وتستأنس بها وتسكن إليها أمّا الأعمال القبيحة والسيئة فهى ممارسات تتنفر منها الروح، ومجهولة عندها.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۳

۵- الوحى السماوى

تمهيد:

توجد آيات كثيرة فى القرآن الكريم حول الوحى، بل إنّ بحثه طرح فى جميع الكتب السماوية، وفى الحقيقة فأَن أتباع الأديان السماوية يعتبرون «الوحى» أهم مصدرٍ للمعرفة، لأنّه ينهل من العلم الإلهى الواسع، فى حين أنّ المصادر الاخرى تتعلق بالإنسان نفسه، وهى محدودة جداً بالنسبة لهذا المصدر.

إنّ الرؤية الكونية الإلهيّة تقول: إنّ اللّه عزّ وجلّ (ولأجل هداية البشر (أى بيان الطريق له) أوحى إلى رجال الوحى (أى الرسل العظام) بكل ما يحتاجه الناس فى سبيل اجتياز الطريق إلى التكامل والسعادة.

وفى الحقيقة، إنّ العقل إذا كان سراجاً منيراً قويا فإنّ الفطرة والوجدان والتجربة بمنزلة سراجٍ من نوع آخر، و «الوحى» بمنزلة الشمس الساطعة، الأكبر والأعظم من السراجين المذكورين.

وعلى هذا فيُعدُّ الوحى- من وجهة نظر الإلهيين- أهم وأغنى مصدر للمعرفة.

والآن نقرأ خاشعين الآيات الآتية.

۱- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ الَّا وَحْياً اوْ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ اوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِاذْنِهِ مَا يَشَاءُ انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ . (الشورى ۵۱)

۲- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى انْ هُوَ الَّا وَحْيٌ يُوحَى . (النجم/ ۳- ۴)

۳- «قُلْ انَّمَا انَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى الَيَ . (فصلت/ ۶)

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۴

۴- «ذَلِكَ مِمَّا اوْحَى الَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ ...». (الاسراء/ ۳۹)

۵- «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِّجِبْرِيلَ فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِاذْنِ اللّهِ ...». (البقرة/ ۹۷)

۶- «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ». (النحل/ ۸۹)

۷- «وَكَذَلِكَ اوْحَيْنَا الَيْكَ رُوحاً مِّنْ امْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِى الَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(الشورى ۵۲)

۸- «وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الَّا رِجَالًا نُّوحِى الَيهِمْ . (النحل/ ۴۳)

۹- «لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّناتِ وَانْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ...». (الحديد/ ۲۵)

۱۰- «انَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ . (الحجر/ ۹)

۱۱- «قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ انْ كُنْتُمْ تَعقِلُونَ . (آل عمران/ ۱۱۸)

۱۲- «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً». (النساء/ ۱۶۴)

شرح المفردات:

۱- «الوحى» استعمل هذا الاصطلاح فى القرآن والروايات والأدب العربى بمعانٍ كثيرة، إلّا أنّ المعنى الأولى للوحى- كما يقول

الراغب فی مفرداته- هو «الإشارة السریعة»، ولذا یقال للأعمال السریعة «وحی»، کما یقال «وحی» للحدیث الرمزی المتضمن کتابات، والذی یُتبادل بسرعة، والذی قد یحصل بالکتابة أو الإشارة، ثم اطلقت هذه المفردة علی المعارف الإلهیّة التی تقذف فی قلوب الأنبیاء والأولیاء.

وللوحی أشکال متعددة، فتارة یکون بمشاهدة ملک من الملائکة واستماع حدیثه، کما هو الحال بالنسبة لجبرئیل علیه السلام حیث کان اللَّه یُوحی إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله بواسطته.

وتارة باستماع صوته فقط دون مشاهدته کما کان یوحی إلی موسی علیه السلام.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۵

وتارة یُوحی بالألقاء بالقلب فقط.

وتارة یوحی اللَّه بالالهام فقط کما هو الحال بالنسبة لأُم موسی علیه السلام.

وتارة بالمنام (کالرؤیا الصادقة) «۱».

ذکر الخلیل بن أحمد فی کتاب العین: إنّ أصل معنی «الوحی» هو «الکتابة»، وقال ابن منظور فی لسان العرب: إنّ الوحی یعنی «الإشارة» و «الکتابة» و «والرسالة» و «الالهام» و «والحدیث الخفی» و «کل خطاب یُلقی علی شخص آخر».

ومن مجموع ما تقدم نستشف أنّ «الوحی» فی الأصل یعنی الإشارة السریعة والحدیث الرمزی والخطاب الخفی المتبادل بالرسائل أو الإشارات، وبما أنّ التعالیم الإلهیّة أوحیت إلی الأنبیاء بشکل غامض، أطلقت مفردة «الوحی» علیها، لأنّ الألفاظ التی نستعملها وضعت لمستلزمات حیاتنا الیومیة، فإذا أردنا أن نستعملها فی الامور الخارجة عن مستلزمات حیاتنا الیومیة، فینبغی توسیع معانیها، أو تجریدها أو استعمالها فی مناسبات خاصة.

یقول الشیخ المفید قدس سره فی «شرح الاعتقادات»: إنّ أصل الوحی یعنی الکلام الخفی، وقد أطلق علی کل شیء القصد منه تفهیم المخاطب بشکل یخفی عن الآخرین، وإذا نسب الوحی إلی اللَّه عزّ وجلّ فالمراد به التعالیم والأوامر الإلهیّة التی یُخاطب بها الأنبیاء والرسل «۲».

۲- أمّا «الانزال» و «التنزیل» فاشتقتا من مادة «نزول» وتعنی- فی الأصل- الهبوط والمجیء من المکان العالی إلی المکان الدانی، وفرقهما عن النزول أنّهما مصدران لفعلین متعدیین فی حین أنّ النزول مصدر لفعل لازم.

وقد یکتسب الانزال معنیً حسیاً مثل ما جاء فی هذه الآیة: «وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً». (الفرقان/ ۴۸)

---

(۱). مفردات الراغب مادة (وحی).

(۲). سفینة البحار، ج ۲، ص ۶۳۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۶

وقد یکون بمعنی موهبة تُؤهب من صاحب مقام عالٍ إلی صاحب مقام دان: «انْزَلَ لَکُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِیَةَ ازْوَاجٍ . (الزمر/ ۶)

وقد یکون الانزال بمعنی إلقاء المعارف الإلهیّة من قِبَلِ اللَّه، وقد استعمل هذا المعنی فی القرآن کثیراً، وهناک بحث لأئمة اللغة فی کون الانزال والتنزیل بمعنی واحد، أو أنّ لکلٍ معنی یختص به، فبعض یقول: إنّه لا اختلاف فی المعنی بینهما غیر أنّ التنزیل یفید الکثرة فقط «۱»، بینما یعتقد بعض آخر: أنّ «التنزیل» یفید التدریج، و «الانزال» یفید التدریج والدفعی، واعتمد الراغب فی تفریقه هذا علی الآیة:

«وَیَقُولُ الَّذِینَ آمَنُوا لَولَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَاذَا انْزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْکَمَةٌ وَذُکِرَ فِیهَا القِتَالُ رَأَیْتَ الَّذِینَ فِی قُلُوبِهِم مَّرَضٌ یَنْظُرُونَ الَیْکَ نَظَرَ الْمَغْشِیِّ عَلَیهِ مِنَ الْمَوتِ . (محمد/ ۲۰)

فالآيـة تحدثت أولًا عن طلب المؤمنين لنزول آيات الجهاد تدريجياً، ثم أشارت إلى نزول حكم الجهاد بصورة قاطعة وجامعة، وعندها ينظر المنافقون إلى الرسول نظر المغشى عليه من الموت.

۳- إنّ «تبيين» اشـتقت من مادة «بَيْنْ» أى المسافة الفاصـلة بين الشـيئين، ثم جاءت بمعنى «الايضاح» و «الفراق»، وذلك لأنّ الفصل بين الشيئين يستدعى هذين الأمرين، ثم استعملت بعد ذلك لكلٍ من المعنيين بصورة مستقلة، فتارة تعنى «الفراق» واخرى «الايضاح».

وقـد جاء فى «صـحاح اللغة» أن «بين» تأتى بمعنيين متضادين هما، الفراق والآخر الاتصال، ويظهر أنّ معناهما فى الأصل- كما جاء فى غير صحاح اللغة- هو الفراق، إلّاأنّ الفراق قد يؤدّى إلى الاتصال بشىء آخر فاستعمالها فى الاتصال لأنّه يلازم الفراق.

وعلى أيّـة حال فإنّ مفردة (تبيين» جاءت فى كثير من آيات القرآن بمعنى الظهور والانكشاف والوضوح، ولهـذا يقال للدليل الواضـح والمنكشف «بيّنة» سواء كان عقلياً أو محسوساً، فيطلق «البينه» على الشاهدين العادلين (اللذين يعتبران بينة محسوسة)، كما

---

(۱). وهذا رأى صاحب لسان العرب، حيث نقله عن ابى الحسن.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۷

تطلق «البينة» على معاجز الأنبياء، و «البيان» يعنى رفع ستار الأبهام عن شىءٍ، سواء كان بالنطق أو بالكتابة أو بالإشارة.

۴- «التكليم» و «تكَلُّم» من مادة «كلم»، وفى الأصل- كما يقول الراغب- يعنى التأثير الذى يُرى أو يُسمع، فالذى يُرى كجُرح الآخرين، والذى يُسمع فهو الحديث الذى نسمعه من الآخرين.

يذكر الخليل بن أحمد فى كتابه «العين»: أن أصل التكليم يعنى «الجرح»، وعلى هذا فاطلاقه على النطق كان بسبب التأثير العميق الذى يتركه الحديث فى قلوب المستمعين له، بل قد يكون تأثير الكلام أشد من تأثير السيف والخنجر، وكما يقول الشاعر العربى المعروف:

جراحات السنان لها التئامٌولا يلتامُ ما جرح اللسانُ

ويسـتفاد من بعض العبارات أنّ «التكليم» و «التكلم» لهما معنى واحـد، وكلاهما بمعنى النطق والحـديث، ولهـذا عدت «متكلِّم» احدى صفات اللّه، فى حين إذا أردنا التقيد بالآية:

«وَكَلَّمَ اللَّه مُوسى تَكْلِيما» ينبغى القول أن اللَّه «مُكلِّم».

ولا يسـتبعد احتمال اسـتعمال مفردة «التكلّم» فى موارد حيث يحـدّث شـخصٌ شـخصاً آخرَ، إلّاأن «التكليم» مثل «المكالمـة» تطلق على الحديث المتبادل بين طرفين، وكلام اللَّه مع موسى عليه السلام فى جبل طور من هذا القبيل.

ومن هنا يطلق «علم الكلام» على علم العقائد، لأنّه يذكر أنّ أول بحث بُحث فيه بعد الإسلام هو كلام اللَّه (القرآن)، حيث كان البعض يعتقد أنّه أزلى، والبعض الآخر: أنّه حادث.

وقد أدّى الخلاف فى هذه المسألة فى القرون الاولى من عهد الإسلام إلى شجار ونزاعات شديدة، حدثت بين المسلمين آنذاك «۱».

ونعلم الآن أنّ ذلك النزاع لم يكن له أساس ولا نتيجة، لأنّه إذا اريد من القرآن محتواه،

---

(۱). ذكر هـذا الاحتمـال فى دائرة معـارف القرن العشـرين كـأول احتمال فى مجال التسـمية هـذه، دائرة معارف القرن العشـرين، فريد وجدى، ج ۸ مادة (كلم).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۸

فالمسلم أنّه كان مع علم اللَّه أزلياً، وإذا كان المراد منه ألفاظه وكتابته ونزوله بواسطة الوحى، فهذا حادث فى زمن بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بلا شك، وعلى أية حال، فالهدف من هذا الحديث كان بيان وجه تسمية «علم العقائد» ب «علم الكلام».

شرح الآيات وتفسيرها

الوحى شمس مشرقة:

لقد انعكس صدى الوحى فى القرآن الكريم بشكل واسع.

حيث أشارت مئات الآيات إلى الوحى كمصدرٍ عظيم للعلم والمعرفة، وأشارت بعضها إليه بهذا العنوان «الوحى» وبعضها ب «التنزيل» و «الانزال» وبعضها ب «تبيين الآيات الإلهيّة» وبعضها ب «تكليم اللَّه للرسل»، وبمصطلحات اخرى.

وأفضل تعبير يُذكر فى هذا المجال أن يقال: إذا كان العقل فى المنظار القرآنى بمثابة «مصباح» شديد الاضاءة لكونه مبيناً للحقائق، فإنّ الوحى «كالشمس» الساطعة التى تضىء أرجاء المعمورة».

اشير فى الآية الاولى إلى ثلاثة طرق من طرق اتصال الأنبياء باللَّه عزّ وجلّ، حيث قالت:

«وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ الَّا وَحْياً اوْ مِنْ وَراءِ حِجَابٍ او يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِ مَا يَشاءُ انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ فالطريق الأول هو الايحاء، والثانى هو التكلم من وراء الحجاب كما تكلم اللَّه مع موسى فى جبل طور سيناء، والطريق الثالث هو إرسال رسول لابلاغ الخطاب الإلهى إلى النبى، كما كان يهبط جبرئيل عليه السلام على النبى صلى الله عليه و آله لإبلاغه الخطابات الإلهيّة.

وعلى هذا، فالالهام القلبى وايجاد الأمواج الصوتية وهبوط ملك مكلف بنقل الوحى، ثلاثة طرق لاتصال الأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة.

والآية الثانية بعد أن أقسمت بالنجم قالت: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى انْ هُوَ الَّا وَحىٌ يُوحَى .

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۶۹

إنّ القسم (بالنجم إذا هوى يعنى النجم فى حالة الأفول قد يكون إشارة إلى غروب وافول نور الإيمان والهداية عن الوجود فى عصر الجاهلية، الغروب الذى كان مقدمة لطلوع آخر، أى طلوع شمس الوحى على لسان الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله.

وعلى هذا الأساس، فالآية أدرجت كلام الرسول صلى الله عليه و آله تحت أصلٍ كلىٍّ ناتج عن الوحى والإرتباط الغيبى.

ج‌ج

والآية الثالثة أمرت الرسول بأن يتخذ موقفاً تجاه طلبات بعض المشركين العجيبة وغير المألوفة، ويقول لهم: إنى لستُ ملكاً من ملائكة اللَّه ولا موجوداً أعلى من البشر ولا ابن اللَّه، ولا شريكه، «إنّمَا أنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَىَ وهذا (الإيحاء) هو الذى يمثل الاختلاف بينى وبينكم.

وعلى هذا، فالرسول يمتاز عن بقية البشر بميزة خاصة وهى اختصاصه بمصدر المعرفة هذا وهو (الوحى).

ج‌ج

والآية الرابعة، بعد ما ذكرت ستة من أحكام الإسلام المهمّة (حرمة قتل الأولاد وحرمة الزنى وقتل النفس والتصرف فى مال اليتيم ووجوب الوفاء بالعهد وايفاء الكيل) خاطبت الرسول صلى الله عليه و آله قائلة: «ذَلِكَ مِمَّا اوْحى اِلَيكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

وطبقاً لهذه الآية، فإنّ الأحكام الجزئية شأنها شأن اصول الدين والعقيدة توحى إلى الرسول صلى الله عليه و آله.

ج‌ج

والآية الخامسة نزلت لتجيب على أولئك اليهود الذين قالوا: إنّ جبرئيل عدونا عندما سمعوا أنّه يأتى الرسول بتعاليم الإسلام، حيث أمرته بأن يقول لهم: «قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۷۰

لِّجِبْرِيلَ فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِاذْنِ اللّهِ .

والتعبير فى هذه الآيۀ يكشف عن أن جبرئيل عليه السلام كان يُنزل- أحياناً- آيات القرآن على قلب الرسول مباشرۀ فى حين أنّ بعض الروايات تشير إلى أنّ جبرئيل كان يأتى للرسول صلى الله عليه و آله على هيئۀ إنسان أحياناً ويقوم بابلاغه الخطاب الإلهى بهذا الطريق «۱».

ج ج

والآيۀ السادسۀ وضحت الحقيقۀ الآتيۀ: إنّ القرآن الذى أنزلناه على الرسول فيه تبيانٌ لكلِّ شىء وحاملًا للهدايۀ والرحمۀ والبشارۀ إلى جميع المسلمين، وعليه فإنّ جميع هذه المعارف تصدر عن هذا المصدر العظيم أى الوحى.

بديهى أنّ المراد من «كل شىء» هو جميع القضايا التى تتعلق بسعادۀ الإنسان، فتعلم أنّ اسس جميع هذه القضايا قد جاءت فى القرآن (سواء المادية منها أو المعنوية) فى صورۀ قوانين كليۀ.

ج ج

وقد صرحت الآيۀ السابعۀ بأنّ القرآن روح نزلت على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من قِبَل اللَّه عزّ وجلّ، ولم يكن يدرى ما الكتاب ولم يكن يدرى ما الإيمان، وقد قيل للقرآن «روح» لأنّه يبعث الحياۀ فى قلوب المجتمع البشرى، وهذا حديثٌ يذهب إليه كثير من المفسرين «۲».

والمراد ب: «ما كنت تدرى ما الكتاب» هو أنّ الرسول لم يكن عارفاً بمحتوى الآيات قبل البعثۀ، وهناك شواهد تاريخيۀ وروائيۀ تكشف عن سبق معرفته باللَّه قبل البعثۀ.

---

(۱). أصرَّ الفخر الرازى على تأويل الآيۀ بما يتناسب مع ما ذهبت إليه الروايات من أن جبرئيل عليه السلام كان يتمثل امام الرسول صلى الله عليه و آله فى صورۀ إنسان، وبما أن القلب هو مركز حفظ الآيات عبر اللَّه بهذا التعبير «فَانَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ» (تفسير الكبير، ج ۳، ص ۱۹۶)، لكننا لا نرى ضرورۀ لتأويل الآيۀ بالشكل الذى قاله الفخر الرازى، بل يمكن القول بأن اتصال جبرئيل عليه السلام بالرسول كان يتم بطريقين: جسمانى وروحى.

(۲). يقول الراغب: «سمى روحاً لكون القرآن سبباً للحياۀ الاخروية».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۱

وعلى أيّۀ حال إنّ هذا تأكيد آخر على قبول «الوحى» كأهم مصدر للمعرفۀ، لأنّ القرآن عُدَّ هنا «روحاً و «نوراً» و «هدايۀ».

والآيۀ الثامنۀ بعد ما تجاوزت نبوۀ الرسول صلى الله عليه و آله أشارت إلى الأنبياء من قبله وقالت:

«وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ الَّا رِجَالًا نُّوحِى الَيهِمْ فَاسْئَلُوا اهْلَ الذِّكْرِ» فهم على ارتباط وعلم بمنبع المعرفۀ هذا.

ج ج

وتحدثت الآيۀ التاسعۀ عن «البينات» ونزول الكتب السماوية وقوانين الحق والعدالۀ على الرسل، وقالت: إنّا أنزلنا الرسل وزودناهم بمعاجز من جهۀ، وبكتب وقوانين حقۀ من جهۀ اخرى لكى يقوم الناس بالقسط والعدول عن الظلم، وهذه كلها امور ملهمۀ من مصدر الوحى.

ج ج

وقد تحدثت الآيۀ العاشرۀ عن انزال «الذكر» أى الآيات التى تكون سبباً لتذكر الناس ووعيهم، فى الوقت نفسه فإنّ اللَّه يعد الناس فى هذه الآيۀ بحفظ هذا القرآن من أى نقص أوزيادۀ أو تلف أو تحريف، فالوحى- إذن- هو عامل يقظۀ الناس، وبما أنّ اللَّه له حافظ، فسيحفظه كمصدر مهم للمعرفۀ.

ج ج

وتقول الآية الحادية عشرة: «قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ انْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ وهذا دليل واضح على أنّ الآيات الإلهيّة سبب ليقظة العقول ونشاطها.

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۲

وأخيراً، فقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن تكليم اللّه لموسى عليه السلام، وقد كان الكلام هذا مصدراً لمعرفة موسى الإلهيّة، وهو نوع من الوحى.

هذه نماذج من آيات القرآن التى صرحت- رافعةً لأىابهام وشبهة- بأنّ الوحى مصدر وأساس للمعرفة.

هذا فى وقت ينكر فيه الفلاسفة الماديون هذا المصدر على الاطلاق، ويفسرونه بتفاسير نقرأُها فى البحوث القادمة.

وبعدما اتّضح أصل هذا المصدر، نذهب إلى بحث قضايا مختلفة تحوم حوله.

ج ج

توضيحات

۱- أقسام «الوحى» فى القرآن المجيد

من خلال ملاحظتنا لآيات القرآن فقد استعملت مفردة «الوحى» فى القرآن المجيد فى عدة معانٍ، بعضها تكوينية واخرى تشريعية، وبصورة عامه فانّها مستعملة فى سبعة معان:

۱- «الوحى التشريعى» وهو الذى يهبط على الرسل، وقد جاءت فى أول البحث نماذج من الآيات التى استعملت فيها هذه المفردة بهذا المعنى

۲- «الالهامات التى توحى لغير الأنبياء» كما هو الأمر بالنسبة لأم موسى «وَاوْحَيْنَا الَى امِّ مُوسَى انْ أَرْضِعِيهِ ...». (القصص/ ۷)

وهناك إلهام يماثل هذا إلّاأنّه يختلف عنه شكلياً، كالذى حدث لمريم، حيث تمثل لها الوحى وبشرها بولادة عيسى (مريم/ ۱۷- ۱۹).

۳- «وحى الملائكة» أى الخطابات الإلهيّة التى توجه إليهم، كما جاء ذلك فى قصة غزوة بدر الكبرى فى سورة الأنفال الآية ۱۲: «اذْ يُوحِى رَبُّكَ الَى الْمَلَآئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا».

۴- «الخطاب مع الإشارة» كما جاء ذلك فى قصة حديث زكريا مع قومه: «فَخَرَجَ عَلَى

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۳

قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى الَيْهِم انْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً». (مريم/ ۱۱)

۵- (الالقاءات الشيطانية الغامضة» كما جاء فى الآية: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعضُهُمْ الَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ۱۱۲)

۶- «تقدير القوانين الإلهيّة فى عالم التكوين» كما فى الآية: «وَاوْحَى فِى كُلِّ سَمَاءٍ امْرَهَا». (فصلت/ ۱۲)

وما جاء فى شهادة الأرض يوم القيامة: «يَومَئِذٍ تُحَدِّثُ اخْبَارَهَا* بِانَّ رَبَّكَ اوْحَى لَهَا».

(الزَّلْزَلَةِ/ ۴- ۵)

قد يكون تلميحاً لهذا المعنى من الوحى.

وقد جاءت مفردة الوحى بمعنى «خلق الغرائز» كما فى الآية: «وَاوْحَى رَبُّكَ الَى النَّحلِ انِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . (النحل/ ۶۸)

ومن جهة اخرى فإنّ هبوط الوحى على الرسل جاء على أربع صورٍ على الأقل، كما جاء ذلك فى القرآن المجيد، وهى:

۱- صورة ملك يشاهده الرسول.

۲- وسماع صوت الوحى دون رؤيته.

۳- وفى صورة إلهام قلبى.

۴- وفى صورة رؤيا صادقة، كما جاء ذلك فى قصة إبراهيم عليه السلام عندما أمره اللّه أن يذبح ابنه إسماعيل (الصافات/ ۱۰۲)، أو ما حصل للرسول صلى الله عليه و آله عندما بشره اللّه- بالرؤيا- بدخول المسلمين الكعبة آمنين (الفتح/ ۲۷).

وقد جاء فى رواية أنّ أحد الصحابة سأل الرسول صلى الله عليه و آله: كيف ينزل عليك الوحى؟

فأجابه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «يأتينى أحياناً مثل صلصلة الجَرس، وهو أشدُّهُ علىّ، فيفصم عنى وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً يتمثل لى الملك رجلًا فيكلمنى فأعى ما يقول» «۱».

وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات:

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۶۰.

فنبىّ متبأ فى نفسه لا يعدو غيرها، ونبى يرى فى النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه فى اليقظة، ولم تبعث إلى أحد وعليه إمام مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام ونبىٌّ يرى فى منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك، وقد أرسل إلى طائفة قلّوا أو كثروا كيونس عليه السلام ...

والذى يرى فى نومه ويسمع الصوت ويعاين فى اليقظة وهو إمام مثل اولى العزم وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال اللّه «انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى» فَقَالَ اللَّهُ: «لَايُنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً» «۱». (البقرة/ ۱۲۴)

۲- ما هى حقيقة الوحى؟

لقد قرأنا وسمعنا الكثير عن حقيقة الوحى، لكن رغم ذلك كله، فإنّ معرفتنا لحقيقته غير ممكنة، لعدم ارتباطنا بهذا العالم الغامض، وحتى لو فسّره لنا الرسول بنفسه، فانّه لا ينطبع شىء فى أذهاننا عنه سوى شبح.

ومثل ذلك كمثل شخص بصير يريد أن يصف أشعة الشمس الجميلة، وأمواج البحر الهائجة وأجنحة الطاووس الملوّنة والمنظر الخلّاب للورد وبراعم الحديقة الخضراء.

لشخص ولد أعمى وقد تحصل صور مبهمة ومشوشة لهذه المخلوقات عند الأعمى إلّاأنّ إدراك صورها الحقيقية فهو أمر مستحيل.

لكننا نستطيع توضيح الوحى عن طريق آثاره وأهدافه ونتائجه، ونقول: إنّ الوحى هو الالقاء الإلهى الذى يتمّ بهدف تحقيق النبوة والتبشير والانذار، أو نقول: إنّه نور يهدى به اللّه من يشاء، أو نقول: إنّه وسيلة الإرتباط بعالم الغيب وإدراك معارف ذلك العالم، ولهذا السبب نرى القرآن يتحدث عن آثار الوحى لاعن حقيقته.

و ينبغى أن لا نعجب من هذا الأمر، وأن لا نتخذ عدم إدراك حقيقة الوحى دليلًا على عدم الوجود، أو نفسره بتفاسير مادية جسمية، فإنّ فى عالم الحيوانات التى نعدها فى مستوى

---

(۱). اصول الكافى ج ۱، باب طبقات الأنبياء.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۷۵

أدنى من مستوانا فضلًا عن عالم النبوّة، تُشاهد آثار أحاسيس وإدراكات يعجز البشر عن إدراكها، فبعض الحيوانات تضطرب قبل حدوث الزلزلة وتصرخ بصورة جماعية أحياناً، وتارة تحدث أصواتاً مروعة حاكية عن قرب وقوع حدث مفجع، هذا كله بسبب تحلّيها بحاسة تستطيع بواسطتها أن تكشف قرب وقوع الزلزلة، الأمر الذى تعجز عن كشفه أحدث تكنولوجيا فى العصر الحاضر.

أو أنّ بعض الحيوانات تتنبأ بتغييرات الأحوال الجوية للأشهر القادمة، فتبنى بيوتها وفقاً لتلك الأحوال فى الأشهر المقبلة عليها، وتعد الطعام الذى يتناسب مع طول فصل المطر والشتاء، فإذا كان طويلًا- مثلًا- يختلف مقداره عمّا لو كان قصيراً!

كما أنّ بعض الطيور قادرة على الهجرة الجماعية من المناطق القطبية إلى الاستوائية أو بالعكس، وقد يتمّ ذلك فى الليل وفى سماءٍ ملبدة بالغيوم، مع أنّ الإنسان لا يمكنه السير فى هذا الطريق وينجح باجتياز واحد بالمائة منه، إلّابالاستعانة بالوسائل الدقيقة، وكذا الأمر بالنسبة لبعض الحيوانات حيث تطلب صيدها فى ظلام الليل الدامس، وأحياناً تحت أمواج المياه وغير ذلك من الأمثلة التى يصعب على الإنسان تصديقها، إلّاأنّ العلم أثبت صحتها.

إنّ هذه الواقعيات التى تثبت بالعلم والتجربة تكشف عن وجود إدراك وشعور خاص لتلك الحيوانات لا يوجد مثله عند الإنسان، بالطبع إنّ الاطلاع الكامل على عالم حواس الحيوانات الغامض أمر محال، إلّاأنّه لا يمكن إنكار هذه الحقائق «۱».

فبالرغم من أنّ حواس الحيوانات لها ابعاد مادية وطبيعية وهذا أمر طبيعى ولا يمثل جانباً غيبياً، إلّاأننا لا نعرف حقيقة هذه الحواس، فكيف يمكن لنا أن ننكر عالم الوحى الغامض أو نشكك فيه بسبب عدم إدراكنا له؟

لم نقصد من حديثنا هذا الاستدلال على ثبوت مسألة الوحى، بل أردنا أن نرد على الذين ينكرون وجوده بسبب عدم إمكان إدراك حقيقته.

ولنا طرق واضحة لإثبات قضية الوحى منها:

---

(۱). يراجع كتاب عالم حواس الحيوانات الغريب (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۷۶

۱- نشاهد من جهة رجالًا يدعون النبوة جاءوا بكتب وتعاليم تفوق قدرة البشر الفكرية، فالرسول الامى- مثلًا- كيف أمكنه الاتيان بكتاب ذى محتوى مجيد بالرغم من كونه قد نشأ وترعرع فى مجتمع الحجاز المتأخر للغاية فى عصر الجاهلية؟!

۲- ومن جهة اخرى فإنّ دعوة الرسل مقترنة دائماً مع معاجز تفوق قدرة البشر، وهذا يكشف عن ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة.

۳- ومن جهة ثالثة، فإنّ الرواية الكونية التوحيدية تقول لنا: إنّ اللَّه خلقنا للتكامل والسير نحو ذاته المقدّسة الأبدية، وبديهى أن سلوك هذا الطريق أمر غير ممكن لكثرة مصاعبه وانعطافاته وتعرجاته ومشاكله وأخطاره لأننا نشاهد عجز العقل وضعفه عن إدراك كثير من الحقائق، والدليل على ذلك، الاختلافات الكثيرة بين العلماء والمفكرين، وكذلك مصير الأمم التى وضعت قوانينها بالاعتماد على العقل والقوانين الوضعية وذلك لإدارة شؤون حياتهم الفردية والاجتماعية.

وعلى هذا، فإنا نقطع بأن اللَّه لم يترك الإنسان لوحده، فبالإضافة إلى عقله أمده بقادة يرتبطون بعالم الغيب، ويستفيضون من بحر العلم الإلهى، وهذا هو الذى يعينه لاجتياز الطريق والوصول إلى الأهداف المقصودة.

وبهذه القرائن الثلاث يمكننا إدراك العلاقة بين عالم الإنسانية وعالم ما وراء الطبيعة، وكذلك الإيمان بالوحى رغم أننا لم نتعرف على حقيقته وماهيته، وبتعبير آخر: إن علمنا بالوحى علم إجمالى وليس علماً تفصيلياً.

۳- الوحى عند فلاسفة الشرق والغرب

سعى كثير من فلاسفة الشرق والغرب فى العهد القديم والجديد إلى فتح الطريق أمامهم نحو أسرار عالم الوحى وسعوا إلى تفسيره بما يتناسب مع مبانيهم الفلسفية، إلّاأنّ دراسة بحوثهم فى هذا المجال تكشف عن ضياعهم فى متاهات الطريق، إلّاالبعض منهم، ولم

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۷

ينجلِ لذلك البعض إلّاشبح عن ذلك العالم.

يقول أحد العلماء:

كان الفلاسفة الغربيون- إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم الأخرى- يؤمنون بالوحى، وذلك لأنّ كتبهم كانت حافلة بالاخبار عن الأنبياء، وعندما ازدهرت العلوم الجديدة «الطبيعية والتجريبية» واخذت تفسر كل القضايا على اسس مادية، تراجع فلاسفة الغرب عن آرائهم وأخذوا ينكرون الوحى، وتجاوزوا إلى أبعد من ذلك بأن اعتبروا الوحى مجموعة من الأساطير والخرافات التى عفا عليها الدهر، وتبعاً لذلك فقد أنكروا وجود اللّه وعالم ماوراء الطبيعة والروح، وامتد بهم الأمر إلى أن يفسروا الوحى بمجموعة من التخيلات أو الأمراض العصبية.

واستمر هذا التوجه حتى أواسط القرن التاسع عشر إلى أن تمّ اكتشاف عالم الأرواح بالطرق العلمية والتجريبية، وأصبح عالم ماوراء الطبيعة فى قائمة القضايا التجريبية، وقد كتبت حول ذلك المئات بل الآلاف من المقالات.

ومن هنا أخذت مسألة الوحى طابعاً جديداً لدى هؤلاء وخطوا خطوات جديدة فى هذا المضمار، على الرغم من أنّهم لم يفسروا هذه الظاهرة كما فسرتها الأديان الاخرى وبالأخص المسلمون من السائرين على خطى القرآن المجيد، وبشكل عام فإنّ هناك نظريتين مختلفتين لدى مجموعة من الفلاسفة القدماء والمتأخرين لتفسير ظاهرة الوحى، ولكن الفريقين لم يصلا إلى حقيقة الوحى حسب ما ورد فى القرآن الكريم، والنظريتان هما:

۱- يعتقد عدد من الفلاسفة المتقدمين أن منشأ الوحى هو «العقل الفعّال»، والعقل الفعّال وجود روحى مستقل عن وجودنا، وهو قرينة، ومصدر لجميع علوم البشر ومعارفه، كما يعتقدون بأنّ الأنبياء كانت لهم علاقة وثيقة مع هذا العقل الفعّال، وكانوا يستلهمون منه، وما حقيقة الوحى إلّاهذه العلاقة.

وفى الحقيقة، لا دليل لهؤلاء لاثبات مدعاهم القائل بأنّ الوحى هو عبارة عن الإرتباط والعلاقة مع العقل الفعّال، إضافة إلى هذا، فإنّه لا دليل على وجود ما يزعمون وجوده أى

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۷۸

«العقل الفعّال» كمصدر مستقل للعلوم، كما ذكر ذلك فى المباحث الفلسفية.

وعلى هذا، فالنظرية المذكورة عبارة عن احتمال مبنى على احتمال، وفرضية مستندة إلى فرضية، ولم تثبت أى من الفرضيتين، كما أنّه لا- حاجة لفرض «العقل الفعّال» بل يكفينا القول بأنّ الوحى عبارة عن اتصال بعالم ما وراء الطبيعة والذات المنورة، أمّا كيف وبأى شكل يتم ذلك؟ فهذا لم يتضح لنا.

نحن شاهدنا آثاره فآمنا بوجوده، دون أن نعرف حقيقته، وكثير من حقائق هذا العالم حالها كحال الوحى.

۲- يعتقد عدد من الفلاسفة المعاصرين أنّ «الوحى» هو تجلِ «علم اللاشعور» أو العلاقة الغامضة مع حقائق هذا العالم التى قد تنشأ من «النبوغ الباطنى» تارة، وتارة اخرى من «الرياضة الروحية» وعن مساعٍ من هذا النوع، وقد عَدَّ علماء النفس شخصيتين للإنسان:

«الشخصية الظاهرة والإرادية» وهى جهاز الإدراك والتفكير والمعلومات الحاصلة بالحواس العادية، والشخصية الاخرى هى «الشخصية غير المرئية واللا إرادية» التى قد يعبر عنها ب «الوجدان الخفى» أو «الضمير الباطنى» أو «علم اللاشعور» ويعتبر علماء النفس أنّ حلَّ

كثيرٍ من المشاكل الروحية كامن فى هذه الشخصية.

إنّهم يعتقدون أن مجالات فاعلية ونشاط الشخصية الثانية اوسع بكثير من مجالات نَشاط وفاعلية الاولى

وقد كتب أحد علماء النفس فى هذا المجال:

يمكننا تشبيه الشخصية بقطعة ثلج عائمة فى الماء، وعادة ما يكون تُسْعُها خارج الماء، وهذا المقدار الخارج هو الشخصية الظاهرة أو عالم الشعور، ويقابلها الشخصية اللاإرادية إلى عالم اللاشعور، حيث إنّ القسم الأعظم من النشاط الذهنى لم نُحط به علماً ويحصل بشكل غير إرادى، وهو بمثابة الأجزاء الثمانية من قطعة الثلج تحت الماء «۱».

لا شأن لنا فيمن كشف الشخصية الثانية للإنسان، «فرويد» أم غيره، كما لا شأن لنا فى أنّ

---

(۱). معرفة النفس ترجمة (الدكتور ساعدى)، ص ۶ و ۷ مع إيضاح بسيط (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۷۹

كلام المتقدمين فيه إِشارة إلى ما ذهب إليه المعاصرون أم لا، المهم بالنسبة لنا هو أنّ كثيراً من علماء النفس، بعد اكتشاف عالم اللاشعور وحل بعض المعضلات الروحية عن طريق هذا الاكتشاف، سعى لتبرير ظاهرة الوحى بما يتناسب ويتفق مع هذا الاكتشاف، حيث ادعوا أنّ الوحى هو ترشحات عالم اللاشعور التى تظهر عند الأنبياء على شكل طفرات فكرية بالصدفة.

وقد ساعد الأنبياء فى ذلك أحياناً- أمران: الأول النبوغ الفكرى، والثانى هو الترويض والتفكير المستمر.

وطبقاً لهذه الفرضية، فإنّ علاقة «الوحى» بعالم ما وراء الطبيعة ليست علاقة من نوع خاص ومغايرة للعلاقات الفكرية والعقلية لبقية أفراد البشر، وأنّ هذا لا يتم عن طريق وجودٍ روحى مستقل باسم «الوحى»، بل هو انعكاس لضمير الأنبياء الخفى، وهذه الفرضية كالسابقة القائلة بأنّ الوحى هو الاتصال بالعقل الفعال، تفتقد الدليل، وقد يكون المراد بهذا من هذا الكلام ليس إثبات حقيقة الوحى، بل مرادهم إنّ ظاهرة الوحى لا تتنافى مع العلوم الحديثة، ويمكن تجلّى عالم اللاشعور لدى الأنبياء.

وبتعبير أوضح، فإنّ العلماء يصرون على تفسير جميع ظواهر العالم طبقاً للقوانين الطبيعية والاصول العلمية التى اكتشفوها، ولهذا فإنّهم بمجرّد مشاهدتهم لظاهرة جديدة، يسعون إلى تحليلها فى إطار العلم الحديث، وإذا افتقدوا الدليل فى هذا المجال اكتفوا بالفرضيات.

لكن تلقى ظواهر العالم بهذا الشكل ليس صحيحاً، وهذا هو خطأ العلماء الطبيعيين، مفهوم كلامهم هذا هو: إننا فهمنا الاصول والقوانين الاساسية للعالم، ولا توجد ظاهرة خارجة عن اطُر هذه القوانين والاصول.

وهذا ادّعاء محض ولا دليل له، بل لنا دليل على العكس، حيث نشاهد بمرور الزمن اكتشاف اصول وقوانين جديدة لنظام هذا العالم، ولدينا قرائن تثبت أنّ نسبة ما نعلمه عن هذا العالم إلى ما لا نعلمه كنسبة القطرة إلى البحر.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۰

لقد عجزنا عن المعرفة الدقيقة لحواس الحيوانات الغامضة، بل وحتى عن معرفة أسرار وجودنا، لذا لا يمكننا سوى ادعاء معرفة قسم من هذه الأسرار فقط.

فلماذا- إذن- هذا الاصرار كله على تبرير ظاهرة الوحى فى اطُر القوانين العلمية المكتشفة، بل ينبغى القول: إنّ الوحى حقيقةٌ شاهدنا آثارها ولم نطلع على ذاتها وحقيقتها.

۴- فرضية كون الوحى غريزة

طرح بعض المفكرين الإسلاميين المتأثرين بأفكار العلماء الغربيين فرضية اخرى فى مجال الوحى تختلف فى الظاهر عن الفرضيتين

السابقتين إلّاأنّها تتفق معهما جوهرياً.

وقد بُنيت هذه الفرضية على الاصول الآتية:

۱- إنّ «الوحى» لغة يعنى النجوى بهدوء، واستعملت فى القرآن بمفاهيم عدة تشمل أنواع الهدايات الغامضة، بدءً بهداية الجمادات والنباتات وانتهاءً بهداية الإنسان عن طريق الوحى.

۲- إنّ الوحى نوع من أنواع الغريزة، وهداية الوحى ليس إلّاهداية غريزية.

۳- إنّ الوحى هداية الإنسان من وجهة نظر جماعية، أى أنّ المجتمع الإنسانى بما هو كتلة واحدة، له مسير وقوانين وحركة، فيحتاج للهداية، ودور «النبى» فى هذا المجال كدور الجهاز المتسلِم الذى يتسلم ما يحتاجه نوع البشر بشكل غريزى.

۴- إنّ الأحياء تهتدى فى مراحلها الاولى بواسطة الغريزة، وكلما تكاملت ونما حس التصور والفكر عندها، كلما نقصت قدرة الغريزة فيها، وفى الحقيقة فإنّ الحس والتفكير يستخلفان الغريزة، وعلى هذا الأساس فالحشرات لها غرائز أكثر وأقوى والإنسان أقل غرائزاً بالقياس إلى الحيوانات الاخرى.

۵- إنّ المجتمعات البشرية (من وجهة نظر اجتماعية) تسير دائماً فى طريق التكامل وتتّجه نحوه، فكما أنّ الحيوانات فى مراحل حياتها الابتدائية كانت تستند إلى الهداية

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۱

الغريزية بالكامل، ثم اعتمدت تدريجياً على حواسها وتخيلها وأحياناً تفكيرها، وعندما نما عندها التفكير والحواس تدريجياً، استخلفت الغريزة، كذلك المجتمع البشرى، فبنموه وتكامل عقله ضعفت غريزة الوحى عنده.

۶- إنّ للعالم البشرى عهدين، عهد هداية الوحى، وعهد هداية التعقل والتفكير فى طبيعة التاريخ.

۷- إنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله الذى ختمت به النبوة رسول للعهد القديم والحديث، فانّه من حيث مصدر الالهام الذى كان يستفيض منه (لا- مصدر التجربة الطبيعية والتاريخ) فهو يتعلق بالعهد القديم، ومن حيث روح تعاليمه التى تدعو إلى التفكر والتعقل ودراسة الطبيعة والتاريخ (التى ينتهى عمل الوحى بمجيئها) فهو يتعلق بالعصر الحديث «۱».

إنّ المستخلص من هذه الفرضية أنّ الوحى نوع معرفة لا إرادية تشبه الغرائز وهى دون المعرفة الإرادية التى تحصل عن طريق الحواس والتجربة والعقل، وتضعف هذه القدرة «الوحى» كلما تكامل جهاز العقل والفكر، فيستخلف العقل حينئذٍ الوحى، ومن هذا الباب ختمت النبوة.

بالرغم من أنّ هذه الفرضية- صدرت عن مفكر إسلامى- إلّاأنّها أضعف فى بعض جوانبها من الفرضيات التى قدمها علماء وكُتّاب غربيون فى هذا المجال، على الرغم من التشابه من حيث فقدان الدليل، ويمكن القول: إنّ هذه النظرية أسوأ نظرية طُرحت فى هذا المجال لحد الآن، وذلك للامور الآتية:

أولًا: إنّ العلماء الغربيين عدوا الوحى شيئاً فوق الإدراك الحسى والعقلى للإنسان، بينما عُدَّ فى هذه النظرية شيئاً دون ذلك، وهذا تفكير عجاب!

ثانياً: لم يَعِدَّ المفكرون الغربيون الوحى نوعاً من أنواع الغرائز الحيوانية، فى حين عُدَّ فى هذه النظرية من هذا القبيل.

---

(۱). مقدمة فى الرؤية العالمية الإسلامية، للشهيد المطهرى رحمه الله (وقد ذكر الشهيد المرحوم النقاط السبع السابقة التى تعكس رأى اقبال اللاهورى فى كتابه «احياء الفكر الدينى فى الإسلام» بشكل ملخص ونقدها).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۲

ثالثاً: إنّ أمر الوحى واضح بالكامل للمسلم الملم بمفاهيم القرآن حيث يُعتبر نوعاً من الاتصال بالعالم الإلهى، وتلقى معارف عظيمة

وجليلة للغاية من هذا العلم لم يستطع الإنسان أن يصل إليها بالعقل.

إنّ الوحى من وجهة نظر القرآن الكريم هداية إرادية بالكامل وهو أسمى بكثير من «الهداية العقلية»،- وكما قلنا سابقاً- فإنا إذا شبهنا العقل بنور مصباح نيّر فإنّ الوحى بمثابة الشمس الساطعة.

يخاطب القرآن الناس- من جهة- قائلًا: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ الَّا قَلِيلًا». (الاسراء/ ۸۵)

ومن جهة اخرى يصف اللَّه علمه ويقول: «وَلَوْ انَّمَا فِى الْارْضِ مِنَ شَجَرَةٍ اقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . (لقمان/ ۲۷)

فوحى النبوة ارتباط بهذا العلم اللامتناهى، ولهذا يصرح القرآن الكريم أنّ اللَّه هو معلم الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

«وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ . (النساء/ ۱۱۳)

إنّ العقل والعلم البشرى مهما تقدما وتكاملًا أضعف من أن يقودا الإنسان إلى طريق السعادة من دون توجيه وارشاد الوحى، والدليل الحى لهذا الكلام هو مذاهب الفلاسفة وانحرافاتهم العجيبة، والحقيقة أنّ الذين عُرفوا كمفكرين اسلاميين هم مفكرون غربيون فى واقع أمرهم، وأفكارهم اتخذت صبغة الأفكار الغربية، ولهذا سعوا دائماً لذكر تبريرات طبيعية لِلُامور غير الطبيعية.

إنّ الغربيين إذا اصروا على ذكر تبريرات طبيعية لِلُامور الغيبية، فذلك لانكارهم عالم الغيب، فلا ينبغى لأىمسلم اقتفاء أثرهم فى ذكر تبرير طبيعى لمسألة كهذه.

من المؤسف أنّ الآثار السيئة لهذا التقليد نجدها فى كثير من كتب أولئك المفكرين الذين غالباً ما درسوا فى الغرب، ومعلوماتهم عن الإسلام قليلة جدّاً.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۳

۵- كيف تيقن الرسول بأنّ الوحى من اللَّه؟

إنّ هذا السؤال من جملة الأسئلة التى طرحت حول مسألة الوحى، كيف علم الرسول بأنّ الوحى من اللَّه وليس إِلقاءً شيطانياً؟ وبتعبير آخر: ما هو مصدر هذا العلم واليقين؟

إنّ الجواب عن هذا السؤال واضح، فاضافة إلى أنّ الفرق بين الالقاءات الرحمانية والالقاءات الشيطانية كالفرق بين السماء والأرض، فإنّ محتوى كلٍّ منهما يعرف نفسه، وينبغى القول: إنّ الرسول عندما يتصل بالوحى يذعن بحقيقته بالنظر الباطنى، وأمره كالشمس الساطعة نهاراً، فلا نعتنى بالذى يشككك بوجودها ويقول: يُحتمل أن تكون وهماً لا أكثر، وذلك لأنّ احساسنا بها قطعى ولا يقبل الشك.

يقول العلّامة الطباطبائى قدس سره فى تفسيره للآية: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِىَ يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ ...». (طه/ ۱۱- ۱۲)

وهذا حال النّبى والرسول فى أوّل ما يوحى إليه بالنبوّة والرسالة، لم يختلجه شك ولم يعتره ريب فى أنّ الذى يوحى إليه هو اللَّه سبحانه، من غير أن يحتاج إلى إمعان نظر أو التماس دليل، أو إقامة حجة، ولو افتقر إلى شىء من ذلك كان اكتساباً بالقوة النظرية، لا تلقياً من الغيب، من غير واسطة «۱».

ومن هنا يتّضح عدم صحة ما جاء فى بعض الروايات من أنّ الوحى عندما نزل لأول مرّة على الرسول فى غار «حراء» ذهب إلى بيت خديجة وقصّ عليها ما جرى واضاف: إِنى أخاف على نفسى (أى أخاف أن تكون الايحاءات شيطانية لا إِلهية) فطمأنته خديجة، ثم ذهبت به إلى ورقة بن نوفل (ابن عم خديجة) الذى كان يدين بالمسيحية فى عهد الجاهلية، وكان يجيد القراءة والكتابة العربية

والعبريـة، فطلب من النبى أن يشـرح ما جرى له .. وبعد ما قصَّ الرسول صـلى الله عليه و آله ما جرى له، قال ورقة: إنّه هو الوحى الذى كان يهبط على موسى عليه السلام وأضاف: ليتنى أكون حياً كى أرى كيف يخرجك قومك من هذه المدينة «۲».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۱۳۸.

(۲). نقل هذا المضـمون كثير من المحدثين والمفسـرين من أهل السنة منهم «البخارى فى صحيحه» و «مسلم» و «سيد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن فى بداية سورة العلق» كما ورد فى «دائرة معارف القرن العشرين، مادة (وحى)».

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۴

وكون هذا الحديث مختلق أمر لا ريب ولا شك فيه، إذ كيف يحتاج الرسول الذى ارتبط بعالم الغيب وكل وجوده يشعر بهذه الرابطة، إلى ورقة بن نوفل الكاهن النصرانى؟ وكيف يمكن الاعتماد على مثل هذا الوحى؟

لماذا لم يشك به موسـى بن عمران عندما نزل عليه أوّل مرّة فى طور سيناء؟ بالرغم من أنّ موسى سمع صوته فقط ولم يشاهده، أليس هذا دليلًا على وجود أيادٍ خفية تهدف من وراء تلفيق هذه الخرافات إلى النيل من الوحى والنبوة وتضعيف أسس الدين الإسلامى؟

۶- القرآن أغنى مصدر للمعرفة فى الأحاديث الإسلامية

نسـتمر فى بحثنـا هـذا مع الأخـذ بنظر الاعتبـار أنّ القرآن الكريم يمثـل المصـداق البـارز للوحى طبق مـاورد عن الأئمّـة الأطهار عليهم السـلام، كى يكون تأكيـداً لأصل وموقعيـة القرآن كمصـدرٍ عظيم للمعرفـة، كما يكون جواباً لأولئك الـذين يذهبون شـططاً ويعدون الوحى من «الغرائز الحيوانيـة» وأدنى من الإدراكـات العقليـة، ويعتقـدون أنّ الإنسـان اسـتغنى عن الوحى والمعـارف التى تنشـأ منه بعد تكامله العقلى!

- قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مخاطباً المسلمين: «إذا التبست عليكم الامور كقِطَع الليل المُظلم فعليكم بالقرآن ... مَن جعله أمامه قاده إلى الجنّة، ومن جعله خَلفَهُ ساقه إلى النار، وهو أوضح دليل إلى خير سبيل، مَنْ قال به صدق، ومَن عمل به اجرَ، ومَن حَكَمَ به عَدَلَ» «۱».

۲- ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام فى احدى خُطب نهج البلاغة: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لاتطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقده، وبحراً لا يدرك مقره، ومنهاجاً لا يضل نهجُه، وشعاعاً لا يظلم ضوؤه، وفرقاناً لا يخمد برهانه، وتبياناً لا تُهدم أركانه، وشفاءً لا تخشى أسقامه، وعزاً لا تُهزم أنصاره، وحقاً لا تُخذل أعوانه».

---

(۱). نقل المرحوم العلّامة المجلسـى هذه الخطبة فى بحار الأنوار ج ۷۴، ص ۱۷۷ عن أبى سعيد الخدرى من جملة خُطَب الرسول التى نقلها.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۱۸۵

«فهو معدنُ الإيمان وبحبوحته وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافى الإسلام وبنيانه» «۱».

۳- ويقول الإمام على بن موسـى الرضا عليه السـلام: سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: «ما بالُ القرآن لا يزداد على النَّشر والدرس إلّاغضاضـة»؟ فقال الإمام: «لأن اللّه تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان، ولا لناسٍ دون ناس، فهو فى كل زمان جديد، وعند كلّ قوم غضٌّ إلى يوم القيامة» «۲».

والأحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة فى مصادر السـنة والشـيعة، وقد ذكرنا ثلاثة فقط، أحدها للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله

والآخر لأمير المؤمنين عليه السلام وحديثاً للإمام الصادق عليه السلام.

۷- الوحى الخاص إلى غير الأنبياء (وحى الالهام)

كما ذكرنا فى بداية البحث أنّ للوحى معانِى كثيرة، منها «وحى النبوة والرسالة»، وهناك قسم آخر من الوحى وهو «الالهام» الذى يُلقى فى قلوب غير الأنبياء، أو خطاب يُبلَّغ به غير الأنبياء.

ومثاله ما جاء عن ام موسى حيث يقول القرآن فى هذا المجال: «وَأَوْحَيْنَا الَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِى الْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنى ...». (القصص/ ۷)

وقريب من هذا ما جاء عن الحواريين، حيث يقول اللَّه تعالى «وَاذْ أَوْحَيْتُ الَى الْحَوَارِيِّينَ انْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِانَّنَا مُسْلِمُونَ . (المائدة/ ۱۱۱)

كما قال اللَّه فى يوسف قبل أن يبعثه نبيّاً، عندما أراد اخوته أن يلقوه فى اليم:

«... وَأَوْحَيْنَا الَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِامْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَايَشْعُرُون . (يوسف/ ۱۵)

وهذا الوحى ليس هو نفس وحى النبوة، بل وحى إلهامى، بقرينة الآية ۲۲ من نفس

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۸.

(۲). بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۵.

السورة، حيث جاء فيها أنّ اللَّه ألهم نبيّهُ (يوسف) كى يدرك بأنّه ليس وحيداً بل اللَّه يحفظه ويرزقه نصيباً من القدرة ويصل الأمر إلى أن يندم اخوته على فعلهم، وهذا الوحى هو الذى جعل الأمل ينبعث فى قلب يوسف.

يذكر «الفخر الرازى» ستة احتمالات فى ذيل الآية (۳۸) من سورة طه، وأغلبها خلاف الظاهر، لأنّ ظاهر الآية هو الالقاء فى القلب، أو سماع صوت ملك الوحى الذى يتناسب والمعنى اللغوى للوحى «۱».

ومثال القسم الثانى هو الخطاب الذى أبلغه أحد الملائكة لمريم والذى كان يتعلق بولادة عيسى عليه السلام، وقد حكى القرآن حوار مريم مع الملك الذى تمثل فى صورة إنسان وسيم.

وأوضح مثال للوحى الالهامى هو الذى كان يُقذف فى قلوب الأئمّة المعصومين عليهم السلام والذى اشير إليه كثيراً فى الروايات.

وعندما سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن مصدر علم الأئمّة قال: «مَبْلَغُ علمنا ثلاثة وجوه:

ماض، وغابر، وحادث، فأمّا الماضى فمُفَسَّرٌ وَأمّا الغابر فمزبور، وأمّا الحادث فقذف فى القلوب، ونقر فى الأسماع وهو أفضل علمنا ولا نبىَّ بعد نبيّنا» «۲».

وقد جاء فى حديث آخر للإمام الرضا عليه السلام يقول فيه: «وأمّا النكت فى القلوب فهو الالهام وأمّا النقر فى الأسماع فحديث الملائكة، نسمع كلامهم ولا نرى أشخاصهم» «۳».

وبصورة عامة، فإنّ علوم الأئمّة عليهم السلام تحصل من عدة طرق: العلوم التى ورثوها عن الرسول والأئمّة الذين سبقوا، على شكل وصايا وقواعد مدوّنة توضع فى متناول أيديهم والتى قد يطلق عليها فى بعض الأخبار «الجامعة»، وعندما يحصل لهم أمر مستحدث لا وجود له فى المصادر التى فى أيديهم، يوحى اللَّه اليهم إلهاماً قلبياً أو نقراً فى أسماعهم يسمعون به صوت الملائكة «كما هو الحال بالنسبة لمريم عليها السلام».

(۱). راجع التفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۵۱.

(۲). بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۵۰.

(۳). إرشاد المفيد، ج ۲، ص ۸۰؛ بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۷

لكن المسلَّم به أنّ هذا الوحى لا علاقة له بوحى النبوة، وهو من قبيل وحى الحواريين وأمثال ذلك، وفى الواقع، أنّ الاصطلاح العصرى للوحى يطلق على وحى النبوة الذى يسمى «إلهاماً»، وقد قال العلامة الطباطبائى فى هذا المجال: حبذا لو أطلقنا عليه إلهاماً لأنّه يتفق والأدب الدينى «۱».

يراجع- للتفصيل- المجلد ۲۶ من بحار الأنوار، باب علوم الأئمّة عليهم السلام، كما يراجع المجلد الأول من اصول الكافى باب أنّ الأئمّة عليهم السلام محدَّثون.

۸- كيفية نزول الوحى على الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله

كما قلنا سابقاً، إنا لا ندرك حقيقة الوحى، وهى من المجهولات عندنا، لأنّ إدراكها شىءٌ خارج عن اطار الحس والعقل، بل ندرك آثار الوحى فقط، والأثر يدلّ على المؤثِّر، وعلى هذا فمن العبث الدخول فى عالم الوحى الغامض إلّاأنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام عندما كانوا يُسألون عن كيفية الايحاء، يجيبون جواباً وافياً بحيث يرسم فى الذهن عن الوحى تصوراً لا غير!

ذكر الشيخ الصدوق قدس سره فى كتابه «الاعتقادات» حول نزول الوحى حديثاً لابدّ أن استخلصه من الروايات حيث قال فيه:

«اعتقادنا فى ذلك أنّ بين عينى اسرافيل لوحاً، فإذا أراد اللَّه عزوجل أن يتكلم بالوحى ضرب اللوح جبين اسرافيل، فنظر فيه فقرأ ما فيه، فيلقيه إلى ميكائيل عليه السلام، ويلقيه ميكائيل عليه السلام إلى جبرائيل عليه السلام ويلقيه جبرائيل عليه السلام إلى الأنبياء عليهم السلام، وأمّا الغشية التى كانت تأخذ النبى صلى الله عليه و آله حتى يثقل ويعرق فإنّ ذلك كان يكون منه عند مخاطبة اللَّه عزوجل إيّاه فأمّا جبرائيل فانّه كان لا يدخل على النبى صلى الله عليه و آله حتى يستأذنه إكراماً له، وكان يقعد بين يديه قعدة العبد» «۲».

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۲، ص ۳۱۲.

(۲). اعتقادات الصدوق، ص ۱۰۰.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۸

وقد جاء فى الروايات مضمون هذا الحديث إجمالًا «۱».

ونقرأ فى حديث آخر أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عندما كان يوحى إليه يسمع صوتاً هادئاً قرب وجهه.

وقد جاء فى حديث آخر: إنّ الوحى عندما كان ينزل على الرسول صلى الله عليه و آله يبدأ جبينه يتصبب عرقاً وإن كان الجو بارداً «۲».

وبصورة عامة فإنّ الوحى كان يهبط على رسول اللَّه باشكال مختلفة، ولكل شكل آثاره الخاصة به.

كما يستفاد من الروايات أن جبرئيل كان يهبط على الرسول أحياناً- بشكله الحقيقى الذى خلقه اللَّه عليه، ويحتمل أنّه هبط بهذا الشكل مرتين فقط طوال عمر الرسول (كما أشير إلى ذلك فى بعض تفاسير سورة النجم) «۳»، كما أنّه قد يهبط متمثلًا فى صورة

«دحية الكلبى» «۴»، «۵».

۹- الالهامات الغريزية

قلنا سابقاً أنّ للوحى مفهوماً واسعاً سواء فى آيات القرآن أو فى كتب اللغة، كما قلنا إنّ أحد مصاديقه هو الإدراك الغريزى عند الحيوانات، ولا يمكن تحليله بأى تحليل مادى، بل وجوده فى الحيوانات دليل على وجود ذلك المصدر الغنى والعظيم للعلم والمعرفة فيما وراء الطبيعة.

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۴، ح ۹.

(۲). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۶۱.

(۳). فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۳۰۶.

(۴). بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۶۷، ح ۲۹.

(۵). إنّ دحية بن خليفة الكلبى هو أخو الرسول الرضاعى، وكان من أجمل الناس آنذاك، فكان يتمثل فى صورته جبرئيل عندما يريد الهبوط على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله (مجمع البحرين مادة وحى). وكان من مشاهير صحابة الرسول صلى الله عليه و آله ويُعرف بحسن الوجه، أرسله الرسول صلى الله عليه و آله بالرسالة إلى قيصر الروم «هرقل» فى السنة السادسة أو السابعة من الهجرة، وكان حياً حتى خلافة عمر (قاموس دهخدا بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۸۹

وقد أشار القرآن المجيد إلى هذا الأمر العجيب بالنسبة للنحل فى الآيات ۶۸ و ۶۹ من سورة النحل.

لقد اتّضح لنا- بعد التحقيقات التى اجريت على هذه الحشرة فى العصر الحاضر- أنّ النحل يعيش حياة اجتماعية وتمدناً عجيباً يفوق تمدن الإنسان فى بعض نواحيه، فالعمران والبناء يتمّ عنده بدقّة كاملة وطبقاً للمواصفات الهندسية، وكيفية تجميع العسل وتهيئته وادخاره وحفظه من التلوث، وكيفية تربية الصغار، والتغذية الخاصة للملكة، والتحقق من عدم تلوث بعض النحل بالزهور الملوثة، وكيفية الدفاع ضد العدو، وكيفية إخبار أعضاء الخلية عن الزهور بواسطة النحل المكلّف بالبحث، وإعطاء المواصفات الدقيقة من حيث المسافة والانحراف وذلك للحركة الجماعية نحو ذلك المصدر، وغير ذلك من الامور العجيبة التى لا يمكن تفسيرها إلّابالقول بأنّ لها إلهاماً غريزياً.

ويقال: إنّه تم التعرف على ۴۵۰۰ نوع من أنواع هذه الحشرة، والعجيب فى الأمر أنّ جميعها تتبع طريقة واحدة فى كيفية البناء والمَصّ والتغذية من الزهور «۱».

إنّ البحث يستدعى عدم الخروج عن صلب الموضوع كثيراً، وإلّا فالحديث عن الحياة الغامضة للنحل طويل، ويكفينا منه الحديث عن بنائه لبيت سداسى الاضلاع مع زوايا هندسية دقيقة.

يقول العلماء فى هذا المجال: إنّ البيوت المبنية من قبل النحل بنيت بدقّة وظرافة بحيث لا تحتاج إلى مواد أوليه كثيرة للبناء، رغم سعة محتواها، لوجود ثلاثة أشكال فقط من بين الأشكال الهندسية المتعددة- يمكن بناء البيوت على أساسها من دون حصول فراغ بينها والأشكال هى، المثلث متساوى الأضلاع والرباعى، والسداسى، وقد كشفت الدراسات الهندسية أن سداسى الأضلاع يتطلب مواد بناء أقلّ مع شدّة مقاومته، ولهذا السبب رجحه النحل على الشكلين الآخرين.

من أين حصلت له هذه الالهامات الغريزية؟ وفى أى مدرسة تعلم هذه التعاليم؟

(۱). اول جامعة، ج ۵، ص ۵۵ «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۰

لا- يقتصر هذا الالهام الغريزى على النحل فحسب، بل نجده فى كثير من الحيوانات تفوق عجائب كلٍّ منها الاخرى، نذكر لذلك الأمثلة الآتية:

يقول أحد العلماء فى كتاب له باسم «البحر بيت العجائب»:

«إنّ الحركات التى تقوم بها بعض الأسماك تعتبر من غرائب الطبيعة ولا أحد يستطيع أن يكشف أسرار هذا السلوك، فهناك نوع من الأسماك يسمى «النُقْط» يغادر البحر المالح الأنهر العذبة وهى الأماكن التى ولدت فيها نفسها، وقد يقتضى ذلك أن تسير عكس اتّجاه حركة المياه، أو تصعد الشلالات من أسفلها إلى أعلاها، وقد يبلغ عددها حداً بحيث تملأ النهر، وعندما تصل إلى المحل المقصود تضع بيوضها ثم تموت!

يا تُرى كيف تستطيع هذه الأسماك أن تختار المياه المناسبة لها؟ إنّه أمر عجيب، والأعجب، لأنّها تفتقد الخارطة، كما أنّ بصرها تحت الماء محدود، ولم يدلها أحد على الطريق، وبالرغم من ذلك فهى تصل إلى المكان المقصود والمناسب».

ويضيف فى نفس الكتاب: «إنّ الأعجب من ذلك هو سلوك الأسماك الانجليزية «سمك يشبه الحيّة» فحين تبلغ ثمان سنوات تغادر النهر أو المستنقع الذى كانت تعيش فيه، وتزحف ليلًا على الأعشاب المتشابكة حتى تصل إلى شاطىء البحر، ثم تجتاز المحيط الأطلسى عرضاً حتى تصل إلى المياه القريبة من «برمودا»! وتغوص فى المحيط آنذاك وتضع البيوض ثم تموت ... إنّ صغار هذه الأسماك تطفو على سطح البحر وتبدأ سفرها عائدة إلى وطنها، وتستغرق هذه السفرة سنتين أو ثلاثاً حتى تصل إلى المحل الذى كان فيه أسلافها.

كيف وجدت هذه الأسماك طريقها رغم أنّها لم تسلكه سابقاً؟ إنّه سؤال لا يمكنك الإجابة عنه، كما لا يستطيع أعلم العلماء الإجابة عنه، إنّه سرّ، ولا أحد يعرفه» «۱»!

وكثير من الطيور المهاجرة تجتاز طرقاً ومسافات طويلة، وبعضها يجتاز طريق «اوربا» إلى «أفريقيا الجنوبية» دون خطأ فى الاتّجاه، ولم نكتشف كيفية اهتداء هذه الطيور إلى

(۱). البحر بيت العجائب، ص ۱۱۶ و ۱۱۷ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۱

الطريق حتى فترة ليست ببعيدة.

وقد أثبت بعض العلماء- بعد التحقيق والتجارب على هذه الطيور- أنّها تهتدى الطريق بواسطة مواقع النجوم، وأثبتت التجارب أنّها تعرف مواقع النجوم غريزياً، وتعلم تغير مواقعها حسب فصول السنة، وحتى عندما تتلبد السماء بالغيوم، فإنّ وميض بعضٍ من النجوم يكفيها للاهتداء إلى الطريق، كما أثبتت تجارب اخرى أنّها ورثت معرفتها عن الفلك ومواقع النجوم، أى أنّها تعلم كل شىء عن السماء ومواقع النجوم وإن لم تشاهد السماء سابقاً، بالطبع لم تُكتشف كيفية انتقال هذه المعلومات التفصيلية لهذه الطيور بالوراثة، خاصة وأنّ السماء تتغير أشكالها بمرور الزمان، ثم: من أين حصل الجيل القديم على هذه المعلومات؟! «۱».

و النموذج الآخر لهذه الغريزة هو سلوك طير باسم «آكسك لوب» عندما تضع البيوض، فيقول العالم الفرنسى «وارد» حول هذا الحيوان:

«إنى درست حالات هذه الطيور، فوجدت من خصائصها أنّها تموت بعد أن تبيض، ولا ترى أفراخها أبداً، كما أنّ الأفراخ لا ترى

امهاتها، وعندما تفقس البيوض تخرج كالديدان بلا أجنحة ولا ريش، ولا قدرة لها على تحصيل الطعام، ولا قدرة لها للدفاع عن نفسها من الحوادث والمخاطر التى تهدد حياتها، ولهذا ينبغى أن تبقى فى مكان محفوظ فيه طعام يكفيها لمدّة سنة، ومن بعدها تقوم الام- عندما تشعر أنّها على وشك أن تبيض- بالبحث عن قطعة من خشب ثم تثقبها ثقباً عميقاً، وتجمع فيها المؤونة الكافية، فتجمع أولًا أوراق الأشجار ما يكفى لفرخ واحد لمدّة سنة وتلقيها فى نهاية الثقب العميق، ثم تضع عليها بيضة وتبنى عليها سقفاً محكماً من عجينه خشبية، ثم تبدأ ثانياً فى جمع مؤونة فرخ آخر لمدّة سنة وبعد جمعها المؤونة ووضعها على سطح الغرفة الاولى تضع بيضة ثانية عليها وسقفاً

---

(۱). حواس الحيوانات الغامضة، تأليف (ويتوس دروشر)، ترجمة لاله زارى، ص ۱۶۷- ۷۱ (ملخص) «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۲

آخر، وهكذا تبنى الغرفة بعد الغرفة حتى تموت «۱».

من الذى علم هذا الطير هذا الحجم من المعلومات رغم أنّه لم ير امه ولا- أفراخه؟ لا- جواب لأحدٍ على هذا السؤال إلّاالقول، بأنّها الهامات غريزية من قبل الخالق العظيم.

---

(۱) المتلبسون بالفلسفة، ص ۲۲۹، «بالفارسية».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۳

۶- الكشف والشهود

تمهيد:

نفحات القرآن ج۱ ۲۲۲

القسم السادس والأخير من مصادر المعرفة هو «الشهود القلبى والمكاشفة».

وقبل كل شىء ينبغى تعريف هذا المصدر المجهول لدى أكثر الناس، كى يتضح فرقه عن «الوحى» و «الالهام» و «الفطرة» و «الإدراكات العقلية»، ولكى لا يحملُهُ غير المطلعين على «اتباع الظن».

ومن جهة اخرى، لكى نحول دون استغلال هذا العنوان من قبل البعض، والنظر إليه نظرة تشاؤمية من قبل البعض الآخر.

إنّ الكائنات فى هذا الوجود تنقسم إلى قسمين:

۱- الكائنات التى يمكن إدراكها بالحواس وهى «العالم المحسوس».

۲- الكائنات غير المحسوسة وهى «عالم الغيب».

لكن الإنسان- أحياناً- ينفتح أمامه طريق باتجاه عالم الغيب يمكّنه من معرفة بعض الحقائق الغيبية (حسب قابليته)، وبتعبير آخر، تتكشف له بعض حقائق عالم الغيب فيشاهد تلك الحقائق كما يشاهد حقائق العالم المحسوس، بل أوضح وأوثق.

ويقال لهذه الحالة «المكاشفة» أو «الشهود الباطنى».

وقد اشير إلى هذا العلم فى الآيتين: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ! (التكاثر/ ۵- ۶)

وقد ورد فى المصادر الإسلامية المختلفة: إنّ «المجرمين» و «المؤمنين» تحصل لديهم

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۴

هـذه الحالـة عنـد الاحتضـار، فيشاهـد المؤمنون عنـدها ملائكـة اللّه أو الأـرواح القدّسـية لأوليـاء اللّه بينمـا يعجز الجالسون حولهم عن مشاهدة ذلك.

كما حصل هذا الأمر لرسول اللّه صـلى الله عليه و آله فى غزوة الخندق عندما ضـرب الرسول صـلى الله عليه و آله الصـخرة ثلاثاً وكان يظهر بريق فى كل ضربة وعند سؤال المسلمين عن هذا البريق قال:

أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى الاولى وفى الثانية أرض الشام والروم وفى الثالثة قصور صنعاء ... وسيأتى تفصيل الحديث «۱».

كما أنّه قـد حصل هـذا لآمنـة ام النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عندما كانت حاملة بالرسول صـلى الله عليه و آله حيث قالت: رأيت نوراً خرج منى شاهـدت به قصور بلاد «بصـرى فى «الشام»، وهناك كثير من النماذج جاءت فى الآيات والروايات نشـير إليها فيما بعد، إن شاء اللّه، فهذه كلها لا وحى ولا إلهام قلبى، بل نوع من المشاهدة والإدراك تختلف عن المشاهدة والإدراك الحسى.

وعلى هـذا، فـالكشف والشـهود- اختصاراً- عبارة عن: الـدخول فى عالم ما وراء الحس ومشاهـدة حقائق ذلك العالم بالعين الباطنيـة، كالمشاهدة الحسية بل أقوى أو سماع تلك الحقائق باذن روحانية.

بالطبع لا يمكن تصـديق كل من يـدعى أنّه وصل إلى هذه الملكة، إلّاأنّه ينبغى الاذعان بأصل وجود مصدر المعرفة ونتحدث أولًا عن هـذا الأمر، ثم عن كيفيـة الوصول إليه، ثم طريق تمييز المـدعين الصادقين من الكاذبين، وبعـد هذا التمهيد، نمعن خاشـعين فى الآيات التالية:

۱- «وَكَذلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ .

(الأنعام/ ۷۵)

۲- «وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ الَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (التوبة/ ۱۰۵)

۳- «مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَفَتُمَارُونَهُ عَلى مَا يَرَى وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى

---

(۱). الكامل فى التاريخ،، ج ۲، ص ۱۷۹.

عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى . (النجم/ ۱۱- ۱۴)

۴- «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ . (التكاثر/ ۵- ۶)

۵- «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَابُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً».

(الفرقان/ ۲۲)

۶- «وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النّاسِ وَانِّى جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَائَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِّنْكُمْ انِّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ انِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ . (الأنفال/ ۴۸)

۷- «وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ .

(يوسف/ ۹۴)

۸- «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا الَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً».

(مريم/ ۱۷)

شرح المفردات:

إنَ «ملكوت» اشـتقت فى الأصل من مادة «المُلْك» والتى تعنى الملكيـة والحكومـة، واضـيفت لها «الواو» و «التاء» للتأكيد والمبالغة، أمّا

مَلْكَوَة فتعنى الحكومة والعزة.

يقول الطريحى فى «مجمع البحرين»، إنّ ملكوت جاءت بمعنى العزة والسلطنة والمملكة، وادعى بعض أئمّة اللغة أنّها تعنى «الحكومة العظيمة» وهو يتفق مع ما قاله الراغب فى مفرداته، ويقول صاحب الميزان: «كان النظر فى ملكوت الأشياء يهدى الإنسان إلى التوحيد هداية قطعية» «۱».

إنَ «فؤاد»- كما بينا معناه بالتفصيل سابقاً- تعنى القلب والروح عندما ينضجان ويتكاملان، وهو مشتق من مادة «فأْد» التى تعنى النضج.

وإنّ «أجد» من مادة «وجود» ويعنى الحصول، فقد يكون الحصول عن طريق احدى

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۷، ص ۱۷۱.

الحواس الظاهرية، مثل الرؤية بالعين، والسماع بالاذن، أو بواسطة الحاسة الشامة، وقد يحصل عن طريق الحواس الباطنية مثل الاحساس بالجوع أو الشبع والهم والغم، وقد يحصل عن طريق العقل مثل وجدان اللّه بالاستدلال العقلى والبراهين المختلفة.

كلمة «تمثّل» من مادة «مُثُول» ويعنى الوقوف أمام شخصٍ أو شىءٍ، ويقال مُمَثَّل بشخصٍ أو شىءٍ أى ظهر فى صورة شخص أو شىءٍ آخر، وقد تكرر موضوع التمثل فى الروايات الإسلامية والتواريخ، منها ظهور ابليس فى «دار الندوة» أمام المشركين وهم يخططون لقتل الرسول متمثلًا فى شكل رجلٍ صالح وخير.

ومنها تمثل الدنيا فى صورة امرأة جميلة وفاتنة أمام الإمام على عليه السلام وعدم استطاعتها من النفوذ فى قلبه الطاهر وقصتها معروفة، ومنها تمثل أعمال الإنسان أمامه فى القبر ويوم القيامة، كلٌّ بشكله المناسب له حيث عبرت الروايات الإسلامية عن هذا الأمر بالتمثل، ومفهوم التمثل فى جميع هذه الموارد هو ظهور شخصٍ أو شىءٍ فى صورة شخص أو شكل آخر من دون تغير فى باطنه وماهيته «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآية الاولى بعد إشارتها إلى جهاد إبراهيم عليه السلام بطل التوحيد ضد الشرك وعبادة الأصنام، تحدثت عن المنزلة الرفيعة لإيمانه ويقينه، وكمكافئة لهذه المكانه فإنّ اللّه أراه ملكوت السموات والأرض، فأصبح من أهل اليقين أى وصل إلى درجة عين اليقين وحق اليقين، جزاءً لما عاناه من جراء جهاده ضد الشرك وعبدة الأصنام، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «السموات» تفيد العموم هنا (لأنّها جاءت جمعاً لا- مفرداً ومعرفة لا- نكرة)، نستنتج أنّ اللّه أطلع إبراهيم على سلطانه فى السموات المتمثل بالكواكب والنجوم والمجرات وغيرها، كذلك سلطانه على الأرض ما ظهر منها وما بطن، وقد عبّر القرآن عن هذا الأمر بهذا التعبير «نُرىَ ابراهيم ...».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۳۷.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار إلى أنّ الإنسان لا- يمكنه رؤية هذه الحقائق بعينه الظاهرية واستدلالاته العقلية، ندرك أنّ اللّه أراه هذه الحقائق عن طريق الشهود الباطنى وإزالة الحجب التى تحول دون مشاهدة الإنسان الحقائق الغيبية.

وقد ذكر الفخر الرازى احتمالين فى تفسيره ل «الإرائة»، أحدهما: «أنّها حسية، والثانى:

أنّها إرائة عن طريق الاستدلال العقلى، ثم اختار الاحتمال الثانى، وذكر تسعة أدلة عليه» «۱».

لكن- كما قلنا سابقاً- فالإنسان عاجز عن الاحاطة الكاملة بأسرار سلطان اللّه على العالم سواء كان عن طريق الحس أو عن طريق العقل، وتحتاج الاحاطة هذه إلى طريق إدراك آخر، وهو الشهود الباطنى، ولهذا السبب يذكر صاحب تفسير «فى ظلال القرآن»:

«أنّ المراد من الآیـة إخبـار ابراهیم عن أسـرار الخلق الخفیـة ورفع الحجـاب عن آیات کتاب الخلق التی نشـرت کی یصل ابراهیم إلی درجة الیقین الکامل» «۲».

و بتعبیر آخر: إنّ ابراهیم اجتاز مراحل التوحیـد الفطری والاسـتدلالی- فی البدایة- من خلال مشاهدته لطلوع الشـمسُ وغروبها وطلوع النجوم وافولها، وجاهد المشـرکین واجتاز درجات التوحید فی ظل هذا الجهاد العظیم، الواحدة تلو الاخری، إلی أن بلغ مرحلة کشـف اللّه له فیها الحقائق، وهی مرحلة الشهود الباطنی.

وهناک حدیث للإمام الصادق علیه السلام فی هذا المجال یشیر فیه إلی هذا المعنی حیث یقول:

«کُشِط لإبراهیم السـموات السـبع حتی نظر ما فوق العرش، وکشط له الأرضون السبع، وفُعِل لمحمد صلی الله علیه و آله مثل ذلک ...» «والأئمّة من بعده قد فُعل بهم مثل ذلک» «۳».

وقـد ذکر صاحب البرهان الکثیر من الأحادیث فی تفسـیره، کلها تکشف أنّ الإدراک هذا لیس هو نفس الإدراک العقلی أو الحسـی، بـل- وکما صـرح صاحب المیزان وأشـرنا إلیه سابقاً- إنّ الملکوت هی مجموعـة الامور التی لها ارتباط بالـذات المقدّسـة الإلهیّـة من حیث

---

(۱). التفسیر الکبیر، ج ۱۳، ص ۴۳.

(۲). فی ظلال القرآن، ج ۳۹، ص ۲۹۱.

(۳). تفسیر البرهان، ج ۱، ص ۵۳۱، ح ۲ (ومضمون الحدیث الثالث والرابع قریب من مضمون هذا الحدیث).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۸

انتمائها إلی تلک الذات، وهذا ما شاهده إبراهیم وعن هذا الطریق استطاع أن یصل إلی التوحید الخالص «۱».

وهنـاک روایتان ذکرت فی تفسـیر «الـدر المنثور» إحـداهما عن الرسول الأکرم صـلی الله علیه و آله والاخری عن ابن عباس تبینان أنّ اللّه رفع الحجب عن إبراهیم وأراه ملکوت السموات والأرض أی أسرار قدرته، وحاکمیته علی الکون والوجود «۲».

ج‌ج

والآیة الثانیة بعد ذکرها لأحکام «الزکاة والصدقة والتوبة» خاطبت الرسول قائلة:

«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَیَرَی اللَّهُ عَمَلَکُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ الَی عَالِمِ الْغَیْبِ وَالشَّهَادَةِ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمَا کُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . (توبه/ ۱۰۵)

وممّا لا شک فیه أنّ المراد من رؤیـة الأعمال من قبل اللّه سبحانه وتعالی هو رؤیـة اللّه لجمیع أعمال الناس سواء الصالحـة منها أو غیر الصالحـة وما ظهر منها وما بطن «بقرینة وحدة السیاق» وینبغی القول بأنّ مشاهدة الرسول مثل مشاهدة اللّه، لأنّ الآیة مطلقة ولم یقیدها شیء، وأمّا المؤمنون، فالمراد منهم خلفاء الرسول صلی الله علیه و آله المعصومون بحسب القرائن المختلفة «لا جمیع المؤمنین».

ومع الالتفات إلی أنّه لا یمکن مشاهـدة اعمال کافـة الناس مشاهدة حسـیة أو اسـتدلالیة عقلیة، ینبغی القول: إنّ الآیة بینت حقیقة وهی أنّ الرسول صـلی الله علیه و آله والأئمّة علیهم السلام بإمکانهم المشاهدة بشکل یختلف عن المشاهدة الحسیة المتعارفة، یشاهدون بها جمیع أعمال المؤمنین.

وقـد ذهب الفخر الرازی إلی أنّ المراد من الآیـة جمیع المؤمنین لا الأئمّـة، وعنـدما وقع فی إشـکال أنّ المؤمنین لا یطلع أحـدهم علی أعمال الآخر، أجاب: إنّ المراد أنّهم یُخبرون بها.

---

(۱). تفسیر المیزان، ج ۷، ص ۱۷۸.

(۲). در المنثور، ج ۳، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۱۹۹

وهذا تكلّف بلا نتيجة، وتبرير خلاف الظاهر.

كما أنّه نقلت روايات عديدة فى ذيل هذه الآية بينت أنّ أعمال العباد تُعرض كل صباح (بعض الروايات ليس فيها قيد الصباح) على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام فيرونها ويفرحون بها إن كانت طاعاتٍ، ويتألمون إن كانت معاصياً «۱».

و يمثل هذا الحجم الكبير من الروايات فى تفسير هذه الآية درس كبير لجميع سالكى طريق الحق والهداية، حيث إنّ هناك مراقبين أجلّاء يراقبون أعمالهم، والإيمان بهذه الحقيقة لها مردودات تربوية جمة، وقد نقل هذا المضمون فى ضمن روايات كثيرة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فى أحدها: «إذا صار الأمر إليه جعل اللَّه له عموداً من نورٍ يُبصِرُ به ما يعمل به أهل كل بلدة» «۲».

ج‌ج

والآية الثالثة إشارة إلى ما يعتقده البعض من مشاهدة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لجبرئيل عليه السلام فى شكله الحقيقى، وقد شاهده بهذا النحو مرتين، المرة الاولى فى بداية بعثته حيث ظهر (عليه السلام) فى الافق وغطى الشرق والغرب، وكان بدرجة من الجلالة والعظمة حيث اضطرب الرسول حينها اضطراباً شديداً، والمرة الثانية هى عند معراجه صلى الله عليه و آله، وقد اشير فى سورة النجم لكلا اللقائين.

وهناك تفسير آخر وهو أنّ المراد من الرؤية فى الآية هو حصول الشهود الباطنى له، الشهود للذات الإلهيّة المقدّسة، وهو شهود بالعين الباطنية لا الظاهرية، وهو مصداق واضح ل «لقاء اللَّه» فى هذا العالم، وقد جاء شرح ذلك مفصلًا فى تفسير الأمثل فى ذيل الآيه ۱۸ سورة النجم.

---

(۱). جاء فى تفسير البرهان فى ذيل الآية المذكورة، وفى بحار الأنوار، ج ۳۳، ص ۳۲۶ فما بعد، عشرات الروايات المنقولة فى هذا المجال، ويمكن القول: إنّها وصلت إلى مستوى التواتر، و من اصول الكافى ج ۱ باب «عرض الأعمال» جاء ذلك مفصلًا.

(۲). منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة، ج ۵، ص ۲۰۰ (لقد جمع فى هذا الكتاب روايات عديدة بهذا المضمون) وقد ذكر بعضاً منها البحرانى فى تفسيره «البرهان».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۰

وعلى أيّة حال فإنّ الآية تصرح: إنّ ما رآه الرسول صلى الله عليه و آله بقلبه قد حدث بالفعل، وقلبه صادق بما شاهده وغير كاذب.

والتعبير هذا شاهد على مسألة الكشف والشهود الباطنى الذى يعتبر أحد مصادر المعرفة للإنسان، إنسان مثل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، وقد جاء فى تفسير الميزان:

ولا بدع فى نسبة الرؤية وهى مشاهدة العيان إلى الفؤاد فإنّ للإنسان نوعاً من الإدراك الشهودى وراء الإدراك باحدى الحواس الظاهره والتخيل والتفكر بالقوى الباطنة كما أننا نشاهد من أنفسنا أننا نرى وليست هذه المشاهدة العيانية ابصاراً بالبصر ولا معلوماً بفكر، وكذا نرى من أنفسنا أننا نسمع ونشم ونذوق ونلمس ونشاهد أننا نتخيل ونتفكر وليست هذه الرؤية ببصر أو بشىء من الحواس الظاهرة أو الباطنة فإنا كما نشاهد مدركات كل واحدة من هذه القوى بنفس تلك القوة كذلك نشاهد إدراك كل منها لمدركها وليس هذه المشاهدة بنفس تلك القوة بل بأنفسنا المعبر عنها بالفؤاد «۱».

وقد صرّح المفسرون: إنّ المراد من الرؤية فى الآية هو المشاهدة بالقلب.

وقد جاء فى حديث أن سأل أحد صحابة الإمام أبى الحسن على بن موسى الرضا عليه السلام:

هل رأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ربّه عزّ وجلّ؟ فاجابه عليه السلام «نعم بقلبه، أما سمعت اللَّه عزّ وجلَّ يقول:

ما كذب الفؤاد ما رأى لم يَرَه بالبصر ولكن رآه بالفؤاد» «۲».

بديهى، أنّ المراد من «الرؤية القلبية» ليس هو الفكر والاستدلال العقلى، لأنّ هذا أمر لا يختص بالرسول صلى الله عليه و آله بل يحصل لجميع المؤمنين والموحدين.

ج‌ج

وقد خاطبت الآية الرابعة المؤمنين كافة قائلةً: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحيم ثم تضيف: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ .

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۹.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۵۳، ح ۳۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۱

وهناك بحث بين المفسرين فى أنّ الرؤية هذه تقع فى الدنيا أم فى الآخرة؟ أو أنّ الاولى فى الدنيا والثانية فى الآخرة؟ لكن ظاهر الآية يدل على أنّ الثانية تقع فى الآخرة، بقرينة «ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِينِ وذلك لأنّه لا سؤال فى الدنيا، وعلى هذا فالرؤية الاولى «رؤية الجحيم» تقع فى الدنيا.

وقد جاء فى تفسير الميزان: إنّ ظاهر الآية يدل على وقوع رؤية الجحيم قبل يوم القيامة، بالطبع رؤية قلبية والتى تعد من ثمار الإيمان واليقين، كما هو الأمر فى قصة إبراهيم ورؤيته لملكوت السموات والأرض.

وقد تقدّم أنّ البعض يرى أنّ الرؤية فى كلا- الموردين تتعلق بيوم القيامة، ولهذا تكلفوا كثيراً عند بيانهم للفرق بين الرؤيتين، كما يُشاهد ذلك فى كلام المفسر الفخر الرازى «۱».

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية تأكيد فى ظاهرها على أنّ الإنسان- فى بعض الحالات- تُرفع عن قلبه الحجب فيتمكن من رؤية بعض حقائق عالم الغيب.

ج‌ج

والآية الخامسة أشارت إلى طلب الكافرين المُلِح، حيث كانوا يسألون: لِمَ لَمْ يُنزَّل علينا ملائكة؟ أو لِمَ لَمْ نَرَ اللَّه جهرةً؟ «۲».

ويجيبهم القرآن: «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَابُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْراً مَّحْجُوراً». (۲۲/ فرقان)

وهناك خلاف بين المفسرين فى المراد من «يوم» فى الآية، فأى يوم هو؟ يعتقد البعض أنّ المراد منه هو يوم القيامة لكن البعض يعتقد- مع الالتفات إلى الآيات التى تحدثت عن (ملائكة الموت» ومن ضمنها الآية التالية: «وَلَوْ تَرَى اذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ ...». (۹۳/ الأنعام)

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۸۰.

(۲). الفرقان، ۲۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۲

إنّ المراد منه هو لحظات الموت، أو بعد الموت وقبل يوم القيامة.

وقد نقل هذا الرأى عن ابن عباس «۱»، فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «فإذا بلغت الحلقوم ضربت الملائكة وجهه ودبره (قيل اخرجوا أنفسكم اليوم تُجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على اللَّه غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون) وذلك قوله «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ » «۲».

وطبقاً لهذا التفسير، فإنّ الإنسان عندما يكون على وشك الموت تُرفع عن قلبه الحُجُب، فتحصل له حالة الكشف والشهود، فيرى الملائكة.

ج‌ج

والآية السادسة تحدثت عن معركة بدر وأنّ الشيطان زيّن للمشركين أعمالهم وصوَّرها لهم وكأنّهم يحسنون صنعاً، وذلك كى يكونو أكثر تفاؤلا واملًا بما يقومون به.

ومن جهة اخرى فإنّ عدد وعدة جيش المشركين الذى يقدر بعدة أضعاف المسلمين آنذاك اصطفوا أمام المسلمين، والشيطان يوسوس لهم وبشكل مستمر بانهم بهذا الجيش المجهز سوف ينتصرون ولا تستطيع أية قوّة أنّ تغلبهم: «لَاغَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَانِّى جَارٌ لَّكُمْ .

وعندما اشتعلت الحرب ونزلت الملائكة لنصرة المسلمين بأمر اللَّه، تراجع الشيطان، وقال لهم: «انِّى بَرِىءٌ مِّنْكُمْ انِّى أَرَى مَا لَاتَرَوْنَ انِّى أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ لأنّه رأى الامدادات الغيبية وآثار رحمة اللَّه!

و حول هذه الآية انقسم المفسرون إلى قسمين:

القسم الأول يرى أنّ الشيطان متجسم وظهر أمام هؤلاء بصورة إنسان وأخذ يوسوس لهم.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۷۰.

(۲). تفسير البرهان، ج ۳، ص ۱۵۸،، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۳

وأمّا القسم الثانى فانّهم يرون أنّ الشيطان نفذ فى باطن المشركين كما هو المتعارف واحدث أثراً فى قلوبهم.

و قد اختار كثير من المفسرين الرأى الأول، وهناك روايات معروفة تؤيد هذا الرأى، حيث قالت: إنّ الشيطان تمثَّل لهم فى صورة «سراقة بن مالك» الذى يعتبر من أشراف «بنى كنانة» وقد حصل هذا الأمر «التمثل» عندما هاجر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، حيث اشترك الشيطان آنذاك فى شورى المشركين فى «دار الندوة» متمثلًا فى صورة رجل كبير السن من أهالى «نجد» وليس محالًا أن يتمثل فى صورة إنسان، لأنّ هذا ممكن بالنسبة للملائكة (كما هو منقول فى قصة ابراهيم ومريم).

والبحث الآخر هو: هل أنّ الشيطان رأى الملائكة حقاً يساندون جند الإسلام؟ أم عندما رأى آثار الانتصار غير المرتقب تيقن بنزول الملائكة والامدادات الغيبية؟ هناك نظريتان فى هذا المجال:

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد رؤيتهم حقيقةً، ويؤيد ذلك ظاهر الآيات اللاحقة التى تحدثت عن دخول الملائكة ساحة بدر.

وعلى هذا، فما كان المؤمنون ولا المشركون يرون تواجد الملائكة فى بدر، بينما كانت الحجب مرفوعة عن الشيطان، فكان يرى الملائكة.

وهذا نوع من الكشف والشهود منحه اللَّه للشيطان لأهداف معينة.

ج‌ج

والآية السابعة أشارت إلى قصة يوسف عليه السلام، فعندما خرج أولاد يعقوب عليه السلام مع القافلة فرحين من مصر، وكانوا قد شاهدوا يوسف على عرش السلطة رجعوا حاملين قميص يوسف لتقرَّ عين أبيهم وليرجع نظره إليه ثانية، وعندما تحركت القافلة من مصر، قال يعقوب لمن حوله فى بلاد كنعان: إنّى أشم رائحة يوسف إذا لم ترمونى بالكذب والجهل، إنّ ما قاله يعقوب كان صدقاً لأنّه لم يشم الرائحة بالشامة الطبيعية التى يمتلكها جميع الناس ولهذا لم

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۴

يصدقه أحد ممن كان حوله فنسبوا الضلالة إلى الشيخ الكنعانى ذلك النبى العظيم حيث قالوا له: «تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيم . (يوسف/ ۹۵)

وقد تبين صدق شيخ كنعان عند رجوع الاخوة إلى كنعان.

وقد عُدَّت المسافة بين مصر وكنعان بعشرة أيّام فى بعض الروايات، وبثمانية أيّام فى بعضها الآخر وفى روايات اخرى بثمانين فرسخاً «۱».

ولا دليل على حمل الآية على المعنى المجازى والقول بأن شم رائحة القميص كناية عن قرب لقائه بيوسف حيث ألهم الأب بذلك اللقاء (مثل قولنا نشم رائحة انتصار المسلمين على الأعداء)، وذلك لأنّه مع امكان حمل الألفاظ على الحقيقة لا يمكن الحمل على المجاز.

وفى النهاية نستنتج أنّ مكاشفة حصلت ليعقوب ورفعت عنه الحجب، وباحساس يفوق الاحساس الظاهرى استطاع أن يشم رائحة قميص ابنه من بعيد.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثامنة والأخيرة عن قصة تمثّل الملك الإلهى لمريم حيث يقول القرآن فى هذا المجال بصراحة:

لقد انفصلت مريم عن أهلها فى الضفة الشرقية من «بيت المقدس»، واتخذت حجاباً بينها وبين الناس (وهذا الحجاب إمّا أن يكون لأجل التفرغ للعبادة والنجوى أكثر، أو أن يكون لأجل التطهر والغسل)، وأيّما كان فإنّ اللَّه أرسل إليها روحه، فتمثل لها بشراً وإنساناً سويّاً أى كاملًا من دون عيب وذا قامة ووجه جميل، ففزعت مريم فى الوهلة الاولى لكنها اطمأنت عندما قال لها: «إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِاَهَبَ لَكِ غُلَاماً زَكِيّاً» أى عيسى عليه السلام. (مريم/ ۱۹)

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۶۲؛ تفسير الكبير، ج ۱۸، ص ۲۰۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۵

واستمر الحديث بينهما طويلًا، وقد ذكر فى سورة مريم «۱».

و قد ادعى البعض أنّ الملك تمثل لمريم فى حس الباصرة فقط، (وليس فى الخارج)، لكن هذا خلاف الظاهر ولا دليل عليه، والقرائن على أنّ هذا الشهود قد حصل لمريم فقط، ويحتمل أنّه إذا كان أحد معها ما كان قادراً على الرؤية، وعليه فالآية قرينة اخرى على مسألة إمكانية الشهود حتى لغير الأنبياء.

النتيجة:

نستنتج ممّا تقدم أنّ هناك مصدراً للمعرفة غير المصادر التى قرأنا عنها إلى الآن، وهو مصدر مبهم وغامض بالنسبة لنا، لن يستفاد وجوده من آيات القرآن بوضوح، وهو لا يختص بالأنبياء والأئمّة، بل قد يحصل لغيرهم أيضاً، وإذا شككنا فى بعض الآيات فى مجال استفادة هذا المصدر منها، فإنّ هذا المصدر يُستشف من مجموع الآيات.

بالطبع، إنّ هذا الحديث لا يعنى فسح المجال أمام كل من يدعى الكشف والشهود، بل إنّ لهما علائم سنشير إليها فيما بعد إن شاء اللَّه.

توضيحات

۱- نماذج جميلة من الكشف والشهود فى الأحاديث الإسلامية

إنَّ الروايات التى كشفت عن مصدر المعرفة ليست بالقليلة وقد وصلت إلى حد «الاستفاضة» حسب تعبير علماء الحديث، وقد أوردنا هنا نماذجاً من هذه الروايات:

١- ذكر فى تاريخ معركة الأحزاب أنّ المسلمين عند حفرهم للخندق حول المدينة

---

(١). راجع تفسير الأمثل، ذيل الآيه ١٩ من سورة مريم.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٠٦

(كوسيلة دفاعية أمام العدو) خرجت عليهم صخرة كسرت المعول، فأعلموا النبى صلى الله عليه و آله، فهبط إليها ومعه سلمان فأخذ المعول وضرب الصخرة ضربة صدعها، وبرقت منها برقة أضاءت ما بين لابتى المدينة، فكبر رسول صلى الله عليه و آله والمسلمون، ثم الثانية كذلك، ثم الثالثة، ثم خرج وقد صدعها، فسأله سلمان عمّا رأى من البرق، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أضاءت الحيرة وقصور كسرى فى البرقة الاولى وأخبرنى جبرئيل أنّ امتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثانية القصور الحمر من أرض الشام والروم، وأخبرنى أن أمتى ظاهرة عليها، وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء، وأخبرنى أن امتى ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون» «١».

لم يصدق المنافقون هذه البشارة التى ساقها الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأخذوا يستهزئون بقولهم: يا للعجب كيف رأى قصور الحيرة وقصور ملوك ايران والروم واليمن من المدينة وكيف بشر بالانتصار على هؤلاء ونحن الآن محاصرين من قبل مجموعة من جيش اعراب مكة؟ إنّ هذا الكلام لا أساس له ولا حقيقة.

إلّا أنّ الحوادث المستقبلية أثبتت صحة ما قاله الرسول صلى الله عليه و آله.

وقد يحمل البعض الشهود هنا على معنىً مجازى، لكن لا مبرر لهذا الحمل مع إمكان الحمل على المعنى الحقيقى.

٢- لقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حول معركة مؤتة (التى وقعت بين المسلمين والروم الشرقية فى شمال الجزيرة): «أنّ المسلمين عندما ذهبوا للقتال بقيادة جعفر بن أبى طالب، فإنّ الرسول صلى الله عليه و آله كان يوماً فى المسجد وقد تسطحت له الجبال والارتفاعات فشاهد جعفراً يقاتل الكافرين ثم قال: قتل جعفر» «٢».

وقد جاءت تفاصيل اخرى عن هذا الموضوع فى روايات اخرى حدث أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ارتقى يوماً المنبر بعد صلاة الصبح، فصوَّر للمسلمين ساحة المعركة فى مؤتة بدقة، وتحدّث بالتفصيل عن شهادة «جعفر» و «زيد بن حارثة» و «عبداللَّه بن رواحة» وكأنّه يرى المعركة بأم عينيه، والجدير بالذكر أنّ التواريخ المعروفة- عند ايرادها لهذه القصة-

---

(١). الكامل فى التاريخ، ج ٢، ص ١٧٩.

(٢). بحار الأنوار، ج ٢١، ص ٥٨، ح ٩.

نفحات القرآن، ج١، ص: ٢٠٧

نقلت هذا الحديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ الشهداء الثلاثة حُملوا إلى السماء على سررٍ من ذهب ورأيت نقصاً فى سرير «عبداللَّه بن رواحة» قياساً لسريرى الشهيدين الآخرين، فسِئل عن سبب هذا؟ قال: مضيا، وتردد بعض التردد ثم مضى ، فالتعبير بالرؤية فى الرواية له معنىً عميق وهو نموذج من نماذج الشهود.

٣- وهناك حديث فى تفسير الآية: «وَانَّ مِنْ اهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا انْزِلَ الَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ الَيْهِمْ . (آل عمران/ ١٩٩)

يقول: إنّ سبب نزول الآية هو النجاشى ملك الحبشة، فانه عندما توفى أخبر جبرئيل الرسول بالأمر، فدعا الرسول المؤمنين لأنّ يصلُّوا على أحد اخوتهم، فسألوا: من هو؟

أجاب: النجاشى.

ثم جاء الرسول إلى مقبرة البقيع، فتجلت له بلاد الحبشة وتابوت النجاشي من المدينة، فصلّى عليه «۱».

۴- وقد جاء في تاريخ ام الرسول آمنة عليها السلام، أنّها نزل عليها ملك عندما كان الرسول في رحمها وقال لها: إنّ في رحمك سيد هذه الامّة فقولي عند ولادته: إني أعوذ باللّه الأحد من شرّ الحاسدين، وسمّيه «محمداً»، وقد شاهدت عند حملها أنّه خرج منها نور أضاء لها قصور بُصْرى من أرض الشام! «۲».

وهذا الحديث يكشف عن إمكان حصول حالة الشهود لغير الأنبياء والأئمّة.

۵- وفي الحديث المعروف: أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان في بعض حيطان فدك وفي يده مسحاة فهجمت عليه امرأة من أجمل النساء فقالت: يا ابن أبي طالب إن تزوجتني أغنك عن هذه المسحاة وأدلك على خزائن الأرض ويكون لك الملك ما بقيت، قال لها: «فمن أنتِ حتى أخطبك من أهلكِ؟».

قالت: أنا الدنيا: فقال عليه السلام: «ارجعي فاطلبي زوجاً غيري فلست من شأني فأقبل على مسحاته وأنشأ».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۴۱۱.

(۲). سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۱۶۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۸ لقد خاب من غرّته دنيا دنيؤُوما هي إن غرت قروناً بطائلِ

اتتنا على زي العروس بثينؤُوزينتها في مثل تلك الشمائلِ

... الخ «۱».

وقد حمل البعض الرواية على «التشبيه» و «التمثيل» و «المجاز» لكنا إذا أردنا حفظ الظاهر، فمفهومها هو أنّ الدنيا تمثلت للإمام علي عليه السلام في عالم المكاشفة في صورة امرأه جميلة وأجابها عليه السلام بالسلب.

وقد نقل تمثل الدنيا للمسيح عليه السلام كذلك في صورة امرأة مخادعة مع اختلاف بسيط عمّا نقل عن الإمام علي عليه السلام «۲».

۶- وقد جاء في أحوال الإمام السجاد عليه السلام (وعندما كانت فتنة عبداللّه بن الزبير في الحجاز مستعرة والكل كان يترقب نهاية الأمر) أنّ الإمام عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي ثم قال: يا علي بن الحسين ما لي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا؟ فرزق اللّه حاضر للبر والفاجر، قلت:

ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة؟ فوعد صادق يحكم فيه ملك قاهر- أو قال قادر- قلت: ما على هذا أحزن وأنّه لكما تقول: فقال: مم حزنك؟ قلت: ممّا نتخوف عليه من فتنة ابن الزبير وما فيه الناس قال: فضحك ثم قال: يا علي بن الحسين هل رأيت أحداً دعا اللّه فلم يجبه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً توكل على اللّه فلم يكفه؟ قلت: لا، قال: فهل رأيت أحداً سأل اللّه فلم يعطه؟ قلت: لا، ثم غاب عني» «۳».

۷- وفي حديث آخر للإمام نفسه عليه السلام يقول فيه: «كأنّي بالقصور وقد شيدت حول قبر الحسين عليه السلام وكأنّي بالأسواق قد حفت حول قبره فلا تذهب الأيّام والليالي حتى سار إليه

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۴۰، ص ۳۲۸، ح ۱۰.

(۲). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۱۲۶ باب حب الدنيا و ذمها، ح ۱۲۰.

(۳). اصول كافي، ج ۲ باب التفويض إلى اللّه، ح ۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۰۹

من الآفاق وذلك عند انقطاع ملك بني مروان» «۱».

۸- جاء فی أمالی الصدوق عن أحوال الحر بن یزید الریاحی:

لما خرجت من الکوفة نودیت أبشر یا حُر بالجنة.

فقلت: ویلٌ للحر یبشر بالجنة وهو یسیر إلی حرب ابن بنت رسول اللّه صلی الله علیه و آله؟! «۲»

۹- وقد جاء فی حدیث معروف دار بین ام سلمة زوجة الرسول صلی الله علیه و آله والإمام الحسین علیه السلام أنّ الإمام علیه السلام أراها کربلاء ومحل شهادته «۳».

۱۰- وقد نقلت حکایات متعددة عن العلماء العظام والمتقین والمؤمنین الصادقین فی مجال المکاشفات وذکرها هنا یطیل بحثنا- إلّاأنّه ینبغی القول بانها خرجت عن فحوی الخبر الواحد ووصلت إلی درجة الاستفاضة ویمکنها أن تکون مؤیداً جیداً لموضوعنا.

۲- کیف تُرفع الحجب؟

إضافة إلی الأحادیث السابقة التی تمثل نماذج عملیة لمسألة الکشف والشهود، هناک تعابیر فی الروایات تدل علی أنّ الإنسان کلما ازداد إیمانه ویقینه زالت عنه الحُجُب والصفات الذمیمة (التی اصطنعها الإنسان نفسه بذنوبه) عن قلبه وتکشفت له حقائق أکثر عن الکون إلی درجة تمکنه من النظر إلی ملکوت السموات والأرض کما نظر إبراهیم الخلیل.

إنّ قلب الإنسان وروحه کالمرآة التی حال غبار المعصیة والصدأ الذی تراکم علیها من انعکاس الحقائق، لکنها عندما تُجلی بماء التوبة، ویزول غبار المعاصی عنها، ویطهرُ القلب جیداً، فإنّ الحقائق ستسطع فیها ویکون صاحبها أمین أسرار اللّه، فیسمع نداءاته التی لا

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۹۸، ص ۱۱۴، کتاب المزار، ح ۳۶.

(۲). أمالی الصدوق، ص ۹۳، مجلس ۳۰.

(۳). مدینة المعاجز، ص ۲۲۴.

یسمعها إلّامن اؤتمن.

ویمکن أن نجعل الأحادیث التالیة شواهداً علی ما قلناه!

۱- یقول الرسول صلی الله علیه و آله فی ضمن حدیث له: «لولا أنّ الشیاطین یحومون إلی قلوب بنی آدم لنظروا إلی الملکوت» «۱».

۲- وقد جاء فی خبر آخر عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً: «لیس العلم بکثرة التعلّم، وإنّما العلم نور یقذفه اللّه فی قلب من یحب، فینفتح له، ویشاهد الغَیب، وینشرح صدره فیتحمّل البلاء، قیل: یا رسول اللّه هل لذلک من علامة؟ قال: التجافی عن دار الغرور والإنابة إلی دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزوله» «۲».

۳- وقد وصف نهج البلاغة حُجَجَ اللّه علی الناس فی الأرض هکذا: «هجم بهم العلم علی حقیقة البصیرة وباشروا روح الیقین، واستدانوا ما استعوره المُترفون، وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، وصحبوا الدنیا بأبدان أرواحها مُعلَّقة بالمحلِّ الأعلی أولئک خلفاء اللّه فی أرضه والدعاة إلی دینه» «۳».

۴- وقد جاء فی حدیث «ذعلب الیمانی» الخطیب النبه الذی کان من صحابة الإمام علی علیه السلام: سأل الإمام یوماً هذا السؤال: «هل رأیت ربَّک یا أمیر المؤمنین»؟

أجاب الإمام: «أفأعبد ما لا أری ؟!

فقال: «وکیف تراه»؟

فقال الإمام: «لا تدركه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» ثم أضاف: «قريبٌ من الأشياء غير ملابس، بعيد منها غير مباين» «۴».

ليس مراد الإمام من إدراك اللّه إدراك بالاستدلال العقلى، وهذا واضح، لأنّ هذا الأمر حاصل لجميع الموحدين وحتى لتلك العجوز صاحبة الغزل المعروفة، فانّها تستدل على

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۵۹، ح ۳۹، باب القلب وصلاحه.

(۲). تفسير الصراط المستقيم، ج ۱، ص ۲۶۷.

(۳). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۴۷.

(۴). نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۱

وجود اللّه بحركة آلة الغزل التى تحتاج إلى محرك، فكيف بالفلك العظيم والسموات والأرضين.

فالمراد- إذن- إدراك للّه‌يفوق الإدراك الطبيعى، أى الشهود الباطنى، فانّه يرى اللّه به واضحاً بدرجة وكأنه يراه بعينيه. (فدقق).

۵- وقد جاء فى حديث معروف للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «لو كشف لى الغطاء ما ازددتُ يقيناً» «۱».

أى أنّى أرى جميع الحقائق من وراء ستار الغيب، أراها بالشهود الباطنى، وبصيرتى تشق حاجز الغيب وتنفذ فيه.

۶- قال الإمام على بن الحسين عليه السلام: «ألا إنّ للعبد أربع أعيُن: عينان يُبصر بهما دينه ودنياه، وعينان يُبْصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد اللّه بعبد خيراً فتح له العينين اللتين فى قلبه، فأبصر بهما الغيب وأمر آخرته» «۲».

وقد جاءت روايات عن الشيعة الصادقين يشبه مضمونها مضمون هذا الحديث «۳».

۷- ونقرأ فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الرسول صلى الله عليه و آله رأى يوماً الصحابى «حارثة» فسأله عن حاله».

فاجابه حارثة: «يا رسول اللّه مؤمن حقّاً»!

فقال رسول صلى الله عليه و آله: «لكلِّ شيءٍ حقيقةٌ فما حقيقة قولك؟».

فأجابه حارثة: «يا رسول اللّه عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى وأظمأت هواجرى وكأنّى انظر إلى عرش ربى وقد وضع للحساب وكأنى انظر إلى أهل الجنه يتزاورون فى الجنة وكأنّى اسمع عواء اهل النار فى النار».

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «عبدٌ نوّر اللّه قلبه أبْصَرْتَ فاثبت».

---

(۱). غرر الحكم.

(۲). خصال الصدوق، ص ۲۶۵، ح ۹۰.

(۳). بحار الأنوار، ج ۶۷، ص ۵۸، ح ۳۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۲

فقال حارثة: «يا رسول اللّه ادعُ اللّه لى أن يرزُقنى الشهادة معك».

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «اللهُمَّ ارزق حارثة الشهادة».

ولم تمضِ أيّام كثيرة حتى أرسل الرسول فريقاً لاحدى المعارك وكان معهم حارثة فقاتل وقَتل ثمانية أو تسعة من الأعداء ثم قُتِلَ شهيداً «۱».

۸- وقد جاء فى حديث للرسول صلى الله عليه و آله نقل فى كتب أهل السنة: «لولا تكثير فى كلامكم وتمريج فى قلوبكم لرأيتم ما

أرى ولسمعتم ما أسمع» «۲».

إنّ هـذه الأحـاديث وأحاديث اخرى من هـذا النوع، وضـحت العلاقـة بين الكشف الروحانى والإيمان واليقين، وبينت امكانيـة حصول الإنسان- بالتكامل المعنوى- على هذا الإدراك الذى لا نعلم عنه غير أنّه موجود فحسب.

۳- سبعة منامات صادقة فى القرآن المجيد

اشارة

تعتبر «الرؤيا الصادقـة» احـدى فروع الشـهود والكشف، والمنامات الصادقـة هى التى تتحقق وتطابق الواقع، فتُعد منامات كهذه نوعاً من الكشف.

إنّ الفلاسـفة الروحيين- خلافاً للفلاسـفة الماديين الـذين يعتقـدون بأنّ الرؤيا هى وليـدة النشاطات اليوميـة أو الآمال غير المتحققـة أو الخوف من الامور المختلفة- وهولاء يعتقدون أنّ الرؤيا تنقسم إلى الأقسام التالية:

۱- الرؤيا التى تتعلق بالذكريات والميول والآمال.

۲- الرؤيا غير المفهومة والمضطربة ويعبر عنها ب «أضغاث أحلام» وهى نتيجة قوة الوهم والخيال.

۳- الرؤيا التى تتعلق بالمستقبل وترفع الستار عن بعض أسرار الإنسان، وبتعبير آخر أنّها شهود يحصل للإنسان وهو نائم.

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۴ باب حقيقة الإيمان واليقين، ح ۳.

(۲). تفسير الميزان، ج ۲، ص ۲۹۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۳

لا دليل للفلاسـفة الماديين على نفى القسم الثالث، بل لـدينا قرائن كثيرة تثبت واقعيـة هذا القسم من الرؤيا، وقد ذكرنا عدّة نماذج حية لا تقبل الخطأ والمناقشة فى التفسير الأمثل «۱».

والجدير ذكره أنّ القرآن ذكر سبعة موارد على الأقل من موارد الرؤيا الصادقة، وذكرها هنا يناسب تفسيرنا الموضوعى:

۱- تحـدث القرآن فى سورة الفتح عن الرؤيا الصادقة للرسول، حيث رأى نفسه مع أصـحابه يدخلون مكة لأداء مناسك العمرة وزيارة بيت اللّه الحرام، فأفصـح الرسول عن منـامه هـذا للمسـلمين ففرحوا، إلّاأنهم تصوروا أن الرؤيا هـذه تحققت فى السـنة السادسـة عنـدما حصل صلح الحديبية، ولم يحصل الفتح يومذاك، إلّاأنّ الرسول طمأنهم بأنّ الرؤيا صادقة وستتحقق يوماً ما.

وقد أجاب القرآن أولئك الذين شككوا فى صدق الرؤيا بقوله:

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْـجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَـكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً».

(الفتح/ ۲۷)

تحقق المنام بجزئياته فى ذى القعدة من السـنة السابعة للهجرة، وقد عرفت العمرة فى تلك السنة ب «عمرة القضاء» لأنّ المسلمين كانوا قاصدين أداءها فى السنة السادسة، لكن قريش منعتهم منها.

رغم أنّ المسلمين دخلوا مكة (التى تعتبر مركزاً لقدرة المشركين وسلطانهم) من دون سلاح، إلّاأنّ ابهتهم كانت مشهودة للأعداء، وقد صـدق عليهم تعـبير «آمنين» و «لاـ تخـافون» بالكامـل فـأدوا مراسم زيـارة بيت اللّه وبه تحقـق منـام الرسول صـلى الله عليه و آله بجميع خصوصياته رغم أن تخمين وقوع أمرٍ كهذا كان شبه مستحيل، وهذا من عجائب تاريخ الإسلام.

۲- وقد أشير فى سورة الاسراء إلى رؤيا اخرى للرسول صلى الله عليه و آله إشارة عابرة وقصيرة حيث قال تعالى:

---

(۱). التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۶۰ من سورة الإسراء.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۴

«وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِى أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً». (الاسراء/ ۶۰)

وقد نقل مفسرو الشيعة والسنة حديثاً معروفاً جاء فيه: أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله رأى فى المنام قروداً ترتقى منبره وتنزل منه، فحزن الرسول من جراء هذا الأمر، لأنّه يحكى عن الحوادث المفاجئة فى قيادة المسلمين بعد الرسول صلى الله عليه و آله (إنّ الكثير فسّرَ المنام بحكومة بنى امية، حيث خلفوا الرسول- ظلماً- واحداً بعد الآخر وأفسدوا فى الخلافة، وكانوا فاقدى الشخصية واتبعوا ما كان عليه آباؤهم فى الجاهلية) «۱».

وادعى البعض أنّ هذه الرؤيا هى نفس رؤيا دخول مكة، بينما سورة الاسراء نزلت بمكة، والرؤيا كانت فى المدينة وقبل واقعة صلح الحديبية فى السنة السادسة الهجرية.

وقد رجح البعض مثل الفخر الرازى أن تكون الرؤيا بمعنى المشاهدة فى حالة اليقظة، والآية تشير إلى مسألة المعراج «۲».

لكن هذا التفسير ضعيف لأنّ المعنى الأصلى واللغوى للرؤيا هو المشاهدة عند النوم لا فى اليقظة، وعليه فالصحيح هو التفسير الأول.

أمّا المراد من «الشجرة الملعونة»، فقد ادعى البعض: إنّها هى «شجرة الزقوم» التى تنبت فى قعر جهنم طبقاً للآيه ۶۴ من سورة الصافات، وهى طعام الأثيم كالمهل يغلى فى البطون طبقاً للآيات ۴۶ و ۴۷ من سورة الدخان.

وادعى بعض آخر: إنّها كناية عن اليهود العصاة، فانّهم كالشجرة مع ما فيها من غصون وأوراق إلّاأنّهم ملعونون عند اللّه.

إلّا أنّها فُسِّرت فى كثير من كتب الشيعة والسنة ببنى امية، وقد نقل الفخر الرازى هذا

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۲۳۶.

(۲). جاءت هذه الرواية فى تفسير القرطبى ومجمع البيان والصافى والكبير، وقد قال الفيض الكاشانى: إنّها من الروايات المشهورة عند العامة والخاصة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۵

التفسير عن ابن عباس المفسّر الإسلامى الكبير «۱»، وهذا التفسير يتفق مع رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله بالكامل.

قد يقال: لِمَ لم يُشِر القرآن إلى الشجرة الملعونة فى القرآن المجيد؟ إلّاأنّ هذا الإشكال يُحلُ بالالتفات إلى لعن المنافقين بشدّة فى سورة محمد صلى الله عليه و آله الآية ۲۳، وبنى امية من طلائع النفاق فى الإسلام.

إضافة إلى هذا، فإنّ تعبير القرآن «نُخَوِّفُهُم فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيرَا» يصدق عليهم بالكامل.

وقد جاء فى رواية أن عدداً من صحابة الإمام الصادق عليه السلام سألوه نفسه أو أباه عليه السلام عن المراد من الشجرة الملعونة فى الآية، فأجابهم: «بنى امية» «۲».

وقد نقل نفس المضمون عن أمير المؤمنين عليه السلام وكذلك عن الإمام الباقر عليه السلام، وقد ذكر على بن ابراهيم الروايات الثلاث فى تفسيره «۳».

وقد نقل السيوطى فى تفسيره «الدر المنثور» روايات كثيرة عن الشجرة الملعونة، ورؤيا الرسول صلى الله عليه و آله، حيث فُسِّرت الشجرة الملعونة فى بعضها ببنى امية وفى بعضها ببنى الحكم وبنى العاص، وكلهم من شجرة خبيثة واحدة «۴».

وعلى أيّة حال، فإنّ رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله تحققت بعد رحيله، وخلفته الشجرة الملعونة نسلًا بعد نسل، وكانوا بلاءً عظيماً

علی المسلمین، وامتحاناً کبیراً لهم.

۳- والرؤیا الصادقة الاخری هی رؤیا إبراهیم الخلیل علیه السلام فیما یخص ذبح اسماعیل علیه السلام، فانّه کان محلًا لامتحان عظیم للوصول إلی مقام الإمامة وقیادة الامة الرفیع،

---

(۱). نقلها القرطبی عن ابن عباس فی تفسیره، ج ۶، ص ۳۹۰۲؛ ونقلها الفخر الرازی عنه أیضاً فی التفسیر الکبیر، ج ۲۰، ص ۲۳۷.

(۲). تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۸۰، ح ۲۷۸.

(۳). تفسیر نور الثقلین، ج ۳، ص ۱۸۰ و ۱۸۱، ح ۲۸۲ و ۲۸۳ و ۲۸۶.

(۴). تفسیر المیزان، ج ۱۳، ص ۱۷۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۶

فقد أُمر بذبح ابنه العزیز «اسماعیل»، رغم أنّ الأمر أوحی إلیه وهو نائم، أی أنّ الایعاز کان منامًا لا شیئاً آخر، ولنقرأ ما یقوله القرآن فی هذا المجال:

«فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ یا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَی قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِینَ . (الصافات/ ۱۰۲)

إنّ التعبیر ب «أری الذی هو فعل مضارع یفید الاستمرار یدل علی أنّ ابراهیم علیه السلام کان یری الرؤیا کراراً، بحیث حصل له اطمئنان بأنّ الأمر من اللّه، ولهذا أجابه اسماعیل بهذا الجواب: «یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِینَ .

ولهذا السبب نفسه جاء فی الآیتین: «وَنَادَیْنَاهُ أَنْ یَا إِبْرَاهِیمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیَا».

(الصافات/ ۱۰۴- ۱۰۵)

والحادث هذا، دلیل واضح لأولئک الذین یقولون بامکانیة عد الرؤیا الصادقة نوعاً من أنواع الوحی للانبیاء والرسل، کما أنّه قد جاء فی بعض الروایات: «إنّ الرؤیا الصادقة جزء من سبعین جزءً من النبوة» «۱».

وقد شکک بعض الاصولیین فی مسألة نسخ الحکم قبل العمل به إلّاأنّ کلامهم- وکما ذُکِرَ فی محله- یختص بالأوامر غیر الامتحانیة، أمّا فی الامتحانیة فهو غیر صادق، والتعبیر ب «قد صدَّقَتْ الرؤیا» دلیل علی أنّ إبراهیم علیه السلام قد أدی ما علیه بما جاء به من تهیئة المقدمات لهذا الإیثار الکبیر.

۴- ومن الرؤی الصادقة فی القرآن، هی رؤیا یوسف فی بیت أبیه، حیث أشارت إلیها الآیات الاولی من سورة یوسف:

«إِذْ قَالَ یُوسُفُ لِأَبِیهِ یَا أَبَتِ إِنِّی رَأَیْتُ أَحَدَ عَشَرَ کَوْکَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَیْتُهُمْ لِی سَاجِدِینَ . (یوسف/ ۴)

تنبأ یعقوب مستقبل یوسف والحوادث المقبلة علیه فبشره: «یَجْتَبِیکَ رَبُّکَ ... وَیُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَیکَ وَعَلی آلِ یَعْقُوبَ . (یوسف/ ۶)

یعتقد بعض المفسرین أنّ یوسف رأی هذا فی المنام وهو فی الثانیة عشرة من عمره، وقد

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۵۸، ص ۱۶۷ و ۱۷۷ و ۱۷۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۷

تحقق منامه بعد أربعین سنة حیث جلس علی عرش الحکومة فی مصر، وجاءه اخوته مع أبویه خاضعین له، أو ساجدین للّه‌شکراً، کما أُشیر إلی ذلک فی نهایة السورة:

«وَرَفَعَ أَبَوَیْهِ عَلَی الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ یَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِیلُ رُؤْیَایَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّی حَقّاً». (یوسف/ ۱۰۰)

إنّ هذا الحدیث یحکی بوضوح عن إمکانیة تحقق أحلام صادقة انعکست من قلب طاهر قبل أربعین سنة رغم أنّه لم یُذکر العدد ۴۰

سنة فى آيات القرآن، إلّاأنّ المستفاد من قرائن الآيات أنّ الفاصل بين المنام وتحققه كان طويلًا جداً.

وجدير بالذكر هنا أنّ من ضمن البشائر التى بشر يعقوب بها يوسف هذه البشرى

«وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ . (يوسف/ ۶)

وهذه الجملة (سواء عنت علم تعبير المنام كما يعتقده كثير من المفسرين أو عنت مفهوماً أوسع من ذلك ليشمل الخبرة والإحاطة باصول وأسباب الحوادث ونتائجها) «۱»، فانّها على كل حالٍ دليل واضح على امكانية صدق بعض الرؤى وتحققها عيناً وواقعاً فى الخارج.

۵ و ۶- المنامان اللذان رآهما صاحبا يوسف فى السجن عندما كان مسجوناً بذنب طهارته، فيحكى اللَّه قصتهما فى نفس السورة ويقول:

«وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ انِّى أَرَانِى أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ .

(يوسف/ ۳۶)

فدعاهما يوسف للتوحيد وعبادة اللَّه قبل أن يُأوّل ما رأيا، ثم قال للذى رأى أنّه يعصر خمراً أى عنباً: إنّك تخرج من السجن، وقال للذى رأى فوق رأسه خبزاً يأكل منه الطير:

إنّك ستحكم بالإعدام وقد تحقق المنامان (من المتعارف فى بيئة فاسدة وحكومة جبارة مثل بيئة وحكومة مصر آنذاك حيث يحكم على يوسف بالسجن بذنب العفة والطهارة، أن يطلق سراح الذى يسالم الحكومة ويحضر الخمر لطغاتها، أمّا الذين يتحلون بروح الدفاع

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۱، ص ۸۶.

عن المستضعفين ويعطون خبزاً للطيور فيحكم عليهم بالاعدام).

وعلى أيّة حال، فإنّ هاتين الرؤيتين اللتين حكاهما القرآن بصراحة يكشفان عن امكان اعتبار الرؤيا كمصدر للمعرفة، بالطبع لا كل رؤيا ولا كل معبّر ومفسر لها.

۷- رؤيا سلطان مصر التى جاءت فى نفس السورة، وهى نموذج واضح آخر للرؤيا الصادقة، يحكى القرآن هذه الرؤيا قائلًا:

«وَقَالَ الْمَلِكُ انِّى أَرَى سَبْعَ بَقَراتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ واخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِى فِى رُؤْيَاىَ انْ كُنْتُم لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ . (يوسف/ ۴۳)

وبما أنّ حاشية الملك لم يكونوا خبراء بتعبير الرؤيا، قالوا له: «أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين».

يحتمل أنّهم أرادوا طمأنة سلطان مصر بحديثهم هذا (ينبغى الالتفات إلى أنّ ملك مصر وفرعونها هو الحاكم العام لمصر، بينما عزيز مصر هو- كما يقول بعض المفسرين- وزير الخزينة، واسم فرعون المعاصر ليوسف هو «ريان بن وليد» واسم عزيز مصر «قطفيرعطفير» «۱».

فتذكّر عندها ساقى الملك الذى اطلق سراحه من السجن بعد أن رأى الرؤيا وأولها يوسف، فحكى القصة للملك فبعث الملك شخصاً إلى يوسف كى يأوّل المنام، فأوله هكذا:

«قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَآ حَصَدْتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ الَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ* ثُمَّ يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ الّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ .

(یوسف/ ۴۷- ۴۸)

وقد تحقق المنام بعد ذلک، وعندما شاهدوا الصدق والمعرفة فی یوسف علیه السلام، أطلقوا سراحه، وقد أدی به الأمر أن أصبح عزیز مصر ووزیر الخزینة، ثم من بعده أصبح ملک مصر کلها مع سعتها وعمرانها.

---

(۱). نقل هذا المضمون فی التفسیر الکبیر للفخر الرازی، ج ۱۸، ص ۱۰۸ (وللتفصیل یراجع «اعلام القرآن»، ص ۶۷۳، کما قد صرّح «ابو الفتوح الرازی» أن نهایة یوسف وصوله إلی سلطة مصر» تفسیر روح الجنان، ج ۶، ص ۴۰۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۱۹

النتیجة:

یستفاد من الآیات السابقة إمکانیة کون بعض الرؤی مصدراً لإدراک بعض الحقائق، وبتعبیر آخر، فإنّ مسألة الکشف والشهود یمکنها أن تحصل فی المنام کما تحصل فی الیقظة، وهذه الرؤی علی ثلاثة أقسام (طبقاً للآیات السابقة):

۱- بعض الرؤی تتحقق فی الخارج عیناً من دون أی تغییر، مثل رؤیا الرسول، زیارته مع الصحابة لبیت اللّه الحرام التی جاءت فی سورة الفتح.

۲- منامات تتحقق وهی بحاجة إلی تفسیر وتعبیر، وتتحقق بتفسیرها لا- بعینها، ولا- یفسرها إلّاالخبیر بها، مثل المنامات الأربعة التی حصلت لیوسف ولصاحبیه فی السجن ولملک مصر، وقد ذکرت کلها فی سورة یوسف.

۳- الرؤیا التی فیها جانب حکم وإیعاز، وتُعدُّ نوعاً من الوحی یحصل عند النوم مثل رؤیا إبراهیم علیه السلام.

بالطبع لیس مفهوم الکلام هذا أنّ کل منام یُعدُّ کشفاً أو شهوداً، بل إنّ کثیراً من المنامات تُعدُّ أضغاث أحلامٍ، وتفتقد لأی‌معنیً، وهی رؤی ناتجة عن نشاط قوّة الوهم، أو عن الحرمان والکبت والمآسی وعدم الراحة والأذی

ج‌ج

سؤال:

قد یسأل البعض عن المنامات التی تتعلق بحوادث المستقبل، فهل هی نوع من العلم؟

أم هی (کما یعتقد فروید العالم النفسانی المعروف) لا شیء سوی إرضاء للشهوات والمیول المکبوتة والحرمان الحاصل للإنسان، فتتجلی له فی المنام مع تغیّر وتبدّل لخداع «الأنا» ولإرضاء الشهوة المکبوتة فإنّ الحلم إشباع خیالی لها، وقد ینعکس هذا المیل بنفسه عیناً فی الحلم (مثل رؤیة عاشق لمعشوقته الفقیدة عیناً) وقد ینعکس فی منامه مع تغییر وتبدیل، فیحتاج حینها إلی تعبیر وتفسیر.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۰

الجواب:

إنّ ما یقوله فروید هو فرضیة لا أکثر، وفی الحقیقة لا دلیل علی ما یدعیه أبداً، فقد تکون بعض المنامات مصداقاً لما یدعیه، أمّا کون الأحلام کلها من هذا القبیل فهذا ما لا دلیل له علیه «۱».

نحن نعتقد أن للمنامات أقساماً، وقسم منها هو الرؤیا الصادقة، ونعدها وسیلة للکشف أی کشف بعض الحقائق، وهذه حقیقة استفدناها من القرآن (الذی هو وحی الهی) بالدرجة الاولی وبالدرجة الثانیة من التجارب التی حصلت فی هذ المجال، لیس المراد تلک الحکایات التی لا سند لها، بل المراد الحوادث التی وقعت لشخصیات کبیرة ومعروفة فی عصرنا أو فی العصور الماضیة، وقد نقلوا هذه المنامات فی کتبهم (وقد أشرنا إلی بعض من نماذجها الواضحة فی الجزء التاسع من التفسیر الأمثل).

ومن هنا یعرف أنّه لا یمکن عدّ الرؤیا لوحدها مصدراً للمعرفة، ولهذا یقال بعدم حجیة الرؤیا، بل ینبغی ضم قرائن من الخارج موضحة

ولا تقبل النفى، لتصبح الرؤيا مصدراً مقبولًا للمعرفة.

۴- المكاشفات الرحمانية والمكاشفات الشيطانية

قد نستغنى عن التذكير بأنّه كما يوجد كشف وشهود واقعى يحصل تارة بالإيمان واليقين الكامل، وتارة اخرى بالرياضات النفسية، فانّه يوجد كشف وشهود وهمى كثير، فقد يحصل هذا الكشف بسبب التلقينات المكررة وانحراف الذهن والفكر عن جادة الصواب، وتارة بسبب الالقاءات الشيطانية، فتتمثل فى ذهن الإنسان صور وحوادث لا واقع لها، إنّها

---

(۱). لم يكتشف العلماء منشأ النوم (لا المنام) بعد، فلا يعلمون هل أنّ منشأه نشاط فيزيائى أم كيميائى أم كلاهما، أم ناشىء عن نشاط الجهاز العصبى، فإذا كان النوم نفسه لغزاً لم يُحل بعدُ، فكيف يمكن القول بحل مسألة المنام التى هى أعقد من مسألة النوم أضعافاً مضاعفة!

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۱

مجموعة أوهام لا أكثر، ومن هذا القبيل الكشف والشهود الذى يدعيه كثير من «الصوفية»، فإنّ المريد البسيط يعتقد فى بداية عمله (من جراء الإعلام والدعاية التى يتلقاها من البعض) أنّه ينبغى له أن يرى مرشده الحقيقى فى المنام، وتقوى هذه الفكرة عنده كل يوم، فيتوقع فى كل يوم رؤية جمال مرشده ومراده فى عالم الرؤيا يزوره ويرشده (غالباً ما يضع أشخاصاً معينين نصب عينيه لهذا المنصب، وإذا لم يعينهم بالدقة فانّه يعين صفات ومميزات خاصة لهم).

قد يفقد هذا الصوفى توازن فكره الطبيعى من جراء الرياضات الروحية الشاقة وانحراف المزاج، فتزداد قدرة الوهم عنده، فيرى فى المنام يوماً أشخاصاً قريبين- من حيث الصفات والميزات- من الأشخاص الذين رسمهم فى ذهنه، وقد يتطابقون فى الصفات بالكامل، وقد يحصل هذا فى عالم اليقظة، لأنّ عينى هذا السالك البسيط انّشدت إلى الطريق، واذنيه صاغيتان إليه دائماً فهو يتنظر دائماً أن ينفتح له باب من ذلك العالم: فتنمو هذه الفكرة عنده ليلًا ونهاراً، وقد تصنع قوة الوهم عنده- لا إرادياً- صوتاً ينقر اذنه، أو تتمثل أمامه صورة، فيتخذها أساس اعتقاده.

كما أنّ الاستماع إلى المواضيع المؤنسة والمنشطة (التى قد تبين فى اطار إشارات جميلة وتتزامن مع ألحان مخدِّرة، يزيد من تأثير التلقينات عليه أضعافاً مضاعفة.

إنّ تلك الفرقة من الصوفيين الذين يؤيدون «الوجد والسماع» «۱»، يذوبون فيهما بشكل حيث يفقدون توازنهم، ويُعطِّل العقل عندهم، فيتركون الساحة فارغة لقوة الوهم، وأولئك الغارقون فى وهم الكشف والشهود ومشاهدة عالم الغيب يسيرون فى عوالم خيالية تتوقف سعتها على شدّة الوهم والخيال عندهم، فتتمثل أمامهم صور مثل بحار النور، وجبل الطور، والسموات السبع والأرضين السبع، وكلما مالت قوة الوهم عندهم إلى شكل أو صورة، تمثل ذلك الشكل أو تلك الصورة أمام أعينهم.

---

(۱). المراد من السماع، الألحان الموسيقية أو نغمات المطربين الدارجة فى بعض مجالس الصوفيين، والمراد من‌الوجد، الذوق والشوق واللهفة التى تحصل للصوفيين الذين يحسنون السماع ويقترن مع حركات تشبه الرقص.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۲

إنّهم يفرحون لهذه اللحظات كثيراً، وكأنّهم التقوا بالمراد وعانقوه، فيصرحون وتعلو أصواتهم، مما يزيد ويفاقم هذه الحالة عندهم، ثم يرمون بحالة شبيهة بالاغماء، وبعدما يصحون ويهدءون من هذه الحالة، يحكون للناس ما رأوا ظناً منهم أنّه كشف.

إنّهم فى الحقيقة يسعون نحو السراب ظناً منهم أنّه ماء، ورغم عدم وصولهم إلى شىء، يبتلون بأمور بعيدة عن الحق والحقيقة.

وبعبارة مختصرة: لا يمكننا تصديق كل من ادعى الكشف والشهود، وكذا لا يمكننا اعتبار كل تمثل وكل نداء إلهياً واقعياً، وذلك لأنّ هناك كشفاً شيطانياً.

وقد جاء فى حديث للإمام على عليه السلام مع الحسن البصرى: أنّ الإمام عليه السلام مر بالحسن البصرى وهو يتوضأ فقال: يا حسن اسبغ الوضوء، فقال: يا أمير المؤمنين لقد قتلت بالأمس اناساً يشهدون أن لا إله إلّااللَّه وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله، يصلون الخمس، ويسبغون الوضوء، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: قد كان ما رأيت فما منعك أن تعين علينا عدونا، فقال: واللَّه لأصدقنّك يا أميرالمؤمنين لقد خرجت فى أول يوم فاغتسلت وتحنطت وصببت علىّ سلاحى وأنا لا أشك فى أنّ التخلف عن أم المؤمنين عائشه هو الكفر، فلما انتهيت إلى موضع من الخريبة نادانى مناد «يا حسن إلى اين ارجع فإنّ القاتل والمقتول فى النار» فرجعت ذعراً وجلست فى بيتى، فلما كان فى اليوم الثانى لم أشك أنّ التخلف عن ام المؤمنين عائشه هو الكفر، فتحنطت، وصببت علىّ سلاحى وخرجت اريد القتال، حتى انتهيت إلى موضع من الخريبة فنادانى مناد من خلفى: «يا حسن إلى اين مرةً بعد اخرى القاتل والمقتول فى النار» قال على عليه السلام: صدقك افتدرى من ذلك المنادى؟ قال: لا، قال عليه السلام:

ذاك أخوك ابليس، وصدقك أنّ القاتل والمقتول منهم فى النار، فقال الحسن البصرى: الآن عرفت يا أميرالمؤمنين أنّ القوم هلكى «۱».

إنّ نداءات كهذه أشير إليها فى القرآن بصفة وحى الشياطين، حيث يقول تعالى فى الآية:

«وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ الَى بَعْضٍ زُخْرُفَ

---

(۱). احتجاج الطبرسى، ج ۱، ص ۲۵۰.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۳

نفحات القرآن ج۱ ۲۶۹

الْقَوْلِ غُرُوراً». (الانعام/ ۱۱۲)

إنّها نوع من الامتحان للتمييز بين صفوف المؤمنين وغيرهم، فقد جاء فى الآية: «وَانَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ الَى أَوْلِيَائِهِم . (الانعام/ ۱۲۱)

وبناءً على ما تقدم، نرى كتب الصوفية مليئة بهذا النوع من المكاشفات، مكاشفات غريبة وموحشة، ومردوداتها السلبية كثيرة، نشير إلى بعضٍ منها هنا بشكل مختصر:

۱- ورد فى كتاب «صفوة الصفاء» فى شرح أحوال الشيخ صفى الدين الأردبيلى، بقلم أحد مريديه ما مضمونه: أنّ رجلًا من ذوى المكاشفات أخبر الشيخ بأنّه رأى فى عالم الرؤيا أنّ أكمام الشيخ امتدت من العرش إلى الثرى فقال له الشيخ: إنّ رؤياك هذه تتناسب مع طول أناتك وصبرك!

۲- كتب محى الدين بن عربى فى كتابه «مسامرة الأبرار» إنّ الرجبيين لأشخاص مرتاضون برياضات خاصة، ومن صفاتهم أنّهم يرون الرافضين (الشيعة) فى حالة الكشف فى صورة خنازير.

۳- وكتب الشيخ عطار فى كتابه «تذكرة الأولياء» عن «با يزيد البسطامى»: طِفْتُ البيت فترة، وعندما وصلت إلى الحق، رأيت أنّ الكعبة تطوف حولى! ... إنّ اللَّه بلغ بى إلى درجة حيث أستطيع أن أرى الخلق جملة بين اصبعى!! «۱».

۴- وقد جاء فى نفس الكتاب، أنّ با يزيد قال: عرض علىَّ الحقُ الفى مقامٍ عنده وفى كل مقام سلطان، وما قبلتُ «۲».

إنّ هذه ادّعاءات لم تُسمع من نبيٍ مرسل ولا من إمام معصوم، بل إنّ أدعيتهم ومناجاتهم فى جنب بيت اللَّه التى تكون فى غاية التذلل والتواضع تكشف عن أن كشفاً كهذا إن لم يكن فهو- قطعاً- أوهام وتخيلات شيطانية ترتسم فى أذهان البعض، لأسباب وعوامل

مختلفة،

---

(۱). تذكرة الأولياء، ص ۱۰۲.

(۲). المصدر السابق، ص ۱۰۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۴

أشرنا إلى بعضها سابقاً، وإنّ سعة هذه الأوهام تتوقف على مدى وطول آمال الشخص وتخيلاته.

سؤال:

ثمة سؤال يطرح نفسه هنا، وهو: هل من طريق لتمييز المكاشفات «الرحمانية» من «الشيطانية» و «الحقيقية» من «الوهمية» أم لا؟

الجواب:

نعم توجد ثلاث علامات يمكن من خلالها التمييز- الإجمالي- للمكاشفات الشيطانية من الرحمانية، وهي: إنّ الرحمانية اضافة إلى كونها يقينية وقطعية تقترن بمستوى عالٍ من الإيمان واليقين والمعرفة والاخلاص والتوحيد والعمل الصالح، بينما تفتقد المكاشفات الشيطانية هذه المواصفات، وعلى هذا الأساس فلا اعتبار لقول من يدعي المكاشفات الرحمانية وهو يفتقد هذه المواصفات.

ولقد قرأنا في رواية مضت أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «العلم نورٌ يقذفه اللّه في قلب من يحب، فينفتح له، ويشاهد الغيب، وينشرح صدره فيتحمل البلاء، قيل: يا رسول اللّه وهل لذلك من علامة؟ قال: التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» «۱».

ثم إنّ المكاشفات الحقيقية تتفق دائماً مع الكتاب والسنة، وفي نفس الاتّجاه الذي يتجه إليه كلام اللّه والمعصومين عليهم السلام، ولا تميل قيد أنمله عن جادة الاطاعة الربانية، وغير ملوّثة بأدنى إثم أو ذنب.

---

(۱). تفسير الصراط المستقيم، ج ۱، ص ۲۶۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۵

وثالثاً، إنّ محتوى المكاشفات الحقيقية يتفق دائماً مع العقل اتفاقاً كاملًا، وتكون بعيدة عن الامنيات والأوهام غير المعقولة، فالذي يقول: «إني رأيت الرافضية- مكاشفة- كالخنازير»، في الحقيقة رأى نفسه في مرآة ذاته، والذي يقول: «عندما وصلت إلى الحق، فرأيت بيت اللّه يطوف حولي» فانّه مُصاب بوكع في رأسه، وشخصاً كهذا يرى نفسه مستغنياً عن الطواف، ويرى الطواف أدنى من شأنه، بينما الرسول صلى الله عليه و آله بعظمته لم ير نفسه مستغنياً عن ذلك، وقد حج حتى في آخر سنة من عمره الشريف وأدى المناسك.

وآخر الحديث في الكشف والشهود هو هذا:

لا يمكن عدّ الكشف والشهود كمصدرٍ عامٍ للمعرفة مثل «العقل» و «الحس» و «التاريخ» بل إنّه مصدر خاص، وله شروط ومواصفات صعبة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۷

حُجُب المعرفة وآفاتها

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۲۹

حُجُب المعرفة وآفاتها

تمهيد:

فى بحثنا حول طرق العلم والمعرفة تمكّنا من اجتياز قسم من محطات هذه الطرق وقد سلمنا بوجود واقعيات خارج إطار الذهن، وقلنابان امكانية إدراك تلك الواقعيات لدى الإنسان هو شيء معقول إلى حدٍ ما، وقد عرفنا بدقة مصادر المعرفة الستة.

كما علمنا أن خمسةً من مصادر المعرفة أى «الحس» و «العقل» و «الفطرة» و «التاريخ» و «الوحى» عامة ويستطيع الجميع الاستعانة بها للوصول إلى المعرفة المرادة، إلّاأنّ المصدر السادس وهو الشهود الباطنى مصدر خاص بفريق من المؤمنين وأولياء اللّه، ولا يتمتع بها الجميع.

بقى محطتان ينبغى العبور منهما للوصول إلى المراد، الاولى «موانع طرق المعرفة»، والاخرى «ممهدات المعرفة»، والبحث هنا ينصب على الموانع.

فمما لا شك فيه: أنّ العين لوحدها لا تكفى لرؤية الموجودات والأشخاص، بل ينبغى أن لا يكون هناك حجاب أو مانع يحول دون الرؤية، فلو كان هناك دخان أسود أو غبار أو ضباب غليظ يحول بيننا وبين الشيء المراد رؤيته فانّا لا نرى الشيء الذى أمامنا وحوالينا مهما كان قربه منّا، فضلًا عن البعيد، فالشمس التى تنير كل ارجاء العالم بنورها الساطع تُحجب رؤيتها عنا إذا حالت الغيوم بينها وبيننا.

فإذا استفاد شخص من نظارة سوداء قاتمة السواد، فطبيعى أنّه لا يرى شيئاً، وإذا استفاد من نظارة ملونة فانّه سيرى الأشياء ملونة (حسب لون نظارته)، وإذا كانت عدستا نظارته

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۰

غير مصقولتين جيداً فانّه سيرى الأشياء معوجة، وإذا كان مبتلياً بمرض اليرقان فانّه سيرى الأشياء صفراء، وإذا كان أحولًا فانه سيرى صوراً لا تتطابق مع الواقع.

وأمثال هذه الموانع بالضبط قد تحصل للعقل والفطرة، وقد تحصل موانع فى فهم التاريخ وحتى الوحى وكلمات المعصومين عليهم السلام، فقد يُساء فهمه لنفس الموانع والحجب التى تحصل للإنسان فى مصادر المعرفة الاخرى، ومن هنا نفهم أهميّة بحث موانع المعرفة وندرك أهميّة العلم بها للوصول إلى المعرفة.

وبما أنّ القرآن منطلق بحثنا فى التفسير الموضوعى، فنسعى لمعرفة الموانع والحجب التى ذكرت فيه بالدرجة الاولى

لقد ورد البحث فى القرآن حول موانع المعرفة بنحوين: الأول بحوث كلية و «منذرة» والثانى: بحوث جزئية و «تعليمية»، ولنتناول الآن البحوث الكلية.

حُجُب المعرفة:

نُمعن خاشعين أولًا إلى الآيات التالية:

۱- «افَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً». (فاطر/ ۸)

۲- «وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام/ ۴۳)

۳- «فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ». (آل‌عمران/ ۷)

۴- «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين/ ۱۴)

۵- «لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِيْنَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ . (الحج/ ۵۳)

۶- «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً». (الاسراء/ ۴۶)

۷- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُون . (البقرة/ ۸۸)

۸- «وَنَطْبَعُ عَلى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَايَسْمَعُونَ . (الأعراف/ ۱۰۰)

۹- «وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التوبة/ ۸۷)

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۱

۱۰- «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ». (البقرة/ ۷)

۱۱- «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً». (الجاثية/ ۲۳)

۱۲- «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد/ ۲۴)

۱۳- «فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

۱۴- «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ اضَلُّ اولئِكَ هُمُ الْغَافِلونَ . (الأعراف/ ۱۷۹)

شرح المفردات:

قبل كل شىء ينبغى الخوض فى البحث عن المفردات المختلفة والظريفة التى استعملت فى الآيات السابقة التى أشارت إلى حجب المعرفة وحرمان الإنسان منها، كلٌّ منها تشير إلى مرحلة من مراحل انحراف ذهن الإنسان وحرمانه من المعرفة، فتبدأ بالمراحل الأضعف، وتنتهى بمراحل أشد وأقوى من الحرمان بحيث تسلب الإنسان قدرته على التمييز، بل تصوّر له الحقائق بالعكس فيرى الشيطان- من جرائها- مَلَكاً بريئاً، والقُبح حُسناً، والباطل حقاً!

ججج

إنّ «زيغ» تعنى- كما يقول كثير من أئمة اللغة- الانحراف، أو الانحراف عن الحق والصواب، ولهذا جاء فى القرآن: «رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا». (آل عمران/ ۸)

و «رَانَ» من مادة «رَيْن» (على وزن عَين) وهو الصدأ الذى يصيب بعض الفلزات. هذا ما قاله الراغب فى مفرداته، وقد قال بعض أهل اللغة: «إنّه قشر أحمر يترسب من الهواء ويظهر على سطح بعض الفلزات مثل الجديد»، وهذا الصدأ علامة للإستهلاك والتلف وزوال

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۲

شفافية ولمعان الفلز.

وقد فسّر البعض هذه المفردة ب «غلبة أمر على أمرٍ آخر» أو «الوقوع فيما لا مخرج منه».

وقد قيل للشراب المسكر «رَيْنه» لأنّه يتغلب على العقل «۱».

«الوَقْر»: على وزن (عَقل) هو الثقل فى السمع بدرجة يصعب السمع بها.

أمّا «الوِقْر» على وزن (فِكر) فهو الثقل الذى يوضع على ظهر الإنسان أو رأسه، كما يقال «وِقْر» للحمل الثقيل، ولهذا قيل لصاحب العقل «ذى وقار».

«الغشاوة»: تطلق على كل شىءٍ غطّى شيئاً آخر، ومن هذا الباب قيل للستارة غشاوة، وقد اطلق، لفظ «غاشية» على يوم القيامة من حيث إنّ الخوف الناشىء منها يغطى جميع الناس ويخيّم عليهم، وقد اطلقت هذه المفردة على الليل الأظلم كذلك لأنّه كالستار يغطى الأرض، كما اطلقت على «الخيمة» كذلك.

«أكِنة»: جمع كِنان، وفى الأصل تعنى غطاء يُستر به شىء، و «الكِنّ» على وزن (جِن) يعنى الوعاء الذى تحفظ به الأشياء، وقد أطلقت هذه المفردة على البيت أو على أى شىءٍ يحفظ الإنسان من الحرارة والبرودة، وجعل الأكِنة على القلوب يعنى: سلب قدرتها فى التمييز.

«الغُلْف»: على وزن (قفل) جمع «أغلُف» ومن مادة «غِلاف» وتعنى غلاف السيف أو غلاف أى شىء آخر، و «قلوب غلف» تعنى قلوباً

لا تفهم ولا تعى الحقيقة، وكأنها مُغلَّفة.

«قَسَتْ» من مادة «قَسْوَة» على وزن (مرْوة)، وَالقساوة تعنى الصلابة والغلظة وفقدان المرونة، ويقال للفضة غير الخالصة «قسّى»، والقلوب القاسية هى غير اللينة والغليظة تجاه الحق والعدالة.

و «نَطْبع»: من مادة «طَبْع» ويعنى الختم أو النقش، ومن هذا الباب تستعمل المفردة هذه فى مجال المسكوكات الذهبية والفضية، ويقال للخاتم الذى تُختم به الكتب والرسائل

---

(۱). تفسير الفخر الكبير ذيل الآية ۱۴ من سورة المطففين والمنجد مادة (رين).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۳

طابع، وعندما تستعمل هذه المفردة فى مجال العقل فتعنى أنّه مُغطًّى ومختوم عليه فلا يفهم ولا يعى شيئاً، وكأنّ أبوابه مغلقة ومختوم عليها، أمّا مفردة «طَبَع» فتعنى الصدأ الذى يعلو السيف كما تطلق على المعاصى والذنوب التى تعلو القلب وتغطيه.

و «الخَتْم»: يعنى الانتهاء والفراغ من الشىء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها، قيل لوسيلة الختم خاتم، وفى الماضى كان كثير من الناس ينقشون أسماءَهم على فصوص ما يتختمون به، فيختمون بها الرسائل، ولهذا اطلق على خاتم اليد خاتماً.

وكان وما زال العرف (إذا أرادوا أن يغلقوا بيتاً أو صندوقاً بحيث لا يفتحه أحد) يغلقون الباب أولًا بحبل أو قفل، ثم يصبون مادة لصقة أو طين لزج على القفل أو الحبل ثم يختمون على تلك المادة، بحيث إذا أراد شخصٌ فتح الباب أو الصندوق اضطرَّ لأنّ يكسر الختم.

إنّ استعمال القرآن لهذه المفردة فى مجال العقول، إشارة إلى أنّها عقول مقفلة ومختوم عليها ولا تعى شيئاً بدرجة لا يمكن أن تحصل على بصيص للوصول إلى طريق العلم والمعرفة.

جمع الآيات وتفسيرها

النفوذ التدريجى لآفات المعرفة:

(الانحرافات والرين والأمراض والأكنة والأقفال):

كما قلنا سابقاً: إنّ أهميّة بحث «موانع المعرفة» تستدعى عرض الموضوع فى مرحلتين:

المرحلة الاولى ونبحث فيها- إجمالًا- عن وجود الموانع والحجب وكيفية تأثيرها على العقل، وكيفية تلوث مصادر المعرفة بها تدريجياً، إلى درجة تنتهى إلى تعطيلها.

المرحلة الثانية: ونبحث فيها عن جزئيات وخصائص كلٍ من هذه الموانع والآفات، وللقرآن بحث واسع تربوى وجذّاب فى هذا المجال.

ولنبدأ أولًا من المرحلة الاولى فممّا تجدر الإشارة إليه، هو أنّ القرآن تحدث عن موانع

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۴

المعرفة والآفات ونفوذها التدريجى والغامض، بشكلٍ عرّف سالكى طريق العلم، والمعرفة بها تعريفاً كاملًا، وأنذرهم كراراً بأن لا يفنوا عمرهم فى السعى نحو السراب ظناً منهم أنّه ماء، وبعد سنوات من السعى الحثيث من أجل الوصول إلى الحقيقة ينتهون إلى الباطل.

ج‌ج

والآن نبحث معاً الآيات المذكورة:

الحديث فى الآية الاولى والثانية يدور حول تزيين الأعمال، فتارة يزينها الشيطان للإنسان (كما جاء ذلك فى الآية الثانية) وتارة تكون

ذهنيات الإنسان ونفسه أو عوامل اخرى هى التى تزين للإنسان سوء أعماله (كما جاء ذلك فى الآيـة الاولى، حيث إنّ الفعل فيها مبنى للمجهول) فقـالت: «افَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فـإِنَّ اللَّهَ يُضِـلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ» فإنّ الأول يتجه نحو الهاويـة والثانى نحو الصراط المستقيم، وإذا ما صدر منه عملٌ سيءٌ أسرع إلى التوبة وجبران ما عمل.

وتضـيف الآيـة الثانيـة: إنّ قلب الإنسان يقسو فى المرحلة الاولى ثم يتأهل لتقبل وسوسة الشـيطان فتتمثل الأعمال السـيئة حسـنةً أمامه، ومن هنا نرى بعض الناس غير نادمين على أعمالهم السيئة، بل قد يفرحون ويتباهون بها، ويصرون على منطقيتها وصحتها.

وقـد حصـل هـذا الأـمر لأـخوة يوسف، فعنـدما ألقوه فى البئر وجـاءوا أبـاهم بقميصه ملطخـاً بـدم كاذب ادعوا أكل الـذئب له، وأنّهم صادقون فى كلامهم.

فأجابهم أبوهم: «بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً». (يوسف/ ۱۸)

أى ظننتم أنّكم أحسنتم عملًا بهذه الجريمة، وانكم ستحلون محل يوسف فى قلبى، وأنّ يوسف انتهى أمره إلى الأبد، غافلين عن أنكم توطئون بعملكم هذا مقدمات عزه وسلطانه، وأنّ مكانه سيبقى فارغاً فى قلبى حتى أرى الفقيد مرة اخرى

وممّا يستحق الإشارة إليه هو أنّ القرآن ينسب تزيين الأعمال تارة للشيطان وتارة

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۵

لنفس الإنسـان، وتـارة يـأتى التزيين فى صيغة فعل مبنى للمجهول وتـارة ينسـبه إلى اللَّه تعـالى كمـا جـاء ذلـك فى الآيـة: «انَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ اعمَالَهُمْ . (النمل/ ۴)

هـذه ترجع إلى أنّ مقدمات هذا الأمر تبدأ من نفس الإنسان، فيتمسك بها الشـيطان ويفعل فعلته، وبما أنّ اللَّه مسبب الأسـباب وخالق العلل والمعلولات فتنسب إليه نتيجة الأعمال، وتقتضى حكمته بأن يبتلى البعض بمصير كهذا وما أسوء حال الذى تتمثل السيئات أمامه حسنات!

ج‌ج

وقـد تحـدثت الآيـة الثالثـة عن المراحل الاولى لانحراف القلب، وبعـد تقسـيمها للآيات إلىمحكمات (وهى ذات المفاهيم الواضـحة) ومتشابهـات (وهى ذات المعـانى المعقـدة) قـالت: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَـا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَـةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَـأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِـخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُـلٌّ مِّنْ عِنْـدِ رَبِّنَـا»، فالراسـخون فى العلم يفسـرون المتشابهـات بالمحكمات، واما الذين فى قلوبهم زيغ فيأخذون بالمتشابهات ويفسرونها برأيهم ابتغاء الفتنة.

إنّهم يتمسـكون بمـا تشـابه من القرآن لتبرير نوايـاهم غير الخالصـة، ولهـذا نرى كثيراً من المنافقين وأصـحاب البـدع وأتباع المـذاهب المنحرفة يسـتغلون صـفاء قلوب المخلصـين والمؤمنين بآيات اللَّه بالكامل، ويبررون بدعهم بالاسـتعانة ب «التفسـير بالرأى» والاسـتعانة بالآيات المتشابهـة، وبتعبير آخر: بما أنّ قلوبهم وأفكارهم منحرفة فيرون آيات اللَّه منحرفة أيضاً، كالمرآة المعوجة تنعكس فيها الصور معوجة.

ج‌ج

والآيـة الرابعة تشـير إلى الصدأ والرين الذى يعلوا القلوب، إنّه الغبار الذى يعلو القلوب بسـبب الذنوب والمعاصـى، فيتراكم الغبار عليها حتى تتحجر، ويغطى الصدأ القلب كله،

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۳۶

حيث قالت الآية: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُون فلا عجب فى عدم تمكّنهم من رؤية الحقيقة.

ج‌ج

وتحدثت الآية الخامسة عن تفاقم الحالة السابقة بحيث تتبدل إلى مرض روحى، فبعد إشارتها إلى الالقاءات والوساوس الشيطانية حتى

للأنبياء والمرسلين قالت: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ .

نعم، إنّ هـذه القلوب التى لاـ تستلذ بطعم الحقيقـة، بسبب مرضـها، وحلاـوة الحقيقـة عنـدها كالمرارة، على استعداد لقبول وسوسـة الشياطين.

وممّا يلفت النظر هنا أن جملة «فِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ ، تكررت اثنا عشـر مرّة فى القرآن، ممّا يكشف الأهميّة التى أولاها اللّه لهذه المسألة، مع الالتفات إلى أنّ أغلب هذه الآيات عنت المنافقين وصُرّح بذلك فى عدد منها «۱».

إلّا أنّ المرض جاء فى بعض من هـذه الآيات بمعنى «الشـهوات والميول والهوى ، كما هو الحال فى الآيـة: «فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَولِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . (الاحزاب ۳۲)

وعلى أيّـة حـال، فـإنّ المسـتفاد من الآيات هو أنّ الإنسان كما يصاب جسـمه بامراض، كـذلك روحه فانّها قـد تصاب بامراض سـببها «النفاق» تارة و «الأهواء والميول» تارة اخرى، وتغيّر عند عروضـها- ذائقة روح الإنسان بالكامل، كما نرى ذلك فى أمراض الجسم فقد تُغير مزاجه بشكل تجعله يستلذ بالأغذية الشاذة والكريهة ولا يستلذ بالأكلات اللذيذة والمفيدة، فإنّ إنساناً كهذا غير قادر على إدراك الحقائق ووعى الامور وفهمها.

ومن المؤسف أنّهم كلما اسـتمروا فى طريقهم كلما تفاقم عندهم المرض، فإذا كانوا فى مرحلة الشك، فسيتفاقم عندهم ويشتد ويصل تدريجياً إلى مرحلة الانكار ومن الانكار

---

(۱). الأنفال، ۴۹، والأحزاب، ۱۲ و ۳۲.

إلى مرحلـة أخطر وهى الاسـتهزاء ومخالفـة الحق، يقول القرآن فى هـذا المجال: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . (البقرة/ ۱۰)

ج‌ج

تحـدثت الآيـة السادسـة عن جعـل الأكنـة والحجب على القلوب، وليس حجاباً واحـداً بل حُجب وأكنـة وذلك للحيلولـة دون فهمهم القرآن، حيث جاء فيها: «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِم أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِم وَقْرًا».

ذكر بعض المفسـرين أنّ التعبير بالأكنة يدلّ على تعدد الكِنان «۱»، وممّا لا شك فيه أنّه لم يجعل وقر فى آذانهم الظاهريـة بل الروحية كى لاـ يسـمعون من الحق شـيئاً، كمـا لم تجعـل الأكنـة على القلوب التى هى وسـيلة لضـخّ الـدم فى الأوعيـة، بـل جعلت الأكنـة على أرواحهم وعقولهم.

وقد وقع كثير من المفسـرين- عند الإجابة عن هذه المسألة- فى إشكال، فتارة قالوا: إنّها معجزة حيث كان الرسول صلى الله عليه و آله يختفى عن انظار اعدائه المعاندين، فلا يكادون يسمعون شيئاً من كلامه، وذلك كى لا يؤذوه صلى الله عليه و آله، وتارة قالوا، إنّ اللّه يمنع لطفه عن أشخاصٍ كهؤلاء فيتركهم لحالهم، وهذا هو معنى جعل الأكنة على القلوب والوقر فى الآذان.

إلّا أنّ ظاهر هـذه الآيـة (التى تماثل آيات اخرى من القرآن) شـىء آخر، وفى الحقيقـة أنّ هذه اسـتعمالات مجازية فى حق المعاندين والمتعصبين والمغرورين والغارقين فى الإثم، وبتعبير آخر: أنّ حرمانهم من إدراك الحقيقـة بسـبب صـفاتهم الرذيلـة وأفعالهم القبيحة، فقد جعل اللّه هذه الميزة فى هذه الأعمال، فهى كخاصية القتل بالنسبة للسم، فلا يُلام صانع السم وشاعل النار إذا تناول شخص ما سماً أو ألقى نفسه فى النار فمات، فانّه فى مورد كهذا ينبغى لوم الذى القى نفسه فى النار والذى تجرع السم فقط.

وقد نقلت الآية السابعة ما كان يقوله اليهود للرسول صلى الله عليه و آله أو الأنبياء الآخرين، حيث كانوا

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۱۵، ص ۸۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۸

يقولـون: «وَقـالُوا قُلُوبُنَـا غُلْـفٌ بَـلْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًـا مَـا يُؤْمِنُـون ، نعم لعنهم اللّه بكفرهم، وأبعـدهم عن رحمته، وأنّ أشخاصـاً كاليهود كيف يمكنهم أن يذوقوا حلاوة الحقيقة.

قـد يكون التعبير ب «الغلاف» يختلف عن التعبير ب «الأكنة»، وذلك لأنّ الغلاف يستر المغلَّف ويغطيه من جميع الجهات، بينما يغطى السـتار جهة واحدة من المسـتور، وبتعبير آخر: تارة تصيب الموانع مصدراً واحداً من مصادر المعرفة كالفطرة لوحدها أو العقل لوحده، وتارة اخرى تعطل جميع المصادر وتجعلها فى غلاف يحول دون المعرفة.

نعم، كلما تلوّث الإنسان بالذنوب والفساد أكثر ابتعد قلبه وروحه من المعرفة وحُرِم منها اكثر.

ج‌ج

وتحدثت الآية الثامنة والتاسعة عن الطبع على القلوب الذى يحول دون المعرفة، وقد اعتبرت الآية الثامنة الطبع سـبباً لعدم السـمع «فَهُمْ لَايَسْـمَعُونَ ، واعتبرت الآية التاسـعة الطبع سبباً لعدم الفقه والفهم «فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ ، والمراد فى الموردين واحد، فكما قلنا: إنّ المراد من عدم السمع هو عدم الإدراك والوعى والفهم.

وهـذه المرحلـة أشـدّ من المراحـل السابقـة، فالمرحلـة الاولى هى جعل الأكنـة على القلوب، ثم الغلاف عليها، وفى النهايـة يطبع عليها للحيلولة دون نفوذ أى شىء فيها، كما ذكرنا ذلك فى بحث شرح المفردات.

طبعـاً: إنّ ابتلاءهم بهـذا المصير ليس اعتباطيـاً، بـل لأسـباب أشارت إليها الآيـة السابقـة حيث قالت: «وَ اذَا أُنْزِلَـتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنوُا بِاللَّهِ وَجَاهِـدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِـدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِم فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التّوبه/ ۸۶– ۸۷)

إذن إعراضهم عن الجهاد وتخلفهم عنه هو السبب فى الطبع على القلوب.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۳۹

وآيـة اخرى أشارت إلى سـبب آخر من أسـباب الطبع، حيث قالت: «أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِم . (الاعراف/ ۱۰۰)

أى أنّهم يذنبون رغم رؤيتهم وعلمهم بأحوال السابقين وابتلائهم بالعذاب الإلهى من جراء ذنوبهم، فطبع على قلوبهم.

وممّا يذكر هنا أنّ الطبع جاء فى الآية الثامنة بصـيغة المضارع «نطبع» وفى التاسعة بصيغة الماضى «طبع» وهذا تلميح إلى أنَّ الطبع نتيجة سوء أعمالهم وتصرفاتهم.

يقول بعض المفسرين: إنّ المراد من «الطبع» فى مثل هذه الآيات هو نفس السبك والنقش الذى يستخدم للدراهم والمسكوكات، وهو نقش ثابت وباقٍ، لا يتغير بسهولة «۱»، فانَّ نَقْشَ الكفر والنفاق والإثم نُقِشَ على قلوبهم فلا يمحى بسهولة.

ج‌ج

وتحدثت الآية العاشـرة والحادية عشـرة عن «الختم» وكما قلنا سابقاً فى شرح المفردات: إنّ الختم يعنى الانتهاء والفراغ من شىء، وبما أنّ الرسائل تختم عند الفراغ منها اسـتعملت هذه المفردة هناك أيضاً، وختم الشىء قفله وشده بحيث لا يمكن لأحد فتحه، والمراد من الختم على القلوب والأسـماع والابصار فى الآيات، هو سـلب قدرتها عن التمييز بين الحق والباطل، والخير والشـر وذلك بسـبب أعمال أصـحابها وتصـرفاتهم، ولهـذا يذكر القرآن فى الآية السابقة: «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (البقرة/ ۶)

المسـلم به هو أنّ هـذا الخطـاب لا يعم الكافرين كلهم بل يخص المتعصبين والمعانـدين منهم، أى أولئك الـذين غرقوا بـذنوبهم إلى

درجة حيث أصبحت قلوبهم ظلماء، وإلّا فالنبى أرسل مبشراً ومنذراً للكافرين والمنحرفين.

والجدير ذكره هنا هو أنّ الآيات تحدثت عن الختم على الأبصار والسمع كما تحدثت

---

(۱). تفسير المنار، ج ۹، ص ۳۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴۰

عن الختم على القلوب، وهذا تلميح منها إلى أن السمع والبصر قد يتعطلان، أى قد يتعطل الإدراك الحسى كما يتعطل العقلى، وكما تعلم أنّ أغلب العلوم البشرية تحصل بواسطة هذين الإدراكين، وحتى حقانية الوحى ودعوة الأنبياء تكتشف بهما، ومع تعطلهما فإنّ طرق الهداية والنجاة ستغلق أمامهم، وهذا من سوء أعمالهم وهذا ما أرادوه لأنفسهم، ولا يستلزم جبراً كما يدعيه بعض الظانين.

وقد جاء هذا التعبير فى مجال الطبع كذلك، حيث يقول تعالى فى الآية: «اولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . (النحل/ ۱۰۸)

والآية التى سبقت الأخيرة أشارت إلى أن هذا الأمر ليس عاماً وشاملًا لجميع الكفار، بل يختص بمن شرح صدره للكفر، حيث يقول تعالى «وَلَكِن مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً».

(النحل/ ۱۰۶)

ج‌ج

وقد تحدثت الآية الثانية عشرة عن أقفال القلوب التى قد تكون أشد من الختم «۱»، حيث قالت: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» أى أن آيات القرآن تنفذ فى القلوب ولو من نوافذ صغيرة، وذلك لأنّ منطق القرآن هو البيان البديع، والبلاغة فى التعبير، والعمق والدقة فى التحليل، وهو نور وضياء خاص ينفذ فى قلب كل مؤهل ولو بأقلٍّ تأهيل، ويستحوذ على القلوب ويهز الضمائر، رغم هذا فانه لا ينفذ فى قلوب هؤلاء ولا يهز ضمائرهم أبداً، وذلك لانغلاق قلوبهم.

إنّ «أقفال» جمع «قفل» ومن مادة «قُفول» ويعنى الرجوع، وبما أن كلَّ من أتى باباً مقفولة رجع، استعملت هذه المفردة فى هذا المجال.

إنَّ التعبير ب «الأقفال» قد يكون إشارة إلى تعدد أقفال القلب بحيث إذا ما فتح قفل بقيت اقفال اخرى، وهذه فى الحقيقة أسوأ مرحلة وأشدها من مراحل حرمان إدراك الحقائق.

---

(۱). وقد أشار الفخر الرازى فى تفسيره الكبير إلى هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۴۱

ويلاحظ هنا عدم اضافة «قلوب» إلى الأقفال بل جاءت بصيغة النكرة، وكأن هذا إشارة إلى أن هذه القلوب ليست لهم، والأعجب من هذا هو إضافة «الأقفال» إلى «القلوب» وكأنّ قلوبهم أهل للأقفال فقط لا لشىء آخر.

ج‌ج

وفى الآية الثالثة عشرة تعبير يهز الضمائر حيث يقول تعالى «انَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

أى أنّ الحاسة الباصرة إذا فقدت فهذا ليس بعمى لإمكان أن يسد العقل اليقظ فراغها، وإنّما الشقاء والبؤس والتعاسة فى القلوب إذا عميت، فعمى القلوب أكبر حاجب عن إدراك الحقيقة، والإنسان بنفسه يُعمى قلبه، ولقد أثبتت التجربة أنّ الإنسان إذا ما جعل عصابة على عينيه أو مكث فى ظلام لمدّة طويلة، فإنّه سيفقد باصرته تدريجياً، كذلك الأمر بالنسبة للذين يغمضون عيون قلوبهم عن الحقائق، أو يمكثون مدّة طويلة فى ظلمات الجهل والغرور والإثم فإنّ قلوبهم ستعمى، وتكون غير قادرة على إدراك أى حقيقة.

يُشكِكُ البعض أنّه لا يمكن أن يراد من القلب (الذى فى الصدر ويضخ الدم إلى جميع أعضاء البدن) بل المراد العقل والروح.

إلّا أنّه بملاحظة استعمال «الصدر» بمعنى الذات والفطرة يتضح لنا أنّ المراد من «القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ» هو الإدراك العقلى المودع فى طبيعة الإنسان.

إضافة إلى هذا، فإنّ القلب أول عضو فى بدن الإنسان يتأثر بعواطف وأحاسيس وإدراكات الإنسان، نلاحظ أنّ اتخاذ قرار مهم، أو حصول حالة غضب شديدة، أو الاحساس بالحب القوى تجاه شخص ما يُزيد من دقات القلب، فإذا استعمل القلب الظاهرى كناية عن العقل، فلأجل العلاقة الوثيقة التى بينه وبين الروح «۱».

ج ج

وقد تحدثت الآية الرابعة عشرة والأخيرة عن آخر مرحلة لحرمان الإنسان من المعرفة،

---

(۱). للمزيد من العلم راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۷ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۲

والتى يتعطّل فيها العقل والفطرة والعين والاذن عن العمل بالكامل، فيهوى الإنسان إلى مستوى الأنعام بل أضلّ.

والآية تلميح إلى فريق من أهل النار وكأنهم خلقوا لأجلها لا لشىء آخر: «لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّايُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسْمَعُونَ بِهَا أُولئِكَ كَالْانْعَامِ بَلْ هُمْ اضَلُّ اولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

وعليه، فانهم فقدوا «هويتهم الإنسانية»، وأغلقوا أبواب الرجوع على أنفسهم، فهووا من قمم السعادة السماوية المعدة لهم إلى شقاء جهنم التى أُعدت لأولئك الذين غلقوا جميع أبواب المعرفة على أنفسهم، وهو مصير صنعتهُ نفوسهم وذنوبهم وعصيانهم.

النتيجة الأخيرة:

إنّ فى القرآن الكريم نماذجاً كثيرة تشبه الآيات الأربع عشرة التى ذكرناها فى أول هذا الفصل، وانتخبنا هذه الأربع عشرة للمواصفات التى تتحلى بها، وقد انتهينا إلى حقيقة واضحة وهى أنّه قد تعرض آفات لمصادر المعرفة بالخصوص العقل والفطرة والحس، وبعض تلك الآفات خفيفة طفيفة، وبعضها شديدة، وبعضها بدرجة من الشدة حيث تترك الإنسان فى ظلمات مطلقة تمنعه من استيعاب أوضح الحقائق الحسية.

وقد سعينا لمتابعة هذا الانحراف التدريجى لجميع مراحله مع الاستشهاد بآيات القرآن، ولا ندعى أنّ الترتيب الطبيعى لهذا الانحراف هو نفس الترتيب الذى جاء فى الآيات عيناً، بل نقول: إنّ الآيات المذكورة قد بيّنت نفوذ الآفات فى جميع المراحل.

وما أجمل تعبير القرآن فى هذا المجال، وما أدقه؟ فتارة يتحدث عن العوامل الخارجية مثل «تزيين الشيطان» و تارة يتحدث عن انحراف القلب والفكر، وأُخرى عن صدأ القلوب، وحيناً عن تحول هذا الانحراف إلى مرضٍ مزمن.

وحيناً عن الأكنة المجعولة على القلوب.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۳

وتارة عن تغلُّف القلوب بالكامل.

وتارة عن الطبع على القلوب والنقش عليها.

و اخرى عن وضع القلوب فى أوعية وختم تلك الأوعية.

و احياناً عن تجاوز الأكنة القلوب لتشمل السمع والبصر.

و احياناً اخرى عن تقفل القلوب.

وتارة عن العمى الكامل.

وأخيراً عن سلب الإنسان هويته الإنسانية وإسقاطه نفسه إلى درجة الأنعام بل إلى درجة أدنى من ذلك.

أما دواعي هذه المآسي والمصائب؟ فهو ما نتناوله في بحثنا اللاحق، لأنّ الهدف من بحثنا الماضي كان التعريف بالآفات والحجب وتوضيح أمرها بصورة إجمالية.

ثم نصل إلى مرحلة علاج هذه الأمراض وكيفية رفع الأكنة ومسح الصدأ والرين والوقاية من الوصول إلى مرحلة لا مخرج ولا نجاة منها.

وننهي بحثنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ لك قلباً ومسامع وإنّ اللّه إذا أراد أن يهدي عبداً فتح مسامع قلبه، وإذ أراد به غير ذلك ختم مسامع قلبه فلا يصلح أبداً وهو قول اللّه عزّوجلَ «عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»» «۱».

ج ج

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۱.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۵

حُجُب المعرفة وآفاتها

«بالتفصيل»

۱- الصفات التي تحول دون المعرفة

۲- الأعمال التي تحجب عن المعرفة

۳- الحُجُب الخارجية

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۷

حُجُب المعرفة وآفاتها (بالتفصيل)

تمهيد:

كان الحديث في البحث السابق عن انسداد أبواب المعرفة وطرقها بالاجمال.

وحديثنا الآن عن «العلل والعوامل» المسببة لهذه الظاهرة المؤلمة التي يمكنها أن تؤدّي بالإنسان إلى السقوط إلى درجة الأنعام والبهائم.

حديثنا عن الامور التي تسبب ظهور الصدأ على قلب الإنسان، وجعل الوقر في الاذان، والعمى في القلب، واختلال توازن العقل، واخيراً تسبب عدم رؤية الحق أو رؤيته معكوساً!

تابع القرآن هذه المسألة المهمّة في آيات عديدة وبيّن العلل الأساسية لهذه الظاهرة، ويمكن تلخيص العلل في ثلاثة أقسام:

۱- الصفات التي تحول دون المعرفة أي الصفات والأخلاقيات التي يمكنها أن تكون حاجباً عن الرؤية الروحية.

۲- الاعمال التي تحجب عن المعرفة أي السلوك والأعمال التي تسوّد مرآة العقل.

۳- الحجب الخارجية أي العوامل الخارجية التي تؤثر على فكر الإنسان وعقله وعواطفه وفطرته.

وسنبحث هذه العناوين الثلاثة كلًا على حده (وأؤكد هنا على أننا نطرح العلل التي وردت في القرآن الكريم بوضوح فقط).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۴۹

۱- الصفات التي تحول دون المعرفة

اشارة

إنّ هذه الصفات التى ذكرت فى القرآن بصراحة تارة وبالكناية تارة اخرى عبارة عن:

۱- حجاب عبادة هوى النفس

اشارة

قبل كل شىء نُمعن خاشعين للآيات التالية:

۱- «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُون . (الجاثيه/ ۲۳)

۲- «... كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُون* وَحَسِبُوا أَلَّا تكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِم ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيْرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيْرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة/ ۷۰- ۷۱)

۳- «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ اِلَيْكَ حَتَّى اذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ مَاذا قَالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . (محمد/ ۱۶)

شرح المفردات:

«الهوى بمعنى رغبة النفس وميلها إلى الشهوات ويقال إنّها مشتقة من «الهوى» الذى يعنى السقوط من الارتفاع، وذلك لأنّ الهوى يسبب سقوط الإنسان فى المصائب فى الدنيا، وابتلاءه بالعذاب فى الآخرة، ومن هنا قيل لجهنم «هاوية» لأنّ قعرها منحفض للغاية.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۰

وقد ذكر البعض معنيين لهذه المفردة: (الصعود والارتفاع) و (السقوط)، وذكر بعض آخر معنى واحداً لها وهو (الارتفاع والسقوط إلى الأسفل) وهذا فى الحقيقة تركيب من المعنيين السابقين.

وقال البعض: إنّ الهُوىّ يعنى «السقوط» والهَوىّ يعنى «الصعود» «۱».

ج‌ج

جمع الآيات وتفسيرها

إتباع الهوى يُعمى القلب:

تحدثت الآية الاولى عن اتخاذ الهوى إلهاً واتباعه، والتضحية لأجله بكل ما يملك، وكل من كان كذلك فسوف يختم على قلبه وعلى سمعه ويجعل على بصره غشاوة، فلا يهتدى بعد ذلك، فلنقرأ الآية: «أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ ...».

ج‌ج

والآية الثانية تحدثت عن فريق من اليهود المعاندين حيث كلما جاءتهم رُسُل اللّه وأتوا بما يخالف أهواءهم، قاموا بتكذيب بعضهم

وقتل البعض الآخر، إنّ عنادهم هذا جعل حجاباً بينهم وبين الحقائق، فيرون أنفسهم آمنين من عذاب اللّه، حيث تاب اللّه عليهم، وشملتهم رحمته الواسعة فى المرة الاولى لكن فى المرة الثانية شملتهم نقمته، وذلك لنقضهم عهدهم وطغيانهم، فعموا وصمّوا.

وهذه من المردودات السلبية لاتباع الهوى حيث يهرقون دماء الأنبياء ولا يدركون قبح عملهم.

إنّ التعبير ب «يقتلون» بصيغة المضارع يدل على أن ديدن هذا الفريق من اليهود هو قتل الأنبياء لما يأتون به من الشرائع المخالفة لأهوائهم.

---

(۱). راجع مفردات الراغب، ومجمع البحرين، وكتاب العين، واقرب الموارد، والمنجد.

والآية الثالثة تشير إلى فريق من المنافقين الذين يستمعون للنبى صلى الله عليه و آله، وبمجرّد ابتعادهم عنه استهزئوا به أمام المؤمنين.

يقول القرآن عن هذا الفريق من المنافقين: «أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُم .

إنّ هذه الآيات الثلاث تبيّن بوضوح العلاقة بين اتباع الهوى وفقدان قدرة التمييز.

لِمَ لا يكون اتباع الهوى مانعاً عن إدراك الحقيقة وقد استحوذ حبه على جميع جوانب الإنسان، فلا يرى شيئاً غيره ولا يفكر إلّابه؟ وقد سمعنا قول الرسول كثيراً حيث يقول فيه:

«حُبُّكَ لُلشَّىء يُعْمِى وَيُصِمُّ» «۱».

كما سمعت فى هذا المجال حديثاً آخر نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وعن أميرالمؤمنين:

«أمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق» «۲».

إنّ هذه المسألة واضحة إلى درجة أنّها أصبحت مثلًا فى كلام العرب: «صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلّاحاجته» «۳».

إنّ الإنسان الذى خسر قلبه وروحه فى حب الجاه والمال والشهوة، وعبّأ كل رأس مال وجوده فى هذا المجال، لا يرى شيئاً فى الدنيا غير هذا الحب، وقد جعل هذا الحب ستاراً سميكاً حجب عقله وفكره.

وما أجمل ما قاله على عليه السلام فى إحدى خطبه: «مَنْ عشقَ شيئاً أعشى بصره» «۴».

وقد نقلت الرواية التالية فى شأن نزول الآية ۲۳ من سورة الجاثية التى أشرنا إليها سابقاً:

إنّ أبا جهل طاف بالبيت ذات ليلة ومعه الوليد بن المغيرة (فقد كانت الكعبة محترمة فى

---

(۱). روضة المتقين، ج ۱۳، ص ۲۱.

(۲). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۷۵؛ ونهج البلاغة الخطبة ۴۲.

(۳). تفسير المراغى، ج ۵، ص ۱۵۷.

(۴). نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۰۹.

الجاهلية أيضاً ومحلّا للطواف) فتحدثا فى شأن النبى صلى الله عليه و آله، فقال أبوجهل: واللّه إنّى لأعلم أنّه صادق. فقال له: مَهْ، ومالك على ذلك؟ قال: يا أبا عبد شمس كنّا نسميه فى صباه الصادق الأمين، فلما تمّ عقله وكمل رشده نسميه الكذاب الخائن؟ واللّه إنّى لأعلم أنّه صادق. قال:

فما يمنعك أن تصدقه وتؤمن به؟ قال: تتحدث عنى بنات قريش أنّى اتبعت يتيم أبى طالب من أجل كسرة، واللات والعزّى إن اتبعته أبدا، فنزلت «وختم على سمعه وقلبه» «۱».

وما أجمل ما قاله على عليه السلام عن الهوى «آفة العقل الهوى ، كما قال فى محلٍ آخر:

«الهوى آفة الألباب» «۲».

۲- حبّ الدنيا أحد الحجُب

اشارة

يقول القرآن فى هذا المجال:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِيْنَ* أُولئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ .

(النحل/ ۱۰۷- ۱۰۸)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ الآيـة تشـير إلى قوم أسـلموا رغبة فى الإسـلام، ثم ارتدوا عنه، فلمحت الآية إلى أن ارتدادهم لم يكن لرؤيتهم ما يخالف الحق فى الإسـلام، بل لأنّهم فضـلوا الحياة الـدنيا على الآخرة، ورجحوها عليها، فانسـلخوا عن الإسـلام واتجهوا نحو وادى الكفر تارة اخرى، فلم يهدهم اللَّه بعد كفرهم لانهم لم يكونوا أهلًا لذلك، وذلك لحبهم الحياة الدنيا، فطبع اللَّه على

---

(۱). تفسير المراغى، ج ۲۵، ص ۱۵۷.

(۲). غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۳

قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأغلق عليهم أبواب المعرفة فأصبحوا من الغافلين.

إنّ حبّ الـدنيا سواء كان فى مجال حب المال والثروة أو فى حقل حب الجاه والمقام، أو فى مجال حبّ الشـهوات المختلفـة، فإنّ هذا الحبّ كالريح العاصف يهب فى باطن الإنسان فيفقده توازن عقله بالكامل.

نعلم أنّ الميزان الـدقيق يُجعـل فى محفظـة تحول دون تـأثير النسـيم عليه، وحتى الوزّان ينبغى له حبس أنفاسه حتى الانتهاء من الوزن، وذلك للحيلولة دون تأثير امواج الهواء الخارجة من رئتيه على تعادل الميزان، فما فائدة ميزان كهذا عند هبوب ريح عاصف؟

إنّ حبّ الـدنيا سواء كـان بشـكلها القـارونى أو الفرعونى أو السامرى أو غير ذلك، لا يعطى الإنسان الحريـة فى أن يحكم على الامور بشكل صحيح أو يفكر تفكيراً سليماً، وإذا صرح اللَّه تعالى فى الآية السابقة بأنّه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، فالطبع هذا يمثل حب الدنيا، وبما أنّهم يتجهون نحو السبب فيبتلون بالمسبَّب.

ويشاهد فى الأحاديث الإسلامية تعابير جميلة فى هذا المجال، يقول الإمام الباقر عليه السلام:

«مثلُ الحريص على الدنيا كمثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً» «۱».

كما نُقل حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «الدنيا تغرّ وتضرّ وتمرّ» «۲».

ويقول الإمام نفسه فى رسالـة كتبها لأحد أصـحابه ينصـحه فيها ويقول: «فارفض الدنيا فإنّ حب الدنيا يُمر، ويُصم ويبكم ويُذلُّ الرِّقاب

فتدارك ما بقى من عمرك ولا تقل غداً أوْ بعد غدٍ فانّما هلك من كان قبلك باقامتهم على الأمانى والتسويف» «۳».

ج‌ج

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۲۳، ح ۱۳.

(۲). نهج البلاغة.

(۳). بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۷۵؛ اصول الكافى، ج ۲، باب ذم الدنيا والزهد فيها، ح ۲۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۴

۳- حجاب الكبر والغرور وحبّ السلطة!

اشارة

۱- «الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقَتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ». (غافر/ ۳۵)

۲- «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ءَاعْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِيْنَ لَايُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ». (فصلت/ ۴۴)

جمع الآيات وتفسيرها

اشارة

الجبارون والمغرورون لا يدركون الحق!

تحدثت الآية الاولى عن كلام «مؤمن آل فرعون» صاحب الضمير الحى الذى كان فى بلاط فرعون يؤيد موسى بن عمران ويؤمن به سراً، فقالت: «الَّذِيْنَ يُجَادِلُونَ فِى آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقَتاً عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِيْنَ آمَنوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ».

نعم، إنّ عناد الحق والاصرار فى ذلك العناد يجعل حجاباً قاتماً على فكر الإنسان ويسلبه قابلية التمييز و حسن المعرفة، فيبلغ به الأمر إلى أن يصبح قلبه كالوعاء المغلق لا يخرج محتواه الفاسد ولا ينفذ فيه المحتوى السليم والمفيد.

يقول البعض فى الفرق بين «الجبّار» و «المتكبر» أنّ «التكبر» يقابل «الخضوع للحق» و «الجبروت» يقابل «الشفقه والمحبة للخلق»، فالظَّلَمَة المغرورون لا يخضعون للحق ولا يرحمون ولا يشفقون على الخلق.

ج‌ج

والآية الثانية نقلت أقوال فريق من المتكبرين المعاندين حول القرآن حيث كانوا

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۵

يقولون: لِمَ لَمْ ينزّل القرآن أعجمياً كى نهتم به أكثر وكى يفهمه غير العرب؟ (قد يكون مرادهم هو الحؤول دون فهم الناس له).

فأجابهم القرآن: لو نزّل القرآن أعجمياً لأشكلتم إشكالا آخر وهو «لولا فصلت آياته» أى أنّ محتواه معقد ومبهم ولا نعى شيئاً منه، ثم

قلتم، عجيب أن يكون القرآن أعجمياً ونازلًا على عربى؟!

ثم أمر اللَّه رسوله بأن يقول لأولئك المغرورين:

«هُوَ لِلَّذِيْنَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُونَ فِى آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمىً أُولئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيْدٍ».

وواضح أنّ الذى ينادى من مكان بعيد لا يسمع ولا يرى

إذا أنكرت أعينهم نور شمس القرآن الساطعة فذلك لرمدها، وإذا أنكرت آذانهم نداء الحق المدوّى فذلك للوقر الذى فيها.

حجاب الغرور فى الأحاديث الإسلامية:

۱- جاء فى حديث للإمام الباقر عليه السلام: «ما دخل قلب امرىءٍ شىء من الكبر إلّانقص من عقله ما دخله من ذلك قلَّ ذلك أو كثر» «۱».

۲- وقد خاطب أمير المؤمنين عليه السلام فريقاً من المنحرفين فى كلماته القصار قائلًا: «بينكم وبين الموعظة حجاب من العزّة» «۲».

عندما يتمحور حبّ الذات فى نفس الإنسان، يسعى الإنسان لأنّ يجمع كل شىءٍ فى نفسه، وعندما يصل إلى مستوى «العجب» يرى نفسه أعلى وأرفع من أى إنسان آخر، وعندما يصل إلى مستوى «الأنانية» يرى نفسه المقياس الوحيد للقيم والجمال.

وهذه الحالات تجعل ستاراً عجيباً على عقله تحجب الحقيقة عنه، فيرى جميع القيم

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۸۶ باب وصايا الإمام الباقر عليه السلام، ح ۲۶.

(۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۸۲.

منحسرة فى نفسه، وينسى غيره.

ولهذا، فإنّ أول خطوة فى مجال تهذيب النفس هو الترفع عن «الكبر والغرور»، ولا يتأهل الإنسان للقرب من اللَّه من دون ذلك.

۳- وقد جاء فى كلام لأمير المؤمنين عليه السلام: «شرّ آفات العقل الكبر» «۱»، كما جاء فى كلام آخر له: «العجب آفة» «۲».

ج‌ج

۴- حجاب الجهل والغفلة

اشارة

۱- «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لَايَعْلَمُونَ . (الروم/ ۵۹)

۲- «لِتُنْذِرَ قَوْماً مَّا أُنْذِرَ آبَاءُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيْهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ* وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . (يس/ ۶ و ۹ و ۱۰)

جمع الآيات وتفسيرها

اشارة

أكـدت الآيـة الأولى على أنّ اللّه ضـرب للناس فى هـذا القرآن من كلِّ مثل، فتارة بآيات الآفاق والأنفس وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهى، وتارة بالبشـرى والانـذار، وتارة بالسـبل العاطفيـة والفطريـة، وتارة بالاسـتدلال، ورغم هـذا البيان فإنّ فريقاً من الجاهلين والغـافلين يجحـدون بآيـات اللّه ويقولون: أنتم مبطلون أى على باطل، ويضـيف اللّه فى الآيـة: هـذا كله لأجل أنّ اللّه طبع على قلوبهم وذلك بجهلهم.

إنّ الآية- فى الحقيقة- تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو «الجهل المركب» الجهل الذى

---

(۱). غرر الحكم.

(۲). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۷

يحسبه صاحبه علماً، ولا يصغى لمن أراد ايقاظه من غفلة الجهل هذه، ولهذا فإنّ شخصاً كهذا يظلُّ جاهلًا جهلًا مركباً إلى أبد الدهر.

إذا كـان الخطاب موجهاً لجاهلٍ «جهلًا بسـيطاً» أى لا يعلم ويعلم أنّه لا يعلم، ومسـتعد فى نفس الوقت لقبول نـداء الحق والهدايـة، فإنّ الأمر اتجاهه بسيط، والحجاب المانع يطبع على القلب عندما يكون الجهل مركباً وممتزجاً بروح العناد وعدم التسليم لنداء الحق.

وقد نقل فى بعض التفاسير شعر جميل لشاعر عربى يقول فيه:

قال حمار الحكيم يومًالو تنصفونى لكنتُ أركب

لأنّنى جاهل بسيطوصاحبى جاهل مركب «۱»

ج‌ج

وتشير الآية الثانية إلى فريق من الغافلين الذين صدر حكم العذاب بحقهم وذلك لجهلهم وعنادهم وأنّهم ليسوا أهلًا للهداية.

ثم صوّر القرآن الحُجُب التى قـد تحيـط العقـل تصويراً عجيبـاً حيث قـال: «إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِم أَغْلَالًا فَهِىَ الى الْاذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ* وَجَعَلْنَا مِنْ بَينِ أَيدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً فَأَغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ . (یس/ ۸- ۹)

إنَ عبارة «وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً» إشارة إلى الحجب التى تحول دون رؤية آيات الأفاق والكون.

إنّ الأغلال التى جـاءت فى الآيـة قـد تكون إشـارة إلى الحجب التى تحول دون رؤيـة آيـات الأنفس، والأسوأ من هـذا كله هو جعل الغشاوة على الأبصار بحيث لا إمكان للرؤية، وهى ستار الغفلة والجهل والغرور.

وبـديهى أنّ أشـخاصاً كهؤلاء مع كل هـذه الحجب، سواء أنذرهم الرسول أم لم ينذرهم وسواء سـمعوا آيات القرآن من شـفاه محمد صلى الله عليه و آله الطاهرة أم لم يسمعوا، فهُم لا يؤمنون ولا

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۲۱، ص ۵۵ ذيل الآية ۵۹ من سورة الروم. نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۸

يهتـدون، إنّهم رهائن لا لغلٍ واحـدٍ، بل لأغلالٍ عديدة (فالأغلال جاءت بصـيغة الجمع لا المفرد)، وقد فسـر البعض السد (الذى يجعل امام الشـخص) بالحجب التى تحرم الإنسان من الهدايـة النظريـة والاسـتدلال، والسـد (الذى يجعل من الخلف) بالحجب التى تمنع من الهداية الفطرية والرجوع إليها «۱».

حجاب الجهل فى الأحاديث الإسلامية:

۱- قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام عن الجهل: «الجاهل ميت بين الأحياء» «۲».

۲- كما قال فى محل آخر: «الحمق من ثمار الجهل» «۳».

واضح، كما أنّ الميت فاقد الإدراك والاحساس كذا الجاهل العنود، لا نتوقع منه الفهم الحقيقى لُلامور.

۳- من خصائص الجاهلين بالجهل المركب أنّهم يعدون العلماء الحقيقيين ضالين، ولهذا جاء فى حديث الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «تعجب الجاهل من العاقل أكثر من تعجب العاقل من الجاهل» «۴».

۴- ننهى البحث بحديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «إنّ قلوب الجُهّال تستفزها الأطماع وترتهنها الُمنى وتستعلقها الخدايع» «۵».

و لا عجب أن تحجب الحقائق عن قلب كهذا،

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۶، ص ۴۵ ذيل الآيات المذكورة فى بحثنا.

(۲). غرر الحكم، ص ۹۹.

(۳). المصدر السابق، ص ۴۱.

(۴). سفينة البحار، ج ۱، ص ۱۹۹.

(۵). أصول الكافى، ج ۱، ص ۲۳، كتاب العقل والجهل، ح ۱۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۵۹

۵- حجاب النفاق

اشارة

۱- «يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ الَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ* فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ .

(البقرة/ ۹- ۱۰)

۲- «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لَّايُبْصِرُونَ* صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَايَرْجِعُونَ .

(البقرة/ ۱۷- ۱۸)

۳- «اذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلآءِ دِيْنُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَانَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ . (الأنفال/ ۴۹)

۴- «وَاذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِيْنَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ الَّا غُرُورًا». (الأحزاب/ ۱۲)

جمع الآيات وتفسيرها

المنافقون عمى القلوب:

إنّ فى أوائل سورة البقرة ثلاث عشرة آية تحدثت عن النفاق والمنافقين، وقد صورتهما بدقة متناهية وبتعابير وافية، والآية الاولى هى من ضمن الآيات التى جاءت هناك.

يقول القرآن فى هذه الآية: إنّ أحد أخطاء المنافقين أنّهم يخادعون اللّه وكذا المؤمنين، وفى الحقيقة لا يخادعون إلّاأنفسهم وهم لا

يشعرون ولا يعلمون، وذلك لأنّ النفاق قد غطّى قلوبهم بستاره السميك، ثم يضيف القرآن: «فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً».

من الواضح، أنّ المراد من المرض فى الآية هو «مرض النفاق» الذى يتغلب على قلوبهم، فالإنسان المريض لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً (لأنّ العقل السليم فى الجسم السليم)، وكذلك حواسه الظاهرية، ولهذا نرى بعض المرضى تبدو ألذ الأغذية عندهم كريهة الطعم، وبعض الأغذية كريهة الطعم لذيذة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۰

وقد شبهت الآية الثانية المنافقين بالذى ضلَّ متورطاً فى ظلمات الليل، ثم استوقد ناراً ليرى مما حوله، فجاء ريح عاصف وأطفأ ما استوقده فبقى فى الظلمات تارة اخرى، فلا يبصر ولا يسمع ولا ينطق شيئاً، ولا طريق له للرجوع.

قد يكون المراد من النور الذى جاء فى الآية هو نور الإيمان الظاهرى الذى يراه المنافق ويستضىء به ما حوله ويحفظ نفسه وماله تحت ضيائه.

أو أنّ المراد منه هو نور الفطرة الذى جُبل عليه الإنسان، والمنافقون يستثمرون هذا النور فى البداية، ولا يمضى زمن طويل حتى تأتى زوبعة النفاق فتطفئه.

و تحدثت الآية الثالثة والرابعة عن المنافقين مرضى القلوب، وبقرينة الآيات السابقة ندرك أنّ المراد من «الذين فى قلوبهم مرض» هو نفس المنافقين وأنّ العطف عطف تفسيرى «۱»، إلّاأنّ الآية الثالثة تحدثت عن موقفهم فى معركة بدر، والرابعة عن موقفهم فى معركة الأحزاب، والفرق هو أنّهم كانوا فى «بدر» فى صفوف المشركين لأنّ المشركين يوم ذاك كانوا القوة الراجحة، وفى معركة الأحزاب كانوا مع المسلمين.

كانوا يقولون: «اغترَّ هؤلاء المسلمون بدينهم، وقد خطوا هذه الخطوة الخطيرة (الجهاد) رغم قلة العدّة والعدد ظناً منهم بالنصر، أو بالشهادة التى مصيرها الموت»!

بالطبع، إنّهم غير قادرين- بسبب المرض الذى فى قلوبهم- على الإدراك الصحيح لعوامل النصر الحقيقية أى الإيمان والثبات والفتوة التى هى وليدة الإيمان فما كانوا يدركون أن من يتوكّل على اللّه القادر فهو حسبه وهو ناصره، والشاهد على هذا الحديث هو ما حصل

---

(۱). لقد جاء فى تفسير الميزان، ص ۱۶۴ و ۳۰۲؛ وكذلك تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۷۶، أنّ المراد من الذين فىقلوبهم مرض هم ضعيفو الإيمان وهم غير المنافقين. لكن لا يتناسب ضعف الإيمان مع المرض فى القلب، إضافة إلى أن الآيات الثلاثة عشرة التى جاءت فى أوائل سورة البقرة استعملت هذا التعبير فى حقهم. كما يبدو بُعد الرأى الذى يفسر المرض بالترديد والشك، لأنّ المرض نوع من الانحراف، بينما الشك نوع من الفقدان.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۱

فى صدر الإسلام، حيث إنّ بعض المسلمين رفض الهجرة إلى المدينة، والعجيب فى الأمر أنّ قريشاً عندما تحركوا نحو بدر لقتال المسلمين، اصطف هؤلاء المسلمون (المنافقون) فى صفوفهم، وكانوا يحدثون أنفسهم أنّهم سيلتحقون بجيش محمد إذا كان جيشه ذا عدد كبير، وسيبقون مع جيش قريش إذا ما كان عدد المسلمين قليلًا «۱».

وهل للنفاق مفهوم غير هذا الذى تجسد فى هذه المجموعة؟ وإذا لم يكونوا منافقين، فمن هم المنافقون؟

وقد حصل هذا الأمر بالذات فى معركة الأحزاب فإنّ شخصيات كثيرة من المنافقين كانت قد حشرت نفسها مع المسلمين، وعندما شاهدوا كثرة الأحزاب قالوا بصراحة: ما وعدنا الرسول إلّاكذباً وباطلًا.

وهذا هو حجاب النفاق الذى لا يسمح لهم من إدراك الحقائق، رغم أنهم شاهدوا بأم أعينهم أن النصر ليس بكثرة العدد، بل بالإيمان

والثبات الناشيء عنه.

سؤال:

يطرح سؤال هنا وهو: كيف يكون النفاق حجاباً يحجب عن الحقائق؟

الجواب:

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى ملاحظة فى هذا المجال وهى: إنّ روح النفاق تستلزم أن يتحرك الإنسان مع كل التيارات وأن يكون مع جميع الفرق، وأن يتخذ صبغة المحيط الذى يعيش فيه، فيفقد فى النهاية أصالته واستقلاله الفكرى، إنّ طريقة تفكير إنسان كهذا تكون متطابقة دائماً مع طريقة تفكير الفريق الذى يكون معهم، فلا عجب أن يكون حكمه غير صحيح.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۷۶ ذيل الآية ۴۹ من سورة الأنفال.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۲

وقد جاء فى بعض التفاسير: إنّ التعبير ب «فى قلوبهم مرض» يصدق فى موارد كهذه الموارد، من حيث إنّ غاية القلب (العقل) الخالص هو معرفة اللّه وعبوديته، وكل صفة منعت وحجبت عن غاية القلب هذه، قيل لها مرض (لأنّها تحجب الهدف وتمنعه من الظهور) «۱».

ولهذا جاء فى الآية ۷ سورة المنافقين: «وَلكِنَّ الْمُنَافِقِيْنَ لَايَفْقَهُونَ .

كما قد جاء فى حديث الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان وقلب منكوس وقلب مطبوع وقلب أزهر أجرد» فقلت ما الأزهر؟ قال: «فيه كهيئة السراج، فأمّا المطبوع فقلب المنافق، وأمّا الأزهر فقلب المؤمن إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صَبَر، وأمّا المنكوس فقلب المشرك» «۲».

وننهى حديثنا هذا بكلام للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النفاق على أربع دعائم على الهوى والهوينا والحفيظة والطمع» «۳».

ونعلم أنّ كلًا من هذه الامور الأربعة تشكل حجاباً سميكاً أمام نظر العقل.

۶- حجاب التعصب والعناد

اشارة

۱- «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ الَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَانْيَرَوا كُلَّ آيَةٍ لَّايُؤْمِنُوا بِهَا حَتّى اذَا جاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا انْ هَذَا الَّا أَسَاطِيْرُ الْأَوَّلِيْنَ . (الأنعام/ ۲۵)

۲- «وَاذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالأَخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً* وَجَعَلنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً وَاذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا». (الاسراء/ ۴۵- ۴۶)

۳- «فَانَّكَ لَاتُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ اذَا وَلَّوْا مُدْبِرِيْنَ* وَمَا

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲، ص ۶۴ ذيل الآية ۱۰ من سورة البقرة.

(۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۴۲ باب فى ظلمة قلب المنافق، ح ۱.

(۳). اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۹۳ باب صفة المنافق والنفاق،.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۳

أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ان تُسْمِعُ الَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ».

(الروم/ ۵۲- ۵۳)

۴- «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَذَا القُرآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَروا انْ أَنْتُمْ الَّا مُبْطِلُونَ* كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَايَعْلَمُونَ .

(الروم/ ۵۸- ۵۹)

۵- «وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا الَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ انَّنَا عَامِلونَ . (فصلت/ ۵)

جمع الآيات وتفسيرها

الموتى المتحركون:

حضر عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ابو سفيان والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وأبو جهل وأفراد آخرون واستمعوا إلى حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟

(وكان النضر تاجراً يسافر إلى ايران وله اطّلاع واسع بالأساطير والقصص التاريخية الايرانية) فقال: لا أدرى ما يقول لكنّى أراه يحرك شفتيه ويتكلّم بأساطير الأولين كالذى كنت احدثكم به عن أخبار القرون الاولى وقال أبوسفيان: إنّى لا ارى بعض ما يقول حقاً.

فقال أبوجهل: كلا، فانزل اللَّه تعالى «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ اكِنَّةً انْ يَفْقَهُوهُ» «۱».

وقال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية أنّهم لما أصروا على الكفر وعاندوا وصمموا عليه فصار عدو لهم عن الإيمان والحالة هذه كالكنان المانع عن الإيمان «۲».

ولهذا نزلت هذه الآية وقالت بصراحة: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ الَيْكَ ...».

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۱۸۶.

(۲). المصدر السابق، ص ۱۸۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۶۴

وقد قال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية:

«وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً»: إنّ عناد هؤلاء الكفرة واصرارهم فى معاداة الحق، يجعل ستاراً على قلوبهم يحول دون إيمانها «۱».

وقد تحدثت الآية الثانية عن الحجاب الذى كان يُجعل بين الرسول صلى الله عليه و آله وبين فريق من المنافقين عندما كان يتلو القرآن الكريم.

وقد فسر البعض هذا الحجاب بستار حقيقى كان يجعله اللَّه بين الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وبينهم بحيث لا يرونه، إلّاأنّه مع الالتفات إلى الآيات التى لحقت هذه الآية من نفس السورة، يتضح لنا أنّ الحجاب لم يكن سوى «حجاب التعصب والعناد والغرور والجهل» الذى كتم حقائق القرآن عن عقولهم وإدراكهم.

والشاهد على ذلك هو قوله تعالى «وَاذا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى الْقُرآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا» فالمستفاد من هذا التعبير هو أنّهم كانوا يصغون فى البداية إلى حديث الرسول صلى الله عليه و آله ثم يولون مدبرين لعدم سماح العناد لهم لإدراك القرآن، وإدراك حديث التوحيد.

ونشاهد فى نفس السورة تعابير اخرى تحكى روح العناد المتجسمة فيهم، ومع هذا، فهل يمكنهم إدراك حقيقة ما؟

وخاطبت الآيـة الثالثة الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله قائلة له: إنّك لا تُسـمع الموتى ولا الصم عندما يولون مدبرين، كما أنّك لا تسـتطيع هدايـة العمى وانقـاذهم من الهلاـك، فما يسـمع كلامك إلّاالـذين آمنوا بآيات اللّه وسـلموا للحق (أى الـذين تتلهف قلوبهم للحق، فإنّ قلوباً

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۱۸۷.

كهـذه كالأرض المعـدَّه للزرع، تسـطع عليها الشـمس، وتقطر السـماء عليها قطرات الحياة، فتنمو فيها البـذور بسـرعة، وأمّا القلوب التى عطّلتها حُجب التعصب والجهل فانّها محرومة من هذه الحقائق) «۱».

والآيـة الرابعـة تحـدثت عن أولئـك الكفار الـذين وقفوا أمام الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله عناداً، وخالفوا كل ما جاء به، فكانوا يرمون الرسول والقرآن بالباطل تارة، وتارة اخرى يقولون:

إنّ ما جاء به الرسول سـحر وأساطير الأولين ولا مجال للحق فيه: فتحـدث فى هذه عن هؤلاء وقال: «كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الَّذِيْنَ لَايَعْلَمُونَ . لأنّهم لا يعلمون شيئاً عن هذا الكتاب السماوى الذى هو مصدر للحقائق.

كما أنّ الآيـة توضح العلاقة بين «الجهل» و «العناد».

وعكست الآيـة الخامسة النموذج الكامل من العناد، فما قيل إلى الآن كان خطاباً بين اللّه ورسوله، أمّا هنا فهم يعترفون بأنفسهم بأنّ على قلوبهم أكنة، وفى آذانهم وقراً، وبينهم وبين رسول اللّه صـلى الله عليه و آله حجاب لا يسـمح لهم إدراك ما يقول والتسليم له، فاعمل على شاكلتك ونحن عاملون على شاكلتنا.

إنّ هـذه التعابير تبين بوضوح ما هو العامل الأساسـى لهـذه الحجب وما هو السـبب الرئيسـى للوقر الـذى يجعل فى الاذن؟ إنّها عبارات يقطر منها التعصب والعناد وتبين سبب شقائهم وتعاستهم.

كما أنّ «التعصب» مشـتق من مادة «عصب» وهو فى البـدن خلايا تسـبب اتصال العضـلات إحداها بالاخرى أو بالعظام، والعصب بمثابة الوسيلة لنقل الايعاز إلى المخ، وبما

---

(۱). وقد جاء فى سورة النمل الآية ۱۱ مضمون يشبه مضمون هذه الآية.

أنّ له بنيانـاً قويـاً ومحكمـاً اسـتعملت هـذه المفردة بمعنى الشـدة والاسـتحكام، ويـوم عصـيب يعنى يـوم شديـد وصـعب، ولهـذا يطلق «التعصب» على حالـة الإرتباط الشديـد بشـىء، كما أن «العُصْبة» على وزن أسوة تعنى جماعـة من الرجال (المقتدرين) الذين لا يقلون عن عشرة، وأمّا «عَصَبة» فتعنى أقارب الرجل من جهة الأب «۱».

إنّ «اللجاجـة» وهى من مادة «لـجّ» هى التمادى فى العناد، وملازمة أمر ما وعدم الانصـراف عنه، و «اللجّة» تعنى حركة أمواج البحر، أو التباس ظلمات الليل، و «البحر اللّجى» هو البحر الواسع والمتلاطم، والتلجلج فى الكلام هو التردد فيه، أو اختلاط الأصوات «۲».

النتيجة:

إنّ التعصب واللجاجة والعناد يتلازم أحدها الآخر، لأنّ الارتباط الشديد بشىء يدعو الإنسان إلى الالحاح والعناد والدفاع عنه بدون قيد أو شرط.

بالطبع قد يستعمل التعصب بمعنى الانحياز والإرتباط بالحق، إلّاأنّ الاستعمال الغالب له هو الإرتباط بالباطل.

إنّ منشأ التعصب واللجاجة والعناد- بجميع أشكالها- هو الجهل والقصور الفكرى، لأنّ صاحب التعصب واللجاجة يظن أنّه إذا تخلى عن عقيدته ورأيه فهذا يعنى تخليه عن كلِّ شيءٍ، أو أنّ هذا إهانة لشخصيته.

وقد يكون منشأه هو التكبر والغرور اللذين يمنعانه من الخضوع أمام الحق والتسليم له، وقد يكون منشأه عوامل أخرى

إنّ التعصب واللجاجة يجعلان ستاراً قاتماً على العقل لا يسمح للإنسان أن يرى

---

(۱). كتاب العين، والمفردات، ومجمع البيان، ولسان العرب.

(۲). المصدر السابق.

الحقائق، حيث نرى البعض غير مستعدين للتخلى عن عقائدهم بأى شكل كان رغم وجود الأدلة القطعية على بطلانها، وإنّ أشخاصاً كهؤلاء لو أقمنا لهم ألف دليل ودليل على أنّ للدجاج رجلين، قالوا: كلا، بل رجل واحدة! ولو أخذناهم بأيدينا تحت نور الشمس الساطعة وقلنا لهم: إنّه نهار، قالوا: لا بل ليل!

لقد عكست الآيات التى ذكرناها فى بداية البحث هذه الحقيقة بوضوح، واعتبرت هؤلاء صُمّاً وعمياً وأمواتاً، وطبع على قلوبهم، أو أنّ قلوبهم مغلقة فلا يفقهون شيئاً.

وقد جاء فى الروايات الإسلامية مضامين تستند إلى نفس المضمون الذى جاء فى الآيات المذكورة، وفيها توبيخ لأهل اللجاجة والعناد.

منها قول أمير المؤمنين عليه السلام: «اللجوج لا رأىَ له» «۱».

ومنها قوله عليه السلام كذلك: «اللَّاجُ يُفسد الرأى» «۲».

وكذا قوله عليه السلام: «ليس للجوجٍ تدبير» «۳».

وقال الإمام عليه السلام نفسه فى الخطبة القاصعة: «فاللَّه اللَّه فى كِبْر الحَمية وفخر الجاهلية فإنّه ملاقح الشنآن، ومنافخ الشيطان، التى خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية حتى أعنقوا فى حنادس جهالته ومهاوى ضلالته» «۴».

ننهى حديثنا بكلام آخر لنفس الإمام العظيم، فى جواب له على رسائل أهالى مدن مختلفة حول حوادث صغيرة: «مَنْ لَجّ وتمادى فهو الراكسُ الذى رانَ اللَّهُ عَلى قلبه وصارت دائرة السوء على رأسه» «۵».

بالطبع- وكما قلنا سابقاً- إنّ الاصرار والالحاح فى الحق ليس تعصباً، وإذا أطلقنا عليه تعصباً فهو «تعصب ممدوح»، ولهذا جاء فى حديث للإمام على بن الحسين عليه السلام عندما سُئِل

---

(۱). غرر الحكم.

(۲). المصدر السابق.

(۳). المصدر السابق.

(۴). نهج البلاغة الخطبة ۱۹۲.

(۵). المصدر السابق الرسالة ۸۵.

عن مفهوم التعصب: «العصبية التى يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجلُ شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن

يُحب الرجلُ قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم» «۱».

۷- حجاب التقليد الأعمى

اشارة

نُمعن خاشعين أولًا فى الآيات التالية:

۱- «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الْوَاعِظِيْنَ* انْ هَذَا الَّا خُلُقُ الْأَوَّلِيْنَ* وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِيْنَ . (الشعراء/ ۱۳۶- ۱۳۸)

۲- «وَاذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوا الى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَالَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَاوَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ . (المائدة/ ۱۰۴)

۳- «وَاذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ انَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ . (الأعراف/ ۲۸)

۴- «وَاذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آباءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ الى عَذَابِ السَّعِيْرِ». (لقمان/ ۲۱)

۵- «وَكَذَلِكَ مَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيْرٍ الَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا انَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ . (الزخرف/ ۲۳)

ج‌ج

شرح المفردات:

رغم أنّه لم ترد مفردة «التقليد» عيناً فى الآيات السابقة بل جاءت مفردة الاقتداء أو

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۲۸۸.

الاهتداء أو اتباع ما كان عليه الآباء والاسلاف وامثال هذه المفردات، إلّاأنّه من المستحسن ايضاح مفهوم هذه المفردة جيداً.

إنّ هذه المفردة مشتقة من مادة «قَلْد»، وتعنى فى الأصل- كما ورد عن الراغب فى المفردات- فتل الحبل، وقيل للقلادة «قلادة» من حيث إنّ حبالًا كانت تُفتل وتعلق فى العنق، «والقلائد» جمع قلادة، استعملها القرآن وأراد بها الأنعام التى تُعدّ للأضحية فى مناسك الحج، فانّها تُقلَّد لتتميز عن غيرها من الأنعام (الآية الثانية من سورة المائدة)، كما أنّ اطلاق التقليد على اتباع الآخرين، من حيث إنّ المقلِّد يجعل كلام المقلَّد كالقلادة فى عنقه، أو من حيث إنّه يلقى المسؤولية على عاتق المقلَّد.

أمّا «مقاليد»- وكما يقول كثير من اللغويين- فجمع «مقليد» أو «مِقْلد»، إلّاأنّ الزمخشرى ادّعى فى كشافه: عدم وجود مفرد لهذه الكلمة.

وأمّا «مقليد» و «اقليد»، فبمعنى المفتاح، وقد نقل ابن منظور فى لسان العرب: إنّ أصل هذه المفردة هو كلمة «كليد» الفارسية والتى تعنى مفتاح كذلك، واستعملت فى العربية بنفس المعنى وتستعمل «مقاليد» بمعنى الخزائن أيضاً، وذلك من حيث إنّها تقفل ولا طريق لها إلّابالمفتاح.

إذن، لا علاقة بين مفردة «مقاليد» مع مادة «التقليد» و «القلادة» «۱».

إلّا أنّه يحتمل رجوع كلا المفردتين إلى مادة واحدة من حيث إنّ كثيراً من الناس يجعلون المفاتيح فى فتائل ويقلدون بها أعناقهم «۲».

ج‌ج

جمع الآيات وتفسيرها

قومٌ أهلكهم تقليدهم:

إنّ الآيةَ الاولى أشارت إلى حديث قوم «عاد» مع رسولهم ذى القلب العطوف

---

(۱). مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب؛ البرهان القاطع وكتب اخرى.

(۲). وقد اعتبر البعض «اقليد» مفردة يمنية أو رومية (مجمع البحرين ولسان العرب- مادة قلد-).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۰

نفحات القرآن ج۱ ۲۹۹

الرحوم «هود»، فعندما دعاهم إلى التوحيد وترك الظلم والاجحاف والترف أجابوه: «سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِّنَ الوَاعِظِينَ وبهذا كشفوا عن تحجرهم وصلابتهم تجاه كلام النبى المنطقى، وذلك لعدم سماح حجاب التقليد لهم بقبول الحقيقة.

ج‌ج

وقد كشفت الآية الثانية عن مواقف مشركى العرب عندما كانوا يُدعون إلى ما أنزل اللّه، وإلى ترك عبادة الأصنام، وترك البِدَع فى تحريم كثير من الامور الحلال، وكان جوابهم آنذاك: «حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا» فيظنون أنّ هذا يغنيهم عن القرآن هادياً!!

إلّا أنّ القرآن أراد ايقاظهم من غفلتهم هذه وأراد تمزيق حجاب التقليد عندهم فأجابهم:

«أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ وهل يجوز تقليد الجاهل الضالّ:؟!

ج‌ج

والآية الثالثة أشارت إلى مشركى العرب أيضاً (أو فريق من ذوى الصفات الشيطانية) فانهم إذا ما سُئِلوا عن سبب إتيانهم الفاحشة والعمل القبيح؟ أجابوا: «وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا» ولا يكتفون بهذا بل قد يضيفون: «وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا».

فينفى القرآن هذه التهمة الكبيرة ويقول: «انَّ اللَّهَ لَايَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ .

يعتقد كثير من المفسرين أنّ المراد من «الفحشاء» فى الآية الكريمة هو طوافهم رجالًا ونساءً عراة فى عصر الجاهلية، حيث كانوا يعتقدون: أنّ الملابس التى ارتكب بها ذنب ليست أهلًا لأنّ يُطاف بها حول بيت اللّه الحرام.

وعلى هذا المنوال، كان ينتقل عملهم القبيح هذا من نسل إلى نسل بالتقليد الأعمى وما كان التقليد يسمح لهم لأنّ يدركوا قبح هذا الفعل.

ج‌ج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۱

إنّ رابع وخامس آية أشارتا إلى موقف وكلام فريق من المشركين فى عهد الرسول صلى الله عليه و آله أو العهود التى سبقت عهده تجاه دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو الأنبياء السالفين، حيث كانوا يقولون: «انَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَانَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ .

وهكذا توارثت الأجيال بعد الأجيال الكفر وعبادة الأصنام والآثام والعادات والسنن القبيحة، وقد نسجت روح التقليد حجاباً سميكاً على عقولهم لا يسمح لهم لقبول أى حقيقة، فيقول القرآن عن هؤلاء تارة: «أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ .

(المائدة/ ۱۰۴)

ويقول تارة اخرى: «أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ الَى عَذَابِ السَّعِيْرِ».

(لقمان/ ۲۱)

واخرى: «قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَا وَجَدْتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ .

(الزخرف/ ۲۴).

ج ج

توضيحات

۱- أنواع التقليد المختلفة

إنّ تقليد الآخرين، سواء كان تقليداً لحيٍ أو ميت، أو تقليداً لشخص أو فريق لا يخرج عن صورٍ أربع:

۱- تقليد الجاهل للعالم: أى تقليد الجاهل بشيء لمن له تخصص أو خبرة بفنٍ أو علم، مثل مراجعة المريض للطبيب الخبير بعلم الطب.

۲- تقليد العالم للعالم: أى مراجعة أهل العلم أحدهم للآخر واتباع كلٌّ منهم للآخر.

۳- تقليد العالم للجاهل: أى يترك الإنسان علمه وخبرته، ويتبع الجاهل ويقلده عشوائياً.

۴- تقليد الجاهل للجاهل: بأن يتخذ قوم جُهّال عادات وتقاليد ومعتقدات ليست

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۷۲

قائمة على دليل أو مستندة إلى شيء، ويقوم قوم آخرون باتباع أولئك القوم وتقليدهم فيها، وهذا هو أكبر عامل لانتقال المعتقدات الفاسدة والتقاليد الخاطئة من قوم إلى آخر، وهذا النوع من التقليد استهدفته أكثر الآيات التى ذمّت التقليد.

واضح أن القسم الأول من التقليد هو القسم المنطقى الوحيد، وقد اعتمدت حياة الناس على ذوى الاختصاصات وعلى هذا النوع من التقليد المنطقى، لأنّ الإنسان حتى لو كان نابغة زمانه لا يمكنه التخصص فى جميع الاختصاصات والفروع العلمية، خصوصاً، وأنّ العلم- فى هذا العصر- أصبحت له فروع وتشعبات لا تُعد ولا تُحصى، ومن المحال أن يتخصص إنسان فى فروع علمٍ أو فنٍ واحدٍ، فضلًا عن جميع العلوم والفنون.

وعلى هذا، فكل إنسان يمكنه أن يكون مجتهداً فى فرع من فروع العلوم، أمّا فى الفروع الاخرى التى لم يجتهد فيها، فلا طريق له إلّاالرجوع إلى المتخصصين فيها.

إنّ المعمار يراجع الطبيب إذا مرض، والطبيب يراجع المعمار إذا أراد بناء عمارة، أى أنّ كلًا منهما «مجتهد» فى تخصصه و «مقلِّد» فى التخصص الآخر، وهذا (رجوع الجاهل إلى العالم وغير المجتهد إلى المجتهد وغير المتخصص إلى المتخصص) أصل عقلائى كان ولا يزال متعارفاً ودارجاً بين الناس، بل إنّ عجلة الحياة تسير على هذا النوع من التقليد، بالطبع أنّ هناك شروطاً ينبغى توفرها فى المجتهد الذى يُرجع إليه، سنتعرض لها بعد ذلك.

وهذا التقليد هو الذى أشار إليه البارى تعالى فى القرآن الكريم وعنونه ب «أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب/ ۲۱)

كما جاء فى الآية: «أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ». (الانعام/ ۹۰)

ورغم أنّ الخطاب موجه للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، لكن لا يبعد أن يكون المخاطب به الامة بأجمعها.

أمّا الأقسام الثلاثة الباقية من التقليد فكلّها باطلة ولا أساس منطقى لها، فتقليد (العالم للجاهل) و (الجاهل للجاهل) حالهما واضح، وأمّا تقليد (العالم للعالم) فان كان من باب مراجعة أحدهما الآخر للتشاور وتكميل المعلومات، فلا يُعدُّ هذا تقليداً بل هو نوع من «التحقيق».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۳

إنّ التقليد هو غض الطرف عن التخصص الذى يمتلكه الإنسان واتباع شخص آخر اتباعاً بدون قيد أو شرط، فالمسلّم أنّ التقليد من قبل شخصٍ قادرٍ على التحقيق والاجتهاد أمر مذموم وغير صحيح، ولهذا لم يُجِزْ الفقه الإسلامى للمجتهدأن يكون مُقلِّداً.

ويتضح مما قلنا فلسفة تقليد المجتهدين فى المسائل الفقهية من قبل غير المجتهدين، ومثل هذا دارج فى جميع الفروع العلمية، وبما أنّ الفقه الإسلامى واسع إلى درجة حيث لا يمكن للناس جميعاً أن يجتهدوا، فجميع أبوابه والتحقيق فيها تعيّن على فريق منهم الاجتهاد بالفقه، وعلى الناس اتباعهم، إلّاأنّ الأمر يختلف عنه فى اصول الدين، فيتعين التحقيق والاجتهاد فيها على كل مسلم، وذلك لإمكانية ذلك، فلا يجوز التقليد فيها.

ج‌ج

۲- شروط التقليد الممدوح

عادة ما يقال فى تعريف «التقليد» أنّه عبارة عن قبول كلام الآخرين بلا دليل، وتارة يوسعون المفهوم ويعتبرون الاتباع العملى تقليداً من دون الالتزام بحديث أو كلام للآخرين، وتارة يعدون التأثيرات اللا إرادية (التى تتركها أعمال وسلوك وصفات الآخرين عند الإنسان) قسماً من التقليد.

بالطبع أنّ القسم الأخير من التقليد (الذى يتحقق بشكل غير ارادى) خارج عن موضع بحثنا، أمّا القسم الثانى والثالث، فيمكن أن يكونا ممدوحين إذا ما توفر شرطان فى «المقلَّد»- أو مرجع التقليد- وهما: الخبرة والصدق، أى كونه من أهل العلم أولًا، وينقل ما يوحى إليه علمه بصدقٍ ثانياً، وإذا ما انتفى هذان الشرطان دخل التقليد القسم المذموم.

ومن جهة اخرى، ينبغى أن يكون موضوع التقليد من مواضيع الاختصاصات كى يباح التقليد فيه، أمّا إذا كان من المسائل العامة التى يمكن للناس كافة الخوض والتحقيق فيها (مثل اصول الاعتقادات وبعض المسائل الأخلاقية والاجتماعية غير ذات الجانب

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۴

الاختصاصى) فانه يتعين على كل إنسان التحقيق فيها والوصول إليها بنفسه.

ومن جهة ثالثة، فإنّ المقلِّد ينبغى أن لا يكون قادراً على الاستنباط، فإذا ما قدر على ذلك فى مسألةٍ ما، مُنع من التقليد فيها.

ومن هنا تتّضح حدود التقليد الممدوح والتقليد المذموم من الجهات الثلاث (أى شروط المرجع وشروط المقلِّد) وشروط الموضوع المقلِّد فيه).

ننهى كلامنا هذا بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

قال رجل للصادق عليه السلام: إذا كان هؤلاء العوام من اليهود لا يعرفون الكتاب إلّابما يسمعونه من علمائهم فكيف ذمّهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟ وهل عوام اليهود إلّا كعوامنا يقلّدون علماءهم، فقال عليه السلام: «بين عوامنا وعوام اليهود فرق من جهه وتسوية من جهة أمّا من حيث الاستواء فإنّ اللَّه ذم عوامنا بتقليدهم علماءهم كما ذمّ عوامهم، وأمّا من حيث افترقوا فإنّ عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصراح وأكل الحرام والرشا وتغيير الأحكام واضطرّوا بقلوبهم إلى أن من فعل ذلك فهو فاسق لا يجوز أن يصدّق على اللَّه ولا على الوسائط بين الخلق وبين اللَّه فلذلك ذمهم، وكذلك عوامنا إذا عرفوا من علمائهم الفسق الظاهر والعصبية الشديدة والتكالب على الدنيا وحرامها فمن قلّد مثل هؤلاء فهو مثل اليهود الذى ذمّهم اللَّه بالتقليد لفسقة علمائهم فأمّا من كان من الفقهاء صائنا لنفسه حافظا لدينه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه فللعوام أن يقلّدوه» «۱».

ج‌ج

۳- عوامل التقليد الأعمى

التقليـد الأـعمى أو بتعبير آخر: (تقليـد الجاهـل للجاهـل) والأـسوء منه (تقليـد العالم للجاهل)، دليل على الإرتباط الفكرى، وله عوامل عديدة، نتعرض لبعضها بالإجمال هنا:

---

(۱). الوسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۹۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۵

۱- عدم النضج الفكرى: إنّ أشـخاصاً قد ينضـجون ويبلغون جسـمياً، إلّاأنّ فكرهم لا يسـتقل ولا يبلغ إلى آخر العمر، ولهذا يظلون من أتباع هذا وذاك، ولا يفكرون يوماً فى مسألة ما ولا يحللونها باستقلال.

إنّ أنظار هؤلاء تترصـد الآخرين دائماً، فيرددون ما يتفوه به الآخرون، وكأنهم خُلِقوا بلا إرادة، ولهـذا قـد يغيرون اتّجاههم بالكامل إذا ما تغيرت بيئتهم أو تغير محيطهم.

إنّ طريق مكافحة هذا النوع من التقليد الأعمى هو رفع المستوى الثقافى للمجتمع والسعى لإزدهار الأفكار والقابليات.

۲- التأثر بشخصية: وهى أنْ يتأثَّرَ الإنسان بشخصـية ما ويجعلها أسوة له بحيث لا يرى نفسه أهلًا لإبداء الرأى أمام صاحبها، فيتبعه بكل معنى الكلمة ويسير خلفه وإن لم تكن تلك الشخصية أهلًا للاتباع والتقليد.

۳- التعلق الشديد بالأسـلاف: والتعلق هذا قد يصـنع منهم أناساً مقدسـين وإن لم يكونوا أهلًا لذلك، فتتبعهم الأجيال اللاحقة عشوائياً، ومع أنّ الأجيـال اللاحقـة التى ترث علوم السـالفين وتضـيف اليهـا علومـاً اخرى تكون أكثر وعيـاً بطبيعـة الحال، لكنها مع ذلك تبتلى بالتقليد العشوائى.

۴- التحزّب أو التعصّب الطائفى: إنّ تعصباً كهذا يدفع بفريق من الناس لاتباع حزب أو طائفة والسير خلفهما والتمسّك بترديد ما يتبناه ذلك الحزب أو تلك الطائفة، بحيث لا يسمح الإنسان لنفسه بالتفكير باستقلال والعمل خارج اطار الحزب أو الطائفة.

إنّ هـذه العوامل الأربعـة وعوامل اخرى سـببٌ لانتقال كثير من الخرافات والأوهام والعقائـد الباطلـة والتقليد والعادات الخاطئة والسـنن الجاهلية والأعمال القبيحة من قوم إلى قوم آخرين ومن نسل إلى نسل آخر.

وبتعبير آخر، فإنّ الميول الخاطئة تجعل حجاباً على فكر الإنسان تحول دون معرفته للحق.

ججج

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۶

۸- حجاب حب الرفاه

اشارة

فى البدء نتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَاذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِـدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْـتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ الْقَاعِدِينَ* رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ . (التوبة/ ۸۶- ۸۷)

۲- «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ . (التوبة/ ۹۳)

ججج

جمع الآيات وتفسيرها

اعفنا من الجهاد:

أشارت الآية الاولى إلى أولئك الذين لم يستعدوا لتنفيذ الأوامر الإلهيّة فى مجال الجهاد، فبالرغم من اقتدارهم الجسمى والمالى للحضور فى سوح القتال لكنهم انضموا إلى صفوف القاعدين وغير القادرين على الجهاد، وقد ألحوا على الرسول صلى الله عليه و آله بأن يذرهم ويجعلهم مع القاعدين والخوالف.

و «القاعدين» جمع «قاعد» وهم المعذورون عن الجهاد.

و «الخوالف» جمع «خالفة» ومن مادة (خَلْف) ومعناها يقابل الأمام، ولهذا يقال «خالفة» للنساء اللاتى يبقين ماكثاتٍ فى بيوتهنَّ عند خروج رجالهن، ولا يبعد أن يكون مفهوم هذه المفردة أعم من النساء، بحيث يشمل جميع العاجزين عن الجهاد والمعذورين عن الالتحاق بساحات القتال من النساء والأطفال والشيوخ والمرضى

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ «خالفة» عمود يجعل فى نهاية الخيمة وتطلق- كناية- على النساء الماكثات فى البيوت، ويقول البعض: إنّ «خالف» من تخلّف كثيراً «۱».

---

(۱). تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۵۷۲.

وتستعمل هذه المفردة- أحياناً- بمعنى «كريه الرائحة» من باب أنّ الرائحة الكريهة تستخلف الرائحة الجيدة إذا ما ذهبت.

وقال البعض: إنّها بمعنى الانحطاط والميل إلى الامور الدنيئة لانَّ هذا المَيْل يدلّ على التخلف «۱»، إلّاأنّ المعنى الأول أنسب من بقيّة المعانى.

وعلى أيّة حال، فإنّ محبى الرفاه وطلاب العافية غير مستعدين للايثار والتضحية عند الأزمات والكوارث الاجتماعية، وهم مستعدون لأنّ يُجعلوا فى صفوف الأطفال والمرضى دون أن يلتحقوا بصفوف المجاهدين، ويقول القرآن فيهم، فى نهاية الآية نفسها:

«وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ .

نعم، إنّ حبّ الراحة والرفاه كالحجاب الذى يمنع من الرؤية الفكرية الصحيحة، فهؤلاء لا يدركون أنّ السعادة ليست بالأكل والشرب، بل قد تكون فى الحضور فى ميادين الجهاد، وفى التخضب بالدماء، وبلقاء اللَّه، إلّاأنّ الذى لا يفهم هذه الامور يستهزئ بها.

ج‌ج

وتشير الآية الثانية إلى المعذورين عن الجهاد مثل الضعفاء والمرضى والذين لا يملكون الوسيلة للقيام بهذا الأمر، بينما تشتاق إليه قلوبهم، وتصب دموعهم لعدم اقتدارهم على الانفاق، يقول اللَّه فيهم: «إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِيْنَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ .

ثم يضيف: «وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَعْلَمُونَ وذلك لأنّ الميل إلى الراحة جَعَلَ حجاباً سميكاً على قلوبهم فلا يكادون يفقهون شيئاً، إنّ كلتا الآيتين توضح حقيقة واحدة وهى العلاقة بين «التخلف عن الجهاد لأجل الراحة والصحة» و «عدم إدراك الحقائق».

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۶، ص ۱۶۳.

۹- حجاب الأمانىّ

اشارة

۱- «يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ قَالُوا بَلى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ».

(الحديد/ ۱۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الآمال البعيدة:

إنّ «الأمانى» جمع «أمنية» وتطلق على الحالة النفسية التى تعرض للإنسان من جراء تمنيه لشىءٍ ما «۱»، والجدير بالذكر أنّ الأمانى المعقولة والمنطقية ليست نقصاً، بل هى عامل لتقدم البشر وبناء مستقبل أفضل لهُ من الحاضر، إنّما النقص فى الآمال البعيدة وغير المنطقية، ولهذا يفسرون الأمانى فى موارد كهذه بالمعنى الثانى، حيث تجعلُ الإنسان فى غفلة وتسدل حجاباً من الظلمة على قلبه.

ويقول ابن الأثير: إنّ التمنى يعنى تشهّى حصول الأمر وكذلك يطلق على ما يخطر على النفس بالنسبة للمستقبل، كما أنّ «مُنْية» و «الامْنيّة» وردتا بمعنى واحد «۲»، إلّاأنّ بعضاً فسّر «الأمنية» بالكذب، ذلك لأنّ الكاذب يُقدّر أمراً فى قلبه ثم يحدّث به «۳».

يقول الراغب: لما كان الكذب تصوّر ما لا حقيقة له صار التمنى كالمبدأ للكذب فصحّ أن يُعبّر عن الكذب بالتمنّى.

وادّعى البعض: أنّ معنى هذه المفردة فى الأصل هو التقدير والفرض والتصوير «۴»،

---

(۱). مفردات الراغب، وينبغى الالتفات إلى أن الأمانى جمع أمنية، أمّا مُنى فجمع منية.

(۲). لسان العرب.

(۳). المنجد مادة (منى).

(۴). مجمع البحرين للطريحى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۷۹

وقد قيل للأمانى أمانى لأنّ الإنسان يقدرها ويصورها فى ذهنه.

وعلى أيّة حال، فإنّ المؤمنين عندما يجتازون المحشر نحو الجنّة بسرعة فى ظل الإيمان يصرخ المنافقون والمنافقات: «أُنْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُم»، فيجيبهم المؤمنون:

«ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ» الدنيا «فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . (الحديد/ ۱۳)

وعندها يصرخ المنافقون: «أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ فى الدنيا فى مجتمع واحد وقد كنا فى بعض الطريق معكم؟ فما الذى حصل حيث انفصلتم عنا واتجهتم نحو رحمة اللّه وتركتمونا فى العذاب؟

فيجيبهم المؤمنون «بلى كنا معكم فى مجتمع واحد، فى الزقاق وفى السوق، وفى السفر والحضر، وكنا جاراً لكم، بل عشنا فى بيت واحد، ولكنكم أخطأتم خمسة أخطاء فاحشة، الأوّل: أنّكم سلكتم طريق الكفر والنفاق ففتنتم أنفسكم: «وَلكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ .

وثانياً: أنّكم «تَرَبَّصْتُمْ وترصدتم فشل المسلمين، وموت الرسول صلى الله عليه و آله، وتحججتم فى كل عمل خير.

وثالثاً: «وَارْتَبْتُم وترددتم خاصة فى مسألة المعاد، وحقانية الإسلام.

ورابعاً: «وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُ التى نسجت حجاباً ضخماً على عقولكم وأفكاركم «حَتّى جاءَ أَمرُ اللَّهِ .

وخامساً: «وَغَرّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» أى غركم الشيطان بعفو اللَّه ووعدكم بأنّا يَنالَكُمْ عذابه.

نعم، إنّ هذه العوامل معاً أوجدت المنظر الذى صوره القرآن لنا، وهى التى سببت خلق سورٍ عازل بين المؤمنين والمنافقين.

إنّ شاهد حديثنا هو الجملة الرابعة، حيث جاء فيها «وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُ ، الأمانى قد تصل إلى درجة بحيث تشغل فكر الإنسان بالكامل، فيغفل عن كلّ شىء، ويظل فى

عالم الوهم والظن، فتعمى عيناه، ويثقل سمعه، ويفقد وعيه (إذا كان واعياً)، ويظلّ فى الظلمات التى وضعها بنفسه تائهاً.

إنّ سعة الأمانى قد تصل إلى درجة يرسم صاحبها خططاً لنفسه لا يمكن تطبيقها حتى لو كان كنوحٍ عليه السلام فى العمر، وقد يقوم بمقدّمات امنية، الكلُّ يعلم بعدم امكانها حتى لو كان قد بدأ بها منذ قرون، وهذا هو حجاب الأمانى الذى يحول دون المعرفة.

وقد نقل بعض المفسرين خمسة أقوال فى تفسير الأمانى إضافة إلى الآمال البعيدة، والأقوال هى:

(تمنى فشل المؤمنين وضعتهم، وإغواء الشيطان، والدنيا، وتوقع استغفار الرسول للمنافقين، وتذكّر الحسنات ونسيان السيئات) «۱»، وقد فسرها البعض ب «الأباطيل».

توضيح:

حجاب الأمانى فى الروايات الإسلامية:

إنّ مسألة (الآمال الطويلة والأوهام البعيدة عن الواقع، وأنّها تجعل حجاباً على عقل الإنسان وشعوره) لم يشر اليها فى القرآن الكريم فحسب، بل لها شواهد كثيرة فى الروايات الإسلامية والتواريخ أيضاً، ففى حديث مشهور للإمام على عليه السلام يقول فيه: «إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان، إتّباع الهوى وطول الأمل، فأمّا اتباع الهوى فيصدُّ عن الحق وأما طول الأمل فيُنسى الآخرة» «۲».

ويقول فى كلماته القصار: «الأمانى تُعمى أعين البصائر» «۳».

ونقرأ فى حديث آخر لنفس الإمام عليه السلام: «جماع الشرّ فى الاغترار بالمُهل والاتكال على الأمل» «۴».

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۶۴۱۷.

(۲). نهج البلاغة، الخطبة ۴۲.

(۳). نهج البلاغه الكلمات القصار، الكلمة ۲۷۵.

(۴). غرر الحكم (حرف ج رقم ۵۵).

كما نقل عن نفس الإمام فى هذا المجال أنّه قال: «غرورُ الأملِ يفسدُ العلم» «۱».

والخلاصة أنّ من يريد الاطلاع على جمال الحقيقة كما هى ويصل إلى ينبوع المعرفة الصافى، ينبغى له أن لا يغطى عقله بحجاب الأمانى السميك، وأن لا يضل فى متاهات طريقها.

ونختم هذا البحث بحديث آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول فيه: «واعلموا أن الأمل يُسهى العقل ويُنسى الذكرَ فاكذبوا الأمل فإنّه غرورٌ وصاحبه مغرور» «۲».

ج ج

---

(۱). غرر الحكم (حرف ج، رقم ۵۵).

(۲). نهج البلاغة، الخطبة ۸۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۳

۲- الأعمال التى تحجب عن المعرفة

۱- حجب الذنوب

اشارة

نتأمل خاشعين معاً فى الآيات التالية:

۱- «الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَومِ الدِّينِ* وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ الَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* اذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ* كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ . (المطففين/ ۱۱- ۱۴)

۲- «فَهَلْ عَسَيْتُمْ إنْ تَوَلَّيْتُمْ أنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ* أُوْلئِكَ الَّذِيْنَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ . (محمد/ ۲۲- ۲۳)

۳- «أَوَ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِيْنَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِم وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُم لَا يَسْمَعُونَ . (الأعراف/ ۱۰۰)

۴- «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِيْنَ أَسَاؤُا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ . (الروم/ ۱۰)

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب يُعمى الإنسان ويصمه:

أشارت الآية الاولى إلى أولئك الذين أنكروا القيامة بالكامل، وأضافت: أنّ القيامة لا ينكرها إلّاالمعتدون والآثمون، فانّهم لا يخضعون أمام الحق ولا يسلمون إليه أنفسهم أبداً، ولهذا إذا تُليت عليهم آيات اللّه قالوا: أساطير الأولين.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۴

وَيصرح القرآن: أنّ الأمر ليس كما يتوهم هؤلاء، وقولهم هذا سببه الصدأ الذى أحاط قلوبهم وحال دون أن يعقلوا شيئاً.

لقد استخدمت مفردة «رَيْن» فى هذه الآية الكريمة، وقد قلنا سابقاً: أنّ لها معانى ثلاثة (على ما يدعيه أئمّة اللغة) الأول: الصدأ الذى يعلو الأشياء القيّمة، الثانى: الصدأ الذى يعلو الفلزات وهو علامة تآكل وفساد ذلك الفلز، الثالث: كل شىءٍ غلب على شىءٍ آخر، ولهذا تستعمل هذه المفردة فى مجال غلبة الشراب المسكر على العقل وغلبة الموت على الأحياء، وغلبة النوم على العيون «۱».

وبالطبع يمكن جمع هذه المعانى الثلاثة فى مفهوم واحد وهو الصدأ الذى يستحوذ على الأشياء ويعلوها، ثم اطلقت هذه المفردة على غلبة كل شىءٍ على شىءٍ آخر.

ونستشف من هذه الآية أنّ الإثم يعكر صفاء القلب بحيث يمنع انعكاس الحقائق فى هذه المرآة الإلهيّة، وإلّا فإنّ آيات اللّه خصوصاً فى مسألة المبدأ والمعاد واضحة ولا تقبل الانكار.

ولهذا فقد قال بعض المفسرين: يظهر من هذه الآية أولًا: أنّ الأعمال القبيحة تُوجِد نقوشاً وصوراً فى نفس الإنسان، وثانياً: أنّ هذه الصور والنقوش تحول دون إدراك الحق.

وثالثاً: إنّ روح الإنسان- وحسب طبيعتها الأولية- صافية وشفافة، وتدرك الحقائق كما هى، وتميز بين الحق والباطل وبين التقوى والفجور، كما جاء ذلك فى الآيات «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» «۲». (الشمس/ ۷- ۸)

وقد حلل مفسرون آخرون المسألة بشكل ملخص آخر.

عندما يكرر الإنسان عملًا ما فإنّ ملكة نفسانية لذلك العمل ستحصل عنده تدريجياً، كالقراءة والكتابة، ففى البداية يشق عليه الأمر، وبعد الممارسة يتمكن منهما بدرجة لا يحتاج فيهما إلى فكر ودراسة.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۹۴؛ تفسير روح المعانى، ج ۳، ص ۷۲.

(۲). تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۴۹.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۵

وكذلك الأمر بالنسبة للذنوب، فبالاصرار عليها وارتكابها مرات عديدة تحصل هذه الملكةُ عند الإنسان، ونعلم أنّه لا حقيقة للذنب غير إشغال القلب بغير اللَّه، والتوجه لغير اللَّه ظلمة، وعندما تتراكم الظلمات على القلب تسلبه صفاءَه وشفافيته، وإنّ لهذه الظلمات درجات ومراحل، المرحلة الاولى هى مرحلة «الرَيْن» أو الصدأ، والمرحلة الثانية هى مرحلة «الطبع» والمرحلة الثالثة هى مرحلة «الأقفال» وهى أشد المراحل.

ج‌ج

والآية الثانية ناظرة إلى المنافقين الذين يَدّعون الإيمان، فإذا ما نزلت آية فى الجهاد تمارضوا وتذرّعوا بذريعة من هو على وشك الموت، فيخاطبهم القرآن قائلًا، إنّ استمراركم فى مخالفتكم هذه وإعراضكم عن العمل بكتاب اللَّه، سيؤدى بكم إلى أن تفسدوا فى الأرض، وأن تقطعوا أرحامكم، ولا يأمن شركم حتى أرحامكم، ثم يضيف:

«أولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ (بذنوبهم فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ فما كادوا يسمعون الحق ولا يرونه.

وقد كشفت هذه الآيات عن أنّ النفاق حجاب للقلب والروح من جهة، ومن جهة اخرى عن التأثير السلبى للذنوب خصوصاً (الفساد فى الأرض) و (قطع صلة الرحم) و (الظلم والجور) على إدراك الإنسان وتمييزه بين الحق والباطل.

ولقد فسّر البعض عبارة «إن توليتم» بالاعراض، وفسرها بعض آخر بالولاية والحكومة، أى أنَّ مقاليد الامور إذا أصبحت بأيديكم فستفسدون وتريقون الدماء وتقطعون الأرحام «۱»، ولهذا جاء عن أميرالمؤمنين عليه السلام: أنّ الآية نزلت فى بنى امية «۲»، وهذا تلميح إلى أنّهم عند استلام زمام الامور والحكومة الإسلامية سوف لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً، ولم يسلم من ظلمهم أحد حتى أقاربهم وذووهم.

---

(۱). ورد كلا التفسيرين فى تفاسير روح المعانى ومجمع البيان والميزان فى ذيل الآيات المذكورة فى البحث.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۴۰، ح ۵۹.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۶

وسواء كان معنى «التولى» هنا هو الإعراض عن الجهاد أو استلام مقاليد الامور فى الحكومة والفساد فى الأرض، فإنّ ذلك لا يضر ببحثنا، لأنّ الآية على أيّة حال تبين أنّ الذنوب حجاب للقلوب.

ج‌ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى أولئك الذين ورثوا الاسلاف من دون أن يعتبروا بمصيرهم الذى ابتلوا به، فخاطبتهم: «لو نَشآءُ أَصَبْناهُم بِذُنوبِهِمْ ونَطْبَعُ على قُلُوبِهِمْ فَهُم لَا يَسْمَعُونْ .

عطف العقاب على الذنوب مع الطبع على القلوب والآذان، تلميح إلى العلاقة بين هذين الاثنين.

ويقول البعض: إنّ اللّه إذا شاء عذّبهم بأحد العذابين: إمّا بإهلاكهم بسبب ذنوبهم، وإمّا بإبقاءهم أحياء مع سلب قدرة تمييز الحق عن الباطل منهم، وهذا عذاب أتعس من عذاب الهلاك الإلهى.

إلّا أنّه بالالتفات إلى مجيء «أصبناهم» بصيغة الماضى و «نطبع على قلوبهم» بصيغة المضارع، نفهم أنّ الجملة الثانية مستقلة وليست عطفاً على ما قبلها، فيكون معنى الآية هكذا: (سواء عجلنا بعذابهم أم لم نعجل فَنحن نطبع على قلوب هؤلاء ونلقى حُجباً عليها) «۱».

ج ج

أشارت رابع وآخر آية إلى عاقبة الذين يرتكبون الأعمال السيئة فقالت: «ثُمَّ كَانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ أَساؤا السُّوأَى أنَ كَذَّبُوا بآياتِ اللَّهِ لِمَ لا يكون مصيرهم هذا والذنب كالمرض الذى ينقض على روح الإنسان فيتآكل الإيمان من جرائه؟ ولِمَ لا يكون هكذا

---

(۱). جاء هذا كاحتمال فى تفسير الكبير، فى ذيل نفس الآية، إلّاأنّ صاحب تفسير الميزان عَدَّ الجملة الثانية معطوفة على «أصبناهم» التى تفيد الاستقبال، لكن الظاهر أنّ التفسير الأول أنسب.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۷

وهو كالحجاب الذى يغطى القلب ويعميه؟ والأسوأ أنّه لا يكفر فحسب، بل يفتخر بكفره، وقد شهد التاريخ الكثير من هؤلاء.

وخلاصة الحديث، إنّ القرآن يعدُّ الذنوب والمعاصى من موانع المعرفة، وهذه حقيقة ملموسة ومجربة عند كثير من الناس، فبمجرّد صدور ذنب أو معصية منهم يشعرون بظلمات خاصة فى قلوبهم، وإذا ما مالوا إلى الطهارة والتقوى يشعرون بأنوار ترتاح لها قلوبهم.

ج ج

توضيح:

إنّ الذنب حجاب فى الروايات الإسلامية

لقد انعكست هذه الحقيقة فى الروايات الإسلامية بشكل واسع نذكر هنا نماذج منها:

۱- جاء فى حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله يقول فيه:

«إنّ العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبه نكتة سوداء فإذا هو نزع واستغفر اللّه وتاب صَقُل قلبه فإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الرّان (الرين) الذى ذكر اللّه فى كتابه: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » «۱».

۲- ونقرأ فى حديث الإمام الصادق عليه السلام: أنّه قال فيه:

«كان أبى يقول: ما من شىء أفسدُ للقلب من خطيئة، إنّ القلب لَيُواقع الخطيئة فما تزال به حتى تغلب عليه فيصير أعلاه أسفله» «۲».

بديهى أنّ المراد من (أعلاه أسفله) تغير قدرة الإنسان على التمييز- بسبب الانس بالذنوب- حيث يرى الحسن قبحاً والقبح حسناً، وهى أخطر مرحلة.

۳- وقد جاء فى حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام أيضاً يقول فيه:

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۰۵۰، روح المعانى، تفسير ج ۳، ص ۷۳، وتفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۹۴.

(۲). اصول الكافى، ج ۲ باب الذنوب، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۸

«إذا أذنب الرجل خرج فى قلبه نكتة سوداء فان تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يُفلحُ بعدها أبداً» «۱».

واضح، أنّ الشرط الأول للفلاح هو إدراك الحقائق، فالذى تعطّل قلبه (عقله) عن العمل كيف يمكنه الوصول إلى السعادة والفلاح؟!

وقد جاء نفس المضمون فى رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير الآية «كَلّا بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ مّا كانُوا يَكْسِبُونَ ، وتم التعبير فيه بالنكتة السوداء والنكتة البيضاء حيث تتغلب السوداء- نتيجة تراكم الذنوب- على البيضاء النورانية وتغطيها «۲».

۴- وفى حديث آخر للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله يقول فيه:

«كَثْرَةُ الذُّنُوبِ مُفْسِدَةٌ لِلْقَلْبِ» «۳».

۵- وقد نقل فى كتاب الخصال حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله جاء فيه:

«أربع خصال يُمتن القلب: الذنب على الذنب ...» «۴».

ولهذا، فإنّا أُمرنا- لمحو آثار الذنوب- قراءة ودراسة أحاديث الأئمّة إضافة إلى التوبة، كما نقل ذلك فى نور الثقلين عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

«تذاكروا وتلاقوا وتحدثوا فإنّ الحديث جلاء للقلوب وَإنّ القلوب لترين كما يرين السيف، وجلاءه الحديث» «۵».

۶- وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام لهذه الحقيقة فى خطبة له مخاطباً بها بعض عمى القلوب:

«قد خرقتِ الشهوات عقله وأماتت الدنيا قلبه وولهت عليها نفسه فهو عبد لها» «۶».

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲ باب الذنوب، ح ۱۳.

(۲). المصدر السابق، ح ۲۰، وقد نقل نفس المضمون فى مجمع البحرين فى مادة (ارين) أيضاً.

(۳). تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۳۲۶.

(۴). الخصال، ج ۱، ص ۲۵۲، ح ۶۵، وقد جاء مضمون يشبه هذا فى تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۳۲۶.

(۵). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۱، ح ۲۳.

(۶). نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۸۹

۷- وقد نقل الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«إذا ظهر العلم واحترز العمل وائتلفت الألسن واختلفت القلوب وتقاطعت الأرحام هنالك لعنهم اللَّه فأصمهم وأعمى أبصارهم» «۱».

۸- وقد صُرّح بهذا الأمر بالنسبة لبعض الذنوب كما جاء ذلك فى حديث لأميرالمؤمنين عليه السلام مخاطباً به أولئك الذين تركوا الجهاد:

«ألبسه اللَّه ثوبَ الذل ... وضُرب على قلبه بالأسهاب وأُديل الحق منه بتضييع الجهاد» «۲».

۲- حجاب الكفر والأعراض

اشارة

فی البدایة نمعن خاشعین فی الآیات الکریمة التالیة:

۱- «تِلْکَ الْقُرَی نَقُصُّ عَلَیْکَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَمَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ کَذَلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِ الْکَافِرِینَ .

(الأعراف/ ۱۰۱)

۲- «فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِّیْثَاقَهُمْ وَکُفْرِهِمْ بِآیَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِیَاءَ بِغَیْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَیْهَا بِکُفْرِهِمْ فَلَا یُؤْمِنُونَ الَّا قَلِیلًا».

(النساء/ ۱۵۵)

۳- «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُکِّرَ بِآیَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِیَ مَا قَدَّمَتْ یَدَاهُ انَّا جَعَلْنَا عَلَی قُلُوبِهِمْ اکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَفِی آذَانِهِمْ وَقْراً وَانْ تَدْعُهُمْ الی الْهُدَی فَلَنْ یَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً». (الکهف/ ۵۷)

۴- «وَالَّذِیْنَ لَایُؤْمِنُونَ فِی آذَانِهِم وَقْرٌ وَهُوَ عَلَیْهِمْ عَمیً أُوْلئِکَ یُنادَوْنَ مِنْ مَّکَانٍ بَعِیدٍ». (فصلت/ ۴۴)

---

(۱). تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۴۱، ح ۶۳.

(۲). نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۰

جمع الآیات وتفسیرها

لِمَ یحجب الذنبُ القلوبَ عن الفقه؟

إنَّ الآیة الاولی بعد إشارتها إلی تاریخ وقصص خمسة أقوام من الأقوام السالفة وهم (قوم نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعیب) حیث نزل علیهم العذاب الإلهی لتکذیبهم آیات اللَّه، قالت: «تِلْکَ الْقُرَی نَقُصُّ عَلَیْکَ ...».

إنّ جملة «کَذلِکَ یَطْبَعُ اللَّهُ عَلَی قُلُوبِ الْکافِرِینَ لا- تشیر إلی أی کافر کان، وذلک کثیراً من المؤمنین کانوا فی صفوف الکفار والتحقوا بصفوف المؤمنین بعد سماعهم لدعوة الأنبیاء، فالمراد- إذن- ذلک الفریق من الکافرین الذین ألحوا وأصروا علی کفرهم، فان کفرهم هذا یحول دون معرفتهم ورؤیتهم للحق.

والشاهد علی هذا الکلام هو قوله: «فَمَا کانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ أی أنّ تعصبهم بلغ درجةً لا- تسمح لهم بتغییر طریقتهم والرجوع عن الباطل إلی الحق، وقد ذکرت خمسة وجوه فی تفسیر هذه الجملة فی تفسیر المیزان والفخر الرازی «۱»، إلّاأنّ أظهرها هو ما تقدم اعلاه.

والآیة الثانیة بعد ما أشارت إلی سلوک فریق من الیهود وعدائهم للأنبیاء قالت: «فَبِما نَقْضِهِمْ مِّیْثَاقَهُمْ وَکُفْرِهِمْ بِآیَاتِ اللَّهِ ...».

یقول القرآن: إنّهم لا یفقهون شیئاً وذلک لکفرهم فطبع اللَّه علی قلوبهم من جراء ذلک.

بدیهی أنّ المراد من الکفر هنا هو الکفر المتزامن مع العناد، والکفر المتزامن مع العداء للأنبیاء، والکفر المتزامن مع نقض المواثیق باستمرار والاستهزاء بآیات اللَّه، ومسلم أن کفراً کهذا یجعل حجاباً علی عقل الإنسان لا یسمح لصاحبه أن یدرک الحقائق، وهذا شیء صنعته أیدیهم ولا جبر فی البین.

ویظهر أنّ مرادهم من «قلوبنا غلف» هو الاستهزاء بآیات اللَّه وبشخصیة موسی بن عمران، لا أنّهم یعتقدون أنّ قلوبهم خُلِقت مغلَّفةً لا تفهم الحقائق (کما جاء ذلک فی بعض

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۸، ص ۲۱۵؛ تفسير الكبير، ج ۱۴، ص ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۱

التفاسير) «۱»، إلّاأنَّ اللَّه أخذ كلامهم بالجد وأجابهم: «بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ ...».

وهناك احتمال آخر وهو أنّ مرادهم من الجملة هو أن قلوب كلٍّ منهم كالوعاء الملىء بالعلم والغمد الذى فيه السيف فلا تحتاج لعلوم الآخرين «۲»، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد جداً.

وعلى هذا، فهناك ثلاثة احتمالات فى تفسير الآية والأول أنسب من الآخرين، وقد نقل فى بعض التفاسير حديث ذا مغزىً عميق عن الرسول صلى الله عليه و آله يقول فيه: «الطابَعُ مُعَلّق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمة وعُمِل بالمعاصى واجتُرىء على اللَّه تعالى بَعَثَ اللَّه تعالى الطابع فطبع على قلبه فلا يعقل بعد ذلك شيئاً» «۳».

والجدير بالذكر هو أنّ «طابع» اسم فاعل للطبع و «طابَع» اسم آلة الطبع، ويظهر فى الحديث أنّ الكلمة الاولى بالفتح والثانية بالكسر.

وهذا الحديث يؤكد بوضوح الحقيقة التالية: أنْ لا جبر هنا، وأنّ حجب القلوب نتيجة لأعمال الإنسان نفسه.

ج‌ج

وَطرحت الآية الثالثة سؤالًا تقريرياً حيث قالت: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ ...».

إنّ دليل اعتبار القرآن هؤلاء أظلم الناس واضح لأنّهم ظلموا أنفسهم كما ظلموا الآخرين كذلك فإنّ ظلمهم هذا وقع فى محضر الساحة القدسية الإلهيّة مع وجود تعاليمه الحقة، وعليه فالآية لا تدل على عدم الجبر فحسب، بل تدل على اصالة الاختيار.

وما يلفت النظر هنا هو أنّ الفخر الرازى بالرغم من كونه من القائلين بالجبر، لكنهُ

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۵، ص ۳۸؛ تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۲۰۰۴.

(۲). لقد جاء هذا الاحتمال فى التفاسير التالية: فى تفاسير الكبير، ج ۱۱، ص ۸۷؛ والقرطبى، ج ۳، ص ۲۰۰۴؛ و روح المعانى، ج ۶، ص ۸.

(۳). تفسير روح المعانى، ج ۶، ص ۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۲

عندما يصل إلى هذه الآية يقول: إنّ آخر الآية دليل لمؤيدى الجبر، بينما صدرها دليل لمؤيدى الاختيار! ثم يضيف: قلّما نجد آية فى القرآن تؤيد أحد الفريقين، وإذا ما وجدنا آية مؤيدة لفريق وجدنا قبالها آية تؤيد الفريق المقابل، والتجربة شاهد على ما نقول، وهذا امتحان صعب من اللَّه للعباد، وذلك لكى يتميز الراسخون فى العلم عن المقلِّدين «۱»! ياله من اعتراف عجيب؟!

ونضيف إلى ما قاله الفخر الرازى: أنّ كلًا من آيات القرآن لا يمكن دراستها وملاحظتها لوحدها من دون ملاحظة ودراسة الآيات الاخرى فضلًا عن صدر وذيل الآية الواحدة، كما نقول: إنّ الآية بصدرها وذيلها دليل على مسألة الاختيار لا شىء آخر، وذلك لأنّ صدرها يقول: إنّ الإعراض عن آيات اللَّه واقتراف الذنوب من أفعال الإنسان وهو فاعلها باختياره، بينما ذيل الآية يقول: إنّ اللَّه يعاقب المُصرّين على السير فى هذا الطريق، وعقابهم هو جعل الأكنة على قلوبهم.

وبتعبير آخر: إنّ اللَّه جعل لهذه الذنوب آثاراً ومردودات، وهذه الآثار تعكّر صفاء القلب، وتسلب قدرة التميز عند الإنسان، فأىّ جبر فى هذا الحديث؟!

مثله كمثل الخبير الذى يعلم بأن السم قاتل، وبالرغم من ذلك يتناوله، فهل هذا التأثير القهرى للسم جبر؟!

ج‌ج

وقد أشارت الآية الأخيرة إلى المعاندين الذين يختلقون الحُجج ويسألون- أحياناً- هذا السؤال: لِمَ لَمْ ينزل القرآن أعجمياً كى نعيره

أهمیّة أکبر ولکی لا ینحصر فی العرب؟

(قد یکون غرضهم الأساسی من هذا هو عدم فهم عامة الناس له والاقبال علیه إذا ما کان أعجمیاً).

---

(۱). تفسیر الکبیر، ج ۲۱، ص ۱۴۲، والعجیب أنّ الآلوسی فی روح المعانی عندما نقل عبارة الفخر الرازی ادعی أنّالفخر الرازی قال: إنّ هذه الآیة من أدلة القائلین بالجبر والآیة التی قبلها من أدلة القائلین بالاختیار. وقد نقل صاحب المیزان العبارة من روح المعانی، بینما مراد الفخر الرازی صدر وذیل الآیة نفسها (تأمل جیداً).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۳

فأجابهم القرآن فی صدر الآیة: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرآناً أَعْجَمِیّاً لَّقَالُوا لَوْ لَافُصِّلَتْ آیَاتُهُ . (فُصّلت/ ۴۴)

أی لأشکلتم اشکالًا آخر وهو: أنّ القرآن مبهم وغامض، ثم یضیف القرآن: «ءَاعْجَمِیٌّ وَعَرَبِیٌّ أی هل یصحّ لنبی عربی أن یأتی بقرآن أعجمی؟

ثم أمر اللَّه الرسول صلی الله علیه و آله بأن یجیبهم هکذا: «قُلْ هُوَ لِلَّذِینَ آمَنُوا هُدیً وَشَفَاءٌ وَالَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ فِی آذَانِهِم وَقْرٌ وَهوَ عَلَیْهِمْ عَمیً أُولئِکَ یُنادَونَ مِنْ مَّکَانٍ بَعِیدٍ».

وقد بیّنت الآیة بوضوح أنّ اختلاق الحجج والعناد والإصرار علی الکفر یجعل حجاباً علی القلوب یمنعها عن الإدراک والفهم «۱».

۳- حجاب الاعتداء والعدوان

اشارة

«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا الَی قَومِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَیِّنَاتِ فَمَا کَانُوا لِیُؤْمِنُوا بِمَا کَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ کَذَلِکَ نَطْبَعُ عَلَی قُلُوبِ الْمُعْتَدِیْنَ . (یونس/ ۷۴)

جمع الآیات وتفسیرها

بیّنت الآیات السابقة لهذه الآیة من سورة یونس قصة نوح، حیث کان یدعو قومه للَّه ویسعی لهدایتهم وانذارهم من عذاب اللَّه، إلّاأنّهم کذبوه، فاغرقهم اللَّه بطوفانه وأهلکهم، وأنقذ المؤمنین منهم بالسفینة فورثوا الأرض.

ثم یضیف اللَّه فی الآیة: إنا أرسلنا- بعد نوح- رسلًا کلًا إلی قومه مع معاجز وأدلة واضحة ومنطقیة ورسائل یشهد محتواها علی أحقیتهم، إلّاأنّهم لم یخضعوا للحق واستمروا فی تکذیبهم.

---

(۱). فسّر البعض عبارة: «وهو علیهم عمیً» بأنّ القرآن سبب لعمی هذا الفریق، بینما قال ابن منظور فی لسان العرب والراغب فی المفردات: إنّ جملة (عمی علیه) تعنی اشتبه علیه حتی صار کالأعمی (تأمل جیداً).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۴

ویقول اللَّه فی ذیل الآیة: «کَذَلِکَ نَطْبَعُ عَلَی قُلُوبِ الْمُعْتَدِینَ ، وهذه إشارة إلی أنّ الاعتداء والعدوان یترک حجاباً فی القلب یحول دون معرفة القلب لآیات اللَّه وتمییزه بین الحق والباطل.

إنّ الطبع الإلهى على القلوب بالاضافة إلى كونه عقاباً إلهيّاً للمعتدين، كذلك يكون أثراً من آثار الاستمرار فى الاعتداء، والمراد من الاعتداء هنا هو الاعتداء فى الساحة الإلهيّة واستمرار المعصية واقتراف الذنوب ومعاداة الرسل.

إنّ جملة: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ إشارة إلى أن بعض الرسل جاءوا أقوامهم فكذبوهم، ثم أرسل اللَّه إليهم رسلًا آخرين مع أدلة واضحة فما آمنوا بهم أيضاً، وذلك لأنّ عنادهم نسج حاجباً سميكاً على عقولهم فأصبحوا لا يفقهون شيئاً ولا يعقلون.

ويقول البعض: إنّ المراد من المكذبين فى الآية قوم نوح الذين أُغرقوا بالطوفان، والمراد من القوم الذين لم يؤمنوا الأقوام التى جاءت بعد قوم نوح وقد سلكوا مسلك قوم نوح فى الاعتداء على الرسل وتكذيبهم «۱».

ويبدو هذا التفسير بعيداً عن الواقع لأنّه لازمه اختلاف مرجع الضميرين فى (كذّبوا) و (ليؤمنوا)، ولهذا فالافضل هو التفسير الأول.

ويحتمل أن يكون المراد هو: الأقوام التى جاءت بعد نوح والتى قد نُقِلت لها حقائق عن دعوة الأنبياء السالفين فكذبوا تلك الحقائق، ثم جاءتهم رسل فكذبوهم كذلك، وعلى هذا فالتكذيب الأول يتعلق بما نُقِلَ وحُكِى لهم، والتكذيب الثانى يتعلق بالامور التى شاهدوها من الأنبياء بأُم أعينهم «۲» ويبدو أنّ هذا التفسير مناسب، ولا يبعد الجمع بين التفسيرين.

ج ج

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۱۲۵.

(۲). تفسير روح المعانى، ج ۱۱، ص ۱۴۳.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۲۹۵

۴- حجاب الرؤية السطحية وترک التدبر

اشارة

۱- «وَيَدْعُ الْانْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا». (الإسراء/ ۱۱)

۲- «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا». (محمد/ ۲۴)

جمع الآيات وتفسيرها

أقفال القلوب الثقيلة:

فى الآية الاولى يذكر اللَّه سبحانه وتعالى أحد أسباب الكفر وعدم الإيمان باللَّه وهو عدم دراسة الامور بدقّة وتبحر، ويقول: إنّهم وبسبب إضطرابهم وتسرعهم يتجهون أحياناً نحو الشر بشكل وكأنهم يتجهون نحو الخير والسعادة، ويتجهون نحو الهاوية بشكل وكأنّهم يتجهون نحو مكان آمن ويتجهون نحو الذل والعار كما لو كانوا يتجهون نحو طريق الفخر والعز.

أى أنّ تفكيرهم السطحى وتركهم التدبر يجعل حجاباً على عقولهم يحول دون إدراكهم الصحيح، فيرون- لأجل ذلك- الشرّ خيراً والشقاء سعادة، والضلال صراطاً مستقيماً.

وقد جاء فى تفسير الميزان: أنّ المراد بكون الإنسان عجولًا هو: أنّه لا يأخذ بالاناة إذا أراد شيئاً حتى يتروى ويتفكر فى جهات صلاحه وفساده حتى يتبين له وجه الخير فيما يريده من الأمر فيطلبه ويسعى إليه، بل يستعمل هواه فى طلبه بمجرد تعلقه به فربّما كان شراً

فتضرر به، لكن جنس الإنسان عجول لا يفرق بين الخير والشر بسبب عجلته، بل يطلب كل ما لاح له ويسأل كل ما بدا له فتعلق به هواه من غير تمييز بين الخير والشر «۱».

أمّا المراد من «يَدْعُ» هنا؟ فيقول البعض: أنّه الطلب سواء كان فى صورة دعاء أو طلب

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۴۹ (ملخص).

من اللَّه أو كان بصورة طلب عملى أى، السعى لتحصيل الشىء وبذل الجهود لِنَيْلِهِ «۱».

إلّا أنّ المستفاد من بعض التفاسير أنّ المراد هو الدعاء اللفظى والطلب من اللَّه، ولهذا قيل فى شأن نزول الآية: إنّها نزلت فى حق النضر بن الحارث وهو من مشركى العرب المعروفين حين قال: «اللَّهُمَّ انْ كَانَ هَذَآ هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ»، فاستجاب اللَّه هذا الدعاء وأهلكه «۲».

وقد ذكر المرحوم الطبرسى كلا التفسيرين فى مجمع البيان ويظهر أنّ معنى الآية يسع كلا التفسيرين.

وقد جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السلام فى تفسيره لهذه الآية قال فيه: «وَاعْرِفْ طَرِيْقَ نَجاتِك وَهَلَاكِكَ، كَيْلا تَدْعُو اللَّهَ بِشَىء عَسى فِيْهِ هَلاكُكَ وَأَنْتَ تَظنُّ أَنَّ فِيْهِ نَجاتَكَ، قالَ اللَّهُ تَعالى «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» «۳».

وقد جاء فى حديث آخر أنّ آدم نصح أولاده وقال لهم: «كُلُّ عَمَلٍ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا فَقِفُوا لَهُ ساعةً فَانِّى لَوْ وَقَفْتُ ساعةً لَمْ يَكُنْ أصابَنِى ما أَصابَنِى» «۴».

ومن هذا الباب اطلق العرب عبارة «ام الندامات» اسماً للعجلة، كما قيل: أنّ العجلة من الشيطان إلّافى ستة موارد: أداء الصلاة فى وقتها، دفن الميت، تزويج البنت الباكر عند بلوغها، أداء الدين عند حلول وقته، إطعام الضيف عندما يحلّ، والتوبة عند اقتراف الذنب.

أمّا ما المراد من الآية «و كان الإنسان عجولًا» وأمثالها الذى ورد فى القرآن الكريم والتى تعبر عن نقاط الضعف المهمّة فى طبيعة الإنسان؟ وكما ذكرنا فى التفسير الأمثل أنّ المراد بالآية الإنسان الذى لم يتخلق باخلاق اللَّه ولم يتربَّ على أساس التربية الرسالية والدينية، لا الإنسان المهذب.

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۵۰، وبما أنّ الباء فى «بالخير وبالشر» باء صلة فيكون معنى الجملة هكذا: «يدعو الشر كدعائه الخير».

(۲). تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۸۴۱؛ و تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۱۶۲.

(۳). تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۴۱.

(۴). تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۱۳۷.

ج ج

وتحدثت الآية الثانية عن فريق من المنافقين المعاندين حيث أُشير إليهم فى الآيات السابقة بصفة عمى القلوب، وإذا تسلموا زمام الحكم ما رحموا صغيراً ولا كبيراً، واعتبرهم اللَّه الملعونين والمطرودين من رحمته، وقال فيهم هنا: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا» لا قفل واحد بل أقفال، فكيف يمكنهم إدراك الحقائق؟ (محمّد/ ۲۴)

هناك بحث بين المفسرين فى أنّ «أم» متصلة أو منفصلة «۱»، فاذا كانت متصلة يكون المعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن أو أن هناك اقفالًا على قلوبهم؟ وأما إذا كانت منفصلة فالمعنى هكذا: أفلا يتدبرون القرآن؟ كلا، بل إنّ اقفالًا على قلوبهم.

وعلى كلا المعنيين فالآية دليل على وجود تضاد بين «التدبر» و «الحجاب على القلوب»، ويمكن القول: إنّ الآية تشير إلى حجاب ترك

التدبر.

وقد جاء فی تفسیر (فی ظلال القرآن): «تدبر القرآن طبقاً لهذه الآیة یزیل الغشاوة، ویفتح النوافذ، ویسکب نور المعرفة علی القلوب، ویحرک المشاعر، ویستجیش القلوب، ویخلص الضمیر ویجدد الروح ویجعلها اکثر صفاءً واشراقاً» «۲».

وقد جاء بعض المفسرین بدلیلین لذکر القلوب نکرة فی الآیة، الأول: أنّها ذکرت نکرة لبیان حال قلوبِهم المروّع، وأنّها قلوب مجهولة ملیئة بالقساوة والظلمات.

الثانی: إنّ المراد هو بعض القلوب لا- کلها، لأنّ بعضهم لم یصلوا إلی تلک الدرجة من الظلمات بحیث تقفل قلوبهم وتتوقف عن إدراک الحقائق.

وذکر الأقفال بصیغة الجمع إشارة إلی الحجب المختلفة التی تجعل علی قلوبهم مثل حجاب النفاق والعناد والغرور وحب النفس وغیرها.

کما ینبغی الإشارة إلی هذه النقطة وهی: إنّ بین «ترک التدبر» و «حجاب القلب» تأثیراً متبادلًا، فکلٌّ منهما یمکنه أن یکون علة للآخر فی مرحلة ومعلولًا له فی مرحلة اخری،

---

(۱). ینقل الآلوسی فی روح المعانی عن سیبویه أنّها متصلة، بینما ینقل عن ابی حیان وفریق آخر أنّها منفصلة (ج ۲۶، ص ۶۷).

(۲). تفسیر فی ظلال القرآن، ج ۷، ص ۴۶۲.

فتارة ترک التدبر ینشأ عن ظلمات القلب، وتارة اخری ظلمات القلب تنشأ عن ترک التدبر.

وننهی حدیثنا هذا بروایة عن الإمام الباقر علیه السلام جاء فیها: «قرّاء القرآن ثلاثة: رجل قرأ القرآن فاتخذه بضاعة واستدرّ به الملوک واستطال به علی الناس، ورجل قرأ القرآن فحفظ حروفه وضیّع حدوده واقامه إقامة القدح فلا کثّر اللّه هؤلاء من حملة القرآن، ورجل قرأ القرآن فوضع دواء القرآن علی داء قلبه فأسهر به لیله واظمأ به نهاره وقام به فی مساجده وتجافی به عن فراشه فبأولئک یدفع اللّه العزیز الجبار البلاء وبأولئک یدیل اللّه عزّ وجلّ من الأعداء وبأولئک ینزل اللّه عزوجل الغیث من السماء فواللّه لهؤلاء فی قرّاء القرآن أعزّ من الکبریت الأحمر» «۱».

۵- حجاب الارتداد

اشارة

فی البدایة نتأمل خاشعین فی الآیة الکریمة التالیة:

«اتَّخَذُوا ایْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِیلِ اللَّهِ انَّهُمْ سَآءَ مَا کَانُوا یَعْمَلُونَ* ذلِکَ بِانَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ کَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَی قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَایَفْقَهُونَ .

(المنافقون/ ۲- ۳)

جمع الآیات وتفسیرها

إنّ هذه الآیة ناظرة إلی المنافقین، وبالرغم من أنّ النفاق حجاب مستقل بحد ذاته إلّا أنّ القرآن هنا یذکر موضوعاً آخر فی هذا

المجال حيث يقول: «بِانَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَايَفْقَهُونَ .

يعتقد بعض المفسرين: أنّ الأشخاص المعنيين فى هذه الآية هم فريق آمنوا ظاهراً وظلّوا كفّاراً باطناً.

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲، باب ۱۳ النوادر، ص ۶۲۷، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۲۹۹

إلّا أنّ ظاهر الآية يكشف عن أنّهم فى البداية آمنوا حقاً، ثم كفروا بعد ايمانهم، وكان كفرهم هذا متزامناً مع النفاق، لأنّ التعبير ب «ثم» يدل على أن كفرهم حصل بعد الإيمان لا- أنّه كان متزامناً مع الإيمان ليكون أحدهما ظاهراً والاخر خفياً، وعلى هذا فالآية تتحدث عن حجاب الارتداد.

ولا عجب فى أن يطبع اللّه على قلب من آمن وذاق طعم الإيمان وحلاوته، وشاهد أنوار الرسالة، ثم كفر كفراً تزامن مع النفاق.

إذا التبس الحق على شخص منذ البداية فعذره يمكن أن يكون وجيهاً، أمّا إذا ارتد عن الإيمان بعد ما عرف الحق وآمن به، فهذا غالباً ما يكشف عن حالة العناد عند هذا الشخص، واللّه يسلب نعمة المعرفة عن أشخاص كهؤلاء ويطبع على قلوبهم.

بالطبع لا دليل لنا على أنّ كل المنافقين كانوا غير مؤمنين منذ البداية، بل إنَّ فريقاً منهم آمنوا فى البداية حقاً ثم ارتدوا كما جاء ذلك فى الآية: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسلامِهِمْ .

(التوبة/ ۷)

و هذا النفاق المتزامن مع العناد هو الذى يجعل حجاباً على القلوب.

ونؤكد تارة اخرى أنّ هذا الحديث لا يدل على الجبر اطلاقاً، لأنّ مقدّمات هذا الحرمان أوجدها المنافقون بأنفسهم.

۶- حجاب الكذب والافتراء

اشارة

فى البداية نلاحظ خاشعين الآيات الكريمة التالية:

۱- «الَمْ تَرَ الَى الَّذِينَ اوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ الَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ* ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

(آل عمران/ ۲۳- ۲۴)

۲- «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا انْ مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَافْئِدَةً

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۱ ۳۴۹

فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ ابْصَارُهُمْ وَلَا افْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَىْءٍ اذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ . (الأحقاف/ ۲۶)

ج‌ج

جمع الآيات وتفسيرها

خُداع الكذب:

يقول بعض المفسرين فى شأن نزول الآية الاولى

إنّ رجلًا وامرأة من اليهود زنَيا، وكانا ذوى شرف، وكان فى كتابهم الرجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما، فرجعوا فى أمرهما إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله رجاء أن يكون عنده رخصة فى ترك الرجم فحكم الرسول صلى الله عليه و آله بالرجم فأنكروا ذلك فقال عليه الصلاة والسلام: بينى وبينكم التوراة فإنّ فيها الرجم فمن أعلمكم؟

قالوا: عبداللّه بن صوريا الفدكى، فأتوا به واحضروا التوراة، فلما أتى على آية الرجم وضع يده عليها، فقال ابن سلام الذى كان على ملة اليهود وأسلم.

قد جاوز موضعها يا رسول اللّه، فرفع كفّه عنها فوجدوا آية الرجم، فأمر النبى صلى الله عليه و آله برجمهما فرجما، فغضبت اليهود لعنهم اللّه لذلك غضباً شديداً فأنزل اللّه تعالى هذه الآية «۱».

يقول القرآن فى هذا المجال: «اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ اوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ الى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيْقٌ مِنهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ .

ثم يضيف: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ الَّا ايَّاماً مَّعْدُودَاتٍ وغَرَّهُمْ فِى دِينِهِمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ .

«يفترون» من مادة «الافتراء» ومن أصل «فرى» الذى يعنى القطع وشق الجلد بهدف الإصلاح، إلّاأنّه قد تستعمل فى صيغة «الافراء» فتعنى القطع بهدف الافساد، و «الافتراء» معناه واسع، أى القطع سواء كان بهدف الإصلاح أو الافساد، بالرغم من استعماله فى أغلب

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۷، ص ۲۳۲.

الأحيان فى مجال الافساد والتخريب، كما استعملت هذه المفردة فى مجال الكذب والشرك والظلم «۱».

أمّا «غرّهم» فمن مادة «غرور» ومشتقة من «غُر» بمعنى ظاهر الشىء، ولهذا قيل للأثر الظاهر فى جبين الحصان «غُرة»، كما تستخدم فى القماش إذا طُوى بشكل حيث تظهر عليه آثار الطوى، كما تستعمل هذه المفردة بمعنى الخداع، وكأنّ الطرف المخدوع يُطوى كالقماش «۲».

أما «غَرُور» فيعنى الشخص والشى الذى يخدع الإنسان، كما تطلق على الشيطان الخادع «۳».

وقد قيل فى كيفية أن الكذب والافتراء يخدعان الإنسان ويحجبان عنه المعرفة وما ذكر صاحب الميزان:

«إنّ الإنسان يجرى فى أعماله وأفعاله على ما تحصل عنده من الأحوال أو الملكات النفسانية والصور التى زينتها ونمقتها له نفسه دون الذى حصل له العلم به، كما أنّ المدمن على استعمال المواد المخدرة ونحوها يستعملها وهو يعلم أنّها مضرّة غير لائقة بشأنه وذلك لأنّ حالته وملكته النفسانية زيّنت له هذه الامور واضفت عليها نوعاً من الجاذبية بحيث لم تدع له مجالًا للتفكر والاجتناب.

وبعبارة اخرى أنّهم كرروا الكذب ولم يزالوا يكررونه ويلقنونه أنفسهم حتى اذعنوا به أى اطمأنوا وركنوا إليه بالتلقين الذى يؤثر أثر العلم كما بينه علماء النفس فصارت الفرية الباطلة بالتكرار والتلقين تغرهم فى دينهم وتمنعهم عن التسليم للّهوالخضوع للحق الذى أنزله فى كتابه «۴».

---

(۱). مفردات الراغب مادة (فرى).

(۲). مفردات الراغب مادة (غرور).

(۳). لسان العرب مادة (غرور).

(۴). تفسير الميزان، ج ۳، ص ۱۲۵.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۲

إنّ هذا مجربٌ، فتارة يتفوه الإنسان بحديث كذب ويعلم أنّه كذب وافتراء، وعلى ضوءِ اعادة الحديث يقع فى شك منه، ثم يعيده مرات اخرى فيصدق به، حتى يبلغ درجة الاعتقاد بالرغم من عدم واقعيته، فيصير حجاباً أمام رؤيته العقلية السليمة.

وعلى هذه فلا مجال للقول بأنّ الكذابين هم فريق من اليهود وأنّ المخدوعين يمثلون فريقاً آخر.

ج‌ج

وقد أشارت الآية الثانية إلى قوم عاد، وهم قوم ذو قدرة، كانوا يعيشون فى الاحقاف (جنوب أو شمال الجزيرة العربية)، وابتلوا بالريح العاصف إثر تكذيبهم لرسولهم «هود» وإثر ظلمهم وفسادهم فى الأرض.

فالآية تقول: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيْمَا انْ مَّكَّنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً ... وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ .

إنّ الآية تؤكد أن تكذيبهم المتوالى لآيات اللّه سبَّب سلب إدراكهم ومعرفتهم، فابصارهم ترى وآذانهم تسمع وأفكارهم تعقل ظاهراً، إلّاأنّ الستار الحاجب حال دون استعانتهم بوسائل المعرفة هذه فابتلوا بعذاب اللّه.

«يجحدون» من مادة «جحود» ويعنى فى الأصل نفى شىء تيقن الإنسان من وجوده أو إثبات شىءٍ يؤمن الإنسان بعدمه، وبتعبير آخر: الجحود يعنى انكار الواقعيات عمداً وعن معرفة «۱».

إنّ التجربة أثبتت أنّ الإنسان إذا ما استمر فى انكار الحقيقة، فستصبح القضايا التى يؤمن بها بشكل قطعى مورد شك وبشكل دائم، وإذا استمر الانكار أكثر فإنّ قدرته على التميز تتبدل بحيث يرى الحق باطلًا والباطل حقاً.

---

(۱). مفردات الراغب مادة (جحد)، كما يقول الجوهرى: إنّ الجحود هو الانكار مع العلم. كما ذكر ذلك صاحب مجمع البحرين فى مادة (جحد).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۳

وهناك أسباب وعلل لهذا العمل (أى انكار الواقعيات مع العلم والمعرفة)، فتارة ينشأ عن العناد، وتارة اخرى عن التعصب، وتارة عن الكبر والغرور، وتارة يقدم الإنسان عليه حفاظاً على مصالحه المادية التى تتعرض للخطر إذا ما كشف عن الحقائق، وتارة لأجل شهوات اخرى، وعلى أيّة حال فإنّ لهذا العمل مردودات سلبية، وهو حدوث حجاب على العقل والفطرة فتنقلبُ قدرة التميز عند الإنسان رأساً على عقب.

ج‌ج

۷- حجاب الظن القاتم

اشارة

إنّ اتباع الظنون والخيالات الباطلة يغير العقل تدريجياً ويحرفه عن جادة المعارف الأصيلة، ويجعل حجاباً أمام عينىّ الإنسان واذنيه.

فى البداية نقرأ معاً خاشعين الآية الكريمة التالية:

«وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيْرٌ مِّنْهُم وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ . (المائدة/ ۷۱)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هـذه الآيـة نـاظرة إلى فريق من اليهود الـذين عاهـدوا اللَّه على أن يتبعوا دعوات الأنبيـاء ويخضـعوا لها، إلّاأنّهم كلما جاءهم رسول يأمرهم بما يخالف أهواءهم النفسية نهضوا ضده أو قتلوه.

ثم تضـيف الآيـة: إنّهم حسـبوا أن لا تكون فتنـة ولا عـذاب، وهـذا ظن باطل نشأ عن حب الـدنيا والكبر والغرور، ظن باطل تـدعو إليه الشـياطين والأهواء النفسـية، وهـذا الظن هو الـذى ألقى بحجابه على أفئدتهم وأبصارهم وسـمعهم فحال دون أن يعقلوا شـيئاً، فلم تعد أبصارهم تدرك الآثار المتبقية من المصير المؤلم للاقوام السالفة ولم تعد آذانهم تمتلك

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۴

قدرة سـماع ما يُنقل عنهم، وبهذا فقدوا هاتين الوسـيلتين المهمتين للمعرفة- السمع والبصر- من الناحية العملية وظنوا أنّهم فى أمان من عذاب اللَّه، وقد حصل لهم هذا الظن من خِلال السير فى الأرض ودراسة التاريخ والأقوام السالفة، فما سمعوا عن تلك الأقوام بآذانهم، ولا شاهدوا بأعينهم، بل إنّ ابصارهم وآذانهم وأفئدتهم عاطلة عن العمل فحسبوا أن لا عذاب لهم.

إلّا أنّه بعد انقضاء وطر من الزمن أدركوا خطأهم والتزموا طريق التوبة، وقد وسعتهم رحمة اللَّه فقبل توبتهم.

ومرة اخرى خدعتهم ظنونهم الباطلة فظنوا أنّهم شـعب اللَّه المختار فى أرضه (بل أبناء اللَّه)، فأسدلت ستائر العمى والصم والجهل على ابصارهم وسمعهم وطُردوا من رحمة اللَّه تارة اخرى.

إنّ هذه الآية تبين بوضوح أنّ الظنون الباطلة وخاصة ظن الأمان من عذاب اللَّه يجعل غشاوة على الباصر والمسع ويعطلهما عن العمل.

وعلى هـذا، فـالمراد من «فعموا وصـموا» هو أن أعينهم مـا بصـرت آيـات اللَّه والآثار الباقيـة من الأقوام السالفـة، وأنّ آذانهم ما صـغت لمواعظ الرسل.

وبديهى أنّ اتباع الظن الباطل لمرة أو مرات لا يترك هذا المردود السلبى لدى الإنسان، بل الاستمرار عليه هو السبب فى ذلك.

وهناك أقوال فى سبب عطف الجملة الثانية على الاولى ب «ثم» التى تدل على الفاصل الزمنى.

فقال البعض: إنّ اسـتعمالها للاشارة إلى مصيرين مختلفين لليهود، أحدهما عندما هاجمهم أهل بابل، والثانى عندما هاجمهم الإيرانيون والروميون وأسقطوا حكومتهم «۱»، وقد جاء شرح ذلك فى التفسير الأمثل فى بداية سورة بنى اسرائيل.

وقال البعض: إنّ الجملة الاولى إشارة إلى عهد زكريا ويحيى وعيسى حيث خالفهم

---

(۱). تفسير المنار، ج ۶، ص ۴۸۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۵

اليهود آنذاك، والعبارة الثانية إشارة إلى عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله حيث أنكروا نبوته ورسالته «۱».

وقـال البعض: إنّ العبـارة الاـولى تـبين أنّ اللَّه لعنهم وطردهم من رحمته وأعمـاهم وأصـمهم لأجـل ظنهم الباطـل من أنهم شـعب اللَّه المختار، وقد شملتهم رحمة اللَّه بعد ذلك فتاب عليهم ورفع عن قلوبهم ذلك الظن الباطل، فأبصرهم وأسمعهم تارة اخرى كى يلتفتوا إلى حقيقةٍ هى: عدم وجود فرق بينهم وبين غيرهم إلَّابالتقوى

إلّا أنّ حالـة الوعى واليقظـة هـذه لم تسـتمر عنـدهم، وتورط بعضـهم بنفس الحسـبان الخاطىء القائم على أساس التفرقـة العرقيـة تارة اخرى، فأعماهم وأصمهم اللَّه ثانية «۲».

والجمع بين هـذه التفاسـير ليس متعـذراً، ونتيجتهـا جميعـاً واحـدة وهى: إنّ الظن الباطـل (كظن اليهود أنّهم شـعب اللَّه المختـار) يمنع الإنسان تدريجياً عن الإدراك والفهم ويحرفه عن جادة الصواب، وإذا كان هذا الظن فى بدايته فيقظة العقل محتملة، ورجوعه عن هذا

الحسبان ممكن، أمّا إذا تفاقمت الظنون وتأصلت فى ذاته فيصبح الرجوع عنها أمراً غير ممكن.

ج‌ج

---

(۱). وقد ذكر هذا التفسير كاحتمال فى تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۵۱۶ وكذا فى تفسير روح المعانى، ج ۶، ص ۱۸۴.

(۲). تفسير الميزان، ج ۶، ص ۷۱.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۷

۳- الحُجُب الخارجية

۱- حجاب القادة الضالين والمفسدين

اشارة

إنّ الحجب الخارجية هى الحجب التى تكمن وراء أعمال الإنسان وصفاته وتؤثر على العقل والإدراك والشعور وملكة التميز وتحول دون معرفة الحقائق، وهى عديدة تشكل مساحة واسعة، وقد أشار اليها القرآن بأساليب متعددة وجميلة.

۱- «وَقَالُوا رَبَّنَا انَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلَا* رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً». (الأحزاب/ ۶۷- ۶۸)

۲- «... وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا انْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ* قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ اذْ جَاءَكُم بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ . (سبأ/ ۳۱- ۳۲)

۳- «قَالَ ادْخُلُوا فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِى النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى اذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ اخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هؤُلَآءِ اضَلُّونَا فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ . (الأعراف/ ۳۸)

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۰۸

جمع الآيات وتفسيرها

شجار أصحاب النار:

إنّ الآية الاولى تبيّن حال فريق من الكفار عندما يرون نتيجة أعمالهم عند اللّه، فيقولون: «رَبَّنَا انَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَظَلُّونَا السَّبِيلَا»، فما كنا نُبتلى بهذا المصير لولاهم، ثم يقولون: «رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ (عذاباً لكفرهم وعذاباً لأنّهم أضلونا) «وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً».

فهم لا يريدون سوى تبرير أعمالهم بكلامهم هذا، صحيح أنّ لرؤسائهم دوراً فى انحرافهم، لكن هذا الأمر لا يسلب عنهم المسؤولية تجاه أعمالهم.

وصحيح أنّ وسوسة القادة المفسدين والزعماء الضالين والمضلين جعلت حجاباً على عقولهم وأفكارهم فحال دون تفكيرهم الصحيح، إلّاأنّ مقدّمات هذا الأمر هم هيأوها بأنفسهم لأنّهم سلموا أنفسهم عشوائياً إلى هؤلاء من دون احراز أهليتهم للقيادة.

وهناك خلاف بين المفسرين فى الفرق بين سادتنا وكبراءنا، أو بالأحرى هل هناك فرق بينهما أم لا؟

يعتقد البعض أنّ «سادتنا» إشارة إلى ملوك وسلاطين المدن والدول، و «كبراءنا» إشارة إلى الرؤساء المحليين، حيث عُدت طاعة

السادة مكان طاعة اللّه، وطاعة الكبراء مكان طاعة الرسول، فقدرة وصلاحية الفريق الأول أكثر من الفريق الثانى ولهذا قُدِّم.

ويعتقد البعض أنّ السادة إشارة إلى الملوك وأصحاب القدرة، والكبراء إشارة إلى كبار السن، ولهذا يتبعهم بعض الناس.

ويعتقد آخرون أنّ كليهما بمعنى واحد وأنّهما قد وردا للتأكيد «۱».

ويبدو أنّ المعنى الأخير أنسب من جميع المعانى السابقة.

وتجدر الإشارة إلى أنّ «سادة» جمع «سيد» والسيد يعنى رئيس السواد (أى الجمع الغفير من الناس، وقد اطلق عليه سواداً من باب أنّه يبدو أسود اللون من بعيد) ثم اطلقت

---

(۱). راجع تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۸۷؛ تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۳۶۹؛ الكبير، ج ۲۵، ص ۲۳۲.

هذه المفردة على كل رجلٍ كبير.

وقد تحدثت الآية الثانية عن الكفار الظالمين الذين إذا ما رأوا نتيجة أعمالهم فى الآخرة سعى كلٌّ منهم لإلقاء ذنبه على الآخر، فيقول حينها المستضعفون (أى المغفّلون) للمستكبرين (أى الظلمة وأصحاب السلطة الذين أضلوا الآخرين بأفكارهم الشيطانية):

لولا وساوسكم المغرية والشيطانية لَكُنّا فى صفوف المؤمنين، لقد غسلتم أدمغتنا، واتّبعناكم جهلًا، وجعلتمونا آلة بأيديكم لتحقيق مآربكم الشيطانية، وقد فهمنا الآن أنا كنّا على خطأ.

بالطبع لم يخرس المستكبرون عندها، بل يجيبون: «أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ اذْ جَاءَكُم الرسل بالبينات والحجج الكافية؟ إنّكم مخطئون ونحن غير مسؤولين عن ضلالتكم، «بَلْ كُنْتُمْ مُّجْرِمِينَ ومذنبين لأنّكم تركتم ما دعتكم إليه الرسل واتبعتم الأقاويل الباطلة بالرغم من إرادتكم واختياركم.

ج‌ج

وقد أشارت الآية الثالثة إلى شجار «القادة» و «الأتباع» الضالين فى جهنم، فكلما دخلت امّة لعنت الاخرى واعتبرتها هى المسؤولة عن شقائها وعذابها فى الآخرة، ويقول الأتباع يومذاك: «رَبَّنَا هؤُلَاءِ اضَلُّونَا فَآتِهِم عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ» عذاباً لأنّهم ضالّون وعذاباً لأنّهم أضلونا وأغوونا.

فيجيبهم اللّه: «لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلكِن لَّاتَعْلَمُونَ .

إنّ مضاعفة العذاب لقادة الباطل أمر متوقع وليس عجيباً، إلّاأنّ مضاعفة العذاب لأتباعهم أمر قد يبدو غريباً للوهلة الاولى لكنا إذا دققنا فى الأمر نجد ضرورة مضاعفة العذاب لهم، عذاب: لأجل أنّهم ضالون، وعذاب: لأجل اعانتهم أئمّة الكفر والذود عنهم والقتال دونهم، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه أحد أصحابه مُعلناً توبَتُه عمّا قدمة لبنى أمية من خدمات، يقول فيه:

«لَوْلا أَنَّ بَنِى اميَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُم ويُجْبِى لَهُمْ الفَىءَ وَيُقاتِلُ عَنْهُمْ وَيَشْهَدُ جَماعَتَهُمْ لَما سَلَبُونا حَقَّنا» «۱».

توضيحان:

۱- «المستضعفون» و «المستكبرون» فى القرآن المجيد

تحدث القرآن المجيد مراراً عن المستكبرين «والمستضعفين» وهو موضوع مهم وجدير بالانتباه ويمكن أن يشكل أحد المباحث

المستقلة فى التفسير الموضوعى، إلّاأنّه ينبغى هنا الإشارة إليه بصورة عابرة مع بيان الآيات التى وردت فى هذا البحث.

يقول الراغب فى مفرداته: إنّ الكبر والتكبر والاستكبار لها معانٍ متقاربة، ثم يضيف: إنّ للاستكبار معنيين أحدهما: أن يتحرّى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً وذلك متى كان على ما يجب وفى المكان الذى يجب وفى الوقت الذى يجب والثانى أن يتشبّه فيظهر من نفسه ما ليس له وهذا هو المذموم وعلى هذا ما ورد فى القُرآن، وهو قوله تعالى «أَبَى وَاسْتَكْبَرَ». (البقرة/ ۳۴)

ثم يضيف الراغب: قابلَ المستكبرين بالضعفاء تنبيهاً إلى أنّ استكبارهم كان بما لهم من القوة من البدن والمال «۲».

إنّ الاستضعاف يقابل الاستكبار وهو يعنى طلب الضعف وقلة الحيلة، لكن بما أنّ هذه المادة غالباً ما تستعمل فى القرآن بصفة (فعل مبنى للمجهول) أو (اسم مفعول)، فتعنى الضعف الذى فرض عليهم من قبل المستكبرين.

وقد استعملت فى القرآن بصيغة الفعل المبنى للمعلوم كما جاء ذلك فى فرعون الذى استضعف بنى اسرائيل:

«انَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُم .

(القصص/ ۴)

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۲ (۷۵)، ص ۳۷۵؛ سفينة البحار، ج ۲، ص ۱۰۷ مادة (ظلمة).

(۲). مفردات الراغب، مادة (كبر).

كما ينبغى ذكر هذه النقطة وهى: أنّ القرآن استعمل مفردة (مُستضعَف) بمعنيين: الأول المظلومون فى الأرض، وهم المشمولون بألطاف اللّه، كما جاء ذلك بالنسبة إلى مستضعفى بنى اسرائيل حيث قال اللّه فيهم:

«وَنُرِيدُ أَنْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِى الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ . (القصص/ ۵)

والمعنى الثانى وهو المستعمل غالباً فى القرآن المجيد: الضعفاء فكرياً بسبب جهلهم وتقليدهم الأعمى وتعصبهم، فيتبعون الظلمة والقادة الضالين عشوائياً، وهؤلاء هم الذين أشارت الآيات المذكورة فى أول البحث إلى شجارهم مع المستكبرين فى يوم القيامة وصرحت أنّهم يستحقون العذاب المضاعف كالمستكبرين: عذاباً لأجل أنّهم ضالون وعذاباً لاجل أنّهم ساهموا فى تثبيت اسس حكومة الجبارين.

۲- دور القادة و الامراء فى التأثير على الناس

لقد جاء فى حديث للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «الناس بامرائهم أشبه منهم بآبائهم» «۱».

إنّ هذا الشبه يمكن أن يكون من حيث إنّ فريقاً من الناس يتبعون الامراء ويقتدون بهم جهلًا وغفلة ويجعلون قلوبهم ودينهم رهناً لإشارات هؤلاء الامراء وايعازاتهم، ولهذا اشتهر الحديث «الناس على دين ملوكهم».

إنّ هؤلاء الامراء فى رأى بعض الناس أبطال وقدوات نموذجية واسوات حسنة وأرفع شأناً من أن يُنتقدوا، وقد يقلّد البعض أنفسهم مناصب مقدسة فيغرروا ببعض الجهلة والعوام، ويجعلوا حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم.

ومن المتعارف أنّ هناك فريقاً يعتبر «القدرة» دليلًا على «الحقانية»، ويعتبر المنتصر هو المحق فرداً كان أو جماعة، وهذا الاسلوب من التفكير جعلهم فريسة للكثير من الأخطاء

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۴۶ كتاب الروضة كلمات على عليه السلام، ح ۵۷.

والانحرافات فى حساباتهم الاجتماعية.

إنّ الملوك والقادة الجبارين أينما دخلوا أفسدوا، وذلك لاستغلال الضعف والعجز الفكرى لدى بعض الناس، كما جاء ذلك فى القرآن على لسان ملكة سبأ: «قَالَتْ انَّ الْمُلُوْكَ اذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ اهْلِهَا اذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ . (النمل/ ۳۴)

وبالرغم من أنّ هذا الحديث تفوهت به ملكة ظالمة، إلّاأنّ ذكره فى القرآن من دون أى نقدٍ من جهة، وصدوره من شخصية ظالمة وخبيرة بما عليه الظّلَمَة من أمثالها من جهة اخرى دليل على واقعية هذا الحديث الشبيه بالاعتراف.

ولهذا أرادت ملكةُ سبأ أن تختبر سليمان هل هو ملك أو نبى حقاً؟ فأرسلت إليه هدايا كى تعرف ردّ فعله تجاهها، وذلك لأنّها تعرف أنّ أفكار الملوك وقلوبهم رهن الهدايا والذهب والفضة والشأن والمقام، بينما الأنبياء لا يهمهم شيءٌ سوى صلاح الامم.

۲- حجاب الأصدقاء الضالين

اشارة

«وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولا». (الفرقان/ ۲۷- ۲۹)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ هذه الآيات تشرح مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهى لحظات تأسف الظالمين وتأثرهم من أعمالهم إلى درجة حيث يعضون على أيديه.

إنّ تعبير «يعضّ» من مادة «عضّ» ومعناها واضح، والتعبير ب (يعضّ) فى العربية

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۱۳

وكذا فى الفارسية كناية عن شدة التأسف والانزجار، وقد شوهد أنّ كثيراً من الناس إذا ما واجهوا مصيبة عظيمة ناشئة عن سوء عملهم وجهلهم عضّوا على أيديهم أو أصابعهم أو ظاهر أكفّهم، وكأنّهم يريدون عقاب أيديهم لأجل قيامها بهذا العمل.

إلّا أنّ المصيبة إذا لم تكن شديدة جدّاً اكتفوا بعضّ أناملهم كما قال القرآن حاكياً حال الكفار فى الآية ۱۱۹ سورة آل عمران: «وَاذَا خَلَوا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ»، أو اكتفوا بعضّ ظهر احدى اليدين، أمّا اذا كانت المصيبة شديدة جدّاً فتارة يعضّون أيديهم اليسرى واخرى أيديهم اليمنى والذى جاء فى الآية الكريمة هو «يَدَيْه» وهذا يكشف عن أنّ المصيبة عظيمة للغاية يوم القيامة، وغالباً ما يقترن العضّ بالتفوه بجمل وأقاويل مفهومها التوبيخ للنفس، ويتحد حينها الكلام مع السلوك فى ابراز الغضب.

ويقولون عندها: «لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا* يَا وَيْلَتى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَاناً خَلِيلًا* لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ اذْ جَاءَنِى إلّاأنّ هذا الخليل ما سمح لهم باليقظة.

وعلى هذا، فهم يعدّون الخليل الضال هو السبب الأساسى لشقائهم، حيث جعل حجاباً أمام أفكارهم وعقولهم حال دون رؤيتهم لجمال الحق.

وهنا أقوال فى المراد من «فلان»:

احتمل البعض أنّه الشيطان، حيث ينتخبه الإنسان- أحياناً خليلًا، وذلك بقرينة قوله فى ذيل الآية: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا».

ويقول البعض: إنّ المراد منه هو نفس الشخص الذى نزلت فى شأنه الآية، أى «عقبة» وهو أحد الكفار المعروفين، أَسْلَمَ وارتد عن الإسلام وتخلى عن الرسول لأجل خليله «أبى»، وقتل فى معركة بدر، بينما قُتِل أبى فى معركة أُحد «۱».

لكن الظاهر أنّ مفهوم الآية- كما يقول البعض- كلّى شامل لجميع الأصدقاء الضالين والموسوسين، وأنّ شأن النزول لا يُخصّصُ الآية أبداً، خصوصاً وأنّ لمفردة

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ذيل نفس الآية مورد البحث ويقول البعض: إنّ «أُبى» الإنسان الوحيد الذى قتله الرسول بيده طيلة عمره الشريف (تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۲۰۵).

«الشيطان» معنى واسعاً يشمل شياطين الجن والانس، كما أنّ ذكر كلمة «فلان» وبصيغة النكرة قرينة واضحة على اطلاق المفهوم «۱».

وقد قيل فى تفسير «شركاء المشركين» الذين ذُكروا فى الآية ۱۳۷ من سورة الأنعام:

«وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ ، أنّهم المتولون لمعابد الأصنام، حيث كانوا يغوون الناس ويغرونهم لتضحية أولادهم للاصنام، وبهذا التبس عليهم الحق، والقى حجاب على عقولهم وأفكارهم.

وعلى هذا التفسير، فإنّ الآية تُعدُّ شاهداً واضحاً على بحثنا أى أنّ الأصدقاء المضلين يشكلون حجاباً للعقل يمنعه عن المعرفة.

ج‌ج

توضيح:

دور الأصدقاء فى التأثير على طريقة التفكير عند الآخرين:

يشاهد فى الروايات الإسلامية تعابير كثيرة فى هذا المجال، تكشف عن أنّ الأصدقاء المنحرفين والمستشارين الضالين يمكنهم السيطرة على فكر الإنسان وتغيير موازين عقله وإغلاق طريق الحق عليه، ونذكر هنا نماذج من الروايات التى تشير إلى ذلك:

۱- نصح الإمام على عليه السلام ابنه الحسن يوماً قائلًا له:

«يا بُنى إياك ومصادقة الأحمق فانّه يريد أن ينفعك فيضرك ... وإياك ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يُقرّبُ عليك البعيد ويُبعِد عليك القريب» «۲».

۲- وقد جاء فى عهد الإمام على عليه السلام لمالك الأشتر حول المستشارين:

«ولا تُدْخلن فى مشورتك بخيلًا يعدل بك عن الفضل وَيعِدك الفقر ولا جباناً

---

(۱). تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۵۶.

(۲). نهج البلاغة الكلمات القصار الكلمة ۳۸.

يُضعفك عن الامور ولا حريصاً يزين لك الشرَه بالجور» «۱».

ويستفاد من التعبير الأخير أنّ المستشارين المنحرفين يمكنهم التأثير فى فكر الإنسان ويحولون دون الإدراك والمعرفة.

۳- وقد جاء فى حديث آخر للإمام على عليه السلام:

«مجالسة الأشرار تُورَثُ سوء الظن بالأخيار» «۲».

۴- وقد جاء فی حدیث للرسول الأکرم صلی الله علیه و آله:

«المرءُ علی دین خلیله وقرینه» «۳».

وبهذا یتضح تأثیر الصدیق الصالح أو غیر الصالح علی کیفیهٔ المعرفهٔ واسلوب التفکیر.

ج ج

۳- حجاب الاعلام و الوسط الاجتماعی

اشارهٔ

فی البدایهٔ نتأمل خاشعین فی الآیات الکریمهٔ التالیهٔ:

۱- «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَومَکَ مِنْ بَعْدِکَ وَأَضَ لَّهُمُ السَّامِرِیُّ* ... فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَآ الهُکُمْ وَالهُ مُوسَی فَنَسِیَ . (طه/ ۸۵- ۸۸)

۲- «فَخَرَجَ عَلَی قَومِهِ فِی زِیْنَتِهِ قَالَ الَّذِیْنَ یُرِیدُونَ الحَیَاهَ الدُّنْیَا یَا لَیْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِیَ قَارُونُ انَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِیمٍ . (القصص/ ۷۹)

۳- «قَالَ أَلْقُوْا فَلَمَّا الْقَوا سَحَرُوا أَعْیُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِیمٍ . (الأعراف/ ۱۱۶)

۴- «وَقَالَت طَّائِفَهٌ مِّنْ أَهْلِ الْکِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِی انْزِلَ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَجْهَ

---

(۱). نهج البلاغهٔ، الرسالهٔ ۵۳.

(۲). سفینهٔ البحار، ج ۱، ص ۱۶۸.

(۳). اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۷۵، باب مجالسهٔ أهل المعاصی، ح ۳.

النَّهَارِ وَاکْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ یَرْجِعُونَ . (آل عمران/ ۷۲)

۵- «أَمْ انَا خَیْرٌ مِّنْ هـذَا الَّذِیْ هُوَ مَهِینٌ وَلَا یَکَادُ یُبِینُ* فَلَوْلَا أُلْقِیَ عَلَیْهِ أَسْوِرَهٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِکَهُ مُقْتَرِنِینَ* فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُم کَانُوا قَوْماً فَاسِقِینَ . (الزخرف/ ۵۲- ۵۴)

جمع الآیات وتفسیرها

الإعلام المسموم:

إنّ الآیهٔ الاولی أشارت إلی قصهٔ السامری طالب الشأن والمقام، الذی استغل غیبهٔ موسی علیه السلام اثناء ذهابه إلی طور سیناء (للقاء ربه) لمدّهٔ أربعین یوماً، فجمع ذهب وحُلی بنی اسرائیل وصنع منها صنماً فی صورهٔ عجل! ویظهر أنّه وضعه باتجاه الریح بحیث یُخرج صوتاً کرُغاءَ البقرهٔ عند هبوب الریاح، وقد عبر القرآن عن هذا الصوت ب «خوار» أی صوت البقرهٔ البطیء.

إنّه انتهز الفرصهٔ بأُسلوب خاص، حیث قام بعمله هذا بعد مضی خمسهٔ وثلاثین یوماً من غیبهٔ موسی أی عندما أخذت أنوار التبلیغ التوحیدی تتضاءل فی قلوب بنی اسرائیل، حیث کان المفروض أن یَرجِعَ موسی من طور سیناء بعد ثلاثین یوماً، إلّاأنّ اللّه اخّر میعاده لامتحان بنی اسرائیل فاتمهن أربعین یوماً.

يقول القرآن فى هذا المجال: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَا قَومَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُ .

وعلى أىّ حال فإنّ انحراف بنى اسرائيل (الـذين ينقل أنّ عددهم بلغ السـتمائة ألف) عن طريق التوحيد الخالص إلى الشـرك والكفر وعبـادة الأصـنام ليس بالأمر الهين، إنّ الآيات التى جاءت فى هـذا المجال فى سورة «طه» وغيرها من السور وكـذا التواريـخ والتفاسـير تكشف عن أنّ السـامرى كـان يسـتعين بأسـلوب خاص من الاعلام والتبليغ للإسـتحواذ على أفكار الناس وغسل أدمغتهم، بحيث جعل حجاباً على عقولهم، فظنوا (بسبب ذلك

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۱۷

الحجاب) أنّ هذا العجل هو إله موسى !

والعجيب هنا أنّ الأمر بلغ ببنى اسرائيل إلى حَدٍّ حيث رددوا ما قاله السامرى: «هذا إله موسى ، والتعبير ب «قالوا» شاهدٌ على هذا.

والتعبير الأخير دليل واضح على تأثير إعلام السامرى الشديد، إنّه كان يستثمر إعلامه فى الجهات التالية:

۱- انتهاز فرصة غيبة موسى

۲- تمديد غيبته إلى أربعين يوماً.

۳- الاستعانة بالذهب والحلى التى كانت ثمينة بالنسبة لبنى اسرائيل.

۴- اسـتثمار الأرضـية المساعـدة والنمحرفـة مثل طلبهم من موسـى جعل صـنمٍ إلهاً عنـدما نجوا من الغرق فى النيل، ومرّو بقوم يعبدون الأصنام: «قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَّنَا إِلهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ». (الأعراف/ ۱۳۸)

۵- مكانته الاجتماعية عند بنى اسرائيل واعتمادهم عليه إلى حدٍ حيث كانوا يولون له قدسية خاصة ويعدونه ربيب جبرئيل «۱»!

۶- حب ضـعفاء الفكر لأله محسوس، وعدم التفاتهم إلى أنّ اللّه بعيد عن التجسـيم والصـفات الجسمانيه، حيث بلغ بهم الأمر أن طلبوا من موسى رؤية اللّه جهرة كما عكس القرآن ذلك فى الآية الخامسة والخمسين من سورة البقرة.

إنّ هـذه الامـور واموراً اخرى سـببت انحراف بنى اسـرائيل عن جـادة التوحيـد بالكامـل، واغواءهم بتبليغ السامرى واعلامه وفى النهاية عبادتهم للأصنام.

ولهـذا، عنـدما رجع موسـى وعلم بهم، وبيّن القبـح الشديد لعملهم هذا، استيقظوا من غفوتهم وصـرخوا قائلين: ندمنا! ندمنا! واسـتعدوا لأجل قبول توبتهم أن يقتل بعضهم بعضاً كفارة لذنبهم العظيم (البقرة/ ۵۴).

---

(۱). تفسير روح الجنان، ج ۷، ص ۴۸۲؛ تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۴۱۴؛ دائرة المعارف- دهخدا- مادة (سارى)، (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۱۸

وعلى أىّ حال، فإنّ الآية دليل واضح على حجاب الاعلام المضلل.

ج‌ج

وتحدثت الآية الثانية عن «قارون» الغنى والمعروف فى بنى اسرائيل الذى قام يوماً باستعراضٍ لثروته أمام بنى اسرائيل.

لقـد نُقِل فى التواريـخ قصـص كثيرة فى هـذا المجال، فكتب بعضـهم: ظهر قارون مع فريق يُعـدّ بأربعـة آلاف رجل وامرأة من الخـدم والحشم والجاريات، فالرجال على خيولٍ أصيلة، بألبسة حمراء، والجاريات على بغال بيض سروجها من ذهب، والجميع مزينون بالحلى والحلى والذهب والمجوهرات «۱».

وقـد قدر البعض عدد أفراد قارون بسـبعين ألفاً، وإذا لم نعتبر هذه الأرقام واقعية، فتعبير القرآن: «فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِى زِيْنَتِهِ يكشف عن عظمة تلك اللقطة، وقد يكون عمله هذا من أجل تحدى واغضاب موسـى عليه السـلام، أو تثبيتاً لقدرته فى بنى اسـرائيل، أو أنّه جنون عرض القوة والثروة اللتين يُبتَلى بهمـا كثير من المتمولين والأغنيـاء، وعلى أىّ حـال، فـإنّ تلـك اللقطـات والاعلام المتزامن معها كان

بدرجة من العظمة سلبت عقول الكثير من بنى اسرائيل وَأُلْقَتْ بستار على أرواحهم حتى جعلتهم يتمنون أن تكون لهم ثروتهُ وقدرته، ويعدونه سعيداً و «ذو حظٍ عظيم».

وبعد ما جاء ذلك اليوم الذى خسف اللّه الأرض بقارون وثروته بسبب جرائمه وأعماله المشينة، وعلم الجميع بما حَلَّ بِهِ استيقظوا من غفلتهم وأبدوا سرورهم من حيث إنّهم لم يكونوا مثل قارون.

إنّ تأثير الاعلام لا ينحصر على ذلك الزمان فحسب، بل يشمل فى كل عصر وهذا أمرٌ لا يُنكر، وان كثيراً من جبابرة الماضى والحاضر يستعينون باستعراض قوتهم وامكانياتهم كاستعراض قارون لأجل تخدير أفكار الناس، وتسخيفها، وسحر أعينهم، وقد

---

(۱). راجع تفاسير الكبير والقرطبى وروح المعانى فى ذيل الآيات فى سورة القصص.

جَنَوا ثمار مثل هذه الاستعراضات ولا يزالون، وإنَّ العلماء والمفكرين الراسخين هم فقط القادرون على رفع هذه الحجب عن أفكارهم وأفكار غيرهم، وتبيان الوجوه الحقيقية لهؤلاء الجبابرة.

ج ج

و قد بينت الآية الثالثة جانباً من جوانب مقارعة موسى للسحرة، الذين دعاهم فرعون من جميع أرجاء مصر واغراهم بالكثير من الوعود، والذين يقدر عددهم بعشرات الآلاف من السحرة طبقاً لبعض الروايات، وبخمسة عشر الف ساحر طبقاً لرواياتٍ اخرى (يحتمل أن يكون هذا العدد متعلقاً بنفس السحرة وأعوانهم وعمالهم، كما ينبغى الالتفات إلى أنّ السحر كان رائجاً فى ذلك العصر بكثرة).

وقد اجتمع لأجل ذلك جمعٌ غفير من الناس عند الضحى فى يوم كان عندهم عيداً (كما عبّر عنهُ القرآن «يوم الزينة» و «ضحى فى الآية ۵۹ من سورة طه، وقد كشفت القرائن عن أنّ فرعون كان واثقاً من انتصار السحرة على موسى عليه السلام، وذلك لأنّه كان قد سخر جميع وسائل الاعلام لخدمة هذه القضية.

تقول الآية: «فَلَمَّا الْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

وينبغى هنا معرفة مفردتى «الاسترهاب» و «السحر» جيداً لفهم الآية.

جاء «السحر»- لغة- بمعنيين، الأول هو الخدعة، والثانى هو الشىء الذى غمضت عوامله وكانت غير مرئية، وقد أرجع البعض كلا المعنيين، إلى معنى واحد وقالوا:

إنّ حقيقة السحر هى قلب الشىء من حقيقته إلى شكل آخر «۱».

و كما قلنا فى المجلد الأول من التفسير الأمثل عند تفسير الآية ۱۰۲ من سورة البقرة:

أنّ السحر غالباً ما يعتمد على الخواص الكيمائية والفيزيائية للمواد التى لم يعرفها الناس إلّا أنّ السحرة يعرفونها جيداً وقد اعتمدوا عليها كلياً، كما أنّه جاء فى التفاسير حول قصة

---

(۱). راجع قاموس اللغة، ومفردات الراغب، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، وتاج العروس.

مقارعة موسى عليه السلام للسحرة، إذ يحتمل أنّ ما جاء به السحرة هو مجموعة من العصى والحبال الجلدية الجوفاء والمليئة بمادة الزئبق الفرّار، وبما أنّ الحركة والتمدد الشديد من خواصه عند ارتفاع درجة حرارته، فعندما ألقوا هذه العصى والحبال بدأت بالحركة والقفز والتقلص والانبساط بفعل حرارة الشمس أو الحرارة المنبعثة من المكان الذى يحتمل وجود مصدر حرارتى تحته «۱».

وقد يستعين السحرة فى عروضهم- أحياناً- بالشعوذة وخفة اليد، فيرى الناسُ أشياءً لا واقع لها، وقد شاهد كثير من الناس نماذج من

هذه العروض، وقد ينشرون مواد كيميائية خاصة عن طريق العطور وتبخير اعشاب معينة بحيث تؤثر على الحاسة الباصرة وحاسة السمع بل وحتى على اعصاب الحضور لتمثيل صورٍ غير واقعية أمامهم.

كما يحتمل أنّهم يستعينون بالتنويم المغناطيسى والتلقين بحيث تتمثل صور غير واقعية أمام الناس.

بالطبع هناك قسم آخر من السحر يحتمل استعانة السحرةُ به وهو تسخير الجن أو بعض الأرواح (وهذه خمسة طرق رئيسية للسحر).

وقد يطلق السحر على معنى أوسع من المعانى السابقة، فيقال لمن حسن بيانه «له بيان ساحر» كما جاء فى الحديث: إنّ الفتنة سحر، لأنّها تفرق بين الأحبّة، إلَّا أن الذى جاء فى الآية هو «سحروا أعين الناس» وهو التلاعب بباصرة الحضور بحيث يجعلهم يرون اموراً لا واقع لها، فيرون حية تسعى وإن لم يكن هناك حية أبداً، والشاهد على هذا الحديث هو الآية: «فَإِذا حِبالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ اِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

(طه/ ۶)

(مع أنّها لا تسعى ولا تتحرك لكن الزئبق- احتمالًا- هو الذى جعلها تبدو هكذا).

وأمّا «استرهبوا» فمن مادة «رَهْب» وهو الخوف المتزامن مع التحفظ والاضطراب (كما

---

(۱). راجع تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۲۲؛ التفسير الكبير ۱۴، ص ۲۰۳؛ تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۲۱۳؛ تفسير المنار، ج ۹، ص ۶۶ وتفاسير اخرى.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۱

يقول الراغب فى مفرداته) وقد فسر كثير من المفسرين الاسترهاب بالارهاب أى ايجاد الخوف والاضطراب، والتعبير هذا يكشف بوضوح عن استعانتهم بوسائل الاعلام والتلقين إضافة إلى سحر (وغالباً ما يستعين السحرة بهذين الأمرين، بل القسم الأعظم من موفقيتهم يرجع اليهما وإلى حسن القيام بهما).

وقد نقل أنّ مساحة المحل الذى عُدَّ لهذا الأمر كان ميلًا فى ميل «۱»، كما نقل أيضاً أنّهم أعدوا جبلًا من الحبال والعصى التى تبدو وكأنّها أفاعى تسعى «۲».

ثم خاطب السحرة الناس بأقاويل مثل: أيها الناس ابتعدوا عن الساحة لكى لا تمسكم الأفاعى بضرر لأنّها خطرة ومخيفة! وأمثال هذه التعابير التى أُشير إليها فى بعض التفاسير «۳»، وقد تأثر بهم الناس كثيراً لأنّهم سحروا أعينهم وقلوبهم، وبهذا ألقوا بحجبهم على حواس الناس وعلى عقولهم للحيلولة دون إدراك الحقائق والواقعيات.

ج‌ج

لقد كشفت الآية الرابعة عن احدى المؤامرات الاعلامية التى حاكها اليهود ضد الإسلام، والتى كان هدفها تضعيف عقيدة المسلمين بالإسلام، وقصتها: أنّ فريقاً منهم أسلموا وآمنوا ظاهراً فى النهار وارتدوا عن الإسلام فى الليل، وعندما سئلوا عن سبب رجوعهم عن الإسلام قالوا: إنا لاحظنا صفات محمد صلى الله عليه و آله من قريب فوجدناها لا تتطابق مع كتبنا الدينية وأحاديث علمائنا فرجعنا عنه.

إنّ هذه الحملة الاعلامية سببت فى ارتداد قوم من المسلمين عن الإسلام، إذ قالوا:

إذا ارتدّ عن الإسلام أهل الكتاب الذين هم أفهم منّا ويعرفون القراءة والكتابة، فلابدَّ وأنّ الدين باطل ولا أسس قوية له، وبهذا استطاعوا أن يشوشوا على أفكار البسطاء من الناس

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۲۲.

(۲). تفسير المنار، وقد نقل هذا الحديث عن مفسر باسم ابن اسحاق، ج ۹، ص ۶۶.

(۳). التفسير الكبير، ج ۱۴، ص ۲۰۳.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۲

ويلقوا بحجاب فتنتهم على عقولهم.

إنّ مفردة «طائفة» فى عبارة «وقالت طائفة» من مادة «طواف» وتعنى فريقاً من الناس بشكل حلقة، وكأنّهم يطوفون حول موضوع ما، والمراد منها على ما يقول بعض المفسرين: هو الاثنا عشر يهودياً من يهود خيبر أو المدينة أو نجران، حيث تألموا كثيراً عند تغير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، فحاكوا هذه المؤامرة «۱».

إنّ التعبير ب «وجه النهار» إشارة إلى بداية النهار لأنّ الوجه أول شىء يواجهه الإنسان، وهو أشرف عضو، بالطبع أنّ الآية حكت المسألة كاقتراح اقترحه البعض ولم تتكلم عن تنفيذ هذا الاقتراح، إلّاأنّ القرائن أثبتت أنهم نفذوا مؤامرتهم بعد ما حاكوها، وإلّا فيُستبعد أن يذكره القرآن باهتمام بالغ، والآيات اللاحقة تحكى عن هذه الأهميّة.

لكننا نعلم على أيّة حال، أنّ خطتهم الإعلامية هذه لم تترك أثراً ملحوظاً فى قلوب المؤمنين الذين طهُرت قلوبهم.

ج ج

إنّ الآية الخامسة والأخيرة بيّنت كذلك جانباً من جوانب مقارعة موسى عليه السلام لفرعون، فعندما اتّجهت الأنظار إلى موسى وكادت القلوب أن تهتدى والأفكار أن تُصحح، قام فرعون بحملةٍ اعلامية شديدة سعياً منه لحرف الناس عن اتجاههم نحو دين موسى وقد انعكس فى هذه الآية جانب من جوانب الاعلام الفرعونى المضلل.

اعتمد اعلامه فى البداية على ذكر شرفه العائلى ونسبه، وقال: «أنا خير من هذا الشخص مشيراً إلى موسى» الذى ينحدر من عائلة فقيرة حيث يعمل راعياً وعبداً من عبيد بنى اسرائيل.

و هو لا يملك قدراً من الفصاحة وأنا افصح منه.

وفضلًا عن ذلك «فلو لا القى عليه اسورة من ذهب» أى لِمَ لم يكن له سوار من ذهب

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۸، ص ۸۵؛ تفسير روح المعانى، ج ۳، ص ۱۷۶؛ تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۳۵۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۳

الذى كان يُعد علامة وبيان لشخصية صاحبه.

ثم انّه إذا كان صادقاً لِمَ لم يأتِ بملائكة معه كى تكون شاهداً وعلامة على صدق كلامه؟

وبهذه الحجج الأربع ادّعى بطلان نبوة موسى عليه السلام.

يقول القرآن فى هذا المجال: «فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .

إنّ «استخف» من مادة «خفيف» والمراد منه هنا هو أنّ فرعون سعى لأنّ يستخف عقول قومه، جاء فى تفسير مجمع البيان: إنّ فرعون استخف عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنّه احتج عليهم بما ليس بدليل وهو قوله: أليس لى ملك مصر ... الخ «۱» (واستخفاف الطغاة للجماهير أمر لاغرابة فيه؛ فهم يعزلون الجماهير أولًا عن كل سبل المعرفة، ويحجبون عنهم الحقائق حتى ينسوها ولا يعودون يبحثون عنها؛ ويلقون فى روعهم ما يشاؤون من المؤثرات حتى تنطبع نفوسهم بهذه المؤثرات المصطنعة، ومن ثم يسهل استخفافهم بعد ذلك، ويلين قيادتهم، فيذهبون بهم ذات اليمين وذات الشمال مطمئنين) «۲».

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول فى نهاية الآية: إنّهم أطاعوه واستسلموا لإعلامه، وذلك لأنّهم مذنبون وفاسقون، وهو يشير بذلك إلى أنّ المؤمن الهادف والواعى لا يكون عرضة لظاهرة غسل الأدمغة، بل الفسق والذنوب هى التى تهيىء الأرضية لتقبل إعلام باطل كهذا.

وبتعبير آخر: فإنّ «النفس الامارة» من الداخل، و «الوساوس الشيطانية» من الخارج يتعاضدان فيكتمان المعرفة عن الإنسان.

ج‌ج

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۹،، ص ۵۱.

(۲). تفسير فی‌ظلال القرآن، ج ۷، ص ۳۴۰.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۴

توضيح:

الجوانب المتعددة للإعلام المضلل:

إنّ هذه القضية فی عصرنا الحاضر أوضح من أن تبحث أو تُناقش، كما أنّها لم تخفَ على الناس فی العهود الغابرة.

إنّ الجبابرة الـذين أرادوا فرض إرادتهم وحاكميتهم على الناس، توسـلوا بوسائل إعلاميـة مختلفـة لغسل أدمغـة الناس، بدءً بالمكاتيب القديمة وانتهاءً بالمحاريب والمنابر، وأخذاً برواة القصص والأساطير فی المقاهی، وانتهاءً بالكتب العلمية.

والخلاصة: إنّهم اسـتعانوا بجميع الوسائل المضـلِّلة للوصول إلى مآربهم، من تحريف التاريخ، وأشعار الشعراء، وثناء المداحين، ومراكز التقديس والاحترام عند الناس، واختلاق الأساطير والكرامات والقيم غير الواقعية، وغيرها من الوسائل، فانّهم يستطيعون بوسائل الاعلام هذه أن يصوروا الشيطان ملكاً أو إنساناً محترماً، وذلك كله من أجل الوصول إلى مآربهم.

وقـد جاء فی بعض التواريـخ الإسـلامية المعروفـة أن طاعـة أهل الشام لمعاوية بلغت درجة عجيبة، وننقل هنا عبارة المسـعودی فی هذا المجال:

«لقد بلغ من أمرهم فی إطاعتهم له أنّه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فی يوم الأربعاء» «۱».

والقصـة التاليـة قصـة معروفة (وَلَوْ لَمْ تكن مرويّةً فی كتب التاريخ لكان قبولها صـعباً)، حيث إنّ رجلًا من أهل الكوفة قدم دمشق راكباً جملًا فی وقت كان أهل الشام يرجعون من صـفين، فرآه رجل دمشقی فقال له: إنّ هذه الناقة لی وأنت أخذتها منی فی صفين، فتنازعا فاشـتكى الشامی عند معاوية (وكأنّها اتخذت صـبغة سياسـية) وجاء بخمسين شاهداً على أنّ هذه الناقة له، فقضى له معاوية على أساس الشهود.

فصرخ الكوفی قائلًا لمعاوية: إنّ هذا جمل وليس ناقة (انثى الجمل)، وطلب منه أن

---

(۱). مروج الذهب، ج ۲، ص ۷۲.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۵

يلاحظهـا بنفسه، فـأدرك معاويـة صـدق الكوفی فيمـا يقوله، لكن رغم ذلك قال له: إنّ الحكم صـدر وانقضـى وبعـد ما تفرّق الناس أرسـل معاويـة رجلًا إلى الكوفی، فأتاه وأعطاه ضـعف قيمـة جمله، وقال له: «أبلغ علياً أنّی اقابله بِمِائـةِ ألفٍ ما فيهم من يُفرق بين الناقة والجمل» «۱».

وخلاصة القول: إنّ فی التاريخ شواهد ونماذج كثيرة تكشف عن كيفية إغواء الطغاة والساسة لأُمم عظيمة وغسل أدمغتهم بحيث ضلوا حَيارى فی متاهات الدروب، وابتلوا بمصائب كثيرة، وعند استتباب الأوضاع ورجوعها إلى حالتها الطبيعية، وعند سقوط الجبار المضل، وارتفاع حجب الاعلام، يستيقظ بعض الناس وينتبهون لماضيهم فيتأسفون ويندمون كثيراً.

وفى العصر الحاضر اكتسب الاعلام قدرة عظيمة بدرجة انَّ فى بعض الدول المتقدمة- اصطلاحاً- تأخذ وسائل الاعلام بأيدِ الشخصيات العلمية والمفكرين الواعين نسبياًصناديق الاقتراع ليصوتوا للشخصيات التى تدعو إليها وسائل الاعلام تلك، وقد يتصور أنّهم احرار على الاطلاق، بينما لا خيار لهم من جراء وسائل الاعلام تلك.

إنّ اتساع وسائل الاعلام المسموعة والمرئية واستعانتها بفنون علم النفس يزيد فى تأثير الاعلام على النفوس بدرجة يَحارُ فيها الخارجون عن دائرة الاعلام والمتمكّنون من متابعة الامور من دون رأى مسبق فيها.

إنّ هذا الأمر لم ينحصر فى الامور السياسية فحسب، بل فى الامور الاقتصادية كذلك، فإنّ وسائل الاعلام يمكنها بحملة إعلامية أن تسوق المجتمع نحو استهلاك سلعة قد تكون اعتباطية أو مضرة أحياناً، وبهذا يُفرض على المجتمع اقتصادٌ سقيم.

إنّ الاستعانة بعناوين وقيم كاذبة مثل الاستعانة بعنوان «موديل» أحد أوسع وأعقد الطرق للوصول إلى هذه الأهداف غير المشروعة.

كما أنّه يستعان بالاعلام الثقافى الغامض لفرض المذاهب الفكرية المختلفة على الشعوب، فتارة يُفرض مذهب باطل وعارٍ عن الاسس المنطقية، وكأنه مذهب فلسفى منطقى إنسانى.

---

(۱). مروج الذهب، ج ۲، ص ۷۲؛ الإمام على صوت العدالة الإنسانية، ج ۴، ص ۹۵۶.

وعلى أيّة حال، فمما لا شك فيه أنّه ينبغى رفع هذه الحجب عن المجتمع وتصحيح اتّجاه المعرفة فيه، كما ينبغى عدم ترك وسائل الاعلام أن تفكر وتقرر بدلًا عن المجتمع، بل يحدد عملها فى توعية الناس، وتهيئة الأرضية لهم لاتخاذ القرارات الصحيحة.

ينبغى أن لا يكون هدف وسائل الأعلام الجماعية هو وضع الحجب على عقول الناس والتعتيم عليهم، بل ينبغى أن يكون الهدف هو رفع حجب التعصب والجهل والغفلة والتقليد العشوائى عن العقول، وهذا هو البرنامج الراقى لوسائل الاعلام فى مجتمع رشيد ونموذجى، والمؤسف فى عصرنا الحاضر هو قلة مثل هذه المجتمعات.

إنّ النقص فى وسائل الاعلام هو أنّها بيد الساسة، والأسوء من ذلك أنّها بيد العمالقة الاقتصاديين الذين يوجهون الناس أين ما شاءوا.

ججج

۴- حجاب وساوس الشياطين

اشارة

فى البداية نتمعن خاشعين فى الآيات الشريفة التالية:

۱- «فَلَوْلَا اذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . (الأنعام/ ۴۳)

۲- «وَجَدْتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَايَهْتَدُونَ . (النمل/ ۲۴)

۳- «وَعَاداً وَثَمُودَا وَقَدْ تَّبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّساكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ . (العنكبوت/ ۳۸)

۴- «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمانِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ* وَانَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ . (الزخرف/ ۳۶- ۳۷)

۵- «وَكَذلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ الى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ۱۱۲)

۶- «انَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى ادْبَارِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۷

وَأَمْلَى لَهُمْ . (محمد/ ۲۵)

۷- «يَا ايُّهَا النَّاسُ انَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَاتَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ». (فاطر/ ۵)

شرح المفردات:

كلمة «الشيطان» خلافاً لما يظنّ البعض- ليس اسماً خاصاً بابليس وعلماً له، بل له مفهوم عام، وعلى ما يُصطلح عليه فهو «اسم جنس» يشمل كل موجود متمرد وباغ ومخرّب، سواء كان من الجن أو الانس أو شيئاً آخر.

وهنالك قولان فى أصل هذه المفردة:

القول الأول هو القائل بأنه من مفردة «شُطُون» أى البُعد، ولهذا قيل للبئر العميق والبعيد قعره عن متناول الأيدى «شَطون»، ويقول «خليل بن أحمد»: إنّ شَطَن تعنى الحبل الطويل، وبما أنّ الشيطان بعيد عن الحق وعن رحمة اللَّه استعملت هذه المفردة فيه.

والقول الثانى هو القائل بأنه من مادة «شَيْط» ويعنى الالتهاب والاحتراق غضباً، وبما أنّ الشيطان خلق من نار واشتعل غضباً عندما أُمر بالسجود إلى آدم عليه السلام أطلقت هذه المفردة عليه وعلى الموجودات الاخرى من أمثاله «۱».

«الغَرور»: من مادة «غُرور» أى الخدعة والحيلة والغفلة عند اليقظة، وقد اطلقت هذه المفردة على الشيطان لأنّه يغرّ الناس بخدَعِه وحِيَله ويخرجهم عن الطريق الصواب، ويغيّر رؤيتهم للحق والباطل.

«الغَرور»: كل شىء يغرّ ويخدع، وهو أعمّ من المال والمقام والشهوة والشيطان، وإذا فسّر أحياناً بالشيطان فقط فذلك لأنّه أخبث الخادعين والماكرين.

أمّا «التسويل» فمن مادة «سُؤْلَ» وفى الأصل يعنى الحاجة والامنية التى ترغب النفس

---

(۱). التحقيق فى كلمات القرآن الحكيم؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب ومجمع البحرين مادة (شيطان).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۲۸

فيها، والتسويل يعنى تزيين الشىء بشكل حيث تشتاق إليه النفس، كما جاء بمعنى تزيين الأشياء القبيحة.

هذا التفسير ذكره الراغب فى مفرداته، إلّاأنّه يستفاد من صِحاح اللغة وكتاب العين، أن معناها فى الأصل هو الاسترخاء المتزامن مع الغرور والغفلة، ولهذا اطلقت هذه المفردة على تزيين الامور غير السائغة واظهار عكس ما هى عليه وبشكل سائغ، بحيث يُخدع الإنسان من جرائها ويسترخى.

وعلى أيّة حال، فإنّ المراد من تسويلات الشيطان فى الآيات هو إظهار القبح حسناً بشكل يخدع الإنسان ويحرفه.

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُزيّن الباطل؟ وكيف تُسحر العيون؟

تحدثت الآية الاولى عن فريق من الأقوام السالفة الذين أُرسل إليهم رسلٌ ليؤمنوا ويسلموا أنفسهم للحق، إلّاأنّهم اعرضوا عن ذلك، فأنزل اللَّه عليهم بأسه، فابتلاهم بمختلف المشاكل والمصائب والحوادث الصعبة، والفقر والمرض والقحط وغير ذلك، كى يوقظهم من غفلتهم، ولكى يخضعوا للحق، إلّاأنّهم اتخذوا السبيل المنحرف بدل سبيل الرشاد والرجوع إلى الحق والتوبة.

يقول القرآن فى هذا المجال: لماذا لم يتضرعوا بالرغم من مجيء بأسنا لهم؟ ثم يعدُّ أسباب هذا الأمر ويقول: الأول هو «قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فما كادت تخضع للحق.

والثانى هو: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ، بحيث أصبحوا يرون المعاصى صواباً والقبح جمالًا، وقد نفذ الشيطان هنا من طريق عبادة الهوى

وبتعبير آخر: لم تؤثر فيهم لا مواعظ الأنبياء اللفظية، ولا مواعظ اللّه العملية والتكوينية، وعامل هذا الحجاب هو قسوة القلوب من جهة، ومن جهة اخرى تزيين الشيطان لهم، بحيث سلب منهم روح التضرع والخضوع.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۲۹

هناك بحث بين المفسرين فى المراد من «تزيين الشيطان»، فيقول البعض: إنّه الوساوس الشيطانية التى تبدو المحاسن فيها قبائحاً والقبائح فيها محاسناً، أو العوامل الخارجية التى تزين للإنسان سوءَ أعماله، كما تُجعل المواد السامة فى غلاف مُغرٍ وجميل، وكما يُدعى للانحرافات الكبيرة تحت غطاء التمدن والأفكار النيرة والحرة.

وتحدثت الآية الثانية عن هدهد سليمان عندما قدم من رحلته إلى بلاد الملكة سبأ، فبعد حكايته لقصة سبأ وحضارة بلادها العظيمة قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ .

إنّ هذه الآية تكشف عن أنّ الهدهد بالرغم من محدودية عقله وذهنيته الخاصة به وبعالمه يدرك بالاجمال حجب المعرفة، ويعرف أنّ الشيطان يجعل ستاراً على فكر الإنسان يحول دون تمكنه من إدراك الحقائق ويغلق أبواب المعرفة عنه ويحول دون وصول الإنسان إلى مراده المنشود.

وقد بحثنا امكانية اطلاع الحيوانات على عالم الإنسان، كما بحثنا مدى معرفتها لهذا العالم فى تفسير الأمثل ذيل الآية ۱۸ من سورة النمل، وفى ذيل الآية ۳۸ من سورة الأنعام.

كما تحدثنا فى ذيل الآية نفسها عن كيفية طى الهدهد المسافة الطويلة بين الشام واليمن ووصوله إلى بلاد سبأ.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثالثة عن قوم عاد وثمود وطغيانهم وعصيانهم ثم هلاكهم، كما عرضت على عرب الحجاز مدنهم الخربة التى يمرون بها عند رحلاتهم إلى الشام واليمن كعبرة لهم، ثم أشارت إلى السبب الأساسى فى إهلاكهم وهو تزيين الشيطان لأعمالهم بحيث ما كادوا يبصرون شيئاً ولا يعقلون رغم امتلاكهم للابصار والعقول، وقد قالت الآية: «وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ .

إنّ عبارة «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ - كما يقول كثير من المفسرين- تعنى غفلتهم وعدم

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۳۰

تدبرهم فى الحقائق بالرغم من امتلاكهم للعقول والحواس واقتدارهم على الاستدلال والتمييز بين الحق والباطل «۱».

وقد جاء فى تفسير الميزان: «إنّهم كانوا يعرفون طريق الحق بفطرتهم إلّاأنّ الشيطان زيَّن لهم أعمالهم فمنعهم عنه» «۲».

ويقول البعض: إنّ المراد من العبارة هو معرفتهم للحق بواسطة دعوة الأنبياء وتعاليمهم «۳».

إنّ الآية بجميع تفاسيرها (سواء قبلنا أحدها أو قبلنا الجميع لعدم المنافاة بينها) شاهد على ما قلناه من أن تزيين الشيطان يجعل حجاباً على عقل الإنسان وفكره.

ج ج

وقد بينت الآية الرابعة بصورة عامة مصير الذى يعشو عن ذكر اللّه ويغفل عنه وقالت:

«وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمانِ ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ذَكر المفسرون وأئمة اللغة معنيين لفعل «يَعْشُ»، فقال بعض: إنّه ظلام خاص يحلّ فيا لعين يفقد الإنسان من جرائه بصره ويكون أعمى أو أعشى (أى لا يرى فى الليل) وهو من مادة «عَشَى ، كما يقال «عشواء» للجمل الذى لا يرى أمامه ويخطأ عند المشى، وعبارة «خبط عشواء» إشارة إلى هذا المعنى

وعلى هذا فيكون معنى الآية الشريفة هو: إنَّ الذى لا يرى آيات اللَّه فى الكون بعينه، ولا يسمع من انبيائه، فانه سيقع فى فخّ الشيطان وتسويلاته.

وقال بعض آخر: إنّها من مادة «عَشْو»، وعندما تستعمل مع «إلى فتعنى الهداية ببصر ضعيف، وعندما تستعمل مع «عن» فتعنى الإعراض «۴».

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۲۸۳؛ تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۴۶۸، كما نقل هذا عن بعض المفسرين فى تفسير القرطبى.

(۲). تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۱۳۱.

(۳). التفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۶۶.

(۴). يقول بعض المفسرين: إنّ هذه المفردة إن كانت من مادة (عَشَا، يَعْشو)، فتعنى التعامى من دون أن تكون علة فى بصره، أمّا إذا كانت من مادة (عَشَى يَعْشا)، فتعنى حصول علة فى بصره، تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۳۶۸، وينبغى الالتفات هنا إلى أنّها فى الآية من باب (عَشَا، يَعْشو).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۱

وعلى هذا فيكون المراد من الآية هو: إنّ الذين يعرضون عن ذكر اللَّه فَنُقَيِّضُ ونسلط الشيطان عليهم «۱».

إنّ «نُقَيِّضُ» من مادة «قَيْض» وتعنى قشر البيض ثم استعملت بمعنى الاستيلاء، واستعمال هذه المفردة فى الآية أمرٌ مثير، حيث يكشف عن أنّ الشيطان عندما يَنْقَضُّ على الإنسان يحيط به من جميع الجهات، ويقطع اتصاله بالخارج بالكامل كما تفعل قشرة البيض بالبيض، وهذا أسوء أنواع حجب المعرفة التى يُبتَلى بها الإنسان، كما أنّ هناك مثلًا عند العرب يقرب معنى الآية للأذهان «استيلاء القيض على البيض».

والأسوء من هذا هو أنّ احاطة الشيطان بالإنسان واستيلاءه عليه ومقارنته له تستمر إلى درجة تجعله يفتخر بضلالته ويحسب أنّ طريقه هو طريق الحق والهداية «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ .

ج‌ج

وقد تحدثت الآية الخامسة عن شياطين الانس والجن الذين نصبوا العداء للأنبياء والذين أعدوا أنفسهم لابطال فاعلية تعليم الأنبياء، ويوحى بعضهم إلى بعض أقاويل مزخرفةً باطلةً لا أساس لها من الصحة، كما يعلّم بعضهم البعض طرق المكر والخداع، وذلك لاغفال الناس وكتم الحقائق وجعل الحجب عليها، وإبعاد الناس عن تعاليم الأنبياء.

وينبغى ذكر هذه النقطة هنا وهى: إنّ العدو ذكر بصيغة المفرد، بينما الشياطين بصيغة الجمع، وهذا قد يكون من حيث إنّ الشياطين متحدون ومتفقون فى سبيل إغفال الناس وخداعهم وكأنّهم عدو واحد.

ويقول البعض: إنّ «عدو» هنا بمعنى أعداء أى بمعنى الجمع «۲».

---

(۱). راجع لسان العرب ومفردات الراغب و تفاسير القرطبى وروح البيان والميزان.

(۲). تفسير روح المعانى، ج ۸، ص ۴.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۲

كما صرح بعض آخر: إنّ «العدو» تطلق على المفرد والمثنى والجمع «۱».

والآية السادسة هى من آيات سورة محمد صلى الله عليه و آله التى أُشير فيها إلى حجب متعددة من حجب المعرفة، فتارة تعدّ الفساد فى الأرض وقطع صلة الرحم سبباً للعمى الباطنى لهم الآية ۲۳، وتارة اخرى تعد ترك التدبر فى القرآن بمثابة الأقفال على القلوب.

والآية المذكورة تعدُّ تزيين الشيطان وتسويلاته سبباً لارتداد الضالين، حيث يتبين لهم الحق ويؤمنون به أولًا، ثم ينحرفون عنه من جراء تسويلاته وتزيينِهِ لهم إلى درجة يفتخرون فيها بضلالتهم الأخيرة.

من هم المشار إليهم فى الآية؟

هذا ما بحثه المفسرون وانقسموا من جرائه إلى فريقين، فبعض يقول: إنّهم اليهود، حيث كانوا مؤمنين بالرسول صلى الله عليه و آله قبل ظهوره وذلك لوجود العلامات المذكورة فى كتبهم عن ذلك الرسول، ثم سلكوا سبيل العناد والمخالفة له بعد ظهوره، ويُعدُّ هذا نوعاً من الارتداد.

وبعض يقول: إنّها تشير إلى المنافقين الذين آمنوا فى البداية ثم ارتدوا بعد ذلك، أو أنّهم آمنوا ظاهراً وهم كافرون باطناً، لكن مع الالتفات إلى كون الآيات التى سبقت هذه الآية والتى تليها ناظرة إلى المنافقين، لا يبعد أن تكون هذه الآية تشير إليهم كذلك فالمراد من الآية- إذن- المنافقون الذين آمنوا فى البداية ثم ارتدوا بعد ذلك.

إنّ «أملى لهم» من مادة «املأ» أى الإمهال «۲»، والمراد منها هو الآمال البعيدة التى يوحيها الشيطان للإنسان، الآمال التى تشغل فكر الإنسان وتزين له الباطل وتبعده عن الحق.

ج‌ج

أمّا الآية السابعة والأخيرة فقد أنذرت الناس- بتعبير وافٍ- بأن وعد اللَّه حق، ثم ذكر

---

(۱). تفسير المنار، ج ۸، ص ۵.

(۲). ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ أصل هذه المادة هو (مَلْو) لا (مَلأ)- بالهمزة-.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۳

عاملين للضلالة والانحراف عن الحق، الأول: الدنيا «فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا»، والثانى:

الشيطان «وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» فتارة يؤملكم بكرمه وينسيكم غضبه، وتارة اخرى يغويكم بشكل بحيث تنسون اللَّه وتعاليمه، أو تبدو لكم تعاليمه بشكل معكوس.

إنّ «غرور»- كما أشرنا سابقاً- هو كل ما خدع الإنسان، سواء كان مالًا أو جاهاً أو شهوات أو غير ذلك، وبما أنّ الشيطان أوضح مصداق للخداع، أطلق عليه ذلك كثيراً، وفُسِّر به «۱».

يعتقد كثير من المفسرين أنّ عبارة «لَايَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ» تلميح إلى أنَّ الشيطان غَرَّ الإنسان بَعفو اللَّه وكرمه بدرجة يمكّنه من ارتكاب أى معصية أراد، ويبلغ به الأمر أن يعتقد بأنّ هذا ناشىء عن كمال معرفته لصفات اللَّه! وهذا أمر عجيب.

وحاله كحال من يتصور أنّ جسمه قوى وذو مناعة تمكنه من مقاومة جميع السموم المهلكة، فيخدعه تصوره ويتناول السم فيموت.

وهذا هو أحد حجب المعرفة.

ج‌ج

توضيحات

۱- من هو الشيطان؟

إنّ «الشيطان»- وكما قلنا سابقاً- ليس اسماً خاصاً أو علماً لإبليس، بل إنّ إبليس الذى امتنع عن السجود لآدم هو أحد الشياطين.
إنّ لإبليس جنوداً كثيرة من جنسه ومن الناس، وتطلق مفردة الشيطان على الجميع، وعلى هذا فقادة الكفر والشرك والظلم والفساد فى الأرض، والعاملون فى الاجهزة الظالمة كلهم من جنود الشيطان، ولقد جاء فى رواية أن هناك شياطينَ من الانس أسوء من شياطين الجن، حيث سأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أباذر يوماً: «هل تعوّذت باللَّه من شر شياطين الجن

---

(۱). إنّ «الغرور» صيغة مبالغة.

والإنس»؟
فقال أبوذر: وهل من الناس شياطين؟
فأجابه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «نعم هم شرٌ من شياطين الجن» «۱».
كما أنّ المستشفَّ من القرآن هو أن للشيطان جنوداً فرساناً وراجلين كما جاء ذلك فى الآية: «وَاجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ . (الاسراء/ ۶۴)
إنّ «اجلب» من مادة «إجلاب» ويعنى التجمع السريع أو الضجيج والصياح لحثّ مجموعة ما على الحركة.
أمّا المراد من «خيلك ورَجِلك»، فيقول الكثير من المفسرين: إنّه الراجل أو الفارس الذى يخطو فى معصية اللَّه، أو قاتل فى هذا السبيل «۲».
ويقول البعض: إنّ للشيطان أعواناً وأنصاراً راجلين وفرساناً حقاً.
وحمل البعض العبارة على الكناية، وقال: المراد من الآية هو أنّ الشيطان أعدَّ العِدَّة ووفّر جميع الوسائل لصراع ومجابهة الناس «۳».
كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو قادة الكفر والظلم والفساد، ومن الرجل، الشخصيات المتوسطة الأضعف من الشخصيات السابقة.
كما يحتمل أن يكون المراد من الخيل هو الشهوات والصفات الذميمة التى تتغلب على روح الإنسان وتمتطيها، والمراد من الراجلين هو العوامل الخارجية التى تسعى لانحراف الإنسان عن الصراط المستقيم.

ججج

۲- الإجابة عن سؤال

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۱۵۴.
(۲) نقل القرطبى هذا التفسير عن أكثر المفسرين.
(۳) ذكر الفخر الرازى هذا التفسير كاحتمال فى تفسير الكبير، ج ۲۱، ص ۶، وقد جاء ما يشبه هذا الاحتمال فى تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۴۳.

هناك سؤال يرتبط ببحثنا وهو: كيف يمكن أن يتركنا اللَّه لوحدنا نواجه جنود الشيطان القوية والقاسية؟ وهل يتفق هذا مع حكمة اللَّه وعدله؟

يمكننا الإجابة عن هذا السؤال بالالتفات إلى نقطة، وهي: إنّ اللّه- وكما جاء في القرآن الكريم- يجهز المؤمنين بجنود رحمانية، أي الملائكة، ويوظف القوى الغيبية التي في العالم يؤازرونهم وينصرونهم في طريق جهاد النفس والعدو:

«إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ* نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ...».

(فصلت/ ۳۰- ۳۱)

۳- النقطة المهمّة الاخرى

هي: إنّ الشيطان لا يدخل قلوبنا فجأة ولا يعبر حدود دولة الروح من دون جواز، إنّ هجومه ليس مباغتاً بل يدخل برخصتنا، نعم إنّه يدخل من الباب لا من النافذة، ونحنُ نفتح له الباب، كما يقول القرآن في هذا المجال: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ* انَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ .

(النحل/ ۹۹- ۱۰۰)

في الحقيقة إنّ أعمال الإنسان هي التي توفر الأرضية لنفوذ الشيطان، وذلك ما يقوله القرآن: «انَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا اخْوَانَ الشَّيَاطِينِ .

(الاسراء/ ۲۷)

إلّا أنّه لا طريق للنجاة من مكائد الشياطين المتنوعة وجنودهم في أشكالها المختلفة من الشهوات ومراكز الفساد والسياسات الاستعمارية والمذاهب المنحرفة والثقافات الفاسدة، إلّااللجوء إلى الإيمان والتقوى والتظلّل بألطاف اللّه والتوكل على ذاته المقدّسة، وكما يقول اللّه تعالى: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۶

قَلِيلًا». (النساء/ ۸۳)

وقد انتهت إلى هنا حجب المعرفة العشرون، فننتقل معاً إلى مؤهلات المعرفة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۷

مؤهلات المعرفة

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۳۹

مؤهلات المعرفة

تمهيد:

اشارة

كما أنّ البذور تنمو في الأراضي الخصبة، وكما أنّ الأزهار لا تتفتح في الأراضي المالحة بالرغم من استعمال أفضل البذور، ونزول المطر المتوالي عليها، كذلك بذور المعرفة فانّها لا تنمو إلّافي القلوب الصالحة والمؤهلة، ولا تتفتح أزهارها إلّافي الأرواح الطاهرة.

ولهذا السبب فإنّ الاطلاع على الروحيات والأعمال التي تهيىء وتُعِدّ أرضية المعرفة يعد من أهم البحوث التي تتعلق ب «المعرفة»، وقد استعمل القرآن في هذا المجال تعابير ذات معانٍ عميقة وإشارات جميلة.

وبالرغم من أنّ المؤهلات للمعرفة كثيرة، إلّاأنّ الاسس المهمّة والتي أشار إليها القرآن عبارة عن الامور التالية:

۱- علاقة التقوى بالمعرفة.

۲- الإيمان والمعرفة.

۳- علاقة الصبر والشكر بالمعرفة.

۴- المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة.

۵- علاقة الخوف بالمعرفة

و سنبحث كلًا من هذه الامور فى فصل خاص بعد ذكر الآيات التى تتعلق بها، كما سنستعين بالروايات الإسلامية فى هذا المجال كمؤكد وموضّح لها إن شاء اللّه.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۰

۱- علاقة التقوى بالمعرفة

اشارة

فى البداية نتأمل خاشعين فى الآيات المباركة التالية:

۱- «الم* ذلِكَ الْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ هُدىً لِّلْمُتَّقِينَ . (البقرة/ ۱- ۲)

۲- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً». (الأنفال/ ۲۹)

۳- «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ . (البقرة/ ۲۸۲)

۴- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفلَينِ مِنْ رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . (الحديد/ ۲۸)

ج‌ج

شرح المفردات:

إنّ «التقوى من مادة «وِقاية» وتعنى- كما يقول الراغب فى مفرداته- حفظ الشىء من الآفات.

ثم يضيف: إنّ التقوى بمعنى حفظ الروح والنفس ممّا يخشى مضرته، ثم اطلقت على الخوف، كما أنّ التقوى فى الشرع تطلق على التحفظ من المعاصى، وكمالها ترك بعض المباحات المشكوكة «۱».

ولباقى أئمّة اللغة تعابير تشبه ما جاء فى المفردات، فقد فسرها بعض بالصيانة «۲»، وبعض اخر ب «الامتناع عن القبائح والأهواء» «۳».

وقد نقل عدد من المفسرين حديثاً عن بعض الصحابة أنّهم سألوا عن حقيقة التقوى فاجابوا:

---

(۱). مفردات الراغب مادة (وقى .

(۲). لسان العرب نفس المادة.

(۳). مجمع البحرين، نفس المادة، كما ينبغى الالتفات إلى أن أصل مفردة التقوى هو «وَقى فانقلبت الواو تاءً، كما ذكر ذلك الخليل بن أحمد فى كتابه «العين».

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۱

«هل مررت بطريق ملىء بالأشواك فى يوم ما؟ قال السائل: نعم، قال: الم تجمع ثيابك وترفع اذيالك وتسعى للخلاص من الأشواك؟ فحالتك هذه هى التقوى .

نعم، إنّ الطريق إلى اللّه ملىءٌ بالأشواك كأشواك الشهوات والميول والأهواء والآمال البعيدة والكاذبة، ومن هنا ينبغى على الإنسان أن يحافظ على ثباته فيتجنب أن يكون عرضة لهذه الأشواك، وينبغى أن لا تشغله عن مسيره إلى اللّه سبحانه وتعالى.

و هذا لايكون إلا باليقظة والمعرفة والخبرة ومراقبة النفس على الدوام.

وبتعبير أبسط: إنّ التقوى هى الوقاية من الآفات التى تعترض الروح فى سيرها التكاملى، وتجنّبُ الذنوب والشبهات حتى الوصول إلى الملكة.

وقد ذكر بعض المفسرين معانىَ عديدة للتقوى وجاؤوا بشاهد من القرآن لكلٍ منها، وفى الحقيقة أنّ كلًا منها مصداق من مصاديق التقوى مثل التوبة والطاعة والإخلاص والإيمان (العبادة والتوحيد) «۱».

ويقول البعض: إنّ حقيقة التقوى هى أن يجعل الإنسان حائلًا أو مانعاً أمام آفة ما، فكما يدفع الإنسان تأثير ضربات العدو بالدرع، كذلك المتقون فانهم يصونون أنفسهم من عذاب اللّه بواسطة درع طاعة اللّه «۲».

نقسّم التقوى إلى ثلاث مراحل: التقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنب، والتقوى عما ينسى الإنسان ذكر ربّه «۳».

ولكن- كما هو واضح- فإنَّ المعانى هذه كلها ترجع إلى المعنى الأساسى الذى ذُكر للتقوى فى البداية.

ج‌ج

---

(۱). وجوه القرآن، ص ۵۵؛ التفسير الكبير، ج ۲، ص ۲۰.

(۲). تفسير روح البيان، ج ۱، ص ۳۰ و ۳۱.

(۳). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۲

جمع الآيات وتفسيرها

اتقوا كى يسطع نور العلم على قلوبكم!

يقول اللّه عزّ وجلّ فى الآية الاولى «ذلِكَ الْكِتابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ والتعبير هذا يثبت بوضوح تأثير التقوى على المعرفة كمؤهل لها.

وهذه هى الحقيقة، فما لم تحصل فى باطن الإنسان مرحلة من مراحل التقوى لا يمكنه الاستفاضة من ينابيع الكتب السماوية، وأقل التقوى هو أن يسلم الإنسان نفسه إلى الحق ويترك العناد، فإنّ الذين يفتقدون هذه المرحلة من التقوى سوف لا يرتفعون إلى أدنى درجة من درجات المعرفة ولا يتقبلون الهداية أبداً.

طبيعى أنّ الإنسان كلما كانت روح التقوى والتسليم إلى الحق وقبول الحقائق والواقعيات قوية عنده كانت استفاضته من ينابيع الهداية أكثر.

إنّ ينابيع الهداية وعلى رأسها القرآن المجيد كالغيث الذى يحيى الأرض ويفتح أزهار المعرفة فيها، وهذا يحدثُ فى الأرض الخصبة فقط لا فى كل أرض.

إنّ التعبير ب «هدى أى بصيغة المصدر، تأكيد لحقيقة أنّ روح التقوى إذا استيقظت عند الإنسان وأصبحت فعالة، فإنّ القرآن سيصبح

الهداية ذاتا (تأمل جيداً).

وفى هذا المجال يقول بعض المفسرين العظام:

«إنّ الهداية الثانية لما كانت بالقرآن فالهداية الاولى قبل القرآن وبسبب سلامة الفطرة، فإنّ الفطرة إذا سلمت لم تنفك من أن تنتبه شاهدة لفقرها وحاجتها إلى أمرٍ خارج عنها، وكذا احتياج كل ما سواها ممّا يقع عليه حس أو وهم أو عقل إلى أمر خارج تقف دونه سلسلة الحوائج، فهى مؤمنة مذعنة بوجود موجود غائب عن الحس، منه بدأ الجميع وإليه ينتهون ويعودون، وأنّه كما لم يهمل دقيقة من دقائق ما يحتاج إليه الخلق كذلك لا يهمل هداية الناس إلى ما ينجيهم من مهلكات الأعمال والاخلاق وهذا هو الاذعان بالتوحيد والنبوة والمعاد وهى اصول الدين» «۱».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱، ص ۴۲.

كما يقول الفخر الرازى:

«والبعض الآخر ذكر فى حصر الهداية بالمتقين لأنّ اللّه تعالى ذكر المتقين مدحاً ليبين أنّهم هم الذين اهتدوا وانتفعوا به كما قال: «إِنَّمَا انْتَ مُنذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا». (النازعات/ ۴۵)

وقال: «إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ». (يس/ ۱۱)

وقد كان عليه السلام منذراً لكل الناس، فذكر هؤلاء الناس لاجل أنّ هؤلاء هم الذين انتفعوا بانذاره» «۱».

وقد استنتج الفخر الرازى فى بعض عباراته:

«ولو لم يكن للمتقى فضيلة إلّاما فى قوله تعالى (هدى للمتقين) كفاه لانه تعالى بيّن أنّ القرآن هدى للناس فى قوله تعالى «شَهْرُ رَمَضَانَ الّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لّلنَّاسِ ...».

(البقرة/ ۱۸۵)

ثم قال: إنّه هدى للمتقين فهذا يدل على أنّ المتقين هم كل الناس فمن لا يكون متقياً كانه ليس بانسان» «۲».

و بالرغم من عدم تعارض التفاسير الماضية، إلّاأنّ التفسير الأول يبدو أوضح، ومن هنا يعرف عدم صحة الرأى القائل (بحمل «المتقين» فى الآية على المجاز، والقول بأنّ المراد منهم سالكو طريق التقوى وذلك للحيلولة دون الوقوع فى إشكال (تحصيل حاصل)، وذلك لأنّ للتقوى وكما قلنا- مراحل ودرجات، فمرحلة منها تؤهل لهداية القرآن، والمراحل الرفيعة الاخرى تكون وليدة هداية القرآن.

ويُطرح هنا سؤال وهو: إنّ الآيات التى جاءت بعد «هدىً للمتقين» عرفت المتقين بالذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وعلى هذا، أفلا تكون هداية القرآن تحصيلًا للحاصل يا ترى !

إنّ الإجابة على هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى نقطة فى هذا المجال وهى: إنّ الوصول إلى هذه المراحل المذكورة فى السؤال ليست نهاية الطريق، بل هناك مراحل كثيرة اخرى ينبغى طيها لبلوغ المرحلة التكاملية اللائقة بالإنسان، وهذه المرحلة عند

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۲، ص ۲۱.

(۲). المصدر السابق.

المتقين ستهديهم إلى مراحل ارفع واسمى بالاستعانة بهداية القرآن.

وتوجد تعبيرات فى القرآن تشبه ما جاء فى الآية السابقة، مثلما جاء فى الآية: «وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ . (الحاقة/ ۴۸)

فعدت الآية الاولى القرآن «هدى للمتقين وسبباً لهدايتهم، والثانية «تذكرة» لهم، ونعلم أنّ «التذكر» من مقدّمات «الهداية»، ولهذا عندما وصل عدد من المفسرين إلى هذه الآية أرجعوا الحديث فيها إلى نفس الحديث فى بداية سورة البقرة.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه الآيات شاهد ناطق على دور التقوى كممهّد للمعرفة والهداية.

ج‌ج

وقد وضحت الآية الثانية علاقة التقوى بالمعرفة توضيحاً أكثر من الآية السابقة وصرحت: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَاناً».

إنَ «الفرقان»- كما يقول بعض أئمة اللغة-: (اسم مصدر)، وادعى بعض آخر (مصدر) إلّاأنّ أغلب المفسرين يصرحون بأن له- فى موارد كهذا المورد- معنى فاعلياً مقروناً بالتأكيد (أشبه ما يكون بمفهوم صيغة المبالغة)، ومعناه الشيء الذى يفرق بين الحق والباطل، وله مفهوم واسع يشمل القرآن المجيد ومعجزات الأنبياء والأدلة العقلية الواضحة وشرح الصدر والتوفيق والنورانية الباطنية وغير ذلك «۱».

وبهذا، فالقرآن يقول بأنّ «التقوى هى الأرضية التى تعد للمعرفة والتى يمكن الاستدلال بها تماماً فى بعض المراحل، وتنطوى فى المراحل الاخرى ضمن الامدادات الإلهيّة المعنوية.

سمى القرآن المجيد يوم معركة بدر «يوم الفرقان»، وذلك من حيث إنّه يوم شهد آيات اللّه البارزة تؤيد جند الإسلام ضد جند الشرك، فبالرغم من عِدَّة وعدد المشركين الذى يقدر بثلاثة أضعاف عدد المسلمين، تحملوا ضربات قاسية من المسلمين لم يتوقعها أحد.

---

(۱). راجع المفردات، وكتاب العين، ولسان العرب، ومجمع البحرين، والميزان، والكشاف فى ذيل الآية نفسها.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۵

إضافة إلى هذا، فإنّ معركة بدر كانت أول مواجهة مسلحة بين المسلمين والمشركين انفصلت بها صفوف المسلمين عن المشركين، ولذا سميت ب «يوم الفرقان».

وينبغى الالتفات إلى أنّ «فرقاناً» جاءت بصيغة نكرة ومطلقة، فدلّت على عظمة ذلك النور الإلهى وعلى سعته، بحيث يشمل المسائل الاعتقادية والعملية وكل ابداء رأى تجاه امور الحياة المهمّة، وعلى هذا، فثمرة شجرة التقوى هى الولوج فى كل خير وبركة والابتعاد عن كل شرٍّ وفساد.

يقول الفخر الرازى فى شرحه لهذه الآية: بما أنّ لفظ الفرقان مطلق فينبغى حمله على كل ما يفرق المؤمنين عن الكافرين، فهذا الفرقان إمّا فى أحوال الدنيا وإمّا فى أحوال الآخرة، والذى يتعلق بأحوال الدنيا إما أنّه يتعلق بالقلب وهى الاحوال الباطنة أو فى الأحوال الظاهرة، فبالنسبة للقلب والباطن فاللّه يهدى قلوب المؤمنين ويلقى فيها المعرفة ويشرح صدورهم ويمحو عنها الحقد والحسد والبغض والعداوة، بينما يمتلىء قلب المنافق والكافر من هذه الرذائل والصفات السيئة، لأنّ القلب إذا تنور بنور الإيمان زالت ظلمات هذه الرذائل عنه، أمّا الذى يتعلق بالظاهر، فاللّه ينصر المسلمين ويفتح لهم ويمنحهم الرفعة «۱».

ج‌ج

والآية الثالثة التى هى جزء صغير من أطول آية، أى بعد أن بيّنت عدداً من الأوامر الإلهيّة قالت: «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ . (البقرة/ ۲۸۲)

يقول القرطبى فى تفسيره:

«إنّه وعدٌ من اللّه تعالى بأنّ من اتقاه علّمه، أى يجعل فى قلبه نوراً يفهم به ما يُلقى إليه، وقد يجعل اللّه فى قلبه ابتداء فرقاناً، أى فصلًا

يفصل به بين الحق والباطل» «۲».

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۵۳ (بتلخيص).

(۲). تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۴۰۶.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۴۶

إنّ هذا الحديث لا يعنى ترك كسب العلم، والاكتفاء بتهذيب النفس- كما يقول بعض الصوفية وأشخاص منحرفون- بل المراد هو أنّ التقوى تهيىء الأرضية لكسب العلم الحقيقى أشبه ما يكون بالأرض الخصبة والمُعدَّة لبذر البذور.

صحيح أنّ جملة «اتقوا اللَّه» ليست شرطاً وأن جملة «يعلمكم اللَّه» ليست جزاء لها (ولهذا أنكر البعض العلاقة بين التقوى والعلم المستفادة من هذه الآية)، لكن ممّا لا شك فيه هو أن اقتران أحدهما بالآخر لم يكن اعتباطاً، بل هو تلميح إلى العلاقة الموجودة بين هذين الاثنين، وإلّا فيعرض انسجام الآية للسؤال.

ج ج

إنّ رابع وآخر آية بيّنت العلاقة بين التقوى والمعرفة بوضوح، فبينت ثلاثة أجور للذين يتقون اللَّه ويؤمنون برسوله.

الأول يؤتيهم اللَّه كفلَيْنِ أو نصيبين من رحمته، نَصيباً لإيمانهم ونصيباً لتقواهم، أو نَصيباً لأجل إيمانهم بالأنبياء السالفين ونصيباً لأجل إيمانهم بالرسول صلى الله عليه و آله، وبالرغم من أنّ المخاطبين فى الآية مؤمنون إلّاأنّ اللَّه يأمرهم أن يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه و آله، كما أنّ شأن نزول الآية يبيّن أنّها بصدد فريق من نَصارى الحبشة الذين سمعوا القرآن وآمنوا بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله «۱».

والثانى: هو جعل اللَّه لهم نوراً- لأجل ايمانهم وتقواهم- يهتدون به فى صراطهم:

«وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ .

وبالرغم من أنّ البعض أراد تقييد مفهوم الآية والقول بأنّ النور الذى ذُكِرَ فيها إشارة إلى النور الذى يسعى بين أيدى المؤمنين وبإيمانهم فى يوم القيامة (كما تشير إلى ذلك الآية ۱۲ من سورة الحديد: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم). (الحديد/ ۱۲)

لكن لا دليل لهم على هذا التقييد، بل إنّ مفهومها- وكما يقول صاحب الميزان- واسع

---

(۱) «الكِفْل» ما يعيل الإنسان ويرفع حاجته، ويعتقد البعض أنّ هذه المفردة حبشية دخيلة على العربية.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۴۷

يشمل الأنوار الإلهيّة كلها فى الدنيا والآخرة، وعلى هذا فتكون الآية شاهداً على العلاقة بين «التقوى و «المعرفة».

أمّا الأخير فهو: «وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وهذا كله لأجل إيمانهم وتقواهم.

توضيحات

۱- علاقة العلم بالتقوى فى الروايات الإسلامية

وفى الروايات الإسلامية أيضاً تمّ بيان مدى تأثير التقوى على مسألة العلم، هذه الروايات تبيّن بوضوح أنّ تطهير القلب والروح بالتقوى يعد الأرضية لتلقى المعارف الإلهيّة.

نذكر هنا الأحاديث التالية كنماذج لما جاء فى الروايات الإسلامية:

ونقرأ فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال:

«من غرس أشجار التقى جنى ثمار الهدى «۱».

۲- وجاء أيضاً فى احدى خطب نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

«أمّا بعد فانّى أُوصيكم بتقوى اللَّه .. فإنّ تقوى اللَّه دواء داء قلوبكم وبصر عمى افئدتكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم وجلاء عشا أبصاركم» «۲».

۳- وفى حديث عنه أيضاً أنّه عليه السلام قال:

«للمتقى هدىً فى رشاد وتحرّج عن فساد» «۳».

۴- ونقرأ أيضاً فى نهج البلاغة أنّه عليه السلام قال:

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) نهج البلاغة، خطبة ۱۹۸.

(۳) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۸

«اين العقول المستصبحة بمصابيح الهدى والأبصار اللامحة إلى منار التقوى «۱».

۵- ونختم حديثنا بحديث ذى معنى عميق عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: جاء فى وصيّة الخضر لموسى عليه السلام: «يا موسى وطِّن نفسك على الصبر تلق الحلم واشعر قلبك التقوى تنل العلم وَرَضّ (روّض) نفسك على الصبر تخلص من الإثم» «۲».

۲- كيفية الارتباط بين ينابيع العلم والتقوى

ما هو تأثير التقوى واجتناب الذنوب وترك التلوث بها على مسألة المعرفة؟ وبتعبير آخر: ما هى العلاقة المنطقية بين العلم والأخلاق؟

فى الحقيقة أنّ لهذين الاثنين علاقة تقارب قوية، وأى علاقة أقرب وأوثق من العلاقة المتبادلة بين هذين الاثنين؟ فالتقوى ينبوع العلم، كما أنّ العلم ينبوع التقوى وليس هذا بأمر طبيعى فحسب بل إنّه أصل أساسى للسير فى طريق المعرفة.

فيمكن الاستدلال على تأثير التقوى على العلم بالطرق التالية:

أ) إنّ السنخية والتنسيق تسببان الجاذبية والإرتباط دائماً.

فعندما تتطهر روح الإنسان وتزكى بالتقوى تحصل جاذبية قوية بينها وبين المعارف والعلوم الحقيقية «فالسنخية تبعث على الإرتباط العجيب».

ب) إنّ منجل التقوى يحصد جميع الأشواك من مزرعة روح الإنسان، ويُعدّ القلب وبهيئه لنمو بذور العلم والمعرفة، بل إذا دققنا النظر فإنّ بذور العلوم جميعها قد بذرها اللَّه فى هذه المزرعة، والمهم فى الأمر هو حصد الأعشاب المزاحمة وإرواء المزرعة.

وقد جاء فى حديث للمسيح عليه السلام مخاطباً فيه أنصاره قائلًا:

«ليس العلم فى السماء فينزل اليكم، ولا فى تخوم الأرض فيصعد عليكم، ولكن العلم

---

(۱). نهج البلاغة، خطبة ۱۴۴.

(۲). منية المريد للشهيد الثانى (ينقل عن بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۲۷).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۴۹

مجبول فى قلوبكم مركوز فى طبائِعكم، تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم» «۱».

ج) نعلم أنّه لا وجود للبخل والحسد فى مبدأ عالم الوجود، وعلى ما جاء فى الآية:

«وَانْ مِّنْ شَىْءٍ الَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ الَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُوْمٍ . (الحجر/ ۲۱)

فإنّ خزائن النعم غير المتناهية عند اللّه، ما ينقصه زيادة كرمه وكثرته شيئاً، بل إنّ جوده وكرمه يتجلّى أكثر «وَلا يَزِيدُهُ كَثْرَةُ العَطاءِ إلّاجُوداً وَكَرَما».

وعليه، فإنّ الحرمان سببه عدم أهلية الأشخاص، إنّ التقوى تجعل الإنسان أهلًا للفيض الإلهى، وأى فيضٍ أرفع شأناً من المعارف والعلوم الإلهيّة؟

إنّ القلوب كالأوعية كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ هذِهِ الْقُلُوب أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُها أوعاها» «۲» والمهم هو أنّ نوسع هذه الأوعية، وأن لا تكون مقلوبة لا تسع ولو لقطرة واحدة، وهذا الأمر ممكن فى ظل التقوى

أمّا التأثير المتبادل بين العلم والتقوى فهو أنّ العلم الحقيقى يمحو جذور الرذائل الأخلاقية وينابيع الإثم والذنب، ويمثل أمامه عواقب الامور، وهذه المعرفة تعين الإنسان على تبلور التقوى فى قلبه وعلى ابتعاده عن الإثم، ويتضح من هنا أنّ العلم ينبوع للتقوى كما أنّ التقوى ينبوع للعلم، غاية الأمر أنّ مرحلة من التقوى تسبب مرحلة من العلم، وتلك المرحلة من العلم تسبب مرحلة أرفع من التقوى وعلى هذا المنوال فإنّ كلًا منهما يوثر فى الآخر تأثيراً متبادلًا، وقد تكون الآية: مشيرةً إلى هذه النقطة:

«انَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُّبْصِرُونَ .

(الاعراف/ ۲۰)

أى أنّ التقوى تكون فى البداية، ثم التذكر، ثم البصيرة، والنتيجة هى النجاة من وساوس الشياطين.

ج‌ج

---

(۱). تفسير الصراط المستقيم، ج ۱، ص ۲۶۷.

(۲). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۴۷.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۰

نفحات القرآن ج۱ ۳۶۹

۳- استغلال العلاقة بين «العلم» و «التقوى

بالرغم من أنّ علاقة المعرفة بالتقوى علاقة لا يمكن انكارها، سواء من وجهة نظر القرآن المجيد، أو من وجهة نظر الدليل والعقل (وقد بينا ذلك بالتفصيل)، إلّا أن هذا الحديث لا يعنى ترك طرق كسب العلم والمعرفة المتعارفة، والاستغناء بتهذيب النفس بحجّة أنّ تهذيب النفس سيقذف العلم والمعرفة فى صدورنا كما ظن ذلك عدد من الصوفية الذين اتخذوا هذه المسألة حجة لمقارعة المعرفة وكسب العلم وظلوا فى جهل دامس.

إنّ الإسلام أوجب كسب العلم بدرجة حيث اعتبر الحضور فى مجلس العلم كالحضور فى روضة من رياض الجنّة: «مجلس العلم روضةٌ من رياض الجنة».

كما عدَّ النظر إلى وجه العالم عبادة: «النظر إلى وجه العالم عبادة» «۱»، وكل خطوة يخطوها فى سبيل العلم فهى خطوة نحو الجنة «۲».

وقد عدَّ مداد العلماء أفضل من دماء الشهداء «۳».

وحفظ الحديث وكتابته من الفضائل العظيمة «۴».

ويدعو الإسلام- من جهة اخرى- إلى تهذيب النفس وتزكيتها لأجل تهيئتها لقبول المعارف والعلوم الإلهيّة.

وعلى هذا، فأولئك الذين تركوا طلب العلم وأوصوا زملاءهم وأتباعهم بتركه، والتوجه إلى تصفية الباطن وتزكيتها على خطأٍ، لأنّ التزكية هذه غالباً ما تنحرف عن جادة الصواب بسبب عدم اقترانها بالعلم والمعرفة، وكذلك أولئك الذين انهمكوا فى كسب العلوم الرسمية وأهملوا تهذيب النفس، فانهم فى ضلالة، نعم ينبغى السعى نحو كليهما.

ج ج

---

(۱). غرر الحكم.

(۲). بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۶۴.

(۳). المصدر السابق، ج ۲، ص ۱۴.

(۴). المحجة البيضاء، ج ۱، ص ۱۵.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۵۱

۲- الإيمان والمعرفة

تمهيد:

إنّ روح الإيمان هى التسليم للحق والخضوع أمام الحقائق، وبما أنّ أكبر حقيقة فى عالم الوجود هى ذات اللَّه المقدّسة، فإنّ روح الإيمان تتمحور حول التوحيد ومعرفة اللَّه.

إنّ الإيمان يفسح المجال أمام عقل الإنسان لأنّ يدرك الحقائق كما هى حقاً، سواء كانت مرّة أو حلوة، وسواء كانت ملائمة لمزاجه وطبعه أم لا.

إنّ معلومات أولئك الذين لم يسلموا للحق هى تصوّرٌ وتمثلٌ لرغباتهم وأهوائهم، لا لنفس الحقائق الموجودة فى الخارج، أنّهم يرون الدنيا بالشكل الذى يرغبون فيه، ولا يرونها بشكلها الواقعى.

وبهذا التمهيد تتضح علاقة الإيمان بالمعرفة اجمالًا، ونتأمل الآن خاشعين فى آيات القرآن فى هذا المجال:

۱- «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ...». (الأنعام/ ۱۲۲)

۲- «أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ اذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ». (النور/ ۴۰)

۳- «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ ورُسُلِهِ أُولئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ اجْرُهُمْ وَنُورُهُم ...». (الحديد/ ۱۹)

۴- «افَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولئِكَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ . (الزمر/ ۲۲)

ج ج

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۵۲

جمع الآيات وتفسيرها

تأثير الإيمان على الرؤية الصحيحة:

تحدثت الآية الاولى عمّن كانوا موتى ثمّ أحياهم اللّه وجعل لهم نوراً يهتدون به فى الطريق.

والمراد من الموت والحياة هنا هو الإيمان بعد الكفر، كما جاء ذلك فى الآية: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ اذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ . (الانفال/ ۲۴)

وعلى هذا فالحياة هى حياة الإيمان الحقيقى والصادق، الحياة المقترنة بالنور والضياء والمعرفة.

والجانب المقابل لجانب الأحياء، هو جانب أولئك الذين ضلوا فى ظلمات الكفر ولم يخرجوا منها أبداً «كَمَنْ مَّثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا».

يعتقد كثير من المفسرين أنّ هذا النور هو نور القرآن، وقد فسّره بعضهم بنور الدين، وبعضهم بنور الحكمة «۱»، وقد أضاف البعض على ذلك نور الطاعة «۲»، لكن المسلم أنّ لهذا النور مفهوماً واسعاً يشمل جميع أنواع المعرفة، ومن البديهى أنّ مراد القرآن هو اكمل مصاديقه.

إنّ التعبير ب «يمشى به فى الناس» يتناسب كثيراً مع الحياة الاجتماعية فى الدنيا، كما يكشف عن أن «الإيمان» يَعِدُّ أرضية «المعرفة» فى قلب الإنسان ويحول دون ارتكاب الأخطاء فى الحياة الدنيا.

ج‌ج

وقد شبهت الآية الثانية غير المؤمنين (أو أعمالهم) بظلمات أعماق بحرٍ لُجّى تتلاطم الأمواج على سطحه، وسمائه ملبدة بالغيوم بحيث إذا أخرج شخص يده لم يكد يراها أحد.

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۱۷۲؛ تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۱۴؛ تفسير المنار، ج ۸، ص ۳۰.

(۲). تفسير روح الجنان، ج ۵، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۳

وقد أكدت فى النهاية: أنّ الذين لم يجعل اللّه لهم نوراً فمالهم من نور أبداً.

إنّ عبارات هذه الآية تثبت بوضوح أنّ الكفر وعدم الإيمان ظلمات، وأنّ الإيمان والإسلام نور.

إنّ الأخطاء التى تصدر من غير المؤمنين ومن المنحرفين بدرجة من الكثرة بحيث يحارُ الناظر اليهم كيف أنّهم لا يكادون يرون حتى موضع أقدامهم؟! وكيف أنّهم لا يستطيعون تمييز ما ينفعهم عما يضرهم؟

حقاً أنّه لا ظلام أشدّ من الظلام الذى رسمته الآية، فإنّ طبيعة أعماق البحار هى الظلام، لأنّ نور الشمس لا ينفذ إلّا لمدى أقصاه سبعمائة متر، وبعد ذلك لا شىء سوى الظلام الدامس، هذا إذا لم يكن البحر لجياً، وإلّا فلا تنفذ أشعة الشمس إلّالمدى قريب جداً من سطح البحر، وفضلًا عن هذا فإنّ الغيوم تمنع من وصول أشعة الشمس أساساً.

ويقول البعض: إنّ المراد من الظلمات الثلاثة فى الآية هى ظلمات الكفار فى الاعتقاد، وظلماتهم فى الكلام، وظلماتهم فى العمل.

ويعتقد بعض أنّ المراد منها هو: ظلمات القلب وظلمات الباصرة وظلمات السمع، وأضاف بعض آخر: أنّ هذه الظلمات عبارة عن: أنّه لا يعلم ولا يعلم أنّه لا يعلم، ويظن أنّه يعلم «۱»، ولكن لا منافاة بين هذه التفاسير، ومفهوم الآية يسع جميع هذه التفاسير.

ج‌ج

والآية الثالثة، بعدما وصفت المؤمنين ب «الصديقين» و «الشهداء» أضافت: «لهم أجرهم ونورهم».

إنّ «الصدّيق» صيغة مبالغة لصادق، وتعنى كثير الصدق، ويقول البعض: إنّها تعنى الشخص الذى لم يصدر منه كذب أبداً، ويعتقد بعض آخر: إنّها تعنى الذى اعتاد على الصدق بحيث يمتنع عليه الكذب عادةً، وبتعبير آخر: حصلت له طبيعة ثانوية على أساس الصدق وعدم الكذب.

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۸.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۴

ويقول البعض: إنّها تعنى الشخص الصادق فى اعتقاده وكلامه، يكشف سلوكه عن صدق اعتقاده «۱».

وتجتمع جميع هذه المعانى فى القول بأنّها صيغة مبالغة لصادق، لأنّ المفهوم آنذاك يكون شاملًا لجميع المعانى المتقدمة، وعلى هذا فالمسلم أنّ المراد ليس جميع المؤمنين بل المؤمنون أصحاب الدرجات الرفيعة فى ايمانهم.

أمّا «الشهداء» فقد يكون المراد من ذلك هو أنّ المؤمنين الصديقين لهم أجر كأجر الشهداء، كما جاء ذلك فى حديث للإمام الصادق عليه السلام عندما جاءه شخص يطلب الدعاء له بالشهادة، فاجابه الإمام عليه السلام: «إنّ المؤمن شهيد» ثم تلا الآية: «وَالَّذِيْنَ آمَنُوا ...» «۲».

كما يحتمل أن يكون المراد من الشهداء، هو الشهداء على أعمال الناس، لأنّ المستشفَّ من آيات عديدة هو أن فريقاً من المؤمنين (الأنبياء والأئمّة) يشهدون على الأمم.

ولا يبعد الجمع بين هذين المعنيين «۳».

إنّ «الأجر» فى عبارة «لهم أجرهم ونورهم» تعنى جزاء الأعمال، أمّا «النور» ففسّرَه البعض بأنّه النور الذى يسعى بين أيدى المؤمنين الذى يفتح الطريق نحو الجنة يوم القيامة، إلّا أنّه لا دليل على هذا التحديد، وقد جاء هنا مطلقاً، فينبغى القول بعمومية مفهومه وشموله للنور الذى يجعله اللَّه للمؤمنين فى الدنيا كما يشمل النور الذى يهتدى به المؤمنون إلى الجنة يوم القيامة «۴».

---

(۱). المفردات ومجمع البحرين مادة (صدق)، تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۱۸۶؛ تفسير المراغى، ج ۲۷، ص ۱۷۴؛ تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۳۶.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۳۸.

(۳). احتمل البعض أنّ جملة «وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ» ليست عطفاً على الجملة التى سبقتها، وأنّها جملة مستقلة مركبة من مبتدأ وخبر، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد جدّاً.

(۴). الظاهر من تعبير بعض المفسرين أن الضمائر فى جميع هذه الجمل ترجع إلى المؤمنين، بينما يصرح صاحب الميزان بأنّ الضمير فى «لهم» يرجع إلى «الذين آمنوا» والضميرين الآخرين يرجعان إلى «الصديقين» و «الشهداء»، أى أولئك الذين لهم أجر الصديقين والشهداء ولهم نورهم، إلّاأنّ هذا الاحتمال بعيد.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۵

وقد طرحت الآية الرابعة والأخيرة استفهاماً تقريرياً قائلة: «افَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَّبِّهِ ؟ وهذا دليل واضح على أنّ قبول الإيمان متزامن ومقترن مع شرح الصدر، وشرح الصدر أرضية خصبة للنور الإلهى، النور الذى يضىء العالم أمام أعين المؤمن، ويكشف له حقائقه كما هى.

إنّ المراد من «شرح الصدر» هو اتساع الروح إلى درجة تكون مستعدة لاستيعاب حقائق كثيرة، وما يقابل شرح الصدر هو «ضيق الصدر» أى تضيق الروح بدرجة لا تتمكن من استيعاب شيءٍ من الحقائق، وبتعبير آخر: إنّ شرح الصدر هو اتساع وعظمة الروح الذى

يُعَدُّ الإرتباط بالذات اللامتناهية أحد عوامله، نعم إنّ الروح التى تتخذ صبغة اللَّه وتتسع تكون أهلًا لقبول العلوم والمعارف الإلهيّة.
إنّها لا تتسع فحسب، بل تلين وتختصب وتتهيء لنثر بذور المعرفة فيها، ولهذا صرحت الآية فى النهاية: «فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّه .

ج ج

توضيح

علاقة الإيمان بالعلم فى الروايات الإسلامية:

١- جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ المؤمن ينظر بنور اللَّه» «١» فطلب أحد الصحابه بيان معنى الحديث فقال عليه السلام: «هذا إنّما هو لأجل أنّ اللَّه تعالى قد خلق المؤمن من نوره واحاطه برحمته».
٢- ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:
«اتقوا فراسة المؤمن فانّهُ ينظر بنور اللَّه ثم تلا: إنّ فى ذلك للمتوسمين» «٢».
٣- وفى رواية اخرى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام عن آبائه الكرام عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله

---

(١). بحار الأنور، ج ۶۴، ص ۷۴، ح ۲.
(٢). المصدر السابق، ح ۴.
نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٥٦
قال: «إيّاكم وفراسة المؤمن فانّه ينظر بنور اللَّه تعالى «١».
۴- ونجد أنّ هذه الأمثال اتخذت أهميةً كبرى كما هو المشاهد فى بعض الروايات حيث ينقل نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «اتقوا ظنون المؤمنين فإنّ اللَّه سبحانه جعل الحق على السنتهم» «٢».
۵- وجاء عنه عليه السلام فى نهج البلاغة أيضاً أنّه قال: «وبالصالح يستدل على الإيمان وبالإيمان يعمر العلم» «٣».
۶- ونختم البحث بحديث عن الإمام الباقر عليه السلام يقول فيه: «ما من مؤمن إلّاوله فراسة ينظر بنور اللَّه على قدر إيمانه» «۴».
وكما قلنا فى بداية البحث، فإنّ الإيمان الصادق يجعل الإنسان عاشقاً للحق والحقيقة ومذعناً أمام الواقعيات والحقائق، وبهذا تتحرر روح الإنسان من جميع القيود وتتهيأ لقبول جميع المعارف.

٣- علاقة «الصبر والشكر» ب «المعرفة»

اشارة

فى البداية نقرأ خاشعين الآيات الشريفة التالية:
١- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ الىَ النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِايَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (ابراهيم/ ۵)
٢- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِّنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (لقمان/ ٣١)

۳- «فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

---

(۱). بحار الانوار، ج ۶۴، ص ۷۵، ح ۸.

(۲). نهج البلاغة الكلمات القصار، الكلمة رقم ۳۰۹.

(۳). نهج البلاغة، خطبة ۱۵۶.

(۴). عيون الأخبار، ج ۲، ص ۲۰۰ (ينقله عن كتاب الحياة، ص ۹۲).

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۷

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (سبأ/ ۱۹)

۴- «وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ* انْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ». (الشورى ۳۲- ۳۳)

ج ج

جمع الآيات وتفسيرها

السير فى الآفاق والأنفس مع الصابرين:

تحدثت الآية الاولى عن «بنى اسرائيل»، حيث بُعثَ فيهم موسى عليه السلام بمعاجز وآيات إلهية واضحة، وكان موظَّفاً بأن يخرجهم من ظلمات الشرك والكفر والفساد إلى نور التوحيد الذى هو ينبوع جميع البركات والخيرات، ولأن يذكرهم بأيام اللَّه، ثم قالت الآية فى النهاية: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ».

ما المراد من أيام اللَّه؟

هناك بحث بين المفسرين فى هذا المجال، فمنهم من فسرها بالنِّعَم والابتلاءات الإلهيّة «۱»، ومنهم من فسرها بأيام انتصار الرسل والأمم الصالحة، ومنه مَنْ اعتبرها إشارة إلى أيّام عذاب الأقوام الطاغية والعاصية والظاهر عدم التعارض للأيّام بين هذه التفاسير لأنّها كلها من «أيّام اللَّه».

إنّ معناها الواضح، واضافتها إلى اللَّه «اضافة تشريفية»، والمراد منها هو جميع الأيّام المهمّة من حيث أهميّتها البالغة، أو من حيث إنّ فيها نعمة إلهية شملت أقواماً صالحين كالانتصارات العظيمة على جند الشرك والظلم، وكالنجاة من الظَّلَمَة والطواغيت وكالموفقية لأداء الجهاد أو فريضة عظيمة اخرى.

أو من حيث شمول عذاب اللَّه ونقمته لأقوام عصاة وهلاكهم، أو شمول نبذة من العقاب الإلهى لهم ليستيقظوا من غفلتهم ويعوا، كل هذه هى «أيّام اللَّه» وداخلة فى مفهومها الواسع.

---

(۱). لقد جاء هذا التفسير فى عدد من الاحاديث النبوية. تفسير الميزان، ج ۵، ص ۱۵ و ۱۶؛ تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۵۲۶.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۵۸

أما سبب كون هذه الآيات عبرة للصابرين والشاكرين فقط دون غيرهم (ينبغى الالتفات هنا إلى أنّ «صبور» و «شكور» صيغةٌ مبالغةٌ، الاولى تعنى كثير الصبر والثانية كثير الشكر)، فذلك لأجل أنّ دراسة دقائق هذه الحوادث وجذورها من جهة، ونتائجها من جهة اخرى يحتاج إلى صبر وتأنٍ.

إضافة إلى هذا، فانّه لا يستفيد من هذه الحوادث إلّاأولئك الذين يقدِّرون نعَم اللَّهِ ويشكرونه عليها، وعلى هذا، فالصبر والشكر أرضيتان ملائمتان للمعرفة والعلم.

كما يحتمل أن يكون تقارن الصبر مع الشكر لأجل أنّ هؤلاء مجهزون بالصبر عند المصائب، وبالشكر عند النِعَم، وعلى هذا فلا يركعون أمام المصائب، ولا يغترون عند نزول النِعَم، فلا يضِلون أنفسهم على أيّة حال، فهم مؤهلون لتقبل المعرفة وأخذ العِبَر والدروس من هذه الحوادث العظيمة.

فى الآية الثانية والرابعة جاءت هذه العبارة: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ»، وقد ذُكِرَت بعد التعرض لحركة السفن فى البحار والمحيطات التى تتم بايعاز من اللَّه وبالاستعانة بالرياح فتطوى المسافات البعيدة وتصل إلى مقاصدها بسرعة.

بديهى أنّ هذا الموضوع هو إحدى آيات اللَّه التكوينية، وآية من آيات النظام الإلهى وقدرة اللَّه.

لكن هل يا ترى يكون استثمار هذه الآيات الإلهيّة الموجودة فى عالم الوجود وحتى الكامنة فى هبوب الرياح ممكناً للجميع، أو أنّه خاص بأُولئك الذين يدرسون ويتابعون نظام الخلق العجيب بدقة وصبرٍ وتأنٍ إلى المستوى الذى يتيح لهم العلم البشرى فرصةَ الاستثمار، ومن جهة اخرى فإنّ الدافع نحو «شكر المُنعِم» نفسه عامل للسعى والحركة فى طريق المعرفة.

يقول «القرطبى» فى تفسيره:

«والآية: العلامة، والعلامة لا تتبين فى صدر كل مؤمن إنّما تتبين لمن صبر على البلاء وشكر على الرخاء» «۱».

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۱۴، ص ۷۹.

وقد جاء فى تفسير «روح البيان»:

«مبالغ فى الصبر على المشاق فيتعب نفسه فى التفكر فى النفس والآفاق» «۱».

والجميل هنا هو أنّ الهواء الذى يحيط بالكرة الأرضية من ألطف الموجودات، وبالرغم من ذلك فهو عندما يتحرك ويتنقل فانه لا يحرك السفن العظيمة فى البحار فحسب، بل كذلك الغيوم التى تُعَدُّ ينابيعَ للغيث، فيأخذ بها نحو الصحارى والأراضى الميتة فيحييها، كمابانتقال الهواء الحار إلى المناطق الباردة والهواء البارد إلى المناطق الحارة تتهيأ الأراضى الميتة للحياة، واضافة إلى هذا فإنّ الهواء يلقح النباتات كالزهور والأشجار ويحمل احياناً البذور فتُزرع فى الأماكن التى تسقط فيها، أَلَمْ تكن هذه من آيات اللَّه؟ ومن يمكنه استثمار هذه الآيات غير الصابرين والشاكرين؟

وقد جاء فى حديث للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر» «۲» وهذا الحديث تأكيد لما جاء فى الآيات.

ج‌ج

وأخيراً فإنّ الآية الثالثة أشارت إلى قوم سبأ، حيث شملهم التوفيق الإلهى فاستطاعوا أن يوجدوا سداً عظيماً بين الجبال فى «اليمن»: وادخروا فيه الماء الكثير، وتمكنوا من ايجاد بساتين كثيرة، فغُمروا فى النِعَم والفرح، إلّاأنّهم سلكوا طريق كفران النعمة، فتسلطت الأقوام المرفهة على الأقوام الضعيفة ظلماً وجوراً فَعَمَّ مساكَنَهُم الخرابُ والدمار، بحيث هلك الحرث والنسل لانفجار السد، فتفككوا وتشتتوا بشكل حيث جعلهم اللَّه أحاديث للآخرين «فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وأهلكهم جميعاً «وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، ثم أضاف القرآن: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ».

وذلك لأنّهم يستخلصون الدروس والعِبر بدقتهم وتأنيهم.

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۹۸.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۳۲۳؛ تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۶۲؛ تفسير المراغى، ج ۲۱، ص ۹۷؛ تفسيرالقرطبى، ج ۵، ص ۳۵۷۱ وتفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۶۰

ومن جهة فإنّ هذه الحقيقة تثبت، وهى: أنّ بين الحياة والممات مسافة قصيرة جدّاً، بحيث يمكنك البحث عن الممات فى قلب الحياة، فإنّ وفرة الماء التى سببت تقدم قوم سبأ وإزدهار بلادهم وتطور حضارتهم، سبب هلاكهم يوماً ما!

ومن جهة اخرى فإنّ هذا يكشف عن شدة ضعف هذا الإنسان المغرور، وذلك لأنّه يقال إنّ السدّ (الذى اطلق عليه سدّ مأرب)، قد ثُقب بواسطة الجرذان الصحراوية ثقباً صغيراً فى البداية ثم توسع الثقب إلى أن أدّى بالسدّ لأنّ ينهدم بالكامل، وبهذا نرى أن جرذاناً صحراوية أبادت حضارة عظيمة.

ومن جهة ثالثة، فإنّ المستكبرين من قوم سبأ الذين لم يَرُق لهم رؤية المستضعفين بقربهم، وحسبوا أنّه ينبغى وجود فاصلة أو سد عظيم كسد مأرب بين أقلية الأشراف والأكثرية المستضعفة، طلبوا من اللّه أن يبعد مدنهم عن مدن المستضعفين كى لا يتمكنوا من السفر مع المستكبرين، ويبقى امتياز السفر خاصاً بهم «رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»، (سبأ/ ۱۹) إلّاأنّ اللّه فرقهم بشكل حيث لا هم بقوا ولا ظنونهم الباطلة.

ومن جهة رابعة، فإنّ حياتهم المرفهة أغفلتهم عن ذكر اللّه، وما صحوا إلّابعد أن انتهى كل شىء.

وعلى هذا، فيمكننا بالتأمل والدقّة والاستعانة بالعقل أن نستشف آيات كثيرة من هذه القصة وهذا الحديث «۱».

النتيجة:

إنّ المستشف من الآيات الأربع الماضية هو: أنّ كل من كان أدق وأكثر صبراً فى دراسته لاسرار الخلق والحياة الاجتماعية، ولكل من كان شاكراً للنعم ومستعيناً بوسائل المعرفة فإنّ له نصيباً أوفر وأكثر من المعرفة، ولهذا كان الصبر والشكر أرضيتين ممهدتينِ للمعرفة.

ج‌ج

---

(۱). ينبغى الالفتات إلى أنّ مفردة «أحاديث» التى جاءت فى الآية، منتهى الجموع وتكشف عن وجود أحاديث وقصص كثيرة فى ماضى قوم سبأ لا قصة واحدة.

نفحات القرآن، ج۱، ص: ۳۶۱

۴- المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة

تمهيد:

المعروف هو أنّ الثروة تجلب الثروة، أى أنّ مقداراً من رأس مال يكون أرضية لربح رأس مال أكبر، وكلما ازداد مقداره ازداد مورد الإنسان من رأس ماله.

أنّ هذا الأمر ينطبق على العلوم والمعارف كذلك، فالذين يملكون رأس مالٍ من العلوم تتوفر عندهم الأرضية الخصبة لتقبل علوم ومعارف اخرى، ولهذا قلنا: إنّ المعرفة تهيء الأرضية للمعرفة أى لنيل معارف اخرى هى أرفع وأوسع.

وقبل الخوض فى البحث نمعن خاشعين للآيتين التاليتين:

١- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ . (الروم/ ٢٢)

٢- «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

(النمل/ ٥٢)

جمع الآيات وتفسيرها

مالم تكن منّا لن تطلع على اسرارنا:

إنّ الآيـة الاـولى من جملـة الآيـات الكثيرة فى سورة الروم التى أشـارت لآيات الآفاق والأنفس، وعـدت بعضاً من آيات اللّه فى العالم الأكبر (الكون) وبعضاً من آيات العالم الأصغر «الإنسان» فاشارت الآية إلى العالم الأكبر من جهة «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ ، ثم أشارت إلى بعض دقائق خلق الإنسان من جهة اخرى «وَاخْتِلَافِ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ .

الاختلاـف ليس فى الألسـنة والألـوان الظاهرة فحسب، بل فى السـنة الفكر وألوان الأذواق والبواطن، فانّها مختلفـة إلى درجـة بحيث لا يمكن العثور على شخصين متشابهين

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٢

بالكامل، وهذا الاختلاف جارٍ حتى بالنسبة للتوأم.

إنّ هـذا الاختلاف يسـبب- من جهة- التعارف والاختلاف بين الناس، لأنّه إذا لم يكن تمايز بين الناس اختل النظام الاجتماعى للحياة، كما هو الحال بالنسـبة للتوأم فالـذى يعاشـرهم كثيراً يقع فى اخطاء تجاههم، فقد يقدم أحدهم من السـفر ويقوم صديقهم بزيارة الآخر الذى لم يسافر، أو يتمرض احدهم فيزور الآخر وهو صاحٍ، أو يعطى الابوان الدواء للسليم لعدم التمييز بينهما.

تصوروا مـا الـذى يحصـل لو كـان النـاس جميعـاً متشابهين من جميع الجهات؟!! ومن جهـة اخرى، فإنّ هـذا التنوع والاختلاف يسـبب انخراط كـل مجموعـة من النـاس فى جـانب من جوانب الحيـاة وبهـذا الاختلاـف فى الأذواق والقابليات تسـدّ جميع احتياجات البشـر الاجتماعية فلا يحصل خللٌ فى هذا المجال، ألم تكن هذه الدقّة العجيبة فى هذا النظام من آيات اللّه؟!

والجـدير بالذكر أنّ المفسـرين ذكروا احتمالات عديدة فى تفسـير (اختلاف الألسـنة) فتارة قالوا: إنّ المراد منه هو الاختلاف فى اللغة، حيث نعلم أنّ اللغات الموجودة حالياً أكثر من ألف لغة، وهـذا التنوع الـذى لا نريـد الخوض فى تفصـيلاته فعلًا، جيـد لتتعرف الأقوام المختلفة على بعضها البعض.

وتارة قالوا: إنّ المراد هو اللهجات وكيفية حديث الأشـخاص التى تختلف من شخص إلى آخر اختلافاً كبيراً، فلكلٍ منطق وأسلوب فى البيان يعبّر عن شخصيته.

وتارة قالوا: إنّ المراد هو الأصوات أو ما يصـطلح عليه ب «الذبـذبات الصوتيـة» التى تختلف عند الأشـخاص اختلافاً فاحشاً، ولهذا فإنّ الأعمى يميز الأشخاص من أصواتهم، كما أنّ البصير يميزهم من وجوههم.

ومن هنا يتضح أنّ اقتران اختلاف الألسنة والألوان بخلق السموات والأرض فى الآية هو لأجل الإشارة إلى أنّ جميع موجودات العالم- صغيرها وكبيرها، وأبسطها وأعقدها- بحسب الظاهر- تحكمها قوانين وأنظمة دقيقة، و. هى آيات لعلم اللّه وقدرته وينبغى الإشارة

نفحات القرآن، ج ١، ص: ٣٦٣

إلى أنّ الآية صرحت فى النهاية: «انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ نعم إنّ العلماء هم الذين يدرسون أسرار الكون ويتفحصونها واحدة تلو الاخرى، وهم الذين تكون معرفتهم السابقة أرضية خصبة لمعارفهم الأكثر والأدقّ.

ج ج

وقد تحدثت الآية الثانية عن مجاميع صغيرة مفسدة تعيش فى «وادى القرى بين قوم صالح (على ما يقوله المفسرون)، وكان عددهم تسعة رهط (أى مجموعات صغيرة)، وكانوا يفسدون فى الأرض دائماً كما يصفهم القرآن الكريم: «وَكَانَ فِي الْمَدِيْنَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ . (النّمل/ ۴۸)

أمهلهم اللَّه كثيراً كفرصةٍ للتوبة والرجوع إلى أنفسهم، لكن ما زادهم الأمهال إلّاغروراً، وكان نهاية أمرهم أن أنزل اللَّهُ عليهم صاعقة من السماء، وزلزلة من الأرض ختمت حياتهم.

يقول القرآن فيهم: «فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا» أى خالية منهم بسبب ظلمهم وطغيانهم.

ثم يضيف: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

إنّ عبارة: «بِمَا ظَلَمُوا» تدل على أنّ الظلم هو السبب فى دمار البيوت وخرابها، وقد نُقِل عن ابن عباس أنّه قال: إنّى وجدت هذه الحقيقة فى كتاب اللَّه وهى: إنّ الظلم يهدم البيوت، ثم تلا الآية المذكورة.

وقد جاء فى التوراة: «يابن آدم لا تظلم فيُهدم بيتك» «۱».

وينبغى الالتفات هنا إلى أنّ مفردة «خاوية» تعنى- فى الأصل- خالية، إلّاأنّ كثيراً من المفسرين فسرها بالخربة، وهذا قد يكون لأجل أنّ البيت إذا خلى وهُجِر خرِبَ وانهدم «۲».

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۱۹، ص ۱۹۴.

(۲). ذكر صاحب تفسير روح البيان معنيين لمادة (خوى أحدهما الخلو والثانى السقوط والانهدام، ومن هنا يعبر عرب الجاهلية عن النجم إذا سقط (خوى النجم) إلّاأنّ الظاهر أنّ المعنى الأولى لهذه المادة هو: الأول فقط، ويستعمل تعبير (خوى النجم) إذا ما غرب نجم أو افل بلا مطر (حيث كان يعتقد عرب الجاهلية أنّ طلوع كثير من النجوم متزامن مع المطر وإذا لم يكن هناك مطر استعملوا التعبير السابق لذلك النجم).

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۴

النتيجة:

من المعلوم أنّ آيات اللَّه- سواء كانت آفاقية أو انفسية أو تعلقت بدروس وعبر تاريخ الأقوام الغابرة- تخص الجميع، وبما أنّ الجميع لا يستفيد منها ولا يستثمرها، يقول القرآن عنها «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ .

وتارة يقول: «للمتقين».

وتارة يقول: «لكل صبّار شكور».

وهذه إشارة إلى أنّ هذه الفرق- هى التى تنتفع بهذه الآيات وتستفيد منها دون سواها، لِما عندهم من أرضيّه خصبة لهذا الأمر.

وهناك آيات كثيرة فى القرآن المجيد لا تخلو من الإشارة إلى حقيقة أنّ المعرفة تعتبر أرضيّة معدّة وخصبة لمعارف أكثر، كما جاء ذلك فى الآيات التالية:

«كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (الاعراف/ ۳۲)

«يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (يونس/ ۵)

«كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (فصلت/ ۳)

«تِلكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . (البقرة/ ۲۳۰)

كما اتضح- ممّا مر- الجواب على السؤال عن حاجة العالمين لشرح وتبيين الآيات الإلهيّة.

۴- علاقة الخوف بالمعرفة

تمهيد:

إنّ الإنسان ما لم يشعر بالمسؤولية لا يلتفت إلى مصادر المعرفة وسوف لا يبالى بآيات اللّه ومواعظه.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۵

ومن هنا ينبغى القول بأنّ الاحساس بالمسؤولية والخوف من اللّه هو احدى أرضيات المعرفة التى تُعِدُّ روح الإنسان وتهيئها لتقبل علوم ومعارف مختلفة.

وبالالتفات إلى هذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وهِيَ ظالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ* إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ». (هود/ ۱۰۲- ۱۰۳)

۲- «أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ .

(سبأ/ ۹)

۳- «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُوْنَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ . (الذاريات/ ۳۷)

شرح الآيات وتفسيرها

المعرفة والشعور بالمسؤولية:

إنّ الآية الاولى بعدما أشارت إلى ماضى بعضٍ من الأقوام السالفة (مثل قوم لوط وشعيب والفراعنة) ونزول أنواع من العذاب عليها، قالت: «وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ» ثم قالت فى النهاية: «إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» ثم قالت: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ» أى فى قصص الأمم السالفة وعقابهم ونزول العذاب عليهم آية واضحة لمن خاف عذاب الآخرة.

لقد جاءت مفردة «آية» نكرة، وذلك للاشارة إلى عظمة وأهميّة هذه الآية الإلهيّة ودور العبرة فيها، والتعبير ب «لِمَنْ خافَ عَذابَ الْآخِرَةِ» إشارة إلى الأرضية المُعدَّة للمعرفة عند أولئك الذين يخافون من عذاب الآخرة.

أمّا أولئك الذين لا يخافون عذاب الآخرة فلا يدركون علاقة هذه الذنوب بأنواع العذاب الإلهى، إنّهم يعدون العذاب أمراً قهرياً وجبرياً، أو يرجعون أسبابه إلى حركة الأفلاك

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۶

والنجوم وأوهام وخرافات اخرى، ولا يدركون الأسباب الحقيقية له «۱».

إضافة إلى هذا، فإنّ الإنسان لا يقطع بالعذاب الدنيوى ما لم يقطع بالعذاب الاخروى، لأنّ كليهما وليد شىء واحد وهو معرفة اللّه ومعرفة عدالته.

إنّ جملة «وهى ظالمة» تلميح إلى أنّ الأخذ والدمار كان بسبب ظلم تلك القرى وبتعبير آخر: فإنّ جميع الانحرافات العقائدية

والسلوكية داخلة فى مفردة الظلم.

ج‌ج

والآية الثانية بعدما أشارت إلى آيات اللّه فى السموات والأرض: وبيان قدرته على كلّ شىء أكّدت بأنّ اللّهَ لم يعجز عن عذاب أولئك العصاة الذين سخروا بآيات اللّه واتهموا الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بالجنون، واعتبروا المعاد محالًا، إنْ شئنا خسفنا بهم الأرض، أو أسقطنا عليهم من السماء أحجاراً سماوية: «إِنْ نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِّنَ السَّمَاءِ».

إنّ «كِسَف» جمع كِسْف ويعنى القماش المقطّع قطعاً قطعاً، وقد استعملت هذه المفردة هنا إشارة إلى بعض الكرات السماوية التى تنفجر تحت ظروف خاصة وتتحول إلى قطع متعددة تسبح فى السماء، وإذا ما دخلت فى مدار الأرض، تحولت (بايعاز من اللّه) إلى أمطار من حجر، أو سقطت على وجه الأرض بصورة قِطَع حجرية كبيرة، كلٌّ منها يمكنها تدمير منطقة واسعة من سطح الأرض، كما أنّ العلماء اكتشفوا نماذَج من هذه الكُتَل الحجرية فى منطقة «سيبيريا».

ثم قالت الآية فى النهاية: «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ أى لكل عبد راجعِ اللّه وخائف من عذابه ومتخذ سبيل التوبة.

المسلم هو أنّ هذه الآيات عامة لجميع البشر، لكن لا ينتفع بها إلّامن خاف اللّه وشعر بالمسؤولية «۲».

---

(۱). لقد اشير إلى هذا الأمر فى التفاسير التالية: تفسير روح المعانى، ج ۱۲، ص ۱۲۳؛ تفسير الكبير، ج ۱۸، ص ۵۸؛ تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۱۸۵.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۳۴۶.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۷

وبتعبير آخر: فإنّ جملة «لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ بمثابة بيان لسبب جملة «إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً»، أى أنّ الالتفات إلى حقيقة العبودية والتوبة والإنابة سبب للانتفاع بهذه الآيات «۱».

وفى الحقيقة، إذا ما درسنا حقيقة مفهوم العبودية، رأينا لا يخلو من التوبة والإنابة عند اقتراف الذنب.

ج‌ج

أما ثالث وآخر آية فى البحث، فقد أشارت مرّة اخرى إلى المصير الرهيب لقوم لوط ذلك المجتمع الذى بلغ من العار أَقصاه، وسخر من جميع قيم الإيمان والإنسانية وغمر فى وحل الفساد والفحشاء ...

إنّ الآية بعدما أشارت إلى تدمير مدنهم وتخريبها قالت: «وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ يعتقد الكثير أنّ مدن قوم لوط كانت فى الشامات قرب «البحر الميت» أو بين الشام والحجاز، وكان يطلق عليها «المدائن المؤتفكة»، ويقال: إنّه عندما زلزلت الأرض من مدنَهم هدمتها، ثم نزلت عليهم أمطار من الأحجار، وانشقت عندها الأرض شقاً نفذ فيه ماء «البحر الميت»، وبدل هذه المدن إلى مستنقعات نتنة، ولهذا يدعى البعض العثور على آثار من الأعمدة وغيرها من هذه المدن فى أطراف البحر الميت.

وعلى أىّ حال، فإنّ هذه الآثار الباقية- سواء كانت فى اليابسة أو تحت المستنقعات الآسنة- درس وعبرة، ولا ينتفع بهذا الدرس إلّاالذين يخافون عذاب اللّه، ويشعرون بالمسؤولية (وتواجدت فيهم أرضية المعرفة).

وبتعبير بعض المفسرين:

آية العبرة هذه هى لُاولئك الذين من شأنهم أن يخافوه لسلامة فطرتهم ورقة قلوبهم دون من عداهم من ذوى القلوب القاسية فانهم لا يعتدون بها ولا يعدونها آية ودليلًا «۲».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۰۴.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۳.

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۸

النتيجة:

إنّ الخوف سواء كان بمعنى الخوف من اللّه أو من عـذابه أو من الذنب والمعصـية (لأنّ جميعها ترجع إلى معنى واحد)، يُعِدُّ الأرضـية لروح الإنسـان لتقبـل الحقـائق والمعـارف، الإنسـان مـا لم يشـعر بالمسؤوليـة لاـ يتجه نحو مصـادر المعرفـة ولا يبحث فى آيات الآفاق والأنفس والتكوين والتشريع.

وخلاصـة الحـديث، أنّ الحركـة نحو العلم والمعرفـة كـأى حركـة اخرى تحتاج إلى محرك، والمحرك يمكنه أن يكون أحـد الامور التالية:

۱- جاذبية العلم والعشق للمعرفة التى أُودعتْ فى روح الإنسان منذ البداية.

۲- الاطلاع على النتائج المثمرة والآثار القيمة للمعرفة، ووصول الإنسان إلى المراحل الرفيعة تحت ظلها.

۳- الشعور بالمسؤولية والخوف من العواقب المؤلمة لفقدان المعرفة والجزاء الترتب عليها.

إنّ كلًا من هذه الامور يمكنها أن تهيء الأرضـية المناسـبة لطىّ هذا الطريق الملىء بالتعرجات، وإذا ما تعاضدت هذه الامور مع بعضها البعض، فإنّ الحركة نحو المعرفة ستكون أسرع وأعمق وأكثر ثماراً.

وآخر الحديث: إنّ أكبر فخر للإنسان هو العلم والمعرفة، والجاهلون هم موتى الأحياء.

إنّ بلوغ مرحلة المعرفة الكاملة، لا يتم إلّامع توفر الأسباب ورفع الموانع والحجب وتهيئة الأرضية المناسبة.

وما أجمل ما قاله الشاعر:

نفحات القرآن، ج ۱، ص: ۳۶۹ وفى الجهل قبل الموت موت لأهلهفأجسامهم قبل القبور قبور

وإنّ امرءاً لم يحيى بالعلم ميتةفليس له حتى النشور نشورٌ

ربّنا علّمنا المعارف الحقيقية، والأرفع من ذلك أى

معرفة ذاتك المقدّسة الطاهرة وصفاتك الجليلة.

إلهى! نعلم أنّ أعظم فخرنا هو علمنا ومعرفتنا،

والاطلاع على أسمائك وصفاتك وعالم خلقك أى أفعالك،

إلّا أنّه لا يتيسر طىّ هذا الطريق الصعب إلّابتوفيقك، فوفقنا

وثبت أقدامنا.

يا مولانا! إنّ شياطين الدرب كثيرون، وأوديته

خطرة، وموانعه عديدة، ولا يمكن رفع هذه الموانع إلّا

بامداداتك، فزودنا بها وبألطافك الخاصة.

آمين يا رب العالمين

نهاية المجلد الأول من نفحات القرآن

(التفسير الموضوعى)

صباح الجمعة- ۸ رجب ۱۴۰۸ ه. ق

الموافق ل ۷/ ۱۲/ ۱۳۶۶ ه. ش

الجزء الثانى

البحث عن عظمة اللّه ومعرفته فى القرآن الكريم

أسئلة مهمة ومصيرية:

الكل يريد أن يعرف أجوبة هذه الأسئلة:

من أين جئنا؟

أين نحن؟

وإلى أين نذهب؟

وبالطبع فثمة سؤال مهم آخر إلى جانب هذه الأسئلة الثلاثة وهو:

«لماذا جئنا؟» هل كان لمجيئنا غاية؟ وإن كانت له غاية فما هى؟.

وما هى الوسائل المتوفرة لدينا من أجل الوصول إلى هذه الغاية؟

من هو المُبدىء الأصلى لهذا العالم، ومن أين نَبَعَ عالم الخلقة؟

وأخيراً، هل هناك طريق لمعرفة هذا المُبدىء الكبير؟

هذه هى أهم أسئلة البشر.

إنّ الذين لا يرون ضرورة فى العثور على أجوبة هذه الأسئلة هم الغرقى فى الحياة المادية اليومية إلى درجة أنّهم لا يفكرون فى شىء سوى «النوم والأكل واللذة الجنسية»، فهم كالأنعام لا علم لهم «بالعالم الإنسانى».

أو أنّهم سعوا وحاولوا العثور على جواب هذه الأسئلة لكنهم لم يصلوا إلى شىء، فيئسوا وكفوا عن البحث.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶

وإنطلاقاً من أنّ «السؤال» هو الدافع «للحركة» دائماً، الحركة نحو الإجابة، وأنّ الأسئلة كلما كانت متنوعة وعميقة كانت الحركة أوسع وأكثر تجذراً، لهذا يجب أن تستقبل الأسئلة المهمّة بصدور واسعة، ولا نخشَ كثرة الأسئلة وأهميّتها، بل نستقبلها بكل رحابة صدر.

ويمكن أن تكون محصلة عمر الإنسان ليست فى الحقيقة شيئاً سوى العثور على أجوبة الأسئلة، وأنّ نتيجة جهود كل علماء العالم والفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بلا استثناء هى الأجابة عن بعض هذه الأسئلة.

يحاول علماء الفلك أن يشرحوا كيفية ظهور السماوات والنظام الذى يحكمها.

وعلماء الجيولوجيا يجيبون على الأسئلة ذات العلاقة بظهور الأرض وتركيبها.

وعلماء الأنثروبولوجيا والتحليل النفسى وكل الذين يدرسون العلوم الإنسانية والاجتماعية يريدون أن يعثروا على أجوبة الأسئلة المتعلقة بهذا الموجود العجيب المسمى ب «الإنسان».

ويريد الفلاسفة بمساعيهم المتواصلة أن يطلعوا على حقيقة المُبدىء ومصير العالم- إلى الحد الذى يستطيع عقل البشر أن يصل إليه- أو الإجابة عن بعض الأسئلة المتعلقة بهذا المجال على الأقل.

نستنتج ممّا ذكرناه أنّه إن كان البحث حول «الخالق لعالم الوجود» ومبدأ هذا العالم الكبير الذى نعيش فيه من أقدم البحوث وأرسخ الأسئلة الإنسانية، فليس ذلك أمراً عجيباً.

ولهذا نرى من واجبنا السعى بقدر استطاعتنا للعثور على جواب هذه الأسئلة:

من هو مُبدىء عالم الوجود؟ وكيف يمكن معرفته؟!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷

دوافع البحث عن عظمة اللّه

اشارة

۱- الدافع العقلی

۲- الدافع العاطفی

۳- الدافع الفطری

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹

۱- الدافع العقلی

تمهید:

تمهید:

قلنا إنّهُ لا توجد حرکة بدون حافز أو دافع، وبالطبع فلا یمکن للحرکة فی طریق معرفة مُبدیء عالم الوجود أن تکون بلا حافز، ومن هنا یذکر الفلاسفة والعلماء ثلاثة دوافع أساسیة للبحث عن اللّه، وجمیعها أشار إلیها القرآن الکریم إشارات واضحة.

۱- الدافع العقلی.

۲- الدافع العاطفی.

۳- الدافع الفطری.

وللبعض من هذه الحوافز فروع خاصة بها.

لنبتدأ أولًا ب «الحافز العقلی» و نتأمل خاشعین فی الآیات الکریمة أدناه:

۱- «یَا أَیُّهَا الَّذِیْنَ آمَنُوا اسْتَجِیْبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُوْلِ إِذَا دَعَاکُمْ لِمَا یُحْیِیْکُمْ».

(الانفال/ ۲۴)

۲- «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَی الْمُؤْمِنِیْنَ إِذ بَعَثَ فِیْهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ یَتْلُوا عَلَیْهِمْ آیَاتِهِ وَیُزَکِّیْهِمْ وَیُعَلِّمُهُمُ الْکِتَابَ والْحِکْمَةَ وإِنْ کَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُّبِیْنٍ».

(آل عمران/ ۱۶۴)

۳- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَیِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْکِتَابَ وَالْمِیزَانَ لِیَقُومَ النَّاسُ بالْقِسْطِ». (الحدید/ ۲۵)

۴- «یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَیَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَیُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّبَاتِ وَیُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبَائِثَ وَیَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتی کَانَتْ عَلَیْهِمْ». (الأعراف/ ۱۵۷)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰

۵- «قَالَ هَلْ یَسْمَعُونَکُمْ إِذْ تَدْعَوْنَ* أَوْ یَنْفَعُوْنَکُمْ أَوْ یَضُرُّونَ ... فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّی إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِیْنَ». (الشعراء/ ۷۲، ۷۳، ۷۷)

۶- «فَإِنْ أَعْرَضُوْا فَقُلْ انْذَرْتُکُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ». (فصلت/ ۱۳)

۷- «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُکُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَی وَفُرادَی ثُمَّ تَتَفَکَّرُوا مَا بِصَاحِبِکُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذْیرٌ لَّکُمْ بَیْنَ یَدَی عَذَابٍ شَدِیدٍ».

(سبأ/ ۴۶)

جمع الآيات وتفسيرها

التحقيق من مسؤوليات الإنسان الأساسية:

الإنسان يحب الكمال، ويعتبر هذا الحب خالداً عند كل الناس، يبقى أنّ كل إنسان يرى كماله فى شىء معين، فيذهب نحوه، والبعض يذهبون وراء السراب يحسبونه ماءً ويلهثون خَلْفَ القيم الوهمية والكمالات الخيالية ويتصورونها واقعاً.

قد يسمى هذا المبدأ أحياناً ب «غريزة حب المنفعة ودفع الضرر» التى يجد الإنسان نفسه على ضوئها بأنّه ملزم أن يكون له تعامل جاد مع كل موضوع يتعلق بمصيره (بلحاظ النفع والضرر).

لكن إطلاق تعبير «غريزة» على هذا الحب يعدّ تعبيراً غير صحيح، فالغريزة عادة تطلق على أمور تؤثر فى أفعال البشر أو باقى الأحياء بدون تدخل التفكير، ومن هنا تستعمل بالنسبة للحيوانات أيضاً.

وَعلى هذا الأساس فمن الأفضل أن نستخدم تعبير (الرغبات السامية) التى استعملها البعض لمثل هذه الموارد.

وعلى كل حال، فالحب للكمال والميل نحو المصالح المعنوية والمادية ودفع كل أنواع الضرر يجبر الإنسان على التحقيق حتى فى مواضع الاحتمال، وكلما كان هذا الأحتمال أقوى وذلك النفع والضرر أعظم، كان التحقيق والبحث أكثر ضرورة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱

من المستحيل أن يحتمل شخص تأثير أمر مهمّ فى مصيره، ولا يرى من واجبه التحقيق حوله.

وقضية الإيمان باللَّه والبحث عن الدين تعتبر من هذه القضايا بلا شك، لأنّ هنالك فى محتوى الدين كلام عن القضايا المصيرية، وعن القضايا التى يرتبط خير وشر الإنسان بها ارتباطاً وثيقاً.

البعض يذكر مثالًا من أجل إيضاح هذا الموضوع، فيقول: لنفترض أننا نجد إنساناً واقفاً على مفترق طريقين ونسمعه يقول بقطع ويقين: إنَّ البقاء هنا خَطَرٌ، واختيار هذا الطريق (إشارة إلى أحد الطريقين) هو الآخر خطر، والطريق الثانى هو طريق النجاة، ثم يذكر قرائن وشواهد لكل ما قاله، فما من شك أن أى عابر سبيل يرى نفسه ملزماً بالتحقيق ويعتقد أنّ اللامبالاة تجاه هذه الأقوال مخالفة لحكم العقل، وبلحاظ هذه المقدمة ننتقل إلى تفسير الآيات.

إنّ أول آية من الآيات المعنية بالبحث تَعتبر دعوة رسول اللَّه إلى الإسلام دعوةً إلى العيش والحياة الحقيقية، وَتدل هذه الدعوة على أنّ بالإمكان جمع كل محتوى الإسلام فى مفهوم «الحياة»، الحياة التى تشمل الحياة المعنوية وتشمل الحياة المادية، الحياة الشاملة والجامعة.

مع أنّ البعض فسر معنى الحياة هنا بأنّه بخصوص «القرآن» أو «الأيمان» أو «الجهاد» «۱»

، لكن ممّا لا شك فيه أنّ الحياة مفهوم واسع يشمل كل هذه العناوين المذكورة وكل ما هو مؤثر فى حياة الإنسان المعنوية والمادية.

وعلى كل حال، إذا دعانا شخص بمثل هذه الدعوة فهل يمكن أن نغض الطرف عن

---

(۱) ذكرت هذه الاحتمالات عن المفسرين فى تفسير الكبير، ج ۱۵ ص ۱۴۷؛ وتفسير الميزان، ج ۹، ص ۴۳؛ وتفسير روح المعانى، ج ۸، ص ۱۶۹؛ و تفسير القرطبى، ج ۴ ص ۲۸۲۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲

دعوته ولا نرى من مسؤوليتنا حتى التحقيق فى هذه الدعوة؟.

هنا يريد القرآن بهذا التعبير أن يُوجد حافز الحركة نحو التحقيق حول الدين لدى كل من له القابلية على هذه الحركة.

يقول الراغب فى كتاب «المفردات»: إنّ حقيقة «الاستجابة» هى السعى والقابلية على استلام الجواب، ولأنّ هذا الموضوع ينتهى عادةً بالجواب فقد فسروه بمعنى «الاجابة» «۱».

الآية الثانية تعدُّ بعثة الرسول من أعظم النعم الإلهيّة التى منحها اللّه سبحانه وتعالى للمؤمنين، ثم تذكر فى تفسير هذه النعمة ثلاثة برامج مهمّة للرسول: تلاوة الآيات الإلهيّة:

«يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، والتزكية والتربية: «وَيُزَكِّيهِمْ»، وتعليم الكتاب والحكمة «وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ».

ونتيجة كل هذه البرامج هى النجاة من «الضلال المبين»: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِيْنٍ».

إنّ كل هذه التعابير هى من أجل إحياء محفزات الحركة نحو الأسلام لدى الناس، أو على الأقل من أجل أن يرى كل إنسان نفسه ملزماً بالتحقيق حول الإسلام لأنّه من الممكن أن يكون اكبر نفع وضرر للإنسان كامناً فى هذا التحقيق.

«المِنّة»: من مادة «مَن» وهى فى الأصل كما يعتقد البعض بمعنى القطع، لهذا فإن: «أجرٌ غير ممنون» بمعنى الثواب الذى لا ينقطع أبداً، وكذلك يقال لنوع من الاصماغ والترشحات ذات الطعم الحلو والتى تشاهد كالقطرات الصغيرة مستقرة على أوراق الأشجار تشبه قطرات الندى يقال لها «المن».

ولكن يعتقد الراغب أنّ «المن» فى الأصل بمعنى الحجر الذى يَزِنون به، والذى أطلق

---

(۱) ولكن يجب الالتفات إلى أنّ «الإجابة» تكون فعلًا متعدياً بدون حرف الجر، فى حين أنّ «الاستجابة» تذكر غالباً مع حرف اللام.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳

فيما بعد على النعم الكبيرة الثقيلة.

وحينما تستخدم هذه المفردة فى القاموس الإلهى فتعنى «منح النعم» وحين تستخدم فى قاموس البشر فتعنى غالباً التحدث بالنعمة التى يجزلها الإنسان لغيره، من هنا كان معناها الأول إيجابياً والثانى سلبياً ومذموماً.

الآية الثالثة تشير إلى هدف مهم آخر من أهداف بعثة الأنبياء، وهو مسألة «العدالة الإجتماعية»، فتقول: إنّنا جهزنا الرسل بثلاثة أشياء:

أولًا: البراهين الواضحة التى تشمل «المعجزات»، و «البراهين العقلية»: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ».

ثانياً: الكتاب السماوى الذى يبين المعارف ويشرح للناس مسؤولياتهم.

وثالثاً: الميزان: وهو الوسيلة التى بواسطتها توزن الأشياء، والعجب أنّ بعض المفسرين قد فسّروا الميزان بالمعنى الذى ذكرناه، فى حين أنّ أغلب المفسرين يعتقدون أنّ المراد من الميزان هى الوسيلة التى بواسطتها يقام العدل فيشخص بواسطتها الحق من الباطل، الزيادة من النقصان، الخير من الشر، القيم الحقة والخيرة من القيم الباطلة والشريرة، وبإمكاننا أن نفسّر الميزان بالقوانين الإلهيّة.

صحيح أنّ هذه الأمور مذكورة فى نص الكتب السماوية، ولكن ذكرها بشكل مستقل جاء بسبب أهميّتها.

وعلى كل حال، هل من الممكن أن يسمع إنسان بأنّ شخصاً يدعى الدعوة إلى وجود مثل هذه الحقائق المصيرية ولا يرى أنّ من واجبه التحقيق فى هذه الدعوة؟.

يقول الفخر الرازى: الناس ثلاثة أنواع: نوع فى مقام «النفس المطمئنة» وهم المعنيون بالآية: «أَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ»، النوع الثانى فى مقام «النَفسِ اللَّوامة» وهم أصحاب اليمين الذين يحتاجون إلى معيار قياسى من أجل المعرفة والأخلاق، ليكونوا فى أمان من الافراط

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴

والتفريط، وهم المقصودون بتعبير «الميزان»، النوع الثالث هم أصحاب «النفس الأمارة» الذين تعنيهم الآية: «انزلنا الحديد» أى هم المستحقون للعقاب والجزاء «۱».

فى الآيـة الرابعة إشارة إلى الأبعاد المختلفة لبعثة الأنبياء وبالخصوص السياسية والاجتماعية ونزول الأديان السماوية، وفيها ذكر لبعض أوصاف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقد جاءت لترغيب الناس فى اتباعه، منها: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُم الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

لا شك أنّ هذه أمور مصيرية وذات علاقة وثيقة بمسألة تكامل الإنسان وخيره وشرّه، بل مجرّد احتمالها يكفى لدفعه نحو التحقيق.

«الإِصر»: على وزن مصر، يعنى فى الأصل الربط والاغلاق وحبس الشيء بقوة وعنوة، ثم أُطلقت على الحمل الثقيل والأعمال الشاقة التى تعوق الإنسان عن النشاط، ولهذا سُميت الجبال والمسامير التى تربط بها الأعمدة «آصار»، ولهذا أيضاً سمى العهد والوعد والذنب بالاصر «۲».

يمكن الاستنباط من التعابير التى وردت فى كلمات أرباب اللغة والمفسرين أن معنى كلمة «إِصر» الجسم الثقيل الذى يُربط بقدم السجين لكى لا يستطيع أن يتحرك، وإنَّ ذكره إلى جانب الأغلال وهى الأطواق والسلاسل التى تقيد بها الأعناق يناسب هذا المعنى، ثم أطلقت هذه المفردة على معنى آخر يتناسب وأصل الكلمة.

مع إنّ الكثير من المفسرين فسروا «الإِصر» و «الأغلال» فى هذه الآية بمعنى التكاليف الشاقة أو الامتحانات العسيرة والمعقدة التى حلّت بالامم السابقة، لكن الظاهر أنّ لهاتين المفردتين مفهوماً أوسع وأشمل يستوعب كل أنواع قيود الاسر والحمل الثقيل الذى يسببه

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۴۱.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۸۸؛ التفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۲۵؛ تفسير روح المعانى، ج ۹، ص ۷۲ ومفردات الراغب، مادة (إصر) وكتاب العين، ج ۷ ص ۱۴۷.

«الجهل» و «الشهوات» و «الذنوب» و «الاستبداد» و «الإِستعمار» وما شاكل، وهى أمور ترتفع وتزول تحت ظل وجود رسول اللَّه وتعليماته التحررية.

الآية الخامسة كلام ورد عن لسان محطم الأوثان إبراهيم عليه السلام عندما خاطب الوثنيين موبخاً إيّاهم على عملهم القبيح هذا (عبادة الأصنام)، وقال من أجل إيقاض عقولهم حيث كانوا يغطون فى سبات عجيب:

«هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُوْنَ* أَوْ يَنْفَعُوْنَكُمْ أَوْ يَضُّرونَ؟!» فلابدّ للعبادة أن تكون إمّا من أجل الربح والمكافأة والمنفعة أو من أجل دفع الضرر والعقاب.

وبالطبع لم يكن لديهم أجوبة إيجابية على هذه التساؤلات سوى الإعتصام باتباع وتقليد السلف والقول: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

تدل هذه التعابير جيداً بأنّ حافز النفع والضرر (ليس النفع والضرر المادى فحسب فالنفع والضرر المعنوى أفضل وأرفع منه) وَيمكن أن يكون حافزاً للحركة باتجاه معرفة اللَّه.

حول نزول آيات سورة فصلت وهى الآية السادسة فى بحثنا هذا، نقرأ أن «أبا جهل» سأل «الوليد بن المغيرة» وهو من رجال عرب الجاهلية المعروفين وهو من أهل النظر والمشورة يُرجَع إليه عند المعضلات: ما هذا الذى يقوله «محمد»؟ أهو كهانة أم سحر؟ أهو تكهّن؟ ... فقال «الوليد»: يجب أن أذهب إليه بنفسى وأتحقق، وعندما جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله قرأ له بعضاً من آيات سورة فصلت إلى أن جاء إلى الآية التى ورَدت فى بحثنا: «فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ».

فارتجف «الوليد» لسماع هذه الآيات واقشعر بدنه ووقف شعر رأسه، فنهض من مكانه وعاد إلى بيته وأغلق الباب على نفسه، حتى ظن اكابر قريش أنّه يميل نحو الدين

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶

الإسلامی، وعندما جاءوا إليه وسألوه عن شأنه، قال: ما صبوت (ای لم اسلم) وانی علی دین قومی وآبائی ولکنی سمعت کلاماً صعباً تقشعرّ منه الجلود، فلا هو بالشعر ولا بالخطب ولا بالکهانة، ولما قيل له: إذن ما نقول فيه؟ قال: قولوا هو سحر، فانّه آخذ بقلوب الناس «۱».

أولا يمكن لمثل هذه التهديدات الواردة فی الآيات القرآنية وبقيّة المصادر الدينية أن تكون حافزاً علی التحرك نحو التحقيق (بالنسبة لمن لم يؤمنوا لحد الآن).

فی الآية السابعة من البحث، أُمِر الرسول صلی الله عليه و آله أن يخاطب جميع معارضيه ويعظهم بمسألة واحدة: «قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ الَّا نَذِيْرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَی عَذَابٍ شَدِيدٍ ...».

كل تعابير هذه الآية تعابير مدروسة.

فالتعبير ب «إنّما» من أجل الحصر.

والتعبير ب «الموعظة» يستخدم فی المواضع التی يحكم فيها العقل بشیء، ولكن لكون الإنسان غافلًا عنه فهناك شخص حريص آخر يوقظه ويعظُهُ.

والتعبير ب «القيام» دليل علی الاستعداد الكامل لتنفيذ الأهداف الجدية.

والتعبير ب «مثنی» و «فرادی» إشارة إلی النشاطات الجماعية والفردية والجهود الشاملة فی هذا السبيل «لا شك أنّ الإنسان يفكر بشكل أعمق عند انفراده ولكنه يفكر بشكل أكمل حين يكون ضمن الجماعة، لأنّ الأفكار ستتحد مع بعضها، والجمع بين هذين (التفكير علی انفراد وضمن الجماعة) هو أفضل الطرق» «۲».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۷، ص ۲۱۱ وتفاسير أخری (الأصل فی الحديث مفصل وقد نقلناه بتلخيص، لاحظوا تفصيله فی التفسير الأمثل ذيل الآية ۱۳ من سورة فصّلت.

(۲) قال بعض المفسرين: «مثنی إشارة إلی المناظرة التی لها تأثير كبير فی كشف الحق، فی حين أنّ «فرادی إشارة إلی القراءة فی الوحدة، واحتمل بعض آخر أن «مثنی» إشارة إلی التفكير الذی يقوم به الإنسان خلال النهار ضمن الجماعة و «فرادی» التفكير الذی يحصل فی الليل وعند الإنفراد (تفسير القرطبی، ج ۸، ص ۵۳ و ۹۳).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷

ثم التعبير ب «التفكر» الذی ينبع من الصميم ويهدی الإنسان إلی البراهين العقلية الواضحة.

والتعبير ب «لكم» هو الآخر ممتزج بمسألة الانذار والإلتفات إلی العذاب الشديد وفيه إشارة إلی أنّ الموضوع هنا هو نفعكم وضرركم فقط، ولا هدف للنبی صلی الله عليه و آله سوی هذا.

أفلا يجب والحال هذه أنّ يأخذوا دعوته مأخذ الجد ويفكروا فيها ويعثروا علی الحق ثم يتبعوه؟

النتيجة:

إنّ الآيات أعلاه وآيات مشابهة أخری تكشف النقاب جيداً عن الحافز العقلی للبحث والتنقيب فی طريق «معرفة اللّه» وتدل علی أنّه لا يمكن لأیإنسان عاقل أن يتقاعس ويسكت أزاء الدعوات العظيمة لأنبياء اللّه ورسله علی صعيد الدعوة إلی اللّه ذات العلاقة الوثيقة بمصير الجميع، وهذا هو الحافز الأول للتحقيقات الدينية.

توضيحان

۱- الدوافع العقلية لفهم الدين فى الروايات الإسلامية

۱- ورد فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أن أحد أصحابه سأله عن الضعفاء (المستضعفين) فكتب له الإمام فى الجواب: «الضعيف من لم ترفع إليه حجة، ولم يعرف الاختلاف، فإذا عرف الاختلاف فليس بمستضعف» «۱».

۲- و جلوه‌هاى توخالى دنيا از دور روى نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله: «من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف» «۲».

---

(۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۴۰۶، (باب المستضعف)، ح ۱۱.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۰.

وفى هذا إشارة إلى أنّ الإنسان حين يطلع على وجود الاختلاف سوف يرغمه عقله على التحقيق والمطالعة (النظر)، وعندها لا يُعتبر مستضعفاً.

وبالطبع فالقصد من «المستضعف» هنا هو «المستضعف فكرياً» الذى نسميه أحياناً ب «الجاهل القاصر».

۳- جاء فى حديث آخر عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «أربعة تلزم كل ذى حجى وعقل من أمتى، قيل: يا رسول اللّه ما هنَّ؟ قال: إستماع العلم وحفظه ونشره والعمل به» «۱».

وبهذا يعتبر النبى صلى الله عليه و آله الاستماعَ والتحقيقَ من آثار وعلامات العقل والدراية.

۲- المعاندون الملحّون

كان دائماً فى مقابل الأحرار الذين يرون التحقيق فى الحق واجبهم العقلى، هناك جماعة يخشون رؤية الحق كالخفافيش، وحتى لو ارتفع صوت منادى الحق وَدَوّى فى آذانهم سدوا آذانهم لكيلا يسمعوا صوته.

ينقل القرآن عن جماعة من قوم نوح عليه السلام على لسان هذا النبى العظيم عندما اشتكاهم إلى اللّه: «وإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِى ءَاذَانِهِمْ واسْتَغْشَوا ثِيَابَهُمْ وأَصَرُّوا واسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا». (نوح/ ۷)

ولم يكن حال المشركين بأقل من هؤلاء، بل كأنّهم ورثوا قوم نوح المعاندين الذين تحدث عنهم القرآن: «وَقَالَ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرآنِ وَالْغَوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». (فصلت/ ۲۶)

إنّ هذه الجماعة التى لها أتباع ومقلدون فى كل عصر وزمان لا يسمحون لأنفسهم بالتحقيق فى ما يجرى أبداً، إنّهم جهلة حمقى يخشون نور الشمس كأنّهم الخفافيش، يلجأون إلى الظلمة دائماً، ويفتخرون بالجهل، إنّهم أكثر حرماناً من الجميع لأنّهم أعداء تفضحهم الشمس.

---

(۱) تحف العقول، مواعظ النبى، ص ۴۰.

۲- الدافع العاطفى

تمهيد:

ثمة مثل معروف يقول: «إنَّ الناس عبيد الإحسان».

ورد نفس هذا المعنى تقريباً فى حديث عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام: «الإنسان عبد الاحسان» «۱».

وورد عنه عليه السلام: «بالإحسانِ تملك القلوب» «۲».

وفى حديث آخر عنه أيضاً: «وأفضِلْ على من شِئتَ تكن أميره» «۳».

وجذور كل هذه المفاهيم فى حديث الرسول صلى الله عليه و آله إذ يقول: «إنّ اللَّه جعل قلوب عباده على حبّ من أحسن إليها وبغضِ مَنْ أساء إليها» «۴».

والخلاصة هى أنّ هنالك حقيقة تقول: إنَّ الذى يسدى خدمة لشخص أو ينعم عليه نعمة فسيكون عطفه هذا عليه منطلقاً من حبّه له ويكون هذا الآخر محباً لمن اسدى إليه الخدمة والنعمة، يحب أن يتعرف عليه تماماً ويشكره، وكلما كانت هذه النعمة أهم وأوسع، كان توجه العواطف نحو «المنعم» و «معرفته» أكثر.

ولهذا جعل علماء علم الكلام (العقائد) مسألة «شكر المنعم»- ومنذ القِدَم- إحدى الدوافع على التحقيق حول الدين ومعرفة اللَّه.

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) المصدر السابق.

(۳) بحار الأنوار، ج ۷۷، ص ۴۲۱.

(۴) تحف العقول، ص ۳۷ (قسم من كلمات النبى صلى الله عليه و آله).

ولكن يجب الانتباه إلى أنّ «شكر المنعم» هو قرار عاطفى قبل أن يكون قراراً عقلياً.

نختم هذه الإشارة ببيت شعر لأبى الفتوح البستى الشاعر العربى المعروف:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ بعد هذه الإشارة ننتقل إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات أدناه:

۱- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ۷۸)

۲- «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ۱۴)

۳- «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

(النحل/ ۱۱۴)

جمع الآيات وتفسيرها

شكر المنعم سلّم إلى معرفة اللَّه:

تتحدث الآية الأولى عن أهميّة النعم الإلهيّة لتحرك فى الناس روح الشكر وتدعوهم عن هذا الطريق إلى معرفة «المنعم»، إنَّ الحديث

عن النعمة وسيلة للمعرفة، فقد تحدث القرآن عن «العين» و «الأذن» و «العقل» بقوله: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ».

فعن طريق السمع تتعرفون على العلوم النقلية وعلوم الآخرين.

وعن طريق البصر ومشاهدة أسرار الطبيعة وعجائب الخلقة تتعرفون على العلوم التجريبية، وعن طريق العقل تتعرفون على العلوم العقلية والتحاليل المنطقية.

ومع أنّ هذه المواضيع الثلاثة معطوفة على بعضها فى هذه الآية بالواو ولا تعنى بالضرورة الترتيب، إلّاأنّه ليس من المستبعد أن يكون هذا هو الترتيب الطبيعى لها، لأنّ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱

الإنسان عندما يولد لا يمتلك القدرة على النظر والمشاهدة إلى فترة من الزمن بعد ولادته، ولأنّه معتاد على الظلام فهو يخاف من النور ويغمض عينيه لمدّة من الزمن، فى حين أنّ الاذن تسمع الأصوات من أول لحظة، ومن الواضح أنّ القدرة العقلية والتمييز والشعور تبدأ بالعمل والنشاط لدى الإنسان بعد السمع والبصر، خاصةً وأنّ «الفؤاد» كما يصرح أرباب اللغة بمعنى «العقل الناضج العميق» ولا يمثل مرحلة عادية من العقل، وطبعاً فإنّ مثل هذا الشيء يظهر بعد ذلك.

فضلًا عن أنّ الآية المذكورة يمكن أن تكون إشارة إلى حقيقة أنّ الوصول إلى «الكليات العقلية» يأتى بعد العلم ب «الجزئيات» عن طريق الحس، وعلى كل حال، فالآية تصرح أنّ الهدف من إسداء هذه النعم هو تحريك روح الشكر لدى البشر، والذى يدعوهم بالنتيجة إلى محبّة الخالق ومعرفة اللَّه وإطاعة أوامره.

وبالطبع فإنّ هذا لا يتناقض مع كون بعض العلوم الإنسانية علوماً فطرية لأنّ المعلومات الفطرية عند الولادة موجودة فى طبيعة الإنسان على شكل الاستعداد والقابلية، وليس لها طابع الفعلية، ثم تثمر بعد ذلك.

الآية الثانية تشير إلى ثلاث نعم إلهيّة أخرى تتعلق جميعها بتسخير البحار وتعتبرها دافعاً نحو الاستفادة من فضل اللَّه وشكره، ومن هذه النعم:

أولًا: اللحوم التى تستخرج من البحر والمسماة ب «لَحْماً طَرِياً»، وهو اللحم الذى لم يبذل الإنسان جهداً فى تربيته أبداً، وإنّما ربته يد القدرة الإلهيّة فى أعماق البحار ووضعته فى متناول أيدى الإنسان مجاناً، فيعتبر نعمة كبيرة، خاصة فى عصر وزمان كانت تكثر فيه اللحوم الفاسدة وكان الناس يضطرون إلى الاحتفاظ باللحوم إلى فترة معينة عن طريق تمليحها أو شيها وتجفيفها تحت أشعة الشمس، وكانت هذه اللحوم تسبب الكثير من الأمراض والتسمم للمسافرين، فى حين كانوا يستخدمون اللحوم الطازجه بكل سهولة فى سفراتهم البحرية أو الساحلية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲

ثانياً: ثم تشير الآية إلى المواد المستعملة للزينة المستخرجة من أعماق البحار والمستخدمة من قبل البشر وتقول: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

أى أنّ اللَّه وفر لكم أكثر المواد الغذائية ضرورةً بالإضافة إلى الحاجات ذات الطابع التجميلى الصرف.

ثالثاً: وفى المرحلة الأخيرة تشير الآية إلى واحدة أخرى من بركات البحار التى كان لها دور مؤثر جدّاً فى حياة البشر حتى فى يومنا الحاضر، وهى استخدام البحر كطريق كبير وواسع ومتصل لحمل ونقل أنواع الأمتعة التى يحتاجها الناس فى السفر، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ حوالى ۷۵ بالمائة من وجه الأرض مغطىً بالبحار التى تصل إلى كل نقاط العالم، وأنّ قسماً كبيراً من البضائع والمواد الضرورية تنقل عن هذا الطريق، وأنّ قسماً كبيراً من الأسفار يتمّ من خلال هذا الطريق، ومن هنا تتضح أهميّة هذا الموضوع.

يقول عز وجل: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ».

ثم يضيف فى النهاية: «لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

وبهذا جعل الالتفات إلى هذه النعم أيضاً وسيلة لإحياء روح الشكر وبالتالى اكتساب المعرفة باللَّه، وإلّا فما حاجة اللَّه إلى شكرنا؟ كل هذه ذرائع إلى معرفة ذاته وصفاته والحركة نحو هذا الكمال المطلق.

والجدير بالذكر أنّ «مواخر» هى جمع «ما خرة» من مادة «مخر» (على وزن فخر)، وهذه المادة كما يستفاد من محصلة كلمات أرباب اللغة والمفسرين بمعنى الشق والخرق، كشق «أمواج الماء» بصدر السفينة، أوشق «أمواج الرياح» بواسطة الوجه والأنف والتقدم نحو الأمام، أو شق الأرض لأجل الزراعة.

ولأنّ هذه الأمور غالباً ما تكون مصحوبة بالصوت فقد اطلقت هذه المفردة على صوت هبوب الرياح الشديدة أيضاً «۱»، إنّ كل حياة الإنسان والعالم تعتريها موانع يجب على

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۷ وقد جاء نفس هذا المعنى فى تفسير روح المعانى والقرطبى تذييلًا للآية المنظورةفى بحثنا.

الإنسان كشفها واجتيازها كى يشق طريقة بالتقدم والتطور، وهذه من النقاط المهمّة والحساسة.

وبالضمن فلقد علمنا أنّ «المواخر» تعنى السفن والمراكب، ولذلك فقد فسر ابن عباس «المواخر» بالسفن التى فى حالة حركة «الجارية» «۱» حيث إنّ قيمة السفينة تكمن فى كونها متحركة.

أمّا الآية الثالثة والأخيرة والتى خاطبت مشركى مكة أو المؤمنين، وفى احتمال قوى أنّ الآية عنت بخطابها الاثنين معاً، فقد أمرت بقولها: «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ».

والملفت للنظر هنا أنّ الآية ذكرت فى آخرها: «وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ» فالبعض قال: إنّ هذه القضية شرطية وذلك لانّ هؤلاء لايعبدون اللَّه اصلًا فكيف يشكرون نعمته، فيكون الأمر «سالباً بانتفاء الموضوع».

وأيضاً يرد احتمال حول هذه المسألة وهو أنّ جزاء القضية الشرطية هى عبارة «فكلوا ممّا رزقكم اللَّه ...» والذى ورد مسبقاً حيث يعنى بان هذه الأرزاق فى حالة كونها حلالًا طيباً عندما أكون عبداً ومطيعاً لله سبحانه وتعالى، لأنّ كل النعم خلقها اللَّه سبحانه وتعالى من أجل المؤمنين، وَمثلُ ذلك مثل المزارع الذى يسقى الورد ماءً، فهو إنّما يعمل ذلك من أجل أن يحصل على الورود لا أن يجنى الأشواك بالرغم من أن الأشواك لا تخلو من فوائد، وقد ذكروا تفسيراً ثالثاً وهو أنّ الآية تخاطب الوثنيين، أنّكم إذا أردتم العبادة فاعبدوا من هو ولى نعمتكم، لماذا تعبدون الأصنام التى لا دور لها مطلقاً «۲».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۷، وكذلك ورد هذا المعنى فى تفسير روح المعانى و تفسير القرطبى وذلك فى تفسيرالآية قيد البحث هذا.

(۲) تفسير الكشاف، ج ۲، ص ۶۴۰، وثمّة تفسير آخر ورد كاحتمال من الأحتمالات فى تفسير الميزان وروح المعانى تذييلًا للآيات المنظورة فى البحث.

وليس من المستبعد الجمع بين هذه التفاسير لأنّ المخاطب حسب الظاهر هم جميع المؤمنين والكافرين، بالرغم من أنّ الآيات السابقة واللاحقة تدل على أنّ الكلام موجه إلى المؤمنين أكثر ممّا هو موجه إلى الكفّار.

وعلى كل حال، فالعلاقة بين «النعمة» و «الشكر» و «العبادة» ثم «معرفة المعبود» و «ولى النعمة» تتضح بجلاء من هذه الآية.

وبهذا نتوصل إلى الحافز الثانى لمعرفة اللَّه وهو مسألة شكر المنعم.

شكر المنعم فى الروايات الإسلامية:

۱- جاء فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «لو لم يتوعد اللَّه على معصيته لكان يجب ألّا يُعصى شكراً لنعمه» «۱».

إنّ التعبير ب «الواجب» فى هذا الحديث هو فى الحقيقة نفس تلك الوظيفة التى تنبع من عواطف الإنسان.

۲- نقرأ فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عند عائشه ليلتها، فقالت: يا رسول اللَّه لمّ تتعب نفسك وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ «۲»

فقال: يا عائشه ألا أكون عبداً شكوراً» «۳».

۳- يقول الإمام الرابع على بن الحسين عليهما السلام فى أحد أدعية الصحيفة السجادية:

«والحمد للَّهالذى لو حبس عن عباده معرفةَ حمده على ما أبلاهم من منهِ المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة لتصرّفوا فى منه فلم يحمدوه وتوسعوا فى رزقِه فلم يشكروه ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حد البهيميّة فكانوا كما وصف فى محكم

---

(۱) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۹۰.

(۲). إشارة إلى ذيل الآية الأولى من سورة الفتح من التفسير الامثل.

(۳) أصول الكافى، ج ۲، باب الشكر، ح ۶.

كتابه إنّ هم إلّاكالأنعام بل هم أضل سبيلًا» «۱».

۴- جاء فى كلام آخر من نهج البلاغة: «... ولو فكروا فى عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق وخافوا عذاب الحريق ولكن القلوب عليلة والبصائر مدخولة» «۲».

تتضح من هذه الروايات العلاقة الروحية بين «شكر النعمة» و «معرفة اللَّه وإطاعة أوامره».

---

(۱) الصحيفة السجادية، الدعاء الأول.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۵.

۳- الدافع الفطرى

تمهيد:

عندما نتحدث عن الفطرة فالمقصود هو نفس تلك الاحساسات الداخلية والإدراكية التى لاتحتاج إلى أى استدلال عقلى.

عندما نشاهد منظراً طبيعياً جميلًا جدّاً أو زهرة ذات لون ورائحة طيبة نحسُّ بقوة جذب تدفعنا نحوها، ويسمى هذا الاحساس بالميل نحو الجمال وحبه ولا نرى أى حاجة هنا للبرهنة على إثبات قولنا هذا.

أجل، إنّ الميل للجمال يعد من الرغبات المتعالية للروح الإنسانية.

إنّ الاندفاع نحو الدين وخاصةً معرفة اللَّه هو أيضاً من هذه الاحساسات الفطرية والداخلية، بل هو من أقوى الدوافع فى أعماق طبيعة

وروح جميع البشر.

ولهذا السبب لا نشاهد قوماً أو أمة لا فى الحاضر ولا فى الماضى التاريخى لم تكن تمتلك نوعاً من العقائد الدينية تتحكم فى فكرها وروحها، وهذه علامة على أصالة هذا الاحساس العميق.

وانطلاقاً من أن التوحيد الفطرى يُطرح فى مجال براهين معرفة اللَّه كبرهان مستقل مع كل آياته، لا نرى داعياً للبحث المسهب حول هذا الموضوع، فنكتفى بذكر نقطة واحدة ونؤجل المزيد من البحث حول هذا الموضوع فى محلّه إن شاء اللَّه.

عندما يذكر القرآن قصص نهضة الأنبياء العظام فانّه يؤكد فى عدة مواضع على هذه النقطة وهى أنَّ الرسالة الأصلية للأنبياء تتمثل بازالة آثار الشرك والوثنية (وليس إثبات وجود اللَّه، لأنّ هذا الموضوع مخبَّأٌ فى أعماق فطرة كل إنسان).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸

وبتعبير آخر: إنّهم لم يكونوا بصدد غرس «بذور عبادة اللَّه» فى قلوب الناس، بل كانوا فى صدد سقاية الغرسة الجديدة الموجودة واستئصال الأشواك والأدغال الزائدة المضرة التى قد تقتل أو تُذبِل هذه النبتات بصورة تامة فى بعض الأحيان.

وردت جملة: «أَلَّا تَعبُدُوا إِلَّا اللَّهَ» أو «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَاهُ» فى كلام الكثير من الأنبياء فى القرآن الكريم، وهى عبارات تفيد نفى الأصنام وليس اثبات وجود اللَّه.

كماجاء فى دعوة رسول الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ». (هود/ ۲)

ودعوة نوح عليه السلام: «أن لَاتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ». (هود/ ۲۶)

ودعوة يوسف عليه السلام: «... أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (يوسف/ ۴۰)

ودعوة النبى هود عليه السلام: «.. أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ». (الاحقاف/ ۲۱)

وَفضلًا عن هذا فَإننا نمتلك فى أعماق نفوسنا أحاسيس فطرية أصيلة أخرى منها ما نراه فى نفوسنا فى الرغبة الشديدة للعلم والمعرفة والاطلاع.

فَهل من الممكن أن نشاهد هذا النظام العجيب فى هذا العالم المترامى، ولا تكون لنا رغبة فى معرفة مصدر هذا النظام؟

أليس من الغرابة أن يقضى أحد العلماء مدة عشرين سنة من أجل التعرف على حياة النمل، ويثابر عالِم آخر عشرات السنين لمعرفة عادات أوضاع بعض الطيور أو الأشجار أو أسماك البحار بدون أن يكون لديه دافع لحب العلم؟ هل يمكن أنّهم لا يريدون معرفة مصدر هذا البحر اللامتناهى الذى يشمل الأشياء من الأَزلِ إلى الأبد؟!

نعم، هذه دوافع تدعونا إلى «معرفة اللَّه»، العقل يدعونا إلى هذا الطريق، العواطف تجذبنا نحو هذا الاتّجاه، والفطرة تدفعنا إلى هذه الجهة.

كانت هذه خلاصة للمحفزات والدوافع الواقعية والحقيقية لظهور الدين ومعرفة اللَّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹

توضيحات

التبريرات المنحرفة:

اشارة

هنالك إصرار عجيب من قبل بعض علماء الاجتماع والنفس الماديين فى الغرب والشرق على أنّ مصدر ظهور الدين والعقيدة

التوحيدية معلول للجهل أو الخوف أو عوامل اخرى من هذا القبيل.

بالطبع إنّ هذا الأمر ليس عجيباً فى نظر البعض، لأنّهم كما يبدو قد اتخذوا قرارهم باتفاق مسبق، ويعتبرون من المسلمات أن ليس ثمّة شىء غير عالم المادة، لهذا يرون أنفسهم ملزمين بأن يفسروا كل ظاهرة على أساس العوامل المادية.

من ناحية أخرى نعلم أن وجود العقائد الدينية ما ينفك يزلزل أركان المادية، وإذا أضفنا إلى هذا المعنى الصراعات الشنيعة بين الكنيسة وعلماء العلوم الطبيعية فى القرون الوسطى يمكن الاستنتاج أنّ مثل هذه التفاسير المادية للدين والاعتقاد باللَّه جزء من العداء الذى تكنه المدارس المادية للدين.

مع أنّ البحث فى كل هذه النظريات بشكل مفصل يحتاج إلى أحاديث طويلة يُخرجنا الدخول فيها عن كُنه بحثنا التفسيرى، ولكن يبدو من الضرورى الإشارة إليها هنا بشكل مختصر، لكننا نكرر أن كل هذه التفاسير قائمة على أساس أحكام مسبقة وهى أن نسلّم بعدم وجود عالم وراء الطبيعة، وبأنّ عالم الوجود يتلخص فى نفس عالم الطبيعة هذا.

وَيمكن تحديد هذه النظريات- أو بعبارة أدق هذه الفرضيات- بشكل عام فى خمس فرضيات:

۱- نظرية الجهل

يقول أحد علماء الاجتماع المعروفين: «مع أنّ العلم والفن كشف الكثير من الأسباب الخفية، إلّاأنّ الكثير من هذه الأسباب ما تزال بعيدة من نطاق العلم وباقية فى لفيف

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰

الأسرار، وضرورة التوصل إلى هذه الأسباب دعت إلى ظهور الدين» «۱».

ويضيف أحد الفلاسفة الماديين: أنّ الإنسان عندما ينظر إلى الأحداث من زاوية تاريخية فسيتصور العلم والدين عدوين لا يقبلان الصلح! وذلك لسبب واضح جدّاً، فالذى يعتقد بحركة العالم بلحاظ قانون العلية لا يستطيع أن يسمح ولو للحظة واحدة بأن يدخل عقله تصورٌ يقول: إنَّ بامكان موجود خلق الموانع والعثرات فى واقع الأحداث «۲».

وبعبارة أبسط إنّهم يريدون الادّعاء أنّ جهل الإنسان بالعلل الطبيعية كان السبب فى تصوره لوجود قوة وراء الطبيعة أوجدت هذا العالم وما انفكت تديره، ولهذا فكلما اتضحت الأسباب والعلل الطبيعية تزلزل الاعتقاد بالدين وبعبادة اللَّه.

إنّ الخطأ الأساسى لاتباع «فرضية الجهل» ينبع من:

أولًا: إنّهم ظنوا أنَّ الإيمان بوجود اللَّه يعنى إنكار قانون العلية، وإننا على مفترق طريقين: إمّا التسليم للعلل الطبيعية أو لوجود اللَّه، فى حين أنّ الإيمان بقانون العلية والكشف عن العلل الطبيعية من وجهة نظر الفلاسفة الإلهيين يعد أحد أفضل طرق معرفة اللَّه.

إنّنا لا نبحث عن وجود اللَّه وسط الفوضى والحوادث الغامضة والمبهمة، أبداً، بل نبحث عن وجوده فى وسط الأنوار والنظم المعروفة لعالم الوجود، لأنّ وجود هذه النظم علامة واضحة على وجود مصدر علم وقدرة فى عالم الوجود.

ثانياً: لماذا تراهم يغفلون عن هذه النقطة، وهى أنّ الإنسان ومنذ أقدم العصور ولحد الآن يرى دائماً نظاماً خاصاً يحكم العالم؟ نظاماً لا يمكن تبرير ارتباط وجوده بالعلل التى لا شعور لها، وكان يعتبره دوماً علامةً على وجود اللَّه، وكل ما فى الأمر أنّ هذا النظام كان

---

(۱) جامعه‌شناسى، ساموئيل كنيك، ص ۲۰۷ (علم الاجتماع عند ساموئيل كنيك).

(۲) الدنيا التى أراها، ص ۵۸- وكم هو مضحك قول «اوغست كونت» إنّ العلم عزل أبا الكائنات من وظيفته وساقه إلى مكان منزو (أى باكتشاف العلل الطبيعية لم يبق ثمّة محل للأيمان باللَّه) (الدوافع نحو المادية، ص ۷۶).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱

معروفاً فی الماضی بدرجة أقل، وکلما تطور علم البشر، إکتشفت منه دقائق وطرائف جدیدة واتّضح علم وقدرة خالق عالم الوجود أکثر.

ومن هنا فإننا نعتقد أنّ «الإیمان بوجود اللّه» و «الدین» یتقدم إلی الأمام بتقدم «العلوم»، وکل اکتشاف جدید لأسرار ونظم هذا العالم إنّما هو خطوة جدیدة لمعرفة اللّه بصورة أفضل، فلم یکن بامکان السابقین أبداً أن یعرفوا اللّه بالشکل الذی نعرفه الیوم، تطور العلوم لم یکن علی ما هو علیه الآن.

۲- نظریة الخوف

ذکر المؤرخ الغربی المعروف «ول دیورانت» فی تاریخه ضمن بحث بعنوان منابع الدین عن الحکیم الرومانی «لوکروتیوس» بأنّ «الخوف هو الأم الأولی للآلهة، ومن بین أنواع الخوف هو الخوف من الموت الذی یَحتل مکانة أهم بین بقیّة أنواع الخوف ... ولهذا لم یکن باستطاعة الإنسان البدائی أن یصدق بأنّ الموت ظاهرة طبیعیة ولذا کان یتصور له سبباً ما ورائیاً علی الدوام» «۱».

ویکرّر «راسل» نفس هذا الکلام بصیاغة أخری فی قوله:

«أتصور أنّ مصدر الدین هو الخوف والرهبة قبل کل شیء، الخوف من الکوارث الطبیعیة، الخوف من الحروب وما شاکل، والخوف من الأعمال غیر اللائقة التی یرتکبها الإنسان أثناء غلبة الشهوات علیه» «۲».

ویتّضح بطلان هذه الفرضیة من حیث إنّ أتباعها کأنّهم قد تعاهدوا جمیعهم بشکل ضمنی علی الاتفاق بأنّه لیس ثمة جذور ما ورائیة للدین والاعتقاد بعبادة اللّه، ولابدّ من البحث عن سبب له فی الطبیعة، سبب یعود إلی نوع من الظن والخیال، ولهذا فهم دائماً یرون الأمور الفرعیة وینسون المسألة الأصلیة.

---

(۱) قصة الحضارة، ل «ولْ دیورانت»، ج ۱، ص ۸۹.

(۲) العالم الذی أعرفه، ص ۵۴.

صحیح أنّ الإیمان باللّه یمنح الإنسان طمأنینة واقتداراً روحیاً، وصحیح أنّه یمده بالشجاعة قبال الموت والحوادث العصیبة، إلی درجة أنّه فی بعض الأحیان یکون مستعداً لکل ألوان التضحیة والفداء، لکن لماذا ننسی ما هو أمام أعین البشر دائماً أی النظام الذی یحکم الأرض والسماء والنباتات والأحیاء ووجود الإنسان ذاته؟!

وبعبارة أخری فإنّ الإنسان مهما کان جاهلًا بعلم التشریح والفسلجة وما شابه، لکنّهُ حینما ینظر إلی بناء عینه وأذنه وقلبه ویده ورجله یراه بناءً عجیباً ودقیقاً، وهذا لا یمکن تفسیره أبداً بعوامل اللاشعور والصدفة، فنمو غصن من الزهور، زنبور العسل، بزوغ الشمس والقمر وسیرهما المنتظم وبقیة الظواهر الاخری لا یمکن تفسیر کل هذه الظواهر بالصدفة واللاشعور.

هذا هو الشیء الذی کان موجوداً ولا یزال دائماً أمام أعین الإنسان وهو السبب الأصلی فی ظهور الإیمان بوجود اللّه، لماذا یتجاهلون هذه الحقائق البینة ویتشبثون بمسألة الخوف والجهل؟ لا شیء غیر خوفهم من نمو العقائد الدینیة؟ لماذا ترکوا الطریق الأصلی النیّر وسلکوا الطریق المنحرف؟ والسبب هو أنّ الأحکام المسبقة حالت بینهم وبین معرفة الحقیقة؟!

۳- نظریة العامل الاقتصادی

إنَّ أتباع هذه النظریة یعتقدون بأنّ القوة التی تحرک التاریخ هو شکل وسائل الانتاج، ویعتبرون جمیع الظواهر الاجتماعیة سواء الثقافیة منها أو العلمیة أو الفلسفیة أو السیاسیة وحتی الدین ولیدة هذا العامل!

ولأصحاب هذا الرأى تبريرات عجيبة من أجل الربط بين ظهور الأديان والمسائل الاقتصادية، منها قولهم: إنّ الطبقة الحاكمة فى المجتمعات البشرية قد أوجدت الدين من أجل القضاء على مقاومة الشعوب المستعمَرة وتخديرها، ويلفتون الأنظار إلى عبارة «لينين» المعروفة التى أوردها فى كتابه «الاشتراكية والدين» والتى يقول فيها: «الدين أفيون الشعوب»!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳

ولهم فى هذا الموضوع كلام كثير هو فى الغالب تكرار للمكررات.

ومن حسن الحظ أنّ أتباع هذه النظرية (الاشتراكيون) قد أجابوا على إشكالاتهم بأنفسهم من خلال عباراتهم المتناقضة، فهم عندما يواجهون الإسلام وكيف كان سبباً فى حركة ونهوض أُمة متخلفة، وكيف استطاع أن ينهى سلطة المستعمرين من أمثال سلاطين ساسان وقياصرة الروم وفراعنة مصر و «تبابعة» اليمن، يضطرون إلى استثناء الإسلام على الأقل من هذا المقطع التاريخى.

وفوق كل هذا، عندما يشاهدون اليوم الحركات والنهضات الإسلامية التى تنطلق ضد المستعمرين (خاصة فى العصر الحاضر) بوجه حكام الشرق والغرب وانتفاضة الشعب الفلسطينى ضدّ الكيان الصهيونى، فليس أمامهم سبيل سوى أن يشكّوا فى تحليلاتهم، بغض النظر عن الذين يعيشون حصاراً فى حصار ولا يستطيعون أن يبصروا حتى نور الشمس الساطع.

وعلى كل حال، مع الأخذ بنظر الاعتبار التاريخ المعاصر والقديم لا سيما الخاص بالإسلام، يتضح جيداً أنّ الدين وخلافاً لزعمهم ليس مادة مخدرة وأفيوناً أبداً، فضلًا عن أنّه السبب فى ظهور أقوى الحركات الاجتماعية وأكثرها مثاراً للإعجاب، والقضايا الاقتصادية تشكل بدورها جزءً من حياة الإنسان، وحصر الإنسان فى الزاوية الاقتصادية يعتبر أكبر خطأ فى معرفة الإنسان ومعرفة نوازعه وميوله المتعالية.

۴- النظرية الجنسية

والآن تعالوا واستمعوا للسيد «فرويد» الذى يريد أن يقيم جسراً بين «ظهور الدين» و «الغريزة الجنسية» ويعتبر الدين وليداً للغريزة الجنسية!

إنّه يحاول أن يربط هذا الموضوع فى فرضيته باحدى القبائل الوهمية (للأب فى هذه القبيلة الخيالية نساء كثيرات، أمّا الأولاد الشباب فيعانون الحرمان، وأخيراً ثار الأولاد وقتلوا الأب وأكلوا لحمه، ثم ندموا على فعلتهم، لقد غضوا النظر عن نساء القبيلة وعمدوا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴

إلى إدانة وتقبيح عملهم) ومن هنا نشأ بينهم نوع من الحظر وبتعبيره «تابو» أى (حظر الزواج من المحارم).

وَيضيف: يوجد فى القبائل المتوحشة اليوم شىء باسم «التوتم» وهو الأب أو كبير العشيرة بالنسبة لاعضاء القبيلة، ويعتبر حاميهم وولى نعمتهم.

إنّهم يحترمون «التوتم» ويتصورون أنّ عليهم أن يتشبّهوا به ويقلّدوه (هذا الاعتقاد بالتوتم نابع من نفس الاعتقاد بالقبيلة الوهمية أيضاً).

يعتقد فرويد أنّ الإيمان بالتابو والتوتم هو السبب لظهور العقائد الدينية، ووفقاً لما ذكرنا أعلاه فإن له علاقة بالقضية الجنسية! «۱».

وفضلًا عن أنّ فرضية فرويد الجنسية قائمة على أساس اسطورةٍ (اسطورة القبيلة الوهمية)، فإنّ تحليلاته تشبه إلى حد كبير الأساطير والخرافات، وهذا ناتج من أنّه ينظر الى روح وجسم الإنسان الذى يحمل أبعاداً وميولات متنوعة من زاوية واحدة وبعد واحد.

صحيح أنّ للإنسان غريزة جنسية، لكن من المسلم به أنّ وجود الإنسان لا ينحصر فى الغريزة الجنسية، فجسمه يقع تحت تأثير غرائز مختلفة، ولروحه ميول متعالية مختلفة، «فَالنظر من بعد وأحد» خطأ لم يقع فيه فرويد فحسب بل إنّ الاشتراكيين الذين يحصرون وجود الإنسان فى البعد الاقتصادى قد وقعوا فيه بشكل آخر، وكلا النظريتين اخطأتاخطأً فاحشاً فى معرفة الإنسان.

كان الأجدر بفرويد وبدل الاعتماد على الأوهام أن ينظر إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان منذ فجر حياته وحتى اليوم أبصر نظاماً

حاكماً على العالم المترامى وعلى وجوده هو لا يمكن تفسيره بالعلل الطبيعية غير العاقلة وغير العالمة، وكان هذا هو المنطلق فى ظهور الاعتقاد باللَّه، فَلماذا يرفضون نهجاً بهذا الوضوح ويسلكون طريق الجهل والضلال؟!

---

(۱) الاقتباس من فرويد والفرويدية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵

۵- نظرية الحاجات الأخلاقية

يقول «أنشتاين» فى بحث بعنوان «الدين والعلوم»: بقليل من الدقّة يتّضح أنّ الأحاسيس والانفعالات التى أدّت إلى ظهور الدين مختلفة ومتباينة جدّاً .. وبعد أن يشير إلى نظرية الخوف يضيف:

إنّ النزعة الاجتماعية لدى البشر هى أيضاً من أسباب ظهور الدين، فالفرد يرى أنّ أباه وأمه، أصدقاءه وأقاربه، قادته وعظماءه، يموتون، ويرحلون منْ حوله واحداً واحداً، إذن فالرغبة فى الهداية والمحبّة وأن يكون محبوباً فى مجتمعه وأن يكون له أمل فى شخص ما معتمداً عليه، تمهد الأرضية فى نفسه لقبول الاعتقاد باللَّه «۱».

وبهذا فهو يريد أن يفترض دافعاً أخلاقياً واجتماعياً لظهور الدين.

وهنا أيضاً نلاحظ أنّ الذين طرحوا هذه الفرضية قد خلطوا بين «الأثر» و «الدافع»، فى حين أنّنا نعلم أن ليس كل أثر هو دافع بالضرورة، فَمن الممكن أن نعثر على كنز أثناء حفرنا لبئر عميق، وهذا هو «أثر»، والحال أنّه لا شك فى أنّ المحرك والدافع الأساسى لحفرنا البئر شىء آخر وهو الحصول على الماء وليس اكتشاف كنزٍ ما.

وعليه فصحيح أنّ بامكان الدين تسكين ومعالجة آمال وآلام الإنسان الروحية، وأنّ الإيمان باللَّه يخلصه من الاحساس بالوحدة عند فقد الأحبّة والأصدقاء ويملأُ الفراغ الناتج من فقدانهم، ولكن هذا أثر وليس دافعاً.

الحافز الأصلى للدين والذى يبدو منطقياً جدّاً هو فى الدرجة الأولى ما أشرنا إليه سابقاً، فحينما يرى الإنسان نفسه وجهاً لوجه أمام نظام فى عالم كلما تأمل فيه أكثر تعرف على عمقه وتعقيده وعظمته أكثر، فهو لا يستطيع أبداً أن يعتبر ظهور ولو «وردة» واحدة بكل ما لها من ظرافة وبناء عجيب، أو ظهور «عين» واحدة بكل ما فيها من نظام ظريف ودقيق ومعقد، لا يستطيع أن يعتبر ذلك وليداً للطبيعة غير العاقلة والمصادفات العمياء الصماء، ومن هنا يبحث الإنسان عن مُبدىء لهذا النظام.

---

(۱) الدنيا التى أراها، ص ۵۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶

وبالطبع فهنالك أمور أخرى تدعم هذا المعنى أشرنا إليها سابقاً.

والعجيب أن «انشتاين» نفسه الذى اقترح مثل هذه الفرضية تراجع عن كلامه فى مكان آخر وأعرب عن عقيدته فى موجد عالم الوجود وايمانه الراسخ بذلك المُبدىء الكبير بشكل ملفت للنظر، يدل على إنّه ينكر الاعتقاد الممتزج بالخرافات ولا ينكر التوحيد الخالص من أى خرافة.

إنّه يقول: «ثمة وراءَ هذه الأوهام معنى واقعى لوجود اللَّه لم يتوصل إليه سوى القليل من الناس» ثم يصرح بعقيدته وعقيدة كبار العلماء بنوع من الإيمان الدينى الذى يسميه «الأحساس الدينى بالخلق» أو «الوجود» ويدعوه فى مكان آخر ب «الحيرة اللذيذة من نظام الكائنات العجيب الدقيق».

والألطف من ذلك أنّه يقول: «إنّ هذا الإيمان الدينى سراج درب البحوث فى حياة العلماء» «۱».

طبعاً الكلام هنا كثير وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم حسب التعبير الدارج فسوف نخرج عن شكل البحث فى التفسير الموضوعى.
لهذا نعود إلى أصل الحديث مرّة أخرى وننهى هذا البحث، ونلفت النظر إلى أنّه يجب البحث عن دافع ظهور الأديان فى مطالعة عالم الخلقة أولًا (الحافز العقلى والمنطقى)، ثم فى الجاذبية الذاتية العنيفة (الحافز الفطرى)، ثم فى التوجه نحو ذلك المبدىء الكبير بسبب التمتع بنعمه اللامتناهية (الحافز العاطفى) «۲».

---

(۱) الدنيا التى أعرفها، ص ۵۶ و ۶۱.
(۲) من أجل مزيد من المعلومات فى هذا المجال يراجع كتابنا «الحافز فى ظهور الأديان».
نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷

براهين معرفة اللَّه:

اشارة

۱- بُرهَان النظم
۲- برهان التغيّر والحركة (يبحث فى مجلّد ۳)
۳- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر) (يبحث فى مجلّد ۳)
۴- برهان العلة والمعلول (يبحث فى مجلّد ۳)
۵- برهان الصدّيقين (يبحث فى مجلّد ۳)
۶- الطريق الباطنى لمعرفة اللَّه (الفطرة) (يبحث فى مجلّد ۳)
نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۹

۱- بُرهَان النظم

التمهيد:

إنّ أوسع برهان اعتمد عليه القرآن الكريم فى آياته وسوره فى إثبات «معرفة اللَّه» هو «برهان النظم» بشكل غطى هذا البرهان على كافة البراهين التى وردت فى القرآن الكريم.
وهذا يدل على أنّ أفضل وأوضح طريق لمعرفة اللَّه وتنزيهه من كافة ألوان الشرك من وجهة نظر هذا الكتاب السماوى العظيم هو البحث فى نظام الخلقة وأسرار الوجود وآيات الآفاق والأنفس.

مميزات برهان النظم:

لهذا البرهان خصائص من أجلها اعتمد وأكد عليه القرآن الكريم إلى هذا الحد.
۱- إنّ برهان النظم يقنع العلماء كما يقنع عامة الناس، أى أنّ كل فئة تستطيع الاستفادة والانتفاع منه حسب قابليتها، وذلك لأنَّ الناس مختلفون فى إدراك أسرار الخلقة.
۲- ليس فى برهان النظم الجفاف الموجود فى الاستدلالات الفلسفية، بل على العكس فيه لطف خاص يمنح الإنسان حبّ الاطلاع

على ذلك المُبدىء الكبير، ويوجد فيه نوعاً من الاندفاع والشوق نحوه، ويخلق لديه حالة من الخضوع الممزوج بالحبّ ومعرفة اللّه، وبتعبير آخر فهو يروى عقل الإنسان كما يروى عواطفه وأخلاقه.

وأخيراً فإنّ برهان النظم وبسبب دراسته لأنواع النعم الإلهيّة ضمن دراسة نظم هذا العالم فهو يؤكد على مسألة شكر المنعم، وهذا بحدّ ذاته حافز آخر من حوافز التوحيد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۰

۳- إنّ برهان النظم برهان فى حال تطور (متجدد)، وبتعبير آخر هو برهان لا متناه، المقدّمة الكبرى وإن كانت ثابتة، لكن صغراها تمثل أعصانا متفرعة ومورقة وذات برأعم نامية لهذا البرهان، لأنّ أى اكتشاف من الاكتشافات العلمية حول أسرار الخلقة إنما يشكل مصداقاً وصغرى جديدة لهذا البرهان، فهو لهذا جديد دائماً، وفى كل يوم يأخذ شكلًا آخراً، وهو متطور ومتقدم إلى جانب تطور العلم والمعارف البشرية.

۴- إنّ برهان النظم يدعو الإنسان إلى سلوك الآفاق والأنفس، وهذا السلوك المملوء بالبركة يزيد من مستوى معرفة الإنسان فى كل يوم ويجعل تفكيره مزدهراً، خاصة وأنّ أسس برهان النظم مختلطة بحياة الإنسان وهو يواجهها فى كل خطوة من خطواته، وليس كالبعض الآخر من البراهين التوحيدية التى تقع على هامش قضايا الحياة وخارجها.

۵- برهان النظم هو البرهان الوحيد الذى يستطيع إخضاع الفلاسفة التجريبيين الذين ينكرون الاستدلالات العقلية المحضة، ويستخدم حربة العلم التى يستخدمونها فى إثبات «المادية» ضدهم، وهو بهذا اللحاظ ذو فاعلية عالية.

ولهذا ليس من العجيب أن يضع القران الكريم الغالبية العظمى من مباحثه التوحيدية على أساسه، لكن من العجيب أنّ بعض المحققين المتأثرين بشدة ببراهين أخرى (البراهين الفلسفية المحضة) يتجاهلون الأهميّة القصوى لهذا البرهان وكأنّهم لا علم لهم بمميزاته وآثاره العميقة.

أسس برهان النظم:

يرتكز هذا البرهان فى شكله الأول على ركيزتين أساسيتين، بحسب ما هو مصطلح يشكل صغرى وكبرى

۱- هنالك نظام دقيق ومحسوب يحكم عالم الوجود.

۲- أينما وجدنا نظاماً دقيقاً ومحسوباً فمن غير الممكن أن يكون وليد الحوادث التصادفية، بل لابدّ أن يصدر عن علم وقدرة عظيمين.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۱

والنتيجة هى أنّ هناك مبدأ علم وقدرة عظيم وراء نظام عالم الخلقة (سواء أطلقنا عليه اسم اللّه أو وضعنا له إسما آخر) لأنّ التسمية لا تؤثر فى مثل هذه البحوث.

العلاقة بين النظام و العلم:

قبل كل شىء يجب إثبات المقدمة الثانية المسماة بكبرى القياس، ومن أجل هذا لابدّ من تعريف مختصر ل «النظام».

يمكن القول: أن أى منظمة أو موجود يعمل وفق برنامج معين ويعطى نتائج معينة، هو موجود منظم، وعلى هذا الأساس فإنّ «الحساب» و «البرنامج» و «الهدف» تشكل العناصر الأصلية الثلاثة للنظام، فمثلًا الساعة نموذج ل «الموجود المنظم»، ذلك أنّ أجزاءها مصنوعة وفق حساب دقيق، ثم هنالك برنامج لتركيبها، والهدف منها هو التشخيص الدقيق للوقت.

ولأجل التوصل إلى هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) يمكن الاستعانة بعدّة أدلة:

۱- الوجدان: مع أننا لم نر أبداً الكثير من العلماء الكبار والمخترعين والفنانين المهرة، ولم يبق منهم سوى الآثار، إلّاأنّنا حين ننظر إلى تلك الآثار والكتب والصناعات واللوحات النفيسة والأبنية البديعة، نعترف بدون الحاجة إلى دليل بعقلهم وذوقهم وعلمهم ومهارتهم الصناعية والفنية.

۲- من أجل إثبات هذه العلاقة يمكن- بالإضافة إلى الوجدان- الاستعانة بالدليل المنطقى، فمن أجل أحداث بناية منظمة واظهارها إلى الوجود يجب أن يكون هناك اختيار فى سبع مراحل على الأقل.

فلو تصورنا بناية عظيمة وجميلة ومحكمة، وجب أن نمارس عملية الاختيار والانتخاب بشكل محسوب على عدة أصعدة «اولها» نوعية المواد المستخدمة، و «ثانيها» مقدار وكميَّة المواد، و «ثالثها» جودة المواد، و «رابعها» الأشكال والأحجام المختلفة، و «خامسها» إيجاد الانسجام بين الأجزاء، و «سادسها» إيجاد التناسب بينها، و «سابعها»

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۲

من حيث وضع كل من الأجزاء فى مكانه المناسب.

وهذه الاختيارات السبعة يجب أن تتمّ كل واحدة منها وفقاً للعلم والاطلاع والحساب، وأحياناً الحسابات الدقيقة جدّاً، ومن هنا عندما نرى مثل هذه البناية نتيقن أن صانعها بلا شك كان يملك العلم والمعرفة والاطلاع الواسع.

۳- يمكن إثبات هذه العلاقة (علاقة النظام والعلم) عن طريق آخر (عن طريق البرهان الرياضى).

إنّ «حساب الاحتمالات» الذى اصبح اليوم فرعاً علمياً مستقلًا فى الجامعات ذو فاعلية جيدة جدّاً فى مجال العلاقة بين النظام والعلم، وهو نفس الشيء الذى ندركه بصورة إجمالية فى حياتنا، لكن حساب الاحتمالات يعكسه فى شكلٍ رياضى واضح.

إنّنا لا نصدق أبداً أنّ إنساناً امياً يستطيع عن طريق الصدفة أن يؤلف كتاباً فى مجال «الفلسفة» مثلًا أو «الآداب والشعر» أو «الطب»، بمعنى أن نعطيه آلة طابعة فيبدأ بدون أن يعرف الحروف بالضغط على أزرار الآلة ليطبع كتاباً.

وليس من المستحيل كتابة كتاب علمى عن طريق الصدفة فحسب، بل لا يمكن كتابة حتى رسالة قصيرة أيضاً.

لأنّه لو افترضنا أن حروف الآلة الطابعة ثلاثون حرفاً فقط، (وهى بالطبع أكثر بكثير، لأنّ لبعض الحروف صور متعددة، فمثلًا حرف الباء الأولية والباء الوسطية والباء النهائية والباء المفردة تشكل أربع صور مختلفة لحرف الباء) يقول حساب الإحتمالات هنا: إنّ الظهور التصادفى لكلمة «من» المكونة من حرفين هو احتمال واحد من تسعمائة احتمال.

(۳۰/ ۱* ۳۰/ ۱/ ۹۰۰/ ۱).

واحتمال ظهور كلمة مكونة من ثلاثة أحرف هو احتمال واحد من ۲۷ ألف احتمال، وحين نصل إلى كلمة مكونة من خمسة أحرف سوف نجتاز حدود ۲۱ مليون!!.

والآن إذا كانت الحروف الموجودة فى رسالة قصيرة هى مائة حرف فإنّ مجموعة احتمالات هذه الأحرف هى العدد ۳۰ مرفوعاً إلى الأُس ۱۰۰ بحيث أن رسالتنا المعينة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۳

تشكل احتمالًا واحداً من هذا العدد الهائل من الاحتمالات، أى عدداً كسرياً بسطه واحد ومقامه العدد ۳ إلى يمينه مائة صفر.

إنّ مقام هذا الكسر من الضخامة بحيث لا يمكن حسابه، ولا شيء فى هذا العالم يصل إلى ضخامة هذا العدد.

ولأجل إيضاح هذه الحقيقة يكفى أن نعلم أننا لو قطرنا جميع المحيطات على الكرة الأرضية قطرة قطرة وحسبنا عددها لكان عددها أقل من عدد على يمينه واحد وعشرون صفراً فقط.

وعلى هذا الحساب لو حسبنا كتاباً مكوناً من ألف صفحة فإنّ عدد الاحتمالات سيتضخم إلى درجة أنّ الاحتمال التصادفى لعدده الكسرى (البسط) يتساوى مع الصفر أى أنّه مستحيل.

وبهذا الدليل، إذا ادّعى شخص مثلًا: أنّ «ابن سينا» مؤلف كتاب «القانون» فى الطب كان أمياً تماماً، وأنّ «المتنبّى» لم يكن له ذوق شعرى مطلقاً، وأن «أنشتاين» لم يكن يفقه شيئاً من الرياضيات وأنّ بنّائى الأبنية التاريخية الشهيرة لم يكن لهم أدنى اطلاع فى فن العمارة، وأنّ جميع الآثار التى تركوها ظهرت بمحض الصدفة والحركات غير المقصودة لأيديهم على الأوراق أو على المواد الإنشائية! فلا شك أنّ من يقول مثل هذا الكلام إن لم يكن يمزح فهو مجنون!.

وخلاصة القول أنّ علاقة النظام بالعلم واضحة إلى درجة أنّ الكثير من العلوم والمعارف البشرية قائمة على النظام، فمثلًا جزء مهم من تاريخ الحضارة البشرية كتب من خلال مطالعة ودراسة الآثار الجذابة للسلف التى خلفوها بعد رحيلهم.

والعلماء- بمطالعة الآثار التى يعثرون عليها بواسطة الحفريات أو التى يكتشفونها فى قبور ومعابد الأقوام الغابرة- يتوصلون إلى مستوى ثقافتهم وحضارتهم ونوعية عقائدهم.

فى حين إذا أنكرنا علاقة النظام والعلم إنهارت كل هذه الاستنباطات.

الآن وقد اتّضحت تماماً العلاقة بين النظام والعلم، وبعبارةٍ ثبتت كبرى البرهان، نتطرّق

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۴

إلى مصاديقها فى عالم الوجود التى اعتمد عليها القرآن الكريم.

واللطيف أنّ آيات القرآن لا تتحدث مطلقاً عن كبرى برهان النظام، أى «علاقة النظام والعلم»، لأنّها كانت واضحة ووجدانية إلى حد أنّه لم تكن ثمة حاجة لبيانها، وكما قلنا فإنّ الإنسان إذا أنكر هذه العلاقة يجب عليه إنكار الكثير من الحقائق الموجودة فى حياته، وما من شك فى أن منكرى هذه العلاقة يشبهون ب «السفسطائيين» الذين ينكرون الحقائق أثناء حديثهم، ولكنهم فى حياتهم اليومية يقبلون جميع الحقائق مثل الآخرين، فمثلًا لو تمرضوا يراجعون الطبيب ويستعملون الدواء وينفذون إرشادات الطبيب حرفاً بحرف، أى أنّهم يعترفون رسمياً بوجود «الطبيب» و «الدواء» و «علم الطب» و «الصيدلة» ومئات الأمور الأخرى الدائرة فى هذا الفلك.

إنّ منكرى «علاقة النظام والعلم» أيضاً بدورهم يستنتجون علمياً وعملياً من أى أثر علمى وصناعى وأدبى وفنى، وجود مُبدىء واع وذى ذوق وفن، ولا يعتمدون أبداً على الاحتمالات المجنونة.

الآن وقد اتّضحت علاقة النظام والعلم تماماً، وثبتت كبرى البرهان حسب الاصطلاح المنطقى، نعرج على مصاديقها فى القرآن الكريم والتى اعتمد عليها.

ونعتقد أن من الضرورى ذكر هذه النقطة وهى: أنّ الفلاسفة الماديين الذين حاربوا برهان النظم (انكار وجود النظام فى العالم أو إنكار علاقة النظام والعلم) وعلى رأسهم «دافيد هيوم» لم يتحفونا بسوى مجموعة من الوساوس التى لا قيمة لها، الوساوس التى لم يكونوا يقبلونها فى حياتهم أبداً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۵

۱- آياته فى خلق الإنسان

اشارة

فى البداية نمعن خاشعين فى الآيات الكريمة أدناه:

۱- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ». (الروم/ ۲۰)

۲- «إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً».

(الإنسان/ ۲)

۳- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِّنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِی قَرَارٍ مَّكِينٍ».

(المؤمنون/ ۱۲ و ۱۳)

۴- «ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* الَّذِی أَحسَنَ كُلَّ شَیْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ* ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَار وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ». (السجدة/ ۶- ۹)

۵- «وَفِی خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» «۱». (الجاثية/ ۴)

شرح المفردات:

«بَشَرٌ»: من أصل (بَشَرَة) بمعنى ظاهر جلد الإنسان، ولكن يستفاد من «مقاييس اللغة» أنّ أصلها هو ظهور شیءٍ ذی حسن وجمال، لذا فإنّ حالة «البُشر» (على وزن اليُسر) بمعنى الفرح والانبساط، وانطلاقاً من أنّ هذه الحالة خاصة بالإنسان، كانت مفردة «البشر»

---

(۱) هنالك فی هذا المجال آيات متعددة أخرى أيضاً، صرفنا النظر عن ذكرها لتقارب مضمونها مع ما ذكرناه من الآيات، من جملتها آيات سورة النجم، ۴۵- ۴۶؛ غافر، ۶۷؛ فاطر، ۱۱؛ الكهف، ۳۷- ۳۸؛ النحل، ۴؛ الانعام، ۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۶

اسماً للنوع الإنسانی «۱»، وهذه المفردة تطلق على الرجل والمرأة والمفرد والمثنى والجمع «۲».

«سُلالة»: (على وزن عُصارة) بمعنى الشیء المأخوذ من شیء آخر، فيكون خلاصته وعصارته، وهی فی الأصل من (سَلَّ) على وزن (حَلَّ) بمعنى سحب وجرَّ برفق وتستخدم لسحب السيف من القراب أيضاً ثم اطلقت على عصارة وخلاصة الأشياء «۳»، وحينما نقرأ فی الآيات المذكورة أنّ اللّه خلق الإنسان من سلالة من طين، فمعنى ذلك من العصارة المصطفاة من الطين، وقال البعض: إنّ المراد من هذا هو أنّ آدم مخلوق من عصارة كل الأتربة الموجودة على الأرض (ولهذا فقد استخلص آثار الجميع فی وجوده) وإطلاق «السليل» على «الابن» من باب أنّه ناتج من عصارة وجود الأب والأم.

«النطفة»: فی الأصل بمعنى «الماء الصافی»، واعتبرها بعض أهل اللغة بمعنى «الماء القليل»، وبما أنّ الماء الذی يمثل المبدأ فی ظهور الإنسان قليل ومصطفیً وعصارة من كل الجسم فقد أُطلقت هذه المفردة عليه، ويقال للسوائل الجارية «ناطف» أيضاً.

«أمشاج»: جمع «مَشْج» (على وزن نشج) بمعنى الشیء المخلوط، والبعض اعتبرها جمعاً ل «مشيج»، ولأنّ ماء الرجل والمرأة يختلطان عند انعقاد نطفة الإنسان فقد أطلقت هذه المفردة عليه.

جاء فی «لسان العرب» أنّ هذه المادة فی الأصل بمعنى اللونين المختلفين الذين يمتزجان مع بعضهما (ثم أطلقت على الأشياء المختلفة التی تختلط مع بعضها).

خلق الإنسان من (نطفة أمشاج)، يمكن أن تكون إشارة إلى المواد المختلفة التی تشكل النطفة، أو القابليات المتنوعة التی تجتمع فی النطفة عن طريق عامل الوراثة وغيره من العوامل، أو أنّه إشارة إلى كل هذه الامتزاجات.

---

(۱) مقاييس اللغة، لسان العرب والتحقيق فی كلمات القرآن الكريم.

(۲) لسان العرب، ومجمع البحرين.

(۳) مفردات الراغب، مجمع البحرين، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۷

جمع الآيات وتفسيرها

آيات الأنفس الأولى

للقرآن الكريم عبارات متنوعة حول بداية ظهور الإنسان، يقول فى أول آية بهذا الخصوص:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَاب».

ويقول فى الآية الرابعة: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِيْنٍ».

ويقول فى الآية الثالثة: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ».

ويقول فى الآية ١١ من سورة الصافات: «إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِيْنٍ لَّازِبٍ».

ويقول فى الآية ٢۶ من سورة الحجر: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ».

وجاء فى الآية ١۴ من سورة الرحمن: «خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ».

«الصَلْصَال»: فى الأصل بمعنى لوى الصوت فى الجسم اليابس، ولهذا سمّى الطين اليابس الذى يصدر منه صوت عند ارتطام جسم آخر به بالصلصال، وحين يُفخر على النار يقال له «الفخار».

«الفخار»: مأخوذ من مادة «فخر» أى الفخور كثيراً، ولأنّ الأشخاص الفخورين أناس كثيرو الضجيج والكلام وفارغون، فقد أُطلق هذا الاسم على الكوز وكل فخار فارغ الجوف، بل أطلق على كل أنواع الفخار «١».

يستفاد من مجموع الآيات أعلاه أنّ الإنسان كان تراباً فى البداية، وقد امتزج هذا التراب بالماء واستحال إلى الطين، وقد أخذ هذا الطين بعد مضى فترة شكلَ الوحل ثم استخلصت من عصارته المادة الأصلية لآدم ثم جُفِّفَتْ، وباجتيازها المراحل المهمّة تكوّن آدم.

لكن فى آيات اخرى من القرآن كالآية الثانية المعنية، يعتبر خلقة الإنسان من نطفة

---

(١) مفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

مختلطة: «مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ».

وفى الآية الثالثة يعتبرها اولًا من «عصارة الطين»، ثم من «نطفة فى الرحم»: «مِنْ سُلالَةٍ مِّنْ طِيْنٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَكِيْنٍ».

واضح أنّ المراد من هذه الآيات هو خلقة الإنسان فى المراحل والأجيال اللاحقة، وبهذا فإنّ جدنا الأول مخلوق من التراب، وأولاده وعقبه من نطفة أمشاج.

وثمّة احتمال فى تفسير الآية أعلاه هو: بما أنّ المواد المكوِّنة للنطفة مأخوذة جميعها من التراب (لأنّ غذاءنا إمّا من المواد الحيوانية أو النباتية ونعلم أن جميع هذه المواد نحصل عليها من التراب)، لهذا فلم يكن الإنسان الأول من التراب فحسب، بل إنّ جميع الناس فى المراحل اللاحقة ينشأون من التراب أيضاً «١».

وعلى كل حال، فهذه حقّاً من العجائب الكبيرة فى عالم الوجود وغرائب عالم الخلقة أن يولد- من مادة ميتة وبلا روح ولا قيمة لها كالتراب- موجود حى وعاقل وذو قدر وقيمة كالانسان، فهذه من الآيات البينات لذلك المُبدىء الكبير، و «إنّ ذلك الخالق لجدير بالشكر والثناء لأنّه خلق من الماء والطين مثل هذا الشكل الجذاب».

وبشكل عام فإن ظهور الحياة من موجود ميت مايزال من ألغاز عالَم الفكر والمعرفة، فضمن أىّ شروط وظروف يخرج موجود حى من موجود ميت كالتراب؟ يعتقد كل العلماء أنّ الكرة الأرضية حين انفصلت عن الشمس كانت كلها ناراً محترقة، ولم تكن عليها حياة

مطلقاً، ثم بردت قليلًا قليلًا وهطلت عليها سيول الأمطار من الغازات المضغوطة الموجودة حولها، فتكونت البحار، بدون أن يكون فيها كائن حى، ثم ظهرت بوادر الحياة سواء النباتية أو الحيوانية وأخيراً خُلقَ الانسان!

إنّنا سواء اعتقدنا بالخلق المستقل للإنسان (كما هو ظاهر الآيات القرآنية)، أو اعتبرنا

---

(۱) ورد فى تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۱۷۳ إشارة مقتضبة لهذا المعنى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۴۹

الإنسان متكاملًا من أنواع الأحياء الأخرى (كما يقول أتباع داروين، ونظرية التكامل)، فمهما كان فإن جذور هذا الإنسان تعود إلى التراب، فهو منبثق ومخلوق منه، وإذا كان ظهور كائن حى أُحادى الخلية ومجهرى من التراب، محيّراً لأفكار كل العلماء، فكيف بظهور الإنسان من التراب الميت الخالى من الروح؟

هنا يجب الاعتراف أننا بأزاء آية كبيرة من آيات الحق وعلامة محيّرة من عظمة اللَّه، آية من العالم الصغير هى نموذج متكامل للعالم الكبير.

يقول كاتب «سر خلق الإنسان» «غرسى موريسن» فى معرض إشارته إلى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية:

«وقعت حادثة عجيبة فى بداية ظهور الحياة على الكرة الأرضية كان لها أثر كبير على حياة الموجودات الأرضية، حيث أصبح لاحدى الخلايا خاصية عجيبة وهى أنّها وبواسطة ضوء الشمس بدأت تحلِّل وتجزِّء بعض التراكيب الكيميائية وتوفر بهذا العمل المواد الغذائية لنفسها ولسائر الخلايا المشابهة، وقد تغذت الخلايا المنشطرة من احدى هذه الخلايا البدائية على الأغذية التى وفرتها لهم أمهم وأوجدت جيل الحيوانات، فى حين أنّ خلية أخرى بقيت على شكلها النباتى وكونت نباتات العالم، وهى اليوم تغذى كل الأحياء الأرضية.

ثم يضيف: هل يمكن التصديق أنّه وحسب الصدفة كانت إحدى الخلايا منشأً لحياة الحيوانات وخلية أخرى كانت أصلًا ومصدراً للنباتات؟».

ووفق قول آخرين:

إنّ العلماء يقسمون موجودات عالم المادة إلى نوعين، العضوية (وهى الموجودات القابلة للفساد كأنواع النباتات وأجسام الحيوانات)، والموجودات اللاعضوية (المعدنية) التى لا تقبل الفساد، ولهذا يقسمون الكيمياء إلى قسمين «الكيمياء العضوية» و «اللاعضوية».

تشكل المواد العضوية جميع أطعمة الإنسان تقريباً، وهى مأخوذة كلها من التراب،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۰

وحين تدخل جسم الإنسان تكوّن تراكيب كيميائية جديدة تناسب تغذية كل عضو من الأعضاء، وهذه نفس الحقيقة التى يبينها القرآن بعبارة: «إنّا خَلَقْنَاكُم مِّنْ تُراب» أو «مِنْ سُلالةٍ مِّنْ طِين» «۱».

صحيح أنّ للإنسان علاوة على المادة الترابية روحاً إلهية، ولكن لا شك أنّ الروح تكون مظهراً للأعمال والأفعال المختلفة بالتنسيق مع الجسم و عليه فإنّ هذه المادة الترابية تستطيع بالتنسيق مع الروح أن تقدم أنواع القابليات والأذواق والابتكارات والأعمال التى يحار فيها العقل.

مع أنَّ الإنسان صار موضوعاً لعلوم مختلفة، وهنالك عالِم خاص حول كل جانب من جوانبه يمارس دراساته وأبحاثه، إلّاأنّ الإنسان ما يزال موجوداً مجهولًا، ويلزم من الوقت سنين طويلة لكى يحل العلماء بجهودهم المتواصلة هذا اللغز الكبير فى عالم الوجود وينيروا زواياه، وربّما لم يستطيعوا أبداً أن يقوموا بذلك!

يمكن لكل عضو من أعضاء جسم الإنسان أن يكون لوحده موضوعاً لحساب الاحتمالات: العين، الاذن، القلب، العروق، الجهاز

التنفسى، الكلى المعدة، الكبد، وأخيراً الجهاز العصبى المعقّد، وبعملية رياضية بسيطة يتضح أن أى عقل لا يوافق على أنّها خُلقت صدفة.

نعم، إنّه من أجل التوصل إلى بنية ونوع فعالية وفسلجة كل واحد من الأعضاء فقد درس آلاف العلماء والعقول المفكرة وكتبت مئات أو آلاف الكتب حولها.

هل يصدق أحد أنّه من أجل معرفة كل واحد من هذه الأعضاء تلزم كل هذه العلوم والعقول والذكاء والدراية، بينما لا يلزم صنعها علماً وعقلًا على الاطلاق؟! كيف يمكن أن يكون فهم اسلوب عمل إحدى المعامل متطلباً لسنين من المطالعة، بينما تكون صناعة هذا المعمل قد حصلت على يد العوامل غير العاقلة؟ أى عقل يصدق هذا؟!

هنا لا يعتبر ظهور الإنسان من المادة البسيطة (التراب) ومن سلالة من طين ومن الحمأ

---

(۱) مقتبس من إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ۲۳ و ۲۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۱

المسنون إحدى أعمال الخلق العظيمة والآيات الكبيرة على وجود اللَّه فحسب، بل إنّ كل واحدة من خلايا الجسم بامكانها أن تكون مرآة عاكسة لعظمة اللَّه ووجوده.

التعقيد والدقة فى نظام الخلق:

يقولون: إنّ للجهاز الفلانى نظام معقد، هذا عندما يكون بناؤه متكوناً من أجزاء وتشكيلات مختلفة ذات ارتباطات متعددة ومتنوعة، ويقوم بأعمال متباينة مهمّة، فمثلًا الحاسبة الألكترونية التى تستطيع فضلًا عن أعمال الحساب الأصلية أن تحل أنواع المعادلات الجبرية والقضايا الهندسية وتؤدّى مختلف الحسابات الرياضية بسرعة أو تحفظها فى حافظتها، تعتبر ذات نظام معقد.

يقول العلماء: إنّ خلف غشاء شبكية العين يُوجد تسعون ألف حزمة عصبية تربط بين خلايا الشبكية وسلسلة الأعصاب (بالطبع لكل عين من عينى الإنسان تسعون ألف حزمة) وهذا نظام عجيب ومعقد جدّاً، وبأخذ هذه النقطة بنظر الاعتبار نعود إلى أصل البحث:

فى عالم الخلقة وعلاوة على قضية الظرافة والدقّة، ثمّة أنظمة معقدة غاية التعقيد، تبهت الإنسان وتحيره، وحسب تعبير بعض العلماء فإنّ فى مدينة جسم الإنسان العظيمة أبنية تكون أكبر ناطحات السحاب فى العالم إلى جانبها مثل كوخ طينى.

وكنموذج: نأخذ بناء الخلية وهى من بين الأنظمة المعقدة فى العالم، والذى اكتشفت اليوم أسرار عظيمة منه.

وكذلك فإنّ الإنسان وبشكل معدل فى جسمه «عشرة ملايين مليار» وحدة حية صغيرة تسمى «الخلية».

كان أول من اكتشف الخلية ووضع لها تسمية، عالمٌ يدعى «هوك» فى القرن السابع عشر الميلادى، وطبعاً فإنّه لم يكن يعلم يومذاك ما فى بناء هذه الوحدة الصغيرة من تعقيد يبعث على الحيرة، ولكن العلماء الذين جاؤوا بعده واصلوا مساعيه وتوصلوا إلى أسرار نسرد فيما يلى جانباً من شهاداتهم:

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۲

۱- يمكن تشبيه خلية مجهرية واحدة بمدينة فيها آلاف التأسيسات مجهزة بمنشآت ومعامل لتبديل المواد الغذائية إلى المواد التى يحتاجها الجسم، بحيث لا يمكن أن نقيس أعظم وأحدث الظواهر الصناعية للبشر بها.

۲- تتكون هذه المدينة الصغيرة والصاخبة من ثلاثة أقسام:

أ) جدار الخلية وهو بمثابة سور المدينة.

ب) القسم الأوسط للخلية (السايتو بلازم).

ج) النواة أو مركز القيادة.

إنّ السور المصنوع حول الخلية من اللطافة والظرافة بحيث لو وضعنا ۵۰۰ ألف من هذه الجدران إلى جانب بعضها فمن الصعب أن تساوى سمك ورقة اعتيادية! ومع هذا فهو حساس ومحكم قبال هجوم العوامل الخارجية إلى درجة أن سور الصين المعروف ليس شيئاً يذكر بالقياس إليه!

وهذا السد الرقيق مصنوع بدوره من ثلاثة جدران أو من ثلاث طبقات اصطلاحاً، يتشكل طرفاه من الأنسجة البروتينية وأسفله ملىءٌ بالدهنيات وهذه الدهنيات لاتسمح لشىء أبداً بالدخول داخل المدينة إلّابمفتاح رمزى، وهذا المفتاح الرمزى هو: أنّ المواد التى تريد الدخول إلى المدينة يجب أن تتمكن من إذابة دهون الجدار فيها والنفوذ إلى الداخل، وهذا دليل يثبت أنّها صديقة وليست من الاعداء، وبهذا فإنّ هذه المدينة محروسة بشدة من كل جانب بدون حاجة إلى حارس.

۳- يوجد فى داخل هذه المدينة (الخلية) قنوات كثيرة تمتد من الجدران إلى أطراف «النواة»، أى حصن قيادة الخلية، تأخذ المواد الغذائية وتحيلها إلى بروتينات.

واللطيف أنّ ۲۳ نوعاً خاصاً من الأحماض تدخل هذه الخلية، والبروتين يتكون من تركيب عدة أنواع منها.

۴- النواة الأصلية بمفردِها تمثل ناطحة سحاب مكوّنة من آلاف الطبقات بحيث تكون ناطحات السحاب المعروفة فى نيويورك منزلًا متواضعاً إلى جانبها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۳

للنواة الأصلية فى الخلية وهى مقر القيادة تشكيلات معقدة: غشاء النواة، العصارة الداخلية، والحزمات الرفيعة حولها التى تتولى كل منها مهمّة خاصة.

۵- العجيب أنّ فى نواة الخلية وحدات صغيرة جدّاً وظريفة تسمى «الجينات» يصل عددها طبقاً لدراسات العلماء إلى حدود ۲۵ ألف جين.

ليست «الجينات» هى الكل فى الكل فى أعمال الخلايا وحسب، بل إنّها تمسك بكل نشاطات الجسم، ومن أهمها التحكم بالأُمور الوراثية ونقل الصفات والخصائص إلى الخلايا اللاحقة، أى أنّ انتقال كل الصفات الوراثية عند البشر وسائر الحيوانات يتمّ عن طريق الجينات.

ولأنّ العمل الأساسى للجين يقع على عاتق الحامض الخاص فى النواة، لذا يمكن تسميته بالعقل الألكترونى أو كامبيوتر الجين.

والأعجب من هذا، أنّ نفس هذه الجينات متكونة من أجزاء أخرى تصل طبقاتها من ۳۰ إلى ۵۰ ألف حسب ما يعتقد العلماء.

ومختصر الكلام أنّ هذه المدينة العظيمة بذلك السور العجيب وآلاف المنافذ والبوابات، وآلاف المعامل والمخازن وشبكة الأنابيب ومركز القيادة بتأسيساته الكثيرة وارتباطاته المتعددة والنشاطات الحياتية المتنوعة فى تلك الحدود الصغيرة، من أعقد وأدهش مدن العالم، إذ إنّنا لو أردنا أن نصنع مؤسسات تقوم بنفس الأعمال (ولا ـ نستطيع ذلك أبداً)، وجب علينا اقتطاع عشرات الآلاف من الهكتارات من الأرض لوضعها تحت اختيار هذه المؤسسات والأبنية المختلفة والأجهزة المعقدة لتكون جاهزة لمثل هذا البرنامج، لكن المدهش أنّ نظام الخلق قد ضغط كل هذا فى مساحة تعادل ۱۵ مليون مليمتر! «۱».

أجل، فى خلقة الإنسان آلاف آلاف من الآيات والعلامات الإلهيّة: «الْعَظَمَةُ لِلَّهِ الواحِدِ القَهَّارِ».

---

(۱) من كتب فسلجة الحيوان، فسلجة الوراثة، والسفر إلى أعماق وجود الإنسان.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۵

۲- آياته فى نمو الجنين

تمهيد:

ظلت تحولات نمو الجنين فى بطن أمه ولسنين طويلة خافية عن أعين العلماء، إلى أن رفعت يد العلم النقاب عن هذا العالم المملوء بالأسرار، وأظهرت أنّ النطفة عندما تستقر فى محلها من الرحم وتبدأ سيرها التكاملى، ماذا تطوى من المراحل المختلفة والمتنوعة حتى تصبح على هيئة إنسان كامل، والعجيب أن القرآن الكريم أكد عدة مرات على قضية نمو الجنين فى آياته المختلفة وفى ذلك العصر والزمان الذى لم تكن فيه علوم ولا اكتشافات، تارةً لإثبات التوحيد وتارة لإثبات المعاد.

مع إنّ «علم الأجنة» ما زال فى مراحله الأولى، ومعلوماتنا عن هذا العالم الغامض ما تزال قليلة جدّاً، ولكن حتى هذا المقدار الذى كشف العلم البشرى النقاب عنه، قد وضع دنيا من العجائب والغرائب مقابل أعين العلماء.

بهذه الإشارة نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

۱- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ». (المؤمنون/ ۱۲- ۱۴)

۲- «اَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنِيٍّ يُمَنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى . (القيامة/ ۳۷- ۳۹)

۳- «أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُّطْفَةٍ فَاذا هُوَ خَصِيْمٌ مُّبِيْنٌ». (يس/ ۷۷)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۶

۴- «قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا». (الكهف/ ۳۷)

۵- «هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أجلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ» «۱». (غافر/ ۶۷)

شرح المفردات:

«العلقة»: من مادة (عَلَق) (على وزن شفق) وهى فى الأصل بمعنى العلاقة والإرتباط بشىء، ولهذا جاءت كلمة «عَلَق» بمعنى «الدم المتخثر» و «الديدان المصاصة للدماء»، وقد سميت «العلقة» بهذا الاسم لأنّها احدى مراحل تكوين الجنين فى رحم الأم، فهى تشبه قطعة الدم المتخثرة «۲».

جاء فى «مقاييس اللغة» أنّ أصل مفهوم هذه المفردة هو ارتباط وتعلق شىء بموجود أعلى منه ثم اتسع مفهومها بعد ذلك «۳».

«المضغة»: من مادة (مَضْغ) بمعنى مضغ الطعام وبمعنى قطعة اللحم التى يمضغها الإنسان لمرة واحدة شرط أن تكون غير مطبوخة، وإطلاق هذا المصطلح على إحدى مراحل الجنين التى تأتى بعد مرحلة «العلقة» جاء من باب تشابهها مع مثل هذا اللحم، ففى ذلك الحين يصبح الجنين على شكل قطعة حمراء فيها الكثير من العروق ذات اللون الأخضر، ويقال أحياناً «قلب الإنسان مضغة من جسده»، كل هذه التعابير تعود إلى أصل واحد «۴».

---

(۱) توجد على هذا الصعيد آيات اخرى فى القرآن الكريم نكتفى بذكر رقمها وسورتها لتقارب معناها من الآيات المذكورة أعلاه، فاطر، ۱۱؛ والحج، ۵.

(۲) مفردات الراغب.

(۳) وفی کتب اللغة الأخری تعابیر تشبه هذا التعبیر کما فی لسان العرب ومجمع البحرین.

(۴) مقاییس اللغة؛ مفردات الراغب؛ مجمع البحرین؛ لسان العرب وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۷

«المنیّ»: فی الأصل من مادة (مَنی) (علی وزن سَعی) بمعنی التقدیر والقیاس، وبما أنّ فی ماء النطفة مقیاس إنسان أو حیوانٍ ما، فقد اطلقت هذه المفردة علیه، ولهذا أیضاً یسمی الموت ب «المنیّة» فهی الأجل المقدر للإنسان أو الحیوان.

وإطلاق مفردة «التمنّی» علی الآمال جاء بسبب أنّ الإنسان یُصوِّر ویُحدِّد آماله فی قلبه، ولأنّ الکثیر من الآمال لا تطابق الواقع تأتی مفردة «الأمنیة» أحیاناً بمعنی الکذب «۱».

جمع الآیات وتفسیرها

عالم الجنین الغامض:

کما اشرنا سابقاً فإنّ القرآن الکریم أکد مراراً علی مسألة المراحل التکاملیة لنمو الجنین فی رحم الأم، ودعا الناس کافة إلی مطالعتها بدقة، واعتبرها إحدی الطرق للوصول إلی معرفة اللَّه، وکذلک إحدیَ طرق إثبات إمکانیة المعاد.

إنّ الآیات الأولی المعنیة بالبحث وبقرینة العبارة الأخیرة منها: «فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِینَ» تشیر إلی قضیة التوحید، وبالرغم من أنّ الآیات اللاحقة من نفس سورة «المؤمنون» هذه تدلّ علی أنّها تشیر إلی قضیة المعاد أیضاً وبهذا تکون هذه الآیات قد تعرضت إلی مسألة معرفة اللَّه وتوحیده بالاضافة إلی معاد.

وقد تحدثت فی البدایة عن خلق الإنسان من «سُلالَةٍ مِّنْ طِینٍ» ثم من «نُطْفَةٍ فِی قَرارٍ مَکِینٍ»، وبعد ذکر هاتین المرحلتین تنتقل إلی ذکر خمس مراحل أخری

۱- مرحلة «العلقة» حیث تتبدل النطفة إلی دم متخثر فی داخله الکثیر من العروق.

۲- مرحلة «المضغة» حیث یصبح هذا الدم المتخثر علی شکل قطعة من اللحم.

۳- مرحلة «العظام» حیث تتبدل کل الخلایا اللحمیة إلی خلایا عظمیة.

۴- یأتی دور مرحلة تغطیة العظام باللحم حیث تغطی العضلات کل العظام: «کَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً».

---

(۱) مفردات الراغب، مجمع البحرین، ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۸

۵- هنا تتغیر لهجة القرآن وتخبرنا عن تحول وخلق مهم وجدید للجنین، فیقول بتعبیر فیه أسرار وخفایا: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ».

وعندما تنتهی هذه المراحل السبع یصف القرآن هذه الخلقة العجیبة أجمل وصف بعبارة: «فَتَبارَکَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِینَ»، وهی عبارة لم تأتِ فی أی آیة أخری من القرآن ولم تستخدم فی مجال أی موجود آخر.

ذکر المفسرون تفاسیر متنوعة فی المراد من العبارة الغامضة: «الخلق الآخر».

ویبدو أن أنسبها وأقربها إلی القصد هو بلوغ الجنین مرحلة الحیاة الإنسانیة، حیث یظهر فیه الحس ویبدأ بالحرکة، ویضع قدماً فی عالم الحیوانات والبشر، یعبر القرآن عن هذه الطفرة الکبیرة والعجیبة بکلمة «الإنشاء» فی إشارة إلی الطریق الطویل الذی یقطعه الإنسان خلال هذه المدة القصیرة.

نقرأ فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير عبارة: «ثُمَّ أَنْشَأناهُ خَلْقاً آخَرَ» قوله: «هو نفخ الروح فيه» «۱».

صحيح أنّ الجنين كائن حى منذ لحظاته الأولى ولكنه وحتى فترة معينة لا يمتلك أى إحساس وحركة فى بطن الأم، ويكون فى الحقيقة أشبه بالنبات منه بالحيوان أو الإنسان، ولكن بعد مضى عدّة أشهر تُبعثُ فيه الروح الإنسانية، ومن هنا جاء فى الروايات الإسلامية أنّ الجنين لا يستحق قبل بلوغه هذه المرحلة الدية الكاملة أبداً، أمّا إذا بلغ هذه المرحلة كانت ديته نفس الدية الكاملة للإنسان «۲».

التعبير ب «أَحسن الخالقين» بالرغم من أنّه لا خالق غير اللَّه إنّما هو لأجل أنّ مفردة «الخلق» ليست فقط بمعنى الإيجاد بعد العدم فحسب، بل لها معان أخرى منها: «التقدير» و «الصناعة» و «إعطاء الأشكال الجديدة للأشياء الموجودة فى العالم»، ولا شك أنّ الإنسان يستطيع بما منحه اللَّه من قوى أن يوجد تغييرات كثيرة على مواد هذا العالم

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۴۱، ح ۵۶ و ۵۷.

(۲) المصدر السابق، ج ۲، ص ۵۴۱، ح ۵۶ و ۵۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۵۹

المختلفة، فيصنع من الحديد والفولاذ المصانع والمعامل أو يبنى من المواد الإنشائية بناءً عظيماً بأحجام مختلفة.

إذن فللخلق مفهوم واسع يشمل كل هذه الأمور.

ولهذا وَرَد فى القرآن الكريم عن لسان النبى عيسى عليه السلام قوله: «إِنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۴۹)

وبالطبع فإنّ الخالق الحقيقى أى ذلك الذى يوجد المادة والصورة وإليه تعود كل قدرات وخواص الأشياء هو اللَّه فقط، ومهمّة غيره من الخالقين وهم الخالقون المجازيون، هى تغيير الأشكال وتصميم المواد.

تشير الآية الثانية من الآيات المنظورة إلى مرحلة بداية ظهور الإنسان أولًا، أى عندما كان قطرة ماء حقير اسمه المنى، ثم تذكر مرحلة العلقة فقط من بين مراحل نمو الجنين ولا تذكر المراحل الأخرى إلّاتحت عنوان: «فَخَلَقَ فَسَوّى وهو تعبير شامل جدّاً، وتشدِّد خاصة على قضية ولادة الجنس «المذكر» و «المؤنث» وهى من أعقد المظاهر المتعلقة بعلم الأجنة: «فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والْأُنْثى .

«سوَّى»: من مادة (تسوية) بمعنى التنظيم والتسوية، ويعتقد البعض أنّها إشارة إلى خلق الروح الذى جاء فى الآية السابقة بشكل آخر.

ويرى البعض أنَّ كلمة «الخلق» إشارة إلى خلق الروح، وكلمة «سوّى إشارة إلى تنظيم وتعديل أعضاء الجسم الإنسانى، وفسّرها البعض بالتعديل والتكميل.

لكن الظاهر أنّ تعبيرات الآية شاملة وواسعة بحيث تستوعب كل ألوان الخلق والتنظيم والتعديل والتكامل التى تطرأ على العلقة حتى ساعة وضع الحمل «۱».

يقول الراغب فى كتاب المفردات: تقال «التسوية» لصيانة الشىء من الأفراط والتفريط من حيث المقدار والنوعية.

---

(۱) تفاسير القرطبى، روح المعانى، فى ظلال القرآن، الميزان و الكبير، فى التعقيب على الآية المعنية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۰

فى الآية الثالثة يؤكد على نقطة جديدة أخرى ويقول بعد الإشارة إلى خلق الإنسان من النطفة «خصيم مُبين».

وقد وردت تفاسير متعددة لهذا التعبير: فقالوا تارة إنّها إشارة إلى مرحلتى «الضعف» و «القوة» لدى الإنسان، حيث كان يوماً ما نطفة حقيرة ويصبح لاحقاً قوياً ومقتدراً إلى درجة قيامه بالخصومة والضجيج ازاء كل شخص حتى ازاء اللَّه!.

وقالوا تارة إنّها إشارة إلى ملكة النطق والفهم والشعور لدى الإنسان، فهذه النطفة الحقيرة يصل بها الأمر إلى عدم الاقتصار على النطق فقط، بل إلى التمتع بالقدرة على الاستدلال المنطقى بانواعه والاقتدار العقلى، ونحن نعلم أنّ ظاهرة النطق والبيان والمنطق والاستدلال من أهم ظواهر الوجود الإنسانى.

وقيل أحياناً: إنّ هذا التعبير إشارة إلى النزاع العجيب الذى يحصل بين الخلايا الذكرية (الحيامن) من أجل التسلط والاتحاد بالخلية الانثوية (البيضة)، لأنّ نطفة الذكر عندما تدخل الرحم تتحرك آلاف الحيامن بسرعة كبيرة لتصل إلى نطفة الأنثى وتتحد معها.

وأول حيمن يصل إليها وينفذ إلى داخلها يسد الطريق على بقية الحيامن، لأنّ غشاءً مقاوماً سيحيط بالبيضة ويمنع من نفوذ بقية الحيامن إليها، وبهذا فإنّ البقية سيهزمون فى هذا الصراع العجيب ويمتصهم الدم، ولهذا يشير القرآن الكريم بعد ذكر مرحلة النطفة إلى قضية «خصيم مُبين» «۱»

.

فى الآية الرابعة أيضا يرد ذكر الخلقة من التراب ثم النطفة وبعد ذلك مرحلة التسوية والتنظيم، وفى الآية الخامسة وهى آخر الآيات يضيف القرآن إلى كل هذا مرحلة «الولادة» وخروج الجنين من بطن الأم على شكل طفل وليد: «ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا».

وكما نعرف فإنّ أهم عجائب الجنين هى نهاية عمره، بالولادة، أية عوامل تؤدّى إلى

---

(۱) إعجاز قرآن از نظر علوم روز، ص ۲۷ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۱

إصدار الأوامر للجنين بالخروج فى لحظة معينة! وتقلبه عن شكله العادى (فى الحالة العادية يكون رأس الجنين إلى الأعلى ووجهه إلى ظهر الأم) فترسل رأسه إلى الأسفل لتسهيل عملية ولادته؟!.

فى البداية يُخرق كيس الماء الذى كان الجنين يسبح فيه، وتخرج المياه ويستعد الجنين لدخول الدنيا لوحده.

يصيب الأم ألم شديد، تضغط كل عضلات بطنها وظهرها وجانبيها على الجنين، وتدفعه إلى الخارج.

إنّ التفاعلات الكيميائية والتغييرات الفيزيائية التى تحصل للجسم أثناء الولادة على درجة من الغرابة والعجب بحيث تحكى جميعها عن علم وقدرة غير متناهيين أوجدا هذه البرامج لمثل هذا الهدف المهم.

وبهذا نستنتج بوضوح من الآيات المذكورة أنّ النظام المعقد والمذهل لنمو الجنين يُعَدُّ من الآيات والعلامات المهمّة التى تخبر عن وجود العلم والقدرة اللامتناهية لموجده، ومن جانب آخر على قدرته على قضية المعاد والحياة بعد الموت، ذلك أنّ الجنين يتخذ كل حين حياةً ومعاداً جديداً، ولذلك كان هذا النمو دليلًا على التوحيد بقدر ما هو دليل على المعاد.

توضيحات

۱- صورة فى الماء

هنالك مثل رائج ومشهور عندما يراد التذكير بعدم ثبات شىء معين فيقولون: «إنّه كالصورة فى الماء» لأنّها تتبعثر بأقل حركة أو نسيم، لكن العجيب أنّ اللَّه الكبير يجعل كل الصور المختلفة للإنسان وللكثير من الأحياء الأُخرى صوراً فى الماء ويودع كل هذه الصور فى قطرة من ماء النطفة، من يرسم الصور فى الماء سوى اللَّه الكبير؟

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۲

۲- فی ظلمات ثلاث

والأـغرب من ذلـک حسب قول القرآن، هو أنّ هـذه الخِلَقِ التی یوجـدها اللَّه واحـدة تلو الأـخری فی مـاء النطفـة لیخرجها خلال فترة قصـیرة علی هیئـة إنسـان کامـل یقوم بهـا عز وجل جمیعاً فی محل مظلم لا تصل إلیه یَـدُ أحـد، کما یقول القرآن: «یَخْلُقُکُمْ فِی بُطُوْنِ امَّهَاتِکُمْ خَلْقاً مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِی ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ ذَلِکُمُ اللَّهُ رَبُّکُم لَهُ الْمُلْکُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّی تُصْرَفُوْنَ». (الزمر/ ۶)

إنّ الظلمات الثلاث کما یری الکثیر من المفسرین وکما أشارت بعض الروایات هی:

ظلمة بطن الأم، ثم ظلمة الرحم، وبعد ذلک ظلمة «المشـیمة» (الکیس الخاص الذی یحتوی الجنین) التی تکون علی شکل ثلاث ستائر سمیکة حول الجنین «۱».

یحتاج الرسامون والنحاتون المهرة أن ینفـذوا صورهم أمام النور والضـیاء الکامل، لکن ذلک الخالق الکبیر یرسم صورة علی الماء فی ذلک المنزل المظلم بحیث یفتن ویبهر الجمیع ویجذبهم للمشاهدة.

۳- مقر الأمن والامان

۳- مقر الأمن والامان

یقول القرآن بصراحة: إننا جعلنا نطفة الإنسان فی مقر الأمن والأمان: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِی قَرارٍ مَکْینٍ». (المؤمنون/ ۱۳)

والحقیقـة إنّ أکثر نقاط الجسم صوناً هی تلک التی تسـتقر فیها النطفة والجنین بحیث تکون محمیة من کل جانب، فمن ناحیة هنالک العمود الفقری والأضلاع، ومن ناحیة أخری هنالک العظم القوی المسمی بالحوض، ومن ناحیة ثالثة الأغطیة والعضلات المتعددة التی تحتویها البطن، بالإضافة إلی أن أیدی الأم تتحول بشکل لا شعوری أثناء وقوع بعض الحوادث الخطیرة إلی درع مقابل البطن!

---

(۱) تفسیر مجمع البیان؛ تفسیر المیزان؛ التفسیر الکبیر وتفاسیر أخری (روی المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان نفس هذا المعنی ضمن حدیث عن الإمام الباقر علیه السلام).

والأـغرب من کل هـذا أنّ الجنین یقع فی داخل کیس مملوء بماء لزج بحیث یکون معلقاً فی داخل ذلک الکیس وفی حالـة تامـة من فقـدان الوزن، أی لاـ یواجِهُ أی ضـغط من أی جانب، ذلک أنّ بنیـة الجنین وخاصـة فی بـدایاته تکون رقیقـة جـدّاً بحیث یمکن لأقلّ ضغط علیه أن یسحقه.

ولهذا الکیس بما یحتویه من ماء خاصیة القابلیة علی مواجهة الضربات، وهو تماماً کاللوالب المرنة التی توضع لأفضل السیارات، حیث بامکانها امتصاص وابطال مفعول أیة ضربة توجه إلیه نتیجة الحرکات السریعة للأم.

والألطف أنّه یحفظ درجة الحرارة بالنسـبة للجنین ضـمن الحدود المعتدلة، ولا یسـمح للحرارة والبرودة المفاجئة التی تهاجم بطن الأم من الخارج أن تترک آثارها بسهولة علی الجنین!

فهل یمکن العثور علی مقر أکثر أماناً من هذا؟ وما أجمل تعبیر القرآن حین یسمی مقر النطفة ب «القَرار المکین»؟!

۴- خصیمٌ مبین

هذه أیضاً إحدی عجائب الجنین، سواء فسـرناها بمعنی قدرة الإنسان علی الکلام والاستدلال والاحتجاج، کما قال بعض المفسرین، أو فسـرناها کونها المسابقة والنزاع الذی یحصل بین الحیامن أثناء الحرکة باتجاه البویضة (نطفة الأنثی فی رحم الأم، والذی ینتهی بنجاح أحـد الحیامن فی اتحاده بالبویضـة، أمّا بقیـة الـذین انهزموا فی هـذه الخصومة فانّهم یفنون ویجذبهم الدم، أو اعتبرناها إشارة إلی کلا

التفسيرين.

وعلى كل حال، فهذه من النقاط الظريفة والبديعة للجنين، إذ يظهر من موجود منحط وحقير ظاهرياً إلى ظاهرة سامية وقيّمة جدّاً.

۵- تغذية الجنين

تغذية الجنين بدورها إحدى العجائب، لأنّ النمو والرشد السريع للجنين يستلزم مواداً

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۴

غذائية كاملة ونظيفة ومصفّاة من ناحية، ومن ناحية أخرى يحتاج إلى الأُوكسجين والماء بالمقدار الكافى الذى يجب أن يصل الجنين بشكل مستمر، وقد جعل اللّه هذه المهمّة على عاتق جهاز اسمه «الحبل السرى» الذى خلقه منذ اللحظات الأولى إلى جانب الجنين، والذى يرتبط من أحد طرفيه بقلب الأم عن طريق شريانين ووريد واحد، ومن طرفه الآخر بالجنين عن طريق عقدة السُرّة.

يمتص هذا الجهاز كل المواد الغذائية والماء والاوكسجين اللازم بواسطة نظام الدورة الدموية للأم، ثم ينقل هذه المواد بعد تصفيتها ثانيةً إلى الجنين، ثم يقوم باستقطاب الفضلات والزوائد والكاربونات وما شاكل ويعيدها إلى دم الأم.

إذن فالحبل السرى يلعب دور الجذب والدفع بالإضافة إلى كونه مصفىً بحيث يستطيع الإنسان من خلال مجرّد مطالعته للبناء المذهل لهذا الحبل السرى أن يصل إلى عظمة الخالق.

اللطيف أنّه ورد حديث عن أحد المعصومين عليهم السلام يقول فيه ما معناه: إنّ الجنين يستفيد من النسيم الذى تستنشقه الأم!

لم تمض سوى سنوات على اكتشاف العلماء بأنّ رئتى الجنين لا تقومان بنشاطهما التنفسى وأنّه يسبح فى ماء الرحم وأنّه بحاجة إلى الأُوكسجين؟ ولم تمض سوى سنوات على معرفتهم أنّ الاوكسيجين الذى تستنشقه الأُم يدخل إلى دمها وينتقل إلى الحبل السرى فينتفع منه الجنين عن طريق سُرّته؟

على أيّة حال، لم يمض زمن طويل على ذلك لكن العين البصيرة للإمام عليه السلام رأت هذه الحقيقة منذ مئات السنين فقال: إنّ الجنين يستفيد من هذا النسيم، هل هناك تعبير مقابل الهواء الملوّث الذى نتنفسه أفضل من كلمة النسيم الذى استخدمه الإمام للاشارة إلى الأُوكسيجين؟ «۱»

---

(۱) إقتبس من كتاب اولين دانشكاه، ج ۱، ص ۲۵۳ (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۵

۶- مصير الجنين من حيث الجنس

لم يتمكن أحد من الإجابة عن السؤال القائل: كيف وبتأثير أيّة عوامل يصير الجنين ذكراً أو أُنثى أى أنّ العلم لم يعثر لحد الآن على جواب له، فمن الجائز أن تكون بعض المواد الغذائية أو الأدوية مؤثرة فى هذا المجال، لكن المسلم بهِ هو أن تأثيرها ليس مصيرياً وجازماً.

ومع هذا فالعجيب مشاهدة تعادل نسبى دائم بين هذين الجنسين (الرجل والمرأة) فى المجتمعات البشرية، وإن كان ثمّة اختلاف فانّه ليس بالاختلاف الملفت للنظر.

تصوروا يوماً يختلُّ فيه هذا التعادل فتكون نسبة الرجال إلى النساء عشرة إلى واحد مثلًا، أو على العكس يكون عدد النساء عشرة أضعاف الرجال، أيّة مفاسد عظيمة سوف تظهر؟ وكيف سيضطرب نظام المجتمعات البشرية؟ وهل أنّ المجتمع الذى يكون فيه مقابل كل رجل عشر نساء أو مقابل كل إمرأة عشرة رجال يستطيع أن يوفر لنفسه حياة هادئة؟

لكن الـذى خلق الإنسان لحياة سالمـة، أَوجد هذا التوازن العجيب والغامض فيها، أجل إنّ اللّه تعالى ووفقاً لمشـيئته وحكمته يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء إناثاً: «يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَآءُ الذُّكُورَ». (الشورى ۴۹)

لكن هذه المشيئة والإرادة محسوبة.

۷- تغيّرات سريعة ومبهمة

من العجـائب الأُخرى فى الجنين، أنّ النطفـة الأصـلية للإنسـان تكـون فى بـدايتها مجرّد موجود أُحـادى الخليـة، ينمو ويكـثر بواسـطة الانشطار على شكل متوالية هندسية، تحدث هذه الكثرة وهذه التحولات بصورة سريعة جدّاً وكما قال القرآن: «خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ» ولو استمر هذا النمو على هذه السرعة بعد الولادة لكانت للإنسان خلال مدّة قصيرة قامة بطول الجبال! ولضاق به وجه الأرض، ولكن نفس الذى منح الجنين السرعة فى سيرهِ التكاملى سوف يخفف منها عند وصول الإنسان إلى مرحلة معينة ثم يوقفها بالتدريج!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۶

۸- نظرة الرحم المستقبلية!!

ما هى العوامل التى تجعل من الخلايا الناتجة عن خلية واحدة تأخذ أنواعاً متباينة:

خلايا غضـروفية، عظمية، عضلية، جلدية، وغيرها؟ هل هو الرحم الذى قدّر مستقبل هذا الموجود فمنح الخلايا أشكالها كلّاً فى محلها؟ إن كان له مثل هذا الذهن والقدرة والابداع فمن وهبه هذا الذهن والقدرة والإبداع؟!

يقول العـالم المعروف «الكسـيس كارايـل» فى كتـاب «الإنسـان ذلـك المجهول»: «كأنَّ كل جزء من الجسم على معرفـة بالاحتياجات الحاليـة والمسـتقبلية لكل الجسم، وهو يغير نفسه وفقاً لهذه الإحتياجات، للزمان والمكان مفاهيم أخرى عند الأنسـجة، لأنّها (الأنسـجة) تـدرك جيداً البعيد كإدراكها للقريب والمسـتقبل كإدراكها للحال، فمثلًا تصـبح الأنسـجة اللينة للأعضاء الجنسـية للمرأة فى نهاية فترة الحمـل ألين وأكثر قـدرة على الاتساع، وهـذا التغيّر يُسـهّل عبور الجنين فى الأيام اللاحقـة عنـد الولادة، وفى نفس الوقت تزداد خلايا الثدى ويكبر هذا العضو بل إنّه يمارس نشاطه وينتج اللبن استعداداً لتغذية الوليد حتى قبل الولادة..

إنّ وضع وسـلوك العضـلات على طول فترة نمو الجنين فى رحم الام، يكون وكأنّها تعلم المستقبل مسبقاً، فيُراعى انسجام الأعضاء فى لحظتين زمنيتين متفاوتتين أو فى نقطتين مكانيتين مختلفتين» «۱».

مهما سمينا هذا الموضوع فانّه لن يتغير، لكنه على أيّة حال يخبر بوضوح عن وجود مبدأ كبير للعلم والقدرة فيما وراءَه.

۹- كساء للعظام

قرأنا فى تفسـير الآية ۱۴ من سورة المؤمنون أنّ للقرآن تعبيراً خاصـاً عن قضـية ظهور العضـلات يقول فيه: «فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً»، إنّ اختيار كلمة: «كَسَوْنَا» إحدى معجزات القرآن العلمية، فقد ثبت اليوم أنّ العظام تظهر قبل الأنسجة اللحمية «۲».

---

(۱) الإنسان ذلك المجهول، ص ۱۹۰.

(۲) إعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، ص ۲۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۷

۱۰- خروج الجنين

كما قرأنا فى تفسير الآية ۵ من سورة الحج، فإنّ اللّه ينسب إخراج الجنين من الرحم إلى نفسه: «ثُمَّ نُخْرِجُكَمْ طِفْلًا» إنّ هذا التعبير يكشف عن أهميّة عملية الولادة التى توصل إليها العلماء فى عصرنا الحاضر.

ما هو العامل الذى ينظم زمان الولادة؟ وما هى الظروف اللازمة لإصدار الأوامر للجنين بالخروج؟ وكيف تُعَدُّ جميعُ أعضاء الجسم لهذا التحوّل المهم؟ وضمن أيّة عوامل ينقلب جسم الجنين تدريجياً ليخرج رأسهُ إلى الدنيا أولًا؟ هل تراه يعلم أنّ ولادته ابتداءً برجليه غير ممكنة أو أنّها مستعصية جدّاً؟ مَن يصدر الأوامر لكل عضلات جسم الأم بتسليط أشد الضغوط على الجنين من أجل الخروج؟

وتظهر أهميّة هذا الموضوع عندما يختل هذا النظام نادراً ويضطر الأطباء إلى عملية «فتح البطن» «الولادة القيصرية»، وربّما كان وجود مثل هؤلاء الأشخاص القلة، إنذاراً للجميع لكى يفكروا بأهميّة هذا الموضوع.

بالطبع يمكن فى بعض الحالات التنبؤ بزمان الولادة على وجه التقريب، ولكن فى بعض الحالات تحصل الولادة قبل الموعد وأحياناً بعده.

وهكذا فإنّ عملية الولادة بكل ما يتعلق بها من أمور محسوبة، إنّ هى إلّاآية أخرى من آياته تبارك وتعالى.

۱۱- التغيّرات المذهلة فى لحظة الولادة

ذكرنا أنّ أحداً لا يستطيع تعيين لحظة الولادة بصورة دقيقة، وما يتنبأ به الأطباء عموماً أو خصوصاً لإخبار الناس فإنّه ذو طابع تخمينى فقط، كما تقول الآية:

«اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ» «۱»

. (الرعد/ ۸)

---

(۱) «تغيض» من مادة «غيض» على وزن فيض بمعنى امتصاص السائل أو احتوائه، ثم جاءت بمعنى النقصان وكذلك بمعنى الفساد، ولهذا فسر البعض كلمة تغيض فى الآية أعلاه بمعنى نقصان الجنين والبعض بمعنى الولادة قبل الموعد وهو المعنى المشهور بين المفسرين، وهو المروى فى حديث عن الإمام الباقر أو الإمام الصادق عليهما السلام، كما أنّ ذيل الآية يدل على ذلك.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۸

ظاهر الآية أنّ هذا من العلوم الإلهيّة الخاصة، وهو العلم بخصائص الجنين من كل الجوانب قبل ولادته، فهو عزوجل لا يعلم بالجنين من حيث جنسه فقط وإنّما يعلم بكل قابلياته وأذواقه وصفاته الظاهرة والباطنة، كما أنّ لحظة ولادته لا يعلمها إلّااللّه، ومن أجل أن لا نتصور أنّ الزيادة والنقصان تأتيان بدون حساب أو مبرر، بل إنّ ساعتها وثانيتها ولحظتها محسوبة جميعاً، فقد أضاف قائلًا: «وكُلُّ شَىءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ».

المثير هو ظهور تغيّرات عجيبة على نظام حياة الوليد فى لحظة ولادته وهى تغيرات ضرورية جدّاً لتكييفه مع المحيط الجديد، وسوف نشير إلى اثنتين منها فقط:

أ) تغيّر نظام دوران الدم، فعملية دوران الدم فى الجنين دوران بسيط، لأنّه لا يتحرك الدم الملوّث نحو الرئتين من أجل التصفية، إذ لا تنفس هناك، ولهذا كان إثنان من أجزاء قلبه (البطين الأيمن والأيسر) الذى يتحمل أحدهما مسؤولية إيصال الدم إلى الأعضاء والثانى يتحمل مسؤولية إيصال الدم إلى الرئتين للتصفية، على اتصال مع بعضهما، ولكن بمجرّد أن يولد الجنين تُغلق البوابة بينهما وينقسم الدم إلى قسمين، قسم يُرسل إلى كل خلايا الجسم لتغذيتها والقسم الآخر إلى الرئتين لتصفيته.

أجل، ما دام الجنين فى بطن الأُم فإنّه يحصل على ما يحتاج من الأوكسجين من دم الام، لكن عليه أن يكتفى ذاتياً بعد الولادة ويحصل على الاوكسجين بواسطة الرئة والتنفس، الرئة التى كانت قد خُلِقتْ وأُعدّت مسبقاً بشكل تام فى رحم الأم، سوف تمارس

عملها فجأة بأمر إلهى واحد، وهذا من العجائب حقاً.

ب) إنسداد عقدة السُرّة وجفافها وسقوطها (عادةً ما يقطعون عقدة السرة التى تعتبر طريق تغذية الجنين بواسطة الحبل السرى من دم الأم، ولكن حتى لو لم يقطعوها فإنّها تتيبس وتسقط تدريجياً).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۶۹

أى كما أنّ طريق الحصول على الاوكسجين يتغير عند الولادة، فإنّ طريق التغذية يتغير أيضاً وبشكل مفاجىء، ويبدأ الفم والمعدة والأمعاء التى اكتملت فى الفترة الجنينية ولكنها لم تكن تعمل، فتبدأ بالعمل فجأة، وهذه واحدة أخرى من العجائب المهمّة فى خلقة الإنسان.

۱۲- بكاء الأطفال

غالباً ما يكثر الأطفال الرضّع من البكاء، من الممكن أن يكون هذا البكاء دلالة على آلامهم، فهم لا يمتلكون لساناً غير لسان البكاء للافصاح عن الألم، أو أنّه بسبب الجوع والعطش، أو بسبب الانزعاج إزاء ظروف الحياة الجديدة سواء كانت حراً أو برداً أو ضوءً شديداً أو ما شابه، لكن من الممكن أن يبكى الأطفال بدون هذه الظروف أيضاً، وهذا البكاء رمز حياتهم وبقائها.

فهم فى ذلك الحين بحاجة شديدة إلى الرياضة والحركة والحال أن ليس بامكانهم الرياضة، الرياضة الوحيدة القادرة على تحريك كل وجودهم بما فيه الأيدى والأرجل والقفص الصدرى والبطن وإدارة الدم بسرعة فى كل العروق لتغذية كافة الخلايا بصورة متواصلة، هى «رياضة البكاء» التى تعتبر بالنسبة للطفل رياضة كاملة، ومن هنا إذا لم يبكِ الوليد فيُحتمل أن يتعرض لأضرار جمّة أو تتعرض حياته كلها إلى الخطر.

وفضلًا عن هذا فإنّ هنالك رطوبة عالية فى مخ الأطفال إذا بقيت هناك يمكن أن تؤدّى إلى أمراض وأوجاع شديدة، أو تسبب العمى والبكاء يعمل على خروج الرطوبة الزائدة من أعينهم على شكل دموع، فيضمن ذلك صحتهم.

يقول الإمام الصادق عليه السلام فى حديثه المعروف ب «توحيد المفضل» بعد الإشارة إلى هذا الأمر: «أفليس قد جاز أن يكون الطفل ينتفع بالبكاء ووالداه لا يعرفان ذلك فهما دائبان ليسكتاه ويتوخّيان فى الأُمور مرضاته لئلا يبكى، وهما لا يعلمان أنَّ البكاء أصلح له وأجمل عاقبةً ...» «۱»

.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۶۵ و ۶۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۰

وفى نفس الرواية، يشير الإمام عليه السلام إلى جريان الماء من أفواه الأطفال الذى يكمّل مهمّة دموع أعين الأطفال، ويقول: «فجعل اللَّه تلك الرطوبة تسيل من أفواههم فى صغرهم لما لهم فى ذلك من الصحة فى كبرهم» «۱»

.

۱۳- اليقظة التدريجية للعقل والحواس عند الأطفال

لو كان للطفل عقل منذ البداية فلا شك أنّه كان يتألم بشدة، لأنّه سوف يشعر آنذاك بالضعف والمذلة، فهو لا يستطيع المشى ولا الأكل ولا القيام بأبسط الحركات، يجب أن يلفّوه بقماش ويضعوه فى المهد ويغطوه بغطاء ويشطّفوه ويحفظوه.

يقول الإمام الصادق عليه السلام ضمن الإشارة إلى هذا الموضوع فى حديثه المسمى ب «توحيد المفضل»: «فإنّه لو كان يولد تام

العقل مستقلًا بنفسه لذهب موضع حلاوة تربية الأولاد، وما قدر أن يكون للوالدين فى الأشتغال بالولد من المصلحة ...» «۲»

.

بالإضافة إلى أنّ الانتقال إلى عالم جديد بكل شىء ومجهول كان سيسبب له من الوحشة والاضطراب ما قد يضر بفكره وأعصابه، لكن تلك القدرة الأزلية التى خلقت الإنسان للتكامل قدّرت فيه كل هذه الأصول.

كذلك لو كانت حواسه متكاملة، وفتح عينيه فجأة وشاهد مشاهد جديدة واستمعت أذنه إلى الأصوات والأنغام الجديدة، لما كان فى وسعه تحملها، فكان التدريج فى تلقى برامج الحياة الجديدة هو الاسلوب الأمثل.

الملفت للنظر أن القرآن الكريم يقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُوْنَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ». (النحل/ ۷۸) وفقاً لهذه الآية فإنّ الإنسان لا يمتلك أى علم فى البداية ولا يتمتع حتى بالسمع والبصر،

---

(۱) بحار الانوار، ج ۳، ص ۶۵ و ۶۶.

(۲) المصدر السابق، ص ۶۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۱

ثم وهبه اللّه القدرة على السماع والنظر والتفكير، ربّما كان ذكر السمع قبل ذكر الأبصار إشارة إلى أنّ النشاط السمعى عند الوليد يبدأ أولًا، وبعد فترة تكتسب الأعين قدرتها على الابصار، بل إنّ البعض يعتقد وكما أسلفنا أنّ للأذن فى عالم الجنين مقداراً من القابلية على السماع، فهى تسمع أنغام قلب الأم وتعتاد عليها.

۱۴- غذاء الطفل مُعدٌّ قبل ولادته

لا يستطيع وليد الإنسان والكثير من الحيوانات فى بداية ولادته أن يأكل الأطعمة الجافة والثقيلة، ولهذا فقد هيّأت يد الخالق المقتدرة غذاءً خاصاً فى ثدى الأم إسمه «اللبن»، والحقيقة أن نفس دماء جسم الأم التى كان الطفل ينتفع منها فى الفترة الجنينية تتحول إلى لبن ضمن عملية تغيّر واسعة وسريعة، فتغذّيه حتى الفترة اللازمة.

يتغير شكل ثدى الأم بصورة تدريجية خلال فترة الحمل، ويكبر شيئاً فشيئاً نتيجة الافرازات التى يقذف بها الحبل السرى إلى دم الأم ليأمرها بالاستعداد الكامل، وهكذا يُهيء الثدى نفسه لوظيفتِهِ المستقبلية الثقيلة.

إنّ الأنابيب الموجودة فى الثدى والممتدة حتى قمة الثدى (الحلمة)، تتشعب وتزداد وتفرز إفرازات بسيطة، وعند ولادة الطفل تعلن عن استعدادها التام.

العجيب أن ترشح اللبن من خلايا الثدى ليس دائمياً وإلّا لخرج اللبن بصورة متواصلة إلى الخارج، بل إنّه بمجرّد ملامسة شفتى الوليد لثدى الأم وبدئه بالامتصاص تتجه الحوافز العصبية عن طريق الأعصاب إلى النخاع ومن النخاع إلى الهايبوثالموس فتؤدّى إلى نوعين من الافراز، يصب أحدهما فى الأثداء عن طريق الدم فيضغط على الأنسجة المحيطة بأنابيب اللبن ليندفع اللبن باتجاه الحلمة، وتتمّ كل هذه الأعمال خلال ۳۰ ثانية، والأعجب أنّ اللبن لا يتحرك فى ذلك الثدى الذى يرضع منهُ الطفل فقط، بل ويحدث هذا فى الثدى الآخر أيضاً فيكون مستعداً، ولذا يُؤكد الأطباء على إرضاع الوليد من كلا الثديين.

اللبن غذاء كامل، وخاصة لبن الأم الذى يعتبر غذاءً أكمل بالنسبة لوليدها ولا يستطيع شىء فى العالم أن يحل محله.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۲

يحتوى الحليب على أنواع الفيتامينات كفيتامين A، B، D، P وفيتامينات أخرى وقد اكتشف فيه العلماء ۲۲ مادة مختلفة، علاوة على أنواع الأنزيمات «۱»، والكثير من الأدوية الضرورية تنتقل عن طريق لبن الأم إلى وليدها، ومن هنا فإنّ الأطفال المحرومين من لبن الأم

يصابون بمختلف الأعراض.

يبدو أنّ لبن الأم لا يغذى جسم الطفل فحسب، بل إنّه يروى عواطفه وروحه أيضاً، ولهذا قد يصاب المحرومون من لبن الأم بمشاكل ونواقص عاطفية بعض الأحيان.

وعلى هذا الأساس يقول القرآن الكريم: «وَالْوَالِداتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ». (البقرة/ ۲۳۳) إنّ عجائب وغرائب اللبن أكثر من أن يحتويها هذا المختصر، وإذا أردنا أن نترك العنان للقلم لمثل هذه الأبحاث نكون قد خرجنا عن بحثنا التفسيرى.

---

(۱) من أجل مزيد من الاطلاع تراجع دائرة معارف القرن العشرين، مادة (لبن)، والجامعة الأولى (اولين دانشگاه)، ج ۶، وإعجاز القرآن من وجهة نظر العلوم المعاصرة، وقد وردت إشارات مثيرة حول هذا المعنى فى حديث توحيد المفضل (بحار الأنوار، ج ۳، ص ۶۲).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۳

۳- آياته فى عالم الحياة

تمهيد:

إنّ ظاهرة الحياة هى أعقد ظواهر هذا العالم حسب ما نعلم، ظاهرة حيّرت عقول كل العلماء، وقد مضت آلاف السنين والعلماء يفكرون فيها، لكن هذا اللغز لم يُحلّ لحد الآن.

ما هو السبب الذى أدّى إلى أن تضع الموجودات الجامدة وبطفرة عجيبة، أقدامها فى مرتبة الحياة والعيش فتكون لها تغذية ونمو وتناسل؟! من الممكن أن يصنع الإنسان جهازاً بالغ التعقيد (كالعقول الالكترونية المتطورة جدّاً) بعد قرون من التجارب، وهذا بدوره شاهد على سعة اطلاع ومعرفة من صنعوه، ولكن هذا الجهاز الدقيق والمعقد للغاية لا ينمو أبداً، ولا يداوى أو يرمم كسوره وعيوبه، ولا يتناسل بصورة مبدأيةٍ مطلقاً.

أمّا الكائنات الحيّة، فإنّها فضلًا عن بنائها الدقيق والمعقد والمذهل إلى أقصى الحدود، فانّها تستطيع القيام بهذه الأعمال وأعمال أخرى كثيرة، والقليل من المطالعة حول وضعها يشكل آية واضحة ودليلًا بيّناً على العلم والقدرة اللامتناهية لخالقها.

يُكثر القرآن من الاستناد إلى موضوع الحياة والموت فى آياته المختلفة ضمن قضية إثبات وجود الله، ونفى الشرك بانواعه، ويؤكد عليه كثيراً، والحق أنّه كذلك.

بعد هذه الإشارة نقرأ خاشعين الآيات الكريمة أدناه:

۱- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُوْنَ». (الانعام/ ۹۵)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۴

۲- «كَيْفَ تَكْفُرُوْنَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُوْنَ». (البقرة/ ۲۸)

۳- «هُوَ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». (يونس/ ۵۶)

۴- «وَهُوَ الَّذِىْ يُحْيِ وَيُمِيْتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ والنَّهارِ أَفَلا تَعْقِلُوْنَ».

(المؤمنون/ ۸۰)

۵- «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وَمَالَكُمْ مِّنْ دُوْنِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيْرٍ». (التوبة/ ۱۱۶)

۶- «لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِى ويُمِيْتُ رَبُّكَمْ وَرَبُّ آبائِكَمُ الأوَّلِيْنَ». (الدخان/ ۸)

۷- «أَلَمْ تَرَ الَى الَّذِى حَآجَّ ابراهِيمَ فى رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ ابْراهِيْمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِى وَيُمِيْتُ قَالَ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيْتُ». (البقرة/ ۲۵۸)

۸- «إِنّا نَحْنُ نُحْيِى وَنُمِيْتُ وإِلَيْنَا الْمَصِيْرُ». (ق/ ۴۳)

۹- «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُم هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِّنْ شَىءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُوْنَ». (الروم/ ۴۰)

۱۰- «واللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ». (النحل/ ۶۵)

شرح المفردات:

«الحياة»: يقول الراغب فى المفردات: تستخدم الحياة فى معان مختلفة: الحياة النباتية، الحياة الحسية (حياة الحيوانات)، الحياة العقلانية (حياة البشر)، الحياة بمعنى زوال الغم والهم والحزن، الحياة الأخروية الخالدة، والحياة المذكورة كونها إحدى الصفات الإلهيّة، ويأتى لكل واحدة منها بشاهد من الآيات القرآنية.

ولكن فى «مقاييس اللغة» يُذكر لهذه المفردة معنيان أساسيان، أحدهما الحياة مقابل الموت، والآخر «الحياء» وهو ما يقابل الوقاحة والصلافة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۵

غير أن البعض يعتقد برجوع المعنيين إلى أصل واحد، لأنّ الذى يتمتع بالحياة والخجل إنّما يصد نفسه عن الضعف والعجز ويتحرك باتجاه الخير والطهارة، وإن كان الثعبان العظيم يسمى ب «الحية» فذلك لشدّة تحركها التى تعتبر من أبرز آثار الحياة والعيش، وتسمى القبيلة ب «الحى» بلحاظ امتلاكها حياةً اجتماعيةً وجماعيةً «۱».

وبالطبع فإنّ لهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة من جملتها «الإيمان» فى مقابل الكفر، و «الطراوة» فى مقابل الذبول، و «الحركة» فى قبال السكون، ويطلق على التحية اسم «التحية» من باب أنّ فيها طلباً للسلامة والحياة.

«الموت»: هو بالضبط النقطة المقابلة للحياة، لهذا كانت له أنواع مختلفة يقابل كل منها نوعاً من أنواع الحياة، منها «الموت النباتى» كما فى قول القرآن حول المطر «أَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً». (ق/ ۱۱)

و «الموت الحيوانى» و «الموت العقلانى» أى الجهل.

و «الموت» بمعنى الغم والحزن كما يقول القرآن الكريم: «وَيَأْتِيْهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ». (ابراهيم/ ۱۷)

«والموت»: بمعنى النوم، كما قالوا: «النوم موت خفيف» مثلما أنّ الموت نوم ثقيل.

وَاعتبر البعض «الموت» بمعنى الإنحلال التدريجى للكائن الحى، و «الموتة» حالة شبيهة بالجنون، وكأنّ العقل والعلم يموتان فى تلك الحالة.

كما أنّ البعض فرّق بين «الميِّت» و «المائت» وقالوا: الميت هو الميت أمّا «المائت» فهو الموجود فى حالة الانحلال والانحدار نحو الموت.

ولهذه المفردة معانٍ كنائية كثيرة منها «الكفر»، و «النوم»، و «الخوف».

وَسميت الأرض الموات بالموات لافتقادها الحياة النباتية، والقابلية على الغرس والزراعة، وأمّا بعد أن تُهيَّأ للغرس والزرع فيسمونها «مهيأة».

ورد فى قواميس اللغة أنّ أصل هذه المفردة هو ذهاب القوّة، والذى يعتبر موت الكائنات الحية من مصاديقه البارزة.

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ مفردات الراغب، لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ وكتب اللغة الأخرى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۶

جمع الآيات وتفسيرها

خَلقُ الحياة آية الخلق:

جرى الاستناد فى الآيات العشر أعلاه وعدد آخر من الآيات القرآنية إلى قضية الحياة والموت بعنوان إحدى الآيات الإلهيّة الكبيرة وعلامات الذات المقدّسة للخالق، كان التأكيد فى أغلبها على حياة وموت الإنسان، وفى بعضها على الحياة والموت بشكل عام أى عند جميع الأحياء، وفى البعض أكدت على حياة وموت النباتات.

فى الآية الأولى المخصصة للبحث، ورد كلام عن فلق النواة والحبّة بواسطة القدرة الإلهيّة، وعن استخراج الكائن الحى من الكائن الميت وبالعكس الكائن الميت من الحى، بحيث تشمل الحياة والموت بالمعنى الواسع للكلمة فى النباتات والحيوانات والبشر.

الملفت للنظر أن بذور النباتات ذات جدار صلب ومحكم، والنواة أكثر إحكاماً منه، إذ ليس فلقها بالأمر الممكن بسهولة، ومع هذا فالفِلْقة الخارجة من داخل الحبّة والنواة بحيث لايمكن وصف رقتها ولطافتها، أمّا كيف يمكن لتلك الفِلْقة اللطيفة أن تفلق تلك القلعة والحصن الحصين فتخرج من خلال جدرانه وتستمر فى طريقها؟ فليس ذلك سوى القدرة الإلهيّة الفريدة، وكأنَّ عبارة: «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى إشارة دقيقة إلى هذا المعنى

وحول كيفية إخراج اللَّه تعالى الميِّت من الحىِّ والحىِّ من الميتِ، ذكر الكثير من المفسرين الماضين الأمثلة عليها، بخروج الدجاجة من البيضة، والشجر والنبات من الحبة والنواة، والإنسان من النطفة، فى حين صار من المسلّم به لدى العلماء اليوم أنّ الكائنات الحية تظهر دائماً من الكائنات الحية، أى أنّ فى داخل حبة ونواة النباتات والأشجار فضلًا عن الكمية المعينة من المواد الغذائية، توجد خلية حية هى فى الحقيقة نبات وشجرة مجهرية صغيرة جدّاً وإذا استقرت فى المحيط المناسب فسوف تستفيد من هذه المواد الغذائية فتنمو وتكبر، وكذلك بالنسبة إلى نطفة الإنسان والحيوان فإنّ الخلايا الحية كثيرة، وهى المصدر لتكاثر وتناسل الإنسان والحيوان.

أجاب بعض المفسرين المعاصرين (كالمراغى ومؤلف تفسير المنار) الذين التفتوا إلى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۷

هذا الإشكال بأن هذه الخلايا الخاصة مع أنّها تسمى فى عرف علماء العلوم الطبيعية بالكائنات الحية، ولكنها لا تجدر بهذه التسمية فى العرف العام للناس واللغة، لأنّ أياً من آثار الحياة والعيش لا تظهر عليها «۱».

والأفضل أن نقول: إنّ المراد بخروج الكائن الحى من الميت لا يعدو أحد المعنيين التاليين:

الأول: هو بالرغم من أنّ الكائنات الحية فى الظروف الحالية تخرج دائماً من البذور والحبوب والنطف الحية، ولكن لا شك أنّ الأمر لم يكن كذلك فى البداية، لأنّ الكرة الأرضية عندما انفصلت عن الشمس كانت عبارة عن كتلة من نار، ولم يكن عليها أى كائن حى، ثم ظهرت أول الكائنات الحية من الكائنات غير الحية ضمن ظروف لا علم لنا بها اليوم وبأمر اللَّه بعد سلسلة من القوانين البالغة فى التعقيد.

والفرضية القائلة: إنّ من الممكن للحياة أن تكون قد انتقلت من الكواكب الاخرى إلى الكرة الأرضية بواسطة القطع والأجرام السماوية والتى يُصّير البعض عليها، لا تستطيع أن تحل لنا أية مشكلة، لأنّ الإشكال يصدق على تلك الكواكب أيضاً، فهى ولا شك كانت فى

البداية كتلًا محترقة، ولايستطيع أى كائن حى أن يتحمل تلك الظروف.

الثانى: هو أنّ البذور والحبوب والنطف الأولى لم تكن إلّاموجودات صغيرة جدّاً لكنّها نمت وتطورت عن طريق تغذيتها على المواد الغذائية غير الحية وهى فى الحقيقة تجذب إليها الموجودات غير الحية وتحولها إلى حية، وعليه فإنّ آلاف الآلاف وملايين الملايين من الخلايا الحية قد ظهرت من الموجودات الميتة، وعن هذا يقال: إنّ اللَّه يخرج الميت من الحى ويخرج الحى من الميت.

والبعض قالوا: إنّ المراد بهذا التعبير ولادة «الكافر» من «المؤمن» و «المؤمن» من «الكافر»، أو ولادة الجنين السقط من الإنسان الحى، وولادة الطفل الحى من الام التى تموت فجأة ولا يزال الطفل حياً فى بطنها.

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۷، ص ۱۹۷؛ وتفسير المنار، ج ۷، ص ۶۳۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۸

ولكن ممّا لا شك فيه أنّ هذه الأقوال هى مصاديق للمفهوم الكلى للآية ولا تشمل كل مفهوم الآية، المفهوم الأصلى للآية هو أحد المفهومين المُشار إليهما.

وعلى أيّة حال فالتعقيد الذى يحيط بقضية الحياة والموت من الدرجة بحيث أنّ العلماء لا يزالون عاجزين عن فهم أسراره، فإذا كان فهم أسرار إحدى الظواهر يحتاج إلى كل هذا العقل والتفكير والذكاء، فهل يمكن إيجاد هذه الظاهرة بدون الحاجة إلى أى عقل وذكاء؟!

ولهذا يقول القرآن فى نهاية نفس هذه الآية: «ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنّى تُؤْفَكُوْنَ».

تقول الآية الثانية بلهجة الاستفهام المُوبِّخ: «كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُم ثُمَّ يُحْيِيكمْ» وفى هذا إشارة إلى أنّ قضية الحياة والموت كافية لمعرفة اللَّه.

وبتعبير آخر فإن ظاهرة الحياة والموت فى عالم الخلقة من أهم الوثائق لإثبات وجود اللَّه.

إنّ الإنسان عندما يفتح عينيه ويعرف نفسه، فإنّه يطالع هذه الوثيقة الكبيرة قبل كل شىء.

ويدرك الإنسان جيداً أنّ حياته ليست من عنده لأنّه كان يوماً فى عداد الموجودات غير الحية، إذن، ثمّة قدرةٍ وهبته الحياة، الحياة بكل أسرارها ورموزها، بكل دقائقها وتعقيداتها.

اعتبر بعض المفسرين «الكفر» فى هذه الآية بمعنى «كفران النعمة»، أى كفران نعمة الحياة والموت، هذا الموت الذى هو مقدّمة لحياة أخرى، ولكن الظاهر هو أنّ الكفر هنا بمعنى إنكار وجود اللَّه أو إنكار توحيده مِن قبل المشركين.

بالإضافة إلى أنّه جرى التأكيد فى هذه الآية على قضية المعاد، أى أنّ ظهور الحياة والموت تمثلان دليلًا على التوحيد بالإضافة إلى كونهما دليلًا على إمكان المعاد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۷۹

الآية الثالثة تُعد ضمن آيات المعاد، ولكن كما قلنا فإنّ قضية الحياة والموت دليل على إثبات وجود اللَّه وعلى إثبات المعاد، والتعبير ب «هُو يُحْيِى وَيُمِيْتُ» إشارة إلى أنّ الحياة والموت بيد اللَّه فقط، ولا يمكن لأحد سوى اللَّه القادر المتعال أن يصنع مثل هذه الظاهرة المهمّة والعجيبة إلى أقصى الحدود.

أمّا الآية الرابعة فقد وردت ضمن آيات التوحيد فى سورة (المؤمنون)، وأكدت على قضيتين «قضية الحياة والموت»، و «قضية ذهاب وإياب الليل والنهار» ولهذين شبه كبير فيما بينهما، الموت كالظلمة، والحياة كالنور والضياء، وربما كان تقديم الليل على النهار من هذا الباب أيضاً، ذلك أنّ الموت كان قبل أن تكون الحياة وكان الإنسان سابقاً أجزاءً ميتة ثم أنعم اللَّه عليه فكساه ثوب الحياة، وسواء كان «اختلاف الليل والنهار» بمعنى ذهاب وإياب الليل والنهار (من مادة (خِلفة) على وزن حِرفة بمعنى التناوب فى المجىء والحلول

محل البعض)، أو من مادة (خِلاف) بمعنى التباين والاختلاف التدريجى فى فصول السنة المختلفة، وأيّاً كان المعنى فهو يدل على النظام الدقيق الذى يحكمهما وما يرافقه من فصول أربعة ومن بركات ناتجة عنها، كما أنّ لقضية الموت والحياة والنظام الذى يحكمها فى المجتمع الإنسانى نتائج وآثاراً كثيرة لا يمكن بدونها تنظيم حياة الإنسان.

فَإذا لم يمت أحد، لَما كانت الأرض محلًا للحياة، وإن مات الجميع بسرعة خلت الأرض أيضاً، ولكن خالق هذا العالم جعل فيه نظاماً دقيقاً بحيث لا تخلو الأرض من أقوام يعيشون عليها ويتمكنون من الانتفاع من مواهب الحياة، وهذه هى سنّة اللَّه فَقوم يأتون وقوم يذهبون.

ولهذا يقول تعالى فى نهاية الآية: «أَفَلا تَعْقِلُونَ» أفلا تتفكرون فى قدرة الخالق وربوبيته ووحدانيته؟ وإنّ من المستحيل ظهور هذا النظام البديع من غير علم ولا تدبير.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۰

وفى الآية السادسة جاءت قضية الحياة والموت إلى جانب قضية الربوبية، فهواللَّه سبحانه مالككم وربّكم أنتم وآبائكم، الأولين وهو خالق الموت والحياة.

وبشكل أساسى فإنّ قضية الموت والحياة إحدى فروع ربوبية اللَّه سبحانه وتعالى، «الربوبية» بمعنى الإصلاح والتنظيم والتربية، وهذه لا تحصل إلّاعن طريق الحياة والموت، الحياة تعطى الإنسان إمكانية التكامل، والموت أيضاً مقدمة لتكامل آخر وحياة جديدة فى عالم أوسع.

تعكس الآية السابعة الحوار التاريخى بين النبى إبراهيم عليه السلام وجبار زمانه «نمرود»، ويبدو أنّ هذا الحوار جاء بعد قصة تحطيم ابراهيم الأصنام وظهوره كبطل من الأبطال وشياع صيته فى كل مكان واضطرار نمرود إلى إحضاره «۱».

إنّ أول سؤال سأله هذا الرجل الأنانى الذى أذهب عقله غرور السلطان للنبى إبراهيم عليه السلام هو: «من إلهك؟».

فاعتمد إبراهيم قبل كل شىء فى جوابه على ظاهرة الحياة والموت المهمّة وقال: «ربّىَ الذى يُحيِى ويميت».

فقال الجبارالطاغى نمرود مع علمه الأكيد بأحقّية كلام إبراهيم ومن أجل استغفال من حوله وتخدير عقولهم: إننى استطيع القيام بهذا أيضاً «أنا أحيى وأميت».

لم يذكر القرآن ما صنعه نمرود من أجل إثبات ادّعائه هذا، ولكن الكثير من المفسرين قالوا: إنّه أمر فوراً باحضار إثنين من السجناء، فأطلق سراح أحدهم وحكم على الآخر بالموت وقال: أرأيت كيف أن الحياة والموت بيدى؟!

والفخر الرازى استبعَدَ هذا المعنى فى تفسيره وهو أن يكون الحضار فى مجلس نمرود

---

(۱) ورد هذا المعنى وهو أنّ الحوار أعلاه حصل بعد تحطيم الأصنام من قبل إبراهيم فى عدّة تفاسير منها تفسير المراغى ج ۳، ص ۲۱؛ و الكبير ج ۷، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۱

من البله والسذاجة بحيث لا يدركون الفرق بين عمل نمرود وبين الحياة والموت التى تحصل عن طريق اللَّه.

ويقول: إن قصد نمرود هو قوله: أتراك تزعم أنّ اللَّه يقوم بذلك من دون أيّة واسطة؟ هذا غير صحيح، وإن كان ذلك يحصل عن طريق الاستفادة من عالم الأسباب، فإنّ ذلك بإمكاننا أيضاً «۱».

ولكن يبدو أنّ الفخر الرازى نسى هذه النقطة، وهى: أنّ الجهلاء فى كل عصر وزمان ليسوا قليلين، خاصة المتملقين الذين يحيطون بحكام الجور والاستبداد والتجبر.

وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى حياة موسى وفرعون حيث حاول فرعون استغفال وخداع أهل مصر بكلماته الركيكة المضحكة

ودعاهم إلى عبادته.

إن تفسير الفخر الرازى يلائم جماعة من الفلاسفة يجتمعون مع بعضهم ويصطنعون مثل هذه السفسطات، أمثال لو كان الفاعل فاعلًا بالواسطة لكان كذا ولو كان بلا واسطة لكان كذا.

الآية الثامنة تعتبر إيجاد الحياة والموت أمراً خاصاً باللَّه، شأنها شأن الآية الثالثة، وتعتبر عودة جميع الخلق إلى بارئهم عزوجل.

وفى الآية التاسعة يخاطب اللَّه تعالى المشركين بلهجة حازمة فيقول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُم ثُمَّ رَزَقَكُم ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَىءٍ»، هل بامكانهم إحياء شىء أو إماتته؟ أو رزقه؟ وما دامت كل هذه الأمور خاصة باللَّه، فما لكم تشركون به: «سُبْحَانَهُ وَتَعالىَ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۷، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۲

وأخيراً وفى الآية العاشرة والأخيرة يطرح اللَّه قضية حياة النباتات، وهو وجهٌ مشرق، جميل ومليء بالأسرار من وجوه الحياة، ويعرض على البشر صورة الأراضى الميتة كيف يُلبس هذه الصحارى اليابسة الفاقدة للحياة لباسَ الحياة بزخة مطر واحدة أو عدة زخات، فتتصاعد من كل جانب من جوانبها أنغام الحياة فتتجلى ساحة البعث والنشور فى هذه البقعة.

وَيضيف فى آخر الآية: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ»، يسمعون انغام تحميد وتسبيح النباتات ويصغون بآذان قلوبهم لهمسات التوحيد من كل نبات يخرج من الأرض ويردد ذكر «وحده لا شريك له»: «انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

توضيحان

۱- لغز الحياة الكبير

كشف تطور العلم والمعرفة البشرية النقابَ عن الكثير من الحقائق، وأوضح العديد من قضايا هذا العالم الكبير، ولكن كما أشرنا فعلى الرغم من ذلك فما زالت هنالك الكثير من الألغاز تواجه الإنسان، وأحد أهم هذه الألغاز هو لغز الحياة، القضية التى لم يُمَط اللثام عن وجهها لحد الآن رغم جهود ومساعى آلاف الآلاف من العلماء والعقول المفكرة على مرّ التاريخ البشرى، وما زالت مستترة خلف ستار من الابهام.

واللطيف أن القرآن الكريم خاطب المشركين قبل أربعة عشر قرناً قائلًا: «يَا ايُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوْا لَهُ إِنَّ الَّذِيْنَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لَّايَسْتَنْقِذُوْهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

المثير أنّ عجز البشر اليوم عن خلق الذبابة بمقدار عجزه قبل أربعة عشر قرناً، وعجزه أزاء هجوم الذباب والجراد وبقية الحشرات يصل إلى درجة عدم جدوى كل ما يستخدم من أجهزة التسميم والمكافحة الحديثة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۳

قد يُقال: إنّ الإنسان صنع أجهزة قيّمة أكثر أهميّة من خلق الذباب كالسفن الفضائية والعقول الألكترونية المعقدة وأمثال ذلك.

ولكن هذا خطأ كبير وقياس باطل، إذ ليس للسفينة الفضائية أو العقل الألكترونى أى نمو أو تحول ذاتى ويستحيل أن ينجب مثيله، ولا يمكن من داخل نفسه ترميم ما يطرأ عليه من الأضرار، فهو لا يُصلح قطعاته التالفة أبداً، ويحتاج إلى الهداية والقيادة من خارجه، والحال أنّ للذبابة من هذه الوجوه أفضلية واضحة على تلك السفينة الفضائية أو جهاز الكومبيوتر، ولكن كثرة الذباب أدى إلى

تصوره من قبلنا كموجود حقير ولا أهميّة له، ولو كانت هنالك ذبابة واحدة فقط فى العالم لاتّضح آنذاك مدى ما سيوليه العلماء لها من الاهتمام.

وفضلًا عن هذا فإننا لا نحتاج أساساً إلى هذه المفاضلة، فالهدف هو إيضاح أن بناء الكائن الحى حتى لو كان خلية واحدة والتى أشرنا إليها إشارات واضحة فى البحوث الماضية، على قدر من الغموض والتعقيد بحيث يدلّ على أنّ صانعه ذو علم وقدرة غير متناهيين وذو اطلاع تام بقوانين الحياة المعقدة، وبتعبير أصح أنّه هو الذى وضع هذه القوانين.

كيف يمكن أن تحتاج معرفة ظاهرة كهذه إلى كل هذا العقل والشعور ولا يحتاج صنعها إلى أى عقل أو شعور؟!

وهذا هو الأمر الذى نحن فى صدد إثباته فى هذه البحوث، والذى يشكل هدف القرآن من الآيات المذكورة وآيات مشابهة أخرى نختم هذا الحديث بذكر نقطة، وهى أنّ الحياة والعيش رغم أنّها من أبرز الظواهر، ولكن حقيقتها غير واضحة لحدّ الآن لأحد، إنّ ما نراهُ هو آثار الحياة التى تمثل (النمو والتحول والتغذية والتناسل، والاحساس والحركة والتفكير)، ولكن ما هى تلك الحقيقة التى تكون بمثابة المصدر لهذه الآثار؟ لا يعلم أحد بذلك لحد الآن، وما زالت العقول فى حيرة من ذلك.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۴

۲- هل بامكان الإنسان صناعة كائن حى؟

لا شك أنّ الكائنات الحية وجدت فى البداية من كائنات غير حية، سواء حدث هذا الأمر على الكرة الأرضية أو على الكواكب السماوية الأخرى، ولكن تحت أى ظروف؟

ووفقاً لأىمعادلة حدثت هذه الطفرة العظيمة؟ إنّ هذا الأمر بقى مجهولًا لحد الآن ولم يتسن لأحد معرفته، طبعاً أنّ البعض من العلماء يأملون بأنّهم سوف يكتشفون هذه المعادلة وهذه الظروف، ويقولون: لعلنا فى النتيجة نستطيع أن نصنع خلايا حية من مركبات غير حية.

لا أحد يعلم جدوى ومنطقية هذا الأمل؟ وهل سيتحقق مثل هذا الأمل عملياً فى نهاية المطاف أم لا؟ وعلى فرض أنّ الإنسان سيكتشف ظروف بداية الحياة ومعادلتها وسوف يستطيع صناعة خلايا حية فى داخل المختبرات، ولكن يجب أن لا ننسى أن:

أولًا: إنّ هذا العمل حين يأتى عن طريق تقليد عالم الخلقة وتركيب المواد المختلفة مع بعضها لن يكون سوى ما يشبه الصناعات التجميعية التقليدية.

ثانياً: على فرض أنّ مشكلة صناعة الخلية الحية سوف تُحل، ولكن تبقى هنالك مشكلة الكائنات المعقدة متعددة الخلايا، كبنية الذبابة أو الجرادة أو الطائر أو الأسماك الكبيرة وأخيراً الإنسان، فمن الذى يستطيع أن يوجد مثل ما ذكرنا عن طريق الصناعة؟

يقول أحد العلماء وهو (البروفسور هانز): سوف يصل الإنسان بعد ألف سنة إلى سر الحياة، ولكن هذا لا يعنى أنّه سيستطيع صناعة ذبابة أو حشرة أخرى أو حتى خلية حية.

ثالثا: لنفترض أننا ضمنّا مثل هذه الأهداف بمعونة الهبة الإلهيّة المسماة بالعقل، وتطورت العلوم وتقليد قوانين الطبيعة، لكن هذا لن يكون له أدنى تأثير على ما نحن بصدد الوصول إليه، لأنّه إن كان بالإمكان إيجاد خلية حية واحدة باستخدام كل هذه النماذج الموجودة والمواد الطبيعية الجاهزة يحتاج إلى كل هذا العلم والمعرفة، فما مقدار العلم والمعرفة اللازمة لخلق أنواع متعددة من الموجودات الحية بلا نموذج أو مواد سابقة؟ هل يمكن أن نعتبر للطبيعة الجامدة الفاقدة للشعور والعقل دوراً فى خلق هذه الموجودات؟

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۵

وألفت انتباهكم إلى عبارة ظريفة عن «غرسى موريسن» رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك فى كتاب «سر خلق الإنسان»، يقول:

«قال هيغل: أعطونى الهواء والماء والمواد الكيميائية والزمان وسوف أخلق بها إنساناً، لكن هيغل نسى أنّه بحاجة إلى نطفة وجرثومة الحياة من أجل هذا المشروع أيضاً، إنّه بعد أن يجمع الذرات اللامرئية ويرتبها إلى جانب بعضها ضمن نظام وترتيب خاص بخلقة الإنسان، عليه أن يمنح الروح لهذا القالب! وعلى فرض أنّه وُفّق للقيام بكل هذه الامور الخارقة للعادة، هنالك احتمال واحد فقط من بين ملايين الاحتمالات لخلق حيوان لم تشاهد عين الدهور شيئاً أغرب منه، والأعجب هو أن هيغل لن يقول بعد الموفقية فى هذا الأمر أنّ هذا الموجود العجيب ظهر بحسب الصدفة والحدث، بل يقول: «إن ذكائى ونبوغى هو الذى خلقه» «۱».

تارة يتصور بعض السذج أنّ بالإمكان تبرير ظهور الحياة عن طريق الحوادث والصدف الكثيرة، والحال أننا لو أردنا ووفق حساب الاحتمالات حساب عملية ظهور ذرة واحدة من البروتينات،- وهى إحدى المواد المكونة للكائنات الحية- عن هذا الطريق، لما كفى عمر الكرة الأرضية لظهورها!

ول «جورج والد» أستاذ علم الأحياء فى جامعة «هارفارد» كلام عن شروط ظهور الحياة واستحالة إمكان خلق الحياة بالصدفة والذاتية، هذه خلاصتُهُ:

«من أجل تشكيل البروتين يجب التحام مئات أو آلاف الجزئيات «أحماض أمينية» بنِسب مختلفة وبأشكال متنوعة على شكل سلسلة، وإن عدد أنواع البروتينات لا محدود حقاً، لأنّه لا يمكن العثور على نوعين من الحيوانات يكون لهما نوع واحد من البروتينات، إذن فجزيئات المواد العضوية تشكل مجموعة عظيمة لا حدود لتنوعها وتعقيدها يبعث على الحيرة، ومن أجل صنع موجود حى واحد لا نحتاج إلى مقدار كافٍ ونسب معينة من أنواع البروتينات اللامتناهية فحسب، بل يجب ترتيبها ترتيباً صحيحاً أيضاً، أى أنّ بناءها

---

(۱) سر الخلق، ص ۱۳۹ إلى ۱۴۱.

له من الأهميّة ما لتركيبها الكيميائى من الأهميّة».

ثم يضيف: «إنّ بناء البروتينات معقد حقاً، وإن اعقد الأجهزة التى صنعها الإنسان (كالعقل الألكترونى) هى بحكم الألعوبة مقابل أبسط الكائنات الحية! يكفى الإنسان أن يفكر فى هذه العظمة لتتضح له استحالة الخلقة الذاتية أو بالصدفة» «۱».

نختم هذا الكلام بحديث قيّم عن الإمام الصادق عليه السلام، وحديث رفيع المعانى عن أميرالمؤمنين على عليه السلام، للإمام الصادق عليه السلام كلام مفصل قاله للمفضّل فى حديث التوحيد المعروف ب «المفضّل» حول خلقة الإنسان وأعضائه المختلفة، يقول المفضّل:

سيدى: إنّ قوماً يقولون أنّه من صنع الطبيعة! فيجيب الإمام عليه السلام:

«سلهم عن هذه الطبيعة أهى شىء له علم وقدرة على مثل هذه الأفعال؟ أم ليست كذلك؟ فإن أوجبوا لها العلم والقدرة، فما يمنعهم من إثبات الخالق؟ فإنّ هذه صنعته، وإن زعموا أنّها تفعل هذه الأفعال بغير علم ولا عمدٍ وكان فى أفعالها ما قد تراه من الصواب والحكمة، عُلِمَ أن هذا الفعل للخالق الحكيم، وأنّ الذى سمّوه طبيعة هو سُنة فى خلقه الجارية على ما أجراها عليه» «۲».

ويقول أمير المؤمنين على عليه السلام: «ولو اجتمع جميع حيوانها من طيرها وبهائمها، وما كان من مُراحِها وسائمها وأصناف أسناخها وأجناسها، ومتبلدة أممها، وأكياسها، على إحداث بعوضة، ما قدرت على إحداثها ولا عرفت كيف السبيل إلى ايجادها ولتحيرت عقولها فى علم ذلك» «۳».

---

(۱) معرفة الحياة «شناخت حيات»، ص ۱۱ (بالفارسية).

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۶۷.

(۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۷

۴- آياته فى خلق الروح

تمهيد:

الروح أيضاً من أعجب ظواهر عالم الوجود وأكثرها غموضاً، ومع أنّها أقرب الأشياء إلينا إلّاأننا بعيدون جدّاً عن معرفتها وتشخيصها. لم تتوقف جهود ومساعى العلماء والفلاسفة من أجل معرفة الروح فى أى زمن من الأزمان، واستطاعوا بفضل هذه الجهود أن يكشفوا اللثام عن بعض الأسرار، ولكن الوجه والأسرار الخافية للروح لم تتغير لحد الآن، وما زالت هناك الكثير من الأسئلة حول هذا الموضوع بدون جواب.

ومن هنا كان خلق روح الإنسان من الآيات المهمّة الدالة على علم وحكمة وتدبير الخالق.

وعلى هذا الصعيد نتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة أدناه:

۱- «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَها وَتَقْواهَا». (الشمس/ ۷ و ۸)

۲- «ويَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّاقَلِيلًا».

(الاسراء/ ۸۵)

۳- «وإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنّى خالِقٌ بَشَراً مِّنْ صَلْصالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوْحِى فَقَعُوا لَهُ ساجِدِيْنَ». (الحجر/ ۲۸ و ۲۹)

۴- «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِيْنَ». (المؤمنون/ ۱۴)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۸

۵- «اللَّهُ يَتَوفَّى الأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الزمر/ ۴۲)

شرح المفردات:

إنّ مفردة «الروح» تعنى فى الأصل التنفس والنفخ، ويعتقد بعض أرباب اللغة أنّ «الروح» اشتقت فى الأصل من «الريح» بمعنى الهواء والنسيم والرياح، وبما أنّ روح الإنسان أى ذلك الجوهر المستقل المجرّد ومصدر الحياة والتفكير هى جوهر لطيف تشبه من حيث تحركها ومنحها للحياة التنفس والنسيم، فقد استعملت هذه المفردة للتعبير عنها، بالاضافة إلى أنّ علاقة الروح بالجسم لها ارتباط وثيق بالتنفس، لهذا استعملت هذه الكلمة فى خصوص روح الإنسان.

يعتقد البعض أنّ المعنى الأصلى لهذه المادة هو «ظهور وحركة شىء لطيف» سواء كان فى عالم الجسم أو فى عالم الروح والمعنى ومن أجل هذا أطلقت هذه الكلمة أيضاً على ظهور مقام النبوة وقضية الوحى وتجلى نور الحق.

«الرَوح»: (على وزن قَوم) التى تعنى السرور والفرح والراحة والنجاة من الغم والحزن، وهى الاخرى مأخوذة من هذا المعنى كذلك يطلق على الالطاف والرحمة الإلهيّة «روح اللّه».

مفردة «الريحان» تستخدم فى كلام العرب ل «الورد» من أجل رائحتها الطيبة المنعشة ونسيمها المعطر.

ومفردة «الرواح» بمعنى «طرف الغروب» حيث تعود الحيوانات إلى حضائرها لتستريح.

وعلى كل حال، فإنّ مواضع استعمال هذه المفردة فى القرآن الكريم متنوعة جدّاً، فتأتى حيناً بمعنى ملاك الوحى، وحيناً بمعنى الملاك الكبير من ملائكة اللَّه الخُلّص (أو

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۸۹

المخلوق الأفضل بين الملائكة)، وتأتى أحياناً لتدل على القوة الإلهيّة المعنوية التى يسند اللَّه المؤمنين بها، وجاءت تارة بمعنى الروح الإنسانية، وهذا ما أشرنا إليه فى الآيات أعلاه «۱».

«النَفْس»: يقول الراغب فى المفردات: النفس بمعنى الروح، وتأتى أحياناً بمعنى ذات الشىء، و «النَفَس» (على وزن قَنَص) بمعنى الهواء الذى يدخل ويخرج من وإلى جسم الإنسان عن طريق الفم.

وقد أُطلقت مفردة «النفْس» هذه على الدم أيضاً، لأنّ الدم إذا خرج من جسم الإنسان بمقادير كبيرة فارقته روحه، وربّما أُطلقت هذه الكلمة على كل وجود الإنسان.

على أيّة حال، فإنّ أحد المعانى المعروفة للنفس هو «الروح» التى ذكرت عدّة مرّات فى القرآن الكريم.

۱- «النفس الامارة» التى تأمر الإنسان بالسوء: «إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوء».

(يوسف/ ۵۳)

۲- «النفس اللوامة» التى ترتكب الذنوب بعض الأحيان ثم تندم وتلوم نفسها: «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ». (القيامة/ ۲)

۳- «النفس المطمئنة» وهى النفس الواصلة إلى مرحلة الأطمئنان والراحة والطاعة التامة لأوامر اللَّه والمشمولة بعناياته: «يَا ايَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ* إِرْجِعِى إِلَى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً». (الفجر/ ۲۷)

جمع الآيات وتفسيرها

الروح اعجوبة عالم الخلقة:

ورد فى الآية الأولى من الآيات التى اخترناها لبحثنا هذا قَسَمٌ يختصّ بالروح الآدمية وخالقها.

---

(۱) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۰

ذلك اللَّه الذى خلق الخلق ونظم القوى الروحية للإنسان إبتداءً من الحواس الظاهرية وهى مقدمة الإدراكات الروحية وانتهاءً بقوة التفكير، الحافظة، التخيل، الإدراك، الابتكار، الإرادة والتصميم: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا».

وعلّمهُ طرق الهداية بعد تنظيم هذه القوى «فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا».

مع أنّ القوى الروحية للإنسان متنوعة وكثيرة جدّاً، ولكن القرآن هنا وضع إصبعه من بين كل تلك القوى على مسألة «إلهام الفجور والتقوى (إدراك الحسن والقبح)، لأنّ هذه المسألة لها تأثير كبير جدّاً فى مصير الإنسان وسعادته وشقائه.

قلنا مراراً: إنّ القَسَمَ يدلّ على الأهميّة والعظمة، أهميّة المُقْسَم به والمُقَسَم له، خاصة القَسَمُ القرآنى لحمل الناس على المزيد من التفكّر فى آيات «العظمة» الإلهيّة.

فضلًا عن أنّ «النفس» فى هذه الآية ذكرت بصيغة النكرة، وهى فى مثل هذه الموارد من أجل التأكيد على أهمية الموضوع أو كثرته «۱».

تشير الآية الثانية إلى السؤال الذى طرح من قبل جماعة من المشركين أو أهل الكتاب، حيث وفدوا على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وسألوه عدة أسئلة كان أحدها عن الروح كما قال القرآن: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوْحِ».

ثم يأمر القرآن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «قُلِ الرُّوْحُ مِنْ أَمْرِ رَبّى».

إنّ فى هذا الجواب غير المستبين إشارة عميقة إلى مدى غموض ومجهولية هذه الظاهرة الكبيرة فى عالم الوجود، ومن أجل أن لا يَقول أحد لماذا لم تظهر واحدة من أسرار الروح؟

يضيف اللَّه فى آخر الآية: «وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۱۰- ص ۴۴۲؛ و تفسير روح المعانى، ج ۳۰- ص ۱۴۲، وقد احتمل بعض المفسرين أن تكون «النفس» فى الآية أعلاه إشارة إلى الروح والجسم كليهما، مع أنّ عبارة: «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» تناسب الروح أكثر، وكذلك الآية: «قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ...».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۱

وليس من العجيب أن لا تطلعوا على أسرار الروح بهذا «العلم القليل» و «المعرفة اليسيرة» (خصوصاً فى ذلك الزمان وتلك البيئة).

روى عن أبن عباس فى بعض الروايات أنّ قريش أرسلت بعض رؤوسها إلى علماء اليهود فى المدينة وقالت لهم: إسألوهم عن محمد لأنّهم من أهل الكتاب ولهم من العلم ماليس لنا، فجاؤوا المدينة وسألوا علماء اليهود، فقال اليهود فى جوابهم: إسألوه عن ثلاثة أمور: قصة أصحاب الكهف، وَذى القرنين، وقضية الروح، فإنّ أجاب عن جميعها أو سكت عن جميعها فليس بنبى، أمّا إن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبى.

فعادت رؤوس قريش إلى مكة وعرضت الأسئلة على الرسول صلى الله عليه و آله، فقدّم لهم الرسول شرحاً وافياً حول ذى القرنين وأصحاب الكهف، ولكنه فيما يخص السؤال عن الروح إكتفى بذلك الجواب المغلق بأمر من اللَّه «۱»، ومع أنّ هناك تفاسير مختلفة لمعنى الروح فى الآية أعلاه فى روايات المعصومين عليهم السلام وكلمات المفسرين، ولكن أغلب هذه التفاسير لا تتنافى مع بعضها ويمكن الجمع بينها، والروح الإنسانية من جملة المفاهيم الداخلية فى مدلول الآية المعنية «۲».

فى الآية الثالثة كلام عن حوار اللَّه مع الملائكة حول خلق البشر، حيث يقول عزّ وجلّ مخاطباً الملائكة: «إِنّى خالِقٌ بَشَراً مِّنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُّوْحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِيْنَ».

ثمّة نقطتان تثيران الاهتمام فى هذه الآية، الأولى إضافة روح الإنسان إلى اللَّه إذ يقول:

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۵، ص ۲۴۱ «قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل هذا الرجل فقالوا: سلوه عن‌الروح فسألوه فنزلت: «يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلّاقليلًا»».

(۲) وردت فى تفسير الميزان أقوال متعددة فى هذا المجال، منها أنّ المراد بالروح هى الروح الواردة فى الآية الشريفة: «يوم يقوم الروح والملائكة صفاً» ومنها أنّ المراد بها جبرائيل وقال بعض المفسرين: إنّها تعنى القرآن، وآخر التفاسير هو أنّ المراد بها الروح الإنسانية، ثم يضيف: إنّ المتبادر من إطلاق الروح هو هذا.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۲

«من روحى»، وهذا دليل على منتهى عظمة وأهميّة الروح الإنسانية، وهذا من قبيل الإضافة التشريفية حسب المصطلح، ك «بيت اللَّه» و

«شهر اللّه» التى تشير إلى أهميّة الكعبة وعظمة شهر رمضان المبارك، وإلّا فإنّ كل مكان هو بيته وكل الأشهر أشهره.

والثانية أمر جميع الملائكة بالسجدة لآدم بعد نفخ الروح فيه، وهذا برهان آخر على عظمة مقام الإنسان، ذلك أنّ السجدة تفيد منتهى الخضوع، فكيف لو كانت من قبل كل الملائكة؟ وهذه خير علامة على المقام الرفيع لآدم.

فى الآية الرابعة وبعد الإشارة إلى خلق النطفة وتطورات الجنين والألبسة المختلفة التى يكسو بها اللّه هذه القطعة الصغيرة فى مختلف المراحل، يُغيّر عز وجل لهجة الكلام ويقول:

«ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَر».

إنّ التعبير ب «الانشاء» (الايجاد) فى هذه المرحلة وخلافاً للمراحل السابقة التى عبّر عنها بالخلقة، إضافةً إلى استخدام «ثم» التى تستعمل عادةً من أجل الفصل يدل جميعُهُ على أنّ الخلق فى هذه المرحلة يختلف تماماً عن المراحل السالفة، وهذه علامة على أنّ المراد هو خلق الروح التى ترتبط بالجسم بعد تكامله.

والمثير أنّه يعبّر ب «خلقاً آخر» وهو تعبير غامض ومُغلق، خلافاً للتعبيرات السابقة التى يتحدث فيها عن «النطفة» و «العلقة» و «المضغة» و «العظام» و «اللحم» وهى مفاهيم معروفة جميعاً، وهذا دليل آخر على اختلاف المرحلة الأخيرة عن المراحل الماضية.

ومن العجب أنّ بعض المفسرين ذكروا تفاسير لعبارة: «الخلق الآخر» لا تنسجم أبداً مع روح الآية، من جملتها: أنّ المراد بانشاء الخلق الآخر هو ظهور الأسنان والشعر على الجسم «۱»! فى حين أنّ هذا لا يتناسب أبداً مع تعابير الآية ولا شك أنّ ظهور الأسنان والشعر

---

(۱) روى هذا الاحتمال عن بعض المفسرين فى تفسير روح المعانى، ج ۱۸، ص ۱۴؛ وتفسير القرطبى، ج ۷، ص ۴۵۰۲.

ليس له من الأهميّة ما يوازى سائر تطورات الجنين المختلفة.

فى نهاية الآية وردت جملة عجيبة أخرى تشكل دلالة أخرى على الأهميّة القصوى لخلق الإنسان فى المرحلة الأخيرة أو فى مجموع هذه المراحل، يقول تعالى «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ» فسبحان العليم الحكيم الذى أودع القابلية والجدارة فى مثل هكذا موجود حقير.

«تبارك»: من مادة (بَرْك) بمعنى صدر الناقة، وبما أنّ للناقة حين تضع صدرها على الأرض نوع من الثبات، فقد جاءت هذه المفردة بمعنى «الثبات والدوام» ولأن كل نعمة كانت دائمة إزدادت أهميتها، فقد سمّيت هكذا نعم بالمباركة.

إنّ استخدام هذه المفردة فى خصوص اللّه إشارة إلى عظمة وقدسية وخلود ذاته المطهرة.

فى الآية الخامسة والأخيرة من الآيات المعنية فى بحثنا هذا يشير عز وجل إلى مسألة بقاء الروح، بتعبيره: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا».

وبلحاظ أن كلمة «يتوفّى تعنى القبض والاستلام الكامل، و «الأنفس» هى الأرواح، يتضح أنّ الروح ينفصل كلياً عن الجسم عند الموت وبأمر اللّه، ولكن عند النوم يحصل هذا الانفصال بشكل ناقص: «وَالَّتى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا».

ثم أشار إلى عدم عودة بعض الأرواح فى حالة النوم وعودة البعض الآخر حتى أجل مسمى وأضاف: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ» «۱».

---

(۱) يقول الفخر الرازى فى تفسيرهِ وتعقيباً على هذه الآية: إنّ اللّه الحكيم جعل ارتباط الروح الآدمية بالجسم على ثلاثة أقسام: تارة يسطع شعاع الروح على جميع الأجزاء الظاهرية والباطنية للجسم، وهذه حالة اليقظة، وتارة يسحب هذا الشعاع من الأجزاء الظاهرية ويبقى فى الباطنية وهذه حالة النوم، وتارة يرتفع شعاعها عن الأجزاء الظاهرية والباطنية وتلك حالة الموت.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۴

يستفاد من هذه الآية وبكل سهولة أنّ الإنسان تركيب من الروح والجسم، وأنّ الروح جوهر غير مادى، وأنّ النوم درجة ضعيفة من الموت ودليل على ضعف الارتباط بين الروح والجسد.

ويستفاد أيضاً أنّ الموت لا يعنى الفناء والهلاك، بل هو نوع من البقاء واستمرار الحياة.

والنتيجة هى أنّ الروح الإنسانية بكل قواها وقدراتها التى تجعلها من أعقد وأعجب ظواهر عالم الوجود هى إحدى آيات اللّه الكبرى كيف يمكن أن يكون خالق كل هذا العلم والقدرة والفكر والذكاء والذوق والإبتكار والإرادة والتصميم هى الطبيعة الفاقدة للعقل والشعور ولكل أنواع العلم والفكر والذكاء والإبتكار؟!.

بل على العكس، فهذه القطرات والروافد الصغيرة علامة على وجود محيط كبير تنبع جميعها منه، وهذه الاشعاعات الباهتة قبس من تلك الشمس الكبيرة.

توضيحات

۱- القوى الظاهرية والباطنية للروح

عَدَّ القدماء خمسة قوىً ظاهرية وخمسة قوىً باطنية للروح الآدمية، أَمّا القوى الظاهرية فهى: حاسة النظر، السمع، الشم، الذوق، اللمس، وهى نوافذ روح الإنسان نحو عالم المحسوسات والروابط بين ذلك الجوهر المجرد وعالم المادة.

إنَّ كل واحدة من هذه القوى عالم واسع مليٌ بالأسرار، وكل واحدة من أدوات هذه القوى أى العين والأُذن واللسان والغدد الشَّمِّيَة والأعصاب الموزَّعة فى كافة أنحاء الجلد، آية من آيات اللّه تتضمن فى داخلها عالماً من العلم والحكمة.

وقد عد الفلاسفة القدماء القوى الباطنية خمسة أيضاً:

۱- الحس المشترك.

۲- الخيال، والذى يعتبر ذاكرة الحس المشترك.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۵

۳- القوة الواهمة التى تدرك مفاهيم من قبيل المحبة والعداء.

۴- القوة الذاكرة التى تحفظ فى داخلها الإدراكات الواهمة.

۵- قوة التخيل التى تُصرّف المفاهيم والصور الجزئية الموجودة فى خزانة الخيال والذاكرة فترسم صوراً مختارة لا- وجود لها فى الخارج.

وكل واحدة من هذه القوى الخمس هى عالم ملىءٌ بالأسرار بحدّ ذاتها.

لكن علماء وفلاسفة اليوم لا- يحددون القوى الظاهرية بتلك القوى الخمس المعروفة، ولا- القوى الباطنية بتلك القوى الخمس المذكورة، إنهم يضعون للنفس الإنسانية قوى كثيرة، ويعتبرون الروح الآدمية مخزناً عجيباً فيه أنواع القوى ومختلف الاذواق والقابليات والادراكات التى يختلف فيها أفراد البشر.

لقد وضع علم النفس والتحليل النفسى يده اليوم على مناطق غامضة ومبهمة من روح الإنسان واكتشف فيما اكتشف فيها عالماً جديداً وسرّياً باسم «الضمير الخفى» أو «ضمير اللاشعور» ووضع أمام أعين البشر المزيد من العجائب عن هذا الموجود المجهول.

۲- الروح .. الظاهرة الخفية فى عالم الوجود

مع أنّ القرآن الكريم يشرح الكثير من الجزئيات المتعلقة بالسماء والأرض والنباتات والحيوانات عند ذكره للآيات الإلهيّة سواء كانت آيات آفاق أو آيات أنفس، لكنه حين يصل إلى قضية الروح لا يزيد على قوله: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمرِ رَبِّى وَمَا أُوْتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

أو إنّه يقول: «وَنَفْسٍ وَمَا سَوّاهَا» أو يعبّر عنها بإنشاء الخلق الآخر: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَر»، أو إنّه ينسب الروح إلى نفسه فيقول: «وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِى».

إِنَّ كل هذه التعابير تحكى عن أن خلق الروح يختلف عن خلق بقية الموجودات، وليس هذا إلّابسبب تعقيد قضية الروح وأسرارها العظيمة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۶

۳- نشاطات الروح المختلفة

للإنسان نشاطات روحية وفكرية عديدة، سواء فى الشعور أو فى اللاشعور، بحيث يمكن لكل واحد من هذه النشاطات أن يكون موضوع بحث مستقل فى كتب متعددة (وغالباً ما كان)، وقسم من هذه النشاطات على النحو التالى:

أ) «التفكير» من أجل الوصول إلى المجهولات، أو بتعبير الفلاسفة حركة الفكر نحو المبادىء، ثم حركته الأخرى من المبادىء نحو الأهداف والمراد.

ب) «الابتكار» من أجل حلّ مشاكل الحياة غير المتوقعة، ومواجهة الحوادث المختلفة، ورفع الاحتياجات المتنوعة والابداعات والاكتشافات والاختراعات.

ج) «الذاكرة» لحفظ أنواع المعلومات التى يحصل عليها الإنسان عن طريق الحس أو التفكير وتبويبها وخزنها ثم استذكارها عند الحاجة.

د) «التجربة وتحليل القضايا» من أجل معرفة علل وجذور الحوادث عن طريق فصل المفاهيم الذهنية عن بعضها، ثم تركيبها، ثم الوصول إلى علل ونتائج الحوادث.

ه) «التخيل» أى إيجاد صورة ذهنية قد لا تكون فى بعض الأحيان موجودة فى الخارج كمقدمة لفهم القضايا الجديدة.

و) «الإرادة والتصميم» لأجل القيام بالأعمال أو التوقف عنها أو تغييرها.

ز) «الإدراكات الفطرية والعقلية» وهى الأساس فى الاستدلالات النظرية وغير البديهية.

ح) العشق، الحب، العداوة وعشرات الظواهر الروحية الأخرى ذات التأثيرات الإيجابية أو السلبية فى أفعال الإنسان.

وبالطبع فهذه القضايا ليست منفصلة عن بعضها، بل هى متمركزة جميعها فى داخل روح الإنسان، إنّها أمواج من هذا المحيط اللامتناهى، وأنوار من هذه الشمس الساطعة، وهذا مايدل على أنّ الروح الآدمية أرفع آيات اللّه وأهم علاماته.

وفى قول القرآن الكريم إشارة إلى هذه الحقيقة: «وَفِى الأَرضِ آياتٌ لِّلمُوقِنِينَ*

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۷

وَفِى أَنفُسِكُم أَفَلا تُبصِرُونَ». (الذاريات/ ۲۱)

ولا نذهب بعيداً فإنَّ الذاكرة الإنسانية التى تمثل أرشيفاً للمعلومات المختلفة على درجة من الغرابة والعجب بحيث لو أننا أردنا توظيف مئات الأشخاص لحفظ وظرافة وترتيب معلومات أحد الأشخاص لاستحال عليهم القيام بنشاط الذاكرة بهذه السرعة والدقة.

ولو سلبت منّا الذاكرة لساعة واحدة لما أمكنتنا الحياة، فلا نضلّ الطريق إلى منازلنا فحسب، بل سيصيبنا النسيان حتى فى أن نضع اللقمة فى فمنا عند تناول الطعام، سيكون كل شىء بالنسبة لنا مجهولًا ووحشياً وغريباً ومُحيراً.

فقد أحد الشباب جزءً من ذاكرته نتيجة حادث سير أصابه بضربة دماغية، وعندما حملوه إلى بيته أنكر بيته! وقال: إنّ هذه هى المرة الأولى التى أضع فيها قدمى هنا! بل حتى أمه كان يتصورها امرأة غريبة، وبدت اللوحة الفنية التى رسمها بيديه مجهولة تماماً فى عينيه، وكان يقول: إنّها اول مرّة أراها.

إنّنا نحمل فى أرشيف ذاكراتنا صوراً لآلاف الموجودات وآلاف آلاف البشر وآلاف آلاف المواد المختلفة وآلاف آلاف الخواطر واللقطات وآلاف آلاف المعلومات المختلفة الاخرى والعجيب أنّ استحضار احدى الخواطر لا يحتاج أكثر من واحد بالألف من الثانية من أجل أن يستطيع الإنسان الانتباه إلى خاطرة معينة من بين معلوماته المبوبة التى مضت عليها لحظة أو سنة أو خمسون سنة، خاصة وأنّ العلماء يشيرون إلى إحدى الأعمال المحيرة للذاكرة والتى يسمونها «معجزة الذاكرة» وهى بالترتيب الآتى:

كثيراً ما ينسى الإنسان إسم شخص أو موضوع ثم يجهد ويحاول أن يتذكره ويقلّب رفوف أرشيف ذاكرته واحداً بعد الآخر ولكن دون جدوى

حسناً، إن كان الإنسان يعلم ذلك الاسم أو الموضوع، فلماذا يبحث عنه؟ وإن لم يكن يعلمه فكيف يبحث عن شىء لا- يعلمه؟ أفيمكن أن يبحث الإنسان عن ضالة لا يعرف ما هى أو من هى؟!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۸

ومع هذا فيصدق على ذاكرة الإنسان أن تبحث عند النسيان عن ضالة لا تعلم ما هى؟

وفجأة تصل إلى الرف الذى يحمل ضالتها فتعثر عليها «۱».

وهنا توجد نقطة دقيقة يكمن فيها الحل المذهل للقضية، وهى: فى مثل هذه المواضع لا يبحث الإنسان عن ذات ذلك الاسم أو الموضوع الذى لا- يعرف ما هو بل من أجل العثور عليه تراه يبحث عن مجموعة الحوادث التى يعلم بشكل إجمالى أنّه اختزنها فى ذهنه بمعية الاسم المطلوب (لأنّ الحوادث المختلفة تُخْتَزَنُ على شكل مجموعات مجموعات)، فمثلًا هو يعلم أنّه تعرف لأول مرّة على الشخص المعنى الذى نسى أسمه فى اليوم الفلانى والمحل الفلانى، لذلك يطلب من أرشيف الذاكرة وبشكل فورى إضبارة ذلك اليوم وذلك المحل ويتصفحها بسرعة البرق ليعثر فى طياتها على اسم ذلك الشخص.

ونختم هذا الكلام بحديث عن الإمام الصادق عليه السلام وَرَدَ فى توحيد المفضل، يقول:

«تأمل يا مفضّل هذه القوى التى فى النفس وموقعها من الإنسان، أعنى الفكر والوهم والعقل والحفظ وغير ذلك، أفرأيت لو نقص الإنسان من هذه الخلال الحفظَ وحده كيف كانت تكون حاله؟ وكم من خلل كان يدخل عليه فى اموره ومعاشه وتجارته إذا لم يحفظ ماله وما عليه وما أخذه وما أعطى وما رأى وما سمع، وما قال وما قيل له ولم يذكر من أحسن إليه ممن أساء به، وما نفعه ممّا ضره، ثم كان لا يهتدى لطريق لو سلكه ما لا يُحصى ولا يحفظ علماً ولو درسه عمره، ولا يعتقد ديناً، ولا ينتفع بتجربة ولا يستطيع أن يعتبر شيئاً على ما مضى بل كان حقيقاً أن ينسلخ من الإنسانية أصلًا».

ثم يضيف الإمام: «وأعظم من النعمة على الإنسان فى الحفظ النعمة فى النسيان، فإنّه لولا النسيان لما سلا أحد عن مصيبة ولا انقضت له حسرة، ولا مات له حقد، ولا استمتع بشىء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ..» «۲».

---

(۱) الاقتباس من كتاب «حافظة» من سلسلة «چه مى دانم» (بالفارسية).

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۸۰ و ۸۱ (بشىء من التلخيص).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۹۹

۴- مقارنة عقل الإنسان بالعقول الألكترونية

فى بعض الأحيان يقارن البعض من عديمى الاطلاع بناء روح وفكر الإنسان وعقله ببناء العقول الالكترونية، والحال أنّ الفرق بينهما اكبر من الفرق بين الطائرة اللعبة التى يلعب بها الأطفال وطائرة عملاقة حقيقية! والسبب هو:

إنّ نشاط العقول الالكترونية محدود بحدود حافظتها فقط، وحافظتها هى تلك التى يغذيها الإنسان بالمعلومات، ولذلك ليس لها وراء حدود هذه الحافظة المحدودة أى نشاط على الاطلاق.

وفضلًا عن أنّ العقول الألكترونية تفتقر لأىنوع من أنواع الإبتكار والتفكير أزاء إحدى الحوادث الجديدة مهما كانت بسيطة، كردّ الفعل مقابل هبوب الرياح الشديدة مثلًا ناهيك عن الإبتكار والإبداع فى القضايا المهمّة والمعقدة.

ثم حتى لو افترضنا صحة المقارنة بينهما فَأى عقل يصدق أن صناعة العقل الالكترونى الذى يُعد أُعجوبة الصناعات البشرية، قد تمت على يد إنسان أمى أو أعمى أو أصم أو مجنون؟

أفيمكن للطبيعة الفاقدة للروح والعقل والتفكير والابتكار أن توجد الروح والعقل والابتكار؟ ومن هنا نقول: إنّ فى داخل روح الإنسان الآلاف من آيات الخالق وعلاماته.

۵- أصالة واستقلال الروح

مع أنّه لا يوجد بالنسبة لنا فرق فى البحوث المتعلقة بآيات اللّه بين أن تكون روح وفكر الإنسان جوهراً مستقلًا ومجرداً عن المادة، أو مرتبطاً بها ومن آثارها (وهذا هو الجدل المعروف بين الفلاسفة الإلهيين والماديين)، ولكن لا شك أنّه متى ما ثبتت أصالة واستقلال الروح اكتسبت هذه الآية الإلهيّة مزيداً من التأثير والجاذبية.

يصر الماديون على أنّ الروح والفكر من الخواص «الفيزو كيميائية» للخلايا الدماغية

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۰

والتى تزول تماماً بفناء الجسم، والحال أنّ للروح والفكر الآدمى ظواهر لا يمكن تفسيرها بالتفاسير المادية أبداً.

فمثلًا يجد كل شخص حقيقة فى داخله تسمى «الأنا»، وهى واحدة ليست أكثر منذ بداية العمر حتى نهايته، «أنا» منذ الطفولة وحتى الآن شخص واحد لم أزدد ولم أتغير، وسأبقى أنا ذلك الشخص إلى آخر العمر، بالطبع درست وتعلمت القراءة والكتابة ولهذا فقد حصلت وعلى نسبة من التكامل، لكننى لم أتحول إلى إنسانٍ آخر، بل ما أزال ذلك الشخص السابق.

فى حين إذا أخذنا الأجزاء المادية للجسم نرى أن جميع تلك الذرات فى حال تغيّر وتبدل، وأنّ جميع خلايا الجسم تتغيّر كل سبعة أعوام مرّة واحدة تقريباً، أى أنّ الشخص البالغ من العمر سبعين سنة أصابه تبدل فى أجزاء جسمه المادية عشرة مرات، رغم أنّ «الأنا» (شخصيته الإنسانية) ثابتة لم تتغير، وهذا يدل على أن حقيقة «الأنا» حقيقة ما وراء المادة ولا تتغير بتغيرات المادة.

فضلًا عن أنَّ فى أذهاننا حقائق مخزونة تكون أكبر من مخنا وخلايانا المخية آلاف الآلاف من المرات، تصور السماوات والمجرّات، الشمس والقمر وغيرها، فَمن المستحيل أن تكمن هذه الصور الكبيرة فى الجزء المادى من وجودنا، ولا سبيل إلّاأن تنعكس فى الجزء غير المادى أى الروح، لأنّ الجزء المادى أى المخ ليس إلّاموجود صغير.

وعلاوة على هذا فإنّ الظواهر المادية تقبل التجزئة والقسمة جميعاً فى حين توجد بين مفاهيمنا الذهنية مفاهيم لا تقبل التجزئة إطلاقاً.

إنّ خصوصية «تصوير الواقع» والاطلاع على العلم الخارجى بالنسبة لنا، والموجودة فى علومنا ومعارفنا، هى حقيقة لا يمكن تبريرها عن

طريق الخواص «الفيزو كيميائية» للمخ.

وهذه البراهين الأربعة وبراهين واضحة أخرى تدل بجلاء على أنّ الروح جوهر مستقل ومجرّد من المادة «۱».

---

(۱) من أجل مزيد من الشروح راجع، ذيل الآية ۸۵ من سورة الإسراء من «التفسير الأمثل».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۱

۶- خصوصيات الروح فى القرآن الكريم

يمكن استخلاص الخصوصيات والصفات التالية للروح الإنسانية بالاستفادة من آيات القرآن الكريم:

أ) تتمتع الروح الآدمية بالاستقلال وتبقى بعد انفصالها عن الجسد مستقلة، والآية «اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ ...». (الزمر/ ۴۱) تشهد بهذه الحقيقة.

ب) من الممكن أن تتنعم الروح الآدمية وبعد انفصالها عن الجسم فى عالم البرزخ بانواع النعم الإلهيّة أو أنّها تتعذب بمختلف صنوف العذاب الشديد، وفى آية «حَياةُ الشُّهَداء» كما ورد فى الآية ۱۶۹ من سورة آل عمران.

وآية «عذاب آل فرعون» كما ورد فى الآية ۴۶ من سورة غافر.

دليل على هذا المعنى

ج) يختلف بناء الروح إختلافاً كبيراً عن بناء الجسم كما قرأنا ذلك فى الآيات المعنية حيث إنّ اللَّه تعالى يعتبر الروح من عالم «الأمر» وخلقها من نوع «انشاء الخلق الآخر» الآية ۸۵ من سورة الاسراء و ۱۴ من سورة المؤمنون.

د) إنّ علم الإنسان عن حقيقة الروح وأسرارها قليل جدّاً، وآية «وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلمِ إِلّا قَلِيْلًا». (الاسراء/ ۸۵) شاهد على هذا المدعى

ه) فى حالة النوم تضعف علاقة «الروح»، ب «الجسم» وفى حالة الموت تنقطع نهائياً كما فى ورد فى سورة الزمر، الآية ۴۲.

و) الروح والظواهر الروحية بصورة عامة من الآيات المهمّة على عظمة اللَّه ووسيلة مهمة لمعرفته تعالى «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الزمر/ ۴۲)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۲

۷- مسك الختام حول الروح

إنّ البحث حول الروح اكبر وأوسع من أن نستطيع تبيان جميع أبعاده فى هذا الموجز السريع، وإذا أردنا أن نترك عنان القلم خرجنا من بحثنا التفسيرى، لذلك يمكن الرجوع إلى الكتب الفلسفية والكلامية والروائية، من أجل المزيد من التفصيلات وقد وردت بحوث متعددة فى «التفسير الأمثل» فى هذا المضمار، ونلاحظ بحوثاً وشروحاً وافية فى تفسير الميزان، المجلد الأول فى تفسير الآية: «وَلَا تَقُوْلُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيْلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ». (البقرة/ ۱۵۴)

ذكر العلّامة المجلسى فى كتابه المشهور بحارالانوار ۱۷ دليلًا عقلياً ونقلياً لإثبات أنّ حقيقة الإنسان ليست مجرّد هذا الجسم «۱».

وفى نفس هذا الكتاب يذكر نقلًا عن المحقق الكاشانى ۱۴ قولًا حول حقيقة الروح «۲».

ونختم هذا البحث بحديث لطيف عن أميرالمؤمنين عليه السلام، حيث روى عنه أنّه قال: «الروح فى الجسد كالمعنى فى اللفظ» «۳».

يقول أحد العلماء واسمه الصفرى: «إننى لم أر مثالًا حول الروح أجمل وأفصح من هذا المثال»، نعم الروح كالمعنى والجسم كاللفظ!

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۵۸، ص ۶ إلى ۱۰.

(۲) المصدر السابق، ص ۷۵.

(۳) سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۳۷، مادة (الروح).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۳

۵- آياته فى الهداية الفطرية والغريزية للإنسان والحيوان

تمهيد:

ليس البشر فحسب بل الكثير من الأحياء الأخرى تولد من أمهاتها ولديها حصيلة من العلوم والمعارف الفطرية والغريزية، العلوم التى لم يكن ثمّة معلم يعلمها وليست وليدة التجربة والاختبار، بل إنّ المعلم الأول هو الذى أودعها منذ البداية فى عمق وجود الإنسان وسائر الحيوانات بطريقة تثير العجب والذهول.

إنّ دراسة هذه العلوم والمعارف والهداية الفطرية والغريزية تعد آيات عظيمة على عظمة اللّه وعلامة بيّنة لعلمه وقدرته.

وبهذه الإشارة القصيرة، نقرأ خاشعين للآيات الكريمة أدناه:

۱- «قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . (طه/ ۵۰)

۲- «أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ* وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

(البلد/ ۸- ۱۰)

۳- «فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا». (الشمس/ ۸)

۴- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيْلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّيْنُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

(الروم/ ۳۰)

۵- «الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ». (العلق/ ۴- ۵)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۴

۶- «الرَّحْمنُ* عَلَّمَ الْقُرآنَ* خَلَقَ الإِنْسانَ* عَلَّمَهُ الْبَيَانَ». (الرحمن/ ۱- ۴)

۷- «فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنْتَ مُذَكِّرٌ». (الغاشية/ ۲۱)

جمع الآيات وتفسيرها

أستاذ الأزل:

الآية الأولى من الآيات التى اخترناها فى بحثنا هذا تتناول حوار موسى بن عمران عليه السلام مع فرعون، فعندما سأله فرعون وأخاه هارون: من هو ربّكما هذا الذى تدعوان له؟ أجابه فوراً: «رَبُّنا الَّذى أعْطى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدى .

واضح أنّ كل موجود خلق من أجل هدف، وكل صنف من أصناف النباتات والحيوانات والموجودات سواء كانت طيوراً أو حشرات

أو حيوانات أو صحارى أو بحاراً، كلٌ خُلِقَ لبيئة خاصة، ونرى بوضوح أنّ لها انسجاماً كاملًا مع بيئتها وقد زوّدت بما تحتاج إليه، هذا فى المرحلة الابتدائية من خلقها.

أمّا فى مرحلة الهداية التكوينية فنشاهد بجلاء أن ليس هنالك موجود يترك لحاله بعد خلقه بل إنّه يُساق نحو أهدافه بتوجيه خفى، وللكثير منها علوم ومعارف لم تصلهم بلاـ شك عن طريق التجربة الشخصية ولا عن طريق تعليم المعلم، إنّ هذه الهداية التكوينية والعلوم والمعارف من آيات الذات المقدّسة التى خلقت هذا العالم الكبير وما انفكت تهديه وتسيّره.

وبالطبع فإنّ هذا الكلام لا يخص الإنسان وحده، بل إنّ مفاد الآية هو بحث كلى وجامع وعام يشمل أفراد البشر، وهذا أمر يختلف عن هداية الأنبياء والرسل المسماة بالهداية التشريعية والخاصة بالإنسان.

إنّ الطفل الذى يولد من أمّه يتّجه وبدون أى مقدّمة نحو ثدى الأم بفمه ويمتص عصارة روحها، وتارة يضع يديه الصغيرتين على الثدى فيحرك منابع اللبن فيه، من اين تعلم هذا الدرس الذى يضمن لهُ تغذيته واستمرار حياته؟

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۵

من اين يعلم أنّ أفضل سبيل لرفع حاجاته التى لا يستطيع القيام بها هو «البكاء» البكاء الذى يهز الأم فى نومها ويقظتها ويفرض عليها معونته، وكذلك العلوم والمعارف الأخرى التى يستفيد منها الإنسان فى مراحل أخرى من دون الحاجة إلى معلم.

يوجد فى آيات أخرى من القرآن ما يشبه هذا المعنى نقرأ فى قوله تعالى «وَالَّذى قَدَّرَ فَهَدى . (الأعلى/ ۳)

وفى الآية الثانية من الآيات المخصصة لبحثنا هذا وعند تذكير الإنسان بنعمه عليه، يقول بعد الإشارة إلى نعم العين واللسان والشفاه: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ».

«نجد»: فى اللغة بمعنى المكان المرتفع والفلاة، وهى تقابل «التهامة» التى تطلق على الأراضى المنخفضة والواطئة والمساوية لمستوى سطح البحر وما شاكل، وانطلاقاً من أنّ المعرفة بأُسس السعادة وطرقها وسلوك هذه الطريق يشبه إلى حدٍ ما سلوك الطرق المرتفعة بما فيها من مشاق ومشاكل كثيرة، فقد استعملت مفردة «نجد» هنا بمعنى طريق الخير، ثم جاء الاطلاع على طرق الشر إلى جانبها بعنوان «التغليب»، وعليه يكون معنى الآية هو: «إنّا هدينا الإنسان إلى هذين المكانين المرتفعين»، وهذان المكانان هما طرق الخير والشر.

لهذا نقرأ فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «يا أيّها الناس! هما نجدان: نجد الخير ونجد الشر، فما جُعِلَ نجد الشر أحبَّ إليكم من نجد الخير» «۱».

يحصر البعض من ذوى النظر المحدود مفهوم الآية الواسع فى داخل موضوع محدود، ويقولون: إنّ المقصود من هذين المكانين المرتفعين هما ثديا الأُم! وقد ورد فى الحديث أن الإمام على عليه السلام سُئِل عن معنى «وهديناه النجدين» وهل تعنى ثديى الأم كما يدعى البعض.

إنّ الهداية الإلهيّة فى هذا المجال تحصل طبعاً عن طرق مختلفة، عن طريق الوجدان الأخلاقى، الفطرة، الدلائل العقلية، وتعاليم الرسل (أى أنّها تشمل أنواع الهداية التكوينية والتشريعية)، لكن سياق الآيات يناسب الهداية التكوينية أكثر.

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۱؛ و تفسير مجمع البيان؛ وتفسير القرطبى، وقد روى نفس هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام تعقيباً على الآيات المنظورة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۶

وفى الآية الثالثة بعد القسم بروح الإنسان، وخالق الروح، يشيرُ إلى مسألةِ الهام الفجورِ والتقوى ويقول: إنَّ اللَّه تبارك وتعالى أَلْهَمَ نَفْسَ الإنسانِ الفجور والتقوى «فَأَلْهَمَها فُجُوْرَهَا وَتَقْوَاهَا»، و «الالهام» مِنْ مادة (لَهْمْ) على وزن (فَهْمْ) أى (ابتلاع) أو (شرب) الشىء

«۱».

ثم جاءت بمعنى القاء الأمر فى قلب الإنسان من قبل البارى تعالى فكأنّما يلتهمُ القلبُ ذلك الأمرَ بتمامه، وللالهام معنىً آخر أيضاً وهو «الوحى»، حيث استُخدِمَ أيضاً بهذا المعنى أحياناً.

وتعنى «الفجور» خرقَ حجابِ التقوى وارتكاب الذنوب، وهى من مادة «فَجْر» التى تعنى الانشقاق الواسع، أو انكشاف ظلمة الليل بواسطة بياض الصبح.

و «التقوى : من مادة «الوقاية»، وتعنى (الصيانة)، والمقصود هنا الأساليب التى تمنع الإنسان من التلوث بالذنوب والقبائح.

من هنا يُفهمُ بوضوح من هذه الآيةِ أنّ اللّه تبارك وتعالى قد أوْدَعَ مسألةَ إدراكِ الحُسْنِ والقُبحِ العقليين وفَهْمِ الحَسَنِ والسىء بشكلٍ فطرىٍّ داخل روح الإنسان كى يهديه الطريق نحو السعادة والتكامل.

وورد فى حديثٍ للإمام الصادق عليه السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «بيَّنَ لها ما تأتى وما تترك» «۲»

، فالمقصود هو أنَّ اللّه بيَّنَ للإنسان ما يجب فِعْلُهُ وما يجب تَركُه أو بتعبير آخر علَّمَهُ (الواجبات، والمحرمات).

وحول السبب فى تقدُّم «الفجور» على «التقوى ؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ «التَّطهرَ من الذنوب» يُمثلُ الأرضيةَ ل «التحلى بالتقوى ، باعتبار أنّ (التخلية) تكون قبل (التحلية)، و (التطهير) قبل «اعادة البناء» دائماً «۳».

---

(۱) لسان العرب مادة (لَهمْ) بناءً على ذلك فحينما تستعمل هذه المادة فى باب الافعال تفيد «الابتلاع والشرب» وقال بعض إنّها تستخدم فى امور الخير فقط، وإنّ المراد من الهام الفجور فى الآية هو صده عن الخير أيضاً.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۸۶، ج ۷.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۴۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۷

على أيّةِ حالٍ، فلو لم يكن إدراكُ حُسْنِ وقُبحِ الأفعالِ فطرياً بالنسبة للإنسان، أى لو كانت هناك حاجة للاستدلال من أجل فَهمِ قُبحِ الظلم وحُسنِ العدل والاحسان والأعمال الاخرى فمن المسلَّم إنّه سيختلُ نظام المجتمع البشرى، لأنَّ الكثير من الاختلافات العقائدية تنشأ عن الاستدلالات النظرية، حيثُ لا يوجد أساسٌ وجدانىٌ متين لهذا المعنى فيمنحُ كلُّ شخصٍ لنفسهِ حريةَ القيام بأىِّ عمل.

أجَلْ إنَّ هذه الهدايةَ الالهيةَ فى الحياة الاجتماعية للإنسان مصيريةٌ إلى أبعدِ الحدود، وهذه النعمةُ وهذه الهدايةُ مهمّةٌ إلى الحدِّ الذى لا يمكن قياسُها بسائر النِّعم الاخرى

وفى الآية الرابعةِ طُرحت مسألةُ فطرية الدين، وهو (الدين الحنيف) أى الخالى من كل أشكال الهوى والاتجاه نحو الباطل والانحراف، والطاهر من كافة أشكال الشرك والتلوث:

«فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفَاً فِطْرَتَ اللّهِ الَتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا».

والاستفادة من تعبير «الدِّين» نظراً لسعة مفهومهِ، حيث يشمل جميعَ اصول الدين، والحد الأدنى من مجموع فروع الدين، بأنّه ليس معرفة اللّه والتوحيد فقط، وإنّما اصول وفروع الدين كافة اودعَتْ منذ البداية فى روحِ الإنسان بنحوٍ اجمالىٍّ وبصورةٍ فطريةٍ، وهذه هى «الهدايةُ التكوينية» التى يُمكنُ أن تُوجِدَ أكثر الآثار جاذبية لدى الإنسان فيما لو تناغمت مع «الهداية التشريعية» للأنبياء عليهم السلام.

بناءً على ذلك فانَّ أصلَ كلِّ دعوةٍ موجودةٍ فى الشريعةِ له وجود فى أعماق فطرةِ الإنسان، ولا يعارضُ أىُّ دينٍ الإرادات الفطرية للإنسان، بل يرشدُها وَيكْملها من خلال الطريق المشروع، ولهذا فانَّ التعبُّدَ والتَّدَيُّنَ موجودان داخل روحِ الإنسان بصفتهما هدايةً تكوينية، وإذا ما حصلَ انحرافٌ ما فانَّهُ طارىءٌ، لهذا فانَّ دور الأنبياء عليهم السلام هو ازالةُ هذه الانحرافات الطارئة كى تحصلَ إمكانية تَفَتُّح الفطرةِ الحقيقية.

وهنا نكتفى بهذا المقدار حيث سنتكلَّمُ مفصلًا بخصوص هذه الآية فى بحث التوحيد الفطرى فى المجلَّد الثالث إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۸

وقد تحدثت الآية الخامسة عن التعليم الإلهى بواسطة القلم ثم أشارت بشكل عام إلى تعليم الإنسان للمسائل التى يَجهلُها إذ يقول تعالى «الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

قد يكون التعليم الإلهى بواسطة القلم إشارة إلى القراءة والكتابة التى حدثت لأول مرّة على أيدى الا نبياء عليهم السلام «۱»، أو لأنَّ اللَّه تباركَ وتعالى قد أوْجَدَ هذا الذوق والقابلية لدى الإنسان هدايةً فطرية حيثُ أبْتُدِعَ بعد اتضاحِ القراءةِ والكتابةِ، فبدأت مرحلة ما بعد التاريخ مع إيجاد الخط (حيث نعلمُ أنّ الفاصل الزمنى بين مرحلتى ما قبل التاريخ وما بعد التاريخ هى مسألة اكتشاف الخط).

على أيّةِ حالٍ، فقد حصلَ التعليمُ بالقلم عن طريق الهدايةِ الإلهيّة.

ويُمكن أن تكون جملةُ «عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعلَمْ» إشارة إلى العلوم الفطرية المختلفة التى أودَعَها اللَّه تعالى فكر الإنسان، المتضمنة لإدراك القُبحِ والحُسْن، والفجور والتقوى وكذلك القضايا البديهية التى تكون أساساً للقضايا النظرية فى العلوم الاستدلالية، والاطّلاع على قواعد الدين واصول الأحكام الإلهيّة أيضاً.

وفى الآية السادسة بَعْدَ أن يَنسِبَ تعليمَ القرآن إلى اللَّه الذى هو مصدرُ جميع الرحمات والكرامات، يتحدثُ عن خلقِ الإنسان ويقول: «خَلَقَ الانْسَانَ* عَلَّمَهُ الْبَيانَ».

ول «الْبَيان»: مفهومٌ عامٌ حيثُ يُطلقُ على كلِّ شىءٍ موضِّح كأنواع الاستدلالات العقلية، والمنطقية التى تُبينُ المسائلَ المعقدَّة، أو الخط والكتابة، أو الكلام الذى يعد من ابرز مصاديقه.

وقد اعطى المفسرون احتمالاتٍ كثيرة فى تفسير «البيان»، فقد اعتبرها فريق منهم

---

(۱) نقل عدةٌ من المفسرين أنّ آدم عليه السلام كان أول من كتب بواسطة القلم (تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۲۱۰؛ وتفسير روح البيان، ج ۱۰ ص ۴۷۳).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۰۹

بمعنى بيانُ الخير والشَّر، وفريق آخر بمعنى بيانُ الحلال والحرام، وثالث اعتبرها بمعنى الاسم الأعظم، ورابع بمعنى تعليم اللغة «۱».

لكن من الواضح أنّ ظاهر (البيان) هو التكلُّم، وتبدو بقية الاحتمالات ضعيفة «۲».

وهنا كيف علَّمَ اللَّه تعالى الإنسان التكلُّمَ؟ قال بعض المفسرين: إنَّ اللَّه هو الذى «وَضَعَ اللغات» ثم علَّم الأنبياء عليهم السلام عن طريق الوحى، لكن يبدو أنّه ليس هناكَ دليلٌ واضحٌ لهذا الرأى، إنّما المقصود هو الالهام الباطنى من قبل اللَّه تعالى للإنسان، حيث استطاع من خلال ايجاد الصوت عن طريق الحنجرة، ثم إيجاد الحروف عن طريق حركة اللسان والاعتماد على مخارج الحروف، ثم تركيبها مع بعضها وإيجاد الكلمات، ثم تسمية الأشياء والمفاهيم المختلفة، بحيث يعكس مقاصدهُ الباطنية والمفاهيم المادية والمعنوية، الجزئية والكلية، المستقلة وغير المستقلة كافة عن هذا الطريق السهل الذى هو فى متناول أيدى الجميع، والحقيقة أنّه لو لم تكن هذه الهِبَةُ الالهيةُ الخلّاقة ولم يعرف الإنسان التكلُّمَ لَما وُجِدَتِ الحضارة، ولَما ارتقى العلمُ إلى هذا الحد، ولَما تمكَّنَ الإنسانُ من بناء قواعد حياتهِ على أساسِ التعاون الجماعى، لأنَّ التعاونَ فرعٌ من علاقة التقارب مع الآخرين.

وورد فى تفسير الميزان أنّ من أقوى الأدلة على أنَّ اهتداء الإنسان إلى «البيان» قد تم بالهامٍ الهىٍّ، هو اختلافُ اللغات باختلاف الامم والطوائف فى الخصائص الروحية والاخلاقية والنفسانية وبحسب اختلاف المناطق الطبيعية التى يعيشون فيها «۳».

وقد قدَّرَ بعض المحققين عدد اللغات الموجودة فى العالم ب «ثلاثة آلاف لغة»، وقال بعضهم أنّ العدد يفوق ذلك «۴».

وهذا الاختلاف عجيبٌ حقاً، وهو من براهين قدرةِ وعظمةِ اللَّه تبارك وتعالى

(۱) تفسیر القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۲۲، و تفسیر روح المعانی، ج ۲۷، ص ۸۶.

(۲) إذا فُسِّرت (البیان) فی بعض الروایات علی أنّها الاسم الأعظم فهو من باب ذکر المصداق الواضح.

(۳) تفسیر المیزان، ج ۱۹، ص ۱۰۷.

(۴) دائرة المعارف «فرید وجدی»، ج ۸، ص ۳۶۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۰

فأَصلُ التکلم مِن آیات اللّه العظیمة، وهذا التنوع فی اللغات آیةٌ عظیمةٌ اخری وکلاهما یعتبر من خصائص خلقةِ البشر.

من الممکن أن تنطقَ بعضُ الطیور عن طریق التعلیم المتکرر عبارات جذابة، ولکن- ممّا لا شک فیه- أنّ عَمَلَها لیس إلّاتقلید لالفاظٍ محدودةٍ صادرةٍ عن الإنسان من غیر ادراکٍ لمفاهیم هذه الالفاظ، فالانسانُ وحدهُ الذی یستطیع- بنحوٍ غیر محدودٍ وبادراک تام- أن یکوِّنَ جُمَلًا ویصب فیها مفاهیم مختلفةً ویعّبر عنها.

وفی (توحید المفضل)، یلفتُ الإمام الصادق علیه السلام النظر إلی هذه الآیة العظیمة، حیث یقول علیه السلام للمفضل: «... اطِلَ الفکر یا مفضل فی الصوت والکلام وتهیئة آلاته فی الإنسان، فالحنجرة کألانبوبة لخروج الصوت، واللسان والشفتان والاسنان لصیاغة الحروف والنغم، الم تر أن من سقطت أسنانه لم یقم السین، ومن سقطت شفته لم یصحح الفاء، ومن ثقل لسانه لم یفصح الراء، وأشبه شیء بذلک المزمار الأحمر ....» «۱».

ثم یشرحُ الإمام علیه السلام تفاصیلَ ذلک للمفضل ویدعوه إلی التفحص بهذا الأمر.

وفی الآیة السابعة والأخیرة من بحثنا، یخاطبُ تعالی الرسولَ صلی الله علیه و آله ویأمُرُهُ: «فَذَکِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَکِّر»، فقد یکون المقصود من «التذکیر» إشارة إلی أن حقائق هذه العلوم والمعارف وخلاصتها موجودة فی وجدان وروح الإنسان طبقاً للهدایة الإلهیّة، ثمَّ تتفتحُ هذه العلوم فی ظل تعالیم الأنبیاء والرُسل (علیهم السلام)، حیث تخرج من مرحلة «الخفاء» إلی مرحلة «الظهور»، ومن «الاجمال» إلی «التفصیل» ومن «الباطن» إلی «الظاهر».

وقد وردت هذه الآیة أربعُ مراتٍ فی القرآن الکریم فی سورة القمر عند بیانِ وقائعِ قومِ «فرعون» و «عاد» و «ثمود» و «لوط» حیث یقول تعالی «وَلَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ». (القمر/ ۱۷، ۲۲، ۳۲، ۴۰)

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۷۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۱

وهذا الکلامُ معروفٌ أیضاً عن بعض الفلاسفة الیونانیین، حیث یقولون: «لیست العلومُ والمعارف إلّاالتذکیر، ولقد اودِعت جمیعُ القواعد العلمیة روح الإنسان دون استثناء، وقد نَسِیَها الإنسانُ إلّاأنّها تعود إلی الذاکرة بمساعدة المعلمین».

یقول الفخر الرازی فی تفسیره: «لو قال قائلٌ: هذا یقتضی وجودَ أمرٍ سابقٍ فنسیَ، ونقول: ما فی الفطرة من الانقیاد للحقِّ هو کالمنسی فهل من مدَّکر یرجع إلی ما فُطِرَ علیه» «۱».

علی أیّةِ حالٍ، فإنّ جمیع هذه الآیات دلیلٌ حیٌّ علی الهدایة الإلهیّة الفطریة للإنسان.

توضیح

الهدایة الفطریة و الغریزیة فی العلم المعاصر:

مع تطور علم النفس، وعلم التحليل النفسى، وبحوث العلماء حول الحواس ذات الأسرار الغريبة للحيوانات، اكتُشِفت الكثير من أسرار الهداية الفطرية والغريزية الغريبة والمدهشة فى عالم الأحياء، ونواجه ظواهر تعجز العلوم عن تفسيرها، ولايمكن أبداً الوقوف على مصدر هذه الهدايات، إلّاأنّ نُسَلِّمَ بأنَّ مبدىء عالم الوجود الذى تَكفَّل بهداية جميع الكائنات هو الذى وَهَبَ هذه العلوم عن طريق الالهام الفطرى الخفى للإنسان أو الحيوانات.

ولدينا فى هذا المجال قدر وافر من الشواهد بحيث لو جُمعت لشكَّلت كتاباً كبيراً، منها الحالات الدقيقة الآتية:

١- إنّ الطفل حين ولادته يعرفُ جيداً ومن دون الحاجةِ إلى معلِّم كيفية الامساك بالثدى والرضاعة، واستخدام اليد والأصابع لهذا العمل، وعكس وايصال حاجاته إلى الأُم عن طريق البكاء ويكون حاملًا لاستعدادات خفية اكتسبها من أمّه، من بينها: ابتداع الكلمات،

---

(١) تفسير الكبير، ج ٢٩، ص ۴٢.

قابلية التكلم وفهم اللغات بالأضافة إلى إدراك الحسن والقبح وقسم كبير ممّا يجب وما لا يجب ويحمل فى نفسه بشكل فطرى معرفة عالم الوجود بالإضافة إلى معرفة اللّه سبحانه وتعالى.

يقول أحد العلماء: حينما تحتضنُ الامهاتُ أطفالهنَّ لتهدئتهم فهنَّ يضعنهم على الجانب الايسر من الصدر بلا علمٍ منهنَّ بهذا الفعل، حيثُ يضعْنَ أطفالهن بجوار قلوبهن، فيهدأ الطفل بمجرد سماعه ضربات قلب الأُم لأنّه اعتاد على سماع هذا الصوت عندما كان جنينا فى بطن أُمه وقلما توجد ام ملتفتة إلى هذه المسألة، ولذا فانّها تؤدّى عملَها هذا فى هذا المجال بالهام فطرىٍّ محض.

٢- إنَّ مسألةَ الهداية الفطرية والغريزية فى عالم الحيوان أوسعُ بكثير عمّا هى عليه فى الإنسان، حيث يعرض علماء العصر نماذجَ مدهشةً منها، فقد جاء فى كتاب (البحر دار العجائب) تأليف (فرد دياندلين) مايأتى:

«إنّ تصرفات بعض الأسماك تُعدّ من أسرار الطبيعة حيث يعجز كلُّ إنسانٍ عن بيان سببها، فاسماك ال (قزل آلا) تترك مياه البحر لتعود إلى مياه الأنهار العذبة التى بدأت حياتها فيها، وتسبح بجدٍ فى الاتجاه المعاكس لتيار الماء، وتقفز من فوق الصخور، بل وتصعدأعلى الشلالات أيضاً، وقد تملأ النهر لكثرتها أحياناً، وعندما تصل هذه الأسماك إلى المكان الذى تبحثُ عنه تضع بيوضها ثم تموت!

فكيف تهتدى هذه الأسماك إلى الأنهار المناسبة ياترى أنّها أكثرُ إثارة للعجب من اختراع المذياع والتلفاز، لأنّها لا تمتلك خارطةً، كما أنّ قابليتها على الرؤية تحت الماء ضعيفة، وليس هناك من يُدِلُّها على الطريق «١».

٣- وجاء فى نفس ذلك الكتاب: «إنَّ تصرفَ (الجرىّ) أكثرُ عَجَباً من هذا، فحينما يبلغ سمك الجرىّ «الانجليزى» ثمانى سنوات يهجُر الحوض أو النهر الذى يعيش فيه ويزحف ليلًا كالافعى على الاعشاب الرطبة حتى يصل إلى شاطىء البحر، ثم يطوى المحيط

---

(١) البحر دار العجائب، ص ١١۶.

الاطلسى سباحةً ويتجه نحو المياه القريبة من (مثلث برمودا) حيث تضع الاناث بيوضها تحت الماء هناك وتموت ... والمدهش أنّ صغار سمك الجرىّ تعوم على سطح الماء ثم تبدأ سَفَراً طويلًا نحو الوطن الأُم، حيث تستغرق هذه الرحلةُ سنتين أو ثلاث سنوات!

فكيف يعرف الجرىّ هدفه هذا مع أنّه لم يسلك هذا الطريق أبداً؟!

إنّ الجواب عن هذا السؤال يستوى فيه جميع الناس حتى أعلم العلماء وهو (لا أعلم) «١».

۴- يقول (فيتوس درفيشر) مؤلفُ كتاب (الحواس الخفيّة للحيوانات): «لقد اكتشفَ العلماءُ أسراراً مذهلة عن الخفاش، منها وجود

أربعةِ أنواعٍ من الخفافيش التى تصطاد الأسماك، فهى تحلق ليلًا فوق الماء وتمد أرجُلَها فيه فجأةً لتصطاد سمكةً وتأكلها، إنّه سرٌ مدهشٌ فمن اينَ لها العلمُ بانَّ فى تلك النقطة سمكةٌ تسبح تحت الماء؟ لم يفلحُ الإنسانُ بالقيام بهذا العمل حتى الآن بالرغم من وسائله واختراعاته العلمية، فلا تستطيع أىُ طائرةٍ قاذفةٍ أن تحدِّدَ مكاناً معيناً لغواصةٍ تحتَ الماء، وإن استطاعت فعليها أن تطلق موجات خاصة على الماء كى تحدد مكان الغواصة من خلال الذبذبات التى تنبعث من الغواصّة إلى الطائرة بواسطة الأمواج اللاسلكية.

أجَلَ، فالطائرة على عكس الخفاش لم تستطع الاطّلاع مباشرةً على مكان وجود الهدف الذى تحت الماء، .. يقول البروفسور (غيرى فون) «ليس هناك توضيحٌ يمكنُ قبوله لهذا الموضوع أبداً».

ثم يضيف قائلًا: «ولم يكتشف الإنسان شيئاً حتى الآن إلّاويجد الطبيعة قد سبقته إليه».

ومن الطبيعى أن يبعث هذا الاكتشاف عند الإنسان الغرور، لكنه لا يلبث أن يجد نفسه متأخراً عن الطبيعة فى هذا المضمار.

لهذا فقد استحدثَ العلماء الاميركيون علماً جديداً باسم «البولوجيا»- علم البيئة-، وهدفه تعلم الفنون والأساليب الجديدة من الدروس التى تمنحها لنا الطبيعة من خلال الوصول إلى أسرارها.

---

(۱) البحر دار العجائب، ص ۱۱۶.

ثم يضيف قائلًا: «لو وضعنا أحد هذه اللبائن (الخفاش) فى صندوقٍ مُقفَلٍ مُظلم وابتعدنا به ثلاثمائة كيلو متر عن عُشِّهِ ثم اطلقناه، نجده يعود مباشرةً وباقصرِ وقتٍ إليه بالرغم من كونه شبه أعمى وكون ذلك المكانً مجهولًا بالنسبة إليه» «۱».

۵- ويوضح الكاتب المعروف (غرسى موريسن) فى كتابه (سرُّ خلق الإنسان) وفىفصوله تحت عنوان (الشعور الحيوانى)، صوراً لنماذج من هذا القبيل منها:

إنّ الطيور تبنى وتوجد أعشاشها بشكلٍ غريزى (على الرغم من أنّها لم تَرَ نموذجاً من قبل)، فطيرُ السنونو الذى يبنى عُشَّهُ فى رواق البيوت يهاجر فى فصل الشتاء إلى المناطق الدافئة، وأمّا إذا لاحت طلائع الربيع فهو يعود إلى وكره.

والكثير من الطيور تهاجر نحو الجنوب والمناطق الحارة، وأغلبها يقطع مئات الفراسخ براً وبحراً إلّاأنّها لا تضِّل الطريق إلى أوكارها أبداً.

والأسماك الحرّة تعيش سنواتٍ عديدةٍ فى البحر، ثم تعود إلى النهر الذى جاءت منه، والاكثر عجباً أنّها تقفزُ من شاطىء النهر المرتفع وتذهب إلى النهر الذى وُلدت فيه ...

فالأسماك الحرّةُ تَتَبعُ شعورها الباطنى، وتذهب إلى الساحل الذى كان محلًا لنشوئها ونموها، فأىُّ شعورٍ يؤدّى إلى أن يعود هذا الحيوان إلى وطنه بهذا النحو الدقيق؟ «لا عِلم لأحد».

فلو أخرجنا فَرخَ طيرٍ من عشِّه وقمنا بتربيته فى بيئةٍ اخرى فهو يبدأ ببناء عشٍ له عند بلوغه مرحلة الرشد والتكامل وبالاسلوب الذى يتبعهُ أبواه، فهل أنَّ الأعمال المحدّدة والمختلفة التى تصدر عن جميع مخلوقات الأرض تحدث صدفةً، أم أنَّ العقل والشعورَ العام يؤدّى إلى صدورها؟ «۲».

۶- ويقول أحد العلماء الفرنسيين ويدعى «فارد» بصدد طائرٍ يسمى (اكسيكلوب) ما يأتى:

---

(۱) الحواس الخفية للحيوانات، ص ۱۷.

(۲) سرُّ خلق الإنسان، الفصل ۸ الشعور الحيوانى.

«لقد درست أحوال هذا الطائر، فوجدت من خصائصه أنّه يموت عندما يُكملُ وَضْعَ بيوضه، أى أنّه لا يرى فراخه أبداً، ولذلك فانَّ الفراخَ سوف لن ترى وجهَ الأم المليء بالحنان إلى الأبد، وعندما تخرج من البيضة تكون على هيئة اليرقة عديمة الريش والأجنحة ولا قدرةَ لها للدفاع عن نفسها تجاه ما يهدد حياتها، لذلك فعليها البقاء لمدة سنةٍ كاملة على هذه الحال وفى مكانٍ آمنٍ، وأن يكون غذاؤها إلى جانبها، لهذا فحينما تشعر الأُم بحلول موسم وضع البيوض تبحث عن مقطعٍ خشبى فتقوم بثقبه، ثم تشتغل بجمع الأطعمة، فتجمعُ الأوراق والاغصان التى يمكن استخدامها لتغذية فراخها لمدّة سنةٍ كاملة وتُعدُّهُ لواحدٍ من هذه الفراخ، ثم تضعه فى نهاية الثقب وتضع عليه بيضةً واحدة وتبنى فوقه سقفاً قوياً نسبياً من عجينةِ الخشب، وتبقى تشتغل بجمع الأطعمة، وبعد تأمين قوت سنةٍ كاملةٍ لفرخٍ آخر ووضعها على سقف الطبقةِ الاولى تضع بيضةً اخرى ثم تبنى طبقة ثانيةً، وهكذا تقوم ببناء عدةِ طبقاتٍ ثم تموت بعد الفراغ من العمل! (تأمّلوا جيداً .. من اين جاءت معرفةُ هذا الطائر الضعيف بأنَّ لفراخه مثل هذه الحاجات؟ ومِمَّ استلهم هذه التعاليم؟ فهل تعلَّمها من أُمه؟ فى الوقت الذى لم يَرَها أبداً، أم من خلال التجربة، علماً أنّ هذا العمل لا يقع إلّامرّةً واحدةً فى حياته ...

ألا يجب الاعتراف بأنَّ هذا الفعل يستندُ إلى الهام غيبى وغريزى حيث وضعته يد القدرة الإلهيّة فى كيانه؟!).

۷- يقول العالم النفسانى الروسى المعروف (بلاتونوف) فى كتابه (علم النفس فى الاتحاد السوفيتى):

«التقيتُ أثناء الحرب العالمية العظمى صدفةً بطبيب لم يَرَ النومَ لبضعِ ليالٍ، ثم تمكَّنَ من النوم قليلًا، وأثناء ذلك جيء بعددٍ كبيرٍ من الجرحى الذين يجب علاجهم فوراً، إلّاأنَّ الطبيب المذكور لم يستيقظ، فحرّكناه وسَكَبنا الماء على وجهِه، فكان يحرِّكُ رأسه ويعود إلى النوم، فأشرتُ إلى الموجودين بالسكوت «كى اوقظَهُ»، ثم قلتُ له بهدوء وبشكلٍ واضحٍ: أيّها الطبيب جاؤوا بالجرحى وهم بحاجةٍ ماسةٍ إليك، هنا استيقظ فوراً.

ثم يضيف: كيف يمكنُ تبريرُ هذا الأمر، فهؤلاء الذين كانوا يسعونَ لايقاظه كانوا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۶

يوجهون التأثيرات على القسم غير الفعال من دماغه، بينما وضعتُ «دائرة الحراسة من المخ» فى حالة انذار وترقب فهذا الجزء يبقى مستيقظاً حتى فى أعمق حالات النوم، ومن خلال دائرة الحراسة هذه يقيم الإنسانُ علاقاته مع العالم الخارجى (ويودع المسائل التى يرغبُ بها فى هذه الدائرة بلا قصد منه).

والأُمُ التى تنام إلى جانب طفلها المريض ولا يمكن لأعلى صرخات الذين من حولها أن توقظها، تستيقظ لأقلِّ أنَّةٍ تصدر من طفلها.

والطّحان الذى ينامُ عند حدوث العواصف المصحوبةِ بالبرق والرعد يستيقظ بمجرّد توقف طاحونته عن العمل، كل ذلك بسبب ايداعهم لما يريدونه فى دائرة الحفظ فى المخ فى حالة اللاشعور» «۱».

۸- ويقول (درفيشر) فى كتابه حول الحمام الزاجل وعودته المدهشة إلى عشّه:

«لو وضعنا هذا الطائر فى صندوقٍ مقفلٍ مظلم وأبعدناه مئات الكيلو مترات عن وكره، وسلكنا به الطرق الملتوية والمعقّدة أثناء رحلتنا، فانّه حال اخراجه من الصندوق يطيرُ مباشرةً نحو عشِّه بعد عشرٍ أو عشرين ثانيةٍ من رؤية النور، وقد ثبتَ ذلك عن طريق الاختبارات المتكررة التى قام بها عالمٌ معروفٌ يُدعى الدكتور «غرامر» .. ويمكن توضيح اسلوب عمله بهذا المثال: فلو أنّ هذا الطائر كان فى مدينة هامبورغ فانّه يعلم أين تكون الشمس عند الساعةِ الفلانية من اليوم، فإذا أخذوه إلى مدينة «بروم» مثلًا فانّه يفهم أنَّ الشمس هناك تكون إلى الشمال من ۲۵/ ۱ درجةً شرقاً بنصف درجة.

فمن أجل عودته إلى وكرِه فى هامبورغ يجب عليه التحليق نحو الشمال الشرقى مع الأخذ بنظر الاعتبار وضع الشمس فى هامبورغ.

إلّا أنّه ليس معلوماً كيف تقوم هذه الطيور بتحديد طريقها عندما يكون الجوُّ غائماً حيث تختفى الشمس؟ لقد أثبتت التجارب أنَّ أغلبها يجد طريقه بدون الاستفادة من حركة الشمس كبوصله لتحديد اتجاهها» «۲».

(۱) علم النفس فى الاتحاد السوفيتى، ص ۱۹ «مع شىء من الاختصار».

(۲) الحواس الخفية للحيوانات، ص ۱۸۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۷

ولو فرضنا أنَّ هذه الطيور تستفيد من حركة الشمس، فمن المسلَّم به عدم مقدرتها على تعيين الزوايا، وهى زوايا صغيرة جدّاً، لا يمكن قياسها الامن خلال الاستعانة بالمنقلة لتحديدها، وهذه مسائل لا يمكن تفسيرها إلّافى ظل الهداية التكوينية الإلهيّة.

إنَّ هـذا الطائر ومئات مثلُهُ دليلٌ حيٌّ على أنّ وراءَ الطبيعةِ علماً وقدرةً لا متناهيةً تهدى وتقود كلَّ موجودٍ فى مسيرة حياته ... نعم كلُّ هذا دليلٌ على من لا دليل له.

۹- ونختم الحديث بكلامٍ ورد عن الإمام الصادق عليه السلام طبقاً لما جاء فى (توحيد المفضل)، حيث يقول عليه السلام: «فكّر يا مفّضل فى خلقة عجيبة جعلت فى البهائم، فانّهم يوارون أنفسهم إذا ماتو كما يوارى الناس موتاهم، وإلّا فأين جيف هذه الوحوش والسباع وغيرها لا يرى منها شىء؟ وليست قليلة فتخفى لقلتها؛ بل لو قال قائل: إنّها أكثر من الناس لصدق، فاعتبر ذلك بما تراه فى الصحارى والجبال من أسراب الظبا والمها والحمير والوعول والأيائل وغير ذلك من الوحوش، وأصناف السباع من الأسد والضباع والذئاب والنمور وغيرها، وضروب الهوام والحشرات ودوابّ الأرض، وكذلك أسراب الطير من الغربان والقطا والأوز والكراكى والحمام وسباع الطير جميعاً وكلها لا يرى منها شىء مات إلّا الواحد بعد الواحد يصيده قانص أو يفترسه سبع ....» «۱».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۹۹ (مع شىء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۱۹

۶- آياتُه فى حالتى النوم واليقظةِ

تمهيد:

لم يقتصر القرآن الكريم على إشارته إلى الموضوعات المهمّة جدّاً كخلق السماوات والأرض، والشمس والقمر، وروح الإنسان، بصفتها آيات وبراهين من اللَّه تعالى فحسب، بل نراه أحياناً يتعرض إلى المسائل العاديّة فى نظرنا أيضاً، لكى يوضح لنا أنْ ليس هناك شىء عادىّ فى هذا العالم، فكلُّها آياتُ حقٍ كبيرة كانت أم صغيرة، وبراهينٌ عظيمةٌ على علم وقدرة البارى تعالى

ومن بين هذه الامور التى تُعَدُّ عاديةً حسب الظاهر، هى حالتا النوم واليقظة اللتان استند اليهما القرآن الكريم على وجه الخصوص.

بهذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الكريمة الآتية:

۱- «وَمِنْ آياتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ والنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَسْمَعُونَ». (الروم/ ۲۳)

۲- «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ لِباساً والنَّومَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً».

(الفرقان/ ۴۷)

۳- «وَجَعَلْنَا نَومَكُمْ سُبَاتاً* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً». (النبأ/ ۹- ۱۰)

۴- «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ ماءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ».

(الانفال/ ۱۱)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۰

شرح المفردات:

حينما يتطرق بعض أرباب قواميس اللغة إلى مصطلح «النوم» يقولون إنَّ له مفهوماً معروفاً «۱».

إلّا أنَّ الراغبَ يقول فى كتاب المفردات:

النوم: فُسر على أوجه كلها صحيح بنظرات مختلفة، قيل هو استرخاء أعصاب الدماغ برطوبات البخار الصاعد إليه، وقيل هو أن يتوفى اللَّه النفس من غير موت، قال: «اللَّه يَتَوفى الانفُس» الآية، وقيل النوم موت خفيف والموت نوم ثقيل «۲».

و «النُّعاس»: «على وزن غُبار» ويعنى النوم القليل والخفيف، وفسَّره بعض على أنّه بداية النوم، وهنا حيثُ يكون النومُ خفيفاً فى بدايته فانَّ كلا المعنيين يعودان إلى حقيقةٍ واحدةٍ.

و «السبات»: مأخوذة من مادة «سَبْت» (على وزن ثَبْت) أى «القطع»، ولهذا سُمِّىَ يومُ السبت بهذا الاسم فى لغة العرب، حيث كان يوماً لتعطيل الأعمال من أجل الراحةِ، وممّا يظهر أنَّ هذه التسمية مستوحاةٌ من أفكار اليهود حيث يعتبرون يوم السبت عطلةً لهم، وهذا ما يعتقد به اليهود، إذ يقولون إنَّ اللَّه تعالى بدأ خلقَ العالم يوم الأحد وانتهى بعد ستة أيّامٍ فكان يوم السبت نهايةً لخلق البشر وللراحة إلّاأنّنا نعلمُ أنَّ هذا من الأخطاء الفاضحة لليهود، لأنَّه فى الوقت الذى لم تكن هناك سماءٌ ولا أرضٌ ولا شمسٌ ولا قمرٌ لم يكن هناك وجود لليوم والاسبوع أيضاً وحينما يقول القرآن الكريم: «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ» فالمقصود «ست مراحل».

وكلمة «السبت» جاءت بمعنى الراحةِ أيضاً «۳».

جمع الآيات وتفسيرها

النوم من آيات اللَّه:

فى الآية الاولى من البحث يَعُدُّ القرآن الكريمُ نومَ الإنسان فى الليل والنهار أحدَ

---

(۱) لسان العرب ج ۱۲، ص ۵۹۵، مادة (نوم).

(۲) لسان العرب، مادة (نوم).

(۳) مفردات الراغب؛ مجمع البحرين؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۱

البراهين على علم وقدرةِ اللَّه تعالى فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ».

وهو فى نهاية الآية يؤكد هذا البرهان «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوم يَسْمَعُونَ».

وممّا لا شك فيه أنَّ الكائنات الحيّة كافة تحتاجُ إلى الراحةِ لتجديد قواها، واكتساب الطاقة اللازمة لاستمرار نشاطاتها الحياتية، الراحةُ التى تلاحقهم تلقائياً، وتجبُرُ حتى الذين يحرصون على عدم التمتع بها.

فايُّ عاملٍ أفضلُ من النومِ يمكنُ أن نفكر به من أجل تحقيق هذا الهدف حيث يلاحق الإنسانَ بشكلٍ اجبارىٍّ ويضطره لايقاف جميع نشاطاته الجسمية، بل حتى بعض من نشاطاته الفكرية الأساسية، وفى النتيجة يغطُّ فى راحةٍ عميقةٍ، وخلال هذه الفترة تقوم أجهزة الجسم باعادة البناء والاستعداد للسعى والحركة من جديد.

وممّا لا شك فيه أنّ الإنسان لولا النوم، فانّه يذبُلُ ويتْلَفُ، ويُصيبُهُ العَجزُ والانكسار بسرعةٍ، لذلك فقد قالوا: إنَّ النومَ المعتدل والاستقرار سرُّ السلامةِ وطولِ العمر وحيوية الشباب.

واللطيفُ أنَّ الآيةَ التى نبحثها وضعت «النوم»، و «ابْتِغاء فَضْلِ اللَّهِ» فى مقابل بعضهما، وحسب قول بعض المفسرين أنَّ الأولَ هو علامة

الموت والثانى علامة القيامة.

إنّ تعبير «ابتغاء فضل اللَّه» يشير إلى نقطة ظريفة وهى أن سعى وجهد الإنسان فى حياته من المسائل ذات الأهميّة، وكذلك الفضل الإلهى، والجمع بين الاثنين تجعل الإنسان يستفيد من مواهب هذا العالم.

وهنا توجد نقطةٌ جديرةٌ بالاهتمام أيضاً حيث ذكرت الآيةُ أعلاه النومَ بالنهار إضافة إلى النوم بالليل: «مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ»، فى الوقت الذى يُعتبرُ النومُ مختصاً بالليل فقط حيث تؤكدَ آياتُ القرآن الكريم هذا المعنى إلّاأنّ بعضَ الظروف التى تطرأ فى حياة الإنسان تجبُرُهُ على أنْ يَسهَرَ الليل وينامَ النهار، ويُلاحَظُ هذا الأمر كثيراً فى السفر ليلًا، وفى المناطق الحارّةِ جدّاً حيث تتوقف النشاطات النهاريةِ بسبب حرارة الجو ويكون العمل فقط أثناء الليل.

وفى عصرنا الراهن حيث تكون الكثير من المؤسسات الصناعية، ومعامل صناعة الأدوية مضطرة للعمل ليلًا ونهاراً، إذ من الصعوبة ايقاف العمل، ممّا يدفع العمال إلى تقسيم

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۲

أعمالهم إلى ثلاث وجبات يومياً، فتتضح الحاجةُ إلى النوم فى النهار أكثر من أىِّ وقتٍ آخر.

والآن .. فلو لم يكن برنامج تنظيم النوم بيد الإنسان، ولم يتيسر النوم نهاراً بدلًا عن الليل، فمن المسلَّم به أنّ مشكلاتٍ كبيرةً ستعترضُ حياته.

وفى الآية الثانية بعد ذكر: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً» يشيرُ إلى مسألة النوم حيث يقول تعالى «وَالنَّوْمَ سُباتاً».

ومن الممكن أن يكون تعبير «هو الذى» إشارة إلى الجانب التوحيدى لهذه الامور، فكلٌ منها دليلٌ على الذات المقدّسة، أو جانبِ الانعامِ كى يعرفَ الإنسانُ ولىَّ نعمتِهِ، ومن المسلَّم به أن الإشارة إلى ولىَّ النعمة ستكون مقدمةً لمعرفته أيضاً.

واللطيف أنّه يقول بعد ذلك: «وَجَعَلَ النَّهارَ نَشُوراً» «۱»

.

أجَلْ ... ففى وضح النهار تنتشر الروحُ ويستيقظ الإنسانُ بشكلٍ كامل، إذ لا يخلو من شَبَهٍ بنشورِ يوم القيامة والحياة ما بعد الموت.

وهذا الاحتمالُ ممكن أيضاً، حيث يشير إلى انتشار الناس فى ميدان الحياة وحركتهم نحو مقاصدهم المعاشيةِ المختلفة، وبهذا فانَّ أجراس النوم والراحةِ تقرع مع حلول الظلام، وتدق هذه الأجراس فى النهوض مع بزوغ الشمس.

وفى الآية الثالثة تكرَّرَ هذا المعنى باختصارٍ طفيف إذ يقول: «وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً* وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً»، فكما يصونُ اللباسُ الإنسانَ من الاخطار ويكون له دوراً فى سلامته فانَّ ظلامَ اللَّيل له مثل هذا الأثر.

وفى الآية الرابعة والأخيرة فى هذا البحث، وحينما يتحدث القرآن الكريم عن وقائع غزوة بدر يشير إلى أنَّ احدى نِعَمِ اللَّه على المؤمنين فى تلك الليلة التاريخية كانت «اذْ

---

(۱) تأملوا جيداً أنَّ «النشور» معنى لمصدر، و «السُبات» معنى لمصدرٍ أيضاً أو اسمٌ مصدرىٌ، واطلاقهما على الليل والنهار يفيد المبالغة والتأكيد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۳

يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ».

لقد كانَ هذا النومُ الرغيدُ سبباً فى تجديد قواهم والاستعداد للمعركة الحاسمة فى ساحة المعركة ببدر صباحاً، وبخاصة بعد قطع تلك المسافة الطويلة إلى حدٍ ما، تلك المعركة التى انتهت بنصرٍ مبينٍ للمسلمين.

ولعلَّ تَعبير «النُّعاس» إشارة إلى عدم استحواذ النوم العميق عليهم بالرغم من تمتعهم بالراحةِ، كى لا يستغلَ العدوُّ الوضعَ السائد

ويباغِتَهُم ليلًا، ولهذا كانت حقيقةُ ذلك النوم نعمةً وكيفيتُهُ نعمةً اخرى

على أيّةِ حالٍ، فانَّ الآيَةَ أعلاه تعتبر تأكيداً على أثر النوم على أعصاب وجسمِ وروح الإنسان أيضاً، وتجديد الطاقات من أجل مثابرَةٍ أكثر وجهادٍ أكثر فاعليةً فى كافة المراحل.

توضيح

ظاهرة النوم الخفيّة:

مع أنَّ «النوم» و «الرؤيا» تعتبر بالنسبة لنا أمراً عادياً، إلّاأنّ العلماء لم يتوصلوا إلى عمق هاتين الظاهرتين المهمتين بالرغم ممّا بذلوه من مساعٍ وجهود.

فايُّ فِعْلٍ وانفعالاتٍ تطرأُ على جسم الإنسان ليتوقف فجأة القسم الأعظم من نشاطاته الجسمية والروحية؟! ويحصلُ هذا التغيير فى جميع أجزاء جسمه وروحهِ كذلك، فلا يفهمُ شيئاً ولا يبدى أيَّ حركةٍ ويستلقى جانباً كالميت، ولو غرقت الدنيا بأكملها فهو نائمٌ لا يدرى.

ومع كل هذه التوضيحات والآراء والفرضيات التى قيلت فى هذا المجال، فقد حافظ النوم على صورته المدهشة!

والأكثر عجباً من ذلك مسألةُ (الرؤيا) التى تُعَدُّ من الألغاز العظيمة كروح الإنسان.

وطبعاً أنّ الحديث المفصَّلَ بصدد حقيقة وأسرار هاتين الظاهرتين خارجٌ عن موضوع بحثنا، لأنَّ الغايةَ من بحث الآيات المذكورة هى بيان المنافع الكثيرة، والفوائد التى لا تُحصى للنوم من جانب ومن جانب آخر كونه نعمة من نعم اللّه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۴

فالنوم المعتدل دائماً يعتبر دليلًا على سلامةِ روح واعصاب الإنسان، لذلك فإنّ أهمَ أسئلةِ الأطباء للمصابين بالأمراض النفسية تدور حول كيفية نومهم.

فلا تتوقف الاجهزة الأساسية فى جسم الإنسان كالقلب والرئة أثناء النوم، لكنها تعملُ بهدوءٍ أكثر، ويصبحُ دوران الدَّم فى الأعضاء أكثرَ تناسقاً، ويتوقفُ نشاطُ الدَّماغ تقريباً، وتستقر جميعُ العضلات أيضاً، فتؤدّى كلُّ هذه الامور إلى حصول هذه الأعضاء على فرصةٍ لِتجديد بناء بنائها.

وخلالَ النومِ تُزالُ سمومُ الجسم، وتُعالجُ كثير من الأمراض.

لقد أورد «روخلين» فى كتابه (الرؤيا فى نظر بافلوف) بحثاً تحت عنوان (العلاج بالنوم العميق) قائلًا:

«بناءً على فرضية «بافلوف» فانَّ النومَ عبارةٌ عن ظاهرةِ توقُفٍ من أجل الصيانة وتجديد القوى وعليه فيمكن استغلالهُ كعاملٍ للعلاج من الأمراض المختلفة، وتؤيدُ التجاربُ اليومية دور النوم فى ذلك أيضاً».

ثم يضيف: «إنَّ النومَ العميق الطويل مؤثر على تحسُن صحة المريض، لأنَّ المرضى ينامون أكثر من المعهود بعد مرضٍ طويلٍ من أجلِ استعادةِ قواهم وسلامتهم».

ويقول: «لقد واجه العلاجُ عن طريق النوم رواجاً واسعاً فى الاتحاد السوفيتى، وقد استخدمت هذه الطريقةُ لأولِ مرّةٍ لمعالجة (جنون الشباب) «الشيزوفرينيا» الذى يعتبر من الأمراض النفسية الشائعة».

ويقول فى جانبٍ آخر من حديثه: «تمّ الحصول على نتيجةٍ مُرضيَةٍ لعلاج المصابين بارتفاع ضغط الدم عن طريق النوم العميق ... فالنوم الطويل الذى هو حالة من الراحةِ الكاملة للمخ، يُجدد قدرةَ الجهاز العصبى ويوازن تنظيم نشاط الأعضاء الداخلية، ويترك أثراً إيجابياً مساعداً للوضع العام للإنسان» «۱».

أَجَل؛ فالـذى خلق الإنسان سالماً من أجل السـعى والنشاط، وضع جميع وسائل ذلك تحت تصـرفهِ، وأحدُها نظام النوم واليقظة، النظام الذى تبرز فيه بكل وضوح براهينُ حكمةِ البارى عز وجل.

---

(۱) النوم فى نظر بافلوف، ص ۱۱۲- ۱۱۶ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۵

۷- آياته فى بسط السماوات والأرض

تمهيد:

بعد أن ذكرنا آياتِ (الانفس) نتجه صوبَ آيات الآفاق:

لقد كانَ النظر إلى السـماوات والأرض على الدوام دافعاً لتفكير الإنسان، وكلَّما تطورَ علمُ الإنسان تعاظم العالم السـماواتى ذو الأسـرار العجيبـة فى نظرهِ، فلو قيسَتْ عظمـةُ السـماوات فى نظر علماء اليوم مع ما مضـى لكانت «كالقطرةِ» إلى «البحر»، وليس معلوماً أن يكون «الغد» كذلك فى قياسه مع «اليوم».

فماذا يجرى فى هذه المنظومةِ والمجرّات الكبيرة، والنجوم الثابتةِ والسّيارة؟ وما هى العوالم الموجودة فيها؟

وإلى أىِّ زمانٍ يعود تاريخ ظهورها؟

وهل هناك من يسكنُ فيها؟ وإذا كان كذلك فهل أنّ حياتهم تشبه حياتنا أم يختلفون عنّا؟

هذه الأسئلة وعشراتٌ اخرى تشغلُ فكرَ كلِّ إنسانٍ باحثٍ ومتفحصٍ فى أمر السماوات.

يقول علماء العصـر: إنّنا اليوم نرى نجوماً فى السـماء قد اختفت من الوجود قبل آلاف السنين وربّما قبل ملايين السنين، وهذا يعود إلى الفاصـلة الخارقـة بينها وبيننا، وأنّ نورها قد بدأ حركته منذ آلاف أو ملايين السـنين وما زال فى طريقه الينا، فإذا كان الميدان الحقيقى للسماء هكذا- وهو كذلك-، فإلى أىِّ حدٍ يختلف مع ما نراه اليوم؟ ليس هناك مَنْ يستطيع الإجابة عن هذا التساؤل!

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۶

هذه التساؤلات وأمثالها كثيرةٌ حيث يصعب الإجابة عنها من قبل العلماء.

لقد أصـبحنا أمام مثل هذا العالم المملوء بالأسـرار، فعظمتُهُ من جانبٍ، والنظام والتقنين اللذان يسودانه من جانبٍ آخر، تكشف السـتار عن القدرة والعلم اللامتناهى لمن له اليد فى هذا الخلق.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الشريفة الآتية:

۱- «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِى الْأَلْبَابِ». (آل عمران/ ۱۹۰)

۲- «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ والنَّهَارِ ... لَأَيَاتٍ لِّقَوم يَعْقِلُونَ». (البقرة/ ۱۶۴)

۳- «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ واخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعالِمِينَ». (الروم/ ۲۲)

۴- «إِنَّ فِى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِينَ». (الجاثية/ ۳)

۵- «خَلَقَ اللَّهُ السَّمواتِ والْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤمِنِيْنَ».

(العنكبوت/ ۴۴)

۶- «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيْعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ أَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ».

(يونس/ ٣)

٧- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ». (العنكبوت/ ٦١)

٨- «لَخَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ أَكْبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ».

(غافر/ ٥٧)

٩- «قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ». (ابراهيم/ ١٠)

١٠- «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَانَّا لَمُوسِعُونَ* وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدوُنَ».

(الذاريات/ ٤٧- ٤٨)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٧

١١- «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظًا وهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ». (الانبياء/ ٣٢)

١٢- «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوىَ عَلىَ الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد/ ٢)

شرح المفردات:

لكَلمة «الخَلْق» معنيان كما يقول صاحب «مقاييس اللغة»، أحدهما تقدير الأشياء، والآخر النَّقى والمسطَّح.

ويقول الراغب فى المفردات: «الخَلْقُ» أصله التقدير، ويستعمل فى ابداع الشىء من غير أصل ولا احتذاء، قال تعالى «خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ» أى أبدعهما بدلالة قوله:

«بَدِيْعُ السَّمواتِ وَالأَرْضَ»، ... وليس الخلق الذى هو الإبداع إلّااللَّه‌تعالى، ولذلك قال فى الفصل بينه تعالى وبين غيره: «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَايَخْلُقُ افَلَا تَذَكَّرونَ»، أمّا الذى يكون بالاستحالة فقد جعله اللَّه تعالى لغيره فى بعض الأحوال، وتستعمل هذه المفردة فى الكذب أيضاً (وربّما اطلق على الكذب بسبب اختلاق وايجاد موضوع ما فى فكر السامع» «١».

ويقول ابنُ منظور فى «لسان العرب»: الخلق فى كلام العرب ابتداع الشىء على مثال لم يُسبق إليه.

وعليه ... أنّ كلمة الخلق تَعنى فى الأصل التقدير والتنظيم وتنقية الأشياء، إلّاأنّها استخدمت فيما بعد بمعنى الابداع والإيجاد وتغيير هيئة الأشياء بالنحو الذى يتبادر هذا المعنى الآن.

ومعنى «السماء» استناداً إلى ما قاله علماء اللغة، الشىء الذى يرتفع عالياً، لذلك فانَّ البعض يعتقد أنَّ لها صفة النسبية حيث يمكن أنْ تكون نسبةُ شىء إلى شىء آخر كالسماء إلى الأرض، واشتُقَ «الاسم» من هذه المادة أيضاً لأنَّ التسمية عاملٌ فى رفعةِ وسمو مقام المُسمى

---

(١) مفردات الراغب، ص ١٥٨.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ١٢٨

واستناداً إلى كلام مؤلف «التحقيق» فإنّ السماء قد تكون ملموسةً ومادية كما فى:

«أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» أو معنوية كما فى: «قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ». (البقرة/ ١۴۴)

ويقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً: السمو: تعنى الارتفاع والعُلو «١».

وبناءً على ذلك فانَّ كلمة السماء لا تعنى هذه السَّماء فقط بل أىَّ نحوٍ من الارتفاع والعلو، ولكنها جاءت فى الآيات المُنتَخبة فى هذا البحث بشكلٍ عام بمعنى السماء.

وتُطلقُ «الأرْض» فى الأصل على الجزء الأسفل لكل شىء قبالة «السماء» التى هى الجزء الأعلى لكل شىء، قال هذا الكلام صاحب

«مقاييس اللغة»، ويقول الراغب فى تعبيرٍ مشابهٍ: الأرض هى الجرمُ الذى يقابلُ السماء، ويعبَّرُ عن أسفل كل شىءٍ ب «الأرض».

وورد فى كتاب «التحقيق» أنّ الأرض لها مسمّيات متعددة بعضها أوسعُ من بعضها الآخر، فهى تُطلقُ على المسكنِ، والمحلِّ، والقريةِ، والمدينةِ، والبلد، والكرة الأرضية، وما تحت السماء، وحتى ما موجود فى عالم الجسم وتحت عالم الأرواح، حيث يقال لكلٍّ منها «أرض»، وفى هذه المفاهيم يلاحظ قيدان هما الانخفاض، ومقابلة الارتفاع.

«أرَضَة» (على وزن حَدَقة) وتعنى الحشرة التى تخرج من الأرض وتأكل الخشب.

واللطيف هو أنّ أحد معانى «الأرض» هو مرض الزكام، والآخر هو «الرِّعْدَة».

ولعلَّ السبب فى ذلك أنّ هذه الأمراض تُقعدُ الإنسان وتُخلدُهُ إلى الأرض «۲».

---

(۱) فى كتاب «العين» للخليل بن أحمد ذُكرت «سماء» بمعنى الارتفاع أيضاً، ص ۳۹۱.

(۲) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ص ۷۱۲ وص ۱۱۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۲۹

جمع الآيات وتفسيرها

ارتفاعُ السماء آيةُ حق!

الحديث فى أول آيةٍ من البحث هو عن خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار اللذين يحصلان نتيجة دوران الأرض حول نفسها مقابل الشمس إذ يقول تعالى

«إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيات لِأُولى الأَلْبَاب».

وكما أوضحنا فى بحوث المعرفة فى المجلد الأول من هذا التفسير فانَّ «الالباب» جمع «لُبْ» أى العقل الصافى والعميق، نَعمْ .. فَمَنْ لهم مثل هذه العقول والألباب يستطيعون أن يَرَوا آياتٍ وبراهين كثيرةً عن القدرة الإلهيّة فى خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وليس آية واحدةً أو برهاناً واحداً فقط.

واللطيف ما جاء فى الرواية المشهورة الواردة فى الكثير من التفاسير فى تفسير هذه الآية حيث ورد فيها: قال ابن عمر: قلت لعائشة اخبرينى بأعجب ما رأيت من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب، أتانى فى ليلتى فدخل فى لحافى حتى الصق جلده بجلدى، ثم قال لى: يا عائشة هل لك أن تأذنى لى الليلة فى عبادة ربى؟ فقلت يا رسول اللَّه إنّى لأحب قربك وأحبّ مرادك قد أذنت لك، فقام إلى قربة ماء فى البيت فتوضأ ولم يكثر من صبّ الماء، ثم قام يصلى، فقرأ من القرآن وجعل يبكى، ثم رفع يديه فجعل يبكى حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض، فأتاه بلال يؤذن لصلاة الغداة فرآه يبكى، فقال:

يا رسول اللَّه أتبكى وقد غفر اللَّه لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

فقال صلى الله عليه و آله: يا بلال أفلا أكون عبداً شكوراً، ثم قال: ما لى لا أبكى وقد أنزل اللَّه فى هذه الليلة: «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ»، ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها» «۱»

.

صحيحٌ أنّ كلَّ من ينظر إلى السماوات والأجرام السماوية يهتدى إلى آياتٍ من آيات اللَّه تعالى إلّاأنَّ ذوى العقول والألباب يستفيدون أكثر من سواهم، فهؤلاء يَرَوْنَ آثارَ قدرةِ اللَّه

(۱) تفسير روح الجنان؛ ج ۳، ص ۳۸۴؛ تفسير الكبير ۹ ص ۱۳۴؛ و تفسير روح المعانى، ج ۱۴۰۴؛ تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۱۵۵۲ وتفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۰

تعالى فى كلِّ مكان من السماء، فهم يجدون فى خلق كلِّ منظومةٍ، وكلِّ مجرَّة، وفى حركاتها المنظَّمةِ العجيبةِ أسراراً لم يجدها سوى اولى الألباب.

وما يلفت النظر انّهُ ذُكر فى الآية الثانية «قَوْمٌ يَعْقِلُوْنَ» بدلًا من «اولى الأَلْبَابِ»، وفى الآية الثالثة «عالِمين»، والرابعة والخامسة «مؤمنين».

وفى الحقيقة، كما ورد من تفصيل سابقٍ فى بحث (مصادر ومجالات المعرفة) فى المجلد الأول من هذا التفسير فانَّ كلًا من الميزات أعلاه (الالباب، التعقل، العلم، والإيمان) تعتبر أرضيةً مناسبةً للمعرفة والاطلاع بشكل أكثر عن آيات اللَّه.

وهذه مسألةٌ جديرةٌ بالاهتمام حيث يصف القرآنُ الكريم «اولى الألْباب» الذين تُفتَحُ أمامهم أبوابُ معرفةِ اللَّه من خلال مشاهدة خلق السماوات والأرض إذ يقول تعالى

«الَّذِيْنَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا». (آل عمران/ ۱۹۱)

أى أنّ ذكر اللَّهِ أولًا، والتفكُّر ثانياً، والتأمل فى الهدف من الخلق ثالثاً، يُدّلُهمْ كل ذلك على عظمة الخالق جلّ وعلا.

وعلى هذا الأساس فإنّ تلكؤ علماء الطبيعة فى معرفة اللَّه سبحانه وتعالى بالرغم من معرفتهم لدقائق الأمور فى هذا الوجود يعود إلى أنّهم اعتمدوا فى بحوثهم على دراسة المعلول والمخلوق ولم يهتموا بدراسة علة العلل و خلق الوجود والهدف من الخلق.

وكما فى الآية الاولى فقد وردت مسألة خلق السماوات والأرض فى الآية الثانية، إلى جانب اختلاف الليل والنّهار، أى مجىء وذهاب الليل والنهار (أو اختلافهما التدريجى على مدى فصول السنة)، حيث يمثل ذلك إحدى الظواهر البارزة فى السماوات والأرض، إذ يسود النظام الدقيق هذه الظاهرة منذ أزمنة طويلة، ويمكن تحديد لحظة شروق الشمس وغروبها قبل حصولهما، والحدود الدقيقة لليل والنّهار فى كل فصلٍ وكلَّ زمانٍ من السنة،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۱

ولأى بقعةٍ من بقاع الأرض، ونعلمُ جيداً بانّه أينما يوجد نظامٌ دقيق فانّه يكمنُ وراؤه علمٌ وعقلٌ ولبٌّ مدبرٌ.

وفى الآية الثالثة ذكر مسألة اختلاف الألسن والألوان، التى هى من آيات الأنفس، إلى جانب مسألة خلق السماوات والأرض التى هى من آيات الآفاق، حيث يقول تعالى

«وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وأَخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ».

وقد يكون اختلاف الألسن والألوان بمعنى اختلاف اللغات التى يتكلم بها الناس، وألوان وجوههم، أو بمعنى لحن أصواتهم واسلوب حياتهم، وتفكيرهم وأذواقهم، وقابلياتهم، أو جميعها، فهذا التنوع العجيب الذى يكون وسيلة لتعرف الناس على بعضهم، وإلى عدم خلو أىٍّ من المناصب الاجتماعية، من خلال النظام الدقيق الذى يسودُه، لا ينفصل عن النظام العجيب السائد فى السماوات والأرض بل يرتبطان معاً، وكلٌّ دليلٌ على عظمة وقدرة وتدبر الذات المقدسةِ للَّهِ، عزّ وجلّ.

وتشير الآيتان الرابعة والخامسة إلى خلق السماوات والأرض فقط، وتَعُدُّهُ من آيات اللَّهِ، لأنّ ممّا لاريب فيه أنّ هذا الخلق العظيم هو من آيات اللَّه البينات، غير أنَّ الآية الخامسة استندت إلى مسألة التقنين والهدف من هذا الخلق وبيانه من خلال تعبير «بالحق».

و فى الآية السادسة طُرحَ موضوعٌ جديدٌ ألا وهو خلق السماوات والأرض فى ستة أيّامٍ، إذ يقول تعالى «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَواتِ وَالارْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۲

وقد ورد ذكر خلق السماواتِ والأرض فى ستة أيّام فى سبع آياتٍ من القرآن الكريم «۱».

وهـذا يُبرهنُ على أنّ (القرآنَ الكريم) يولى اهتماماً خاصاً لمسألـةِ الخلق التدريجى للعالم، وهو بذاته دليلٌ آخر على عظمة الخالق جلَّ وعلا.

ومع أنَّ بعضَ المـاديين غير الـواعين وبسبب عـدم معرفتهم لمعنى «اليوم»، انتقـدوا مثـل هـذه الآيـات واسـتهزؤوا بهـا «۲» حيـث إنّهم يعتقـدون أنّ «اليوم» هنـا بمعنى بيـاض النهار أو (الأربع وعشـرين ساعـة)، إلّاأنّ الجميع يعلم أنّ اليومَ بهـذا المعنى هو ناتـج من حركةِ الأرض وضوء الشمس، وعندما لم يكن وجودٌ للسماوات والأرض لم يكن هناك مفهوم لليل والنهار بهذه الهيئة.

فقـد غَفَلَ هؤلاء عن هـذه المسألـة وهى أنّ كلمة «اليوم» وما يماثلها فى بقية اللغات لها معانٍ مختلفة من حيث المفهوم والاسـتعمالات اليوميـة، فمنها ما يعنى «المرحلة» وقد تكون هذه المرحلة قصيـرةً أو طويلةً جدّاً، كما يقول الراغب فى كتاب (المفردات) الذى هو من الكتب اللغوية المعروفة: اليومُ يُعَبَّرُ به عن وقت طلوع الشمسِ إلى غروبها، وقَدْ يُعبر به عن مدةٍ مِنَ الزَّمانِ أىَّ مدةٍ كانت.

ونقول فى الاسـتعمالات اليوميـة، إنَّ الناس كانوا فى يوم ما يسافرون على ظهور الحيوانات، واليوم بوسائط النقل السـريعة، وكلا هذين التعبيرين (يومٌ، واليوم) إشارة إلى حقبة طويلة، ونقرأ فى الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام: «واعلَمْ بأنَّ الدَّهرَ يومانِ: يومٌ لكَ ويومٌ عليك» «۳».

بل إنّ الـدنيا كلها عُـدَّت يوماً واحـداً، وكـذلك كل الآخرة فى بعض العبارات، فيقول أمير المؤمنين عليه السـلام: «وإنَّ اليوم عملٌ بلا حساب، وغداً حسابٌ بلا عمل».

والبيتان المعروفان عن الشاعر كليم الكاشانى تعبير لطيفٌ فى هذا المجال، وهذه

---

(۱) الفرقان، ۵۹؛ السجدة، ۴؛ ق، ۳۸؛ الحديد، ۴؛ الاعراف، ۵۴؛ هود، ۷.

(۲) المادية التاريخية، ص ۸۷.

(۳) نهج البلاغة، الرسالة ۷۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۳

ترجمتهما العربية:

إنَّ الحياة سيئة الصيت يومان ليس اكثرَ (كليم) فدَعْنى اخبركَ كيف مضت؟ فيومٌ مرَّ بتعلُّقِ القلبِ بهذا وذاكويوم آخر مضى بانقطاع القلب عن هـذا وذاك وعليه فانَّ المقصود من خلقِ السـماوات والأرض فى سـتة أيّام هو ست مراحل، وقـد تمتـد كلُّ مرحلـةٍ من هذه المراحل ملايين أو آلاف الملايين من السنين، ومن الواضح عدم توفُّرِ أىِّ دليلٍ يعارض هذا التحديد من الناحية العلمية «۱».

ولكن من المحتمل أن تكون هذه المراحل الست حسب التسلسل الآتى:

۱- مرحلةٌ كانَ العالمُ كلَّه فيها مجاميعَ عظيمةً جدّاً من الغازات التى تدور حول نفسها.

۲- مرحلةُ انفصال هذه الغازات عن بعضها والدوران حول محور المجموعة المركزية.

۳- المرحلة التى فيها شكَّلت بعض هذه المجاميع بسبب دورانها حول نفسها منظوماتٍ كمنظومتنا الشمسية.

۴- المرحلة التى تكونت فيها الأرض واستعدت للحياة، وظهرت عليها المياه، وتكونت البحار.

۵- مرحلةُ ظهور الأشجار والنباتات وتهيئة الأقوات والأطعمة على الأرض.

۶- مرحلة ظهور الحيوانات وبعدها الإنسان على الأرض.

والمسألة الجديرة بالاهتمام هى أنّ من بين الآيات السبع التى بَيَنَت خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام، تمّت الإشارة فى أربع آياتٍ منها فقط إلى خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام «۲».

وفى ثلاث آيات ورد خلق السماوات والأرض وما بينهما «۳».

وفى آية واحدة فقط اشير بشكلٍ عامٍ إلى تفصيل هذه المراحل الست، فمرحلتان لخلق

---

(۱) ذُكِر أيضاً فى كتاب القاموس المقدَّس الذى هو شرحٌ لمفاهيم التوراة والانجيل، شرحٌ فيما يخص خلق السماوات والأرض فى ستة أيّام حيث يشبه ما ورد أعلاه فى بعض الجوانب بالرغم من اختلاطه ببعض الخرافات كاستراحةِ اللَّه فى اليوم السابع (القاموس المقدس، ص ۸۴ كلمة الخلق).

(۲) الحديد، ۴؛ الاعراف، ۵۴؛ يونس، ۳؛ وهود، ۷.

(۳) الفرقان، ۵۹؛ السجدة، ۴؛ ق، ۳۸.

الأرض، وأربعة مراحل لإيجاد النباتات والحيوانات: «الَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ ... وَقَدَّرَ فِيْهَا اقْواتَها فِى أَرْبَعَةِ ايَّامٍ». (فصلت/ ۹- ۱۰)

بناءً على ذلك، فانَّ المراحل الست أعلاه تتعلق بخلق السماوات والأرض وموجوداتهما المتنوعة «۱».

وتقول الآية السابعة من البحث إنّ هذا المعنى مسلمٌ به حتى لدى الوثنيين وهو: إنَّ اللَّه تعالى هو خالقُ السماوات والأرض، ومسخرُ الشمس والقمر، وأنّ هؤلاء يفهمون أنَّ هذا العالم الجبار والنظام العجيب لا يمكن أن يكون مِنْ خلقِ الأصنام، بل إنّ ضميرهم يحكُمُ بانَّهُ مِنْ خلقِ اللَّه العالم القادر: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَواتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُوْلُنَّ اللَّهُ».

وعليه فليس العلماء والمفكرون وحدهم الذين يصلون إلى معرفة الذات الإلهيّة المقدّسة من خلال التفكر بأسرار الخلق، وإنّما الوثنيّون الجهلاء كذلك يعرفون بشكلٍ عام الذات المقدّسة من خلال مشاهدة هذا النظام بالرغم من أنّهم يتيهون فى وادٍ من الشرك بسبب الخرافات والجهل المحيط بهم.

ومع أنّ الآية الثامنة تقصدُ مسألة المعاد والقيامة بدلالةِ الآيات التى تليها وتقول إنّ القادرَ على خلق السماوات والأرض بهذه العظمة، قادرٌ على أن يحيىَ الموتى لأنَّ خلق السماوات والأرض أصعب وأعقد من خلق الإنسان، لكنها مع ذلك دليلٌ واضحٌ على مسألة معرفةِ اللَّه أيضاً، لأنَّ وجودَ الإنسان بل وحتى عضو واحد من أعضاء جسمه كالعين والاذن،

---

(۱) ومن للتوضيحِ أكثَر فى هذا المجال يراجع التفسير الأمثل ذيل الآيات ۵۴ الاعراف؛ و ۱۰ فصلت).

بل حتى بناء خليةٍ واحدةٍ من خلايا هذه الأعضاء بكل ما فيها من التعقيد والابهام والأسرار والأنظمة يمكن أن يكون من آيات اللَّه تعالى بناءً على ذلك فانَّ (خلق السماء والأرض الذى هو أكبرُ وأعظم من خلق الإنسان أوضحُ برهانٍ على عظمة اللَّه تعالى «لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ».

ومن المؤكد أنّ خلق الإنسان إذا ما قيسَ مع كل جزء من أجزاء هذا العالم فانه يُرجح عليه، إلّاأنَّه إذا قيس بكل السماوات الواسعة والأرض، فمن المسلَّم به أنّ السماوات والأرض يرجح خلقُها على خلق الإنسان.

والظريف أنّ القرآن الكريم حينما جاء بهذا التصريح لم يكن للناس حينذاك- ولا سيما المتخلّفين فى الحجاز- معرفة بعظمة السماوات، ولعلهم كانوا يظنّون أنّ السماء سقفٌ أزرق اللون قريبٌ منهم، وقد تمّ تثبيته بواسطة مسامير فضية وهى النجوم!

أجَلْ ... إنّنا اليوم ندرك جيداً المفهوم العميق لهذه الآية، لأنَّ العلماء تفحّصوا هذه السماء الواسعة من خلال المراصد الفلكية العملاقة، وقد زودونا بأسرار وعجائب مذهلة عن عظمتها والنظام السائد فيها، ومن أين ندرى أنّ ما يشاهدونه اليوم لا يبلغ معشار

عظمة هذا العالم، ولعل هذه الحقيقة تتضح غداً للملأ، لهذا يقول تعالى فى آخر الآية: «وَلكِنَّ اكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُوْنَ» «۱».

وفى الآية التاسعة تمَّ جمع دورةٍ كاملةٍ من دروس التوحيد ومعرفة اللَّه فى استفهامٍ إنكارىٍّ حيث يقول: «أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ».

والجدير بالاهتمام هنا أنّ كلمة «فاطر» تعنى المشَقِق، وجاء استخدام هذا التعبير إمّا بسبب تمزيق حجاب العدم والظلمة أثناء خلق السماوات والأرض وإشراق نور الوجود فى

---

(۱) ما معنى «لا يعلمون» هنا؟ هناك احتمالات مختلفة: أولها هو: أنّ الناس يجهلون عظمتها قياساً مع الإنسان، والآخر أنّهم يجهلون القدرة الإلهيّة اللامتناهية، والثالث، أنّهم يجهلون قدرته على مسألة المعاد، أو يعلمون، وحيث إنّهم لا يفصحون عن علمهم هذا، فهم فى حكم الجهلاء (ولكن لا يُستبعد أن تجتمع كل المعانى الثلاثة الاولى فى الآية وكما قالوا بأنّ حذف المتعلق دليل على العموم).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۶

خلق السماوات والأرض، أو إشارةٌ إلى ما يُعرفُ اليوم لدى علماء الفلك حيث إنّ جميع هذه الأجرام والمنظومات كانت فى اليوم الأول على هيئة مجموعةٍ كبيرة مرتبطة ببعضها، وانفصلت عن المركز نتيجة لحركتها حول نفسها وبتأثير القوة الدافعة لها عن المركز، والقت بقطعٍ منها إلى الخارج وظهرت المنظومات والمجرّات الثابتة والسّيارة «۱».

على أيّة حال، سواء كان المشركون هم المخاطَبون فى هذه الآية أو منكرو وجود اللَّه تعالى أو كلاهما، فانّه يستفاد من هذه الآية الكريمة هذه الحقيقة، وهى أنّ الَّتمعنَ فى خلق السماوات والأرض يكفى لأنّ يقتلع كُلُّ نوعٍ من أنواع الشك والريب فى وجود اللَّه ووحدانيته وقدرته من قلب الإنسان.

ويشير فى الآية العاشرة إلى خاصّية اخرى من خصائص السماء والأرض إذ يقول تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْناهَا بِأَيْيْدٍ».

فمن المسلَّم بهِ أنّ خلقَ مثل هذه العوالم الجبّارة يستلزم قدرةً مناسبةً له، وهى قدرة البارى عزّ وجّل وحدها.

ويضيف فيما بعد «وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ».

وبالرغم من أنَّ بعض المفسّرين اعتبروا ذلك بمعنى توسعةِ الرزق عن طريق هطول المطر وغيره «۲» لكن يبدو أنّ للآية معان بالغة الأهمية والدقّة، حيث اتّضح ذلك لعلماء عصرنا الحاضر، وقد اميط اللثام عن معجزة من المعجزات العلمية للقرآن، وهى أنّ العالم فى حال اتساع وبصورة مستمرة، وأنّ النجوم والمجرات والأجرام تبتعد عن بعضها بشكل سريع.

---

(۱) يقول الراغب فى المفردات: «فَطْر» على وزن «سَتْر» أى الشَّقُ طولياً، ثم جاءت بمعنى الايجاد والإبداع، و «فِطْر» (على وزن مِتْر) تعنى الافطار وترك الصيام، وكأنَّ الصيام ينفطر، (والفطرة تعنى الخلقة وهى مأخوذة من هذه المادة أيضاً).

(۲) وقد فسَّر بعض المفسرين لفظة (موسعون) بمعنى (قادرون) أيضاً، لأنّه مفردة (الوسع) تأتى أحياناً بمعنى «القدرة»، أمّا مفهوم «التوسيع» فهو أوضح.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۷

يقول أحد العلماء المعروفين ويُدعى (جورج غاموق) فى كتابه (بداية ونهاية العالم):

«يمُّر فضاءُ الكون الذى يتألف من مليارات المجرّات بحالةٍ من الامتداد السريع، والحقيقة هى أنّ عالَمنا ليس ثابتاً بل إنَّ اتساعَهُ مسلَّمٌ به، والوقوف على كون عالمنا يمرُّ بحالةٍ من الاتساع يهيء لنا المفتاح الحقيقى لكنوز أسرار النظرية الكونية، فلو أنّ العالَم يمُّر اليومَ بحالةٍ من الاتساع والامتداد فهذا يعنى أنّه كان يمرُ بحالةٍ من الانكماش الشديد فى عابر الازمان» «۱».

وممّا يبعث على الدهشةِ أنَّ هذا التوسعَ يسيرُ سريعاً بالقَدرِ الذى يقول عنه (فورد هوفل) فى كتاب (حدود النجوم): «لقد تم قياس

اقصى سرعةٍ لتباعد الكرات حتى الآن بما يقارب ۶۶ ألف كيلو متر فى الثانية، وتُدَللُ الصور الملتقطة عن السماء على هذا الاكتشاف المهم بوضوح، حيث إنَّ الفاصلة بين المجرّات النائية تتضاعف بسرعةٍ أكثر من المجرّات القريبة!» «۲».

فأىُّ قوةٍ عظيمة تكمنُ وراء هذه الأجرام والمنظومات الجبّارة حيث تُبعدها عن مركز العالم بهذه السرعة النادرة من دون أن تتلاشى على اثر هذه الحركة؟!

ثم يشير إلى الأرض فيقول: «وَالارْضَ فَرَشنَاهَا فَنِعْمَ المَاهِدُونَ».

فالتعبير ب «الفرش» من ناحيةٍ، و «الماهد» من مادة (مهد) من ناحيةٍ اخرى إشارةٌ إلى التغييرات الكثيرة التى حصلت منذ بداية تكوين الأرض، وتهيئتها لحياة الإنسان، وجعلها كالمهد أو فراش الراحة.

كل هذه دلائل على ذلك العلم والقدرة الأزلية.

ونقرأ فى الآية الحادية عشرة تعبيراً جديداً حول خلق السماء إذ يقول: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظًا».

---

(۱) بداية ونهاية العالم، ص ۷۷ (مع الاختصار).

(۲) حدود النجوم، ص ۳۳۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۸

فهل هناك سماءٌ فى العالم على هيئة سقف يُحفظُ من نفوذ الكائنات الخارجية؟ نعم ..

فالسماء هنا يمكن أن تكون إشارة إلى الفضاء الذى يحيط بالأرض ويبلغُ سمكُهُ مئات الكيلو مترات، فهذه الطبقة التى تتألف من الهواء المضغوط اللطيف وبقية الغازات المحيطة بجوانب الكرة الأرضية على هيئة سقفٍ دائرى، قويةٌ بالقدر الذى يصفها بعض العلماء بأنَّ لها مقاومةً بقدر سقفٍ فولاذىٍّ بسُمكِ عشرة أمتار، وهى لا تمنع نفوذ الاشعاعات المدمرة فحسب، بل تمنع سقوط الصخور الفضائية التى تنجذب نحو الأرض باستمرار، لاصطدامها بهذه الطبقة الجوية بسرعتها الخارقة، فتكون مانعاً لحركة تلك الصخور، كما ويؤدّى هذا الاصطدام إلى احتراق تلك الصخور وانصهارها.

فلو لم تكن هذه الطبقة الجوّية العظيمة لأصبح أهلُ الأرض عُرضةً للملايين من قذائف الصخور الفضائية الصغيرة والكبيرة ليلَ نهار، فماذا سيحصل؟ وهل يكون هناك وجودٌ للاستقرار فى «مهد الأرض»؟ وهل سيكون اسمُ المهد والمرقدِ لائقاً بها؟.

لا ضير أن تقرأ هذا الكلام الوارد على لسان عالمٍ معروفٍ يُدعى (فرانك آلن) حيث يقول فى كتابه (النجوم للجميع): «إنَّ الجوَّ الذى تألَّفَ من الغازات التى تحفظ الحياة على سطح الأرض له من المقدار والسمك «بحدود ۸۰۰ كم» بحيث يستطيع أن يكون كالدرع للأرض يصونها من شر اصطدام ۲۰ مليون صخرةٍ فضائيةٍ مدمرةٍ تبلغ سرعتها ۵۰ كيلو متراً فى الثانية يومياً!» «۱».

صحيحٌ أنّ وزنَ بعض هذه الشهب التى تتقاطر نحو الأرض يعادل ۱۰۰۰ ۱ من الغرام إلّا أنَّ القوة الناتجة عن سرعتها تعادل قوة انطلاق ذرات القنبلة النووية! .. وقد يبلغ حجمُ ووزن بعض هذه الشُهُب مقداراً كبيراً بحيث تجتاز هذه الطبقة وتصيب الأرض، ومن الشهب التى اجتازت الغلاف الغازى ووصلت إلى الأرض شهاب «سيبريا» العظيم المعروف الذى أصاب الأرض عام ۱۹۰۸ م وكانَ قطرُهُ بقَدْرٍ كبيرحيث احتلَ (۴۰ كم) تقريباً من الأرض، وأدّى إلى حدوث اضرارٍ جسيمة «وكأنَّ اللّه تعالى يُنذُرنا بهذا

---

(۱) النجوم للجميع، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۳۹

الاسلوب .. لنتصور حالنا فيما لو تعرضنا لقصف الصخور السماوية يومياً».

فلو كان الغلاف الجوى حولَ الأرض بشكل أرقُّ مّما هو عليه «لأصابت الأرضَ يومياً عدةُ ملايين من الأجرام السماوية والشُهب

الثابتة، كما يقول (غرسى مورسِن) مؤلف كتاب (سرُّ الخَلْق): «ولم تَعُدِ الأرض صالحةً للحياة» «۱».

ولا ينبغى طبعاً نسيانُ الآثار المدمِّرة الناتجة عن اصطدام الأشعة فوق البنفسجية بالأرض فى حالة عدم وجود هذا الغلاف فهى أكثر بكثير من أخطار آثار هذه الصخور، ولعلَّ هذا الأمر كان السبب فى أن يقول البارى تعالى فى نهاية الآية: «وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ».

ويشير فى الآية الثانية عشرة والأخيرة إلى خاصِيةٍ اخرى من خصائص السماوات، وهى من المعجزات العلمية للقرآن الكريم إذ يقول: «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا».

ويبرهنُ هذا التعبير على أنَّ للسموات عموداً إلّاأنّهُ غيرُ قابل للرؤيةِ، فهو عمود غيرُ مرئىٍّ، فايُّ شىءٍ يمكنُ أنْ يكونَ هذا العمود سوى توازن قانون «الجذب» و «الدفع»، أى «القوة الدافعة المركزية»؟ أجَلْ إنّ تعادل الجذب والدفع هذا هو عمود قويٌّ بحيث يرفع جميعَ كُرات المنظومة الشمسية وبقية المنظومات فى مداراتها بإحكام، مع أنّه غيرُ مرئىٍّ، كما ويمنع تساقطها على بعضها، أو الابتعاد عن بعضها فيختَلُّ نظامُها.

وينبغى الانتباه إلى أنّ «عَمَدْ» (على وزن صَمَدْ) اسمُ جمع من مادة «عمود»، ولو أراد القرآن أن يقول: «إنَّ السماءَ مرفوعة بلا عمد»، لكان يكفى أن يقول: «رَفَعَ السَّمَواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ»، إلّاأنّ اضافة عبارة «تَرَوْنَها» يُدلُ على أنّ المقصود هو نفى الاعمدة المرئية، ويستلزمُ ذلك إثبات العمود اللامرئى.

---

(۱) سرُ خلق الإنسان، ص ۳۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۰

لذلك نقرأ فى الحديث المشهور عن الإمام الرضا عليه السلام حيث كان يتحدث إلى بعض الجهلاء الذين كانوا يقولون: إنَّ السماء بلا عمود، فقال الإمام عليه السلام: «سبحان اللَّه أليسَ اللَّهُ يقول بغير عَمَدٍ تَرَونَها»، ويجيب ذلك الشخص بنعم، فيقول الإمام عليه السلام مباشرة: «ثَمَّ عَمدٌ ولكن لا تَرَوْنَها» «۱».

وقد رُوى هذا المعنى بتعبير «عمود من نور» فى حديثٍ شيِّقٍ لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «هذه النجوم التى فى السماء مدائنُ مثل المدائن التى فى الأرض مربوطةٌ كلُّ مدينةٍ إلى عمودٍ من نور» «۲».

والذى يثير الانتباه هنا هو بالرغم من أنّ قانون الجذب والدفع لم يكن مذكوراً فى تفاسير القدماء والسالفين، فانَّ منهم من فسَّر الآية كما ذكرنا آنفاً، حيث قال بوجود عمودٍ غير منظورٍ للسماء، بالرغم من أنَّ البعض عبَّر عن هذا العمود غير المنظور بقدرةِ اللَّه «۳».

على أيّةِ حال، فهذه احدى آيات اللَّه العظيمة، حيث رفع السموات بهذه الأعمدة القوية غير المنظورة، والأنظمة المهيمنة على قانون الجذب والدفع، بحيث لو حَصَلَ أقلُّ تغييرٍ فى هذه المعادلة، فسوف يختلُ توازنها أو تتصادم فيما بينها بشدة وتختفى أو تبتعد نهائياً وينفصم الارتباط بينها.

النتيجة:

مع أنّ الآيات المتعلقة بخلق السموات والأرض فى القرآن الكريم ليست محصورةً بما اوردناه آنفاً، وإذا تقررَ أنّ تُبحثَ كموضوعٍ مستقلٍ تحت عنوان: «السماء والأرض فى

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۷۸.

(۲) بحار الأنوار، ج ۵۵، ص ۹۱؛ تفسير القرطبى ج ۹ ص ۲۷۹.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۴۷؛ تفسير روح المعانى، ج ۱۳، ص ۷۸؛ تفسير الكبير، ج ۱۸ ص ۲۳۲؛ و تفسير القرطبى، ج ۵ ص ۳۵۰۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۱

القرآن الكريم» فانّها تؤلّف كتاباً مستقلًا «۱»، إلّاأننا إخترنا هذه الآيات الاثنتى عشرة من بينها واوردناها، ومن المؤمل أن يفتَح هذا البحث- أى بحث معرفة اللّه وآيات وجوده فى هذا العالم الكبير- الطريق أمامنا، ويوضح لنا بأنَّ فى هذا الخلق العظيم دلائل وافرة للسائرين فى طريق اللّه، يُمكنهم من خلال التمعن فى هذا الكتاب العظيم الملىء بالأسرار أنْ يزدادوا قُرباً منه، وتُملأ أوعيةُ قلوبهم وأنفسهم من حُبِّهِ أكثر فأكثر، فيرددون هذا الكلام القرآنى باستمرار: «رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هذا باطِلًا»!.

توضيحات

۱- عَظَمَةُ ووُسَعَةُ السمَوات

لا عِلْمَ لأحدٍ بحدود سعةِ وامتدادِ السماوات، إنّ الشىء الذى نعلمه هو أنّه كلما ازداد علم وتفكير الإنسان وتطور فإنّ عظمة السماوات سوف تكون فى نظره أكبر وسوف يكتشف أبعاداً جديدة عن عظمة السماوات وأسرارها، وتقول آخر معلومات علماء الفلك بهذا الخصوص:

«إنَّ منظومتنا الشمسية ترتبط ب «درب التبانة» التى هى فى الواقع احدى المجرات، وقد توصلَ العلماء فى بحوثهم إلى أنّها تتألف من مائةِ مليارد نجمة احداها شمسنا هذه والتى تُعتبر أوسطها حجماً (لا تَنْسَى أنّ الشمس أكبر من الأرض بأكثر من مليون مرّة)، وإذا ضَربنا هذا العدد بمائة تصبح النتيجة مائة مليون مليار، أى أنّ حجم مجموع كرات هذه المجرة يعادل الكرة الأرضية بهذا المقدار!.

وإذا أضفنا هذا العدد إلى العدد الذى اكتشفه العلماء فى هذا العالم وفقاً لبحوثهم، وهو مليارد مجرّة على الأقل، يقفُ العقل والعلم البشرى متحيراً أمام عظمة الاله الذى خلقَ هذا العالم اللامتناهى، (تفحصوا الأرقام أعلاه وتفكَّروا فى عظمتها).

علماً أنّ هذه الأعداد والأرقام هى ضمن حدود علم واطلاع البشر فى الوقت الحاضر،

---

(۱) فى القرآن الكريم ذُكرت «السماء» أكثر من ثلاثمائة مرّة بصيغة مفردة أو جمع (السمَوات).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۲

وليس واضحاً ما سيُكتَشَفُ من معالم جديدة فى المستقبل».

وهناك شهادةٌ لطيفةٌ جدّاً لمرصد (بالومار) بخصوص عظمة السماوات حيث يقول:

«فى الوقت الذى لم تتمّ صناعة عدسة مرصد (بالومار) العملاق لم تكن سعة الدنيا حسب علمنا أكثر من ۵۰۰ سنة ضوئية (والمقصود من السنة الضوئية هو مقدار المسافة التى يقطعها الضوء بسرعةِ ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية خلال سنة واحدة، وثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية تعنى الدوران حول الأرض سبع مرات خلال طرفة عين).

ولكن هذه العدسة ضاعفت دنيانا إلى الف مليون سنة ضوئية، وفى النتيجة تم اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة، حيث يبعدُ بعضها عنّا مليار سنة ضوئية، ولكن هناك فضاءً عظيماً مهيباً ومظلماً بحيث لم يُرَ شىء من خلاله أبداً ويبعد الف مليون سنة ضوئية ... إلّاأنّ ممّا لا شك فيه هو وجود مئات الملايين من المجرّات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم حيثُ تُصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العظيمة التى نراها ليست سوى ذرةٍ صغيرةٍ متناهية من عالمٍ أعظمْ، ولسنا نقطع بعدم وجود عالمٍ

آخر فى مكانٍ آخر من الدنيا!» «۱».

۲- الدِّقة العجيبةُ فى القوانين التى تحكمُ السماءَ والأرض

من المعروف أنّه كلما تعاظمت الموجودات فلابدّ من أنْ تتضاءل دقة القوانين السائدة فيها، بينما لا يصدقُ هذا المعنى على هذا العالم الشاسع أبداً، أى أنّه مع عظمته وسعته العجيبة وإثارته للجدل، فهو ذو انظمةٍ دقيقةٍ وظريفة، ومن أجل إدراك هذه الحقيقة يكفينا الالتفات إلى المسائل الآتية:

أ) نحن نعلم أنّ الإنسان قد أفلحَ فى نهاية المطاف أنْ يُنزلَ سفينة الفضاء بطاقمٍ يتألف من شخصين فى النقطةِ التى حدّدها العلماء فى كوكب القمر، ثم عادا إلى الأرض (تأمل

---

(۱) مجلة الفضاء، العدد ۵۶ فروردين ۱۳۵۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۳

جيداً ..) فعلى مدى الأيّام الثلاثة التى قضتها السفينةُ فى قطع المسافة بين الأرض والقمر، كانت الأرض تدور حول نفسها وتغيرُ مكانها فى السماء حول الشمس، وكوكبُ القمر كان يدور حول نفسه وحول الأرض أيضاً، فكم يجب أن تكون هذه الحركات مُنظمةً ودقيقةً ومحبوكة وثابتة بحيث يستطيع العلماء أن يحسبوا حسابَ هذه الحركات ويقدّروها من خلال العقول الالكترونية حتى تحط سفينةُ الفضاء فى المكان الذى حددوه على سطح كوكب القمر، ومِنْ ثمَّ المكان الذى عيّنوهُ لعودتها إلى كوكب الأرض؟ فإذا اختلفت احدى هذه الحركات وتداخلت فيما بينها ونقصت أو ازدادت مقدار ثانيةٍ واحدةٍ فمن المسَلم به أنّ حسابات العلماء سترتبك ويكون عملهم غير ناجح.

أجَلْ .. إنّ نظام عالم الوجود الدقيق هو الذى يمنح الإنسان فرصةَ القيام بمثل هذا العمل، أى الهبوط على سطح كوكب القمر وفى المكان الذى حددهُ.

ب) يستطيع علماء الفلك أن يَحْسُبُوا ويقدّروا أحداث المستقبل التى تتعلق ب «الخسوف» و «الكسوف» فى الكرة الأرضية قبل عشرات السنين، وعدد ساعات الليل والنهار وشروق وغروب الشمس وبزوغ وافول القمر، وهذا يعود إلى التنظيم الدقيق لحركاتها ليس إلّا.

ج) كما اشرنا سابقاً أنّ قوة الجاذبية تجذب الأجرام السماوية نحو بعضها، بيد أنَّ القوةَ الدافعة التى تحصل من حركة الدوران والتى تسمى بالقوة الطاردة تُبعدها عن بعضها.

فإذا اريد أنْ تتحرك الكرة فى مدارها ملايين السنين حركةً دقيقة وفى مدارٍ معَّينٍ فيجب أن تتوازن هاتان القوتان تماماً، وهذا ما نعرفه أيضاً حيث إنَّ الجاذبيةَ تتناسب طردياً مع حجم الموجودات، وعكسياً مع الجذر التربيعى للمسافة بينها (فلو ازداد الحجم فانَّ الجاذبية تتضاعف، وإذا تضاعفت المسافات تضعفُ الجاذبيةُ طبقاً للمعادلة أعلاه).

وبناءً على ذلك فمن أجل أن تدور الأرض حول الشمس لمدةٍ طويلةٍ جدّاً فى مدارٍ ثابت، ينبغى أن يكون حجم الشمس والأرض وكذلك المسافة بينهما، وسرعة حركةِ الأرض حول الشمس وفقَ حسابٍ دقيقٍ، كى يتمّ التوازن بينهما، وهذه المسائل ليست ممكنةً دون تَدَخُلٍ من عالم ذو علمٍ غيرِ متناهٍ وعقلٍ مدبرٍ.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۴

۳- السموات السبع

مايلفت النظر هو أنّ الحديث عن (السموات السبع) ورد فى سبع آياتٍ من القرآن الكريم «۱».

وتمّت الإشارة فى احدى هذه الآيات إلى طبقات الأرض السبع أيضاً، حيث يقول تعالى «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَواتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ». (الطلاق/ ۱۲)

ومن بين جميع التفاسير المختلفة التى ذُكرت عن السموات السبع، يظهر أنّ التفسير الصحيح هو أنَّ المقصود من «السموات السبع» هو المعنى الحقيقى للسموات السبع، أىالسماء لا تعنى الكرات، بل مجموعة النجوم والكواكب فى العالم العلوى، والمقصود من العدد (سبعة) هو الرقم المعروف، وليس هو للكثرة.

إنَّه ما يظهر من الآيات الاخرى هو أنّ كل ما نراهُ من نجوم ثابتةٍ، وسيّارة، ومجرّات، وسُحُبٍ يتعلق (بالمجموعة السماوية الاولى وعليه فهناك ست مجاميع عظيمة اخرى (ست سموات) تلى هذه المجموعة العظيمة، حيث إنّ بعضها أكبر من البعض الآخر، وتلك خارجةٌ عن متناول علم الإنسان (لحد الآن على الأقل).

نقرأ فى قوله تعالى «إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنيا بِزِيْنةٍ الْكَواكِبِ». (الصافات/ ۶)

وجاء فى قوله تعالى «وَزَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيْحَ». (فصلت/ ۱۲)

وورد هذا المعنى أيضاً باختلافٍ طفيفٍ فى الآية الخامسة من سورة المُلك.

والجدير بالذكر أنّ المرحوم العلّامة المجلسى قد ذكر هذا الاحتمال كأحد التفاسير لهذه الآية إذ يقول: «الثالث: ما خطر بالبال القاصر، وهو أن تكون جميع الافلاك الثمانية التى أثبتوها لجميع الكواكب فلكاً واحداً مسمى بالسماء الدنيا» «۲».

---

(۱) البقرة، ۲۹؛ الاسراء، ۴۴؛ المؤمنون، ۸۶؛ فصلت، ۱۲؛ الطلاق، ۱۲؛ الملك، ۳؛ نوح، ۱۵ (واشيرَ فى آيتين (المؤمنون، ۱۷؛ النبأ، ۱۲) إلى (سبع طرائق) وسبعاً شداداً أيضاً حيث يمكن أن يكونا إشارة إلى السموات السبع أيضاً.

(۲) بحار الأنوار، ج ۵۸، ص ۷۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۵

صحيحٌ أنَّ معداتنا العلمية الحديثة لم تكشف الحجب عن العوالم الستة الاخرى غير أنّه ليس هنالك من دليل ينفيها من الناحية العلمية أيضاً، ويحتمل أن يكشف النقاب عن هذا السر فى المستقبل.

بل يظهر من اكتشافات بعض علماء الفلك أنّ هناك الآن براهين تلوح فى الافق عن وجود عوالم اخرى شبيهة لما نقلناه آنفاً عن مرصد (بالومار) الشهير فيما يتعلق بعظمة العالم، ونكرر الجملة التى تشهد على كلامنا هذا «تمّ اكتشاف الملايين من المجرّات الجديدة حيث يبعد بعضها عنّا مليارد سنةٍ ضوئية، لكن هناك فضاءً عظيماً مَهيباً ومظلماً لم يُرَ أىُّ شىء من خلاله أبداً ويبعد مسافة مليار سنة ضوئية، إلّاأنّ ممّا لا شك فيه وجود مئات الملايين من المجرّات فى ذلك الفضاء المهيب المظلم، حيثُ تصانُ الدنيا من خلال جاذبية تلك المجرّات، ويُعتقد أنّ هذه الدنيا العظيمة التى نراها ليست سوى ذرّةٍ صغيرةٍ متناهيةٍ من عالمٍ أعظمْ، ولسنا نقطعُ بعدم وجود عالمٍ آخر فى مكان آخر من الدنيا» «۱».

يقولَ أحدُ العلماء فى مقالٍ كتبهُ حول عظمة عالم الوجود، بعد ذكر المسافات الهائلة والمذهلة للمجرّات، وبيان الأرقام المدهشة المحددة طبقاً إلى السنةِ الضوئية ما يأتى:

«لا زال المنجمّون يعتقدون أنّهم لم يقطعوا سوى منتصف طريق ما يُمكنُ رؤيتُهُ من العالم العظيم، ولا زال عليهم اكتشاف فضاءات أُخَر غير مكتشفة» «۲».

وعليه فإنّ العوالم التى تكشَّفت للبشر لحدّ الآن مع عظمتها ما هى إلّازاوية صغيرة من هذا العالم الكبير، وتصلح للمطابقة مع مسألة

السموات السبع «۳».

۴- لِمَ لا تنظرون إلى السماء؟!

إنَّ كثرة ووفرة آيات اللَّه فى عرض السموات، وجمال السماء فى الليل، دَفَعَ القرآن

---

(۱) مجلة الفضاء، العدد ۵۶ فروردين ۱۳۵۱.

(۲) مجلة (نيوز ويک) السنة ۱۹۶۴ (لا ينبغى أن ننسى إنَّ هذه الشهادة تعود إلى ما قبل ۲۴ سنة).

(۳) من أجل المزيد من الايضاح حول التفاسير المختلفة التى ذكرت فيما يخص السموات السبع، يُراجع التفسير الامثل (ذيل الآية ۲۹ من سورة البقرة).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۶

الكريم والأحاديث إلى دعوة الناس باسرهم وخص المؤمنين منهم إلى التفكُّر فى السموات من أجل كسب المزيد من الإيمان، فيقول القرآن الكريم فى الآية ۶ من سورة ق: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلىَ السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَها مِنْ فُرُوْجٍ»؟!.

وقد أمَرت الروايات «المستيقظين فى الاسحار» خاصة، أن ينظروا إلى السماء أولًا حينَ ينهضون «لصلاة الليل»، وأن يقرأوا الآيات الاخيرة من سورة آل عمران التى تنعكس فيها جميعُ هذه الحقائق بنحوٍ عرفانىٍّ: «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَواتِ وَالارْضِ ...» ثم يتوجهون نحو العبادة (حيث يمتلىء الدعاء بعطر التوحيد ومعرفة اللَّه) «۱».

ورُوىَ أنّ النبى صلى الله عليه و آله حينما كان يستيقظ لصلاة الليل يبتدىء بالمسواک ثم يلقى نظرةً على السماء، ويردد هذه الآيات «۲».

وورد فى صفات أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً عن أحد أصحابه ويدعى (حبة العرنىّ) حيث قال: «بينا أنا ونوف (أحد أصحاب الإمام على عليه السلام) نائمين فى رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام فى بقية من الليل، واضعاً يديه على الحائط شبيه الواله، وهو يقول: «انَّ فى خَلْقِ السَّموات وَالارْضِ» إلى آخر الآية، قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمّر شبه الطائر عقله، فقال لى: أراقدٌ أنت يا حبّة أم رامق؟ قال: قلت: رامقٌ هذا أنت تعمل هذا العمل فكيف نحن؟ فأرخى عينيه فبكى ثم قال لى: يا حبّة، إنّ للَّهموقفاً ولنا بين يديه موقف لا يخفى عليه شىء من أعمالنا، يا حبّة إنّ اللَّه أقرب إلىَّ واليک من حبل الوريد، يا حبّة إنّه لن يحجبنى ولا إياک عن اللَّه شىء ....» «۳».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۵۵۴ الآيات الأخيرة من سورة آل عمران.

(۲) المصدر السابق.

(۳) بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۲۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۷

۸- آياته فى خلق الشمس والقمر والنجوم

تمهيد:

مع أنَّ الشمسَ والقمر تُعدّانِ من كواكب وكرات السَّماء، وقد تمّ الحديث بشكلٍ منفصلٍ عن عظمة السموات، ولكن لقربهما من كرتنا الأرضية فانَّ لهما تأثيراتٍ جمَّةٍ على حياتنا، وقد أشار القرآن الكريم إليهما بشكل خاصٍ، ووصف كلًا منهما بآية عظيمةٍ من آيات اللَّه، وإشار إلى الفوائد الخاصة للنجوم إذ اعتبرها من آيات اللَّه، وأنَّ التفحُص فى كلٍ منها لا سيما فى ظل اكتشافات العصر من الممكن أن يوضح لنا عظمةَ البارى تعالى من جهةٍ وعظمة تعاليم القرآن الكريم من جهة اخرى

وبعد التمهيد المختصر نتأمل خاشعين فى الآيات الشريفة الآتية:

١- «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيآءً والْقَمَرَ نُوراً وقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ والْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ». (يونس/ ۵)

٢- «أَلَمْ تَرَوا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمواتٍ طِباقاً* وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيْهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً». (نوح/ ۱۵ و ۱۶)

٣- «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ دَائِبَيْنِ». (ابراهيم/ ۳۳)

۴- «وَسَخَّرَ الشَّمسَ والْقَمَرَ كُلٌ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمّىً». (فاطر/ ۱۳)

۵- «ومِنْ آياتِهِ اللَّيْلُ والنَّهارُ والشَّمسُ والْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلقَمَرِ واسْجُدُوا للَّهِ الّذِى خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ». (فُصّلت/ ۳۷)

۶- «وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيْرُ الْعَزِيْزِ الْعَلِيْمِ* والْقَمَرَ قَدَّرنَاهُ مَنازِلَ

حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيْمِ* لَاالشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَآ أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ». (يس/ ۳۸- ۴۰)

٧- «وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيلَ والنَّهَارَ والشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(الانبياء/ ۳۳)

٨- «فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ والْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ». (المعارج/ ۴۰)

٩- «كَلَّا وَالْقَمَرِ* واللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ* والصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ* إِنَّهَا لَإِحْدى الكُبَرِ».

(المدّثر/ ۳۲- ۳۵)

١٠- «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ والبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ». (الانعام/ ۹۷)

جمع الآيات وتفسيرها

القَسَمُ بالشمس والقمر والنجوم:

بالرغم من أنّ زمان نزول الآيات المتعلقة بالشمس والقمر كان فى وقت لا يملك فيه الإنسان إلّاالقليل من المعلومات عن هذين الكوكبين العظيمين، وتقارن نزول هذه الآيات مع شيوع الخرافات الكثيرة «وبالأخص فى مهد نزول هذه الآيات» بالرغم من كل ذلك فإنّ القرآن أشار إلى القمر والشمس والنجوم بعظمة ملفتة للنظر، وذكر الكثير من خصوصياتها وبشكل عام فإنّ القرآن اعتبرها من آيات الحق الإلهيّة والبراهين على إثبات الذات المقدّسة.

فيقول تعالى فى الآية الاولى التى نبحثها: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا».

يقول بعضُ أربابِ اللغة (ومنهم الطريحى فى مجمع البحرين) وعددٌ من المفسرّين: إنَّ الفَرْقَ بين «الضياء» و «النور» هو أنّ «الضياء» يُطلقُ على النور الذى ينبعث من ذات

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۴۹

الشيء، ويُطلقُ النورُ على الضوء الذى يُكسبُ من الغير، وعليهِ فانَّ الآيةَ أعلاه إشارةٌ لطيفةٌ إلى هذه المسألةِ حيث إنّ نورَ الشمسِ ينطلقُ منها، فى الوقت الذى يحصلُ نورُ القمرِ عن طريق ضوء الشمس الذى يَشُعُ عليه، ويتحدث القرآن الكريم بهذا فى زمانٍ لم يكن للناس اطلاعٌ عليه.

وممّا لا شكّ فيه أنّه لا يمكنُ انكارُ أَنَّ كُلًا من هذين المفهومين قد يُستعمل بمعنى اعمَّ من النور «الذاتى» أو «الاكتسابى»، ومشاهدةُ حالاتِ استعمال هذين المفهومين فى القرآن الكريم وفى كلامِ العربِ يَشْهَد على ذلك، وقد يكون لهما معنيان مختلفان فيما إذا تزامنا معاً، كما جاء فى الآيةِ أعلاه.

وورد هذا المعنى فى الآيةِ الثانيةِ بتعبيرٍ آخر، فَبعد الإشارةِ إلى خلق السموات السبع يضيفُ قائلًا: «وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوْراً وجَعَلَ الشَّمسَ سِراجاً» وقد عَبَّرَ عن الشمس ب «السراج» فى آيتين اخريين من القرآن الكريم أيضاً (الفرقان/ ۶۱، النبأ/ ۱۳)، ونحن نعلمُ أنّ نورَ المصباح ينبعثُ من داخلهِ وليسَ مُكتَسباً من الخارج، وقد جاء فى بعض نصوص اللُّغة أنّ الضياءَ أكثر شدةً من النور «۱»، ولعلَّ هذا الاختلاف مُستَمَدٌ من الاختلاف الأول ويعود إليه «۲».

على أيّةِ حالٍ، فقد اشيرَ هنا وقبل كل شيءٍ إلى نور «الشمس» و «القمر» كآياتٍ حق من آيات اللَّه وبراهين على قدرته وآلائه جلَّ وعلا.

فالشمسُ بضوئها المشرقِ على الكون لا تقوم بتدفئة وانارة مهد الكائنات فى العالم فحسب، بل لها نصيبٌ اساسىٌ فى نمو النباتات وحياة الحيوانات.

---

(۱) تفسير الكشّاف، ج ۲، ص ۳۲۹؛ و تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۱۲.

(۲) ينبغى الانتباه إلى أنّ «الضياء» يأتى بصيغة «المفرد» و «الجمع» أيضاً، ويعتقد بعض المفسرين أنّ له صيغة الجمع فى الآية أعلاه، وأنّه إشارة لطيفةٌ إلى تركيب ضوء الشمس من سبعة ألوان.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۰

واليوم قد ثبتت هذه الحقيقة، إذ إنَّ كلَّ حركةٍ تُشاهدُ فى الأرض هى من بركاتِ ضوء الشمس، فلو فكّرنا بامعانٍ فى حركة الرياح، والغيوم وأمواج البحار وجريان الأنهار، والشلالات، والحيوانات والناس لوجدناها تنبعُ من ضوء الشمس بدون استثناء.

ولو انطفأت الشَّمس وانقطعت هذه الاشعةُ التى تهبُ الحياة عن الأرض فسَيَعُمُّ الموتُ والسكوتُ والظلامُ كلَّ مكانٍ خلال فترةٍ قصيرةٍ جدّاً.

كما أنّ نور القمرِ الجميلِ لايعتبر مصباحاً فى لياليا الحالكة ودليلا؛ لقاطعى الصحراء ليلًا فقط، بل إنَّ نورَهُ اللطيف والمناسب يبعثُ الطمأنينةَ والنشاط لدى البشر بأسرهم.

ويرى بعضُ المزارعين أنّ (نور القمر) له دور حساس فى نمو الفواكه والنباتات أيضاً.

وطبعاً أنّ كل ما ذكرناه يختصُ بنور الشمس والقمر فقط، وسنقوم ببحث ما يخص بقية بركاتهما بشكلٍ مستقلٍ.

ثم يشيرُ القرآن الكريم فى نهاية هذه الآية إلى احدى البركات والفوائد المهمّة لهاتين الكرتين السماويتين حيث يضيف: «وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنينَ وَالْحِسابَ».

فالقمرُ بسيرِهِ المنَّظم، وحركته الدقيقة يُعتبر تقويماً واضحاً وحيّاً وطبيعياً للغاية، تَسهُلُ قراءَتُه على العالم والجاهل، ويُنَظِّمُ برامج حياته على اساسِهِ، ولو أمعّنا التفكير لوجدنامسألة تنظيم حياة الإنسان ترتبط بقوةٍ بحساب السنين والشهور ووجودِ تقويم طبيعيٍ، حيث يتكفلُ القمرُ والشمسُ ودوران الأرض المنَظَّم حول نفسها وحول الشمس بانجاز هذا الدور، وأنَّ التقويمات الحالية التى نُظِّمت استناداً إلى

حسابات المُنجمِّين لا تنفعُ إلّاالـذين لديهم إمكانيهٔ فهمها، والتقويم الوحيد المفهوم والمعلوم والمفيد للجميع هو التقويم الطبيعى الذى يتوفر لدينا من حركهٔ القمر، منذ مرحلهٔ (الهلال) وحتى وصوله إلى مرحلهٔ (البدر الكامل)، ومن ثمَّ إلى (المحاق)، ولو تفحَّصَ الإنسان قليلًا لاستطاع أنّ يُحدِّدَ ليالى الشهر من خلال ملاحظهٔ حجم القمر، لأنَّ القَمَر لا يستقر على حالٍ واحدهٔ فى السماء على مدى ليلتين أبداً، ولعلَّ تنظيم العبادات الإسلاميهٔ وفقاً للأشهر القمريهِ نابعٌ من هذا الأمر.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۱

وكل هذه الدوافع ادّت إلى أن يقولَ القرآن الكريم فى نهايهٔ هذه الآيهٔ: «يُفَصِّلُ الآياتِ لِقَومٍ يَعْلَمُونَ».

والحديث فى الآيهٔ الثالثهٔ والرابعهٔ عن تسخير الشمس والقمر للإنسان: «وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقَمَرَ».

بَيْدَ أنَّهُ عبَّر فى الآيـهٔ بكلمهٔ «دائبَيْن» أى (الحركهٔ وفقاً لسُـنَّهٔ ثابتهٔ) «۱» وفى الاخرى ورد تعبير «كُـلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسـمّىً» أىْ «إنَّ كُلًا منهما يستمر فى حركته إلى حدٍ مُعيَّنٍ».

وهذه الجملهُ تشيرُ إلى أنّ حركهَ الشمس والقمر ستنتهى على المدى البعيد، ويتغير نظام المنظومهٔ الشمسيهٔ بعد ملايين السنين، وهذا بحد ذاته أحد المعجزات العلميهٔ للقرآن الكريم.

وفى الحقيقـهِ أنّ المقصود بحركـهٔ الشمس هو دوران الأرض حول الشمس طبعاً، لأنّ ما يظهر للعيان أنّ الشمس هى التى تتحرك، حيث إنَّ الأرض فى الواقع هى التى تُوجـدُ هـذا الشعور لـدى الإنسان، إذ إنّ الشَّمسَ تتحرك باستمرار مع المنظومـهِ الشمسيهٔ داخل المجرّات، وسوف نشير إلى ذلك لاحقاً.

والمقصود بتسخير الشمس والقمر وبقيـهٔ الكائنات التى يعتبرُها القرآن الكريم مسـخَّرَهً للإنسان، هو أنّها تتحرك فى مجال مصالح الإنسان وخدمته، فكما قُلنا سابقاً أنّ لضوءِ الشمس والقمر دوراً مهماً فى حياهٔ الإنسان وكافهٔ الكائنات الحيّهٔ، لا سيما ضياء الشمس إذ تستحيلُ الحياهُ على سطح الأرض بدونه لحظهً واحدهً، وحتى فى الليالى المُظلمهٔ فاننا نستفيدُ من الحرارهٔ المتبقيهٔ عن ضوهٔ الشمس فى الأرض والجو ولولاها لانجمدت الكائنات الحيَّهُ بأسرها، إضافـهِ إلى الفوائد الاخرى كالمدِّ والجَزرِ فى المحيطات، فهو مصدرٌ للكثير من الخدمات، وسنشير إلى ذلك فى بحث آياته فى البحار- إن شاء اللَّه-، وكذلك وضع تقويمٍ طبيعى وخدمات اخرى

---

(۱) «دائبين» من مادهٔ «دؤوب» وتعنى استمرار العمل وفقاً لعادهٍ وسُـنَّهٍ دائمـهٍ وهو تعبيرٌ للحركـهٔ المنظمهٔ والمتَسّعهٔللشمس والقمر، ولا يُعتقدُ بوجودِ تعبيرٍ أفضلَ من هذا التعبير.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۲

وبلا شك فإنّ ما نعرفه اليوم من بركاتِ الشمس والقمر أكثر ممّا كان يعرفه السالفون والمخاطَبون بهذه الآيات عند نزولها، ولهذا فانَّ دروس التوحيد التى نقرأها على صفحاتها أكثر ممّا كان يقرأُه السابقون، لهذا يقول فى نهايهٔ هذه الآيهٔ: إنّ ربَّكُم هو الذى سخَّر لكم كلَّ هذه الموجودات، أمّا الذين تدعونَ من دونه فهم لا يملكون الحكمَ والمُلكَ فى هذا العالم بقدَرِ قشرهِ نواهٔ التمر: «وَالَّذِينَ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْنِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيْرٍ» «۱»

.

وقـد عبرت الآيـهٔ الخامسـهٔ بصراحهٍ عن خلقِ الليل والنهار والشمس والقمر ووصفت هذه الظاهرهٔ بأنَّها من آياته، إلّاأنَّهُ يأمُرُ فى نفس الوقت بضرورهٔ عدم الاعتقاد بانَّ هذه هى الإله كما يتصور عبدهٔ الشمس والقمر .. كلا ..: «لَاتَسْجُدُوْا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَهُنَّ إنْ كُنْتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُوْنَ».

وهنا نرى الدقـهٔ التى يتحدث بها القرآن الكريم، إذ إنّ ذكر القوائد المختلفهٔ للشمس والقمر والليل والنهار وكافهٔ الموجودات فى هذا العالم من شأنه أن يترك أثراً فى أذهان ذوى العقول الضيقهٔ ويتصورون بأنّهم مدينون للنعم التى اسبغتها عليهم هذه الموجودات

فيسجدون لها ويخضعون ويعظمونها، وهذا ما ابتلى به الوثنيون على مر التاريخ، لكن القرآن يقول لهؤلاء: افتحوا أعينكم جيداً وانظروا بدقّة وتبحر، وعندها سترون من وراء الحجب العلل، وسترون الذات القدسية لعلة العلل وعندها سوف تعفرون جباهكم بالسجود إليه وسوف لن تخدعكم أو تضلكم هذه المظاهر.

ويتحدث فى الآيتين السادسةِ والسابعةِ عن حركة الشمس والقمر ومنازلهما، ويصرَّحُ

---

(۱) «القطميرُ»، بتعبير بعض المفسِّرين هو القشر الخفيف الذى يغطى نواة التمر، ويقول البعض إنّه النتوء الصغير الموجود خلف نواة التمر، وعلى اية حالٍ فهو كنايةٌ عن موجودات متصاغره ودنيئة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۳

فى نهاية هاتين الآيتين بأن كلًا من هذين الجُرمين يسبح فى فلكهِ ومداره وخطه: «وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» «۱»

، وهذه التعابير من عجائب القرآن من ناحيةٍ، ومن عجائب عالم الخلقِ وعلم وقدرةِ البارى تعالى من ناحية اخرى

وتوجد هنا عدةُ تفاسير لما تَعنيه جملة «وَالشَّمْسُ تَجْرِى» ومفهوم «لِمُسْتَقَرٍ لَهَا».

اولها: إنّ المقصودَ هى الحركة الظاهرية للشمس التى تبدأ منذ شروق الشمس وحتى استقرارها عند الغروب، حيث يظهر للعيان أنّها تختفى (ونعلمُ جيداً إنَّ حركة الأرض حول نفسها هى التى تُجسدُ لنا مثل هذه الظاهره فى الواقع).

الثانى: إنّ المقصود هى حركات الشمس المحورية، حيث تنحرف نحو الجزء الشمالى للكرة الأرضية مع بداية فَصل الربيع، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الصيف حيث تستقر (فى النصف الشمالى للكرة الأرضية) محاذية لمدار السرطان ۲۳ شمالًا وهو ما يصطلح عليه بالميل الاعظم الشمالى، ثم تبدأ حركتها نحو الجنوب وتصل إلى محاذاة خط الاستواء أوائل فصل الخريف، ثم تنحرف نحو جنوب الكرة الأرضية، وتستمر هذه الحركة حتى بداية فصل الشتاء حيث تصل إلى محاذاة مدار رأس الجدى ۲۳ جنوباً ويعبّرون عن هذا الانحراف بالميل الأعظم الجنوبى، ثم تبدأ حركتها نحو الشمال وتكون بمحاذاة خط الاستواء فى فصل الربيع.

بناءً على ذلك فانَّ المقصود من جريان الشمس هو هذا الانحراف نحو الشمال والجنوب، والمقصود من المستقر هو آخر نقطةٍ للانحراف الجنوبى والشمالى أى (مدار رأس السرطان ومدار رأس الجدى).

والمعروف (طبعاً) أنّ هذه الحركةَ ناتجةٌ عن دوران الأرض حول الشمس ومع الأخذ بنظر الاعتبار انحراف محور الأرض بمقدار ۲۳، ولكن ما يبدو لنا هو أنّ الشمس لها مثل هذه الحركة.

الثالث: المقصود هو الحركة الموضعية للشمس حول نفسها، فقد ثبت اليوم أنّ الشمس

---

(۱) «يسبحون» من مادة «سباحة» وتعنى الحركة السريعة فى الماء أو الهواء (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۴

تدور حول مركزها أيضاً (إذ ذكَرُوا أنّ مدّة هذه الحركة فى دورةٍ كاملةٍ تعادل ۲۵ يوماً ونصف اليوم)، وفى هذه الحالة ستَكون اللام فى «لِمُسْتَقَرٍ لَهَا» بمعنى (فى) أى أنّ الشمس تتحرك فى مكانها (وطبعاً فقد اشكَلَ بعض المفسّرين على هذا التفسير باعتباره لا يتناسب مع مفهوم كلمة جريان).

الرابع: المقصود هو حركة الشمس فى أبراج السماء على مدى أشهر السنة، والتى تقابل فى كل شهر أحد هذه الصور الفلكية الاثنا عشر ومن هنا تظهر السنة باثنتى عشر شهراً بعدد هذه الابراج «۱»، وعليه فانَّ المقصود من المستقر هو نهاية هذه الدورة.

الخامس والسادس: الحركتان اللتان اكتشفهما العلماء مؤخراً للشمس، إحداهما مع مجموعة المنظومة الشمسية فى دورتها حول مجرتنا التى تأخذها باتّجاه إحدى الصور الفلكية المعروفة ب (صورة الجاثى) الواقعة فى جهة الشمال بالنسبة للشمس، إذ تقطع أثناء هذه

الحركة أكثر من (۶۰۰ مليون كم سنوياً) وهذا ما يشبه تماماً جلوس مجموعةٍ فى طائرةٍ وانشغالهم بالدوران حول مركزٍ واحدٍ بينما تسير الطائرة بسرعةٍ نحو اتجاهٍ ما، وقد تكون حركةُ الطائرة هادئة وخفيفة بالقدر الذى لا يحس الإنسان بهذه الحركة السريعة.

والحركة الاخرى هى دوران المنظومة الشمسية مع بقية المجرّات حول المركز الأصلى لهذه المجرّات التى نرتبط بها، وممّا يثير العجب فقد ذكروا أنّ سرعة هذه الحركة المذهلة تقدر ب ۹۰۰ الف كيلو متر فى الساعة (بل أكثر من ذلك قليلًا) «۲».

وطبقاً لهذا التفسير فانَّ المقصود من المستقر هو المستقر الذى تبلغه الشمس عند نهاية العالم وحلول القيامة، حينها تصبح الشمس بلا ضياءٍ ويزول نظامها.

و (طبعاً) لا تتعارض هذه التفاسير مع بعضها، فيمكن أن تجتمع كلُ هذه التفاسير الستة

---

(۱) المقصود من «البرج» هنا مجموعة النجوم المتجمّعة والتى تكوِّنُ شكلًا خاصاً، والابراج الاثنا عشر كما يلى: الحمل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدى، والدلو، والحوت.

(۲) راجعوا كتاب العوالم البعيدة، ص ۲۹۳؛ وتسخير النجوم، ص ۳۹۲.

فى مفهوم هذه الآية، لأنّ حركة كل من الأرض والشمس ليست نوعاً واحداً.

وتعبير «يُسبِّحون» تَعبيرٌ لطيفٌ حيث يعبّر عن حركة الشمس والقمر السريعة والرقيقة والمتوازنة فى نفس الوقت.

وذكر فى الآيات أعلاه منازل معينة للقمر حيث قال: «وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنازِلَ».

والمقصود تلك المنازل الثمانية والعشرون التى يطويها القمر كل شهر منذ بداية مرحلة الهلال وحتى المحاق (الظلام المطلق)، وفى الليلة الثامنة والعشرين يظهر ثانيةً على هيئة هلالٍ أصفر رفيع جدّاً وقليل الاشعاع والنور ويبقى ليلتين حيث يقال له (محاق) إذ تتعذر رؤيتُه.

ويشبِّهُ القرآنُ الكريمُ هلال آخر الشهر ب «العُرجُونِ القَدِيم» «۱»

، وهذا التعبيرُ لطيفٌ وجذّاب للغاية من عدة وجوه.

ونختتم هذا البحث الذى قد طال بعض الشىء بذكر هاتين المسألتين:

أولًا: إنّ المقصود من الفلك فى الآيات المذكورة هو المعنى اللغوى وليس المعنى الذى يقصده علماء الفلك فى قديم الزمان، لأنّ الفلك فى اللغة يعنى مدار النجوم، وأحياناً يقال لكل موجود يشبه الدائرة ويكون عالياً من أطرافه.

ويعتَقد «الراغب» أنّها فى الأصل من مادة «فُلْك» (على وزن قُفْل) والتى تعنى «السُفن»، لأنَّ السفن لها حركات دائرية أثناء مسيرها فى البحار.

ولكنَّ المنجمين القدامى سلكوا نهج بطليموس إذ كانوا يعتقدون أنّ السماء تتألف من تسعِ طبقاتٍ مركبة بعضها فوق بعض كقشرة البصل، ولأنَّ هذه الطبقات تتكون من مادةٍ شفّافةٍ كالبلّور فقد التَصَقت النجوم والكواكب فى وسطها وتدور مع دوران الافلاك فيظهرُ دوران النجوم فقط، ولا يظهرُ شىءٌ من دوران الأفلاك، وقد بَطُلَ هذا الاعتقاد بنحوٍ كاملٍ اليوم، واصبح من المسلَّم به أنّ النجوم معلقةٌ فى فضاءٍ غير محدودٍ وتتحرك تحت تأثير

---

(۱) «العرجون» من مادة «انعراج» أى الاعوجاج والانحناء، ويصفه البعض بذلك القسم من القرن المقوَّس الذى يتبقى على النخل بعد قطف التمر، و «القديم» تعنى العتيق.

قانون الجذب والدفع فی مسیرةٍ معینةٍ، والجدیر بالذکر أنّ القرآن الکریم نزلَ فی زمانٍ کانت تحکَم فیه نظریةُ بطلیموس علی جمیع المحافل العلمیة بکل قوةٍ، إلّاأنّ تعابیر القرآن (کالتعبیر ب «الجریان» و «السباحة» التی وردت فی الآیات أعلاه) لا تتلائم مع النظریة القدیمة بایِّ نحوٍ وتتطابق مع آخر الاکتشافات العلمیة فی هذا العصر.

وورد فی الآیتین الثامنة والتاسعةِ (أَیْمَانٌ) تَبعثُ علی التأمل فیقول فی إحداهما: «فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ»، فیمکن أن یکون هذا التعبیر إشارة إلی المشارق والمغارب و «المکانیة» المختلفة، لأنَّ کرویة الأرض تؤدی إلی وجود مشرقٍ ومغربٍ بعدد نقاط سطح الأرض، أو أن یکون إشارة إلی المشارق والمغارب «الزمانیة»، لأننا نعلم أنّ حرکةَ الأرض حول الشمس تؤدی إلی استحالةِ شروق الشمس وغروبها من نقطةٍ واحدةٍ خلال یومین متتالیین.

هذا الاختلافُ فی المشارق والمغارب الذی یتمّ من خلال نظامٍ دقیقٍ ومنهجی سبّب فی حدوث «الفصول الاربعة» بما فیها من برکات من جهةٍ، ومن جهةٍ اخری فهو یؤدّیموازنة الحرارة والبرودةِ والرطوبةِ علی سطح الأرض، ویمنحُ حیاةَ الإنسان والحیوانات والنباتات نظاماً وترتیباً، وکلٌ منها آیة من آیات اللّه وبرهان من براهینه.

وفی مکانٍ آخر یُقسمُ بالقمر «کَلَّا وَالقَمَرِ* واللَّیلِ إِذْ أَدْبَرَ* وَالصُّبحِ اذَا اسْفرَ» ثم یضیف: أنّ هذه الأَیْمانُ تُنبیءُ عن تحذیرٍ فی أمر المعاد فیقول: «إنَّ أحداثَ القیامةِ وجهنَّم من عظیمات الامور «إِنَّها لِإِحْدی الکُبرِ»» «۱».

واقْسَمَ فی بدایة سورة الشمس بالشمس أیضاً، واشعّتها التی تُحیی الأرواح، والقمر الذی یبزغُ بعد غروب الشمس.

---

(۱) یقول الفخر الرازی: «إنَّ جهنَّم لها سبع مقاماتٍ ودرکاتٍ وهی کما یلی، جهنَّم، ولظی والحطمة، والسعیر، وسقر، والجحیم، والهاویة» (تفسیر الکبیر، ج ۳۰ ص ۲۰۹).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۷

وهذا ما نفهمه أیضاً بأنَّ القَسَمَ بشیء ما یدلُ علی أهمیته الخاصة، وإذا صدر هذا القَسَمُ عن شخصٍ عظیمٍ ستتضاعف اهمیتُه، وإذا اقسِمَ بهِ مِنْ أجل موضوعٍ مهم ستزدادُ أهمیة هذا الموضوع أیضاً.

والآن تأمّلوا جیداً عندما یُقسم البارئ جلَّ وعلا بالشمس والقمر من أجلِ مسألةِ المعاد المهمّة، فهذا دلیلٌ علی العظمةِ الفائقة لهذین الکوکبین، ویشهد علی هذه الحقیقة کون أن کلًا من هذین الکوکبین ذو أهمیةٍ فی نظر القرآن الکریم.

فلماذا یُقسمُ البارئ تعالی بکواکب السماء واللّیلِ والنهار من أجل اثباتِ القیامة والحساب؟ وذلک لأنَّ النظام الحاکم علی هذه الاشیاء یبرهنُ علی أنّ لجمیع ذرات العالم حساباً خاصاً، بناءً علی ذلک کیف یمکنُ أن تکون أعمال الإنسان الذی هو زهرةُ عالم الوجود بلا حسابٍ ولا کتابٍ، ولا وجود للمعاد والمحکمة العادلة؟.

وجاءت الآیة العاشرة الأخیرة فی بحثنا هذا عن نعمةِ وجود النجوم والنظام الدقیق الذی یحکمها فیقول: «وَهُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهتَدُوا بِهَا فِی ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ» ثم یضیفُ: «قَدْ فَصَّلْنَا الآیَاتِ لِقَومٍ یَعْلَمُونَ».

لقد کانت النجوم دائماً وعلی مدی مراحل التاریخ من أهم وسائل ارشاد الإنسان فی اللیالی المظلمة، حیث کان یهتدی بمساعدتها فی أسفاره البحریة والبرّیة، حتی أنّ بعض العلماء یظنون أنّ الطیور المهاجرة، أی الطیور التی تقطع آلاف الکیلو مترات فی السنة أحیاناً، وبعضُها یستمر فی طیرانه لیلًا ونهاراً بلا توقفٍ، تحدد طریقها نهاراً عن طریق الشمس، ولیلًا عن طریق نجوم السماء، ولهذا فانّها تتوقف عن مواصلة الطیران مؤقتاً إذا کان الجو غائماً تماماً حتی تنکشفَ الغیوم وتظهر السماء والنجوم!

والعجب إنّ إمکانیة تحدید فصول السنة أیضاً من خلال الاستفادة من النجوم.

علی أیّةِ حالٍ، فانَّ هذه الآیة تُلفتُ نظرَ کلِّ المفکّرین إلی هذه المسألةِ وهی أنّ حرکة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۵۸

النجومِ فی السماء واستقرارها فی هذا المیدان العظیم تتمتع بنظامٍ وحسابٍ خاصٍ، وإلّا لما استطاعَ أیُّ أحدٍ العثور علی طریقهِ فی ظلمة اللیل من دونها.

وهذا النظام یدل علی أنَّ الخالق المدبِّر قد خطَّطَ له بکل حکمةٍ، ولهذا فانَّ النظام السائد علی نجوم السماء هو الذی یُحررنا من ظلماتِ الشرک والکفر أیضاً!.

ومع تطور علم الفَلَک، فقد نجح العلماء فی تقدیر سرعة الکثیر من کواکب السماء، وحجمها ومسافاتها وبقیة خصائصها، وتوصلوا عن هذا الطریق إلی حقائق جدیدة عن هذا النظام العظیم.

صحیحٌ قد تم اختراعُ آلاتِ ووسائلَ دقیقةٍ یستطیعُ الإنسان بمساعدتها أن یعثرَ علی طریقه فی البر والبحر، ولکن لا ینبغی نسیانُ عدم إمکانیة استخدام جمیع المسافرین لهذه الوسائل العلمیة المتنوعة، إضافة إلی حدوث الخلل فی هذه المعدات والآلات الدقیقة أحیاناً ممّا یسبب الانحراف عن الطریق، فإذا کان الإنسان مطلعاً علی مواقع ومواضع النجوم یستطیعُ من خلال ذلک إصلاح اخطاء هذه المعدات.

ورد فی بعض الروایات تفسیرٌ آخرٌ لهذه الآیة عن أهل البیت (علیهم السلام) یمکنُ أن یُعدَّ جزءً من المعانی الباطنیةِ والثانویةِ لهذه الآیة، وذلک أنّ المقصود من «النجوم» هم القادةُ الربانیّون والأئمّة المعصومون الذین ینجو الناسُ بهم من ظلمات الحیاة کما ورد فی تفسیر علی بن إبراهیم فی بیان معنی الآیة: «وَهُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِی ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» حیث قال: «النجوم هم آل محمد» «۱»

، و طبعاً- من المستطاع الجمعُ بین هذین المعنیین، أی النجوم المادیّة والنجوم المعنویة والهدایة الظاهریة والباطنیة.

توضیحات

۱- هویة الشمس

لقد اتّضح لنا الیوم تقریباً أنّ الشمسَ عبارة عن کرةٍ، وأنّها أکبر من الأرض بملیون

---

(۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۷۵۰ ح ۲۰۳.

وثلاثمائة الف مرّة، أی لو کانت الشمس مقعَّرةَ الوسط لکان من الممکن أن تستوعب ملیوناً وثلاثمائة الف کرةٍ أرضیةٍ! وتتضح هذه العظمة المذهلة من خلال التأمل فی قُطر الشمس عند الوسط الذی یقرب من (ملیون وأربعمائة الف کیلو متر).

وتبلغ الفاصلة بیننا وبینها ۱۵۰ ملیون کیلومتراً تقریباً، وأنَّ نورها الذی یقطعُ طریقهُ بسرعةِ ۳۰۰ الف کیلومتر فی الثانیة یصل إلینا خلال ۸ دقائق تقریباً.

إنّ جُرمَ الشمس العظیم یؤدّی إلی زیادة وزن الأشیاء فیها، فمثلًا إنَّ الإنسان الذی یبلغُ وزنُه ۶۰ کیلوغراماً علی سطع الأرض سیکون وزنه ۱۵۰۰ کغم فیما إذا کان علی سطح الشمس!.

لقد قدَّر العلماء وزن الشمس بما یعادل:

۲ ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰، ۰۰۰ طن.

وأخیراً فهُم یُقدِّرون عمر الشمس منذ تکونها بشکلها الحالی بما یقارب ۵ ملیارات سنة.

إنَّ للشمس ثلاثة انواعٍ من الحركة تقريباً، حركةٌ حول نفسها (كلَّ ۲۵ يوماً مرّة واحدة تقريباً، وحركةٌ مع المنظومةِ الشمسية فى قلب المجرّات نحو الصورة الفلكية (الجاثى) حيث تبتعد عن مكانها أكثر من ۶۰۰ كم كل ساعة، وحركةٌ حول مركز المجرّات، وتدور حول هذا المركز خلال هذه الحركة مرّة واحدة كل ۲۵۰ مليون سنة.

أَما حرارةُ سطح ومركز الشمس فهى عجيبةٌ للغاية، وتُبينُ حسابات العلماء أنّ حرارة سطح الشمس تعادل ۶۰۰۰ سانتغراد تقريباً، ولا تحصل هذه الحرارة على الأرض فى أىِّ مختبرٍ أو فرنٍ أبداً، ودليلُ ذلك واضحٌ جدّاً لأنَّ جميع المواد بطيئة الذوبان التى نعرفها والتى يمكن بناء فرنٍ منها لا تذوب فى مثل هذه الحرارة فقط، بل تصبحُ بخاراً، ولهذا فانَّ جميع المواد الموجودة على سطح الشمس ذائبةٌ على هيئة بخار.

والأعجبُ من ذلك حرارةُ عمقها التى تبلغُ ۲ مليون درجة سانتِغراد! وتندلعُ من سطح الشمس ألسنةُ نيران يبلغُ ارتفاعها أحياناً ۱۶۰ الف كم، ومن السهولة أن تضيع الكرةُ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۰

الأرضية فيها (لأنّ قطر الأرض ليس أكثر من ۱۲ ألف كيلو متر).

إنَّ هذه الحرارة لا تحصل بسبب الاحتراق، وإلّا لو كانَ جرم الشمس قد صُنِعَ من الفحم الحجرى الخالص لانتهت تماماً على مدى عددٍ آلاف من السنين كما يقول «جورج غاموف» فى كتاب «تكوُّن وموت الشمس»، ولا يبقى شىء سوى الرَّماد. فالحقيقة أنّ مفهوم الاحتراق لا يصدقُ بخصوص الشمس وما يصدقُ هو الطاقة الناتجة عن الانشطار النووى، ولكن بهذا الحال وطبقاً للحسابات العلمية فانَّ كلَّ ثانيةٍ تمرُّ على الشمس ينقصُ من وزنها ۴ ملايين طن، أى إنَّ هذا المقدار من ذراتها يتحول إلى طاقةٍ، فبالرغم من أنّ هذا الأمر ليس له تأثيرٌ على المدى القريب، إلّاأنّه من المسلَّم به سيساعدُ فى فناءِ الشمس على المدى البعيد، وهذا ما صرَّحَ به القرآن الكريم فى آياته، حيث سيأتى اليوم الذى ينطفىءُ هذا المصباح السماوى العظيم المنير «۱».

۲- البركات العظيمة للشمس

مهما تحدثنا حول فوائد وجود هذا النجم السماوى وتأثيره البالغ فى حياة الإنسان وبقية موجودات الأرض، فإننا لا نستطيع أن نفى بالغرض، وفى الحقيقة يمكنُ تأليف كتابٍ كبيرٍ فى هذا المجال بالترتيب التالى:

۱- إنّ جاذبيةَ الشمس تؤدى إلى دوام استمرار الأرض فى دورانها فى مدارها الثابت وإلّا لسقطت فى إِحدى زوايا هذا الفضاء اللا متناهى ككُرةٍ مضطربة.

۲- إنّ الحرارة التى تصلنا من الشمس بصورة مباشرة نهاراً والتى تخزن فى الأجسام وتنعكس علينا ليلًا، لها تأثير فى نمو النباتات وديمومة الحركة والحياة لدى الحيوانات.

۳- إنَّ الشمسَ تَضعُ فى خدمة الإنسان نوراً سليماً ومجانياً وغَير حارٍ أو مُحرقٍ ولا

---

(۱) اقتباس من كتب ۱- تركيبات الشمس، ۲- نجوم بلا منظار، ۳- تكوُّن وموت الشمس، ۴- تاريخ العلوم، ۵- من العوالم البعيدة، ۶- الإسلام والهيئة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۱

باردٍ وخالٍ من الأثر، بشكلٍ دائم، وإذا قارنّا قيمة الطاقة التى نحصل عليها من الشمس مع قيمة مصادر الطاقة الاخرى فلابدّ أنْ تدفعَ البشرية اموالًا عِوَضاً عن النور والحرارة التى تستلمها من الشمس مقارنةً مع ثمن «الكهرباء» بمقدار (ملياراً و ۷۰۰ ألف دولار كل

ساعة).

عندئذٍ يجب أن نفكِّرَ كم ستكون هذه الميزانية على مدى سنةٍ كاملةٍ؟

وبتعبيرٍ آخر، لو أرادَ أهلُ الأرض تأمين الحرارة التى تمنحُها إيّاهم الشمس، عن طريق شراء الفحم الحجرى فيجب عليهم توفير ۶۱ الف مليار طن منه سنوياً، أو بعبارة اخرى توفير ۲۰ ألف طن لكل شخص، أىّ تأمين ميزانيةٍ باهضة.

۳- نحنُ نعلمُ أنّ ضوء الشمس يتركبُ من ۷ ألوان مُزجت مع بعضها وظهرت على هيئة هذا النور الأبيض والشعاع الحالى، وهذا النورُ يُعتَبرُ عاملًا مساعداً للنباتات حيثُ يمتصُ غاز ثانى اوكسيد الكاربون من الجو ويطرحُ فى المقابل غاز الاوكسجين الذى هو عِمادُ حياتنا، فهو يساعد النباتات فى نموها بسحب ثانى اوكسيد الكاربون.

ونحنُ نميزُ الأشياء حسب العادةِ عن طريق ألوانها، وهذه الألوان تحصلُ فى شعاع الشمس، لأنَّ كلَّ موجودٍ يقوم وحسب تكوينه بامتصاص جانبٍ من ألوان الشمس فنطلقُ على اللون الذى لم يُسحبْ لونَ الشىء، أى أنّ الورق الأخضر للنباتات يمتص جميع ألوان الشمس عدا اللون الأخضر، إذن فنورُ الشمس هو الذى يُظهرُ جميع الألوان.

۴- إنَّ الاشعةَ فوق البنفسجية والتى هى من اشعاعات الشمس تُفيدُ فى القضاء على ۹۰ خ من الجراثيم، وتقوم بدورِ منعِ التعفن بنجوٍ تام، ولولاها لتبدَّلت الأرضُ إلى مستشفىً كبيرٍ، ولعلَّ أشعة الشمس اعتبرت لهذا السبب من المطهّرات فى الإسلام «مع شروط خاصةٍ طبعاً».

۵- لقد استطاعَ العلماءُ من خلال استخدامهم للعدسات المحدبة الفخمة من توليد حرارةٍ هائلةٍ بامكانها تشغيل المصانع المهمّة، ولعل الكثير من المؤسسات الصناعية الحسّاسة سيتم تَشغيلها فى المستقبل القريب بالاستفادة من نور الشمس، وتحلُّ الطاقةُ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۲

الشمسية عندئذ محلَّ الكهرباء فى البيوت.

۶- إنَّ تكوُّنَ الغيوم نتيجةً لسقوط أشعة الشمس على سطح المحيطات وهبوب الرياح نتيجةً لاختلاف درجات الحرارة على الأرض بسبب أشعة الشمس، ثم حركة الغيوم نحو اليابسة وهطول الأمطار التى تبعث الحياة، هى احدى الفوائد المهمّة للغاية لنور وحرارة الشمس.

۷- إنّ حركة الشمس المنظمة فى أبراج السماء (الصور الفلكية) وشروقها وغروبها المنهجى الّذى يجرى بنظامٍ وتعاقب دقيقٍ ومحسوبٍ على مدى أيام السنة، إضافة إلى مساعدتها فى تكوين الفصول المتعددة، فهى تساعد فى إيجاد تقويمٍ وحسابٍ منظمٍ للزمان الضرورى جدّاً للحياة الاجتماعية للبشر «۱».

۳- القمر وبركاته

إنَّ القمر كوكبٌ صغيرٌ نسبياً فهو اصغر من الأرض ب (۴۹ مرَّة) وفقاً لحسابات العلماء، لهذا فانَّ قوة جاذبيته تعادل ۶ ۱ قوة جاذبية الأرض، ومتوسط بُعده عن الأرض أكثر من ۳۸۴ الف كيلومتر، لذلك فانَّ نور القمر يصل إلينا خلال أكثر من ثانيةٍ واحدةٍ بقليل.

وتَبلغ سرعةُ حركته فى دورته حول الأرض كيلو متراً واحداً فى الثانية، ويدور حول الأرض مرّة واحدة على مدى شهرٍ قمرىٍّ واحد أى «أكثر من ۲۹ يوماً بقليلٍ»، ويدور حول نفسه أيضاً مرّةً واحدةً خلال نفس هذه الفترة، وبما أنّ هاتين الحركتين متناسقتان فإنَّ جانب القمر الذى يقابل الأرض يكون ثابتاً على الدوام، ولا عجبَ إذا قُلنا إنَّ نورَ القمر حين اكتمالِه ليلة البدر أقلُ من ضوء الشمس ب (۴۶۰) ألف مرّة، إلّاأنّ هذا النور الضئيل

(۱) فكما قلنا إنَّ السبب الرئيسى لحصول هذه الامور هو فى الواقع دوران الأرض حول الشمس، ولكن بما أنّ حركة الشمس هى التى تُرى كسببٍ لهذا حسب الظاهر، فإنّ القرآن الكريم يعتبر كلا من الشمس والقمر (حسبان) أى (وسيلةً للنظام والحساب)- الأنعام، ۹۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۳

يضىء الليالى المقمرة، ويظهر كمصباحٍ جميلٍ كثيف الشعاع ومُريح للفؤاد وبمنظرٍ شاعرىٍّ محبَّب.

ولم تكن الإشارة إلى القمر فى الآيات السابقةِ فقط، فقد تمت الإشارة إلى القمر وبركاته وفوائده فى آياتٍ كثيرةٍ من القرآن الكريم، ووردَ القَسَمُ به فى آياتٍ اخرى أيضاً، وجاء الحديث عن «القمر» فى ما مجموعه ۲۷ آية من القرآن الكريم، واشيرَ إلى تسخير القمر فى سبع آياتٍ من هذه الآيات التى تُبيِّنُ أهميّة فوائده فى حياة البشر «۱».

إنَّ فوائد وبركات القمر كثيرةٌ للغاية، حيث نشير هنا إلى عددٍ منها:

۱- إنّ دوران القمر حول الأرض يُشكِّلُ تقويماً طبيعياً لطيفاً، وقد مرَّ شرحُهُ فى الأبحاث السابقة.

۲- إنّ الضياء المناسب الذى يمنحه القمر بالرغم من أنّه لا- يزيل ظلمةَ الليل كُليّاً (ولا ينبغى أن يزيلها لأنَّ نفس الظُلمةِ لها فلسفة مهمة)، ولكن يُمكن أن يساعد الإنسان إلى حدٍ ما فى الكثير من الليالى على اكتشاف طريقه فى المدن والصحارى والبحار، لا سيما أنّ نور القمر مناسبٌ وملائم بحيث لا يزعجُ الإنسان والموجودات الاخرى أثناء النوم والراحةِ ليلًا، بل يشعر الإنسان باطمئنان خاصٍ من خلال نور القمر.

۳- إنّ مسألةَ المدِّ والجزر فى البحار إحدى الآثار البارزة لوجود القمر، فالذين ذهبوا إلى البحار كان بامكانهم ملاحظة هذا الأمر فى الليل والنهار حيث يرتفع وينخفض منسوبُ المياه مرّتين كل يوم، ويُعبَّرُ عن ذلك بالمد والجَزر، ويستمر كلٌ منهما لمدة ۶ ساعات تقريباً.

فأثناء المدِّ يرتفعُ منسوبُ المياه ويغطى معظم سواحل البحر، وخلال الجزر تنكشف سواحل البحار.

ولهذا المدّ والجزر فوائد مهمّة فى حياة البشر منها: تراجع مياه الأنهار التى تصب المياه العذبة فى البحار ممّا يؤدّى إلى رى الأراضى الواسعة عن طريق ذلك كما يشاهد فى بساتين

---

(۱) الاعراف، ۵۴؛ الرعد، ۲؛ ابراهيم، ۳۳؛ النحل، ۱۲؛ لقمان، ۲۹؛ فاطر، ۱۳؛ الزمر، ۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۴

النخيل الساحلية الواسعة فى خوزستان.

ومن الفوائد الاخرى للمد والجزر هى حركة المكائن فى المصانع ونشاط المولدات الكهربائية، وكذلك الإبحار، حيث إنّ السفن الكبيرة تستطيع خلال المد أن ترسو فى معظم السواحل حيث يتمّ تحميل وتفريغ حمولتها، وتنظيف الموانىء، وصيد الأسماك، وتحريك مياه البحر وموازنة حرارته ومركباته أيضاً وامور اخرى «۱».

۴- الشمس والقمر فى كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام

عندما تقع عين الإمام السجّاد عليه السلام على القمر فهو يخاطبه، وهذه الكلمات درسٌ فى التوحيد ومعرفة اللَّه حيث يقول:

«أيها الخلق المطيع! الدائب السريع المتردّد فى منازل التقدير المتصرف فى فلك التدبير، آمنت بمن نوَّر بك الظلم، وأوضح بك البُهم، وجعلك آية من آيات ملكه، وعلامة من علامات سلطانه ... سبحانه ما أعجب ما دبّرَ فى أمرك، وألطف ما صنع فى شأنك جعلك مفتاح شهر حادث لامرٍ حادث ...» «۲».

وفى توحيد المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فكّر يا مفضل فى طلوع الشمس وغروبها لاقامة دولتى النهار والليل، فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كلّه فلم يكن الناس يسعون فى معايشهم، ويتصرّفون فى امورهم، والدنيا مظلمة عليهم ولم يكونوا يتهنأون بالعيش مع فقدهم لذة النور وروحه، والإرب فى طلوعها ظاهر مستغن بظهوره عن الإطناب فى ذكره، والزيادة فى شرحه، بل تأمّل المنفعة فى غروبها، فلولا غروبها لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع عظم حاجتهم إلى الهدوء والراحة ...

---

(۱) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ودائرة المعارف للمصاحف وكتب اخرى

(۲) بحار الأنوار، ج ۵۸، ص ۱۷۸، ح ۳۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۵

ثم فكر بعد هذا فى ارتفاع الشمس وانحطاطها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة وما فى ذلك من التدبير والمصلحة ...

فكّر الآن فى تنقل الشمس فى البروج الاثنى عشر لإقامة دور السنة ... وفى هذا المقدار من دوران الشمس تدرك الغلات والثمار، وتنتهى إلى غاياتها، ثم تعود فيستأنف النشوء والنمو ...

انظر إلى شروقها على العالم كيف دبّر أن يكون، فانّها لو كانت تبزغُ فى موضع من السماء فتقف لا تعدوه لما وصل شعاعها ومنفعتها إلى كثير من الجهات.

أفلا ـ يرى الناس كيف أنَّ هذه الامور الجليلة؟ التى لم تكن عندهم فيها حيلة صارت تجرى على مجاريها، لا تعتل ولا تتخلف عن مواقيتها لصلاح العالم وما فيه بقاؤه؟

استدلّ بالقمر، ففيه دلالة جليلة تستعملها العامة فى معرفة الشهور، ولا يقوم عليه حساب السنة ... فكّر فى انارته فى ظلمة الليل والإرب فى ذلك، فانّه مع الحاجة إلى الظلمة لهدوء الحيوان وبرد الهواء على النبات لم يكن صلاح فى أن يكون الليل ظلمة داجية لا ضياء فيها فلا يمكن فيه شىء من العمل، لأنّه ربّما احتاج الناس إلى العمل بالليل لضيق الوقت عليهم فى تقصّى الأعمال بالنهار، أو لشدّة الحر وافراطه ... وجعل طلوعه فى بعض الليل دون بعض، ونقص مع ذلك من نور الشمس وضيائها لكيلا ـ ينبسط الناس فى العمل انبساطهم بالنهار، ويمتنعوا من الهدوء والقرار ...) «۱».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۵۵، ص ۱۷۵، ح ۳۶ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۷

۹- آياتُهُ فى خلقِ الليل والنهار

تمهيد:

بالرغم من أنّ الليل والنهار من الظواهر التى تحصل نتيجة لضوء الشمس وحركة الأرض، ويعتبران من بركاتهما، لكن نظراً لاهتمام القرآن بهما فى آيات التوحيد بشكلٍ خاص، واستناده إلى هاتين الظاهرتين فى الكثير من الآيات، لذلك من الواجب الاهتمام بهما بشكل مستقل، كى نرى فيهما آيات تلك الذات غير المعلومة، ونتعرفُ أكثر على خالقِ وإله عالم الوجود، ونزداد حباً له، ونتشرف بالنظر إلى حضرته المقدَّسة.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين الآيات الاثنتى عشرة الآتية:

۱- «وَهُوَ الَّذِی خَلَقَ اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الانبیاء/ ۳۳)

۲- «یُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِی ذَلِکَ لَعِبْرَةً لِّأُولِی الأَبْصَارِ». (النور/ ۴۴)

۳- «هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیْلَ لِتَسکُنُوا فِیْهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیاتٍ لِّقَومٍ یَسْمَعُونَ». (یونس/ ۶۷)

۴- «وَمِنْ آیاتِهِ اللَّیْلُ والنَّهارُ والشَّمْسُ والْقَمَرُ». (فصلت/ ۳۷)

۵- «وَجَعَلْنَا اللَّیلَ وَالنَّهارَ آیَتَیْنِ فَمَحَوْنَا آیَةَ اللَّیْلِ وَجَعَلْنَا آیَةَ النَّهارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّکُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِیْنَ والْحِسابَ». (الاسراء/ ۱۲)

۶- «وَجَعَلْنَا اللَّیلَ لِبَاساً* وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعَاشاً». (النبأ/ ۱۰ و ۱۱)

۷- «وَهُوَ الَّذِی جَعَلَ اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرادَ أَنْ یَذَّکَّر أو أَرَادَ شُکُوراً».

(الفرقان/ ۶۲)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۸

۸- «وَسَخَّرَ لَکُمُ اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ». (النحل/ ۱۲)

۹- «إِنَّ فِی اخْتِلَافِ اللَّیلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِی السَّمواتِ وَالأَرضِ لَآیاتٍ لِّقَوم یَتَّقُونَ». (یونس/ ۶)

۱۰- «قُلْ ارَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَیْکُمُ اللَّیْلَ سَرْمَداً إلی یَومِ القِیَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَیْرُ اللَّهِ یَأْتِیکُمْ بِضِیاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ* قُلْ ارَأَیْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَیْکُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلی یَومِ الْقِیَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَیْرُ اللَّهِ یَأْتِیکُمْ بِلَیْلٍ تَسْکُنُونَ فِیْهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ* وَمِنْ رَّحمَتِهِ جَعَلَ لَکُمُ اللَّیلَ والنَّهَارَ لِتَسْکُنُوا فِیهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ». (القصص/ ۷۱- ۷۳)

۱۱- «وَاللَّیلِ إِذا یَغْشَی وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّی . (اللیل/ ۱- ۲)

۱۲- «ذلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ یُوْلِجُ اللَّیلَ فِی النَّهَارِ وَیُوْلِجُ النَّهَارَ فِی اللَّیْلِ وأَنَّ اللَّهَ سَمِیْعٌ بَصِیْرٌ». (الحج/ ۶۱)

جمع الآیات وتفسیرها

النظام العجیب اللّیل والنّهار:

لقد تکرّرت کلمهٔ «اللیل» فی القرآن الکریم أکثر من «۷۰» مرّهٔ، وکلمهٔ «النّهار» أکثر من «۵۰» مرّهٔ، والآیات السابقهٔ تُعتبر نماذج مختلفهٔ لهذه الآیات، حیث تمّت الإشارهٔ فیها إلی البعد التوحیدی لخلق اللیل والنهار علی وجه الخصوص.

ففی الآیهٔ الاولی ذُکرَ اصلُ خلقِ اللّیل والنهار، والشمس والقمر، اللذین یرتبطان بهما بعلاقهٔ قریبهٔ کبرهانٍ لسالکی خط التوحید ومعرفهٔ اللّه، حیث یقول: «هُوَ الَّذِی خَلَقَ اللَّیلَ وَالنَّهَارَ».

وجاء هذا المعنی بنحوٍ آخر فی الآیهٔ الرابعهٔ، إذ یقول: «ومِنْ آیاتِهِ اللَّیلُ والنَّهَارُ وَالشَّمسُ وَالقَمَرُ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۶۹

فی الوقت الذی یقول فی الآیهٔ الثانیهٔ: «یُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّیْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِی ذَلِکَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الأَبْصَارِ».

وقد یکون هذا التغییر فی التعبیر إشارهٔ إلی حصول اللّیل والنّهار، أو زیادهٔ ونقصان مقداریهما، أو اختلافهما من حیث البرودهٔ والحرارهٔ الذی یحدث خلالهما «۱»، ولکن لا مانع من شمول هذا التغییر کل هذه المعانی أبداً.

وأشار فی الآیهٔ الثالثهٔ إلی احدی فوائد «اللّیل» و «النهار» المهمّهٔ، حیث یقول: «هُوَ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ اللَّیلَ لِتَسْکُنُوا فِیه وَالنَّهارَ مُبصِراً».

والواضح أنّ الاطمئنان فی ظلمهٔ اللیل أحدُ أهمِ النعم الإلهیّهٔ، کما أنّ نور النّهار الضروری لمختلف النشاطات یُعتبر نعمهً مهمهً اخری

والملاحظ فى هذه الآية أنَّ النَّهار اعتُبرَ «مُبصراً»، والمُبصرُ فى الأصل تعنى البصير، ونحنُ نعلمُ أنّ النّهار ليس بصيراً فى نفسهِ، ولكن بما أنّه يؤدّى إلى أن يُبصرَ الآخرون، فلعلَّ هذا التعبير اطلِقَ عليه للتأكيد والمبالغة.

وفى الحقيقة لولا بريق النّور فلا فائدةَ لألف عينٍ مبصرةٍ، لهذا فهو يضيف فى ختام الآية: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَومٍ يَسْمَعُونَ»، أى اولئك الذين يستمعون هذه الآيات ويتفكرون فيها.

فى حين أنّه يعتبر كلًا من الليل والنّهار فى الآية الخامسة آيةً من آيات اللّه تعالى ويقول:

«فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبصَرةً»، ثم يشير إلى فائدتى ذلك حيث يقول:

---

(۱) وردت هذه الاحتمالات الثلاثة فى تفسير روح المعانى، ج ۱۸، ص ۱۷۳، وتفسير الكبير ج ۲۴ ص ۱۵، ولكنذُكر التفسير الأول والثانى فقط فى تفسير مجمع البيان ج ۷ ص ۱۴۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۰

«لِتَبتَغُوا فَضْلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ ولِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَنِينَ والْحِسَابَ».

فهل أنّ فوائد النهار تقتصر على ابتغاء فضلِ اللّه ومعرفة حساب السنة والشهور من آثار الليل والنّهار معاً؟ أم أنّ كلا المنفعتين لهما علاقةٌ وثيقة بالليل والنهار معاً؟ لأنَّ الراحةَ فى اللّيل لها أثرٌ واضحٌ فى إمكانية العمل والابتغاء من فضل اللّه نهاراً، والظاهر أنَّ المعنى الثانى أكثر تناسباً من حيث تناسقه مع الآية، بالرغم من أنّ العديد من المفسرين ذكرَ المعنى الأول.

وفى الآية السادسة إشارة إلى هذا المعنى وبنحوٍ آخر حيث يقول: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً- والنَّهَارَ مَعَاشاً».

وقد يكون «المعاش» اسم زمانٍ أو مكانٍ أو مصدراً ميمياً، وهو يلائم المعنى المصدرى «۱».

ووصف الليل ب «اللباس» يعتبر من التعابير اللطيفة جدّاً، حيث إنَّ الليل كاللباس بالنسبة لنصف الكرة الأرضية، وهو كذلك بالنسبة للإنسان، فكما أنّ اللباس يحفظ جسم الإنسان من بعض الاضرار ويمنحه جمالًا ورونقاً، فانَّ ظلمةَ الليل والنوم العميق أثناء اللّيل يمنح روحَ الإنسان وجسمه طراوةً ونشاطاً ويصونه من مختلف الأمراض.

والحديث فى الآية السابعة عن استخلاف الليل والنّهار لبعضهما البعض، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ خِلْفَةً».

---

(۱) قال بعض المفسرين: إنّ التعبير ب «المعاش» أى «الحياة» بخصوص النهار هو لأجل أنّ النوم فى الليل يشبه الموت كما يقول العرب فى أمثالهم «النوم أخُ الموت»، وعليه فانَّ النقطة المقابلة له اى النهار هو أساس الصحوة والحياة، (الحياة بكل أبعادها).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۱

و «خِلْفَة»: على وزن (فِتنه)، وكما يقول الراغب فى «المفردات» فانّها تُطلقُ على شيئين يخلف أحدُهما الآخرَ باستمرار، لكن «خلفة» تعنى «مختلف» وفقاً لرأى الفيروز آبادى فى «قاموس اللغة»، ففى الحالة الاولى ينصبُّ الاهتمام على تناوب الليل والنّهار، فلو لم يكن هذا التناوب دقيقاً ومحسوباً، فإمّا أنْ تحترق موجودات الأرض من شدة حرارة ضوء الشمس أو تنجمد منْ شدةِ البرودة، وفى الحالة الثانية إشارة إلى اختلاف اللّيل والنّهار وحصول فصول السنة الأربعة التى لها آثار خاصة فى حياة الإنسان.

واختار بعضُ المفسرين المعنى الأول، بينما ذهبَ البعضُ الآخر إلى المعنى الثانى، ولكن ليس هنالك من مانعٍ فى الجمع بين هذين المعنيين.

وورد فى الروايات أنّ الإنسان يستطيع أن يقضى فى النّهار ما فاته من عبادات الليل وبالعكس، واعتُبِر أنّ الآية تشير إلى هذا المعنى «۱».

ولا يتعارض هذا التفسير مع التفاسير السابقة أيضاً، وعلى أية حالٍ، فانَّ الآية تشير إلى نظامٍ خاصٍ ومتناوبٍ لظاهرة لليل والنّهار حيث

تدلل على العلم والقدرة اللامتناهية للخالق جلَّ وعلا، بشكلٍ لو كانت دورة الأرض حول نفسها اسرعُ بقليلٍ أو أكثر بطءً ممّا عليه الآن لطال اللَّيلُ والنّهار وتعَّرضت حياة الناس بل كافة الموجودات على الأرض إلى الخطر.

والحديث فى الآية الثامنة عن تسخير الليل والنّهار وخدمتهما للإنسان إذ يقول:

«وسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ».

وبما أنّ شرحَ معنى التسخير قد مرَّ سابقاً فى موارد مشابهة فلا نرى حاجةً للإعادة.

---

(١) ورد هذا التفسير فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله «طبقاً» لما نُقل فى تفسير الفخر الرازى، وفى حديث عن‌الصادق عليه السلام «طبقاً» لما نُقل فى تفسير نور الثقلين، ج ٣، الآية المورد البحث.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۲

وأشار فى الآية التاسعة، أولًا إلى مسألة اختلاف اللّيل والنهار، ثم إلى كافة مخلوقات الأرض والسماء التى خلقها اللّه تعالى كبرهانٍ على عظمتهِ وعلمهِ وقدرتهِ فيقول: «انَّ فِى اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِى السَّمواتِ وَالأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُوْنَ».

وهذا التعبير دليلٌ على مدى أهميّة خلقهما.

وفى القسم العاشر أشار فى ثلاث آيات بتعابير جميلة إلى الفوائد المهمّة لليل والنهار فقال تعالى: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُمُ اللَّيلَ سَرْمَداً إِلى يَومِ القِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ يأتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ* قُلْ ارأَيْتُم إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيكُم النَّهَارَ سَرمَداً إِلى يَومِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ يَأتِيكُم بِلَيلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُون* وَمِنْ رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيلَ والنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ ولِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُم تَشْكُرُوْن».

والجدير بالذكر انّه يقول فى نهاية احدى الآيات: «أَفَلا تَسْمَعُونَ»، وفى نهاية آية اخرى «أَفَلا تُبْصِرُونَ».

ولعلَّ هذه التعابير إشارةٌ إلى أنّ هناك دلائل حسّية فى هذا النظام الدقيق لليل والنّهار يجب أن تُنظَر بالعين، وكذلك هناك دلائل نقليه يجب أن تُسمَعَ، وهذا جديرٌ بالتأمُل أيضاً، يقول فى مورد خلود اللّيل: «أَفَلا تَسْمَعُونَ»، وفى مورد خلود النّهار: «أَفَلا تُبْصِرُونَ»، لأنَّ الأُذنَ تستخدمُ غالباً فى الليل والعينَ فى النهار.

إنَّ أهميّة موضوع الليل والنّهار بلغت إلى الحد الذى يُقسمُ اللّه تعالى فى القرآنُ بهما فى آياتٍ عديدةٍ من بينها ما يقوله فى القسم الحادى عشر من هذه الآيات: «واللَّيلِ إذا يَغْشى والنَّهارِ إذا تَجَلَّى .

وورد هذا المعنى فى مكانٍ ثانٍ وبتعبيرٍ آخر فيقول: «واللَّيلِ إِذ أَدبَرَ والصُبْحِ إِذا أَسْفَرَ». (المدثر/ ۳۳)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۳

ويقول فى مكانٍ آخر: «وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ* والصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ». (التكوير/ ۱۷)

ويضيف فى مكان آخر: «وَالضُحى وَاللّيْلِ إِذَا سَجَى . (الضحى ۱- ۲)

وأَيْمانٌ اخرى من هذا القبيل حيث تحكى كلُّها عن الاهمية الفائقة التى يوليها القرآن الكريم للّيل والنّهار كى يتمعنَ الإنسان بهما ويرى آياتِ اللّه فى كلَّ موقعٍ منهما، لأنَّ القَسَمَ دليلٌ على أهميّة وقيمة وحقيقة التأمل دائماً.

وفى الآية الثانية عشرة والاخيرة نواجه تعبيراً جديداً فى هذا المجال إذ يقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ».

«يُوْلِجُ»: من مادة «ايلاج» وتعنى الادخال، وبما أنّها جاءت بصيغة «الفعل المضارع» وحيث اننا نعلمُ أنّ الفعل المضارع يفيد الاستمرار، فقد تكون إشارة إلى طول وقصر اللّيل والنهار التدريجى والمنَّظم على مدى فصول السنة المختلفة حيث ينقصُ احدهُما ويضاف إلى الآخر، فهذا النظام التدريجى عاملٌ مؤثرٌ فى نمو النباتات وتكامل الكائنات الحيّة، فلو حدثَ فجأةً سيختلُ توازنُ هذه الموجودات فيكون مضراً، لهذا فقد جعلَهُ البارى تعالى أمراً تدريجياً.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى مسألة شروق وغروب الشمس، لأنَّ الشمس حينما تقتربُ من الشروق يشعُ نورُها نحو الطرف الأعلى من الجو، ويضيء الجو قليلًا، وكلما ارتفعت الشمس من وراء الافق يزداد هذا الضياء، وعلى العكس أثناء الغروب، فلا يحلُّ اللَّيلُ دفعةً واحدةً، بل تختفي أشعةُ الشمس رويداً رويداً في الطبقات السفلى من الجو، ويحلُّ الظلامُ محلَّها، فهذا الانتقال التدريجي من النور إلى الظلام وبالعكس يؤدّي إلى أنْ يتأقلمَ الإنسان معه من الناحية الجسمية والروحية، ولو حلَّ اللّيلُ أو النّهار بشكلٍ مفاجيءٍ لتركَ آثاراً سيئةً.

والجدير بالذكر أنّ ظاهرَ الآية هو أنّ دخولَ اللّيل في النّهار والنهار في الليل يحدث في

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۴

آنٍ واحدٍ، والواقع هو كذلك، لأنَّ اللَّيلَ يقلُّ تدريجياً أثناء فصل الصيف في المناطق الواقعة شمال خط الاستواء ويصبح جزءً من النهار أي إنّه مصداقٌ ل «يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ»، وفي ذات الوقت يقلُّ النّهار في جنوب خط الاستواء ويصبح جزءً من اللَّيل حيث يكون مصداقاً ل «يُوْلِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ» «۱»

.

وجاء في الحديث المشهور عن المفضل، أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال:

«فكّر في دخول أحدهما- الليل والنهار- على الآخر بهذا التدريج والترسّل، فانك ترى أحدهما ينقص شيئاً بعد شيء، والآخر يزيد مثل ذلك حتى ينتهي كل واحد منهما منتهاه في الزيادة والنقصان، ولو كان دخول أحدهما على الآخر مفاجأة، لأضّر ذلك بالأبدان وأسقمها، كما أنّ أحدكم لو خرج من حمّام حار إلى موضع البرودة لضّره ذلك واسقم بدنه، فلم يجعل اللَّه عزّ وجلّ هذا الترسل في الحر والبرد إلّاللسلامة من ضرر المفاجأة؟» «۲».

توضيحان

۱- أهميّة النور والظلام وفوائد اللَّيل والنّهار

لاحظنا في الآيات الآنفة كيف أنّ اللَّه تبارك وتعالى يدعو الناس إلى دراسة هاتين الظاهرتين اللتين تبدوان عاديتين للعيان، ويعُدهما من آياته، والحقيقة أننا كلَّما امعّنا النظر في هذا المجال نتوصل إلى امورٍ جديدة:

أ) فنحنُ نعلمُ أنّ اللَّيل والنّهار في جميع أنحاء العالم يختلفان تماماً، فطول الليلِ عند خط الاستواء ۱۲ ساعة، وطول النّهار ۱۲ ساعة أيضاً في كافة الفصول، إلّاأنَّ السَّنةَ كلَّها في المنطقة الجنوبية وعلى خط ۹۰ ليست أكثر من يومٍ واحدٍ وليلةٍ واحدة حيث تكون مدة كلٍّ منهما ستة أشهر تقريباً «ومثل هذه المناطق غير مأهولة طبعاً»، وهنالك مراحل وسط

---

(۱) لقد ذكر «الطريحي» في «مجمع البحرين» هذه النكتة في مادة (ولج).

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۱۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۵

بين هذين الوضعين في باقي بقاع العالم.

إلّا أنَّ مايثير العجب هو بالرغم من هذا الاختلاف فانَّ جميع بقاع الأرض تستفيد من أشعة الشمس بنفس النسبة على مدار السنة وهذا نظامٌ عادلٌ للغاية!.

ب) إنّ النّهار اكثرُ طولًا أثناء الصيف والليل أكثرُ طولًا فى الشتاء، أى أنّ هذين الأمرين يسيران بشكلٍ متزامنٍ، زيادة طول النّهار، والاشعاع العمودى «أو شبه العمودى» للشمس، فيكمل أحدُهما أثر الآخر، ويؤدّيان إلى زيادة حرارة الجو فتثمرُ الفواكه والمحاصيل الزراعية، وفى الشتاء يؤدّى إلى زيادة البرودة وتساقط أوراق الأشجار والنباتات، واللطيف أنّه فى المناطق الاستوائية حيث يشع ضوء الشمس عمودياً لا يطول النّهار أبداً، وإلّا لداهمها خطر الحرارة الشديدة واحترقت النباتات.

ج) إنّ ضوء الشمس يسبب اليقظةَ والجد والسعى والحركة باستمرار، على العكس من اللّيل الذى يبعث على السكون والاستقرار والنوم، ويُلاحَظُ هذا الأمر على وجه الخصوص فى عالم الحيوانات، حيث تستيقظ الطيور مع سفور الصبح وتتجه نحو الصحراء، وتعود وتستريح فى أوكارها عند غياب الشمس، وفى الارياف حيث إنّ لمعظم الناس حياةً طبيعية، ويكون برنامج حياتهم كذلك أيضاً، ولكن نظراً لتطور الآلة، وصناعة النور الاصطناعى، فانَّ الكثير من الأشخاص يسهرون جزءً من اللّيل وينامون بعض النهار، وهذا أحدُ الأسباب لبعض أنواع الأمراض، وفى الحقيقة أنّ القرآن يُحذِّرُ مثل هؤلاء الأفراد بانَّ ترك النوم ليلًا يؤدّى إلى فقدان الاطمئنان الروحى وذلك من خلال عبارة: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيْهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً». (يونس/ ۶۷)

۲- ظاهرة اللّيل والنّهار فى القرآن الكريم

لقد ذُكِرَتْ ظاهرة اللّيل والنّهار أكثر من ثلاثين مرّة فى القرآن الكريم كبرهانٍ على وجود اللّه ودليلٍ على عظمته وقدرته، حيث يقول أحياناً: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۶

الأَبْصارِ». (النور/ ۴۴)

ويقول كذلك: «لَآياتٍ لِّقَوم يَتَّقُونَ». (يونس/ ۶)

ويقول: «لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ». (النمل/ ۸۶)

وفى الواقع، أنّ العلاقة بين هذه الامور الثلاثة تتضح هنا حيث إنَّ التفكُر والتأمُّل الناضجين والعميقين كما ورد فى حق «اولُوا الألباب» يؤدّيان إلى ظهور الإيمان ورسوخه، والإيمانُ بدوره يؤدّى إلى ظهور التقوى فى القلب والروح أيضاً.

ولهذا فانَّ التمعُنَ فى آيات عظمةِ اللّه وعلمه وقدرته فى عرض عالم الوجود، يُرسِّخ العقيدة ويُربّى الإنسان من الناحية العملية أيضاً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۷

۱۰- آياته فى خلق الجبال

تمهيد:

الكلُّ يعرفُ بشكل عام أنّ القُرى واغلبَ المدن المهمّة تقع فى سفوح الجبال الشامخة وتقع فيما بينها، وأنَّ الأنهار الكبيرة التى هى عمادُ ازدهار المدن تنبعُ من الجبال الشاهقة، إنَّ دورَ الجبالِ فى حياة الإنسان لا ينحصر بذلك فقط على الرغم من أهميّة هذا الدور.

فالجبالُ لها دورٌ مهمٌ جدّاً فى حياة الإنسان بل جميع الموجودات التى تعيش على الأرض، وفوائدها وبركاتُها عديدةٌ جدّاً، ولا نُبالغ إذا قلنا باستحالة الحياة على الأرض بدون وجود الجبال.

ولهذا فانَّ القرآن الكريم أشار فى آياتٍ كثيرة إلى مسألة خلقِ الجبال كاحدى آيات التوحيد وبراهينه على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.

بعد هذه المقدمة نقرأ خاشعين الآيات الآتية:

۱- «أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ* وإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ* وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ». (الغاشية/ ۱۷- ۱۹)

۲- «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوتَاداً». (النبأ/ ۶- ۷)

۳- «وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِىَ وَأَنْهَاراً». (الرعد/ ۳)

۴- «وَالْقَى فِى الأَرْضِ رَواسِىَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

(النحل/ ۱۵)

۵- «وَجعلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيْدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ». (الانبياء/ ۳۱)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۸

۶- «وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوقِهَا وَبَارَكَ فِيهَآ وَقَدَّرَ فِيْهَا أَقْواتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسّآئِلِيْنَ». (فصلت/ ۱۰)

۷- «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِىَ شَامِخَاتٍ وأَسْقَيْنَاكُمْ مَّآءً فُرَاتاً». (المرسلات/ ۲۷)

۸- «أَمَّنْ جَعَلَ الأَرْضَ قَراراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ البَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَ إِلهٌ مَّعَ اللَّه بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُوْنَ».

(النمل/ ۶۱)

۹- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً». (النحل/ ۸۱)

۱۰- «وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيْضٌ وحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوانُهَا وَغَرابِيْبُ سُودٌ». (فاطر/ ۲۷)

شرح المفردات:

«جبل»: على وزن (عَسَلْ)، بالرغم من أنّ بعض أرباب اللغة فسَّرها بأنّها المفردة التى تقابل الأراضى المنبسطة، وفسَّرها بعضهم بالأجزاء المرتفعة من الأرض حيث تكون عالية وشامخة، فالظاهر أنّ جميع هذه التعابير تشير إلى معنىً واحد.

وطبعاً قد يُستعمل هذا اللفظ فى المعانى الكنائية أيضاً، فقد يُقال (جبل) للأشخاص الصامدين والعظماء، و «جِبِلّى» للصفات الثابتة فى طبيعة الإنسان والتى لا تتبدل ولا تتغير «كالجبل»، وكذلك يقال (جِبِلّ) بكسر الجيم والباء وتشديد اللام، للرهط والمجموعة فى لغة العرب من باب التشبيه بالجبل فى العظمة «۱».

و «الرواسى»: جمع «راسية» أى الجبال الثابتة الراسخة، وهى فى الأصل من «الرَسو» (على وزن رَسْم وغلوُ) وهى مأخوذة من الثبات والرسوخ، ويُطلقُ على الاوانى الضخمة الراسخّة والثابتة فى مكان العمل ب (الراسية) أيضاً، (كالقدور الراسية) التى وردت فى قصة سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم، ويُطلقُ لفظ (رسىّ) على الأعمدة الثابتة فى وسط الخيمة أيضاً، ويقال لمكان رسوّ السفن ب «المرساة» حيث تثبت وتستقر السفينة فى مكانها.

---

(۱) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۷۹

وقد يُستخدم هذا اللفظ بمعنى ارساء السِّلم فى المجتمع أيضاً لأنَّ السّلم أساسُ ثبات كلِّ بلدٍ.

جمع الآيات وتفسيرها

البركات والأسرار العجيبة للجبال:

فى القسم الأول من هـذه الآيات يـدعو البارى تعالى الناسَ إلى البحث والتأمل فى آيات اللَّه فى السـماء والأرض، ثم يشـير إلى كيفية خلق الابل وكذلك ارتفاع السـموات حيث ارتفعت بدون عَمَدٍ مع مالها من عظمة، وأشار إلى نصب الجبال فقال: «وَإِلى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ».

ولعلَّ هـذا التعبير إشارة إلى ثبات واسـتقرار الجبال فى أمكنتها ومنع حـدوث الزلازل التى سـيشار إليها فى الآيات القادمة أو اشـيرَ إليه آنفا، أو الوقوف أمام الأعاصير والعواصف، وتوفير الملاجىء الآمنة للبشر، ومستودعات حفظ المياه على هيئة ينابيع وقنوات وأنهار.

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة ظريفة إلى مسألة طبيعة تكوين الجبال ووجودها حيث كشفَ العلم المعاصـر الستار عنها، إذ يقول: إنّ الجبال تكونت نتيجة لعوامل معينة فقد يكون بسـبب تعرُّج الأرض، وأحياناً بسـبب البراكين، أو نتيجة الترسـبات الناتجة عن الأمطار التى تغمر الأرض وتجرف بعضها معها ويبقى الجزء القوى والصلب ثابتاً فى مكانه.

وفى أعماق البحار تتكون الكثير من الجبال نتيجة الترسبات الحيوانية كالمرجان حيث يطلق عليها الجبال أو الجُزُر المرجانية.

ومن الممكن جمع كل هذه المعانى فى عبارة «كَيْفَ نُصِبَتْ».

ويقول فى القسم الثانى من الآيات كبيانٍ للنعم الإلهيّة: «أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً* وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً»؟

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۰

«الاوتاد»: جمع (وَتَدْ) (على وزن حَسَدْ)، وتُطلقُ على المسامير الضـخمة القوية جدّاً، وقد فسَّرها البعض بالمسامير التى تغور فى الأرض وتُربط إليها حبالُ الخيمة «۱».

وهنا كيف تكون الجبال بمثابـة أوتاد الأرض؟ هناك تفاسـير متعـددة: أولُها وهو ما ثبت اليوم بانَّ الجبال لها جذورٌ عظيمة فى أعماق الأرض، وهـذه الجـذور متشابكـة معاً وتُمسكُ بقشـرة الأرض كالـدرع وتحفظها فى مواجهـة الضـغوط الناشـئة عن الحرارة الداخليـة، ولولاها لما كان لسطح الأرض من قرار.

وفضـلًا عن ذلك فكما أنّ جاذبيـة القمر والشـمس تترك تأثيراتها على المحيطات، وتسـبب المد والجزر، فانَّ اليابسة لها تأثيرها أيضاً، فيمنحُ درعُ الجبالِ قشرةَ الأرض قدرةَ المقاومة أمام هذا الضغط الهائل.

ومن ناحيـة ثالثة فـانَّ الجبـال تصونُ بقـاعَ الأـرض المختلفـة من العواصف والسـيول وتقف أمامها كالسور العالى، بحيث لو كان وجه الأرض كلُّه على هيئة صحراء لتعسَّرت حياة الإنسان على سطحها أمام هذه السيول العارمة.

وأهم من كل ما مضى فإنّ الجبال تعتبر بمنزلة الأوتاد القوية لنظام حياة البشر لكونها مركزاً لذخائر المياه.

وجاء فى تفسـير الميزان أنّ الأوتاد جمع وتـد وهو المسـمار إلّاأنّه أغلظ منه «۲» كمـا فى المجمع ولعل عـدّ الجبال أوتاداً مبنى على أنّ أكثر جبال الأرض ناتجة من البراكين التى تنطلق من أعماق الأرض فتخرج مواد ارضية مذابة تستقر على فم الشق متراكمة كهيئة الوتد المنصوب على الأرض تسكن به فورة البركان التى تحته فيرتفع به ما فى الأرض من الاضطراب والتزلزل.

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۳۰، ص ۴.

(۲) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۵۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۱

وفى الآيات الثالثة والرابعة والخامسة عُبِّر عن الجبال ب «الرواسى» حيث يقول:

«وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً».

ويقول فى مكان آخر: «وَأَلْقَى فِي الأَرضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُوْنَ».

ويشاهد هذا المعنى فى الآية الخامسة أيضاً.

ويستفادُ من مجموع هذه الآيات أنّ أحَد أهم فوائد الجبال هو منع الحركات غير الطبيعية والزلازل الأرضية.

و «تَميـدُ»: من مادة (مَيْـد) (على وزن صَـيْدْ) أى إهتزاز الأشـياء الضـخمة، وقال البعض إنّها الحركـة المتزامنة مع التمايل يميناً وشـمالًا، كحركة السفن الخالية بسبب أمواج البحر، ولهذا يقال «مَيْدان» أثناء المسابقات أو الحروب.

وقد تحدثنا فى شـرح الآيات السابقة عن تأثير الجبال فى منع حركات قشرة الأرض أثر الضغط الداخلى، وجاذبية المد والجزر للشمس والقمر، والاضطرابات الناتجة عن السيول المستمرة، ولا حاجة إلى التكرار.

ويُفهم من هـذه الآيـات بصورة عامـة أيضـاً، أنَّ لتكوين الأنهـار علاقـةً بوجود الجبال، وهو الصـحيح، فالأنهار الكبيرة التى تجرى على مـدى السـنة وتسـقى الأراضـى اليابسة هى من بركة المياه التى تجمعت فى أعماق الجبال أو قممها على هيئة جليدٍ أو ثلج، ولهذا تُعتبر الجبـال العملاقـة فى العالم ينابيع لأنهار العالم العظيمـة. وربّما يحـدث لـدى البعض شـبهة فى كون وجود الجبال يكون حائلًا فى عزل الأراضـى عن بعضـها وسبباً فى غلق طرق العبور والمرور، لكن الآيات الواردة أعلاه صرحت بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى جعل طرقاً واودية يسلكها الناس ليهتدوا إلى بلوغ مقاصدهم ونيل مآربهم.

وهـذه نقطـة ظريفـة جـدّاً حيث توجـد على الـدوام فى أعماق الجبال العظيمة الشاهقة ممرات وطرقٌ يسـتطيع الناس من خلالها المرور والعبور، أى أنّها فى ذات الوقت الذى تشـكلُ سداً قوياً أمام العواصف والأعاصير، فهى لا تمنع عبور ومرور الناس، ونادراً ما تقوم هذه الجبال بعزلِ أجزاءٍ من الأرض بشكل كامل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۲

وهناك نقطـة بالغـة الاهميـة وهى لو كان سـطح الأرض مسـتوياً، فسوف تكون درجـة الحرارة على الأرض عالية جدّاً ومحرقة وذلك بسبب حركة الأرض السريعة حول نفسها وحركة الهواء على سطح الأرض وبذلك تتعذر الحياة على سطح الأرض.

لكن البـارى تعـالى الـذى جَعَـلَ الأرض مهـداً لراحـة الإنسان، أمر الجبال أن تكون مرتفعـة فى طبقات الجو، وتـدور حول نفسـها تبعاً لدوران الأرض، كى تمنع اهتزاز الجو وحصول الحرارة.

بناءً على ذلك نلاحظ جيداً أهميّة الدور الذى يلعبُهُ وجود هذه القطع الصخرية الصمّاء فى حياة الموجودات.

بالاضافة إلى ذلك فانَّ الجبالَ تُوجدُ مساحات مسطَّحة شاسعة بسبب التعرجات والانكسارات وتؤدّى إلى مضاعفة الجزء الذى يمكن استغلاله من الأرض لعـدّة مرات، وفى نفس الوقت فانَّ أغلبها يعتبر مكاناً لنمو أشـجار الغابات الكثيفة وأنواع النباتات الطبية والغذائية والمراتع.

ولعـلَّ لهـذا السـبب جـاء الحـديث فى الآيـة السادسـة عن بركـات الأرض واقواتها بعـد نصب الجبال فى الأرض إذ يقول: «وَجَعَلَ فِيْهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيْهَا وقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا».

لأنَّ ممّا لا شك فيه أنّ الجبال نفسها وكذلك المياه التى تسيل من بطونها لها دورٌ حساسٌ للغاية فى انتاج المواد الغذائية.

وممّا يلفت الانتباه قوله فى نهايـة الآيـة: «سَواءً لِلسَّائِلِيْنَ»، فلعلّه إشارة إلى هـذا المعنى وهو أنّ المواد الغذائية تعادل ما يحتاجه السائلون والمحتـاجون تمامـاً، ويمكن أن يكون تعبير «السـائلين» إشـارة إلى كافـة الحيوانـات والناس والنباتات (وإذا جاء بصـيغة جمع المـذكر للعاقل فهو من باب التغليب) نعم فالكل يسأل عن «الاقوات» بلسان حاله.

و «أقوات»: جمع (قوت) وتعنى الغـذاء، وقـد فسَّرها بعض المفسـرين ب «الأمطار» فقط، والبعض الآخر فسَّرها بالمواد الغذائية المدَّخرة فى باطن الأرض، إلّاأنّ الظاهر هو أنّها

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۳

إشارة إلى كافـة المواد الغذائيـة التى تخرج من الأرض أو التى تنمو عليها، ولعلَّ التعبير ب «قَـدَّرَ» وهى من «التقدير»، إشارة إلى أنّه قد تمّ تقدير وتخطيط كافة احتياجات الإنسان وبقية الموجودات قبل خلقها.

وقد ورد مضمون الآية السابعة فى الآيات الآنفة.

وأشار فى الآية الثامنة إلى أربع نِعَم الهية: فالأرضُ مستقرةٌ بنحوٍ يستطيع الإنسان والموجودات الاخرى من العيش عليها براحةٍ واطمئنان، وتكوين الأنهار التى تشق سطح الأرض، وخلق الجبال العظيمة الراسخة، وتكوين البرزخ بين البحرين (من الماء العذب والمالح) كى لا يختلط احدهما بالآخر.

وهذه النعم الأربع ترتبط مع بعضها بنحوٍ مدهش، فالجبال أساسُ استقرار الأرض، ومصدر مياه الأنهار، وهذه الأنهار عندما تصبُ مياهها فى البحر فهى تبقى منفصلة بواسطةِ حاجزٍ غير منظورٍ لفترة طويلة لا تختلط مع المياه المالحة، وهذا الحاجز ليس سوى اختلاف كثافة الماء «المالح» و «العذب»، وبتعبير آخر أنّ اختلاف كثافتهما يؤدّى إلى عدم امتزاج مياه الأنهار العذبة بالمياه المالحة لمدّة طويلة، ولهذا فائدة ضرورية للزراعة فى المناطق الساحلية، لأنَّ هذه المياه العذبة تتراجع إلى الخلف عن طريق المد والجزر وتُغطى معظم الأراضى الزراعية فتغمر البساتين النَظِرة والمزارع المزدهرة.

فليس جزافاً أن يقول فى نهاية هذه الآية: «أ إِلهٌ مَّعَ اللَّهِ»؟ «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ».

أَجَلْ ... فهؤلاء يجهلون أسرار هذه النِعَم والبركات، النِعَمُ الموجودة فى كل زوايا وبقاع العالم، وكلٌ منها برهانٌ على تلك الذات المقدّسة، إلّاأنّ هؤلاء الجهلةَ محجوبون عنها.

وفى الآيتين التّاسعة والعاشرة أشار إلى مجموعةٍ اخرى من خصائص ومنافع الجبال، فبعد أنْ ذكرَ خلقَ الجبال التى تقى الإنسان حرارة الشمس المحرقة، يشير إلى الملاجىء

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۴

الموجودة فيها حيث يقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً».

و «الاكنان»: جمع (كِنّ) على وزن (جِنّ) وكما قال صاحب مجمع البيان هو المكان الذى يضم الإنسان بداخله، إلّاأنّ البعض ذكر ذلك بمعنى كلّ نوعٍ من اللباس، حتى أنّهم اعتبروا «الرداء» «كنّاً» للإنسان، والمقصود ب «اكنان الجبال» المغارات والكهوف التى يستطيع الإنسان أن يستخدمها كملجأ له، قد تكون أهميّة الملاجىء الجبلية والمغارات مجهولة بالنسبة لسكنة المدن، غير أنّها ذات أهميّة حسّاسة جدّاً للمسافرين العُزّل، وقاطعى الصحراء، والرعاة، والسائرين ليلًا، وغالباً ما تنقذهم من الموت المحتوم، لا سيما وإنَّ هذه الملاجىء دافئة فى الشتاء وباردةٌ فى الصيف.

فضلًا عن ذلك فإنّ بعض الناس منذ غابر الأزمان وحتى يومنا هذا ينحتون بيوتهم فى وسط الجبال، وهى مُحكَمَةٌ جدّاً وآمنة تماماً فى مواجهة الحوادث الطبيعية، كما ورد فى القرآن الكريم حول «أصحاب الحجر» (قوم ثمود): «وَكَانُوا يَنْحِتُوْنَ مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِيْنَ». (الحجر/ ۸۲)

وهذه فائدة اخرى للجبال.

وفى قسم آخر من هذه الآيات إشارة إلى الطرق التى صنعها البارى تعالى بالوانٍ مختلفة بيضاء وحمراء وأحياناً سوداء بكاملها: «وَمِنَ الجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وحُمْرٌ مُختَلِفٌ أَلوانُهَا وغَرابِيبُ سُودٌ».

و «جُدَدٌ»: جمع (جُدّة) (كغُدَدٌ وغُدَّة) بمعنى الطريق والجادّة، و «بِيضٌ» جمع «أبيض»، و «حُمر» جمع «أحمر»، و «غرابيب» جمع «غربيب» وتعنى شديد السواد، ولهذا يقال «غراب»، و «سود» جمع «أسود» ووردت هنا بعد كلمة «غرابيب» للتأكيد.

فطرقُ الجبال المختلفة، بألوانها المتباينة تماماً، لها أهميّة كبيرة حيث تساعد المسافرين فى العثور على مقاصدهم، وتنقذهم من التيه، إضافة إلى أن تعدُّد الألوان يدلُّ على اختلاف مركبات الصخور، وقد تكون دليلًا على وجود المعادن المختلفة التى تختفى فيها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۵

يستفاد جيداً من تسلسل هذه الآيات أنّ خلق الجبال بفوائدها الحياتية والضرورية جدّاً والمصيرية، من البراهين المهمّة على علم وقدرة

الباری تعالی وآیات حکمته ورأفته بالإنسان، ویوضح جیداً أن خلقَ هذا العالم وذرات موجوداته، ملیءٌ بالمعنی والمحتوی إلی حدٍ کلمّا تم التمعُن به تنکشفُ للإنسان أسرارٌ جدیدة ویتولد علی أثرها حبٌ وارتباطٌ بالخالق جلَّ وعلا.

توضیحات

۱- الجبال والاعجاز العلمی للقرآن

۱- لعلَّ إلی ما قبل قرنٍ من الزمان کانت نظریة العلماء تنصُ علی سطحیة الجبال، وکان الاعتقاد السائد هو أنَّ کل الجبال عبارة عن قطعٍ صخریة کبیرة تستقر علی سطح الأرض، ولکن مع مرور الزمان ازیلَ الحجابُ عن سرٍّ مهمٍ، وتوصلَ العلماء إلی هذه الحقیقة، وهی أنّ الجزءَ الأعظم من کل جبلٍ یقع تحت الأرض!

وکما یقول «جورج غاموف» فی کتاب «قصة الأرض»: «طبقاً للنظریات المعاصرة فانّ جبال الأرض لها أوضاع تشبه الجبال الجلیدیة التی تتکون تحت تأثیر ضغط الثلوج فی المناطق القطبیة، فکلُ من زار المناطق القطبیة یعرف جیداً أنّ القطع الثلجیة الضخمة حینما تتکسر تحت تأثیر الضغط تتراکم علی بعضها، وتندفع نحو البحار- وأثناء ذلک- تنهار اغلب کمیات الثلج فی المیاه، (ولعلَّ عُشرُها فقط خارج المیاه وتسعةُ اعشارها تحت الماء)، ولهذا ففی مقابل کلِّ جبلٍ یرتفع علی سطح الأرض هنالک جبلٌ تحت سطح الأرض، متکون من مادة حجر الغرانیت یَغوص فی ثنایا طبقة من الصخور التحتیة الناعمة» «۱».

وهنا نصل إلی هذه المسألة الاعجازیة فی القرآن حیث یطلق علی الجبال «اوتاد» ومسامیر الأرض، وذلک لأننا نعلم أنّ القِسمَ الأعظم من المسمار یغور فی الجدار أو الأشیاء الاخری دائماً.

---

(۱) قصة الأرض، تألیف جورج غاموف، ص ۱۲۶ مع شیء من الاختصار.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۶

وهنا حیث تستخدم المسامیر فی تثبیت شیءٍ ما، أو ربط القطع المختلفة مع بعضها أیضاً، فهذا التعبیر یعتبر إشارة لطیفة إلی التأثیر المهم للجبال فی منع تبعثر قطع الأرض أثر الضغط الداخلی للکرة الأرضیة والضغط الناتج عن حالات المد والجزر.

۲- لایقتصر دور الجبال علی حفظ استقرار وثبات الأرض فحسب، بل تساعد فی استقرار المناخ المحیط بالأرض أیضاً، والکل یعلم مدی صعوبة العیش فی الصحراء الشاسعة لأنّ الهواء دائماً فی حالة من السرعة المقرونة بالغبار والرمال، فیصبح الاستقرار فی هذه المناطق عسیراً والتنفس صعباً مقرونا بعدم الراحة.

نعم .. فهذه القمم الشاهقة للجبال هی التی تقف أمام هذه العواصف الهوجاء، وتصدُّها، أو تُرسلها إلی طبقات الجو العلیا.

۳- إضافة إلی ذلک فإنّ للجبال تأثیراً بالغاً فی نزول الثلوج وهطول الأمطار، لأنّها تقف فی طریق الغیوم والرطوبة الصاعدة من البحر، فتوقفها وتدفعها إلی الهطول فینحدر بعض هذه الأمطار من سفوحها، وتحتفظ بالقسم الآخر فی هذه السفوح، أو تحتفظ بها علی هیئة ثلج وجلید فی قمتها.

۴- وکذلک فانَّ للجبال دوراً مهماً فی تعدیل حرارة الجو لا سیما فی المناطق الاستوائیة، لأنَّ ارتفاع الجبال یؤدّی إلی ابتعاد المناطق المجاورة لها عن سطح الأرض ونحن نعلم أننا کلّما ابتعدنا عن سطح الأرض تزداد برودة الجو.

۵- إنّ الجبالَ مصدرٌ مهمٌ لانواع المعادن والثروات الهائلة التی تختفی فی أعماقها، ومن أجل أن یظفر الناس بهذه الثروات فهم یتجهون إلی الجبال دائماً للبحث عنها.

۶- للجبال دورٌ مهمٌ آخر فی ایقاف حرکة الکثبان الرملیة، فنحن نعلم أنّ الکثبان الرملیة تتحرک أثناء هبوب الریاح فی الصحراء القاحلة، وقد تدفُنُ تحتها الأشجار والناس والقوافل وحتی القری وتصبح سبباً فی هلاک النباتات والحیوانات، فإذا لم تتم السیطرة علیها فسوف تأتی علی جمیع أنحاء الأرض، فأیُّ عاملٍ أفضلُ من الجبال یُمکنُه السیطرة علیها؟!

إنَّ هذه الفوائد العظیمة إضافةً إلی فوائد اخری کثیرة ذکرناها فی تفسیر الآیات السابقة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۷

توضح لنا الدور المهم للجبال من جهةٍ، وعظمة آیات القرآن الکریم فی هذا المجال من جهة اخری

۲- حدیث للإمام الصادق علیه السلام حول الجبال

وفی حدیث توحید المفضّل وهو حدیث ملیءٌ بالمعانی، وکاشفٌ لأسرار الخلق فی مختلف الجوانب لمعرفة اللّه، جاء ما یلی:

«انظر یا مفضّل إلی هذه الجبال المرکومة من الطین والحجارة التی یحسبها الغافلون فضلا لا حاجة إلیها، والمنافع فیها کثیرة: فمن ذلک أن تسقط علیها الثلوج فیبقی فی قلالها لمن یحتاج إلیه، ویذوب ما ذاب منه فتجری منه العیون الغزیرة التی تجتمع منها الأنهار العظام، وینبت فیها ضروب من النبات والعقاقیر التی لا ینبت مثلها فی السهل، ویکون فیها کهوف ومقایل للوحوش من السباع العادیة. ویتخذ منها الحصون والقلاع المنیعة للتحرز من الأعداء، وینحت منها الحجارة للبناء والأرحاء، ویوجد فیها معادن لضروب من الجواهر، وفیها خلال اخری لا یعرفها إلّاالمقدّر لها فی سابق علمه» «۱».

وقد تکون العبارة التی جاءت فی ختام حدیث الإمام علیه السلام إشارة إلی الفوائد المهمّة الاخری التی اکتُشفت تدریجیاً مع تطور العلوم وتمّت الإشارة إلیها فی البحوث الماضیة، المنافع التی لا زالت خافیةً عن أنظار العلم البشری.

۳- کلامٌ لعالم کبیر

عندما یتعرض العلّامة المرحوم المجلسی رحمه الله إلی البحث حول الجبال فی کتابه بحار الأنوار، یذکر فی تفسیر الآیة: «والجِبَالَ أَوْتَاداً» سبعة آراء، نذکر ثالثها:

«ما یخطر بالبال وهو أن یکون مدخلیة الجبال لعدم اضطراب الأرض بسبب اشتباکها

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۲۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۸

واتصال بعضها ببعض فی أعماق الأرض بحیث تمنعها عن تفتّت أجزائها وتفرّقها، فهی بمنزلة الأوتاد المغروزة المثبتة فی الأبواب المرکبة من قطع الخشب الکثیرة بحیث تصیر سببا لالتصاق بعضها ببعض وعدم تفرّقها وهذا معلوم ظاهر لمن حفر الآبار فی الأرض فانّها تنتهی عند المبالغة فی حفرها إلی الأحجار الصلبة، وأنت تری أکثر قطع الأرض واقعةً بین جبال محیطة بها، فکأنّها مع ما یتصل بها من القطعة الحجریة المتصلة بها من تحت تلک القطعات کالظرف لها تمنعها عن التفتّت والتفرق والاضطراب عن عروض الأسباب الداعیة الی ذلک» «۱».

إنَّ هذا الحدیث واستناداً إلی التصریح الذی أوردناه آنفاً لاحد العلماء المتأخرین، والذی هو من اکتشافات القرن الأخیر، یعتبر أمراً مثیراً جدّاً حیث یشیر هذا العالم الإسلامی الکبیر إلی ذلک قبل أکثر من ۳۰۰ سنة.

۴- حديثٌ اعجازیٌ حول تكوين الجبال

وهـذه نقطـة جديرةٌ بالاهتمام أيضاً حيث ورد فی روايةٍ أنّ شـخصاً سألَ أميرَالمؤمنين عليه السـلام قائلًا: مِمّ خُلقتِ الجبالُ؟ فقال الإمام عليه السلام فی جوابه: «من الأمواج» «۲».

وهـذا الحديث يتطابق تماماً مع النظرية المشـهورة للعلماء المعاصـرين إذ يعتقدون بأنَّ أغلبَ الجبال تكونت نتيجةً لتعرُّج قشـرة الأرض بسبب انجمادها كالتجعدات التی تظهر علی قشـرة التفاح عند جفافها وهذه التعرّجات تشبه الأمواج التی تحدث علی سطح الماء، وقد يكون تعبير: «وَأَلْقَى فِی الأَرْضِ رَوَاسِیَ». (النحل/ ۱۵)

إشارة إلی خلق الجبال بعد خلق الأرض أيضاً.

---

(۱) بحار الانوار، ج ۳، ص ۱۲۷.

(۲) بحارالانوار، ج ۵۷، ص ۷۳ و ج ۶۰، ص ۱۲۰.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۸۹

۱۱- آياته فی تكوين الغيوم والرياح والأمطار

تمهيد:

إنَّ دورَ الغيوم، والرياح والأمطار، فی حياة الإنسان وكافة الكائنات الحيّة واضحٌإلی حدٍ لا يحتاج معه إلی شـرح أو تفصيل، صحيحٌ أنّ الماء يغمُر ثلاثة أرباع الكرة الأرضـية، ولكن أولًا: أنّ المياه المالحة لا تصلح للری، ولا لشرب الإنسان والحيوانات، وثانياً: لو فرضنا أنَّ كـلَّ مياه البحار كانت عذبـةً فبأی طريقـةٍ يُمكن نقلها إلی المناطق والأراضـی التی قـد ترتفع عن مسـتوی سـطح البحر عـدة آلاف من الأمتار؟

هنا نری بجَلاء القدرة العظيمة لمُبدیء الخلق، حيث القی هذا التكليف المهم علی عاتق أشـعة الشـمس لتشـرق علی المحيطات وتَقوم بتبخير وتصـفية مياهها، فيظهر علی هيئـة قطعٍ من الغيوم، ثم تتجه به نحو المناطق الجافـة بمساعـدة الرياح، وتُنزله عليها بصورة قطرات مطر لطيفـةٍ وصـغيرة وبهـدوء، حيث تـدُب الحياة فی جميع أرجاء المعمورة، فينتشـر الإزدهار والإعمار والخُضـرة فی كُل مكان، وهذا يأتی من خلال نظامٍ دقيقٍ ومحسوب مقرون بظرافة بالغة.

وبعد هذا التمهيد القصير نتجه نحو آيات القرآن الكريم بهذا الخصوص فنقرأ خاشعين الآيات الآتية:

۱- «اللَّهُ الَّذِی يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِی السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۰

فَتَرَی الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ».

(الروم/ ۴۸)

۲- «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِیَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الروم/ ۴۶)

۳- «وَهُوَ الَّذِی يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُشْـراً بَيْنَ يَـدَیْ رَحْمَتِهِ حَتَّی إِذَا أَقَلَّتْ سَـحَاباً ثِقَالًـا سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَـا بِهِ الْمَـاءَ فَأَخْرَجْنَـا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ». (الاعراف/ ۵۷)

۴- «وَاللَّهُ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَی بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا. (فاطر/ ۹)

۵- «انَّ فِی خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاختَلفِ اللَّیْلِ وَالنَّهَارِ وَالفُلکِ الَّتِی تَجری فِی البَحْرِ بِمَا یَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْیَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِیهَا مِنْ کُلِّ دابَّةٍ وتَصْرِیْفِ الرِّیاحِ وَالسَّحَابِ المُسَخَّرِ بَیْنَ السَّمَاءِ وَالارْضِ لَآیاتٍ لِّقَوْمٍ یَعْقِلُونَ». (البقرة/ ۱۶۴)

۶- «أَفَرَأَیْتُمُ الْمَاءَ الَّذِی تَشْرَبُونَ* أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ المُنْزِلُونَ* لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ اجَاجاً فَلَوْلَا تَشْکُرُونَ». (الواقعة/ ۶۸- ۷۰)

۷- «أَمَّنْ یَهْدِیکُمْ فِی ظُلُمَاتِ الْبَرِ والْبَحْرِ وَمَنْ یُرْسِلُ الرِّیَاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّه تَعالیَ اللَّهُ عَمَّا یُشرِکُونَ». (النمل/ ۶۳)

۸- «وَأَرْسَلْنَا الرِّیَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَیْنَاکُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِینَ». (الحجر/ ۲۲)

۹- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَسَلَکَهُ یَنَابِیعَ فی الأَرْضِ ثُمَّ یُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُّخْتَلِفاً أَلْوانُهُ ... إِنَّ فِی ذَلِکَ لَذِکْرَی لِأُولِی الأَلْبَابِ». (الزمر/ ۲۱)

۱۰- «وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِرَاتِ ماءً ثَجَّاجاً* لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً».

(النبأ/ ۱۴- ۱۶)

۱۱- «وَهُوَ الَّذِی أَرْسَلَ الرِّیَاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

طَهُوراً». (الفرقان/ ۴۸)

۱۲- «أَوَلَمْ یَرَوا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلی الأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْکُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا یُبْصِرُونَ». «۱»

(السجدة/ ۲۷)

شرح المفردات:

«الریاح»: تکررَ هذا اللفظُ عشرَ مراتٍ فی القرآن الکریم، تسعٌ منها إشارة إلی الریاح التی تُحرکُ الغیوم وتُعِدُّها لتنزل الأمطار.

و «الریاح»: فی الأصل جمع (ریـح) وتعنی الهواء المتحرک، وأصلُها «رَوْحْ»، وغالباً ما تعتبر مؤنثاً لفظیاً، والجدیر بالذکر أنّها تستخدم بصیغة الجمع دائماً فی الآیات التی تتعلق بحرکة الغیوم ونزول الأمطار فی القرآن الکریم، وذکر البعض دلیلًا علی ذلک بأنَّ الریاح إذا تحرکت بشکلٍ جماعی فانّها تنشر الغیوم وتُکوِّنُ أمطاراً غزیرة ومليئة بالبرکة، وإذا تحرکت علی هیئة أجزاءٍ متفرقة فانّها تکون عقیمة وغیر مفیدة، بل مضرّةً عندئذ، لذلک ورد فی الدعاء: «اللّهم اجعلها ریاحاً ولا تجعلها ریحاً» «۲»

.

ویقول «الراغب فی المفردات»: فی جمیع الموارد التی ذکر اللَّه تعالی لفظة «الریح» بصورةٍ مفردة (فی القرآن) فهی تحکی عن «العذاب»، وأینما ذکرت بصیغة الجمع فهی تحکی عن الرحمة.

وقول الراغب صائبٌ فی ما یَخص «الریاح» فی صیغة الجمع، ولکن لیس هناک تعمیمٌ فی مورد «الریح» بصیغة المفرد، لإنَّ «الریح» استخدمت فی القرآن بصیغة المفرد فی مورد

---

(۱) توجد فی القرآن الکریم آیاتٌ کثیرةٌ فی هذا المجال، وما ورد أعلاه مقتطفات من هذه الآیات بامکانها تبیان ابعاد هذه الامور الثلاثة المهمّة وهی کما یلی: الانعام، ۹۹؛ ابراهیم، ۳۲؛ النحل، ۶۵؛ طه، ۵۳؛ الحج، ۶۳؛ النمل، ۶۰؛ العنکبوت، ۶۳؛ لقمان، ۱۰ و ۱۱؛ فاطر، ۲۷؛ فصلت، ۳۹؛ الرعد، ۱۷؛ الأعراف، ۵۷؛ الحجر، ۲۲؛ النمل، ۶۳.

(۲) مجمع البحرین- مادة (ریح).

النعمة أيضاً، كما فى قوله تعالى: «حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وفَرِحُوا بِهَا». (يونس/ ۲۲)

ونقرأ أيضاً بخصوص سليمان عليه السلام: «وَلِسُلَيمانَ الرِّيْحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ». (سبأ/ ۱۲)

و «تَصْرِيفِ الرِّياح» تعنى نقل الرياح من حالٍ إلى حال (من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال)، وهى من مادة (صرف) (على وزن حرف) أى تحويل الشىء من حالةٍ إلى حالةٍ اخرى أو إبداله بشىءٍ آخر «۱».

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الرياح لو سارت باتجاهٍ واحدٍ باستمرار فمن الممكن أن تدفعَ بالرطوبة والغيوم المتصاعدة من البحار نحو جهة واحدة فقط أما تغيُّر الرياح فانّه يؤدّى إلى أن تتحرك الغيوم من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، وتَستفيد أغلبُ المناطق الجافة من الأمطار إلى اقصى حد.

فضلًا عن ذلك وكما سيأتى فإنّ فائدة الرياح لا تنحصر بحركة الغيوم، بل لها منافع كثيرة اخرى سنشير إليها فى تفسير الآيات- إن شاء اللَّه- «۲».

و «السَّحاب»: من مادة «سَحْب» (على وزن مَحْو)، وتعنى فى الأصل الجرَّ، حيثُ تُسحبُ الغيوم بواسطة الرياح، أو أنّ الغيوم تسحبُ المياهَ نحو أىِّ اتجاهٍ، فيُطلقُ اسم «السحاب» عليها، وقد يُستخدم هذا المفهوم بمعنى الظِّل أو الظلام من باب التشبيه.

واللطيف إنَّه قد تمَّ التعبير فى الآيات أعلاه ب «سُوقناه» من مادة «سوق» أى «الدفع» وقد استُعمِلَ هذا التعبير لأنَّ اللَّه تبارك وتعالى يدفعها نحو اتجاه معيَّن (بالرغم من أنّ السحاب يتحرك طبيعياً).

و «مُزن»: على وزن «حُزن» وتعنى «الغيوم الواضحة»، وفسَّرها البعض ب (الغيوم الممطرة) «۳».

---

(۱) مجمع البحرين، ومفردات الراغب.

(۲) يُقسِّمُ العربُ الرياحَ إلى اربعة اقسام: «الشمالية» التى تهب من الشمال، و «الجنوبية» التى تهبُّ من الجنوب، و «الصبا» التى تهبُّ من الشرق، و «الدبور» التى تهبُّ من الغرب.

(۳) مفردات الراغب ولسان العرب، مادة (مُزن).

ولهذا يُطلقُ على الهلال الذى يبرز من بين الغيوم ب (ابن مُزنة)، و (مازن) تعبيرٌ يطلق على بيض النمل.

و «بُشْر»: (على وزن عُشْر)، وحسب ما جاء فى (مصباح اللغة) فهى مأخوذة من (بَشَرْ) (على وزن سَقَرْ) أى السرور والفرح «۱».

والسببُ فى تسمية القرآن الكريم للغيوم ب «بُشْر» و «مُبَشِّرات» لأنّها غالباً ما تكون مبشِّرات بهطول المطر الذى يَهَبُ الحياة.

جمع الآيات وتفسيرها

ظاهرة الريح والأمطار والأسرار الكامنة فيها:

أشارت الآية الاولى من البحث وكتعريفٍ بالذات الإلهيّة المقدّسة إلى مسألة هبوب الرياح وحركة الغيوم بواسطتها حيث يقول: «اللَّهُ الَّذى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيْرُ سَحَاباً».

ثمَّ تعرضت إلى بسط الغيوم فى كبد السماء، وتراكمها فوق بعضها، وفى الختام أشارت إلى خروج قطرات الأمطار من وسطها، فيقول: «فَيَبْسُطُهُ فِى السَّماءِ كَيْفَ يَشاءُ ويَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ».

و «الكِسَفْ»: على وزن (قِمَم) تعنى هنا تراكم قطع الغيوم حيث تستعد لنزول المطر، و «الودق» (على وزن خَلْقْ) تُطلقُ على الرذاذ الذى

يشبه الماء، وفسَّرها البعض بأنّها قطرات المطر.

وفى نهايهٔ الآيهٔ أُشير إلى استبشار عباد اللّه أثر نزول المطر فيقول: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَستَبْشِرُونَ».

وعليه فانَّ الرياح لا تُحرِّكُ الغيومَ فقط، بل تبسطها فى السماء ثم تضعها على بعضها

---

(۱) «بُشْر» اسم مصدر وتأتى بمعنى اسم فاعل (مُبَشِّر) أيضاً.

وتقوم بتبريد أطراف الغيوم وإعدادها لإنزال المطر.

فالرياح شأنها شأن الرعاهٔ ذوى الخبرهٔ والتجربهٔ حين يقومون بجمع قطيع الماشيهٔ فى وقتٍ محدَّدٍ من أطراف الصحراء ويسوقونها فى طريقٍ معينٍ، ثم يحضّرونها للحلب.

فلا سُمكُ الغيوم يكون بحد بحيث يمنع خروج قطرات المطر، ولا شدّهٔ الرياح بالقدر الذى تمنع نزول هذه القطرات إلى الأرض. ولا تكون قطرات الأمطار صغيرهٔ بالقَدْرِ الذى يجعلها تبقى معلقهً فى السماء، ولا كبيرهٔ حيث تؤدّى إلى تدمير المزارع والبيوت، ولا يقتصر نزول المطر على بشارهٔ الناس بالإعمار والازدهار فقط، بل إنَّه يُصَفّى ويُلطِّفُ الجو ويبعثُ على النشاط.

والملفت للنظر أنّ الآيات التى تلى هـذه الآيهٔ من سورهٔ الروم تُذكِّر بالرحمهٔ الإلهيّهٔ فى إحياء الأرض بعد موتها: «فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَهِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الروم/ ۵۰)

ومن أجل إدراك مفهوم هـذه الآيـهٔ يكفينا مشاهدهٔ صورٍ من بعض الصحارى والمزارع فى بعض المناطق فى أفريقيا كيف خيَّم عليها شبحُ الموت أثر الجفاف المستمر، ورحلت عنها ملائكهٔ الرحمهٔ والحياهٔ.

وفى المقابل فإنّ هـذه الأمواج اللطيفـهٔ للريـاح التى تَخترقهـا قطراتُ الأمطار بسـهولهٍ، تقوم أحياناً باقتلاع الأشـجار الضـخمهٔ، وتُـدمِّرُ المبَانى، وتختطفُ الإنسان معها إلى السماء ثم تقذفه إلى مكانٍ آخر إذا ما أمرت بذلك.

وتتعقبُ الآيـهٔ الثانيـهٔ هذا الموضوع أيضاً بشـيءٍ من الاختلاف، فهى تصفُ الرياحَ بالمبشِّرات، وبالإضافهٔ إلى مسألهٔ نزول الأمطار فهى تشير إلى حركهٔ السفن بواسطهٔ الهبوب المنظَّم للرياح أيضاً، فجاء فى النهايهٔ: «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ومن الممكن أن تكون عبارهٔ «وَلِيُـذِيْقَكُمْ مِّنْ رَّحْمَتِهِ» إشارهٔ إلى بقيـهٔ فوائد الرياح، كتلقيح الأشـجار، ودفع العفونات وتصـفيهٔ الأجواء وغيرها كما تمّ توضيحه فى تفسير الميزان «۱».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۰۹.

والحقيقـهٔ أنّ الإنسان لا يعرف قَـدْرَ النعمـهِٔ إلّاإذا سُـلبت منه، فلو توقفت هـذه الرياح والنسـمات يوماً واحـداً لأصـبح العيش فى أجملِ البساتين والمزارع اسوأ من العيش فى مطامير السـجون المظلمهٔ، ولو هبَّت نسـمهٌ على طامورهٍ انفراديهٍ فهى تضـفى عليها صـبغهٔ الفضاء الطلق. ولو توقَّفَت الرياح فوق سـطح المحيطات، وتوقّفت الامواج، فانَّ حياهٔ الكثير من الاحياء المائيـهٔ تتعرض إلى الخطر بسـبب نقص الاوكسجين، وتتبدَّل البحارُ إلى مستنقعات متعفنهٔ رهيبهٔ.

واهتَّم فى الآيـهٔ الثالثـهٔ بهـذا الأمر أيضـاً مع هـذا التفـاوت وهو اعتبـار الرياحَ مقدمـهٔ لرحمته، ووصفَ الغيوم ب «الثِّقال» أى (الأحمال الثقيلهٔ، جمع ثقيل) لانَّ الغيوم الممطرهٔ اثقل من بقيهٔ الغيوم، وتكون قَريبهٔ من الأرض، لذلك عبَّر عنها القرآن الكريم ب «الثِّقال».

و «اقلَّت»: من مادهٔ «إقْلالْ» وتعنى حملُ شـيءٍ يكون خفيفاً بالنسـبهٔ لقدرهٔ الحامل، فهو يعتبره قليلًا ولا قيمهٔ له، إنّ وجود هذا التعبير فى الآيهٔ أعلاه يبرهنُ على أنّ الغيوم الثقيلهٔ التى قد تحملُ معها ملايين الاطنان من المياه لا تُحمّلُ الرياح ثقلًا كبيراً، وهذا عرضٌ لقدرهٔ اللّه

تعالى

وقد أشارت الآية الرابعة إلى أنّ ارسالَ الرياحِ لأداء هذا الدور العظيم هو أحد آثار عظمة الذات الإلهيّة المقدَّسة، إذ يُحيى الأراضى الميتة بواسطة هذه الرياح.

والجدير بالذكر هنا هو أنّ الآية استعملت كلمة «تثير» أى أنّ الرياح تُثير السُحبَ، وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى تكوُّنِ الغيوم بسبب هبوب رياح المناطق الحارّة على سطح المحيطات حيث تؤدّى إلى تكاثف الغيوم، لأنَّ مسألة حركة الغيوم اخِذَتْ بالاعتبار فى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۶

عبارة «فسقناه»، وعليه فانَّ الرياح لها أثرٌ مهمٌ فى حصول الغيوم، وكذلك فى تحريكها نحو المناطق الجافة، ورفعها إلى اعالى الجو وتهيئة الظروف لهطول الأمطار.

وذِكْرُ هذه العبارة بصيغة الفعل المضارع «تثير» إشارة إلى عمل السُحبِ الدائم والمستمر أيضاً.

على أيّة حال فانَّ هذه المسألة تُعتبر برهاناً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا وكذلك دليلٌ على قدرته فى المعاد، ولهذا تمت الإشارة إلى مسألة المعاد فى ختام بعض هذه الآيات.

واستند فى الآية الخامسة من بحثنا إلى خلقِ سبعةِ أشياءٍ مختلفةٍ كآياتٍ ودلائل على علم وقدرة اللَّه تعالى ليستفيد منها المفكرون والعقلاء وهى: خلق السماء، والأرض، واختلاف الليل والنهار، والفُلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، والأمطار، وهبوب الرياح واختلافها، والسحب المعلقة بين الأرض والسماء.

واستند فى هذه الآية على مسألة الحركات المختلفة للرياح: «وَتَصْرِيْفِ الرِّياحِ»، وكذلك الغيوم المعلقة بين الأرض والسماء: «وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّر بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ»، السحبُ التى تحمل ماء البحار فى أوساطها، وهى فى ذات الوقت معلقة بين الأرض والسماء، فهى تمثل فى الواقع أعظم آيات اللَّه، «فتحيى الأرضَ بنزول المطر وتبثُّ أنواعاً مختلفةً من الدّواب على وجه الأرض»: «فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ».

وعندما نشاهد أنّ الرياح والغيوم قد ذكرت فى هذه الآية بعد نزول الأمطار فلعلّها من أجل الإشارة إلى هذه النقطة، وهى أنّ فائدة الرياح لا تنحصر بتحريك الغيوم وانزال المطر فحسب، بل لها فوائد جمّة اخرى تمّت الإشارة إليها سابقاً، وسيشار إليها فى نهاية الموضوع أيضاً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۷

وبغض النظر عن كون الغيوم هى السبب فى هطول الأمطار، فإنّ الغيوم لوحدها تعتبر ظاهرة عجيبة أيضاً، لأنّها تحتفظ ببحارٍ من المياه وهى معلقةٌ بين الأرض والسماء «۱».

وتستَند الآية السادسة إلى مسألة مياه شرب الإنسان، وتذكر موضوعاً جديداً حيث تقول: «أَفَرَأَيْتُم المَاءَ الَّذِى تَشْرَبُون* أَأَنْتُمْ أنزَلْتُمُوهُ مِنَ المُزْنِ أَمْ نَحنُ المُنْزِلُونَ»؟ ثم يضيف تعالى «لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ» فلو أنَّ ماء البحر يصطحبُ أثناء تبخره إلى السماء ذرّات الأملاح الصغيرة، وتنزلُ المياه المالحة والمرَّة من الغيوم لتحولّت الأرضُ إلى مملحةٍ، فلا ينمو نباتٌ، أو شجر، وإذا أراد الإنسان أن يدفع الموت عنه أثر العطش لم يستطع أن يتجرع شربة من هذا الماء أبداً.

إنّ القدرة التى جعلت الماء يتبخر والأملاح الموجودة فى مياه البحار تبقى فى مكانها، هذه العملية التى أثرت على حياة الإنسان وغيرت مجراها بل أثرت على أوضاع كل المخلوقات على وجه الكرة الأرضية، هل يستطيع الإنسان أن يشكر هذه النعمة طيلة بقائه حياً فى هذه الدنيا؟

وكما قلنا فإنّ «المُزْن» تعنى الغيوم الممطرة و «الأجاج» تعنى الماء الشديد الملوحة أو المرارة.

وأشار فى الآية السابعة إلى هِبَتَين عظيمتين اخريين من هِبات اللَّه إلى عباده وهما: هبة الهداية فى ظلمات البر والبحر «بواسطة النجوم»،

وهبة ارسال الرياح كمبشِّراتٍ قبل نزول أمطار رحمته، فحيثما تنزلُ الأمطار تصدحُ الحياة بنغماتها وتكون أساساً لأنواع الخير والبركة.

---

(۱) يجب الانتباه إلى أنّ السحاب: البخار المتراكم وتسميه العرب (ضباباً)- بالفتح- مالم ينفصل من الأرض فإذا انفصل وعلا سُمّى (سحاباً وغيما وغماماً)، (تفسير الميزان ج ۱، ص ۴۱۱).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۸

ويستند فى نهاية الآية على هذين الموضوعين كوثيقةٍ لإثبات وحدانية اللّه تعالى ويخاطب المشركين: «أَ إِلهٌ مَعَ اللَّه تَعَالى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، ولعلَّ ذكرُ هاتين الهِبَتين معاً إشارةٌ إلى هذا المعنى وهو عندما يكون الجو صافياً يمكن الاستفادة من النجوم ليلًا فى الإهتداء إلى الطريق للوصول إلى الهدف، وإذا كان الجو غائماً فثمة رحمة أخرى وهى المطر ينالها الإنسان، إذنْ ففى كلا الحالتين هناك موهبة ورحمةٌ، وهو برهانٌ لمعرفة الذات الإلهيّة المقدّسة.

وفى الآية الثامنة إشارة إلى مسألة الرياح ونزول الأمطار بتعبيرٍ جديد، فيقول:

«وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَواقِحَ».

هل أنّ المقصود من الآية الكريمة هو حمل حبوب اللقاح بواسطة الرياح لتلقيح النباتات التى ستحمل الفواكه والثمار من بعد ذلك، أم المقصود هو تلقيح السحاب لكى يحمل المطر؟

وبالنظر لقوله فى تكملة الآية: «فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ»، فيظهر أنّ المعنى الثانى أكثر تناسباً، بالرغم من إمكانية الاستفادة من المعنيين معاً.

على أيّة حال، فانَّ التعبير أعلاه تعبيرٌ لطيفٌ جدّاً حيث شَبَّه قِطَعَ الغيوم بالامهات والآباء، فتتلاقح هذه الغيوم عن طريق الرياح ثم تحملُ، وتضعُ جنينها أى قطرات الأمطار على الأرض!

ويشيرُ فى ختام الآية إلى المياه الجوفية المخزونة تحت الأرض، والتى هى من الذخائر الإلهيّة للناس، فيقول: «وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخازِنِينَ».

فنحن الذين أمرنا طبقات الأرض أن تحتفظ بمياه الأمطار الصافية فى داخلها، وقد تكون الآبار والقنوات التى تستخدمونها اليوم هى من احتياطى المياه التى ذُخرت لكم منذ ملايين السنين فى باطن الأرض، من غير أنْ تَتلوث أو تتعفن.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۱۹۹

وقد نقوم بخزنها عن طريق تجميدها فى قمم الجبال على هيئة جليد وثلجٍ كى تصبح ماءً بشكلٍ تدريجيٍ، ونسقيكم أنتم وحيواناتكم ومزارعكم، وربّما تكون المياه التى تنحدر من القمَّة الفلانية اليوم مخزونةً منذ ملايين السنين.

وفى الآية التاسعة، فبالاضافة إلى إشارته إلى نزول الأمطار من السماء، فهو يشير إلى مسألة تكوُّنِ الينابيع، فيقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ انْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ».

و «ينابيع»: جمع «ينبوع» وتعنى العَيْن، وهى فى الأصل مأخوذة من مادة (نَبْعْ) وتعنى انبثاق الماء من الأرض، ومن الطبيعى إنَّ تكوُّنَ الينابيع فى الأرض الذى يجعل الإنسان يستفيد من الماء الجارى بدون الحاجة إلى قوة اخرى يتبع ظروفاً خاصةً أولُها: أن تكون طبقة الأرض قابلة للاختراق كى يتغلغل الماء خلالها، ثم يجب أن يكون ما تحت هذه الطبقة صلداً كى يتوقف الماء ويُخزنَ هناك، وأن يكون هناك فارقٌ فى المستوى بين خزانات المياه والمناطق الاخرى حتى ينسابَ الماء من هناك إلى بقية النقاط، ومن المسلَّم به استحالةُ تناسق هذه الأمور لولا تخطيط مُبدىء العلم والقدرة.

ويضيف فى سياق الآية: «ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعَاً مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ».

فيمكنُ أنْ يكون اختلاف الألوان هذا إشارة إلى ألوان النباتات المختلفة تماماً، أو إشارة إلى أنواع النباتات وأزهار الزينة والاعشاب الطبية والصناعية والخضروات التى يأكلها الإنسان والتى لها أنواع لا تحصى فى الواقع.

أَجَل .. إنّ اللّه تعالى يستخرج من هذا الماء الذى لا لون له مئات الآلاف من ألوان الورود والنباتات المنتشرة فى هذه الرياض الكثيرة، وكما يقول الشاعر نقلًا عن اللغة الفارسية:

فإذا توصَّلت إلى أسرارها ستعرف أنّ هذا هو سر الأسرار حيث هناك واحدٌ ولا يوجد غيره «وحده لا اله إلّاهو» لهذا فهو يقول فى نهاية الآية: «إِنَّ فى ذلِكَ لَذِكْرى لأُولى الألْبَاب».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۰

وقد أُشير فى الآية العاشرة إلى نكتةٍ جديدة اخرى فيقول: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ المُعْصِراتِ مَاءً ثَجَّاجاً».

و «مُعْصِرات»: جمعُ (مُعْصِر) من مادة «عَصْر» وتعنى الضغط، والمُعصرات تعنى الضاغطات، وما هو المقصود هنا بهذا التعبير؟ لقد ذكروا تفاسير متعددة: فالبعض اتخذها صفةً للغيوم، إذ اعتبرها إشارة إلى نظام خاص يتحكم بها عندما تتراكم على بعضها، فكأنّما تعصِر نفسها كى تجرى الأمطار منها، واعتبر هذا التعبير من المعاجز العلمية للقرآن الكريم «۱».

إلّا أنّ البعض الآخر اتخذها صفةً للرياح، واعتبرها إشارة إلى العواصف الرملية والأعاصير الشديدة والزوابع الترابية، حيث لها تأثيرٌ عميق فى تكوين الأمطار والرعد والبرق (علماً أنّ «الإعصار» يعنى ريح ترتفع بالتراب أو بمياه البحار).

فيقول هؤلاء .. أثناء هبوب العواصف الرملية الشديدة على سطح البحار والمحيطات فانّها تحمل معها البخار من على سطح المحيط، وحينما تصل به إلى نقاط الجو العليا الباردة جدّاً، وحيث تكون قدرة إشباع البخار هناك ضعيفة، يحصل الرعد والبرق الشديد، وبما أنّ «ثجّاجاً» صيغة للمبالغة، وهى من مادة «ثَجَ» على وزن (حَجَّ) وتعنى سكب الماء تتابعاً وبكثرة فهى تتناسب كثيراً مع مثل هذا الرعد والبرق «۲».

واعتبرها البعض إشارة إلى الغيوم التى تتزامن مع العواصف الرملية والأعاصير «۳»، فهذه العواصف تسوق الغيوم نحو الأعلى وتأخذها نحو مناطق الجو الباردة حيث تتبدّل هناك إلى قطرات من الماء، وبما أنّ هذا العمل يتمّ سريعاً فهو يولد زوابع رعدية شديدةٍ و «الماء الثجّاج»، ونلاحظ كثرة مثل هذه الزوابع الرعدية فى فصل الربيع ولعله بسبب كثرة حالات الزوابع الرعدية والعواصف فى هذا الفصل.

---

(۱) راجع كتاب الريح والمطر، ص ۱۲۶.

(۲) اعجاز القرآن فى نظر العلوم المعاصرة، ص ۶۷.

(۳) التفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۸ إذ ذكر هذا المعنى كأحدِ التفاسير لهذه الآية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۱

ويضيف فى سياق هذه الآيات: «لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً* وَجَنَّاتٍ الْفَافاً»، ويشمل هذا التعبير جميع أنواع النباتات والحبوب وأشجار الفاكهة.

وفى الآية الحادية عشرة، وبعد بيان ما جاء فى الآيات السابقة: «وَهُوَ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ»، يَرِدُ ما يلى: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّماءِ مَاءً طَهُوْراً».

وهذا موضوع جديدٍ حيث يستند إليه فى هذه الآية.

و «الطّهور»: صيغة مبالغة من «الطهارة» والنقاوة حيث تفيد طهارةَ الماء وكذلك كونه مطهّراً، ولو لم تكن للماء صفة التطهير لتلوثت كلُّ مقومات حياتنا واجسامنا وأرواحنا خلال يومٍ واحد، ويمكن أن نلمسَ حقيقة هذا الكلام إذا ما ابتُلينا تارة بفقدان ماء للتنظيف، حينها يصعبُ توفير الغذاء، وسنفقد نظافة الجسم والنشاط والطراوة والصحة والسلامة.

صحيحٌ أنّ الماء لا يقتل الجراثيم ولكنّه (مُذيب) جيد فهو يقوم بتحليل أنواع الجراثيم وإزالتها، ولهذا فهو عاملٌ مؤثرٌ فى تأمين السلامة، ويطهِّرُ روحَ الإنسان من الأدران عن طريق الوضوء والغُسل أيضاً.

وليس عبثاً أن يأتى فى الآية: «لِنُحْيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً».

ثم نواجه فى الآيـة الثانيـة عشـرة والأخيرة مسألـةً جديـدةً وهى أنّ اللَّه تعالى يسوق المياه إلى الأرض «الجُرُز» أى الجافة اليابسة الخالية من الكلأ فيقـول: «أَوَلَمْ يَرَوا انَّا نَسُوقُ المَـاءَ إِلَى الأَـرْضِ الجُرُزِ»؟! «فَنُخرِجُ بِه زَرَعـاً تَأْكُـلُ مِنْهُ أنْعَـامُهُمْ وأَنْفُسُـهُمْ»، فيَأكلون الحبوب وتأكل بهائمهُم السوق والأوراد والجذور.

ويسـتفاد من كلام أربـاب اللغـة أنّ «الجُرُز» مـاخوذة فى الأصل من مادة (جَرَز) على وزن (مَرَضْ) وتعنى (الانقطاع) أى انقطاع الماء، والنبات، والإعمار والطراوة، ولذا يقال

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۲

للناقة التى تأكل وتقطع كل شىء ب «ناقة جروز»، ولمن يأكل كل ما موجود على خوان الطعام ويفرغها تماماً ب «رجل جروز» «۱»

.

ويقول فى نهاية الآية داعياً إلى التفحص فى هذه النِعَم الإلهيّة العظيمة وآيات التوحيد:

«أَفَلا يُبْصِرُوْنَ».

ولكن لماذا تقدمت «الانعام» على الإنسان فى الآية المذكورة؟ يقول بعض المفسِّرين:

لأنَّ الزرعَ أول ما ينبت يصلح للدواب ولا يصلح للإنسان بالإضافة إلى أنّ الزرعَ غذاء الدَّواب وهو لابدَّ منه، فى حين أنّ للإنسان اغذية اخرى «۲».

النتيجة:

يستفادُ جيداً من الآيات الآنفة وبالانتباه إلى المسائل الدقيقة والظريفة التى انعكست فيها، أنّ هناك نظاماً دقيقاً جدّاً ومضبوطاً يسود وجود الرياح والغيوم والأمطار، حيث كلّما أطالَ الإنسان التمعُن فيها تزداد معرفته بالظرافة والمنافع والبركات الكامنه فيها.

فقد اعتُبر الماء فى بعض هذه الآيات أساساً للحياة، وفى بعضها وسيلةً للنظافة، وفى بعضها كموجودٍ مباركٍ (سورة ق، ۹)، وفى البعض الآخر كمشروبٍ سائغ «مَاءً فُراتاً».

(المرسلات/ ۲۷)

ومن مجموع ذلك فاننا أينما وجهنا النظر وحدقنا نعثر على آثار حكمة اللَّه البالغة، وأينما يقع بصرُنا تتجلى لنا صورة من العظمة الإلهيّة.

توضيحات

۱- تكوين الرياح وفوائدها

إنَّ مصدرَ حصول الريح هو الاختلاف فى درجة الحرارة بين منطقتين مختلفتين من

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، و مصباح اللغة.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۸۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۳

الأرض، ویمکن تجربة هذا أثناء فصل الشتاء حیث یکون هواء الغرفة حاراً وفی خارجها بارداً، فلو وضعنا شمعتی إضاءة عند طرفی الباب العلوی والسفلی وفتحنا الباب قلیلًا سیتضح هذا الأمر جیداً إذ إنَّ الهواء البارد وبسبب ثقله یدخلُ من الاسفل والهواء الحار یخرج من الأعلی لخفّته فیحرک شعلةَ الشمعة باتجاهه (إنَّ الهواء الحار یکون ممدداً وخفیفاً والهواء البارد مضغوطاً ثقیلًا،) ولو لم تکن هذه الصفة وتتوقف الریاح عن الحرکة فایُّ بلاءٍ عظیم سینزل علی الإنسان؟!).

کما نعرفُ أیضاً أنّ للکرة الأرضیة ثلاث مناطق، فالمنطقة الباردة (الأطراف القطبیة)، والحارّة جدّاً (المناطق الاستوائیة)، والمعتدلة (المناطق التی تتوسط هاتین المنطقتین).

وهذا الاختلاف فی درجات الحرارة علی الأرض یکون سبباً فی انتقال الهواء من جهةٍ إلی اخری وأهمّه الریاح التی تُسمی «الریاح القطبیة» (وهی الریاح التی تهبُّ من القطب نحو المنطقة الاستوائیة ولأنّها تکونُ باردةً فهی تسیر بالقرب من سطح الأرض)، والریاح «الاستوائیة» (وهی الریاح التی تهبُّ من المنطقة الاستوائیة نحو القطب وبما أنّها تکون حارَّة فهی تتحرک فی طبقات الجو العلیا) «۱».

فضلًا عن أنّ ماء المحیطات لا یکون حاراً کحرارة السواحل أثناء شروق الشمس، إضافة إلی أنّ ماء البحر یفقد حرارته لیلًا اسرعُ ممّا یفقده الساحل، فهذا الاختلاف فی درجات الحرارة بین ماء البحر والساحل یتسبب أیضاً فی هبوب الریاح باستمرار من البّر إلی البحر ومن البحر إلی البّر أیضاً.

وإضافة إلی کل هذا فانَّ کرویة الأرض تؤدّی إلی أن تقع بعضُ المناطق فی مواجهة الشمس مباشرة (أثناء الظهر)، وأن تَشِّعَ الشمسُ علی المناطق الاخری بشکلٍ مائلٍ (أثناء الشروق والغروب)، فهذا الاختلاف فی درجات الحرارة أحد أسباب حصول الریاح فی مختلف المناطق أیضاً (وکذلک هناک عوامل معقّدة اخری .

وتتظافر هذه الأسباب فی تحریک الریاح فی سائر انحاء الکرة الأرضیة وتتزامن معها

---

(۱) اعجاز القرآن فی نظر العلوم المعاصرة، ص ۶۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۴

الفوائد الجمَّة التالیة التی تمَّت الإشارة إلیها فی الآیات السابقة:

۱- للریاح نصیبٌ مهمٌ فی تکوین الغیوم بسبب هبوبها علی المحیطات.

۲- إنّ الریاحَ تصطحبُ معها الغیوم إلی المناطق الجافة والیابسة ولولاها لاحترقَ جانبٌ کبیر من الکرة الأرضیة بسبب الجفاف.

۳- إنّ الریاحَ تلطِّفُ الجوَّ وتجلبُ الاوکسجین الضروری من المناطق البعیدة.

۴- إنّ الریاحَ تأخذ معها التلوث حیث تساعد فی تنقیة الجو عن هذا الطریق.

۵- إنّ الریاحَ تُقللُ من شدّة حرارة الشمس علی أوراق النباتات، وتمنع احتراقها بهذه الأشعة، وبصورة عامة فانّها وسیلةٌ مهمةٌ لاعتدال الجو فی بقاع الأرض.

۶- إنّ الریاح- وکما قلنا فی تفسیر الآیات- تعصُر الغیوم وتُعدُّها لإنزالِ المطر.

۷- إنّ الریاح تسوقُ الغیوم نحو طبقات الجو العلیا، وبسبب البرودة وفقدان قدرة تحمل الاشباع تتحول إلی قطرات مطرٍ تهبُ الحیاة.

۸- إنّ الریاح تُحرِّک السفن الشراعیة فی المحیطات، کما أنّها تُعتبر أحد المصادر المهمّة للطاقة.

۹- تُستخدم الریاح لتشغیل الطاحونات الهوائیة.

۱۰- إنّ الریاح تُعتبرُ وسیلة مهمة جدّاً للمزارعین فی تصفیة الحنطة وغیرها وعزلها عن التبن.

۱۱- إنّ الریاح تعملُ علی تحریک میاه البحر فتحصل الأمواج وهذه الأمواج تؤدّی بدورها إلی اختلاط الهواء مع الماء، فیکون أساساً

لحياة الموجودات فى البحر، ولولا الرياح والأمواج لتبدَّل البحر إلى مستنقعٍ آسن لا حياة فيه.

۱۲- وختاماً فانَّ الرياح تساهم فى تلقيح النباتات، إذ تحمل حبوب اللقاح إلى الأجزاء الانثوية، ولو تقاعست عاماً واحداً لتناقصت كمية الفاكهة المنتجة لدينا!

هذا جانبٌ من بركات هبوب الرياح الذى توصَّلَ إليه العلمُ البشرى حتى الآن ومن المسلَّم به أنّ بركاتها لا تنحصر بما قلناه، وينبغى الانتظار حتى يرفعَ العلمُ الحجابَ عن

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۵

أسرار جديدة، ولكن كُلّما من الامور المذكورة أعلاه يكفى لوحده أن يبرهنَ لنا على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا، ناهيك عن مجموعها، فكم هو رحيم ورؤوف ذلك الإله الذى يُكِنُّ لعباده كلَّ هذا العطف والمحبّة، وكَمْ مليئة ب (البركة) تلك «الحركة» التى تترك كل هذه الآثار الايجابية المهمّة أثناء هبوب ذرات الهواء؟.

۲- أسرار تكوين الغيوم وهطول الأمطار

لا يخفى أنّ الغيوم هى ذرّات بخار الماء، أو بتعبير أكثر دقّة هى ذرات الماء التى انفصلت جزئياتها عن بعضها وتحولت إلى بخار.

إنَّ التمعنَ فى ما يخص تكوّن الرياح والأمطار يكشف لنا أسراراً لطيفةً عن هاتين الظاهرتين العجيبتين، منها:

۱- إنّ أغلبَ السوائل لا تتبخر إذا لم تصل إلى درجة الغليان، إلّاأنَّ الماء من السوائل المستثناة حيث يتبخر فى أى درجة من الحرارة، ولولا هذه الميزة فى الماء لما تبخرت قطرة واحدة من ماء البحر، ولما تكوّنت الغيوم، ولما نزلت المطر ولاحترقت اليابسة من الجفاف.

۲- وهذا ما يجدر بالاهتمام أيضاً، فأثناء عملية التبخر يتبخر الماء الصافى فقط، وتبقى الأملاح والذّرات الاخرى التى فيه فى مكانها، أى أنّ هناك عملية تصفيةٍ طبيعية كى ينالَ البشرُ المياهَ الصالحة.

۳- لو لم تكن الطبقات العليا من الجو أكثر برودة من الطبقات السفلى لما امطرت الغيوم المضطربة فى الجو أبداً، ولكن هذا الاختلاف فى درجات الحرارة هو الذى يؤدّى إلى نزول الأمطار، وكذلك لو كانت قدرة إشباع ذرات البخار متساوية فى الهواء البارد والحار لما نزلت الأمطار، ولكن بما أنّ الهواء البارد له قدرةُ إشباعٍ ضعيفة فانّه يُنزلُ البخار الذى تحول إلى ماءٍ.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۰۶

۴- إنّ الأمطار إضافة إلى توفيرها للماء الضرورى لنمو النباتات، تقوم بغسل الأرض وتحمل الأوساخ معها نحو البحار.

۵- إنّ الأمطار تُنّظفُ الجوَّ أيضاً، وتقوم بإنزال التراب والغبار والذّرات المعلَّقة فى الجو التى تذوب فيها إلى الأرض، ولولا هطول الأمطار لتلوَّثَ الجو بعد مدةٍ قصيرة واستحالَ التنفُس على الإنسان.

۶- إنّ الأمطار تغسلُ صخور الجبال شيئاً فشيئاً، ليخرجَ منها التراب الذى يمكن استثماره، فتمتد السهول الواسعة على سطح الأرض.

۷- إنّ الأمطار تحمل معها الاتربة الغنيّة من المناطق البعيدة وتنشرها فى المزارع لتقويتها، كما يجلب جريان الماء معه أفضل الاسمدة الطبيعية للنباتات إلى بعض المناطق (كسواحل النيل).

۸- إنّ الأمطار لا تهبُ الحياة فى المناطق الجافة فحسب، بل إنَّ هطول الأمطار على البحار يُعتبر مؤثراً للغاية أيضاً، وليس أقل من تأثيره فى المناطق اليابسة كما يقول بعض العلماء، لأنَّ سقوط الأمطار فى البحر يساعد على نمو النباتات الصغيرة فى وسط أمواج المياه، حيث تكون طعاماً مناسباً جدّاً للاسماك والاحياء البحرية، وفى السنة التى يقلُّ فيها نزول الأمطار يسوء فيها وضع الصيد.

۹- إنّ ارتفاعَ الغيوم عن سطح الأرض أكثر من ارتفاع اعلى نقاط الأرض ولهذا فلا تُحرم أيةُ بقعةٍ من الاستفادة من ماء المطر.

۱۰- إنّ العديد من أشجار الغابات والأعشاب الطبية والغذائية تنمو على سفوح الجبال الشاهقة، وهذا يدل على أنّ الأمطار تقوم

بإيصال الكمية اللازمة من الماء إليها، ولولا الأمطار لاصبحت هشيماً يابساً.

١١- لو تأملنا جيداً بالسدود الضخمة التى أنشِئَتْ فى عصرنا هذا والتى تُؤمِّنُ جانباً مهماً من الطاقة الكهربائية فى العالم، وتقوم بتشغيل المعامل العملاقة لوجدناها من بركات هطول الأمطار على المناطق الجبلية.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠٧

١٢- إنّ بعض ترشحات الغيوم تنزلُ إلى الأرض على هيئةِ جليدٍ فتتراكم على قمم الجبال كمصادر للمياه، وتقوم بتغذية خزانات المياه الموجودة تحت الأرض أيضاً لأنّها تذوب تدريجياً وتَنْفُذُ داخل الأرض، ولكن لو تساقط الجليد باستمرار بدلًا من المطر تنعدم عندئذٍ الكثير من المنافع التى ذُكرت.

١٣- الغيوم بحار معلقة فى السماء، وما أعظمَ الإله الذى يُرسلُ كلَّ هذا الماء إلى السماء خلافاً لقانون الجاذبية، ويقوم بنقله بسهولةٍ من نقطةٍ إلى اخرى

١۴- بالاضافة إلى كل هذا فانَّ للغيوم تأثيراً ملموساً فى خفض درجة الحرارة شتاءً وخفض درجة الحرارة صيفاً.

١۵- إنّ الغيوم تحمل الشحنات الكهربائية المختلفة حيث تؤدّى إلى وقوع الرعد والبرق، وسوف نتحدث عن هاتين الظاهرتين فى البحث الذى يتعلق بالرعد والبرق إن شاء اللَّه.

وعلى العموم فانَّ هاتين الظاهرتين اللّتين نعتبرهما من الامور العادية جدّاً نتيجة لأُنْسِنا بهما، مدهشتان ومليئتان بالأسرار، ويمكن مشاهدة آيات التوحيد العظيمة فى أعماق أسرارهما، والوصول إلى عظمة تلك الذات المقدّسة من خلال هذه الآيات العظيمة.

٣- الرياح والأمطار فى الروايات

نقرأ فى الحديث المعروف بتوحيد المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«وانبهك يا مفضل على الريح وما فيها، ألست ترى ركودها إذا ركدت كيف يحدث الكرب الذى يكاد أن يأتى على النفوس، ويمرّض الأصحاء وينهك المرضى ويفسد الثمار، ويعفّن البقول، ويعقّب الوباء فى الأبدان، والآفة فى الغلات ففى هذا بيان أنّ هبوب الريح من تدبير الحكيم فى صلاح الخلق.

ولو أنّ ملكاً من الملوك قسّم فى اهل مملكته قناطير من ذهب وفضة ألم يكن سيعظم

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٠٨

عندهم ويذهب له به الصوت؟ فأين هذا من مطرة رواء؟ إذ يعمر به البلاد ويزيد فى الغلّات أكثر من قناطير الذهب والفضة فى أقاليم الأرض كلها.

تأمل نزوله على الأرض والتدبير فى ذلك فانّه جعل ينحدر عليها من علو ليتفشّى ما غلظ وارتفع منها فيروّيه ولو كان إنّما يأتيها من بعض نواحيها لما علا على المواضع المشرفة منها ويقل ما يزرع فى الأرض وبها يسقط عن الناس فى كثير من البلدان مؤونة سياق الماء من موضع إلى موضع، وما يجرى فى ذلك بينهم من التشاجر والتظالم حتى يستأثر بالماء ذوو العزة والقوة ويحرمه الضعفاء. ثم إنّه حين قدّر أن ينحدر على الأرض انحداراً جعل ذلك قطراً شبيهاً بالرش ليغور فى قطر الأرض فيرويها ولو كان يسكبه انسكابا كان ينزل على وجه الأرض فلا يغوُر فيها ثم كان يحطم الزرع القائمة إذا اندفق عليها فصار ينزل نزولا رقيقاً فينبت الحب المزروع وفى نزوله أيضاً مصالح اخرى فانّه يلين الأبدان ويجلو كدر الهواء فيرتفع الوباء الحادث من ذلك ويغسل ما يسقط على الشجر والزرع من الداء».

ويقول فى جانب آخر من الرواية:

«فكّر يا مفضل فى الصحو والمطر كيف يعتقبان على هذا العالم لما فيه صلاحه، ولو دام واحد منهما عليه كان فى ذلك فساده، ألا ترى أنّ الأمطار إذا توالت عفنت البقول والخضر واسترخت أبدان الحيوان وخصر الهواء فأحدث ضروباً من الأمراض وفسدت الطرق والمسالك وأنّ الصحو إذا دام جفّت الأرض واحترق النبات وغيض ماء العيون والأودية فأضرّ ذلك بالناس وغلب اليبس على الهواء فأحدث ضروبا اخرى من الأمراض فإذا تعاقبا على العالم هذا التعاقب اعتدل الهواء ودفع كل واحد منهما عادية الآخر فصلحت الأشياء واستقامت» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام السجاد عليه السلام:

«أنزل من السماء ماءً يعنى المطر ينزله من أعلى ليبلغ قلل جبالكم وتلالكم وهضابكم

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۱۹- ۱۲۶ (مع الاختصار).

واوهادكم ثم فرقه رذاذاً ووابلًا وهطلًا لتنشفه ارضوكم، ولم يجعل ذلك المطر نازلًا عليكم قطعة واحدة فيفسد أرضيكم وأشجاركم وزروعكم وثماركم» «۱».

۴- لقد كشفت البحوث الحديثة للعلماء النقاب عن أسرار جديدة وبيَّنَتْ التأثيرات المهمّة للرياح فى نزول الأمطار بكيفية جديدة حيث يُعتبر التوضيح الآتى نموذجاً منه (يجب توفر شرطين لتكوين الغيوم وهطول الأمطار) وهما:

۱- وجود بخار الماء فى الهواء.

۲- تشَبُّع الهواء بالبخار وتقطيره.

أمّا فيما يتعلق بالشرط الأول فبالرغم من أنّ الهواء لا يخلو على الاطلاق من بخار الماء وتبلغ ادنى نسبة له نحو ۵۰ غراماً فى المتر المكعب، إلّاأنّ هذا المقدار من الرطوبة لا يكفى لتكوين الغيوم ونزول الأمطار، بل يجب امدادها باستمرار، أى يجب أن يصل هواءٌ جديدٌ مُحمَّلٌ ببخار الماء بعد تكوين الغيوم ونزول الأمطار تباعاً، ويستمر هبوب الرياح، ويكون انطلاقها أو مسيرتها من البحر أو الغابات الكثيفة كى تتزود من الرطوبة بالمقدار اللازم.

وأمّا الشرط الثانى أى الوصول إلى حالة الاشباع وحصول ظاهرة التقطير (تعرُّق الهواء وتحول البخار إلى سائل) فهذا يستلزم برودة الهواء، كما يحدث فى الشتاء إذ يَتعرق زجاج شبابيك الغرف التى تحتوى على ما يكوّن البخار كالسماور والقدر ....

والعامل الوحيد المؤثر فى برودة الهواء والذى يوصله إلى مرحلة تكوين الغيوم والتقطير هو ارتفاع الهواء وعلوه، ويحدث ارتفاع الهواء على ثلاثة أشكال أو فى ثلاث حالات، وينزل فى كل حالةٍ منها مطرٌ خاصٌ وهى:

أ) اصطدام الهواء بالأجزاء البارزة من الأرض والصعود من وسط الجبال حيث تنتج عنه الأمطار الجبلية.

ب) حرارة وخفَّةُ الهواء وصعوده السريع اثر اشعة الشمس وملامسة المناطق الحارة وتنتج عنه (أمطار العواصف).

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۴۱؛ بحار الأنوار، ج ۵۶، ص ۳۴۴- ۳۷۴ أيضاً وردت روايةٌ أشارت إلى أسرار تكوُّنِ الغيوم والمطر.

ج) اصطدام جناحى الهواء الحار والبارد وتقلبهما وتنتج عنه (الأمطار الغزيرة)، وأنَّ الغيوم والأمطار كافة تنشأ عن أحد هذه الحالات الثلاث واهمها النوع الأخير.

اذن فالهواء يرتبط بالغيوم والأمطار فى كل المراحل فهو يتدخل ابتداءً من حمل البخار وايصاله إلى المناطق الجافة، مروراً وانتهاءً بهزّ الغيوم وانزال المطر، وليس من الممكن حصول الغيوم والأمطار بدون الهواء، والمعروف أنّ الغيوم ليست سوى الهواء (أى الهواء

المحمَّل بالماء).

وورد فى قسمٍ آخر من هـذا البحث: «إنَّ قطرات الأمطار تهطل من الغيوم المتكونـة من عـدّة طبقات والتى ترتفع أكثر من عشـرة كيلو مترات، وهذه الغيوم العاريةُ الصاخبة تظهر على هيئة جبالٍ حيث يُغطى القسم الأعلى منها بقضـبان الثلج وقطع الجليد وقد تكون ممتلئة بالبَرَدِ».

وحتى قبـل الحرب العالميـة الاـولى حيث تمكنت الطـائرات حينـذاك من الارتفاع فوق الغيوم وشاهـد الطيارون السـتائر المتكونـة من الجليد والناشئة من الغيوم المتصاعدة، لم يكن لأى شخصٍ علمٌ بوجود الجليد والبَرَدِ فى غيوم السماء.

«فالصـعود المتقلِّب الاطبقى للرياح الرطبـة والحارة يؤدّى إلى تكوين جبالٍ عاليـةٍ من الغيوم المتجمـدة التى تتزامن مع الزوابع الشديدة وسط الرعد والبرق المتتابعين» «۱».

ويمكن أن يعطى هذا التوضـيح تفسيراً جديداً للآية ۴۳ من سورة النور ويرفع الحجاب عن معجزة علميـة لطيفـة للقرآن الكريم، حيث يقول: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّنْ يَشاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ» فأىُّ جبلٍ فى السماء توجدُ فيه قطع البَرَدِ؟ هذا السؤال الذى كان صعباً ومعقداً بالنسبة للكثيرين، ولهذا فقد ذكروا له عدة تفاسير.

ولكن من خلال الاكتشافات أعلاه يتضـح عدم الحاجة إلى التبرير والتقدير والمجاز وامثال ذلك لتفسـير الآية المذكورة، ويتبينُ معنى الآية فى ظل هذا الأمر «۲».

---

(۱) الهواء والمطر، ص ۵۷- ۶۵ (مع الاختصار).

(۲) من أجل المزيد من الايضاح يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۴۳ من سورة النور.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۱

۱۲- آياته فى حدوث الرعد والبرق

التمهيد:

هنالك القليل ممن يولى ادنى اهتمام لهاتين الظاهرتين السـماويتين قبل دراسـة أسـرار الرعـد والبرق، وعادةً ما يمرُّ الجميعُ عليها مرور الكرام، ولعـلَّ بعضـهم ينظرُ إليهـا وكأنَّها مزاحُ الطبيعـة، كما يتحـدث بعض آخر حولها بقصـصٍ خرافيـة، إلّاأنّ الحقيقـة هى أنّ هاتين الظاهرتين تحدثان من خلال نظامٍ خاصٍ، ولهما آثارٌ وبركاتٌ جديرةٌ باهتمام الإنسان حيث سيأتى شرحها فى تفسير الآيات الآتية.

بعد هذا التمهيد نقرأ خاشعين بعض آيات القرآن الكريم فى هذا المجال:

۱- «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِ بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا انَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ». (الروم/ ۲۴)

۲- «هُوَ الَّذِى يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ». (الرعد/ ۱۲)

۳- «وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيْفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيْبُ بِهَا مَنْ يَشَآءُ». (الرعد/ ۱۳)

شرحُ المفردات:

«البرق»: كمـا يقول الراغبُ فى المفردات تعنى فى الأصل النورَ الـذى يظهر من الغيوم، ثم استُعملت للتعبير عن كل شـىءٍ ساطعٍ، فمثلًا يقال للسيفِ اللامعِ: (السيفُ البارق).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۲

إضافة إلى ذلك، يستفاد من «مقاييس اللغة» أنّ «البرق» له معنى آخر، وهو اجتماع السواد والبياض فى شىءٍ واحدٍ، ولكنَّ الظاهر أنَّ المعنى الثانى يعود إلى المعنى الأول، السواد عندما يكون إلى جانب البياض يُبدى بريقاً أكثر، كما اعتبر بعضٌ مفهومَ الشِّدةِ والضغط جزءاً من معنى البرقِ أيضاً فيقولون: إنّ البرقَ واللمعان يحدثان بشكل خاص من خلال الشدَّة والضغط «۱».

ويقول «الراغب» إنّ «الرعد» هو صوت الغيوم، ويستعمل كناية أيضاً عن تحطُّم وسقوط الشىء الثقيل المتزامن مع الصوت، إلّاأنَّ صاحب «مقاييس اللغة» ذكرَ أنَّ معناه الحقيقى هو الحركة والاضطراب، ولكن بصورة عامة، يستفاد جيداً من كتب اللغة أنّ المعنى الحقيقى هو الصوت الذى ينطلق من الغيوم، وبقية المعانى لها صبغةٌ كنائية.

و «الصواعق»: جمع «صاعقة»، وتعنى فى الأصل الصوت الشديد المهيب الذى ينطلقُ من الجو مصحوباً ببريقٍ ناريٍّ عظيم، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الذهول بسبب سماع الاصوات القوية، وقد تستعمل بمعنى الهلاك أيضاً.

وقال بعض أرباب اللغة: إنَّ موارد استعمال الصاعقة ثلاثة وهى: «الموت» و «العذاب» و «النار» «۲»

إلّاأنّ الظاهر أنّ جميعها من لوازم المعنى الحقيقى.

جمع الآيات وتفسيرها

أسرار خلق الرعد والبرق:

تعتبرُ الآية الاولى من البحث بشكل صريح، أنّ برقَ السماء من آيات اللَّه فتقول: «وَمِنْ آياتِهِ يُرِيْكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً». هذه الآية تارة تذكر الخوف وأحياناً الأمل والرجاء.

الخوف الناتج عن الصوت المهيب الذى يرافق الرعد، واحتمال تزامنه مع صاعقةٍ

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (برق).

(۲) مفردات الراغب، ولسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۳

مميتة، والأمل والطمع بسبب احتمال نزول المطر، لأنّه فى كثير من الحالات يعقبُ الرعدَ والبرقَ زوابع مليئةٌ بالبركة.

ولعلَّه لهذا السبب يضيف فى سياق هذه الآية: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِ بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

فالأرضُ اليابسة والمحترقة تحيى بقليلٍ من المطر والغيث الذى يهب الحياة، بحيث تنتعش الأزهار والنباتات فيها وكأنها ليست تلك الأرض السابقة.

ولهذا يضيف فى نهاية الآية للتأكيد فيقول: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقوم يَعْقِلُوْن».

فهُمْ يفهمون أنّ هذه الظواهر ليست ظواهر عاديّة تحدث صدفةً، فيتفكّرون فيها ويتعرفون على أسرارها.

وورد هذا المعنى فى الآية الثانية من بحثنا بتعبيرٍ آخر تعريفاً بالذات الإلهيّة المقدّسة عن طريق آثاره فيقول تعالى «هُوَ الَّذِى يُرِيَكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وطَمَعاً».

الخوفُ من الصواعق والتفاؤل بنزول المطر، أو خوف المسافرين، وتفاؤل المقيمين فى المدن والارياف.

واللطيف أنّه يقول بعد ذلك مباشرة: «ويُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَال».

وقيل فى بيان هذه الجملة (تتزامن مع العواصف القويّة كُتلٌ من الغيوم، فتغطى اعالى الجو القريبة من الأرض، فيصبح الجو مظلماً، وتتولد شحنات كهربائية نتيجة تلاطم الرياح، وتهتز الأرض والجو بسبب صوت الرعد المتتابع، وأخيراً فانَّ الغيوم المتراكمة فى طبقات الجو السفلى كثيفة ومحملة بكثير من قطرات الماء الكبيرة لذلك تكون ثقيلة للغاية على الرياح المحركة «۱».

---

(۱) الريح والمطر، ص ۱۳۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۴

ويشير فى الآية الثالثة والأخيرة من بحثنا إلى ظاهرة «الرعد» فيقول: «ويُسَبِّحُ الرَعْدُ بِحَمْدِهِ».

ويُبَيِّنُ هذا التعبير أنّ هذه الظاهرة السماوية ليست مسألة عاديةً، بل تُنبِئُ عن علم وقدرة اللَّه تعالى لأنَّ «التسبيح» يَعنى التنزيه عن كل عيبٍ ونقص، و «الحمد» تعنى شكره مقابل الكمالات، وعليه فانَّ صوت الرعد يتحدث عن الأوصاف الجمالية والجلالية للَّه تعالى

ويمكن أن يكون هذا الكلام بلسان الحال، كما يتحدثُ اختراعٌ مهمٌ عن علم ووعى المخترع، أو لوحةٌ جميلةٌ جدّاً عن الذوق الحاد للرسام، أو قطعة شعرية عن الذوق الأدبى للشاعر، فتمدحه وتشكره، فتكون لسان حالٍ، كما قالَ بعض المفسرين بأنَّ لدى ذرات هذا العالم كافة عقلًا وشعوراً، كل حسب حظه، وتسبيحها وحمدها ينبع من العقل والشعور والإدراك.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره:

«فلا يبعد من اللَّه تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق فى أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع من الأفعال الاختيارية لله سبحانه وتعالى.

وكما هو تسبيح الجبال فى زمن داود عليه السلام وتسبيح الحصى فى زمان محمد صلى الله عليه و آله» «۱».

فليكن أىُّ الاحتمالين، فليس هنالك اختلافٌ فى بحثنا، وعلى كل حال فإنّ هناك أسراراً خفيّةً فى هذه الظاهرة السماوية حيث تكشفُ عن عظمة الخالقِ وتمثل آيةً من آياته.

والمعروف أنّ الماء والبخار، والغيوم الناتجة منهما عناصر لا تنسجم مع النار، ولكن بقدرة الخالق تنطلقُ منها نارٌ هائلة أكثر احراقاً من أنواع النيران الموجودة على الأرض كافة، وكذلك البخار، الجسم اللطيف جدّاً، ولكن ينطلقُ منه صوتٌ لا ينطلقُ من سقوط أثقل وأقوى الأجسام.

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۱۹، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۵

ويستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ كلًا من «الرعد» و «البرق» من ظواهر عالم الوجود الجديرة بالاهتمام ويجب دراستها بجديّة، للتوصل إلى أسرارها، والتعرف على عظمة الخالق عن طريقها، وسيأتى هذا الأمر فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه تعالى

توضيحان

۱- الرعد والبرق فى نظر العلم المعاصر

يعتقد العلماء المعاصرون أنَّ بريق السماء يحدث من خلال تقارب كتلتين من الغيوم المحملة بالشحنات الكهربائية المختلفة واحدة موجبة والاخرى سالبة، فتُحدِثان بريقاً كما يحصل من اقتراب قُطبَىْ المُوصِّل الكهربائى تماماً.

وحيث تتحمَّل قطع الغيوم بالشحنات الكهربائية العظيمة يكون بريقها عظيماً أيضاً، ونحن نعلمُ أنّ لكلِّ بريقٍ صوتاً، وكلّما اشتد البرقُ كلما تعاظم صوته، ولهذا قد يكون الصوت المهيب لهذا البرق من الشدّةِ بحيث يهزُّ جميع المبانى ويُحدثُ صوتاً كالقنابل الشديدة الانفجار.

ولكن البرق لا ينتج نتيجة اقتراب كتلتين من الغيوم دائماً لتكون بعيدة عن متناول الإنسان ولا تُسبب أىَّ خطر، بل قد تقترب الغيوم الحاوية على الشحنات الموجبة من الأرض، وبما أنّ الأرض تحتوى على الشحنات السالبة لذلك يحدث البرق بين «الأرض» و «الغيوم»، وهذا البرق العظيم الذى يسمى بالصاعقة خطيرٌ للغاية، فهو يُحدثُ هزَّةً شديدةً فى المنطقة التى يقع فيها، وكذلك يولد حرارة عالية جدّاً بحيث إذا أصابت أىَّ شىءٍ تجعلُهُ رماداً «۱».

---

(۱) مع أنّ مدة الصاعقة لا تتجاوز عُشرَ الثانية وقد تكون ۱۰۰ ۱ من الثانية، ولكن الحرارة التى تنتج منها تصل إلى ۱۵۰۰۰ (سانتيغراد) بامكانها التسبب فى حدوث اخطارٍ بالغة الشدّة (حرارة سطح الشمس ۸۰۰۰ فقط) (اعجاز القرآن، ص ۷۸).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۶

ونظراً لتجمع الشحنات على الأجزاء المدببة للأجسام ففى الصحارى التى تحدث فيها الصواعق، يظهر البرق فى النقاط المرتفعة كرؤوس الأشجار، وحتى رأس الإنسان المار عبرها، لذلك يعتبر التوقف فى الصحارى أثناء الجو العاصف المليء بالرعد والبرق خطيراً للغاية، وفى مثل هذه الحالات يمكن أن يزيلَ اللجوءُ إلى الوديان أو الاقتراب من الأشجار واسفل الجبال والتلال الخطر إلى حدٍ ما (إنّ الاتكاء على الأشجار والشبابيك الحديدية لا يخلو من خطورة أيضاً).

ويتضح جيداً من خلال الإشارة أعلاه اخطارُ البرقِ وعامل الخوف الذى اشيرَ إليه فى الآيات الآنفة.

۲- فوائد وبركات الرعد والبرق

بالرغم من الاخطار التى تصحب الرعد والبرق أحياناً إلّاأنّ لهذه الظاهرة فوائد جمّة سنشير إلى بعضها هنا:

أ) الرى- من المعروف أنّ البرق يولِّدُ حرارة عاليةً جدّاً، قد تبلغ ۱۵ ألف درجة سانتيغراد، وهذه الحرارة كافية لاحراق مقدارٍ كبيرٍ من الهواء المحيط ممّا يؤدّى إلى هبوط الضغط الجوى مباشرة، ونحن نعلمُ أنّ الغيومَ تُمطرُ أثناء هبوط الضغط، ولهذا فغالباً ما يبدأ نزول المطر عقبَ حدوث البرق وتنزل قطرات الأمطار الكبيرة، وفى الواقع يعتبر الرى من هذا الجانب أحد بركات البرق.

ب) رش السموم- عندما يظهر البرق بتلك الحرارة، تتزود قطرات المطر بكمياتٍ إضافية من الاوكسجين، فيحصل الماء الثقيل أى الماء المؤكسد (H_2O_2)، ونحن نعلم أنّ من آثار هذا الماء هو القضاء على الجراثيم، ولهذا يستعمل طبياً فى تنظيف الجروح، فهذه القطرات تقضى على بيوض الآفات المسببة لأمراض النباتات عندما تنزل إلى الأرض، وتقوم برش السموم على أحسن وجهٍ، لذلك فقد قالوا: فى كل سنةٍ يَقلُّ فيها الرعد والبرق تزداد الآفات النباتية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۷

ج) التغذية والتسميد- إنّ قطرات المطر وأثر حدوث البرق وحصول الحرارة الشديدة الناتجة عنه وتركيبها الخاص، تحصل على حالةٍ من حامض الكاربونيك، فتقوم بتكوين سمادٍ نباتيٍ مؤثرٍ أثناء تناثرها على الأرض وتخلُّلها فيها، فتتغذى النباتات عن هذا الطريق.

ويقول بعض العلماء: إنَّ كمية السماد الحاصل من حالات البرق فى السماء خلال سنةٍ واحدة يبلغ عشرات الملايين من الاطنان، وهذا رقم مرتفعٌ للغاية.

بناءً على ذلك نرى أنّ هذه الظاهرة الطبيعية العاديّة وغير المهمّة إلى أىَّ حدٍّ مفيدةٍ ومليئةٍ بالبركة؟ فهى تسقى، وترش السموم أيضاً،

وتقوم بالتغذية، وهذا نموذج صغيرٌ من الأسرار العجيبة لعالَم الوجود حيث يصلح أنْ يكون دليلًا فى الطريق لمعرفة اللّه.

كل هـذا من بركات البرق، ولكن الحرائق التى تنتج عن نوعٍ منه وهى الصواعق من جانبٍ آخر قد تحرق الإنسان أو الحيوان والمزارع والأشـجار، بالرغم من أنّ هـذا الأمر قليلٌ ونادر الوقوع ويُمكن اجتنابه، إلّاأنّه بإمكانه أن يصـبح عامل خوفٍ وهَلَعٍ، وعليه فانَّ ما قرأناه فى الآيهٔ السالفهٔ بانَّ البرق أساسٌ للخوف وأساسٌ للأمل أيضاً قد يكون إشارهٔ إلى مجمل هذه الامور.

ومن الممكن أن تكون عبارهٔ «وَيُنْشِـئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ» الواردهٔ فى نهايهٔ الآيهٔ لها ارتباط بميزهٔ البرق هذه التى تؤدى إلى تحمُّلِ الغيوم بقطرات الأمطار.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۱۹

۱۳- آياته فى خلقِ البحار والفُلك

تمهيد:

نحنُ نعلمُ أنّ الماءَ يغطى ثلاثهٔ ارباع سـطح الكرهٔ الأرضـيهٔ، وأنّ المحيطات والبحار ترتبط مع بعضـها، كما نعلم أنّ الإنسان قد اسـتثمر البحار للحمل والنقل منذ غابر الأيّام على افضل وجه، بالإضافهٔ إلى استغلاله لجانبٍ مهمٍ من المواد الغذائيهٔ الكامنهٔ فى البحر، وكذلك فانَّ القسم الأعظم من مختلف المواد التى تُستعمل فى الصناعات تُستخرج من البحار.

والأهم من كل ذلك، أنّه لا يخفى على أى شـخص دور البحار فى تكوّن الغيوم وسـقى الاراضـى اليابسهٔ كافهٔ، وواضحٌ للجميع تقريباً وضعُ حيوانات البحار وتنوعها وعجائبها.

لهذه الأسباب اعتبرَ القرآنُ الكريم البحارَ والفلك من آيات اللّه، ودعا الناس إلى التمعنِ فى أسرارها.

بعد هذا التمهيد نيَمِّمُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونقرأ خاشعين الآيات الآتيهٔ:

۱- «وَهُوَ الَّذِى سَـخَّرَ الْبَحْرَ لِتَـأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمـاً طَرِيًّا وَتَسْـتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَـهً تَلْبَسُونَهـا وَتَرَى الْفُلْـكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْـلِهِ ولَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ۱۴)

۲- «وَمَا يَسْـتَوِى الْبَحرانِ هَـذَا عَـذْبٌ فُراتٌ سَائِغٌ شَـرابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ اجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْـتَخْرِجُونَ حِلْيَهً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوْا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (فاطر/ ۱۲)

۳- «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (الجاثيهٔ/ ۱۲)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۰

۴- «وَمِنْ آيَـاتِهِ الْجَوَارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلَـامِ* إِنْ يَشَأْ يُسْـكِنِ الرِّيْحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِـدَ عَلى ظَهْرِهِ إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَـبَّارٍ شَـكُورٍ». (الشورى ۳۲- ۳۳)

۵- «أَلَمْ تَرَ انَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ انَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ». (لقمان/ ۳۱)

۶- «إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمواتِ وَالأَرْضِ ... والْفُلْكِ الَّتِى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ... لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (البقرهٔ/ ۱۶۴)

۷- «رَبُّكُمُ الَّذِى يُزْجِى لَكُمُ الْفُلْكَ فِى الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً». (الاسراء/ ۶۶)

شرح المفردات:

«البَحْر»: حسب قول الراغب فى «المفردات»، هو المكان الواسع الذى يتجمع فيه ماءٌ كثير، كما يطلقُ على كلِّ شىءٍ واسعٍ، و «متبحر» أو

«مستبحر»: يقال للشخص الذى يمتلك علماً واسعاً، ويقال للتغيُّر الذى يحدث للعليل فجأة ب «بُحران» (ثم اطلقَ لفظ «بُحران» على الحوادث الحادة) واعتبر بعضٌ أنّ الملوحةَ تدخل فى مفهوم «البحر» علماً أنّ البَحر يُطلقُ على الماء العذب أيضاً «۱»، و «الفُلْك» (على وزن قُفْل) وتعنى السُفن، ويستوى فيها المفرد والجمع والمذكَّر والمؤنث، ولفظ «فلَكْ» (على وزن فَدَك) يعنى مسير ومدار النجوم تفرَّعَ من هذا الأصل.

و «الجوارى»: جمع «جارية» وهى مأخوذة فى الأصل من «الجرى» أى العبور السريع، ويقالُ «جارية» للسفن التى تجرى وتتحرك فى البحار، ويقالُ للشابّةِ فى لغة العرب «جارية» أيضاً وذلك لنشاط الشباب الذى يملأُ كل وجودها، وجاء فى «المصباح المنير» أنّ اطلاق لفظ «الجارية» على الخادمة لِكونها مسخَّرةً لأوامر مولاها وتجرى لانجاز الأعمال باستمرار.

---

(۱) صحاح اللغة، والمقاييس؛ ومفردات الراغب؛ ومجمع البحرين؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۱

و «مواخر»: جمع «ماخرة» وتعنى السفينة وهى من مادة «مَخْرْ» (على وزن فَخْر) كما تطلق على جريان الماء فى الأرض وانفطارها، وكذلك تطاير الماء من على جانبى السفينة، كما تستعمل هذه المفردة لأصوات هبوب الرياح، والظاهر أنّها من لوازم المعنى الأول «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

عجائب البحار!

تقول الآية الاولى معرّفة بالذات الإلهيّة المقدّسة: «وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ البَحْرَ».

ويدلِّلُ هذا التعبير على أنّ البحر بكل وجوده فى خدمة الإنسان، والحق كذلك، فاولُ براعم الحياة تتفتحُ فى البحار، وقد كان البحر فيما مضى وحاضراً مصدراً مهماً لانواع حاجات الإنسان وديمومة حياته.

ونلاحظ من سياق هذه الآية أنّها أكدت على ثلاثة مواضع:

أولها: يستطيع الإنسان أنْ يستخرج من البحر لحماً طرياً إذ يقول: «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً».

لحمٌ كثيرٌ لم يتحمل الإنسان عناءَ تربية مصدره أبداً، ويكون طريّاً بشكلٍ كامل وفى متناول يده فى أغلب نقاط الأرض.

إنَّ التأكيد على طراوة وطزاجة هذا اللحم، إضافة إلى إشارته إلى لذة لحم الأسماك، فهو تذكيرٌ بهذه النكتة، وهى أنّ الناس فى تلك العصور والازمان كانوا يستفيدون من اللحوم المجفّفة بسبب المشكلات التى تواجههم فى الحصول على اللحوم الطريّة، وهذه النعمة ذات أهميّة خاصة، وفى عصرنا وزماننا حيث تتوفر اللحوم القديمة والمجَمَّدة لأسباب مختلفة تتضح أهميّة هذا التعبير.

ويقول بعض المفسرين: هذا التعبير إشارة إلى عظمة اللَّه عز وجل وقدرته فى خلق اللحوم الطرية اللذيذة فى المياه المالحة «۲».

---

(۱) مفردات الراغب، والمصباح المنير، التحقيق فى كلمات القرآن، ولسان العرب.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۱۴، ص ۱۰۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۲

ويُمكنُ أن يكون التعبير ب «اللحم» إشارة إلى أنّ القسم الأعظم من جسم السمك يتكون من اللَحم وفيه قليلٌ من العظام، على

العكس من بقية الحيوانات.

وتتضح أهميّة هذه النعمة الإلهيّة أكثر من خلال الالتفات إلى أنّ استغلال لحوم الأسماك لتغذية البشر أصبحت تحظى باهتمامٍ بالغٍ بسبب ندرة المواد الغذائية.

وثانيها: يذكر فائدة البحر فى استخراج وسائل الزينة لا سيما الجواهر «وتَسْتَخرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

فكأنّه يقول: يخرجُ من البحر المواد الغذائية الضرورية جدّاً وحتى الحاجات غير الضرورية والكمالية، «وكلّها مُسخَّرة لكم».

وثالثهما: يخاطب النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «وَتَرىَ الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيْهِ».

«إنَّ اللَّه قد منحكُم هذه النِعَم كى تبتغوا من فضله، لعلكم تؤدون شكرَ نعمائه» «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ومن أجل أن تتمكن السُفنُ من الإبحار فى المحيطات والبحار واستخدامها كأفضل وسيلة لحمل ونقل السلع التجارية وتنقل البشر لابدّ من تظافر عدَّة عوامل:

نوعية القوانين التى تسودُ المواد الثقيلة والخفيفة التى تصونها على سطح الماء، وتموّج الماء، وهبوب الرياح المنظّم على سطح المحيطات، والعمق اللازم للبحار، فتتظافر كلها كى تتحرك السفن العملاقة على سطح المحيطات، أمّا السفنُ التى تعملُ بقوة البخار فهى أعظم ما صنَعهُ الإنسان، وقد يكون حجم أحدها بقدر مدينةٍ وتستطيع انجاز ما يعادل عمل عشرات الآلاف من السيارات لوحدها (إنَّ السفن التى تستوعب خمسمائة الف طن تحمل ما يعادل حمولة ۱۵۰ ألف سيارةٍ ذات حمولة ۱۰ أطنان!).

إنَّ هذه المسألة بالاضافة إلى مسألة استخراج أنواع المواد الغذائية وغير الغذائية ومواد الزينة، تعتبرُ دليلًا على علم وقدرةِ خالق الكون الذى وضع كل هذه النِعَم فى متناول يد الإنسان مجاناً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۳

وفى الآية الثانية تكررت ذاتُ النِّعم الثلاث التى اشيرَ إليها فى الآية السابقة (اللَّحم الطرى، والحُلى، وحركة السفن فى عرض البحار) أيضاً، واستند إليها، مع هذا الاختلاف حيث يشير فى مطلع الآية إلى بحار الماء العذب والماء المالح فيقول: «وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرابُهُ وهَذَا مِلْحٌ اجَاجٌ».

ومع أنّ أكثر مياه البحار على سطح الأرض مالحة إلّاأنَّ بحار وبحيرات المياه العذبة ليست قليلة أيضاً، حيث تُشاهَد نماذجُ عديدة منها فى الولايات المتحدة، وكثيراً ما يستفاد منها، اضافة إلى الأنهار الكبيرة التى تصب فى البحار المالحة وتتوغل فيها، فتدفع المياه المالحة إلى الخلف ولا تختلط معها لفترةٍ طويلةٍ فتُشكِّلُ بحراً من الماء العذب حيث يسقى كثيراً من السواحل أثناء المد والجزر، ممّا يؤدّى إلى ازدهار البساتين والمزارع الواسعة.

ويعتبر الفخر الرازى فى تفسيره هذين البحرين إشارة إلى المؤمنين والكافرين، إلّاأنّ التمعنَ فى لحن الآيات يدللُ على أنّه لا يقصد هذا المعنى بل إنَّ الهدف هو بيانُ آيات وآلاء اللَّه فى عَرْضِ الخلق.

وجاء الحديث فى الآية الثالثة عن تسخير البحار للإنسان: «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ».

ولكن استند إلى مسألة الإبحار فقط من بين مختلف بركات البحر، والتى تمت الإشارة إليها فى الآيات السابقة.

وفى الآية الرابعة اعتبر السُفنَ العملاقة التى تشبه الجبال المتحركة والتى تظهر على سطح البحر من آيات وآلاء اللَّه، فيقول: «وَمِنْ آياتِهِ الْجَوارِ فِى الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ».

حقاً .. مَنْ خلقَ المحيطات بهذه السَعَةِ والعمقِ والخصائص؟ ومنْ الذى مَنَحَ الخشبَ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۴

والحديد هذه الميزةَ بحيث يطفو على وجه الماء؟ ومَنِ الذى أَمَرَ الرياحَ أنْ تَهُبَّ بشكلٍ منظَّمٍ على سطح البحار وتمنح الإنسان فرصة الانتقال من نقطةٍ إلى اخرى ويستخرج ملايين الثروات عن طريق البحر؟

أليسَ هذا نظام مُتقن ومُحكَم، وكذلك النظام السائد على قوة البخار والبرق دليل جلى على علم وحكمة الخالق جلَّ وعلا؟

هنا يشبِّهُ القرآن الكريم السُفنَ الضخمة ب «الأعلام» و «الأعلام» جمع «عَلَمْ» (على وزن قَلَمْ) وتعنى فى الأصل (كما يقول الراغب فى المفردات) الاثر الذى يحصلُ منه علمٌ بوجود شىءٍ، كالعلامات التى توضع على الطرق، وعلم العسكر، ولهذا اطلق على الجبل اسم «عَلَم» حيث يعتبر دليلًا واضحاً يبرزُ من بعيد، ولهذا السبب شُبِّهت السُفنُ العملاقة بالجبال حيث تتضح من بعيد كالجبال.

واللطيف أنّ القرآن يقول عقب هذه الآية: «إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيْحَ فَيظْلَلْنَ رَواكِدَ عَلى ظَهْرِهِ».

ولو شاء جعلَ الرياح مضطربةً وغير منظمةٍ بحيث لا تستطيع أيّة سفينةٍ بلوغ هدفها، بل يغرقها فى البحر، لذلك يكرر التأكيد فى نهاية الآية: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّكُلِّ صَبّارٍ شَكُوْرٍ».

اولئك الذين استوعبوا آيات الآفاق من خلال الصبر والتحمل، ويؤدّون شكر هذه النعمة بعد إدراك الحقيقة، ويركعون على اعتاب ساحة القدس الإلهيّة العظيمة.

وأشار فى الآية الخامسة إلى هذا الموضوع أى حركة السفن فى البحار كأحد النعم الإلهيّة العظيمة أيضاً، مع هذا الفارق حيث يقول: «لِيُرِيَكُمْ مِنْ آياتِهِ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۵

وفى الآية السادسة أيضاً حيث يأتى البحث عن سبع آياتٍ من آيات اللَّه، فهو يذكر الفلك كآية ثالثة حيث تجرى فى البحر بما ينفع الناس: «وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ»، ويؤكد فى ختام هذه الآية أنّ فى هذه الامور آياتٍ من الذات الإلهيّة المقدّسة وآياتٍ عن وحدانية اللَّه لقوم يعقلون: «لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

وفى الآية السابعة يستند إلى ربوبيته تعالى فيقول: «رَبُّكُمُ الَّذِى يُزجى لَكُمُ الْفُلْكَ فى الْبَحْرِ» فلا تتبعوا الأوثان لأنّها ليست بربكم.

وهنا نواجه تعبيراً جديداً «يُزجى» وهو من مادة «إزجاء» التى تعنى «تسيير الشىء بمداراةٍ وَرِقّة» بالنحو الذى ورد فى «مصباح اللغة»، ويُستفاد من «مقاييس اللغة» بأنّها تعنى «التسيير الدائم والمستمر»، وهاتان المسألتان فى حركة السُفنِ على سطح المحيطات جديرتان بالاهتمام، لا سيما فى السفن الشراعية، فالمعروف أنَّ الرياح تسوق السُفُنَ برفقٍ واستمرارٍ.

فلو كان للرياح هبوبٌ شديدٌ، أوتكون متقطعةً فانّها تجعلُ السفن تواجه حركاتٍ واضطرابات قوية، وقد تتوقف وتضيع فى وسط البحر أيضاً، إنَّ هذا التعبير يبينُ أسراراً جديدة عن هذه الآية الإلهيّة.

ولهذا يستفاد من مجموع الآيات السالفة أنّ لخلق البحار فوائد مختلفة حيث تعتبر كل منها آيةً من آياته تعالى لا سيما حركة السفن الدقيقة على سطح المحيطات.

وتُعرفُ النّعمةُ دائماً بعد فقدانها، فلولا البحار لم يتكدَّس القسم الأعظم من السلع التجارية التى تُنقلُ عبر المياه فحسب، بل تختفى كميات كبيرة من المواد الغذائية والحُلى أيضاً، وأهم من ذلك، تنعدم الغيوم ولا تهطل الأمطار، ويجر الهواء الجاف والحار جميعَ الكائنات الحيّة إلى الفَناء.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۶

توضيحات

۱- البحرُ مركز لأنواع النِعَم

لم يكن هنالك أحدٌ عندما تكونت البحار، كى يرى طريقة تكوينها، إلّاأنَّ العلماء يعتقدون أنَّ كُرَتَنا الأرضية بعد انفصالها عن

الشمس كانت حارةً وساخنة، وبَرَدَت رويداً رويداً، كالتفاحةِ الناضجة تعرَّج قشرُها وتجَّعدَ وحصل الانخفاض والارتفاع، برزت الجبال والوديان والبحار.

ومن الممكن أن يرد هـذا التساؤل وهو: من أَين جاءت مياه البحار؟ هنالك رأيان: يعتقد بعضٌ أنّها تكونت نتيجة لتفاعل الاوكسجين والهيدروجين الموجودين فى أعماق الأرض وانبثقت كالينابيع التى تتدفق حالياً، وملأت منخفضات الأرض تدريجاً.

إلّا أنَّ اشهرَ الآراء هو أنّ السماء غطَّت جوانب الكرة الأرضية بالغيوم المتراكمة، وحينما انخفضت حرارتها سالت على هيئة أمطارٍ غزيرة، وهطل المطر لآلاف السنين، وغمرت السيولُ كافة أنحاء الكرة الأرضية بنحوٍ لا يمكن تصوره، وحصلت البحار، وحتى أمدٍ طويل كانت أمواجُه تغسل أعماقه وكذلك الصخور والسواحل، ثم هدأت تدريجاً، واستقر على هيئته الحالية.

على أيّة حال فإنّ البحر له تاريخٌ قديمٌ جدّاً ومليءٌ بالأسرار، ولكن الأهمُ من ذلك هىالبركات والمنافع التى ينالها الإنسان اليوم من البحار حيث بإمكاننا أن ندرج قسماً منها، ولا يتسع هذا البحث المختصر لبيانها كلها:

١- إنَّ البَحر له اهميةٌ بالغةٌ فى الإبحار وحمل ونقل الناس والسلع التجارية، وكما اشرنا فانّ البحار تعتبر اهم وسائل البشر للحمل والنقل. لا سيما الخطوط البحرية التى تمتد بشكلٍ طبيعيٍّ إلى بقاع الأرض كافة، ويكفينا الالتفات إلى هذه الحقيقة وهى صناعة البواخر العملاقة التى تستطيع أن تستوعب (خمسمائة الف طن) من النفط وتنقله إلى أىِّ نقطةٍ فى العالم.

وهذا يلزم توفر (خمس وعشرين الف سيارة ذات حمولة ٢٠ طناً) لحمل هذه البضاعة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۷

٢- المواد الغذائية- ومن أهم الفوائد الاخرى للبحار هى المواد الغذائية التى يحصل عليها الإنسان منها.

فمن أجل معرفة أهميّة هذا الأمر يكفينا العلم بانَّه يتم صيدُ ست وعشرين مليون طن من الأسماك سنوياً، علماً أنّ هذا الاحصاء يتعلق بثلاثين عاماً مضت، ومن المسلَّم به أنَّ هذا الرقم قد تضاعف كثيراً فى الوقت الحاضر.

وليس الإنسان وحده بل إنَّ الكثير من الطيور تحصل على طعامها من البحار أيضاً، وهذا بحدِّ ذاته اقتصادٌ فى استهلاك المواد الغذائية الجافة.

فيقول بعض العلماء من خلال الاحصاءات التى قاموا بها: إنَّ الطيور البحرية التى تعيش على الجبال الساحلية والجزر الصخرية تستهلك لوحدها مليونين وخمسمائة الف طن من الأسماك سنوياً!.

ونعلمُ أيضاً أنَّ جانباً مهماً من علف الدواجن يتم تأمينه من عظام أسماك البحر، (نفس هذه الأسماك المصطادة)، أى أنّها تتدخل بصورةٍ غير مباشرة فى تغذية الإنسان.

٣- الاعشاب والادوية- يحصل من كل هكتارٍ من البحر خمسمائةُ طنٍ من العلف الاخضر، فى حين أنّ أفضل مزارعنا لا تنتجُ أكثر من أربعة أطنان وفى بعض البلدان يُستَغلُ هذا العلف لتغذية المواشى، ويُستَعملُ رماده سماداً للمزارع أيضاً.

ويستخرجون من الاعلاف البحرية مختلف المواد، كالكحول الجامد والسلولوز والنشاء والمواد الجلاتينية، حيث تُستثمر فى الصناعات الكيميائية واعداد الطعام (وبعض الادوية).

۴- المعدن والنفط- إنّ البحارَ غنيّةٌ بالمعادن، ويكمنُ جانبٌ من هذه المعادن فى أعماقها، ويعومُ الجزء الاعظم منها على سطحها، ومنها الفلزات التى يمكن استخلاصها من ماء البحر «كالمغنيسيوم» الذى يُستعملُ فى الصناعات، وكذلك «البوتاسيوم» و «البروم» و «سلفات الصوديوم» وغيرها.

يقول العلماء إنَّ أكثر من أربعين عنصراً (عدا ما ذُكر) موجودٌ فى ماء البحر، لها قيمةٌ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۸

صناعية جديرة بالاهتمام، كما ويعثر على الذهب فى ماء البحر أيضاً، غير أنَّ استخراج الكثير من الغازات ما زال يحتاج إلى ميزانيةٍ

هائلةٍ لا يمكن مقارنتها بالاستهلاك، وقد يأتى اليوم الذى يتمكن فيه الإنسان من أن ينالها من خلال طرقٍ أكثرَ يُسراً.

وتقوم بعض الشركات العملاقة بتصنيع أكثر من خمسمائة مادةٍ مختلفةٍ من معادن البحر، حيث هنالك مليارات الأطنان من المعادن.

ويعتبر النفط- وهو من أثمن المستخلصات- من هدايا البحر، لأنَّ المليارات من الموجودات البحرية توجد فى أعماق البحار العظيمة، وبما أنّ القارات ارتفعت فيما بعد فقد دُفنت هذه الموجودات تحت الرمال التى تحوَّلت إلى صخورٍ بعد ذلك، وبقى النفط الناتج عنها فى أعماق الأرض.

والملحُ هو أحد اهم المواد المعدنية التى تُستخرج من البحر، له دورٌ مهمٌ فى حياة الإنسان، وقد ذكروا فى السابق أنّ الملح بلغ من الأهميّة بحيث إنَّ جنود الروم كانوا يتقاضون رواتبهم على هيئة ملح، وحتى فى روسيا فقد اندلعت «ثورة الملح»! بسبب ارتفاع سعره.

إنَّ أهم مصادر استخراج الملح هو البحر، وحتى أنّ بعض المناطق الملحية الموجودة على اليابسة والتى يبلغ قطرها ۸۰۰ م هى من آثار البحار عندما كانت تغمر جميع بقاع الأرض.

لقد قدَّروا الاستهلاك العالمى للملح ب ۲۲ مليون طن سنوياً، بحيث لو أراد الإنسان استهلاك مخزون الملح الموجود على اليابسة لَنفدَ عاجلًا أو آجلًا فى حين أنّ البحر مصدرٌ لا ينفدُ للملح، فيمكن أن تؤمِّنَ أملاحُ البحر ما يحتاجه البشر لمدة مليون وسبعمائة الف سنة.

۵- افضلُ منتجٍ للطاقة- لقد انتبه الإنسان منذ القِدَم إلى هذا الأمر، وهو إمكانية انتاج الطاقة من خلال السيطرة على المياه المتراكمة بسبب المد، وتنسحب أثناء حدوث الجزر، فتستغل لتحريك المطاحن وغيرها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۲۹

وتفيد بحوث العلماء المعاصرين أنَّهُ يُمكنُ انتاج الكهرباء بكمية كبيرة من هذه البحار، وأنْ يستعانَ بها بصفتها أهم مصدرٍ لانتاج الطاقة، فالجَزر والمد اللذان يحدثان مرّتين ليلًا ونهاراً بتأثير جاذبية القمر يقومان برفع وخفض ماء البحار بمقدارٍ كبير، وهذا الأمر إضافة إلى مسألة الطاقة التى اشير إليها فهو يؤثر فى سقى المناطق الساحلية، لأنَّ مصبات الانهار التى تصب فى البحار تمثلُ بحراً من الماء العذب، فيندفع ماء الساحل العذب إلى الخلف ويُغطى كثيراً من الأراضى، لذلك سَخر البشرُ مند القِدَمِ أراضِىَ واسعةً للزراعة من خلال شق الأنهار فى مثل هذه المناطق.

ولعلَّ هنالك الملايين من أشجار النخيل فى سواحل الخليج الفارسى حيث تُسقى بنفس هذه الطريقة فقط، لأنَّ الماء يتراجع إلى مسافات بعيدة عن الساحل، فهذا الماء العذب الفرات الذى يجاور الماء المالح الاجاج ولا يختلط معه يعتبر ثروةً عظيمةً لسكان السواحل.

۶- وسائل الزينة المختلفة- من المنافع الاخرى للبحار التى ذُكرت بشكل خاص فى الآيات المذكورة هى وسائل الزينة التى تُستخرج من البحر، كاللؤلؤ الذى ينمو فى نوعٍ خاصٍ من الصدف، والمرجان الذى هو نوع من الاحياء البحرية، ولكن على هيئة اغصان أشجار لها منظر جميل ومرغوب، اضافة إلى صفةِ الزينة فهو يُستعملُ فى الطب أيضاً.

۷- تلطيف الجو عن طريق البحار- ليست الرياح التى تهبُّ من البحار نحو اليابسةِ هى التى تُرطبُ وتُلَطفُ الجَو فقط، بل هنالك أنهارٌ عظيمةٌ متحركة فى قلب محيطات العالم تتحرك من المناطق الحارة إلى المناطق الباردة وبالعكس، وبصورة عامة لها أثرٌ بالغٌ فى تلطيف الهواء على الكرة الأرضية.

وواحدٌ من أعظمها هو «غولف استريم»، هذا النهر العظيم الذى يتحرك من سواحل أمريكا الوسطى ويطوى المحيط الأطلسى، ثم يصل إلى سواحل شمال اوربا، وهذه المياه تكون حارةً حينما تتحرك من المناطق القريبة من خط الاستواء، حتى أنّ لونها يختلف أحياناً عن لون المياه المجاورة لها، واللطيف أنّ عُرضَ هذا النهر البحرى العظيم أى «غولف

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۰

استريم» نحو مائة وخمسين كيلو متراً، وعمقه عدة مئات من الأمتار «۱»، وتبلغ سرعته فى بعض المناطق حداً بحيث يقطع مائة وستين كيلو متراً فى اليوم، وتختلف درجة حرارته عن حرارة المياه المجاورة ب ۱۰- ۱۵ درجة.

إنَّ «غولف استريم» يتسبب فى حصول رياحٍ حارةٍ، ويعطى نسبةً كبيرة من حرارته إلى البلدان الواقعة شمال اوربا، فيعمل على تحسين جوِّها، ولولا هذا الجريان لتعسرت الحياة كثيراً فى هذه البلدان واستحالت فى بعضها.

والعجيب أنّ هذه الأنهار البحرية العظيمة والتى يكمن السبب الرئيس وراء ظهورها فى التفاوت فى درجة حرارة المناطق الاستوائية والمناطق القطبية قليل ما تمتزج بالمياه المحيطة بها، وتطوى آلاف الكيلو مترات بهذا الشكل، فهى مصداقٌ لطيفٌ ل «مَرَجَ البَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّايَبْغِيَانِ». «۲» (الرحمن/ ۱۹ و ۲۰)

۸- استثمار ماء البحر طبياً- لا حاجة لتوضيح أنّ ماء البحر له آثارٌ مفيدة لجسم واعصاب الإنسان، ولهذا ينتشر اليوم وفى معظم مناطق العالم استثمار ماء البحر لعلاج بعض الأمراض الجلدية والعصبية، أو لحفظ الصحة والسلامةِ، ولو تمَّ القضاء على التلوث الأخلاقى فى هذا المجال لأصبح استثمار ماء البحر مصدراً لسلامة ونشاط الناس.

۹- المصدر الرئيس للمياه الجوفية- إنّ أهمَّ وأعظمَ وأكثر فوائد البحر هى الابخرة التى تتصاعد منه، ثم تؤلفُ الغيوم، وتساقُ هذه الغيوم نحو المناطق اليابسة والجافة، فتُحييها، حيث ذُكرَ ذلك فى فصل الريح والأمطار بشكلٍ مُفصَّلٍ.

۱۰- توفير الماء العذب- يتمُّ فى الكثير من المناطق التى يصعب الحصول على الماء العذب، تأمين هذه المادة الحياتية من خلال تقطير ماء البحر فتصبح المناطق المهجورةُ مسكونة بسبب ذلك.

هذا جانبٌ من منافع وبركات البحار التى وقف عليها الإنسان حتى هذا اليوم، وليس

---

(۱) وقد ذُكر فى بعض الكتب أنّ عمقَهُ يصل فى بعض المناطق إلى (۸۰۰ م) (البحر والعجائب، ص ۴۶).

(۲) لمزيد من التوضيح فى هذا المجال يراجع التفسير الامثل، ذيل الآية ۱۹ و ۲۰ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۱

معلوماً ما حجم المنافع التى سينالُها الإنسان فى المستقبل، وهنا نقف على عظمة هذا التعبير القرآنى: «وَسَخَّرَ لَكُمُ البَحْرَ» «۱»

.

۲- البحر عالم العجائب

لو فكرنا جيداً فانَّ جميع الموجودات فى العالم تبعث على الدهشةِ، ولكن لا يشبهُ أىٌّ منها الاحياءَ التى فى أعماق البحار، وقد ذكر بعض العلماء أنّ عدد أنواع الاحياء البحرية التى تمت معرفتها مائة وأربعون الف نوعٍ، علماً أنّ عدد هذه الأنواع كثيرٌ للغاية على سطح المحيطات، ولكن كلَّما نفذنا فى الأعماق فانّها تقلُّ، أو على الأقل تقلُّ معلوماتنا عنها.

والمسألة المهمة التى تخص البحار هى أنّ التصوُّرَ كان ينصبُ على عدم وجود أىِّ كائن حىٍّ فى أعماق البحار، لأنَّ أشعة الشمس تنفذ إلى عمق «۶۰۰» متر فى الماء فقط، و تختفى نهاية الأشعة فى مثل هذا العمق، فيغُطُ كلُّ شىءٍ فى «ظلام دامس».

بالاضافة إلى أنّ ماءَ البحر يكون بارداً جدّاً فى هذه المنطقة، والأهمُ من ذلك الضغطُ الذى يولده الماء على موجودات تلك المنطقة، لأنَّ ضغط الماء فى عمق كيلو مترٍ واحد يكون فى نحو من مائة كيلو غرام لكل سنتمتر مربعٍ واحدٍ، ومن المسلم به لو كان الإنسان هناك مجرّداً من ملابس الوقايةِ لتحطمت وسُحقت عظامُهُ «۲»، ولهذا لا يمكن النزول فى البحار بعمق عشرة أمتار فأكثر بدون ملابس واقيةٍ، ولابدَّ من استخدام الواقيات الفولاذية السميكة أثناءَ الغوص فى الاعماق، وإلّا لدَمَّر ضغطُ البحر كلَّ شىء، ولا يمكن الذهاب

بكل وسيلة إلى الأعماق فى بعض المراحل بسبب عدم وجود شيءٍ يقاوم الضغط.

---

(١) تُراجع كتب: البحر دار العجائب؛ وأسرار البحر؛ وعجائب البحر؛ ونشرة الميناء والبحر؛ رسالة الثقافة، ج ١٢؛ وأفضل الطرق لمعرفة اللَّه.

(٢) إنَّ الغواصين يغوصون إلى عمق ٣٠ متراً فقط بدون ملابس الغوص وإلى عمق ١٥٠ متراً بملابس الغوص، فى‌حين أنّ ضغط الماء يبلغ ٧ أطنان لكل انج مربعٍ فى أعمق نقاط البحر (البحر دار العجائب، ص ٨٩).

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٢

على أيّة حال فقد اثبتت بحوث العلماء فيما بعد أنّ هنالك فى أعماق البحر موجوداتٍ حيَّةً كثيرة وعجيبة، حيث تقوم بإبطال مفعول الضغط العجيب للماء من خلال الضغط الداخلى الموجود فيها.

ولا تنمو الحشائش هناك كى تستفيد منها الاحياء الموجودة فى قاع البحر، لكن يد القدرة الإلهيّة تقوم بتهيئة الغذاء اللازم لها والذى هو عبارة عن المواد النباتية المختلفة على سطح المحيط وتحت ضوء الشمس، وبعد إعداده ينزل إلى سُكان أعماق البحر على هيئة مائدةٍ سماوية، وتترسب هناك، بالاضافة إلى الاحياء الموجودة على سطح الماء التى تموت حيث تُعَدّ جثثها طعاماً لذيذاً للموجودات الحيّة فى قاع البحر.

ولكن لنرَ كيف تُحلُّ مشكلة الظلام الدامس؟ فقد وفَّرت القدرة التى خلقت هذه الموجودات للعيش فى هذه المنطقة والنور اللازم لها، لأنَّ اغلبَ هذه الاحياء تقوم باشعاع النور منها، نورٌ كنور ليلة مقمرة من ليالى الصيف فتضيء ذلك المحيط.

وينطلقُ نورٌ احمر من رأس نوعٍ من الأسماك، ومن ذيل اخرى نورٌ ازرقٌ، وينشر بعضُ الأسماك نوراً باللون الاحمر والابيض والازرق.

يقول أحد العلماء: إنَّ أكثر المناطق عجباً فى البحر ليست قرب سطح الماء ولا قاع المحيط، بل هى المنطقة التى تتوسطهما، فليس لها سماءٌ فوقها ولا أرضٌ تحتها، وانما يحيط الماء بكل شيء، ولا مأوى للموجوداتِ التى تحيى هناك، فهى فى حركةٍ مستمرة، وهنالك الأسماك التى تُحيّرُ العقول، فاسنانُ بعضها طويلٌ بالقدر الذى لا تتمكن من أن تغلقَ فمها أبداً ونوعٌ من الأسماك يتسع بطنهُ بحيث يتمكن من ابتلاعِ سمكةٍ تعادلُ حجمه ثلاث مرات، وقد اطلق على هذه الأسماك أسماءً عجيبةً وغريبةً مثل «البالع الأسود» و «الأفعى البحرية» و «ثعبان السمك»!

لنترك قعر المحيط ونأت إلى سطح الماء فهناك عجائب أيضاً، وهنالك أسماك كلٌّ منها اعجبُ من الآخر، منها الأسماك ذوات الشحنة الكهربائية حيث تستطيع انتاج كميات كبيرة من الكهرباء بايعاز من الدماغ، إذ تصيب العدو أو الفريسة بالشلل، تلك الشحنات الخطيرة حتى على الإنسان أيضاً.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣٣

و «الأسماك الطائرة» التى تخرج من الماء وتطير إلى مسافة ستين متراً، وتقفز أحياناً أعلى من الأشجار.

و «السمك ذو الدواة» الذى يفرز مادةً سوداء اللون فى ماء البحر للاختفاء عن العدو والافلات منه، كما يُصنع اليوم فى الحروب التقليدية، حيث يُملأ ميدان المعركة بالدخان كى يتوارى الأشخاص عن العدو.

و «السمك المائدة» أحد الأنواع العجيبة للسمك، حيث تكون عريضةً وكبيرة جدّاً، إذ تبسط نفسها على سطح المحيط فتشكل مائدة، وبمجرّد وقوع الفريسة على هذه المائدة تجمع أطرافها المبسوطة عليها وتنشغل بأكلها.

يعيش فى البحر أصغر الاحياء، وأكبرها أيضاً، إذ يبلغ طول الحيتان الموجودة فى البحر ثلاثين متراً، وقطرها أكثر من أربعة عشر متراً، ويبلغ طول فكِّها أكثر من سبعة أمتار، ووزنُ لسانها ثلاثة أطنان، ووزن قلبها نصف طن، ووزن كبدها طناً واحداً، ويبلغ طول وليدها

سبعة أمتار أحياناً «۱».

وكان طول احدى الحيتان التى تمّ اصطيادها فى جزائر «نيو جورجيا» ثلاثاً وثلاثين متراً، ووزنها مائة وخمسة وعشرين الف كيلو غرام «۲».

وكذلك هناك نباتاتٌ مجهريةٌ، ونباتات يبلغ طولها خمسين متراً تعيش فى البحار أيضاً.

۳- البحر فى كلام المعصومين عليهم السلام

وهنا نتزَّنمُ بهذه الجملة المشهورة فى دعاء الجوشن من خلال عالَمٍ من الخشوع والإخلاص ولْنَقُل: «يا مَنْ فى البحار عجائِبُهُ» «۳».

---

(۱) عجائب البحر، ورسالة الثقافة.

(۲) البحر دار العجائب، ص ۱۲۱.

(۳) دعاء الجوشن الكبير، الفقرة ۵۸.

فى ذلك اليوم حيث رُويت هذه العبارة فى دعاء الجوشن عن النبى صلى الله عليه و آله لم تزل أسرار البحار غير مكشوفة لأحد، واليوم تتجلّىَ لنا عظمة هذه العبارة أكثر من أىِّ وقت.

وورد فى دعاءٍ ومناجاةٍ اخرى لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«أَنتَ الذى فى السماء عَظَمَتُكَ، وفى الأرضِ قُدْرَتُكَ، وفى البحار عَجائِبُكَ» «۱».

ونواصل هذا البحث بحديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول:

«سخَّرَ لكُمُ الماءَ يَغدو عَلَيكُمْ وَيَروُحُ صَلاحاً لمعايشكُمْ والبَحْرَ سَبَباً لكَثْرَةِ أمْوالِكُم» «۲».

ونختم هذا البحث بمقطعٍ من الحديث المشهور ب «توحيد المفضّل» عن‌الصادق عليه السلام، إذ يقول عليه السلام:

«فإذا أردت أن تعرف سعة حكمة الخالق وقصر علم المخلوقين، فانظر إلى ما فى البحار من ضروب السمك ودواب الماء، والاصداف والاصناف التى لا تحصى ولا تعرف منافعها إلّاالشىء بعد الشىء يدركه الناس بأسباب تحدث؛ مثل القرمز فانّه إنّما عرف الناس صبغه بأنّ كلبة تجول على شاطىء البحر فوجدت شيئاً من الصدف الذى يسمى «الحلزون» فاكلته فاختضب خطمها بدمه فنظر الناس إلى حسنه فاتخذوه صبغاً ...» «۳».

نعم .. ففى البحر وموجوداته ونباتاته وغيرها منافع وبركاتٌ تتكشفُ عنها المزيد من الأسرار فى كل يومٍ يَمُرُّ من حياة البشر، وتظهر لهُ فوائد جديدة بحيث تجبر الإنسان على الخضوع إلى خالق هذه النِعَم.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۹۷، ص ۲۰۲.

(۲) المصدر السابق، ج ۶۰، ص ۳۹، ح ۳ (باب الماء وانواعه والبحار).

(۳) المصدر السابق، ج ۳، ص ۱۰۹ (حديث المفضل).

۱۴- آياتُهُ فى خلقِ الظِّلال

تمهيد:

هل أنّ الظِّلَّ شيءٌ يمكنُ من خلاله أن تستدل على خالق العالَم؟ نعم .. فقد تمّت الإشارة فى آيات القرآن الكريم إلى هذه المسألة التى تبدو عاديةً أثناء وصف نِعَم الخالق جلَّ وعلا والتعريف بالذات الإلهيّة المقدّسة، فهو تعالى يريدُ بيانَ هذه الحقيقة، وهى أينما يقع بصرُكَ فى هذا العالم الملىء بالعجائب والأسرار فانَّ عظمَتهُ تتجلى فيه، وبراهينُ حكمته وقدرته مكتوبةٌ فى جبين كل الموجودات صغيرها وكبيرها.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

١- «أَلَمْ تَرَ إِلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلًا* ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضَاً يَسِيْراً». (الفرقان/ ۴۵-۴۶)

٢- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بأْسَكُمْ كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ».

(النحل/ ٨١)

٣- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلىَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِّلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ». (النحل/ ۴۸)

۴- «وَللَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّموَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ». (الرعد/ ١٥)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٣۶

شرح المفردات:

«ظِلال»: جمع «ظِلّ» إلّاأنّ العالِم والمفسرَ المعروف «الراغب» يقول فى كتاب «المفردات»: أيُّ مكانٍ لا تشرق فيه الشمس يُعتبر ظِلًا سواء أشرقت عليه سابقاً أم لا، ولكن «الفىء» على وزن (شىء)، يقالُ للمكان الذى أشرقت عليه الشمس سابقاً ثم غطّاه الظل.

فى حين أنّ بعض أرباب اللغة اتخذَ الاثنين بمعنىً واحد، وقال البعض إنَّ «الظل» هى الظلال التى تنزل أثناء الصباح، و «الفىء» يُطلقُ على الظلال التى تنزلُ عصراً، إلّاأنّ المعنى الأول يتناسب كثيراً مع حالات استعمال هذين اللفظين.

ويطلق لفظ «الظل» كنايةً فى مورد العزّةِ والمَنعةِ والرفاه والراحة لأنَّ من المعروف أنَّ هذه الأحوال تحصل فى الظل «١».

جمع الآيات وتفسيرها

هل إنَّ الظِّلَّ نعمةٌ عظيمة؟

هل إنَّ الظِّلَّ نعمةٌ عظيمة؟

إنَّ الحديث فى هذه الآيات عن الظلال، والمسألة تبدو وكأنّها عاديَة لكنَّ التفحُصَ فيها يمكنُ أن يُقربَنا ويُعرفَنا أكثر بخالقِ هذا العالم.

ففى الآية الاولى يخاطبُ النبىَّ صلى الله عليه و آله قائلًا: «أَلَمْ تَرَ الىَ ربِّكَ كَيْفَ مَدَّ الْظِّلَّ وَلَوْ شاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً».

ويضيف فى نهاية الآية قائلًا: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيْلًا»، ويضيف فى الآية التى تليها: «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلْينا قَبْضَاً يَسيراً».

وهنا ما المقصود بهذا الظِّل الذى يُمُدهُ البارى تعالى ثم يجمعه تدريجياً؟ قال بعض المفسرين: المقصود هو ظلُّ الليل حيث ينبسطُ على جميع سطح الأرض وينقبض بنحوٍ متناوب، ويعتبر وجود الشمس دليلًا وإشارة عليه، إذ «تُعرفُ الاشيَاءُ بِاضدَادِهَا».

ويعتبره البعض إشارةً إلى الظلِّ الذى يمتدُّ بين الطلوعين (بين طلوع الصبح وطلوع

---

(١) لسان العرب؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۷

الشمس)، فيغطى وجه الأرض وهو افضل الظلال والساعات.

واعتبره البعض بمعنى الظلال التى تحصل أثناء النهار بسبب اصطدام ضوء الشمس بالجبال والأشجار وبقية الاجسام، ثم ينتقل تدريجياً.

من هنا حيث لا تتعارض هذه التفاسير الثلاثة، وبما أنّ تعبير الآية مُطلق وجامع، فيمكن أن يكون إشارة إليها كلها إذ إنَّ كلًا منها نعمةٌ ثمينة.

إننا نعلمُ أنّ اللَّيلَ فى الواقع هو ظل نصف الكرة الأرضية الذى يقع أزاء الشمس، الظلُّ المخروطى الشكل الذى يمتد فى الفضاء فى الجهة المقابلة ويتحرك باستمرار، ولولا ظلُّ اللَّيل لاحترقت كافة الكائنات الحية بفعل ضوء الشمس والحرارة الناتجة عنه، وهلكَ النسل البشرى بسرعة.

وكذلك لولا وجود سائر أنواع الظلال، ولو كان الإنسان مجبوراً على قضاء النَّهار تحت الشمس لوقَعَ فى حَرَجٍ بالغٍ، ولأصبحت الحياةُ شاقةً بالنسبة له لاسيما فى فصل الصيف، إنَّ اللَّهَ تعالى فتحَ الظل للإنسان كى ينالَ الراحة والاستقرار هو ومن يتعلق به.

وبتعبيرٍ آخر فانَّ بعض الأشياء خُلقت «معتمة»، والبعض خُلق «شفافاً» بحيث يعبرُ النور من خلاله، فلو كانت كل الأشياء شفافةً فلا وجود للظلِّ اطلاقاً وستتبدلُ حياة الإنسان مقابل ضوء الشمس المستمر إلى جهنم محرقة، وإذا تفكَّرَ الإنسان قليلًا فى هذا المجال فسيتعرف على عظمة وأهميّة هذه النعمة ويتمكن من خلال ذلك الوصول إلى الخالق الحكيم.

ولعلَّ التصريح ب «النظام التدريجى للظِّل» فى الآيةِ أعلاه إشارة إلى هذه الحقيقة وهى لوأنَّ الظِّلال تحصل أو تزول فجأة لأدّت إلى اضرار جسيمة، إذ لا يخفى على أحد الاضرار الناتجة عن الانتقال المفاجىء من النور إلى الظلام وبالعكس، أو من الحر إلى البرد وبالعكس.

ولكنَّ «الظِّل» بما له من بركاتٍ ولطفٍ، مضرٌ أيضاً فيما إذا دام وخَلُدَ لأنَّه يحرم الإنسان من نعمة النور، لهذا يقول فى الآية أعلاه: «وَلَو شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِناً»، (ولكنه للطفه وكرمه لم يفعل ذلك كى يَنَعُمَ العباد بنعمة النور والظِّل على السواء).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۳۸

ويقول فى الآية الثانية التى تمَّ بيانها ضمن آيات التوحيد فى سورة النحل، بعد تعداد بعض آيات الآفاق ونِعَمِ الخالق جلَّ وعلا: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا».

قال بعض المفسّرى إنَّ المقصود هنا الأشياء التى تتسبب فى ايجاد الظّلال، كالجبال والأشجار، والغيوم، والسقوف والجدران «١».

وممّا لا شكَّ فيه لو كانت جميع الاشياء- كما المحنا سابقاً- شفافةً ومضيئة كالبلور، ولا وجود للظلِّ فى العالم لكانت الحياة غير ممكنة بالنسبة للإنسان.

ويشير سياق الآية إلى سائر النِّعم التى هى فى الواقع مكملةً لوجود الظلِّ، كالملاجىء المستحدثة فى الجبال على هيئةِ مغاراتٍ وكهوف، والتى تقى الإنسان من حرارةِ الشمس المحرقة، كالدرع حينَ يَصُدُّ طعنات العدو فى ساحة الحرب: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الجِبَالِ أَكنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأسَكُمْ» «٢».

وهنا لماذا أشار فى الآية الآنفة إلى اللباس كوقاءٍ للحفظ من الحَرِّ فقط، من دون الإشارة إلى البرد؟ يقول بعض المفسِّرين: لأنَّ المناطق التى نزلت فيها هذه الآيات، المتداول فيها مسألة الحر بكثرة، أو لكثرة وزياده اخطار الحرارة والاحتراق عند مواجهة الشمس، فى حين

تتزايد طرق وقاية الإنسان لمواجهة البرد.

ولكن لا يجب نسيان أنّ فى آداب العرب حينما يريدون التلميح إلى ضدّين فهم يحذفون أحدَهُما فى أغلب الموارد ويذكرون واحداً فقط، وهذا الأثر له قرائن كثيرة.

والجدير بالاهتمام أنّه يقول فى نهاية هذه الآية بعد ذكر هذه النِّعم الثلاث (الظلال، والمساكن، والملابس): «كَذلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَكُمْ تُسْلِمُونَ».

نعم .. فالتأمل بهذه النِّعَم وأسرارها المختلفة يعرِّفُ الإنسان بعلم وقدرة اللَّه تعالى من ناحيةٍ، ومن ناحيةٍ اخرى يدفعُ إلى التسليم إلى أوامر الخالق جلَّ وعلا ذى اللطف والرحمة، من خلال تحريك الشعور بالشُّكر له.

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۴، ص ۱۸۶؛ و تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۷۷۵.

(۲) «سرابيل» جمع «سربال» (على وزن مثقال) وقد فسَّرها البعض بكل أنواع الملابس، واعتبرها البعض بمعنى الرداء (حيث يرتدون الدرع كالرداء) إلّاأنّ المعنى الأول اكثرُ تناسباً هنا.

وفى الآية الثالثة يوجه اللوم والتوبيخ للمشركين فى آيات التوحيد فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا الىَ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَىءٍ يَتَفَيَّؤا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِيْنِ وَالشَّمائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «۱».

أىٌ تعبيرٍ لطيفٍ هذا؟ فقد خضعت الظلالُ بأسرها وسجدت أمام ذاته المقدّسة، لأنّها مُسَلِّمةٌ لأمرِهِ وهذا التسليم والخضوع أمام قوانين الخالق هو سجودها لحضرته تعالى

فكيف يتضاءل الإنسان أمام الظلال، ويسجدُ للأصنام، ولا يسجدُ للخالق جلَّ وعلا؟!

إنَّ سجودَ الظِّلالِ جزءٌ من سجود كافة الكائنات فى السماء والأرض، ولهذا فقد أشار فى سياق هذه الآية إلى هذا السجودِ العام، فقال: «وللَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى السَّمواتِ ومَا فِى الأَرْضِ مِنْ دابَّةٍ».

وهنا سُيتطرحُ بحوثٌ مفصلّة خلال بحث السجود العام لموجودات العالم أمام البارى عزّوجل، على أيّةِ حالٍ ففى هذه الآيةِ إشارة لطيفة إلى أهميّة الظلال وآثارها حيث تصلح كمصدرٍ لإلهام التوحيد.

وفى الآية الرابعة يضع الظّلال فى جُملة موجودات السماء والأرض التى تخضع وتسجدُ للَّه‌تعالى فيقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ».

وربّما يكون التعبير ب «طَوْعاً وَكَرْهاً» إشارة إلى تسليم الموجودات العاقلة وذات الاحساس رغبةً وطوعاً، وإلى تسليم الموجودات غير العاقلة كالظلال للأوامر الإلهيّة فتسجد قوانين الخلق الاجبارية.

---

(۱) «يَتَفَيَؤا» من مادة «فىء» وتعنى العودة والرجوع، ويحصرها بعض أرباب اللغة بمعنى ظلال الأشياء حين عودة الشمس عصراً، واطلاقها على غنائم الحرب يعود إمّا بسبب رجوع المسلمين بها، أو زوالها أو فنائها النهائى كالظلال، و «داخر» تعنى المتواضع.

أو إلى أنّ المؤمنين يسجدون رغبةً وطوعاً، وغيرُ المؤمنين الذين ليس لديهم الاستعداد للسجود طوعاً فإنّ جميعَ ذرات وجودهم مسلِّمة للَّه‌تعالى بحكم قوانين الخلق الاجبارية، وقد جبلوا على السجود التكوينى أمام ذاته المقّدسة.

أو أنّ المؤمنين يُمَرِّغون جباهَهُمْ بالتراب أزاءه فى كل الأحوال (فى الراحة وعند حلول المشكلات، مطمئنين كانوا أم مضطربين)، إلّاأنّ الكافرين لا يتوجهون نحوه إلّاحينما تباغتهم المشاكل.

وممّا لا شک فيه أنّه ليس هنالک تعارضٌ بين هذه التفاسير الثلاثة، ويمكنُ جمعُها فی مفهومٍ واحدٍ.

والتعبير ب «مَنْ» فی الآية أعلاه مع أنّه يختص باصحاب العقول حسب الظاهر، إلّاأنَّ من المحتمل أن يكون له مفهومٌ عامٌّ فيشمل كافة الموجودات العاقلة وغير العاقلة، فيصبح التعبير ب «مَنْ» من باب التغليب.

وأمّا تعبير «الغدو» و «الآصال» (الصباح والمساء) فلعلّه كان بسبب إمكانية زوال الظلال وسط النهار، أو كونها ضئيلة جدّاً ومحدودة، فی حين أنّها ليست كذلک فی الصباح والمساء، وفضلًا عن ذلک، فإنّ هذا التعبير جاء فی الكثير من الحالات لبيان الديمومة والتعميم، فمثلًا تقول: إنّ الشخص الفلانی يدرس صباحاً ومساءً، أو إنّه يؤذی شخصاً آخر، أی إنّه كذلک على الدوام.

يُستفاد من مجموع هذه الآيات أنَّ القرآن الكريم يولی اهتماماً خاصاً حتى للظلال، ويعتبرها من آيات عظمة اللّه، والتعبير ب «السجود» الذی هو غايةُ الخضوع إشارةٌ إلى هذا المعنى

توضيح

لو لم تكن هناک الظلال ...؟!

من أجل ادراک أهميةِ أیّ موجودٍ لابدّ من احتمالِ زواله تماماً فی لحظةٍ أو يومٍ أو شهرٍ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۱

ما، ثم الالتفات إلى آثاره.

والأمر كذلک فی مسألة الظلال التی تبدو موضوعاً عادياً وغير مهم للوهلة الاولى، ولكن افرضوا أنّ كل أنواع الظلِّ والمظلات رُفعت عن الكرة الأرضية لمدّة اسبوعٍ، فلا جبال، ولا أشجار، ولا حائط بيتٍ ولا سقف، ولا حتى ظلَّ نصف الكرة الأرضية الذی يُغطی النصف الآخر وهو الليل، واختفت كلّها بصورة مفاجئة، وتبدلت جميع الأجسام فی هذا العالم إلى حالةٍ كالبلور ونفذ ضوء الشمس من خلالها، فكم ستصبح الحياة صعبةً وغير قابلة للتحمل؟ إذ يشعُ ضوء الشمس باستمرار، ويتعرض له كل شیء، ويسلبُ كل أشكال الاستقرار والاطمئنان والراحة من الإنسان وسائر الموجودات، ولو حدثت مثل هذه الفرضية فی فصل الصيف فسوف تهلک جميع الكائنات الحية خلال فترة قصيرة.

بناءً على ذلک يمكن القول أنّ لوجود الظلال دوراً مؤثراً جدّاً فی حياة الإنسان للأسباب الآتية:

۱- إنّ وجودَ الظلال ضروریٌّ للغاية من أجل تخفيف ضوء وحرارة الشمس، لأنَّ الأشعة الحياتية للشمس لو لم تُخفَّف بالظهور المتناوب للظلال ستُفنی كل شیء وتحرقه خلال فترة قصيرة.

يقول الفخر الرازی فی تفسيره: «إنّ الظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة، وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران، وهذه الحالة أطيب الأحوال، لأنّ الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأمّا الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهی لقوتها تبهر الحس البصری وتفيد السخونة القوية وهی مؤذية، فاذن أطيب الأحوال هو الظل، ولذلک وصف تعالى الجنّة به فقال: «وظِلٌ مَمْدُودٌ» «۱».

۲- يبدو أنَّ دور الظلال لاسيما الظلال المتحركة حيویٌ جدّاً بالنسبة للمسافرين وقاطعی الصحراء، فهؤلاء يستطيعون الاستعانة بالخيام ووسائط النقل المسَقَّفة من وقاية

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۸۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۲

انفسهم أزاء أخطار أشعة الشمس المباشرة.

۳- والمسألة الاخرى الجديرة بالاهتمام، هى أنّه خلافاً للتصور العام فانَّ النور لا يكفى لوحده لرؤية الأشياء، بل يجب أن يكون متزامناً مع «الظلال» كى تتوفر إمكانية رؤية الأشياء، وبعبارة أكثر جلاءً:

لو أنّ النورَ يشعُ على موجودٍ ما من أربعة جهات بحيث لا يوجد أىُّ شكلٍّ للظل أو بعضه، فلا يمكن رؤية ذلك الشىء الذى يغرقُ فى النور المتساوى من جميع الجهات، اذن فكما لا يستطيع الإنسان رؤية الأشياء فى الظلام المطلق فهو غير قادرٍ على رؤية الأشياء فى النور المطلق أيضاً، بل يجب أن يتظافرا معاً كى تتيسر رؤية الأشياء (فتأمل جيداً).

فالخالقُ الذى أناطَ هذه الأدوار المهمّة والحيوية لموجودٍ عادىٍّ بهذا المستوى جديرٌ بالعبودية والخضوع والسجود.

نختتم هذا الحديث بعبارةٍ لأحد المفسّرين، إذ يقول لمن غَفَلَ عن السجود للّه‌تعالى

«أمّا ظلك فسجد لربك وأمّا أنت فلا تسجد له بئسما صنعت» «۱».

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۰، ص ۴۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۳

۱۵- آياتُهُ فى عالم النباتات والثمار

تمهيد:

إنَّ النباتات هى أكثر الكائنات الحيّة الموجودة على الأرض، وتحتل المرتبة الاولى من حيث التنوع والكثرة، والعجائب والزينة، وكذلك من حيث الآثار المفيدة والثمينة أيضاً.

لهذا فقد استند القرآن الكريم فى آياته التوحيدية مراراً على مسألة خلق النباتات، ومزاياها المختلفة، ودعا الإنسان إلى التفحُص فى أسرار هذه الموجودات الرائعة فى عالم الخَلق، الموجودات التى يُمكنُ أن تُقدِّمَ ورقةٌ واحدةٌ منها كتاباً عن معرفة اللّه تعالى

بعد هذا التمهيد نتمعن خاشعين فى الآيات الآتية ومواضيعها اللطيفة:

۱- «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلىَ الأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ* انَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِيْنَ». (الشعراء/ ۷- ۸)

۲- «أَمَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ وَالأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَاءَ إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ». (النمل/ ۶۰)

۳- «خَلَقَ السَّمَواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وأَلْقى فى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيْدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيْهَا مِنْ كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ* هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُوْنِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلالٍ مُّبِيْنٍ». (لقمان/ ۱۰- ۱۱)

۴- «وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ المَيْتَةُ أَحيَينَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُوْنَ* وَجَعَلْنَا فِيْهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخيْلٍ وأَعْنابٍ وفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ* لِيأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيْهِم أَفَلا يَشْكُرُونَ* سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۴

يَعْلَمُونَ». (يس/ ۳۳- ۳۶)

۵- «وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ أُنْظُرُوا إِلىَ ثَمَرِهِ اذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِى ذَلِكُم لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

(الانعام/ ۹۹)

۶- «وَفِی الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيْلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىَ بِمَآءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِی الْأُكُلِ انَّ فِی ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». (الرعد/ ۴)

۷- «هُوَ الَّذِی أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجرٌ فِيْهِ تُسِيْمُونَ* يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِی ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل/ ۱۰- ۱۱)

۸- «وَهُوَ الَّذِی أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوْشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوْشَاتٍ وَالنَّخْلَ والزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اكُلُهُ والزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذآ أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ». (الانعام/ ۱۴۱)

۹- «وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَينَا فِيهَا رَوَاسِیَ وأَنْبَتْنَا فِيْهَا مِنْ كُلِّ شَیءٍ مَّوْزُونٍ* وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ». (الحجر/ ۱۹- ۲۰)

۱۰- «إِنَّ اللَّهَ فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى ... ذلِكُمُ اللَّهُ فَأَنىَّ تُؤفَكُونَ». «۱»

(الانعام/ ۹۵)

شرح المفردات:

«النَبات»: يعنى فى الأصل كلَّ نوعٍ من الزرع الذى يخرج من الأرض سواء كان له ساق كالشَجَر، أو بدون ساقٍ والذى يُسمِّيه العربُ ب «النَّجم»، إلّاأنّ هذا اللفظ غالباً ما يُطلق على

---

(۱) هناك آيات كثيرة فى القرآن الكريم تشير إلى هذا المعنى كالآيات التالية: النبأ، ۱۵؛ طه، ۵۳؛ عبس، ۲۷؛ ق، ۷؛ البقرة، ۲۶۱؛ البقرة، ۲۲؛ ابراهيم، ۳۲؛ الانعام، ۱۴۱؛ الاعراف، ۵۷؛ النحل، ۶۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۵

الزرع الذى ليس له ساق، وفى التعابير الأكثر شمولًا يُطلق «النبات» على كل موجودٍ نامٍ سواء كان نباتاً أم حيواناً أم إنساناً «۱».

و «الشَجَرْ»: تعنى النباتات ذات السيقان، ولهذا جاء فى القرآن الكريم أزاء «النجم» الذى يعنى النبات الذى لا ساق له: «والنَّجْمُ والشَّجرُ يَسجُدان». (الرحمن/ ۶)

وورد فى «مقاييس اللغة» أنّ «الشَّجَرَ» له معنيان فى الأصل: هما الارتفاع والعلو، وتداخل أجزاء الشىء مع بعضها، وحيث إنّ الأشجار ترتفع عن الأرض، كذلك فانَّ أغصانها تتداخل فيما بينها، لذلك اطلقَ عليها «شَجَرْ»، و «مشاجرة»: تعنى النزاع والاختلاف والمحادثة لأنَّ حديث الجانبين يتداخل مع بعضه.

إلّا أنّ البعض يعتقد أنّ أصلَ هذه المادة يعنى الشىء الذى ينمو ويرتفع وتتفرع منه أوراقٌ وأغصان، وقد يُطلق على الامور المعنوية أيضاً كما فى: «والشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فى الْقُرآن». (الاسراء/ ۶۰)

(التى تمَّ تفسيرها بمعنى «شجرة الزقوم» أو «اليهود» أو «بنى اميّه») «۲».

وكما يُفهم من كتب اللغة المختلفة فإنّ «الزرع» تعنى فى الأصل نثر البذور والحبوب فى الأرض، ومن هنا حيث سيتبعُ نثر البذور نمو النبات وحصاده، فيُطلقُ على كل واحد من هذه العمليات «زرعاً».

ويقول بعض اللغويين: إنَّ الزرع تعنى الإنماء، وهذا فى الحقيقة هو فعلُ اللَّه تعالى وإذا اطلقَ لفظ الزارع على العباد فهو بسبب توفيرهم لأسباب ومقدّمات ذلك، وقد يقال ل «المزروع» زرعاً أيضاً.

وغالباً ما يُطلق لفظ «زرع» على الحنطةِ والشعير، إلّاأنّ مفهومه أكثر شمولًا، حيث يشملهما وغيرهما «۳».

(۱) «النبات» لها معنیً مصدری، واسم مصدری أیضاً.

(۲) مفردات الراغب؛ مقاییس اللغة؛ مصباح اللغة؛ والتحقیق فی کلمات القرآن الکریم.

(۳) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ والتحقیق فی کلمات القرآن الکریم؛ وصحاح اللغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۶

وأمّا ال «ثَمَرْ» فقد جاء فی «مقاییس اللغة» أنّ هذا اللفظ یعنی فی الأصل کلَّ شیءٍ یتولد من شیءٍ آخر، وقال بعض اللغویین، أنّه یعنی ما یحصل من الشجرة فقط.

وصرَّحَ قسمٌ آخر من ارباب اللغة، بان کل موجود یحصل ویتولد عن موجودٍ آخر مأکولًا کان أم غیر مأکول، مرغوباً کان أم غیر مرغوب، حلواً کان أم مُراً، یسمی «ثَمَراً».

لکن الظاهر أنّ الثمر کان له فی الأصل مفهومٌ محدودٌ وهو الفاکهة الحاصلة من الشَجَر، لکنَّ هذا المفهوم اتَّسَعَ فیما بعد واطلقَ مجازاً علی محصول ومنتوج أیّ شیء، حتی أصبح یقالُ إنَّ ثمرةَ هذا المذهب وهذه التعالیم کانت کذا وکذا، وجاء فی الروایة: «امُّک أَعْطَتکَ مِنْ ثَمَرةِ قَلبها»، إشارة إلی حلیب الام أو محبتها، وفی الروایات أیضاً اطلقَ علی الوَلَد بانه ثمرة الفؤاد.

جمع الآیات وتفسیرها

الورق الأخضر للأشجار:

أشار فی الآیة الاولی إلی المشرکین أو الجاحدین، فقال: «أَوَلَمْ یَرَوا إلی الأَرْضِ کَمْ أَنْبَتْنَا فِیهَا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ».

ثمَّ صرح قائلًا: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیةً وَمَا کَانَ أَکْثَرُهُمْ مُؤْمِنِینَ».

أجَلْ ... فلو تَمَعَّنَ هؤلاء فی هذه النباتات الملّونة، والأزهار، والثمار، والأشجار، والخضار، والسنابل، وأنواع الزروع الاخری سَیَرَوْنَ آیات اللَّه فیها بکلِّ جلاء، فهؤلاء لا یریدون أنْ یؤمنوا وینظروا إلی صورة ذاته المقدَّسةِ ببصیرة القلوب، وإلّا فانَّ جمالَه لا یخفی علی أحدٍ، نعم فهؤلاء لیست لدیهم آذان للاستماع إلی آیات اللَّه التشریعیة ولا أبصار لمشاهدة آیاته التکوینیة.

وهنا ما المقصود من «زوج»؟ فالکثیر من المفسِّرین فَسَّرَ ذلک بمعنی النوع والصنف، واعتبروهُ إشارة إلی تنوعِ وتشعب النباتات، حیث إنّ عددها غیر محدودٍ ولا یمکن حصرهُ،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۷

وأیّاً منها یُعتبر آیةً من آیات الباری عزوجل.

فی حین احتملها البعضُ إشارة إلی «الزوجیة» (أی الذکر والانثی الموجودة فی عالم النباتات، وهذه الحقیقة اکتشفت لأول مرّة علی نطاقٍ واسعٍ علی ید عالم النبات السویدی المعروف «لینه» أواسط القرن الثامن عشر المیلادی، حیث إنّ النباتات- علی الأغلب- تحمل وتثمر کالیحوانات عن طریق تلاقح الذکر والانثی فی الوقت الذی وردت هذه الحقیقة فی القرآن الکریم قبل قرون عدیدة.

ومن هنا حیث لا تعارُضَ بین هذین المعنیین فیمکن أن تکون إشارة الیهما معاً.

إنَّ وصف «الزَوْج» ب «الکریم» علماً بأنَّ لفظ «کریم» یعنی الموجود الثمین، إشارة إلی أهمیّة أنواع النباتات وقیمتها الفائقة.

إنَّ تنوعَ النباتات کثیرٌ إلی الحد الذی یقول بعض العلماء: إنَّ «النخل» أکثر من ثلاثة آلاف نوعٍ، و «الکاکتی» أو «التین الهندی» ألف وسبعمائة نوع، و «ورد الثعلب» الف ومائتا نوع، ونَسبوا ل «الکَمَأْ» مائة الف نوع، ول «الطحالب» أربعة آلاف نوع، ول «التفاح» سبعة

آلاف نوع، وذكروا ل «الحنطة» خمساً وثلاثين الف نوع! «۱».

حقاً ... كم هو عجيب عالمُ النباتات الفسيح بكل هذا التنوع؟ وكم هو عظيمٌ خالقُه ومدبّرهُ!

وفى الآيةِ الثانيةِ ومن أجل إثبات «وحدانيةِ المعبود» يدعو الناس إلى تَفحُصِ أسرار خلق السموات والأرض ثم نزول المطر، ثم يقول: «فَأَنْبَتْنا بِهِ حَدائِقَ «۲» ذاتَ بَهْجَةٍ»، وليس فى إمكانكم أبداً أن تُنبتوا أشجارَ هذا البستان الجميلة: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا»،

---

(۱) عالم الزهور، ص ۹۹ إلى ۱۱۸.

(۲) «الحدائق» جمع «حديقةٍ» وتعنى «البستان»، وهى تعنى فى الأصل قطعةَ الأرض التى تجمَّعَ فيها الماء، وقدفسَّرها الكثير من المفسرين بأنّها البُستان الذى ضُربَ حوله بسور وفيه ما يكفى من الماء.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۸

ومع هذا تقولون هناك إلهٌ مع اللَّه: «أ إلهٌ مَعَ اللَّه».

إلّا أنَّ هؤلاء أفراد يجهلون حيث يعدلون عن الخالق العظيم الذى أبدعَ كل هذه العجائب والغرائب ويجعلون الموجودات التى لا حول لها ولا قوةَ نداً للَّه: «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُوْنَ».

ومن الممكن أن يكون التعبير ب «يعدلون» بمعنى عدولهم عن اللَّه الواحد المنفرد، أو اختلاق مثيلٍ ونظيرٍ له.

أجَلْ ... فعملُ الإنسان نثرُ البذور والرَّى وأمثال ذلك، واللَّه وحدهُ الذى خلقَ الروحَ فى جنين هذه البذرة الصغيرة، واعطاها القدرة على أنْ تتحولَ إلى شجرةٍ عملاقةٍ مثمرةٍ مزدهرةٍ نظرةٍ حيث يَبعثُ منظرُها فى البساتين الفَرَح والسرورَ فى نفس الإنسان، ولو وضع الإنسان قدمَهُ وسط أحد هذه البساتين المزدهرة النظرة فى أحدِ أيام الربيع، وفتح بصيرتَه إلى جانب بصرهِ الظاهرى، ليرى كلَّ هذا التنوع والعجائب والمناظر الخلّابةِ والأزهار الملَّونَة والأوراق والثمار المختلفة، لاستنشقَ عطرَ التوحيد وارتوى من كأسِ العبوديةِ واصبح مسحوراً مفتوناً، بنحوٍ يجعلُهُ يترنَّمُ بلحنِ التوحيد ويعترف بهذه الحقيقة.

وهذا الشعر المنقول من اللغة الفارسية يقول:

هنالك واحدٌ لا أحد سواه وحده لا إله إلّاهو وهنا يثمر هذا الأمر:

كلُّ نباتٍ ينمو من الأرض يقول وحده لا- شريك له وفى القسم الثالث من الآيات أعلاه وضمن تعرضه لخمسة أقسام من براهين توحيد الخالق جلَّ وعلا وآيات الآفاق (خلقُ السموات بغيرِ عمدٍ ترونها، وخلق الجبال، وخلقُ الدّواب والحيوانات، وخلق المطر، وخلقُ النباتات)، خاطبَ المشركين قائلًا: «هَذَا خَلْقُ اللَّه فَأَرُوْنى مَاذَا خَلَقَ الَّذِيْنَ مِنْ دُونِهِ».

وأضاف فى ختام الآيةِ: «بَلِ الظّالِمُونَ فِى ضَلالٍ مُبْينٍ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۴۹

فكيف يُمكنُ لمَن يملُك بصراً ويرى آثار قدرةِ وحكمةِ وعظمة الخالق فى عَرضِ عالم الوجود، ثمَّ يخضعُ تعظيماً لغيره؟!

ونواجه فى هذه الآيات مرّةً اخرى التعبير ب «كُلِّ زَوْجٍ كَرِيْمٍ» بخصوص النباتات، حيث يتحدث عن التنوع الضرورى جدّاً للنباتات، وعن الزوجية فى عالمها، ويُشعر سالكى طريق التوحيد بأهميّة هذا الموضوع.

لفظة «ظلم» لها معنى واسع حيث يشمل وضع اى شىء فى غير محلّه، وحيث كان المشركون يعتبرون تدبير الكون بيد الأصنام، أو يتصورونها واسطةً بين المخلوق والخالق ويسجدون لها، فقد ضلُّوا وارتكبوا ظلماً عظيماً، ولهذا جاءت هذه الكلمة فى الآية أعلاه بمعنى الشرك، أو بمعنىً واسع حيث إنَّ الشركَ مصداقٌ واضح له.

لا يخفى أنّ عبارة «فأَرونى»- فى الواقع- جاءت على لسان النبى صلى الله عليه و آله، وبتعبيرٍ آخر:

انَّهُ مكلَّفٌ بانَّ يقول هذه الجُملة للمشركين، لانَّ الآراء للَّه‌لا يمكن أن يكون لها مفهوم.

ويقول بصراحةٍ فى الجزء الرابع من هذه الآيات التى وردت فى سورة يس: «وآيَةٌ لَّهُمُ الأرضُ المَيْتَةُ أَحيَيْناها».

وفى الحقيقة أنَّ مسألة الحياة من اهم أدلَةِ التوحيد، سواء كانت فى عالم النباتات، أم الحيوانات والبشر، أنّها المسألة الغنيةُ بالأسرار والمدهشةُ التى حيَّرت عقول كبار العلماء، ومع كل النجاحات التى حققها الإنسان فى مختلف الحقول العلمية، لم يفلح أىُّ شخصٍ من حلِّ لُغز الحياة حتى الآن، ولا عِلْمَ لأىِ أحدٍ كيف وتحت تأثير أية عوامل تبدّلت الجمادات إلى كائناتٍ حَّيةٍ؟!

ثمَّ أشارَ خلال بيان مسألة احياء الأرض الميتة، إلى إنماء المحاصيل الغذائية (كالحنطة والشعير والذرة و ...)، وبساتين العنب والنخيل النظرة، وتكوين ينابيع الماء الصافى، وقال فى الختام: «لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ ومَا عَمِلَتْهُ أَيْديهِمْ أَفَلا يَشكُرُونَ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۰

إنَّ عبارة «ما عَمِلَتْهُ أَيْديهِم» إشارة لطيفةٌ إلى أنَّ هذه الثمار الطازجة، غذاءٌ كاملٌ مهيأٌ للأكل دون الحاجةِ إلى طبخهِ وإضافة المواد الاخرى إليه، فليس للإنسان تدخلٌ فى أصل وجودها، ولا فى اعدادها للأكل، فعملُ الإنسان لا يتعدى نثرُ البذور وسقى الأشجار فحسب «۱».

على أيّةِ حالٍ، لم يكن الهدف من خلق كل هذه النِّعم المختلفة انهماك الإنسان بالأكل كالحيوانات، وأنْ يقضى عمره على هذه الحال، ثم يموت ويصبح تراباً، كلا، فالهدف ليس هذا، بل إنّ الهدف هو أن يرى ذلك ويعيش فى ذاته الشعور بالشكر، ومن خلال «شُكر المنعم» يصل إلى معرفة واهب النِّعم حيث ينالُ اسمى المواهب وأرفع مراحل تكامل الإنسان.

والمسألة الجديرة بالاهتمام فى الآيات أعلاه هى انّها تضع الزوجية فى عالم النباتات إلى جانب الزوجية فى عالم الإنسان فتقول: «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ انْفُسِهِمْ ومِمَّا لَايَعْلَمُونَ».

فهذا التعبير دليلٌ على أنَّ الزوجيةَ هنا تعنى جنس الذكر والانثى ووجودها على نطاقٍ واسعٍ فى عالم النباتات، وهذا من المعاجز العلمية للقرآن الكريم، لأنَّ هذا المعنى لم يكن آنذاك واضحاً لدى الإنسان بأنَّ هنالك وجودٌ لقوام الذكر والاجزاء الانثوية فى عالم النباتات، وتنطلقُ الخلايا التى هى نُطَفُ الذكور لتستقر فى الأجزاء الانثوية وتتَلاقَح معها وتنعقد نطفةُ النبات.

ويمكن أن تكون عبارة «ومِمَّا لا ـ يَعلَمُون» إشارة إلى أنَّ مسألة الزوجية لها نطاق واسع، وما أكثر الموجودات التى تجهلون وجود الزوجية فيها، وسيزيل تطورُ العلم النقاب عنها (كما ثبتت هذه المسألة فى الذّرات حيث تتركب من قسمين مختلفين يكمِّلُ أحدُهما الآخر

---

(۱) وهذا فى حالةِ كون «ما» فى عبارة (وما عملتهُ) نافيةً (وهذا هو الظاهر)، إلّاأنّهم احتملوا أن تكون موصولةً، تلميحاً إلى الثمار التى تنتج عن طريق التطعيم والتى للإنسان دَخَلٌ فيها، أو إلى المشتقات التى يأخذونها من الفاكهة كالعصير والخل التى تؤخذ من العنب والتمر، وممّا لا شك فيه أنَّ المعنى الأول أكثرُ تناسباً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۱

كالزوجين: ف «الالكترونات» تحمل الشحنات السالبة، و «البروتونات» تحمل الشحنات الموجبة)، ومواضيع اخرى لم يتوصل إليها العلم البشرى حتى الآن.

وفى الآية الخامسة حيث تبدأ بالتعريف باللّه من خلال الآيات المختلفة، أشارت أولًا إلى نزول المطر من السماء، ثم قالت: «فَاخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَىءٍ».

وربّما يكون التعبير ب «نَباتَ كُلِّ شْىءٍ» إشارة إلى أنواع النباتات المختلفة، حيث تُسقى بماءٍ واحدٍ، وتنمو على أرضٍ واحدةٍ، ومع هذا فهى تختلف فى الشكل والطعم والخواص وأحياناً تتعارض فى ذلك، وهذا من عجائب خلقِ اللّه.

أو أنَّ المقصودَ هو النباتات التى تحتاجها الطيور والبهائم البرية والبحرية وكذا الإنسان «۱»، (ويمكن الجمع بين هذين المعنيين أيضاً).

ثم يتطرقُ إلى ذكِر مسألـةٍ اخرى فيضـيف: «فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً»، وبهذا يشـير إلى مادة «الكلوروفيل» الخضـراء التى هى من أهم وانفع اجزاء النبات، هـذه الخُضـرة التى تبعث الحيويـة، واللطافة، والجمال، وتسـلب القلوب والتى تخرج من التراب الغامق اللون والماء الرائق الشفاف.

إنَّ التعبير ب «خَضِراً» بالرغم من اطلاقه، إلّاأنَّه استناداً إلى الجملة التالية التى تقول:

«نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَراكِباً»، يشير بالأساس إلى سيقان وسنابل الحنطة والشعير والذرة وما شابه ذلك «۲».

ثم يُلفتُ النظرَ إلى أشجار النخيل، فيقول: «ومِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِها قِنْوانٌ دانِيَةٌ».

«قنوان»: جمع «قِنْو» على وزن (حزب)، وتعنى الفروع الرفيعة التى تخرج من الطلع بعد

---

(۱) فى هذه الحالة يكون مفهوم الجملة «فاخرجنا به نباتاً لكل شىء».

(۲) «مُتراكب» مأخوذة من مادة «ركوب» وتعنى الصـعود، وهى إشارة إلى الحبوب التى تتراكُب على بعضها على هيئة سنبلةٍ ذات منظرٍ جميلٍ ومحبَّبٍ للغاية.

تَفتُحِه، وهى التى تُكَوِّن عذوق التمر فيما بعد.

وقد يكون التعبير ب «دانيةٌ» إشارة إلى قرب هذه العذوق من بعضها أو انحنائها نحو الأسفل بسبب ثُقل ثمار الرطب.

ويقول بعض المفسـرين بما أنَّ عذوق التمر تختلف أيضاً، فالبعض يكون فى الجزء الأسـفل من النخل ويَمكن استثماره بيُسر، والبعض الآخر بعيداً عن متناول اليد فتكون الاستفادة منه صعبةً بعض الشىء، فقد أشار البارى تعالى إلى الصنف الأول باعتباره أكثر فائدة «۱».

وأشـار فى سـياق هـذه الآيـة إلى بسـاتين العنب والزيتون والرُّمـان: «وجَنّـاتٍ مِّنْ أَعنابٍ والزَّيتُونَ والرُّمَّانَ»، التى تتشابه فى نفس الوقت الذى تختلف فيه، وتختلف فيما بينهما فى حين أنّها متشابهة «مُتَشَابَهاً وغَيْرَ مُتَشابِه».

يقول بعض المفسرين إنَّ هذه الثمار تتشابه فى المنظر، إلّاأنّها تختلف فى الطعم (كانواع العنب والرُّمان الحامض والحلو).

وقال البعض الآخر إنَّ أوراق أشجارها تتشابه أحياناً (كاوراق الزيتون والرّمان)، فى حين أنَّ ثمارها مختلفة.

ولكن المناسب اعطاء أوسَع مفهوم لتوضيح الآية وهو الإشارة إلى أنواع التشابه والتفاوت.

واللطيف أنّه يدعو الجميع للتمعُنِ فى الثمار فيقول: «انْظُرُوا إِلىَ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ويَنْعِهِ».

«لأنَّ فى هذا، آياتٌ وبراهين عن عظمةِ وقدرة وحكمة البارى تعالى لأهل الإيمان» «إِنَّ فِى ذَلِكُم لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ».

وليست آيـة واحدة بل فيها آيات جمة للّه‌تعالى لأنَّ تكون الثمار كولادة الصـغار فى عالم الحيوانات، حيث تنتقل حبوب لقاح الذكور إلى الأقسام الانثوية عن طريق الرياح أو الحشرات، وبعد انجاز عملية التلقيح والاختلاط فيما بينهما يتم تشكيل البويضة والنطفة

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۴۸۴.

أولًا، ثم تظهر فى جوانبها خلايا الثمار والالياف واللب والفروع الجذّابة التى تغذيها.

وفى داخل هـذه الثمار تكمُنُ هناك أعظمُ المختبرات الخفيّة التى تعمل باسـتمرار فى صـناعة المركبات الحديثـة بمزايا جديـدة، وقد يَكون الثمر بلا طعم فى بداية الأمر، ثم حامضـى الطعم تماماً، ثم يصـبح حلواً، وفى كلِّ وقتٍ يحدث فيها انشـطارٌ وتفاعلٌ جديد، كما تتغير ألوانها باستمرار وهذه من عجائب خلقِ اللّه التى يدعو القرآن الكريم- لاسيّما فى الآية الآنفة- الإنسان إلى التمعُنِ فيها.

وأشـار فى الآيـة السادسـة من البحث فى بـادىء الأمر إلى قطع الأرض المختلفـة التى تملـك قابليـات متفاوتـة لتربيـة أنواع الأشـجار

والنباتات وغيرها، إذ يقول: «وفى الأرْضِ قِطَعٌ مُتجاوِراتٌ» مع أنَّ هذه القطع يلتصقُ بعضها بالبعض الآخر، فبعضها خصبٌ ومستعدٌ لأى شكلٍ من الزراعة، وبعضها مالحٌ لا تنبتُ فيه سنبلةٌ أبداً، وقد يناسبُ بعض هذه القطع زراعة الأشجار أو نوعٍ خاصٍ منها فقط، ويناسبُ البعض الآخر نوعاً خاصاً من الزراعة، وهذا عجيبٌ حيث تتفاوت الأراضى المترابطة بشكلٍ تستعد للقيام بواجباتٍ مختلفة.

وبعد ذِكر هذه المقدَّمة أشار إلى أنواع الأشجار والزراعات، فاضاف قائلًا: «وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعنَابٍ وَزَرْعٌ ونَخيلٌ صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ».

«أعناب»: جمع عِنَب وتعنى الكَرْم و «نخيل» جمع «نخل» و «نخيلة» و تعنى شجرة التمر، وذكرهما بصيغة الجمع يُحتملُ أن يكون إشارة إلى الأنواع المختلفة للعنب والتمر، لأنَّ لهاتين الفاكهتين مئات أو آلاف الأنواع المختلفة.

والتعبير ب «صِنْوانٌ وغَيْرُ صِنْوانٍ» بالالتفات إلى أنَّ «صنوان» جمع «صنو» «وتعنى الفرع الذى يخرج من البدن الأصل للشجرة»، من الممكن أن يكون إشارة إلى قابلية الشجرة على تغذية الثمار المختلفة عن طريق التطعيم، لهذا تظهر على أغصان شجرةٍ واحدةٍ لها ساق واحد وجذر واحد وتتغذى من ماءٍ وأرضٍ واحدةٍ أنواعٌ مختلفةٌ من الثمار، وهذا من عجائب الخلقة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۴

ومن الممكن أن يكون هذا التفاوت إشارة إلى تفاوت الأغصان التى تَنمو على أصل واحدٍ، وتتفاوت من حيث الثمار الطبيعية.

ثم يُصرِّحُ بانَّ هذه الأشجار مع هذا الاختلاف فانّها تُسقى بماءٍ واحدٍ: «يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ»، وفى نفس الوقت فانّنا نُفضِّلُ بعضها على البعض الآخر من حيث الثمر «ونُفَضِّلُ بَعضَها عَلى بَعْضٍ فى الأُكُلِ».

ومن المسلَّم به أنَّ فى هذا الأمر آيات وبراهين للمتفكرين: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

حقاً إنَّهُ مدهشٌ، فالماء واحدٌ، والترابُ واحدٌ أيضاً، أمّا الاختلاف بين الثمار فكثير بحيث إنَّ أحدها حلوٌ والآخرُ حامضٌ تماماً (ففى الكثير من المناطق تنمو أشجار الليمون الحامض إلى جانب أشجار النخيل) أو تنمو المحاصيل الزيتية والمحاصيل النشوية وغيرها فى مزرعةٍ واحدةٍ، وتتفاوت تماماً، حتى أنَّ لهذه الفواكه والمحاصيل أنواعاً مختلفةً بالكامل.

ما هذا الجهاز العجيب المكنون فى أغصان الأشجار وجذورها الذى لديه القدرة على صنع المواد الكيميائية مختلفة الخواص من خلال استغلال نوعٍ واحدٍ من المواد (نوعٌ واحد من الماء والتراب)؟! فلو لم يكن هنالك دليلٌ على علم وحكمةِ خالق الكون سوى هذه المسألة لكانت كافية لمعرفة هذا الخالق العظيم، وكما يقول أحد شعراء العرب «۱»:

والأرضُ فيها عبرةٌ للمُعتَبر تُخبرُ عن صُنعِ مليكٍ مقتدر تُسقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها وبقعةٌ واحدةٌ قرارها والشمسُ والهواء ليس يختلف واكُلُها مختلفٌ لا يأتلف فما الذى أوجَبَ ذا التفاضلا إلّا حكيمٌ لَم يَرِدْهُ باطلا

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۳، ص ۹۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۵

وفى الآية السابعة يتطرق إلى شرح أدلةِ التوحيد ومعرفة اللَّه بقرينة بدايتها ونهايتها، فيقول: «هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنهُ شَرابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

فليس كلُ ماءٍ صالحٌ لشرب الإنسان، ولاكلُّ ماءٍ صالحٌ لنمو النبات والشَجَر، إلّاأنّ هذا الماء السماوى مفيدٌ للكل وأساسٌ لحياةِ كل شىء.

«شَجَر»: كما قلنا له معنىً شامل فى اللغة، حيث يشمل أنواع النباتات سواء كانت ذات سيقان أم لا، و (تُسيمون) من «اسامة» وهى من مادة «سَوْم» وتعنى رعى الحيوانات «۱»، وحيث إنّ الحيوانات تتناول كلًا من الأعشاب وأوراق الأشجار عند رعيها فالتعبير ب «شجر» يبدو مناسباً جدّاً لاشتماله على كليهما.

ثم يضيف: «يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ والزَّيتُونَ وَالنَّخِيْلَ وَالأَعْنابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ».

واللطيف أنَّ الآيهٔ أعلاه مع انَّها تتحدث عن كافهٔ الّثمار وجميع أنواع المحاصيل الزارعيهٔ بما فيها الحبوب، فهى تستند خاصهٔ إلى ثلاثهٔ ثمار هى: الزيتون، والتمر، والعنب.

وهذا يعود للأهميهٔ الفائقهٔ لهذه الثمار من حيث المواد الغذائيهٔ، وأنواع الفيتامينات والميزات الدوائيهٔ التى تمت معرفتها مع تطور العلوم الغذائيهٔ فى هذا العصر «۲».

لهذا يعود ويؤكّد فى نهايهٔ الآيهٔ بانَّ فى هذه الامور برهاناً واضحاً عن حكمهٔ وقدرهٔ وعظمهٔ اللَّه لُاولئك الذين يتفكرون: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَهً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

والذين لا يتفكرون فى هذه الآيات الجليّهٔ لا يستحقون أن تُطلق عليهم كلمهٔ الإنسانيهٔ، كما يقول الشاعر نقلًا عن الفارسيهٔ:

عجـــبٌ لهـــذا الرســـم على بـــابِ وجـــدار الوجـــود فكلمـــا فعَـــل فكركَ كـــانَ رســـماً على الحـــائط

---

(۱) وطبعاً أنَّ المعنى اللغوى ل «السَوْم» هو وضع العلامهٔ، وبما أنَّ الحيوانات حين العلف تترك أثراً على الأرض اطلق عليه هذا الاصطلاح.

(۲) طالعوا شرح هذا الكلام فى التفسير الأمثل، ذيل الآيه ۱۱ من سورهٔ النمل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۶

هل يتمكن أن يعطى فاكهةً ملونةً من الخشب؟ أم يقدرُ أن يستخرج من الشوك ورداً بمائهٔ لون؟ لقد تناثر الارجوان على عتبهٔ المرج الخضراء عيوناً تبقى الابصارُ حيرى فيه! وفى الآيهٔ الثامنهٔ نواجه تنوعاً آخر فى عالم النباتات والأشجار الذى يُطرح كأحدِ ادلهٔ التوحيد ومعرفهٔ عظمهٔ اللَّه، إذ يقول: «وهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَعْروشَاتٍ وغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ».

«معروش»: من مادهٔ (عَرْش) وتعنى السرير المرتفع أو السقف، وفى ما يعنيه هذا المفهوم فى هذه الآيهٔ، هنالك خلاف بين المفسّرين: فقال بعضهم: إنّ «المعروشات» تعنى النباتات التى تنساب على الأرض أو تتسلق على الأبنيهٔ أو على هيكل من حديد أو خشب يصنع لها، مثل الأعناب والخيار والبطيخ. و «غَيْرَ مَعْرُوْشات» ما قام على ساق مثل النخل وسائر الأشجار: وقال البعض الآخر: المعروشات ما ارتفعت أشجارها وأصل التعريش الرفع، عن ابن عباس، وقالوا أيضاً: المعروشات ما أثبته ورفعه الناس- واحيط بسور-، وغير المعروشات ما خرج فى البرارى والجبال من الثمار «۱».

ولكن يظهر أنَّ التفسير الأول أكثر ملائمةً.

على أيّهٔ حالٍ، فالعجب أنَّ بعض الأشجار كالسرو والصنوبر ترتفع فى السماء برتابهٔ ولا تستطيع الرياح العاتيهٔ والعواصف من التأثير على قامتها، فى حين أنَّ البعض الآخر كأشجار الكروم لا تملك غصناً مستقيماً واحداً، وتهتز وتنحنى باستمرار، وكلٌّ منها له عالمهُ الخاص. فأشجار العنب بعناقيدها الثقيلهٔ لو كانت لها قامهٔ كاشجار الصنوبر لانكسرت ولم

---

(۱) وردت هذه التفاسير الثلاثهٔ فى تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۵۳۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۷

تستمر يوماً واحداً، فضلًا عن ابتعادها عن متناول يد الإنسان، فى حين أنَّ طفلًا صغيراً باستطاعته اقتطاف جميع الثمار فى بساتين العنب.

ثم يضيف مستنداً إلى أربعهٔ أنواعٍ من الثمار والزرع: «وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً اكُلُهُ والزَّيْتُوْنَ وَالرُّمَانَ مُتَشابهاً»، لابدّ من الانتباه إلى أنّ «جنات» جمع «جنّهٔ» تُطلقُ على البستان، وعلى الأراضى التى يغطيها الزرع، و «اكُل» على وزن (دُهُل) من مادهٔ «أَكْل» على وزن (مَكْر) وتُطلق على جميع المأكولات.

على أيّهٔ حالٍ، فالأشجار والزروع والنباتات لا تختلف كثيراً من ناحيهٔ الظاهر فقط، بل إنّ ثمارها ومحاصيلها تتفاوت للغايهٔ أيضاً، من

حيث اللون والطَعَم والشكل الظاهرى، وكذلك من حيث ما فيها من مواد غذائية وخصائص متنوعة، اضافة إلى أنَّ منها المرغوب والمتوسط، وهذا بيان لقدرة الخالق جلَّ وعلا الذى أوجَدَ مثل هذا التنوع العظيم الواسع فى عالم النباتات، وكلُّ نوعٍ يُسَبِّح بحمده وثنائه.

وفى نهاية الآية يُصدرُ أَوامره: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّه يَومَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَايُحِبُّ المُسرِفِيْنَ».

وعليه فانَّ الأمرَ ب «كُلوا» دليل على حليّتها الكاملة ولكن بشرطين: الايفاء بحقوق المحتاجين، وعدم الاسراف.

وبالرغم من أنَّ بعض المفسرين قالوا إنَّ المقصود ب «حقّ» هنا هو الزكاة، إلّاأنَّ أغلبَ المفسرين واستلهاماً من الروايات الواردة عن طريق أهل البيت عليهم السلام وأهل السُّنة، صرَّحوا بأنَّ المقصود بهذا الحق ليس الزكاة «۱».

بناءً على ذلك لابدّ أن يُخصصَ أصحابُ المزارع والبساتين نصيباً للمحتاجين أثناء قطف الثمار، وحصاد المحاصيل كحكمٍ إلهيٍّ، وهذا النصيب ليس له حدٌّ معينٌ فى الشرع، بل يتعلق بهمّةِ المالكين. وعليه فإنّ ذيل الآية تتحدث عن حكمٍ أخلاقى وصدرها يشتمل على دورس توحيدية.

---

(۱) يُراجع سنن البيهقى، ج ۴، ص ۱۳۲؛ ووسائل الشيعة، ج ۶ كتاب الزكاة «أبواب زكاة الغلات»؛ وتفسير الميزان؛؛ و تفسير القرطبى فيما يخص الآية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۸

ويشير فى الآية التاسعة إلى موضوعٍ آخر من عجائب عالم النباتات والأشجار، فيقول بعد ذكر مسألة بسط الأرض وتكوّن الجبال: «وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَىءٍ مَوْزُونٍ».

بالرغم من أنَّ «موزون» من مادة «وزن»، إلّاأنّها هنا إشارة إلى النظام الدقيق والمحدَّد، والتقديرات المتلائمة والمتناسقة التى تحكم جميع ذرات النباتات، إضافة إلى أنّ «وزن» كما أوردها الراغب فى المفردات تعنى فى الأصل معرفة قَدرِ الشىء.

وقال بعض المفسِّرين أيضاً إنَّ المُرادَ من هذا التعبير هو أنَّ اللّه خلقَ من كلِّ نباتٍ بقَدْر حاجة الإنسان «۱».

كما قالوا إنَّ المراد من «موزون» هو وجوب تظافر كميات محدّدة من الماء والهواء والتراب وضوء الشمس كى تنمو النباتات.

واحتملَ بعض المفسرين أنّ التعبير ب «كلِّ شىء» يشتمل على المعادن أيضاً، ولكن من خلال الفَهم بأنّ عبارة «أنبتنا» لا تتناسب كثيراً مع المعادن، فانَّ هذا التفسير يبدو بعيداً، وأنَّ الجمعَ بينَ التفسيرين ممكنٌ، وورد فى بعض الروايات إشارة إلى التفسير الثانى أيضاً «۲».

ويردفها الإشارة إلى توفير الوسائل المعاشية والحياتية للناس ولحيواناتهم ولاولئك الذين يرتزقون على مائدة الخالق الواسعة فيقول: «وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِيْنَ». «معايش»: جمع «معيشة» ولها معنىً واسعٌ جدّاً، فتشمل كلَّ شىءٍ يعدّ من وسائل حياة الناس، وجملةُ «ومَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِيْنَ» إشارة إلى الحيوانات والكائنات الحيّة التى ليس بمقدور الإنسان أن يُطعمها، فوضع البارى تعالى الطعامَ المناسب لكلٍّ منها فى اختيارها على أساس النظام الخاص الذى يسود العالم، ولو فتحنا أعيننا وتأملنا طريقة تغذية أنواع الحيوانات من النباتات، لوجدنا فيه عالَماً من أدلة معرفة اللّه.

---

(۱) ذكرالفخر الرازى هذا فى تفسيره كاحتمالٍ أول، والتفسير الثانى كثالث احتمال، (التفسير الكبير، ج ۱۹، ص ۱۷۱).

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۶، أشار الإمام علىٍ عليه السلام فى هذه الرواية إلى المعادن المختلفة التى أوْجَدَها اللّه فىالجبال وتباعُ وتَشترى بالوزن.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۵۹

فبعضها يستفيد من الثمار، وبعضها من الحبوب، ومجموعةٌ من أوراق الأشجار، وطائفةٌ من السيقان، وآخر من القشور، والبعض من

رحيق الأزهار، وقسمٌ آخر يأكل الجذرَ فقط.

وفى الآية العاشرة والاخيرة من البحث اشيرَ إلى ميزةٍ اخرى لعالم النباتات، وهى مسألة انفلاق حبوب ونوى النباتات تحت الأرض.

وقد وُصِفَ البارى تعالى فى هذه الآية كما يلى: «إِنَّ اللَّه فَالِقُ الْحَبِّ والنَّوى»، ويقول فى نهاية الآية: «ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنّى تُؤفَكُونَ».

«فالق»: من مادة (فَلْق)، وكما يقول الراغب فى المفردات فهى تعنى انفطار الشىء، وانفصال جزءٍ عن جزءٍ آخر «۱»، و «الحبّ» تعنى حبوب الطعام والغذاء أو كل أشكال الحبوب النباتية، و «النوى تعنى نوى الثمار، وإذا حَصَرها البعض بمعنى نوى التمر فذلك بسبب تكاثره فى ذلك المحيط.

على أيّةِ حالٍ، فانَّ أهم والطف مراحل حياة النباتات هى مرحلة انفلاق الحبِّ والنوى وفى الحقيقة فانَّ هذه الحالة تشبه حالة ولادة الطفل، والعجيب أنَّ هذا البرعم النباتى بما فيه من رقّةٍ وظرافةٍ يشقُ هذا الجدار القوى الذى يحيط به، ويخرج إلى العالم الخارجى، فيولد هذا الكائن الحى الذى كان محبوساً إلى ما قبل لحظات فى القشرة والنوى ولم تكن له علاقة بالعالم الخارجى، ويقيم علاقاته مع الخارج فوراً، فيتغذى من المواد الغذائية الموجودة فى الأرض، ويرتوى من الماء والرطوبة التى تحيط به، ويبدأ بالحركة بسرعة فى اتجاهين متعاكسين فمن جهةٍ ينفذ فى الأرض على هيئةِ جذرٍ، ومن جهة اخرى يستقيم فوق الأرض على هيئةِ ساقٍ.

فالقوانين الدقيقة التى تسود هذه المرحلة من حياة النبات مدهشةٌ حقاً، وتعتبر دليلًا

---

(۱) قد يستعمل هذا اللفظ بمعنى «الخلقة» كأنَّ حجبُ ظلمة العدم تتمزق وينكشف نور الوجود عنها (تفسير روح‌المعانى، ج ۷، ص ۱۹۶)، ولنفس هذا الشىء يسمى بياض الصبح «فلق» على وزن «شَفَق» أيضاً.

حياً على علم وقدرة الخالق جلَّ وعلا.

يستفاد من مجموع ما ورد فى هذه الآيات القرآنية حول خلق النباتات وخصائصها المختلفة ابتداءً من رشد النباتات إلى تنوعها ومسألة اللقاح والزوجية، وأنواع المواد الغذائية للإنسان والحيوانات، حتى كيفية نمو طلع التمر، والحبوب المرتبة بعضها فوق بعض كالحنطة والشعير، وتكاثر الثمار والزروع المتباينة تماماً الناتجة عن ماء واحد وأرض واحدة وسيادة القوانين الموزونة على جميع المراحل وانفلاق الحبوب والنوى أنّها جميعاً آيات لتلك الذات المقدّسة، ودليل حى على وحدانية الرب ونفى كل أشكال الشرك.

توضيحات

۱- التركيب المذهل للنباتات

من الطبيعى أن ننسى عجائب وأسرار كل شىء إذا بدا لنا واضحاً فيكون مصداقاً للآية الشريفة: «وكَأَيِّنْ مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنهَا مُعْرِضُونَ». (يوسف/ ۱۰۵)

فنمر عليها مرور الكرام فى الوقت الذى يكمن فيها عالم من عجائب وقدرة وعظمة الخالق جلَّ وعلا.

لنبدأ من جذور النباتات، فالجذر بلطافته وَرِقتِه له قدرةٌ مذهلة، فهو ينفذ فى طبقات الصخور والأراضى الصلدة، وأحياناً يغور تحت قطعٍ صخريةٍ تزنُ عدة اطنان ويرفعها عن مكانها وتتحرك العمارات والأحواض التى أُنشِئَت من القوالب والطبقات المسلحة نتيجة نمو الأشجار حولها.

فعملُ الجذر هو امتصاص المواد الغذائية والرطوبة من كل ناحيةٍ، وكأنّها تعرف مراكز الرطوبة والمواد الغذائية من خلال شعورها

العجيب فتسعى نحوها.

ولكلِّ جذرٍ جهازٌ عظيمٌ لهُ قدرةٌ خاصة فى انتخاب نوع الغذاء وتغييره وتبديله، ثم

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۱

يدفعه إلى داخل الأغصان بعد التغييرات التى يُحدثها فيه، ومنها إلى الثمار، وتجرى عليها تفاعلات كيميائية جديدة فى كلِّ مرحلةٍ، كى يصنع من التراب فاكهةً طيبةً كالعسل، أو يصنَع دواءً شافياً وصحياً.

ومن أهم واجبات الجذر امتصاص- النتروجين المذاب- الضرورى لبناء النبات الذى لا تتمكن بقية أجزاء النبات من جذبه.

وبناء الأوراق أكثر عجباً منه، فلو وضعنا ورقةً أمام أشعة الشمس ستلفت نظرنا الفروعُ الدقيقة جدّاً الممتدة فيها والتى يكون واجبها ايصال الماء والغذاء إلى كافة خلايا الورقة.

وفى الواقع أنَّ كلَّ ورقةٍ تعتبر بحد ذاتها مدينةً كاملةً، وهذه الفروع هى الأنابيب المنّظمة لهذه المدينة ابتداءً من الانبوب الرئيسى، وحتى أصغر التفرعات.

والورقة مع رقتها لها سبع طبقات، وكلُّ طبقةٍ لها بناءٌ وبرنامجٌ خاص يَبعث على الدهشة، والغلاف الذى يغطى الورقة كجلد الإنسان ذو مساماتٍ دقيقة جدّاً، وكل من هذه المسامات لها خلايا للصيانة تقوم بتنظيم انفتاح وانغلاق المسامات.

وتتنفس الورقة من خلال هذه المسامات، فتستنشق الهواء وتفصل عنه غاز ثانى اوكسيد الكاربون، لتصنع به «الكلوروفيل» النباتى، وفى المقابل تطرح الاوكسجين وكميةً من الرطوبة لتلطيف وتطهير الجو كموهبتين عظيمتين لدنيا الإنسانية.

والأرقام التى يقدمها العلماء هنا تبعث على الحيرةِ إذ يقولون: من أجل أن يتمكنَ النبات من صناعة رطل واحد من السُكَّر يجب أن تستنشقَ الأوراقُ ما يعادل ثلاثمائة الف لتر من الهواء وتحلّله.

وبناء الأزهار ومن ثمَّ الثمار أعجبُ من ذلك أيضاً، فهناك الأقسام الذكرية والانثوية، وتفاعل الذّرات الذكرية الدقيقة جدّاً مع الأجزاء الانثوية، ثم تكوين البويضة فى رحم النبات بعد هذا الزواج الصامت، وكيفية نموه، أنّه عالمٌ عجيبٌ يسلب معه روحَ وعقلَ الإنسان، ويجعله غارقاً فى محيطٍ من العجائب.

إنَّ تفصيل بناء هيكل النباتات والأزهار والثمار لا يفى بالغرض المطلوب فى هذا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۲

البحث المختصر، فقد تمَّ تأليف العديد من الكتب من قبل العلماء حول هذا الموضوع، وظهرَ علمٌ واسعٌ بإسم (علم النبات)، فمن الأولى أن نكتفى هنا بكلامٍ لأحد خبراء الزراعة ونغلقَ هذا الملّف الضخم على عجل، يقول عالم النبات «تشرالدت»: «إنَّ الاله يظهرُ من خلالِ القوانين الثابتة والرمزية التى يدير بها عالم النبات إنّه يظهر ويتجلّى من خلال هذه الطرق:

۱- النظام والترتيب: و يشمل التكاثر والانقسامات الخلوية وبناء الأجزاء المختلفة من النبات حيث يتم بشكل منظم ومرتب.

۲- التعقيد: فلا تقاسُ أىُّ ماكنةٍ من صنعِ الإنسان مع الترتيب المعقد والمذهل لنباتٍ عاديٍّ.

۳- الجمال: إنَّ جمالَ الساق، والورق والزهر أمرٌ الهىٌّ، إذ لا يقدرُ أىُّ نحاتٍ ماهرٍ ورسامٍ مجرِّبٍ من تقديم تمثالٍ أو لوحةٍ بهذا الجمال.

۴- الوراثة: فكلُّ نباتٍ يولِّدُ مثلِه وهذا هو انتاج المثل، وهو يجرى وفقاً لارادةٍ وتخطيطٍ، فبأى مكان زرعوا وكيفما زرعوا فانَّ «الحنطة تنبتُ من الحنطة والشعير من الشعير».

ثم يضيف: باعتقادى، أنّ هذه المظاهر دليلٌ على وجود الخالقِ ذى الحكمة البالغةِ والقدرة اللامتناهية» «۱».

يقول «تايلر» استاذُ علم البيئة السابق فى جامعة مانشستر: «تأملوا النباتات والحشائش التى نَبتتْ على جانبى الطريق، فهل تستطيع الآلات الحديثة التى صنعها البشر حتى الآن أن تضاهى صنع هذا النبات الطبيعى؟!

فهذه الحشائش الطبيعية بكل معنى الكلمة مدهشة ومذهلة حيث تنمو باستمرار وتقوم يومياً بآلاف الأفعال والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية، وكلُ ذلك يجرى بإشراف المادة البروتوبلازمية التى تكوّنت فيها كل حياة الطبيعة، فهذه الآلة الحيّةُ العجيبة من صُنعِ أىِّ قدرة؟!».

---

(۱) عالم الأزهار (اقتباسٍ وتلخيص).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۳

۲- فوائد وبركات النباتات

إنَّ النباتات تُمثِّلُ الركن الأساس للحياة على الكرة الأرضية، وكافةُ الكائنات الحيَّةِ الاخرى بحاجة إلى النباتات، ففوائد النباتات كثيرة ووفيرة للغاية حيث يمكن الإشارةإلى اثنتى عشرة فائدة متسلسلة:

۱- أفضل مادة غذائية: يتمّ تحضير افضل اطعمتنا نحن البشر من النباتات والحبوب والفاكهة، فطاقتنا وقدرتنا وسلامتنا تُؤَمَّنُ عن طريق الغذاء النباتى، والكثير من الطيور والدَّواب واللبائن والأسماك فى البحر تستفيد من النباتات، لهذا فكلُّ بلدٍ يتمكن من تأمين منتجاته الغذائية عن طريق النباتات فانه يبلغ الاكتفاء الذاتى فى الواقع.

۲- التهوية: نحن نعلمُ أنَّ الإنسان واغلب الموجودات الحيّة تستخدم اوكسجين الهواء بنحوٍ دائم وتقوم بإحراقه، ولولا وجود مصدرٍ يعوِّضُ ذلك فسيُستهلك هذا الاوكسجين الموجود فى الجو والأرض خلال مدة قصيرة، ويَهلِك هذا الصنف من الموجودات أثر الاختناق، إلّاأنّ الإله الحكيم اناطَ مسؤولية تعويض هذه الخسارة بالنباتات، فهى تتنفس على العكس من الإنسان، إذ تأخذ غاز ثانى اوكسيد الكاربون وتُحللَّه وتطرح غاز الاوكسجين، لهذا فانَّ هواء البساتين والمزارع منعش ومُنَشِّطٌ، كما يوصون لنفس هذا السبب بأنْ تقامَ فى كلِّ مدينةٍ متنزهاتٍ مُشَجَّرةٍ، وتخصَصُ لكلِّ شخصٍ مساحةٌ من هذه المتنزهات، ويطلقون على هذه المتنزهات «رئةُ المدينة».

۳- الملابس: إنّ الجانب الأعظم من ملابسنا يتمّ تصنيعه من ألياف بعض النباتات، وفى الواقع فإنّ المصدر الذى لا ينفد لملابس الإنسان فى الدرجة الاولى هو النبات.

۴- البيت وأثاثه: لو ألقينا نظرة على ما حولنا فى البيت لوجدنا أنّ أغلب الأبواب والشبابيك واللوازم الاخرى هى من أخشاب الأشجار، بنحوٍ لو أردنا الغاءَها من حياتنا فستصبح الحياة صعبةً بالنسبة لنا، وفى الكثير من المناطق يصنعون بيوتهم من الخشب بشكلٍ كامل، ولهذه البيوت مزايا كثيرة، وأحد اللوازم المهمّة للحياة المعاصرة هو النايلون، ونحن نعلمُ إن مادته الاصلية تُستخرج من عصير شجر (المطاط).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۴

۵- الأعشاب الطبية: كانت أغلبُ الأدوية فى السابق تُستخلصُ من النباتات، واليوم فانَّ القسم الكبير منها يستخرج من النباتات أيضاً، ونظراً للآثار السلبية للأدوية الكيميائية فقد بدأت الآن حملةٌ للعودة إلى الأدوية النباتية، وهنالك صيدليّات جميع أدويتها من النباتات.

۶- السيطرة على الكثبان الرملية: إنَّ أحد الأخطار الجدّية التى تهدد المدن لا سيما القريبة من الصحارى الرملية هى الكثبان الرملية حيث تدفن تحتها أحياناً قريةً كاملة، وأفضل سبيلٍ لتثبيت هذه الرمال هو استخدام النباتات المختلفة التى توقف حركتها وتقدُّمَها.

۷- تحضير الورق: نحن نعلم أنَّ اختراع الورق كان له نصيب مهم للغاية فى تطور الحضارة والعلم البشرى، والنباتات هى المصدر الأساس لصناعة الورق.

۸- معادلة الحرارة والبرودة: إنَّ النباتات وبسبب الرطوبة المناسبة والمعتدلة التى تلقيها فى الفضاء تقوم بالحدِّ من شدّة البرد، وكذلك

الحدِّ من شدّة الحرارة، ولهذا فانَّ الجو فى المناطق كثيفة الأشجار يكون معتدلًا دائماً.

۹- وسائط النقل: إنَّ الكثير من البواخر والقوارب كانت تصنع سابقاً وتصنع حالياً من الخشب، وهى تعتبر من أفضل وسائط النقل التى يستخدمها الإنسان سابقاً وفى الوقت الحاضر.

۱۰- الجمال والطراوة: لا يخفى هذا الأثر اللطيف للأشجار والنباتات والزهور على أحد حيث تبهرُ روحَ الإنسان بجمالها المدهش، وتُريحُ القلبَ وتزرع الطمأنينة فى نفس الإنسان لمواجهة الضغوط الشديدة للحياة، لهذا يقومون بتزيين المستشفيات بأنواع النباتات والأشجار من أجل تحسين أحوال وأوضاع المرضى ويلجأ الإنسان باستمرار إلى أحضان الطبيعةِ فى وسط الأشجار والبساتين ومزارع الحنطة من أجل ازالة المتاعب وتجديد النشاط.

۱۱- المصدر المهم للطاقة: إنَّ الخشبَ والورق وجذور النباتات كانت ولا زالت أحدى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۵

المصادر المهمّة للطاقة وتأمين الحرارة، وحتى الفحم الحجرى الذى هو أحد مصادر الطاقة المهمّة فهو من منتوجات الأشجار والنباتات أيضاً، والحرارة التى تحصل من الخشب وأوراق الأشجار ملائمة، وتلويثها للبيئة ضئيلٌ جدّاً، وحتى الرماد المتبقى منها يصلحُ كسمادٍ للأشجار يستفادُ منه مجدداً.

۱۲- أصناف العطور والمواد الكيميائية: نحنُ نعلمُ أنَّ أفضلَ العطور الملطفة لروح الإنسان كانت ولا زالت تُستخلص من رحيق الأزهار، والأشجار والنباتات ذات الورق والخشب المعطَّر ذا الرائحة الطيبة، ليست بالقليلة.

ناهيك عن كثيرٍ من الواد الكيميائية المستخلصة من النباتات التى تستخدم فى مختلف الصناعات.

عظيمٌ ذلك الأله الذى أودع كلَّ هذه الآثار والفوائد والبركات فى هذا المخلوق، وجعلَهُ آيةً عظيمة من آيات علمه وقدرته.

إنَّ التعابير الشاملة التى تَلَوْناها فى الآيات المذكورة، يمكن أن تجمع كلَّ هذه الفوائد فى عبارة «معايش» جمع «معيشة» وتعنى وسيلة الحياة.

۳- الأنواع غير المحدودة للنباتات

كما أشرنا سابقاً فانَّ أنواع النباتات كثيرةٌ بالقدر الذى لا يمكن حصرُها، وقد تمّ حتى الآن احصاء ثلاثة آلاف نوع من النخيل، والف وسبعمائة نوع من التين الهندى، والف ومائتى نوع من ورد الثعلب.

يذكر مؤلف كتاب «عالم الأزهار» (فرديناندلين) أنَّ عددَ النباتات ذات الحبّ المغطّى يبلغ مائة وخمسين الف نوع وقد تم بيان صفات أكثر من ثمانية عشر الف نوع من النباتات فى بعض كتب علم النباتات «۱».

---

(۱) تاريخ العلوم، ص ۳۵۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۶

وقد تم بحثُ الف نوع من الكمأة من التى تمّ احصاؤها، وأكثر من أربعين الف نوعٍ من الطحالب، وسبعة آلاف نوع من التفاح، وخمسة وثلاثين الف صنف من الحنطة «۱».

ومن بين النباتات، هنالك نباتات لا تُرى بالعين المجرّدة، وهنالك نباتات يصل طولها إلى خمسين متراً، وبعضها ينمو فى وسط الصخور، وبعضها يعوم وسط الماء، وجذور بعضها يتفرع تحت الماء وأزهاره فوق سطح الماء، ولكلٍّ منها منظَرهُ البديع واللطيف فى عالمه حيث يصدح بلحنِ التوحيد.

۴- عجائبُ عالم النباتات

لو تركنا كلَّ ما قيل بخصوص النباتات بشكل عام، سنلاحظ أنّ هناك عجائب جَمةً فی عالم النباتات، حيثُ صار بعضها طی النسيان لاعتيادنا عليها.

فأوراق وسيقان النباتات الضخمة ترفع يومياً مليارات الأطنان من الماء من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية، ثم تنثُره بخاراً فی الفضاء المحيط بها، أيُّ قانون يسمحُ للنباتات أن تستعرض قوتَّها هكذا خلافاً لقانون الجاذبية التی تجذب كلَّ شیءٍ نحو الأسفل- لا سيما الماء؟- هنالك الكثير من النباتات كورد عباد الشمس تدور مع حركة الشمس فتتحرك أزهارها الكبيرة نحو الشرق فی أول الصباح ونحو الغرب أثناء الغروب.

والنباتات آكلة اللحوم من أكثر ظواهر عالم النباتات إثارةً.

وقد اجری البروفسور «ليون برتن» مدير «متحف التاريخ الوطنی الطبيعی الفرنسی» تحقيقاتٍ بخصوص هذه النباتات آكلةِ اللحوم حيث يوجد منها عشرة أنواعٍ فقط فی فرنسا، وأشهرها النباتات الآتية:

أ) «آلدروفوند»: ويكثر فی ولاية «جيرفوند» الواقعة غرب فرنسا علی سواحل المحيط

---

(۱) معرفة اللّه، ص ۲۹۱ و ۲۹۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۷

الأطلسی، فهذا النبات ذو ورقةٍ تتكون من قطعتين خاصتين متقابلتين كصفحتی كتابٍ مفتوحٍ، تتصلان من الأسفل بواسطة مفصلٍ خاصٍ، وتغطی سطح الأوراق طبقةٌ حساسةٌ.

وعندما تقترب ذبابةٌ منه وتمسُ أرجلُها أو جسمُها هذه الطبقة، تنطبق الصفحتان المذكورتان بسرعة، فيقع الحيوان فی وسط ذلك السجن، وفی النهاية يُهضمُ تدريجياً ويصبح جزءً من جسم النبات أثر افراز مادة لاصقة خاصة حيث تفرز من الورق.

ب) «دروزرا»: وهذا النبات لهُ أوراقٌ حمراء اللون تشاهد عليها نتوءات رفيعة تشبه الشَعَر، وحينما تضلّ الذبابةُ طريقها، تقف علی أوراق هذا النبات ظنّاً منها بأنّها قد عثرت علی المكان الآمن الخالی، وفجأةً تنطبق المخالب من ناحية رأسها، فتجرها مخفورةً إلی داخل الورقة فتهضمُ ويمتصها النبات وسط الافرازات اللزجة للورقة.

ج) «نيانتس»: وهو أكثر النباتات الآكلةِ للحوم عجباً، حيث يُوجد فی نهاية الفرع الدقيق ما يشبه الوعاء الصغير، تكون فوهتُه نحو الأعلی وله بابٌ خاصٌ مفتوحٌ خلال الأوضاع العادية.

ويُعتبر هذا الوعاء فخاً خطيراً للحشرات الغافلة والهائمة فی الجو، فهو يحتوی باستمرار علی العسل اللَّزج الحلو حيث يدعو الحشرات «عابدة البطن» نحوه، وكذلك فانَّ جمال وشفافية لون الوعاء ذو جذبٍ خاصٍ للحشرات «ذات الذوق الجيد».

فإذا وقعت حشرةٌ ما أسيرةً لهواها ودخلت الوعاء فانَّ فوهته ستنغلق علی الفور وستبتلی بسجنٍ لا خلاص منه أبداً.

علی أيةِ حالٍ، هذا الوعاء يعتبر كالمعدةِ بالنسبة لهذا النبات، والافراز الداخلی كافرازاتها، ويجعل الحشرةَ قابلةً للامتصاص.

يقول العلماء: إنَّ قيام هذه النباتات باصطياد الحشرات يعود لعدم قدرة جذورها لامتصاص (النتروجين)، لهذا فهی تعوّضُ هذا النقص عن هذا الطريق.

ويأملُ العلماء بأنْ يأتی اليوم الذی يستطيعون فيه تربية كميةٍ كبيرة من هذه النباتات فی حدائق البيوت أو إلی جانب الأحواض، ويقضون بهذه الطريقة الصحية والطبيعية علی الذباب والحشرات الضارة الموجودة فی بيئة الإنسان.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۸

وورد فی مذکرات السیّاح والرَّحّالة قصصٌ عجیبةٌ حول النباتات التی تأکل البشر، فیقول بعض العلماء من الممکن أن تکون هذه النباتات من النباتات آکلة الحشرات إلّاأنّها أکبر حجماً لنموها فی أرضٍ غنیةٍ، وتستطیع أن تقتنصَ احیاءً أکبر فی بطن فروعها واوراقها وتمتصها تدریجیاً (ولکن لا یمکن تأکید وقبول ذلک بسهولة) «۱».

ومن أعجب وألطف جوانب وجود النباتات هو انتاج الثمار.

وواحد من مئات الامور الظریفة فیها وجود سائلٍ حلو ولذیذٍ فی الکثیر منها مخزون فی أوعیةٍ صغیرة خاصةٍ مربوطةٍ بإحکامٍ، حیث یبدو أفضل طرق الربط فی عصرنا الحاضر، بدائیةً جدّاً أزاءها.

افتحوا برتقالةً واحدة، ستجدون کأنَّ شقاً منها یتکون من مئات القطع الزجاجیة الصغیرة الظریفة التی تفیضُ بسائلٍ لذیذٍ ومعطَّر، الزجاجات التی تجمّعت معاً دون أیِّ فاصلةٍ (ولو کان هنالک فاصلةٌ وهواء فیما بینها لفسدت بسرعة).

لکن هذه الزجاجات لا تتکسر أبداً، وتتحمل صعوبات الحمل والنقل، واللطیف هو إمکانیة أکلها مع محتویاتها.

وکلُّ مجموعةٍ من هذه الزجاجات الصغیرة والظریفة مغلفةٌ بقشرةٍ سمیکة وهی بمثابة الغلاف، وتظهر علی هیئة شقٍّ (وهذا الوعاء قابلٌ للاکلِ مع محتویاته أیضاً، بل هو مفیدٌ للجهاز الهضمی).

وهذه الأغلفة الصغیرة تجمعّت بدونِ اقلِّ فاصلةٍ مع تفریغٍ کاملٍ من الهواء، والتَوتْ وسط عدّة لفافاتٍ من أجل السلامة والأمان، وفی النهایة أصبحت معدة علی هیئةِ حملٍ صالحٍ جاهز للشحن لمسافات نائیة.

ویُلاحظ هذا الأمر علی نحوٍ أکثر طرافةً داخل ثمار الرمان والعنب والتین أیضاً.

تأملوا جیداً لو أنَّ عصارة أیٍّ من هذه الثمار وُضعت فی الهواء الطلق ستتغیر بعد مرور ساعة واحدة، وقد تتعفن خلال عدّة ساعات، إلّاأنّ تغلیفها دقیقٌ ومحبوکٌ بنحوٍ لا یسمح

---

(۱) نظرةٌ علی الطبیعةِ وأسرارها، تألیف البروفسور لیون بر تن، ص ۱۳۱- ۱۳۴ (مع الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۶۹

بنفوذ الهواء إلی داخلها أبداً، ولهذا فهی تبقی سالمةً لعدة شهور دون أقلّ تغییرٍ فی طعمها.

وهذا یتعلق بمسألة التغلیف العادیة فقط، وأمّا المرکبات الکیمیائیة لکلِّ فاکهةٍ وخواصها الغذائیة والطبیة وأنواع الفیتامینات وموادها الغذائیة فهی بحد ذاتها ذات قصةٍ مفصلةٍ حیث یختص ببحثها المتخصصون بعلم الغذاء، وقد تم تألیف کتبٍ کثیرة فی هذا المجال، ولو أردنا أنْ نطرقَ کلَّ هذه المسائل فسنخرج عن إطار کتابنا التفسیری، فضلًا عن أنّ «وزن کتاب کهذا سیبلغ الأطنان».

۵- أسرار خلق النباتات فی توحید المفضل

ونقرأ فی حدیث توحید المفضل عن الإمام الصادق علیه السلام حیث قال:

«فکّر یا مفضل فی هذا النبات وما فیه من ضروب المآرب، فالثمار للغذاء، والأتبان للعلف، والحطب للوقود، والخشب لکل شیء من أنواع النجارة وغیرها، واللحاء والورق والاصول والعروق والصموغ لضروب من المنافع، أرأیت لو کنّا نجد الثمار التی نتغذی بها مجموعة علی وجه الأرض ولم تکن تنبت علی هذه الأغصان الحاملة لها کم کان یدخل علینا من الخلل فی معاشنا، وإن کان الغذاء موجوداً فإنّ المنافع بالخشب والحطب والأتبان وسائر ما عددناه کثیرة، عظیم قدرها جلیل موقعها هذا مع ما فی النبات من التلذذ بحسن منظره ونضارته التی لا یعد لها شیء من مناظر العالم وملاهیه.

فكّر يا مفضل فى هذا الريع الذى جعل فى الزرع فصارت الحبة الواحدة تخلف مائة حبة وأكثر وأقل وكان يجوز أن يكون الحبة تأتى بمثلها فلم صارت تريع هذا الريع إلّا ليكون فى الغلّة متسع لما يرد فى الأرض من البذر وما يتقوت الزراع إلى إدراك زرعها المستقبل ... تأمّل نبات هذه الحبوب من العدس والماش والباقلاء وما أشبه ذلك فانّها تخرج فى أوعية مثل الخرائط لتصونها وتحجبها من الآفات إلى أن تشدّ وتستحكم كما قد تكون المشيمة على الجنين لهذا المعنى بعينه، فأمّا البُرّ وما أشبهه فانّه يخرج مدرّجاً فى

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۰

قشور صلاب على رؤوسها مثال الأسنة من السنبل ليمنع الطير منه ليتوفّر على الزراع ...

تأمل الحكمة فى خلق الشجر وأصناف النبات فانّها لما كانت تحتاج إلى الغذاء الدائم كحاجة الحيوان ولم يكن لها أفواه كأفواه الحيوان ولا حركة تنبعث بها لتناول الغذاء جعلت اصولها مركوزة فى الأرض لتنزع منه الغذاء فتؤديه إلى الاغصان وما عليها من الورق والثمر فصارت الأرض كالأم المربية لها وصارت اصولها التى هى كالأفواه ملتقمة للأرض لتنزع منها الغذاء كما يرضع أصناف الحيوان امهاتها.

تأمل يا مفضل خلق الورق فانك ترى فى الورقة شبه العروق مبثوثة فيها أجمع، فمنها غلاظ ممتدة فى طولها وعرضها، ومنها دقاق تتخلل الغلاظ منسوجة نسجاً دقيقاً معجماً لو كان ممّا يصنع بالأيدى كصنعة البشر لما فرغ من ورق شجرة واحدة فى عالم كامل ولاحتيج إلى آلات وحركة وعلاج وكلام فصار يأتى منه فى أيام قلائل من الربيع ما يملأ الجبال والسهل وبقاع الأرض كلها بلا حركة ولا كلام إلّابالإرادة النافذة فى كل شىء والأمر المطاع».

ثم أشار الإمام عليه السلام فى سياق هذا الحديث إلى عجائب الثمار والنّوى وموت وحياة النباتات فى كل عام، وتلقيح وحمل الأجزاء الانثوية عن طريق الالتحام مع الأجزاء الذكورية، وكذلك أدوية العلاج التى تستخلص من أصناف النباتات، والحبوب والنباتات التى يُعتبر كلٌ منها غذاء لأحدِ الحيوانات، وقدَّمَ شرحاً لطيفاً حول كلٍّ منها، حيث إنّ ذكرها جميعاً لن يكون ممكناً، وبمقدور الراغبين مراجعة الحديث أعلاه «۱».

نضطرُ هنا إلى طى هذا البحث الطويل ونختمه ببعض الابيات من الشعر التوحيدى الأصيل، فلو اطلقَ عنانُ العلمِ فيجبُ تأليفُ كتب عديدة، فى هذا المجال يقول الشاعر نقلًا عن الفارسية:

إنَّ جميع خلقِ اللَّهِ انذارٌ للقلب ليس له قلبٌ من لا يُقرُّ باللَّه فالجبال والبحار والأشجار كلُّها تسبِّحُ ولا يفهمُ كلُّ مستمعٍ هذه الأسرار!

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۳، ص ۱۲۹- ۱۳۶ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۱

والعقُل متحيرٌ من عنقود العنب الذهبى والذهنُ يَعجزُ عن حقيقة ياقوتة الرُّمان وتتدلى عناقيد الرَّطب من النخل والنخل من صنع قضاء وقدر ماهرٍ ولكى لا يصبح ظلاماً ظلُّ الأشجار الكثيف فقد وضع تحت كل ورقةٍ مصباحاً من نور الرّمان وهبط الندى على الزهرة عند حلول السحر يشبه عرق المحبوب المعطَّر! فافتح بصرك وانظر خلقَ النارنج يا مَن لا تصدِّق أنَّ «فى الشجر الاخضر نار» مقدرٌ منزَّهٌ الاله الذى سخرَّ الشمس والقمرَ بتقديرٍ وكذلك الليل والنهار «۱»

---

(۱) هذه الابيات مترجمة من «كليات سعدى»، فصل القصائد، ص ۴۴۳.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۳

۱۶- آياتُه فى خلق الأرزاق العامة

تمهيد:

إنَّ لكلِّ كائنٍ حيٍّ احتياجاتٍ من أجل استمرار حياته، أو بتعبيرٍ آخر إنَّ النشاطات الحياتية تتطلب مواداً تولدُ الطاقةَ يجب أن تصل إلى الكائن الحيِّ دائماً، ويُطلق عليها بالاصطلاح (التلافى)، وتعويض ما يتحلل.

ويجب أن تكون هذه المواد ملائمة تماماً لذلك المخلوق من جميع الجوانب كى يتمكن من الاستفادة منها بُيسر.

إنَّ نظامَ الرزق فى عالم الخَلق، وكيفية إعدادهِ، ثم كيفية وضعهِ فى متناول كلِّ موجود، وكذلك الاستفادة منها، نظامٌ جميل ودقيقٌ للغاية، ومليءٌ بالأسرار أحياناً، حيث يختفى فيه جمع من الآيات المهمّة لتوحيد اللَّه وعلمه وقدرته، لهذا استند عليه القرآن الكريم مراراً فى مختلف الآيات.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم ونتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

١- «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ». (فاطر/ ٣)

٢- «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحِيِيْكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَلُ مِنْ ذلِكُمْ مِّنْ شَىءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (الروم/ ۴٠)

٣- «أَمَّنْ يَبدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيْدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (النمل/ ۶۴)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧۴

۴- «أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَّجُّوا فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ».

(الملك/ ٢١)

۵- «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِرُ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤمِنُونَ». (الروم/ ٣٧)

۶- «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِيْنُ». (الذاريات/ ۵۸)

٧- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَها كُلٌّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ». (هود/ ۶)

٨- «قُلْ مَنْ يَرْزقُكُمْ مِّنَ السَّمواتِ والأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وإِنَّا أَو إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدىً أو فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ». (سبأ/ ٢۴)

٩- «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّماءِ مَآءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيْدِ* وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِّزْقاً لِلْعِبَادِ». (ق الآيات/ ٩- ١١)

١٠- «فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ* أَنَّا صَبَبْنَا المَآءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً* فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً* وَعِنَباً وقَضْباً* وَزَيتُوْناً وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْباً* وفَاكِهَةً وَأَبّاً* مَّتَاعاً لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ». «١»

(عبس الآيات/ ٢۴- ٣٢)

شرح المفردات:

«الرِزْق»: كما يقول الراغب فى كتاب «المفردات» يعنى البذل والعطاء المستمر، دنيوياً كان أو أخروياً، كما يُقال للحظ والنصيب رزقاً، وكذلك للمواد الغذائية التى تصل إلى جوف الإنسان.

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً: «الرزق» نوعان: ظاهر للأبدان كالأقوات، وباطن للقلوب والنفوس، كانواع المعارف والعلوم.

---

(١) هناك آيات كثيرة اخرى وردت فى هذا المجال لها شَبَهٌ بالآيات أعلاه منها ٣١، يونس؛ ١٧٢، البقرة؛ ٢٨، الشورى ٢۶، الرعد؛ ١٢، الشورى ٢٧، الشورى ٢٢، البقرة؛ ٣٢، ابراهيم؛ ٧٣، النحل؛ ١٧، العنكبوت؛ ١٣، غافر.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٢٧۵

وورد فى كتاب «التحقيق» أيضاً أنَّ الرزقَ يَعنى «العطاء الخاص الذى يناسبُ متطلبات وضع المقابل ويطابق حاجته لاستمرار حياته».

وفى القرآن الكريم استُعملَ فى كلا ـ المعنيين فنقرأ قوله تعالى: «هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُوْلًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وكُلُوا مِنْ رِّزْقِهِ». (الملك/ ۱۵)

وورد قوله تعالى فى خصوص الشهداء: «بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

(آل عمران/ ۱۶۹)

إلّا أنّه يُستخدم غالباً بخصوص الأرزاق المادّية، بالرغم من أنَّ استعماله بخصوص الأرزاق المعنوية ليس قليلًا أيضاً، وحيث إنّ اللّه تعالى واهب جميع النعم المادّية والمعنوية فانَّ لفظ «الرزّاق» من صفاته الخاصة «۱».

و «الطعام»: له معنىً مصدرى واسم مصدرى معاً، أى أنّه يُطلقُ على «أكل الغذاء»، وكذلك على نفس «الغذاء»، وقد يُستعمل هذا اللفظ بخصوص الحنطة، كما ورد فى الرواية إنَّ النبى صلى الله عليه و آله أمرَ باعطاءِ صاع من «الطعام» أو صاع من «الشعير» (وهنا استُخدمَ الطعام بمعنى الحنطةِ فى مقابل الشعير).

وذَكر صاحب «لسان العرب» أنَّ الطعامَ اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يؤكل، إلّاأنَّه هو والرّاغبُ فى المفردات صَّرحا بانَّ هذا اللفظ قد يُستخدمُ للمشروبات أيضاً كما فى: «فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنّى». (البقرة/ ۲۴۹)

يقول الخليل بن احمد فى كتاب «العين» أيضاً: يقالُ الطعامُ فى كلام العرب للبّر خاصة، (إلّا أنّه يعود على ما يَبدو إلى أنَّ الطعام الأساس غالباً ما يكون من الخبز الذى يُصنعُ بدورهِ من الحنطة، وإلّا فانَّ الكثير من أرباب اللغة ذكروا أنَّ للطعام مفهوماً عاماً) «۲»، وقال بعض اللغويين إنَّ الطعام يعنى التمرَ أيضاً، ويبدو أنَّ هذا الكلام يعود إلى أنَّ التمر كان هو الطعام الأساس فى ذلك الزمان وتلك البيئة.

---

(۱) لسان العرب؛ المفردات؛ مجمع البحرين؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(۲) لسان العرب؛ المفردات؛ كتاب العين؛ والنهاية لابن اثير.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۶

جمع الآيات وتفسيرها

الكل يتنعم بهذه المائدة عدواً كان أم صديقاً:

لقد قلنا مراراً أنَّ مشركى العرب لم يعتبروا الأصنامَ كخالقٍ لهم أبداً، إلّاأنّهم كانوا يعتقدون أنَّ الاوثان لها يدٌ فى تدبير هذا العالم وحل مشكلات الناس فيبذلون العطاء لها، لهذا يعتبرونها شفيعةً لدى اللّه، أو بسبب إناطة مسؤولية تدبير العالم فى هذه الجوانب لها.

لذلك فقد تمّ التأكيد فى الآيات القرآنية المذكورة على هذه المسألة بتعابير مختلفة من أجل رد هذه العقائد الخرافية، والتأكيد بأنَّ الخالقَ والرازقَ واحدٌ، وجميع أنواع الأرزاق تأتى من ناحيته.

من البديهى إذا ما دُعىَ الإنسان إلى مائدةٍ وكان فيها من الأطعمةِ ما لذَّ وطابَ، أن يتقدمَ بالشكر قبل كل شىء إلى صاحب هذه النِعَم، لذلك فهو يذهب وراء صاحب تلك المائدة لمعرفته، فهلْ هناك مائدةٌ أوسعُ من مائدة الخالق؟ وهلّا يجب معرفة صاحب هذه المائدة التى يتنَعمُ بها العدو والصديق؟ وتقديم الشكر له لعطاياه التى غَمَرْتنا ظاهراً وباطناً من أعلى رؤوسنا وحتى أخمص أقدامنا؟ بناءً على ذلك فانَّ أهمَّ الدوافع «لمعرفة اللّه» وكذلك أحد الطرق لمعرفته هى هذه الأرزاق.

لـذلك خـاطبَ القرآن فى أول آيـة مـن البحث كافـةَ النّـاس قائلًـا: «يَـا أَيُّهـا النَّاسُ اذكُروا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكَمْ». «هَـلْ مِنْ خَـالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ».

فهو يُرسـلُ لكم من السـماء نور الشـمس الـذى يهبُ الحيـاة، وقطرات المطر الـتى تُحيى الأـرض، والنسـيم الـذى يُنمى الأـرواح، ومن الأرض يُنبتُ لكم أنواع النباتات والفواكه والمواد الغذائية، وفى باطنها أنواع المعادن والثروات.

مع هـذا يجب أنْ تعرفوا أنْ لا معبودَ سواه، وهو وحـده الجـدير بالعبادة، فكيف تنحرفون عن الصـراط المسـتقيم وتجعلون هـذا الخالق العظيم واهب الرزق وراء ظهوركم، وتسجدون

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۷

للأصنام: «لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ» «۱».

ويسـتند فى الآيـة الثانيـة على أربعـةِ أمورٍ لإثبات توحيـد الربوبية: «وحدانية الخالق»، وكذلك التوحيد فى العبادة، وهى: خلق الإنسان، ورزقُهُ، ومَوتُهُ، وإعـادة احيـائه، وقـد تمَّ تعريفها من قبل اللَّه تعالى لأنَّها جميعاً ذات نظام دقيقٍ حيث تُبرهنُ أنّها تصـدرُ عن مبـدأ العلم والقـدرة، فيقـول: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيْتَكُمْ ثُمَّ يُحْيِيْكُمْ». «هَـلْ مِنْ شُـرَكَائِكُمْ مَّنْ يَفْعَـلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِّنْ شَـىءٍ» بنـاءً على ذلك يجب أنْ تُسلِّموا لنزاهتهِ وعلوِّهِ عمّا يُشركون به: «سُبحَانَهُ وَتَعَالىَ عَمَّا يُشرِكُونَ».

فحيثما نعلم أنَّ خلقَنا وموتنا وحياتنا بيده، فلا معنى بأنْ نلهثَ وراء غيره، ونخضع ونُسَلِّمَ لسواه.

والجـدير بالذكر أنَّ الخلقَ يشـملُ الرزقَ والموت والحياة، لأنَّ كافة أنواع الرزق تعود إلى خلقِ اللَّه تعالى وكذلك فإنّ الحياة جزءٌ من الخلق وتعقبها الأرزاقُ والموت، وعليهِ فانَّ الاستناد إلى هذهِ الجوانب الثلاثة ليس لكونها شيئاً منفصلًا عن الخلق، بل لأنّها فى الحقيقة توضحُ مصاديقَ مهمّةً عن ذلك الموضوع العام.

وهذه النكتة جديرةٌ بالتأمّلِ أيضاً، إذ بالرغم من أنَّ الإحياء بعد الموت لم يَكن مقبولًا لدى مشركى العرب، إلّاأنَّ هذه الآية تُعتبر إشارة لطيفـةً لهـذا الاسـتدلال، وهو أنَّ الخلقَ الأول ونعمـة الحياة فى بدايـة الأمر دليلٌ واضـحٌ على إمكانية تكراره يوم القيامةِ والبعث، بل لو تأمّلنا جيـداً فانَّ مسألة الموت والحياة مسـتمرةٌ فى هذا العالم، فوجود الإنسان يعتبر ساحةً للموت والحياة فى كلِّ عام وشـهر بل فى كلِّ يوم وساعـة، تموت الملايين من الخلايا، وتحلُ مكانها ملايينُ اخرى فتتجسدُ مسألةُ المعاد باسـتمرار فى هذه الدنيا، إذن ما العَجَبُ فى أنْ يَرجعَ الامواتُ إلى الحياة من جديد فى الآخرة؟

---

(۱) «تؤفكون» من مادة «إفْكْ»، وتعنى تغيير الشـىء عن وضعهِ الحقيقى، ولهذا يقال للكذب والاتهام والانحراف عن الحق نحو الباطل «إفْكْ»، وكذلك يُطلقُ على الرياح التى تنحرف عن مسيرها المنظم (مؤفكة) (مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۸

وفى الآيـة الثالثـة حيث جاءت فى ترتيب آيات «التوحيد» إذ تُحصـى آياتِهِ المختلفة فى السـماء والأرض، تمّ الاسـتناد أيضاً إلى ثلاث مسائـل هى: بدايـة الخلق، ورجوعه، والرزق والاـقوات التى تصـل الإنسان من السـماء والأرض فيقول: أيُّهما أفضل ... مَنْ تعبـدون مِنْ دون اللَّه أم مَنْ بدأ الخلقَ ثم يُعيدُه؟ «أَمَّنْ يبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ» «۱» «وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ».

ويضيف فى النهاية «أَإلَهٌ مَعَ اللَّه».

«قُلْ: لَقَد جِئتُكم بدليلٍ عَلى ربوبيّتهِ فَهَاتُوا دَليلَكُم إِنْ كُنتُم صَادِقينَ».

«قُلْ هَاتُوا بُرهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ».

وبتعبير آخر: «إنَّ هذه البركات تصدرُ عن الذات الإلهيّة المقدّسة، أمّا هذه الأصنام فهى لا تملكُ شيئاً كى تستحق العبادة».

والتعبير ب «خَيْر» أى (أفضل) الـذى حُـذِفَ من هـذه الآيـة والـذى يتجلّى بقرينـةِ الآيات السابقـة ليس المقصود منه أنّ للأصـنام خيراً

وبركات قليلة قياساً إلى خيرِ اللَّه وبركاتهِ بل إنَّ هذا التعبير يُستعملُ أيضاً فى الحالات التى لا يكون هنالك خيرٌ فى الفعل أبداً، فمثلًا يقال لك امتنع عن تناول طعام معين كى تحافظ على صحتك أو لَيسَ الصحةُ أفضل من المرض؟

مِنَ المسلَّم به أنْ لا فضل فى المرض بحيث تكون الصحةُ أفضلَ منه، ونقرأ فى القرآن الكريم أيضاً: «وَلَعَبْدٌ مُّؤمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ». (البقرة/ ۲۲۱)

ويقول فى مكانٍ آخر: «قُلْ أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ». (الفرقان/ ۱۵)

وخلاصة الأمر أنَّ لفظ «خير» بالرغم من أنّه من «افعل التفضيل» ويجب أنْ يستعملَ فى مورد شيئين أحدهما حَسَنٌ والآخرُ أحسن منه إلّاأنّ الهدف فى أغلب الحالات هو اغراقُ المخاطبِ فى التفكر وجعلَهُ يشعرُ بأنَّ ما يختاره ليسَ منشأً لأىخيرٍ ومنفعة.

---

(۱) هنالك جملةٌ محذوفةٌ حيث تتضح بقرينة الآيات الآنفة (الآية ۵۹ من نفس السورة) وتَقَدَّر كما يلى «أمَّنْ يبدءُالخلق ثم يُعيدهُ ... خيرٌ أمْ ما يشركون».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۷۹

إنَّ الاستناد إلى قضية المعاد بالرغم من عدم إيمان المشركين بها إنّما هو لأجل كون الخلق أول دليل على المعاد.

وطُرِحَ هذا المعنى فى الآية الرابعة بنحوٍ آخر، إذ يقول: «أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ» «۱».

تلميحاً إلى أنّه لو امتنعت السماء عن المطر بأمرِ اللَّه، ولم ينمُ نباتٌ ما، وعمَّ الجدب والقحطُ كلَّ مكان، فهل تستطيع هذه الأصنام أو أىُّ موجودٍ آخر أن يرزقكُم ويُطعِمكُم؟ ولو انقطعت عنكم الأرزاق المعنوية والروحية بأمرٍ من اللَّه، فهل مِنْ هادٍ يرشدكم؟ ينبغى القول أنَّ الجواب على كل هذه التساؤلات سلبىٌ، فكيف اذن يتمادى الوثنيون فى عملهم القبيح هذا؟ فهلْ منْ سبب هنا سوى العناد والتعصب؟

لهذا يقول فى خاتمة الآية: «بَلْ لَّجُّو فِى عُتوٍّ وَنُفُوْرٍ» «۲».

وفى الآية الخامسة استند إلى أمرٍ آخر يتعلق بمسألةِ الأرزاق، إذ يؤكد أنَّ بسط وقبضَ الرزق هو بمشيئة اللَّه، فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ»؟!

صحيحٌ أنَّ سعىَ ومثابرة الناس والمؤهلات والاستحقاقات تؤثرُ فى تحصيل الرزق.

وصحيحٌ أنَّ العالَم، عالم الأسباب، وغالباً ما يستفيد المثابرون أكثر من الكسالى فى تحصيل الأرزاق.

إلّا أننا نرى استثناءات كثيرة قبالة هذه القاعدة، فقد نرى أناساً مُقعدين قد فُتحت أمامهم

---

(۱) بالرغم من احتمال بعضهم بتقدير محذوف من الآية إلَّاأنَّ ظاهر الأمر يشير إلى أن لا محذوف هناك فيكون المعنى كما يلى «إنْ امسَكَ اللَّه رزقهُ مَنْ هذا الذى يرزقكم» فتكون «أم» هنا بمعنى «بل» (فتأمل جيداً).

(۲) «لجوا» من مادة اللجاجة و «العَتو» تعنى الطغيان و «النفور» تعنى الابتعاد والهروب من الشىء.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۰

أبوابُ الرزق، وبالعكس فقد نرى مثابرين ومستحقين أينما يولّوا وجوههم فانَّ الأبواب مغلقة أمامهم، كما يقول الشاعر العربى المعروف:

كم عاقلٍ عاقلٍ أَعْيَتْ مذاهبُهُ وجاهلٍ جاهلٍ تلقاهُ مرزوقاً وهذا من أجل أن لا يضيع الإنسان فى عالم الأسباب وليعلمَ أنّ وراء هذا العالم، يداً قادرةً تديرُهُ وتعلو قدرتها فوق جميع القدرات، وكى لا يصيبَ الغرورُ المتنعمين والمستفيدين بسبب إمكانياتهم، فيظلموا ويطغوا، وحتى لا ييأس ذوو الإمكانيات المحدودة، لأَنَّه من الممكن أن يتغيَر الوضعُ فى كل لحظةٍ حسبَ الإرادة والمشيئةِ الإلهيّة.

وبتعبير آخر: من أجل توفر الرزق والقوت لكل إنسان تتظافر عشرات الأسباب أحدها سعى الإنسان ومثابرته، حتى أنَّ اللَّه قد منح القدرة على السعى والمثابرة ودوافعهما أيضاً.

وهنا يتمكن الإنسان من فهم نفحات من الذات الإلهيّة المقدّسة من خلال مسألة سعة الرزق وضيقه، فقد قال فى نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» اولئك الذين لديهم استعدادٌ لقبول الحق بسبب إيمانهم، ويتعرّفون أكثر على الذات المقدّسة من خلال مشاهدة هذه الميادين يومياً.

وفى الحقيقة أنَّ الأية أعلاه قد تكرر مضمونُها ومحتواها عشر مرات فى القرآن الكريم تشبه ما نُقل عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «عَرَفْتُ اللَّه سبحانه بفسخ العزائم وحلِّ العقود ونقضِ الهِمَم» «۱».

وتشابه ما نُقلَ عن بعض المفسِّرين أنَّ أحدَ العلماء سُئل عن الدليل على وحدانية اللَّه؟

فقال: «ثلاثة ادلّة: ذلُّ اللّبيب وفقرُ الأديب وسُقمُ الطبيب» «۲».

والتعبير ب «اوَلَمْ يَرَوا» إشارة إلى أنْ لو تمعنَ الإنسان قليلًا فى حياة الناس لرأى هذه الاختلافات جيداً.

ولابدّ من ذكر هذه النكتة وهى أنَّ إرتباط سعة وضيق الرزق بالإرادة الإلهيّة يعنى

---

(۱) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۲۵۰.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۱

الإرادة الممتزجة مع الحكمة وإلّا ليس للَّه‌مشيئةٌ بدونِ حكمه سواء كان هنا أم فى باقى الموارد.

علماً أنَّ ضيق الرزق فى هذه الآية (والآيات العشر) المذكورة لا يعنى مُطلقَ الحرمان من الرزق، حتى يتعارض مع الآيات الآتية التى تقول: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلى اللَّهِ رِزْقُهَا». (هود/ ۶)

بل المقصود قلةُ الرزق وفى نفس الوقت وجود الحد الادنى والكافى منه.

وفى الآية السادسة بعد أن يؤكّد على هذه النكتة وهى: أنَّ اللَّه لا يحتاجُ عبادَهُ وحينما يدعوهم إلى عبادته فليس بسببِ حاجته فيقول تعالى: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ». (الذاريات/ ۵۶- ۵۷)

و «الرزّاق»: صيغةُ مبالغةٍ تعنى كثير العطاء، وهذا يصدقُ بخصوص ذاته المقدّسة فقط، حيث جلست الكائنات الحية فى كلِّ زاويةٍ من هذا العالم العريض: على الجبال، فى بطون الصخور، فى أعماق الوديان، فى قاع البحار، وباختصارٍ فى كلِّ زاويةٍ وجانبٍ من هذا العالم العظيم على مائدة احسانِه، متنعمة بامداداته وفيضه.

وبما أنَّ مثل هذا العطاء والبذل الواسع وغير المحدود يحتاج إلى قدرةٍ وقوةٍ تامةٍ، فقد ذَكر بعد هذا وصفين آخرين: «ذُو الْقُوةِ» و «الْمَتِيْنُ» وهى من مادة «متن» وتعنى فى الأصل العَضلتين اللتين تحيطان بالعمود الفقرى، وتقومان بشَدِّ عضلات ظهر الإنسان من أجل انجاز الأعمال الشاقة، وهنا كنايةٌ عن القوة والاقتدار الخارق.

وفى الواقع أنَّ هذه الجملة وصفٌ للذات الإلهيّة المقدّسة فى بذل الأرزاق، لأنَّ هذه الصفة تخصُّهُ فقط، وأمّا الآخرون فكل ما يملكون فهو منه جلَّ وعلا، وإذا استعمل وصف «الرزاق» لبعض الناس أو للأسباب الطبيعية فهو يعنى فى الحقيقة الواسطة فى انتقال فيوضاتِه وليس الفّياض وخالق النِّعم.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۲

واستند فى الآية السابعة إلى موضوعٍ آخر وهو شمول رزق اللَّه لكلِّ الدّواب، هذا العمل الذى لا يمكن حصوله بدونِ احاطةٍ وعلمٍ كامل بجميع موجودات العالم، فلابدّ أن يعرفَ المُضيِّفُ عددَ ضيوفهِ سلفاً، وكذلك مقدار حاجاتهم وأذواقهم، كى يتمكنَ من

تقديم الطعام الملائم لهم، لهذا يقول فى هذه الآية: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ الَّا عَلىَ اللَّهِ رِزْقُهَا».

ويُشير هذا التعبير بجلاء إلى أنَّهُ قد تكفَّلَ برزق عباده، كى يَحدَّ من حرص وطمع بعض الناس واضطراب وقلق بعضهم الآخر من جانب، ومن جانبٍ آخر يبرهنُ على أنّه لو شوهدت شحةٌ فى الأرزاق، فهى مفتعلة ومن المؤكد أنّها حصلت نتيجة لظلم جماعةٍ من الناس وهضم الحقوق، والاحتكار وافتعال الأزمات الكاذبة أو فى النهاية بسبب عدم السعى للاستفادة من هذه المائدة الإلهيّة المبسوطة، تلك هى الأسباب التى يؤدّى كلٌّ منها أو مجتمعة، إلى حرمانِ بعض الناس من رزقهم وقوتهم، وإلّا فانَّ اللَّه قد ضمنَ رزقَ كلّ الدَّواب.

وبما أنَّ ايصالَ الرزق لهم يُعدّ متعذراً بدونِ علمٍ كاملٍ بأماكنهم وخصائصهم فهو يقول فى سياق الآية: «وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا ومُسْتَوْدَعَهَا».

وكلُّ ذلك مسجّلٌ فى كتابٍ جلّىً (هو اللوح المحفوظ، لوح علم الخالق) «كلٌّ فِي كِتابٍ مُبِيْنٍ».

و «دابَّة»: من مادة «دبيب» «وتعنى المشى البطىء» ويُطلقُ هذا اللفظ (دابّة) على البهائم والحيوانات والحشرات، بالرغم من استعمالهِ بخصوص الخيل فى بعض الموارد، إلّاأنّ المسلَّم به هنا أنّه ذو معنىً واسعٍ وشاملٍ حيث يشمل جميع البهائم «۱».

ولفظ «مُستَقَّر» يعنى المقر، والمكان الثابت، وهو مأخوذ فى الأصل من مادة «قُرّ» على وزن (حُرّ) وتعنى البرد القارص الذى يجعلُ الإنسان جليسَ الدار.

و «مُستَوْدَع»: يعنى المكان غير الثابت، وهى من مادة «وديعة» وتعنى فى الأصل ترك واطلاق الشىء، ولهذا يقال لِلُامور غير المستقرة «مستودع».

---

(۱) إنَّ «التاء» فى «دابّة» لا تدل على التأنيث، بل تشمل جميع الحيوانات مذكرها ومؤنثها، وبتعبير آخر أنَّ تأنيثها لفظىٌ وليس حقيقياً (مفردات الراغب وتفسير الكبير، ج ۱۷، ص ۱۸۵).

وهذه الألفاظ تلمّح إلى أنّه لا تظنّوا أنَّ اللَّه يوفرُ الرزقَ للموجودات فى مستقرها فقط، بل أينما تكون وفى أىّ نقطةٍ من الأرض والسماء، فهو يعلمُ ويرى مكانها ويعطيها رزقها هناك!

روى بعض المفسّرين فى ذيل هذه الآية حديثاً مفاده: «أنّ موسى عليه السلام عند نزول الوحى عليه وكان برفقة طفله وزوجته فى ليلة ظلماء فى وادٍ بطور سيناء، حيث أمره اللَّه سبحانه وتعالى أن يذهب إلى فرعون، فانصرف ذهنه إلى زوجته وطفله، كيف سيكون مصيرهم بعده.

فأمره اللَّه تعالى أن يضرب بعصاه صخرة فانفلقت وخرجت منها صخرة ثانية؛ ثم ضربها بعصاه مرّة اخرى فانفلقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فانفلقت فخرجت منها دودة كأصغر ما تكون عليه النملة وفى فمها شىء يجرى مجرى الغذاء لها، وعند ذاك رفع الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول: سبحان من يرانى، ويسمع كلامى، ويعرف مكانى، ويذكرنى ولا ينسانى» «۱».

كما ورد فى حديثٍ أنَّ الإمام الحسين عليه السلام كان له سيفٌ كتبَ عليه: «الرزقُ مقسومٌ والحريصُ محرومٌ، والبخيل مذمومٌ، والحاسدُ مغمومٌ» «۲».

ونختتم هذا الحديث بشعرٍ لأحد شعراء العرب، إذ يقول:

وكيف أخافُ الفقرَ واللَّه رازقى ورازقُ هذا الخلق فى العسرِ واليُسرِ تكفَّلَ بالأرزاق للخلق كُلِّهم وللضَّبِ فى البيداء والحوتِ فى البحرِ

وفى الآية الثامنة، يبدو وكأنّه يحاكمُ المشركين، ويبينُ بطلان عقائدهم عن طريق مسألة ايصال الرزق إلى الخلائق، ويوضح وحدانية الرَّب، فيقول: «قُلْ مَنْ يُرزُقُكُم مِنَ السَّموَاتِ وَالأَرضِ» من ضوء الشمس، من قطرات المطر الذى يهب الحياة، ومن هذا الهواء

(۱) تفسیر الکبیر؛ ج ۱۷، ص ۱۸۶؛ تفسیر روح البیان، ج ۴، ص ۹۷؛ و تفسیر روح المعانی، ج ۱۲، ص ۲.

(۲) تفسیر روح البیان، ج ۴، ص ۹۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۴

الذی یمد الکائنات بالحیاة، ومن أنواع المواد الغذائیة الموجودة فی أعماق الأرض وتظهر علی هیئة ثمراتٍ وغلاةٍ وخضروات.

ثم لا یَدَعُ النبی صلی الله علیه و آله ینتظر جوابهم فیردّ الجواب قائلًا: «قُلِ اللَّه وَإِنَّا أو إِیَّاکُم لَعَلی هُدیً أو فِی ضَلالٍ مُبِینٍ».

ولأنَه لا تجتمع عقیدتان متناقضتان، وبما أنّکم لا تملکون دلیلًا یثبتُ أنّ الأصنام هی منشأ البرکات، یتضح اذن أننا نتبع الحقَّ وأنتم فی ضلالٍ مبینٍ.

ولو لاحظنا هنا أنَّ النبی صلی الله علیه و آله لم ینتظر جوابهم، لأنَّهم فی الواقع لا یملکون جواباً لهذا التساؤل، سوی السکوت الممزوج بالخجل، وعلیه یجب علی المتکلِّم الفصیح أن یُمسکَ بزمامِ الحدیث فی مثل هذه الحالات ویقدِّمَ الجوابَ بنفسِه.

وأحدُ فنون الفصاحةِ هو أنْ یُلقی الکلام الغامض علی الخصوم من خلال الحوار ویترک الفصل لهمْ، لهذا یقول هنا: «وَإِنَّا أو إِیَّاکُم لَعَلی هُدیً او فِی ضَلالٍ مُّبِینٍ» ومن المسلَّم به أنَّ الضّالَ والمهتدی یتضحُ هنا، ومن الأفضل أن تبقی العبارةُ غامضةً فی الظاهر کی لا یتمادی هؤلاء فی عنادهم، وأن یُکلِّفوا أنفسهم عناء الاستنتاج.

والعجیب أنَّ بعضَ المفسِّرین یعتقدون أنَّ هذه العبارة من قَبیل «التقیّة» فی الوقت الذی لا مجال للتقیّةِ هنا، والأمرُ مشکوفٌ بجلاء- ولکن بشیء من اللطافة-، وحیث یقول فی البدایة: «إنّا» ثم یقول: «أنتم» ویتابع قائلًا علی «هدیً» أو علی «ضلال»، وهذا التسلسل یوضحُ الأمرَ أکثر.

وفی الآیة التاسعة، بعد أن أشارَ إلی نزول المطر المبارک من السماء، استند إلی ثلاثة أصنافٍ من الارزاقِ التی یستفید الجمیع منها، فیقول: «وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ مَاءً مُّبارَکاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِیْدِ».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۵

«وَالنَّخلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِیْدٌ» «۱» «رِزْقاً لِلْعِبادِ».

وفی الواقع فقد استند فی هذه الأیة إلی الثمار والمحاصیل الغذائیة لأنّها تمثلُ أهمَ وأَصلح جانبٍ من المواد الغذائیة للناس، واستند إلی التمر بالخصوص من بین الثمار، بسبب أهمیّته الغذائیة الفائقة، حیث بحثناه بالتفصیل فی محلِّه «۲».

والجدیر بالذکر: إنَّ بعض المفسِّرین یعتقد أنَّ استناد القرآن إلی هذه الأنواع الثلاثة من الأرزاق جاء بسبب خصائص کلٍّ منها علی حدة، لأنَّ بعض النباتات یُثمرُ سنویاً، دون الحاجة إلی بذر البذور، کانواع أشجار الفاکهة، وبعضها یحتاج إلی بذر البذور سنویاً کالحنطة والشعیر والرز والذرة وبعضها وسطاً بینهما کالنخیل الذی یکون أصلهُ ثابتاً إلّاأنّه یحتاج فی کلِّ عامٍ إلی «التلقیح»، بالنحو الذی یرفعون طلع الذکر وینثرونه علی ثمار النخلةِ کی تحمل بشکلٍ کامل، ومن الممکن أن تلقح بطریقة اخری (عن طریق الریاح والحشرات) إلّا أنّها لن تکون غزیرة الثمار.

وهذه النکتة جدیرة بالاهتمام أیضاً حیث إنّ فی تعبیر «رزقاً للعباد»، «۳» إشارة لطیفة إلی هذه الحقیقة وهی وجوب استثمار النعم الإلهیّة لسلوک طریق عبودیةِ اللّهِ، وهذه الموجودات مذعنةٌ ومطیعةٌ للإنسان کی ینال الرزق ولا یأکلُه غافلًا عن اللّه، کما قالالحکماء: أنت تعیش لتأکل وأنا آکل لأعیش وأذکر اللّه.

(۱) «حصید» تعنی المحصود (أو الجاهز للحصاد)، و «باسقات» جمع «باسقة» وتعنی الطویلة و «طلع» تعنی ثمرة النخیل فی بدایة تکوینها، و «نضید» تعنی المتراکم والکثیف الذی یبعث علی التعجب لا سیما فی ثمار النخیل أی التمر.

(۲) يُراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۲۵ من سورة مريم.

(۳) إنَّ نصبَ «رزقاً» جاء لكونه «مفعولًا لاجله»، ويُستبعدُ احتمال كونه «مفعولًا مطلقاً» أو «حالًا».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۶

وفى الآيـة العاشـرة وآخر الآيـات فى بحثنـا اسـتند إلى الأـنواع المتباينـة من الاطعمـة التى وضـعها البـارىء، تعـالى فى متنـاول الإنسان والدَّواب، ودعا الإنسان إلى التفحصِ فيها، كى يُعدَّهُ لمعرفة المُنعم ومعرفة اللَّه من خلال تحريضه على الشعور بالشكر.

فيقول: «فَلْيَنْظُرِ الإِنْسانُ الىَ طَعَامِهِ».

ليرى كيف تظافرت مختلف العوامل من الشـمس والأرض والهواء والمطركى تضع فى خدمته هذه النَّعم. فيجب أنْ ينظُر ويرى كيف: «أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً* ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً* فَأنبَتنَا فِيهَا حَبّاً* وعِنَباً وقَضْباً «۱»* وزَيْتُوْناً وَنَخْلًا* وَحَدَائِقَ غُلْباً* وَفَاكِهَةً وَأَبّاً» «۲».

مع أنَّ «فاكهـة» تشـمل جميع أنواع الثمـار، و «حـدائق» تتضـمن جميع البسـاتين، إلّاأنَّ الاسـتناد إلى «العنب» و «الزيتون» و «التمر» يأتى بسبب مزاياها المهمّة للغاية التى ثبتت الآن فى علم النبات بالنسبة لكلٍّ منها.

وبـالرغم من أنَّ «طعـام» تعنى عادةً الغـذاء المادى، لا سـيما بخصوص الآيـة التى تعقبها، فقـد ذُكرت موارد عديـدة للاطعمـة الماديّـة، الفواكه والحبوب، إلّاأنّه وكما ورد فى بعض الروايات، يمكن أن يكون للطعام معنى واسع وشامل حيث يشـمل الغـذاء المعنوى أيضاً، ويجب أن ينظرَ الإنسان جيداً ممَّ يكتسبُ العلمَ الذى هو غذاؤه الروحى، فلا ينبغى أن يكون مشتملًا على علوم سامة وهدامة.

والكلام الأـخير حول هـذه الآيـة الشـريفة، هو من الممكن أن تكون عبارة «فَلْيَنْظُرِ» هى النظر من أجل إدراك أسـرار المبـدأ والمعاد، وكذلك النظر لتمييز الصنف الطيِّب والطاهر، من الخبيث والملوث، والمشروع من اللامشروع والمفيد من الضّار.

يستفادُ جيداً من مجموع ما قيلَ فى شرح هذه الآيات أنَّ أنواع الرزق الإلهى آياتٌ

---

(۱) «قضب» على وزن (جذب) وتعنى القطع والقطف، وقد فسَّرها المفسِّرون بأنّها الخُضرُ التى تُقطعُ عدّة مرات.

(۲) «حـدائق» جمع «حديقـة» وتعنى البساتين المحصورة بين الجـداران، و «غُلب» جمع «اغلب» من مادة «غُلبة» وتعنى الضـخم الجُثّه، و «أب» تعنى النباتات الطبيعية والمراتع الطبيعية، أو الثمار التى تُجفَّف وتحفظ. (والآية ۳۱ من سورة عبس).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۷

وآثارٌ على عظمتهِ، وكيفية ظهورها، والنظام المدهش الذى استُعملِ فى بنائها، والصفات المميزة لكل منها، والمواد المعاشية الموجودة فى كلٍّ منها، وكـذلك كيفيـة ايصالِ هذه الأرزاق إلى المحتاجين ومطابقتها لحاجتهم، فكلٌّ منها آية ودليل عن حكمة وعظمة الذات الإلهيّة المقدّسة.

توضيحات

۱- من عجائب عالم الأرزاق

حقـاً لو تأملنـا فى النظـام العجيب الموجود فى ارتزاق مختلف الموجودات من المصـادر الطبيعيـة، لتجلَّت لنا امورٌ لطيفـةٌ ومدهشـة عن قدرة الخالق جلَّ وعلا.

الأمر الأول منها هو لماذا لا تتقلص كميـة المواد الغذائية الموجودة على الأرض مع قلتها واسـتفادة الناس والحيوانات على مدى آلاف الآلاف من السنين؟! كيف لا تنتهى هذه المائدة الممتدة فى كل مكانٍ؟!

حينما نتأمل جيداً نرى أنَّ المواد الغذائية فى هذه الدنيا لها شكلٌ خاص بحيث لو استُفيدِ منها لملايين الملايين من السنين، لم ينقص منها بقدر رأس الابرة، وهذا بسبب «حركتها الدائرية» فمثلًا أنَّ المياه تتبخر من البحر ثم تظهر على هيئة غيومٍ وامطار، فيهطل قسمٌ من ماء المطر إلى البحر ثانيةً، والقسم الآخر يصبحُ جزءاً من جسم الإنسان والحيوانات والنباتات ويتبخر وينتشرٍ فى الجو، وتستمر هذه الحركة الدائرية دائماً.

فالاشجار تمتص المواد الغذائية من الأرض وتتكون الفروع والأوراق، ثم تتساقط الأوراق وتتفسخ وتتحول فيما بعد إلى سمادٍ ومواد غذائيةٍ لنفس الأشجار، وتستفيد الحيوانات من المواد الغذائية ثم تُصبحُ تراباً، وجزءاً من المواد الغذائية فى الأرض.

ويتنفس الإنسان والحيوانات غازَ «الاوكسجين» ويطرح غاز «ثانى اوكسيد الكاربون»، ولكن الأشجار على العكس من ذلك فهى تأخذ غاز «ثانى اوكسيد الكاربون» وتطرح غاز

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۸

«الاوكسجين»، ويتكرر هذا التبادل دائماً، هنا نشاهد أنّ هذه المائدة الإلهيّة السرمدية مبسوطة باستمرار لتجلس كافة المخلوقات إليها للارتزاق منها دون أن يصيبها النقصان.

وكيفية إعداد الرزق للحيوانات عجيبةٌ أيضاً، فالبعضُ يتغذى على النباتات والرطوبة الموجودة على الأرض، وبعضٌ يحصل على غذائه من الماء «النباتات العائمة» وبعضٌ من الجو، وبعضٌ عن طريق الالتحام بنباتاتٍ اخرى «كبعض الطفيليات» وتعيش حيوانات أعماق البحار فى مكانٍ لا ينمو فيه نباتٌ أبداً، لأنَّ اشعة الشمس تتلاشى تماماً فى عمق ۶۰۰- ۷۰۰ م ثم يسود ماءَ البحر بعدها ليلٌ حالكٌ وسرمدىٌّ، إلّاأنّ البارى تعالى يهىء ويعدُّ رزقَها على سطح البحر ويرسلُه إليها فى أعماق البحر فالنباتات التى تنمو بكثرة على سطح البحر وسط الأمواج تصبحُ ثقيلة وتهبط إلى قاعه بعد نضوجها وتخصيص قسم منها للموجودات الحيّة على سطحه، وكذلك تنزل بقايا الموجودات التى تعيش على سطح البحر على هيئة مائدةٍ سماوية إلى الموجودات فى قاعه.

فقد تُصبحُ الطيورُ طُعمةً لأسماك البحر، واسماك البحر طعمةً للطيور، وقد يجعل النباتاتِ غذاءً للحيوانات، أو الحيوانات غذاءً للنباتات التى تأكل اللحوم! وقد يصنع من فضلات ولعاب بعض الموجودات غذاءً لذيذاً لموجودٍ آخر (كما فى بعض حيتان البحر حيث تخرج إلى ساحل البحر بعد تغذّيها على أسماك البحر المختلفة، فتبقى الفضلات بين أسنانها، فتفتح فمَها الذى يشبه الغار، فتدخلُ مجموعةٌ من طيور الساحل إلى فمها وتقوم باخراج اللحوم المتبقية من بين اسنانها وتتخذها طعاماً لذيذاً لها، فتقوم بدورِ المسواك فى تنظيف أسنان هذا الحيوان، الذى لا يسىء ردَّ الجميل، فلا يُطبقُ فاهُ حتى خروج آخر طيرٍ من فمه، وحينما ينتهى الأمر ويتخلص من المواد المزعجة، وتمتلىء بطون الطيور من الطعام حينئذ يُطبقُ فمَهُ ويتجه نحو أَعماقِ البحر «۱».

وباختصار: كلّما دققنا فى هذه المسألة أكثر، سنحصل على نقاطٍ جديدة فى مجال علمِ

---

(۱) يضيف الفخر الرازى فى تفسيره ضمن إشارته المختصرة لهذا الموضوع، أنّه على رأس هذا الطائر شىءٌ يشبه الشوك، فلو قَرر التمساحُ ابتلاع هذا الطائر فسيؤلمه ذلك «تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۱۱).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۸۹

وحكمةِ الخالق جلَّ وعلا، والتدبير الذى صُرفَ فى مجال الأرزاق، بشكلٍ لا يبقى مجالًا لأى نوع من الصدفة.

يكفينا التأمُل فى وضع الإنسان خلال المراحل الثلاث: الجنين، الرضاعة، والأكل، كيف أنَّ اللّه تعالى وضعَ فى متناولهِ ما يناسب حاله فى كلِّ واحدةٍ من هذه المراحل الحساسة بدونِ نقصٍ، فيتغذى طيلة مكوثه فى رحم الام عن طريق جهاز الحبل السّرى المعقّد والإرتباط المباشر بدم الام، وبعده الولادة، عندما لا توجدُ أسنانٌ لمضغ الطعام، ومعدتُه وامعاؤهُ غير مستعدةٍ لاستقبال الطعام، يهيىء له ثدى امه المليء بالحليب، غذاءً مناسباً، غنياً بكافة المواد الغذائية، معتدل الحرارة، لا تغلب عليه الحلاوة أو الملوحة، ولا يحتاج إلى

مضغٍ ونشاطٍ لمعدتهِ كى تهضمه.

وفى المرحلة الثالثة، يضع فى متناوله أنواعاً من الاطعمة «المناسبة»، فلو لم تكن أطعمة الإنسان وباقى الحيوانات «ملائمة» ويكون مجبوراً على تناولها كالأدوية المرّة، فايٌّ مأزق سينشأ فى حياته، ألا يفنى معظمُ الناس بسبب عدم توفر الطعام السليم لهم؟

ومن جانبٍ آخر، فقد أودعَ فى الإنسان الشعورَ بالجوع والعطش، كى ينجذب نحوهما بشكل آلى عندما يحسُ بالحاجةِ إلى هاتين المادتين الحيويتين، فتأملوا ما يحصل لولا هذا الشعور؟!

وكما يقول الإمام الصادق عليه السلام فى الحديث المعروف عن المفضّل:

«فكّر يا مفضل فى الأفعال التى جُعلت فى الإنسان من الطعم والنوم والجماع وما دبّر فيها فانّه جُعل لكل واحد منها فى الطباع نفسه محرّك يقتضيه ويستحث به فالجوع يقتضى الطعم الذى به حياة البدن وقوامه والكرى تقتضى النوم الذى فيه راحة البدن وإجمام قواه والشبق يقتضى الجماع الذى فيه دوام النسل وبقاؤه، ولو كان الإنسان إنّما يصير إلى أكل الطعام لمعرفته بحاجة بدنه إليه ولم يجد من طباعه شيئاً يضطره إلى ذلك كان خليقاً أن يتوانى عنه أحياناً بالتثقل والكسل حتى ينحل بدنه فيهلك ...، فانظر كيف جُعل لكل واحد من هذه الأفعال التى بها قوام الإنسان وصلاحه محرك من نفس الطبع يحركه لذلك ويحدوه عليه» «۱».

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۳، ص ۷۸ و ۷۹، توحيد المفضّل.

لهذا تُعتبر الرغبةُ فى نوعٍ من الطعام بالنسبة للاصحاء من الناس دليلًا على حاجة الجسم إلى ذلك الغذاء على نحو الخصوص، ويجب على مثل هؤلاء الأشخاص كذلك النزول عند هذه الرغبات الداخلية؛ يقول العالم الروسى المعروف «باولف»: «إنَّ الغذاءَ الطبيعى والمفيد، هو الغذاء الذى يؤكل بشهيَّةٍ وتلذذ».

ولهذا أيضاً لا معنى للالتزامِ بنظامٍ خاصٍ فى الامتناع عن الأطعمة التى يرغب الإنسان بتناولها لأنّ تلك الرغبة تعتبر بحد ذاتها أفضل دليلٍ على حاجةِ الجسمِ لها.

ما هذه التركيبات المحبوكة التى تحددُ بنفسها نوع حاجتها، ووقودها، وصنعها؟

وبمجرد أن يحصلَ نقصٌ توقظ شعورَ الإنسان وتدفعهُ نحو ذلك؟ هل يمكن حمل مثل هذه الامور على سبيل الصدفة؟ وهل هنالك إمكانية لوجود مثل هذا البرنامج المنظّم لولا وجود عقلٍ وتدبيرٍ واسعٍ؟

۲- هل أنَّ الرزقَ مقسومٌ؟

وردت هذه النكتة فى بعض الآيات أعلاه وهى أنَّ رزقَ كلِّ دابةٍ على اللَّه، وقد تكفَّلَ اللَّه به: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ الَّا عَلى اللَّهِ رِزْقُهَا ...». (هود/ ۶)

وورد فى بعضٍ آخر أنّ سعة الرزق وضيقة مشيئة الهية. (الروم/ ۳۷ وآيات اخرى .

واشير إلى هذا المعنى فى الروايات أيضاً، فيقول امير المؤمنين عليه السلام: «وَقَدَّر الأرزاقَ فكثَّرها وقلَّلها وقسَّمها على الضَّيق والسَّعة» «۱».

وفى حديث آخر عنه عليه السلام نقرأ فى حثِّه على طلب العلم إذ يقول:

«إنَّ طلبَ العلمِ أوجَبُ عليكم من طلبِ المال، إنَّ المالَ مقسومٌ مضمونٌ لكم قد قسَّمَهُ عادلٌ بينكم وضَمِنَه وَسَيَفى لكم والعلمُ مخزونٌ عند أهلهِ قد امرتُم بطلبهِ» «۲».

(۱) نهج البلاغة خطبة ۹۱.

(۲) معالم الدين، ص ۹.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۱

والآن يبرز هذا التساؤل وهو: لو كان الأمر كذلك فما هو مفهوم السعى والاجتهاد لطلب الرزق والتخطيط لتحسين الوضع الاقتصادى للمجتمع؟

ولكن من خلال التمعُن فى الآيات والروايات فيما إذا جُمعت مع بعضها يتضح الجواب على هذا السؤال بأنَّ المقصود من ضمان الرزق من قبل اللَّه تعالى وتكّفله والتزامه بتقسيمه هو اعداد الأرضية اللازمة، ومتى ما تظافرت الأرضية الخارجة عن طاقة الإنسان، والاستعدادات الموجودة فى ذاتِه، يستلم الإنسان نصيبه من الرزق.

وهذا يشبه تماماً رواتب العاملين فى مؤسسة ما والتى يحددها المدير إلّاأنَّه لا يجلبُ تلك الرواتب إلى بيوتهم بل يجب عليهم أن يعملوا، ثم يذهب كلٌ منهم لملء بطاقةِ راتبه ليستلمه.

ولا يجب نسيان هذه الحقيقة بأنّ اللَّه تعالى ومن أجل أن لا يضيع الناس فى «عالم الأسباب» ويعتبروا أنَّ حاصل الرزق يأتى عن طريق السعى والاجتهاد فقط، فهو يوصل الرزق أحياناً لاناسٍ لم يبذلوا جهداً جهيداً وقد يسلب الرزق من أشخاصٍ مجتهدين كى يوضح أنَّ وراء هذا العالم قدرةً اخرى (ولكن يجب أن لا ننسى أنَّ هذا مجرّد استثناء، وأمّا القاعدة الأساسية فهى السعى والاجتهاد).

ولعلّه لهذا الأمر ورد فى حديثٍ عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«واعلموا أنَّ الرزقَ رزقان: فرزقٌ تطلبونه ورزقٌ يطلبكُم فاطلبوا أرزاقكم من حلال، فانّكم إن طلبتموها من وجوهها أكلتموها حلالًا وإنْ طلبتموها من غير وجوهها أكلتموها حراماً» «۱».

هذا الفارقُ فى الرزق يعتبرُ فى الواقع دليلًا على الجمع بين الآيات والروايات التى تعتبرُ الرزقَ مُقَسَّماً ومضموناً، والروايات التى تعاكسها، التى تعتبر الجد والاجتهادَ والمثابرة شرطاً للاستفادة من الرزق «۲».

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ۴۷.

(۲) من أجل التعرف على هذه الروايات يراجع، وسائل الشيعة ج ۱۲، كتاب التجارة، ص ۹ و ۱۶ و ۱۸ و ۲۲ و ۲۴ و ۲۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۲

بالإضافة إلى أنَّ التعرف على هذا الاختلاف فى الرزق يدفع الحريصين إلى التخلى عن حرصهم، ولا يتلوث المؤمنون بتحصيل الرزق من الحرام، ولا ييأس المحرومون أيضاً.

۳- إذا كانَ الرزقُ مضموناً للجميع فلماذا يموتُ البعضُ جوعاً؟

فى الآيات أعلاه تتجسدُ هذه الحقيقة جيداً بأنَّ اللَّه تعالى قد تكفَّلَ برزق جميع الموجودات الحيّة، وايصاله إليها أينما كانت، ولكن يبرز هذا السؤال وهو: لماذا ماتت وتموت مجاميعُ من الناس جوعاً الآن وعلى طول التاريخ؟ أَلَمْ يُؤَمَّنْ رزقُها؟!.

فى الرد على هذا التساؤل يجب أخذ النقاط الآتية بنظر الاعتبار: أولًا: إنَّ تأمين وضمان الرزق لا يعنى اعدادَه للإنسان العاقل والمكلَّف وارساله إلى بيته، أو وضعهِ فى فمه كاللقمة، بل قد اعدت الأرضية اللازمة، وسعىُ الإنسان واجتهاده يعتبر شرطاً لتحقيق هذه الأرضية وايصالها إلى مرحلة الفعل، حتى مريم (عليها السلام) عندما كانت فى ذلك الوضع الصعب وفى تلك الصحراء القاحلة حيث هيأ لها

اللَّهُ تعالى رزقها رطباً جنياً على جذع النخلة أمرها بأنْ تسعى وخاطبها: «وهُزِّى اَلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ».

ثانياً: لو أنَّ الناسَ- فى الماضى والمستقبل- يقومون بهضم حقوق الآخرين ويسلبون أرزاقهم ظلماً فهذا ليس دليلًا على عدم تأمين البارىء تعالى للرزق، وبتعبير آخر: إضافة إلى مسألة السعى والاجتهاد فإنّ وجود العدالة الاجتماعية يعتبر سراً فى التوزيع العادل للأرزاق، وإذا قيل: لماذا لا- يمنع اللَّهُ ظلمَ الظالمين؟ نقول: إنَّ أساس حياة البشر يقوم على الحرية وليس على الاجبار والاكراه كى يخضع الجميع للامتحان، وإلّا فلا يحصل التكامل «فتأمل جيداً».

ثالثاً: هناك مصادر كثيرة لتأمين طعام البشر على هذه الكرة الأرضية ولكن يجب أن تكتشفَ وتُستخدمَ بذكائهم ومعرفتهم، وإذا قصَّر الإنسان فى هذا المجال فالذنبُ ذنبهُ.

لا يجب أن ننسى أنّ بعض مناطق افريقيا التى يموت شعبها جوعاً تعتبر من اغنى

مناطق العالم، إلّاأنّ العوامل المدمرّة التى أشرنا إليها آنفا جعلتهم يهيمون فى ليلٍ مظلم.

نختتم هذا البحث المختصر بحديثٍ عن الإمام على عليه السلام ورد فى نهج البلاغة، يقول:

«انظروا إلى النملةِ فى صِغرِ جُثتها ولطافةِ هيئتها لا تكادُ تُنالُ بلحظِ البَصرِ ولا بمُستدركِ الفكَرِ كيفَ دبَّت على أرضها، وصُبَّت على رزقها تنقُلُ الحبَّةَ إلى جحرِها وتُعِدُّها فى مستقرها، تجمعُ فى حَرِّها لبردها، وفى وِردِها لصدرِها» «۱».

۴- سعةُ الرزق وضيقه

وردَ فى الآيات أعلاه أنَّ اللَّه تعالى يبسطُ الرزقَ لمن يشاء ويُضيقَهُ على مَنْ يشاء، وهذا التعبير الذى تكرَّر فى آياتٍ عديدةٍ يمكنُ أن يُوجدَ هذا الخلط وهو أنَّ نظام الرزق خارجٌ عن إرادة الإنسان بشكلٍ كامل، طبقاً لذلك فلو تَنَعَّمَ قومٌ وحُرمَ آخرون فهذه مشيئة اللَّه وليس ما كسبته أيدينا وليس لنا حول ولا قوّة! ويُمكن أن يكون هذا مكسباً جيداً لُاولئك الذين يشكلون على أصل الدين ويعتبرونه وليداً للحركات والمشاريع الاستعمارية.

ولكن لو تأملنا فى هذه الآيات والروايات وفكّرنا فى أسباب ضيق الرزق وسعَته لتجلّى لنا تفسير هذه الآيات وأسرارها وسيتم القضاء على تلك الأفكار الهدّامة، ونتوصل إلى امور مهمة وقيمّة للغاية.

لقد قلنا مراراً أنَّ التعبير ب «الارادة الإلهيّة» لا يعنى الإرادة التى تخلو من الحساب والكتاب، بل الإرادة الممتزجة ب «الحكمة».

إنَّ حكمة اللَّه تقتضى أنّ من يسعى ويجتهد ويُخلصُ ويُضحى أكثر، يكون رزقه أوسعُ:

«وأَنْ لَّيْسَ لِلاِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . (النجم/ ۳۹)

و «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ». (المدثر/ ۳۸)

«وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَيَرزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحتَسِبُ». (الطلاق/ ۲- ۳)

---

(۱) نهج البلاغة خ ۱۸۵.

فالتقوى تؤدّى إلى سيادة العدالة الاجتماعية ومن ثمَّ تؤدى إلى سعة الرزق، كما أنّ السعى والمثابرة تُعِدُّ الأرضية اللازمة للازدهار الاقتصادى وتعتبر سبباً فى سعة الرزق، وبناءً على ذلك فانَّ التعاليم أعلاه ونظراً لجذورها واصولها لا تعتبر سبباً فى الخمول وترك السعى، بل إنّها من العوامل المؤثرة فى السعى والاجتهاد.

والشاهد هو هذا الحديث القيّم الذى نُقل عن الإمام على عليه السلام، حيث يقول:

«إنَّ الأشياءَ لمّا ازْدَوَجَتْ إزْدَوَجَ الكَسَلُ والعَجْزُ فَنَتَجا بينهما الفَقْر» «۱».

نعم .. ففقرُ كلِّ قوم، نتيجة مباشرة لضعفهم وخُمولهم، وقد اقتضت الحكمة الإلهيّة أنْ يضيق الرزقُ على مثل هؤلاء.

إنَّ التَأمُّلَ فى أسبابِ ضيق وسعة الرزق فى الروايات شاهدٌ ناطقٌ آخر على القول السابق.

ومن جملة الامور التى ذكرتها فى الروايات كاسبابٍ لسعة وبسط الرزق ما يلى:

صلة الرحم، نظافة الدار والأوانى والجسم، مواساة المسلمين، السعى مبكراً لطلب الرزق، شكر النعمة، الاقلاع عن البخل، اجتناب اليمين الكاذبة، الاستغفار والتوبة من الذنوب، حسن النية فى الأعمال، الاحسان إلى الجيران وذكر اللَّه «۲».

نقرأ فى حديثٍ عن النبى صلى الله عليه و آله: طيبُ الكلام يزيدُ فى الارزاق «۳».

وجاء فى حديثٍ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فى سعةِ الاخلاقِ كنوز الأرزاق» «۴».

وورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «كَثرةُ السُحتِ يمحقُ الرزق» «۵».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۷، ص ۶۰.

(۲) بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۳۱۴ (باب ما يورث الفقر والغنى ، و سفينة البحار، ج ۱، ص ۵۱۹ و ۵۲۰.

(۳) المصدر السابق.

(۴) المصدر السابق.

(۵) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۵

۱۷- آياته فى خلق الطيور

تمهيد:

لقد أَحْبَّ الإنسان على مرّ التاريخ الطيورَ وتمتَّع بتربيتها ومشاهدتها تُحلقُ فوقَ رأسهِ فى السماء بشكلٍ جميلٍ، وكانت هذه الظاهرة تبعث على دهشته دائماً، وهى كيفية امكان أنْ يحلِّق جسم ثقيل فى السماء ويتحرك بتلك السرعةِ خلافاً لقانون جاذبية الأرض؟!.

وليست هذه الصفة فقط بل صفات اخرى كالريش و الجناحين، التغريد اللطيف لبعضها، طراز بناء البيت والعش، تربيةِ الفراخ واطعامها، الهجرة الطويلة لقسمٍ منها، وامور اخرى من هذا القبيل كانت مصدراً لدهشته، بالرغم من أنّ تكرار هذه الحالات المثيرة أدّى وبالتدرج- إلى أن يمرَّ بعضُ الناس عليها مرور الكرام.

وقد أشارَ القرآن الكريم فى جانبٍ من آياتِ التوحيد إلى هذه المسألة، ودعا الجميع مشاهدة عالم الطيور، كى يَرَوْا آيات وبراهين البارى تعالى

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية.

۱- «أَلَمْ يَرَوْا إِلىَ الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». (النحل/ ۷۹)

۲- «أَوَلَمْ يَرَوا إِلىَ الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافّاتٍ ويَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ الَّا الرَّحمَنُ انَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ». (الملك/ ۱۹)

۳- «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمَواتِ وَالأَرْضِ والطَّيْرُ صَافَاتٍ كُلٌ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيْحَهُ وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ». (النور/ ۴۱)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۶

۴- «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِی الأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ یَطِیْرُ بِجَنَاحَیْهِ إِلَّا امَمٌ أَمْثالُکَمْ مَّا فَرَّطْنَا فِی الْکِتابِ مِنْ شَیءٍ ثُمَّ إِلَی رَبِّهِمْ یُحْشَرُونَ». (الانعام/ ۳۸)

شرح المفردات:

«طَیر»: جمع (طائر) وتُقال لکلِّ حیوانٍ ذی جناحٍ وریشٍ، ویحلِّقُ فی الهواء، ومصدرها «الطیران» «۱»

و «تَطَیَّر» تقالُ لطالع السوء الـذی کانوا یستلهمونه فی الجاهلیـة من حرکة الطیور، ولکن اطلقَ فیما بعد علی کل أشـکال التشاؤم وسوء الطالع.

کما جاء لفظ «تَطایُر» بمعنی الحرکة بسرعة أیضاً «۲».

«صافّات»: من مادة «صف» وتعنی وضع الأشیاء فی خطٍ مستقیم، کالناس أو الأشجار حینما یکونون فی خطٍ واحد، فعندما یُطلق هذا اللفظ وصفاً أو حالًا للطیور: «والطَّیْرُ صافّاتٍ»، فهو إشارة إلی بسطِ الأجنحةِ فی السماء أثناء الحرکة، ویعاکسها: «ویَقْبِضْنَ».

ولفظ «إصطفاف» کنایة عن التسلیم والطاعة المحضة والخضوع التام، وإشارة للخدمِ الذین یقفون فی صفٍ واحدٍ استعداداً لتقدیم الخدمة «۳».

وبطبیعة الحال أنّ احتمال: «والطیرَ صافاتٍ» إشارة إلی مجموعة من الطیور التی تتحرک بشکلٍ جماعیٍّ فی صفٍ أو عدة صفوف حیث تلفتُ الانتباه بتناسقها وارداً أیضاً، إلّا أنَّ عبارة «ویقبضنَ» تمنعُ هذا التفسیر.

---

(۱) وقد قالوا إنّ مصدر هذا الفعل «طَیر» أیضاً، وطیور جمع الجمع (جمع طَیر) وذکر بعضهم أنّ «طیور» جمع «طائر».

(۲) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ کتاب العین؛ ومجمع البحرین.

(۳) التحقیق فی کلمات القرآن الکریم؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۷

جمع الآیات وتفسیرها

الطیرُ یُسبّحُ وأنا صامت!

أکدت الآیة الاولی علی أن تحلیق الطیور فی جو السَّماءِ خلافاً للجاذبیة الأرضیة هو آیةٌ من آیات اللّه: «أَلَمْ یَرَوْا الَی الطَّیرِ مُسَخَّراتٍ فی جَوِّ السَّماءِ» «۱»

.

ونظراً لطبیعة الأجسام فی الانجذاب نحو الأرض فانَّ حرکة الطیور فی أعالی الجو تبدو شیئاً عجیباً، ویجب أنْ تُؤخذ مأخذ جدّ، فمن المسَّلم به أنَّ هناک مجموعة من المزایا لدی الطیور تمکنها من الطیران بیُسرٍ فی السماء مستثمرة مختلف القوانین الطبیعیة المعقّدة، إنّه لشیء یبعث علی الدهشة بلا شک.

إنّ لهذا المیدان العجیب والقوانین التی تسبب هذه الظاهرة المدهشة ربّاً قادراً حکیماً مطلعاً علی أسرار العلوم، بل لیست العلوم إلّاشیئاً من القوانین التی وضعها، لهذا یقول فی سیاق الآیة: «مَا یُمْسِکُهنَّ الَّا اللّهُ».

ویضیف فی ختام الآیة: «إِنَّ فِی ذَلِکَ لَآیاتٍ لِّقَوْمٍ یُؤْمِنُونَ».

وسنری فی الایضاحات التی ستأتی فی نهایة هذه الآیات- إن شاء اللّه- ما هی القوانین التی یجب أنْ تتظافر کی تحصل هذه الظاهره

التى تُدعى «الطيران»، لذلك نواجه فى كلِّ خطوةٍ آيةً جديدةً من آيات مُبدىء الوجود العظيم.

والآية الثانية تتشابه مع الاولى من عدة وجوه، إلّاأنَّه يُلاحظُ فيما بينهما اختلافاتٌ أيضاً، ففى هذه الآية يدعو الناس «لا سيما المشركين» إلى تفحّص اوضاع الطيور، هذه الموجودات التى تنطلق من الأرض خلافاً لقانون الجاذبية الأرضية، وتتحرك مسرعةً بكل

---

(١) لقد اتخذ بعضهم لفظ «جَوّ» بمعنى الفضاء الذى يحيط بالأرض، وبعضٌ بمعنى «الهواء» قريباً كان أم بعيداً عن الأرض، ولكن يبدو أنّ ما يستعمل عادةً هو المعنى الأول، وهو الذى يناسب الآية أعلاه حيث يمكن أن يكون مصدراً للاعجاب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۸

يُسرٍ فى جو السّماء لساعاتٍ وأحياناً لأسابيع، وحتى أحياناً لعدة شهور بدون توقفٍ، حركةً مرنة وسريعةً، بنحوٍ تبرهن على أنّها لا تواجه مشكلةً فى عملها.

فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوا الَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ويَقْبِضْنَ» «١»

.

فلا أحد سوى الرحمن الذى عمَّت رحمتُه كلَّ شىء، يستطيع أن يُمسكَهُنَّ هناك: «مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرحْمَنُ».

أجل .. اللَّهُ الذى منَحها كلَّ أدوات الطيران، وعلَّمها طريقته واسلوبه، كما وضعَ قوانين وانظمةً تستفيدها فتحلّق بيسر وسهولة، فهو العليم بحاجات كل الموجودات والبصير بكلِّ شىءٍ: «إِنَّه بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيْرٌ».

وابتداءً من الذرات حتى المنظومة الشمسية، والمنظومات الاخرى الجبارة، ومن النباتات والحيوانات المجهرية، حتى الموجودات العملاقة، والكل يستمر فى وجوده بتدبيره جلَّ وعلا، التدبير الذى يُطلعنا فى كلِّ مرحلةٍ منه على آيةٍ جديدةٍ من علمه وقدرته تبارك وتعالى وينفى كل أشكال الاحتمال بوجود الصدفةِ وقدرتها على الخلق، ويملأ القلب بحبّه والإيمان به.

ويُمكن أن يكون التعبير ب «صافاتٍ» و «يَقْبِضْنَ» إشارة إلى وضع الطير، حيث يبسطنَ أجنحتهنَّ تارةً، ويجمعنَها اخرى ويقدرنَ على الطيران من خلال هذين الفعلين، ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنْ يكون إشارة إلى صنفين من الطيور: الطيور التى غالباً ما تكون أجنحتها مبسوطة، وتركبُ أمواجَ الهواء، وفى نفس الوقت تسيرُ فى كلِّ اتجاهٍ بسرعة، فكأنّما هناك قدرةٌ خفيَّةٌ تُحركُها لا نراها بأعيننا، والطيور التى تخفق اجنحتها باستمرار أثناء طيرانها، ولبعضِ الطيور حالةٌ وسطٌ بين هاتين الحالتين أثناء الطيران «٢».

---

(١) يقول بعض المفسرين لو تعدت «الرؤية» ب «إلى فهى تعنى الرؤية الحسّية، وإذا تعدت ب «فى» فهى تعنى المشاهدة القلبية والمطالعة العقلية (تفسير روح البيان، ج ١٠، ص ٩١).

(٢) لماذا جاءت «صافاتٍ» بصيغة الاسم الفاعل، و «يقبضنَ» بصيغة الفعل المضارع؟ وردت تفسيرات كثيرة أفضلها: يقال إنّه عند انبساط الاجنحة يأخذ وضع الطائر نسقاً واحداً، بينما يتكرر رفيف اجنحته عند خفقانها، وهذا ما يناسب الفعل المضارع ويكسبه صفة الاستمرارية. وذُكر تفسير آخر فى «الكشاف» وأيده بعض المفسرين: بأنّ منشأ هذا التفاوت ينبع من أنّ الطيران هو الحالة الأصلية الاولى للطيور، والحالة الثانية هى عرضية. غير أن الغموض يكتنف هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۲۹۹

وفى الآية الثالثة نواجه صياغة جديدة بصدد الآيات التوحيدية لحياة الطيور إذ يخاطبُ النبى صلى الله عليه و آله قائلًا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى السَّمواتِ وَالأَرْضِ» «والطَّيْرُ صافَّاتٍ».

الطيور التى تتحرك فى الجو صفوفاً، بجلالٍ وعظمةٍ وجمال ولا تتعبُ العين من مشاهدتها أبداً، فهى ترسمُ أشكالًا هندسيةً مختلفة على صفحة السماء بحيث تذهلُ الإنسان، إذ قد تطير المئات بل الآلاف من الطيور وتغيُّر طريقها باستمرار من خلالِ أمرٍ خفيٍّ من دون

أن يحدث اصطدامٌ فيما بينها.

ويضيف فى سياق الآية: «كُلٌ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وتَسْبِيْحَهُ» «۱»

.

نعم .. فلكلٍّ منها صلاةٌ وابتهال ومناجات ودعاءٌ وحاجاتٍ فى عالمها الخاص، ولكلٍّ تسبيحه وتعظيمه وثناؤه، ومن المعروف أنَّ ذرات وجود أىٍّ منها وبناء مختلف أعضائه وحركاته وسكناته تُخبرُ عن مُبدىءٍ عظيمٍ يجمعُ كافة الكمالات ومُنَزَّهٍ عن جميع النواقص، وهى دائمةُ التّسبيح بحمده بلسان حالها.

ويعتقد بعضهم أنَّ حمدَها وتسبيحها وصلاتها عن وعى، ويعتبرون لكلِّ موجودٍ حتى الذى نَحسبُه جماداً وبلا روح، عقلًا واحساساً، بالرغم من جهلنا به، كما نقرأ فى مكانٍ آخر: «وَإِنْ مِّنْ شَىءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَّاتَفْقَهُوْنَ تَسْبِيْحَهُم». (الاسراء/ ۴۴)

وكل تفسير من ذينك التفسيرين الصحيحين يصلح أن يكون شاهداً على ادعائنا بأنَّ جميع الموجودات فى هذا العالم، لا سيما الطيور التى تطير فى جوِّ السماء، آياتٌ وبراهينٌ على قدْرةِ وعلم خالق الكون.

---

(۱) هنا حيث يعود الضمير فى «عَلِمَ» إلى «اللَّه» أو إلى «كلّ» هنالك جدالٌ بين المفسِّرين، ولكن ما يناسب وضع الآية هو أن يعود الضمير إلى «كل» فيعنى: «كل واحد» أى أنَّ كلَّ واحدٍ من موجودات الأرض والسماء والطيور يعرف صلاته وتسبيحه جيداً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۰

ويقول فى نهاية الآية: «وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِمَا يَفْعَلُوْنَ».

فهو يعلم كل أعمالهم ونواياهم وجميع حاجاتهم، وهنا لماذا استند فى هذه الآية إلى بسط أجنحة الطيور فقط «صافات»؟ لعلَّ السبب هو هذا الوضع العجيب والمدهش حيث تستطيع أن تتحرك فى جو السماء بسرعة بدون تحريك اجنحتها كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

والاحتمال الوارد أيضاً هو أنّ الطيور تتحرك فى السماء بشكلٍ جماعى بنحوٍ يبعث على الحيرة، حركة هندسية منظّمة، متناسقة تماماً، وبلا قيادةٍ ظاهرةٍ.

وأشار فى الآية الرابعة والأخيرة من البحث إلى مسألةٍ جديدةٍ اخرى من عجائب عالم الطيور فقال: «وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلَا طائِرٍ يَطِيْرُ بِجَناحَيْهِ إِلَّا امَمٌ أَمْثالُكُم».

والتعبير ب «امَمٌ» جمع «امّة» يدللُ على أنَّ لها عقلًا واحساساً فى عالمها، والتعبير ب «أمثالكم» يؤكد هذا المعنى أيضاً، لأنّها تشابه الإنسان فى مسألة الإدراك والفهم والشعور، وهذا تأكيد مجدد للتفسير الذى ورد فى الآية السابقة، بأنَّ لها تسبيحاً ودعاءً عن وعيٍ فى عالمها الخاص بها «۱».

إنَّ القرائن المتوفرة لدى الطيور، وباقى الحيوانات، تؤيد بأنّها ذات ذكاءٍ وشعور.

لأنَّ: أولًا: الكثير من الحيوانات تعمل بمهارةٍ ودقةٍ فى بناءِ بيوتها وجمع غذائها وتربية فراخها، ورعايتها، وسعيها لسد حاجات حياتها الاخرى بدقة ومهارة لا يُصدق معها، صدور هذا العمل عن غير عقلٍ وشعور؟.

وهى تبدى ردود فعلٍ مناسبة ازاء الاحداث التى لا تمتلك تجربةً سابقةً حيالها، فمثلًا نرى أنَّ الخروف الذى لم يَرَ ذئباً طيلة حياته له وعىٌ كاملٌ عن خطر هذا العدو ويدافع عن نفسهِ بكلِّ وسيلةٍ يستطيعها.

---

(۱) لقد اعطى المفسرون احتمالات كثيرة فى تفسير تشبيهها بالإنسان حيث يبدو أنَّ ما اوردناه أعلاه أكثر تناسباً بالرغم من عدم وجود تعارضٍ بين هذه الاحتمالات. يراجع تفسير المنار، ج ۷، ص ۳۹۲؛ وتفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۴۱۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۱

لقد قاموا بتربية الحيوانات من أجل غاياتٍ مهمّةٍ، كالطيور التى تنقل الرسائل، والحيوانات التى تُرسلُ إلى السوق للشراء، وحيوانات الصيد، وكلاب الشرطة التى تستعمل للكشف عن المخدّرات، وملاحقة المجرمين وامثال ذلك، فتُربّى هذه الحيوانات بنحوٍ قد تكون أفضل وأكثر ذكاءً من الإنسان فى انجاز مهمتها، حتى فى هذا العصر الذى تنوعت فيه معدات كشف الجرائم لم يجدوا فى انفسهم غنىً عن هذه الكلاب!.

خصوصاً أنَّ بعض الحيوانات كالنحل والنمل والأرضة، وبعض الطيور كالطيور المهاجرة، وبعض حيوانات البحر كالأسماك الحرّة التى تقطع آلاف الأميال فى اعماق البحر باتجاه منشئها الأصلى أثناء وضع البيوض، تعيش حياةً دقيقةً ومليئةً بالأسرار بحيث لا يمكن نسبتُها إلى الغريزة، لأنَّ الغرائز تُعتبر عادةً مصدراً للأعمال ذات النَسق الواحد، فى حين أنَّ حياة هذه الحيوانات ليست كذلك، وأعمالها دليلٌ على فهمها واحساسها النسبى.

يقول مؤلف تفسير «روح المعانى»:

أنا لا أرى مانعاً من القول بأنّ للحيوانات نفوساً ناطقة وهى متفاوتة الإدراك حسب تفاوتها فى أفراد الإنسان وهى مع ذلك كيفما كانت لا تصل فى إدراكها وتصرفها إلى غاية يصلها الإنسان، والشواهد على هذا كثيرة وليس فى مقابلتها دَليل يجب تأويلها لأجله «۱».

والظاهر أنّ مقصوده من الشواهد هذه التلميحات أو التصريحات التى جاءت فى القرآن الكريم فى قصة «الهدهد وسليمان» وكذلك «النملة وسليمان»، وكذلك الروايات التى نُقلت فى تفسير آية البعث بأنَّ الحيوانات تُحشرُ وتُنشرُ وتحاسبُ يوم القيامةِ أيضاً «۲».

ولكن على أيّةِ حالٍ فسواء كانت أعمالها وتصرفاتها ناتجة عن عقلٍ وإرادةٍ أو عن غريزة فلا أثر لذلك على بحثنا، فهى بأىَّ نحوٍ آيةٌ من آيات اللَّه وبرهانٌ من براهين علمه وقدرته.

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۷، ص ۱۴۷.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۲۹۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۲

واللطيف أنّه يقول فى نهاية الآية: «مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتابِ مِنْ شَىءٍ» «۱». «ثُمَّ إِلَى ربِّهِمْ يُحْشَرُوْنَ».

والتعبير ب «حَشر» يشير أيضاً إلى أنّها ذات عقلٍ وإرادةٍ نوعاً ما.

يُستفادُ من الآيات أعلاه أنَّ الطيور ومن عدة جوانب تعتبر من آيات اللَّه ولا يمكن نسبة هذه الظواهر الدقيقة والمعقدة والمليئة بالأسرار إلى الصدفة العمياء والصماء أو إلى الطبيعة التى لا عقل ولا شعور لها.

توضيحات

۱- فَنُّ الطيران الْمعقَّد

منذ سنواتٍ والإنسان يُفكر: ما هذه القوة الخفيّة التى تساعد الطيور الثقيلة نسبياً على الطيران خلافاً لجاذبية الأرض وتجعلها تطير بانسيابية ويُسرٍ ومهارةٍ فى أعالى السماء، وتتنقلُ بسرعةٍ؟ ولكن باختراع الطائرة وصناعتها تمّ اكتشاف هذا السر بانَّ هناك قوة تسمى (القوة الرافعة) تستطيع أنْ ترفع الأجسام الثقيلة جدّاً وتجعلها تطير فى السماء، فضلًا عن الطيور. ويمكن توضيح ذلك فى عبارةٍ بسيطةٍ وخاليةٍ من المصطلحات الفنية بما يلى:

لو كان لجسم سطحان مختلفان (كاجنحة الطيور أو اجنحة الطائرة حيث يكون سطحها العلوى منحنياً وبارزاً، فلو تحرك هذا الجسم افقياً ستتولد قوةٌ خاصةٌ ترفعُهُ إلى الأعلى وهذا يعود إلى أنَّ ضغط الهواء سيتضاعف على السطح السفلى أكثر من العلوى (لأنَّ السطح العلوى أوسع من السفلى).

وتعدّ الاستفادة من هذا القانون السبب الرئيس فى تحليق الاجسام الثقيلة فى الجو، ولو

---

(١) «فَرَّطنا» من مادة «تفريط» أى التقصير فى اداء العمل وتضييعه بنحوٍ يضيع (صحاح اللغة) ويردُ هذا الاحتمال أيضاً بأنَّ المقصود من عدم التفريط فى هذا الكتاب السماوى يعنى أنَّ للقرآن مفهوماً جامعاً حيث يشمل كافة حاجات الإنسان إلّاأنّه نظراً إلى ذيل الآية فانَّ المعنى أعلاه يعتبر أكثر مناسبة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۳

تأملنا اجنحة الطيور جيداً للمسنا هذا القانون الفيزيائى بكل دقة.

غير أنّ هذه مسألة واحدة فقط من عشرات المسائل المهمّة فى الطيران، ومن أجل تصور أوسع له لابد من التطرق إلى الامور الآتية:

١- السرعة الأولية لحصول القوّة الرافعة (فالطائرة تسير وقتاً طويلًا على الأرض للحصول على هذه السرعة، أمّا الطيور فقد تركض قليلًا أو بقفزةٍ سريعةٍ فى الهواء فتصل هذه الغاية!).

٢- كيفية التحكم بهذه القوّة أثناء الهبوط (وهذا الأمر يجرى فى الطيور والطائرة بتقليل السرعة وتغيير هيئة الجناح!).

٣- كيفية تغيير الاتجاه أثناء الطيران (ويتم هذا الأمر عن طريق الاستفادة من حركات مؤخرة الطائرة أو الريش الخاص فى قوافى الطيور التى تحدث حركات فى مختلف الاتجاهات وتسوق الطائر نحو أىِّ اتجاه).

۴- اتخاذ الشكل المناسب للطيران بالنحو الذى يجعل مقاومة الهواء على جسم الطائر تصل إلى الحد الأدنى (وهذا الأمر تمَّ تأمينه من خلال الهيكل المغزلى للطيور، والرأس البيضوى، والمنقار المدبَّب والحاد، وهيئة الطائرة تقليدٌ له!).

۵- أدوات التنسيق مع الطيران (وهذا المعنى متوفرٌ من خلال الريش الذى يسمح للطيور أنْ تسبح فى الهواء، ووضع البيوض بدلًا من الحمل، كى لا يصبح جسمها ثقيلًا، والعيون الحادّة حيث ترى الفريسة أو الصيد جيداً من مكان بعيد وأمثال ذلك).

۶- لقد كان العلماء ولمدةٍ من الزمن يلاحظون أنَّ عجلات الطائرات علاوة على تخفيفها لسرعتها فهى لا تخلو من الأخطار أثناء طيرانها، حتى شاهدوا الطيور تجمع أرجُلَها أثناء الطيران وتفتحها قبل الهبوط بقليل فادركوا أنّه يجب الاستفادة من العجلات المتحركة التى تُجمع بعد الارتفاع، وتُفتح قبيل الهبوط!.

ولا عجب فى إجراء العلماء لبحوث كثيرة ولسنواتٍ متماديةٍ على مختلف أنواع الطيور مهتمين بكيفية الطيران، والهبوط، وشكل الأجنحة والأذناب، وقاموا بصِناعةِ أنواع مختلفة

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۴

من الطائرات تقليداً لمختلف الطيور.

فهل يُمكن أن تكون الاسس الضرورية المذكورة فى الطيران وليدة للطبيعة العمياء والصّماء؟ أوَليسَ جملةُ: «مَا يُمسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ» إشارة دقيقة وجميلة إلى جميع تلك الاسس؟ لا سيما وأنّ المعنى يتم بعد جملة: «إِنَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ».

۲- «عجائب الطيور» و «الطيور العجيبة»

للطيور أنواع مختلفة وعجيبة، وبعضها أكثرُ عجباً، إذ يقول بعض العلماء: شوهد ۲۸۹ نوعاً من الحمام و ۲۰۹ نوع من الحجل و ۱۰۰

ألف نوع من الفراشة لحد الآن «۱».

ويمكن ذكر «الخفاش» مثلًا من بين الطيور العجيبة، فهو يضجر من ضوء الشمس على عكس سائر الطيور، ويطير فى ظلام الليل بكل شجاعةٍ وجرأةٍ وبأىّ اتجاه شاء، وجسمه خالٍ من الريش تماماً واجنحتُه متشكلة من جلد رقيق، وهو لبونٌ ولودٌ، فيحيضُ، ويأكل اللحم، ويقالُ إنَّ الطيور تنصبُ له العداء، كما أنّه يعاديها أيضاً! لهذا فهو يقضى حياته منعزلًا.

وحركته السريعة والجريئة فى ظلمة الليل من دون أن يصطدمَ بمانعٍ تبعث على الحيرةِ، فهو يَمر من خلال انحناءاتٍ والتواءاتٍ كثيرة بدون أن يضِّل طريقه، ويوفر طعامه بدقّة أينما كان مختفياً ومن دون خطأٍ، لامتلاكه لجهازٍ خفى يشبه «الرادار».

فهو يرى بأذنه «أَجَلْ بأذنه!» لأنَّ الأمواجَ الخاصَّة التى يصدرها من حنجرته ويرسلها إلى الخارج عبر أنفهِ ترتطمُ بكل ما يصادفها وتعود، وهو يلتقط الأمواج المنعكسة بأذنه، ويتحسسُ الوضعَ فى جميع الجهات فيتجنب العقبات.

إنَّ بناءَ حنجرته وانفهِ وأذنهِ عجيبٌ، دقيقٌ لا يوجد له مثيل فى أىٍّ من اللبائن.

والأمواج التى يرسلها إلى الخارج هى أمواج ما وراء الصوت، التى لا نستطيع سماعها، وفى كلِّ ثانيةٍ يرسل ۳۰- ۶۰ مرّة إلى كل الاتجاهات المحيطة به ويستلم ردَّها.

---

(۱) يراجع كتاب أسرار حياة الحيوانات، ص ۱۴۲ إلى ۱۹۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۵

لقد اجروا بحوثاً كثيرة حول «الخفّاش» وأَلّفُوا مقالاتٍ عديدةً، تتشكل منها دروس حقة لمعرفة اللَّه.

ولهذا يتحدث أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة فى خطبةٍ معروفةٍ باسمِ «خطبة الخفّاش» عن هذا الحيوان، ويُبينُ مهارتَه ودقته فى بيانهِ العظيم والبليغ، حيث يقول:

«من لطائف صنعته، وعجائب خلقته، ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش ...» «۱»

ثم يضيف بصدده قائلًا:

«وقيل من الحيوانات من يحتضن صغاره، ويحمله تحت جناحه وربما قبض عليه بفيه وهو فى حنوه عليه واشفاقه عليه وربما ارضعت الانثى ولدها وهى طائرة ...» «۲».

ومن عجائب الخلق طائرٌ آخر يُسمى «الطاووس»، بريشه الجميل الذى تصيب الدهشة من يتمعن بألوانه، فكأنّما خرجَ لتوِّهِ من تحت يد رسّام ماهر مليئاً بالألوان الخلابة الزاهية الشفّافة والجذّابة، مصففاً ريشه بمظلة عجيبة التى إذا رأيتها فسوف لن تغيب عن بالك، أنّ ذلك لآية اخرى من آيات خلقِ اللَّه.

لهذا أكَّد معلمُ التوحيد ومعرفة اللَّه، الإمام على عليه السلام فى احدى خطب نهج البلاغة «خطبة الطاووس» على هذا الأمر قائلًا:

«ومِنْ أَعجبِها خلقاً الطاووس الذى أَقامَهُ فى أَحكَمِ تعديلٍ، ونضّد ألوانه فى أحسن تنضيد بجناحٍ أشرج قَصَبَهُ وذنب أطال مَسْحَبَه إذا درج إلى الانثى نثره من طيّه وسما به مطلًا على رأسه كأنّه قلع دارى عنجة نوتيةٌ يختال بألوانه ...» «۳».

و «الطيور المهاجرة» من أكثر أنواع الطيور إثارة للدهشة أيضاً، فهى تقطع أحياناً كل المسافة بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى، ثم تعودُ إلى مكانها الأول، قاطعة سفراً طويلًا بعيداً قد يبلغ آلاف الأميال، والعجيب أنّها تستخدم فى هذه المسافة الشاسعة آلاتٍ

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۵۵.

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۰۳.

(۳) تراجع بقية هذا الحديث فى الخطبة ۱۶۵ من نهج البلاغة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۶

خفية تستطيع بها تشخيص طريقها بين الجبال والغابات والصحارى والبحار.

والأعجب من كل هذا مواصلة طيرانها لعدّة أسابيع بدون توقف ليلًا ونهاراً دون الحاجة إلى غذاء، لأنّها تبدأ بالأكل قبل بداية سفرها- بدافع داخليّ-، أكثر من الحد اللازم، وتختزن هذه الأطعمة على هيئةِ دهون فى جسمها، كى تكتسب الطاقة اللازمة لهذا الطيران الطويل المستمر.

فهل تستفيد من الجاذبية المغناطيسية للأرض من أجل تشخيص طريقها؟ أو من استقرار الشمس فى السماء والنجوم أثناء الليل؟ وفى هذه الحالة يجب أن تكون هذه الطيور من الفلكيين المرموقين، أو تستفيد من طريقةٍ خفيّة اخرى نجهلها لحد الآن؟

والأهم من ذلك أنّها تنام فى السماء أحياناً وهى طائرةٌ وتواصل مسيرتها نحو هدفها! كما أنّها تتوقعُ التحولات فى الجو قبل حصولها من خلال تنبؤ ذاتى، فتستعد للحركة.

لعلكم شاهدتم بأعينكم أنَّ الطيور المهاجرة تتحرك بشكلٍ جماعيٍّ وتُشكِّلُ نسقاً على هيئةِ رقم ۷، فهل هذا حدثَ صدفةً؟ لقد أثبتت بحوث العلماء أنَّ الطير عندما يحرِّك جَناحَيهُ فى الهواء فهو يخفضه ممّا يسهل عملية تحريك جناح الطائر الذى يليه، لهذا فانَّ الطيور حينما تتحرك بالشكل أعلاه قليلًا ما تتعب، وتختزن كميةً لا بأس بها من طاقتها، فايُّ معلِّمٍ اعطاها هذا الدرس الدقيق؟

۳- الطيور فى خدمة الإنسان والبيئة

يقول أحد العلماء: إنَّ شقاءَ وقسوة الإنسان، وغفلته وجهله لا عدّ ولا حدود لها، فيجب أن يعلَم أنَّ قتلَ الطيور يكلفه خسارةً فادحةً، ويحرمُهُ عون ونصرة أعزٍّ وأغلى الاصدقاء والرفاق فى صراعه مع الحشرات الضارة.

فللإنسان طريقتان فى مكافحته للحشرات الضارة: إحداهما الاسلوب البدائى وهو عبارة عن إبادة اليرقات فى البساتين والمزارع وقتلها، والقضاء على الجراد وحشرة المنّ، عن طريق السموم، والاخرى الصراع العلمى عن طريق «البيولوجيا» بواسطة الفايروسات

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۷

والطفيليات الخاصة التى يتم تكثيرها لهذا الغرض.

إلّا أنّه يدفعُ ثمناً غالياً فى هذين الاسلوبين من الصراع ويتحملَ المتاعب والمشقة، بينما لو ترك الطيور سالمةً، وقام بتكثير الطيور التى تقتل الحشرات كالبوم، وبعض الطيور التى تتغذى على الحشرات فستكون المكافحة أسهل وافضل (وارخص).

يقول عالمٌ يُدعى «ميشيل»: «لولا وجود الطيور ستصبح الأرض فريسةً للحشرات»، ويكتبُ آخرُ يُسمى «فابر» فى تأييده: «لولا وجود الطيور سيقضى القحط على البشر»!.

وتحدِّثنا الاحصاءات، بأنْ لو حصلنا على حسابات دقيقة نسبياً عن معدل اليرقات والحشرات التى تستهلكها الطيور الصغيرة سنوياً فى طعامها وطعام فراخها فستتضح هذه المسألة كثيراً.

فهنالك طيرٌ صغيرٌ يُدعى «رواتوله» يأكل سنوياً «ثلاثة ملايين» من هذه الحشرات المهاجمة! وهناك نوع من الطيور يُسمى «الطائر الازرق» يأكل سنوياً «ستة ملايين ونصف المليون» من الحشرات، ويستهلك «أربعاً وعشرين مليوناً» لاطعام فراخه التى لا تقل عادةً عن اثنى عشر أو ستة عشر فرخاً ...

والسنونو تطوى يومياً أكثر من ستمائة كيلو متر وتأكل «الملايين» من الذباب، وهناك طيرٌ يُدعى «تروغلوديت» يتغذى على «تسعة ملايين» حشرة منذ أن يخرج من البيضة وحتى طيرانه من العش! وغالباً ما يعتبر الناس أنَّ الغراب الاسود مضرٌ، ولكن لو ذبحتم أحد الغربان وتفحصتم حوصلته تجدونه مليئاً بنوعٍ من الديدان البيضاء «۱».

هذا جانبٌ من خدمات الطيور للمزارعين والبيئة، فافرضوا الآن لو أنّها تأخذُ نصيباً من محاصيلنا الغذائية الذى لا يساوى واحداً بالالف ممّا تستحقه من هدية! فهل يؤدّى بنا هذا إلى اعتبارها حيواناتٍ ضارةً ومؤذية؟

فَمَنْ أَوْدَعَ هذا التكليف لدى هذه الطيور بأن تتكفَّل بدورٍ مهمٍ بموازنة القوى فى عالم الحيوانات والحشرات التى لها فوائدها أيضاً.

---

(۱) نظرةٌ إلى الطبيعةِ وأسرارها، ص ۱۹۵- ص ۱۹۷ «مع الاختصار».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۸

۴- دروس التوحيد فى وجود الطيور

يقول الإمام الصادق عليه السلام معلمُ التوحيد العظيم فى الحديث المشهور ب «المفضل»:

«تأمّل يا مفضل جسم الطائر وخلقته فإنه حين قدّر أن يكون طائراً فى الجو خفّف جسمه وادمج خلقه فأقتصر به من القوائم الأربع على اثنتين ومن الأصابع الخمس على أربع، ومن منفذين للزبل والبول على واحد يجمعهما ثم خلق ذا جؤجؤ محدد ليسهل عليه أن يخرق الهواء كيف ما أخذ فيه كما جعل السفينة بهذه الهيئة لتشق الماء وتنفذ فيه وجعل فى جناحيه وذنبه ريشات طوال متان لينهض بها للطيران وكُسىَ كله بالريش ليدخله الهواء فيقله، ولما قدّر أن يكون طعمه الحبّ واللحم يبلعه بلعاً بلا مضغ نقص من خلقه الأسنان وخلق له منقار صلب جاس يتناول به طعمه فلا ينسجح من لقط الحب ولا يتقصف من نهش اللحم، ولمّا عدم الاسنان وصار يزدرد الحبّ صحيحاً واللحم غريضاً اعين بفضل حرارة فى الجوف تطحن له الطعم طحنا يستغنى به عن المضغ؛ واعتبر ذلك بأنّ عجم العنب وغيره يخرج من أجواف الانس صحيحاً ويطحن فى أجواف الطير لا يرى له أثر ثم جعل ممّا يبيض بيضاً ولا يلد ولادةً لكيلا يثقل عن الطيران ...» «۱».

ثمَّ يشرحُ الإمام عليه السلام بعد ذلك، الامورَ المهمّة والدقيقة الاخرى حول الطيور حيث نُعرض عنها مراعاةً للاختصار.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۰۳ وما بعدها.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۰۹

۱۸- آياتُه فى حياة النحل

تمهيد:

إنَّ حياة النحل من أكثر ظواهر الخلق دهشةً، وقد اكتشفت عجائبُ عن حياة هذه الحشرة الصغيرة من خلال بحوث العلماء، إذ يعتقد البعض أنَّ حضارتها وحياتها الاجتماعية أكثر تطوراً من حياة الإنسان، فانتم لا تعثرون على أى مجتمعٍ متطورٍ قد حلَّ مشكلة «البطالة» و «المجاعة» بشكلٍ كاملٍ، إلّاأنّ هذه المسألة حُلَّت تماماً فى عالم النحل (خلايا النحل)، فلا يُعثُر فى هذه المدينة على زنبورٍ عاطلٍ عن العمل أو زنبور جائعٍ أيضاً.

فبناء الخلية، وكيفية جمع رحيق الورود، وصناعة العسل وخزنِه، وتربية الصغار واكتشاف المناطق المليئة بالأزهار، واعطاء عنوان السكن لباقى النحل، والعثور على الخليّةِ من بين مئات أو آلاف الخلايا كل ذلك دليلٌ على الذكاء الخارق لهذه الحشرة.

إلّا أنّ من المسلَّم به أنَّ الإنسان لم يكن يمتلك مثل هذه المعلومات عن النحل سابقاً، ولكن القرآن الكريم أشار فى السورة المسماة

باسم هذه الحشرة «النَّحل» باشاراتٍ مليئةٍ بالمعانى إلى الحياة المعقَّدة والمدهشة لهذه الحشرة.

بهذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

١- «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ومِنَ الشَّجَرِ ومِمَّا يَعرِشُونَ». (النحل/ ۶۸)

٢- «ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرابٌ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۰

مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيْهِ شَفاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ». (النحل/ ۶۸- ۶۹)

شرح المفردات:

«النَحْل»: اسمُ زنبور العسل و «نِحلَة» (على وزن قِبلة) تعنى العطاء بلا عوض، ومفهومها محدودٌ أكثر من مفهوم الهبة، لأنَّ «الهبة» تشمل العطاء بعوض وبغير عوض بينما تشمل النحلة العطاء بلا عوض فقط، و «نحول» تعنى الضَعف، تشبيهاً بُهزالِ زنابير العَسَلِ، و «نواحل» تطلق على السيوف الحادة «الرفيعة».

وقد يُحتمل أنّ المنشأ الاصلى ل «نِحلة» يعنى العطاء، وإذا اطلقَ على زنبور العسل «نَحل» فلأنّه يصطحبُ معهُ عطاءً وهبةً حلوةً لعالم الإنسانية. «۱»

و (أوْحى : من مادة «وحى» ولها معانٍ كثيرة وقد ذكرنا شرحها فى الجزء الأول من «نفحات القرآن» فى بحث «مصادر المعرفة»، وأصلها يعنى «الإشارة السريعة» وبالنظر إلى أنَّ أمر اللَّه تعالى فيما يتعلق بالنشاطات المختلفة والمعقّدة للنحل قريب الشبه من الإشارة السريعة أو الالهام القلبى فهذا المعنى استُخدمَ أيضاً فيما يخص النحل، لأنَّ جميع هذه الأعمال المعقّدة قد تُنجز من خلال إشارةٍ الهية سريعة.

لنزورَ بلاد النحل:

لقد استند القرآن الكريم فى آيات عديدة إلى جوانب مختلفة من حياة النحل حيث كلٌ منها اعجبُ من الآخر، فقد أشارَ أولًا إلى مسألة بناء بيوتها، قائلًا: «وَأَوْحَى رَبُّكَ الى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبالِ بُيُوْتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

وقد يكون التعبير ب «اتَّخذى» بصيغة الفعل المؤنث إشارة إلى أنَّ النَّحلَ عندما يهاجر

---

(۱) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۱

لاختيار بيتٍ جديدٍ فهو يسير خلف «الملكة» التى هى بمنزلة القائد فى الخليّة، وعليه فانَّ المتنفذ الحقيقى هى «الملكة».

والتعبير ب «أوحى تعبيرٌ جميلٌ حيث يبرهنُ على أنَّ اللَّه تعالى قد علَّمَ هذا الحيوان طراز بناء البيت الذى يُعدّ من أروع أعمال هذه الحشرةِ بواسطةِ الهامٍ خفيٍّ وسيأتى شرحه فى «التوضيحات» إن شاء اللَّه، وهى تقوم بانجاز واجباتها على أفضل وجهٍ وفقاً لهذا الوحى الإلهى، فقد تختار صخور الجبال، أو بطون الكهوف لبناء بيوتها، وتضع الخلية بين أغصان الأشجار أحياناً، وقد تستخدم الخلايا الاصطناعية التى يصنعها الإنسان لها على القصب، أو أنّها هى التى تقوم ببناء البيت على القصب.

إنَّ ألفاظ الآية تدللُ جيداً على أنَّ بناء البيت هذا ليس بناءً عادياً وإلّا لما عبَّر عنه القرآن بالوحى، وسنرى عاجلًا أنَّ الأمر هكذا.

وفى الآية الثانية توجَّه نحو صناعة عسل النحل مضيفاً: أنَّ اللَّه قد أوحى لها أن تأكل من جميع الثمار: «ثُمَّ كُلِى مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ»

«واقطعى الطرق التى يَسَّرها وسخَّرها لكِ ربُّكِ لتكوين العسلِ الحلو»: «فَاسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا».

«سُبُل»: جمع «سبيل» وتعنى «الطريق اليسير» «۱»

.

وهنا: ما المقصود من هذه السُبُل فى الآية أعلاه؟ لقد أبدى المفسِّرون احتمالات مختلفة:

فقال بعضهم: المقصود هى الطرق التى يطويها النَّحلُ نحو الأزهار، والتعبير ب «ذُلُل» (جمع «ذلول» وتعنى التسليم والطاعة) «۲» يدللُ على أنَّ هذه الطرقَ تُعيَّنُ بدقةٍ بحيث يكون ارتيادها سهلًا وعاديّاً للنحل؛ وتؤيدُ دراساتُ خبراء النحل هذا المعنى أيضاً، فهم يقولون:

---

(۱) كما أوردها الراغب فى المفردات.

(۲) من الممكن أن تكون «ذللًا» حالًا ل «سبل»، أو ل «النحل»، ويبدو أنَّ الاحتمال الأول اكثرُ صحةً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۲

تخرجُ مجموعةٌ من النحل مكلفةٌ بتشخيص مكان الأزهار صباحاً، من الخلّيةِ، وبعد اكتشاف المناطق المليئة بالأزهار ترجع، وتعطى للباقين العنوان الكامل لذلك المكان بشكلٍ سريٍّ ومدهش، وقد تشَخِّصُ الطريق بوضعها علاماتٍ عليه متكونة من موادٍ ذات رائحةٍ خاصةٍ، وبنحوٍ لا تضل أيّة نحلة باتباعها.

وقال بعضهم الآخر أيضاً: إنّ المقصود هو طريق العودةِ إلى الخليةِ، لأنَّ النحلَ قَدَ يُجبَر على قطع مسافاتٍ طويلةٍ، ولا يبتلى بالتيه عند عودته، فهو يتجه نحو الخليّة بدقةٍ، بل وأنّه يعثر على خليته بيُسرٍ من بين عشرات الخلايا المشابهة.

وقال آخرون: إنَّ «السُبُلَ» هنا لها معنىً مجازيٌّ فهى تشير إلى الاساليب التى يتبعها النحلُ لإعداد العسل من رحيق الأزهار، فهى تمتص رحيقَ الأزهار بنحوٍ خاصٍ ترسله «حوصلتها» وهناك حيث تكون كمختبرٍ للمواد الكيميائية يتبدل إلى «عسلٍ» من خلال التغييرات والتطورات التى تجرى عليه، ثم يستخرجه الزنبور من حوصلته.

أجَلْ .. إنّه يعرف الاسلوب اللازم لاجراء هذا العمل جيداً، من خلالِ أمرٍ إلهيٍّ فيسلكُ هذا الطريق بدقّة.

ونظراً إلى أنّ هذه التفسيرات الثلاثة لا تتعارض فيما بينها وكون ظاهر الآية عاماً، فيمكن القول: بشمول جميع هذه المفاهيم، إذ يقطع النحل هذه الطرق الملتوية والمنحنية بالاستفادة من الشعور الذى منحه اللَّه له، أو بالالهام الغريزى، ويستخدم هذه الأساليب بكل مهارةٍ واقتدار.

وفى المرحلةِ الآتية أشار إلى صفات «العسل» وفوائده وبركاته قائلًا: «يَخْرُجُ مِنْ بُطُوْنِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ».

وقد حَمَل بعضهم التعبير ب «بُطُوْنِ» (جمع بطن) على معنى مجازيٍّ وقالوا: إنّها تعنى الأفواه، وقالوا إنَّ العَسَل الذى هو رحيق الأزهار مخزون فى فم النَّحل ثم ينتقل إلى الخليّة «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ۳۷۲.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۳

بينما يعتقد بعضهم أنَّ العسل هو فضلات النحل!

ويعتبره بعضهم الآخر من المسائل الخفيّة التى لم تُكتشف لحد الآن «۱».

ولكن بحوث العلماء برهنت على عدم صواب أيٍّ من هذه الآراء- كما أشرنا-، بل إنّ النحلَ يُرسلُ رحيق الأزهار إلى مكان خاصٍ فى جسمه يسمى «الحوصلة» وبعد أن يجرى عليه تغييرات وتطورات يقذفه خارجاً من فمه «۲».

والتعبير ب «بُطون» شاهدٌ على هذا المعنى واجلى منه التعبير ب «كُلى»، لأنَّ العربَ لا يقولون لحفظ الشىء فى الفم «أكل» أبداً، وحمل

هذه الجملة على المجاز تفسيرٌ مجازىٌ لا ضرورة له.

وأمّا المقصود من «ألوان مختلفة» هنا فهى ذات تفاسير متباينة أيضاً، فقد اعتبرها بعضهم بمعنى هذا «اللون» الظاهرى الذى يتفاوت فيه العسل فبعضه أبيضٌ شفاف، وبعضٌ أصفر، والآخر أحمر اللون، وبعضُه يميلُ إلى السواد، ويمكن أن يكون هذا التباين مرتبطاً باختلاف أعمار النحل، أو مصادر الأزهار التى يتغذى عليها، أو كليهما.

وقد احتملَ أيضاً أن يكون المقصود من هذا التفاوت (نوعية) العسل، فبعضٌ غليظ، وبعض خفيف، أو أنّ عسلَ الأزهار المختلفة له آثار ومزايا مختلفة أيضاً، كما يختلف العسل العادى كثيراً عن «الشهد» (العسل الخاص الذى يُصنع لملكة الخليّة)، لأنَّ المشهور أنَّ ل «الشهد» قيمةً من الناحية الغذائية بحيث يزيد كثيراً فى عمر الملكة ولو تمَّكنَ الإنسان أن يتغذى عليها فإنّها تتركُ اثراً عميقاً فى طول عمره.

وفى بعض البلدان هناك حدائق من ورود متشابهة حيث تُنصب فيها الخلايا الخاصة بالنحل، وبهذا تُستخلص أنواع مختلفة من العسل كلٌ منها مستخرجٌ من زهرٍ خاص، ويتمكن الراغبون من شراء العسل من الورد الذى يرغبونه، وبهذا نواجه ألواناً مختلفةً من

---

(١) وفى تفسير القرطبى ينقل عن ارسطو أنّه صَنَع خليَّةً من الزجاج كى يرى كيفية صناعة العسل غير أنَّ النَّحلَ كان يُعتِّمُ الزجاجة لكى لا ينكشف السر حينما يريد مزاولة عمله (المصدر السابق ليرى .

(٢) تربية النحل، لمحمد مشيرى، ص ١١٣؛ وكتاب نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ١٢۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۴

العسل تدخل فى المفهوم الواسع والعام للآية.

والتعبير ب «شراب» جاء لأنَّ العرب لا يستخدمون لفظ «أكل» بخصوص العسل كما يقول بعض شّراح لغة العرب، ويُعبر عنه بالشرب دائماً (ولعلَّه بسبب أنَّ العسلَ فى تلك المناطق يكون خفيفاً) «١».

وفى الختام أشار إلى تأثير العسل فى العلاج قائلًا: «فِيْهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ».

والتعبير ب «شفاء» بصيغة النكرة، إشارةٌ إلى أهميّته الفائقة، وكما سيأتى فى التوضيحات إن شاء اللَّه، فللعسل الكثير من المزايا العلاجية الجاهزة التى تحتوى عليها الأزهار والنباتات الطبية الموجودة على الكرة الأرضية، وقد ذكر العلماء لا سيما فى هذا العصر خصائص عديدة له تشمل الجانب العلاجى وجانب الوقاية من الأمراض أيضاً.

فللعسل تأثيرات مذهلة فى علاج الكثير من الأمراض وهذا يعود إلى الفيتامينات والمواد الأساسية التى يحتويها، حيث يمكن القول: (إنَّ العسلَ يخدم الإنسان علاجياً وصحيّاً وجمالياً).

وفى نهاية الآية أشار إلى الجوانب الثلاثة الآنفة (بناء خلية النحل، طريقة جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل، وخصائصه العلاجية) فيقول: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

وعليه ففى كل مراحل حياة النحل، واستخراج محصول هذه الحشرة الذكية والمثابرة، تظهر للعيان آيةٌ بل آياتٌ لعلمِ وقدرة الخالق جلَّ وعلا الذى ابتدعَ مثل هذه الظواهر المذهلة.

توضيحات

١- حضارة النَّحل العجيبة!

مع اتساع علم الحيوان وعلم الاحياء والدراسات المستفيضة للعلماء تم اكتشاف

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۴، ص ۱۶۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۵

مسائل عجيبة وحديثة عن حياة هذه الحشرة الصغيرة أذهلت الإنسان بشدة، ولا يُصدَّق أبداً بأنْ يسودَ حياة النحل مثل هذا النظام والتدبير والتخطيط بلا أىِّ احساسٍ طبيعىٍّ.

يقول أحد العلماء المختصين بعلم الاحياء ويدعى «مترلينغ» الذى كانت له دراسات كثيرة على مدى سنوات طويلة حول حياة النحل، والنظام العجيب الذى يحكم ممالكها يقول: «إنَّ الملكة فى مدينة النحل ليست هى الزعيم كما نتصورها، بل هى كسائر أفراد هذه المدينة تخضع لسلسلةٍ من القوانين والأنظمة العامة أيضاً».

ثم يضيف: «نحن لا نعرف مصدر هذه القوانين وبأيّة طريقةٍ توضعُ، ونحن ننتظر اليوم الذى نتوصل فيه إلى معرفة واضع هذه المقررات، إلّاأننا نطلقُ عليه حالياً اسم «روح الخليّة»، ولا ندرى أين تكمنُ «روح الخليّة» وفى أىٍّ من سكان الخلية حلَّت، إلّاأننا نعرف أنَّ الملكةَ كالآخرين تطيعُ روح الخلية أيضاً»!.

«إنّ روحَ الخليّةِ لا تشبه غريزة الطيور، ولا تعمل بآليةٍ وإرادةٍ عمياء، فهى تشخصُ تكليفَ كلِّ واحدٍ من سكان هذه المدينة العملاقة حسب قابليته وتعطى لكلٍّ منها واجباً، فقد تأمُر مجموعةً ببناء البيت، وأحياناً تُصدر أمرَ الرحيل والهجرة»

«والخلاصة إننا لا نستطيع إدراك أنَّ قوانين مملكة النحل التى توضع من قبل روح الخليّة هل ستطرح فى «مجلس شورى ويُصادقُ عليها ويتخذُ القرار بتنفيذها؟، ومَنْ الذى يُصدرُ أمرَ الحركةِ فى اليوم المحدَّد»؟! «۱»

إلّا أنَّ القرآن الكريم أعطى جواباً لجميع هذه التساؤلات بتعبيرٍ جميلٍ ودقيقٍ جدّاً إذ يقول: «وَأَوْحى رَبُّكَ الَى النَّحْلِ»!

وهو نفس التعبير الذى ذكرَهُ بخصوص الأنبياء (عليهم السلام)، صحيحٌ أنَّ هذا الوحى يختلف عن ذلك الوحى كثيراً، إلّاأنّ تناسقَ التعبير دليلٌ على أهميّة العلم الذى أودعه اللّه لدى النَّحل، كى يدعو مفكّرى العالم إلى دراسة أوضاعها.

فمن المسلَّم به أنَّ بناء خلية النحل يجرى بالهامٍ الهىٍّ، لأنَّها تبنى تشكيلات سداسيّة

---

(۱) كتاب النحل، تأليف مترلينغ، ص ۳۵ و ۳۶ مع الاختصار.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۶

منظمة واسعة من كمية قليلةٍ من الشمع (حيث يمكن استغلال جميع زواياه ويكون مقاوماً أمام الضغط أيضاً) وتتكون بيوتها من طبقتين، وعندما تبنى بيتاً فى الجبال أو على الأشجار فهى تقتصر على هاتين الطبقتين إلّاأنّها تضيفُ طبقتين اخريين فى الخلايا الاصطناعية وبما يمكن استيعابه منها.

ويتخذ قعر البيت شكلًا هرمياً حيث يتألف من ثلاثة سطوح لوزية الشكل ويغور الرأسُ والأجزاء البارزة بكل طبقةٍ فى قعر الطبقة السفلى

وقد أثبتت التجارب أنّه لو كان سطح الشمع مربع الشكل أو باى شكل آخر وصُبَّ فى قوالب اصطناعية ووُضعَ النحل فى داخله فسوف لا يرتضى مثل تلك الجدران غير المطابقة للمواصفات، بل يرفع الجدران إلى الأعلى ويعيدها إلى وضعها الصحيح.

لقد قاسَ أحد العلماء، قعر بيت النحل، فكانت زاويته الكبيرة تُقدرَّ ب ۱۰۹ درجة و ۲۸ دقيقة، ثم طرحت هذه المسألة على مهندسٍ المانى كبيرٍ يُدعى «كنيك» كسؤالٍ عامٍ بأن لو أراد إنسان بناءَ هرمٍ بأقلِ كميةٍ من مواد البناء وباكبر ظرفية بحيث يتشكل من ثلاثة سطوحٍ لوزية فما مقدار زواياه؟.

فقام بحلّ هذه المسألة المعقدة بالاستعانة بحساب «ديفرانسيل» وكتب فى الجواب، مائة وتسعة درجات وستة وعشرين دقيقة بدونٍ علمٍ منه بأنّ هذا يرتبط ببيت النّحل ومتفاوت معه بدقيقتين فقط.

ثم تلاهُ مهندسٌ آخر يُدعى «ماغ لورن» فاجرى حساباتٍ دقيقةً وتأكّدَ بأنّ تلك الدقيقتين كانتا نتيجة لاهمال المهندس الأول، والجواب الصحيح كما فى عمل النحل»! «۱»

ينقل العالم البلجيكى المعروف «متر لينع» فى كتاب «النحل» عن أحد العلماء ويُدعى «رأيت» ما يلى: لدينا ثلاثة طرق علمية فقط فى الهندسة لتقسيم الفواصل المنظمة وربطها وتكوين الأشكال الكبيرة والصغيرة، وهذه الطرق الثلاثة عبارة عن (المثلث القائم الزوايا) و (المربّع) و (المسدَّس) وتستخدم الطريقة الثالثة أى «المسدَّس» فى بناء غرف النحل،

---

(۱) تفسير روح الجنان هامش المرحوم الشعرانى، ج ۷، ص ۱۲۳ «مع شىء من الاختصار».

وهذا الشكل أكثر ملاءمةً لاستحكام البناء (لأننا لو دققنا قليلًا نجد أنَّ الشكل السداسى يشبه الأقواس من جميع الجهات حيث يمتلك الحد الأقصى لمقاومة الضغط، بينما تتضرر المثلثات والمربعات أمام الضغط كثيراً).

بالإضافة إلى أنَّ جسمَ النحل اسطوانى الشكل تقريباً ويتلاءم كثيراً مع الخروج والدخول فى مثل هذه البيوت.

على أيّةِ حالٍ، كلَّما تحقّقنا بخصوص ما أشار إليه القرآن الكريم فى مسألة بناء بيت النّحل نحصل على مسائل عجيبةٍ جديدة، تجعلنا نعظم خالق ومبدع ومرّبى هذه الحشرة العجيبة.

۲- جمع رحيق الأزهار وصناعة العسل

الأمر الثانى الذى استند إليه القرآن هو جمع العسل من رحيق الأزهار، وهو من المسائل المدهشة والمحيّرة حقاً.

يقول بعض العلماء: يجب أن تسافر ۵۰ الف نحلة من أجل إعداد كيلو غرام واحد من العسل!.

وتؤكد حسابات العلماء أيضاً أنّه من أجل اعداد كيلو غرام واحد من الرحيق يجب أن يَمتصَ النحل سبعة آلاف وخمسمائة زهرةٍ كمعدلٍ ويستخرج رحيقها (وطبقاً لهذه المعادلة يجب امتصاص ۵، ۷ مليون زهرةٍ لاعداد كيلو غرام واحد من العسل!) «۱».

ولابدّ أن نعلمَ أيضاً أنَّ النَّحلَ يسافر يومياً حوالى ۱۷- ۲۴ مرّة من أجل جمع رحيق الأزهار.

ولا عجب أن نعلم أنّ النَحْلَ لم يَذق طعمَ الراحةِ طول عمره، وأنّه لا يرى النومَ أبداً، فهو يقظٌ طول عمره! «۲».

---

(۱) تربية النحل، ص ۱۱۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۱۵.

ومن أجل أن ندرك العَمَلَ المرهق لهذه الحشرة الكادحة يجب أن نقول انَّهُ يتعين على النحل أن يسافر ۸۰ ألف مرّة ذهاباً واياباً على الاقل من أجل كل اربعمائة غرام من العسل الذى يَحصل عليه، ولو ربطنا هذا الذهاب والاياب معاً وقدَّرنا مسافةَ كلِّ مرةٍ (كمعدل) بكيلو مترٍ واحدٍ، ستكون المسافة التى يقطعها النحل من أجل الحصول على اربعمائة غرام من العسل تعادل ضعفَ محيط الكرة الأرضية، أى أنَّ هذه الحشرة الكادحة تقطع مسافة ما يعادل ضعف محيط الكرة الأرضية من أجل جمع شرابٍ يُصنعُ من اربعمائة غرام من العسل! «۱».

ومن الضرورى الانتباه إلى هذه النكتة وهى أنَّ معظمَ الأزهار لا تمتلك الرحيق باستمرار كى يستطيع النحل امتصاصه، بل إنّها تقدّمُ رحيقها مرةً واحدةً فى اليوم وفى ساعاتٍ معينةٍ تتبع نوع الزهرة، فبعض الأزهار تعطى رحيقها صباحاً، وبعضها ظهراً، وبعضها الآخر بعد الظهر، والعجيب أنّ النَّحلَ يعرف هذه البرامج جيداً فيتوجه نحو الأزهار وفقاً لها تماماً فلا يذهب وقته هدراً! «۲».

و حرىٌ بالإنسان أن يخجلَ عندما يشاهد هذه الأرقام والاعداد فى مجال جمع العسل وعدد مرات الطيران وعدد الأزهار المستهلكة من أجل غرام واحدٍ من هذه المادة الغذائية المهمّة، ولكن لو فكّر بامعان فى نفس الوقت بعظمة خالقِ هذه الحشرة الكادحة وتَحقَّقَ بعلمه وقدرته لخضع امامه مؤدياً شكر هذه النعمة، ويُمكن أن يكون كل ذلك مقدمةً لهذه الغاية السامية.

والنكتة الاخيرة التى يجب أن نذكرها ونغلقَ هذا الملف الكبير قبل أن نخرج عن مضمون البحث التفسيرى، هى أنَّ النحل علاوةً على امتصاصه للرحيق فهو مكلَّفٌ بجمع «الحبوب الصفراء» للأزهار المسماة «بولن» ومزجها مع العسل.

ولهذه الحبوب آثار حياتية فائقة، فهى تحتوى على ۲۱ نوعاً من حامض الامونيك

---

(۱) عالم الحشرات وفقاً لنقل عجائب الخلق، ص ۱۴۳.

(۲) الحواس الخفية للحيوانات تأليف فيتوس دروشر، ص ۱۵۷ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۱۹

وأنواع الزيوت، وهورمونات النمو، والسكّر، والانزيمات، كما تستخدم عصارة الحبوب تلك فى معالجة الالتهابات والاورام المزمنة التى تعجز المضادات الحيوية عن علاجها، كما أنّ لها آثاراً منشطّة أيضاً «۱».

وللأرجل الخلفية للنحل نتوءات كأسنان المشط يثير بها غبار الأزهار، ويصنع منه ذرات كروية، وهنالك أيضاً إلى جانب تلك النتوءات ما يشبه «السلّة» وآخر يشبه «الملقط» حيث يجمع ذرات غبار الورد هناك ويحفظها، وحينما يعود إلى الخليَّة يجلب معه بالاضافة إلى رحيق الأزهار كرتين صفراوين كانتاج لعملهِ اليومى «۲».

۳- العسل غذاءٌ مفيدٌ ودواءٌ شافٍ

لقد تحدثَ القرآن الكريم فى الجزء الثالث من الآيات المذكورة عن مسألة التأثير المهم للعسل فى شفاء المرضى بتعبير مختصر وغامض ويتم فى هذا العصر كشف النقاب عن أسراره من خلال دراسات المختصين بعلم الغذاء، إذ يذكر هؤلاء مزايا وآثاراً لا تُحصى للعسلِ تبعث على دهشة الإنسان.

فهم يقولون: إنَّ العسلَ مادةٌ لا تفسد أبداً وتبقى صالحةً لآلاف السنين فيما إذا كان صافياً، لأنّ اى مكروب لا يمكنه أن يعيش فيه أبداً «۳».

وقد عُثرَ فى قبور الفراعنةِ على ظروفٍ من العسل تعود إلى آلاف خلت من السنين، وقد بقى هذا العسل صالحاً وطبيعياً بشكل كامل، وهذا بحد ذاته دليلٌ على صدق الادعاء أعلاه.

العسل ونظراً لأنّه يُستخرج من رحيق الأزهار المختلفة (ونحن نعلم أنّ كل نوع من

---

(۱) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۵۷ إلى ۵۹ (مع الاختصار).

(۲) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ۱۲۷.

(۳) مجلة السلامة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۰

الأزهار يحتوى على مواصفات علاجية خاصة) فيمكن أنْ يحمل معه صفات هذه الأزهار.

يقول العلماء: يعتبرُ العسلُ مادةً حيَّةً بسبب احتوائه على الفيتامينات و «الانزيمات» و «حامض الفورميك» فهو يحتوى على الفيتامينات: أ، ب، ث، د، ك، آى، ومواد معدنية كالبوتاسيوم، والحديد، والفسفور، و «الرصاص» و «المنغنيز» و «الالمنيوم» و «النحاس» و «الكبريت» و «الصوديوم» ومواد اخرى متفرقة، وكذلك يحتوى على مختلف الحوامض «۱».

ونحن نعلمُ أنَّ لكلٍّ من هذه المواد الحياتية دوراً اساساً فى حياة الإنسان، ولهذا فانَّ العسلَ يحتوى على المواصفات الآتية:

يؤثر العسل فى تركيب الدم.

للعسل أثرٌ جيدٌ فى ازالة التعب وتقلص العضلات.

يحدُّ العسل من حدوث الالتهابات فى المعدة والامعاء.

ويؤدّى إلى أن يتمتع الوليدُ بجهازٍ عصبيٍّ متينٍ إذا ما تناولته المرأة الحامل.

والعسلُ مفيدٌ لمن لديهم جهاز هضمى ضعيف.

ويعتبر العسلُ مُرَمِّماً قوياً.

ويؤثر فى تقوية القلب.

ويولدُ العسلُ طاقةً لا بأس بها لدى المسنّين.

ينفع لعلاج قرحة المعدة والاثنى عشرى.

ويفيدُ العسلُ لعلاج مرض الربو «ضيق التنفس».

ويعتبر عاملًا مساعداً فى علاج الأمراض الرئوية.

ويعتبر دواء لعلاج مرض الروماتيزم، وضعف نمو العضلات، والمتاعب العصبية.

ويعدّ العسلُ مفيداً للمصابين بالاسهال نظراً لميزته فى قتل الجراثيم.

---

(۱) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۱۲۹ (مع شىء من الاختصار).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۱

وتُصنعُ منه ادويةٌ تؤثرُ فى نعومةِ وجمال الجلد وازالة الحروق والتجعدات.

ويُصنع من العسل دواءٌ يعالج ورمَ الفم ويُعطرُ التنفس.

ويستثمر العسل أيضاً فى معالجة ذبول الجلد، والتشققات، والحروق، والرَّمد، واللدغات المؤلمة للحيوانات، وورم العين، والسعال.

وقد قام بعض العلماء بصناعةِ اقراصٍ من رحيق الأزهار تحتوى على مواصفاتٍ تشبه مواصفات العسل واهم آثارها مضاعفة طاقة الشباب وتنشيط الخلايا ومن ثمّ يؤدّى إلى الراحة وطول العمر «۱».

ولهذا فقد عُرِف أنَّ «فيثا غورس» كان يوصى طُلّابَه «كلوا العَسَلَ والخبز ما استطعتم» وكان «بقراط» يقول: «لو أردتم عمراً طويلًا فعليكم بالعسل».

إنَّ الآثار المنشّطة والخواص العلاجية والترميمية للعسل أكثر ممّا تمّ بحثه فى هذا المختصر، حتى دوَّنَ بعضُ العلماءِ كُتباً مستقلةً حول الميزات الغذائية والعلاجية للعسل.

وقد جمع القرآن الكريم كل هذه المطالب فى جملة: «فِيهِ شِفَاءٌ لِلنّاسِ» بشكل دقيق.

ولا عجب إن كانت لدغة النحل والسم الموجود فيها علاجاً للكثير من الأمراض أيضاً، كالروماتيزم، والملاريا، وتضخم الغدة الدرقية،

وألم الأعصاب، وبعض أمراض العين، وغيرها، ويجب أن يكون التداوى بوخز النحل حسبَ برنامجٍ خاصٍ وبإشراف الطبيب، فمثلًا فى اليوم الأول مرّة واحدة، وفى الثانى اثنتان، وحتى اليوم العاشر يستفاد من عشرة زنابير، وتلك هى المرحلةُ الاولى من العلاج، وأما فى المراحل الثانية فيتخذ العلاج شكلًا آخر، وإذا تجاوز وخزُ النحل الحدَّ المعينَّ فمن الممكن طبعاً أنْ تتمخض عنه أخطارٌ، كما أنّ قليلُهُ مضر بالأشخاص الذين لديهم حساسية اتجاهه.

لقد كتبَ بعضُ العلماء مقالةً أو مقالاتٍ بهذا الخصوص، واختار بعضهم رسالته للدكتوراه تحت عنوان «مستخرجات سمِّ النحل وخواصها العلاجية» «۲».

---

(۱) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۲۱۲- ۲۹۰، نشرة الطب والدواء وكتب اخرى

(۲) المصدر السابق، ص ۱۷۴.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۲

۴- خدماتٌ اخرى للنحل أَثمنُ من العسل!

إنَّ حياة النحل مليئةٌ بالعجائب والاحداث، وما تحدثنا عنه لحد الآن كان جانباً منها، فقصة بناء الشمع- تلك المادة التى يُشيد منها بيت النحل بشكلٍ كامل- بحد ذاتها قصةٌ مفصَّلة، والعجيب أنّها لا تستثمر هذا الشمع لبناء البيت فقط، فقد تقوم بتحنيط اجساد الحشرات المؤذية التى لا تستطيع دفعها إلى الخارج كى تأمنَ شرَّها!.

يقول أحد خبراء النحل: أنّه لفت انتباهه فى أحد الأيام وجود كرة كبيرة نسبياً داخل خلية نحل، وعندما فتحها وجد فيها جثة جرادةٍ حنَّطها النحل.

وقال بعضهم عن الشمع، أنّه روح العسل والعسل روح الزهر وهو خفيف، بحيث إنّ وزن خمسمائة بيت من مدينة النحل لا يتجاوز بضعة غرامات، ولا شكَّ فى صعوبة معرفتنا بكيفية ترشح هذا الشمع بالنسبة للنحل، غير أننا نعرف جيداً أنَّ للشمع استعمالًا هاماً.

وعملية تلقيح وحمل الأزهار، من أهم أعمال النحل.

يقول أحد العلماء: «لولا وجود الحشرات، لخلت سلالُنا من الفاكهة، لأنَّ الحشرات التى تستفيد من الأزهار يمكن أن تلقحها افضلَ من بقية عوامل نقل حبوب اللقاح، فعندما تمدُ احدى الحشرات التى تعشقُ الأزهار خرطومَها فى الزهرة، فهى إمّا أنْ تُدخلَ اغلبَهُ، أو أنْ تُدخلَ جزءاً من جسمها فى الزهرة كما يحدث غالباً، وفى خروجها يتغطى جسمُها بالغبار ذى اللون الأصفر وهو غبار الورد، فتنقله مباشرة إلى زهرةٍ اخرى وكما نعلم- أن غبار الأزهار عاملٌ مؤثرٌ فلا تتبدل البذور إلى حبوب، ولا المبيض إلى ثمار بدونه.

وهذه النكتة جديرةٌ بالاهتمام من الناحية الفلسفية إذ إنَّ الحشرات التى تعشق الأزهار تميل إليها منذ بدء التكوين ... كلٌ منها بموازاة الاخرى ينمو ويتكامل، وقد وصل الحال بها اليوم إلى عدم قدرتها على الحياة منفصلة عن بعضها ... ومن أهم الحشرات التى تعشقُ الأزهار- ولابدّ أنّكم تعرفونها- هى: الفراشة، والنحل، والزنبور الذهبى و ... لكن النحل أكثرُ استعداداً وتجهيزاً من بين هذه الحشرات لاخراج الغبار والرحيق من الأزهار» «۱».

---

(۱) نظرة على الطبيعة وأسرارها، ص ۱۲۶.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۳

ومن الضرورى الانتباه إلى أنّ الأشجار التى تحتوى على الأزهار الذكرية والانثوية صنفان: الأشجار العقيمة غير المثمرة، والأشجار

المثمرة التى لها القدرة على ذلك.

ومن أجل تكون الثمار فى الصنف الأول لابد من وجود واسطةٍ للتلقيح، وهذه الواسطة عبارة عن النحل، وقد ثَبُتَ أنّ ۸۰ خ من عملية تلقيح الأزهار يجرى عن طريق النحل، ومن أجل المزيد من الاطلاع على دور النحل يجب الانتباه إلى أنّ جميع أنواع التفاح، والاجاص، والكرز، واللوز وأمثالها تعتبر من الأشجار العقيمة!

وقد واجهت المساعى التى بُذلت بصدد إجراء التلقيح بالطرق الكيميائية والميكانيكية والاصطناعية فشلًا ذريعاً، ومن هنا يتضح دور النحل «۱».

ويضيف العلماء: «إنَّ النحل يساعدنا بكلفة لا تقل عن مائتى الف درهم فى الزراعة مقابل كل الف درهم من العسل والشمع الذى يصنعه لنا»! «۲».

ونختم هذا الحديث بجملةٍ عجيبةٍ عن «متر لينغ» استاذ علم البيئة، بقوله: «لو هلك النحل (سواء الوحشى منه أو الأليف)، فسيَفنى مائةُ الفِ نوع من النباتات والأزهار والثمار وما يدريك بأنْ لا تزول حضارتنا أصلًا»!! «۳».

۵- البناء الجسمى للنحل عجيبٌ أيضاً!

إنَّ تركيب النحل ذاته ذو قصةٍ طويلةٍ ومدهشةٍ وعيونها بالذات اكثرُ عجباً إذ يقول العلماء: تتألف عيون النحل من الفين وخمسمائة طبقة صغيرة! تُشكِّل مع بعضها زاوية من ۲- ۳ درجة، وهذه العيون قادرةٌ على تعيين موقع الشمس فيما إذا حجبتها الغيوم، عن طريق الأشعة فوق البنفسجية التى تؤثر فيها.

---

(۱) تربية النحل، ص ۲۳۳ و ۲۳۴ «مع الاختصار».

(۲) اقتباس عن عالم الحشرات.

(۳) الجامعة الاولى ج ۵، ص ۵۵.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۴

لغة النحل وتشاورها مع بعضها تعد من الحقائق العلمية التى تم اكتشافها فى السنوات الأخيرة أيضاً «۱».

إنَّ النحلَ لا يرى الأزهار الملّونة بشكلها ولونها الذى نراه، بل إنّه يرى بواسطة الاشعة فوق البنفسجية، وهذا النور يضاعف فى جمال الأزهار فيجذبها نحوها «۲».

وللأسف فانَّ طبيعة البحث لا تسمح لنا بمزيد من الكلام فى هذا المضمار، ولكن يجب القول بأنّه كلَّما سَمعنا عن هذه الحشرة ونشاطاتها التى أشار إليها القرآن الكريم تتكشفُ لنا أسرارٌ جديدة عن قدرة الإله العظيم خالقِ كلِّ هذه العجائب.

و «مسك الختام» نُيممُ باسماعنا وقلوبنا صوب كلام الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فى توحيد «المفضّل»:

«انظر إلى النحل واحتشاده فى صنعة العسل، وتهيئة البيوت المسدسة وما ترى فى ذلك اجتماعه من دقائق الفطنة فانك إذا تأملت العمل رأيته عجيباً لطيفاً وإذا رأيت المعمول وجدته عظيماً شريفا موقعه من الناس، وإذا رجعت إلى الفاعل الفيته غبياً جاهلًا بنفسه فضلًا عما سوى ذلك، ففى هذا أوضح الدلالة على أنّ الصواب والحكمة فى هذه الصنعة ليس للنحل بل هى للذى طبعه عليها وسّخره فيها لمصلحة الناس ...» «۳».

---

(۱) الحواس الغامضة للحيوانات، ص ۱۳۷ و ۱۴۰ و ۱۴۳.

(۲) سرُّ خلق الإنسان، ص ۹۳.

(۳) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۰۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۵

۱۹- آیاته فی خلق الحیوانات

تمهید:

إنَّ الحیوانات تُمثل جانباً عظیماً من الموجودات الحیَّة فی العالم، وهی تجلب اهتمامَ کلِّ ناظرٍ إلیها لتراکیبها المختلفة واشکالها المتنوعة وتباینها الکثیر، وعجائبها العظیمة، ودراسة کلٍّ منها، تُعرِّفُ الإنسان علی العلم والقدرة اللامتناهیة لخالقها.

وتتجلّی أهمیّة هذه المسألة عندما نری هذه الحیوانات فی مکانٍ واحدٍ، فمثلًا لو ذهبنا إلی حدیقة الحیوانات، وزرنا غرفَ الأسماک وأنواع الطیور، والقردة، والاسد والفهد والنَّمر و الزّرافة والفیل، وننظرَ عادات وعجائب خلقِ کلٍّ منها، فلا یمکن لمن یمتلک قلیلًا من العقل والفطنة، أن لا یغرق بتفکیره بها، ولا یُذعن أمام خالق هذه الموجودات المتنوعة والعجیبة.

ومن بین هذه الحیوانات، هنالک حیوانات أَلیفة تخدم الإنسان وذات منافعَ وبرکات مختلفة للبشر، جدیرةٌ بالاهتمام أکثر من غیرها، لهذا فقد استند القرآن الکریم فی آیاته التوحیدیة إلی جمیع الدواب بشکلٍ عام وإلی الأنعام والبهائم بشکل خاص، وذکرَ جوانبَ من عجائبها فی آیاتٍ عدیدة.

بهذا التمهید نُمعن خاشعین فی الآیات الآتیة:

۱- «وَمِنْ آیَاتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِیْهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَی جَمْعِهِمْ اذَا یَشَاءُ قَدِیْرٌ». (الشوری ۲۹)

۲- «إِنَّ فِی السَّمَواتِ وَالأَرْضِ لَآیاتٍ لِّلْمُؤْمِنِیْنَ* وَفی خَلْقِکُمْ وَمَا یَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۶

آیاتٌ لِّقَوم یُوْقِنُونَ». (الجاثیة/ ۳- ۴)

۳- «أَفَلَا یَنْظُرُونَ الیَ الِابِلِ کَیْفَ خُلِقَتْ». (الغاشیة ۱۷)

۴- «وَإِنَّ لَکُمْ فِی الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِیْکُمْ مِّمَّا فِی بُطُونِهَا وَلَکُمْ فِیْهَا مَنَافِعُ کَثِیْرَةٌ وَمِنْهَا تَأْکُلُونَ* وَعَلَیْهَا وَعَلَی الْفُلْکِ تُحْمَلُونَ». (المؤمنون/ ۲۱- ۲۲)

۵- «وَانَّ لَکُمْ فِی الأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِیْکُمْ مِّمَّا فِی بُطُونِهِ مِنْ بَیْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خالِصاً سَائِغاً لِّلشَّارِبِیْنَ». (النحل/ ۶۶)

۶- «وَاللَّهُ جَعَلَ لَکُمْ مِّنْ بُیُوْتِکُمْ سَکَناً وَجَعَلَ لَکُمْ مِّنْ جُلُودِ الأَنْعامِ بُیُوْتاً تَسْتَخِفُّونَهَا یَومَ ظَعْنِکُمْ وَیَومَ إِقامَتِکُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوبَارِهَا وَاشْعارِهَا أَثَاثاً وَمَتاعاً إِلیَ حِیْنٍ». (النحل/ ۸۰)

۷- «وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ کَذَلِکَ انَّمَا یَخْشَی اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِیْزٌ غَفُوْرٌ». (فاطر/ ۲۸)

۸- «أَوَلَمْ یَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَیْدِیْنَا انْعَامَاً فَهُمْ لَهَا مالِکُونَ* وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَکُوبُهُمْ وَمِنْهَا یَأْکُلُونَ* وَلَهُمْ فِیْهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ افَلا یَشْکُرُونَ».

(یس/ ۷۱- ۷۳)

۹- «وَالَّذِی خَلَقَ الأَزْوَاجَ کُلَّهَا وَجَعَلَ لَکُمْ مِّنَ الْفُلْکِ وَالأَنْعامِ مَا تَرْکَبُوْنَ* لِتَسْتَوُوا عَلَی ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْکُرُوا نِعْمَةَ رَبِّکُمْ اذَا اسْتَوَیْتُمْ عَلَیْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِی سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا کُنَّا لَهُ مُقْرِنِیْنَ». (الزخرف/ ۱۲- ۱۳)

۱۰- «اللَّهُ الَّذِی جَعَلَ لَکُمُ الأَنْعَامَ لِتَرْکَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْکُلُونَ* وَلَکُمْ فِیْهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَیْهَا حَاجَةً فِی صُدُوْرِکُمْ وَعَلَیْهَا وَعَلَی الْفُلْکِ

تُحْمَلُونَ* ويُرِيْكُمْ آياتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ» «۱»

. (غافر/ ۷۹- ۸۱)

---

(۱) هنالك آيات اخرى فى هذا المجال أيضاً مثل: الشعراء، ۳۳؛ والانعام، ۱۴۲؛ والزمر، ۶؛ والزخرف، ۱۱.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۷

شرح المفردات:

«دابّة»: كما قلنا سابقاً من مادة «دبيب» أى السير ببطءٍ وهدوء، إلّاأنّها تُطلقُ عادةً على جميع الحيوانات، وعلى المذكر والمؤنث والموجودات التى تَدُبُّ على الأرض وحتى طيور السماء، وجمعها «دوابّ» وتعنى البهائم.

وقد تستعملُ أحياناً بصدد نفوذ وحلول شيءٍ فى موجودٍ آخر، فيقال مثلًا: دبَّ الشرابُ فى الجسم ودبَّ السُّقمُ فى البدن.

وهذا المفهوم يشملُ حتى الإنسان، وموارد استعماله فى القرآن الكريم تشهدُ على ذلك «۱».

«انعام»: جمع «نَعَم» (على وزن قَلَم) وهى ماخوذة فى الأصل من مادة «نعمة» ثم اطلقت على «الجَمَلْ»، لأنَّ الجَمَلَ كان من أفضل النعَمِ لدى العرب، ويُطلقُ هذا اللفظ على الدواب الاخرى كالبقر والماشية بشرط أنْ يكون الجملُ جزءاً منها «۲».

وصرَّحَ رهطٌ من ارباب اللغة أنَّ «النِّعَم» ذات معنىً جمعى ولا مفرد لَها، و «انعام» جمع الجمع «۳».

يقول «ابن منظور» فى «لسان العرب»: إنَّ «النَّعَم» تعنى الحيوان المجتر، ثم ينقل عن آخرين أنّ «النَّعم» تُقالُ بخصوص الجَمل، وعن بعضهم الآخر أنّها تُطلقُ على الجمال والماشية.

وسُمِيت «النَّعامةُ» بهذا الاسم لأنّها تشبه «البعير» كثيراً لضخامة جسمها، ولذلكاطلقت على ظلال الجبال وغيرها، أو الاعلام التى تُثبتُ فى الصحارى لتحديد الطريق.

على أيّةِ حال .. مهما كان المعنى الأول للفظ «انعام» فهو يطلقُفى الاستعمالات العادية على الحيوانات المجترّة (البقر والأغنام والجِمال).

---

(۱) لسان العرب، مفردات الراغب، ومجمع البحرين مادة (دبّ).

(۲) مفردات الراغب.

(۳) مجمع البحرين، وأقرب الموارد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۸

جمع الآيات وتفسيرها

ماذا يجرى فى عالم الحيوانات؟

بعد الإشارة فى الآية الاولى والثانية إلى آيات اللَّهِ فى خلق السماوات والأرض، وكذلك خلق الإنسان أشار إلى خلق كافة الحيوانات الموجودة فى السماوات والأرض، قائلًا «ومِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَواتِ والأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيْهِمَا مِنْ دابَّةٍ».

«بَثَّ»: تعنى فى الأصل تفريق الشيء كما يُفرّق الهواء الاتربة، وهذا التعبير فى الآية يعنى تكوين وخلق وابراز الموجودات المختلفة،

ونشرها فى مختلف المناطق.

على أيّـة حال .. فإنَّ هـذا التعبير يشـملُ جميع البهائم والحيوانات والإنسان، ابتداءً من الموجودات المجهرية التى تتحرك حركةً دقيقة وخفيَّةً وحتى الحيوانات العملاقة التى يبلغ طولها عشرات الامتار وقد تزن أكثر من مائة طن «۱» ويضم كلَّ أنواع الطيور ومئات الآلاف من أنواع الحشرات المختلفـة، وآلاـف الآلاـف من أنواع الحيوانـات الوحشـية والأليفـة والحيوانـات المفترسـة والزواحف والأسـماك الصغيرة والكبيرة والموجودات الحيَّة فى البحار.

ولو تأملنا قليلًا فى سعة مفهوم «دابة» وشـموله بالنسـبة لجميع أنواع البهائم لتجسد أمامنا عالمٌ من العجائب والغرائب ومناظرُ من القدرة، حيث يكفى كلٌ منها أنْ يُعرفَنا على علمِ وقدرة الخالق العظيم لهذا الخلق.

لقد دُوّنت الملايين من الكتب وبمختلف اللغات حول خصائص بناء وحياة أنواع الاحياء، واعدّوا الكثير من الاشـرطة المصورة فى هذا المجال، واصدروا مجلات مختلفة وبلغاتٍ متباينة بخصوص هذا الموضوع، حيث تجعلُ مطالعتُها الإنسان يغرقُ فى بحرٍ من

---

(۱) يصل وزنُ بعض الحيتان إلى مائـة وعشـرين طناً، وكما يقول صاحب كتاب «نظرة على الطبيعـة وأسـرارها» (البروفسور ليون برتن) فانَّ هـذا الوزن يعادل وزن الفِ وخمسـمائة رجلٍ ضـخم الجثة! أو اربعة وعشـرين فيلًا ضـخما! وقد أجريت حساباتٍ على وزن أعضاء جسـمها: فقلبه يزن سـتمائة كيلو غرام، والدم يزن ثمانية آلاف كيلو غرام، والرئتان طناً واحداً، والعضلات خمسين طناً، والجلد والعظام والامعاء والاحشاء تزن ستين طناً، (ص ۲۳۸).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۲۹

العجائب والغرائب، وقـد أزالت المساعى التى بُـذلت من قبل العلماء على مدى آلاف السـنين لمعرفتها، الحجاب عن جانبٍ واحدٍ فقط من حياتها، ومن المسلَّم به أنَّ المستقبل سيشهد فى كل يوم انكشاف اسرارٍ جديدة من حياتها.

فبعض العلماء قضـى عشـرين عاماً من عمره لدراسة حياة النمل فقط، وإذا أرادوا دراسة حياة كافة أنواع الحيوانات بهذا الاسـلوب فمن غير المعلوم أنْ يكفى عمر البشرية لمعرفة أسرارها.

والجـدير بالـذكر أنَّ ما نتحـدث عنه هو الكائنات الحيَّة الموجودة فى الأرض، بينما يسـتفاد من تعبير «فيهما» (فى السـماء والأرض) أنْ هنالك احياءً كثيرة فى السماوات أيضاً ليست فى متناول دراسات علمائنا، وربّما يعثر الإنسان على موجوداتٍ حيَّةٍ عجيبةٍ وغريبةٍ اخرى فى باقى الكواكب من خلال الرحلات الفضائية حيث يصعبُ علينا الآن تصور شكلها ومواصفاتها.

وقال بعض المفسِّرين إنَّ المقصود من حيوانات السـماوات هى الملائكة، بينما لا تُطلقُ كلمة «دابّة» على الملائكة ويعتقد بعضهم أيضاً بعدم وجود أىَّ كائنٍ حىٍّ فى السـماوات غير الملائكة، وقد ذكروا تبريرات وتفاسير اخرى للآية، بينما يتضح هذا المعنى لدينا اليوم إذ إنَّ الكائنـات لاـ تقتصـر على الكرة الأرضـية فقـط، وكمـا يقول العلماء هنالك ملايين الملايين من الكواكب فى هـذا الفضاء الفسـيح يمكنُ السكنُ فيها من قبل الدّواب والاحياء.

والجدير بالذكر أيضاً أنّ الحيوانات لا تعتبر آية من آيات اللَّه فى خلقتها وطراز حياتها وجوانبها المختلفة فحسب، بل لفوائدها العديدة وخيراتها الكثيرة التى تفيض بها على الإنسان.

وإذا قال: «آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فهو إشارة إلى الذين لديهم الاستعداد لقبول الحق والإيمان ولم يقصد المعاندين والمتكبرين والأنانيين.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۰

ويقول فى الآية الثالثة من البحث بصيغة استفهام توبيخى: «أَفَلا يَنْظُرونَ إِلَى الابِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ».

واللطيف أنّه تمت الإشارة بعد ذلك إلى عظمة خلق السـماء، ثم الجبال ومن بعدها الأرض، فوضعُ الابلِ إلى جانب هذه الاشياء، يُعتبرُ دليلًا على أهميّة خلق هذا الحيوان.

إنَّ التأمُّلَ فى أوضاع هـذا الحيوان، يـدلُ على أنّه ذو مواصـفاتٍ متباينـة تجعلُهُ يختلف عن باقى الحيوانات الاخرى ويتضـح جيـداً من خلال الانتباه إلى هذه المواصفات لماذا استند القرآن الكريم إلى هذا الموضوع بشكلٍ خاص ومن جملتها:

١- إنَّ مقاومة الجَمَلَ لا نظير لها، لا سيما ازاء الجوع والعطش، وشدة التحمُّل، وقد يقاوم العطشَ وهو اصعبُ من الجوعِ لعشرةِ أيّام أو أكثر ولهـذا يعتبرُ أفضل وسـيلةٍ لقطع الصـحراء القاحلـةِ، لـذلك فقد اطلقوا عليه «سـفينة الصـحراء». لأنّه يتمكن من خزن الغذاء والماء لمدةٍ طويلةٍ فى بطنهِ ويقتصدُ فى استهلاكها أيضاً.

٢- لا يتقيد بنوعٍ خاصٍ من الغذاء فى طعامه، وغالبا ما يتغذى على كل ما ينمو فى الصحراء.

٣- والأعجب من ذلـك أنّه يواصلُ طريقه شاقاً العواصف الترابيـة المليئـة برمال تعمى العيون وتصم الآذان، وهو يسـتطيعُ سـدَّ منخريه مؤقتاً، ويحافظ على اذنيه من الغبار، ولعينيه هـدبان يُطبق أحدهما على الآخر فى هذه الظروف، وينظر من خلفهما، وما قاله بعضـهم بأنَّ الجمَلَ يسير مغمضَ العينين فانَّ هذا هو المقصود.

حتى ذكر بعض المفسِّرين إنَّه يُحسنُ تشخيص الطريق فى الليالى المظلمة أيضاً!.

٤- إنَّ الحيوانـات تتبـاين فيما بينها، فبعضـها يسـتفادُ من لحمه ومنها مَا يفيـد فى الركوب، وبعضُ يسـتفادُ من لبنه فقط، وبعضـها الآخر للحمل، إلّاأنّ الجَمَلَ يجمعُ بين هذه الجوانب الأربعةِ جميعها، فيستفاد منه للركوب ولحمل الأمتعة ومن لبنه وجلده ووبره.

٥- ومن العجـائب المتميزة لهـذا الحيوان هى أنَّ الحمـلَ يوضَعُ على ظهرهِ أو يُركبُ أثنـاء بروكهِ، وينهض وبحركـةٍ واحـدةٍ من مكانه ليقف على أرجلهِ، بينما تنعدم هذه القدرة لدى باقى الحيوانات.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۱

وقد ذكرَ بعضـهم أنَّ هذا يعود إلى القدرة العجيبة الكامنة فى رقبته الطويلة التى تعمل طبقاً لقانون «الرافعة» الذى اكتشـفه «ارخميدس» لأول مرّة، (فهو يقول: لو وجدتُ نقطة للاتكاء خارج الكرة الأرضـية لتمكنتُ برافعة ضـخمة من تحريك هذه الكرة عن مكانها! وهذا هو الواقع، فطبقاً لقانون الرافعـة أنَّ الضـغط الوارد على أحـد طرفى الرافعـة الـذى يضـرب فى المسافة بينه وبين نقطة الاتكاء يوجد فى الطرف الآخر للرافعة الاقرب إلى نقطة الاتكاء ضغطاً عظيماً).

وانطلاقاً من هذا فانَّ رقبة البعير تكتسب صـفة الرافعة اسـتناداً إلى نقطة ارتكازها المتمثلة فى الأرجل الإمامية ومن خلال حركةٍ سـريعةٍ وقويةٍ تعمل على تخفيف الاحمال الموجودة على ظهر البعير وتسمح له باطلاق رجليه الخلفيتين وينهض من مكانه! «۱».

كـلُ هـذا وعجـائب ومواصـفات اخرى أدّت إلى أن يُسـتند إليه بوصـفه آيـةً من آيـات اللّه العظيمـة، وليس فقـط لأنَّ الجَمَلَ كان من الأركان المهمّة فى حياة العرب الذين كانوا أولَ من خوطب بهذه الآيات.

فمنْ يسـتطيع أنْ يخلقَ كلَّ هـذه العجائب والبركات فى مخلوقٍ واحـدٍ؟ ومن ثمَّ يجعلُهُ مطيعاً للإنسان بحيث لو أَخذَ طفلٌ صـغيرٌ بعنانِ قافلـةٍ من الابلِ لكان بمقـدوره أن يأخذه إلى المكان الذى يصـبوا إليه، والعجيب أنّ الأنغام الموزونة (كالحدى) تترك أثراً فى نفسـهِ أيضاً وتدفعه إلى الحركة بحيويةٍ ونشاط وشوقٍ.

أوليست هـذه آياتٌ عن عظمـة وقـدرة الخالق؟ أَجَلْ؛ فاولئك الـذين لا يمرُّون على هـذه الآيات مرور الكرام باسـتطاعتهم أن يدركوا أسرارها (لا تَنسَوْا أنّ جملة: «افَلَا يَنْظُرونَ» من مادة «نَظَرْ» إلّاأنّها ليست النظر العادى، بل النظر المتزامن مع التفكّر والتأمُّل).

---

(۱) اشير إشارة قصيرة فى كتاب الجامعة الاولى ج ۶، ص ۳۲ إلى هذه المسافة، وكما اشير فى كتبٍ اخرى باشاراتٍ مفصلةٍ.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۲

ويقول فى الآية الرابعة والخامسة ضمن إشارته إلى المنافع المختلفة للحيوانات بالنسبة للإنسان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِى الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وذُكرت «عبرة» هنـا بصـيغة «نكرة» حيث تعتبر دليلًا على أهميّته الفائقـة، وكما يقول الراغب فى كتاب المفردات «عِبرَة» من مادة (عَبْر)

وتعنى العبور والانتقال من حالةٍ إلى اخرى وهنا حيثُ يرى المعتبرُ حالةً يدلكَ من خلالها على حقيقة لا يمكن ملاحظتها فاطلقوا على ذلك «عبرة».

وعليه فانَّ مفهوم الآيـة يشـير إلى أنّه بمقـدوركم انْ تصـلوا إلى معرفة اللّه وعظمة وعلم وقدرة مُبدىء الخلق العظيم من خلال ملاحظة أسرار وعجائب الحيوانات.

ثم أشار القرآن فى شـرحه لهـذا المعنى إلى أربعـةِ جوانب من الفوائـد المهمّـة للحيوانات فيقول ابتداءً: «نُسْـقِيْكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهَا» نعم، اللبن هذه المادة السائغة الطعم التى تخرج من الحيوانات ومن بين دمها ولحمها شـراباًمغذياً كاملًا، وورد هذا المعنى مع تأكيد أكثر فى الآية الخامسة إذ يقول: «نُّسْقِيْكُمْ مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِيْنَ» «۱»

.

فأىُّ قـدرةٍ تلك التى تُخرجُ مثل هـذا الغذاء الطاهر الصافى اللذيذ من بين تلك الأشـياء الملّوثة؟ لونه ابيض، طعمه حلوٌ، رائحته عطرة، ومقبولٌ من جميع الجهات.

والعجيب مـا يـذكره العلمـاء .. فمن أجل انتاج لتر واحـد من الحليب فى ثـدى الحيوان يجب أنْ يمرَّ ما يقارب خمسـمائة لتر من الـدم خلال هـذا العضو كى يتم امتصـاص المواد اللازمـة من الـدم لتكوين ذلـك اللـتر من اللبن! ومن أجـل انتـاج لتر واحـد من الـدم فى الشرايين

---

(۱) «فرث» بمعنى الغـذاء المهضـوم، والجـدير بالـذكر أنَّ «بطونهـا» ذُكرت فى سـورة المؤمنـون مع ضـميرٍ مؤنث حيث لهـا معنىً يفيد الجمع فى مثـل هـذه الموارد، وفى سورة النحل «بطونه» بضـمير المـذكر إذ لها معنىً فردى، وقال بعض المفسِّرين أنّ «انعام» اسمُ جمعٍ ولو لوحـظ ظـاهر اللفـظ فانَّ ضـمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضـمير جمعٍ ولو لوحظ ظاهر اللفظ فانَّ ضـمير المفرد يعود إليها، ولو لوحظ معناه فانّه ضـمير جمعٍ وقال بعضـهم أنّ ضـمير المفرد لمفهوم الجمع وضمير المؤنث لمفهوم الجماعة، (يُراجع تفاسير الكشاف و الكبير وروح المعانى و ابو الفتوح الرازى).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۳

لابدَّ أنْ تمُرَّ الكثير من المواد الغذائية خلال الامعاء هنا حيث يتجلّى مفهوم: «مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ».

وقـد قيـلَ الكـثير حول تركيب اللبن وكيفيـة تكوينه فى الأثـداء، وأنواع المواد الأوليـة والفيتامينـات الموجودة فيه، ومزاياه الـتى تمنح الطاقـة، والمسـتخرجات المتعـددة التى تُنتـجُ منه، وفائـدته لكـلِّ الأعمار، بحيث لو جُمعَتْ لألَّفَتْ كتاباً مُعتَبراً، يُخرِجُنا التطرق إليه عن اطار البحث التفسيرى.

ونكتفى هنا بـذكر روايـةٍ مليئـةٍ بالمعانى عن النبى صـلى الله عليه و آله حيث يقول: «إذا أكَلَ أحَـدُكُمْ طعاماً فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ بارِكْ لَنَا فيهِ، وأطْعمنا خيراً مِنْهُ، وإذا شَرِبَ لَبَناً فَلْيَقُل أللَّهُمَ بارِكْ لَنَا فيهِ، وَزِدْنا مِنهُ، فَانّى لا أعْلَمُ شَيئاً أنْفَعُ فى الطّعامِ والشَّرابِ مِنْهُ» «۱».

ثم يتطرق إلى الفائدة الثانية للحيوانات ذوات الأربع، فيقول فى جملةٍ قصيرةٍ وغامضةٍ:

«وَلَكُمْ فِيْهَا مَنافِعُ كَثِيْرَةٌ».

وهـذا التعبير يُمكنُ أنْ يكون إشـارة إلى الصوف والوبر والشَـعَر فى الحيوانـات والتى يُصـنعُ منهـا أنواع الملابس والفرش باسـتمرار، وكـذلك إشـارة إلى الجلود والامعـاء والعظـام والقرون التى تُصـنعُ منهـا وسائـل الحيـاة المختلفـة، وحتى فضـلاتها يمكن اسـتخدامها كأسمدة فى تنمية الأشجار وتنشيط الزراعة والنباتات.

وفى المرحلة الثالثة أشار إلى فائدة اخرى قائلًا: «وَمِنْهَا تَأكُلُونَ».

مع مـا ذكره خـبراء الغـذاء من كـل أضـرار اللحم، وبـالرغم من المؤاخـذات الـواردة على آكلى اللحـوم فى العـالم من الناحيـة الطبية

والاخلاقية وغيرها، فأنَّ الكثير يعتقدون أنَّ استهلاك اللحم بكميةٍ قليلةٍ ليس غير مضر فحسب بل وأنَّهُ ضروريٌّ بالنسبة لجسم الإنسان، وتبرهنُ تجارب الذين يعيشون على النباتات بأنَّهم مصابون بالاضطرابات والنواقص وتؤيدُ وجوهُهُم الصفراء ذلك، وهذا يعود إلى أنَّ البروتين وبعض العناصر الأساسية الموجودة في اللحم لا يمكن الحصول عليها في أيَّ نباتٍ أبداً، والأهميّة التي

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۴۸.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۴

يعطيها القرآن لهذه المسألة تحكي عن هذا المعنى

ولكن ممّا لا شك فيه أنَّ الافراط في اكل اللحوم شيءٌ مذمومٌ في نظر الإسلام ومن وجهة النظر الطبية أيضاً.

وأشار في الجزء الرابع والأخير من هذه الآية إلى الاستفادة من الحيوانات للركوب.

فيقول: «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ».

فقد كانت هذه الحيوانات على الدوام خير وسيلةٍ للحمل والركوب، واليوم في عصر السيارات والشاحنات لم يستغنِ البشر أيضاً عن وجود هذه الحيوانات للركوب وحمل الأمتعة، لا سيما في بعض المناطق الجبلية والطرق التي لا يمكن استغلال وسائط النقل الحديثة فيها، فيستفاد من الحيوانات في الحمل والنقل فهنالك حيوانات كالبغال تعتبر افضل وسيلةٍ لارسال العتاد إلى جبهات الحرب على اعالي الجبال الوعرة، ولولاها لاصبح من الصعوبة السيطرة على الجبال الشاهقة الواسعة.

وبهذا فقد أودعَ الباري تعالى فوائد جمّة في هذه الحيوانات، وبيَّنَ آثار عظمته وفضله على الإنسان من خلالها.

واللطيف أنَّ الحيوانات جاءت في هذه العبارة من الآية في مقابل السفن وهذا دليلٌ على انّها بمثابة سفن في اليابسة! «۱».

وفي الآية السادسة وكتعريفٍ بالذات الإلهيّة، أو ذكر النِّعم التي تجُر الإنسان إلى معرفته، أشار إلى مايستفيده الإنسان من جلود واصواف الحيوانات، فيقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً».

ثم يضيف: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يَومَ ظَعْنِكُمْ ويَومَ إِقامَتِكُم».

أجل .. فالبيوت الثابتة لا تُلبي حاجةَ الإنسان باستمرار، ففي الكثير من الحالات يحتاج الإنسان إلى بيوت متنقلةٍ كي يستطيع حملها ونقلها بسهولة وتقاوم في نفس الوقت

---

(۱) وورد ما يشابه هذا المضمون في الآيات ۵ إلى ۸ من سورة النحل حيث يشير إلى المنافع المتعددة للحيوانات.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۵

البردَ والحرَّ والرّياح والعواصف وأمثال ذلك، ومن افضل البيوت المتنقلة هي الخيام التي تصنع من الجلود التي تمت الإشارة إليها في هذه الآية، وهي اقوى من الخيام المصنوعة من الصوف أو القطن وأكثر مقاومةً وراحةً.

ويتطرق في ختام الآية إلى جانبٍ آخر من منافعها المهمّة، إذ يضيف: «ومِنْ أَصْوَافِها وَأَوْبارِهَا وَأَشْعارِهَا أَثاثاً وَمَتاعاً إِلَى حِيْنٍ» «۱».

ونحنُ نعلمُ طبعاً أنَّ الصوف من الأغنام، والوبر من الابلِ، والشَّعْرَ من الماعز، ونعلمُ أيضاً أنَّ أنواع الملابس، والفرش، والاغطية، والستائر، والخيام، والسُفَر، والحبال، وأمثالها ممّا يلعب دوراً مهماً في حياة الإنسان، تُصنعُ جميعها من هذه المواد الثلاث.

وبالرغم من أنَّهم قاموا في هذا العصر بصناعة أنواع الملابس والفراش من المواد الصناعية والنفطية، إلّاأنّ دراسات العلماء أثبتت أنّها لا تُعتبر صالحةً لحياة الإنسان، وغالباً ما تؤدّي إلى مضاعفاتٍ غير ملائمة له، بينما تُعتبر الملابس الصوفية والوبرية والشَعرية من أصلح الملابس.

وقد اعتبرَ بعضهم التعبيرَ ب «الى حينٍ» إشارةً إلى دوام الآلات التي تُصنعُ من هذه المواد الثلاث، ويعتبرها بعضهم إشارةً إلى أنَّ جميع

ذلك الأثاث معرض للزوال ولا يجب التعلّق به، ويبدو أنَّ هذا المعنى أكثر تناسباً.

وفى الآيـة السابعـة التى وردت ضـمن الآيات التوحيديـة فى سورة فاطر، حيث أثارَت انتباه النبى صـلى الله عليه و آله إلى خلقِ الإنسان والدَّوابِ والأَنعامِ، قائلًا: «ومِنَ النّاسِ والدَّوابِ

---

(۱) «بيوت» جمع «بيت» ويعنى حجرة أو بيت الإنسـان الـذى يـأوى إليه ليلًا، ولفظـة «بيتوته» التى تعنى «المبيت ليلًا» مأخوذة من ذلك أيضـاً، «ظعـن» تعنى الرحيـل والتنقـل مـن مكـان إلى آخر وهى تقابـل «الاقامـة»، ... «اثـاث» مـأخوذة مـن مـادة «اثّ» وتعنى الكـثرة والاضـطراب وتطلق على لوازم البيت نظراً لكثرتهـا واعتبرهـا بعضـهم بمعنى الغطـاء واللبـاس وبعضـهم بمعنى البسـاط فى حين اعتبرها بعضهم الآخر راجعة إلى «المتاع» الذى يعد وسيلة للتمتع والاستفادة وأنّهما بمعنى واحد.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۶

وَالأَنْعام مُختَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ» «۱».

أى كما خلقَ اللَّه تعالى انواعَ الثمار وبألوانٍ متباينـة، وتتباينُ الوانُ الجبال فيما بينها، فقـد خلقَ ألواناً مختلفةً من الاحياء سواء الإنسان أم الـدَّواب أم الأنعـام، بـالرغم من أنَّ اغلب المفسـرين اتّخـذوا الألوان هنا بمعنى الألوان الظاهريـة المختلفـة «۲»، ولكن يبـدو أنّ التعـبير المذكور ذو معنىً واسع، ويُعتبرُ إشارة إلى تفاوت أنواع واصناف الناس والدَّوابِّ والأنعام، الذى يعتبر من اهم عجائب وغرائب الخلق.

لا شك أننا نعلمُ أنَّ هنالك اليوم مئات الآلاف من أنواع الـدَّواب والحيوانات فى العالم، بل يـذكر بعض العلماء أنَّ أنواعها يبلغ مليوناً وخمسـمائة الف نوع!، وهـذا التباين العجيب وبهـذه المواصـفات التى تتصف بها كلٌّ منها يعتبر آيةً عظيمةً من آيات اللَّه، وبراهين عل علمه وقدرته.

نعم ... فقـد ابدعَ هذا الرسّام الماهر بقلم واحد ولون واحد فى رسمِ انواعٍ لا تُحصـى من الرسوم ونماذج ملَّونةٍ من الألواح كل منها آية فى صنعِ الخلقِ.

غير أنّ المفكرين والعلماء هم الـذين فتحوا بصائرهم لِيَروا روحَ العالم فى هـذه الميادين البديعـة، و «يَرَوْنَ مالا يُرى ، لـذلك يقول فى ذيل الآية: «إِنَّمَا يَخْشى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزيزٌ غَفُورٌ».

إنَّ ألوانها الظاهرية المختلفة تَشغُلُ أهلَ الظاهر، وألوانها الباطنية وخلقها المتباين تشغل اهلَ الباطن والمعنى

فالألوان الظاهريـة للأزهار تجـذب نحوها النحل، كى يساعـدها فى التلقيـح، كما تتجاذب الإناث والـذكور من الحيوانات فيما بينها «لا سيما فى الطيور»، إلّاأنّ ألوانها الباطنية وبناءها المتفاوت يدعو العلماء وأصحاب الفكر نحوه، كى يُلقِّحَ فكرهُ من بذر التوحيد.

---

(۱) «من النـاس» خـبرٌ لمبتـدأ محـذوفٍ، والتقـدير هـو: «مـا هو مختلفٌ الوانه»، و «كـذلك» أشـار إلى الثمـار المختلفـة وألوان الجبـال المتفاوتة التى وردت فى الآية السالفة.

(۲) تفسير الميزان، وتفسير روح الجنان، وتفسير فى ظلال القرآن، وتفسير القرطبى وغيره.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۷

و «خَشْيـة»: تعنى «الخوف الممزوج بالتعظيم الناتـج عن علم ووعى»، وفى الحقيقـة هى مزيجٌ من الرهبةِ والرجاء لهذا وَصَفَ اللَّه نفسه بعـد هـذا الكلام مباشـرة بصـفتى «عزيز» و «غفور» حيث إنَّ الأولَ منشأ للرهبـة والثانى مصـدر للرجاء، وعليه فانَّ ذيل الآيـة مركبٌ فى الحقيقةِ من العلة والمعلول.

علماً أنَّ ذكرَ «الإنعام» بعد الدّواب، جاء من باب ذكر الخاص بعد العام، لأهميّة الانعام فى حياة الناس.

وفى الآية الثامنة وجَّه اللَّومَ من خلال استفهامِ توبيخى للمشـركين والكافرين الذين ضـلّوا وتركوا خالق الكون وتوجهوا نحو الأصـنام،

فقال: «أَوَلَمْ يَرَوا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ».

إنّ التعبير ب «لَهُم» ذو مفهومٍ واسعٍ للغايةِ حيث يشمل المنافع المختلفة لجميع أجزاء هذه الانعام، أَجَلْ .. فقد اقتضى لطفُ اللَّه أن يكونَ هو «الخالق» والآخرون هم «المالكون»!.

ثم أشار إلى نكتةٍ اخرى فيما يخص الانعام، مضيفاً: «وَذَّلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُم وَمِنْهَا يأكْلُونَ* ولَهُمْ فِيْهَا مَنافِعُ وَمَشَارِبُ».

ويقول فى الختام «فهلا يشكرون هذه النِّعم التى وهبها اللَّه للناس»؟ ولا يَسْعَوْنَ لمعرفة ذاته المقدّسة؟ «أَفَلا يَشْكُرُونَ».

ويُمكنُ أن يكون التعبير ب «ممّا عَمِلَتْ أَيْدينا» إشارة إلى تعقيد مسألة الحياة التى لم ينكشف لغزُها للبشر لحد الآن، وهذا نابعٌ من قدرته الازليّة فقط.

والتعبير ب «المشارب» بعد ذكرِ «المنافع» من قبيل ذكر الخاص بعد العام حيث تمَّ الاستناد إليه بسبب أهميّته.

علماً أنّ «مَشارِب» جمع «مَشرب» (لأنّها جاءت مصدراً ميميّاً بمعنى اسم المفعول،

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۸

ويمكن أن تكون إشارة إلى أنواع حليب الانعام المختلفة، التى لكلٍّ منها آثاره ومزاياه الخاصة به، أو إشارة إلى مستخلصات الحليب التى نحصل عليها، وبما أنَّ اصلها هو الحليب فقد اطلقَ عليها لفظ «مشارب»، ونحن نعلمُ أنّ الحليب ومستخرجاته يُمثلُ جانباً مهماً من غذاء الناس «۱».

ولنا بحثٌ مناسب حول «ذَلَّلناها» سيأتى فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه.

والآية التاسعة من البحث وقعت ضمن سلسلة الآيات التى تتعلق بمعرفة اللَّه والتوحيد لأنَّه قال فى الآيات التى سبقتها: «ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّمواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزيزُ الْعَليمُ»، ثمَّ تَطرَّقَ إلى وصفِ اللَّه القدير قائلًا: «والّذى نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً بِقَدرٍ فَأَنْشَرنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخرَجُونَ»، ثم يضيفُ فى آية البحث: «والّذى خَلَقَ الازواجَ كُلَّها».

ويبدو أنَّ المقصود من «أزواج» هنا هو أزواج الاناث والذكور من الحيوانات والاحياء، لا سيما وانّه يضيف بعد ذلك: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الفُلكِ والأَنْعامِ مَا تَركَبُونَ» (أى الفلك فى البحار والانعام فى اليابسة).

وبهذا فانَّ ذكر «أنعام» بعد «الأزواج» جاء من بابِ ذكر الخاص بعد العام.

إلَّا أنّ بعض المفسِّرين يعتقِدون أنَّ «الأزواج» هنا إشارة إلى «الاصناف المتفاوتة» للموجودات، سواء كانت حيوانات أم نباتاتٍ ام جماداتٍ، لأنَّ كلًا منها له جنسٌ يقابله، ففى الحيوانات هنالك الذكر والانثى وفى غيرها النور والظلام، السماء والأرض، والشمس والقمر، اليابس والرطب، وحتى داخل أفكار الإنسان هنالك الخير والشر، الكفر والإيمان، التقوى والفجور، وامثال ذلك، والوجود الوحيد الذى لا اختلاف فيه هو ذاتهُ

---

(۱) يعتبر بعض المفسِّرين أنَّ «مشارب» إشارة إلى الأوانى التى تُصنعُ من جلد الحيوانات كانواع القِرَب والأوانى الاخرى إلّاأنّ هذا التفسير يبدو بعيداً إذ ليس لهذا الأمر أهميّة بالغة بحيث يُستند إليه بعد ذكر المنافع.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۳۹

المقدّسة، وهو متفردٌ فى كافة النواحى، إلّاأنَّ التفسير الأول يبدو أكثر صواباً من خلال ما ذكرناه من قرينة.

على أيّةِ حالٍ، فقد ذُكرَ خلقُ الأزواجِ من جانبٍ وخلق الانعامِ للركوب من جانبٍ آخر فى هذه الآية براهين عن الوجود المقدَّسِ للَّه‌تبارك وتعالى

إنَّ النظامَ الدقيق الذى يسود مسألة التكاثر فى الموجودات الحيَّةِ والحيوانات نظامٌ معقَدٌ وعجيبٌ للغاية، فما هى العوامل التى تؤدّى إلى أن يكون الجنين فى رحم امه ذكراً أو انثى وما هى العوامل التى تؤدّى إلى حفظ التوازن بين جنس الذكر والانثى وما هى

العوامل التى تؤدّى إلى أنْ ينجذبَ أحدُهما نحو الآخر كى تحصل مُقدَّماتُ الحمل؟ وما هى العوامل التى تعمل على تكاملهِ فى مرحلةِ الحياة الجنينيةِ المعقدة؟

فإذا تأملنا جيداً، لوقَعَ بصرُنا على آياتٍ عظيمةٍ من آياتِ اللّه فى هذا الطريق الطويل، وفيما يخص تذليل الحيوانات لركوبها.

ثم تحدَّثَ عن تسخير هذه الحيوانات القوية والضخمة للإنسان، قائلًا: «لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُوْرِهِ ثُمَّ تَذكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُم عَلَيْهِ وتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ».

صحيحٌ أننا ننظرُ إلى هذه المسألة نظرةً بسيطة جرّاء اعتيادنا عليها يومياً، حيث نرى قوافل كبيرة من الابل والخيل، وحتى حيواناتِ ضخمة كالفيلة مُسَخَّرة بيد طفلٍ صغيرٍ، وأحياناً يُودَعُ عنانُ قافلةٍ منها بيد طفلٍ فيقودها حيث يشاء، إلّاأنَّها فى الحقيقةِ ليست أمراً هيّناً، فلو كان لأحدها أقلُّ حالةٍ من التمرد والمواجهة فلا يستفاد منها فى الركوب أبداً بل لأصبحت تربيتُها من قِبل الإنسان خطيرةً جدّاً.

فنحن لا نستطيع أنْ نُربّى بازاً مشاجراً، وحتى قطة غاضبة وهائجة، فكيف نُربّى هذه الحيوانات الكبيرة القوية التى يمتلك بعضها قروناً وبعضها ذات اسنانٍ قاطعةٍ وفكٍ قويٍّ، وارجل بعضها قوية وكبيرة تستخدمها للضرب والركل، فإذا لم تكن مطيعة فكيف

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۰

نستخدمها للركوب؟ ولولا التسخير الإلهى حقاً لم نستفد منها أبداً: «مَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِيْنَ» «۱»

.

والنكتة الجديرة بالذكر أيضاً أنَّ ظهرَ الأنعام خُلق بحيث يكون مناسباً ومُعَدّاً لركوب الإنسان.

وممّا يلفت النظر أنّه يذكرُ الركوبَ عليها هدفاً أولًا، وذكر نِعَمِ الخالقِ يعتبره الهدف الثانى، وتعد معرفة الذات الإلهيّة المقدّسة وتسبيحه وتقديسه هى الهدف النهائى، فذكر النِّعَمِ يَضَعُ الإنسان دائماً فى طريق معرفتها، ومن ثمّ كلُ مواهب الخلق دافعٌ ومقدمة لمعرفة اللّه سبحانه.

وذُكر هذا المعنى فى الآية العاشرة والأخيرة بالإضافة إلى منافع اخرى وقد تمت الإشارة فى هذه الآية إلى خمس فوائد اساسية للانعام، واعتبرها من آيات اللّه.

فيقولُ فى البداية: «اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَنْعامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا» «وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

ثم أشار إلى الفوائد المختلفة، كاللبن والصوف والجلد والمواد الطبية وامثال ذلك، فيقول إجمالًا: «وَلَكُمْ فِيْهَا مَنافِعُ» «۲».

ويقول فى المرحلةِ الاخيرة: «وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُم».

إنَّ ذكرَ هذا المعنى على هيئةِ منفعةٍ مستقلة، مع أنَّ مسألة الركوب قد ذُكرت سابقاً، يُمكنُ أن يكون المقصود منه حمل ونقل الامتعةِ وضروريات الحياة «۳»، أو لاغراض التنزُّهِ والسياحةِ والمسابقات أو كسب القوة فى ساحة الجهاد، أو الصراع مع بعض الحيوانات الوحشية، أو عبور الأنهار عن طريق سباحة الحيوانات، لأنَّها جميعاً تندرجُ فى لفظ «حاجة» الشامل، وهذه الضروريات لا شأنَ لها مع مسألة الركوب فى الأسفار.

---

(۱) إنَّ الضمير المفرد فى «ظهوره» و «عليه» و «له» يعود إلى «الانعام» لأنّ «الانعام»- وكما قلنا سابقاً- ذات معنىً جمعى، إلّاأنّها تلفظ مفردة، وظن بعضهم أنَّ هذه الضمائر تعود إلى «ما» فى «ما تركبون»، وفى هذه الحالة تشمل «الانعام» و «السفن» علماً أنّ «مقرنين» من مادة «إقران» وتعنى الاقتدار على الشىء، وفسَّرها بعضهم بمعنى القبض والحفظ.

(۲) ذكرت منافع بصيغة النكرة كى تُبرهنَ على أهميّتها.

(۳) كما تمّت الإشارة إلى ذلك فى الآية ۶ من سورة النحل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۱

ويقول فى الفائدة الخامسة والأخيرة: «وَعَلَيْهَا وَعَلى الْفُلْكِ تُحْمَلُوْنَ».

ولتعبير «حَمْل» مفهوم غير «الركوب» ويبدو أنَّ المقصود منه هو المحامل والهوادج التى توضعُ على ظهور الأَنعام ويجلس فيها النساء والأطفال الذين لا طاقة لهم على الركوب، كما يستفاد منها للمرضى والعَجَزَةِ والضعفاء.

إنَّ ذكرَ «تُحمَلُون» بصيغة «الفعل المجهول»، وجعلها إلى جانبِ الفُلك حيث يوضحُ تشابههما مع بعضهما (الفلك فى البحر والانعام على الأرض) يعتبر من القرائن أيضاً على التفسير أعلاه، وبهذا يتضح اختلاف هذه العبارات الثلاث: «لِتَركَبُوا- وَلِتَبْلُغُوا- وعليها وعلى الفُلك تُحمَلونَ»، وطالما وقع بعضُ المفسِّرين فى معضلات تفسيرها، وقد فسَّروها بمعنىً واحدٍ!

ومع أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ الانعام فى هذه الآية تعنى الابل فقط، ولكن نظراً لسعة مفهوم «الانعام» وعدم وجودِ قيدٍ فى الآية فلا دليل لحصرها، لا سيما أنَّ تكرار «منها» (علماً إنَّ «مِنْ» فى مثل هذه الموارد تُفيد التبعيض) يبرهنُ على أنَّ بعض الانعام يفيد فى الركوب، وبعضها يُفيد فى الأكل، بينما لو كان المقصود هو الأبل فإنَّها تُفيدُ فى جميع هذه الجوانب.

واللطيف أنَّه يقول فى الآية الآتية باستنتاج عام: «وَيُرِيكُم آياتِهِ فأىَّ آياتِ اللَّهِ تُنْكِرُوْنَ».

إشارة إلى أنَّ كُلًّا من هذه الامور يعتبر آيةً من آياتِ اللَّه بالنسبة للمتفكرين والعقلاء، آية بيِّنة ولا يمكنُ انكارها، والمنكرون يستحقون كلَّ اشكال اللَّوم والتوبيخ.

وهكذا نرى أننا نواجه فى كلِّ خطوةٍ نخطوها فى هذا الجانب آية من آياتهِ فى عالم الاحياء والحيوانات خصوصاً الأنعام، ونواجه برهاناً من براهين علمه وقدرته وحكمته ولطفهِ ورحمتِهِ، وكلٌّ يحكى بلا لسان ويُعطينا درساً فى التوحيد ومعرفة اللَّه، ويُثيرُ فينا دافعَ الشكرِ الذى يدعونا إلى معرفته.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۲

توضيحات

۱- عجائب عالم الحيوانات

إنَّ كتابَ الخلقِ العظيم كتابٌ تكمنُ فى كل جملةٍ- بل فى كلِّ كلمةٍ وكلِّ حرفٍ منه- نكاتٌ، بنحوٍ لا يَشعُر الإنسان بالتعبِ من مطالعتها، فلو طالعَ أحد جمل هذا الكتاب العظيم مائة مرّة فسيَنكشفُ له فى كلِّ مرّةٍ مفهومٌ جديدٌ واسرارٌ جديدة. فعالمُ «الحيوانات والانعام» الذى يُمثِّلُ جانباً من هذا الكتاب العظيم مليىء بالأسرار والعجائب، نكتفى ببعضٍ منها ويجب أن نوكلَ الامعان فى التفصيل إلى الكتب المدَوَّنة فى هذا المجال.

۲- ترويض الحيوانات

إنَّ استعداد الحيوانات للترويض مسألةٌ مهمةٌ للغاية.

ومن أجل إدراك أهميّة كلِّ نعمةٍ، لابدّ من تصوُّر الحالةِ التى تتحوَّل فيها الحيوانات الاليفة إلى حيوانات وحشية، «فالجملُ» يشنُّ هجماتهِ كالفهد ويمزِّقُ الإنسان بفكيه القويتين، ويستخدمُ «البقرُ» قرنَهُ، وتضرب الخيلُ بحوافرها مَنْ يقترب منها، حينها لا يمكن اعتبار هذا القطيع من الأغنام والابل والبقر أساسىَ الوجود فحسب، بل وسنستعين بأية آلة قاتلةٍ من أجل الخلاص من شرِّها والقضاء عليها، وفى الوقت الحاضر أيضاً تغضب هذه الحيوانات الاليفة أحياناً فتشكلُ خطورةً بالغة، فمثلًا تُلَقِّنُ الفيلةُ الهنودَ دروساً، وتَشنُّ الجمالُ

الغاضبة هجماتها على أصحابها، ومن الممكن أن تنتهى بالقضاء عليهم إذا ما غفلوا، وكأن اللّه تعالى يريد أنْ يُبرهنَ على أنْ لو اردتُ سلبها أمرَ الطاعة والتسليم والخضوع فستَرَونَ بايِّ صورةٍ تظهر!

وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بتعابير مختلفة، فيقول أحياناً: «وَذَلَّلْنَاهَا لَهُم». (يس/ ۷۲)

وحيناً يقول: «سُبْحَانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ». (الزخرف/ ۱۳)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۳

وقد أشار الإمام الصادق عليه السلام إلى هذه المسألة فى توحيد المفضّل، فيقول بعد بيان خلق الأنعام: ... «ثُمَّ مُنِعَت الذِّهنَ والعَقلَ لِتَذِلَّ للانسانِ فلا تَمْتَنِعَ عَلَيْهِ إذا كَدَّها الكَدَّ الشّديدَ وحَمَّلَها الحِمْلَ الثَّقيلَ» «۱».

وبالطبع أنَّ عدم امتلاكها للعقل جزءٌ من الدليل على تآلفها، علاوة على هذا أنَّ اللّه تعالى خَلَقها بشكلٍ تأتلفُ فيه بسرعةٍ وتبقى على هذا الحال إلى الأبد، بينما نجد أنَّ بعضَ الحيوانات التى تماثلها فى الذكاء والعقل (كالذئاب والنّمور) إذا ما ألفت فبمشقّةٍ تكون مؤقتة، ومع ذلك يجب الحذر منها، وأحياناً تفترسُ اصحابها إذا ما غفلوا عنها.

۳- ذكاء الحيوانات

لعلَّ اختيار هذا العنوان بعد الذى قيل فى البحث السابق يبدو عجباً ومتناقضاً، والحال أنّه ليس كذلك، مع أنّ الحيوانات تبدو بلا عقلٍ أو قليلة العقل، ونحنُ نشبّهُ البُلداء بالبهائم، إلّا أنّها تبدى ذكاءً ووعياً فى بعض المسائل بحيث تبعث على الدهشة.

فقد شاهدَ اغلبُنا قطيعَ الأغنامِ عندما يعود من الصحراء، فهنالك عدد من الغنم والماعز تعود إلى عائلةٍ ما وبمجرد اقترابها من القريةِ يسلك كلٌّ منها فروع وازقةَ القريةِ ويتجه نحو بيت صاحبِهِ بدونِ أىِّ اختلاف.

كما شاهدنا أنَّ النعجةَ لا تسمح أبداً لغير وليدها أن يرتضع من ثديها، وعندما تُطلقُ الصغار فى ظلمةِ الليل وتدخلُ فى القطيع يذهبُ كلٌّ منها إلى امه، فتعرفه وتستعد لإضاعه، وهذه المعرفة تحصل عن طريق «الشَّم» فقط، وهذا يعنى أنَّ عددَ روائح الأغنام تضاهى عددها، وكلُّ نعجةٍ تشخصُ رائحةَ صغيرها من بين هذه الروائح!

يقول «غرسى موريسن» فى كتاب «سرُّ خلق الإنسان»: (إنَّ اغلبَ الحيوانات تُشخصُ طريقها فى الليالى المظلمة، وتسير بيُسر، وإذا كانت لاتبصر فى الظلمة الحالكة فهى تعرفه من تفاوت الهواء المحيط بالطريق، ويؤثر النورُ الضعيف جدّاً للأشعة مافوق الحمراء الذى

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۹۱، توحيد المفضل.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۴

يشع من سطح الطريق على عيونها).

إنَّ طراز بناء البيت، وتربية الصغار، وكيفية مقاومة العدو، وحتى معالجة نفسها أثناء المرض من الامور العجيبة فى الحيوانات، وشرحُ كلٍّ منها يحتاج إلى بحثٍ مفصَّلٍ.

ذكر أحدُ علماء البيئة ويُدعى «البروفسور هانر منرو» فى كتابه فى خصوص استعداد بعض الحيوانات لمعالجةِ أمراضها قائلًا:

«اجريت بعض الكشوفات الطبية على علاجاتها، فمثلًا هناك نوعٌ من الطيور التى تأكل الأسماك، تتضرر أرجلها أثناء الطيران الجماعى أو الهبوط على الأرض، بسبب طولها، فوجدت أنّها على اطلاعٍ تام بالتجبير وعلاج الكسور، فتذهب إلى ساحل البحر والمناطق الموحلة التى يمتزج طينها مع النورة الخاصة بالتجبير، وتغمسُ أرجلها بالنورة الرطبة، ثم تجلس تحت أشعة الشمس كى تَجفَّ النورة، وتبقى تراقب أرجلها بهذا الحال حتى يلتحم مكانُ الكسرِ تماماً ...

ومن الصدفة أنَّ النّورة التى يستخدمها الأطباء فى المستشفيات من نفس هذا النوع الذى يستخدمه هذا الطائر الذى يأكل السمك لعلاج نفسهِ، لأنَّه لزجٌ ومتماسكٌ جدّاً» «۱».

يعتقد العلماء أنَّ معظمَ الحيواناتِ لديها لغةٌ خاصة بها، وتتفاهم فيما بينها عن طريقها، فالنمل يتحدث فيما بينه من خلال اللمس، أو من خلال اصطدام لوامسها، وتتبادل الرسائل، وبعضُها تخابُر أثناء حلول الخطر من خلال ضرب ارجلها على باب الخليّة فترسل برقيات بهذه الطريقة إلى بعضها الآخر.

إنَّ اغلبَ الاحياء علاوة على امتلاكها للغةٍ خاصةٍ فهى تملك لغةً عامةً تستطيع من خلالها فهم لغة بعضها البعض الآخر، فهذه اللغة التى يصدرها الغراب أثناء حصول الخطر حيث يحذِّرُ بقيةَ الحيوانات بصوتٍ خاصٍ كى تبتعد سريعاً عن منطقة الخطر، ويعتبر الغراب فى الواقع بمنزلة جاسوس من جواسيس الغابة!

لقد توصلَ علماء البيئة فى دراساتِهم إلى هذه النتيجة وهى أنّ الحشرات تلى الإنسان

---

(۱) أفضل طرق معرفة اللّه، ص ۱۹۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۵

فى امتلاك جهاز اتصالاتٍ متكاملٍ، لا سيما التكلم وجهاز اتصالات النحل، فهو أكثرها عجباً وندرةً «۱».

القى عالمُ احياءٍ سويدى محاضرةً تثير الاهتمام فى جامعة «لاند» حول لغة النحل وكانت نتيجة هذا التحقيق والتجربة التى أجراها عالم الأحياء هذا بمساعدة الأجهزة وعن طريق المقايسة، أنّها لغة يمكن فهمُ معناها «۲».

إنَّ عجائب عالم الحيوانات أكثرُ من أن يُؤدى حقُها فى كتابٍ واحدٍ أو عشر كتب.

والأفضل أن نكتفى بهذا المقدار ونغلق الملف ونقول بكل خضوعٍ وخشوعٍ أمام الحضرة الإلهيّة المقدّسة: «سُبحانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمدِّكَ لا تُحصىَ عَجائِبُ خِلْقَتِكَ وإِنَّكَ على كُلِّ شَىءٍ قَديرٌ».

---

(۱) مجلة الصيد والطبيعة، العدد ۷۲.

(۲) تربية النحل، ص ۶۰.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۴۷

۲۰- آياته فى خلق اعضاء جسم الإنسان

تمهيد:

من أجل أن يتمكن الإنسان من إقامةِ الأواصر مع العالم الخارجى فهو يحتاج إلى ادواتٍ مختلفةٍ، حيث جَهَزه اللَّهُ بها، فقد جهّزَهُ بحاسة البصر لرؤية هيئة ولون وكمية ونوعية الموجودات، وبحاسة السمع من أجل معرفة أنواع الأصوات كما جهّزه بحواس اخرى من أجل الاحساس بالروائح، البرد والحر، الخشونة والنعومة و ...

إنَّ بناء هذه الآلات معقَّدٌ ودقيقٌ بالقدر الذى يُمكن أن يكون شرح كلٍّ منها موضوعاً لعلمٍ مستقلٍ، وقد دوِّنت كتبٌ كثيرة بهذا الخصوص حيث تُعتبر فى الحقيقةِ مجموعةً من أسرار التوحيد، ودروس، وبلاغات ونغمات لمعرفة اللّه تُردُدها هذه الأعضاء فى مسامع روح الإنسان، فمن غير الممكن أن يتأملَ المرءُ فى بناء هذه الأعضاء ولا يخضع اجلالًا امام قدرة وعظمة خالقها، سواء اعترف بلسانه أم لا.

بهذا التمهيد نُيممُ وجوهنا صوب القرآن الكريم ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ والافْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». (النحل/ ٧٨)

٢- «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفئِدةَ قَلِيْلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

(المؤمنون/ ٧٨)

٣- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ وَالأَرضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ .... وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ افَلَا تَتَّقُونَ». (يونس/ ٣١)

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣۴٨

۴- «أَلَم نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ* وَلِساناً وشَفَتَيْنِ». (البلد ٨ و ٩)

۵- «قُلْ أَرأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَّنْ الـهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأتِيْكُم بِهِ أنْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُوْنَ». (الانعام/ ۴۶)

۶- «سَنُرِيْهِمْ آيَاتِنَا فِى الآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

(فصلت/ ۵٣)

شرح المفردات:

«السَّمْع»: تعنى فى الأصل قوّة السَّمع، وقد تطلق على الأذن أيضاً، وقد وَردَ هذا اللفظ بمعنى الاستماع، واستجابة الدعوة والقبول والتجسس أيضاً، وإذا ما استخدمت فى ما يخص البارى تعالى فهى تعنى علمه واطلاعه على المسموعات، و «اسماع» جمع «سمع» إلّا أنَّ هذا اللفظ لم يُستخدم فى القرآن الكريم اطلاقاً، ولعلّه بسبب أنّ «السمع» تستعملُ فى معنى الجمع أيضاً «١».

«بَصَر»: وتعنى (العين) وتستخدمُ أيضاً بمعنى «قوة النظر»، ويُستعمل هذا اللفظ فى معنى قوة العقل والفهم أيضاً، فيقال لها «بصر» و «بصيرة» (جمع بصر، «ابصار» وجمع بصيرة «بصائر»).

إلّاأنَّ لفظ بصيرة لا يُطلقُ على العين أبداً، بل يُقال لها «بَصَرْ» والعجيب أنَّ لفظ البصير يُطلقُ أحياناً على المكفوفين، ولكن يظهرُ أنّ هذا الاستعمال ليس بسبب علاقة التضاد، بل لأنَّ المكفوفين غالباً ما يتميزون بقوة إدراكٍ فائقة، ويتلافون فقدانهم لقوة البصر بقوة التفكير والبصيرة «٢».

واعتبر بعضُ أرباب اللغة كمؤلف «المصباح» أنَّ المعنى الأصلى ل «بَصَر» هو النور

---

(١) لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(٢) مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٢، ص: ٣۴٩

الذى نتمكن من خلاله من رؤية الموجودات، وفى «المقاييس» ذُكر لها معنيان: الأول الاطلاق على الشىء، والثانى ضخامة وسمك الشىء، ولكن يبدو أنَّ المعنى الأول والذى أوردَهُ الراغب فى المفردات أيضاً أكثر صواباً وتناسباً مع موارد هذا اللفظ.

و «افئدة»: جمع «فؤاد» من مادة «فَأد» (على وزن وَعد) وتعنى فى الأصل «الشوى»، لذا يُقال «فؤاد» للأفكار والعقول الناضجة، وقد يأتى هذا اللفظ بمعنى القلب، أو غلاف القلب أيضاً، وقال بعضهم أيضاً أنَّ هذا اللفظ يطلق على القلب والعقل حينما يكون متنوراً ومشرقاً، وقال بعضهم إنَّ «فؤاد» تعنى مركز القلب يُطلقُ على مجموعهِ.

و «العَيْن»: ذات معانٍ كثيرة والمعروف أنَّ لهذا اللفظ سبعين معنىً فى لغة العرب.

إلّا أنَّ المعنى الاصلى ل «العين» هو العضو الخاص بالنظر، وقد يأتى أيضاً بمعنى قوة البصر.

ولكن لها معانٍ كنائيـة ومجازيـة كثيرة برزت على هيئة معانٍ حقيقية نتيجة لكثرة الاسـتعمال، فمثلًا يقال للينبوع «عين» لأنَّه يشـبه العين، ويقال للجاسوس والمكلف بالتجسـس والاسـتطلاع «عين» أيضاً، كما يُطلقُ هذا اللفظ على ذوى المكانة وعلى الشـمس والذهب أيضاً لأـنَّ الـذهبَ من بين الفلزات كالعين بين الأعضاء، وكـذلك «الشـمس» بين النجوم، وكالمرموقين من بين أبناء قومهم، كما يُطلقُ هـذا اللفظ أيضاً على الثروة والمتاع الذى يمكن الاسـتفادة منه، وثقب الحلقة، والبصـيرة والاطلاع على الشىء كلٌّ فى محلِّه، وسُمِّيت الحور العين بهذا الاسم لأنّها ذات عيونٍ جميلةٍ وواسعة.

و «اللسان»: تعنى عضو التكلُّم، ووردت أيضاً بمعنى قوة البيان، وتُطلقُ أيضاً ككنايةٍ على الأشخاص المتكلمين نيابة عن جماعة ما، كما يُقال ل «ألْسِنة» (جمع لسان) أيضاً، ويُستخدم هذا اللفظ بصيغة المذكَّر والمؤنث إلّاأنّه جاء فى القرآن الكريم بصيغة المذكر.

و «شَفَة»: على وزن (سَعَة) وتستخدم بصيغة التثنية «شفتان» «۱»

.

ومفهوم «مشافهة» يعنى مقابلة الشـخص والاسـتماع إلى شـىءٍ ما من شفتيه، وورد هذا اللفظ بمعنى شاطىء «النهر» وساحل «البحر» لأنَّه شفة له.

---

(۱) لقد ذكر بعضهم أنَّ اصَلها «شَفْو» (ناقصة الواو) وبعضٌ «شَفَة» لأنّ مصغَّرها «شفيهة» وجمعها «شفاه».

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۰

جمع الآيات وتفسيرها

الدور الحساس لآلات المعرفة:

يقول فى الآية الاولى كتعريفٍ بالذات الإلهيّة المقدّسة وبيانٍ لآياته فى خلقِ الإنسان:

«وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ امَّهاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً».

إنَّ هـذا التعبير يُبيِّنُ بجلاء أنَّ صـفحة القلب تخلو من جميع المعارف عنـد الولادة، إلّاأنّ بعض المفسِّرين قالوا إنَّ المقصود ليس العلم الحضورى للإنسان بـذاته، أو بتعبير آخر إنّ المقصود هو العلم بالأشـياء الخارجيـة، وذكروا ذلك كشاهـدٍ فى قوله تعالى: «وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلىَ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لَايَعْلَمَ بَعدَ عِلْمٍ شَيْئاً». (النحل/ ۷۰)

والانسان فى سنِ الشيخوخة يعلمُ بوجوده إلّاانَّه يُحتملُ جهلِ الوليد بوجوده فى بداية الولادة وأول ما يُدركه هو وجوده.

ثم يضيفُ: «وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفئِدَةَ لَعَلكُمْ تَشْكُرُونَ».

لقـد جعـلَ اللَّه العينَ والاـذنَ كى يُـدركا المحسوسـات، والعقـل لإدراك المعقولات، وتَطّلعون على العالم الخارجى من خلال وسائل المعرفة الثلاث هذه، ثمَّ تقومون بشكر هذه النِّعم وتتوجهون قبل كلِّ شىء لمعرفة ذلك الخالق الذى منحكُم وسائل العلم والمعرفة.

ولإدراك أهميّـة العين والاذن والعقل يكفى تصور الحالـة التى تتمخض عن فقدان أحدهما (فضـلًا عن كليهما)، فما هو حال مكفوف البصـر، أو الأخرس أو المجنون أو جميعهم؟ وكم ينأى عن مواهب هذا العالم العظيم؟ وقبل كلِّ شىءً يفقد موهبة العلم والاطلاع التى هى أفضل المواهب ومقدمةٌ للتَنعُم بالمواهب الاخرى

وقال بعضهم إنَّ المقصود من «شيئاً» فى الآية أعلاه هو حق المنعم، وقال بعض آخر: إنّ المقصود هو مصالحه، وفسَّرها قسمٌ منهم على أنّها السعادة والشقاء، أو الميثاق الإلهى فى يوم: «ألستُ بربِّكم»، إلّاأنّ اطلاقَ الآية ينفى كلَّ اشكال التقييد فتشمل كلَّ شىء.

وهنا لماذا تقدَّمَ «السَّمع» على «الأبصار»؟ فلعل ذلك يرجعُ إلى استخدام الاذن قبل العين، لأنَّ العينَ لم تكن لديها القابلية على الرؤية فى محيط رحم الام الذى يسودُه ظلامٌ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۱

مطبقٌ، وتكون حساسة جدّاً ازاء النور إلى حينٍ بعد الولادة، لذلك فهى غالباً ما تكون مغمضة، حتى تستعد تدريجاً لمواجهة النور، إلّاأنَّ الاذن ليست كذلك فباعتقاد بعضهم أنّها تسمعُ الأصوات فى عالم الجنين أيضاً، وتتعرفُ على انغام قلب الأُم!.

بالاضافة إلى أنَّ الاذن تعتبرُ وسيلةً لسماع رسالة الوحى الإلهى الذى هو أشرف المسموعات، وكذلك وسيلة عامة لنقل العلوم من جيلٍ إلى جيلٍ آخر، بينما ليست العينُ كذلك، لا شكَّ أنَّ القراءة والكتابة وسيلةً لنقل العلوم إلّاأنّها ليست عامة وشاملة.

وجعلُ «الافئدة» وراءهما واضحُ الدليل أيضاً، لأنَّ البَشر ينقلون المشاهدات والمسموعات إلى العقل، ومن ثمَّ يقوم بتحليلها وتفكيكها وينتقى منها معلومات حديثة ويكتشف القوانين العامة للعالم «۱».

وفى الآية الثانية يتابع الحقيقة التى وردت فى الآية الآنفة، وأشار إلى مسألة خلق الاذن والعين والقلب، من أجل معرفة اللَّه، مثيراً فى الإنسان الشعور بالشكر الذى هو السُلَّم لمعرفة اللَّه تعالى مع هذا الاختلاف حيث يُعبَرُ عن خلق هذه الأعضاء بتعبير «انشاء» وفى الختام يوجِّهُ اللومّ والتأنيب لُاولئك الذين قليلًا ما يشكرون اللَّه، فيقول: «وَهُوَ الَّذِى أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

و «الإنشاء»: كما يقول الراغب تعنى فى الأصل إيجاد الشىء وانمائِهِ، ولهذا يقال «ناشئة» للشباب.

إنَّ التعبير بإنشاء غالباً ما يخص الحيوانات، بالرغم من استخدامها أحياناً فى غير هذا المورد مثل: «أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ». (الواقعة/ ۷۲)

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير فى الآية أعلاه إشارة إلى المسيرة التكاملية للعين

---

(۱) إنَّ «سمع» تُطلقُ على المفرد والجمع، بالرغم من أنَّهم يجمعونها بصيغة «اسماع» أيضاً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۲

والاذن والعقل خلال مرحلة الجنين ثم فى مرحلة الطفولة، حيث أَوْجَدَها البارى تعالى ثم يقوم بتربيتها.

ويقول فى الآية الثالثة «كاستفهام تقريرى» من المشركين الذين انفصلوا عن اللَّه وضلّوا فى وادى عبودية الأوثان: «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصارَ».

منَ المسلَّم به أنَّ الأرزاق التى يحصل عليها الإنسان إمّا أنْ تكون من السماء (كالامطار والهواء وضوء الشمس) أو من الأرض (كالنباتات والأشجار والمعادن المختلفة) فكذلك العلوم والمعارف فغالباً ما يحصل عليها الإنسان عن طريق العين والاذن، لأنَّ هاتين الحاستين المهمتين تُعتبران وسيلةَ اتصالِ الإنسان بالعالم الخارجى، وكلُّ هذه الأرزاق المادّيّة والمعنوية من اللَّه تبارك وتعالى

واللطيف أنّه عبَّر هنا بتعبير المالكية، وبِما أنَّ المالكية هنا تكوينية فانها لن تنفصل عن مسألة «الخلق» وفى الحقيقة أصبح هذا التعبير من لوازمه، وكذلك لن تكون منفصلةً عن مسألة «تدبير الامور» لذا يقول مستفسراً فى نهاية الآية: «ومَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ» «۱»

.

فيضيف مباشرة: «أنّهم وبالهام من وحى فطرتهم يقولون بسرعةٍ: إنَّ اللَّه هو مالك وخالق ومدِّبرُ هذه الامور» «فَسَيَقُوْلُونَ اللَّهُ».

«فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ».

أى ترك عبادة الأوثان والتوجه إلى غير اللَّه، والابتعاد عن الذنوب والظلم.

---

(۱) قالَ بعض ارباب اللغة إنّ «مِلِك» (بفتح الميم وكسر اللام، تعنى مَنْ يتصرف بعامةِ الناس من خلال أمره ونهيهِ وهذا يستلزم السلطة

والاقتدار والتدبير).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۳

ويقول فى الآيـة الرابعة ضـمن إشارته إلى جانب من نِعَمِ اللَّهِ على الإنسان لتحريك الاحساس بالشـكر الذى هو مقدمة ل «معرفة اللَّه»: «أَلَمْ نَجْعَلْ لَّهُ عَيْنَيْنِ».

العينـان اللتـان يتمكن من خلالهمـا أنْ يرى عـالم الوجـود، وأن يشاهـد عجـائب الخلق، وأن ينظر إلى الشـمس والقمر والنجوم وأنواع النباتـات وأنواع الموجودات الحيّـة والحيوانـات، وأنْ يتفرجَ على عجائب صُـنعِ اللَّه، وأن يُميزَ الخير من الشر، ويُشَـخصَ الصـديقَ من العدو، وأن ينقذَ نفسَهُ من مخالب الحوادث.

ثم يضيف «وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ».

اللسان الـذى يُمثلُ وسـيلةَ اتصالهِ بالآخرين، اللسان الذى يعتبرُ عاملًا فى نقل العلوم والمعارف من جيل إلى آخر ومن قومٍ إلى آخرين، اللسان الذى يردد ما يحتاجه، وبه يدعو ويتوسل إلى المعبود جلَّ وعلا، وهو الذى ينطق عن جميع ذرات وجوده.

وكـذلك الشـفاه التى تلعبُ دوراً مهمـاً فى النطق، وتتحمَّلُ مسؤوليـة تلفـظ كثير من مخارج الحروف «۱» بالاضافـة إلى مساعدتها فى شرب المـاء واكـل الطعـام وهضـمه والحفاظ على سوائل الفم، بنحوٍ لو جُـدِعَ جانبٌ من الشـفة فلن تصـبح هـذه الامور صـعبةً بالنسـبة للإنسان فحسب، بل وسيكون منظرهُ وصورته باعثاً على الحسرة.

واللطيف أنّ القرآن يتحدث بعد هاتين الآيتين عن هداية الإنسان إلى الخير و (الشر)، قائلًا: «وَهَدَيْنَاهُ النَّجدَيْنِ».

إنَّ هذا التعبير البليغ يشيرُ إلى علاقة العين واللسان والشفاه بمسألة الهداية ومعرفة الخير والشر، لأنّها تُعتبر آلاتٍ لهذا الهدف العظيم.

وفى الآية الخامسة يُلفتُ الانتباه إلى الحالة التى تحصل لدى الإنسان بسبب فقدانهِ

---

(۱) وهذه أربعة حروف بالعربية (ب- ف- م- و) وهى (حروف شفهية) بكثرة وفقدان الشفة يؤدّى إلى أن يفقدالمرء قدرة التكلم إلى حدٍ ما.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۴

للاذنِ والعين والعقل، فيقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصارَكُمْ وَخَتَمَ عَلى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ» «۱»

.

ثم يضيف فى نهاية الآية: «انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ» «۲»

.

وفى الحقيقـةِ أنَّ القرآن يريـد أن يقول: إنَّ آلات المعرفة المهمّة تلك ليست ملكاً لكم لأنّها لو كانت كذلك لما سُـلبت منكم فليس بالقليل اولئك الذين فقدوا نعمة السمع والبصر والعقل نتيجة لتأثير عوامل مختلفة، اذن فهى ملك لخالقٍ آخر، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى بما أنَّ الأشياء تعرف باضدادها فانَّ القرآن يريد أن يلفتَ نظرَ الإنسان إلى عظمة الخالق وواهب هذه النعم، من خلال تذكيره بالوضع المؤلم الذى يطرأ للإنسان بسبب فقدان هذه النِّعم التى لا مثيل لها، ويرشده عن هذا الطريق ويُحفزهُ إلى الخضوع أمام عظمته تعالى

ويمكن أن يكون التعبير ب «أخذ» الاذن والعين بمعنى أخذ هذه الاعضاء، أو أخذ قوة السمع والبصر أو كليهما.

وفى الآيـة الأخيرة من البحث التى تعتبر من آيات التوحيـد ومعرفـة اللَّه يُسـلطُ الانظارَ على آياته قاطبـةً فى عالم الخلق بأسـره، فيقول: «سَنُرِيهِمْ آياتِنَا فِى الآفاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتّىَ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

«آفاق»: جمع «افُق» وتعنى الأطراف، وعليه فانَّ «آفاق الأرض» تعنى أطراف

(۱) لقد فسَّر المفسِّرون جملة «أرأيتُم» وكذلك «أرأيتُكُم» بمعنى اخبرونى أو «هل علمتُم» ولكن باعتقاد بعض المحققين فانَّ هذه الجُمل تتسامح مع المعنى الأصلى فمثلًا جملة (أرأيتم) بمعنى (هل شاهدتم)، ولكن حيث تكون المشاهدة فى مثل هذه الموارد للعلم والأخبار فقد فسِّرت بلازم المعنى وعلى ايةِ حالٍ فإنّ الغاية من ذكر هذه الجُمل هو التذكير والتأكيد على دقةِ المخاطب، ولو أردنا أن نفسِّرها بلازم المعنى فيمكننا القول بانَّ هذا هو مفهومها.

(۲) «نصِّرف» من مادة «تصريف» وتعنى التغيير، وتعنى هنا ذكرُ حقيقة ما بلباس وبيان مختلف، و «يصدفون» من مادة «صَدَف» (على وزن هدف) وتعنى هنا الإعراض.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۵

الأرض، و «آفاق السماء» تعنى أطراف السماء، وبما أنّها ذُكرت فى آية البحث بشكلٍ مطلق، فهى تشمل كل الأطراف شمالًا وجنوباً وشرقاً وغرباً.

و «أَنْفُس»: لها هنا معنىً واسع حيث تتضمن الروح والجسم أيضاً، وجميع اعضاء الجسم التى هى موضوع بحثنا.

وهنا إلى من يعود الضمير فى «أَنَّهُ الحَقُّ»؟ قال بعض المفسِّرين: المقصود هو القرآن، والمقصود من آيات الآفاق الانتصارات التى حققها المسلمون فى أطراف العالم، والمقصود من آيات الانفس، انتصاراتُهم فى بلاد العرب أى اننا نُريهم الانتصارات فى أطراف العالم وفى بلاد العرب كى يعلموا أنَّ القرآن حقٌ.

وقال بعضهم: المقصود هو «رسول اللَّه» صلى الله عليه و آله أو دينه، حيث لا يتفاوت كثيراً مع التفسير الأول.

لكن الظاهر هو (كما فهمهُ عددٌ من المفسِّرين) أنَّ المقصود هو اللَّه، أى أننا نُريهم آيات الآفاق والأنفس كى يتجلّى لهم أنَّ اللَّه هو الحق.

يُعدّ التعبير ب «آياتٍ» من جانبٍ، والتعبير ب «الآفاق والانفس» من جانبٍ آخر بالإضافة إلى الآية التى تليها والتى تتحدث عن التوحيد شواهد على هذا التفسير، علماً أنَّ هذه الآية تتوافق مع عدة آيات فى القرآن الكريم التى تعرضُ آياتِ اللَّه فى عرضِ الخلق ووجود الإنسان، مثل: «وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِيْنَ* وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات/ ۲۰- ۲۱)

وقد ذُكر هذا المعنى أيضاً فى تفسير على بن إبراهيم، على الرغم من أنَّ بعض الروايات ذكرت أنَّ ضمير، (أنّه) يقصِد به الإمام المهدى «عج» ولكن الظاهر أنّه تفسيرٌ لبطون الآيات (والجمع بين التفاسير ممكن أيضاً)، على أيةِ حالٍ ... ففى أىٍّ منها تمعّنا نرى من خلاله آثار علمه وقدرته تعالى وكلُّ نباتٍ ينبتُ من الأرض ينطق بنفسه ب «لا شريك له» و «قلب كلِّ ذرة نفتحهُ- نرى شمسَهُ فى وسطهِ».

والتعبير ب «سنُريهم» (نظراً لأنَّ الفعل المضارع فى مثل هذه الموارد يعنى الاستمرارية)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۶

يُعتبر إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنَّ كلَّ يوم يمُرُّ من عمر الإنسان تنكشفُ له حقائق جديدة عن هذا العالم، وتتجلى أسرارٌ خافية، ففى كلِّ يوم يتوصل العلماء فى مختبراتهم ومكتباتهم إلى اكتشافٍ حديث، وتتضح آيات جديدة من آيات اللَّه، ومن المسلَّم به أنَّ هذه المسألة ستستمر حتى لو انقضت ملايين السنين من عمر الخليقةِ، فكم هو عجيب عالَم الخلق الواسع، وكم عظيم خالقُه؟

ومِنْ ثَمَّ فاننا لا نعلمُ شيئاً عن مليارات السنين السابقة وما تلاها، وليس لدينا أدنى اطلاع عن هذا الكتاب العتيق الذى فُقد فصلاه (الأول والأخير) وكلُ ما نعلمُه هو نزرٌ يسيرٌ يتعلقُ بجانبٍ من هذا العالم الواسع وفصل من هذا الكتاب الكبير: «العظمة للَّهالواحد القهار».

نستنتجُ من مجموع ما مضى من الآيات أنَّ كلَّ عضوٍ من اعضاء جسمِ الإنسان، بل كلَّ جزءٍ منها، يعتبرُ مرآةً واضحةً للحق تعالى وآيةً مستقلةً وجليةً من علم وقدرةِ وحكمة وتدبير خالق الكون.

توضيحان

۱- عجائب أعضاء الجسم

لو لم يكن فى كلِّ الكَونِ موجودٌ سوى الإنسان، ولم يكن فى جميع كيان هذا الإنسان شيءٌ سوى عينٍ أو أُذُنٍ واحدة، لصار ذلك سبباً لمعرفة الذات الإلهيّة المقدّسة وعلمهِ وقدرته، لأنَّ بناءها دقيق ومعقّدٌ ومحبوكٌ بقدر لا يصدقُ أىُّ عقلٍ أنّها مِنْ صنعِ الصدفةِ أو الطبيعةِ العمياء والصمّاء، بل نواجه فى كلِّ مرحلةٍ من دراستها، آيةً جديدةً من علم وقدرة ذلك الصانعِ الحكيم.

فمن بين مئات الخصائص ومن خلال الدقّة فى حاسة البصر، أى العين، يكفينا ذكر المواضع الآتية كى نعرف الغرابة المذهلة فى هذا العضو:

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۷

۱- العدسة المتغيِّرة: من المعروف أنَّ العينَ تُشبَّهُ بآلة التصوير، بينما لا تصل أحدث آلات التصوير فى العالم انْ تكون كأُلعوبةٍ أمام عين الإنسان، لأنّها تحتوى على عدسة ثابتةٍ، حيث يجب أنْ تُنظَّمَ وتُدارَ مِنْ قبل مصورٍ باستمرار من أجل التقاط الصور من عدة جهات، إلّاأنَّ عدسةَ العينِ الواقعة خلف إنسان العين مباشرة، تتغير دائماً بشكلٍ آلى، فقد يتقلص قطرها أحياناً فيبلغ ۵/ ۱ ملميتر وأحياناً يتّسع حيث يبلغ ۸ ملمترات فيسمح لها بالتقاط الصور من مناظر بعيدة وقريبةٍ جدّاً.

۲- طبقات العين السبع: إنَّ العينَ تتألفَ أساساً من سبعةِ حجُب أو سبع طبقات وتُسمى «الصلبية» و «العِنَبية» و «المشيمية» و «الجليدية» و «الزُلالية» و «الزُّجاجية» و «الشَبكيّة»، حيث لكل منها بناؤها الخاص بها وواجبها الذى تتحمله، وشرحها يجرُّنا إلى الاطالة، فيكفينا أن نعلمَ أنَّ اقَلَّ اختلاف فيها يؤدّى إلى اختلال النظر، طبعاً تكمنُ خلف «الشبكية» أعصاب بصرية تنقل الصور التى تقع على الشبكية إلى الدماغ.

۳- الحساسية ازاء الضوء: إنَّ تنظيم النور بالنسبة للمصورين يعتبر عملًا شاقاً، وكثيراً ما تُكلَّفُ مجموعةٌ متخصصة بهذا العمل، بينما تستطيع العين من خلال تغيير حساسيتها ازاء شدة الضوء أن تلتقط الصورَ من مناظر مختلفةٍ وفى نورٍ ضعيفٍ أو قويٍّ جدّاً.

۴- الحركة المستمرة: إنَّ المصوّرين يديرون اجهزتهم باستمرار نحو اليمين واليسار وإلى الأعلى والأسفل، ويستخدمون مختلف الآلات لهذا العمل، بينما نجد أنَّ العضلات التى تحيط بكرة العين تُدير هذا الجهاز بحركةٍ خاطفة إلى الجهات الأربع بشكلٍ كاملٍ، وتضاعف قدرة المناورة لديها للتصوير فى جميع الجهات.

۵- المركبات البسيطة والدقيقة: فمن أجل إعداد أجهزة التصوير يستفادُ من أقوى العدسات والفلزات، بينما تم صنعُ العين من مواد لطيفةٍ وفى نفس الوقت قد تستمر فى العمل مائة عامٍ لأنّها جهاز حى يستطيع بناء نفسه وتجديد قواه باستمرار، بينما تعتبر الأجهزة التى يصنعها البشر اجهزةً ميتة!

۶- اعداد شريط التصوير: يعتبر اعداد شريط التصوير بالنسبة لاجهزة التصوير عملًا

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۸

صعباً ويجب استعمال حلقاتٍ متباينة باستمرار من أجل التصوير، بينما تصوِّرُ شبكيةُ العين ذاتياً على الدوام، وبعد انتقاله وحفظِه فى الدماغ يُمحا وتستعد لتصوير منظرٍ آخر، ويُنجزُ هذا العمل بسرعةٍ عجيبةٍ ومدهشةٍ للغاية، علماً أنَّ مسألة اخراج شريط التصوير التى تعتبر عملًا شاقاً ومستهلكاً للوقت لم تُطرح هنا.

۷- الأجهزة الجانبية: من أجل أنْ تقومَ العين بانجاز واجباتها فقد جُهزت بالكثير من اللوازم التى يعتبر كلٌ منها مدهشاً أيضاً.

إنَّ وجودَ الغدد «الفوّارة» التى تَصبُّ السائل الخاص والشفّاف بشكلٍ دائم فى العين، ويَسمح للاجفان أن تتحرك فوق فص العين

بدونِ أقَّل تماسٍ خشنٍ، وتسوق فضلات الماء الموجودة فى أسفلها إلى الخارج، فينحدر إلى بؤبؤ العين، وللأجفان ردود فعل سريعةمقابل الحوادث المختلفة حيث تحافظ على العين من الصدمات، وهجوم التراب والغبار، أو الضوء الشديد، وبناء «الأهداب» التى هى بمنزلة ستائر تسمح للعين بالاستنارة قليلًا مع كون العين مفتوحة وتحفظها من دخول الغبار والتراب، واستقرار العين فى صندوقٍ عظمى قوىٍّ جدّاً كالقلعةِ المنيعة، ووضع هذا الصندوق فى مكانٍ مرتفعٍ من الجسم حيث يسمح لها أن ترى جوانبها كالراصد الذى يتمركز فى المرصد، ووجود الحواجب التى تُمثلُ درعاً لحمايتها، وامور جمَّة اخرى حيث لكلٍّ منها قصةٌ لطيفةٌ ومدهشةٌ وغنية بالمعانى.

لو جمعنا كلَّ هذه الامور وتمعّنا فيها قليلًا فمن المسلَّم به اننا سنذعنُ أنَّ صانعَ العين كانَ مطلعاً على جميع الأنظمة المتعلقة بالعدسات، وانعكاس الضوء، ومسائل اخرى معقّدة من هذا القبيل، وخلقَ مثل هذا الموجود العجيب بعلمه وقدرته الأزلية.

۲- اللسان، هذا العضو المحترف!

إنّ من بين الأعضاء التى تمت الإشارة إليها فى الآيات المذكورة هو اللسان، الذى يعتبر بحقٍ من عجائب خلق اللَّه، ولو كان لهذا اللسان لسانُ ينطقُ عنه، لشَرحَ لنا ما فيه من

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۵۹

عجائب، حينها يتضح لنا لماذا استند إليه القرآن الكريم.

لو القينا نظرةً قصيرةً على واجبات ومسؤوليات اللسان، لاظهرت لنا جانباً من هذه الحقائق، وإجمالًا فللّسان ستة واجبات أساسية هى:

۱- دور اللسان فى هضم الطعام: لولا اللسان لما تمت عملية هضم الغذاء بشكل كامل، و لبقى قسم من الغذاء غير مهضوم، وسوف نضطر إلى تحريك الأكل باصابعنا لتتم عملية مضغه بواسطة الأسنان فاللسان يُقلب الطعام باستمرار من ثلاث جهات بين الأسنان بحركاته السريعة الماهرة، دون أنْ يبقى فى وسطها! أجل قد يصيبُهُ التعبُ والعجزُ أحياناً فتَقتنصه الأسنان فيُصاب بشدّة، وكأنَّ اللَّه يريد أنّ يثبت لنا بأنّ اللسان لو لم يمنح تلك المهارة الفائقة لتكرر هذا المشهد يومياً ولتعرض اللسان للجرح دائماً.

۲- خلط الطعام بلعاب الفم: اللعاب هو ذلك السائل اللزج الذى يعمل على ترقيق وانزلاق الطعام وإعداده للبلع، من جهة، ومن جهة اخرى يجرى عليه تفاعلات كيميائية خاصة، ويُعدّه للبلع والهضم، فاللسان هو الذى يتكفل بمسؤولية مزجه بهذا السائل الحيوى.

۳- المساعدة فى ابتلاع الطعام والماء: إنَّ اللسانَ يلعبُ دوراً أساسياً فى نفوذ الطعام والماء، فبالتجمُّع والالتصاق بسقف الفم والضغط على الماء والطعام يدفعه سريعاً نحو البلعوم، ولو اصيب بشلل ليومٍ واحدٍ على سبيل المثال لتعسَّر ابتلاعُ لقمةٍ واحدةٍ ولعله يصبح مستحيلًا.

۴- السيطرة على المواد الغذائية: يستطيع اللسان- وبسبب قوة التذوق الشديدة فيه- أن يشخص الكثير من المواد الضارة والسامة للجسم، ويقذفها خارجاً، ولولا دور اللسان فى السيطرة الماهرة على باب الدخول إلى الجسم لأُصيبَ الإنسان بالأمراض بسرعة نتيجة لأكلهِ الأطعمة المضرّة، ولأصبح عرضة للأخطار، فالطعام المُر والمالح، أو المتَبَّل، أو الفاسد والمتعفن يميزه اللسانُ أولًا، فيمنَعه من الورود إلى الجسم، أجل- هذا الحارس الغذائى مكلَّفٌ بالسيطرة على جميع المأكولات والمشروبات ليلًا ونهاراً.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۰

۵- تنظيف الفم: لابدّ أنّكم قد تفحصتم يوماً أنَّ الفم واللسان ينشغلانِ بالحركة بعد الانتهاء من الطعام، فهذه الحركة هى لتحريك وإزالة بقايا الطعام حيث تُجمع فى فضاء الفم ثمَّ تُرسَلُ إلى القناة الهضمية، وهذا العمل يتحملُه اللسان بشكلٍ أساسى وحتى انَّهُ ينظفُ الأسنان إلى حدٍ ما، وخلاصة الأمر: يعتبر اللسان منظفاً ماهراً للفم.

۶- النُطق: وأخيراً فانَّ أهمَّ وادقَّ واجبٍ للّسان هو البيان الذى استند إليه القرآن لا- سيما فى بداية سورة الرحمن لتعريف اللّه قائلًا: «الرَّحمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ خَلَقَ الانْسانَ عَلَّمَهُ الْبَيانَ». ومع أنَّ النطق يعتبر أمراً بسيطاً بسبب كثرة ممارسته، إلّاأنّه يعتبر فى الحقيقة من أكثر الأعمال تعقيداً حيث ينجزه الإنسان ب «لسانه» و «عقله».

فيجب أن يختار أولًا الكلمة المناسبة من بين عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من الكلمات وأحياناً أكثر من هذا العدد، ثم يصدر الأوامر إلى اللسان أن يتحرك على مقاطع الحروف بحركاته الملتوية السريعة الماهرة، وأن يُركِّبَ الحروف المطلوبة بمساعدة الرئة والحنجرة والأوتار الصوتية ويربطها فيما بينها وأن يكوِّنَ كلمةً واحدة، ثم يختار الكلمة الثانية بنفس السرعة، ويولدُ أصواتاً معينة، ويستمر هكذا حتى تكتمل الجملة، ولو اخطأ الذهنُ قليلًا فى اختيار الكلمات فانّه يقصر عن استيعاب المعنى ولو حدث أدنى خطأ فى حركات اللسان السريعة فى فضاء الفم لما كانت هناك جملة واحدة مفيدة.

تأمّلوا الآن متكلماً يتحدث باتزانٍ وفصاحة وبلاغة ساعة كاملة، لقد أدار لسانه فى أطراف الفم آلاف المرّات واستند إلى مقاطع الحروف تماماً وذلك فى محيط صغيرٍ تتقلص إمكانية المناورة فيه كثيراً فأىُّ عملٍ عجيبٍ واعجازىٍّ يؤدّيه؟ وهذا ليسَ إلّاعرضٌ لقدرة الخالق العظيم.

ومن المسلم به أنّ الشفاه تُكمِّلُ عمل اللسان، وتقوم بتكوين بعض الحروف، وهذا التنسيق بين هذين العضوين يمثل عملًا لطيفاً ومدهشاً وأهم منهُ العمل الفكرى الذى يلازمه.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۱

والخلاصة أنَّ لكلِّ عضو من الأعضاء الظاهرية أو الأجهزة الداخلية للجسم كالقلب والدماغ والشرايين وشبكة الأعصاب قصةً مفصَّلةً ومثيرة، ولو أردنا أنْ نتطرق إلى أسرارها واحد تلو الآخر لاستلزمَ سبعين منّاً من الورق لأنّ من اليسير أن تمتلىء آلاف الكتب بأسرارها، فالأفضل لنا أن نعترف بقصورنا فى هذا المجال ونخضع إجلالًا على أعتاب قدرة الخالق العظيم، ونترنَّم بقول الشاعر بصدد الخلق ونقول أيّها الإنسان: عجباً لك إذ لم يكن للعالم مجال لمشاهدتك فلماذا لا تنظر إلى نفسك متعجباً:

أو نقول:

أتزعُمُ انَّكَ جرمٌ صغيرٌ وفيك انطوى العالم الأكبرُ! نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۳

۲۱- آياته فى الحياة الاجتماعية للإنسان

تمهيد:

ممّا لا- شك فيه أنَّ الإنسان موجودٌ اجتماعى بالطبع، ويحصل على ما يحتاج إليه فى الحياة الجماعية، فتكامل الإنسان معنوياً ومادياً، فى العلوم والمعارف، الحضارات والصناعات، الآداب والتقاليد، يحصل من خلال الحياة الجماعية، بنحوٍ يمكننا من القول أنّه لو فقدَ الإنسان هذا الطراز من الحياة فسيفقد كلَّ شىءٍ، ويهبط إلى مستوى الحيوان.

إنَّ اهتمام الإنسان بهذا الطراز من الحياة علاوة على فطريته، فهو نابع من كثرة وتباين حاجاته، وهمته العالية لبلوغ مراحل اعظم وأكمل، ولا يمكن تأمين هذه الحاجات الجسمية والروحية بدون الحياة الاجتماعية، وإلّا فما هو دور الإنسان منفرداً؟

ولكن يجب أن لا ننسى أنّ الإنسان يحتاج إلى عوامل نفسية وبدنية كثيرة من أجل التعايش اجتماعياً، حيث وضعها الخالق فى متناول يديه، وإذا تمَّ تحليل هذا الجانب من حياة الإنسان تحليلًا موضوعياً فسيتضح انَّه من أكثر آيات اللّه عجباً.

بهذا التمهيد نتجه نحو آيات القرآن التى تستند إلى هذا الأمر ونتمعن خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أنْفُسِكُمْ أزْواجاً لِّتَسْكُنُوا اليْها وَجَعَلَ بَينَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً انَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ». (الروم/

(۲۱)

۲- «هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْها زَوْجَها لِیَسْکُنَ الَیْها».

(الاعراف/ ۱۸۹)

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۴

۳- «إِنَّا خَلَقْنا الإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِیهِ فَجَعَلْناهُ سَمِیعاً بَصِیراً». (الإنسان/ ۲)

۴- «یَا ایُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقْنَاکُم مِّنْ ذَکَرٍ وَانْثَی وَجَعَلْنَاکُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا انَّ اکْرَمَکُمْ عَنْدَ اللَّهِ اتْقاکُمْ». (الحجرات/ ۱۳)

۵- «هُوَ الَّذِی أَیَّدَکَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِیْنَ* وَالَّفَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ انْفَقْتَ مَا فِی الأَرضِ جَمِیْعاً* مَا الَّفتَ بَیْنَ قُلُوبِهِمْ وَلکِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَیْنَهُمْ إِنَّه عَزِیزٌ حَکِیْمٌ». (الانفال/ ۶۲- ۶۳)

جمع الآیات وتفسیرها

شرح المفردات:

«زوج»: تعنی فی الأصل الحیوان المذکر والمؤنث حیث یُطلقُ هذا اللفظ علی کلٍّ منهما، ویُطلقُ- أحیاناً بمعنی أکثر شمولیةً- علی کلِّ شیئین متناظرین، سواء کان من ناحیة التشابه أو التضاد، کزوج الحذاء، أو الجوراب، أو اللیل والنهار والخیر والشَّر وأمثالها، أو الارقام التی تقبل القسمة علی اثنین متساویین، لأنَّ کلًا منها یناظر الآخر، إلّاأنّها تُقال فی خصوص البشر لمن أبرم عقد الزواج بینهما.

وقال بعض أرباب اللغة إنَّ معنی «زوج» عبارة عن الشکل الذی یکون له مثیل، کالأنواع والألوان المختلفة، أو الشیء الذی له مضاد، کالرطب والجاف، المذکر والمؤنث، اللیل والنهار، الحلو والمر، کما صرَّحوا أنَّ «زوج» تعنی کلَّ فردٍ من الزوجین، لا الاثنین معاً بل یجب أن یقال للاثنین «زوجان»، واطلاقُ زوج علی الاثنین هو من کلام الجهلة «۱».

«لِتَسْکُنُوا»: من مادة «سکون» وتعنی فی الأصل ثبات الشی بعد الحرکة، وجاء فی «مقاییس اللغة» أنَّ أصلها بمعنی الاطمئنان، والحالة التی تعاکس الاضطراب والحرکة، وتطلقُ أحیاناً علی تخفیف ضغط العاصفة والحر والبرد، والمطر والغضب أیضاً، ولهذا سُمِّیَ «سکان» السفینة بهذا الاسم حیث یعتبر أساس واطمئنان السفینة ووضعها فی

---

(۱) المفردات، مصباح اللغة، التحقیق ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۵

الطریق الصحیح، ومن هذا الجانب سمیت «السِکّینة» بهذا الاسم، حیث تُسکنُ حرکات الحیوان بقطع رأسه، کما یقال لحالة الاطمئنان والاستقرار النفسی «سَکینة» أیضاً، وتُطلق «مِسْکین» علی من یبدو ساکناً فی محله لشدة الفقر الذی یعانیه، ویقال لمکان سکن واستقرار الإنسان «مَسْکَن» «۱»

.

و «شُعُوب»: طبقاً لقول بعضهم، جمع «شَعْب» (علی وزن صَعْب)، وجمع «شِعْب» (علی وزن فِعْل) طبقاً لقول بعضهم الآخر، بینما یعتقد البعض کصاحب مجمع البحرین أنَّ جمع الأول «شعوب» وجمع الثانی «شعاب»، وعلی أیّةٍ حالٍ فانَّها تعنی کما یقول صاحب «لسان العرب» الجمع والتفریق، أو الإصلاح والافساد (وذلک یصور إلی أنّ معناها الأصلی هو الوادی الذی یتجمعُ فی الجانب الآخر من الجبل ویتسعُ فی الجانب السفلی وکما یقول الراغب فی المفردات أنَّ المفهومین اجتمعا فیه) لذلک یقال «شَعب» للقبیلة التی انفصلت

عن طائفةٍ كبيرة (فلها صفةٌ جمعيةٌ تفريقية) وقال بعض أيضاً أنَّ «شعوب» تستخدم بخصوص العجم و «قبائل» للعرب «۲».

ولهذا تأتى «تَشَعب» أيضاً بمعنى التفرق وكذلك الاجتماع، والإصلاح والافساد.

«ألَّف»: من مادة «إلْف» على وزن (جِلْف) وتعنى الاجتماع المتقارن بالانسجام والوئام، وتأليف القلوب يعنى إيجاد الالفةِ والأواصر والصلةِ بينها (وعلى هذا الأساس اطلقوا على تأليف الكتاب هذا الاسم حيث يتمّ إيجاد نوع من التآلف والانسجام بين الألفاظ والمعانى والموضوعات) ولهذا يقولون للعدد أَلْف حيث يعتقد العرف أنَّ كافةَ الاعدادِ مجموعةٌ فيه لأنَّه يتكون من عدد واحد والعشرات والمئات والآلاف، ولم تكن هناك أعدادٌ بعده بل تتكرر نفس الأرقام، عشرة آلاف ومائة ألف و .... «۳».

---

(۱) التحقيق، لسان العرب، المفردات، مجمع البحرين، وكتاب العين.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۳۸.

(۳) مجمع البحرين، لسان العرب، مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۶

تفسيرٌ وتحليل

الروح الاجتماعية للبشر واحدة من أعظم المواهب الإلهيّة:

فىسورة «الروم» وأثناء تعداد الآيات الإلهيّة فى سبعِ آيات متقاربة «۱» حيث تبتدأ كلٌّ منها بتعبير «ومن آياته» أَوضحَ جانباً من براهين عظمة اللَّه فى عالم الوجود بلحنٍ مرغوبٍ وجذابٍ ونغمةٍ لطيفةٍ ومحببةٍ والآية الاولى فى البحث إحداها فقد أشارت إلى اللبنة الاولى فى بناء المجتمع البشرى، أى وحدة الاسرة والعلاقة التى تسودُها، فيقول: «وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا».

واللطيف أنّه لم يذكر هنا أنَّ الهدف من الحياة الزوجية هو بقاء النسل، بل يذكرُ نيل الاطمئنان والسكينة، الذى يحصل من خلال الحياة الزوجية، لأنَّ هذين الجنسَيْن يُكمل أحدُهما الآخر، ويكونان سبباً لتفتُّحِ وانقاذ وتربيةِ كلٍّ منهما، بنحوٍ يبدو كلٌّ منهما ناقصاً بدون الآخر، وينال تكامله عن هذا الطريق.

إنَّ هذا الاطمئنان والسكون لا يقتصر على الجانب الجسدى بل إنّ جانبه الروحى أهم واقوى

والاضطرابات النفسية وفقدان التوازن الروحى، والأمراض المختلفة المتمخضة عن الزهد فى الزواج، شاهدٌ ناطقٌ على هذا المعنى

ثم يضيف: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

هذه المودةُ والرحمة التى تُعتَبرُ فى الحقيقة الركن الأساس وحلقة الوصل والإرتباط ما بين الناس، فتربط الأشخاص المتفرقين والمتباعدين، وتخلق من ذلك مجتمعاً قوياً، تقوم المواد الأساسية فى البناء بشدِّ قطع الطابوق والحجر ويُشيَّدُ منها بناءٌ ضخمٌ وعظيم.

واللطيف كذلك أنّه استند مرّه ثانية فى نهاية الآية إلى هذه النكتة التوحيدية: قائلًا: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

---

(۱) تبدأ هذه الآيات من الآية ۲۰ من السورة وحتى الآية ۲۵ (ست آيات متتابعة) والآية ۷ والآية ۴۶ من نفس السورة.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۷

ولو تأمَّلنا فى تشكيل الحياة الزوجية وهى أول وحدةٍ اجتماعية، فى الرابطة القوية التى تتكون بين هذين الجنسين المختلفين، ومن ثم لو تأملنا فى الوحدات الاجتماعية الأكبر:

العائلة، الأقارب، الطائفة والعشيرة، ثم فى المدن والاقطار وفى كل المجتمع البشرى، فاننا سنواجه فى كلِّ خطوةٍ نخطوها آيةً من آياتِ اللَّه العظيمة.

فمن الذى خلقَ المحبّةَ والمودةَ بين المرأة والرجل، والأب والام وابنهما، والعشيرة والأقارب، وكلِّ الناس بشكلٍ عام؟

من الذى وَضَعَ التوازن بين جنس المرأة والرجل فى المجتمع البشرى؟ بشكلٍ يتمّ الحفاظ على هذا التوازن رغم الحوادث المعقدة التى تطرأ فى المجتمعات كالموت والولادات!

من الذى خلقَ الأذواق المختلفة فى العقول، والرغبات المتباينة فى القلوب؟ وأخذ بيد كلِّ صنفٍ نحو عملٍ وبرنامجٍ، كى يتكون من مجموعهم مجتمعٌ إنسانىٌّ ككتلةٍ واحدةٍ متكاملةٍ من جميع الجوانب.

ولعلَّهُ لهذا السبب أشار فى الآية الآتية إلى اختلاف الالسُنِ وتباينِ الألوان ويعتبر ذلك من آيات اللَّه. فيقول: «وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ الْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ إنَّ فِى ذَلِكَ لَآياتٍ لِلْعالِمِيْن». (الروم/ ۲۲)

وممّا لا شك فيه أنَّ أحد التفاسير لاختلاف الألسن والألوان، هو هذا التباين الموجود فى النطق والأذواق والجذب الفكرى للأشخاص، ممّا يؤدّى إلى أنْ يتحلّى المجتمع البشرى بالانسجام التام، بنحوٍ لا يحصل معه فراغٌ فى أى من الحاجات المعنوية والمادية للبشر.

«مَوَدَّة»: من مادة «وُدّ» (على وزن حُبّ) وتعنى المحبّة كما تطلق على «الأمل فى تحقيق الشىء» (وكلا المعنيين قريبان لبعضهما) ولفظ «وَدّ» (على وزن حَدّ) اسمٌ لأحد اصنام الجاهلية، وسمى بذلك الاسم لمحبتهم الشديدة له، أو لأنّهم كانوا يظنّون بوجودِ مودةٍ بين اللَّه وهذا الصنم، كما يُطلقُ هذا اللفظ على «المسمار»، حتى قالَ بعض إنَّ لفظ «وَتَدْ»

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۸

الذى يعنى فى لغة العرب «المسمار» مأخوذٌ من أصل «وُدّ» لأنَّ المسامير تلتصق بالجدار أو الأشياء الاخرى ومن هنا فهى تتشابه مع مفهوم المحبّة «۱».

«رَحْمة»: وتعنى حالة الليونة التى تحصل فى قلب الإنسان فتجعله يميل إلى الاحسان تجاه من يستحق الرحمة، ومن المسلَّم به أنّها حينما تُستَخدمُ فى مورد البارى تعالى فانّها تعنى الإنعام والعطاء والاحسان.

وهنا ما الفرق بين الاثنين (المودة والرّحمة) فى هذه الآية؟ لقد اعطى المفسِّرون عدّة احتمالات، ويُمكن القول أنَّ الجامع بينها هو أنَّ «المودَّة» تُقالُ لشىءٍ لهُ مقابل، كالمحبّة التى بين المرأة والرجل أو الاخَوَيْنِ، حيث تدفع كلًا منهما إلى تقديم الخدمةِ إلى الآخر، إلّا أنّ «الرحمة» من جانبٍ واحدٍ وتشتمل على التضحية، كعلاقة الحب بين الوالدين وابنهما، أو أحد الزوجين نحو الآخر عندما يعجز عن العمل.

وهنا تكمنُ نكتةٌ مهمّة، وهى يجب أن يقوم فى الحياة الزوجية وكذلك الحياة الاجتماعية بشكلٍ عام نوعان من العلاقة المعنوية:

الأول: العلاقة التى تتخذ طابع الخدمات المتقابلة، فيقوم كل فردٍ أو طبقةٍ بخدمات متقابلة تجاه الأفراد أو الطبقات الاخرى

والثانى: «الخدَّمات المجانية»، لأنَّ المجتمعات البشرية أو الاسرَ التى هى مجتمعٌ مصغّرٌ تعجُّ بالأطفال والضعفاء والعجزة باستمرار ولو شاؤا انتظار الخدمات المتقابلة لظلّوا يعانون الحرمان، هنا حيث يعطى مفهوم «المودة» مكانه إلى «الرحمة»، وتحلُّ الخدمات التضحية محلَّ الخدمات المتقابلة، وكم لطيف هذا التعبير القرآنى الذى لن ترى المجتمعات البشرية صورة الاطمئنان والراحةِ إلّابالعمل به.

والآية الثانية من البحث تردد هذه الحقيقة التى وردت فى الآية الآنفة مع هذا الفارق

---

(۱) مفردات الراغب مادة (ود).

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۶۹

حيث تقول: «هُوَ الَّذِی خَلَقَکُمْ مِّنْ نَّفْسٍ واحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنهَا زَوْجَها لِیَسْکُنَ إِلَیْها».

والمقصود من «نفسٍ واحدةٍ» باعتقاد اغلب المفسِّرين هو آدم عليه السلام «۱»، ومن المسلَّم به أنَّ التعابير التی جاءت فی ذيل الآية وتُشَمُّ منها رائحة الشرک، لا تعنی الشرک فی الاعتقاد ولا فی العبادة، بل يُمكنُ أن يَكونَ المقصود منها هو ميل آدم إلی ابنائهِ، الميلُ الذی قد يجذبُ الإنسان نحوه فی لحظات خاطفة ويجعله يغفل عن غيره.

ويُحتملُ أن يكون المراد من «نفس واحدة» هو «الوحدة النوعية»، أی (خلقكم من نوعٍ واحدٍ).

وليسَ المقصود من عبارة: «جَعَلَ منها زَوْجها» أنَّ زوجة آدم «حواء» قد خُلقَتْ من جزءٍ من جسمه، كما نُقل فی الرواية الموضوعة أنَّ حواء خُلقت من ضلع آدم الأيسر، ولهذا يقل عدد الاضلع فی الجانب الايسر عنها فی الجانب الأيمن بضلعٍ واحدٍ، لدی الرجال، ولا شک أنَّ عددَ الأضلع فی كلا جانبی الرجل لا يتفاوت أبداً، ومن السهولة تجربة ذلک، بل إنّ المقصود هو:

إنَّه خلقَ زوجة آدم من جنسه، كی تكون بينهما الجاذبة الجنسية، وليس من جنسٍ بعيدٍ وغريبٍ، كما نقرأ بخصوص النبی صلی الله عليه و آله فی القرآن الكريم: «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الأُمِّيِّيْنَ رَسُوْلًا مِنْهُمْ».

ويشير فی الآية الثالثة إلی خلق الإنسان من نطفةٍ مختلطة، فيقول: «إنّا خَلَقْنا الانْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيْهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيْعاً بَصِيْراً».

وتم التلميح فی هذه الآية إلی ثلاث مزايا للإنسان: الاولی امتزاج النطفة، ويستفاد هذا الامتزاج من لفظ «أمشاج» جمع «مشيج» أو «مَشَج» (علی وزن مَدَدْ) وتعنی الشیء

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۵۰۸؛ و التفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۸۵؛ و تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۲۰۹۴؛ تفسير الميزان، ج ۸، ص ۳۹۱، ونقل هذا المعنی فی تفسير القرطبی (ج ۴، ص ۲۷۷۳) عن جمهور المفسرين.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۰

الممزوج، ولهذا معنیً واسع حيث يشمل اختلاط النطفة من «البيضة» و «الحيمن»، وكذلک المواد المعدنية المختلفة وغيرها من المواد التی تتظافر لصنع النطفة، كما يمكن أن تكون إشارة إلی القوی المختلفة والقابليات المتباينة والأذواق المتفاوتة الموجودة فی نطفة الإنسان وتُعدهُ للحياة الاجتماعية فی المجالات كافة.

والثانی عبارة «نبتليه» التی تشير إلی انتقال الإنسان من حالةٍ إلی اخری والتحولات المستمرة وأنواع الابتلاءات والاختبارات التی تأخذ بيده فی مسيرته التكاملية وتعتبر دليلًا علی تكليف الإنسان ومسؤوليته، لأنَّ الاختبار غير ممكنٍ بدون حرية الإرادة، والقابلية علی أداء التكليف.

والثالث امتلاک الأدوات المهمّة للمعرفة ومن أهمّها السمع والبصر، فالسمع للاستفادة من العلوم النقلية وأفكار الآخرين، والعين للمشاهدة والاتصال المباشر بحقائق العالم.

فهكذا إنسان وبمثل هذه المواصفات جديرٌ بأن يرتقی إلی مقام خليفة اللَّه وقادرٌ علی الحياة الجماعية.

وفی الآية الرابعة وجَّهَ الكلام إلی الناس قاطبةً، قائلًا: «إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وانْثی .

بناءً علی ذلک ليس هنالک أیُّ تمايزٍ بين الأجناس والقبائل والشعوب، لأنّهم يرجعون إلی أصلٍ واحدٍ: «أبوهم آدم وامُّهم حواء».

ثم أشار إلی فلسفة تصنيف الناس إلی شعوب وطوائف مضيفاً: «وَجَعَلناكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا».

لا شکَّ أنَّ أول شروط الحياة الاجتماعية هی معرفة الأشخاص ببعضهم، إذ لولاها لاختَلَّ نظام المجتمع البشری خلال يوم واحد، فلم يُعرف المجرم من البری، ولا الدائن من المدين، ولا القائد من المقود، ولا الأئمّة من التابعين، و ... اجَلْ .. اللَّهُ الذی خلقَ الإنسان لمثل هذه الحياة وجَعَلَه أجناساً وقبائل وجماعاتٍ تتباين تماماً بالمواصفات وجَعَل فی كلِ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۱

قبيلةٍ أشخاصاً يمتازون بمزايا شخصيةٍ خاصةٍ كى تُحلَّ مسألة «التعارف».

ويقول فى نهايـة الآيـة كاسـتنتاج أخلاقى من هذه المسألة الاجتماعية: إنَّ الانتسابَ للقبائل والجماعات ليس دليلًا على أىِّ تفاضُل أبداً بل: «انَّ أَكْرَمَكُم عِنْدَ اللَّهِ اتْقاكُمْ».

فـالتقوى لاـ تُعتبرُ مسألـة أخلاقيـة فحسب، بـل مسألـة اجتماعيـة لاـ تسـتقيم الحيـاة الاجتماعيـة للبشـر إلّامن خلالهـا، التقوى فى جميع المجالات، التقوى الاقتصادية، التقوى السياسية، تقوى اللسان والتقوى الفكرية.

وفى الآيـة الخامسة والاخيرة من البحث يعتبر «تأليف القلوب» احد الأدلة المهمّة على انتصار نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله، فيقول: «هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وبالْمُؤْمِنِيْنَ* وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ».

ويثبتُ هذا التعبير بوضوح أنَّ تأليف القلوب يعتبر أمراً حتمياً من أجل التغلُّب على المشكلات الاجتماعية، وقد خلقَ اللَّهُ هذا الاستعداد لدى البشر ولولاه لم يتسنَ التأليفُ بين القلوب، ولو لم يحصل فستضطرب حياة البشر الاجتماعية.

ثمَّ يُلمِّحُ إلى مسألـةٍ لطيفـةٍ وهى أنَّ تـأليف القلوب لاـ يتحقق بالطرق المادّيـة، بل يمكن تحقيقه من خلال الإيمان والأساليب المعنوية والقيم الإنسانية السامية، فيقول: «لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيْعاً مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِم وَلكِنَّ اللَّهَ الَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ».

صحيـحٌ أنَّ هـذه الآيـة نزلت بخصوص أصـحاب رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، إلّاأنَّ من الواضح أنَّ مفهومها عامٌ ويشـملُ المؤمنين قاطبةً، كما اشير إلى هذا المعنى فى تفسير الميزان «۱».

إنَّ المسائل الماديّة وبسـبب ضيقها تكون مصدراً للنزاعات والصراعات، ولو فرضنا أن تكون عاملًا للوحدة يوماً ما، فستكون وحدةً غير راسخةٍ، فالوحدة الراسخة تتحقق فى ظل الإيمان والتقوى والقيم الروحية فقط.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۹، ص ۱۲۰.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۲

وورد قرينُ هـذا المعنى بتعـابير اخرى فى قـوله تعـالى حيث يقول حول أصـحاب رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «أَشِدّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ». (الفتح/ ۲۹)

ومـا يثير اهتمامنـا هنـا هو التعبير ب «هو الـذى» فى بدايـة الآيـة، حيثُ تُعرِّفُ البـارى من خلال نصـرة رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله والتـأليف بين قلوب المؤمنين، ويعـدَّها من آيـات وجود اللَّه تعـالى التـآلف الـذى يَسـمو على جميع انواعِ التـآلف، حـتى على الروابط النسبيـة والسـببية، ولهـذا فقـد هيمنت أواصـر العصبية القبلية وبنحوٍ مذهلٍ على العلاقات التى كانت تسود المجتمع العربى أبان العصـر الجـاهلى لكن أواصـر الإيمان والتقوى طغت على جميع أنواع الراوبط، وظهرت آثار هـذا التآلف الروحى والمعنوى فى جميع جوانب حياتهم الفردية والاجتماعية، وأذْعَنَ العالمُ باسرهِ أمام عظمتهم.

توضيح

هل للمجتمع روحٌ؟

إنَّ الأَحياء على قسمين وأغلبُها يعيش منفرداً ولا وجود اجتماعى فيما بينها ولو على صعيد اصغر وحدة اجتماعية أى العائلة، وبعضها قد تخطّى هـذه الحيـاة قليلًا وأخـذ يعيش مع قرينهِ، ولكنّ قليلًا من الحيوانـات تعيش حياةً جماعيـةً، وبعضـها قـد كون حضارةً، كالنحل، والنَّمل، والأرضة وغيرها من الحيوانات.

إلّا أنَّ هذا الصنف (الحيوانات الاجتماعية) لها نوعان من النقص أيضاً: الاوّل: هو استحالة الحياة المشتركة بين المجاميع المتباينة (كنحلِ خليتين أو بضع خلايا)، والثانى:

إنَّ حياتها الاجتماعية تتخذُ طابعاً واحداً باستمرار، اى أنَّ النحلَ يعيشُ اليوم كما يعيش قبل مليون سنة.

فالكائن الوحيد الذى يعيش حياةً جماعيةً غير مقيّدة ويسير نحو التطور والتكامل هو الإنسان، والدليل على ذلك هذا النمو والتطور وسيادة العلم والعقل على حياته الاجتماعية.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۳

وهنا بحوث كثيرة لو أردنا الولوج فيها سنخرج من اطار البحث التفسيرى ولكن يبدو من الضرورى التذكير ببعض الامور:

۱- ما هو منشأ رغبة الإنسان للحياة الاجتماعية؟- هنالك آراء مختلفة، ويبدو أكثرها صواباً هو أنّه مزيجٌ من الحوافز «الغريزية» و «العاطفية» و «الفكرية» فالعقلُ يقول إنّ التكاملَ ممكنٌ فى ظل الحياة الاجتماعية فقط سواء كان معنوياً أو عادياً، لأنَّه من البديهى إذا أراد فردٌ أو اسرةٌ أن تعيش بمعزل عن الآخرين، فلا وجود لهذه العلوم والمعارف ولا هذه الصناعات والاختراعات والابداعات، فلا شكّ أنّها حصلت من خلال استثمار تكدُس الطاقات الفكرية والجسمية، ونقل كلُ جيلٍ تجاربه إلى الأجيال الاخرى واثمرت هذه الظواهر الجبارة من خلال تجمعها وتظافرها.

ومن ناحيةٍ اخرى فانَّ الإنسان يميل إلى هذه الحياة من خلال حافزٍ ذاتيٍ وعاطفى، فهو يضجر من العزلة، ويشعر باللذة من خلال حديثه وجلوسه وقيامه مع رفاقهِ، وسجنُ الوحدة يمثل أقسى عذابٍ بالنسبة له، وقد اثبتت تجارب العلماء أنَّ العزلة لو استمرت فستؤدّى إلى اضطرابات نفسية على مدى فترةٍ قصيرة، وبغض النظر عن منافع التعايش الجماعى فإنّ هذا يُؤكد على أنَّ الإنسان يرغبُ بطبعهِ فى هذا التعايش.

۲- لقد اعتبر الإسلام الحياةَ الاجتماعيةَ للبشر من أهم مبادئه، ولم يهتم بها فى العلاقات السياسية والاقتصادية فقط بل حتى فى مسألة العبادات التى تعتبر علاقة بين الخلق والخالق، فاعطى للعبادات الجماعية (صلاة الجماعة) وصلاة الجمعة ومناسك الحج، أهميّةً لا مثيل لها.

فماهية الصلاة، والاذان والاقامة تُحفزُ الجميع لصلاة الجماعة، ويبرهن ضميرُ الجمع الوارد فى سورة الفاتحة، والسلام الذى فى خاتمة الصلاة، على أنّ الصلاة ذات صفةٍ اجتماعية واداؤها فرادى يُعد صيغة فرعية.

وقد اعطيت الحياة الاجتماعية اهميةً بالغةً فى الإسلام بحيث اعتُبرَ كلُ ما يؤدّى إلى الاختلاف والتفرقة (كالحسد، قول الزور، والغيبة، والنفاق و ...) من الذنوب الكبيرة، وكلُ

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۴

ما يؤدّى إلى السَّلام والوئام والإصلاح بين الناس جزءاً من أفضل العبادات.

۳- أنَّ تحقيق الحياة الاجتماعية للبشر ليس امراً بسيطاً، لأنّه يحتاج إلى توزيع القابليات والقدرات العقلية والجسمية المختلفة، وتخطيطٍ دقيقٍ، وتوزيع للأعمال، والتنسيق والتآلف بين القلوب، وطبقاً للتعبير الذى ورد فى تفسير الآيات فانَّ البشر كمواد البناء- الطابوق والحديد والمواد الإنشائية الاخرى التى إذا لم تكن فيما بينها وسيلة للربط والالتحام لم يتشيَّد منها بناءٌ شامخٌ، وهنا جاءت يد القدرة الإلهيّة لمساعدة الإنسان، ووضعت الخطة الدقيقة الرامية إلى تأليف القلوب، وتوزيع القابليات العقلية والجسمية، وأنواع الأذواق والفنون، ورفَدت الإنسان بالمواهب العظيمة التى لن تدور عجلة الحياة الاجتماعية للبشر بدونها أبداً، ويُعبَّر عن مجموع هذه الامور أحياناً ب «روح المجتمع» وإلّا فاننا نعلمُ أن ليس للمجتمع روح خاصةً غير ما ذُكر.

من يا ترى أوْجَد هذه الروح الاجتماعية بكل ما فيها من مواصفاتٍ من أجل دفع الإنسان نحو التكامل؟ فهل تستطيع الطبيعة العمياء الصمّاء التى لا عقل ولا احساس لها أنْ تُوجدَ هذا التخطيط، وهذه المودَة والرحمة، وهذه السكينة والاطمئنان، ونطفة الامشاج، وهذا

التعارف العام، وهذا التآلف بين القلوب؟!

لهذا تَعتبرُ الآياتُ المذكورة هذه الامور من آيات عظمةِ وعلمِ وقدرة اللَّه تعالى

ونختتم هذا الكلام بالحديث الذى ورد عن النبى صلى الله عليه و آله فيما يخص اهتمام الإسلام بتقوية الأواصر الاجتماعية بين أبناء البشر، إذ يقول صلى الله عليه و آله:

«إنَّ المُسْلِمَ إذا لَقىَ أخاهُ المسلمَ فاخذَ بيَدِهِ تحاتت عَنْهُما ذُنوبُهما كَما تَتَحاتُ الوَرقُ عن الشَجَرةِ اليابسةِ فى يومِ ريحٍ عاصفٍ و «لا يفترقان» إلّاغُفِرَ لَهما ذنوبُهما ولَو كان مثلَ زَبَدِ البحار!» «۱».

كلمة الختام:

من مجموع ما جاء فى بحوث هذا الكتاب المختلفة تتضح هذه الحقيقة بجلاء وهى أنَ

---

(۱) الطبرانى، نقلًا عن تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۵۷.

نفحات القرآن، ج۲، ص: ۳۷۵

المعشوقَ يتجلّى من كلِّ بابٍ وجدارٍ، وافاض بأنواره على كلِّ موجودات الدنيا، ورسمَ اسماءَه وصفاتهِ على جبين كلِّ الكائنات.

فقد تجلّى بمائةِ الفٍ من الأنوار، كى نراه بمائة الفٍ من الابصار، وهو قد اضاءَ شمساً فى قلبِ كلِّ ذرةٍ، واظهرَ آثار علمهِ وقدرتهِ فى السماء والأرض.

وقد وُصِفَ فى آيات القرآن بهذا الطريق وأحصى آياتهِ فى الآفاق والانفس.

فتكفى عينان، واذنان، وقلبٌ يقظٌ كى يرى المرءُ هذه الأنوار، وأن يسمع انغام التوحيد، وان يدعو خيرَ المحسنين إلى القلب، ويستضيفه فى هذه الخلوةِ الانيسة، وهذا العرش العظيم، ويخاطبه فى جذبةٍ روحيةٍ ويترنم بما يلى من الاشعار:

لَبّيكَ يا عالماً سرّى وَنَجوائى لَبّيكَ لَبّيك يا فَقْرى وَمُغْنائى أدعوكَ بَلْ أَنْتَ تَدْعُونى فَهَلْ نَاجَيْتُ إيّاكَ أو ناجَيْتَ إيائى حُبّى لِمَولاىَ أضنانى وأسْقَمَنى فَكَيفَ أشكوا إلى مَوْلاىَ مَوْلائى يا وَيْحَ رُوحى مِنْ روحى ويا أسَفى علىَّ منّى فإنى أصل بَلْوائى «۱» الهى! املأ قلوبَنا من حبّكِ ومعرفتكَ والإيمان بك.

ربّنا! أفِضْ علينا نحن العطاشى من كؤوس معرفتك واجعلنا سكارى إلى الأبد فى جذبةٍ روحية من جذباتك.

يا مولاى! من الصعب طىُّ طريق معرفة ذاتك المقّدسة إلّابلطفك ورعايتك وتوفيقك، فاجعلنا مشمولين برعايتك وفضلكَ وتوفيقك.

آمين يا رب العالمين

ختام الجزء الثانى من نفحات القرآن

۱۱/ ۴/ ۱۳۶۷

الموافق ل ۱۷ ذى القعدة ۱۴۰۸

---

(۱) روضات الجنان، ج ۳، ص ۱۴۸، الشعر لحسين بن منصور الحلاج.

الجزء الثالث

المقدمة

الطرق إلى اللّه ...:

كما ورد فى بداية هذا الكتاب فإنّ هناك حبلًا ممتداً من أعماق قلب كل إنسان متصلًا باللّه عزّوجل، فتنطلق فى روضةِ روح كلِ انسانٍ انشودةٌ تعبر عن هذا الإرتباط، ولهذا السبب، ونظراً لكثرة النفوس الإنسانية، فإنّ الطرق إلى اللّه لا حصر لها، ولكلّ إنسان نوع خاص به من الإدراك والشعور بالنسبة للّهسبحانه وتعالى.

ولكن مع كل هـذه الاختلافات فإنّ وجهة الجميع واحدة، العالم بأسره منقاد له، وينمو فى أعماقِ روحِ كلِ إنسانٍ برعم من معرفة ذاته وصفاته، وتُزهر فى قلب كل إنسانٍ زهرةٌ من أزهار معرفته.

ويرتفع دائماً من «الوادى الأيمن» نداءُ «إِنّى أَنا رَبُّكَ» ويدعو الفطرة السوية الكامنة فى كل النفوس الإنسانية إليه بصوت: «فَاخْلَع نَعْليكَ إِنَّكَ بِالوَادِ المُقَدَّسِ طُوى . (طه/ ۱۲) يأمر الجميع بأن يسيروا بكل خضوع وخشوع واحترام وحذر شديد فى الوادى المقدّس.

ويوصى جميع بنى آدم بأن يعملوا بوصيته مثلما عملت مريم عليها السلام عندما أوصاها بقوله:

«وَهزّى اليكِ بِجذْعِ النَّخْلةِ». (مريم/ ۲۵)

فيهزّون الأغصان المثمرة لشجرة التوحيد لتتساقط عليهم ثمرات الإيمان والمعرفة الطيبة.

وأن لا يخشون أبداً من نيران شرك النمرودبين، وأن يكونوا إبراهيميين فيدخلونها بكل اطمئنان وهدوء ليطفئوا نيران الشرك المحرقة ويحيلونها إلى روضة للتوحيد.

وأن يركبوا فى سفينة المعرفة المنجية كما ركبها نوح، ليُغرق كل الذين يدعون ويلهجون بغيره- حتّى الكنعانيين منهم-.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶

وأن ينهالوا بالضرب على رأس «السامرى» دون وجل، ويحرقوا بنار غضبهم المقدّسة عِجله الذهبى المنمَّق الذى يتسبب فى جذب قلوب المتعلّقين بالدنيا ومحبّى الثروة واكتناز الذهب وينثروا رماده فى بحر الفناء!

أجل فإنّ سالكى هذا الطريق يكرّرون ما قام به الأنبياء المرسلون فى سيرهم الظاهرى فى هذا العالم من خلال سيرهم الباطنى للوصول إلى الهدف والمراد وهو «معرفة اللّه».

وفى نهاية المطاف يلبّون النداء الروحى لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «قولوا لا إله إلّااللّه تفلحوا»، فيقتربون من أعلى مقامات الفلاح والفوز من خلال ترديدهم لنغمة التوحيد الروحية السامية بجميع أجزاء وجودهم «حتّى الوريد والشريان».

فيخرجون بهذا السير والسلوك الإلهى من «دار الطبيعة» ليجدوا طريقهم إلى «دار الحقيقة» ومقام القرب الإلهى.

ولكن النقطة المهمّة تكمن فى أنّ هذا الطريق يمتاز بكثرة المنحدرات والمرتفعات والمنعطفات التى تكمن فى مسالكها شياطين الجنّ والإنس، الذين يبذلون الجهد الجهيد و «بزخرف القول» لحرف سالكى هذا الطريق عن مسيرتهم لأنّ إمامهم وزعيمهم إبليس أقسم بعزّة اللّه وجلاله منذ البدء لإغواء بنى آدم، ولعلمه بأنّه «رجيم» ومطرود من حضرته، فانّه يدعو الآخرين لاتباعه والاصطباغ بصبغته.

إنّ «الوسواس الخنّاس» هى صفة للشياطين الذين يضعون النقاب على وجوههم، كالغول الاسطورى فى قصص العرب، يسيرون عدّة أيّام فى جادة الصواب، وبعد أن يجذبوا مجموعة من الناس إلى صفوفهم، ينحرفون عن الصراط المستقيم، ويلقون بهم فى الأودية السحيقة «للضالين» و «المغضوب عليهم».

إذن ماذا ينبغى القيام به؟

وأين طريق النجاة؟

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷

يـا ترى، هـل يمكن طى هـذا الطريق بواسـطة العقـل المجرّد، على الرغم من أنّ العقـل يعـد وسـيلة من الوسائـل التى وهبهـا اللَّه تعالى للإنسان فهو نور من الأنوار الإلهيّة؟!

أم يجب ركوب أجنحـة الوحى والصـعود إلى سـماء المعرفـة، فنتجاوز ضوء الشـمع والمصـباح، ونمـدُ أيـدينا نحو الشـمس المتلألئـة، فنستمد العون من نورها للوصول إليه، لنحصل على الدليل من ذاته على ذاته؟

حيث إنّ مضمون حديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنِ ابتَغى العِلْمَ فى غيره (غير القرآن) أَضَلَّهُ اللَّه» «۱»

، ينصّ على ذلك، وهل يوجد غيره، يعرفه حقّ معرفته ليتمكّن من تعريفه للآخرين؟

إنّ هـذا الكتاب وهو المجلّد الثالث من التفسير الموضوعى ل «نفحات القرآن» هو عبارة عن جهدٍ متواضع فى هذا المجال لمعرفة اللَّه فى مختلف الطرق بتوجيه آيات القرآن المجيد، وتأييد حكم العقل بلسان النقل، وترسيخ اسس البرهان بآيات الوحى.

محرّم الحرام ۱۴۱۰ ه ق قم المقدّسة- الحوزة العلمية

مرداد ۱۳۶۸ ه ش- ناصر مكارم الشيرازى

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۸۹، ص ۲۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹

براهين معرفة اللَّه

اشارة

۱- برهان النظم (قد ذكر سابقاً)

۲- برهان التغيّر والحركة

۳- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)

۴- برهان العلة والمعلول

۵- برهان الصدّيقين

۶- الطريق الباطنى لمعرفة الله (الفطرة)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱

تمهيد:

بالرغم من أنّ الطرق إلى اللَّه لا حصـر ولا حدود لها- وكما يقول بعض العلماء: إنّ السـبل إلى اللَّه هى بعدد الخلائق: «الطرق إلى اللَّه بعدد نفوس الخلائق» «۱»

- إلّاأنّه توجد خمس طرق عقلية رئيسية وطريق فطرى واحد لإثبات ذات اللَّه المقدّسة، والطرق العقلية هذه عبارة عن:

۱- برهان النظم.

۲- برهان الحركة.

۳- برهان الوجوب والإمكان (الفقر والغنى).

۴- طريق العلّة والمعلول.

۵- برهان الصدّيقين.

والطريق السادس هو طريق (الفطرة) والسلوك (الباطن) والبحث فى أعماق الروح الإنسانية، ومن الملاحظ أنّ القرآن الكريم قد استند إلى هذه الطرق أجمع، غير أنّ أشمل البراهين التى يطرحها للمعارضين هو (برهان النظم) الذى يثبت وجود ذلك المبدئ الأزلى وما يملكه من علم وقدرة، وذلك من خلال عرض عجائب الخلق والآثار البديعة والأنظمة العجيبة فى عالم الوجود ولذا خُصّص أكثر الجزء الثانى من (نفحات القرآن) لشرح هذا البرهان وتبيان موارده- وشواهده فى القرآن الكريم.

---

(۱) نقله البعض بعبارة (عدد أنفاس الخلائق) ويعنى أنّ كلّ نفس يتنفّسه الإنسان هو طريق اللّه. ولكن هذه الجملة لم‌نجدها بصورة حديث فى مصادرها بل وردت فى كلمات العلماء.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲

والآن نتابع سائر الطرق القرآنية لإثبات وجود اللّه، ثمّ نتحدّث عن قضيّة الفطرة فى ظلّ التوجيهات القرآنية.

هذه صورة إجمالية عن أبحاث هذا الجزء.

نؤكّد مرّة اخرى ونكرر بأنّ هذه الأبحاث لا تُقدّم كأبحاث فلسفية أو كلامية، بل كأبحاث فى التفسير الموضوعى كما تقتضيه طبيعة الكتاب، أى أنّنا نسير فى هدىّ الآيات القرآنية ونستضىء بتوجيهات هذا النور الإلهى، ولو كانت ثمّة قضايا اخر فإنّا سوف نتحدّث عنها تحت عنوان (إيضاحات)، وأبحاثنا- فى الحقيقة- لا تستوجب غير ذلك، لأنّها فى غير هذه الحالة سوف تفقد أصالتها كأبحاث تفسيرية.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳

۲- برهان التغير والحركة

تمهيد:

إنَّ عالمنا الذى نعيش فيه هو فى حالة تغيير وتغيّر دائم، فلا يبقى الوجود على حالة واحدة، وكلّ شىء يعيش حالة من التغيّر والتغيير.

ويبدو أنّ نطاق حياة البشر والحيوانات والنباتات المقترنة بالتغيير والحركة أوسع وليس بوسع أحد أن ينكر هذا التغيير والتبدّل على صعيد نفس الإنسان أو على صعيد عالم المادّة، فالإنسان يواجه مشاهد مختلفة من هذا التغيير ليلًا ونهاراً، بل إنّ ظاهرتى (الليل والنهار) هما من أوضح النماذج عن التغيير والتبدّل فى العالم.

هذه التغيّرات والتغييرات والحركات التى تحكم العالم تدلّ بوضوح على وجود مركز ثابت تنشأ منه، وكأنّ الجميع يدور حول هذا المركز الثابت على محيط دائرة.

والتغيير والحركة فى الموجودات يعدان بمثابة شاهد على حدوث الموجودات، كما أنّ حدوثها دليل على وجود خالقها.

هذا الاستدلال- الذى سَيرِدُ شرحُهُ بالتفصيل مستقبلًا- ورد فى الآيات القرآنية بلطافة خاصّة، وبهذه الإشارة نرجع إلى القرآن الكريم كى نقرأ هذه الآيات:

«وَكَذَلِكَ نُرِى إِبرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ* فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَءَا كَوكَباً قَالَ هَذَا رَبِّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَاأُحِبُّ الآفِلِينَ* فَلَمَّا رَءَا القَمَر بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبّى فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَّم يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضالِّينَ* فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هَذَا أَكبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَومِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ* إِنِّى وَجَّهتُ وَجْهِىَ لِلَّذِىْ فَطَرَ السَمَاواتِ والأَرضَ حَنِيفاً وَمَا أَنا مِنَ المُشرِكِينَ».

(الأنعام/ ۷۵- ۷۹)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴

شرح المفرادت:

۱- «أفل»: و (أفلت) مشتقة من مادة (افول) وتعنى الإختفاء كما يقول جمع من اللغويين، ولكن (الراغب) فى (المفردات) أكثر دقّة حيث يقول: الافول يعنى اختفاء الأجسام النيّرة كالشمس والقمر، والصحيح هو ما يذهب إليه الراغب، لأنّ هذا المعنى هو المتبادر من إطلاق هذا اللفظ، كما أنّه ذو معنى كنائى فى بعض المجالات، فمثلًا يعبّر عن موت العالم ب (الافول)، وفى ذلك- فى الحقيقة- تشبيه بالشمس أو النجم، والتعبير بالافول والغروب هو بهذا اللحاظ.

۲- كلمةُ «بازغ» و (بازغة) مشتقةٌ من المصدر (بزوغ) بمعنى الشروق وانتشار النور، كما يذهب إليه الراغب فى المفردات فيقول هو فى الأصل يعنى اخراج دم الحيوان بُغية العلاج ثمّ استعمل بمعنى الطلوع.

أمّا ابن منظور فانّه يقول فى (لسان العرب): الأصل فيه بمعنى الفتق ويستعمل فى موارد فتق العروق فى الإنسان أو الحيوان من أجل العلاج وبما أنّ طلوع الفجر وأمثاله يشقّ ظلام الليل لذا استعمل هذا اللفظ فى هذا المعنى.

۳- «كوكب»: مشتقٌ من (وكب) أو (كوَب) وقد فسّره الكثير بمعنى (النجم)، ولكن الراغب فى المفردات فسّره بمعنى (النجم عند الطلوع)، وعندما يفسّره البعض بمعنى كوكب (الزهرة) فهو من قبيل المصداق الواضح له، لأنّ كوكب الزهرة هو أشدّ النجوم تلألؤاً ولمعاناً.

كما يطلق هذا اللفظ أحياناً على الوسيم والجميل، أو الجزء المهمّ من كلّ شىء، وعلى كبير القوم أيضاً، ولكنّها معانٍ مجازية فى الظاهر.

أمّا «قمر»: وإن كان معروفاً، ولكن توجد هنا نقطة جديرة بالإلتفات وهى أنّ الكثير من اللغويين صرّحوا بأنَّ لفظ (القمر) يطلق فى فترة تمتدّ من الليلة الثالثة وحتّى الليلتين الأخيرتين من الشهر، وعليه لا يطلق لفظ القمر فى الليلتين الأوليين ولا فى الليلتين الأخيرتين بل يطلق لفظ (الهلال)، لأنّ اللغويين يعتقدون بأنّ (القمر) و (القمار) من أصل

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵

واحد ويعنى الغلبة، وبما أنّ نور القمر فى الليلة الثالثة يتغلّب على أنوار النجوم المجاورة، لذا أطلق عليه هذا اللفظ «۱».

«شمس»: هذا اللفظ وإن كان له معنى معروف ولكن من الجدير أن نذكر هذه الملاحظة وهى أنّ لفظ الشمس يطلق على الكوكب نفسه وعلى النور الساطع منه أيضاً.

وبما أنّ الشمس غير ثابتة فى السماء وهى فى حركة دائبة (بالنسبة لنا سكّان الأرض) لذا يطلق هذا الاصطلاح على الأشخاص الفوضويين والحيوانات الجموحة فتُعرف ب (الشَموس).

جمع الآيات وتفسيرها

إبراهيم عليه السلام يواجه عبدة الأصنام بمنطق قوى:

تحدثت الآية الاولى عن إراءة اللَّه سبحانه (ملكوت) السماوات والأرض لإبراهيم عليه السلام كى ينبعث اليقين فى نفسه بمشاهدتها، وتتجدّد الحياة فى إيمانه الفطرى حيث تقول «وَكَذلِكَ نُرى ابرَاهِيمَ مَلَكوتَ السَّماوَاتِ والأَرضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ» «۲».

إنّ المقصود من (إراءة ملكوت السماوات والأرض) هو مشاهدة حكومة اللّه ومالكيته لعالم الوجود بملاحظة الموجودات المتغيّرة فى هذا العالم [لأنّ لفظ (ملكوت) مشتق من (ملك) بمعنى الحكومة والمالكية، وزيادة الواو والتاء للتأكيد] هذه الحاكمية المطلقة والمالكية المسلّمة للّهعلى العالم جاءت بالتفصيل فى الآيات اللاحقة، وهذه الآيات- فى الحقيقة- جاءت على صورة البيان (الإجمالى) و (التفصيلى) وهو من الأساليب القرآنية المعروفة فى بيان القضايا المهمّة، ففى البداية تذكر القضية بشكل مغلق كى يستعدّ السامع ثمّ تشرع بشرحها [التعبير بفاء التفريع فى (فلمّا) إشارة واضحة إلى هذا الأمر].

---

(١) لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ كتاب العين.

(٢) يقول بعض المفسّرين بأنّ فى تشبيه الآية إشارة إلى أنّنا كما أريناك- يانبى الإسلام- ملكوت السماوات والأرض فانّا قد أريناها إبراهيم أيضاً (و عليه ففى الآية جملة مقدّرة).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶

على أيّة حال فإنّ القرآن اعتمد تبيان هذا الإجمال فى الآيات اللاحقة، فبدأ أوّلًا بالنجوم وبيّن استدلال إبراهيم عليه السلام فى إبطال مذهب عبدة النجوم بهذا النحو: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيهِ اللَّيلُ رَءَا كَوكَباً قَالَ هذَا رَبِّى».

التعبير ب «رأى كوكباً» مع أنّ نجوماً كثيرة تظهر فى الليل- فيه إشارة إلى نجم كبير ولامع لفت نظره إليه، وبما أنّ كوكب (الزُهرة) يظهر أوّل الليل و (كوكب) يعنى (النجم عند طلوعه) يتعزز بذلك التفسير الذى يميل إليه أغلب المفسّرين وهو أنّ النجم كان الزُهرة أو المشترى اللذين كانا يعتبران فى العصور القديمة من الآلهة المعبودة عند المشركين، ويؤيد ذلك ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى إحدى الروايات بأنّ هذا النجم هو كوكب الزُهرة.

على كلّ حال فإنّ هذا النجم لم يدم طويلًا حتى أفل، فقال إبراهيم عليه السلام: «... لَااُحِبُّ الآفِلِينَ».

مرّة اخرى التفت إبراهيم إلى بزوغ (القمر) من وراء الافق فأضاء السماء والأرض بنوره الأخاذ والجميل فقال إبراهيم عليه السلام: «هَذَا رَبّى».

ولكن لم يدم طويلًا حتّى تعرّض القمر إلى مصير النجم واختفى وراء الافق وعادت السماء مظلمة، (عندئذ قال إبراهيم عليه السلام الذى كان يسعى للوصول إلى حقيقة وكنه المعبود:

«لَئِن لَّم يَهدِنى رَبّى لَأَكُونَنَّ مِنَ القَومِ الضالِّينَ».

وبهذه الطريقة تبين أنّ سعى الإنسان لا يكفى للوصول إلى الحقّ، بل يجب أن يتعزز بالعون والعناية الإلهيّة وكى لا يكون من الضالّين، ومن المؤكّد أنّ هذا الإمداد والعون يشمل الذين يجهدون أنفسهم فى ابتغاء الحقّ، وطلب معرفة اللّه سبحانه وتعالى.

وأخيراً انتهى الليل، وأخذ الظلام يلم ستائره التى أسدلها على السماء، وبزغت الشمس فجأةً بوجهها النيّر المتلألئ من الشرق وألقت بأشعتها الذهبية على الجبال والصحارى، «فَلَمَّا رَءَا الشَّمسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّى هذا أَكبَرُ» «۱».

---

(١) «الشمس» وإن كانت مؤنثاً مجازياً ويجب أن يشار إليها ب (هذه) ولكن نعلم أنّ قضيّة المذكر والمؤنث سهلة وهنا يمكن أن يكون (هذا) إشارة إلى (الموجود) أو (المشاهد).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷

ولكن بانتهاء النهار وسقوط الشمس فى جوف الليل المظلم واختفاء صورتها خلف حجاب الغروب، نادى إبراهيم عليه السلام: «يَاقَومِ إِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشرِكُونَ».

لقد فهم إبراهيم عليه السلام من خلال مشاهدته لغروب الشمس وأفول النجم وغياب القمر، بأنّ كل ما رأى ما هى إلّامخلوقات

خاضعة لقوانين الخلقة كالأفول والغروب والتغيير، وفهم بأنّ هناك قوّة خفية لا يعتريها التغيير والغروب والافول أبداً، وهذه القوة تتمثل بالذات الإلهيّة المقدّسة.

وقال: إنّى وَجّهتُ وجهى إلى مَن خلق السماوات والأرض، ولا أُذعن للشرك أبداً، إنّى موحّد كامل التوحيد وعابد وعبد مخلص: «إِنِّى وَجَّهتُ وَجهِىَ لِلذَّى فَطَرَ السَّمَاواتِ وَالأَرضَ حَنيفاً وَمَا أَنا مِنَ المُشرِكِينَ».

هل وقعت الحوادث الثلاثة فى ليلة واحدة أم فى ليلتين؟

قال بعض المفسّرين- نظراً لعجزهم عن تصوّر وقوعها فى ليلة واحدة- أو فى ليلتين، فقد قالوا إنّ ظاهر الآيات يدل على أنّها تعاقبت فى ليلة واحدة ونهار واحد وهذا ممكن تماماً، لأنّ كوكب الزهرة يظهر منتصف الشهر وبوضوح فى أوّل الليل ثمّ يأفل سريعاً، ثمّ يظهر القمر بدراً من افق الشرق [والتعبير ب (بازغ) يدلّ على أنّ القمر كان بدراً أو قريباً منه وعندما يختفى القمر فى افق الغروب لا تلبث الشمس حتّى تشرق، وبهذا الترتيب تكون الوقائع الثلاث قد حصلت فى ليلة واحدة ونهار واحد.

وهذا الأمر ليس مهماً، المهم أن نعرف هو كيف يمكن لشخص مثل إبراهيم عليه السلام وبهذه المكانة العلمية والعرفانية ومع الأخذ بنظر الاعتبار عصمة ومقام الأنبياء وحتى قبل بعثتهم، أن يجرى على لسانه مثل هذا الكلام والذى يحمل فى طياته شركاً ظاهراً؟

يمكن الإجابة عن هذا السؤال بطريقين:

الأوّل: بقرينة الآيات الواردة حيث يقول: «يَاقَومِ انّى بَرِىءٌ مِّمّا تُشرِكُونَ» يُفهم أنّه كان

فى حالة التحدّث والكلام والجدال مع المشركين ونعلم أنّ مدينة بابل كانت تضم عبدة النجوم والقمر والشمس.

إنَّ المعلّم الذكى والمتحدّث الماهر عندما يواجه المعارض اللجوج المعاند فلا يقابله بمعارضة عقيدته فوراً بل يماشيه فترة، وبتعبير آخر يتحرّك مع الموجة قليلًا ثمّ يركبها، وبهذا النحو يكون إبراهيم عليه السلام فى بداية الأمر معهم ظاهراً لكى يريهم ضعف عقيدتهم ومنطقهم عند افول هذه الأجرام السماوية، وهذا الاسلوب فى النقاش مؤثّر ونافذ ومقبول كثيراً ولا يتنافى مع ما لإبراهيم عليه السلام من مقام فى التوحيد والمعرفة.

فى رواية عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى جوابه للمأمون الذى كان يعتقد بتعارض هذه الآيات مع عصمة الأنبياء أنّه قال: «... إنّ إبراهيم عليه السلام وقع إلى ثلاثة أصناف:

صنف يعبد الزهرة، وصنف يعبد القمر، وصنف يعبد الشمس ... وكان قوله هذا على الإنكار والإستخبار ...» «۱».

والتفسير الآخر هو أنّ إبراهيم عليه السلام ألقى هذا الكلام بشكل فرضى، والمحقّقون يواجهون ذلك فى الغالب عند التحقيق.

للإيضاح نقول: يتوصّل الإنسان تارةً إلى قضيّة ما عن طريق الاستدلال الوجدانى والشواهد الفطرية ولكنّه يريد أن يجعلها فى إطار البرهان العقلى، فيستعين بفرضيات مختلفة ويدرس مستلزمات كلّ فرضية حتّى يصل إلى ما يريد.

فمثلًا: يتوصّل المحقّق إلى أصالة الروح بوجدانه ويرغب فى إقامة البرهان على ذلك فيفترض الروح مادّية أو أنّ المادّية من خواصها ثمّ يدرس اعراض المادّة وخواصها ومستلزماتها فيصل أخيراً إلى أنّ الماديّة (أو اعراض المادّة) لا تنسجم مع الظواهر الروحية فينفيها الواحدة تلو الاخرى حتّى يبلغ تجرّد الروح.

وإبراهيم عليه السلام أيضاً ولكى يسلك طريق التوحيد المنطقى والذى توصّل إليه بوضوح فى أعماق روحه يفترض فرضيات مختلفة ويقول (هذا ربّى) و (هذا ربّى) ثمّ يصل إلى بطلان

---

(۱) عيون أخبار الرضا عليه السلام باختصار، بنقل من تفسير الميزان، ج ۷، ص ۲۱۴.

هذه الاحتمالات بافولها وغروبها حتّى يقول أخيراً: «إِنّي وَجَّهتُ وَجهيَ لِلَّذى فَطَر السَماواتِ وَالأرضَ» «۱»

ويكمل توحيده المستدل.

ونلاحظ فى بعض الروايات إشارات خفيفة إلى هذا المضمون، كما نقرأ عن الإمام الصادق عليه السلام فى قوله تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمّةً وَاحدةً» الآية فى حديث طويل ... وفى آخره يقول الراوى: قلت له: أفى ضلال كانوا قبل النبى أم على هدى؟

قال عليه السلام: «لم يكونوا على هدى بل كانوا على فطرة اللَّه التى فطرهم عليها لا تبديل لخلق اللَّه، ولم يكونوا ليهتدوا حتّى يهديهم اللَّه أما تسمع لقول إبراهيم عليه السلام: (لئن لم يهدنى ربّى لأكوننّ من القوم الضالّين) أى ناسياً للميثاق» «۲».

ولكن القرائن الموجودة فى الآيات والروايات التى وردت عن الإمام الرضا عليه السلام فى هذا المجال أكثر تلائماً مع التفسير الأوّل.

العلاقة بين الأفول والحدوث:

لقد استدلّ إبراهيم عليه السلام بافول الكواكب والشمس وغروبها على نفى الوهيتها، وقال بأنَّ هذه الموجودات لا يمكنها أن تكون آلهة للعالم، والكلام هنا كيف يمكن توضيح هذه العلاقة؟

توجد هنا آراء مختلفة:

۱- (الأُفول) علامة التغيير، بل هو لون من التغيير، والتغيير دليل على نقص الموجود، لأنّ الموجود الكامل من كلّ جهاته لا تَتصوّر فيه الحركة ولا التغيير لأنّه لا يفقد شيئاً ولا

---

(۱) وردت احتمالات اخرى فى تفسير الآيات أعلاه منها الإستفهام الإستنكارى والإستفهام بقصد الإستهزاء وأمثاله، وخاصّة فى تفسير التبيان وتفسير الفخر الرازى حيث أوردا احتمالات عديدة، ولكن لا ينسجم أى منها مع لحن الآية.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۳۶، ح ۱۴۸.

يكتسب شيئاً فهو الكمال المطلق، وعلى ذلك فإنّ الموجودات المتغيّرة والمتحرّكة تكون ناقصة حتماً فهى إمّا تفقد كمالًا، أو أنّها تبحث عن كمال جديد، والموجود الناقص لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

۲- الموجود المقرون ب (الافول) معرّض للحوادث، وكلّ ما كان معرّضاً للحوادث لا يمكن أن يكون قديماً وأزليّاً وواجب الوجود لاستلزامه الجمع بين (الحدوث) و (الأزلية) وبين هاتين الظاهرتين حالة من التضاد.

۳- كلّ حركة تحتاج إلى محرّك من الخارج، فإن كان ذلك المحرّك متحرّكاً فعلينا أن نبحث عن محرّك آخر حتّى نصل إلى وجود ليس فيه حركة مطلقاً.

۴- الحركة- وخاصّة الحركة نحو الافول- دليل على أنّ عالم المادّة صائر إلى الفناء [وهو أصل الكهولة و (الأنتروبى) الذى سنشيرُ إليه وكلّ ما كان مصيره الفناء لا يكون أبديّاً حتماً، ومثل هذا الموجود لا يكون أزليّاً قطعاً، وبذلك لا يمكن أن يكون واجب الوجود.

إنَّ كلّ واحدة من هذه الاستدلالات التى ذكرت يمكن أن تكون لها القابلية على استدلال النبى إبراهيم عليه السلام بها، ويمكن أن يكون كلام إبراهيم إشارة طريفة إليها جميعاً.

ينقل (الفخر الرازى) عن بعض المحقّقين: أنّ استدلال إبراهيم من السمو والشمول ما يجعله مورداً لاستفادة الخاصّة والمتوسّطين والعوام.

أمّا الخاصّة فانّهم يفهمون حقيقة (الإمكان) من (الافول) وكلّ موجود ممكن هو بحاجة إلى خالق، وهذه السلسلة متّصلة حتّى تنتهى

بالطاهر المنزّه من الإمكان ولا سبيل إلى ذاته، كما نقرأ فى قوله تعالى «وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ المُنتَهَى . (النجم/ ۴۲)

وأمّا المتوسّطون فانّهم يفهمون من الافول مطلق الحركة وأنّ كلّ متحرّك حادث وكلّ حادث محتاج إلى وجود القديم الأزلى، وأمّا العوام فانّهم يفهمون الغروب من الافول ويشاهدون الشمس والقمر والكواكب تمحى وتضمحل عند الغروب وتزول سلطتها وحكومتها، ومثل هذه الأشياء لا تصلح للُالوهية، إذن جملة: «لا احبُّ الآفِلِينَ» كلام يستفيد منه (المقرّبون) و (أصحاب اليمين) و (أصحاب الشمال) وهذا أكمل وأوضح برهان «۱».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۵۲.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱

ومن هنا يتّضح لماذا لم يستند إبراهيم عليه السلام إلى طلوع هذه الكواكب مع أنّ الطلوع والغروب كلاهما مصداقان للحركة؟ وذلك لأنّ ظاهرة الزوال والفناء وانقطاع الفيض والبركة يشاهد فى الغروب تماماً فى حين لا يشاهد ذلك فى الطلوع.

وعليه فإنّ الفصاحة والبلاغة تقتضيان أن يكون الإعتماد على (الغروب) لكى تتوضّح القضيّة أكثر، وتكون مقبولة تماماً لدى جميع الطبقات، وهذه النقطة جديرة بالملاحظة أيضاً وهى أنّ الحركة- كما سيأتى- لها أنواع وأوضحها هى (الحركة فى المكان) وقد استند إليها فى الآية (الحركة المكانية هنا مقترنة بالحركة الكيفية، لأنّ كيفية النور فى هذه الكواكب تتغيّر مع الحركة وتكون ضعيفة النور عند الغروب حتّى تختفى عن الأنظار).

يعتقد بعض الفلاسفة أنّ هذه الآية تتضمّن إشارة إلى برهان الحركة حيث يقول تعالى:

«وَتَرَى الجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدةً وهِىَ تَمرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذى أَتْقَنَ كُلَّ شَىءٍ إِنَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ». (النمل/ ۸۸)

فيقول اولئك بأنّ هذا التعبير ناظر إلى (الحركة الجوهرية) وهى الحركة التى تكون فى ذات الأشياء وباطنها، الحركة التى تدلّ على أنّ عالم المادّة بأجمعه حادث ويحتاج إلى خالق [سيأتى شرح هذا الكلام فى باب الإيضاحات بإذن اللَّه ولكن بناءً على أنّ الآية ناظرة إلى حقيقة (الحركة الجوهرية) فانّها لا تشير إلى الاستدلال التوحيدى ولا إلى الاستفادة من ظاهرة الحركة لإثبات وجود اللَّه (تأمّل جيّداً).

ويعتقد أغلب المفسّرين بأنّ هذه الآية ترتبط بأشراط الساعة (أشراط الساعة هى الأحداث المروّعة التى تحدث عند قيام القيامة وخاصّة تَحَرُّك الجبال وتلاشيها ثمّ صيرورتها غباراً كما جاء فى آيات عديدة من القرآن الكريم) «۱».

---

(۱) للمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية ۸۸ من سورة النمل.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲

ولكن كما قلنا فى التفسير الأمثل: إنّ هذا المعنى لا ينسجم مع ظاهر الآية، لأنّ تلاشى الجبال قبيل قيام الساعة مروّع إلى درجة يجعل الإنسان يعيش وحشة عظيمة فى حين تقول الآية بأنّك لا تعلم بحركة الجبال.

ولهذا نعتقد أنّ الآية تشير إلى حركة الجبال المواكبة لحركة الأرض فى الدنيا وتشبيها بحركة السحاب، وجملة (ترى فيها إشارة إلى الوضع الموجود والتعبير ب «صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى أَتْقَنَ كلَّ شَىءٍ» وذيل الآية: «انَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ» كلاهما دليلان على أنّ الآية ترتبط بحركة الجبال فى هذه الدنيا «۱».

ويعتقد البعض الآخر بأنّ الآية ۲۹ من سورة الرحمن: «يَسْئَلُهُ مَنْ فِى السَّماوَاتِ والأَرضِ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِى شَأْنٍ» إشارة إلى مسألة الحركة الجوهرية التى يمكن عن طريقها الوصول إلى وجود اللَّه (عن طريق برهان الحركة).

ولكن دلالة هذه الآية على الدعوى المذكورة غير واضحة أيضاً، بل إنّ ظاهرها هو أنّ اللَّه يخلق كلّ يوم أمراً جديداً، خلقه دائم

ومستمر، وهو يبتكر فى كل زمان أمراً جديداً، ويقدّر كلّ يوم نعمة جديدة، وعمله هو الإستجابة لقضاء حوائج السائلين.

كما أنّ الظاهر من تعبير الآية وكذلك الروايات الواردة فى تفسيرها هو ما ذكر أيضاً (تحدّثنا عن هذا الموضوع مفصّلًا فى التفسير الأمثل) «۲».

ويُستنتج من مجموع ما تقدّم أنّ أبرز الآيات الدالّة على برهان الحركة هى آيات إبراهيم عليه السلام التى استدلّ بها على نفى الوهية النجوم وذلك بافولها وغروبها واحتياجها إلى الخالق كذلك.

توضيحات

۱- برهان الحركة ومقدّماته

اشارة

الفهم الصحيح لبرهان الحركة وكيفية استخدامه فى مسألة إثبات وجود اللّه يقتضى ملاحظة الامور التالية إجمالًا:

---

(۱) لاحظ التفاصيل فى التفسير الأمثل، ذيل الآية ۸۸ سورة النمل.

(۲) التفسير الأمثل ذيل الآية ۲۹ من سورة الرحمن.

أ) تعريف الحركة.

ب) وجود الحركة.

ج) أركان الحركة.

د) المقولات التى تقع فيها الحركة.

أ) تعريف الحركة

ذكرت عدّة تعاريف للحركة، أوضحها التعريفان الآتيان.

۱- خروج الشىء من القوّة إلى الفعل بصورة تدريجية.

۲- الزوال والحدوث المستمرّ.

عندما تتساقط قطرات المطر من السماء فالنتيجة هى إمّا أن ينبت نبات أو ينضج ثمر تدريجيّاً، وفى هذه الموارد كلّها يكون للجسم وضع فعلى كما أنّ له القابلية فى ذات الوقت لاتّخاذ وضع آخر، وعندما يفقد الوضع الموجود تدريجيّاً ويتقبّل وضعاً جديداً (ما كان فيه بالقوّة يصبح فعليّاً) فإنّ ذلك الموجود وفق سلسلة من الزوال والحدوث المستمر يكون قد انتقل من حال إلى حال، غير أنّ هذا لا يعنى أنّ الحركة مركّبة من أجزاء إسمها (السكون) أو أنّها مركّب من (الوجود) و (العدم) بل إنّ الحركة أمر واحد مستمر فى الخارج وله أجزاء فى التحليل العقلى.

ممّا قدمنا يمكن استنتاج أنّ الشىء إذا كانت له فعلية تامّة ووجود مطلق فلا تتصوّر فيه الحركة، بل سيكون ذا ثبات تامّ، وبتعبير آخر أنّ الحركة تكون مقرونة بنوع من النقصان، وعليه لا توجد فى ذات اللّه سبحانه حركة على الإطلاق.

ب) وجود الحركة

لا نواجه مشكلة مهمّة فى إثبات الوجود للحركة فذلك من الامور البديهيّة، حيث نلاحظ بامّ أعيننا وبوضوح ونحسّ بحواسنا الاخرى باستمرار وجود حركات فى الخارج،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴

وعليه فإنّ أدلّة المنكرين لوجود الحركة ومنهم (الفيلسوف اليونانى ذنون وأتباعه) لا قيمة لها وأنّها تواجه أمراً بديهياً، وذلك لأنّنا لا يمكن أن نعتبر الماء الجارى فى النهر، أو التفاحة التى تنضج فى الشجرة تدريجيّاً، أو عندما نركب السيّارة ونسافر من مدينه إلى اخرى اموراً خياليـة قد ابتلينا بها، وأنّها امور ذهنية وليست خارجية لأنّ هذا الأمر هو أشبه بإنكار البديهيات، ونحن فى غنى عن الاستدلال لإثبات ذلك.

ولكن لا يمكن إنكار أنّ فهم الحركة بدون قوّة حافظة أمر غير مقدور، لأنّ الحركة لا يمكن إدراكها بإحساس آنى لأنّها أمر تدريجى.

ج) أركان الحركة

ذكر الفلاسفة ستّة أركان للحركة:

۱- المبدأ ۲- الغاية ۳- المحرّك ۴- المتحرّك ۵- موضوع الحركة ۶- زمن الحركة (ستعرف أنّ الزمان ليس سوى مقدار الحركة) وبتعبير آخر أنَّ الزمان وليد الحركة وليس والدها).

وسنرى أيضاً أنّ هذه الأركان الستّة تطابق نظرية شهيرة ذهب إليها الأقدمون وعليه فإنّا لا نحتاج موضوعاً للحركة بعد الإقرار بالحركة الجوهرية.

د) مجالات الحركة

كان الفلاسفة فى السابق يعتقدون بأنّ الحركة تحدث فى أربع مقولات من مجموع تسع مقولات عرضية هى «۱».

۱- الحركة فى (المكان)، نظير حركة قطرات المطر وحركة السيارة فى الطريق.

۲- الحركة فى (الكمية) نظير زيادة حجم النبات النامى.

---

(۱) المقولات العرضية التسع هى: الكم، الكيف، الوضع، المتى الأين، أن يفعل، أن ينفعل، ملك، والإضافة وشروحها فى محالّها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵

۳- الحركة فى (الوضع) نظير حركة الأرض حول نفسها.

۴- الحركة فى (الكيفية) نظير التغيّر التدريجى فى لون وطعم ورائحة الفاكهة فى الشجرة.

وكانوا يعتقدون بعدم وجود حركة فى غير هذه الموضوعات الأربعة (غير ممكنة فى جوهر الأشياء من باب أولى) فكان فلاسفة اليونان لا سيّما (ارسطو) وأتباعه وكذلك بعض الفلاسفة المسلمين ومنهم ابن سينا وآخرون يعتقدون باستحالة الحركة فى الجوهر، وكما قلنا فى البحث الماضى: إنّهم كانوا يتصوّرون أنّ ذات المتحرّك هى من أركان الحركة، ويعتقدون بأنّ الحركة لا مفهوم لها ما لم يوجد موجود ثابت يتعرّض للحركة.

ولكن صدر المتألّهين (الفيلسوف الإسلامى الشهير) قدّم نظرية جديدة وقال: بأنَّ الحركة فى الجوهر ليست غير مستحيلة فحسب بل لا يمكن أن توجد حركة فى الاعراض ما لم تكن مستندة إلى حركة فى الجوهر.

وبتعبير آخر إنّ (الحركات العرضية) تنشأ من (الحركة فى الجوهر)، قال صدر المتألّهين:

لماذا نفترض هنا أمراً ثابتاً؟ وما المانع من أن يكون (الجوهر) متحرّكاً فى ذاته؟ بمعنى أنّه يفقد نفسه باستمرار ويكتسب تشخيصاً جديداً.

هذا الموضوع يبدو عجيباً لأوّل مرّة- طبعاً- لأنّه يستلزم أن يكون (المتحرّك) مع (الحركة) شيئاً واحداً، وأن يكون الموجود نفسه سبباً لتحرّكه، لكنّه يقول: لو دقّقنا قليلًا لوجدنا أنّ الأمر ليس عجيباً فحسب بل هو أمر لازم وملفت للنظر أيضاً.

ويصُرّ صدر المتألّهين على أنّ أصل الحركة الجوهرية موجود فى أقوال السلف ويذهب إلى أبعد من ذلك حيث يستعين بآيات قرآنية كشواهد على هذا الموضوع (كى لا تكون حداثة هذه النظرية سبباً لنزاع المعارضين كما هو الحال فى أيّة نظرية جديدة).

ولو افترضنا أنّ هذه النظرية ليست جديدة، غير أنّ عرضها بهذه السعة يعتبرُ أمراً جديداً.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶

۲- أدلّة وجود الحركة الجوهرية

يعتقد صدر المتألّهين بأنّ الوجود على صورتين:

۱- الوجود مستقرّ وثابت وعديم الحركة مطلقاً لا فى ذاته أو صفاته.

۲- الوجود سيّال ومتموّج فى ذاته، أى أنّ السيلان جزء من ذاته وليس له سكون ولا قرار، وقد يلاحظ هذا الإضطراب الذاتى بوضوح فى اضطراب الاعراض، وقد لا يلاحظ تغيّر فى ظاهر الذات فى حين تتجدّد فى باطنها باستمرار.

وبتعبير آخر إنّ هذه الموجودات السيّالة لها وجود جديد فى كلّ آن، وهى أشياء جديدة، ولكن هناك لون من الاتّصال بينها يجعلها تبدو كوجود واحد.

وقد ذكر المناصرون ل (الحركة الجوهرية) أدلّة لإثبات مرادهم، وإن لم يسمح المجال لبيان هذه القضايا، غير أنّنا نشير إلى ثلاثة أدلّة رئيسية هى:

۱- من القاعدة القائلة (كلّ ما بالعرض ينتهى إلى ما بالذات)، هناك أصل عام وهو أنّ كلّ موجود استعار صفة من غيره وأنّها لابدّ أن تنتهى إلى مصدر تنشأ منه، وبدون ذلك سنواجه مشكلة (التسلسل)، أى أنّ الحرارة فى الماء الحار مستعارة ولابدّ لها أن تنتهى إلى النار التى تولّد الحرارة من ذاتها.

بناءً على هذا الأصل فإنّ الحركة التى نلاحظها فى أعراض الجسم (نظير الكميّة والكيفية) لابدّ لنا أن نعرف أنّ هذه الحركة ناشئة من اضطراب الذات والباطن، فمثلًا: لو كانت التفاحة ثابتة فى ذاتها ومستقرّة فكيف إذن يتغيّر لون أعراضها؟ هذه الحركة الظاهرية إذن تخبر عن حركة الداخل.

۲- كلّ (معلول متغيّر) بحاجة إلى (علّة متغيّرة)، فلو جلسنا فى ظلّ شجرة فى بستان ولاحظنا التحرّك المستمرّ للظلّ فالواجب أن نعلم أنّ علّته وهى أشعة الشمس فى حالة تحرّك، ومن هناك ندرك الحركة فى ذات الجسم عن طريق الحركة فى أعراضه.

۳- الزمان دليل آخر على الحركة الجوهرية، لأننا نلاحظ جيّداً أنّ حوادث العالم لا تكون مجتمعة، فحوادث اليوم تتحقّق بعد حوادث أمس وقبل حوادث غد، وهذا أمر واقعى،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷

وهذا الاختلاف هو ما نطلق عليه عنوان تفاوت (الزمان).

من خلال نظرة سطحية وابتدائية للزمان فانّه يبدو واقعاً مستقلًا عن الموجودات ووعاء للحوادث، ولكن لو افترضنا- ولو للحظة واحدة-

عدم وجود الموجودات المادية لوجدنا أنّ الزمان لا مفهوم له، وبتعبير أوضح (الزمان) (وليد المادة) أو (الزمان) هو (مقدار الحركة).

ومن جهة اخرى إذا اعتقدنا بأنّ الموضوعات التى تقع فيها الحركة تنحصر فى الموضوعات الأربعة السابقة فانّه يعنى أنّ الموجود الفاقد لهذه الحركات، أى لا يلحظ وجود للحركة فى ظاهره، فإنّ هذا الموجود ينبغى أن لا يكون زمانياً، فى حين أنّ وجداننا يحكم بأنّا نشعر بالزمان رغم عدم هذه الحركات الرباعية، وليس ذلك إلّالأنّ المادّة ذات حركة فى ذاتها لكى تتقبّل أجزاء الزمان.

هذه هى أهمّ الأدلّة لدى أنصار الحركة الجوهرية وقد اعتمدنا الاختصار فى عرضها.

وهناك سؤال لا يزال قائماً عند البعض: كيف يمكن أن نتصوّر أنّ (المتحرّك) هو عين (الحركة) مع عدم وجود موضوع للحركة مطلقاً؟! وكيف يمكن التصديق بشىء يكون تصوّره محل سؤال؟

والعجيب أنّ القائل بالحركة الجوهرية بنفسه تتملكه الحيرة أمام هذه المعضلة العويصة، وتتباين أقواله ممّا يدلّ على أنّ حلّها غير يسير «۱».

وباختصار أنّ أبحاث الحركة الجوهرية بأجمعها تتفرّع عن قابلية تصوّر الحركة بدون موضوع، ويقول البعض: إنّ هذا أمر غير معقول، كما يعتقد البعض أنّ تصوّر هذا المعنى يقتضى إخلاء الذهن والإبتعاد عن المفاهيم التى يأنس الإنسان بها فى مجال الحركة حتّى يتصوّر وجوداً هو عين الحركة والمتحرّك والحركة واحدة، كانت هذه خلاصة عن أبحاث الحركة.

---

(۱) للمزيد من المعرفة حول هذا الأمر راجع كتاب الأسفار فى بحث الحركة أو دروس المرحوم الشهيد مطهّرى حول بحث الحركة فى الأسفار، ج ۱، ص ۴۴۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸

۳- إثبات وجود اللّه بواسطة برهان الحركة

لا شكّ فى أنّ الحركة لا تنحصر فى الحركة الجوهرية، ولذا لا يتحدّد برهان الحركة لإثبات ذات واجب الوجود ببحث الحركة الجوهرية، على الرغم من أنّ برهان الحركة- بعد الإيمان بالحركة الجوهرية- أكثر وضوحاً فى معرفة اللّه، ومن أجل ذلك نقول:

إنّ الحركة الجوهرية تقول بأنّ عالم المادّة بأسره عبارة عن حركة، أى أنّه فى حالة حدوث وتجدّد متواصل، وله فى كلّ آنٍ وجود جديد، وهذا الحدوث المستمرّ يثبت الإرتباط الدائم للعالم بمبدأ غير حادث، أى أنّه يثبت الأزلية والأبدية لواجب الوجود.

وبتعبير آخر: إنّ العالم فى حال (صيرورة) دائمة لا (كينونة)، وليس ذلك فى الأعراض فحسب بل هو متأصّل فى أعماق ذاته، ولذا يكون محتاجاً إلى المبدأ باستمرار لكى يخلقه كلّ آن.

من خلال هذا البحث يمكن التوصّل إلى نتيجة ظريفة وهى أنّ خلق العالم لم يحدث فى البداية ثمّ انتهى، بل إنّ عملية الخلق مستمرة فى كلّ آن، ولذا فإنّ حاجة العالم إلى علّة أزلية، أبدية لم تكن فى البداية فقط، لأنّه فى حالة حدوث وخلق مستمرّ وفى كلّ آن، وهذا المعنى كامن فى أعماق مفهوم الحركة.

ولهذا فبواسطة الحركة الجوهرية يثبت حاجة العالم إلى واجب الوجود عند نشوئه وحاجته إليه فى البقاء تبقى قائمة ومستمرة أيضاً، بل وكما ترى نظرية الحركة الجوهرية فانّه لا مفهوم للبقاء أصلًا والحدوث دائم، غير أنّه حدوث متواصل ومتسلسل ولهذا يطلق على الاتّصال مصطلح البقاء.

هنا يمكن أن نذكر تشبيهاً ناقصاً لكيفية ارتباط الأشياء بالمُبدىء الأزلى للعالم وهو أنّ الموجودات فى العالم تشبه المصابيح التى يتواصل وجودها من خلال ارتباطها بالمصدر الكهربائى، وبما أنّ النور يتجدّد فى كلّ آن فانّه بحاجة إلى العلّة فى كلّ آن والتعرّف

على كيفية انبعاث النور فى المصابيح يكفى لمعرفة حاجتها المستمرّة للمصدر المولّد للطاقة الكهربائية.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹

صحيح أنّ (برهان الحركة) له علاقة ب (برهان الإمكان والوجوب) غير أنّه يُبحث بصورة مستقلّة من أجل الحصول على صورة جديدة عنه.

۴- العالم متغيّر وكلّ متغيّر حادث

استند الكثير من المتكلّمين (علماء العقيدة) على هذا الدليل (دليل التغيّر) لإثبات وجود اللّه دون ملاحظة نظرية الحركة الجوهرية لأنّ التغيّرات التى تشاهد فى ظاهر الموجودات فى العالم باستمرار تكفى لإثبات آرائهم.

و لتوضيح ذلك نقول: لا يبقى فى عالم المادّة شىء على حالة واحدة، فكلّ الأشياء- دون استثناء- فى حالة تغيّر.

ومن جهة اخرى، أنّ التغيّر والحركة حادثان، وبما أنّ المادّة متعرّضة لهذه التغيّرات والتحوّلات دائماً فينبغى أن تكون حادثة أيضاً فمن غير الممكن أن تكون المادّة أزلية وتتعرّض للحدوث والتغير منذ الأزل لأنّ ذلك يستلزم اجتماع (الحدوث) و (الأزلية) وهما متضادّان كما نعلم.

إنَّ هذا الاستدلال ومن خلال ملاحظة النظريات الجديدة بشأن المادّة يَرِدُ بصورة أوضح، فكلّ مادّة- وفق النظرية الفيزيائية الجديدة- تتركّب من ذرّات، والذرّة عبارة عن مجموعة من الحركات، وكلّ حركة حادثة، فالمادّة- إذن- والتى هى عبارة عن مجموعة حركات (الالكترونات) و (البروتونات) لا يمكن أن تكون أزلية، وبعبارة اخرى أنّ كلّ حركة لها بداية ونهاية، وكلّ ما له بداية ونهاية لا يكون أزلياً.

هذه المسألة جاءت بشكل ملفت للنظر فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى مناظرة مع (ابن أبى العوجاء) حيث قال له الإمام عليه السلام: اسأل ما شئت، فقال (ابن أبى العوجاء): ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال الإمام عليه السلام: «إنّى ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلّاإذا ضُمّ إليه مثله صار أكبر، وفى ذلك زوال وانتقال عن الحالة الاولى، ولو كان قديماً ما زال

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۰

ولا حال، لأنّ الذى يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول فى الحدث، وفى كونه فى الأزل دخوله فى القدم، ولن تجتمع صفة الأزل والحدوث والقدم والعدم فى شىء واحد» «۱».

۵- حدوث العالم والقوانين العلمية الحديثة

لقد ثبت فى البحوث العلمية الحديثة [خاصّة بحوث (الثرموديناميك) والقانون الثانى المعروف بقانون (الانتروبى) أو ما يسمى (بالكهولة) أو (الإضمحلال)] ثبت:

«أنّ الحرارة تنتقل من الأجسام الحارّة إلى الباردة دائماً ولا يحدث العكس بنفسه أبداً، و (الانتروبى) فى الحقيقة هى نسبة الطاقة التى لا يمكن الانتفاع بها إلى الطاقة القابلة للإنتفاع، ومن ناحية ثانية نحنُ نعلم أنّ هذا الإنتقال والانتروبى فى العالم فى حالة تزايد، فلو كان العالم أزليّاً لكانت الحرارة فى الأجسام كلّها متساوية منذ عصور قديمة ولم تبق طاقة نافعة وبالتالى لم يتحقّق فى العالم أى فعل أو تفاعل كيميائى، ولاستحالت الحياة على الأرض، لكنّنا نلاحظ بأنّ التفاعلات الكيميائية مستمرّة والحياة على الأرض ممكنة، ولذا فإنّ العلوم تثبت البداية للعالم- دونما قصد- وبهذا تثبت ضرورة وجود اللّه نظراً إلى أنّ الحادث لا يحدث لوحده بل يحتاج إلى

المحرّك الأوّل» «۲».

والطريق الآخر الذى سلكوه لإثبات الحدوث للعالم هو التحقيق فى الأجسام (المشعّة) (و هى أجسام لها ذرّات غير مستقرّة وفى حالة اضمحلال وزوال مستمرّ حتّى تتبدّل إلى ذرّات مستقرّة، ولها عدد ذرّى أكبر من ۸۰! وتكون على شكل أجسام ثقيلة وغير مستقرّة، وفى حالة إشعاع ذرّى، وكأنّها تلقى بنفاياتها إلى الخارج حتّى تتحوّل إلى عناصر مستقرّة.

إنَّ وجود هذه العناصر فى الطبيعة دليل على أنّ العالم حادث وذو تاريخ، وكما يقول

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۴۶؛ اصول الكافى، ج ۱، ص ۷۷ باب حدوث العالم.

(۲) كتاب إثبات وجود اللّه، لادوارد لوثر كيسل، ص ۵۵ (باختصار طفيف).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۱

المفكّر الشهير (دونالد روبرت كار) والمتخصّص فى (الكيمياء الحياتية) كاتب كتاب (الأرض) وهو كتاب يعيّن عمر الأرض بحساب كاربون الإشعاع الطبيعى: «لو كان العالم أزليّاً وأبديّاً لما وجدنا عنصراً مشعّاً وذلك لتبدلّه إلى عناصر مستقرّة» «۱».

ونستنتج من ذلك أنّ العلوم الطبيعية تثبت حدوث العالم أيضاً بطرق مختلفة، ومن هنا تتّضح ضرورة وجود خالق أزلى أبدى لتفسير ظهور عالم الوجود.

وبتعبير أوضح: إنّ اضمحلال المادّة (الانتروبى) دليل على أنّ للعالم تاريخاً ينبىء عن بداية حدوثه، فلو كان عالم المادّة أزليّاً لكان قد مضى عليه زمان غير محدود، ولكانت الحرارة فيه متساوية وانعدم النشاط فيه وتعرّض للفناء.

ويشبه هذا إذا وضعنا وعاءً مليئاً بالماء الحارّ فى غرفة، فما دامت الحرارة فى الوعاء تختلف عن حرارة الجوّ فإنّ الهواء حوله يكون متحرّكاً باستمرار ويزداد حرارة ويتصاعد إلى الأعلى ويحلّ محلّه الهواء المجاور له وهذا يحدث حركة مستمرّة فى الفضاء المجاور، وعندما تتساوى الحرارة فى الغرفة فلن تكون أيّة حركة.

وهذا هو مصير العالم أخيراً، والحركة الموجودة حالياً دليل على عدم مرور زمان لا محدود عليه، أى أنّ له تاريخ ظهور وحدوث.

وهو يشبه الأوانى المستطرقة المتصلة فإذا سكبنا الماء فى أحدها فانّه سوف يتحرّك فى الأوانى كلّها حتّى يتساوى فيها وبذلك يحلّ السكون، ويقول العالم الفلكى (استونتر):

«قام العلم باحتساب أعمار الكثير من الأشياء مثل: عمر الأرض، والصخور الشهابية، والقمر والشمس، والمجرّة وأخيراً عمر الدنيا، والعمر اللازم- لتركيب العناصر المختلفة وتفكّكها- وظهر أنّ هذه الأعمار متقاربة وتقدّر ب ۶۰۰۰ مليون سنة منذ بداية حدوث العالم» «۲».

---

(۱) كتاب إثبات وجود اللّه، لادوارد لوثر كيسل، ص ۱۵۵.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۶۰.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۲

وفى الختام نعود لنقول: إنّ حديث إبراهيم عليه السلام فى الآيات المذكورة يستهدف مسألة إثبات وجود اللّه عن طريق الحكم العقلى القائل بأنّ الشىء المتغيّر لا يمكن أن يكون خالداً وإن كانت براهين اخرى للحركة كامنة فى طيّات استدلال إبراهيم عليه السلام.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۳

۳- برهان الوجوب والإمكان (الغنى والفقر)

تمهيد:

استدل الفلاسفة والمتكلّمون (علماء العقيدة) بأدلةٍ مختلفة لإثبات وجود اللَّه سبحانه، والبعض منها ذات اصول مشتركة، ومن هذه الأدلّة برهان (الوجوب والإمكان) وبرهان (العلّة والمعلول)، وستأتى تفصيلاتهما تباعاً بإذن اللَّه.

وبما أنّ هذه الاستدلالات تكون ذات شروح مختلفة لذا فإنّا نشير إليها بصورة مستقلّة مع الإشارة إلى اصولها المشتركة.

إن الأساس فى برهان «الوجوب والامكان» أو «الغنى والفقر» يرتكز على مبدأ حاجة وفقر المخلوقات، فعندما ننظر إلى أنفسنا وسائر الموجودات فى العالم، نراها دائماً فى حالة عوَزٍ وحاجة، فالحاجة إلى ماحولها يكاد يكون أمراً بديهياً.

إن الحاجة والفقر الشامل فى هذا العالم يدل على وجود مصدر عظيم للغنى وعدم الحاجة، وهذا المصدر نطلق عليه لفظ الجلالة «اللَّه» سبحانه وتعالى «۱».

وبعبارة اخرى إنّنا نجد كلّ موجود فى هذا العالم تابع، ولا يمكن لهذه التبعية أن تكون إلى ما لا نهاية، والعالم عبارة عن مجموعة من التبعيات، ممّا يدلّ على وجود ذات مستقلّة قائمة بذاتها فى هذا العالم تتبعه هذه (التبعيات) وتستند إليه.

بعد هذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

---

(۱) التعبير ب «إنّ اللَّه غنى حميد» وأمثاله جاء فى عشر آيات قرآنية، فى البقرة، ۲۶۷؛ إبراهيم، ۸؛ الحجّ، ۶۴؛ لقمان، ۱۲؛ لقمان، ۲۶؛ الحديد، ۲۴؛ الممتحنة، ۶؛ التغابن، ۶؛ النساء، ۱۳۱؛ والآية أعلاه كما أنّ وصف اللَّه بالغنى ورد فى آيات أكثر عدداً، وهذا التأكيد والتكرار القرآنى فى هذا الصدد يحكى أهميّة المضمون فى هذا التعبير.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۴

۱- «يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الحَمِيدُ». (فاطر/ ۱۵)

۲- «وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وأنتُمُ الْفُقَرَاءُ». (محمّد/ ۳۸)

۳- «يَسْئَلُهُ مَنْ فِى السَّماوَاتِ وَالأَرضِ كُلَّ يَومٍ هُوَ فِى شَأْنٍ». (الرحمن/ ۲۹)

شرح المفردات:

(فقراء) جمع (فقير)، وأصله كما يقول (الراغب) فى (المفردات) هو الذى كسرت فقرات ظهره، وبما أنّ البؤساء يشبهون حال من تعرّض لكسر الفقرات لذا اطلق عليه هذا المصطلح.

كما أنّ (مسكين) مشتقّ من (السكون) ويعنى العجز عن المشى ولذا اطلق على الفقراء المُعدمين، ولذا تطلق كلمة (فاقرة) على الحادثة أو المصيبة العظيمة التى من شأنها أن تهشّم الفقرات.

وقد ورد فى (مجمع البحرين) بأنّ (فقير) يُطلق على الذى هو أفضل حالًا من (المسكين)، ولذا قيل لرجل فى الصحراء أفقير أنت؟ قال: لا واللَّه بل مسكين «۱».

وعلى أىّ حال فانّهم ذكروا ل (الفقر) أربعة معانٍ هى:

۱- الحاجة الضرورية التى تشمل جميع البشر بل كلّ الموجودات فى العالم، والآية: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ» يذهبون إلى أنّها تشير إلى ذلك.

۲- الإحتياج إلى الحدّ الأدنى من مستلزمات الحياة، ويعتقدون أنّ الآية: «انَّما الصَدقاتِ للفُقَراء ...» تشير إلى ذلك.

۳- فقر النفس والذى يعنى الطمع، وقد عدَّهُ الحديث المعروف كفراً (كاد الفقرُ أن يكون كفراً) ويقابله غنى النفس.

۴- الحاجة إلى اللّه كما جاء فى الحديث المعروف (اللّهم أغننى بالإفتقار إليك ولا تفقرنى بالإستغناء عنك) «۲».

---

(۱) يذهب البعض إلى العكس فى ذلك.

(۲) مفردات الراغب، مادّة (فقر).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۵

وقد جاء فى كتاب (العين) كلمة (فُقْرة) على وزن (نُقرة) بمعنى الحفرة التى يوجدها الإنسان فى الأرض من أجل غرس الشتلات، ومن الممكن أن يكون الأصل فى (فقير) هو هذا المعنى وهو نشوء فجوة فى حياته، ومن المحتمل أن يكون استعمال هذا اللفظ فى العمود الفقرى وذلك لوجود التقعّرات فيه.

«غِنى : من مادة (غِناء) وتعنى عدم الإحتياج ويقابله الفقر، ولذا ذكروا له هذه الموارد الأربعة فى استعمالاته:

۱- الغنى بمعنى عدم الاحتياج إلى أى شىء وهذا مختصّ فى اللّه سبحانه.

۲- عدم النقص فى مستلزمات الحياة.

۳- الغنى وعدم احتياج النفس أى القناعة.

۴- الاستغناء عن اللّه وهذا المعنى محال، ولكن قد تخطر هذه الفكرة لدى بعض الناس وتكون سبباً للطغيان: «كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطغَى أَنْ رَّءَاهُ استَغنَى . (العلق/ ۶- ۷)

ويقول ابن منظور فى (لسان العرب): (الغَناء) بالفتح: يعنى المنفعة وغِناء بمعنى التطريب وغنى (بلا مدّ) يعنى الإستغناء وعدم الحاجة، ومن الممكن أن يعتقد بوجود أصل مشترك بين هذه المعانى كلّها ويقول بأنّ الغناء يطلق عندما يرفع الإنسان صوته ويملأ به الجوّ كالأغنياء الذين لهم وفرة من المال والثروات!

حاجة الجميع إلى اللّه:

الآية الاولى تخاطب جميع الناس وبدون استثناء: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ»، إنّ (للفقر) هنا معانٍ واسعة وتشمل كلّ احتياج لأىشىء فى الوجود، فانّنا ومن أجل مواصلة حياتنا الماديّة بحاجة إلى ضوء الشمس، والماء، والهواء، وأنواع من الغذاء والملبس والمسكن.

ومن أجل بقاء الحياة فى أجسامنا نحن بحاجة إلى الأجهزة الداخلية من قلب وعروق

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۶

وجهاز للتنفّس والمخ والأعصاب.

ونحتاج فى الحياة المعنوية- من أجل أن نميّز الطريق السليم عن غيره ونعرف الحقّ من الباطل- إلى قوّة عاقلة، وأرقى من ذلك نحن بحاجة إلى القادة الإلهيين والكتب السماوية.

وبما أنّ منشأ كل هذه الامور يعود كله إلى اللّه لذا فانّنا بحاجة إليه فى وجودنا كلّه.

إنّ الشهيق والزفير فى عملية التنفس يحدثان بتعاضد الآلاف من العوامل وبدونها لا يحدثان، وكلّ هذه العوامل هى هبات إلهيّة، ففى كلّ نفس هناك آلاف النعم، وينبغى الشكر على كلّ نعمة.

هذه الآية وإن كانت تقصد كلام الذين يستغربون من إصرار النبى صلى الله عليه و آله على عبادة اللّه تعالى كما يذهب إلى ذلك بعض المفسّرين «۱» ويقولون هل أنّ اللّه بحاجة إلى عبادتنا؟

فيجيبهم القرآن: أنتم الفقراء إلى اللّه وبعبادته تتكامل أرواحكم.

ولكن هذا الكلام لا يحدّد من سعة مفهوم الآية فى جهاتها المختلفة، لأنّ قضيّة استغناء اللَّه واحتياجنا هى الأساس فى حلّ الكثير من المشكلات.

وعلى أيّة حال فإنّ الفقر نافذ إلى أعماق ذات البشر أجمع، بل وكلّ الموجودات، ولا تقتصر الحاجة إليه فى الرزق ومستلزمات الحياة فقط، بل إنّ وجودَها يحتاج إلى فيضه فى كلّ لحظة وآن (فلو تَوقَف لحظة تهدّمت الهياكل).

أجل، إنّ الغنى فى عالم الوجود هو الذات المقدّسة، ولمّا كان البشر- وهم تحفة عالم الخلق- بحاجة إليه فى كلّ وجودهم فإنّ حال سائر الموجودات واضحة ولا تحتاج إلى بيان، ولذا فإنّ الآية تضيف فى ذيلها: «وَاللَّهُ هُوَ الغَنىُّ الحَمِيدُ» وبملاحظة أنّ التعبير أعلاه يدلّ على الحصر- وفق القواعد الأدبية- فإنّ مفهومه ليس إلّاهذا، وهو إنّ الغنى المطلق هو الذات المقدّسة للَّهسبحانه، ولو قسّمنا البشر إلى (فقير) و (غنى) فإنّ هذا أمر نسبى غير حقيقى.

وبتعبير آخر، إنّ الموجودات كلّها فقيرة ومحتاجة، وإنّ ذات اللَّه المقدّسة تمثل الغنى

---

(۱) تفسير الكبير؛ وتفسير روح المعانى فى ذيل آية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۷

والإستغناء، وهذا هو أوّل الكلام وآخره.

على هذا الأساس فإنّ اللَّه سبحانه لا يحتاج إلى عبادتنا وطاعتنا أبداً، كما لا يحتاج إلى مدح وثناء، بل إنّ طاعتنا وعبادتنا لهُ ومدحنا وثناءنا عليه هى جزء من احتياجنا إليه وسبب لتكاملنا المعنوى والروحى، حيث إنّنا كلّما اقتربنا من منبع النور فإنّا نزداد نوراً، وكلما اقتربنا من المصدر الفيّاض ذاك فإنّا نستفيد أكثر، وبتمثيل ناقص إنّنا كالنباتات والأشجار التى تستقبل نور الشمس دون أن تحتاج إليها الشمس.

إنّ فهم هذه الحقيقة يقدّم للبشر درساً فى التوحيد حتّى لا يخضعوا إلّاإلى اللَّه ولا يُطأطئوا رؤوسهم ويستسلموا لغيره وأن يمدّوا يد الحاجة إليه لأنّهُ (غنى وكريم ورحيم وودود).

إنّ الإنتباه إلى هذه الحقيقة له الأثر البالغ فى تربية الإنسان، فمن جهة يخرجه من حالة الغرور وعبادة هوى النفس، ومن جهة اخرى يحرّره من جميع القيود ويجعله غنيّاً عن سواه، وبهذه الرؤية والفهم سوف لا- يضيع فى عالم الماديات، ويتوجّه دائماً إلى مسبّب الأسباب.

وهنا لابدّ من الإلتفات إلى أمرين:

الأوّل: أنّ اللَّه هنا (فى الآية) قد وُصف ب (الحميد) بعد وصفه ب (الغنى)، وكما أشرنا أنّ هذا التعبير قد تكرّر فى عشر آيات ممّا يدلّ على وجود نقطة مهمّة فيه- هى كما يحتمل-:

إنّ الكثير من الأغنياء يتّصفون بصفات ذميمة نظير الكبر والغرور والحرص والبخل، حتّى لو كان لدى أحد إخوانهم نعجة واحدة ولديهم ۹۹ نعجة فانّهم سيصرّون على أن يسلبوه نعجته، إلى حدّ يتبادر فى ذهن الكثير بأنّ لفظ (الغنى) تعنى الظلم والكبر والبخل، فى حين أنّ اللَّه سبحانه فى عين كونه غنى فهو رحيم وعفو وغفور، ولذا هو أهل لكلّ مدح وثناء.

أجل، إنّ (الغنى) الوحيد المُبرَّأ من كلّ عيب ونقص وذو الفضل واللطف والرحمة هى الذات المقدّسة.

الثانى: أنَّ المخاطبين فى الآية هم البشر فقط: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ» فلماذا لم تذكر الموجودات الاخرى فى حين أنّها فقيرة إلى اللَّه أيضاً؟

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۸

قال الكثير من المفسّرين إنَّ ذلك ناشى من سعة حاجة الإنسان، فكلّما كان الموجود أكمل فانّه أكثر احتياجاً فى مسيرته ويزداد شعوراً بالحاجة كما هو الحال فى الإحتياج المادّى، فالطير يقنع بشىء من الماء والحبّ والعشّ البسيط فى حين لا يقتنع الإنسان بألوان الطعام

واللباس والبيوت والقصور! «۱».

والآيـة الثانيـة تحـدثت عن (الإنفـاق فى سبيـل اللَّه) وبخل البعض فى الانفاق فى سبيل اللَّه وانعكاس بخل البخلاء على أنفسـهم لأنّهم محرومون من فيض اللَّه ورحمته اللامحدودة، فتقول: «وَاللَّهُ الغَنىُّ وأنتُمُ الفُقَراءُ».

قـد يكون هـذا التعبير من أجل رفع التصوّر بأنَّ اللَّه تعالى عنـدما يـدعو الناس إلى الإنفاق فى سبيل اللَّه فانّه محتاج إلى إنفاقهم، أو أنَّ هذه الجملة تتنافى مع الجملة التى وردت فى آيات سابقة حيث تقول: «ولا يَسئَلكُمُ أَموَالَكُم».

فتقول الآيـة: إنّ اللَّه غنى على الإطلاق والجميع محتاجون إليه، فعنـدما يأمرهم بالإنفاق فليس ذلك لحاجته، بل لأنّهم هم المحتاجون، ويصلون إلى الكمال عن هذه الطرق ويتقرّبون إلى ذلك الوجود اللامحدود.

صحيـح أنّ بدايـة الآيـة ترتبط ب (الفقر والغنى الماليين) وتنظر إلى الإنفاق فى سبيل اللَّه، غير أنّ الإطلاق فى ذيل الآيـة يعطى مفهوماً واسـعاً، ففى الوقت الـذى تعرّف اللَّه سـبحانه بـالغنى المطلق فانّهـا تعتبر البشـر محتـاجين فى كلّ وجودهم، وقـد نفـذ الفقر إلى أعماق ذواتهم ولهذا يمكن استخدامه للاستدلال فى هذا البحث.

---

(۱) انتبه بعض المفسّرين إلى هـذه النقطة أيضاً وهى أنّ ذكر (الفقراء) بصورة معرفة (مع أنّ الخبر يكون نكرة عادةً فلو كان معرفة لما احتاج المخاطب إلى الخبر) هو للتنبيه والتـذكير، أى أنّ المخاطب نفسه يعلم بأنّه فقير إلى اللَّه وهـذا تذكير ليس إلّا، وقد جاء فى علم البلاغة أيضاً أنّ المخاطب العالم الذى لا يعمل بعلمه يعتبر جاهلًا وينذر عن طريق الأخبار (تأمّل جيّداً).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۳۹

على أىّ حـال فـإنّ من الملفت أنّه هو الـذى تفضّـل بالهبات كلّها ووهبها للعباد ثمّ يطلب منهم أن ينفقوا فى سبيل اللَّه، وهـذه مقـدّمة لهباتٍ أكبر.

ولا ينحصر هذا فى قضيّة الإنفاق فحسب، بل يجرى فى كلّ التكاليف وتعود بنتائجها على العباد أنفسهم.

وقد جاء هذا المضمون فى آيات عديدة منها ما تضمّنته هذه الآية حيث نقرأ: «قُلْ مَا سَأَلتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُم إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلىَ اللَّهِ». (سبأ/ ۴۷)

وكما جاء فى قوله تعالى «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّما يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ العَالَمِينَ».

(العنكبوت/ ۶)

والآية الثالثة والأخيرة من بحثنا تُصوِّر هذا المضمون (الفقر العامّ للموجودات والغنى المطلق لله) فى حُلّة جديدة وجميلة وتقول: «يَسئَلُهُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ».

وكلّ يوم هو فى شأن ومنح مواهب جديدة: «كُلَّ يَومٍ هُوَ فى شَأْن».

وبملاحظة الفعل المضارع (يسأل) والذى يدلّ على الاستمرار، وملاحظة ما للآية من معنى واسع يشمل البشر جميعاً والملائكة وسكنة السـماء والأـرض (وباحتمـال قوى يشـمل كـلّ الموجودات العاقلـة وغير العاقلـة، والتعبير ب (من) الـذى يسـتعمل للعاقـل هو للتغليب) وملاحظـة أنّ الآيـة لم تذكر الموضوع المسؤول عنه فيدلّ ذلك على شـمولية الآية، وسـيكون مفهوم الآية هو أنَّ كلّ الموجودات فى عالم الخليقة تستمدّ الفيض من مبدأ الفيض بلسان حالها بصورة دائمة ومستمرّة، (فيض الوجود ومتعلّقاته).

وليس هـذا الطلب من ذات ممكن الوجود فى حالـة الحـدوث فحسب، بـل فى البقـاء أيضاً يكون محتاجاً إلى واجب الوجود وفى كلّ لحظة يطلب منه الوجود.

وقد ورد هذا المعنى بتعبير واحد تقريباً فى تفسـير (روح البيان) و (روح المعانى) حيث جاء فيهما «.. قاطبة ما يحتاجون إليه فى ذواتهم ووجوداتهم حدوثاً وبقاءً وسائر أحوالهم

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۰

سؤالًا مستمرّاً بلسان المقال وبلسان الحال فانّهم كافّة من حيث حقائقهم الممكنة بمعزل عن استحقاق الوجود وما يتفرّع عليه من الكمالات بالمرّة بحيث لو انقطع ما بينهم من العناية الإلهيّة من العلائق لم يشمّوا رائحة الوجود أصلًا فهم فى كلّ آن مستمرّون على الإستدعاء والسؤال» «۱» من هنا يتّضح أنّ اعتقاد البعض بأنَّ السؤال يرتبط ب (الرزق) أو (الرحمة الإلهيّة) أو (متطلّبات الدين والدنيا) أو (العلم بعاقبة العمل وصلاح النفس وفسادها) فقط لا دليل عليه وإنْ اندرجت فى المفهوم الواسع للآية.

توضيحات

۱- برهان الوجوب والإمكان من الناحية الفلسفية

وهو من البراهين القابلة للفهم، حيث يمكن بيانه بلسان عامّة الناس، وكذلك بواسطة التعبيرات والاصطلاحات الفلسفية الخاصة، وبتعبير بسيط عندما نرجع إلى وجودنا نجد أنَّ وجودنا برمّته فى حالة احتياج ولا يؤَمن الاحتياج من الداخل، ومن أجل تأمين هذا الاحتياج يجب أن نمد الدنيا خارج وجودنا، وكما يقول المثل كلما ازداد الغنى ازدادت الحاجة فكلّما تضاعفت قوّة الإنسان فى الظاهر (ماديّاً أو معنويّاً) توسّعت دائرة احتياجاته، فالطير فى الصحراء يكتفى بقليل من الماء والحبّ وعشّ مؤلّف من بعض الأوراق، فى حين تحتاج حياة سلطان مقتدر إلى آلاف الحاجات، وهكذا لوقارنا الحياة العلمية لمحقّق كبير بالنسبة لطالب مبتدىء.

ومن خلال ملاحظة هذا الاحتياج وبإلهام باطنى يدرك الإنسان أنّ لهذا العالم مُبدئاً غنيّاً يتّجه الجميع إليه لنيل حوائجهم وهو الذى نطلق عليه (اللَّه) تبارك وتعالى.

أمّا فى العبارات الفلسفية وبحوث المتكلّمين فإنَّ الوجود يقسّم إلى قسمين: (ممكن) و (واجب).

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۲۹۹؛ وتفسير روح المعانى، ج ۲۷، ص ۹۵.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۱

فواجب الوجود يكون وجوده ذاتيّاً، وذاته المقدّسة غير محتاجه إطلاقاً، فى حين لا يملك الممكن فى ذاته شيئاً فهو محتاج.

وبهذا يُعد احتياج الممكن إلى العلّة من القضايا البديهية والأوّلية والتى لا تحتاج إلى إقامة البرهان، ومن يتردّد فى هذا الأمر فإنّ ذلك يعود إلى عدم الفهم الجيّد لمفهوم الممكن.

ثمّ يُطرح هذا السؤال: ما هو سبب احتياج الممكن إلى العلّة؟ هل السبب هو الوجود أو مسألة الحدوث؟ أى هل أنّ الأشياء تحتاج إلى العلّة بسبب كونها حادثة أو بسبب كونها موجودة؟ أو أنَّ الملاك الأصل وهو (الإمكان)؟ وبناء على هذا الدليل فإنّ الإحتياج إلى العلّة يجب أن لا يبحث فى أصل وجود الشىء أو فى حدوثه، بل إنّ العلّة الأساسية هى الإمكان.

ولا ريب فى أنّ الإجابة الصحيحة والدقيقة هى الإجابة الثالثة، لأنّنا إذا- بحثنا عن معنى الإمكان وجدنا أنّ الإحتياج إلى العلّة متحقّق فيه، لأنّ- (الممكن) وجود (غير اقتضائى) أى أنّ ذاته لا تقتضى الوجود ولا العدم.

وبملاحظة هذا الإستواء الذاتى يكون فى وجوده وعدمه بحاجة إلى عامل ولذا فإنّ الفلاسفة يقولون بأنَّ حاجة الممكن أوّلية، «حاجة ممكن الوجود إلى العلة أمرٌ بديهى».

ويُستنتج من ذلك أنّ حاجة الممكن إلى واجب الوجود لا- تقتصر على ابتداء الوجود فحسب، بل هى ثابتة فى مراحل البقاء كلّها لثبوت الإمكان فى حقّ الممكن دائماً لذا فإنّ الحاجة إلى العلّة أمر باقٍ وثابت.

وللمثال على ذلك فانّنا حينما نمسك القلم ونحرّكه على قرطاس نجد أنّ حركة القلم تحتاج إلى محرّك من الخارج ويتمثّل فى أصابعنا، فما دامت الحركة فى اليد والأصابع فإنّ القلم يتحرّك كذلك، ويتوقّف بتوقّفها.

وأوضح من ذلك ما يوجد فى أفعال أرواحنا، فحينما نعزم على العمل ببرنامج ما نجد أنّ الإرادة والعزم- وهما من فعل الروح- يرتبطان بها ويختفيان حال انقطاع هذا الارتباط.

إنّنا مرتبطون بوجود اللَّه كذلك وَهذا الوجود الإرتباطى لا يستقرّ لحظة واحدة بدون ذلك.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۲

ويقول الشاعر:

لم أسلم النفس للاسقام تبلغها إلّا لعلمى بأنّ الوصل يحييها نفس المحبّ على الآلام صابرةٌ لعلّ مسقمها يوماً يداويها قد يقال: إنّنا نشاهد البناء باقياً بعد موت بانيه فكيف إذن تستغنى الأفعال عن الفاعل فى بقائها؟

فنقول: إنّ ذلك يحصل بسبب حلول علّة محلّ علّة اخرى، ففى البداية تقوم يد البنّاء الماهر بوضع لبنة على لبنة اخرى ثمّ يبقى البناء مستقرّاً بفضل جاذبية الأرض وعوامل الإلتصاق من جصّ وإسمنت.

وباختصار، أنّ وجود (الممكن) وجود ارتباطى ولا يستمرّ دون الإتّكال على وجود مستقلّ، وعليه فإنّ تعريف معنى الوجود الإرتباطى كافٍ فى التعرّف على الوجود المستقلّ دون الحاجة إلى بحوث واسعة فى «الدور والتسلسل» (تأمّل جيّداً).

يُستبطن فى مفهوم الوجود الإرتباطى والتبعى معنى الإستناد إلى واجب الوجود فهل للوجود الإرتباطى معنى دون الوجود المستقلّ؟

۲- برهان الغنى والفقر فى الروايات الإسلامية

نقرأ فى دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة- وهو من أعمق وأثرى الأدعية الواردة عن المعصومين:- خاصّة فى بحث التوحيد إذ يقول عليه السلام:

«كيف يُستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك؟ أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك؟» «۱».

ونقرأ فى موضع آخر من الدعاء نفسه:

«إلهى أنا الفقير فى غناى فكيف لا أكون فقيراً فى فقرى؟!».

---

(۱) يستفاد من هذه الجملة فى (برهان الصدّيقين) أيضاً فيشار إليها فى بحثه إن شاء اللَّه.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۳

ونجد فى حديث نبوى: «الفقر فخرى وبه أفتخر» «۱».

إنّ أحد التفسيرات المعروفة لهذه الرواية هو الشعور بالفقر الذاتى تجاه اللَّه سبحانه وهو الداعى إلى الفخر، وليس الفقر هنا بمعنى ضنك المعيشة والإفتقار إلى المخلوق وهو ممّا تذمّه الروايات، كالحديث الذى ينصّ:

«كاد الفقر أن يكون كفراً» «۲».

ولذا نقرأ عنه عليه السلام فى حديث آخر: «اللهمّ أغننى بالإفتقار إليك ولا تفقرنى بالإستغناء عنك» «۳».

كانت لقلبى أهواءٌ مفرغة فاستجمعت إذ رأتك العين أهوائى تركت للناس دنياهم ودينهم شغلًا بذكرك يادينى ودنيائى

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۵۵؛ وتفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۳۴.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۹، ص ۳۰.

(۳) سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۷۸؛ وتفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۳۴.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۵

۴- برهان العلّة والمعلول

تمهيد:

لا شكّ أنّ العالم الذى نعيش فيه يشتمل على مجموعة من العلل والمعلولات، والعلّية هى من أوضح القوانين فى هذا العالم.

كما لا شكّ فى أنّنا والأرض التى نعيش عليها لم نكن موجودين بصورة دائمة بل انّنا معلولون لعلّة اخرى، فهل لهذه السلسلة من العلل والمعلولات أن تستمرّ بلا نهاية وتبقى فى حالة تسلسل؟ وبعبارة اخرى أتكون كلّ علّة معلولة لعلّة اخرى ولا تنتهى فى موضع ما؟

إنّها قضيّة لا يتقبّلها أى وجدان، فكيف يمكن لأصفارٍ توضع جنباً إلى جنب وإلى ما لا نهاية من أن تكوّن رقماً ما؟ (المقصود من الصفر هو الموجود الذى لا وجود له من ذاته بل وجوده مكتسب من علّته)، وكيف يمكن أن يصطف الفقراء- والمعوزون إلى ما لا نهاية ثمّ يحصل منهم وجود غنى؟!

يجب الإذعان- إذن- إلى أنّ هذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهى بوجود، وهذا الوجود هو علّة غير معلول حيث ينبع الوجود من ذاته، وبتعبير أدقّ هو عين الوجود اللامتناهى وواجب الوجود.

إنّه أوضح دليل على إثبات الوجود الأزلى والأبدى للّه‌سبحانه.

والملاحظ أنّ الاستدلالات الاخرى لإثبات وجود اللّه تنتهى كذلك ببرهان (العلّة والمعلول) وبدونه تكون ناقصة.

بعد هذا التمهيد نمعن خاشعين فى الآيات القرآنية التالية:

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۶

۱- «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَىءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ». (الطور/ ۳۵)

۲- «أَمْ خَلَقُوا السَّماوَاتِ والأَرضَ بَلْ لَّايُوقِنُونَ». (الطور/ ۳۶)

۳- «أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ سُبحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشرِكُونَ». (الطور/ ۴۳)

شرح المفردات:

«خلقوا»: من (الخلق) ويعنى فى الأصل: التقدير المباشر، وبما أنّ صُنع وإيجاد شىء غير موجود فى الماضى، وليس له أصل ومادّة يكون صُنعاً وإيجاداً بكل معنى الكلمة، لذا اطلقت هذه المفردة على الإبداع والإيجاد.

كما تستعمل هذه الكلمة فى عملية إيجاد شىء من شىء آخر نظيره:

«خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ نُّطفَةٍ». (النحل/ ۴)

من البديهى أنّ (الخلق) بمعنى (الإبداع والإيجاد من العدم) مختصّ باللّه، ولذا ينفى هذه القدرة عن غيره حيث يقول تعالى:

«أَفَمَنْ يَخلُقُ كَمَنْ لَايَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». (النحل/ ۱۷)

فى حين يصدق المعنى الثانى (وهو إيجاد شىء من شىء آخر والتقدير له)، على غير اللّه تعالى، ناظرة إلى هذا المعنى: «فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ». (المؤمنون/ ۱۴)

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الكذب أيضاً، ولعلّ ذلك لما يختلقه من أشياء لا واقع ولا وجود لها.

وقد ذكروا ل (الخلق) أصلين فى مقاييس اللغة أحدهما: التقدير، وثانيهما: الليونة والنعومة، ولذا يطلق على الصخرة الملساء (الصخرة الخلقاء) كما يطلق فعل (خَلقَ) على الأشياء القديمة حينما تكون ملساء نتيجة لتعاقب الأزمنة عليها.

أمّا (الأخلاق) والتى تعنى الصفات والسجايا الإنسانية الثابتة فانّها مشتقّة من المعنى الأول وهو التقدير (لأنّها تحدّد أبعاد الشخصية والروح الإنسانية وقدرها).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۷

جمع الآيات وتفسيرها

استجواب عجيب!

لقد جاءت الآيات المذكورة أعلاه ضمن تسع آيات فى سورة (الطور)، ووردت فى نطاق ۱۱ سؤال على صورة الإستفهام الإستنكارى.

وهذه الآيات تضع الإنسان أمام مجموعة من الأسئلة المتسلسلة العجيبة ثمّ تسدّ عليه طريق الفرار كى يذعن للحقّ.

وتتابع هذه الأسئلة الأحد عشر ثلاثة أهداف مهمّة هى:

إثبات التوحيد، المعاد، ورسالة نبى الإسلام، غير أنّ الأساس فيها يتمحور حول توحيد الخالق المعبود.

الآية الاولى من الآيات الثلاث التى تقدّمت تقول: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيرِ شَىءٍ أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ».

وبعبارة اخرى: إنّ كلّ إنسان لا شكّ فى أنّه مخلوق وحادث ولا يخرج من ثلاث حالات: امّا مخلوق من دون علّة أو هو علّة وجوده أو أنّ علّته هو الوجود الأزلى والأبدى وهو اللّه سبحانه.

وبما أنّ الاحتمالين الأوّل والثانى لا يتوافقان مع العقل والوجدان فالاحتمال الثالث هو الثابت حتماً، ولذا ذكر الإحتمالين الأوّل والثانى بصيغة «الإستفهام الإستنكارى»، وحينما ينفيهما العقل والوجدان، يثبت الاحتمال الثالث لا محالة.

هذا جوهر الاستدلال الشهير ب (العلّة والمعلول) حيث يعرض فى جملتين قصيرتين ومركّزَتَينِ ذات معنى واسع.

وقد يبرز هنا احتمال رابع وهو أن يكون الإنسان معلولًا لعلّة اخرى وهذه العلّة معلولة لعلّة اخرى وهكذا تستمرّ هذه السلسلة إلى ما لا نهاية.

وهذا الاحتمال يبرز لدى الفلاسفة عادةً وليس لعامّة الناس، ولعلّ الآية لم تذكره لهذا السبب.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۴۸

على أيّة حال فإنّ هذا الاحتمال واضح البطلان أيضاً، لاستحالة (تسلسل العلل والمعلولات) منطقياً ووجداناً، وسيأتى إيضاح ذلك بإذن اللّه.

وقد ذكر الكثير من المفسّرين تفسيرات اخرى للآية، ترتبط بصورة أساسية بالهدف من الخلق وإن كانت بعبارات مختلفة وتفاسير متعدّدة، حيث يقولون بأنّ المراد هو أنّ البشر لم يخلقوا دونما تكليف وأمر ونهى وثواب وعقاب، ويعتبرونها نظير قوله تعالى: «أَفَحَسِبتُم أَنَّما خَلَقْنَاكُم عَبَثاً» «۱». (المؤمنون/ ۱۱۵)

ولكن بملاحظة ذيل الآية يضمحل هذا الإحتمال تماماً لأنّه تعالى يقول: «أَمْ هُمُ الخَالِقُونَ»، وهذا التعبير يدلّ على أنّ الجملة الاولى ناظرة إلى سبب الخلقة وعلّة ظهور الإنسان لا الغاية من خلقه، وبعبارة اخرى أنّ الآية تلاحظ العلّة الفاعلية لا الغائية.

الآية الثانية تُشير إلى خلق السماوات وتعيد استدلال العلّة والمعلول هذا فى مورد خلق السماوات والأرض وتقول: «أَمْ خَلَقُوا السَماواتِ

وَالأرضَ».

ويعنى هذا أنّ السماوات والأرض حادثة دون شكّ لتعرّضها إلى الحوادث باستمرار وحدوث أنواع التغييرات عليها وكلّ شيء معرض للتغيير لا يمكن أن يكون أزلياً.

فى هذه الحالة يجرى السؤال عن خالق السماوات والأرض فهل هى خلقت نفسها؟ أو لا خالق لها أبداً وقد وجدت صدفة؟ أم أنّ خالقها هو البشر؟ وبما أنّ الإجابة عن هذه الأسئلة بالنفى، يعلم أنّ لها خالقاً ليس مخلوقاً بل هو أزلى أبدى.

والملاحظ أنّ من بين هذه الاحتمالات يتوجّه الاستفهام الإنكارى إلى احتمال خالقية الإنسان للسماوات والأرضين فقط، وذلك لان الاحتمالات الاخرى وردت فى الآيات السابقة، وعدم التكرار هو مقتضى الفصاحة والبلاغة.

---

(۱) تفسير مجمع البيان؛ تفسير الكبير؛ تفسير القرطبى؛ تفسير الميزان؛ تفسير روح المعانى وتفسير روح‌البيان؛ حيث ذكروا هذا المعنى كمعنى رئيس فى الآية أو كاحتمال.

من هنا فإنّ الآيتين أعلاه أقامتا برهان العلّة والمعلول فى الآفاق والأنفس، وعليه فإنّ الآية الثانية تشهد كذلك على أنّ الحديث يدور حول العلّة الفاعلية لا الغائية.

فى الختام تشير هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهى أنّ القضايا فى هذا الصدد واضحة، ولكن العيب هو أنّهم لا يستعدّون للإيمان واليقين: «بَل لا يوقِنُون».

أجل، إنّ الحقّ بيّن، بَيدَ أنّهم معاندون وأعداءٌ للحقّ.

وفى الحقيقة فإنّ هذه الجملة تشابه ما ورد فى قوله تعالى

«وَفِى خَلقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِّقَومٍ يُوقِنُونَ». (الجاثية/ ۴)

أو تشابه ما ورد فى قوله تعالى «وَفِى الأَرضِ آيَاتٌ لِّلمُوقِنِينَ». (الذاريات/ ۲۰)

وواضح أنّ اولئك لو كانوا من الموقنين لما احتاجوا إلى الآيات، وعليه فإنّ الحديث يدور حول الذين لا يقين لديهم ولكنّهم على استعداد لقبوله.

وذهب جمع من المفسّرين إلى أنّ المقصود هو أنّ اولئك لا يقولون بأنّهم خلقوا السماوات والأرض، بل يعتقدون بأنّ اللّه هو الخالق، نظير ما جاء فى قوله تعالى «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» «۱». (لقمان/ ۲۵)

بيد أنّ هذا التفسير يبدو بعيداً.

والأضعف من هذا الاحتمال هو ما يقوله الذين يعتقدون أنّ معنى الآية هو: «أنّهم لا يقين لهم بما يقولون وهو أنّ اللّه خالق السماوات والأرض» وهو اليقين الذى يدعوهم إلى العبودية والطاعة.

ويتّضح خطأ هذا التفسير من أنّ الآيات هذه لم تطرح قضيّة خلق اللّه للسماوات والأرض، فكيف يمكن أن تكون هذه الجملة إشارة إليها؟ «۲»

وأخيراً تقول الآية الثالثة كاستنتاج دون ذكر للاستدلال: «أَمْ لَهُم إِلهٌ غَيرُ اللَّهِ سُبحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

---

(۱) أقرّ الزمخشرى هذا التفسير فى الكشّاف وقد احتمله الفخر الرازى فى الكبير وجمع آخر من المفسّرين.

(۲) جاءت عبارة «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَماواتِ والأَرضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ» فى العنكبوت، ۶۱؛ الزمر، ۳۸؛ الزخرف، ۹ و ۸۷؛ لقمان، ۲۵.

إنّه فى الحقيقة استدلال على توحيد المعبود، أى عندما يكون هو الخالق للعالم فإنّ العبادة يجب أن تقتصر عليه أيضاً لا على غيره، كالأصنام والشمس والقمر والنجوم وغيرها.

وكما أسلفنا فإنّ هناك سبعة أسئلة اخرى إضافة إلى هذه الأسئلة الثلاثة الواردة على صورة الاستفهام الإنكارى فى آيات ثلاث ترتبط بقضيّة النبوّة وامور اخرى لا حاجة لذكرها فى هذا البحث التوحيدى «۱».

توضيحان

۱- برهان العلّة والمعلول فى الفلسفة والكلام

اشارة

۱- برهان العلّة والمعلول فى الفلسفة والكلام

يعدّ هذا البرهان من أقدم وأشهر الإستدلالات على إثبات وجود اللّه ابتداءً من فلاسفة اليونان القدماء ومنهم ارسطو الذى عاش فى القرن الرابع قبل الميلاد وحتّى يومنا هذا حيث كانوا يستندون إليه، وكما أشرنا من قبل فإنّ أغلب الأدلّة على التوحيد تعتبر غير تامة إذا لم تستند إلى برهان العليّة.

ولكى تتوضّح قواعد هذا الاستدلال، ينبغى ملاحظة عدّة امور:

۱- تعريف أصل العلّية

(العلّية) هى العلاقة الوجودية بين شيئين بشكل يكون أحدهما تبعاً للآخر، ومن يرى أنّ علاقة العلّية عبارة عن ظهور حادثين على التعاقب فإنّ هذا التعريف يكون ناقصاً، فصحيح أنّ المعلول يحدث بعد علّته ولكن ذلك لا يكفى لتوضيح مفهوم العلّية، بل لابدّ أن يكون هذا الأمر ناشئاً من العلاقة بينهما ومن تبعية الوجود الثانى إلى الوجود الأوّل.

---

(۱) للمزيد من الإيضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۳۵ من سورة الطور.

۲- شمولية قانون العلّية وسعة تطبيقاتها

طبقاً لما يقوله بعض المحقّقين، كان قانون العلّة والمعلول أوّل قضيّة شغلت الفكر البشرى من بين القضايا الفلسفية ماضياً وحاضراً ودفعت البشر للتفكير من أجل اكتشاف ألغاز الوجود، وأهمّ دافع للتفكير لدى الإنسان الذى يمتلك القدرة على التفكير هو فهم قانون (العلّة والمعلول العامّ) الذى يثبت أنّ لكلّ حادثة علّة وهو السبب فى تبادر مفهوم (لماذا) فى الذهن البشرى، ولو لم يتعرّف الذهن البشرى على مفهوم العلّة والمعلول العامّ ولم يذعن لقانون العلّية لم يكن ليخطر فى ذهنه مفهوم (لماذا)؟ «۱»

هذه ال (لماذا) هى الأساس لكلّ العلوم والأفكار البشرية والتى دفعت الإنسان للبحث عن الجذور والنتائج لهذا العالم وحوادثه المختلفة.

وبعبارة اخرى: إنّ جميع العلوم البشرية انعكاس لقانون العلّية، ولو سُلب هذا القانون من البشر فإنّ هذه العلوم سوف تفقد كل محتوياتها.

وكـذلك لو فقـدنا قانون (العلّيـة) فإنّ (الفلسـفة) أيضاً سوف تتزعزع بكلّ فروعها، وعليه فإنّ العلوم والأفكار والفلسـفة مبتنِيـة على هذا القانون.

۳- جذور معرفة قانون العلّية

كيف توصّل الإنسان إلى قانون العلّية؟

للإجابـة عن هـذا السؤال لابـدّ أن نرجع إلى الوراء لنسـتقرىءَ حياتنا فى الصـغر، عندما ينضج عقل الإنسان وتكتمل قابلية التميز لديه، فالطفل عنـدما يمدّ يده إلى النار فيحسّ بألم الإحتراق، وعندما يعيد هذا العمل ويتكرر الإحساس نفسه يتيقّن شـيئاً فشـيئاً بوجود علاقة بين أمرين (مسّ النار والشعور بألم الإحتراق).

وهكـذا حينما يحس بالعطش ويشـرب الماء فانّه يشـعر بالراحة وزوال العطش ويتكرّر هذا العمل حتّى يتيقّن بوجود علاقة بين العطش وشرب الماء، وعندما تتكرّر هذه التجارب

---

(۱) أصول الفلسفة، ج ۳، ص ۱۷۵ (اقتباس واختصار).

فى مجالات كثيرة وموضوعات مختلفـة يتيقّن بأنّ لكلّ حادثـة علّـة وبهـذا يكتشف قانون العلّيـة بشـكله العادى البسـيط، وبتقـدم عمره وبواسطة التجارب التى يمرّ بها سواء على صعيد الحياة الاعتيادية أو على صعيد العلوم والأفكار- سيدرك سعة هذا القانون وقوّته أكثر فأكثر (كما يصل إلى هذا المبدأ وهو أنّ لكلّ حادثة علّة عن طريق الفلسفة).

نحن لا نقول بـأنّ تعـاقب حادثين يعنى العلّيـة بل نقول إنّ القضـيّة لابـدّ من تكرارها حتّى يتّضـح وجود علاقـة بينهما، وأنّ الثانى تابع للأوّل.

والظاهر أنّ القائلين: إنّ قانون العلّيـة خاضع للتجربـة. يـذهبون إلى أنّ الإنسان يتوصّل إلى الجذور والاصول عن طريق التجربة والحسّ ومن ثمّ يكتشف علاقـة العلّيـة من خلال (التحليل العقلى)، وهو فى الحقيقـة يتوصل إلى مقدّمـة من خلال (الحسّ) واخرى من خلال (العقـل) وذلـك لأـنّ القوانين الكلّيـة توجـد فى العقـل بصورة بديهيـة، ودور الحسّ هو إدراك الموضوعات المتفرقـة ثمّ يقوم العقل بجمعها فيتوصّل إلى النتائج.

ويتصوّر البعض أنّ مبدأ العلّية- هو عبارة عن علم حصولى- يستحصل من العلم الحضورى (النفس) بالنسبة إلى (أفعال النفس).

وفى توضـيح كلامـهم هـذا يقولون أنّ الروح الإنسانيـة تحسّ بـامور فى أعماقهـا تابعـة لهـا وقائمـة بهـا كـالتصوّر والأفكار والإرادات والقرارات .. هـذه كلّها أفعال الروح الإنسانيـة ومعلولـة لها، ومن خلال العلاقة بين هذه الأفعال والروح يمكن أن نكتشف قانون العلّية، ثمّ يسـتندون فى ذلك إلى قول لإبن سـينا حيث يقول: «فإنّا ما لم نثبت وجود الأسـباب لمسـبّبات من الامور بإثبات أنّ لوجودها تعلّقاً بمـا يتقـدّمها فى الوجود، لم يلزم عنـد العقـل وجود السـبب المطلق، وأنّ ههنا سـبباً ما، وأمّا الحسّ فلا يؤدّى إلّاإلى الموافاة وليس إذا توافى شيئان وجب أن يكون أحدهما سبباً للآخر ... «۱».

ولا شـكّ فى أنّ هـذا خطأ كبير ومن المسـتبعد أن يقصـد ابن سـينا هـذا المعنى لأـنّ هـذه التحليلات بشـأن الروح وأفعالها هى من اختصاص الفلاسفة لا عموم الناس، فى حين أنّ

---

(۱) الشفاء، الفصل ۱، مقالة الإلهيات الاولى، ص ۸.

عامّة الناس يعرفون قانون العلّية حتّى الأطفال منهم، ولا شكّ فى أنّ ذلك حصل لهم من خلال التجارب الخارجية والحسّية كما أسلفنا، غير أنّ العقل ما لم يحلّل هذه التجارب وما لم يجعل من القضايا الجزئية أمراً عامّاً، فنحن لا ندرك (قانون العلّية)، وعليه فإنّ الأساس فى معرفة هذا القانون هو التجربة إضافة إلى العقل، ولعلّ ابن سينا يقصد ذلك ولا يمكن قبول غيره، بَيدَ أنّا لا ننكر أنّ الفلاسفة والعلماء يسهل عليهم معرفة العلّية من خلال الأفعال النفسية كما يمكن ذلك عن طريق الحسّ.

كما أنّ ثمّة طريق استدلال واضح يوصل إلى هذا الأمر، وهو أنّنا لو أنكرنا قانون العلّية وجب أن لا يكون شىء شرطاً لشىء، وسوف ينشأ كلّ شىء من أى شىء، بل يجب رفض مناهج الاستدلالات العقلية أيضاً، وللوصول إلى نتيجة منطقية- مثلًا- يجب أن لا نستفيد من أدلّة خاصّة، بل إنّنا نصل من كلّ مقدّمة إلى أيّة نتيجة نتوخّاها، وهذا ما لا يتقبّله أى عاقل قطعاً.

ينبغى إذن أن نذعن بعلاقة العلّية فى الخارج وفى الامور العقلية.

۴- أقسام العلّة

العلّة لها مفهوم واسع وأقسام عديدة:

العلّة التامّة وتعنى أنّ الشىء إذا وجد فإنّ معلوله سوف يوجد مباشرة.

والعلّة الناقصة وتعنى أنّ الشىء يحتاج- فى وصوله إلى المعلول- انضمام امور اخرى، كما تقسّم العلّة إلى (العلّة الفاعلية) و (الغائية) و (المادّية) و (الصورية) وهذه تقسيمات مشهورة يمكن إيضاحها بمثال بسيط:

لو لاحظنا ملابسنا التى نرتديها لوجدناها لكى توجد يجب توفّر المادّة (كالقطن والصوف) ثمّ تحويلها إلى قماش مناسب ثمّ تباشرها يد الخيّاط لخياطتها، ومن الأكيد أنّ الخيّاط يصنع اللباس لهدف خاصّ وهو الإنتفاع منه.

تعتبر المادّة الأصلية هى (العلّة المادّية) والصورة التى اعطيت لها هى (العلّة الصورية)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۵۴

والذى جعلها على صورة اللباس هو (العلّة الفاعلية) والدافع لهذا الشىء هو (العلّة الغائية).

ومن المعلوم أنّنا استندنا فى برهان (العلّة والمعلول) الذى نتابعه إلى العلّة الفاعلية وخاصّة العلّة التامّة.

۲- إيضاح برهان العلّية

بعد اتّضاح هذه المقدّمات نرجع إلى أصل برهان العلّية.

إنّ برهان العلّة والمعلول فى الحقيقة مبنى على أساسين هما:

۱- أنّ العالم الذى نعيش فيه (حادث) و (ممكن الوجود).

۲- كلّ موجود حادث وممكن الوجود يجب أن ينتهى إلى واجب الوجود، وبعبارة اخرى يجب أن تنتهى الوجودات الإرتباطية إلى الوجود المستقل.

وقد تكلّمنا بما فيه الكفاية عن المقدّمة الاولى وهى حدوث العالم، يبقى أن نثبت الآن المقدّمة الثانية:

إنّها قضيّة واضحة وحتّى المادّيون والمنكرون لوجود اللَّه يقرّون بها، بَيدَ أنّهم يقولون: إنّ (المادّة) لها وجود أزلى وأبدى ومستقلّ بالذات، لكن هذا الكلام باطل استناداً إلى الأدلّة التى تثبت استحالة أزلية المادّة وأبديتها وقد أشرنا إلى ذلك.

ولتوضيح هذه المقدّمة من المناسب أن نقول: مع الإقرار بأنّ العالم حادث فسنواجه خمسة افتراضات لا سادس لها:

فإمّا أن يوجد العالم بدون علّة، أو أن يكون هو علّة لوجوده، أو أن يكون معلوله علّة له، أو أن يكون العالم معلولًا لعلّة وهى معلولة

لعلّة اخرى وهكذا إلى ما لا نهاية.

أو أن نقرّ بأنّ كلّ هذه الموجودات الحادثة مستندة إلى موجود أزلى أبدى فوق المادّة، وهذه السلسلة من العلل والمعلولات تنتهى أخيراً إلى (واجب الوجود).

الفرضية الاولى: وهى حدوث العالم بدون علّة وتسمّى بفرضية (الصدفة) وهى فرضية

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۵۵

باطلة، لأنّ الحادث إن لم يحتج إلى علّة فإنّ كلّ موجود يجب أن يوجد فى كلّ زمان وأى ظرف، فى حين نرى بوضوح أنّ الأمر ليس كذلك، حيث يحتاج كلّ حادث لحدوثه إلى توفّر الشرائط والظروف الخاصّة.

وهكذا بطلان الفرضية الثانية وهى (أن يكون الشىء نفسه علّة لوجوده) يعتبر أمراً بديهياً، لأنّ العلّة يجب أن تكون قبل المعلول ولو كان الشىء علّة لنفسه فلابدّ أن يكون موجوداً قبل وجوده ممّا يستلزم اجتماع (الوجود) و (العدم) وهو ما يطلق عليه بالمصطلح العلمى (الدور).

وهكذا بالنسبة لبطلان الفرضية الثالثة، حيث يكون معلول الشىء علّة لوجوده، وهو أمر واضح لا يحتاج إلى توضيح.

وأمّا بطلان الفرضية الرابعة التى تعنى استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية فانّه بحاجة إلى إيضاح: (التسلسل) يعنى استمرار سلسلة العلل والمعلولات إلى ما لا نهاية وهذا باطل عقلًا لأنّ كلّ معلول يحتاج إلى علّة، ولو إستمرّت هذه السلسلة إلى ما لا نهاية ولم تنته بواجب الوجود فانّه يعنى أنّ مجموعة من ذوات الحاجة غير محتاجة، فى حين أنّ ما لا نهاية من الفقراء والمحتاجين محتاجون حتماً.

فلو تراكمت ما لا نهاية من الظلمات لا تتحوّل إلى (نور)، وما لا نهاية من (الجهل) لا يكون (علماً)، وما لا نهاية من (الأصفار) لا يكون (رقماً).

لابدّ إذن من انتهاء سلسلة العلل والمعلولات إلى موجود يحتاج شيئاً آخر .. وجود مستقلّ وغنى، وجوده من ذاته، وبعبارة أصحّ أن يكون عين الوجود والوجود المطلق.

وممّا ذكر نستنتج أنّ وجود الممكنات والحوادث فى العالم لابدّ أن ينتهى بوجود واجب أزلى نسمّيه (اللّه) سبحانه وتعالى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۵۷

۵- برهان الصدّيقين

تمهيد:

برهان الصدّيقين من أدلّة إثبات وجود اللّه بالاستفادة من القرآن الكريم والروايات، والذى اهتمّ به العلماء والفلاسفة الإسلاميون، وكما يبدو من إسمه أنّه ليس دليلًا عامّاً بل يختصّ بالذين يحظون بمعلومات وفهم أوسع فى العقيدة والفلسفة، ولهم قسط وافر من الذوق ودقّة الملاحظة.

دليل يتّصف بالتعقيد قليلًا وفى الوقت نفسه لطيف وجميل ومربٍّ للروح.

ومحور هذا الدليل أنّنا بدلًا من دراسة المخلوقات من أجل معرفة اللّه، نتوجّه للتدبّر فى ذاته المقدّسة للوصول إلى ذاته، وكما يقتضيه الدعاء: «يامن دلّ على ذاته بذاته» نتّخذ منه تعالى طريقاً للوصول إليه، وكلّ ما فى هذا البرهان من تعقيد وظرافة ناشىء عن كيفية إمكان اتّحاد الدليل والإدّعاء.

القضية هى أنّ فى هذا العالم وجوداً فنبادر بتحليل أصل هذا الوجود ومن خلال تحليل دقيق نصل إلى أنّ أصل الوجود يجب أن

يكون واجباً.

هذه إشارة سريعة ولو أنّها غير كافية حيث سنتكلم عن ذلك بالتفصيل ونعود الآن إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات التالية:

١- «أَوَ لَمْ يَكفِ بِرَبِّكَ انَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ». (فصّلت/ ۵۳)

٢- «شَهِدَ اللَّهُ انَّهُ لَا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ». (آل عمران/ ١٨)

نفحات القرآن، ج٣، ص: ۵٨

٣- «وَاللَّهُ مِنْ وَرائِهِمْ مُحِيطٌ». (البروج/ ٢٠)

۵- «هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ والظَّاهِرُ والباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ٣)

۶- «اللَّهُ نُورُ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ» «١». (النور/ ٣۵)

شرح المفردات:

«شهيد»: مشتق من (شهود) وهو فى الأصل- كما يقول الراغب فى المفردات- بمعنى (الحضور المقرون بالمشاهدة) سواء كان ذلك بالعين الباصرة أو بعين القلب، وقد يعنى (الحضور) مجرّداً عن مفهوم المشاهدة بَيدَ أنّ استعمال (شهود) بمعنى الحضور، و (الشهادة) بمعنى الحضور المقرون بالمشاهدة أولى.

وقد وردت فى (مقاييس اللغة) ثلاثة اصول فى معنى (الشهادة) هى: الحضور والعلم والإعلام للآخرين، وإطلاق (شهيد) على من يقتل فى طريقه هو لحضور ملائكة الرحمة عليه، أو بسبب حضوره فى ساحة الجهاد، أو بسبب مشاهدة النعم العظيمة التى أعدّها اللَّه له، أو بسبب حضوره بين يدى اللَّه.

وقد جاء فى كتاب العين أنّ (الشّهْد) يعنى (العسل) قبل استخراجه من الشمع وهو المعنى الذى اتّخذه صاحب الكتاب الأصل الأوّل لهذه المادّة، فهل يرى ذلك هو الأصل اللغوى؟ وفى هذه الحالة ما هو وجه العلاقة بما نحن فيه؟ إنّه لم يذكر توضيحاً لذلك «٢».

(محيط) ومصدرها (الإحاطة) وتعنى الضمّ ويستفاد من بعض الكتب اللغوية بأنّ الإحاطة على نوعين:

إحداهما: تكون فى الأجسام ولذا يطلق على البناء المحيط بمكان (حائط).

وثانيهما: (الإحاطة المعنوية) وتعنى الحفظ والحراسة أو العلم والإطّلاع على شىء ما.

وقد تستعمل هذه المفردة بمعنى الإمتناع من شىء، وكأنّ الإنسان محاط من كلّ جهة

---

(١) هناك آيات قرآنية اخرى تحمل نفس هذا المضمون من جملتها سورة الحجّ، ١٧ وسبأ، ۴٧ والمجادلة، ۶ والبروج، ٩ والنساء، ٣٣ والأحزاب، ۵۵.

(٢) المفردات، لسان العرب، مقاييس اللغة، كتاب العين.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ۵٩

لئلّا يصل إلى ذلك الشىء، وكلمة (الإحتياط) تستعمل فى المجالات التى يحاول الإنسان فيها أن يعمل عملًا يصونه من الخطأ والإشتباه والمعصية والمخالفة.

وقد ورد فى (مقاييس اللغة) أنّ الأصل فى هذه المفردة هو من مادّة (حوْط) ويعنى دوران شىء حول شىء آخر.

كما أنّ كلمة (محيط) يمكن أن تكون بمعنى الإحاطة الوجودية أو إحاطة القدرة والعلم «١».

«نور»: يعنى الأشعّة المنتشرة التى تعين العين على النظر وهو على نوعين:

مادّى وهو النور الذى تبصره العيون المجرّدة، ومعنوى وهو النور الذى تراه عين البصيرة كنور العقل ونور القرآن، وقد جاء إطلاق

(نائرة) على الفتنة وذلك لانتشارها واتّساعها.

والأقرب أنّ هـذه المفردة تعنى فى أصـلها الضياء المحسوس، ثمّ استعملت فى الامور المعنوية كالإيمان والعلم والعقل والقرآن حتّى ذات اللَّه المقدّسة.

«نار»: هى من هذا الأصل أيضاً ويقترنان فى كثير من الموارد.

وكلمة (منارة) تعنى الموضع المتّخذ لإشعال الشموع، أو لأجل نشر نور المعنويات الذى يبثّه (الأذان) إلى مختلف الجهات.

«نَوْر»: ويطلق على براعم الأشجار وخاصّة البيض منها لما فيها من نور خاصّ منذ ظهورها.

جمع الآيات وتفسيرها

القرآن وبرهان الصدّيقين: «۲»

تقول الآية الاولى التى وردت فى هذا البحث بعد الإشارة إلى آيات الآفاق والأنفس

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن، المفردات، مقاييس اللغة، ولسان العرب.

(۲) قال البعض: إنّ تسمية هذا البرهان ب (برهان الصدّيقين) لأنّ صدّيق هو صيغة مبالغة ويعنى كثير الصدق. صحيح أنّ الأدلّة الاخرى التى أوردناها لإثبات وجود اللَّه صادقة بَيدَ أنّ هذا البرهان أشدّ صدقاً نظراً إلى أنّا نصل فى البرهان من ذات اللَّه سبحانه وتعالى إلى اللَّه ولا نسمح لغيره فى هذا الطريق.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۰

الدالة على حقانية وجود اللَّه سبحانه وتعالى: «أَوَ لَمْ يَكفِ بِرَبِّكَ انَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ».

يمكن أن تكون كلمة (شهيد) هنا بمعنى الشاهد أوالحاضر والمراقب، أو تعنى كلا المعنيين وذلك لصدقهما فى اللَّه سبحانه، والآية المذكورة أعلاه مطلقة من هذه الجهة.

واستناداً إلى هذا التفسير يكفى لإثبات ذاته المقدّسة أن يكون شاهداً وحاضراً فى كلّ مكان، فكلّ موجود ممكن نجد إلى جانبه ذات واجب الوجود، وحيثما نظرنا كان الوجود المطلق ظاهراً، وكلّ ما وقع عليه نظرنا وجدنا وجهه فيه، ونحسّ بخضوع العظماء لعظمته، وهو مصداق حديث أميرالمؤمنين عليه السلام: «ما رأيت شيئاً إلّاورأيت اللَّه قبله وبعده ومعه» «۱».

وفى تفسير الميزان أنّ (شهيد) تعنى (مشهود) وبذلك يكون معنى الآية:

«أو لم يكف فى تبيّن الحقّ كون ربّك مشهوداً على كلّ شىء إذ ما من شىء إلّاوهو فقير من جميع جهاته إليه متعلّق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكلّ شىء وإن لم يعرفه بعض الأشياء» «۲».

ونتيجة هذا التفسير هو إثبات وجود اللَّه من الآية أعلاه أيضاً، ولكن عن طريق برهان الغنى والفقر.

يقول الفخر الرازى: «أو لم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التى أوضحها اللَّه تعالى وقرّرها، الدالّة على التوحيد والتنزيه ...» «۳» (وعلى هذا فالآية ناظرة إلى إثبات وجود اللَّه عن طريق برهان النظم).

ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية ناظرة إلى قضيّة إثبات المعاد حيث يقولون:

«أو لم يكف بربّك أنّه شاهد على كلّ شىء، ممّا يفعله العبد وفى هذا كفاية لمحكمة يوم الجزاء» «۴».

---

(۱) يعتقد الكثير من المفسّرين بأنّ الباء فى «بربّك» زائدة وتفيد التأكيد، وقد حلّت (ربّك) محلّ الفاعل، وجملة «على كلّ شىء شهيد» هى بدل منه والجملة تعنى (أو لم يكفهم أنّ ربّك على كلّ شىء شهيد).

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۴۰۵.

(۳) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۴۰.

(۴) تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۸۱۹.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۱

ويعتقد البعض الآخر أنّ الآية ناظرة إلى حقّانية القرآن الكريم، ونبوّة الرسل، ويقولون:

«أولم يكف ربّك شاهداً أنّ القرآن من عند اللَّه» «۱».

ويبدو أنّ التفاسير الثلاثة الاولى من بين التفاسير الخمسة هذه والتى ترى أنّ الآية ناظرة إلى قضيّة التوحيد وإثبات وجود اللَّه هى أكثر صحّة، ويبدو التفسير الأوّل منها أكثر انسجاماً مع معانى الألفاظ الواردة فى الآية، وبذلك يكون شاهداً على (برهان الصدّيقين).

وننهى هذا الكلام بحديث معتبر للإمام الصادق عليه السلام.

عن منصور بن حازم قال: قلت لأبى عبداللَّه عليه السلام: إنّى ناظرت قوماً فقلت لهم: إنّ اللَّه جلّ جلاله أجلّ وأعزّ وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يُعرفون باللَّه، فقال: «رحمك اللَّه» «۲».

ومن الطبيعى أنّ هذا الكلام لا يتنافى أبداً مع استخدام برهان النظم وأدلّة التوحيد وعظمة اللَّه فى موجودات العالم، فى الحقيقة فإنّ برهان النظم فى مستوى، وهذا البرهان (برهان الصدّيقين) هو فى مستوى أعلى وأرفع.

بزوغ الشمس دليل عليها:

فى الآية الثانية يدور الحديث حول شهادة اللَّه سبحانه على وحدانيته ثمّ شهادة الملائكة والعلماء حيث تقول: «شَهِدَ اللَّهُ انَّهُ لَااِله إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَاولُوا العِلْمِ»، وتضيف: أنّ ذلك يكون مع قيام اللَّه سبحانه بالعدل وإدارة العالم على محور العدل: «قَائِمَاً بِالقِسطِ».

وبما أنّ القيام بالقسط والعدل يحتاج إلى أصلين هما: القدرة والعلم لكى تتحدّد موازين العدل بالعلم أوّلًا وتطبّق بالقدرة ثانياً، أضافت الآية فى ذيلها: «لَااِلهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ».

والمراد من شهادة الملائكة واولو العلم واضح، ولكن ما هو المراد من شهادة اللَّه؟

هناك خلاف بين المفسّرين، حيث اعتقد البعض أنّ المراد هو الشهادة (الفعلية)

---

(۱) راجع تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۰.

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۸۶، باب أنّه لا يعرف إلّابه، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۲

و (القولية) أى أنّه شهد على وحدانيته بعرض آيات عظمته فى عالم الوجود وفى الآفاق وفى الأنفس من جهة، وكذلك من خلال آيات التوحيد النازلة فى الكتب السماوية من جهة اخرى.

فى حين ذكر بعض المفسرين الشهادة القولية وحدها، وذكر بعض آخر الشهادة الفعلية، بيد أنّ مفهوم الآية يتضمّن- بالتأكيد- شهادة أعلى وأرفع من هذه، بل هى أهمّ مصداق للشهادة وهى أنّ ذاته شاهدة على ذاته كمصداق لما ورد: «يامن دلّ على ذاته بذاته» انّه سبحانه أفضل دليل على وجوده وهو الهدف الذى يقصده برهان الصدّيقين.

ولا مانع من اجتماع المعانى الثلاثة (الشهادة الذاتية والفعلية والقولية) فى مفهوم الآية.

وقد استنتج البعض من عبارة (قائماً بالقسط) بأنّ آيات العدل والنظم والتقدير فى عالم المخلوقات هى مصداق بيّن لشهادته سبحانه وتعالى على وحدانيته، وهو استدلال جيّد (ولا ضير فى انفصال الملائكة عن (اولو العلم) كما يشير تفسير الميزان إلى هذا المعنى)، كما لا يمنع من عمومية الآية وسعة مفهومها وشمول ما قلنا.

وكما ذكرنا من قبل فإنّ القائم بالعدل يحتاج إلى العلم والقدرة، وهاتان الصفتان موجودتان فى ذاته المقدّسة واتّصاف البارى ب (العزيز الحكيم) فى ذيل الآية إشارة إلى هذا المعنى الدقيق.

إحاطة الوجود الإلهى:

الآية الثالثة- بعد الإشارة إلى الجيوش الجرّارة التى واجهت أنبياء اللَّه وحاربتهم وذكر نموذجين متميزين أحدهما فى العصور القديمة وهم (قوم ثمود) وثانيهما فى العصور المتأخّرة وهم (قوم فرعون): «بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى تَكْذِيب».

التعبير ب (فى)- ويستعمل عادةً لبيان الظرف والمظروف- تعبير جميل وفيه إشارة إلى أنّ الكفّار غارقون فى تكذيب الحقائق، والمراد من الكفّار هم الكفّار المعاندون فى عصر

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۳

النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الذين كانوا ينكرون وحدانية اللَّه سبحانه ونبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه و آله والمعاد كذلك، ولا يستبعد أن تشمل الآية هؤلاء جميعاً، لأنّ قوم فرعون وثمود الذين ذُكروا من قبل كانوا كذلك، كما أنّ استعمال (تكذيب) على صورة نكرة والذى يدلُ فى مثل هذه الحوادث على الأهميّة والعظمة هو شاهد آخر على هذا المعنى.

ثمّ تقول الآية: «وَاللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ».

التعبير ب (ورائهم) إشارة إلى أنّهم محاطون من كلّ جهة، واللَّه محيط من كلّ جهة وجانب، وقد وقع كلام بين المفسّرين بشأن المراد من (الإحاطة الإلهيّة) حيث احتمل البعض أنّها إحاطة اللَّه العلمية على أعمالهم، واعتقد البعض الآخر أنّها إحاطة القدرة حيث الجميع فى قبضته، وليس لهم القدرة على الفرار من عقابه، وذهب البعض الآخر إلى أنّها الإحاطة العلمية، وإحاطة القدرة معاً.

بيدا أنّ مفهوم الآية أوسع ممّا ذكر حيث يشمل إحاطته الوجودية أيضاً، نعم، للَّه‌تعالى إحاطة وجودية لجميع الممكنات والكائنات، وليست هذه الإحاطة- طبعاً- من قبيل إحاطة الظرف بالمظروف (كإحاطة الحائط بالبيت) وليست من قبيل إحاطة الكلّ بالجزء، بل هى (الإحاطة القيومية)، أى أنّه سبحانه وجود مستقلّ وقائم بالذات والموجودات الاخرى قائمة به وتابعة له.

وهذا المعنى يفتح الطريق أمام برهان الصدّيقين فى مسألة إثبات وجود اللَّه، وسنقدّم شرحاً لذلك فى المستقبل.

هو الأوّل والآخر:

تقول الآية الرابعة- وهى من الآيات الاولى من سورة الحديد وفيها ذكر لصفات اللَّه سبحانه بشكل عميق وواسع: «هُوَ الأَوَّلُ وَالاخِرُ والظَّاهِرُ والبَاطِنُ وهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ».

إنّ هذه الصفات الخمس التى اجتمعت فى الآية بيان جلى لذاته المقدّسة اللامتناهية.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۴

هو (الأوّل) أى هو الأزلى دون أن تكون له بداية، وهو (الآخر) أى الأبدى الذى لا نهاية له، وهو (الظاهر) أى البيّن دون أن يكون

خافياً على أحد، وهو (الباطن) أى أنّ ذاته ليست ظاهرة لأحد (لعدم قدرة الموجودات المحدودة كالإنسان على إدراك الحقيقة اللامتناهية) دون أن يكون محجوباً عن عباده.

ولذا فانّه سبحانه عالم بكلّ شىء لأنّه موجود فى البداية، وسوف يبقى حتّى النهاية وحاضر فى ظاهر العالم وباطنه.

وهناك تفسيرات متعدّدة ذكرها المفسّرون فى تفسير الصفات الأربع: (الأوّل) و (الآخر) و (الظاهر) و (الباطن) إلّاأنّها غير متنافية ويمكن جمعها فى مفهوم الآية.

فتارةً قالوا: إنّه الأوّل قبل وجود أى شىء وهو الآخر بعد هلاك كلّ شىء، ودلائل وجوده ظاهرة ولا يمكن إدراك باطن ذاته.

وتارةً قالوا: هو الأوّل ببرّه حيث هدانا، والآخر بعفوه حيث يقبل التوبة، والظاهر بإحسانه وتوفيقه عند طاعته والباطن فى ستر عيوب العباد عند المعصية (الأوّل ببرّه إذ هداك والآخر بعفوه إذْ قبل توبتك، والظاهر بإحسانه وتوفيقه إذا أطعته، والباطن بستره إذا عصيته) «۱» وقد ورد أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان يقول فى دعائه: «اللهمّ أنت الأوّل فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء، وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء» «۲».

على أيّة حال، فإنّ الآية الكريمة أعلاه، فى عين إثباتها بطلان أفكار الصوفية فى استقلالية الخالق عن المخلوق والمخلوق عن الخالق، فإنّها تبيّن حقيقة وهى أنّ الذات الإلهيّة المقدّسة مطلقة ولا نهاية ولا حدود لها.

أى هو وجود بلا عدم، ولو أنّا تدبّرنا حقيقة الوجود جيّداً ونزهناه من العدم فسوف نصل إلى ذاته المقدّسة، وهذا جوهر برهان الصدّيقين وروحه.

---

(۱) راجع تفاسير مجمع البيان؛ الميزان؛ الكبير؛ روح البيان.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۰۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۵

ومن البديهى أنّ الموجود المحدود يكون موضعه إمّا فى البداية أو النهاية، وإمّا فى ظاهر الأشياء أو باطنها، واتّصاف اللَّه سبحانه بأنّه الأوّل والآخر والظاهر والباطن هو لكونه وجوداً غير متناه ولا محدود.

هو نور العالم:

فى الآية الخامسة والأخيرة نقرأ فى جملة قصيرة وغزيرة المعنى:

«اللَّهُ نُورُ السَماوَاتِ وَالأَرض».

ويعقّب هذه العبارة تشبيه جميل وجذّاب لهذا النور الإلهى يشكّل ميداناً واسعاً لبحوث المفسّرين الأعلام للقرآن، وبما أنّ الشاهد فى هذا البحث هو العبارة الاولى، فإنّا نشرع بتبيانها وشرحها:

من الطرق الهامّة فى تفهيم الحقائق المعقّدة هو استعمال التشبيهات البليغة بغية تقريب الحقائق العلمية إلى الذهن بضرب الأمثلة الحسّية، وهنا قد استفيد من هذه الطريقة (وإن كانت الأمثلة بشأن اللَّه تعالى ناقصة لعدم وجود مثيل لذاته) ولإدراك حقيقة هذا المثال لابدّ من التدبّر فى معنى النور وصفاته وخصائصه وبركاته، ولا ريب فى أنّ النور من أجمل الموجودات المادية وألطفها وأكثرها بركة، وتنتشر منه البركات والجمال فى عالم المادّة.

فنور الشمس منبع الحياة والسرّ فى بقاء الموجودات الحيّة والعنصر الفاعل فى نمو النبات والزهور وجميع الأحياء.

النور هو المصدر الأساس للطاقات، نظير حركة الرياح، وهطول الأمطار، والعنصر الأساس فى وجود المحروقات (البترول والفحم

الحجرى) ولو تبدّل نور الشمس إلى ظلام فسوف تتوقّف كلّ حركة فى العالم.

والنور واسطة لمشاهدة الموجودات المختلفة والمظهر لها، هذا وانّ حركة الأمواج والذرّات الضوئية هى أسرع الحركات المتصوّرة فى عالم المادّة، حيث تبلغ سرعتها (٣٠٠ ألف كم) فى الثانية، وهذا يعنى أنّ النور فى طرفه عين يدور حول الأرض سبع مرّات.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ۶۶

وأخيراً فإنّ نور الشمس أفضل عامل على تلطيف البيئة والقضاء على مختلف أنواع الجراثيم الضارّة وإزالة الموانع عن طريق الحياة البشرية، وبملاحظة هذه الخصائص التى يتّصف بها النور المحسوس يتّضح عمق تشبيه ذات اللَّه المقدّسة بالنور.

نعم، إنّ وجوده تعالى هو النور الذى يظهر الوجودات ويحفظها، ومنه تنبع الحياة المعنوية والمادية، ويصدر كلّ جمال فى العالم، وكلّ حركة نحو الكمال تنبع من وجوده المقدّس، وكلّ هداية تتحقّق برعايته.

وهو الذى يرفع الموانع عن طريق عباده، وهو الهادى للإنسان فى طريق الكمال والقرب لذاته، وبكلمة واحدة كلّ ما فى العالم قائم بذاته المقدّسة.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: هل النور الذى يُظهر الأشياء يحتاج إلى مظهر؟ وهل الموجودات التى يُظهرها النور تكون أكثر ظهوراً من النور نفسه لتكون معرفة له؟

وبتعبير أدق: ما هى الوسيلة التى يمكن مشاهدة النور بها غير النور نفسه؟ وهذا هو الأساس فى برهان الصدّيقين.

وقد ذكر المفسّرون عدّة احتمالات فى تفسير هذه الآية لا تنافى بينها، نظير الموارد الكثيرة الاخرى، ويمكن الجمع بينها، أى أنّ كلّ مفسّر منهم لاحظ- فى الحقيقة- الآية من زاوية معيّنة.

وقد قال الكثير بأنّ جملة: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرض» تعنى (المنوّر للسماوات والأرض).

وقد فسّرها البعض الآخر ب (الهادى لمن فى السماوات والأرض) تبعاً للرواية التى وردت عن الإمام الرضا عليه السلام فى هذا الشأن حيث قال:

«هادٍ لأهل الأرض» أو «هادٍ لأهل السماوات وهادٍ لأهل الأرض» «١».

وفسّرها البعض الآخر بمعنى الطاهر المنزّه من كلّ عيب فى جميع السماوات والأرض.

وفسرها آخرون بمعنى المُدبر لشؤون السماوات والأرض.

---

(١) تفسير البرهان، ج ٣، ص ١٣٣، ح ١ و ٢؛ وتفسير نور الثقلين، ج ٣، ص ۶٠٣.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ۶٧

وفُسّرت بمعنى الإضاءة بواسطة الشمس والقمر والنجوم، وبواسطة الأنبياء والملائكة والعلماء والمفكّرين.

وفسّرها بعض بمعنى المنظّم للعالم العلوى والسفلى.

وفُسّرت بمعنى المفيض بالجمال على الكونين.

وفُسّرت بمعنى خالق السماوات والأرض.

وكما أسلفنا فإنّ هذه المعانى موجودة فى الآية الكريمة: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرض»، بل إنّ الآية تنطق بما هو أعلى وأوسع، حيث إنّ النور نيّر ذاتاً وهو الدليل على وجوده ولا يحتاج إلى مظهر آخر، لأنّ الآخرين ظاهرون بأجمعهم ببركته وكما قال العرفاء:

«كفى بك جهلًا بأن تهجر الشمس الساطعة وتبحث فى الوديان بنور الشمع، واعلم بأنّ الكون طرّاً من شعاع الحقّ».

توضيحان

۱- برهان الصدّيقين فى الروايات الإسلامية والأدعية

هناك طريق آخر لمعرفة ذات اللّه المقدّسة أقصر وأدقّ من البحث فى موجودات العالم، وهو معرفة الذات المقدّسة بذاتها، أى الوصول منه إليه، وقد ورد هذا المضمون بشكل واسع فى الروايات الإسلامية وأدعية المعصومين ويشكّل هذا المضمون جوهر برهان الصدّيقين.

ولا نقول أنّ لا يمكن التعرّف على ذاته عن طريق الموجودات فى العالم، كما لا نقول بأنّ آيات (الآفاق والأنفس) ليست علائم على علمه وقدرته وعظمته فإنّ هذا المعنى جلى فى القرآن كلّه، ولكن نقول إنّ ثمّة طريق أرقى وأعلى وألطف وهو البحث فى أصل الوجود والوصول إليه عن طريق ذاته المقدّسة، وهذا الطريق هو طريق الخواص والعرفاء الحقيقيين غالباً، فمثلًا:

۱- نقرأ فى دعاء الصباح الشهير: «يامن دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۸

۲- ونقرأ فى دعاء أبى حمزة الثمالى المعروف: «بك عرفتك وأنت دللتنى عليك».

۳- وقد ورد فى دعاء عرفة أيضاً: «كيف يستدلّ عليك بما هو فى وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتّى يكون هو المُظهِر لك»)؟!

۴- وورد فى الدعاء نفسه: «متى غبت- حتّى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت- حتّى تكون الآثار هى التى توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيباً».

۵- وقد ورد فى حديث أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وإسمه منصور بن حازم قال له: إنّى دخلت فى مناظرة- مع جماعة وقلت لهم: «إنّ اللّه أجل وأكرم من أن يُعرف بخلقه بل العباد يعرفون باللّه»، فقال له الإمام الصادق عليه السلام مصدّقاً إيّاه: «رحمك اللّه» «۱».

۶- وقد ورد فى حديث عن الإمام أمير المؤمنين قوله: «اعرفوا اللّه باللّه، والرسول بالرسالة، واولى الأمر بالأمر بالمعروف والعدل والإحسان» «۲».

۷- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله أحدهم: بم عرفت ربّك؟

فأجاب: «بما عرّفنى نفسه» «۳».

أجل، إنّه معرّف ذاته (شروق الشمس دليل على الشمس) وذاته المقدّسة دليل ذاته دون الحاجة إلى معرّف، وخفاؤه على البعض بسبب شدّة ظهوره، كالنور الذى لا يقدر الإنسان على النظر إليه لو تجاوز حدّه، وكما قيل:

نور وجهك الحاجب عن ظهورك.

۲- إيضاح برهان الصدّيقين

من المناسب أن نفصّل هذا البرهان كما يراه الفلاسفة الإسلاميون، وبسبب تعقيد البحث

---

(۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۸۶، باب أنّه لا يعرف إلّابه، ح ۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۸۵، باب انّه لا يعرف إلّابه، ح ۱.

(۳) المصدر السابق، ح ۲.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۶۹

فإنّا سوف نبيّنه قدر الإمكان بتعبيرات واضحة دون استعمال الإصطلاحات الفلسفية.

ويجب الانتباه قبل كلّ شيء إلى أنّ مزايا برهان الصدّيقين تتمثّل في عدم التطرّق إلى الدور والتسلسل أو معرفة المؤثّر من خلال الأثر، ومن المخلوق إلى الخالق، ومن الممكن إلى الواجب في إثبات وجود اللّه، بل هو تحليل للوجود نفسه وحقيقة الوجود، وبذلك نصل إليه من خلال ذاته، وهذا هو المهمّ (وان لوحظ وجود خلط في عبارات البعض بين هذا الاستدلال واستدلال الوجوب والإمكان وبرهان العلّة والمعلول- كما بيّناه في السابق- ووضعوا بعضها موضع البعض الآخر) «۱».

وقد ذكرت تعاريف مختلفة لبرهان الصدّيقين منها: (تقدير صدر المتألّهين في الأسفار، ثمّ المحقّق السبزواري في حاشية الأسفار، ثمّ المرحوم العلّامة الطباطبائي في نهاية الحكمة وغيرهم في كتب اخرى)، والبيان الأوضح والأنسب دون الرجوع إلى استعمال برهان الوجوب والإمكان، والعلّة والمعلول وبدون الاستناد إلى مسألة الدور والتسلسل أن يقال:

إنّ حقيقة الوجود هي (العينية) في الخارج، وبتعبير آخر هي (الواقعية) وعدم قبول العدم، لأنّ كلّ شيء لا يتقبّل ضدّه، وبما أنّ (العدم) ضدّ (الوجود) فحقيقة الوجود- إذن- ترفض العدم.

ومن هنا نستنتج أنّ (الوجود) ذاتاً هو (واجب الوجود) أي أزلي أبدي، وبتعبير أخر إنّ التدبّر في حقيقة (الوجود) يرشدنا إلى أنّ (العدم) لا ينفذ إليه أبداً، وكلّ ما لا يطاله العدم فانّه واجب الوجود (فتأمّل جيّداً).

وأمّا صدر المتألّهين- وهو من السابقين إلى هذا الاستدلال- فيقول: «واعلم أنّ الطرق إلى اللّه كثيرة لأنّه ذو فضائل وجهات كثيرة، «ولكلٍّ وجهةٍ هو موليها» لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض، وأشدّ البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون في الوسط في البرهان غيره بالحقيقة، فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل

---

(۱) راجع نهاية الحكمة، ص ۲۶۸، وشرح مختصر المنظومة ص ۸ و ۹ للشهيد المطهّري.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۰

(الصدّيقين) الذين يستشهدون به (تعالى) عليه، ثمّ يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله، واحداً بعد واحد، وغير هؤلاء (كالمتكلّمين، والطبيعيين وغيرهم) يتوسّلون إلى معرفته (تعالى) وصفاته بواسطة إعتبار أمر آخر غيره (كالإمكان للمهيّة، والحدوث للخلق، والحركة للجسم، أو غير ذلك) وهي أيضاً دلائل على ذاته، وشواهد على صفاته، لكن هذا المنهج أحكم وأشرف.

وقد اشير في الكتاب الإلهي إلى تلك الطرق بقوله (تعالى): «سَنُرِيهِم آيَاتِنَا فِي الافَاقِ وَفِي أَنفُسِهِم حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُم أَنَّهُ الحَقُّ» وإلى هذه الطريقة بقوله (تعالى): «أَوَ لَم يَكفِ بِرَبِّكَ انَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ شَهِيدٌ».

ثمّ يضيف: وذلك لأنّ الربّانيين ينظرون إلى الوجود، ويحقّقونه ويعلمون أنّه أصل كلّ شيء، ثمّ يصلون بالنظر إليه إلى أنّه بحسب أصل حقيقته واجب الوجود، وأمّا الإمكان والحاجة والمعلولية وغير ذلك فإنّما تلحقه لا لأجل حقيقته بما هي حقيقته، بل لأجل نقائص وأعدام خارجة عن أصل حقيقته» «۱».

وباختصار عند ملاحظة الوجود الحقيقي نجد أنّه لا يجتمع مع العدم أبداً، ولا يسمح للعدم أن يتطرّق إليه وذلك لأنّ الوجود والعدم متقابلان، وهكذا إذا لاحظنا العدم فإنّا نجده يطرد الوجود عن ذاته، وعليه فإنّ حقيقة الوجود واجبة الوجود، والعدم ممتنع الوجود.

والإشكال المهمّ الذي يتبادر إلى الذهن والذي بادر صدر المتألّهين للإجابة عنه في الأسفار هو أنّ كلّ موجود- وفق هذا الاستدلال- يجب أن يكون واجب الوجود، لأنّ هذا الاستدلال يجري في كلّ مورد في حين نرى أنّ الممكنات حادثة وليست أزلية ولا أبدية ولا واجبة الوجود.

الإجابة: لابدّ من الإلتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ الوجودات الممكنة ليست وجودات أصيلة، بل هي وجودات محدودة ومصحوبة

بالعدم وهذا العدم ناشىء من محدوديتها، وما

---

(۱) راجع الأسفار، ج ۱، ص ۱۵ (بتلخيص يسير)، كما ورد نظير هذا المعنى فى حاشية الأسفار للمحقّق السبزوارى، ج ۸، ص ۱۴.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۱

يقال: إنّ الوجودات الممكنة تتركّب من شيئين فانّه يعنى أنّ الوجودات الممكنة فيها نوع من العدم بسبب محدوديتها، وعليه فإنّ الوجود الممكن ليس وجوداً أصيلًا وحقيقيّاً، لأنّ حقيقة الوجود هى عين الواقعية ولا سبيل لأىقيد أو شرط ونقصان إليها، ولهذا يكون الوجود الأصيل واجب الوجود حتماً.

ونؤكد- بأنّ الوصول إلى حقيقة هذا الاستدلال- بالرغم من هذه الإيضاحات- يحتاج إلى رياضة فكرية ودقّة وتعمّق كبير (فتأمل جيّداً).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۳

۶- الطريق الباطنى لمعرفة اللّه (الفطرة)

تمهيد:

(الإدراكات العقلية)- كما نعلم- تشكّل جزءً من المضمون الروحى لدى الإنسان، أى أنّ الإنسان لا يصل إلى كلّ شىء عن طريق الدليل العقلى، بل إنّ المتطلّبات والمكتسبات الفطرية الغريزية تشكّل جزءً مهمّاً من المحتوى الروحى فيه، حتّى أنّ الأساس فى الكثير من الأدلّة العقلية قائم على هذه المكتسبات الفطرية، فى حين تنشأ المتطلّبات والمكتسبات فى الحيوانات عن طريق الغريزة فقط.

وفى الحقيقة فإنّ الذين قاموا بتحديد الإنسان بالبعد العقلى لم يعرفوا تمام الأبعاد الوجودية للإنسان.

ومن المتّفق عليه أنّ طريق الباطن من الطرق المهمة فى مسألة (معرفة اللّه) التى لها طرق لا تحصى، والإنسان هنا يسلك أقصر الطرق، فبدلًا من (المعرفة) يصل إلى (الوجدان)، ومن (التفكير) إلى (الرؤية)، وبدلًا من إعداد (المقدّمات) يصل إلى ذى المقدّمات.

إنّه طريق عظيم، مثير للنشاط والحيوية ومريح.

وقد اعتمدت آيات قرآنية عديدة على هذا المعنى وجاءت بتعابير جميلة.

بعد هذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

۱- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (الروم/ ۳۰)

۲- «وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (الروم/ ۳۳)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۴

۳- «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البَرِّ إِذَا هُمْ يُشرِكُونَ». (العنكبوت/ ۶۵)

۴- «هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى البَرِّ وَالبَحْرِ حَتّى إِذَا كُنْتُم فى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِها جاءَتْهَا رِيحٌ عاصِفٌ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِى الأَرْضِ بِغَيرِ الحَقِّ». (يونس/ ۲۲- ۲۳)

۵- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ».

(الزخرف/ ۹)

۶- «وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤفَكُونَ». (الزخرف/ ۸۷)

۷- «وَلَئِنْ سأَلْتَهمُ مَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمسَ والقَمرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنّى يُؤْفَكُونَ». (العنكبوت/ ۶۱)

۸- «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّماءِ والأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمعَ والأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ».

(یونس/ ۳۱)

۹- «قُلْ لِّمَنِ الأَرضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُم تَعلَمُونَ* سَيَقُولُونَ للَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ* قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ* سَيَقُولُونَ للَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ* قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىءٍ وَهُوَ يُجيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُم تَعْلَمُونَ* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ».

(المؤمنون/ ۸۴- ۸۹)

۱۰- «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُم قَالُوا بَلى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذَا غَافِلِينَ». (الأعراف/ ۱۷۲)

شرح المفردات:

«الفطرة»: من مادة (فَطْر) وتعنى- كما أسلفنا- شق الشىء طولياً، ثمّ أطلق على كلّ شق،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۵

والشقّ ربّما يكون للتخريب وربّما للإصلاح ولذا يستعمل للمعنيين.

وبما أنّ (الخلق) بمثابة كشف حجاب ظلمات العدم، فيكون أحد المعانى المهمّة لهذه المفردة هو الإيجاد والخلق، ولنفس السبب يعطى معنى الإبداع والإختراع أيضاً.

ويطلق لفظ (الإفطار) على تناول الغذاء بعد أذان المغرب أو إبطال الصوم، فالصوم يُعد حالة متصله ومستمرة وعند تناول المفطر فإنّ هذه الحالة تُقطع أو تُهدم، ولهذا سميت حالة إبطال أو قطع الصوم بالإفطار.

كما يستعمل هذا اللفظ فى إنبات النباتات أيضاً وذلك لانفطار الأرض أثناء خروج النباتات منها، كما يطلق على عملية استخراج اللبن من الضرع باصبعين، فكأنّه ينشقّ ويخرج منه اللبن.

نقل عن ابن عبّاس قوله: لم أعرف معنى (فاطر السماوات والأرض) جيّداً حتّى جاء إلىّ رجلان أعرابيان يتنازعان على بئر، فقال أحدهما لإثبات ملكيته:

أنا فطرتها بمعنى (أنا حفرتها)، هنا أدركت أنّ (الفطر) يعنى الإيجاد والإبتداء فى الشىء.

ويطلق على البثور التى تظهر فى وجوه الشباب من البنين والبنات اسم (تقاطير) أو (تفاطير) «۱».

وإذا ما لاحظنا اعتبار بعض اللغويين مفردة (فطرة) بمعنى الدين والشرع إنّما هو لوجودها فى خلقة الإنسان منذ البداية كما سيأتى.

جمع الآيات وتفسيرها

الخلق الثابت والراسخ:

الآية الاولى التى تصرّح بأنّ (الدين) هو أمر فطرى وتخاطب النبى صلى الله عليه و آله: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً» «۲».

(۱) لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ نهاية ابن الأثير؛ ومجمع البحرين.

(۲) «حنيف» من «حنف» ويعنى كلّ ميل أو انحراف، وجاء بمعنى الميل من الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحقّ والتعبير ب (وجه) هنا كناية عن الذات، لأنّ الوجه أهمّ عضو فى الجسم وتقع فيه الحواس الهامّه كحاسّة البصر والسمع والذوق والشمّ.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۶

ومن أجل التعليل أو التشجيع على هذا الأمر تقول الآية بعد ذلك: «فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا» «۱».

وبما أنّ الإنسجام والتنسيق بين (التشريع) و (التكوين) يعتبر من المسلمات حيث لا يمكن وجود أمر متأصّل فى خلق الإنسان غير منسجم مع سلوكه، فيمكن أن يكون هذا التعبير دليلًا على وجوب العمل بأصل التوحيد ونفى كلّ شرك.

وللمزيد من التأكيد تقول الآية بعد ذلك: «لَاتَبْديلَ لِخَلْقِ اللَّهِ».

وهذا يعنى أنّ ما يتجذّر فى أعماق الوجود الإنسانى يستمرّ كأصل ثابت وراسخ- وسوف يتضح لنا بأنّ لهذه الجملة معنى غزير واعجازى، حيث تشير الدراسات الحديثة التى يجريها المفكّرون إلى أنّ العلاقات الدينية هى من أشدّ العلاقات الإنسانية تجذّراً ورسوخاً وبقاءً على مر التاريخ.

بيد أنّ فئة جاهلة وغافلة تقوم بإفساد هذه الفطرة الطاهرة بالشرك، ولذا فإن القرآن يؤكد على المحافظة عليها بذكر كلمة (حنيفاً) «۲».

وللمزيد من التأكيد تضيف الآية: «ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ».

كلمة «قيم» من مادة (قيام) واستقامة بمعنى الثابت والراسخ والمستقيم كما جاءت بمعنى القائم بشؤون المعاد والمعاش فى الإنسان «۳».

وبما أنّ الكثير من الناس يغفلون عن هذه الحقيقة ويبتلون بأنواع من عبادة الأصنام، لذا فقد ورد فى آخر الآية قوله سبحانه وتعالى: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ»، والجدير بالذكر أنّ الفطرة التى جاءت فى الآية لا تشمل التوحيد فقط بل تشمل الدين بجميع أُصوله وفروعه وسنتطرّق إلى هذا البحث الظريف إن شاء اللّه تعالى.

---

(۱) توجد أقوال كثيرة حول تعليل النصب فى (فطرة اللّه) ومنها أنّها بتقدير (اتّبع) و (الزم).

(۲) يقول بعض المفسّرين بأنّ «لا» فى «لَاتَبْدِيلَ لِخَلقِ اللَّهِ» نافية وتعطى معنى النهى (راجع تفاسير مجمع البيان والميزان وروح الجنان) ولكن كما قلنا فإنّ النفى أنسب وأجمل (فتأمّل جيّداً).

(۳) مفردات الراغب وكتب لغوية اخرى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۷

عند مواجهة الأزمات:

فى الآيات الثانية والثالثة والرابعة التى يدور البحث حولها (وبتعابير مختلفة) هناك إشارة إلى قضيّة عامّة وهى أنّ الإنسان حينما يواجه الصعوبات والبلاء الشديد ويعجز عن استخدام الوسائل الطبيعية يلجأ إلى فطرته الأصيلة فيشرق فى أعماق قلبه نور المعرفة الإلهيّة بعد اختفائه، ويتذكّر مبدأ العلم والقدرة الذى لا نظير له والذى يسهل عليه حلّ المشكلات كلّها.

ورد فى قسم من الآية قوله: «وَاذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا ربَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيهِ».

ولكن بعد انتهاء الأزمة وهبوب رياح الرحمة، فإنّ مجموعة منهم يعودون إلى شركهم «ثُمَّ إِذَا اذاقَهُم مِّنهُ رَحمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنهُمْ بِربِّهِمْ يُشرِكُونَ».

وفى موضع آخر يذكر هذا المعنى مقروناً بذكر مصداق واضح من الصعاب والمشكلات حيث تقول الآية: «فَاذَا رَكِبُوا فِى الفُلكِ»

«وأحاطت بهم الأمواج العظيمة والأعاصير المخيفة وامتلأت قلوبهم رعباً وهلعاً» «دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم إِلَى البَرِّ إِذَا هُم يُشرِكُونَ».

وقد أشارت آية اخرى إلى اخطار البحر هذه، بصورة جميلة اخرى حيث تقول بأنّ اللَّه هو الذى يُسيّركم فى الصحارى والبحار وعندما تركبون السفينة وتحرّككم الرياح الطيّبة الهادئة إلى أهدافكم والجميع يغمرهم الفرح والسرور، وفجأة تهبّ الأعاصير ويهيج البحر وتأتى الأمواج من كلّ جهة فتهدد الراكبين فى السفينة حتّى يروا الموت بأعينهم وينتابهم اليأس من الحياة يتذكّرون اللَّه فيدعونه مخلصين ويعاهدونه على أن يكونوا شاكرين له إذا نجّاهم من الهلاك (شكراً مصحوباً بالمعرفة):

«هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُم فِى البَرِّ وَالبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُم فِى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجاءَهُم المَوجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا انَّهُم احِيطَ بِهِم دَعَوُا اللَّه مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أَنجَيتَنَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

ولكن هؤلاء عندما ينجّيهم اللَّه من الأخطار الموحشة ويوصلهم إلى ساحل الأمان

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۸

ينسون عهدهم مع اللَّه فيشرعون مرّة اخرى بالظلم بدون حقّ فيسلكون طريق الشرك وهو من أعظم الظلم ويظلمون الذين تحت أيديهم مغرورين بالنعمة التى هم فيها: «فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبغُونَ فِى الْأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ».

كما يلاحظ هذا المعنى فى آيتين اخريين، ففى موضع تقول الآية:

«فَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا اوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ».

(الزمر/ ۴۹)

وفى موضع آخر تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ». (يونس/ ۱۲)

هذه الآيات الخمس مع أنّها تقصد حقيقة واحدة، بَيدَ أنّ كلّ آية تتمتّع بخصوصية ولطافة ولحن خاصّ، ففى بعضها ذكر لأنواع الأضرار والمشكلات والأذى والتى تشمل أنواع الأمراض والبلاء والقحط والآفات والمشكلات.

وفى البعض الآخر إشارة إلى أخطار البحر فقط (من قبيل الأعاصير والأمواج ودوران المياه والحيوانات الخطرة الموجودة فى أعماقه والضلال عن الطريق وأمثالها).

وفى الأخرى تركيز على أخطار الأعاصير والأمواج.

وفى آية اخرى حديث عن عودة الإنسان للسير فى طريق الشرك.

وفى آية اخرى ذكر لطريق البغى والظلم الذى له مفهوم أوسع من الشرك.

وفى آية اخرى إشارة إلى أنّهم يعتبرون المشاكل ناشئة من اللَّه أمّا النعم فانّها منهم، ونقرأ فى آية، أنّهم يشركون بأجمعهم، وتذكر آية اخرى فئة منهم، وذلك لاختلاف المجتمعات البشرية قسم من الفئة الاولى وبعضها قسم من الفئة الثانية.

وتقول آية اخرى: إنّهم يعاهدون اللَّه عند البلاء عهداً ينسونه عند استقرار الأوضاع وزوال البلاء، وفى آية اخرى يكون الحديث عن الدعاء والطلب من اللَّه تعالى.

وتقول آية اخرى: إنّهم إذا أصابهم شىء من الضرر (التعبير ب «مسّ» فيه إشارة إلى هذا المعنى)، ولكن فى آية اخرى أنّهم عندما ينتابهم اليأس من الحياة يقبلون على اللَّه، ولعلّ هذا

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۷۹

الاختلاف إشارة إلى مختلف أفراد البشر حيث يكون البعض من القسم الأوّل والبعض الآخر من القسم الثانى.

وقد ذكرت كلمة (الإخلاص) فى الكثير من الآيات، حيث تشير إلى رفض كلّ معبود سوى اللَّه الواحد، وتدلّ على أنّهم حين الدعة

والراحة يعبدون اللّه أيضاً، ولكنّهم يجعلون للّه أنداداً سرعان ما ينسونهم عند ارتفاع الأمواج العاتية أو الأعاصير الموحشة، ويغمر نور التوحيد والوحدانية قلوبهم ويضيء وجودهم.

ورد فى تفسير «روح البيان» بأنّ عبدة الأوثان وفى أثناء رحلاتهم البحرية (حيث كانت رحلاتهم محفوفة بالمخاطر، باعتبار أنّ السفر عن طريق البحر مملوء بالحوادث وفى ذلك الزمان أكثر خطراً بالنسبة لعصرنا الحاضر وذلك لافتقارهم للمعدات البحرية المتطورة).

فكانوا يحملون معهم الأصنام، وعند هبوب الأعاصير العنيفة فانّهم كانوا يلقون أصنامهم فى البحر ويستغيثون بأصوات عاليه، ياربّ! ياربّ! «۱».

والأعجب أنّهم كانوا يسمعون من النبى صلى الله عليه و آله جميع الأدلّة المنطقية الناصعة، لكنّهم لم يؤمنوا، فى حين كانوا يقبلون على اللّه بكلّ وجودهم عندما يتعرضون للبلاء الشديد، وهذا ممّا يشير إلى أنّ طريق الفطرة أسمح وأيسر للكثير من الناس من الطرق الاخرى.

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يحذّر الذين يستجيبون لنداء الفطرة عند الشدة وينسونه عند الرخاء، ويلفت أنظارهم ببيان جميل بقوله: «أَفَأَمِنْتُم أَنْ يَخسِفَ بِكُمْ جانِبَ البَرِّ أَوْ يُرسِلَ عَلَيكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكيلًا» «۲».

هل هناك إلهان أحدهما للبحر والآخر للبرّ؟! أم أنّ اللّه قادرٌ فى البحر ولا قدرة له فى البرّ؟! إنّ اللّه قادر على أن يأمر الأرض بأن تبتلع كل ما موجود عليها فى لحظة واحدة وبواسطة زلزال واحد «۳».

---

(۱) روح البيان، ج ۶، ص ۴۹۳.

(۲) الإسراء، ۶۸.

(۳) قبل عدّة سنوات وقع زلزال فى شمال أفريقيا وفيه ابتلعت الأرض قرية كاملة ولم يعثروا حتّى على خرائبها!

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۰

وقد حدث مراراً أن تهب الأعاصير وتحمل الحصى والرمال إلى السماء وتلقيها فى نقاط اخرى، وقد تطمر تحتها قافلة بأكملها.

اللّه الذى يأمر الأمواج فى البحار- إذن- قادر على أن يتّخذ من الأعاصير والزلازل فى الصحارى جنوداً يهلك بهم الفاسدين.

ويتبع هذه الآية جواب آخر حيث يقول:

«أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرى فَيُرسِلَ عَلَيكُمْ قَاصِفاً مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً». (الإسراء/ ۶۹)

أى أنّكم تظنّون أنّ هذه هى رحلتكم البحرية الأخيرة؟ إنّه خطأ كبير.

إقرار المشركين:

وتتضمّن الآية الخامسة حتّى التاسعة من آيات البحث حديثاً حول هذا المضمون:

«وَلَئِنْ سَأَلتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَليمُ».

وأيضاً: «وَلَئِنْ سَأَلتَهُمْ مَّنْ خَلَقَهُم لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

وأيضاً: «قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمعَ وَالأَبصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

ولو سألت عبدة الأوثان- عن خلق كلّ فرد من المخلوقات وكيفية تدبير امورها فانّهم يقرّون بأنّ اللّه وحده هو الخالق والمدبّر!!

إنّ هذه الآيات القرآنية وأمثالها «۱» من الشواهد الحيّة على التوحيد الفطرى، ومن الممكن أن تكون هذه الإجابة المتناسقة نتيجة

للاستدلال العقلى أيضاً وذلك عن طريق برهان النظم، ولكن بملاحظة أنّ المشركين العرب اناسٌ امّيون وبعيدون عن العلم والفكر والاستدلال، فإنّ هذا التناسق فى الإجابة يدلّ على أنّها كانت تنبع من فطرتهم وهم فى ذلك

---

(١) العنكبوت، ۶۳؛ لقمان، ۲۵؛ الزمر، ۳۸.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۱

سواء وبدون استثناء، وإلّا فإنّ الاستدلالات العقلية مهما كانت واضحة فانّها لا يمكن أن تكون شاملة وعامّة إلى هذه الدرجة وخاصّة بين جماعة بعيدة عن العلم والفكر.

من هنا فإنّا نعتقد أنّ الآيات الخمس أو أمثالها تشكّل أدلّة على التوحيد الفطرى.

ولذا يقول صاحب تفسير «روح البيان» فى ذيل الآية ۹ من سورة الزخرف:

«وفى الآية إشارة إلى أنّ فى جبلة الإنسان معرفة للّه‌مركوزة» «۱».

وفى تفسير «الفخر الرازى» فى ذيل الآية ۸۷ من سورة الزخرف عرض لهذا المضمون على صورة سؤال وجواب فيقول: «ظنّ قوم أنّ هذه الآية وأمثالها فى القرآن تدلّ على أنّ القوم مضطرون إلى الإعتراف بوجود الإله للعالم، وقوم إبراهيم قالوا: «وَانَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدعُونَنَا إِلَيهِ». (ابراهيم/ ۹)

فيقال لهم: لا نسلّم أنّ قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا، قوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا واستَيقَنَتْهَا أَنفُسُهُم ظُلماً وَعُلُواً». (النمل/ ۱۴)

وجاء فى قوله تعالى حيث قال موسى عليه السلام لفرعون: «لَقَد عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَالأَرضِ بَصَائِرَ». (الاسراء/ ۱۰۲)

فالقراءة بفتح التاء فى علمت تدلّ على أنّ فرعون كان عارفاً باللّه، وأمّا قوم إبراهيم عليه السلام حيث قالوا: «وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدعُونَنَا إِلَيهِ» فهو مصروف إلى إثبات القيامة وإثبات التكاليف وإثبات النبوّة» «۲».

وفى التعبير ب (لقد علمت ....) إشارة واضحة إلى هذا المعنى.

والطريف أنَّ آيتين من هذه الآيات تذكران فى النهاية بعد أخذ الإقرار من الكفّار والمشركين بأنَّ اللّه هو الخالق للإنسان والأرض والسماوات: «فَأَنَّى يُؤفَكُونَ» «۳».

وبناء الجملة للمجهول إشارةٌ إلى أنَّ ذواتهم تسير فى طريق الفطرة، غير أنَّ أسباباً خارجية وهى (شياطين الجنّ والإنس)، وأسباباً داخلية وهى (أهواء النفس والعصبية

---

(١) تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۳۵۳، ذيل الآية ۸۷ من سورة الزخرف إشارة إلى هذا المعنى أيضاً.

(٢) التفسير الكبير، ج ۸، ص ۳۹۹، ج ۲۷، ص ۲۳۳.

(٣) «تؤفكون» مشتق من «الإفك» ويعنى الإرجاع والحرف ولذا يطلق «الإفك» على الكذب أيضاً كما تطلق «المؤتفكات» على الرياح المعارضة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۲

الجاهلية) تحرفهم عن الحقّ رغم تجذّره فى أعماق فطرتهم.

فى حين جاء التعبير فى موضع آخر ب «فَأَنّى تُسحَرُونَ» بصيغة المبنى للمجهول، وهى عبارة تطلق على من يتّبع أمراً دون إرادة.

ويوجد احتمال آخر فى تفسير هذه الآيات وهو أنَّهم كانوا يقولون بأنَّ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله يريد أنْ يحرفنا عن طريق

الحقّ أو أنّه ساحر قد سحرنا، فردّ عليهم القرآن: مع أنّكم تُقرّون بأنَّ اللَّه هو خالق السماء والأرض والشمس والقمر والبشر، وهو المدبّر لهذا الكون فكيف يحرفكم أو يسحركم من يدعوكم إلى عبادته ونبذ عبادة غيره؟ أى عقل يحكم بهذا؟!

إنّ الكثير من المفسّرين ومنهم (الطبرسى فى مجمع البيان والعلّامة الطباطبائى فى الميزان والفخر الرازى فى التفسير الكبير والآلوسى فى روح المعانى والقرطبى فى تفسيره) اختاروا التفسير الأوّل ولو أنّ التفسير الثانى غير بعيد عن مفهوم الآية.

عهد عالم الذرّ:

الآية العاشرة والأخيرة فى هذا البحث تذكر تعبيراً آخر بصياغة جديدة حول التوحيد الفطرى ولا نظير لها فى الآيات القرآنية الاخرى، وبسبب المحتوى المعقّد لهذه الآية دارت حولها أحاديث مطوّلة بين العلماء والمفسّرين والمتكلّمين وأرباب الحديث، نورد- بصورة إجمالية- آراءهم المختلفة ثمّ رأينا المختار بعد الفراغ من تفسيرها.

تقول الآية الكريمة: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَتهم وَأَشْهَدَهُم عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» فقالوا جميعاً: «بَلى شَهِدنَا» وتُضيفُ الآية بأنَّ اللَّه تعالى فعل ذلك لئلّا يقولوا يوم القيامة إنّا غفلنا عن هذا الأمر (وهو التوحيد ومعرفة اللَّه): «أَنْ تَقُولوا يَومَ القِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» أو تتشبّثوا بحجّة (التقليد) بدلًا عن حجّة (الغفلة) وتقولوا:

«إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبلُ وَكُنَّا ذُرِّيَةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَل المُبطِلُونَ».

(الأعراف/ ۱۷۳)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۳

هذه الآيات تكشف عن حقائق بصورة إجمالية، منها:

۱- أنّ اللَّه تعالى أظهر جميع ذرّية آدم إلى يوم القيامة فى مرحلة واحدة من الخلق.

۲- أنّ اللَّه سبحانه أشهدهم على أنفسهم وأخذ الإقرار منهم بربوبيته.

۳- الهدف من أخذ الإقرار والإعتراف والشهادة لأمرين:

أوّلًا: عدم السماح للمشركين لادّعاء الغفلة والجهل عن حقيقة التوحيد ووحدانية اللَّه يوم القيامة.

وثانياً: منعهم من اتّخاذ التقليد لآبائهم ذريعة لارتكاب المعاصى.

وأهمّ سؤال يُطرح هنا هو: متى وقع هذا (الظهور)؟ وبأيّة صورة تمّ ذلك؟ وما المراد من (عالم الذرّ)؟ وكيف تحقّق هذا الأمر؟ للأجابة عن هذا السؤال هناك ستّة آراء على الأقل، وقد أيّد كلَّ واحد منها جماعة من المفكّرين الإسلاميين:

۱- طريق المحدّثين وأهل الظاهر، حيث يقولون: إنّ المراد هو ما ورد فى بعض الأحاديث من أنّ ذريّة آدم بأجمعهم قد خرجوا من ظهره على شكل ذرّات دقيقة وملأت الفضاء وكانت تتمتّع بالعقل والإحساس والقدرة على النطق، فخاطبهم اللَّه عزّوجلّ وسألهم: (ألست بربّكم؟) فقالوا جميعاً: (بَلى ؛ وبذلك أخذ العهد الأوّل على التوحيد، وكان بنو الإنسان بأنفسهم شاهدين على ذلك «۱».

۲- المراد من عالم الذرّ وتفسير الآية أعلاه هو الذرّات الاولى لوجود الإنسان، أى النطفة التى انتقلت من ظهور الآباء إلى أرحام الامّهات وتبدّلت فى المراحل الجنينية إلى صورة إنسان كامل تدريجياً، وقد أعطاها اللَّه عزّوجلّ فى ذلك الحال القوى والقابليات المختلفة كى تدرك حقيقة التوحيد ومنهاج الحقّ، وقد جعل هذه الفطرة التوحيدية ملتحمة بوجوده.

---

(۱) يقول العلّامة المجلسى رحمه الله فى شرح أصول الكافى (مرآة العقول، ج ۷، ص ۳۸) عن هذه الحقيقة: (طريقة المحدّثين والمتورّعين فانّهم يقولون نؤمن بظاهرها ولا نخوض فيها، ولا نطرق فيها التوجيه والتأويل)؛ والفخر الرازى ينسب ذلك إلى المفسّرين

والمحدّثين تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۴۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۴

يذهب إلى هذا التفسير جمع من المفسّرين كصاحب تفسير (المنار) و (فى ظلال القرآن) ونقلوا ذلك عن الكثير من المفسّرين «۱».

وبهذا يكون (عالم الذرّ) هو عالم الجنين ويكون السؤال والجواب بلسان الحال لا القال؛ ولهذا الأمر شواهد ونظائر كثيرة وردت فى كلمات العرب وغيرهم؛ كما نقل السيّد المرتضى فى كلامه عن بعض الحكماء حيث يقول: «سَل الأرض من شقّ أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنْ لم تُجبك حواراً أجابتك اعتباراً».

هذاالقول يشابه ما ذكره جمع من المفسّرين حول الحمد والتسبيح اللذين يعمّان موجودات العالم حتّى الجمادات أيضاً.

۳- المراد من (عالم الذرّ) هو (عالم الأرواح) ويعنى ذلك أنّ اللَّه عزّوجلّ خلق فى البداية أرواح البشر قبل أجسادهم، وخاطبها وأخذ الإقرار منها على وحدانيته.

وقد استخلص هذا التفسير من بعض الروايات كما سنشير إليه.

والجدير ذكره أنَّ كلمة (ذرّية) فى آية البحث مشتقّةٌ من (ذرّ) وهى تعنى ذرّات الغبار الدقيقة، أو النمل الدقيق أو أجزاء النطفة أو من (ذرْو) ويعنى التفريق أو من (ذرْء) ويعنى الخلق.

بناءً على ذلك لا نسلّم بأنّ الأصل فى (ذرّية) هو (ذرّ) بمعنى الأجزاء الدقيقة (فتأمّل جيّداً).

۴- إنَّ هذا السؤال والجواب وقع بين جمع من البشر وبين اللَّه عزّوجلّ بواسطة الأنبياء وبلسان القال حيث استمع جمع من البشر إلى أدلّة التوحيد- بعد ولادتهم وإكتمال عقولهم- من الأنبياء واستجابوا لها وقالوا (بلى).

فإنْ قيل إنّ (ذريّة) مشتقّة من (ذرّ) وتعنى الاجسام الصغيرة جدّاً فلا تنجسم مع هذا المعنى فيردّ أصحاب هذا القول: بأنَّ أحد المعانى المعروفة ل (ذريّة) هو الأبناء- صغاراً وكباراً- وأنّ إطلاق (ذريّة) على العقلاء والبالغين فى القرآن الكريم ليس بالقليل.

---

(۱) تفسير المنار، ج ۹، ص ۳۸۷ (تعبيره ينسجم مع القول الخامس)؛ تفسير فى ظلال القرآن، ج ۳، ص ۶۷۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۵

وقد ذكر السيّد المرتضى رحمه الله هذا التفسير- فى بعض كلماته- على شكل احتمال فى إيضاح الآية المذكورة، كما أنّ أبا الفتوح الرازى قد أورد هذا التفسير كاحتمال فى تفسيره إضافةً إلى وجود إشارة إلى ذلك فى تفسير الفخر الرازى فى ذيل الآية «۱».

۵- أنّ هذا السؤال والجواب هو مع البشر بأجمعهم بلسان الحال وذلك بعد البلوغ والكمال والعقل، فكلّ إنسان يقرّ بعد اكتمال عقله ومشاهدته لآيات اللَّه فى الآفاق والأنفس بوحدانية اللَّه بلسان حاله، وكأنّ اللَّه عزّوجلّ يسألهم بإرائة هذه الآيات: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ»؟ فيجيبون بلسان الحال: «بلى ، وأمّا الحديث بلسان القال فإنّ له شواهد ونظائر كثيرة.

وهذا التفسير ينقله الشيخ الطوسى رحمه الله فى التبيان عن البلخى والرمّانى «۲».

۶- وهو التفسير الذى اختاره العلّامة الطباطبائى رحمه الله فى «الميزان»: بعد أن ذهب إلى استحالة أن يكون للبشر وجود مستقل سابقاً مقروناً بالحياة والعقل والشعور وقد أخذ اللَّه منهم العهد على وحدانيته ثمّ أعادهم إلى حالتهم السابقة كى يجتازوا مسيرتهم الطبيعية، وبذلك يأتون إلى الدنيا مرّتين فقال:

وأثبت بقوله: «إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* فَسُبحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىءٍ». (يس/ ۸۲- ۸۳)

وقوله: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمحٍ بِالبَصَرِ». (القمر/ ۵۰)

إنّ هذا الوجود التدريجى للأشياء ومنها الإنسان هو أمر من اللَّه يفيضه على الشىء ويلقيه إليه بكلمة (كن) إفاضة دفعية والقاء غير تدريجى، فلوجود هذه الأشياء وجهان، وجه إلى الدنيا وحكمه أن يحصل بالخروج من القوّة إلى الفعل تدريجاً، ومن العدم إلى

الوجود شيئاً فشيئاً ويظهر ناقصاً ثمّ لا يزال يتكامل حتّى يفنى ويرجع إلى ربّه، ووجه إلى اللَّه سبحانه وهو بحسب هذا الوجه امور تدريجية وكلّ ما لها فهو لها فى أوّل وجودها من غير أن تحتمل قوّة تسوقها إلى الفعل ... وبعبارة اخرى: أنّ الموجودات لها نوعان من

---

(۱) تفسير روح الجنان، ج ۵، ص ۳۲۶.

(۲) تفسير التبيان، ج ۵، ص ۲۷ (وفى تفسير المنار ج ۹، ص ۳۸۶ تعبير يقرب من هذا المعنى).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۶

الوجود، الأوّل: الوجود الجمعى عند اللَّه تعالى والذى يعبّر عنه القرآن الكريم بالملكوت، والآخر: الوجودات المتناثرة التى تظهر تدريجياً بمرور الزمان.

وبهذا تكون حياة الإنسان فى الدنيا مسبوقة بحياة إنسانية اخرى لا يكون فيها أحد محجوباً عن اللَّه تعالى، وقد شاهده هناك كلُّ موجود بالشهود الباطنى وأقرّ بربوبيته.

ثمّ يضيف رحمه الله: لو دقّقنا فى الآيات الآنفة الذكر لرأينا أنّها تشير إلى هذا المعنى.

بعد اتّضاح التفاسير الستّة بصورة إجمالية نشرع بدراستها ونقدها:

القول الأوّل هو أضعف الأقوال لدى الكثير من المحقّقين، ووجّهوا إليه أغلب الإشكالات، حيث أشكل عليه الطبرسى فى «مجمع البيان» والسيّد المرتضى- كما نقله العلّامة المجلسى رحمه الله فى مرآة العقول- كما أنّ الفخر الرازى أورد ۱۲ إشكالًا على هذا القول! غير أنّ بعضها ليس جديراً بالإهتمام وبعضها مكرّر أو قابل للإندماج مع غيره، وبصورة عامّة تتوجّه خمسة إشكالات إلى هذا القول:

أ) إنَّ هذا التفسير لا ينسجم مع كلمة (بنى آدم) أبداً، وكذلك مع ضمائر الجمع فى الآية، وكلّها تتحدّث عن بنى آدم لا آدم نفسه، كما لا يتطابق مع لفظة «ظهور» جمع «ظهر»، والخلاصة هى أنّ الآية تقول: إنّ «الذرّية» ظهرت من ظهور «بنى آدم» لا من ظهر «آدم»، فى حين أنّ الروايات تدور حول نفس آدم.

ب) لو صحّ أخذ مثل هذا العهد الصريح فى عالم سابق لهذا العالم فكيف يعقل نسيان ذلك من قبل البشر بأجمعهم؟! وهذا النسيان العام دليل على استبعاد هذا التفسير، لأنّ المستفاد من الآيات القرآنية هو أنّ البشر لا ينسون حوادث الدنيا حين تقوم الساعة ولهم حوار بشأنها غالباً، فهل الفاصل الزمنى بين عالم الذرّ والدنيا هو أكثر من الفترة بين الدنيا والآخرة؟

ج) لو سلّمنا- فرضاً- بأنّ هذا النسيان العام يمكن تبريره بالنسبة لعالم الذرّ، ولكن النتيجة هى علّية هذا العهد، لأنّه يكون مؤثّراً حينما يتذكّره الناس، أمّا ما ينساه كافّة البشر

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۷

فانّه يفقد تأثيره التربوى ولا ينفع فى إلقاء الحجّة وسدّ باب الاعذار.

د) يستفاد من قوله تعالى: «رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ». (المؤمنون/ ۱۱)

إنّ للبشر موتتين وحياتين (حيث كانوا موجودات ميتة فأحييت ثمّ يموتون ثمّ يحيون يوم القيامة) فى حين يكون لهم- وفق هذا التفسير- أكثر من موتتين وحياتين: (موت وحياة فى عالم الذرّ وموتان وحياتان آخران).

ه) يستلزم هذا التفسير (التناسخ)، لأنّا نعلم بأنّ التناسخ ليس إلّاحلول روح واحدة فى جسمين أو أكثر، وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الروح الاولى تعلّقت أوّلًا بالذرّات الدقيقة جدّاً والتى خرجت من ظهر آدم ثمّ خرجت لتتعلّق بالأجسام الحاضرة، وهذا هو عين التناسخ.

وبطلان التناسخ هو من المسلّمات فى الدين، ولذا فإنّ الشيخ المفيد رحمه الله فى كتابه «جواب المسائل السرويّة» عندما يذكر التفسير أعلاه مقروناً ببعض الروايات يضيف: «هذه أخبار القائلين بالتناسخ وفيه جمعوا بين الحقّ والباطل» «۱».

وقد ورد هذا الكلام بنفسه فى كلام شيخ المفسّرين الطبرسى رحمه الله «۲».

وسنلاحظ بإذن اللّه لدى مطالعة أخبار عالم الذرّ أنّ الأخبار الدالّة على هذا التفسير معارضة بأخبار اخرى.

وأمّا القول الثانى الذى يتحدّث عن خلق فطرة التوحيد والقابلية الخاصّة لمعرفة اللّه فى عالم الرحم فإنّه أقلّ الأقوال إشكالًا، والإشكال الوحيد الذى أورده عليه هو أنّ ظاهر الآية المبحوث عنها هو أنّ السؤال والجواب جاء بلسان القال لا الحال، وهو ضرب من التشبيه والمجاز، مضافاً إلى أنّ جملة (أخذ) دليل على أنّ هذا الأمر قد أخذ فى الماضى، فى حين

---

(۱) مرآة العقول، ج ۷، ص ۴۱.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۹۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۸

أنّ فطرة التوحيد للأجنّة هى أمر مستمرّ ويتحقّق فى كلّ زمان، والإشكالان يمكن الإجابة عليهما وذلك لعدم مانعية حمل هذا الكلام على لسان الحال مع القرينة، وقد كثر ذلك فى اللغة العربية نثراً وشعراً و ...، والإشكالات المهمّة التى ترد على التفسير الأوّل قرينة واضحة على هذا التفسير، والفعل الماضى قد يستعمل فى الاستمرار أيضاً، وهذا- طبعاً- يحتاج إلى قرينة أيضاً، وهذه القرينة موجودة فى موضوع البحث «۱».

أمّا التفسير الثالث القائل بأنّ المراد هو: سؤال الأرواح فانّه لا ينسجم مع آية البحث أبداً، لأنّ الآية تتحدّث عن أخذ الذرّية من ظهور بنى آدم ولا يرتبط هذا بقضيّة الأرواح.

وأمّا التفسير الرابع القائل بأنّ السؤال والجواب كان بهذا اللسان الطبيعى ويرتبط بمجموعة من البشر قد سئلوا بعد إبلاغهم بواسطة الأنبياء عن مسألة التوحيد وأجابوا بالإيجاب عليه، فإنّ عليه إشكالات رئيسية منها:

إنّ الآية تتحدّث عن جميع البشر لا مجموعة صغيرة منهم آمنوا بالأنبياء أوّلًا ثمّ كفروا، مضافاً إلى أنّ ظاهر الآية هو كون السؤال من قِبَلِ اللّه لا من قبل الأنبياء.

ولا يصحّ ما يظنّه البعض من أنّ جملة: «إنّما أشرَك آباؤُنا من قَبْل» دليل على أنّ الآية تقصد المجموعة التى أشرك آباؤها، لأنّ الآية تذكر عذرين غير موجّهين للكفّار، الأوّل هو الغفلة والثانى التقليد للآباء المشركين.

ويمكن أن يكون كلّ عذر لمجموعة خاصّة وأنّهما معطوفان بكلمة (أو).

وأمّا التفسير الخامس فإنّه يشابه التفسير الثانى من جهات مع وجود فارق وهو: أنّ التفسير الثانى يتحدّث عن الفطرة القلبية، بينما يتحدّث التفسير الخامس عن فطرة العقل وكما أسلفنا فإنّ هذا التفسير قد مال إليه كثير من المفسّرين الأعلام.

وأمّا التفسير السادس الذى ورد فى «تفسير الميزان» فإنّه يواجه إشكالَيْن كبيرين:

الأوّل: هو إثبات عالمين (عالم جمعى وعالم تفصيلى) ولا دليل واضح لهما حسب ما ورد من البيان.

---

(۱) شوهدت هذه العبارة كثيراً فى الآيات القرآنية: فاطر، ۴۴؛ الشورى، ۵۱؛ الفتح، ۱۱؛ الفتح، ۱۹.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۸۹

والثانى: أنّ تطبيق الآية على هذا العالم (بافتراض ثبوته) يبدو بعيداً جدّاً ولا يسلم أصل القضيّة وفرعها من الإيراد.

حصيلة البحث عن عالم الذرّ:

نصل ممّا ذُكر إلى هذه النتيجة وهى: أنّ التفسير الثانى والخامس- بعد الدراسة الدقيقة- هما أقلّ التفاسير إشكالًا، وامّا الإشكال الوارد

فى أنّه يخالف الظاهر فى بعض الجهات فإنّه يمكن التغاضى عنه مع توفّر القرينة والنظائر الكثيرة لذلك فى اللغة العربية وغيرها، ولذا فإنّ الكثير من المفسّرين المشهورين وعلماء العقائد والكلام قد اختاروهما، كما تتضمّن الروايات إشارات واضحة إلى هذا المضمون وسيأتى ذلك فى البحث المقبل بإذن اللّه.

وباختصار: إنّ أغلب المحقّقين يعتقدون بأنّ هذا السؤال والجواب الإلهى قد تمّ مع جميع البشر وبلسان الحال لا القال، أو عن طريق الإستعداد الفطرى المودع فى الجنين أو عن طريق الإستعداد العقلى الذى أوجده فيهم بعد البلوغ والكمال العقلى، أحدهما يتحدّث عن الفطرة القلبية (دون الحاجة إلى استدلال) والثانى يتحدّث عن الفطرة العقلية التى تعتبر معرفة اللّه من البديهيات العقلية، حيث إنّ دلائله من الوضوح ما يجعل كافّة البشر يدركون ذلك، صحيح أنّ مجموعة من البشر ينكرون ذلك بلسان القال ويؤيّدون الماديّة، ولكنّنا حينما نحلّل كلامهم نراهم يجعلون للمادّة والطبيعة نوعاً من العقل والإحساس، وبعبارة اخرى أنّهم أطلقوا كلمة (الطبيعة) على (اللّه)، ونعتقد أنّ الإشارة إلى الفطرة القلبية هى الأنسب (فتأمّل جيّداً).

توضيحات

۱- (عالم الذرّ) فى الروايات الإسلامية

إنَّ المصادر الإسلامية (السنّية والشيعية) تتضمّن روايات جمّة عن (عالم الذرّ) تبدو

وكأنّها روايات متواترة، فمثلًا يتضمّن تفسير نور الثقلين ۳۰ رواية، وتفسير البرهان ۳۷ رواية ولعلّها تتجاوز الأربعين فى مجموعها (مع حذف المكرّرات)، كما يتضمّن تفسير (الدرّ المنثور) روايات عديدة، ممّا يشير إلى أنّ مضامين الروايات لا تنحصر فى مذهب إسلامى خاصّ.

غير أنّ كثيراً منها منقولة عن راوٍ واحد ولذا يشملها حكم الخبر الواحد (يلاحظ أنّ كثيراً منها مروى عن زرارة، وعدداً منها عن أبى بصير، وبعضاً منها عن جابر، كما تلاحظ روايات عن عبداللّه بن سنان وصالح بن سهل) وبهذا فإنّ العدد الحقيقى للروايات ينخفض بشكل ملحوظ.

هذا وإنّ مضامين هذه الروايات متباينة تماماً فبعضها يتّفق مع التفسير الثانى القائل بأنّ هذا العهد عهد فطرى ويرجع إلى إيداع المعرفة الفطرية فى الإنسان نظير الرواية التى ينقلها عبداللّه بن سنان عن الإمام الصادق عليه السلام: «قال: سألته عن قول اللّه عزّوجلّ «فطرة اللّه التى فطر الناس عليها» ما تلك الفطرة؟، قال: هى الإسلام، فطرهم اللّه حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» وفيه المؤمن والكافر» «۱».

وكما تلاحظ فإنّ الحديث يتضمّن بياناً عن الإرتباط الوثيق بين آية (الفطرة) وآية (عالم الذرّ)، وقد روى زرارة هذا المعنى بعبارة اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام، فإنّه عندما سأل الإمام عليه السلام عن تفسير الآية «وإذ أخذ ربّك ...» أجابه عليه السلام: «ثبتت المعرفة فى قلوبهم ونسوا الموقف، ويذكرونه يوماً، ولولا ذلك لم يدر أحد من خالقه ومن رازقه؟» «۲».

فى حين أنّ بعضاً آخر من الروايات يتّفق مع التفسير الأوّل حيث تذكر أنّ ذرّية آدم خرجوا من ظهره على صورة ذرّات، وقد أخذ اللّه هذا العهد منهم بلسان القال، كالروايات التى وردت فى تفسير البرهان المرقّمة ب ۳، ۴، ۸، ۱۱، ۲۹ (وقد روى زرارة هذه الروايات عن الإمام الباقر عليه السلام وهى- فى الحقيقة- رواية واحدة).

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۷، ح ۷؛ و تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۹۵، ح ۳۴۵.

(۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۸، ح ۱۵.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۱

وقد ورد هذا المعنى فى تفسير الدرّ المنثور عن ابن عبّاس بطرق متعدّدة ولكن يطول ذكرها وهى ذات مضمون واحد فى الحقيقة وتتلخّص فى حديث واحد عن ابن عبّاس وليس عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وفى كتب اخرى نقل هذا المعنى بطرق اخرى.

والإشكال المهمّ الذى يرد على هذه الأحاديث هو أنّها مخالفة لظاهر وصريح كتاب اللَّه لأنّها تقول بأجمعها: أنّ ذرّية آدم خرجت من ظهر آدم على صورة ذرّات، فى حين يقول القرآن الكريم بأنّ الذرّات هذه خرجت من ظهور بنى آدم: «مِنْ بَنى آدمَ مِن ظهورِهِم ذُرِيَّتَهم».

وإضافة إلى ذلك فإنّ ثمّة إشكالات عديدة اخرى ترد على مضامين هذه الأحاديث تمّت الإشارة إليها وتجعلها فى المجموع فى عداد الأحاديث الضعيفة.

والمجموعة الثالثة من الأحاديث مبهمة وتلائم التفاسير المختلفة، مثل الحديث الذى يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام حيث سأله: كيف أجابوا وهم ذرّ؟! فقال عليه السلام: «جعل اللَّه فيهم ما إذا سألهم أجابوه، يعنى فى الميثاق» «۱».

وهناك مجموعة رابعة من الأحاديث تقول بأنّ هذا السؤال والجواب قد جريا مع أرواح البشر، وهذا يوافق التفسير الثالث فقط، كرواية المفضّل بن عمر عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «قال اللَّه عزّوجلّ لجمع أرواح (بنى آدم) ألست بربّكم؟ قالوا: بلى «۲».

كما يستفاد من مجموعة روائية خامسة أنّ اللَّه سبحانه أوقف الأرواح البشرية فى ذلك اليوم على نفس الهيئة التى تخلق عليها وأخذ منها العهد «۳».

بناءً على ما ذكر وبملاحظة التعارض بين هذه الروايات وضعف السند فى كثير منها، لا يمكن الإعتماد عليها كمستمسك معتبر أبداً، والأفضل كما يقول العلماء العظام هو أن نترك

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۹، ح ۲۲.

(۲) المصدر السابق، ح ۲۰.

(۳) تفسير درّ المنثور، ج ۳، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۲

فى مثل هذه الموارد الحكم بشأنها وندع العلم بها إلى أهلها «۱».

نبقى والآية أعلاه وما يستفاد منها بمعونة القرائن المختلفة، وكما أشرنا فإنّ التفسير الثانى- كما يبدو- هو الأنسب من بين التفاسير الستّة المذكورة للآية، وهو التفسير الذى يعتبر عالم الذرّ منسجماً مع فطرة المعرفة الإلهيّة والإسلام، وعليه فإنّ ذرّات النطفة منذ خروجها من ظهور الآباء واستقرارها فى أرحام الامّهات تكون قد استقرّ فيها نور المعرفة والتوحيد والقانون الإلهى على صورة قابلية ذاتية.

۲- فطرة العقل أم القلب؟

الحصيلة من كلمات العلماء فى بحث فطرية المعرفة الإلهيّة هى أنّهم سلكوا طريقين، فبعض اعتبر الفطرة هنا بمعنى الاستدلال العقلى

الواضح، وهو أنّ كلّ إنسان بعد اكتمال عقله وملاحظته لنظام عالم الوجود وبعض الأسرار فى الخلق ينتقل إلى هذه الحقيقة فوراً وهى استحالة نشوء هذا النظام البديع ذى الأسرار العجيبة من مبدأ فاقد للعقل والإحساس، وعليه فإنّ الفطرة تعنى: (العقل الفطرى) الذى يكفيه استدلال واضح للوصول إلى الحقيقة ولا يحتاج إلى استاذ أو معلّم، كما يحكم الإنسان بأنّ (الكلّ أكبر من الجزء) حيث أدركه باستدلال عقلى واضح وهكذا عندما يقول بأنّ (المساويين لشىء متساويان).

من هنا نلاحظ أنّ علماء المنطق يقسّمون بديهيات المنطق إلى ستّة أقسام:

الأوّليات، المشاهدات، التجريبيات، المتواترات، الحدسيات، الفطريات، وقالوا فى تعريف (الفطريات): بأنّها القضايا التى لا يصدق بها العقل بمجرد تصوّرها بل يحتاج إلى حدّ أوسط وهو حاضر لدى الذهن دائماً، وللفطرة معنى آخر وهو أصحّ وأفضل فى البحوث

---

(۱) للمزيد من المعلومات عن الروايات المرتبطة بعالم الذرّ يمكن مراجعة الكتب الخمسة الآتية: بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۷۷؛ مرآة العقول، ج ۷، ص ۳۶؛ تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۶؛ تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۹۳؛ وتفسير درّ المنثور، ج ۳، ص ۱۴۱، وما بعدها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۳

المعنية وهو: إدراك الحقائق من دون الحاجة إلى أى استدلال (معقّد أو بسيط) ويتفهّمها بوضوح ويتقبّلها، فهو حينما يشاهد- مثلًا- باقة من الورد الجميل ذات عطر زكىّ يقرّ بجمالها، دونما حاجة إلى إقامة الدليل أبداً، ويقول بأنّها جميلة حقّاً ولا تحتاج إلى دليل.

والفهم الفطرى فى مجال المعرفة الإلهيّة من هذا القبيل، فالإنسان حينما يتدبّر من أعماق روحه يبصر نور الحقّ ويسمع نداءه بقلبه، يدعوه إلى مبدأ العلم والقدرة التى لا مثيل لها فى عالم الوجود، مبدأ الكمال المطلق ومطلق الكمال، وهو فى الفهم الوجدانى- كما فى جمال الورد- لا يشعر بحاجة إلى إقامة الدليل.

۳- شواهد حيّة على فطرية الإيمان باللّه

اشارة

ربّما يقال بأنّ هذه كلّها ادّعاءات ولا سبيل لإثبات مثل هذه الفطرة فى المعرفة الإلهيّة، فمن الممكن أن أدّعى بأنّى أشعر بهذا الإحساس فى قلبى أى من أعماق روحى، ولكن كيف أقنع شخصاً يرفض هذا الكلام؟ لدينا شواهد كثيرة بإمكانها إثبات فطرية المعرفة الإلهيّة بشكل واضح جدّاً، بنحو يفحم المنكرين، ويمكن تلخيصها فى أقسام خمسة:

أ) الحقائق التاريخية

إنّ الحقائق التاريخية التى تمّت دراستها من قِبَل أقدم المؤرّخين فى العالم تدلّ على عدم وجود دين لدى الأقوام السابقة، بل كان كلّ قوم يؤمنون بمبدأ العلم والقدرة فى عالم الوجود ويعبدونه، ولو سلّمنا بوجود حالات نادرة فى هذا الأمر، فإنّ هذه القضية لا تضرّ بالأصل العام الذى يحكم بأنّ المجتمعات البشرية كلّها كانت دائماً على طريق عبادة اللّه (كل قاعدة كليّة لها استثناءات نادرة).

المؤرّخ الغربى الشهير (ويل ديورانت) فى كتابه (قصة الحضارة) يُقرّ بهذه الحقيقة بعد الإشارة إلى بعض الموارد فى الإلحاد الدينى ويقول: «إلى جانب هذه القضايا التى ذكرناها فإنّ الإلحاط الدينى من الحالات النادرة، وهذا الإعتقاد القديم بأنّ التديّن حالة بشرية عامّة يتطابق مع الحقيقة ...».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۴

«تعتبر هذه القضيّة من القضايا التاريخية والنفسية الأساسية لدى الفيلسوف، فهو لا يقول بأنّ الأديان مملوءة باللغو والباطل بل يلتفت

إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الدين كان مع التاريخ منذ أقدم العصور» «۱».

ويقول فى تعبير آخر بهذا الشأن: «أين تكمن التقوى التى لا تفارق قلب الإنسان أبداً؟» «۲».

كما يقول فى كتابه (دروس التاريخ) وبتعبير ساخط ومتألّم: «للدين مائة روح، كلّما تقتله فإنّه يسترجع الحياة مرّة اخرى!» «۳».

ولو كان الإيمان باللَّه والدين ناشئاً عن تقليد أو تلقين أو دعاية من قبل الآخرين لما كان عاماً وشاملًا بهذا الحجم ولما استمرّ طيلة التاريخ، وهذا أفضل دليل على أنّه أمر فطرى.

ب) الآثار التاريخية

إنَّ الآثار المتبقّية من عصور ما قبل التاريخ (أى ما قبل اختراع الخطّ وكتابة أحوال الإنسان) تدلّ على أنّ البشر ما قبل التاريخ كانوا يعتقدون بالدين ويؤمنون باللَّه والمعاد والحياة بعد الموت، بدليل أنّهم كانوا يدفنون الأشياء التى يحبّونها معهم كى يستفيدوا منها بعد الموت! كما أنّ تحنيط أجساد الأموات حفظاً لها من الإندثار، وبناء المقابر نظير (أهرام مصر) لتبقى أزماناً متماديةً دليل على إيمان الأسلاف بالمبدأ والمعاد.

صحيح أنّ هذه الأعمال تدلّ على اقتران إيمانهم الدينى بخرافات كثيرة إلّاأنّها دليل على أنّ الإيمان الدينى فى مراحل ما قبل التاريخ لا يمكن إنكاره.

ج) الدراسات النفسية واكتشافات علماء النفس

إنّ الأبعاد الروحية للإنسان وميوله الأساسية هى أيضاً دليل واضح على فطرية العقائد

---

(۱) قصة الحضارة، ويل ديورانت، ج ۱، ص ۸۷.

(۲) المصدر السابق، ص ۸۹.

(۳) الفطرة للشهيد المطهّرى، ص ۱۵۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۵

الدينية، وهى أربعة ميولات سامية وأصيلة عبّر عنها بعض علماء النفس بأنّها الأبعاد الأربعة لروح الإنسان وتشمل: (۱- حبّ العلم، ۲- حبّ الجمال، ۳- حبّ الخير، ۴- حبّ الدين) وتمثّل شاهداً حيّاً على هذا الأمر «۱».

وقد اعتبرها بعض العلماء خمسة أبعاد هى: (۱- مقولة البحث عن الحقيقة، ۲- مقولة الخير الأخلاقية، ۳- مقولة الجمال، ۴- مقولة الإبداع، ۵- مقولة العشق والعبادة) «۲».

ويبدو أنّ مقولة الإبداع لا تنفكّ عن مقولة البحث عن الحقيقة.

على أيّة حال فإنّ حبّ العلم يوجِد فى الإنسان ميلًا شديداً نحو العلم وفهم أسرار عالم الوجود، وهذا الإحساس يشمل الامور المؤثّرة وغيرها فى حياته.

ونريد أن نعلم كيف كانت الدنيا قبل مليار عام وكيف ستكون بعد مليار عام؟ دون أن تكون لهذه الامور فى فهمها على الحياة الفردية والاجتماعية تأثيرات عملية، فهذا الحسّ هو السبب فى ظهور العلوم والمعارف.

إنَّ الجمال الذى يشعر به كلّ إنسان فى أعماقه هو الذى يدفعه إلى الإبداع وهو المصدر الأساس لكلّ الفنون.

وإنَّ حبّ الخير هو السبب فى ظهور الأخلاق والإلتزام فى الإنسان تجاه المبادىء من قبيل العدل، الحرية، الصدق، وأمثالها، ومن الممكن أن لا يلتزم كثير بهذه المبادىء عمليّاً غير أنّه لا ريب فى ارتياح قلوبهم لها.

البعد الرابع لروح الإنسان والمعبّر عنه أحياناً بالميل نحو الكمال المطلق أو البعد المقدّس والإلهى هو الذى يدفع الإنسان نحو الدين، وهو يؤمن بوجود ذلك المُبدىء العظيم بدون حاجة إلى دليل خاصّ، ويمكن أن يقترن هذا الإيمان الدينى بألوان من الخرافات وينتهى بعبارة الأصنام والشمس والقمر، غير أنّ بحثنا يدور حول الأساس فيه.

---

(۱) راجع مقالة (كوونتايم) فى كتاب (الحسّ الدينى أو البعد الرابع لروح الإنسان).

(۲) الفطرة، للشهيد المطهّرى، ص ۶۴.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۶

د) فشل الدعاية ضدّ الدّين

نحن نعلم بأنّ دعايات شديدة لا- مثيل لها من حيث السعة شُنّت ضدّ الدين فى القرون الأخيرة وخاصّة فى الغرب بالاستفادة من الأساليب والوسائل المختلفة.

وكانت بداياتها فى مرحلة النهضة العلمية فى اوربا (رنسانس) وفيها تحرّرت المحافل العلمية والسياسية من ضغوط الكنيسة وطغى التيار المعارض للدين (كان الدين المسيحى هو السائد وقتئذٍ فى اوربا) إلى درجة تُطرح فيها الأفكار الملحدة فى كلّ مكان واستغلّوا مكانة الفلاسفة وعلماء العلوم الطبيعية بشكل خاصّ لرفض الاسس الدينية كلّها حتّى فقدت الكنيسة مكانتها المرموقة، وانعزل رجال الدين فى اوربا وأصبح الإيمان بوجود اللّه والمعجزات والمعاد والكتب السماوية فى عداد الخرافات.

وغدا من المسلّمات لدى كثير منهم أنَّ البشرية مرّت بمراحل أربع هى: (مرحلة الأساطير، مرحلة الدين، مرحلة الفلسفة، ومرحلة العلم) وحسب هذا التقسيم يكون الدين قد انقرض فى مرحلة سابقة!

والعجيب أنّ كتب علم الإجتماع الحديثة التى تمثّل الصورة المتكاملة لعلم الإجتماع السائد آنذاك تفترض هذه القضيّة من المسلّمات، وهى أنّ الدين يمثل عاملًا طبيعيّاً يتردّد بين الجهل والخوف والمتطلّبات الاجتماعية والامور الاقتصادية، فهناك اختلاف بصددها!

صحيح أنّ السلطة الدينية الحاكمة (أى الكنيسة) فى القرون الوسطى هى التى يجب أن تدفع الثمن بسبب استبدادها وظلمها وتعاملها السيّ مع الناس بصورة عامّة وعلماء الطبيعة بصورة خاصّة، إضافةً إلى اهتمام الكنيسة بالشكليات والمظاهر وبالامور التى لا تستحقّ الإهتمام ونسيان المحرومين من طبقات المجتمع، لكن العيب فى هذا الأمر هو أنّ الكلام لم يكن عن البابا والكنيسة فحسب بل عن المذاهب فى العالم كلّها.

وقد دخل (الشيوعيون) كغيرهم الميدان ليقضوا على الدين بكلّ ما يمتلكون من قوّة، وسخّروا جميع الأجهزة الإعلامية وأفكار فلاسفتهم من أجل ذلك وسَعَوْا سعيهم لإظهار الدين وكأنّه افيون الشعوب!

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۷

بيد أنّا نشهد أنّ هذه التيارات العاتية ضدّ الدين لم توفّق لاجتثاث الجذور الدينية المغروسة فى القلوب والقضاء على النشاط الدينى، وها نحن اليوم نرى بامّ أعيننا انتشار الوعى الدينى بشكل واسع من جديد حتّى فى البلدان الشيوعية، والأخبار التى تتناقلها وسائل الإعلام تحكى عن الرعب المتزايد الذى يعيشه الحكّام فى هذه المناطق إزاء الميول الدينية وخاصّة الإسلامية، كما نلاحظ فى الأقطار الشيوعية- التى تبذل محاولات يائسة وفاشلة للقضاء على الدين- ظهور حركات تطالب بانتشار الدين.

هذه الحقائق تدلّ بصورة واضحة على تجذّر الدين فى أعماق (الفطرة) البشرية، وبذلك استطاع أن يواجه التيارات الإعلامية المعارضة العاتية ولولاها لانقرض تماماً.

ه) التجارب الشخصية فى الأزمات

إنَّ أغلب الناس جرّبوا هذه الحقيقة فى حياتهم وهى: أنّ الإنسان حينما يواجه مشكلات قاتلة، وشدائد الحياة الصعبة، ويُبتلى بدوّامات البلاء وحينما توصد بوجهه الأبواب ويبلغ السيل الزبى، ففى هذه اللحظات المضطربة يورق أمل فى أعماق روحه، فيتجه إلى اللَّه سبحانه القادر على حلّ المشكلات كلّها فيتعلّق به ويستمدّ العون منه.

ولا يستثنى من ذلك حتّى الأشخاص الذين ليس لديهم ميول دينية حيث تصدر منهم ردود فعل روحية عند تعرّضهم للأمراض الخطرة والهزائم الماحقة وهذه شواهد على الحقيقة التى تتحدّث عنها الآيات القرآنية السابقة حول فطرية المعرفة الإلهيّة.

نعم، فى زوايا قلب الإنسان وأعماق روحه نداء لطيف ملىء بالرحمة وقوى وبيّن يدعوه إلى الحقيقة الكبرى، وهى (اللَّه) القادر والمتعالى والعالم، وبحثنا يدور حول الإيمان بتلك الحقيقة لا عن تسميتها.

و) شهادة العلماء على فطرية الدين

ليست قضيّة فطرة (معرفة اللَّه) قضيّة مطروحة فى القرآن الكريم والروايات الإسلامية

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۸

فحسب، بل إنّ كلمات العلماء والفلاسفة من غير المسلمين والشعراء عامرة بها:

فمثلًا، يقول اينشتاين فى حديث طويل: «إنّ العقيدة والدين موجودان فى الجميع دون استثناء ... إنّى اسمّيه (الشعور الدينى للخلق) .. فى هذا الدين يشعر الإنسان الصغير بآمال وأهداف البشرية العظيمة والجلال الكامن خلف هذه القضايا والظواهر، إنّه يرى وجوده كسجن، وكأنّه يريد التحرّر من سجن الجسم ليدرك الوجود كلّه كحقيقة واحدة» «۱».

ويقول العالم الشهير باسكال:

«للقلب أدلّة لا يدركها العقل» «۲».

ويقول ويليم جيمز:

«إنّى أقرّ تماماً بأنّ القلب هو المصدر للحياة الدينية، كما اقرّ بأنّ القواعد الفلسفية تشابه موضوعاً مترجماً كُتب نصّه بلغة اخرى» «۳».

ويقول ماكس مولر:

«لقد خضع أسلافنا للَّهفى عصور لم يكونوا قادرين فيها حتّى على إطلاق اسم على اللَّه» «۴».

وهو القائل فى موضع آخر: «خلافاً لما تقوله النظرية الشهيرة بأنّ الدين ظهر أوّلًا بعبادة الطبيعة والأشياء والأصنام ثمّ وصل إلى عبادة اللَّه الواحد، فلقد أثبت علم الآثار بأنّ عبادة اللَّه الواحد كانت سائدة منذ أقدم الأيّام» «۵».

ويقول المؤرّخ الشهير (بلوتارك):

«لو لاحظتم العالم فإنّكم ستجدون أماكن كثيرة لا عمران فيها ولا علم وصناعة وسياسة ودولة، ولكنّكم لا تجدون موضعاً ليس فيه اللَّه» «۶».

---

(۱) العالم الذى أراه، ص ۵۳ (بتلخيص).

(۲) مسيرة الحكمة فى اوربا، ج ۲، ص ۱۴.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۲۱.

(۴) مقدّمة الدعاء، ص ۳۱.

(۵) الفطرة للشهيد المطهّرى، ص ۱۴۸.

(۶) مقدّمة الدعاء، ص ۳۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۹۹

ويقول صموئيل كينغ فى كتاب (علم الإجتماع): «كان لجميع المجتمعات البشرية لون من الدين وإن قام علماء الأنساب والرحالة والمبشّرون (المسيحيون) الأوائل بذكر أسماء مجموعات لا تدين بدين أو مذهب، ولكن أقوالهم- كما عُلم فيما بعد- لم يكن لها أساس من الصحّة فأحكامهم ناشئة فقط من ظنّهم بأنّ أديان اولئك يجب أن تشابه ديننا» «۱».

ونختم هذا البحث بكلام ل (ويل ديورانت) المؤرّخ المعاصر الشهير حيث قال: «إن لم نتصوّر للأديان جذوراً فى عصر ما قبل التاريخ، فإنّنا لا يمكن أن نتعرّف على حقيقتها فى التاريخ» «۲».

۴- الفطرة فى الروايات الإسلامية

إنّ قضيّة فطرية التوحيد فى العبادة بشكل خاصّ، أو الدين والمذهب بصورة عامّة، أمر فطرى ذو انعكاس كبير فى الروايات الإسلامية بالرغم من اختلاف التعبير فيها، ففى بعضها عرض لقضيّة التوحيد وتوحيد العبادة كأمر فطرى كما فى الحديث الآتى، حيث سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام- وهو علاء بن فضيل- عن الآية الكريمة: «فطرتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا»، فأجاب عليه السلام: «التوحيد» «۳».

كما ورد هذا المضمون فى أحاديث عديدة اخرى «۴».

وفى القسم الآخر من هذه الأحاديث اعتبرت (معرفة اللَّه) أمراً فطرياً، كالحديث الذى يرويه زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام حينما سأله عن تفسير الآية: « «حُنَفاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ»:

أهى الفطرة التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق اللَّه؟ قال عليه السلام: فطرهم اللَّه على المعرفة».

---

(۱) علم الإجتماع لصموئيل كينغ، ص ۱۹۱.

(۲) قصّة الحضارة، ج ۱، ص ۸۸.

(۳) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۷۷، ح ۴.

(۴) المصدر السابق، ح ۵، ۶، ۸، ۱۰.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۰

وقال: قال رسول اللَّه عليه السلام: كلّ مولود يولد على الفطرة يعنى على المعرفة بأنّ اللَّه عزّوجلّ خالقه» «۱».

وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى أحاديث اخرى «۲».

وبعض الروايات تعرّف (الاصول الإسلامية) كلّها أمراً فطرياً، كما نقرأ فى الحديث النبوى الشريف: «كلّ مولود يولد على الفطرة حتّى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه وينصّرانه» «۳».

وقد نقلت النصوص الشيعية والسنّية هذا الحديث بكثرة وهو من الأحاديث الشهيرة جدّاً.

ويلاحظ نظير هذا المضمون فى روايات اخرى وفيها تأكيد على قضيّة التوحيد ونبوّة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وولاية على عليه السلام «۴».

وختاماً فإنّ بعض الروايات تؤكّد على قضيّة الولاية، كما نقرأ الحديث الذى يرويه أبو بصير عن الإمام الباقر عليه السلام فى آية البحث

حيث عبّر عن المقصود فى الآية بأنّه: «الولاية» «۵».

وواضح أنّ هذه التفاسير لا تتنافى فيما بينها أبداً، فالاصول الدينية- فى الحقيقة- توجد فى الفطرة البشرية بصورة مركّزة، غير أنّ بعض الروايات تشير إليها كلّها وبعضها الآخر يشير إلى قسم منها.

وفى الحقيقة فإنّ فطرة التوحيد لا يمكن أن تنفصل عن اصول العقيدة لأنّ اللّه الحكيم لم يخلق العباد عبثاً، ومن البديهى أنّه وضع تكاليف ومناهج لتكامل العباد يجب إبلاغها عن طريق الرسل، ويحفظها أوصياؤهم وتنفذ عن طريق الولاية وتشكيل الحكومة الإسلامية وتظهر نتائجها فى عالم الآخرة.

---

(۱) بحار الانوار، ج ۳، ص ۲۷۹، ح ۱۱.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۲، ۱۳.

(۳) غوالى اللآلى، طبقاً لبحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۱، ح ۲۲.

(۴) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۲۷۷، ۲۷۸، ۲۸۰، ح ۳، ۹، ۱۸.

(۵) المصدر السابق، ح ۲.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۱

وباختصار فإنّ فى متناول أيدينا روايات كثيرة حول فطرة التوحيد والإسلام وللمزيد يمكن مراجعة مصادر اخرى مثل:

تفسير البرهان الجزء ۲، صفحة ۴۶ وما بعدها.

مرآة العقول الجزء ۷، صفحة ۵۴ وما بعدها.

تفسير نور الثقلين الجزء ۴، صفحة ۱۸۱ وما بعدها.

تفسير الدرّ المنثور الجزء ۳، صفحة ۱۴۲ وما بعدها.

بحار الأنوار الجزء ۳، صفحة ۲۷۶ وما بعدها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۳

وحدانية الذات المقدّسة «أهمّ أصل فى معرفة اللّه»

اشارة

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۵

تمهيد:

توصّلنا فيما سبق من أبحاث إلى إثبات وجود اللّه سبحانه بطرق مختلفة (خمسة أدلّة عقلية رئيسة) إضافةً إلى طريق الفطرة الذاتية.

الآن وبعد الإيمان بأصل وجوده سبحانه فإنّ البحث يدور حول معرفته، والموضوع المهمّ فيه هو بحث التوحيد والوحدانية، لأنّه من جهة يعتبر أصلًا لبقية الصفات، ومن جهة اخرى يشكّل الأساس فى كلّ الأديان السماوية خصوصاً القرآن حتّى أنّ أغلب ما تتضمّنه هذه الكتب السماوية بصدد وجود اللّه تدور حول محور هذا البحث، إلى الحدّ الذى ظنّ فيه البعض بأنّ القرآن لا يتحدّث عن (أصل وجود اللّه) بل إنّه يتحدّث عن توحيده والاستدلال على ذلك، وهذا الكلام مبالغ فيه.

ومن جهة ثالثة تُستمدّ جميع العقائد الإسلامية والأحكام والقوانين والامور الاجتماعية والأخلاقية والعبادية من هذا الأصل، لذلك

أولى القرآن الكريم اهتمامه الخاصّ لقضيّة (التوحيد والشرك) وعكس القرآن برمّته النظرية الإسلامية بهذا الصدد، بل يمكن القول بعدم وجود موضوع حَظِيَ بهذه الدرجة من الإهتمام فى القرآن الكريم مثلما حظى بها ذلك الموضوع.

كما أنّ قضيّة التوحيد ومحاربة الشرك لم تكن محوراً أساسياً فى حركة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فحسب، بل وفى حركة سائر الأنبياء عليهم السلام.

بهذا التمهيد نطّلع أوّلًا على عِظم معصية الشرك فى القرآن المجيد، ثمّ نذكر الأدلّة القرآنية المختلفة على إثبات حقيقة التوحيد وبطلان الشرك.

فى البدية نتأمل خاشعين فى الآيات الآتية:

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۶

۱- «إِنَّ اللَّهَ لَايَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افترى إِثْماً عَظيماً». (النساء/ ۴۸)

۲- «إِنَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيداً». (النساء/ ۱۱۶)

۳- «وَلَقَد اوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ». (الزمر/ ۶۵)

۴- «وَإِذْ قَالَ لُقْمانُ لِابنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يابُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

(لقمان/ ۱۳)

۵- «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ». (الحجّ/ ۳۱)

۶- «قُلْ تَعالَوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيئاً». (الأنعام/ ۱۵۱)

۷- «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصارٍ». (المائدة/ ۷۲)

۸- «يَاأَيُّها الّذِينَ آمَنُوا إِنَّما الْمُشرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحرَامَ بَعْدَ عامِهِمْ هذا ...». (التوبة/ ۲۸)

۹- «وَأَذانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُه ...». (التوبة/ ۳)

۱۰- «الزَّانِى لَايَنْكِحُ إِلَّا زَانِيةً أَوْ مُشْرِكةً وَالزَّانِيَةُ لَايَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ..». (النور/ ۳)

۱۱- «قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وإِلَيهِ مَآبِ».

(الرعد/ ۳۶)

۱۲- «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ* أَن لَّاتَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنّى

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۰۷

أَخَافُ عَلَيكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» «۱». (هود/ ۲۵- ۲۶)

۱۳- «قُلْ إِنَّما يُوحَى إِلَىَّ أَنَّمَا إِلهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسلِمُونَ». (الأنبياء/ ۱۰۸)

۱۴- «قَدْ كانَتْ لَكُمْ اسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَومِهِمْ إِنَّا بُرَءؤُا مِنْكُم وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغْضَاءُ أَبداً حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ..». (الممتحنة/ ۴)

شرح المفردات:

«شِرك»: ذُكر لها فى مقاييس اللغة معنيان:

الأوّل: هو التعاون والمقارنة والشركة ويقابله الإنفراد.

والثانى: هو الشىء المستقيم والممتدّ.

والمعروف من مشتقّات هذه المفردة هو المعنى الأوّل، وللمعنى الثانى مصطلحات خاصّة منها (شِتراك) للحذاء، و (شَرَك) الطرق

الضيّقة المستقيمة التى تتفرّع من الطريق العام أو بمعنى القسم الأوسط من الطريق المستقيم، كما يعنى الفخّ الذى ينصبه الصيّاد.

ويُصرّ بعض اللغويين على إرجاع المعنيين إلى المعنى الأوّل، إلّاأنّه لا يخلو من تكلّف، كما لا دليل يدعو للإصرار على ذلك «۲».

وقد استُعمل (الشرك) فى القرآن الكريم عادةً بمعنى الإعتقاد بوجود ندٍّ للّه‌سبحانه والتوافق على وجود المثيل والشريك فى الذات أو الصفات أو الخلق والتدبير أو المماثل له

---

(۱) جاء هذا المضمون فى آيات قرآنية اخرى مثل هود، ۲؛ الإسراء، ۲۳؛ يس، ۶۰؛ فصّلت، ۱۴؛ إضافة إلى آيات عديدة اخرى عبارات مختلفة تتعلّق بأهميّة التوحيد وقبح الشرك بجميع صوره وأشكاله، لو جمعت وفسّرت لتألّف منها كتاب كبير، وما ورد أعلاه هى النماذج المهمّة منها.

(۲) راجع كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم)، صحيح أنّ أغلب الكلمات المشتركة ترجع إلى مصدر واحد ولكن لا يمكن القول أنّ ذلك يصدق فى جميع الموارد، فقد تضع طائفتان كلمة واحدة لمعنيين متباينين دون أن تعلم إحداهما بالاخرى.

فى العبودية.

يقول الراغب فى المفردات: الشرك فى الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم وهو إثبات شريك للّه‌تعالى وذلك أعظم كفر.

والثانى: الشرك الصغير وهو مراعاة غير اللّه فى بعض الامور وهو الرياء والنفاق «۱».

«واحد»: مشتقّ من (وحدة) ويعنى فى الأصل- كما يقول الراغب فى المفردات-: الشىء الذى لا جزء له، ثمّ اتّسع استعماله حتّى أخذ يطلق على كلّ شىء يتّصف بالوحدانية، ويضيف:

فالواحد لفظ مشترك يستعمل على ستّة أوجه: ۱- ما كان واحد فى الجنس أو فى النوع كقولنا الإنسان والفرس واحد فى الجنس وزيد وعمرو واحد فى النوع.

۲- ما كان واحداً بالاتّصال إمّا من حيث الحلقة كقولك شخص واحد وإمّا من حيث الصناعة كقولك حرفة واحدة.

۳- ما كان واحداً لعدم نظيره.

۴- ما كان واحداً لامتناع التجزّى.

۵- لمبدأ العدد كقولك واحد إثنان.

۶- لمبدأ الخطّ كقولك النقطة الواحدة وإذا وصف اللّه تعالى بالواحد فمعناه هو الذى لا يصحّ عليه التجزّى ولا التكثّر «۲».

«وأحد وصف مأخوذ من الوحدة كالواحد، غير أنّ الأحد إنّما يطلق على ما لا يقبل الكثرة لا خارجاً ولا ذهناً ولذلك لا يقبل العدّ، ولا يدخل فى العدد بخلاف الواحد فإنّ كلّ واحد له ثانٍ وثالثٌ إمّا خارجاً أو ذهناً [ك] قولك: ما جاءنى من القوم أحد، فإنّك تنفى به مجىء إثنين منهم وأكثر كما تنفى مجىء واحد منهم بخلاف ما لو قلت: ما جاءنى واحد منهم فإنّك إنّما تنفى به مجىء واحد منهم بالعدد ولا ينافيه مجىء إثنين منهم أو أكثر ...» «۳».

---

(۱) مفردات الراغب، ص ۲۶۱ مادّة (شرك)، لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب اخرى.

(۲) مفردات الراغب، ص ۵۵۱ مادّة (واحد)؛ لسان العرب؛ التحقيق؛ مقاييس اللغة؛ جمهرة اللغة وكتب اخرى.

(۳) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۸۷.

واحتمل بعضٌ أنّ (أحد) يقابل المركب و (واحد) يقابل المتعدّد، غير أنّ المستفاد من موارد الاستعمال فى القرآن أنّهما بمعنى واحد، وسنفصّل ذلك فى المستقبل بإذن اللّه.

جمع الآيات وتفسيرها

الذنب الذى لا يُغتفر:

تصرّح آية البحث الاولى بأنّ الشرك هو الذنب الوحيد الذى لا يغتفر حيث تقول: «إِنَّ اللَّهَ لَايَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ».

ومفهوم هذه العبارة هو أنّ جميع الذنوب الكبيرة والمظالم والجرائم والقبائح لو وضعت فى كفّة ميزان ووضعَ الشرك فى الكفّة الاخرى لرجّحت كفّة الشرك.

ولذا يقول ذيل الآية من أجل التأكيد أو إقامة الدليل: «ومَنْ يُشرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرى إِثْماً عَظِيماً».

ويعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية نزلت فى اليهود (بقرينة الآيات التى بعدها) حيث اتّحد بعضهم مع المشركين العرب وكانوا يقدّسون أصنامهم ويعتقدون- فى الوقت ذاته- أنّهم من أهل النجاة!

ولو سلّمنا بسبب النزول هذا فإنّه لا يضيق دائرة مفهومها.

وقال بعض: إنّ الآية نزلت فى جمع من المشركين (كوحشى قاتل حمزة عمّ النبى، وأمثاله) وقد ندموا على ما فعلوا بعد مدّة وكتبوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إنّا قد ندمنا على الذى صنعناه وليس يمنعنا عن الإسلام إلّاإذا سمعناك تقول وأنت بمكّة: «وَالَّذِينَ لَايَدعُونَ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ وَلَا يَقتُلُونَ النَّفسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ...». (الفرقان/ ۶۸)

وقد دعونا مع اللّه إلهاً آخر وقتلنا النفس التى حرّم اللّه وزنينا فلولا هذه لاتّبعناك فنزلت هذه الآية: «إِلَّا مَن تَابَ وعَمِلَ عَملًا صَالِحاً ...». (الفرقان/ ۶۹)

فبعث بهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى وحشى وأصحابه، فلمّا قرؤوها كتبوا إليه: إنّ هذا شرط شديد نخاف أن لا نعمل عملًا صالحاً فلا نكون من أهل هذه الآية فنزلت: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ ...» فبعث بها إليهم فقرأوها فبعثوا إليه: إنّا نخاف أن لا نكون من أهل مشيئته فنزلت:

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۰

«قُلْ يَا عِبَادِى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَاتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِإِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ». (الزمر/ ۵۳)

فبعث بها إليهم فلمّا قرأوها دخل هو وأصحابه فى الإسلام ورجعوا إلى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقبل منهم ...» «۱».

على أيّة حال فإنّ الآية كما يقول كثير من المفسّرين- هى إحدى الآيات القرآنية التى تبعث روح الأمل حيث تقول: إنّ الإنسان إذا خرج من الدنيا بإيمانه فإنّه سوف لا ييأس من رحمة اللّه، ولكن إذا خرج بلا إيمان أى فى حالة شرك فإنّه لا سبيل له إلى النجاة.

الآية الثانية تتحدّث عن مضمون الآية السابقة ذاته مع فارق هو أنّها تقول فى ذيلها:

«وَمَنْ يُشرِكْ بِاللَّه فَقَد ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً»، والكلام فى الآية السابقة دار حول الإثم العظيم وأمّا هنا فهو يدور حول الضلال البعيد، وهذان أمران متلازمان إذ أنّ الذنب كلّما كان أعظم فإنّه يبعّد الإنسان أكثر ويزيده ضلالًا.

والآية السابقة لاحظت الجانب العلمى والعقائدى من الشرك وهنا لاحظت الآثار العملية له، ومن الأكيد أنّ هذه الآثار تنشأ من تلك الجذور.

الآية الثالثة تحمل أوضح التعابير وأقساها عن عاقبة الشرك والانحراف عن التوحيد حيث تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

«لقد اوحِيَ اليكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكتَ لَيحبطنَّ عَملُكَ وَلَتَكونَنَّ مِنَ الخاسِرينَ».

ومن الثابت أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله وكلّ نبى من الأنبياء، لم يسلكوا- لعصمتهم- طريق الشرك أبداً، إلّاأنّ الآية ومن أجل بيان أهميّة المسألة ولكى يحسب الآخرون حسابهم

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۵۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۱

قامت ببيان أخطار الشرك بهذه الدرجة من الحزم.

واستناداً إلى هذه الآية فلو أفنى الإنسان حياته فى العبادة وعبودية اللّه ومارس الأعمال الصالحة ولكنّه أشرك فى آخر عمره لحظةً واحدة ومات بتلك الحالة فإنّ أعماله سوف تُحبط، فالشرك بمنزلة صاعقة محرقة تَلتَهم حصيلة عمره وتصيّره رماداً، وكما أشار القرآن الكريم فى الآية ۱۸ من سورة إبراهيم إلى أنّه رماد اشتدّت به الريح فى يوم عاصف.

«ليحبطن»: من (حبط) وأصله (حَبَط) ويطلق على الحيوان حينما يأكل الكلأ حتّى ينتفخ فيمرض ثمّ يموت، ثمّ استعمل فى الأعمال الكثيرة ذات المظهر الجميل ولكن باطنها فاسد وتؤول إلى الفناء «۱».

وقد جاء نظير ذلك فى (لسان العرب) و (مصباح اللغة)، غير أنّ لسان العرب ذكر أنّ أحد معانى (إحباط) هو جفاف ماء البئر وعدم توقّفه.

وفى (مقاييس اللغة) أنّ الأصل فى معناه هو (البطلان) أو (الألم) كما أنّ (حبط) يطلق كذلك على الجرح بعد شفائه.

على أيّة حال فإنّ هذه المفردة فى آية البحث والكثير من الآيات والروايات تعنى محق ثواب الأعمال الصالحة وزوال آثارها الإيجابية.

وهناك أبحاث حول حقيقة حبط الأعمال وكيفيته ولكن لا مجال لبيانها.

أعظم الظلم:

نقرأ فى الآية الرابعة تعبيراً مهولًا حول الشرك على لسان لقمان حينما كان يعِظ إبنه بقوله: «يَابُنَىَّ لَاتُشرِكْ بِاللَّه انَّ الشِّرْكَ لَظلمٌ عَظِيمٌ».

ولقمان وإن لم يكن نبيّاً- كما هو المشهور- إلّاأنّه كان رجلًا حكيماً ومفكّراً للّهوقد أيّد القرآن علمه وحكمته وجعل كلامه فى عرض كلام اللّه عزّوجلّ، وبالتأكيد أنّ مثل هذا

---

(۱) مفردات الراغب، مادّة (حبط).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۲

الرجل بعلمه وحكمته وإحساسه بمنتهى المسؤولية تجاه إبنه فإنّه يقدّم له أخلص النصائح والمواعظ.

النصيحة الاولى من النصائح العشر التى ينقلها القرآن الكريم عن هذا الرجل الحكيم لابنه هى النصيحة بالإحتراز المطلق من الشرك، ممّا يدلّل على أنّ الأساس فى بناء الفرد والإصلاحات الفردية والاجتماعية والأخلاقية كلّها، هو مقارعة الشرك بكلّ أشكاله وصوره، وسيكون لنا كلام- بإذن اللّه- فى بيان العلاقة بين الشرك وبين هذه القضايا.

وقد احتمل البعض أنّ ابن لقمان كان مشركاً فنهاه أبوه ولكن- كما يقول بعض المفسّرين-: يمكن أن يكون الكلام على شكل تحذير وذلك لأهميّة القضيّة نظير ما ورد فى الآية السابقة من تحذيرٍ إلهىٍّ للأنبياء.

والتعبير ب (ظلم عظيم) ذو مضمون كبير، فالظلم فى الأصل يعنى كلّ انحراف عن الحقّ ووضع الشىء فى غير محلّه، وأسوأ أنواع

الظلم هو الظلم الذى يكون بحقّ اللَّه، عباده ونفسه، وهكذا الشرك.

فأى ظلم وانحراف أشدّ من جعلهم موجودات لا قيمة لها بمستوى خالق السماوات والأرض وجميع الموجودات؟ وأى ظلم أشدّ على عباد اللَّه من انحرافهم عن جادّة التوحيد النورانية إلى ظلمات الشرك؟ وأى ظلم أشدّ على النفس من أن يؤجّج الإنسان ناراً ليحرق فيها حصيلة أعماله الصالحة ويُحوّلها إلى رماد؟!

السقوط الموحش:

تصرّح الآية الخامسة بعد أنْ أمَرت المسلمين بأن يكونوا موحّدين مخلصين وأن يتركوا طريق الضلالة والشرك ومن خلال تشبيه ذى معنى كبير: «وَمَنْ يُشرِك بِاللَّه فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أَوْ تَهوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكانٍ سَحِيقٍ» «۱».

---

(۱) «تخطف» من «خطف» وهو الاستلاب بسرعة و (سحيق) من (سحق) وهو طحن الشىء وقد تعطى هذه المفردة معنى (الملابس البالية) أو (المكان البعيد) والأخير هو الأنسب فى مورد الآية من غيره.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۳

وقد شبّهت الآية (الإيمان) ب (السماء العالية) و (الشرك) ب (السقوط من هذه السماء) [لاحظوا أنّ (خرّ) كما يقول اللغويون: يعنى السقوط المقرون بضجّة وليس المجرّد منها!].

وليس هذا السقوط سقوطاً بسيطاً بل مكتنف بخطرين عظيمين هما:

أنّ الساقط إمّا أن يكون فريسة للطيور الكاسرة أو يتلاشى بسبب هبوب الرياح العاصفة التى تقذفه فى مكان بعيد عن الماء والمناطق المسكونة.

وهذه العبارات المخيفة توضّح الأبعاد الخطيرة والكبيرة للشرك.

وهذه الطيور فى الحقيقة هى الصفات القبيحة الباطنية أو الفئات المنحرفة فى الخارج والتى تنصب الكمين لتجذب من ينحرف عن جادّة التوحيد، و (الريح) هى تلك الشياطين الذين عبرت عنهم تعالى: «أَلَم تَرَ أَنَّا ارسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الكَافِرِينَ تَؤُزُّهُم أَزّاً».

(مريم/ ۸۳)

حيث تتجه نحو المشركين وتضع السلاسل فى رقابهم وتسحبهم إلى كلّ جانب، أو أنّها العواصف الاجتماعية العاتية والفتن السياسية والفكرية والأخلاقية التى لا يصمد أمامها إلّا من ثبتت قدماه فى طريق التوحيد.

فى الآية السادسة يُؤمر النبى صلى الله عليه و آله بتبيان المحرّمات للناس وفى مقدّمتها الشرك حيث تقول: «قُلْ تَعالَوا اتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكمْ عَلَيكُمْ ...» «۱».

ثمّ تذكر أوامر إلهيّة عشرة عرفت ب (أوامر النبى العشرة)؛ وأوّلها هو الدعوة إلى التوحيد حيث تقول: «الّا تُشرِكُوا بِهِ شَيئاً» راجع التفسير الأمثل للإطّلاع على الشروح والأوامر التسعة المتبقّية فى ذيل هذه الآيات.

---

(۱) «تعالوا» من «علو» ويعنى أن يقف شخص على مرتفع ثمّ يدعو الآخرين إليه (أى أصعدوا) ثمّ توسّع استعماله وشمل كلّ دعوة (تفسير المنار، ج ۸، ص ۱۸۳) ومن الممكن أن يكون المراد فى هذه الدعوات الإلهيّة هو المعنى الأصلى حيث يريد النبى أن يصعد بالناس إلى مستوى أرفع وأسمى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۴

الجنّة محرَّمة على المشركين:

الآية السابعة تشير بتعبير جديد إلى خطر الشرك، حيث تنقل عن السيّد المسيح عليه السلام خطابه إلى بنى اسرائيل: «إِنَّهُ مَنْ يُشرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الجَنّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ».

وفى الجملة الاولى يلاحظ ذكر لفظ الجلالة كما يلاحظ تكرارها فى الجملة الثانية:

«فَقَد حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الجنّةَ»، وهى تقتضى استعمال الضمير، وذلك للتأكيد على أهميّة المسألة.

وتضيف الآية فى ذيلها: «وَمَا لِلظّالِمينَ منْ أَنصارٍ».

وهذا دليل آخر على ظلم المشركين وليس لأحد الجرأة فى الدفاع عنهم يوم القيامة.

اللّه برىء من المشركين:

نواجه فى الآية الثامنة قضيّة جديدة بهذا الصدد حيث تخاطب المؤمنين: «يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنوا انَّما المُشْرِكُونَ نَجَسٌ» ثمّ تقول: «فَلَا يَقرَبوا المَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعدَ عَامِهِم هَذَا».

وتتضمّن الآية التأكيد على عدّة جهات:

الأول: أنّها استعملت (إنّما) والتى تدلّ على الحصر، ومفهومها أنّ المشركين ليسوا إلّا موجودات فاسدة ونجسة وفى ذلك أكبر تأكيد ومبالغة،

والثانى: أنّ (نَجَسٌ) يتضمّن معنى المصدر، أى أنّ المشركين هم عين النجاسة! كما يقال فلان عين العدل، وهذا غاية فى المبالغة «۱».

والثالث: أنّها لم تقل: «فلا يُدْخُلُوا المَسجِدَ الحَرامَ» بل «فلا يقربوا» بمعنى أنّ المشركين من القذارة ما يخشى على هذا المكان المقدّس أن يتعرّض لها عند اقترابهم منه!

---

(۱) «نَجسٌ» مصدر و «نجِس» صفة وهذه الكلمة كما يقول الراغب فى المفردات:

النجاسة: القذارة وذلك ضربان: ضرب يدرك بالحاسّة وضرب يدرك بالبصيرة (المفردات مادّة (نجس)، ص ۵۰۳) وفى التفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۰ كلّ مستقذر نجس، يقال: رجل نجس وامرأة نجس، المجمع.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۵

فى الآية التاسعة التى نزلت- مع مجموعة من الآيات فى السنة التاسعة للهجرة- بصفتها إعلاناً عامّاً، نلاحظ إشارة إلى نقطة اخرى امر أميرالمؤمنين عليه السلام بتلاوتها على الناس فى مواسم الحجّ: «وَاذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكبرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِىءٌ مِّنَ المُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ» «۱».

والتعبير بالبراءة من قبل اللّه ورسوله من المشركين بوصفه إعلاناً عامّاً فى أكثر أيّام الحجّ حساسية دليل على النفور من المشركين وبيان لضخامة معصية الشرك بأجلى صوره.

ونلاحظ فى الآية العاشرة تعبيراً جديداً، حيث اعتبرت المشرك والمشركة فى عرض الزانى وقال: «الزَّانِى لَايَنْكِحُ إِلَّا زَانِيةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَايَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ...».

وهذا التعبير سواء كان لبيان حكم شرعى وإلهى وهو حرمة الزواج من أهل الزنا والشرك أو كان إشارة إلى واقع خارجى وهو أنّ القذر يتبع القذر دائماً، والطيور على أمثالها تقع فهو شاهد بليغ على قبح معصية الشرك، لأنّها اعتبرت المشركين كالملوّثين بالزنا والفاقدين للقيم الخُلُقية والسجايا الإنسانية.

والحديث الوارد عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لا يزنى الزانى حِينَ يزنى وهوَ مؤمنٌ ولا يَسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ فإنّه إذا فعلَ ذلك خُلِعَ عنهُ الإيمانُ كَخَلع القَميص» «۲»

، وهناك شاهد آخر على العلاقة بين هذين، وسيأتى شرحُهُ بإذن اللّه.

---

(۱) فسّر الكثير من المفسّرين (يوم الحجّ الأكبر) بعيد الأضحى وهو أهمّ أيّام الحجّ، والروايات الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وأبناء السنّة تؤيّد هذا المعنى، فى حين فسّره بعضهم بيوم عرفة وبعضهم الآخر بمجموع أيّام الحجّ التى يطلق عليها (الحجّ الأكبر) وتقابل العمرة وهى (الحجّ الأصغر)، وقد خصّصها آخرون بسنة نزول الآية حيث شارك المسلمون والمشركون فى مراسم الحجّ فى تلك السنة، وواضح أنّ التفسير الأوّل هو الأرجح من هذه الاحتمالات الأربعة.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۷۱، ح ۲۰.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۶

ومن الواضح أنّ زواج المؤمنين من المشركين باطل وحرام، وأمّا الزواج بأهل الزنا فإنّ بعضاً يرى بأنّهم إن اشتهروا به ولم يتوبوا كان الزواج بهم باطلًا أيضاً.

والأحاديث العديدة التى نقلت عن النبى صلى الله عليه و آله والإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام شاهد آخر على هذا المعنى.

وقد كتب بعض المفسّرين فى شأن نزول هذه الآية ما يلى: أنّ رجلًا من المسلمين استأذن النبى صلى الله عليه و آله فى أن يتزوّج (امّ مهزول) وهى إمرأة كانت تسافح ولها راية على بابها تعرف بها، فنزلت الآية «۱».

الآية الحادية عشرة بيّنت أهميّة التوحيد وقبح الشرك ولكن بتعبير آخر، حيث وجهت أمراً إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله «قُل انَّما امِرْتُ انْ اعْبُدَ اللَّهَ وَلَا اشْرِكَ بِهِ».

والتعبير ب (إنّما) الدالّة على الحصر عادةً دليل على أنّ دعوة النبى صلى الله عليه و آله تتلخّص فى قضيّة التوحيد ورفض الشرك «۲»، وهو الحقّ، لأنّ التوحيد قوام التعليمات السماوية كلّها، كما أنّ الشرك هو أساس الوساوس الشيطانية كلّها.

وتؤكّد الآية فى ذيلها تأكيداً مضاعفاً: «إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيهِ مَآبِ».

الآية الثانية عشرة تتحدّث عن النبى نوح عليه السلام وهو أوّل الأنبياء من اولى العزم حيث جعل الأساس فى دعوته هو الدعوة إلى التوحيد ورفض الشرك، والملاحظ أنّ هذا التعبير ورد أيضاً عن الكثير من الأنبياء، قال تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَذيرٌ

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۱۲۵.

(۲) ولو افترضنا هذا الحصر حصراً إضافياً فإنّه يدلّ أيضاً على أنّ العبودية كلّها تتلخّص فى العبودية للّه (فتأمّل جيّداً).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۷

مُّبِينٌ» وتضيف: «أن لَّاتَعْبُدوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْم أَلِيم».

وتكرار هذا الكلام من قبل الأنبياء من لدن نوح وحتّى رسول الإسلام الأكرم صلى الله عليه و آله دليل على أنّ السنام الأعلى فى دعوة الأنبياء، هو قضيّة التوحيد ومقارعة الشرك وهو القاسم المشترك بين الديانات السماوية، ولذا نقرأ فى قوله تعالى: «قُل يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالوا إِلَى كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وَبَينَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۶۴)

وهذا أصل ثابت لم يتغيّر بمرور الزمان ولم يكن أمراً وقتياً، بل هو الأساس الثابت فى الديانات السماوية كلّها، وكلّ ما يتعرّض له أهل

الديانات المختلفة من مآسٍ، ناشيء من الانحراف عن هذا الأصل.

وفى الآيـة الثالثة عشـرة تعبير جديد عن هذا المعنى وتلخّص دعوة الأنبياء عليهم السـلام باسـتخدام الأداة (إنّما) الدالّة على الحصـر فى قضيّة التوحيد حيث تقول: «قُلْ انَّمَا يُوحى الىَّ انّمَا الهُكُم إلهٌ وَاحِدٌ فَهَل انتُم مُّسلِمُونَ».

إبراهيم عليه السلام الأسوة الحسنة فى مقارعة الشرك:

الآية الرابعة عشـرة تذكر هذا المضـمون فى قالب جميل آخر حيث تعرّف النبى إبراهيم عليه السلام المقدام والمكسّر للأصنام بالقدوة فى الدفاع عن قضـيّة التوحيد ومحاربة الشـرك محاربة لا هوادة فيها حيث قالت: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ»، ثمّ تقـدّم توضـيحاً عن الاسـوة الحسـنة هـذه بقوله تعـالى: «إذْ قَـالُوا لِقَوْمِهِمْ إنَّا بُرَءؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَـا بِكُمْ ...»، وأضافت- للتأكيد المكرر- «كَفَرْنَا بِكُمْ ...».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۸

إنّ الكفر بالأشـخاص يعنى إعلان البراءة منهم، لأنّ هـذه المفردة (الكفر) ذات معانٍ خمسـة حسب الروايات الإسـلامية، أحـدها كفر البراءة، ولم تكتفِ بذلك بل أضافت: «وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ العَدَاوَةُ وَالبَغضَاءُ أَبداً حَتّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وحدَهُ».

وإنّ هـذه التعابير (البراءة أوّلًا ثمّ إعلانها ثمّ الإعلان عن العداوة الدائمة) لشاهد صـريح على صـلابة الموحّدين تجاه القذرين الملوثين بالشـرك وعبادة الأوثان، وحينما نلاحظ أنّ القرآن يذكر كلام النبى إبراهيم عليه السلام وأتباعه كقدوة للمسلمين فإنّ ذلك يعنى أنّ الإسلام لا يعرف أيّة مهادنة بين التوحيد والشرك فى أيّة مرحلة.

ومن التعمّق فى تعبير الآيـة تنكشف الأهمّيـة البالغـة لهذه القضـيّة، فالتعبير ب (قومهم) دليل على أنّ غالبية القوم هم من عبدة الأصـنام وأنّ الموحّدين قليلون، ويبدو أنّ هذا الحوار جرى فى (بابل)، التى هى مركز عبدة الأصـنام فى ظلّ سلطة الطاغية (النمرود)، ولم تعمد هذه المجموعة الصغيرة المؤمنة إلى مسايرة الوضع السائد، ولم تعمل بالتقيّة تجاه المشركين فى مسألة التوحيد.

ففى جانب تقول: «إنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ».

و فى جانب آخر: «كَفَرْنَا بِكُمْ ...».

و فى ثالث: (نتبرّأ مِن أصنامكم).

ومن جهة: (انّا نعتبركم أعداءً لنا).

و من أخرى: (إنّا نُكِنُّ لكم العداء).

وفى كلّ جملة من الآية تعبير جديد عن عدم المداهنة والمسالمة.

والفرق بين (العداوة) و (البغضاء)- كما هو المسـتفاد من كلمات اللغويين- هو أنّ (العداوة) لها جانب عملى فى الغالب، أمّا (البغضاء) فلها جانب قلبى، وإن استعمل كلّ منهما مكان الآخر.

وبهـذا أعلنوا أنّهم بُراءٌ من الشـرك بكـلّ وجودهم وصامـدون أمـامه مهمـا كـانت الظروف، وينبغى أن يكون ذلك اسوة حسـنة لكلّ المؤمنين فى العصور كلّها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۱۹

و «الاسوة»: تعنى فى الأصل- كما ورد فى (مقاييس اللغة): العلاج والإصلاح، ولذا يطلق على الطبيب (آسى).

و «أسـى : تعنى الغمّ والحزن، ومن المحتمل أن يكون بسـبب اقتران علاج المريض والجريح- عادةً- بالغمّ والوجع، ومن ثمّ اسـتعملت بمعنى الإتّباع والمتابعة نظراً لاستدعاء العلاج وإصلاح المتتابَعيْن.

إلّا أنّ الراغب فى مفرداته يعبّر عن المعنى الأصلى ل (اسوة) قائلًا بالاتّباع فى الصالحات أو السيّئات «۱».

يتّضح من الآيات الأربع عشرة المتقدمة والتى كثرت نظائرها فى القرآن الكريم أنّ قضيّة التوحيد والشرك هى القضيّة المركزية والمهمّة فى نظر القرآن بشكل لا تجوز معه أيّة مداهنة أو مهادنة أو محاباة مع الشرك والمشركين، ولابدّ من اجتثاث جذور الشرك بجميع صوره، فإنّ تحقّق ذلك عن طريق التعليم الثقافى والمنطق والاستدلال فهو وإلّا فإنّ الواجب هو الحزم العملى تجاهه.

إنّ التوحيد رأس مال المؤمن والبضاعة المرموقة فى سوق القيامة، والشرك ذنب لا يغتفر، والمشرك موجود قذر يجب التبرّء منه كلّياً حتّى يعدل عن انحرافه ويعود إلى الإيمان.

توضيح

لماذا هذا الإهتمام الكبير بقضيّة التوحيد والشرك؟

نحن نعلم بصورة إجمالية إنّ للإسلام بل والديانات السماوية كلّها حسّاسية غير

---

(۱) يعتقد البعض أنّ (أسى يستعمل كفعل ناقص واوى ويائى، فإن كان ناقصاً يائياً فإنّه يعنى الحزن والغمّ، ولذا تطلق المأساة على الفاجعة العظيمة، ولو كان ناقصاً واوياً فهو يعنى المعالجة والإصلاح.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۰

اعتيادية تجاه الشرك، غير أنّ الدليل على ذلك ليس واضحاً للكثير، ويمكن تقديم أربعة أدلّة أساسية على هذه الحساسية والإهتمام بقضيّة التوحيد والشرك المصيرية:

۱- التوحيد هو الأساس لمعرفة صفات اللَّه ولا يمكن إدراك الصفات دون ملاحظة أصل التوحيد، لأنّ وحدانيته- كما سيأتى توضيحها- تنشأ من لا محدوديته، والوجود جامع لكلّ الكمالات وخالٍ من كلّ عيب ونقص، والحقيقة أنّنا لو عرفناه بتوحيده الحقيقى فسوف نعرف صفاته كلّها، بَيدَ أنّ الإعتقاد بالشرك هو الذى يصدّنا عن ذلك.

۲- فروع التوحيد تبلغ عالم الوجود ذات اللَّه المقدّسة، حيث أنّ عالم الوجود واحد وهو متّصل الأجزاء وتحتاج معرفته الصحيحة إلى دراسة أجزائه مجتمعة، ولو تصوّرنا موجودات العالم كوجودات متفرّقة فإنّا سوف نخطىء كثيراً فى معرفة العالم وإذا سألنا أنفسنا: من أين تلقّينا هذا الدرس، وهو أنّ عالم الوجود كتلة واحدة؟

الجواب: من وحدانية اللَّه، لأنّ وحدة اللَّه دليل على وحدة العالم، ووحدة العالم دليل على وحدته تعالى: «مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ». (الملک/ ۳)

۳- إنّ أهمّ العناصر التى تبعث على تطوّر العالم الإنسانى وتكامله هو وحدة المجتمع البشرى، فالاختلاف والتفرّق- كان وسيبقى- هو العامل على الدمار والضعف والتخلّف، فى حين يشكل الإتّحاد والوحدة الحجر الأساس للقوّة والإقتدار والعمران والبناء.

إنّ الإيمان باللَّه بمثابة حلقة الوصل التى تؤلّف بين الملايين من البشر وتزيل الفوارق العنصرية والجغرافية والقومية واللغوية.

إنّ سبب الانحراف عن أصل التوحيد والإيمان جَعَل كلّ قبيلة عربية فى زمن الجاهلية تعبد صنماً يختلف عن أصنام القبائل الاخرى وهم فى غاية الضعف والانحطاط، فجاء الإسلام وحطّم الأصنام وربط القلوب بحبل التوحيد فى فترة قصيرة وصنع منها مجتمعاً قويّاً ومتطوراً ذا حكومة امتدّت لتشمل العالم فضلًا عن الجزيرة العربية.

۴- التربية على الأخلاق والقيم الإنسانية تتوفّر فى ظلّ التوحيد أيضاً لأنّ الأساس فى

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۱

الأخلاق الفاضلة هو الإخلاص وتنزيه القلب من الشرك، والأساس هو جعل الدوافع العملية دوافع إلهية فقط، أى التحرّك من أجله

فقط والجهاد فی سبیله والسیر نحوه والإحتراز من أی دافع آخر.

فالتوحید هو الذی یعلم الإنسان درس الإخلاص فی النیّة، درس مقارعة کلّ ریاء وشرک، ومحاربة هوی النفس والجاه والدنیا والشیطان.

وبهذا تری کلًا من التوحید والشرک یترک تأثیره العمیق علی العقائد والأعمال والنیّات والأخلاق فی الفرد والمجتمع.

ولذا وجّه الإسلام إهتماماته تجاه هذه القضیّة، وهنا نختم البحث بحدیثین:

فی حدیث عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال لعبداللَّه بن مسعود: «یا ابن مسعود: إیّاک أن تشرک باللَّه طرفة عین، وإن نشرت بالمنشار أو قطّعت، أو سلِبت أو احرِقت بالنار» «۱».

وفی هذا الحدیث الشریف تبرز الأهمیّة القصوی للتوحید.

وفی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام: «انّ بنی امیّة أطلقوا للناس تعلیم الإیمان ولم یطلقوا تعلیم الشرک لکی إذا حملوهم علیه لم یعرفوه» «۲».

وهذا الحدیث شاهد واضح علی أنّ الشرک یمکن أن یکون وسیلة هدّامة سیاسیاً واجتماعیاً بید فئة ظالمة، وفی المقابل یمکن أنْ یقوم الإیمان بالتوحید وفروعه باجتثاث جذور هؤلاء الظالمین.

نتطرّق فی بحث التوحید لمهمّتین:

الاولی: أنّ ذات اللَّه لا ترکّب من أجزاء (خارجیة أو عقلیة).

والثانیة: هی أنّ ذاته لا شبیه لها ولا مثیل، لذا فهو واحد من کلّ جهة.

ونجد فی القرآن أدلّة فی هذا المجال منها:

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۱۰۷.

(۲) أصول الکافی، ج ۲، ص ۴۱۵، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۳

دلائل التوحید

اشارة

۱- شهادة الفطرة علی وحدانیة اللَّه (عزّ وجلّ)

۲- تناسق العالم

۳- دلیل صرف الوجود

۴- دلیل الفیض والهدایة

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۵

۱- شهادة الفطرة علی وحدانیة اللَّه (عزّ وجلّ)

تمهید:

ذکرنا فی مستهلّ هذا الجزء وفی بحث «استخدام برهان الفطرة فی مسألة معرفة اللَّه» أنّ هذا البرهان یمکن أن یکون نافعاً ومرشداً فی

البحث عن صفات اللّه، بل وفى مسألة النبوّة والمعاد، ولهذا لنا عهد عملى مع هذا البرهان حيث نراجعه فى أغلب المباحث.

وفى بحث وحدانية ذات اللّه وصفاته يمكن أن يكون هذا البرهان مفيداً، أى أنّنا وفى أعماق الروح والقلب لا نسمع نداء وجوده فحسب بل لا يوجد فى أعماق الروح نداء آخر.

فعندما تبلغ المشكلات والإبتلاءات ذروتها وحينما توصد أبواب عالم الأسباب أمامنا يقرع أسماعنا هدير التوحيد فى أعماق وجودنا ويدعونا إلى (المبدأ الواحد) ذى القدرة التى تفوق المشكلات وتتجاوز عالم الأسباب كلّه.

وهناك آيات قرآنية عديدة تشير إلى هذا المضمون، وبما أنّنا ذكرنا بعض هذه الآيات بصورة مفصّلة فى بحث (إثبات وجود اللّه) فسنشير إليها هنا باختصار ونمعن خاشعين فى عدد من الآيات:

١- «فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البِرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت/ ۶۵)

٢- «وَإِذا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذاقَهُمْ مِّنْهُ رَحْمةً إِذا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (الروم/ ٣)

٣- «قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ اتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ اتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٢۶

صَادِقِينَ* بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيهِ ان شَاءَ وَتَنْسَوْنَ ما تُشْرِكُونَ».

(الأنعام/ ۴۰- ۴۱)

۴- «وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ* ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ اذا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ». (النحل/ ۵۳- ۵۴)

۵- «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ* قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ».

(الأنعام/ ۶۳- ۶۴)

جمع الآيات وتفسيرها

حينما يشرق نور التوحيد:

بما أنّ تفسير الآية الاولى والثانية قد مرَّ فى مقدّمة الكتاب خلال بحث الاستدلال على معرفة اللّه عن طريق الفطرة فإنّا نذكرهما باختصار.

الآية الاولى تتحدّث عن أشخاص يدعون اللّه سبحانه باخلاص عند ركوب السفينة، والآية الثانية تطرح القضيّة بصورة عامّة وتتحدّث عن أشخاص يدعون اللّه عند مواجهة ضَنَك الحياة وتحيط بهم أمواج المشكلات فيتركون الأصنام التى نحتوها ويَلجأون إلى ظلال لطفه، ولكن بعد إذاقتهم حلاوة رحمته تسلك جماعة منهم طريق الشرك مرّة اخرى، ومن الملاحظ أنّ فى الآيتين تركيزاً على الإخلاص والإنابة حيث يتمسّك بهما أغلب الناس عند هبوب عواصف الأحداث إضافةً إلى التركيز على حالة الرجوع إلى الشرك لدى جماعة كبيرة بعد سكون هذه العواصف.

وبهذا يشير القرآن الكريم إلى أنّ معرفة اللّه من مكنونات الفطرة الإنسانية وهكذا التوحيد فى العبادة، ويعتبر الشرك ظاهرة تنشأ من الحياة المترفة، ومن خلال دراسة سطحية وعابرة لعالم الأسباب، وعند تغيّر الظروف الإعتيادية للحياة وظهور عدم فاعلية عالم الأسباب يقوم الإنسان بقطع أمله منها وتبرز فطرة عبادة الواحد من وراء سحب العادات المعاشة والغفلة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۷

إنّ هـذه الآيـات تبلّغ نـداء الفطرة إلى الغـافلين من بنى الإنسـان عن طريق واضـح وتوصـل الإنسـان إلى حيث لاـ يوجـد صـخب عالم الأسباب ولا الغرق فى لذّات الحياة.

نعم فى مثل هذه البيئة الطبيعية والهادئة يسمع نداء الوجدان الذى يلقّنه درس معرفة اللَّه وعبادة الواحد ولكن هذا النداء يضعف ويعجز عن بلوغ الأسماع حينما يمتلىء الجوّ بصخب اللذّات الماديّة وعالم الأسباب.

هذه الآيات الشـريفة تمسك بيد الإنسان تارةً وتلقى به فى وسط الأمواج العاتية وتمسك بيده تارةً اخرى لتودعه خلف قضبان السجن وميـدان الأمراض المستعصـية وطرق مسدودة تبعث اليأس فى الحياة، مكان تخمد فيه أصوات الشـياطين من الجنّ والإنس ويسـمع فيه نداء الوجدان والفطرة فقط، ما أجمل وأروع هذا النداء وهذا الصوت!

الآية الثالثة تخاطب المشركين وتدعوهم إلى فطرة عبادة الواحد، وبتعبير آخر تقول:

«قُلْ أَرَأَيْتَكُم إِنْ اتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ اتَتْكُمُ السَّاعَةُ اغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

والمراد من عـذاب اللَّه هو عـذاب الدنيا والمراد من (أتتكم الساعة) هو ظهور أشـراط الساعة (وهى علامات نهاية العالم الموحشة جدّاً وابتداء يوم القيامة) التى أخبر عنها القرآن الكريم فى آيات عديدة واعتبرتها مقرونة بالخوف والوحشة الشديدَين.

إنّ الكـثير من المشـركين- طبعاً- لم يؤمنـوا بالقيامـة وأشـراط الساعـة غير أنّهم كـان بوسـعهم تصـديق نزول العـذاب الإلـهى وذلك بملاحظـة الآثار التى خلّفتها الامم السابقة فى أطراف الحجاز والجزيرة العربية، وهذا هو أحد أساليب الفصاحة حيث يبيّن القائل قضيّة صادقة لا يتقبّلها المخاطب مقرونة بما يقبله فى عبارة واحدة كى يثبتا معاً.

ولا ينتظر القرآن ليسـتمع إجابتهم عن هـذا السؤال بل يجيب عنه بما ينبغى عليهم بيانه ويقول: «بَل إِيَّاهُ تَـدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيهِ ان شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ».

وقد أسلفنا أنّ الكثير من المفسّرين فسّر جملة (أرأيتكم) بمعنى (أخبرونى)، ولكن

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۲۸

الظاهر هو الإحتفاظ بالمعنى الرئيس للجملة وتفسيرهم هذا يلازمه (المعنى الرئيس للجملة هو: هل شاهدتم؟ هل فكّرتم؟) «۱».

على أيّة حال فإنّ القرآن فى هذه الآيات يُلزم المشركين بأعمالهم ويحاججهم بها.

اللجوء إلى اللَّه فى الشدائد:

الآيـة الرابعـة تطرح هـذه القضيّة فى قـالب جميـل آخر فتقول: «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِّعْمَـةٍ فَمِنَ اللَّهِ»، فماذا صـنعت لكم الأصـنام ومعبوداتكم المزيّفة؟ وأى رزق بَسَطتهُ لكم وأيّة هدية وهبتها لكم؟

هذه الأصنام التى تحتاج إليكم فى صنعها وبقائها (حيث يجب أن تنحتوها وتحافظوا عليها) أيّة بركة وموهبة وهبتها لكم؟

وتضيف الآية: «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُرُّ فَإِلَيهِ تَجْئَرُونَ».

«تجأرون»: من مـادّة (جُئـار) وتعنى فى الأصـل أصوات الوحوش والحيوانـات فى الصـحارى دون اختيار منها عنـدما تحس بالألم، ثمّ استعملت كناية عن الأنين والإستغاثة والصرخة التى تصدر من الإنسان حينما يواجه المشكلات.

يقول الراغب فى مفرداته:

ومن الواضـح أنّ الإنسان يرجع إلى فطرته فى هـذه الحالـة وتتكسّـر القيود والسـلاسل المفتعلة وتنهار الأبنية الوهمية ويبقى الإنسان مع فطرته، الإنسان ووجدانه الصريح ويتّجه صوب نقطة واحدة، نعم نقطة واحدة نسمّيها (اللَّه) عزّوجلّ.

انتبهوا إلى جملة (إليه تجئرون) فهى تتضمّن معنى الحصر والدلالة على الوحدانية، أى أنّكم تتوسّلون إليه فقط وتطلبون منه حلّ مشاكلكم.

وتضيف: «ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ»، وفى التعبير

---

(١) الاولى تعنى الرؤية بالعين المجرّدة والثانية تعنى الرؤية القلبية.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٢٩

ب (فريق) إشارة إلى أنّ فريقاً آخر سيغيّر مسيرته بعد هذا الحادث حقّاً، وتبدأ صفحة جديدة فى حياته ويستبدل الشرك بالتوحيد فى العبادة، وهذا هو أحد الحِكَم فى وجود الآفات والإبتلاءات والأوجاع والآلام التى يكرهها البشر وفيها إيقاظ لفريق وتربيتهم «١».

«ضُرّ»: و (ضَرّ) لهما معنى واحد كما يعتقد بعض اللغويين، ومفهومهما هو كلّ ما ينافى النفع، وقد فسّر بعض الأوّل بمعنى سوء الحال، والثانى بمعنى الضرر.

ويقول الراغب فى المفردات:

«الضُرّ»: سوء الحال إمّا فى نفسه لقلّة العلم والفضل والعفّة، وإمّا فى بدنه لمرض أو نقص وإمّا فى حالة ظاهرة من قلّة مال وجاه «٢».

على كلّ حال فهذا اللفظ مضمون واسع حيث يشمل المصائب والأمراض والنقائص والآلام.

وينبغى ملاحظة هذه النقطة وهى أنّ (الكشف)- كما جاء فى لسان العرب- تعنى رفع الحجاب عن الشىء المستور، ويلازمه ظهور ذلك الشىء ثمّ استعمل فى رفع الغمّ والحزن والإبتلاءات وكأنّ هذه الامور تمثّل حجباً على روح الإنسان وجسمه وتُرفع من قبل الإنسان وغيره.

النور الوهّاج فى الظلمات:

فى الآية الخامسة والأخيرة التى نبحثها نلاحظ أنّ محتوى الآيات السابقة نفسه ولكن فى اطار جديد وجميل حيث تقول: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّنْ ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً»، فى هذه الحالة تنأى عنكم المعبودات المزيّفة وتلجأون إلى لطف اللّه وحده وتقولون: «لَئِنْ أَنْجانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ».

---

(١) احتمال البعض من أنّ «من» فى «فريق منكم» بيانية لا تبعيضية بعيد جدّاً ويخالف ما ورد فى الآية ٣٢ من سورة لقمان (فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد) راجع تفسير روح المعانى ذيل هذه الآية.

(٢) لسان العرب؛ مجمع البحرين؛ مفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٣٠

والتعبير ب «ظلمات البرّ والبحر» تعبير جميل يمكن أن يكون إشارة إلى الظلام الظاهرى الذى يحدث فى الليل أو عند هبوب الأعاصير والرياح المحملة بالغبار وعند ظهور السحب السوداء فى السماء، وهذا الظلام مرعب ومخيف وخاصّة إذا كان فى البحر والصحراء، أو حصول الخوف من هجوم الحيوانات الوحشية فى الصحراء.

ويمكن أن يكون له- كما ذكر ذلك بعض المفسّرين- معنى كنائى فيشمل المشكلات والشدائد والآلام «١».

كما يحتمل تضمّن الآية الظلامين: الظلام الظاهرى الذى يفرض الوحشة على الإنسان والظلام المعنوى الموحش المؤلم أيضاً، وعلى كلّ حال فإنّ هذه الآلام تحصل فى السفر غالباً، والآية تقصد هذا المعنى أيضاً.

والتعبير ب «تضرّعاً وخفيةً» تعبير جميل أيضاً لأنّ (التضرّع) يعنى الدعاء والطلب الصريح وإظهار التذلّل «۲»، فى حين تشير (خفيةً) إلى الدعاء الكامن فى أعماق القلب، ويحتمل أن يقصد التعبيران الحالتين فى الإنسان، حيث يدعو اللَّه فى قلبه حينما تبدو ظلمات المشكلات، وعندما يُبتلى بمشكلات عويصة وكبيرة يقوم بإظهار ما فى قلبه ويتضرّع إلى اللَّه ويلتمسه.

ومن المحتمل أن يقصد هذا التعبير حالات الفئات المختلفة، فبعضها تدعو اللَّه جهاراً فى مثل هذه الأحوال وبعضها تدعوه خفاءً وكأنّها تشعر بالخجل أمام الأصنام! أو من الناس الذين عرفوا أنّها تعبد الأصنام فلماذا لا تلجأ إلى الأصنام فى المشكلات؟! على كلّ حال فإنّها ترجع إلى فطرتها فى مثل هذه الأحوال وتستضىء قلوبها بنور التوحيد وعبادة الواحد، وترفض كلّ ما سواه وتنسى كلّ ما يذكرها به وتستيقن بأنّ الأصنام ليست أهلًا، وعبارة الأصنام لا فائدة فيها ولا سبيل إلّاالتوحيد.

فى مثل هذه الأحوال تعاهد اللَّه وتنذر وتتعهّد بأنّه إذا نجاها من هذه الشدائد والآلام

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۷، ص ۱۳۶؛ وتفسير فى ظلال القرآن، ج ۳، ص ۲۶۹.

(۲) مفردات الراغب: تضرّع، أظهر الضراعة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۱

وأذاقها حلاوة اللطف والرحمة فإنّها ستبقى شاكرة ومدينة ورهينةً للطفه، ولكنّها بعد الخلاص من المضائق تنسى- فى الغالب- كلّ عهودها وتعهّداتها، كما يشير إلى ذلك ذيل الآية: «قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِّنْها وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ» «۱».

وكما ذكرنا فإنّ هذه الحالة هى حالة أغلب المشركين، وأمّا الفئة التى لها قابلية أكبر فإنّها تتيقّظ بصورة دائمة وتبصر طريقها وتهجر الشرك.

من مجموع الآيات التى ذكرت تظهر هذه الحقيقة وهى: أنّ القرآن الكريم لا يعدّ غريزة المعرفة الإلهيّة فى الإنسان أمراً فطريّاً وحسب بل يعتبر الإيمان بوحدانيته من الامور الفطرية أيضاً، وبما أنّ الفطرة الأصيلة فى الإنسان تتعرّض فى الغالب إلى حجاب الرسوم والعادات والأفكار المنحرفة والتعاليم المغلوطة فينبغى انتظار تلك الساعة التى تزول فيها هذه الحجب، من هنا فإنّ القرآن يشير إلى لحظات حسّاسة فى حياة الإنسان وذلك عندما تزول الحجب بواسطة عواصف الأحداث ويبقى الإنسان وفطرته وصريح وجدانه فيدعو حينئذٍ ربّه لوحده ويزول عنه ما سواه، ويدلّ هذا جيّداً على أنَّ عبادة الواحد والتوحيد مستودعة فى أعماق روحه، وفى هذا المجال مرّت بحوث تكميلية اخرى فى أوّل الكتاب فى بحث الفطرة والمعرفة الإلهيّة.

---

(۱) «الكرب» يعنى الغمّ والهمّ الشديد.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۳

۲- تناسُق العالم

تمهيد:

من السبل التى سلكها علماء العقيدة والفلسفة فى سيرهم وسلوكهم من أجل القرب من ذات اللَّه المقدّسة هى دراسة عالم الوجود الذى هو عبارة عن مجموعة متناسقة وكتلة مترابطة، هذا الاتحاد والتناسق ينبئان عن وحدانية الخالق، ولذا اطلق على هذا الدليل (برهان الوحدة والتناسق) وقد يُطرح هذا البرهان بصورة اخرى حيث يقال: إذا كانت هناك إرادتان تحكمان عالم الوجود، ولو كان فى عالم الخليقة تدبيران لظهر الفساد واللانظام حتماً، وبما أنّ هذا الأمر- عدم النظم والفساد غير موجود- يمثل دليلًا على وحدة الخالق والمدير

والمدبّر لعالم الخليقة، ولذا اطلق على الاستدلال عنوان (برهان التمانع).

من هنا فإنّ برهان (الوحدة والتناسق) و (برهان التمانع) متّحدان جوهراً ومحتوىً ولكن لهما تعبيران، وبعبارة أدقّ: أنّهما ينظران إلى قضيّة واحدة ولكن من زاويتين، فنحن نصل تارةً عن طريق وحدة العالم إلى وحدة المُبدىء، واخرى من طريق عدم الفساد الناشىء من الإرادتين، وفى الحقيقة إنّنا ننظر من الأعلى إلى الأسفل تارةً واخرى من الأسفل إلى الأعلى.

وعلى كلّ حال فإنّه من أفضل دلائل التوحيد التى استندت إليها الآيات القرآنية.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «مَا تَرى فِي خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ البَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ* ثُمَّ ارْجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ يَنقَلِبْ اَلَيْكَ البَصَرُ خَاسِئاً وهُوَ حَسِيرٌ». (الملك/ ٣- ۴)

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٣۴

٢- «أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ* لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ». (الأنبياء/ ٢١- ٢٢)

٣- «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ مَعَهُ مِن إِلهٍ إذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». (المؤمنون/ ٩١)

شرح المفردات:

«فُطور»: من (فَطْر) على وزن سَطْر وهى فى الأصل: الفتق، وقد فسّره البعض كالراغب فى المفردات بالشقّ طولًا ومن ثمّ أطلق على كلّ إبداع وإيجاد وخلق، لما فيه من انشقاق حجاب العدم وإبداع الشىء وإيجاده أو اختراعه كما يطلق هذا اللفظ على عملية استخراج الحليب من الغنم باصبعين، وكذلك على هدم الصيام (وقد وردت إيضاحات أكثر حول ذلك فى بداية هذا الجزء فى بحث برهان الفطرة فى موضوع معرفة اللّه).

«إله»: يعنى- كما يقول اللغويون- المعبود، وقالوا باشتقاقه من (إلاهة) بمعنى العبادة وقد ذكرنا آراء الكثير منهم فى الهامش «١».

وقد استعمل هذا المعنى فى مواضع كثيرة من (القرآن الكريم)، كما نقرأ فى قصّة بنى اسرائيل عندما شاهدوا جماعة يعبدون الأصنام فقالوا لموسى: «يامُوسى اجْعَلْ لَّنَا إلهاً كَما لَهُمْ آلِهةٌ». (الأعراف/ ١٣٨)

وقد جاء فى قصّة السامرى: «وَانظُرْ إِلَى إلهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيهِ عَاكِفاً لَّنُحَرِّقَنَّهُ».

(طه/ ٩٧)

---

(١) مصباح اللغة، «أَلَهَ، لَهُ، آلِهة» على وزن «تعب» يعنى عبد عبادة، تألّه (تعبّد) والإله، (المعبود)، وقد ورد فى (صحاح اللغة) هذا المعنى مع فارق بسيط، ويقول الراغب فى المفردات (اله)، جعلوه إسماً لكلّ معبود لهم و (اله فلان يأله): (عبد)، ويقول صاحب لسان العرب: (الاله) كلّ ما اتّخذ من دونه معبوداً، وفى التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ورد بعد ذكر كلمات جمع من اللغويين (فظهر من هذه الكلمات أنّ الاله بمعنى العبادة)، وقد ورد فى مجمع البحرين، «الآلهة»: الأصنام سُمّوا بذلك لاعتقادهم بأنّ العبادة تحقّ لها، وجاء فى كتاب العين للخليل بن أحمد أيضاً (التألّه): التعبّد، وقد جاء هذا المعنى صريحاً فى قاموس اللغة، (وعلى ذلك فإنّ عقيدة أهل اللغة قاطبة هى أنّ الإله تعنى المعبود).

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٣۵

وباختصار فإنّ أرباب اللغة قاطبة وجمع كبير من المفسّرين اعتبروا (اله) بمعنى المعبود وهو الغالب فى موارد استعماله، وحينما نلاحظ

أنّ (اله) قد استعمل فی بعض الحالات بمعنی الخالق أو المدبّر لعالم الوجود فهو لوجود ملازمة- فی بعض الحالات- بین هذه المعانی وبین المعبود، ولا یکون الاستعمال فی بعض الموارد دلیلًا علی الحقیقة أبداً، وخاصّة مع تصریح اللغویین علی خلاف ذلک، وموارد الاستعمال شاهدة علی ذلک أیضاً.

ویمکن القول: أنّ جملة (لا إله إلّااللَّه) لا تنسجم مع هذا المعنی وذلک لوجود معبودات غیر اللَّه الواحد بین العرب والأقوام الاخری، ولکن الإجابة علی هذا السؤال واضحة لأنّ المراد هو المعبود الحقّ لا المعبودات بالباطل، أی: لا معبود حقّاً غیر (اللَّه)، والأصنام لیست أهلًا للعبادة، وقرائن هذا المعنی موجودة فی هذه الجملة، کقولنا: لا علم إلّاما نفع.

هناک ملاحظة جدیرة بالتدقیق وهی أنّ البعض اعتبر (إله) من (وله) وتعنی (تحیّر) وفیها إشارة إلی الذات التی تحیّرت فیها العقول، بَیدَ أنّ المشهور بین اللغویین هو المعنی الأوّل أی أنّه من مادّة (أَلَهَ) بمعنی العبادة.

وقد توضح ممّا ذکرنا أنّ إصرار البعض علی أنّ (اله) لا یعنی (معبود) غیر مقبول أبداً.

جمع الآیات وتفسیرها

مظاهر التنسیق:

تقول الآیة الاولی بعد الإشارة إلی خلق السماوات: «مَا تَری فی خَلْقِ الرَّحمنِ مِنْ تَفاوُتٍ».

إنَّ هذا العالم الواسع بکلّ ما یتضمّنه من عظمة فهو متناسق ومنسجم ومترابط ومتّحد ومنظّم، وإنّ وجود الاختلاف فی اللون والشکل والوزن وسائر الکیفیات الظاهریة والباطنیة أو الکمّیة أمر طبیعی جدّاً، ولکن الشیء الذی لا- وجود له هو عدم التناسق واللانظم والاختلال.

ولذا تقول الآیة فی ذیلها: «فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَی مِنْ فُطُورٍ» والمراد من «فَارْجِعِ

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۶

البَصَر» هو النظر الدقیق والعمیق، والمخاطب فی هذه الآیة وإن کان هو النبی الأکرم صلی الله علیه و آله ولکن من الواضح أنّ المراد هم البشر جمیعاً، وتضیف الآیة: «ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ کَرَّتین یَنْقَلِبْ الَیْکَ البَصرُ خَاسِئاً وهُوَ حَسِیرٌ» «۱».

بهذا الاسلوب یقوم القرآن الکریم وبتعابیر مختلفة بدعوة البشر إلی النظر فی عالم الوجود ولا یکتفی بالدعوة بل یرغبهم ویحرّکهم ویحرّضهم علی هذا العمل، کی یعلموا أنّهم لا یجدون خللًا أو نقصاً فیه، وعندما لا یرون ذلک فسوف یتعرّفون علی حقیقة توحید المُبدیء والوحدانیة ویردّدون جملة (لا إله إلّااللَّه) قلباً ولساناً.

هناک نقطة جدیرة بالإهتمام وهی أنّ (نفی الاختلاف) من بین الموجودات فی العالم والذی ورد فی الآیة أعلاه یعنی حسب اعتقاد البعض: نفی العیب والنقص، وقد فسّره البعض بمعنی نفی عدم الإنسجام، وفسّره آخرون بنفی الإضطراب والتزعزع، وبعض بنفی الإعوجاج، وبعض بنفی التناقض، فی حین أنّ الآیة لها مفهوم واسع یشمل کلّ هذه المعانی (هذه المفردة مشتقّة من (فوت) لأنّ المتفاوتین یفقد کلّ منهما الصفات المختصّة بالآخر).

تعدد الآلهة:

الآیة الثانیة تعرض هذا المضمون فی إطارٍ آخر وصورةٍ اخری حیث تقول: «أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ یُنْشِرُونَ» «۲».

وفى التعبير ب «من الأرض» إشارة لطيفة وهى أنّهم (أى المشركون) كانوا يصنعون

---

(۱) «ارجع البصر» كناية عن النظر المتكرّر والمقرون بالدقّة والإهتمام، و (خاسىء) من (خسئاً) ويعنى الانقباض والإنغلاق المقرون بالذلّة ويمكن أن يكون هنا كناية عن الحرمان والفشل، و (حسير) من (حسر) ويعنى الضعف وافتقاد القدرة وتعنى فى الأصل: الاختفاء، وبما أنّ الشىء إذا ضعف فإنّه يتجرّد عن قدرته وطاقته وقد استعمل هذا اللفظ بمعنى الضعف.

(۲) لفظ (أم) فى الآية- كما يقول جمع من المفسّرين- منقطعة وتعنى (بل)، فى حين اعتقد البعض بأنّها بمعنى هل الإستفهامية، وبما أنّ المشركين لم يدّعوا أنّ الأصنام خالقة، كان بمعنى الإستفهام الإنكارى أكثر مناسبة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۷

آلهتهم من الحجر والخشب والمعادن وهى موجودات أرضية، فهل بإمكان هذه الموجودات أن تكون خالقة للسماوات الواسعة وأن تكون الحاكمة والمدبّرة والمديره لها؟!

ثمّ تضيف الآية فى مقام الاستدلال على بطلان عقيدتهم: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا».

«فساد»: يعنى فى الأصل- كما يقول الراغب فى المفردات: خروج الشىء عن حدّ الإعتدال كثيراً أم قليلًا، فى الروح أو الجسم أو الأشياء الاخرى فى العالم، ويقابله (الصلاح).

و (الفساد) هنا يعنى الدمار والخراب واللانظام والهرج والمرج ....

وتضيف الآية فى آخرها- كاستنتاج: «فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ العَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

وخلاصة الاستدلال هى: لو تعدّد المدير والمدبّر والخالق والحاكم والمتصرّف فى هذا العالم فإنّ العالم لا يمكن أن يتّسم بالنظام والتناسق، وذلك لانتهاء التعدّد فى الآلهة إلى تعدّد التدبير والتصرّف، وبذلك يختلّ عالم الوجود ويتعرّض للفساد والدمار حيث يريد كلّ واحد منهما تطبيق نظام العالم على مشيئته وإرادته.

وهنا يرد هذا الإشكال المعروف وهو: ما المانع من تعاضد الآلهة الحكمية فيما بينها لإيجاد نظام واحد منسجم؟ والإجابة على ذلك ستأتى فى الإيضاحات بإذن اللّه.

الآية الثالثة والأخيرة التى نبحثها تقدّم هذا البرهان فى إطار جديد حيث تقول: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ».

ولو كان كذلك فإنّ كلّ إله ينفرد بمخلوقاته الخاصّة ويفرض عليها تدبيره وتصرّفه الخاصّ، وسوف تكون الأنظمة المختلفة والقوانين اللامنسجمة هى الحاكمة على العالم، وسيكون هو السبب فى وانهيار الوحدة والتعادل فى العالم: «إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِمَا خَلَقَ».

ويكفى هذا الدليل على إثبات وحدانيته تعالى حيث يتألّف من المقدّمتين المشار إليهما سالفاً وهما: إنَّ عالم الوجود منظم ومترابط الأجزاء وتحكمه قوانين معيّنة (هذا من جهة)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۸

ولو كان فى العالم خالقان ومدبّران ومتصرّفان لحصل الخلل وعمّت الفوضى نتيجة لتعدّد مراكز القرار والتدبير والتصرّف (من جهة ثانية).

والآية تشير فى ذيلها إلى أمر آخر بقولها: «وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ».

ويعدّ هذا سبباً فى اختلال النظام فى العالم واتّصافه بالفوضى وعدم الإنسجام.

وهنا- أيضاً- يثار هذا الإشكال فى الأذهان وهو: أنّ هذه الآلهة الحكيمة بإمكانها أن تنسّق برامجها فيما بينها بشكل لا يعرّض وحدة العالم إلى الإختلال وفقد النظام، وسيأتى- كما أسلفنا- الجواب على هذا الإشكال فى البحوث القادمة.

وتستنتج الآية الكريمة أخيراً من هذين الدليلين حيث تقول فى ذيلها: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ».

توضيحات

۱- النظرة العلمية لوحدة عالم الخلق

عندما نلاحظ هذا العالم الواسع نراه على شكل موجودات متفرّقة: الشمس، القمر، السماء، النجوم الثابتة والمتحرّكة، الإنسان، الحيوانات، أنواع النباتات والعناصر المختلفة، ولكن بعد قليل من الدقّة والدراسة نجد أنّ ذرّات هذا العالم مترابطة ومتّصلة الأجزاء حتّى تبدو وكأنّها شيء واحد، وكلّما تعمّقت دراستنا وتركّزت إزددنا إيماناً بهذا التنسيق والإتّحاد للأسباب التالية:

۱- إنّ أجرام المجموعة الشمسية مترابطة فيما بينها إلى حدّ تكون فيه كاسرة واحدة كما هى عليه نظريات العلماء التى تعتقد أنّها كانت فى البداية شيئاً واحداً متّصل الأجزاء ثمّ انفصلت تدريجيّاً وبقيت مترابطة حتّى بعد افتراقها.

وتقول الأبحاث الفلكية فى هذا المجال: إنّ مجموعتنا الشمسية غير مستقلّة أيضاً، حيث إنّها جزء من مجرّة كبيرة تشكّل مع المجرّات الاخرى مجموعة واحدة يعمل فيها

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۳۹

قانون الجاذبية حيث يجعلها كسلسلة مترابطة الحلقات كما يعتقد العلماء بأنّ هذه المجرّات كانت بأجمعها شيئاً واحداً متّصلًا فانفصلت أجزاؤها تدريجاً.

۲- الأجسام المختلفة والمتباينة تماماً تتركّب- كما يبدو بالتحليل النهائى لها- من عدد من العناصر المعيّنة وهى تلك- الموجودات البسيطة التى اكتشف منها أكثر من ۱۰۰ عنصر لحدّ الآن، وهذه العناصر رغم اختلافها الشديد فى الظاهر نراها عند تحليلها إلى أجزاء صغيرة- أى الذرّة- أنّها متشابهة والفارق فيها هو عدد الألكترونات والبروتونات.

۳- من العجيب أن يكون النظام الحاكم على هذه الذرّة هو الحاكم على العالم الواسع أى المجموعات والمجرّات أيضاً حيث تجمع قوّة الجذب والطرد هذه السيارات فى مجموعة واحدة أو الالكترونات فى ذرّة واحدة وفى مدارات خاصّة تدور حول النواة الأصلية دون أن تنفصل عن بعضها أو تتجاذب فيما بينها.

۴- الكائنات فى الأرض وإن بدت لنا متنوّعة، كما فى الألوان التى نشاهدها شديدة الاختلاف فيما بينها إلّاأنّنا وبالتحليل النهائى نصل إلى أنّ كلّ الألوان ترجع إلى أمواج تختلف فى شدّة ذبذبتها وطول أمواجها وقصرها.

۵- إنّنا نسمع أصواتاً مختلفة تماماً، ولكن علم الفيزياء الحديث يقول: بأنّ هذه الأصوات كلّها، الجميلة منها والقبيحة، الخفيفة والصاخبة ترجع إلى مُبدىء واحد هو عبارة عن أمواج خاصّة تنشأ هذه الأنواع من اختلاف الذبذبة فيها.

۶- للأحياء أنواع كثيرة جدّاً، فالحشرات وحدها لها مئات الآلاف من الأنواع، والنباتات لها أنواع تفوق ذلك، غير أنّ علماء النبات والحيوان يقولون: إنّها مركّبة من مادّة واحدة، ومؤلّفة من الخلايا التى يحكمها نظام واحد، ولذا تجرّب الأدوية التى يراد معرفة درجة تأثيرها فى الإنسان على الحيوانات أوّلًا فى الغالب.

۷- توصّل العلماء من خلال تحليل النور المنبعث من الكواكب البعيدة والقريبة إلى هذه النتيجة وهى: أنّ العناصر التى تتركّب منها الكواكب السماوية تشابه الأجزاء التى تتركّب منها كرتنا الأرضية، وهذا يعنى وجود تناسق عجيب حاكم على مجموعة الأجرام والنجوم فى الكون.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۰

۸- القوانين المختلفة التى تحكم الكون مثل، قانون الجاذبية، وسرعة النور، وقانون الحركة وأمثالها توجد بنفسها فى كلّ مكان وتتبع منهجاً واحداً، ولذا فإنّ العلماء وبإجراء تجارب على نموذج واحد أو عدّة نماذج فى الأرض اكتشفوا قانوناً شاملًا يحكم عالم الوجود

كلّه، كما نجد أنّ «نيوتن» اكتشف قانون الجاذبية السارى فى كلّ المجموعات والمجرّات من رؤية تفاحة تسقط من شجرة!

وباختصار، كما قرأنا فى الآية الاولى من آيات هذا البحث، أنّنا لا نرى أى اختلاف فى خلق الرحمن ولا فطور أو خلل، وكلّما تقدّم العلم والفكر البشرى كلّما تجلّت عظمة هذه الآية وعمقها أكثر فأكثر، وهذا التناسق والوحدة دليل واضح على وحدة الخالق للعالم.

۲- إيضاح برهان التمانع

اشارة

إنَّ برهان التمانع الذى يعبّر عنه ب (برهان الممانعة) أو (برهان الوحدة والتناسق) يتألّف من مقدّمتين:

الاولى: الإنسجام والوحدة والتناسق فى عالم الخلق الذى تقدّم بحثه.

الثانية: لو كانت القوى الحاكمة على هذا الكون قوّتين أو أكثر فإنّ ذلك سيؤدّى إلى حدوث الاختلاف والإختلال، وبما أنّنا لا نلاحظ أى اختلال أو عدم تعادل فى هذا الكون والقوانين الحاكمة فيه، ندرك أنّها تنشأ من مُبدىء واحد وأنّها مخلوقة ومدبّرة ومنظّمة من خالق واحد.

الآية الاولى من بين الآيات السابقة تشير فى الحقيقة إلى المقدّمة الاولى، والآية الثانية والثالثة تشيران إلى المقدّمة الثانية، ولذا قد يطلق على هذا البرهان: (برهان الوحدة والتناسق) بالنظر إلى المقدّمة الاولى.

وقد يعبّر عنه ب (برهان التمانع) بالنظر إلى المقدّمة الثانية، وبناءً على ذلك فإنّهما يرجعان إلى دليل واحد، غير أنّ النظر إليه يتمّ من زاويتين مختلفتين.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۱

الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأوّل: إنَّ هذا السؤال يُطرَحُ من قبل الكثير وهو أنّ تعدّد المبدأ لا يكون سبباً لاختلال النظام دائماً فإنّا نشاهد مجموعات تطبّق برنامجاً صحيحاً ومتناسقاً بنجاح وذلك بالتشاور فيما بينها، فلو افترضنا أنّ للعالم آلهة فإنّ التعدّد هذا يكون منشأ للفساد فى العالم حين وقوع النزاع فيما بينها، ولكن إذا أقررنا أنّها حكيمة وواعية فإنّها تدبّر امور الكون بنظام خاصّ وبتعاون فيما بينها حتماً.

الجواب: هذا السؤال والإشكال وإن كان ملفتاً للنظر ابتداءً ولكنّه يتّضح بعد التدقيق أنّه ناشىء من عدم ملاحظة مفهوم (التعدّد).

وللتوضيح نقول: إنّنا عندما نقول آلهة متعدّدة فإنّها تعنى أنّها ليست واحدة من كلّ جهة، فلو كانت واحدة من جميع الجهات فإنّها تكون ذات وجود واحد، وبعبارة اخرى: أينما وجد التعدّد والإثنينية وجب أن نقرّ بوجود اختلاف فى الأمر، وإلّا فإنّه من المستحيل أن يكون الموجودان واحداً من جميع الجهات.

ومن جهة اخرى يوجد (تناسب) و (سنخية) بين (الفعل) و (الفاعل) دائماً، فكلّ فعل يكون من آثار فاعله ويتّصف بلونه- شِئنا أم أبينا- وبهذا يستحيل أن يصدر فعلان من فاعلين ثمّ يكونان واحداً من جميع الجهات، كما يستحيل أن يكون الفاعلان متساويين من حيث الإرادة والعمل، واختلافهما فى الوجود يترك أثره على إرادتهما وعملهما حتماً.

النتيجة هى أنّه لا يمكن أن يصدر نظام واحد وخال من الإثنينية من مبدأ متعدّد.

وأمّا ما يقال عن الأعمال الجماعية فلابدّ أن نلتفت إلى أنّ هذه الأعمال وإن اتّصفت بنظام نسبى إلّاأنّها لا تتّصف بنظام حقيقى ومطلق حيث يتنازل المتشاورون عن بعض آرائهم ورغباتهم للتعاون فيما بينهم لا أنّ رغباتهم وآراءهم واحدة دائماً، إضافة إلى أنّ الأنظمة القائمة على الشورى قليلًا ما تعمل بصورة متّفقة، بل إنّها تتّبع النسبة الغالبة عادةً وهذا دليل على صحّة ما ندّعيه.

إضافةً إلى أنّ هذه الغالبية لا تكون أشخاصاً ثابتين دائماً بل متغيّرين، فتارةً تكون

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۲

الغالبية أربعة أشخاص من سبعة أشخاص، وتارة أحد هؤلاء مع ثلاثة آخرين، وبما أنّ الغالبية متغيّرة فلا يمكن إذن أن تكون أعمالها واحدة.

بهذه الأدلّة الثلاثة تتّصف هذه الأنظمة القائمة على الشورى بشيء من عدم الانسجام ولكنّها بسبب القناعة بالنظام النسبى يقال أنّها منظمة! لكنّنا لا نرى فى عالم الوجود نظاماً نسبياً بل نظاماً واحداً وانسجاماً كاملًا وتامّاً.

وبعبارة اخرى: لو افترضنا وجود مبدأين للكون فإنّهما إمّا متساويان من جميع الجهات (فهما إذن واحد) أو مختلفان ومتباينان من جميع الجهات (حينئذٍ يكون تقابل فى خلقهما وتدبيرهما) ولو كانا متشابهين من بعض الجهات ومختلفين فى البعض الآخر فإنّ هذا الاختلاف والتمايز سوف يترك أثره على أفعالهما لأنّ الفعل انعكاس لوجود الفاعل وظلّ وجوده.

السؤال الثانى: ويطرح هنا سؤال ثانٍ بملاحظة جملة (ولعلا بعضهم على بعض) التى جاءت فى الآيات المذكورة وهو: كيف يمكن وقوع النزاع بين آلهة يفترض أنّها حكيمة؟

ويميل بعضها للتغلّب على البعض الآخر؟ ولماذا يفترضهما المفسّرون كسلطانين أنانيين فى زمن واحد يتنازعان بصورة دائمة لتضارب المصالح؟

الجواب: ينشأ هذا السؤال من أنّهم تصوّروا أنّ الاختلاف بين المبدأين يجب أن ينشأ من هوى النفس والأنانية دائماً، فى حين يمكن أن ينشأ الاختلاف من الاختلاف فى التشخيص والقرار والإرادة بين شخصين مهما كانا.

ويلزم أن نكرّر هذه الحقيقة ونؤكّد عليها وهى: أنّنا حينما نفترض وجود مبدأين للكون فإنّ الإثنينية تعنى أنّهما وجودان مختلفان من بعض الجهات حتماً وإلّا فإنّ وجودهما واحد، وبهذا لا يمكن أن يكون فعلهما واحداً وعليه فإنّ هذا الإله يجعل تكامل الكون ونظامه وتدبيره الصحيح فى شيء فى حين يجعل الثانى النظام والتكامل فى شيء آخر، ومن الخطأ الكبير أن يتصوّر أنّهما كاملان من جميع الجهات، فإنّ افتراض الإثنينية يعنى

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۳

افتقاد كلّ واحد منهما كمالات الآخر المختّصة به، فلا يتصوّر لهما حينئذٍ الكمال المطلق، بل إنّ نقصانهما النسبى حتمى، فلا عجب فى أن يختلفا فى العمل والإرادة والقدرة، ورغبة كلّ واحد فى إدارة الكون وفق ما يراه فيضاً كاملًا.

۳- برهان الوحدة والتمانع فى الروايات الإسلامية

لقد ورد الدليل أعلاه بشكل واضح ومختصر فى الروايات الإسلامية، حيث جاء فى حديث أنّ هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السلام: ما الدليل على أنّ اللَّه واحد؟

فأجاب الإمام عليه السلام: «اتّصال التدبير وتمام الصنع كما قال اللَّه عزّوجلّ: لو كان فيهما آلهة إلّا اللَّه لَفَسدتا» «۱».

وفى حديث آخر نقله الكلينى رحمه الله فى الكافى عن هشام أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال فى مسألة التوحيد جواباً للرجل الزنديق: «لمّا رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً والتدبير واحداً والليل والنهار والشمس والقمر دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد» «۲».

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۳، ص ۵۵، ح ۲.

(۲) المصدر السابق، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۵

۳- دليل صرف الوجود

تمهيد:

إنَّ اللَّه سبحانه وتعالى يمثل وجوداً لا نهايةَ له من كلّ جهةٍ- كما سيأتى شرحه لاحقاً- ومن المؤكّد أنّ مثل هذا الوجود لا سبيل للإثنينية إليه، فمن غير الممكن وجود موجودين لا نهائيين، لأنّ الحديث إذا كان عن الإثنينية فإنّ كلّ واحد يكون فاقداً للوجود الثانى وبتعبير آخر أنّنا نصل إلى حدّ ينتهى فيه الوجود الأوّل ويبدأ وجود الثانى، وعليه فإنّ الوجود الأوّل محدود وهكذا الوجود الثانى لأنّ كلّ واحد يكون ذا بداية ونهاية، ولنوضّح هذه القضيّة بمثال:

شخصان يملك كلّ واحد منهما بستاناً، ومن الطبيعى والحتمى أنّ لكلّ بستان حدوداً معينة، ولو فرضنا أنّ مساحة البستان الأوّل تشمل كلّ الأرض فأين تكون مساحة البستان الثانى؟ إذن، سيكون أمامنا بستان واحد فى الأرض.

وعليه فإنّ الحديث عن اللامحدود يعنى الحديث عن الوحدة.

والمراد من برهان (صرف الوجود) هو أنّ اللَّه سبحانه وجود مطلق ومجرّد عن القيد والشرط وغير محدود، ولا يفترض الثانى له أبداً.

بهذا التمهيد نتوجّه إلى القرآن الكريم ونستمع خاشعين إلى الآيات التالية:

۱- «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ». (آل عمران/ ۱۸)

۲- «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ يُحْيِ وَيُميتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدْيرٌ* هُوَ الأَوّلُ

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۶

والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ۲- ۳)

۳- «يَاصَاحِبَى السِّجنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفرِّقُونَ خَيرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ». (يوسف/ ۳۹)

جمع الآيات وتفسيرها

اللَّه شاهد على وحدانية ذاته:

تمّ تفسير آية البحث الاولى فى مباحث (برهان الصدّيقين) السالفة ونمرّ عليها هنا باختصار.

إنَّ مضمون هذه الآية هو أنّ اللَّه عزّوجلّ يشهد على وحدانيته وكذلك الملائكة والعلماء (كلّ واحد بشكل): «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ».

ومن علامات وحدانية ذاته المقدّسة هى حاكمية النظم والعدل على الكون، ولعلّ الآية تشير إلى هذا الجانب فى ذيلها: «قَائِماً بالْقِسْطِ» ثمّ تستند إلى وحدانية ذاته المقدّسة مرّة اخرى وتقول: «لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ».

ومن البديهى أنْ لو كانت ثمّة آلهة تحكم الكون، فإنّ منطقة كلّ إله لا تكون فى اختيار الثانى، وبتعبير آخر يكون كلّ واحد فاقداً لقدرة الثانى، وهذا لا ينسجم اتّصافه ب (العزيز).

كما أنّ حكمته التى تحكم العالم آية اخرى على وحدانيته، فلو تعدّدت الأكوان كانت نهايتها الفساد والدمار.

أمّا كيفية شهادة الملائكة بوحدانية اللَّه عزّوجلّ فإنّها واضحة، ولكن هناك كلام بين المفسّرين حول كيفية شهادة اللَّه على وحدانية

ذاته، فبعض يقول: المراد هو الشهادة اللفظية التى وردت فى آيات قرآنية مختلفة، وبعض يقول: إنّ آثار وحدانيته ظاهرة فى عالم الوجود فى الآفاق والأنفس لأنّ النظام الوحد هو الحاكم على الجميع وهذا هو معنى شهادة اللَّه على وحدانيته.

إنَّ كلّ ذلك صحيح، ولكن تضاف إليها شهادة اخرى وتستحقّ التفصيل فيها وهى أنّ ذاته المقدّسة بنحو يأبى التعدّد، وجود لا نهاية له، والوجود اللانهائى واحد فقط، فذاته إذن دليل

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۷

على وحدانية ذاته (فتأمّل جيّداً).

ولا منافاة- طبعاً- بين التفسيرات الثلاثة ويمكن أن تكمن فى مفهوم الآية، وعليه فإنّ إصرار بعض المفسّرين مثل صاحب (الميزان) فى أنّ تفسير الآية ينحصر فى المعنى الأوّل (الشهادة اللفظية) مع ملاحظة إطلاق لفظ الآية ممّا لا يوجد دليل واضح عليه.

أمّا السبب فى تكرار جملة (لا إله إلّااللَّه) فى الآية، فالظاهر هو أنّ الأولى بمثابة المقدّمة، والثانية النتيجة، ولعلّ فى الرواية التى وردت فى تفسير القرطبى (المفسّر السنّى المعروف) عن الإمام الصادق عليه السلام إشارة إلى هذا المعنى حيث يقول فيها: الاولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم يعنى «قولوا لا إله إلّااللَّه العزيز الحكيم» «۱».

هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن:

الآية الثانية وهى من الآيات الاولى من سورة الحديد- ونعلم أنّ هذه الآيات تتضمّن بياناً دقيقاً وظريفاً عن صفات اللَّه الجمالية والجلالية لذوى الأفكار الثاقبة، كما يستفاد من الحديث الوارد عن الإمام على بن الحسين عليه السلام- يقول عزّ وجلّ: «لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالأَرْضِ» «۲»

ولذلك فإنّ الحياة والموت فى قبضته أيضاً: «يُحْيى وَيُميتُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدْيرٌ».

وعليه فإنّ المدير والمدبّر لهذا الكون هو ذاته المقدّسة فقط.

وفى ذيل الآية توجد قضيّة يمكن أن تكون دليلًا على التوحيد فى مالكيته وحاكميته وتدبيره حيث تقول: «هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلّ شَىءٍ عَليمٌ».

فى هذه الآية بيان لخمس صفات من صفاته المقدّسة وتدلّ بمجموعها على أنّ ذاته المقدّسة لا نهاية لها، فهو أوّل كلّ شىء، وآخر كلّ شىء، وهو الموجود فى الظاهر والباطن،

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۲۸۵.

(۲) لاحظ أنّ فى تقديم (له) إشارة إلى الحصر، ويعنى أنّ ملك السماوات والأرض منحصر فى ذاته المقدّسة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۸

وله الحضور العلمى فى كلّ مكان، وأنّ مثل هذا الموجد لا يتصوّر أنْ يكون له ثانٍ، فلو كان الإله الثانى موجوداً فإنّه يعنى أنّ الإثنين محدودان وذلك لانتهاء كلّ واحد عندما يصل إلى الآخر، ويبدأ الثانى.

إذن عدم محدوديته دليل على وحدانيته.

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: استدلّ الكثير من العلماء على إثبات وحدانيته بعبارة:

(هو الأوّل) «۱».

وقد كثر الكلام حول مفهوم (الأوّل والآخر والظاهر والباطن) وستأتى لاحقاً أبحاث الصفات الثبوتية بإذن اللَّه، وينبغى أن نذكر هنا

هـذه النقطة وهى: أنّ الأوّل فى الموجودات المحدودة لا يمكن أن يكون آخراً وما كان آخراً لا يكون أوّلًا، كما أنّ الوجود الظاهر لا يكون باطناً، والوجود الباطن لا يكون ظاهراً، وعندما يكون الحديث عن اللامحدود فإنّ هذه المفاهيم تكون مجتمعة فيه.

الآية الثالثة والأخيرة التى وردت فى بحثنا تتحدّث عن لسان يوسف عليه السلام عندما فسّر للسجينين معه مناميهما بعد أن طلبا التفسير منه وتشير إلى أنّ يوسف عليه السلام عرج من كلامه عن الحلم وتفسيره إلى البحث عن التوحيد الذى يتضمّن أصل السعادات برمّتها وقال لهما:

«يَاصَاحِبَى السِّجنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهّارُ».

والملاحظ أنّ صفة (قهّار) قد تكرّرت فى القرآن الكريم ستّ مرّات «۲» وقد وردت فى كلّ مورد بعد الصفة (واحد) ممّا يدلّ على وجود علاقة بينهما وأنّ قاهريته دليل على وحدانيته (فتأمّل جيّداً).

قام يوسف عليه السلام بطرح المسألة أوّلًا على وجدانيهما، وبما أنّ حقيقة التوحيد- كما أشرنا سالفاً- كامنة فى أعماق الفطرة الإنسانية فقد أقام المحكمة بين يدى الوجدان وسأل:

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۱۳ (وجاء هذا المضمون فى تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۳۴۷ أيضاً).

(۲) الرعد، ۱۶؛ إبراهيم، ۴۸؛ ص، ۶۵؛ الزمر، ۴؛ غافر، ۱۶ وآية البحث.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۴۹

أأرباب متفرّقون، إله البحر، إله الصحراء، إله الأرض، إله السماء، إله الماء، إله النار، وهكذا الملائكة والجنّ والفراعنة والأصنام الحجرية والخشبية والمعدنية التى تعبدونها خير أم اللَّه الواحد المهيمن على كلّ شىء؟ وكلمة (قهّار) صيغة مبالغة من (القهر) ويعنى كما يقول الراغب فى المفردات: الغلبة وإذلال الطرف المقابل، ولكن هذا اللفظ يستعمل فى كلّ واحد من هذين المعنيين (الغلبة والإذلال) مستقلًا، وكما يقول الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان:

«القاهر هو القادر الذى لا يمتنع عليه شىء» «۱»، من هنا تتّضح العلاقة بين صفة الوحدة والقاهرية، فحينما نذعن بقدرته الغالبة على كلّ شىء أى أنّها غير محدودة فإنّنا لا نتصوّر له ثانياً، لأنّ كلّ ما سواه مغلوب له ومقهور، ولذلك لا يمكن أن يكون ما سواه واجب الوجود وغير محدود (فتأمّل جيّداً).

توضيحات

۱- إنّه حقيقة لا متناهية

القضيّة الاولى والأكثر أهمّية فى باب (صفات اللَّه) الواجب إثباتها لإيضاح مسألة التوحيد وصفات اللَّه الاخرى كالعلم والقدرة وأمثالها هى أنّ ذاته المقدّسة لا متناهية، فإن ثبتت هذه القضيّة وفُهمت جيّداً تيسّر الطريق إلى جميع الصفات الجمالية والجلالية (الصفات الثبوتية والسلبية).

ولإثبات هذا الأمر وهو أنّه تعالى وجود لا نهاية له، لابدّ من ملاحظة النقاط التالية:

أ) محدودية الوجود تعنى التقارب مع (العدم) فلولا العدم لا يستقرّ مفهوم للمحدودية، فعندما نقول: إنّ عمر فلان محدود فإنّه يعنى أنّ عمره سينتهى إلى العدم ومقرون بالعدم، وهكذا بالنسبة لمحدودية القدرة أو العلم وأمثالها.

ب) الوجود ضدّ العدم ولو كان الشىء مقتضياً للوجود ذاتاً فإنّه لا يقتضى العدم أبداً.

ج) ثبت فى برهان العلّة والمعلول أنّ سلسلة العلّة والمعلول فى هذا الكتاب يجب أن

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۴۰۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۰

تنتهى إلى نقطة ثابتة وأزلية نسمّيها واجب الوجود، أى وجوده ناشىء من أعماق ذاته لا خارجها، وعليه تكون العلّة الاولى للكون تقتضى الوجود ذاتاً.

أعِد قراءة هذه المقدّمات الثلاث بدقّة وفكّر فيها جيّداً، فسوف يتّضح أنّ واجب الوجود إذا تحدّد فإنّه يجب أن يكون من الخارج، لأنّ المحدودية طبق هذه المقدّمات تعنى الاقتران بالعدم، والشىء المقتضى للوجود ذاته لا يقتضى العدم أبداً، ولو اتّصف بالمحدودية فإنّه راجع إلى عامل خارجى، ويستلزم هذا القول أنّه ليس واجب الوجود لأنّه مخلوق لغيره من حيث حدّه الوجودى ومعلول لغيره.

وبعبارة اخرى: لدينا واجب الوجود دون شكّ (لأنّ البحث فى التوحيد والوحدانية بعد إثبات واجب الوجود) فإن كان واجب الوجود غير محدود فمدّعانا ثابت، وإن كان محدوداً فإنّ هذه المحدودية ليست مقتضى ذاته أبداً، لاقتضاء ذاته الوجود دون اقتران بالعدم، فلابدّ من فرضه عليه من الخارج، ومفهوم هذا الكلام هو وجود علّة خارج ذاته وهو معلول تلك العلّة، وبهذا الحال لا يكون واجب الوجود، والنتيجة هى أنّه وجود غير محدود من كلّ جهة.

۲- الحقيقة اللامتناهية واحدة قطعاً

ثبت فى البحث السابق أنّ اللّه عزّ وجلّ وجود غير محدود وغير متناهٍ، وهنا نقول: أنّ مثل هذه الحقيقة تأبى الإثنينية ولا تكون إلّاواحدة لما قلنا مراراً أنّه لا يمكن تصوّر شيئين غير محدودين أبداً، حيث تقترن الإثنينية بالمحدودية دائماً وهذا أمر واضح لأنّ تصوّر الوجودين ممكن حينما يكون كلّ وجود منفصلًا عن الآخر، فكلّ واحد ينتهى عند الوصول إلى الثانى ويبدأ الآخر.

واختبار هذا الأمر يسير، تصوّر على سبيل المثال ضوءاً غير مقيّد أو مشروط بزمان أو مكان أو سعة أو مصدر وغير محدود من أيّة جهة، فهل يمكنك أن تتصوّر ضوءاً ثانياً مثيلًا له؟! فبالتأكيد سيكون الجواب: كلّا، لأنَّ كلّ ما تتصوّره هو الأوّل إلّاأن تضيف إليه شرطاً أو قيداً وتقول: الضوء هنا أو هناك من هذا المصدر أو ذاك.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۱

وبعبارة اخرى عندما نقول: يوجد ضوءان فى الخارج فإنّه إمّا بملاحظة زمانيهما أو مكانيهما أو مصدريهما أو شدّة نوريهما، ولو تجرّدا من كلّ قيد أو شرط فإنّهما سيكونان واحداً قطعاً (فتأمّل جيّداً).

ولعلّ الآية الكريمة التى تقول: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ الَهاً آخَرَ لَابُرهانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّه لَايُفلِحُ الكَافِرُونَ». (المؤمنون/ ۱۱۷) تشير إلى هذا المعنى حيث لا يمكن الاستدلال على وجود ندٍّ للّهسبحانه أبداً، فكيف يمكن الاستدلال على أمرٍ لا يمكن تصوّره؟

۳- دليل صرف الوجود فى الأحاديث الإسلامية

إنَّ البرهان المذكور نقل بقول جميل فى رواية عن الإمام السجّاد عليه السلام حيث قال: «إنّ اللّه لا يوصف بمحدودية، عظُم ربّنا عن الصفة وكيف يوصف بمحدودية من لا يُحد» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام: «هو أجلّ من أن تدركه الأبصار أو يحيط به وهم أو يضبطه عقل» فسأل سائل: فما حدّه؟ فقال عليه السلام: «إنّه لا يحدّ، قال: لِمَ؟ قال عليه السلام:

لأنّ كلّ محدود متناه إلى حدّ، فإذا احتمل التحديد احتمل الزيادة، وإذا احتمل الزيادة احتمل النقصان، فهو غير محدود، ولا متزايد ولا متجزّىء ولا متوهّم» «۲».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۰، باب النهى عن الصفة، ح ۲.

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۵، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۳

۴- دليل الفيض والهداية

اشارة

(دعوة الأنبياء جميعاً إلى اللّه الواحد)

تمهيد:

إنَّ اللّه سبحانه وجود كامل، ومثل هذا الوجود يكون مصدراً للفيض على الموجودات وكمالها، فهل يعقل أنَّ مصدر الكمال يحرمُ الموجودات الاخرى من فيضه ولا يعرّفهم- على الأقل- نفسه؟ مع أنّ هذه المعرفة سبب لرقيّهم وكمالهم يدفعهم نحو ذلك الوجود الكامل والفيّاض.

وعلى ضوء هذا البيان يتّضح أنّه لو كان هناك عدّة آلهة لوجب أن يكون لكلّ إله منهم رسل، وأن يعرّف نفسه إلى مخلوقاته، وأن يشملهم بفيضه التكوينى والتشريعى.

والنتيجة هى: أنّنا لو وجدنا أنّ الرسل بأجمعهم يخبرون عن إله واحد، لاتّضح أنّ غيره لا وجود له.

بهذا التمهيد نرجع إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

۱- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء/ ۲۵)

۲- «وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ».

(الزخرف/ ۴۵)

۳- «قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَّا تَدْعُونَ مِنْ دوُنِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّماواتِ ائْتُونِى بِكِتابٍ مِّنْ قَبلِ هـذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صَادِقِينَ». (الأحقاف/ ۴)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۴

جمع الآيات وتفسيرها

دعوة الأنبياء العامّة إلى اللّه الواحد:

إنَّ الآية الاولى فى بحثنا هذا تشير إلى تاريخ الماضين من الأنبياء وتقول: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

أجل فإنّ الأنبياء عليهم السلام جميعاً كانوا ينادون بالتوحيد ويدعون الناس إلى اللَّه الواحد ويشهد تاريخهم بهذا الأمر، فكيف يعقل أن يكون للشرك حقيقة وجميع الأنبياء يدعون إلى التوحيد؟!

فهل كان هناك إله آخر ولكنّه لم يعرّف نفسه؟ أو أنّ الرسل قصّروا فى إبلاغ أمره؟ والعقل السليم لا يُقرّ بقول من هذه الأقوال.

وكما يقول بعض المفسّرين: يقوم القرآن الكريم فى آيات هذه السورة (الأنبياء) بالاستدلال العقلى أوّلًا لإثبات التوحيد: «لَو كَانَ فِيهِمَا آلِهةٌ إِلَّا اللَّهُ ...»، ثمّ بالدليل النقلى (آية البحث) حيث دعا جميع الأنبياء الماضين إلى التوحيد «۱».

أمّا الآية الثانية فهى: تطرح هذا المضمون فى إطار آخر حيث تخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (المراد هم الناس طبعاً) وتقول: «وَاسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ منْ رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ آلِهَةً يُعْبَدوُنَ».

وقد احتمل المفسّرون عدّة احتمالات فى كيفية أمر الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بأن يسأل الأنبياء السابقين مع عدم حضور أحدهم فى عصره، فقد قال البعض: إنّ المراد هو السؤال من الامم السابقة كى تثبت القضيّة عن طريق الخبر المتواتر، فالامم حتّى التى تعتقد بالتثليث وأمثاله، عندما تسأل عن ذلك فإنّها تعلن عن اعتقادها بالتوحيد وتعبّر عن ذلك ب (التثليث فى الوحدة).

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۴۳۲۰.

وهذه الآية تعطى- فى الحقيقة- مفهوم الآية التالية حيث خاطبه تعالى بقولِهِ: «فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الكِتَابَ مِن قَبلِكَ». (يونس/ ۹۴)

وقد احتمل هذا أيضاً وهو: أنّ المراد هو مراجعة كتبهم المتبقّية فى اممهم، فإنّ استخراج القضايا منها بمثابة السؤال عن اولئك الأنبياء.

وقال جماعة أيضاً: إنّ المراد هو سؤال النبى صلى الله عليه و آله من أرواح الأنبياء عليهم السلام السابقين ليلة المعراج بل فى غير ليلة المعراج، لأنّ روح نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من العظمة ما لا يعيقها البعد الزمنى والمكانى فكان بإمكانه أن يتّصل بأرواح الأنبياء السابقين.

وبما أنّ الهدف الرئيس من الآية هو الاستدلال أمام المشركين، فقد كان المعنى الأوّل والثانى هو المناسب وذلك لأنّ الإرتباط المعنوى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع أرواح الأنبياء السابقين لم يتقبّله المشركون وكان مفيداً للنبى صلى الله عليه و آله نفسه، وإنّا نعلم أنّ إيمان النبى بالتوحيد كان بدرجة لا يحتاج فيها إلى طرح مثل هذا السؤال نفسه.

والتفسير الثالث يمكن أن يكون من التفسير الباطنى للآية وقد تضمّنت روايات متعدّدة الإشارة إلى ذلك «۱».

على كلّ حال فإنّ المراد هو أنّ دعوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله إلى التوحيد ليس أمراً جديداً أو عجيباً بل أمر قد اتّفق عليه جميع الأنبياء الإلهيين وهذا بنفسه دليل واضح على قضيّة التوحيد.

والاستناد إلى الاسم المقدّس (الرحمن) فى هذه الآية إشارة إلى أنّ من يستحقّ العبودية هو الإله الذى تشمل رحمته العامّة حتّى الكافرين المشركين والبشر جميعاً، فكيف يمكنهم أن يتركوا ولى نعمتهم الذى غمرهم إحسانه ويتوجّهوا إلى الأصنام الخاوية؟

هل تمتلكون دليلًا على الشرك؟!

إنَّ الآية الثالثة والأخيرة ضَمَّت الدليل النقلى المذكور إلى جانب دليل عقلى آخر إذ

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۴، ص ۱۴۷؛ تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۶۰۶- ۶۰۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۶

تقول: «قُلْ أَرَأَيتُم مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّماواتِ».

فلو كانت تلك المعبودات معبودات حقيقيّة فإنّها ينبغى أن تكون مبدأً للفيض، وعلى الأقل أن تخلق قسماً من الأرض وتساهم فى خلق السماوات، فهل يعقل أن يكون الإله فاقداً للفيض؟

ومن جهة اخرى: أى نبى دعا الناس إلى آلهة متعدّدة؟: «ائتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبلِ هذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُم صادِقِينَ».

وهذا التعبير يشير إلى أنّ الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على التوحيد، وهذا الإجماع أو الاتّفاق دليل واضح على القضيّة، وبهذا يكون كتاب الخلق دليلًا على التوحيد وكذلك كتب الأنبياء السابقين.

«أثارة من علم»: من مادّة (أثر) ولهذا اللفظ- كما فى (مقاييس اللغة)- ثلاثة معانٍ:

التقديم، الذكر وأثر الشىء.

وقد ورد هذا المضمون فى تفسير الفخر الرازى ولكن بتعبير آخر حيث ينقل المعانى الثلاثة ل (اثار) «۱».

توضيحات

۱- الفيض والهداية فى الروايات الإسلامية

ورد (برهان الهداية والفيض) فى الروايات الإسلامية إلى جانب القرآن الكريم، فقد تحدّث الإمام على عليه السلام فى وصيّته المعروفة إلى الإمام الحسن عليه السلام عن هذا البرهان ببيان جميل وواضح حيث قال: «واعلم يابنى أنّه لو كان لربّك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته ولكنّه إله واحد كما وصف نفسه» «۲».

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادّة (أثر).

(۲) نهج البلاغة، الرسالة ۳۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۷

توضيحه: إنّ اللَّه حكيم، والإله الحكيم له آثار الهداية والفيض حتماً، فى عالم التكوين والخلق وفى عالم التشرع والدين، فكيف يمكن أن يوجد إله آخر ولا نرى آثار صنعه فى ساحة الوجود ولا نشاهد علامة من رسله؟ وهذا لا ينسجم مع حكمته أبداً لأنّ فى ذلك حرمان البشر من معرفته وعظمته وقدرته.

ثمّ إنّ دعوة الأنبياء المرسلين من قبل اللَّه جميعاً لا تنسجم مع فرض وجود إلهين، فهل يعقل أن يطرح الإله الذى يرسل الأنبياء قضيّة غير صحيحة ويدعو إلى التوحيد كذباً؟! فهذا لا ينسجم مع حكمته أيضاً.

ولا ينحصر طريق إثبات وحدانية اللَّه فى هذا الدليل فقط لوجود أدلّة اخرى أشرنا إليها سابقاً، أمّا إجماع الأنبياء عليهم السلام واتّفاقهم على الدعوة إلى اللَّه الواحد فهو يُعدّ دليلًا مستقلًا.

۲- برهان التركّب

ذكر الفلاسفة وعلماء الكلام دليلًا خامساً على إثبات وحدانية ذات اللَّه المقدّسة ولم نعثر على آية قرآنية تصرّح بذلك، ولذا نورده على شكل إيضاح فى ختام هذا البحث وخلاصته:

لو كان للَّهمثيلٌ فهما متشابهان من حيث الوجود ولكنَّ إثنينيتهما توجب أن تكون لكلّ واحد منهما خصوصيات، وبهذا يكون كلّ واحد مركّباً من جزأين، (ما به الاشتراك) و (ما به الإمتياز) وحينئذ لابدّ أن نذعن بأنّ كلّ واحد منهما محتاج إلى أجزائه، لأنّ المركّب لا يكون بدون اجزائه، ولو كان محتاجاً فإنّه لا يكون واجب الوجود، لأنّ واجب الوجود والمُبدىء الأوّل للكون غنى عن كلّ شىء.

فهو إذن لا مثيل له كما أنّه لا اجزاء له، ولو كان له مثيلٌ فإنّه سيكون ذا اجزاء قطعاً، فهو إذن وجود بسيط من كلّ جهة ولا شريك ولا مثل له من كلّ جهة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۸

۳- التوحيد والأدلّة النقلية

إنَّ الأدلّة الخمسة المذكورة هى أدلّة عقليّة لإثبات وحدانية ذات اللَّه المقدّسة، ويمكن هنا الاستفادة من الدليل النقلى أيضاً، لأنّه بعد إثبات وجود اللَّه وإثبات نبوّة رسول الإسلام صلى الله عليه و آله وصدق دعوته، فإنّ ما جاء فى هذا الكتاب السماوى (أى القرآن الكريم) هو تبيان للحقائق التى لا تُنكر، هو رسول صادق ومعصوم ومبعوث من قبل اللَّه الحكيم والصادق، ومثل هذا الإنسان لا يقول قضيّة خاطئة.

من هنا يمكن الإستعانة بآيات القرآن التوحيدية لإثبات وحدانية ذات اللَّه المقدّسة، والقرآن الكريم زاخر بهذه الآيات، بل إنّ أى موضوع لم يتكرّر بتعابير مختلفة مثل هذا الموضوع ولم يتأكّد صفة من صفات اللَّه إلى هذا الحدّ.

يقول المرحوم العلّامة المجلسى قدس سره فى بحار الأنوار لدى استدلاله بهذا الدليل.

من الواضح أنّ وجود الدليل النقلى لا يتعارض مع الاستدلالات العقلية (الأدلّة السمعية من الكتاب والسنّة وهى أكثر من أن تحصى ولا محذور فى التمسّك بالأدلّة السمعية فى باب التوحيد وهذه هى المعتمد عليها عندى) «۱».

خاصّة وأنّ الأدلّة العقلية المذكورة لها جذور فى الكتاب والسنّة الشريفة.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۳۴.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۵۹

مصادر الشرك الهامّة

اشارة

۱- إتّباع الأوهام

۲- اتّباع الحواس

۳- المصالح الوهميّة

۴ و ۵- عاملى التقليد والاستعمار

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۱

۱- إتّباع الأوهام

تمهيد:

بما أنّ الفطرة الإنسانية- كما أسلفنا فى بداية بحث التوحيد- قد نشأت على التوحيد والوحدانية، كما أنّ الأدلّة العقلية والنقلية الواضحة تعزّر هذه الفكرة، فإنّ هذا السؤال يطرح نفسه وهو: ما السبب فى أن ينبت الشرك وينمو كالشوك فى طريق معرفة اللّه لدى الإنسان؟ وما هى جذور هذا الانحراف الكبير أو الانحراف الفكرى الأكبر لدى الإنسان؟

من خلال دراسة تاريخ الأنبياء عليهم السلام والاقوام البشرية المختلفة وادّعاءات عبدة الأوثان على مرّ التاريخ نستطيع كشف الستار عن الجذور الأساسية للشرك، ومن المُسلّم أن معرفة مصادر وجذور الشرك ستكون عاملًا مساعداً ومؤثراً فى مواجهة هذه الآفة الكبرى لأنّ معرفة أسباب أى مرض تكون كفيلة بعلاج ذلك المرض.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل الآيات التالية:

۱- «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ لَابُرهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ انَّهُ لَايُفْلِحُ الكَافِرُونَ». (المؤمنون/ ۱۱۷)

۲- «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها منْ سُلْطَانٍ إِنِ الحُكمُ إِلَّا للَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدوا إِلَّا إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». (يوسف/ ۴۰)

۳- «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً ومَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ». (الحجّ/ ۷۱)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۲

۴- «أَلَا إِنَّ للَّهِ مَنْ فِى السَّماواتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ وَما يَتّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ». (يونس/ ۶۶)

۵- «وَمَا يَتَّبِعُ أَكثَرُهُمْ إِلَّا ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِى مِنَ الحَقِّ شَيئاً إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِمَا يَفعَلُونَ». (يونس/ ۳۶)

۶- «إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآباؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ وَما تَهوى الأَنْفُسُ». (النجم/ ۲۳)

۷- «أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُم هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَّعِىَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلِى بَل أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ». (الأنبياء/ ۲۴)

شرح المفردات:

«الظنّ»: يعنى- كما يقول الراغب فى المفردات-: الحالة الحاصلة من ملاحظة علامة شىء، فإنّ قوى صار علماً وإن كان ضعيفاً فإنّه لا يتجاوز حدّ الوهم، وأمّا ابن منظور فإنّه يقول فى لسان العرب: يستعمل الظنّ بمعنى الشكّ واليقين كليهما إلّاأنّه ليس اليقين الحاصل بالنظر بل بالتدبّر، وأمّا الحاصل عن طريق المشاهدة فإنّه يطلق عليه ب (العلم).

ويقول ابن الأثير فى النهاية: إنّ الظنّ يستعمل تارةً بمعنى العلم واخرى بمعنى الشكّ وتارةً بمعنى التهمة.

وقد استعمل هذا اللفظ فى آيات البحث بمعنى الأوهام الواهية وعديمة الأساس (الآيات نفسها تتضمّن قرائن على هذا المعنى وستتمّ الإشارة إليها).

«خرْص»: على وزن (غرْس) يعنى كما يقول صاحب (صحاح اللغة) تخمين وزن التمر الذى يحصل من رطب النخيل، كما أورد

الراغب هذا المضمون فى مفرداته.

ثمّ أطلق على كلّ حدس وتخمين وبما أنّهما لا يصيبان دائماً، فإنّه استعمل بمعنى الكذب أيضاً، وهذا اللفظ يطلق فى الأساس على كلّ ظنّ لا أساس راسخ له.

كما أنّ هناك معانٍ اخرى لمشتقّاته مثل (الرمح) (الحلقة) و (الحوض الكبير الذى يكون

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۳

على ساحل النهر ويدخل فيه ماؤه ويرجع منه) ولا يبعد أن ترجع هذه المعانى كلّها إلى الجذر نفسه حيث يقترن التخمين والظنّ بالتزلزل وعدم الثبات ويتّصف الرمح والحلقة والحوض الخاصّ المذكور بهذا الوصف «۱».

«برهان»: هو الدليل القطعى المحكم وجاء أيضاً بمعنى الدليل والإيضاح، ويقول الراغب فى المفردات: البرهان يعنى البرهان المحكم، ويعتقد البعض أنّه مشتقّ من (بَرَهْ) ويعنى الإبيضاض، ثمّ اطلق على كلّ كلام واضح وصريح ليس فيه أى إبهام، أو الامور الواضحة التى لا خفاء فيها «۲».

وما ورد فى الحديث: (الصدقة برهان) لعلَّهُ لما للإنفاق فى سبيل اللَّه من دلالة على صحّة إيمان الإنسان.

«سلطان»: ويعنى فى الأصل- كما فى مقاييس اللغة- القوّة والقدرة المصحوبة بالغلبة وبما أنّ الاستدلال القوى يكون سبباً لتغلّب الإنسان على طرفه المقابل فإنّ لفظ (سلطان) اطلق على الدليل المحكم أيضاً.

«سليط»: ورد تارةً بمعنى الرجل الفصيح، واخرى بمعنى الإنسان المزعج والبذىء اللسان و (سليطة) الذى يستعمل فى النساء يحمل على هذا المعنى الأخير وكلّها مشتقّة من مادّة (سلطة).

جمع الآيات وتفسيرها

الغور فى عالم الأوهام!

تؤكّد الآية الشريفة الاولى- من خلال الإشارة إلى عقوبة المشركين- على حقيقة أنّ

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادّة (خرص).

(۲) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم والكلمات التى نلاحظها مثل (برهن، يبرهن) أو الوصف (مبرهن) فإنّه لون من الإشتقاق الإنتزاعى نظير كلمة (سلطان) المشتقّة من سلْط (سلطن يسلطن).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۴

(الشرك) ليس له أى دليل أو برهان وعليه يكون وليداً للظنون والأوهام فتقول: «وَمَنْ يَدعُ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ لَابُرهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسابُهُ عِندَ رَبِّهِ انَّهُ لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ».

ومن الملاحظ أنّ عقوبة المشركين هنا غير موضّحة بل تقول الآية: «حِسابُه عِندَ رَبِّهِ» وهو أكبر تهديد، لأنّ العظيم والقاهر هو المحاسب فيكون عقابه شديداً قطعاً وعبارة (لا برهان له) تفيد- فى الواقع- هذا الأمر وهو: أنّ الشرك لا يدلّ عليه أى دليل سواء كان عقليّاً أو نقليّاً ولا تنسجم الفطرة معه ولا المنطق، بل كلّما أمعنّا النظر فى هذه القضيّة ظهر بطلانها أكثر.

والتعبير ب «لا يُفْلِحُ الكافِرُونَ» شامل ينفى كلَّ فلاح عن الكافرين فى الحياة المادية والمعنوية، فى الدنيا والآخرة، ويؤيّد هذه الدعوى مشاهدتنا اليومية للذين لا يؤمنون.

أسماء بلا عناوين:

طرحت الآيـة الثانيـة هـذا المضـمون فى إطـار جميـل آخر وتقول عن لسان يوسف عليه السـلام وهو يخاطب صاحبيه فى السـجن: «مَا تَعْبـدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْـماءً سَـمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وآباؤُكُم» والشاهد على ذلك هو أنّها «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها منْ سُـلْطانٍ»، فلو كانت حقائق لقام عليها الـدليل العقلى والنقلى، فمن المحال أن يفقـد الـدليلَ أمرٌ بهـذه الدرجـة من الأهميّـة (وهو وجود الشـريك للَّه‌عزّ وجلّ)، وعـدم الدليل هذا دليل على العدم!

من هنا تستنتج الآية فى الخاتمة: «إِنِ الحُكمُ إِلَّا للَّه» و «أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدوا إِلَّا إِيَّاهُ» و «ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

وكـلّ جملـة- فى الحقيقـة- فى هـذه الآيـة بمثابـة دليل على نفى الشـرك، حيث تقول من جهـة: إنّ اللَّه لم ينزل أى دليل على وجود آلهتكم، وتقول من جهة اخرى: إنّ حاكمية العالم وتدبيره مختصّ به حيث تلاحظ علامات الوحدة فى التدبير فى كلّ مكان.

وتقول من جهة ثالثة: إنّه أمر بعبادة الإله الواحد، فهل يعقل أن يأمر الإله الحكيم بأمر كاذب؟

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۵

وفى الختام فإنَّ الآية تعتبر الشرك ناشئاً من الجهل.

ونقل بعض المفسّرين بأنّ عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بأنّ اللَّه هو النور الأعظم، ويعتقدون بأنَّ الملائكة أنوار صغيرة، وأمّا الأصنام فى الأرض فإنّها مظهر للأنوار السماوية تلك ويطلقون عليها (المعبود) وبذلك تكون معبوداتهم أسماءً بدون مسمّى «۱».

ولو تغافلنا عن هذا المعنى أيضاً وسلّمنا بأنّ الأصنام هى الآلهة لديهم لا مظاهر لها فإنّها كانت أسماء دون مسمّيات أيضاً، وذلك لعدم وجود أثر من آثار الالوهية فى هذه الأحجار والأخشاب الجامدة.

وقـد تضـمَّنت الآيـة الثالثـة محتوىً شبيهـاً لما فى الآيـة السابقـة حيث تقول فى ذمّ عبـدة الأوثان: «وَيَعْبُـدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَم يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً».

وهو فى الحقيقة نفى لوجود دليل نقلى، وتضيف الآية: «ومَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ»، وفى ذلك إشارة إلى نفى لوجود دليل عقلى.

وتقول الآية فى الخاتمة: «وَما لِلظّالِمينَ مِنْ نَصِيرٍ».

فلا معين لهم على دفع عذاب اللَّه ولا رشد لهم فى طريق الهداية ولا ينصـرهم الدليل العقلى (ويمكن أن تجتمع التفسـيرات الثلاثة فى مفهوم الآية).

الاستناد إلى الحدس والتخمين:

تحـدّثت الآيـة الرابعـة فى أوّلهـا عن مالكيـة اللَّه لجميع مَن فى السـماوات والأـرض حيث تقول: «أَلَا إِنَّ للَّهِ مَنْ فِى السَّماواتِ وَمَنْ فِى الأَرْضِ».

وهـذا التعبير يمكن أن يكون إشارة إلى عقيـدة المشـركين الـذين أقرّوا بأنّ المالك والحاكم الأصـلى هو اللَّه، ومع ذلك فإنّهم كانوا يعبدون الأصنام، كما يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ النظام الواحد لعالم الوجود دليل على أنّ المدبّر الواحد هو الحاكم عليه.

ثمّ تضيف: «وَمَا يَتَّبِعُ الّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ».

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۱۸، ص ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۶

بل إنّهم يتّبعون أوهامهم وظنونهم فقط: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ» «۱».

«يخرصون»:- كما اشير سالفاً- مشتقّ من (خرْص) ويأتى بمعنى (التخمين) و (الكذب) لأنّ التخمين لا يصيب فى أكثر الموارد، وآية البحث تحتمل المعنيين.

وقد ورد هذا المضمون وبفارق يسير فى الآية الخامسة التى تقول بعد ذكر انحراف عبدة الأوهام: «وَما يَتَّبِعُ أَكثَرُهُمْ إِلَّا ظَناً إِنَّ الظَنَّ لَايُغنِى مِنَ الحقِّ شَيئاً»، ثمّ تهدّد هؤلاء الظانين بتعبير ذى معنى كبير: «إِنَّ اللَّهَ عَليمٌ بِما يَفْعَلُونَ».

أجل، إنّ الظنّ والوهم كالسهم فى الظلام، لا يمكن أن نصيب به الهدف، ولو أصاب الهدف أحيانا فإنّه يكون محض صدفة، من دون معرفة للهدف.

«الظنّ»: فى اللغة يشمل كلّ ظنّ ووهم، وإن أطلق أحياناً على اليقين أيضاً إلّاأنّ المراد فى آية البحث هو المعنى الأوّل.

ومن الملاحظ إنّ اتّباع الظنّ ينسب إلى أكثرهم لا إلى جميعهم، وقد لفت هذا المعنى نظر الكثير من المفسّرين.

فقال البعض إنّ (أكثر) هنا تعنى الجميع (ولم يقم على هذا التفسير دليل).

ومن الأفضل: أن يقال إنّ الآية تقصد الغالبية الجاهلة التى تتأثّر بالأوهام الخاطئة وتتعرّض للشرك، وتقابلها الفئة القليلة من رؤوس الضلال الذين يدعون الناس إلى الضلال «۲» على علمٍ منهم، والأمل فى الهداية موجود طبعاً فى الفئة الاولى فقط والخطاب موجه اليهم.

كما احتمل البعض أنّ فى (أكثر) إشارة إلى جماعة تتبع الظنّ والوهم طيلة حياتها ومن جملتها (الشرك) فهى تطفو فوق أمواج من الأوهام وحجب الظلام والخيال «۳».

---

(۱) وفقاً لهذا التفسير تكون (ما) فى «وما يتبع» نافية وفاعل (يتبع) هو (الذين) ومفعول (شركاء) أى أنّ المشركين لا يتّبعون فى الحقيقة شريكاً للّه‌تعالى (لأنّ اللّه لا شريك له وهؤلاء الشركاء من صنع الأوهام)، ولكن احتمل جمع من المفسّرين بأنّ (ما) هنا إستفهامية فيكون معنى الجملة هو: أى شىء يتّبعونه من دون اللّه ويجعلونه شريكاً له؟ فهل هناك إلّاالظنّ؟ (النتيجة فى الإثنين واحدة تقريباً). راجع تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير؛ والقرطبى؛ وتفسير الكشّاف؛ وروح المعانى فى ذيل آية البحث وقد احتمل البعض أنّ (ما) هنا موصولة إلّاأنّه يبدو بعيداً.

(۲) ورد ما يشابه هذا المضمون فى تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۴۵؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱۱، ص ۱۰۳.

(۳) وقد ورد هذا الاحتمال أيضاً فى تفسير روح المعانى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۷

الآية السادسة تُشبه الآية الثانية فى مضمونها من جهات، حيث تقول: «إِنْ هِىَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُم وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ» وهذه الجملة توضّح هيمنة روح التقليد الأعمى على المشركين حيث اتّبعوا أسلافهم بعيون وآذان مغلقة ثمّ تضيف: «إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَنَّ وَمَا تَهوى الأَنْفُسُ».

والملاحظة الجديدة هنا هى عطف (هوى النفس) على (الظنّ) وهو تعبير كثير المعنى وفيه إشارة إلى أنَّ هذه الظنون الواهية تنشأ من هوى النفس الذى يجعل من الباطل حقّاً فى منظارهم، فهم إذن يعبدون أهواء أنفسهم فى الواقع والأصنام الاخرى وليدة لها!

وعليه يكون مصدر الانحراف والضلال لديهم فى الواقع أمرين: عدم الاستناد إلى اليقين من الناحية العقلية والعقائدية والتمسّك بالظنون والإنصراف عن فطرة التوحيد الصحيحة من الناحية العاطفية والإستناد إلى هوى النفس.

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام أيضاً وهى أنَّ (يتّبعون) و (تهوى فعلان مضارعان، ويعنى ذلك أنّ هؤلاء يستمرّ اتباعهم للظنّ وهوى النفس ويتلونون كلّ يوم بلون جديد!

والملاحظ إنّ أوّل الآية تخاطب المشركين وآخرها تذكرهم باستخدامه ضمير الغائب (التفات من المخاطب إلى الغائب) وفى ذلك إشارة إلى أنّهم لا شأن لهم حتّى يستحقّون الخطاب.

أظهرت الآية السابعة والأخيرة الحقيقة نفسها ولكن فى إطار جديد حيث تقول: «أمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِه آلِهَةً» «قُلْ هَاتُوا بُرْهانَكُم».

ولعدم امتلاككم دليلًا واضحاً وموجّهاً على الشرك فإنّكم مدانون.

ثمّ تقوم الآية بتوضيح الدليل على بطلان عقيدتهم وتقول: «هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وذِكْرُ مَنْ قَبْلِى» «۱».

والتعبير ب (ذكْر) بدلًا عن الكتب السماوية إشارة إلى أنّ جميع هذه الكتب عامل تذكير

---

(۱) فى هذه الآية استدلال بالدليل النقلى فى حين استدلّ فى الآيتين السابقتين بالدليل العقلى وبرهان التمانع (تدبّر).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۸

ووعى، وقد ذكر بعض المفسّرين معانى اخرى لكلمة «ذكر» ولكنّها لا تبدو مناسبة.

وقد أكدّ ذيل الآية مرّة اخرى على هذا المضمون حيث يقول: «بَلْ أَكثرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ»، وإن كانت هناك فئة قليلة تدرك القضايا، إلّاأنّها لا تظهر الحقّ لإحساسها بالخطر على مصالحها اللامشروعة.

ويمكن الإستنتاج جيّداً من مجموع الآيات الواردة بأنّ الشرك وعبادة واتخاذ آلهة من دون اللّه ليس له دليل عقلى ولا برهان نقلى، ومن المحال أن تكون مثل هذه القضيّة المهمّة موجودة ولا يوجد لها دليل عقلى أو نقلى، وعليه فإنّ فقدان الدليل هذا، دليل قاطع على بطلانه.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۶۹

۲- اتّباع الحواس

تمهيد:

عندما يولد الإنسان فى هذا الكون فإنّه يرى المحسوسات ويميل إليها ويتّخذها أساساً لمعلوماته، وعندما يسمو فى فكره وعلمه فإنّه يتعرّف تدريجياً على القضايا العقلية والفكرية.

إنّ البعض وبسبب التخلف الثقافى فإن إدراكهم يتوقف على مرحلة الحس، فلا يمكنهم أن يفكروا أو يؤمنوا بشىء سوى المحسوسات، فهم يتوقعون بأنّ اللّه وجود حسى، فيمكنهم أن يرونه أو يلمسونه! وهذا التوجه يمثل عاملًا مهماً فى توجههم لعبادة الأصنام والآلهة المحسوسة، وعلى مرّ التاريخ.

وبهذه الإشارة نتوجّه إلى القرآن الكريم لنمعن خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَولَا انزِلَ عَلَينَا الملائكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ استَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً». (الفرقان/ ۲۱)

۲- «يَسئَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَليهِمْ كِتاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالوا أَرِنَا اللَّهَ جَهرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِم ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جاءتْهُمُ البَيِّنَاتُ فَعَفَونَا عَنْ ذلِكَ وآتَينَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً». (النساء/ ۱۵۳)

۳- «وَقَال فِرعَونُ يَاأَيُّهَا المَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيرِى فَأَوْقِدْ لِى يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فاجْعَلْ لِّى صَرْحاً لَّعلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلهِ مُوسى وَانِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ».

(القصص/ ۳۸)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۰

۴- «وَقَالُوا لَنْ نُؤمِنَ لَکَ حَتَّی تَفجُرَ لَنَا مِنَ الأرضِ یَنْبُوعاً* ... أو تُسقِطَ السَّمَاءَ کَما زَعَمْتَ عَلَینا کِسَفاً أو تَأتِیَ بِاللَّهِ والمَلَائِکَةِ قَبِیلًا». (الإسراء/ ۹۰- ۹۲)

۵- «هَلْ یَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ یَأتِیَهُمُ اللَّهُ فِی ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ والمَلائِکَةُ وقُضِیَ الأَمْرُ وَإِلَی اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ». (البقرة/ ۲۱۰)

جمع الآیات وتفسیرها

لماذا لا نری اللّه؟

إنَّ الآیة الاولی نقلت ما قالَهُ الکفّار والمشرکون والذی یشیر بوضوح إلی امنیتهم فی أن یکون اللّه مثلهم ذا جسم ویمکن النظر إلیه حیث تقول: «وَقَالَ الَّذِینَ لَایَرجُونَ لِقَاءَنَا لَولَا أُنزِلَ عَلَینَا المَلَائِکَةُ أو نَرَی رَبَّنَا».

إنّهم طالبوا برؤیة ملائکة الوحی أوّلًا، ثمّ سوّلَتْ لهم أمانیهم أن یطالبوا برؤیة اللّه، ویبدو أنّهم لا یقرّون بالإله المجرّد وغیر المحسوس، والظاهر أنّ هذا الکلام کان لرؤوس الشرک وعبدة الأصنام وقد علموا بالحقیقة إلّاأنّه ومن أجل إغفال عامّة الناس الذین یرون کلّ شیء فی إطار الحسّ قاموا بطرح هذا الکلام أمام النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لکی یهزموهُ حسب زعمهم ولذا وصفهم القرآن الکریم بأنّهم قوم لا یؤمنون بالقیامة ولا یشعرون بالمسؤولیة، ولهذا تقول الآیة فی ذیلها: «لَقَدِ اسْتَکْبَرُوا فِی أَنْفُسِهِم وَعَتَو عُتُوّاً کَبِیراً».

وقد ذکر المفسّرون للآیة ۲۷ من هذه السورة الفرقان سبباً للنزول یدلّ علی أنّ هذه الآیات نزلت فی جمع من أئمّة الشرک فی قریش.

وذیل الآیة یشیر أیضاً إلی أنّ مصدر هذه الادّعاءات الضخمة والخاطئة هو ابتلاؤهم بالکبر والغرور أوّلًا وسلوک طریق (العتو) وهو التمرّد المصحوب بالعناد واللجاجة فی أمر اللّه ثانیاً، ولم یختصّ بذلک العرب فحسب، بل ما زال جمع من علماء عصرنا المغرورین والمتمرّدین المادّیین الذین یعتقدون أنّ کلّ شیء یجب إجراء التجربة علیه ورؤیته فی المختبر وبالوسائل الحسیّة، ویقولون: إنّنا لا نؤمن باللّه حتّی نراه جهرة، وبهذا تکون

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۱

المجموعتان محصورتین فی إطار الحسّ، فی حین تکون العوالم الخارجة عن الحسّ أوسع بکثیر من عالم الحسّ.

طلبوا ذلک من موسی!

تتحدّث الآیة الثانیة أوّلًا عن حجج الیهود وتقول: «یَسْئَلُکَ اهلُ الکِتَابِ ان تُنَزِّلَ عَلَیهِم کِتاباً مِّنَ السَّمَاءِ». قال جماعة فی تفسیرها أنّ مرادهم کان بأن ینزل علیهم کتاباً مخطوطاً علی قراطیس معلومة من السماء لیشاهدوه بعیونهم ویلمسوه بأیدیهم «۱».

وقالت جماعة اخری: إنّ مرادهم هو لماذا لم ینزل جمیع القرآن مرّة واحدة علی النبی صلی الله علیه و آله؟! والقرآن یجیبهم: لا عجب من هذا الطلب الخاوی لهؤلاء المعاندین اللجوجین بعد مشاهدة المعجزات والقرائن التی تصدّق دعوة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله: «فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَی اکْبَرَ مِن ذَلِکَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهرَةً»! وبسبب هذا الطلب الخاطئ: «فَأَخَذَتهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلمِهِم».

أجل، إنّهم ظلموا أنفسهم وراحوا یتعلّلون، وحبسوا عقولهم فی إطار الحسّ ولم یسمحوا لها بالتجرّد من هذا النطاق الضیّق إلی افق عالم ما وراء الطبیعة، ولهذا أنزلت علیهم صاعقة من السماء وأهلکتهم غیر أنّ اللطف الإلهی ودعاء موسی علیه السلام قد أدرکهم أخیراً وواصلوا حیاتهم مرّة اخری، والعجیب أنّ هذا الحدث العجیب لم یوقظهم، حیث مالوا إلی السامری فی اقتراحه بعبادة العجل! ونقرأ فی الآیة: «ثُمَّ اتَّخَذُوا العِجلَ مِن بَعدِ مَا جَاءَتهُمُ البَیِّناتُ»، وکأنّهم لم یُؤمنوا إلّابالإله المحسوس، ولم تقوَ أرواحهم علی العروج

إلى عالم ما وراء الطبيعة.

ومرّة اخرى شملهم اللطف الإلهى حيث تقول الآية فى ذيلها: «فَعَفَونَا عَن ذَلِكَ وآتَينَا مُوسَى سُلطَاناً مُّبِيناً».

---

(۱) وقد وافق على هذا صاحب التفسير فى ظلال القرآن، ج ۲، ص ۵۸۳ وقد نقله الفخر الرازى ويبدو تفسيراً مناسباً وإن لم يتعارض مع التفسير الثانى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۲

والمراد من (سلطان مبين) هنا هى الحكومة التى أعطاها اللَّه عزّوجلّ لموسى عليه السلام فقد غلب المعارضين من الناحية الظاهرية ومن الناحية المنطقية والاستدلالية، ويعتقد بعض المفسّرين كالطبرسى فى مجمع البيان بأنّ النصر هنا من الناحية المنطقية فقط «۱».

دعنى أرى اللَّه فى السماء!

فى الآية الثالثة مقالة تفوّه بها فرعون فى هذا الشأن، وهى توضّح أفكار الشعب المصرى آنئذ، فقد ألقى هذه المقالة فى عصر كان لإسم موسى وانتصاره على السحرة صداه فى مصر بأسرها، ولمّا شعر فرعون بخيبة أمل شديدة رأى أن يعمل شيئاً يصرف به أنظار الناس عن موسى عليه السلام ومعجزاته: «وَقَالَ فِرعَونُ يَاأَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمتُ لَكُم مِّن إِلَهٍ غَيرِى» «۲»

، ولذا أرى أنّ دعوة موسى إلى ربّ السماء والأرض خاطئة، وبما أنّى من أهل التحقيق، فقد خطر ببالى شىء يظهر به صدق موسى أو كذبه، قم ياهامان: «فَاوقِدْ لِى يَاهَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِّى صَرْحاً لَّعلِّى أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسى «۳»

، «وَإِنِّى لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ».

ولا شكّ أنّ فرعون كان شديد المكر والدهاء وهو يدرك هذه القضايا الواضحة وهى أنّه ليس إلهاً، وأنّ مايقصده موسى من إله السماء، هو خالقه لا أنّ اللَّه يسكن السماء حقيقة، ولو تجاوزنا هذا الأمر وافترضنا أنّ اللَّه يسكن السماء فإنّه لا يمكن الوصول إليه ببناء برج عالٍ، فمنظر السماء من على قمم الجبال فى العالم هو المنظر الذى يشاهد من فوق سطح الأرض، ولم تخف هذه القضايا علىفرعون.

ولكن فرعون كان يفكّر فى مخطّط آخر وأراد صرف الرأى العامّ الذى مال إلى موسى بشدّة وذلك بطرح هذه القضيّة المثيرة، كما أرادَ أن يشغل مجموعة من الناس ولمدّة طويلة

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۱۳۴.

(۲) يقول اللغويون فى تفسير «ملأ»: يطلق هذا اللفظ على جماعة قد اجتمعوا على عقيدة واحدة وظاهرهم يملأالعيون (من مادّة ملأ) ومن هنا يستعمل هذا اللفظ بمعنى أشراف القوم ورؤسائهم وحواشى الملوك أيضاً.

(۳) «صرح»: فى الأصل تعنى الخلو من الشوائب ثمّ تطلق على القصور والبيوت العالية والجميلة لأنّها بلغت من الكمال فى بنائها إلى درجة لا يوجد فيها عيب أو نقص.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۳

ببناء برج عالٍ جدّاً، وفى النهاية يصعد إلى أعلى البرج ليحرّك نفسه ويقول: إنّى بحثت عن إله موسى عليه السلام فى السماء فلم أجد له أثراً!

إنَّ هذه القضيّة توضّح أمراً مهمّاً وهو إنّ مستوى التفكير العامّ فى مصر كان بسيطاً إلى حدّ أنّهم لم يكونوا ليصدقوا إلّابإلهٍ محسوس،

وبالتالى يصدقون فرعون بادّعائه الالوهية وتوقّعوا أن يكون إله موسى جسماً فى أعالى السماء! وفى مثل هذه الأجواء تشيع روح الصنمية وعبادة الأصنام قطعاً!

الآية الرابعة تنقل أقوال المشركين واحتجاجاتهم المتنوّعة والغريبة حيث طرح كلّ واحد اقتراحاً على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وتمسّك بحجّة معيّنة حيث تقول الآية: «وَقَالُوا لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرضِ يَنبُوعاً» «۱»

، وقد تمسّك البعض الآخر بحجج اخرى وقالوا أخيراً: «أَو تُسقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَينَا كِسَفاً أَو تَأتِىَ بِاللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ قَبِيلًا» «۲».

والمطالبة الأخيرة توضّح جيّداً أنّهم تصوّروا أنّ اللّه والملائكة ذوو أجسام وموجودات جسمانية، ولم يتحمّلوا تصوّر وجود خارج عن إطار عالم الجسم والطبيعة، ويعتقد بعض المفسّرين بأنّ مرادهم من الإتيان بالملائكة هو أن تأتى لتعيّن اللّه! «۳» أو تشهد على الوهيته، وتشير هذه كلّها إلى المستوى الفكرى المتخلف لُاولئك القوم المعاندين.

أيتوقّعون أن يأتى اللّه إليهم!

تحدّثت الآية الخامسة والأخيرة عن الكفّار والمشركين وأفكارهم المنحطّة فتقول:

---

(۱) «ينبوع» من «نبع» وتعنى عين الماء.

(۲) فسّرت كلمة «قبيل» تارةً بمعنى «المقابل»، وتارةً بمعنى الكفيل والشاهد، وتارةً بمعنى الجماعة والفئة، ويمكن الموافقة على المعانى الثلاثة فى مورد الآية أعلاه.

(۳) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۳۵۹.

«هل يَنْظُرُونَ إِلَّا أنْ يَأتِيَهُمُ اللَّهُ فى ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ والمَلائِكَةُ» «۱».

وقد اضطرب المفسّرون بشدّة فى تفسير هذه الآية، فقد عدّها بعضهم من متشابهات القرآن فيلزم تفسيرها فى ضوء المحكمات «۲»، وقد ذكر البعض سبعة تفاسير لها «۳».

وكان تصوّرهم عن مضمون الآية هو أنّه سيأتى اليوم الذى يأتى فيه اللّه والملائكة فى ظلّ الغيوم، ولا ينسجم هذا المعنى قطعاً مع ما يستفاد من آيات القرآن الصريحة فى أنّه ليس بجسم ولا يمكن مشاهدته ولذا يجب تأويله.

فى حين أنّ مضمون الآية شىء أخر، والمراد منه هو الإستفهام الإنكارى ويشبه قولنا للذين يتماهلون فى تحصيل العلم: أتتوقّع أن يُجعل العلم لقمة سائغة توضع فى فمك؟! إن هذا التوقع ليس فى محلّه.

إنَّ الآية أعلاه تقول أيضاً: هل أنّهم يتوقّعون أن يأتى اللّه والملائكة للقائهم ويقفون أمامهم ويشهدون لهم؟! إنّه توقّع خاطئ وفى غير محلّه، فليس اللّه بجسم ولا مكان ولا رواح أو مجىء له، وبهذا ليس فى الآية- كما نلاحظ- مشكلة خاصّة حتّى تحتاج إلى تأويل وتفسير معقّد أو أن تحسب من المتشابهات.

وتقول الآية فى آخرها مهدّدة هذه الفئة المعاندة بالعقاب الشديد: «وَقُضِىَ الْأَمرُ»، وكان العذاب متحقّق الآن، ولذا جاءت بصيغة الفعل الماضى ثمّ تقول: «وَإِلَى اللَّهِ تُرجَعُ الامُورُ»، وليس لأحد القدرة على مواجهته وليس لأحد أن يقاوم أمره، وإذا تعلّقت مشيئته بعقوبة جماعة فكأنّها متحقّقة.

هل يتعلّق هذا التهديد بيوم القيامة أو الدنيا أم الإثنين معاً؟ لا يبعد أن يتعلّق بالإثنين، لأنّ الآية ذات مفهوم واسع ولا يوجد دليل على تحديده بعذاب الدنيا أو الآخرة.

يتّضح ممّا أوردناه فى تفسير الآيات المذكورة بأنّ الميل إلى الحسّ وتأثيره فى تكوين

---

(۱) يقول الفخر الرازى فى التفسير الكبير: ج ۵، ص ۲۱۲ اتّفق المفسّرون على أنّ أحد معانى (النظر) هو الانتظار.

(۲) تفسير الميزان، ج ۲، ص ۱۰۵.

(۳) تفسير الكبير، ج ۵، ص ۲۱۳- ۲۱۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۵

عقيدة الشرك والانحراف عن محور التوحيد طيلة تاريخ الأنبياء والامم السالفة ممّا لا يمكن إنكاره، وأنّ الأقوام المتخلّفة فكرياً وثقافياً، أو بقيت متخلّفة بفعل إعلام الطغاة، قد اعتقدوا أنّ الوجود منحصر فى المحسوسات وتنتهى الفطرة الإلهيّة بالإله المحسوس وهذا هو أحد العوامل المهمّة فى نشوء عقيدة الشرك فى التاريخ.

توضيح

لماذا أُلِفوا عالم الحسّ؟!

من الواضح أنّ اصول المعلومات لدى الإنسان بأجمعها تستمدّ من المحسوسات أوّلًا، لأنّ الإنسان حينما يفتح عينيه يلاحظ عالم المادّة ويتعرّف على عالم المحسوسات والطريق الموصل إلى ما وراء الحسّ، بل وتصوّر الوجود المجرّد عن الزمان والمكان والمادّة يتمّ بعد الدراسة والتحليل فى المسائل الفكرية والعقلية والروحانية، فلا غرو إذن أن تكون عبادة الأصنام مذهباً للُامم المتخلّفة.

فمن جهة يعلو نداء عبادة اللَّه من باطن فطرتهم وتدعوهم قوى المعرفة الإلهيّة إليه، ومن جهة اخرى وبسبب مغلوبيتهم أمام عالم الحسّ والمادّة تصعُب عليهم معرفة اللَّه المجرّد عن الزمان والمكان والمادّة، ولذلك فإنّهم يسيرون فى طريق الشرك ويشفون ظمأ أرواحهم بالآلهة الخيالية بصورة كاذبة.

وبما أنّ مجموعة من خدمة معبد الأصنام بل الكثير من الحكّام الطغاة ينتفعون من هذا الأمر فإنّهم يرغبون فيه، وفى النهاية يصبح كدينٍ رسمى للبلاد.

ومن العجيب أن تترسّب هذه الأفكار أحياناً فى أعماق الكثير من عباد اللَّه الحقيقيين، وللمثال على ذلك أنَّ بعض الناس يقول فى قَسَمه: قسماً باللَّه الذى هو فى السماء!! ويتصوّرون أنّنا حينما نرفع أيدينا إلى السماء حين الدعاء أنّ ذلك إشارة إلى اللَّه وأنّه يجلس على كرسى الإقتدار وقد اجتمعت الملائكة من حوله!

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۶

إنَّ هؤلاء غافلون حقّاً، فليس اللَّه فى السماء وليس فى رفع اليد فى الدعاء إشارة إلى مركزه، بل إنّ رفع اليد يعنى التسليم والإضطرار، أو كما ورد فى بعض الروايات إنّ السبب هو نزول النعم الإلهيّة من السماء، فالمطر وضوء الشمس- وهما العمدة فى حياة كلّ موجود حى- مصدرهما من السماء والتوجّه إلى السماء توجّه إلى الخالق العظيم لهذه النعم.

وعلى كلّ حال، ما لم ينضج الإنسان فكرياً يصعب زوال آثار الشرك عنه، فبنو اسرائيل الذين تربّوا فى مدرسة التوحيد سنين طوال عند نبى من اولى العزم موسى عليه السلام وشاهدوا آثار عظمته بأعينهم عند نجاتهم من قبضة الفراعنة واجتيازهم النيل، وبمجرّد مرورهم على عبدة الأصنام وملاحظتهم الأصنام رجعوا وطالبوا موسى عليه السلام بأن يجعل لهم صنماً، فواجههم موسى بردّ فعل شديد وندموا على مقالتهم، ولم يمض وقت طويل عندما توجّه موسى عليه السلام إلى جبل الطور بصورة مؤقتة لكى يأخذ الألواح

وأحكام الشريعة حتّى استغلّ السامرى هذه الغيبة ليصنع لهم صنماً ودعا بنى اسرائيل لعبادته، فترك أكثرهم طريق التوحيد وركعوا لعجل السامرى وبقيت فئة قليلة مع أخ موسى (هارون) ملتزمةً بنهج التوحيد وهذا يشير إلى أنّ القادة السائرين فى طريق التوحيد وخصوصاً أمام الأقوام المتخلّفة التى ترعرعت فى أجواء الشرك يواجهون مشكلات كبيرة، وغسل آثار الشرك أساساً من القلوب ليس باليسير ويحتاج إلى تربية فكرية وتربية ثقافية صحيحة.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۷

۳- المصالح الوهمية

تمهيد:

إنَّ الوهم أساس الشرك، وكلّما ازدادت قوّة الوهم والخيال ونشطت لدى الإنسان اتَّسَعَ افق اعتقاده فى الأصنام وبركاتها وآثارها إلى حدّ يضع الموجودات الفاقدة للشعور والعقل، الموجودات الجامدة والتافهة والمصنوعة من الحجر والخشب على جناح الوهم والخيال ويطير بها بشكل ينسب لها كلّ قدرة ويتذلّل لها كى ينعم ببركتها! أجل، إنّ المصالح الوهمية فى الأصنام عامل آخر من عوامل الشرك على مرّ التاريخ، وبهذا التمهيد نتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية التالية:

۱- «وَيَعبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَايَعلَمُ فِى السَّماواتِ وَلَا فِى الأَرضِ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ». (یونس/ ۱۸)

۲- «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ». (یس/ ۷۴)

۳- «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً». (مریم/ ۸۱)

۴- «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحكُمُ بَينَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَختَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لا يَهدِى مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ». (الزمر/ ۳)

شرح المفردات:

«شفعاء»: جمع (شفيع) من (الشفْع) ويعنى كما يقول صاحب (مصباح اللغة): ضمّ شىء

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۸

إلى شىء آخر وكما يقول صاحب المفردات: يعنى ضمّ شىء إلى مثيله، وأمّا صاحب (مقاييس اللغة) فإنّه يذهب إلى أنّ أصله هو المقارنة بين شيئين.

هذه التعابير تعود كلّها إلى معنى واحد تقريباً ومن ثمّ أطلق على حالة انضمام شخص قوى ومكين إلى شخص أضعف من أجل إنقاذه وإعانته، وقد ورد بهذا المعنى فى آية البحث هذه وكثير من الآيات القرآنية، كما جاء عدد (الشفع) بمعنى (زوج) فى قبالة (الوتر) بمعنى الفرد.

«زُلفى : من (الزلْف) ويعنى فى الأصل القرب والمنزلة والدرجة كما يطلق هذا اللفظ على الخطوة لما للخطوات من تقريب للهدف، وقد استعمل فى آيات البحث بمعنى القرب المعنوى الذى توخّاه المشركون من عبادة الأصنام إلّاأنّ بعض المحقّقين يعتقد بأنّ (زُلفى أكمل من معنى القرب فهى المرتبة العالية من معنى القرب فى الحقيقة «۱»، ولكنّه رأى بعيد كما يبدو عند ملاحظة موارد الاستعمال، ويطلق هذا اللفظ على الساعات الاولى من الليل كما فى قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيلِ». (هود/ ۱۱۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الأصنام شفعاؤنا؟!

تشير آية البحث الاولى إلى إحدى المعتقدات المعروفة لدى المشركين فى الأصنام حيث تقول الآية: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَايَضُرُّهُم وَلَا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ».

الكلام فى أنّ هؤلاء كيف اعتقدوا بأنّ هذه الموجودات الجامدة لها الشفاعة عند اللَّه؟

للإجابة على السؤال قال بعض العلماء: إنّ المشركين كانوا يعتقدون أنّ عبادة الأصنام بمنزلة عبادة اللَّه ووسيلة للتقرّب إليه، وقد ظهر هذا الإعتقاد من طرق مختلفة.

وكانت فئة تقول: لسنا أهلًا لعبادة اللَّه دون واسطة، لأنّه عظيم جدّاً ولذا نعبد الأصنام

---

(۱) التحقق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۷۹

كمظهر وصورة عن الملائكة لكى تقرّبنا إلى اللَّه، بينما قالت فئة اخرى بأنّ الأصنام هى القبلة لنا لدى عبادة اللَّه كما يستقبل المسلمون القبلة عند العبادة، وقد اعتقدت فئة اخرى بأنّ كلّ صنم يقترن به شيطان وكلّ من يعبد الصنم ويؤدّى حقّ عبادته فإنّ ذلك الشيطان يلبّى حوائجه بأمر اللَّه وإن لم يعبده فإنّ الشيطان يسىء إليه «۱»، وإلى ما شاكل من هذه الخرافات والأوهام.

وتشير الآية الثانية إلى عقيدة اخرى عند المشركين حيث تقول: «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُم يُنصَرُونَ»، وذلك من أجل أن تبادر إلى حلّ مشاكلهم وإعانتهم فى الإبتلاءات والحروب والأمراض، وتدفع عنهم خطر الجوع والقحط والجفاف، وتدافع عنهم فى الآخرة؛ ويا له من خطأ فادح!؟ فإنّ القضيّة كانت معكوسة حيث يهرعون لإنقاذ أصنامهم من الأخطار ويحفظونها من الأعداء والناهبين! كما نقرأ فى قصّة إبراهيم عليه السلام: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُم إِن كُنتُم فَاعِلِينَ». (الأنبياء/ ۶۸)

إنَّ اعتقادهم بأنَّ الأصنام تحميهم وتعينهم لم يكن سوى خيال ووهم قطعاً، ولهذا الإعتقاد سببٌ فى الإنحطاط الفكرى والتخلّف الثقافى، وهذا الأمر هو أحد مصادر الشرك على مرّ التاريخ.

وقد طرحت الآية الثالثة هذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُم عِزّاً»، وليس المراد من العزّة هو السمعة، بل اكتساب القوّة والنصر والشفاعة من عند اللَّه، وكان هذا أيضاً وليداً لتوهّمهم، ولذا نلاحظ فى هذه الآية من سورة مريم نفسها بأن حُجب الأوهام حينما تزول ويتنبّهُ العقل فإنّ المشركين يدركون خطأهم الفظيع وسرعان ما ينكرون عبادة الأصنام وينقمون عليها، كما ورد بإنّ المشركين يقولون يوم القيامة: «وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشرِكِينَ». (الأنعام/ ۲۳)

---

(۱) بلوغ الإرب، ج ۲، ص ۱۹۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۰

وأخيراً فإنّ الآية الرابعة والأخيرة بعد الإعلان عن: «أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الخَالِصُ» فهى تهدّد المشركين وتضيف: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعبُدُهُم إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلفَى انَّ اللَّهَ يَحكُمُ بَينَهُم فِى مَا هُمْ فيه يَخْتَلِفونَ إِنّ اللَّهَ لَايَهدِى مَن هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ» «۱».

توضيحات

۱- منشأ الإعتقاد بالشفاعة

يعجب كلّ عاقل عندما يواجه قضيّة الشرك لأوّل مرّة، فكيف يمكن أن يخضع إنسان عاقل ذو شعور لتمثال حجرى أو خشبى قام بصنعه بيده؟ فلو كان يمتلك قليلًا من العقل لكانَ هذا غير مقبول لديه، ولو عرفنا أسباب ذلك لوجدنا أنّ القضيّة ليست بسيطة كما نرى، فإنّ مجموعة من الأوهام والسفسطة والخيال والعادات طُرحت كأدلّة عقلية وخدعت المشركين.

يقول الفخر الرازى فى ذيل تفسير الآية ۱۸ من سورة يونس:

فيمن قالوا فى الأصنام هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه وذكروا فيه أقوالًا كثيرة.

۱- إنّ قسماً من عبدة الأوثان اعتقدوا أنّ المدبّر لشؤون أقليم من أقاليم العالم، روح معيّن من أرواح عالم الأفلاك، ولأنّهم لا يصلون إلى تلك الروح صنعوا لها صنماً معيّناً واشتغلوا بعبادته، وكلّ قصدهم هو عبادة تلك الروح، ثمّ اعتقدوا أنّ تلك الروح عبد للإله الأعظم ومشتغل بعبوديته.

۲- والقسم الآخر كانوا يعبدون الكواكب وزعموا أنّ الكواكب هى التى لها أهلية عبودية اللّه تعالى، ثمّ لمّا رأوا أنّها تطلع وتغرب وضعوا لها أصناماً معيّنة واشتغلوا بعبادتها وغرضهم عبادة تلك الكواكب.

۳- أمّا القسم الثالث، فقد وضعوا طلاسم معينة على تلك الأصنام وأخذوا يتقرّبون إلى

---

(۱) قال كثير من المفسّرين بأنّ «والذين» مبتدأ وخبره «إنّ اللّه يحكم بينهم» وجملة «ما نعبدهم» فيها محذوف هو بمنزلة الحال والتقدير «قائلين ما نعبدهم ...».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۱

الأصنام بواسطة هذه الطلاسم «والطلسم: نوع من السحر، ويقول بعض المفسرين أنّ «الطلسم» عبارة عن أشكال ورسومات يعتقدون بأنّها تُمثل سلطات سماوية اختلطت مع الأرض، وأصبحت مصدراً لآثار عجيبة وغريبة! وهذه النقوش مفضلة على أشياء مختلفة، حيث يعتقدون بأنّها وسيلة لدفع الموجودات المؤذية وإبعاد أذاها عنهم» «۱»

۴- والبعض منهم صنعوا هذه الأصنام والأوثان على صور أنبيائهم وأكابرهم وزعموا أنّهم متى ما اشتغلوا بعبادة هذه التماثيل فإنّ اولئك الأكابر يكونون شفعاء لهم عند اللّه تعالى.

۵- وآخرون اعتقدوا أنّ الإله نور عظيم وأنّ الملائكة أنوار فوضعوا على صور الإله الأكبر الصنم الأكبر وعلى صور الملائكة صوراً اخرى.

۶- لعلّ من بين عبدة الاصنام طائفة من الحلولية حيث يعتقدون أنّ اللّه يحل فى الأجسام الشريفة ولذلك فانّهم دأبوا على عبادة هذه الاجسام «۲».

و يقول مفسّر آخر: إنّ أوّل ما عُبِدت الأصنام فى قوم نوح عليه السلام وذلك أنّ آدم كان له خمسة أولاد صلحاء وهم «ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر» فمات «ود» فحزن الناس عليه حزناً شديداً فاجتمعوا حول قبره فى أرض بابل لا يكادون يفارقونه فلمّا رأى إبليس ذلك جاء إليهم فى صورة إنسان وقال لهم: هل تريدون أن أصنع لكم ما إن نظرتم إليه ذكرتموه؟ قالوا: نعم، فصنع لهم تمثالًا. وهكذا كلّما مات واحد من أبناء آدم صنعوا له تمثالًا وسمّوه بإسمه، وبتقادم الزمان وبنسيان الأجيال أعاد الشيطان قائلًا: إنّ أجدادكم كانوا يعبدون هذه الأصنام فاعبدوها، فأرسل اللّه إليهم نوحاً عليه السلام فنهاهم عن عبادتهم فلم يجيبوه لذلك ... «۳».

---

(۱) دائرة المعارف دهخدا ج ۳۲، ودائرة المعارف مصاحب، ج ۲، مادة (طلسم).

(۲) التفسير الكبير، ج ۱۷، ص ۶۰۰ (مع الإختصار اليسير).

(۳) تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۲۶ (باختصار).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۲

۲- تاريخ عبادة الأصنام والأوثان

إنّ أوّل من أقام عبادة الأصنام بين العرب هو عمرو بن لُحَى من قبيلة خزاعة، فقد خرج من مكّة إلى الشام فى بعض اموره فلمّا قدم مآب من أرض البلقاء رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها، نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا؛ فقال لهم: أفلا تعطوننى منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له (هُبل)، فقدم به مكّة فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه وكانت هناك صخرة يلى عليها السويق للحجّاج رجل من ثقيف وكانت تسمّى صخرة اللات، مات الرجل فقال لهم عمرو: إنّه لم يمت ولكن دخل فى الصخرة وأمرهم بعبادتها ... «۱».

ونقل بعض آخر، إنّ ظهور عبادة الأصنام ابتدأته جماعة كانت تنزّه اللّه إلى درجة لم تسمح لهم بعبادته ولذا صنعت صنماً أجلّ للتقرّب إليه! أو أنّها اعتقدت إنّ الإله عندما يخفى عن الحسّ والعقل فعبادته غير ممكنة، ولذا يجب التقرّب إليه من خلال المحسوسات!

وقال بعض المؤرّخين:

«ويزعمون أن أوّل ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل إنّه كان لا يظعن من مكّة ظاعن منهم، حتّى ضاقت عليهم، والتمسوا الفسح فى البلاد إلّاحمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتّى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم «۲» حتّى خلق الخُلوف ...».

كما ورد فى تفسير الميزان:

وقد كان عبدة الأصنام يعبدون الأصنام ليتقرّبوا بعبادتها إلى أربابها وبأربابها إلى ربّ

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۲۶ (مع اختصار يسير) وقد ذكر العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۴۸ بعد الروايات: ۱، ۷، ۸ قصّة ظهور الشرك فى قوم نوح هذا وقد ورد فى (بلوغ الإرب ج ۲، ص ۲۰۰) قصّة عمرو بن لحى وهديته الخبيثة التى جاء بها من الشام كما نقل ابن هشام فى السيرة النبوية ج ۱، ص ۷۸. موضوعاً قريباً من هذا المضمون.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۷۹.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۳

الأرباب وهو اللّه سبحانه ويقولون: «إنّنا على ما بنا من ألواث البشرية الماديّة وقذارات الذنوب والآثام لا سبيل إلى ربّ الأرباب لطهارة ساحته وقدسها ولا نسبة بينها وبينه.

فمن الواجب أن نتقرّب إليه بأحبّ خلائقه إليه وهم أرباب الأصنام الذين فوّض اللّه إليهم أمر تدبير خلقه، ونتقرّب إليهم بأصنامهم وتماثيلهم وإنّما نعبد الأصنام لتكون شفعاء لنا عند اللّه لتجلب إلينا الخير وتدفع عنا الشرّ فتقع العبادة للأصنام حقيقة، والشفاعة لأربابها وربّما نسبت إليها» «۱».

وبهذا ألبسوا معتقداتهم الخاطئة والخرافية ثوباً منطقياً فى الظاهر، وظهر الضلال على صورة الهدى واحتلّت وساوس الشيطان مواقع المنطق والبرهان.

۳- عوامل اخرى للشرک وعبادة الأصنام

فى الحقيقة أنّ الشرک وعبادة الأصنام قضيّة معقّدة وليس وراءها عامل واحد كسائر القضايا الاجتماعية المعقّدة، بل هناک عوامل مختلفة تعاضدت على حدوثها.

فمثلًا نجد أنّ أقواماً عبدوا الشمس والقمر والكواكب وهناک جماعة عبدت النار، وجماعات عبدت الأنهار الكبيرة كالنيل فى مصر، والكنج فى الهند، ويعنى ذلک أنّ كلّ ما فيه الخير والبركة، يكون مقدّساً، وكانت تتضاعف قدسيتها تدريجياً إلى حدّ اعتبارها آلهة!

وبتعبير آخر: كانوا يتيهون فى عالم الأسباب وينسون اللّه وهو (مسبّب الأسباب)، لافتقادهم البصيرة النافذة التى تجتاز الأسباب لتصل إلى خالق الأسباب وانتهى هذا بهم إلى عبادة الأصنام.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۰، ص ۲۷ ذيل الآية ۱۸ من سورة يونس.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۵

۴ و ۵- عاملى التقليد والاستعمار

تمهيد:

لا شكّ فى أنّ عامل التقليد من العوامل المؤثّرة فى توارث عبادة الأصنام جيلًا بعد جيل بل وانتشارها فى العالم، ويستند القرآن الكريم إلى ذلک مراراً ويطرحه تحت عنوان الدليل الوحيد الذى يتمسّک به مشركو العرب.

إنّ العيش فى أجواء الشرک واحترام الأجداد والأسلاف والتأثّر بالتلقين فى مرحلة الطفولة قد تعاضدت فيما بينها على إبراز عمل خرافى وخاوٍ تماماً وهو عبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب الفاقدة لكلّ شىء بشكل منطقى ووجيه بل ومقدّس.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِم مُّهْتَدُونَ* وَكَذَلِکَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ فِى قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آباءَنَا عَلَى امَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُّقتَدُونَ». (الزخرف/ ۲۲- ۲۳)

۲- «قَالُوا نَعبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ* قَالَ هَلْ يَسمَعُونَكُمْ إِذ تَدعُونَ* أَو يَنْفَعُونَكُم أو يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِکَ يَفْعَلُونَ». (الشعراء/ ۷۱- ۷۴)

۳- «قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا وَتكُونَ لَكُمَا الكِبْرِيَاءُ فِى الأَرْضِ ومَا نَحنُ لَكُمَا بِمُؤمِنِينَ». (يونس/ ۷۸)

۴- «وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا أَوَلوْ كَانَ آباؤُهُمْ لَايَعقِلُونَ شَيئاً ولَا يَهتَدُونَ». (البقرة/ ۱۷۰)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۶

۵- «وَإِذَا تُتْلَى عَلَيهِم آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُم عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ» «۱». (سورة سبأ/ ۴۳)

شرح المفردات:

«صنم»: كما يقول الراغب فى المفردات: تمثال من فضّة أو نحاس أو خشب يعبدونه ويتقرّبون به إلى اللّه، وفى (لسان العرب): هذا اللفظ أخذ فى أصله من (شَمَنْ) وهى كلمة فارسية أو آرامية أو عبرية «۲».

وتعتقد جماعة من اللغويين أنّ الفرق بين (الصنم) و (الوثن) هو أنّ صنم يطلق على أصنام لها شكل وصورة خاصّة ولو لم يكن لها شكل وصورة خاصّة اطلق عليه (وثن).

«أب»: ويعنى الوالد ويطلق أحياناً على السبب فى حدوث شىء أو (يقوم باصلاحه أو إظهاره) إلّاأنّ هذه المعانى لها خصائص كنائية فى الظاهر، وقد جاء فى (مقاييس اللغة): إنّ هذا اللفظ يدلّ فى أصله على التربية والتغذية وبما أنّ الوالد يغذّى الإبن فقد أطلق عليه هذا اللفظ.

ونقرأ فى «كلّيات أبى البقاء» إنّ أصحاب الشرائع السابقة كانوا يطلقون (أب) على اللّه لأنّه السبب الأوّل للخلق، ثمّ اعتقد الجهلاء والغافلون بأنّ (أب) هنا تعنى الولادة (وبذلك سلكوا طريق الكفر).

وفى كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) وبعد اعتبار الأصل فى هذه المادّة هو التربية والتغذية ورد: بلحاظ هذا المفهوم أنّ للأب مصاديق كثيرة مثل اللّه المتعالى، الوالد، النبى، المعلّم، الجدّ، العم وغيرها (ولذا فإنّ «أب» له مفهوم أوسع من معنى الوالد).

---

(۱) وهناك آيات عديدة تتضمّن مضمون هذه الآيات نشير إلى مواضعها: الأعراف، ۷۰ و ۱۷۳؛ إبراهيم، ۱۰.

(۲) ورد لفظ «شمن» فى المصادر الفارسية بمعنى عابد الصنم (راجع دائرة معارف دهخدا وقاموس معين وغياث اللغة).

جمع الآيات وتفسيرها

عبادة الأصنام دين أجدادنا!

إعتقدت طائفة من مشركى العرب أنّ الملائكة بنات اللّه وعكفت على عبادتها، والآية الاولى فى هذا البحث تردّ على هذا الفكر الجاهلى من جوانب مختلفة فتخاطبهم تارةً: إنّكم تفرحون بالوليد إذا كان ذكراً ولكن تحزنون إذا كان أُنثى فكيف تنسبون إلى اللّه البنات؟ (هذا الجواب يناسب طبعاً- درجة فهمهم وأفكارهم) وتذكر تارةً اخرى حججهم الواهية لهذه العبادة وتردّهم وتصل إلى هذا الدليل أخيراً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى امَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثارِهِم مُّهتَدُونَ» «۱»

ولكن القرآن يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مباشرةً ويقول: إنّ التقليد الأعمى هذا والإتّباع اللامشروط واللامقيّد يمثّل عقيدة سلفية وهذه الأعذار الواهية التى لا أساس لها لا تنحصر فى مشركى العرب فحسب بل: «وَكَذَلِكَ مَا أَرسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ فِى قَريَةٍ مِّن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُترَفُوهَا إِنَّا وَجَدنَا آبَاءَنَا عَلَى امَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقتَدُونَ».

وبذلك أشاروا إلى أنّ أحد العوامل الرئيسة فى إنتشار خرافة الشرك جيلًا بعد جيل هو التقليد الأعمى واللامشروط واللامقيّد والتحجير على العقل والإدراك وعدم بذل جهود فى التحقيق والتدبّر والإستسلام أمام خرافات الأسلاف.

والاستناد إلى عنوان (مترفون) كما يقول بعض المفسّرين فيه إشارة إلى أنّ التشبّث بالدنيا والإستمتاع باللذائذ المادّية والمتنوّعة والكسل أو الجزع من جهود التحقيق والاستدلال هو السبب لهذا التقليد الأعمى القبيح، فلو أنّهم تخلّصوا من هذا الحجاب المظلم لم يصعب عليهم رؤية وجه الحقيقة، ولهذا يقول النبى الكريم صلى الله عليه و آله: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» «۲».

---

(۱) «امّة» فى الآية- كما يعتقد جمع من المفسّرين- عبارة عن المنهج المتّفق عليه لدى طائفة وقد فسّرها بعض‌المفسّرين بمعنى الجماعة والفئة، والمعنى الأوّل هو المشهور وإن وردت (امّة) فى آيات اخرى بمعنى الجماعة وقد تأتى بمعنى المدّة الزمنية.

(۲) التفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۰۶، كما توجد إشارة إلى هذا الأمر فى تفسير روح البيان وتفسير الميزان فى ذيل آية البحث.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۸

والجدير ذكره أنّ ذيل الآية الاولى تنقل عنهم قولهم: «إِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّهتَدُونَ» وقولهم فى ذيل الآية الثانية «إِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقتَدُونَ» وهذا الاختلاف فى التعبير قد يكون من قبيل (العلّة والمعلول) بمعنى أنّهم ادّعوا إنّنا إنّما نقتدى بأسلافنا لأنّ ذلك هو طريق الهدى والوصول إلى الحقّ!

على كلّ حال فإنّ القرآن الكريم فى طول هذه الآيات يرد على هذا الفكر الباطل بشكل منطقى جميل ومحكم وينقل عن الأنبياء السابقين قولهم للمشركين المقلّدين الخرافيين:

«قَالَ أَوَلَو جِئتُكُم بِأَهدَى مِمَّا وَجَدتُّم عَلَيهِ آبَاءَكُم قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلتُم بِهِ كَافِرُونَ». (الزخرف/ ۲۴)

وللتقليد- كما سنبيّن- أنواع وأقسام، فبعضه منطقى ويكون سبباً لانتقال العلوم من جيل إلى جيل آخر، وبعضه خرافة وحمق وسبب لانتقال الخرافات والقبائح ولكلّ ذلك علامات سوف نشير إليها لاحقاً.

الآية الثانية من مجموعة الآيات المتعلّقة بمواجهة إبراهيم عليه السلام مع عبدة الأصنام فى بابل حيث سألهم بمنطقه الرصين الصريح: ما تعبدون؟ فكان جوابهم: «قَالُوا نَعبُدُ أَصنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ».

وبهذه الكلمات لم يقرّوا بالشرك فحسب بل راحوا يتفاخرون ويتباهون به، وقد سدّ إبراهيم عليه السلام الطريق عليهم من خلال سؤال واحد: «قَالَ هَلْ يَسمَعُونَكُم إِذْ تَدعُونَ أَو يَنفَعُونَكُم أَو يَضُرُّونَ»، أى أنّها (الأصنام) إن لم تنفع ولم تضرّ فلابدّ من أن تسمع نداء عبّادها على الأقل وإلّا لا معنى لعبادتها.

ولكن اولئك الذين لم يجرأوا على الادّعاء بأنّ الأصنام الحجرية والخشبية تسمع دعاءهم وتضرّعهم، كما أنّهم لم يمتلكوا دليلًا على إثبات ضرّها ونفعها لتبرير عملهم، اضطرّوا للتمسّك بأسلافهم والتشبّث بالتقليد الأعمى وقالوا: «بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفعَلُونَ».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۸۹

وهذا الجواب وإن كان مخجلًا إلّاأنّهم لم يملكوا شيئاً ليقدّموه.

وفى طول هذه الآيات يردّهم إبراهيم عليه السلام بمنطق رصين: «قَالَ أَفَرَأَيتُم مَّا كُنتُم تَعبُدُونَ* أَنتُم وآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ* فَإِنَّهُم عَدُوٌّ لِّى إِلَّا رَبَّ العَالَمِينَ* الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ* وَالَّذِى هُوَ يُطعِمُنِى ويَسقِينِ* وَاذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ* وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحيِينِ* وَالَّذِى أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِى يَومَ الدِّينِ». (الشعراء/ ۷۵- ۸۲)

أى أنّه أهل للعبادة فهو المبدىء لكلّ الخيرات والبركات، لا تلك الموجودات الخاوية والفاقدة للقيمة.

وتنقلُ الآية الثالثة كلاماً لقوم فرعون وفيها انعكاس لهذا المضمون بشكل آخر حيث تقول: «قَالُوا اجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا وَتَكونَ لَكُمَا الكِبرِيَاءُ فِى الْأَرْضِ» «۱»

وعليه «وَمَا نَحنُ لَكُمَا بِمُؤمِنِينَ».

انّهم استندوا- فى الحقيقة- إلى هذه النقطة فقط لإثبات صحّة مسلكهم وقداسته وهى أنّ هذا هو طريق الأسلاف ودينهم وعادتهم، ولكى يتّهموا موسى وهارون بأنّهما يتآمران قالوا: إنّكما تبغيان الحكومة عن طريق الدعوة إلى التوحيد وهدم الشرك وعبادة الأصنام من أساسها ولا نسمح بذلك! ويبدو أنّ هذا الكلام القى من قبل زبانية فرعون حيث عارضوا دعوة موسى وهارون للتوحيد بطريقين شيطانيين:

أحدهما: هو إثارة العواطف لدى عامّة الناس الجاهلين وذلك بالتحذير من أنّ دين أسلافهم فى خطر، والآخر: هو إثارة سوء الظنّ فيهم بوصف دعوة موسى وهارون أنّها تجرى وفق مخطّط مسبق للوصول إلى الحكم وإلّا فإنّها لا واقعية لها.

وقد استخدم هؤلاء الجبابرة والطغاة هذين الطريقين لاستغفال الناس ومواصلة حكمهم

(۱) «لتلفتنا» من «لفت» وهو الصرف عن الشیء أو الإلفات إلی الشیء لو تعدّت ب (من) فإنّها تعنی الإنصراف و ب (إلی) فإنّها تعنی (التوجّه).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۰

الاستبدادی، کما یلاحظ فی الآیة حیث جاء التعبیر أکثر صراحة: «قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ یُرِیدَانِ أَنْ یُخرِجَاکُم مِّنْ أَرضِکُم بِسِحْرِهِمَا وَیَذْهَبَا بِطَرِیقَتِکُمُ المُثلَی . (طه/ ۶۳)

الجواب الدائم للمشرکین:

إنّ الآیة الرابعة تنقل هذا المضمون علی صورة إجابة دائمة من قبل مشرکی مکّة حیث تقول: «وَاذَا قِیلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما انزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلفَینَا عَلَیهِ آبَاءَنَا».

وهذا فی الحقیقة هو منطق کلّ معاند لجوج حیث یتوسّل بالتقلید حینما یعجز عن کلّ شیء، التقلید الأعمی للأسلاف الضالّین والجاهلین والتفاخر بذلک دون امتلاک أی جواب تجاه الأدلّة المحکمة التی أقامها الأنبیاء لإثبات حقّانیة دعوتهم وبطلان الشرک وعبادة الأصنام.

والقرآن الکریم یردّ هذا المنطق بجملة قصیرة واحدة حیث تقول فی طول هذه الآیة بشکل سؤال: «أَوَلَو کَانَ آباؤُهُم لَایعقِلُونَ شَیئاً ولَا یَهتَدُونَ» «۱».

أی أنّ تقلیدهم لو کان کتقلید الجاهل للعالم لکان مقبولًا، ولکنّه لیس کذلک بل هو تقلید جاهلٍ لجاهلٍ آخر، واتّباع ضالٍ لضالٍ آخر، فمثلهم کالأعمی الذی یقوده أعمی آخر.

إنّ هذه الآیة وما سبقها من آیات تتحدّث- کما یفهم من سیاقها- عن مشرکی العرب، وما احتمله بعض المفسّرین من انّها تقصد الیهود وما ورد عن ابن عباس بشأن سبب نزولها یُعد أمراً بعیداً.

(۱) فی الآیة جملة مقدّرة معناها: «أیتّبعون ما ألفوا علیه آباءهم فی کلّ حال وفی کلّ شیء ولو کان آباؤهم لا یعقلون شیئاً ولا یهتدون».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۱

تحدّثت الآیة الخامسة والأخیرة عن مشرکی العرب أیضاً حیث کانوا: «وإِذَا تُتْلَی عَلَیهِم آیَاتُنَا بَیِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَـذَا إِلَّا رَجُلٌ یُرِیدُ أَن یَصُدَّکُم عَمَّا کَانَ یَعبُدُ آبَاؤُکُمْ».

والملفت للنظر أنّ القرآن الکریم یقول: إنّهم کانوا یواجهون (الآیات البیّنات) بمنطق (التقلید) والاستهزاء بالنبی الأکرم صلی الله علیه و آله فکانو یدعونه بکلمة «رجل» ولکی یستمیلوا عامّة الناس إلیهم یخاطبونهم ب (أسلافکم) بدلًا من (أسلافنا) لیثیروا عصبیتهم فی مواجهة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

ومن مجموع هذه الآیات نستنتج أنّ ظاهرة التقلید الأعمی تعدّ من العوامل المؤثّرة فی تناقل الإعتقاد بالصنم فی العصور والقرون السالفة، ولم یکن الرسول الکریم صلی الله علیه و آله الوحید من الأنبیاء الذی تعرض لهذا الاسلوب عندما صدع بدعوته ونهض لمقارعة الشرک وعبادة الأصنام، فقد واجهه قومه بحجة تقلید الآباء والأجداد ومن سلفوا، وقد جاء هذا المعنی فی الآیة ۴۳ من سورة سبأ والآیة ۲۲ من سورة الزخرف بل إنّ أنبیاءً ورسلًا أمثال موسی علیه السلام، کما ورد فی الآیة ۷۸ من سورة یونس وابراهیم علیه

السلام، وكما ورد فى الآيات ٧٠ إلى ٧۴ من سورة الشعراء وهود عليه السلام، وكما ورد فى الآية ٧٠ من سورة الاعراف وصالح عليه السلام، وكما ورد فى الآية ۶٢ من سورة هود تعرضوا إلى مثل ما تعرض له الرسول صلى الله عليه و آله حيث واجههم أقوامهم بحجة تقليد الاسلاف والسير على عاداتهم التى ألفوها منهم.

وهذه الحجة الواهية والمزيفة تثار فى أوساط جميع الأقوام وعلى مرّ العصور، فعبدة الأصنام وفى كافة انحاء العالم ومن أجل مواجهة الأنبياء والرسل وحملة راية التوحيد، فانهم يثيرون مثل هذه الحجة الجاهله، وقد أشارت الآية ٢٣ من سورة الزخرف إلى هذا المعنى

ومن الواضح أنّ التقليد الأعمى لم يكن العامل الأوّل لظهور الشرك، بل يشكّل عاملًا لاستمراره وانتقاله من جماعة إلى اخرى ومن جيل إلى جيل.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٩٢

توضيحات

١- التقليد، عامل للتقدّم أم للإنحطاط؟

ممّا لا شكّ فيه أنّ التقليد إذا تمثّل فى اتّباع وإقتباس عديمى الاطلاع من العلماء فإنّه عامل على إيجاد حركة تكاملية فى المجتمعات البشرية وأساساً نجد أنّ العلوم والأفكار والآداب والعادات البنّاءة، كما أنّ الشؤون التربوية والإنسانية قد انتقلت من جيل إلى جيل عبر هذا الطريق.

إنّ الأطفال يكتسبون جلّ معلوماتهم من المجتمع عن هذا الطريق تقريباً، كما أنّ الصناعات والحِرف والفنون تتوسّع وتتكامل بهذا الطريق أيضاً، ولولا روح التقليد الإيجابية والبنّاءة لم تحدث هذه الحركة التكاملية أبداً.

إنّ تقليد «الجاهل للجاهل» أو «العالم للجاهل» يكون سبباً لشيوع الفساد والانحراف والاخلاق الفاسدة، والخرافات، والانحرافات الفكرية من قوم إلى قوم أو جيل إلى جيل، ومثل ذلك كمثل الماء الصافى والذى يمثل عصب الحياة، فإذا ما تلوث بالأمراض والميكروبات فسوف يصبح وسيلة لانتشار الميكروبات والأمراض والأوبئة.

وكثيراً ما ينشأ التقليد من الكسل والتعصّب، فالذين لا يتحمّلون جهود التحقيق لما فيهم من كسل يقبلون على التقليد، والمعاندون المتعصّبون الذين لا يهتمون للبحث عن نقاط القوّة لدى الأقوام الاخرى والإذعان لها، يألفون نقاط الضعف الموجودة فى مجموعتهم، وقد كان هذا النمط من التقليد الأعمى والمتعصّب والرجعى هو العامل المهمّ لشيوع الشرك وعبادة الأصنام على مرّ التاريخ «١».

٢- تزيين الشياطين وهوى النفس

يستفاد من الآيات القرآنية أنّ (اتّباع الهوى) كان من عوامل الشرك أيضاً، كما نقرأ فى

---

(١) هناك بحوث حول أنواع التقليد وشرائط التقليد الإيجابى ودوافع التقليد الأعمى وشرحت كلمة (تقليد) فى الجزء الأوّل من هذا التفسير فى موضوع (حجاب التقليد)، ج ١، ص ٢٧٣.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ١٩٣

قصّة السامرى جوابه حينما سأله موسى عليه السلام عن الدافع لعمله بأنّه لاحظ اموراً لم يلاحظها غيره فقال: أخذت بعض آثار الرسول

وألقيتها خارجاً وأقبلت على الشرك: «وَكَذَلِكَ سَوّلتْ لِي نَفسي».

كما يستفاد من الآيات القرآنية أنّ تزيين الشيطان ووساوسه هى العوامل الممهّدة للشرك أو استمرارها، كما نقرأ فى قصّة ملكة سبأ أنّ الهدهد عندما أخبر سليمان عليه السلام عن شرك قوم سبأ قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمسِ مِنْ دُونِ اللَّه وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ اعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَايَهتَدُونَ». (النمل/ ۲۴)

وما ينبغى ملاحظته هو أنّ هوى النفس ووساوس الشيطان تظهر فى إطار العوامل السابقة كعبادة الأوهام (التقليد الأعمى) (العصبية اللجوجة) ولذا لم نورد هنا عامل هوى النفس كعامل مستقل.

۳- عامل الاستضعاف والاستعمار الفكرى

يعتبر الشرك وعبادة الأصنام من الوسائل التى استخدمها المستكبرون والمستعمرون بشكل دائم لأنّه:

أوّلًا: إنّ البسطاء من الناس يُعتبرون وسائل طيّعة للمستكبرين، ولذا يكون التحرّك الاستعمارى دائماً باتّجاه الجهل والغفلة فى أوساط المستضعفين، ويسعى باستمرار إلى صدّ الناس عن الوعى واليقظة والعلم والفكر وغلق أى نافذة للتحقيق فى وجوههم وإغراقهم فى التقليد الأعمى الذى ينشأ منه الجهل المطبق كما يقول القرآن عن فرعون:

«فَاسْتَخَفَّ قَومَهُ فَأَطَاعُوهُ». (الزخرف/ ۵۴)

وبما أنّ الشرك قائم على عبادة الأوهام والظنون فإنّه عامل مؤثّر فى استغفال الجماهير، وهو أداة نافعة لتحقيق أهداف المستكبرين.

ثانياً: يعتبر الشرك عاملًا من عوامل الاختلاف والتفرّق فيوعِز لكلّ قوم بأن يتّخذوا

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۴

معبوداً لهم، فيدفع مجموعة لعبادة الشمس، ومجموعة لعبادة القمر، ويشغل مجموعة ب (هبل)، ومجموعة ب (اللات) و (العزّى)، حتّى انقسم المجتمع العربى الصغير فى الجزيرة إلى مئات المجموعات بسبب عبادة الأصنام المختلفة، على عكس التوحيد الذى يمثّل حلقة الوصل بين القلوب ورابطاً وثيقاً بين الأفكار.

ونعلم أيضاً أنّ الاختلاف ما دام قائماً فإنّ المستعمرين فى راحة بال، وأنّ مقولة (فرّق تسد) تُعدّ من أقدم المبادئ الاستعمارية، فلا عجب فى أن يكون الفراعنة ونمرود وأبو سفيان وأمثالهم من أنصار الشرك وعبادة الأصنام.

ثالثاً: يهدف المستكبرون دائماً إلى أن يخضع الناس لهم وكأنّهم آلهة ويتلقّون أوامرهم كأوامر مقدّسة لا نقاش فيها.

ومن الواضح أنّ من يسجد للحجر والخشب يكون أكثر تقبّلًا للآلهة البشرية، ولذا أخذ فرعون ينادى فى مصر (أنا ربّكم الأعلى) واعتبر نفسه أعلى من الآلهة كلّها.

بناءً على هذه الجوانب الثلاثة فلا عجب أن تتواكب الأفكار الاستعمارية مع الشرك وعبادة الأصنام، وأن يكون خطّ الأنبياء الذى يمثّل خطّ القضاء على الاستعمار والاستضعاف هو خطّ التوحيد واليقظة والوعى، لنتذكّر مرّة اخرى الحديث المروى عن الإمام الصادق عليه السلام الذى قال فيه: «إنّ بنى اميّة أطلقوا للناس تعليم الإيمان ولم يطلقوا تعليم الشرك لكى إذا حملوهم عليه لم يعرفوه» «۱».

إنّ هذا المضمون وان لم يصرّح به فى الآيات القرآنية إلّاأنّه اشير إليه كما نقرأ فى الآية:

«وَلَو تَرى اذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِم يَرجِعُ بَعضُهُم إِلَى بَعضٍ القَولَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَولَا انتُم لَكُنَّا مُؤمِنِينَ». (سبأ/ ۳)

۴- كلمة أخيرة حول عوامل الشرك

من خلال البحوث التى أوردناها تتّضح هذه الحقيقة وهى: إنّ الشرك وعبادة الأصنام

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۱۵.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۵

كسائر الظواهر الاجتماعية لا تنشأ من عامل واحد بل توجد عوامل مختلفة تعاضدت على ايجاده، من بينها.

الميل إلى المحسوسات والإستئناس بها والمطالبة بإله محسوس.

واللجوء إلى الأوهام فى المجتمعات المتخلّفة (الظنّ بتأثير الأصنام فى الشفاعة والعزّة والنصر والتقرّب إلى اللّه والظنّ بعدم إمكانية عبادة اللّه بصورة مباشرة ووجوب استخدام الوسائط والظنّ بقداسة التماثيل المصنوعة على هيئة الأنبياء والصلحاء وأوهام اخرى).

وهكذا التقليد الأعمى للأسلاف وعدم الإستعداد للتحقيق فى قضيّة المعرفة الإلهيّة.

كذلك استغلال المستكبرين والمستعمرين للميل إلى الشرك وعبادة الأصنام للوصول إلى أهدافهم الشيطانية، واستغفال الناس كانت عوامل مختلفة سبّبت نشوء فكرة الشرك أو استمراره وبقاءه على طول التاريخ.

وقد واجهت هذه التيارات المنحرفة القويّة خطّ الأنبياء الذى يدعو البشر من جهة إلى التحرّر من إطار الحسّ وإدراك ما وراء الطبيعة، ومن جهة اخرى يدعوهم إلى عبادة اللّه مباشرةً والخضوع بين يدى ربّ الكون كلّه واللجوء إلى ذاته المقدّسة فى كلّ حال والقضاء على الأوهام.

ومن جهة ثالثة يدعو لكسر طوق التقليد الأعمى والإقبال على البحث فى عالم الوجود ومعرفة الآيات الإلهيّة فى الآفاق والأنفس.

ومن جهة رابعة يدعو عالم البشرية إلى الوحدة وتحطيم الأصنام المفرِّقة والتحرّر من نير الإستغلال والاستعمار والغفلة والاستضعاف.

هذه هى الخطوط العامّة للكفر والإيمان والشرك والتوحيد.

ونختم هذا الكلام بما أورده العلّامة الطباطبائى رحمه الله فى تفسير الميزان فى ذيل الآيات ۳۶- ۴۹ من سورة هود تحت عنوان (كيف وُجِدَ الشرك): «اتّضح من الفصل المتقدّم أنّ الإنسان فى مزلّةٍ من تجسيم الامور المعنوية وسبك غير المحسوس فى قالب المحسوس بالتمثيل والتصوير وهو مع ذلك مفطور للخضوع أمام أى قوّة فائقة قاهرة والإعتناء بشأنها،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۶

ولذا كانت روح الشرك والوثنية سارية فى المجتمع الإنسانى سراية تكاد لا تقبل التحرّز والإجتناب فى المجتمعات الراقية الحاضرة وحتّى فى المجتمعات المبنية على أساس رفض الدين، فترى فيها من النُّصب وتماثيل الرجال وتعظيمها واحترامها والمبالغة فى الخضوع لها ما يمثّل لك وثنية العهود الاولى والإنسان الأوّلى، على أنّ اليوم من الوثنية على ظهر الأرض ما يبلغ مئات الملايين قاطنين فى شرقها وغربها.

ومن هنا يتأيّد بحسب الاعتبار أن تكون الوثنية مبتدئة بين الناس باتّخاذ تماثيل الرجال العظماء ونصب أصنامهم وخاصّة بعد الموت ليكون فى ذلك ذكرى لهم، وكان ربّ البيت فى الرومان واليونانيين القدماء- على ما يذكره التاريخ- يُعبد فى بيته، فإذا مات اتّخذ له صنم يعبده أهل بيته، وكان كثير من الملوك والعظماء معبودين فى أقوامهم، وقد ذكر القرآن الكريم منهم نمرود الملك المعاصر لإبراهيم عليه السلام ... وهو ذا يوجد فى بيوت الأصنام الموجودة اليوم، وكذا بين الآثار العتيقة المحفوظة عنهم أصنام كثير من عظماء رجال الدين كبوذا وأصنام كثير من البراهمة وغيرهم، واتّخاذهم الموتى وعبادتهم لها من الشواهد على أنّهم كانوا يرون أنّهم لا يبطلون بالموت وإنّ أرواحهم باقية بعده، لها من العناية والأثر ما كان فى حال حياتهم بل هى بعد الموت أقوى وجوداً وأنفذ إرادةً

وأشدّ تأثيراً من شوب المادّة ونجت من التأثيرات الجسمانية والإنفعالات الجرمانية، وكان فرعون موسى يعبد أصناماً له وهو إله معبود فى قومه: «وَقَالَ المَلَأُ مِنْ قَومِ فِرعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وقَومَهُ لِيُفسِدُوا فِى الأرضِ وَيَذَرَكَ وآلِهَتَكَ»» «۱».

وما جاء فى هذا البحث هو بعض عوامل الشرك، ولا بأس من الإشارة أخيراً إلى نقطة تثير العجب ذكرها المؤرّخ الغربى الشهير (ويل ديورانت) فى كتابه التاريخى (قصّة الحضارة) وأيّده الكثير من الذين سافروا إلى خارج البلاد فى هذا العصر بملاحظاتهم فى تلك البلدان وهو وجود أصنام كثيرة صنعت على صورة الأجهزة التناسلية للذكر والانثى! حيث تعبد من قبل مجموعة كبيرة!

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۰، ص ۲۷۵- ۲۷۷ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۷

ويكتب: لَعلَّ (القمر) هو أوّل شىء كانت له أولوية العبادة، فقد كان الإله المحبوب لدى النساء وعبدنه حامياً لهنّ، واعتقدن بأنّ للقمر حكومة على الأنواء الجوّية وينزل هذا الجرم السماوى المطر والثلوج، حتّى أنّ الضفادع- كما فى الأساطير- تتضرّع إليه كى ينزل المطر.

وبعد التفصيل فى هذا المجال وفى عبادة الشمس والأرض والجبال والبحار يضيف: بما أنّ الإنسان الأوّل لم يدرك أنّ حقيقة انعقاد نطفة الإنسان من (الحيمن) و (البويضة)، فلذلك كانوا يعتقدون بأنّ المبدأ الوحيد فى وجود البشر هو هذا الموجود العجيب أى (الآلة التناسلية لدى الرجل والمرأة) اعتقدوا وجود روح عجيبة فيهما هى المبدأ لهذا الأثر العجيب، وهذا الأمر كان سبباً فى الإعتقاد التدريجى بإلُوهيتهما وتحوّلهم إلى عبَدة لتماثيل الآلة التناسلية!!

والأعجب أنّه يكتب: قلّما نجد قوماً لا يعبدون هذا الصنم بشكل ما! «۱».

وكما أشرنا فإنّ عبادة الأصنام لا تزال منتشرة فى الهند واليابان فى الوقت الحاضر.

ومن هنا يتّضح جيّداً أنّ الإنسان إذا انحرف عن تعليمات الأنبياء: سيقع فى مستنقعات متعفّنة وسيرتكب أعمالًا مضحكة ومخجلة.

أمّا الموحّدون ذوو الدين الحقّ والقلب السليم فعليهم أن يشكروا اللّه كثيراً على تحرّرهم بفضل تعليمات الأنبياء من التلوّث بالشرك والسقوط فى هذه الأودية الموحشة.

---

(۱) تاريخ ويل ديورانت، ج ۱، ص ۹۵ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۱۹۹

أقسام التوحيد

اشارة

۱ و ۲- توحيد الذات والصفات

۳- توحيد العبادة

۴- توحيد الأفعال

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۱

التقسيمات الأساسية:

قرأنا فى البحوث السابقة أنّ الأساس فى دعوة جميع الأنبياء والكتب السماوية كما يشهد بذلك القرآن الكريم- هو التوحيد- وقد شرحنا الأدلّة عليه من القرآن والمنطق العقلى، وقد آن الأوان هنا لمراجعة الأبعاد المختلفة والفروع المتنوّعة والغنية للتوحيد، ومن هنا تتجلّى أهميّة هذه المسألة.

ومن المعروف لدى علماء العقائد أنّ التوحيد ذو اقسام أساسية أربعة:

١- توحيد الذات (ذات اللَّه واحدة ولا مثيل لها).

٢- توحيد الصفات (صفات اللَّه عزّوجلّ ترجع كلّها إلى حقيقة واحدة هى ذاته).

٣- توحيد العبادة (تليق العبادة بذاته المقدّسة فقط).

۴- توحيد الأفعال (هو المبدىء لكلّ خلق ونظام الكون وكلّ حركة وفعل فى هذا العالم ولا مؤثّر فى الوجود إلّااللَّه سبحانه ولا يتنافى هذا مع اختيار الإنسان أبداً وتوحيد الأفعال له فروع اخرى أهمّها:

١- توحيد الخالقية (الخلق منه فقط).

٢- توحيد الربوبية (تدبير الكون إليه فقط).

٣- توحيد المالكية والحاكمية التكوينية.

۴- توحيد الحاكمية التشريعية والتقنينية.

۵- توحيد الطاعة (تجب طاعة أوامره فقط أو أوامر الذين أمر بطاعتهم) ولا شكّ فى أنّ أفعال اللَّه لا تنحصر فى ما ذكر، ولذا فإنّ فروع توحيد الأفعال لا تنحصر فيما ذكر ولكن هذه الفروع الخمسة هى الفروع الرئيسة.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٠٢

وضرورى أن نذكر بأنّ التوحيد يمكن تقسيمه من جهة إلى قسمين: التوحيد (الخاص) والتوحيد (العام).

التوحيد الخاصّ: هو فروع التوحيد التى اشير إليها بصورة إجمالية.

أمّا التوحيد العام فهو عبارة عن:

١- التوحيد فى النبوّة (فجميع الأنبياء: تابعوا هدفاً واحداً وكان لهم منهج أساسى واحد، ولذا لا نفرّق بينهم من حيث الدعوة والمهمّة): «لا نُفَرِّقُ بَينَ أَحَدٍ مِّنْ رُسُلِهِ».

٢- التوحيد فى المعاد (يحشر جميع البشر فى يوم واحد ويحضرون محكمة واحدة).

٣- التوحيد فى الإمامة (مبدأ الأئمّة واحد ويسعون وراء حقيقة واحدة وهم نور واحد).

۴- التوحيد فى النظم والعدل (القانون الإلهى واحد بالنسبة لجميع البشر).

۵- التوحيد فى المجتمع البشرى (الجميع عباد اللَّه ومن أب واحد وامّ واحدة لا- يختلفون باختلاف اللون والعنصر واللسان وأمثالها ويشكّلون مجتمعاً واحداً).

وبهذه المقدّمة نراجع الآيات القرآنية ونبحث حول كلّ فرع من هذه الفروع بصورة مستقلّة.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٠٣

١ و ٢- توحيد الذات والصفات

تمهيد:

المراد من توحيد الذات- حيثما كان الحديث عنه- هو أنّ ذات اللَّه المقدّسة لا شبيه ولا نظير لها، وهى واحدة لا مثيل لها من أىّ

جهة.

وبما أنّ الأبحاث السابقة كانت تدور- عادةً- حول محور توحيد الذات وقد اقيمت أدلّة مختلفة لإثبات التوحيد والآيات القرآنية التى تمّ تفسيرها كانت تقصد التوحيد بهذا المضمون، لذا ننصرف عن تكرار البحث بصددها ونتابع التفسير الدقيق لمعنى توحيد الذات، فنتأمل خاشعين أوّلًا فى الآيات الآتية:

١- «لَيسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ». (الشورى/ ١١)

٢- «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ومَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اَلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». (المائدة/ ٧٣)

٣- «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّمَدُ* لَم يَلِدْ وَلَم يُولَدْ* وَلَم يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ». (التوحيد/ ١- ۴)

جمع الآيات وتفسيرها

يامن تعالى عن الخيال والقياس والظنّ والوهم:

تفسّر الآية الاولى توحيد الذات فى جملة واحدة تفسيراً بليغاً ورصيناً غنى المعنى حيث تقول «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ».

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٠۴

ومثل هذا الشىء- بالتأكيد- يكون أعلى من الخيال والقياس والظنّ والوهم، وليس بمقدورنا تصوّر ذاته، لأنّ الأشياء الممكن تصوّرها هى التى لاحظنا أمثالها أو تحصّلت بعد التركّب والتجزئة، أمّا الشىء الذى ليس له أى مثيل فلا يتناوله الوهم والعقل أبداً، ومعرفتنا تكون بمقدار أنّه موجود ونرى أفعاله وآثاره فى عالم الوجود الواسع، ومن هذه الأوصاف ندرك صفاته إجمالياً، ولكن ليس بمقدور حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين أن يدركوا حقيقة ذاته.

والإقرار بهذه الحقيقة هو آخر مرحلة فى سلّم معرفة الإنسان لله عزّوجلّ والحديث المعروف: «ما عرفناك حقّ معرفتك» «١» المروى عن النبى صلى الله عليه و آله بيان لذروة العرفان البشرى باللَّه عزّوجلّ.

والدليل على ذلك واضح لأنّه كما ذكر فى بحث أدلّة التوحيد هو وجود لا متناهٍ ولا نهاية له من كلّ جهة، وكلّ ما سواه محدود ومتناهٍ من كلّ جهة، ولذا لا يمكن قياسه إلى غيره، وبما أنّ وجودنا وعقولنا وأفكارنا محدودة فإنّا لا نصل إلى كُنه تلك الحقيقة اللامحدودة أبداً.

استناداً إلى هذا التفسير فإنّ (الكاف) فى (ليس كمثله شىء) تكون زائدة وللتأكيد «٢»، أى لا يوجد شىء شبيه له أبداً، نعم يمكن أن يفيض سبحانه من وجوده وعلمه وقدرته فى عالم الممكنات ولكن مخلوقاته الممكنة ليست مثله أبداً.

ولكن بعض المفسّرين لم يعتبر (الكاف) زائدة وقالوا: مفهوم الآية هو (لا يوجد مثيل للَّه) أى أنّ (مثل) هنا تعنى (الذات) كما نقول: مثلك لا يسلك هذا الطريق المعوج، أى لا ينبغى لك أن تفعل هذا.

وقال البعض أيضاً: إنّ (مثل) هنا بمعنى الصفات، أى لا يوجد موجود يتّصف بأوصاف اللَّه.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٣، ص ١۴.

(٢) جاء فى تفسير روح المعانى: إنّ بعض المفسّرين اعتبر (مثل) زائدة ولكن أشكل عليه أبو حيّان وقال: الإسم لايكون زائداً فى اللغة

العربیة أبداً.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۵

وواضح أنّ نتیجة هذه التفاسیر الثلاثة فی بحثنا تکون واحدة وإن کانت تبحث الموضوع من طرق متباینة.

والجدیر ذکره هو أنّنا نقرأ فی حدیث أنّ رجلًا جاء إلی الرسول صلی الله علیه و آله وسأل: ما رأسُ العلم؟ فأجابَ صلی الله علیه و آله: «معرفة اللَّهِ حقَّ معرفته وأضاف: أن تعرفه بلا مثال ولا شبه وتعرفه إلهاً واحداً خالقاً قادراً أوّلًا وآخِراً وظاهراً وباطناً، لا کفو له ولا مثل له فذاک معرفة اللَّه حقّ معرفته» «۱»

ومن الواضح أنّ (حقّ معرفته) هذه نسبیة وإلّا- کما قلنا- لا یعرفه علی ما هو علیه أحد.

فی الآیة الثانیة یعتبر القرآن الکریم القائلین بأنّ اللَّه ثالث أقنوم من الأقانیم الثلاثة «۲» کفّاراً: «لَقَد کَفَرَ الَّذِینَ قَالُوا انَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ».

وینبغی الإلتفات إلی أنّ الآیة لم تقل: إنّ الذین یعتقدون بالآلهة الثلاثة کفّار، بل قالت:

(إنّ الذین یعتبرون اللَّه أقنوماً ثالثاً أو ذاتاً ثالثة کفّار)، وقد سلک المفسّرون فی فهم مضمون الآیة مسالک مختلفة.

فقال بعضهم: إنّ المراد هم الذین یعتقدون أنّ اللَّه جوهر واحد فی الذوات الثلاثة (الأب) و (الإبن) و (روح القدس)، ویقولون: إنّه واحد فی عین تعدّده، کما أنّ لفظ الشمس یشمل قرص الشمس ونورها وحرارتها والثلاثة واحدة «۳».

وبعبارة اخری: المراد هو عقیدة (التوحید فی التثلیث) القائلة بأنّ اللَّه فی عین کونه ثلاثة یکون واحداً (وهذا کلام غیر معقول طبعاً لأنّ العدد «ثلاثة» لا یساوی «واحداً» أبداً، إلّاأن یکون أحدهما مجازیاً والآخر حقیقیاً).

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۱۴.

(۲) «الأقنوم» بمعنی الأصل والذات وجمعه أقانیم، وهو تعبیر یطلقه النصاری علی الآلهة الثلاثة فی مسألة التثلیث.

(۳) تفسیر الکبیر، ج ۱۲، ص ۶۰.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۶

وقد جاء فی تفسیر القرطبی: إن الآیة تشیر إلی فرق النصاری من الملکیة (أو الملکانیة) والنسطوریة والیعقوبیة لأنّهم یقولون: أب وابن وروح القدس إله واحد «۱».

ولکن الظاهر أنّه خطأ لأنّهم نسبوا هذه العقیدة إلی جمیع النصاری فی القول بالتثلیث والتوحید معاً.

والعلّامة الطباطبائی رحمه الله یقول: إنّ ثالث ثلاثة یعنی أنّ کل واحد من هذه الثلاثة: (الأب والإبن وروح القدس، هو إله ینطبق علی کلّ واحد منها وهی ثلاث ذوات وفی الوقت نفسه ذات واحدة) «۲».

ولکن الآیة تتحدّث فی الظاهر عن غیر هذا کلّه، فالکلام یدور حول الاعتقاد بأنّ اللَّه ذات ثالثة کفر، أی لیس الإعتقاد بالآلهة الثلاثة موجباً للکفر بل جعل اللَّه تعالی فی عرض الموجودات الاخری واعتباره الثالث من الذوات الثلاثة، وبعبارة اخری اعتبار (الوحدة العددیة) له موجب للکفر (فتأمّل جیّداً).

وقد ورد بیان هذا المعنی بشکل لطیف فی حدیث عن أمیر المؤمنین علیه السلام حیث نقرأ بأنّ أعرابیاً جاء إلی أمیر المؤمنین فی یوم حرب الجمل فقال: یاأمیر المؤمنین أتقول: إنّ اللَّه واحد؟

فحمل الناس علیه وقالوا: یاأعرابی أما تری ما فیه أمیر المؤمنین من تقسّم القلب؟ فقال أمیر المؤمنین علیه السلام: دعوه فإنّ الذی یریده الأعرابی هو الذی نریده من القوم؛ ثمّ قال:

«یاأعرابی إنّ القول فی أنّ اللَّه واحد علی أربعة أقسام، فوجهان منها لا یجوزان علی اللَّه عزّوجلّ، ووجهان یثبتان فیه، فأمّا اللذان لا یجوزان علیه فقول القائل: واحد یقصد به باب الأعداد فهذا ما لا یجوز، لأنّ ما لا ثانی له لا یدخل فی باب الأعداد أما تری أنّه کفر

من قال إنّه ثالث ثلاثة؛ وقول القائل: هو واحد من الناس يريد به النوع من الجنس فهذا ما لا

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۴۴، ص ۲۲۴۶، وقد جاء هذا المعنى أيضاً فى تفاسير اخرى مثل روح البيان والمنار فى ذيل آية البحث.

(۲) تفسير الميزان، ج ۶، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۷

يجوز لأنّه تشبيه وجلّ ربّنا وتعالى عن ذلك وأمّا الوجهان اللذان يثبتان فيه فقول القائل: هو واحد ليس له فى الأشياء شبه كذلك ربّنا؛ وقول القائل: إنّه عزّوجلّ أحديُّ المعنى يعنى به أنّه لا ينقسم فى وجود ولا عقل ولا وهم كذلك ربّنا عزّ وجلّ» «۱».

القسم الثالث والأخير عبارة عن سورة التوحيد التى ترسم وحدانية اللَّه بأروع الصور وتتضمّن كلاماً جامعاً ينفى تثليث النصارى والثنوية (عبادة الإثنين) لدى المجوس وشرك المشركين، فتقول أوّلًا: «قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ»، وهو تعبير يدلّ على أنّ أسئلة مختلفة قد طُرحت على نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حول المعبود الذى يدعوهم إليه، فامر أن يشرح لهم جميعاً حقيقة التوحيد بهذه الجمل القصيرة المركّزة المعنى.

«أحد»: وأصلها (وَحَد) من (وحدة) إستبدلت الواو فيها بالهمزة ولذا يعتبر الكثير أنّ (أحد) و (واحد) بمعنى واحد، وقد اشير إلى هذا المضمون فى بعض الروايات وكلاهما إشارة إلى الذات التى لا مثيل لها «۲».

وقد فرّق البعض بين (أحد) و (واحد)، فقالوا تارةً: إنّ (أحد) من الصفات المختصّة باللَّه لأنّه لا يطلق على الإنسان وغيره، أمّا (واحد) فانّه ليس كذلك.

وقالوا تارة اخرى: إنّ (واحد) يستعمل فى الإثبات والنفى ولكن (أحد) يستعمل فى النفى فقط.

وقالوا تارةً ثالثة: إنّ (أحد) إشارة إلى وحدة الذات و (واحد) إشارة إلى وحدة الصفات.

وقالوا رابعة: إنّ (أحد) يطلق على الذات التى لا تتقبّل الكثرة لا فى الخارج ولا فى الذهن، ولذا لا يمكن عدّه بعكس الواحد الذى يتصوّر له الثانى والثالث.

وقالوا خامسة: إنّ (أحد) إشارة إلى بساطة ذات اللَّه عزّوجلّ ونفى أى جزء عنه، فى حين أنّ (واحد) فيه إشارة إلى وحدانية ذاته قبالة أن يكون له مثيل، غير أنّ تلك التفاسير الخمسة لا تمتلك دليلًا واضحاً، فمثلًا يقال: يوم الأحد، ويطلق الواحد على اللَّه فى القرآن: «إِلَهٌ وَاحِدٌ». (البقرة/ ۱۶۳)

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۰۶، ح ۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۲.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۸

وكما أنّ «أحد» استعمل فى جملة ثبوتية كما فى سورة البحث وآيات قرآنية اخرى «۱».

فالصحيح هو أن نقول بأنّ الإثنين يشيران إلى معنى واحد.

على كلّ حال، يعتقد بعض المفسّرين أنّ جملة (اللَّه أحد) هى أكمل وصف لمعرفة اللَّه يمكن أن يستقرّ فى عقل الإنسان، لأنّ كلمة (اللَّه) تشير إلى الذات التى لها صفات الكمال كلّها وفى (أحد) إشارة إلى نفى الصفات السلبية كلّها «۲».

والقرآن الكريم فى إكمال هذه الآيات يقول: «اللَّهُ الصَّمَدُ» فهو إله قائم بالذات وغنى ويقصده كلّ المحتاجين ويتوجّهون إليه.

وكلمة «صمد» كما فى (مقاييس اللغة) لها أصلان: أحدهما يعنى القصد، والثانى الصلابة والإستحكام، وعندما تستعمل بصدد اللَّه تعالى فإنّ معناها هو الغنى المطلق الذى يتوجّه إليه كلّ المحتاجين، وتعنى أيضاً الذات الواجبة الوجود والقائمة بذاتها.

ومن الممكن أن يرجع الأصلان إلى أصل واحد، لأنّ الذات المستحكمة والصلبة والقائمة بذاتها تكون غنيّة- طبعاً- وموضعاً لتوجّه جميع المحتاجين، وعليه فإنّ (صمد) يمكن أن يكون إشارة إجمالية إلى جميع الصفات الثبوتية والسلبية للّه تعالى، ولعلّه لهذا الدليل ذُكرت معانٍ كثيرة ل (صمد) فى الروايات الإسلامية حيث يشير كلّ واحد منها إلى إحدى صفات اللّه «۳».

على أيّة حال، لا تخفى العلاقة بين هذه الآية والآية السابقة لها التى تتحدّث عن وحدانية اللّه، لأنّ واجب الوجود والغنى وحاجة جميع الموجودات إليه تستلزم أن يكون واحداً وأحداً.

وفى الآية اللاحقة تأكيد آخر على حقيقة التوحيد حيث ترد عقيدة النصارى فى الآلهة الثلاثة (الأب، والإبن، والواسطة بينهما)، وتبطل عقيدة اليهود بأنّ عزير ابن اللّه، كما تبطل

---

(۱) الآيات: التوبة، ۶؛ النساء، ۴۳؛ مريم، ۲۶؛ البقرة، ۱۸۰؛ الكهف، ۱۹؛ وآيات كثيرة اخرى.

(۲) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۸۰.

(۳) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۲ من سورة الاخلاص.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۰۹

عقيدة المشركين العرب فى أنّ الملائكة بنات اللّه، أجل، إنّها ومن أجل نفى هذه الامور كلّها وأمثالها تقول: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ».

ومن المسلّم به أن يكون للوجود الذى له ولد أو والد شبيه ومثيل، لعدم إمكانية إنكار الشبه بين الأب والإبن، وعليه لا يمكن أن يكون واحداً ولا مثيل له.

ولذا يقول بعد هذه الآية: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ».

وعليه فإنّ الآيات الثلاثة من هذه السورة تؤكّد على أحدية اللّه المقدّسة ووحدانيته وعدم الشبيه والمثيل له، وبعبارة اخرى تكون كلّ آية فى هذه السورة تفسيراً للآية السابقة لها، وبمجموعها أوضحت مسألة التوحيد بشكل جامع وتامّ وتجسّدت شجرة التوحيد الطيّبة بكلّ أغصانها وأوراقها.

توضيحات

۱- المفهوم الدقيق لتوحيد الذات

يذهب الكثير إلى أنّ: معنى توحيد الذات هو أنّ اللّه واحد وليس إثنين، وهذه العبارة غير صحيحة وغير مطابقة لما ورد فى الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير هذه الآيات، لأنّ مفهومها الواحد العددى (أى أن يتصوّر الثانى للّه عزّوجلّ ولكن لا- وجود خارجى له) ومن المسلّم أنّ هذا كلام غير صحيح، والصحيح هو أن يقال: إنّ توحيد الذات هو أنّ اللّه واحد ولا يتصوّر له الثانى، وبعبارة اخرى: إنّ اللّه لا- شبيه له ولا نظير ولا مثيل، فلا يشبهه شىء ولا هو يشبه شيئاً لأنّ هذا الوجود اللامتناهى الكامل هو الذى يتّصف بهذه الصفة.

ولذا نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام حينما سأل أحد أصحابه: أى شىء أكبر من اللّه؟ فأجاب: «اللّه أكبر من كلّ شىء»، ثمّ قال الإمام عليه السلام: «فكان ثَمَّ شىء فيكون أكبر منه؟!»، فقال: فما هو (ما المراد من هذه الكلمة)؟ فأجاب عليه السلام: «اللّه أكبر من أن يوصف» «۱».

---

(۱) معانى الأخبار للصدوق، ص ۷، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۰

۲- مفهوم توحيد الصفات

حينما نقول: إنّ توحيد الصفات هو فرع من فروع التوحيد فإنّ مفهومه هو: كما أنّ ذات اللَّه عزّوجلّ أزلية وأبدية فإنّ صفاته كالعلم والقدرة وأمثالها أزلية وأبدية أيضاً، هذا من جهة، ومن جهة اخرى، هذه الصفات ليست زائدة على ذاته فلا يوجد فيها عارض ومعروض بل هى عين ذاته.

ومن جهة ثالثة لا تفصل الصفات عن بعضها، أى أنّ علمه وقدرته شىء واحد والإثنان عين ذاته!

بيان: عندما نراجع أنفسنا نرى أنّنا كنّا نفقد الكثير من الصفات، فلم نملك حين الولادة علماً ولا قدرة، ولكن هذه الصفات نمت فينا تدريجيّاً، ولذا نقول: إنّ هذه امور زائدة على ذواتنا، ولذا يمكن أن يمرّ بنا اليوم الذى نفقد فيه القوّة العضلية والعلوم والأفكار التى نملكها ونرى بوضوح أيضاً إنّ علمنا وقدرتنا منفصلتان، فالقدرة الجسمية فى عضلاتنا ولكن العلم موجود فى الروح!

ولا يتصوّر فى اللَّه أى معنى من هذه المعانى، فذاته كلّها علم وقدرة وكلّ شىء فى ذاته واحد، ونسلّم طبعاً بأنّ تصوّر هذه المعانى- بالنسبة لنا نظراً لفقداننا لهذه الصفة- معقّد وغير مألوف ولا سبيل إليه إلّاقوّة المنطق والاستدلال الدقيق واللطيف.

۳- الدليل على توحيد الصفات

إنّ الخوض فى صفات المخلوقات وعدم القدرة على استيعاب مفهوم توحيد الصفات هو السبب فى انحراف بعض المتكلّمين وعلماء العقيدة عن المسير الصحيح فى موضوع صفات اللَّه، أمثال طائفة (الكرامية) وهم أتباع محمّد بن كرام السيستانى الذين اعتقدوا بأنّ صفات اللَّه حادثة، وكذلك كانوا يعتقدون أنّ اللَّه لم يكن مالكاً لهذه الصفات ابتداءً ثمّ امتلكها!

وهذا الكلام فى غاية القبح! ولا يمكن لأحدٍ أن يصدّقه، مَنْ يصدّق بأنّ اللَّه كان عاجزاً فى البداية ثمّ اقتدر؟ فمن الذى أعطاه القدرة! ومن الذى وهبه العلم؟!

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۱

ولذا يحتمل أن يكون مرادهم هو صفات الفعل كالخالقية والرازقية، لأنّ اللَّه قبل أن يخلق موجوداً ويرزقه لا معنى للخالقية أو الرازقية بالنسبة إليه (طبعاً كان قادراً على الخلق والرزق ولكن القدرة على شىء غير إيجاده) إلّاأنّ البحث فى توحيد الصفات لا يرتبط بصفات الفعل والكلام هو فى صفات الذات كالعلم والقدرة، وكما سيأتى مفصّلًا بأنَّ صفات الفعل مستقلّة عن صفات ذات اللَّه، فصفات الفعل شىء ينتزعه العقل بعد مشاهدة أفعال اللَّه وينسبها إلى اللَّه (سنقرأ تفصيل ذلك لاحقاً).

وأوضح إشارة فى باب إثبات وحدة الصفات فى الآيات القرآنية هى الآية القائلة:

«لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» و «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ...» التى تقدّم تفسيرها وتدلّ على أنّ ذاته المقدّسة لا تتّصف بأيّة إثنينية.

ويمكن فى الاستدلالات العقلية الاستناد إلى بعض النقاط:

۱- ثبت فى الأبحاث السابقة أنّ اللَّه غير متناهٍ من جمع الجهات ولذا لا توجد خارج ذاته أيّة صفة كمال، فكلّ ما يوجد مجموع فى ذاته، وعندما نرى أنّ صفاتنا حادثة أو أنّها غير ذاتها فإنّ السبب هو أنّنا موجودات محدودة، ولهذه المحدودية تكون الأوصاف والكمالات خارج ذواتنا وهى ممّا نكتسبها أحياناً، أمّا ذات اللَّه وهو الكمال المطلق فأى صفة يمكن تصوّرها خارج ذاته المقدّسة؟

۲- لو قلنا بأنّ صفاته مضافة إلى ذاته أو إعتقدنا بأنّ صفاته كالعلم والقدرة منفصلة عنه فإنّ النتيجة هى التركيب (تركيب من الجوهر والعرض بل عوارض متعدّدة) فى حين ثبت مسبقاً أنّه لا سبيل لأى تركيب فى ذاته خارجياً أو عقليّاً.

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المضمون فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة بعبارة جميلة جدّاً فى باب توحيد الصفات: «وكمال الإخلاص له نفى الصفات عنه، لشهادة كلّ صفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصوف أنّه غير الصفة، فمن وصف اللّه سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهله».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۳

۳- التوحيد فى العبادة

تمهيد:

إنَّ التوحيد فى العبادة هو من أكثر فروع التوحيد حساسية ويعنى أن لا نعبد غيره ولا نركع لغيره ولا نسجد إلّاله.

ويمكن القول: إنّ عنوان دعوة الأنبياء عليهم السلام والقاعدة الاولى لشرائعهم هو قضيّة التوحيد فى العبادة، وغالباً ما كانت مواجهاتهم مع المشركين تنشأ من هذه النقطة.

صحيح أنّ (التوحيد فى العبادة) يلازم (توحيد الذات والصفات) حيث تقرّر أنّ واجب الوجود كلّ ما سواه ممكن ومحتاج إليه فلا سبيل إلّاأن تكون العبادة مختّصة به.

إنّه هو الكمال المطلق، ولا يوجد كمال مطلق سواه، والعبادة تعتبر طريقاً للوصول إليه، فلابدّ أن تكون مختّصة به.

والملاحظ أنّ الآيات القرآنية مليئة بالدعوة إلى التوحيد فى العبادة ونحن نذكر هنا أقسامها الحسّاسة بغية الوصول إلى هذا النداء القرآنى المهمّ ونهتمّ بالبقيّة ضمن إشارات بليغة.

بهذا التمهيد نمعن خاشعين فى الآيات القرآنية الآتية:

۱- «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ واجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ».

(النحل/ ۳۶)

۲- «وَمَا أَرسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء/ ۲۵)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۴

۳- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوم اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّن إِلهٍ غَيرُهُ إِنِّى أَخَافُ عَلَيكُم عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ». (الأعراف/ ۵۹)

۴- «... وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشرِكُونَ».

(التوبة/ ۳۱)

۵- «قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّاأَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُم قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنا مِنَ الْمُهتَدِينَ». (الأنعام/ ۵۶)

۶- «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ». (حجر/ ۹۹)

۷- «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ». (بيّنة/ ۵)

۸- «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّستَقِيمٌ». (مريم/ ۳۶)

۹- «يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُونِ». (عنكبوت/ ۵۶)

۱۰- «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِم». (نور/ ۵۵)

۱۱- «وَلَا يَأمُرَكُم أَنْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَربَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُم مُسْلِمُونَ». (آل عمران/ ۸۰)

۱۲- «وَللَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ والْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ». (رعد/ ۱۵)

شرح المفردات:

المفهوم الدقيق للعبادة:

«العبادة»: و (العبودية) كلمتان تعنيان إبراز الخضوع، وعلى ما يذهب إليه الراغب فى المفردات، فإنّ للعبادة مفهوماً أعمق وتعنى غاية الخضوع بين يدى من له غاية الإنعام والإكرام وهو اللّه عزّوجلّ.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۵

ويبدو أنّ الأصل فى هذا اللفظ مشتقّ من (عبد) إلّاأنّ (عبد) كما فى (لسان العرب) و (كتاب العين) يطلق على كلّ إنسان عبداً كان أم حرّاً (لأنّ البشر كلّهم عبيد اللّه) ويطلق تارةً على العبيد خاصّة.

ويضيف الراغب: العبد أربعة أضرب:

۱- عبدٌ بحكم الشرع وهو الإنسان الذى يصحّ بيعه وشراؤه.

۲- عبدٌ بمعنى مخلوق.

۳- عبدٌ بالعبادة والخدمة، والناس فى هذا ضربان: عباد اللّه وعباد الدنيا (وعباد الرحمن) و (عبيد الدنيا).

وفى مجمع البحرين إنّ هذه الكلمة تستعمل تارةً بمعنى (الحزب والفئة) والآية:

«فَادْخُلِي فِي عِبَادِي». (الفجر/ ۲۹)

فيها إشارة إلى ذلك.

وهذه النقطة جديرة بالإهتمام وهى أنّهم قسّموا العبادة إلى نوعين:

العبادة الإختيارية التى أمرت بها الآيات القرآنية، والعبادة غير الإختيارية، كما يقول القرآن الكريم: «وَإِنْ مِّنْ شَيءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ». (الاسراء/ ۴۴)

ويقول الطريحى فى (مجمع البحرين): إنّ الحكماء قسّموا العبادة إلى ثلاثة أقسام وهى:

الأوّل: ما يجب على الأبدان كالصلاة والصيام والسعى فى المواقف الشريفة لمناجاته جلّ ذكره (عبادة جسمانية).

الثانى: ما يجب على النفوس كالإعتقادات الصحيحة من العلم بتوحيد اللّه وما يستحقّه من الثناء والتمجيد والتفكّر فيما أفاضه اللّه سبحانه على العالم من وجوده وحكمته ثمّ الإتّساع فى هذه المعارف (عبادة روحانية).

الثالث: ما يجب عند مشاركات الناس فى المدن وهى فى المعاملات والمزارعات والمناكح وتأدية الأمانات ونصح بعض لبعض بضروب المعاونات وجهاد الأعداء وحماية الحوزة «۱» (عبادة اجتماعية).

---

(۱) مجمع البحرين للطريحى، ج ۳، ص ۱۰۸.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۶

«طاغوت»: صيغة مبالغة من (الطغيان) «۱»

، والطغيان كما نعلم هو: تجاوز كلّ حدّ، ولذا تطلق كلمة طاغوت على كلّ موجود متمرّد ومعتدٍ كالشيطان، والسحرة، والجبّارين، والحكّام الظالمين، والتيارات التى تنتهى بغير الحقّ.

وتأتى هذه الكلمة بمعنى المفرد والجمع.

وذكر (الطبرسى) فى (مجمع البيان) فى تفسير آية الكرسى خمسة معانٍ للطاغوت هى:

الشيطان، الكاهن، الساحر، الإنس والجنّ المتمرّدون والأصنام (ومن الواضح أنّ هذه الأقوال ترجع كلّها إلى معنى جامع واحد اشير إليه).

جمع الآيات وتفسيرها

هو المعبود وحده:

إنَّ آية البحث الاولى تعتبر الدعوة إلى التوحيد هى المنهج الأساسى لرسل اللَّه أجمعين حيث تقول: «ولَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ امَّةٍ رَّسُولًا انِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

وهذه الكلمات تُطرح فى مواجهة الذين تنقل عنهم (هذه الآية) تبريراتهم فى عبادة الأصنام: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِن شَىءٍ ...». (النحل/ ۳۵)

والقرآن يقول فى ردّهم: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ امَةٍ رَسُولًا انِ اعبُدُوا اللَّهَ واجتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» فقد دعا الأنبياء عليهم السلام جميعاً إلى التوحيد فى العبادة وعارضوا عبادة أى موجود غير اللَّه، فما هذه الفرية التى تنسبونها إلى اللَّه؟!

وتضيف: إنّ الناس انقسموا إلى طائفتين تجاه دعوة الأنبياء عليهم السلام، طائفة استعدّت للهداية وكانت تطلبها فهداها اللَّه، «فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ»، وطائفة خالفت: «ومِنْهُمْ مَّن حَقَّتْ عَلَيهِ الضَّلَالَةُ»، ثمّ تأمر الآية: «فَسِيرُوا فِى الأَرضِ فَانْظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ»، أجل، إنّهم وبسبب انحرافهم عن جادّة التوحيد وبسبب الطغاة وقعوا فى وحل الفساد والشقاء، فنزل عليهم العذاب الإلهى.

---

(۱) قال البعض: إنّ الأصل هو «طغووت» ثمّ جاء لام الفعل بدلًا عن عين الفعل وانقلبت الواو المفتوحة قبلها إلىالف وصارت (طاغوت).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۷

والملاحظ أنّ الآية تنسب الهداية إلى اللَّه عزّوجلّ، فلولا التوفيق والإمداد الإلهى لما كان لأحد أن يبلغ الهدف بقدرته، فى حين تنسب الضلالة لهم لأنّها نتيجة أعمالهم.

الآية الثانية توافق الآية الاولى بعبارة اخرى وتقول كقضيّة عامّة وخالدة: «وَمَا ارسَلنَا مِنْ قَبلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِى الَيهِ انَّهُ لَااِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

والملفت أنّ (نوحى) فعل مضارع ويدلّ على الاستمرار، أى إنّنا أوحينا التوحيد فى العبادة إلى كلّ نبى وقد أُمِر جميع الأنبياء بإبلاغ ذلك طيلة دعوتهم.

وعليه فإنّ هذه المسألة استمرّت أصلًا أساسياً فى تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

الآية الثالثة تنقل كلاماً عن أوّل نبى من اولى العزم وهو شيخ الأنبياء نوح عليه السلام الذى لم تتضمّن دعوته منذ بدايتها نداء سوى نداء التوحيد فى العبادة ونبذ عبادة الأصنام حيث يقول: «لَقَدْ ارسَلْنَا نُوحاً الَى قَومِهِ فَقَالَ يَاقَومِ اعبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ الهٍ غَيرُه».

ويستفاد من هذه الجملة بأنّ الشرك وعبادة الاصنام كان ولا يزال أسوأ شوكة فى طريق سعادة البشرية، والأنبياء الذين يمثّلون الرعاة لبستان التوحيد كانوا يهتّمون قبل كلّ شىء بزرع وبرعاية زهور الفضيلة فى روح البشر ويقتلعون الأشواك التى تعترض طريقهم بسلاح التوحيد، وخاصّة فى عصر نوح عليه السلام، كما يستفاد من الآية ۲۳ من سورة نوح حيث كانت هناك أصنام عديدة ومتنوّعة بإسم (ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر).

وكانت على هيئة رجل، وامرأة، وأسد، وفرس، ونسر على التوالى، وكانوا يعبدونها بجميع وجودهم، ولمّا رأى نوح منهم العناد والإصرار هدّدهم بعذاب اللَّه، كما نقرأ فى ذيل الآية: «انِّى اخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَومٍ عَظِيمٍ»، أى إنّى أخاف عليكم عاقبة الشرك.

والظاهر أنّ المراد من اليوم العظيم هو يوم الطوفان الذى لم يحدث نظيره فى تأريخ

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۸

العقوبات التى نزلت على الأقوام السابقة، كما احتمل أنّ (يوم عظيم) إشارة إلى يوم القيامة «۱».

وقد جاء فى تفسير الميزان بأنّ هذه الآية قد جمعت أصلين من اصول الدين فى جملة قصيرة هما: (التوحيد والمعاد) كما جاء الأصل الثالث وهو (النبوّة) فى آية، «يَاقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَالَةٌ» «۲».

الآية الرابعة تتحدّث عن اليهود والنصارى الذين انحرفوا عن جادّة التوحيد، فقد اعتبر اليهود أحبارهم (علماء الدين اليهود) واعتبر النصارى رهبانهم والسيّد المسيح معبودات لهم!

ثمّ تقول: «وَمَا امِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحِداً» وتؤكّد:

«لَااله إِلَّا هُو» وللتأكيد تضيف: «سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبهذا فإنّ الدين الذى أقام النبى نوح عليه السلام قواعده واصل طريقهُ فى دعوة موسى عليه السلام والسيّد المسيح عليه السلام بكلّ قوّة وثبات.

صحيح أنّ النصارى كانوا يعبدون السيّد المسيح وما زالوا ولكن اليهود لم يعبدوا الأحبار، والنصارى لم يعبدوا الرهبان، بل لإطاعتهم المطلقة لهم واستسلامهم لتحريفهم وتغييرهم الأحكام الإلهيّة أطلق على ذلك عنوان الشرك، ولذا جاء فى الأحاديث: «أما واللَّه ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالًا فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون» «۳»

وسيأتى تفصيل هذا الموضوع فى بحث (توحيد الطاعة) بإذن اللَّه.

---

(۱) هذان التفسيران قد صرّح بهما فى كلمات المفسّرين السابقين ومنها ما أشار إليها الفخر الرازى فى التفسيرالكبير، ج ۱۴، ص ۱۴۹ فى ذيل آيات البحث.

(۲) تفسير الميزان، ج ۸، ص ۱۸۰.

(۳) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۰۹.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۱۹

لا أعبد غير اللَّه:

فى الآية الخامسة يصل الدور إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث يأمره اللَّه عزّوجلّ: «قُلْ إِنِّى نُهِيتُ انْ اعْبُدَ الَّذِينَ تَدعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

والاستفادة من لفظ (الذين) الذى يستعمل لجمع المذكّر العاقل فى معبوداتهم هو إمّا لتصوّرهم فى عالم وهمهم وخيالهم أنّ الأصنام

ذات روح وعقل وشعور، وأمّا لوجود أشخاص كالمسيح أو الملائكة والجنّ بين هذه المعبودات.

ولتبيان الدليل على هذا المنع والنهى الإلهى تضيف الآية: «قُلْ لَّااتَّبِعُ اهوَاءَكُم قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَا مِنَ المُهتَدِينَ».

ويعنى هذا أنّ جذور الشرك كلّها ترجع إلى عبادة الهوى والظنّ والوهم، ومن المسلّم به أنّ اتباع الهوى يستتبع الضلال ولا ينتهى بالسعادة والهداية أبداً.

الآية السادسة توجّه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله وتأمره بأن يثبت ويواصل عبادة اللَّه الواحد واجتناب كلّ شرك وعبادة للأصنام حيث تقول: «وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ اليَقينُ».

وقد فسّر المفسّرون (اليقين) هنا بمعنى الموت، واعتبروه نظير قول السيّد المسيح عليه السلام:

«واوْصَانِى بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيّاً». (مريم/ ۳۱)

ونقرأ فى موضع آخر من القرآن على لسان أهل النار: «وكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ* حَتّى أَتَانَا اليَقِينُ». (المدثر/ ۴۶- ۴۷)

كما جاء التعبير عن (الموت) ب (اليقين) فى الروايات الإسلامية، ففى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام نقرأ قوله عن الموت:

«لم يخلق اللَّه يقيناً لا شكّ فيه أشبه بشكّ لا يقين فيه من الموت» «۱»

، (لأنّ الناس لا يكترثون به وكأنّهم لا يصدقون أنّهم سيموتون)!

والتعبير عن (الموت) ب (اليقين) إمّا لما اشير إليه فى الحديث المذكور أى هو مسألة يقطع

---

(۱) تحف العقول، ص ۲۷۱.

بها جميع الناس ولا اختلاف بين المذاهب والعقائد المتباينة فى هذه المسألة، وإمّا أنّ الإنسان يتيقّن بالكثير من القضايا التى يتردّد فيها وذلك عند زوال الحجب عنه عند الموت وظهور الحقائق (من الممكن طبعاً الجمع بين هذين المعنيين).

والتعبير ب (يأتيك) أيضاً إشارة لطيفة إلى هذا الموضوع وهو أنّ الموت سيقع على الإنسان شاء أم أبى!

فى الآية السابعة يلاحظ هذا المضمون نفسه مع إضافات اخرى، وفيها إشارة إلى طائفة من أهل الكتاب الذين انحرفوا عن التوحيد وجعلوا للَّهأنداداً فى العبودية حيث تقول: «ومَا امِرُوا إِلَّا لِيَعبُدوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ» «۱».

والملاحظ أنّ الآية تحصر الأوامر الإلهيّة كلّها فى العبادة المخلصة ثمّ فى إقامة الصلاة وأدائها: «ويُقِيمُوا الصَّلَاةَ ويُؤتُوا الزَّكَاةَ»، وهذا يدلّ على أنّ الأصل فى التعاليم الدينية يرجع إلى الإخلاص فى العبودية، والملاحظ أيضاً أنّ الآية تضيف فى ذيلها: «وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ» «۲».

الآية الثامنة تنقل نكتة وردت فى قول السيّد المسيح عليه السلام حيث قال: «وانَّ اللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُم فَاعبُدُوهُ هَذَا صِراطٌ مُّستَقِيمٌ».

ونعلم أنّ الخطّ المستقيم الذى يصل بين نقطتين واحد لا أكثر، فى حين توجد آلاف

---

(۱) يقول الراغب فى المفردات: «حنف» على وزن «كنف» تعنى الميل من الضلال إلى الصراط المستقيم وإنّما يقال للإسلام (الدين الحنيف) لأنّه يمنع المسلمين عن أى إنحراف عن الصراط السوى.

(۲) «قيّمة» مشتقة من القيام بمعنى القائم والثابت والمستقيم وكما يقول الراغب فى المفردات: إنّ معناها هى الامّة التى تقوم بالقسط والعدل كما جاء فى الآية .. «كونوا قوّامين بالقسط».

الخطوط المنحرفة بينهما، فخطّ التوحيد واحد وكلّ ما سواه فهو شرك وعبادة أصنام.

(مستقيم) من (الإستقامة) ومشتقّة فى الأصل من (القيام)، وبما أنّ الإنسان يقف مستوياً فى قيامه فإنّ هذه الكلمة استعملت بمعنى كلّ طريق ومنهج معتدل ومستوٍ وخالٍ من الانحراف.

والملاحظ أنّ القرآن وفى سورة الحمد قد جعل النقطة المقابلة للصراط المستقيم هو طريق المغضوب عليهم و (الضالّين)، والطائفة الاولى هم الضالّون من أهل العناد واللجاجة والذين يصرّون على مسيرتهم ومسيرة غيرهم المنحرفة، والطائفة الثانية هم الضالّون البسطاء.

إن عجزتم عن عبادة اللّه فهاجروا:

نواجه فى الآية التاسعة نقطة جديدة حيث يتوجّه الأمر إلى المؤمنين، وذلك عندما يكون البقاء فى مكان- حتّى أوطانهم الخاصّة- مانعاً من عبادة اللّه ومزعزعاً لتوحيد عبادته فعليهم أن يهجروا ذلك المكان تقول الآية: «يَاعِبادِيَ الَّذينَ آمَنُوا انَّ ارضِي وَاسِعَةٌ فَإيّايَ فَاعبُدُونِ».

أجل، أنّ أرض اللّه واسعة ولا يمكن أبداً الإذعان لذلّ الشرك وأسر الكفر وعبادة الأصنام من أجل امور من قبيل القوم والقبيلة والبيت والوطن الحبيب، بل إنّ واجب كلّ مؤمن موحّد هو أن يهجَر وطنه فى مثل هذه الظروف ويحلّ فى وطن مناسب ويُبقى شمعة التوحيد مضيئة فى روحه، وقد يُوفَّق- كالمهاجرين فى صدر الإسلام- لإعداد القوّة اللازمة ويرجع إلى وطنه ويزيل آثار الشرك وعبادة الأصنام من ربوعه.

والتعبير ب (ياعبادى)، و (أرضى)، و (إيّاى فاعبدون) فى الآية مقرون بالرحمة واللطف الإلهى وإشارة إلى نصره المستمر للموحّدين أينما كانوا وفى كلّ زمان «۱».

والملاحظ أنّ المخاطب فى الآية هم (العباد)، ومع ذلك فالآية تأمرهم بعبادة اللّه الواحد،

---

(۱) لاحظوا أن «إيّاى فاعبدون» بسبب تقدّم المفعول على الفعل تدلّ على الحصر وتبيّن انحصار العبادة فى اللّه.

وفى ذلك إشارة إلى أنّ العباد ينبغى أن يواصلوا مسيرة التوحيد إلى آخر العمر ولا ينحرفوا لحظة واحدة، وهذا نظير تكرار الجملة: «اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ»، لدى المؤمنين، حيث يطلبون فيها استمرار هذه النعمة إلى جانب الهداية، على أيّة حال، فإنّ الآية دليل على وجوب الهجرة من أرض الشرك وعبادة الأصنام إلى دار الإيمان، إلّاأن يُوفَّق الإنسان لتغيير الأوضاع السائدة على تلك الأرض.

آية البحث هى من آيات سورة العنكبوت التى يقول عنها المفسّرون: إنّ الآيات الإحدى عشرة الاولى منها نزلت فى المدينة بصدد الذين كانوا فى مكّة وأظهروا الإسلام ولكنّهم لم يعزموا على الهجرة إلى المدينة، والآية التى بعدها تقول: «كُلُّ نَفسٍ ذَائقَةُ المَوْتِ» وفيها إشارة إلى هذا المعنى وهو أنّ الجميع سيموتون وينفصلون عن الوطن والزوج والمال، فلا تظنّوا أنّكم إن بقيتم فى أجواء ملوّثة بالشرك فإنّكم سوف تبقون إلى جنب أحبّائكم أبداً «۱».

وتستند الآية العاشرة إلى نقطة جديدة اخرى فى هذا المجال، وتعد المؤمنين جميعاً بأنّهم سيكونون مالكين وحكّاماً للأرض كلّها، كما أنّ التوحيد سينتشر فى العالم بأسره وسوف لن يعبد إلّااللّه، وعلى هذا فإنّها تبشّر بتوحيد العبادة الخالصة كبشارة كبرى لكلّ المؤمنين وتقول: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبلِهِم»، وهناك بحث بين المفسّرين فى تحديد ماهيّة هذه الطائفة التى ورثت الأرض وعاشت فى عصور قديمة، والمناسب أن يقال: إنّها إشارة إلى بنى إسرائيل الذين أصبحوا ملوكاً وحكّاماً على مساحة واسعة من الأرض بعد نهضة موسى عليه السلام وانهيار حكومة الفراعنة، وكما

يقول القرآن الكريم فى قوله تعالى: «واورَثْنَا القَومَ الَّذِينَ كَانُوا يُستَضعَفُونَ مَشَارِقَ الارضِ ومَغارِبَها الَّتِى بَارَكنَا فِيهَا» «۲». (الأعراف/ ۱۳۷)

---

(۱) راجع تفسير روح البيان؛ وروح المعانى؛ والقرطبى فى ذيل آية البحث.

(۲) هناك بحث مفصّل آخر فى هذا المجال قد ورد فى تفسير الأمثل، ذيل الآية ۵۵ من سورة النور، تحت عنوان الحكومة العالمية للمستضعفين وكان لها نموذج صغير بعد فتح مكّة والإنتصارات الواسعة بعد النبى صلى الله عليه و آله والنموذج الأتمّ والكامل سيتحقّق عند قيام الإمام المهدى (عج).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۳

وتتضمَّنُ الآية الحادية عشرة إشارة إلى نقطة جديدة فى هذا المجال حيث تؤكّد أنّ الأنبياء العظام والملائكة المقرّبين لا يستحقّون العبادة فضلًا عن الأصنام، فالعبادة مختصّة باللَّه عزّوجلّ وتقول: «وَلَا يَأْمُرَكُمْ انْ تَتَّخِذُوا المَلَائِكَةَ والنَّبِيِّينَ ارْبَاباً» «۱».

ولمزيد من التأكيد تضيف الآية: «أَيَأمُرُكُم بِالكُفْرِ بَعدَ اذْ أَنتُم مُّسلِمُونَ».

«أرباب»: جمع (ربّ) ويعنى فى الأصل المالك المصلح، أى المالك الذى يسعى فى تدبير ملكه وتربيته وإصلاحه، ولذا فإنّ (ربّ الدار) و (ربّ الإبل) جاء بمعنى المالك والمدبّر للبيت أو الإبل، وقد ندر استعمال كلمة «ربّ» فى القرآن الكريم فى غير اللَّه، منها الآية ۴۲ و ۵۰ من سورة يوسف حيث استعملت كلمة (ربّ) فى نعت ملك مصر، ويستفاد من عبارات هذه السورة بأنّ هذه الكلمة كانت كثيرة الاستعمال كسمةٍ للشخصيات المصرية الكبيرة.

وفى المقابل استعملت هذه الكلمة التى وردت مئات المرّات فى القرآن الكريم- فى كلّ المواطن تقريباً- كصفةٍ للَّه‌عزّوجلّ، لأنّه هو المالك الأصلى- فى الواقع- والمدبّر والمربّى لموجودات الكون كلّه، المهمّ أنّ الكثير من الأقوام كانوا يعتقدون بآلهة صغيرة ويطلقون عليها (ربّ) أو (ربّ النوع) ويطلقون على اللَّه (ربّ الأرباب) وكانت هذه العقيدة لدى بعض الأقوام تجاه الملائكة أو بعض الأنبياء، وآية البحث تنفى بصراحة هذه العقائد الباطلة وتعرّف اللَّه وحده ربّاً وليس ربّ الأرباب، لأنّها تعتبر انتخاب أى ربّ سواه كفراً والإسلام على طرف نقيض معه.

---

(۱) لاحظ أن «يأمر» منصوب لأنّه معطوف على (أن يؤتيه اللَّه).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۴

آية البحث الثانية عشرة والأخيرة تشير إلى الكلام الأخير فى هذا البحث وهو أنّ التوحيد فى العبادة لا يختصّ بالبشر بل: «وَلِلَّهِ يَسجُدُ مَنْ فِى السَّماوَاتِ وَالارضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُم بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ».

«مَنْ»: وان كانت إشارة إلى العقلاء عادةً ولذا يعتقد جمع من المفسّرين بأنّ آية البحث تقصد بنى الإنسان والملائكة وأمثالهم، إلّاأنّ فى الآية قرائن تدلّ على أنّ هذه الكلمة تشير إلى الموجودات كلّها وتعمّ العاقل وغير العاقل والنبات والجماد، والمراد من السجدة ما يعمّ السجدة التكوينية (غاية الخضوع والتسليم فى الموجودات تجاه قانون الخلق) والسجدة التشريعية (السجود والعبادة الإعتيادية) لأنّ:

أوّلًا: التعبير ب (طوعاً وكرهاً) دليل على عمومية الآية.

ثانياً: إشتراك (ظلال) فى هذه السجدة والعبادة العامّة دليل آخر على هذا المعنى.

ثالثاً: ورد هذا المعنى بجلاء فى آيات قرآنية اخرى: «وَلِلَّهِ يَسجُدُ مَا فِى السّماوَاتِ وَمَا فِى الارضِ». (النحل/ ۴۹)

وهكذا فى الآية: «وَالنَّجمُ والشَّجَرُ يَسجُدَانِ». (الرحمن/ ۶)

وعلى هذا فإنّ موجودات الكون كلّها وبدون استثناء لها سجود تكوينى وتسليم للأوامر الإلهيّة، ومن بينها المؤمنون حيث لهم- مضافاً

إلى السجود التكوينى الذى لا يتّصف بالإختيار- سجود اختيارى تشريعى أيضاً.

وتعميم هذا الحكم إلى (ظلال) تعبير كبير المعنى، لأنّ الظلال تتّصف بالعدم فى الواقع (لأنّ الظلّ هو المكان الذى لا يسقط الضوء عليه) ولكن بما أنّ الظلال تابعة للأجسام فى وجود النور فإنّ لها قسطاً ضعيفاً من الوجود، ويقول القرآن: إنّ هذه الأعدام الشبيهة بالوجود تسجد للَّهأيضاً فكيف بالموجودات الحقيقية؟ وهذا يشابه العبارة التى نقولها وهى أنّ عداوته لفلان بلغت إلى حدّ أنّه يرمى ظلّه بالسهم.

ثمّ إنّ الظلال تسقط عادة على الأرض والتعبير بالسجود أليق بها.

وما تقوله الآية: «بالغُدُوِّ وَالْآصَالِ» فانّه من الممكن أن يكون وصفاً خاصّاً للظلال،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۵

واختيار هذين الزمنين هو لأنّ كلّ شىء فى هذين الوقتين يكون ذا ظلّ، ظلّ طويل وممتدّ على العكس من منتصف النهار إذ يكون له ظلّ أو له ظلّ قصير.

ويحتمل أيضاً أن يكون هذان الوصفان لكلّ الموجودات فى السماء والأرض والمراد هو الإشارة إلى استمرار هذا السجود، كما نقول فى عباراتنا اليومية: يجب أن نلقى فلاناً صباحاً ومساءً، أى، دائماً وباستمرار «۱».

أخيراً وبمراجعة عامّة لما تقدم نصل إلى أنّ مسألة (التوحيد فى العبادة) لها من الأهمّية ما جعلها فى صدارة دعوة الأنبياء والرسل عليهم السلام، ومن أهمّ الفقرات فى تعليماتهم، وقد أقام جميع الأنبياء اولى العزم دعوتهم عليها، وكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله طيلة عمره الشريف يدعو للتوحيد بعبارات مختلفة، وصراط الهداية المستقيم يمرّ عبر هذا الطريق، ولتحقيق هذا المنهج الإسلامى المهمّ ينبغى- عند الحاجة- ترك الأوطان وهجر أجواء الشرك وعبادة الأصنام.

ومن الخصائص المهمّة لذلك اليوم الذى تهيمن فيه حكومة العدل الإلهى فى العالم بأسره هو ظهور عقيدة التوحيد فى العبادة هذه والتى تسود العالم كلّه، وليس البشر فقط بل وكلّ الموجودات فى الأرض والسماء تسجد للَّهوفى كلّ الأحوال، وإذا لم تسجد باختيارها فانّها تسجد من حيث تكوينها وبلسان حالها وتسبّح له.

توضيحات

۱- شجرة توحيد العبادة المثمرة

لابدّ من ملاحظة هذه النقطة قبل كلّ شىء وهى: أنّ الإحترام والتواضع والخضوع

---

(۱) على الصورة الاولى يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل أو الوصف المقدّر (وفيه امتياز أنّه يعود للأقرب) وفى الصورة الثانية يكون الجار والمجرور متعلّقاً بالفعل يسجد وفيه امتياز أنّه مذكور.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۶

والثناء صفاتٌ لها مراتب ودرجات آخرها وذروتها العبادة والعبودية.

ومن البديهى أن يخضع الإنسان لأوامر من يحترمه إلى هذه الدرجة وينقاد له بكلّ وجوده انقياداً تامّاً ويهوى إلى الأرض ويسجد له.

هل من الممكن أن ينفصل الخضوع الذى يصل حدّ العبودية والثناء والإحترام اللامحدود عن الطاعة والتسليم للأمر؟

ومن هنا نقول: إنّ الإنسان إذا استوعب روح العبادة الخالصة فإنّه يكون قد خطا خطوة كبيرة فى طريق الطاعة لأمر اللَّه والعمل

بالصالحات والإبتعاد عن السيّئات، ومثل هذه العبادة- خاصّة إذا كانت دائمة ومستمرّة- تكون رمزاً لتربية الإنسان وتكامله.

مثل هذه العبادة الخالصة المقرونة بعشق المحبوب، الذى يشكّل عاملًا مهمّاً للحركة إليه، وكما أنّ التحرّك نحو ذلك الكمال المطلق عامل على ترك القبائح والدنيّات والتلوّث بالمعاصى.

ولهذا حازت مسألة العبادة الخالصة على هذه الدرجة من الأهمّية إلى الحدّ الذى يقول القرآن فيها: «إِنَّ الَّذينَ يَستَكبِرُونَ عَنْ عِبادَتِى سَيَدخُلُون جَهَنَّمَ دَاخِرينَ». (المؤمن/ ۶۰)

إنَّ العابد بدافع من خضوعه اللامحدود بين يدى اللَّه يسعى إلى نَيْلِ رضاه والتقرّب إليه ولأنّه يعلم أنّ تحصيل رضاه يتمّ عن طريق طاعة أمره فإنّه يسعى فى هذا الطريق ويتقبّل أوامره بطيب نفس تامّ.

العابد الحقيقى يسعى للتشبّه وتقليد صفات معبوده ومعشوقه الحقيقى ويعكس فى هذا الطريق قبساً من صفات جماله وجلاله فى نفسه، ولا ينكر ما لهذه الامور من تأثيرات على تكامل الإنسان وتربيته.

۲- روح العبادة والإحتراز من الإفراط والتفريط

هناك إفراط وتفريط عجيبان فى معنى العبادة كما هو الحال فى الكثير من القضايا الاخرى حتّى أنّ بعضاً أفرط إلى حدّ جوّز فيه السجود لغير اللَّه (مع عدم الاعتقاد بمالكية

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۷

وربوبية المسجود له)، وذكر سجود الملائكة لآدم وسجود اخوة يوسف بين يديه كشاهدين على ذلك.

وفى المقابل اعتبر بعض آخر أنَّ الاستغاثة والتوسل بالنبى صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام وطلب الشفاعة وأداء الاحترام لهم، شركاً، واعتقدوا بأنّ فاعله مشرك.

وفى الحقيقة أنّه لا يمكن التوفيق بين هاتين العقيدتين.

وللإيضاح نقول: إنّ حقيقة العبادة كما نقلنا عن اللغويين فى بداية البحث فى شرح المفردات هى: الخضوع المطلق وغاية التواضع والتذلّل أمام المعبود، وهذا العمل مختصّ باللَّه من وجهة نظر إسلامية ويكون شركاً فى العبادة إن كان موجّهاً إلى معبود آخر.

وبعبارة اخرى إنّ للخضوع والتواضع درجات، درجة منها تحدث أمام الأصدقاء ويقابلها التكبر عليهم، ودرجة اخرى تكون أمام أفراد محترمين كالوالدين كما يقول القرآن:

«واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ». (الاسراء/ ۲۴)

والدرجة الأكمل تكون أمام الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام حتّى أنّ المسلمين لم يحقّ لهم رفع أصواتهم فوق صوت النبى صلى الله عليه و آله بدليل قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتَرفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِىِّ وَلَا تَجهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهرِ بَعضِكُم لِبَعضٍ». (الحجرات/ ۲)

ولكن آخر مرحلة من الخضوع والتواضع والتذلّل التى نطلق عليها كلمة العبادة والعبودية هو (السجود).

وعليه فإنّ الخضوع المطلق وغاية التذلّل (وإن لم يقترن الإعتقاد بالربوبية والمملوكية) يكون عبادة ومختصّاً باللَّه ولهذا لا يجوز السجود لغيره.

ولصاحب تفسير (المنار) فى تفسير سورة الحمد كلام فى معنى العبادة ملخّصه: أنَّ العبادة ضربٌ من الخضوع بالغٌ حدَّ النهاية، ناشىء عن استشعار القلب عظمة المعبود لا يعرف منشأها، واعتقاده بسلطة له لا يدرك كنهها وماهيّتها، وقصارى ما يعرفه منها أنّها محيطة به ولكنّها فوق إدراكه، فمن ينتهى إلى أقصى الذلّ لملك من الملوك لا يقال أنّه عبده وإن قبّل موطىء أقدامه، ما دام سبب الذلّ

والخضوع معروفاً وهو الخوف من ظلمه المعهود،

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۸

أو رجاء كرمه المحدود، اللّهم إلّابالنسبة إلى الذين يعتقدون أنّ الملك قوّة غيبية سماوية افيضت على الملوك من الملأ الأعلى، واختارتهم للإستعلاء على سائر أهل الدنيا، لأنّهم أطيب الناس عنصراً وأكرمهم جوهراً، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم هذا الإعتقاد إلى الكفر والإلحاد فاتّخذوا الملوك آلهة وأرباباً وعبدوهم عبادة حقيقية «۱».

وللمفسّر الكبير العلّامة الطباطبائى رحمه الله كلام قريب منه فى تفسير سورة الحمد فى تفسير (الميزان) حيث يقول: «الربّ مقصور فى المالكية والعبد مقصور فى العبودية».

قد عرفت من سورة الفاتحة أنّ العبادة هى نصب العبد نفسه فى مقام العبودية وإتيان ما يثبت ويستثبت به ذلك، فالفعل العبادى يجب أن يكون فيه صلاحية إظهار مولوية المولى، أو عبودية العبد كالسجود والركوع والقيام أمامه حينما يقعد والمشى خلفه حينما يمشى وغير ذلك، وكلّما زادت الصلاحية ازدادت العبادة تعيّناً للعبودية وأوضح الأفعال فى الدلالة على عزّ المولوية وذلّ العبودية، السجدة ... لكن الذوق الدينى المتّخذ من الإستيناس بظواهره يقضى باختصاص هذا الفعل به تعالى، والمنع عن استعماله فى غير هذا المورد «۲».

وبناءً على ذلك يستفاد من التدبّر فى موارد استعمال كلمة العبادة فى القرآن والسنّة والاستعمالات اليومية وشهادة اللغويين أنّ المفهوم اللغوى لهذه الكلمة هو نهاية الخضوع لا الإعتقاد بربوبية المعبود ومالكيته، ولذا إذا سجد شخص للشمس أو القمر أو النار بسبب بركاتها، أطلق على فعله هذا عبادة الشمس والقمر والنار، وهكذا إذا سجد إنسان لتماثيل الأسلاف أوالملوك والسلاطين وأعلى منه إذا للأئمّة عليهم السلام لمقامهم الرفيع فإنّ تلك العبادة غير جائزة.

ولهذا ينهى القرآن الكريم بصراحة فى آية السجدة بقوله تعالى: «لَاتَسجُدُوا لِلشَّمسِ وَلَا لِلْقَمَرِ». (فصلت/ ۳۷)

---

(۱) تفسير المنار، ج ۱، ص ۵۶ و ۵۷.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱، ص ۲۲ و ۱۲۴.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۲۹

ولهذا أيضاً تكرّر النهى فىالروايات الإسلامية عن السجود لغير اللّه ومنها:

الروايات السبع التى وردت فى (وسائل الشيعة) فى أبواب السجود الباب ۲۷ حيث نقرأ فى إحدى الروايات أنّ النبى صلى الله عليه و آله خاطب مشركى العرب: «اخبرونى عنكم إذا عبدتم صور من كان يعبد اللّه فسجدتم له أو صلّيتم ووضعتم الوجوه الكريمة على التراب بالسجود بها فما الذى بَقَّيْتُم لربّ العالمين؟ أما علمتم أنّ من حقّ من يلزم تعظيمه وعبادته أن لا يساوى عبيده؟» «۱».

وهناك روايات عديدة تتضمّن الإجابة على السؤال حول كيفية سجود يعقوب وأبنائه بين يدى يوسف، أو كيفية جواز سجود الملائكة لآدم.

۱- عن أبى الحسن الرضا عليه السلام: «أمّا سجود يعقوب وولده فإنّه لم يكن ليوسف إنّما كان ذلك منهم طاعةً للّهوتحيّةً ليوسف، كما كان السجود من الملائكة لآدم، ولم يكن لآدم إنّما كان ذلك منهم طاعةً للّهوتحيّةً لآدم فسجد يعقوب وولده ويوسف معهم شكراً للّهلاجتماع شملهم ألا ترى إنّه يقول فى شكره فى ذلك الوقت: «ربِّ قَد آتَيتنى من المُلك» الآية.

۲- عن الإمام العسكرى عليه السلام قال: «لم يكن له سجودهم- يعنى الملائكة لآدم إنّما كان آدم قبلة لهم يسجدون نحوه للّهعزّوجلّ، وكان بذلك معظّماً مبجّلًا له، ولا ينبغى لأحد أن يسجد لأحد من دون اللّه يخضع له كخضوعه للّهويعظّمه بالسجود له كتعظيمه للّه، ولو أمرت أحداً أن يسجد هكذا لغير اللّه لأمرت ضعفاء شيعتنا وسائر المكلّفين من متّبعينا أن يسجدوا لمن توسّط فى

علوم على عليه السلام وحى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ومحض وداد خير خلق اللَّه على عليه السلام بعد محمّد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ...» الحديث.

والنتيجة من هذه الروايات واحدة تقريباً وهى نفى السجود لغير اللَّه، وقد نقل العلّامة المجلسى فى (بحار الأنوار) روايات عديدة فى هذا الباب «۲».

وقد ورد فى القصّة المعروفة حول هجرة المسلمين إلى الحبشة، إنّهم حينما دخلوا على

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۶، ص ۳۸۶، ح ۳.

(۲) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۱۳۸ و ۱۳۹، ح ۲، ۳، ۴، ۶.

النجاشى أمرهم الرهبان المسيحيون بأن يسجدوا للملك، فقال لهم جعفر بن أبى طالب: لا نسجدُ إلّاللَّه «۱».

إنَّ هذه الروايات تؤكّد عدم جواز السجود لغير اللَّه وتفسّر حقيقة العبادة.

۳- توحيد الوهّابيين المشوب بالشرک

«الوهّابيون»: جماعة لا- تزال تحكم الحجاز وهم أتباع (محمّد بن عبدالوهّاب) الذى استمدّ أفكاره من (ابن تيمية، أحمد بن عبد الحميد الدمشقى) المتوفّى عام ۷۲۸ ه.

استطاع محمّد بن عبدالوهاب خلال السنوات ما بين عام ۱۱۶۰ إلى ۱۲۰۶ ه التى مات فيها وبتعاون مع الحكّام المحلّيين وإثارة نيران العصبية القاسية بين القبائل التى تجوب صحارى الجزيرة أن يدمّر معارضيه ويستلم زمام الحكم بصورة مباشرة وغير مباشرة وقد أريقت دماء كثير من المسلمين فى الجزيرة وغيرها.

وبعد موته هاجم أتباعه العراق عن طرق صحراء الجزيرة ودخلوا كربلاء واستغلّوا عطلة عيد الغدير وسفر الكثير من أهاليها إلى النجف فاقتحموا سور المدينة ونفذوا إلى داخلها وشرعوا بهدم صحن الإمام الحسين عليه السلام والأماكن المقدّسة الاخرى ونهبوا الأبواب الثمينة والهدايا النفيسة من المرقد الحسينى وأموال الناس!

لقد قام اولئك بهدم قبور عظماء الإسلام فى الحجاز عام ۱۳۴۴ ه بحيث استوت مع الأرض باستثناء قبر النبى صلى الله عليه و آله خوفاً من سخط المسلمين!

ويمتاز الوهّابيون بالتعصّب والقسوة والفظاظة وعدم الرحمة والتحجّر والسطحيّة ويعتقدون بأنّهم المدافعون عن التوحيد الخالص فى هذا المجال، وينكرون الشفاعة وزيارة القبور والتوسّل بالقادة العظام ويصبّون جلّ اهتماماتهم تقريباً فى هذا السبيل، وقد رفض

---

(۱) بحارالانوار، ج ۱۸، ص ۴۲۰، ح ۸ (نقلًا عن خرائج الراوندى).

المسلمون قاطبة (سنّة وشيعة) أفكار هذه المجموعة بل وكفّرهم بعض العلماء «۱».

ولم يختص البحث هنا عن هذه المجموعة وعقائدها وقبائحها وسيكون لنا كلام مختصر هنا بمقدار ما يرتبط ببحث عقائدهم فى التوحيد فى العبادة.

إنّهم يقولون: لا يحقّ لأحد أن يطلب الشفاعة من النبى صلى الله عليه و آله لأنّ اللَّه تعالى يقول:

«لا تَدعُوا مَع اللَّهِ احَداً».

ويقول مؤلّف كتاب (الهديـة السنّيـة) وهو من الوهّـابيين: من جعل الملائكـة والأنبياء وسائط بينه وبين اللَّه لما لهم من قرب إلهى فهو كافر ومشرك ويباح دمه وماله وإن نطق بالشهادتين وصلّى وصام! «۲»

وله منطق مشابه فى التوسّل وزيارة قبور الأنبياء والأئمّة والصالحين.

إنَّ الخطأ الكبير الـذى يرتكبه الوهّابيون القشـريون هو أنّهم تصوّروا أنّ موجودات هذا العالم لها تأثير مسـتقل ولذا اعتقدوا أنّها تزاحم توحيد الأفعال والتوحيد العبادى للَّهفى حين أنّ هذا المعتقد هو نوع من الشرك!

وللإيضـاح نقول: الموحّـد الكامـل يرى أنّ الوجود المسـتقلّ القائم بـذاته فى الكون واحـد فقط وهو اللَّه عزّوجلّ، وسائر عالم الوجود ممكن ومرتبـط بوجوده، فكلّه انعكـاس لشـمس وجوده وليس له اسـتقلالية من نفسه فكمـا كـان محتاجـاً فى حـدوثه فـإنّه محتاج إليه ومتعلّق به فى بقائه أيضاً، فكلّ ما يملكه الموجود فإنّه منه، وتأثير الأسـباب منه فهو مسبّب الأسـباب، وهذا هو معنى جملة (لا مؤثّر فى الوجود إلّااللَّه)، لا أن نسقط الأسباب من سببيتها أو نعتقد أنّها مستقلّة فكلاهما خطأ وغير صحيح وبعيد عن حقيقة التوحيد.

بناءً على ذلك إذا كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مالكاً للشفاعة فإنّ ذلك بإذنه كما يقول القرآن:

---

(۱) كتب أحـد العلماء السنّة وهو (إحسان عبداللطيف البكرى) رسالة بإسم (الوهّابية فى نظر علماء المسـلمين) أوضح فيها آراء علماء الإسـلام العظام حول الوهّابية ومحمّد بن عبدالوهّاب ودوّن الوثائق كلّها بدقّة فى آخر الكتاب وقائمة بعناوين الكتب التى تردّهم حيث تبلغ ۵۰ كتاباً لمحقّقى البلدان الإسلامية المختلفة، وهذا الكتاب دليل واضح على تنفّر المسلمين عموماً من هذه المجموعة المنحرفة.

(۲) الهدية السنّية، ص ۶۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۳۲

«مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعدِ اذْنِهِ». (يونس/ ۳)

وعنـدما يحيى السيّد المسيح عليه السـلام الموتى ويُبرىء الأعمى والمبتلين بالأمـراض المستعصـية فإنّ ذلك بإذن اللَّه أيضاً: «وابرِئُ الْاكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَاحْيِ الْمَوْتى بِإِذنِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۴۹)

وعنـدما يسـتطيع (آصف بن برخيا) وهو وزير سـليمان ومَن وصـفه القرآن ب: «الَّذِى عِنْدَهُ عِلمٌ مِنَ الْكِتَابِ» أن يأتى بعرش بلقيس فى طرفة عين- كما يصرّح به القرآن- من بلاد سبأ إلى سليمان فى الشام فإنّه كما قال: «مِن فَضلِ رَبِّى». (النمل/ ۴۰)

ولكـن الوهّـابيين الغربـاء عن القرآن وقعوا فى خلـط كـبير وتصـوّروا أنّ هـذه الأعمـال الـتى تصـدر عن هؤلاء العظمـاء تصـدر منهم بالإستقلال، ولذا قاموا من أجل حلّ المشكل بإنكار بعض الضرورات فى الدين مثل مسألة الشفاعة.

وعليه فـإنّ هؤلاء ومن أجـل تثبيت قواعـد التوحيـد كمـا يزعمون سـقطوا فى وادى الشـرك ووادى إنكار ضـرورات الـدين والقرآن، وللشهيد المطهّرى رحمه الله كلام جميل فى هذا المجال ننقل خلاصته حيث قال تحت عنوان (حدود التوحيد والشرك):

۱- الإعتقاد بموجود غير اللَّه سـبحانه ليس شـركاً ذاتياً كما يعتقد أنصار الوحدة النوعية للوجود، لأنّ هذه الموجودات مخلوقة ومرتبطة به لا أنّها نظيرة له.

۲- لا يعتبر الإعتقاد بتأثير المخلوقات شـركاً فى الخالقية (كما يعتقد الأشاعرة والجبريون) لأنّ المخلوقات كما أنّها ليست مسـتقلّة ذاتياً فإنّها غير مستقلّة فى تأثيراتها أيضاً، بل أنّها تابعة له.

۳- لو اعتقـدنا بالتـأثّر المسـتقلّ للمخلوقـات وقلنا أنّ عالم الخلق أمام اللَّه كالماكنـة والساعـة التى يصـنعها الصانع فهى بحاجـة إليه فى حـدوثها ولا- تحتـاجه بعـد صـناعتها لأنّهـا تعمـل حتّى لو ارتحل صانعها من الـدنيا، فهـذا هو الإعتقاد بالتفويض وهو لون من الشـرك (إعتقاد المعتزلة).

۴- الإعتقاد بقدرة الموجودات التى تفوق الطبيعة وتأثيراتها فى العالم بإذن اللّه وأمره

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۳۳

ليس شركاً كما يظنّ الوهّابيون، بل إنّ اعتقادهم يمثّل أسوء ألوان الشرك، لأنّنا لو اعتبرنا ذلك شركاً لكان الإعتقاد بأصل وجود الموجودات شركاً أيضاً.

وهكذا فإنّ الإعتقاد بقدرة الإنسان وتأثيره بعد رحيله من الدنيا لا يعدّ شركاً، لأنّ الإنسان لا يكون جماداً بعد موته.

ثمّ إنّ اعتقاد الوهّابيين يتّسم باللاإنسانية حيث ينزلون الإنسان منزلة الحيوان الطبيعى وهو الذى اعتبره اللّه خليفة له وأعلى منزلة من الملائكة الذين سجدوا له.

وهنا نصل إلى حقيقة الحديث الشهير الوارد عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله ويقول فيه ما نصّه: «إنّ الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء، فى ليلة ظلماء» «۱».

والطريف أنّ الردّ على الوهّابيين موجود فى الآية التى يستدلّون بها على إنكار الشفاعة و (التوسّل)، لأنّ القرآن الكريم يقول: «فَلَا تَدعُوا مَعَ اللَّهِ احَداً». (الجن/ ۱۸)

ويعنى المثيل الذى يكون فى عرضه وعلى هيئة الموجود المستقلّ كذاته المقدّسة، ولكن إذا كان تأثيره بإذنه وأمره لا فى عرضه فإنّ ذلك ليس شركاً فحسب بل فيه تأكيد جديد على أصل التوحيد الذى ينتهى كلّ شىء إليه.

وهذا يشابه ما طلبه اخوة يوسف من أبيهم يعقوب وكان نبيّاً عظيماً وقد تقبّل ذلك منهم حيث قالوا: «يَاأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا». (يوسف/ ۹۷)

فاستجاب لهم وقال: «سَوفَ أَسْتَغفِرُ لَكُم رَبِّى». (يوسف/ ۹۸)

هذه هى حقيقة التوحيد فى العبادة، وتوحيد الأفعال التى ستتمّ الإشارة إليها وليس كما يظنّه الوهّابيون المتحجّرون.

---

(۱) مقدمة فى الرؤية الكونية للشهيد المطهرى، ص ۱۱۳ (مع الإختصار).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۳۵

۴- توحيد الأفعال

أ) توحيد الخالقية

تمهيد:

إنَّ مفهوم (توحيد الأفعال) فى تفسير مبسط وواضح يعنى أنّ الكون بأسره هو فعل اللّه، وكلّ الأفعال، والحركات، والتأثيرات، والتأثّرات تنتهى إلى ذاته المقدّسة، وفى الحقيقة (لا مؤثّر فى الوجود إلّااللّه)، فالسيف حينما يقطع والنار حينما تحرق والماء حينما يروى الناس والنباتات كل ذلك بإرادته وأمره، وباختصار فإنّ أثر كلّ موجود يكون مصدره اللّه سبحانه.

وبعبارة اخرى: إنّ الموجودات كما أنّها تابعة فى أصل وجودها إلى ذاته فإنّها كذلك فى تأثيرها وفعلها.

ولكن هذا المعنى لا ينفى عالم الأسباب وحاكمية قانون العلّية، وطبقاً للحديث المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام «أبى اللّه أن يُجرى الأشياءَ إلّابأسبابٍ» «۱».

كما أنّ الإعتقاد بتوحيد الأفعال لا يستوجب الإعتقاد بأصل الجبر وسلب الحريّة من إرادة الإنسان، كما ستتمّ الإشارة إلى ذلك لاحقاً بإذن اللّه.

بهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم ونبحث عن فروع توحيد الأفعال ونذهب أوّلًا إلى توحيد الخالقية فنتأمل خاشعين فى‌الآيات الآتية:

١- «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ فَاعْبُدُوهُ وهُوَ عَلى كُلِّ شَىءٍ وَكِيلٌ».

(انعام/ ١٠٢)

---

(١) اصول الكافى، ج ١، ص ١٨٣، باب معرفة الإمام، ح ٧.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٣۶

٢- «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ». (رعد/ ١۶)

٣- «هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُم مِّنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ لَااله إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ».

(فاطر/ ٣)

۴- «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». (عنكبوت/ ۶١)

۵- «وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعْمَلُونَ». (صافات/ ٩۶)

۶- «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ». (اعراف/ ۵۴)

شرح المفردات:

(خلق) فى الأصل كما يقول الراغب فى المفردات يعنى التقدير المباشر ويستعمل عادةً فى الإيجاد والإبداع لشىء من دون أن يكون له سابق ومثيل، وعلى ما ورد فى (مقاييس اللغة) فإنّ (خلق) لها معنيان أصليان: الأوّل هو التقدير، والثانى هو استواء الشىء، ولذا يطلق على الحجر المستوى (خَلقاء) وعلى الصفات الباطنة (أخلاق) لأنّه يحكى عن نوع من الخلق، وعلى كلّ حال بما أنّ الخلق يعنى التقدير والتنظيم والتسوية فإنّ هذه الكلمة استعملت فى خلق اللَّه الإبداعى.

جمع الآيات وتفسيرها

هو الخالق لكلّ شىء:

تقول آية البحث الاولى بعد تبيان صفات اللَّه الجلالية والجمالية:

«ذلِكُم اللَّهُ ربُّكُم»، لا- الأصنام التافهة ولا المعبودات من الملائكة والجنّ التى هى من المخلوقات والمربوبات، واللَّه عزّوجلّ هو ربّ الجميع «١».

---

(١) جملة «ذلكم اللَّه ربّكم» فيها (ذلكم) وهو إسم إشارة إلى البعيد وفى مثل هذه الموارد يكون كناية عن العظمة غير الإعتيادية لمقامه الخارج عن حدود الأفكار.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٣٧

وتضيف: «لَااله إِلَّا هُوَ».

لأنّ اللائق للعبادة هو الذى يكون (ربّاً) أى مالكاً ومربّياً ومدبّراً لكلّ شىء، وللمزيد من التأكيد وإقامة دليل آخر على إنحصار المعبود فيه تضيف الآية: «خَالِقُ كُلِّ شىءٍ»، ثمّ تستنتج لتقول: «فَاعْبُدُوهُ».

ولقطع كلّ أمل بغير اللَّه وصدّ البشر عن التعلّق بعالم الأسباب وإجتثاث جذور الشرك تقول الآية: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ وَكِيلٌ».

كلمة (شيء) كما يقول اللغويون: تعنى كلّ أمر يمكن أن يناله علم الإنسان «۱»، إلّاأنّها فى آية البحث تعنى كلّ الموجودات ما سوى اللَّه سبحانه.

وعلى أيّة حال فإنّ لهذه الكلمة مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الموجودات المادّية والمجرّدة والذهنية والخارجية والجوهر والعرض، وباختصار: إنّها تشمل كلّ شيء، وهذه الآية دليل واضح على عمومية الخلق الإلهى بالنسبة لكلّ شيء.

وقد وقع هنا نزاع معروف بسبب شمول (شيء) لأعمال الإنسان بين جماعة تقول بالجبر- كالفخر الرازى- حيث يقول: (إنّ أعمالنا داخلة فى كلمة (شيء) أيضاً، فاللَّه إذن هو خالقها)، وهذه الآية دليل على الجبر عندهم، ولكن المؤيّدين لحريّة الإرادة لهم إجابة واضحة ومستدلّة وستأتى فى الإيضاحات.

وقد استدلّت جماعة بهذه الآية على نفى الصفات الزائدة على الذات فى مواجهة الأشاعرة القائلين بأنّ اللَّه ذو صفات منفصلة عن ذاته، فلو كان الأمر كذلك فإنّ كلمة (شيء) تشملها ويجب- حينئذ- أن تكون مخلوقة للَّه، ولا معنى لأن يخلق اللَّه صفاته كالقدرة والعلم و ... ولا ينسجم هذا مع وجوب الوجود أساساً.

فأجاب بعض الأشاعرة بتخصيص عموم الآية بأن نقول: إنّ (خالق كلّ شيء) لا يشمل صفات اللَّه! ولكن الآية تأبى الإستثناء ولم يرد عليها أى تخصيص كما سنبيّن ذلك بإذن اللَّه.

---

(۱) هذه الكلمة مصدر (شاء) وتكون تارةً بمعنى اسم الفاعل وتارةً بمعنى اسم المفعول (فتأمّل جيداً).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۳۸

الآية الثانية تبيّن محتوى الآية السابقة إضافة إلى تأكيدها على وحدانية اللَّه وقهّاريته حيث جاء فيها: «امْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلقُ عَلَيهِم قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ».

«قهّار»: من (قهر) ويعنى فى الأصل الغلبة المقرونة بتحقير الطرف المقابل ولذا، تستعمل فى هذين المعنيين كليهما، ونظراً لاستعمالها هنا بصيغة المبالغة فانّها تعنى غلبة اللَّه والنصر المطلق- دون قيد أو شرط- على كلّ شيء وكلّ فعل حتّى معبوداتهم وأصنامهم غير مستثناة، وعليه كيف تكون شريكاً للَّه؟!

الآية الثالثة تطرح الموضوع بصورة اخرى وهى صورة الإستفهام الإستنكارى حيث تقول: «هَلْ مِن خَالِقٍ غَيرُ اللَّهِ يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ والْأَرضِ»، كلّا، فهو الذى بدأ خلقكم، وبقاؤكم مستند إلى رزقه المتواصل.

فبأمره تشرقُ الشمسُ عليكم من السماء، وينزل المطر لاحياء الأرض ويسخّر الرياح، وهو الذى يتفضّل عليكم بالنباتات والثمار والغذاء والمعادن والثروات الثمينة.

وعليه عندما لا يوجد خالق ورازق سواه فبداية الجميع ونهايتهم إذن بيده: «لَااِلهَ إِلَّا هُوَ فَانَّى تُؤْفَكُونَ».

خالقية اللَّه للكون:

لا ينكر حتّى المشركون أنّ اللَّه هو الخالق للكون، والآية الرابعة تطرح مسألة التوحيد فى إطار آخر وهو أنّ المشركين أنفسهم يُقرّون أنّ الأصنام ليست خالقة للسماء والأرض والشمس والقمر أبداً وتقول: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَ السَّماوَاتِ والْأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ والْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

فقد كان المشركون يعتقدون أنّ الأصنام شريكة للَّهفى العبادة أو لها التأثير على مصير

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۳۹

الإنسان فى الخالقية، فلا يصدق عاقل بأنّ كتلة من الحجر والخشب مصنوعة بيد الإنسان على هيئة الصنم تكون خالقاً للسماء والأرض وحتّى أنّهم لم يعتقدوا أنّ للأنبياء والأولياء هذا المقام أيضاً.

يحتمل أن تكون هذه الآية إشارة إلى نفوذ هذه العقيدة فى أعماق الفطرة الإنسانية، وعلى أيّة حال فإنّ الفصل بين (توحيد الخالقية) و (توحيد العبادة) تناقض صريح، لأنّ الخالق والرازق هو اللائق بالعبودية فهو الذى سخّر الشمس والقمر لينعم بهما الإنسان وجعلهما فى خدمته.

بناءً على ذلك لا تنفصل (الخالقية) عن (الربوبية) ولا (الربوبية) عن (الالوهية)، وبعبارة أوضح: هو الخالق وهو المدبّر للعالم وهو أهل لعبودية العباد.

وقد حاول بعض المفسّرين مثل مؤلف تفسير (فى ظلال القرآن) أن يعتبر التفات مشركى العرب إلى (توحيد الخالقية) ناشىء من تعليمات الأنبياء كالنبى إبراهيم عليه السلام «۱».

إلّا أنّه لا ضرورة لهذا الإصرار، حيث يقرّ كلّ إنسان بهذه الحقيقة عند مراجعته للعقل والوجدان، كما اشير إلى هذا المضمون فى تفسير روح البيان «۲».

إنّ الإستناد إلى مسألة الخلق ثمّ التسخير إشارة إلى مسألتى (الخلق) و (التدبير) حيث يكون الجميع بأمره والمراد من (التسخير) فى هذه الآية- بقرينة آيات التسخير الاخرى الواردة فى القرآن الكريم- هو استخدامها فى سبيل المصالح البشرية.

وعبارة «فَأَنّى يُؤْفَكُونَ» مع ملاحظة اشتقاقه من (افك) بمعنى (إرجاع الشىء عن مسيره الأصلى) يمكن أن يكون إشارة إلى أنّ المسار الصحيح والمنطقى هو أنّهم بعد الإقرار بخالقية اللّه وتدبيره فى عالم الوجود «أن لا يعبدوا سواه»، إلّاأنّهم انحرفوا عن الطريق فتعرّضوا إلى العواصف العاتية للشيطان والنفس التى رمت بهم- كالقشّة- من الطريق المستقيم إلى التيه والضلالة (لاحظ أنّ المؤتفكات تعنى الرياح المضادّة).

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۴۲۸.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۴۸۸.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۰

فى الآية الخامسة استناد خاصّ إلى كون الأصنام مصنوعة باليد حيث تقول: «وَاللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعمَلُونَ» وذلك لما ورد فى الآية السابقة لها عن قول إبراهيم عليه السلام- رمز التوحيد- للمشركين: «اتَعْبُدُونَ مَا تَنحِتُونَ»؟ ويقول فى هذه الآية: «واللَّهُ خَلَقَكُم وَمَا تَعمَلُونَ» فلا تستحقّ أى منها العبادة، بل إنّ أصنامكم موجودات أحطّ منكم لأنّها مصنوعة بأيديكم.

و «ما»: فى جملة (وما تعملون) فى هذه الحالة تكون موصولة.

وقد احتمل بعض أو أصرّوا على أنّ اعتبار (ما) هنا مصدرية فيكون معنى الآية: إنّ اللّه خلقكم وخلق أعمالكم، فى حين لا يتناسب هذا المعنى لأنّه:

أوّلًا: إنّ اللّه يوبّخ الكفّار فى الآية على عبادتهم للأصنام فلو كان اللّه خالقاً لأعمالهم فلماذا التوبيخ؟!

ثانياً: إنّ جملة (ما تعملون) دليل على أنّهم خلقوا أعمالهم، وعليه لا تنسجم مع الخلق الإلهى.

ثالثاً: فى الآية السابقة ورد حديث عن الأصنام التى كانوا يصنعونها بأيديهم فالمناسب أن تكون (ما) هى المراد هنا، وإلّا فإنّ الآيات تفقد ترابطها، ولذا اختار كثير من المفسّرين التفسير الأوّل أمثال الزمخشرى، فى الكشّاف والآلوسى فى روح المعانى، والعلّامة الطباطبائى فى الميزان وغيرهم.

وهنا سؤال يطرح نفسه وهو: كيف يمكن أن تكون الأصنام مصنوعة للّهوالبشر فى الوقت ذاته؟!

يقول الزمخشرى: إنّ موادها مخلوقة للّه‌وصورتها مخلوقة لصانعى الأصنام «۱».

إلّا أنّ الصورة والشكل مخلوقة للّه‌من إحدى الجهات، لأنّ اللّه سبحانه أعطى الإنسان القدرة وخلق فيه هذا العلم والمهارة وإن نهاه عن سوء الاستفادة منها.

وأخيراً نواجه فى الآية السادسة والأخيرة عبارة جديدة فى باب توحيد الخالقية حيث تقول: «اَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمرُ» و «تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ».

---

(۱) تفسير الكشّاف، ج ۴، ص ۵۱.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۱

ولا شكّ فى أنّ الآية دليل على انحصار (الخلق) و (الأمر) فى اللّه عزّوجلّ «۱»، وعليه فإنّ الآية تبيّن (توحيد الخالقية) بوضوح.

ولكن وقع بين المفسّرين كلام حول المراد من (الأمر)، فبعض فسّره بمعنى تدبير العالم والأنظمة والقوانين الجارية وذلك بقرينة الآيات الكثيرةالتى ورد فيها هذا المعنى نظير «فَالْمُدَبِّراتِ أَمراً». (النازعات/ ۵)

والآية: «اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجرِىَ الْفُلكُ فِيهِ بِأَمرِهِ». (الجاثية/ ۱۲)

الآية: «النُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِامرِهِ». (النحل/ ۱۲)

وآيات عديدة اخرى.

أمّا بعضهم الآخر فقد اعتبرها بمعنى الأمر التشريعى والدستور الإلهى المقابل للنهى، فيكون معنى الآية: أنّ الخلق خاصّ باللّه والأمر والدستور التشريعى يصدر عنه أيضاً، مثل:

«فَلْيَحذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَن امرِهِ». (النور/ ۶۳)

وفى تفسير ثالث فُسّر (الأمر) بمعنى الإرادة مثل: «انَّ اللَّهَ بِالِغُ امرِهِ». (الطلاق/ ۳)

وفى تفسير رابع فسّر عالم (الخلق) بعالم المادّة، وعالم (الأمر) بعالم المجرّدات وذلك بقرينة قوله تعالى: «يَسالُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرّوحُ مِن امرِ رَبِّى». (الاسراء/ ۸۵)

والواضح أنّ التفسير الأوّل من بين هذه التفاسير أكثر انسجاماً مع الآيات القرآنية الاخرى ومع آية البحث أيضاً، لأنّ القرآن الكريم يريد أن يذكّر المشركين بهذه الحقيقة، وهى أنّ الخلق وتدبير المخلوقات مختصّ باللّه والشاهد على ذلك قوله: «رَبُّ الْعَالَمِينَ» فى ذيل الآية، وعليه فإنّ الأصنام لا دور لها لا فى الخلق ولا فى التدبير والربوبية، فلماذا تعبد إذن؟!

---

(۱) تقديم (له) على الخلق والأمر دليل على الحصر.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۲

توضيحان

۱- الخطوة الاولى نحو الشرك فى الخالقية

لعلّ المجوس ليسوا أوّل من جعل للّه‌شريكاً فى الخالقية، ولكنّهم أكثر شهرة من غيرهم على الأقل.

إنّهم قسّموا الموجودات إلى مجموعتين: حسنة وسيّئة (خير وشرّ) وافترضوا لكلّ مجموعة إلهاً (يزدان وأهريمن) أو النور والظلمة، ودليلهم هو أنّ مخلوق الإله تكون له سنخية معه، وعليه لا يمكن أن يكون إله الخير وإله الشرّ واحداً، فإله الخير خير، وإله الشرّ شرّ!

لو كانت موجودات العالم مقسّمة على هذا النحو لأمكن أن يكون الاستدلال صحيحاً، لكن الحقيقة هى أنّه لا يوجد فى عالم الوجود إلّاالخير، وما يطلق عليه (الشرّ) أمر عدمى أو أنّه ذو جهة نسبية، فمثلًا نقول: الفقر شرّ، فى حين أنّ الشرّ ليس إلّاالفقدان لمستلزمات الحياة، والفقدان أمر عدمى والعدم ليس شيئاً ليكون له خالق.

أو نقول: إنّ لسعةَ النحل ومخالب الحيوان المفترس شرّ وذلك عندما نجعل أنفسنا محوراً ثمّ نحكم بهذا النحو، فى حين لو نظرنا إلى النحل نجد أنّ الابرة فيه وسيلة للدفاع وطرد المهاجمين، والأنياب والمخالب فى الحيوانات المفترسة وسيلة للصيد والتغذّى ولها جانب حيوى بالنسبة إليها فهى إذن خير، وعليه فإنّ الكثير من الموجودات تتّخذ صورة (شرّيرة) نتيجة لأفكارنا.

وقد يكون جهلنا هو السبب فى اعتبار الأشياء شرّاً وذلك لعدم علمنا بفوائدها، فمثلًا من الممكن أن نعتبر وجود الجراثيم شرّاً لأنّها تسبّب الأمراض ولكن إذا لاحظنا نظرية بعض العلماء فى أنّ الجراثيم المسبّبة للأمراض تدعو خلايا الإنسان إلى معركة دائمة وفيها تكون أكثر نشاطاً ونمواً ورشداً، ولولا الجراثيم لكان معدّل طول الإنسان لا يتجاوز الثمانين سنتمتراً، ولأصبح ذا جسم ضعيف وعاجز، سنذعن عندما ندرك ذلك أنّ إطلاق الشرّ عليها ناشىء من جهلنا، وبخاصّة أنّ الذى خلق الجراثيم قد أوجد طرق معالجتها فى حالة استفحالها أيضاً.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۳

ونعلم كذلك أنّ بعض الأدوية فى عصرنا الراهن تستخرج من سموم الحيوانات ولهذا الغرض يُربّى كثير من الأفاعى والحيوانات السامّة الاخرى، وعلى هذا فإنّ ابرها وسمومها ليست شرّاً مطلقاً، وستأتى تفاصيل أكثر حول هذا الموضوع فى بحث العدل، بإذن اللّه.

۲- خطوة اخرى على طريق الشرك

فى هذا الموضوع انحرفت مجموعتان إسلاميتان هما (الأشاعرة) و (المعتزلة) أى المفوّضة، المجموعة الاولى تتبع «أبا الحسن الأشعرى» المتوفّى عام ۳۲۴ ه وقد أنكرت التأثير والعلّية والمعلول فى عالم الخلق إنكاراً تامّاً وتقول: إذا كانت النار محرقة فانّه مجرّد تصوّر ولا غير! فالمحرق الأصلى هو اللّه، ولكن إرادته حكمت بشكل إذا مسّت النار- مثلًا- يد الإنسان فإنّ اللّه يوجد الإحتراق مباشرة فى يده! وبهذا النحو أنكروا عالم العلّة والمعلول تماماً واعتبروا اللّه تعالى علّة لكلّ شىء مباشرة دون واسطة.

إنّهم أنكروا هذه القضيّة المحسوسة بل والأكثر من المحسوسة «۱» بسبب إيمانهم بأنّ الإعتقاد بوجود عالم الأسباب يخلّ فى توحيد الخالقية.

بسبب هذا الخطأ الكبير تعرّضت مجموعة الأشاعرة إلى انحراف كبير آخر وهو أنّها تعتبر أفعال الإنسان وأعماله مخلوقة للّهأيضاً، وهذا أسوء أنواع الجبر!

وبعبارة اخرى أنّه شىء أعلى من الجبر لأنّ الأشاعرة يقولون: لسنا نحن الفاعلين للأعمال الصالحة والسيّئة بل إنّ الخالق لها كلّها هو اللّه سبحانه، فهى فى الحقيقة أعماله المباشرة لا أعمالنا الجبرية (فتأمّل جيّداً)، وفى النقطة المقابلة يقف المعتزلة الذين لا يعتقدون بوجود تأثير للأسباب والعلل فحسب بل يعتبرونها مستقلّة فى تأثيراتها، فمثلًا أنّ اللّه خلق بعض الأنبياء والأولياء وأوكل إليهم أمر الخلق، كما يعتقدون أنّ الإنسان مستقلّ

---

(۱) ليس لقانون العلّية بعد حسّى فقط بل يمكن التوصّل إليه عن طريق الوجدان والعلم الحضورى، لأنّ كلّ شخص يرى بوضوح أنّ روحه توجد الإرادة والتفكير.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۴

فى أعماله تماماً، وبهذا يعتبرون الإنسان خالقاً صغيراً واللّه عزّوجلّ خالقاً كبيراً!

ولا شكّ فى أنّ المجموعتين على خطأ، وقد وقعا فى لون من الشرك، شرك جلى وصريح، وشرك خفى، فالقائلون ب (التفويض) ابتلوا بشرك جلى لأنّهم اعتقدوا بأنّ الإنسان مستقلّ فى أفعاله أو اعتقدوا بأنّ اللَّه قد أوكل إلى أوليائه خلق السماء والأرض وتنحّى جانباً! وهذا ما يعارض صريح الآيات القرآنية التى تعتبر اللَّه خالقاً لكلّ شىء وربّاً ومدبّراً لجميع الامور، ومن العجيب أنّ الإنسان المسلم المرتبط بالقرآن كيف يتّبع مثل هذه الأبحاث المنحرفة؟!

أمّا الأشاعرة فقد ابتلوا بلون آخر من الانحراف والشرك، لأنّهم أنكروا أوّلًا: أصل العلّية فى عالم الخلق خلافاً للوجدان والحسّ، وثانياً: إذا كان الإعتراف بأصل العلّية شركاً فإنّ الإعتقاد بأصل وجود الإنسان شرك أيضاً، إنّ الإنسان مختار وحرّ فى فعله ولكن يجب أن لا ننسى أنّ قدرته وقوّته كلّها وحتّى حرية إرادته هى من اللَّه تعالى، فهو الذى أودع كلّ هذه القوى فى الإنسان وهو الذى شاء أن يكون الإنسان حرّاً، وعلى هذا فإنّ أعمال الإنسان فى الوقت الذى تستند فيه إلى الإنسان فانّها تكون مستندة إلى اللَّه أيضاً، ولا تخرج عن دائرة خلقه، كالإعتقاد بأصل وجود الإنسان فانّه وجود تابع ومتعلّق بغيره، ولذلك لا يستوجب الشرك.

وبملاحظة المثال الآتى يمكن أن تتّضح الحقيقة: إنّ كثيراً من القطارات تعمل بالطاقة الكهربائية، وهذه الطاقة تجرى فى شبكة على طول الطريق ويرتبط القطار بها عن طريق حلقة، السائق فى مثل هذا القطار حرّ فى عمله ولكن فى الوقت ذاته يكون عمله مرتبطاً بيد شخص آخر وهو الذى يراقب الطاقة الكهربائية على طول السلك، فبإمكانه أن يقطع التيار الكهربائى بإرادته فى أيّة لحظة شاء وذلك بالضغط على زرٍ معين فيتوقّف القطار فى مكانه.

وبإمكانه- إذن- أن يقول إنّى حرّكت القطار بإرادتى، كما يمكن لسائق القطار أن يقول ذلك ويصدق الإثنان، إلّاأنّهما فاعلان طوليان الأوّل فى المرحلة الاولى والعليا والثانى فى المرحلة الثانية والسفلى التابعة، فالفعل ينسب إذن إلى الإثنين ومع ذلك فإنّ سائق القطار

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۵

مسؤول عن عمله وليس بمجبر.

وعليه لا يكون الإعتقاد بحرية إرادة الإنسان شركاً فى الخالقية.

وبعبارة أوضح: مثلما يرتبط أصل وجود الإنسان باللَّه تعالى والإيمان بوجود الإنسان لا يستلزم الشرك فأفعاله كذلك.

والأشاعرة كأنّهم يرون أصل وجود الإنسان مستقلًا فى حين أنّ هذا نوع من الشرك، وإلّا فإنّ الوجود التابع إن لم يتعارض مع التوحيد فإنّ الأفعال التابعة للإنسان لا تكون معارضة للتوحيد أيضاً.

ولا بأس أن يتوضّح هذا البحث بضرب مثال:

جاء إنكار الأشاعرة للعلّية والسببية نتيجة لتوهّم وقوع الشرك، أى إذا اعتبرنا الإحراق من النار فانّهم يقولون: إنّ هذا شرك! فى حين يبقى هذا السؤال: أليس الإعتقاد بوجود أصل النار أمام وجود اللَّه شركاً؟

سيقولون: لا حتماً، لأنّ هذا الوجود تابع لذاته المقدّسة (كالضوء المنبعث من المصباح المتوقّف على ارتباطه بالطاقة الكهربائية ويطفأ عند انقطاعها)، ونذكر هذا الكلام ذاته فى تأثير الأسباب ونقول: إنّها تكون فى النهاية تابعة للَّه‌تعالى، وقدوة الإنسان واختياره تابع له أيضاً، وعليه فإنّ التوحيد يحتفظ بمعناه تماماً فى هذا المجال، فاللَّه خالق كلّ شىء مع ثبوت أصل العلّية والحرية فى إرادة الإنسان.

وستأتى إيضاحات أكثر بهذا الشأن فى بحث الجبر والإختيار، بإذن اللَّه.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۷

ب) توحيد الربوبيّة

تمهيد:

إنَّ توحيد الربوبية يعنى أنّ المدير والمدبّر والمربّى والمنظّم لعالم الوجود هو ذات اللَّه المقدّسة فقط.

وكلمة (ربّ) التى هى من صفات اللَّه عزّوجلّ قد تكرّرت فى القرآن الكريم أكثر من غيرها حتّى بلغت ۹۰۰ مرّة بألفاظ: (ربّ، ربّك، ربّكم، ربّنا، ربّى وأمثالها)، والعديد من الآيت القرآنية تعرّف اللَّه ب (ربّ العالمين) ويدلّل ذلك على أنّ القرآن يولى اهتماماً خاصّاً بتوحيد الربوبية، حيث كان أغلب المشركين يجعلون مع اللَّه تعالى موجودات اخرى تشاركه فى تدبير العالم، وأغلبهم- كما أسلفنا- آمنوا بتوحيد الخالقية ولكنّهم تورّطوا بالشرك فى الربوبية، ولذا يقوم القرآن بدفع هذا الانحراف العقائدى الكبير لدى أقوام مختلفة مكرّراً وباستمرار، والشرك فى الربوبية طبعاً يكون مصدراً لانحرافات خطيرة اخرى سنتعرض لها فى بحوث مقبلة.

بهذا التمهيد نمعن خاشعين فى آيات قرآنية تمثّل نماذج من آيات توحيد الربوبية فى القرآن الكريم:

۱- «الْحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ». (الفاتحة/ ۲)

۲- «قُلْ أَغَيرَ اللَّهِ أَبْغِى رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىءٍ». (الأنعام/ ۱۶۴)

۳- «قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ». (الرعد/ ۱۶)

۴- «فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لَااِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرشِ الْكَرِيمِ». (المؤمنون/ ۱۱۶)

۵- «اللَّهَ رَبَّكُم وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ». (الصافات/ ۱۲۶)

۶- «قُلْ مَنْ يَرزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ والْأَرْضِ أَمَّنْ يَملِكُ السَّمْعَ والْأَبْصَارَ وَمَن يُخرِجُ الْحَىَ

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۸

مِنَ المَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

(يونس/ ۳۱)

شرح المفردات:

«ربّ»: له أصل واحد وفروع وشعب كثيرة وموارد استعمال كثيرة.

والأصل كما يقول الراغب فى المفردات يعنى التربية وسَوْق الشىء إلى الكمال، وفى (مقاييس اللغة) ذكر عدداً من الاصول له هى: المصلح والقائم على الإصلاح الملازم والمقيم على الشىء، الإدغام بين الشيئين ولكن كما ورد فى (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) فإنّ هذه ترجع جميعها إلى أصل واحد وهو عبارة عن سوق الشىء إلى الكمال ورفع النقائص فى أبعاد مختلفة: ماديّة ومعنوية، ذاتية وعرضية، وفى الإعتقاد والصفات والأخلاق.

وبما أنّ أداء هذا العمل يقترن بمفاهيم اخرى نظير: الإصلاح، التدبير، الحكومة، المالكية، الصحبة، السيادة، الإجتماع، التعليم، والتغذية فانّه يطلق على هذه المعانى أيضاً.

من هنا ذكرت له كتب اللغة معانى متعدّدة، فقد جاء فى (لسان العرب) مثلًا: إنّ (ربّ) إضافة إلى إطلاقه على ذات اللَّه المقدّسة فانّه يعنى المالك والسيّد والمدبّر والمربّى والقيّم والمنعم أيضاً، وجوهر الكلام هو أنّ هذه الكلمة تعنى فى الأصل التربية والسوق إلى الكمال ثمّ اطلقت على المعانى الملازمة له «۱».

ولكن كما يستفاد من أقوال اللغويين إذا استعملت هذه الكلمة مطلقة فانّها تستعمل فيما يخصّ اللَّه تعالى فقط لأنّه المالك الحقيقى والمربّى والمصلح لكلّ شىء، وإذا استعملت فى سوى اللَّه تعالى فالواجب هو أن تكون مضافة مثل (ربّ الدار) (ربّ الإبل) و (ربّ الصبى) «۲».

(۱) ينبغى ملاحظة أنّ «ربّ» مشتقّة من «ربب» فى حين أنّ «التربية» مشتقّة من «ربو» ويستفاد من التفاسير التى وردت حول كلمة ربّ فى كتب اللغة أنّ (ربو) و (ربب) لهما تشابه شديد فى المعنى وقد اعتبر الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان ج ۱، ص ۲۲، هاتين الكلمتين بمعنى واحد.

(۲) راجع، لسان العرب؛ مفردات الراغب؛ وقاموس اللغة مادّة (ربّ).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۴۹

إنّ هذه الكلمة عندما تطلق على اللَّه عزّوجلّ يمكن أن تكون فيها إشارة إلى أبعاد الربوبية المختلفة أى المالكية والتدبير والإصلاح والتربية والقيمومة والإنعام.

«تدبير»: من (دبْر) ويعنى المجىء خلف شىء، والتدبير يعنى جعل الشىء ذا عاقبة حسنة ونتيجة مرغوبة، العمل الذى لا يمكن إنجازه إلّابالعلم والوعى وبهذا فإنّ لفظ (مدبّر) يطلق على أشخاص يتدبّرون عواقب الأعمال ويوصلونها إلى نهاياتها المطلوبة ويمتلكون رؤية ثاقبة ووعياً كافياً «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

اللَّه سبحانه وتعالى ربّ العالمين:

إنَّ الآية الاولى التى نردّدها صباحاً ومساءً تقول: «الحَمدُ للَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ» قد تكرّرت فى سور قرآنية عديدة من قبل العباد أو من قبل اللَّه تعالى، وتكون تارة مرتبطة بالدنيا، واخرى بيوم القيامة «۲».

هذه الآية تتضمّن فى الحقيقة استدلالًا لطيفاً على أنّ اللَّه عزّ وجلّ أهل لكلّ حمدٍ وثناء، لأنّه المربّى الحقيقى للعالمين أجمعين، فهو الخالق وهو الرازق وهو المالك وهو المربّى وهو المدير والمدبّر وهو المرشد والمعلّم والهادى، والملاحظ أنّ (الحمد) استعمل كجنس يشمل كلّ أنواع الثناء، و (العالمين) كذلك، فانّه جاء على هيئة الجمع المحلّى بالألف واللام فانّه يشمل موجودات العالم كلّها من عقلاء وغير عقلاء ماديّة وغير ماديّة (واستعمالها بصورة الجمع العاقل فانّه من باب التغليب) «۳».

(۱) مقاييس اللغة والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم ومفردات الراغب.

(۲) الأنعام، ۱۰.

(۳) لهذا فانّه حينما وصف موسى عليه السلام اللَّه تعالى أمام فرعون بأنّه (ربّ العالمين) سأل فرعون: ومن ربّ العالمين؟ فأجاب موسى: ربّ السماوات والأرض وما بينهما.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۰

وعليه إنّ ما يقوم به الآخرون من تعليم وتربية وإنعام فى زاوية من العالم فإنّ ذلك قبس من فيضه سبحانه، ومن كان مالكاً فإنّ ذلك شعاع من مالكيته المطلقة، ولذا علينا قبل أن نشكر عباده ونحمدهم ونثنى عليهم يجب أن نحمد اللَّه ونشكر ذاته المقدّسة.

والفخر الرازى يقدّم شرحاً إجمالياً لِنِعَم اللَّه نظراً إلى أنّ الحمد والثناء يكون إزاء النعمة ويقول: «... ثمّ أنّ أصحاب التشريح وجدوا قريباً من ۵ آلاف نوع من المنافع والمصالح التى ذكرها اللَّه عزّوجلّ بحكمته فى تخليق بدن الإنسان ثمّ إنّ من وقف على هذه الأصناف المذكورة فى كتب التشريح عرف أنّ نسبة هذا القدر المعلوم المذكور إلى ما لم يعلم وما لم يذكر كالقطرة فى البحر المحيط» ثمّ يذكر آثار الربوبية فى بقيّة أنحاء العالم، ويقول: «إنّ هذا المجموع «مجموع نعم اللَّه» مشتمل على ألف ألف مسألة أو

أكثر أو أقلّ، ثمّ إنّه تعالى نبّه على أنّ أكثرها مخلوق لمنفعة الإنسان أو كما قال تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ». (الجاثية/ ١٣)

وحينئذ يظهر أنّ قوله جلّ جلاله «الحمد للّه» مشتمل على ألف ألف مسألة أو أكثر أو أقلّ «١».

المفسِّر المذكور تحدّث طبعاً في إطار العلوم السائدة في عصره، وبملاحظة الإكتشافات الحاصلة في عصرنا في المجالات العلمية المختلفة يتّضح صغر وتفاهة هذه الأرقام والأعداد، ففي جسم الإنسان وحده ١٠ ملايين مليار خليّة! كلّ خليّة منها تعدّ من خدمه ومشمولة بربوبية الخالق سبحانه وتستلزم الشكر والحمد، ولو أراد الإنسان أن يعدّ هذه الخلايا ليلًا ونهاراً فضلًا عن حمدها والثناء عليها لاحتاج إلى ٣٠٠ ألف سنة!

الآية الثانية التي تخاطب النبي صلى الله عليه و آله تقول: «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيءٍ».

كيف تريدون الإستقلال لأنفسكم عن النظام العامّ لعالم الخلق؟ فاللّه ربّ الموجودات كلّها فكيف لا نعتقد بأنّه (ربّنا)؟ فهل من الممكن أن نجعل شيئاً تحت ربوبية اللّه شريكاً له

---

(١) تفسير الكبير، ج ١، ص ۶.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٥١

ونعتبر المربوب ربّاً والمخلوق شريكاً للخالق، والعبد في عرض المولى؟ فأي حكم هذا؟!

وبملاحظة سعة مفهوم (شيء) الذي يشمل كلّ ما سوى اللّه سبحانه فإنّ توحيد الربوبية في هذه الآية ظاهر بصورة كاملة فاللّه سبحانه يأمر النبي صلى الله عليه و آله ضمن آيتين سابقتين بأن يخاطب المشركين بصراحة: «قُلْ انَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحيَايَ وَمَمَاتِي للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (انعام/ ١۶٢)

لماذا أعبد غيره؟ ولماذا أسجد لغيره؟ وكيف أبقى حيّاً بذكر غيره؟ أو أموت فداءً لغيره؟

في حين أنّه وحده هو الخالق والمالك والمربّي لي.

ونرى هنا التلاحم والتآلف بين (توحيد العبادة) و (توحيد الربوبية) حيث أوجدا خليطاً مربّياً للروح «١».

في الآية الثالثة خطاب للنبي صلى الله عليه و آله أيضاً ولكن الكلام هنا جاء عن ربّ السماء والأرض والذي لا يختلف في الحقيقة عن (ربّ العالمين) و (ربّ كلّ شيء) كثيراً، وإن ذكر بعبارات مختلفة فتقول الآية: «قُلْ مَن رَّبُّ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ»، ولأنّهم ليس بوسعهم الإدّعاء بأنّ الأصنام أو المعبودات البشرية وأمثالها مدبّرة ومربّية ومنظّمة للسماء والأرض فإنّ الآية تأمر النبي صلى الله عليه و آله مباشرة: أجب عن هذا السؤال و «قُلِ اللَّهُ».

ينبغي لك أن تهجر كلّ ما سواه وتُعرض عن غيره وتعتمد على ذاته المقدّسة فقط، واجعل قلبك مرتبطاً به وعفّر خدّك له، لأنّ جميع الموجودات لا تملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً فضلًا عن غيرها: «لَايَمِلكُونَ لِانفُسِهِمْ ضَرّاً وَ لَانَفْعاً». (الفرقان/ ٣)

---

(١) «نسك» مفرد وفسّره الكثير من اللغويين بمعنى كلّ عبادة في حين فسّره البعض بمعنى الهدى ولكن لا توجد آية قرينة عليها بل إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ المراد هو كلّ العبادات وعليه يكون ذكره بعد الصلاة من قبل العام بعد الخاصّ.

نفحات القرآن، ج٣، ص: ٢٥٢

الآية الرابعة تتحدّث عن ربوبية اللّه للعرش ولكنّها تبدأ بحاكمية اللّه وتقول: «فَتَعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ».

وهذه جملة تكمّل ما ورد في الآية السابقة لها وفيها: «أَفَحَسِبْتُم انَّمَا خَلَقنَاكُم عَبَثاً وَانَّكُم الَينَا لَاتُرجَعُونَ». (المؤمنون/ ١١۵)

ويستفاد منها بأنّه لولا المعاد والقيامة فإنّ خلق الإنسان يكون عبثاً، لأنّ الحياة لعدّة أيّام في الدنيا ليست هدفاً سامياً للخلق وهذا من

الدلائل المهمّة للمعاد، سيكون لنا حديث مفصّل عنها فى بحث المعاد بإذن اللَّه.

ثمّ تضيف الآية: «لَااِلهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ العَرشِ الْكَرِيم».

«ملك»: يعنى الحاكم والمالك، ولا يصدق ذلك بمعناه الحقيقى إلّافى اللَّه سبحانه لأنّه من شؤون الخالقية ومستلزماتها ولعدم وجود خالق سواه فانّه لا مالك ومَلك غيره.

ولذا تصفه الآية بعبارة (الحقّ)، ثمّ تحصر المعبود فيه لأنّ العبادة تليق بالملك الحقّ وتكمل ذلك بوصفه ب «رَبُّ العَرشِ الْكَرِيم»، هذه الصفات الأربع جاءت لدعم عقيدة المعاد والقيامة الواردة فى الآيات السابقة.

«العرش الكريم»: إشارة إلى عالم الوجود كلّه، لأنّ العرش يعنى كرسى السلاطين العالى، وكرسى الحكومة الإلهيّة كناية عن مجموعة عالم الخلق وعلى هذا ينسجم مع جملة: «رَبُّ كُلِّ شَىءٍ» التى جاءت فى الآيات السابقة، واتّصاف العرش ب (الكريم) الذى يعنى الشريف والمفيد والجيّد بسبب أنّ كرسى الحكومة الإلهيّة مصداق كامل لهذه الصفات.

ولكن بعضاً اعتقد أنّ (الكريم) يعنى الصاحب الكريم، ولأنّ هذا المعنى لا يصدق فى العرش فإنّ هذه الصفة تكون لذات اللَّه المقدّسة لا العرش، فى حين أنّ كريم يمكن أن يكون وصفاً لغير الموجودات العاقلة أيضاً مثل: «لَهُم مَّغفِرَةٌ وَرِزقٌ كَرِيمٌ». (الحج/ ۵۰) أى كثير الفائدة والشريف «۱».

---

(۱) هنا أبحاث مفصّلة فى معنى «العرش» فى اللغة والقرآن الكريم ومنها فى تفسير الأمثل، ذيل الآية ۵۴ من سورة الأعراف و ذيل الآية ۳ من سورة يونس.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۳

الآية الخامسة تتحدّث عن ربوبية اللَّه للبشر وتنقل عن النبى العظيم «إلياس عليه السلام» خطابه لقومه، وفيه وبخّهم على عبادة صنمهم المعروف ب (بعلْ) وقال لهم: «أَتَدْعُونَ بَعْلًا وتَذَرُونَ احسَنَ الْخَالِقِينَ» وأضاف: «اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ» «۱».

وهذا فى الواقع لجميع الوثنيين الذين كانوا يبرّرون عبادة الأصنام حينما يسألون عنها بقولهم: إنّ هذه سنّة آبائنا ولا نتركها، وفى المقابل استند النبى إلياس عليه السلام إلى هذا المعنى وهو: أنّ اللائق للعبودية هو ربّ العالم ومدبّره والمربّى الحقيقى للإنسان، واللَّه ربّكم وربّ آبائكم وأجدادكم فإذا كان اولئك على خطأ فى معرفة المعبود الحقيقى وربّهم فلماذا تسلكون نفس الطريق الخاطىء؟

هو المدبّر للُامور:

تتحدّث الآية السادسة والأخيرة عن تدبير الأمر بدلًا من استخدام كلمة (الربّ) وهو مفهوم شبيه بالربوبية، وليس عينه تماماً، فتخاطب النبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ مَن يَرزُقُكُم مِنَ السَّماءِ وَالْأَرضِ».

مَن الذى سخّر لكم نور الشمس الضرورى لوجودكم والأمطار التى تنزل من السماء لتهب الحياة فى كلّ مكان والهواء الذى تتنفسونه فيمنحكم طراوة ولطافة؟

وهكذا النباتات التى تنبت فى الأرض، وتوفّر المواد الغذائية والفواكه اللذيذة والمعادن الثمينة التى تستخرجونها من باطن الأرض، من الذى أعطاها لكم؟ هل هذه الأرزاق من الأصنام؟!

ثمّ تذكر الآية جسم الإنسان وتشير إلى مجموعيتن من أهمّ أعضائه بعنوان الطريق الأصلى فى ارتباط الإنسان مع العالم الخارجى والمبدأ الأساس للعلوم والأفكار حيث تقول: «أَمَّن يَملِكُ السَّمعَ والابصَارَ»، ثمّ تتناول أهمّ ظاهرة فى عالم الخلقة وهى قضيّة

---

(۱) «اللَّه» منصوب لأنّه بدل من «أحسن الخالقين» فى الآية السابقة وقال بعض إنّه عطف بيان.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۴

الحياة والموت وتقول: «وَمَن يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ»، فهل هذا من فعل الأصنام أيضاً؟!

والآية فی آخرها بعد ذكر المسائل المهمّة الثلاث (الأرزاق السماوية والأرضية، السمع والبصر، الحياة والموت) تذكر القضيّة بصورة كليّة وجامعة وتقول: «ومَنْ يُدَبِّرُ الْامرَ».

ومن المسلّم به أنّهم لو راجعوا عقولهم وضمائرهم لم يكن لهم جواب إلّاأنْ يقولوا اللَّه:

«فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ».

ثمّ تقول الآية خذ من هذا الجواب مستمسكاً وقل: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إنّ جميع الأرزاق المعنوية والماديّة للإنسان وتدبير العالم كلّه قد اجتمعت فی الحقيقة فی هذه الآية، فإنّ الأرزاق الماديّة إمّا تكون من السماء أو من الأرض، والأرزاق المعنوية عادةً تكون عن طريق البصر والسمع اللذين ينقلان العلوم الحسّية والعقلية والنقلية إلى الإنسان، وتدبير العالم يشمل هذه كلّها وغيرها، فمن يستطيع أن يدّعی أنّ العباد الضعفاء أو الموجودات الحقيرة كالأصنام هی الخالقة لهذه الأرزاق والمدبّرة لهذه الامور؟ إنَّ توحيد الربوبية ليس قضيّة معقّدة حتّی بالنسبة لعبّاد الأصنام فيما لو فكّروا قليلًا.

والتعبير ب (يملك السمع والأبصار) يمكن أن يكون إشارة إلى خلقها أو حفظ نظامها وتدبيرها أو هذه الامور كلّها.

من مجموع الآيات المذكورة والآيات المشابهة لها فی القرآن الكريم وهی كثيرة وواسعة نحصل على هذه الحقيقة، وهی أنّ القرآن الكريم يعرّف اللَّه القادر المتعال بأنّه هو المالك والمربّی والمدير والمدبّر لعالم الوجود كلّه وكلّ شیء، وكلّ موجود فی السماء والأرض والعرش والكرسی والبشر فی الزمان الحاضر والماضی، ونقول بصراحة لا ربّ لعالم الوجود غيره.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۵

توضيحات

۱- التوحيد يعنی حذف الوسائط!

من خلال مطالعة دقيقة للآيات القرآنية نستنتج أنّ القرآن يصرّ مؤكّداً بأن لا يضيع الناس بين الوسائط وعليهم أن يتوجّهوا إلى ذات اللَّه المقدّسة مباشرةً، ويتحدّثوا معه ولتتعلّق قلوبهم به وحده ولا يعبدوا غيره، والتعبير ب (ربّ العالمين) فی سورة الحمد والسور القرآنية الاخرى إشارة إلى هذه الحقيقة، وتكرار ذكر الركوع والسجود (سبحان ربّی العظيم) و (سبحان ربّی الأعلى) كلّه لبيان هذه الحقيقة وهی: ليس خلقنا بيده فحسب بل وبقاؤنا وتربيتنا وتكاملنا وتدبير امورنا.

وقد أوضح القرآن الكريم ذلك بدقّة وهو أنّ (الخالق) و (الربّ) لا يمكن أن ينفصلا، ولو دقّقنا جيّداً فی الإنسان لوجدنا له خلقاً جديداً فی كلّ لحظة، وكلّ ذلك منه سبحانه.

إنَّ موجودات العالم بأسرها محتاجة وفقيرة وهو الغنی المطلق من كلّ جهة.

وتاريخ الديانات يشير إلى أنّ البشرية بسبب التيه فی الوسائط والخرافات التی ابتُليت بها، وكم من الموجودات المنحطّة التی جعلتها آلهة تتحكم بمصائرها، وهذا التعدّد فی الأرباب والآلهة قد جلب للبشرية كلّ هذا التفرّق والاختلافات والشقاء.

ولكن عندما نهجر هذه الوسائط ونعتبر أنّ اللَّه هو الربّ المطلق كما تقول الدلائل والبراهين العقلية، نعرف أنّ كلّ شیء محتاج إليه فإنّا سنصل إلى مبدأ النور والعظمة والوحدة والوحدانية.

ولذا فإنّ صفة (ربّ) تكرّرت أكثر من ۹۰۰ مرّة فی الآيات القرآنية ولم تتأكّد صفة اخرى من الصفات الإلهيّة إلى هذه الدرجة.

وفی الحقيقة يجب معرفة ومطالعة الإخلاص فی توحيد الإسلام قبل كلّ شیء فی هذا التوحيد الربوبی.

۲- تاریخ الدیانات وخرافة الوسائط

اشارة

کلّما تعمّقنا فی دراسة تاریخ المذاهب والدیانات تتجلّی أمامنا هذه الحقیقة أکثر فأکثر

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۶

وهی شیوع الشرک وتعدّد الآلهة (الإله بمعنی الربّ) بین المجتمعات البشریة المختلفة منذ أقدم العصور بشکل أوسع، ولو قمنا بجمع أسماء هذه الآلهة وعقائد المجتمعات البشریة المختلفة لحصلنا علی کتاب مفصّل ملیء بالعقائد العجیبة والغریبة والخرافیة، ولا بأس فی الإشارة إلیها بصورة مختصرة، لیطّلع القرّاء علی تلک القصّة الطویلة من خلال هذه المقدّمة المتواضعة.

أ) آلهة الروم

کَتَبَ أحد المؤرّخین الغربیین بهذا الصدد: «لم تکن الدیانة الرومیة تشابه ما نصطلح علیه «دین» أبداً، ولم تتضمّن أی تشریع لمعتقدیها، ولم تکن بصدد إصلاح التفسّخ الأخلاقی بین الناس، بل کانت تعلّمهم أفضل السبل لاکتساب رضا الآلهة وعونها.

... وکانت آلهة الروم کثیرة جدّاً ممّا جعل کلّ إله یحظی باتجاه معین! وله دور فی قضیّة معیّنة، فلم یکن لأبواب البیوت إله فحسب، بل والعتبة منها وقواعدها کانت لها أرباب، کما أنّ هناک آلهة مستقلّة تتولّی أمر المحافظة علی کلّ فرد من أفراد البشر، فوجود رب النوع الخاص الذی یعلّم الطفل أوّل صرخة، وآخر یعلّمه شرب الماء، وآخر یعلّمه الخروج من البیت وآخر یعلّمه کیف یرجع! وهناک إله خاص لحراثة الأرض وإله آخر خاص بالزراعة وآخر لبذر البذور و (أعداد کبیرة من الآلهة)، ولا عجب فی أن یکون للروم (۳۰) ألف إله! حتّی أنّ أحد شخصیاتهم مازح بقوله: إنّ آلهة بلادنا فی الشوارع والمجتمعات هی أکثر من أفراد شعبنا!» «۱».

ب) آلهة الیونان

ویکتب ذلک المؤرّخ أیضاً: (لقد اعتقد المجتمع الیونانی- کالکثیر من الامم- بالوهیة الظواهر الطبیعیة کلّها نظیر الشمس والرعد والمحیطات والأعاصیر والأنهار والعیون

---

(۱) تاریخ آلبرمالة، تاریخ الروم، ج ۱، ص ۲۹ و ۳۰، (علامة التعجّب منّا).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۷

والریاح والأمطار، وقام بعبادتها واعتقد أنّ هذه الآثار تنشأ من وجود خفی، واعتقد أنّها منشأ الخیر والشرّ ومن هنا قام بعبادتها کی یحصل علی کرمها أو یدفع الشرّ بها.

ثمّ یذکر إله الیونان المعروف وهو (زیوس) ابن (کرونوس) وهو المتصوّر لدیهم علی شکل إنسان، له الهیمنة التامّة والجبروت وذو جبهة عریضة وشعر کثیف ولحیة کثّة طویلة علی شکل حلقات!

کان زیوس ربّ الأرباب وإله البشر فی الیونان ویحیطه عدد کبیر من الآلهة وأرباب الأنواع، وکانت زوجة زیوس (هیرا) تعیش فی السماء.

ویعتقدون أنّ لزیوس أبناء ثلاثة هم: (هرمس) و (آرتمیس) و (آپولون) وهم علی التوالی مظاهر المطر وربّ النوع للقمر والشمس! کما اعتقدوا بآلهة عدیدة اخری نظیر آلهة البحر وآلهة الأرض وآلهة جوف الأرض وآلهة العمل «۱».

ج) آلهة مصر

أغلب المصريين القدماء اعتقدوا بديانة تؤمن بتعدد الآلهة، واعتقدوا أنّ إلهاً واحداً هو أعلى من الآخرين عرف ب (إله الآلهة).

فى مصر القديمة كان للناس فى كلّ منطقة آلهة ومعبد خاصّ تجاوزت ال ۲۰۰۰ معبود! تسعة منهم يحظون بذكر أكبر، أحدهم إله الشمس، ثمّ إله الهواء، وإله الفضاء والفراغ، وإله الأرض وهكذا هناك إله الصحراء والأراضى الخصبة والموات «۲».

يقول المؤرّخ الشهير ويل ديورانت فى (قصّة الحضارة):

«لم تكن فى العالم منطقة تناظر مصر فى تعدّد الآلهة، وكان المصرى يعتقد أنّ الخلق ابتدأ من السماء، وكانت سماء نهر النيل أعظم ربّ الأنواع.

---

(۱) تاريخ آلبرمالة، تاريخ امم الشرق، ج ۲، من ص ۱۷۱ إلى ص ۱۷۹ (باختصار).

(۲) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ۴۶.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۸

وقد اعتقد المصريون بأنّ كواكب السماء ليست أجساماً فحسب بل إنّها تعكس الصورة الخارجية لأرواح الآلهة الكبيرة مثل آلهة السماء والحيوان والنبات، وقد بلغت حداً أصبحت فيه المعابد المصرية معارض للحيوانات المختلفة» «۱».

د) آلهة ايران

إعتقد الإيرانيون قديماً بالثنوية ثمّ بتعدّد الآلهة وشاع بينهم بصورة تدريجية عبادة (امشاسبندان) أو الآلهة الستّة، آلهة الحيوانات الأليفة والبيضاء، إله النار، إله المعادن، إله الأرض، وإله المياه والحيوانات وإله الثوابت والسيارات السماوية «۲».

ه) آلهة الصين

إعتقد الصينيون القدماء أيضاً بأنّ العالم يحكمه أصلان أحدهما (المذكر) أو (الموجَب) أو (النور) والآخر (الأُنثى أو (السالب) أو (الظلام) وتبعه التفكير بالثنوية (شانكتى) وهو فحل مظهر لأصل الذكورة وكان يدعى إله الأفلاك، واعتقدوا أنّه هو الذى يجازى الإنسان على أعماله الصالحة والسيّئة فى هذه الدنيا وينزل البلاء الشديد عند العصيان العامّ.

وكانت (هاتن) إلهاً مؤنثاً ويثنى عليه، ثمّ ظهرت آلهة اخرى تدريجاً وتبدّلت الثنوية إلى تعدّد الآلهة: إله الخصوبة، إله المطر، إله الرياح، إله الثلج، إله النار، إله الجبل و ... «۳».

و) مشركو العرب

يؤكّد بعض المؤرّخين والمفسّرين بأنّ العرب كانوا يعتقدون بأنّ الخالق والرزّاق والربّ والمدبّر للعالم إله واحد ويستشهدون بآيات قرآنية تتحدّث عن إقرارهم فى قضيّة خالقية اللّه ورازقيته، وعليه فإنّ عبادة الأصنام بينهم لم تنشأ من الإعتقاد بتعدّد الآلهة، بل من

---

(۱) تاريخ الحضارة، ويل دورانت، ج ۱، ص ۲۹۸ و ۳۰۰ (بإختصار).

(۲) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ۳۴ (بإختصار).

(۳) المصدر السابق، ص ۱۵۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۵۹

اعتبارهم الأصنام ذات مقام ومكانة عند اللَّه يرجون منها الشفاعة والقرب من اللَّه، حتّى اعتقد البعض منهم أنّ إلى جانب كلّ صنم شيطان موكول به من قبل اللَّه، وكلّ من يعبد الصنم حقّ عبادته فإنّ ذلك الشيطان يبادر بقضاء حوائجه بأمر من اللَّه!! «۱»

ولا يمكن إنكار أنّ طائفة من العرب كانت ترجّح عبادة النجوم، وتعتقد أنّ كواكب خاصّة حين الغروب والشروق تقوم بإنزال المطر وقد عبّروا عنها ب (الأنواء) وهو جمع نوء ويعنى النجم الذى يميل إلى الغروب، وقد اعتقدوا بارتباط الحركة والسكون والسفر والإقامة بهذه النجوم (واعتقدوا بتأثيرها على مصائرهم) وقد شيّدوا معابد كبيرة للشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب «۲».

وفى اليمن كان من بين القبائل العربية من يعبد الكواكب السماوية، فكانت طائفة منها تعبد الشمس وقد أشار القرآن الكريم إليها فى قصّة ملكة سبأ، وطائفة اخرى عبدت القمر، واخرى عبدت نجمة الشعراء، كما عبدت قبائل اخرى نجوماً اخرى «۳».

ز) آلهة بلدان أخرى

فى بلدان اخرى مثل الهند واليابان وغيرها ساد الإعتقاد بأرباب الأنواع والآلهة المتعدّدة، كما اعتقد الصابئة (عبّاد النجوم) بأنّ السيّارات السبع هى التى تحرس الأقاليم السبعة وتحافظ عليها (حيث قسّموا الأرض قديماً إلى سبعة أقسام أُطلق على كلّ قسم منها اقليم) «۴» واعتقدوا أنّها مبدأ الخيرات ودافعة للأضرار عن أهل الأرض.

والإعتقاد ب (توتم) الذى ساد فى مناطق شاسعة من العالم كان مشابهاً للاعتقاد بربّ الأنواع أيضاً، حيث كان لكلّ قبيلة (توتم) بمثابة الأب وروح القبيلة واعتقد بأنّه على صورة الحيوانات أو ما شاكله.

---

(۱) بلوغ الأرب، ج ۲، ص ۱۹۷.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۳.

(۳) الإسلام والجاهلية، ص ۲۹۵.

(۴) يمكن مراجعة معجم البلدان، ج ۱، ص ۲۷ للمعرفة التفصيلية بالأقاليم السبعة وحدودها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۰

ح) الإعتقاد بالمثل الأفلاطونية

إفترض افلاطون لكلّ نوع من أنواع عالم الطبيعة فرداً مجرّداً عقليّاً، واعتقد أنّه قائم بالذات وبما أنّ هذه الأفراد المجرّدة اعتبرت أمثالًا ومظاهر لأسماء وصفات اللَّه وشبيهة للأنواع الطبيعية فقد اطلق عليها عنوان (مثال) وجمعه مُثُل على وزن رُسُل.

إعتقد افلاطون أنّ ما له الحقيقة هو المثال وهو المطلق الذى لا يتغيّر ومجرّد من الزمان والمكان وأبدى وكلّى، وأمّا هذه الأجسام الجسمانية والمادّية التى نشاهدها متعدّدة وذات زمان ومكان وفانية فإنّها إنعكاس لتلك، وعليه تكون نسبة الإنسان الجسمانى لمثاله هو نسبة الظلّ إلى ذى الظلّ.

ولأفراد الإنسان قسط من الحقيقة ما يناسب قربها من المثال، ومن هنا اعتبر افلاطون العالم المحسوس مجازاً وعالم المعقولات حقيقة «۱».

إنّ الإعتقاد بالمثل اليونانية وإن تغاير مع الإعتقاد بأرباب الأنواع لكنّه لا يخلو من تشابه من عدّة جهات ويعتبر شكلًا فلسفياً من أرباب الأنواع اليونانى.

كما أنّ الإعتقاد بالعقول الفلكية المجرّدة له تشابه مع أرباب الأنواع من جهة.

وإيضاحه: أنّ جماعة من الفلاسفة اعتقدوا بأنّ اللَّه- بسبب بساطته من كلّ جهة- له مخلوق واحد لا أكثر، وهو مخلوق مجرّد أطلقوا

عليه (العقل الأوّل) ثمّ اعتقدوا بأنّ العقل الأوّل لتركّبه من وجود وماهية فهو الخالق للعقل الثانى والفلك الأوّل، وبهذا الترتيب اعتقدوا بخلق عشرة عقول وتسعة أفلاك!

وقد اعتقد البعض منهم أنّ عدد العقول لا حصر لها، كما اعتقدوا ب (العقول العرضية) إلى جانب العقول الطولية (العقول العشرة التى يكون أحدها مخلوقاً للآخر)، واعتبروها وسائط لفيض الصور النوعية والمرتبة العليا للموجودات الجسمية (مثل أرباب الأنواع والمثل الافلاطونية)، ولكلّ مفردة من هذه المسائل بحوث مطوّلة ننصرف عنها لأنّها خارجة عن موضوع بحثنا.

---

(۱) كليّات الفلسفة الإسلامية وسير الحكمة فى اوربا وكتب اخرى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۱

المهمّ هنا هو أن نعلم بأنّ القرآن الكريم واجه هذه الأفكار كلّها وفى هذا الوسط الواسع من الأفكار العجيبة والغريبة والملوّثة بالشرك وأمام هذه العقائد والمذاهب الفلسفية المختلفة التى تُشمّ منها رائحة الشرك قام بعرض توحيد خالص فى مسألة الخالقية وتدبير العالم وربوبيته وهو بحقّ من معجزات القرآن الكريم.

لقد أبطل القرآن هذه الآلهة الوهمية وربّ الأنواع الخيالية وعرّف (اللَّه عزّوجلّ) كربٍّ للعالمين فقط، واعتبر كلّ شىء وكلّ إنسان مخلوقاً له وتحت تربيته وتدبيره، وقام بإفاضة الصفاء على قلوب البشر وأرواحهم بنور الوحدة ووجّه أنظار البشر المشتّتة إلى ذلك الواحد الأبدى.

أجل، إنّ دراسة تلك العقائد المشوبة بالشرك ومطالعتها تفصح عن قيمة التوحيد الإسلامى فى منظار أتباع الحقّ.

والطريف أنّ الإسلام قد انبعث من أجواء لا يتحكّم فيها سوى الجهل، وكان الشرك يفرض قوّته على عقول الناس، ولم يكن العالم الخارج عن حدود الجزيرة العربية متخلّفاً عنها، فقد أشرنا سالفاً إلى أنّ الفلاسفة والمفكّرين كانوا متورّطين بلون من الأفكار المشوبة بالشرك.

ويدلّ ذلك على أنّ طريق التوحيد الأصيل ليس أمراً يسمح للإنسان أن يسير فيه بنفسه، بل لابدّ من يد غيبية تمتدّ إليه عن طريق الوحى، ومن أنبياء يقودونه من وادى الظلمات ويوصلونه إلى معين التوحيد الخالص.

۳- التفويض لون من الشرك

بالرغم من أنّ للتفويض معانى مختلفة تبلغ سبعة عند بعض، ووجود بحوث واسعة مرتبطة به، إلّاأنّ من اللازم التذكير بأنّ جمعاً من المسلمين القائلين بالتفويض قد ظهروا وهم يحملون عقيدة بأنّ اللَّه تعالى خلق النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام ثمّ أوكل إليهم

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۲

أمر الخلق والرزق والموت والحياة لسائر الموجودات فى العالم.

وأفضل ما قيل عن هذه العقيدة هوماذكره العلّامة المجلسى رحمه الله فى مرآة العقول: «ثم اعلم أنّ التفويض يطلق على معانٍ بعضها منفى عنهم عليهم السلام وبعضها مثبت لهم، فالأوّل: إنّ التفويض فى الخلق والرزق والتربية والإماتة والإحياء، فإنّ قوماً قالوا: إنّ اللَّه خلقهم وفوّض إليهم أمر الخلق فهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون وهذا يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يقال: إنّهم يفعلون جميع ذلك بقدرتهم وإرادتهم وهم الفاعلون لها حقيقة وهذا كفر صريح، دلّت على استحالته الأدلّة العقليّة والنقلية ولا يستريب عقل فى كفر من قال به.

وثانيهما: إنّ اللَّه تعالى يفعلها مقارناً لإرادتهم كشقّ القمر وإحياء الموتى وقلب العصا حيّة وغير ذلك من المعجزات، فانّها جميعها إنّما

تقع بقدرته سبحانه مقارناً لإرادتهم لظهور صدقهم فلا يأبى العقل من أن يكون اللّه تعالى خلقهم وأكملهم وألهمهم ما يصلح فى نظام العالم ثمّ خلق كلّ شىء مقارناً لإرادتهم ومشيئتهم، وهذا وإن كان العقل لا يعارضه بتاتاً لكن الأخبار الكثيرة ممّا أوردناها فى كتاب (بحار الأنوار) يمنع من القول به فيما عدا المعجزات ظاهراً بل صريحاً» «۱».

وعليه فإنّ الاحتمال الثانى غير محال عقلًا، إلّاأنّ الأدلّة النقلية لا ترتضيه، وقد كثرت الامور التى ليست محالة عقلًا ولكن الشرع يرفضها، فمن الممكن- مثلًا- أن يكون عدد الأنبياء أو الأئمّة أكثر من المعروف إلّاأنّ الأدلّة النقلية قد حدّدت أعدادهم بما نعلمه.

وهناك احتمال ثالث وهو أنّ اللّه عزّ وجلّ يوهب النبى أو الإمام قدرة يستطيع بها إحياء الميّت أو إبراء المريض من مرضه المستعصى بإذنه والظاهر من الآيات القرآنية حول السيّد المسيح هو ما ذكرنا، وهذا كلّه ممكن أيضاً بالنسبة للمعصومين، ولكن كما وردت فى العبارات المذكورة تكون هذه المسألة فى إطار المعجزات والكرامات فقط، لا فى مورد خلق السماء والأرض وتدبير امور الكائنات، لأنّ القرآن الكريم قد صرّح فى حصر أمر الخلق والتدبير والربوبية فى اللّه عزّ وجلّ، والآيات التى ذكرناها فى هذا الفصل حول

---

(۱) مرآة العقول، ج ۳، ص ۱۴۳ (باختصار).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۳

التوحيد والربوبية شاهدة على هذا المعنى.

وبما أنّ الإنسان الكامل هو الغاية الأساسية من الخلق وبما أنّ المعصومين هم أفضل البشر، يمكن القول أنّ عالم الوجود قد خلق من أجلهم، وبتعبير آخر، أنّهم بمثابة العلّة الغائية لعالم الوجود.

۴- هل أنّ الملائكة تدبر الامور؟

يُقسم القرآن الكريم فى سورة النازعات الآية ۵ ب (المدبّرات أمراً)، والمشهور بين المفسّرين هو أن الملائكة هى التى تدبّر امور العالم، فهل هذا يتنافى مع توحيد الربوبية؟

الإجابة عن هذا السؤال واضحة، فلو كانت الملائكة لها الإستقلال فى التأثير لم يكن ذلك منسجماً مع توحيد الربوبية ولكنّا نعلم أنّها منفّذة للأمر الإلهى وقد أوكلت إليها الامور بإرادته ومشيئته نظير الأسباب فى عالم الطبيعة التى لها تأثيراتها بأمر اللّه.

وقد لاحظ الكثير من المفسّرين هذه النقطة فى هذه الآية ولم يجدوا تناقضاً بين القول بأنّ اللّه (ربّ العالمين) و (ربّ كلّ شىء) وبين تأثيرات عالم الأسباب أو تدبير الملائكة بإذن اللّه، فكما ينصّ القرآن الكريم على أنّ الرازق لجميع الموجودات هى الذات المقدّسة للّه عزّوجلّ: «وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الارضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزقُهَا». (هود/ ۶)

فى حين يقول فى موضع آخر: «وَعَلَى المَولُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعرُوفِ». (البقرة/ ۲۳۳)

ومن المسلّم به أنّ إطلاق الرازق على والد المولود لا يتنافى مع إطلاقه على اللّه سبحانه، فهذا مستقلّ بالذات وذلك بالعرض والتبع.

عندما نقول: إنّ فى العسل شفاء: «فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ». (النحل/ ۶۹)

فإنّ ذلك لا يتنافى مع أنّ الشافى هو اللّه فقط، كما يقول رمز التوحيد، إبراهيم عليه السلام: «وَإِذَا مَرِضتُ فَهُوَ يَشْفِينِ». (الشعراء/ ۸۰)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۴

هذه كلّها تبيّن سلسلة العلّة والمعلول، أى تبدأ بالعلّة غير المستقلّة حتّى تصل إلى علّة العلل ومسبّب الأسباب، أى الذات المقدّسة للّه‌تبارك وتعالى حيث يكون كلّ سبب مديناً له فى تأثيره.

۵- «توحيد الربوبية» فى الأحاديث الإسلامية

لقد انعكس هذا المضمون بصورة واسعة فى الروايات والأدعية المأثورة عن المعصومين: ومنها الأدعية المختلفة التى وردت فى الجزء الثانى من اصول الكافى، حيث تلاحظ هذه العبارات خلال الأدعية: «اللهمّ ربّ السماوات السبع وربّ الأرضين السبع ...
رب العرش العظيم ... ربّ المشعر الحرام وربّ البلد الحرام وربّ الحل والحرام ... الحمد للّه ربّ الصباح ... ربّ الملائكة والروح .. ربّ المستضعفين .. ربّ جبرئيل وميكائيل وإسرافيل وربّ القرآن العظيم وربّ محمّد خاتم النبيين» «۱».
كما وردت هذه التعابير فى روايات أهل السنّة «۲».
وعليه فلا ربّ للسماء والأرض والملائكة والنبيين والأغنياء والمستضعفين والصباح والمساء والكعبة ومكّة والعرش العظيم إلّااللّه القادر الواحد.
والتنسيق فى شؤون الكون وتنفيذ الأنظمة الحاكمة عليه دليل واحد على وحدة المدبّر، ولذا نقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قوله للزنديق الملحد الذى سأله عن وحدانية اللّه عزّ وجلّ: «فلمّا رأينا الخلق منتظماً، والفلك جارياً، واختلاف الليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر على أنّ المدبّر واحد» «۳».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۱۴- ۵۸۵.
(۲) للمزيد من الإيضاح راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، ج ۳، ص ۲۰۷.
(۳) توحيد الصدوق، ص ۲۴۴، باب ۳۶ (باب الردّ على الثنوية والزنادقة).
نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۵

ج) توحيد المالكية (الحاكمية التكوينية)

تمهيد:

من الأقسام المهمّة الاخرى ل (توحيد الأفعال) هو التوحيد فى المالكية، ويعنى أنّ المالك الحقيقى تكويناً وتشريعاً هو الذات الإلهيّة المقدّسة، والمالكيات الاخرى مجازية وغير مستقلّة.
إيضاح ذلك: أنّ المالكية على قسمين: مالكية حقيقية (تكوينية) ومالكية حقوقية (تشريعية).
المالك الحقيقى هو من له السلطة التكوينية والخارجية على الأشياء، وأمّا المالكية الحقوقية والتشريعية فانّها العقود التى تمضى عليها السلطة القانونية نظير مالكية الإنسان لأمواله.
والقسمان من المالكية للّه‌تعالى فى الدرجة الاولى من منظار الموحّد لعالم الوجود، فهو تعالى المالك للسلطة الوجودية على جميع الأشياء فى الكون، لأنّ الموجودات كلّها منه وتستمدّ منه فيض الوجود آناً بعد آن، والجميع تبع له، وبهذا تثبت مالكيته الحقيقيّة على كلّ شىء من كلّ جهة.
وأمّا المالكية القانونية فإنّ كلّ شىء له لأنّه الخالق والموجود لجميع الأشياء، بل حتّى ما نصنعه فانّه هو الذى أعطانا وسائل الإنتاج كلّها، وعليه: فإن المالك الأوّل فى الحقيقة هو اللّه، وإن مالكيتنا ما هى إلّاوديعة لأيام معدودة.
وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:
۱- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (آل عمران/ ۲۶)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۶

۲- «أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصيرٍ». (بقرة/ ۱۰۷)

۳- «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ فَانّى تُصْرَفُونَ». (زمر/ ۶)

۴- «وَاللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (بقرة/ ۲۴۷)

۵- «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ». (فاطر/ ۱۳)

۶- «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّماوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا من شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّنْ ظَهِيرٍ». «۱»

(سبأ/ ۲۲)

شرح المفردات:

(الملك) بناءً على ما ورد فى المقاييس هو فى الأصل: القوّة على الشىء، ولذا ورد التمليك بمعنى التقوية، ثمّ استعمل هذا التعبير فى ما يصحبه الإنسان من أشياء وذلك لما له من قدرة وقوّة عليها.

ولذا يطلق على الماء الذى يحمله المسافر (ملك)، لأنّ المسافر الذى يصطحب الماء (خصوصاً فى الصحارى الحارّة) يكون قويّاً ومهيمناً على عمله.

«مَلِك»: هو السلطان لقدرته فى بلاده.

«ملكوت»: يعنى العزّة والسلطنة.

«إملاك»: فى العربية يعنى التزويج، لاعتبارهم الزوجة ملكاً لهم!

وأخيراً (مملكة) هى الحكومة وعزّة السلطنة، ومن ثمّ أُطلق على الوطن.

---

(۱) وردت فى القرآن الكريم آيات كثيرة اخرى حول هذا الموضوع متّفقة مع الآيات أعلاه مثل: المائدة، ۱۷- ۱۸- ۴۰- ۱۲۰؛ الأعراف، ۱۵۸؛ التوبة، ۱۱۶؛ الإسراء، ۱۱۱؛ النور، ۴۲؛ الفرقان، ۲؛ ص، ۱۰؛ الزمر، ۴۴؛ الشورى، ۴۹؛ الزخرف، ۸۵، وغيرها.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۷

جمع الآيات وتفسيرها

اللّه مالك الملك:

قال المفسّرون: إنّ الآية الاولى نزلت بعد فتح مكّة، أو حينما كان النبى الكريم صلى الله عليه و آله مشغولًا بحفر الخندق قبيل معركة الأحزاب حيث بشّر المسلمين بفتح بلاد فارس والروم وقد اعتبر المنافقون ذلك تخيّلات وتكهّنات وتشبّثاً بالمحالات «۱».

وفى هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأنذرت الجهلاء بأنّ اللّه مالك كلّ البلدان حيث قالت: «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» وليس الحكومات فقط وليس العزّة والذلّة بل: «بِيَدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ» «۲».

وقدرة اللّه عزّوجلّ على كلّ شىء هى- فى الحقيقة- دليل حاكميته على الأرض والسماء.

ومن الواضح أنّ لمالكية اللّه بُعداً عامّاً وحقيقيّاً، فى حين ما جاء فى المورد الآخر فى جملة: «تؤتى الملك من تشاء» يكون له بعد جزئى ومجازى.

ولا دليل على تحديد مفهوم الآية بفتوحات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أو عزّة المؤمنين وذلّة اليهود وما شاكل- كما يعتقد بعض المفسّرين- بأنّ للآية مفهوماً واسعاً يشمل كلّ الحكومات وكلّ عزّة وذلّة، وما قالوه فهو من مصاديقها الواضحة، والجملة الأخيرة: «إِنَّكَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ» هى فى الواقع بمثابة الدليل على هذه المالكية الإلهيّة العامّة والمطلقة.

وواضح أنّ المشيئة والإرادة الإلهيّة التى استند إليها فى هذه الآيات لا تعنى أنّ اللّه يعزّ أو يذلّ أو يعطى الحكومة ويسلبها بدون حساب، بل إنّه وضع فى عالم الأسباب مجموعة من عوامل النصر والهزيمة وهى مظاهر مشيئته وإرادته.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۴۲۷؛ وتفسير الكبير، ج ۸، ص ۴.

(۲) قال بعض اللغويين: الخير والإختيار لهما مادّة واحدة، والحسنات خير لأنّ كلّ إنسان يختارها (التحقيق، المفردات، تفسير الميزان فى ذيل آية البحث).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۸

فحينما يوفّق المسلمون يوماً لفتح الأندلس وهى بوابة اوربا أو يخرجون من تلك الديار المعمورة يوماً آخر فإنّ ذلك حديث وفق تلك الأسباب التى هى مظاهر لمشيئته الإلهيّة.

وعندما يتسلّط أمثال يزيد وجنگيزخان على الناس فلعلّه نتيجةً لأعمال الناس أنفسهم حيث إنهم يستحقون مثل هذه الحكومات فقد ورد: «كيفما تكونوا يولّى عليكم».

من هنا يتّضح الجواب على الأسئلة التى تطرح حول آية البحث وليست بحاجة إلى توضيح أكثر.

الآية الثانية تنظر إلى الإشكالات الواهية التى أُثيرت من قبل اليهود حول تغيير القبلة بقولهم: هل بإمكان اللّه أن ينسخ حكماً ويحلّ حكماً آخر محلّه؟ أن يرفع حكم القبلة من بيت المقدس ويجعله للكعبة؟ فتقول: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرضِ».

وعليه هل يكون عجيباً أن يقوم مثل هذا الحاكم العظيم بنسخ حكم؟

إنّه ليس مطّلعاً على مصالح العباد فحسب بل له الحاكمية أيضاً وهو مالك التدبير والتصرّف المطلق فى الكون وفى عباده.

ولذا تضيف الآية فى ذيلها: «وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصيرٍ».

إنّه يعينكم فى ضوء علمه بالمصالح والمفاسد وفى ظلّ حاكميته يسنّ القوانين، ثمّ أنّ اللّه تعالى ليس له مكان لكى تتوجّهوا إليه فى الصلاة، وعليه فإن قيمة المكان المتّخذ كقبلة- مع أنّ الكون بأسره ملك له- ناشئة من أمره بذلك.

وقد ورد وصف اللّه تعالى بأنّه (ولى) و (نصير) فى القرآن بكثرة، ويمكن أن يكون الاختلاف بينهما من جهتين: الاولى أنّ (ولى) يعنى حافظ المصالح و (نصير) هو الذى ينصر الإنسان على عدوّه، والاخرى: أنّ (ولى) هو الذى يؤدّى عملًا لشخص تحت ولايته، ولكن (نصير) هو الذى يعين الإنسان ليتغلّب على مشكلته.

الآية الثالثة ومن خلال الإشارة إلى خلق الإنسان والحيوانات والتطوّرات العجيبة

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۶۹

تقول: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ»، فهو الخالق وهو المربّى ولذا فهو المالك والحاكم، ثمّ تجعل الآية هذه القضيّة مقدّمة لإثبات توحيد العبادة وتضيف: «لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ».

فيا أيّها الغافلون الجاهلون ويأيّها التائهون فى وادى الضلالة! كيف تحيدون مع وجود هذه الدلائل الواضحة عن الإعتراف بخالقية اللّه وربوبيته ومالكيته؟! هذا الجزء من الآية يثبت فى الحقيقة (توحيد العبادة) استناداً إلى (توحيد الحاكمية) للّه‌تعالى وحاكميته بالإستناد

إلى مسألة الخلق التى يذعن حتّى المشركون بأنّها مختصّة باللّه عزّوجلّ.

الآية الرابعة تنظر إلى قصّة طالوت وجالوت، فقد كان جالوت جبّاراً ومجرماً وحاكماً على بنى إسرائيل وقد آذاهم كثيراً.

وقد قام النبى (اشموئيل) «۱»

بطلب من بنى إسرائيل بتنصيب (طالوت) الذى كان من القرويين الفقراء قائداً للجيش وحاكماً على بنى إسرائيل!

أمّا الملأ من بنى إسرائيل فقد احتجّوا على هذا الإنتخاب واعتبروا أنفسهم أرجح منه، وذلك لما لهم من ثروة وفخامة! إلّاأنّ نبيّهم قال لهم بصراحة: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً» وأضاف: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ والجِسْمِ واللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (البقرة/ ۲۴۷)

وعليه فانّه لا يكون حاكماً تكوينياً على عالم الوجود فحسب، بل إنّ الحاكمية القانونية والتشريعية على المجتمع البشرى هى لذاته المقدّسة ويمنحها لمن يشاء وإن كانت إرادته ومشيئته قائمة على أساس الأهلية واللياقة.

---

(۱) احتمل بعض المفسّرين أنّه النبى شمعون أو يوشع ولكنّهما يبدوان بعيدين، أمّا بالنسبة ليوشع الذى كان وصيّاًلموسى عليه السلام فهو غير ممكن تقريباً.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۰

الآية الخامسة تبيّن هذه المسألة فى إطار جديد، فبعد بيان حاكمية اللّه على الشمس والقمر ونظام النور والظلم تستنتج بهذا النحو بقولها: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ المُلكُ».

فى حين ليس للمعبودات من دونه حاكمية ولا مالكية حتّى بحجم الغشاء الرقيق الذى يغلّف نوى التمر: «وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ».

وقد ذكر المفسّرون واللغويون معانىَ مختلفة لكلمة قطمير، أشهرها هو الغشاء الرقيق الذى يفصل النوى عن التمر.

وقد فسّره البعض بأنّه يعنى التجوّف الأبيض الصغير الذى يوجد على ظهر النوى وينمو منه نبات التمر، وفسّره البعض بأنّه رأس التمرة، وفسّره بعض آخر بمعنى الشقّ الموجود على بطن النوى، أو بمعنى النطفة الحيّة الموجودة فى بطن النوى.

ترتبط هذه المعانى الخمسة بنوى التمر التى كانت فى متناول العرب، وهناك تفسير آخر ذكر لهذه الكلمة وهو غشاء البصل، ولكن الأشهر- كما ذكرنا- هو المعنى الأوّل وعلى كلّ حال هو كناية عن الشىء الصغير والتافه الذى لا يؤبه له «۱».

والآية هذه دليل واضح على أنّ المالكية والحاكمية لا تكون لأحد سوى اللّه عزّوجلّ إلّا أن تكون بمشيئته وهبته.

وفى الآية السادسة والأخيرة جاء هذا المضمون فى إطار جديد، حيث تخاطب النبى صلى الله عليه و آله: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِ اللَّهِ» هل بإمكانهم أن يحلّوا عقدة من مشكلاتكم؟

ثمّ تقيم دليلًا على عجزهم فى حلّ المشكلات وتضيف: «لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّماوَاتِ وَلَا فِى الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِنْ ظَهِيرٍ».

---

(۱) راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعانى؛ القرطبى؛ الميزان؛ المراغى؛ ومفردات الراغب، لسان العرب؛ ومجمع البحرين.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۱

وعليه فانّهم ليسوا مالكين مستقلّين ولا شركاء ولا معاونين، فأى عمل هم قادرون على إنجازه حتّى تسجدوا لهم وتعبدوهم؟!

بهذه الاستدلالات الواضحة ينفى القرآن الكريم كلّ شريك فى المالكية والحاكمية فى عالم الوجود الواسع بصورة مستقلّة ومشتركة ومتعاضدة، وتعتبر ذلك كلّه مختصّاً فى اللّه، وينزّه اللّه عن كلّ شريك ومعين وناصر فى عالم الوجود كلّه.

المستفاد من مجموع هذه الآيات الستّ والآيات القرآنية المشابهة لها هو أنّ المالك والحاكم على عالم الوجود بأسره لا يكون فى منظار الموحّد الكامل إلّااللَّه، ولا يملك أحد فى أى موضع ومنصب جزءاً صغيراً، وبهذا لا يبقى للمشركين أى مبرّر لعبادة الأصنام أو ربّ الأنواع أو الملائكة وغيرها.

توضيحان

١- الآثار التربوية للإيمان بتوحيد المالكية والحاكمية

الطغيان والغرور والتمرّد والبخل والحسد حالات نفسية تنشأ غالباً من عقيدة الإنسان بأنّه المالك الحقيقى للأموال التى بحوزته، ويرى نفسه حرّاً فيما إذا استلم زمام الحكم فى نطاق واسع أو ضيق، وهذه حالة مشوبة بالشرك وهى منشأ لألوان المعاصى والفساد الاجتماعى.

ولكن إذا ما نظر الإنسان إلى هذا العالم بمنظار توحيدى، واعتقد- كما فى الآيات- أنّ العالم ملك مطلق للَّهواعتبر نفسه- كما جاء فى الآية ٧ من سورة الحديد: «وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّستَخلَفِينَ فِيهِ»- أميناً بين يدى اللَّه، وإستوعب هذا المعنى بوجوده كلّه، فكيف يمكن أن يقصر فى أداء ما يريده صاحب الأمانة الأصلى أو يبخل أو يحسد؟ وكيف تكون هذه الأموال سبباً لغروره وطغيانه، إن ما يملك من مال وثروة ليس له! فهل يغترّ الموظّف فى أحد المصارف بالملايين التى تكون تحت تصرُّفه كلّ يوم؟

وهكذا بالنسبة للحكومات والمناصب التى يتولّاها البعض، فانّهم ليسوا مستخلفين فى

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۲

جزء صغير من عالم الوجود هذا، وعلى أساس هذا الفهم والرؤية، فلماذا الغرور والطغيان؟

ولماذا الظلم والفساد؟

إنَّ هذه الرؤية التوحيدية للعالم تعطى للإنسانية صبغة أُخرى صبغة إلهيّة، صبغة السلام والصفاء والأمن ولون الإنفاق والإيثار.

٢- إستغلال مفهوم (ملكية اللَّه)

لا شكّ- وكما تقدم- أنّ اللَّه تعالى مالك لعالم الوجود بأسره- وبغض النظر عن الآيات القرآنية الكثيرة الواردة بهذا الخصوص فإنّ الدليل العقلى شاهد على هذا الأمر، فانحصار واجب الوجود فى ذاته المقدّسة واحتياج الموجودات كلّها إلى اللَّه سبحانه وتعالى يكفى لإثبات هذا المفهوم ولايتنافى مع هذا المعنى من المالكية الحقوقية والقانونية لبنى الإنسان فى الإطار الذى يسمح به اللَّه أبداً، وما يتشبّث به البعض فى قضيّة (ملكية اللَّه) لنفى آية (الملكية الخاصة) فانّه استغلال ليس إلّا، والعجيب إن ذلك يُطرح تحت عنوان الفقه الإسلامى، ويعطى- فى الحقيقة- للإشتراكية أو الشيوعية لوناً إسلامياً.

وبوضوح أكثر نقول: إنّ القرآن الكريم الذى أكد على مالكية اللَّه لعالم الوجود الواسع بأسره فيه آيات تتعلّق ب (الإرث والخمس والزكاة والتجارة) أيضاً ويضفى الشرعية على الأموال المشروعة التى يتصرّف بها القطّاع الخاصّ، فقد جاء التعبير ب (أموالكم) فى ١۴ آية قرآنية، والتعبير ب (أموالهم) فى ٣١ آية- وقد وردت الكثير من التعاليم الالهيّة فى العديد من الآيات تأمرهم فى كيفية التصرف فى أموالهم، فلو كان مفهوم الملكية الإلهيّة ينفى ملكية الإنسان، فما هو إذن مفهوم الآيات التى وردت فى هذه ال ۴۵ آية إضافة إلى آيات كثيرة اخرى تتعلّق بهذا الموضوع؟

فالقرآن الكريم يقول: «وَآتُوا الْيَتَامى أَمْوَالَهُمْ ... وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ».

(النساء/ ٢)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۳

وفی موضع آخر: «انَّ الَّذِینَ یَأْکُلُونَ أَمْوَالَ الیَتَامَی ظُلْماً إِنَّمَا یَأْکُلُونَ فِی بُطُونِهِمْ نَاراً ..».

وفی موضع ثالث یقول: «الَّذِینَ یُنفِقُونَ أَموَالَهُمْ فِی سَبِیلِ اللَّهِ ثُمَّ لَایُتبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذًی لَّهُمْ أَجْرُهُم عِندَ رَبِّهِمْ ...». (البقرة/ ۲۶۲)

ویخاطب المرابین: «وَإِن تُبتُم فَلَکُمْ رُؤُوسُ أَموالِکُم». (البقرة/ ۲۷۹)

أو کما ورد فی الآیة الکریمة: «وَابْتَلُوا الْیَتَامَی حَتَّی إِذَا بَلَغُوا النِّکَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَیْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْکُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ یَکْبَرُوا وَمَنْ کَانَ غَنِیّاً فَلْیَسْتَعْفِفْ وَمَنْ کَانَ فَقِیراً فَلْیَأْکُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَیْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَیْهِمْ وَکَفَی بِاللَّهِ حَسِیباً». (النساء/ ۶)

وقد وردت تعابیر کثیرة تشیر إلی هذا النوع من المالکیة.

بالطبع، فی الشریعة الإسلامیة هناک أقسام أُخری من المالکیة مثل «الملکیة العامة» و «ملکیة الحکومة» بالإضافة إلی «الملکیة الخاصة»، وقد أشار القرآن الکریم إلی ذلک، ولکن لا یوجد لأی‌من هذه الملکیات علاقة بمالکیة اللّه سبحانه وتعالی، وبتعبیر مختصر وهو أنّ توحید الملکیة لایتعارض ولا یتنافی مع ملکیة أفراد البشر أو طبقة من المجتمع، أو المجتمع لأی‌شیء، بشرط أن تکون هذه الملکیة مشروعة.

ولهذا الأمر شروط وأسباب وردت فی کتب الفقة الإسلامی بشکل مفصل وواضح.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۵

د) توحید التقنین (الحاکمیة التشریعیّة)

تمهید:

من المعلوم إنّه ومن أجل تنظیم شؤون المجتمعات البشریة نحتاج إلی ثلاث سلطات، (السلطة التشریعیة) التی تتکفّل سنّ القوانین الکفیلة بحفظ النظام فی المجتمع والحیلولة دون ضیاع الحقوق، و (السلطة التنفیذیة) التی تنفّذ ما صادقت علیه السلطة التشریعیة وتتولّاها عادةً الحکومات المؤلفة من الوزراء والدوائر الحکومیة.

و (السلطة القضائیة) المسؤولة عن معاقبة المتخلّفین عن القانون والمجرمین والمعتدین.

فی الرؤیة التوحیدیة الإسلامیة تستمد هذه السلطات الثلاث من تعالیم الذات المقدّسة الالهیّة ولا یکون فیها حکماً جائزاً إلّابإذنه وأمره فهو الذی شرّع القوانین وهو الذی یجیز تشکیل الحکومات وتنفیذ القوانین، وهو الذی یمنح الشرعیة لعمل القضاة، وعلیه فإنّ هذه السلطات الثلاث لابدّ أن تستمدّ شرعیتها من حضرة القدس الإلهی طبق الشرائط والأوامر، وهذا المعنی له انعکاس واسع فی الآیات القرآنیة إضافةً إلی إمکانیة الاستدلال علیه عقلیّاً.

بهذا التمهید نراجع القرآن الکریم لنمعن خاشعین فی الآیات القرآنیة:

۱- «وَمَنْ لَّمْ یَحکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلئِکَ هُمُ الکَافِرُونَ». (المائدة/ ۴۴)

۲- «وَمَنْ لَّمْ یَحکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة/ ۴۵)

۳- «وَمَنْ لَّمْ یَحکُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُوْلئِکَ هُمُ الفَاسِقُونَ». (المائدة/ ۴۷)

۴- «وَأَنِ احْکُمْ بَینَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُم أَنْ یَفْتِنُوکَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَیکَ». (المائدة/ ۴۹)

۵- «فَلَا وَرَبِّکَ لَایُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَرَ بَیْنَهُمْ ثمَّ لَایَجِدُوا فِی أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمّا قَضَیْتَ وَیُسَلِّمُوا تَسْلِیماً». (النساء/ ۶۵)

۶- «إِنِ الْحُکْمُ إِلَّا لِلَّهِ». (الأنعام/ ۵۷) (یوسف/ ۶۵)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۶

۷- «وَهُوَ اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِی الْاولی وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الحُکْمُ وإِلَیهِ تُرْجَعُونَ». (القصص/ ۷۰)

۸- «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ کُلُّ شَیْءٍ هَالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الحُکْمُ وإِلَیْهِ تُرْجَعُونَ». (القصص/ ۸۸)

۹- «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیءٍ فَحُکْمُهُ إِلَی اللَّهِ ذلِکُمُ اللَّهُ رَبِّی عَلَیهِ تَوَکَّلْتُ وَإِلَیْهِ انِیبُ».

(الشوری/ ۱۰)

۱۰- «أَفَغَیرَ اللَّهِ أَبْتَغِی حَکَماً وَهُوَ الَّذِی أَنْزَلَ إِلَیکُمُ الکِتَابَ مُفَصَّلًا». «۱» (الانعام/ ۱۱۴)

شرح المفردات:

«حُکْم»: علی وزن (قُفْل) ویعنی فی الأصل- کما یقول الکثیر من کبار اللغویین- المنع والصدّ «۲» ومن ثمّ اطلق علی (القضاء) و (الحکومة)، لأنّ القاضی والحاکم یمنعان الناس بأحکامهما الحازمة من مخالفتها أو ارتکاب الأعمال الممنوعة.

«حَکَمة»: تعنی الحدیدة التی توضع فی فمّ الحیوان أو أنفه کلجام، ولدی سحبه یتألّم الحیوان ویستسلم ویوجد هنا معنی المنع نفسه أیضاً.

وفی (لسان العرب): ل (حکم) معانٍ مختلفة کالعلم والفهم والقضاء بالحقّ والعدل (حیث تصدّ هذه الامور الإنسان عن المخالفة) ویطلق (حکیم) علی من کان ذا معرفة کافیة تصدّه عن ارتکاب الأعمال السیّئة.

ومن اللازم التذکیر بهذه النقطة وهی أنّ هذه الکلمة تستعمل فی الموارد الثلاثة (التشریعیة والقضائیة والتنفیذیة) حیث یطلق الحاکم علی الموارد الثلاثة، ولذا فإنّ البعض

---

(۱) هنالک آیات قرآنیة کثیرة وردت بهذا المضمون أیضاً مثل المائدة، ۴۸، و ۵۰؛ الکهف، ۲۶؛ الأعراف، ۸۷؛ یوسف، ۱۰۹؛ هود، ۴۵؛ یوسف، ۸۰؛ التین، ۸؛ النساء، ۶۰.

(۲) المفردات؛ مقاییس اللغة؛ ومصباح المنیر للفیومی.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۷

من کتب اللغة تذکر أنّ أحد معانی (حکم) هو تفویض الأمر والفعل لشخص ما.

ورد فی کتاب (العین) أنّ لفظ (حکمة) یرجع إلی مفهوم العدل والعلم والحلم، ویقول صاحب الکتاب: إنّ هذه الکلمة فُسّرت بمعنی (المنع) أو (المنع من الفساد)، وهذا ینسجم مع ما نقلناه عن اللغویین، والآیات المحکمات اطلق علیها هذا اللفظ لأنّ صراحتها ووضوحها یمنع من أی تفسیر أو تأویل خاطیء.

جمع الایات وتفسیرها

من لم یحکم بما أنزل اللّه:

فی الآیات الأربعة الاولی (الآیة ۴۴، ۴۵، ۴۷، و ۴۹ من سورة المائدة) عرض لمسألة توحید الحاکمیة بأوضح وجوهه.

تقول الآية الاولى والثانية والثالثة: «وَمَنْ لَّمْ يَحكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَوْلئِكَ هُمُ الكافِرونَ ... هُمُ الظَّالِمُونَ ... هُمُ الفَاسِقُونَ».

وللمفسّرين أقوال فى هذه العبارات هل أنّها تتضمّن مفاهيم مختلفة أو أنّها تشير إلى مفهوم واحد؟

فبعض يعتقد أنّها تنظر إلى جماعة واحدة، وأنّها صفات متعدّدة لموصوف واحد ويمكن تفسيرها بهذا الترتيب: من يحكم بخلاف ما أنزل اللَّه فانّه يخالف اللَّه وينهض بوجه اللَّه فهو كافر من هذه الجهة.

ومن جهة ثانية أنّه يوجّه ضربه للحقّ الإنسانى فهو ظالم.

ومن جهة ثالثة أنّه يخرج من نطاق واجباته فهو فاسق (لاحظ أنّ الفسق يعنى الخروج عن واجبات العبودية).

وقال بعض آخر: إنّ الآية الاولى والثانية- وبقرينة ما قبلها- تقصدان اليهود، فى حين تتحدّث الآية الثالثة عن النصارى، وبما أنّ عداء اليهود للأحكام الإلهيّة أشدّ من النصارى فقد حكم عليهم بالكفر والظلم بينما حكم على النصارى بالفسق.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۸

ولكنّنا نعلم أنّ نزول الآيات فى موارد خاصّة لا- يحدّد مفاهيمها الكلّية بتلك الموارد، وعليه فإنّ الآيات هذه تشمل جميع الذين يحكمون بغير ما أنزل اللَّه.

إنَّ صدق الظلم والفسق فيمن يرتكب هذه المعصية واضح ولكن الحكم بالكفر يكون فى حالة الردّ لحكم اللَّه والإعتقاد ببطلانه، لأنّ ذلك أمّا إعتقاد يلازمه إنكار الذات المقدّسة أو علمه وحكمته وعدله، وهذا يستوجب الكفر قطعاً، وهكذا إذا رجع إنكار هذا الحكم إلى إنكار القرآن أو رسالة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

ولكنّه إذا حكم بغير ما أنزل اللَّه فقط وكان المنشأ فيه هوى النفس مثلًا لا إنكار التوحيد أو النبوّة فانّه لا يستوجب الكفر.

وقد ورد فى قوله تعالى: «فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ». (المائدة/ ۴۸)

وقوله تعالى: «وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُم بِما أَنْزَلَ اللَّهُ». (المائدة/ ۴۹)

وقوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ».

(المائدة/ ۵۰)

إنّ الآيات الستّ هذه تؤكّد على هذا المعنى وهو (الحكم حكم اللَّه فقط).

إنّ هذه التعابير المختلفة وهذا التأكيد المثالى الذى ورد فى هذه الآيات الستّ فى سورة واحدة وبصورة متقاربة لدليل على هذه الحقيقة وهى أنّه لا- يحقّ التشريع لأىمقام إلّااللَّه، وكلّ من يفتى أو يقضى أو يحكم على خلاف حكم اللَّه فانّه يقترف إثماً عظيماً وظلماً وينزع عنه ثوب الإيمان أيضاً.

بهذه يثبت توحيد الحاكمية التشريعية وحصر التشريع فى ذات اللَّه المقدّسة وحصر الحكم فى حكم اللَّه.

الآية الخامسة تتحدّث عن مقام القضاء وتعتبره من مختصّات رسول اللَّه صلى الله عليه و آله (الذين ينصبون من قبله أئمّة بالمعنى المطلق أو فى خصوص القضاء) وتقول: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۷۹

وعليه تكون علامات الإيمان الحقيقى ثلاث: الإحتكام إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى كلّ اختلاف وعدم الشعور بالأذى من حكمه وتنفيذه بالكامل فى الخارج، وبهذا فإنّ الآية تعتبر فرعاً آخر من الحاكمية، أى الحاكمية فى القضاء منحصرة فى اللَّه عزّ وجلّ (لأنّ النبى صلى الله عليه و آله ممثّل عن اللَّه).

الحكم للَّهفقط:

الآية السادسة تقول بتعبير قصير: «إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ».

لقد تكرّرت هذه الجملة فى القرآن الكريم مراراً ولها مفهوم واسع حيث تتضمّن الحكم بمعنى التشريع والحكومة والقضاء والحكم التكوينى والأحكام التشريعية، غير أنّ هذا التعبير فى سورة الأنعام الآية ۵۷ وسورة يوسف الآية ۶۷ جاء فى مورد الحكم الإلهى بالعذاب على الكافرين ومعاقبتهم.

على كلّ حال فإنّ الاختلاف فى موارد التعبير هذه دليل واضح على أنّ مفهوم الآية واسع كما قلنا، ويعتبر كلّ حكم وأمر مختصّاً فى اللَّه، فى عالم التكوين وعالم التشريع.

الآية السابعة وبعد أن وصفت اللَّه عزّ وجلّ باستحقاق العبودية والحمد والثناء فى الدنيا والآخرة تقول: «وَهُوَ اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الحَمْدُ فِى الْاولى والْآخِرَةِ وَلَهُ الحُكْمُ وَإِلَيهِ تُرْجَعُونَ».

وعبارة (وله الحكم) فى الحقيقة دليل على انحصار الأهلية للعبادة والحمد والثناء فيه عزّوجلّ، لأنّ (المعبود) و (المحمود) هو من كان حكمه نافذاً فى كلّ شىء وفى الجميع، وإن قال بعض المفسّرين أمثال ابن عبّاس: إنّ المراد من (حكم) هنا هو القضاء بين العباد يوم

القيامة «۱» وليس بأيدينا أى دليل على تحديد معنىالآية، وقلنا مراراً: إنّ خصوصية المورد لا تمنع عمومية مفهوم الآية.

وعليه فإنّ الآية أعلاه تشمل توحيد حاكمية اللَّه فى عالم التكوين وفى عالم التشريع والتقنين والحكومة والقضاء (فى تفسير الميزان إشارة إلى عمومية مفهوم الآية) «۲».

وينبغى ملاحظة أنّ عبارة (له الحكم) تدلّ على الحصر من جهتين: إحداهما من جهة أنّ (له) مقدّم، والاخرى من جهة أنّ كلمة (الحكم) جاءت مطلقة أى أنّها تشمل أنواع الحاكمية كلّها.

والجدير ذكره أنّ انحصار المالكية فى اللَّه لا يمنع من أن يضعها اللَّه فى اختيار الأنبياء والأئمّة المعصومين وعباده الصالحين، فالبحث يدور حول المبدأ الأصلى للحاكمية، كما أنّ إختصاص الحمد والثناء فى ذاته المقدّسة لا يمنع من أن يثنى الإنسان على العباد الصالحين أو الوالدين أو المعلّم، فهم يمثلون الواسطة فى النغمة ولابدّ من ملاحظة أنّ هذه الامور كلّها من اللَّه وهذا هو معنى توحيد الحاكمية.

الآية الثامنة تتحدّث أوّلًا عن توحيد العبادة ثمّ توحيد الحاكمية حيث تقول: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ» ثمّ تقول بما يتضمّن الدليل على هذا الحكم: «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» وتضيف أخيراً: «لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

هذه الآية تخصّص العبادة فى اللَّه وهكذا البقاء والحكم والقضاء وإن اعتبر البعض الحكم فيها بمعنى الحكم التكوينى وإرادة اللَّه النافذة فى كلّ شىء، واعتبرها البعض الآخر بمعنى

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۰، ص ۹۲.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۷۰.

القضاء يوم القيامة.

وقال البعض: إنّ الحكم هنا له جانب تشريعى فقط، غير أنّ الإطلاق هو الظاهر من الآية ويشمل كلّ حكم فى عالم الوجود وعالم الشريعة والدنيا والآخرة.

أمّا المراد من (الوجه) فى العبارة: «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» فإنّ البعض فسّره بمعيّة الأعمال الصالحة التى تنجز للَّه‌تعالى، فيما فسّره البعض الآخر بمعنى الدين والقانون، والبعض الآخر بمعنى مقام الربّ.

ولكنّا نعلم أنّ (وجه) يعنى فى الأصل (الصورة) وكما يقول الراغب: أنّ الوجه هو أوّل ما يواجه الأشخاص الآخرين وهو أشرف الأعضاء فى الإنسان، ولذا اطلقت هذه الكلمة على الموجودات الشريفة، وبهذه المناسبة يطلق على ذات اللَّه المقدّسة وقد استعملت بهذا المعنى فى الآية ظاهراً.

وبما أنّ كلّ موجود يرتبط بهذه الذات الباقية والأبدية، فانّه يتلوّن بلون الأبدية فإنّ دين اللَّه وشريعته والأعمال المنجزة من أجله والأنبياء تكون خالدة وباقية لارتباطها باللَّه تعالى، وبهذا تجتمع التفاسير المذكورة فى مضمون الآية.

عند الاختلاف ارجعوا إلى اللَّه:

الآية التاسعة ترى (الحاكمية) بمعنى القضاء حيث تقول: «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَىءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ».

أجل، إنّه وحده القادر على رفع الاختلاف فيما بينهم لأنّه عالم بكلّ شىء وله الولاية على الجميع.

وتضيف الآية: «ذلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيْهِ انِيبُ».

وهناك أقوال عديدة فى تفسير هذه الآية، فالبعض اعتبرها ناظرة إلى الاختلافات والخصومات بين الناس الذين وجَبَ عليهم الإحتكام إلى النبى صلى الله عليه و آله، فيما اعتبرها البعض الآخر إشارة إلى الاختلاف فى تأويل الآيات وتفسيرها، فى حين اعتبرها آخرون ناظرة إلى الاختلاف فى العلوم المرتبطة بالمفاهيم الدينية والتكاليف وواجبات الناس مثل معرفة الروح وأمثالها «۱».

---

(۱) نقلت هذه التفاسير الثلاثة عن المفسّرين فى تفسير روح المعانى، ج ۲۵، ص ۱۵.

ولكنّا لا نرى دليلًا لتحديد مفهوم الآية، بل كما قال بعض المحقّقين: إنّ الآية تشمل كلّ قضاء سواء كان فى الأحكام أو فى المفاهيم الدينية أو فى معنى الآيات المتشابهة أو غيرها.

إنّ الآية هذه من الآيات التى تثبت هذه الحقيقة بوضوح وهى أنّ كلّ المسائل التى يحتاجها الناس قد وردت فى الكتاب والسنّة، ويكون كلّ قياس وتشريع وأمثاله باطلًا، فلولا وجود هذه الأحكام كلّها فى الكتاب والسنّة فلا معنى لإرجاع جميع الاختلافات إلى اللَّه فيها (تأمّل جيّداً).

والملاحظ أنّ الفخر الرازى وبعض المفسّرين قد أقرّوا بهذه الحقيقة واعتبروا هذه الآية من جملة الأدلّة المبطلة للقياس فى الأحكام الفقهية «۱».

فالآية تقول: يجب إرجاع الحكم فى جميع الاختلافات إلى اللَّه، وبالطبع فإنّ النبى صلى الله عليه و آله هو خليفة اللَّه المصطفى من بين الناس، فلو لم يتضمّن الكتاب والسنّة طرق حلّ للاختلافات فى الأحكام والعقائد وما يتعلّق بالشرع لكان إرجاع الاختلافات إلى اللَّه عزّ وجلّ لا معنى له.

الآية العاشرة والأخيرة تقول كاستنتاج عام عن لسان النبى صلى الله عليه و آله: «أَفَغَيرَ اللَّهِ أَبْتَغِى حَكَماً وَهُوَ الَّذِى أَنْزَلَ إِلَيكُمُ الكِتَابَ مُفَصَّلًا» وعليه فإنّ (الحكم والحاكم والقاضى) هو ذاته المقدّسة فقط لأنّه عالم بكلّ شىء، والقرآن أفضل دليل على علمه «۲».

وأمّا السؤال عن أنّ الحكمية فى أى شىء تكون؟ فإنّ القرائن تشير إلى أنّ المقصود هو

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۴۹.

(۲) «حكم»: كما يعتقد المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان والشيخ الطوسى فى (التبيان) يطلق على من لا يحكم إلّابالحقّ فى حين أنّ (الحاكم) يمكن أن يحكم بغير الحقّ، ولكن لم يتوضّح من أين استفيد هذا المعنى إلّاأنّ القدر المسلّم به هو أنّه صفة مشبهة وتدلّ

على الدوام والاستمرار ويطلق على من يحكم باستمرار، والقضيّة المعروفة عن (الحكمين) فى حرب صفّين شاهد على نفى هذا المعنى، غير أنّ هذه الكلمة أو كلمة (حاكم) إذا استعملت فى اللَّه فانّها إشارة إلى القضاء والحكم المنزّه عن كلّ ظلم وخطأ وليس لهذا ارتباط بالأصل اللغوى.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸۳

الإحتكام إلى اللَّه فى حقّانية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وسبب النزول الذى ينقل فى هذا المجال شاهد على هذا المعنى حيث قيل: إنّ مشركى قريش إقترحوا على النبى صلى الله عليه و آله أن اجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود أو قساوسة النصارى؟

كى يخبرونا عنك بما يتوفّر لديهم من كتب سماوية «۱».

فنزلت الآية كجواب على إشكالهم: هل يوجد غير اللَّه حَكْماً!

وذيل الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً بقولها: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَبِّكَ بِالحَقِّ».

على كلّ حال فإنّ مفهوم الآية واسع ويحصر الحَكَمية فى جميع الامور دون استثناء فى ذات اللَّه المقدّسة لأنّا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهوم الآية أبداً.

المستفاد جيّداً من الآيات العشر السالفة هو أنّ الحاكمية ونفوذ الحكم والأمر فى عالم الوجود وفى عالم الشريعة مختصّ فى ذات اللَّه المقدّسة.

والحاكمية بمعنى التشريع وهكذا القضاء والحكومة بمعنى التنفيذ كلّها تنشأ منه تعالى ومن يرغب فى التصدّى لبعض هذه الامور فلابدّ أن يكون ذلك بإذنه وأمره سبحانه.

غير أنّ الآيات المذكورة مختلفة، فبعضها يلاحظ فروع الحاكمية كلّها وبعضها يلاحظ مسألة القضاء أو التشريع فقط، ولكن المستفاد من المجموع هو مسألة (توحيد الحاكمية) بجميع أبعادها من هذه الآيات.

توضيحات

۱- حاكمية اللَّه فى المنطق العقلى

لا شكّ أنّ كلّ عارف باللَّه مقرّ بتوحيد الخالق يذعن بنفاذ أمره فى عالم الوجود، وعندما

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۸، ص ۷.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸۴

يتقبّل حاكميته على عالم الوجود فانّه سوف لا- يتردّد فى ولايته وحكومته التشريعية لأنّه حينما يكون هو الخالق والمالك والمدير والمدبّر فغيره لا يكون أهلًا للتشريع ولا يتمكّن من وضع قوانين تنسجم مع نظام التكوين والخلق.

وهكذا عندما يكون هو الخالق والمدبّر فانّه هو الذى يجب أن يحكم فى مسألة الحكومة القانونية على العباد ويقضى فى الاختلافات، وبدونه سيكون هناك تدخل فى نطاق مالكية اللَّه عزّ وجلّ وتدبيره بدون إذنه، من جهة اخرى يكون القانون الصحيح هو القانون الذى ينسجم مع التركيب الجسمى للإنسان وروحه ويلبّى حاجاته المادّيّة والمعنوية ولا- يترك آثاراً سلبية فى فترة زمنية قصيرة وطويلة، وأن يكون ذا ضمان تنفيذى كافٍ وذا تقبّل وانشداد فى المجتمع الإنسانى.

وبتعبير آخر يكون المشرِّعُ الحقيقى عالماً بالإنسان بصورة كاملة من جهة وعالماً بالكون من جهة اخرى كى يلاحظ بدقّة العلاقات

التى تربط الإنسان مع العالم الخارجى والداخلى ويضع القوانين مضافاً إلى عدم وجود مصالح شخصية من وضع تلك القوانين.

وما نشاهده من اختلال كبير فى القوانين البشرية فانّه ناشىء من:

أوّلًا: فقدان البشرية لمن يعرف الإنسان بجميع جزئياته الجسمية والروحية ويعلم جميع القوانين والعلاقات التى تحكم العالم، فلا زالت تؤلّف كتب من قبل المفكّرين تحت عنوان (الإنسان موجود مجهول) وما شاكل، فإذا كانت معرفة الإنسان بنفسه إلى هذه الدرجة من الضعف فكيف تكون معرفته بالعالم الواسع؟

ثانياً: الإنسان موجود محتاج إلى غيره، ولذلك نجد أنّ كلّ مجموعة تسنّ القوانين فى إحدى المجتمعات البشرية تأخذ بنظر الإعتبار منافع تلك المجموعة أو الحزب.

ثالثاً: الإنسان غير مصون عن الخطأ والإشتباه ولذا تكون القوانين البشرية عرضة للتغيّر المستمرّ وذلك لظهور عيوبها ونقائصها وأخطائها بمرور الزمان فيبادر لإصلاحها ولكن سوف تظهر عيوب اخرى، ومن هنا أصبحت المجالس التشريعية البشرية مختبرات تختبر فيها القوانين بشكل دائم اختباراً لا طائل فيه ولا نهاية!

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸۵

وبقطع النظر عن مسألة مالكية اللَّه وخالقيته لا يصلح أحد للتشريع أصلًا إلّامن كان خالقاً للإنسان وعالماً بكلّ متطلّباته الجسمية والروحية وغنيّاً عن كلّ شيء وكلّ إنسان ومنزّهاً عن كلّ خطأ واشتباه.

وواجبنا الوحيد هو تطبيق اصول القوانين الإلهيّة العامّة على مصاديقها وجعل الأحكام العامّة أحكاماً جزئية قابلة للتنفيذ.

۲- الحكومة وديعة إلهيّة

من الآيات السابقة يستنتج بصورة جيّدة أنّ الحكومة وديعة إلهيّة، وعلى الحكّام والمسؤولين العمل كنوّاب عن اللَّه تعالى، المفهوم من هذا الكلام هو وجوب رعاية أوامر المالك الأصلى للحكومة، أى اللَّه سبحانه وتعالى فى جميع المجالات.

وقد خاطب اللَّه عزّ وجلّ النبى داود عليه السلام وهو ملك لأحد أوسع الحكومات فى التاريخ البشرى: «يَادَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». (ص/ ۲۶)

إنَّ هذا التعبير يشير من جهة إلى أنّ الحكومة وديعة، وإلى المنهج والطريقة للحكومة الإلهيّة الشرعية والصحيحة من جهة اخرى.

۳- شرعية الحكومات تستمد من اللَّه فقط

فى الإسلام والرؤية التوحيدية تُنصب الحكومة من الأعلى وليس من الأسفل، أى من قبل اللَّه عزّ وجلّ لا من قبل الناس، ويضمن الجانب الاجتماعى لها بأمره أيضاً.

توضيح ذلك: إنّ إحدى الفوارق الواضحة بين الرؤية التوحيدية وبين الرؤية المشوبة بالشرك فى قضيّة الحكومة هى أنّ الموحّد يعتقد أنّ الحكومة فى جميع أبعادها (التشريعية

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸۶

والتنفيذية والقضائية) نشأت من اللَّه ومن ثمّ انتقلت إلى الأنبياء وأوصيائهم ثمّ الصالحين والعلماء فى الامم.

لابدّ أن يشعر هؤلاء الحكّام بالمسؤولية أمام اللَّه عزّ وجلّ، ويراعوا رضاه قبل كلّ شيء، وأن يكونوا خُداماً مخلصين وامناء لعباده.

إنّ مثل هذه الحكومة وبوحى من الرسالة الإلهيّة يمكنها قيادة البشر، لا أن تكون تابعة لأهواء هذا أو ذاك ولرغباتهم المنحرفة والمشوبة بالمعاصى.

ومن الممكن أن يقال: إنّ الحكومة الإسلامية إذن ليس لها بعد شعبى بل هى أكثر ما تكون نوعاً من دكتاتورية الصالحين، ولكن هذا

خطأ كبير لأنّ مبدأ الشورى الذى تقرّر فى الشرائع التوحيدية كقضيّة أساسية فى الحكومة وأكّد عليها النصّ القرآنى ويشهد له فعل نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وهو صاحب مقام (العقل الكلّ) يدلّ على أنّ اللَّه هو (مالك الملك) و (أحكم الحاكمين) وهو الذى أمر بالمشورة مع الناس فى أمر الحكومة وإشراكهم فى هذا الشأن.

من هنا تكون الحكومة التوحيدية والإسلامية حكومة (شعبية دينية) ويعنى ذلك الإهتمام بآراء الناس بأمر إلهى وذلك فى إطار مبادىء العقيدة والأحكام الإلهيّة طبعاً، وسيأتى تفصيل هذا الكلام بشكل كامل فى مباحث الحكومة فى الإسلام بإذن اللَّه.

النتيجة هى أنّ الناس- مثلًا- عندما يتوجّهون إلى صناديق الإقتراع فى الحكومة الإسلامية لانتخاب رئيس الجمهورية أو نوّاب المجلس فانّهم يلاحظون هذه النقطة وهى أنّهم امناء اللَّه تعالى، فالواجب هو أن يضعوا هذه الوديعة الإلهيّة التى تسمى بالحكومة فى يد من تتجسد به القيم الالهيّة، وإلّا فانّهم يخونون الأمانة.

قوله تعالى: «انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء/ ۵۸)

وقد ورد فى الروايات الإسلامية، إنّ إحدى المصاديق المهمّة للأمانة هى الحكومة، وقد تأكّد هذا الأمر فى تفسير الدرّ المنثور حيث قال: «حقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل اللَّه وأن يؤدّى الأمانة» «۱».

---

(۱) تفسير درّ المنثور، ج ۲، ص ۱۷۵.

وعليه فانّهم لا يفكّرون أبداً بأى نائب أو رئيس للحكومة يقوم برعاية مصالحهم الشخصية أو الفئوية أو من هو الذى تربطهم معه الصداقة أو القرابة؟ من الذى يستأنسون به أم لا يستأنسون؟ بل ينبغى أن يراعوا اللَّه عزّ وجلّ ورضاه والقيم الإنسانية والدينية السامية فى كلّ موقف.

أمّا فى الحكومات الديمقراطية والشعبية فى العالم المادّى فيمكن أن تنظر هذه الامور فى آراء المقترعين من قبيل الميول الشخصية والفئوية، الصراعات السياسية، المصالح المادّية اللامشروعة والعلاقات الخاصّة وأمثالها.

لاحظ الفارق من أين وإلى أين؟

۴- الإيمان بتوحيد المالكية وتأثيراته التربوية

ممّا ذكر يتّضح جانب من تأثير الإيمان بهذا النوع من التوحيد وهو مدى تأثير الإعتقاد بحاكمية اللَّه فى جميع الأبعاد، وأنّ الحكومة وديعة إلهيّة عند الناس، فعند التعيين سواء كان فى المسؤوليات الكبيرة فى الحكومة أو الصغيرة ينبغى أن يراعى فيه مبدأ الأمانة والوديعة الإلهيّة وعدم التضحية بالضوابط فداءً للعلاقات وعدم التضحية بمصالح المجتمع من أجل المصالح الشخصية.

وأمّا من جهة الحكّام فانّا نعلم بأنّ المشكلة الهامّة فى العالم هى مشكلة الحكّام المستبدّين الذين أضرموا النيران طيلة التاريخ فى مناطق واسعة من العالم، أو فى العالم بأسره وجلبوا المصائب والشقاء الكبير للبشرية.

فى هذا العصر قام (هتلر) بقتل عشرات الملايين، و (ستالين) مسؤول عن مقتل ۳۰ مليون إنسان! حسب الإحصاءات المروّعة التى نشرت من قبل شعبه، ولا تزال أوضاع العالم بهذا النحو وان كانت بصور اخرى.

فى حين لو كان الإنسان ذا رؤية توحيدية لآمن بأنّ الحكومة المطلقة مختصّة باللَّه تعالى

وقد فوّضت إليه بإذنه عزّ وجلّ وإعانة عباده وأنّه خليفة اللَّه فى الأرض وعليه يجب أن لا يكون إنساناً مستبدّاً مغروراً وظالماً أبداً، وعندما يصل إلى الحكومة يقول كما قال على عليه السلام: «... وما أخذ اللَّه على العلماء ألّا يقارّوا على كظّة ظالم ولا سغب مظلوم

لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أوّلها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندى من عفطة عنز» «۱».

أجل إنّه يرى الحكومة فى كلّ الأحوال وديعة إلهيّة وهو أمينها ومسؤول أمام صاحبها الأوّل، وهذه الرؤية يمكن لها أن تقلب صورة الحكومة فى العالم بشرط أن تنفذ إلى أعماق الروح وتتلوّن الروح الإنسانية بلونها.

ولا يصدق هذا الأمر على المتصدين فى الحكومة فحسب، بل يصدق على جميع العاملين فى الحكومة والامراء والقادة والمدُراء والقضاة.

المعلوم من مجموع ما مرّ من أبحاث هو أنّ الحكومة فى الإسلام ليس لها شكل استبدادى وليست من الطراز الديمقراطى الغربى، بل هى نوع من الحكومة الشعبية التى تعمل فى إطار العقيدة ولها لون إلهى فى أساسها، عن هذا الطريق تكتسب لوناً شعبياً وتنشأ كلّ امتيازاتها من هنا.

وهناك كلام طويل حول (الحكومة فى القرآن) وموضوع البحث هنا هو (التوحيد فى الحاكمية) و (نشوء الحكومة من اللّه) ولذا نوكل الباقى إلى البحث العامّ حول الحكومة بإذن اللّه.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۸۹

ه) توحيد الطاعة

تمهيد:

الكلام الأخير فى باب أقسام التوحيد هو أنّ الإنسان الموحّد يعتقد بأنّ اللّه وحده واجب الطاعة ولذا يضع طوق العبودية فى رقبته ويفتخر بقوله: إنّى عبد ويستعدّ للتضحية بنفسه ويعلن عن استعداده لتنفيذ أوامر اللّه تعالى

ويقوم بطاعة الأنبياء والمرسلين وأوصيائهم المعصومين ومبعوثيهم بوصفها فرعاً لعبادة اللّه عزّوجلّ ويحترم أوامرهم.

إنّه يفكّر بأمر واحد فقط هو رضا المحبوب الحقيقى وامتثال أوامر المولى الحقيقى، إنّه لا يشترى (رضا الناس) ب (سخط اللّه) ولا (إطاعة المخلوق) ب (معصية الخالق)، لأنّه يرى ذلك شعبة من الشرك.

إنَّ هذا الفرع من التوحيد وهو (توحيد الطاعة) ينشأ فى الواقع من التوحيد فى الحاكمية الذى مرّ فى البحث السابق.

وبهذا التمهيد نراجع القرآن الكريم لنتأمل بخشوع فى الآيات التالية:

۱- «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ». (المائدة/ ۹۲)

۲- «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ والرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الكَافِرِينَ».

(آل عمران/ ۳۲)

۳- «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الْأَمْرِ مِنْكُم فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الْآخِرِ». (النساء/ ۵۹)

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۰

۴- «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا». (التغابن/ ۱۶)

۵- «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ».

(الشعراء/ ۱۰۸، ۱۲۶، ۱۴۴، ۱۶۳، ۱۷۹) (آل عمران/ ۵۰) (الزخرف/ ۶۳)

۶- «اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيكُمْ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ». (الأعراف/ ۳)

۷- «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِيناً». (الأحزاب/ ۳۶)

۸- «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ». (الحجرات/ ۱)

۹- «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ والْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِداً لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ». (التوبة/ ۳۱)

۱۰- «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَابَنِى آدَمَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ* وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ». «۱»

(يس/ ۶۰- ۶۱)

شرح المفردات:

(إطاعة) تعنى فى الأصل الإنقياد والتسليم (وقد صرّح بذلك الكثير من اللغويين) ومن ثمّ أُطلق على اتّباع الأمر.

وقد فرّق البعض بين (الإطاعة) و (المطاوعة) ففسّر الإطاعة بمعنى الإنقياد وتنفيذ الأمر، والمطاوعة بمعنى الموافقة والإنسجام، ولذا يقول الخليل ابن أحمد فى كتاب (العين):

تستعمل (الإطاعة) فى مورد الرعية بالنسبة للقائد، وفى مورد المرأة بالنسبة لزوجها تستعمل (طواعية) أو (مطاوعة).

---

(۱) هنالك آيات قرآنية كثيرة اخرى تتفق مع الآيات أعلاه مضموناً منها: الأنفال، ۲۰، ۴۶؛ النور، ۵۴؛ محمّد، ۳۳؛ المجادلة، ۱۳؛ النساء، ۱۶؛ الأنعام، ۱۵؛ يونس، ۱۵؛ الزمر، ۱۳.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۱

جمع الآيات وتفسيرها

إلهنا نطيع أمرك وحدك:

إنَّ آية البحث الاولى وإن جاءت بعد تحريم الخمر والقمار والأنصاب والأزلام إلّاأنّ محتواها لا يخفى كونه حكماً عامّاً حيث تقول: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا»، وتضيف لدى تأكيدها على هذا الأمر: «فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّما عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» «۱».

ومن الواضح أنّ طاعة الرسول رشحة من رشحات طاعة اللّه تعالى وطاعته طاعة اللّه، لأنّه لا يبيّن سوى كلام اللّه وأمره، ولعلّ تكرار جملة (أطيعوا) إشارة إلى هذا المعنى، أى أنّ الطاعة الاولى لها جانب ذاتى وأصلى والثانية لها جانب عرضى وفرعى.

والآية الثانية تعكس هذا المضمون من خلال توجيه خطاب للنبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ الْكَافِرِينَ» ذيل الآية يشهد جيّداً بأنّ التمرّد يستوجب الكفر، التمرّد الحادث عناداً وعداءً لأمر اللّه تعالى والنبى صلى الله عليه و آله، أو نتوسّع فى معنى الكفر حتّى يشمل كلّ معصية.

على أيّة حال فإنّ الآية تؤكّد على وجوب طاعة اللّه ونبيّه أى اتّباع الكتاب والسنّة.

النبى صلى الله عليه و آله فى هذه الآية وإن كان معطوفاً على اللّه تعالى بدون واسطة ولكن بملاحظة الآية السابقة التى تقول: «قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى»، يتّضح أنّ طاعة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هى فرع لطاعة اللّه تعالى.

(۱) جزاء الشرط فى الآية محذوف يقدّر ب (قامت الحجّة عليكم) أو (استحققتم العقاب) أو (لم تضرّوا بتوليكم الرسول) (تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ روح المعانى والمراغى فى ذيل آية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۲

وهذه الآية تدلّ بوضوح على أنّ علامة الحبّ الحقيقى للّه‌ورسوله هى طاعتهما واتّباعهما وإلّا كان حبّاً كاذباً أو ضعيفاً جدّاً.

الآية الثالثة تضيف طاعة اولى الأمر إلى طاعة اللّه ورسوله وتأمر: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ واولِى الأَمرِ مِنْكُم فَإِنْ تَنَازَعتُمْ فِى شَىءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ».

وهذا التعبير يدلّ بوضوح على أنّ الطاعة مختصّة فى اللّه ثمّ رسوله واولى الأمر، ولحلّ أى نزاع لابدّ من الإستعانة بهم، وبدون ذلك فإنّ قواعد الإيمان بالمبدأ والمعاد ستتزعزع فى قلب الإنسان وروحه.

الآية الرابعة تتحدّث عن طاعة اللّه فقط حيث تقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا»، فهى تأمر بالتقوى أوّلًا وتجنّب المعاصى لأنّ (التحلية) والتطهير يتقدّمان على (التخلية)، ثمّ تأمرنا ثانياً بالإستماع لأمر اللّه استماعاً يكون مقدّمة للطاعة، وتأمر أخيراً بإطاعة أمره دون قيد أو شرط، وهذه الطاعة المطلقة مختصّة فى اللّه عزّ وجلّ، وما يظنّه البعض من أنّ عبارة: «فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ» نسخت الآية «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ» (آل عمران/ ۱۰۲) خطأ كبير لأنّ الآيتين تتحدّثان عن حقيقة واحدة، لأنّ حقّ التقوى ليس سوى أن يكون الإنسان متّقياً قدر ما يستطيع.

الآية الخامسة التى جاءت على لسان الكثير من الأنبياء عليهم السلام تأمر أوّلًا بالتقوى ثمّ طاعة الأنبياء وتقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ» وقد نقلت هذه العبارة نفسها عن لسان نوح وهود وصالح ولوط وشعيب والسيّد المسيح عليهم السلام فى القرآن الكريم (مرّة واحدة على لسان نوح (الشعراء/ ۱۰۸) ومرّتين على لسان هود (الشعراء/ ۱۲۶ و ۱۳۱) ومرّتين على لسان صالح

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۳

(الشعراء/ ۱۴۴، ۱۵۵) ومرّة على لسان لوط (الشعراء/ ۱۶۳) وشعيب (الشعراء/ ۱۷۹) ومرّتين على لسان المسيح (آل عمران/ ۵۰ والزخرف/ ۶۳) ومن المسلّم به هنا هو أنّ الطاعة ترتبط بالدرجة الاولى بمبدأ التوحيد وترك الوثنية ثمّ سائر التعاليم الدينية، ومثل هذه الطاعة هى طاعة لأمر اللّه لأنّهم لم يتحدّثوا إلّاعنه تعالى.

فى الآية السادسة حديث عن متابعة الأحكام الإلهيّة، وهى تعبير آخر عن الطاعة إضافةً إلى تصريح الآية بعدم اتّباع غيره، وهذا النفى والإثبات يوضّحان (توحيد الطاعة) وتقول:

«اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيكُمْ مِّنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ»، هذه الآية تبطل طاعة الغير أيّاً كان وفى أيّة حال إلّاأن ترجع طاعته إلى طاعة أمر اللّه عزّوجلّ.

وهذه الآية وأمثالها تشهد جيّداً أنّ أحكام البشر وآراءهم مهما كانت فهى ليست أهلًا للإتّباع (لامتلائها بالأخطاء إضافةً إلى عدم وجود دليل على وجوب طاعة الآخرين).

الآية السابعة وبعد التصريح بعدم امتلاك أى رجل مؤمن أو امرأة مؤمنة أى خيار أمام أمر اللّه ورسوله تقول: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِيناً».

إنّ الآية تُبيّن فى أوّلها وآخرها توحيد الطاعة وتعتبره علامة الإيمان ومعارضته تكون (ضلالًا مبيناً) وأى ضلال هو أوضح من أن يترك الإنسان أمر اللّه العالم الحكيم والرحمن والرحيم ويتوجّه لطاعة الآخرين؟!

الآية الثامنة تخاطب المؤمنين، وقد ذكرت شؤون مختلفة فى نزولها وكلّها تشهد على أنّ بعض الأشخاص يتقدّمون أحياناً على اللّه ورسوله بالإقتراحات ويقولون: لو أصدر

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۴

الأمر الفلانى لكان أفضل، فنزلت الآية تنذرهم بقولها: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ومن المسلّم به أنّ اللَّه لا مكان له حتّى يقول: لا تتقدّموا عليه، بل أنّ ذلك كناية عن عدم التقدّم عليه فى أى عمل أو كلام «۱».

على أيّة حال فإنّ الآية لا تعتبر طاعة الأمر الإلهى واجباً فحسب، بل تقول: كونوا بانتظار أوامره فى كلّ عمل، وبعد إصدار الأمر لا ينبغى عليكم التقدّم عليه أو التريّث فى امتثاله فالمسرعون والمبطئون مخطئون.

وقد جاء فى تفسير المراغى القول عن بعض علماء الأدب العربى: إنّ مفهوم التعبير (لا تقدّم بين يدى الإمام) هو: لا تعجّل عليه فى أداء الأعمال.

عبادة القادة والعلماء:

الآية التاسعة تذمّ اليهود والنصارى لكونهم جعلوا من علمائهم ورهبانهم آلهة من دون اللَّه الواحد: «اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبَانَهُم أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ» «۲».

وقد جعلوا من المسيح بن مريم معبوداً لهم أيضاً: «والمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» فى حين: «وَمَا

---

(۱) المراد من «تقدّموا» هنا هل هو بمعنى لا تتقدّموا أم لا؟ وقع كلام بين المفسّرين (الأوّل من باب التفعيل والثانى من باب التفعّل) ولكن جملة (بين يدى اللَّه ورسوله) فى الحالة الاولى يكون معناها عدم التقدّم على اللَّه ورسوله، وفى الحالة الثانية يكون مفهومها هو لا تقدّموا شيئاً على اللَّه ورسوله وأوامرهما والمعنى الأوّل هو الأنسب.

(۲) «احبار» جمع «حبر» أو «حِبر» ويعنى فى الأصل الأثر الجميل ثمّ اطلق على العالم والمفكّر بسبب الآثار الجميلة التى تبقى منهما بين الناس وهذه الكلمة تستعمل فى الغالب فى علماء اليهود وقد تطلق أحياناً على غيرهم كما لقّبوا ابن عبّاس ب (حبر الامّة).

«رهبان» جمع «راهب» وقال البعض: إنّ هذه الكلمة لها معنى المفرد والجمع وتعنى فى الأصل الشخص الذى يتّصف بخوف اللَّه ويظهر ذلك على أعماله، وتطلق عادةً على مجموعة (التاركين للدنيا) من النصارى وهى مجموعة هجرت الحياة والإكتساب والعمل بل والزواج أيضاً واشتغلوا بالعبادة فى الدير (مفردات الراغب، العين، نهاية ابن الأثير، وتفاسير الميزان، الكبير، روح المعانى؛ وروح البيان؛ والمراغى).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۵

امِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلهاً وَاحِداً لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ سُبْحانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ»، ومن المسلّم به أنّ اليهود والنصارى لم يعتقدوا بالوهية علمائهم ورهبانهم ولم يعبدوهم كما نعبد اللَّه تعالى أبداً، فلماذا إذن استعمل القرآن الكريم كلمة (ربّ) و (إله) فيهم؟!

وردت الإجابة عن ذلك فى رواية عن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام: «أما واللَّه ما صاموا لهم ولا صلّوا ولكنّهم أحلّوا لهم حراماً وحرّموا عليهم حلالًا فاتّبعوهم وعبدوهم من حيث لا يشعرون» «۱».

وقد ورد هذا الحديث بطرق متعدّدة اخرى فى المصادر الشيعية والسنّية ومنها ما نقرأه فى كتب عديدة: «عن عَدى بن حاتم قال: أتيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وفى عنقى صليب من ذهب فقال: ياعدى: اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ آية: اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللَّه. فقلت له: يارسول اللَّه لم يكونوا يعبدونهم فقال: أليس يحرّمون ما أحلّ اللَّه تعالى فيحرّمونه ويحلّون ما حرّم اللَّه فيستحلّونه؟ فقلت: بلى، قال: ذلك عبادتهم» «۲».

وبهذا يتّضح أنّ اتّباع وإطاعة أشخاص يأمرون على خلاف حكم اللَّه يكون لوناً من الشرك.

الآيـة العاشـرة والأخيرة تخاطب جميع البشـر: «أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُم يَابَنِى آدَمَ أَنْ لَاتَعبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» «وَأَنِ اعْبُدُونِى هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ».

ومن المسلّم به أنّه لا أحد يعبد الشيطان بمعنى الركوع والسجود والصلاة والصيام، فما هى العبادة التى نُهى عنها؟ هل هى شىء غير الطاعة؟ أجل، إنّهم حينما يستسلمون لما يريده الشيطان ويقدّمون أمره على أمر اللّه فانّهم مشركون وعبّاد الشيطان، والشرك هنا

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۳؛ وتفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۲۰ و ۱۲۱.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۱۰، ص ۷۵ وورد هذا المعنى فى تفاسير متعدّدة اخرى منها تفسير درّ المنثور بفارق طفيف.

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۶

بمعنى طاعة الأمر لا الركوع والسجود.

أين أخـذ اللّه تعالى هـذا العهـد من بنى آدم؟ فسّـره البعض بأنّه (عالم الذرّ) وفسّـره بعض أنّه وصايا الأنبياء لأقوامهم، ولكن الظاهر أنّ الآيـة تشـير إلى الوصايا التى تشـبه العهد الذى كان للّه تعالى عند هبوط آدم مع أولاده إلى الأرض، وقد قامت هذه الآية بتبيان ذلك:

«يَابَنِى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخرَجَ أَبَوَيكُم مِّنَ الجَنَّةِ». (الاعراف/ ۲۷)

وهكذا فى خطابها لآدم وزوجته بقولها «انَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (الاعراف/ ۲۲)

والآية ۱۱۷ من سورة طه تخاطب آدم عليه السلام: «فَقُلنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدوٌّ لَّكَ وَلِزَوجِكَ».

ومن المسلّم به أنّ مثل هذا العدو يكون عدوّاً لأبنائه أيضاً، لأنّ مخالفته لم تكن مع آدم فقط بل مع جميع نسله، ولذا أقسم من البداية:

«قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمتَ عَلَىَّ لَئِن أَخَّرتَنِ الى يَومِ القِيَامَةِ لَأَحتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». (الاسراء/ ۶۲)

وقوله اللّه تعالى: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغوِيَنَّهُم أَجمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمخْلَصِينَ».

(ص/ ۸۲- ۸۳)

توضيحان

۱- اللّه تعالى هو المطاع المطلق

من مجموع الآيات السابقـة يسـتفاد جيّـداً أنّ اللّه تعالى وحـده هو (واجب الطاعـة) فى النظريـة الإسـلامية وفى المنظار القرآنى وهكذا الـذين تُعتبر طـاعتهم طاعـة للّه‌تعـالى، وكلّ طاعـة وتسـليم أمام الأحكام والأوامر المخالفـة لأمر اللّه يُعـدّ لوناً من الشـرك والوثنيـة فى المنظار القرآنى.

وعليه فإنّ لزوم طاعة النبى والأئمّه: والوالدين هو بأمر اللّه كما يقول القرآن: «وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ». (النساء/ ۶۴)

كما يمكن إثبات هذه المسألة بالدليل العقلى، لأنّ المطاع المطلق هو من يكون عالماً

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۷

بكلّ شىء وحكيماً وخبيراً ومنزّهاً عن كلّ خطأ ورحيماً وقد اجتمعت هذه الصفات فى ذات اللّه المقدّسة فقط.

وإرادة الحكّام والأصدقاء والأبناء والأرحام والامنيات القلبية إن لم تتناسق مع إرادة اللّه فإنّ طاعتها تكون شركاً.

يقول الإنسان الموحّد: لو انحرفت عن طاعة اللّه قيد أنملة فانّى قد أشركت لأنّى جعلت له ندّاً فى طاعته.

۲- توحيد الطاعة فى الروايات الإسلامية

۲- توحيد الطاعة فى الروايات الإسلامية

إنَّ الأحاديث المختلفة التى وردت فى مصادرنا الإسلامية أكّدت على هذه المسألة أيضاً وهى أنّ أحد شعب الشرك هو الشرك فى الطاعة ومن هذه الروايات:

أ) ورد فى الحديث النبوى: «لا طاعة فى معصية اللَّه إنّما الطاعة فى المعروف» «۱».

ب) ونقرأ فى نهج‌البلاغة عن أميرالمؤمنين عليه السلام: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» «۲».

ج) وحديث عن‌الإمام الصادق عليه السلام: «من أطاع رجلًا فى معصية فقد عبده» «۳».

د) فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام وهكذا عن الإمام الجواد عليه السلام: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده، فإن كان الناطق يؤدّى عن اللَّه فقد عبد اللَّه، وان كان الناطق يؤدّى عن الشيطان فقد عبد الشيطان» «۴».

ه) ونختم هذا الكلام بحديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «لا دين لمن دان بطاعة المخلوق فى معصية الخالق» «۵».

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۳، ص ۱۴۶۹.

(۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۶۵.

(۳) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۹۱، ح ۸.

(۴) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۹۱، ح ۹، وتحف العقول، ص ۳۳۹ (باختلاف يسير).

(۵) بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۳۹۳، ح ۶ (وهذا المضمون ورد أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام فى أصول الكافى، ج ۲، ص ۲۷۳، ح ۴).

نفحات القرآن، ج۳، ص: ۲۹۸

تتّضح من هذه الروايات الصريحة والقاطعة النظرية الإسلامية فى مسألة الشرك وتمييز الموازين الإسلامية فى توحيد الطاعة.

إلهنا: إنّ سلوك طريق التوحيد معقّد ومشكل، فاهدنا أنت فى هذا الطريق الملتوى.

الهنا: إنّ جهات مختلفة تدعونا لطاعتها من كلّ جهة، فالهوى من الداخل، وشياطين الجنّ والإنس من الخارج، ونحنُ نرغب فى طاعة أمرك وحدك، فكن لنا عوناً وناصراً فى هذا الطريق.

الجزء الرابع

اشارة

الاهداء:

إلى الذين يعشقون القرآن.

إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر.

وإلئ الذين يريدون ان يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴

بمساعدة العلماء الافاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتيانى.

محمد جعفر الامامى.

عبد الرسول الحسنى.

محمد الأسدى.

حسين الطوسى.

سيد شمس الدين الروحانى.

محمد محمدى الاشتهاردى.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵

معرفة صفات جمال وجلال اللَّه سبحانه

اشارة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷

تمهيد:

هناك ثلاث مسائل تعترضنا لدى البحث عن معرفة اللَّه سبحانه وتعالى وهى: «البحث عن ذات اللَّه» و «إدراك وجود اللَّه» و «معرفة اللَّه».

ف (البحث عن ذات اللَّه) يشير إلى دوافع معرفة اللَّه.

و (ادراك وجود اللَّه) يشير إلى مسألة إثبات وجود اللَّه.

و (معرفة اللَّه) يعنى البحث عن صفاته عزّ وجلّ.

وكمثالٍ بسيط فإنّه يُمكن تشبيه البشر بالعطاشى الذين يبحثون عن الماء فى الصحراء، فبعد أن يعثروا على عين الماء فإنّهم يحاولون التعرُّف على صفات ذلك الماء الصافى.

«البحث عن ذات اللَّه»: أمرٌ فطرى تدعمه وتقويه الدلائل العقلية، فكما أنّ العطاشى ينطلقون للبحث عن الماء بدافعٍ غريزى وآخر عقلىٍّ نابعٍ من استدلالهم على توقف حياتهم على شرب الماء، فكذلك الإنسان يبحث عن الكمال المطلق المتمثل بذات البارى سبحانه وتعالى، وذلك لأنّه «أى الإنسان» مجبول على عشق الكمال.

وكذلك بالنسبة إلى «إدراك وجود اللَّه»، فإنّه بسبب دلائله الواضحة، وبالأخص الدلائل النابعة من التفكُر بأسرار الخلق، فليس بالأمر العسير أو المعقد.

أمّا العسير والمعقّد فهو «معرفة اللَّه»، لأنّ نفس مخلوقات الطبيعة التى تُعد أفضل دليلٍ ومرشدٍ للإنسان فى مسير إدراك وجود اللَّه، يُمكنُها أن تخدعه فى سلوكه إلى (معرفة اللَّه)، وتجرّه إلى هاوية القياس والتشبيه الخطرة (كما سيأتى شرح ذلك فيما بعد).

ينبغى الإشارة إلى هذه النقطة أيضاً، وهى: أنّ صفات اللَّه هى عين ذاته غير متناهية وأسماؤهُ التى توضّح صفاته لا تُعد ولا تحصى أيضاً، لأنّ كل اسمٍ من أسمائه عزّ وجل يدلّ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸

على أحد كمالات ذاته المقدّسة، فذاته غير محدودة وكمالاته غير محدودة كذلك، ومن البديهى أنّ الصفات الكماليّة والأسماء التى تحكى عنها لا حصر لها أيضاً، لكن مع ذلك فإنّ قسماً من هذه الأسماء والصفات تعدّ أصولًا، وما سواها فهو فرعٌ من تلك الاصول.

فمثلًا كون اللَّه سبحانه وتعالى «سميعاً» و «بصيراً»، فهذا يُعد فرعاً من علمه عزّ وجلّ، لأنّ المقصود هو اطلاعه على المسموعات

والمشهودات لا امتلاكه للعين والاذن.

وكذلك كونه تعالى «أرحم الراحمين» و «أشدّ المعاقبين»، فهذه متفرّعة من حكمته، وذلك لأنّ الحكمة هى التى تقتضى أن يرسل رحمته فى مكانٍ ونقمته فى مكانٍ آخر.

طريقٌ مملوء بالورود والأشواك:

إنَّ من السهل معرفة اللَّه وإدراك وجوده عزّ وجلّ- وخاصةً عن طريق التفكُّر بعالم الوجود-، ولكن بقدر ما تكون معرفته تعالى سهلةً، فإنّ فهم وإدراك صفاته صعب للغاية، وذلك لأنّنا نمتلك فى مرحلة إدراك وجود اللَّه أدلّة بعدد نجوم السماء وأوراق الأشجار وأنواع النباتات والحيوانات، بل بعدد خلايا كل نباتٍ وحيوان، وبعدد ذرات الكون، وكلّها تدل على أصل وجوده عزّ وجلّ.

وبما أنّ سلوك الطريق الصحيح المتمثّل بتنزيهه عزّ وجلّ عن صفات مخلوقاته وترك تشبيهه تعالى بمخلوقاته هو الشرط الأول فى معرفة صفاته، فإنّ الأمر يصبح معقداً.

والدليل على ذلك واضحٌ أيضاً، فقد ترعرعنا فى أحضان الطبيعة وتطبّعنا بطباعها، وكل ما رأيناه وسمعناه ينحصر فى إطار الحوادث الطبيعيّة، وهذه الطبيعة بذاتها أعانتنا على معرفة اللَّه أيضاً.

ولكننا عندما نصل إلى بحث صفاته تعالى فإننا لا نجد حتّى صفة واحدة من صفاته يُمكن قياسها ومقارنتها بما رأيناه وسمعناه، وذلك لأنّ صفات المخلوقين ينقصها الكمال دائماً، وصفاته عزّ وجلّ منّزهة عن أى نقصٍ وهى عينُ الكمال.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹

وعليه فإنّ نفس هذه الطبيعة التى تعتبر أفضل معينٍ ومرشدٍ لنا فى طريق معرفة وإدراك وجوده تعالى فانّها تصبح أحياناً عائقاً لنا فى طريق معرفة صفاته.

لذلك يجب علينا رعاية جوانب الاحتياط عند سلوك طريق معرفة صفات اللَّه قدر الإمكان كى نكون فى مأمنٍ من الوقوع فى محذور التشبيه والقياس.

إنّ ما ذكرناه يمثل لمحة خاطفة، ولننطلق الآن إلى مطالعة الآيات النازلة فى هذا المجال:

۱- «وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ».

(الاعراف/ ۱۸۰)

۲- «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ». (الشورى ۱۱)

۳- «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَانتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». (النحل/ ۷۴)

۴- «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً احَدٌ». (الاخلاص/ ۴)

۵- «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». (الصافات/ ۱۵۹)

۶- «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ انَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ». (الحج/ ۷۴)

۷- «يَعْلَمُ مَا بَينَ ايْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُم وَلَا يُحيطُونَ بِهِ عِلْماً». (طه/ ۱۱۰)

شرح المفردات:

«مَثَلْ»: فى الأصل من مادة (المُثُول)، وهو بمعنى الوقوف باعتدال، ويُطلق على الصور التى تلتقط أو ترسم من شىء معين اسمهُ (التمثال)، أى وكأنه بنفسه واقفٌ هناك، ويُطلق على أى شىء مشابه لشىءٍ آخر (مثال)، وأمّا الحديث الذى يشابه حديثاً آخر ويوضّحه فَيُطلق عليه كلمة (مَثَل).

وقال جماعة: إنّ الفرق بين (المماثل) و (المساوى) هو أنّ الأول يُطلق على الشيئين المتشابهين فى الجنس، أمّا الثانى فيُطلق على الشيئين المتشابهين فى الكميّة والحجم، لكنّهما قد يكونان متشابهين وقد يكونان مختلفين فى الجنس.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰

وقد وردت كلمة (مَثَلْ) بمعنى (الصفة)، وقد تُطلق أحياناً على الصفات الجذّابة والقصص العجيبة أيضاً، لذا فإنّ كلمة (أَمْثَل) تأتى بمعنى (نموذج).

و «المُثْلَة»: تعنى قطع بعض أعضاء بدن شخص لتعذيبه ومعاقبته، وبالواقع إنّ من يرتكب هذا العمل (التمثيل بالغير)، يقصد إفهام الآخرين وتحذيرهم من ملاقاة نفس هذه العقوبة فى حال ارتكابهم (مِثْلَ) ما ارتكب هذا الشخص، لذا فقد وردت كلمة (مَثُلات) بمعنى (العقوبات)، العقوبات التى تصير عِبَراً للآخرين لكى لا يرتكبوا (مِثْلَ) أعمال الماضين «۱».

«كُفْو»: تعنى الشباهة فى المنزلة والمقام، و (المكافاة) أيضاً مأخوذة من نفس هذا المعنى لأنّها بمعنى المساواة والمقابلة بالمثل، (إكفاء) تأتى بمعنى قلب الإناء رأساً على عقب، أى وكأنّ الظاهر والباطن يتشابهان.

وقد ورد فى مقاييس اللغة بأنّ لهذه الكلمة معنيين، فأحياناً تأتى بمعنى (المساواة) بين شيئين، وأحياناً أُخرى بمعنى (التمايُل والإنحراف)، فى حين نجد أنّ الراغب أرجعهما إلى معنىً واحد، وهو ما ذكرناه أعلاه.

«الصفة»: من مادة (وصف)، وهى فى الأصل بمعنى ذكر محاسن ومحسّنات شىء معين، ويُطلق على هذه الحالة كلمة (وصف).

وهى ذات معنىً أوسع فتُطلق على كل ألوان التوصيف الصالح والطالح.

يقول (إبن منظور) فى (لسان العرب): (التوصيف) بمعنى (التزيين)، و (الصفة) تعنى (الزينة).

وقد ورد نفس هذا المعنى فى (مقاييس اللغة) أيضاً، لكنّه وكما ذكرنا أعلاه فقد استعملت بمعنى أوسع فيما بعد.

وقد يُطلق أحياناً على (الخادم) و (الخادمة) لفظ (الوصيف) و (الوصيفة)، وسبب ذلك هو أنّ الغلام أو الأَمَة عندما كانا يُباعان ويُشتريان تُذكر صفاتهما ومزاياهما للزبائن.

---

(۱) مفردات الراغب؛ مقاييس اللّغة؛ لسان العرب؛ ومجمع البحرين.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱

جمع الآيات وتفسيرها

ليس كمثله شىء:

تُشير الآية الاولى إلى حالة المشركين الذين كانوا يُحرّفون أسماء اللّه التى كانت تبيّن صفاته، وتحذّرهم من هذا العمل: «وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى أسماءٌ تعكس صفاته كما هى:

«فَادُعُوهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمائِهِ».

«إلحاد»: و (لَحْد) على وزن (مَهْدْ)، بمعنى الانحراف عن حد الإعتدال (الحد الوسط) إلى أحد الجانبين، وسمّى (اللّحد) الذى يحفر فى القبر بهذا الاسم لأنّه يُحفَرُ فى أحد جانبى القبر لتوضع الجنازة فيه حتى لا يصلها التراب الذى يُهال على القبر «۱».

وأمّا معنى «الالحاد فى أسماء اللّه تعالى فى هذه الآية، فالكثير من المفسّرين يرون بأنّه ذو مفهوم عام يشمل ثلاثة امور:

الأول: هو أنّ المشركين كانوا يشتقّون أسماء أصنامهم من أسماء اللّه كاللات والعزّى ومناة التى كانوا يعتقدون بأنّها مشتقّة من كلمة اللّه، والعزيز، والمنّان على الترتيب.

الثانى: هو أنّه ينبغى أن لا يُدعى اللَّه بالأسماء التى لا يرتضيها لذاته ولا تليق به عزّ وجلّ أو مشوبة بالنقائص والعيوب الخاصّة بالممكنات (المخلوقات) مثل كلمة أب التى أطلقها المسيحيّون على اللَّه تعالى

الثالث: أن لا يُسمّى اللَّه بالأسماء المبهمة.

وبتعبيرٍ آخر فإنّه لا يجوز تشبيه اللَّه بما سواه ولا تعطيل فهم صفاته ولا تسمية من سواه بأسمائه عزّ وجلّ.

كل ذلك يُشير بصورة واضحة إلى وجوب ملازمة جانب الاحتياط التام فى بحث صفات اللَّه والحذر من تسميته ووصف ذاته المقدّسة بأسماء وصفات هى من شأن الموجودات الناقصة.

لذا فقد اعتقد الكثير من العلماء بأنّ أسماء اللَّه توقيفيّة، أى لا يُمكن وصفه وتسميته إلّا

---

(۱) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲

بالصفات والأسماء الواردة فى الآيات والروايات المعتبرة فقط. (وسيأتى شرح هذا الكلام فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه تعالى .

أمّا الآية الثانية فقد نفت ولاية وربوبية وألوهية من سواه، وأكدّت خالقيته للسموات والأرض.

قال تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ».

ونظراً لكون كاف التشبيه فى كلمة «كمثله» هى بذاتها تعنى المثل فإنّها جاءت مع «مثله» للتأكيد (وقد عبّر عنها البعض بالحرف الزائد وهو يستعمل للتأكيد أيضاً).

على هذا يكون معنى الآية هو: ليس كمثله شىء وما نعرفه وما لا نعرفه، فهو تعالى ليس له نظير من أى جهة، وذلك لأنّه وجود مستقل بذاته ولا نهاية له وغير محدودٍ من جميع الجهات، لا فى علمه، ولا فى قدرته، ولا فى حياته، ولا فى إرادته و .....

وأمّا ما سواه من الموجودات فهى تابعة ومحدودة ومتناهية وناقصة. لذا لايوجد وجه شبه بين وجوده الذى يمثّل الكمال المطلق وبين النقصان المطلق (أى الموجودات الإمكانيّة)، فهو الغنى المطلق، ومن سواه فقير ومحتاج فى كلّ شىء.

وما نقله بعض المفسّرين من أنّ نفى التشبيه الوارد فى الآية أعلاه يختص بنفى التشبيه فى الذات، أى ليس كذاته المقدّسة شىء، ولا يشمل الصفات، من حيث وجود بعض صفاته كالعلم والقدرة و ... فى الإنسان أيضاً فهو خطأ كبير، فإنّه سيأتى فى بحث العلم والقدرة وغيرهما بأنّ مثل هذه الصفات ليس بينها وبين علمنا وقدرتنا أى لونٍ من الشبه، فإنّ اللَّه تعالى موجود، ونحن موجودون أيضاً، لكن الفرق شاسعٌ جدّاً بين الوجودين!؟ وهكذا صفاته وصفات مخلوقاته.

وعلى أيّة حال فهذا أصلٌ أساسىٌ فى بحث معرفة اللَّه ومعرفة صفاته، وهو أن ننزّهه تعالى عن المثيل والشبيه ونُعِدّه أكبر من القياس والظن والوهم، وأن نلتفت إلى أنّ الأوصاف

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳

التى نصفه بها يجب أن تكون خالية من كل عيبٍ ونقصٍ وعارضٍ مادى وجسمانيٍ وإمكانى.

جَلَّ المُهَيمِنُ أنْ تُدرَى حَقِيقَتُهُ مَنْ لالَهُ المِثْلُ لا تَضْرِبْ لَهُ مَثَلًا والآية الثالثة تُشير إلى نفس محتوى الآية الثانية بشكلٍ آخر، فبعد أن سفهت الآية آلهة الوثنيين التى لا تستطيع أن تهب للبشر أىّ رزقٍ فى السموات والأرض قالت: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَانتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

وبديهى فإنّ الوجود إذا كان واحداً متفرداً من جميع الجهات فانّه ليس له شبيه أو كفؤ لكى يكون له مثلًا.

ولقد جاء فى بعض التفاسير بأنّ هذه الآية تُشير إلى قول مشركى الجاهلية وحتى بعض مشركى عصرنا الحاضر فى أنّ اللَّه أكبر من أن نعبُدَهُ نحن، لذا فنحن يجب أن نعبد موجودات من سنخنا وفى متناول أيدينا، فهو بالضبط كالملك الكبير العظيم الذى لا يستطيع عامة

الناس الوصول إليه، لذا تراهم يقصدون وزراءه وخواصّه ومقرّبيه الذين يُمكن الوصول إليهم.

القرآن الكريم يقول: لا تضربوا للّه‌مثلًا من قبيل هذه الأمثال، فهو أعزُّ وأجَلُّ من أن يشبه بالملك الضعيف، فهو موجودٌ فى كل مكان، فى قلوبكم وأقرب إليكم من أنفسكُم، علاوةً على ذلك فهو لا ـ شبيه له ولا ـ مثيل لكى يعكس وجوده فتعبدوه، فالأصنام وجميع المخلوقات الاخرى مثلكم مخلوقة وتابعة ومحتاجة إلى وجوده عزّ وجلّ.

ويُمكن أن تكون جملة: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَانتُمْ لَاتَعْلَمُونَ» إشارةً وتنبيهاً إلى أنّكم لا تعلمون كنه ذاته وصفاته، وضرب الأمثلة له ينبع من جهلكم هذا، فاللّه تعالى يحذّركم من ترديد هذا الكلام.

ومن هنا يتّضح أنّ ما ورد فى قوله تعالى: «اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ وَالأَرضِ» (النور/ ۳۵)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴

أو فى قوله تعالى: «وَنَحنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

لا يتنافى أبداً مع عدم وجود مثل له سبحانه، وذلك لأنّ المراد هو نفى وجود مثل أو مثال حقيقى له، فهذه جميعاً أمثلة مجازيّة أنتُقيت لتقريب تلك الحقيقة، التى لا مثيل لها، فى الأذهان.

لذا فقد قال تعالى فى ذيل نفس هذه الآية: «وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَال لِلنَّاسِ».

(النور/ ۳۵)

ليدركوا الحقائق طبعاً.

وفى الآية الرابعة من بحثنا وهى الآية الأخيرة من سورة التوحيد، نفى سبحانه وجود أى شبيه أو مثيل أو نظير أو كفؤ له حيث قال: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً احَدٌ».

نفى اللّه تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: (أحد)، ونفى النقص والمغلوبية بلفظ (الصمد)، ونفى المعلولية والعلّية ب «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد»، ونفى الأضداد والأنداد بقوله: «وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أحَد».

وبهذا فقد نفى سبحانه عن ذاته المقدّسة جميع صفات المخلوقات وعوارض الموجودات المختلفة وأى لونٍ من المحدوديّة والنقص والتغير والتحول، التى هى من عوارض الممكنات.

ولقد جاء فى تفسير الفخر الرازى بأنّ الآية الأولى من سورة التوحيد نفى بها اللّه تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحدٌ»، ونفت كلمة (صمد) النقص والمغلوبية، و: «لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ» المعلوليّة والعليّة: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ» الأضداد والأمثال عن ذاته المقدّسة، وذلك لأنّ الكفؤ بمعنى النظير ويُمكن أن تشمل كلا المعنيين (المثل والضد) «۱».

ويقول أيضاً: بأنّ الآية التى هى محلُّ بحثنا تُبطل مذهب المشركين حيث يزعمون بأنّ

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۸۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵

الأصنام أكفاء له وشركاء، فى الوقت الذى نفت الآيات التى سبقتها مذهب اليهود والنصارى الذين جعلوا له ولداً، ومذهب المجوس الذين كانوا يعتقدون بإلهين (إله النور وإله الظلام) «۱».

وفى الآية الخامسة نواجه تعبيراً جديداً فى هذا المجال، حيث قال تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ».

وبالرغم من أنّ هذه الجملة قد وردت بتفاوتٍ مختصر فى ستِّ آياتٍ من القرآن الكريم «۲» تنفى الولد والصاحبة للّه‌تعالى أو تنفى الكفؤ والنضير من الأصنام- بقرينة الآيات التى سبقتها، لكنها فى الواقع تحتوى على معنىً عميق يشمل كلّ ألوان التوصيف، لأنّ التوصيف الذى يصدر منّا عادة يكون شبيهاً لما فى المخلوقات والممكنات، وآخر مايمكن أن نصفه به سبحانه هو أن نقول: (اللّه أكبر

من أن يوصف) وأعلى من الخيال والقياس والظن والوهم، وأعظم ممّا رأينا وسمعنا وقرأنا وكتبنا، أجل إنّه منزّهٌ عن الوصف.

ولو جئنا إلى الآية السادسة من بحثنا نلاحظ تعبيراً جديداً فى هذا المجال أيضاً حيث يقول: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» أى المشركون.

لأنّهم قد قاسوه بمخلوقاته وجعلوا له شريكاً وكفؤاً فى حين أنّه ليس له كفؤاً أحد.

ومن سواه ضعيفٌ ومغلوب، ونقل بعض المفسّرين بأنّ هذه الآية نزلت بخصوص جماعة من اليهود الذين كانوا يقولون بأنّ اللَّه عندما فرغ من خلق السموات والأرضين تعب! واستلقى على ظهره واستراح! ووضع احدى رجليه على الاخرى.

فنزلت هذه الآية فوبختهم وخطّأتهم لأنّهم لم يقدّروا اللَّه عزّ وجلّ حق قدره وشبّهوه بمخلوقاته.

ومع أنّ الآية المذكورة تنفى كلام المشركين (عبدة الأوثان) إلّاأنّها ذات مفهوم عميق

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۸۵.

(۲) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۸۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶

وواضح، لذا فإنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ اللَّه لا- يوصفُ وكيف يوصف وقد قال فى كتابه: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ» فلا يُوصف بقدرٍ إلّاكان أعظم من ذلك» «۱»

.

وكذلك فقد ورد فى الخطبة ۹۱ من نهج البلاغة:

«كَذَبَ العادِلُوْنَ بِكَ، إِذْ شَبَّهُوْكَ بِأَصْنامِهِم، وَنَحَلُوْكَ حِلْيَةَ الْمَخْلُوقينَ بِأَوْهامِهِم وَجَزَّأُوْكَ تَجْزِئَةَ الْمُجَسَّماتِ بِخَواطِرِهِمْ وَقَدَّرُوْكَ عَلَى الخِلْقَةِ الْمُخْتَلِفَةِ الْقُوَى بِقَرائِحِ عُقُوْلِهِمْ» «۲».

وفى الآية السابعة والأخيرة من بحثنا، نلاحظ أنّه تعالى قال ضمن إشارته إلى حال المجرمين والمذنبين يوم القيامة ومثولهم فى محكمة العدل الإلهيّة الكبيرة: «يَعْلَمُ مَا بَينَ ايْديهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً».

لقد ذُكرت فى تفسير هذه الآية عدا ما ذكرناه أعلاه احتمالات اخرى من جملتها هى أنّها تعنى بأنّ اللَّه عليم بأعمالهم وجزائهم، لكنهم ليس لهم علم واطلاع كامل لا على أعمالهم ولا على جزائها وما أكثر ماتناسوه منها، لكن التفسير الأول أقرب- حسب نظرنا.

وعليه فإنّ هذه الآية تقول: بأنّ البشر عاجزون عن الاحاطة العلمية بكنه ذاته المقدّسة أو بكُنه صفاته، وذلك لأنّه أعلى وأعظم من ظنوننا وعقولنا، فكيف يمكن أن تحيط به الخلائق، فى حين أنّ هذه الاحاطة تستلزم محدوديته تعالى وهو منزّهٌ عن كل أنواعها!؟

نتيجة البحث:

يتبيّن ممّا ورد فى الآيات أعلاه بأنّ صفات المخلوقين ليست لها أدنى شبه بصفات ربّ

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱ (باب النهى عن الصفة بغير ماوصف به نفسه)، ح ۸۱- لاحظوا أنّ الآية أعلاه قد وردت فى ثلاث مواضع من القرآن الكريم هى: الأنعام، ۹۱؛ الحج، ۷۴؛ الزمر، ۶۷، وفى موردين منها بحرف واو.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱ (خطبة الأشباح).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷

العالمين، وإنّ أى لون من قياسه بمن سواه يؤدّى إلى الضياع والضلال والسقوط فى هاوية التشبيه.

فهو ليس كمثله شىء.

وليس له كفؤٌ أو نظير.

ولا يسعه وصف.

ولا يستطيع أحد أن يُحيط به علماً.

وعليه يجب رعاية الاحتياط التام عند سلوك طريق معرفة صفاته.

أجل فإنّ كُنه وحقيقة صفاته لا تتجلّى لأحد، وما يُمكن أن يحصل عليه البشر هو العلم الإجمالى بها بشرط نفى المحدوديات الموجودة فى صفات المخلوقين عنه، وصياغة مفهوم جديد فى قالب هذه الألفاظ.

ونختم الكلام بحديثٍ منقولٍ عن أمير المؤمنين على عليه السلام ورد فى تفسير الآية الأخيرة:

سأل رجلٌ أمير المؤمنين عليه السلام عن تفسير هذه الآية فأجابه عليه السلام: «لا يُحيطُ الخَلائقُ بِاللَّهِ عَزَّوَجَلَّ عِلْماً إذْ هُو تَبارَكَ وَتَعالى جَعَلَ عَلَى أبْصارِ الْقُلُوبِ الغِطاءَ، فَلا فَهْمَ يَنالُهُ بِالْكَيْفِ، وَلا قَلْبَ يُثْبِتُهُ بِالْحَدُوْدِ، فَلا تَصِفْهُ إلّاكما وَصَفَ نَفْسَهُ، لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيىءٌ وَهُو السَّميعُ البَصيرُ ...» «۱».

توضيحات

۱- لا تشبيهٌ ولا تعطيل

لقد سلكت كلّ جماعةٍ طريقاً خاصّاً فى البحث حول صفات اللَّه الذى يُعَدُّ من أعقد وأصعب مباحث معرفة اللَّه فوقعوا فى ورطة الافراط والتفريط.

فالبعض قد غاصوا فى دوّامة التعطيل إلى درجة أنّهم قالوا: إننا لا نفهم شيئا من صفات اللَّه تعالى سوى تلك المفاهيم السلبية، فمثلًا عندما نقول بأنّ اللَّه عالمٌ فإننا نفهم من ذلك نفى

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۹۴.

الجهل عنه، وعندما نقول بأنّه قادر فإننا نفهم منه نزاهته عن العجز، أمّا ماهيّة علم اللَّه وقدرته فإننا لا نفهم عنها شيئاً على الاطلاق، وهذه العقيدة تُدعى بعقيدة التعطيل (أى تعطيل معرفة الصفات).

ومن جهةٍ اخرى فقد غار آخرون فى دوّامة التشبيه لدرجة بحيث لم يكتفوا فقط بوصف اللَّه تعالى بصفات الماهيّات الممكنة فقط، بل جسّموه وذكروا له يداً ورجلًا ووجهاً وما شاكل ذلك، فقد أوجدوا فى مخيّلتهم إلهاً كالإنسان بالضبط بجميع صفاته الظاهريّة والباطنية، إلهاً يمكن رؤيته ومشاهدته، وله مكان محدود وتعترضه حالات مختلفة! وبهذا فقد تورّطوا بأتعس أنواع الشرك.

ومن أجلِ أن نعلم إلى أيّة درجةٍ سقطت هذه الجماعة فى هاوية الكفر والشرك، يكفى أن نسمع المقالة المعروفة للمحقق الدوّانى بخصوص المشبّهة، حيث قال:

«اعتقد جماعة منهم بأنّ للَّهجسماً حقّاً، وهؤلاء بذاتهم ينقسمون إلى عدّة فئات، فئة تقول: إنّ جسمه مركّبٌ من لحمٍ ودم، وقالت فئة: بأنّه- تعالى نور لامع كسبيكة الفضة البيضاء! وطول قامته سبعة أشبار من أشباره!.

وقالت جماعة اخرى: بأنّه يشبه الإنسان، وهم ينقسمون إلى عدّة فئات، فئة اعتقدت بأنّه فتىً فى ريعان شبابه لم ينبت الشعر فى وجهه بعد، وشعر رأسه مجعّدٌ قصير: والفئة الاخرى اعتقدت بأنّه رجلٌ كهلٌ ذو لحية بيضاء سوداء وغيرها من قبيل هذه الخرافات» «۱».

وممّا يُفهم من الآيات القرآنية، فإنّ كلا المعتقدين- التعطيل والتشبيه- باطلان، لأنّ القرآن دعا الناس إلى معرفة اللَّه من جهة، وعرّف

ذاته وصفاته المقدّسة فى العديد من الآيات الشريفة ممّا يدلّ على إمكانية معرفة اللّه الإجمالية وبطلان مُعتقد التعطيل.

ومن جهةٍ اخرى فقد نزّه القرآن الذات المقدّسة من أى شبيه ومثل ونظير وكُفء، ممّا يدلّ على بطلان مُعتقد التشبيه.

وعليه فالحق هو ذلك الطريق الدقيق الواقع بين هذين الأثنين. والذى يقول: بأنّ معرفة

---

(۱) بحار الانوار، ج ۳، ص ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹

اللّه الإجماليّة ليست ممكنة فقط بل لازمة أيضاً، أمّا معرفة اللّه التفصيليّة، أى التوصل إلى حقيقة وكنه الصفات والذات الإلهيّة المقدّسة، والاحاطة العلميّة بها، فهى غير ممكنة.

۲- لم لايصل العقل إلى كُنه ذاته وصفاته؟

لقد أشرنا سابقاً إلى دليل هذا الموضوع، ونذكره هنا بشى من التفصيل فنقول: إنّ النقطة الأساسيّة تكمن فى نزاهة الذات الإلهيّة المقدّسة عن المحدودية من جهة، ومحدوديّة عقولنا وعلومنا من جهة اخرى

فاللّه عز وجل وجودٌ لا نهاية له من جميع الجهات (كما أثبتنا ذلك فى البحوث السابقة)، فذاته كصفاته غير محدودة وغير متناهية، ومن جهةٍ اخرى فنحن محدودون، وجميع مايتعلق بنا من علمنا وقدرتنا وحياتنا والمكان والزمان الذى نعيش فيه، محدود أيضاً.

وعلى هذا فكيف يمكننا مع هذه المحدوديّة أن نحيط بذلك الوجود اللامحدود وصفاته؟ وكيف يستطيع علمنا المحدود أن يخبر عن ذلك الوجود اللامحدود؟

أجل، إنّه بإمكاننا فى عالم الفكر والتفكُّر أن نلمح شبحاً من بعيد، ونشير إجمالًا إلى ذاته وصفاته، أمّا الوصول إلى كُنه ذاته وصفاته، أى الاحاطة التفصيلية به، فهى غير ممكنة بالنسبة لنا- هذا من ناحية.

ومن ناحية اخرى فإنّ الوجود اللامتناهى ليس له مثيل أو نظير من كل ناحية، وفرد لا كفؤ له، فلو كان له كفؤ أو نظير لكان كلاهما محدودين (ورد تفسير هذا المعنى بصورة كاملة فى أبحاث التوحيد فى المجلد الثالث من هذا التفسير).

فكيف يمكننا أن ندرك وجوداً لا نعرف له كفؤاً ولانظيراً أبداً؟، وكل ما نراه من الممكنات هو غيره، وصفاته تتفاوت تماماً عن صفات واجب الوجود «۱».

---

(۱) إن لم يكُن عجباً فإننا لانستطيع أن نتصور حتى مفهوم (اللامتناهى) فإن قيل لنا كيف تستعملون كلمة (اللامتناهى) إذن؟ وتتحدثون عنها وعن أحكامها؟ فهل يمكن التصديق بدون التصوّر؟!

فى الاجابة عن ذلك نقول: إننا أخذنا هذا المصطلح من كلمتين هما (لا) أى النفى والعدم و (متناهى) أى بمعنى (المحدود)، أى أن نتصور هاتين الكلمتين منفصلتين عن بعضهما (لا ومتناهى) اولًا ثم نركبهما مع بعضهما لنشير بهما إلى موجودٍ لايسعه الخيال والتصور فنحصل منها على معنى إجمالى (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰

نحن لا نقول بأنّنا نجهل أصل وجوده- سبحانه- ولا نعرف شيئاً عن علمه وقدرته وإرادته وحياته، بل نقول بأنّ لدينا معرفة إجمالية عن جميع هذه الامور ولا يمكننا أن ندرك كُنهها وعمقها بتاتاً، وقد حارت عقول جميع عقلاء وحكماء العالم- دون استثناء- فى هذا الطريق.

۳- النهى عن التشبيه فى الروايات الإسلاميّة

بما أنّ منزلق التشبيه الخطر يواجه جميع السائرين فى طريق معرفة اللَّه، فإننا نجد تحذيرات كثيرة وردت فى الروايات الإسلامية فى هذا المجال مع العلم أنّ كنوزاً وفيرة من العلم والحكمة والإرشادات الدقيقة وردت فى الأحاديث الشريفة المرويّة عن أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد، وكنموذج منها ننقل عدّة روايات من الكافى:

۱- قال أمير المؤمنين فى خطبة الأشباح:

«وَأشهدُ أنَّ من ساواكَ بِشَىءٍ مِنْ خَلقكَ فقَدْ عَدلَ بِكَ، وَالعادلُ بِكَ كافِرٌ بِما تَنَزَّلَتْ بِهِ مُحْكَماتُ آياتِكَ، وَنَطَقَتْ عَنْهُ شَواهِدُ حُجَجِ بيِّناتكَ، وَإنّكَ أنتَ اللَّهُ الَّذى لَمْ تَتَناهَ فى العُقُولِ فَتَكُونَ فى مَهَبِّ فِكرها مُكيَّفاً، وَلا فى رَوِيَّات خَواطِرها فَتَكُونَ مَحدُوداً مُصَرَّفا» «۱».

۲- ورد فى الحديث الشريف عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى هذا المجال توضيح جميل فى جوابه لأحد المحدّثين باسم (أبو قرّة) عند سؤاله عن التوحيد، حيث قال أبو قرّة للإمام: إنا روينا أنّ اللَّه عزّ وجلّ قسم الرؤية والكلام بين اثنين فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه و آله الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغ عن اللَّه عزّ وجلّ إلى الثقلين الجن والأنس «لاتُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُو يُدرِكُ الأَبصارَ» «وَلا يُحِيطُونَ بِه عِلْماً» «وَلَيسَ

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱.

كَمِثلِه شَىء» أليس محمداً صلى الله عليه و آله؟ قال: بلى قال: فكيف يجى رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند اللَّه وأنّه يدعوهم إلى اللَّه بأمر اللَّه ويقول: «لَاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُو يُدرِكُ الأَبصَارَ» «وَلَا يُحِيطُونَ بِه عِلمَاً» «وَلَيسَ كَمِثلِه شَىءٌ» ثم يقول: أنا رأيته بعينى، وأحطت به علماً وهو على صورة البشر، أمّا تستحيون، ماقدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون ياتى عن اللَّه بشى، ثم ياتى بخلافه من وجه آخر!».

قال أبو قرّة: فانّه يقول: «وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنّ بعد هذه الآية ما يدل على مارای حيث قال: «مَا كَذَبَ الفُؤادُ ما رای يقول ما كذب فؤاد محمد صلى الله عليه و آله ما رأت عيناهُ، ثم أخبر بما رای فقال: لقد رای من آيات ربه الكبرى فآيات اللَّه عزّ وجلّ غير اللَّه: وقد قال: «وَلَا يُحِيطُونَ بِه عِلْماً»، فإذا رأته الأبصار فقد أحاطت به العِلمَ ووقعت المعرفة»، فقال ابو قرّة: فتكذِّبُ بالروايات؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: «إذا كانت الروايات مخالفةً للقران كذَّبتُ بها وما أجمع المسلمون عليه أنّه لا يحاط به علمٌ ولا تدركه الأبصار، وليس كمثله شىء» «۱»

.

۳- وفى هذا المحتوى ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ اللَّهَ عَظيمٌ رَفيعٌ لايَقدِرُ العِبادُ عَلَى صِفَتِهِ وَلا يَبْلُغُونَ كُنهَ عَظَمَتِهِ، لاتُدرِكُهُ الأبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأبْصارَ وَهُو اللَّطيفُ الخَبيرُ» «۲».

۴- هل إنَّ أسماء اللَّه توقيفيّة؟

أشرنا سابقاً إلى أنّ أسماء اللَّه سبحانه وتعالى تحكى عن صفاته، وكما أنّ صفات اللَّه لا متناهية فإنّ أسماءه غير متناهية أيضاً، إلّاأنّه يُسْتَنْتَجُ من رواياتٍ كثيرة بأنّهُ لا يحق لاحدٍ أن يُسمّى ربّهُ ويصفه بشيٍ إلّاما ورد فى الكتاب والسُّنّة (الأحاديث المعتبرة)، وسبب ذلك

---

(۱) التوحيد للصدوق، ص ۱۱۰ عن اصول الكافى.

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲

هو ماذكرناه فى بحوثنا السابقة، وهو أنّ الكثير من الأسماء والأوصاف ممزوجة بمفاهيم تحكى عن نقائص المخلوقات ومحدوديتهم، واطلاق هذه الأسماء على اللَّه يبعدنا عن معرفته ويُلقى بنا فى هاوية الشرك.

لذا فقد اشتهر بين العلماء بأنّ (أسماء اللَّه توقيفية) أى لا يجوز اطلاق اسم عليه دون إجازةٍ شرعيّة، لذا فهم لا يجوّزون دعوته بأسماء من قبيل، «العاقل»، «الفقيه»، «الطبيب»، «السّخى»، وذلك لأنّها لم ترِدْ فى الآيات والروايات المعتبرة «۱».

يقول المفسّر المرحوم العلّامة الطبرسى حول تفسير ذيل الآية ۱۸۰ من سورة الأعراف: «تدل هذه الآية على أنّه لا يجوز لنا أن ندعو اللَّه سوى بالأسماء التى انتخبها لنفسه فقط» «۲».

ولذلك أيضاً قال العلّامة المجلسى قدس سره: «لا يُسمّى اللَّه بالسخى بل يُسمّى بالجواد، وذلك لأنّ السخاوة فى الأساس بمعنى الليونة، وهذه الكلمة (السخاء) تُطلق على الأسخياء من حيث أنّهم يلينون ازاء عرض الحوائج عليهم (والليونة والخشونة لا معنى لهما بخصوص اللَّه، بل هى من صفات المخلوقات» «۳».

أمّا المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير (الميزان) فإنّه لا يرى دليلًا فى القرآن وفن التفسير على كون أسماء اللَّه توقيفية، والآية ۱۸۰ من سورة الأعراف: «وَلِلَّهِ الأَسماءُ الحُسنى ...» لا تدلّ على هذا المعنى ولكنه قدس سره لم يُبد رأياً فقهّياً فى هذا المجال وأرجعه إلى الفقه، فأضاف قائلًا:

«الاحتياط يقتضى بالاقتصار على الأسماء التى وردت فى الكتاب والسُنّة فى مجال تسمية اللَّه سبحانه ولكن إذا كان القصد مجرّد توصيف وإطلاق لفظى دون تسمية فلا بأس» «۴».

أمّا المرحوم الكلينى فى المجلّد الأول من أصول الكافى، فقد نقل روايات عديدة فى

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۷۰، لكن بعضاً من هذه الصفات قد ورد فى بعض الأدعية، وممنوعيتها غير ثابتة.

(۲) مجمع البيان، ج ۴، ص ۵۰۳.

(۳) بحار الأنوار، ج ۴، ص ۲۰۶.

(۴) تفسير الميزان، ج ۸ ص، ۳۷۵ ذيل الآية ۱۸۰ من سورة الأعراف.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳

باب «النهى عن الصفة بغير ماوصف به نفسه تعالى يُسْتَنْتَجُ منها بأنّ أسماء اللَّه توقيفيّة.

من جملتها ماورد عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قال: «إنَّ اللَّهَ أعلى وَأجَلُّ وَأعظَمُ مِنْ أن يُبلَغَ كُنهُ صِفَتِهِ، فصِفُوهُ بِما وَصفَ بِهِ نَفسهُ وَكُفُّوا عمّا سِوى ذلكَ» «۱».

وورد فى حديث آخر عن الإمام أبى الحسن عليه السلام فى جوابه للمفضل عندما سأله عن بعض صفات اللَّه قال عليه السلام: «لا تجاوز ما فى القرآن» «۲»

.

وكذلك فى الحديث الذى كتبه الإمام الصادق عليه السلام لبعض اصحابه «فاعلم رحمك اللَّه- أنّ المذهب الصحيح فى التوحيد ما نزل به القرآن من صفات اللَّه عزّ وجلّ فانفِ عن اللَّه تعالى البطلان والتشبيه، فلا نفى ولا تشبيه، هو اللَّه الثابت الموجود تعالى اللَّه عمّا يصفه الواصفون ولا تعدوا القرآن فتضلوا بعد البيان» «۳»

.

يُستنتج من هذه الروايات وأمثالها بأنّ تسمية اللَّه بغير ماورد فى الكتاب والسُنّة فيه اشكال، واستعمال أصل البراءة لإثبات جواز تسمية اللَّه بأسماء اخرى لا يخلو من الإشكال أيضاً، فالأحوط عدم استعمال أوصاف وأسماء اخرى غير الأوصاف والأسماء الثابتة فى الشريعة المقدّسة.

ويُستدل أحياناً ببعض الآيات القرآنية أيضاً وثبات كون أسماء اللَّه توقيفيّة، كما ورد فى قصّة نوح عليه السلام عندما خاطب سبحانه وتعالى المشركين حيث قال: «أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسماءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلطانٍ». (الأعراف/ ۷۱)

وكذلك قال فى سورة يوسف فى قصّة نوح عليه السلام: «مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ». (يوسف/ ۴۰)

ولكن دلالة هذه الآيات على المقصود لا تخلو من ضعف، لأنّ المراد منها نفى الشرك وعبادة الأصنام وتسمية الأصنام بالآلهة، فهى لا تدلّ على أنّ أسماء اللَّه توقيفية ولا يجوز

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۲، ح ۶.

(۲) المصدر السابق، ح ۷.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۵۰، ح ۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴

تعديها.

وقد استدلوا أيضاً بأنّ التسمية فرعٌ من المعرفة، والمعرفة فرعٌ من الإدراك. وبما أننا لا ندرك كنه ذاته وصفاته المقدّسة، فإنّ الطريق الوحيد لتسمية ذاته المقدّسة هو اللَّه سبحانه، وخلفاؤه.

ونختم هذا البحث بمجموعة من الأبيات الشعريّة التى وردت على شكل أرجوزة فى كتاب معارف الأئمّة فى هذا المجال حيث تقول:

وَالوَقفُ مَشهورٌ لدى الأصحابِ والعقل يَستَحسِنهُ فى البابِ فإنَّمَا التَّوصيفُ فرعُ المَعرِفة وَالحقُّ فى العِرفانِ ماقَد وَصَفَه وَدُونهُ لا يصدقُ التَّنزِيهُ بَلْ جُرئَةٌ لا يُومَنُ التَّشبيهُ وَيَلزَمُ القُولُ بِغيرِ العِلمِ مَعْ فَقدِ سُلطانٍ عَلَيهِ علمى «۱»

---

(۱) معرفة الأئمّة، ص ۷۴۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵

أسماء اللَّه الحسنى والاسم الأعظم

اشارة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷

تمهيد:

يُلاحظ فى الآيات القرآنيّة والروايات الإسلاميّة تعبير تحت عنوان «الأسماء الحسنى ، وهذا العنوان جاء فى القرآن بشكل مجمل لكنّه ورد فى الروايات بشكل مفصّل، وهذه الأسماء تدل بأجمعها على صفاته، ونظراً لكون جميع أسمائه وصفاته حُسنى فإنّ انتخاب هذا

العنوان يدلّ على امتياز هذه الأسماء.

ولكن من أين تنبع هذه الخصوصيّة؟ هذا ما سنوضحه بعد تفسير الآيات والروايات التى وردت فى هذا المجال، فلنتوجه الآن إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية الكريمة:

١- «وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ».

(الاعراف/ ١٨٠)

٢- «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أوِ ادْعُوا الرَّحمنَ أَيّاً مَّا تَدعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى .

(الاسراء/ ١١٠)

٣- «اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى . (طه/ ٨)

۴- «هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسمَاءُ الحُسْنَى . (الحشر/ ٢۴)

جمع الآيات وتفسيرها

أسماء اللَّه الخاصّة:

لقد تقدم تفسير الآية الأولى فى البحث السابق، وخلاصته أنّها حذّرت الناس من تحريف أسماء اللَّه حيث تقول: «وَلِلَّهِ الأَسمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذينَ يُلحِدُونَ فى أَسمَائِهِ».

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢٨

وأشارت الآية الثانية أيضاً إلى تعلل المشركين الذين كانوا يشكلون على رسول اللَّه فى تسميته للَّه‌تعالى بأسماء متعددة وخاصة اسم الرحمن الذى كان غير مألوف عند العرب المشركين آنذاك، مع أنّه كان يدعوهم للتوحيد فالآية تقول: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أوِ ادْعُوا الرَّحمنَ أَيّاً مَّا تَدعُوا فَلَهُ الأَسمَاءُ الحُسْنَى .

وصفت الآية الثالثة البارى بالخالقية والمالكيّة وتدبير عالم الوجود والعلم والاطلاع على الظاهر والباطن، حيث قالت: «اللَّهُ لَاإِلهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَى .

أجَلْ فهو سبحانه بامتلاكه هذه الأسماء والصفات الحسنى التى لا نظير لها يليق لمقام الألوهيّة والربوبية ولا أحد يليق لهذا المقام سواه.

وأخيراً فقد وصفت الآية الرابعة والأخيرة- من بحثنا- ربّ العالمين بأوصاف متعدّدة، بعد أن وصفته الآيات التى سبقتها بأكثر من عشرة أوصاف، فقال: «هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسمَاءُ الحُسنَى .

وبعد ذلك وصفته بأوصاف مهمّة اخرى بلغ مجموعها ثمان عشرة صفة.

ونستنتج من مجموع هذه الآيات أنّ الأسماء الحسنى كناية عن صفات الجمال والجلال الخاصّة به سبحانه، والذى يعبر كل واحد منها عن كمالٍ متميز أو تنفى عنه سبحانه نقصاً معيّناً، وهى ليست تسمية بسيطة وعاديّة، وقد انعكست هذه الأسماء والصفات فى مختلف الآيات القرآنيّة وصارت محل اعتماد.

ولننطلق الآن لبحث هذا الموضوع ونرى ما هى الأسماء الحسنى هل هى محدودة عددّياً؟ وإن كانت كذلك فكم عددها؟

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢٩

توضيحات

١- ماهى حقيقة الأسماء الحسنى

وكما أشرنا سابقاًإلى أنّ جميع أسماء اللَّه حسنى لذا فإنّ هذا التعبير يشمل جميع الأسماء الإلهيّة، وكما ورد فى سبب نزول الآية الثانية من بحثنا هذا (الآية ۱۱۰ من سورة الإسراء)، فقد نُقِلَ بأنّها نزلت عندما سمع المشركون رسول اللَّه يقول: يا اللَّه يارحمن! فقالوا باستهزاء: إنّه ينهانا عن عبادة معبودين لكنّه انتخب لنفسه معبوداً آخر ... فنزلت هذه الآية فى تلك اللحظة ودحضت ظن التعدد هذا، وقالت: بأنّ هذه أسماءٌ حسنى مختلفة تُشير بأجمعها إلى الذات الإلهيّة المقدّسة الواحدة.

لذا فإنّ هذه الأسماء بأجمعها تعبيرات مختلفة تحكى عن الكمالات اللامتناهية لتلك الذات المقدّسة الواحدة وقد عبّر عنها الشاعر بقوله:

عِباراتُنَا شَتّى وَحُسنُكَ وَاحِدٌ وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الجَمالِ يُشيرُ ويُستنتج من العبارات التى وردت فى آيات القرآن الكريم أنّ جميع أسمائه هى مفردات من أسمائه الحسنى «وَلِلَّهِ الأَسمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا»، (الآية الأولى من بحثنا).

والدليل على ذلك واضحٌ أيضاً، لأنّ أسماءه «عزّ وجلّ» إمّا تعبّر عن كمال ذاته (كالعالم والقادر) أو عن نزاهة تلك الذات الأحديّة عن أى لونٍ من النقص (كالقدّوس) أو تحكى عن أفعاله التى تعكس فيض الوجود من جهاتٍ مختلفة (كالرحمن والرحيم والخالق والمدبّر والرازق).

وتعبير الآيات أعلاه، الذى يدلّ على الحصر، يُبيّن بأنّ الأسماء الحسنى خاصّة به تعالى لأنّ أسماءَه تُعبرّ عن كمالاته، وكما نعلم فإنّ واجب الوجود هو عين الكمال والكمال المطلق، لذا فالكمال الحقيقى من شأنه وخاص به وكلُّ ما سواه ممكن الوجود ومحض الحاجة والفقر.

وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالى، وهو: أنَّ الروايات الشريفة ذكرت- كما سنشير إليه فى البحث القادم- عدداً معيناً للأسماء الحسنى ممّا يشير إلى أن تعبير الأسماء

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰

الحسنى لا يشمل جميع الأسماء الإلهيّة، بل يشمل قسماً منها، فما معنى ذلك؟

فى الإجابة عن هذا السؤال نستطيع القول: إنّ السبب فى ذكر عدد معيّن من الأسماء والصفات قد يكون لبيان أهميّتها لا انحصارها، مضافاً إلى أنّ الكثير من الأسماء الإلهيّة كما سيتضح فى البحوث المقبلة تشبه الأغصان الأصليّة الرئيسة، والبقية تتشعبُ منها، فمثلًا نُلاحظ أن (الرازق) فرعٌ من صفة الربّ (أىّ المالك والمدبّر).

وهكذا حال بقيّةِ الأوصاف من قبيل (المحيى والمميت).

وبعيدٌ جدّاً أن تكون الأسماء الحسنى ذات مفهوم خاص فى الشرع (أى لها حقيقة شرعيّة)، بل هى اصطلاح لغوى يشمل جميع الأسماء والأوصاف الإلهيّة.

وتعبير القرآن الكريم ب: «وَلِلَّهِ الأَسمَاءُ الحُسنَى فَادعُوهُ بِهَا» هو دعوة- فى الحقيقة- إلى ترك الإلحاد وتحريف هذه الأسماء كتسمية الاصنام بأسماء اللَّه، أو دعوة إلى اجتناب تسمية اللَّه بالأسماء ذات المفاهيم الممزوجة بالنقائص والخاصّة بالمخلوقات. أو هو إشارة إلى عدم تنافى تعدد الأسماء الحسنى مع وحدانية ذاته المقدّسة أبداً، لأنّ تعدُّد الأسماء ناجمٌ عن قصر نظرتنا لإدراك ذلك الكمال المطلق، فأحياناً ننظر من زاوية اطلاعه على كُلّ شىء فنسميه (بالعالم) وأحياناً اخرى ننظر من زاوية قدرته على كلّ شىء فنسميّه (بالقادر).

وعلى أيّة حال فإنّ جميع القرائن تدل على أنّ جميع الأسماء الالهيّة المقدّسة حسنى بالرغم من أنّ بعضها ذات أهميّة خاصّة.

۲- عدد الأسماء الحسنى وتفسيرها

ذكرت روايات عديدة منقولة عن مصادر الشيعة وأهل السُّنّة أنّ عدد الأسماء الحسنى تسع وتسعون اسماً، ومن جملة هذه الروايات رواية مشهورة عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ له

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱

تسعاً وتسعين اسماً .. مِائة إلّاواحداً- من أحصاها دخل الجنّة، إنّه وترٌ يُحبُّ الوتر» «۱»

.

وفى رواية اخرى منقولة فى توحيد الصدوق بنفس هذا المضمون (مع اختلاف طفيف)، عن على عليه السلام أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «وَهىَ اللَّهُ، الأَلهُ، الواحِدُ، الأحدُ، الصَّمَدُ، الأَوَّلُ، الآخرُ، السَّميعُ، القَديرُ، القَاهِرُ، العَلىُّ، الأَعلى البَاقى، البَديعُ، البَارئُ، الأكرَمُ، الظَّاهِرُ، البَاطِنُ، الحَىُّ، الحَكيمُ، العَليمُ، الحَليمُ، الحَفيظُ، الحَقُّ، الحَسيبُ، الحَميدُ، الحَفىُّ، الرَّبُ، الرحمنُ، الرَّحيمُ، الذَارئُ، الرَّزاقُ، الرّقيبُ، الرؤوفُ، الرّائى، السَّلامُ، المُؤمِنُ، المُهيمنُ، العَزيزُ، الجَبَّارُ، المُتكبِرُ، السَّيِدُ، السُّبُّوحُ، الشَّهيدُ، الصَّادِقُ، الصَّانِعُ، الطَّاهِرُ، العَدلُ، العَفوُّ، الغفورُ، الغَنىُّ، الغِيَاثُ، الفَاطِرُ، الفَردُ، الفَتاحُ، الفَالِقُ، القَدِيمُ، المَلِكُ، القُدُّوسُ، القَوىُّ، القَريبُ، القَويمُ، القَابضُ، البَاسِطُ، قَاضى الحَاجَاتِ، المَجيدُ، المَولى المنَّانُ، المُحيطُ، المُبينُ، المُقيتُ، المُصوِّرُ، الكَريمُ، الكَبيرُ، الكَافى، كَاشف الضُّرِّ، الوِترُ، النُّورُ، الوهَّابُ، النَّاصرُ، الواسعُ، الودُودُ، الهَادِى، الواقى، الوكيلُ، الوارثُ، البَرُّ، البَاعثُ، التوابُ، الجَليلُ، الجَوادُ، الخبيرُ، الخَالقُ، خَيرُ النَّاصِرينَ، الدّيانُ، الشَّكُورُ، العَظيمُ، اللَّطيفُ، الشَّافى» «۲»

.

والجدير بالذكر هو أنّ إحصاء وعدِّ الأسماء الحسنى وتلفظها باللسان لايعنى أن يكون سبباً فى دخول الجنّة بدون حساب، بل بمعنى معرفة محتوى هذه الأسماء والإيمان بها فلابدّ أن يعرف الإنسان اللَّه بهذه الصفات الإلهيّة، فضلًا عن التخلق بها، أى أن يشُّع فى وجوده شعاع من علم اللَّه وقدرته ورحمته ورأفته وغيرها من الصفات، لأنّ التخلق بهذه الصفات الكمالية يلازم الإيمان بها.

وفى رواية اخرى فى توحيد الصدوق عن الامام على بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن على بن أبى طالب عليه السلام أنّه قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «للَّهعزّ وجلّ تسعٌ وتسعون اسماً، من

---

(۱) تفسير الدر المنثور (ج ۳، ص ۱۴۷) عن صحيح البخارى ومسلم ومسند أحمد وسنن الترمذى وكتب اخرى.

(۲) توحيد الصدوق، ص ۱۹۴، (باب أسماء اللَّه تعالى)، ح ۸، ونلفتُ الانتباه إلى أنّ عدد الأسماء المذكورة فى الحديث أعلاه مِائة أسم ولكون لفظ الجلالة (اللَّه) جامعٌ لجميع هذه الصفات فإنّه لم يُحسب وصار عدد الأسماء الحسنى تسعاً وتسعين اسماً، وقد وضع البعض اسم الرائى بدل الرؤوف.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲

دعا اللَّه بها استجاب له، ومن أحصاها دخل الجنّة».

يقول المرحوم الصدوق بعد ذكر هذه الرواية: «المقصود من احصائها هو الاحاطة بها ومعرفة معانيها لا عدّها «۱».

والجدير بالذكر أنّ بعض الروايات ذكرت الأسماء الحسنى بأكثر من هذا العدد، حتى أنّ فى بعض الأدعية كدعاء الجوشن الكبير قد بلغت الأسماء المقدّسة المذكورة فيها الألف، ولا تنافى بين هذه الروايات، لأنّه كما ذكرنا بأنّ التسع والتسعين المذكورة تُشير إلى الأسماء والصفات الأكثر أهميّة وخصوصية، وذكر المرحوم الصدوق «ره» فى كتاب «التوحيد» شرحاً مفصلًا حول تفسير هذه الأسماء التسعة والتسعين، نذكرها هنا بصورة مختصرة لتكملة هذا البحث وزيادة المعرفة بحقيقة هذه الأسماء والصفات:

۱- ۲- «اللَّه واله»: أى (الجامع لجميع الكمالات)، وهو المستحق للعبادة، والذى لا يستحق العبادة إلّاهو.

۳- ۴- «الواحد الأحد»: أنّه واحد فى ذاته ليس له أجزاء ولا شبيه ولا نظير ولا مثيل.

۵- «الصمد»: السيد والمصمود إليه أى المقصود فى الحوائج، الغنى عن كل موجود.

۶- ۷- «الأول والآخر»: أنّه الأول بغير ابتداء والآخر بغير انتهاء، وبعبارة اخرى الذات الازلية والأبدية.

۸- «السميع»: المحيط بجميع المسموعات.

۹- «البصير»: المحيط بجميع المبصرات.

۱۰- «القدير»: القادر على كل شىء.

۱۱- «القاهر»: الذى انقاد له كل شىء وخضع لأوامره.

۱۲- «العلى»: ذو المنزلة والمقام العالى الرفيع.

۱۳- «الأعلى : الغالب المنتصر، أو المتسلط على كل شىء.

۱۴- «الباقى»: الذات الباقية التى لا تفنى

۱۵- «البديع»: أى مبدع ومحدث كل شىء فى عالم الوجود من غير مثال واحتذاء.

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۱۹۵، ح ۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳

۱۶- «البارىء»: بارىء البرايا أى خالق الخلائق.

۱۷- «الاكرم»: بمعنى أكرم الكرماء.

۱۸- «الظاهر»: وهو الظاهر بذاته وبآياته التى هى شواهد على قدرته وآثار حكمته وبينات حجته.

۱۹- «الباطن»: الذى لا تحيط بكنه ذاته الأفكار والعقول.

۲۰- «الحى»: الفعال المدبر. (ذى العلم والقدرة).

۲۱- «الحكيم»: الذى تكون كافة أفعاله صحيحة وثابتة ومنزهة من الفساد.

۲۲- «العليم»: العليمُ بنفسه، العالم بالسرائر المطلّع على الضمائر الذى لا تخفى عليه خافية ولايعزب عنه مثقال ذرة فى السماء والأرض.

۲۳- «الحليم»: المُمهِل الصبور عمن عصاه، الذى لايعجل عليهم بعقوبته.

۲۴- «الحفيظ»: الذى يحفظ المخلوقات ويصرف عنها البلاء.

۲۵- «الحق»: معناه الصامد الدائم الثابت والمستحكم ذو الحقيقة والواقع.

«فهو الحقيقة المطلقة وماعداه مجازى».

۲۶- «الحسيب»: المحصى لكل شىء العالم به الذى لا يخفى عليه شىء من أفعال عباده، والمحاسب والمكافىء لهم على أعمالهم.

والكافى «واللَّه حسبى وحسبك، أى كافينا».

۲۷- «الحميد»: وهو المحمود المستحق لكل حمد وثناء.

۲۸- «الحفىّ»: العالم المُطلع أو أنّه اللطيف بالآخرين والمُحسن إليهم.

۲۹- «الرب»: أى المالك والمدبر والمصلح.

۳۰- «الرحمن»: معناه الواسع الرحمة الذى شُمِلَ عباده بالرزق والانعام والرحمة.

۳۱- «الرحيم»: الذى خصت رحمته المؤمنين وشملتهم.

۳۲- «الذارىءُ»: الخالق، يُقال: ذرأ اللَّه الخلق وبرأهم أى خلقهم.

۳۳- «الرازق»: الشامل بالرزق كافة العباد، محسنهم ومسيئهم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴

۳۴- «الرقيب»: أى الحافظ، ورقيب القوم، حارسهم.

۳۵- «الرؤوف»: أى الرحيم العطوف، «وقد يرى البعض أنّ هناك اختلافبين الرأفة والرحمة، فالرأفة شاملة للمطيعين، والرحمة شاملة للمذنبين».

۳۶- «الرائى»: بمعنى المبصر والمطلع العالم.

۳۷- «السّلام»: مصدر السلامة وينبوع فيض كل سلامة.

۳۸- «المؤمن»: المحقق والمصدق وعده، والذى آياته وعلاماته وعجائب تدبيره ولطائف تقديره سبباً لإيمان القلوب والأفئدة بذاته المقدّسة، والذى آمن عباده من الظلم والجور، وأجار المؤمنين من العذاب.

۳۹- «المهيمن»: الشاهد الناظر أو الأمين والحافظ لكل شىء.

۴۰- «الجبار»: أى القاهر الذى لايُنال، الذى تعجز الافكار عن بلوغ عظمته، والذى يصلح الامور بإرادته النافذة.

۴۱- «المتكبر»: مأخوذ من الكبرياء، وهو اسم للتكبر والتعظم، فلا شىء أكبر منه، ولا تليق الكبرياء إلّابه.

۴۲- «السيد»: معناه العظيم الأعظم وهو الملك الواجب الطاعة.

۴۳- «السبوح»: معناه المنزه له عن كل عيب ونقص ومالا ينبغى أن يوصف به «۱».

۴۴- «الشهيد»: أى الشاهد والحاضر فى كل مكان صانعاً ومدبراً.

۴۵- «الصادق»: معناه أنّه صادق فى وعده لا يبخس ثواب من يفى بعهده.

۴۶- «الصانع»: معناه أنّه صانع كل مصنوع وخالق كل مخلوق ومبدع كل بديع.

۴۷- «الطاهر»: وهو المنزه عن الأشباه والأنداد والأضداد والأمثال والحدود لأنّ كل ما عداه حادث ومخلوق وعاجز من جميع الجهات.

۴۸- «العدل»: القاضى وهو الحاكم بالعدل والحق المطلق.

۴۹- «العفوّ»: مشتق من العفو، والعفو المحو كقوله تعالى «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ»

---

(۱) لا يخفى أنّه ليس فى كلام العرب لفظ على وزن فُعُّولٌ إلّاسُبُّوحٌ وقدوس، ومعناهما واحد.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵

أى محا اللَّه عنك إذنك لهم، فهو تعالى يمحو ذنوب عباده.

۵۰- «الغفور»: أى الغافر والغفار وأصله فى اللغة التغطية والستر.

۵۱- «الغنى»: الغنى بنفسه غير محتاج لسواه والغنى عن الاستعانة بالآلات والأدوات.

۵۲- «الغياث»: معناه المغيث والمُنجد، سمى به توسعاً لأنّه مصدر.

۵۳- «الفاطر»: الخالق، فطر الخلق أى خلقهم وابتدأ صنعة الأشياء وابتدعها فهو فاطرها أى خالقها ومبدعها من العدم.

۵۴- «الفرد»: المتفرد بالربوبية والأمر دون خلقه ومعنى ثانٍ: أنّه الموجود المطلق لا موجود سواه.

۵۵- «الفتّاح»: الحاكم ومنه قوله عز وجل فى الآية ۸۹ من سورة الأعراف: «وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ»، الذى يحل عُقد المكاره والمشاكل.

۵۶- «الفالق»: مشتق من الفلق وهو الشق، فلق الحبّ والنوى فخرج النبات من أعماق الأرض، وأخرج الأجنة من بطون الامهات، وفلق الظلام فانبلج عنه الصبح المنير وخرق حُجب العدم بخلقه للموجودات.

۵۷- «القديم»: وهو المتقدم للأشياء كلها بلا أول ولا نهاية.

۵۸- «المَلِك»: أى مالك الملك قد مَلَكَ كل شىء، الحاكم على الكون.

۵۹- «القدّوس»: الطاهر، والتقديس، التطهير والتنزيه عن كل عيب أو نقص.

۶۰- «القوى»: وهو المقتدر بلا معاناة ولا استعانة الذى لايحتاج إلى معين فى أفعاله.

۶۱- «القريب»: معناه المجيب فهو أقرب إلينا من كل شىء، يسمع كلامنا ويجيب دعاءنا.

۶۲- «القيّوم»: أى القائم بذاته الذى يقوم به غيره.

۶۳- «القابض»: الذى يتوفى الأنفس يقال للميت: قبضه اللَّه إليه ومنه قوله عزّ وجلّ فى الآيتان ۴۵ و ۴۶ من سورة الفرقان: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمسَ عَلَيهِ دَلِيلًا* ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبضاً يَسِيراً»، فالشمس لا تقبض بالبراجم واللَّه تبارك وتعالى قابضها ومطلقها، وهو تعالى الذى يقبض رزق شخص ويوسع رزق آخر حسب ما تقتضيه المصلحة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶

۶۴- «الباسط»: يقابل القابض فهو المنعم المتفضّل الذى غمر الوجود بفيض رحمته، وقد بسط على عباده فضله واحسانه واسبغ عليهم نعمه.

۶۵- «قاضى الحاجات»: معناه مشتق من القضاء، ومعنى القضاء من اللَّه عزّ وجلّ على ثلاثة أوجه: فوجه منها الحكم والإلزام، والثانى الإخبار والثالث الاتمام كقولك قضى اللَّه حاجتى أى أتمّ حاجتى على ما سألته، وهنا يعنى قضاء حاجات الخلق.

۶۶- «المجيد»: أى الكريم العزيز، وصاحب المجد والعظمة.

۶۷- «المولى : الناصر والمشرف.

۶۸- «المنّان»: وهو المعطى المنعم، وواهب النعم.

۶۹- «المحيط»: المحيط بالأشياء والعالم بها كلها.

۷۰- «المبين»: البادية آثار قدرته فى كل مكان، والظاهر حكمه فى عالم «التشريع» و «التكوين».

۷۱- «المقيت»: أى الحافظ والحارس والحامى.

۷۲- «المصوّر»: اسم مشتق من التصوير يصور الصور فى الأرحام كيف يشاء، الذى يهب للخلق صورهم.

۷۳- «الكريم»: العزيز ومعنى ثانٍ أنّه الجواد المتفضّل.

۷۴- «الكبير»: معناه السيد العظيم ويقال لسيد القوم كبيرهم والكبرياء اسم التكبر والعظمة.

۷۵- «الكافى»: اسم مشتق من الكفاية، الكافى عباده وكل من توكل عليه كفاه ولا يلجئه إلى غيره.

۷۶- «كاشف الضر»: المفرّج، دافع البلاء والهم والغم يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

۷۷- «الوتر»: معناه الفرد وليس له نظير أو مماثل.

۷۸- «النّور»: معناه المنير، كقوله تعالى فى الآية ۳۵ من سورة النور: «اللَّهُ نُورُ السَّماوَاتِ والْأَرْضِ» أى منير لهم وآمرهم وهاديهم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷

۷۹- «الوهاب»: من الهبة، يهب لعباده ما يشاء ويمن عليهم بما يشاء.

۸۰- «الناصر»: النصير، والنصرة حسن المعونة.

۸۱- «الواسع»: أى الغنى، والسعة الغنى فهو الواسع الغنى عن كل شىء.

۸۲- «الودود»: معناه أنّه مودود ومحبوب، ويُقال: بل فعول بمعنى فاعل كقولك: غفور بمعنى غافر أى يود عباده الصالحين ويحبّهم والود والوداد مصدر المودة.

۸۳- «الهادى»: ومعناه، المرشد عباده للحق والعدل، بل الهادى لكل موجود فى عالم الخليقة وكل ذى عقل فى عالم التشريع.

۸۴- «الوفى»: معناه الذى يفى بعهده وميثاقه.

۸۵- «الوكيل»: المتولى أى القائم بحفظنا ومعنى ثانٍ أنّه المعتمد والملجأ.

۸۶- «الوارث»: معناه أنّ كل من ملّكه اللَّه شيئاً يموت ويبقى ما كان فى‌ملكه ولا يملكه إلّا اللَّه تبارك وتعالى

۸۷- «البرّ»: الصادق، يقال: بربّ يمين فلان إذا صدقت وأبرها اللَّه أى أمضاها على الصدق، كما يعنى المحسن الواهب.

۸۸- «الباعث»: أى أنّه يبعث من فى القبور ويحييهم يوم القيامة وينشرهم للجزاء ومنهم الأنبياء.

۸۹- «التوّاب»: معناه أنّه يقبل التوبة ويعفو عن الحوبة إذا تاب منها العبد، يقال: تاب العبد إلى اللَّه عزّ وجلّ فهو تائب إليه وتاب اللَّه عليه أى قبل توبته فهو تواب عليه.

۹۰- «الجليل»: السيّد، يقال لسيد القوم جليلهم وعظيمهم وجلّ جلال اللَّه فهو الجليل ذو الجلال والإكرام.

۹۱- «الجواد»: المحسن المنعم الكثير الإنعام والاحسان.

۹۲- «الخبير»: العالم المُطلع، يقال لى به خبر أى علم، فهو المطلع على بواطن الأمور والأسرار والاعلان.

۹۳- «الخالق»: الخلّاق، والخلق فى اللغة تقدير الشىء، خلق الخلائق خلقاً؛ وخليقةً:

الخلق، والجمع الخلائق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸

۹۴- «خير الناصرين»: معناه أنّه فاعل الخير إذا كثُر منه سمىّ خيراً توسُّعاً، فنصرته خالية عن العيب والنقص ولا حد لها.

۹۵- «الديّان»: وهو الذى يدين العباد ويجزيهم بأعمالهم، والدين الجزاء.

۹۶- «الشكور»: معناه أنّه يشكر للعبد عمله وهو المحسن إلى عباده المنعم عليهم بأفضل النعم.

۹۷- «العظيم»: السيّد ومعنى ثانٍ: أنّه يوصف بالعظمة لغلبته على الأشياء وقدرته عليها ومعنى ثالث: أنّه عظيم لأنّ ما سواه كلّه له ذليل خاضع فهو عظيم السلطان.

۹۸- «اللطيف»: أى أنّه لطيف بعباده، بارٌ بهم منعمٌ عليهم ومعنى آخر أنّه لطيف فى تدبيره وفعله.

۹۹- «الشافى»: معناه معروف وهو من الشفاء الشافى من الأمراض والآلام والأوجاع «۱».

كان هذا مجموع الأسماء التسعة والتسعين المُعبرُ عنها فى الروايات الإسلاميّة بالأسماء الحسنى لكنّه وكما أشرنا سابقاً فإنّ تعبير الروايات حول هذا الموضوع ليس واحداً.

ونذكّر مرّة اخرى بأنّ قسماً من هذه الصفات تعبرّ عن كمالات الذات الإلهيّة المقدّسة (صفات الجمال)، وقسماً آخر ينزّهُ ذاته المقدّسة عن أى نقص أو عيب (صفات الجلال) وقسمٌ كبير منها مشتقة من أفعاله (صفات الأفعال).

نضيف إلى ذلك أنّ قسماً من هذه الصفات متقاربة مع بعضها من حيث المعنى على الرغم من التفاوت الظريف والدقيق الموجود بينها فى الغالب.

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۱۹۵- ۲۱۷ (بالاضافة إلى تفاسير اخرى مستفادة من كتب اللغويين والمفسرين).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۹

۳- أى واحد منها اسم اللَّه الأعظم؟

تناسباً مع بحثنا حول الأسماء الحسنى نتكلم حول الاسم الأعظم أيضاً.

لقد ورد التأكيد فى روايات كثيرة على موضوع «اسم اللَّه الأعظم»، ويستنتج منها أنّ من دعا اللَّه باسمه الأعظم استجاب له ولبّى حاجته، لذا فقد ورد فى ذيل بعض هذه الروايات:

«والذى نفسى بيده لقد سئل اللَّه باسمه الأعظم الذى إذا سُئل به أعطاه وإذا دُعى به أجاب» «۱»

. وتعابير اخرى من هذا القبيل، وكذلك فقد ورد فى الروايات بأنّ (آصف بن برخيا)- وزير سليمان عليه السلام، الذى جاء بعرش بلقيس من اليمن إلى الشام بلمحة بصر، كان يعرف الاسم الأعظم «۲»، وكذلك (بلعم بن باعورا) عالم وزاهد بنى اسرائيل- الذى كان مستجاب الدعوة- كان يعرف الاسم الأعظم أيضاً «۳».

وقد نقل العلّامة المجلسى روايات كثيرة حول الاسم الأعظم وأىّ الأسماء هو من بين أسماء اللَّه الحسنى لا مجال لذكرها هنا، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «اسم اللَّه الأعظم مقطّع فى أمِّ الكتاب» «۴».

وكذلك مانقل فى بعض الروايات: عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم أقرب إلى اسم اللَّه الأعظم من سواد العين إلى بياضها» «۵».

وقد ذكرت الروايات وآيات قرآنية أسماء مقدّسة اخرى من أسماء اللَّه، والأسماء الحسنى يفوق بعضها البعض الآخر من حيث المعنى (ولزيادة الاطلاع راجع الجزء الثالث والتسعين من كتاب بحار الأنوار).

لكن محور البحث هنا يكمن فى أنّ الاسم الأعظم هل هو كلمة، أم جملة، أم آية قرآنية معينة؟ وهل هذه التأثيرات والقدرة كامنة فى الألفاظ والحروف بدون قيد أو شرط؟ أم أنّ

---

(۱) بحار الانوار، ج ۹۳، ص ۲۲۵.

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۲۳؛ وبحار الأنوار، ج ۱۴، ص ۱۱۳.

(۳) بحار الانوار، ج ۱۳، ص ۳۷۷.

(۴) بحار الانوار، ج ۹۰، ص ۲۲۳.

(۵) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۳۷۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۰

تأثيرها ينبع من صياغتها اللفظيّة إضافة إلى حالات وشروط خاصّة بالشخص الذى يرفع يديه بالدعاء من حيث التقوى والطهارة، وحضور القلب، والتوجه الخالص للَّه، وقطع الأمل عمّن سواه، والتوكل الكامل على ذاته المقدّسة؟

أم أنّ الاسم الأعظم ليس من سنخ اللفظ؟ وما استعمال الألفاظ إلّاللإشارة إلى حقيقتها ومحتواها، وبتعبير آخر فإنّ مفاهيم هذه الألفاظ. يجب أن تنفذ إلى روح الإنسان فيتخلق بمعناها حتى يصل إلى مرحلة من الكمال بحيث يصير مستجاب الدعوة بل يمكنه- بالإضافة إلى ذلك- أن يتصرف فى الموجودات التكوينية بإذن اللَّه.

من هذه الاحتمالات الثلاثة، يستبعد جدّاً أن يكون لهذه الحروف والألفاظ أثر بدون أن يكون لمحتواها ولأوصاف وحالات الشخص دخلٌ فىالموضوع، ومع أنّه ورد فى بعض القصص الخرافية التى نقلت شعراً ونثراً فى بعض الكتب من أنّ عفريت الجن كان يستطيع الاستيلاء على عرش سليمان وأداء أعماله عن طريق معرفته بالاسم الأعظم!! فإنّ مثل هذا التصُّور عن اسم اللَّه الأعظم بعيد جدّاً عن روح التعليمات الإسلامية، علاوة على هذا فإنّ نفس قصة (بلعم بن باعورا)، التى أخبرت عن أنّه فقد الاسم الأعظم بعد أن انحرف عن التقوى والطريق الصحيح، تدل على أنّ لهذا الاسم علاقة وثيقة جدّاً بأوصاف وحالات الداعى، لذا فالاحتمال الصحيح هو أحد التفسيرين الأخيرين أو كلاهما.

يقول العلّامة الطباطبائى رحمه الله فى تفسير الميزان، بعد أن أشار إلى مسألة الاسم الأعظم:

«مع أنّ أسماء اللَّه عموماً واسمه الأعظم خصوصا مؤثرة فى عالم الوجود وتعد وسائطاً وأسباباً لنزول الفيوضات فى هذا العالم، إلّاأنّ تأثيرها منوط بحقائقها لا بنفس ألفاظها التى تدلّ عليها ولا بمعانيها المرسومة فى الذهن» «۱». وهذا الكلام يؤيد أيضاً صحة ما ذكرنا.

وتوجد نقطة جديرة بالالتفات أيضاً وهى أنّ هناك تعابير مختلفة للإسم الأعظم فى روايات هذا الباب، وكل واحد منها حصر الاسم الأعظم بمعنى معيَّن.

فبعضها عدّت البسملة أقرب شيء إلى الاسم الأعظم وبعضها حددت اسم اللَّه الأعظم

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۸، ص ۳۷۲.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۱

فى ذكر هذه العبارات: «بسم اللَّه الرحمن الرحيم لا حول ولا قوّة إلّاباللَّه العلى العظيم» مائة مرّة بعد صلاة الصبح.

وبعضها الآخر فى سورة «الحمد» و «التوحيد» و «آية الكرسى» و «القدر».

وبعضها فى الآيات الست الأواخر من سورة الحشر.

وبالتالى فبعضها الأخر فى: «قُلِ اللَّهمَّ مَالِكَ المُلكِ» إلى قوله: «وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ». (آل عمران/ ۲۶- ۲۷)

وغير هذه التعابير «۱».

ويمكن أن يكون سبب هذا التفاوت هو تعدُّد الاسم الأعظم، أو تفاوت المقاصد، ولكن المهم فى الوقت ذاته هو أنّ طهارة القلب، وخلوص النيّة، والتوجُّه إلى اللَّه، وقطع الأمل عمن سواه، والتخلُّق بهذه الصفات هى التى تخلق روح الاسم الأعظم.

---

(۱) بحار الانوار، ج ۹۳، ص ۲۲۳؛ اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۳

صفات اللَّه تعالى

اشارة

۱- صفات ذات اللَّه

أ) صفات جمال اللَّه

ب) صفات جلال اللَّه

۲- صفات فعل اللَّه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۵

أقسام صفات اللَّه تعالى

كما هو المتعارف فإنّ صفات اللَّه سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

«صفات الذات»، و «صفات الفعل».

وصفات الذات تنقسم إلى قسمين أيضاً: صفات الجمال، وصفات الجلال.

والمراد من صفات الجمال، الصفات الثابتة له تعالى كالعلم والقدرة والأزليّة والأبدية، لذا تُسمى «بالصفات الثبوتية». أمّا صفات الجلال فيُراد بها الصفات التى تتنزه ذاته المقدّسة عنها، كالجهل والعجز والجسمانية وما شاكل. لذا تُسمى ب «الصفات السلبية». وكلا النوعين يسميان بصفات الذات، وبغض النظر عن أفعاله سبحانه فهى قابلة الإدراك (أى يُمكن إدراكها).

ويقصد بصفات الفعل الصفات التى لها علاقة بأفعال اللّه، أى لا تطلق عليه قبل صدور فعل منه، وبعد صدوره يُتصف بها كالخالق والرازق والمحيى والمميت.

ونؤكد مرّة اخرى بأنّ صفات ذاته وصفات فعله لامتناهية، لأنّ كمالاته غير متناهية، وكذلك أفعاله ومخلوقاته لامتناهية ولا محدودة أيضاً.

ولكن مع هذا فإنّ قسماً من هذه الصفات يُعدُّ أساساً لبقية الصفات، والصفات الأخيرة تعتبر فروعاً، وبالالتفات إلى هذه النقطة يمكن القول: بأنّ الصفات الخمس التالية تُعدُّ أصلًا لجميع الأسماء والصفات الإلهيّة المقدّسة، وما سواها تعدّ فروعاً لها، وهذه الصفات الخمس هى:

(الوحدانيّة، العلم، القدرة، الأزليّة، الأبديّة).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۷

أ) صفات جمال اللّه

اشارة

(العلم- القدرة- الأزليّة- الأبديّة)

ونظراً لما قلنا آنفاً، نحاول الآن شرح هذه الصفات الأساسيّة الخمس، وبما أننا شرحنا الوحدانيّة سابقاً فإننا سنتعرض إلى شرح الصفات الأربع المتبقيّة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۴۹

۱- علم اللّه المطلق

تمهيد:

إنّ من أهم صفات اللّه سبحانه وتعالى بعد التوحيد تتمثل فى علمه اللامحدود وإحاطته بكافة أسرار عالم الوجود المترامى الأطراف، وذاته المقدّسة، فلا تخفى عليه خافية ولا شاردة ولا واردة ولا ذرة فى هذا العالم الواسع.

لقد أحاط علمه- جلّ وعلا- بكل قطرة غيثٍ تنزل من السماء، وبكل زهرة تتفتح فى أغصان الأشجار، وبكل حبّة فى ظلمات الأرض، وبكل موجود وكائن حى يسبح فى أعماق البحار العميقة المظلمة، وبكل شهاب يضىء وينطفى فى هذه السماء الواسعة، وبكل موجٍ يرتفع ويهدر على سطح المحيطات، وبكل نطفةٍ تنعقد فى ظلمات الرحم، وبالتالى بكل فكرةٍ تخطر على بال أحد.

وعلمه بالأزل والأبدِ واحد، وإحاطته العلمية بملايين مليارات السنوات الماضية والمستقبلية كإحاطته بالحاضر، وبحضوره فى كل مكانٍ وزمان فلم يبق للبعيد والقريب والماضى والحاضر والمستقبل معنىً، فجميعها متساوية لديه جلّ شأنه.

هذه هى الحقيقة التى تُنتقى من مجموع الآيات القرآنية، والتفكرّ بها له أثر كبير فى عقائدنا وأعمالنا. وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية التالية:

۱- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ». (البقرة/ ۲۳۱)

۲- «قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَو تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّماواتِ وَمَا فِى الأَرضِ». (آل‌عمران/ ۲۹)

۳- «وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّماواتِ وَفِى الأَرضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَاتَكْسِبُونَ».

(الانعام/ ۳)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۰

۴- «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَايَعلَمُهَا إِلّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ وَالبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلّا يَعلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلّا فِى كِتَابٍ مُّبينٍ».

(الانعام/ ۵۹)

۵- «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلّامُ الغُيُوبِ». (التوبة/ ۷۸)

۶- «وَمَا تَكُونُ فِى شَأنٍ وَمَا تَتلُوا مِنهُ مِنْ قُرآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلّا كُنَّا عَلَيكُمْ شُهُوداً إِذ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعزُبُ عَن رَّبِّكَ مِنْ مِّثقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرضِ وَلَا فِى السَّمَاءِوَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلّا فِى كِتَابٍ مُّبينٍ». (يونس/ ۶۱)

۷- «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (الحديد/ ۴)

۸- «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ». (الملك/ ۱۴)

۹- «وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (لقمان/ ۲۷)

۱۰- «إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدرِى نَفسٌبِأَىِّ أَرضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَليمٌخَبِيرٌ». (لقمان/ ۳۴)

۱۱- «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ* وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالأَرضِ إِلّا فِى كِتَابٍ مُّبينٍ». (النمل/ ۷۴- ۷۵)

۱۲- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الأَنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسوِسُ بِهِ نَفسُهُ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِنْ حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

شرح المفردات:

«العلم»: فى الأصل بمعنى إدراك حقيقة شىء معين، وهو على نوعين، إدراك ذات الشى، وإدراك صفات الشىء، والأول يتعدّى إلى مفعولٍ واحد كقولك: (عَلِمْتُهُ)، والثانى يتعدّى إلى مفعولَين، كقوله تعالى «فَإِنْ عَلِمتُمُوهُنَّ مُؤمِناتٍ». (الممتحنة/ ۱۰)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۱

ومن جهةٍ اخرى فإنّ العلم على قسمين: لأنّه تارة يراد منه الجانب (النظرى) وهو ما يرتبط بالمسائل الفكريّة والعقائديّة، وأحياناً اخرى الجانب (العملى) وهو ما يرتبط بالمسائل العمليّة كالعبادات والمسائل الاجتماعيّة.

ومن جهة ثالثة أيضاً يُقسَّمُ العلم إلى قسمين: (عقلى) و (سمعى)، فالأول يُستحصل بالدليل العقلى، والثانى من لسان الوحى، وقد ورد فى مقاييس اللغة بأنّ العلم فى الأصل بمعنى ذلك الأثر الذى بواسطته يُعرف شىء معين، لذا فقد وردت كلمة (التعليم) بمعنى وضع العلامات وكلمة (العَلَمْ) بمعنى الراية.

«علّام»:- على وزن جبّار- وعلّامة كلاهما تعنيان العالِم الغزير العلم.

و «العلَمْ»:- على وزن قَلَمْ- ورد بمعنى الجبل الشاهق أيضاً، و (العَيْلَم) بمعنى البحر أو البئر الملى بالمياه، كان هذا مجمل ما قاله المحققون حول تفسير كلمة (العِلْم).

جمع الآيات وتفسيرها

اللّه عز وجل عالم بكل شىء:

بيّنت الآية الأولى بتعبيرٍ مختصر وذى معنى أنّ اللَّه بكل شىء عليم، بدون استثناء، فقالت: «وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكَلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ».

وقد تكرر هذا التعبير والتأكيد، فى أكثر من عشر مرّات فى السور القرآنية المختلفة، بنفس هذه العبارة أو بعبارات مشابهة لها، وهو يمثل أصلًا قرآنياً كلياً فى وصف علم اللَّه.

إنّ هذه العبارة من هذه الآية- التى هى محلُّ بحثنا- قد وردت بعد أن ذكرت قسماً من حقوق النساء والأحكام الإلهيّة الخاصة بها، والتى ورد فيها تحذير لذوى الاغراض الخبيثة الذين يرومون استغلال هذه القوانين الإلهيّة بصورة سيئة، وقد بيّن القرآن هذه الجملة فى آيات اخرى أيضاً بعد تذكيره بضرورة التزام التقوى أو أحكامٍ اخرى، أو ذكره لبعض الصفات الإلهيّة وما شاكل ذلك، كل هذا من أجل بيان هذه الحقيقة، وهى أنّ الأحكام التى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۲

وضعها اللَّه حكيمة وذات مصالح وأغراض وفلسفة معينة من جهة، وأيضاً فإنّها تحذير لجميع المتخلفين عنها، الذين يعلم اللَّه أعمالهم ونيّاتهم من جهة اخرى والأثر التربوى لهذا الاعتقاد بالنسبة للإنسان واضحٌ، فمن البديهى أنّ الذى يعلم ويدرك بأنّ الأمر صادرٌ ممن أحاط علمه بجميع أسرار الوجود وكل ما يحتاجه الإنسان، وكذلك يعلم أنّ من يراقبه عالم بكل شىء، فمن البديهى أن لا يجيز لنفسه ارتكاب أدنى مخالفة.

يعلَمُ نيّاتكم:

تحدثت الآية الثانية عن اطلاع اللَّه سبحانه على نيّات البشر، وعلى أسرار جميع موجودات عالم الوجود، فقالت: «قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَو تُبدُوهُ يَعلَمْهُ اللَّهُ».

وكذلك: «وَيَعْلَمُ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الأَرضِ».

فهذه الآية أيضاً تحذّر الناس من التهرّب من إنجاز وظائفهم ومسؤولياتهم باختلاق حُجج مختلفة (كحجة التقيّة التى ورد ذكرها فى الآية التى سبقتها)، لأنّ الذى يحاسبهم لا يعلم أسرارهم التى يضمرونها فى قلوبهم وما فى صدورهم فحسب، بل يعلم جميع أسرار السموات والأرض.

ولقد ورد نفس هذا المفهوم والمعنى فى سورة البقرة أيضاً، لكنّه- سبحانه- قال هناك:

«وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ». (البقرة/ ۲۸۴)

ومن المسلّم به هو أنّ المحاسبة فرع من العلم والاطلاع، وتعبير (صدور) الذى ورد فى الآية السابقة بمعنى النفوس بقرينة هذه الآية، ثم أنّ وقوع القلب فى الصدر، ووجود علاقة وثيقة بين ضربات هذا القلب وبين بقاء الإنسان على قيد الحياة، علاوة على أنّ أى تغيير نفسى يترك أثراً فى القلب، كان استعمال القرآن الكريم فى آياته لكلمة (القلب) كناية عن الروح والنفس.

وبتعبير آخر، فإنّ أى انفعال نفسى وروحى يقع للإنسان، من قبيل الميول والاغراض

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۳

الحب والبغض، الفرح والحزن، الخوف والهلع، الهدوء وراحة البال، الجهر والأسرار، سوف تكون له آثار مادية على القلب أولًا، ويكون لهذه الآثار ردود فعل من بينها زيادة أو قلّة ضربان القلب، هدوء القلب أو اضطرابه واختلال فى ضغط الدم، كل ذلك استجابة للحالة الروحية التى يتعرض لها الإنسان.

وبغير ذلك فمن البديهى أنّه لا القلب مركز الاحساسات الروحية ولا الصدر، ولا حتّى الدماغ، وجميع هذه الامور ترتبط بروح الإنسان التى ما وراء هذه الأعضاء ولهذا فقد قيل:

إنّ القلب قد يأتى بمعنى العقل أحياناً «۱».

يعلم السر والجهر:

الآيـة الثالثـة- علاوة على ما ورد فى الآيات السابقـة- تتعرض إلى مسألة علم اللَّه بأعمال الإنسان بشـكل خاص، حيث قالت: «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمواتِ وَفِي الأَرضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ».

وقـد أوضـح القسم الأول من الآيـة حضور اللَّه فى كل نقطـة من عالم الوجود، أمّا القسم الثانى فقد ذكر علمه سـبحانه، والقسم الثالث إحاطته جلّ وعلا بأعمال الناس وهى بصورة عامّة انذار لجميع الناس «۲».

ومن البـديهى أنّ المقصـود من حضـوره- جـلّ وعلا- فى السـموات والأـرض لا- يُراد منه الحضور المكـانى، لأـنّه ليس جسـماً ليحل بمكان، فحضوره بمعنى الإحاطة الوجودية، فهو سبحانه قد أحاط بكُلّ شىء علماً، وكل شىء حاضر عنده.

وأمّا معنى قوله تعالى «ويعلم ما تكسبون»؟ فقد قال بعض المفسرين: بأنّه دليل على

---

(۱) لزيادة التوضيح راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۷ من سورة البقرة.

(۲) تفسير المنار، والمراغى، فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۴

اطلاع اللَّه على السر والجهر «۱» (الباطن والظاهر)، وبتعبير آخر اطلاعه على النيات القلبية والأعمال الظاهرية، وقال الآخرون بأنّها إشارة إلى حالات وصفات روحية ومعنوية يبلغها الإنسان بأعماله، وعليه فهى ذات مفهوم جديد مغاير للسّر والجهر «۲».

وقال آخرون أيضاً: «السّر هذا بمعنى النيّات والجهر بمعنى الحالات وما تكسبون بمعنى الأعمال» «۳»

.

إنّ هـذه التفاسـير الثلاثـة مناسـبة كلها، ولكن من خلال تتبع موارد اسـتعمال مادة «كسب» فى القرآن الكريم، فإنّ التفسـير الثالث يعتبر أقرب إلى الصواب.

وعنده مفاتح الغيب:

بيّنت الآية الرابعة سـعة علم اللَّه اللامحدود بتعابير لطيفة اخرى مع ذكر شىء من التفصيل، فقالت أولًا: «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الغَيبِ لَايَعلَمُهَا إِلَّا هُو».

ثم أشـارت إلى جوانب من الغيب فقـالت: «وَيَعْلَمُ مَـا فِي البَرِّ وَالبَحْرِ» و: «وَمَـا تَسْـقُطُ مِنْ وَرَقَـةٍ إِلَّا يَعلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرضِ»، حتى قال فى كلمة شاملة ورائعة: «وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ».

تُعدّ هذه الآية الشريفة من أشمل الآيات القرآنية التى تحدثت عن علم اللَّه اللامتناهى باسلوب دقيق جدّاً.

فابتدأت من علم الغيب إلى ما فى البر وأعماق البحر وما تسقط من الأشجار من أوراق، ثم الحبات الخفية فى ظلمات الأرض والبرارى والجبال والأودية والغابات، التى تنتظر

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۷، ص ۷۹.

(۲) تفسير الميزان، ج ۷، ص ۹.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۲۷۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۵

الغيث لتنبت، فعدتها جميعا ضمن دائرة علم اللَّه المطلق.

لو أمعنا النظر فى مفاهيم هذه الآيات وتصورنا آلاف الملايين من الكائنات الحية الموجودة فى البر والبحر بأنواعها العجيبة المذهلة. ولو تصورنا مجموع أشجار الكرة الأرضية مع جميع أوراقها وعدد مايسقط منها فى كل يوم وكل ساعة وكل لحظة، والمكان الذى تسقط فيه، وكذلك لو تصورنا مجموع حبوب النباتات التى تنتقل على سطح الأرض- بواسطة البشر، والرياح وأنواع الحشرات والسيول وماشاكل ذلك- وتنتظر دورها فى ظلمات الأرض للإنبات والنمو، وعلمنا بأنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد أحاط علماً بجميع هذه الامور وبجميع مشخّصاتها وجزئياتها، لأدركنا سهولة إحاطته تعالى بأعمالنا.

لقد فسّرت روايات عديدة، منقولة عن أهل البيت عليهم السلام، «ظلمات الأرض» بالرحم و «الحبة» بمعنى الولد، و «الورقة» بمعنى الأجنة الساقطة، و «الرطب» بمعنى النطف التى تعيش و «اليابس» بمعنى النطف التى تموت وتجف.

وأشار بعض مفسّرى أهل السنة كالآلوسى فى كتابه (روح المعانى) إلى هذا الحديث بتعجب، واعتبره على خلاف ظاهر الآية.

صحيح أنّه وبالنظرة الاولى يبدو من ظاهر الآية أنّها تُشير إلى حبّات النباتات، لكن الحديث أعلاه أشار إلى مفاهيم تستنبط من هذه الآية بالدلالة الالتزامية، لأنّه لا يوجد تفاوت جذرى بين النطفة والحبّة، وهكذا بين باطن الأرض وظلمات الرحم، والعالم بالاولى هو عالم بالثانية بسهولة لأنّهما متشابهتان مع بعضهما «۱».

وعلاوة على ذلك فإنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا يعلمون باطن القرآن كظاهره، وهذا التفسير يحتمل أن يكون جزءاً من الباطن.

وقد فسّر المفسرون الرطب واليابس بمعان كثيرة، منها أنّهم قالوا: بأنّ الرطب بمعنى الكائن الحى: واليابس بمعنى الميت، أو الرطب بمعنى المؤمن، واليابس بمعنى الكافر، أو الرطب بمعنى الكائن الحى، واليابس بمعنى الجماد، أو الرطب بمعنى العالم، واليابس بمعنى الجاهل «۲».

---

(۱) ورد فى تفسير البرهان خمسة أحاديث فى هذا المجال منقولة عن الإمام الصادق والكاظم والرضا عليهم السلام.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۴۴؛ و تفسير روح المعانى، ج ۷، ص ۱۴۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۶

لكن الظاهر أنّ هذا التعبير كناية عن العموم والشمول فى عالم المادة، كما يستعمل أحياناً فى التعابير اليومية التى تحتاج إلى هذا المعنى

إنّه علّام الغيوب:

تشير الآية الخامسة- بقرينة الآيات السابقة لها إلى المنافقين، فتقول: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ» و: «أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

وتعبير «علّام الغيوب» تعبير جديد يمر علينا فى هذه الآية، ونظراً لكون «علّام» صيغة من صيغ المبالغة ولفظ «الغيوب» لفظاً عاماً، فإنّه يشمل جميع خفيات عالم الوجود بأكمله وعالمى الطبيعة وما وراء الطبيعة.

واللطيف هو أنّ جميع الآيات القرآنية التى تناولناها فى بحثنا لحد الآن حول علم اللَّه، وردت كتحذير للناس لكى يراقبوا أعمالهم

وأقوالهم ونيّاتهم، أى أنّها أشارت إلى المسائل التربوية قبل كل شىء.

«النجوى»: من نجوة و «نجاة» فى الأصل بمعنى المكان المرتفع، ومن حيث إنّ الشخص إذا أراد أن يحدث صاحبه بسرّ معين فانّه ينفرد به فى مكان منعزل، فإنّ هذه الكلمة وردت هنا بمعنى الهمس فى الاذن.

موجودٌ فى كل مكان:

تحدثت الآية السادسة فى البداية عن شهادة اللَّه على أعمال وأقوال وحالات الإنسان، ثم عن سعة علمه واحاطته بكل شىء فى الوجود، وفى الحقيقة فإنّ لهاتين المسألتين ارتباطاً لطيفاً مع بعضهما، قال سبحانه: «وَمَا تَكُونُ فى شَأنٍ وَمَا تَتلُوامِنهُ مِنْ قُرآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيكُمْ شُهُوداً إِذ تُفيضُونَ فِيهِ» «۱»

.

---

(۱) ذكر المفسّرون ثلاثة احتمالات حول مرجع ضمير (منه): الأول أنّه يعود إلى (اللَّه) والثانى ضمير (الشأن) والثالث على (القرآن) لكننا نعتقد بأنّ الاحتمال الأول أقوى ويصير مفهوم الآية كالتالى: (وما تتلو أىّ قسم من القرآن عن اللَّه عزوجل إلّا ....) والدليل على هذا التفسير هو الآية السابقة لهذه الآية والتى تقول: (ما معناه) (بأن ما كان ينسبه الكفار إلى اللَّه تعالى إنّما هو كذب وافتراء) فقالت هذه الآية: بأنّ نبى الإسلام منزّه عن القيام بمثل هذه الأعمال وأنّ جميع ما يخبر به هو من عند اللَّه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۷

والجدير بالذكر هو أنّ المخاطب فى الجملتين الأوليتين هو الرسول صلى الله عليه و آله، حيث أشارت إلى الشأن، (أى الحالات والأعمال المهمّة)، وتلاوة القرآن الكريم، أمّا المخاطب فى الجملة الثالثة التى تحدثت عن مطلق الأعمال، فهم الناس بأجمعهم.

وعلى أيّة حال، بما أنّ المخاطب فى بداية الآية هو الرسول صلى الله عليه و آله وفى الذيل هم جميع الناس، فانّها تدل على العموم والشمول.

وعلاوة على ذلك فهى تشمل حالات الإنسان وأقواله وأعماله (الاستناد إلى تعابير الشأن والتلاوة والعمل).

و «الشهود»: جمع «شاهد»، وهو بمعنى الحاضر والناظر والمراقب (واستعمال صيغة الجمع بخصوص البارى- كما وضّحنا هذه المسألة كراراً- إنّما هو كناية عن عظمته وعلو مقامه سبحانه وتعالى ، ولهذا التعبير مفهوم أوسع من مفهوم العلم، وهو فى الواقع يشير إلى حقيقة كون علم اللَّه علماً حضورياً، وسنشرح ذلك فى قسم التوضيحات.

«تفيضون»: من «الافاضة» وهى فى الأصل بمعنى امتلاء الإناء بالماء بحيث ينساب من حافته، وهذه الكلمة تستعمل بمعنى الشروع بالأعمال باقتدار أو بصورة جماعة، وقد وردت فى هذه الآية بهذا المعنى أيضاً.

ثم أضاف سبحانه قائلا: «وَمَا يَعزُبُ عَنْ رَّبِّكَ مِنْ مِّثقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ».

«يعزب»: من «العزوب»- على وزن «غروب»- وهو بمعنى البعد والانزواء والغيبة، وقال بعض اللغويين والمفسّرين: بأنّه بمعنى الابتعاد عن العائلة وفراق الأهل لتحصيل مرتع للمواشى، ويُطلق «عزبْ» و «عازب» على كل من يبقى بعيداً عن أهله، أو كل من لم

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۸

يتزوج أيضاً، وكذلك يُطلق على أى لون من الفراق والغيبة «۱».

ويعد هذا التعبير فى هذه الآية إشارة لطيفة إلى حضور جميع الأشياء بين يدى اللَّه، فحقيقة علم اللَّه هو هذا «العلم الحضورى، كما

سنذكره فيما بعد.

وكما قلنا سابقاً فإنّ المقصود من «الكتاب المبين» هو علم اللَّه الذى يعبَّر عنه ب «اللوح المحفوظ» أيضاً، والمثقال معناه، «الوزن» و «الذرة» فسرت بعدة وجوه منها: الديدان الصغار والغبار الذى يلتصق باليد، وذرّات الغبار العالقة فى الفضاء والتى تُرى عندما تدخل أشعة الشمس فى الغرفة المظلمة، وأيا كان من هذه التعابير فإنّه كناية عن منتهى الصغر والدقة فى الحجم وتلويح بسعة علم اللَّه سبحانه وتعالى

وهو معكم اينما كنتم:

فى الآية السابعة نلاحظ نقطتين جديدتين فى مجال علم اللَّه: «يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرضِ وَمَا يَخرُجُ مِنهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعرُجُ فِيهَا».

وعليه فهو يعلم بكل مايلجُ فى الأرض من جميع بذور النباتات وقطرات الغيث وجذور الأشجار والمعادن والذخائر والكنوز والدفائن وأجساد الموتى وأنواع الحشرات التى تتخذ من أعماق الأرض بيوتاً لها.

وكذلك يعلم بكل النباتات التى تنبت فى الأرض وتخرج منها، والكائنات الحيّة التى تخرج منها، والمعادن والكنوز التى تظهر، والمواد المنصهرة التى تخرج من بطون الأرض على صورة براكين، وعيون الماء الصافية أو المياه المعدنية الساخنة التى تنبع من الأرض، وأشعة الشمس الحيوية، وقطرات الغيث التى تسقط من السماء، والشُهُب والنيازك

---

(۱) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۵۹

والحبّات التى تنقلها الرياح من مكان إلى آخر، وكذلك يعلم بما يعرج إلى السماء من الملائكة وأرواح الناس، وأنواع الطيور والغيوم التى تتكوّن من مياه المحيطات والبحار، وبالتالى فهو سبحانه قد أحاط علماً بأدعية وأعمال الناس التى تعرجُ إلى السماء.

ولو أمعنا النظر فى هذه الحقيقة أى بأنواع الكائنات الموجودة فى هذه العناوين الأربعة، لأدركنا عظمة وسعة علم اللَّه.

والنقطة الاخرى هى قوله سبحانه فى نهاية الآية: «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

فما أجمله وألطفه من تعبير؟ إنّه تعالى يقول: إن كان الحديث فى بداية الآية عن علم اللَّه بمختلف الموجودات الأرضية والسماوية فإنّ هذا لا يعنى أبداً أن تعبدوهُ بعيداً عنكم، فإنّه معكم أينما كنتم، وهو يرى أعمالكم، فإنّه لم يقل: «يعلم» بل قال: «بصير» وهذا دليل على الحضور والمشاهدة.

واللطيف فى هذه الآية هو الاستعانة بمسألة علم اللَّه لتربية الإنسان أيضاً.

فمن جهة تقول- هذه الآية- للإنسان: إنّك لست وحيداً فهو تعالى معك أينما كنت، فتمنح بذلك لروحه السكينة، ولقلبه الصفاء، ومن جهة اخرى تقول له: أنت بين يدى اللَّه والعالم كُله فى قبضته فراقب أعمالك جيداً. وبهذا الترتيب تجعله دائماً بين الخوف والرجاء.

ومن البديهى فإنّ هذه المعيّة لا تعنى الحضور المكانى بل هى إشارة إلى احاطة علم اللَّه بكل شىء.

الخالق عليم بخلقه:

جاءت الآيـة الثامنـة باسـتدلال واضـح، ملموس لإثبات علم اللّه المحيط بكل شـيء وبجملـة مختصـرة وغنية جدّاً، كما هو شأن القرآن الكريم- حيث قال تعالى «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ» «۱»

.

---

(۱) يوجـد احتمالاـن فى معنى هـذه الجملـة فى الآيـة الشـريفة، الأـول: أن تكون (من) فاعل ل (يعلم). والآخر: أن تكون (من) مفعولًا وفاعله ضـمير مسـتتر يعود على (اللّه). ففى الصورة الاولى يكون معنى الآيـة هكذا: «هل أنّ الخالق لا يعلم؟» وفى الصورة الثانية يكون المعنى «هل أنّ خالق الكائنات لا يعلم بها» والنتيجة واحدة بالرغم من أنّ الأول أقرب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۰

لو أردنا أن نشـرح هذا الدليل بشـكل بسيط نقول: بأنّ نظام موجودات الكون يدلّ على أنّها- الموجودات- خلقت وفق خطة وأهداف معينة وبرنامج دقيق، وعليه فإنّ خالق هذه الموجودات يعلم بجميع أسرارها حتى قبل خلقها.

ولو التفتنا إلى مسألة ديمومة واستمرار خلق اللّه، وأنّ جميع الممكنات مرتبطة مع واجب الوجود فى الوجود وفى البقاء، وفيض الوجود يفيض من ذلك المبدأ الفيّاض على المخلوقات فى كل آن، لأدركنا بأنّ علمه وإحاطته بجميع موجودات عالم الوجود دائم وسرمدى وفى كُل مكان وزمان، فتأمل.

والجـدير بالالتفـات هو أنّ الآيـة ابتـدأت باسـتفهام اسـتنكارى، فهى تطلب الإجابـة من سامعها، أى أنّ الموضوع بدرجـة من الوضوح بحيث إنّ كل من يراجع عقله ووجدانه يعلم أو يدرك بأنّ الخالق لأىشىء خبير به حتماً «۱».

و «لطيف»: من ماة «لطف»، وهو هنا بمعنى خالق الموجودات اللطيفة والأشياء الظريفة والدقيقة جدّاً، أو بمعنى من أحاط بها علماً.

وقالوا أيضاً فى معنى الخبير: بأنّه من يعلم بالأسرار الخفية، ووصفه تعالى بهاتين الصفتين تلويح عن علمه بأسرار الكون ورموزه الخفية.

والجـدير بالملاحظـة هو أنّ اللّه قد خاطب الناس قبل هذه الآية فقال: «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُم أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ». (الملك/ ۱۳)

ثم طرح الاسـتدلال المذكور أعلاه لإثبات هذه القضـية. وعليه فإنّ الاسـتناد إلى هذه الآية فى الاسـتدلال على إثبات علم اللّه سـبحانه يدلّ على أثرها التربوى أيضاً.

يتّضح ممّا قِيل حول تفسـير هـذه الآيـة بأنّ مفهومها واسع جدّاً، وينبغى أن لا تحدد بعلم اللّه بأعمال الناس ونيّاتهم وعقائدهم فحسب، بل هى فى الحقيقة دليل كُلى ومنطقى على علم اللّه، وقد جاءت لتوضيح جانب تربوى معين.

---

(۱) الاستفهام الاستنكارى يعطى معنى النفى، ووجود لا النافية فى الآية يصبح نفى النفى إثبات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۱

ولو أنّ ما فى الأرض من شجرة أقلام و ...:

تناولت الآيـة التاسـعة مسألة سـعة علم اللّه سـبحانه، حيث جسـمت هذه المسألة أمام نظر الجميع بالأعداد والأرقام حيث قالت: «وَلَوْ أَنَّمَا فِى الأَرضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقلَامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

قـد وردت فى سورة الكهف آية مشابهة لهذه الآية مع فارق بسـيط، فلنبدأ بالاحصاء هنا ولنتأمل قليلًا لنرى هل من الممكن أن نحصـل على عشـرات الأقلام من شـجرة واحدة تكفى- الأقلام التى حصلنا عليها من عدد من الأشجار- لكتابة جميع علوم الإنسان المدونة فى

الآف الكتب منذ الآف السنين ولحد الآن؟ من المحتمل أننا نحتاج لحل هذه المعضلة إلى حوض من الحبر بحجم المسابح الصغيرة.

فلْنتصّور إذن المقدار الخيالى لجميع الغابات والأشجار فى جميع البساتين، والكثير من البرارى والجبال ولْنتصور ملايين الأمتار المكعبة من مياه المحيطات والبحار، الـذى يبلغ ثلاثة أرباع حجم الكرة الأرضيـة، بعمقه الكبير، ثم نضـيف على هذا الرقم الخيالى سـبعة أمثاله (هذا إذا اعتبرنا العدد ٧ يدلّ على نفس العدد لا على قصد الكثرة) لنتج لنا رقما خيالياً عجيباً! فأى علم يحيط به؟

والأكثر من هـذا أنّ القرآن الكريم يقول: إنّها جميعاً تنفـد ولا تنفد كلمات اللَّه، فهل يوجد تعبير أقوى وأبلغ من هذا التعبير الدال على لامحدوديـة علم اللَّه؟ فـذكر الأعـداد والأرقام، وإضافـة الأصـفار إلى جانب عـدد معين لا يمكنه أن يعكس عظمة ذلك العدد، فكأنّ الأعداد جامدة لا قيمة لها، لكن العدد الذى ورد فى هذه الآية، كناية عن اللانهاية هو عدد محسوس وناطق وغنى.

أمّا كلمـة «البحر» فنظراً لكون الالف واللام الموجودة فيه تـدلّ على العموم فى مثل هذه الحالات، لذا فهى تعم جميع البحار الموجودة على سـطح الأرض. وبغض النظر عن ذلك فإنّ جميع بحار الأرض متصـلة مع بعضـها، فهى تعتبر بحراً واحـداً ويصـحّ اسـتعمال صـيغة المفرد فيها.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۲

لـذا فـإنّ المقصود من «سـبعة ابحر» هو إضافـة سـبعة أمثـال جميع البحار الموجودة على سـطح هـذه الأرض إلى مقـدارها الأصـلى، و «كلمـات اللَّه» علمه سـبحانه، أو الموجودات التى أحـاط بهـا علمه. ومن حيث إنّ علمه لامتناهٍ وجميع البحـار والأشـجار- الموجودة- متناهية، لذا من البديهى أن تكون عاجزة عن احصاء علمه.

واللطيف هو تعبيره سبحانه فى الآية بكلمة «شجرة» بصيغة المفرد، و «أقلام» بصيغة الجمع للدلالة على إمكان صياغة الأقلام الكثيرة من ساق وجذع واحد.

وبالرغم من أنّ هناك احتمالين حول المقصود من العـدد سـبعة وهما: «العدد» و «الكثرة»، لكنّه يظهر من الآية بأنّ المقصود منه الكثرة لا العدد، أى مهما أضيفت إليه أبحر اخرى أيضاً فإنّ كلمات اللَّه بالرغم من ذلك لانفاد لها.

والجملـة الأـخيرة من هـذه الآيـة «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» تؤكـد هـذه المسألـة أيضاً، لأنّ اللَّه تعنى قـدرته اللامتناهيـة فى الخلق والإيجاد، وحكمته أيضاً تدلّ على إحاطته علماً بدقائق وأسرار موجودات العالم.

والأخير حول هذه الآية هو أنّه نقل عن شأن نزولها بأنّ جماعة من اليهود قالوا: بأنّ اللَّه قد ذكر كل شـى فى التوراة ولم يُبق شـيئاً فقال الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله: مثل ما ورد فى التوراة بالنسـبة إلى كلام اللَّه كالقطرة من البحر، فنزلت هذه الآية وبيّنت سـعة علم اللَّه.

وروى كـذلك بأنّ هـذه الآيـة نزلت عندما قال جماعة من الكفار: إنّ ما يأتى به محمد سـينتهى قريباً، فردهم الرسول صـلى الله عليه و آله: بأنّ هذا كلام اللَّه ولا نفاد له، فنزلت هذه الآية لتبيان هذا المعنى «۱».

عنده مفاتح الغيب الخمسة:

لقد عرضت الآية العاشـرة أيضاً قسما آخر من علم اللَّه تعالى وهو العلوم الغيبيّة المخصوصة بذاته المقدّسة، وأكدت بأنّ لا أحد يحيط بحقيقتها سواه، قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۱۷؛ و تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۱۵۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۳

عِنـدَهُ عِلمُ السَّاعَـةِ وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَـا فِي الْأَرحَـام». (من حيث نوع الجنس ومـا يتعلق به والسـلامة، ومن حيث سـائر الاسـتعدادات والقدرات الاخرى . «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدرِى نَفسٌ بِأَىِّ أَرضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبيرٌ».

ما ذُكر فى هـذه الآية من علم اللَّه يعكس بوضوح موعد القيامة، لكن لحن الآية يدلّ على اختصاص علم الامور الأربعة المذكورة بعد هذا الأمر باللَّه سبحانه أيضاً، لأنّه لا يُرى تشابه بين هذه المواضيع الخمسة سوى من حيث كونها علوماً خاصّة باللَّه سبحانه، علاوة على ماصرحت به الكثير من الروايات المنقولة من طرق الشيعة والسنة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، حول اختصاص هذه العلوم الخمسة بذاته المقدّسة جلّ وعلا، وكنموذج ننقل هنا حديثاً من تفسير (الدر المنثور) وآخر من تفسير «نور الثقلين»:

١- ورد فى (الـدر المنثور) عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله قال: «ومفاتيـح الغيب خمس لا يعلمهن إلّا اللَّه، لايعلم ما فى غدٍ إلّااللَّه، ولا متى تقوم الساعة إلّااللَّه، ولا يعلم ما فى الأرحام إلّا اللَّه، ولا متى ينزل الغيث إلّااللَّه، وما تدرى نفس بأى أرض تموت إلّااللَّه» «١»

.

٢- ورد فى (نور الثقلين) عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ألا أخبركم بخمسة لم يُطْلع اللَّه عليها أحداً من خلقه؟ قلت: بلى قال: إنّ اللَّه عنـده علم الساعـة ويُنزلُ الغيث ويعلم مـا فى الأرحام وما تـدرى نفسٌ ماذا تكسبُ غـداً وما تـدرى نفسٌ بأى أرضٍ تموت إنّ اللَّهَ عليمٌ خبير» «٢»

.

وقد وردت روايات كثيرة اخرى أيضاً فى كتب الحديث حول هذا الموضوع «٣».

الإجابة عن سؤالين:

السؤال الأول: كيف أنّ هـذه العلوم الخمسـة مختصـة بـاللّه سـبحانه وتعـالى مع أنّه من الممكن تشـخيص جنس الجنين (ذكر أم انثى بوسائل معينة؟ وإن لم تكن هذه المسألة

---

(١) تفسير درّ المنثور، ج ۵، ص ۱۶۹.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۱۸.

(٣) للمزيـد من الاطلاع يراجع تفسير درّ المنثور، ج ۵، ص ۱۶۹ وما بعـدها؛ وتفسـير نور الثقلين، ج ۴، ص ۲۱۸ وما بعدها؛ وتفسير البرهان ج ۳، ص ۲۸۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۴

قطعية لحد الآن، وكذلك نزول الغيث حيث يستنبأ بنزوله قبل هطوله بقليل.

الجواب: الكلام لا يـدور فقط حول جنس الجنين بل إنّ اللَّه سبحانه يعلم عدد الأجنة الموجودة فى الأرحام، ووضـعيتها واسـتعداداتها وأذواقها، ومواهبها، وقـدراتها وضـعفها وجميع خصوصـياتها، وهكـذا عن الغيث، فقـد أحاط علمه بكميـة الغيث ونوعيته وعدد قطراته ووزنها ومحل سقوطها. ولا أحد يمكنه أن يحيط علماً بهذه الأمور وبأى وسيلة كانت.

والشاهد على كلامنا هذا هو حديث ورد فى نهج البلاغة حول تفسير هذه الآية:

«فَيَعْلَمُ اللَّهُ سُبْحانَهُ ما فِي الْارْحام مِنْ ذَكَرٍ او انْثى وَقَبيحٍ اوْ جَميلٍ وَسَخِىٍّ اوْ بَخيلٍ ...

فَهذا عِلْمُ الْغَيْبِ الَّذى لايَعْلَمُهُ اَحَدٌ الَّا اللَّهُ» «١».

تدلّ هذه العبارة بوضوح على أنّ المقصود هو العلم بجميع صفات الجنين الجسمية والروحية، لا جنس الجنين فقط.

السؤال الثانى: كيف يمكن الجمع بين هـذه الآيـة والروايات الكثيرة التى وردت فى تفسيرها وبين الروايات الكثيرة التى صـرحت بأنّ

الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يُخبرون عن حوادث المستقبل، أو يوم وفاتهم، ومحل دفنهم، وسائر الامور المستقبلية، ألا يوجد تعارض بين هاتين المجموعتين؟ لأنّ الآية تقول: «وَمَا تَدرِى نَفسٌ مَّاذَا تَكسِبُ غَداً وَمَا تَدرِى نَفسٌ بِأَىِّ أرضٍ تَمُوتُ»؟

الجواب: يمكن الإجابة عن هذا الإشكال بأنّ الفرق هو فى الإجمال والتفصيل بتوضيح أن ما يخبر به أولياء اللّه أو الملائكة عن حوادث المستقبل وعلم الغيب ليس إلّاعلماً إجماليّاً، فمثلًا يعلمون بأنّ الشخص الفلانى سيموت فى الغد، أمّا العلم بساعة ولحظة وفاته وبقية خصائصها فهو مختص به سبحانه، فهذا علم تفصيلى وكلى وشامل، فى حين أنّ علم أولياء اللّه علم إجمالى وجزئى.

وقد أراد بعض المفسرين الرد على هذا الإشكال عن طريق العلم الذاتى والعرضى

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۵

فقالوا: إنّ علم اللّه بهذه الامور ذاتى، وأنّ أولياء اللّه لا يملكون لأنفسهم شيئاً، فعلمهم إنّما هو بتعليم اللّه (أى أنّ علمهم عرضى).

لكن هذا الجواب لا يتناسب مع الكثير من الروايات المنقولة من طرق الشيعة والسنة فى هذا المجال، بل وحتى لا يتطابق مع ظاهر الآية فى ثلاثة موارد: أحدها انحصار علم الساعة به سبحانه، وكذلك ما تدرى نفس ماذا تكسبُ غداً، وما تدرى نفس بأى أرض تموت.

وكل شىء فى كتاب مبين:

أشارت الآية الحاديةُ عشرة إلى علم اللّه بسرّ الإنسان وعلانيته، وغيب السموات والأرض، قال تعالى

«وَانَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ* وَمَا مِنْ غائِبَةٍ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ الَّا فِى كِتَابٍ مُّبِيْنٍ».

وتعبيره سبحانه «ربك» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة: فهل يمكن أن يكون المربى ومالك التدبير والتصرف لكل المخلوقات أن لا يحيط علماً بالحالات الباطنية والظاهرية لمن يربيه ومن هو تحت تصرفه؟ وهذه الربوبية هى بذاتها الدليل على علم اللّه سبحانه وتعالى

«تكن» من مادة «كن» على وزن «جن». بمعنى الستارة وكل مايمكنه أن يحجب الأشياء، وقد وردت الصدور هنا كغطاء ساتر على الأسرار الباطنية، وكما أشرنا سابقاً فإنّ كلمتى الصدر والقلب قد وردتا فى الكثير من التعبيرات القرآنية بمعنى الروح والعقل.

وكلمة «غائبة» إذا كانت ذات معنى وصفىّ فهى كناية عن الامور المحجوبة والخفية جدّاً. (لأنّ التاء المربوطة تأتى فى مثل هذه الحالات للمبالغة كما فى (علامة) «۱».

---

(۱) اعتقد بعض المفسرين كالزمخشرى فى كشافه بأنّ لهذه الكلمة معنى اسمياً لا وصفياً مثل (عاقبة)، و (ذبيحة)، ولو أنّه احتمل المعنى الوصفى أيضاً (تفسير الكشاف، ج ۳، ص ۳۸۲)، وذكر البعض الآخر كلا الاحتمالين للآية المذكورة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۶

وقد وردت كلمة «مبين» بمعنى واضح، وبمعنى موضّح (لازم ومتعدى)، والمعنى الثانى هنا أقرب، أى أنّ اللوح المحفوظ أو لوح علم اللّه مبين وكاشف للحقائق «۱».

ونحن أقرب اليكم:

وفى الآيـة الثانيـة عشـرة تعـابير جديـدة ولطيفـة حول علم اللَّه، فقـد طرحت فيهـا أيضـاً مسألـة علم اللَّه كتحـذير لجميع النـاس ليراقبوا أفكارهم ونيّاتهم، وماتكن صدورهم، قال تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيْدِ».

أشارت هذه الآيـة إلى قسمين من علم اللَّه تعالى

الأول: يعتمد على مسألة خلق الإنسان، أى كيف يمكن أن يجهل الخالق الحكيم فعله؟

خصوصاً وأنَّ خلقهُ مسـتمر وفيضه ينزل كُلَّ لحظة على جميع موجودات عالم الوجود، وبتشبيه ناقص، هو التيار الذى ينبعث من المولد الكهربائى ويزود المصابيح بالنور باستمرار.

والثانى: هو أنّه غير بعيـد عن مخلوقاته، فهو أقرب إليهم من أنفسـهم، لـذا فحضوره الـدائمى وقربه يعـد دليلا آخر على إحاطته بجميع الامور.

وقد ذكرت فى كتب التفسـير واللغة تفاسير متعددة بخصوص كلمة «وريد» منها: أنّ (الراغب) فسره بمعنى الشريان الذى يتصل بالقلب والكبد، وقال جماعة: إنّه بمعنى وريد الرقبة.

وقال آخرون: إنّه بمعنى الوريد الذى يتصل بالفم أو تحت اللسان وفسره جماعة بأنّه بمعنى جميع الأوعية الدموية الموجودة فى البدن. وبديهى فإنّ المعنى الأول (الشريان

---

(۱) قال جماعـة بأنّ «مبين» من مادّة «بيان» وهى فى الأصل بمعنى الانكشاف والوضوح بعد الابهام والإجمال بوسـيلة منفصـلة لذا فهى تعطى معنى الانفصال ومعنى الوضوح معاً.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۶۷

الرئيسـى الأبهر) أكثر تناسـباً مع مفهوم الآيـة، لأنّه أراد أن يبيّن قرب اللَّه الشديـد من الإنسان، وهذا المعنى أقرب خصوصاً مع ملاحظة وجود وريدين فى الرقبة.

والتعبير بكلمة «حبل» يُشير أيضاً إلى أنّ المقصود ليس جميع أوردة البدن، بل الرئيسة منها، وكما عبر البعض حيث قالوا: بأنّ المقصود هو الأوردة التى لها منزلة الأنهار لا الجداول.

وعلى أيّة حال فهذه الكلمة مشتقة من كلمة (ورود) أى بمعنى الوصول إلى الماء- التى لها تناسب واضح مع أوردة الدم.

ومن هنا يعبر عن الأزهار بالورد، أى الثمرة الاولى التى ترد من الشجرة «۱».

«توسوس»: من الوسوسة والوسواس، وهو بمعنى الصوت الهادىء الخارج من آلات الطرب، والنداء والصوت الخفى، والخواطر القلبية، والتصورات الفكرية الخاطفة، والأفكار غير المرغوبة «۲».

وعلى أىِّ حال، فعنـدما يحيط اللَّه تعالى بالخواطر الفكريـة الخاطفـة، فإنّه لا يبقى مجالٌ للشك والترديد بأنّه سـبحانه يحيط علماً بسائر أعمالنا وأفعالنا واعتقاداتنا. وتعبيره: ونحن أقرب إليه من حبل الوريد، إضافة إلى كونه تحذيرا، فهو ينزل علينا نوعا من السـكينة الباعثة للأمل، ونور هذا الأمل هو الذى ملأ جميع أجزاء وجودنا.

أليس عجيبـاً أن يبتعـد الإنسـان من محبوبه بعـد أن يعلم بـأنّه أقرب إليه من نفسه؟ من الـذى يقاسـمنا ألم هـذه المصـيبة عنـدما يكون المحبوب قريباً من الإنسان ولكن الإنسان يحترق بنار الهجران؟

نحن أقرب قال من حبل الوريد أنت قد هاجرت عنه وتوغلّت بعيد أيّها المالى قوساً من نبال قَربُ الصيد وترمى للجبال!! وبضم الآيات القرآنيـة المـذكورة إلى بعضـها، يتضـح بـأنّ القرآن الكريم قـد وضع برنامجاً دقيقاً واسـعاً لتبيان علم اللَّه وإحاطته اللامحـدودة بجميع الامور بذكر أدلة دقيقة ضمن عبارات مختلفة، وجعلها أساساً لتربية الإنسان فى جميع الاحوال!

توضيحات

۱- تأثير علم اللَّه فى بُعدى العرفان والتربية

إنّ الأهميّة الخاصة التى أولاها القرآن الكريم لهذه المسألة تنبع أولًا من الدور المهم لمسألة علم اللَّه فى بحث معرفة اللَّه، حيث تقرب الإنسان إلى ربّه وتعرفه به، وتجعله يراه فى كل مكان، وأنّ معرفة اللَّه بدون معرفة جوانب علمه تعتبر ناقصة وضعيفة جدّاً.

ومن حيث إنّ لجميع المعارف انعكاساً على أعمالنا وتصرّفاتنا الفردية والاجتماعية، وكون هذه المسألة تنبع من العلاقة الوثيقة بين (الأيديولوجية) و (النظرة العالمية) فإنّ لإدراك علم اللَّه اللامحدود آثاراً تربوية وهى كالتالى:

فمن جهة نجد أنّ الاعتقاد بوجود رقيب عليم عظيم له تأثير فى ترغيب وردع الإنسان فى انجاز أعماله، فعندما يقول سبحانه: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ اقْرَبُ الَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ» وقوله: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَاتُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» وقوله: «وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّماءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذلِكَ وَلَا أَكْبَرَ ...» وقوله «وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ ... وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلَمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ»، أو قوله سبحانه:

«وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً». (الإسراء/ ۱۷)

فإنّه تحذير شديد لجميع بنى البشر وإشعار بالخوف والرجاء فى كل مايصدر منهم من عمل.

ومن جهة آخرى فإنّ الاعتقاد بأنّ الناظر والرقيب علينا هو ولى نعمتنا، كأنّه يقول لنا:

---

(۱) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ ولسان العرب؛ وتفسير الميزان؛ والفخر الرازى؛ والقرطبى؛ وفى ظلال القرآن وغيرها من التفاسير.

(۲) «وسواس» اسم مصدرى، و «الوسواس» بكسر الواو ذو معنى مصدرى، وقد تأتى الكلمة (اسم فاعل) أى الشيطان، (لسان العرب).

«كيف تستعينون بنعم اللَّه وعطاياه على معصيته»؟!

ومن جانب ثالث فإنّ هذه المراقبة تُحيى بصيص الأمل فى قلب الإنسان، ويشعر بعدم كونه وحيداً فى مواجهة الحوادث، بل يشعر بأنّ الرقيب هو من يحيط علماً بجميع الكون ومشاكله وأسراره الباطنية والعلنية، وهو سبحانه وتعالى قدير ورحيم فى نفس الوقت.

وهذه العقيدة ترفد الإنسان بالقوة والاستقامة فى مواجهة المواقف الصعبة.

ومن جانبٍ رابع فإنّ الالتفات إلى سعة علم اللَّه تعالى يدلنا على سعة وعظمة عالم الوجود، وعمق أسرار عالم الخلق والتكوين، وهذا بحدّ ذاته يمكن أن يكون دافعاً مهمّا نحو التطور العلمى.

۲- الأدلة على علم اللَّه

اشارة

ذكر الفلاسفة والمتكلمون أدلّة عديدة لإثبات علم اللَّه بجميع الأمور، أهمها الأدلّة الثلاثة التالية: (والطريف هو أنّ الآيات المذكورة أشارت إلى جميع هذه الأدلة):

أ) برهان الخلق والنظم

إنّ النظام المذهل الموجود فى هذا الكون، والقوانين الدقيقة التى تُسيِّر جميع ذرات الوجود، ابتداءً من الذرّة وانتهاءً بالمنظومات والكواكب السيّارة، وابتداءً من الموجودات المجهرية وانتهاء بالإنسان الذى هو أرقى نموذج فى الخلق، ومن الأعشاب الاحادية الخلية التى تعيش فى أعماق المحيطات، وحتى الأشجار العظيمة التى يبلغ طولها خمسين متراً!

وهكذا النظم المعقدة العجيبة التى تسيطر على روح الإنسان وقلبه، والتنوع المذهل الملحوظ فى الكائنات الحية، من النباتات والحيوانات، والذى تبلغ أنواعها مئات الآلاف، فهذه جميعاً تدل على علم اللّه اللامحدود.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۰

فهل يمكن أن يصنع أحد شيئا ويجهل أسراره؟

فخالق العين ونظام المخ المعقد، والمدارات الألكترونية العجيبة التى تدور حول نواة الذرّة، فهو عالم ومحيط بها جميعاً.

وعليه فكما يدلنا برهان النظم على وجود اللّه فإنّه يثبت عدم محدودية علمه أيضاً.

ونظراً إلى أنّ مسألة الخلق أمرٌ مستمر ودائمى فإنّ الموجودات فى حال «الصيرورة» المستمرة لا «الإيجاد» الأول فحسب، وأنّ ارتباطهم مع منشى الخلق لا يمكن أن يكون فى البداية فقط، بل هو مستمر مع استمرار حياتهم ووجودهم، فسوف تثبت إحاطته العلمية بجميع الأشياء وفى كل حالٍ ومكان وزمان أيضاً.

ب) برهان الإمكان والوجوب

ثبت فى بحوث معرفة اللّه أن واجب الوجود هو اللّه وحده سبحانه، وما سواه ممكن الوجود، وثبت أيضاً بأنّ الممكنات محتاجة وتابعة له فى الوجود والبقاء معاً، وبتعبيرٍ آخر الجميع حاضر بين يديه، وهذا الحضور الدائمى دليلٌ على علمه بجميع الأمور، لأنّ العلم بحقيقة المعلوم ليست إلّاحضور ذات المعلوم عند العالم.

ج) برهان اللّاتناهى

بغض النظر عن مسألة العلّة والمعلول، فإنّ اللّه سبحانه وتعالى وجود غير مُتناهٍ من جميع الجوانب، لذا لا يخلو منه مكانٌ أو زمان (مع أنّه لايحدّه مكان أو زمان)، لأننا لو افترضنا خلو مكان أو زمان من وجوده تعالى فقد حددناه.

لذا فعدم تناهيه يدلّ على حضوره وإحاطته بجميع الوجود، أو بتعبير آخر كُل شىء ماثل بين يديه.

فهل يمكن أن يكون العلم غير هذا الحضور؟

وفى الحقيقة أنّ موانع العلم إمّا أن تكون حجب مادية، وإمّا بُعد المسافة، ونحن نعلم انتفاء هذه الامور عن ذات البارى.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۱

وكما أشرنا فى بداية هذا البحث فإنّ فى الآيات المذكورة أعلاه إشارات واضحة حول هذه الأدلة العقلية التى تعبّر عن متانة الدليل القرآنى ومنطقه المتفوق، وقد أشرنا إليها ضمن تفسير الآيات.

۳- إنّ علم اللّه حضوريٌ

كما أنّ حقيقة العلم من البديهيات، وهذا المعنى من الواضحات أيضاً، حيث إننا نمتلك نوعين من العلم وهما مختلفان تماماً:

النوع الأول: نحن نعلم وندرك وجودنا، وإرادتنا، وميولنا، حُبّنا وبغضنا، مايدور فى اذهاننا، بدون حاجة إلى أى وساطة، ونحيط علماً بأنفسنا، وأفكارنا وحالاتنا الروحية ماثلة بين أيدينا، ولا حجاب فيما بيننا وبينها. (ويدعى هذا النوع بالعلم الحضورى).

النوع الثانى: نحن نعلم بما يُحيط بنا من الموجودات أيضاً ولكن من المسلَّم به أنّ السماء والأرض والنجوم لا توجد فى اعماق وجودنا وفى دخائل أرواحنا وأفكارنا، بل نفذت صورها إلى أذهاننا عن طريق آثارها، وفى الحقيقة أنّ ما عرفناه عنها هو تلك المفاهيم التى نفذت إلى أعماقنا، وهذا النوع من العلم يدعى بالعلم الحصولى.

وعلم اللَّه بجميع موجودات العالم من النوع الأول، لأنّه موجود فى كل مكان، ويحيط بكل شىء احاطة وجودية، ولا شىء بعيد عنه سبحانه.

فهو سبحانه لا يحتاج إلى الحواس وانعكاس صور الموجودات فى الذهن، ولا إلى المفاهيم الذهنية أبداً، وعلمه بكل شىء علم حضورى.

۴- لا حصر ولانهاية لعلم اللَّه

إنّ محاولات الإنسان المستمرة لكشف أسرار الوجود، التى شغلته منذ اليوم الأول من

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۲

حياته. والتى لها وقعاً فى قلبه قد اصطحبت معها كنوز من العلوم والمعارف التى يمكن أن ندرك أبعادها بمشاهدة ملايين الكتب الموجودة على رفوف المكتبات العالمية الكبيرة، والتى بلغ عدد الكتب فى بعضها خمساً وعشرين مليون كتاب.

صحيح أنّ بعض هذه الكتب مكررة أو مترجمة عن بعضها الآخر، لكنه لاريب فى احتوائها على حقائق كثيرة غير مكررة ناجمة عن المساعى الفكرية والتجريبية لكل المجتمع البشرى على مدى التاريخ، بغض النظر عن العلوم التى بقيت فى أذهان العلماء ودفنت معهم.

لكن جميع هذه العلوم بالنسبة إلى المجهولات بمنزلة القطرة من البحر أو الذرة من الجبل.

ويمكن بيان أسباب هذه المحدوديّة بالأمور التالية:

أ) محدوديّة قدرتنا الحسية، فنحن نستطيع إدراك قسم صغير من موجودات عالمنا الحسى فقط، كما أنّ قدرتنا على التحليل العقلى أيضاً ليست قادرة إلّاعلى إدراك قسم صغير من المسائل العقلية.

ب) إنّ عمر الإنسان بالنسبة إلى عمر عالم الوجود كساعةٍ واحدة لا أكثر.

ج) يُعَدّ المحل الذى نعيش فيه أى الكرة الأرضية صغيراً ومحدوداً جدّاً بالمقارنة مع كواكب المجرات التى لا تعدّ ولا تحصى (ويقدِّر العلماء عدد النجوم الموجودة فى مجرّتنا فقط بمئة ألف مليار كوكب، وقد بلغ عدد المجرات التى اكتشفها البشر بهذه الأجهزة البسيطة لحد الآن مليار مجرة!).

ومن هنا يُمكن إدراك سعة علم اللَّه، وما أجمل التعبير القرآنى فى هذا المجال: «وَلَوْ أَنَّمَا فِى الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». (لقمان/ ۲۷)

والأهم من كل ذلك هو أنّ اللَّه تعالى عالم بذاته المقدّسة أيضاً، ولأنّ ذاته المقدّسة لامتناهية، فإنّ علمه بهذه الذات اللامتناهية لامتناهٍ أيضاً، ولا تستطيع الأعداد أو الأرقام أن تفصح عن عظمته.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۳

۵- أسئلة مهمة حول علم اللَّه

هنالك أسئلة على شكل مناضرات بين الفلاسفة والمتكلمين حول علم اللَّه منذ قديم العصور، وقد اتسعت فيما بعد، وذلك لكون مسألة العلم بصورة عامّة ومسألة علم اللَّه بصورة خاصّة، معقّدة، وأهم هذه الاسئلة ما يلى:

١- كيف يمكن أن يحيط اللَّه علماً بذاته المقدّسة، فى حين أنّ العالم والمعلوم يجب أن يكونا شيئين؟ فهل يوجد تفاوت بين علم اللَّه وذاته المقدّسة؟ وبعبارة اخرى هل يمكن أن يكون اللَّه عالماً ومعلوماً فى نفس الوقت؟

الجواب: أولًا: إنّ هذا السؤال لا ـ ينحصر بعلم اللَّه بذاته المقدّسة، فهو يجرى حتى على علمنا بوجودنا، فنحن نعلم يقيناً بوجودنا وندرك بأننا موجودون، فهل يجب أن يكون العالم والمعلوم هنا شيئين أيضاً؟ فى حين أننا لسنا بأكثر من شىء واحدٍ، خصوصاً وإن علمنا بأنفسنا من النوع الحضورى أيضاً.

ثانياً: نورد هنا ما أجاب به العلّامة المرحوم (الخواجة نصير الدين الطوسى) على نفس هذا السؤال، قال: إنّه يكفى التغاير الاعتبارى أى أنّ موجوداً واحداً من حيث كونه مبدعاً عاقلًا يستطيع أن يُدرك حضوره بذاته، فهو عالم، ومن حيث كونه حاضراً عند ذاته، يكون معلوماً، وبتعبير آخر ننظر إلى هذا الوجود الواحد من زاويتين: من زاوية إدراكه لذاته فنسميه عالماً، ومن زاوية أنّه مُدْرَك فنسميه معلوماً (فتأمل).

٢- كيف يحيط اللَّه عِلْماً بموجودات العالم وهى فى حالة تغيُّر دائم، فهل أنّ ذاته المقدّسة تتغير أيضاً!؟

الجواب: يصح هذا الإشكال فيما إذا كان علم اللَّه بالأشياء الخارجية كعلمنا حاصل عن طريق (إنعكاس صور الأشياء)، لأنّ تغيُّر هذه الموجودات يؤدّى إلى تغيُّر هذه المفاهيم والصور لكن بما أن علم اللَّه علمٌ حضوريٌّ، وجميع الأشياء ماثلة بين يديه، فإنّ هذا الإشكال لا معنى له. لأنّ التغيُّر يحصل فى موجودات هذا الكون فقط، لا فى ذاته المقدَّسة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۴

فوجودها ثابت ومحيط بها جميعاً والمتغيِّر هو الموجودات المحاطة، كما هو الحال فيما لو تحرك شخص مُعّين أمامنا فإنّ صورته سوف تقع على شبكية العين، وستتغير هذه الصورة بتغير حاله، فتتغير المفاهيم الذهنية الموجودة عنه فى أذهاننا تبعاً للتغييرات، وكل هذا لسبب كون علمنا هنا انعكاساً للأشياء الخارجية فينا، فلو كان علمنا بالأشياء الخارجية علماً ناجماً من الاحاطة بجميعها، لما حصل أى نوع من التغير، بل لكان التغير فيها فقط (فتأمل).

٣- كيف يحصل علم اللَّه بالجزئيات، مع أنّ الجزئيات متعددة ومتكثرة، وذاته المقدّسة واحدة لا تعرف التعدد؟

الجواب: إنّ هذا الخطأ أيضاً نجم عن مقايسة علم اللَّه بعلمنا الذى نحصل عليه عن طريق انتقال المفاهيم والصور الذهنية، فى حين أنّ علمه بالموجودات ليس علماً حصولياً، بل حضوريٌّ، أى أنّ جميع الموجودات ماثلة بذاتها بين يديه عزّ وجلّ، وهو يحيط بها جميعاً دون الحاجة إلى مفاهيم أو صور ذهنية معينة «۱».

۴- كيف يمكن تصور علم اللَّه بالحوادث المستقبلية التى ليس لها وجود خارجى فى الوقت الحاضر حتى تقع فى دائرة علم اللَّه؟ فهل توجد لدى اللَّه مفاهيم وصور ذهنية عنها؟

مع تقدّسه سبحانه عن أن يكون له ذهن، أو أن يكون علمه حصولياً؟ إذن ما علينا إلّاأن نستسلم ونقول: بأنّه سبحانه لا يعلم بالحوادث المستقبلية! لأنّ العلم الحضورى منتفٍ بالنسبة إلى المعدوم، وبذلك يصبح العلم الحصولى للَّه‌تعالى أمر لا يمكن تصوره أيضاً.

على الرغم من أنّ هذا السؤال والإشكال قد طرح حول العلم بالحوادث المستقبلية، إلّا أنّه يرد بنفسه حول الحوادث الماضية المعدومة أيضاً، لأنّ الحوادث الماضية لا وجود لها الآن، فصورة (فرعون) أو بنى إسرائيل وأصحاب (موسى مثلًا لا وجود لها حالياً وقد تلاشت، كما أنّ تأريخها قد فات أيضاً، فنحن نستطيع الوقوف على الماضى بمجرّد أن

---

(۱) الفرق الموجود بين هذه الإشكالات الثلاثة هو أنّ الأول يتعلق بتعدد العالم والمعلوم، والثانى بتغيّر الموجودات، والثالث بتكثرها.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۵

نستحضر فى أذهاننا صوره فحسب، لأنّ علمنا علم حصولى يتحقق بواسطة المفاهيم والصور الذهنية فقط، وبما أنّ علم اللَّه علمٌ حضورى فهو لايعرف أى لون من الوساطة والمفاهيم، فكيف يمكن تصوُّر علمه بالحوادث الماضية؟

الجواب: يمكن الإجابة عن هذا السؤال والإشكال بثلاث طرق:

۱- إنّ اللَّه محيط دائماً بذاته المقدّسة التى هى علّة جميع الكائنات، وهذا العلم الإجمالى بجميع حوادث وموجودات الوجود أزلى وأبدى (أى قبل الإيجاد وبعده).

وبتعبير آخر لو علمنا علل الأشياء، لاستطعنا أن نعلم نتائجها ومعلولاتها أيضاً، لأنّ كُل علّة تستبطن جميع كمالات معلولها وأكثر.

ويمكن شرح هذا الكلام بشكل أوضح كما يلى: إنّ الحوادث الماضية لم تنمح تماماً، فإنّ آثارها موجودة فى طيّات الحوادث الآنية، وكذلك بالنسبة إلى الحوادث المستقبلية فهى غير منفصلة عن الحوادث الآنية، ولها علاقة معها، وعليه ف «الماضى» و «الحاضر» و «المستقبل» يشكلون معاً سلسلة شبيهة بالعلة والمعلول، بحيث لو اطّلعنا على كل واحدة منها بدقّة، لشاهدنا فيها الحلقات القبلية والبعدية لهذه السلسلة.

فمثلًا لو أحَطْتُ علماً وبدقّة بمناخ جميع الكرة الأرضية، وبكل مميزاته، وجزئياته، وعلله، ومعلولاته، وحركة الكرة الأرضية، ومسألة الفعل ورد الفعل، لاستطعتُ أن احيط علماً بوضعية المناخ قبل أو بعد ملايين السنين بصورة دقيقة. لأنّ شواهد الماضى والمستقبل موجودة فعلًا، لا الشواهد الإجمالية بل تفصيلات الشواهد المنعكسة فى جزئيات الحاضر.

فالحاضر يعكس الماضى، والمستقبل يعكس الحاضر، والاحاطة العلمية الكاملة بجزئيات الحاضر، معناها الإحاطة الكاملة بحوادث الماضى والمستقبل.

لذا فعندنا تكون حوادث الحاضر ماثلة بين يدى اللَّه تعالى بجميع خصوصياتها، فإنّها بمعنى مثول الماضى والمستقبل أيضاً بين يديه عزّ وجل.

فالحاضر مرآة للماضى والمستقبل، ويمكن مشاهدة جميع الحوادث الماضية والمستقبلية فى مرآة الحاضر (فتأمل).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۶

۲- ويوجد طريق آخر للإجابة على هذا السؤال نوضحه بالمثال التالى: تصوروا أنّ شخصاً محبوساً فى غرفة صغيرة لا يوجد فيها سوى نافذة صغيرة على الخارج، فعندما تمر قافلة من الإبل من أمام هذه النافذة، فإنّ هذا السجين سوف يشاهد رأس البعير أولًا، ثم رقبته، ثم سنامه، ثم أرجله، ثم ذنبه، وهكذا الحال بالنسبة لسائر الابل الاخرى فصغر النافذة هذه هو السبب فى إيجاد حالات من الماضى والحاضر والمستقبل لدى الناظر السجين، لكن المسألة تختلف تماماً بالنسبة للواقف على سطح الغرفة وينظر إلى الصحراء نظرة شاملة، فهو يُشاهد جميع إبل القافلة فى وقتٍ واحد.

ومن هنا يتضح أن إيجاد مفاهيم الماضى والحال والمستقبل ناجمة عن محدودية نظرة الإنسان، فما هو ماضٍ بالنسبة لنا كان مستقبلًا لأقوام قد سبقونا، وما هو مستقبل بالنسبة لنا الآن فهو ماضٍ بالنسبة لأقوام ستأتى فيما بعد.

أمّا الذات الموجودة فى كل مكان والتى أحاطت بالأزل والأبد، فإنّ الماضى والحاضر والمستقبل بالنسبه لها لا معنى له، فجميع حوادث الدهر ماثلة بين يديها (ولكن كل واحدة فى موقعها الخاص)، وهى محيطة علماً بجميع الحوادث وموجودات العالم، سواءً بالماضى، وبالحاضر، وبالمستقبل بصورة متساوية.

ونحن نُقرّ طبعاً بأنّ تصّور هذه المسألة بالنسبة لنا نحن المحبوسين فى سجن الزمان والمكان، أمر صعب ومعقّد، ولكنه فى نفس الوقت قابل للتدقيق والمطالعة.

۳- الطريق الآخر الذى استند إليه الكثير من الفلاسفة، هو أنّ اللَّه تعالى عالم بذاته المقدّسة، وبما أنّ ذاته علّة جميع المخلوقات، فإنّ

العلم بالعلّة سيكون سبباً للعلم بالمعلول، وبتعبير آخر فإنّ اللَّه تعالى جامع لجميع الكمالات الموجودة فى جميع المخلوقات بأتم صورة، وما هو غير موجود فى ذاته المقدّسة هو نقائص المخلوقات فقط.

اذن، فعلمه تعالى بذاته هو بالحقيقة علمه بجميع المخلوقات. (وهناك فرق دقيق بين هذا الطريق والطريق الأول يتّضح من خلال التأمل).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۷

۶- علم اللَّه فى الروايات الإسلاميّة

وردت فى الروايات الإسلامية تعابير لطيفة جدّاً، حول علم اللَّه منها ما جاء فى نهج البلاغة، حيث يمكن الاستعانة بها لفهم البحوث بصورة أفضل، نذكر أدناه نماذج منها:

۱- قول أمير المؤمنين على عليه السلام فى باب علم اللَّه:

«يَعْلَمُ عَجِيجَ الوُحُوشِ فى الفَلَواتِ، وَمَعاصِيَ العِبادِ فى الخَلَواتِ، وَاختِلافَ النِّينانِ فى البِحارِ الغامِراتِ، وَتلاطُمَ الماءِ بالرِّياحِ العاصِفاتِ» «۱»

.

۲- وقال عليه السلام فى كلام آخر:

«عالِمٌ إِذْ لا مَعْلُوم، وَرَبٌّ إِذْ لا مَرْبُوبَ، وَقادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورَ» «۲»

.

۳- وقال عليه السلام أيضاً فى كلام آخر:

«قَدْ عَلِمَ السَّرائِرَ، وَخَبَرَ الضَّمائِرَ لَهُ الاحاطَةُ بِكُلِّ شَىءٍ، وَالْغَلَبَةُ لِكُلِّ شَىء» «۳»

.

۴- وفى الكافى فى باب صفات الذات عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عزّ وَجلَّ رَبُّنا والعِلْم ذاتهُ ولا مَعْلُومَ ... فلَمَّا أَحدثَ الأشياء وكانَ المعلُومُ، وَقَع العِلْمُ منهُ عَلَى المعلُوم» «۴».

يحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى العلم الإجمالى السابق لحدوث الأشياء والعلم التفصيلى اللاحق لحدوثها.

۵- وفى حديث آخر ورد أن أحد أصحاب الإمام الرضا عليه السلام كتب إليه رسالة يسأل فيها عن اللَّه عز وجل: «أكانَ يعْلمُ الأشياءَ قَبْلَ أن خَلَق الأشْياءَ وَكَوَّنَها؟ أو لَمْ يَعْلَمْ ذلِكَ حَتّى خَلقَها وَأرادَ خَلْقَها وَتكوِيْنَها؟ فَعَلِمَ ما خَلَقَ عِندَ ما خَلَقَ، وَما كَوَّنَ عِنْدما كَوَّنَ؟ فَوَقَّعَ بِخطِّهِ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عالماً بالأشياءِ قَبلَ أنْ يَخْلُقَ الأشياءَ كعِلْمِهِ بالأشياءِ بَعْدَ ما خَلَقَ الأشياءَ» «۵».

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۸.

(۲) المصدر السابق، الخطبة ۱۵۲.

(۳) المصدر السابق، الخطبة ۸۶.

(۴) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۷.

(۵) المصدر السابق.

إنّ كل واحد من التعابير الدقيقة والظريفة التى وردت فى هذه الروايات يُعدُّ باباً من البحوث العلمية والمنطقية التى تدور حول مسألة علم اللَّه تعالى والتى ذكرناها سابقاً.

وقد بلغت الروايات الواردة فى علم اللَّه من الكثرة بحيث لو جمعت لصارت كتاباً مستقلًا.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۷۹

أقسام علم اللَّه

أ و ب) إنّ اللَّه سميعٌ وبصير

تمهيد:

كما نعلم فإنّ صفات اللَّه عين ذاته، وذاته عين صفاته، وبتعبير آخر فإنّ اللَّه ذاتٌ كلها علم، وكلها قدرة، وكلها أزليّة وأبدية، أى هناك كمال مطلق غير متناهٍ جامع لجميع هذه الصفات.

وعليه فإنّ تفكيك الصفات تابع لمنظارنا وإدراكنا العقلى.

لذا فقد تكون احدى هذه الصفات الإلهيّة أحيانا ذات فروع كثيرة، وهذه الفروع أيضاً تكون تابعة لزاوية نظرنا كوصفه تعالى بصفتى «السميع» و «البصير»، واللتان تعتبران من الصفات الإلهيّة المعروفة التى تكرر ذكرها فى القرآن الكريم عشرات المرات.

«السميع»: كناية عن علم اللَّه ب «المسموعات»، و «البصير» كناية عن علمه تعالى ب «المبصرات» من الحوادث والأشخاص والأعمال وغيرها.

وعندما تستعمل هذه الألفاظ بخصوص البشر فإنّها بصدد عضوى العين والاذن، لكنّها عندما تستعمل بخصوص البارى تعالى فإنّها تتجرد من هذه المفاهيم وتفيد حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات، وسنوضح ذلك فى قسم التوضيحات إن شاء اللَّه تعالى.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم لنتمعن فى الآيات التالية:

۱- «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الشورى ۱۱)

۲- «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْامَانَاتِ الَى اهْلِهَا وَاذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْتَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ انَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً». (النساء/ ۵۸)

۳- «لَّايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ الَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۰

عَلِيماً». (النساء/ ۱۴۸)

۴- «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ». (البقرة/ ۲۴۴)

۵- «وَان اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِى إِلَىَّ رَبِّى انَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ». (سبأ/ ۵۰)

۶- «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً انَّكَ سَمِيْعُ الدُّعَاءِ». (آل عمران/ ۳۸)

۷- «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (البقرة/ ۲۳۳)

۸- «إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ». (فاطر/ ۳۱)

۹- «فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ امْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ».

(غافر/ ۴۴)

۱۰- «اوَلَمْ يَرَوْا الَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكَهُنَّ الَّا الرَّحْمنُ انَّهُ بِكَلِّ شَىءٍ بَصِيرٌ» «۱». (الملک/ ۱۹)

شرح المفردات:

(سـميع) من مادة «سَمْع» على وزن «مَنْع» وفى الأصل بمعنى القوّة السامعة التى بواسطتها يسمع الإنسان الأصوات (تأتى بمعنى المصدر، وتأتى بمعنى الاسم المصدرى أيضاً)، وقد تُطلق هذه الكلمة على عضو السمع أى الأُذُن أحياناً.

واتّسع هذا المفهوم فشمل استعمالات اخرى، فهو يُطلق أيضاً على الإدراكات الباطنية

---

(۱) الآيـات أعلاه نماذج حول وصـفى «السـميع» و «البصـير»، حيث إنّها تشـتمل على نقاط كثيرة. كما أنّ هنالك آيات قرآنيـة كثيرة اخرى حول هذا الموضوع، سنشير إليها أدناه، أمّا تفسيرها فسيتضح من الآيات أعلاه:

البقرة، ۱۸۱ و ۲۲۴ و ۲۲۷ و ۲۵۶؛ آل عمران، ۳۴ و ۳۵ و ۱۲۱؛ المائدة، ۷۱؛ الأنعام، ۱۳ و ۱۱۵؛ الأنفال، ۱۷ و ۴۲ و ۵۳ و ۶۱؛ التوبة، ۹۸ و ۱۰۳؛ يونس، ۶۵؛ الاسراء، ۱؛ الأنبياء، ۴؛ الحج، ۶۱ و ۷۵؛ النور، ۲۱ و ۶۰؛ لقمان، ۲۸؛ غافر، ۲۰ و ۵۶؛ الصف، ۳۶؛ الدخان، ۶؛ الحجرات، ۱؛ المجادلة، ۱؛ النساء، ۱۳۴ و ۱۴۸؛ البقرة، ۹۶ و ۱۱۰ و ۶۵؛ آل عمران، ۱۵ و ۲۰ و ۱۵۶ و ۱۶۳؛ الأنعام، ۲۹ و ۷۲؛ هود، ۱۱۲؛ الاسراء، ۱۷ و ۳۰ و ۹۶؛ سبأ، ۱۱؛ فاطر، ۴۵؛ فصلت، ۴۰؛ الشورى ۲۷؛ الحجرات، ۱۸؛ الحديد، ۴؛ الممتحنة، ۲؛ التغابن، ۲؛ الفرقان، ۲۰؛ الأحزاب، ۹؛ الفتح، ۲۴؛ الانشقاق، ۱۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۱

الروحيّة، واتّسع أكثر فاستُخدم للإشارة إلى إحاطة اللّه الوجوديّة بجميع الأصوات.

وقد تستعمل هذه الكلمة بمعنى الفهم والإدراك أحياناً، كما ورد فى الآية: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَايَسْمَعُونَ» «۱» . (الانفال/ ۲۱)

«بصير»: من «بصر» (على وزن سَفَرْ) وتعنى العين كما قال الراغب فى مفرداته، وقد تأتى بمعنى حدّةُ النّظر أحياناً، لذا قد تستعمل بمعنى قوّة الإدراك والبصيرة الباطنيّة «البصر والبصيرة» أحياناً، كما ورد فى قوله تعالى: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». (ق/ ۲۲)

وقـد ذكر «ابن منظور» فى «لسان العرب» أيضاً نفس هذه المعانى لكلمة «بصـر»، فى حين نجد أن «صـحاح اللغة» فسّـرها بمعنى حاسّـة النظر، وبمعنى العلم أيضاً، وفسّرها «المصباح» بمعنى النور الذى يُمكن للعين رؤية المبصرات عن طريقه.

لكنه يُستنَتَجُ من مجموع كلمات أصحاب اللغة وموارد استعمال هذه الكلمة، أنّها تعنى أولًا عضو النظر، ثم قوّة النظر، وبعدها استُعمِلَتْ بمعنى الإدراك الباطنى والعلم، وفى خصوص البارى تعالى تُستعمل بمعنى إحاطته الوجودية بالمبصرات.

جمع الآيات وتفسيرها

هو السميع البصير:

بعد أن نفت الآية الأولى وجود المثل عن اللّه تعالى وصفته بصفتى السميع والبصير: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ».

وواضح أنّ المقصود من «ليس كمثله شىء» يشمل كلًا من ذاته وصفاته وأفعاله، لأنّ ذاته واجبة الوجود، وصفاته وأفعاله لامتناهية، وما اعتقده بعض المفسرين من أن نفى المثل والشبيه الوارد فى هذه الآية يشمل الذات المقدّسة فقط ولا يشمل الصفات، محض اشتباه.

(۱) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ لسان العرب والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۲

صحيح أنّ هنالك صفات كالعالم والقادر والسميع والبصير، تطلق على الخالق والمخلوق، لكنّه لا ريب فى أنّ مفاهيمها متفاوتة فى هاتين الحالتين. لذا فقد قال بعض المفسرين: إنّ الآية أعلاه تفيد الحصر، أى أنّ اللَّه تعالى هو السميع والبصير فقط، لأنّه تعالى سميع بكل ما تعنيه هذه الكلمة، وبصير كذلك، أى يعلم جميع المسموعات والمبصرات ولا أحد غيره مثله فى هاتين الصفتين.

فالبشر وسائر الاحياء التى تمتلك عيوناً وآذاناً تدرك فقط أجزاء محدودة من الألوان والأصوات، وقد ثبت الآن علمياً أنّ الامواج الصوتية التى تعجز اذن الإنسان والحيوانات عن سماعها تفوق بكثير ما يمكن إدراكه، وهكذا فى مورد الألوان والمرئيات.

يعلم ما تعملون:

بعد أن أمر اللَّه سبحانه وتعالى عباده فى الآية الثانية بأداء الأمانات إلى أهلها والحكم بين الناس بالعدل، وصف نفسه بهاتين الصفتين اللتين لهما علاقة وثيقة ولطيفة بالأمرين الواردين فى بداية الآية حيث قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْامَانَاتِ الَى اهْلِهَا وَاذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ انْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ انَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ انَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً».

وكما نعلم فإنّ الأمانات الواردة فى الآية ذات معنى واسع وعميق، وقد ورد فى روايات أهل البيت عليهم السلام بأنّها تشمل حتى مسألة إمامة وقيادة الناس، فهى أمانات إلهيّة ويجب أن تودع عند أهلها «۱».

وكذلك فإنّ تعبيره سبحانه بكلمة (الناس) يشمل جميع البشر حتى من هم غير مسلمين، أى ينبغى رعاية اسس العدالة بين جميع بنى البشر، ومعاملة الصديق والعدو، والغريب والقريب بالتساوى.

(۱) وردت روايات كثيرة فى هذا المجال، ولزيادة الاطّلاع راجع تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۸۰؛ وتفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۴۹۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۳

للبحث حول مسألتى الأمانة والعدالة، اللتين هما روح المجتمع الإنسانى وروح الحكومة الإسلاميّة، محلٌّ آخر طبعاً، وسنتاول ذلك فيما بعد. الغرض هنا هو معرفة علاقة هاتين المسألتين بصفتى «السميع» و «البصير» المنسوبتين إلى اللَّه تعالى.

وهذه الجملة بالحقيقة هى تحذير لكل من يتولى منصباً رئاسياً، أو يأخذ على عاتقه حمل أمانة معينة، أو قضاءً وحكماً بين الناس، وهذا التحذير كأنّه يقول لنا: إعلموا بأنّ اللَّه تعالى رقيب عليكم يعلم ما تعملون، ويسمع ماتقولون، وهذا يثبت بأنّ لصفات اللَّه جانباً تربوياً بالإضافة إلى مسألة العقيدة.

بالإضافة إلى أنّه من المحتمل أن تكون هاتين الصفتين إشارة إلى نقطة اخرى، وهى أنّ مسألة أداء الأمانة والحكم بين الناس تحتاج إلى اذُنٍ سميعةٍ وعينٍ بصيرةٍ، فلا يمكن البتّ فى الامور بدون سماع صوت المظلومين، ومعرفة حقيقة مظالمهم، والتمعُّن الكامل فى هذه الأمور، ويجدر الإلتفات إلى أن فعل (كان) يدل على ملازمة هذه الصفات للذات الالهيّة المقدّسة، فهو سبحانه وتعالى سميعٌ بصيرٌ دائما وأبداً.

وما يجدر ذكره هو تقارن هاتين الصفتين (السميع والبصير) فى مواضع اخرى أيضاً من القرآن.

والملفت للنظر هو تقدم صفة السميع على البصير فى كل مواضع القرآن التى وردت فيها هاتان الصفتان سويّة، ولعلّ السّر فى ذلك يكمن فى كون القول يسبق العمل، وحيث إنّ هذه الآيات تهدف إلى تنمية الحالات التربوية للإنسان، فهى تريد أن تخاطب الإنسان وتقول:

«ياأيّها الإنسان إنّ ربّك يسمع أقوالك ثم يرى أعمالك».

هو السميع والعليم:

دار الحديث فى الآية الثالثة عن «السميع» و «العليم» حيث ذكرت المظلومين وسمحت لهم بالاعلان عن مظلوميتهم وفضح الظالمين، قال تعالى «لَّايُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ الَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً».

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۴

أمّا المقصود من «الجهر بالسوء»، فقد قال بعض المفسّرين: إنّه بمعنى لعن المظلوم للظالم، وفسّره البعض الآخر بالسّب والشتم، والبعض الآخر بمعنى الترافع إلى القاضى، أو بمعنى تعرية ظلم الظالمين أمام الناس فى الغيبة والحضور.

«لكن مناسبة الحكم للموضوع» توجب إباحة هذه الأمور فى مجال دفع الظلم، وكسب الرأى العام ضد الظالم فقط، لذا فمن الأفضل أن تنحصر مسألة سب وشتم الظالمين بالمجال الذى تكون عاملًا مساعداً للنهى عن المنكر ومحاربة الظلم والفساد.

وجملة «وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً» تصلح فى أن تكون مستثنى كما تصلح أن تكون مستثنى منه أيضاً، أى أنّها تحذير للمغتابين الذين لم يتعرضوا للظلم، كما أنّها تحذير للمظلومين لئلا يتعدوا حدود اللَّه، ويراعوا العدل والانصاف.

والجدير بالذكر هو أنّ السبب فى ذكر صفتى السميع والعليم يكمن فى تحدث الآية عن الجهر بالسوء ودوافعه الذاتيّة الخفية، فقالت: بأنّ اللَّه يسمع هذا الكلام، وهو عليم بنيّات المظلومين الذين يجهرون بمظلوميتهم.

وأمّا ماقاله البعض: من أنّ مفهوم الآية هو جواز رد الشتم بالمثل، كما لو قال أحد لشخص: (أيّها الزانى)، يجوز لهذا الشخص أن يرد عليه بذلك، خطأ كبير. لأنّه يجب مواجهة ظلم الظالم بإحقاق الحق، لا بارتكاب ظُلمٍ آخر، ويجب النهى عن المنكر ودفع شر الظالم، لا ارتكاب منكرٍ آخر وإيجاد ظالم آخر.

على أيّة حال، فإنّ هذه الآية تدلّ على رفض الإسلام الركون إلى الظالمين، بعكس مانسبه البعض إلى السيّد المسيح عليه السلام من أنّه قال: «لو ضربك أحد على خدّك الأيمن، فقدم له خدَّك الايسر»!

جهادكم:

اللَّه يرى ويعلم، فى الآية الرابعة نُلاحظ تعبيراً جديداً أيضاً، حيث أمرت الناس بالالتفات إلى هاتين الصفتين الإلهيتين (السميع والعليم)، قال تعالى «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ».

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۵

والتعبير بعبارة «فِى سَبِيلِ اللَّهِ» تعبيرٌ لطيفٌ وغنيٌّ جدّاً، حيث وضَّح للجميع بأنّ الهدف من الجهاد الإسلامى ليس كسب السلطة الدنيوية واحتلال الدول- كما اتّهمنا به الكثير من مفكّرى الغرب، بل فتح الطرق إلى اللَّه- طرق الطهارة والتقوى والحق والعدالة-.

وجملة «وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ سَمِيْعٌ عَلِيمٌ» تُحذِّر جميع المجاهدين المسلمين لكى يراقبوا أقوالهم ونيّاتهم، ويتجنبوا كُلّ مايُشوِّه المعنى السامى والجميل لكلمة: «فِى سَبِيلِ اللَّهِ»، وكذلك فإنّها تزيد من معنوياتهم عندما يثقون بأنّ اللَّه معهم أينما كانوا، ويعلم حالهم.

إنّه قريب منكم:

وفى الآية الخامسة يُطالعنا تعبير جديد، وهو اقتران مفهوم «السميع» مع مفهوم «البصير»، حيث قال سبحانه مخاطباً رسوله الكريم صلى الله عليه و آله: «وَانِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوْحِى إِلَىَّ رَبِّى انَّهُ سَمِيعٌ قَرِيْبٌ».

وهذه الآية تشير إلى احتمال ضلال الرسول بدون الوحى الإلهى، وأنّ الذى يعصمه صلى الله عليه و آله من الخطأ ويهديه إلى الحق

والصواب هو الوحى الإلهى، لا التفكّر والاستدلال البشرى المعرض للخطأ.

وقد ورد فى بعض التفاسير بأنّ جماعة من المشركين قالوا للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: لقد ظللت يامحمد، لأنّك تركت دين أجدادك، فنزلت هذه الآية وأجابتهم عن لسان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: بأنّه لو كنت أعتمد على نفسى فى هذا الأمر لكنتم محقين فى اتهامكم لى بهذه الاتهامات، ولكن ارتباطى بالوحى الإلهى لا يبقى معنىً للضلال فى هذه الحالة، وذلك لأنّه تعالى يعلم أسرار الغيب، (وهى العبارة التى وردت فى الآيتين السابقتين)، وهو السميع البصير (العبارة الواردة فى الآيات الثلاث السابقة) وهو السميع القريب (هذه العبارة الواردة فى ذيل هذه الآية المعنية فى بحثنا هذا).

ويستنتج من هذه الآية أيضاً أنّ الاعتماد على النفس هو الذى يقود الإنسان إلى الضلال، وأنّ الاعتماد على القوة العقلية أيضاً لا يوصله إلى مكان معين، وأنّه يحتاج لبلوغ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۶

مراده إلى الاستنارة بنور الوحى الإلهى.

والملاحظة الأخيرة هى أن قرب اللَّه منّا ليس كقرب بعضنا من بعض، بل هو أقرب إلينا من أنفسنا، كما سنبحث هذا فى محلّه إن شاء اللَّه تعالى

إنّه سميع الدعاء:

طرحت الآية السادسة تعبيراً جديداً أيضاً، حيث وصفته تعالى بسميع الدعاء، فنقلت عن زكريا عليه السلام عندما رأى مقام ومنزلة مريم عليها السلام، فقال: «هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَةً طَيِّبَةً انَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ» «۱»

.

وبالرغم من أنّ السميع من السمع، لكنها فى مثل هذه الحالات تعطى معنى السامع ومعنى المجيب. وذلك لأنّ من لم يستجب لنداء معين كأنّه لم يسمعه «۲».

إنّه تعالى بصير:

أكدت الآية السابعة على مفهوم البصير بما يعمل الإنسان، والذى يُعد المحور الأساس للمسائل التربوية، قال تعالى «وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وذكر هذه الجملة بعد إصدار سبعة أوامر حول رضاعة الأولاد، وحق الأولاد والأمهّات والمرضعات، ومسؤوليّة الوالد تجاههم، وبديهى أن فقدان التقوى هنا، وعدم خوف الإنسان من المراقبة الإلهيّة سوف يكون مانعاً من إيجاد علاقات اجتماعية سليمة داخل الأسرة لحفظ حقوق الجميع، وقد أثبتت التجارب صعوبة توطيد أسس الحق والعدالة فى النظام الأسرى باستعمال قوّة القانون والخوف والعقوبات، وأنّ السبيل الوحيد لذلك هو حلول روح التقوى والإيمان باللَّه سبحانه وتعالى وبأنّه بكل شىء بصير.

---

(۱) «الذرية» بمعنى الولد وتطلق على المفرد والجمع بلفظ واحد، لكنها اطلقت هنا وارید منها المفرد وذلك بقرينة «ولياً» التى جاءت فى الآية ۵ من هذه السورة.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۳۱۴؛ و تفسير روح البيان، ج ۲، ص ۳۰؛ و تفسير روح المعانى، ج ۳، ص ۱۲۸ فى ذيل الآية مورد البحث.

إنّ اللّه خبير بأحوال العباد:

يُلاحظ فى الآيـة الثامنـة تعبيراً جديـداً أيضاً، وهو اقتران مفهومى الخبير والبصـير مع بعضـهما، فقد تحدثت الآية فى بدايتها عن الوحى الإلهى، وانزال القرآن الكريم بعد الكتب السماوية السابقة له، ثم قال تعالى «انَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبيرٌ بَصِيرٌ».

إنّ هذه الجملة تشير إلى أنّ هذا الكتاب السماوى يتناغم مع وضعيّة البشر واحتياجاته فى جميع المجالات، لأنّه نزل من لدن خبير بكل شىء وبصير بكل حوائج الإنسان.

وقـد فُسـرت هـذه الآيـة أيضاً بأنّها ردٌّ على إشـكال من كانوا يعترضون على انزال القرآن على محمـد صـلى الله عليه و آله لكونه يتيماً وفقيراً، فقال تعالى بأنّه الخبير والبصير بعباده ويعلم أيّهم أكثر اسـتعداداً لتحمل عبء الرسالة الشـريفة. (ولا يمكن الاستدلال على هذا المعنى بقرينة الآية التى تلت هذه الآية) «۱».

ولا بأس بالجمع بين التفسيرين.

وذهب بعض المفسّرين: إلى أنّ كلمـة خبير هنـا كنايـة عن الاحاطـة بالأمور المعنويـة والروحيّـة، وبصـير كنايـة عن الاحاطـة بالامور الجسمانية، ولهذا السبب تقدمت كلمة الخبير على كلمة البصير.

وبـالرغم من أنّ كلمـة الخبير المشـتقة من الخبر ذات معنىً واسع جـدّاً يشـمل كُلّ احاطـة بظواهر الامور وبواطنها، إلّاأنّ اقترانها بصـفة البصـير يوحى إلى كونها كنايـة عن الاحاطـة بباطن الأمور (وقـد ذكر الراغب فى مفرداته بأنّ أحـد معانى هـذه الكلمة هو العلم بباطن الأمور).

إنّه بصير بالمشاكل التى تواجه عباده:

ذكرت الآية التاسـعة صـفة البصير فقط، وأمّا ما جاء من أنّه بصير بعباده وحاجتهم إلى الامداد الإلهى. فهذا جاء نقلا لخطاب مؤمن آل فرعون الذى كان يكتم إيمانه عن آل

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۴؛ فى تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۴۶، فيه إشارة إلى هذا المطلب.

فرعون وبذل النصح لقوم موسـى عليه السـلام عندما كانوا يخطّطون لقتله، وهدّدهم بالعذاب الإلهى وصرفهم عن هذا العمل فقال لهم: «فَسَتَذْكُرُونَ مَا اقُوْلُ لَكُمْ»، فإن حملتم كلامى هذا على التعاون مع موسى عليه السلام وقصدتم ايذائى فانى: «وَأُفَوِّضُ امْرِى الى اللَّهِ انَّ اللَّهَ بَصيرٌ بِالْعِبَادِ».

وبالتالى فقـد نجّى اللّه سـبحانه هـذا العبـد المؤمن المجاهـد من المؤامرات العديدة التى حِيكت ضدّه (والتى كان من جملتها التعذيب والاعدام).

وبالحقيقة، أنّ التذكير بكون اللّه بصـيراً بالعباد هنا إنّما هو كناية عن عدم تخلى مثل هذا الرب عن عباده المجاهدين المخلصـين، وأنّ مثـل هؤلاء العباد بإيمانهم بمثل هـذا الرب سوف لا يهابون الصـعاب، ومن هـذه الجهـة فقـد أشارت الآيـة التى بعـدها إلى نجاته من مخالب الاعداء فى ظل اللطف الإلهى.

وهـذه المسألـة جـديرة بالـذكر أيضاً، وهى الآصـرة الوثيقـة الموجودة بين كون اللّه سـبحانه بصـيراً بعباده وبين تفويض الامور له، لأنّه كيف يمكن أن يدافع عن الإنسان من لا يعلم مشاكل الإنسان وحوائجه الظاهرية والباطنية؟ وبتعبير آخر فالتفويض بمعنى ثمرة الإيمان بكون اللّه بصـيراً بالعبـاد وأمورهم، والتفويض هنـا طبعاً لا- يعنى أن يتقاعس الإنسان ويتكاسل أبـداً، لأنّ هـذا الكلام صـدر من رجل

مجاهدٍ جازف بحياته من أجل الدفاع عن موسى عليه السلام ورسالته، بل المقصود هو أداء التكليف ثم تفويض الأمر إلى اللَّه سبحانه وتعالى

الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صافاتٍ:

وأخيراً نجد أنّ المسألة خرجت من دائرة اعمال العباد فىالآية العاشرة والأخيرة من آيات البحث، حيث أشارت الآية إلى جميع عالم الوجود وكون اللَّه بصيراً بتنظيم قوانينه:

«اوَلَمْ يَرَوْا الَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ».

فمن الذى يُمسك هذه الأجسام الثقيلة فى الجو التى تقاوم قانون الجاذبية، لساعات أو أسابيع أو أشهر؟ وقد تواصل بعض الطيور المهاجرة طيرانها لمدّة أسابيع وأشهر متواصلة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۸۹

وبدون أدنى توقف: «مَا يُمْسِكُهُنَّ الَّا الرَّحْمنُ».

لماذا؟ ل «انَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ».

فهو يعلم جميع القوانين التى تساعدها على الطيران باطمئنان وسكينه تامّة، لأنّه هو خالق هذه القوانين ومنظمها.

أجل، إنّه هو الرحمن الذى وسعت رحمته العامة جميع الوجود، وهو الذى منح هذه الطيور شكلًا مناسباً ووزناً مناسباً وأرجلًا وعيوناً وحواس مناسبة لكى تتمكن من التحليق فى كبد السماء العالية.

والملفت هو أنّ اسلوب الطيران وكيفية ابتدائه وانتهائهِ متفاوت جدّاً لدى أنواع الطيور طبقاً لهيكلها واسلوب معيشتها والمحيط الذى تتواجد فيه، والأعجب من ذلك هو أن أنواعاً من الطائرات قد صُمِمت وصنعت لحد الآن بالاقتباس من أشكال وأجنحة الطيور المختلفة، وهذا هو تجلى معنى الآية «انَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ»، وإن لم يتجل لنا هذا المعنى بأن كنّا متطبعين على عجائب هذا العالم، فإنّ مشاهدة الطيور الجميلة العائمة فى الفضاء بحركاتها الجذابة الماهرة التى تجذب إليها الانظار، كافية لإدراك قدرة وعلم هذا الخالق البصير.

نتيجة البحوث:

نستنتج من مجموع الآيات المذكورة أعلاه بأنّ اللَّه لايخفى عليه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الأرض، والإيمان بهذه الحقيقة يحتمل أن يكون له تأثيرٌ بليغ فى ايقاظ الإنسان وتربيته، لذا، فالآيات أعلاه أيضاً تدور غالباً حول محور المسائل الإنسانية التربوية.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۰

توضيحات

۱- معنى كون اللَّه سميعاً بصيراً

إنّ جميع علماء الإسلام يذكرون اللَّه تعالى بصفات «السميع» و «البصير»، وذلك لتكرر ذكر هذه الصفات- كما نعلم- فى القرآن الكريم.

ولكنهم اختلفوا فى تأويلهما.

اعتقد المحققون بأنّ كون اللَّه سميعاً وبصيراً بحيث لا تتعدى قدرة احاطته وعلمه المسموعات والمرئيات، ولأنّ لهاتين الكلمتين

مفهومان يستعملان للتعبير عن قوة سمعنا وبصرنا، فلذلك يتبادر إلى الذهن عضوا الأذن والعين، ولكن من البديهى أنّهما عندما تُستعملان لوصف البارى سبحانه وتعالى تتجّردان عن مفاهيم الآلات والأدوات والأعضاء الجسمانية، لأنّ ذاته المقدّسة أسمى وأجل من الجسم والجسمانيات.

وهذا ليس تعبيراً مجازياً طبعاً، وإن سمّيناه مجازياً فهو مجازى مافوق الحقيقة، لأنّه يعلم ويحيط بالمسموعات والمبصرات وهى ماثلة بين يديه تعالى بحيث يسبق ويفوق كل سمع وبصر، لذا فقد ورد وصفه تعالى فى الأدعية باسمع السامعين وأبصر الناظرين.

لكن جماعة من قدماء المتكلمين اعتقدوا بأنّ صفتى السميع والبصير، تختلفان عن صفة «العلم»، وهؤلاء لابدّ لهم من الاعتقاد بأنّ صفتى السميع والبصير من الصفات الزائدة على ذات اللّه، وهذا يعنى الاقرار بتعدد الصفات الأزليّة، وهو نوع من الشرك، وإلّا فكون اللّه سميعاً بصيراً لا يمكن أن يكون سوى علمه بالمسموعات والمرئيات.

۲- السميع والبصير الواردة فى نهج البلاغة والروايات

بحثت الروايات الإسلامية هذه الصفات الإلهيّة بشكل عميق ودقيق، ونتطرق هنا إلى ذكر نموذجٍ منها لتكملة البحث.

۱- فى خطبه لأمير المؤمنين على عليه السلام قال:

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۱

«كُلُّ سَميعٍ غَيرَهُ يَصَمُّ عَنْ لَطيفِ الأَصواتِ، وَيُصِمُّهُ كَبيرُها، وَيَذهَبُ عَنْهُ ما بَعُدَ مِنْها، وَكُلُّ بَصيرٍ غَيْرَهُ يَعْمَى عَنْ خَفِيِّ الأَلْوانِ وَلَطيفِ الْاجسامِ» «۱»

.

۲- وفى مكان آخر قال عليه السلام:

«والسَّمْيعِ لا بأداةٍ، والْبَصيرِ لا بِتَفْريقِ آلَةٍ» «۲»

.

۳- وفى خطبة آخرى قال:

«فاعِلٌ لا بَمعَنى الْحَركاتِ والالَة، بَصيرٌ اذْ لا مَنْظُورَ اليْهِ مِنْ خَلْقِه» «۳»

.

۴- وورد عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله زنديق عن اللّه عزّ وجلّ كيف أنّه سميع بصيرٌ قال:

«هوَ سميعٌ بصيرٌ، سَمِيعٌ بَغَيرِ جارِحَةٍ، وَبَصيرٌ بغَيْرِ آلةٍ، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسهِ ...» «۴»

.

۵- فى البحار عن الإمام الصادق عليه السلام عن أحد أصحابه قال له: إنّ رجلًا ينتحل موالاتَكم أهل البيت يقول: إنّ اللّه تبارك وتعالى لم يزل سميعاً بسمع، وبصيراً ببصر، وعليماً بعلم، وقادراً بقدرة.

قال: فغضب عليه السلام ثم قال:

«من قال ذلك ودان به فهو مشرك، وليس من ولايتنا على شىء، إنّ اللّه تبارك وتعالى ذاتٌ علّامةٌ سميعةٌ بصيرةٌ قادرةٌ» «۵»

.

۳- الأثر التربوى للإيمان بكون اللّه سميعاً بصيراً

إنّ تأكيد القرآن على وصف البارى تعالى بهاتين الصفتين له آثار تربوية مهمّة، فهو يرفع

(۱) نهج البلاغه، الخطبة ۶۵.

(۲) المصدر السابق، الخطبة ۱۵۲.

(۳) المصدر السابق، الخطبة ۱.

(۴) اصول الكافى، ج ۱، ص ۸۳، ح ۱.

(۵) بحار الأنوار، ج ۴، ص ۶۲ عن أمالى الصدوق وكذلك التوحيد.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۲

الوعى لدى المسلمين للوصول إلى معرفة اللَّه من جهة، ومن جهة اخرى يدعوهم جميعاً إلى التخلق بهذا الخلق الكريم والتشبه بهاتين الصفتين الإلهيتين، ومن جهة ثالثة يلقى فى قلوب المؤمنين السكينة من حيث كون يد العناية والحماية الإلهيّة معهم فى كل حال، ومن جهة رابعة تحذير للمؤمنين ليراقبوا أقوالهم وأعمالهم لأنّ اللَّه محيط بها علماً.

وقد أكّدت الروايات الإسلامية الشريفة أيضاً على هذه المسألة التربوية المهمة ومن جمله هذه الروايات.

۱- ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حديث يعض به أحد خواصه وهو (اسحاق بن عمار) قال عليه السلام: «يا اسحاق خَفِ اللَّه كأنّكَ تَراهُ وَانْ كُنْتَ لا تَراهُ فَانَّهُ يَراكَ، فان كُنتَ تَرَى أَنَّهُ لا يَراكَ فَقَدْ كَفَرْتَ وإنِ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ يَراكَ ثم برزْت له بالْمَعصِيَةِ فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْوَنِ النَاظِرِينَ عَلَيْكَ» «۱»

.

۲- وفى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير الآية: «وَلِمَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنّتانِ» قال:

«مَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ يَراهُ وَيَسْمَعُ ما يَقُوْلُ وَيَعْلَمُ ما يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ، فَيَحْجُزُهُ ذلِكَ عَنِ الْقَبيحِ مِنَ الْأَعمالِ، فَذلِكَ الَّذى خافَ مَقامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى «۲».

۳- وكذلك ماورد فى تفسير (على بن ابراهيم) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لما هَمّت به وهَمّ بها قامت إلى صنم فى بيتها فألقت عليه ملاءة لها فقال لها يوسف: ما تعملين؟ قالت: ألقى على هذا الصنم ثوباً لا يرانا فانى استحى منه. فقال يوسف: فأنت تستحين من صنم لا يسمع ولا يبصر ولا استحى أنا من ربّى؟» «۳»

.

۴- ورد فى تفسير روح البيان فى ذيل الآية «وَافَوِّضُ امْرِى الَى اللَّهِ انَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ». (غافر/ ۴۴)

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۶۷، ح ۲.

(۲) اصول الكافى، ج ۲، ص ۷، ح ۱۰ ذيل الحديث يفيد أنّ الإمام قال هذا الكلام فى تفسير الآية «وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى .

(۳) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۴۲۲.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۳

خرج بعض الأصحاب (رضى اللَّه عنهم) إلى الصحراء فطبخوا الطعام، فلما تهيأوا للأكل رأوا هنالك راعيا يرعى أغناماً فدعوه إلى الطعام، فقال الراعى: كلوا أنتم فانّى صائم. فقالوا له على سبيل الاختبار: كيف تصوم فى مثل هذا اليوم الشديد الحرارة؟ فقال لهم: إنّ نار جهنم أشد حرّاً منه، فأعجبهم كلامه فقالوا له: بع لنا غنما من هذه الأغنام نعطك ثمنه مع حصة من لحمه، فقال لهم: هذه الأغنام ليست لى وإنّما هى لسيدى ومالكى، فكيف أبيع لكم مال الغير؟ فقالوا له: قل لسيدك إنّه أكله الذئب أو ضاع: فقال: أين اللَّه!؟

فأعجبهم كلامه زيادة الاعجاب، ثم لما عادوا إلى المدينة اشتراه ابن مسعود من مالكه مع الأغنام فأعتقه، ووهب الأغنام له، وكان ابن مسعود يقول له فى بعض الأحيان بطريقة الملاطفة: أين اللَّه «۱».

وهنالك نماذج كثيرة من هذا القبيل، منقولة فى التأريخ والروايات الإسلامية، تدلّ على الأثر التربوى البليغ النابع من الإيمان بعلم اللَّه وبتواجده فى كل مكان، وبكونه سميعاً وبصيراً، فى الحجز عن المعاصى والذنوب.

۴- اللَّه المدرک

عدّ علماء العقائد صفة «المدرک» من احدى صفات اللَّه، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى حيث قال: «لَاتُدْرِكُهُ الْاَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْاَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

(الأنعام/ ۱۰۳)

قال المتكلمون: إنّ المدرک بمعنى السميع والبصير، وعليه فهذه الكلمة تجمع كلتا الصفتين «۲».

وقد قال الراغب فى المفردات: بأنّ «الإدراک» معناه الوصول إلى نهاية الشىء، لكن البعض فسروها بالمشاهدة العينية، والبعض الآخر قالوا: إنّها بمعنى المشاهدة ببصيرة القلب.

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۱۸۸.

(۲) شرح التجريد: «فى أنّ اللَّه سميع بصير».

وفى الحقيقة فإنّه لا شىء فى اللغة يدلّ على أنّ معنى الإدراک هو الإدراک الحسّى، بل وكما قلنا فإنّ الإدراک معناه الوصول إلى نهاية الشى والاحاطة به، سواءً كان حسيّاً أم عقلياً، وما يثير العجب أكثر هو أنّه على الرغم من أنّ الآية المذكورة قالت وبعبارة صريحة:

«لا تدركه الأبصار» (سواء فى الدنيا أم فى الآخرة، وسواء فى ذلک الرسول صلى الله عليه و آله فى ليلة المعراج أم غيره) فمع ذلک أصرّ بعض المفسرين على حمل الآية على خلاف معناها الظاهرى، وقالوا: إنّه يمكن رؤية اللَّه فى الآخرة على الأقل، وذكروا عدّة توجيهات فى هذا المجال، وقد ذكر الفخر الرازى أربعة نماذج منها فى تعليقه على هذه الآية «۱»، جميعها ضعيفة جدّاً وتبعث على التأسف وتدلّ على ميل البعض فى فرض آرائهم الباطلة على القرآن بأىّ ثمنٍ كان.

وسنبحث هذا الموضوع بتفصيل أكثر فى شرح الصفات الإلهيّة السلبية إن شاء اللَّه تعالى وسوف نلاحظ عكس ذلک تماماً فى روايات أهل البيت عليهم السلام حيث لم تكتفِ فقط بنفى قدرة الإنسان على رؤيته تعالى بل حتى نفت قدرة العقل البشرى على إدراک كنه ذاته المقدّسة.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۱۲۴.

ج) إنّ اللَّه حكيم

تمهيد:

الجدير بالذكر هو أنّ القرآن الكريم وصف الذات الإلهيّة المقدّسة ب «الحكيم» فى تسعين موضعاً!

وقد اقترنت فى كثير من المواضع مع صفة «العزيز».

وأحياناً مع صفة «الخبير».

واخرى مع صفة «العليم».

واخرى مع صفة «الواسع».

وأحياناً مع صفة «التوّاب».

وأحياناً مع صفة «العلى».

وأحياناً اخرى مع صفة «الحميد».

وكما سنرى فيما بعد فإنّ كل واحدة من هذه الصفات تعطى مفهوماً أكمل وأشمل عندما تأتى مع صفة الحكيم.

وعلى أيّة حال فإنّ حكمة اللّه ما هى إلّاعلمه واحاطته بتدبير الوجود ونظم الخلق.

بعد هذا التمهيد نمعن خاشعين فى الآيات التالية:

١- «انَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ». (التوبه/ ٧١)

٢- «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». (التوبه/ ١٠۶)

٣- «كِتَابٌ احْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيم خَبِيرٍ». (هود/ ١)

۴- «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَانَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ». (النور/ ١٠)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٩۶

۵- «تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيم حَمِيدٍ». (فصلت/ ۴٢)

۶- «انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ». (الشورى ۵١)

٧- «وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً» «١»

. (النساء/ ١٣٠)

شرح المفردات:

لفظ «حكيم»، كما ورد فى كتاب «العين» للخليل بن أحمد الفراهيدى مأخوذ من مادة «الحكمة»، وهى تفيد معنى «العلم» و «الحلم» و «العدالة»، وحسب ماورد فى مفردات الراغب، فإنّ «الحكيم» بمعنى المنع من شىء لغرض إصلاحه، أمّا فى مقاييس اللغة فقد فسر لفظ الحكيم بمعنى المنع من الظلم، وعلى هذا الأساس فإنّ عنان أو لجام الحيوان يسمى «حكمة» على وزن «صدمه»، وأيضاً يقال للعلم والمعرفة «حكمة»، لأنّها تمنع الشخص من القيام بالأعمال غير اللائقة.

ويقال أحياناً «للحكم» «حكومة»، وذلك لأنّ الحكومة تمنع الناس من القيام بالأعمال غير القانونية.

ورد فى «لسان العرب»، أنّ «الحكم» تعنى العلم والفقه والقضاء بالحق والعدل.

وقال صاحب «صحاح اللغة»: أنّ «الحكيم» هو الشخص الذى ينجز أعماله بصورة صحيحة وطبق اصول وأسس معينة أمّا فى «النهاية» لابن الأثير، وفى «لسان العرب» فقد ورد معنى «الحكمة» بانّه: معرفة أفضل الأشياء وأفضل الأساليب وبأحسن كيفية ويقال للشخص الذى ينجز أعماله بدقة واتقان، «حكيم»، «فنقول، إنّ فلان دلنا على أحسن مزرعة وبأقرب طريق، فهو حكيم، وكذلك بالنسبة للشخص الذى ينتج أفضل المنتجات بأفضل الطرق والأساليب، فهو حكيم أيضاً».

(۱) وكما قلنا فلفظة «حكيم» قد وردت فى آيات مختلفة من القرآن الكريم أكثر من تسعين مرة، لكن الآيات أعلاه شاملة لمختلف التعابير حول هذا الموضوع.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۷

جمع الآيات وتفسيرها

قدرته مقرونة بحكمته:

الجدير بالذكر أنّ الصفات التى وصف اللَّه تعالى ذاته المقدّسة بها فى ذيل الآيات القرآنية المذكورة لها علاقة وثيقة وخاصّة مع محتوى هذه الآيات، بحيث إنّ التدقيق فى هذه المسألة يُرشد إلى نقاط مهمّة، ومع أخذ هذه الإلتفاتة بنظر الاعتبار نحاول تفسير الآيات المذكورة.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فى الآية الأولى قسماً من الواجبات الإسلامية حول الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإقامة الصلاة وأداء الزكاة وما شاكل ذلك، وبعد التذكير بشمول رحمته عباده المطيعين، قال عزّ وجل: «انَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيمٌ».

«العزيز»: من «العزّة» أى عدم المغلوبية، والأصل فى استعمالها هو فى التعبير عن الأشياء الصلبة التى لا ينفذ فيها شىء، وعليه فإنّ صفتى «عزيز وحكيم» هنا تدلان على قدرته وعلمه اللامتناهيان.

والجدير بالذكر هو أن هاتين الصفتين قد وردتا معاً فى الكثير من الآيات القرآنية، وأكثر ماورد ذكرهما فى الآيات التى تحدّثت حول تشريع الأحكام، وبعث الأنبياء، ونزول القرآن (كالآيات ۱۲۹ و ۲۰۹ و ۲۲۸ من سورة البقرة، والآية ۲ من سورتى الجاثية والأحقاف)، وذلك للتذكير بأنّ اللَّه تعالى قد فصّل جميع ما يحتاجه البشر بتشريع القوانين وإنزال القرآن بدّقة متناهية، لأنّه علاوةً على كونه حكيماً وعليماً، فهو قادر على هذا العمل أيضاً.

وبتعبير آخر، إنّ أفضل القوانين يُشرعها من هو أعلم وأكثر اقتداراً من الجميع، وهو اللَّه ولا أحد غيره.

وما ذُكر فى قسم من الآيات التى ختمت بصفتى «عزيز حكيم» عن خلق السماء والأرض، وتسبيح الكائنات لله تعالى أو تنظيم خلقة الجنين، وما شاكل ذلك (كالآية ۱ من سورة الحديد، والآية ۲۴ من سورة الحشر، والآية ۶ من سورة آل عمران)، بمثابه كناية عن كون عالم التشريع ليس لوحده قائماً فى ظلّ علم اللَّه تعالى وحكمته، بل إنّ عالم التكوين كذلك أيضاً.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۸

وفى قسم آخر من الآيات ورد الحديث عن أفعال اللَّه تعالى كالقيام بالقسط، وخلق المسيح عليه السلام، ونصر المؤمنين فى القتال، وتأليف قلوب المؤمنين، وختمت بعبارة «عزيز حكيم» و هى (كالآيات ۱۸، ۶۲ و ۱۲۶ من سورة آل عمران، والآية ۶۳ من سورة الأنفال).

وهذه الآيات تشير إلى أنّ أفعال اللَّه تعالى أيضاً تتفرّع من علمه اللامحدود وقدرته المطلقة.

وأحياناً نجد أنّ بعض الآيات تتحدث عن الثواب والعقاب وتختتم ب (العزيز الحكيم) كما ورد فى سورة (المائدة، ۱۸)، كناية عن كون العطايا الإلهيّة أيضاً قائمة على أساس الحكمة والحساب الدقيق، وكذلك إشارة إلى قدرة اللَّه تعالى على تنفيذ ما وعد به عباده المؤمنين من العطايا العظيمة، وإلى عجز المجرمين عن الفرار من عقابه تعالى

وأخيراً فقد يكون تلازم هاتين الصفتين من أجل إضاءة بصيص الأمل فى قلوب المؤمنين وتهدئة خواطرهم، ليدركوا بأنّهم ليسوا لوحدهم أبداً فى الصعاب وعند مواجهة الأعداء، كما ورد فى الآية الشريفة: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فِانَّ اللَّهَ عَزِيْزٌ حَكِيْمٌ».

(الأنفال/ ۴۹)

وخلاصة الكلام فإنّ عزّة اللَّه تعالى وقدرته لاتبقى مجالًا لأىمانعٍ دون تنفيذ إرادته ومشيئته سبحانه، فهو على كل شىء قدير، فله تعالى القدرة على إدارة نظام التكوين ونظام التشريع، وعلى الدفاع عن أوليائه وأحبائه سبحانه.

ولكونه سبحانه حكيماً، فإنّه خبير بكل أسرار الوجود، وبمصالح الأمور ومفاسدها، وبحوائج عباده، واتصافه سبحانه وتعالى بهاتين الصفتين هو السر فى تواجد أفضل الأنظمة فى عالم الوجود.

جميع أفعاله تتسم بالحكمة:

وفى الآية الثانية يمر علينا التعبير القرآنى الثانى فى هذا المجال، حيث مزج علم اللَّه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۹۹

تعالى مع حكمته، ووصفه بصفتى العليم والحكيم فى آن واحد، وبعد أن تحدثت عن جماعة من المسلمين خلطوا عملًا صالحاً وآخر طالحاً، قال تعالى «وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إنّ اللَّه تعالى عليم يعلم هذه الجماعة جيداً، وحكيم من حيث معاملته كل فرد بما يستحقه، فتارة يرحم وتارة اخرى يعذّب، وبذلك يجعلهم بين الخوف والرجاء، وهذه الحالة تعد من العوامل التربوية للإنسان.

والواقع إنّ التعبير بكلمة «عليم» إشارة إلى إحاطته تعالى بالموضوع، و «حكيم» إشارة إلى إطلاعه على الحكم «۱».

ومن البديهى أنّ كلًا من العذاب أو العفو الإلهى ليس من دون حساب، بل هو قائمٌ على اسس اللياقات العملية والأخلاقيّة والنيّات الذاتية للأفراد.

والجدير بالذكر هو أنّ بعض الآيات التى سبقت هذه الآية عن جماعة اخرى من الذين خلطوا الطاعات بالمعاصى، خُتمت بالوعد بالمغفرة: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»، وذلك من أجل التأكيد على تلك المغفرة، ويعتقد أنّ تلك الآيات تحدثت عن الذين تابوا من ذنوبهم حالًا وأصلحوا نفوسهم بعد اقتراف المعاصى مباشرةً، لكن الجماعة المذكورة فى آية بحثنا لم تكن كذلك.

ويلاحظ فى آيات كثيرة اخرى أيضاً بأنّ صفتى «عليم وحكيم» لهما علاقة وثيقة بمحتوى الآية فى جميع تلك الآيات، لأنّ الكثير منها قد تحدثت عن الأحكام والقوانين الإلهيّة التى لها علاقة واضحة بعلم اللَّه تعالى وحكمته. والبعض الآخر منها تحدثت عن القوانين التكوينية التى لا يمكن تشريعها أيضاً بدون العلم والحكمة.

وبعضها تحدثت عن التوبة والثواب والعقاب، والعدل فى هذه الامور يحتاج إلى العلم والحكمة، العلم بأعمال ونيّات العباد، والحكمة فى تقدير الثواب والعقاب حتماً.

---

(۱) فى تفسير الكبير، ج ۱۶، ص ۱۹۳؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱۱، ص ۱۶، إشارة خفيفة إلى هذا المطلب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۰

هو الحكيم الخبير:

ونلاحظ استعمال الآية الثالثة تعبيراً آخر وهو ذكر صفتى «الحكيم والخبير» فى موضع واحد، قال تعالى «كِتَابٌ احْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ».

قال الزمخشرى فى كشّافه: «تشير هاتان الصفتان إلى فعلين إلهيّين ذكرتهما الآية فى البداية، أى أنّ الآيات القرآنية محكمة ومتوازنة لأنّها صادرة من لدن حكيم، ومفصّلة لأنّها صادرة من لدن خبير وعليم بكل شىء» «۱».

حكيم لأنّه وضع طريقاً للرجعة:

فى الآية الرابعة نلاحظ وجود تعبير قرآنى جديد وهو اقتران صفة «الحكيم» بصفة «التوّاب»، قال تعالى «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَانَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

وردت هذه الآية بعد مجموعة من الآيات المتعلّقة بمسألة اللّعان (وهو إذا اتهم رجل زوجته بالزنا- والخروج عن جادة العفاف ولم يكن لديه أربعة شهود على ادعائه: وجب أن يجلد ثمانين جلدة وفق قانون القذف، لكن القرآن أسقط عن الزوج هذا الحكم شريطة أن يحلف باللَّه خمساً كما ورد تفصيله فى آيات سورة النور، لكن زوجته ستكون محل تهمة فى هذه الحالة، وتدرء الاتهام عنها فى حال أدائها اليمين الخماسى أيضاً، وفى هذه الحالة فسوف تحرم الزوجة على زوجها إلى الأبد.

بالالتفات إلى هذه المسألة يتضح أنّ علاقة صفتى «التواب» و «الحكيم» مع محتوى الآية وثيقة جدّاً، حيث وضع سبحانه وتعالى أمام الطرفين طريقاً للتوبة والرجوع، لكى يتمكن الذى افترى على صاحبه من العودة إلى مواصلة الحياة الزوجية وبتحمل عقوبة القذف، هذا من ناحية، ومن ناحية اخرى ونظراً لكون الزوجين أكثر اطلاعاً على بعضهما، ولِتعسُّر إقامة الدليل على مثل هذه المسائل الخاصة غالباً، فإنّ اللَّه تعالى قد صان حقوق

---

(۱) تفسير الكشاف، ج ۲، ص ۳۷۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۱

الزوجين وحق أولادهما، وصان الزواج من أى لون من التلوث بالاستفادة من سنة أحكام اللِّعان الحكيمة هذه).

هو الحكيم الحميد:

يلاحظ فى الآية الخامسة اقتران صفة «الحكيم» بصفة «الحميد»، بعد أن بَيّنت الآية عظمة القرآن الكريم، قال تعالى «لَّايَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيْلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ».

وردت تفاسير عديدة حول معنى كلمة «الباطل» وجملة «من بين يديه ومن خلفه»، لكن الظاهر هو أنّ «الباطل» يشمل كل مايُبطل ويسقط هذا الكتاب السماوى من الاعتبار، وجملة «من بين يديه ومن خلفه» كناية عن جميع الجهات، أى أنّ غبار البطلان لن يترسب على هذا الكتاب السماوى، لا من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى سواء كان فى الكتب السابقة أم المقالات اللاحقة.

والدليل على ذلك هو أنّه تنزيل من لدن ربّ حكيم يحيط بجميع أسرار خلق الإنسان والكون، والهدف منه هو الامتنان على الإنسان بأكبر النعم الإلهيّة، نعمة تستحق أعلى مراتب الحمد، لذا فقد وردت صفة الحميد بعد صفة الحكيم.

ولهذا لا يمكن أن نجد نقطة ضعف فى مضمونه ولا فى معاينه ولا تستبدل بمرور الزمان، أو يستطيع أحدٌ تحريفه أو تغيير محتوياته.

إِنَّهُ علىٌّ حَكِيمٌ:

بعد أن أشارت الآية الخامسة إلى مسألة الوحى وارتباط الأنبياء مع الذات الإلهيّة المقدّسة بطرق مختلفة (الالهام القلبى، التكليم بايجاد أمواج صوتيّة أو إرسال الوحى)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۲

قالت الآية السادسة: «إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ».

إنَّ علوّه تعالى يستوجب أن لا يتصل مع عباده الذين هم موجودات جسمانية ومخلوقات إمكانية، إلّابالطرق التى ذكرناها، وحكمته

تستوجب أن يفيض الوحى بالمعارف والتعاليم التى تعبّد طريق الإنسان إلى اللّه تعالى

هنا تتضح الآصرة الوثيقة الموجودة بين هاتين الصفتين، ويتضح محتوى الآية.

الطلاق نابع من الحكمة الإلهيّة:

وبالتالى فالآية السابعة والأخيرة من بحثنا، بعد أن سمحت للزوج والزوجة بالطلاق عند فقدان الالفة، أمّلتهما بالحياة المستقبليّة لكى لا ييأسا ويسلكا طريق المعاصى. قال تعالى «وَانْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيْماً».

فمن جهة يبشّرهما تعالى بالغنى من فضله وكرمه (وهذا يتناسب مع وصفه تعالى بالواسع)، ومن جهة اخرى فقد شرّع الطلاق وسمح للزوجين بالافتراق فى حالات خاصّة (وهذا مقتضى حكمته سبحانه)، لأنّه لو لم يشرع قانون الطلاق- كما فى القوانين المسيحية المشرَّعة فى عصرنا الحاضر- لواجه الزوجان طريقاً مسدوداً فى حالات الطلاق الضرورية، ولتورّطا بنارٍ محرقة لامفرّ منها، ولتهيأت الأرضية لوقوع كل ألوان الإنحرافات الأخلاقية والجرائم وتضييع حقوق الزوجين وأبنائهما.

نتيجة البحث:

يستنتج من مجموع الآيات المذكورة بوضوح أن حكمة اللّه تعالى التى هى إحدى فروع علمه، تدل على أنّ الوجود بكل أبعاده قائم على أساس نظام وحساب دقيق وقوانين موزونة ومنسجمة، وأنّ أفعال اللّه تعالى بكل أبعادها مقرونة بالحكمة، وهذا هو مايعبر عنه بالنظام الأحسن فى بعض الأحيان.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۳

وهذا النظام الأحسن قد تجلى فى عالم التشريع والتقنين والأحكام الشرعية، وفى طيات تشريع هذه القوانين والاحكام أسرارٌ وفلسفات لايعلمها إلّااللّه الحكيم الذى أرانا قسماً منها أيضاً.

توضيحان

۱- الأدلة على حكمة اللّه تعالى

لم يكن اتصاف اللّه تعالى بالحكمة مستنبطاً من عشرات الآيات القرآنية، التى وصفته بالحكيم فحسب، بل يمكن إثباته بالأدلة العقليّة أيضاً.

لأنّه وكما أشرنا سابقاً فإنّ صفة الحكيم تطلق على من يؤدّى افعاله بأفضل وجه، وأقرب طريق، ويتحرز عن أى عملٍ غير موزون وغير صالح. وبالحقيقة أنّ الحكمة تشمل الحالات العملية فى الغالب، بينما نجد أنّ العلم يشمل الحالات النظرية.

لذا فإنّ جميع الأدلة التى تثبت علم اللّه تعالى أثبتت حكمته أيضاً، ولكن يجدر الالتفات إلى التفاوت الموجود بين وصف البارى بالحكيم والإنسان بنفس هذه الصفة، فالأخير هو من تنسجم أعماله مع قوانين عالم الوجود، لكن قولنا: اللّه حكيم، يعنى الذى أوجد القوانين التى هى مصداق للنظام الأحسن، وبتعبير أدق: إنّ اللّه تعالى هو الذى يقنن القانون ويشرِّعه ونحن نطبقه.

ومن جهة اخرى فإنّ نظرةً واحدةً إلى عالم الوجود- من المنظومات الشمسية والكواكب والنجوم، حتى مكوّنات الذرة، ومن الكائنات الحية الاحادية الخلية، وحتى الحيوانات العملاقة، والأشجار العظيمة- كافية لإدراك حكمة الخالق ومؤسس هذا البناء البديع.

إنّ جميع الكتب التى كتبت حول العلوم الطبيعية، والفيزياء، والكيمياء، والتشريع، وعلم الحيوان، والنبات، وعلم الفلك والنجوم، هى فى الأساس تشرح حكمة اللّه تعالى وكما قال العلماء: إنّ جميع هذه العلوم هى فى الواقع ورقة واحدة من كتاب أسرار عالم الوجود

العظيم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۴

وهذا بحد ذاته أفضل دليلٍ على حكمته سبحانه.

وبتعبير آخر: فكما أنّ برهان النظم يثبت وجود اللَّه سبحانه وتعالى فهو يثبت علمه وحكمته أيضاً.

والجدير بالذكر أنّ روايات كثيرة، ومن جملتها رواية «توحيد المفضل» المعروفة، تحتوى على إشارات قيّمة كثيرة حول حكمة اللَّه تعالى فى خلق الإنسان، والحيوان، والطيور، والأسماك، والسماء، والشمس والقمر والنجوم، والماء والنار، والمعادن، والنباتات، والأشجار، وغيرها، وقد وضّحت بأجمعها ما قلناه.

۲- الآثار التربويّة لمعرفة حكمة اللَّه تعالى

غالباً مايُنظر إلى صفات اللَّه تعالى من بعد «معرفة اللَّه»، وهذا صحيح فى محله طبعاً، لكن القرآن الكريم استعمل هنا نقطة ظريفة اخرى وهى استعانته بهذه الصفات لتربية الإنسان فى الغالب، والتى تجلت نماذج منها فى الآيات التى ذكرناها، لذا يجب أن نعمل بهذا الكتاب الإلهى، ونتخذ من معرفة صفات اللَّه تعالى أساساً لتهذيب نفوسنا وتكامل عقولنا.

إنّ للإيمان بحكمة اللَّه تعالى انعكاسات وآثار تربوية فى نفس الإنسان، وهذه الآثار هى كالتالى:

أ) الإيمان بحكمته تعالى يمكنه أن يترك آثاراً بليغة فى التطورات العلمية للإنسان ومعرفته بأسرار عالم الوجود، ويزيد فى سرعة العلم البشرى بالسير إلى الأمام قُدُماً.

لأننا عندما نعلم أن صانع هذا البناء البديع العظيم معمار ماهر، وأودع كل موضع منه أسرار الحكمة، فإننا سوف لا ننظر إلى موجودات وحوادث هذا العالم بنظرة عادية، بل سوف نتعمق فى كل ظاهرة كموضوع مهم، بحيث نتوصل إلى اكتشاف قانون الجاذبية العام المهم جداً، وقوانين مهمّة اخرى بمجرّد سقوط تفاحة من شجرة ما.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۵

ولا تعجب عند سماعك بأنّ (إنشتاين) كان يعتقد بأنّ العلماء والمكتشفين العظام كانوا جميعاً يؤمنون نوعاً ما بوجود المبدئ العليم، وبحكمة الوجود، وهذا الأمر هو الذى كان يشجعهم على بذل مساعٍ أكبر.

ب) إنّ الاعتقاد بحكمة اللَّه تعالى فى التشريع والتقنين يهوّن الصّعاب الموجودة فى تعاليم تلك الشرائع، ويلتذ الإنسان فى تحمل الشدائد فى طريق امتثال أوامره سبحانه، لأنّه يدرك بأنّ جميع هذه البرامج والقوانين صادرة من ذلك الحكيم العظيم. فتجويزه سبحانه وتعالى دواءً مُراً مثلًا، إنّما هو لدور ذلك الدواء فى شفاء الإنسان، وتشريعه لتكليف شاق معين، إنّما هو من أجل سعادة الإنسان وتكامله المترتبة عليه.

ج) إيمان الإنسان بهذه الصفة الإلهيّة يزيد من صبره وتحمله وقدرته، ومقاومته فى مواجهة المصائب والحوادث المرة، وذلك لأنّه يدرك وجود حكمة معينة فى كل واحدة منها، وهذا الاحساس يعينه فى التغلب على المشاكل المذهلة، لأننا نعلم بأنّ الشرط الأول للتغلب على المشاكل هو التمتع بالمعنوية العالية، والتى لا تتحقق إلّافى ظل معرفة حكمة اللَّه تعالى

د) وكما نعلم أنّ افضل مقام مرموق يبلغه الإنسان هو وصوله إلى مقام القرب منه تعالى ولا يتحقق القرب منه سبحانه إلّابالتخلق بأخلاقه تعالى والاقتباس من نور صفاته.

والإيمان بحكمة اللَّه تعالى يدعو الإنسان إلى سلوك طريق العلم والحكمة والتخلق بالأخلاق الإلهيّة، ولعل هذا هو السر فى تعبير القرآن عن الحكمة بعبارة (خيراً كثيراً) حيث قال: «وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوْتِىَ خَيْراً كَثِيراً». (البقرة/ ۲۶۹)

ورد عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله: «الحكمة ضياء المعرفة وميراث التقوى وثمرة الصدق وما أنعم اللَّه على عبدٍ

من عباده نعمة أنعم وأعظم وأرّفعَ وأجْزلَ وأبْهى من الحكمة» «۱»

.

ونختم كلامنا هذا بكلام العلّامة المجلسى رحمه الله، والذى يوضح البحوث السابقة وخصوصاً البحث الأخير.

---

(۱) بحار الانوار، ج ۱، ص ۲۱۵، ح ۲۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۶

فقد نقل العلامة المجلسى رحمه الله معنى الحكمة عن العلماء بأنّهم قالوا: الحكمة تحقيق العلم وإتقان العمل، وقيل: مايمنع من الجهل، وقيل: هى الإجابة فى القول، وقيل: هى طاعة اللَّه، وقيل: هى الفقه فى الدين، وقال ابن دريد: كل ما يؤدّى إلى مكرمة، أو يمنع من قبيح، وقيل: مايتضمن صلاح النشأتين «۱».

---

(۱) بحارالانوار، ج ۱، ص ۲۱۵، ح ۲۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۷

د) إرادة اللَّه ومشيئته

تمهيد:

هناك آيات قرآنية كثيرة تحدثت عن إرادة اللَّه سبحانه سواءً فى عالم الخلق والوجود، أو فى تشريع القوانين والأحكام وتكاليف العباد ومصيرهم.

لا ريب فى أن للَّه‌تعالى إرادتين، تكوينية وتشريعية، وظهور الحوادث المختلفة فى أوقات مختلفة يُعد دليلًا واضحاً على إرادته فى إيجاد موجود أو حادثة ما فى يوم كذا، لا قبله ولا بعده.

وهكذا فإنّه تعالى أراد أن يؤدّى عباده الطاعة الفلانية ويتركوا المسائل الاخرى

لكن ماهو معنى وحقيقة إرادة اللَّه تعالى

تُعدّ هذه المسألة من أعقد المسائل الكلامية والعقائدية والفلسفية، ولكن بعد التحليل النهائى سنتوصل إلى أنّ إرادة اللَّه تعالى ومشيئته فرعٌ من فروع علمه سبحانه. أما كيف؟

فهذا ما سنعرفه بعد تتبع الآيات القرآنية التى وردت حول إرادته ومشيئته تعالى.

ولنتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

۱- «انَّمَا قَوْلُنَا لِشَىءٍ اذَا ارَدْنَاهُ انْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (النحل/ ۴۰)

۲- «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً انْ ارَادَ بِكُمْ ضَرًّا اوْ ارَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً». (الفتح/ ۱۱)

۳- «وَنُرِيدُ انْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فى الْارْضِ وَنَجْعَلَهُمْ ائِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

(القصص/ ۵)

۴- «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ». (البقرة/ ۱۸۵)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۸

۵- «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ انَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ». (النور/ ۴۵)

۶- «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً* الّا انْ يَشَاءَاللَّهُ». (الكهف/ ۲۳/ ۲۴)

۷- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ الَّا وَحْيًا اوْ مِنْ وَرَاءِى حِجَابٍ اوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِاذْنِهِ مَا يَشَاءُ انَّهُ عَلِىٌّ حَكِيمٌ». «۱» (الشورى ۵۱)

شرح المفردات:

«الإرادة»: من مادّة (رَوْد) (على وزن مَوْج)، وهى فى الأصل بمعنى التردُّد المصحوب بالهدوء لتحصيل شيء، وتُطلق على الذى يبحث عن مرتع لرعى المواشى.

وكلمة «الإرادة» المأخوذة من هذا الأصل هى بالواقع مركّبة من ثلاثة عناصر: «إرادة الشيء عن رغبة» و «مع الأصل فى الوصول إليه» و «الأمر بفعله من قبله أو الآخرين» «۲».

يعتقد الكثير من الغويين والمتكلمين أنّ «المشيئة» تعنى «الإرادة»، لذا فقد قال الراغب فىالمفردات: يعتقد أكثر المتكلمين أنّ المشيئة تعنى «الإرادة» تماماً، واعتقد البعض منهم أنّ المشيئة تعنى إيجاد الشيء والوصول إليه، ولو أنّها حلّت محل الإرادة فى الاستعمالات المتعارفة، وعلى هذا تكون المشيئة بالنسبة إلى اللّه سبحانه وتعالى بمعنى الإيجاد، وبالنسبة إلى الناس بمعنى الوصول إلى شيء معين «۳».

لكنه ورد فى بعض كتب اللغة أنّ «المشيئة» غير «الإرادة»، فالمشيئة هى المَيْل الذى يحصل للإنسان بعد التصوُّر والتصديق، ثم يصل بعدها العزم والتصميم، ثم تتحقق الإرادة (وعليه فإنّ المشيئة) تُطلَقُ على المراحل الأولى و «الإرادة» على المرحلة الأخيرة وتتصل بالفعل «۴».

---

(۱) وهناك آيات اخرى تتضمن هذا المعنى وهى: المائدة، ۱۷؛ الرعد، ۱۱؛ الكهف، ۸۲؛ الاحزاب، ۱۷ و ۳۳ و ۳۸؛ الاسراء، ۱۶؛ الانعام، ۱۲۵؛ البقرة، ۱۸۵؛ آل عمران، ۱۷۶؛ النساء، ۲۶ و ۲۷ و ۲۸؛ المائدة، ۱ و ۶ و ۴۱؛ الانفال، ۷؛ التوبة، ۵۵؛ هود، ۱۰۷؛ الحج، ۱۴ و ۱۶؛ فاطر، ۱۰؛ البروج، ۱۶.

(۲) مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ لسان العرب.

(۳) مفردات الراغب؛ ونهاية ابن الأثير؛ ومصباح اللغة؛ وصحاح اللغة؛ ولسان العرب؛ ومجمع البحرين.

(۴) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۰۹

وقد ورد فى الروايات الإسلاميّة أيضاً أنّ «المشيئة» مرحلة قبل «الإرادة»، وسيأتى شرح ذلك فى قسم التوضيحات إن شاء اللّه.

جمع الآيات وتفسيرها

إرادته نافذة فى كل شيء:

أخبرت الآية الأولى بحقيقة عدم انفصال إرادة اللّه تعالى عن وجود الأشياء، فبمجرّد قوله سبحانه للشى الذى يريده، كُنْ، فإنّه سيتحقق: «انَّمَا قَوْلُنَا لِشَيءٍ اذَا ارَدْنَاهُ انْ نَّقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

وطبعاً إنّ هذا الكلام لايعنى وجود الحوادث والموجودات فى لحظة واحدة، بل يعنى وجودها وحدوثها وفق الإرادة الإلهيّة والأمر

الإلهى بدون تقديم أو تأخير حتى ولو لحظة واحدة.

أى إذا أراد اللَّه تعالى أن يبقى جنين فى بطن امه تسعة أشهر وتسعة أيام بالضبط، فإنّه سيولد فى الموعد المحدَّد وبدون لحظة من التقديم أو التأخير، وهكذا إذا أراد سبحانه أن يمكث هذا الجنين أقل أو أكثر من هذه المدّة، وإذا أراد اللَّه إيجاد منظومة كالمنظومة الشمسية، أو عالم عظيم آخر كالعالم الحالى فإنّه سوف يوجد على الفور.

والتعبير بكلمة (كن) أيضاً إنّما جاء بسبب عجز اللفظ عن بيان المعنى أى أنّه تعبير كنائى وإلّا فلا توجد فاصلة بين إرادة اللَّه تعالى وتحقق الشىء المراد.

والعجيب هو أن بعض المفسّرين القدماء فسّروا كلمة (كن) كأمر صادر من اللَّه تعالى فواجهوا هذا السؤال: مَن هو المخاطب؟ أيمكن مخاطبة العدم؟

وعليه اضطروا لتوجيه مخاطبة العدم، أو القول بوجود المعدومات، أو الاستدلال بالآية على كون كلام اللَّه تعالى قديماً.

فى حين أنّ هذا الكلام كلّه خاطى، وتشير القرائن إلى كون هذه الجملة كناية عن عدم وجود فاصلة بين إرادة اللَّه وتحقق الشى المراد.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۰

وبالحقيقة فإنّ الآية قد تحدثت عن إرادة اللَّه تعالى وإيجاد الأشياء لا غير، وكما سنعلم فإنّ إرادة اللَّه تعالى تكون على معنيين، فمن جهة تكون عين ذاته، ومن جهة اخرى تكون عين فعله أيضاً، (فتأمل جيداً).

وقد ورد شىء من هذا القبيل فى الآيات: ۱۱۷ من سورة البقرة، ۸۲ من سورة يس، ۵۹ و ۴۷ من سورة آل عمران، ۳۵ من سورة مريم، ۶۸ من سورة غافر.

ويجدر الالتفات إلى أن بعض الآيات المذكورة قد نزلت بخصوص منكرى المعاد لتذكيرهم بعدم وجود شىء يصعب على الإرادة الإلهيّة إيجاده. (كالآية ۸۲ من سورة يس، والآية المذكورة فى بحثنا).

وبعضها نزلت بخصوص خلق آدم عليه السلام من التراب (كالآية ۵۹ من سورة آل عمران).

أو خلق المسيح من دون أب (كالآية ۴۷ من سورة آل عمران، والآية ۳۵ من سورة مريم).

أو بخصوص الابداع فى خلق السموات والأرض (كالآية ۱۱۷ من سورة البقرة).

لا شىء يحول بينه وبين إرادته تعالى

تحدثت الآية الثانية عن إرادة اللَّه فى الثواب والعقاب ومصير الناس، وأشارت إلى هذه الحقيقة التى تفصح عن عدم وجود شىء يمنعه عن إمضاء إرادته بخصوص مكافأة ومعاقبة عباده، قال تعالى «قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً انْ ارَادَ بِكُمْ ضَرًّا اوْ ارَادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً».

إنّ سبب تقاعسكم عن الجهاد هو إمّا لتوقى الحوادث المؤلمة لكم ولأهليكم، وإمّا للحصول على منافع مادية وحفظ الأموال، وجميع هذه الامور ترتبط بإرادة اللَّه ومشيئته، ولا أحد يملك لكم من اللَّه شيئاً.

إنّ رسوخ هذه العقيدة فى قلب الإنسان يؤدّى إلى ممارسته الأوامر الإلهيّة من دون الخوف من ضرر معين أو فوت منفعة وما شاكل ذلك، لأنّ مقاليد جميع هذه الامور بيده تعالى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۱

وعليه يتضح لنا أثر الإيمان بالإرادة والمشيئة الإلهيّة على أعمال الإنسان واستعداده لأداء التكاليف الإلهيّة.

وعلى أيّة حال فالحديث هنا يدور حول الإرادة التكوينية أيضاً.

إرادته سبحانه فی نُصرة المستضعفين:

تحدثت الآية الثالثة عن أثر الإرادة الإلهيّة فی مصير الأقوام، وأنارت بصيص الأمل فی نفوس الامم المظلومة، قال تعالی «وَنُرِيدُ انْ نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِی الْارْضِ وَنَجْعَلَهُمْ ائِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ».

إنّ التعبير بالفعل المضارع «نريد» الذی يدل علی الاستمرار هو للدلالة علی ديمومة وخلود هذه السُنة الإلهيّة المتمثلة بتسلط المستضعفين وسيطرتهم علی زمام الامور فی الأرض واندحار الطواغيت المستكبرين.

ولكن يجب الالتفات إلی أنّ الآية قد تحدثت عن «المستضعفين» لا «الضعفاء»، أی عن الذين يجاهدون ويقاتلون دوماً؛ وقد استضعِفوا من قبل أعدائهم لا عن الذين استسلموا للذلة والضعف.

وبضم هذه الآية إلی الآية من سورة الأنبياء: «أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِیَ الصَّالِحُونَ»، نستنتج بأنّ المستضعفين هم اولئك الصالحون المؤمنون المجاهدون.

ويجب الالتفات إلی أنّ كلمة (نمنُّ) مشتقة من أصل (منّ) وهو فی الأساس بمعنی الوزن الثقيل، ثم اطلق علی النّعم ذات الأهميّة، واستعمال هذا التعبير بخصوص البارى عزّ وجل يدل علی اعطائه عزّ وجلّ للنعم الثقيلة العظيمة بدون عوض، أمّا عندما يستعمل بخصوص العباد فهو يعنی التذكير بالنعم بقصد المنّ.

وطبعاً هنالك بحوث كثيرة حول هذه السنّة الإلهيّة، أی حكومة المستضعفين، وسنذكرها فی محلها إن شاء اللّه تعالی والجدير بالذكر هنا هو أنّ للإيمان بإرادة اللّه التكونية أثراً تربوياً عميقاً يلهم المؤمنين الصالحين القوة والأمل والاقتدار، ويزيدهم فی مواجهة الظالمين رسوخاً وقوة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۲

يريد اللّه بكم اليسر:

تحدثت الآية الرابعة عن إرادة اللّه تعالی التشريعية، والتی وردت فی مواضع عديدة من القرآن، أی إرادته فی التقنين، فبعد الحديث عن فريضة الصيام فی شهر رمضان واستثناء المسافرين والمرضی من هذا الحكم، قال تعالی «يُرِيْدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ».

وتعدّ هذه الآية من الآيات التی نفت التكاليف التی لاتطاق و «التكاليف الشاقة» فی نفس الوقت، وماقاله الفخر الرازی فی عدم دلالة ذيل الآية علی العموم اشتباه محض، لأنّ الألف واللام الواردة فی كلمتی «اليسر» و «العسر» للجنس، تدل فی مثل هذه الحالات علی العموم.

ويمكن طبعاً أن يكون هنالك استثناءات معينة فی هذا القانون، كبقية القوانين الاخری مثل الأمر بالجهاد وماشاكله، فالجهاد ضدّ الخنوع والذل تحت سلطة الأعداء، يُعدّ من مصاديق اليسر أيضاً لا العسر.

فبعد أن ذكر سبحانه وتعالی نوعين من الأحكام الإلهيّة فی الآية الاولی من سورة المائدة، فی مجال الالتزام بجميع العقود والمواثيق، وحليّة أكل لحوم المواشی حيث قال:

«إنّ اللَّهَ يَحكُمُ ما يُرِيدُ» وهذا التعبير يوضح شمول الإرادة الإلهيّة التشريعية لكل الأشياء.

وبخصوص جزاء الأعمال، نلاحظ أنّه تعالی بعد أن ذكر دخول المؤمنين الصالحين الجنّة، قال: «انَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». (الحج/ ۱۴)

وبديهی أنّ شمولية إرادة اللّه فی التشريع، وفی الأثابة والمعاقبة، وهكذا فی عالم الوجود، لا تعنی انفصال إرادته عن حكمته سبحانه، أو أن يكون خلقه أو محاكمته أو إثابته بدون حكمة ومصلحة.

إنّ اللّه يخلق مايشاء:

تحدثت الآية الخامسة عن المشيئة الإلهيّة وشمولها لكافة مخلوقات عالم الوجود

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۳

(المشيئة الإلهيّة العامة التكوينية)، قال تعالى «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ انَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ».

وردت هذه الجملة فى القرآن الكريم بعد أن أشار تعالى إلى خلق مختلف أنواع الدواب من ماء، فمنهم من يمشى على بطنه، ومنهم من يمشى على رجلين، ومنهم من يمشى على أربع، ونحن نعلم بأنّ تنوع الاحياء بلغ من الكثرة والتشعب بحيث يتجاوز عدد أنواع الحشرات التى درسها العلماء عدّة ملايين، وهكذا بالنسبة لأنواع النباتات بتركيباتها وخصائصها المتفاوتة، فإنّ أنواعها بلغت مئات الآلاف، ممّا تدل بأجمعها على سعة مفهوم الآية المذكورة أعلاه.

والجدير بالذكر أنّ هنالك أنواعاً جديدة من الأحياء تكتشف بمرور الزمان لم تكن موجودة سابقاً، أى أنّ إيجاد وخلق الحيوانات والنباتات لايتعطل حتى ولا لحظة واحدة! وأساساً أنّ تنوع الظواهر يعدُّ دليلًا على إرادة ومشيئة المظهر المبدى، لأنّ الصانع العديم الإرادة يخلق اموراً متساوية ومتشابهة، بينما كلما حلت الإرادة فى موضع اصطحبت معها التنوع «۱».

المشيئة الإلهيّة:

والآية السادسة تحدثت عن المشيئة الإلهيّة أيضاً، والحديث هذه المرّة يدور حول مصير العباد وأعمالهم، فالتفت عزّ وجلّ بالخطاب إلى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بقوله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً* الَّا انْ يَشَاءَ اللَّهُ». أى عندما تتحدث عن عزمك بالقيام بعملٍ مافى المستقبل فتوكل على المشيئة الإلهيّة دائماً وقل: «إن شاء اللَّه». وهذه الجملة تدلّ على تقدم مشيئة اللَّه على بقية المشيئات وعدم وقوع أى شيء دون مشيئته سبحانه.

وواضح أنّ هذا الكلام لايشير أدنى إشارة إلى مسألة الجبر، بل يشير إلى غلبة المشيئة

---

(۱) أشار القرطبى فى تفسيره ج ۷، ص ۴۷۴ إلى هذا الموضوع.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۴

الإلهيّة التى لايستطيع أىّ فرد بلوغ هدفه بدونها، وما الحرية التى منحها اللَّه للإنسان إلّا لاختباره وتربيته والعروج به فى سُلّم الكمال، وحرية الإرادة الإنسانية لا تعنى سلب القدرة الإلهيّة.

إضافة إلى هذا فإنّ إرادة ومشيئة الإنسان هى احدى عوامل وصوله وبلوغه أهدافه، وهنالك مئات من العوامل الاخرى خارجة عن قدرته، ولا ترتبط إلّاباللّه تعالى

ومن هنا فإنّ أدب الكلام والخضوع للأمر الواقع يفرض على الإنسان أن لا ينسى عبارة: «إن شاء اللَّه» فى برامجه الخاصّة أبداً.

وجاء التأكيد هنا أيضاً على أثر «المعرفة» على أعمال الإنسان، فإيمانه بالإرتباط بالمشيئة الإلهيّة يجعله يشعر دائماً بالفقر إلى اللَّه وعدم الاستقلال عنه سبحانه، فلا يصيبه الغرور أبداً، ولا يركب مركب الأنانية، ويزيده استقامة وصلابة فى مواجهة الصعاب والمشاكل، وينقذه من الوقوع فى مخالب اليأس والقنوط لأنّه يعلم أنّ مشيئة اللَّه أكبر من كلَ شيء.

الوحى والمشيئة الإلهيّة:

وأخيراً تحدثت الآية السابعة والأخيرة من بحثنا عن المشيئة الإلهيّة التشريعية وبصورة ظريفة، ومن الضرورى الالتفات إلى أنّ القرآن الكريم قد استعمل كلمة (الإرادة) فى التكوين والتشريع بكثرة، لكن استعمل كلمة (المشيئة) فى المسائل التكوينية عادةً، وقد استعملها فى مجال التشريع والتقنين بندرة ممّا يدلّ على شمول مفهوم المشيئة للجانب التكوينى بصورة أكثر). قال تعالى «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ انْ

يُكَلِّمَهُ اللَّهُ الَّا (بثلاثة طرق) وَحْياً اوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ (كما تحدث مع موسى فى جبل طور، والحجاب هنا بمعنى حجاب المادة) اوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فيُوحِيَ بِاذْنِهِ مَا يَشَاءُ انَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ»، فسموّه يقتضى أن لا يُرى أو يكلمه بشر، وحكمته تقتضى أن يرسل الرسل لهداية الخلق، ويرتبط برسله بالطرق الثلاثة المذكورة فى الآية أعلاه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۵

يستنتج من مجموع الآيات المذكورة بأنّ إرادة اللَّه سبحانه التكوينية والتشريعية تشمل جميع الممكنات، كل ماتقتضيه حكمته.

وإن كان للانسان إرادة لعمل شيء معين فانّما هى بإذن اللَّه.

ولا شيء يمنع عن تحقق إرادته سبحانه، ومشيئته غير منفصلة عن خلق الأشياء.

ومصيرنا جميعاً بيده سبحانه، فالخير والفائدة والسعادة كلها هى فيض من وجوده عزّ وجل.

فبالاعتماد على إرادة اللَّه ومشيئته تهون علينا الحوادث الصعبة.

هذا ماتفيضه علينا هذه الصفات الإلهيّة من معطيات.

توضيحات

۱- الدلائل العقلية على الإرادة الإلهيّة

عندما ننظر إلى عالم التكوين نجد أن فى كل يوم يحدث أمر جديد، ولكل موجود ظاهرة وتاريخ معين، بل العالم بذاته يمثل مجموعة من الظواهر والحوادث.

وهنا يطرح هذا السؤال: بما أنّ اللَّه عالم لأنّه علة العلل لجميع الكائنات، فهو قديم وأزلى، إذن كيف يمكن أن يوجد كل موجود فى زمان معين أو أن تقع كل حادثة فى زمان معين؟

والجواب على هذا السؤال هو أنّ اللَّه فاعلٌ غير مجبور، بل فاعلٌ لما يريد ومايشاء، وما انفصال الكرة الأرضية عن الشمس قبل خمسة مليادرات سنة مثلًا، أو ظهور الأحياء على سطح الكرة الأرضية قبل عدة ملايين من السنين، أو دخول الإنسان إلى عالم الوجود قبل آلاف السنين، إلّاامتثالًا لإرادته المتميزة سبحانه.

وخلاصة الكلام هو أنّ وجود بعض الممكنات وعدم وجود بعضها الآخر، أو حدوثها فى موعدٍ محددٍ (مع أنّ اللَّه قادرٌ على كلّ شيء بصورة متساوية) يدلّ على اتصاف ذاته المقدّسة بصفة اخرى غير القدرة، وهى الإرادة والمشيئة الإلهيّة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۶

۲- مامعنى إرادة اللَّه سبحانه؟

لا شك فى عدم إمكانية مقايسة مفهوم إرادة الإنسان بالإرادة الإلهيّة، لأنّ الإنسان يتصور الفعل فى البداية (مثل شرب الماء)، ثم فوائده، ثم يعتقد بفوائده، ثم يشتاق ويرغب إلى القيام بذلك الفعل، فعندما يصل شوقه هذا مراحله النهائية يصدر أوامره إلى العضلات، فيتحرك الإنسان لانجاز هذا العمل.

لكننا نعلم أنّ كل هذه المفاهيم (التصور والاعتقاد، والشوق والامور وحركة العضلات) لا معنى لها بخصوص البارى، لأنّها جميعاً حادثة، فأين إرادته منها إذن؟

من أجل هذا ذهب علماء الكلام والفلاسفة المسلمون- صوب مفهوم يتناسب مع الوجود البسيط المجرد، وبنفس الوقت يتناسب مع أى نوع من أنواع التعبير الحاصل لدى اللَّه تعالى فقالوا: إنّ إرادة اللَّه تعالى على نوعين:

۱- الإرادة الذاتية.

۲- الإرادة الفعلية.

۱- الإرادة الإلهيّة الذاتية: هى علمه بالنظام الاصلح لعالم التكوين، وعلمه بخير وصلاح العباد فى الأحكام والقوانين الشرعية.

إنّه يعلم أىّ نظامٍ أفضل وأصلح لعالم الوجود، ويعلم أفضل الأوقات المناسبة لايجاد الموجودات، وهذا العلم منبع تحقق الموجودات وحدوث الظواهر فى الأزمنة المختلفة.

وكذلك فانّه سبحانه وتعالى يعلم مصلحة عباده الكامنة فى هذه القوانين والأحكام، وأنّ روح هذه القوانين والأحكام هى علمه بالمصالح والمفاسد.

۲- إرادته الفعلية عين الايجاد وتعدّ من صفاته الفعلية لذا فإنّ إرادته فى خلق السموات والأرض هى عين حدوثها، وإرادته فى فرض الصلاة هى عين وجوبها وفى تحريم الكذب هى عين حرمته.

وخلاصة الكلام هى أنّ إرادة اللَّه الذاتية عين علمه، وعين ذاته، لذلك اعتبرناها من فروع العلم وإرادته الفعلية عين الإيجاد والتحقق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۷

وسيتضح الموضوع بصورة أفضل عند نقل بعض الأحاديث الشريفة الواردة فى هذا المجال، إن شاء اللَّه تعالى

۳- الإرادة الإلهيّة التكوينية والتشريعية

كما ذكرنا آنفاً بأنّ المقصود من الإرادة التكوينية هى الإرادة التى يفيض منها وجود جميع الكائنات والموجودات، أو بتعبير آخر عين إيجادها جميعاً.

أمّا الإرادة التشريعية فهى الإرادة التى تفيض منها جميع الأوامر والنواهى الإلهيّة، وجميع الأحكام والقوانين الشرعية، وبتعبير آخر عين هذه الأحكام والقوانين.

ومن خلال متابعة الآيات القرآنية يتضح بأنّ كلمة (إرادة) مستعملة بكلا المعنيين بشكل واسع، فى حين نجد أنّ (المشيئة) مستعملة فى مجال الخلق والتكوين فى الغالب، أمّا فى مجال التشريع فيندر مجيئها، ممّا يدل على كون (المشيئة) أقرب إلى مفهوم التكوين.

۴- الإرادة الالهيّة فى الروايات الإسلامية

وردت فى روايات أهل البيت ايضاحات كثيرة فى هذا المجال، نذكر مجموعة منها كنموذج:

۱- ورد فى توحيد الصدوق و «عيون اخبار الرضا» عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام جوابه عن سؤال حول إرادة اللَّه تعالى فى خلقه أنّه قال: «الإرادة من المخلوق الضمير وما يبدو له بعد ذلك من الفعل، وأمّا من اللَّه عز وجل فارادته احداثه لا غير ذلك لأنّه لا يُروّى ولا يهمّ ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه، وهى من صفات الخلق، فارادة اللَّه هى الفعل لا غير ذلك. يقول له كن فيكون بلا لفظ، ولا نطقٍ بلسان، ولا همةٍ ولا تفكر ولا كيفٍ لذلك، كما أنّه بلا كيف» «۱».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴، ص ۱۳۷، ح ۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۸

وقد أورد هذا الحديث الشريف المرحوم الكلينى فى «اصول الكافى» «۱». ومن الواضح أنّ هذا الحديث يشير إلى إرادة اللَّه الفعلية وأمّا الإرادة الذاتية فهى علمه بالنظام الأحسن كما مر بيانه.

۲- وقد ورد أيضاً فى هذا الكتاب عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال:

«المشیئة والإرادة من صفات الأفعال، فمن زعم أنّ اللّه تعالی لم یزل مریداً شائیاً فلیس بموحد» «۲»

.

ومن الواضح أیضاً أنّ هذا الحدیث ناظر إلی الإرادة الفعلیة، التی تقدم بیانها، فعندما ینفی «الإرادة الازلیة» فالمقصود هو نفی مقالة من یقول: إن الإرادة زائدة علی الذات وإنّها أزلیة، فیکون مفهومها تعدد الوجود الازلی إلی اثنین أو أکثر، وهذا المعنی لا یتلائم مع التوحید.

أمّا الإرادة الذاتیة التی هی عین العلم، والعلم بدوره عین الذات المقدّسة فهو عین التوحید لا الشرک «فتأمل جیداً».

۳- ورد فی کتاب الکافی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام جاء فیه: «قال اللّه: یا ابن آدم بمشیئتی کنت أنت الذی تشاء لنفسک ما تشاء وبقوتی أدّیت فرائضی، وبنعمتی قویت علی معصیتی جعلتک سمیعاً بصیراً قویاً ما أصابک من حسنةٍ فمن اللّه، وما أصابک من سیئة فمن نفسک» «۳»

.

وهذا الحدیث ناظر إلی الإرادة التکوینیة للّه‌تعالی المتعلقة باختیار وحریة إرادة الإنسان والتی جعلت الإنسان حاکماً علی مقدراته، غایة الأمر أنّ الإنسان یُسیء الاستفادة منها فی بعض الاحیان، ویستعمل نعم اللّه تعالی فی معصیته، وهذا من عمل الإنسان نفسه، أمّا حسن الاستفادة من نعم اللّه تعالی فهو من توفیق اللّه ومعونته لعبده.

---

(۱) اصول الکافی، ج ۱، ص ۱۰۹ باب الإرادة أنّها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل، ح ۳.

(۲) توحید الصدوق، ص ۳۳۷ باب المشیئة والإرادة، ح ۵.

(۳) اصول الکافی، ج ۱، ص ۱۵۲ باب المشیئة والإرادة، ح ۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۱۹

۴- القدرة الإلهیّة المطلقة

تمهید:

یعتبر موضوع القدرة الإلهیّة من أهم مباحث صفات الکمال والجمال الإلهیّة بعد بحث العلم، تلک القدرة اللامحدودة من کل ناحیة والشاملة لجمیع الممکنات والملازمة للإرادة والمشیئة، فهو سبحانه وتعالی یفعل مایرید ویمحو مایشاء فی أی وقت وزمان.

والوجود بأکمله بمظاهره العظیمة المذهلة وبدقائقه الظریفة، یدلُّ علی القدرة الإلهیّة المطلقة.

وللدخول فی صُلب الموضوع ینبغی طی المراحل التالیة:

۱- دلائل القدرة الإلهیّة المطلقة.

۲- اللّه فاعل ومختار.

۳- رأی الذین أشکلوا علی تعمیم القدرة الإلهیّة.

۴- عدم شمول القدرة الإلهیّة للمستحیلات.

لندخل الآن فی بحث الموضوع الأول ونتمعن خاشعین فی الآیات القرآنیة الشریفة:

۱- «تَبارَکَ الَّذی بِیَدِهِ الْمُلْکُ وَهُوَ عَلی کُلِّ شَیءٍ قَدیرٌ». (الملک/ ۱)

۲- «اللَّهُ الَّذِی خَلَقَ سَبْعَ سَماواتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ یَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَیْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا انَّ اللَّهَ عَلی کُلِّ شَیءٍ قَدیرٌ». (الطلاق/ ۱۲)

۳- «لَهُ مُلْكَ السَّمَاوَاتِوَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيْتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍقَدِيرٌ». (الحديد/ ۲)

۴- «... يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». (الروم/ ۵۴)

۵- «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ».

(المائده/ ۱۲۰)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۰

۶- «اوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى انْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ».

(الاسراء/ ۹۹)

۷- «اوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يُحْىَ الْمَوْتى بَلَى انَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

(الاحقاف/ ۳۳)

۸- «فَلا اقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ». (المعارج/ ۴۰)

۹- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شِيءٍ فِي السَّمَاواتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ انَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً» «۱»

. (فاطر/ ۴۴)

۱۰- «قُلْ انَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ». (آل عمران/ ۷۳)

شرح المفردات:

لفظ «قدير»: من مادّة «قدرة»، بمعنى من يفعل كل مايريده بمقتضى حكمته، لا أقل ولا أكثر من ذلك، لذا فإنّ هذه الصفة لا يوصف بها إلّااللّه تعالى وأساساً إنّ صفة القدرة المطلقة لا يجوز استعمالها إلّافى وصف قدرة اللّه تعالى وكُلّما اسْتُعمِلَتْ مع غيره فإنّها ينبغى أن تكون محدودة ومقيّدة، لأنّ غيره لوكان قادراً من جهة معينة فهو عاجزٌ من جهةٍ اخرى «۲».

---

(۱) يجب الالتفات إلى أنّ صفة (القدير) وردت فى القرآن المجيد (۴۵) مرة تقريبا بالنسبة إلى اللّه تعالى، فتارة بشكل: «إنّ اللّه على كل شىء قدير.»

وتارة: «واللّه على كل شى قدير»،

وتارة: «انك على كل شى قدير»،

وتارة: «وهو على كل شى قدير»،

وتارة: «وان اللّه على نصرهم لقدير»،

وتارة: «وهو على جمعهم إذا يشاء قدير. وتعابير اخرى.

وقد وردت كلمة «القادر» سبع مرات، ويلاحظ أيضاً فى بعض الآيات «قادرون» و «قادرين» بالنسبة إلى اللّه تعالى، وكذلك ورد نفى العجز عن اللّه تعالى والقدرة الواسعة له عز وجل والمأخوذة من مادة «القدرة والعجز والسعة» وهى مذكورة فى معاجم اللغة، وما ذكر من الآيات العشر إنّما هى تعابير جامعة للاقسام الثلاثة.

(۲) مفردات الراغب، مادة (قدر).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۱

وأصل هذه الكلمة مأخوذ من «قَدْر» وهو بمعنى مقياس شىء وكُنهه ونهايته، والسّر فى استعمال هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى هو فعله كل مايريد وبأى مقدار كان، واعطائه عبادَه أى مقدارٍ يريده هو سبحانه «۱».

و «قـدير»: و «قادر» كلاهما صـفتان من صـفات اللّه سـبحانه، وهما مأخوذان فى الأصل من «التقدير» فى الكميّة، و «قادر» اسم فاعل، و «قدير» صفة مشبّهة بالفعل أو صيغة مبالغة، و «المقتدر» أبلغ منها «۲».

«يُعجِزُه»: فى الأصـل من مـادّة «عَجُزْ» «بضم الجيم»، وهى بمعنى ذيل الشـىء و (عَجْز) على وزن «حَبْس» بمعنى التأخُّر عن شـىء معين والوقوع فى متابعـة عمـلٍ ما، وتأتى أيضاً بمعنى القصور والعجز عن أداء عملٍ ما فى مقابل القـدرة على ذلك العمل، و «مُعْجِز» بمعنى الشـخص أو الشـىء الذى يُعجز الأخرين، وإطلاق كلمة «عجوز» على المرأة المُسِنّة إنّما هو لعجزها وقصورها (ومن خلالِ تتبع مصادر اللغة المعروفة كمقاييس اللغة ومفردات الراغب نجد أنّ هذه الكلمة تُستعمل بخصوص النساء المُسِنّات فحسب) «۳».

«واسع»: من مادّة «سـعة»، و «وَسْع» وهى بمعنى السـعة فى مُقابل الضـيق وتُشتعمل بخصوص الأمكنة والحالات والأفعال، لذا يُطلق على القدرة والتمكّن والإيجاد «الوُسعة».

أمّا سـعة اللّه تعالى فهى إما أن تكون نابعة من سـعة رزقه ورحمته التى وسـعت كُلّ شىء، أو من إحاطته تعالى بكل شىءٍ علماً، أو من إحـاطته الوجوديّة بجميع الأشـياء، يعنى كثير العطايـا وكثير العلم أيضـاً. و «الواسع» كمـا ورد تعبير ال «موسع» أيضاً فى القرآن الكريم بخصوص البارى، والذى فسرّه بعض أرباب اللغة أيضاً بمعنى القادر والغنى «۴».

وهنالك تفسير آخر لهذه الكلمة يخرج عن موضوع هذا البحث «۵».

---

(۱) مقاييس اللغة، مادة (قدر).

(۲) لسان العرب، مادة (قدر).

(۳) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ ولسان العرب.

(۴) المصادر السابقة.

(۵) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۷ من سورة الذاريات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۲

جمع الآيات وتفسيرها

إِنَّهُ عَلى كُلِّ شىءٍ قَدير:

بعـد أنّ أشارت الآيـة الاولى إلى الملك الإلهى الأبـدى وتسـلطه تعالى على جميع عالم الوجود، أكـدت على قدرته المطلقة: «تَبارَكَ الَّذِى بِيَدِه الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَديرٌ».

(الملك/ ۱)

«تبارك»: من مادة (برك) وهى فى الأساس بمعنى صـدر البعير، لـذا عنـدما يضع البعير صدره على الأرض يُقال: (برك البعير)، وهذه الكلمة جاءت هنا بمعنى البقاء وعدم الزوال.

ويُطلق على النعمة الدائمة الباقية (النعمة المباركة)، واطلاق هذه الصفة على الذات الإلهيّة المقدّسة لازليتها وأبديتها.

وجملة: «بيده الملك» تُفيد الحصر، أى أنّ الملك ومُقّدرات عالم الوجود بيده تعالى فقط.

وجملـة: (وهو على كل شـىءٍ قـدير) ذات مفهوم واسع وعميق جـدّاً، فهى تعنى أن القـدرة الإلهيّة تشـمل جميع مايمكن أن يكون فى عالم الإمكان.

والجدير بالذكر أنّ هذه الكلمة (شـيء) تُطلق على المعدوم بالقياس لإمكانية وجوده، لذا فقولنا بأنّ اللّه قادر علىالشيءالفلانى المعدوم فعلًا، يعنى قدرته تعالى على إيجاده، وإلّا فالقدرة على المعدوم لا معنى لها.

ويستعمل الإنسان مفهوم القـدرة فى دائرة محدودة خاصّة، نظراً لحياته المحدودة وافقه الفكرى الضيّق ووقوعه فى أسر الظروف التى تطبّع عليهـا، فى حين نجـد أنّ الآيـة أعلاه قـد كسـرت جميع هـذه القيود وبّينت امتـداد وشـمول قـدرة البارى إلى ما وراء هـذه القيود والظروف، والشـى الوحيـد الخارج عن دائرة القـدرة الالهيّة هو الامور المسـتحيلة فقط، وذلك لأنّها بذاتها لا تقبل الوجود، ولا يصـح عادة استعمال لفظة القدرة بشأنها.

وقد تقدم فى البحث اللغوى أنّ كلمة (قدير) ولكونها صفة مشبّهة أو من صيغ المبالغة،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۳

فهى تفيد المبالغة وذات مفهوم أوسع من مفهوم (قادر)، ولعلّ هذا هو السر فى استعمال أغلب الآيات القرآنية لهذه الكلمة عند وصف القدرة الإلهيّة.

لذا فقد تحدثت الآيات التى تلت هذه الآية عن خلق الإنسان، والموت والحياة، وخلق السـموات السـبع، والنجوم، ودفع الشياطين والتى تعتبر كل منها نموذجاً من عجائب عالم الوجود.

الهدف من خلق الكون هو معرفة قدرته سبحانه:

بعـد أن ذكرت الآيـة الثانيـة خلق السـموات والأرض، بيّنت أنّ الهـدف الأصـلى من جميع ذلك هو إطلاع العباد على سـعة قـدرة اللّه وعلمه سبحانه: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا انَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (الطلاق/ ۱۲)

وعليه فإنّ خلق السـموات العريضـة والأرضـين الواسـعة، والتـدبير الدائم والمسـتمر الموجود فيما بينها، يُعتبر بحد ذاته أفضل دليلٍ على عموميّة وشموليّة القدرة الإلهيّة لكل شىء، لأنّ هذه المجموعة المتنوعة تحتوى على كل ألوان الممكنات.

وهناك بحوث كثيرة حول معنى السموات السبع، والأرضين السبع، ذكرناها فى التفسير الأمثل «۱».

بيده الحياة والموت:

أمّـا الآيـة الثالثـة، فعلاوة على طرحهـا مسألـة اختصاص تلك السـموات والأرض بالبارى تعالى، ذكرت اسـتمرار ظاهرتى حياة وموت الموجودات كواحدة من أدلة قدرته سبحانه:

---

(۱) راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۱۲ من سورة الطلاق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۴

«لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (الحديد/ ۲)

إنّ مسألة إيجاد الحياة والموت معقّدة وعجيبة إلى درجة أنّ القدرة عليها تعتبر دليلا "على اطلاق وعموميّة القدرة الإلهيّة.

أجَل، هـذه هى المسألـة التى حارت فيها عقول العلماء، وحاروا فى معرفة القوانين المتحكمة بها لعلهم يتمكّنون من خلق خلية حيّة من الجمـادات وبالإسـتعانة بوسائل معينـة، فى الوقت الـذى نجـد أنّهم توصّـلوا إلى أسـرار معقـدة جـدّاً من قبيل (غزو الفضاء والصـناعات العظيمة وصناعة العقول الألكترونية الدقيقة).

أجَل، فمن حولنا يوجد مئات الألوف بل الملايين من أنواع الكائنات الحيّة التى يَحارُ البشر آلاف السنين فى فهم أسرار تركيب إحداها!

ألا تدل هذه الخلائق العجيبة على أنّ قدرة البارى مطلقة وغير محدوده؟!

تطورات الحياة دليلُ على قدرته تعالى:

تطرقت الآية الرابعة إلى هذه المسألة من طريقٍ آخر، وضمن ذكرها لحالات الإنسان المختلفة، وانتقاله من حالٍ إلى آخر بإذن اللّه تعالى وذكرها لخلق مختلف المخلوقات، فقد بيّنت عموميّة القدرة والعلم الإلهى: «اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». (الروم/ ۵۴)

حقاً، إنّ ملاحظة تطوّرات الجنين ومراحل حياة الإنسان المختلفة ومنحنى قدرته التصاعدى والتنازلى الذى يبدأ من نطفة ويصل فى قمة المنحنى إلى إنسان قوى ومتفكّر وذكى ذى قدرة على تخيّل وإنجاز مسائل كثيرة، ثم ينزل حتّى يصير موجوداً عاجزاً حتى أعجز من الطفل أحياناً من حيث القدرة الجسميّة والفكريّة، وملاحظة جميع هذه التحوّلات السريعة العجيبة، يوحى ويحكى عن قدرته تعالى على كل شىء.

لذا نجد أنّ القرآن الكريم ومن أجل إثبات عموميّة العلم الإلهى والقدرة الإلهيّة، قد دعا

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۵

الإنسان للتفكّر فى السموات العلى تارةً، وللتفكر فى وجوده الشخصى والتحوّلات العظيمة التى تُلازمه منذ انعقاد النطفة إلى حين الموت تارةً أُخرى.

وتعبيره بعبارة (خلقكُم من ضعفٍ) بدرجة من المتانة حتى كأنّ الإنسان مخلوق من مادتى الضعف والعجز! والحق كذلك، فنطفة الإنسان بدرجة من الضعف بحيث تفنى لأدنى سبب.

ولكن أرجع البصر وانظر إلى حقيقة ذلك الموجود القوى الذى ينشأ من هذه النطفة الحقيرة، ويطوى آفاق السماء والأرض، ولا يقنع بحدّ معينٍ من القدرة والتطوّر العلمى والصناعى، وعندما يطوى المرحلة التنازلية من منحنى القدرة، يعود إلى نفس ذلك الضعف البدائى!

إنّ كلَّ هذا يدل على قدرة ذلك الخالق الحكيم اللامحدودة.

المالكية والقدرة:

وفى الآية الخامسة يُلاحظ بعد ذكرها مالكيّة وحاكميّة البارى على السموات والأرض وما فيهنّ، بيّنت أنّه سبحانه على كُلّ شىءٍ قدير: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (المائدة/ ۱۲۰)

وبديهى أنّ سبب هذه الحاكميّة والمالكية هو خالقيته تعالى، وقطعاً أنّ من خلق جميع هذه المخلوقات المتنوّعة هو على كُلّ شىء قدير، وبالحقيقة أنّ صدر الآية دليلٌ على ذيلها.

ويحتمل أن يكون هذا التعبير لقطع أمل المشركين بالأصنام وهدايتهم إلى البارى، ليعلموا أنّ مقدَّرات جميع الأمور ومقاليدها بيده تعالى، أو لنفى ودحض عقيدة المسيحيين فى تأليه عيسى عليه السلام، والتى ورد ذكرها فى الآيات السابقة لهذه الآية من نفس السورة.

وعلى أيّة حال فهو أساس لقلع جذور الشرك بجميع أشكاله.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۶

ويجدر الإلتفات إلى أنّ كلمة (مِلك)- بكسر الميم- تعنى سلطة الإنسان على شيء معين، و (مُلك)- بضم الميم- تعنى التحكُّم بنظام اجتماعى معين، وبتعبيرٍ آخر فالمصطلح الأول له حالة فردية والثانى له حالة اجتماعية وهو نفس ما يَرِدُ فى تعابيرنا اليومية عندما نعبّر عنه ب (المالك) و (الحاكم).

قدرته تعالى على اعادة الخَلق:

أشارت الآية السادسة إلى مسألة (المعاد) وقدرة البارى على إحياء الموتى فى الآخرة، لتكون ردّاً على من شكّكوا فى المعاد الجسمانى وورد ذكرهم فى الآية السابقة لهذه الآية فى قوله تعالى: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُم كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَامَاً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً» فأجابهم القرآن فى قوله تعالى: «اوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى انْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». (الاسراء/ ۹۸- ۹۹)

جملة (أو لم يَرَوا) بمعنى (أولم يعلموا؟) باعتبار أنّ المقصود من الرؤية المذكورة فيها هو الرؤية القلبية، ومصدر هذا العلم والإطلاع هو نفس تلك القاعدة العقلية التى تقول:

(حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لايجوز واحد)، أى أنّ الموضوعات المتشابهة لها حكم واحد دائماً، فإن كان أحدها ممكناً فانّه يسرى على سائر الموضوعات فتكون ممكنة جميعاً، وإن كان محالًا فالجميع محال.

قدرته تعالى على إحياء الموتى:

بعد أن أشارت الآية السابعة إلى قدرة اللّه تعالى على إحياء الموتى فى عالم الآخرة، ذكرت هذا المعنى بتعبير آخر حيث قال تعالى: «اوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يُحْىَ الْمَوْتى بَلَى انَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ» «۱». (الأحقاف/ ۳۳)

---

(۱) «يعى» من مادة «عى» بمعنى العجز عن أداء عمل ما، وتطلق هذه اللفظة على حالة العجز عن الكلام أيضاً.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۷

أكدت هذه الآية أيضاً على أنّ خلق السموات والأرض بعظمتها وتنوّعها دليلٌ على قدرة البارى على إحياء الموتى من جهة، وقدرته على كل شىء من جهةٍ اخرى، لأنّ جميع ما يمكننا تصوّره إنما هى نماذج فى عالم الوجود. والموت والحياة، وكذلك الكائنات المجهرية والمخلوقات العظيمة جدّاً بكل أبعادها ومن كل شكلٍ ولونٍ ونوع وجنس، فخلقها من قبل البارى‌تعالى، يُعد أفضل دليل على شمولية وهيمنة القدرة الإلهيّة.

قدرته تعالى على تبديل الأقوام:

ذكرت الآية الثامنة مسألة القدرة الإلهيّة بقَسَم إلهى عميق المغزى، قال تعالى: «فَلَا اقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ».

(المعارج/ ۴۰)

قد يُشكِل ذوى الملاحظة السطحية ويقولون: كيف يصح إثبات القدرة الإلهيّة بقَسمِهِ سبحانه؟ ويتضح الجواب عن هذا السؤال من محتوى القسَم (ربّ المشارق والمغارب)، لأن (المشارق والمغارب) إشارة غنيّة جدّاً إلى خلق العالم العظيم بنظامه الدقيق، ففى كلّ يوم تشرق الشمس من مشرق جديد وتغرب فى مغربٍ جديد، واستمرار هذه العملية على مدى ملايين السنين، وخلق الشمس بعظمتها هذه، وخلق الكرة الأرضية بكل أسرارها، والنظام الدقيق الذى يتحكم فى حركتهما، لَخَيْر دليلٍ على شمول القدرة الإلهيّة لكُلّ شىء، ومنها تبديل جماعة من الكفار المعاندين بأُناسٍ خيرٍ منهم.

هذا فيما إذا فسّرنا القَسَم الوارد فى هذه الآية بأنّهُ يتعلّق بمشارق الأرض ومغاربها طبعاً، أمّا إذا فسّرناه بمشارق ومغارب الكرات والمنظومات الشمسيّة الفضائية، لاتضح سعة معناه بصورة أفضل.

والنكتة اللطيفة فى أنّ اللّه تعالى يُقسم نيابة عنهم برب المشارق والمغارب بأنّه قادر على تبديل الأقوام بآخرين خيرٍ منهم، هى التنبيه إلى أنّ القادر على إخفاء هذه الشمس العظيمة فى افق المغرب وإظهارها فى اليوم التالى من مشرقٍ جديد، لَقادر على تبديل هؤلاء القوم بخيرٍ منهم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۸

وما كان اللّه ليعجزه من شىء:

طرحت الآية التاسعة مسألة عموميّة القدرة الإلهيّة فى بُعدين:

الأول: نفى كل ألوان العجز عنه سبحانه، والثانى: قدرته على كُلّ شىءليكون المعاندون على بصيرةٍ من أمرهم من هذه الناحية، قال تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شِيءٍ فى السَّمَاوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ انَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً». (فاطر/ ۴۴)

وفى هذه الآية لا نجد استدلالًا صريحاً على قدرة اللّه تعالى فى أىّ من جملتى هذه الآية، لكن الإشارة الإجمالية إلى السموات والأرض والنظام الدقيق الموجود فيهنّ، بمثابة دليل على علم اللّه سبحانه وقدرته المطلقة.

والهدف من ذكر هذا الموضوع فى الآية الشريفة وبقرينة صدر الآية، هو تحذير المشركين، والمعاندين والظالمين، وإعلامهم بأن سلب قوتهم وقدرتهم لَيسير جدّاً على اللّه تعالى كما حصل فى الأمم السابقة.

وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن منشأ العجز عن شىءٍ إمّا الجهل الذى يسلب من الشخص القدرة على مواجهة الحوادث، وإمّا الضعف وعدم القدرة، أَما العالم القادر فلا يغفل عن الحوادث ولا يعجز عن مواجهتها.

هو الوهاب القدير:

وبالتالى فقد طرحت الآية العاشرة والأخيرة من بحثنا نفس هذا المعنى بشكل آخر، وبدون أن تذكر مصطلح القدرة أو تنفى العجز عن اللّه تعالى، قال سبحانه: «قُلْ انَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (آل عمران/ ۷۳)

مع أنّ أكثر المفسّرين قالوا: إنّ كلمة (واسع) هنا تُشير إلى سعة الرحمة الإلهيّة، أو سعة قدرته، أو كرمه ووجوده سبحانه، ولكن من المسلَّم أن تفسيراً كهذا يحتاج إلى تقدير شىءمحذوف، فى حين أنّ الحذف والتقدير على خلاف القاعدة ولا يصح بدون قرينة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۲۹

فظاهر الآية يوحى أنّها تتحدث عن سعة وجود البارى تعالى، وطبعاً أنّ سعة وجوده تضمُّ كافّة هذه المعانى والمفاهيم، من قدرته

المطلقه ورحمته الواسعة وكرمه اللامحدود.

لذا قال الفخر الرازى فى تفسيره: لأنّ كونه واسعاً يدل على كمال القدرة، وكونه عليماً على كمال العلم، فيصح منه لمكان القدرة أن يتفضل على أى عبد شاء بأى تفضل شاء، ويصح منه لمكان كمال العلم أن لا يكون شىء من أفعاله إلّاعلى وجه الحكمة والصواب «۱».

نتيجة البحث:

يُمكن الاستنتاج من مجموع الآيات السابقة أنّ القدرة الإلهيّة لا تعرف أىّ‌لونٍ من التحديد والتحجيم، وخلق السموات والأرض وأنواع الموجودات وخصوصاً مسألة الحياة والموت، خيرُ دليلٍ على هذا المفهوم.

والغاية من تأكيد الآيات القرآنية على هذه المسألة هى إثبات المعاد والحياة بعد الموت تارةً، ولتحذير المغرورين الأنانيين تارةً اخرى، وكذلك لزرع الاطمئنان فى قلوب الصالحين والمؤمنين ليسألوه حلّ مشاكلهم ويلتجئوا إليه فى امورهم، ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره.

توضيح

الأدلة على القدرة الإلهيّة المطلقة:

هنالك أدلة مختلفة لاثبات هذه المسألة بعضها علمية، والاخرى فلسفيّة:

۱- الدليل العلمى: (والمقصود من العلم هنا هو العلوم التجريبية): عندما نجلس فى بيتنا ونفكّر فى محيطنا المحدود الضيّق فقط، نجد أنّ الدنيا صغيرة وبسيطة. ولكن لو خرجنا من هذه الدائرة الضيّقة وذهبنا إلى الغابات والمزارع والحقول، وقمم الجبال

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۸، ص ۱۰۵.

الشاهقة، وأعماق البحار الواسعة، ولو طرنا بأجنحة الخيال وتصورنا عظمة الفضاء والكواكب السيارة، ثم نزلنا وتوغّلنا فى أعماق الذرّة وأسرارها لَتجسَّمت لنا عظمة الوجود العجيب.

فهنالك آلاف الأنواع من النباتات المختلفة فى التركيب بصورة تامّة ولها خواص متنوعة، ابتداءً من النباتات المجهريّة السابحة فى أمواج البحار، وانتهاءً بالأشجار التى يبلغ طولها خمسين متراً أو أكثر! ومن قصب السُّكر الحلو وحتى الحنظل المُر، ومن العقاقير الحياتية المودعة فى أوراقها وأزهارها وجذورها إلى أنواع السموم القاتلة.

وكذلك ملايين الأنواع من الحيوانات والحشرات والأحياء التى تبلغ من الصِغر أحياناً بحيث لا يمكن رؤيتها بالعين المجرّدة، ومن الكبر أحياناً اخرى بحيث يتعدى طول بعضها الثلاثين متراً (كبعض الحيتان التى‌تعتبر اكبر الحيوانات على الأرض).

وقد بلغ وزن القلب لدى بعضها ألف كيلو غرام! فى حين أنّه أصغر من حبّة الحمّص فى البعض الآخر.

وبعضها بدرجة من الخفّة بحيث تحلّق فى جو السماء بسرعة، وبعضها الآخر أقوى من الفولاذ بحيث تتحمل ضغط الماء العظيم فى أعماق البحار.

وهنالك نجوم متفاوتة مع بعضها من حيث الكبر والصغر، والبعد والقرب، والوزن وسرعة الحركة وبقية الصفات الاخرى، وكل واحدة ذات عالم خاص.

وكذلك تركيب الخلايا والذرّات ونظامها العجيب المذهل، فكل واحدة منها تُجسّمُ لنا عالماً جديداً.

والألطف من جميع ذلك هو أنّ جميع هذه الموجودات العجيبة الموجودة فى عالم الوجود مركّبة من أصلٍ واحد، والكائنات الحيّة مركّبة جميعها من الخلايا الصغيرة، وكل عالم المادة مركب من وحدات صغيرة تُدعى الذرّة!

إنّ هذا التنوع البسيط والمحكَم فى نفس الوقت الذى نراه فى الكتاب التكوينى يشبه بالضبط ذلك النوع الملحوظ فى الكتاب التدوينى أى (القرآن الكريم)، فكل تلك

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۱

المحتويات والمعارف الإلهيّة العظيمة مصبوبة فى قالب ألفاظٍ مركّبة من هذه الحروف الأبجدّية البسيطة!

ومن مطالعة مجموع هذه المسائل، نتوصل إلى أن مُبدىعالم الوجود ذو قدرة لامحدودة، ولا يعجزه شىء فى السموات ولا فى الأرض.

۲- برهان الوجوب والامكان (برهان فلسفى): عرفنا فى بحث إثبات وجود اللَّه أنّ الوجود لا يتعدى إحدى حالتَين: إما مستقلّ بالذات ويُدعى (واجب الوجود)، أو محتاج إلى غيره ويدعى (ممكن الوجود).

وكذلك ثبت فى بحث التوحيد ووحدة الذات الإلهيّة المقدّسة بأنّ (واجب الوجود) فى هذا العالم واحد لا أكثر، وكل ما سواه (ممكن الوجود)، وجميع الممكنات محتاجة إليه تعالى لا فى بداية إيجادها فحسب، بل فى بقائها واستمرارها. وهذا بحد ذاته مظهر وبرهان على قدرة اللَّه على كل شىء (فتأمل جيداً).

۳- برهان سعة الوجود (برهان فلسفى): من المؤكد أنّ سبب عجزنا عن إنجاز عملٍ معين هو نقصنا، فمثلا لو عجزنا عن زراعة أرض معينة فالسبب فى ذلك إمّا لكون مساحة الأرض أكبر من قدرتنا وطاقاتنا، أو لعدم امتلاكنا الوسائل اللازمة لزراعتها، أو لأنّ الأرض سبخة وليس بمقدورنا تحويلها إلى أرض زراعيّة.

لذا فلو كانت قدرتنا على الزراعة مطلقة، وكانت الأرض بالنسبة لنا صالحة للزراعة مهما كانت مساحتها، وكنّا فى غنىً عن الوسائل الزراعية لاستطعنا زراعة أى أرضٍ وبدون استثناء.

لذا فأى مشكلة تحدث فى طريقنا هى فى الواقع تنبع من محدودية وجودنا.

اذن، كيف يُمكن أن يعجز الوجود المطلق من كل ناحية عن شىء معيّن!؟ وبتعبيرٍ آ خر إنّ اللَّه سبحانه حاضر فى كل مكان وبيده مقدّرات جميع الأمور، لذا فهو قادر على ازالة كافّة الموانع، وهذا دليل قدرته على كل شىء.

۴- اللَّه قادر مختار: كما أشرنا سابقاً إلى أنّ المقصود بالقدرة الإلهيّة هى القدرة المقرونة مع الاختيار.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۲

وقد استدل الفلاسفة وعلماء الكلام على كون اللَّه تعالى فاعلًا مختاراً بأنّ الفاعل على نوعين: إمّا (مخيّر)، وإمّا (مُسيَّر) كتأثير الشمس فى المنظومة الشمسيّة وموجوداتها.

فلو قلنا: إنّ خالق العالم فاعل مسيّر، لوجب التسليم بأحد الأمرين: إمّا بأنّ الوجود قديم، وإمّا بأنّ الذات الإلهيّة حادثة، لأنّ الفاعل المسيَّر لا ينفصل عن فعله أبداً.

أمّا كون هذا العالم أزلى فغير ممكن، لأننا عرفنا دلائل حدوث العالم فى بحث وجود اللَّه سبحانه.

والقول بحدوث الذات الإلهيّة المقدّسة يستلزم إنكار وجوده تعالى، لأنّها لو كانت حادثة لاحتاجت إلى علّة، إذن فهو ليس بواجب الوجود والحالة هذه.

وبتعبير آخر لو كانت خالقية البارى كأشعة الشمس لاستلزم أن يكون هذا الكون قديماً وازلياً، لأنّ إرسال الشمس لأشعتها لا إرادىّ وهو ملازم لوجودها دائماً وأبداً.

لذا نستنتج بأنّ اللّه تعالى فاعل مختار، وأنّ ذاته المقدّسة أزلية وفعله حادث، وكلما أراد شيئاً يتحقق بدون فاصلة زمنية.

سؤال: من المعلوم أنّ كلمة الفاعل المختار تعنى المريد، ونعلم أنّ الإرادة كيفيّة نفسانية تَعرض على صاحبها، وهذا المفهوم يتعارض مع حقيقة ذات البارى تعالى، لأنّ ذاته لا تقع محلًا للحوادث، فكيف نفسّر إرادة اللّه تعالى؟

الجواب: بالرجوع إلى ما ذكرناه فى بحث الإرادة الإلهيّة (فى ذيل صفة علم اللّه تعالى يتضح جواب هذا السؤال، وهو عدم إمكانية تطبيق ومقايسة مفهوم الإرادة الذى نجده فى أنفسنا مع مفهومها بالنسبة للذات الإلهيّة، كما هو الحال فى صفة العلم، فالعلم الحصولى الموجود فينا والحادث بالنسبة لنا لا معنى له أبداً بخصوص الذات الإلهيّة المقدّسة.

والإرادة الإلهيّة الذاتية- كما شرحنا ذلك سابقاً تتشعَّب من علمه سبحانه، وهى عبارة عن (علمه بالنظام التكوينى الأحسن) الذى هو علّة خلق الأشياء والأحداث الواقعة فى الأزمنة المختلفة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۳

إذن إرادته أزليّة وآثارها تدريجيّة (تمعّن بدقة).

ولزيادة الإطلاع حول هذا الموضوع، وحول التفاوت الموجود بين الإرادة الإلهيّة «الذاتية» و «الفعلية» راجع بحث الإرادة فى نفس هذا الجزء.

۵- المخالفون لشمول القدرة الإلهيّة: فى نفس الوقت الذى أقرّ بعض الفلاسفة والمتكلمين بالقدرة الإلهيّة بدون أى مناقشة، نجدهم قد توقفوا فى مسألة عموميّتها- بسبب مواجهتهم لبعض الإشكالات التى عجزوا عن حلّها، ومن جملة هؤلاء:

۱- الفلاسفة والمتكلمين المجوس: ومن المعلوم أنهم قسّموا جميع موجودات العالم إلى مجموعتين: (الخير) و (الشر)، واعتقدوا بأنّ لكل واحدة منها خالقاً خاصاً، فخالق الخير لا يُمكن أن يخلق الشّر، والعكس صحيح، لذا فقد اعتقدوا بتعدُّد المبدى: إله الخير (يزدان)، وإله الشّر (أهريمن)، بَيدَ أن خطأهم الفادح ناجم من تقسيم الموجودات منذ البداية إلى مجموعتى الخير والشر، لأنّ التحقيقات الدقيقة تُشير إلى عدم وجود (الشر المطلق) فى عالم الوجود، بل مانسمّيه نحن بالشر قد يكون ذا جنبة عدميّة كالفقر والجهل، فالأول بمعنى عدم المال والثروة، والثانى بمعنى عدم العلم، ونحن نعلم بأنّ العدم ليس شيئاً يحتاج إلى خالق.

وأمّا ما كان ذا جنبة نسبية كلسعة الحشرات التى تعتبر شرّاً بالنسبة للشخص الملسوع فهى فى الحقيقة وسيلة دفاعية بالنسبة للحشرات اللاسعة، وتعتبر خيراً لأنّها وسيلة لتأمين بقائها.

علاوة على أنّ الكثير من الأمور الوجوديّة نعتبرها شرّاً بسبب جهلنا لأسرارها، لذا وبعد حصول التطور العلمى واكتشاف أسرارها نُقرُّ بضرورتها، كالعواصف الثلجية الباردة التى تقضى على الكثير من الآفات النباتية، أو الحّر الشديد الذى يؤدّى إلى نمو أنواع النباتات وتبخُّر كمياتٍ كبيرة من مياه البحار الذى يؤدّى بالتالى إلى هطول الأمطار المفيدة وما شاكل ذلك. لذا فعندما ننزع نظارات الشّر عن أنظارنا، وننظر إلى الوجود بنظرة خير ينتفى موضوع هذه العقيدة الثنوية، وهناك توضيحات أوسع حول هذا الموضوع سنطرحها فى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۴

بحث العدل الإلهى إن شاء اللّه تعالى

۲- المفوّضة: قالت هذه الجماعة: إنّ اللّه سبحانه ليست له قدرة على أعمالنا، أو بعبارة اخرى: إنّ أفعال الإنسان خارجة عن دائرة قدرته تعالى، وإلّا لزم (الجبر)، لأنّ أفعال الإنسان لو كانت فى دائرة القدرة الإلهيّة لحصل التضاد، حيث يحتمل أن يريد اللّه تعالى فعلًا معيناً، ويريد عبادُهُ غير ذلك!.

وخطأ هذه الجماعة ينشأ من اعتقادهم بأنّ قدرة اللّه تعالى على أفعالنا تتعارض مع قدرتنا على أساس أنّهما فى عرض واحد، غافلين

عن أن هاتين القدرتين تقعان فى طول واحد.

توضيح ذلك: إنّ اللَّه تعالى قد خلق البشر ومنحهم الحريّة والقدرة على اتخاذ القرار، وقادر على سلبها منهم متى شاء، لذا فانّه سبحانه هو الذى أراد أن يكونوا فاعلين مختارين، وعليه فإنّ أفعالهم غير خارجة عن دائرة قدرته، لأنّ هذه الحريّة من عطائه ومتطابقة مع إرادته ومشيئته سبحانه.

وسيأتى توضيح أكثر حول هذا الموضوع فى بحث الجبر والتفويض.

۳- إعتقد بعض أهل السُّنة: (جماعة النَظّام) بأنّ اللَّه تعالى غير قادر على فعل القبيح، لأنّ الأفعال القبيحة إمّا أن تكون بسبب الجهل، وإمّا بسبب الحاجات الكاذبة، وبما أنّ اللَّه تعالى منزّه عن الجهل والحاجة، لذا فهو غير قادر على فعل القبيح أبداً!

والخطأ الذى وقعت فيه هذه الجماعة ينشأ من عدم تمييزهم بين (الإمكان الذاتى) و (الإمكان الوقوعى).

توضيح ذلك: إنّ بعض الأمور مستحيلة ذاتاً كاجتماع الضدين، أو النقيضين، وهو الجمع بين الوجود والعدم فى حالة واحدة، ويُطلق على هذا النوع بالمستحيل الذاتى.

أمّا الأمور غير المستحيلة ذاتاً لكنها لا تصدر من حكيمٍ كالبارى تعالى مثل الظلم والفساد والأفعال القبيحة الأُخرى، فيطلق عليها بالمستحيل الوقوعى.

ومن المسلّم به هو أنّ اللَّه تعالى قادر على الظلم لكن حكمته تمنعه من ذلك.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۵

وقد يصدق هذا الكلام بخصوصنا أحياناً، فنحن نستطيع أن نلقى بأنفسنا فى النار، أو نضع جذوة من النار فى أفواهنا، أو عيوننا، ولسنا بعاجزين عن القيام بهذا الفعل، لكننا لانقوم به أبداً، لأنّ عقولنا لا تسمح لنا بمثل ذلك، فهذا مستحيل وقوعى لا ذاتى.

۴- اعتقد بعض الفلاسفة: بأنّ الذات الإلهيّة المقدّسة، ولكونها واحدة من كل ناحية ولا تقبل الكثرة والتعدُّد، فلا يصدر منها سوى مخلوق مجرّد واحد رفيع جدّاً سموه «العقل الأول»، واستندوا فى معتقدهم هذا على القاعدة المعروفة التى تقول «الواحِدُ لا يصدُر منه إلّا الواحد».

لذا فهم يقولون: إنّ المخلوق الإلهى الوحيد هو ذلك الموجود المجرّد الأول، لذا ومن حيث إنّ «العقل الأول» ذو جهات متعددة (له وجود من جهة، وماهيّة من جهةٍ اخرى، ذاتاً «ممكن الوجود» من جهة، و «واجب الوجود» بالعرض من جهة اخرى)، فبسبب جهات الكثرة هذه، نشأت منه معلولات مختلفة، لذا فمنشأ الكثرة فى عالم الوجود هى الكثرة الموجودة فى العقل الأول والمراتب البعدية حاصلة منه.

وقد اعتمدوا لإثبات القاعدة أعلاه على مسألة «السنخيّة بين العلّة والمعلول»، وقالوا:

لولا ضرورة السنخيّة بين العلّة والمعلول، لأمكن أن يكون كل موجودٍ علّةً لأىمعلول، لكن لزوم السنخيّة يحول دون هذا الأمر، وعندما نقر بوجوب السنخيّة بين العلّة والمعلول، يجب علينا أن نقر بأنّ العلّة الواحدة من كل ناحية تستلزم أن لا يكون لها أكثر من معلولٍ واحد. (تأمّل جيّداً) «۱».

ويُمكن الرد على هؤلاء بعّدة طرق:

أ) على فرض صحة هذا الاستدلال، فإنّه لا يُفهم منه محدوديّة القدرة الإلهيّة، بل هو على كُلّ شىء قدير، لكن قدرته بالنسبة «للعقل الأول» بدون واسطة، وبالنسبة للموجودات الاخرى مع وجود واسطة، وكلاهما يعتبران فى حدود المقدور، فما الفرق بين أن يُباشر الإنسان عملًا معيناً بيده، أو بوسيلة وأداة معينة من صنعه؟ فالفعل فعله فى كلتا الحالتين.

---

(۱) تلخيص من نهاية الحكمة، ص ۱۶۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۶

ب) ما قيل بخصوص قاعدة (الواحد لا يصدر منه إلّاالواحد) لا يصح تطبيقه على الفاعل المختار بنظر بعض المحققين.

لـذا فقـد طرح المرحوم «العلّامة الحُلى رحمه الله» هذه المسألة فى «كشف المراد» بشـكل أمر بديهى وقال: «المؤثّر إن كان مختاراً جاز أن يتكثّر أثره مع وحدته، وإن كان موجباً فذهب الأكثر إلى استحالة تكثُّر معلوله» «۱».

وعليه فقد جعل (الفاعل الموجَب) مركز بحثه لا (الفاعل المختار)، ثم نقل استدلال القائلين بوحدة الأثر فى الفاعل الموجب ورَدّهُ «۲».

والحقيقة أنّه لا يوجد أى دليل على شمول القاعدة المذكورة للفاعل المختار، فهو مجرّد ادعاء محض.

ج) بغض النظر عن جميع ذلك فإنّ قانون «السـنخيّة بين العلّة والمعلول» محل إشـكال حتّى فى غير الفاعل المختار، لأنّه لو كان المراد من السـنخية هو السـنّخيّة والتشـابه من جميع الجهـات، فهو مسـتحيل التحقق بين «واجب الوجود» و «ممكن الوجود»، فالممكنات مهما تكن فهى متباينة مع واجب الوجود فى جهات كثيرة، فلو اشترطنا السنخيّة التامّة وفى جميع الجهات، فكيف يمكن أن يخلق وجود غير مادى موجودات ماديّة؟

ولو كـان المراد منهـا السـنخيّة الإجماليّـة، فهى متحققـة بين الخالق والموجودات المتكثّرة والمتعـددة، لأنّها جميعاً تشترك فى الوجود والكمال النوعى الذى يُعَدُّ قطرةً من بحر كمال اللّه اللامحدود.

د) علاوة على جميع مـا ذكرنـا يُمكن القـول: إنّ الكـون نسـخ واحـدٌ لا- أكـثر على الرغم من احتوائه ظـاهراً على موجودات متعـددة ومتكثّرة، وبتعبيرٍ آخر، فـإنّ عـالم التكوين كبحر عظيم لامحـدود توجـد على سـطحه أمواج، وهـذه الأـمواج والتعرجـات بمثابـة تلك الموجودات المتعددة والمتكثّرة، والمقصود هنا عالم الوجود، لا الذات الإلهيّة المقدّسة.

---

(۱) كشف المراد، ص ۸۴.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۷

وباختصـار فإننا لو أمعنا النظر لعلمنا بأنّ مجموع عالم الوجود موجود واحـد متصل ومترابط، وعلى الرغم من كل تنوعاته وكثرة قوانينه المؤثرة فيه فهو واحد، وهذا الموجود الواحد يفيض من الوجود الإلهى الواحد، وهذا المخلوق الواحد له خالق واحد.

والبعض الآخر الـذين شـكّكوا فى شـمول القدرة الإلهيّة قالوا: لو افترضـنا أنّ اللّه تعالى على كل شـىء قدير، لواجهنا تعارضاً فى بعض الحالات لا نستطيع حلّه.

فمثلًا تسـاءَل البعض: هـل يسـتطيع اللّه تعـالى أن يخلق موجوداً مثله!؟ فـإن قلتم: نعم، لكان تعـدد الآلهـة ممكناً! وإن قلتم: لا، فقـدرته محدودة!.

أو يتساءل: هل يقـدر اللّه تعالى أن يُدخل جميع هذا العالم الواسع، وبجميع كراته وكواكبه فى بيضة، من غير أن يصـغر العالم أو تكبرُ البيضة؟! فإن قلتم: بلى، فغير مقبول، وإن قلتم: لا، فقد أقررتم بعجزه- سبحانه-.

أو: هل يستطيع اللّه تعالى أن يخلق موجوداً لا يقدر على إفنائه!؟ أيّما الطريقين انتخبتم فقد أقررتم بعجزه، والكثير من هذه الأسئلة.

إنّ مصـدر اشـتباه هؤلاء هو عدم إلمامهم بالمسائل الفلسـفية، وغفلتهم عن هذه الحقيقة الواضـحة، وهو أنّه عندما يدور الحديث حول «القدرة»، فمعناه القدرة على الامور الممكنة، لأنّ القدرة لا تشمل المستحيلات لأنّها لا شىء.

توضـيح ذلك: إنّ معنى تساؤلنا عن اقتدار اللّه تعالى على شىء معين أحياناً، هو كون ذلك الشى من الممكنات، وقصدنا إكساؤه حُلة الوجود بالقدرة الإلهيّة، أمّا لو كان ذلك الشى مستحيلًا ذاتاً فإن تساؤلنا عن إمكانية إيجاده غير صحيح بتاتاً، ولا معنى له أبداً.

وهذا مايُسمَّى بالسؤال المتناقض.

كأن يكون لدينا عشرون برتقالة ونريد توزيعها على أربعين شخصاً، بحيث يحصل كل واحدٍ منهم على واحدة!؟ فهل يُمكن ذلك؟ فالسؤال المطروح متناقض بحدّ ذاته وغير صحيح، لأنّ قولنا عشرون برتقالة يعنى أنّها ليست أربعيناً، وقولنا: إنّ أربعين شخصاً يحصل كل واحدٍ منهم على برتقالة، معناه وجود

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۸

أربعين برتقالة، ممّا يلزم تحقق العددين عشرين وأربعين فى نفس الكمية من البرتقال وفى آنٍ واحد! وبديهى أنّه لا يوجد إنسان عاقل يتفوّه بمثل هذا الكلام.

وبعد التحقيق فى جميع الأسئلة التى ذكرناها يتضح أنّها من هذا القبيل، أى أنّها متناقضة وغير مقبولة، لذا ينتفى جوابها.

فمثلًا عندما نقول: هل يستطيع اللَّه تعالى أن يخلق إلهاً آخر مثله؟ معناه أنّ ذلك الإله غير مخلوق، فيصبح السؤال متناقضاً، لأنّه سؤال عن خلق شىء لا يُمكن أن يكون مخلوقاً، وبمجرّد أن يخلق اللَّه سبحانه شيئاً فهو مخلوق، ولا يمكن أن يكون إلهاً.

وهكذا عندما يُقال: هل يستطيع اللَّه تعالى أن يُدخل الدنيا فى مكان صغير من غير أن تصغر الدنيا أو يكبر ذلك المكان، فمعناه أن يكون العالم صغيراً وكبيراً جدّاً فى آنٍ واحد، وهذا شىء متناقض.

واللطيف أنّ رجُلًا سأل أمير المؤمنين عليه السلام نفس هذا السؤال: «هل يقدر ربُّك أن يُدخل الدُّنيا فى بيضة من غير أن تصُغر أو تكبر البيضة»؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى لا يُنسب إلى العجز والذى سألتنى لا يكون» «۱».

وما نجده فى الرواية المنقولة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام عندما يجيب على هذا السؤال فيقول عليه السلام: «نعم وقد جعلها فى عينك وهى أقلُّ من البيضة» «۲»

، فهو فى الحقيقة جواب إقناعىّ، وذلك لأنّ السائل لم يكن ذا قدرةٍ على تحليل مثل هذه المسائل، وقد أجابه الإمام عليه السلام بهذه الطريقة مراعاةً لحاله من الفهم، وإلّا فالجواب الأصلى على هذا السؤال هو نفس ماورد فى كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴، ص ۱۴۳، ح ۱۰.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۳۹

۳ و ۴- أزليّة وأبديّة اللَّه تعالى

تمهيد:

يعتقد جميع من يؤمن بوجود اللَّه تعالى بأزليته وأبديته سبحانه، وهاتان الصفتان عين بعضهما، لأنّ الوجود الأزلى لا يمكن أن يكون ذا عمرٍ وزمانٍ محدود، وإلّا لما كان أزليّاً، وعندما يكون الوجود غير محدد بزمان فذلك يعنى أبديته أيضاً.

وبتعبيرٍ آخر، إنّ جميع الأدلّة الموجودة على إثبات وجود اللَّه تعالى تدل بصورة مباشرة أو غير مباشرة على كونه سبحانه وتعالى واجب الوجود.

وبديهى أنّ واجب الوجود الذى وجوده عين ذاته لابدّ وأن يكون أزلياً وأبدياً، فالممكنات هى الحادثة، أى أنّها لم تكن فى زمان معين ثم وُجدت وستفنى بعد مدّة، وواجب الوجود منزّه عن الحدوث كليّاً.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن الكريم لنتأمل فى الآيات المباركة التالية ونصغى إليها بأسماع قلوبنا:

۱- «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ۳)

۲- «كُلَّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* ويَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ». (الرحمن/ ۲۶- ۲۷)

۳- «وَاللَّهُ خَيْرٌ وَابْقَى . (طه/ ۷۳)

۴- «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ الَّا وَجْهَهُ». (القصص/ ۸۸)

جمع الآيات وتفسيرها

يُلاحَظ فى بداية سورة الحديد «آيات ستّ» اجتمعت فيها الكثير من الصفات الإلهيّة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۰

وبتعابير غنيّة وعميقة، لذا فقد ورد فى بعض الأحاديث الإسلامية المنقولة عن الإمام على بن الحسين عليه السلام، أنَّهُ سُئِلَ عن التوحيد فقال: «إنّ اللَّه عزّ وجلّ علم أنّه يكون فى آخر الزمان أقوام متعمقون، فأنزل اللَّه تعالى: سورة «قل هواللَّه أحد»، والآيات من سورة الحديد إلى قوله: «وهو عليم بذات الصدور» «۱»

.

والآية التى يدور بحثنا حولها هى إحدى الآيات الست المذكورة.

قال تعالى: «هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْباطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ».

اختلف المفسرون حول المقصود من (الأول) و (الآخر)، ولكن تعابيرهم قريبة من بعضها:

فقد قال البعض: هو الأول من غير ابتداء، والآخر من غير انتهاء.

وقال البعض الآخر: هو الأول فى التكوين، والآخر فى اعطاء الرزق.

وقال جماعة: هو أوّلُ الأولين، وآخر الآخرين.

وقال آخرون: هو الأول بأزليته، والآخر بأبديته.

وقال البعض الآخر: هو الأول بالخير والإحسان، والآخر بالعفو والمغفرة «۲».

ولكن على أيّة حال فإنّ مفهوم الآية واضح، والمقصود من الأول هو كونه أزلياً، ومن الآخر هو كونه أبديّاً، لذا فقد ورد فى نهج البلاغة: «لم يزل أوّلًا قبل الأشياء بلا أوليّة، وآخراً بعد الأشياء بلا نهاية» «۳».

وكذلك ورد فى خطبة الأشباح: «الأول الذى لم يكن له قبلُ فيكون شىء قبلهُ والآخر الذى ليس له بَعدُ فيكون شىء بعدَهُ» «۴».

وفى حديثٍ نبوى أنّه صلى الله عليه و آله قال: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء، وأنت الآخر فليس بعدك شىء» «۵».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۹۱ باب النسبة، ح ۳.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۲۳۰.

(۳) نهج البلاغة؛ عن تفسير نور الثقلَين، ج ۵، ص ۲۳۷. ويحتمل أن يكون فى بعض النسخ الخطية.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱.

(۵) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۰۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۱

وقال بعض المفسّرين: إنّ (الأول) و (الآخر) يشمل كل زمان، و (الظاهر) و (الباطن) يشمل جميع حقيقة المكان، لذا فالآية المذكورة كناية عن حضور اللَّه تعالى الدائمى فى كل مكانٍ وزمان «۱».

وواضح أن تعبير «الزمان» وما شاكل فى العبارات المذكورة هو لضيق البيان، وإلّا فاللَّه سبحانه فوق الزمان والمكان.

وفى الآيـة الثانيـة وبالرغم من أنّ الحـديث عن فناء سـكّان الأرض، لكنّها بالحقيقة لاتنحصـر بأهل الأرض فقط، يقول تبارك وتعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ* ويَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُوالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

صحيح أنّ التعبير بعبارة (من عليها) إشارة إلى الموجودات العاقلة من الجن والإنس، لكنّه وكما احتمل بعض المفسّرينَ لا يستبعد أن يكون المقصود منها جميع الكائنات الحّية الأرضية (من باب التغليب)، وعلى أيّة حال فالهدف الأساس من الأية هو بيان فناء جميع الموجودات وبقاء الذات الإلهيّة المقدّسة.

ولو أنّ (وَجه) فى اللغة يعنى قرص الوجه، لكنّه فى مثل هذه الحالات يعنى الوجود والذات.

ولا يُستبعد أن يكون التعبير بعبارة «ذو الجَلال والإكْرام» إشارة إلى الصفات الإلهيّة السلبيّة والثبوتية، لأنّ (ذو الجلال) تحكى عن الصفات السلبية، بمعنى أنّ اللّه تعالى أجَلُّ وأعْلى من أن يوصف بها، و (الإكرام) إشارة إلى الصفات المُظهرة لكمال الشى، وهى الصفات الإلهيّة الثبوتيّة، كعلم اللّه وقدرته.

أجَل، إنّ الإله صاحب الجمال والجلال باقٍ دائماً، ومن سواه فانٍ.

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۷۱۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۲

والجدير بالذكر هو كون الآية من «سورة الرحمن» التى يفيض محتواها بذكر النّعَم الإلهيّة المختلفة، فهل إنّ مسألة فناء وموت الكائنات الحّية هى أيضاً من جملة النّعَم الإلهيّة!؟

نعم، إنّها من النعم، لأنّها من جهة تخلع عن الإنسان لباس الشرك وتدعوه إلى التوحيد الخالص وتُفهمه بأنّ المستحق للعبادة والإلوهية هو ذات «ذو الجلال والإكرام» الباقية فقط، لا الموجودات الفانية الزائلة. ومن جهة أُخرى تحذّر الإنسان ليستفيد من ساعات عمره بأفضل وجهٍ وأكمله.

ومن جهةٍ ثالثة تُعزّى الإنسان وتُصبّره لكى يقف أمام مصائب ومشكلات الدهر التى تواجهه فى الحياة الدنيا من حيث كونها زائلة أيضاً، ومن جهةٍ أُخرى فإنّ هذا الفناء مقدمة للبقاء وطريق الخلاص من سجن هذه الدنيا والإنتقال إلى عالم الآخرة ونعيمها الذى لا يزول.

أمّا الآية الثالثة فقد وردت فى ذيل قصّة إيمان سحرة فرعون وتهديد فرعون لهم بالقتل، وهى ذات مفهومٍ عميقٍ وواسع، حيث نقلت كلام اولئك السحرة الذين آمنوا وقالوا لفرعون:

«إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرهْتَنَا عَليهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقى .

«البقاء المطلق»: يعنى الأبدية، وكما قُلنا سابقاً فإنّ «الأبديّة» لا تنفصل عن الأزليّة أيضاً.

ومن المسلَّم به أنّ أبديّة ذاته المقدّسة ملازمة لأبدية لطفه وإنعامه، لذا فقد علم اولئك السحرة الذين آمنوا بوجوب ترجيح هذه النعمة الخالدة على النِعمِ الفرعونية الحقيرة الزائلة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۳

بعد أن أبطلت الآية الرابعة والأخيرة من بحثنا كل ألوان الشرك، فنّدت ماسواه من المعبودات، حيث قالت: «كُلُّ شَىْءٍ هالِكٌ إلّاوَجْهَهُ».

وهذه الجملة بالحقيقة هى بمنزلة الدليل على الحكم السابق، لأنّ الموجودات الفانية الزائلة لا تليق بالالوهيّة والعبادة، والوجود الوحيد الذى يليق بهذا المقام هو الباقى والقائم دائماً فقط.

وقد قُلنا: إنّ (الوجه) فى اللغة يعنى قرص الوجه، لكنها تستعمل فى بعض الأحيان أيضاً بمعنى (الذات)- كما هو فى بحثنا هذا، وما

فسّره البعض بمعنى الدين أو العمل الصالح وما شاكله لا دليل عليه، إلّاأن يُؤّل بمعنى الذات الإلهيّة المقدّسة.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذه الآية دليل واضح على أبديّة الذات الإلهيّة المقدّسة، ونعلم جميعاً أنّ الأبدية غير مفصولة عن الأزليّة.

والموجودات الاـخرى من الأموال، الثروات، والمقامات والسموات والأرض، جميعها فى زمرة الممكنات ولا تفنى وتهلك فى النهاية فحسب، بل هى فانيـة وهالكـة حتى فى حالها الحاضـر، لأنّها لاتملك فى ذاتها شيئاً، ولولا الـذات الإلهيّـة المقدّسـة التى تفيض عليها بالوجود لحظةً بعد اخرى، لفنت وهلكت.

ويظهر أنّ (الفنـاء) هُنـا بمعنى موت الموجودات الحّيـة، أو بمعنى تلاشـى الموجودات الاـخرى، وعليه فلا تضاد بينها وبين الآيات التى تقول: بأنّ تُراب الإنسان يبقى ليصـير مصـدراً لحياته فى الآخرة، أو التى تقول: بأنّ أجزاء الأرض والجبال تبقى بعـد أن تتلاشـى لينشأ منها عالم جديد.

ويرد هنا السؤال التالى وهو: يُسـتَنتَج من الآيات القرآنيـة أنّ كلًا من الجنّـة والنار موجودتان حاليّاً ومُعَدّتان، حيث قال تعالى بخصوص الجنّة: «أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ».

(آل عمران/ ۱۳۳)

وقال بخصوص النار: «أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ». (آل عمران/ ۱۳۱)

أفهل تفنيان فى النهاية أيضاً؟

وفى الجواب على هذا السؤال، قيل: إنّه لا تنافى بين عموميّة الآية أعلاه مع استثناء

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۴

بعض الموارد الخاصّة التى تحصل بإرادة اللّه تعالى أيضاً! «۱».

علاـوةً على ذلك وكما قلنا سابقاً: إنّ الموجودات الإمكانيـة هى فانيـة فى حال وجودهاأيضاً، لأنّ بقاءَها قائم ببقاء اللّه سـبحانه. (تأمل جيداً).

يتّضـح من مجموع ماذكرناه أنّ القرآن الكريم وضّـح مسألـة أزليّـة وأبديّة وجود اللّه تعالى بصورة تامّة، على الرغم من عدم اسـتعماله كلمتى (الأبد) و (الأزل)، لكنّه استعمل تعابير من قبيل (الأول) و (الآخر) و (الباقى) و (عدم الفناء والهلاك) والتى تُفصح عن مفهومى الأزليّة والأبديّة.

واللطيف أن البعض قالوا: إنّ كلمـة (أزل) مأخوذة من جملة (لا يزال)، والتى هى بالأصل مأخوذة من مادّة (زوال)، أى التحُّول والتغيُّر، ولعلّ هذا هو السّر فى عدم استعمالها فى الآيات القرآنية، بل استُعملَت كلمة (أوَّل) بدلًا عنها، والتى لها مفهوم أوضح وأبقى.

و (الأبد) فى اللغة أيضاً بمعنى (الزمن الطويل) ولا تُعطى مفهوم (الآخر)، لذا فما ذُكرَ فى القرآن الكريم بخصوص اللّه سبحانه (الأول والآخر والباقى وغير الفانى) أبلغ من كلمـة (الأزل) وكلمة (الأبد) من كل ناحية، ولو أنّ هاتين الكلمتين قد وصلتا مرحلة الوضوح فى عصرنا وزماننا الحاضر على أثر كثرة استعمالهما فى هذين المفهومَين.

توضيحات

۱- النظرة الفلسفية لأزلية وأبديّة اللّه تعالى

لقـد ذكرنا سابقاً بانّه لا يوجد أحد من المؤمنين يُنكِر أزليّة وجود اللّه عزّ وجلّ وأبديته، لأنّه لو لم يكُن أزليّاً لاسـتلزم أن يكون حادثاً، وإن كان حادثاً لاحتاج إلى علّة اخرى،

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۵

لاستحالة وجود المعلول بدون علة. وإذا آمنّا بأزليته سبحانه فإنّها مصحوبة أيضاً بأبديته، لأنّ الوجود الأزلى لامحدود حتماً، ووجود كهذا سيكون أبديّاً بالطبع، مضافاً إلى ذلك فإنّ نفس التفكر فى حقيقة وجود اللّه تعالى يوصل إلى هاتين الصفتين بسهولة، لأنّ دلائل إثبات وجود اللّه تفيد كونه (واجب الوجود)، ونعلم أنّ واجب الوجود لا يُمكن أن يكون منفصلًا عن الوجود أبداً، أو بعبارة أصح، الوجود عين ذاته، ولم يُعطَ له من الخارج ليُؤخذ منه فى زمانٍ ما، ووجود كهذا كان منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد.

وقد تُجمع هاتان الصفتان فى صفة واحدة هى (السرمديّة)، لأنّ الوجود السرمدى هو الوجود الذى لا بداية له ولا نهاية كما قال بعض أرباب اللغة.

وما قاله بعض ذوى الأفكار الضيقة من إمكانية تصُّور ذات تكون وجوداً واجب الوجود فى زمانٍ، وغير واجب للوجود فى زمان آخر، إنّما هو كلام واهٍ جدّاً ولا أساس له، ويدل على عدم فهمهم معنى (واجب الوجود) بصورة صحيحة، لأنّه وكما قُلنا سابقاً: فإنّ واجب الوجود هو عين الوجود، فكيف يُمكن أن ينفصل عن الوجود!؟

وكذلك مانُقِلَ عن بعض الأشاعرة من اعتقادهم بأنّ صفة البقاء والأبديّة زائدة على الذات الإلهيّة المقدّسة، إنما يدل على عدم دقّتهم فى معنى ومفهوم واجب الوجود.

۲- أزلية اللّه تعالى وأبديته فى الروايات الإسلاميّة

هنالك خُطب عديدة فى نهج البلاغة أكّدت على هذا المعنى، وكمثال على ذلك:

نقرأ فى الخطبة ۱۶۳: «ليس لأوليته ابتداءٌ، ولا لأزليته انقضاءٌ».

وجاء فى الخطبة ۱۸۵: «مُستشهدٌ بحدوث الأشياء على أزليته».

كما نقرأ فى نفس الخطبة: «واحدٌ لا بعدد، ودائمٌ لا بأمد».

وجاء فى اصول الكافى فى فصل «معانى أسماء اللّه» فى تفسير «هو الأول والآخر» عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هو الأول قبل كل شىء وهو الآخر على مالم يزل ولا تختلف

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۶

عليه الصفات والأسماء، كما تختلف على غيره» «۱».

وجاء فى حديث آخر عن نفس الإمام عليه السلام فى تفسير وصف «الأول»: «الأول لا عن أوّل قبله، ولا عن بدءٍ سبقه، والآخر لا عن نهاية ... ولم يزل ولا يزول بلا بدءٍ ولا نهاية» «۲».

۳- الإجابة عن سؤال

يرد هذا السؤال عادةً فى مباحث معرفة اللّه تعالى ومن قِبَل الأفراد قليلى الخبرة وهو:

أنتم تقولون: إنّ لكل شىء خالقاً ومبدعاً، إذن فمن خلق اللّه عز وجل؟

والعجيب هو أنّ بعض فلاسفة الغرب طرحوا هذه الأسئلة أيضاً، وهى علامة على مقدار تصورهم السطحى فى المباحث الفلسفيّة وتفكيرهم البدائى.

يقول الفيلسوف الإنجليزى الشهير (برتراندراسل) فى كتابه (لِمَ لا أكون مسيحيّاً؟):

«كنت اعتقد باللَّه فى شبابى، وكنت أعتقد ببرهان علّة العلل كأفضل دليلٍ عليه، وهو أنّ كل ما نراه فى الوجود ذو علّة معينة، ولو تتبّعنا سلسلة العلل لانتهت بالعلّة الأولى، وهى مانُسميّه باللَّه.

لكننى تراجعت عن هذه العقيدة بالمرّة فيما بعد، لأننى فكرت بأنّه لو كان لكلّ شىء علّة وخالق، لوجب أن يكون للَّه‌علة وخالق أيضاً» «۳».

لكننا لا نعتقد بأنّ أحداً له أدنى اطلاع على المسائل الفلسفية الخاصّة بمباحث معرفة اللَّه تعالى وما وراء الطبيعة، يحار فى الإجابة عن هذا السؤال، فالمسألة واضحة جدّاً، فعندما نقول: إنّ لكل شىءٍ خالقاً وموجداً، نقصد (كُلّ شىء حادثٍ وممكن الوجود)، لذا

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱ ص ۱۱۵ (باب معانى الأسماء) ح ۵.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۱۶، ح ۶.

(۳) برتراند راسل، فى كتابه (لِمَ لَم أكُن مسيحيّاً).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۷

فهذه القاعدة الكليّة صادقة فقط بخصوص الأشياء التى لم تكُن من قبل وحدثت فيما بعد، لا بخصوص واجب الوجود الذى كان موجوداً منذ الأزل وسيبقى إلى الأبد، فوجود أزليٌّ لا يحتاج إلى خالق، لكى نسأل عن خالقه!؟ فهو قائم بذاته ولم يكن معدوماً من قبلُ أبداً، لكى يحتاج إلى علّة وجوديّة.

وبتعبيرٍ آخر: إنّ وجوده من ذاته لا- مِن خارج ذاته، وهو لم يكُن مخلوقاً، هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى كان من الأفضل ل (برتراندراسل) ومؤيّديه أن يسألوا أنفسهم هذا السؤال:

لو كان للَّه‌خالقٌ فسيرد نفس هذا الإشكال مع الخالق المفترض، وهو: من خلق ذلك الخالق!؟ ولو تكررت هذه المسألة وافترضنا أنّ لكلّ خالق خالقاً لأدى ذلك إلى التسلسل، وبطلانه من الواضحات، ولو توصَّلنا إلى وجودٍ يكون وجوده من ذاته ولا يحتاج إلى موجدٍ وخالق آخر (أى واجب الوجود)، فذلك هو اللَّه رب العالمين.

ويُمكن توضيح هذه المسألة ببيانٍ آخر وهو: إننا لو لم نكن من المؤمنين على سبيل الفرض وكُنّا نؤيّد عقيدة الماديّين، لواجهنا نفس هذا السؤال، فبتصديقنا قانون العليّة فى الطبيعة، وأنّ كلّ شىء فى العالم معلول لآخر، سيرد هذا السؤال الذى واجهه المؤمنون باللَّه تعالى وهو: لو كانت جميع الأشياء معلولة للمادّة فما هى العلّة التى أوجدت المادة إذن؟

وسيضطّرون أيضاً للقول: إنّ المادة أزليّة، وكانت موجودة منذ الأزل، وستبقى إلى الأبد، ولا تحتاج إلى علّة وجوديّة، وبتعبيرٍ آخر هى (واجب الوجود).

وعلى هذا الأساس نُلاحظ أنّ جميع فلاسفة العالم سواء الإلهيين منهم أو الماديّين يؤمنون بوجودٍ أزليٍّ واحدٍ، وجودٍ لا يحتاج إلى خالقٍ ومُوجد، بل كان موجوداً منذ الأزل.

والتفاوت الوحيد هو أنّ الماديين يعتقدون بأنّ العلّة الاولى فاقدة للعلم والمعرفة والعقل والشعور، ويعتقدون بأنّها جسم ولها زمان ومكان. لكن المؤمنين يعتقدون بأنّ العلّة الاولى ذات علمٍ وإرادة وهدف، وهو اللَّه تعالى وينزّهونه عن الجسميّة والزمان والمكان، بل يعتقدون بأنّه فوق الزمان والمكان.

وجميع الأدلة التى أوردناها سابقاً فى بحوث معرفة اللَّه تعالى تؤيد هذه الحقيقة، وهى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۸

أنّ المُبدىء الأول لهذا العالَم ذو علم واطلاعٍ غير محدود.

وعليه فقد أخطأ (راسل) فى تصوره بأنّه يستطيع التهُّرب من مخالب هذا السؤال بترك زمرة المؤمنين والإلتحاق بالمادّيين، لأنّ هذا

السؤال ملازم له دائماً، حيث إنّ الماديين يعتقدون أيضاً بقانون العليّة ويقولون: إنّ لكل حادثة علّة معينة.

إذن، فالطريق الوحيد فى حلِّ هذه المشكلة هو إدراك الفرق جيداً بين (الحادث) و (الأزلى)، وبين (ممكن الوجود) و (واجب الوجود)، لكى نعلم أنّ الذىيحتاج إلى خالقٍ هو الموجودات الحادثة والممكنة، أى أنّ كل مخلوقٍ يحتاج إلى خالق، وما ليس بمخلوق فلا يحتاج إلى خالق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۴۹

اللَّه الحى القيّوم

تمهيد:

وردت صفتى «الحى» و «القيوم» كراراً فى الآيات القرآنية والروايات الإسلامية فى وصف البارى عزوجل، فحياته خالدة وثابتة، وهو قائم بذاته وكل شىء قائم به.

ولكن من البديهى أنّ كلمة الحياة بالنسبة للبارى ذات مفهومٍ يختلف عن المفهوم الذى يصدق علينا والكائنات الحيّة الاخرى، لأنّ حياتنا تُعرف عن طريق آثار معينة من قبيل التنفُّس، دقات القلب، الاحساس والحركة، النمو والتناسل وما شاكل ذلك، فى حين أنّها جميعاً لا معنى لها بالنسبة إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

إذن، علينا أن نبحث عن مفهوم ومعنى الحياة بالنسبة إلى اللَّه عزّ وجلّ.

ومن المُسَلَّم أنّها حياة أسمى وأرفع من الحياة الماديّة، وسنتطرق إلى شرحها بعد تفسير الآيات إن شاء اللَّه تعالى.

بعد هذا التمهيد المختصر نتوجّه إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين فى الآيات التالية بأسماع قلوبنا:

۱- «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ». (البقرة/ ۲۵۵)

۲- «اللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُو الحىُّ القَيُّومُ». (آل عمران/ ۲)

۳- «وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَىِّ القَيُّوم وَقَد خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلماً». (طه/ ۱۱۱)

۴- «وَتَوكَّلْ عَلَى الحَىِّ الَّذِى لَايَمُوتُ». (الفرقان/ ۵۸)

۵- «هُوَ الحَىُّ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». (غافر/ ۶۵)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۰

شرح المفردات:

«حى»: من مادّة «حياة»، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: فإنّ هذه المادّة بالأصل ذات معنيَين، أحدهما (الحياة) فى مقابل الموت، والآخر (الحياء) فى مقابل الوقاحة وعدم الخجل.

ولكن بعض محققى اللغة أرجعوها إلى أصلٍ واحد، فقالوا: إنّ الحياء والإستحياء أيضاً نوع من طلب الحياة والسلامة فى مقابل الوقاحة وعدم الخجل والذى يُعتبر نوعاً من فقدان الحياة والسلامة.

وعلى أيّة حال، فكلمة (الحياة) ذات معنىً واسع، فقد تُستعمل بخصوص الأرض والنباتات مثل: «وَ يُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا». (الروم/ ۱۹)

وقد تُستعمل بخصوص الحيوانات كقول إبراهيم عليه السلام: «رَبِّ أَرِنى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى . (البقرة/ ۲۶۰)

أو قد تستعمل للإنسان، مثل: «وَهُوَ الَّذِى أَحْيَاكُمْ». (الحج/ ۶۶)

أو بخصوص مُطلق الحياة والممات مثل: «يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ». (الروم/ ۱۹)

أو بخصوص الحياة المعنويّة مثل: «استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحيِيكُم ...».

(الأنفال/ ۲۴)

وأحياناً تُستعمل بخصوص الحياة الأخرويّة مثل: «وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ..».

(العنكبوت/ ۶۴)

والأسمى من الجميع استعمالها بخصوص الباري جلّ وعلا، كما هو في الآيات السابقة، وسنرى أن الحياة الحقيقية والأزليّة والأبديّة والقائمة والثابتة التي لا يشوبها أي لونٍ من ألوان الموت والهلاك هي حياة اللَّه عزّ وجلّ فقط.

«قيّوم»: صيغة مبالغة من مادة «قيام»، والقيام يعني الوقوف، أو التصميم، والمعنى الثاني يعود على المعنى الأول، لأنّ الإنسان عندما يُصمم على فعلٍ معين ينهض للقيام به، لذا فقد استُعمِلت هذه الكلمة بمعنى التصميم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۱

واعتقد البعض أن كلمة (قيوم) تُعطي معنى القائم، والحافظ، والمدير، والمدبّر، لأنّه يؤمّن للأفراد أو بقية الموجودات الاخرى مايقوّمُهم.

وعندما تُستعمل هذه الكلمة بخصوص الباري تعالى فإنّها تعني من يقوم بأمر المخلوقات وأرزاقهم وأعمارهم وحياتهم وموتهم، ويُدبّر أمورهم المختلفة، ويؤمّن احتياجاتهم.

وقد فسّرها البعض بمعنى القائم بالذات ومقوّم الموجودات الاخرى، والذي لا يتفاوت مع المعنى السابق تفاوتاً ملحوظاً «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

اللَّه قائم بذاته والإنسان قائم باللَّه:

يُلاحظ في الايتين الأولى والثانية أنّهما- وضمن إشارتهما إلى وحدانية اللَّه تعالى- تحدثتا عن حياة الباري وقيمومته، قال تعالى: «أَللَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ».

وكما أشرنا سابقاً فإنّ حياة الباري تتفاوت كُلياً عن حياة الإنسان والحيوان والنبات، فحياته حياة حقيقية لأنّها عين ذاته، لا عارضة ولا مؤقتة.

حياته بمعنى العلم والقدرة (نفس الصفتَين اللتين شرحناهما في البحوث السابقة)، لأنّهما العلامة الأصيلة للحياة.

فهو ليس قائم بذاته فحسب، بل إنّ قيام الموجودات الاخرى ومربوبيتها وتدبير جميع أمورها بيده سبحانه.

وخلاصة الكلام، إنّ حياته ليس لها أدنى شَبه بحياة سائر الموجودات الحيّة، حياته (ذاتيّة)، (أزليّة)، (أبديّة) (ثابتة) و (خالية من كل ألوان النقص والمحدوديّة)، حياته تدل على إحاطته العلمية بكلّ شيء، وقدرته على كل شيء.

---

(۱) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۲

أمّا الآية الثالثة، فبعد أن أشارت إلى يوم القيامة قالت: «وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً».

«عَنَت»: من مادّة (عَنْوة) وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، لذلك يُطلق على الأسير «عاني»، لأنّه ذليل وخاضع بيد الآسِر.

وقد نُسب الخضوع والذل هنا للوجوه، لأنّ الوجه أشرف عضو في الإنسان، علاوة على أنّ ردود الفعل النفسيّة ومن جملتها الخضوع

تظهر على وجه الإنسان قبل كلّ شيء.

والتأكيد على صفتى (الحى) و (القيوم) فى مسائل عالم الآخرة يُعَدُّ إشارةً لطيفةً إلى هذه الحقيقة، وهى أنّ حياة اللَّه تعالى الخالدة وقيمومته الشاملة ستظهر وتتجلّى فى ذلك اليوم بصورة أفضل، وسيتجلّى أيضاً ضعف الإنسان وعجزه واحتياجه للذات الإلهيّة المقدّسة بصورة أوضح. لأنّ جميع الناس قد بُعثوا بعد موتهم وقد يظهر عليهم العجز والضعف والحاجة إلى لطف اللَّه تعالى فى تلك المحكمة الإلهيّة العظيمة.

وأمّا الآية الرابعة فقد وصفت البارى سبحانه وتعالى بالوجود الحى الذى لا يموت أبداً، وأمرت الرسول بالتوكُّل عليه حيث قالت: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الحَيِّ الَّذِى لَايَمُوتُ».

وبديهى أنّ الإنسان المؤمن بامتلاكه لهذا الأساس المتين سوف لا يخشى من أى أحد، ولا يهاب، أو يستوحش من أى حادثة.

يتّضح هُنا أنّ هذه الآية مع أنّها تبيّن أصلًا عقائدياً، فهى ذات مردودات أخلاقية وعمليّة فى نفس الوقت، وتقوّى أُسس التوكُّل فى روح الإنسان وقلبه.

وفى الآية الخامسة والأخيرة نلاحظ انعكاس نفس هذا المعنى والمفهوم بمردودات عمليّة وأخلاقيّة أُخرى، قال تعالى: «هُوَ الْحَيُّ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ»، ولأنّه كذلك «فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ».

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۳

يظهر من لحن الآية- كما قال الفخر الرازى فى تفسيره أنّها تُفيد الحصر «۱»، أى أنّ الحى حقيقةً هو اللَّه وحده، وإن كان للآخرين حياة فهى زائلة ومقرونة بالموت التدريجى، ولذلك ليست لهم اللياقة للُالوهية والمعبوديّة، ومن هنا يتضح ضرورة الإخلاص له فى الدين والعبادة ونفى كل أنواع الشرك عنه.

يستفاد من مجموع الآيات المذكورة أنّ وصف اللَّه عزّ وجلّ بالحياة الباقية لا يُقصد منه الحياة المشوبة بالموت والهلاك والفناء أو التغيُّر، بل هى الحياة الملازمة لقيامه بذاته وقيام الموجودات الاخرى به، الحياة التى تشع على المخلوقات، وتلهم التوكُّل والإخلاص، وبالنتيجة حياة تعطى درساً فى التوحيد وتنفى كل ألوان الشرك.

توضيحان

۱- حقيقة الحياة

إنّ تقسيم الموجودات إلى قِسمين، موجودات حيّة وموجودات ميّتة، تقسيم يفهمه كُلّ واحدٍ من الناس مهما كان مستواه من الفهم والشعور، لأنّه يرى بعينيه التفاوت الموجود بين الموجودات الحية والميتة، ومع ذلك فقد عجز أذكى العلماء عن الإجابة عن هذا السؤال: ما هى حقيقة الحياة؟ فهم يقرّون أنّ الحياة ظاهرة معقدة جدّاً وذات أسرارٍ لم يتوصل العلم والعقل البشرى إلى أعماقها لحد الآن!

لذا يُعَدُّ خلق موجودٍ حيٍ (وحتى خلية واحدة بسيطة لها أبسط صور الحياة) عملًا شاقّاً ومعقّداً جدّاً بالنسبة للإنسان، وقد طالع العلماء سنوات عديدة فى هذا المجال ولا يزالون عاجزين عن القيام بذلك، وعلى فرض أنّهم سيستطيعون يوماً ما وبالاستعانة بوسائل وطرق طبيعية مختلفة خلق خلية حيّة من موادٍ طبيعيّة ميتة فسيواجهون العجز أيضاً فى

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۳۶۶؛ وتفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۸۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۴

إدراك تنوع الحياة وكيفية ظهور الصور المختلفة لها.

ويُمكن القول باختصار: إنّ مُظهِر الحياة بصورها المختلفة ذو علمٍ لا محدود وقدرةٍ مطلقة، ويُعَدُّ ظهور أنواع الكائنات الحيّة أوضح دليلٍ على علم اللّه عزّ وجلّ وقدرته العظيمة.

وكما تقدم فإنّ الحياة لها عدّة أقسام، ابتداءً من حياة النبات وحتى حياة الإنسان فصاعداً، وهذه الحياة المتنوعة لها آثار مختلفة أيضاً.

وعندما يصل العلماء إلى حياة الإنسان يقولون: هى الحالة المقرونة بالعلم والشعور والقدرة والفعاليّة.

ومن الواضح إنّ علمنا وقدرتنا لا تمثل حقيقة الحياة، بل هى من مستلزماتها، لذا قد يكون الإنسان حياً من دون علمٍ وقدرةٍ.

ومن المسَّلم أنّ حياة الإنسان والتى هى من عوارض الجسم، لا يمكن تصورها للبارى جل وعلا.

والتصور المقبول عن حياة البارى تعالى هو العلم اللا محدود وقدرته على كل شىء، وبهما يمكن إثبات أعلى مفهومٍ للحياة له عزّ وجلّ.

۲- الأدلة على حياته سبحانه

أ) اعتبر عامّة علماء الإسلام صفة الحياة من الصفات الإلهيّة المُسلمة، ووصفوه سبحانه بالحى القيّوم. وكما عرفنا آنفاً فإنّ الآيات القرآنية أكّدت هذا المعنى والمفهوم كِراراً بالرغم من أن للمفسرين تعابير مختلفة فى تصوير حياة اللّه سبحانه وتعالى.

وأكثرها وضوحاً ومقبوليّةً هو ماذكرناه آنفاً من كون حياة البارى تعنى إحاطته بكل شىءٍ علماً، واقتداره على فعل كُلّ شىء، وإلّا فالحس والحركة ودقّات القلب والتنفُّس والتفكُّر وأمثال ذلك لا مفهوم لها بالنسبة إلى اللّه عزّ وجلّ.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۵

ومن هنا يتضح الدليل على أنّه عز وجل حىٌّ وقيوم، لأنّه عندما يكون علم الإنسان المحدود وقدرته الحقيرة دليلًا على حياة الإنسان، فكيف بمن يكون علمه غير محدود وقدرته مطلقة؟ فلابدّ وأن تكون حياته أسمى وأكمل من غيره، بل الحياة عين ذاته.

ب) علاوةً على هذا، فهو سبحانه خالق الحياة، فهل يُمكن أن يكون واهب الشىء مفتقر إليه!؟

وأمّا قيوميته التى قالوا فى تفسيرها: (هو القائم بذاته المقوّم لغيره)، فهى أيضاً من صفاته الملازمة لوجوب وجوده وخالقيته وربوبيته سبحانه.

وقد عدّ البعض مسألة حفظ سائر الموجودات وإعطائهم جميع حاجاتهم ضمن مفهوم «القيّوم»، ولكنها لا تزيد على ما قُلناه بطبيعة الحال.

يقول المرحوم العلّامة «الطباطبائى» فى تفسير «الميزان»: «اسم القيوم أمُّ الأسماء الاضافية الثابتة له تعالى جميعاً (صفات الفعل) وهى الأسماء التى تدل على معان خارجة عن الذات بوجه، كالخالق والرازق والمبدأ والمعيد والمحيى والمميت والغفور والرحيم والودود وغيرها» «۱»

.

وعليه يُعتبر ذِكر (ياحىُّ ياقيّوم) من الأذكار الإلهيّة الجامعة، لأنّ صفة (الحى) هى الأساس لجميع صفات الذات أى العلم والقُدرة، و (القيّوم) تضم جميع صفات الفعل.

نختم هذا الكلام بحديثٍ غنى عن أمير المؤمنين على عليه السلام حيث قال: «لمّا كان يوم بدرٍ جئتُ أنظر مايصنع النبىُّ فإذا هو ساجد يقول ياحىّ ياقيوم فتردّدتُ مرّاتٍ وهو على حاله لايزيد على ذلك إلى أن فتح اللّه له» «۲»

.

ومن هذا الحديث نفهم الآثار المفيدة والمباركة لهذا الذكر الشريف لذا قال أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة ۱۶۰ من نهج

البلاغة: «فلسنا نعلَمُ كُنه عظمتك إلّاإنّا نعلَمُ أنّك حيٌّ قيوم لا تأخذُكَ سِنَةٌ ولا نوم».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲، ص ۳۴۸.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱، ص ۴۰۰، فى ذيل آية الكرسى الآية ۲۵۵ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۷

ب) صفات الجلال للّه سبحانه وتعالى (الصفات السلبيّة)

اشارة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۵۹

تمهيد:

اشارة

يُعبَّر عن الصفات السلبيّة ب «صفات الجلال» عادةً، لأنّ اللّه سبحانه (أجَلّ) من أن يوصف بمثل هذه الصفات التى تُعبّر جميعها عن وجود النقائص والعيوب.

وهذه الصفات تقع فى مقابل «صفات الجمال» التى تدعى ب «الصفات الثبوتية» وتحكى عن جمال ومحاسن الذات الإلهيّة المقدّسة.

وبعبارة اخرى يمكن القول: بأنّ جميع الصفات السلبية مجموعة فى هذه الجملة وهى (إنّ اللّه مقدّس ومنزّه عن كل ألوان العيوب والنقائص وعوارض وصفات الممكنات).

وقد بُحثت أقسام مهمّة من هذه الصفات فى علم الكلام بالإستلهام من الآيات القرآنية، منها:

إنّه تعالى ليس «مُركّباً».

ليس له جسم.

لا يُرى.

لا يسعه مكان أو زمان.

منزّه عن كل ألوان الفقر والحاجة.

ذاته ليست محلًا للحوادث والعوارض والتغيُّر والتحوُّل أبداً.

وصفاته عين ذاته لا زائدة عليها.

وعليه ينبغى من جهة طرح مسألة (صفات الجلال) بشكل كلّى وشامل، ومن جهةٍ أُخرى التحقيق فى الصفات الحساسة بتفصيل أكثر.

بعد هذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۰

۱- «يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ العَزِيزِ الْحَكِيمِ».

(الجمعة/ ۱)

۲- «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ». (الحشر/ ۲۳)

۳- «سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ». (المؤمنون/ ۹۱)

۴- «سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ». «۱»

(الصافّات/ ۱۸۰)

شرح المفردات:

«القدوس»: صيغة مبالغة من مادّة «قدس»، وهى فى الأصل بمعنى النزاهة والطّهارة، وكما قال صاحب (مقاييس اللغة): فإنّ سبب إطلاق هذه الصفة على اللَّه عزّ وجلّ هو لقداسة ونزاهة ذاته عن الأضداد والأكفّاء والصاحبة والولد.

ويُستنتج من كلام الراغب فى (المفردات)، وابن منظور فى (لسان العرب)، أنّ هذه الكلمة تُستعمل عادةً للتنزيه الإلهى أو لتطهير عباده، وحتى صاحب مقاييس اللغة يقول:

فى الأغلب أنّ هذه الكلمة من المصطلحات الإسلاميّة الخاصّة.

وسُميت أرض (القادسيّة) بهذا الاسم لأنّ إبراهيم الخليل عليه السلام دعا اللَّه عزّ وجلّ لتطهيرها وتقديسها.

ومن الجدير بالذكر أنّ الراغب يعتقد بأنّ هذه الكلمة تُستعمل فقط بخصوص التطهير المعنوى لا التطهير الظاهرى وإزالة الخبائث.

وتقديس العباد للَّه‌تعالى بأن ينزهوه من كلِّ نقصٍ وعيبٍ.

و أمّا (التسبيح) وكما يقول بعض أرباب اللغة: فذو معنَيين:

الأول: النفى، وقد ورد فى الآيات القرآنية بمعنى نفى كل ألوان العيوب والنقائص عن اللَّه تعالى.

---

(۱) ورد هذا التعبير وكذلك تعبير الآية التى قبلها فى ستة موارد فى القرآن الكريم، حيث ينزه اللَّه تعالى عما يصفه به المشركون والجاهلون (الانعام، ۱۰۰؛ الأنبياء، ۲۲؛ المؤمنون، ۹۱؛ الصافات، ۱۵۹، و ۱۸۰، الزخرف ۸۲) ومضافاً إلى الآيات التى تشتمل على عنوان (تسبيح اللَّه) فكلها توضح مقصودنا، وقد ذكرنا منها نماذج مختلفة أعلاه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۱

والثانى: بمعنى السباحة والتحرُّك السريع فى الماء، (من مادّة سبح وسباحة).

ولكن يُمكن إرجاع كلا هذين المعنيَين إلى أصل واحدٍ وهو الحركة السريعة، سواءً فى طريق العبادة والتعبُّد، وتنزيه وتقديس اللَّه تعالى عن كل عيبٍ ونقص، أو فى الحركة السريعة فى الماء، أو الهواء، أو على الأرض. لأنّ الحركة تقرّب الإنسان من شىء وتُبعّده عن شىءٍ آخر.

ففى الموقع الذى تعنى فيه التنزيه عن العيب تأخذ جانب الابتعاد، وفى الموقع الذى تأتى فيه بمعنى السباحة وشق الماء والهواء تأخذ جانب التحُّرك «۱».

جمع الآيات وتفسيرها

كل الخلائق تسج للَّه:

الآية الأولى من بحثنا واردة فى تسبيح عامّة موجودات العالم، وهذا ما أكدته الكثير من الآيات القرآنية بتعابير مختلفة، ويُعتبر هذا البحث من البحوث القرآنية الطريفة جدّاً، قال تعالى: «يُسَبِّحُ للَّهِ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ المَلِكِ القُدُّوسِ العَزِيزِ الحَكِيمِ».

فَلِسان حال الكون وأسراره المذهلة تحكى عن علم اللَّه تعالى اللامحدود وقدرته اللامتناهية وكماله المطلق، والجميع يقدسون اللَّه عزّ

وجلّ وينزّهونه وينفون عن ذاته المقدّسة كُلّ عيبٍ ونقص، لأنّ كل من ينظر إلى هذه الموجودات بدقّة يقف على عظمة خالقها ومديرها ومدبّرها.

ويعتقد جماعة من المحققين أيضاً أنّ موجودات العالم المختلفة تُسبح اللَّه تعالى حقيقة، وبلسان القال لا بلسان الحال فقط، لأنّ لكل نوعٍ منها حصّة من الإدراك والشعور والكيفية الخاصة لتقديس البارى تعالى، وما المانع فى تحقُّق كلا الأمرين (لسان الحال والقال) فى بيان هذه الحقيقة؟

لذا فإنّ كلمتى (يُسبّح) و (القدوس) فى هذه الآية الشريفة تُعّدان كلاهما إشارة لطيفة

---

(۱) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ مصباح اللغة؛ لسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم مادّة (سبح).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۲

إلى جميع صفات اللَّه تعالى السلبيّة، وهى من الأمور التى يشترك فى ذكرها جميع موجودات عالم الوجود.

واستعمال صيغة الفعل المضارع المستمر فى فعل (يُسبّح) يدل على استمرار وديموميّة هذا الأمر، منذ بدء الخلق وسيبقى حتى النهاية، ويجب أن يكون كذلك، لأنّ وجود الأفعال يُبيّن دائماً صفات الفاعل.

والطريف أنّ هذه الآية هى الآية الاولى من سورة الجمعة، وتُعدُّ مقدّمة لبيان فريضة صلاة الجمعة العباديّة السياسيّة. لأنّها تلفت أذهان الناس إلى كون مسألة العبادة والتقديس للَّه سبحانه برنامجاً عاماً ومستمراً من قبل جميع ذرات الوجود، وتحثهم على الإنضمام معها فى هذا الذّكر، ومواكبة أمواج الوجود فى هذا البرنامج المقدس، والخضوع لساحة البارى الحاكم القدوس والقادر الحكيم «۱».

وفى الآية الثانية تجلّى هذا الكلام بلباسٍ آخر، فضمن تأكيدها على توحيد اللَّه تعالى وبيانها لبعض صفاته وأسمائه الحسنى، وصفته بصفة (القدّوس) المبيّنة لجميع الصفات السلبيّة، قال تعالى: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ».

وكما أشرنا فى شرح مفردات الآيات فإنّ (القدّوس) صيغة مبالغة للقداسة، وتعنى منتهى نزاهة الذات والصفات والأفعال والأحكام الإلهيّة من كلّ عيبٍ ونقص، وهى تعبير مختصر وغنى جامع لجميع الصفات السلبيّة.

فهو ليس منزّه عن وجود نقصٍ فى ذاته فحسب، بل إنّ إيجادَه وخَلقه وتكوينَه وتشريعَهُ منزّهٌ عن أى عيب ونقص أيضاً، لأنّها جميعاً تنبع من ذلك الكمال المطلق، ومن فيوضاته وإفاضاته سبحانه، وجميعها ذات صبغة إلهيّة، وجميعها كاملة.

---

(۱) أوردنا فى التفسير الامثل بحوثاً عديدة حول عموم التسبيح لموجودات العالم وبيان كيفية هذه المسألة المهمّة. راجع ذيل الآية ۴۴ من سورة الإسراء، وذيل الآية ۱۴۱ من سورة النور.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۳

أمّا الآية الثالثة، فبعد أن نَفت أىّ ولدٍ وكُفْءٍ عن الذات الإلهيّة المقدّسة قالت: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ».

وقد وردت هذه الجملة فى آيات عديدة من القرآن الكريم، وجاءت لتنفى أىّ شريكٍ وكفْءٍ أو صاحبةٍ وولدٍ عن اللَّه عزّ وجلّ كما كان يعتقد ذوو الأفكار الضيقة، ولها معنىً واسع يشمل كل وصفٍ لا يليق بذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، بل يشمل كل وصفنا له أيضاً، لأننا وجميع المخلوقات الاخرى وبسبب اتصافنا بالنقصان والمحدودية، عاجزون عن فهم كنه صفاته، لذا نعجز عن شرحها فى الوقت الذى نعرف صفاته المقدّسة بصورة إجماليّة.

وعليه فهو منزّه عن كل وصفنا لهُ ومنزّه عمّا يصف الواصفون: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمّا يَصِفُونَ».

وبذلك نجد فى بعض الروايات الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام وضمن بيانه المذهب الصحيح فى التوحيد أنّه عليه السلام قال: «تعالى اللَّه عما يصفه الواصفون» «۱».

ثم أكّد عليه السلام فى ذيل نفس هذا الحديث على عدم التجاوز فى وصف البارى عن الصفات التى وردت فى القرآن الكريم.

وفى الآية الرابعة والأخيرة من بحثنا قال تعالى- وبكلامٍ مطلقٍ ومجرّدٍ عن أىّ قيدٍ وشرط-: «سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ».

وكما قلنا: فإنّ هذا التعبير يُمكن أن يكون إشارة إلى تنزيه اللّه عزّ وجلّ عمّا وصفه به ذوو الأفكار الضيّقة، فأحياناً يتخذون من المسيح ولداً له، وأحياناً اخرى يتخذون من الملائكة بناتٍ له! وأحياناً كانوا يعتقدون بوجود صلة قرابة بينه وبين الجن، وأحياناً كانوا يُعرّفون الأصنام كشركاء وأكفّاء له أو شفعاء عنده، وأحياناً كانوا يصفونه بأوصاف الأجسام المادّية.

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۰، باب النهى عن الصفة بغير ماوصف به نفسه، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۴

وبعبارة اخرى إنّ هذه الآية الشريفة تنفى عنه جميع هذه الأوهام الخاطئة وتبطلها.

ويمكن أن يكون المقصود هو تنزيهه سبحانه عن كل وصف صادر من أى أحدٍ، لأنّ البشر لا يقدر على إدراك كُنه صفاته، كما أنّه عاجز عن إدراك كنه ذاته.

ويتضح من مجموع هذه الآيات أنّ الذات الإلهيّة منزّهة عن أى صفةٍ تحمل أقل درجة من النقصان، أو أدنى عيب.

ومعرفتنا بالصفات الثبوتية الإلهيّة إنّما هى بقدر طاقاتنا وقدرتنا لا بقدر مايليق بالذات الإلهيّة المقدّسة.

وهذا التنزيه مضافاً إلى شموله لذات البارى وصفاته، فإنّه يشمل أحكامه وتشريعاته أيضاً، فكُلُّها منزّهة عن النقصان والعيب، لأنّها نابعة من ذاتٍ هى عين الكمال والكمال المُطلَق.

توضيح

«التشبيه» من أعظم الذنوب!

إنّ تنزيه وتقديس البارى تعالى عن صفات المخلوقين المشوبة بالنقائص دائماً، هو ماأكّدنا عليه كِراراً، وهو ما حثّتْ عليه الأحاديث الإسلاميّة بصورةٍ مستمرة، لأنّه لا يُمكن التوصُّل إلى حقيقة معرفة اللّه تعالى بدونه، أو بتعبيرٍ آخر سيكون التوحيد مقترناً مع الشرك.

ومن جهةٍ اخرى فإنّ فصل الصفات «الثبوتية» عن «السلبية» يحصل فى افق أذهاننا فقط، وإلّا فالذات الإلهيّة المقدّسة حقيقة واحدة، فقد ننظر إليها من زاوية الوجود فنرى كماله المطلق، وعلمه المطلق، وقدرته المطلقة سبحانه، وأحياناً من زاوية نزاهتها عن الحاجة والنقص، فنراها منزّهة عن الجهل والعجز، وكل ألوان النقصان.

لذا فعدم معرفة الصفات السلبيّة يؤدّى إلى عدم معرفة الصفات الثبوتيّة، ونقصان المعرفة فى مرحلة يؤدّى إلى نقصانها فى مرحلةٍ اخرى.

وفى هذا المجال لابدّ لنا من التوجه إلى بعض الإشارات الواردة فى الأحاديث الإسلامية التالية:

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۵

۱- قال أمير المؤمنين على عليه السلام فى بداية خُطبةٍ له: «لايَشْغَلُهُ شَأْنٌ وَلا يُغَيّرُهُ زَمانٌ وَلا يَحْويهِ مَكانٌ وَلا يَصِفهُ لِسانٌ» «۱».

۲- وقال عليه السلام فى خطبةٍ اخرى ضمن إشارته إلى عجز الإنسان عن فهم المسائل المرتبطة بالحياة والموت: «كَيْفَ يَصِفُ إلهَهُ مَنْ يَعْجَزُ عَنْ صِفَةِ مَخْلُوقٍ مِثلِهِ؟» «۲».

۳- وورد فى حديثٍ أنّ رجُلًا من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل الإمامَ عليه السلام: أخبرنى أى الأعمال أفضل؟ فأجابه عليه

السلام: «تَوْحِيدُكَ لِربّكَ» فسأل الرجل: «فما أعظم الذنوب»؟

فقال عليه السلام: «تشبيهك لخالقك!» «۳».

۴- وورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى لا يوصف بزمانٍ ولا مكانٍ ولا حركةٍ ولا انتقال ولا سكون بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والإنتقال، تعالى عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً» «۴».

۵- وورد أيضاً فى حديثٍ آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير صفة (الصمد) أنّه قال:

«تأويل الصَّمدِ لا إسم ولا جسم ولا مثلَ ولا شبه ولا صورة ولا تمثالَ ولا حدَّ ولا حدود ولا موضعَ ولا مكان ولا كيف ولا أينَ ولا هنا ولا ثمةَ ولا ملأ ولا خلأ، ولا قيام ولا قُعود، ولاسكون ولا حركة، ولا ظلمانى ولا نورانى، ولا روحانى ولا نفسانى ولا يخلو منه موضع ولا يسعهُ موضعٌ ولا على لون، ولا على خطرِ قلْبٍ، ولا على شمٍّ رائحة، منفيٌ عنه هذه الأشياء» «۵».

ولا يخفى أنّ المقصود من نفى الاسم عن اللَّه سبحانه هو نفى أسماء المخلوقات.

وبهذه المعرفة الإجماليّة التى حصلنا عليها عن الصفات السلبيّة ننطلق إلى معرفتها بالتفصيل.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۸.

(۲) المصدر السابق، الخطبة ۱۱۲.

(۳) بحار الأنوار، ج ۳ ص ۲۸۷.

(۴) المصدر السابق، ص ۳۰۹، ح ۱.

(۵) المصدر السابق، ص ۲۳۰، ح ۲۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۷

۱ و ۲- نفى الرؤية والجسميّة

تمهيد:

مر علينا قسم من الصفات السلبية فى مباحث التوحيد ضمن بيان وحدانية الذات الإلهيّة وبساطة وجوده تعالى، ونفى الجزئية والتشبيه عنه.

إنّ الموضوع الأكثر أهميّةً فى هذا البحث والذى صار معرضاً للنقاش والجدل على مرِّ تاريخ علم الكلام، هو المسائل التى سنطرحها فى هذا الفصل.

ومنها: إنّ اللَّه عزّ وجلّ ليس له جسم ولا يمكن رؤيته، ولا يسعه محل ومكان، وهذه الصفات السلبيّة الثلاثة متلازمة، أى لو كان مرئياً لاستلزم أن يكون له جسمٌ ومكانٌ، وإن لم يكن له مكان لم يكن جسماً حتماً، ولم يكن مرئياً بطريق أولى

وإدراك هذاالمفهوم وهو أن اللَّه تعالى لا- يُمكن أن يكون من سنخ الأجسام- بالالتفات إلى دلائل معرفة اللَّه تعالى لا يُعدُّ مسألةً معقّدة، ولكن، وبسبب بحث ذوى الأفكار الضيقة، واولئك الذين لم تخرج عقولهم عن إطار الحس فيبحثون غالباً عن إله جسمانىّ، كان لعقيدة جسمانية اللَّه مؤيدون فى الأقوام الماضية، وحتى من قبل جماعة من المسلمين «القشريين المتحجرّين».

لذا فقد أكّد القرآن الكريم على مسألة نفى الجسميّة والمكان والجهة عن اللَّه سبحانه وتعالى.

بهذا التمهيد. ننطلق إلى القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية التالية:

۱- «لَّاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ». (الأنعام/ ۱۰۳)

۲- «وَلَمَّا جَآءَ مُوْسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ اِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۸

انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوْسَى صَعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤمِنِينَ».

(الأعراف/ ۱۴۳)

۳- «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوْسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنَ بَعْدِ مَاجَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً». (النساء/ ۱۵۳)

۴- «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أو نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً». (الفرقان/ ۲۱)

جمع الآيات وتفسيرها

العين لا تُطيق مشاهدة جماله:

ورد فى الآية الأولى من البحث بصراحة: «لَاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ»، ثم تضيف: «وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ».

وعليه فإنّ هذه الآية تنفى كل إمكانيةٍ لرؤيته تعالى سواء فى هذا العالَم أم فى العالَم الآخر.

وبديهى أنّ المقصود من معنى (لا تدركه الأبصار) هو عدم قدرة البشر على رؤيته بواسطة العين، وجَلّىٌ أيضاً أنّ كلمة (الأبصار) وردت بصيغة الجمع هنا من أجل التعميم والشمول لتشمل أى عينٍ مهما كانت قدرتها البصريّة شديدة.

وبالرغم من الصراحة التامة الموجودة فى تعبير هذه الآية فى بيان المقصود، نُلاحظ أنّ «الفخر الرازى» ومؤيديه استدلّوا بهذه الآية على إمكانية رؤية اللَّه، وتشبثوا لإثبات هذا المدّعى بتعابير واهية ومضحكة.

فقد قال الفخر الرازى فى بعض كلامه فى ذيل الآية أعلاه: «استدل أصحابنا بهذه الآية لإثبات إمكانية رؤية اللَّه يوم القيامة بطرق متعددة منها!!

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۶۹

۱- إنّ قول القرآن الكريم (لا تدركهُ الابصار) يفيد المدح وثبت أنّ ذلك إنّما يفيد المدح لو كان صحيح الرؤية، وهذا يدل على أنّ قوله تعالى: (ولا تدركهُ الابصار) يفيد كونه تعالى جائز الرؤية، وتمام التحقيق فيه أنّ الشى إذا كان فى نفسه بحيث تمتنع رؤيته، فحينئذٍ لا يلزم من عدم رؤيته مدح وتعظيم للشى.

وبعدما ثبتت إمكانية رؤية اللَّه يجب التسليم بأنّ هذه المسألة تحدث فى يوم القيامة! لأنّه ليس لدينا سوى رأيين حول هذه المسألة:

الأول: جواز الرؤية مع أنّ المؤمنين لا يرونه ولا تجوز رؤيته مطلقا فأمّا القول بأنّه تعالى تجوز رؤيته مع أنّه لا يراه أحد من المؤمنين فهو قول لم يقل به أحد من الامة فكان باطلًا.

فثبت بما ذكرنا أن هذه الآية تدل على أنّه تعالى جائز الرؤية فى ذاته.

الثانى: لا يرى بالعين وإنّما يرى بحاسة سادسة يخلقها اللَّه تعالى يوم القيامة.

الثالث: قوله: (لا تُدركه الأبصار) يفيد أنّه لا يراه جميع الأبصار فهذا بعينه سلب العموم ولا يفيد عموم السلب» «۱».

كان ذلك قسماً من استدلالاته بصورة ملخصة وموجزة، والحق أنّه يَبعث على الأسف فى أن يحوك مفسّر مثلهُ ويخلط المسائل مع بعضها بصورة محيّرة، على الرغم من قدرته الفكريّة، عندما يتورط فى أسر التعصُّبات الطائفيّة ويستدلُّ من دليلٍ واضحٍ على ضدّه!

ونحن لا نرغب أبـداً فی ذکر مثل هذه التعابیر بشأن أی أحدٍ، ولکن لو شاع هذا الاسـلوب، أی أن یتشـبث الإنسان لإثبات مطلبٍ معین بأمورٍ تـدل بالضـبط علی عکس ذلک المطلب، ویسـتدل بکل شـیء لإثبات کل شـیء لتعرضت الحقائق للانـدثار والضـیاع، ولأمکن إیجاد اسـتدلالٍ قرآنیٍّ لأیموضوع، ولـذا کان لابـدّ لنّا من الحـدیث بهـذه الطریقـة، ولزیادة توضـیح هـذا البحث نتطرق إلی رد تلک الاستدلالات الثلاثة المذکورة أعلاه.

أولًـا: إننـا نمـدح اللَّه تعـالی بصـفات سـلبیة کثیرةٍ وجمیعهـا محـال بشأنه، کقولنا بأنّ اللَّه لایفنی ولا یهلک أبـداً «کُلُّ شَـیءٍ هَالِکٌ إِلَّا وَجْهَهُ»، ومن المُسَلَّم به أنّ هلاک واجب الوجود

---

(۱) تفسیر الکبیر، ج ۱۳، ص ۱۲۵ و ۱۲۶.

محال، فهل یُمکن أن یستدل أحد بها علی إمکانیة هلاک وفناء اللَّه تعالی؟ بحجة أنّه لو کان محالًا لما صحّ مدحه بعدم الهلاک کما یدّعی: فهل یتفوّه عاقل بمثل هذا!؟

وکذلک مدح القرآن للَّه‌تعالی بتنزیهه عن الأب والصاحبة والولد والشریک: «أَنَّی یَکُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَکُن لَّهُ صَاحِبَةٌ». (الأنعام/ ۱۰۱)

وقال سبحانه: «لَمْ یَلِدْ وَلَمْ یُولَدْ وَلَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ». (التوحید/ ۳)

وعلی هذا الأساس فإنّ جمیع الصفات السلبیة أمور محالة بشأن اللَّه تعالی، لأنّها من صفات الممکنات، واللَّه واجب الوجود.

ثانیاً: لایوجـد فی الآیـة المـذکورة أی إشارة إلی الحاسة السادسة وما شاکلها، ولا تدخل فی إطار أیٍّ من المفاهیم المعروفة الموجودة فی کتب الأصول، إذن فلیس اثبات الشـی بمعنی نفی غیره، ولا نفی الشـیء یثبت شیئاً آخر، وعلیه فإذا قالت الآیة: «لا تدرکه الأبصار» فلیس مفهومها: إمکانیة رؤیة اللَّه بواسطةٍ اخری!

علاوةً علی ذلک فما هو المقصود من الحاسة السادسة؟

فإن کان المقصود منها المشاهـدة القلبیّة والرؤیـة بعین العقل فلا أحد یُنکرها، ولا علاقة لها بالرؤیة البصـریّة، وإن کان المقصود شـیئاً آخر فینبغی توضیحه وتشخیصه لیُمکن بحثه، لأنّ التکلّم فی موضوعٍ مبهمٍ وغیر مفهومٍ یعتبر لغواً.

ثالثـاً: إنّ قول الآیـة: «لاـ تـدرکه الأبصار» معناه عـدم قـدرة أی بصـرٍ علی رؤیته، وهو من قبیل (العموم الإفرادی)، ویمر علینا مثل هـذا التعبیر فی کلامنا الیومی بکثرة، کقولنا لا تطوله الأیدی، أو: لا یعرف الناس قَدرَهُ، أی، أیّ یدٍ وأیّ إنسان.

کما ورد فی بعض الأدعیة: «کلّت الألسُنُ عن غایة صفته، والعقول عن کُنه معرفته» «۱»

.

وکذلک نقرأ فی نهج البلاغة: «وأعجز الألسُنَ عن تلخیص صفته» «۲».

والحاصل أنّ دلالة الآیة علی عدم امکان الرؤیة واضح جدّاً ولا یمکن بای سفسطة اتخاذها دلیلًا علی إمکان الرؤیة.

---

(۱) دعاء یوم الأثنین للإمام السجاد علیه السلام.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۶۵.

یاموسی ارنا اللَّه جهرة!

تحدثت الآية الثانية عن القصة المعروفة لبنى إسرائيل الذين ألحّوا على موسى عليه السلام ليريهم اللّه تعالى، فأخذهم موسى بأمرٍ من البارى عزّ وجلّ إلى جبل (طور) ليحصلوا على جواب ماسألوا، فحدثت هناك حادثة عجيبة انكشفت فيها جميع الحقائق المرتبطة بهذا الموضوع.

قال تعالى: «وَلَمَّا جَآءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ». فسمع موسى عليه السلام هذا الجواب الجلى الواضح من ربّه: «قَالَ لَنْ تَرَانِى وَلَكِنِ انْظُرْ إِلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى».

فنظر موسى عليه السلام وسبعون رجُلا "من بنى اسرائيل، الذين كانوا معه إلى الجبل فتجلّى اللّه للجبل: «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً».

وكذلك الحال بالنسبة لمن معه من بنى اسرائيل: «فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ».

ولتكملة تفسير هذه الآية ينبغى الإجابة هنا عن عدّة أسئلة:

الأول: إذا كانت مشاهدة جمال اللّه مُحالةً (كما يُستنتج من عبارة «لَنْ تَرَانِى» فَلِمَ سأل موسى ربّه الرؤية مع أنّه كان رسولا؟"

يُمكن الإجابة عن هذا السؤال بسهولة وذلك بالإستعانة بآياتٍ قرآنيةٍ اخرى، وهو: إنّ هذا السؤال صدر من جُهلاء بنى إسرائيل الذين كانوا يُشكلون الأغلبية، كما نجد فى القرآن الكريم أنّ موسى عليه السلام قال بعد هذه الحادثة مخاطباً ربّه: «أَتُهلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا»؟

(الأعراف/ ۱۵۵)

فيُستنتج من هذا التعبير أنّ هذا السؤال لم يصدر من موسى عليه السلام، بل قد تعرض لضغوط أجبرته على طرح سؤال أولئك الجهلاء ليحصل لهم على جواب من ربّه وكذلك لألقاء الحجة عليهم.

ويستفاد بوضوح من قوله تعالى «يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِم كِتَابَاً مِّن السَّمَاءِ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۲

فَقَد سَأَلُوا مُوسَى أَكبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهرَةً فَأَخَذَتهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلمِهِم».

(النساء/ ۱۵۳)

و قال أيضاً: «وَإِذْ قُلتُم يَا مُوسَى لَن نُّؤمِنَ لَكَ حَتّى نَرَى اللَّهَ جَهرَةً فَأَخَذَتكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُم تَنْظُرُونَ». (البقرة/ ۵۵)

إنّ تعنت سفهاء بنى اسرائيل هو الذى دفعهم لتوجيه مثل هذا السؤال إلى موسى عليه السلام وكان عليه السلام قام بنقل سؤالهم فقط، ليسمعوا الجواب الإلهى الرادع.

وإن أصّر أمثال الفخر الرازى على كون هذا السؤال قد صدر من موسى عليه السلام فاستفاد منه الفخر الرازى إمكانية رؤية اللّه تعالى البصريّة، حيث يقول: «وإلّا لما سأل رسول عظيم كموسى عليه السلام مثل هذا السؤال»، فهو إصرار فى غير محلّه، وقد أبطلته الآيات أعلاه بوضوح.

عجيب حقّاً، فبالرغم من أن الآية الشريفة تصرح: (لن ترانى) وكون (لن) أداة للنفى الأبدى، أى إنّك لن ترانى أبداً، وعدّت الآية هذا السؤال من قبل بنى إسرائيل تعدّياً ووقاحةً، وأنذرت بالصاعقة عقاباً عليه، مع كلّ ذلك نجد أنّ جماعة من المتعصبين يُصرون على عدم دلالة الآية بأى شكلٍ على نفى رؤية اللّه، بل بالعكس!

ويجب الإعتراف أنّ آفة التعصُّب آفة عجيبة بامكانها أن تحط حتى من مستوى عالمٍ كبير إذا أُصيب بها وتجعله يتوسل بأدلة غير منطقية وبعيدة عن العقل والصواب.

والنقطة الاخرى: هى أنّ المقصود من التجلى الإلهى فى هذه الآية هى (الصاعقة) بذاتها، والتى تُعد مخلوقاً من المخلوقات، وشُعاعاً من الأفعال الإلهيّة، وهى كناية عن أنّكم إذا لم تقدروا على رؤية الصاعقة التى تُعد شرارة صغيرة فى هذا الوجود العظيم وما لها من

تـأثير عليكم، حيث تكون مصـحوبة بـالهول والرعب، فهى قـادرة على أن تصـرعكم جميعـاً، وتـدكّ الجبـل، وتزلزل الأـرض. فكيف تُريدون رؤية الذات الإلهيّة المنقطعة النظير؟!

والحقيقة إنّ التجلى الإلهى كان إجابةً وعقوبةً لهم فى نفس الوقت!

وآخر الكلام هو: لماذا طلب موسى عليه السلام التوبة من البارى بعد أن أفاق؟

إنّ هذا الطلب يُمكن أن يحملَ على احتمالين:

الأول: كما أنّ طلب موسى عليه السلام الرؤية كان نيابةً عن بنى اسرائيل فإنّ طلبه التوبة من

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۳

البارى كان نيابةً عن قومه أيضاً.

الثانى: أنّ موسـى عليه السـلام كان يخشـى من أنّ هذا المقدار من (النيابة عن بنى اسـرائيل) يُمكن أن يؤثر سـلبياً على إيمانه وقدسـية اعتقاده، لذا فانّه أعلن توبته وإيمانه لتسمو قداسته قدر الإمكان.

وكـذلك نجـد أنّ الفخر الرازى غرق فى دوّامـة تعصُّبه أيضاً، ولم ينكر دلالة الآية على اسـتحالة رؤية اللّه تعالى فحسب، بل أصّـر فى قوله على أنّ جوانب عديدة من الآية تدل على إمكانية الرؤية! ثمّ أدرج أموراً لا تسـتحق صـرف الوقت لعرضها من جهة، ولا هى أهلًا للإجابة عليها من جهةٍ أُخرى؟ وقد لاحظتم نماذج منها فى تفسيره للآية الماضية.

ويتضح تفسير الآية الثالثة من خلال تفسير الآية الثانية، ولزيادة التوضـيح نضـيف: إنّ اللّه سـبحانه وتعالى عَّد طلب بنى اسرائيل الذين قالوا لموسى عليه السـلام: «أَرِنَا اللَّهُ جَهْرَةً» ذنباً عظيماً وظلماً فاحشاً؟ وإنّه الـذنب الـذى أعقبه نزول العذاب الإلهى، لذا قال اللّه تعالى: «يَسأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيهِم كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَد سَأَلُوا مُوسَى أَكبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ».

ماذا ارتكب اليهود من ظلم فى هذا المجال؟ إنّهم اعتبروا ربّهم العظيم بمستوى موجودٍ جسمانى مادّى، وطلبوا مشاهدته.

وبسبب اساءتهم الأدب فى اعتبارهم هـذا أخـذتهم الصاعقة لتكون عقوبةً وعبرةً لهم فى نفس الوقت، وليعلموا أنّهم عندما لا يقدرون على مشاهـدة هـذا المخلوق الإـلهى الصـغير الـذى لاـ يساوى أكثر من شـرارةٍ فى عالم الوجود العظيم، فكيف يُريـدون مشاهـدة خالق الشمس والقمر والنجوم وعالم الوجود!؟

إنّ هذه المسألة يستطيع كل واحدٍ أن يتوصل إليها بدون أن يطالع ويُحقق فى قرائن الآية.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۴

وما ورد فى بعض كلام (الأشاعرة) أنّ هـذا التوبيـخ والعقاب الـذى نزل بهم كان بسـبب طلبهم هذا الشـى من اللّه تعالى فى الدنيا، مع كون الآخرة هى محل المشاهدة! «۱» يُعدُّ كلاماً ضعيفاً جدّاً.

لأـنّ التفـاوت الموجود بين الـدنيا والآـخرة فى مثل هـذه الموارد موضوع لا يسـتحق التوبيـخ والعقاب، ولحن الآيـة يـدل على أنّهم قد ارتكبوا إساءة فظيعة تجاه ساحة القدس الإلهيّة، وهى وصـفهم الذات الإلهيّة بصفة لا تليق به سبحانه، بل هى خاصّة بالممكنات، وإنّهم سلكوا طريق الشرك.

وأمّا ماهو مقصود أهل الكتاب بطلبهم إنزال كتاب من السماء عليهم؟ فهناك تفاسير متعددة:

قيل: إنّ مقصودهم هو الإستهانة بالقرآن، وسألوا الرسول أن يُنّزل عليهم ألواحاً كالألواح التى نزلت على موسى عليه السلام.

وقيل: إنّهم كانوا يريدون كتاباً خاصّاً بهم أو برؤسائهم وكبرائهم!

وقيل أيضاً: إنّهم كانوا يريدون كتاباً خاصّاً من اللّه تعالى يدعوهم إلى الإيمان بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وأيّا كان من هذه المعانى فإنّه يدل على عنادهم والحاحهم وعدم تسليمهم للحق، وبديهى أنّ مثل هذا الطلب يستحق التوبيخ والعقوبة.

عدم امكانية رؤية اللّه!

وأمّا الآية الرابعة والأخيرة فقد وبّخت وبشدة اولئك الذين سألوا الرؤية.

قال تعالى: «وَقَالَ الَّذِينَ لَايَرجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا المَلَائِكَةُ أَو نَرَى رَبَّنَا». إنّ استكبارهم وعدم إيمانهم بالمعاد كان وراء طلبهم هذين الأمرين، ثم يضيف تعالى: «لَقَدِ

---

(۱) تفسير الكبير، ذيل الآية ۵۵ من سورة البقرة.

استَكبَرُوا فِى أَنفُسِهِم وَعَتَو عُتوّاً كَبِيراً».

فهم قد سألوا أحد أمرين: إمّا نزول الملائكة عليهم أو رؤية اللّه عزّ وجلّ، والمقصود من الملائكة هو ملك الوحى جبرائيل، أى أن ينزل عليهم بصورة مباشرة بدلا "من رسول الإسلام محمّد صلى الله عليه و آله، أو أن ينزل عليهم ليشهد على صدق الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله!

وقد نزل الجواب القرآنى على شطرين أيضاً، والذى يُعتقد بأنّ الأول يخص سؤال نزول الملائكة فيقول: «لَقَدِ استكبَرُوا فِى أَنفُسِهِم» بسؤالهم هذا.

والشطر الثانى يخص سؤال رؤية اللّه حيث قال: «وَعَتَوْ عُتُوّاً كَبِيراً».

وأىُّ عتوٍ أكبر من مقارنة الذات الإلهيّة الفريدة بالأجسام الماديّة والموجودات الممكنة الوجود، وجعلها عُرضةً للزمان والمكان والعوارض الجسمانيّة؟

ويشير لحن الآية بوضوح إلى عدم إمكانية رؤية اللّه عزّ وجلّ، لأنّه لو كان ممكناً لما كان هنالك خلل وإشكال فى سؤالهم ذاك.

النتيجة:

يُستفاد من مجموع الآيات المذكورة عدم إمكانية رؤية اللّه عز وجل بأى شكل، على خلاف عقيدة البعض الذين يقولون: إنّ مراد هذه الآيات هو الحياة الدنيا ولا يشمل الآخرة).

فالآيات التى ذُكرت ذات مفهومٍ واسع وعميق يشمل كلا الحياتَين، ولحنها يدل على استحالة تحقق هذا الأمر، والمحال محال فى كليهما. (فتأمل جيداً).

توضيحات

۱- لماذا تستحيل رؤية اللّه تعالى؟

إنّ الدلائل العقليّة الواردة فى الآيات الآنفة الذكر أثبتت بأنّ المرئىّ أو المُشاهَدَ لابدّ انْ يحدد بمكان وزمان وجهة، وهذه الامور غير ممكنة بشأن البارى سبحانه. لأننا نعلم بأنّ

لكل جسم أجزاء، علاوةً على خضوع جميع الأجسام للتغيُّر والتحوُّل، وكونها ذات عوارض كاللون والحجم والأبعاد.

فى حين أنّ واجب الوجود ليس لَهُ جزء، وغير خاضع للتغيُّر والتحول؟ ولا يقع محلًا للحوادث، ولا يعترضُه شىء، فجميعها من صفات الممكنات.

قال بعض مؤيدى عقيدة إمكانية الرؤية فى مقابل هذا الاستدلال: (ليس لدينا أى دليلٍ على كون الرؤية البصرية مخصوصة بالأجسام؟ فما المانع فى أن تُرى الأمور غير الماديّة بالعين؟ وخاصةً إذا ما تغيرت القدرة البصريّة وصارت بمستوى أقوى ممّا هى عليه الآن؟

إنّ بُطلان هذا الكلام بيّن، لأنّ الرؤية البصريّة ذات حالة ماديّة، وهذا الأمر المادى يتعلق بالأمور الماديّة حتماً، وليس من المعقول أن يرى الإنسان ما وراء المادّة بالوسائل الماديّة.

يقول العلامة الطباطبائى رحمه الله حول هذه المسألة فى تفسير الميزان: «الرؤية البصرية سواءً كانت على هذه الصفة التى هى عليها اليوم أو تحولت إلى أىّ صفة اخرى، هى معها مادية طبيعية متعلقة بقدر وشكل ولون وضوء تعملها أداة مادية طبيعية فانّها مستحيلة التعلق باللَّه سبحانه فى الدنيا والآخرة» «۱».

علاوةً على هذا فالآيات القرآنية صرحت: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ». (الشورى/ الآية ۱۱)

لذا فهو ليس له شبهٌ بالأجسام الماديّة؟ وليس شيئاً مادياً يمكن مشاهدته، فلا يحدّه مكان ولا زمان، ولا يمكن الإشارة إليه بشكل محسوس.

۲- منطق القائلين بامكانية الرؤية

انقسم المسلمون فى مسألة رؤية اللَّه إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: التى انضمّ إليها الفلاسفة والمحققون العظام، حيث تعتقد بأنّ رؤية اللَّه أمر محال مطلقاً.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۸، ص ۲۶۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۷

الطائفة الثانية: وهم المجسّمون الذين يعتقدون بأنّ للَّه جسماً، وعليه يُمكن رؤيته.

الطائفة الثالثة: وهم جماعة (أبو الحسن الأشعرى) «۱»: أحد متكلمى القرن الثالث، ولهم كلام عجيب حول هذه المسألة، فهم يقولون: «بالرغم من أنّ اللَّه عزّ وجلّ مجرّد عن الجسميّة والمادّة ولكن يُمكن رؤيته، وهذه الرؤية تتحقق فى الآخرة فقط، لا فى الدنيا، فهنالك يرى المؤمنون اللَّه تعالى بالعين المجردة!».

يقول (فاضل القوشچى) فى (شرح تجريد العقائد للشيخ الطوسى): «اعتقد الأشاعرة بإمكانية رؤية اللَّه، فالمؤمنون يرونه فى الجنّة؟ لكنها رؤية منزهة عن المقابلة وخالية من الجهة والمكان.

ثم أضاف: اتفق جميع القائلين باستحالة الرؤية البصريّة على أنّ الانكشاف العلمى التام ممكن (إمكانية رؤيته تعالى بعين العقل والقلب)، هذا من جهة، ومن جهةٍ اخرى اتفق القائلون بامكانية الرؤية البصرية أيضاً على استحالة تشكُّل صورة البارى تعالى فى عين الإنسان، أو رؤيته بواسطة الاشعة الخارجة من العين» «۲».

ويجدر الأنتباه إلى وجود رأيين بين الفلاسفة الماضين حول حقيقة الرؤية، فجماعة كانوا يؤيدّون خروج الشعاع ويقولون: الرؤية هى خروج شعاعٍ من عين الإنسان ووصوله إلى الشىء المرئى فيراه الإنسان).

وجماعة آخرون اعتقدوا بأنّ حقيقة الرؤية هى تشكل صورة المرئى فى العين، ونحن نعلم أنّ علماء العلوم الطبيعيّة اليوم يؤيدون

النظريّة الثانية، وأثبتوها بأدلّةٍ حسيّة وقالوا:

(إنّ تركيب العين من هذه الناحية يشبه بالضبط آلة التصوير، فلابدّ أن ينعكس النور

---

(۱) كان اسمه على بن اسماعيل، ويرجع نسبه إلى أبى موسى الأشعرى، ولدَ فى البصرة عام ۲۶۰ أو ۲۷۰، وفىالبداية كان يميل إلى مبانى مذهب المعتزلة، ثم عدل إلى مذهب اللَّه ومخلوقية القرآن، وابتدع مذهباً جديداً فى أصول الدين كان أقرب إلى ذهن العامة وأكثر استحساناً من قبل المتعصبين، لذا فقد اعتنق الكثير مذهبه، وسلك طريقه جمع من العلماء كالغزالى وأبى بكر الباقلانى والفخر الرازى والشهرستانى وأبى اسحاق الشيرازى وقام بترويج عقائده بعض أرباب السلطة الذين اتخذوا من الدين وسيلةً لنيل مآربهم السياسيّة أمثال الأيوبيين فى مصر والشام والموحدين فى المغرب. (دائرة المعارف، أبو الحسن الأشعرى- بتلخيص بسيط).

(۲) شرح القوشچى، ص ۴۳۵ و ۴۳۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۸

الخارجى عن الجسم المرئى ليدخل العين أو آلة التصوير فتطبع صورتهُ على شبكيّة العين أو فلم التصوير).

والعجيب أنّ الأشاعرة فى مقابل هذا الكلام- وهو عدم إمكانية أى واحدٍ من المعنيّين المذكورين للرؤية بالنسبة إلى اللَّه عزّ وجلّ المجرّد عن المادة- يقولون: لا تنحصر الرؤية بهذه الأمور، خصوصاً عندما يدور الكلام حول رؤية الأمور الغيبيّة أو الغائبة!

فيمكن أن يرى الأعمى الأشياء التى تبعد عنه بفاصلة مكانية كبيرة، فمثلا "يُمكن أن يرى عمارات الأندلس من هذه النقطة من العالَم!!

تدل هذه التعابير بوضوح على المغالطة اللفظية التى يستعملها هؤلاء، واعتبارهم للرؤية مفهوماً مغايراً لما هو موجود فى العرف واللغة.

فانْ كان مقصودهم من الرؤية، الرؤية بعين القلب (البصيرة) والإدراك العقلى، فهذا مااتفق عليه جميع العلماء ولا حاجة للجدال والمناقشة فيه.

وإن كان مقصودهم هو الرؤية بالعين الظاهريّة، فهو لا يتحقق سوى بانعكاس نور الأجسام على شبكية العين.

وإن كان هناك نوع ثالث من الرؤية، فهو ادّعاءٌ مبهم، وغير معقول، وغير قابل للتصوّر، نعلم أنّ التصديق بلا تصوُّ ر أمر محال.

ويظهر أن الأشاعرة تخلّوا عن ادّعائهم تدريجياً عندما عجزوا عن الإتيان بدليلٍ واقعى، واقتصروا على استعمال لفظ الرؤية فقط من دون أن يكون لها مفهومٌ غير المشاهدة بعين العقل، لأننا عندما نقول: إنّ رؤية اللَّه مجرّدة عن المكان والجهة وانعكاس صورة المرئى فى العين، وأنّ مثل هذه الرؤية قد تتحقق حتى عند الأعمى أيضاً، فإنّها لا تعنى سوى الرؤية الباطنية والقلبية.

والاغرب من ذلك هو أنّ البعض منهم قد جعلوا المسألة أكثر غموضاً فقالوا: إنّ اللَّه يهب للمؤمنين حاسة سادسةً يوم القيامة ليتمكّنوا من رؤيته بها!

وبغض النظر عن كون التعبير بالحاسة السادسة تعبيراً مبهماً وغامضاً، فإنّه لا يحل

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۷۹

مشكلة المشاهدة والرؤية، ولا يصحُّ استعمال لفظ الرؤية هنا سوى بالمعنى المجازى.

والسبب الذى أدى بالأشاعرة وأمثالهم إلى الاعتقاد بمسألة رؤية اللَّه يوم القيامة هو التقيُّد ببعض الروايات التى يوهم ظاهِرُها بشيءٍ من هذا القبيل، وسنتعرض لها فى البحث الذى يلى هذا البحث إن شاء اللَّه.

۳- الروايات الدالّة على انتفاء رؤية اللَّه

هنالك روايات وردت فى نهج البلاغة، وكذلك سائر مصادر علوم أهل البيت عليهم السلام تُصرّح بانتفاء رؤية اللَّه تعالى بالعين

الظاهريّة، وتتخذ من الرؤية بعين البصيرة بديلًا لها، نذكر قسماً منها كنموذج:

۱- نقرأ فی الرواية المعروفة الواردة فی نهج البلاغة؟

وقد سأله ذعلب اليمانی فقال: هل رأيت ربك ياأمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: «أفأعبد مالا أرى » فقال: وكيف تراه؟ فقال عليه السلام: «لا تدركه (تراه) العيون بمشاهدة العيان، ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان» «۱»

.

۲- ورد فی رواية: إنّ أبا هاشم الجعفری سأل الإمام الباقر عليه السلام، وكان من أصحابه عليه السلام عن تفسير قوله تعالى: «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الابصار»؟ فقال: «يا أبا هاشم أوهام القلوب أدقُّ من أبصار العيون، أنت قد تدرك بوهمك السند والهند والبلدان التی لم تدخلها، ولا تدركها ببصرك، وأوهام القلوب لا تدركه فكيف أبصار العيون؟!» «۲»

.

۳- ونقرأ فی حديث آخر أن أحد الخوارج سأل الإمام الباقر عليه السلام: أیّ شیءٍ تعبدُ؟ قال:

«اللَّه تعالى»، قال: رأيته؟ قال: «بل لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يعرف بالقياس ولا يُدرك بالحواس ولا يُشبَّه بالناس؛ موصوف بالآيات،

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۷۹.

(۲) اصول الكافی، ج ۱، ص ۹۹، (باب فی ابطال الرؤية) ح ۱۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۰

معروف بالعلامات لا يجوز فی حكمه؛ ذلك اللَّه، لا إله إلّاهو»؛ قال: فخرج الرجل وهو يقول: «اللَّه أعلم حيث يجعل رسالته» «۱».

۴- فی حديث آخر نقل جواب الإمام الحسن العسكری عليه السلام عن سؤال: كيف يعبد العبدُ ربّهُ وهو لا يراه؟ فوقَّع «۲» عليه السلام: «يا أبا يوسف جَلَّ سيدی ومولای والمنعم علیَّ وعلى آبائی أن يُرى . قال (الراوی): وسألته هل رأى رسول صلى الله عليه و آله ربّه؟ فوقَّع عليه السلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ماأحبّ» «۳».

۵- فی حديث آخر عن عاصم بن حميد، قال: ذاكرت أبا عبد اللَّه عليه السلام فيما يروون من الرؤية (أهل السنة)، فقال: «الشمسُ جزءٌ من سبعين جزءاً من نور الكرسی، والكرسی جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من سبعين جزءاً من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءاً من نور الستر، فإن كانوا صادقين فليملأوا أعينهُمْ من الشمس ليست دونها سحاب» «۴»

.

فالعرش، والكرسی، والحجاب، والستر، كِناية عن العوالم الغيبيّة الإلهيّة المختلفة، أی أنّ الشمس بعظمتها هی إحدى موجودات عالم الوجود، والإنسان الذی لايقدر أن يرى هذا الموجود الصغير بعينه كيف يقدر على مشاهدة ذات البارى المقدّسة؟ وهذا بالحقيقة شبيه ماورد فی سورة الأعراف فی قصة موسى عليه السلام، وبنی اسرائيل، ودك الجبل بالصاعقة، وعدم قدرة بنی اسرائيل على مشاهدة هذه الشرارة الصغيرة من عالم الوجود.

۶- فی حديث آخر عن صفوان بن يحيى قال: سألنی أبو قرّة المحدّث أن أدخلهُ على أبی الحسن الرضا عليه السلام فاستأذنته فی ذلك فأذن لی، فدخل عليه فسأله عن الحلال والحرام .... حتى بلغ سؤاله التوحيد، فقال أبو قرّة: إنّا روينا أنّ اللَّه عزّ وجلّ قسم الرؤية والكلام بين اثنين، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ولمحمد صلى الله عليه و آله الرؤية، فقال أبو الحسن عليه السلام: «فمن المبلغُ

---

(۱) اصول الكافی، ج ۱، ص ۹۹، ح ۵.

(۲) فوقَّعَ، أى كتب.

(۳) توحيد الصدوق، ص ۱۰۸، ح ۲.

(۴) توحيد الصدوق، ص ۱۰۸، ح ۳؛ وأصول الكافى، ج ۱، ص ۹۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۱

عن اللَّه عزّ وجلّ إلى الثقلين الجن والانس «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» «ولا يحيطون به علماً» «وليس كمثله شىءٌ» أليس محمد صلى الله عليه و آله» قال: بلى قال: «فكيف يجيءُ رجلٌ إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنّه جاء من عند اللَّه وأنّه يدعوهم إلى اللَّه بأمر اللَّه ويقول «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» «ولا يحيطون به علماً» «وليس كمثله شىءٌ» ثم يقول: أنا رأيته بعينى، وأحطتُ به علماً وهو على صورة البشر، أمّا تستحيون؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا أن يكون يأتى عن اللَّه بشىءٍ، ثم يأتى بخلافه من وجه آخر» «۱»

.

إنّ الأحاديث الواردة حول هذا الموضوع كثيرة، فقد ذكر المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار حوالى ۳۴ حديثاً، والمرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد ۲۴ حديثاً، والمرحوم الكلينى فى اصول الكافى ۱۲ حديثاً، وكلهاتدل على خلوص وطهارة المذهب التوحيدى لأهل بيت الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، الذى انتشر بين المسلمين، وما ذكرنا أعلاه يُعدُّ جانباً منه، والذى يفنّد خرافة (رؤية اللَّه) بالعين الظاهريّة «۲».

خلاصة الكلام هو أنّ بطلان مسألة (رؤية اللَّه) بالعين الظاهرية أمربَيّن وواضح من حيث الدليل العقلى، وكذلك من خلال القرآن والروايات الإسلاميّة الصحيحة.

والآن نتوجه إلى شبهات القائلين بإمكان الرؤية وأجوبتها:

۴- أدلّة القائلين بالرؤية الظاهريّة

وكما أشرنا فيما مضى، فإنّ هناك جماعة من علماء أهل السُّنّة الماضين وحتى المعاصرين المؤيدين لمسألة الرؤية، يصرحون أحياناً بإمكانية رؤية اللَّه بالعين الظاهرية هذه، ولكن لا فى الدنيا، بل فى الآخرة! وأحياناً اخرى يؤوّلون ذلك بقولهم: (إنّ اللَّه يُرى فى الآخرة بواسطة الحاسة السادسة التى يخلقها لعباده المؤمنين، أو بعينٍ غير هذه العين

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۱۱۱، ح ۹.

(۲) راجع بحار الأنوار، ج ۴ ص ۲۶؛ و توحيد الصدوق، ص ۱۰۷- ۱۲۲؛ وأصول الكافى، ج ۱، ص ۹۵- ۹۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۲

والتى يمتلكها حتى الأعمى.

ويظهر أنّ الشىء الأساس الذى قادهم إلى التسليم بهذا المعتَقد والإشتباه فى تفسير الرؤية وتوجيه كلامهم بتوجيهات عجيبة، هو الروايات الواردة فى كُتُبهم عن الرسول محمد صلى الله عليه و آله، بالدرجة الاولى، وبالدرجة الثانية هو ظواهر بعض الآيات القرآنية التى لم تفسَّر بصورة صحيحة.

۱- ورد فى الحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «إنّكم سترون ربّكم كما ترون هذا القمر لاتُضامّون فى رؤيته» «۱»

.

۲- وفی حدیث آخر عن ابی هریرة أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله سأل أصحابه: «تضامّون فی رؤیة القمر لیلة البدر؟ فقالوا: کلّا أیّ اننا نری القمر بدون أن نزدحم فی رؤیته».

فقال صلی الله علیه و آله: «کذلِکَ لا تُضامُّونَ فی رؤیةِ ربّکم یومَ القیامة» «۲».

۳- وفی روایة اخری فی نفس هذا الکتاب عن «ابو رزین» عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«ضحک ربُّنا من قنوط عباده وقُرب غیرهِ.

فقال الراوی: فسألته هل یضحک ربُّنا یارسول اللَّه؟

فقال: نعم، فقلت: لن نعدم من ربٍّ یضحک خیراً» «۳».

۴- وفی حدیث آخر عن «أبو عاصم العبادانی» ... عن جابر بن عبد اللَّه، عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «بینا أهلُ الجنّة فی نعیمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الربّ قد أشرفَ علیهم من فوقهم فقال: السلام علیکم یا أهل الجنّة! قال وذلک قول اللَّه سلامٌ قولًا من ربٍّ رحیم، فینظر إلیهم وینظرون إلیه» «۴».

بعد أن نقل ابن ماجه الحدیث المذکورة نقل عن السیوطی فی مصباح الزجاجة کلاماً

---

(۱) سنن ابن ماجه، ج ۱ (المقدمة- الباب ۱۳، ح ۱۷۷) نلاحظ فی مجمع البحرین (تَضامَّ القوم أی انضمّ بعضهم إلی بعض).

(۲) المصدر السابق، ح ۱۷۸.

(۳) المصدر السابق، ص ۶۴، ح ۱۸۱.

(۴) المصدر السابق، ص ۶۵، ح ۱۸۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۳

یدل علی عدم الوثوق بأحادیث أبی عاصم العبادانی.

وقد ورد الحدیث الأول أیضاً فی صحیح البخاری، الذی یُعَدُّ من أشهر مصادر الحدیث لدی أهل السُّنّة، عن (جریربن عبداللَّه) فی کتاب (مواقیت الصلاة) فی بابین مختلفین مع اختلافٍ بسیط «۱».

وقد نُقلَ بصراحة فی قسم تفسیر الآیات من المجلّد السادس لصحیح البخاری أیضاً مسألة رؤیة اللَّه یوم القیامة «۲».

۵- یُلاحظ فی کتاب الصلاة من «صحیح مسلم» وجود عدّة روایات منقولة عن «أبی هریرة» حول نزول اللَّه تبارک وتعالی کلّ لیلة إلی السماء الدنیا، من جملتها عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ینزل اللَّه إلی السماء الدنیا کل لیلة حین یمضی ثلث اللیل الأوّل ...» «۳».

مع أنّ هذه الروایة لا تتحدث عن مسألة الرؤیة لکنّها تشتمل علی مسألة تجسیم اللَّه عزّ وجلّ، ونسب العوارض إلیه أیضاً، کالمکان والحرکة والنزول والصعود!

إنّ هذه الروایات- ومع الاسف- قد وردت مراراً فی مصادرهم الشهیرة التی ذکرنا قسماً منها أعلاه، وبما أنّها تخالف صراحة الآیات القرآنیة التی تقول «لا تدرکهُ الأبصار» و «قَالَ لَن تَرانی» ومخالفة لحکم العقل أیضاً فیجب أن تُهمل، وإن لم یُعثر لها علی تفسیر وتوجیه واضح، فیجب القول: إنّها روایات مجهولة ونسبت إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله).

والعجیب، أنّ أکثر هذه الروایات منقولة عن طریق أبی هریرة المشکوک فی أمره من عدّة جوانب.

وکما نقلنا فی روایة الإمام الرضا علیه السلام: کیف یُمکن لأجیر أن یُبلّغ عن اللَّه عبارات صریحة تقول بعدم إمکانیة رؤیة اللَّه أبداً، ثم یدّعی بأنّ المؤمنین یَرون اللَّه فی القیامة، أو بأنّ اللَّه ینزل إلی السماء الدنیا کُلّ لیلة؟ وهذا تضادٌّ غیر ممکن، إضافة إلی هذا، فالروایات

(۱) صحيح البخارى، ج ۱، ص ۱۴۵ و ۱۵۰.

(۲) المصدر السابق، ج ۶، ص ۵۶ تفسير سورة النساء.

(۳) صحيح مسلم، ج ۲، ص ۱۷۵، كتاب صلاة المسافرين، (باب الترغيب فى الدعاء).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۴

الآنفة الذكر كما تقول بامكانية رؤية اللَّه، تُصرح أيضاً بجسمانية اللَّه، وتنسِبُ إليه الصعود والنزول والضحك والقهقهة، وهذا شىء لا يتقَبلهُ حتى الأشاعرة الذين يعتقدون بالرؤية، وذلك لأنّهم يقولون بصراحةٍ: إنّ رؤية اللَّه لاتعنى تجسيمه، وهذا شاهد آخر على كون هذه الروايات موضوعة.

وكذلك ماورد فى (سنن ابن ماجة) عن عبد اللَّه بن عمر أنّه سمعَ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال:

«يُدنى المؤمن من ربّه يوم القيامة حتّى يضع عليه كنفَه ...» «۱».

فلو لم تُحمل هذه التعابير على المعانى المجازيّة والكنائيّة، فهى حتماً تدلُّ على مجهولية هذه الروايات التى تجعل للَّه‌ذراعاً وصدراً وجناحاً، وبواسطتها تُعرض الأفكار المنحطّة للقائلين بالجسميّة، فى قالب أحاديث مَجعولة.

والأعجب من ذلك وهو جود جماعة لحدّ الآن يؤيدون مسألة رؤية اللَّه، وذلك بسبب تقيدُّهم بمثل هذه الروايات المبتدَعة.

فى حين أنّ مذهب أهل البيت عليه السلام قد نفى هذه العقيدة مطلقاً لأنّها مرفوضة من قِبل العقل والآيات القرآنية.

ومن بين الآيات الشريفة التى يستند عليها القائلون بالرؤية هى «وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». (القيامة/ ۲۲- ۲۳)

فى حين أنّ كلمة (ناظرة) المشتقة من مادة (نظر) تأتى بمعنى المشاهدة، وبمعنى الإنتظار، وعلى أيّة حال يجب أن توضع هذه الآية إلى جنب الآيات القرآنية الاخرى التى تقول «لا تدركه الأبصار» وأن تُفسَّر هذه المتشابهة بتلك المحكمة.

وتستعمل هذه التعابير الكنائيّة بكثرة، كقولنا: (فُلان ينظر إليك فقط، أو عينه عليك) أى يتوقع منك المحبّة واللطف والرأفة، فأصحاب الجنّة أيضاً ينظرون يوم القيامة إلى ربّهم ويرجون منه اللطف والرحمة.

والملفت أنّ تقدُّم الجار والمجرور فى جملة «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» يعطى معنى الحصر (أى

(۱) سنن ابن ماجة، ج ۱، ص ۶۵، المقدمة، ح ۱۸۳- كنف على وزن هدف، له معانٍ عديدة من جملتها الذراع، الصدر، الجناح، الجانب، والظل.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۵

إنّها ناظرة إلى ربّها فقط)، فى حين أنّهم يُشاهدون أنواع نِعَم الجنّة بأعيُنهم، كالأشجار والأنهر والثمار والحور العين وغير ذلك بنفس الوقت، ممّا يدلّ بحد ذاته على أن هذه النظرة إليه تعالى والمختصّة بذاته المقدّسة، هى انتظار كرمه وعفوه.

والاحتمال الآخر الوارد فى تفسير الآية، هو أَنَّ المقصود من النظرة هى الشهود الباطنى، والرؤية الصريحة بعين القلب والبصيرة، والخالية من كل ألوان الشّك والترديد.

والحديث النبوى المنقول عن أنس بن مالك يُعدُّ خير دليلٍ على هذا الإدعاء وهو:

«ينظرون إلى ربّهم بلا كيفيّة ولا حد محدود ولا صفةٍ معلومة» «۱».

ومن المُسلَّم أنّه لو كان المقصود من الرؤية هو الرؤية البصريّة الظاهريّة فهى مستحيلة بدون وجود كيفيّة وصفة معلومة.

يقول العلّامة الكبير المرحوم (السيد شرف الدين) فى كتاب (كلمة حول الرؤية)- بعد أن تطرّق إلى الأحاديث التى نقلها محدثو أهل السُّنّة بخصوص رؤية اللَّه يوم القيامة-: (إنّهم بحملهم هذه الروايات على الصحّة اضطرّوا إلى سلوك الطريق الذى سلكه القائلون

بجسمانية اللّه، الطريق المخالف للعقل والنقل، فى حين أنّه لا هذه الأحاديث صحيحة، ولا ماورد فيها شيء يقبله العقل والشرع، ولكن كثرتها أدّت بهم إلى تعطيل حكم العقل، وحتّى إلى تطبيق آيات من القرآن الكريم معها.

إنّه عمل غير متوقّع، إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ!.

ثم تطرّق إلى آية: «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»، وأضاف قائلا: "التعبير بكلمة (نظر) خصوصاً عندما تتعدى ب (إلى) لا يعنى الرؤية والمشاهدة أبداً، بل يعنى صرف النظر إلى شيء حتى وإن لم يكن مرئيّاً، كما صرّح بذلك أرباب اللغة، مضافاً إلى ذلك وورد فى القرآن الكريم: «وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيكَ وَهُمْ لَايُبصِرُونَ» (الأعراف/ ۱۹۸)

والذى يتبادر إلى الذهن من الآية أعلاه هو ذلك الانتظار للفضل الإلهى يوم القيامة، (وكما أشرنا سابقاً) فإنّ استعمال هذه الكلمة بهذا المعنى والمفهوم يُعَدُّ حقيقةً لا مجازاً،

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲۰ ص ۲۰۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۶

وهى ملحوظة فى الأشعار والكلمات اليوميّة التى تمر علينا كقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدرٍ إلى الرحمن تنتظر الخلاصا ويقول الشاعر الآخر:

إنّى إليك لِما وعدتَ لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر ثم أضاف قائلًا: إنّى أتعجّب من هؤلاء الأخوة كيف استدلوا بهذه الآية على إمكانية رؤية اللّه وحصولها، وغاب عنهم معناها الظاهرى؟ فى حين أنّهم عندما يَصِلون إلى الآيات المشابهة لهذه الآية يؤوّلونها، كالآية: «الرَّحمَنُ عَلَى العَرشِ استَوَى . (طه/ ۵)

و «يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيدِيهِمْ» (الفتح/ ۱۰)

ولا يحملون هذه الآيات على معنى جسمانية اللّه والمكان والحركة، بل يعتبرون الأولى بمعنى سلطة اللّه الربوبيّة على العرش، والثانية كناية عن قدرته الفائقة جلّ وعلا.

ولا يُعلَم سبب هجرهم للمعنى الجلى لجملة «إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» واندفاعهم نحو مسألة الرؤية.

مضافاً إلى ذلك فيُمكن أن تكون هذه الآية كناية عن الرؤية بعين البصيرة، كما ورد فى كلام أمير المؤمنين على عليه السلام عندما قال: «لو كُشِفَ لىَ الغطاء ماازددتُ يقيناً». أو يقول فى موضعٍ آخر: «أَوَ أعبُدُ ربّاً لم أرهُ»؟ ثم صرّح قائلا: "لا تراه العيون بمشاهدة العيان ولكن تدركه القلوب بحقائق الإيمان».

أو ماورد فى كلام ولده الإمام سيد الشهداء الحسين عليه السلام فى دعاء عرفة مخاطباً ربّه:

«عميت عين لا تراك عليها رقيباً»! «۱».

والآية الاخرى التى استندوا عليها لإثبات مقصودهم هى «كَلَّا إِنَّهُم عَن رَّبِّهِم يَوْمَئِذٍ لَمحَجُوبُونَ». (المطففين/ ۱۵)

ويستفيدون منها كون المؤمنين غير محجوبين عن الرؤية، ويرون ربّهم حتماً.

ولكن كما أنّ كلمة (حجاب) تُستعمل للحجاب الظاهرى، فكذلك تستعمل للحجاب

---

(۱) كلمة حول الرؤية، ص ۴۸- ۵۳ باختصار.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۷

المعنوى أيضاً، والمقصود فى هذه الآية هو المعنى الثانى لا الأول، وذلك بقرينة الآية التى سبقتها حيث تقول: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ» (المطففين/ ۱۴)

إنّ المقصود هنا من الرَّين هو الرَّين المعنوى لا الظاهرى.

والشاهد الآخر هو الآية الخامسة من سورة فُصّلت التى تخبر عن قول الكفار: «وَمِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ». ومن المُسلَّم أنّ الحجاب الذى كان بين الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والكفّار لم يكُن حجاباً ظاهرياً.

وفى قوله تعالى: «جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً».

(الاسراء/ ۴۵)

وعليه فإنّ الكفّار محرومون من اللقاء المعنوى مع ذلك المحبوب، وذلك لوجود الحجاب بينهم وبين اللّه تعالى، والآية الثالثة التى استعانوا بها لإثبات مقصودهم هى: «أَنَّهمْ مُّلاقُوا رَبِّهِمْ». (البقرة/ ۴۶)

وقالوا: إنّ الملاقاة تعنى المشاهدة.

فى حين أنّ الآيات القرآنية تدل بوضوح على أنّ اللقاء يوم القيامة بأى مفهوم كان لا يخص المؤمنين، بل يتساوى فيه المؤمن والكافر، بينما نجد أنّهم يعتقدون بأنّ رؤية اللّه فى القيامة خاصّة بالمؤمنين فقط، والدليل على عمومية اللقاء ما ورد فى قوله تعالى:

«يَاايُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدحًا فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ۶)

إذن فالمخاطَب فى هذه الآية جميع الناس. و كما ورد فى قوله تعالى: «فَأَعْقَبَهُم نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِم إِلَى يَومِ يَلْقَونَهُ بِمَا أَخلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوه وَبِمَا كَانُوا يَكذِبُونَ». (التوبة/ ۷۷)

فهذه الآية خاصّة بالمنافقين، وفى نفس الوقت فانّها تثبت أنّ لهم لقاء اللّه، وعلى هذا يتضح أنّ لقاء اللّه، بأىّ مفهومٍ كان، يشمل كلًا من المؤمنين والكافرين، فى حين أنّهم يعتقدون باختصاص هذا الموضوع بالمؤمنين.

والجدير بالذكر أنّ كلمة (لقاء) فى الأصل اللغوى بمعنى حدوث تماس بين شيئين، لا بمعنى الرؤية والمشاهدة، ونحن نعلم باستحالة تحقق هذا الأمر بخصوص البارى تعالى،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۸۸

والأشاعرة أيضاً لا يقولون بذلك، لذا يجب أن يُحمَل على المعنى الكنائى.

وما يُستفاد من الآيات القرآنية المختلفة هو أن (يوم لقاء اللّه)، كناية عن يوم القيامة الذى سيلقى الناس فيه الجزاء والحساب والقصاص الإلهى، لذا فقد ورد فى آيات متعددة بدلا "عن (لقاءاللّه): «لِقاءَ يَومِهِم هَذَا». (الأعراف/ ۵۱)

أو «لِقاءَ يَومِكُم هذا». (السجدة/ ۱۴) (الجاثية/ ۳۴)

وورد التعبير عنه فى آيات اخرى بملاقاة يوم الحساب ويؤوّل باللقاء مثل: «انِّى ظَنَنْتُ أَنِّى مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ». (الحاقّة/ ۲۰)

لهذا فقد حمل الكثير من أرباب اللغة آيات لقاء اللّه على هذا المعنى.

يقول الراغب فى المفردات: «ملاقاة اللّه عزّ وجل عبارة عن القيامة».

وكذلك يقول إبن الأثير فى النهاية: «المراد بلقاء اللّه المسير إلى دار الآخرة».

وقد نقل ابن منظور فى لسان العرب نفس هذا المعنى أيضاً.

ويُلاحظ نفس هذا المعنى فى الروايات أيضاً، كما ورد فى الحديث النبوى أنّه صلى الله عليه و آله قال:

«من حلف على يمينٍ ليقتطع بها مال امرءٍ مسلم لَقِىَ اللّه وهو عليه غضبان» «۱».

والظاهر أنّ التعبير عن القيامة ب (يوم لقاء اللّه) ينبع من هذا المعنى، وهو: أنّ الإنسان- فى ذلك اليوم- يشعر بالأمر الإلهى فى كل مكان، فى الحساب، فى عرصة المحشر، فى الجنّة والنار، ويتجلّى وجود اللّه عزّ وجلّ للجميع، بحيث يراه المؤمن والكافر بعين القلب والبصيرة.

والعجب هو استدلال الأشاعرة بآياتٍ أُخرى لا تدلّ على مقصودهم أدنى دلالة ممّا يؤيد أنّهم مصرّون على تحميل الآيات القرآنية

على آرائهم، كالآية: «لِّلَّذِينَ أَحسَنُوا الحُسنَى وَزِيَادَةٌ». (يونس/ ۲۶)

فقالوا: إنّ المقصود من (زيادة) رؤية اللّه!!

فى حين عدم وجود أدنى إشارة فى هذه الآية الشريفة على هذا المفهوم، بل إنّ الآية

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳، ص ۵۱، ذيل الآية ۴۶ من سورة البقرة.

تشير إلى نفس ذلك الشى الذى ورد بهذا المضمون حيث قال تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا». (الانعام/ ۶)

وكذلك استدلوا بالآية: «لَهُم مَّايَشَاؤُنَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ». (ق/ ۳۵)

فقالوا: إنّ المقصود من (لدينا مزيد) هو رؤية الخالق! فى حين أننا لا نرى أدنى إشارة إلى هذا المفهوم.

وخلاصة الكلام هو أنّ مسألة رؤية اللّه،- علاوة على كونها مخالفة للدليل القطعى العقلى والنقلى- كانت تستلزم جسمانية اللّه (إلّاأن يكون المقصود منها الرؤية بعين القلب والباطن فلا أحد يُناقش فى ذلك).

ولا- يوجد دليل روائى أو قرآنى عليها، والأمر الوحيد هو استعانتهم بالمتشابهات لتصديق معتقدهم هذا، فى حين أنّ القرآن أمرنا بمطابقة وتفسير المتشابهات بالمحكمات.

وإنّ قسماً من الروايات المنقولة فى كتب هؤلاء القوم بخصوص هذا الموضوع، هى روايات تتنافى مع حكم العقل والقرآن، ونحن مأمورون بتركها وعدم الإهتمام بها.

وقد انتقد المرحوم العلّامة السيّد شرف الدين بدوره اسناد هذه الأحاديث أيضاً فى كتابه القيّم «كلمة حول الرؤية» وأثبت بأنّها موضوعة (ولزيادة التوضيح راجع الكتاب المذكور) «۱».

فما أقبح عصرنا الحاضر إذ يوجد فيه من لا يزالون يؤيدون خرافة (رؤية اللّه بالعين الظاهرية فى القيامة)، على الرغم من كون البحوث العقائدية فيه تدور حول محور الأدلّة العقليّة، وقد اتضحت المسألة بصورة كافية من خلال آيات القرآن.

---

(۱) كلمة حول الرؤية، ص ۶۷- ۸۰.

۵- اللّه عزّ وجلّ ليس جسماً

هناك جماعة بين المسلمين وغير المسلمين تدعى ب (المجسّمة)، والتى تعتقد بجسمانية اللّه، وتنسب إليه جميع عوارض الأجسام، وقد نُقلَت عنهم مطالب مُضحكة ومُخجلَة فى نفس الوقت، إلى درجة أنّ الشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل» ينقل عنهم أنّهم يقولون حتى بإمكانية لمس اللّه، ومصافحته ومعانقته، من قبل المسلمين الخُلَّص!! حتى أنّه نُقِلَ عن (داود الجواربى)، الذى كان من القائلين بهذا المذهب، أنّه قال: «اعفونى من الفرج واللحية واسألونى عمّا وراء ذلك، فمعبودى جسم ودم ولحم، وله جوارح وأعضاء، من يدٍ ورجلٍ، ورأس، ولسان، وعينين، وأذنَين، ومع ذلك فهو جسم لا كالأجسام وليس كمثله شىء، ولحم لا كاللحوم!».

وكذلك نُقل عنه أيضاً بأنّه كان يقول: «إنّه «۱» أجوف من أعلاه إلى صدره، مصمت ما سوى ذلك، وإنّ له وفرة سوداء «۲» وله شعر قط «۳»».

ويذكر (المحقق الدوانى) عنهم عجائب اخرى فيقول: «إنّهم طوائف مختلفة، فبعضهم يقول: إنّه (عزّ وجلّ) مركب من لحم ودم!!

ويقول البعض الآخر: إنّه نور متلالى كصحيفة بيضاء طوله سبعة أشبار من أشباره هو!

ويقول البعض: إنّه شاب أمرد ذو شعرٍ مجعّد!

والبعض يقولون: إنّه بشكل شيخ كبير لون شعر رأسه ولحيته سوداء بيضاء» «۴».

إنّ هـذا الكلام غير العقلائى يشـير بوضوح إلى مقـدار ما تحمله هـذه الطائفة من انحطاط فكرى، فعبّروا عن اللَّه تعالى بتعابير لا تصدر حتى من الأطفال الصغار، ولم يخجلوا من ذكر هذه الأمور.

طبعاً لا يمكن التصديق الآن بوجود أحد من المسلمين أو غير المسلمين يحمل مثل هذه الاعتقادات.

---

(۱) الملل والنحل، ج ۱، ص ۹۶- ۹۷.

(۲) «الوفرة» (بفتح وسكون) شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الاذن.

(۳) «شعر قط» (بالفتح والتشديد) و «قطط» (الفتحتين) وقيل قصير كثير الجعودة، حسن التجاعيد.

(۴) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۱

وبمـا أنّ كلّ إفراطٍ يتبعه تفريط، فقـد ظهر فى مقابل هؤلاء جماعـة احترزوا عن التشبيه إلى درجـة أنّهم كانوا يقولون: إذا حرّك أحد يـديه أثناء قراءة آيـة «خَلَقْتُ بِيَدىَّ» وجب قطع يديه! أو إذا أشار باصـبعيه عند قراءة هذه الرواية الواردة عن النبى صـلى الله عليه و آله أنّه قال: «قلبُ المؤمن بين إصبعَين من أصابع الرحمن». وجب قطع كلا إصبعيه»! «۱».

وعلى أيّة حال يظهر أنّ هذه العقائد السخيفة الركيكة بخصوص جسميّة اللَّه تعالى تنبع من أحد أمرين:

الأول: الأنس المفرط بعالم المادّة والمحسوسات، الأنس المصـحوب بالسّذاجة والجهل الذى لا يسمح للأنسان تقبّل شىء غير المادّة، الأنس الذى يؤدّى إلى مقايسة اللَّه عزّ وجلّ بالانسان وصفاته.

الثانى: التعابير الكنائية والمجازيّة الملحوظة فى القرآن الكريم والروايات الإسلامية، حيث يمكن أن يتوهّم السُّذَّج منها الجسميّة.

ولكن بالإلتفات إلى نقطـة واحدة يتّضح بأنّ قبول فكرة الجسـميّة بالنسـبة للَّه‌تعالى يُساوى نفى إلوهيته، ونفى وجوب وجوده، لأنّ كُلّ جسم يتشـكل من أجزاء، ولابـدّ له من لزوم المكـان والزمـان، وكـونه معرضـاً للحوادث والتغيُّرات ويتجه دائمـاً نحو الهلاـك والفنـاء، وتكفى كل واحدةٍ من هذه الصفات لنفى إلوهية اللَّه ووجوب وجوده.

مضافـاً إلى ذلك أنّه لو كان جسـماً لكان له شبيه ومثيل، ونحن نعلم أنّ آيات متعـددة من القرآن الكريم نفت عن اللَّه تعالى أى شبيهٍ أو مثيل.

ونختم هذا الكلام بحديثٍ منقول عن الإمام الكاظم عليه السـلام: «ذكر عنده قوم زعموا أنّ اللَّه تبارك وتعالى ينزل إلى السماء الدنيا؟ فقـال: إنّ اللَّه لاـ ينزل ولاـ يحتـاج إلى أن ينزل، إنّما منظره فى القرب والبعـد سواء) ....، ولم يحتـج إلى شـىء بل يُحتاج إليه، أمّا قول الواصفين:

إنّه ينزل تبارك وتعالى عن ذلك فإنّما يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكل متحرك محتاج إلى من يحرّكه أو يتحرك به فمن ظن باللَّه الظنون فقد هلك وأهلك، فاحذروا فى

---

(۱) الملل والنحل، ج ۱، ص ۹۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۲

صفـاته من أن تقفوا له على حـدّ من نقص أو زيادة، أو تحريك أو تحرك، أو زوال أو اسـتنزال، أو نهوض أو قعود فإنّ اللَّه عزّ وجلّ

عن صفة الواصفين ونعت الناعتين وتوّهم المتوهمين» «۱»

.

وهناك روايات كثيرة فى هذا المجال ولكن وضوح الموضوع يغنينا عن التوغُّل فى البحث «۲».

والعجب من إصرار بعض أرباب الملل والنحل على نسب مسألة الاعتقاد بجسمانية اللَّه تعالى إلى الشيعة اتباع مذهب أهل البيت عليه السلام، لكن مطالعة كُتب الشيعة تشير بوضوح إلى انهم بلغوا القمّة فى تنزيه اللَّه تعالى عن الجسمانية، وأى صفةٍ من صفات الأجسام وعوارضها، لذا فقد قال الإمام الرضا عليه السلام: «إنّه ليس منّا من زعم أن اللَّه عزّ وجلّ جسم ونحن منه بُراء فى الدنيا والآخرة» «۳».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۳۱۱، ح ۵ باختصار.

(۲) لزيادة الأطلاع على روايات هذا الموضوع راجع توحيد الصدوق، ص ۹۷- ۱۰۴- باب أنّه عزّ وجلّ ليس بجسمٍ ولا- صورةٍ (فهنالك عشرون رواية منقولة حول هذا الموضوع ۲۰۵).

(۳) توحيد الصدوق، نفس الباب السابق، ح ۲۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۳

۳- ليس له محل وهو موجود فى كُلّ مكان

تمهيد:

ليس من اليسير على أفرادٍ يعيشون دائماً فى أسر عالم المادة وقد جبلوا على هذا التفكير ولم يتجاوز نطاق تفكيرهم هذا الحد أن يتصوروا وجوداً مجرّداً من المادة.

ولكن وكما قُلنا فى بداية بحث الصفات الإلهيّة، فإنّ أول خطوة فى طريق معرفته هى تنزيهه عن صفات مخلوقاته، خاصةً عن صفات الموجودات الماديّة من قبيل الزمان، المكان، التغيُّر، والحركة.

ومن هنا يبدو واضحاً أنّ من لوازم معرفة اللَّه معرفة حقيقية هو تنزيهه عن المكان والمحل.

فمن البديهى أنّ الاتصاف بالمحل ملازم للقول بالتجسيم، وقد عرفنا فى البحوث السابقة أنّ اللَّه عزّ وجلّ ليس بجسم ولا يتصف بصفات الأجسام، ولايحيطهُ مكان ولا يسعه زمان، وفى نفس الوقت يحيط بجميع الأمكنة والأزمنة!

بهذا التمهيد نتوجه إلى القرآن الكريم لنتأمل فى الآيات التالية بأسماع قلوبنا:

۱- «وَلِلَّهِ المَشرِقُ وَالْمَغرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ انَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

(البقرة/ ۱۱۵)

۲- «وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلهٌ وَفِى الأَرضِ الَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ». (الزخرف/ ۸۴)

۳- «وَهُوَ مَعَكُم أَينَ مَا كُنتُم وَاللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ». (الحديد/ ۴)

۴- «مَا يَكُونُ مِن نَّجْوى ثَلَاثَةٍ إِلّا هُوَ رَابِعُهُم وَلَا خَمسَةٍ إِلّا هُوَ سَادِسُهُم وَلَا أَدنى مِن ذَلِكَ وَلَا اكْثَرَ إِلّا هُوَ مَعَهُمْ أَينَ مَا كَانُوا».

(المجادلة/ ۷)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۴

۵- «وَلَقَدْ خَلَقنَا الإِنسَانَ وَنَعلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفسُهُ ونَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

۶- «هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيمٌ». (الحديد/ ۳)

۷- «وَأَنْتُم حِينَئذٍ تَنظُرُونَ* وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِنكُم وَلَكِن لّاتُبصِرُونَ» «۱».

(الواقعة/ ۸۴- ۸۵)

جمع الآيات وتفسيرها

أينما تُولوا فثم وجه اللَّه:

حاول اليهود بعد مسألة تغيير القبلة (من بيت المقدس نحو الكعبة) إلى إيجاد شُبهة فى إذهان المسلمين من خلال هذه المسألة، واعتبار تغيير القبلة دليلا "على عدم ثبات الرسول محمد صلى الله عليه و آله على رسالته، فنزلت الآية الأولى من بحثنا وبيّنت: «وَلِلَّهِ الْمَشرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

فهو حاضر فى كُلّ مكان وبكل شىءٍ عليم، لذا فأينما تولّوا فثمّ وجهه، وإمّا الغرض من التوجه نحو القبلة فهو لتمركز توجُّه المؤمنين إلى أنّ اللَّه عزّ وجلّ له محل خاص او جهة معيّنة وهى القبلة، فوجوده واسع إلى درجة كونه حاضراً ورقيباً فى كل مكان، وفى نفس الوقت ليس له محل أو مكان خاص!

وطبعاً ليس المقصود من كلمتى المشرق والمغرب فى الآية المذكورة الجهتَين الجُغرافيّتَين، بل هو تعبير كنائى عن جميع العالم، كما أننا عندما نريد أن نقول: إنّ أعداء على عليه السلام حاولوا إخفاء فضائله، وشيعته أخفوها أيضاً خوفاً من أعدائه، ومع ذلك فإنّ فضائله ملأت العالم، نقول: (إنّ فضائله ملأت الشرق والغرب!).

وعلى أيّة حال فإنّ تَعبير «فَأَيْنَما تَوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ» هو تعبير حىّ وواضح على عدم إحاطة المكان باللَّه تعالى.

---

(۱) ماذُكِر أعلاه هو قسم مجمل من هذه الآيات، وتوجد آيات قرآنية مشابهة للتى ذكرناها كالآية ۲۰ من سورة البروج؛ والآية ۳ من سورة الأنعام.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۵

لأنّ التواجد فى كل مكان إمّا يعنى امتلاك الموجود أبعاداً واسعةً وأجزاءً كثيرة تملأ المكان، وكل جُزءٍ منه موجود فى جهة معينة، ونحن نعلم باستحالة هذا المعنى بالنسبة إلى اللَّه تعالى، لأنّه سبحانه ليس له أجزاء، وقول القرآن: (هو معكم) لايعنى أنّ جزءاً من وجود اللَّه تعالى هناك (فتأمل جيداً).

أو يعنى عدم إحاطة المكان به، أى هو فوق الزمان المكان، وطبعاً مثل هذا الوجود تتساوى فيه جميع الأمكنة والأزمنة ولا معنى للبعد والقرب عنده.

والملاحظة المهمّة هنا هى أنّ التعبير بعبارة (وجه اللَّه) تعنى فى القرآن الذات الإلهيّة المقدّسة.

ولكون (الوجه) أشرف أعضاء الإنسان ويحتوى على أهم حواسّه، فإنّ هذه الكلمة تُستعمل كناية عن (الذات)، ولكن بعض المفسّرين فسّروها بمعنى الرضا الإلهى، أو الثواب الإلهى، أو القبلة، ولا نعتقد بصحة أىٍّ من هذه المعانى.

قال تعالى فى الآية الثانية- ضمن ردّه على المشركين والذين جعلوا له ولداً، وتنزيه ذاته المقدّسة عن هذه الصفات: «وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِى الأَرضِ إِلَهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَلِيمُ».

إنّ إلوهيّة اللَّه تعالى لا تخص جهة معينة، أو مكاناً خاصاً، ومساحة إلوهيته وسعت كُلّ مكان، وبسبب وجوده فى كل مكان فهو بكُلّ شىءٍ عليم وخبير، وأفعاله حكيمة، بل إنّ هذا التعبير يشير إلى أن (العليم) و (الحكيم) الوحيد فى عالم الوجود هو اللَّه سبحانه، لأنّ

علم وحكمة من سواه قاصرة وناقصة ومشوبة بالجهل.

ولكنّ المشركين على مدى التاريخ قالوا: إنّ لكل واحدة من موجودات العالم إلهاً وربّاً:

إله السماء، إله الأرض، إله البحر، إله البر، إله الحرب وإله السلام، وما شاكل ذلك، والآية أعلاه تنفى جميع هذه المعتقدات الباطلة، وتؤكّد على ربوبيّة اللَّه الواحد الأحد على جميع عالم الوجود.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۶

قال بعض المفسّرين: إنّ هذه الآية خير دليلٍ على هذا الموضوع، وهو عدم تواجد اللَّه فى السماء، لأنّه يقول: «فِي السَّمَاءِ إِلهٌ وَفِي الأَرضِ الهٌ» ويعنى أنّ نسبة وجوده فى السماء وفى الأرض متساوية، وبما أنّ الأرض لا تعتبر مكاناً له، فكذلك السماء أيضاً «۱».

وقال البعض الآخر من المفسّرين: إنّ مقصود هذه الآية هو أنّه معبود فى السماء وفى الأرض، فالملائكة تعبده فى السماء وفى الأرض تسجد له موجوداتها.

وفى حديثٍ ظريف ورد أنّ أحد زنادقة عصر الإمام الصادق عليه السلام وهو «أبو شاكر الديصانى» قال لهشام بن الحكم: إنّ فى القرآن آية هى قولنا. قلت: وما هى؟ فقال: «وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ الهٌ وَفِي الأَرضِ الهٌ»، فلم أدر بما أجيبه! فحججت فخبرت أبا عبد اللَّه عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث إذا رجعت إليه فقل: ما إسمك بالكوفة فانّه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فانّه يقول: فلان، فقل كذلك اللَّه ربّنا فى السماء إلهٌ، وفى الأرض إله، وفى البحار إله وفى القفار إله، وفى كل مكان إله، قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز «۲».

إنّ هذا التعبير يُعَدُّ إشارةً إلى أنّ اللَّه تعالى لا مكان له من جهة، وحضوره فى كل مكان من جهة اخرى، كقولنا: (إثنان زائد اثنين يساوى أربعة)، فإنّ هذه المعادلة الرياضية كما أنّها فى الأرض، كذلك فانّها فى السماء وفى جميع المجرّات، وفى نفس الوقت ليس لهذه المعادلة الرياضيّة محلٌّ معين، فيمكن أن نقول: بانّها فى كل مكان وليس لها مكان فى آنٍ واحد.

و هو معكم أينما كنتم!

تقول الآية الثالثة بصراحة «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُم». ولأنّه كذلك فهو بما تعملون بصير: «وَاللَّه بَمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۳۲.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۶۱۷، ح ۹۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۷

يُشير هذا التعبير بوضوح إلى أنّه جلّ وعلا لا مكان له، أو بتعبير آخر، هو فوق الزمان والمكان، ولهذا فهو حاضر فى كُلّ مكان وقد أحاط بكُلّ شيءٍ علماً.

قال بعض المفسرّين- كما ورد فى تفسير (روح المعانى): يجب تأويل هذه الآية وحملها على المعنى المجازى والقول بأنّ المقصود منها هو: (علمهُ بنا لا ذاته المقدّسة).

وهؤلاء غافلون عن أن علم اللَّه تعالى علم حضورى، لا كعلمنا الذى يتم عن طريق تصوير الأشياء فى الذهن، والعلم الحضورى معناه حضور كل شيءٍ بين يديه، وبحضور ذاته فى كل مكان فهى تحيط بها جميعاً «۱».

وقال بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية: كل ممكن فوجوده من الواجب، فاذن وصول الماهية الممكنة إلى وجودها بواسطة فيض الواجب الحق ذلك الوجود لتلك الماهية فالحق سبحانه هو المتوسط بين كل ماهيه وبين وجودها، فهو إلى كل ماهية أقرب من

وجود تلك الماهية «۲».

وقد ورد فى تفسير الميزان أنّ هذه المعيّة نابعة من إحاطته بكم، فلا تغيبون عنه اينما كنتم، وفى أىّ زمان عشتم، وفى أىّ حال فرضتم، فذكر عموم الامكنة «أيْنَ مَا كنتم» لأنّ الاعرف فى مفارقة شىء شيئاً، وغيبته عنه أن يتوسل إلى ذلك بتغيير المكان، وإلّا فنسبته تعالى إلى الأمكنة والأزمنة والأحوال سواء «۳».

ولكن من لم يستطيعوا فهم إحاطة اللَّه الوجوديّة بجميع الممكنات بصورة صحيحة، حملوا هذه الآية على المعنى المجازى فقالوا: إنّ المراد من معيّة اللَّه للموجودات، هو شمول علمه وقدرته وحاكميته عليهم «۴».

---

(۱) ورد توضيح أكثر حول علم اللَّه فى بحث علم اللَّه فى نفس هذا المجلد.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۱۴.

(۳) تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۱۶۷.

(۴) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۴۰۷، ويُلاحظ وجود معنى قريب من هذا التفسير فى تفسير روح الجنان ج ۱۱، ص ۳۸، وقد نُقلَ أيضاً فى تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۱۵، عن المتكلمين بأنّ هذه المعيّة إمّا من جهة العلم أو من جهة الحفظ والحراسة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۸

أمّا الآية الرابعة فقد أشارت إلى مسألة النجوى فقالت: «مَا يَكُونُ مِن نَّجوَى ثَلَاثَةٍ إلّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُم وَلَا أَدنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَينَ مَا كَانُوا».

«النجوى»: فى الأصل بمعنى المكان المرتفع المنعزل عمّا حوله لارتفاعه، ولكون إذا أراد شخص أن يُسِرَّ شيئاً لصاحبه يأخذه إلى معزل عن الناس. فإنّ كلمة نجوى استُعملت بمعنى الهمس فى الأُذن.

يعتقد البعض بوجوب وجود ثلاثة أشخاص أو أكثر لتحقُّق معنى (النجوى)، وإن كانا إثنين يُطلق على هذا العمل (إ سرار)، لكن هذه المسألة لم تثبت، خصوصاً أنّ كلمة نجوى وردت فى آيات سورة المجادلة للتعبير عن الذين كانوا يناجون الرسول صلى الله عليه و آله بصورة انفراديّة.

وللمفسرين بيانات متعددة بسبب ذكر ثلاثة وخمسة أشخاص بالخصوص وعدم ذكر الأربعة التى تقع بين الثلاثة والخمسة، أقواها هو أنّه لو ذُكرَ الأربعة أشخاص لتكرر العدد (أربعة) فى الجملة الأولى والثانية، وهو ينافى البلاغة والفصاحة (سوى فى حالات خاصّة)، مضافاً إلى ذلك فإنّ قوله تعالى فى‌نهاية الآية: «وَلَا أَدنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكثَرَ» سيشمل مالم يُذكر بين هذين العددين، وعليه يشملُ ماقبل العدد ثلاثة (أى إثنين) وما بعده (أى أربعة)، وكذلك الأكثر من الخمسة، وهذه نقطة اخرى تدلّ على فصاحة هذه الآية، وعلى أن تعبير (نجوى) يشمل الشخصين أيضاً.

وقال البعض الآخر: إنّ الآية أعلاه تتحدث عن حادثتين قام بها المنافقون اشترك فى الاولى ثلاثة أشخاص، وخمسة أشخاص فى الثانية.

وعلى أيّة حال فإنّ المراد من المعيّة (معيّة اللَّه لعباده فى نجواهم) هو نفس الإحاطة الوجوديّة المشار إليها فى الآية السابقة، والعجب من بعض المفسّرين الذين أيدوا هذا المفهوم فى الآية السابقة، لكنهم فسّروا المعيّة هنا بمعنى الاحاطة العلميّة، ولعل ذلك بسبب تحدُّث الآية فى البداية عن سعة علم اللَّه وشموله جميع ما فى السموات والأرض: «أَلَم تَرَ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۱۹۹

أَنَّ اللَّه يَعْلَمُ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الأَرضِ». (المجادلة/ ۷)

ولكن من البديهى أنّ إحاطة اللَّه الوجوديّة بكلّ شىء هى عين إحاطته العلمية، لأنّه وكما أشرنا سابقاً فإن علم اللَّه علم حضورى،

ولازمهُ حضوره عزّ وجلّ فى كل مكان (فتأمل جيداً).

نلاحظ نفس هذا المفهوم فى الآية الخامسة وبتعبيرٍ جديد، حيث قال تعالى: «وَلَقَد خَلَقنَا الإِنسَانَ وَنَعلَمُ مَاتُوَسوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ».

تُطلق كلمة (وريد) على أى نوعٍ من أنواع عروق البدن، لكن الكثير من المفسّرين فسّروها بمعنى الوريدين الرئيسين الموجودَين فى جانبى الرقبة، وفسرها جماعة بمعنى الوريد الرئيس المتصل بالقلب.

ولكن عندما نضيف كلمة (حبل) إلى كلمة (وريد) فلا يراد منه الأوردة الصغيرة والعاديّة الموجودة فى البدن، بل يُقصد به أحد الأوردة الكبيرة والمعروفة فى البدن، وقد ورد كلا التفسيرين فى تفسير ذيل هذه الآية فى كلام المفسّرين وأرباب اللغة «۱».

لكن المناسب لهذه الآية هنا، هو الوريد الرئيس فى القلب لأنّه ورد أيضاً فى الآية:

من سورة الأنفال: «وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرءِ وَقَلبِهِ». (الأنفال/ ۲۴)

وكلا الآيتين كناية عن منتهى قُرب اللَّه تعالى لجميع عباده، لأننا لو اعتبرنا قلب الإنسان مركز وجوده، لما كان هنالك شىء أقرب إليه من وريد القلب، فالقرآن يريد أن يقول:

(ونحن أقرب إليه حتّى من هذا أيضاً).

وعلاوةً على هذا فإنّ الآية قد تحدثت فى البداية عن علم اللَّه بما توسوس به نفس الإنسان، ممّا يتناسب مع القلب لا الرقبة.

على أيّة حال، إنّ هذه المسألة تصوّر عموم المكان للَّه‌تعالى بأفضل وجه، لأنّها تقول:

---

(۱) التحقيق، مفردات الراغب، مجمع البحرين، لسان العرب، تفسير الميزان والقرطبى وغيرها.

إنّه تعالى أقرب إلى كل إنسان من وريد قلبه، إذن فهو حاضر فى كل مكان، حتّى فى أرواحنا وقلوبنا، ومن الواضح أن وجوداً كهذا هو فوق المكان، لأنّ الشى الواحد لا يمُكن أن يكون بجميع وجوده فى مكانات متعددة، إلّاأن يكون ذا أعضاءٍ يشغل كل واحدٍ منها مكاناً معيناً.

وقد ورد نفس هذا المفهوم فى الآية السادسة والأخيرة من بحثنا والذى يخصُّ المحتضرين الذين أشرفوا على نهاية حياتهم، قال تعالى: «وَأَنتُم حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ* وَنَحنُ أَقرَبُ إِلَيهِ مِنكُم وَلَكِن لَّاتُبصِرُونَ».

فيقول نحن نعلم جيداً بما يجرى فى باطن ذلك المحتضِر، وأى غوغاء قائمة فى عمق وجوده! هل هو سرور لتحرُّره من سجن البدن وانطلاقه إلى رياض الجنّة، أم هموم لمشاهدته العقوبات الإلهيّة بسبب أعماله الظلامية التى ارتكبها؟!

لكنكم لا ترون أى واحدةٍ من هذه المسائل ولا تعرفونها.

وقد حمل بعض المفسرين- الذين لم يدركوا مفهوم القرب الإلهى من الإنسان بصورة صحيحة- هذه الآية على المعنى المجازى، فقالوا: إنّ ملائكة الموت أقرب إليه منكم ولكنكم لا تبصرونهم.

ولكن بالإلتفات إلى كون هذا التعبير وأمثاله- كما عرفنا ذلك فى الآيات السابقة- لاينحصر بالشخص المحتضِر، حيث شمل جميع الناس بتعابير مختلفة، فقد اتضحَ بُطلان هذا التفسير.

وتأكيد الآية على قرب اللَّه تعالى من المحتضِر فقط، دلالة على أنّ الكلام يدور حول هذا الموضوع، وبصورة عامّة فإنّ هذه الآية تُعَدُّ دليلا "واضحاً آخر على انعدام المكان بالنسبة إلى اللَّه تعالى.

نتيجة البحث:

يتضح جلّياً من مجموع الآيات الآنفة الذكر أنّها تتطرق إلى حقيقة واحدة بتعابير متنوّعة، وهى أنّ اللَّه موجود فى كل مكان، ويُشرف على الكون، فى الوقت الذى ليس له

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۱

مكان معين يحدّه، وأن وجوده فوق الزمان والمكان، ولكون جميع الموجودات تستمد وجودها من وجوده، ولا تستغنى عنه أبداً، فإنّه تعالى يُحيط بجميع موجودات العالَم إحاطة وجوديّة، هى عين إحاطته الربوبية والقيّوميّة. (فتأمل جيداً).

توضيحات

۱- اللَّه عز وجل فوق المكان والزمان

للفلاسفة بحوث عديدة حول حقيقة (المكان) و (الزمان)، وبالرغم من أنّ هذا الموضوع من المواضيع التى تلازمنا دائماً إلّاأنّ معرفة حقيقتهما لا تزال من المشكلات حتى بالنسبة للفلاسفة! وهذه من العجائب.

فقد اعتقد جماعة بأنّ المكان- والذى يعطى معنى الفضاء، أو هو بُعد خاص تسبح فيه الأجسام،- موجود مخلوق قبل الجسم، وكُلّ جسم بحاجة إليه.

وقال آخرون: إنّ الفضاء الخالى من كُلّ شىء ليس إلّاوهمٌ وخيالٌ، وبالأساس، فإنّ عدم وجود الجسم يعنى عدم وجود المكان، وبتعبيرٍ آخر: المكان يوجد بعد الجسم لا قبله، ويُنتزَع من مقايسة جسمَين مع بعضهما، وكيفية استقرارهما، وليس من المناسب هنا انتقاد هاتين النظريتين الفلسفيتين وتحليلهما، بل يجب القول: إنّ المكان بأى واحدٍ من هَذين المفهومين، محال بالنسبة إلى اللَّه عزّ وجلّ.

لأنّه لايمكن أن يكون هناك موجود قبل اللَّه، وفق التفسير الأول، القائل: إنّ (المكان موجود يسبق وجود الجسم)، وإذا قطعنا بأنّ الاجسام تحتاج إلى مكان، فهل يُمكن أن يحتاج واجب الوجود الغنى عن الوجود إلى شىءٍ آخر؟

وعليه يتضح استحالة تحقق مفهوم المكان طبق التفسير الأول بخصوص البارى الغنى عن كلّ شىء والمنشىء لجميع الوجودات، وأمّا وفق التفسير الثانى فهو يستلزم وجود النظير الكفؤ للَّه‌تعالى ليُقاس به، ويُنتزع المكان من قياس هذين الإثنين مع بعضهما، فى حين أننا عرفنا فى مباحث التوحيد أنّه تعالى ليس له كفؤ ابداً.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۲

ومن جهة اخرى، لا يمكن تصور المكان بدون محدوديّة، لأنّه ينبغى تصور جسمين بصورة منفصلة عن بعضهما ليتّضح مفهوم المكان من مقايسَتهما مع بعضهما، لذا يقول هؤلاء الفلاسفة: إنّ كُلّ العالم ليس له مكان لأنّه لا يوجد شىء خارج عنه ليُقاس به، أمّا المكان فلأجزاء العالم فقط.

ومن جهةٍثالثة إذا كان للَّه‌مكان لاستلزم أن يكون له أعضاء وأجزاء، لأنّ ذرات الجسم- بالقياس مع بعضها- تمتلك أمكنة مختلفة، كأن تكون إحداها فى الأعلى والاخرى فى الأسفل، إحداها فى جهة اليمين والاخرى فى جهة اليسار، وإذا اعتقدنا بتركيب اللَّه تعالى فستبرز مسألة حاجته إلى هذه الأجزاء والتى لاتتناسب مع وجوب وجوده.

ونفس هذا البحث يرد فى مفهوم الزمان، فالذين يعتقدون بأنّ الزمان ظرف مخلوق قبل الأشياء، والأشياء الماديّة تدخله بعد الخلق والتكوُّن وتحتاج إليه، وبتعبيرٍ آخر: الزمان حقيقة مستقلّة سيّالة مخلوقة قبل جميع الأشياء الماديّة، ويُمكن أن يكون موجوداً حتّى بعد فنائها، فى هذه الحالة يتّضح عدم إحاطة الزمان باللَّه تعالى، لأنّه يستلزم الحاجة إلى شىء وهو الغنى عن كُلّ شىء.

وإن اعتقدنا،- طبقاً لنظرية الفلاسفة المتأخرين،- بأنّه وليد حركة أشياء العالَم أو الحركة الجوهريّة للأشياء، فإنّه محال بشأن البارى، لأنّه وجود كامل وغير محدود من كل ناحية، ووجود كهذا لا يمكن تصور الحركة بشأنه (أى لا مفهوم لها)، إذن لا يسعه الزمان.

۲- لا يحلُّ اللَّه فى شىء

يعتقد جماعة من المسيحيين بأن اللَّه تعالى قد حل فى المسيح عليه السلام، واعتقد جماعة من المتصوّفة بمثل ذلك فى أقطابهم، إذ قالوا إنّ اللَّه تعالى قد حلَّ فى وجودهم.

وكما قال العلّامة المرحوم الحلّى رحمه الله فى (كشف المُراد): «لا ريب فى سخافة وزيف هذه العقيدة، لأنّ ما يُمكن تصوُّره من الحلول هو: أنّ يحل موجود قائم فى موجودٍ آخر- كقولنا:

حلّ العطر فى الورد- وهذا المعنى لا يُمكن تَصوره بخصوص اللَّه، لأنّه يسْتلزم اشغال حيزّ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۳

من المكان والحاجة إليه، وهو أمر محال بالنسبة لواجب الوجود، والذين يعتقدون بحلول اللَّه فى شىء سيتورطون بنوع من الشرك، وهم خارجون عن سلك الموحدين» «۱».

۳- معنى حضور اللَّه تعالى فى كُلّ مكان!

يُمكن أن يتصور البعض حضور اللَّه سبحانه فى كل مكان كوجود قوة الجاذبيّة أو وجود الأثير وهى موجات مفترضة ليس لها وزن ولا لون تملأ الوجود بأكمله وموجودة حتى فى الفراغ)، فى حين أن جميع هذه الامور هى من قبيل الوجود فى مكان، أى وجود قسم من أمواج الجاذبية أو امواج الأثير فى كل زاوية من زوايا العالَم، وهذا الموضوع يَستلزم: وجود الأجزاء المركّبة من ناحيه، والحاجة إلى المكان من ناحيةٍ اخرى

فى حين أنّ مفهوم وجود اللَّه سبحانه فى كل مكان هو أنّه تعالى فوق المكان، لذا فلا معنى للبعد والقرب عنده، وإذا أردنا أن نتصّور مثالًا- مع أنّه لا يفى بالغرض- حول هذا المفهوم، يجب أن نشبه حضوره بحضور المعادلات العلميّة، والمسائل العقليّة فى كُلّ مكان، كقولنا: الكل أكبر من الجزء، واستحالة اجتماع النقيضين، و ۲* ۲/ ۴.

وتصدق مثل هذه الأمور فى الكرة الأرضية، وفى كوكب القمر، وفى كوكب المريخ، وفى ما وراء المجّرات، فالكل أكبر من الجزء فى جميع هذه الأمكنة، واجتماع النقيضين محال فيها أيضاً، فى حين أنّه لا يوجد مكان ومحل معين لهما.

ومن الأهميّة بمكان الالتفات إلى هذه الصفة الإلهيّة: وهى مثول العالم بأكمله بين يدى اللَّه سبحانه له تأثير تربويٌ عميق فى نفس الإنسان، فكيف يُمكن أن يكون لأحدٍ إيمانٌ بمثل هذا الأمر ويرى حضور مولاه العظيم الحكيم وولى نعمته، ويسلك طريق الخطايا ويلوّث نفسه بالذنوب المشينة ويعصى أوامره!؟

واللطيف هو أن الآيات التى ذكرناها بخصوص حضور اللَّه تعالى فى كل مكان، تؤكّد

---

(۱) كشف المراد فى شرح تجريد الاعتقاد للعلّامة الحلى، ص ۲۲۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۴

غالباً على نفس هذا الأثر التربوى، لذلك فقد ورد فى بعضها: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ»، وفى البعض الأخر: «وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ

نَفْسُهُ».

فليس الحضور الإلـهى خـارج وجودنـا فقـط، فهو تعـالى موجودٌ فى نفوسـنا وقلوبنا وأعماق أرواحنا أيضاً، كما قال مولى المتقين على عليه السلام، فى وصف اللَّه عز وجل «الباطن لكل خفيّة، والحاضر لكُلّ سريرة، العالمُ بما تكنُّ الصدور وما تخون العيون» «۱».

وقال عليه السلام فى خطبةٍ أخرى «فاتقوا اللَّه الذى أنتم بعينه، ونواصيكُم بيده، وتقلبكم فى قبضته، إن أسررتُم علمهُ، وإن أعلنتم كتبهُ» «۲».

۴- لماذا نرفع أيدينا إلى السماء أثناء الدعاء؟

غالباً ما يُطرح هـذا السؤال من قبل عامّة النّاس وهو: إذا لم يكن للَّه‌تعالى مكانٌ معيّنٌ فلماذا ننظر إلى السـماء أثناء الدعاء؟ ونرفع أيدينا نحو السماء؟ فهل هو سبحانه موجودٌ فى السماء «والعياذ باللَّه»؟

وقد طُرح هذا السؤال فى زمان الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً، فقد روى «هشام بن الحكم» أنّ زنديقاً دخل على الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن آية «الرحمن على العرش استوى .

فأجابه الإمام عليه السـلام موضـحّاً: «.... ونفينا أن يكون العرش أو الكرسـى حاوياً له، وأن يكون عزّ وجلّ محتاجاً إلى شىء مما خلق، بل خلقه محتاجون إليه».

فقال السائل: إذن، لا فرق فى أن ترفعوا أيديكم أثناء الدعاء إلى السماء أو تنزلوها إلى الأرض!

فقال الإمام عليه السلام: «ذلك فى علمه واحاطته وقدرته سواء، ولكنه عزَّ وجلّ أمر أولياءه

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۲.

(۲) المصدر السابق، الخطبة ۱۸۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۵

وعبـاده برفع أيـديهم إلى السـماء نحو العرش، لأنّه جعله معـدن الرزق، فثبتنـا ما ثبته القرآن والأخبار عن الرسول صـلى الله عليه و آله حيث قال: ارفعوا أيديكم إلى اللَّه عزّ وجلّ، وهذا يجمع عليه فرق الأمة كلها» «۱».

ورد فى الخصال عن الإمام أمير المؤمنين عليه السـلام، فى حـديثٍ آخر أنّه قال: «إذا فرغ أحدكم من الصـلوة فليرفع يديه إلى السـماء، ولينصبّ فى الـدعاء. فقال ابن سـبأ: ياأمير المؤمنين أليس اللَّه عز وجلّ فى كل مكان؟ قال: بلى قال: فلم يرفع يديه إلى السـماء؟ فقال: أو ما تقرأ: «وفى السماء رزقكم وما توعدون» فمن أين تطلب الرزق إلّامن موضع الرزق وما وعد اللَّه عزّ وجلّ فى السماء» «۲».

وطبقـاً لما جاء فى هـذه الروايات فإنّ أغلب أرزاق الناس تنزل من السـماء، (فالمطر الـذى يُحيى الأرض الميتـة ينزلُ من السـماء، ونور الشـمس الذى يُعَدُّ منبعاً للحياة، يشعُ من السـماء، والهواء الذى يُعد العامل المهم الثالث للحياة، موجود فى السـماء، فإنّ السـماء عُرفَتْ كمعـدنٍ للبركـات والأـرزاق الإلهيّـة، وتُرفَعُ الأيـدى نحوهـا عنـد الـدعاء طلبـاً ورجـاءً من خـالق ومالـك كـل تلـك الأرزاق فى حل المعضلات.

ويُستنتج من بعض الأخبار أيضاً أنّ هذا المفهوم لاينحصـر بالمسلمين فقط، بل كان موجوداً فى بقية الأُمم كذلك، كما نقل المرحوم (الفيض الكاشانى) فى كتاب المحجّة البيضاء عن (مالك بن دينار) أنّه قال: أصاب الناس من بنى اسرائيل قحط، فخرجوا مراراً فأوحى اللَّه تعالى إلى نبيّهم أن أخبرهم: «إنّما تخرجون إلىَّ بأبدان نجسه، وترفعون إلىَّ اكفّاً قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبى عليكم ولن تزدادوا منّى إلّابعداً» «۳».

ويستنتج من بعض الروايات وجود فلسفة اخرى لهذا العمل وهو إظهار الخضوع

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۳۳۰؛ توحيد الصدوق، ج ۱، ص ۲۴۸، الباب ۳۶.

(۲) بحار الأنوار، ج ۹۰، ص ۳۰۸، ح ۷، وقد ورد الحديثان السابقان فى تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۱۲۴- ۱۲۵.

(۳) المحجة البيضاء، ج ۲، ص ۲۹۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۶

والتذَلُّل للبارى، لأنّ الإنسان يرفع يديه حينما يظهر خضوعه واستسلامه لشخص أو شىء معين.

وفى حديثٍ للإمام الباقر عليه السلام فى تفسير آية «فما استكانوا لربّهم وما يتضرّعون».

فقال عليه السلام: «الاستكانة هو الخضوع، والتضرع هو رفع اليدين والتضرع بهما» «۱».

۵- نفى المكانية عن اللَّه فى الروايات الإسلامية

طُرحت هذه المسألة بشكل واسعٍ فى الروايات الإسلاميّة فى: أصول الكافى، بحار الأنوار، نهج البلاغة، توحيد الصدوق، وغيرها، وذِكْرُها جميعاً لا يتناسب مع طريقة اختصار الكتاب، لذا نكتفى بنفحات منها:

۱- عن أبى عبد اللَّه الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى لا- يوصف بزمان، ولا مكان، ولا حركة، ولا انتقال، ولا سكون؛ بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والانتقال، تعالى اللَّه عما يقول الظالمون علواً كبيراً» «۲».

۲- وجاء فى حديث آخر أنّ أمير المؤمنين عليه السلام سمع رجلًا يقول: «والذى احتجب بسبع طباق؛ فعلاه بالدرّه، ثم قال له: ياويلك إنّ اللَّه أجلَّ من أن يحتجب عن شىء، أو يحتجب عنه شىء سبحان الذى لا يحويه مكان، ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء؛ فقال الرجل: أفأكفّر عن يمينى ياأمير المؤمنين؟ قال: لا لم تحلف باللَّه فيلزمك الكفارة، وإنّما حلفت بغيره» «۳».

۳- وورد فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ سليمان بن مهران سأله هل يجوز أن نقول: إنّ اللَّه عزّ وجلّ فى مكان؟ فقال: سبحان اللَّه وتعالى عن ذلك إنّه لو كان فى مكان لكان مُحْدَثاً، لأنّ الكائن فى مكان محتاج إلى المكان والاحتياج من صفات المحدث لا من صفات القديم» «۴».

---

(۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۴۷۹ (باب الرغبة والرجعة) ح ۲.

(۲) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۳۰۹.

(۳) المصدر السابق، ج ۳، ص ۳۱۰.

(۴) التوحيد للصدوق، ص ۱۷۸، ح ۱۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۷

۴- سُئل أمير المؤمنين عليه السلام: «أين كان ربّنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟ فقال عليه السلام: (اين) سؤال عن مكان، وكان اللَّه ولا مكان» «۱».

۵- وجاء فى حديث عن الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام أنّه قال: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان، لا- يخلو منه مكان ولايشغل به مكان، ولا يحل فى مكان، ما يكون من نجوى ثلاثة إلّاهو رابعهم ولا خمسة إلّاوهو سادسهم ولا- أدنى من ذلك ولا- أكثر إلّاهو معهم اينما كانوا ليس بينه وبين خلقه حجاب غير خلقه، احتجب بغير حجاب محجوب،

واستتر بغير ستر مستور لا إله إلّاهو الكبير المتعال» «۲».

تدل هذه الأحاديث بمنتهى الوضوح على أنّ كل مَن سأل الأئمّة المعصومين عليهم السلام عن مكان اللَّه، سمع رداً سلبياً وتعابير متناغمة، غنية صريحة، وواضحة تدفع كل ابهام فى هذا المجال عن قلوب المشتاقين.

۶- ورد فى (الإرشاد) و (الاحتجاج): «أنّ اثنين من أحبار اليهود دخلا المدينة وسألا عن الخليفة، فأرشِدا إلى أبى بكر، فلمّا نظرا إليه قالا: ليس هذا صاحبنا، ثم قالا له: ما قرابتك من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: إنّى رجل من عشيرته، وهو زوج ابنتى عائشة، قالا: هل غير هذا؟ قال: لا، قالا: ليست هذه بقرابة، قالا: فأخبرنا أين ربّك؟ قال فوق سبع سموات، قالا: هل غير هذا؟ قال: لا، قالا: دُلّنا على من هو أعلم منك؟ فانّك أنت لست بالرجل الذى نجد صفته فى التوراة أنّه وصى هذا النبى وخليفته! قال: فتغيّظ من قولهما وهمّ بهما، ثم أرشدهماإلى عمر، وذلك أنّه عرف من عمر أنّهما إن استقبلاه بشىء بطش بهما، فلما أتياه قالا: ما قرابتك من هذا النبى؟ قال: أنا من عشيرته، وهو زوج ابنتى حفصة، قالا: هل غير هذا؟ قال: لا، قالا: ليست هذه بقرابة، وليست هذه الصفة التى نجدها فى التوراة! ثم قالا:

فاين ربك؟ قال: فوق سبع سموات، قالا: هل غير هذا؟ قال: لا، قالا: دُلّنا على من هو أعلم منك؟ فأرشدهما إلى على عليه السلام، فلما جاءاه فنظرا إليه قال أحدهما لصاحبه: إنّه الرجل

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۱۷۵، ح ۴.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۷۸، ح ۱۲.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۸

الذى نجد صفته فى التوراة: أنّه وصى هذا النبى وخليفته وزوج ابنته وأبو السبطين والقائم بالحق من بعده، ثم قالا لعلى عليه السلام: أيّها الرجل ما قرابتك من رسول اللَّه؟ قال: هو أخى، وأنا وارثه ووصيه وأول من آمن به وأنا زوج ابنته فاطمة، قالا له: هذه القرابة الفاخرة والمنزلة القريبة، وهذه الصفة التى نجدها فى التوارة ثم قالا له: فاين ربّك عزّ وجلّ؟ قال لهما على عليه السلام: إن شئتما أنبأتكما بالذى كان على عهد نبيّكما موسى عليه السلام وإن شئتما انبئتكما بالذى كان على عهد نبيّنا محمد صلى الله عليه و آله، قالا: أنبئنا بالذى كان على عهد نبيّنا موسى عليه السلام؟ قال على عليه السلام: أقبل أربعة أملاك: ملك من المشرق، وملك من المغرب، وملك من السماء، وملك من الأرض، فقال صاحب المشرق لصاحب المغرب: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربّى، وقال صاحب المغرب لصاحب المشرق: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربى، وقال النازل من السماء للخارج من الأرض: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربى، وقال الخارج من الأرض للنازل من السماء: من أين أقبلت؟ قال: أقبلت من عند ربى، فهذا ماكان على عهد نبيّكما موسى عليه السلام .... قال اليهوديان: ما منع صاحبيك أن يكونا جعلاك فى موضعك الذى أنت أهله؟! فوالذى أنزل التوراة على موسى أنّك لأنت الخليفة حقاً نجد صفتك فى كتبنا ونقرأُه فى كنائسنا، وأنّك لأحق لهذا الأمر وأولى به ممن قد غلبك عليه، فقال على عليه السلام: قدّما واخّرا وحسابهما على اللَّه عزّ وجلّ يوقفان ويُسألان» «۱».

۷- نختتم هذا البحث بجُمل واضحة من نهج البلاغة عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام:

قال عليه السلام فى الخطبة ۱۷۸ من نهج البلاغة: «لا يغيّره زمان، ولا يحويه مكان، ولا يصفه لسان».

وقال عليه السلام فى الخطبة ۱۸۶ من نهج البلاغه: «وإنّ اللَّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده، لا شىء معه، كما كان قبل ابتدائها .... بلا وقت ولا مكان ولا حين ولا زمان».

وفى الخطبة ۴۹ من نهج البلاغة قال عليه السلام: «سبق فى العلو فلا شىء أعلى منه، وقرب فى الدنو فلا شىء أقرب منه، فلا استعلاؤُه باعده عن شىء من خلقه، ولا قربه ساواهم فى المكان به».

(۱) كتاب التوحيد للصدوق، ص ۱۸۰، ح ۱۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۰۹

هذا هو ما وصلنا من المنطق الصحيح والمعارف الحقة لأهل البيت عليهم السلام حول اللَّه سبحانه وتعالى.

۶- تبريرات المخالفين

أثبت تاريخ العقائد الإسلاميّة بأنّ المنحرفين عن أصول الدين المعروفة كانوا يستعينون بالآيات المتشابهة لإثبات مقاصدهم دون أن يلتفتوا إلى القانون الذى طرحهُ القرآن فى هذا المجال، وهو تفسير المتشابهات فى ظل المحكمات.

وقد لجأ القائلون بوجود مكان للَّه‌تعالى، والقائلون بوجود جسم له أيضاً إلى بعض الآيات المتشابهات واعتبروها كافيةً لإثبات ادّعائهم بصورة منفصلة عن بقية الآيات القرآنية، إليكم أهمها:

۱- «الرَّحْمَنُ عَلى العَرشِ اسْتَوَى . (طه/ ۵)

تصور هؤلاء بأنّ (العرش) سريرٌ فى أعلى السموات، يجلس اللَّه عليه، ويصدر أوامره إلى الملائكة!

فهم يتغافلون عن أنّ هذا تعبيرٌ كنائى يُستعمل فى الكثير من العبارات المتداولة، وهو كناية عن السلطة والقدرة.

ويجدر التوضيح بأنّ الملوك القدماء كانوا يمتلكون نوعين من العرش:

الأول: مرتفع يطلق عليه العرب إسم (العرش)، يجلس عليه الملك فى الأيام الخاصّة ذات الطابع الرسمى.

والثانى: منخفض، يأتى إليه الملك كل يوم ويجلس عليه فى الحالات الطبيعية ليمارس عمله ويصدر أحكامه وأوامره ويدبّر أمور البلاد، ويُطلق عليه العرب (الكرسى).

واستُعملت كلمتا (العرش) و (الكرسى) رويداً رويداً كرمزين وكنايتين عن السلطة، وهذا المفهوم واضح فى التعابير التالية:

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۰

يقال: نَحَّوا الشخص الفلانى عن عرشه أى سُلبَت سلطتُهُ. أو فلانٌ فُلَّ عرشُهُ، أى انتهت حكومته، أو إنَّ الحادثة الفلانية هزَّتْ أركان عرشِ فلان أى زلزلت سلطتهُ، ومن قبيل هذه التعابير.

وَعليه فعرش اللَّه معناه العالم العلوى، وكرسيُّهُ معناه العالم السفلى، أو إنّ العرش إشارة إلى عالم ما وراء الطبيعة والمجرّدات، والكرسى إشارة إلى عالم المادّة، والشاهد على هذا الكلام آية: «وَسِعَ كُرسِيُّهُ السَّمواتِ وَالأَرضَ». (البقرة/ ۲۵۵)

فعندما يكون كُرسى اللَّه قد وسع جميع السموات والأرض فإنّه يعنى أنّ عرشه ما وراء السموات والأرض، أى ما وراء عالم الطبيعة «۱».

بناءً على ذلك فحينما يُقال: الرحمن على العرش استوى، فالمقصود منه أنّ حاكميته، ومالكيته، وسلطته شملت العالم العلوى بوسعه، والعالم السفلى بتمامه.

وهذا الأمر واضحٌ جدّاً، ويُمكن للآيات القرآنية التى تنفى وجود مكان للَّه (وأوردناها فى بداية الكلام)، أن تكون خير دليلٍ على تفسير هذا الأمر.

ورد فى تفسير الميزان أنّ الآية التى تلت هذه الآية (طه/ ۶) تقول: «لَهُ مَا فِى السَّماوَاتِ وَمَا فِى الأَرضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحتَ الثَّرَى ، وهى قرينة واضحة لتفسيرها «۲».

وردَّ الفخر الرازى فى تفسيره على استدلال المشبِّهة، بهذه الآية على جلوس اللَّه على عرشه، بعشر أدلة عقليّة ونقليّة، من جملتها: إنّ اللَّه كان موجوداً قبل خَلق العرش أو أى مكانٍ آخر، فهو لم يكُن محتاجاً إلى المكان منذ الأزل، فكيف يُمكن أن يحتاج إلى مكان

بعد خلق العرش؟!

والآخر هو: لو أنّ اللَّه تعالى جالسٌ على عرشه وفقاً لتصور هذه الجماعة لاستلزم أن يكون جزء من وجوده الكائن على يمين العرش غير الجزء الموجود على يساره! ولاستلزم

---

(۱) لما كان الاستواء على العرش وهو سرير الملك ممّا يردف الملك، جعلوه كنايةً عن الملك فقالوا: استوى فلان على العرش يريدون مُلك وإن لم يقعد على السرير البتة، الكشاف ج ۳، ص ۵۲.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۱۳۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۱

التركيب، والأخير يحتاج إلى الأجزاء بدوره، (وهذا محال).

والآخر هو قول القرآن عن إبراهيم عليه السلام: «لَآ أُحِبُّ الآفِلِينَ». (الأنعام/ ۷۶)

يُشير إلى حضوره تعالى فى كل مكان، فلو كان جالساً على عرشه للزم أن يكون غائباً ومختفياً دائماً، وهذا عين الأفول!

ومن جهةٍ اخرى يشير القرآن الكريم فى الآية ۱۷ من سورة الحاقّة إلى حملة العرش من الملائكة، وبناءً على معتَقد جماعة (المشبّهة) يستلزم أن يكون اللَّه بحاجة إلى ملائكة العرش ليحفظوه! فى‌حين أنّ اللَّه على كل شيءٍ حفيظ.

علاوةً على كون جميع آيات التوحيد ونفى التشبيه من المحكمات، ونحن نعلم بأنّ ما يلزم التوحيد ونفى الكفؤ عنه تعالى هو نفى الجزئية عنه بكل ألوانها، وهذا لايتناسب مع استقراره فى مكان معين .... (ودلائل اخرى) «۱».

ومن جملة الآيات التى استعان بها هؤلاء الجماعة، هى الآية ۲۲ من سورة الفجر، فبعد أن شرح سبحانه حوادث نهاية الدنيا وقيام القيامة قال: «وَجَاءَ رَبُّكَ وَالمَلَكُ صَفًّا صَفًّا».

طبعاً، كما قال أكثر المفسّرين: إنّ المقصود من الآية هو مجى الأمر الإلهى لمحاسبة الناس، أو حلول آيات عظمته، لأنّ هذه الآيات والدلائل عظيمة لدرجة بحيث وكأنّ مجيئها يُعبّر عن مجى الذات الإلهيّة المقدّسة وتجلو كل أنواع الريب والشك من القلوب «۲».

من هنا فقد ورد بصريح العبارة فى الآيات التى قرأناها سابقاً أنّ اللَّه موجود فى كل مكان، ولا يخلو مكانٌ من ذاته المقدّسة، ولا يسعه مكان فى نفس الوقت: «وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَ مَا كُنْتُم».

مع هذا فكيف يُمكن أن ينتقل من محلٍ لآخر، كما استنتج (جماعة المشبّهة) من ظاهر كلمة (جاء) منها: «وَهُوَ مَعَكُم أَيْنَ مَا كُنتُم». (الحديد/ ۴)

ومنها: «وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۵.

(۲) تفاسير، مجمع البيان، الميزان، القرطبى، روح الجنان وغيرها.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۲

ومنها: «فَأَينَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجهُ اللَّهِ». (البقرة/ ۱۱۵)

ومنها: «هُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ الَهٌ وَفِى الأَرضِ إِلَهٌ». (الزخرف/ ۸۴)

كيف يُتصوَّر انتقالُه من مكانٍ لآخر؟

علاوةً على أنّ التغيير، والزوال، والغروب، والأفول، والحاجة إلى المكان، تعتبر من لوازم الانتقال.

والشاهد على هذا التفسير، قوله تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ المَلَائِكَةُ أو يَأتِىَ أَمرُ رَبِّكَ». (أى الموت أو العذاب الإلهى). (النحل/

(۳۳

ولكن تُلاحظ تعابير من هذا القبيل فى بعض الآيات القرآنية أيضاً مثل: «إِلَيهِ يَصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ». (فاطر/ ۱۰)

و: «تَعْرُجُ المَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيهِ». (المعارج/ ۴)

و: «لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقوَى مِنكُم». (الحج/ ۳۷)

ومن المسلَّم به أنّ جميع هذه التعابير تُشير إلى الصعود المعنوى، والعروج الروحى، والقرب الباطنى، بقرائن نفس الآيات، لأنّ العمل ليس بالشىء الذى يصعد إلى السموات الظاهريّة، وكذلك التقوى ليس لها عروج جِسْمانىّ، (تأمل جيداً).

لكن الذين لاينتبهون إلى هذه الحقائق ويتقيّدون بالألفاظ فقط يسلكون طريق الخرافات ظنّاً بأنّهم يرون الحقيقة.

وقد وردت تعابير فى بعض الآيات أيضاً تبيّن فى الواقع عقيدة الكافرين، لكن الجهلاء اتخذوها مبرراً للقول بوجود جسم ومكانٍ للّه‌تعالى من دون الإنتباه إلى ذلك، فمثلًا نقرأ فى قوله تعالى: «هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأتِيَهُمُ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةُ». (البقرة/ ۲۱۰)

(ماأسخفه من مُعتقَد وتصورٍ ساذجٍ).

وعليه فإنّ الإستفهام الموجود فى الآية هو بالحقيقة استفهامٌ إستنكارى، أى عدم إمكانية تحققُ مثل هذا الشىء «۱».

---

(۱) فسّر بعض المفسّرين الاستفهام الموجود فى الآية بأنّه استفهام تحذيرى، وقدّروا كلمة (أمر) محذوفة كما مرّ فى بعض الآيات السابقة، وقالوا: إنّ على هذه الجماعة من الكفار أن ينتظروا مجى أمر اللّه بالعذاب ومجى ملائكة الحساب لمحاسبتهم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۳

وخلاصة الكلام هو أنّ وضوح تفسير مثل هذه الآيات موقوف على قليل من الدقّة، والرجوع إلى الآيات المحكمات بالنسبة إلى نفى الجسم، والمكان، والزمان للّه‌سبحانه وتعالى، فلا يبقى محلٌ للاشتباه والشك والريب.

۷- المتصوّفة ومسألة الحلول

قال العلّامة الحلّى رحمه الله فى كتاب نهج الحق: «إنّ إتحاد اللّه مع غيره بحيث يصيران شيئاً واحداً باطل، بل وبطلانه يُعَدُّ من البديهيات»، ثم أضاف قائلًا: رفض جماعة من متصوفة أهل السُّنة هذه الحقيقة وقالوا: إنّ اللّه يتحد مع بدن العرفاء ويصيرا شيئاً واحداً!! وحتى قال بعضهم: اللّه عين الموجودات وكل موجودٍ هو اللّه، إشارة إلى مسألة وحدة الوجود المصداقيّة، ثم قال: هذا عين الكفر والإلحاد، والحمد للّه‌الذى أبعدنا عن أصحاب هذه العقائد الباطلة ببركة الإلتزام بمذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقال فى بحث الحلول: من المسائل المسلَّم بها أنّ أىّ موجودٍ يريد أن يحلّ فى آخر يحتاج إلى مكان، ولأنّ اللّه واجب الوجود ولا يحتاج إلى شىء، إذن فحلوله فى الأشياء مُحال.

ثم أضاف قائلًا: «رفض متصوفة أهل السُّنَة هذه المسألة واعتقدوا بإمكانية حلول اللّه فى بدن العرفاء»، ثمَّ ذمَّ هذه الجماعة بشدة وقال: ولقد شاهدتُ جماعة من الصوفية فى حضرة الإمام الحسين عليه السلام وقد صلّوا صلاة المغرب سوى شخصٍ واحدٍ منهم كان جالساً لم يُصلِّ، ثم صلّوا بعد ساعةٍ صلاة العشاء سوى ذلك الشخص الذى ظلّ جالساً!.

فسألتُ بعضهم عن ترك صلاة ذلك الشخص فقال: ما حاجة هذا إلى الصلاة وقد وصل! أَفهل يجوز أن يجْعلَ بينه وبين اللّه تعالى حاجباً؟ فقلتُ: لا، فقال: الصلاة حاجب بين العبد وربّه!» «۱».

---

(۱) نهج الحق، ص ۵۸ و ۵۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۴

وقد ورد نفس هذا المفهوم فی مقدمة الدفتر الخامس لکتاب المثنوی بنحوٍ آخر، یقول:

«یصح ذلک إذا بلغت المقصود، لذا فقد قالوا: لوظهرت الحقائق بطلت الشرائع!، وشبّه الشریعة بعلم الکیمیاء (العلم الذی یمکن بواسطته استخلاص الذهب من النحاس) فقال:

ماحاجة الذهب الأصیل، أو الذهب المستخلَص إلی علم الکیمیاء!؟ فکما قالوا: طلب الدلیل بعد الوصول إلی المدلول قبیح!» «۱».

وقد نُقلَ عن (صاحب المواقف) فی کتاب (دلائل الصدق) فی شرح (نهج الحق) قوله بأنّ نفی (الحلول) و (الإتحاد) ثلاث طوائف، واعتبر بعضَ المتصوّفة من الجماعة الثانیة وقال: إنّ کلامهم متذبذب بین الحلول والإتحاد (یُقصد بالحلول نفوذ اللَّه فی الأشیاء ویُقصد بالإتحاد الوحدة بینه وبین الأشیاء).

ثم أضاف قائلًا: رأیتُ بعض (المتصوّفة الوجودیین) یُنکرون الحلول والإتحاد، ویقولون: توحی هاتان الکلمتان بمغایرة اللَّه للمخلوقین، ونحن لا نؤمن بذلک! فنحن نقول:

(لیس فی دار الوجود غیره دیّار)!!

وهنا یقول صاحب المواقف: إنّ هذا العذر أقبح من الذنب «۲».

وبالطبع فإنّ للمتصوفة الکثیر من قبیل هذا الکلام الذی لا یتناسب مع الموازین ومنطق العقل، ولا مع منطق الشرع.

وعلی أیّة حال فإنّ الأتحاد الحقیقی بین شیئین محالٌ، کما ورد فی کلام المرحوم العلّامة، لأنّ هذا الکلام عین التّضاد، فکیف یُمکن لشیئین أن یصیرا شیئاً واحداً، إضافةً إلی ذلک فلو اعتقد أحدٌ باتحاد اللَّه مع جمیع المخلوقات أو خواص العرفاء والواصلین، لاستلزم أن یتصف بصفات الممکنات کالزمان، والمکان، والتغیُّر، وما شاکل ذلک.

وأمّا بخصوص (الحلول)، أی نفوذ اللَّه فی الأشیاء، فیستلزم خضوعه للمکان، وهذا

---

(۱) دفتر المثنوی الخامس، ص ۸۱۸.

(۲) دلائل الصدوق، ج ۱، ص ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۵

شیءٌ لا یتناسب أبداً مع وجوب وجود اللَّه سبحانه وتعالی «۱».

والخلاصة أنّ الصوفیین یعتقدون بعدم إمکانیة إثبات مثل هذه الإدّعاءات بالأدلة العقلیّة، وغالباً ما یفصلون طریقهم عن طریق العقل، ویستعینون بسلسلة من المسائل الذوقیّة الخیالیّة التی یسمّونها (طریق القلب)، ومن المسلم به أنّه لایُمکن التوقُّع ممن یرفض منطق العقل سوی هذا الکلام المتناقض.

ولذلک فقد ابتعد عنهم کبار العلماء وطردوهم دائماً وفی جمیع العصور.

فالقرآن الکریم یستند فی الکثیر من آیاته إلی العقل والبرهان ویعدّهما طریقاً لمعرفة اللَّه.

وبهذا الکلام، وبالبحوث التی أوردناها بصدد (نفی الشریک والشبه)، و (نفی الصفات الزائدة عن الذات الإلهیّة المقدّسة)، نصل إلی نهایة بحث (صفات جلال اللَّه) بصورة کلیّة وأساسیّة، وقد اتضحت لنا جزئیاته فی ظل الأصول التی ذُکرت، بصورة جیدة.

ولنبحث الآن صفات الفعل الإلهی بعونه تعالی.

---

(۱) یجدر الأنتباه إلی أنّ نفس هذا المفهوم بخصوص بُطلان الحلول والإتحاد قد ورد فی شرح تجرید العقائد للعلّامة الحلّی باستدلالٍ

مفصَّل. (كشف المراد، ص ۲۲۷، باب أنّه تعالى ليس بحالّ فى غيره ونفى الإتّحاد عنه).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۷

۲- صفات فعل اللَّه

اشارة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۱۹

تمهيد:

اشارة

يُعد تقسيم صفات اللَّه إلى صفات الذات وصفات الفعل من أشهر تقسيمات بحث الصفات، وقد ذكرنا ذلك سابقاً.

ف (صفات الذات) وهى الصفات التى هى نفس الذات الإلهيّة المقدّسة كانت ثابتة للَّه حتى قبل صدور الأفعال منه تعالى، كأزليته وأبديته وعلمه وسلطانه.

أمّا (صفات الفعل) فهى الصفات التى تُطلق عليه بملاحظة صدور فعل معين من ذاته المقدّسة كالخالق والرازق، فمن المسلَّم أنّ هذه الصفة لم تكن لتُطلَق عليه قبل أن يخلق مخلوقاً ويرزقه، وبالطبع فقد كانت له القدرة على الخلق والرزق، إلّاأنّ صفة الخالق والرازق لم تكن تصدق عليه.

وعليه فصفات الفعل حادثة، وهى ليست نفس ذات اللَّه طبعاً، وبالحقيقة هى مفاهيم موجودة فى أذهاننا.

فما هو موجودٌ فى الخارج هو الذات الإلهيّة المقدّسة والأفعال الإلهيّة، وعندما نلاحظ صدور هذه الأفعال من الذات المقدّسة ننتزع هذه الصفات فى أذهاننا- بتعبير علمائنا الكبار- ونقول هو الخالق والرازق والمحيى والمميت، (وسنوضح ذلك فيما بعد).

ولأنّ أفعال اللَّه غير محدودة، فإنّ صفاته الفعلية غير محدودة كذلك. أمّا أهم الصفات الفعليّة التى وصف القرآن الكريم الذات الإلهيّة المقدّسة بها والتى لها آثار تربوية عميقة جدّاً على حياة البشر علاوةً على اكمال معرفتهم باللَّه، وكلٌّ منها تهدى الإنسان وتعينه على سلوك مراحل تكامل الصفات الإنسانية، هى مايلى: ۱- الخالق، ۲- الخلّاق، ۳- أحسن الخالقين، ۴- الفاطر، ۵- البارئ، ۶- الفالق، ۷- البديع، ۸- المصور، ۹- المالك، ۱۰- الملك، ۱۱- الحاكم، ۱۲- الحكيم، ۱۳- الرب، ۱۴- الولى، ۱۵- الوالى، ۱۶- المولى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۰

۱۷- الحافظ، ۱۸- الحفيظ، ۱۹- الرقيب، ۲۰- المهيمن، ۲۱- الرازق، ۲۲- الرزاق، ۲۳- الكريم، ۲۴- الحميد، ۲۵- الفتاح، ۲۶- الرحمن، ۲۷- الرحيم، ۲۸- ارحم الراحمين، ۲۹- الودود، ۳۰- الرؤوف، ۳۱- اللطيف، ۳۲- الحفىّ، ۳۳- الغافر، ۳۴- الغفور، ۳۵- الغفار، ۳۶- العفو، ۳۷- التوّاب، ۳۸- الجبار، ۳۹- الشكور، ۴۰- الشاكر، ۴۱- الشفيع، ۴۲- الوكيل، ۴۳- الكافى، ۴۴- الحسيب، ۴۵- سريع الحساب، ۴۶- اسرع الحاسبين، ۴۷- سريع العقاب، ۴۸- شديد العقاب، ۴۹- النصير، ۵۰- نعم النصير، ۵۱- خير الناصرين، ۵۲- القاهر، ۵۳- القهار، ۵۴- الغالب، ۵۵- السلام، ۵۶- المؤمن، ۵۷- المحى، ۵۸- الشهيد، ۵۹- الهادى و ۶۰- الخير.

ويجدر الإنتباه أيضاً إلى هذه المسألة وهى: إنّ الصفات الستّين المذكورة أعلاه والتى وردت فى الآيات القرآنية المختلفة ذات مفاهيم قريبة من بعضها، لذا سنبحث كل مجموعة متقاربة فى فصلٍ خاصٍ.

وهنالك بعض الصفات أيضاً ذات مفهومَيْن متفاوتَيْن، تبعاً لإرجاعها إلى (صفات الذات) و (صفات الفعل) كما سنتطرّق إلى ذلك فى قسم التوضيحات إن شاء اللّه.

۱- الخالق ۲- الخلّاق ۳- أحسن الخالقين

اشارة

وردت هذه الصفات فى آيات قرآنية عديدة وفى حالات مختلفة:

۱- «قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شىءٍ». (الرعد/ ۱۶)

فالآية أعلاه تشير إلى خلق جميع موجودات عالم الوجود.

۲- «إِنِّى خَالِقُ بَشَراً مِّن طِينٍ». (ص/ ۷۱)

تُشير هذه الآية إلى خلق الإنسان- الذى يعتبر أفضل مافى عالم الوجود- من موجودٍ حقير كالطين.

۳- «هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ». (الحشر/ ۲۴)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۱

استُعملت صفة الخالقية هنا بصورتها المطلقة، ولم يُذكرْ أى اسمٍ من المخلوقات.

۴- «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ». (الحجر/ ۸۶)

أشارت الآية إلى الخلق الإلهى الواسع والمتنوّع.

۵- «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحسَنُ الخَالِقِينَ». (المؤمنون/ ۱۴)

وهنا اشارةٌ إلى أهم وأرفع مخلوقات اللّه، أى الإنسان، وذلك فى مرحلة نفخ الروح، لذا فقد وُصِفَ البارى هنا بصفة أحسن الخالقين.

توضيح وبلاغ:

إنّ كلمة (الخالق) مشتقة من مادّة (خَلْق) وهى فى الأصل بمعنى (القياس المباشر) و (الإيجاد والإبداع لأول مرّة) «۱».

وأرجعها بعض أرباب اللغة إلى أصلين: الأول هو المعنى الذى ذكرناه أعلاه، والثانى هو بمعنى الإستواء والتسطُّح «۲».

قال فى مقاييس اللغة: وأمّا الأصل الثانى فصخرة خلقاء أى ملساء ويقال: اخلولق السحاب أى استوى

ولكن لا يُستبعد صدور المعنيين من أصل واحد، وهو القياس والتنظيم والإبداع.

وعلى أيّة حال فالفرق شاسعٌ مابين تعبير الخالقية الذى قد يُستعمل أحياناً بالنسبة إلى العباد، وبين تعبير الخالقية الذى يُستعمل بالنسبة إلى اللّه تعالى، والمشمول أيضاً بتعبير أحسن الخالقين، بل يصدق تعبير (الخلق) بمعناه الحقيقى بالنسبة إلى اللّه فقط الذى يوجِدُ الموجودات من العدم دون وجود أى أثر مُسبَق، فى حين لو ابتدع الإنسان أثراً صناعيّاً أو فنيّاً أو معمارياً فإنّما هو نتيجة تركيب ومزج مواد مختلفة مأخوذة من عالم الطبيعة،

---

(۱) مفردات الراغب الأصفهانى.

(۲) مقاييس اللغة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۲

فيصنعها بأشكال كان قد رآها من قَبْل فى عالم الوجود (أو يركّبُ أشكالًا مختلفةً سويةً)، وعليه، فلا المادّة من ابداعه ولا شكلها.

ويجب الإلتفات إلى كون صفة (الخالق) أو (الخلاق) من أوسع صفات الفعل الإلهى، والتى تشمل جميع عالم الوجود بأكمله، ومظهرهُ السماء والأرض وعالم المادّة وما وراء المادّة.

وخلقُ اللَّه يُعدُّ من أعظم الآيات الدالّة على وجوده، لأننا أينما نحط رحالنا نشاهد نماذج من خلقه ومخلوقاته التى تدل على وجوده.

ولذلك فكلُ واحدةٍ من الصفات الإلهيّة تحمل فى معناها بلاغاً للناس، وهذا أحد الأهداف المهمّة من طرحها فى القرآن الكريم الذى هو كتاب معرفة وتربية، إذ تقول هذه الصفة للإنسان: إنّ آثار الموجودات دليلٌ على وجود اللَّه، كأن تخترع أو تصنع شيئاً من الآثار العلميّة والاجتماعيّة وما شاكلها. فإن لم تترك أثراً من عندك فإنّك لا تمتلك أى شَبهٍ مع تلك الذات الإلهيّة الفريدة، ولم تتخلق بأخلاقه، ولم تتوفق لسلوك طريق القرب منه تعالى.

حاول أنت أيضاً أن تصنع آثاراً وتستنير بهذه الصفة الإلهيّة البارزة.

۴- الفاطر ۵- البارى ۶- الخالق ۷- البديع ۸- المصوّر

إنّ الصفات الخمس المذكورة أعلاه هى بالحقيقة مشابهة لصفة (الخالق)، لكنها ممزوجة مع مفاهيم ومعانٍ ومسائل جديدة، لنتمعن خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «فَاطِرَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ». «۱» (يوسف/ ۱۰۱)

---

(۱) ورد هذا التعبير فى ست آياتٍ من القرآن الكريم: الأنعام، ۴؛ إبراهيم، ۱۰؛ فاطر، ۱؛ الزمر، ۴۶؛ الشورى، ۱۱؛ والآية الواردة فى البحث.

۲- «هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ الْمُصَوّرُ». «۱» (الحشر/ ۲۴)

۳- «إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى . (الأنعام/ ۹۵)

۴- «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ». (الأنعام/ ۹۶)

۵- «بَدِيعُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ». «۲» (الأنعام/ ۱۰۱)

توضيح وبلاغ:

إنّ كلمة (فاطر) مشتقة من مادّة (فَطْر) (على وزن سَتْر)، وتعنى الإنفطار أو (الإنفطار الطولى)، كما ورد فى الآية: «إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ». (الانفطار/ ۱)

وقد وردت هذه الكلمة أيضاً بمعنى حَلْب الشاة، وإفطار الصوم، وابتداع وإيجاد شىء لأول مرّة وقد يُراد بها انفطارُ حجابِ ظلماتِ العدم ودخول الموجودِ إلى عالم الوجود.

وجاءت كلمةُ (البارى) من مادّة (بُرء) على وزن (قُفل) وهى فى الأصل بمعنى الشفاء من مرض أو التخلُّص من الأمور غير المرضية، وأُطلقت فيما بعد على الخالق الذى يوجِد الأشياء دون نقيصة أو خلل وبصورة موزونة تماماً.

ويعتبرها البعض بأنّها مشتقّة من مادّة (بَرْى) أى برى الخشب، ومن الواضح أنّ المقصود من برى الخشب هو صقله وتعديله وموازنة أضلاعه، وهذا مايصدق تماماً بالنسبة إلى الخالق الحكيم لأنّه يخلق كُلّ شىء بصورة موزونة.

وصرح البعض الآخر أيضاً بأنّ (البارى) معناها مَن يُوجِد الأشياء دون أن يكون لها نمودجٌ سابقٌ.

و (الفالق) من مادّة (فلْق) على وزن (خلق) ومعناه: فلقُ الشى وفصلُ جزءٍ عن آخر، ويستعمل هذا التعبير فى فلق النباتات (إنباتها) إذ ينفلق قشرُ بذورها ونواها بأمر البارى

---

(١) ورد هذا الوصف فى الآية ۵۴ من سورة البقرة أيضاً.

(٢) ورد نفس هذا التعبير فى الآية ١١٧ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢٢۴

تعالى على الرغم من استحكامها وسُمكها، وتخرجُ براعم لطيفة وظريفة جدّاً من ذلك الخفاء!

وبالحقيقة أنّ انفلاق بذور النباتات أثناء تفتحها يُعدُّ من أدق وأجمل لحظات وجود النبات وتشبه بالضبط لحظة خروج الإنسان من بطن أُمّه، وهذه اللحظة الحساسة تُعد من عجائب قدرة اللّه، إنّها لحظة التحوُّل والتغيُّر الشكلى والانتقال من عالم إلى عالم آخر.

ماهذه القوة التى تمنح هذا البرعم الظريف جدّاً القوة على اختراق جدار النواة المحكم ليبرز منتصباً من ذلك المهد، ويخرج من ظلمات رحم أمّه إلى عالم الظهور؟!

وكلمة (بديع) من مادة (بدع) على وزن (منع)، وكما أشرنا سابقاً فهى بالأصل بمعنى إيجاد الشىء دون وجود نموذج سابقٍ، لذا يُطلق على البئر المحفور حديثاً (بديع)، وعلى الأعمال والسُّنن التى لا سابقة لها (بدعة).

وعندما تُستعمل هذه الكلمة بالنسبة إلى البارى فإنّها تعنى إيجاد الشى دون الحاجة إلى الآلات والمكان والزمان، وهى تصدق فقط بحقه سبحانه.

وكلمة (بديع) صفة مشبّهة تدلّ على ثبوت واستمرار هذه الصفة لتلك الذات المقدّسة «١».

وجاءت كلمة (مصوّر) من مادّة (صورة)، بمعنى رسم وشكل الشىء، وجمعها (صُوَر) وهى على نوعين: (الصورة المحسوسة) كصورة الإنسان والحيوانات والموجودات الماديّة الاخرى، و (الصورة المعقولة) وهى التصورات العقليّة والفكريّة والمفاهيم الخاصّة بكل شىء.

وتستعمل كلمة (المصوّر) بخصوص البارى سبحانه وتعالى عندما يُراد الإشارة إلى الصور التى وهبها للموجودات المختلفة.

إلّاأنّ بعض أرباب اللغة يعتقد بأنّ هذه الكلمة تعنى فى لغة العرب التغيير والتحوير، (والصورة) بمعنى (الشكل والهيئة)، مأخوذة من الأصل العبرى (صوراه).

---

(١) المفردات؛ لسان العرب؛ التحقيق؛ ومقاييس اللغة (وقد ذُكر فى مقاييس اللغة مفهوم آخر لها وهو الإنقطاع والتعب).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢٢۵

توضيح وبلاغ:

يُستنتج جيداً من مجموع ما ذُكرَ أنّ صفات (الفاطر)، (البارى)، (البديع) تشير جميعاً إلى خلق الشىء بلا أىِّ سابقةٍ إلّاأنّ هذا المعنى أكثر وضوحاً وبياناً فى بعض الكلمات، وأقلُ بياناً فى بعضها الآخر، وعلى أيّة حال فهو يدلّ على أهميّة هذه النقطة وهى خلقِ اللّه بالقياس مع مايقوم به بعض بنى البشر، والتى قد يُطلق عليها مصطلح (الخلق) مجازاً، علاوةً على سعتها الخارقة، وعدم محدوديتها من حيث كون المادّة والشكل فى جميع مخلوقات اللّه غير مسبوقة بحدث مُسْبق.

لذلك لا يُمكن قياسها إطلاقاً مع تغيير الأشكال التى يُمارسها الإنسان فى مواد هذا العالَم والمسبوقة بعمل مُسبق.

بل إنّ كلمة (الخلق) بمفهومها الحقيقى لاتصدق أبداً بالنسبة لأعمال البشر.

نقل المرحوم الكفعمى فى المصباح عن الغزالى حول تفسير الأسماء الحسنى، بأنّ البعض اعتقد بأنَّ ألفاظ (الخالق) و (البارى) و (المصور) ألفاظ مترادفة، وتعنى جميعها (الخلق) و (الإبداع) فى حين أنّها ليست كذلك، بل الأشياء المخلوقة من العدم ذات ثلاث مراحل: (التقدير) و (الإيجاد) و (التصوير)، ثم ضرب مثلًا حول هذا المفهوم فقال:

يلزم، لإحداث عمارة مرموقة، أن يرسم خارطتها مهندسٌ قدير، ثم يُشيدها البنّاء، وبعد ذلك يزّينها الصبّاغ وأرباب النقوش الماهرون.

وعلى هذا فكلمة (الخالق) تُشير إلى المعنى الأول، فى حين أنّ (البارى) تُشير إلى المعنى الثانى و (المصوّر) إلى المعنى الثالث «۱».

وعلى أيّة حال فالبلاغ الذى تحملهُ هذه الصفات الإلهيّة فى طيّاتها يشبه مابيّناه فى الصفات السابقة، إضافةً إلى الخصوصيّات الموجودة فى صفات بحثنا هذه.

---

(۱) مصباح الكفعمى، ص ۳۱۹.

۹- المالك ۱۰- الملك ۱۱- الحاكم ۱۲- الحكيم ۱۳- الرّب

إنّ لهذه الصفات الإلهيّة الفعليّة الأربع مفهوماً واسعاً جدّاً يشمل جميع الموجودات فى العالم، وتأتى بعد الخلق والإيجاد من حيث التسلسل المنطقى، لذا فقد صمّمنا أن نبحثها بعد أن بَحثْنا خلق اللّه، بعدَ أن نمعن خاشعين فى الآيات التالية.

۱- «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلكِ». (آل عمران/ ۲۶)

۲- «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ» «۱». (الحمد/ ۴) ۳- «فَتعَالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ» «۲». (طه/ ۱۱۴)

۴- «.... وَهُوَ خَيرُ الحَاكِمِينَ» «۳». (الأعراف/ ۸۷)

۵- «قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ» «۴». (الأنعام/ ۱۶۴)

۶- «فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» «۵». (البقرة/ ۲۰۹)

توضيح وبلاغ:

إنّ كلمة (مَلِكْ) و (مالِك) و (مَليك) جميعها مشتقّة من مادّة (مُلك)، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: فهى تدل بالأصل على القوّة والسلطة، أُطلقت هذه الصفات على الأثرياء والحكام والسلاطين لتَمتُّعِهم بالقوّة والسلطة.

يقول الراغب فى مفرداته: تُطلقْ كلمة (مَلكْ) على الذى يتصرف فى عامة الناس عن طريق الأمر والنهى.

وتطلق كلمة (مِلك) عادةً فى الملكية السياسيّة، و (مالك) فى المسائل الماليّة، وقال

---

(۱) تكررت كلمة مالك ثلاث مرّات فقط فى القرآن، إثنتان منها تخص البارى تعالى ومرّة تخص (مالكاً) مَلكَ النار.

(۲) وردت كلمة «ملك» فى القرآن أحدى عشرة مرّةً، خمس منها فى وصف اللّه (طه، ۱۱۴؛ المؤمنون، ۱۱۶؛ الحشر، ۲۳؛ الجمعة، ۱؛ الناس، ۲).

(۳) وردت هـذه الكلمة فى القرآن الكريم خمس مرّات فقط جميعها فى وصف البارى تعالى، (الأعراف، ۸۷؛ يونس، ۱۰۹؛ هود، ۴۵؛ يوسف، ۸۰؛ التين، ۸).

(۴) تكررت كلمة «رب» فى القرآن الكريم أكثر من تسعمائة مرّة وهذا يدل على الأهميّة الفائقة لهذه الصفة الإلهيّة!.

(۵) تكررت هذه الكلمة فى القرآن لمئة مرّة تقريباً، أغلبها لوصف اللّه سبحانه وتعالى.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۷

البعض: بأنّ (الملك) اشمل من (المالك) لأنّ مالك الشيء حاكمٌ وملكٌ عليه، ولكن ليس كلّ مالك يكونٌ ملكاً «۱».

وقال البعضُ أيضاً: إنّ (المالكَ) مخيرٌ ليعمل مايشاء فى ملكه: فى حين أنّ (المِلِكَ) لا يمتلك مطلق الخيار فى تصرُّفاته.

علاوةً على عـدم اسـتطاعة المملوك التمرُّد على مالكية مالكه، فى حين أنّ الرعيّة يسـتطيعون الخروج على حكومة حاكمهم (مَلِكِهم) «۲»

.

بالطبع عنـدما تُسـتعمل هاتان الكلمتان كصـفتين للّهفانّما يُراد منهما الإشارة إلى المصـداق الأتم والأكمل، وبكلمـة واحدة الأشارة إلى مصـداقهما الوحيـد وهو اللّه تعالى لذلك فحينما يصلُ المرحوم (الكفعمى)- فى كتاب (المصـباح)- إلى كلمة (مَلِك) يقول: هو التام الملـك، الجـامع لأصـناف المملوكـات، وله مطلق التصـرف والأمر والنهى فيما يريـد من مأموريه، هو الغنى عن جميع الموجودات فى ذاته وصفاته، وتحتاج إليه جميع الموجودات فى ذاتها وصفاتها «۳».

وتجـدر الإشارة إلى هـذه النقطـة أيضاً، وهى: أنّ المالكيـة والحاكمية وليدة الخلق، ولأنّ (الخالق) بمعناه الحقيقى فى عالم الوجود هو اللّه وحده (فالمالك الأصلى) هو أيضاً، وإطلاق كلمة (مالك) و (ملك) على غيره له صبغة كنائية من هذه الناحية.

و (الحـاكم) من مـادّة (حكم) طبقـاً لما قاله صاحب مقاييس اللغـة: وهى فى الأصل بمعنى (المنع)، وقبل كل شـيء (المنع من الظلم)، وإنّما يُسمى (الحكيم) بهذا الاسم لامتلاكه قوة رادعة تحجبه عن الخطايا والمعاصى.

والسّر فى وصف اللّه بهذه الصفة هو منعه ونهيه جميع الموجودات عن الأعمال السيئة سواءً فى عالم التكوين أمْ فى عالم التشريع.

وتُعتبر كلمة (حكيم) من صفات الذات من حيث حكايتها عن علم اللّه، ومن صفات

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۳.

(۲) نقل هذا الاختلاف بين مصطلح (المَلك) و (المالك) الفخر الرازى فى تفسيره، ج ۱، ص ۲۳۷، عن بعض المصادر.

(۳) مصباح الكفعمى، ص ۳۱۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۸

الفعل من حيث إشارتها إلى خلق موجودات الوجود على أساس تنظيم وترتيبٍ خاص، وتشريع القوانين وفق مصالح كاملة ومُتقنة.

وقـد ورد فى كتـاب التحقيـق: أنّ الفرق بيـن (الحـاكم) و (الحكيـم) و (الحكـم) ينشـأ مـن الاختلافـات الموجـودة بين مشـتّقات هـذه الكلمات، فالحكيم تعنى من هو ثابت الحُكم والحاكم هو من يَصدُرُ منه الحُكم، والحَكم ذو معنى مشابهٍمع ثباتٍ أكثر.

يقول ابن الأثير فى النهاية: (الحَكم) و (الحكيم) فى أسماء اللّه تعنى (الحاكم)، ثم ذكر لها عدة معانٍ: منها الذى يوجد الأشياء بأحسن وجه، والذى يعلم بأفضل الأشياء على أفضل وجه، والذى يمنع عن الأعمال السيئة- وخاصةً الظُّلم-.

وكما أشـرنا سابقاً فإنّ كلمـة (ربّ) ذات مفهوم أصـلى واحد، وسلسـلة من اللوازم والأغصان والأوراق (الفروع)، لهذا فهى لها حالاتُ استعمالٍ كثيرة.

فكمـا ورد فى المفردات فـإنّ مفهومها الأصـلى هو (التربيـة) والسَّوْق نحو الكمال، ولأنّ هـذا العمل رافقته مفاهيمُ اخرى، كالإصـلاح،

والتدبير، والمالكيّة، والحكومة، والسيادة، والتعليم، والتغذية، فإنّها تُطلق أيضاً على أى واحدٍ من هذه المفاهيم.

وقد ورد فى (لسان العرب) أنّ كلمة (الرب) علاوةً على إطلاقها على الذات الإلهيّة المقدّسة، فإنّها تأتى أيضاً بمعنى: المالك، السيّد، المدبّر، المربىّ، القيّم، والمنعم.

وقد ورد فى مصباح الكفعمى أيضاً أنّ كلمة (رب) تعنى فى الأصل التربية والسوق التدريجى نحو الكمال، ثم استُعمل هذا المعنى المصدرى للمبالغة فى المعنى الوصفى.

وبعد ذلك ذكر لها أربعة آراء حول مفهومها الأصلى هى: المالك، السيّد، المدبّر، والمربى، واستعان بأمثلةٍ منها: ربّ الدار: «أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً». (يوسف/ ۴۱)

و (ربانيون) و (ربائب)- أى ابن الزوجة من رجُلٍ آخر-.

والذى نستخلصه ممّا تقدم أنّ كل هذه المعانى لها علاقة بمفهوم «التربية».

اتضح من مجموع ما ورد أعلاه أن هذه الصفات الخمس (الملك) و (المالك)، و (الحاكم)،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۲۹

و (الحكيم) و (الرب)، التى هى بأجمعها صفات فعليّة ماعدا «الحكيم» التى يُمكن اعتبارها من صفات الفعل وصفات الذات أيضاً (كالعالِم). وهى ذات مفاهيم قريبة من بعضها ومتلازمة مع بعضها تقريباً ولا تنفصل (ربوبية اللَّه) عن (ملكه) و (حكمه) وقد امتزجت مالكيته وحاكميته مع ربوبيته.

إنّ الإيمان والتفكير بهذه الصفات بمثابة إشارات وتجليات لها آثار تربوية كبيرة على نفس الإنسان بالطبع بعد التعرف على المعنى الحقيقى لهذه الصفات والتى، تخص الذات الإلهيّة المقدّسة، فإيمانى بمالكية اللَّه يبعث على الشعور بأنى أمينٌ على اموالى وينبغى علىَّ التصرُّف فيها وفق أوامر مالكها الأصلى.

والإيمان بحاكميّة اللَّه يمنعنى من الخضوع لسلطة الظالمين والطواغيت.

والإيمان بربوبية اللَّه يمنعنى عمن سواه، واعتبرُ جميع العالم من نفحاته، وآراه منقاداً لأوامره تعالى، وبالتالى فإنّ هذا الإيمان يمنعنى من السقوط فى دوامة عبوديّة المخلوقات.

۱۴- الولى ۱۵- الوالى ۱۶- المولى ۱۷- الحافظ ۱۸- الحفيظ ۱۹- الرقيب ۲۰- المهيمن

إنّ الصفات المذكورة أعلاه ذات مفاهيم مهمّة ومتقاربة وجميعها من صفات الفعل، لذا فقد بحثناها فى محلٍّ واحد ليتضح ويكتمل تفسيرها فى ظل بعضها البعض، وفى الواقع أنّ هذه المجموعة هى من الصفات الخالقيّة والربوبيّة.

وقد أشار القرآن الكريم إلى جميع هذه الصفات (حيث ذُكرت أحيانا مرّة واحدة وأحياناً اخرى عدّة مرّات) والآن لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الوَلِىُّ». (الشورى ۹)

۲- «وَمَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ». (الرعد/ ۱۱)

۳- «بَلِ اللَّهُ مَولَاكُم». (آل عمران/ ۱۵۰)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۰

۴- «فَاللَّهُ خَيرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف/ ۶۴)

۵- «إِنَّ رَبِّى عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ». (هود/ ۵۷)

۶- «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا». (الأحزاب/ ۵۲)

۷- «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤمِنُ المُهَيمِنُ». (الحشر/ ۲۳)

توضيح وبلاغ:

«الولى»: من (الولاء)، بالأصل بمعنى استقرار شيئين إلى جوار بعضهما، وتأتى بمعنى القرب، سواءً من حيث المكان أم القرابة النسبيّة، أم من حيث الدين والصداقة والنّصرة والإعتقاد.

هذا ماصرّح به الراغب فى مفرداته، وأضاف: (الوِلاية) بكسر الواو تعنى المساعدة والنصرة (والوَلاية) بفتح الواو تعنى تدبير الأمور «۱».

وقد اعتبر صاحب مقاييس اللغة أيضاً أنّ أصل هذه الكلمة يعود إلى مفهوم القرب، وفسّر صاحب كتاب لسان العرب أيضاً كلمة (ولى) بمعنى الناصر والمتولّى لُامور العالم والخلائق.

وعلى أيّة حال، فلهذه الكلمة معانٍ كثيرة، لكنها عندما تُستعمل بخصوص اللّه تعالى لا ريب فى أنّها تعنى الولاية وتدبير أمور العالم ونصرة العباد ومؤازرتهم.

وكلمة (مَولى) مشتقّة أيضاً من هذه المادّة، وذُكِرت لها معان كثيرة تعود جميعها إلى الأصل الذى ذكرناه أعلاه (وهو القرب).

وقد ذكر المرحوم العلّامة الأمينى رحمه الله- لهذه الكلمة- سبعاً وعشرين معنىً مختلفاً

---

(۱) ذكر المرحوم الكفعمى فى المصباح عكس هذا، وكذلك ابن الأثير فى النهاية، فقد ذكر أنّ الولاية تعنى تصدّى إدارة الأمور، والوَلاية بمعنى النصرة والمساعدة، ولا يُستبعد أن يكون هنالك خطأ فى نقل كتاب المفردات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۱

مستخلصاً من كتب اللغة وموارد استعمالها «۱».

وكذلك فقد ذكر ابنُ الأثير فى النهاية ستة عشر معنىً لها.

وصرّح فى إحدى عباراته: بأنّ (مولى) تعنى (ولى)، واستشهد فى ذلك بقول عمر لعلى عليه السلام: (أصبحت مولى كل مؤمن).

وأضاف قائلًا: قال جماعة بأنّ سبب هذا الأمر هو قول أُسامة لعلى عليه السلام: أنت لستَ بمولاى! بل مولاى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فسمع الرسول هذا الكلام فقال: «من كنت مولاه فعلىٌّ مولاه» «۲».

ومما ذكرناه يتّضح أنّ معنى كلمة (والى) أيضاً والتى هى اسم فاعل من هذه المادة.

لهذا فاللّه (وليّ) و (مولى) و (والى) فى نفس الوقت، فهو مدبّر أمورنا ومخيّرٌ فيها وحاكمنا وناصرنا، وهكذا شأنه مع بقية موجودات عالم الوجود.

وكلمة (حافظ) مشتقّة من مادّة (حفظ) وهى ذات معنى مشهور وواضح، وهو الحفظ، وقال الراغب: إنّها تعنى رعاية ومراقبة شىء معين، لذلك يُطلق على حالة كظم الغضب (حفيظة) لأنّها تستلزم أن يهتم الإنسان بمراقبة نفسه.

وقد ورد تعبير جامع حول هذا المجال فى كتاب التحقيق:

وتعطى كلمة حفظ معانىَ مختلفة تبعاً لاختلاف الموارد والموضوعات على الرغم من كون أصلها واحد، فقد يُقال: حفِظَ المال، أى من التلف، وحفِظَ الأمانة، أى من الخيانة، وحفِظَ الصلاة، أى من الفوت، وحفِظَ فلاناً، أى رعاه، وحفظ يمينه وعهده، أى من مخالفته، وحفظ الأمر الفلانى، أى أودعه فى ذهنه (بحيث لاينساه) ... «۳».

---

(۱) من معانيها رب، عم وأولاد العم، ولد، ابن الأخت، مطلق سراح العبد، مالك، تابع، المنعم عليه، شريك، زوج، صاحب، جار، ضيف، زوج البنت، قريب، مُنعم، عقيد، ولى، أولى، سيد، صديق، ناصر، المتصرف فى الأمور، مدبّر الأمور. الغدير، ج ۱، ص ۳۶۲.

(۲) نهاية ابن الأثير، ج ۵، ص ۲۲۸، مادّة (ولى).

(۳) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادّة (حفظ).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۲

ومن هنا يتضح معنى كلمة (حافظ) أيضاً، وتعتبر كلمة (حفيظ) التى هى صفة مشبهة أبلغ معنىً وأكثر ثباتاًمن كلمة (حافظ) التى هى اسم فاعل.

وعلى أيّة حال، فعندما تختص هذه الصفة باللّه تعالى فإنّها تُعطى معنىً واسعاً يشمل حفظ اللّه ورعايته لجميع الموجودات الماديّة والمعنويّة، والسماوات والأرض، وكذلك حفظ أعمال العباد، والشرائع والكتب السماوية، وحفظ الأنبياء والأئمّة المعصومين من المزالق (الخطايا)، وحفظ أى عهدٍ عاهد به عباده.

وعليه فإنّ (حافظية) اللّه و (حفيظيته) تشمل مفاهيم اخرى (كالقيمومية).

ولولا الحفظ الإلهى لما بقى فى السماء والأرض موجودٌ على قيد الحياة لحظة واحدة، كما ورد فى الآية: «وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ وَيُرسِلُ عَلَيكُم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ المَوتُ تَوَفَّتهُ رُسُلُنَا وَهُم لَايُفَرِّطُونَ». (الأنعام/ ۶۱)

يتضح من هذه الآية أنّ اللّه قد أمر الملائكة بحفظ الناس من الحوادث والبلايا حتى وصول الأجل المعيَّن.

وقد ورد شبيهٌ لهذا المعنى فى قوله تعالى: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَينِ يَدَيهِ وَمِن خَلفِهِ يَحفَظُونَهُ مِن أَمرِ اللَّهِ». (الرعد/ ۱۱)

ونظيرهُ ما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام فى نهج البلاغة: «إِنَّ مع كل إنسانٍ ملكين يحفظانه فإذا جاء القدر خليّا بَينَهُ وبَينَهُ» «۱».

وقد ورد فى سورة الإنفطار أيضاً مايخص الملائكة المكلَّفين بحفظ وتسجيل أعمال العباد، قال تعالى: «وَإِنَّ عَلَيكُم لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعلَمُونَ مَاتَفعَلُونَ».

(الإنفطار/ ۱۰- ۱۲)

وعليه فإنّ حفظ اللّه، بالمعنى الواسع للكلمة، يتحقق عن طريق علمه وقدرته سبحانه من جهة، وعن طريق الملائكة المكلَّفين بإداء هذه المهمّة من جهةٍ اخرى.

وكلمة (رقيب) كما ورد فى المفردات هى بالأصل مشتقّة من مادّة (رقبة) أى العنق، وأُطلقت فيما بعد على المحافظين والمراقبين، إمّا لكونهم يحفظون رقبة مَنْ يرعونَهُ

---

(۱) نهج البلاغة، القصار الكلمات، الكلمة ۲۰۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۳

ويحمونه (لأنّ الرقبة من أهم أعضاء البدن فإنّها تُعدّ كناية عن كل وجود الإنسان)، وإمّا لأنّهم يمدّون رقابهم وينظرون إلى ماحولهم بحذرٍ تحسُّباً من المخاطر، لذلك يُطلق على المحل الذى يقف فيه مثل هؤلاء الأفراد (المرقَبْ) «۱»

.

إلّاأنّه ذُكر فى بعض كتب اللغة عكس هذا المفهوم، أى أنّ المفهوم الأصلى لهذه الكلمة هو الحراسة والإشراف على الشىء، وإنّما سمى العنق (بالرقبة) لأنّه يُستعان بحركاتها عند الحراسة والمراقبة بواسطة العين والأذن «۲».

وقد ورد فى كتاب (العين) بأنّ أصل هذه الكلمة يعنى (الإنتظار)، وفى كتاب مقاييس اللغةبأنه يعنى (الإستطالة برعاية شىء وحراسته).

وعلى أيّة حال فعندما تختصّ هذه الصفة بالبارى تعالى فإنّها تعنى الحافظ الذى لا يخفى عليه شىء.

ومن الطبيعى أنّ رعاية اللَّه وحفظه لما فى الوجود، وجميع العباد، وأعمالهم، تكون بواسطة وجوده فى كل مكان، فلا حاجةَ له إلى نظرٍ أو مدّ رقبةٍ، ولا ما شاكل ذلك من عوارض الموجودات الماديّة.

ووردت كلمة (مهيمن) فى موضعين من القرآن الكريم، الأول فى الآية ۲۳ من سورة الحشر، كصفة للَّه، والتى ذكرناها أعلاه، والثانى فى الآية ۴۸ من سورة المائدة، كصفة للقرآن الكريم.

وهناك رأيان حول أصل هذه الكلمة، يتمثل الأول باعتقاد جماعة بأنّها مأخوذة من مادّة (هَيْمَنَ) أى بمعنى الرعاية والحفظ، لكن الكثير من أرباب اللغة يعتقدون بأنّها مشتقة من مادّة (إيمان) التى تبدلت همزتها إلى هاء، وتعنى الواهب للسكينة والأمان، وعندما تختصُّ هذه الكلمة بالبارى تعالى فانّها تأتى بمعنى الحفيظ.

---

(۱) المصباح المنير للفيومى.

(۲) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

وفسّرها البعض بمعنى الشاهد والناظر أو القيّوم بأمور الخلائق «۱».

وقد ورد فى مصباح الكفعمى عن بعض العلماء- حول تفسير هذه الكلمة-: إنّها تعنى الحافظ لأعمال العباد ومقدرات أعمارهم وأرزاقهم «۲»، ولكن كما قلنا: إنّ لهذه الكلمة معنىً أوسعَ.

من مجموع ما ذكرناه فى تفسير هذه الصفات السبع، التى لها مفاهيم متقاربة أو متلاصقة مع بعضها، تتجلى أمامنا صفحة اخرى من المعارف وصفات الفعل الإلهيّة، صفحة ذات آثار تربويّة ثمينةٍ وقيّمة جدّاً.

إنّها تدعو الناس إلى فعل الخيرات واجتناب أى لونٍ من القبائح والسيئات، وذلك لأنّهم يعلمون بأنّ اللَّه يراهم حيثما كانوا، وتطمئنهم إزاء الحوادث الصعبة، لأنّهم يعلمون بأنّ اللَّه هو الحافظ.

لهذا فإننا نقول: إنّ ذكر الصفات الإلهيّة فى القرآن الكريم ذو هدفين اساسيين: أحدهما رفع مستوى معرفة الإنسان بربّه، والآخر تربيته فى مختلف الجوانب.

۲۱- الرازق ۲۲- الرزّاق ۲۳- الكريم ۲۴- الحميد ۲۵- الفتّاح

إنّ لهذه الصفات الخمس- المذكورة أعلاه- مفاهيم متقاربة ومتلازمة مع بعضها، وتحكى جميعها عن تأمين أرزاق بنى البشر، بل حتى جميع الكائنات الحية، وتدل على أنّ

---

(۱) لسان العرب، مقاييس اللغة، ونهاية ابن الأثير. وقد نُقل فى بعض التفاسير عن أبى عبيدة أحد علماء اللغة بأنّه قال: يوجد فى كلام العرب خمسة أسماء فقط على هذا الوزن هى: (المهيمن) (المبيطر)، (المسيطر)، (المبيقر)، و (المخيمر) ... عن تفسير روح الجنان.

(۲) مصباح الكفعمى، ص ۳۱۸.

المتولى لأمر خلق الموجودات يلتزم تأمين مايديم حياتها أيضاً، وأنّ آثار نعمته الوفيرة وسعت كل شىء، ورحمته اللامتناهية شملت الجميع.

وعلى ضوء تلك المفاهيم نُمعن خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيرُ الرَّازِقِينَ». (الحج/ ۵۸)

۲- «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ». (الذاريات/ ۵۸)

۳- «يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ» «۱». (الإنفطار/ ۶)

۴- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ» «۲». (البقرة/ ۲۶۷)

۵- «وَهُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ». (سبأ/ ۲۶)

توضيح وبلاغ:

جاءت كلمة (رزّاق) و (رازق) من مادّة (رزق)، وفى الأصل بمعنى العطاء المستمر وفى أوقات معيّنة، سواءً كان دنيوياً أم أخروياً ومعنوياً، وقد يطلق الرزق أحياناً على (النصيب والربح).

وقال البعض أيضاً: إنّ (الرزق) فى الأصل بمعنى (الإنعام والعطاء) الخاص المناسب لحال الفرد وحاجته، لتستمر حياته ومعيشته، وهنا يفترق مفهوم الرزق عن مفهوم (الإحسان) و (الإنعام) و (العطاء) و (الربح والنصيب) و (الإنفاق) «۳».

والجدير بالذكر أنّ التعبير الفارسى المقابل لكلمة (رزق) وهو (روزى) يعطى مفهوم الإنعام والعطاء اليومى وفى أوقات معينة ليشمل جميع الأشخاص.

ولا يخفى أنّ الرزق الحقيقى هو الأشياء التى يحصل عليها الإنسان بالطرق المحللة، وأمّا ما يحصل عليه من الطرق المحرّمة فهو بالحقيقة رزقٌ كاذب.

---

(۱) يجدر الانتباه إلى أنّ كلمة «كريم» قد وردت فى سبعةٍ وعشرين موضعاً من القرآن الكريم، لكنها ذُكرت كصفة للبارى فى موارد محدودة جدّاً.

(۲) وردت كلمة حميد فى سبعين موضعاً من القرآن، مصحوبة غالباً بكلمة غنى وذكرتا كصفتين من الصفات الإلهيّة.

(۳) مفردات الراغب، مقاييس اللغة، والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

يُستنتج ممّا ذكرناه أنّ الرزق يأتى بالمرحلة التى تلى الخلق وإيجاد الإنسان، ويرتبط باستمرار حياته الماديّة والمعنوية، ولذا اعتبر البعض أنّ أصل وجود الإنسان أو قواه وامكانياته جزء من الرزق (كالمرحوم الكفعمى فى المصباح حيث يقول: إن رزق اللّه يعنى بانّه خلق الأرزاق والمرتزقين)، وهذا فى الحقيقة نوعٌ من المجاز والاتساع فى المعنى الحقيقى.

وعلى أيّة حال فإنّ وصف البارى فى الآيات المذكورة بصفة: (خير الرازقين) يشير إلى الأبعاد المختلفة التالية:

فالبعد الأول: إنّ أى شىء يعطيه البارى إنّما هو من عنده، وكل ما يمنحه الآخرون فهو ليس منهم، بل هم واسطة لانتقال الأرزاق.

البعد الثانى: إنّه سبحانه يُعطى كُلّ شىء من أنواع النعم الماديّة والمعنوية والروحية، الدنيوية والأخرويّة، الظاهريّة والباطنية، العلنية والخفيّة و ....، فى حين أنّ كل شىء يعطيه الآخرون محدودٌ من جميع النواحى.

والبعد الثالث: إنّه تعالى يأخذ بنظر الاعتبار حاجة العباد عند تقدير أرزاقهم ويرزقهم بما يُناسب حالهم، لأنّه عليم باسرار المرتزقين الظاهريّة والباطنيّة، ونعلمُ أنّ الآخرين ليسوا كذلك.

والبعد الرابع: إنّه الرّزاق الذى لا تنفد خزائنه أبداً لأنّ خزائن كل الأشياء بيده: «وَإِنْ مِّن شَىءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ». (الحجر/ ۲۱)

وفى حين يتصف الآخرون بالمحدوديّة التّامّة من هذه الجهة.

أمّا البعد الخامس: إنّه الرازق الذى يتناول من مائدته الصديق والعدو، وجميعهم يتزوّدون من نعمته بمقتضى كونه الرحمن والرحيم.

لكن الآخرين لا يفكرون سوى بأصدقائهم وأقربائهم.

والبعد السادس: إنّه لا ينتظر لقاء عطائه وإنعامه جزاءاً ولا شكوراً، لأنّه غنى من كل ناحية، لكن الآخرين ينتظرون ألف لونٍ من قبيل ذلك.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۷

أمّا البعد السابع: فهو أنّ رزقه بدرجة من السعة والشمول بحيث يبدأ منذ لحظة انعقاد النطفة فى عالم الرحم، ويستمر طيلة مرحلة وجود الجنين فى بطن أُمّه، وبعد الولادة من خلال حليبها وحنانها أيضاً، حتّى لحظات الموت الأخيرة، فهل من رازقٍ يُناظره؟ أجَلْ هذا سر قوله سبحانه (خير الرازقين).

واللطيف هو ماورد فى روايات عديدة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام حول تفسير الآية الشريفة التالية: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ». (التكاثر/ ۸)

(إنّ اللَّه أجلّ من أن يسأل الناس يوم القيامة عن مأكلهم ومشربهم، فهذا فضله على عباده ولن يسألهم عنه بل عن (العقائد الحقّة) ومن جملتها (نعمة الولاية) «۱».

وعليه فقد عكست لنا هذه الرواية معنىً آخر من معانى (خير الرازقين) لأنّه سبحانه- طبق ماجاء فى الحديث- لايسأل عن هذه الأرزاق!

أمّا السّر من اطلاق كلمة (الرزاق) على البارى تعالى، ثم (ذو القوة المتين) فهو لأنّ كلمة (الرزّاق) صيغة من صيغ المبالغة، وترمز إلى أنواع الأرزاق التى يهبها اللَّه المنان لجميع المرتزقين، لذا لا تليق هذه الكلمة إلّابشأنه، بل وكما أشرنا سابقاً من أنّ سواه لايُمكن أن يكون (رازقاً) ناهيك عن أن يكون رزّاقاً.

لأنّ اولئك لايملكون شيئاً ليمنحوه للغير، بل يمكنهم أن يكونوا واسطةً لإيصال الأرزاق إلى الآخرين.

وكلمةُ (متين) تعنى المحكم، وأخذت من مادّة (مَتْن) التى هى فى الأصل تعنى العضلتين

---

(۱) واليك نماذج من تلك الاحاديث:

أ) عن أبى خالد الكابلى قال: دخلت على أبى جعفر عليه السلام فدعا بالغداء فأكلت منه طعاماً ما اكلت طعاماً قط اطيب منه ولا الطف فلما فرغنا من الطعام قال: ياابا خالد كيف رأيت طعامك او قال طعامنا؟ قلت: جعلت فداك ما اكلت طعاماً أطيب منه قط ولا أنظف ولكن ذكرت الآية فى كتاب اللَّه عزّ وجل «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنْ النَّعِيمِ» فقال أبو جعفر عليه السلام: «إنّما يسئلكم عمّا أنتم عليه من الحق».

ب) عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام أنّه قال: «ثُمَّ لَتُسْئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ» واللَّه ماهو الطعام والشراب ولكن ولايتنا أهل البيت.

تفسير البرهان، ج ۴، ص ۵۰۲، ح ۴، ۵، ۶، ۷، ۸، ۹، ۱۱، ۱۲، ۱۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۳۸

القويتين الموجودتين على جانبى العمود الفقرى اللتين تقويّان ظَهر الإنسان وتجعلانه مستعداً لممارسة الأعمال الثقيلة، لذا فقد وردت بمعنى منتهى القدرة والقوّة.

ووصفُ البارى بهاتين الصفتين يرمز إلى قدرته التامّة على إيصال الرزق إلى عباده أينما وحيثما كانوا، ولا يحتاج إلى شىء.

إنّ التمعُّن فى هذه الصفات الإلهيّة الخاصّة يمنح المؤمنين السكينة، ويُغنيهم عن السير فى الطرق المحرّمة لتحصيل أرزاقهم، بل يحثهم

على طلب الرزق الحلال، إيماناً بلطفه سبحانه.

كلمة (كريم) مأخوذة من مادّة (كَرَم) والتى تعنى: الشرف والقيمة الذاتية أو الأخلاقية- حسب رأى مقاييس اللغة- لذا يطلق على الغيوم الممطرة (كريمة) وعلى الأرض المنتجة الخصبة (مكرمة).

ويقول الراغب أيضاً: إذا كانت كلمة (كرم) صفة للإنسان فإنّها تعنى الأخلاق والأفعال الحميدة التى تبدر منه، وإذا كانت صفة للّهفإنّها تعنى الإحسان والإنعام العلنى الواضح.

وللمفسّرين تعابير مختلفة حول تفسير كلمة (كريم) عندما تأتى كصفة للّهسبحانه وتعالى.

فقد قال جماعة: إنّ كلمة (كريم) تعنى الواهب الذى لايفعل إلّاالإحسان، ولا يقصد من وراء ذلك الحصول على أى ربح.

وقال جماعة آخرون: (الكريم) هو من يقبل القليل ويجزى إزاءه بالكثير.

وقال بعضهم: (الكريم) هو الذى لا ينفذُ عطائه أبداً.

وقال آخرون أيضاً: (الكريم) هو من يعطى مايجب عليه وما لا يجب.

ولا يوجد دليل خاص حول ترجيح أىّ من هذه التفاسير، ولكن بما أنّ كرم اللّه أكملُ أنواع الكرم، فإنّه يشتمل على جميع هذه المفاهيم وغيرها.

ويجدُر الإنتباه إلى هذه المسألة أيضاً وهى أنّ هذه الكلمة قد وردت فى القرآن الكريم على عدّة وجوه، فأحياناً كصفة للرزق مثل: «وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». (الأنفال/ ۴)

وأحيانا كصفة للملائكة مثل: «مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف/ ۳۱)

وأحياناً كصفة للعرش مثل «رَبُّ العَرشِ الكَرِيمِ». (المؤمنون/ ۱۱۶)

وأحياناً كصفة للقرآن مثل: «إِنَّهُ لَقُرآنٌ كَرِيمٌ». (الواقعة/ ۷۷)

ولكل واحدة من هذه الأمور نوع من (الكرامة) والقيمة السامية.

واشتقت كلمة (حميد) من مادّة (حمد) وتعنى الثناء، وبعكسها الذم والتوبيخ، لذا (فالحميد) هنا يأتى بمعنى (المحمود)، ويرمز إلى استحقاق اللّه لكل أنواع الثناء، الثناء على ذاته المقدّسة المنقطعة النظير، الثناء على صفاته وأسمائه، الثناء على أفعاله وأعماله الحميدة، وبالنهاية الثناء على كل تلك المواهب والأرزاق المادية والمعنوية المتنوعة التى وهبها لجميع عباده.

قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه: (الحميد) هو من يستحق الثناء على أفعاله فى السراء والضرّاء والأفراح والأحزان «۱».

وقال ابن الأثير فى النهاية: (الحميد) كصفة من صفات الخالق تعنى المستحق للحمد والثناء فى جميع الأحوال وأضاف قائلًا: مفهوما (الحمد) و (الشكر) متقاربان من بعضهما، ولو أنّ الحمد أكثر عموماً، لأنّ الحمد يشمل كُلًّا من الصفات الذاتية والعطايا والمواهب، فى حين أنّ الشكر يشمل المواهب والعطايا فقط لا الصفات.

وعلى أيّة حال، فإنّ تعبير (الحمد) كما قلنا: ذو مفهوم واسع يشمل الثناء على كل من الذات والصفات والأفعال.

ويجدر الإنتباه إلى أنّ كلمة (حميد) قد تكررت فى ستّة عشر موضعاً من القرآن، وغالباً مارافقتها صفة (الغنى) أو (العزيز)، ولعل السبب فى ذلك هو كون الأثرياء والأقوياء يقودهم غرورهم فى الغالب إلى ممارسة الأفعال غير المتّزنة والذميمة التى هى محل للمذمّة والتوبيخ، أمّا اللّه سبحانه ففى نفس الوقت الذى نجده غنيّاً وعزيزاً، لا يصدر منه سوى

---

(۱) مصباح الكفعمى، ص ۳۲۷.

الأفعال المحمودة، ولا يوجد من بين صفات جماله وكماله أى صفةٍ ذميمة، إذن فهو (حميد) من كل ناحية ويستحق الثناء.

وجاءت كلمة (الفتاح) من مادّة (فتح)، كما قال الراغب فى المفردات وابن فارس فى مقاييس اللغة: إنّها تعنى بالأصل فتح كلِّ مغلقٍ سواء فتح بابٍ أم حل مشاكل اخرى.

لذلك يُطلق مصطلح (الفتح) على النصر، لأنّه يحل مشكلة الحرب، ويُطلق على الحكم أيضاً، لأنّه يحل النزاع.

ولهذا التعبير معنىً واسعٌ جدّاً عندما يُعبَّر به عن الخالق جلَّ وعلا، فهو يشمل كل من فتح الأبواب المسدودة، وحل جميع معضلات العباد المعنويّة والماديّة، والحكم بالحق، والحكم الفصل.

قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه: (الفتّاح) معناه الحاكم بين عباده، وفتح الحاكم بين خصمين إذا قضى بينهما، وأيضاً، الذى يفتح أبواب الرزق والرحمة لعباده، وهو الذى بعنايته ينفتح كل مغلق «۱».

والأثر التربوى الناجم عن التمعُّن بهذه الصفة الإلهيّة واضحٌ جدّاً، فمن يعتقد بأنّ اللّه وحده هو الحاكم، ويعتقد بأنّ حل المشاكل وفتح الأبواب المغلقة يسير عليه سبحانه، لا يهاب حجم المشاكل وصعوبتها أبداً، ولا تتراكم على قلبه ذرات غبار اليأس والقنوط، ولا يكف عن الجدّ والإجتهاد المصحوبين بالإيمان بالنصر بلطفه سبحانه.

و يجدر الانتباه إلى أنّ كلمة (الفتّاح) لم تتكرر أكثر من مرّة فى القرآن وقد رافقتها صفة (العليم) وهذا يوضح صلتها بصفة (الفتّاح)، وذلك لأنّ حل المشاكل وفتح عُقَد المعضلات يحتاج إلى علم وفير، فالعليم بكل شىء هو الذى يستطيع حل جميع المشاكل، وإذا ماأردت- أيّها الإنسان- أن تحل مشكلة فى حياتك أو حياة الآخرين فعليك أن تحيط بها علماً بالمستوى المطلوب!

ولعل وصف البارى بصفة (خير الفاتحين)، فى الآية الشريفة عن لسان قوم شُعيب: «رَبَّنَا

---

(۱) مصباح الكفعمى، ص ۳۲۱.

افتَحْ بَينَنَا وَبَينَ قَومِنَا بِالحَقِّ وَأَنتَ خَيرُ الفَاتحِينَ». (الأعراف/ ۸۹)

يعود إلى التأكيد على هذا المفهوم أيضاً، لأنّ الفاتحين الجهلاء لا يمكنهم دائماً أداء أفعالهم بشكل لائق، لذا فخير الفاتحين هو الفتّاح العليم بكل شىء وفى جميع الأحوال.

۲۶- الرحمن ۲۷- الرحيم ۲۸- أرحم الراحمين ۲۹- الودود ۳۰- الرؤوف ۳۱- اللطيف ۳۲- الحفىّ

تُعد صفتا (الرحمن) و (الرحيم) من جملة صفات الفعل الإلهيّة التى ترد على الألسن دائماً، وتتكرر بأستمرار فى كل صلاة، وبداية السور القرآنية، بل وفى بداية كل عمل فهى تُنبئ عن لطف البارى ورحمته اللامحدودة تجاه عباده، بل تجاه جميع الموجودات وهى رمز كونه أرحم الراحمين.

ومن مستلزمات هذا المفهوم ودُّهُ ومحبته ولطفه وعنايته ورأفته، وقد تكررت هذه الصفات السبع كثيراً فى الآيات القرآنية، فلنتأمل خاشعين فى نماذج منها:

۱- «قُلِ ادْعُواللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحمنَ أَيّاً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى «۱».

(الإسراء/ ۱۱۰)

۲- «إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُم رَحِيماً». «۲»

(النساء/ ۲۹)

۳- «وَأَنتَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ». «۳»

(الأعراف/ ۱۵۱)

۴- «وَهُوَ الغَفُورُ الوَدُودُ». (البروج/ ۱۴)

---

(۱) تكررت كلمة «رحمن» فى ۵۶ موضعاً من القرآن- عدا البسملة- مما يدل على اهتمام القرآن البليغ بهذه الصفة.

(۲) تكررت كلمة «رحيم» فى ۱۱۴ موضعاً من القرآن- عدا البسملة- مما يحكى أيضاً عن اهميتها البليغة.

(۳) وردت كلمة الراحمين أربع مرّات فى القرآن الكريم، أحياناً بنحو الخطاب كما ورد فى الآية أعلاه، وأحياناً كضمير غائب مثل «وهو أرحم الراحمين». (يوسف/ ۶۴/ ۹۲).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۲

۵- «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». «۱»

(البقرة/ ۱۴۳)

۶- «... وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ». «۲»

(الأنعام/ ۱۰۳)

۷- «... إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا». «۳»

(مريم/ ۴۷)

توضيح وبلاغ:

بحثنا مفهوم كلمتى (الرحمن) و (الرحيم) فى المجلّد الأول من هذا التفسير بصورة مفصّلة، ولا حاجة إلى التكرار، ونكتفى هنا بالقول: إنّ كلتيهما مأخوذتان من مادّة (الرحمة).

ومعروف بين العلماء أنّ صفة (الرحمن) ترمز إلى الرحمة الإلهيّة العامّة التى تشمل الموالى والمعادى، والمؤمن والكافر، والمحسن والمسى، (كأنواع النعم والمواهب الإلهيّة العامّة التى ينتفع منها جميع العباد).

و (الرحيم): ترمز إلى (الرحمة الخاصّة) الإلهيّة التى خص بها عباده المؤمنين وجعلها من نصيب المحسنين والمتقين.

وأمّا عبارة (أرحم الراحمين) فإنّها استُعملت كصفة من الصفات الإلهيّة، لأنّ شعاعاً من رحمته قد دخل فى قلوب عباده أيضاً، فالوالدان رحيمان وعطوفان على ولدهما، والكثير من الناس يكنّون فى قلوبهم الرحمة والمحبة تجاه أصدقائهم وأحبائهم، إلّاأنّ هؤلاء جميعهم يمثّلون شعاعاً ضعيفاً من رحمة اللَّه، بل فى الحقيقة إنّ جميع هذه الرحمات مجازيّة، ورحمة اللَّه هى الرحمة الحقيقيّة، لأنّ ذاته المقدّسة غنيّة عن كُلّ شىء، فى حين أنّ المحبّة والرحمة الموجودة فيما بين الناس غالباً ماتنبع من تأثيرهم فى مصير بعضهم وحاجتهم إلى بعضهم.

---

(۱) وردت كلمة «رؤوف» فى أربعة عشر موضعاً من القرآن مصحوبة فى أغلبها بصفة الرحمة كما هو الحال فى الآية المذكورة أعلاه، وأحياناً فى عبارة (رؤوف بالعباد).

(۲) وردت كلمة «لطيف» فى سبعة مواضع من القرآن استُعملت فى جميعها كصفة للَّه‌سبحانه.

(۳) وردت كلمة «حفى» فى موضعين فقط من القرآن وفى واحدٍ منهما فقط كصفة للَّه‌سبحانه وتعالى (وهو الآية أعلاه).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۳

علاوةً على هذا، فإنّ رحمة غيره محدودة فى أُطرٍ خاصّة، إلّارحمته فهى غير محدودة من كل ناحية.

يُستنتج بشكلٍ إجماليٍّ من موارد استعمال هذه الصفة التى وردت فى أربع آيات قرآنية، أنّها استعملت فى الحالات التى وصلت بها المشكلة حدّها الأقصى، فقد وردت هذه الصفة فى قصة النبى أيوبَ عليه السلام بعد تحمُّله كل تلك الخطوب المنهكة، وفى قصّة يوسف عليه السلام عندما كان أخوته بمنتهى القسوة «قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيهِ إِلّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف/ ۶۴)

أو بعد معرفتهم أخاهم يوسف إذ خجلوا وندموا كثيراً على مافعلوا «قَالَ لَاتَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف/ ۹۲)

و ما ورد فى قصة موسى عليه السلام عندما رجع إلى قومه ورآهم يعبدون العجل وعاتبَ أخاه هارون «قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وأَدْخِلْنَافِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحمُ الرَّاحِمِينَ».

(الأعراف/ ۱۵۱)

ومن هنا يتضح لزوم الإعتصام بهذه الصفة الإلهيّة الملهمة للأمل والرجاء، فى الظروف العصيبة، والأحداث المعقدّة جدّاً والأليمة، والتفيؤ بظل رحمته، علاوةً على لزوم السعى لكى نكون مظهراً لهذه الصفة الإلهيّة وبعث شعاع منها فى وجودنا على الأقل.

الرحمة الإلهيّة الواسعة فى الأحاديث الإسلاميّة:

لسعة رحمة اللَّه انعكاسات واسعة فى الأحاديث الإسلامية، والنماذج التالية تحكى عن هذه الحقيقة:

۱- فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «اللَّه رحيم بعباده، ومن رحمته أنّه خلق مائة رحمة واحدة فى الخلق كلهم فبها يتراحم الناس، وترحم الوالدة ولدها .... فإذا كان يوم

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۴

القيامة أضاف هذه الرحمة الواحدة إلى تسع وتسعين رحمة فيرحم بها امة محمد صلى الله عليه و آله» «۱»

.

۲- فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة نشر اللَّه تعالى رحمته حتى يطمع ابليس فى رحمته» «۲».

۳- قيل لعلى بن الحسين عليه السلام يوماً أنّ الحسن البصرى قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك إنّما العجب ممن نجا كيف نجا فقال عليه السلام: «ليس العجب ممن نجا كيف نجا، وإنّما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة اللَّه» «۳».

إلهى لا يعزّ على كرمك اللامتناهى أن تشملنا بزاوية من رحمتك الواسعة هذه.

و كلمة (ودود) مشتقة من مادّة (وُدّ)- بضم الواو- التى هى فى الأصل بمعنى حب الشىء وتمنّى وجوده، لذا تستعمل فى كلا المعنيين (المحبة والتمنّى).

هذا ماورد فى المفردات ومقاييس اللغة، لكن لسان العرب ذكرها بمعنى المحبّة فقط، فى حين أنّ موارد استعمالها فى القرآن الكريم تدل بوضوح على أنّها استُعملت فى معنى التمنّى والمحبّة أيضاً.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الكلمة صيغة من صيغ المبالغة وتعنى الشخص الكثير المحبة، واللطيف أنّ هذه الصفة قد وردت فى القرآن الكريم مصحوبةً بصفة الغفور مرّة، وبصفة الرحيم مرّة اخرى، وكلاهما تتأكدان بصفة (الودود).

يقول المرحوم الكفعمى فى مصباحه: عندما تستعمل كلمة (ودود) كصفة من الصفات الإلهيّة، فإنّها تعنى من يحب عباده فيرضى عنهم ويتقبل أعمالهم ... أو بمعنى مَنْ يلقى حب عبده فى قلوب الآخرين حيث قال: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا» «۴»

. (مريم/ ۹۶)

---

(۱) مستدرک سفينة النجاة نمازى شاهرودى، ج ۴، ص ۱۳۵.

(۲) بحارالأنوار، ج ۷، ص ۲۸۷، (باب ما يظهر من رحمته تعالى فى القيامة).

(۳) سفينة البحار، ج ۱ ص ۵۱۷.

(۴) مصباح الكفعمى، ص ۳۲۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۵

«الودود»: (الودود) فعول بمعنى (مفعول) كما يقال: هيوب بمعنى مهيب، يراد به أنّه مودود ومحبوب، ويقال: بل فعول بمعنى فاعل كقولك: غفور بمعنى غافر، أىّ يود عباده الصالحين ويحبهم، والود والوداد مصدره المودة، وفلان ودّك ووديدك أىّ حبّك وحبيبك «۱».

واحتمل بعض أرباب اللغة كذلك أنّ كلمة (ودود) هنا تُعطى مفهوم اسم المفعول، وترمز إلى محبوبيّة اللَّه من قبل عباده المؤمنين «۲».

لكننا نعتقد بأنّ المعنيين الثانى والثالث ضعيفان، ويظهر من موارد استعمال هذه الكلمة أنّ معناها الدقيق هو (المحبّة والتمنى) الذى ذكرناه.

ومن البديهى اختلاف مفهوم المحبّة الإلهيّة مع مفهوم المحبة الإنسانية، فالمحبّة فى الإنسان نوعٌ من التوجّه القلبى والرغبة الروحية، فى حين أنّ اللَّه ليس له قلبٌ ولا روح، لهذا فإنّ محبته لعباده تأتى بمعنى فعله لما يُسبب خير البشر وسعادتهم، وتدل على لطفه وعنايته.

ويظهر أنّ السبب فى تفسير البعض كلمة (ودود) كإسم مفعول هو أنّهم لاحظوا بأنّ المحبّة بمعنى اسم الفاعل لا تليق بشأن البارى، لأنّها من عوارض الموجودات الإمكانية.

لكنها عندما تختصّ بالبارى تعالى فانّما يُقصد منها آثارها الخارجيّة، وليس هذا هو المكان الوحيد الذى يستوجب هذا المعنى والتفسير، بل هنالك الكثير من الصفات والأفعال الإلهيّة من هذا القبيل بالضبط، كقولنا: إنّ اللَّه يغضب على المذنبين، أى يتصرف معهم تصرُّف الغضبان، وإلّا فالغضب الذى يُعطى معنى الهياج والاضطراب فى نفس الإنسان لا يصدق أن يكون فى البارى تعالى أبداً.

وعلى أيّة حال فإنّ الإيمان بهذه الصفة الإلهيّة له أثره التربوى العميق (كما هو الحال فى بقية الصفات)، لأنّ محبّة اللَّه لعباده تؤدّى إلى إيجاد محبة العباد له، فالمحبّة الحقيقيّة لا تكون من طرفٍ واحد أبداً.

وعندما تدخل محبته فى قلوب عباده ويعشقونه سيسيرون باتجاه رضاه، لأنّ العاشق يخطو وفق ما يرتضيه معشوقه دائماً.

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۲۱۴.

(۲) مجمع البحرين، مادّة (ود)؛ توحيد الصدوق، ص ۲۱۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۶

وجاءت كلمة (رؤوف) من مادّة (رأفة) وتعنى (الرحمة)- حسب قول الراغب الإصفهانى- والجدير بالذكر أنّ تسعة حالات من الإحدى عشرة حالة التى وردت فيها هذه الصفة الإلهيّة فى القرآن الكريم رافقتها صفة (الرحيم) «۱»

، لذا فإنّ صِفَتیْ (رحیم) و (رؤوف) توكّدان مفهوم بعضهما البعض.

وهنالك جدال بين المفسّرين والمتكلّمين حول الاختلاف الموجود بين صفتى (رؤوف) و (رحيم)؟ فاعتقد البعض منهم بأنهما تعطيان مفهوماً واحداً، وعليه فإنّ ذكرهما إلى جنب بعضهما ذو صبغة تأكيد على الرحمة الإلهيّة اللامتناهية.

فى حين وضَعَ البعضُ الآخر- كابن الأثير فى نهايته- فرقاً بينهما، وهو: إنّ الرأفة مرحلة أدقّ وأسمى من الرحمة، ولا تستعمل أبداً فى المسائل الرديئة، لكن الرحمة تستعمل فى المسائل المكروهة التى توجد من ورائها مصلحة معينة (فقد يُمكن أن يُقال: إنّ الرحمة التى يحملها فلان دفعت به إلى قطع إصبعه المتعفّن وقايةً من سريان العفونة إلى بقية أعضاء بدنه، لكنه لا يصح استعمال تعبير «الرأفة» هنا) «۲».

يقول المرحوم الكفعمى فى مصباحه حول تفسير هذه الكلمة: (قال البعض: إنّ الرأفة مرحلة أسمى من الرحمة، فى حين اعتقد البعض الآخر بأنّ دائرتها أكثر محدوديّة من دائرة الرحمة).

يقول المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى ذيل الآية ۱۲۸ من سورة التوبة: يعتقد البعض بأنّ صفتى (رؤوف) و (رحيم) لهما مفهوم واحد، ماعدا كون الرأفة مرحلة أقوى من الرحمة، فى حين قال جماعة آخرون: (تستعمل كلمة (رؤوف) فى المطيعين و (رحيم) فى المذنبين، ثم نقل عن بعض العلماء السالفين قولهم إنّ اللَّه لم يجمع بين هاتين الصفتين بحقِ أيٍّ من أنبيائه، لكنّه فعل ذلك كرامةً لنبيِّ الإسلام محمد صلى الله عليه و آله حيث وصفه فى هذه الآية: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ»، وكذلك وصف ذاته جلّ وعلا حيث قال: «إِنَّ اللَّه بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». «۳»

(البقرة/ ۱۴۳)

---

(۱) البقرة، ۱۴۳؛ التوبة، ۱۱۷؛ التوبة، ۱۲۸؛ النحل، ۷ و ۴۷؛ الحج، ۶۵؛ النور، ۲۰؛ الحديد، ۹؛ الحشر، ۱۰.

(۲) نهاية ابن الأثير، مادّة (رأف)، ونفس هذه المادّة فى (لسان العرب) و (مجمع البحرين).

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۸۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۷

قال الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآية: «بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». (التوبة/ ۱۲۸)

قيل: هما واحد، والرأفة شدّة الرحمة، وقيل: رؤوف بالمطيعين منهم، رحيم بالمذنبين، وقيل: رؤوف بأقربائه، رحيم بأوليائه، رؤوف لمن رآه، رحيم بمن لم يره، وقال بعض السلف: لم يجمع اللَّه سبحانه لأحد من الأنبياء بين اسمين من اسمائه إلّاالنبى صلى الله عليه و آله فإنّه قال:

بالمؤمنين رؤوف رحيم.

وكذلك نلاحظ هنا ما لهذه الصفة الإلهيّة من الأثر التربوى والبلاغ الخاص فى قلوب المؤمنين، لأننا نرى بأنّ اللَّه رؤوف رحيم، ورسوله صلى الله عليه و آله رؤوف رحيم أيضاً، لذا يجب أن يكون شيعتهم ومحبّوهم رؤوفين رحماء أيضاً، وينعكس على وجودهم شعاعٌ من الرحمة الإلهيّة العامة والخاصة.

تكررت كلمة «لطيف» سبع مرّات فى القرآن الكريم، وقد وردت كصفة من صفات اللَّه فى جميع هذه الموارد وغالباً ماقترنت بصفة (خبير) «۱»

. ووردت لوحدها فى موضعين فقط «۲».

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الكلمة مشتقة من مادّة (لطف)، وتعنى: العمل الظريف والدقيق والمحبّة والحنان، وتُطلق أيضاً على كلّ من الموجودات الصغيرة الليّنة، والحركات الظريفة، والقيام بالأعمال الدقيقة، والأمور التى لاتدركها حواس الإنسان.

وعندما تختصّ هذه الصفة بالبارى تعالى فإنّها تعطى معنى الرفق والمداراة الإلهيّة بينه وبين عباده، وتوفيقهم وحفظهم من المشاكل «۳».

يقول ابن الأثير فى تفسير هذه الكلمة: اللطيف من يجمع بين (الرفق فى العمل) و (العلم بدقائق المنافع وإيصالها إلى أصحابها).

ويقول المرحوم الكفعمى رحمه الله فى (المصباح): «إنّ دعوة البارى، فى المشكلات، بهذه

---

(۱) الأنعام، ۱۰۳؛ الحج، ۶۳؛ لقمان، ۱۶؛ الملك، ۱۴؛ الأحزاب، ۳۴.

(۲) يوسف، ۱۰۰؛ الشورى، ۱۹.

(۳) مفردات الراغب الأصفهانى ولسان العرب، مادّة (لطف).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۸

الصفة له أثر عميق فى رفع وإزالة المنغّصات» «۱».

وقد فسّر المرحوم العلّامة الصدوق رحمه الله، فى كتاب التوحيد، هذه الصفة الإلهيّة كمايلى:

«إنّه لطيفٌ بعباده، يُحسنُ إليهم، ويُنعم عليهم، ثم أضاف قائلًا: اللطف هو نفس الإحسان والعزّة، ثم ذكر الحديث الشهير الذى يقول: «إنّ معنى اللطيف إنّه هو الخالق للخلقِ اللطيف» كما أنّه سمى) «العظيم لأنّه الخالق للخلق العظيم».

ومن الممكن الجمع بين كل هذه المعانى فى مفهوم كلمة (لطيف) الواسع.

أمّا السّر من اقتران صفة (اللطيف) ب (الخبير) فى أغلب الآيات القرآنية فهو أنّ صفة (الخبير)- طبقاً لما قاله بعض المحققين تشير إلى الإطلاع العميق والعلم والإحاطة الدقيقة بالحقائق، ممّا يتناسب مع مفهوم صفة (اللطيف).

إنّ البلاغ والأثر التربوى الذى يتركه الإيمان بهذه الصفة واضح جدّاً لأنّه يؤمل الإنسان بالألطاف الإلهيّة الخفيّة والجليّة من جهة، ومن جهةٍ اخرى يحث بنى البشر للتلطف والترحّم على بعضهم البعض، ومن جهة ثالثة يدفعهم إلى الاطلاع على مخلوقات اللّه الظريفة جدّاً والتفكُّر فيها، ولكل واحدٍ من هذه الأمور الثلاثة أثر بليغ فى تربية الناس.

وكلمة (حفيّ) مشتقة من مادّة (حفاء) على وزن (سَماء) ومن مادّة (حَفا) على وزن (جَفا) ولها عدّة معانٍ ذكرتها مصادر اللغة، من جملتها: سير الإنسان حافى القدمين، والإلحاح فى السؤال، العلم والإطلاع على شىء، الإلحاح فى عمل الخير.

وقال جماعة أيضاً: إنّها تعطى معنى ترقق جلد القدم، وكعب الحذاء، وحافر الجواد، بسبب كثرة السير «۲».

إلّا أنّه ليس مستبعداً أن يكون الأصل الحقيقى لكل هذه المعانى هو الالحاح فى السير بشكل يصبح جلد القدم أو الحذاء رقيقاً أو مُستهلكاً، ثم استعملت فى حالة الالحاح والمبالغة فى كل شىء من قبيل: الالحاح فى السؤال عن شىء ما بقصد الاطلاع، والالحاح فى طلب علم الخير.

---

(۱) مصباح الكفعمى، ص ۳۲۲.

(۲) مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مقاييس اللغة؛ نهاية ابن الأثير؛ تاج العروس؛ وكتاب العين.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۴۹

ووردت هذه الكلمة فى القرآن فى ثلاثة موارد، الأول فى مورد الإلحاح فى السؤال، كما فى قوله تعالى «إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحفِكُم تَبخَلُوا»!. (محمد/ ۳۷)

وفى مورد العلم والمعرفة كما فى قوله تعالى «يَسْأَلونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا».

(الأعراف/ ۱۸۷)

وفى مورد الإلحاح فى عمل الخير كما فى الآية: «سَلَامٌ عَلَيكَ سَأَستَغفِرُ لَكَ رَبِّى إِنَّهُ كَانَ بِى حَفِيًّا». (مريم/ ۴۷)

وعلى أيّة حال فعندما تختصّ هذه الكلمة بالبارى تعالى فإنّها يُمكن أن تعطى معنى العالم والخبير، وفى هذه الحالة تكون من صفات الذات وليس الفعل، وربّما تأتى بمعنى منتهى الإحسان والمحبّة أيضاً، فتُعد فى هذه الحالة من صفات الفعل الإلهى.

وبالمناسبة فانّها وردت فى القرآن كصفة مرّة واحدة فقط، وبمعنى منتهى الإحسان والمحبّة والتى وردت فى قصة إبراهيم وعمّه التى ذكرناها سابقاً.

ويتضح البلاغ التربوى الذى تحمله هذه الصفة الإلهيّة فى طياتها، بقرينة ما ذكرناه فى الصفات المشابهة لها، وذلك لأنّها تحيى بصيص الأمل فى قلوب العباد وتقربهم نحوه- سبحانه- من جهة، ومن جهة اخرى تعطى درساً فى الإحسان والمحبّة والحنان.

۳۳- الغافر ۳۴- الغفور ۳۵- الغفّار ۳۶- العفوّ ۳۷- التوّاب ۳۸- الجبّار

يُعد الغفران والرحمة الإلهيّة وعفو البارى عن المذنبين وقبول توبتهم، أصول مجموعة من صفات فعل اللّه التى أوردنا ستة نماذج منها أعلاه.

وقد وردت هذه الصفات الإلهيّة فى آيات قرآنية عديدة سنطلع عليها بعد أن نتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوبِ». «۱»

(غافر/ ۳)

---

(۱) وردت هذه الصفة فى آية واحدة من القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۰

۲- «إِنَّ اللَّهَ غَفورٌ رَّحِيمٌ». «۱»

(البقرة/ ۱۷۳)

۳- «... أَلَا هُوَ العَزِيزُ الغَفَّارُ». «۲»

(الزمر/ ۵)

۴- «... إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ». «۳»

(الحج/ ۶۰)

۵- «... إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». «۴»

(البقرة/ ۳۷)

۶- «... المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ». «۵»

(الحشر/ ۲۳)

توضيح وبلاغ:

اشتقت كلمة (غافر) و (غفور) و (غفّار) من مادّة (غَفْر) وهى بالأصل تعنى (التغطية)، و بخاصية تغطية الشىء عن التلوُّث، وكلمة (غفير) تعنى الذائبة أو الظفيرة الطويلة التى تغطّى الرقبة، و (مغفر) تعنى الخوذة التى تستعمل لتغطية الرأس فى القتال.

وهذه الكلمة عندما تختصّ باللّه سبحانه فإنّها تعنى المغفرة وستر الذنب، ولكن (غافر) اسم فاعل، و (غفور) و (غفّار) من صيغ المبالغة.

وقال جماعة: عندما تستعمل كلمة (غفور) كصفة من الصفات الإلهيّة فإنّها تعنى الساتر على عباده بغطاء رحمته، وقد ورد هذا التعبير أيضاً فى كلام بعض العلماء وهو: أُطلقت صفة (غفار) على اللّه لأنّه يستر ذنوب عباده بمغفرته متى ما أذنب العبد ورجع إليه بالتوبة «۶».

وكلمة (عفوّ) مشتقّة من مادّة (عَفْو) وكما قال ابن منظور فى (لسان العرب) وابن أثير فى

---

(۱) تكررت صفة «غفور» فى القرآن ۹۱ مرّة، واقترنت بصفة «رحيم» فى أغلب الموارد كما فى الآية أعلاه.

(۲) وردت صفة «غفار» فى القرآن أربع مرّاتٍ فقط، اقترنت فى ثلاثٍ منها بصفة «عزيز» كما فى الآية المذكورة أعلاه (ص، ۶۶؛ الزمر، ۵؛ غافر، ۴۲) ووردت لوحدها فى موضعين فقط (طه، ۸۲؛ نوح، ۱۰).

(۳) وردت هذه الصفة فى القرآن خمس مرّات اقترنت فى أربعٍ منها بصفة غفور (الحج- ۶۰، المجادلة، ۲؛ النساء، ۴۳ و ۹۹)، وفى واحدٍ منها فقط بصفة (قدير) (النساء، ۱۴۹).

(۴) استعملت كلمة «تواب» فى القرآن الكريم فى أحد عشر مرّةً كصفة من صفات اللّه واقترنت جميعها بصفة (رحيم) عدا موردين منها وفى موردٍ بصفة (حكيم) (النور، ۱۰)، ولوحدها فى موردٍ واحدٍ فقط (النصر، ۳).

(۵) وردت كلمة «متكبّر» فى القرآن ثمان مرّات، وكصفة من صفات البارى فى موضعٍ واحدٍ فقط.

(۶) مصباح الكفعمى ص ۳۲۰؛ توحيد الصدوق ص ۲۰۸؛ مفردات الراغب؛ لسان العرب؛ مقاييس اللغة، مادّة (غفر).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۱

(النهاية): هى بالأصل تعنى المحو، لكن الراغب فى مفرداته اعتقد بأنّ هذا المعنى ليس أصل الكلمة، بل أصلها الأساسى هو (القصد لأخذ الشىء)، لذا تُطلق على الرياح العاصفة التى تسبب الدمار أو الذهاب بالأشياء المختلفة، وإن أُطلقت (عفوّ) على (المَحو) فلأنّه نوعٌ من القصد لأخذ شىء معين.

وأُطلقت كلمة (عفوّ) على نمو النبات لأنّه يشق التراب ويظهر.

وقد ذُكر فى مقاييس اللغة اصلان لهذه الكلمة هما: ترك الشىء أو طلبه، ثم أرجع بقية المعانى إلى هذين المفهومين، ومن جملتها (العفو) بمعنى المحو والإبادة، و (العفاء) بمعنى التراب المتروك.

وعلى أيّة حال عندما تستعمل هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى فإنّها تُعطى معنى غفران الذنوب، ومحو آثار المعصية، وترك المعاقبة عليها، لكن بما أنّ (عفوّ) صيغة مبالغة فإنّها تعنى (كثير العفو) «۱»

.

وسبب التأكيد على هذه الصفة الإلهيّة هو أنّه تعالى لولا عفوه لما نجا أحدٌ من تبعات الذنوب، قال أمير المؤمنين على عليه السلام: «اللهم احملنى على عفوك ولا تحملنى على عدلك» «۲».

وفى وصيةٍ له عليه السلام لمالك الأشتر: «ولا غنى بك عن عفوه ورحمته» «۳»

.

إنّ عفو اللّه من السعة بحيث لا يحدّه شىء، والشىء الوحيد الذى استثناه القرآن منه هو الشرك، لذا فقد ورد حديث عن الإمام الحسن العسكرى أنّه عليه السلام قال: «إنّ اللّه ليعفو يوم القيامةِ عفواً يُحيط على العباد حتى يقول أهل الشرك واللّه ربّنا ماكُنّا مشركين» «۴».

ومن جهةٍ اخرى فإنّه تعالى يلقّن عباده درس العفو والصفح، ويوصيهم بالعفو عن بعضهم مهما أمكنهم، راجين بذلك من اللّه أن يعفو

عن ذنوبهم.

---

(۱) «عُفوّ» على وزن «فعول» أُدغم واوْاها.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۷.

(۳) المصدر السابق، الكتاب ۵۳.

(۴) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۶، ح ۱۲، الباب ۱۹ عفو اللَّه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۲

وقد ورد فى حديثٍ نبوى تعبيرٌ عجيب يبيّن أهميّة العفو، قال صلى الله عليه و آله: «إنّه يُنادى منادٍ يوم القيامة من كان له على اللَّه أجرٌ فليقم، فلا يقوم إلّاالعافون، ألم تسمعوا قوله تعالى «فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ»» «۱». (الشورى ۴۰)

طبعاً أنّ العفو ليس مسألة أخلاقية فقط، بل هو مسألة اجتماعية مهمّة، لأنّه لو بُنى مجتمع معين على أساس الإنتقام وسفك الدماء لحل الجدال والنزاع الذى يحدث بينهم ولما عُرف طعمٌ للعزّة والسكينة أبداً، لذا فقد ورد فى حديثٍ نبوىّ، أنّه صلى الله عليه و آله قال: «عليكم بالعفو فإنّ العفو لا يزيد العبد إلّاعزّاً» «۲»

.

و اصطلاح (توّاب) هى صيغة مبالغةٍ مشتقة من مادّة (توبة) و (التوبة)- حسب رأى مقاييس اللغة- تعنى (العودة والرجوع)، وتستعمل عادةً فى مجال (الرجوع عن الذنب)، كما ورد ذلك فى لسان العرب.

لكن للراغب الإصفهانى تعبير آخر فى المفردات حول تفسير هذه الكلمة، وهو: (التوبة) ترك الذنب بأفضل وجهٍ ممكن، وقسّم الإعتذار ثلاثة أقسام:

الأول: هو أن يقول أحد: (إننى لم أرتكب هذا الذنب أبداً)، الثانى: أن يقول: (قد فعلت ذلك ولكنْ بدليل كذا وكذا أى يُبرر فعلته)، والثالث: أن يقول: (فعلت وأسأت ولن أفعل هذا فيما بعد) فمعنى التوبة هذا (أى الوجه الثالث) ولا رابع لها.

وعلى أيّة حال، فعندما تختصّ هذه الصفة باللَّه تعالى فإنّها تعنى إمّا قبول توبة العباد، أو توفيقهم إلى التوبة، كما قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه.

والجدير بالإنتباه أنّ كلمة (توبة) فى القرآن الكريم عندما تُنسب إلى العباد تتعدّى بحرف (إلى) مثل: «تُوبُوا إِلَى اللَّهِ». (التحريم/ ۸) وعندما تُنسب إلى اللَّه تتعدى عادة بحرف الجر (على).

وهذا التفاوت فى التعبير يشير ظاهراً إلى نقطة لطيفة وهى: أنّ التوبة على أيّة حال تعنى

---

(۱) سفينة البحار، ج ۲، ص ۲۰۸.

(۲) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۰۸، باب العفو، ح ۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۳

الرجوع من الذنب، ولكن رجوع العباد من الذنب يتحقق بترك الذنب والإعتذار، أمّا رجوع اللَّه فيتحقق بإرجاعه لهم اللطف والرحمة اللتين منعهما عنهم بسبب اقترافهم ذلك الذنب المعيّن، ولأنّ الرجوع هنايخص مقاماً عالياً وسامياً عُبّر عنه بكلمة (على) التى تستعمل فى موارد العلو عادةً.

وذكر هذه الصفة (توّاب) بشكل صيغة مبالغة يشير أيضاً إلى هذه النقطة وهى: لو أذنب العبد وتاب مرّة أو مرّات، ثم تراجع عن توبته فلا ييأس من عفو اللَّه ورحمته لأنّه تعالى توّاب أى (كثير التوبة).

والأـثر التربوى للتوبـة غير خـافٍ على أحـد، لأـنّه لو كـانت أبواب التوبـة مغلقـة فى وجه العباد لكفى ذنب واحـد لإقناطهم من اللطف الإلهى، والرمى بهم فى دوّامـة ذنوبٍ أكبر، أمّا عنـدما يُشاهـدون هـذا الباب مفتوحاً أمامهم، وبحر الرحمـة الإلهيّة واسـعاً (بحكم كونه تعالى توّاباً)، فسيندفعون إلى الرجوع من ذنوبهم وإصلاح وجبران ماصدر منهم، ويُعَدُّ هذا بحد ذاته سُلَّماً للتكامل الإنسانى.

ومن جهـةٍ اخرى فانّها تعطى الناس هـذا الـدرس وهو أن لا يتشددوا تجاه أخطاء أصـحابهم، ويفتحوا أمامهم طريق العودة والإصـلاح، ويعطوا لغيرهم مايؤملونه من ربّهم، أى العفو.

والتعابير الواردة فى الروايات الإسـلاميّة بصدد التوبة من الظرافة والجمال بحيث تجذب الإنسان إلى مثل هذا الخالق التوّاب، وتوقدُ فى قلبه جذوةَ العشق الإلهى.

ورد فى حـديث عن الإمام الباقر عليه السـلام أنّه قال: «إنّ اللَّه تعالى أشـدُّ فرحاً بتوبـة عبـده مِنْ رجُلٍ أضَلَّ راحلَتَهُ وزادَهُ فى ليلةٍ ظلماءَ فَوجَدَها» «۱».

وفى حـديثٍ آخرَ عن النبى صـلى الله عليه و آله وصف به التوبة بأنّها أحبُّ الأعمال إلى اللَّه تعالى حيث قال: «وليس شـىء أحبُّ إلى اللَّه من مؤمنٍ تائبٍ أو مؤمنةٍ تائبة» «۲».

---

(۱) أصول الكافى، ج ۲، ص ۴۳۵ باب التوبة، ح ۸.

(۲) مستدرك الكلام البحار، ج ۶، ص ۲۱، باب التوبة وأنواعها، ح ۱۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۴

واشـتقت كلمة «جبّار» من مادّة (جبر) ومعناها الأصـلى- كما قال الراغب-: إصـلاح الشـىء بضـرب من القهر، ولهذا فقد تستعمل هذه الكلمة أحياناً بمعنى الإصلاح، كقول الذى يُصلح العظم: «جبرتُ العظم»، وورد فى الدعاء المأثور: «ياجابرالعظم الكسير».

وأحياناً تستعمل بمعنى القهر والغلبـة، وكما قال صاحب مقاييس اللغة: هو جنس من العظمة والعلو والاسـتقامة، يقال: نخلة جبّاره للتى طالت وخرجت عن متناول اليد.

«الجَبْر»: يعنى إرغام الشخص على فعلٍ معينٍ، وهى مأخوذة أيضاً من أصل القهر والغلبة.

وعلى أيّـة حـال، فعنـدما تُستعمل كلمـة (جبّار) بخصوص البارى سبحانه فإنّها تعنى- كما قال المرحوم الصـدوق فى كتاب التوحيـد: «القاهر الـذى لا يُنال، وله التجبر والجبروت أىّ التعظّم والعظمة» «۱»، أو يعنى الذى جبر مفاقر الخلق وكفاهم أسباب المعاش والرزق.

كما ذكر ذلك المرحوم الكفعمى فى «مصباحه» ضمن ذكره لمعانٍ اخرى «۲».

وكذلك جابر الكسر، والقنوط، والندم الحاصل من اقتراف الذنوب.

قـال المرحوم الطبرسـى فى «مجمع البيان»: «لا يسـتحق أن يوصف به على هـذا الاطلاق إلّا اللَّه تعالى فإن وصف به العباد فانّما يوضع اللفظ فى غير موضعه ويكون ذماً (لأنّها تحكى عن حب الرئاسة والتكبُّر والظلم والفساد)».

إنّ هـذه الصـفة الإلهيّـة ترشـدنا من جهـة إلى عظمـة وعلو المقـام الإلهى، ومن جهـة اخرى إلى رحمته وعطفه وعنايته فى جبر الكسر والحرمان والذنوب.

۳۹- الشكور ۴۰- الشاكر ۴۱- الشفيع ۴۲- الوكيل ۴۳- الكافى

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۲۰۶.

(۲) مصباح الكفعمى، ص ۳۱۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۵

إنّ الصفات الخمس المذكورة أعلاه من صفات الفعل أيضاً، وهى مجموعة من الصفات المبينة لأنواع النّعَم والمواهب الإلهيّة، وحماية ودفاع البارى تعالى عن عباده، لهذا يُلاحظ وجود ترابُط وثيق فيمابينها، ولهذا السبب أوردناها هنا فى مجموعة واحدة.

لنعود إلى القرآن الكريم ونمعن خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ». «۱»

(الشورى ۲۳)

۲- «فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ». «۲»

(البقرة/ ۱۵۸)

۳- «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ». «۳»

(الأنعام/ ۵۱)

۴- «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ». «۴»

(الأنعام/ ۱۰۲)

۵- «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ». «۵»

(الزمر/ ۳۶)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ كلمتى (شاكر) و (شكور) مشتقتان من مادّة (شُكر) وهى تعنى- كما جاءَ فى (فروق اللغة)- الإعتراف بالنعمة من باب تعظيم المنعم، وقال صاحب (مصباح اللغة): الشكر هو الإعتراف بالنعمة واداء الطاعة وترك المعصية، لهذا فقد يحصل أحياناً باللسان وأحياناً اخرى بالعمل. وقال الراغب فى مفرداته: إنَّ معناه الأصلى هو «تصوّر النعمة وإظهارها»، ويقابله (الكفر) و (الكفران): وهو نسيان النعمة وسَترُها، ويُطلق تعبير (الشكور) على الحيوان الذى يُظهِرُ آثار عناية واهتمام صاحبه من خلال السمنة، ثم قسّم الشكر إلى ثلاثة

---

(۱) وردت كلمة «شكور» فى تسعة مواضع من القرآن، أربعة منها كصفة للبارى (فاطر، ۳۰ و ۳۴؛ الشورى ۲۳؛ التغابن، ۱۷).

(۲) وردت كلمة «شاكر» فى أربعة مواضع من القرآن، إثنان منها فقط كصفة للّه‌سبحانه (البقرة، ۱۵۸؛ النساء، ۱۴۷).

(۳) وردت كلمة «شفيع» فى خمسة مواضع من القرآن، فى ثلاثة منها فقط كصفة للبارى سبحانه (الأنعام، ۵۱ و ۷۰؛ السجدة، ۴).

(۴) وردت كلمة «وكيل» فى أربعة وعشرين موضعاً من القرآن، وفى بعض هذه المواضع فقط كصفة للبارى مثل: (آل عمران، ۱۷۳؛ هود، ۱۲؛ يوسف، ۶۶؛ القصص، ۲۸؛ النساء، ۸۱ و ۱۰۹؛ و ...).

(۵) وردت كلمة «كافى» فى موضعٍ واحدٍ فقط من القرآن الكريم وهو المذكور أعلاه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۶

أقسام: الشكر القلبى، الشكر اللسانى، والشكر العملى.

ولهذه الكلمة عدّة معان فى حالة استعمالها فى ما يخص البارى تعالى منها:

إنّه يتقبّل القليل من الطاعة ويعطى الكثير من الثواب، أو الذى يُعطى جزيل النعم ويرضى بما قلَ من الشّكْر. وهو فى الحقيقة يعنى

المجازاة والمكافأة على العمل، ولكن ليس بمقدار العمل بل بمقدار لطف الخالق تعالى

واعتقد البعضُ كالمرحوم الكفعمى فى «المصباح» والمرحوم الصدوق فى «التوحيد» بأنّ كلمة (الشُّكر) عندما تُستعمل بخصوص البارى تعالى تكون ذات صفةٍ مجازيّة.

ولكن لو قلنا بأنّ معناها اللغوى هو ما ورد فى كتاب (العين) أى (معرفة الإحسان)، لصدق استعمالها الحقيقى بالنسبة إلى البارى تعالى إنّ الوحى الإلهى الذى بين لنا هذه الصفة الإلهيّة يدعونا من جهة إلى معرفة الحق تعالى الذى هو من العظمة بحيث يكافىء بالثواب الجزيل على أقل الأعمال الحسنة، فيتشكر بهذه الطريقة من عباده، ومعرفة هذه الحقيقة من قبل العباد يُعد حافزاً مهماً باتجاه عمل البر و الخير، ومن جهة أُخرى تعلمنا كيفية رد جميل وإحسان الآخرين، وأن لا يقتصر الرد على مقابلة ما قدّمه الآخرون لنا بالمثل، بل يتعدى رد الجميل إلى مضاعفة الاحسان والبر.

وقد ورد فى الدعاء المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «يا مَنْ يشكُرُ اليسيَر ويعفو عَنِ الكثيرِ وهُوَ الغفورُ الرحيم، إغفرْ لىَ الذنوبَ التى ذهبتْ لذّتُها وبقيتْ تَبعتُها» «۱».

كما ورد عنه عليه السلام أنّه كُتبَ فى التوراة: «اشكرْ على مَنْ أنعَمَ عليك، وأَنْعِمْ على مَنْ شَكَرَكْ» «۲».

اشتقت كلمة (شفيع) من مادّة (شفع) على وزن نفع- التى هى فى الأصل تعنى ضم شىءٍ إلى آخر للحصول على نتيجة مطلوبة، وفى مقابلها (وَتر). ويقال للشاة التى يرافقها وليدها فى التنقُّل: (شافع)، ويُستعمل مصطلح حق الشفعة بخصوص شريكين باع أحدهما حصته

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۸۹، باب الدعوات الموجزات، ح ۲۸.

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۷۱۱، مادة (شكر)؛ وأصول الكافى ج ۲، ص ۹۴، باب الشكر، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۷

لرجُلٍ ثالث، لكن شريكه يريد شراء الحصّة التى باعها للشخص الثالث بنفس المبلغ، ليضم حصّة شريكه إلى حصته بهذه الطريقة.

ويُطلق على العين الحولاء (شافعة) أيضاً، لأنّها ترى الواحد إثنين، وقد وردت هذه الكلمة بمعنى المعين والمساعد أيضاً «۱».

واستُعملت كلمة (الشفاعة) فى مورد «طلب العفو عن ذنب شخصٍ من قبل فردٍ ذى شخصيّة مرموقة»، وكأنّ الشخص المحترم- صاحب المقام- يقف إلى جوار المذنب ليتلطف صاحب الحق على المذنب ويرقّ له.

والشفاعة فى القرآن ذات بحوث واسعة، وسنبحثها بصورة مفصّلة فى سلسلة مباحث التفسير الموضوعى إن شاء اللّه «۲»، وما نبحثه هنا هو انتخاب هذه الصفة كواحدة من الصفات الإلهيّة.

وعلى أيّة حال فإنّ إطلاق كلمة (شفيع) على اللّه سبحانه، وخاصة فى يوم القيامة، يشتقّ من سلطته المطلقة، وعدم قدرة أى أحدٍ على فعل شىءٍ دون إذنه سبحانه، وحتى شفاعة الشفعاء كالأنبياء والأئمة والملائكة والمؤمنين المخلصين فانّها لا تُقبَل إلّا بإذنه: «مَن ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». (البقرة/ ۲۵۵)

ولهذا السبب خاطب سبحانه رسوله الكريم فى الآية: «قُل للَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلكُ السَّماوَاتِ وَالأَرضِ». (الزمر/ ۴۴)

ولأنّه سبحانه يُعطى إذن الشفاعة، فالشفيع الواقعى هو تعالى وكأنّه سبحانه يشفع عند ذاته المقدّسة لعبادِهِ المذنبين، وهذه أسمى مراتب العظمة.

وقال جماعة أيضاً: إنّ سبب إطلاق اسم شفع او (شفيع) على اللّه سبحانه هو حضوره مع عباده فى كل مكان، حيث قال: «مَا يَكُونُ مِن نَّجوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُم» «۳»

.

(المجادلة/ ۷)

(۱) مصباح اللغة، مقاييس اللغة، لسان العرب، نهاية ابن الأثير، التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، وكتاب العين.

(۲) هنالك بحث مفصّل حول هذه المسألة فى التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۸ من سورة البقرة.

(۳) مصباح الكفعمى، ص ۳۴۴، قاموس اللغة مادّة (شفع).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۸

لكننا نستبعد هذا المعنى لأنّ كلمة الشفيع تُعطى فى مفهومها نوعاً من المساعدة والحماية والتكامل والتربية.

وتجدر الإشارة إلى وجود نوعين من الشفاعة: «تكوينيّة وتشريعيّة»، فالشفاعة التشريعيّة هى ما عُرف من شفاعة شخصٍ وجيه عند صاحب حقٍّ لتخليص مذنبٍ من عقوبة معيّنة، وأمّا الشفاعة التكوينيّة فهى ربوبيّة اللَّه على الموجودات وسوقهم نحو التكامل وفق قوانين الخلق والتكوين.

وما توحى لنا هذه الصفة من بلاغ تربوى: هو الإنتباه إلى هذه الحقيقة، وهى عدم جواز القنوط من لطف اللَّه وعفوهِ ورحمته، لأنّه يشفع عند ذاته المقدّسة لعباده أيضاً، ويأمر الأنبياء والملائكة والأئمّة أيضاً ليشفعوا لمذنبى الأمم (طبعاً فى المحل اللائق للشفاعة).

ومن المعلوم أنّ الإنتباه إلى هذه المسألة له أثر عميق فى المنع من تكرار الذنب لكى يبقى الأمل فى الشفاعة، وتبقى قابليته لنيلها محفوظة. هذا من جهة، ومن جهةٍ اخرى أنّها تعلّم العباد ليتأسّوا بذلك أيضاً ويشفعوا للنادمين والمحرومين والضعفاء.

وقد ورد فى الحديث الشريف «إشفعوا تؤجروا» «۱»

.

أمّا كلمة (وكيل) فهى مشتقّة من مادّة (وَكْل)- على وزن وصل- وهى فى الأصل تعنى الإعتماد على الآخرين، ولكون لازمَ هذا المعنى الضعف والعجز فى بعض الجوانب فقد أُطلقت كلمة (وكل) على الضعفاء والعاجزين، ويُطْلق (وكال) على الدواب التى تسير دائماً فى مؤخّرة القافلة أوالقطيع، وكأنّها تعتمد فى المسير على غيرها «۲».

وطبقاً لذلك فإنّ «وكيل» من يعتمد عليه، ويلتجأ إليه الإنسان فى حل مشاكله.

وعليه عندما تستعمل هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى كما قال المرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد: «فإنّها تعنى حافظنا وحامينا ومعتمدنا وملجأنا، نحن وجميع موجودات عالم الوجود» «۳».

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۸۴، ذيل الآية ۸۵ من سورة النساء.

(۲) مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ ولسان العرب.

(۳) توحيد الصدوق، ص ۲۱۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۵۹

قال المرحوم الكفعمى فى المصباح: «بأنّها تعنى من وُكِلَتْ إليه جميع أمورنا» «۱». وما قاله البعض فى تفسيرها بتكفُّل الرزق هو فى الواقع تبيان مصداقٍ واحدٍ، وإلّا فهى ليست محدودة بالرزق فقط.

يقول الزبيدى فى تاج العروس فى شرح القاموس: (التوكُّل) هو إظهار العجز والإتّكاء على الغير، هذا من حيث اللغة، وأمّا عند أصحاب الحقيقة، فهو الأعتماد على ما عند اللَّه واليأس ممّا فى أيدى النّاس، «المتوكّل على اللَّه» يُطلق على من يعتقد بأنّ اللَّه يكفيه رزقه وجميع أموره، يتكّل على اللَّه وحده لا على غيره «۲».

يُستنتج من الآيات القرآنية بوضوح أن توكّل المؤمنين على اللَّه وحده من شؤون التوحيد، لأنّ كلّ شىءٍ وكلَّ أمرٍ يرجع إليه، كما ورد فى قوله تعالى: «وَإِلَيهِ يُرجَعُ الأَمرُ كُلُّهُ فَاعْبُدهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيهِ». (هود/ ۱۲۳)

وكذا فى قوله تعالى «وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ». (إبراهيم/ ١٢)

لِمَ لا نتوكّل عليه ونعتمد عليه فى جميع أمورنا وهو العزيز الرحيم!؟ قال تعالى «وَتَوَكَّل عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ». (الشعراء/ ٢١٧)

إنّ البلاغ الذى تعطينا إيّاه هذه الصفة الإلهيّة هو أنّها توصينا بعدم الضياع فى عالم الماديّات وعدم الإنخداع بالقدرات الماديّة الظاهريّة، وعدم الاعتماد والإتّكال على المخلوقات الضعيفة العاجزة، بل التوكّل فقط على الذات الإلهيّة المقدّسة، والإستعانة به سبحانه فقط والوثوق به والخضوع لحضرته جلّ وعلا فقط.

ومن جهةٍ اخرى علينا أن نسعى ونبذل ما فى وسْعنا لنكون عوناً للآخرين من باب التخلّق بأخلاق اللَّه، ونحاول حل مشاكلهم تقرّباً إلى اللَّه تعالى

وقد ورد فى حديثٍ عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «التوكّل على اللَّه نجاة من كُلّ سوء وحرزٌ من كُلّ عدو» «٣».

---

(١) مصباح الكفعمى، ص ٣٢۶.

(٢) تاج العروس، مادّة (وكل).

(٣) بحار الأنوار، ج ٧۵، ص ٧٩، باب ما جُمع من جوامع الكلم، ح ۵۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢۶٠

أمّا كلمة (كافى) فهى مأخوذة من مادّة (كفاية) طبقاً لما جاء فى مقاييس اللغة ولسان العرب- وهى تعنى الإقدام على عملٍ معيّن والتمكّن منه، ولكن الراغب يقول فى مفرداته: (الكفاية) هى رفع حاجةٍ والوصول إلى المقصود، و (كُفية)- على وزن كنية- تعنى الغذاء الكافى، و (كفىّ)- على وزن (خفىّ)- تعنى المطرالذى يحلُّ مشكلة الجفاف «١».

وعندما تُستعمل هذه الكلمة بخصوص اللَّه سبحانه فإنّها تعنى المدير لأمور عباده وحلّال مشاكلهم والمبلّغ- من يتوكّل عليه- مناه دون أن يكله إلى غيره.

وقد مرّ علينا فى الدعاء: (يا كافى المهمّات) أو مثله (يَا كَافِى مِن كُلِّ شَىء).

إنّ مفهوم هذه الصفة الإلهيّة ذو جانبين، فمن جهة يزيل سُحُب اليأس والقنوط المظلمة عن سماء روح الإنسان، ويمنع من استسلام وركوع الإنسان لعظمة حجم المشاكل، لأنّه (أىّ الإنسان المؤمن) يعلم أنّ معبوده يُدعى بالكافى ويكفيه ما يهمّه من أموره ومشكلاته، قال تعالى «أَلَيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبدَهُ!؟». (الزمر/ ٣۶)

ومن جهة اخرى، ومن باب التخلُّق بأخلاق اللَّه، يلهمه الجدّ والاجتهاد فى كفاية الضعفاء والمحرومين أمورهم مهما أمكنه، ويعكس شعاعاً من أنوار الصفات الإلهيّة فى نفسه فى هذا المجال.

۴۴- الحسيب ۴۵- سريع الحساب ۴۶- أسرع الحاسبين ۴٧- سريع العقاب ۴٨- شديدُ العقاب

تشير الصفات الخمس المذكورة أعلاه، والتى هى من صفات الفعل، إلى مسألتى الحساب والعقاب بصورة عامّة، وتُعدُّ تحذيراً للعباد ليُراقبوا أعمالهم خشية اقتراف الذنوب والتخلُّف عن أداء الوظائف والتعدّى على حقوق الآخرين، ولا ينسوا فى حالات الضعف

---

(١) تاج العروس فى شرح القاموس، مادّة (كفىّ).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٢۶١

والقدرة، والفقر والغنى حقيقة كونهم دائماً بين يدى اللَّه الحسيب، سريع العقاب، وشديد العقاب، وقد وردت هذه الصفات الإلهيّة فى

آيات قرآنية عديدة، لنتأمل فى قسم منها خاشعين:

۱- «وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا» «۱». (النساء/ ۶)

۲- «وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ» «۲». (البقرة/ ۲۰۲)

۳- «وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ» «۳». (الأنعام/ ۶۲)

۴- «إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ». «۴»

(الأنعام/ ۱۶۵)

۵- «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» «۵». (البقرة/ ۱۹۶)

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (حسيب) مشتقّة من مادّة (حساب)، وقد ذُكر فى مقاييس اللغة عدّة معانٍ لها هى:

العدّ، الكفاية، و (حسبان) تعنى نوع من الوسائد الصغيرة، و (أحسَبْ) تعنى مرض جلدى، لكنّ كتاب التحقيق أرجع جميع هذه المعانى إلى معنىً واحد وهو البحث للإطلاع على حال شىءٍ معيّن والتحقيق عنه، ولكون العدّ وسيلة لتحقُّق هذا المعنى كما أنّ الكفاية من لوازمه ونتائجه، فإنّها استُعملتْ فى هذا المجال أيضاً.

---

(۱) وردت كلمة «حسيب» فى أربعة مواضع من القرآن الكريم، فى ثلاثةٍ منها كصفة للبارى تعالى (النساء، ۶ و ۸۶؛ الأحزاب، ۳۹) وفى موضعٍ واحد كصفة من صفات الإنسان فى يوم القيامة عندما يُعطى كتابه بيده. (الاسراء، ۱۴).

(۲) وردت هذه الصفة فى ثمانية مواضع من القرآن الكريم ممّا يدلّ دليلًا واضحاً على أهميتها (سورة البقرة، ۲۰۲؛ سورة آل عمران، ۱۹ و ۱۹۹؛ سورة المائدة، ۴؛ سورة الرعد، ۴۱؛ سورة ابراهيم، ۵۱؛ سورة النور، ۳۹؛ سورة غافر، ۱۷).

(۳) وردت هذه الصفة فى موضعٍ واحد فقط من القرآن الكريم وهو المذكور أعلاه.

(۴) وردت هذه الصفة فى موضعين من القرآن الكريم هما: الآية المذكورة أعلاه والآية ۱۶۷ من سورة الأعراف.

(۵) تكررت هذه الصفة أربع عشرة مرّة فى القرآن مما يُعدّ دليلًا على أهميتها (سورة البقرة، ۲۱۱ و ۱۹۶؛ سورة آل عمران، ۱۱؛ سورة المائدة، ۲ و ۹۸؛ سورة الأنفال، ۱۳۳، ۲۵، ۴۸ و ۵۲؛ سورة الرعد، ۶؛ سورة غافر، ۳ و ۲۲؛ سورة الحشر، ۴ و ۷).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۲

فكلمة (حسب) على وزن نسبْ، تعنى كون الآباء والأجداد ذوى شخصيّات ومقامات يُمكن ذكرها! وكذا (احتساب المصيبة) فإنّها تعنى احتساب المصيبة على اللَّه وطلب ثوابه.

«حُسبان»: على وزن (غفران) وتعنى الصاعقة والعذاب، لأنّها العقوبة التى يلقاها بعض الأقوام بعد حساب أعمالهم.

وعلى أيّة حال، عندما تُستعمل كلمة (حسيب) بخصوص البارى سبحانه- كما قال المرحوم الصدوق رحمه الله- فإنّها تعطى أحد المعانى الثلاثة التالية: الذى أحصى كُلِ شىءٍ فى الوجود وهو عليم وخبير به، والذى يتولّى محاسبة العباد فى القيامة ومجازاتهم، والذى يكفى أمور العباد «۱».

ولكن يُفهم من الآيات القرآنية أنّ هذه الكلمة تعنى «تولّى الحساب» لأنّها جاءت بهذا المعنى على الأقل فى ثلاثة مواضع من المواضع الأربعة المذكورة فى القرآن الكريم.

ومن هنا يتضح أنّ كلمة (حسيب) متقاربة مع صفتى (سريع العقاب)، و (أسرع الحاسبين)

وللمفسرين آراء مختلفة حول سبب اتصاف البارى بصفة (أسرع الحاسبين).

يقول القرطبى فى تفسيره: (لأنّه لا تحتاج محاسبته إلى أى نوعٍ من التفكّر) «۲».

ويقول الألوسى فى روح المعانى: لأنّه سبحانه يحاسب جميع الخلق بأسرع وقتٍ دون أن تشغله محاسبة فردٍ عن محاسبة غيره «۳».

وقد أورد المرحوم الطبرسى نفس هذا المعنى فى مجمع البيان «۴».

وقد وردت تعابير ظريفة حول هذا الموضوع فى الأحاديث الإسلامية أيضاً، فقد نُقِلَ عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «معناه انه يحاسب الخلق دفعة كما يرزقهم دفعة» «۵».

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۲۰۲، ووردت هذه المعانى الثلاثة فى كتاب مصباح الكفعمى أيضاً، ص ۳۲۴.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۴۴۳.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۷، ص ۱۵۴.

(۴) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۲۹۸، ذيل الآية ۲۰۲ من سورة البقرة.

(۵) المصدر السابق.

وفى حديثٍ آخر: «إنّه تعالى يُحاسب الخلائق كلّهم فى مقدار لمح البصر» «۱».

وورد فى حديث آخر: «إنّه سُبحانه يُحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة» «۲».

وقد اورد المفسرون الآخرون أيضاً نفس هذه التعابير تقريباً ولكن الحق أنّ أى واحدٍ منها لا يمكنه تبيان عمق الكلمات المذكورة، والحقيقة يجب القول: إنَّ اللَّه لا يحتاج إلى حساب لأنّ جميع أعمال العباد ماثلة بين يديه فى آنٍ واحد.

والظريف هو ما توصّلت إليه العقول الألكترونية المصنوعة التى تستطيع القيام بمئات الملايين أو المليادرات من الحسابات الرياضيّة فى ثانية واحدة أو عدّة ثوان، ممّا يدل على عمق ما توصلت إليه سرعة الحساب فى عصرنا الحالى!

ففى الوقت الذى يستطيع البشر- بكل ضعفه ونقائصه- التوصُّل إلى هذه السرعة الحسابية، فلا توجد حاجة إذن إلى توضيح (إثبات) سرعة حساب القادر العلى الذى قدرته غير محدودة وعلمه غير متناهٍ.

وكما أشرنا فى التفسير الأمثل أيضاً، أنّ آثار أعمال الإنسان ستبقى وتتضاعف وتصير بذاتها خير وسيلة للحساب، وهى على وجه التشبيه كالمعامل التى تحتوى مكائنها على عدّادات لإحصاء عدد دورات الماكنة أو كالسيّارات التى يتصاعد العدد الذى يعدّه عدّاد المسافة الموجود فيها كلما قطعت مسافة أكبر، فلا توجد حاجة إلى الحساب لمعرفة معدّل عمل مكائن ذلك المعمل أو المسافة التى قطعتها هذه السيّارة، فكل شىءٍ واضح ومُهَيأ.

لهذا يجب أنْ ندرك إن علمَ اللَّه اللامحدود وأنّ ديمومة حضور البارى فى كل مكانٍ من عالم الوجود من جهة، وبقاء آثار الأعمال وتراكمها من جهةٍ اخرى سيؤدّى إلى تسريع حساب الخلائق كلّها كلمح البصر.

إنَّ التعليمات التى تحملها هذه الصفات الإلهيّة (حسيب، سريع الحساب، أسرع الحاسبين) هو أنّها تحذّر جميع الناس من تناسى أبسط الذنوب وأصغرها، وتجعلهم على

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۲۹۸، ذيل الآية ۲۰۲ من سورة البقرة.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۳۱۳ وروح المعانى، ج ۷، ص ۱۵۴.

يقين بأنّ الذى يحاسبهم هو مَنْ لا تخفى عليه ذرّة من أعمال الناس الصالحة والطالحة، وَأن النسيان لا يجدى نفعاً فى محوها، وسيُنهى تعالى حساب جميع هـذه الأعمال يوم القيامـة بلمحة بصـر، هذا من جهة، ومن جهةٍ اخرى تلقّن الناس درس المحاسـبة فى جميع أمور الحياة، ليحسبوا لكل عملٍ وكل شيءٍ وكل أمرٍ من حياتهم حسابه دون أن يتركوه سُدىً.

أمّـا كلمـة «عقاب» فهى مشـتقّة من مادّة (عَقِب) على وزن (خَشِن) المسـتعملة بمعنى كعب القـدم، وأُطلقت فيما بعـد على مؤخّرة كلّ شيء، ولكن ذُكر لها فى مقاييس اللغة معنيان:

الأول تعاقب شيء مع آخر، والثانى: المرتفع والشدّة والصعوبة (لذا وردت عقَبَة بمعنى منعطف).

وإنّما أُطِلقَ على عقوبات الأعمال (عقاب) لكونه عذاباً يصيب الإنسان عقب ارتكابه الأعمال السيئة.

وكـذلك يُطلق على الأولاـد والأحفاد (أعقاب) لأنّهم يأتون عقب الأب والجـد، ويطلقون على الطير المعروف اسم العقاب لأنّه يعقب فريستهُ بسرعة.

وعلى أيّة حال فإنّ وصف البارى بصـفة (شديـد العقاب) لا يعنى أبداً أن يتجاوز عقابُهُ على مقتضـى أصول العدالة بل لكون مجازاته وعقوباته دنيويّة وأخرويّة، جسمية وروحيّة، ولا يأمن منها أى أحد من المجرمين، ولا تقوى أيّة قدرةٍ على التصدى لها.

فقـد يُهلـك اللَّه قريـةً ظالمـة فى لحظـةٍ واحـدةٍ أحيانـاً، فيمطر حجـارة على الأشـرار، وأحيانـاً يـأمر أمـواج البحر لتغرق فرعون وجنـده والمتغطرسين فى زمن قصير لتحيلهم طعاماً لأسماك البحر.

وأحياناً يأمر الريح العاصفة لتهلك الظالمين وتذرى قصورهم فى الفضاء وترمى بها فى نقاطٍ نائية.

وأحياناً يُرسلُ طيراً أبابيل لترمى أصحاب الفيل بحجارةٍ من سجّيل وتُهلكهم وتجعلهم كعصفٍ مأكول لتمنعهم من التقدم لهدم الكعبة.

وبالتـالى يـأمر اللَّه تعـالى السـماء لتمطر مطراً غزيراً ويـأمر عيون الأـرض لتتفجّر بالماء فيغطى سـطح الأرض سـيلٌ عظيم ولا يُبقى عليها إلّاسفينة النجاة للأطهار المحسنين!

أجلْ إنّه شديد العقاب فى المحل المناسب، وهذه الصفة تُعدُّ تحذيراً لكل الذين

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۵

يستهينون بمعصية البارى ويرتكبون ما شاؤوا من الذنوب دون أن يتفكّروا فى عواقبها، مستغلين لطف البارى وكرمه.

أجل إنّه «أرحم الراحمين» ولكن فى موضع العفو والرحمة، وأشد المعاقبين فى موضع النكال والنقمة!

اللهم عاملنا بلطفك ورحمتك، وخلّصنا من أسر عذابك، فنحن نُقرّ لك بذنوبنا، ونعتذر إلى جنابك من تقصيرنا.

۴۹- نصير ۵۰- نعم النصير ۵۱- خير الناصرين

لا شك أنّ قدرة الإنسان المحدودة غير قادرة على حلّ المشاكل اللامتناهية، ولولا عناية البارى فى عالم التكوين والتشريع، لما وصل- الإنسان- إلى مقصوده ولَضَلّ الهدف العظيم الذى خُلِقَ من أجله، وهو التكامل والتقرّب من اللَّه، فى هذا العالَم المتلاطم.

فاللَّه العظيم هو الـذى يعين الإنسان ويمـدّه بعنايته عن طريق القوانين التكوينيّة والتشـريعية وإمـداده الظاهر والخفىّ، ويأخـذ بيـده إلى حيث بلوغ الهدف المنشود متجنّباً طرق الحياة الملتوية.

لنمعن خاشعين فى الآيات التالية الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا» «۱». (النساء/ ۴۵)

۲- «وَاعتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَولَاكُم فَنِعمَ المَولَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ» «۲». (الحج/ ۷۸)

۳- «بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُم وَهُوَ خَيرُ النَّاصِرِينَ» «۳». (آل عمران/ ۱۵۰)

(۱) وردت كلمة «نصير» فى أربعة وعشرين موضعاً من القرآن، وفى عدّة مواضع منها فقط كصفة للَّه، مثل (النساء، ۴۵؛ الفرقان، ۳۱؛ البقرة، ۱۰۷).

(۲) وردت صفة نعم النصير فى موضعين من القرآن وفى كليهما وردت كصفة للَّه، أحدهما الآية المذكورة أعلاه والاخر الآية ۴۰ من سورة الانفال.

(۳) وردت صفة «خير الناصرين» مرّة واحدة فقط فى القرآن وهى كصفة للبارى تعالى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۶

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (نصير) و (ناصر) من مادّة (نصر) على وزن (عصر) وهى بالأصل تعنى عمل الخير وإعطائه- كما قال صاحب مقاييس اللغة-، أمّا الراغب الاصفهانى فقد قال: إنّها تعنى المعونة، وقال صاحب كتاب لسان العرب بأنّها تعنى معونة المظلوم، وجميع هذه التفاسير تعود إلى معنىً واحدٍ تقريباً.

وأحياناً يُطلق على المطر (نصر)، وعلى الأرض التى تعرّضت للأمطار (منصورة)، وعلى مسير ومجارى المياه (نواصر)، وكلّ ذلك بسبب الإمدادات التى توصلها الأمطار للموجودات الحيّة.

وهذه الكلمة عندما تستعمل كصفة من الصفات الإلهيّة فإنّها ترمز إلى الامداد الإلهى اللامتناهى الذى يمدّ به سبحانه عباده.

فالنطفة تنتهل من منهل الامداد الإلهى منذ اللحظة الأولى لدخولها الرحم، وتُحاط من كل جانب بالنصر الإلهى عن طريق القوانين التكوينية، وتقضى بعنايته سبحانه مراحل التكامل بسرعة، حتى تنتهى من مرحلة الجنين ويأتى الإذن الإلهى فى الولادة.

ولا تَزال يد العناية الإلهيّة محيطةً به وترعاه كرعاية الأم التى توفّر له الحليب ذلك الغذاء الكامل الشامل لأنواع مواهب الحياة، فكل هذه الأمور أشعةٌ وأنوارٌ من ألوان النصرة الإلهيّة فى هذه اللحظات الحسّاسة.

وعندما يبلغ هذا الإنسان ويخضع للقوانين الإلهيّة التشريعيّة يضع يده فى يد الأنبياء ويُظلّه اللَّهُ بظلّ الوحى والكتب السماوية.

وهو- أى الإنسان- مُهدَّدٌ طيلة حياته بالموانع والآفات من جهة، والشياطين والأهواء النفسانية من جهةٍ اخرى، فلولا نصرة (خير الناصرين) لما نجا أحدٌ من هذه المخاطر العظيمة.

والتفكّر بهذه الحقيقة يُلْهم الإنسان الأمل من جهة، ويكشف عن سماء روحه سُحب اليأس والقنوط المظلمة فى مواجهة المشاكل طيلة حياته، ويثبت أقدامه ويقوى عزمه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۷

وإرادته ويجعل قراراته حدّية قوية لطىّ طريق التربية والتكامل.

ومن جهة اخرى فإنّ (التخلق بأخلاق اللَّه) يعلّمه هذه الحقيقة، وهى أن يكون للمظلومين عوناً، وللمحرومين ناصراً ونصيراً.

۵۲- القاهر ۵۳- القهّار ۵۴- الغالب

أشرنا فيما مضى إلى أنّ بعض الصفات الإلهيّة يمكن أن تكون ذات بعدين، ذاتى وفعلى ولكن بمفهومَيْن.

ويُمكن أن تكون صفتا (القاهر) و (القهّار) من هذا القبيل، فلو اعتبرناها مرادفة لصفتى (قادر) و (قدير) لصارت من صفات الذات، أمّا

لو حُمِلَتْ على مفهوم القهر والغلبة الفعلية الخارجيّة لصارت من صفات الفعل.

وعلى أيّة حال فإنّ قدرته غير متناهية ومن جميع الجوانب فهو قاهر وغالب لكل شيء بالطبع، ومسيطر على جميع الأمور، لا مانع يحول دون مشيئته، ولا يصعب عليه أىّ أمرٍ.

وقد وردت هذه الصفات الإلهيّة الثلاث فى الآيات القرآنية، فلنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَهُوَ القَاهِرُ فَوقَ عِبَادِهِ». «١»

(الانعام/ ١٨)

٢- «ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيرٌ أَمِ اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ». «٢»

(يوسف/ ٣٩)

٣- «وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمرِهِ وَلَكِنَّ أَكثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ». «٣»

(يوسف/ ٢١)

---

(١) وردت كلمة «قاهر» فى موضعين من القرآن الكريم (الانعام، ١٨ و ٦١).

(٢) وردت كلمة «قهّار» فى ستة مواضع من القرآن الكريم جميعها كصفة من صفات البارى. (يوسف، ٣٩؛ الرعد، ١٦؛ ابراهيم، ٤٨؛ ص، ٦٥؛ الزمر، ٤؛ غافر، ١٦).

(٣) وردت كلمة «غالب» فى ثلاثة مواضع من القرآن الكريم، ولكن فى موضعٍ واحدٍ منها فقط كصفة للَّه‌سبحانه، وتكررت كلمة (غالبون)- بصيغة الجمع- ست مرّات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۸

جمع الآيات وتفسيرها

كلمة (قاهر) و (قهّار) من مادّة (قهر)، وهى بالأصل- كما جاء فى (مقاييس اللغة)- تأتى بمعنى الغلبة والتفوُّق، لذا يُطلق على الصخور القويّة (قهقر)، وقال الراغب فى مفرداته: إنّ (القهر) معناه النصر المصحوب بإذلال الطرف المقابل، لذلك تستخدم فى كلا المعنيَيْن، وقال الخليل بن أحمد فى كتاب العين: (القهر) معناه الغلبة والتسلُّط على أحد أو شيء معيَّنْ، وجاء بهذا المعنى فى «لسان العرب» و «تاج العروس».

وعندما تُستعمل كلمة (قاهر) و (قهّار) بخصوص اللَّه سبحانه وتعالى فإنّها تأتى بمعنى التغلُّب على جميع الجبابرة، والتسلُّط على جميع المخلوقات، وعجزها جميعاً إزاء إرادته وأمره عزّ وجلّ، بحيث لايستطيع أى موجودٍ أن يحول دون مشيئته وإرادته، ولكن لكون (قهّار) من صيغ المبالغة فإنّها تعطى نفس هذا المفهوم وتبيّنه بتوكيدٍ أكثر.

والبلاغ الذى تحمله هاتان الصفتان الإلهيتان فى طيّاتهما للمؤمنين، هو أنّهما تحذّران المؤمنين من غرور النفس والظلم والشعور بالتسلُّط والغلبة، لأنّ غرور السلطة كان مصدر الكثير من التعاسة وحالات الفشل على مدى التاريخ، بل يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم خاضعين لإرادة اللَّه، ويعتقدوا بأنّ ليس لقدرتهم أدنى تأثير على الإرادة الإلهيّة، ولا ريب من أنّ الإنتباه إلى قاهرية وقهّارية اللَّه يمكنها أن تصدّ الإنسان عن التهوّر عند الغلبة.

أمّا كلمة (غالب) فهى من مادّة (غلبة) وتأتى بنفس معنى القهر، وتدل على القوة والشدّة والغلبة، لهذا يُطلق على الأفراد المتمرّدين (أغلب)، و (مغلّب) وتعنى المنتصر على عدوّه «١».

ولكون مفهوم (غالب) يشبه مفهوم (قاهر)، فإنّ هذه الصفة الإلهيّة تعطى نفس البلاغ السابق أيضاً للعباد وأهل المعرفة والسلوك.

والظريف بالأمر هو أنّ الأديان المذكورة عندما تتحدث عن قاهرية وغلبة اللَّه على جميع الأشياء تختم بالعبارة التالية: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ».

أجل لأنهم لايعلمون بأنّ زمام عالم الوجود بيد اللَّه تعالى !

---

(١) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب؛ ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۶۹

أجلْ إنَّ أمر اللَّه تعالى نافذ، فالماء والهواء والتراب كلّها مُسلمة لأوامره تعالى ولأنّهم لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة يتيهون فى عالم الأسباب فيفرحون إذا ما كانت الأسباب مساعدة ويقنطون بخلافها، فى حين لو كان لهم إيمان بغلبة البارى وقاهريته لما دبَّ اليأس فى قلوبهم أبداً، ولما غرّتهم الإنتصارات أيضاً.

وبالمناسبة، إنّ الآية المذكورة تحدّثت عن يوسف عليه السلام الذى أراد إخوته أن يقتلوه ولكنهم ألقوه فى غيابة الجبّ، آملين أنْ يخلُوَ لهم وجه أبيهم (أى حبّه)، لكن اللَّه جعل كيدهم سبباً فى وصوله إلى السلطة!

أجل، إنّ من إحدى أشكال قاهرية اللَّه، هى أن يجعل وسائل غلبة ونجاة الإنسان على يد عدوّه فى أكثر الأحيان، وهذه هى الحقيقة التى يجهلها أغلب الناس ولا يعلمونها.

۵۵- السلام ۵۶- المؤمن

إنَّ صفة (السلام) هى اسمٌ آخر من أسماء اللَّه الحسنى التى لها معنيان، فعلى أساسٍ تعتبر من صفات الذات، وعلى أساسٍ آخر تُعدُ من صفات الفعل، فإذا كانت صفة (السلام) بمعنى السلامة من أى لونٍ من العيوب والنقائص والآفات- فهى من صفات الذات (الصفات السلبيّة) وهى تناظر صفة (القدّوس) تقريباً، أمّا لو كانت بمعنى سلامة الناس من ناحيته تعالى وتركه لأىلونٍ من ظلم العباد ورعايته للعدل والإنصاف معهم- لصارت من صفات الفعل.

أجل، إنّه سلامٌ لدرجة بحيث لايستوحش أو يهاب سالكو طريق قربه من صدور ظلمٍ أو إجحافٍ من ناحيته سبحانه، علاوةً على ذلك، فهو المؤمن الذى يمنح أحبائه السكينة والأمان، وقد وردت هذه الصفة فى موضعٍ واحدٍ فقط من القرآن الكريم وهو قوله تعالى «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَآإِلَهَ إِلَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤمِنُ». (الحشر/ ۲۳)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۰

جمع الآيات وتفسيرها

إنْ كلمة (سلام) ذات مفهوم مصدرى، وأحياناً يستعمل هذا المصدر كصفة، فمعناه فى الحالة الأولى كما ورد فى مقاييس اللغة- (الصحّة والعافية)، وإنّما سمّى (الإسلام) بهذا الاسم لأنّه يمنع الإنسان من معصية الحق ومخالفته، يُحفِّزه على الإنقياد والطاعة، وكذلك سمّيت (التحية) سلاماً لأنّها دعاء للسلامة.

وتستعمل كلمة (سلام) بمعنى (الصلح) أيضاً، لأنّه سلامٌ من الحرب وسفك الدماء، ويُسمى المبلغ الذى يُدفع كمقدمة لشراء شىء (سَلَم) لعدم امتناع المشترى عن دفع المبلغ المذكور على الرغم من عدم استلامه ذلك الشىء الذى اشتراه، وسمّى السُّلَّمُ بهذا الاسم

لكونه الوسيلة التى يصعد وينزل بها الإنسان من المكان المرتفع بسلام.

وعلى أيّة حال، عندما تُستعمل هذه الكلمة كصفة من صفات البارى تعالى تكون ذات معانٍ مختلفة:

فقد قال البعض: إنّها تعنى المنزّه عن كل عيبٍ ونقصٍ وفناءٍ وعدمٍ يصيب المخلوقات «۱».

وقال البعض الآخر: إنّها تعنى الذى يواجهك بسلام دون أن يؤذيك «۲».

وقال آخرون: إنّها تعنى الوجود الذى يفيض على الآخرين بالسلامة والسكينة والأمان «۳».

ولكن لايوجد أى دليل على تحديد هذه الصفة وحصرها بأحد المعانى المذكورة، بل إنّها ذات مفهومٍ أوسع وأشمل بحيث يضم جميع هذه المعانى، فهو سالمٌ من أى عيبٍ ونقص، وسالمٌ من الفناء والعدم، وَسالمٌ من الظلم والجور على عباده، وهو واهب السلامة.

وبلاغ هذه الصفة هو أنّها تمنح الإنسان المؤمن الشعور بالأمن والإطمئنان من العدل الإلهى، ويدفع به إلى الاحتراز من الاعمال التى تمسّ سلامة روحه وبدنه، هذا من جهة،

---

(۱) مقاييس اللغة، مصباح الكفعمى، لسان العرب، مجمع البحرين.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۵۶.

(۳) مصباح الكفعمى، ص ۳۱۸؛ وفى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۱

ومن جهةٍ اخرى فإنَّ التخلق بهذه الصفة الإلهيّة يقول للإنسان: كُن بحيث يسلم من لسانك وبدنك جميع الناس وكن ذا صُلحٍ وصفاءٍ معهم جميعاً.

أمّا كلمة (مؤمن) فهى مأخوذة من مادّة (أمن)، كما قال صاحب مقاييس اللغة، وهى ذات مَعْنَيين متقاربَيْن من بعضهما: أحدهما هو الأمانة فى مقابل الخيانة التى تبعث على سكون القلب، والآخر هو التصديق بشىءٍ معين.

ولكن لم يذكر الراغب فى مفرداته سوى معنىً واحد وهو سكون النفس وزوال الإضطراب والخوف، ولكون قبول الأصول العقائدية يمنح الإنسان السكينة والأمان فإنّه سُمّى بمصطلح (الإيمان)، وقولنا آمين بعد الدعاء معناه: «اللّهم صدِّق ذلك وحقِّقْه»، لذا فقد فسّروه بمعنى طلب الاستجابة، وكذلك يُسمَّى البعير المطمئِنُّ النشِطُ الذى لايَزِلُّ (أمون).

وعلى أيّة حال، عندما تستعمل هذه الكلمة كأسم من أسماء اللّه وندعوه ب «المؤمن» فإنّها تعنى من يمنح أولياءه وأحباءه الأمان ويترحم عليهم بالإيمان، وقال البعض: إنّه تعالى يدعى بهذا الاسم لأنّه أوّل من آمن بذاته المقدّسة وصدّقها.

وقد احتمل الفخر الرازى، فى تفسيره، هذا الإحتمال أيضاً وهو أنّ وصف البارى بصفة المؤمن معناه المصدّق رسُلَهُ بإعطائهم المعاجز «۱». وقد قال المرحوم الكفعمى فى مصباحه:

«يحتمل أن يكون مفهومها من يُصدّق وعوده التى وعد عباده بها، ويحققها»، ثم نقل حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «سُمّى سُبحانه مؤمناً لأنّه يؤمّنُ عذابَهُ مَنْ أطاعه»، وقال البعض الآخر من المفسّرين: «المؤمن مَنْ يؤمّنُ ظلمه وجوره عباده» «۲»، وقد ذُكرَ لها فى تفسير «روح البيان» معنىً جامعٌ يضم أغلب المعانى المذكورة أعلاه وهو: المؤمن والذى لا يتحقق أى أمانٍ وسكينة إلّامن عنده.

وقد ذكر المرحوم الصدوق فى كتاب التوحيد ثلاثة معانٍ لها: «من يحقق وعوده، ومن

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۹۳.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۵۲۵ (ذكر هذا المعنى كأحد الاحتمالات).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۲

يعلم عباده حقيقة الإيمان عن طريق آياته ودلائله، ومن يؤمّن ظلمه وجوره عباده» «۱».

ولكن الحق هو أنّ مفهوم (المؤمن) لايتحدد بأى واحدٍ من هذه المعانى، بل لها معنىً جامعٌ يشتمل على جميع ما ذكرناه، واستعمال كلمة (مؤمن)، كصفة من صفات اللَّه، فى هذا المعنى الشامل لايستوجب استعمال اللفظ فى معانٍ مختلفة، لأنّها شاملة بما فيه الكفاية (علاوةً على عدم وجود مانع من استعمال لفظ مشترك فى معانٍ متعددة).

لذلك فهو (المؤمن)، لأنّه يؤمن عباده المؤمنين من عدّة نواحٍ، وأيضاً لأنّه يوجِدُ روح الإيمان فى قلوب عباده عن طريق إراءتهم آياته فى الافاق وفى أنفسهم، علاوةً على أنّه يصدّق ويؤيّد رُسله عن طريق إظهار المعجزات، وكذلك لأنّه يفى بما وَعَدَ به عباده من الثواب والعقاب.

أمّا البلاغ الذى تحمله هذه الصفة الإلهيّة فى طيّاتها فهو أنّها تبيّن عظمة مقام (المؤمن)، لأنّ هذا الاسم هو أحد أسماء اللَّه، هذا من جهة، ومن جهة اخرى إنّ الإنسان المؤمن يحسّ بالأمن والسكينة فى ظلّ هذه الصفة لأنّها مصدر جميع أنواع الأمان.

ومن جهة ثالثة أنّ الإنسان المؤمن فى حال التخلق بهذه الصفة الإلهيّة، يسعى لمشاركة الآخرين فى هذا الأمان فيأمَنُ الناس من لسانه ويده وفكره أيضاً!.

لذا فقد ورد فى حديثٍ عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «المؤمن من آمن جارُهُ بوائقه».

وقال أيضاً: «المؤمن الذى يأتمنهُ المسلمون على أموالهم وأنفسهم» «۲».

۵۷- المحيى

تُعد مسألة الحياة من أبرز آيات اللَّه فى عالم الوجود، فالحق أنّ الكائنات الحيّة أعقد

---

(۱) توحيد الصدوق، ص ۲۰۵ (باب أسماء اللَّه تعالى .

(۲) كلا الحديثين عن توحيد الصدوق، ص ۲۰۵، والحديث الأول ورد أيضاً فى أصول الكافى، ج ۲، ص ۶۶۸ (باب حق الجوار، ح ۱۲).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۳

وأعجب آثار عظمته (جلّ وعلا)، لهذا فقد استند إليها القرآن كثيراً فى مباحث التوحيد وذكر اللَّهَ سبحانه وتعالى باسم (محيى الموتى .

مع أنّ كلمة (محيى) لم ترد فى القرآن سوى مرّتيْن: «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ المَوتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». «۱»

(الروم/ ۵۰)

وهى كما تُلاحظون تتحدّث عن إحياء الموتى لكن مشتقاتها وردت تكراراً فى آيات عديدة من القرآن حول حياة وموت النباتات، الحيوانات، البشر، وتعتبر من أهم صفات الفعل الإلهى.

جمع الآيات وتفسيرها

إنَّ كلمة (محيى) مشتقة من مادّة (حياة) التى لها معنيان- كما ذُكر ذلك فى مقاييس اللغة:

الأوّل: بمعنى الحياة أى ضد الموت، والثانى: بمعنى الحياء أى ضد الوقاحة والتهور.

ولكن بعض المحققين أرجعوا المعنى الثانى إلى المعنى الأوّل وقالوا: الحياء أو الخجل بمعنى انقباض النفس إزاء الرذائل من آثار الكائن الحى، أو بتعبيرٍ آخر الحياء هو حفظ النفس من الضعف والنقصان والعيب والسوء.

والجدير بالذكر هو أنّ (حى) أحد أسماء المطر، لأنّه مادّة حياة الأرض، ويطلق أيضاً على القبيلة اسم (حى) لأنّها تحتوى على حياة اجتماعية، ويُطلق على الأفعى الكبيرة (حيّة) أيضاً لأنّها تتمتع بكامل صور الحياة ولها قابليّة كبيرة على الانتقال والتحرّك «۲».

وقد ذكر الراغب فى مفرداته ستّة مصاديق للحياة هى:

۱- الحياة النباتية، ۲- الحياة الحيوانية، ۳- الحياة العقلية للإنسان، ۴- الحياة العاطفية (زوال الهم وحصول النشاط واللّذة)، ۵- الحياة الأخرويّة الخالدة، ۶- الحياة التى هى إحدى صفات اللّه (وتعتبر أكمل وأتم أنواع الحياة أى كمال العلم والقدرة).

---

(۱) (الموضع الثانى) سورة فصلت الآية ۳۹: «إِنَّ الَّذِى أَحيَاهَا لَمُحْيِ المَوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

(۲) مقاييس اللغة؛ المفردات؛ لسان العرب؛ نهاية ابن الأثير؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۴

ويمكن تصور أنواع اخرى من الحياة، ومن جملتها الحياة المعنوية أى الإيمان، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى فى آياتٍ عديدة.

وعلى أيّة حال فقد تجلّت صفة «المحيى» فى اللّه سبحانه وتعالى من عدّة جهات: فى عالم النبات حيث نلاحظ أنّ الكرة الأرضية مغطّاة من أقصاها إلى أقصاها بأنواعٍ مختلفة من الأشجار، الأزهار، الأعشاب الصغيرة والكبيرة، المائية والبرّية، فى الغابات وفى الصحراء، الطبيّة والغذائية، بحيث إنّ التدقيق فى تنوّعها وعجائبها يهدى الإنسان إلى ذلك المُبدىء العظيم لعالم الوجود.

وأمّا فى عالم الحيوان فقد خلق سبحانه أنواع وأقسام الأحياء المائية والبرّية، الطيور، الحشرات، الحيوانات الوحشية والأليفة، الأحياء المجهرية والعملاقة، وبالتالى الإنسان الذى يعدّ النموذج الأتم للحياة.

ومن البديهى أنّه كلّما ازدادت الحياة تعقيداً ازدادت أسرارها وصارت أكثر دهشة، وهذا فى الحال الذى لا يزال أصل حقيقة الحياة وكيفية خروج الحى من الميت مجهولة، ولم تزل مساعى وجهود آلاف العلماء الفطاحل فاشلة فى طريق حلّ هذا اللغز.

وعندما نجتاز هذه المرحلة، تبدأ مرحلة الحياة المعنوية الروحانية التى وضع اللّه أُسُسَها عن طريق الوحى وانزال الكتب السماوية وإرسال الأنبياء والرسُل، كما قال سبحانه: «أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحيَينَاهُ». (الأنعام/ ۱۲۲)

وقوله تعالى: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أو أُنثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً». (النحل/ ۹۷)

وقد أشارت الآيات القرآنية وأكّدت مراراً على هذا النوع من الإحياء الإلهى.

والأعلى من هذه المرحلة أيضاً، هو مرحلة الإحياء الأخروية، حيث يحيى سبحانه العظام وهى رميم، يُحييها حياةً خالدة لا تعرف بعدها أى لونٍ من الموت.

وعلى هذا الترتيب يكون اتّصاف البارى بصفة الحياة (المحيى) فى الدنيا والآخرة مصدراً لأهم وأوسع مظاهر خلقه، وأمّا بلاغ هذه الصفة الإلهيّة، فمن جهة الانتباه إلى هذه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۵

الحقيقة، وهى كونه سبحانه (منبع) كل ألوان الحياة، لذا يجب أن نتوجّه إليه سبحانه فى حفظ الحياة الظاهرية والحياة الباطنية، ونطلب منه الحياة، لأنّهُ مُحيى كلّ شىء.

ومن جهة اخرى إنّ التخلّق بهذه الصفة يُعَدُّ مصدراً لاعانة الحياة المادية والمعنوية للبشر، ولتخليص عباد اللّه من الموت، ولمحاولة

هدايتهم إلى اللَّه وأعمال الخير.

۵۸- الشهيد

تُعد صفة (شهيد) من الصفات التى لها معانٍ مختلفة، وهى من صفات الذات طبقاً لبعض هذه المعانى (لأنّ أحد هذه المعانى هو «العلم المصحوب بالحضور والشهود»، فهى فرعٌ من صفة العلم فى هذه الحالة).

وإذا كانت بمعنى الشهادة على أعمال العباد فتُحتَسبْ من صفات الفعل، وذكرها هنا أيضاً وفق هذا المعنى ولنمعن خاشعين فى الآيتين التاليتين:-

۱- «وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعمَلُونَ». (آل عمران/ ۹۸)

۲- «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَينِى وَبَينَكُم». (الأنعام/ ۱۹)

جمع الآيات وتفسيرها

«شهيد»: من مادّة (شهود وشهادة)، وهى بالأصل- كما ورد فى مقاييس اللغة- تعنى «الحضور» و «العلم» و «الإعلام»، والشهادة تستلزم كلًّا من العلم والحضور والإعلام.

لكن الراغب قال فى مفرداته: إنّ هذه الكلمة تعنى الحضور المقارن للمشاهدة سواءً بالعين الظاهرة أم بعين القلب.

و (مشاهد الحج) هى الأمكنة المقدّسة التى يحضر فيها المؤمنون والملائكة.

ويُسمّى المقتول فى سبيل اللَّه (شهيداً) إمّا لحضور ملائكة الرحمة عنده، أو لمشاهدته

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۶

النّعم العظيمة التى أُعدّت له، أو لحضوره بين يدىّ اللَّه، أو لكون جهاده فى سبيل الشهادة بالحق، أو لسقوطه على الأرض، لأنّ إحدى أسماء الأرض (شاهدة).

ويُسمّى يوم الجمعة أيضاً (شاهداً) لأنّه يشهد اجتماع المسلمين، ويُسمّى يوم عرفة (مشهوداً) لحضور حجّاج بيت اللَّه الحرام فيه.

وعلى أيّة حال، إنّ اطلاق هذه الصفة على الذات الإلهيّة المقدّسة إمّا بسبب حضوره فى كل مكان، أو لشهادته على جميع أعمال العباد «۱».

والبلاغ الذى تحمله هذه الصفة الإلهيّة إلى الجميع هو أنّها تلفتهم إلى حضوره جل وعلا فى كُلّ مكان، واطّلاعه على أعمال العباد، فليس الملائكة وكتبة الأعمال فقط، ولا أعضاء بدن الإنسان والزمان والمكان الذى يعيش فيه يشهدون أعماله، بل الأدهى من ذلك كُلّه هو شهادة الذات الإلهيّة المقدّسة، ومن المسلَّم به هو أنّ الالتفات إلى هذه الحقيقة والإيمان بها له أثر بليغ فى أن يصلحَ الإنسانُ أعماله وحركاته.

أجَلْ، إنّ الإيمان باللَّه سبحانه وتعالى ومعرفة صفاته يُعَدُّ من أهم وسائل تربيتنا.

۵۹- الهادى

الهداية كُلّها من عند اللَّه، سواءً كانت من حيث التكوين وقوانين الخَلْق، أمْ من ناحية التشريع والتعليم والتربية والأحكام الشرعيّة.

فهو الذى يرعى النطفة الحقيرة ويهديها فى مراحل تكامل الجنين ويصنع منها إنساناً عظيماً.

وهو الذى يأخذ بأيدى العباد ويخلّصهم من وادى الضلال ويهديهم إلى جادّة الهداية

---

(۱) يقول ابن منظور فى لسان العرب والزبيدى فى شرح القاموس: «الشهيد» من بين أسماء اللَّه يعنى الأمين فى شهادته، وقال البعض: الشهيد: هو مَنْ لا يخفى عن علمه شىء، والشهيد معناه الحاضر (طبعاً لا بمعنى الحضور (المكانى) بل بمعنى الإحاطة الوجودية.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۷

عن طريق إنزال الوحى وبعث الأنبياء والرسُلْ، لذا ندعوه فى كُلّ صلاة ونقول: «إِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ» ... (سورة الحمد)، وثبت أقدامنا، و ... لأنّه هو الهادى، ولنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

وُصِف اللَّه سبحانه بصفة «الهادى» مرتين فقط فى القرآن هما:

۱- «وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَ نَصِيراً». (الفرقان/ ۳۱)

۲- «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُّستَقِيمٍ» «۱». (الحج/ ۵۴)

جمع الآيات وتفسيرها

إنَّ كلمة (هادى) مشتقة من مادّة (هداية)، وتأتى بالأصل بمعنى الدلالة والإرشاد المصحوب باللطف، وسُمِّيت (الهديّة) بهذا الأسم لهذا السبب أيضاً، هذا ما ذكره الراغب فى مفرداته، أمّا فى «مقاييس اللغة» فقد ذكر لها معنيَيْن هما: الإرشاد، وإرسال الهديّة، ولو أنّ الرأى الأول الذى يُرجع كلا المعنيين إلى أصلٍ واحد أكثر تناسباً من غيره.

ويُطلق فى العربية على اليوم (هادى) أيضاً، لأنّه وسيلة لاهتداء الناس، ويُطلق على العصا التى يهتدى بها العمى (هادية)، وتُسمّى الحيوانات التى تسير فى مقدّمة القطيع (هوادى) وكذا رقاب الخيول.

ويُطلق على البعير والنياق التى يُؤتى بها إلى بيت اللَّه كقرابين (هَدْى)- على وزن سَعْى- لأنّها هدايا المؤمنين إلى بيت اللَّه الحرام «۲».

وعلى أيّة حال، عندما تستعمل هذه الكلمة كصفة من صفات الفعل الإلهى فإنّها تدلّ على مسألة هدايته فى جميع شؤون الحياة الماديّة والمعنوية، الظاهرية والباطنية، التكوينية والتشريعية.

---

(۱) وردت كلمة «هادى»- وأحياناً بلفظ (هادٍ)- فى عشرة مواضع من القرآن الكريم فى اثنتين منها فقط كصفة للبارى تعالى

(۲) كتاب العين؛ مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ تاج العروس؛ لسان العرب؛ مجمع البحرين مادّه (هدى .

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۸

إنَّ اللَّه الذى غطّت أمواج هدايته جميع مَنْ فى الوجود، لو حُرِمْنا من هدايتِهِ التكوينيّة والتشريعيّة لحظة لضلَلْنا وهلكنا.

وقد ذُكِرَ فى المفردات للهداية أربع مراحل (بالاستشهاد بالآيات القرآنية).

۱- الهداية العامّة التى تشمل جميع المكلّفين، وهى نوعٌ من (الهداية التكوينية) والتى تشمل العقل، والذكاء، والمعلومات الفطرية والضرورية، وهى ماوردت فى الآية ۵۰ من سورة طه: «رَبُّنَا الَّذِى أَعطَى كُلَّ شَىءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى .

۲- الهداية التى تتحقق بواسطة أنبياء اللَّه ورسُله والكتب السماويّة (الهداية التشريعية)، وقد أشارت إليها الآية ۲۴ من سورة السجدة: «وَجَعَلنَا مِنهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمْرِنَا».

۳- الهداية بمعنى (التوفيق) الخاصّ بجماعةٍ من العباد، وقد أشارت القرآن اى هذا المعنى فى قوله تعالى «وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ

هُدًى». (محمد/ ۱۷)

۴- الهداية الأخروية إلى الجنّة (أى بمعنى الثواب الإلهى)، كما ورد عن لسان أهل الجنّة: «الحَمدُ لِلَّهِ الَّذِى هَدَانَا لِهَذَا». (الأعراف/ ۴۳)

وهذه المراحل الأربع المتتالية، فإن لم تحصل الأولى لن تحصل الثانية وإن لم تحصل الثانية، لن تحصل الثالثة، وهكذا ....

وأخيراً، إنّ البلاغ الذى تحمله هذه الصفة الإلهيّة فى طيّاتها هو إنّها تقول لنا من جهة: أنّ كل ما فى الوجود مسخّرٌ بأمر اللّه لهدايتكم، وعليكم أنتم أن تستعينوا بهذه السُبُل، وتلبّوا هذا النداء الإلهى، وتطووا هذه المرحلة بالطاعة التكوينية والتشريعيّة لتنجوا من الظلمات والضلال.

ومن جهةٍ اخرى: إنّ التخلق بهذه الصفة الإلهيّة يوجب على أى واحدٍ منّا أنْ يسعى لهداية الآخرين، ويُعين أبناء نوعه، ويسلك بهم مراحل الكمال المختلفة ليوصلهم إلى الهدف المنشود (بيت القصيد)، أى معرفة اللّه وتجلّى أسمائه وصفاته.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۷۹

۶۰- خَيْر

تستعمل كلمة (خير) أحياناً بمعنى (حَسنْ) وفى الكثير من الأحيان بمعنى (أحسن)، وقد وردت فى عشرة مواضع من القرآن الكريم بهذا المعنى الأخير، مضافةً إلى صفات اخرى، وسنطالع ذلك فى الآيات القادمة.

«الخير»: مساوٍ للوجود، والوجود مساوٍ للخيْر، ولكون وجود اللّه وجوداً مطلقاً لا- محدوداً فهو أحسن (خير) الوجود، أجل هو «خير الحاكمين» وخير الرازقين وخير النّاصرين ....

وجميع هذه الصفات من صفات الفعل الإلهى، وقد جمعناها هنا فى مكانٍ واحد لنختتم بحثنا بخير.

ولنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «وَأَنتَ خَيرُ الرَّاحِمِينَ». (المؤمنون/ ۱۰۹)

لأنّ رحمتك العامّة والخاصّة شملت الجميع، خصوصاً عبادك المؤمنين.

۲- «وَهُوَ خَيرُ الحَاكِمِينَ». (الأعراف/ ۸۷)

۳- «وَهُوَ خَيرُ الفَاصِلِينَ». (الأنعام/ ۵۷)

۴- «وَأَنتَ خَيرُ الفَاتِحِينَ». (الأعراف/ ۸۹)

۵- «وَاللَّهُ خَيرُ الرَّازِقِينَ». (الجمعة/ ۱۱)

۶- «بَلِ اللَّهُ مَولَاكُم وَهُوَ خَيرُ النَّاصِرِينَ». (آل عمران/ ۱۵۰)

۷- «فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيرُ الغَافِرِينَ». (الأعراف/ ۱۵۵)

۸- «وَقُل رَّبِّ أَنزِلنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيرُ المُنزِلِينَ». (المؤمنون/ ۲۹)

۹- «وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ المَاكِرِينَ». (الأنفال/ ۳۰)

۱۰- «رَبِّ لَاتَذَرنِى فَرْداً وَأَنتَ خَيرُ الوَارِثِينَ» «۱». (الأنبياء/ ۸۹)

---

(۱) يُلاحظ فى القرآن الكريم وجود بعض التعابير الاخرى الحاوية على كلمة (خير) وكصفة من الصفات الإلهيّة، مع أنّ المضاف إليه العائد لم يُذكر بصيغة الجمع، وهو فى موردٍ واحد فقط: «فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَ هُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» (يوسف/ ۶۴).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۰

جمع الآيات وتفسيرها

إنَّ كلمة (خير) وفق المشهور بين أرباب اللغة والنحويين هى من (أفعل التفضيل)، وقد كانت بالأصل (أَخْيَرْ)- على وزن أفضل- فحُذفت همزتها وانتقلت الفتحة إلى الخاء فصارت (خَيرْ).

وطبقاً لما قاله الراغب فى مفرداته فإنَّ كلمة (خَيرْ) تعنى الشىء المفضّل لدى الجميع، كالعقل، والعدل، والفضيلة، والأشياء المفيدة، وضدّه (شرّ)، ثم قسّم (خير) إلى نوعين:

الخير المطلق الذى يميل إليه الجميع، كالجنّة، والخير النسبى المفيد بالنسبة لبعض الأفراد كالمال الذى قد يصير منشأً لسعادة البعض، وتعاسة البعض الآخر!

ولكن ذُكِرَ فى مقاييس اللغة بأنّ معناه الأصلى هو: (الرغبة إلى شىء معيّن)، ثم أُطلق على «الأشياء المحبّبة»، وفى مقابله (شَر)، وقد فسّره بعض أرباب اللغة أيضاً بمعنى الكَرَم والإنعام، فى حين اقتنع البعض الآخر بأنّ الخير هو النقطة المقابلة (المعاكسة) للشّر.

وأحياناً استُعمِلَتْ هذه الكلمة بمعنى خاص (مثلًا بمعنى المال، أو هو نهر فى الجنّة ينبع من عين الكوثر، أو المنازل الخاصّة فى الجنّة)، وكلمة (خَيار) أو (اختيار) المشتقّة من هذه الكلمة تعنى انتخاب الشىء الأفضل.

وعندما تُطلق هذه الكلمة على الذات الإلهيّة المقدّسة فَلها حالتان: فأحياناً تكون مطلقة ومجرّدة عن أىّ قيدٍ أو شرطٍ، مثل قوله تعالى «وَاللَّهُ خَيرٌ وَأَبقى . (طه/ ۷۳)

هذا ماقاله سَحَرَة فرعون بعد أن آمنوا بموسى عليه السلام.

ففى هذه الحالة تعنى الأفضليّة من جميع الجهات، وفى الواقع، ليس هناك خير مطلق فى عالم الوجود سوى اللَّه سبحانه وتعالى فهو الأفضل والأحسن والأشرف وجوداً من جميع النواحى، وأحياناً اخرى تُطلق هذه الكلمة على الذات الإلهيّة المقدّسة بعد أن تُضاف إلى شىء كالأسماء المقدّسة المذكورة فى الآيات العشر.

وفى جميع هذه الموارد ذُكِرَ اللَّه فى القياس مع الآخرين، وطبعاً أنّ هذا القياس من قسم من الجهات فقط وإلّا فالذات الإلهيّة المقدّسة لاتُقاس أبداً مع سائر الموجودات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۱

فوصفت الآية الأولى اللَّه سبحانه ب «خَيرُ الرَّاحِمِينَ»، لأنّ رحمته لا متناهية وتشمل المحب والمبغض، الصالح والطالح، فرحمته العامّة شملت الجميع، ورحمته الخاصّة خصّ بها عباده المؤمنين، وهو على أيّة حال لايريد منهم أى جزاءٍ أو رد للجميل.

وقد وُصِفَ البارى فى الآية الثانية بصفة «خَيرُ الحَاكِمِينَ»، لأنّ ما يحكم به الآخرون مقرون بأنواع الأخطاء والانحرافات الناتجة عن الميول الشخصيّة والطائفيّة، أو الأهواء المادية، لكنّ حُكمه جلّ وعلا منزّهٌ عن أى خطأ وأى إفراطٍ وتفريط، وأى ميلٍ إلى الباطل، لأنّ علمه غير محدود وهو غنىٌّ عن العالمين.

وقد ذُكِرَ فى الآية الثالثة باسم «خَيرُ الفَاصِلِينَ»، لأنّ الناس لو أرادوا أن يميّزوا الحق من الباطل فإمّا أن يقعوا فى الكثير من الإشتباهات ولا- يميّزوا بينهما بصورة صحيحة، وإمّا أنْ يلتبس عليهم التمييز بين الحق والباطل بسبب جهلهم، أو يخلطوا بينهما بسبب تحكيم أهوائهم النفسانيّة.

أمّا الذى يعلم السرّ وما تخفى الصدور، وأحاط بكل شىءٍ علماً فلا معنى عنده سبحانه لكل هذه الأمور، فهو خير الفاصلين.

علاوةً على هذا فقد يشخّص الإنسان الحق من الباطل بصورة جيّدة لكنّه عاجزٌ عن إعمال علمه ومعرفته، ولكن اللَّه تعالى هو القادر

الأزلى الوحيد الذى يستطيع إعمال علمه فى كُلّ حال.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۲

والآيـة الرابعـة تحدّثت عن «خَيرُ الْفَاتِحِينَ»، وكلمة (فاتح) مشـتقّة من مادّة (فتح)، فإن كانت بمعنى الحكم والقضاء فإنَّ مفهومها يعنى «اللَّه خير الحاكمين»، وقد ذكرنا سبب ذلك فيما مضـى وإن كانت (فتح) بمعنى فتح كل شيءٍ مغلق، لكان سبحانه وتعالى أيضاً «خير الفاتحين»، لأنّه لايصـعُب شـيء مقابل قدرته، وإن كان المقصود منها فتح أبواب الرحمة فهو ذو رحمةٍ وسـعت كل شـيء فى الوجود، فى حين لو كانت هنالك رحمة فى الموجودات الاخرى فهى محدودة وجزئيّة.

وبالحقيقة أنّ لكلمة (فتح) معانى كثيرة جدّاً تعود جميعها إلى أصل الفتح المطلق، فأحياناً فتح أبواب العلم والرحمة، وأحياناً حلّ عقدة النزاع بين شخصـين، أو فتـح (حل) عقـدة الحرب، ويظهر أنّ تعبير «خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» ذو معنىً واسعٍ جدّاً يشـتمل على جميع هذه المعانى والمفاهيم.

وقد وصـفت الآية الخامسة البارى تعالى بصـفة «خَيْرُ الرَّازِقِينَ»، فالأرزاق التى يعطيها البعض لغيرهم (إنّ أمكن أن نسـميّها بهذا الأسم) مشوبة بنقائص عديدة: محدودة، سريعة الزوال، لايُؤمَّل مُستقبلها، وأحياناً تعقبها المنّة والأذى الجسمانى أو الروحانى، وأحياناً مصحوبة بالتحقير أو توقُّع ردّ الجميل.

فى حين أنّ الأرزاق الإلهيّة لا تعرف الحدود، ولا يُخشى عليها من الزوال، ولا فيها أدنى شيء من المنّة والأذى وانتظار ردّ الجميل، بل هى تشـمل حال الإنسان أو غيره منـذ لحظـة انعقاده كنطفـة تكوينة فى رحم امّه، وحتّى آخر لحظات حياته، وتشـمل حال المسـتحقين والمؤهلين لها فى يوم القيامة أيضاً، وبمستوىً أعلى وأسمى

نقل أحد المفسّرين حكاية عن أحد خلفاء بغداد مع (بهلول) تعكس المباحث الواردة بصورة لطيفة.

يقول: قـال خليفـة بغـداد لبهلول: تعـال أُعطِكَ رزقـك كـل يوم لأُريحـك من التفكير فى طلب الرزق، فأجابه بهلول قائلًا: لولا بعض النقاط السلبيّة فى عملك لقَبِلْت! أولًا: إنّك لا تعرف ما احتاجه، ثانياً: إنّك لا تعرف وقت حاجتى، ثالثاً: ولا تعلم مقدارها، رابعاً: قد

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۳

تغضب علىَّ ذات يـومٍ فتسترجعهـا منّى، لكنَّ اللَّه الـذى يرزقنى منزّهٌ عن جميع هـذه النقـائص والعيوب ويرزقنى حـتى فى اليوم الـذى أعصيه فيه! «۱».

وكم يكون رائعاً لو أضاف بهلول هذه الجملة أيضاً: من يضمن بقاءك فى السلطة إلى الغد حتى تقدر على رزقى أو رزق الآخرين؟

نختتم هذا الكلام بحديثٍ مبارك منقول عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، حيث قال فى بداية خطبة الأشباح:

«الحمـد للَّهالـذى لا يَفِرُهُ المنع والجمود ولا يُكـديه الإعطاء والجود، إذْ كلّ معطٍ منتقصٌ سواه، وكلّ مانعٍ مذمومٌ ما خلاه، وهو المنّان بفوائد النّعم، وعوائد المزيد والقِسَمْ، عيالُهُ الخلائق، ضمِنَ أرزاقهم وقدّر أقواتهم ونهج سبيل الراغبين إليه والطالبين ما لديه، وليس بما سُئِلَ بأجود منه بما لم يُسألْ» «۲».

وفى الآية السادسة وُصِفت ذاته المقدّسة بصـفة «خير الناصرين»، لأنّ الناصر الحقيقى هو من يقدر على النصرة ضدّ كلّ عدوّ، وفى أى مكان وزمان، وفى أى ظرف، هو الناصـرُ الذى لا يُغلَبُ أبداً، ولا تستطيع أيّةُ قدرة من الوقوف ضدَّه، إضافةً إلى ذلك فهو يحيط علماً بجميع مؤامرات الأعـداء، ونقـاط ضـعف من يحتمى بهم، وبغض النظر عن جميع هـذا، فهو سـبحانه لاينتظر ردّاً للجميل الـذى يصـنعه (النصرة).

ونحن نعلم أنّ هذه الصفات لم تجتمع إلّافى الذات الإلهيّة المقدّسة، فى حين نلاحظ أنّ الناصرين الآخرين فاقدون لهذه الصفات.

علاوةً على جميع ذلك فإن اسـتطاع أحدٌ ما أن ينصُـرَ آخر فنصرتُه محدودة بدار الدنيا فقط، أمّا اللَّه سبحانه وتعالى فهو الناصر الوحيد الذى يقدر على النصرة الدنيوية والاخروية.

(۱) تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۵۲۸.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۴

أمّا الآية السابعة فقد وُصِفَ فيها البارى بصفة «خَيْرُ الغَافِرِينَ»، يقول الفخر الرازى حول هذا الموضوع: «إنّ سبب وصفه تعالى بهذه الصفة هو لكون الآخرين إنْ غفروا ذنباً إمّا لكسب مدح وثناء الناس، أو للحصول على الثواب الإلهى الجزيل، أو لدفع قساوة القلب، وخلاصة الكلام إنّ عفو وغفران الناس لبعضهم إمّا لكسب منفعةٍ، أو لدفع ضررٍ ما، فى حين أنّ الغفران الإلهى ليس كذلك أبداً، بل هو نابعٌ من فضله وكرمه لا غير» «۱». وعلاوةً على هذا فإنّ حقوق الناس على بعضهم حقيرة جدّاً بالقياس مع الحقوق الإلهيّة، وعفوهم فى هذه الحقوق الحقيرة قليلٌ جدّاً أيضاً، والوحيد الذى يتجاوز عن عظيم الحقوق والخطايا، ورحمته ومغفرته غير مشروطةٍ بشىء هو اللَّه سبحانه وتعالى لذا هو «خَيرُ الغَافِرِينَ».

أضف إلى ذلك أنّه تعالى لايغفر ذنوب عباده فقط، بل ويستر عليهم أيضاً ليحفظ كرامتهم فى الدنيا والآخرة، ولا يُفتضحون أمامَ الخلائق، بل وأحياناً يُبدّل سيئاتهم حسنات شريطة أن لا يخرقوا جميع الحجب، وأن يكون لديهم استعداد قليل لتقبّل كل هذا اللطف والإحسان.

إنَّ معرفة سبب نزول الآية المذكورة، التى تحكى عن بنى إسرائيل وارتكابهم أحد أكبر الذنوب وهو طلبهم رؤية اللَّه بالعين الظاهرية كشرط مُسْبَق لإيمانهم به، يُبيّن عمق مفهوم هذه الصفة الإلهيّة أى (خير الغافرين).

ووُصِفَ البارى فى الآية الثامنة بصفة: «خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ».

فبعد أن أشارت الآية إلى قصّة نوح والطوفان العظيم الذى أصاب قومه، ذكرت دعاء نوح عليه السلام بعد أن هدأ الطوفان ورست سفينته: «ربِّ انزلنى مُنزلًا مباركاً وأنت خير المنزلين».

ويُمكن أن تكون كلمة «منزل» اسم مكان أى (مَنزِلًا) أو مصدر ميمى بمعنى (النزول والهبوط).

وعلى أيّة حال: فمن الواضح أنّ النزول من السفينة فى تلك الظروف العصيبة، وبالنظر

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۲۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۵

لعدم وجود بيت ولا مظلَّة ولا قوت ولا غذاء لايُمكن أن يتحقق سوى فى ظل لطف اللَّه «خَيرُ الْمُنْزِلِينَ»، ويُنجيهم من المخاطر التى كانت تهدّدهم بعد رسوِّ السفينة.

وكذلك تتسبب قدرة اللَّه اللامحدودة وعلمه بحاجات ضيوفه فى أن يكون «خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ».

وتحدثت الآية التاسعة عن المكر الإلهى الفريد إزاء مؤامرات المنحرفين والظالمين ووصفته جلّ وعلا بصفة «خَيْرُ الْمَاكِرِينَ».

فكلمة (ماكر) مشتقةٌ من مادّة «مكر»، وكما قال الراغب: إنّها تعنى بالأصل صرف الغير عن الوصول إلى المقصود عن طريق المكر والحيلة، وهو على قسمين: ممدوح، وهو ما كان الهدف منه الوصول إلى مقصودٍ حَسن، ومذموم: وهو ما كان هدفه قبيحاً.

ومن هنا يتّضح أنَّ ما يختلج فى أذهاننا حول اقتران كلمة (مكر) دائماً بنوع من الشرّ والفساد ليس صحيحاً، كما هو الحال فى كلمة (حيلة) التى لها مفاهيم مشتركة عديدة بالرغم من تداعى المفهوم السلبى منها إلى أذهان عامّة النّاس.

يقول القرطبى فى تفسيره: (المكر) معناه (التدبير الخفى فى داء عمل معيّن).

ولكن يُستنتج من بعض كلام أرباب اللغة أنّهم يعتقدون باقتران كلمة المكر بنوع من المذمّة، لذا فهم يقولون «إنّ هذه الكلمة ذات

معنى مجازى عندما تستعمل بخصوص البارى تعالى ، ولكن تعميم مفهوم (المكر) كما يُلاحظ عند الكثير من المفسّرين والمتكلمين، يبدو أصحّ بنظرنا.

وعلى أيّة حال فإنّ السرّ فى وصفه تعالى بصفة «خَيرُ المَاكِرِينَ» إمّا لكون قدرته على المكر والحيلة أكبر ممن سواه، أو لأنّ (مكر) من سواه يُحتمل فيه الخير والشرّ، لكن المكر الإلهى ممدوح دائماً.

وقد ذكر الزبيدى فى شرح القاموس عدّة معانٍ للمكر، عندما يُنسَبُ إلى اللَّه سبحانه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۶

وتعالى منْ جُملتها: إنزال البلاء على العدو لا على الصديق والعقوبات الاستدراجيّة أى الإنعام مقابل الأعمال السيئة (ليحسب) الشخص المسىء أنّه يُحسن صنعاً، ثمَّ يعاقبه بعدها، والثالث: مجازاة العباد على أعمالهم «۱».

وعلى أيّة حال فإنّ المكر الصحيح هو ما يصدر عن العالِم بعواقب الأمور وحقائق الأشياء الماضية والمستقبلية، إضافةً إلى قدرته المطلقة على القيام بتدبيره، ولكون هاتين الصفتين (العلم والقدرة اللامحدودتين) منحصرتين بذات البارى جلّ وعلا- فهو «خير الماكرين».

والظريف هو أنّ وصف البارى بصفة «خَيرُ المَاكِرِينَ» قد ورد فقط فى موضعين من القرآن الكريم، أحدهما فى قصّة الهجرة التى تُعدّ من أهم مراحل حياة الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله فى قوله تعالى «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلُوكَ أَو يُخرِجُوكَ وَيَمكُرُونَ وَيَمكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيرُ المَاكِرِينَ». (الأنفال/ ۳۰)

وكما نعلم فإنّ مؤامرة قريش على قتل الرسول صلى الله عليه و آله زادت من عزيمته وقوّت من إرادته على الهجرة، الهجرة التى صارت سبباً فى حدوث أكبر التحوّلات فى تاريخ الإسلام وانتشار الحكومة الإسلامية فى أنحاء العالَم، وهنا يتّضح غلبة المكر الإلهى.

والآخر فى المؤامرات المشتركة التى حاكها اليهود والنصارى فى محاربة الإسلام والرسول الأكرم صلى الله عليه و آله- الآية ۵۴ من سورة آل عمران- والتى كانت من أخطر المؤامرات، لكن اللَّه سبحانه قد أبطلها جميعاً.

وأخيراً فقد وُصِفَ البارى تعالى فى الآية العاشرة والأخيرة بصفة: «خَيرُ الْوَارِثِينَ».

وهذه الصفة وردت مرّة واحدة فقط فى القرآن الكريم عن قول زكريّا عليه السلام، فى حين يُلاحَظ تكرار وصف البارى بصفة «وارث».

والسّر من وراء وصف البارى بهذه الصفة واضح تماماً لأنّه الوحيد الذى يبقى ويدوم ويرث العالمين، وأمّا سواه من الوارثين فسيكونون موروثين يوماً ما.

---

(۱) تاج العروس فى شرح القاموس، مادّة (مكر).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۷

علاوة على هذا فإنّ ما يرثه الورثة العاديّون محدود وهم بحاجةٍ إليه، إضافةً إلى بخلهم فى صرفه غالباً، لذا يُلاحَظُ حصول الكثير من المشاكل والنزاعات بين الأقرباء من أجل أموالٍ ورثوها، أمّا اللَّه تعالى وهو الوارث النهائى للجميع فهو غير محتاج، ولا يوجد حدّ لصفته هذه، ولا طريق للبخل إلى وجوده فهو «خَيرُ الوَارِثِينَ».

وكما قال «الآلوسى» فى «روح المعانى»: «إنَّ هذه الصفة تُشير إلى بقاء الذات الإلهيّة المقدّسة، وفناء جميع الأشياء» «۱».

وتعتبر طبعاً من صفات الذات إذا كانت تشير فقط إلى مسألة البقاء (أى أبدية وجوده المقدّس)، ومن صفات الفعل إذا كانت تشير إلى مفهوم تملُّك مايبقى من الآخرين (فتأمل).

اللّه خير من كل شيء:

كما لاحظنا فى الآيات العشر التى ذكرناها، فقد وُصِفَ اللّه سبحانه وتعالى بصفات: «خير الراحمين والحاكمين والرازقين والناصرين و ...».

فهل يُمكن قياس البارى مع غيره!؟ (نظراً إلى كون كلمة (خير) فى مثل هذه الموارد ذات صيغة تفصيليّة).

هناك جوابان عن هذا السؤال:

الأول: إنَّ كلمة (خير) تفقد مفهومها التفصيلى فى مثل هذه الموارد، وتعطى معنى الكثرة، وعليه فالصفات أعلاه تُشير إلى رحمة اللّه الواسعة، وحكومته الواسعة، ورزقه الوفير، ونُصرته اللامحدودة، دون أن يكون هنالك قياس فى الموضوع، «ما للترابُ وربّ الأرباب»؟ «۲»

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۷، ص ۱۸۰.

(۲) يقول المرحوم الكفعمى فى مصباحه حول تفسير «خير الناصرين»: «معناه كثرةُ تكرار النّصر منه كما قيل خير الراحمين لكثرة رحمته» (المصباح، ص ۳۴۶).

- ورد نفس هذا المعنى فى توحيد الصدوق مع فارقٍ قليل. (توحيد الصدوق، ص ۲۱۶).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۸

الثانى: إنَّ هذه الصفات لها مفهوم تفضيل وقياس، لكنّه قياسٌ صوريٌّ وظاهرى كما هو الحال فى «أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ»، والحقيقة فقد اعتُبِرَ الذين هم واسطة لإيصال الأرزاق إلى غيرهم «رازقين»، وحُملت الرحمات الجزئيّة الصادرة من البشر على حساب «الرحمة»، وهكذا بخصوص النصرة والحاكميّة والغفران، ومن قبيل هذه التعابير ليست قليلة فى القرآن الكريم (انتخب المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار التفسير الثانى) «۱».

وبتعبيرٍ آخر: (من الناحية الفلسفية) فإنّ الوجود الحقيقى المستقل القائم بذاته هو الذات الإلهيّة المقدّسة، وما سواه عدم، وجود ظاهرى، كسراب الماء، لذا فإنّ الموجودات الممكنة لا هى خالقة ولا ناصرة ولا راحمة ولا رازقة، فجميع هذه الأمور تخص تلك الذات المقدّسة الفريدة، ومن سواه يأكلون من فتات مائدة إحسانه جل وعلا، لذا فقد قيل:

«ليس فى الدار غيره ديّار!».

ولكن من حيث التحليل العادى المتعارف فإنّ الممكنات لها وجودها الخاص أيضاً، ورحمتها ونصرتها وقدرتها وحاكميتها الخاصّة، وورود مثل هذه التعابير فى القرآن الكريم إنّما هو من باب تكليم الناس بلسانهم: «وَمَا أَرسَلنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَومِهِ».

(ابراهيم/ ۴)

جمع الآيات وتفسيرها

۱- العالَم مظهرٌ لصفاته وأسمائه

من المتعارف عليه أنّ عالَم الوجود محلُّ بروز وظهور الصفات الإلهيّة، وهذه المسألة واضحة تماماً خصوصاً بالإلتفات إلى صفات الفعل، لأنّ جميع ما نشاهده فى هذا العالَم من الخلق والتكوين مظهر لخالقيته سبحانه وتعالى

وجميع ما نشاهده من الرحمة الماديّة والمعنويّة مظهرٌ لرحمانيته.

(۱) بحار الأنوار، ج ۴، ص ۲۰۷ (يقول: الخير بمعنى التفضيل ولا حاجة إلى ما تكلّفه).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۸۹

وكل تدبير فى هذا العالم يدلّ على ربوبيته، وجميع الأرزاق الظاهريّة والباطنيّة هى مظاهر لرازقيته سبحانه.

وكما أشرنا سابقاً، ونظراً لكون صفات الفعل مشتقّة من أفعاله جلّ وعلا، وأفعاله لا تعدّ ولا تحصى فإنّ صفاته الفعليّة لا تعدّ ولا تحصى أيضاً.

وقد ذكرنا فى البحوث السابقة ستين صفة من أهم (صفات الفعل) الواردة فى القرآن الكريم، والتى تتشعّب من كلٍّ منها صفات اخرى، وتطرّقنا إلى تفسيرها وتحليلها.

إنَّ الانتباه إلى هذه الصفات لا يُعرفنا بالأفعال الإلهيّة فحسب، بل إنّ معرفة أفعاله تؤدّى إلى تخلّقنا بها وتربية نفوسنا وتهذيب أرواحنا، (فتأمّل).

وينبغى التذكير بهذه المسألة أيضاً وهى أنّ بعض الصفات الإلهيّة لا ريب فى انتسابها إلى صفات الذات (مثل عالِم) وبعضها إلى صفات الفعل (كالرازق والخالق)، وبعضها الآخر ذات جانبين؛ ذاتية من ناحية، وفعليّة من ناحية اخرى كالقيّوم مثلًا فإن فُسّرت بمعنى (القائم بالذات) صارت من صفات الذات، وان فُسّرت بمعنى (مقوّم الموجودات) صارت من صفات الفعل.

۲- الصفات الاخرى التى تعتبر من زمرة الصفات الفعليّة

هنالك أفعال فى القرآن الكريم تنسب إلى اللَّه تعالى دون ذكر مصطلحها الوصفى، وقد ذكرها علماء العقائد بعنوان صفات الفعل أو أسماء اللَّه الحسنى ولأنّهُ كان من المقرّر أن نبحث فى مباحثنا الصفات المذكورة فى القرآن الكريم فقط، لذا لم نتطرّق إليها ضمن الأسماء والصفات التى ذكرناها، فى الوقت الذى نعتقد بوجوب الإشارة إلى أهمها هنا، ومن جملتها (متكلّم) و (صادق).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۱

أ) اللَّه المتكلّم

تمهيد:

لم يُصرّح القرآن الكريم بصفة «المتكلّم» لكنّه ذكر الفعل الدال عليها: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكلِيمًا». (النساء/ ۱۶۴)

ولذا عُرِفَ موسى عليه السلام بأنّه (كليم اللَّه).

علاوةً على هذا فقد ورد فى القرآن الكريم تعبير (كلام اللَّه) فى ثلاثة مواضع «۱»، وتعبير (كلامى) فى موضعٍ واحد «۲».

ويُلاحظ أيضاً تعبير (كلمة ربّك) أو (كلمة اللَّه) فى موارد عديدة.

يُمكن الإستنتاج من مجموع هذه الموارد بأنّ صفة (متكلِّم) هى من إحدى صفات اللَّه سبحانه وتعالى

وكما قال «القوشچى» فى «شرح تجريد العقائد»:

«إنَّ وصف اللَّه بصفة (المتكلّم) لا- ينحصر بالمسلمين فقط، بل إنّ جميع أرباب الملك والمذاهب يعتقدون بكلام اللَّه بالرغم من اختلاف وجهات نظرهم فى تفسير معنى كلام اللَّه وتكلّمه سبحانه».

جمع الآيات وتفسيرها

۱- ما المقصود من كلام اللّه؟

هنالك اختلاف شديد بين المسلمين حول تفسير معنى كلام اللّه، وفسّرته كل طائفة

---

(۱) البقرة، الآية ۷۵؛ التوبة، الآية ۶؛ الفتح، الآية ۱۵.

(۲) الأعراف، ۱۴۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۲

بشكل معيَّن: فقد قال جماعة من الحنابلة: إنَّ كلام اللّه مركّب من الحروف والأصوات القديمة والقائمة بذاته المقدّسة، ثم أصرّوا على هذا الكلام التافه إلى الحدّ الذى قالوا: إنّ جلد القرآن أيضاً قديم وأزلى ناهيك عن رسوم حروفه.

وقالت جماعة اخرى: إنّ كلام اللّه معناه تلك الحروف والأصوات، وهى أمور حادثة وقائمة بالذات الإلهيّة المقدّسة فى نفس الوقت، وتفاهة كلام هؤلاء ليس بأقلّ من الحنابلة.

وذهبت طائفة ثالثة إلى أنّ كلام اللّه معناه تلك الحروف والأصوات، وهى حادثة وغير قائمة بذاته المقدّسة، بل هى من زمرة مخلوقاته التى أوجدها اللّه فى وجود جبرائيل أو الرسول محمّد صلى الله عليه و آله، أو شجرة موسى عليه السلام.

وقالت جماعة رابعة وهم «الاشاعرة»: إنَّ كلام اللّه ليس من سنخ الأصوات والحروف، بل هو مفاهيمٌ قائمة بذاته ويسّمونه (كلام نفسى)، ويعتقدون بكونه قديماً «۱»، وحتى كانوا يعتقدون بكفر من يعتقد بحدوث كلام اللّه (أى القرآن) (وأوجبوا قتله!) «۲».

وقد شهدت القرون الأولى من تاريخ الإسلام نزاعات شديدة ودمويّة حول (كلام اللّه) وكونه حادثاً أو قديماً، ووصلت الحالة إلى تكفير بعضهم الآخر، نزاعات وقفنا اليوم على بطلانها، ويمكننا القول وبجرأة: إنّها كانت من سياسة حكومات ذلك الوقت لتخدير الشعب المُسلمِ والعمل بسياسة (فرّق تسُدْ).

۲- الإستنتاج النهائى

على أيّة حال فهنا توجَدُ مطالب عديدة، جميعها واضحة، ونعتقد بأن لا محلّ للمناقشة فيها.

۱- إنّ اللّه قادرٌ على إحداث أمواج صوتية فى الفضاء، وإيصالها إلى مسامع أنبيائه

---

(۱) شرح تجريد العقائد للقوشچى، ص ۴۱۷.

(۲) الملل والنحل للشهرستانى، ج ۱، ص ۱۰۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۳

ورسله لإبلاغهم بهذه الطريقة، كما ذكر القرآن حول تكليم اللّه موسى بن عمران عليه السلام فى الوادى (الأيمن)؛ حيث أوجد اللّه فى تلك الشجرة المباركة الخاصّة أصواتاً دعا موسى بواسطتها إليه.

۲- (التكلّم) بمعنى التحدُّث باللسان وعن طريق الأوتار الصوتيّة، من عوارض الأجسام، ولا معنى له بخصوص اللّه المنزّه عن الجسمانيّة، سوى ماذكرناه من إيجاد أمواج صوتية فى الأجسام.

۳- القرآن الكريم الذى فى متناول أيدينا هو عين هذه الألفاظ والحروف التى قد تظهر فى قالب الكلام أحياناً، وفى قالب الكتابة أحياناً اخرى، ولا ريب فى أنّ كليهما من الحوادث، وما قاله البعض من كون هذه الألفاظ والحروف قديمة أو وجوب الاعتقاد حتى بقدم جلد القرآن وأزليته، خرافات لاتستحق أن نبحثها.

ويبدو أنّ الذين اعتقدوا بِقِدَم كلام اللَّه، كان منشأ اعتقادهم هو ذكر القرآن الكريم (التكلّم) كإحدى صفات اللَّه، ومن هنا سمى القرآن بكلام اللَّه، هذا من جهة، ومن جهةٍ اخرى هو كون وجود اللَّه أزلياً، إذن فصفاته يجب أن تكون أزلية أيضاً، ومنه استنتجوا بأنّ كلام اللَّه أزليٌّ أيضاً.

إنَّ هؤلاء وبسبب ضعف إدراكهم وقلّة معلوماتهم لم يستطيعوا التمييز بين (صفات الذات) و (صفات الفعل)، فصفات ذاته أزليّة (كالعلم والقدرة)، أمّا الصفات التى ينتزعها عقلنا بسبب صدور أفعال معينة من قِبَلِهِ جلّ وعلا، فهى أمور حادثة، لأنّ هذه الصفات غير قائمة بالذات الإلهيّة، بل هى مفاهيم عقليّة منتزعة تحصل من ملاحظة أفعاله.

وبتعبيرٍ آخر لا شك من وجود أفعال إلهيّة حادثة كخلق السموات والأرض، وخلق آدم، ومسألة الرزق، وغفران ذنوب العباد، وإرسال الأنبياء والرسُل، وعندما يُشاهد العقل صدور هذه الأفعال من جهته ينتزع منها صفات للَّهسبحانه (كالخالقيّة والرازقية والغفارية)، ومن المسلَّم به أنّ هذه الصفات لم تكن تصدق على اللَّه قبل أن يخلق موجوداً أو يعطيه رزقاً أو يشمله بمغفرته، (طبعاً كان قادراً على هذه الأمور، لكن الحديث لا يدور حول القدرة بل حول صدور عين هذه الأفعال).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۴

وبناءً على هذا فإنّ هذه الصفات التى تُدعى (صفات الفعل) تختلف عن (صفات الذات) القائمة بالذات الإلهيّة المقدّسة، بل هى عين ذاته، وعدم فهم هذه الحقيقة من قبل المعتقدين بقِدَم كلام اللَّه وأزليته جرّهم إلى معتقدات مُضحكة كقدم جلد القرآن.

۴- اضطرّ جماعة من الأشاعرة، ممن كانوا يُدركون هذه المسائل، إلى طرح مسألة (الكلام النفسى)، الكلام الذى يُمكن أن يكون قديماً وقائماً بذات اللَّه، وقد تمسّك هؤلاء لإثبات هذا المطلب بالآية القرآنية التالية التى تتحدّث عن جماعة من المنافقين:

«وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِم لَولَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ». (المجادلة/ ۸)

أو بالشعر المعروف عن (الأخطل) أحد شعراء العصر الأموى:

إنّ الكلام لَفى الفؤاد وإنّما جُعِلَ اللسان على الفؤاد دليلًا وأرادوا بهذا التخلُّص من التّضادّ الموجود بين حدوث كلام اللَّه وقِدَم صفاته.

ولكنهم تورّطوا بهذا فى مشكلةٍ أكبر، وهى أنْ لو كان المقصود من الكلام النفسى هو (تصوير الألفاظ والجمل وإمرارها من الذهن والفكر)، فإنّ هذه الأمور لا معنى لها بخصوص اللَّه تعالى لأنّ ذاته المقدّسة ليست محلًّا لمثل هذه العوارض الجسمانيّة.

وإن كان المقصود منه علم اللَّه الأزلى بمحتوى القرآن الكريم، فلا ريب فى أنّه تعالى قد أحاط علماً بجميع هذه الأمور منذ الأزل، ولكن فى هذه الحالة يعود الكلام النفسى إلى علم اللَّه ولن يكون صفة مُستقلّة.

والخلاصة هى أنّ محتوى الكتب السماويّة كانت فى علم اللَّه دائماً (منذ الأزل)، وهذا الشىء لا يخرج عن صفة (العلم) وأمّا عين الألفاظ والحروف فلا ريب من كونها حادثة، ولا يوجد هنا شىء ثالث تحت عنوان (الكلام النفسى) ليكون قديماً ومغايراً لصفة (علم اللَّه).

إنَّ هذه الأمور واضحة كلها، لكنّه ومع الأسف الشديد فقد سوّدت النزاعات حول كون كلام اللَّه قديماً أم حادثاً، صفحات كثيرة من تاريخ الإسلام، وسببت حوادث دامية.

فأحياناً مالت الحكومات إلى جماعة المعتزلة (كبعض خلفاء بنى العباس)، فأجبرت الجميع على الاعتقاد بحدوث كلام اللَّه، وضربوا أعناق البعض بسبب عدم اعترافهم بذلك.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۵

وفى المقابل، كان الكثير من حكّام بنى العبّاس يميلون إلى الأشاعرة، ويضربون أعناق القائلين بحدوث كلام اللَّه، فى حين أننا اليوم نعلم بأنّ كل هذه الأمور كانت ألاعيب سياسيّة ظهرت بشكل مسائل عقائديّة، وكان الحكّام الجبابرة آنذاك يلعبون بمعتقدات المسلمين من أجل بلوغ مقاصدهم المشؤومة ومواصلة تسلُّطهم على رقاب الناس.

۳- (التكلُّم) فى الروايات الإسلامية

نواصل هذا الكلام برواية منقولة عن الإمام الصادق عليه السلام، نقلها الشيخ الطوسى رحمه الله فى (الأمالى) عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال:

«لم يزل اللَّه جلّ اسمه عالماً بذاته، ولا معلوم، ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور، قلتُ:

جُعِلْتُ فداك: فلم يزل متكلّماً؟ قال: الكلامُ محدث، كان اللَّه عزّوجلّ ليس بمتكلّم ثمّ أحدث الكلام» «۱».

وقد نقل المرحوم الكلينى قدس سره نفس هذا الحديث فى الكافى مع تفاوُتٍ بسيط، حيث ورد فى ذيله بصراحة:

«إنَّ الكلام صفةٌ مُحدَثة ليستْ بأزليّة، كان اللَّه عزّوجلّ ولا متكلّم» «۲».

تُبيّن هذه العبارات بوضوح الفرق الموجود بين (صفات الذات) و (صفات الفعل)، صفات الذات التى كانت منذ الأزل كالعلم والقدرة، ولا تحتاج (فى تحقُّقها) إلى وجود المخلوقات، أمّا (صفات الفعل) فهى صفات خارجة عن الذات الإلهيّة وقد انتزعها العقل عند صدور الأفعال من قِبَلِ اللَّه تعالى ومنسوبة إليه (كالخالقيّة والرازقيّة)، وصفة (التكلُّم) من هذا القبيل أيضاً لأنّها نوع من الفعل والحركة، ونحن نعلم بأن ليس للحركة طريقٌ إلى الذات الإلهيّة المقدّسة.

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۴، ص ۶۸، الباب ۱، ح ۱۱.

(۲) أصول الكافى، ج ۱، ص ۱۰۷ (باب صفات الذات).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۷

ب) اللَّه عزّ وجلّ صادق

تمهيد:

بعد وصف البارى تعالى بصفة التكلُّم تتوجّه الأنظار إلى هذه الصفة وهى: «صدق اللَّه» فى كلامه.

إنّ هذه الصفة، التى تعد من أهم الصفات الفعليّة، تشكل العمود الأساس فى الوثوق بدعوات الأنبياء، لأنّه- نعوذ باللَّه- لو كان يُمكن تصور صدور الكذب عنه جلّ وعلا- لما بقيت هنالك ثقة لا بمسألة الوحى، ولا بالوعود الأخرويّة، ولا بالأخبار التى تتحدث عن المعارف الدينيّة، أو عن عوامل سعادة البشر وشقاوتهم، وبتعبيرٍ آخر فإنّ أسس المسائل الدينيّة تنهار بصورة تامّة بنفى هذه الصفة.

ومن هنا يتضح مدى تأثير الإيمان بصدق اللَّه فى فهم حقائق الدين.

ولعل هذا هو السّر من ملاحظة وصف البارى فى آيات قرآنية عديدة بالصادق وبتعابير متنوعة ومختلفة تماماً، ومن زوايا متنوّعة.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات القرآنية التالية:

۱- «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً». (النساء/ ۸۷)

۲- «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا». (النساء/ ۱۲۲)

۳- «وَلَقَد صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ». (آل عمران/ ۱۵۲)

۴- «قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» «۱». (الأحزاب/ ۲۲)

---

(۱) وقد وردت نفس هذه المفاهيم فى آيات قرآنية اخرى (كالذاريات، ۵؛ الأنعام، ۱۱۵؛ الزمر، ۷۴؛ الفتح، ۲۷؛ وكذا ورد تعبير «إنّا

لصادقون» فى الآية ۱۴۶ من سورة الأنعام؛ والآية ۶۴ من سورة الحجر).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۸

شرح المفردات:

إشتقتْ كلمة «صادق» من مادّة «صدق»، وكما قال الراغب: إنّها ضدّ الكذب، وبالأصل من أوصاف الكلام والأخبار، فأحياناً صادقة وأحياناً كاذبة، وأحياناً تُستعمل عرضاً فى الإستفهام والأمر والدعاء أيضاً، كأنّ يقول أحد: (أَفُلان فى الدار) أى إنّه يقصد بأنّه لا يدرى بوجود فلان فى الدار أو عدم وجوده، (لذا فقد نقول أحياناً: إنّه يكذب، فهو يعلم بوجود فلان فى الدار).

وَحقيقة الصدق هى تطابُق الحديث مع الأعتقاد والواقع، لذا فلو تحدّث أحد طبق الواقع ولكن خلاف ما يعتَقِدُ به فهو كاذب، كقول المنافقين لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ»، فقال تعالى ردّاً عليهم: «وَاللَّهُ يَشهَدُ إِنَّ المُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ». (المنافقون/ ۱)

وقد يُستعمل الكذب والصدق فى مورد الأفعال والأعمال أيضاً، فمن يؤدّى أعماله وفق وظيفته الواجبة يُدعى صادقاً، وإذا عمل على خلافها يُدعى كاذباً، فمثلًا يُقال لِمَن يؤدّى حق الحرب والقتال: (صدق فى القتال) وإن لم يفعل يُقال (كذب فى القتال)، وآية: «لَقَد صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ»، التى نزلت بشأن تحقق رؤيا الرسول صلى الله عليه و آله بخصوص فتح مكة ودخول المسلمين المسجد الحرام منتصرين، نموذج على هذا المطلب «۱».

و كلمة «صدقة» التى تُستعمل بخصوص الأموال التى يبذلها الإنسان فى سبيل اللَّه بقصد القربة، إنّما سُمِيت بهذا الاسم لأنّ الإنسان يُصدّق بواسطتها إخلاصه بعمله، وكذلك تسمية المهر «صداق» لأنّه دليل عمليٌّ على صدق الزوج إزاء زوجته.

ولكن ما قاله الراغب حول عناصر الصدق الأساسيّة، ووجوب مطابقة الكلام للواقع، واعتقاد المتكلّم، محل اختلاف شديد بين العلماء، فاعتقد البعض منهم كفاية تطابُقه مع المُعتَقد فقط، واشترط البعض الآخر تطابُقه مع الواقع فقط، ولا محل هنا لشرح ذلك.

هذا فى حين اعتقد (ابن فارس) فى (مقاييس اللغة) بأنّ أصل «الصدق» هو القوّة الموجودة فى شىء وإنّما سُمى الكلام المطابق للواقع صدقاً بسبب قوّته، لذا يُسمّى الرمح

---

(۱) المفردات، مادة (صدق)، باختصار.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۲۹۹

القوى (رُمح صَدق)، ومهر المرأة (صداق) لأنّه حق مفروض وذو قوّة.

ولكننا نعتقد بأنّ ما ورد فى مفردات الراغب حول أصل هذه الكلمة أصَحّ.

و لسائر أرباب اللغة نفس هذا الرأى أيضاً، ويُنقلُ فى (شرح القاموس) عن (الخليل) أنّه قال: (الصدق) معناه: الكمال من كل شىء، وأضاف قائلًا: إنّ إطلاق (صَدق) على الأشياء المستوية القويّة (كالرمح القوى) ينشأ من معنى الجَودة والقوّة (الصلابة)، أى مايُقال بخصوص صلابته وجودته يُطابق الحقيقة، وإذا كان ال (صدق) يعنى الصلابة والقوّة لأُطلق على كل شىءٍ قوى (صدق)، فى حين أنّه ليس كذلك.

«صدّيق»: معناه كثير الصدق أو من لا يكذب أبداً أو استحالة صدور الكذب منه لأنّه اعتاد على الصدق، أو مَن يصدق فى كُلٍّ من الإعتقاد والقول والعمل، (كل هذا لكون كلمة صدّيق من صيغ المبالغة والتى يُمكن أن تكون فى إحدى الأمور المختلفة المذكورة أعلاه).

ويُستعمل تعبير «لسان صدق» بخصوص الشخص الصالح من جميع النواحى، وإن مُدِحَ وأُثنىَ عليه فهو عين الواقع.

وعلى أيّة حال، فإنَّ وصف البارى بالصادق ينشأ من جهات متعددة: من جهة صدقه فى أخباره، وفى وعوده بإثابة المحسنين ومعاقبة المسيئين.

ومن جهة تنفيذه لجميع ما صرّح به فى القرآن الكريم، وسيأتى شرحه فى تفسير آيات البحث.

جمع الآيات وتفسيرها

تحدثت الآيتان الأولى والثانية حول أنّ اللَّه سبحانه وتعالى أصدق كل شىء حيث قال تعالى وباستفهامٍ استنكارى: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً» و «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» «۱».

---

(۱) قيل وقول: مصدر.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۰

وقد اعتقد بعض المفسّرين بأنّ التعبير بكلمة (أصدق) يخص الكميّة فقط (أى مَن هو أكثر صدقاً فى الموارد)، لا الكيفيّة، لأنّ الكلام الصادق هو ما طابق الواقع وإلّا فهو كذب، ولا يُمكن تصوُّر الزيادة والنقصان فى كيفيته «۱».

ولكن الحق هو إمكانية تصوُّر درجات مختلفة للصدق من حيث الكيفيّة، وهو عندما يكون الواقع ذا أبعاد مختلفة، فمن المسلَّم أنّ المتكلّم الذى يُطابق كلامه الواقع فى جميع الأبعاد يُعتَبر أصدق ممن يُطابق كلامه الواقع فى أبعاد مُعيَّنة.

فمثلًا عندما يُشبّهُ مؤمنٌ (بسلمان الفارسى)، والآخر يُشبّهُ (بأبى ذر)، فمن المسلَّم أن أصدقهما هو من أخذ بنظر الإعتبار فى تشبيهه أبعاداً أكثر.

واللَّه أصدق حديثاً ممن سواه، إنّما هو كذلك، لكون منشأ الكذب إمّا من الجهل وعدم معرفة الواقع، أو من الضعف والعجز والحاجة، ولكون ذاته المقدّسة منزّهة عن جميع هذه الصفات، فهو أصدق حديثاً.

وتحدثت الآيتان الثالثة والرابعة عن صدق اللَّه فى وعوده، لكن الآية الثالثة تحدثت عن الوعد الإلهى حول النصر على الأعداء فى معركة أُحد، حيث انتصر المسلمون فى البداية طبق هذا الوعد، لكن تثاقل وعصيان جماعة منهم أدت إلى انكسارهم فى نهاية الأمر، قال تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ»، ولكن اختلافكم وتماهلكم وعصيانكم فى نهاية الأمر أدّى إلى انكساركم، والتقصير إنّما جاء من عندكم، ولم يخلف اللَّهُ وعدَهُ.

وكان هذا رداً على من كانوا يعتقدون بأنّ هزيمتهم فى معركة أُحد، هى خلاف للوعد الإلهى.

أمّا الآية الرابعة فقد تحدثت عن لسان حال المؤمنين حول واقعة الأحزاب، حيث إنّهم عندما وقفوا أمام جيش الأحزاب قالوا: «هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَ صَدَقَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۵، ص ۹۵، ذيل الآية ۸۷ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۱

والكلام هنا يدور حول كُلّ مَن صدق اللَّه وصدق رسوله الذى: «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى ، وقوله قول اللَّه، ووعده وعد اللَّه أيضاً.

وهنالك عدّة احتمالات حول ما وعد به اللَّه ورسوله المؤمنين وتحقق عند مشاهدتهم جيش الأحزاب: الأول: إنّ الرسول صلى الله عليه

و آله كان قد قال لهم: ستقصدكم جيوش الأحزاب بعد تسعة أو عشرة أيّام، فعندما حضرت جيوش الأحزاب فى الموعد المقرر قال المؤمنون قولهم هذا: «هَذَا مَا وَعَدَنا اللَّه وَرَسُولُه» «۱». (النجم/ ۳- ۴)

و الأمر الآخر هو أنّه تعالى قال مُخاطباً المسلمين: «أَمْ حَسِبْتُم أَن تَدخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصرَ اللَّهِ قَرِيبٌ». (البقرة/ ۲۱۴)

وجدوا أنفسهم مقابل ذلك الجيش العظيم عرفوا تحقق الوعد الإلهى وإشرافهم على دخول امتحانٍ عظيم «۲».

وقال البعض أيضاً: إنَّ الرسول صلى الله عليه و آله كان قد بشّر المؤمنين بالنصر بعد محاصرتهم من قبل جيش الأحزاب، وانتشار الإسلام فى أرجاء العالم وسقوط قصور (الحيرة) و (المدائن) و (كسرى فى أيدى المسلمين فيما بعد.

فعندما رأى المسلمون القسم الأول من هذا الوعد فرحوا وقالوا: أبشروا بالنصر النهائى «۳».

توضيح

دلائل صدق اللَّه:

قال علماء العقائد: إنَّ جميع المسلمين يتفقون على مسألة صدق اللَّه، لكن الأشاعرة

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۱، ص ۱۵۱.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۳۰۶، وقد ورد نفس هذا التفسير فى تفسير الكبير بشكل مختصر.

(۳) تفسير القرطبى، ج ۸ ص ۵۲۳۹.

الذين لا يعتقدون (بالحسن والقُبح) يعجزون عن إثبات هذه المسألة، لأنّه لا ينفع معهم الدليل العقلى، والدليل النقلى ينفع فى بحثنا هذا، لأنّهم إن يستندوا على الآيات القرآنيّة الدّالة على صدق اللَّه يجر الكلام حتى يصلَ إلى هذه الآيات. وبعبارة اخرى فإنّ الاستدلال بالآيات يستلزم الدور (تأمل جيداً).

وهنا يعجزون عن الجواب وإثبات مدّعاهم.

وبما أنَّ مسألة الحسُن والقُبح العقليّين- بغض النظر عن التعصّب والأذواق المنحرفة- من المُسَلَّمات، فإنّ أفضل طريق لإثبات صدق اللَّه هو هذه المسألة.

يُعد الكذب، حتى من قِبَلِ الإنسان العادى، من أقبح الأعمال، بل يعتبر بؤرة أغلب القبائح، ودليلًا بارزاً على انحطاط الشخصيّة، فمن المسلَّم به قُبح مثل هذا العمل من كلّ ناحية بالنسبة إلى البارى تعالى، أى أن يكذب سبحانه أو يَعِدَ كذباً- معاذ اللَّه.

وإن احتمل أحد مثل هذا الإحتمال اللامعقول بالنسبة إلى الذات الإلهيّة المقدّسة لتهدمت جميع مبانى معتقداته، لأنّ القسم الرئيس من هذه المبانى مأخوذ عن الوحى، وَلَو وُجد احتمال الكذب ومخالفة الواقع إليه سبيلًا، لما بقيت هنالك ثقة بالوحى، والأخبار الإلهيّة، والوعد والوعيد، ولتزلزلت جميع المعتقدات الدينية وتعرضت للعدم، وهذه المسألة من الوضوح بحيث لا تحتاج إلى توضيح.

وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ عوامل الكذب أى (الجهل) و (الحاجة) ليس لها إلى ذات البارى من سبيل، وهذا بحد ذاته دليلٌ آخر.

آخر الكلام حول الصفات الإلهيّة:

لا ـ ريب أنّ لبحث صفات اللّه طابعاً عقائدياً، والهدف منه هو تكميل المعارف الإلهيّة، ولكن ينبغى أن لا يُغفلَ عن أثره التربوى فى تكامل النفوس الإنسانية، وغالباً ما كان هذا هو هدف القرآن من طرح هذه الصفات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۳

فعندما نصف اللّه بالذات الكاملة، وبأنّه سبحانه أمل جميع العباد، وتبذل جميع الجهود والمساعى من أجل التقرُّب منه، وإليه تنتهى جميع الخطوط التكاملية، فإنّ من الواضح أنّ هذا البحث يقول للإنسان بكل صراحة وجزم: (إنّك ستنتصر وتنجح فى جهودك ومساعيك، وستبلغ السعادة عندما تستطيع أن توهِّج نوراً فى قلبك من صفات الجلال والجمال الإلهيّة تلك).

أو بتعبير آخر، فإنّك تصير مظهراً لأسماء اللّه وصفاته وتطغى عليك صبغته، وتصير روحك ونفسك مرآةً لأسمائه، ومظهراً لصفات جلاله وجماله.

وأن تحاول التشبُّه به من حيث العلم، القدرة، الإرادة والمشيئة، المديريّة والربوبيّة، والرحمانيّة والرحيميّة، و ...، ولو بمقدار قليل.

ويُلاحظ وجود إشارت لطيفة إلى هذه المسألة التربويّة المهمّة وردت فى الأحاديث الإسلامية، ومن جُملتها ما ورد فى (تنبيه الخواطر) عن الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«جعل اللّه سبحانه وتعالى مكارم الأخلاق صلةً بينَهُ وبين عباده فحسبُ أحدكم أن يتمسك بخلقٍ متّصلٍ باللّه» «۱».

وفى حديثٍ آخر عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «تخلّقوا بأخلاق اللّه» «۲».

---

(۱) تنبه الخواطر، ص ۲ و ۳، طبق ماورد فى ميزان الحكمة، ج ۳، ص ۱۴۹.

(۲) زبدة المعارف فى أصول العقائد، ص ۸۷، المحقق اللاهيجى.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۵

العدل الإلهى

اشارة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۷

تمهيد:

إنّ لصفة (العدالة) خصوصيات خاصّة من بين صفات الفعل الإلهى، ممّا حدى بعلماء العقائد إلى بحثها بالتفصيل وبصورة مستقلّة، إلى الدرجة التى نلاحظ استقلالها من بين أصول الدين، وأنّها ذُكِرَت كأحد أصول الدين العقائدية الخمسة، فى حين أنّها لا تتفاوت عن بقية الصفات حسب الظاهر، وينبغى دمجها فى مباحث معرفة اللّه، فى بحث (الأسماء والصفات).

إنّ شرح هذه الخصوصيّات قبل البحث حول أصل المسألة غير ممكن، لذا سوف نوكله إلى ما بعد، ونكتفى هنا بالقول: إنَّ لمسألة العدل الإلهى علاقة بأصل الإيمان بوجود اللّه من جهة، وبمسألة المعاد من جهةٍ اخرى، وبمسألة النبوة من جهةٍ ثالثة، وبمسائل من قبيل، الثواب والعقاب، الجبر والتفويض، التوحيد والثنويّة، فلسفة الأحكام، وغيرها، من جهة رابعة، لذا فقد يُمكن أن يُغيّر الإعتقاد بهذا الأصل أو نفيهُ شكل جميع المعارف والعقائد الدينيّة.

إضافةً إلى هذا فإنّ أثر العدل الإلهى فى المجتمع البشرى، فى مسألة العدالة الاجتماعية، والعدالة الأخلاقية والمسائل التربويّة، غير قابل للإنكار.

وبسبب المسائل التى ذكرناها أعلاه، فإننا أيضاً نبحث هذه الصفة على حِدة وأكثر تفصيلًا، ولكن، وكما يستوجب اسلوب التفسير الموضوعى، ينبغى علينا قبل كلّ شىء أن نتعرض إلى الآيات القرآنية الواردة فى هذا المجال، لنستنير بها فى طريق حل المشاكل المعقّدة لهذه المسألة المهمّة، بعد هذا التمهيد نمعن خاشعين فى الآيات القرآنية التالية.

١- «إِنَّ اللَّهَ لَايَظْلِمُ النَّاسَ شَيئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ انفُسَهُم يَظلِمُونَ». (يونس/ ۴۴)

٢- «وَلَا يَظلِمُ رَبُّكَ احَداً». (الكهف/ ۴۹)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۰۸

٣- «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلَكِن كَانُوا انفُسَهُمْ يَظلِمُونَ».

(التوبة/ ٧٠) (الروم/ ٩)

۴- «فَاليَومَ لَاتُظلَمُ نَفسٌ شَيئاً وَلَا تُجزَونَ إِلّا مَا كُنتُم تَعمَلُونَ». (يس/ ۵۴)

۵- «وَمَا تُنْفِقُوا مِن خَيرٍ ... يُوَفَّ اليَكُم وَانتُم لَاتُظلَمُونَ». (البقرة/ ٢٧٢)

۶- «بَلِ اللَّهُ يُزَكِّى مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظلَمُونَ فَتِيلًا». (النساء/ ۴۹)

٧- «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلعَالَمِينَ». (آل‌عمران/ ١٠٨)

٨- «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلّا هُوَ وَالمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلمِ قَائِماً بِالقِسطِ».

(آل‌عمران/ ١٨)

٩- «انَّهُ يَبدَؤُا الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجزِىَ الَّذِينَ آمنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالقِسطِ».

(يونس/ ۴)

١٠- «وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسطَ لِيَومِ القِيَامَةِ فَلَا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئاً».

(الأنبياء/ ۴٧)

١١- «وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِّلعَبِيدِ». (فصلت/ ۴۶)

١٢- «ام نَجعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفسِدِينَ فِى الأَرضِ أَم نَجعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ». «١»

(ص/ ٢٨)

شرح المفردات:

إِنَّ كلمة (ظلم)- كما ورد فى مقاييس اللغة- فى الأصل ذات معنيين مُتفاوتَين: أحدهما (الظُلمة)، والآخر: (وضع الشىء فى غير محلّه)، وفى مقابله (العدل) وهو وضع الشىء فى محلّه المناسب.

---

(١) وردت آيات قرآنية كثيرة اخرى بصدد هذا المجال، وقد انتخبنا من الآيات ذات المضمون الواحد ولكن بعبارتين متفاوتتين، ونموذجاً من الآيات ذات العبارات المتشابهة، من جملتها الآيات التالية: «النساء، ۴٠ و ٧٧؛ العنكبوت، ۴٠؛ الأنفال، ۶٠؛ البقرة، ٢٨١ (إضافة إلى أربع عشرة آيةً تحتوى كل منها على تعبير «لا يُظلمون»، وتشير بدون استثناء إلى نفى الظلم عن اللّه تعالى ويونس، ۴٧ و ۵۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣٠٩

و يُحتَملُ أن يعود كلا المعنيين إلى أصلٍ واحد لأنّ الظلم (ضد العدالة) سبب الظُلمة أينما كان، ولعل هذا هو السبب الذى دفع بالراغب فى مفرداته، إلى اعتبار (الظُّلمة) أصل هذه الكلمة.

وقد وردت فی لسان العرب أنّ أصل الظّلم هو: «الجور والتجاوُز عن الحد)، وأضاف فی تعبیر آخر: الظلم معناه: (الانحراف عن الحد المتوسط).

طبعاً: إنّ هذه المعانی الثلاثة للظلم أی (وضع الشیء فی غیر محله) و (التجاوز عن الحد) و (الانحراف عن الحد المتوسّط)، تعود إلی أصل واحد).

وقد قسّم بعض العلماء الظلمَ إلی ثلاثة أقسام: ظلم الإنسان ربَّهُ، وأظهر مصادیقه الکفر والشرک والنفاق، وظلم الإنسان الآخرین، وظُلمه نفسَهُ، وذکروا لکلٍّ منها شواهد قرآنیة، ولکن من زاویة معینة نری أنّ الأقسام الثلاثة تعود إلی أصل ظُلم النفس، لأنّ الإنسان منذ اللحظة الأولی من تصمیمه علی الظلم یوجّه الضربة الأولی إلی نفسه، کما قال تعالی: «وَمَا ظَلَمُونَا وَلَکِن کَانُوا انفُسَهُم یَظلِمُونَ». (الأعراف/ ۱۶۰)

وضّد الظلم (العدل)، وقد ذکروا له معنیین متضادّین هما:

الأول: هو معناه المعروف أی وضع الشیء فی محلّه المناسب، ولهذا المفهوم الواسع مصادیق کثیرة من جملتها العدالد بمعنی الإعتدال، العدالة بمعنی رعایة المساواة ونفی کل ألوان (التمییز)، العدالة بمعنی رعایة حقوق الآخرین، والعدالة بمعنی رعایة الحقوق والإستحقاقات، وأخیراً العدالة بمعنی التزکیة والتطهیر.

وإن استعملها القرآن الکریم أحیاناً بمعنی الشرک فسببه أن المشرک یتخذ للّه‌ندّاً وعدیلًا، قال تعالی فی الآیة الأولی من سورة الأنعام: «ثُمَّ الَّذِینَ کَفَرُوا بِرَبِهِم یَعْدِلُونَ».

الثانی: کما ورد فی المقاییس: هو الإعوجاج والانحراف.

وقال بعض أرباب اللغة: إنّه یعنی الظلم (أی) أنّ العدل من الألفاظ التی لها معنیان متضادّان، لذا یُطلق علی الانحراف عن شیء (عدول).

وکلمة (قسط) فی الأصل تعنی الحصّة والنصیب العادل، ولذلک فإنّها قد تأتی أحیاناً

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۰

بمعنی (العدالة)، وهو عندما یُعطی نصیب کل واحد بالعدل، وأحیاناً اخری تأتی بمعنی (الظلم)، وهو عندما یُسلب منه نصیبه العادل.

ویُستعمل الأول عادةًبصیغة (افعال)، لذا فقد سُمی اللّه باسم (المُقسِط)، والثانی بلفظة (قِسط) (من الثلاثی المجرّد) لذا فالقاسط یعنی (الظالِم)، قال تعالی «وَ أَمَّا الْقَاسِطُونَ فَکَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ...». «۱»

(الجن/ ۱۵)

وکذلک قوله تعالی: «إِنَّ اللَّهَ یُحِبُّ المُقسِطِینَ ...». (المائدة/ ۴۲)

ویجدر ذکر هذه المسألة أیضاً وهی أنّ کلمتی (القسط) و (العدل) کلمتان قد تُستعملان أحیاناً بصورة منفصلة وبمفهومَین متقابلین مع بعضهما تقریباً، ولکن تستعملان أحیاناً اخری فی موضعٍ واحد، کالحدیث الشهیر المنقول عن مصادر الشیعة وأهل السُّنة.

عن الرسول صلی الله علیه و آله أنّه قال: «لو لم یبق من الدنیا إلّایوم واحد لطوّل اللّه ذلک الیوم حتی یخرج رجل من وُلدی فیملأها عَدلًا وقِسطاً کما مُلِئَت جَوراً وظُلما» «۲».

فقد ذُکرَ (العدل) و (القسط) إلی جوار بعضهما فی هذه الروایة، کما هو حال کلمتی (الجور) و (الظلم).

وحول ماهیة التفاوت الموجود بین هذین التعبیرین؟

یُمکن القول: إنّ (القسط)- کما ذکرنا هذا فی تفسیر مفهومه اللغوی- معناه التقسیم العادل وضدّه (التمییز)، وعلیه فإنّ القسط معناه اعطاء کل ذی حقٍّ حقه لا غیر.

لکن العدالة ضدّ الجور والتجاوز علی حقوق الآخرین، کأن یغصب أحد حقَّ الغَیر ویستولی علیه، ونحن نعلم بأنّ العدالة الکاملة فی

المجتمع البشرى تتحقق عندما لا يكون هنالك تجاوز من قبل أحد على حقوق الآخرين، ولا يُعطى حق أحدٍ لغيره.

ويُستنتج (تباينٌ) آخر أيضاً من التعبير الوارد فى بعض الأحاديث وهو كون العدالة

---

(١) لسان العرب، مفردات الراغب؛ مقاييس اللغة؛ ومجمع البحرين.

(٢) منتخب الأثر، ص ٢۴٧؛ وقد نُقل فى هذا الكتاب ١٢٣ حديثاً بهذا المضمون (مع تفاوتٍ قليل)، وقد ورد هذا المضمون أيضاً فى كتاب نور الأبصار للكاتب محمد الشبلنجى، من خلال روايات متعددة، ص ١٨٧- ١٨٩.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣١١

تخص الحكم والقضاء والقسط يخصّ تقسيم الحقوق، وقد ورد فى لسان العرب نقلًا عن بعض الأحاديث «إذا حكموا عدلوا وإذا قسّموا أقسطوا» «١».

ويُحتمل أيضاً أن يكون العدل ذا مفهومٍ أوسع وأعمق من القسط، لأنّ القسط يُستعمل بخصوص التقسيم، والعدل يُستعمل فيه وفى موارد اخرى.

جمع الآيات وتفسيرها

إنّ اللّه لا يظلم أحداً:

الجدير بالانتباه هو استعمال القرآن الكريم كلمة (العدل) فى المواضع المتعلّقة بوظيفة العباد، وعدم استعماله هذه الكلمة بخصوص البارى تعالى وبالمقابل يلاحظ تعبير (نفى الظلم) عن اللّه بكثرة، وتعبير إقامة اللّه القسط ليس بقليلٍ أيضاً.

وأمّا ترك استعمال كلمة (عدل) بخصوص الذات الإلهيّة المقدّسة فيُحتملُ أن يكون سببه هو ما أشرنا إليه سابقاً وهو كون كلمة (العدل) قد تُعطى معنى (الشرك) أحياناً، (أى اتخاذ الكفوء والند للّه‌تعالى ، فما أراد سبحانه أن يُستعملَ هذا اللفظ المشترك بخصوص ذاته المقدّسة!

وعلى أيّة حال فقد قال تعالى فى الآية الأولى من البحث: «إِنَّ اللَّهَ لَايَظْلِمُ النَّاسَ شَيئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ انْفُسَهُم يَظلِمُونَ».

يُمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى الكلام الذى ورد فى الآيات التى سبقتها، من قوله تعالى: «وَمِنهُم مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيكَ أَفَأَنتَ تُسمِعُ الصُّمَّ وَلَو كَانُوا لَايَعقِلُونَ* وَمِنهُم مَّنْ يَنظُرُ إِلَيكَ أَفَأَنتَ تَهدِى العُمْىَ وَلَو كَانُوا لَايُبصِرُونَ* إِنَّ اللَّهَ لَايَظلِمُ النَّاسَ شَيئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ انفُسَهُم يَظلِمُونَ».

وبتعبير آخر: إنّها سنّةٌ إلهيّة أن لو لم تُستعمل الأبصار والأسماع السليمة فى الأتجاه

---

(١) لسان العرب، ج ٧، مادة (قسط).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣١٢

المخلوقة من أجله لفقدت قدراتها، لذا فلو لم ينتبه أحدٌ إلى مثل هذه الحالة لكان قد ظلم نفسه بنفسه، لا مظلوماً من قبل اللّه تعالى.

وقد أيدّ الكثير من المفسّرين هذا التفسير، ولكن العجب من ترك البعض الآخر منهم (كالفخر الرازى) هذا المطلب الواضح وانصياعهم لعصبيّتهم المذهبية فى مسألة العدالة، فقالوا: (لأنّ كل ما فى الوجود ملكٌ له، فكل ما يعمله ليس بظلم).

فى حين أنّ الآية تشير بدقّة إلى خلاف هذا المطلب، فظاهر الآية يُفهم منه انتفاء تصوُّر الظلم بشأنه جلّ وعلا، بل إنّه لن يظلم أحداً فى نفس الوقت الذى يقدر فيه على ذلك.

ومن قبيل هذا التعبير كثير، فلو قيل: إنّ الطبيب الفلانى، لم يُعالج المريض الفلانى فإنّه يعنى، أنّه كان قادراً على علاجه، لكنّه لم يفعل، فلا يُقال أبداً: إنّ الأُمىّ الفلانى لم يُعالج فلاناً من الناس.

أمّا الآية الثانية فقد أشارت إلى هذا المعنى بتعبيرٍ آخر، حيث قالت: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً» ويُمكن أن يكون ذكر تعبير (رب) إشارة إلى رعايته تعالى للإنسان بالتربية والتكامل، لا الظلم والجور الذى يؤدّى إلى النقصان والتخلُّف (الذى هو خلاف اصول الربوبيّة).

وقد ذكرت هذه الجملة بعد بيان حال المجرمين فى القيامة، عندما يرون كُتبهم فيقولون:

«يَاوَيْلَتَنَا مَال هَذَا الكِتَابِ لَايُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً». (الكهف/ ۴۱)

لذا فإنّهم هم الذين ظلموا أنفسهم لا اللَّه سبحانه وتعالى، وتتضح مسألة انتفاء الظلم عن اللَّه سبحانه وتعالى نهائياً من خلال تصريحِهِ تعالى فى القرآن بتجسُّم أعمالهم هناك (أى يوم القيامة).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۳

وأشارت الآية الثالثة إلى العذاب الدنيوى الذى أصابَ ستةً من الأقوام السالفة بسبب طغيانهم وظُلمهم وعنادهم «۱»، قال تعالى «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا انفُسَهُمْ يَظلِمُونَ».

لقد منَّ اللَّه عليهم بالعقل والفهم والمعرفة، وأرسل إليهم الأنبياء والكتب السماويّة الواحد تلوَ الآخر، وحذّرهم مِراراً، فعندما لم ينفع معهم أى واحدٍ من هذه الأمور، أنزل عليهم العذاب وأهلكهم، فمنهم من أغرقه بالماء، ومنهم بالريح العاصفة، ومنهم بالزلزلة، ومنهم من أخذته الصيحة.

وهذا الكلام تحذيرٌ ضمنىٌّ للأقوام الحاليّة، والطغاة، والمتمردين العصاة، ليكونوا على وجل لئلّا يحطّموا أنفسهم بأيديهم ويُحرقوا حاصل حياتهم بنار أعمالهم.

وجملة: «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ»، التى اجتمع فيها الفعل الماضى (كان) والمضارع (ليظلمهم)، تشير إلى نفى ظلم اللَّه لأىأحدٍ وفى أىٍّ من الأزمنة الماضية، واستمرار هذه الصفة والسُّنة الإلهيّة وثباتها وعدم كونها أمراً مقطعيّاً مؤقتاً وعابراً.

أمّا الآية الرابعة فقد أشارت إلى الجزاء الأخروىّ وأحوال يوم القيامة، حيث قال تعالى:

«فَاليَومَ لَاتُظلَمُ نَفسٌ شَيئاً وَلَا تُجزَونَ إِلَّا مَا كُنتُم تَعمَلُونَ».

مع أنّ فعل (تُظلَمُ) فى هذه الآية قد ذُكِرَ بصيغة المجهول، لكنّه من الواضح أنّ الحاكم الوحيد فى محكمة القيامة هو اللَّه سبحانه وتعالى، إذن يُعتبر نفى الظُّلم فى هذه الآية نفياً للظلم عن ساحة قُدسه تعالى وعليه فإنّه لا يرتضى الظُّلم لأحد لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، إنّها أعمال الناس التى سوف تتجسّم أمامهم هناك وترافقهم، فإن كانت صالحة منحتهم اللّذة والنشاط والبهجة، وإن كانت طالحة صارت سبب عذابهم وأذاهم، لذا قال سبحانه: «وَلَا تُجزَونَ إِلَّا مَا كُنتُم تَعمَلُونَ».

---

(۱) قوم نوحٍ وعادٍ وثمودَ وقوم ابراهيم وقوم شعيب وقوم لوط.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۴

وقالت الآية الخامسة بصراحة- والتى وردت بخصوص حالة خاصّة وهى الأنفاق- «وَمَا تُنفِقُوا مِن خَيرٍ ... يُوَفَّ اليَكُمْ وَانتُم لَاتُظلَمُونَ».

فسّر جماعة من المفسّرين (الظلم) هنا بمعنى النقصان، (أى لا تُنقَصون)، ولكن يبدو بأنّ (الظلم) هنا له نفس ذلك المعنى الواسع على الرغم من كون مصداقه هنا النقصان الكمّى أو الكيفى.

والملفت للإنتباه هو أنّ- كما لوّح به صدر الآية، وصرّح به شأن النزول- هذه الآية نزلت بخصوص الإنفاق حتى على فقراء الكفّار، فشوّق القرآن جميع المسلمين لينفقوا عليهم أيضاً عند حاجتهم، إنّهم غير مسؤولين عن إيمان الكفّار، فهدايتهم وتوفيقهم للإسلام بيد اللَّه، فليطمئن المسلمون بأنّ كل انفاقٍ خالص لمساعدة الفقراء الحقيقيين سيوفّى إلى المُنفقين يوماً ما ويعود إلى حوزتهم.

أمّا فى الـدنيا فلأنّه (أى الإنفاق) يؤمّنُ ويحفظ أموالهم، حيث عندما يضـغط الفقر على طائفة من المجتمع فستسودهُ الفوضـى، وينعدم الأمن فى المجتمع، وستتعرض الأموال للتلف ليست لوحدها فقط، بل الأرواح أيضاً.

أمّا فى الآخرة فانهم سيحصلون على أضعافه المضاعفة من الرحمة الإلهيّة والثواب العظيم.

وبالمناسـبة إنّ هـذا التعبير يُعَدُّ ترغيباً للمُنفقين لإنفاق أفضل مقدار ونوعٍ من أموالهم فى سبيل اللَّه، لأنّه سـيوفَّى إليهم، فهل يُحبّ أحدٌ أن يسترجع ثياباً رثّةً أو أموالًا غثة؟ إذن يجب أن لا يكون سعيه الوحيد هو إنفاق أمواله الحقيرة فى سبيل اللَّه.

وتحـدثت الآيـة السادسـة عن الـذين كانوا يزكّون أنفسـهم ويعتقدون بأفضـليتهم على من سواهم، كاليهود الذين قالوا: نحن أبناء اللَّه، وكانوا يعتقدون بأنّ اللَّه يغفر فى الليل ما يرتكبونه من الخطايا فى النهار، ويغفر فى النهار ما يرتكبونه من الخطايا فى الليل! أو

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۵

النصـارى الـذين كانوا يعتقـدون لأنفسـهم من قبيل هـذه الأمور (حول شأن نزول هـذه الآيـة، أشار الكثير من المفسّـرين إلى إدعاءات هاتين الفئتين).

فالقرآن يقول (إنّ هـذه التزكيـة الناشـئة من التعصُّب والعُجب والغرور، لا قيمـة لها، إنّما القيمـة فى تزكية اللَّه من يشاء من عباده)، قال تعالى: «بِلِ اللَّهُ يُزَكّى مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظلَمُونَ فَتِيلًا».

أجَل، إنّ علمه بجميع وجود الإنسان، ظاهره وباطنه، خلقه وطبعه، أعماله السريّة والعلنيـة، يؤدّى إلى أن تكون تزكيته لفردٍ ما حقانيـة، أى لا أقل ولا أكثر من اللازم، فى حين أنّ تزكيـة الآخرين مشوبـة بالجهل فى أبعاد مختلفـة، ومصـحوبة بأنواع الحب والبغض والغفلة والغرور.

وعليه فانَّ الكلام فى هـذه الآيـة يدور فقط حول الظلم وتجاوز الحد بالنسـبة إلى تزكية الأشـخاص من قِبلِ اللَّه سـبحانه وتعالى، ولكن يُحتمل أيضاً أن تكون هـذه الجملة إشارة إلى الذنب الكبير الذى كان يرتكبه المزكّون أنفسـهم بسـبب عجبهم، لأنّهم كانوا يعتقدون بخصوصيّتهم عن غيرهم واستحقاقهم لكل ألوان الكرم الإلهى.

فالقرآن يقول: إنّ من وراء هذا الكلام عقوبة ثقيلة ولكن لا ظُلم فيها.

ولكن يبدو أنّ التفسير الأول أقرب إلى المعنى.

أمّـا مـادّة (فتْل) على وزن (قتل) فهى تعنى البرم، لـذا فإنّ (فتيل) يعنى الحبل المبروم، وتُطلق عادةً على ذلك (الخيط) الرقيق الموجود فى شق نواة التمر، وهو كناية عن الشىء القليل جدّاً.

ويُلاحظ فى الآيـة السابعـة نفس هـذا المعنى بتعبيرٍ جديـد، فإن كانت الآيات الاخرى قـد نفت ظلم اللَّه لعباده، فهـذه الآيـة نفت ظلمه للعالمين جميعاً، فليس فقط لا يظلم، بل حتى لا تتعلق إرادته بالظلم، قال سبحانه: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلماً لِّلعَالَمِينَ».

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۶

ولو اعتبرنا كلمـة (عالمين) جمع عاقل، لشـملت جميع الموجودات العاقلـة فى الوجود، من الناس، والجن والملائكة، وإن حملناها على (التغليب) لشـملت جميع موجودات عالم الوجود، من العاقلـة وغير العاقلـة، ومن الحيّـة وغير الحيّـة (الجمادات)، ولأثبتت العدل الإلهى بخصوصها جميعاً (أى وضع كل شىء فى محلّه المناسب).

والتعبير بكلمة (ظُلماً) وبصيغة المفرد النكرة وسبقه بالنفى، إنّما هو من أجل التعميم، ويشمل أدنى وأقلَّ ظُلمٍ وجَور.

وقد ورد فى تفسير الميزان أنّ التعبير بكلمة (العالمين) يُشير إلى هذه الحقيقة، وهو:

انعكاس أثر الظلم فى جميع العالم بأى مقدارٍ كان ومن أى إنسان صَدَر. (لأنّ العالم وحدة مترابطة) «۱».

والجـدير بالإلتفات هو أنّ جماعـةً من العلماء توسّـلوا بهـذه الآية لإبطال مذهب الجبر وما يتفرع منه، فقالوا: إذا كانت أعمال العباد من فعل اللَّه وصادرة من ذاته المقدّسة، لا ستوجب أن يكون ظلمهم بعضهم أو أنفسهم من فعله تعالى، ولكن الآية المذكورة أعلاه عندما

نفت أى ظُلم من قبل اللَّه للعالمين فإنّها تـدلّ على انتفاء كون هذه المظالم من فعله تعالى، بل هى من أنفسـهم، لأنّها لو كانت من فِعله لتعلقت بها الإرادة الإلهيّة، وقوله: «وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلماً» يدّل على نزاهة ذاته المقدّسة عن هذه المظالم.

والعجيب هو أنّ الفخر الرازى قد نقل هذا الكلام فى تفسيره من دون أن يكون له جواب عنه، على الرغم من تعارُضه مع عقيدته حول الجبر والتفويض «۲».

وعلى أيّة حال، إنّ هذه الآية لها صيغة تعميمية من ثلاث جهات: (العالمين) و (الظلم) و (الإرادة) وتُعَدُّ من أجمع آيات نفى الظلم عن اللَّه تعالى.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۳، ص ۱۴۱۴ (مع شىءٍ من الإقتباس).

(۲) تفسير الكبير، ج ۸، ص ۱۷۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۷

أمّا الآية الثامنة فعلى خلاف الآيات السابقة، التى كانت تتحدث عن نفى الظلم، أكّدت إثبات القِسط والعدل كسُنّة دائميّة وأبديّة، قال تعالى: «شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالمَلَائِكَةُ وَأُولُوا العِلمِ قَائِماً بِالقِسطِ».

والجـدير بالإنتباه هو كون العدالـة الإلهيّة من أحد شـروط (الشـهادة)، وعدالته شـرطٌ لمنع عباده عن أى انحرافٍ عن طريق الحق، وتمّ التأكيـد هنا على عدالة اللَّه لتكميل شـهادته، وهذه العدالة تثبت بوضوح بنظرةٍ عميقةٍ واحدة إلى عالم الوجود، لأننا نرى كُلّ شـىءٍ فى محلّه، ونشاهـد منتهى الدقـة والإستحكام فى النظـام الموجود فى الوجود، وإذا لاحظنـا وجود بعض العيوب فى بعض حوادث وأشـياء العـالم، فإنّها تتضـح لنا شـيئاً فشـيئاً بزيادة التـدقيق والتطور العلمى، وإن بقيت حالات نادرة فى قيـد الإبهام، فإننا وبأخـذنا بنظر الاعتبار الحوادث المكتشَفة فى العالَم، سنعلم بأنّ سبب بقاء إبهامها هو جهلنا وقلّة علمنا.

ومن جهـةٍ اخرى، إنّ عدالـة اللَّه دليـل أيضـاً على وحـدانيته، لأنّه لو كـان هنالـك خـالقٌ وحاكمٌ فى الوجود سواه لأدّى إلى حـدوث اختلاف فى التدبير والفساد بالنتيجة، وعليه فإنّ النظم الموجودة، ووحدة التدبير خيرُ دليلٍ على وحدانيته.

وبهذا فإنّ وحدانيته تدل على عدله، وعدله يدل على وحدانيته، وهذا مطلب ظريف يُستحصَلُ من الآية أعلاه «۱».

والظريف (هو استدلال الزمخشرى فى الكشاف بهذه الآية على نفى الجبر، لأنّ الجبر يتنافى مع عدالة اللَّه).

وهـذا مطلب واضح سـنتطرق إليه فى البحوث القادمة إن شاء اللَّه، فأى ظُلمٍ أكبر من أن يجبر شـخصٌ أحداً على فعلٍ معين ثم يؤاخذه عليه ويعاقبه؟

لكن الفخر الرازى، وانطلاقاً من تعصُّبه الخاص حول هذه المسألة، تهجمّ بشّدة على صاحب الكشّاف ووصفه عدّة مرّات بالمسكين أو بغير المحيط بجميع رموز العلم، وتوسّل بالإشكال الشهير المعروف (بعلم اللَّه) فى مسألة الجبر، وهو إن لم يعصِ المذنبون ولم

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۳، ص ۱۱۹ (مع شىء من الأقتباس).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۸

يرتكبوا الذنوب الموجودة فى علم اللَّه منذ الأزل، لصار علم اللَّه جهلًا! «۱»

فى حيـن أنّ الرد على هـذا الإشـكال من البساطـة والوضـوح بحيث يعلمه جميع من لهم أدنى اطلاع حـول مسألـة الجبر والتفـويض، وسيأتى شرحه فى البحوث القادمة إن شاء اللَّه تعالى.

وأمّا الآيـة التاسـعة فقـد أشارت أيضاً إلى مسألـة عدالـة اللَّه فى القيامـة فى مسألـة الثواب والعقاب، وأكّـدت على كلمـة (القِسط)، قال تعالى: «إِنَّهُ يَبدَؤُا الخَلقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالقِسطِ».

وهـذه الآيـة بـالواقع تشـير إلى كُلٍّ من الـدليل العقلى على إمكان المعاد، ودليل وقوعه، أمّا إمكانه فلأنّ مَنْ بـدَء الخلق قادر قطعاً على إعادته وإحيائه من جديد.

أمّـا وقوعه، فلو لم يكُن (المعاد) لما تحقق القسط والعـدل، فهنالك الكثير من المحسـنين ممن لم يحصـلوا فى هـذه الـدنيا على ثواب عملهم، ومن المسيئين الذين لم يذوقوا- فى هذه الحياة الدنيا- قصاص أعمالهم، فلولا المعاد لما تحقق العدل والقِسْط.

والجدير بالإنتباه هو أنّ الآية قد أشارت فى نهايتها إلى العذاب الأليم الذى سيلقاه الكافرون فى الآخرة: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُم شَرَابٌ مِّن حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكفُرُونَ».

(يونس/ ۴)

دون أن تتطرّق إلى مسألة القسط والعدل، والسبب فى هذا هو أنّ إجراء القسط والعدل فى جزاء الكافرين واضح من قرينة بداية الآية، علاوةً على كون جملـة: «بما كانوا يكفرون» دليلًا واضـحاً على كون ما يلقونه من العذاب جزاء ولقاء ما كانوا يعملون، وكأنّ المقصود من ذكر (القسـط) بعـد جزاء الصـالحين هو بيان كونه الهـدف الأصـلى للخلق والإيجاد، وما يوم القيامـة والحساب إلّالأجلهم وله حالة تبعيّة تخصّ الآخرين.

واحتمل بعض المفسّرين حول تفسير هذه الآية أنّ القسط هنا يخص أعمال المؤمنين،

---

(۱) تفسير الكبير، ۷، ص ۲۰۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۱۹

أى: إنّ اللَّه سيجزى المؤمنين فى يوم القيامة لقيامهم بالعدل والقسط الذى يقتضيه الإيمان «۱».

لكن المفسّـر هذا لم ينتبه إلى هذه الحقيقة وهى كون (العمل الصالح) يتماشـى مع أُسـس العدالة، ولا تحتاج إلى قيدٍ أو شـرط، إلّاأن يكون ذا حالة تأكيديّة، ونحن نعلم بأنّ حمل الكلام على التأكيد خلاف الظاهر ويحتاج إلى قرينة.

وأشارت الآية العاشـرة إلى نفس هذا المعنى مع وجود هذا التفاوت، وهو بَيانها القسط والعدل كصـفتين لموازين الأعمال، ونحن نعلم بأنّ مُقيم هذه الموازين هو اللَّه العادل، إذن لابدّ من التسليم بأنّها من صفات ذاته المقدّسة.

والتفاوت الآخر فى هـذه الآية عن الآية السابقة هو كون مفهوم هذه الآية عامّاً، ويشـمل كلًا من المؤمن والكافر، لأنّ (ميزان القسط) لا يزن إلّاقِسْطاً وعدلًا، ولا يظلمُ أحداً. قال تعالى: «وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسطَ لِيَومِ القِيَامَةِ فَلَا تُظلَمُ نَفسٌ شَيئاً».

والظريف هو وصفه تعالى هذه الموازين (بالقسط)- (العدل بالمعنى المصدرى)- وقوله:

إنّ هـذه الموازين عين العـدل، ممّا يعكس نهايـة التأكيـد كقولنا: (زيـدٌ عـدلٌ)، أى أنّه عين العـدل، فعليه لا حاجـة فى هـذه الآية إلى التقدير.

وسـيأتى هـذا المطلب فى المجلـد الخـامس من هـذا التفسـير فى بحوث المعاد إن شاء اللَّه، وهو كون المقصود من (الميزان) هنا شـيئاً مماثلًا للموازين الماديّـة ليصـير مجالًا لطرح هـذا الإشـكال، وهو كون أعمال الإنسان ليست ذات وزنٍ يُذكَرُ، فكيف يمكن وزنها بهذه الموازين؟ فنضطر إلى القول كما قال الفخر الرازى: إنّ المقصود منها وزن كتب الأعمال!

أو الحسنات تتجسّم بشكل جواهر بيضاء نورانية! والسيئات تتجسّم بشكل جواهر سوداء ظلمانية! «۲»

---

(۱) تفسير المنار، ج ۱۱، ص ۲۹۹.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۱۷۶.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۰

بل المقصود من (الموازين) هو وسيلة القياس، وكما نعلم أنّ وسيلة قياس كل شيءٍ تتناسب مع ماهية ذلك الشيء، كقياس الوزن، قياس الحرارة، وقياس ضغط الدم، و ...، لذا فإنّ وسيلة قياس الأعمال أيضاً هى تلك المعايير الخاصّة التى تُقاس بواسطتها، كما ورد فى زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «السلام على ميزان الأعمال!».

أجل، إنّ الإنسان الكامل ميزان قياس أعمال مختلَف الأفراد، لأنّ وزن كُل انسانٍ يُعادل نظيره!

والظريف هو ما ورد فى بعض التفاسير بأَنّ داود عليه السلام طلب من اللَّه أن يُريه (ميزان الأعمال)، فعندما رآه صُعِقَ! فلمّا أفاق قال: إلهى ميزانٌ بهذه العظمة!؟ مَنْ ذا الذى يقدر أن يملأ كفّته بالحسنات؟ فقال سبحانه وتعالى مخاطباً إيّاه: «يا داود إِذَا رَضِيتُ عَن عَبدِى مَلأتها بِتَمرةٍ!».

(أجل إنّ المعيار هناك هو نوعيّة العمل لا كميّته) «۱».

ما اللَّه بظلّامٍ:

استعملت الآية الحادية عشر مصطلح (ظلّام) الذى هو من صيَغِ المبالغة، ويعنى كثير الظلم، قال تعالى: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّام لِّلعَبِيدِ».

ذكر القرآن هذه الجملة بعد أن أخبر بأنّ كل انسانٍ مرتَهَنٌ بعمله، إن عمل صالحاً فلنفسه و إن أساء فعليها، وإن تورّط الناس بعواقب مشؤومة فبما كسبت أيديهم، وأنّ اللَّه ليس بظالم لهم.

ونفى صفة (ظلّام)- كثير الظلم- عن اللَّه تعالى- مع كونه لا يظلم أحداً أدنى شيء- فيه كلام، فقد قال البعض: إنّ صدور (ادنى شيء من الظلم) ممن يعلم بقباحته وليس له أى حاجةٍ إليه، يُعَدُّ ظُلماً عظيماً «۲».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۱۷۶.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۸.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۱

ويُحتمل أيضاً أن يؤدّى ترابط عالم الوجود، وبالأخص حياة البشر، مع بعضه إلى أنّه لو افترضنا صدور ظلمٍ معينٍ من ذاته المقدّسة بشأن أحدٍ ما، لسَرى إلى الآخرين واتخذ صفة (ظلّام).

كيف يُمكن أن يوصف اللَّه، المنزّه عن كل عيبٍ ونقصٍ، والموصوف بجميع صفات الجمال والجلال، بصفة (الظلّام)؟

والتفسير الرابع هنا، والذى يَبدو أفضل من جميع هذه التفاسير، والمشار إليه فى بعض الروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام، هو أنّ الآية المذكورة- ونظراً لما ورد فى صدرها- تُبطل عقيدة الجبر: فتقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا». (فصلت/ ۴۶)

فعليه الجميع مفوّضون فى ممارسة الأعمال، وإذا أجبرهم اللَّه على ارتكاب الذنوب وآخذهم عليها لكان ظلّاماً قطعاً، ولأنّ اللَّه ليس بظلّامٍ للعبيد فهو لا يجبرهم على ارتكاب القبائح ويؤاخذهم عليها فيما بعد.

ورد فى حديثٍ عن الإمام الرّضا عليه السلام أنّه سُئِلَ من قِبَل أحد أصحابه: هل يجبر اللَّه عباده على الذنب؟ فأجابه عليه السلام: «لا، بل خيّرهم وأمهلهم ليتوبوا»، فسأله كذلك: فهل يكلّفهم ما لا يُطيقونه؟ فقال الإمام عليه السلام: «كيف يفعل ذلك وهو يقول: «وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّام لِّلعَبِيدِ»».

(لاحظوا أنّ الإعتقاد بالجبر يوجب التكليف بما لا يُطاق، لأنّ العبد المجبور على المعصية، لا طاقة له على الترك، فى حين أنّ اللَّه قد فرض عليه تركها) «۱».

والجدير بالإلتفات هو أنّ كلمة (ظلّام) قد وردت. خمس مرّات فى القرآن الكريم أربعٌ منها بخصوص مسألة حريّة إرادة العباد «۲».

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۵۵۵، ح ۷۱.

(۲) وردت عبارة «وما ربك بظلام للعبيد»، فى آل عمران، ۱۸۲؛ و فصلت، ۴۶ والتى يدور البحث حولها و الانفال، ۱۵۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۲

كيف يُمكن أن يُساوى بين المحسن والمُسىء؟

أشارت الآية الأخيرة الثانية عشر من بحثنا إلى نفس هذه الحقيقة من خلال تعبير ظريف آخر، دون أن تُصرّح بكلمة العدل، أو القسط، أو مصطلحات نفى الظلم، وما شاكل ذلك.

قال تعالى: «ام نَجعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفسِدِينَ فِى الأَرضِ أَم نَجعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ».

إنّ هذا الاستفهام هو نوعٌ من الاستفهام الإستنكارى، أى: إنّ مثل هذا الشىء غير مُمكن، لأنّ المساواة بين المصلح والمفسد، والمتقى والفاجر، ظلمٌ فاحش، واللَّه العادل لا يفعل ذلك أبداً.

وإن كانت المسألة كما اعتقد البعض من الجهلاء، فى كون العالَم ملكاً للَّهوالعباد عباده، وكل ما يفعله بحقّهم هو عين العدالة، لفقدت الآية أعلاه معناها.

ويجدر الإلتفات إلى أنّ الآية أعلاه قد عرضت المسألة على الوجدان البشرى الحى، وخاطبته بصيغة الاستفهام الإستنكارى: (فهل يُمكن أن يفعل اللَّه هذا؟).

وقد أشارت هذه الآية بصورة ضمنية إلى مسألة المعاد، لأنّه لو لم يَكن هناك معاد لتساوى المصلح والمفسد، ففى الدار الدنيا يُمكن أن لا يلقى أىٌ منهم جزاء عمله، وهذا ممّا لا يتلائم مع عدله تعالى إذن يجب أن يكون هنالك يومٌ للحساب لتحقق أسس العدالة.

ثمرة البحث:

نستنتج من مجموع الآيات التى ذكرناها أنَّ الذات الإلهيّة المقدّسة منزّهة عن الظلم والجور بكل أشكاله، وبكل مقاديره، قليله أمْ كثيره، فى الدنيا أمْ فى الآخرة، وبحق أىّ أحدٍ كان.

إنّه تعالى لا يظلم أحداً بصورة مباشرة وغير مباشرة، ولا يعمل عملًا يؤدّى (ولو بمئات

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۳

الوسائط) إلى ظلم أحد، وهذه المسألة طُرِحَتْ فى الآيات المختلفة الآنفة الذكر بتعابير وعبارات متنوعة.

وهنالك بحوث كثيرة حول هذه المسألة، سواءً من الناحيّة الفلسفيّة والكلاميّة والعقائديّة، أو من الناحية الروائيّة، أو التاريخيّة، ونتطرق إليها فى البحوث القادمة.

توضيحات

۱- مسألة العدل الإلهى لدى المذاهب والفرق الإسلامية

تشير القرائن إلى وجود مخالفين ومؤيدين للعدل الإلهى من بين الفلاسفة وعامة الناس منذ أقدم العصور، وبشكل ملحوظ. وتأييد العدل نشأ من كونه من صفات الكمال وعدم تجرّد اللَّه الذى هو منبع كُلّ الكمالات منه أبداً.

وانصار نفى هـذه الصـفة نشأ تصورهم هـذا من وجود قسم من العيوب الظاهريـة، والآفات، والبلايا، والمصائب التى تبـدو ولأول وهلة على الأقل متنافية مع مسألة العدل الإلهى.

لكن هذه المسألة اتخذت طابعاً آخر بين المسـلمين، فجماعة منهم يدعون (بالأشاعرة) خالفوا هذه الأصل الدينى لا من حيث إنكارهم عدالـة اللَّه، بل من حيث كونه تعالى مالك الوجود، وعـدم تحقُّق صـفة الظلم من قِبَلِهِ، فكل شـيءٍ يفعله هو عين العدالـة (حتى معاقبة جميع المحسنين وإثابة جميع المسيئين)!

إنّ الدافع الأساس للاتجاه نحو هذا النوع من التفكير هو الوقوع فى أسرالتفكير بمسألة الجبر وعدم التفويض من جهة، لأنّ الأشاعرة من المؤيدين المتعصبين لمسألة «الجبر وعدم تفويض العباد فى أفعالهم».

ومن جهةٍ اخرى وحسب ما صرّحت به الآيات القرآنية، وطبقاً لضرورة الدين الإسلامى فإنّ اللَّه يدخل المحسنين الجنّة والمسيئين النار.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۴

وهنـا واجهـوا هـذا الإشـكال وهو: إذا كـان الإنسـان مجبراً على أفعـاله فمـا معنى الثواب والعقـاب على هـذه الأعمـال الإجباريـة وغير الإختياريّة؟ وكيف يتناسب هذا مع عدالة اللَّه سبحانه؟ لذا فقد اضطرّوا إلى إنكار مسألة العدالة الإلهيّة بالشكل الذى ذكرناه آنفاً.

ومن جهـةٍ ثالثـة أنّهم كانوا يعتقـدون بأنّ إنكار العدل الإلهى نوعٌ من التوحيد الكامل، وكانوا يظنّون الوصول إلى مرحلة التوحيد العليا إذا ما اعتقدوا بأنّ اللَّه فوق مسألة العدل والظلم.

وفى مقابل هـذه الجماعـة كانت تقف جماعـة (المعتزلة) الذين كانوا يعتقدون بأنّ العدل الإلهى من أهم المسائل العقائدية، وبإمكانية تصوُّر كل من العدل والظلم بالنسبة إلى اللَّه تعالى، لكن اللَّه لا يظلم أبداً، والعدالة بمعنى الكلمة موجودة فيه.

أمّا الشـيعة ومعتنقو مـذهب أهل البيت عليهم السـلام فإنّهم وقفوا فى زمرة مؤيـدى العـدل الإلهى، لذا يُطلق عليهم وعلى المعتزله اسـم (العدليّة).

إنّ الأهميّـة التى يوليها شـيعة أهل البيت عليهم السـلام لمسألـة العـدل الإلهى من العمق بحيث اعتقـدوا بأنّ (العدل) و (الإمامة) رُكنان أساسيّان فى مذهبهم، فى مقابل (التوحيد) و (النبوة) و (المعاد) التى تُعد الأركان الأساسيّة الثلاثة للدين الإسلامى.

وسـنلاحظ فى البحوث القادمـة إن شـاءاللَّه أنَّ إنكـار مسألـة العـدل الإلـهى قَـدْ يُؤدّى أحياناً إلى إنكار علم اللَّه أو قـدرته، ويؤثّر على الصفات الإلهيّة الاخرى أيضاً، لهذا فقد عُرفَ (العدل) كصفة مرتبطة ببقيّة الصفات.

ولعـل هـذا هو دليـل ما ورد فى الروايـة التى مفادها أنَّ رجلًا دَخَلَ على الإمام الصادق عليه السـلام فقال له: «إنَّ أساس الـدين التوحيد والعدل» وأضاف قائلًا: «اودُّ أن تُبيّن لى شيئاً فى هذا المجال يسْهلُ حفظهُ».

فقال الإمام عليه السلام: «أمّا التوحيد فأن لا تجوّز على ربّك ما جاز عليك، وأمّا العدل فأن لا تنسَبَ إلى خالقك ما لامك عليه» «۱».

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۵، ص ۱۷، الباب ۱، ح ۲۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۵

إنَّ هذا الجواب المُتْقَنَ جدّاً هو بالواقع دليلٌ على (التوحيد) و (العدل) ملخصٌ فى عبارات موجزة، لأنّ صـفات الممكنات لا يُمكن أن تكون صـفات للَّهِ الـذى هو واجب الوجود لأنّ هـذه الصـفات مقرونة بالنقص والمحدوديّة، فى حين أنّه جلّ وعلا كاملٌ وغير محدودٍ من كل الجهات، وكذا كيف يُمكن أن يُؤاخذنا اللَّه على أفعالٍ تنسبُ إليه ونحن نقوم بها.

ولكن على أيّة حال، فإنّ جواب الإمام عليه السلام هذا يدلُّ على تأييده عليه السلام لكلام الراوى: «إنّ أساس الدين التوحيد والعدل».

وقـد جمع أمير المؤمنين على عليه السـلام هذين الركنين فى عبارته المختصـرة والمفيدة جدّاً، وشـرح حقيقة التوحيد والعدل باسـلوبٍ رائعٍ جـدّاً، حيث قال: «التوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه». (فما تحيط به الأوهام محدود ومخلوق واللَّه تعالى أكبر من ذلك).

(والعدل أن لا تتهمه يعنى أن لا تنسب إليه ما كسبت يداك من قبائح الأعمال) «۱».

۲- الأدلّة العقليّة على مسألة العدل الإلهى

اعتقد أغلب علماء المسلمين بأنّ هذه المسألة من ناحية البعد العقلى هى فرعٌ من مسألة (الحُسن والقُبح)، لذا يتوجب علينا هنا متابعة هذه المسألة، وذكرنا عصارة منها هنا:

كان الأشاعرة (جماعة أبو الحسن الأشعرى المدعو على بن اسماعيل والذى كان من متكلمى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى) يُنكرون (الحسن والقبح) العقليين بالمرّة، ويقولون: إنّ عقلنا ليس بقادر لوحده على إدراك الصالح والطالح، والحسن والقبيح من الأشياء، ومعيار معرفتهما هو الشرع.

فما يستحسنه الشرع فهو حَسنٌ، وما يستقبحه فهو قبيح، حتى الأمور التى نعتقد اليوم

---

(۱) نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۴۷۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۶

بحُسْنها وقُبحها، فإذا قال الشرع خلاف ما نعتقد لقلنا مثل قوله، حتى وإن سُئِلوا: هل يُدرك العقل حُسْن العدالة والإحسان، وقبح الظلم والبخل، وقتل الأبرياء؟ لقالوا: لا! فيجب الإستعانة فقط بتوجيهات الأنبياء وأولياءِ اللّه.

وفى مقابل هؤلاء يقف (المعتزلة) و (الشيعة) الذين يعتقدون باستقلال العقل فى إدراك الحسن والقبح، فمثلًا يعتبرون حُسن الإحسان، وقبح الظلم من بديهيات حكم العقل.

طبعاً إنّهم لا يقولون: إنّ العقل قادرٌ على إدراك جميع المحاسن والمساوى، لأنّ إدراكه محدود على أيّة حال، بل يقولون: إنّ العقل يدرك القسم الواضح جدّاً منها، ويُعدّونها من المستَقلات العقليّة.

ذكر (فاضل القوشچى) ثلاثة معانٍ للحسن والقبح:

۱- (صفة الكمال والنقص)، كقولنا: العِلمُ حسنٌ، والجهل قبيحٌ، لأنّ العلم يمنح صاحبه الكمال، والجهل يخلّف النقصان.

۲- الحسن بمعنى (التنسيق مع المقصود)، والقبح بمعنى (عدم التنسيق مع المقصود).

هذا هو ما يُعبَّر عنه أحياناً ب (المصلحة) أو (المفسدة) فنقول: العمل الفلانى حسن ومن ورائه مصلحة، أى يُقربنا أو يقرب المجتمع الإنسانى من أهدافه، أو الأمر الفلانى فيه مفسدة وقبيح، لأنّه يُبعدنا عن الأهداف الأساسيّة، سواءٌ كانت هذه الأهداف ماديّة أو معنويّة.

۳- الحسن بمعنى (الأمور المستحقّة للثناء والثواب الإلهى)، والقبح بمعنى (الأمور المستحقة للتوبيخ والعقاب).

ثم أضاف قائلًا: وموضع الشجار والنزاع بين الأشاعرة والمعتزلة هو هذا المعنى الثالث «۱» «۲».

ولكن الحق هو أنّ هذه المعانى الثلاثة غير منفصلة عن بعضها، لأنّ الثواب والثناء يعود إلى الأفعال والأعمال التى فيها مصلحة معينة، وتقرّب الإنسان إلى مراحل الكمال طبعاً،

---

(۱) شرح تجريد القوشچى، ص ۴۴۱.

(۲) هنالك معنى رابعٌ للحسن والقبح والذى هو خارج عن بحثنا، وهو الحسن بمعنى موافقة الطبع (الوجه الجميل) والقبيح بمعنى منافرة الطبع.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۷

كما هو حال الصفات الكمالية كالعلم الذى يُقرّب الإنسان من هذه الأهداف.

وعليه فإنّ هذه المعانى الثلاثة لازمة وملزومة ببعضها، وإن فرّق «فاضل القوشچى» بينها فإنّما هو لتعبيد الطريق للإجابة على استدلالات جماعة (الحسن والقبح العقليين)، فمثلًا يَرُدُ على استدلالهم هذا عندما يقولون: (نحن ندرك حسن الإحسان وقبح الظلم بحكم ضرورة الوجدان). فيقول: إنّ هذا الكلام صحيحٌ بالمعنى الأول والثانى، وغير صحيح بالمعنى الثالث.

لذا يُمكن القول فى تعريف (الحسن والقبح) بأنّ الأفعال الحسنة هى الأفعال التى تقرّب الفرد أو المجتمع البشرى من الكمال المطلوب، أو تربّى فيه الصفات الكماليّة، وتقرّبه من الأهداف التكاملية، ومثل هذه الأعمال فيها مصلحة طبعاً ومحببة من قبل اللّه سبحانه وتعالى وتستحق الثواب، وعكسها الأفعال القبيحة.

الآن وبعد أن عرفنا معنى (الحسن والقبح) والأراء المختلفة حول عقلانيتهما وعدم عقلانيتهما، لننظر أيّاً منهما أحق من صاحبه.

لا ريب فى أنّ الذهن الفارغ من تأثيرات هذا وذاك يعتقد إجمالًا بعقلانية الحسن والقبح، ويبدو أنّ المنكرين كانوا قد خضعوا لتأثيرات مسائل اخرى أدّت بهم إلى الوصول إلى هذه النتيجة (كالطريق المسدود الذى وصل إليه دعاة مسألة الجبر والتفويض التى أشرنا إليها سابقاً)، والدليل على إثبات هذا الموضوع إجمالًا أمران:

أ) عندما نُراجع وجداننا نلاحظ أَنَّهُ حتى على فرض عدم ارسال اللّه أىّ رسولٍ أو نبى، تبقى مسائل الظلم والجور وإراقة دماء الأبرياء وسلب الأموال، وحرق بيوت الأبرياء ونقض العهود وإثابة المسىء، من القبائح، وبالعكس، فالإحسان، التضحية، الفداء، السخاء، مساعدة الضعفاء، الدفاع عن المضلومين، حسن وذو قيمة.

فنحن نعتقد بأنّ هذه الأعمال- التى ذكرناها أخيراً- ناشئة من صفات الكمال، وباتّجاه أهداف المجتمع البشرى وتستحق الثناء والثواب، فى حين أنّنا نعتبر أعمال المجموعة الأولى ناشئة من النقص، وتؤدّى إلى الدمار والفساد الفردى والاجتماعى وتستحق التوبيخ والعقاب.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۸

لذا فإنّ جميع العقلاء، حتى اولئك الذين لا يدينون بشريعة أو دين معين وينكرون جميع الأديان، يعترفون بهذه الأمور، ويؤسسون نظامهم الاجتماعى (ولو فى الظاهر) وفقها، ويعتبرون أى نغمةٍ مخالفةٍ قد تظهر من زاويةٍ معينة، بأنّها حتماً ناشئة من (الأخطاء) أو نوع من النزاع اللفظى واللعب بالألفاظ.

فأى عقلٍ يسْمح بأن نقتل جميع المحسنين والصالحين ونلقى بهم فى البحر، ونفتح أبواب السجون أمام الجناة والأشقياء ونمنحهم الحريّة ونسلّمهم مقاليد الأمور؟!

ب) إن أنكرنا مسألة الحسن والقبح لتزلزلت أسس جميع الأديان والشرائع السماويّة، ولما أمكن إثبات أى دين، لأنّ من يُنكر الحسن والقبح عليه أن يقبل بكذب الوعود الإلهيّة التى أعطاها اللّه فى جميع الأديان، وإن كان اللّه قد قال: إنّ الجنّة مأوى المحسنين، والنار مثوى المسيئين، فما المانع لو كان الأمر بعكس ذلك!؟

وكذّب اللّه (العياذ باللّه) فى جميع هذه المسائل، ولا قباحة فى الكذب!!

وكذا ما المانع من أن يجعل اللّه المعاجز فى تصرّف الكذّابين؟ ليخدعوا عباده ويحرفوهم عن الطريق الصحيح!

وعليه فلا تبقى هنالك ثقة بالمعاجز، ولا بما يأتى به وحى السماء، إلّاأن نقبل بقباحة هذه الأمور، ونزاهة اللّه عن فعل القبيح، فتقوى الأسس الشرعيّة وتصير المعجزة دليلًا على النبوة، ويصير الوحى دليلًا على بيان الحقائق.

۳- ملاحظتان مهمتان

۱- تنقسم الأفعال الإنسانية إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هى التى يسهل إدراك حسنها وقبحها للجميع، أو التى تُعَدُّ اصطلاحاً من (المستقلّات العقليّة)، ولا تتغير أيضاً بتغيُّر

الظروف (كحسن الإحسان وقبح الظلم.).

والقسم الثانى: هى التى يسهل على الجميع إدراك حسنها وقُبحها، لكنها تتأثر بالظروف

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۲۹

المختلفة، كقولنا بحسن الصدق وقبح الكذب، فى حين أنّنا نعلم بأنّ الكذب المصلحى ليس قبيحاً فى بعض الأحيان، لا سيما إذا كان للمحافظة على أهداف أهم وأسمى (كإصلاح ذات البين)، وبعكسه الصدق الذى يؤدّى إلى الفساد وسفك الدماء والاختلاف، فهو قبيح ومذموم.

أمّا القسم الثالث: فهى الأفعال التى ليس لحسنها وقُبحها صيغة ضروريّة، بل نظريّة، فالبعض يقولون بحسنها وغيرهم يقولون بقبحها، أو يسكتون بتاتاً عن تشخيص حسنها وقُبحها، فلا سبيل فى مثل هذه الموارد سوى اللجوء إلى أحضان الوحى.

ومن خلال ملاحظة الأقسام الثلاثة، تتضح أجوبة الكثير من الإشتباهات حول مسألة الحسن والقبح، التى وقع فيها البعض.

۲- يعتقد البعض بأنّ إتفاق العقلاء فى تعريف الحسن والقبح وتشخيص موارده ومصاديقه هو شرطٌ. وقالوا: الحسن هو ما اتفق العقلاء على مدح فاعله، والقبح هو ما اتفق العقلاء على ذمّ فاعله، فى حين أنّ هذا التعريف خطأ، فإنّ اتفاق العقلاء يكون فى أمرٍ يتعلّق بالقوانين الوضعية المصطلح عليها بالتشريعية، كما لو اتفق جميع العقلاء على قبول أصل المالكيّة (بالرغم من اختلافهم فى حدّها وحدودها ومصاديقها)، أمّا الأمور التى تخلو من الأبعاد التشريعيّة ولها أبعادٌ عينية وتكوينية، فإنّ المعيار فيها هو إدراك أى إنسان.

فهل ينتظر أحدٌ اتفاق العقلاء فى تشخيص جمال زهرة معينة، أو قصيدة طويلة رائعة!؟

وكذا فى مسألة إدراك جمال وقبح الإحسان والظلم، فلا توجد أى حاجة إلى انتظار اتفاق العقلاء وحكمهم العام، هذا هو ما ندركه بصراحة الوجدان.، كسائر إدراكاتنا بخصوص القبائح والمحاسن.

طبعاً إنّ من الممكن أن تَتفِقَ عقيدة الأفراد فى تشخيص الحسن والقبح فى بعض الموارد، وتختلف فى موارد اخرى، لكن هذا لا ينحصر بمسألة (الحسن والقبح) فقط، بل يُلاحظ فى جميع الأمور التى يحكم بها العقل أيضاً.

ومن الممكن أن يتفق جميع العقلاء على قبول استدلالٍ عقلّىءٍ معين، ويختلفوا فى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۰

آخر، فمن قَبِلَ ذلك الاستدلال وتيقن من صحته لا ينتظر موافقة الآخرين أبداً، وإن قال أحدٌ خلاف ذلك لخطّأه، لا أنْ يتراجع عن عقيدته.

وخلاصة الكلام هو أنّ الحسن والقبح عقليان لا عقلائيان، والفرق شاسعٌ بين هذين الأمريْن، فدائرة أحدهما تشمل الحقائق الخارجيّة، والاخرى تشمل العقود القانونية.

وَنختتم هذا الكلام بجملة قصيرة حول أصل مسألة الحسن والقبح وهى: إنّ منكرى هذه المسألة شأنهم شأن منكرى الكثير من المسائل العقليّة الاخرى- فهم عادةً يُنكرونها باللسان أو عندما يتعرضون لضغط المسائل الاخرى التى لا يجدون لها حلّاً- فيتكلّمون بمثل هذا الكلام، وإلّا فهم من مؤيدى هذه العقيدة بعملهم، فلو وجّه إليهم أحدٌ صفعة قوية، أو أهان كرامتهم فى المجتمع دون مبرر، أو قتل أبناءهم أمام أعينهم، لما تردّدوا حتى لحظة واحدة فى توبيخه وذمّه ولجوّزوا لأنفسهم معاقبته!؟ سواءً كان هنالك قانون أو شريعة نازلة من قبل اللّه أمْ لم تكن.

۴- الرجوع إلى أدلّة العدل الإلهى

بعد اتضاح مسألة الحسن والقبح، نعود إلى أصل الكلام، أى: الأدلة العقليّة على العدل الإلهى، ويوجد هنا دليلان مهمّان يُمكن إرجاع الأدلّة الاخرى إليهما.

الدليل الأول: ومصدره نفس نظرية الحسن والقبح تلك، فالظلم قبيح، واللّه الحكيم لا يفعل القبيح أبداً، والظالم يستحق التوبيخ والملامة، ومُسَلَّمٌ أنّ وجوداً كاملًا لا يفعل شيئاً من هذا القبيل ليستحق اللوم والتوبيخ.

والعدل عكس ذلك، فهو دليل كمال الوجود وحكمته، والوجود الكامل من كل ناحية، والمنزّه عن كل عيبٍ ونقص لن يتخلى عن مثل هذا الشيء.

وهذا الدليل بقدرٍ من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى شرحٍ وتفصيلٍ أكثر، فهل يحتمل أحدٌ أن يلقى اللّه جميع الأنبياء والأبرار والصالحين فى نار جهنم، ويرسل جميع أشقياء وظالمى العالم إلى الجنّة؟!

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۱

أفَسَيقِمَ الأفراد حتى أنكروا كل حقيقة، أم اضطرّ الذين وقعوا فى حصار مسائل اخرى (كمسألة الجبر والتفويض)، إلى إنكار مثل هذه الأمور؟

الدليل الثانى: يُمكن تلخيص منابع الظلم فى عدّة أمور من خلال تحليل واضح:

وينشأ الظلم أحياناً من (احتياج الإنسان)، وعوضاً من أن يصل الظالم إلى مقصوده ويسدّ حاجته ببذل الجهود والمساعى الصحيحة، يسعى لتأمين حوائجه عن طريق غصب حقوق الآخرين.

وأحياناً ينشأ من (الجهل) وعدم الإطّلاع، فالظلم لا يعلم الحق ولا يدرى ماذا يصنع وأى ذنبٍ يرتكب!

وأحياناً ينشأ الظلم من (عبادة الهوى) و (الأنانية)، لأنّ الظالم يعجز عن الوصول إلى مقصوده، ولا يستطيع أن يضبط نفسه أمام فقدان الشيء فيلتجيء إلى الظلم.

وأحياناً ينشأ الظلم من (دافع الإنتقام) و (الحقد)، فينتقم الإنسان أضعاف ما لاقاه من الظلم.

وقد يكون الظلم صادراً من الضعف والعجز، فحين يعجز الظالم من تحقيق أهدافه ولا يتمكن من السيطرة على نفسه، يلتجيء إلى ظلم الآخرين.

وأحياناً قد ينبع الظلم من (الحَسد)، فالحسود الذى يُعانى من نواقص معينة، ولا يستطيع أن يشاهد غيره منعّماً ومرفّهاً فينازعه ليسلب منه النعمة بالظلم والجور، وما شاكل هذه العوامل والدوافع التى تحكى جميعها عن وجود نوع من النقصان والإنحطاط.

اذن، فكيف يُمكن فى هذه الحالة أن يصدر الظلم والجور من الوجود الذى هو عين الكمال المطلق، فى حين أنّه منزّهٌ عن الحاجة والجهل والضعف والأنانية والغرور والحقد والانتقام، ولا يوجد من هُو أكمل منه ليحسده، ولا يستطيع أحد أن يسلب منه الكمال لكى يدفعه ذلك إلى الإنتقام؟

فهل يصدر شيء من مثل هذا الرب سوى الخير والعدل والرأفة والرحمة؟

وإن يعاقب الظالمين فبما كسبت أيديهم، فما هو بحاجة إلى معاقبتهم، ولا ذنب المذنبين يمس ساحة كبريائه.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۲

والظريف هو أنّ القرآن الكريم قد استعان بالوجدان البشرى العام حول هذا الموضوع، وطلب منهم أن يحكموا بأنفسهم فى هذه المسألة، خلاف ما يعتقده الأشاعرة من كون الحسن والقبح ذا أبعادٍ شرعيّة فقط لا وجدانية.

يقول تعالى: «أَفَنَجْعَلُ المُسلِمِينَ كَالُمجرِمِينَ* مَالَكُم كَيفَ تَحكُمُونَ». (القلم/ ۳۵- ۳۶)

لاحظوا أنّ القرآن الكريم قد بين هذا الكلام بعد ذكره عظيم ثواب المتقين، ممّا يدل بوضوح على اعتراف القرآن الكامل بمسألة تحكيم العقل فى موضوع العدل والظلم، حيث شجب الظلم واستحسن العدل، بحكم العقل.

۵- العدل فى الروايات الإسلاميّة

أولت الروايات الإسلاميّة أهميّة كبيرة إلى معرفة العدل الإلهى، ومسائل كثيرة اخرى تتشعّب منه، بشكل بحيث يتضح من مجموعها أن مسألة العدل الإلهى كانت أمراً أذعن له الجميع، وتعتبر من الامور الفطرية والضرورية فى وجدان بنى البشر.

١- عن أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «ارتفع عن ظُلم عبادِه، وقام بالقسط فى خلقه، وعدَلَ عليهمْ فى حُكمِهِ» «١».

٢- وقال عليه السلام فى موضعٍ آخر: «واشهدُ أنّهُ عَدلٌ وحَكمٌ فَصْلٌ» «٢».

٣- وقال أيضاً: «الّذى عَظُمَ حِلمُهُ فعَفى وعَدَلَ فى كلِّ ما قضى «٣».

۴- وفى حديثٍ نبوىٍ شهير أنّه صلى الله عليه و آله قال: «بِالعَدلِ قَامَتِ السَّمَواتِ وَالأَرضِ» «۴».

ومن الواضح أنّ العدالة مستعملة هنا بمعناها الواسع وتعنى: «وضع كل شىء فى موضعه»، وتشمل كلًا من العدالة مع العباد، والعدالة والنظم فى مجموعة عالم الوجود.

۵- وفى حديثٍ نقله المرحوم العلّامة المجلسى قدس سره فى بحار الأنوار، حول وصف

---

(١) نهج‌البلاغه، الخطبة ١٨٥، ص ۴٢٨.

(٢) المصدر السابق، الخطبة ٢١۴.

(٣) المصدر السابق، الخطبة ١٩١.

(۴) تفسير الصافى، ذيل الآية ٩ من سورة الرحمن.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣٣٣

البارى، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «هو نورٌ ليس فيه ظُلمة، وصدق ليس فيه كذب، وعدل ليس فيه جور، وحق ليس فيه باطل» «١».

۶- ورد فى صحيح الترمذى: «هُو اللَّهُ ... العدلُ اللّطيفُ» «٢».

٧- ورد فى كتاب الخمس من صحيح البخارى أنّ النبى صلى الله عليه و آله ضمن ردّه على رجل جسور شكّك بعدالته، قال: «فمَن يَعدلُ إذا لَم يَعدل اللَّهُ وَرسُولُهُ» «٣».

٨- ورد فى الدعاء الخامس والأربعين من الصحيفة السجادية أنّ الإمام السّجاد عليه السلام كان يناجى ربّه ويقول: «وَعَفوكَ تَفضّلٌ وَعُقوبَتِكَ عَدلٌ».

٩- يُلاحظ وجود تعابير فى الكثير من الروايات المنقولة عن مصادر الشيعة وأهل السُّنة حول المسائل المتعلقة ببطلان الجبر، والعقوبات الإلهيّة، تدل على اتفاق الجميع القطعى على مسألة العدل الإلهى، وأنّه كان مُرتَكزَ الإستدلالات، ومن جملتها (أنّ أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام سأل الإمامَ عليه السلام وقال: أيجبر اللَّه عباده على أعمالهم؟ فاجابه الإمام عليه السلام:

«اللَّه أعدل من أن يجبر عبداً على فعلٍ ثم يعذّبه عليه» «۴».

١٠- وفى حديثٍ نبوى منقول من مسند أحمد بن حنبل أنّه صلى الله عليه و آله قال: «من أذنب فى الدنيا ذنباً فعوقب عليه فاللَّه أعدل من أن يُثنّى عقوبته على عبده» «۵».

١١- عن الإمام الرضا عليه السلام فى توضيح «أمرٌ بين أمرين»، (نفى الجبر والتفويض)، فى إجابته عن سؤال أحد أصحابه: هل فوّض اللَّه الأمور إلى عباده؟ فقال عليه السلام: «اللَّه أعزّ من ذلك» (أى أعزّ من أن يترك تدبير أمور العالَم أو عباده كُليّاً ويكله إليهم)، فسأله: فهل أجبرهم على المعاصى؟ فقال عليه السلام: «اللَّه أعدل وأحكم من ذلك»، (أى أنّ هذا العمل يتنافى نهائياً مع عدل اللَّه وحكمته) «۶».

---

(۱) بحارالانوار، ج ۳، ص ۳۰۶، الباب ۱۳، ح ۴۴.

(۲) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى، ج ۴، ص ۱۵۵.

(۳) المصدر السابق، ص ۱۵۲.

(۴) بحارالأنوار، ج ۵، ص ۵۱، ح ۸۳.

(۵) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۹۹.

(۶) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۵۷، باب الجبر والقدر، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۴

۱۲- وأخيراً نختتم هذا البحث بمقتطفات من الأدعية المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام:

ورد فى دعاءٍ يُقرأ بعد الفراغ من صلاة الليل: «وقد علمت يا إلهى أنّه ليس فى نقمتك عجلة ولا فى حكمك ظُلم، وإنّما يعجل من يخاف الفوت، وإنّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، وقد تعاليت يا إلهى عن ذلك علوّاً كبيراً» «۱».

إنّ الروايات والأحاديث الموجودة فى هذا المجال كثيرة، وما نقلناه يُعدُّ مقتطفاً من نماذج هذه الروايات المختلفة.

۶- أدلّة منكرى العدل الإلهى

قُلنا فيما مضى: إنّ منكرى مسألة العدل الالهى قد تعرّضوا لضغوط مسائل اخرى جرّتهم إلى سلوك هذا الطريق، وهى إجمالًا ما يلى:

۱- إنكار المستقلّات العقليّة- إنّهم يقولون: إنّ العقل لا يميزبين الحسن والقبيح، بدون حكم الشرع، فالحسن والقبح، الصالح والطالح، الواجب وغير الواجب جميعها تُؤخَذُ من الشرع وتصلنا عن طريق الوحى، حتى الحكم بحسن العدالة وقبح الظلم، فلا شىء يُدرَكُ عن طريق العقل!

۲- الوجود بأكمله ملك للّه- وهو حاكم وولى وصاحب كل شىء، وبإمكانه أن يفعل فى ملكه ما يشاء، ولا يحق لأحدٍ أن يسأله حول ذلك، وفعله عين العدالة حتى وإن عاقب المحسنين أو أثاب المسيئين.

يقول الشهرستانى فى (الملل والنحل): كان ابوالحسن الأشعرى يعتقد ويقول: (إنّ اللّه غير ملزم بفعل شىءٍ معينٍ يفرضه العقل، لا الصالح ولا الأصلح ولا اللطف .. ثم أضاف: إنّ

---

(۱) مصباح المتهجد للشيخ الطوسى، ص ۱۷۳ تعقيبات صلاة الليل.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۵

اللّه غير ملزمٍ بأصل التكليف لأنّه لا ينفعه ولا يدفع عنه ضرراً، فهو بامكانه أن يُجازى عباده إمّا الثواب وإمّا العقاب، وبإمكانه أن يشملهم بعفوه، وبأنواع الثواب والنعم من دون أى سبب، فلطفه تمام الفضل وعقابه وعذابه تمام العقل، لا يُسئل عمّا يفعل وهم يُسئلون) «۱».

۳- إنّهم يقولون: لا يُمكن وضع معيار ومقياس معين لأفعال اللّه، وبتعبيرٍ آخر، لا تعنى عدالة اللّه التزامه بقوانين تدعى: (قوانين العدل)، بل تعنى: أنّه تعالى عين العدل وما يفعله عين العدالة، فالعدل ليس بمقياسٍ لتشخيص فعل اللّه، بل إنّ فعل اللّه ميزان ومقياس للعدل:

فلو أدخل جميع جُناة العالم الجنّة فهو عين العدالة، وكذا لو ألقى جميع المحسنين، والطاهرين، والأئمّة، والأنبياء المعصومين فى النار فهو عين العدالة أيضاً!

۴- يعتقد الأشاعرة بأنّ الإنسان غير مخيّر أبداً فى أعماله، وكل ما يفعله فإنّما هو بارادة اللّه!

وعندما واجهوا هذا السؤال وهو: كيف يُمكن أن يُصدّق العقل بأنّ اللّه يجبرنا على المعصية ثم يؤاخذنا عليها؟ حيث إنّ هذا أمرٌ يُنافي عدالته تعالى.

ومن أجل الرد على هذا الإشكال أنكروا مسألة العدل والظلم وقالوا: (كل ما يفعل فهو عين العدل، ولا يحق لأحدٍ أن يسأله عمّا يفعل).

۵- يُمكن أن يكون اتجاه بعضهم إلى نظرية نفى العدالة ناتجاً عن وقوفهم حائرين أمامَ هذا السؤال الذى يرتبط بالمسائل المتعلقة بالمعاد، والعذاب، ومجازاة الكافرين، وهو: كيف يُمكن أن يخلد فى نار الغضب الإلهى مَنْ أذنب وكفر وأشرك بربّه خمسين سنةً مثلًا؟ وكيف يتماشى هذا مع أصل العدل؟!

ولأنّه لم يكُن لديهم جواب على هذا السؤال فقد أنكروا أصل مسألة العدل.

۶- إنّ شك البعض الآخر منهم فى هذه المسألة ناشىءٌ من مشاهدتهم بعض النقائص الظاهرية، من قبيل الآفات، والبلايا، والعواصف والزلازل، وحوادث اخرى من هذا القبيل، وكذا الأمراض، الاحباطات، وحالات الفشل فى حياة البشر، ولأنّهم باتوا عاجزين عن تفسير هذه الأمور الفلسفيّة، فقد سلكوا طريق إنكار العدالة.

---

(۱) الملل والنحل، ص ۱۰۲.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۶

كانت هذه مجموعة من الأمور التى تشكّل دوافع وأُسسَ مذهب منكرى العدل فى الماضى والحاضر.

نقد وتحليل

لنتطرّق الآن إلى نقد وتحليل هذه الإشكالات:

۱- أمّا فيما يخصُّ الدليل الأول فقد تحدثنا بما فيه الكفاية عن كون إنكار العدل يقود إلى إنكار المستقلّات العقليّة، ويلزم أن نؤكّد من جديد بأنّ منكرى الحسن والقبح، لا ينكرون هذا المعنى أبداً من الناحية العمليّة، فما يقولونه لا يتجاوز ألسنتهم وحواراتهم ونقاشاتهم، وأمّا لو وجّه أحدٌ صفعةً إلى أحد أطفالهم الصغار، أو أحْرقَ دارهم من دون مبرّر، لا ستقبحوا هذا العمل، ولما تردّدوا فى التسليم بقبحه عن طريق تشخيص الوجدان، وسيحكمون قطعاً بوجوب معاقبة هذا الشخص، ولما صبروا أبداً لينظروا إلى كون قباحة هذا العمل وردت فى آية أو رواية أمْ لا.

ولو أصابهم الجوع والعطش فى الصحراء، وجاءهم أحدٌ بالماء أو الغذاء، أو حمل مريضهم على كتفه عدّة كيلومترات ليوصله إلى المستشفى، وينجيه من الموت المحتَّم، لما تردد أحدٌ منهم فى حُسن هذا العمل والثناء على فاعله، ولما قالوا: أمهلونا لنرى فيما إذا كانت الروايات والآيات قد مدحته وشكرته ومجّدته أم لا!

ويوجد الكثير من قبيل هذه البحوث فى المباحث العقلية وهو أن يتعرض أفراد مُعَيَّنون لضغوط مسائل جانبيّة فينكرون حقائق معينة بألسنتهم، فى حين أنّهم يؤمنون بها تماماً من الناحية العمليّة (كالسوفسطائيين الذين ينكرون الوجود الخارجى لجميع الأشياء، لكنهم عملًا يجتنبون النار ويذهبون لتناول الماء عند العطش).

علاوةً على هذا فإنّ قبول المستقلّات العقليّة هو العمود الأساس فى قبول نبوّة الأنبياء، وبدونها لا يمكن تصديق كلام أى نبى، ولما كانت معجزاتهم دليلًا على صدقهم، لأنّ بإنكار

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۷

المستقلّات العقليّة لا يُسْتبعْدُ احتمال افترائهم، وظهور المعجزات على أَيدى دعاة الباطل.

۲- إنّ مسألة مالكية اللّه لجميع عالم الوجود وجميع ذرّات وجودنا ليست مطلباً خافياً على أحد، ولكن المالكيّة ليست دليلًا على صدور تصرّفات غير حكيمة منه، أى أنّ صفة المالكية تقترن بالحكمة، فلا يُمكن التصديق بأحدها وإنكار الاخرى.

من الممكن أن يدّخر شخصٌ أموالًا من أتعابه المشروعة خلال سنوات طويلة ويكون مالكها، لكنه لا يحق له أن يحرقها بأكملها، لأنّ العقل يحكم بقباحة هذا العمل، حتى وإن صدر من مالكه.

كذلك اللّه الحكيم أيضاً، فلا يفعل مثل ذلك، كأن يُهلك كل ما فى الوجود، أو يحرقه من دون سبب، أو كما قال الأشاعرة: يُلقى جميع الأنبياء والصالحين والطاهرين فى أعماق نار جهنّم، ويدخل الأشقياء والأشرار فى الجنان العُلى، فهذا العمل قبيح وينافى الحكمة، حتى وإن صدر من المالك.

إذن، فالمالكية ليسَتْ دليلًا على حسن جميع أفعال المالك، سواءً كان حقيقياً وتكوينياً أى اللّه، أمْ صوريّاً وظاهريّاً كالبشر.

إنَّ الأشاعرة يعتقدون بأنّه: لو آمنّا بكون اللّه (فعّالًا لما يشاء) بسبب مالكيته، وكلامهم هذا يعنى إلغاء لحكمة اللّه.

ومن المسلمات أنّ الإله غير الحكيم ليس لأقواله اعتبار، ولا لوعوده ثقة، لأنّه من الممكن أن تكون أقواله فاقدة المحتوى، ومغايرة للواقع. «سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً».

۳- إنّ قولهم: إنّ اللّه فوق الحسن والقبح ولا يُمكن قياس أفعاله بهذه الضوابط- بل هو سبحانه المعيار والمحور فى تعيين الضوابط- ليس إلّامغالطة ولا أكثر، وهو موضوع متناقض معروض بزيٍّ جميل، فهذا الكلام يخص القوانين التكوينية، وقد استُعمِلَ خطأً فى مجال القوانين التشريعيّة.

ويجدر التوضيح فى عدم وجود قوانين قبل الخلق والتكوين الإلهى، وبخلق الأشياء،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۸

المقارن للنظام والحساب، ظهرت مسألة التقنين، فمثلًا قبل خلق المجرّات، لم يكن هناك قانون الجاذبية لكى يستعمله اللّه فى خلقه، ولكن انبثق بعد خلق المجرّات، وبتعبيرٍ آخر: إنّ قانون الجاذبية خُلقَ بعد خلق المجرّات مباشرةً.

ويصدُق هذا الكلام بخصوص جميع قوانين عالم الخلق والتكوين.

أمّا بالنسبة إلى القوانين التشريعيّة، فالمسألة ذات طابعٍ آخر، لأنّ اللّه عندما خلق الإنسان، الذى يُعد النموذج الأتم للخلق، لكى يسير فى طريق التكامل، وأودع فيه جميع وسائل الوصول إلى الكمال، فمن المُسَلَّم لزوم تناسب قوانينه التشريعيّة مع هذا الهدف، أى أن تكون القوانين بشكل تسوق الإنسان نحو الكمال، وإلّا لتنافت مع حكمة اللّه.

أفيمكن أن تتناقض وتتضاد أفعال الحكيم؟!

فالظلم سبب فساد وسقوط وتأخُّر العالم، والعدل سبب تكامله وارتقائه، وما اللّه بظالم ولا بمخرّب قواعد تكامل الإنسان.

وبتعبيرٍ آخر فإنّ أفعال اللّه التشريعيّة تنبع من أفعاله التكوينيّة، ومن هنا ينشأ الحسن والقبح بالضبط، لا أن يكون اللّه خاضعاً لقانونٍ آخر، بل إنّ جميع القوانين الموجودة هى قوانينه فى عالم الدين والشريعة متناغمة مع قوانينه فى عالم الوجود، وإلّا لكان ناقضاً لقوانينه بذاته، وهذا ليس من فعل الحكيم.

وقول البعض: (إنّ اللّه لا يخضع لحكم العقل، ولا يُمكن للعقل أن يفرض عليه شيئاً معيناً) يُعَدُّ مغالطة صبيانية، لأنّ وظيفة العقل هى الإدراك لا تعيين الوظيفة، أى التفكّر والفهم لا التقنين والتشريع.

فالعقل يقول: إننى أفهم أَنَّ الحكيم لا يفعل الأفعال المتناقضة والمتضادة، أفهم أنّ اللّه لا ينتقض وعده، وأفهم أنّ الموجود الكامل من جميع النواحى لا يظلم، أى لا يضع الشىء فى غير محلّه المناسب.

إنّ كل هذه الأمور هى من إدراك وفهم العقل، لا تعيين التكليف والوظيفة للّه‌تعالى، لذا فكما يدرك العقل أنّ ۲+ ۲/ ۴، كذلك يدرك أنّ الحكمة تتنافى مع نقض الغرض، فاللّه

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۳۹

الحكيم الـذى خلق الوجود من أجل الصـلاح والكمال لن يـدفع به نحو الإنحطاط والفساد، فلم يقنّن العقل بأنّ ۲+ ۲/ ۴، إنّما هو فقط من إدراكه.

وكـذا الحـال فى مسائـل الحسن والقبـح التى تعود جـذورها إلى المسائل التكوينيّـة، فـدور العقل فيها هو إدراك الحسن والقبـح فقط لاالتقنين، (فتأمل).

ولا يخفى أنّ العقل يحاول إدراك الموجودات والمعدمات، الواجبات وغير الواجبات، وهو ذو بعد إرشادى، بالضـبط كأوامر الطبيب، فعنـدما يُـدرك الطبيب ضـرر غـذاءٍ ما للمريض يقول له: يجب عليك أن تتجنب تناول هـذا الغـذاء، فكلمـة (يجب) هذه ليست قانوناً تترتب على تركه عقوبـة معينـة، بـل هى مجرّد إرشـاد وتوجيه لاـ غير، وإن لم يعمل ذلك المريض بموجبه فإنّه سوف لن يؤدّى سوى إلى ضرره (ولكن من الواضح أنّ أوامر العقل الإرشادية ليس لها علاقة بساحة القدس الإلهيّة).

وخلاصـة الكلام هو أنّ دور العقـل بالنسـبة إلى الأفعـال الإلهيّـة هو فهم الحقائق، لا تعيين تكليف للّه‌تعالى ليُقال: إنَّ اللّه أكبر من أن تعيّن عقولنا له تلكيفاً معيناً.

۴- يجب أن لا يَصـير الاعتقاد بمسألـة الجبر منشأً لإنكار العدالـة والظلم- صـحيح أنّ الأخطاء تؤدّى إلى أخطاء، اخرى دائماً، والزلات تصدر من زلات اخرى، ولكن ينبغى عدم الإصرار على الأخطاء بحيث يؤدّى إلى إنكار الواضحات.

لا ريب فى أنّ مسألـة (العـدل الإلهى) أو (حسن العدل) و (قبح الظلم) أوضح من مسألة حريّة إرادة الإنسان، وعلى فرض عدم وضوح مسألة الجبر والتفويض بالنسبة للبعض فإنّها لا تكون دليلًا لإنكار مسألة العدل.

لقـد واجه (الجبريّون) هـذه المعضـلة دائماً، وهى كيف يُمكن التصـديق بأنّ اللّه يجبر عباده على المعاصـى ثم يؤاخـذهم عليها؟ وهذا يتنافى مع عدالته!

هـذا دليلٌ منطقىٌ واضـح، لكن الجبريين وبدلًا من أن يقوموا بتصـحيح آرائهم فى مسألة الجبر، ذهبوا إلى إنكار العدل الإلهى أو قالوا: كل ما يصدر منه عين العدل حتى معاقبة المجبرين.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۰

إنّ الصورة الـتى رسـمها هؤلاء فى أذهـانهم عن اللّه عجيبـة ورهيبـة حقـاً، اللّه الـذى من الممكن أن يُلقى جميع الأنبيـاء، والمرسـلين، والملائكة المقرّبين، والشـهداء، والصديقين فى قعر جهنّم، ويُدخل جميع الأشـقياء والظالمين، وأشـرار التاريخ البشـرى، والشياطين فى أعلى عليين فى الجنّة، اللّه الذى يجبر جماعة على المعصـية وجماعة اخرى على الطاعة، دون مبرّر، ثم يثيب المحسن ويعاقب المسىء، والحال أنّه لا يوجد أى تفاوت بين حقيقة حالهم!

ومن المسـلَّم به أنّ هـذه الصورة القبيحـة والموحشـة تُبعّـد الناس عن اللّه وتغلق باب معرفـة اللّه، وسـتؤدّى إلى نشوء كل ألوان القبائح والمظالم فى المجتمع البشرى، وتُظهر الدين بمظهر الأفيون والفساد والفوضى، وتُسبب سوء الظن تجاه جميع عالم الوجود.

وخلاصـة الكلام هو أنّ الإصـرار على مسألـة الجبر يجب ألّا يؤدّى إلى إنكار العـدل، بل بالعكس، يجب أن يؤدّى إلى وضوح مسألة العدل الإلهى إلى تجديد نظر الجبريين فى عقيدة الجبر.

ومـا أكثر المسائـل البديهيـة الواضـحة التى اختفت خلف حجب الإنكـار بسـبب الإصـرار والعناد فى إثبات بعض المسائل النظريـة غير الواقعيّة.

۵- ذكرنا سابقاً أنَّ إشـكالات بحوث المعاد قـد تؤدّى أحياناً إلى التشـكيك فى مسألـة العدل الإلهى، فعندما يدور الكلام حول مسألة خلود جماعـة من المـذنبين فى النار يُطرَحُ هـذا السؤال: كم كان مجموع عمر هـذه الجماعـة؟ ۵۰ سنة، ۷۰ سـنة، أو مائة سنة، فالعدالة تفرض تَساوى الذنب والعقوبة، فما معنى العذاب الأبدى مقابل هذا العمر القصير إذن؟

لكن وكما قُلنا يجب التفكير بأسلوب منطقى لحل المسائل فى مثل هذه الإشكالات، وبالمناسبة فإنّ حل إشكال الخلود له طرق واضحة، لأنّ الإشكال أعلاه ينشأ من خطأ قياس العقوبات الإلهيّة- التى هى نتيجة أعمال نفس الإنسان- مع العقوبات الوضعيّة.

ويجدر توضيح ما يبدو من الآيات والروايات والشواهد العقلية أنّ العقوبات الأخروية لها شَبهٌ كبير بالآثار الطبيعيّة لأعمال الإنسان الدنيوية، فمثلًا أنّ مَنْ يُفرط فى تناول

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۱

المشروبات الكحولية يُصَبْ بقرحة المعدة، وضعف القلب والأعصاب، ويُمكن أن تُرافقه هذه الأمراض طيلة عمره أحياناً.

فلو قال أحدٌ الآن: أمِنَ العدل أن يُعانى مَنْ تعاطى المشروبات الكحولية شهراً واحداً مِنْ قرحة المعدة واضطراب القلب والأعصاب طيلة عمره!؟

فى الرّد على ذلك يُقال له: هذا ما قدّمت يداه، وليست هذه الأمراض عقوبة وضعيّة، لاسيّما وأنّ هذا الشخص قد نُهى عن هذا العمل وذُكّرَ بهذه العواقب الإلهيّة.

فلو كان لهذا الشخص عمرٌ خالدٌ فى دار الدنيا، لوجب أن يُعانى من هذه الأمراض إلى الأبد، دون أن يمسّ موضوعه مسألة العدل الإلهى (تأمل جيداً).

وكذا الحال بالنسبة إلى مسألة الخلود فى النار، فأعمال الإنسان لا تمحى أبداً، بل تبقى وتترك آثاراً فى جسمهِ وروحه أيضاً، وهذه الآثار سترافق الإنسان فى جميع العوالِم، وسينال العذاب والاذى بسببها إن كانت طالحة، وسنتطرق إلى تفصيل هذه المسألة بصورة أكثر فى بحوث المعاد إن شاء اللّه تعالى.

۶- إنَّ مشكلة حوادث الحياة الأليمة: كالآفات والبلايا والعواصف والزلازل والآلام والمتاعب وحالات الفشل والاحباط لا تتنافى مع أصل العدل، وتحتاج إلى توضيح نذكره أدناه:

إنّ لكلّ واحدة من هذه الأمور فلسفة تتضح بقليل من الدقّة، فعندها يُصدّق الإنسان بكون هذه الأمور فى اتجاه العدل الإلهى لابعكسه.

ويُلاحظُ وجود مسائل فى حياة الإنسان لا نجد لها تفسيراً واضحاً فى بادىء الأمر، وقد يتزلزل إيمان البعض بالعدل الإلهى أحياناً، أو باثبات وجود اللّه أحياناً اخرى عندما يواجهون مثل هذه المسائل من دون أن يبذلوا جهوداً لزيادة المطالعة أو التدقيق فيها.

وتُشير القرائن المختلفة إلى وجود هذا النوع من التفكير بين بعض الفلاسفة منذ قديم الزمان.

بل وكان موجوداً عند بعض الأدباء نوعاً ما أيضاً، وقد أنشد بعضهم أبياتاً من الشعر

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۲

العربى والفارسى فى هذا الخصوص، ظهر من خلالها شكهم فى هذه المسألة أو إنكارهم لها.

ويُمكن تلخيص الظواهر غير المحبذة بعدّة نقاط:

۱- الفرق فى القابليات: تختلف درجة الذكاء من إنسان لآخر، فمنهم من يتمتع بذكاء خارق، ومنهم ذو ذكاء متوسط، وبعضهم أقلّ مستوى من الطرفين، وهذا التفاوت موجودٌ أيضاً فى القوى الجسمانية، وكذلك الحال بالنسبة لظاهر الناس، فمنهم القبيح، ومنهم الحسن، وهكذا التفاوت فى اقتناء الثروات والأموال فهو موجودٌ أيضاً.

۲- النقائص والعيوب: إنَّ أغلبية الناس يولدون سالمين، فى حين يُعانى البعض من نقص عضوٍ معين، وهذا النقص يجعلُهُ يعيش فى أزمةٍ نفسيةٍ حادّة طيلة حياته.

۳- الإنكسارات والهزائم: إنّ الحياة الإنسانية مفعمة دائماً بأنواع المشاكل المُنهكة، كالأمراض، حالات الفشل، الاحباطات، وما شاكل ذلك، فكيف يرتضى عدل اللّه أن يُعانى الأنسان من هذه الأمور، وتتحول حلاوة الحياة فى فمه إلى حنظل؟

۴- الحوادث المُرة: تحدث فی حیاة الإنسان حوادث طبیعیّة مفجعة ینتج عنها هلاک الحرث والنسل، فَمَن الذی لم یسمع بدمار وضحایا الزلازل، والعواصف، وسنوات الجفاف والمجاعات؟ وعند حلول هکذا کوارث مُدمرّه یُطرَحُ هذا السؤال عادةً: أو لَمْ تکن جمیع العوامل والأسباب الطبیعیّة منقادة لأمر اللّه تعالی؟

وإذا کان کذلک ألمْ یکنْ الماء والهواء والنار من جنوده تعالی، ویُطیعون ما یأمرهم به؟ ألا تتنافی مثل هذه الأمور مع أصل العدل والحکمة الإلهیّة؟ إنَّ الإجابة عن مسألة الحوادث المُرّة هی:

إنّنا نعترف بأنّ الإنسان المؤمن عندما یواجه مِنْ قَبیلِ هذه الأسئلة یقع فی ضیق، إلی الدرجة التی لا یَسلَمُ البعض من هذا المنزلق، وربّما یقع فی هاویة الکفر والإنکار.

لکن الظریف فی هذا الأمر هو أنّنا کُلّما تفکّرنا ودَرسْنا جوانب هذه المسألة أکثر، توصلنا إلی آفاقٍ أکثر وضوحاً.

بالضبط کالمسافرین الراکبین فی القطار الذی یجتاز نفقاً مُظلماً حیث یتملکهم القلق

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۳

والإضطراب، ولکن بتقدم القطار إلی الأمام یلوح بصیص نورٍ شیئاً فشیئاً، ثم یتّسع مع استمرار التقدم، حتی یتلاشی ظلام النفق تماماً بخروج القطار.

وعلی أیّة حال هنالک جوابان إجمالیّان فی مقابل هذه الأسئلة المحیّرة، مال البعض إلی الجواب الأول، والبعض الأخر إلی الثانی، وجماعة إلی کلیهما.

والمهم هو أنْ نعزّز الأجوبة بإیضاحات جدیدة، والاستعانة بالآیات القرآنیة أیضاً بشکل یتناسب مع البحث التفسیری.

الجواب الإجمالی المختصر

بمراجعة النقاط التالیة نحصل علی جواب واضح وقصیر لجمیع هذه الأسئلة، والذی یُمکن أن یُخرجنا من هذا المأزق:

لا- ریب فی کون ما نعلمه من المجهولات قلیلًا جدّاً، وما نعلمه عن أسرار الخلق والوجود بالقیاس إلی ما نجهله منها کقطرةٍ من بحرٍ عظیم.

هذه حقیقة اعترف بها جمیع العلماء الإلهیین والمادیّین، لذا، فإنّ جمیع وجهات نظرنا تجاه حوادث هذا العالَم تقع فی حدود دائرة معلوماتنا ولیست مُطلقة بتاتاً.

فإذا عجزنا عن معرفة أسرار هبوب العواصف، أو حدوث الزلازل فإننا لا نستطیع أن نتّهم مُسبّبها بشیء، فهل نحن متیقّنون من عدم وجود أثر إیجابی من الدمار الناشیء عن العاصفة أو الزلزلة یطغی علی سلبیات هذا الدمار؟

کُنّا فی الماضی نُعِدُّ الکثیر من المسائل من الآفات والبلایا، لکننا الیوم وفی ظل التطورات العلمیة وکشف أسرار جدیدة عن الکون نعتقد بفائدتها، فمثلًا کان الرأی السائد فی السابق هو أنْ بکاء الأطفال المواليد لا ینجم إلّاعن ألم أو أذی لا غَیْر، فی حین یُقال الیوم بأنّه لولا هذا البکاء لکان من المحتمل أن یفقد هذا المولود سلامته بالمرّة، وأنّ البکاء خیر ریاضةٍ لبدنه، فهو ینشّط الجهاز التنفّسی ویُسرّع جریان الدم فی عروقه، ویُغذی جمیع ألیاف البدن، ویقوّی عضلات الیدین والرجلین والصدر والبطن، علاوةً علی طرده الرطوبة

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۴

الزائدة الموجودة فی دماغه والتی یُمکن أن تُحدث التهابات معینة فیه.

وما إلی ذلک من قبیل هذه النماذج.

ومن جهةٍ اخری، إنّنا نقف علی النظام الدقیق المدهش الحاکم علی أغلب الموجودات، عندما ننظر إلی عالم الوجود، وقد ذکرنا

شرحه بصورة تامّة فی بحوث معرفه اللّه، ولیس لهذا النظام من تفسیر سوی وجود عقلٍ کُلّی وعلم غیر محدود فی ما وراءه.

علاوةً علی ذلک، فإنّنا فی البحوث المنطقیة فی مجال صفات اللّه، توصّلْنا إلی أنّه تعالی لا یحتاج إلی أی أحد وهو بکل شیء علیم، لذا فذاته المقدّسة منزّهة عن الظلم الناشیء من الجهل والعجز، فما المبرر فی أن یظلم أصغر عباده؟

إذن، إنّ ما نعتقد بکونه ظُلماً أو خلافاً للعدل ناجمٌ قطعاً عن محدودیّة اطلاعنا وعلمنا.

وبتعبیرٍ أوضح: کما یحتوی القرآن الکریم (کتاب التدوین) علی آیات محکمات وأُخر متشابهات، أی أنّ أغلب الآیات مجملة لا تخلو من الإبهام لوحدها، فعلّمنا القرآن هنا اسلوباً منطقیاً لحل ابهام واجمال المتشابهات، وأمرنا بالاستعانة بالمحکمات فی تفسیر وتحلیل المتشابهات، وأمرنا بالمقارنة فیما بینها لدفع جمیع الإشکالات.

وتوجد فی (کتاب التکوین) أی عالم الکائنات- آیات محکمات کثیرة أیضاً، وهی النُّظم والقوانین المفیدة الحاکمة فیه، وإلی جنب هذه المحکمات یُلاحظُ وجود بعض المتشابهات کالزلازل والعواصف، التی تحدث أحیاناً، وبغض النظر عن بعض المشوّهین للحقائق الذین یشکّلون نسبة ضئیلة بین الناس فانَّ الإنسان العاقل والمدرک یؤمن بأنَّ لهذه الآیات التکوینیة الواضحة مسائل وحسابات معینة، مع أنّنا نجهلها بسبب محدودیة علمنا.

فلو أُعطینا کتاباً ضخماً (یحتوی علی ألف صفحةٍ مثلًا) ملیئاً بالعناوین البدیعة، والبحوث الغنیّة، والحقائق القیّمة الواضحة، لکنّنا تحیّرنا فی تفسیر عدّة جُملٍ منه لأنَّ فیها شیئاً من الإبهام والإجمال، فهل من الصحیح أن ننفی علم ومعرفة ومنطق الکاتب بسبب بعض العبارات التی لا نُدرک تفسیرَها؟ بل بالعکس فبالنظر إلی کثرة المطالب العلمیة فی الکتاب سنعترف بعجزنا عن تفسیر تلک العبارات المعدودة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۵

إذا وجدنا عمارة عظیمة تجلّی فیها رونقُ الفن المعماری بکل أشکاله، وصادفنا جانباً صغیراً منها لم نستطع أن نفهم فلسفته، فهل نخطّیء المعمار؟ أم أنفسنا؟ لا سیّما إذا عرفنا من القرائن الأُخری مهارة معمار تلک البنایة وکماله العلمی، وصفو وصدق نیّته أیضاً.

وخلاصة القول: هو أنّنا لو ألقینا نظرة علی هذه الحوادث الخاصّة، بل ولو نظرنا إلیها إلی جانب مجموعة نظام العالَم، وحَکَمْنا حُکماً شمولیّاً لتوصلنا مجملًا إلی هذه النتیجة وهی:

إنّ هذه الأمور ذات أسرار خاصّة أیضاً، بالرغم من جهلنا، ویُحتمل انکشاف قسم منها بمرور الزمان وتطوّر العلم، کما انکشف قسمٌ منها لحد الآن، وفی نفس الوقت یُحتمل أن یبقی قسمٌ آخر منها مستوراً عنّا إلی الأبد، لکننا مع ذلک نعلم بأنّ فی جمیع هذه الأمور أسراراً خفیّة.

القرآن والجواب الإجمالی علی مسألة الآفات والبلایا:

إنّ القرآن الکریم الذی یُری الطریق ویُعین فی الوصول إلی المقصود فی جمیع المسائل الفکریّة، له إشارات کثیرة أیضاً فی هذا المجال من جملتها:

۱- قال تعالی فی موضع: «وَمَا أُوتِیتُم مِّنَ العِلمِ إِلَّا قَلِیلًا». (الأسراء/ ۸۵)

فاحذروا أن تحاولوا بعلمکم المحدود أن تُنظّروا فی کُلّ شیء، وتتصوروا بجهلکم بأسرار الحوادث عدم وجود تلک الأسرار.

۲- بعد أن أشار تعالی فی سورة النساء إلی قسم من الاختلافات التی قد تحدث بین الزوجَیْن، أمر الرجال بحسن معاملة النساء فقال: «فَإِنْ کَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَی أَن تَکرَهُوا شَیئاً وَیَجعَلَ اللَّهُ فِیهِ خَیراً کَثِیراً». (النساء/ ۱۹)

وقد ورد نفس هذا المفهوم بتعبیرٍ آخر، بالنسبة إلی الجهاد فی سورة البقرة، کقوله تعالی:

«کُتِبَ عَلَیکُمُ القِتَالُ وَهُوَ کُرْهٌ لَّکُمْ وَعَسَی أَن تَکْرَهُوا شَیئاً وَهُوَ خَیْرٌلَّکُمْ وَعَسَی أَن تُحِبُّوا شَیْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّکُمْ وَاللَّهُ یَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَاتَعلَمُونَ».

(البقرة/ ۲۱۶)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۶

مع أنّ الآية الاولى تخص المعاشرة الزوجيّة، والآية الثانية تخصُّ الجهاد المسلّح ضد العدو، لكن ما ورد فى نهايتهما قانون كُلّيٌّ حيث يقول: إنّ محدوديةَ علمكم فى الكثير من الموارد تحول دون تمييزكم الخير والشّر، وعليه لا يُمكن النظر فقط إلى ظاهر الحوادث والقضاء بشأنها، فمن المسلَّم أن الحوادث البشريّة المُرّة تقع فى دائرة هذا القانون الكلّى أيضاً.

۳- إنّ قصة الخضر وموسى عليهما السلام التى وردت فى سورة الكهف والتى تُعدُّ من القصص القرآنية الغنيّة الرامية إلى أهداف متعددة، تشير بوضوح إلى بحثنا، والتى يُمكن القول: إنّ أحد ألاهداف الأساسية من طرحها هو هذه المسألة وهى: عندما يصدر فعلٌ معينٌ من حكيم، يجب عدم الحكم بظاهره والقضاء بشأنه استناداً إلى ذلك، فما أكثر الحالات التى يبدو فيها ظاهر العمل قبيحاً، لكنّه يحتوى فى باطنه على أسرار عميقة.

فمثلًا خرق سفينة المساكين المستضعفين التى كانت تشكّل مصدر عيشهم (رزقهم) المحدود، أو قتل الغلام الذى كان يبدو بريئاً ولم يرتكب جرماً وخيانةً ظاهراً، أو إقامة الجدار الذى أو شك على الانهيار بدون ثمن، فى قرية البخلاء الذين أبْوا أن يضيّفوا (موسى وصاحبه عليهما السلام) كانت جميعها أعمالًا يُعد كلٌّ منها أقبح من الآخر.

ولهذا السبب كان موسى عليه السلام يعترض كُلّما ارتكب الخضر عليه السلام أحد هذه الأعمال ويقول له: لِمَ فعلت هذا!؟

ففى الموقف الأول قال له: «أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهلَهَا لَقَد جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً». «۱» (الكهف/ ۷۱)

وفى الموقف الثانى استنكر قائلًا: «أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيرِ نَفسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً».

(الكهف/ ۷۴)

وفى الموقف الثالث أراد مِنَ الخضر عليه السلام أن يتقاضى أجراً مقابل عمله «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً». (الكهف/ ۷۷)

---

(۱) «إمر» على وزن «بِئْر» تُطلق على العمل المهم والعجيب، أو المبغوض والقبيح جدّاً.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۷

وكان يبدو لموسى عليه السلام أنَّ العمل الأول اتلاف مال الغير، والثانى اتلاف النفوس، والثالث اتلاف الحق الخاص.

ولكن عندما كشف (الخضر عليه السلام)، ذلك العالم الكبير الذى كان يُعَدُّ فى هذه الواقعة بمنزلة استاذ ومعلّم لموسى عليه السلام، حجباً عن أسرار عمله تأسف موسى عليه السلام على استعجاله فى القضاء بشأن تلك الأمور، لأنّه عرف أنّ من وراء ظاهر هذا العمل القبيح أسراراً خفيّة تعود بالمصلحة للمستضعفين فى النهاية!

فخرق السفينة وإعابتها المؤقتة حال دون غصبها من قبل سلطانٍ جبّارٍ غاصبٍ كان يغصب جميع السفن السليمة.

وبقتل ذلك الشاب غير المؤمن والكافر الظالم (الذى كان مستحقّاً لمثل هذه العقوبة حسب القوانين الإلهيّة) قد خلّص أبويه المؤمنَيْن من الخطر.

وبترميمه ذلك الجدار الذى كان مُشرفاً على الإنهيار كان قد حفِظَ كنزاً لطفلَيْن يتيمَيْن، والذى كان يُعدُّ إرثاً خلّفه لهما أبوهما المؤمن ليستفيدا من أوان بلوغهما سنَّ الرشد.

كان الخضر عليه السلام إنساناً عاقلًا حكيماً ولكنه بالقياس إلى علم اللَّه وحكمته لا يُساوى شيئاً مذكوراً، وكانت أعماله فى الظاهر بدرجة من القباحة بحيث لا يُمكن فى بادىء الأمر توجيهها بأى بيان، وكان هذا هو السبب فى استنكار موسى واعتراضه عليها، لكن أسرارها الإنسانية والمنطقيّة انكشفت تماماً بتوضيحٍ قصير ومختصر من قبل الخضر عليه السلام، واقتنع بها موسى عليه السلام بصورة تامّة.

یمکن الاستفادة من هذا البیان القرآنی کقانون کُلّی، والإستنارة به لمعرفة حقائق الأمور الظاهریة التی قد نشاهدها أحیاناً فی عالم الوجود، واعتباره جواباً إجمالیاً لنستیقن بالأسرار الخفیة المحتمل وجودها من وراء هذه الظواهر.

۴- وتُلاحظ إشارة اخری إلی هذا الموضوع فی قصّة قارون، ذلک الرجل الثری والأنانی الظالم من بنی‌اسرائیل، فی الموضع الذی استعرض قارون یوماً ما کان یملکه من الثروات الطائلة والنفیسة (من الخیول والغلمان والإماء والمجوهرات الذهبیة) أمام أنظار

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۸

بنی‌اسرائیل، فدُهشَ جماعة من الأفراد ذوی النظرة الظاهریة، من هذا المشهد بحیث قالوا:

«یَالَیْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِیَ قَارُونُ». (القصص/ ۷۹)

ولکن فی الیوم التالی الذی خُسفت فیه الأرض بقارون وأمواله وتبیّن بأنّ من وراء ذلک الجمال الظاهری قبحٌ باطنی وعقوبة ألیمة، قالوا مستوحشین: «لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَینَا لَخَسَفَ بِنَا». (القصص/ ۸۲)

علاوة علی ما تحمله هذه القصّة من التجلیات التربویّة فإنّها تُشیر إلی هذه المسألة وهی: استحالة إمکانیة القضاء بشأن أمرٍ معینٍ خیراً کان أو شرّاً علی أساس ظواهر الأمور.

فأحیاناً ما یراه الإنسان خیراً فی الظاهر فانّه شرٌّفی باطنه بحیث لو عرف نتائجه لولی منه فراراً. ومن قبیل هذه الحوادث تُعَدّ الأرضیّات المنطقیة للجواب الإجمالی علی الأسئلة المطروحة فی داخل روح الإنسان.

۵- فی المسائل المتعلّقة بالوصیّة فی القرآن الکریم، بعد أن أشار تعالی إلی إرث الطبقة الأولی (الأبناء والوالدیْن) قال: «آبَائُکُمْ وَأَبْنَائُکُمْ لَاتَدْرُونَ أَیُّهُمْ أَقرَبُ لَکُم نَفعاً». (النساء/ ۱۱)

مع کون الأب والأم والولد اقرب إلی الإنسان ممن سواهم، ویقضی أغلب سنین عمره معهم، إلّاأنّ القرآن یقول: أنتم لا تدرون أیّاً من آبائکم وأبنائکم أقرب لکم نفعاً، وأیّهم صاحب الدور فی حیاتکم، لذا لم یوکل أمر تعیین حصّة الارث إلیکم.

فالإنسان الذی لا تسمح له محدودیة علمه فی أن یحکم حکماً قطعیاً فی مثل هذه المسائل کیف یُمکنه أن یحکم سَلفاً علی حدَثٍ ینتج عنه الألم فی الظاهر بأنّها مسألة غیر موزونة فی عالم الخلق؟

خلاصة الکلام هو أنّ الأدلّة العقلیة بل والآیات القرآنیه أیضاً تدل بوضوح علی هذا الجواب الإجمالی الکلّی حول الأسئلة المطروحة أعلاه، وعلی الأقل إنّها قد منعت الإنسان من القضاء القطعی بشأن الأمور، وحثّته علی التریُّث والتفکُّر بصورة أکثر.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۴۹

الحوادث الألیمة فی الروایات الإسلامیة:

وردت فی المصادر الإسلامیّة روایات کثیرة عن المعصومین علیهم السلام حول بحث الرضا والتسلیم، وبالرغم من کونها تُشیر إلی بحثٍ أخلاقیّ واسع، فهی تحتوی أیضاً علی أشارات حول بحثنا، ومن جملتها ماروی عن الإمام علی علیه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّه سبحانه وتعالی یُجری الأمور علی ما یقتضیه لا علی ما ترتضیه» «۱».

أی لا تقلقوا من کون الشیء خلافاً لرغبتکم ورضاکم، فهنالک أسرار ومصالح لا تعلمون بها.

وفی حدیثٍ آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «إنّ أعلم الناس باللَّه أرضاهم بقضاء اللَّه» «۲».

أجَلْ، إنّ الذی یؤمن بعلم اللَّه وحکمته ولطفه ورحمته وإحاطته بهذه الأمور، علی یقین بأنّ (کل ما یأتی منه خیر) ولو أنّه لم یدرک أسرارها بدقّة.

وفی حدیثٍ آخر عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام: «أجدر الأشیاء بصدق الإیمان الرضا والتسلیم» «۳».

أی أنّ أوضح أثرٍ علی صدق الإیمان بعلم اللَّه وحکمته ورحمته هو التسلیم لإرادته التکوینیّة والتشریعیّة. لا تسلیماً عن کراهة، بل عن

رضيً، لأنّ المُسلم يعلم بأنّ كل ما يصدر من اللّه تعالى يحتوى فى طيّاته على حكمة خفيّة.

تحذير!!

طبعاً إنّ هـذا الكلام لا يعنى أبـداً أن نحتسب مصائبنا وعـدم الموفقيه والفشل و ... التى تحصل بما كسـبت أيدينا، على القضاء الإلهى ونُسلّم ونرضى بها.

---

(۱) غرر الحكم، الفصل ۹، الحكمة ۵۶.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۱۴۴، ح ۴۲.

(۳) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۰

ولا يعنى أيضاً أن نتقاعس عن التصدّى للآفات والحوادث والمشاكل، لأنّ بروز هذه الحوادث ناتج من أعمالنا وتعود نتائجها علينا فى هذه الحالة، ولا يُمكن احتسابها على الإرادة الإلهيّة، لأنّه إن أوجد الألم فهو قد خلق العلاج أيضاً.

فـإذا قصّرنا فى مثـل هـذه الحالاـت فإننـا ليس لم نبلغ مقـام الرضـا والتسـليم فقـط، بل نتحمل مسؤوليـة أمام اللّه سـبحانه وتعالى، لأننا بتقصيرنا نكون قد ألقينا بأنفسنا فى التهلكة، وسيأتى شرح مفصل بخصوص هذا الكلام فى بحث الرضا والتسليم إن شاءاللّه تعالى.

الجواب التفصيلى عن الحوادث الأليمة

۱- فلسفة التفاوت

غالباً ما يُشتبه بين (التفاوت) و (التبعيض) ويأخذ الثانى الذى له صفة سلبية مكان الأول الذى له صفة إيجابية فى الكثير من المواقع.

ولزيادة التوضـيح: يُقصـد من (التبعيض) هو أن نُفرّقَ بين موجودين يحملان نفس الشـروط تماماً، مثلًا أن نُعطى أحـد العاملين اللـذيْن أنجزا عملًا متشابهاً أجراً ضـعف أجر الآخر، أو نعاقب أحـدهما نصف عقوبة الآخر إذا ارتكبا عملًا قبيحاً، وهما يحملان نفس الشـروط أيضاً، أو أن نعفو عن أحدهما تماماً ونعاقب الآخر أشَدّ العقاب.

ولكن إذا كانت الأعمال الإيجابية والسلبية متفاوته مع بعضها أو اختلف الفاعلون عن بعضهم، لكان التفريق فيما بينهم عين العدالة.

هـذا من حيث الثواب والعقاب، أمّا من حيث الخلق والتكوين فإنّ عالم الخلق مجموعـة من الموجودات المتفاوتة تماماً، لأنّ لكلٍ منها وظيفتها الخاصّة، ويلزم تناغم الخلق والوسائل والإستعدادات معها.

ومن خلاـل نظرة إلى أعضاء بـدن الإنسان نُشاهـد أنّ بعض خلايا البـدن بدرجـة من الظرافـة بحيث يختل نظامها لأقل ضـربة، أو حتّى هبوب نسيم معين، أو انبعاث نور شديد،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۱

(كشـبكيّة العين) لـذا نجـد أنّهـا موضوعـة فى محفظـة قويـة جـدّاً لكى تكون بعيـدة تماماً عن ساحـة الحوادث، وهـذه الخلقـة اللطيفة والظريفـة جدّاً، إنّما هى بسـبب الواجب الحسّاس جدّاً الملقى على عاتقها وهو (التصوير المسـتمر للمشاهد المختلفة من مسافات بعيدة وقريبة وفى أجواء متفاوتة).

وهنالك خلايا صـلبة ومحكمـة ومقاومـة جـدّاً، كخلايا عظام كعب القـدم، أو عظام الساق التى علاوةً على تحمّلها جميع وزن البـدن، يجب أن تكون مُقاومة للضربات القوية والصدمات.

فلا يُمكن إذن لأىعاقل أن يعترض على تفاوت بُنية هذيْن العضويْن؟ أو يعترض على عدم خلق جميع خلايا البدن بنفس ظرافة خلايا شبكيّة العين، أو بنفس صلابة خلايا الساق، أو القدم، أو بنفس سُمك جلد كعب القدم؟

ويُمكن إجراء نفس هذه الحسابات بخصوص أعضاء شجرة أزهار صغيرة مع شجرة كبيرة ابتداءً من جذورها القويّة، إلى سيقانها، وأغصانها الصغيرة والكبيرة، وبالتالى أوراقها مع أوراق الأزهار والشعيرات الصغيرة الدقيقة الموجودة فى داخل كُلّ زهرة.

ولو أمعنّا النظر جيّداً لوجدنا أنّ أقسام المجتمع البشرى تشبه تماماً أعضاء بدن الإنسان أو شجيرة أزهار صغيرة وشجرة كبيرة.

فصنع النظام الأحسن يفرض وجود التفاوت فى استعدادات وأذواق أفراد المجتمع وبنائهم الروحانى والجسمانى، ليتناسب كُلُّ واحدٍ منهم مع الواجب الذى يُلقيه نظام الخلق على عاتقه ويتمكّن منه، وإلّا لتبعثر كُلّ شىء، ولما كان هنالك نظامٌ أحسن، ولصار الوجود كالشجرة التى جميعها جذور أو سيقان أو أوراق فقط، ومن قبيل هذه الشجرة لا تستطيع أن تواصل الحياة لأكثر من فترة قصيرة، وإن كانت قادرة فلا فائدة منها.

فلا يُمكن أن يتساوى تركيب وجود الأم، التى يجب أن تكون كتلة من العواطف لتقوى على تحمل كل مشقّات حفظ وتربية الأولاد، مع تركيب وجود الأب، الذى يجب أن يُمارس عمله دائماً فى قلب المجتمع، لأنّ العكس معناه إمّا تلاشى دور الأمومة أو تعطيل دور الأبّوة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۲

وكذا لا يُمكن أن يتساوى تركيب أعصاب جرّاح للقلب مع اعصاب شاعرٍ دقيق النظر، أو عالمٍ فى الرياضيات مع مهندسٍ زراعى، أو كلاهما مع عامل صناعاتٍ ثقيلة، وهؤلاء الثلاثة مع جندى أو ضابطٍ عسكرى، وهؤلاء الأربعة مع قاضٍ مُعيَّنْ، لأنّ لكل واحدٍ منهم وظيفته الخاصّة فى المجتمع وله ذوق واستعداد وبناء جسمانى روحانى خاص مناسب لذلك.

وهذا المطلب بدرجة من الوضوح بحيث لا يحتاج إلى زيادة فى التوضيح، وبالأساس أنّ من إحدى دلائل عظمة اللّه هى هذا التقسيم الدقيق للأذواق والاستعدادات التى تُشكّل جميعها مجموعة متعادلة ومتوازنة كلٌّ فى محله الخاص!

وخلاصة الكلام هى أنّ البشر ليس كالألوانى المتشابهة التى تُصنع فى معملٍ واحد، ولجميعها فائدة واحدة، فلو كان كذلك لما استطاعوا العيش مع بعضهم حتى يوماً واحداً، فالمهم فى حياة البشر وجميع عالم الخلق هو العدالة لا المساواة، ووضع كل شىءٍ فى محلّه لا التشابه.

وللقرآن الكريم إشارات غنيّة فى هذا المجال، حيث قال فى موضعٍ: «وَرَفَعنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا». (الزخرف/ ۳۲)

«سُخرِيًّا»: مشتقة من مادّة (تسْخير)، ومفهوم الآية هو: إنّ تفاوت درجات الناس تؤدّى إلى تسخير بعضهم بعضاً، أو تدفع بهم إلى التعاون المتقابل، فالمريض مُسَخّرٌ للطبيب والطبيب مُسخّر للمعمار فى حوائج اخرىٰ، أو الفلاح مسخّر للتاجر، لأنّ لكل واحدٍ منهم أفضليّة على الآخر من جهة معينة، وهذه بذاتها تُوجِد (الخدمات المتقابلة) أو (التسخير) وفق التعبير القرآنى.

وقد اتفق أغلب المفسّرين الإسلاميين من الشيعة والسُّنة على تفسير الآية بهذا الشكل، أى كون المقصود من (سُخريّاً) هنا هو التسخير فى الخدمات المتقابلة «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۴۶؛ تفسير الميزان، ج ۱۸، ص ۱۰۴؛ القرطبى، ج ۹، ص ۵۹۰۳؛ تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۰۹؛ تفسير روح‌المعانى، ج ۲۵، ص ۷۲؛ تفسير المراغى، ج ۲۵، ص ۸۵.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۳

والقول بأنّ المقصود من (سُخريّاً) هو (الإستهزاء) احتمالٌ ضعيفٌ جدّاً طُرح فى بعض التفاسير بعنوان رأى غير مقبول.

ونُلاحظ فى موضعٍ آخر: «وَرَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ لِّيَبلُوَكُم فِى مَا آتَاكُمْ». (الأنعام/ ۱۶۵)

ونظراً إلى عدم كون هدف الإمتحان الإلهى معرفة حقيقة الأشخاص واكتشاف الأمور الخفيّة، لأنّ اللَّه محيط بكل شىءٍ علماً، بل المقصود منه تربية البشر فى البلاء والإمتحان ليخلُصوا ويقوى تحملهم، وبتعبيرٍ آخر: إنّه وسيلة لتكاملهم، لذا فالآية تقول: إنَّ هذا سبب التكامل (المادى والمعنوى).

وهناك نموذجٌ آخر: هو ما جاء فى الآيات التى تُشير إلى تفاوت واختلاف نصيب الناس من الأرزاق، فغالباً ما يَسأل بعض الأفراد: لِمَ هذا غنيٌّ وذاك فقير؟ والقرآن يُجيب عن هذا السؤال بصورة إجمالية من خلال الآيات المختلفة ويقول: إنّ تقسيم الرزق بين العباد يجرى وفق حسابٍ دقيق وبرنامج منظّم مفعم بالأسرار، ولو أنّ الناس لا يعلمونه، كما ورد فى سورة الإسراء: «إِنَّ رَبَّكَ يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقدِرُ إِنَّه كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً».

(الاسراء/ ۳۰)

طبعاً يجب عدم خلط التفاوت الإلهى الواقعى والطبيعى مع التفاوت الوضعى الناشىء عن الإستثمار والاستعمار، واحتسابها جميعاً على إرادة اللَّه، فالمسألة تتخذ طابعاً آخر فى هذه الحالة وتخرج بشكل تفسيرٍ انحرافى وتؤدّى إلى التخلُّف الأقتصادى والاجتماعى، والقرآن مخالف جدّاً للنوع الثانى، بل ويُحاربه أيضاً.

ويُلاحظ فى الروايات الإسلامية وجود إشارت غنيّة بشأن هذا المطلب، كقول على عليه السلام:

«لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا فإذا استووا هلكوا» «۱».

---

(۱) منتهى الأمال، ج ۲، ص ۲۲۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۴

۲- المشاكل هى من صنع الإنسان!

اشارة

يُصاب الإنسان فى حياته بمصائب كثيرة هى بالواقع من صنعه هو، ولكن الكثير من الأفراد ولأجل تبرئة أنفسهم، والتغاضى عن تقصيرهم، واهمالهم اللذين ينتج عنهما حدوث المشاكل، نراهم يحتسبونها على قضاء اللَّه وقدره، ويوجهون التقصير إلى المشيئة الإلهيّة، وبعدها يشكّكون فى عدالة اللَّه أحياناً، فى حين أنّنا لو دقّقنا جيّداً لوجدنا أنّ الكثير من الحوادث الأليمة، والفشل، والمصائب التى يعانى منها الناس، هى بما كسبت أيديهم، وأنّ الفرد أو المجتمع هو العامل الأصلى والمقصّر الحقيقى فيها، مع أنّهم يُبرّئون أنفسهم ظاهرياً.

والمصائب التى تصيب الناس بسبب تعسّف الحكومات الظالمة والمستبدة، هى من هذا القبيل عادةً، لأنّ الظلمة والجبابرة افرادٌ معدودون، وسكوت الناس حيال جرائمهم البشعة وتعاون بعض الناس معهم هو السبب الذى يكسبهم القدرة والقوّة للتسلُّط على رقاب الناس، وخلق المشاكل الكثيرة لهم.

والكثير من الأمراض مَنشأُها هوى النفس، والكثير من الاحباط وحالات الفشل تنبع من ترك المطالعة والإستشارة المطلوبة، وعاملها الأساسى أنانية واستبداد الإنسان برأيه.

وسبب الكثير من حالات الفشل التقاعس وترك الجهاد والسعى.

وكانت الفوضى دائماً سبب الفاقة والاختلاف، والفرقة سبب المصيبة والبلاء.

والعجب هو أنّ كثيراً من الناس نَسُوا علاقة العلّة بالمعلول واحتسبوا جميع الأمور على الخالق!

علاوةً على هذا فإنّ من المصائب التى تلاحظ فى المجتمعات البشريّة ناتجة من ظلمهم لبعضهم، أو ظلم جماعةٍ لجماعةٍ اخرى، فمثلًا إذا سمعنا بأنّ هنالك خمسين مليون انسان تقريباً فى عصرنا الحاضر يموتون جوعاً، أو بإصابة أكثر من هذا العدد بأنواع الأمراض بسبب سوء التغذية، فإنّه لا يعنى بأنّ سببه هو أنّ اللَّه قد حرمهم من لطفه، بل سببه هو سوء استغلال جماعة اخرى من أبناء الدنيا للحرية الإلهيّة، وقيامهم بغصب حقوق الآخرين.

فصار استعمار واستثمار هذه الجماعة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۵

إنّ الأمراض والموت الناشىء من الجوع، يحصل فى الوقت الذى تلقى الكثير من الدول الثريّة- الغافلة عن ذكر اللَّه- كثيراً من المواد الغذائيّة فى البحر، أو يلقونها فى المزابل، ويُعانون من أنواع الأمراض الناشئة من الإفراط فى الشبع.

وكذا إذا رأينا أنّ أطفالًا يُعانون من أمراضٍ أو نقص أعضاء معينة بسبب ذنوب آبائهم وأمهاتهم الذين أسرفوا فى تناول المشروبات الكحولية أو سوء التغذية وما شاكل ذلك، فهو ظُلمٌ صادرٌ من آباء أو أمهات هؤلاء الأطفال أو مسؤولى مجتمعهم بحقّهم، وبالضبط كأن يأخُذ أبٌ خنجراً ويفقأ به عين طفله الرضيع، أو كذبح الأطفال من قبل الجابرة كفرعون مثلًا.

حينئذٍ لا يُمكن احتساب أى عملٍ من هذه الأعمال على فعل اللَّه، بل جميعها ممّا كسبت يد الإنسان ذاته، والتى أعدّها الإنسان لنفسه أو للآخرين.

القرآن والمصائب الذاتية الصنع:

۱- يُلاحَظُ وجود آيات قرآنية كثيرة توضح بصراحة علاقة قسم عظيم من المصائب بأعمال الإنسان السيئة، إلى الحدّ الذى يُلاحظ فيه أنّ تعبير بعض الآيات جاء بصيغةٍ عموميّة تشمل جميع المصائب: قال تعالى: «مَّا أَصَابَكَ مِن حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفسِكَ». (النساء/ ۷۹)

والظريف هو أنّ المخاطب فى هذه الآية هو شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لتأكيد وبيان أهميّة الموضوع، فعندما يكون الرسول صلى الله عليه و آله مُخاطباً بهكذا أسلوب يتضّح أنّ التكليف واقعٌ على الأخرين حتماً، وإلّا فمن المعلوم أن الرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله لا يفعل فعلًا يُوْدى إلى ابتلائه بمصيبةٍ من نفسه.

ونَسْب (الحسنات) إلى اللَّه إنّما هو لأنّ اللَّه قد وضع جميع إمكاناتها تحت تصرُّف الإنسان، ونَسْب (السيئات) إلى الإنسان إنّما هو لأنّها تحرف هذه الإمكانات عن الأهداف

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۶

التى خلقها اللَّه لأجلها، وإلّا فمن حيث كونه مسبّب الأسباب يُمكن نَسْبُها إليه جميعاً.

ولعل هذا هو السبب فى نَسْب بعض الآيات القرآنية جميع الأعمال إلى اللَّه، لذا فإنّ التفاوت الموجود انّما هو بسبب تفاوت جهات البحث وزوايا النظر، (تأمل جيداً).

ولا يُمكن إنكار كون الكثير من الحوادث الأليمة الموجودة فى حياة الإنسان من صنع نفس الإنسان، فمثلًا إنَّ سبب الكثير من الأمراض هو عدم الاهتمام بأصول الصحّة وقواعدها، أو الإفراط فى تناول الغذاء إلى حد التخمة، أو عدم التدقيق فى النظافة، أو الإنزواء وعدم التحُرك، أو عدم الإحتراز من المناطق الملوثة أو الأفراد الملوثين. ولو راعى الإنسان الأسُس والقوانين التى وضعها اللَّه

فی عالم الخلق والتکوین لما أصیب بها.

ولکن مع هذا لایُمکن انکار کون قسم من الأمراض التی تُصیب الناس ذات عوامل خارجة عن قدرتهم، کالتغیُّر المفاجیء فی حالات الطقس التی تحصل خلافاً لمقتضی طبیعة الفصل، فیُصابُ البعض بمختلف الأمراض.

ویُمکن ملاحظة نفس هذا التقسیم بخصوص بقیّة المصائب والحوادث الاخری، لذا فإنّنا نقول: بالرغم من کون صیغة الآیة الآنفة الذکر عامّة لکن مقصودها الأصلی أغلب الموارد.

ولأنّ (الفخر الرازی) لم یستطع حل هذه المعضلة، فقد فسّر (السیئة) الواردة فی الآیة بمعنی (المعصیة) فی الوقت الذی نجد بأنه معنیً غیر متزّن جدّاً، لأنّ مفهوم الآیة سیصیر کالتالی (ما أصابک من معصیةٍ فمن نفسک)، وهذا الشیء من قبیل توضیح الواضحات، وعلیه فإنّ تعبیر (سیئة) له مفهوم عام.

۲- وفی موضعٍ آخر اعتبر الفساد الذی یظهر فی البر والبحر کنتیجة لأعمال الناس، حیث قال: «ظَهَرَ الفَسَادُ فِی البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا کَسَبَتْ أَیدِی النَّاسِ». (الروم/ ۴۱)

ونظراً لکون الفساد المذکور فی الآیة معرّف بألف لام التعریف ویفید العموم، فإنّه یدل علی کون الفساد الذی یظهر فی البر والبحر من صُنع الإنسان، وتشیر إلی المفاسد الاجتماعیة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۷

ویُضیف قائلًا فی تکملة الآیة: «لِیُذِیقَهُم بَعضَ الَّذِی عَمِلُوا لَعَلَّهُم یَرجِعُونَ».

اعتقد بعض المفسرین بأنّ هذه الآیة تُشیر إلی العقوبات والمجازاة الإلهیّة التی تصیب الناس بسبب (أعمالهم السیئة)، ولکن یبدو أن صدر الآیة یُشیر إلی وجود نوع من الرابطة التکوینیّة فیما بین (الفساد) و (الذنب)، وذیل الآیة یُصدّق هذا المعنی أیضاً، لأنّه لم تُذکر کلمة (عقوبة) فیها، بل: «لِیُذِیقَهُم بَعضَ الَّذِی عَمِلُوا» لا (جزاء الذی عملوا)، ویُمکن أن یکون سبب استعمال کلمة «بعض» هو إبطال اللّه مفعول بعض هذه النتائج الطبیعیّة بلطفه ورحمته.

وعلی أیّة حال فإنّ الآیة أعلاه تدلّ علی أنّ المفاسد الاجتماعیة: کانعدام الأمن، الحروب، تسلُّط الظالمین، ابتلاء المظلومین، وأمثال ذلک ولیدة عمل الإنسان نفسه، ویجب أن لا تُحتَسب أبداً علی الخالق ویُشکّک بالعدل الإلهی بسببها. (تأمل جیّداً).

۳- یُفهم من آیات أُخری أن سبب تغیّر النعم الإلهیّة هو تغیُّر أحوال الناس، حیث قال تعالی: «إِنَّ اللَّهَ لَایُغَیِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم». (الرعد/ ۱۱)

وقد بین نفس هذا المطلب فی موضعٍ آخر مستعملًا کلمة (النعمة) بصریح العبارة، حیث قال تعالی: «ذَلِکَ بِأَنَّ اللَّهَ لَم یکُ مُغَیِّراً نِّعمَةً أَنعَمَهَا عَلَی قَومٍ حَتَّی یُغَیِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم». (الأنفال/ ۵۳)

وبتعبیرٍ آخر أوضح: إنّ الفیض والرحمة الإلهیّة عامّة وواسعة، لکنها تُقسَّمُ بین الناس وفق الإستعدادت والاستحقاقات، فإن استفادوا من النعم بصورة صحیحة کانت دائمیة أبدیّة، وإن صارت وسیلةً للطغیان والظلم والجور والغرور والکفر، فلا ریب فی أنّها تکون بلاءً، وهذا تأکیدٌ علی أنَّ الکثیر من المصائب التی تصیب الإنسان هی مِمّا کسبت یداه.

۴- وفی موردٍ آخر، وضمن الإشارة إلی ضیق صدور الناس، أشارت الآیة التالیة إشارةً لطیفة إلی العلاقة بین (المصائب) و (أعمال الناس).

قال تعالی: «وَإِذَا أَذقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَیدِیهِمْ إِذَا هُم یَقنَطُونَ». (الروم/ ۳۶)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۸

إنّ أکثر المفسّرین اعتقدوا بأنّ مثل هذه الآیات تُشیر إلی العذاب الإلهیّ، ولکن یبدو من ظاهر الآیات أنّ المصائب ناتجة عن أعمال الإنسان نفسه، وبتعبیرٍ آخر ذُکرت الأعمال بعنوان (سبب)، والمصائب بعنوان (مُسبّب).

وإن حصلت هنا عقوبة معينة فهى كأثر طبيعى للعمل، وانعكاس عن أفعال وتصرُّفات الناس، ولا يوجد دليل واضح على تأويل كلمة العقوبة والعذاب فى جميع هذه الموارد، كما ورد ذلك فى كلام أغلب المفسّرين.

٣- مصائب العقوبات الإلهيّة

إنّ البعض الآخر من المصائب التى تُصيب الإنسان عبارة عن عقوبات إلهيّة تصدرُ منه تعالى وفق استحقاق الأفراد، وهى تخص الأفراد الذين ارتكبوا ذنوباً إما كثيرةً وكبيرةً جدّاً، بحيث تستوجب العذاب الدنيوى والعذاب الأخروى، وإمّا طفيفة بحيث تُمحى بالعذاب الدنيوى فقط، وهو بالواقع نوع من اللطف الإلهى بحق هؤلاء الأفراد.

ويُحتمل أن تكون هناك فاصلة زمنية بين (الذنب) و (العقوبة) لكن العلاقة محفوظة، وأحياناً أُخرى تنزل العقوبة مباشرة ويكون الحساب سريعاً.

وتفاوت هذا البحث عن البحث السابق هو أننا تحدّثنا فى البحث السابق عن الأثر الطبيعى للأعمال، وفى هذا البحث عن العقوبة الإلهيّة.

وعلى أيّة حال فإنّه لا يُمكن للمؤمنين والمعتقدين بالعدل الإلهى إنكار وجود هذه المسألة، وهى تحقُّق العقوبة الإلهيّة الدنيويّة بحق فئة معينة على الأقل، ولكن يُمكن أن تكون تلك المصيبة بالنسبة للذين يجهلون سببها عجيبة وأليمة.

وصفحات التاريخ تُخبر عن حال الذين ارتكبوا جنايات فجيعة عند الاقتدار، وكان مصيرهم أنْ هلكوا بعقوبات أليمة ومصائب موجعة، بحيث لا يكفى كتاب أو عدّة كتب لذكرها بالتفصيل.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۵۹

وغالباً ما رأينا بأمّ أعيُننا فى حياتنا اليوميّة نماذج من هذه المسألة بحيث لا يبقى لنا مجال للشّك فى وجود هذه العلاقة والآصرة بصورة إجمالية.

والقرآن المجيد أيضاً علاوةً على إشارته إلى هذه المسألة كأصل كُلّى، فقد وضع إصبعاً على مواضع خاصّة أيضاً، وأشار إلى الأقوام الذين ذاقوا أشدّ العذاب كعقوبة دنيويّة، وإليكم أدناه نماذج من كلا القسمين:

١- «وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ». (النحل/ ۱۱۲)

إنَّ هذه الحادثة سواء كانت تُشير إلى مصير جماعة من بنى‌إسرائيل، أو الى قوم سبأ، أو كانت مثلًا عامّاً- وردت كل من هذه الاحتمالات فى كلام المفسّرين- فإنّها شاهدٌ حى على موضوع بحثنا، وتوضح وجود العلاقة فيما بين الذنب وقسم من المصائب.

فلو دخل جماعة مدينةً معينة أثناء إصابتها بالقحط، والخوف، والبلاء، دون أن يعرفوا ماضيها، لكان من الممكن أن يتعجّبوا، ويستوحشوا، ويسألوا أنفسهم قائلين: كيف يُمكن أن تتناسب كل هذه التعاسة والبلاء مع عدالة اللّه سبحانه!؟

ولكنهم عندما يطّلعون على ماضيها يُقرّون بعدالة الجزاء، وأحياناً يرونَهُ أقل من الإستحقاق.

٢- بخصوص (فئات) من الأمم السابقة أُصيبت كل فئةٍ منها بعقوبة معينة بسبب ما ارتكبت من الذنوب.

قال تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنهُمْ مَّن أَرْسَلنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهم مَّن أَخَذَتْهُ الصَّيحَةُ وَمِنْهُمْ مَّن خَسَفْنا بِهِ الْأَرضَ وَمِنهُم مَّن أَغْرَقنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظْلِمُونَ». (العنكبوت/ ۴۰)

ووِفقاً لهذه السنّة فقد أصاب قومَ عادٍ حاصبٌ هدّم منازلهم، وهلكَ قومُ ثمود بالصاعقة، وخسفت الأرض بقارون، وغرِقَ فرعون ووزيره هامان فى البحر، فإنّ هذا البلاء المتنوع لا يُنافى أصل العدل الإلهى فقط، بل يعتبر عين العدالة لأنّ الجميع كانوا مستحقّين

لذلك.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۰

وقد نقلت بعض التفاسير قصّة لطيفة فى تفسير ذيل الآية (۹۰/ يونس) بخصوص فرعون تُعدُّ شاهداً حيّاً على موضوع بحثنا، وهى: دخل جبرائيل عليه السلام على فرعون ذات يوم بهيئة إنسان واشتكى إليه قائلًا: يا صاحب الجلالة! كان لى غلامٌ على سائر عبيدى، وسلّمته مفاتح كنوزى، فعادانى وعادى من يُحبّنى وأحبَّ أعدائى، وقربّهم إليه، فاقض أنت بشأنه وعيّن عقوبته!

فقال فرعون: لو كان هذا غُلامى لأغرقته فى البحر!

فقال جبرئيل عليه السلام: اكتب لى هذا الأمر (الحكم) يا صاحب الجلالة (لكى استفيد من خطّك)، فأمر فرعون باحضار دواةٍ وقلم وورقٍ فكتب: (إننى أحكم على العبد الذى يتمرّد على مولاه ويكفر بأنعُمِهِ بأن يُقتلَ غرقاً).

(انتهت هذه الحادثة) وعندما أوشك فرعون وجنوده على الغرق فى البحر، ظهر إليه جبرئيل وأراه خَطّهُ وقال له: «هذا ما حكمت بنفسك» «۱».

والجدير بالذكر هو أنّه لو كان أحدٌ حاضراً فى هذه الأقوام عند نزول البلاء كالعاصفة والصاعقة، والسيل، والزلزلة، من دون أن يعرف شيئاً عن ماضيهم، ويرى بأُمّ عينيه الدمار الناجم عن السيل وكيفيّة تهدُّم المنازل على رؤوس أصحابها بسبب العواصف، وكيف تحوّل الصاعقة كُلّ شيءٍ إلى رماد فى لحظة واحدة، لتعجب ودُهِش ولأمكن أن يُشكّك فى مسألة العدل الإلهى فى عالم الوجود.

ولكن لو اطّلع على الحوادث السابقة وأعمال تلك الأقوام الماضية لزال شكّهُ.

وهذه فلسفة قسم من الآفات والبلايا (وسبب قولنا- قسمٌ- هو وجود فلسفة خاصّة لكل قسم من أقسام البلاء).

۳- أشار القرآن الكريم فى سورة سبأ إلى قصّة مفصّلة وغنيّة وموقظة بشأن قوم من اليمن ذوى تمدُّنٍ ملحوظ، وكان هذا التمدُّن ناتجاً عن وجود سدٍّ عظيم مُحْدَثٍ بين الجبال يحصر مياه البرارى والجبال ليوزعها بتنظيمٍ دقيق على المزارع والحقول، فصارت أرضاً خصبةً مليئة بالنعم الإلهيّة (جنّة).

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۴، ص ۷۷.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۱

اضافةً إلى ذلك فقد ساد الأمن فيها، وابتعدت عنها الآفات والبلايا والجفاف والمجاعة والخوف والوحشة، وحتى قيل: إنّ الحشرات المؤذية قد هجرت تلك الديار أيضاً.

ولكن لم تمض مدّة قليلة حتى أُصيبوا بغرور النعمة وغفلة الرفاه، فطغوا وكفروا بالنعمة فى عدّة جوانب.

قال تعالى فى هذا المجال: «فَأَعْرَضُوا فَأَرسَلنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ العَرِمِ وَبَدَّلنَاهُمْ بِجَنَّتَيهِمْ جَنَّتَينِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ* ذَلِكَ جَزَينَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَل نُجَازِى إِلَّا الكَفُورَ». «۱»

(سبأ/ ۱۶- ۱۷)

العجيب هو ماورد فى بعض الروايات بأنّ مقدّمات انهيار ذلك السدّ الترابى العظيم قد حدثت مُسْبقاً من قِبل الفئران البريّة التى نفذت فى السد وأحدثت فيه ثقباً كان يتّسع لحظةً بلحظة على أثر جريان الماء منه.

أجَلْ، إنَّ سيلًا عظيماً متشكّلًا بالحقيقة من قطرات المطر، وفعل عدد من الفئران البريّة قد أفنى حضارةً عظيمة، وأهلك القوم الطغاة المتجبرين.

ومن قبيل هذه الحوادث حوادثٌ كثيرة توضّح علاقة قسم من البلايا مع أعمال الإنسان وعقوبته، بحيث لو جُمعت لصارت كتاباً عظيماً.

وخلاصة الكلام وَوِفقاً للاستدلالات العقلية والمنطقية، وآيات قرآنية كثيرة، ووِفقاً للروايات والتأريخ، فإنّه لا يُمكن إنكار كون قِسم

ملحوظ من المصائب والبلايا النازلة بالظالمين والطواغيت ذات صيغة جزائية، بالرغم من عدم إدراك الجهلاء والغافلين العلاقة بين العلة والمعلول هذه.

ومُسَلَّماً أنّ اللَّه لم يكن ليظلمهم فى مثل هذه الموارد بل كانوا أنفسهم يظلمون، كما قال تعالى: «ذَلِكَ مِن أَنبَاءِ القُرَى نَقُصُّهُ عَلَيكَ مِنهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ* وَمَا ظَلَمنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُم». (هود/ ۱۰۰- ۱۰۱)

---

(۱) ورد تفسير هذه الآيآت وشرح هذه القصة فى التفسير الامثل ذيل الآية المذكورة من سورة السبأ.

العلاقة بين الذنوب والبلاء فى الروايات الإسلاميّة:

ما ذكرناه آنفاً ملحوظٌ أيضاً فى الروايات الإسلاميّة بشكل واسع بحيث إنّ قِسماً ملحوظاً على الأقل من المصائب والبلايا التى تُصيب المجتمعات الإنسانية ذات صيغة جزائية وقصاص للذنوب: وكنموذج على ذلك:

۱- عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إن اللَّه تعالى إذا غضب على أمّةٍ، ثم لم يُنزل بها العذاب أغلى أسعارها وقصّر أعمارها ولم تربح تجارتها ولم تغزُر أنهارها ولم تُزكّ ثمارها وسلّط عليها شرارها وحبس عليها أمطارها» «۱».

۲- ورد فى حديثٍ آخر عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «كُلّما احدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون أحدث لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون» «۲».

۳- فى رواية اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من يموت بالذنوب أكثر ممّن يموت بالآجال، ومن يعيش بالإحسان أكثر ممّن يعيش بالأعمار» «۳».

۴- وعنه أيضاً عليه السلام: «إنّ الرجُل ليُذنب الذنب فيُحرمُ صلاة الليل وإنّ عمل الشّر أسرع فى صاحبه من السكّين فى اللحم!» «۴».

يُمكن لهذه الأحاديث أن تكون شاهداً على هذا البحث أو البحث السابق بخصوص العلاقة الطبيعيّة بين الذنب والحوادث المُرة، (تأمل جيداً).

۵- عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «وجدنا فى كتاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله (الروايات النبويّة) أنّه قال: «إذا ظهر الزنا من بعدى كثر موت الفجأة، وإذا طفّف المكيال والميزان أخذهم اللَّه بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كُلّها، وإذا جاروا فى الأحكام تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلط اللَّه عليهم عدّوهم، وإذا قطعوا الأرحام جُعلت الأموال فى أيدى الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف ولم

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۷۰، ص ۳۵۳.

(۲) المصدر السابق، ج ۷، ص ۳۴۵.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۵۴.

(۴) المصدر السابق، ص ۳۵۸، ح ۷۴.

ينهُوا عن المنكر، ولم يتّبعوا الأخيار من أهل بيتى، سلط اللَّه عليهم شرارهم، فيدعوا خيارهم فلا يُستجاب لهم!» «۱».

۶- نُقِلَ- فى تفسير سورة نوح عليه السلام- حديث لطيف فى هذا المجال عن أمير المؤمنين على عليه السلام: نقل القلانسى وهو

(أحد كبار علماء أهل السُّنّة) فى تفسيره أنّ رجُلًا جاء إلى على عليه السلام وقال له: يا أمير المؤمنين! أذنبتُ كثيراً من الذنوب وسوّدت بها صحيفة أعمالى فادعو ليغفر لى ربّى، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار».

وجاءه رجلٌ آخر وقال: أصاب مزارعى الجفاف بسبب قلة المياه فادعو اللَّه لِيُنزّل الغيث، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار».

وجاءه آخر وقال: أنا رجل فقير وقد أنهكنى الفقر فادعو اللَّه ليمنَّ علىَّ من عميم لطفه، فقال له: «عليك بالاستغفار».

وجاءه رابعٌ وقال: لى ثروة طائلة ولكن لا ذريّة لى فادعو اللَّه سبحانه وتعالى ليهب لى ذريّة، فقال له: «عليك بالاستغفار!».

وقام إليه آخر وقال: يا سيّد الوصيين، إنّ بستانى شحيح الثمار، فادعو اللَّه ليبارك فيها، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار».

وقال آخر: يا على! جفّت عيون المياه فى أرضنا، وشحّت فروع الأنهار، وحلّ بنا القحط، فأسألك الدعاء يا سيدى، فقال عليه السلام: «عليك بالاستغفار!».

يقول ابن عبّاس: كنت حاضراً عند أمير المؤمنين عليه السلام فقلت له: يا أمير المؤمنين سألوك أسئلة مختلفة وأجبتهم جواباً واحداً (ووصفت دواءً واحداً لجميع هؤلاء المرضى وهو الاستغفار!) فقال عليه السلام: «يا ابن عمّى! أولَمْ تسمع هذه الآيات (عن لسان نوح عليه السلام) التى تقول: «فَقُلتُ اسْتَغفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً* يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُمْ مِّدرَاراً* وَيُمدِدكُم بِأَموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَّكُم جَنَّاتٍ وَيَجعَل لَّكُم أَنهَاراً» ...» «۲».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۷۴، ح ۲.

(۲) تفسير منهج الصادقين، ج ۱۰، ص ۱۱۹، فى تفسير الآية ۱۲ فى سورة نوح. (مع شىء من الإختصار).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۴

وقد نقل جمعٌ من المفسّرين الحديث المذكور عن الحسن البصرى، وإن كان منقولًا عنه حقّاً، فإنّه على الأقوى قد سمعه عن أميرالمؤمنين على عليه السلام مباشرةً لأنّه استفاض من نور الإمام عليه السلام كثيراً.

إنّ الروايات المذكورة والروايات الكثيرة الاخرى المنقولة فى التواريخ وكتب الأخبار تُعدُّ من أفضل الشواهد على وجود علاقة بين قسم من المصائب مع الذنوب والمعاصى (طبعاً إنّ قِسماً من هذه الروايات يشير إلى الأثر الوضعى للأعمال، وقسماً آخر يُشير إلى العقوبات الإلهيّة وبعضها الآخر يحمل كلا المعنيين).

۴- المصائب الموقظة

لا ريب أنّ لقسمٍ من الحوادث المزعجة أثراً ايجابياً فى تمزيق حُجب الغرور، وإيقاظ الإنسان من نوم الغفلة، وتخليصه من مخالب عبادة الهوى والتشبُّث بالرأى، وتُعتبر الكثير منها منعطفاً فى حياة الأفراد ذوى الإستعداد للهداية.

فوفرة النعمة، وقدرة السلطة، والعافية قد تغُر الإنسان لدرجة بحيث ينسى نفسه بالمرّة، فيعتقد بكونه مصدراً لجميع المواهب، وبأفضليته على الآخرين، وكأنّه يتصّور خلود الحياة فيتبدّل فى هذا الحال إلى موجودٍ خطير، ظالمٍ، أنانى، عنيد وعابث، ويستمر على هذه الصفات مالم يُصادف مشكلة فى حياته، فيخسر حياته ويخسر الآخرين.

فهاهنا تخرج يد العناية الإلهيّة من كُمّ رحمانية البارى لُتعين الإنسان، فتحدث مصيبة عظيمة ثقيلة، كأن يفقد أحد أعزّائه، أو يفشل فى مساعيه وجهوده، أو تهدم زلزلةٌ قصر آماله، أو تُحرق صاعقةٌ قِسماً من أمواله.

فيتعرّض لوخزة قد توقظه فيدخُل فى عالم التفكير، ويعود من التّيه والضياع فيخطو فى جادّة الصواب.

وقد لاحظنا المطبّات الإصطناعية التى توضع فى الطرق المستوية بهدف الحد مِن نوم

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۵

قادة السيارات والحيلولة دون سقوطهم فى المزالق.

وقسم من المصائب بمثابة المطبّات فى طريق حياة الإنسان التى تهز كيانه بقوّة لتمنعه من نوم الغفلة الذى يؤدّى إلى هلاكه.

ويُمكن أن يصدُق هذا الكلام بخصوص الإنسان، أو مجتمع معين، أو جميع المجتمعات البشريّة، ويُعطى فلسفة قيّمة لقسم من حوادث الحياة الأليمة.

ولقد وصل الإنسان اليوم، فى ظل التقدم الصناعى، إلى درجة من القدرة بحيث سخّر السماء والأرض وكشفت أجهزته الفضائية الستر عن أسرار أبعد سيّارات المنظومة الشمسيّة أيضاً، وحصل منها على أخبار عجيبة مذهلة.

وضجّت أصداء العقول الألكترونية، بحيث صار تركيب أعضاء الإنسان عملًا بسيطاً.

ويُحتمل أن تؤدّى مجموعة هذه الظواهر إلى اغترار الكثير من العلماء، لكنهم عندما يَرون بقاء مرض السرطان يفتك بالناس بالرغم من كثافة جهود آلاف بل ملايين العلماء المبذولة على مدى التاريخ، أو مرض (الأيدز) الحديث الظهور الذى ينشأ من مكروب أو فيروس صغير جدّاً وقد حيّر الجميع وأرعبهم- والجدير بالاشارة إلى أنّ هذا المرض يأخذ قرابين من الدول الصناعية المتقدمة أكثر من غيرها- سيتعّرضون لهزّه فكريّة عنيفة، وسينتبهون لحظة إلى ضعف وعجز هذا الإنسان القوى مقابل عظمة الكون وخالقه.

ولا يُمكن إنكار أنّ قِسْماً عظيماً من سكّان العالم لايعتبرون من هذه الحوادث أبداً، ولا يعيرون لها اهتماماً، بل يستمرون فى مواصلة سلوكهم المنحرف، ويبقون منغمسين فى عالَم الخيال، ولكن من المُسَلَّم أن قِسْماً منهم يعتبرون بها ويتوجهون إلى إصلاح أنفسهم. وهذه فلسفة مهمّة جديرة بالملاحظة.

ولا يلتبس الأمر عليك فإنّنا لا نقصد بأنّ جميع المصائب والحوادث الأليمة من هذا القبيل، ولا نُقر بوجوب الاستسلام أمام الحوادث والتقاعُس عن مكافحة المشاكل والمصائب، بل نقول: إنّ قِسْماً من الحوادث مُرّة لدرجة بحيث إنّ الإنسان لا يستطيع التكهُّن بها ولا يستطيع مواجهتها، وقسم من هذا النوع يدخل فى موضوع بحثنا وفى زمرة المصائب الموقظة والحوادث الأليمة المنبّهة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۶

القرآن والمصائب الموقظة:

نعود الآن إلى القرآن لنتأمل فى ما يقول فى هذا الخصوص، حتى يتسنى لنا وضع الدليل العقلى على محك البيان النقلى لتؤيده بواسطته.

ولكون القرآن كتاباً تربوياً عظيماً، ولارتباط موضوع بحثنا بالمسائل التربوية ارتباطاً وثيقاً جدّاً فقد تحدّث القرآن كثيراً حول هذه المسألة وبتعابير متنوعة ومختلفة من جملتها:

۱- «وَمَا أَرسَلنَا فِى قَريَةٍ مِّن نَّبىٍّ إِلَّا أَخَذنَا أَهلَهَا بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ». «۱» «۲»

(الأعراف/ ۹۴)

يُستنتَجُ من هذه الآية بوضوح أنّ الإيقاظ والتنبيه هو أحد أهداف الحوادث المزعجة التى كانت تُصيب الأقوام الغارقة فى بحار الذنوب، وكان سِرّ مقارنة هذه الحوادث مع دعوات الأنبياء هو تهيأة الأرضية الخصبة لقبول دعواتهم، وتناغم (التكوين) مع (التشريع) يقّوى تأثير مواعظهم.

۲- «ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ وَالبَحرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُم يَرجِعُون». (الروم/ ۴۱)

يُمكن الإستفادة من هذه الآية فى بُعدَين مُختلِفين هما:

بُعد البلايا الذاتية (التى يُسببها الإنسان بنفسه) وبُعد البلايا والمصائب الموقِظة، وتوضِّحُ تناغُمَ هذا القسم من المصائب والحوادث غير المطلوبة، مع المسائل التربويّة وبرامج التكامل الإلهيّة.

٣- «وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ العَذَابِ الأَدْنى دُونَ العَذَابِ الأَكبرِ لَعَلَّهُم يَرجِعُونَ». (السجدة/ ٢١)

إنَّ تعبير (العذاب الأدنى) ذو مفهوم واسع يشمل أغلب الاحتمالات التى ذكرها المفسّرون، كُلًّا على حِدة، (المصائب والآلام والمتاعب، الاضرار الماليّة، الجفاف، القحط

---

(١) وردت آية مماثلة لهذه الآية فى سورة الأنعام، الآية ۴۲.

(٢) «يضّرّعون» من مادّة «تضرّع» وتعنى الخضوع والطلب المصحوب بالتواضع (و هى بالأصل مأخوذة من مادّة ضرع وتعنى نزول الحليب فى الثدى).

والجوع، الهزائم فى الحروب، وما شاكل ذلك).

ولكنّ ما ورد فى كلام بعض المفسّرين من احتمال كون المقصود من العذاب الأدنى هو عذاب القبر لا يتناسب مع ظاهر الآية، لأنّ جملة لعلّهم يرجعون تُحدّد هدف هذا العذاب (العودة والرجوع) ممّا لا يتناسب مع عذاب القبر (تأمل جيداً) «١».

وبخصوص آل فرعون ورد ما يلى:

۴- «وَلَقَد أَخَذنَا آلَ فِرعَونَ بِالسِّنِينَ وَنَقصٍ مِّنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ».

(الأعراف/ ١٣٠)

بالرغم من أنّ هذه الآية خاصّة بآل فرعون، إلّاأنّنا نعلم عدم اختلافهم عن بقية الأقوام بإصابتهم بمشاكل مُنهكة ليسْتيقظوا وينزلوا من مركَب الغرور، ويعودوا إلى طريق الحق.

والظريف هو أنّ بعض الآيات المذكورة قد ذكرت هدف هذه المسألة (التذكّر)، وبعضها الآخر (التضرُّع)، وبعضها (الرجوع والعودة) والتى هى بالحقيقة تُشكل المراتب المختلفة والمنظمة للرجوع إلى اللّه، فأولًا يتذكّر الإنسان، ثم يتضرّع إلى اللّه، ويرجع إليه منيباً مستغفراً.

أو بتعبيرٍ آخر فالمرحلة الأولى (الفكر) والمرحلة الثانية (الذكر) والمرحلة الثالثة (العمل)، ومن قبيل هذه النقاط تُعطى بلاغاً جديداً من هذا الكتاب السماوى عندما تُقارَنُ الآيات القرآنية مع بعضها وتُفَسَّرُ بصورة موضوعيّة.

طبعاً كما أشار التأريخ وكما صرّح القرآن أيضاً فإنّ الكثير من الأقوام المنحرفة السالفة لم تُبدِ رد فعل إيجابى إزاء هذه المصائب والعذاب، واستمرّت فى غيّها حتى هلكت بالعذاب الإلهى النهائى، كما ورد فى الآية: «وَلَقَد أَخَذنَاهُم بِالعَذَابِ فَمَا استَكَانُوا لِرَبِّهِم وَمَا يَتَضَرَّعُونَ». (المؤمنون/ ٧۶)

---

(١) ورد نظير هذا المعنى فى سورة الاعراف، الآية ١۶٨؛ سورة الزخرف، الآية ۴٨.

مع هذا فقد كان هنالك أقوامٌ أبدَوْا ردود فعل ايجابية إزاء مثل هذه الحوادث، أو خرج من بين هذه الأقوام العنيدة افرادٌ اعتبروا واهتدَوْا، لذا كانت مثل هذه المصائب عامل ايقاظ للبعض، وعاملَ إتمام الحجّة للبعض الآخر.

الحوادث الموقظة فی الروایات الإسلامیّة:

یُلاحظ فی الروایات الإسلامیة أیضاً وجود تعابیر واضحة تحکی عن العلاقة بین بعض مصائب ومشاکل الحیاة، والمسائل التربویّة، وتؤید ما استنتجناه عن طریق العقل والآیات القرآنیّة، مثل:

۱- ورد فی إحدی خُطَب نهج‌البلاغة عن أمیرالمؤمنین علی علیه السلام أنّه قال: «إنّ اللّه یبتلی عبادَهُ عند الأعمال السیّئة بنقص الثمرات وحبس البرکات وإغلاق خزائن الخیرات لیتوب تائبٌ، ویُقْلِعَ مُقلعٌ ویتذکّر متذکّرٌ ویزدجر مُزدجرٌ!» «۱».

۲- وعنه علیه السلام: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان وللأنبیاء درجة وللأولیاء کرامة!» «۲».

۳- وفی حدیثٍ عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «المؤمنُ لا یمضی علیه أربعون لیلة إلّا عرض له أمر یُحزنه یذّکر به» «۳».

۴- وعنه علیه السلام: «إذا أراد اللّه عزّوجل بعبدٍ خیراً فأذنب ذنباً تبعَهُ بنقمة فیُذکّره الإستغفار، وإذا أراد اللّه بعبدٍ شرّاً فأذنب ذنباً تبعَهُ بنعمة لیُنسیهُ الإستغفار، ویتمادی به، وهو قول اللّه عزّوجل: «سنستدرجهم من حیث لایعلمون» بالنِعَم عِنْدَ المعاصی!» «۴».

۵- نختتم هذا البحث بحدیثٍ آخر عن الإمام علی علیه السلام: «إذا رأیت اللّه سُبحانه یُتابع علیکَ البلاء فقد أیقظک، وإذا رأیت اللّه سُبحانه یُتابع علیک النعم مع المعاصی فهو استدراجٌ لک» «۵».

---

(۱) نهج‌البلاغة، الخطبة ۱۴۳.

(۲) بحارالأنوار، ج ۶۴، ص ۲۳۵، ح ۵۴.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۱۱، ح ۱۴.

(۴) اصول الکافی، ج ۲، ص ۴۵۲ باب الاستدراج، ح ۱.

(۵) غررالحکم، عن (میزان الحکمة) ج ۱، ص ۴۸۹.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۶۹

۵- الإبتلاء عن طریق المشاکل

نحن نعلم تفاوت الابتلاء الإلهی عن الإبتلاء البشری بصورة تامّة، فالناس یمتحنون شخصاً أو شیئاً لتتوضّح لهم بعض المجهولات، وتتبیَّنَ قیمة وقابلیة واستعداد ذلک الشخص أو ذلک الشیء خلال الإمتحان.

لکن اللّه لا یخفی علیه شیءٌ فی جمیع عالم الوجود، فی الأرض والسماء وما وراء السموات، وفی داخل وخارج الأشیاء لکی یعرفه عن طریق الإمتحان.

إذن لِمَ وکیف یمتحن!؟

إنّ للإبتلاء الإلهی صیغة تربویّة، إنّ الذهب عندما یلقی فی النار فمن أجل تهذیبه وتنقیته من الشوائب أو عندما یُدرّبُ الجنود بالأعمال الشاقّة علی تمرین المقاومة والإستقامة فمن أجل رفع مستوی لیاقتهم البدنیة، فالابتلاء الإلهی مثلهُ مثلُ هذه الحالات بالضبط. فهی تزید من تحمُّل ومعرفة ونقاء البشر، وبکلمة واحدة، إنّ الإبتلاء وسیلة لتکامُل وتربیة روح الإنسان وجسمه.

لذا فلا عجب من کون قسم من مصائب ومشاکل الحیاة فی هذا الصدد من الامتحان والاختبار، (نکرر بأنّ قسماً من المصائب داخلة فی هذا النوع ولیس جمیعها).

لا يوجد شَعْب فى العالَم تمكّن من التقدُّم والرقى فى الميادين الصناعية والعسكرية والعلميّة دون أن يتعّرض لضغوط معيّنة، وكما قال الفيلسوف والمفسّر التاريخى المعروف (تو اين بى):

الحضارات اللامعة التى ظهرت فى العالم كان سبب ظهورها هو تعرّض شعبٍ لهجوم شديد من قبل عدّوٍ خارجى (فاستعمل ذلك الشعب جميع قدراته واستعداداته واستعان بمُدّخراته فى مواجهة ذلك العدو).

فالقادة الذين يخوضون الحروب يمتازون بالعظمة والقوة والصبر، والتجّار الذين يمرّون بأزمات اقتصادية شديدة يتعلمون تجارب قيّمة، والسياسيّون الذين يجتازون أزمات مختلفة سيكونون أقوياء ومقتدرين.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۰

وتزداد صلابة الثوريين فى السجون وتحت التعذيب، لا نقول بوجوب دخولهم السجن، بل نقول بأنّ السجن يزيدهم قوّةً وصلابة.

أعتقد بأنّ علاقة مشاكل ومصائب الحياة مع تربية وتكامل الإنسان قد اتضحت بهذه الأمثلة والتحليلات، وطبعاً لا ينبغى هنا حساب (المصائب الذاتية)، وما ذكرناه لم يكُن عُذراً من أجل ترك مواجهة المشاكل والمصائب.

القرآن والإبتلاءات العصيبة:

نعود الآن إلى القرآن الكريم مرّةً اخرى لنرى ما لهذه المسألة من أصداء فى الآيات القرآنية:

۱- «وَنَبلُوكُم بِالشَّرِ وَالخَيرِ فِتنَةً وَإِلَينَا تُرجَعُونَ». (الأنبياء/ ۳۵)

إنَّ كلمتى (الشر) و (الخير) هنا ذواتا معنىً واسع يشمل أنواع المصائب والأمراض والمشاكل والإبتلاء والفقر والفاقة، وكذا أنواع الإنتصارات والصحّة والعافية والغنى وما شاكل ذلك.

ويجدر الإلتفات إلى تقدُّم ذكر (الشر) على (الخير) فى الموارد الامتحانية التى يواجهها الإنسان، لأنّ الإمتحان بالبلاء أصعب وأعقدُ (ينبغى الانتباه إلى أنّ هذه الشرور ذات صيغة نسبيّة).

وجملة (وإلينا تُرجعون) المذكورة فى ذيل الآية تُعد إشارة لطيفة إلى حقيقة كون الدنيا دار ابتلاء واختبار لا دار مقرٍ وخلود.

وعلى أيّة حال تُعد الآية دليلًا واضحاً على كون قسم من المصائب والآلام ذات صبغة ابتلاء وامتحان لتمحّص صبر الإنسان، كما هو الحال فى كون قسم من النّعم امتحانية أيضاً لمعرفة مقدار شُكره إزاء النعم الإلهيّة.

۲- «وَلَنَبلُوَنَّكُم بِشَىءٍ مِّنَ الخَوفِ وَالجُوعِ وَنَقصٍ مِّنَ الأَموَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۱

الصَّابِرِينَ». (البقرة/ ۱۵۵)

ذكرت هذه الآية خمسة أنواع من مصائب ومشاكل الحياة كخمس موادٍّ من مواد الامتحان الإلهى، ففى المقدّمة يأتى (الخوف)، والذى هو أهم من الجميع، ثم (الجوع): ثم (نقصٍ من الأموال) ثم (الأنفس) ثم (الثمرات).

ويجدر التذكير إلى كون ذيل الآية يدل على أنّ هذا الإبتلاء يرفع من مستوى قوّة مقاومة تحمُّل الإنسان، ويزيده صلابةً وهو يمرّ بهذه الحالات العصيبة (يجدر الإنتباه إلى أنّ تعبير (نقص الثمرات) قد فُسّرَ بمعنى فقد الأولاد الذين هم ثمرات قلب الإنسان، ويُمكن أن يكون ذا تفسيرٍ واسع يشمل كلا المعنيين، وكذلك فُسّرَ (نقص الأنفس) بمعنى المرض أيضاً).

وفى الحقيقة إنّ من أهم مواهب الحياة هى: الأمْن والأنفس والأموال ومنابع الإنتاج، واللّه سبحانه وتعالى يمتحن الإنسان بواسطة الآفات التى تُصيب هذه الأمور ليتضح مقدار صبره وتحمّله.

والتعبير بكلمة (شىء) يُعدُّ شاهداً حيّاً على هذا المعنى وهو عدم كون جميع حالات الخوف والجوع ونقص الأنفس ذات صيغة

إمتحانيـة إلهيّـة، بل إنّ قسـماً منها فقط من هـذا النوع، ومن المسلّم به أنّ الابتلاء لا يشـمل أبـداً المصائب الذاتية والناشـئة من الجهل والتقاعُس والتهاون، وهذه الآية يجب أن لا يتخذها البعض حُجّةً لترك الجهاد والسعى، والتوجُّه إلى الكسل والخمول.

٣- «وَأَمَّا إِذَا مَا ابتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيهِ رِزقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ». (الفجر/ ١۶)

من المُسلَّم به أنّ هذه الآية تخص الذين يُبدون ضـعفاً وخمولًا فى ساحة الإمتحان وبمسـتوىً من ضيق التحمَّل، بحيث إذا نزلت عليهم نعمةٌ أصابهم الغرور، وبمجرّد أن تصـيبهم مصيبة معينة يأخذهم اليأس والقنوط، ولكن على أيّة حال، تعتبر هذه الآية دليلًا واضحاً على كون قسم من مشاكل الحياة ذات فلسفة إمتحانية.

۴- «هُنَالِكَ ابتُلِىَ المُؤمِنُونَ وَزُلزِلُوا زِلزَالًا شَدِيداً». (الأحزاب/ ١١)

تشير هذه الآية إلى واقعة الأحزاب التى كانت واحدةً من أعظم ميادين الإمتحان الإلهى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣٧٢

لمسـلمى صدر الإسـلام، ففى ذلك اليوم الذى هجم جيش الأحزاب الجرّار على المدينة من الأعلى والأسفل، وحاصر جمع المسلمين القليلين عـدداً، وزاد الطين بلّـة إشاعات منافقى الداخل، فتعقدّت الأمور من كل ناحية، إلى الحد الذى قال القرآن فى وصـفه: «وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ». (الأحزاب/ ١٠)

يقول القرآن: إنّ هـذه المصـيبة والعاصـفة الشديـدة التى زلزلت جماعـة من المؤمنين كانت مظهراً من الإمتحان الإلهى ...، وهذه الآية تأكيد آخر على ما ذكرناه.

يُلاحـظ فى الروايـات الإسـلامية أيضـاً وجود إشـارات واضـحة إلى هـذه الحقيقـة، وهى كون قسم من المصـائب والبلايـا ذات صـيغة إمتحانية:

١- ورد فى الحديث الذى نقلناه سابقاً بمناسبة اخرى عن على عليه السلام: «إنّ البلاء للظالم أدب، وللمؤمن امتحان» «١».

٢- قـال الإمـام على عليـه السـلام فى إحـدى خُطبـه فى وصـف الأنبيـاء: «قـد اختـبرهم اللَّه بالمخمصـة وابتلاـهم بالمجهَـدَة وامتحنهم بالمخاوف، ومحضهم بالمكاره» «٢».

٣- وذكر عليه السلام من قبيل هذا الكلام بالنسبة لعامة الناس بتعابير اخرى فى نفس الخطبة:

«ولكن اللَّه يختبر عباده بأنواع الشدائد ويتعبّدهم بأنواع المجاهد ويبتليهم بضروب المكاره» «٣».

---

(١) بحارالأنوار، ج ۶۴، ص ٢٣۵، ح ۵۴.

(٢) نهج‌البلاغة، الخطبة ١٩٢ (القاصعة).

(٣) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ٣٧٣

۶- معرفة النعم فى المصائب

لايُمكن لأحـدٍ أن ينكر هـذه الحقيقـة، وهى عـدم معرفـة الإنسان قيمـة النعمة عندما يكون غارقاً فيها، ولا يلتذ بها، ولا يؤدّى شـكرها، وأحياناً قد لا ينتبه إلى أصل وجودها!

فلو لم يمرض الإنسان أبداً لما عرف نعمة السلامة بكل مالها من أهميّة وعظمة، وكموهبة إلهية عظيمة.

ولو لم تهتزّ الأرض أحياناً لما عُرف قدر هذا السكون العجيب الذى يسودها طيلة السّنة ويدور فى ظلّه كل شىء حول محوره.

ولا تعرف حقيقة الظلمة والنور إلّاإلى جنب بعضهما، وإن لم تهيّج عواصف الحوادث بحر افكار الإنسان أحياناً لما فهِمَ قدْر ساعات الهدوء والسكون.

أو بتعبيرٍ أدق إنّ بعض المشاكل بمثابة ظل نور الحياة الذى لا يمكن للإنسان أن يرى شيئاً بدونه، يقول العلماء اليوم: بأنّه (لو وُضعَ جسمٌ كرويٌّ وسُلّطَ عليه نورٌ متساوٍ من جميع الجهات لما أمكن رؤيته!):

إنّ وعورة سطح الجسم واختلاف زوايا انعكاس النور هى التى تُمكّن الإنسان من رؤية الجسم، وكذا النعم الإلهيّة بالضبط، فلو كانت على وتيرةٍ واحدة وبصورة دائميّة لما أمكن معرفتها.

ومن حيث كون اللّه قد خلق هذه المواهب العظيمة متاعاً للإنسان من جهة، ووسيلة للتقرب إليه من جهةٍ اخرى (عن طريق شكر النعمة)، فمن المنطقى جدّاً أن يقبضها ويبسطها أحياناً ليتحقق الهدفان أعلاه.

ويُلاحظ وجود إشارات ظريفة وغنية فى الآيات القرآنية إلى هذه الحقيقة- ولو بصورة غير صريحة- والتى تُبين قدْر النّعمِ بالقياس مع لحظات سلبها، ومن جُملتها:

١- «قُل مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ تَدعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِن أَنجَانَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ». (الأنعام/ ۶۳)

أجَلْ، لم يكن هؤلاء ليعرفوا قدر النور والأمن قَبلَ أن يُبتلوا بظلمات البر والبحر

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۴

الرهيبة، ولكنهم عندما يُسْلَبون هذه النعمة سيذكرون مُبدئها ويعلنون عن إستعدادهم للشكر.

٢- «وَلَئِن أَذَقنَاهُ نَعمَاءَ بَعدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّى إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ». (هود/ ١٠)

وتأكيد القرآن على إذاقة النعماء بعد الضرّاء هدفه تبيان قدر النعمة بصورة جيدة ليرفع بالعباد إلى الشُّكر، ولو أنّ جماعة من المغرورين والمُعجبين بأنفسهم فسّروه بشكل آخر.

٣- «وَاذكُرُوا نِعمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم إِذْ كُنتُم أَعدَآءً فَأَلَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَأَصبَحتُم بِنِعْمَتِهِ إِخوَاناً». (آل‌عمران/ ١٠٣)

إنّ القرآن الكريم ومن أجل أن يُبيّن فى هذه الآية قدر نعمة الإتحاد وتأليف القلوب قارنها بالوقت الذى كانت هذه النعمة مسلوبة نهائياً، وعندما كانت نار الفرقة والنفاق تلتهمُ كُلّ شىء، وذكّر المسلمين بمعرفة هاتين الحالتين بالقياس إلى بعضهما ليعرفوا قدر هذه النعمة الإلهيّة الحقيقى.

ويُلاحظ وجود بعض الإشارات إلى هذا القسم من المصائب والآلام فى الروايات الإسلامية أيضاً، ومن جملتها: ماورد فى حديث المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إنّ هذه الآفات وإن كانت تنالُ الصالح والطالح جميعاً، فإنّ اللّه جعل ذلك صلاحاً للصنفين كليهما، أمّا الصالحون فإنّ الذى يُصيبهم من هذا يردُّهم (يذكّرهم) نعم ربّهم عندهم فى سالف أيامهم، فيحدوهم ذلك على الشكر والصبر، وأمّا الطالحون فإنّ مثل هذا إذا نالهم كسر شرتهم وردعهم عن المعاصى والفواحش» «١».

٧- موقع الخير والشّر فى عالم الوجود

اشارة

ذكرنا فيما مضى أن من جملة المسائل التى أوجدت التشكيك فى مسألة عدالة الخالق

---

(١) بحارالأنوار، ج ٣، ص ١٣٩.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۵

إزاء إشكال البعض هى التركيب الثنائى للعالم من (الخير) و (الشر)، بحيث يتعدّى الإشكال أحياناً إلى أبعد من مسألة العدالة ليبلغ حد التشكيك فى أصل وجود الخالق.

تُعد هذه المسألة من المباحث الفلسفية والكلاميّة التى توحى للإنسان بنوع من الظُّلمة والإبهام عندما يدخلها، لكنه كُلّما تعمّق فيها بتأنٍّ، ودقق أكثر فى تحليلها، ظهرت أمامه آفاق جديدة واضحة، إلى أن يُحسَّ فى قلبه بالسكينة اللازمة، بعدما يحصل على الحل النهائى لمسألة الخير والشر.

وبهذه المناسبة ولحل هذه القضية، نجد من الضرورى الإلتفات إلى النقاط الموجزة التالية:

۱- ما معنى الخير والشّر؟

(الخير) هو كل ما يتناغم مع وجودنا ويُسبب تكامله وتقدمّه، و (الشر) هو كل مالا يتناغم معه، ويُسبب الإنحطاط والتخلّف، ومن هنا يتضح جيدّاً بأنّ الخير والشر ذوا صبغة نسبّية، فيُمكن أن يكون أمرٌ ما خيراً لنا وشرّاً للأخرين، أو خيراً لجميع الناس، وشراً بالنسبة لنوع من الحيوانات.

كأن تظهر فى السماء غيومٌ، فتمطر السماء، وتنمو مزارعٌ وتتلقّح أشجارٌ معينة، ولكن نفس هذه الأمطار تُسبّب سيلًا فى نقطةٍ اخرى وتؤدّى إلى الدمار، أو يتهدّم عش طائرٍ بقطرات بسيطة من المطر، فى حين أنّها تُلطف لنا الجو.

فكل جماعة هنا تنظر إلى هذه الظاهرة بمقياسِ وجودها ومنافعها الخاصّة، وتُسمّيها خيراً أو شرّاً.

فإبرة الحشرات، ومخالب وقواطع الحيوانات المفترسة خيرٌ بالنسبة لها لأنّها وسيلة دفاعية أو للحصول على الصيد والغذاء، ولكن قد تكون شرّاً بالنسبة لنا نحن البشر.

من هذا البيان يُمكن الإستنتاج جيداً أنّه ليس من السهل الحكم على كون الحادثة المعينة شرّاً، فيجب أن نأخذ بنظر الاعتبار مجموع آثارها فى مجموع المحيطات، بل فى

مجموع الأزمنة من الحال والمستقبل، أو جذورها الماضية، لكى نتمكن من القول: إنّ أضرارها أكثر من منافعها مثلًا ويجب التصديق بأنّ هذا الحكم ليس سهلًا.

ومن جهةٍ اخرى يُمكن تقسيم الخير والشر إلى مايلى:

أ) الخير المطلق. ب) الشر المطلق. ج) الخير والشر النسبيان.

الخير المطلق: هو الخير الخالى من أى صِفة سلبيّة، وضدّه الشّر المطلق الذى ليس له أى صفة إيجابية، ونادراً ما يوجد مصداق لهذين النوعين، فغالباً ما نواجه أشياء أو حوادث أو ظواهر مركّبة من صيغ إيجابية وسلبيّة، فما فيها صفحات إيجابية أكثر تُسمى خيراً، وما فيها حالات سلبيّه أكثر تُسمى شرّاً، وإذا تعادلت حالات الخير والشّر فيها فهى لا خير ولا شر.

طبعاً يجب الالتفات إلى أنّ حالات الخير والشّر متفاوتة بين الأفراد والأقوام، والمهم هو وجوب الأخذ بنظر الاعتبار فى الحكم النهائى مجموع آثار تلك الظاهرة فى جميع العالَم وفى جميع الأزمنة والأمكنة.

ومن وُجهة نظر المؤمن يُمكن وجود قسمين فقط من هذه الأقسام (الخير المحض) أو (الأكثر خيراً) أو (الشر المحض) أو (الأكثر شرّاً) أو (ما تساوى خيره وشرّه) فيستحيل وجودها، نظراً لكون اللّه تعالى حكيم لأنّ صدور هذه الأقسام الثلاثة من (الحكيم المطلق) قبيح وغير مُمكن.

۲- هل للشرور حالة عدميّة؟

عُرِف بين الفلاسفة والعلماء أن (الشّر) يعود فى النهاية إلى (أمرٍ عدمى)، (أو إلى أمر وجودى يؤدّى إلى العدم)، ولعل أول من صرّح بهذا الرأى هو (أفلاطون) والذى وصف الشّر بالعدم.

وعليه فضدّه، أى الخير، لايحكى إلّاعن الوجود، وكلما كان الوجود أوسع وأكمل كان

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۷

منبعاً لخيرٍ أكثر، إلى أن يصل إلى الوجود الإلهى المطلق اللامحدود الذى هو عين الخير المحض، ومصدر جميع الخيرات والبركات.

وعادةً مايلتجئون إلى هذا المثال البسيط لتوضيح عدميّة الشّر وهو: أننا نقول: (ذبح إنسانٍ برىء شرٌّ)، ولكن لنرى ما هو الشر هنا؟ هل هو قوة ذراع القاتل، أم قاطعية السكّين وجودة عملها، أم تأثُّر رقبة المقتول وظرافتها التى يستطيع الإنسان بواسطتها ممارسة كل أنواع الحركة (حركات الرقبة)؟ فمن المسلّم به أنّ أيّاً من هذه الأمور ليست بشرٍّ ونقص، فالشّر هنا هو انفصال أجزاء الرقبة والأوداج والعظام عن بعضها، ونحن نعلم بأنّ الإنفصال ليس إلّاأمراً عدميّاً.

وكذا قد يؤدّى أمر وجودى أحياناً- كغذاءٍ مسموم- إلى الموت، الذى هو أمر عدمى، لذا فهو شر، أو يؤدّى مكروب معين، الذى هو أمر وجودى، إلى الاصابة بمرض معين، ونحن نعلم بأنّ الموت ليس سوى انعدام الحياة، والمرض ليس إلّافقد السلامة.

ومن هنا يتضح للجميع جواب هذا السؤال وهو: (من خلق الشرور)؟

لأنّه عندما تكون الشرور أموراً عدميّة لايصح أساساً تصوّر وجودها أو موجدها.

نعم، يُمكن أحياناً أن تكون الأمور المسبّبة للعدم أموراً وجودية (كالغذاء المسموم)، ولكن وكما قلنا لو تساوى خيرها وشرها أو غلب شرها أو كان شرها مطلقاً فإنّه لا يُمكن أن تلبس خلعة الوجود.

ويجدر التركيز فى هذه النقطة أيضاً وهى: تساوى (الشر المطلق) مع (العدم المطلق) الذى ليس له وجود خارجى بتاتاً، لأنّ العدم المطلق نقيض الوجود.

أمّا (الشر النسبى) (الشىء الذى يُعد خيراً من جهة وشّراً من جهة ثانية) فله حصة من الوجود طبعاً، أو بتعبيرٍ آخر: فهو خليط من الوجود والعدم، ولكن كما قلنا فإنَّ قسماً واحداً من الشّر النسبى يتماشى مع حكمة اللّه وهو الشىء الذى تغلب عليه حالة الخير، (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۸

۳- الخيرات التى تأتى من الشرور

نظراً لنسبية الخير والشّر، والتأثير المتقابل للأشياء فى بعضها الآخر: كثيراً ما يتفق أن تصير الحوادث والظواهر التى تُعدُّ شروراً فى الظاهر منبعاً لخيرات وبركات مختلفة.

فكثير من حالات الحرمان تصير سبباً فى تفتُّح الإستعدادات والجهود العظيمة، لأنّ الإنسان على أيّة حال ينتفض ويُجنّد جميع ما يمتلكه فى باطن وجوده للحصول على ما يصبوا إليه، وهذه المسألة بالذات ستصير سبباً فى القفزات العلمية والاجتماعيّة.

وكثيرٌ من حالات الحرمان صارت سبباً للوصول إلى اختراعات كبيرة، وكثير من حالات النقصان صارت مقدمة للتوصل إلى منابع مهمّة جديدة.

فالأشجار التى تنمو فى المناطق الصخريّة، والنباتات البريّة التى تنمو بالرغم من افتقارها لكثير من مُسبّبات النمو، فهى أصلب عوداً، وأقوى وقوداً من النباتات التى تنمو على ضفاف الأنهار بعدّة أضعاف، والبشر يخضعون لهذا القانون أيضاً.

والبدو الذين يواجهون أنواع المشاكل دائماً، ويصارعون أنواع الحيوانات الوحشيّة، يتّصفون بالشجاعة والقوّة وشدّة التحمُّل، فى حين نجد سكّان المدن الذين يتمتعون بالنّعم الوفيرة والأمان نجدهم ضعفاء بالقياس إلى البدو.

وللقرآن الكريم بيان لطيف فى هذا الخصوص حيث يقول: «فَإِنَّ مَعَ العُسْر يُسْراً* إِنَّ مَعَ العُسرِ يُسراً». (ألم الشرح/ ۵- ۶)

يجدر الإشارة إلى أن تلازُم هذين الأمرين بدرجة من القوّة والقرب بحيث وكأنّهما متجاوران، كما يُستنتجُ من كلمة (مع).

وهـذه المسألـة أيضاً جـديرة بالإنتباه وهى كون (العسـر) معرفاً بالف لام التعريف، وتعبير (يسـر) مذكور بصـيغة النكرة، والمقصود منه تبيان العظمة أى مع العسر يسرٌ عظيم.

يعتقـد بعض المؤرخين بأنّ سـيل المشاكل كان من أحد العوامل المهمّة لتقدُّم المسـلمين الأوائل السـريع، حيث ترعرع المسـلمون فى وسط تلك المشاكل، وصاروا فى ظلّها مجاهدين أقوياء ومقتدرين، فى حين كان من أحد عوامل تراجع وتخلُّف المسلمين فى

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۷۹

القرون المتأخرة هو العيش المرفّه، والتلذذ بأنواع النعم، والركون إلى الدعة.

ونختتم هذا الكلام بعدّة جملٍ مقتطفة من آراء العلماء العظام حول هذا الأمر.

يقول أحد الكتّاب الغربيين: «لا اعتقد بوجوب تحملُّ كل فرد لمصـيبة معينة، ولكن أعلم بكون المصيبة مفيدة فى الغالب بل ضروريّة، ولكن شريطة أن يُتقن كل فرد كيفية مواجهة المشاكل، وأن يعتبر هذا العمل من الأعمال الأساسية والمفيدة» «۱».

وهـذا التعبير دقيقٌ جدّاً، وهو عدم لزوم اسـتقبال الإنسان للمصائب، أو الجلوس إزاءها مكتوف اليدين، وعدم مكافحة عوامل المصـيبة، ولكن مع هذا يجب عدم نسيان إمكانية تحويل قسم من المصائب اللا إرادية، التى نعجز عن مواجهتها، إلى عوامل بنّاءة فى حياتنا.

يقول الفيلسوف والطبيب الفرنسـى المعروف (ألكيس كارل) فى كتابه (الإنسان ذلك المجهول): «غالباً ما ينزوى أبناء الأثرياء، الـذين قضّوا عُمراً بالثروة والنعمة وكانوا مقتدرين فى كل الجوانب، عن العمل اتّكالًا على ثروة آبائهم، ويخلقون فى أنفسـهم أسباب الضعف وسحق قواهم واستعداداتهم الخلّاقة» «۲».

وبالعكس فهناك كثير من الذين يترعرع أبناؤهم وسطَ خضم من المشاكل، فإنّهم يحققون انتصارات ملحوظة ونجاحاً كبيراً.

نختتم هذا الكلام بكلامٍ لأميرالمؤمنين على عليه السلام.

قال عليه السـلام فى الكتاب الخامس والأربعين من نهـج البلاغـة فى الإجابـة عن سوالٍ وُجّه إليه وهو: كيفيـة قـدرته عليه السـلام على مبارزة شجعان العرب بالرغم من تناوُلِهِ أغذية بسيطة جدّاً؟!

«ألا وإنّ الشجرة البريّة أصلب عوداً، والرواتع الخضِرة أرقّ جلوداً، والنباتات العِزْية أقوى وقوداً وأبطأ خموداً».

۴- الخير والشّر فى القرآن الكريم

للخير والشر معنىً واسع فى القرآن الكريم يشمل مصاديق متنوعة وأفراداً متفاوتين.

---

(۱) سرّ النجاح.

(۲) الإنسان ذلك المجهول، ص ۱۵۲.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۰

ورد الخير فى القرآن بمعنى (المـال) (البقرة/ ۱۸۰) وبمعنى (العلـم) (البقرة/ ۲۶۹)، وبمعنى (الجهـاد) (النساء/ ۱۹)، وبمعنى (الأعمال الصالحة) (النساء/ ۱۴۹)، وبمعنى (الإيمان) (الأنفال ۲۳)، وبمعنى (القرآن) (النحل/ ۳۰).

وبمعانٍ أُخرى أيضاً مثل (الناس الأخيار)، (الظن الحسن) (الولد الصالح)، (البستان والزرع) وما شاكل ذلك.

ويجـدر الإلتفات إلى أنّ هـذه الكلمـة قـد ذُكرت فى القرآن ۱۷۶ مرّة بصـيغة المفرد و ۱۲ مرّة بصـيغة الجمع، فى حين نجـد أنّ الشـر مذكور ۳۰ مرّة فقط بصيغتى المفرد والجمع!

وكلمة (شر) المضادّة لكلمة (خير) وردت بمعنى البلاء والمصيبة، العذاب، أنواع المكاره والشدائد، وجميع أنواع الوسوسة والفساد.

والمسألة الاخرى التى يلزم الإلتفات إليها هى أنّ القرآن قد اعتبر (الشّر) من مخلوقات اللّه فى قوله تعالى «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ». (الغلق/ ۲)

ويتبادر إلى الأذهان هنا سؤالان:

الأول: كيف يتناسب هذا التعبير مع عدميّة الشرور؟

والثانى: قول القرآن فى آيةٍ اخرى: «الَّذِى أَحسَنَ كُلّ شىءٍ خَلَقَهُ». (السجدة/ ۷)

فكيف تتناسب هاتان الآيتان مع بعضهما؟ وبتعبيرٍ آخر: يظهر من الآية الثانية أنّ كل ما فى الوجود ويصدق عليه تعبير (شىء) ومن مخلوقات اللّه فهو حَسن، فى حين أنّ الآية الأولى تأمر بالإستعاذة من (شرّ ما خلق).

وفى الإجابة عن السؤال الأول يجب القول: إنّ الآية المذكورة لم تعتبر أى مخلوقٍ شرّاً، بل تقول بإمكانية صيرورة بعض المخلوقات سبباً للشّر، أى بأن تعدم كمالًا، أو تغصب حقّاً، أو تُبعثر نظماً معيناً، لذا يبقى الشّر بنفس مفهومه العدمى الذى يُمكن أن يتحقق من قبل الناس الأشرار أو الشياطين. (تأمل جيداً).

ويُحتملُ أيضاً أن يكون قصد الآية هو الشّر النسبى لا المطلق، أو الشّر الغالب كأنياب الأفعى التى هى وسيلة دفاعيّة بالنسبة لها، ووسيلة شر بالنسبة للإنسان (أحياناً)، فالإنسان يعوذ باللّه من قبيل هذه الموجودات.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۱

وقد فسّر بعض المفسّرين (الشّر) هنا بمعنى: الشياطين أو جهنّم، أو أنواع الحيوانات المؤذية، أو الناس والشياطين الأشرار، وأنواع الأمراض والآلام والمتاعب والقحط والبلايا.

ولكن كما ذكرنا فإنّ الآية ذات مفهوم عام، ونحن نعلم بأنّ أى واحدة من هذه الأمور ليست شرّاً مطلقاً أو شراً غالباً، كما شرحنا ذلك فى البحوث السابقة، ولكن يُمكن أن تصير سبباً للشّر، فيعوذ الإنسان باللّه من شرّها.

ومن هنا يتضح جواب السؤال الثانى أيضاً وهو أنّ جميع ما خلق البارى سبحانه خيراً، «إما مطلقاً أو غالباً»، وما نُسميه نحن بالشّر إما هو ذو صبغة عدميّة لا- يسعه مفهوم الخلق، وإمّا ذو صبغة نسبيّة أو من الأمور الوجوديّة التى تُسبب العدم، كالسموم القاتلة التى لها استعمالات طبيّة كثيرة أيضاً فى نفس الوقت.

وبهذا تتضح جميع التعابير القرآنية فى الخير والشّر، ويتضح ردّ الإشكالات الاخرى المختلفة المطروحة فى هذا المجال، ومن جملتها الإشكالات التى نقلها الفخر الرازى عن بعض الملحدين والماديين وتركها دون جواب.

۵- الخير والشّر فى الروايات الإسلاميّة

وردت هاتان الكلمتان فى الروايات الإسلامية الواردة عن الرسول صلى الله عليه و آله، والأئمّة المعصومين عليه السلام، بشكل واسع وفى صَيغٍ مُختلفة.

ما يتناسب مع موضوع بحثنا أولًا هو تصريح الكثير من الروايات بكون الخير والشر مخلوقين إلهيّين، من جملتها:

ورد عن الإمام الباقر، عليه السلام: «إنّ اللّه يقول أنا اللّه لا إله إلّاأنا، خالق الخير والشّر، وهما خلقان من خلقى ...» «۱».

وقد ورد نفس هذا المعنى فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، حيث قال: «إنّى أنا

---

(۱) بحارالانوار، ج ۵، ص ۱۶۰، ح ۲۰.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۲

اللّه لا-إله إلّاأنا، خلقت الخلق، وخلقت الخير وأجريته على يدى من أُحبّ، فطوبى لمن أجريته على يديه، وأنا اللّه لا إله إلّاأنا، خلقت الخلق وخلقت الشّر وأجريته على يدى من أريده، فويلٌ لمن أجريتهُ على يديه» «۱».

وعن الإمام الصادق عليه السلام، أيضاً: «الخير والشّر كُلّه من اللّه» «۲»

وهنالك أحاديث عديدة اخرى فى المصادر الإسلامية، وذكرها بأجمعها يخرجنا عن صُلب الموضوع «۳».

وقد طُرحَتْ أسئلة مختلفة بصدد هذه الأحاديث أهمها السؤال التالى:

أولًا: إذا كان الشر أمراً عدميّاً فكيف عُبّر عنه بالخلق هنا؟

يمُكن العثور على جواب هـذا السؤال فى البحوث السابقـة، وهو كثيراً ما يحدث أن تُطلق لفظه الشّر على الأمور الوجوديّة التى تُسبب العـدم، كأنواع المكروبات والمواد السّامـة والأسـلحة المخرّبـة والتى تعتبر جميعها أموراً وجودية لكنها مصدر «الأمراض» و «الموت» و «الخراب»، التى هى أمور عدميّة، «دقق جيّداً».

علاوةً على هذا فإنّه يُحتمل أن يكون التعبير الوارد يشير إلى الشرور النسبية ذات الصبغة الوجوديّة والتى يغلب خيرها على الرغم من تركها أثاراً سلبيّة لبعض الأفراد.

يقول العلّامة المرحوم المجلسى (رضوان اللّه تعالى عليه) فى «مرآة العقول» عن المحقق الشيخ الطوسى، فى شرح أمثال هذه الروايات: المقصود من الشّر هو الأمور التى لا تناسب طبع الإنسان على الرغم من وجود مصلحة معينة فيها.

ثم أضاف فى توضيحه عن كلام المحقق: «للشر معنيان».

۱- الشيء الذى يخالف الطبع ولا يتناسب معه كالحيوانات المؤذية.

۲- الشيء المؤدى إلى الفساد وليس فيه مصلحة ما.

وما يُنفى عن اللّه سبحانه هو الشّر بالمعنى الثانى لا الأول، ثم أضاف قائلًا: يعتقد

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۵۴، باب الخير والشر، ح ۱.

(۲) بحارالانوار، ج ۵، ص ۱۶۱، ح ۲۱.

(۳) لزيادة الإطلاع راجع المجلد الأول من اصول الكافى: باب الخير والشر، والمجلد الثانى من كتاب الدعاء: باب ما يمجد به الرب، الحديث الأول والثانى، ص ۵۱۵ و ۵۱۶، وبحارالانوار، ج ۵، باب السعادة والشقاوة.

الفلاسـفة بأنّ الأمور على خمسة أنواع: الأشـياء التامّة الخير والتى يُسـتلزم صدورها من اللّه عزّوجل، والأشـياء التامّة الشـر التى يستحيل صدورها من اللّه عزّوجل، والأشـياء التى يغلب خيرها وهى ضـرورية الصدور من اللّه أيضاً، والأشـياء الغالبة الشّر أو التى تساوى خيرها وشـرّها، فكلاهمـا لا يصـدران من اللّه تعالى وما نراه من الحيوانات المؤذيـة فى عالمنا فانَّ فوائـده الوجوديّـة أكثر من شـره، «ولـذلك خُلقوا» «۱»

. لذا يُحتمل أن يكون المقصود من خلق الشّر من قبل اللّه تعالى هو الأمور التى فيها نسبة من الشّر، لكن خيرها غالب فى المجموع.

والسؤال الآخر المطروح بصدد هذه الرواية هو: أنّ الرواية تقول بأنّ اللّه يجرى الخير والشّر على يد فئات مُختلفة من الناس، أفلا تُعطى هذه المسألة رائحة الجبر؟ وكيف يمكن للخالق الحكيم أن يجعل أفراداً وسيلة للشـرّ والفساد؟ والجواب على هذا السؤال أيضاً، بالنظر لما مضـى سابقاً، ليس بأمر مُعقّـد، لأنّ هذه التعابير تُشـير إلى التوحيد الأفعالى الإلهى، أى أنّ ذاته منتهى كُلّ شـيء ولكن اللّه قد منح الإنسان حرّية الإرادة وخيارها ومكّنه من أسباب الخير والشّر والصلاح والفساد ليبتليه، فالبشر هم الذين يُصمِّمون التصميم النهائى فى انتخاب نوع الطريق، ونوع البرنامج السلوكى، ومُسلّماً أنّ اللّه يجرى أنواع الخير على يد الذين ينتهجون طريق الإيمان والعمل الصالح.

ومن هنا يتضح تفسير الآيات التى تقول: «فَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَن يَعمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ». (الزلزال/ ۷- ۸)

وخلاصة الكلام هو أنّ الشر بمفهومه العدمى ليس بمخلوقٍ إلهىّ، وما هو مخلوق شيئان:

۱- الأمور الوجوديّة الأصل لكنها أسباب الأمور العدميّة، وقد ذكرنا أمثلتها.

۲- الأمور التى خيرها يغلب شرّها، أو بتعبير أخر شرها نِسْبى، كالكثير من سموم الحيوانات التى تؤدى إلى موت وهلاك الإنسان فى حالات معينة، لكنها وكما نعلم مادّة صناعة الكثير من العقاقير الشافية من جهة اخرى، ويوجد فى مراكز صناعة الأدوية أقسام لحفظ الثعابين الخطرة وذلك للاستفادة من سمومها، علاوةً على هذا فإنّ أنياب وسُمّ هذه

---

(۱) مرآة العقول، ج ۲، ص ۱۷۱، باب الخير والشر، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۴

الحيوانات هى وسيلتها الدفاعية لمواجهة الأعداء، أو جمع الغذاء من أجل البقاء.

وكذا المكروبات المعروفة بالشّر هى امور وجوديّة، فبالإضافة إلى آثارها السلبية فانَّ لها أثاراً إيجابية أيضاً، وتعمل الكثير من هذه الموجودات المجهرّية على تفسيخ أجساد الموتى وجثث الحيوانات، ولولاها لما مضت إلّامدّة وجيزة حتّى تمتلىء الأرض بالأجساد المتعفّنة وتتلّوث بسببها، وَلَحَلَّ الدمار الشديد بالبيئة الإنسانية.

وأيضاً تعمل مجموعة منها على إحداث افعال وانفعالات معينة داخل التربة لتهيّأها للزرع.

وحتى المكروبات المؤذية المسببة للأمراض فإنّ هجماتها المستمرة على بدن الأنسان، عن طريق الغذاء والماء والهواء، تُنشّط جميع خلاياه وتجعلها فى حالة دفاعية دائماً وتكون سبباً فى اقتدارها، إلى الدرجة التى يعتقد البعض بأنّه لو لم تكن هذه المكروبات الهجوميّة لكان بدن الإنسان ضعيفاً جدّاً ولكان أطول إنسان لا يتجاوز طول قامته الثمانين سنتمتراً!

والسؤال الأخير المطروح بصدد خلق الشّر هو: لم لا تنحصر مخلوقات اللّه بالخير المحض؟ وتوجد أشياء غالبة الخير، فمثلًا نجد أنّ النار مادّة حارقة ينتج منها الكثير من شؤون الحضارة الإنسانية، والمواد الحياتية والأشياء المفيدة، لكنها أحياناً قد تُحرق أفراداً، أو تحول بيتاً بأكمله إلى رماد بسبب سوء استخدامها.

ولكن يجب الإنتباه فى مثل هذه الموارد إلى أنّها لو جُرّدت عن صيغة الشّر فقدت محتواها، أى أن لا يخلق اللّه ناراً، لأنّ النار التى تُحرق أحياناً ولا تُحرق أحياناً اخرى ليست بنار.

وبتعبير آخر: يحتوى عالم المادّة بطبيعته على مثل هذه النقائص إلى جنب كمالاته، وإذا كان من المقرر حذف هذه النقائص لصار معناه نقض خلق عالم المادّة أساساً، «أى أن لا يُخلَقْ»، فى حين أنّه ذو خيرٍ غالب وكمال نسْبى، وخلقه عين الحكمة (تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۵

«سؤالان مُهمّان عن العدل الإلهى»

فى نهاية هذه المباحث بقى هنالك سؤالان جديران بالإهتمام والإلتفات:

۱- لماذا طُرِحَ العدل كواحد من أصول الدين؟

كما نعلم ووفق تقسيم الصفات الإلهيّة، تقع صفة العدل فى قسم الصفات الفعلية، وتُعتبر واحدة منها، لأنهّا صفة للفعل الإلهى، ويخطر هنا السؤال الثانى: لأىالخصوصّيات فُصلتْ هذه الصفة عن سائر الصفات، وأخذت مكانها كأصل مُستقل من أصول الدين الخمسة؛ وأحياناً توصف مع، «الإمامة»، كأصلين خاصّين فى المذهب الشيعى؟

للاجابة عن هذا السؤال يجب الإلتفات إلى عدّة أمور:

۱- الظرف الزمانى لهذه المسألة، التى مرّت علينا فى بداية البحوث من ناحية أصل ظهورها التاريخى هى من أوضح أسباب انفصال

هذه الصفة عن بقية الصفات الإلهيّة.

لأنّه كما ذكرنا فقد شهد القرن الأول الهجرى نزاعاً شديداً بين علماء العقائد الإسلاميّة، حيث كان فى أحد طرفيه جماعة الأشاعرة الذين كانوا يعتقدون بعدم إمكانية وصف الأفعال الإلهيّة بالعدل والظلم، فهى فوق هذه الأمور، وكل ما يصدر من اللَّه هو عين العدل، حتى وإن أدخل جميع الأنبياء فى النار، وجميع الأشقياء فى الجنّة؛ وكان طرفه الأخر جماعة الشيعة وجماعة المعتزلة، «جماعة كانت تعتبر العقل كأحد المصادر الإسلاميّة»، الذين كانوا يقولون ويعتقدون بحكمة اللَّه وعدله وعدم صدور شىء منه خلاف ذلك، فلن يثيب الظالم ولن يعاقب المظلوم، وعقلنا يدرك الحسن والقبيح بمقدار واسع، ولا يصدر من اللَّه العادل والحكيم إلّاالفعل الحسن.

وكما لاحظنا فإنّ كثيراً من الآيات القرآنية أيدت هذه الحقيقة أيضاً.

وأدّى هذا الإختلاف إلى ظهور جماعة عُرفت باسم «العدلية»، وعُرف أصل العدل، وأصل الإمامة كأصلين خاصّين فى المذهب الشيعى.

۲- علاوةً على هذا، فإنّ الكثير من صفات الفعل الإلهى تعود بالحقيقة إلى أصل العدل،

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۶

فمثلًا حكمة اللَّه ورازقيته ورحمانيته ورحيميته جميعاً واقعة فى ظلّ عدالته، وبالأساس إنّ العدالة بمفهومها الحقيقى الواسع، أى وضع كل شىء فى موضعه المناسب، تشمل جميع الصفات الفعلية، والأهم من الجميع هو أنّ مسألة «المعاد»، و «مالكية اللَّه ليوم الدين»، تنشأ بالحقيقة من عدالته سبحانه، وهذه الخصوصّية تستلزم الإلتفات إلى هذا الأصل بصورة مستقلّة.

۳- للعدل مفهوم واسع بحيث يشمل كُلًّا من العدالة العقائديّة، والعدالة الأخلاقية، والعدالة الاجتماعيّة، وبذلك سينعكس من مسألة العدل الإلهى نورٌ على الملكيات الأخلاقية الإنسانية، وعلى كافة القوانين الاجتماعيّة، وكم لائقٌ بمثل هذا الاصل العقائدى الذى له مثل هذا الانعكاس الواسع أن يُعرّف كأحد أركان الإسلام، ولو أنّنا لم نعثر فى المصادر الإسلامية على آية أو رواية تدل بوضوح على صدور هذا الإنتخاب من قبل الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ويبدو انه انتخاب صادرٌ من قبل علماء الكلام والعقائد، ولكن الدافع الأساسى له هو التأكيد والإهتمام الكثير الذى أولته الآيات والروايات لهذه المسألة بشكل كُلّى «۱».

۲- هل تتعارض هذه الأمور مع العدل الإلهى؟

يلاحظ وجود مواضيع مختلفة فى القرآن والروايات الإسلاميّة تبدو بأنّها غير متناغمة مع مسألة العدل الإلهى من الناحية الإسلامية أحياناً، ومن وجهة نظر بعض العلماء أحياناً اخرى، مثل:

۱- مسألة الشفاعة.

۲- مسألة الجبر والتفويض.

۳- مسألة القضاء والقدر.

۴- تفاوت تقسيم الأرزاق، ووجود الغنى والفقر معاً فى المجتمات الإنسانية.

---

(۱) ورد تأييد ضمنى فقط لهذا الكلام فى الرواية المنقولة عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله رجل: «إنّ أساس الدين التوحيد والعدل» وطلب منه توضيحاً أكثر حول ذلك. (راجع بحار الأنوار، ج ۵، ص ۱۷).

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۷

ومن المسلّم أنّ لكل واحدة من هذه المسائل من حيث الماهيّة والمحتوى بحثاً خاصاً ومفصلًا سنتطرق إليها جميعاً فى محلّها الخاص، ولكن يتوجّب هنا فقط أن نبحثها من ناحية عدم وجود تضاد فيما بينها وبين مسألة العدل الإلهى.

أمّا بالنسبة للشفاعة فالذين يعتقدون بأنّ الشفاعة معناها أن يشفع النبى صلى الله عليه و آله، أو إمام معصوم عليه السلام، أو ملك مقرب فى دخول مذنب معين الجنّة، فى حين من المقرر أن يدخل نظيره فى الذنب والظروف النار، يحق لهم أن يعتقدوا بتضاد مثل هذه الشفاعة مع أصل العدل.

ولكن نظراً لكون الشفاعة تخص الذين أبدوا من ناحيتهم لياقة خاصّة فى هذا المجال، وحازوا على حق شفاعة الشافعين بالأعمال الصالحة، بحيث صار وعد الشفاعة من الناحية العملية درساً تربوياً لإصلاح المذنبين وسوقهم نحو الصراط المستقيم أو مانعاً لهم على الأقل من زيادة التلوث بالذنوب، يتضح جيداً عدم انتفاء مسألة الشفاعة مع عدالة اللَّه وحكمته، بل تؤكّدها كذلك «۱».

وأمّا مسألة «الجبر والتفويض»، فالذى يتنافى مع العدل هو مسألة «الجبر»، فإمّا أن نقول بالجبر وننكر العدالة، وإمّا الاقرار «بالعدل» وترك «الجبر» وكما لاحظتم فى البحوث السابقة فقد اضطرّ المعتقدون بالجبر إلى مسألة العدالة، وهذه إحدى أكبر الإشكالات على مذهبهم.

نكرر بأن ليس الهدف هو طرح مسألة الجبر والتفويض ودلائل بُطلان الجبر، فلها محل أخر خاص بها، والهدف الوحيد هنا هو النظر إليها بمنظار مسألة العدالة لنرى هل يمكن أن يُجبر أحدٌ على ذنبٍ معين ثم يُعاقبُ عليه، فمن الواضح أنّ هذا السؤال يجاب عنه بالنفى، وأمّا بالنسبة إلى مسألة «القضاء والقدر» و «مصير الإنسان» بالشكل الذى سيمر علينا فى بحث القضاء والقدر، فإنّ المفهوم الواقعى والمنطقى «للقضاء والقدر»، ليس بمعنى التقدير المُسبق لمصير الإنسان، من حيث السعادة والشقاء، والطاعة والمعصية، بشكل إجبارى

---

(۱) لزيادة الإطلاع راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيتين ۴۷ و ۴۸ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۸

وحتمى وغير قابل للتغيير، فليست هذه المسألة بأكثر من خرافة، أى حمل بعض الجهلاء مسألة «القضاء والقدر الإلهى»، على هذا المعنى فالقضاء والقدر الإلهى يشير من جهة إلى قانون العلية، أى أنّ اللَّه قدّر نجاح وتوفيق الساعين العاملين، وأفشل الكسالى والخاملين «ووجود بعض الإستثناءات المحدودة لا تُلغى كُليّة هذه المسألة».

وكذا تعلق القضاء والقدر الإلهى بعمل الإنسان بأن يسعد المطيعون، ويشقى العاصون ويهزم الذين يَسلكون طريق الفرقة والاختلاف.

والقضاء والقدر الإلهى هكذا دائماً، ومن المُسلّم تناغمه الكامل مع مسألة العدل الإلهى إن فُسّر بهذا الشكل، وإن حملناه على ما فسّره بعض الجهلاء فسوف يتنافى مع العدل الإلهى، وليس هنالك طريق لحل هذه المعضلة «۱».

وأمّا مسألة تفاوت الناس من حيث الفقر والغنى فهى أيضاً مسألة من قبيل القضاء والقدر الإلهى المشروط، أى أنّ الأفراد أو الشعوب المثابرة، المنظمة، والمتحدة أغنى من الأفراد والشعوب الكسولة العديمة النظم والإتحاد عادة، ونحن نلاحظ نماذج عينية لها فى مجتمعنا والمجتمعات العالمية، ولا يُمكن للموارد الاستثنائية أن تُلغى هذا الأصل الكلّى.

أجل، فهنالك موارد أيضاً يفرض الفقر فيها على فرد أو مجتمع معين من الخارج، ويؤدّى الاستعمار والاستثمار من قبل جماعة إلى فقر واستضعاف جماعة اخرى، وهذه المسألة أيضاً لا تفسح المجال للتشكيك بمسألة العدل الإلهى، فلا ريب فى أنّ اللَّه قد منح الإنسان الحرّية، لأنّه تعالى لو لم يفعل لما أمكن سلوك طريق التكامل تحت ظروف الجبر، ولا ريب أيضاً فى قيام جماعة باستغلال هذه المسألة بصورة سيئة، وطبعاً سينتصر اللَّه للمظلوم من الظالم، ولكن إذا كان من المقرر أن تؤدّى الإستغلالات السيئة إلى سلب اللَّه الناس الحرّية بصورة تامّة لتعطلت قافلة السير التكاملى الإنسانى، هذا من جهة ومن جهة اخرى، إن سوء استغلال العباد لنعمة الحرية لا تخدش عدالة اللَّه أصلًا «۲».

---

(۱) ولتمام التوضیح حول مسألة القضاء والقدر والمصیر راجع کتاب دوافع ظهور المذاهب، ص ۱۷- ۴۱، والتفسیر الامثل ذیل الآیة ۴۹ من سورة القمر.

(۲) ورد توضیح أکثر حول هذا البحث فی نفحات القرآن، ج ۲، ص ۲۹۰- ۲۹۴.

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۸۹

آخر الکلام حول مسألة العدل الإلهی: انعکاس العدل الإلهی فی «الأخلاق» و «العمل».

فقد أشرنا سابقاً إلی عدم انفصال «المسائل العقائدیة» عن «المسائل العلمیّة» فی الإسلام، وإلی کون التفکّر بالصفات الإلهیّة یؤدّی إلی تفتُّح بصیرة الإنسان، وربطها بذلک الکمال المطلق، والسعی للتقرب إلیه تعالی بالسیر الظاهری والباطنی، وهذا القرب سیؤدّی بالنتیجة إلی تخلق الإنسان بالأخلاق الإلهیّة، وانعکاس صفاته تعالی فی أخلاقه واعماله.

لذا فکلما تقرب الإنسان إلیه أکثر، تأصلت هذه الصفات فیه أکثر، لا سیما فی مسألة العدل الإلهی، «سواءً أفسّرنا العدالة بمفهومها الواسع أی وضع کل شیء فی محلّه المناسب، أم بمعنی أداء الحقوق ومحاربة کل ألوان التبعیض والإجحاف»، فهذه العقیدة تترک أثراً فی الفرد المسلم والمجتمعات الإسلامیة، وتدعوهم نحو إدارة الأعمال بصورة صحیحة، ورفع رایة العدل لیس فقط فی المجتمعات الإسلامیّة، بل فی العالم أجمع.

ومسألة العدالة فی الإسلام بدرجة من الأهمیّة بحیث لا یحول دونها شیء، فلا أثر للحب والعداوة والقرابة والأرحام، البعد والقرب فیها وأی انحراف عنها یُعدّ اتباعاً للهوی کما ورد فی قوله تعالی «یَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاکَ خَلِیفَةً فِی الأَرضِ فَاحکُم بَینَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَی فَیُضِلَّکَ عَن سَبِیلِ اللَّهِ» (ص/ ۲۶)

قوله تعالی: «وَلَا یَجْرِمَنَّکُم شَنَئَانُ قَومٍ عَلَی أَلَّا تَعدِلُوا». (المائدة/ ۸)

وهذا الموضوع بدرجة من الأهمیّة بحیث لو لم یتیسّرْ تطبیق العدالة بالطرق السلمیّة لجاز تعبئة المظلومین ودعوتهم إلی الثورة العامة من جهة، ومقاتلة الظالم للدفاع عن حقهم من جهة اخری، کما ورد فی الآیة: «وَمَا لَکُم لَاتُقَاتِلُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَالمُستَضْعَفِینَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ والوِلْدانِ». (النساء/ ۷۵)

نفحات القرآن، ج۴، ص: ۳۹۰

نختم هذا البحث بعدة روایات موثوقة تزین خاتمة هذا المجلّد:

۱- قال الإمام علی علیه السلام فی کلامٍ مختصرٍ وبتعبیرٍ لطیف غنی: «العدل حیاة» «۱» ۲- فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «العدل أحلی من الماء یُصیبه الظّمآن» «۲».

۳- وعن الإمام علی علیه السلام أیضاً: «جعل اللّه العدل قواماً للأنام وتنزیهاً من المظالم والاثام وتسنیة للاسلام».

۴- وعنه علیه السلام أیضاً: «العدل رأس الإیمان وجماع الاحسان وأعلی مراتب الإیمان».

وأخیراً ورد تعبیر سامٍ عن نبی الإسلام محمد صلی الله علیه و آله: «عدل ساعة خیرٌ من عبادة سبعین سنة، قیام لیلها وصیامُ نهارها، وجورُ ساعة أشدّ وأعظم عند اللّه من معاصی ستین سنة».

اللّهمّ! أنر قلوبنا بنور معرفة ذاتک، وصفات جمالک وجلالک، لکی لا نعبد سواک، ولا نسلک إلّاسبیلک.

اللّهمّ! نَوِّر أرواحنا وقلوبنا بعشق جمالک لتصطبغ أعمالنا وأخلاقنا بصبغتک وتقترن بها «صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنَ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً». (البقرة/ ۱۳۸)

اللّهمّ! هب لنا تقویً مقرونة بالإیمان بأسمائک الحسنی تصوننا عن الإفتراق عن خط العدالة، وسلوک خط الانحراف، ولو بمقدار رأس إبرة.

آمین ربّ العالمین

۱۵- ربیع الثانی- ۱۴۱

---

(۱) غررالحکم نقل عنه میزان الحکمة، ج ۶، ص ۸۱.

(۲) بحارالانوار، ج ۷۲، ص ۳۶، ح ۳۲، وقد نقل نفس هذا المضمون بشکل آخر عنه علیه السلام حیث قال: «العدل أحلی من الشهد، وألین من الزبد، وأطیب ریحاً من المسک».

الجزء الخامس

أهمیّة بحث المعاد

اشارة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷

أهمیّة بحث المعاد فی المنظور القرآنی

تمهید:

لو ألقینا نظرة إجمالیة علی آیات القرآن المجید لما وجدنا بحثاً یتصدّر جمیع‌البحوث العقائدیة للدین الإسلامی بعد بحث التوحید، مثل بحث المعاد والحیاة الآخرة وجزاء الأعمال والثواب والعقاب وإجراء العدالة.

إنّ وجود ما یقارب ۱۲۰۰ آیة من مجموع آیات القرآن المجید تهتم ببحث المعاد وهو ما یساوی ثلث آیات القرآن تقریباً، وما جاء من ذکر للمعاد فی جمیع صفحات القرآن تقریباً وبلا استثناء، وتکریس الکثیر من السور الأخیرة فی القرآن بأجمعها أو بغالبیّتها للمعاد ومقدماته وعلاماته ونتائجه، ما هی إلّاأدلة مؤیدة لهذا الادّعاء.

فالقرآن المجید یتحدث عن عالم الآخرة فی کلّ مقطع تطرّق فیه لموضوع الإیمان باللَّه، وقد اقترن ذکر الموضوعین معاً فی ۳۰ آیة تقریباً: «وَیُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَومِ الْاٰخِرِ» أو بتعبیرات مشابهة، وأشار للیوم الآخر أو فی أکثر من ۱۰۰ موضع ولم لا یکون کذلک؟ فی حین أنّ:

۱- کمال الإیمان باللَّه وحکمته وعدالته وقدرته لا یتمّ بدون الإیمان بالمعاد.

۲- الإیمان بالمعاد یُعطی لحیاة الإنسان قیمةً، ویُخرج الحیاة الدنیا عن اللَّغو والعبثیة.

۳- الإیمان بالمعاد یخطّ طریقاً واضحاً لتکامل الحیاة الإنسانیة.

۴- الإیمان بالمعاد یضمن تطبیق کلّ السنن الإلهیّة، وهو الدافع الرئیسی لتهذیب النفوس واحترام الحقوق والعمل بالواجبات وإیثار الشهداء وتضحیة المضحین، وهو الذی یدفع الإنسان لمحاسبة نفسه.

۵- الإیمان بالمعاد یُضعِف حبّ الدنیا التی هی رأس کل خطیئة، ویُخرِجُ الدنیا عن

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸

کونها «هدفاً نهائیاً» ویجعل منها «وسیلة» لنیل السعادة الأبدیة، وکم الفارق شاسعٌ بین هذین المنظارین!

۶- الإیمان بالمعاد یعطی للإنسان القوة لمواجهة الشدائد، ویحیل صورة الموت المرعبة- التی تخطر علی فکر الإنسان علی هیئة کابوسٍ ثقیل وتسلبه راحته- من مفهوم الفناء والعدم إلی نافذة نحو عالم الخلود.

۷- الكلام الفصل هو أنّ الإيمان بالمعاد- إضافةً إلى الإيمان بمبدأ عالم الوجود- يُعدّ الخط الفاصل بين الإلهيين والماديين.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

۱- «اللَّهُ لَااِلهَ الَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ الى يَوْمِ القِيَامَةِ لَارَيْبَ فيهِ ومَنْ اصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً». (النساء/ ۸۷)

۲- «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». (التغابن/ ۷)

۳- «وَيَسْتَنْبِؤُنَكَ احَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّى انَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ». (يونس/ ۵۳)

۴- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ».

(سبأ/ ۳)

۵- «رَبَّنا انَّكَ جامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فيهِ انَّ اللَّهَ لايُخلِفُ المِيْعادَ».

(آل عمران/ ۹)

۶- «أَلا انَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى الساعَةِ لَفِى ضَلَالٍ بَعِيدٍ». (الشورى ۱۸)

۷- «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ اعْمَالُهُمْ هَلْ يُجزَونَ الَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (الاعراف/ ۱۴۷)

۸- «وَأَنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً اليماً». (الاسراء/ ۱۰)

۹- «وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُم لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ». (الجاثية/ ۳۴)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹

۱۰- «وَانْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ءَانَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ اولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَاولئِكَ الْأَغْلَالُ فِى اعْنَاقِهِمْ وَاولئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (الرعد/ ۵)

جمع الآيات وتفسيرها

التأكيد على المعاد:

لقد ذُكر المعاد والحياة بعد الموت بشكلٍ مؤكّد وبصور مختلفة فى الآيات الآنفة الذكر، كل ذلك من أجل بيان الأهميّة البالغة التى يوليها القرآن لهذا الأمر.

الخطاب فى الآية الاولى يؤكّد على جمع البشر فى ذلك اليوم الذى لا ريب فيه.

قال تعالى: «اللَّهُ لَاإِلهَ الَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ»، ثم يبالغ بالتأكيد فيقول: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً».

إنّ بداية الآية ونهايتها وجميع إجزائها تؤكّد على هذه المسألة، وتشكّل مقياساً للأهميّة التى يكنّها القرآن لذلك الموضوع «۱»، ومن الجدير بالذكر أنّ «الريب» يعنى أساساً كما ورد فى مقاييس اللّغة هو الشّك، أو الشّك، المشوب بالخوف والقلق، أمّا إطلاق كلمة ريب على «الحاجة» فذلك لأنّ المحتاج إلى شىء عادةً يشك فى الحصول على ذلك الشىء فيكون شكّه مشوباً بالخوف من الحرمان!

وفى «فوارق اللغة» ذُكِرت عدّة فروق بين «الشك» و «الريب»، منها أنّ «الارتياب» شكٌ مشوب بالتهمة.

فمن المحتمل أن يكون السبب فى استعمال القرآن الكريم لهذا الاصطلاح بشأن المعاد هو أنّ المعارضين لأمر المعاد كانوا بالإضافة إلى تظاهرهم بالشك فى عقيدة المعاد يتّهمون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله باختلاق تلك الامور.

(۱) وهنالك آيات كثيرة اخرى فى القرآن أيضاً تؤكّد جميعها على هذا الموضوع وهو أنّه لا شك فى الرجعة، مثل آية ۷ من سورة الحج؛ والآية ۹، ۲۵ من سورة آل عمران؛ والآية ۱۲ من الانعام؛ والآية ۲۱ من الكهف؛ والآية ۵۹ من غافر؛ والآية ۷ من الشورى والآية ۲۶ و ۳۳ من سورة الجاثية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰

ولكن يبقى هنالك سؤال يحتاج إلى الإجابة وهو: لِمَ اكتفى القرآن فى هذه المواضع وفى مواضع مُشابهه بالمدّعى من دون ذكر دليلٍ عليه؟

وأسباب ذلك كثيرة؛ وأوّلها: إنّ أدلّة إثبات المعاد وردت فى مواضع كثيرة من القرآن المجيد وبُحثت باستمرار، فلم يكن من الضرورة تكرارها فى هذه الآية، وثانياً: كأنّ القرآن يريد أن يوضّح هذه الحقيقة وهو أنّ الشواهد على إثبات المعاد بلغت من الوضوح حداً بحيث لم تُبقِ مجالًا للشّك أو التردد «۱».

وفى الآية الثانية امِرَ النبى صلى الله عليه و آله بأن يُقسِم مؤكِّداً على أنّ هنالك قيامةً وحشراً ونشراً حيث قال تعالى: «زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَّنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلى وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّئُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسيرٌ».

نحن نعلم بأنّ القسم عادةً من الأعمال غير المحبذة، على الأخص عندما يكون القسم باللّه تعالى من أجل هذا نهى القرآن الناس عنه فى الآية الكريمة: «وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَ يْمَانِكُمْ». (البقرة/ ۲۲۴)

ولكن أحياناً وعندما يكون الأمر مهماً جدّاً فإنّ القسم لدعم ذلك الأمر لا يكون غير مستحسن فحسب بل يكون لازماً.

وفى هذه الآية، علاوة على ذكر التأكيد فى «لتبعثن» و «لتنبئن» فإنّ الآية فى آخرها تُصرِّح على أنّ هذا الأمر يسير على اللّه، ولذلك فلا يجب أن ترتابوا أو تترددوا فيه «۲».

---

(۱) يجب الانتباه إلى «اللام» فى «لَيجمعنكم» للقسم، ثم صاحبتها نون التوكيد الثقيلة، وبعد ذلك اكِّدَت بجملة «لاريب فيه» وأخيراً اشتدّ التأكيد بجملة: «ومن أصدق من اللّه حديثاً». (ولكن لماذا تعدت «ليجمعنَّ» هنا ب «إلى ، مع أنّ القاعدة تقتضى التعدى ب «فى»؟ فإنّ المفسرين اجابوا: إنّ السبب هو أنّ كلمة «ليجمعن» أتت بمعنى «ليحشرنَّ» التى تتعدى ب «إلى ، أو أن تكون «إلى هنا بمعنى «فى».

(۲) «زعْم» على وزن «طعم» فى الأصل بمعنى الخطاب المحتمل كذبه أو المتيقّن من كذبه، وأحياناً تأتى بمعنى الظن الكاذب أيضاً من دون أن يكون هنالك أى خطاب، روى بعض المفسرين مثل الشيخ الطوسى فى «التبيان» والقرطبى مؤلف كتاب «روح البيان» بأنّ «زعم» كناية عن الكذب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱

وفى الآية الثالثة طُرحت هذه المسألة على شكل استفسار ومحاورة تجرى بين النبى صلى الله عليه و آله والمشركين: «وَيَسْتَنْبِؤُنَكَ أَحَقٌّ هُوَ»؟!

ويجب الالتفاف إلى أنّ «يستنبؤنك» من «النبأ» وهو «الخبر المهم».

قال «الراغب» فى «المفردات» النبأ هو الإخبار النافع المصاحب للهول والعظمة لدى الإنسان الذى لديه علمٌ أو ظنٌّ غالباً بذلك الإخبار، ومادام الخبر لايتصف بهذه الامور الثلاثة (الفائدة والعظمة والعلم) فإنّه لا يسمى «نبأ»، (بناءً على هذا فالخبر المشكوك أو قليل الأهميّة أو عديم الفائدة لايسمى «نبأ» وأما ما نراه فى سورة النبأ من وصف النبأ ب «العظيم» فإنّه لشدّةِ التأكيد) وعندما يطلق على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذلك فبسبب اتصاف ما أخبر به بهذه الصفات الثلاث أيضاً.

ثم يأمر اللّه تعالى نبيّه صلى الله عليه و آله: «قُلْ اىْ وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقٌّ»، والملفت للنظر هنا هواستعمال كلمة «الرب» فى الآية الكريمة

للاشارة إلى أن القيامة هى دوام ربوبية الخالق واستمرارها، وإنّ القيامة هى من مظاهر الربوبية، وسيأتى توضيح هذا الكلام عند البحث فى أدلّة المعاد بإذن اللّه.

وإزداد التأكيد شدّةً فى آخر الآية فى جملة: «وَمَا انْتُمْ بِمُعْجِزِينَ».

ويعتقد عدد من المفسرين بأنّ هذه الآية تشير إلى صدق القرآن أو نبوّة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله، بينما تصّرح الآية السابقة والآية اللاحقة لهذه الآية بوضوح أنّ المراد من النبا هو مسألة المعاد ومجازاة المذنبين فى يوم القيامة التى طُرحت بعنوان أمرٍ واقعٍ لا شك فيه من خلال اضفاء أنواع التأكيدات عليها.

إنّ كلّاً من كلمة «إىْ»، والقسم «ربّى» و «إنَّ» و «اللام» فى «لحقٌ»، ونفس كلمة «حق» وكون الجملة اسمية، وجملة «وما أنتم بمعجزين» هى تأكيدات لبيان أهميّة هذه المسألة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲

وفى الآية الرابعة طرحت هذه المسألة بشكل جديد فهى تنقل قول الكافرين أولًا «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَأْتِينَا السَّاعَةُ».

ثم يأمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ».

من الممكن أن يكون ذكر «عالم الغيب» هو للالتفات إلى السبب الذى أدّى إلى إنكار المعاد من قِبَل الكافرين وذلك لأنّهم كانوا يقولون: مَن يقدِر على جمع الرفات المتناثرة فى أكناف الأرض على شكل ذرات؟ ومن يقدر على إحصاء أعمال الإنسان التى بادت وانمحت ولم يبق منها أى أثر ليثاب ويعاقب عليها؟ يجيب القرآن هنا بجملة وجيزة، ويقول: اللّه الذى يعلم الغيب ويعرف خفايا الإنسان يتكفّل بذلك.

ولكن لماذا اطلق اسم «الساعة» على القيامة فى أحد اسمائها؟ لأنّ «الساعة» بتصريح أصحاب اللغة وضعت فى الأصل للجزء الصغير من أجزاء الزمن أو بتعبيرٍ آخر هى اللحظة السريعة الانقضاء، وبما أنّ حساب العباد فى يوم القيامة أو أصل قيام القيامة يتمّ بسرعة اطلق هذا الاسم على يوم القيامة «۱».

ومن الجدير بالذكر أيضاً هو أنّ كلمة «ساعة» كما جاء فى لسان العرب تطلق على لحظة انتهاء العالم المفاجئة وعلى قيام يوم القيامة معاً؛ لأنّ قيام يوم القيامة يكون مفاجئاً أيضاً.

وقسّم البعض «الساعة» إلى ثلاثة أنواع: «الساعة الكبرى و «الساعة الوسطى و «الساعة الصغرى .

فالساعة الكبرى هى يوم الحشر، والساعة الوسطى هى الموت المفاجىء لقومٍ فى أحد الأزمنة (مثل قوم نوح الذين غرقوا فى وقت الفيضان) والساعة الصغرى هى ساعة الموت لكل إنسان «۲».

---

(۱) فعل «ساعَ» أتى بمعنى زوال، والزوال يحمل فى طياته مفهوم سرعة الانقضاء، قال فى المنار: ساعة فى الأصل بمعنى الزمان القصير الذى يُعَّين بواسطته مقدار عملٍ معيّن حدث فى خلال ذلك الوقت. (تفسير المنار، ج ۷، ص ۳۵۹).

(۲) تاج العروس فى شرح القاموس ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳

وفى الآية الخامسة جاء هذا المعنى على لسان «الراسخين فى العلم» فهؤلاء أيضاً خلال مناجاتهم مع اللّه أكّدوا على أمر المعاد والحشر واعتبروه من أوضح الامور المسلّمة حين قالوا: «رَبَّنَا انَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَارَيْبَ فِيهِ».

ولشدّة التأكيد أضافت الآيةإلى ذلك: «انَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيْعَادَ».

وفى هذه الآية أيضاً جاء عدد من التأكيدات مثل كلمة «إنّ» و «الجملة الاسمية» وجملة «لاريب فيه» وجملة «إنّ اللّه لا يخلف الميعاد».

إنكار المعاد هو عين الضَلال:

إلى هنا كان الكلام فى التأكيدات على مسألة المعاد، ولكن الآيات الخمس المتبقية من آيات بحثنا تشتمل على تهديدات مختلفة وجِّهت إلى جاحدى الحشر والمعاد وكل آية لها تعبير خاص، ففى الآية السادسة مثلًا قال تعالى: «الا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِى السَّاعَةِ لَفى ضَلَالٍ بَعْيدٍ».

«يمارون»: من «المراء» أو «المرية»، قال فى «مقاييس اللغة» إنّها على معنيين:

الأول: شَدّ اليد على ثَدْى الحيوان لحلب اللبن، والمعنى.

الثانى: الصلابة والرصانة، لكن الراغب لم يذكر فى المفردات إلّاالمعنى الأول.

ثم إنّ هذه الكلمة جاءت بمعنى الشك والترديد، وإن قال الراغب إنّ لها مفهوماً أضيق دائرةً من الشك (من المحتمل أنْ يكون السبب فى ذلك هو أنّ «المرية» يُفهَمُ منها معنى الشك المقرون بالبحث والتحقيق، كما هو الحال فى حالِب اللبن فإنّه يبذل جهداً لاستخراج اللبن من الثدى).

أمّا «المماراة» فهى بمعنى المجادلة فى البحث والتعصب فى الجدل أو أنّ كلّاً من الطرفين يريد أن يقرأ أفكار الطرف الآخر، أو كما قال صاحب المقاييس إنّ كِلا المعنيين يشتملان على الصلابة والتزمُّت فى البحث، كما اشيرَ أعلاه بأنّ الصلابة هى أحد معانى المرية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴

ومن الجدير بالذكر أنّ استعمال «ضلالٍ بعيد» جاء فى عشر آيات فى القرآن المجيد، وكانت أغلبها خطاباً للكفّار والمشركين وجاحدى المعاد، وهذا التعبير يبيَّن بوضوح بأنّ الضلال البعيد يختص بهذه المجموعة، وذلك لأنّ الإيمان باللَّه ويوم الحساب إنّ وجِدْ يجعل وجود الضلال سطحياً ويزيد من احتمال العودة إلى طريق الحق، بينما يقود جحد التوحيد والمعاد الإنسانَ ويجرُّه إلى آخر درجة من الضلال ويبعده عن صراط الهداية القويم إلى أدنى حد، أو بتعبيرٍ آخر إنّ الأدلّة على معرفة اللَّه وإثبات المعاد على حدٍ من الوضوح يجعلها تشابه الامور الحسيّة الملموسة، والذى يصاب بالضلال فى هذين الأمرين فضلاله عظيم.

وفى الآية السابعة اشير إلى مسألة «حبط الأعمال» أى أعمال الجاحدين للمعاد فى قوله تعالى «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ اعْمَالُهُمْ هَلْ يُجزَونَ إِلّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«الحبط»: فى الأصل بمعنى البطلان أو التمّرض «۱»، وفى تعبير الآيات والروايات جاء بمعنى محو ثواب الأعمال بسبب إرتكاب عدد من الذنوب.

وجاء فى «لسان العرب» إنّ «الحبط» هو أن ينجز الإنسان عملًا ما ثم يُبطله.

ولعلماء علم الكلام نقاشٌ فى مسألةِ هل يكون «الحبط» حاكماً دائماً فى تأثير المعاصى والطاعات على بعضها الآخر أم لا؟ وسوف نتعرض بالبحث مفصلًا فى هذه المسألة فى محلها إن شاء اللَّه، ولكن لا يوجد على نحو القضية الجزئية شكٌ فى صحة هذه المسألة، فإنّ بعض الامور مثل «الكفر» تكون سبباً فى حبط ثواب جميع الأعمال الصالحة، فلو مات أحدٌ على الكفر فإنّ جميع أعماله الصالحة سوف تتلاشى كنثر الرماد فى ريحٍ عاصفٍ، إنّ الآيات الآنفة الذكر تنسب هذا الاحباط لجاحدى الآيات الدالّة على إثبات اللَّه والمعاد، وهذا دليلٌ واضح على أهميّة المعاد فى رأى القرآن المجيد.

---

(۱) مقاييس اللغة مادة (حبط).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵

وفى الآية الثامنة هدّد القرآن بشكلٍ صريح بتعذيب الذين لا يؤمنون بالآخرة عذاباً أليماً، قال تعالى «وَأَنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ

اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً اليماً».

فهو من جانب يقول: إنّ الجزاء مُعدٌ وجاهز كى لايظنّ أحد أنّ الجزاء وعد مؤجلٌ، ومن جانبٍ آخر يصف العذاب الإلهى ب «الأليم» وهذا الوصف من أجل المبالغة فى بيان أهميّة الإيمان بالمعاد.

وكلمة «عذابٌ أليم» تكرر ذكرها فى القرآن المجيد عشرات المرّات وفى آياتٍ مختلفة، وخوطِبَ بها الكفّار والمنافقون غالباً، ووردت أحياناً فى تهديد من يقترف الذنوب الكبيرة مثل ترك الجهاد (سورة التوبة/ ۳۹) والاجحاف عند القصاص (البقرة/ ۱۷۸) أو اشاعة الفحشاء (النور/ ۱۹) أو الظلم والعدوان (الزخرف/ ۶۵) وما شابه ذلك من الكبائر.

وفى الآية التاسعة ذُكِرت ثلاث عقوبات أليمة للذين لا يبالون بيوم القيامة، قال تعالى:

«وَ قِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». «وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ». «وَمَالَكُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ».

إنّ الغفلة عن يوم القيامة أو نسيانه هو مصدر جميع أنواع الضلال فى الواقع، كما جاء فى القرآن! «.... إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ» «۱».

(ص/ ۲۶)

من الطبيعى أنّ اللَّه موجودٌ فى كل مكان، وأنّ جميع الأشياء حاضرة بين يديه، ولا معنى لنسبة النسيان إليه، فالمراد من النسيان هنا هو أنّ اللَّه تعالى يحرم هؤلاء من رحمته إلى أبعد الحدود بحيث يُتَصوَّر أنّه نسيهم!

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶

وأخيراً ففى الآية العاشرة والأخيرة وعَدَ اللَّه عزّ وجلّ جاحدى المعاد بالخلود فى النار وهَدَّدهم بالعذاب الدائم.

قال تعالى بعد أن وجّه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله: «وانْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

ثم يضيف إلى ذلك: «أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْاَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

الحديث فى بداية الآية عن تعجّب الكفّار، ثم يَعِدُّ هذا التعجب من غرائب الامور، أى هل هناك عجبٌ من هذا الأمر الواضح المُعزز بِكل هذه الأدلة؟ ويصورهم فى نهاية الآية بصورة السجناء المكبّلين بالأغلال والسلاسل فى أعناقهم، وأى أغلال وأى سلاسل أكثر تقييداً من التعصب والجهل والهوى الذى يسلبهم كل أنواع حرية التفكّر إلى حدٍ تصبح فيه المسألة الواضحة كل الوضوح مدعاة لَعجبِهم، وذلك لأنّها لا توافق هواهم وتقليدهم الأعمى

فيجب الالتفات إلى أنّ ظاهر الآية هو التقييد بالأغلال والسلاسل فى الوقت الحاضر لا بعد ذلك فى يوم القيامة، كما جاء فى الشعر العربى: لَهُمْ عن الرُّشدِ أغلالٌ وأقيادُ، ولكن بعض المفسرين يرى أنّ الآية تشير إلى حالهم يوم القيامة ويعتقد بأنّ الأغلال والسلاسل ستوضع على أعناقهم فى ذلك اليوم «۱»، وذكر البعض الآخر كلا الاحتمالين «۲» ولكنَّ عدداً من المفسرين يعتقد بأنّ الآية تشير إلى حالهم فى الدنيا، كما صرح بذلك المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان فإنّه قال: «وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ» إشارة إلى اللازم الثانى وهو الاخلاد إلى الأرض والركون إلى الهوى والتقيد بقيود الجهل وأغلال الجحد والإنكار «۳».

ومن الواضح أنّ قيوداً وأغلالًا من هذا القبيل والتى يضعُها الإنسان فى يديه ورجليه

---

(۱) تفسير مجمع البيان ذيل الآية ۵ من سورة الرعد؛ وتفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۵۱۳.

(۲) تفسير الكبير، ج ۱۹، ص ۹.

(۳) تفسير الميزان، ج ۱۱، ص ۳۰۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷

وعنقه سوف تظهر له يوم القيامة على صورة أغلال وسلاسل من نار، وسوف تَصُدّه عن الارتقاء إلى درجة القرب الإلهى.

نتيجة البحث:

يتّضح جيداً من مجموع الآيات السابقة- وآيات اخرى سوف تُذكر فى الأبحاث اللاحقة- مدى اهتمام القرآن المجيد بالإيمان بالمعاد، وكيف يَعُدُّهُ من أركان واسس الإيمان التى يسبب تركها الضلال البعيد والابتعاد عن الحق والخلود فى النار والعذاب الأليم، ويُعدُّ إنكار المعاد دليلًا على فقدان حرية التفكير والتكبُّل بسلاسل الجهل والعناد.

وبالتأكيد فإنّ هذه الامور هى السبب فى احتلال بحث المعاد المرتبة الثانية بعد بحوث التوحيد ومعرفة اللَّه بالنسبة لسعة البحوث فى القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹

أسماء المعاد فى القرآن الكريم

اشارة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱

أسماء المعاد فى القرآن الكريم

تمهيد:

ورد ذكر المعاد فى القرآن المجيد فى مئات من الآيات وبتعابير متنوعة، ويُعد كل تعبير من تلك التعابير بمثابة إشارةً إلى بعدٍ من أبعاد مفهوم المعاد، وتلك التعبيرات بمجموعها توضح عمق هذه المسألة وأهداف الحياة الآخرة.

وبما أنّ مطالعة عبارات القرآن المتنوعة للمعاد تفتح أمامنا آفاقاً جديدة فى هذه المسألة العقائدية المهمّة، فإننا نتعرض لدراسة تلك العبارات.

وأهم العبارات القرآنية فى هذه المسألة هى العبارات الثمانية التالية والتى تشكّل أساس الآيات الشريفة:

۱- «قيام الساعة».

۲- «إحياء الموتى».

۳- «البعث».

۴- «الحشر».

۵- «النشر».

۶- «المعاد».

۷- «لقاء الرّب».

۸- «الرجوع».

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى نماذج من التعبيرات الآنفة الذكر:

۱- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمجرِمُونَ». (الروم/ ۱۲)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲

۲- «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وانَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَانَّهُ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ». (الحج/ ۶)

۳- «وَانَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لّارَيْبَ فِيهَا وَانَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى القُبُورِ». (الحج/ ۷)

۴- «وَانَّ ربَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ انَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ». (الحجر/ ۲۵)

۵- «وَاللَّهُ الَّذِى ارْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر/ ۹)

۶- «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الاعراف/ ۲۹)

۷- «قَدْ خَسِرَ الّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهتَدِينَ». (يونس/ ۴۵)

۸- «كُلُّ نَفسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ الَيْنَا تُرْجَعُونَ». (العنكبوت/ ۵۷)

جمع الآيات وتفسيرها

۱- القيامة

«القيامة»: هى أكثر العبارات شيوعاً عن المعاد وهى مأخوذة من مادّة «القيام»، وقد عبّر القرآن المجيد عن ذلك اليوم العظيم فى ۷۰ موردا بتعبير «يوم القيامة»، وفى بعض الآيات مثل الآية الاولى من آيات بحثنا ذكره بتعبير «يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ»، حيث قال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمجْرِمُونَ» «۱».

ومن الطبيعى أن ييأس المذنبون ويكتئبوا فى ذلك اليوم ويلزموا جانب الصمت؛ لأنّهم يرون نتائج أعمالهم بعد أن لم يبق أمامهم طريق لتدارك ما مضى يقول الفخر الرازى فى تفسيره بعد أن يقسّم اليأس إلى نوعين:

«يوم تقوم الساعة يكون للمجرم يأس محير لا- يأس هو احدى الراحتين، وهذا لأنّ الطمع إذا انقطع باليأس فإذا كان المرجو أمراً غير ضرورى يستريح الطامع من الانتظار وإن

---

(۱) «يبلس» من مادة «ابلاس»، قال الراغب: الابلاس هو الغم والهم الحاصل من شدّة اليأس والقنوط، وفسر البعض الابلاس باليأس بينما فسره البعض الآخر من المفسرين واللغويين بأنّه يعنى السكوت الناشىء من عدم وجود الادلّة. (المفردات؛ والصحاح؛ والتحقيق؛ وتفسير روح المعانى؛ وتفسير الميزان).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳

كان ضرورياً بالابقاء له ينفطر فؤاده أشدّ انفطار، ومثل هذا اليأس هو الابلاس» «۱».

فأحياناً، يحلُّ اليأس فى مواردٍ يحتاج الإنسان إلى مقصوده احتياجاً مبرماً، فمن البديهى فى مثل هذه الموارد يكون اليأس سبباً للحيرة والضياع ومصَدراً للألم والغم القاتل، فكلمة «إبلاس» تستعمل فى المعنى الثانى (بينما كلمة «يأس» ليست كذلك).

ثم إنّ القرآن الكريم يعبّر عن المعاد ايضا ب «يَوْمَ يَقُومُ الحِسَابُ». (إبراهيم/ ۴۱)

وتارةً يقول: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين/ ۶)

وتارة يذكره بعبارة: «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ». (النبأ/ ۳۸)

وأخرى بعبارة: «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». (غافر/ ۵۱)

بلى إنّ ذلك اليوم هو يوم القيامة، يوم قيام الساعة وقيام الحساب وقيام الناس وقيام الملائكة وقيام الأشهاد ويوم قيام كل شيء.

والملفت للنظر هو أنّ التعبير بقيام الساعة له مفهوم خاص من بين هذه التعبيرات؛ لأنّ الساعة- كما قلنا سابقاً- تعنى الجزء من الزمان فهل يعنى هذا أنّ للزمان قيام؟ يعتقد البعض أنّ هذا التعبير يدلّ على أنّ يوم القيامة يمكن أن يُتَصوّر له التلبس بالقيام والنهوض كما هو الحال فى الموجودات الحيّة (فتأمل).

۲- احياء الموتى

احياء الأموات هو عنوان آخر يُشاهد بشكل واسع فى الآيات المختصة بالمعاد، وكما سيأتى- بإذن اللّه- فى بحث أدلّة المعاد أنّ عدداً كبيراً من هذه الأدلة تُؤكّد على هذا العنوان، وتُصّور إمكان الإحياء بعد الممات بطرق مختلفة.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۰۱.

ومن جملتها الآية التى هى مورد بحثنا، فبعد أن ذكر القرآن المجيد ثلاثة امور مهمّة هى (مسألة خلق الإنسان من التراب، والتطوّرات المختلفة للجنين، وإحياء الأرض بعد نزول الغيث) قال تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَانَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وانَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ».

«الحق»: يعنى الواقع والثبوت، والتعبير السابق- على حد قول «الميزان» يُشير إلى أنَّ اللّه عزوجل هو عين الواقع لا أنّه وجودٌ له واقع، إنّه عين الثبوت والواقع، وبالاحرى أنَّ واقعية وثبوت كل شئ فى العالم مترشح من فيض وجوده «۱».

وما يقابل الحق هو الباطل، فإنّه لا واقع ولا ثبوت له، بل هو خيالٌ وظنٌ باطل وسرابٌ لا غير.

والملفت للنظر فى هذه الآية هو الامور الثلاثة المذكورة أعلاه (خلق آدم من التراب، وتطورات الجنين، واحياء الأرض الميّتة) فإنّها جاءت كدليل على إثبات المبدأ الأول أى إثبات أصل وجود اللّه، وعلى إثبات المعاد وإثبات صفات اللّه (مثل القدرة).

إنّ هذه التغيّرات الواسعة والمهيمنة على كل موجودات العالم هى فى الواقع دليل على وجود محورٍ ثابت فى عالم الوجود، وهذا النظم العجيب الذى يُهيمن على الظواهر المختلفة هو دليلٌ على حكمة وقدرة ذلك المحور، وتدلّ كل هذه الامور بوضوح على إمكان الحياة بعد الموت.

وكما أشرنا سابقاً بأنّ تعبير «احياء الموتى ورد بشكل واسع فى آيات المعاد، فإنّ هذا التعبير يدلّ بوضوح على كون المعاد جسمانيّاً، لا عودة الروح فحسب، بل يعاد فى الآخرة الجسم المتعلق بها أيضاً (ولكن على مستوىً أعلا وأرقى كما ستأتى الإشارة إليه لاحقاً) فلو كان المعاد بالروح فقط لما كان للحياة الآخرة مفهوم أصلًا، لأنّ الروح بعد انفصالها عن البدن تستمر فى الحياة وتحافظ على بقائها.

۳- البعث

ومن التعابير الاخرى التى وردت فى آيات القرآن عن القيامة هو «البعث»، ففى الآية

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۳۷۸.

اللاحقة لتلك الآية السابقة من سورة الحج من آيات البحث قال تعالى «وَانَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيبَ فِيهَا وَانَّ اللَّه يَبْعَثُ مَنْ فِى القُبُورِ».

لقد ورد هذا التعبير فى القرآن بشكل واسع جدّاً فأحد أسماء القيامة هو «يوم البعث» (الروم/ ۵۶)، أو «يوم يُبعثون» وجاء هذا التعبير فى ست آيات من القرآن «۱».

وهذا التعبير تكرر ذكره كثيراً حتى فى أسئلة المشركين التى كانوا يسألونها من النبىالأكرم مثل: «ءَاذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ» «۲». (الصافات/ ۱۶)

«البعث»: له مفهوم واسع فى اللغة، فقد حمله البعض على أنّه بمعنى «الارسال» والبعض الآخر على أنّه بمعنى «الايصال»، وفسّره آخرون، ب «النشر» ولكن يظهر من موارد استعماله المختلفة أنّ له مفهوماً واحداً، إلّاأنّه يتغيّر تبعاً لمورد استعماله بما يناسبه، كارسال النبى صلى الله عليه و آله لابلاغ الرسالة، وبعث الجيش للجهاد، أو الإنسان النائم لأداء وظيفته، أو نشر الأموات للحساب، أو ارسال الحيوان للحركة «۳».

والسبب فى اطلاق هذا التعبير على القيامة للمناسبة الموجودة بين البعث وابتداء الحركة فى الأموات الذين يخرجهم اللّه من القبور، ومن ثم يبعثهم للحساب نحو محاكم القيامة، وبعدها نحو الجنّة أو النار، فكلّ واحد من هذه المراحل هو مصداق «للبعث».

ويلاحظ أنّ هناك تعبير آخر فى آيات القرآن يقارب فى افُقِه مادة «البعث» وهو مادة «بَعْثَرة» (على وزن مَنْقَبة).

ولم يأتِ هذا التعبير فى القرآن إلّافى آيتين، الموضع الأول: «وَاذا القُبُورُ بُعْثِرَتْ». (الانفطار/ ۴)

وفى الموضع الآخر هو الآية: «أَفَلَا يَعْلَمُ اذَا بُعثِرَ مَافِى القُبُورِ». (العاديات/ ۹)

وبالرغم من أنّ ارباب اللغة فسّروا مادة «بعثرة» بالتقليب والنشر، لكنّ الراغب فى المفردات احتمل أن تكون هذه الكلمة مركبة من كلمتى «بعث» واثيرت»، فتكون الاولى

---

(۱) الأعراف، ۱۴؛ الحجر، ۱۶؛ المؤمنون، ۱۰۰؛ الشعراء، ۸۶؛ الصافات، ۱۴۴؛ ص، ۷۹.

(۲) جاء هذا المعنى فى الآيات التالية: الاسراء، ۴۹ و ۹۸؛ المؤمنون، ۸۳؛ الواقعة، ۴۷؛ الانعام، ۲۹؛ المؤمنون، ۳۷.

(۳) المفردات للراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶

بمعنى الانهاض، والثانية بمعنى النشر، ولذلك اشتملت هذه الكلمة «بعثرة» على المعنيين.

أمّا «البيضاوى» فإنّه نقل هذا المطلب بتعبير آخر وهو أنّ «بعثرة» مركبة من «بعث» و «رأى فى «اثارة» «۱».

۴- الحَشْر

لقد ورد تعبير آخر عن القيامة فى آيات عديدة من القرآن المجيد وهو «الحشر» كما جاء فى آية بحثنا: «وَانَّ ربَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ انّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ».

«حكمته»: توجب أن لا ينتهى كل شىء بموت الإنسان، وإلّا فإنّ الحياة الدنيا والنوم والأكل والشرب واللّبس لا قيمة لها حتى تكون الهدف من خلق الإنسان الرفيع المستوى ويكون الهدف من خلق هذا العالم الوسيع، «علمه» أيضاً يكون رافعاً للعقبات فى أمر معاد العباد وحشرهم ونشرهم وحسابهم (جمع ذرات أبدانهم المنتشرة فى التراب وكذلك جمع أعمالهم وأقوالهم)، وذلك لأنّه عالم بكل شىء وقد أحصى كل شىء.

التعبير ب «الحشر» عن القيامة استخدم فيما يقارب ۳۰ مرّة فى آيات القرآن المجيد وفى سورٍ مختلفة، وهذا المقدار من الاستعمال هو دليل على أهميّة الحشر فى القرآن.

«الحشر» فى اللغة- نقلًا عن «مقاييس اللغة»- بمعنى الجمع المقارن للسَوق والقوْد، ويطلق أحياناً على كل جمع أيضاً، وعن «مفردات الراغب» بمعنى اخراج مجموعة من مقرّهم لساحة الحرب أو ما شابه ذلك، ولذا جاء فى الروايات: «النّساءُ لا يُحشَرْنَ» أى لا يُسَيِّقْنَ نحو سوح القتال.

وجاء فى «التحقيق» إن مادة «حشر» تحمل فى طياتها ثلاثة معانٍ: «البعث» و «السَوق» و «الجمع».

فحشرات الأرض تعنى الدواب الصغيرة وسُميت بذلك لكثرتها وتحركها ولكونها منبوذة.

---

(۱) تفسير البيضاوى ذيل الآية ۴ من سورة الانفطار.

واستُخدم هذا التعبير للمعاد ويوم القيامة لأنّ جميع البشر الذين عاشوا على مرّ التاريخ الإنسانى سوف يجمعون فى ذلك اليوم فى مكانٍ واحد، ويساقون للحساب نحو محكمة العدل الإلهى، ثم يساقون نحو الجنّة أو النار.

علاوةً على هذا فإنّ ذرات بدن كل إنسان والتى انتشرت فى مناطق مختلفة من الكرة الأرضية وحتى التى انتشرت أحياناً فى البحر والفضاء فإنّها سوف تجمع فى ذلك اليوم بأمر اللّه، وتعاد الروح إليها، ولايقتصر الأمر على جمع الذرات فقط بل يشمل جمع الأعمال أيضاً، وعلى هذا فإنّ يوم القيامة هو يوم الجمع والحشر فى ابعادٍ مختلفة.

بل يستفادُ أيضاً من الروايات الإسلامية أنّ الأمر لايختص بأهل الأرض فقط بل يجتمع معهم فى هذا الأمر سكان السماوات أيضاً ولهذا السبب جاء فى تفسير «يوم التلاق» الذى هو أحد اسماء القيامة الوارد فى سورة غافر الآية ۱۵ عن الإمام الصادق عليه السلام: «يوم يلتقى أهلُ السماء واهلُ الأرض» «۱».

۵- النشر

«النشر»: أو «النشور» هو تعبير آخر ليوم القيامة ورد فى القرآن المجيد فى آياتٍ متعددة، يُبيّن بُعداً آخراً من أبعاد حياة الإنسان بعد الموت، كما تشير إلى ذلك الآية الخامسة من آيات بحثنا هذا: «وَاللَّهُ الَّذِى ارْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاحيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر/ ۹)

«النشر»: و «النشور» فى الأصل- على ماقاله الراغب فى المفردات- بمعنى التوسيع والبسط، كما هو المستعمل فى بسط القماش وصفحات الورق والغمام والنِّعَم فى تعبيرات الأحاديث.

ورد فى «مقاييس اللغة»: النشر فى الأصل «يدل على فتح شىء وانتشاره».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷، ص ۵۹، ح ۵.

ومن أجل هذا اطلق لفظ «النشر» على انتشار العطور الطيبة فى الهواء.

واطلِق هذا التعبير على المعاد إما لِأجل انتشار البشر فى نقاط مختلفة فى محشرهم، كما اشير إلى ذلك فى الآية المذكورة، أو لأجل انتشار كتب الأعمال، كما جاء فى قوله تعالى «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ». (التكوير/ ۱۰)

وقد جاء فى بعض الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا أراد اللّه عزّ وجلّ أن يبعث الخلق أمطر السماء أربعين صباحاً فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم» «۱».

وبذلك تنشق الأرض ويخرج الموتى من تحت التراب (وكأن الأرض بمثابة الرحم لهم).

ونقرأ فى حديث آخر أنّ شخصاً سأل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «كيف يحيى اللَّه الموتى؟ فقال ما مضمونه: هل مررت على أرضٍ يابسة لاماء فيها ولا- كلأ، ثم مررت عليها مرّة أخرى وهى مخضرة؟ فقال السائل: نعم يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال صلى الله عليه و آله: هكذا يُحيى اللَّه الموتى أو قال «هكذا الحشر» «۲».

۶- المعاد

عبّرت مجموعة اخرى من الآيات عن يوم القيامة ب «العود» ورجوع البشر، والمراد هنا هو العود إلى الحياة مرّة اخرى كما جاء فى الآية السادسة من آيات بحثنا: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ».

وسنرى بإذن اللَّه- من خلال البحث عن أدلة المعاد أنّ هذه الجملة أقصر وبنفس الوقت أوضح دليل على إمكان المعاد، إذ تجعل امكان الخلق ابتداءً دليلًا على إمكان الخلق مرّة أُخرى

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۲۳ (باختصار)؛ وبحار الأنوار، ج ۷، ص ۳۳.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۳۲۳.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹

ومن الملفت للنظر أنّ التعبير ب «العود» جاء على لسان المشركين وجاحدى المعاد أيضاً:

«فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ». (الاسراء/ ۵۱)

والتعبير ب «المعاد» اخِذَ من هنا أيضاً، بالطبع أنّ هذا التعبير دليل واضح على مسألة المعاد الجسمانى، وذلك لأنّ الروح لا معاد لها، بل إنّها تحافظ على بقائها حتى ما بعد الموت، والذى يعاد فى يوم القيامة هى الحياة الجسمانية للجسم، حيث تحل الروح بالجسم ثانية.

والنقطة المهمّة التى تجب الإشارة إليها هى أنّ التشبيه هنا طبقاً للتفسير الوارد فى آية بحثنا هذه هو تشبيه لأصل العود إلى الحياة (أتى بهذا التفسير المرحوم الطبرسى فى أول كلامه عن هذه الآية، وورد هذا التفسير فى روح البيان أيضاً).

ولكن عدداً من المفسرين من بينهم الفخر الرازى فى «التفسير الكبير» والعلّامة الطباطبائى فى «الميزان» وصاحب المنار فى تفسيره وآخرون قالوا: إنّ التشبيه هنا بالنحو التالى، وهو أنّ اللَّه خلق الناس فى البداية على فريقين: فريق مؤمن وفريق كافر (انتخب فريق طريق الهداية تحت ظل هداية الأنبياء، وانتخب الآخر طريق الضلالة تحت تأثير وساوس الشيطان) وفى يوم القيامة أيضاً يحشرهُم على شكل فريقين: فريق مؤمن سعيد وفريق كافر شقى مستشهدين بالآية التالية: «فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ».

(الاعراف/ ۳۰)

والأعجب من ذلك هو أنّ الفخر الرازى جعل هذه الآية دليلًا على الجبر فى السعادة والشقاء الذاتيين!

بينما لو دقّقنا النظر فى آيات القرآن الأخرى المشابهة لهذه الآية لوجدنا أنّ التشبيه إنّما هو فى مسألة الهداية بعد الموت لا فى الهداية والضلالة الحاصلين فى الدنيا، جاء فى قوله تعالى «اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيهِ تُرْجَعُونَ». (الروم/ ۱۱)

وفى الآية (۲۷) من نفس السورة قال تعالى «وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ». (الروم/ ۲۷)

وهناك آيات اخرى أيضاً تُعطى نفس هذا المعنى (سورة يونس/ ۴، النمل/ ۶۴، العنكبوت/ ۱۹).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰

ومن الممكن أن يقال هنا أن تفسير الآية بمسألة السعادة والشقاء هو الوارد فى التفسير المنقول عن على بن إبراهيم عن أبى الجارود عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «خَلَقَهُمْ حِينَ خَلَقَهُمْ مؤمناً وكافراً وسعيداً وشقياً وكذلك يعودون يومَ القيامة مُهتدياً وضالًا ...» «۱».

ولكن لا شك فى كون هذا الحديث من المتشابه، وراوية «أبوالجارود» وهو «زياد بن المنذر» وهو مذموم بشدّة فى كتب الرجال حتى أنّ البعض اطلقوا عليه اسم «سَرْحُوب» وهو أحد أسماء الشيطان وفى بعض الروايات عُدَّ كذاباً وكافراً، وينسبون إليه تأسيس الفرقة «الجارودية» المنحرفة وهى (فرقة من الزيدية).

وعلى هذا فالتفسير الأول هو الصحيح.

۷- لقاء اللَّه

التعبير الآخر الذى ورد فى آيات متعددة من القرآن الكريم والذى أشار إلى يوم القيامة و البحث، هو تعبير «لقاء اللَّه» و «لقاء الرب»، حيث نلاحظ هذا فى الآية السابعة التى وردت فى بحثنا هذا.

حيث قال تعالى: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ» «۲».

والتعبير ب «لقاء اللَّه» و «لقاء الرب» الذى تكرر ذكره فى آيات القرآن له معنىً عميق جدّاً، رغم أنّ عدداً من المفسرين قد مرّوا عليه مرور الكرام.

فقالوا حيناً: إنّ المراد من «لقاء اللَّه» ملاقاة ملائكة اللَّه فى يوم القيامة، وقالوا حيناً آخر:

إنّ المراد هو تلقى حسابه وجزاءه وثوابه.

وقالوا حيناً ثالثاً: إنّه بمعنى ملاقاة حكمه وأمره.

وعلى هذا الترتيب فإنّ كل واحد منهم جاء بكلمة لتقدير المعنى مع أننا نعلم بأنّ التقدير

---

(۱) تفسير القمى، ج ۱، ص ۲۲۶؛ وتفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۸.

(۲) جاء هذا التعبير أيضاً فى آيات اخرى مثل: الانعام، ۳۱ و ۱۴۵؛ يونس، ۷ و ۱۱ و ۱۵؛ الرعد، ۲؛ الكهف، ۱۰۵ و ۱۱۰؛ الفرقان، ۲۱؛ العنكبوت، ۵ و ۲۳؛ الروم، ۸؛ السجدة، ۲۳؛ فصلت، ۵۴؛ السجدة، ۱۰ و ۲۰.

خلاف الأصل وما لم يتوفر الدليل على التقدير فلا يجب الأخذ به.

وبناءً على هذه الحقيقة نعود إلى التفسير الأول، فممّا لا شك فيه أنّ ملاقاة الربّ ليست حسيّة، وذلك لأنّ الملاقاة الحسيّة تصدق فى موارد الجسم الذى له مكان وزمان ولون وكيفيات اخرى على نحوٍ يمكن مشاهدتها بواسطة العين.

بل المراد هو المشاهدة الباطنية والملاقاة الروحية والمعنوية مع اللَّه، وذلك لأنّ الحُجُب تُرفع يوم القيامة، وتظهر آيات اللَّه فى المحشر وجميع مشاهد ومواقف القيامة بنحوٍ يجعل الكافرين أيضاً يشاهدون اللَّه ويلاقونه ببصائر القلوب! (وإن كانت تلك اللقاءات متفاوتة كيفياً).

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان: «ينبىء أنّه تعالى هو الحق لا سترة عليه بوجه من الوجوه ولا على تقدير من التقادير فهو أبده البديهيات التى لا يتعلق بها جهل لكن البديهى ربما يغفل عنه فالعلم به تعالى هو ارتفاع الغفلة عنه الذى ربّما يعبر عنه بالعلم وهذا هو الذى يبدو لهم يوم القيامة فيعلمون أنّ اللَّه هو الحق المبين، كما أشار إلى ذلك الآية الكريمة: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

الْمُبِينُ»» «۱». (النور/ ۲۵)

وفی حدیث طویل أتی رجل إلی الإمام علی أمیر المؤمنین علیه السلام وقال: حصل لی شک فی القرآن المجید!

قال له الإمام علیه السلام: «ثکلتک أمک وکیف شککت فی کتاب اللّه المنزل؟».

قال الرجل: إنی وجدت الکتاب یکذِّبُ بعضهُ بعضاً ... ثم قال بعد طرحه عدَّهُ إشکالات:

یقول القرآن الکریم: «وُجُوهٌ یَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* إِلَی رَبِّهَا نَاظِرَةٌ»، ویقول فی موضع آخر:

«لَّاتُدْرِکُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ یُدْرِکُ الْأَبْصَارَ»، فقال له الإمام علیه السلام: «اللقاء هنا لیس بالرُّؤیة، بل اللِّقاءُ هنا بمعنی البعث فافهَمْ جمیع ما فی کتاب اللّه من لقائهِ فانَّهُ یَعنی بذلک البعث» «۲».

وفی الحقیقة أنّ أمیر المؤمنین علیه السلام یفسّر مسألة لقاء اللّه تعالی بشیء یکون اللّه تعالی من

---

(۱) تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۹۵ و ج ۱۰، ص ۶۹.

(۲) توحید الصدوق، ص ۲۶۷ (مع التلخیص).

لوازمه، أجل، فیوم القیامة یوم زوال الحجب وظهور آیات الحق جلّ وعلا، وتجلّیه للقلوب، ومن تعبیر الإمام هذا، یدرک کل شخص ما المقصود منه کلٌ حسب استعداده واختلاف مستواه، وکما قلنا سابقاً إنّ الشهود الباطنی لأولیاء اللّه یوم القیامة یختلف کثیراً عن شهود الأفراد العادیین.

۸- الرجوع إلی اللّه

وأخیراً، ورد تعبیرٌ آخر بصورة واسعة (عشرات المرات) فی الآیات القرآنیة لوصف القیامة، وهو عبارة «الرجوع إلی اللّه» أو عبارة «العود إلی اللّه» ومشتقاتها ومن ضمنها الآیة الأخیرة من آیات بحثنا، قال تعالی: «کُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوتِ ثُمَّ إِلَیْنَا تُرْجَعُونَ».

التعبیر بالرجوع والعود- کما قلنا- تکرر ذکره فی الآیات فقد ورد أحیاناً: «إِلَی اللَّهِ مَرْجِعُکُمْ جَمِیعاً». (المائدة/ ۴۸)

وأحیاناً خاطب به النفس المطمئنة والروح المتکاملة حیث قال تعالی «ارْجِعی إِلَی رَبِّکِ». (الفجر/ ۲۸)

وأحیاناً لبیان قدرة اللّه یقول: «انَّهُ عَلَی رَجْعِهِ لَقَادِرٌ». (الطارق/ ۸)

وأحیاناً یقول نقلًا عن لسان المؤمنین: «إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَیْه رَاجِعُون». (البقرة/ ۱۵۶)

ویقول أحیاناً: «إِنَّ الَی رَبِّکَ الرُّجْعَی . (العلق/ ۸)

هذه التعبیرات التی لها نظائر کثیرة فی القرآن المجید تُشیر إلی أنّ القیامة والحشر فی نظر القرآن هی نوع من الرجوع، ویتّضح من مفهوم تلک الکلمة أنّ الشیء الذی یأتی من نقطةٍ ما، یعود إلی تلک النقطة.

وهناک سؤال یطرح نفسه وهو کیف ینطبق هذا المعنی علی یوم القیامة؟ وبأیّ نحوٍ أتینا من عند اللّه وکیف نرجع إلیه؟!

للجواب عن هذا السؤال قدّر بعض المفسرین کلمة فی الآیة وقالوا: إنّ التقدیر هو «إلی

حُکمه ترجعون» کما یقال أحیاناً: «رَجَع امرُ القوم إلی الأمیر».

ولکن هل من الصحیح أن نعتبر حذف مثل هذه الکلمة فی جمیع الآیات؟ وما هو الداعی أساساً للتقدیر والقول بالحذف؟، بل إنّ هناک سبب خاص لهذا التعبیر القرآنی حتماً والذی یجب علینا البحث عنه من خلال سعینا المتواصل، ومن أجل الحصول علی جواب

لهذا السؤال علينا أن نعود إلى بداية خلق الإنسان.

خاطب تعالى الملائكة فى القرآن بقوله: «فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ». (الحجر/ ۲۹)

ممّا لا شك فيه أنّه لا يُقصَد من الروح فى الآية الروح التى انفصلت عن ذاته تعالى وذلك لأنّه واجب الوجود وأنّه بسيط وفاقد للأجزاء التركيبية فى جميع الأبعاد، بل المقصود هو نفخ روحٍ منفصلة عن روح عظيمة، والتى هى من أشرف مخلوقات اللّه، (وباصطلاح الحكماء إنّ هذه الإضافة هى «إضافة تشريفية»).

وعلى هذا فإنّ روح الإنسان الرفيعة سيقت من العالم العِلوى إلى العالم الترابى واتحدت بهذا التراب المظلم، كى ترقى إلى درجات الكمال ثم تنفصل عن التراب وتعود إلى العالم العِلوى ثانية.

ومن الصحيح أنّ الجسم والروح كلاهما يعادان فى يوم القيامة طبقاً لمبنى المعاد الجسمانى، ولكن ينبغى الالتفات إلى أنّ الروح هناك لا تعود إلى الجسم بل الجسم هو الذى يعود إليها فيرتقى ويتكامل! ولذلك فإنّ الجسم الاخروى يخلو من النواقص والعاهات الجسمية التى حلت به فى الدنيا، فتلف وفساد الأبدان والكهولة وقابلية الفناء والألم والمرض والتعب كلها تزول فى ذلك اليوم (فتأمل).

ولتصوير مسألة حلول الروح فى البدن ومن ثم العودة إلى العالم العِلوى فقد شبه بعض العلماء روح الإنسان بالغوّاص الذى يربط فى رجله جسم ثقيل للغوص فى أعماق البحر لاستخراج الجواهر الثمينة، فإنّه عندما يصل إلى قعر البحر ويجمع الجواهر يُلقى بذلك الجسم الثقيل من أجل العود إلى سطح البحر، وهذا هو معنى «الرجوع» (فتأمل).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴

النتيجة:

وخلاصة البحث أنّ يوم الحساب له مراحل ومواقف عبّر القرآن المجيد عن كلٍ منها بتعبير خاص.

فأولًا: جرى البحث عن «قيام الساعة» وتحولات العالم.

ثم يصل البحث إلى مرحلة «احياء الموتى .

بعد ذلك يبعثهم اللّه وتبدأ مرحلة «البعث».

ثم يجمعهم، وهذه هى مرحلة «الحشر» وبعد ذلك يفرّقهم وهذه هى مرحلة «النشر».

ثم يعيدهم إليه وهذه هى مرحلة «المعاد».

ثم يسوقهم إلى لقائه وهذه هى مرحلة «لقاء اللّه».

وأخيراً يتجهون نحو ذلك الوجود اللّامتناهى والكمال المطلق وهذه مرحلة «الرجوع» إلى الرّب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵

للقيامة سبعون عنواناً فى القرآن

اشارة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷

للقيامة سبعون عنواناً فى القرآن

تمهيد:

اشارة

بعد أن تعرضنا للتعبيرات العامة التى أوردناها فى البحث الماضى نلاحظ أنّ القرآن انتخب «للمعاد» اسماءً كثيرةً تشير جميعها إلى جزئيات أوصاف ذلك اليوم العظيم، والمسألة الملفتة للنظر هى أنّ القرآن المجيد لا يعبّر عن القيامة بتعبير واحد وذلك بسبب ما يظهر فى يوم القيامة من حوادث مختلفة ومتنوعة كثيرة، وكل واحد من تلك الأحداث تمثّل وجهاً وبعداً من أبعاد ذلك اليوم.

إنّ القرآن ومن أجل توضيح هذه الخصائص والمميزات، ذات الآثار التربوية العميقة استخدم أسماءً متنوعة؛ وذلك لإعطاء صورة دقيقة من خلال الآيات لذلك اليوم العظيم والأحداث المهيبة جدّاً.

ولا شك أنّ المقصود من «الاسم» هنا ليس هو «الاسم العَلَم الشخصى» بل ما هو أوسع معنىً والذى يشمل «الأسماء الوصفية» أيضاً، أى العناوين التى تعبّر عن صفات ذلك اليوم ومميزات تلك الحياة.

بعد هذه الإشارة نذهب لنتعرف على أسماء القيامة فى القرآن، ونودّ أن نذكّر القّراء الكرام ثانيةً بهذه المسألة وهى أنّ التعمّق فى هذه الأسماء له آثار تربوية عميقة وله تأثير كبير فى تهذيب النفوس وإصلاح القلوب والدعوة إلى التقوى والردع عن ارتكاب السيئات فى الصحوة والغفلة.

قال المرحوم «الفيض الكاشانى» فى «المحجّة البيضاء»: «... تحت كل اسم من أسماء القيامة سرّ، وفى كلّ نعتٍ من نعوتها معنى، فاحرص على معرفة معانيها، ونحن الآن نجمع

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۸

لك أساميها ...». ثم ذكر مائة اسم ليوم القيامة «۱».

ولم يأت ذكر هذه الأسماء جميعها فى القرآن المجيد، بل استُخرجَ قسم منها من الأحاديث الشريفة، لذلك فهى خارجة عن بحثنا التفسيرى، ونحن لا نتابع فعلًا إلّااسماء القيامةالواردة فى القرآن. هذا من جانب، ومن جانبٍ آخر فإنّ الأسماء التى ذكرها الفيض الكاشانى لم ترد لا فى صريح القرآن ولا فى صريح الأحاديث، بل هى استنباطات إجمالية من الكتاب والسنّة، لذا من الأفضل متابعة الأسماء التى صُرِّح بها فى القرآن المجيد (وليس المهم أن تكون تلك الأسماء من الأسماء الخاصة التى لها عدد محدّد أو ممّا يقصد بها الوصف والبيان لخصوصيات ذلك اليوم).

ويمكن تقسيم تلك الأسماء إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

اشارة

الأسماء المركبة من كلمة «يوم» باضافة كلمة اخرى وهذه الاسماء تبيّن أحد أبعاد أو خصوصيات ذلك اليوم، وهى عبارة عن:

۱- يوم القيامة

هذا الاسم هو من أشهر أسماء ذلك اليوم، وقد تكرر ذكره بالتحديد سبعين مرّة فى القرآن المجيد، فمنها قوله تعالى: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَومِ الْقِيَامَةِ». (الأنبياء/ ۴۷)

وللجواب عن سبب تسميتِه بيوم القيامة فالقرآن نفسه يميط اللثام عن هذا السر فيقول: لأنّ ذلك اليوم هو: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين/ ۶)

وهو يومٌ يقوم فيه أشرف ملائكة اللّه الذى يسمى «الروح» مع سائر الملائكة، وفيه أيضاً

---

(۱) المحجّة البيضاء، ج ۸، ص ۳۳۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۹

يقوم الشهود للشهادة على أعمال الناس: «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشهَادُ». (غافر/ ۵۱)

وأخيراً فى ذلك اليوم يقوم الحساب: «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». (إبراهيم/ ۴۱)

إنّ هذا الأمر من الامور المتَّبعة فى المحاكم، فعند اعلان رأى المحكمة يقوم جميع الحاضرين من القضاة والمتهمين وغيرهم ثم يُعلَن الرأى النهائى، فهذا القيام لأجل احترام رأى المحكمة والخضوع أمامه.

وفضلًا عن هذا الأمر فإنّ الإنسان إذا أراد أن ينجز عملًا جاداً فإنّه يقوم حتى يتهيأ لإنجازه، لذلك فإنّ مسألة «القيام» تدل على الإرادة الصلبة والتهيؤ والاحترام لانجاز مثل هذا العمل، ومن المحتمل إن تكرار كلمة «القيامة فى القرآن المجيد هو لهذه العلّة».

بالإضافة إلى ذلك فإنّ قيام الموتى وخروجهم من القبور من أحد أسباب تلك التسمية.

جاء فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام: «أشدُّ ساعات ابن آدم ثلاثُ ساعات:

الساعة التى يُعاين فيها ملك الموت، والساعة التى يقومُ فيها من قبره، والساعةُ التى يقفُ فيها بين يدى اللّه تبارك وتعالى «۱».

۲- اليوم الآخر

اليوم الآخر هو الاسم الثانى، وهو مشهور ومعروف وورد بشكل واسع فى القرآن المجيد مثل: «الدار الآخرة» و «اليوم الآخر» وجاء باختصار مثل «الآخرة» وقد تكرر ذكر هذه الأسماء مائة وأربعين مرّة فى القرآن المجيد وفى سورٍ مختلفة.

ورد فى توضيح معنى البرّ، قوله تعالى «وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوم الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيينَ». (البقرة/ ۱۷۷)

وفى عبارة اخرى قال تعالى «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَايُرِيدُونَ عُلُوّاً فى الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً». (القصص/ ۸۳)

---

(۱) بحارالانوار، ج ۷، ص ۱۰۵، ح ۱۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۰

وفى تعبير آخر أيضاً قال تعالى: «وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُون». (البقرة/ ۴)

أمّا التعبير ب «اليوم الآخر» أو «الدارُ الآخرة» أو «الآخرة» فيقع مقابل التعبير عن دار الدنيا ب «النشأة الاولى كما جاء فى قوله تعالى «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

(الواقعة/ ۶۲)

وفى آية أخرى أيضاً: «وَلَلْآخِرَةُ خَيرٌ لَّكَ مِنَ الْاولَى . (الضحى/ ۴)

قال فقهاء اللغة: إنّ «الآخِر» هو ما يقابل الاوّل، و «الآخَر» هو ما يقابل «الواحد».

قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: سمّيت الآخرة بذلك لكونها بعد الدنيا، والدنيا من أجل دنوِّها من الناس سميت بالدنيا (من مادة دُنُو) وقال آخرون من أجل دنائتها وضعتها بالنسبة للآخرة «۱».

وجاء فى تفسير روح البيان وتفسير الفخر الرازى أيضاً ما يشابه ذلك «۲».

وهذا التعبير يبيّن هذه الحقيقة، وهى أن مسير تكامل الإنسان يبدأ من هذا العالم ويستمر، وأنّ العالم الآخر هو نهاية هذا المسير، فالدنيا هى بمثابة منزل استراحة فى وسط ذلك الطريق، والآخرة هى المقرّ النهائى والأبدى.

وهذا هو تحذير لجميع البشر كى لا- يعتبروا الدنيا منزلًا للخلود وكى لا- تتعلق بها قلوبهم ولا يعتبرونها الهدف الرئيسى ولا يبذلوا قصارى جهدهم للحصول على نعيمها، بل ليجعلوها ممرّاً للوصول إلى دار الآخرة.

۳- يوم الحساب

«يوم الحساب»: أيضاً من الاسماء المشهورة للقيامة، وقد ورد فى خمس آيات من القرآن الكريم، والسبب فى هذه التسمية هو أنّ جميع أعمال الإنسان صغيرها أو كبيرها،

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۴۰.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱، ص ۴۱؛ وتفسير الكبير، ج ۲، ص ۳۲.

جزئية أو كلية، معنوية أو مادية، من أعمال الجوارح أو الجوانح، يشملها الحساب بدون استثناء فى ذلك اليوم.

جاء فى قوله تعالى على لسان موسى بن عمران عليه السلام: «وَقَالَ مُوسَى انِّى عُذتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّايُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ». (غافر/ ۲۷)

وعبّر عن ذلك تارةً ب «يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ». (إبراهيم/ ۴۱)

ورد فى مقاييس اللغة أربعة معان لمادة «حساب»: «العدُّ» و «الاكتفاء» و «الحسبان» بمعنى الوسادة الصغيرة و «احْسَب» أى الذى ابيضّ لون بشرته وسقط شعر رأسه إثرَ المرض.

وذكر عدد من أصحاب اللغة معانىَ أكثر للحساب، وقد بلغت سبعة معانٍ، منها الجزاء والعذاب «۱».

ولكن الظاهر على ما يفهم إجمالًا من مفردات الراغب إنّ جميع تلك المعانى المذكورة تعود إلى معنىً واحد وهو المحاسبة، وإن استُعمل بمعنى الاكتفاء فهو يعنى أنّ هناك محاسبة وصلت إلى حد الاكتفاء، وهكذا فى الجزاء فإنّه يعنى أنّ الجزاء يأتى بعد الحساب، والمعانى الاخرى أيضاً تعود إلى هذا المعنى بنحوٍ ما (فمثلًا، السبب فى اطلاقه على نوع من الأمراض الجلدية هو تشبيهه بالمجازاة الإلهيّة التى تتم بعد الحساب، ومن المحتمل أنّ اطلاق حسبان على الوسادة الصغيرة لأنّ المحاسبين عند انجاز عملية الحساب يتّكئون عليها).

على أيّة حال فإنّ الحساب الإلهى- الذى سيأتى توضيح كيفيته بعون اللّه فى أبحاث منازل الآخرة- من أبرز الأعمال التى تمارس يوم القيامة، وفى الواقع أنّ قيام يوم القيامة إنّما هو لأجل الحساب.

---

(۱) نهاية ابن الأثير؛ ولسان العرب.

۴- يوم الدين

استعمل هذا الاسم أيضاً بشكل واسع فى القرآن الكريم، وقد بلغ عدد الآيات التى ورد فيها التعبير ب «يوم الدين» ثلاثة عشر آية، وأكثر ما يَرِدُ على الألسن هو ما جاء فى سورة الحمد: «مَالِكِ يَومِ الدِّين».

يعتقد بعض أصحاب اللغة أنّ «دين فى الأصل بمعنى الخضوع والطاعة والانقياد، وإذا اطلقت هذه الكلمة على معنى الجزاء فإنّه إمّا من أجل وجوب قبول الجزاء أو من أجل أنّ الجزاء من مخلفات الطاعة».

وفُسِّر يوم الدين أيضاً بمعنى يوم الحساب فى بعض الروايات، وهو فى الواقع من قبيل ذكر العلّة وارادة المعلول؛ وذلك لأنّ الحساب مقدمة للجزاء.

۵- يوم الجمع

ورد هذا التعبير مرتين فى القرآن المجيد، منها قال تعالى «يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ». (التغابن/ ۹)

وأخرى «لِتُنذِرَ امَّ القُرَى وَمَنْ حَولَهَا وتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ». (الشورى/ ۷)

وكيف لايكون ذلك اليوم يوم الجمع حيث إنّ جميع الاولين والآخرين وجميع الجن والانس وحتى الملائكة المقربين يجمعون فى ذلك اليوم، ولم يُجْمَعوا لوحدهم فحسب بل يجمعون مع جميع أعمالهم، فيتأهبون للمثول امام محكمة العدل الإلهى.

وقد ورد هذا الاسم بصورة اخرى «ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ». (هود/ ۱۰۳)

۶- يوم الفصل

«يوم الفصل» (يوم الافتراق) هو اسم آخر من اسماء يوم القيامة، وقد تكرر ذكر هذا

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۳

الاسم فى القرآن المجيد ست مرات «۱»، قال تعالى «انَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً». (النبأ/ ۱۷)

إنّ هذا التعبير عميق جدّاً يدلّ على الافتراق فى ذلك اليوم العظيم مثل: افتراق الحق عن الباطل وافتراق صفوف المؤمنين والصالحين عن صفوف الكفار والمجرمين وافتراق الأخ عن أخيه والام والأب عن الأبناء وافتراق مصير الصالحين عن مصير (الطالحين) الفاسقين.

ويأتى هذا التعبير تارةً بمعنى يوم القضاء والتحكيم؛ ذلك لأنّ القاضى يفصل النزاع بحكمه، لذا أُطلِقَ «الفصل» على الحكم والقضاء لأنّه السبب فى نهاية النزاع.

۷- يوم الخروج

جاء هذا التعبير فى آية واحدة من القرآن المجيد فى سورة ق الآية ۴۲ وذلك من خلال الإشارة إلى نفخ الصور الثانى، قال تعالى «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُروجِ». (ق/ ۴۲)

نعم، إنّه يوم الخروج من الموت إلى الحياة ومن عالم البرزخ إلى عالم الآخرة ومن الباطن إلى الظاهر ومن الخفاء إلى العلن!

وجاء هذا المعنى بصورة اخرى قال تعالى «يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ» «۲». (المعارج/ ۴۳)

ويدلُّ هذا التعبير على أنّ أحداث يوم القيامة فى أوّل الأمر تمرُّ بسرعة هائلة، وفى نفس الوقت استُعمل هذا التعبير للطعن والاستهزاء بعبدة الأوثان الذين يعتبرون الأوثان من أهم الامور فى حياتهم، وقد استقطبت الأوثان أكثر أصحاب العقول الناقصة، فقد وصلوا إلى حدٍ

---

(۱) الصافات، ۲۱؛ الدخان، ۴۰؛ المرسلات، ۱۳ و ۱۴، ۳۸؛ النبأ، ۱۷.

(۲) «سراع» جمع «سريع» (على وزن ظِراف وظريف) بمعنى الشخص أو الشى الذى يسير بسرعة. و «نُصُب» جمع «نصيب» و «نُصب» «نَصْب» على وزن (كَسْب) فى الأصل بمعنى الشى الذى ينصب فى مكانٍ ما، لذا لم يطلق إلّاعلى المحل الذى يُنْصب فيه. قالوا إن

الفرق بين النصب والصنم هو أنّ الصنم له شكل معيّن لكن النصب حجر خالٍ من أى صورة، وكانوا يعظمونه ويذبحون له القرابين.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۴

من الجهل جعلهم يعتبرون الهرولة نحو الأصنام من اوضح مصاديق «الاسراع» فى العبادة، إذ كانوا يعدون بسرعة نحو الأوثان فى أيّام الفرح أو أيّام العزاء أو عند العودة من السفر ومن هنا يظهر السّر المكنون فى هذه الآية.

۸- اليوم الموعود

ورد هذا التعبير مرّة واحدة فى آية واحدة من القرآن أيضاً بصورة قَسَم عظيم حيث قال تعالى: «وَالْيَومِ الْمَوعُودِ»، (أى اليوم الذى هو موعد الجميع وقد وعد جميع الأنبياء بذلك).

(البروج/ ۲)

وفسَّر بعض المفسرين اليوم الموعود على انَّه إشارة ليوم الخروج من القبور أو اليوم الذى يشفع فيه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكن المعنى الأول يشمل جميع هذه المعانى «۱».

وورود هذا القَسَم فى القرآن المجيد بعد القسم: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ»، هو إشارة إلى عظمة ذلك اليوم وأنّ عظمته كعظمة السماء، أو إشارة إلى أن خلق هذه السماء العظيمة وذلك النظام الدقيق المهيمن عليها لا يتمّ إلّامن أجل ذلك اليوم الموعود؛ ذلك لأنّ هذه الدنيا الفانية لوحدها لا تستحق مثل هذا النظام العظيم المترامى الأطراف.

ومهما يكن من أمر فقد ورد تعبير آخر يشابه هذا التعبير، قال تعالى «فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى يُوعَدُونَ» «۲».

(الزخرف/ ۸۳)

۹- يوم الخلود

لم يرد هذا التعبير فى آيات القرآن إلّامرّة واحدة فى قوله تعالى: «أُدخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۸۶.

(۲) ورد ما يشابه هذا التعبير فى الآية ۴۳ من سورة المعارج؛ والآية ۶۰ من سورة الذاريات أيضاً.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۵

يَوْمُ الْخُلُودِ». (ق/ ۳۴)

ورد هذا التعبير بعد وصف «الجنّة» فى آيات سورة ق، وإن دلّ على شىء فإنّه يدلّ على خلود ودوام تلك النعمة الإلهيّة والمكافأة العظيمة وجميع نعمه تعالى التى وهبها للمحسنين إلى الأبد، وفى الحقيقة إنَّ يوم الخلود يبدأ من وقت الدخول إلى الجنّة.

وهذا التعبير يؤيد بوضوح ما قلناه مسبقاً وهو أنّ كلَّ واحد من أسماء وصفات القيامة يحمل فى طياته إشارة إلى أحد أبعادها، والكلام هنا عن الدوام الأبدى، ومن الطبيعى أنّ عذاب جهنم كذلك ولكن لم يعبّر القرآن ب «يوم الخلود» إلّافى هذا المورد، أمّا بشأن جهنم فيوجد تعبير مشابه آخر وهو «دار الخلد» قال تعالى «ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ». (فصلت/ ۲۸)

۱۰- يومٌ عظيم

ورد اطلاق وصف اليوم العظيم فى آيات متعددة من القرآن المجيد، منها: قوله تعالى

«فوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ» «۱». (مريم/ ۳۷)

ومن الجدير بالذكر أنّ التعبير ب «عذاب يوم عظيم» جاء أيضاً فى آيات القرآن فى موارد العذاب الدنيوى المهيب، وبمجرد البحث فى الآيات السابقة واللاحقة يمكن تمييزه عن عذاب يوم القيامة بسهولة.

على أيّة حال فإنّ نعت ذلك اليوم بالعظمة انّما جاء لأمورٍ مهمة كثيرة تحصل فى ذلك اليوم العظيم مثل: المكافأة والمجازاة العظيمة، والقضاء والحساب العظيم، والحضور العظيم للمخلوقات فى ذلك اليوم، وعظمة امتداد ذلك اليوم، وعظمة الخوف والرهبة والفزع، وهيبة المحشر والحساب، وفى عبارة مختصرة هى العظمة فى جميع جوانبها.

---

(۱) جاء أيضاً ما يشابه هذا التعبير فى الآية ۱۵، يونس؛ ۱۵، الانعام؛ ۵۹، الاعراف؛ ۱۳۵، الشعراء؛ ۲۱، الاحقاف؛ ۱۳؛ الزمر؛ ۵، المطففين.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۶

۱۱- يوم الحسرة

ورد هذا التعبير فى آية واحدة من القرآن وهو من التعبيرات التى تهز المشاعر عن يوم القيامة، فهو يوم الحسرة والأسف والندامة، قال تعالى: «وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذ قُضِيَ الْأَمْرُ وهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَايُؤْمِنُونَ». (مريم/ ۳۹)

«الحسرة»: من مادة «حَسْر»، قال صاحب (المفردات) وصاحب (مقاييس اللغة) وعدد آخر من اللغويين: إنّها بمعنى الكشف، فمعنى حسرتُ عن الذراع كشفتُ عنها ورفعتُ عنها الكُم، ثم اطلقت كلمة حسرة على الغم والهم الحاصل من ضياع الفرص أو بعض الامور، فكأن حجاب الجهل يُرفع عن الإنسان فيكتشف اضرار الأعمال التى كان يمارسها وتظهر له الحقيقة على ما هى.

لكن البعض الآخر يعتبر الأصل فى الحسر هو «الانسحاب»، ولكن الحقيقة أنّ الانسحاب من لوازم المعنى الأول، فعندما ينسحب ماء البحر إلى الخلف مثلًا فإنّ من الطبيعى أن تظهر السواحل التى كان يغطيها الماء، أو عندما يسحب الإنسان كُمَّه إلى الخلف فإنّ ذراعه سوف تنكشف «۱».

على أيّة حال فإنّ الحزن والأسف والندامة من لوازم مفهومه، وأنّ يوم القيامة هو يوم الهم والندامة والحسرة حقاً، لا للمذنبين فحسب بل للمحسنين أيضاً؛ ذلك لأنّهم عندما يشاهدون المكافآت الإلهيّة العظيمة فإنّهم يتأسفون على أنّهم لماذا لم يحسنوا أكثر ممّا احسنوا!؟

وقد صرّح بهذا عدد من المفسرين «۲»، إلّاأنّ الفخر الرازى يقول: إنّ الحسرة لا تشمل أصحاب الجنّة بل تكون من نصيب المُسيئين فقط وذلك لعدم إمكان وجود أى غم أو هم فى الجنّة «۳».

---

(۱) التحقيق، ج ۲.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ۵۱۵؛ وتفسير روح البيان، ج ۵، ص ۳۳۵؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱۶، ص ۸۵.

(۳) تفسير الكبير، ج ۲۱، ص ۲۲۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۴۷

ولكن يجب الاعتراف بأنّ غماً كهذا هو نوع من الكمال وليس منبعاً للعذاب الروحى، وبناءً على هذا فإنّ وجوده فى الجنّة لامانع منه (فتأمل).

فإن كان التأسف والحسرة ممّا ينجبر فى هذه الدنيا فإنّه لا مجال لذلك هناك، ولذا يجب أن يسمى ذلك اليوم بيوم الحسرة الحقيقية والحسرة الكبرى وقد جاء نفس هذا المعنى ولكن بصورة اخرى «انْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ» «۱».

(الزمر/ ۵۶)

۱۲- يوم التغابن

ورد هذا التعبير فى القرآن مرّة واحدة وذلك فى قوله تعالى: «يَومَ يَجْمَعُكُمْ لِيَومِ الْجَمْعِ ذلِكَ يَوْمُ الْتَّغَابُنِ». (التغابن/ ۹)

«التغابن»: من مادة «غَبْن» وهنا جاءت بمعنى انكشاف الغبن، أى يظهر فى ذلك اليوم من هو المغبون «۲».

قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «وهو تفاعل من الغبن وهو أخذ شر وترك خير أو العكس، فالمؤمن ترك حظه من الدنيا واخذ حظه من الآخرة فترك ما هو شرّ له وأخذ ما هو خير له فكان غابناً، والكافر ترك حظه من الآخرة وأخذ حظه من الدنيا فترك الخير وأخذ الشر فكان مغبوناً، فيظهر فى ذلك اليوم الغابن والمغبون».

وفى صحاح اللغة «الغبن» بمعنى الخدعة والمكر، والمغبون من وقع ضحية الخداع والمكر، وعندما تستخدم فى موارد التفكّر والتعقّل فإنها تعنى الضعف وعدم الاقتدار، لذا «غبين» جاءت بمعنى ضعيف الفكر.

على أيّة حال ففى يوم القيامة يكشف عن الحُجب وتظهر نتائج الأعمال والاعتقادات

---

(۱) ورد أيضاً ما يشابه هذا المعنى فى سورة الانعام الآية ۳۱.

(۲) مفردات الراغب.

والتيّات، ويرى الإنسان نفسه بين كميّة عظيمة من نتائج وآثار أعماله، وهناك يُخبَر المسيئون عن خسارتهم وفشلهم وعن خداع ومكر الشيطان وعن ضياع رأس مالٍ عظيم وعن فقدانهم للسعادة الخالدة والوقوع فى مخاطب العذاب الإلهى، وهذا هو الغبن الحقيقى.

۱۳- يوم التناد

ورد هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد عندما كان مؤمن آل فرعون يحذّر الفراعنة من العذاب الإلهى الذى يحلُّ بهم فى الدنيا والآخرة، قال تعالى «وَيَاقَوْمِ إِنّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ». (غافر/ ۳۲)

«التناد»: جاء فى الأصل من «التنادى» حذفت ياؤه واضيفت الكسرة فى آخره للدلالة على حذف الياء، وهو من مادة «نداء».

ذهب كثير من المفسرين إلى أنّ «يوم التناد» من أسماء القيامة «۱»، وجاء كل منهم بدليل لاثبات مدّعاه.

قال بعضهم: إنّ الدليل عليه هو أنّ أصحاب النار ينادون أصحاب الجنّة كما فى الآية الكريمة: «وَنَادى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنْ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» فيجيبهم أهل الجنّة: «قَالُوا انَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ». (الاعراف/ ۵۰)

نُقل هذا المعنى فى كتاب «معانى الأخبار» خلال حديث روى عن الإمام الصادق عليه السلام.

وقال آخرون: إنّ العلّة فى هذه التسمية هى أنّ الناس فى يوم الحشر ينادى بعضهم بعضاً يطلبون العون.

أو أنّ الملائكة تنادى الناس للحساب وينادى الناس الملائكة لطلب العون! أو لأنّ المؤمن عندما يرى صحيفة أعماله ينادى من شدة الفرح: «هَاؤُمُ اقْرَؤُا كِتَابِيَه». (الحاقة/ ۱۹)

وينادى الكافر عندما يُعطى كتابه بيده من شدّة الفزع: «يَالَيْتَنِى لَمْ اوْتَ كِتَابِيَه».

---

(۱) ادّعى الفخر الرازى فى تفسيره (الكبير ج ۲۷، ص ۶۱) الإجماع واتفاق المفسرين على هذا القول.

(الحاقة/ ۲۵)

وهنالك وجوه اخرى ذكرت لهذه التسمية، ففى بعض التفاسير عدّوها ثمانية وجوه، ولكن بعضَ تلك الوجوه ضعيفة، ومن الممكن أنّ جميع هذه المعانى قد جُمعت فى مفهوم الآية وذلك لعدم المنافاة.

۱۴- يوم التلاقِ

ورد هذا التعبير مرّة واحدة فى القرآن المجيد فى قوله تعالى: «يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ». (المؤمن/ ۱۵)

المراد من لقاء الروح بقرينة الآيات الاخرى هو الوحى والكتب السماوية، كما جاء فى خطابه تعالى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى قرآن الكريم: «وَكَذلِكَ أَوْحَينَا اَلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا».

(الشورى/ ۵۲)

وعلى هذا الأساس فإنّ القرآن المجيد روحٌ نُفختْ فى المجتمع الإنسانى من قبل اللّه عزّوجلّ!

قال الراغب فى المفردات: سُمى القرآن روحاً لأنّه هو السبب فى إيجاد الحياة المعنوية.

والهدف من لقاء هذه الروح هو الانذار من هول يوم التلاقى العظيم.

إنّ كل أنواع اللقاءات التى جُمعت فى مفهوم الآية تحصل فى ذلك اليوم، وإن أشار المفسرون إلى بعض زوايا تلك اللقاءات.

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه العباد بربهم: «يَا اَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ۶)

وهو اليوم الذى يلتقى فيه الإنسان بملائكة الحساب والثواب والعقاب: «وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ». (الأنبياء/ ۱۰۳)

وهو اليوم الذى يلتقى فيه الإنسان بحساب الأعمال والأقوال: «إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَاقٍ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۰

حِسَابِيَهْ». (الحاقة/ ۲۰)

إنّه اليوم الذى يلتقى فيه الأولون والآخرون.

يوم تلاقى دعاة الحق ودعاة الباطل بأعوانهم.

يوم تلاقى الظالم والمظلوم.

يوم تلاقى أهل الجنّة وأهل النار!

نعم، إنّ الهدف الرئيس من بعث الأنبياء ونزول الكتب السماوية هو تحذير وانذار العباد من ذلك اليوم، يوم التلاقى العظيم وما أعجبه من مفهوم واسع ورهيب.

۱۵- يومٌ ثقيل

وهذا الاسم أيضاً من الأسماء التى وردت مرّة واحدة فى قوله تعالى: «إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوماً ثَقِيلًا». (الإنسان/ ۲۷)

إنّ نعت ذلك اليوم بالثقيل هو وصف واسع وعميق المعنى ثقيل من حيث المحاسبة وثقيل من حيث المجازات وثقيل من حيث الفضائح وثقيل من حيث شدائد الحشر وثقل المسؤوليات وثقيل من حيث الذنوب التى تثقلُ كاهل المجرمين! وعبّر ب «يذرون وراءهم» مع أنّ القاعدة تقتضى أن يقال «أمامهم» وذلك من أجل الإشعار بأنّ المجرمين نسوا ذلك اليوم إلى حدٍ كأنّه تركوه وراءهم.

۱۶- يومُ الآزفة

إنّ كل اسم من أسماء يوم القيامة يحمل فى طياته خطاباً متميزاً، ومنها اسم «يوم الآزفة» الذى ورد مرّة واحدة فى القرآن المجيد (التعبير ب «الازفة» ورد مرتين، ولكن «يوم الازفة» مرّة واحدة) قال تعالى «وَأَنْذِرهُمْ يَوْمَ الازِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ».

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۱

(المؤمن/ ۱۸)

«الآزفة»: من مادة «ازَف» على وزن (صَدَف)، قال فى مقاييس اللغة والمفردات ومصباح اللغة وكتب اخرى ازَف بمعنى اقترب، ولكن البعض الآخر قال إنّها بمعنى الاقتراب المشوب بضيق الوقت.

هذه التسمية تشير إلى هذه الحقيقة وهى أنّ موعد وقوع القيامة اقرب ممّا يتصوره الناس، كى لا يقول الغافلون لدينا متّسع من الوقت وأنّ يوم القيامة موعد مؤجل! فإنّه يوم قريب تصل القلوب فيه إلى الحناجر من شدّة الخوف وتبلغ الروح الحلقوم، إنّ الهمّ المشوب بالخوف فى ذلك اليوم يخنق الناس.

نعم يجب التأهب فى كل لحظة لمثل هذا اليوم.

وقد أشار القرآن الكريم وبتعبير آخر إلى نفس هذا المعنى فى الآية الاولى من سورة الأنبياء: «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ»، وهو إشارة إلى أنّ حساب يوم القيامة قريب جدّاً.

ولابدّ من الالتفات إلى أنّ جملة (اقترب) فيها تأكيد للمعنى أكثر من (قرب) وهو إشارة إلى أنّ يوم الحساب قريب جدّاً.

فالقرآن الكريم- لقرب القيامة وحتمية وقوعها- أخبر عنها بصيغة الماضى فى كثير من تعبيراته، مثل قوله تعالى «إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً* إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً».

(الفرقان/ ۶۵- ۶۶)

وغيرها من الآيات الشريفة.

۱۷- يومٌ عسير

ورد هذا التعبير مرّتين فى القرآن المجيد فى الآية الاولى: «فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ».

(المدثر/ ۹)

وفى الآية الثانية: «وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً». (الفرقان/ ۲۶)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۲

وورد هذا التعبير مرّة واحدة بلفظ «عَسِر» (على وزن خَشِن) قال تعالى «يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ» «۱». (القمر/ ۸)

من البديهى أن يكون ذلك اليوم منهكاً ومؤلماً ومحزناً للكافرين، بنحوٍ ينهار فيه القوى منهم ويصبح عاجزاً ذليلًا منهك القوى

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: «عسرُ ذلك اليوم على الكافرين لأنّهم يناقشون فى الحساب ويعطون كتبهم بشمائلهم وتسوَدّ وجوههم ويحشرون زرقاً وتتكلم جوارحهم فيفتضحون على رؤوس الاشهاد» «۲».

وهذه إحدى مراحل صعوبات المحشر، والمراحل الاخرى أصعب واكبر بلاءً من تلك المرحلة عندما يساقون إلى جهنم ثم يرون أنواع العذاب ويقعون فى نار الغضب الإلهى، فذلك اليوم ليس بيسيرٍ حتى على المؤمنين، إنّ حساب جميع الأعمال حتى إذا كان بمثقال ذرّة والعبور من تلك المسالك الصعبة أمرٌ عسيرٌ جدّاً.

۱۸- يوم اليم

ورد هذا التعبير مرتين أيضاً فى القرآن المجيد (وإن وردت كلمة «أليم» مجردةً عشرات المرات فى وصف عذاب القيامة فى سور مختلفة من القرآن الكريم).

إحداها فى سورة هود نقلًا عن لسان النبى نوح عليه السلام عندما كان يخاطب قومه، قال تعالى:

«إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ». (هود/ ۲۶)

والاخرى فى سورة الزخرف عن لسان الوحى الإلهى: «فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ». (الزخرف/ ۶۵)

إنّ وصف ذلك اليوم بالأليم ليس من حيث العذاب المؤلِم فحسب، بل علاوة على

---

(۱) «عسير» و «عَسِر» كلاهما صفة مشبّهة.

(۲) تفسير الكبير، ج ۳۰، ص ۱۹۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۳

هذا فإنّ ذلك اليوم هو مصدر الألم والعذاب من عدّة وجوه، من حيث الفضيحة ومن حيث الندامة والحسرة القاتلة، ومن حيث أنواع الآلام الروحية الاخرى فمثلًا الإنسان الذى يرى الآخرين قد دخلوا الجنّة بواسطته فى حين يجد نفسه من أهل النار، وأليم لعدم إمكان العودة ثانيةً وأليم لدوام العذاب فى ذلك اليوم.

ومن الجدير بالذكر هو أنّ إحدى الآيتين السابقتين تحدثت عن المشركين والاخرى تحدثت عن الظالمين، ونحن نعلم بأنّ الشرك نوع من الظلم، وأنّ الظلم والاضطهاد أيضاً هو من دوافع الشرك على نوعيه الجلىّ والخفىّ.

۱۹- يومُ الوعيد

وردت هذه التسمية مرّة واحدة فى القرآن المجيد بأجمعه حيث قال تعالى: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ». (ق/ ۲۰)

ولا يخفى أنّ كلمة «وعيد» تكرر ذكرها فى القرآن كثيراً، ولكن التعبير ب «يومُ الوعيد» لم يرد إلّافى مورد واحد.

كلمة «وعيد» اشتُقّت من مادة «وعد»، قال الراغب فى المفردات: «وعد» تستعمل فى موارد الخير والشر معاً، ولكن «وعيد» لا تستعمل إلّافى موارد الشر، ولذا فسّرَها «ابن منظور» فى لسان العرب بالتهديد، وكلمة «ايعاد» جاءت بهذا المعنى أيضاً.

على أيّة حال فإنّ هذا التعبير إشارة عميقة إلى جميع أنواع عقوبات يوم القيامة، فهو إشارة إلى عقوبات المحشر وإلى محكمة العدل الإلهيّة وإلى عقوبات النار وجميع العقوبات الماديّة والمعنوية مثل الخزى أمام الناس والبعد عن فيض وقرب الرّب.

وللمفسرين أقوال فى مسألة نفخ الصور التى وردت فى هذه الآية، فهل هو نفخة الموت وانتهاء الحياة الدنيا، أم هى نفخة عودة الحياة وبداية الآخرة؟ ولكن جاء فى الآية التالية لهذه الآية: «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ». (ق/ ۲۱)

وهذا دليل على أنّ المراد منها هو النفخ الثانى وهذا اليوم (يوم الوعيد) هو نفس ذلك

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۴

اليوم أيضاً «۱».

۲۰- اليوم الحق

ورد هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد، وقد عُبّر به عن يوم القيامة، قال تعالى: «ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ». (النبأ/ ۳۹)

نعم إنّها حقيقة لا تنكر، وحقيقةٌ تعطى مفهوماً لفلسفة خلق كل ما فى الدنيا، ولولا ذلك اليوم لما بقى هدف ومفهوم لخلق هذا العالم.

إنّ الدنيا فى الواقع ليست أكثر من سراب، وهى «مجاز» وليست «حقيقة»، بل هى فناءٌ لابقاء، وموتٌ لا حياة، نعم إنّ حقيقة المفهوم

الرئيسى للحياة يتجلى فى يوم القيامة «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ». (العنكبوت/ ۶۴)

وأشار بعض المفسرين فى تفسيرهم لحقانية ذلك اليوم إلى ثلاثة امور:

۱- ذلك اليوم هو الحق وغيره باطل، وذلك لأنّ باطل أيّام الدنيا أكثر من حقها.

۲- الحق بمعنى الوجود الثابت ولـذا اطلقوا كلمة الحق على اللّه تعالى لأنّهم قالوا باستحالة تصور الفناء له، ويوم القيامة كذلك أيضاً، وعلى هذا فإنّ القيامة حق.

۳- إنّ ذلـك اليوم يستحق اطلاق كلمة اليوم (بمعنى النهار) عليه وذلك لأنّ فى ذلك اليوم المنير يُكشف عن الأسرار الخفية بينما تكون أحوال الخلق مجهولة ومكتومة فى الدنيا (كما هو الحال فى الليل) «۲».

۲۱- يومٌ مشهود

---

(۱) رَجَّحَ هـذا المعنى كـثير مـن المفسـرين مثـل أبـو الفتـوح الرازى والعلّامـة الطباطبـائى والفخر الرازى والآلوسـى فى روح المعـانى والمراغى فى تفسيره عند تعليقه على تلك الآية.

(۲) التفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۲۵.

ورد هـذا الوصف مرّة واحـدة أيضـاً فى القرآن المجيـد وذكر ذلـك اليوم بعـد ذكر عـذاب الآخرة، قال تعالى: «وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْـهُودٌ». (هود/ ۱۰۳)

ولا يكون ذلك اليوم مشـهوداً من قبل الأولين والآخرين فحسب، بل سوف تشاهـد فى ذلك اليوم الأعمال والحساب ومحكمـة العدل الإلهى ومكافآت وعقوبات الأعمال أيضاً.

وعن المرحوم الطبرسـى فى مجمع البيان والعلّامـة الطباطبائى فى الميزان أنّهم قالوا: إنّ هذه الآية تدل على أنّ الإنسان لايحضـر لوحده ويشاهد ذلك اليوم بل إنّ الجن والملائكة أيضاً سوف يحضرون ويشهدون ذلك اليوم فإنّه يوم الجمع الشامل «۱».

وقال القرطبى أيضاً إنّ سكان السموات يحضرون ويشهدون ذلك اليوم أيضاً.

ومن البـديهى أنّ جميع الأيّام يمكن مشاهـدتها، ولكن انتخاب هـذا الوصف ليوم القيامة يقع تارةً من حيث الدلالة على حتمية وقوعه، واخرى للدلالة على أهميّة تلك الأحداث التى تقع فى ذلك اليوم والحضور الشامل لسائر الخلق فيه.

۲۲- يومٌ معلوم

ورد هـذا التعبير مرّة واحـدة أيضـاً فى القرآن الكريم فى جواب اسـتفسار الكفّار عن الحياة ما بعـد الموت، قال تعالى: «قُلْ إِنَّ الْأوّلِينَ وَالْآخِرِينْ* لَمجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

(الواقعة/ ۴۹- ۵۰)

إنّ العلم بذلك اليوم يمكن أن يكون له مفهومان:

۱- «العلم التفصـيلى» أى العلم بـذلك اليوم وتاريـخ وقوعه الـدقيق، ونحن نعلم بأنّ هذا العلم يختصُ باللّه تعالى، ولا أحد يعلم بذلك حتى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، لكنّه ثابت ومقطوع به ومعلوم من جميع الجهات فى علم اللّه عزّ وجلّ.

۲- «العلم الإجمـالى» أى العلم بأنّنـا سوف نواجه جميعاً مثل هـذا اليوم، فبما أنّ علمنا نابع من أعماق فطرتنا- كما سـيأتى فى الأبحاث اللاحقـة إن شاءاللّه- ومع وجود الـدلائل المتعددة عن طريق العقل التى يمكن أن يحصل عليها العالم والعامى بالإجمال، وباضافة علم

جميع الرسل والأنبياء، يكون ذلك اليوم يوماً معلوماً وحتمياً وضرورياً وإن لم يعلم

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۱، ص ۷؛ وتفسير مجمع‌البيان، ج ۵، ص ۱۹۱ ورجّح «المراغى» هذا القول فى تفسيره أيضاً.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۶

أحد تاريخه بالدقة.

وأكثر المفسرين رجحوا المعنى الأول، لكن الأكثرية أخذوا بالمعنى الثانى واستدلوا على شمولية هذا العلم بكلمة «قُل» وذلك لأنّ مفهومها يتضمن تبليغ هذا الأمر للجميع «۱».

لكن يمكن الجمع بين التفسيرين فى مفهوم الآية أيضاً.

إنّ الخطاب الذى يوجهه الينا تعبير (يوم معلوم) هو أن نكون صادقين فى تعاملنا مع هذا اليوم وأن نتأهب للقائه، وأن نعلم علم اليقين بأنّ القيامة على أيّة حال واقعة بجميع آثارها ونتائجها، وهذا العلم واليقين له أثر كبير فى التربية.

۲۳- يوماً عبوساً قمطريراً

ورد هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى القرآن المجيد فى نقل خطاب «الأبرار» «۲» عند قولهم: «إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً». (الانسان/ ۱۰)

كلمة «عبوس» هى من صفات الإنسان وهذا ممّا لا يحتاج إلى تفسير، وتطلق هذه العبارة على الإنسان الذى تقطّب وجهه وكان حاله على غير مايرام، ووصف ذلك اليوم ب «عبوس» كناية حيّة عن وضع ذلك اليوم الرهيب المرعب، أى أنّ وقائع ذلك اليوم بلغت من الصعوبة والإيلام حدّاً كبيراً لا يكون الإنسان لوحده عبوساً فى ذلك اليوم، بل كأن اليوم بنفسه عبوسٌ مقطّبٌ بشدّة!

و «القمطرير»: عند كثير من المفسرين بمعنى «الصعب الشديد» أو الإنسان العبوس السّيئ الخلق، وبناءً على هذا يكون مفهومه قريباً من مفهوم العبوس، ثم إنّ هذه الكلمة مشتقة من مادة «قطر» على وزن (قفل) والميم زائدة فيها، وقيل إنّها مشتقه من مادة «قمطر» (على وزن خنجر).

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۷۲.

(۲) والمعلوم أنّ هذه السورة نزلت فى بيان شأن الإمام على وفاطمة والحسن والحسين (سلام اللَّه عليهم أجمعين) الذين هم فى الركب الأول من «الأبرار والصالحين».

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۷

على أيّة حال فإنّ التعبير المذكور يشير إلى أن أحداث ذلك اليوم تبلغ من الصعوبة والشدّة والألم درجة يجعل آثارها تظهر من بواطن الناس على وجوههم، ويسيطر الخوف والاضطراب على تمام وجودهم، وذلك لأنّ أحداً لا- يعلم إلى أين ينتهى مصيره، والجميع ينتظرون الحساب وينتظرون لطف اللَّه.

قال بعض المفسرين فى شدّة هذا اليوم: سبحان اللَّه ما أشدَّ اسم هذا اليوم وهو من اسمه أشد.

۲۴- يوم البعث

ورد هذا التعبير مرّتين فى القرآن المجيد وذلك فى آية واحدة وهى: «وَقَالَ الَّذِينَ اُتُوا الْعِلمَ وَالإِيمانِ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَومِ الْبَعْثِ فَهذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ». (الروم/ ۵۶)

من الواضح أنّ التعبير عن احياء الموتى ب «البعث» (والأفعال المشتقة منه) فى آيات القرآن المجيد كثير جدّاً واستعمل استعمالًا واسع النطاق كما أشرنا إليه سابقاً، وكل تلك التعبيرات تبيّن هذه الحقيقة وهى أنّ ذلك اليوم يوم حياة الجميع بعد موتهم، وبما أنّنا أشرنا إليه بما فيه الكفاية فى هذا الصدد فلا نرى ثَمّة حاجة إلى توضيح أكثر.

إلى هنا ينتهى القسم الأول: ومن خلال الأسماء والاوصاف والتعبيرات المختلفة التى وردت فى هذا القسم تتجلى لنا بوضوح هذه الحقيقة وهى أنّ القرآن جاء ليتبّه الناس من غفلتهم، ومن أجل تربيتهم وتعليمهم وهدايتهم إلى التكامل والسمو، وكذلك من أجل عرض وتوضيح الصور المختلفة للمعاد، فقد انتخب للمعاد أسماءً متنوعة يشير كل واحد منها إلى بُعدٍ من أبعاد ووقائع ذلك اليوم وأحداثه العظيمة المزلزلة التى لا نظير لها، فكل واحد من هذه الأسماء، أو بتعبير آخر كل واحد من أوصاف ذلك اليوم يحمل فى طياته خطاباً متميزاً

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۸

لجميع البشر وعلى مرّ القرون والعصور.

خطابٌ إذا ما اعتُبِرَ به فإنّه سيكون عاملًا مؤثراً فى الردع عن الانحرافات والسيئات والخطايا والجرائم والمنكرات والمظالم.

إنّه خطاب يكشف البحث فيه بوضوح عن أبعاد فصاحة وبلاغة القرآن فى الميادين المختلفة وخصوصاً فى المواضيع التربوية، وهو أفضل هادٍ لسالكى طريق الحق وللباحثين عن طريق القرب الإلهى (فتأمل).

القسم الثانى:

اشارة

والآن نبحث فى قسم آخر من أسماء القيامة والتى لا تصف القيامة فى كلمة واحدة بل من خلال جملة كاملة.

۲۵- يومَ نطوى السماء كطىِّ السِّجلِّ للكُتُب

بعض هذه التعبيرات تتحدّث عن الوقائع التى تحدث فى العالم عند ظهور مقدمات القيامة، والبعض الآخر يتعلق بأحوال البشر فى ذلك اليوم، ويخبر قسم آخر عن انتهاء كل شى.

التعبير أعلاه هو من ضمن التعبيرات التى تتعلق ب «مقدمات القيامة» بعد الإشارة إلى عدد من مكافآت المحسنين وعقوبات المسيئين، قال تعالى «يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ». (الانبياء/ ۱۰۴)

«السجل»: من مادة (سَجْل) على وزن (سَطْل) بمعنى الدلو الكبير المملوء بالماء، وقيل إنّه بمعنى «الجمع والادِّخار لأجْل الاراقة والنثر»، من أجل هذا اطلقوا كلمة «سَجْل» على الدلو الكبير، واطلقوا كلمة «سِجِلّ» (بكسر السين والجيم وتشديد اللام) على الصحائف

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۵۹

التى تكتب عليها المطالب وتطوى أحياناً كما كانت تطوى «الوثائق» فى السابق، ويستعمل طى السجل فى هذا المورد.

ويعتقد البعض أنّ السِّجِلّ بمعنى الملفّات التى تكتب وتحفظ فيها الدعاوى وامور اخرى مشابهة، لذا جاء التسجيل بمعنى التقرير والإثبات «۱».

على أيّة حال فإنّ ظاهر الآية يشير إلى أنّ السماء كلها تطوى عندما يفنى العالم وتبدأ القيامة، فتصير بصورة قطعة واحدة كما كانت عليه فى البداية، وهذا ممّا صرح به العلم الحديث، وهو أنّ العالم فى البداية كان على شكل حزمة واحدة ثم دار حول نفسه بسرعة تحت تأثير علل خفية وتناثرت اجزاءه تحت تأثير القوة الطاردة عن المركز وهو الآن فى حال الاتساع والانبساط ثم يعود ثانيةً وبسرعة

إلى الانقباض والاتجاه نحو المركز، ثم أخيراً تعود الأجزاء إلى بعضها وتشكّل حزمة واحدة، وهذه هى نهاية نظام هذا الكون.

ثم تبدأ حركة جديدة وتظهر سموات وأرض جديدة لعالم اخر، وعلى هذا المعنى فلا حاجة إلى تفسير الآية بالمعنى الكنائى، ولو أنّ كثيراً من المفسرين مالوا إليه، وربّما كان ذلك بسبب عدم وجود هذا التفسير فى ذلك الزمان.

لكن انطواء السموات فى أيّة صورةٍ كان، لا- يعنى فناءها المطلق وانعدام العالم المادى؛ وذلك لأنّ القرآن أشار فى آياتٍ متعددة وبصراحة إلى أنّ الناس يخرجون من القبور وتعود الحياة إلى رفاتهم وتبقى الذرات الحاصلة من تفسخ أبدانهم وتجمع وتبدأ حياةً جديدة.

۲۶- يوم تبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسموات

من خلال ما قيل فى البحث السابق بشأن القيامة يتضح معنى هذا التعبير القرآنى أيضاً، هذا التعبير الذى ورد مرّة واحدة لا غير فى القرآن المجيد، يدل على الانتقام الإلهى من الظالمين والمجرمين، قال تعالى: «يَوَم تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّموَاتُ».

---

(۱) القاموس؛ والمفردات؛ والتحقيق وكتب اخرى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۰

(ابراهيم/ ۴۸)

فى أول الأمر يُبعَثَر كل شىء، ثم يضع بانى عالم الوجود تصميماً جديداً، ويُبدِعُ ارضاً وسماءً جديدة تكونان أرقى وأعلا مرتبةً من سابقتيهما حتى تليق بطبيعة يوم القيامة.

وللمفسرين نقاش حول المُبدَّل، هل هو ظاهر الأرض وصفتها أم هو ذاتها؟ فقال بعضهم: إن جميع الاجبال والغابات وغيرهاتُبدّل وتصبح الأرض مستوية بيضاء اللون كالفضة، وكأنما لم يُرقْ على تلك الأرض دم ولم يرتكب عليها ذنب قط، وتبدل السموات بذلك النحو أيضاً.

وقال البعض الآخر: إن هذه الأرض وهذه السماء تفنيان بالمرّة ويحلّ محلهما أرضٌ وسماءٌ جديدتان، لكن هذا الاحتمال- كما أشرنا سابقاً- لايتلائم مع الآيات القرآنية الاخرى التى تتحدث عن قبور الناس وعن تراب ابدانهم التى تبقى كما كانت عليه، فإن قيل إن تبديل الأرض هذا يتم بعد انتهاء الحياة البشرية، قلنا إنّ هذا الكلام ينافى ذيل الآية، لأنّ ظاهرها يدل على ظهور وبروز الخلق بعد تبديل الأرض. حيث قال اللّه تعالى «وَبَرَزُوا لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». (إبراهيم/ ۴۸)

۲۷- يوم تمورُ السماءُ مَوراً

ورد هذا التعبير مرّة واحدة فقط فى القرآن الكريم، وقد جاء بعد بيان وقوع العذاب الإلهى حيث لا مانع ولا دافع لوقوعه، قال تعالى: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّك لَوَاقِعٌ* مَّالَهُ مِن دَافِعٍ* يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً* وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً». (الطور/ ۷- ۱۰)

«المور»: على وزن (موج) وله معانٍ مختلفة- على حد قول أصحاب اللغة-: حيث جاء بمعنى الحركة الدائرية وبمعنى الموج وبمعنى الحركة السريعة وبمعنى الذهاب والاياب وبمعنى الغبار الذى يذهب به الريح فى كل جانب «۱»، وأكثر المعانى مناسبةً هنا هو الحركة

---

(۱) لسان العرب؛ ومفردات الراغب؛ وتفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۳؛ وتفسير روح البيان، ج ۹، ص ۱۸۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۱

السريعة.

فمن الممكن أن تكون هذه الحركة بياناً لتلك الحركة السريعة نحو مركز الكون التى تحدث عند انقباض أجزاء عالم المادّة كما أشرنا إليها فى الصفحات السابقة، ومن الممكن أيضاً أن تكون بياناً لحركة العالم المستديرة فى مسير انبساط وانقباض المجموعة الكونية.

وقال الفخر الرازى خلال تعليقه على هذه الآية: وقوله «وتسير الجبال» يُحتمل أن يكون بياناً لكيفيّة مور السماء، وذلك لأنّ الجبال إذا سارت وسير معها سكّانها يظهر أنّ السماء كالسيّارة إلى خلاف تلك الجهة كما يشاهده راكب السفينة، فانّه يرى الجبل الساكن متحرّكاً «۱».

مفهوم هذا الكلام هو أنّ السموات ثابتة فى الحقيقة ولكنّها تبدو للانظار متحركة، لكن هذا على خلاف ظاهر الآية.

۲۸- يوم تشقَّقُ السماءُ بالغمام

۲۹- يوم تشقق الأرض عنهم سراعاً

هذان التعبيران عن يوم القيامة متشابهان فى أحد أبعادهما.

ففى الآية الاولى قال تعالى: «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمَامِ». (الفرقان/ ۲۵)

وفى الآية الثانية قال تعالى: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً». (ق/ ۴۴)

إنّ انشقاق الأرض من فوق الناس له مفهوم واضح وهو بيان لزلزال القيامة الذى يشق القبور ويحيى الناس بأمر اللّه ويخرجون بسرعة للحساب والجزاء.

أمّا تمزق السموات بالغمام فيمكن أن يكون بياناً للانفجارات الهائلة التى تحدث فى الأجرام السماوية عند فناء الكون وأنّ الغمام الحاصل من هذه الانفجارات يملأ السماء (هذا على أنّ «الباء» فى «بالغمام» باء الملابسة أى يلابس ويصطحب مع الغمام).

أو أنّ السموات أى «الأجرام السماوية» تتمزق بتأثير الغيوم التى تحمل أمواجاً قوية هائلة حاصلة من الانفجارات النووية أو غيرها (وفى هذه الحالة تكون الباء سببية) «۲»- «۳».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۸، ص ۲۴۳.

(۲) قال بعض المفسرين إنّ «الباء» بمعنى «عن» فيكون المعنى هو أن تتمزق وتتنحى عن واجهة السماء لكن هذا المعنى بعيد جدّاً.

(۳) «الغمام» من مادة «غم» بمعنى الحجب، ومن حيث إنّ الغيوم تحجب السماء فإنّهم اطلقوا عليها «الغمام» ومن حيث إنّ الهم والحزن يملًا قلب الإنسان فإنّهم اطلقوا على ذلك الغم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۲

قال المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تعليقهِ على هذه الآية: «ليس من البعيد أن يكون هذا الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضى موطن الإنسان» «۱».

ولكن بما أنّ الحمل على الكناية يحتاج إلى قرينة ولا قرينة عليه فى الآية فإنّ التفسير الأول يظهر على أنّه أكثر مناسبةً، وهكذا فى الآية الثانية أيضاً فإنّ انشقاق الأرض يحمل المعنى الظاهرى لا الكنائى والمعنوى.

والشاهد الآخر وجود الآيات الكثيرة فى القرآن المجيد والتى تدل على حدوث تغيّرات وانقلابات شديدة فى جميع شؤون عالم المادّة لا فى السماء والأرض والجبال والبحار فقط.

۳۰- يوم تكون السماء كالمُهل

هـذا وصف آخر ليوم القيامـة والتغيّرات الحادة التى تطرأ على العالم، وقد ورد هذا التعبير مرّة واحدة فى القرآن حيث قال تعالى: «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ». (المعارج/ ۸)

و «مُهْـل»: على وزن (قُفْل) فسـروها تـارة بمعنى المعـادن المنصـهرة، وتـارةً بمعنى الثُفـل أو الرسوبـات التى تترسب فى‌قعر إناء الزيت وأمثاله، وتارةً اخرى بمعنى الفضـة المذابة وتارة بمعنى رسوبات الزيت «۲»، هذا ولكن المعنى الأول أرجح عند إمعان النظر فى آيات اخرى تحدثت عن وقائع يوم القيامة.

والمراد بالسماء هنا هو إمّا الأجرام السماوية أو واجهة السماء التى تصبح على هيئة

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۵، ص ۲۰۲.

(۲) تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ الميزان وتفاسير اخرى فى التعليق على الآية.

معدن منصهر بفعل انفجار الأجرام.

قال بعض المفسـرين: من المحتمل أنّ عـدداً كبيراً من الأجرام السـماوية والتى هى حالياً على هيئة غازات مضـغوطة تتبدل صورها يوم القيامة وتتحول إلى أشكال ذائبة، وهى الصورة الجديدة لتلك الغازات والتى تكون مقدمة لحدوث القيامة «۱».

۳۱- يوم ترجف الأرضُ والجبال

لوحظ هـذا الوصف فى آيتين من القرآن المجيـد على تفاوت ضـئيل بينهما فى وصف يوم القيامـة، وجاء هـذا الوصف فى الآية: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ والْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا». (المزمل/ ۱۴)

و كذلك قوله تعالى «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ». (النازعات/ ۶)

اليوم الـذى تتعرض فيه كل الأرض للزلازل العنيفة وتَتحطّم الجبال بشدّة حتى تصـبح أكواماً من الرّمل، فما هو حال الإنسان الضـعيف المنهك فى ذلك اليوم؟!

جميع تلـك الامـور تتعلق بالوقـائع التى تؤدّى إلى فنـاء هـذا العـالم، ثم تبـدأ مرحلـة العـالم الآخر، فالقرآن جمع بين هاتين المرحلتين ووضعهما فى وصفٍ واحد.

فتارةً يبين ضـعف الإنسان واخرى يُخبر عن التطورات الرهيبة عند فناء العالم وثالثة يصور تغيّرات العالم الممهِّدة لقيام القيامة، كل هذه التعبيرات جاءت من أجل تربية الإنسان وتشكّل انذاراً مؤكداً ومتواصلًا له.

إنّ «ترجـف وراجفـة» من مـادة «رَجْـف» بمعنى الاـهتزاز الشديـد ولـذا اطلق على البحر المائـج «بحرٌ رَجّـاف»، و «ارجـاف» بمعنى بث الشائعات التى تهز المجتمع، و «اراجيف» تطلق على جذور الفتن والوقائع.

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۷۸ و ۲۷۹.

وقـد احتملوا لمعنى «الراجفـة» فى الآية السابقة معانٍ مختلفة منها الواقعة والصـيحة الكبرى و ...، ولكن الآية الآخرى تشـكّل قرينة على أنّها الأرض التى تُزَلزَل بشدّة فى ذلك اليوم.

و «الكثيب»: بمعنى «الرمل المتراكم» والبعض حملها على معنى «التل الكبير من الرمل».

و «المهيل»: بمعنى الرمل الناعم جدّاً الذى يتطاير عند وضع القدم عليه، وإذا ما خُلّى جانبه انهال ما تبقّى منه، ولذا فسّـره البعض بالرمل

السيّال «۱».

۳۲- يوم يَسْمَعُونَ الصيحةَ بالحق

۳۳- يَومَهُمُ الذى فيه يُصْعقون

التعبيران أعلاه، واللذان يتقاربان فى الافق هما أيضاً وصفان آخران لذلك اليوم العظيم، ففى الآية الاولى «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ». (ق/ ۴۲)

نحن نعلم بأنّه عند انتهاء الدنيا وابتداء القيامة تطلق هنالك صيحتان على حد تعبير القرآن المجيد واللتان عبّر عنهما أحياناً ب «نفخ الصور» وهما: «الصيحة الاولى» وهى صيحة فناء العالم والموت الشامل، و «الصيحة الثانية» صيحة الحياة الجديدة والقيامة، والآية التى وردت أعلاه تدلّ على الصيحة الثانية وذلك بقرينة «ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ» التى جاءت فى آخر الآية.

أمّا ما هى كيفية هذه «الصيحة العظيمة»؟ وبأى الوسائل يحدث هذا الصوت؟ وما هو تأثيره فى احياء الموتى فإنّ هذه الامور لايعلم أحد تفاصيلها، بَيد أنّ القرآن أشار إليها إشارةً اجمالية، ولا عجب من جهلنا بها فى هذا الزمان؛ وذلك لأنّ كل ما يتعلق بالقيامة يختلف اختلافاً تاماً عمّا فى الدنيا، ومحفوف بهالة من الابهام، كما هو الحال فى الجنين فإنّه

---

(۱) مفردات الراغب؛ وتفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير وتفاسير اخرى فى التعليق على آيات البحث.

لا يمكن أن يُدرك حياة هذه الدنيا وإن كان بالفرض يمتلك قدرة فكرية عظيمة.

وفى الآية الثانية قال تعالى: «فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ».

(الطور/ ۴۵)

«يصعقون»: من مادة «اصعاق» اشتقت فى الأصل من «الصاعقة»، وبما أنّ الصاعقة لها صوت عظيم بالإضافة إلى أنّها مهلكة فقد فُسِّرت هذه الجملة بهذين المعنيين معاً، فإن كانت بمعنى الهلاك فتكون دليلًا على إرادة النفخة الاولى وفناء الكون، كما جاء فى الآية: «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ». (الزمر/ ۶۸)

وإن كانت كلمة (صعق) بمعنى الصوت فإنّها من الممكن أن تكون دليلًا على النفخة الاولى أو الثانية التى هى نفخة يوم القيامة، فعلى هذا تكون مرادفة للآية السابقة.

ورجّح كثير من المفسرين المعنى الأول، وفى نفس الوقت لم يهجروا المعنى الثانى «۱».

وأمّا ما احتمله البعض من أنّ الآية تشير إلى هلاك مجموعة من المشركين فى غزوة بدر فيبدو بعيداً جدّاً (بدليل الآية ۶۸ من سورة الزمر التى مرّ ذكرها).

۳۴- يوم يُنفخُ فى الصور

ورد هذا التعبير أربع مرات فى القرآن المجيد ففى الآية الاولى قال تعالى «وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ». (الانعام/ ۷۳)

وفى الآية الثانية قال تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمجرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً».

(طه/ ۱۰۲)

وفى الآية الثالثة قال تعالى: «وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ». (النمل/ ۸۷)

وفى الآية الرابعة قال تعالى: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ افْوَاجاً». (النبأ/ ۱۸)

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۹؛ وتفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۲۴۷؛ وتفسير روح المعانى، ج ۳۷، ص ۳۴؛ وتفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۲۳؛ وتفسير روح البيان، ج ۹، ص ۲۰۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۶

يتحدث القرآن المجيد- كما سيأتى فى بحث «نفخ الصور» إن شاء اللَّه- عن نوعين من نفخ الصور: ففى النفخ الأول تموت جميع الاحياء الموجودة فى الأرض والسماء، وفى النفخ الثانى والذى هو نفخة الحياة يحيا الجميع ويتأهبون للحساب والكتاب، لكن الآيات الاربع السابقة الذكر كلّها أو جلّها تتعلق بالنفخ الثانى أى نفخ الحياة فى القيامة.

ومهما يكن من شىء فإنّ هذا التصوير للقيامة من قبل القرآن يصور للانظار الوقائع العديدة التى تقع عند ذلك اليوم، وهذا التعبير هو أحد التعابير العديدة التى تحتوى على معنىً دقيق والتى تصوّر للضمائر وقائع ذلك اليوم الصعبة المرعبة فتنبّهها من غفلتها.

أمّا البحث عن معنى «الصور» ومفهوم «النفخ» والخصوصيات الاخرى فسوف نتناوله فى محله إن شاء اللَّه، ولكن ولأجل الاطّلاع على محتوى هذا التعبير نتطرق لذكر الحديث النبوى الشريف الذى يذكر مجموعة من تلك الوقائع والذى ورد فى تفسير الآية الرابعة من بحثنا هذا (الآية ۱۸ من سورة النبأ):

قال «معاذ بن جبل» سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن تفسير الآية: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً» فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يامعاذ بن جبل سألت عن أمرٍ عظيم» ثم أرسل عينيه باكياً، ثم قال: «يحشر عشرة أصناف من أمتى أشتاتاً قد ميّزهم اللَّه تعالى من جماعات المسلمين، وبدلّ صورهم، فمنهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير وبعضهم منكسون، أرجلهم أعَلاهم، ووجوههم يسحبون عليها، ....، ....، وبعضهم يمضغون ألسنتهم، فهى مُدلاة على صدورهم، يسيل القيح من أفواههم لعاباً، يتقذرهم أهل الجمع، ....، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشد نتناً من الجيف، وبعضهم ملبسون جلابيب سابغة من القطران لاصقة بجلودهم؛ فامّا الذين على صورة القردة فالقَتَّات من الناس- يعنى النمام- وأمّا الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت والحرام والمَكس، وأمّا المنكسون رؤوسهم ووجوههم، فأكلة الربا، ....، ....، والذين يمضغون ألسنتهم: فالعلماء والقصاص الذين يخالف قولهم فعلهم، ...، والمصلبون على جذوع النار: فالسعاة بالناس إلى السلطان والذين هم أشد نتناً من الجيف فالذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق اللَّه من أموالهم، والذين يلبسون الجلابيب: فأهل الكِبْر والفخر والخيلاء» «۱» پ.

(۱) ذكر هذا الحديث عدد كبير من المفسرين مثل أبى الفتوح الرازى والقرطبى وروح البيان وقد أوردنا الحديث باختصار.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۷

۳۵- يومٌ كان مقدارُهُ خمسين الف سنةٍ

وصف القرآن المجيد وفى آيتين يوم القيامة بأنّه يومٌ طويل للغاية، قال اللَّه تعالى فى أحد الآيتين: «تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ». (المعارج/ ۴)

وقال فى محلّ آخر: «يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ». (السجدة/ ۵)

لا شك فى أنّ الآية الاولى تختص ببيان يوم القيامة، والآيات التى أتت بعدها تتعرض لصفات القيامة ولعذاب المجرمين فى ذلك اليوم وكذلك إلى أوصاف جهنم.

وقد اختلف المفسرون فى مورد الآية الثانية فهناك عدة آراء «۱» فالبعض قالوا: إنّها إشارة إلى المنحنى النزولى والصعودى للتدبير الالهى فى هذه الدنيا، أو بتعبير آخر إشارة إلى مراحل التدبير الإلهى فى هذا العالم والتى تتم كل مرحلة منها فى مدّة الف عام على يد

الملائكة المكلّفين بأمرٍ من اللّه بإجراء هذا التدبير التكوينى، ثم بعد انتهاء هذه المرحلة تبدأ مرحلة اخرى وهلمّ جرّا.

لكن بعد البحث فى الآيات القرانية التى تحدثت عن انطواء السماء والأرض، وكذلك الروايات التى وردت فى شرح هذه الآية يفهم منها أنّها تتحدث عن يوم القيامة.

ولذا رجّح المرحوم العلّامة الطباطبائى فى الميزان هذا التفسير أيضاً بعد أن ذكر عدّة احتمالات لهذه الآية «۲».

لكن يبقى هنالك سؤال وهو كيف قُدِّر ذلك اليوم فى الآية الاولى بخمسين الف سنة- من سنين الدنيا- وفى الآية الثانية بالف سنة؟

اجيبَ بوضوح عن هذا السؤال فى حديثٍ نقله المرحوم الشيخ الطوسى فى أماليه عن

---

(۱) ذكر الآلوسى فى تفسير روح المعانى، ج ۲۱، ص ۱۰۷ سبعة تفاسير للآية، أحدها هو القيامة.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۶۱، وجاء نفس هذا المعنى أيضاً فى تفسير ظلال القرآن ج ۶، ص ۵۱۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۸

الإمام الصادق عليه السلام، قال عليه السلام: «إنَّ فى القيامة خمسين موقفاً؛ كُلُّ موقفٍ مثلُ الف سنةٍ ممّا تعدون ثم تلا هذه الآية: «فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»».

والكلام فى أنّ العددين (الف وخمسين الف) سنة هل جاءت هنا لبيان العدد أم للدلالة على الكثرة؟ فيه احتمالان، ولكن على أيّة حال فإنّ مضمون خطاب هذه الآية هو أنّ ذلك اليوم يومٌ صعبٌ جدّاً ومعضل، ولا يتيسر لأحد تجاوزه بسهولة، ويجب على الجميع أن يتأهبوا لمثل هذا اليوم الطويل الملى بالمخاطر.

وهناك أمرٌ يثير الاهتمام وهو أنّ اليوم (أى دوران الكواكب السماوية حول محورها دورة كاملة) يختلف تماماً من كوكب لآخر، فالكرة الأرضية تدور حول محورها فى كل ۲۴ ساعة دورة كاملة بينما تطول مدة الدوران الموضعى فى القمر لمدّة شهر تقريباً (فالنهار فيه يبلغ اسبوعين والليل فيه يبلغ اسبوعين تقريباً) وهكذا الحال فى الكواكب الشمسية الأخرى فكل منها له ليلٌ ونهار يختص به ويمتد زمانه بمقدار متميز، والآن فى هذا الزمان من الممكن أن تكون فى عالم الوجود كواكب يمتد دورانها الموضعى إلى مئات أو الاف من السنين، بناءً على هذا فلا عجب من أن يكون امتداد كل يوم فى القيامة يعادل خمسين الف سنة.

ونواصل التأكيد على أنّ هدف القرآن الرئيسى هو الجانب التربوى الكامن فى مثل هذه التعبيرات.

القسم الثالث:

۳۶- يومَ يكونُ الناسُ كالفراشِ المبثوث

كل ما قرأنا لحد الآن فى وصف ذلك اليوم كان يتحدّث عن الوقائع المزلزلة التى تقع فى مقدمة ذلك اليوم فى عالم الدنيا وإن كل وصف يحمل فى طياته خطاباً خاصاً، ففى الوصف الأخير طرحت مسألة طول وامتداد ذلك اليوم وهذا أيضاً يحمل انذاراً متميزاً.

والآن نذهب صوب الأوصاف التى تصوّر حال الناس فى ذلك اليوم، ونلتفت إلى أنَ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۶۹

تعبيراتٍ كل واحد منها أقوى تأثيراً من الآخر وكأنّها تأخذ بيد الإنسان وتسير به فى اروقة المحشر وتعرفه على كل موضع منه فتجسّم له وقائع ذلك اليوم العظيم وكأنّه يراه بعينه المجردة.

فى الوصف الذى نتناوله بالبحث والذى ورد مرّة واحدة فى القرآن المجيد فقط حيث يصور وضع الناس المروع فى ذلك اليوم بهذا النحو: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ».

(القارعة/ ۴)

وجاء مثل هذا التعبير ولكن باختلاف ضئيل عندما قال تعالى «كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ».

(القمر/ ۷)

وللمفسرين آراء مختلفة فى سبب تشبيه الناس فى ذلك اليوم بالفراش، ومن جمله ما قالوا هو أنّ السبب فى هذا التشبيه هو كثرة الناس واضطرابهم وخوفهم وفرارهم فى كل صوب وضعفهم وتخبّطهم.

ومن الممكن أيضاً أن تكون هذه المسألة من مكنونات التعبير المذكور أعلاه وهى أنّ الفراش عادةً يرمى بنفسه باتجاه نور الشمع والمصباح بصورة جنونية فيحترق، وأنّ المجرمين أيضاً فى ذلك اليوم تعتريهم هذه الحالة عند مواجهتهم لنار جهنم، وكل هذا يدلّ على الحيرة والضلال الشديد والاضطراب والرعب العظيم الحاصل فى ذلك اليوم.

على أيّة حال فإنّه تعبير ناطق وتصوير واضح عن حالة الناس العجيبة الحاصلة فى ذلك اليوم والتى عبّر عنها القرآن بتعبير وجيز، ويرى البعض أنّ السبب فى دوران الفراشة حول النار حتى الاحتراق هو فقدانها للذاكرة، فإنّها تقترب من الشعلة وتحس بحرارتها فتهرب ولكنها تنسى بسرعة وتعود ثانيةً وتقترب من شعلة النار وتكرر هذا العمل حتى تلقى بنفسها فى النار وتحترق.

وكذلك الحال بالنسبة للمسيئين والمجرمين، فمن شدّة الاضطراب والجزع كأنّهم يفقدون صوابهم ويلقون أنفسهم فى النار كما تفعل الفراشات.

وذكر أهل اللغة والمفسرون معانى متعددة ل «الفراش»: فالبعض فسّره بمعنى الجراد الذى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۰

ينتشر بكثافة فى السماء، والبعض فسّرها بمعنى البعوض الذى يطير على شكل أفواج، ولكن أغلب المفسرين واللغويين فسروها بذلك المعنى وهو الفراش، على الأخص ما قاله «الخليل بن أحمد» فى كتاب «العين» فإنّه قال: «الفراشُ التى تطيُر طالبةً للضوء» وقال فى صحاح اللغة أيضاً: «الفراش» جمع «فراشة» تلك الحشرة الطائرة التى تطير وتقع فى النار.

۳۷- يوم تبلى السرائر

۳۸- يوم هم بارزون

هذان الوصفان يبينان خلال تعبيرين اثنين حقيقة واحدة عن ذلك اليوم العظيم (وقد وردا فى الآية ۹ من سورة الطارق والآية ۱۶ من سورة المؤمن)، ويقرران أمراً خطيراً إذا ما آمن به الناس كان له أثر عميق فى تربيتهم.

ففى ذلك اليوم لا تخفى خافية؛ وذلك لارتفاع الاستار الطبيعية مثل الجبال والتلال، وتكون الأرض كما أشار إلى ذلك فى الآية: «قَاعاً صَفْصَفاً»، (أى صافية خالية من المرتفعات). (طه/ ۱۰۶)

ومن ناحية اخرى يخرج الناس من القبور وتُخرج الأرض ما فى باطنها: «وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا». (الزلزال/ ۲)

وثالثة، تنشر صحف أعمال الناس والامم ويُعلن عن محتواها أمام الملأ: «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ». (التكوير/ ۱۰)

وتنطق الأيدى والأرجل وجميع الجوارح حتى الجلود، وتبدأ بالعويل واعلان الفضائح.

فالأرض والدهر كلها تنطق وشهداء الأعمال يشهدون على أعمال الناس، ففى ذلك اليوم يعلن أمام الملأ- حتى عن نيّات الناس واعتقاداتهم فضلًا عن أعمالهم، إنّه يوم الفضيحة الكبرى للمسيئين ويوم الفخر العظيم للمحسنين حقاً.

ويجب الانتباه إلى أنّ «تُبلى من مادة «بلاء» بمعنى الامتحان وبما أنّ حقائق الأشياء تظهر عند الاختبار فقد فُسِّر البلاء هنا بمعنى الاتضاح.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۱

جاء فى الحديث عن «معاذ بن جبل» أنّه قال: (سألت رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وما هذه السرائر التى تبلى بها العباد فى الآخرة، فقال: «سرائركم هى أعمالكم من الصلاة والصيام والزكاة والوضوء والغسل من الجنابة وكل مفروض لأنّ الأعمال كلها سرائر خفية فإن شاء قال الرجل صليت ولم يصل وإن شاء قال توضأت ولم يتوضأ، فذلك قوله يوم تبلى السرائر» «۱».

والجدير بالذكر هو أنّ ما جاء فى الحديث الشريف المذكور هو بيان أمثلة من هذه الحقيقة الكلية، وإلّا فإنّ الآية الشريفة تشتمل على جميع «العقائد» و «النيات» وأعمال الناس» سواء الحسن منها أم السيء.

ومن هنا يظهر أنّ العناوين البراقة الكاذبة التى حصلت عليها الكثير من الشخصيات بواسطة التضليل والتستر فى هذه الدنيا سوف تذهب هباءً بفعل زوابع المحشر وتحل محلها الفضيحة العظمى وما أروع من سقوط هؤلاء الأفراد وأصحاب الواقع السى المتلبسين بالظاهر الأنيق، من اوج العزّة والكرامة إلى قعر الذّلة والمهانة!

وما أحلى الكرامة التى حاز عليها المؤمنون المخلصون الذين لم يراؤوا وحافظوا على اخفاء ارتباطهم باللّه فى هذه الدنيا وما أجمل ظهورهم فى ذلك اليوم وجلوسهم على عرش العزة والعظمة!

هذا هو النداء الذى يقدّم لنا الوصف المذكور أعلاه وهو انذار لجميع الناس العالِم منهم والجاهل.

۳۹- يوم ينظُرُ المرءُ ماقدَّمت يداه

۴۰- يوم تجدُ كُلُّ نفسٍ ما عَمِلَت من خيرٍ مُحضراً وما عملت من سوءٍ

هذان التعبيران أيضاً يوضحان أحد الحقائق التى صُبَّت فى قالبين، ويبينان حقيقة مهمّة اخرى لذلك اليوم تقصم الظهر وتزلزل القلوب وتجعل الإنسان يسرح فى تأمّل عميق.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۲

ففى الآية الاولى قال تعالى: «يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ». (النبأ/ ۴۰)

بما أنّ مسألة تصور الأعمال فى ذلك اليوم العظيم ومشاهدة جميع الأعمال التى ارتكبها الإنسان فى هذه الدنيا يُعتبر أمراً غير معقول لكثير من المفسرين فإنّهم فسّروا «ينظر» حيناً بمعنى «ينتظر»، وحيناً آخر بمعنى مشاهدة كتاب الأعمال أو مشاهدة ثوابها وعقابها.

والسبب الذى دفعهم إلى ذلك هو أنّ المفسرين فى تلك العصور لم يمعنوا النظر فى مسألة تجسّم الأعمال، وإلّا فما الضرورة لهذه التقديرات والتأويلات؛ وذلك لأنّ القرآن يقول: إنّ الإنسان سوف يشاهد بعينيه فى ذلك اليوم كل ما ارتكب من قبل، أى أنّ نفس أعماله التى فنيت مادياً فى الظاهر لم تفن فى الواقع وسوف تبقى وتظهر للعيان بصورةٍ ما، وليس بالضرورة أن يراها جميع أهل المحشر، كما جاء نفس هذا المعنى أكثر وضوحاً فى الآية: «وَ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً»! (الكهف/ ۴۹)

وورد نفس هذا المعنى بجلاء فى الآية الثانية أيضاً قال تعالى: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً».

(آل عمران/ ۳۰)

وممّا يثير الاهتمام هنا هو ما قاله المرحوم «الطبرسى» فى «مجمع البيان» فى تعليقه على الآية الثانية، قال: «فأما أعمالهم فهى اعراض قد بطلت ولا يجوز عليها الاعادة، فيستحيل أن ترى محضرة»، لذا ذهب إلى تفسيرين آخرين أحدهما حضور كتب الأعمال، والثانى حضور جزاء الأعمال من ثوابٍ وعقاب.

ولكن كما أشرنا فى كتاب (التفسير الأمثل)، أنّ أعمال الإنسان هى نوعٌ من الطاقة مثل جميع أنواع الطاقة الموجودة فى العالم، فإنّها لا

تفنى أبداً بل تتغير اشكالها وهى باقية قطعاً.

وقلنا أيضاً بأنّ تحوّل «المادة إلى «طاقة» والطاقة» إلى «مادة» كلاهما أمر ممكن من الناحية العلمية، فعلى هذا لا مانع من بقاء أعمال الإنسان وتحولها فى ذلك اليوم إلى مادة، وظهور كل واحد منها على هيئة مناسبة لحاله، وبناءً على هذا فإنّ الآيات المذكورة تُمثّل فى الواقع جزءً من المعجزات العلمية للقرآن والتى لم تكن حين نزول القرآن معروفة لأحد،

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۳

وهذه الحقيقة اتضحت لنا بسبب الاكتشافات العلمية الحديثة.

وممّا يثير الاهتمام أيضاً أنّ الروايات الإسلامية تحدثت كثيراً أيضاً عن تجسم الأعمال فى البرزخ والقيامة، ولكن لا يعلم علّة عدم اهتمام المفسرين السابقين بهذه الروايات، ومن المحتمل أن يكون السبب فى ذلك هو اعتقادهم بأنّ الأعمال «اعراض» وبأنّها فانية وبأنّ إعادة المعدوم محال، بينما اتّضح لنا فى هذا الزمان بطلان هذا الاستدلال كلياً (وسوف نقرأ فى بحث تجسم الأعمال تفصيلًا أكثر فى هذا المجال).

۴۱- يوماً تتقلَّبُ فيه القلوب والأبصار

۴۲- يوم تشخصُ فيه الأبصار

التعبيران المذكوران فى الآيتين أعلاه واللذان يجمعهما شبه كبير يرفعان الستار عن أسرار اخرى من أسرار ذلك اليوم العظيم، ويحملان لجميع الناس نداءات جديدة.

ففى الآية الاولى قال تعالى «يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ والْأَبْصَارُ». (النور/ ۳۷)

وفى الآية الثانية قال تعالى «إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ». (إبراهيم/ ۴۲)

حلبة المحشر رهيبة من عدة جوانب: من جانب ما يستجد فيها من الوقائع الرهيبة التى تقع عند قيام القيامة، ومن جانب استعداد الملائكة مع حضور الاشهاد لمحاسبة العباد، ومن جانب نشر الصحف التى تحتوى على سائر أعمال الإنسان التى ارتكبها خلال حياته صغيرها وكبيرها، ومن جانب اتضاح ملامح النار والعذاب الإلهى واستحالة العودة لإصلاح مافات وعدم وجود خليلٍ ومنقذ!

إنّ هذه الوقائع والتى يكفى كل واحد منها بوحده لقلب افئدة الناس، تقع جميعها فى وقت واحد، تجعل الإنسان فى حصار شديد ممّا يؤدّى به إلى أن يقلّب عينيه فى كل جانب بدون إرادة ويتلفت إلى كل جانب باضطراب يطلب العون، وعلى حد تعبير القرآن أنّها تقلب الأبصار وأحياناً تقف عن الحركة نهائياً وتبقى الأجفان مفتوحة وكأن روح الإنسان فارقت جسده!

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۴

ومن الجدير بالذكر أنّ الآية الاولى تختص بالمؤمنين والآية الثانية بالظالمين، وهذا يدل بوضوح على أنّ الجميع من المحسنين والمسيئين سوف يستولى عليهم الرعب فى ذلك اليوم المفزع، وذلك (لجهل الناس بعواقب أعمالهم بسبب الدقة والشدة فى الحساب الإلهى فلا أحد يعلم بالضبط إلى اين ينتهى مصيره.

«تتقلب»: بمعنى انقلاب الشىء رأساً على عقب وبمعنى التحوّل، وللمفسرين تعابير مختلفة فى تفسير هذه الجملة تشير جميعها إلى الخوف والاضطراب الشديد الذى يهيمن على ظاهر وباطن الإنسان وعلى بصره وبصيرته.

«تَشْخَصُ»: من مادة «شخوص» بمعنى توقف العين والأجفان عن الحركة والتركيز بالنظر على نقطةٍ دون التفات.

والأصل فى «شخوص» على وزن (خلوص) هو بمعنى القيام أو الخروج، و «الشخص» من حيث إنّه يبدو من بعيد على هيئة بارزة اطلق عليه كلمة شخص، وخروج الإنسان من محلٍ آخر يطلق عليه الشخوص أيضاً.

و «شاخص»: المشتق من نفس هذه المادة أيضاً بمعنى الجسم المرتفع الذى يستخدم لقياس الوقت وأمثال ذلك «۱».

وبما أنّ عين الإنسان حين التعجب والتحديق كأنّها تريد أن تخرج من حدقتها فقد استعمل هذا التعبير فى عدة موارد، بلى إنّ الناس فى عرصة المحشر يصبحون أُسارى الخوف بنحوٍ يجعل عيونهم تتوقف عن الحركة وتشخص وكأنّها تريد أن تخرج من حدقتها، وهذه الحالة تظهر لدى الإنسان أحياناً فى حال الاحتضار.

ومن البديهى أن تكون هذه الحالات أشد بكثير عند المذنبين والمجرمين، ولذا جاء فى القرآن المجيد: «وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا». (الأنبياء/ ۹۷)

---

(۱) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والمصباح؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۵

۴۳- يوم يتذكَّرُ الإنسان ما سعى

هذا التعبير أيضاً من التعبيرات التربوية التى وردت مرّة واحدة فى القرآن المجيد، قال تعالى: «يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى . (النازعات/ ۳۵)

هذا التذكّر والانتباه إمّا أن يحصل بسبب مشاهدة صحيفة الأعمال، وإمّا بسبب تجسم الأعمال، أو بسبب شهادة الجوارح أو الملائكة التى تشهد على الأعمال أمام اللّه، أو بسبب ارتفاع الحجُب عن قلب وروح الإنسان وزوال ما يسبب الغفلة والنسيان.

ولذا تبرز جميع الحقائق المكنونة ويتذكّر الإنسان كل سعيه ومحاولاته، ولكن ياللحسرة فلا مجال أمامه لجبران الخطايا والتقصير والغفلة.

وجاء هذا التعبير بصورة اخرى فى الآية «وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى ، ثم يضيف إلى ذلك: «يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي». (الفجر/ ۲۳)

إنّه أسف وحسرة لا فائدة منها هناك أبداً سوى مضاعفة المعاناة والألم.

وكلمة «لحياتى» تثير الانتباه، وهى تدل على أنّ الحياة الحقيقية هى الحياة الآخرة، وأنّ الحياة الدنيا لا تستحق حتى اطلاق اسم الحياة عليها، وعلى حد تعبير القرآن ماهى إلّالهو ولعب.

والهدف هو انذار سائر بنى الإنسان بأن يستفيدوا من الفرصة المتاحة أمامهم قبل الابتلاء بمثل هذا البلاء فالتذكّر فى ذلك اليوم لا ينفع مثقال ذرّة.

۴۴- يوم تأتى كُلُّ نفسٍ تُجادلُ عن نفسها

هذا التعبير يرسم صورة اخرى لذلك اليوم العظيم، قال تعالى «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا». (النحل/ ۱۱۱)

نعم إنّ الرعب والخوف من العذاب والعقاب الإلهى يسيطر على وجود الإنسان ممّا

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۶

يجعله ينسى أعزّ أحبائه، فهو لا يهتم بالأبناء ولا بالزوجة ولا بالوالدين ولا بأعز الأصدقاء، ولا يهتم إلّابانقاذ نفسه لا غير.

وجاء فى الحديث الشريف: «كُلُّ احدٍ يقولُ يومَ القيامة نفسى نفسى من شدّة هول يوم القيامة سوى محمد صلى الله عليه و آله فإنّه يُسألُ فى امته» «۱».

۴۵- يومَ يقومُ الناسُ لِرَبِّ العالمين

هذا التعبير فى الواقع هو توضيح لاسم (القيامة) فى قوله تعالى: «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ». (المطففين/ ۶)

إنّه قيام يدل على جدّية الموقف فى ذلك اليوم، ودليلٌ على الحضور فى محكمة كبرى ودليل على خضوع جميع الأعمال للحساب.

ومن الجدير بالذكر أنّ القرآن المجيد أتى بهذا التعبير فى سورة المطففين لتحذير وتنبيه الذين يبخسون الميزان، قال تعالى «أَلَا يَظُنُّ أُولئِكَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ* لِيَوْمٍ عَظِيمٍ» ثم يضيف «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (المطففين/ ۴- ۵)

أى أنّهم لو كانوا على يقين بأنّ مثل هذا «الحضور» و «القيام» فى يوم كهذا واقع حتماً لما ارتكبوا السيئات أبداً، ولكن للأسف أنّ حب الدنيا والغفلة والغرور وطول الأمل ظلل على أفكارهم وقلوبهم وأرواحهم ظِل الشؤم والظلام ممّا جعلهم يغفلون هذه الحقائق.

جاء فى احدى الروايات «عن إبن عمر وهو من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه وعند قراءته لسورة المطففين: لمّا بلغ قوله «يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» بكى بكاءً شديداً أعجزه عن مواصلة القراءة» «۲».

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۸۰۹.

(۲) تفسير الكبير، ج ۳۱ ص ۹۰؛ تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۰۴۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۷

۴۶- يوم يقوم الاشهاد

۴۷- يومَ يقوم الروحُ والملائكة صفاً

التعبيران المذكوران أعلاه يذكّران بجانب آخر من أبعاد ذلك اليوم العظيم ويتركان أثراً اخلاقياً كبيراً لدى الإنسان، ويشتملان على مناجاة تستهوى القلب والروح.

فى التعبير الأول يصف ذلك اليوم ب «وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ». (المؤمن/ ۵۱)

و «أشهاد»: جمع «شاهد» أو «شهيد» (مثل «أصحاب» التى هى جمع «صاحب»، و «اشراف» جمع «شريف») والأشهاد هنا هم شهود يوم القيامة، ويرى بعض المفسرين أنّ المراد من الأشهاد هم فقط الملائكة الذين يراقبون الأعمال، ويرى البعض الآخر أنّ المراد بهم الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون جميعاً.

ويرى آخرون أنّ المراد منهم جميع ماذكر بالإضافة إلى الجوارح التى تشهد على أعمال الإنسان أيضاً، ولكن نظراً لوجود التعبير «يقوم» فإنّ هذا التفسير يبدو بعيد الاحتمال.

والتعبير ب «قيام» فى مواردٍ كهذه هو بيان للوضع الخاص المتعارف عليه فى‌المحاكم وهو قيام الشهود عند الادلاء بشهادتهم؛ وذلك تأكيداً لجدّهم وحزمهم فى أداء الشهادة واحتراماً لرسمية ووضع المحكمة.

على أيّة حال فهو يومٌ لايكفى فيه شاهد واحد فحسب بل يشهد فيه شهود كثيرون فى تلك المحكمة العظمى شهادة تكون مصدر عز وفخر للمؤمنين وتأتى بالخزى والذلة للمجرمين، شهادة تحيط بكل شىء ولا يخفى على شهودها شىء، شهادة لا يسع المجرمون انكارها أبداً وتكون مدعومة بالقرائن الكثيرة حتى لا يبقى أمامهم طريق إلّاالتسليم والاذعان.

ومن هنا ينبغى الامعان فى المعانى التى يحملها هذا الوصف عن القيامة وإلى مدى ما بلغت من التأثير والجذابية.

وفى الآية الثانية عبّر عن ذلك اليوم ب «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفاً». (النبأ/ ۳۸)

بما أنّ «الصف» له معنىً مصدرى ويستعمل فى الجمع والمفرد على السواء، فقد رأى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۸

جمع من المفسرين احتمال أن يكون المراد من الصف هو بيان صفوف مختلف الملائكة، أو المراد منه صفّان على الأقل يستقر الروح

فی الصف الأول وفی الصف الثانی بقیة الملائکة.

وفی الجواب عن ما هو المراد من «الروح» هنا؟ اختلفوا علی أقوال عدّة بلغت الثمانیة أقوال أو أکثر، ومن بین هذه التفاسیر المشهورة:

۱- الروح هو أحد ملائکة اللّه المقربین، وهو أفضل من جمیع الملائکة حتی جبرائیل علیه السلام، وهو الذی کان یرافق الأنبیاء والأئمة المعصومین علیهم السلام.

۲- المراد به هو جبرائیل الأمین حامل وحی اللّه.

۳- المراد به هو أرواح الموتی ولکن قبل إلحاقها بالأبدان.

۴- المراد به هو مخلوق عظیم لا من صنف البشر ولا من صنف الملائکة.

۵- المراد به هو القرآن المجید، ومعنی قیامه هو ظهور آثاره فی مشهد المحشر.

وقد استُدل علی کلٍ من هذه التفاسیر المذکورة ببعض آیات القرآن.

مع أنّ للروح معانٍ مختلفة فی مختلف آیات القرآن، وأکثر هذه التفاسیر قرباً للصحة کما یبدو هو التفسیر الأول، وقد ورد هذا التفسیر صریحاً فی بعض روایات المعصومین علیهم السلام.

فعن علی بن إبراهیم باسناده عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «هو ملک أعظم من جبرائیل ومیکائیل» «۱».

وروی عن ابن عباس أیضاً بأنّه قال: أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «الروح جند من جنود اللّه لیسوا بملائکة لهم رؤوس وأید وأرجل، ثم قرأ: «یَوْمَ یَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِکَةُ صَفّاً» قال: هؤلاء جند وهؤلاء جند» «۲».

---

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۱۰، ص ۴۲۷.

(۲) تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۷۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۷۹

۴۸- یومَ لا ینفعُ مالٌ ولا بنون

۴۹- یوم لا بیعٌ فیه ولا خِلالٌ

ینعکس فی هذین التعبیرین نداءان آخران متقاربان فی الافق حول اوضاع ذلک الیوم العظیم، ففی التعبیر الأول قال تعالی: «یَوْمَ لَایَنْفَعُ مَالٌ وَلَابَنُونَ* إِلَّا مَن أَتَی اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِیمٍ». (الشعراء/ ۸۸- ۸۹)

وفی التعبیر الثانی قال تعالی: «یَوْمٌ لَابَیْعٌ فِیهِ وَلَا خِلَالٌ». (إبراهیم/ ۳۱)

فی الواقع أنّ رأسمال هذه الدنیا یتلخص فی ثلاثة أشیاء: المال والثروة، والأولاد الراشدون، والأصدقاء الأوفیاء، لکن معضلات المحشر وابتلاءاته المهیبة لا یمکن الخلاص منها بالمال والثروة ولا بمعونة الأولاد ولا الأصدقاء، ولو افترضنا أنّ جمیع أموال الإنسان تنقل إلی هناک وکان جمیع الأولاد والأصدقاء إلی جانبه فهذا لا یحل حتی عقدة واحدة من مشاکله، وذلک لأنّ المقاییس والمعاییر هناک شیء آخر، والمنقذ فی المحشر هو الإیمان والعمل الصالح والقلب السلیم، القلب الخالی من أی شرک ورياء ولا یوجد فیه مکان لما سوی اللّه.

أغلب المشکلات فی هذه الدنیا یمکن حلّها عن طریق المال والثروة وتقدیم الفدیة والخسائر والرشوة وما شابه ذلک بصورةٍ مشروعة أو غیر مشروعة، ویمکن حل کثیر من المصاعب أیضاً بواسطة الجهود الإنسانیة بالأخص الأولاد الطیبین والأصدقاء المخلصین، وبناءً علی ذلک فإنّ أغلب مشاکل هذا العالم تُحل بهذه السبل، بینما لا یکون لهذه الامور أی تأثیر هناک.

ولا شک فی أنّ المراد من المال والأولاد هنا هو غیر الأولاد الذین استخدموا فی الطریق المؤدی إلی رضوان اللّه، أو الأصدقاء الذین

يمكنهم الشفاعة عند اللّه، بل المراد هو أنّ هذه الامور لو نقلت إلى هناك بمجرّدها فهى لا تغنى شيئاً.

ولذا جاء فى قوله تعالى: «الْأَخِلّاءُ يومَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلّا الْمُتَّقِينَ»!

(الزخرف/ ۶۷)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۰

۵۰- ... يوماً لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً

۵۱- يوم لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً

۵۲- يوم لا يجزى والدٌ عن ولده

أحد طرق الاخلاص من مخاطب العقوبات فى هذه الدنيا هو أن يتقبل شخص التبعات التى تترتب على الآخر نيابة عنه ويؤدّى الغرامات المالية التى تحملها الشخص الآخر ويتقبل عقوبة ذنبه برحابة صدر وطيب نفس.

يبيّن القرآن الكريم فى الآيات المذكورة أعلاه والتى هى من صفات يوم القيامة عدم جواز إلقاء أوزار أعمال أحد على عاتق الآخرين مطلقاً، فالكل مسؤول عن أعماله وهو لوحده يتحمل جزاءها فيؤدّى ثمن ما اقترف من جرائم وذنوب.

ففى الآية الاولى التى وردت فى القرآن المجيد مرتين قال تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْماً لَاتَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَّفسٍ شَيْئاً». (البقرة/ ۴۸- ۱۲۳)

وجاء هذا المعنى باختلاف ضئيل فى الآية الثانية، قال تعالى: «يَوْمَ لَاتَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً». (الانفطار/ ۱۹)

وفى الآية الثالثة ركّز على مورد متميز فقال: «وَاخْشَوا يَوْماً لَّايَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً». (لقمان/ ۳۳)

إنّ العلاقة بين الأب والأولاد تقوم على أساس «العاطفة والمحبّة»، وتقوم العلاقة بين الأولاد والأب على أساس «الاحترام والمحبّة»، وفى الواقع أنّ هاتين العلاقتين هما أقرب وأقوى الروابط العاطفية لدى الإنسان، ولكن رعب وخوف يوم القيامة يبلغ حداً من الهول العظيم ممّا يجعل هذه الروابط تتلاشى وتذوى وتبلغ حدّاً يؤدّى إلى أن لا يفكّر أحد إلّا بنفسه، دون غيره.

وأفادَ عدد من المفسرين فى تفسير الآيات المذكورة بأنّ «لا تجزى» أتت بمعنى «لا تغنى» «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۱۰۳؛ وتفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۲۵۱؛ وتفسير روح البيان، ج ۱، ص ۱۲۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۱

قال «الراغب» فى «المفردات»: الجزاء فى الأصل بمعنى الاستغناء والاكتفاء، واطلقوا على الثواب والعقاب جزاء لأنّهما يكفيان لإصلاح العمل المرتكب، وجاء نفس هذا المعنى فى مقاييس اللغة أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ الخطاب فى الآيتين الاوليين موجّهٌ إلى بنى اسرائيل الذين يضرب بهم المثل على مدى الدهور بالتعصّب العرقى والقومى، فالقرآن ينذرهم بقوله: أنتم الذين تحملون روح التعصب فيما بينكم فسوف تنسون كل شىء فى ذلك اليوم العظيم، كل شىء إلّاأنفسكم.

والحقائق الناصعة التى تحملها هذه الآيات لا تحتاج إلى توضيح؛ وذلك لأنّها تُثبتُ بوضوح أنّ أهوال يوم القيامة والوقائع الصعبة التى تقع فى ذلك اليوم العظيم لا مثيل لها فى هذه الدنيا، ففى هذه الدنيا يوجد الكثير ممن يضحّى للآخرين بنفسه من أجل الروابط العاطفية، ولكن هذا الأمر لا يَصْدُق فى يوم القيامة على أحد.

۵۳- يوم تبيضُّ وجُوهٌ وتسودُّ وجُوهٌ

هـذا التعبير الـذى جاء فى مورد واحد من القرآن المجيد هو بيانٌ لبعدٍ آخر من أبعاد ذلك اليوم العظيم ويعكس صورة اخرى عن يوم المحشر، قال تعالى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ». (آل عمران/ ۱۰۶)

والوجوه المنيرة هى لأولئـك الـذين تنعّموا بنور الإيمان فيظهر هـذا النور على وجوههم لأنّ يوم «القيامـة هو يوم تبرز فيه السـرائر» قال تعالى: «وَ أَمَا الَّذِين ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (آل عمران/ ۱۰۷)

أمّا أصـحاب القلوب المظلمـة الـذين خَلَتْ قلوبهم من النور، والكفار والمجرمون الذين اسودّت قلوبهم فإنّ ظلمات باطنهم تخرج إلى ظاهرهم، ويُغمرون فى عذاب اللّه ويقال لهم:

«فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ». (آل عمران/ ۱۰۶)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۲

وهـذا التعبير المـذكور أعلاه انعكس بصورة اخرى فى آيـات القرآن المجيـد أيضـاً، ففى احـدى الصور قـال تعـالى «كَأَنَّمَا اغْشِيَتْ وُجُوهُهُم قِطَعاً مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِماً». (يونس/ ۲۷)

وجاء فى صورة اخرى قال تعالى «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ». (عبس/ ۳۸- ۳۹)

وفى الثالثة: «وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ». (عبس/ ۴۰- ۴۱)

متى تَحِلُّ هذه الواقعة؟ ومتى تبيضُّ وجوهٌ وتسودُّ وجوهٌ اخرى

يرى البعض أنّ هذا سـيقع عندما تتفرق الصـفوف عن بعضها للورود إلى الجنّة أو الدخول إلى النار، ويرى البعض الآخر أنّ هذا سيقع عند مشاهدة صحائف الأعمال، ويرى آخرون إنّه سيقع عند الخروج من القبور أو عند الوقوف إزاء ميزان العدل الإلهى.

ولكن بما أنّ ذلك اليوم هو يوم إبراز وظهور حقائق الأفراد والأعمال فإنّه يبدو أنّ وقوع هذا الأمر يتمّ فى أول وهلة عند خروج الناس من القبور ويستمر فيما بعد.

من هم أصحاب الوجوه البيض ومن هم أصحاب الوجوه السود؟

للمفسـرين فى الجواب على ذلك احتمالات عديدة، وأحياناً حصـروا ذلك فى أشـخاص محدودين، ولكن الظاهر أنّ جميع المؤمنين أصحاب العمل الصالح يكونون فى صف أصحاب الوجوه المبيضة وجميع أهل الكفر والمجرمين فى صف أصحاب الوجوه المسودّة.

وأخيراً أراد بعض المفسـرين أن يحمـل هـذين التعبيرين على مفهومهما المجازى فقالوا البياض هو لبيان السـرور والفرح والسواد لبيان الغم والهم «۱».

ولكن لا يوجد هناك ضرورة لارتكاب مثل هذه المخالفة للظاهر، بل يجب حمل الآية على المعنى الحقيقى لها، فعندما يقول القرآن: «يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ». (حديد/ ۱۲)

فما الذى يثير العجب من أن تكون هناك وجوه بيض منيرة ووجوه سود مظلمة؟

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۴، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۳

ومـا أعظم خـوف ذلـك اليـوم حقّـاً! عنـدما يظهر مـا فى قلب الإنسـان وروحه على وجهه، إنّه يـوم الخزى العظيم لسـود القلوب ويوم الكرامة الكبرى لبيض القلوب، ولهذا السبب يكون المؤمنون فى ذلك اليوم موضع احترام وتكريم فى المحشر ويكون الكافرون مورد لعنٍ وطرد!

۵۴- ويخافون يوماً كان شرُّهُ مسطيراً

هـذا التعبير جـاء فى موردٍ واحـد من القرآن الكريم عنـد وصف الأـبرار والمحسـنين، قـال تعـالى: «وَيَخَافُونَ يَوْماً كَان شَـرُّهُ مُسْـتَطِيراً». (الإنسان/ ۷)

«مسـتطير»: من مادة «طيران» وهى هنا بمعنى واسع ومذبذب، لذا فسّرها البعض بمعنى الشى الذى اتّسع بشكل خارق للعادة، واطلق هذا التعبير على الفجر عندما ينبسط فى الافق فقالوا: «فجرٌ مستطيرٌ».

و «الشـر»: جـاء هنا بمعنى عـذاب يوم القيامـة، أو الخوف والرعب من ذلك اليوم الـذى ينتشـرُ حتى يغطى جميع الأرض والسـماء ممّا يجعل الملائكة أيضاً يتملَّكهُمُ الخوف، هناك يَتَمَلَّكُ الخوفُ الجميعَ لا المجرمين والمسيئين فحسب، بل حتى المؤمنين والمحسـنين يتملّكهم الخوفُ وذلك لأنّهم لا يعلمون ما ينتهى إليه مصيرهم أو مآلهم.

والجـدير بالـذكر أنّه يُعتبرُ فى الآيـة المـذكورة الخوفُ من مثل هـذا اليوم من الصـفات الممدوحة والامور الايجابية فى أخلاق الأبرار الطاهرين؛ وذلك لأنّ خوفاً كهذا يكون نابعاً من التقوى والتوجُّهِ إلى الطاعة المطلقة للخالق جلّ شأنهُ.

۵۵- يوم يفرُّ المرءُ من أخيه

التعبير أعلاـه والـذى ورد ذكره مرّة واحـدة فى القرآن المجيـد هو تجسيم آخر بَيِّنٌ لمشـهدِ يومِ القيامـة، قال تعالى «يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِن أَخِيْهِ* وَأُمِّهِ وَأَبِيْهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيْهِ* لِكُلِ

إِمْرِءٍ مِّنْهُمْ يَوْمِئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ». (عبس/ ۳۴- ۳۷)

من الطبيعى أن يكون أقرب وأحبّ الأـفراد للإنسـان هم الأـخوة والأـم والأـب والزوجـة والأولاـد، ومن العجيب أنّ القرآن لم يقُلْ إنَّ الإنسان فى غفلـة عن هؤلاء فى ذلك اليوم بل قال: إنّه يفرُّ من الأُمِّ التى كان يحبها كثيراً أو الأب الذى يكُنُّ له التقديرَ والاحترام ومن الزوجة التى كان يعشقها، والأولاد الذين كانوا ثمرة قلبه ونور عينيه! بلى إنّه يفرّ منهم جميعاً!

إنّ هؤلاء كانوا ملجأً له من مشاكل الدنيا، وسكناً له فى المصائب الشدائد ولكن ما الذى يحدثُ هناك بحيث يفرّ منهم؟!

إن صـيحة يوم البعث والـذى عبر عنهـا القرآن الكريم ب «الصاخـة» والتى وردت فى الآيـة التى سـبقت الآيات المـذكورة فى موضوع بحثنا، حيث وصـفت هذه الصـيحة بالعظمة بحيث تمزق عُرى كافة الأواصر، وهذا الصوت من الرهبة بحيث يدخل الرعب والرهبة على القلوب ويصم الآذان.

فلماذا يفرّ المرءُ؟

هل يفرّ خوفاً من الفضيحة أمام أقرب الخلق إليه؟

أو خوفاً من تبعات الذنوب التى ارتكبها؟

أو يفرّ من حقوق الناس التى تثقل عاتقه؟ فمن المحتمل أن يطالبه هؤلاء بحقوقهم فى ذلك اليوم الذى تكون فيه يد الإنسان خالية من كلّ شىء!

أو لاـ هـذا ولاـ ذاك بـل إنّه يهرب من شـدّة الخوف والرعب فى المحشـر حيث إنّ هـذا الموقف يُرغمُ كـلَّ إنسانٍ على الهرب أحبّته والاهتمام بنفسه ولا غير، كى يجد لها مخلصاً ممّا هى فيه.

إنّ كل واحد من هذه الامور الأربعة يكفى لوحده أن يكون مدعاة للهرب والخلاص فكيف الحال إذا اجتمعت معاً؟

جاء فى الحديث الشريف إنّ أحد أقرباء النبى الأكرم صلى الله عليه و آله سأله عن: ثلاثة مواقف يوم القيامة لا يفكر أحد إلّابنفسه: ۱- الميزان ۲- الصراط ۳- تطاير الكتب «۱».

(۱) تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۲۹، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۵

۵۶- يوماً يجعلُ الولدان شيباً

هـذا التعبير الـذى ورد ذكره فى القرآن المجيـد مرّة واحـدة تصوير أو تجسـيد آخر للوقائع المروّعـة لـذلك اليوم العظيم، فقد خاطب الكفار والمشركين فقال تعالى «فَكَيفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً» «۱»

- «۲». (المزّمل/ ۱۷)

إنّ هـذا التعبير من أبلغ التعابير التى تميط اللثام عن الوقائع المرعبـة لـذلك اليوم كما تؤثّر تلك الوقائع على عالم الطبيعة وعلى الجبال والصـحراء وتجعلها هباء وتؤثر كـذلك فى هـذا الإنسان الترابى بحيث الاضـطراب والخوف والانقباض إلى درجـة تشـيبُ الولدانُ من هولها.

وحمل بعض المفسـرين هـذا التعبير على معناه الحقيقى أى أنّ آثار المشـيب تظهر على الأطفال حقيقة وإن كانت الفاصـلة الزمنية بين الطفولـة والمشـيب كبيرة، وجاءوا لإثبات ذلك بأدلـة أيضاً، فإننا فى هـذه الدنيا نشاهد أفراداً يبيضُّ شـعر رؤوسـهم خلال عدّة أيّام أو حتى لعـدّة ساعات من شدّة المصاب الذى يحلّ بهم، فإن كان بوسع أحداث هذه الدنيا أن تؤثر مثل هذا التأثير على الإنسان فإنّ وقائع المحشر التى هى أشدّ وأصعب كثيراً ستؤثر مثل هذا التأثير لا محالة.

ولكنَّ جمعاً من المفسـرين حملوه على المعنى المجازى لأنّ مثل هـذه الكناية من الامور الشائعة على ألسـنة العرب وغيرهم، فإنّهم من أجل بيان عظمة احدى الشدائد يقولون:

«شيبنى هذا الأمر»!

وكلا التفسـيرين وجيه بالنسبة لهذه الآية، أمّا ما قيل بأنّ مشيب الأطفال يحصل من طول ذلك اليوم فهذا بعيد، لأنّ هذه الآية مثل كثير من الآيات الاخرى المختصـة بالقيامة ناظرة إلى الوقائع المروعة لذلك اليوم، والآيات السابقة لهذه الآية والتى تتحدث عن دَكِّ الجبال تصلح دليلًا مؤيداً لهذا القول.

---

(۱) يرى جمع من المفسـرين أنّ «يوماً» الذى جاء فى الآية المذكورة أعلاه هو ظرف ل «يتّقون»، ولكن احُتمِل بأنّه «مفعول به» ليتقون، ففى هذه الصورة قدّروا كلمة عذاب فى الآية فتصبح الآية على هذا بهذه الصورة: فكيف تتقون إن كفرتم (عذاب) يوم يجعل الولدان شيباً.

(۲) «شـيب» على وزن (فِعْل) جمع «أشْـيَب» بمعنى الشـيخ المُسِن، ومادة شَـيب على وزن (فَعْل) بمعنى تغيّر لون الشـعر من الاسود إلى الابيض.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۸۶

۵۷- هذا يومُ لا ينطقون

ورد ذكر هذا التعبير مرّة واحدة أيضاً فى سورة المرسلات، قال تعالى «هذَا يَوْمُ لَايَنْطِقُونَ». (المرسلات/ ۳۵)

هـل يكون الفزع والخوف العظيم الحاصـل فى القيامـة السبب فى توقف ألسـنتهم عن النطق كمـا هو الحـال فى الـدنيا عنـدما تصـيب الإنسان داهية تجعله لايستطيع الكلام؟!

أم لأنّهم لا يمتلكون خطاباً ولا عذراً وحجة؟! أم تتوقف الألسن عن التكلم بأمر اللّه وتشـهد الجوارح على أعمالهم؟ كما جاء فى الآية

الكريمة: «الْيَومَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس/ ۶۵)

من الممكن أن تجتمع هذه التفاسير الثلاثة معاً فى الآية، وإن كان التفسير الثالث أكثر مناسبة، على أيّة حال فإنّ هذا لايمنع من أن يتكلّم الإنسان فى بعض مواقف القيامة بأمر اللّه، لأنّ القيامة لها مواقف مختلفة، وقد اتضح من خلال الآيات القرآنية أنّ المجرمين فى بعض هذه المواقف يكونون صُمّاً بُكْماً لاينطقون وأنّهم فى مواقف اخرى يتكلمون بأمر اللّه.

۵۸- يوم يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدْعَونَ إلى السُّجودِ فلا يستطيعون

ونواجه هنا أيضاً من خلال هذا التعبير الدقيق والفريد من نوعه وجهاً عبوساً آخر لذلك اليوم العظيم، قال تعالى: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ». (القلم/ ۴۲)

يرى الكثيرُ أو جمعٌ من المفسرين بأنّ التعبير: «يُكْشَفُ عَن سَاقٍ» هو كناية عن هولِ المطلعِ وشدّة الخوف والفزع، وذلك لأنّ الناس قديماً كانوا يرفعون الأكمام عن أذرعهم ويرفعون أذيال ثيابهم إلى المحزم تأهباً عند مواجهة الشدائد والحوادث وفى هذه الحالة تكون السيقان مكشوفة طبعاً.

ويرى بعضٌ من المفسرين أنّ هناك احتمالًا آخر فى تفسير هذه الآية وهو إن «ساق»

بمعنى الأصل والأساس لكل شىء (مثل ساق الشجرة)، وبناءً على هذا تكون جملة «يُكشَفُ عن ساقٍ» دليل على ظهور وبروز حقائق الأشياء فى ذلك اليوم «۱».

وعلى أى حال فإنّ الجميع يُدعون فى ذلك اليوم المرعب للسجود أمام عظمة خالق الكون فيسجد المؤمنون، ومن المحتمل أن تكون هذه السجدة من بواعث اطمئنان القلب والروح، أما من تلوث قلبه بالكفر والذنوب فلا يستطيع السجود.

جاء فى الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام فى قوله: «يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَونَ إِلَى السُّجُودِ» قال: «حجاب من نور يكشف فيقع المؤمنون سجداً وتدمج اصلاب المنافقين فلا يستطيعون السجود» «۲».

وقال البعض إنّ المراد من «يَوْمَ يُكشَفُ عَن سَاقٍ» هو ظهور النور الإلهى.

۵۹- يومَ لا ينفعُ الظالمين معذرتهم

هذا التعبير أيضاً يوضّح واقعة اخرى مؤلمة من وقائع ذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمَ لَايَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ». (غافر/ ۵۲)

من المتعارف فى هذه الدنيا اللجوء إلى الاعتذار وطلب المغفرة من أهل النجاة من مخالب العقوبات، لكنّ طبيعة يوم القيامة تكون على نحوٍ لا مجال فيه لعذر الظالمين، لأنّ ذلك اليوم وُضِع أساساً لجنى الأعمال لا لترميم الماضى الذى يعتبر نوعاًمن العمل.

فى بعض الآيات السابقة اتضح لنا عدم الاذن لهم بالاعتذار فى ذلك اليوم، وفى البعض الآخر من الآيات اتضح أنّهم وإن اعتذروا بألسنتهم إلّاأنّ ذلك الاعتذار أيضاً لا ينفعهم، فبناءً على هذا لا يبقى أمامهم إلّاطريق الاستسلام للغضب الإلهى وبئس المصير.

ويخاطب القرآن الكريم جميع الناس فى هذا التعبير بأن يسارعوا لطلب العفو من اللّه

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۹، ص ۳۵؛ تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۷۲۸.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۹۵، ح ۴۹.

لمحو آثار الذنوب فإنّ محوها غير ممكن إلّافى هذه الدنيا، ومحو آثار الظلم عن طريق أداء حق المظلومين، فيجب الاستفادة من هذه الفرصة وإلّا فإنّ فى ذلك الموقف العظيم والمحكمة الكبرى لا ينفع الندم ولا الاعتذار ولا البكاء والعويل.

۶۰- يومَ يعضُّ الظالمُ على يديه

هذا التعبير من التعبيرات الرهيبة أيضاً، وقد ورد ذكره مرّة واحدة فى القرآن المجيد، قال تعالى «وَ يَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا» ثم أعقبه تعالى «يَاوَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذ فُلَاناً خَلِيلًا». (الفرقان/ ۲۷- ۲۸)

يعضُّ الإنسان أحياناً على أصابعه عند الندم للتأسُّفِ الشديد من الأعمال الماضية، ويعضُّ أحياناً على ظاهر كفّه أيضاً، وعندما يكون الندم والتحسّر شديداً جدّاً فإنّه يعضُّ على كلتا يديه بالتناوب، وهذا أروعُ تعبير لبيان شدّة الندامة والأسف.

بلى إنّ الظالمين يعضّون على أيديهم فى ذلك اليوم العظيم بصورة مستمرّة، لأننا نعلم بأنّ أحد أسماء ذلك اليوم هو: «يَوْمُ الْحَسْرَة». (مريم/ ۳۹)

ولكن ما الفائدة من ذلك؟ هل أنّ إدماءَ الأيدى بالأسنان والذى هو نوع من الانتقام من النفس يصلح لحلّ المشكلة، أو لجلب الاطمئنان؟ أم يزيدُ من ألم الظالمين ويجعل فضيحتهم اشنع؟!

جاء فى تفسير «الميزان» إن «الظالم» فى هذه الآية يشمل جميع الظالمين، كما أنّ «الرسول» أيضاً يشمل جميع الرُّسُل، (أى اللام فيهما للاستغراق) وإن كان الخطاب فى هذه الآية موجهاً إلى ظالمى هذه الامة والمراد من الرسول هو رسول اللّه محمد بن عبداللّه صلى الله عليه و آله.

وقد ذكروا أسباباً مختلفة لنزول هذه الآية يطول تفصيلها، ولكننا نعتقد بأنّ أسباب النزول لا تحدد مفهوم الآيات «۱».

---

(۱) للاطلاع أكثر راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۲۸ من سورة الفرقان.

۶۱- يومَ يُعرَضُ الَّذِينَ كفروا على النّار

۶۲- يوم تقلّبُ وجوهُهُم فى النار

يلاحظ هنا أيضاً تعبيران متشابهان ومتقاربان لوصف مشهد ذلك اليوم العظيم: ففى التعبير الأول والذى ورد ذكره مرّتين قوله تعالى «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ».

(الاحقاف/ ۲۰- ۳۴)

ففى الآية الاولى بعد ذكر هذا المقطع قال تعالى «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَونَ عَذابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ».

وفى الآية الثانية قال تعالى «وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ».

لقد ورد التأكيد فى الآية الاولى لبيان أنّ السبب يقع على الجانب العملى، أى تلك اللّذات اللامشروعة والاستفادة المحرمة من الهبات الإلهيّة، وفى الآية الثانية جاء التأكيد على الجانب الاعتقادى الذى يكون سبباً فى هلاك أهل النار.

و من الملفت للنظر: إنّ بعض الآيات القرآنية تَذْكرُ بأنّ يوم القيامة يؤتى بالنار صوب المجرمين «وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ». (الفجر/ ۲۳)

ولكن فى هذه الآية التى هى محلّ بحثنا ذُكِرَ بأنّ الكفار هم الذين يساقون تجاهَ النار، وكأنّما هنالك قوّة جذب بينهما، فتارة يؤتى بجهنم صوبهم وأخرى يؤتى بهم إلى النار! ليتجرّعوا العذاب.

وفى التعبير الثانى يُشار إلى نوع آخر من أنواع العذاب المؤلم ليوم القيامة ويسمى ذلك اليوم باسم ذلك العذاب، قال تعالى «يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ يَقُولُونَ يَالَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسولَا». (الاحزاب/ ۶۶)

وللمفسرين اقوال عدّة فى المراد من تقلّب الوجوه فى ذلك اليوم، فتارةً قيل إنّ المراد من التقلّب هو تغيّر لون الوجوه، فتكون مصفرّة وذابلة وأُخرى تصير محمرّة كالنار وثالثة تسودُّ وتصبح كقطع الليل.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۰

وقال البعض منهم إنّ المراد من التقلّب هو تقليب الوجوه كما تقلب الأشياء على النّار للطهى من طرفٍ إلى آخر، فهكذا يُفعلُ بوجوه المجرمين أيضاً فى ذلك اليوم العظيم.

وقيل إنّ المراد إلقاؤهم على وجوههم فى النار، والحكمة من ذكر الوجوه هنا هو إنّ الوجوه أشرف أعضاء بدن الإنسان وأجلّها لديه.

وهناك احتمال آخر أيضاً وهو الجمع بين التفاسير الثلاثة فى هذه الآية وإن كان التفسير الأول والثانى أقرب للصحة فعلى أيّة حال فإنّ الآية تُنبئُ عن الفاجعة الكبرى والعذاب العظيم الذى يواجهه المجرمون والكافرون والمعاندون يوم القيامة.

والخطاب الذى تحمله هذه الآية هو دعوة الناس إلى الاجتهاد فى طاعة اللَّه ورسوله فى الدنيا قبل حسرة ذلك اليوم العظيم وقولهم ياليتنى ... والتى لا تعود عليهم بأيّة فائدة حينئذٍ؟ لماذا يرجّحون اليوم طاعة العباد الذين يتخلّقون بأخلاق الشيطان وطواغيت العصر على طاعة اللَّه؟ الأمر الذى يكون السبب الرئيسى فى ندمهم يوم القيامة.

۶۳- يومَ يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعّا

هذا التعبير أيضاً له شبه كبير بالتعبيرات السابقة، قال تعالى «يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَّارِ جَهَنَّمَ دَعّاً». (الطور/ ۱۳)

ثم يقال لهم: «هَذِهِ النَّارُ الَّتى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ* أَفَسِحرٌ هَذَا أَمَ أَنْتُمْ لَاتُبْصِرُونَ».

(الطور/ ۱۴- ۱۵)

«يُدَعُّون»: من مادة «دَعّ» كما قال الراغب فى المفردات بمعنى «الطرد الشديد»، فهذا التعبير يدلّ على أنَّ نَفْسَ الأَخْذِ إلى جهنم أيضاً يكون مقروناً بالشدّة والفزع والخوف والاضطراب الشديد فى يوم القيامة العظيم، إن تصوّر هذا التعبير يكفى لأنّ يرتعد الإنسان ويفكر فى عاقبة أمره، ويوضح للإنسان عِظَمَ المصير الذى سوف يلاقيه.

وما أكثر التباين بين أصحاب جهنم وأصحاب الجنّة، حتى فى كيفية انتقالهم إلى مقرّهم

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۱

النهائى! فقد جاء فى القرآن الكريم عن كيفية انتقال أهل الجنّة إليها: «سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل/ ۳۲)

وجاء فى موضع آخر بأنّ الملائكة تقول لهم: «سَلَامٌ عَلَيكُمْ بِمَا صَبَرتُم فَنِعْمَ عُقبى الدَّارِ». (الرعد/ ۲۴)

۶۴- يومَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الكبرى

۶۵- يومٌ لا مَرَدَّ لهُ من اللَّه

التعبير الأول تعبيرٌ مروّع عن ذلك اليوم العظيم، وذلك لأنّ اللَّه عزوجل بعظمته وقدرته الخالدة يهدد الكافرين والمجرمين بأشدّ اسلوب فيقول: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ». (الدخان/ ۱۶)

فكلما أمعَنَ الإنسان النظر فى مفردات هذه الآية؟ كالتعبير ب «البطش» الذى يعنى الأخذ بالقوة والمصحوب بالهجوم، والتعبير ب «الكبرى الذى هو دليل على قوة البطش أو عظمته، والتعبير ب «إنا منتقمون» الذى هو جملة اسمية وبنفس الوقت مؤكّد ب «إنّ» فسوف يرتعد له بدنه، لأنّ اللَّه الرحيم الغفور واللَّه القادر القاهر يهدد بمثل هذا التهديد.

قال جمع من المفسرين واحتمل آخرون أنَّ الآية تدلّ على العقاب الشديد الذى أصاب المشركين فى غزوة بدر الكبرى لكنّ مفردات الآية تتناسب مع عذاب أكبر وأشدّ وأشمل، وهذا ممّا لا يصدق إلّاعلى عذاب الآخرة، بالإضافة إلى أنّ الآيات السابقة لها لا تناسب النزول فى غزوة بدر الكبرى

وفى التعبير الثانى أشير إلى بُعد آخر من أبعاد ذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمٌ لّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ». (الشورى ۴۷)

فلا يوجد هناك سبيل لجبران الماضى ولا سبيل للعودة إلى هذه الدنيا لتدارك ما فات.

ويرى بعض المفسرين أنّ هذه الجملة تدل على حتمية وقوع ذلك اليوم لأنّه تعالى قال:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۲

«يَوْمٌ لّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ»، أى أنّه واقعٌ حتماً، فعلى هذا المعنى يكون مفهوم الآية قريباً من جملة «لا ريب فيه» التى وردت للتعبير عن يوم القيامة، لكنّ ذيل الآية: «مَالَكُمْ مِنْ مَلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَالَكُمْ مِن نَّكِيرٍ» يناسب التفسير الأول.

وهناك احتمال آخر هو أنّ المراد من الآية أنّ أحداً لايستطيع فى ذلك اليوم مَنْع وايقاف العذاب الإلهى عنكم، وهذا المعنى يتناسب مع ذيل الآية.

فعلى أيّة حال فإنّ أىّ تفسيرٍ نرجّحه من بين هذه التفاسير فهو يحمل خطاباً بليغاً وشديداً.

۶۶- يومَ يَدْعُ الدّاعِ إلى شيٍ نُكُرٍ

هذا التعبير الذى ورد ذكره فى القرآن المجيد مرّة واحدة هو تعبير غامض ومُقزعٌ، ويتنبّه الإنسان إلى امور مهمّة فيما يتعلق بذلك اليوم، قال تعالى «يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَىءٍ نُّكُرٍ». (القمر/ ۶)

وللمفسّرين احتمالات عدّة فى مسألة من هو «الداعى» فهل هو اللَّه؟ أم الملائكة المقربون؟ مثل جبرئيل، أو اسرافيل الذى يدعو الناس إلى القيامة بواسطة نفخ الصور، فلو أخذنا بنظر الاعتبار الآية الشريفه: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَستَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». (الاسراء/ ۵۲)

فإنّ المعنى الأول يكون مناسباً، وإن كانت الآيات اللاحقة أكثر تناسباً مع الملائكة وعمّال الحساب والجزاء.

ما هو المراد من «شىء نُكُر»؟

هل يكمن هذا الشيءُ فى أنواع العذاب الرهيب التى لم تخطر على بال أحد من البشر؟

أم هو الحساب الدقيق للأعمال الذى لم يكن يتوقّعهُ أحد من قبل؟ أم هو مجموع هذين؟

فمهما يكن من شىء فهو أمر رهيب ومُفزع وعسير ومؤلم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۳

۶۷- يوم يُسحبونَ فى النّار على وجوههم

إنّ الانذار الشديد الذى يحتوى عليه هذا التعبير عن القيامة عجيبٌ حقاً، قال تعالى

«يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ». (القمر/ ۴۸)

نحن نعلم بأنّ الوجه أشرف محل فى الإنسان وفى نفس الوقت ألطف جزء من أعضاء البدن، ونعلم بأنّ كثيراً من الأجزاء المهمّة مثل العين والفم والأنف توجد فى الوجه، ومن جانب آخر نعلم بأنّ نار جهنم أشد من نار الدنيا بكثير فإنّ نار الدنيا فى مقابل تلك النار ضئيلة أو محدودة جدّاً.

تصوروا ماذا سيحدث إذا سُحِبَ أحدٌ فى النار على وجهه؟ بالإضافة إلى ذلك فإنّ هذا العمل دليل على شدّة التحقير لهؤلاء المستكبرين عُبّاد الذات، فعلى هذا يجتمع هناك العذاب الجسمى والعذاب الروحى فى آنٍ واحد.

ويوجد هناك احتمالان فى معنى «سَقَر» التى هى على وزن (سَفَر):

الاحتمال الأول: هو أنّها نفس جهنم

الاحتمال الثانى: أنّ المراد منها قسم معّين من جهنم الـذى هو مقرّ المتكبرين وذو حرارة عاليـة واحراقٍ شديد، والاحتمال الثانى تؤيده رواية الإمام الصادق عليه السـلام، قال عليه السلام: «إنّ فى جهنم لوادٍ للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى اللّه شدّة حره وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأحرق جهنم» «۱».

۶۸- يوم نقول لجهنم هل امتلأتِ

هـذا التعبير الـذى ورد ذكره مرّة واحـدة فى القرآن المجيـد يعتبر من جملـة صـفات يوم القيامـة ومن التعبيرات التى تبعثُ على الرهبةِ والهلع أيضـاً، ويشـير إلى حجم النار الكبير وكثرة أصـحاب جهنم، هـذا المشـهد يبعث الرعب والخوف فى قلب كل إنسان لئلا يكون أحد

---

(۱) تفسير الصافى، ج ۵، ص ۱۰۴- ۱۰۵ فى تعليقه على الآية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۴

هؤلاء، قال تعالى «يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ». (ق/ ۳۰)

ويوجـد فى تفسـير هـذه الآيـة رأيـان: الأول هو أنّ الاسـتفهام هنـا «اسـتفهام إنكـارى»، أى أنّ جهنم فى الجواب عن هـذا السؤال هل امتلأت؟ تقول بتعجب هل هناك زيادة على هذا؟

للدلالة على أنّه لم يبق فيها مكان فارغ.

والاحتمـال الثـانى أنّ الاسـتفهام «اسـتفهام تقريبى»، أى هـل هناك أفراد آخرون يردون جهنم؟ على هـذا المعنى تكون النار دائماً فى حالة البحث عن الظالمين المجرمين، ويشـبه حالها حال الإنسان الشره الذى يطلب دائماً طعاماً كثيراً ولا يشبع من ذلك أبداً، ولا عجب أن لا تشبع النار من المذنبين الظالمين ولا تشبع الجنّة من الصالحين.

إلّا أنَّ بعض المفسرين أوردوا على هذا التفسير إشكالًا بأنّه لا يتناسب مع هذه الآية:

«لَأَمْلَئَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ اجْمَعِينَ». (السجدة/ ۱۳)

وعلى هذا الأساس فلابدّ من الرجوع إلى التفسير الأول «۱»، ولكن يمكن الجواب على هـذا الإشكال بأنّ الامتلاء له درجات، كما لو مُلىء صحن من الطعام وأعطى لشخص فيطلبُ أن يُزادَ له فيه.

وفى مسألة كيفية الاسـتفسار من جهنم وجوابها قال البعض: إنّه سؤال من خزنة وحفظة جهنم وجوابهم، وقال البعض إنّ هذا الاستفسار والجواب هو بلسـان الحـال وقيـل أيضاً إنّه يفهم من مجموع آيات القرآن وبعض الأخبار بأنّ جهنم موجود حىّ قادرة على النطق ونباءً على هذا فإنّه من الممكن تفسير الآية بنفس المعنى الظاهرى لها «۲».

وعلى أيّـة حال فإنّ هـذه الآيـة توحى بكثرة أصـحاب النار وجدّية التهديد الإلهى لهم، وتنذر الجميع أن لا يكونوا من هذه الزمرة فيها فهذه التحذيراتُ من الممكن أن توقظ الإنسان وتجعله يراجع نفسه ويتوقف عن الاستمرار فى ارتكاب الذنوب والخطايا.

---

(۱) هذا الإشـكال فى تفسـير الكبير، ج ۲۸، ص ۱۷۴؛ وتفسـير روح المعانى ج ۲۶، ص ۱۷؛ وتفسـير الميزان، ج ۱۸ ص ۳۸۴ نقلًا عن بعض المفسّرين.

(۲) ذكر فى تفسير روح البيان ج ۹، ص ۱۲۷، شواهد من الآيات والروايات لإثبات هذا المعنى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۵

۶۹- يومَ يقولُ المنافقون والمنافقات ...

هـذا التعبير عن يوم القيامة ورد ذكره مرّة واحدة فى القرآن المجيد فى قال تعالى «يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ»، (أى ألقوا علينا نظرة حتى نستلهم من نوركم، أو أمهلونا حتى نستفيد من نوركم). (الحديد/ ۱۳)

هذا والحال أنّ المؤمنين والمؤمنات يمرّون على الصراط بسرعة خاطفة وأشعة أنوارهم تسطع أمامهم وعن أيمانهم: «يَوْمَ تَرَى الْمُؤمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ ...». (الحديد/ ۱۲)

امـا المنـافقون فإنهم ينظرون إلى المؤمنين بحسـرة ولهفـة يطلبون حزمـة أو قبضـة من نور المؤمنين ولكنهم يجابون حينها «قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً». (الحديد/ ۱۳)

إنّ القيامة وساحة المحشـر ليسـتا محلًا لكسب النور، بل محل ذلك هو الدنيا فارجعوا إليها إن اسـتطعتم واطلبوا النور والضياء لأنفسكم من مصـباح الهدايـة المنير والعمل الصالـح، فما أسوا حال المنافقين أصـحاب القلوب الغلف والأفكارِ المظلمـة! وما أجمل نورَ الإيمان والعملِ الصالح وما اعظمَ فحوى هذا الخطاب الذى تحمله لنا الآية الكريمة فى بيانها لحال الفريقين معاً!

۷۰- يومٌ لا ريب فيهِ

التعبير السـبعون وهو الأـخير فى وصف يوم القيامـة هو التعبير المـذكور أعلاـه الـذى ورد ذكره مرّتين فى سورة آل عمران، قال تعالى «رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَومٍ لَّارَيْبَ فِيهِ».

(آل عمران/ ۹)

وورد هذا التعبير فى نفس هذه السورة أيضاً، قال تعالى «فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ». (آل عمران/ ۲۵)

وبما أننا تحدثنا فى بحث «حتمية يوم القيامة فى نظر القرآن الكريم»- بالقدر الكافى-

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۶

فى موارد هـذه الآيـات (فى هـذا الجزء من الكتاب، فلانرى ضـرورة لتكرار ذلك، لكننا نشير إلى مسألـة واحـدة فقط وهى أنّ حتمية وقوع ذلك اليوم وتحقق الوعود الإلهيّة فيه ليست من المسـلمات والبـديهيات فى القرآن الكريم فحسب، بل هى كـذلك عنـد جميع المؤمنين الراسـخين فى إيمانهم، فإنّهم يعترفون ويجمعون على أنَّ المقولاتِ السابقـة ليوم القيامة تخبرُ عن وقائعِ ذلك اليوم العصـيب، بينمـا يخبرُ هـذا التعبير عن حتميـة وقوعه بلاـ شكّ، وفى الواقع فهـذا التعبير تأكيـد لجميع تلك التعبيرات ولهـذا انتخبنا هـذا الوصـف ليكون آخر حلقة تُذكر من سلسلة التعبيرات الواردة فى يوم القيامة.

وهـذه المسألـة من المسائـل الجـديرة بالـذكر لأنَّ المؤمنين عنـدما يتحـدثون عن ذلك اليوم العظيم فإنّهم يأتون بالـدليل عليه ودليلهم ماجاء فى ذيل الآية الاولى «إِنَّ اللَّهَ لَايُخْلِفُ الْمِيعَادَ»، وهذا دليلٌ على حتمية وقوع ذلك اليوم وعدم إمكان الشك فيه.

ثمرة البحث:

من خلال هذا البحث الواسع حول «أسـماء القيامة فى القرآن» اتضح لنا بأنّ «ليوم القيامة» فى القرآن المجيد على الأقل «سـبعون اسماً»، وبـديهيٌ إن مـا نريـده من الاسم هنا ليس هو الاسم العلم بل جميع التعبيرات التى وردت فى مورد اسم القيامـة فى القرآن الكريم التى ابتدأت بكلمة «يوم» (اسم توصيفى).

لكنّنا قسّمنا هذه الأسماء إلى مجموعتين إحداهما الأسماء التى احتوت على كلمة واحدة فقط للتعبير عن ذلك اليوم العظيم، مثل «يوم البعث ويوم القيامة ويوم الدين ويوم الحساب» البالغة أربعة وعشرين اسماً، والاخرى الأسماء التى وصفت يوم القيامة من خلال جملة واحدة (وهى بقية التعبيرات).

وهذه الأسماء والصفات السبعون غنية جدّاً بالمواضيع فهى تنظر إلى يوم القيامة من نوافذ وزوايا مختلفة، وقد كشفت عن جميع الوقائع التى تقع فى ذلك اليوم العظيم من بدايته

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۷

التى هى إحياء الموتى حتى نهايته عندما يُساقُ أصحاب الجنّة إلى الجنّة وأصحاب النار إلى النار.

إنّ هذه الأسماء السبعين ترسم لنا لوحة عجيبة ورهيبة وواضحة وناطقة عن ذلك اليوم العظيم، وتتحدث عن كل ما يمكن أن يقال عنه، وتخبُر عن عاقبة جميع البشر فى مواقف المحشر جميعاً.

إنّه ليس من المعقول أن يتأمل الإنسان فى هذه الاسماء وينظر إليها نظرة موضوعية فلاتؤثر فيه الأثر التربوى العميق، فالهدف منها فى الواقع هو ايقاظ الإنسان من خلال هذه التعبيرات التى صوّر كل واحد منها زاوية معينة من المعاد، فإنّها تدعوه إلى الخروج من الضلال إلى الهدى ومن الرجس إلى الطهارة، ومن حبّ الدنيا إلى الزهد فيها، ومن الفسق إلى التقوى ومن الظلمة إلى النور ومن الكفر إلى الإيمان ومن الشرك إلى التوحيد.

إنّ هذا القرآن كتاب هدايةٍ حقّاً، وما أعجب سبله التربوية العالية.

ضَعُوا هذه الأسماء إلى جنب بعضها مرّة اخرى ومرّوا بها على نوافذ قلوبكم، وتأملوا فى كل موردٍ وردت فيه، وماهى العواقب التى يصوّرها للإنسان؟ ثم استفيدوا منها فى تربية أنفسكم.

اللّهم أعطنا إدراكاً وبصيرة نرى ذلك اليوم العظيم من جميع زواياه التى بينتها لنا فى القرآن الكريم.

ونصغى لنداء هذه الآيات.

ونحفظ فحوى هذه الأسماء.

ووفِّقنا للتأهب لذلك اليوم العظيم آمين يا ربّ العالمين.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۹۹

الأدلة على المعاد

اشارة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۱

أدلة إثبات المعاد

تمهيد:

نظراً للأهميّة الفائقة التى أولاها القرآن الكريم للمعاد فى بعد المعارف الدينية ومن حيث التأثير التربوى لها فى الآخرين معاً، فإنّه خصص آيات متعددة لبيان أدلة إثبات المعاد.

وهذه الأدلة فى الواقع تنقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: الأدلة التى استدل بها على إثبات وقوع المعاد وإثبات وجود الحياة بعد الموت من طرق متعددة.

القسم الثانى: الأدلة التى تُمثل فى الواقع جواباً على الإشكالات التى أوردها المخالفون، الذين يعتقدون باستحالة الحياة بعد الموت.

وادّعوا من خلال تعبيرات مختلفة «عدم إمكان» وقوعها.

لقد طرح القرآن المجيد فى مقابل ذلك مجموعة من الأدلة «العقلية» و «الحسية التجريبية» واثبت لهم «إمكان المعاد الاخروى» ودحض ادّعاءهم.

إنّ الاسلوب الطبيعى للبحث يوجب علينا طبعاً أن نطرح أولًا أدلة «إمكان» المعاد، فنبتدئ بالإنطلاق من مرحلة «الجحود المطلق» إلى مرحلة «الإمكان المطلق»، بعد ذلك نطرح «أدلّة حتمية» على المعاد و «أدلة إثبات الوقوع» كى نتعرف من خلال ذلك وبصورة صحيحة ومنطقية على حقيقة المعاد ومراحله جميعها.

والملاحظة المهمّة التى يجب أن نؤكد عليها هنا: إنّ جميع مناظرات القرآن الكريم فى مجال إمكان المعاد جاءت لاقناع منكرى المعاد الجسمانى، والقرآن الكريم يؤكدّ على

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۲

مسألة إعادة «الروح» و «الجسم» معاً فى الدار الآخرة وأنّه امر ممكن بلا شك وذلك لأننا نشاهد فى هذا العالم نماذج مختلفة لمصاديق ذلك.

على أيّة حال فإنّ الطرق التى يسلكها القرآن لإثبات ذلك كثيرة جدّاً ومتنوعة ويمكن تلخيصها فى ستّ طرق:

۱- آيات الخلق الأول (خلق العالم والإنسان).

۲- آيات شمول القدرة الإلهيّة.

۳- آيات احياء الأرض.

۴- آيات تطور مراحل الجنين.

۵- آيات عودة الطاقة.

۶- آيات النماذج الحيّة والتأريخية للمعاد فى هذه الدنيا.

ومن أجل التعرف على هوّيةِ المخالفين الذين يعنيهم القرآن الكريم وعلى مقصود الآيات فى ذلك يجب قبل الدخول فى البحث أن نطرح بعض الجوانبِ من منطق المخالفين الذى بينته آيات القرآن الكريم، ذلك المنطق الذى يطرحه المخالفون فى يومنا هذا أحياناً ويؤكّدون عليه.

بعد هذا التوضيح نتوجه للبحث فى أدلة (امكان المعاد) ونتحدث أولًا فى تحديد منطق المخالفين ووجهة نظرهم فيه:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۳

إمكان المعاد ومنطق المخالفين:

إشارة:

قلنا بأنّ القرآن المجيد من أجل تهيئة الأرضية الفكرية اللازمة لاستيعاب هذه المسأله يبدأ أولًا بالحديث عن «إمكان المعاد»، ويثبت ذلك بطرق مختلفة (الطرق الستّ)، بعد ذلك يبدأ بذكر أدلة «وقوع المعاد».

ويحتمل أن لا تكون هناك ضرورة للتنبيه على أنّ المخالفين للمعاد لا يمتلكون دليلًا معيناً لإثبات مقصدهم فهم عادةً يؤكّدون على

مسألة استحالة الحياة بعد الموت بسبب عقليتهم الساذجة، حتى يعتبرون الاعتقاد بمسألة الحياة بعد الموت من علامات الجنون وكانوا يسخرون ممن يقول بذلك ويتهمونه بالافتراء على اللَّه.

بعد ذكر هذه المقدمة نعود إلى القرآن الكريم لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية:

١- «وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً». (الاسراء/ ۴۹- ۹۸)

٢- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ* أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ». (سبأ/ ٧- ٨)

٣- «وَقَالُوا ءَإِذَا ضَلَلْنَا فِى الْارْضِ ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ». (السجدة/ ١٠)

۴- «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا ءَإِنَّا لُمخْرَجُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». (النمل/ ۶۷- ۶۸)

۵- «فَقَالَ الْكَافِرونَ هَذَا شَىءٌ عَجِيبٌ* ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ».

(ق/ ٢- ٣)

۶- «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّم وَكُنتُم تُرَاباً وعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخرَجُونَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ

لِمَا تُوعَدُونَ* إِنْ هِىَ إِلّا حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ ونَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

(المؤمنون/ ۳۵- ۳۷)

٧- «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ* إِنْ هِىَ إِلّا مَوتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحنُ بِمُنشَرِينَ» «١».

(الدخان/ ۳۴- ۳۵)

جمع الآيات وتفسيرها

هل يستحيل التراب إلى إنسان مرّة اخرى!

هذه الآيات وإن كانت ذات مضامين مشتركة إلّاأنّ هناك تفاوتاً فى تعبيراتها ومحتوياتها وتحتاج إلى الدقّة وإلامعان.

ففى الآية الاولى إشارة إلى مقولة مشركى العرب، قال تعالى «وَقَالُوا ءَإِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَانَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً».

كيف يمكن للإنسان بعد أن يتفسخ لحمه ويصبح تراباً ثم تندرس عظامه وتصبح رميماً ورفاتاً أن تجمع ثانياً ثم تلبس ثوب الحياة من جديد فأين العظام الرميمة والمتلاشية من الإنسان الحىّ المتحرك القوى؟!

«رُفات»: من مادة «رَفْت» (على وزن فَعْل) بمعنى حطام، وعدّ البعض «الالتواء» من معانيه أيضاً، وقال البعض إنّ «الرفات» بمعنى الذرات العتيقة المتفسخة وهى الحالة التى تحصل للعظام بعد أن تمضى عليها سنون متمادية وهذه التفسيرات جميعها كثيرة الشبه ببعضها «٢».

وما فسّره البعض- نقلًا عن روح المعانى- بأنّه بمعنى التراب أو الغبار أو ما اصبح دقيقاً إثْرَ الدّقِّ الكثير فهو فى الواقع بيان لبعض مصاديقه.

---

(١) يوجد فى هذا المجال آيات متعددة اخرى متقاربة الافق مع هذه الآيات المذكورة مثلًا ما جاء فى سورة الواقعة الآية ۴۷ و ۴۸؛ وفى سورة الصافات الآية ۵۳؛ وسورة يس الآية ۷۸ و ...

(۲) مفردات الراغب ومقاييس اللغة والتحقيق وتفسير روح المعانى.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۵

الإنسان العاقل لا يتحدث بمثل هذا!

والآية الثانية تصور الأسلوب الخشن، المعاندَ والأكثر غروراً للمشركين فى قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ* أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً» (لانّه يدعّى أنّ هذا الخبر من اللَّه) «أَمْ بِهِ جِنَّةٌ» (فكلامه كلام المجانين) (والعياذُ باللَّه).

هكذا كان يتصور هؤلاء بأنّ أخبار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن المعاد الجسمانى ناتج عن أحد أمرين فكانوا يقولون: إمّا أن يكون هذا الرجُل عاقلًا وفطناً لكنّه من أجل الطموحات الشخصيّة نَسَبَ هذه الامور إلى اللَّه كذباً كى يجمع الناس حوله، وإمّا أن لا يكون لديه غرض شخصى ولكنّه (والعياذ باللَّه) اصيب بالجنون! وإلّا فإنّ العاقل لا يمكن أن يقول بأنّ العظام الباليةَ والتراب المنثور الذى ركبت ذرّاته أمواج الرياح وذهبت فى كل صوب أن تجتمع يوماً وتحيى من جديد!

إنّ هؤلاء الحمقى المغرورين الذين لم يذكروا النبى إلّابعنوان «رجُل» وبصيغة نكرة قد نسوا نشأتهم الاولى بالمرّة وخيّمتْ على بصائرهم حُجب الجهل فمنعتهم من مشاهدة مصاديق المعاد فى حياتهم اليومية، وسوف نتطرق للبحث فى هذا المجال بإذن اللَّه بعد ذكر هذه الآيات.

و «مُزِّقْتُم»: من مادة «تمزيق» بمعنى الشّق والتقطيع، وجاءتَ هنا للدلالة على تحلل الإنسان وتناثرِ عناصره واختلاطها بالتراب والماء والهواء.

وفى الآية الثالثة نجد تعبيراً جديداً فى هذا المجال، قال تعالى «وَقَالُوا ءإِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ».

التعبير بالضلال فى الأرض يكون تارةً للدلالة على تحول أعضاء جسم الإنسان إلى تراب بحيث تكون كالارض، وتارةً اخرى للدلالة على تشتتها فى مناطق متوارية من العالم على نحوٍ لا يمكن تمييزها أبداً.

بهذا الأسلوب كانوا يريدون أن يثبتوا بأنّ عودةً كهذه أمرٌ محال جدّاً! بينما قد تحقق

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۶

نفس هذا الأمر فى بداية خلق الإنسان، فإنّ العناصر المنبثقةَ فى عالم الطبيعة اجتمعت بقدرة اللَّه ووجد منها الإنسان (والوقوع أفضل دليل على الإمكان).

إنّها أساطير فحسب:

ورد ذكر هذا الإدّعاء فى الآية الرابعة مع بعض الإضافات الاخرى قال تعالى «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ءَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا ءَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ* لَقَدْ وُعِدْنَا هذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هذَا إِلّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» «۱».

يفهم من هذا التعبير أنّ مسألة المعاد وبالتحديد المعاد الجسمانى لم تكن من مختصات القرآن والشريعة الإسلامية فحسب، بل ممّا أخبر عنه الأنبياء المتقدمون أيضاً، ولكن للأسباب التى سوف نذكرها لاحقاً- إن شاء اللَّه- لم يخضع متكبّرو الامم للحق أبداً، وكانوا يعتبرونه أمراً خرافياً واسطورياً بعيداً عن العقل والمنطق، فالآية الشريفة ذكرت أنّ هؤلاء تمسّكوا بأمرين لانكار المعاد:

الأول: أنّ عودة الحياة للتراب تبدو أمراً مستبعداً.

والثانى: بما أنّ جميع الأنبياء السابقين وعدوا الامم السالفة ولم يتحقق وعدهم أبداً، فهذا دليلٌ على أنّ هذا الأمر اسطورة وخرافة لا غير، (وكأنّهم يتوقعون بأنّ القيامة يجب أن تتحقق على الفور وإلّا فهى كذب وافتراء).

---

(۱) «اساطير» جمع «اسطورة» ويرى بعض اللغويين أنّها جمع «أسطار» وهى بدورها جمع «سطر» بمعنى الشى المدوّن كذباً، وقال البعض أيضاً: بما أنّ «اسطورة» من الصّيغ «المزيد فيها» فإنّها تدل على زيادة فى السطر المعهود، ولذا اعتبروها بمعنى «السطر المنّمق»، ومهما يكن من أمر فإنّ الاسطورة بمعنى المقولة الباطلة الخرافية التى لا أصل لها. (مقاييس اللغة- المفردات- مصباح اللغة- التحقيق).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۷

وفى الآية الخامسة يَردُ تعبير آخر عن ذلك الإنكار والاستبعاد، قال تعالى «فَقَالَ الْكَافِرُونَ هذَا شَىءٌ عَجِيبٌ* ءَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ» «۱».

فهم فى مبتدأ مقولتهم يعتبرون ذلك أمراً «عجيباً»، وفى ذيل مقولتهم يعتبرونه «بعيداً» ولكنهم لم يفكّروا بخلقهم وإن هذا الأمر «العجيب والبعيد» قد تحقق بوضوح فى خلقهم الأول، بل كما سوف يأتى لاحقاً بأنّ مسألة المعاد وتجدد الحياة من الامور التى شاهدناها ونشاهدها دائماً فى هذه الدنيا، فكيف يكون هذا الأمر عجيباً وبعيداً؟

وفى الآية السادسة نرى المخالفين يكررون هذا اللون من الانكار ولكن بأُسلوبٍ آخر، فكانوا يقولون لقرنائهم وأقربائهم مشكّكين متخذين أسلوب الاشاعة والاثارة: «أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذا مِتُّم وَكُنْتُمْ تُرَاباً وعِظَاماً أَنَّكُمْ مُّخْرَجُونَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ».

ثم إنّ هؤلاء الحمقى لايخالون أنّ هناك حاجة للاستدلال فيقولون بِتَعَسُّفٍ: «إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِين».

وهذا من أشد تعبيرات المنكرين المعاندين فى مجال إنكار المعاد، وذلك من دون أن يفكروا فى فلسفة خلق الإنسان وأنّه هل من الممكن أن تكون هذه الحياة القصيرة المليئة بالمصائب والمشاكل الهدف والغرض الرئيسى من خلق الإنسان؟ ومن دون أن يفكّروا بفلسفة الأوامر الإلهيّة وأنّه هل من الممكن أن يعامل اللّه العادل، الصالحين والطالحين على حدٍ سواء؟ وأن لا يفرّق بينهم لا فى الدنيا ولا فى الآخرة، ومن دون أن يفكّروا بنشأتهم الاولى حين كانوا فى البداية تراباً وعناصر متفرّقة.

قد يكون تقدم كلمة التراب على العظام فى الآية الكريمة- مع أنّ بدن الإنسان يتحول إلى عظام رميمة أولًا ثم يكون تراباً- وذلك للإشارة بالتراب إلى اللحم الذى يصبح تراباً

---

(۱) بعض المفسرين لا يرون فرقاً بين «رَجْع» و «رجوع» (مثل صاحب الميزان) بينما يعتقد البعض الآخر بأنّ «رَجْع» استعمل متعدياً و «رجوع» لازم (تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۱۰۳) وجاء فى تفسير فخر الرازى أيضاً الفرق بين هذين التعبيرين، ولكن الآية تحتمل كلا المعنيين (تفسير الكبير، ج ۲۸، ص ۱۵۲).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۸

قبل العظام، أو الذكر له بالتراب على الأجداد والماضين الذين تحولت أبدانهم إلى تراب تماماً، وللدلالة بالعظام إلى الأباء والامهات الذين فارقوا الحياة قريباً، أو لأنّ عودة الحياة إلى التراب أبعد إلى التصديق من عودته إلى العظام، لذا تقدمت كلمة التراب، وفى كل الأحوال فيه بيان لشدّة معارضتهم لهذه المسأله.

إن هى إلّاحياة واحدة وموتة واحدة:

وفى الآية السابعة والاخيرة نلاحظُ تعبيراً جديداً أيضاً، وهو إن مشركى العرب ومنكرى المعاد من دون أن يتحدّثوا عن الرفات والتراب

وأمثال هذه الامور، ادّعوا بدون دليل: «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ* إِن هِيَ إِلّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى وَمَا نَحنُ بِمُنْشَرِينَ».

الأمر العجيب فى هذه الآية أنّ هؤلاء قالوا إن هى إلّاموتتنا الاولى فلماذا اتوا بهذا التعبير بينما كان عليهم أن يقولوا: إن هى إلّاحياتنا الاولى

وقد أجاب المفسرون عن هذا السؤال بأجوبة مختلفة، ولكن الجواب الأكثر مناسبة أن يقال إنّهم كانوا يقصدون من كلامهم هذا إنّه لا يوجد بعد هذه الحياة إلّاالموت ولا شىء يحدث بعد الموت، أىْ لا يوجد هناك حياة اخرى

وآخر الكلام فى هذه الآية قال الزمخشرى بعد أن طرح هذا الإشكال فى الكشاف: إنّه قيل لهم إنّكم تموتون موتة تتعقبها حياة، كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة، وذلك قوله عزوجل: «وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». (البقرة/ ۲۸)

فقالوا: «إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَى يريدون: ما الموتة التى من شأنها أن يتعقبها حياة إلّا الموتة الاولى دون الموتة الثانية وما الصفة التى تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلّا للموتة الاولى خاصة «۱».

لكنّ التكلف واضح على هذا التفسير، والتفسير الأول هو المناسب (فتأمل).

---

(۱) تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۲۷۹ فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۰۹

السؤال الآخر الذى طرح فى مورد هذه الآية إنّ كل «أول» يجب أن يكون له «ثانٍ» فعلى هذا كيف يمكن أن لا يتلو «الموت الأول» «موت ثانٍ»؟

والجواب على هذا السؤال واضح، وهو أنّه ليس من الضرورى أن يكون لكل أولٍ ثانٍ، فمثلًا لو نذر الإنسان على نفسه أن يسمّى أوّل ابنٍ يهبه اللَّه له «محمداً»، فمن الممكن أن لا يهب اللَّه له إلّاذلك الابن، أو أن ينذر للَّهعلى نفسه أن يهدى أوّل كتاب يؤلفه إلى أبيه، ومن الممكن أن لا يؤلّف كتاباً غيره، ونحن نعلم أيضاً أنَّ أحد أسماء اللَّه تعالى هو الأول مع أنّه لايوجد هناك إلهٌ ثان.

نتيجة البحث:

تعرفنا من خلال الآيات السبع المذكورة والآيات الاخرى المقاربة لها على منطق منكرى المعاد وبالأخص اولئك الذين عاصروا نزول القرآن، ويمكن تلخيص اقوالهم فى مجال إنكار المعاد الجسمانى غالباً فى عدّة جمل ادّعائية:

كيف يمكن للعظام الرميم أن تلبس ثوب الحياة من جديد؟

كيف يمكن لِلَحْمِنا وعظامنا التى تحولت إلى تراب وتفرقت عناصرها فى كل صوب وتحللت واختلطت بالأرض وتلاشت أن تجمع ثانية وتدبَّ فيها الحياة من جديد؟ أليس هذا افتراء على اللَّه أو من علائم الجنون؟!

لا يوجد هناك غير هذه الحياة الدنيا وهذا الموت، فهل قام أحد من مرقده كى نصدق هذا الادّعاء؟ إنّ هذا الإدعاء لا أساس له وهو أمرٌ عجيب وغير ممكن فلا يمكن تصديقه!

إنّ هؤلاء المنكرين الغرورين الذين لم يتأملوا حتى فى خلقهم الأول، ولم يعوا نماذج الحياة بعد الموت التى يشاهدونها باستمرار فى حياتهم، وهؤلاء الذين يعتمدون على الادّعاءات الواهية، لا شىء إلّامن أجل العناد والحميّة لا يختصون بذلك الزمان فحسب ولا بأىّ زمانٍ معيّن، فنحن فى هذه الأيّام أيضاً نسمع مثل هذه الأقاويل على لسان أفراد آخرين من الذين حشروا أنفسهم بين الفلاسفة والعلماء.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۰

وعلى أيّة حال فإنّ القرآن المجيد أجاب عن هذه الادّعاءات بكل قوّة كما سوف يأتى ذلك فى البحوث القادمة، فهى إجابات لجميع فرق منكرى المعاد وعلى جميع المستويات العلميـة، ومن الممكن أن تقنع هذه الأجوبة حتى اولئك الذين لم يمتلكوا شيئاً من العلم، ولكن على شرط أن يكونوا من طلّاب الحقيقة.

والآن نستمع لبيانات القرآن فى مجال أدلة إمكان المعاد.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۱

أدلة إمكان المعاد

اشارة

۱- الخلق الأول

۲- القدرة الإلهيّة المطلقة

۳- آيات احياء الأرض

۴- التطورات الجنينية

۵- المعاد فى عالم الطاقة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۳

۱- الخلق الأول

تمهيد:

لقـد وردت طرق كثيرة لإثبات إمكان المعاد فى القرآن المجيـد جميعها على شـكل اسـتدلالات منطقيـة، فصوّرها القرآن بتعابير راقية جدّاً.

ويمكن تلخيص ما جاء فى القرآن- كما أشرنا سابقاً- إلى ستة مواضيع:

۱- الخلق الأول.

۲- شمول القدرة الإلهيّة.

۳- تكرر حدوث الموت والحياة فى عالم النباتات.

۴- التطورات الجنينية.

۵- اعادة الطاقة.

۶- النماذج الحيّة لوقوع المعاد.

إنّ القرآن الكريم أوردَ آيات متعـددة لكلٍ من العناوين المذكورة، والتدبر فى هذه الآيات لايوصـلنا إلى إثبات إمكان المعاد فحسب، بل ويدلّنا على مواضيع مهمّة اخرى أيضاً.

بعد هذه الإشارة الوجيزة نعود إلى القرآن المجيد فنمعن النظر خاشعين فى القسم الأول من الآيات المتعلقة بالخلق الأول:

۱- «وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلقَهُ قَالَ مَن يُحيِ العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحيِيهَا الَّذِى انشَأَهَا اوَّلَ مَرّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (يس/ ۷۸- ۷۹)

۲- «افَعَیِینَا بِالخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِّن خَلقٍ جَدِیدٍ». (ق/ ۱۵)

۳- «وَهُوَ الَّذِی یَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ وَهُوَ أَهوَنُ عَلَیْهِ». (الروم/ ۲۷)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۴

۴- «اوَلَمْ یَرَوَا کَیفَ یُبْدِئُ اللَّهُ الخَلقَ ثُمَّ یُعِیدُهُ إِنَّ ذَلِکَ عَلَی اللَّهِ یَسِیرٌ».

(العنکبوت/ ۱۹)

۵- «کَمَا بَدَأَکُمْ تَعُودُونَ». (الاعراف/ ۲۹)

جمع الآیات وتفسیرها

من یحیی العظام وهی رمیم؟!

تبدأ الآیة الاولی بسرد القصة المعروفة للرجل المشرک و هو إمَّا «ابَی بن خلف» أو «العاص بن وائل» أو «امیّة بن خلف» الذی جاء یحمل بیده عظماً رمیماً وهو یقول سأذهب وأخاصم محمداً صلی الله علیه و آله بهذا الدلیل القاطع! وابطلُ ما جاء به عن المعاد!

فذهب إلی النبی صلی الله علیه و آله ونادی قائلًا: «من الذی یحیی هذا العظم الرمیم؟» ومن یصدق هذه الدعوی ومن المحتمل أنّهُ من أجل التأکید علی خطابه سحق جزءاً من ذلک العظم ونثره علی الأرض: «قَالَ مَنْ یُحْیِ الْعِظَامَ وَهِیَ رَمِیمٌ».

وبعد وقوع تلک الحادثة خاطب القرآن النبی صلی الله علیه و آله (فی خمس آیات) وأمره أن یجیب علی هذا الرجل وأمثاله بقوّة ومن طرق متعددة إحداها الإشارة إلی الخلق الأول وقد بینها القرآن بعبارة وجیزة ولطیفة جدّاً، قال تعالی: «ونَسِیَ خَلْقَهُ»!

ثم قام تعالی بشرحها فقال: «قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنْشَأَهَا اوَّلَ مَرَّةٍ» فإن کنت تتصور أنّ العظام بعد أن تبلی وتنشر کل ذرّة منها فی ناحیة فإعادة جمیع الأوصاف الاولی إلیها أمرٌ محال حیث لا یوجد أحدٌ یحیط بها علماً، فإنک فی ضلالٍ بعید، لأنّ اللّه تعالی الذی خلق کل شیء: «وَهُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ».

و «انشأها»: من مادة «انشاء» بمعنی الإیجاد والهدایة وهی هنا کأنّها إشارة لهذه الحقیقة وهی أنّ الذی خلقها فی البدایة من لا شیء فإنّه من الأَولی أن یتمکن من خلقها مرّة اخری من التراب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۵

وهناک احتمالان فی المراد من نسیان الخلق فی هذه الآیة، الاحتمال الأول: إنّ الإنسان نسیَ خلقه الأول الذی بدأ من نطفة حقیرة وقطرة ماءٍ مهین ثم بدأ یتردّدُ ویشکک بقدرة اللّه علی الإحیاء الجدید.

والاحتمال الثانی: إنّ هذه الآیة تشیر إلی خلق آدم من التراب، وکأنّها ترید أن تقول: ألم نخلق الإنسان من تراب فی بادئ الأمر؟ فکیف یکون من المحال تکرار هذا الأمر؟ وذلک لأنّ «حکم الأمثال فیما یجوز وفیما لا یجوز واحد».

ومن الیدیهی أنّ «النسیان» هنا إمّا جاء بمعنی النسیان الحقیقی الواقعی أو تنزیل الشخصِ منزلة الناسی وإن لم یکن فی الواقع کذلک، وذلک لأنّه لم یعمل وفق علمه بل اتّخذ موقفَ المُنکِرِ «۱».

وفی الآیة الثانیة أشیر إلی هذه الحقیقة ببیانٍ آخر، فقد قال تعالی فی جواب منکری‌المعاد: «أَفَعَیِینَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ»؟ حتی نعجز عن خلقه مرّة اخری

ثم یضیف تعالی إنّ هؤلاء لم یشکوا فی قدرة اللّه تعالی علی الخلق الأول، بل ترددوا وشککوا بالاحیاء المجدد بسبب غفلتهم ونسیانهم أو بسبب تعصبهم وعنادهم أو أنّهم اعتادوا علی ما یشاهدونه فی حیاتهم أنّهم لم یروا أحداً خرج من قبره حیاً بعد موته: «بَلْ هُمْ فِی لَبْسٍ مِّن خَلْقٍ جَدِیدٍ».

وهكذا ورّطوا أنفسهم فى تناقضٍ واضح لايجدون له مخرجاً أبداً.

«عيينا»: من مادة «عَىّ» تأتى أحياناً بمعنى العجز وعدم القدرة وأحياناً بمعنى التعب والألم، وقد جاءت هنا على المعنى الأول، أى أننا لم نعجز عن الخلق الأول.

والمراد من «الخلق الأول» إمّا الإيجاد الأول لكل إنسان أو يختص بخلق آدم، وأمّا ما احتمله بعض المفسرين من أنّ المراد من الخلق الأول هو خلق عالم الوجود فإنّه لا يتناسب مع بحثنا.

---

(۱) جاء هذان الاحتمالان فى تفسير روح المعانى، ج ۲۳، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۶

و «لبس»: على وزن «حَبْس» فى الأصل بمعنى ستر الشىء واللباس سُمّىَ بذلك لأنّه يستر ويغطّى البدن، أمّا الراغب فإنّه يرى أنّه يستعمل فى الامور المعنوية أيضاً، فيدلّ على ستر الحقائق، وفى الآية المعنية جاءَ هذا المعنى أى أنّ أمر المعاد هو حقيقة التبست عليهم.

وفى الآية الثالثة نلاحظ تعبيراً آخر فى هذا المجال، هو إجراء المقارنة بين «مبدأ» الحياة و «المعاد»، قال تعالى «وَهُوَ الَّذِى يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

فسّر عدد من المفسيرين جملة «يبدأ» على أنّها تدل على الماضى، أىْ أنّ اللَّه تعالى بدأ الخلق، لكن ماهو المانع من تفسير «يبدأ» بمعناه الحقيقى بما أنّه فعل مضارع؟ وبما أنّ الفعل المضارع يدل على الاستمرار فيكون معنى الآية هنا: «إنّ اللَّه يخلق ويعيد على الدوام» أى أنّ عالم الوجود هو عبارة عن تكرار الحياة والموت واستمرار المبدأ والمعاد، فعلى هذا الأساس لا يمكن الشك فى إمكان وقوع المعاد.

فعالمنا يموت ويحيى ويخلق من جديد باستمرار، ومن هنا تكون الإعادة إلى حياة جديدة أمراً غير مستغرب، فيكون هذا جواباً دقيقاً وجميلًا للجاحدين.

و جملة «و هو أهون عليه» تُبين هذا المفهوم، وهو: أنّه لايوجد فى قاموس القدرة الإلهيّة المطلقة واللامحدودة أى معنى للسهل والصعب فكل شىء لديه سهل يسير، ولا فرق بين قلع جبل من أعظم جبال العالم من مكانه وبين رفع قشة صغيرة، وخلق منظومة شمسية وخلق ذرة من تراب، لأنّ السهل والصعب فى مقابل القدرة الإلهيّة لا معنى له، طبعاً بالنسبة لنا أصحاب القدرة المحدودة، فإنّ رفع حجر صغير أمر سهل أمّا رفع حجر كبير يعد من المصاعب.

فما هو المراد من قوله «أهونُ»؟ هل هناك شىء صعب عليه وآخر أهون منه مع أنّ قدرته واحدة بالنسبة لجميع الأشياء؟

وقد أجاب المفسّرون عن هذا السؤال بعدّة أجوبة فقالوا: إنّ أفضل جواب هو أنّ هذا

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۷

الخطاب ذكره اللَّه تعالى من أجل استئناس العباد بهذا المنظار وهذا المنطق، لأنّ من ينجز عملًا يكون عليه إنجاز ذلك العمل فى المرّة الثانية أهون، وإن كانت جميع الأشياء متساوية بالنسبة للقادر المتعال.

واجيب تارةً أخرى إنَّ «أهون» لم تأتِ هنا بصيغة افعل التفضيل، بل أتت بمعنى «هين» أى سهل.

وقد أتوا بتفسيرات اخرى أعرضنا عن ذكرها لعدم مناسبتها المقام.

على أيّة حال فإنّ مفهوم سهل وأسهل يصدق على الناس، وإن كل شىء بالنسبة لقدرة اللَّه سبحانه السر مدية متساوٍ، ولا يوجد هنالك اسهل أو أصعب بالنسبة له تعالى

والآية الرابعة تحمل مضمون الآية السابقة بنحو آخر، وماهى فى الحقيقة إلّاتفسير وتوضيح لما جاء فى تلك الآية، حيث قال تعالى

«اوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ» «۱».

والإتيانُ بصيغة المضارع «يبدأ» و «يعيد» من المحتمل أن يكون تأكيداً لما جاء فى الآية المذكورة سابقاً من أنّ اللَّه يُبدئ ويعيد الخلق على الدوام وبصورة مستمرّة فيتجدد العالم ويتغير ويتكرر وقوع الإيجاد والمعاد فى كل آنٍ وخاصة عندما اتى بهذا التعبير: اوَلَم يروا ... الذى يشير إلى أنّ مشاهدة هذا الايجاد المستمر والاعادة المتكررة أمر ممكن لجميع الناس.

ويوجد هناك احتمالٌ أخر هو أنّ «يُعيدُ» بيان للمعاد الحاصل فى يوم القيامة لا غير، ففى هذه الحالة يكون معنى الآية بهذا النحو: أولم يروا كيف يُبدئ اللَّه الخلق؟ فإنّ المُبدئ للخلق يمكنه أن يعيده مرّة اخرى

---

(۱) يجب الانتباه إلى أنّ يُبْدى (من باب الأفعال) وَيبْدأ (من الثلاثى المجرد) كلاهما لهما معنىً واحد وهو ابداء واظهار الشىء.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۸

وجملة «إنّ ذلك على اللَّه يسير» تشير إلى أنّ كل شىء سهل ويسير على اللَّه تعالى ومن الممكن أن تكون دليلًا للذين فسّروا «أهون» بمعنى «هيّن» فى الآية السابقة.

على أيّة حال فإنّ جميع منكرى المعاد يرون بأعينهم كيف تنبت النباتات فى الأرض الميتة؟، وكيف يضع البشر أقدامهم فى عالم الوجود؟ وكيف تورق وتثمر الأشجار من جذع يابس؟ وكيف تتكرر عملية الخلق والايجاد فى هذا العالم فى كل آن؟

فهل تكون هذه الاعادة لجميع الموجودات أمراً عسيراً على خالقها؟ مع أنّ الإيجاد والاعادة كلاهما واحد بالنسبة لشمول قدرته، ووجود الشى أفضل دليلٍ على إمكانه؟

وقد بيّن سبحانه فى الآية الخامسة الأخيرة لُبّ المطلب من خلال تعبير وجيز ومختصر جدّاً، حيث قال تعالى: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الأعراف/ ۲۹)

إنّ هذه العبارة فى الحقيقة أقصر تعبير واوضح استدلال للقرآن الكريم فى مجال إمكان المعاد، فإنّه قاس إمكان الحياة الثانية على إمكان الحياة الاولى وهذا قياس منطقى لقضية عقلية، أمّا اولئك الذين يعتبرون مثل هذه الآيات دليلًا على جواز القياس فى الأحكام التعبدية فإنّهم قد وقعوا فى خطأ فاحش، لأنّ القياس لا يجوز إعماله إلّاإذا كان دليل الحكم الأول وعلته وحكمته واضحاً مبيناً، ويجب أن تكون هذه العلة موجودة فى الحكم الثانى أيضاً، كما هو الحال فى الآية المذكورة، فى بحث المعاد وغيرها من الامور، لأننا نعلم بأنّ المؤثر فى الخلق الأول هو القدرة الإلهيّة، وهذا الأمر بنفسه يكون مؤثراً فى الخلق المستأنف، أمّا بالنسبة للقياس فىالأحكام الفرعية التى لم تتضح عللها ولم يُصّرح عنها فى ذلك الدليل فإنّه لا قيمة له، وذلك لأنّه قياس ظنّى وتخمينى لا يقينى وعقلى.

على أيّة حال فإنّ التفسير المذكور أعلاه واضح جدّاً إذا ما استعنّا بالآيات الاخرى التى وردت فى هذا المجال، ولكن العجيب تفسير بعض المفسرين من أنّ المراد من هذه الآية هو: كما بدأكم أول الأمر وخلق منكم السعداء والأشقياء والكفار والمؤمنين فإنّه سوف يعيدكم فى الآخرة على تلك الحال «۱».

---

(۱) ذكر الفخر الرازى هذا التفسير واعتبره أحد الاحتمالين فى تفسيير هذه الآية (تفسير الكبير، ج ۱۴، ص ۵۸).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۱۹

ومن المحتمل أن يكون السبب فى هذا التفسير هو أنّ البعض أرادوا عن هذا الطريق أن يجدوا دليلًا لتعزيز عقيدتهم الباطلة فى مسألة الجبر، بينما لم يكن الحديث فى هذه الآية إلّا عن أصل خلقة الإنسان وإيجاده، ثم اعادته إلى حياة جديدة، ولم تأتِ حتى إشارة واحدة للسعادة والشقاء الجبرى فى هذه الآية ولم يرد فيها شىء عن ذاتية الكفر والإيمان.

ثمرة البحث:

اتضح جيداً من خلال هذه الآيات أنّ السبب الرئيسى فى إنكار المعاد من قبل المنكرين هو غفلتهم وعدم توجههم للخلق الأول لهذا العالم والإنسان، وذلك لأنّهم لو تمعّنوا قليلًا فى ذلك الأمر لحصلوا على الجواب المطلوب.

فهل من الممكن أن يكون (الخلق الأول للإنسان من التراب أمراً يسيراً بينما لا تكون إعادته كذلك)؟!

توضيح

اليوم الذى خلق فيه الإنسان:

يقول العلماء إنّ الكرة الأرضية بعد انفصالها عن الشمس قبل خمسة مليارات عام تقريباً كانت على شكل كتلة من نار، وبمرور عدّة مليارات من السنين أخذت درجة حرارتها بالانخفاض تدريجياً، ثم تحولت الغيوم التى كانت تحيط بالأرض بكثافة إلى أمطار، وتلك الأمطار التى كانت تهطل بغزارة على الأرض كانت تغلى لشدّة حرارة الأرض وتتبخّر ثانياً فتتحول إلى غيوم مرّة اخرى واستمرت هذه العملية واستمر معها انخفاض درجة حرارة الأرض.

بعد ذلك بدأت إنسيابيّة المياه إلى المناطق المنخفضة من الأرض وكوّنت البحار والمحيطات، ولم يكن آنذاك للحياة أثر.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۰

ولم يكن للنبات أثر.

ولم يخفق طائر بجناحه أو يغرّد.

ولم يتحرك فى تلك المحيطات العظيمة أىُّ موجودٍ حى.

وذلك لأنّ محيط الكرة الارضية لم يزل حاراً للغاية ممّا لم يفسح المجال لظهور الحياة عليها.

ثم أخذت درجة الحرارة بالإنخفاض أكثر فاكثر حتى ظهرت بقدرة اللّه اوّلُ براعم الحياة فى البحار والصحارى ثم ظهرت بعد ذلك موجودات حيّة كثيرة وأخيراً خلق الإنسان.

وبناءً على هذا لا يوجد أىّ شك فى أنّ الإنسان خلق من التراب ثم يعود إليه فما المانع فى أن يعاد ثانياً من التراب؟!

إنّ استئناس الإنسان بهذه الحياة وقصر نظرته وحُجب العناد والتعصب الفكرى أحياناً تمنع الإنسان من أن يرى هذه الحقائق الواضحة وأن يصدق أو يعترف بها.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۱

۲- القدرة الإلهيّة المطلقة

تمهيد:

الطريق الآخر لإثبات امكان اعادة الخلق مرة أُخرى فى يوم القيامة هو ثبوت القدرة الإلهيّة غير المحدودة.

لأنّ البحث عن المعاد يأتى بعد إثبات أصل التوحيد وقبوله والتصديق بالصفات الثبوتية والاخرى السلبية للحق تعالى نحن نعلم بأنّ أحد صفاته الثبوتية هى «القدرة المطلقة» وهيمنته على كل شىء، وأنّ أفضل طريق لإثبات قدرته هى التمعن فى عظمه عالم الخلق، بالإضافة إلى أنّ واجب الوجود له وجود غير محدود فمن الطبيعى أن تكون قدرته غير محدودة أيضاً.

إنّ سعة السماواتِ وعظمة المنظومات السماوية وعظمة المجرّات وكثرة الكواكب المحورية والسيارات التى تدور حولها وتنوّع المخلوقات الحيّة من نباتات وحيوانات والأعمال الدقيقة العجيبة التى تؤدّيها الخلايا الحيّة ومكوّنات الذرّة، كل هذه الامور دليل على القدرة اللامتناهية للّه تعالى

فعند الاعتقاد بهذه الامور وتصديقها لا يبقى مورد للشكِّ والترديد فى من هو القادر على إحياء العظام الرميم؟ أو كيف يمكن للتراب المنتشر أنْ يُجمعَ ويلبس ثوب الحياة؟!

لقد كانت هذه نبذة مختصرة عن المواضيع التى سنبحثها فى هذا الباب، وقد اشير إلى هذه المواضيع فى آيات متعددة من القرآن الكريم، وقبل أن نعطى توضيحاً أكثر نتأمل أولًا فى هذه الآيات خاشعين:

١- «لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالْارْضِ اكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ». (المؤمن/ ٥٧)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۲

٢- «أَوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْارْضَ قَادِرٌ عَلَى ان يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ اجَلًا لّارَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّا كُفُوراً». (الاسراء/ ٩٩)

٣- «اوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالارْضَ وَلَم يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى ان يُحْيِىَ المَوْتَى بَلَى انَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (الاحقاف/ ٣٣)

۴- «اوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْارْضَ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ». (يس/ ٨١)

۵- «قُلْ سِيرُوا فِى الْارْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ» «۱». (العنكبوت/ ٢٠)

جمع الآيات وتفسيرها

إنّه على كل شىءٍ قدير:

فى الآية الاولى يقيس اللّه تعالى إحياء الموتى بخلق السموات والأرض، قال تعالى

«لَخَلْقُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ».

فحتماً يكون قادراً على إعادة الإنسان الذى خلقه أولًا، فهذا برهان جلى فى إفادة هذا الأمر.

قال الفخر الرازى فى تفسيره لهذه الآية: وكان من حقهم أن يقروا بأنّهُ القادر على خلق السماواتِ والأرض ... فقد ظهر بهذا المثال أنّ هؤلاء الكفار يجادلون فى آيات اللّه بغير سلطان ولا حجّة، بل بمجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب «۲».

وصَرّح آخرون مثل «الطبرسى» فى مجمع البيان و «القرطبى» و «روح البيان» بأنّ هذه الآية خوطب بها منكرو المعاد وهى تقول: من قدر على خلق السماوات والأرض

---

(١) أشير إلى هذا المعنى فى آيات اخرى أيضاً مثل الآية ٩ من سورة الشورى والآية ٢ من الحديد.

(٢) تفسير الكبير، ج ٢٧، ص ٧٩.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۳

واختراعهما مع عظمهما وكثرة أجزائهما يقدر على إعادة خلق البشر «۱».

والإتيان بجملة: «وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ» كما قال كثير من المفسّرين: ليس بمعنى أنّهم فى الواقع لا يعلمون بأنّ «خلق السماواتِ بتلك الدقّة والعظمة أرقى من اعادة خلق الإنسان»، بل قد نُزِّلوا منزلة الجاهل فى هذه الامور لأنّهم غفلوا عنها ولم يفكّروا ويُمْعِنوا فيها

وذلك لتعصبهم واتباعهم الهوى فضلوا فى أمر المعاد «۲».

والعجيب هنا هو أنّ فى تلك العصور لم تكتشف بعدُ عظمة السماواتِ كما هو الحال فى عصرنا الحاضر، والقليل من الناس كان له اطلاع آنذاك على الأسرار العظيمة التى كُشفت عن طريق التقدم العلمى فى العصور الحديثة، وكانوا لا يعلمون منها إلّاظاهرها، لكنّ القرآن الكريم المترشح من علم اللّه اللامحدود رفع الحجاب عن تلك الأسرار.

وهناك ملاحظة هى: أنّ اللام فى «لخلق» هى «لام الابتداء» ظاهراً وقد جاءت هنا للتأكيد.

وفى الآية الثانية وبعد أن نقل كلام المنكرين الذين انكروا إعادة خلق الإنسان بعد استحالة عظامه وصيرورتها تراباً، قال تعالى «أَوَلَمْ يَرَوا انَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ».

التعبير ب «مثل» هنا من الممكن أن يكون للدلالة على خلق البشر ثانياً، لأنّ خلقهم يكون كالسابق، ومن الممكن أيضاً أن يكون للدلالة على أنّ اللّه تعالى قادرٌ على خلق آخرين من البشر من جديد كما خلق هؤلاء، فكأنّه يقول عندما يكون اللّه قادر على خلق هؤلاء فإنّه قادرٌ على خلق غيرهم.

وهناك احتمال آخر هو أنّ الأبدان المخلوقة من جديد مهماكانت فهى ليست عينَ تلك الأبدان السابقة، وذلك لأنّ مادّتها الاولى تعود مع كيفية وهيئة جديدة غير تلك

---

(۱) تفسير الطبرسى، ج ۸، ص ۵۲۹؛ وتفسير القرطبى ج ۸، ص ۵۷۶۹؛ وتفسير روح البيان ج ۸، ص ۱۹۹.

(۲) تفاسير مجمع البيان؛ الكشاف؛ وروح المعانى ذيل الآية مورد البحث.

الصورة السابقة، فمن أجل هذا عبّر القرآن ب «مثل»، ولكن روح الإنسان هى تلك الروح، فبعد أن تتعلّقَ بالبدن تحافظ على وحدة شخصيتها السابقة واللاحقة، بناءً على هذا فإنّ الناس بعد إعادتهم يكونون عينهم من ناحية، ومثلهم من ناحية اخرى (فتأمّل).

ثم يجيب فى ذيل الآية عن سؤال آخر للمنكرين، فأولئكَ كانوا يقولون: إذا كانت القيامة حق فَلِمَ لا- تقع، قال تعالى فى جوابهم: «وَجَعَلَ لَهُمْ اجَلًا لَّارَيْبَ فِيهِ».

وبتعبير آخر إنّه تعالى مع الحفاظ على كامل قدرته عيّن وقت قيام القيامة بالدقّة حيث ستقع فى ذلك الزمان المعيّن من دون أىّ تأخير.

«فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلّاكُفُوراً» لأنّ هوى النفس والتعصب والعداء للحق أرخى على أفكارهم حُجبه وسدوله.

وفى الآية الثالثة ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر، قال تعالى «اوَلَمْ يَرَوا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يُحْيِىَ الْمَوتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

عبارةُ «اوَلَمْ يروا» المراد منها المشاهدة بعين البصيرة والعقل، لذلك فسَّرها المفسرون بمعنى أولم يعلموا، والبعض الآخر فسّرها بمعنى العلم والاطلاع المصحوبِ بالدقّة والتمعّن.

و «يَعْىَ»: من مادة «عَىّ» بمعنى العجز وعدم القدرة على المشى عند الإنسان، واستعملت أيضاً للدلالة على شمول العجز وعدم القدرة على إنجاز عملٍ ما، أو العجز عن بيان أمرٍ ما عن طريق التحدّث للآخرين، و «داءٌ عيّاء» المرض الذى لاعلاج له سُمّى بذلك لأنّه متعب ومسبب للعجز.

وفسّر بعضهم «العى» ب «الجهل» ولكن هذا المعنى لا يناسب هذه الآية.

ومن البديهى أن يُتَصَوّرَ العجزُ وعدم القدرة فى الأشخاص الذين تكون قدرتهم محدودة، ولكن هذا غير مُتَصَوَّرٍ بالنسبة للّه‌تعالى الذى لا حدَّ لقدرته، فالعجز والتعب لا معنى لهما فى هذا المورد.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۵

وعلى أيّة حال فإنّه من الممكن أن يكون هذا التعبير بياناً لخرافاتِ اليهود الذين كانوا يقولون: إنّ اللَّه بعد أن خلق السماواتِ والأرضَ عَيِيَ وتعب! فخصَّصَ يوم السبت للاستراحة ومنذُ ذلك الحين أصبح هذا الأمر سنّةً لهم.

وسخافة هذا القول من الوضوح إلى درجة أنّه لايستحقُّ أىَّ بحث.

وفى الآية الرابعة ومن خلال أجوبةٍ متعددة لمنكرى المعاد وللشخص الذى جاء عند الرسول صلى الله عليه و آله يحمل العظم الرميم الذى قال: «مَن يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ»، قال تعالى

«اوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّموَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ العَلِيمُ».

وعندما يكون الحديث عن السماوات فَمِنَ البديهى أن يراد منها جميع ما تحتوية من سيارات ونجوم ومجرّات، ونحن نعلم بأنّ الاكتشافات الأخيرة لعلماء الفلك تنصُّ على أنّ منظومتنا الشمسية تقع ضمن مجرّة درب التّبانة المعروفة، وقالوا: إنّ هذه المجرّة تحتوى على عدد من النجوم يبلغ مائة مليار نجمة! والشمس التى نراها إحدى النجوم المتوسطة الحجم لتلك المجرّة!

وقالوا أيضاً: إنّ التلسكوبات العملاقة تمكنت حتى الآن من اكتشاف مايقارب المليار مجرّة!

فلو ضربنا هذه الأعداد ببعضها لحصلنا إجمالًا على رقم هائل من تلك الأجرام السماوية، مع العلم أنّ هذه الارقام هى ما توصَّل إليه علم البشر لحد الآن ومن الممكن أن نكتشف فى الأزمنةِ القادمة عوالم اخرى كثيرة ممّا يَجعلُ ما اكتشف الآن بالنسبة لها شيئاً قليلًا لايُعتدُّ به، كل هذا كان بالنسبة للحديث عن السماء، أمّا عندما يكون الحديث عن الأرض فإنّه يشمل جميع أَسرارها وعجائبها أيضاً.

فهل يعجزُ ويكلُّ خالق هذا العالم العظيم العجيب الذى يحتوى على نظام دقيق أن يُعيد خلق الإنسان ثانياً؟!

والتعبير ب «خلّاق» (اى كثير الخلق) من الممكن أن يكون للدلالة على أنَّ اللَّه تعالى فى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۶

حالة إيجاد الخلق على الدوام، وفى حالة خلق موجودات جديدة فى كل يوم، وكذلك فى حالةِ إفناء وإعدام مخلوقاتٍ اخرى فى كل يوم، من أجل هذا استخدمت كلمة «خلّاق» بصيغة المبالغة.

ومن الممكن أيضاً أن يكون التعبير ب «عليم» للدلالة على أنّ جمع ذرّات البشر الذين يموتون ويصبحون تراباً وينتشر ترابهم فى كل مكان ليس بأمرٍ صعب على اللَّه العالم المطّلع على كل شىء، كما أنّه ليس من الصعب أيضاً محاسبتهم على أعمالهم التى ارتكبوها طيلة حياتهم (يجب الالفتات إلى أنّ «عليم» صفة مشبّهة، وبما أنّها جاءت مقارنة لصيغة المبالغة خلّاق فإنّها هنا تفيد التأكيد).

الآية الخامسة والأخيرة فى هذا المجال تضع أمام منكرى المعاد دليلًا حسياً وتجريبيّاً.

قال تعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه و آله: «قُلَ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». و «السير فى الأرض»: يزيد الإنسان علماً بمعرفة نشأة وظهور الحياة على الكرة الأرضية، وذلك لأنّ الموجودات الحيّة التى وجدت منذ ظهور الحياة على هذا الكوكب بقيت آثارها فى طيات القشرة الأرضية، والعلماء فى هذا اليوم- عن طريق مطالعة تلك الآثار- توصَّلوا إلى كشف الكثير من أسرار خلق الموجودات الحيّة.

ومن الممكن أيضاً أن يكون الهدف من السير فى الأرض كشفَ أسرار تكوّن الكرة الأرضية الذى يتم عن طريق فحصِ الطبقات المختلفة للأرض والعناصر المختلفة الموجودة فيها.

ومن الممكن كذلك أن يكون دليلًا على الخلق الذى يتكرر وقوعه فى كل يوم على الكرة الأرضية، ففى كل يوم تظهر إلى الوجود موجودات حيّة كثيرة وتغيب عن الانظار موجودات اخرى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۷

فكيف يعجز عن إحياءِ الموتى الهٌ قادر على الإتيان بخلقٍ كهذا وتطورات كهذه؟ وهكذا اعتُبرتْ قدرة الحق المطلقة دليلًا على إثبات

إمكان إحياء الإنسان ثانياً.

ولكن يبقى هناك احتمال أيضاً هو أنّ الآية المذكورة دليل على النشأة الأولى للإنسان، وقياس عقلى لإثبات الخلق المستأنف على الخلق الأول، ففى هذه الصورة تكون الآية فى عداد الآيات المذكورة سابقاً، وعلى أىّ تقدير تكون دليلًا على نفس المدّعى

يبقى هناك تساؤل وهو: كيف أمر القرآن الكريم البشر بالسير فى الأرض لاكتشاف أسرار ظهور الحياة عليها، مع أنّ بداية ظهور الحياة على هذه المعمورة تعود إلى مليارات خلت من السنين ولا يمكن مشاهدتها فى هذا اليوم؟ والجواب عن هذا التساؤل يتضح بصورة جليّةٍ من خلال التفسير الذى ذكرناه لهذه الآية آنفاً، فقد ذكرنا فيما سبق ثلاثة أجوبة عن هذا التساؤل «فتأمل».

والجدير بالذكر التعبير عن المعاد هنا ب «النشأة الآخرة» و «نشأة» كما قال الراغب: هى بمعنى إيجاد وتربية الشى، وهذا يدلّ على أنّفى يوم القيامة يوجد خلق جديد وتربية جديدة أيضاً.

ثمرة البحث:

هذا القسم من الآيات بمثابة تذكُّر لمنكرى المعاد، لعلهم يعون قدرة اللَّه المطلقة، فتقول لهم: فإن لم تؤمنوا فألقوا بنظرة فاحصة على عالم خلق السماوات والنجوم الثابتة والكواكب السيارة والمجرات والمنظومات السماوية، ثم انظروا إلى الأرض ولما تحتويه من عجائب وأسرار وإلى النظام المهيمن عليهما جميعاً.

فهل فى ذلك شك بعد مشاهدة كل هذه الدلائل؟ وهل يمكنكم أن تنكروا قدرة اللَّه المطلقة؟! فإن آمنتم بقدرته المطلقة فكيف تشكّون فى مسألة المعاد وإحياء الموتى وتعتبرون ذلك من الامور العجيبة التى لايمكن التصديق بها؟!

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۲۹

۳- آيات إحياء الأرض

إشارة:

الإحياء بعد الموت الحاصل فى عالم النباتات يمثل ظاهرة اخرى من ظواهر المعاد التى أشار إليها القرآن المجيد مرّات متعدّدة، وقد رسم منها لوحة جميلة لاثبات هذا الأمر ووضعها امام أنظار الجميع.

فهذه الظاهرة يتكرر حدوثها فى كل عام أمام الملأ، ونحن نشاهد ذلك مراراً بعدد السنين التى نعيشها فى هذه الدنيا.

القانون السائد بالنسبة للحياة والموت هو نظام موحد فى كل زمان ومكان، فإن كان احياء الإنسان بعد موته وتحوله إلى تراب من المستحيلات فكيف يَتُمُ إحياء النباتات التى تموت وتتفسّخ مرّة اخرى !

وما بال هذه الأرض الميتة تهتز وتربو بعد نزول المطر وتلبس ثوب الحياة وتخرج النباتات من أعماقها وتنمو وتُظِهرُ ازهارها وتبتسم ورودها؟ إن كل مشاهد الحياة تدل على أنَّ هناك حشراً وحياةً جديدة.

إنّ القرآن الكريم لَفتَ أنظار جميع البشر لهذا الأمر، والآيات الآتية من أهم النماذج لذلك، فلنمعن فيها خاشعين:

۱- «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَانبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ* وَالنَّخلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ* رِّزقاً لِّلْعِبَادِ وَاحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيتاً كَذَلِكَ الخُرُوجُ». (ق/ ۹- ۱۱)

۲- «يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَيُحيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا وَكَذَلِكَ تُخرَجُونَ». (الروم/ ۱۹)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۰

۳- «فَانْظُرْ الَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيفَ يُحيِ الارْضَ بَعْدَ مَوتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ». (الروم/ ۵۰)

۴- «وَ تَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِانَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ المَوْتَى وَانَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ». (الحج/ ۵- ۶)

۵- «وَ مِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْارْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبتْ إِنَّ الَّذِى أَحيَاهَا لَمحيِ المَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ». (فصلت/ ۳۹)

۶- «وَاللَّهُ الَّذِى أَرسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاحْيَينَا بِهِ الَارْضَ بَعْدَ مَوتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ». (فاطر/ ۹)

۷- «وَهُوَ الَّذِى يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحمَتِهِ حَتَّى إِذَا اقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلنَا بِهِ المَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

(الاعراف/ ۵۷)

جمع الآيات وتفسيرها

هل رأيتم كيف تحيى الأرضُ الميتةُ؟ فهكذا النشور!

لقد اهتم القرآن الكريم فى الآية الاولى من هذا البحث بشرحِ جذورِ الحياةِ الرئيسيةِ أىْ قطراتِ المطر، قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مَّبَارَكاً فَانْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الحَصِيدِ».

أشار القرآن الكريم بهذه الآية إلى جميع بساتين الفواكه ومزارع الغلّات والبقول «۱».

ثم أشارَ إلى النخيل الباسقات التى تحمل ثمراً كثيراً وهذا النوع من النخيل يعتبر من أرقى واكمل أنواع النخيل، فأضاف تعالى «وَالنَّخْلَ بَاسِقاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ» «۲».

---

(۱) يجب الالتفات إلى أنّ المراد من «حب الحصيد» الحبوب القابلة للحصد (و «حصيد» بمعنى «محصود»).

(۲) «باسقات» جمع «باسق» أى المرتفع.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۱

والجدير بالذكر أنّه ذكر النخيل الباسقات من جهة أنّها خُلقتْ ونشأتْ من تلك الأرض الميتة، وتلك البذور الصغيرة التى نمت وأصبحت بهذه الهيئة العجيبة.

ومن ناحية اخرى أشار إلى ثمارها المتراصة التى تحملها فى ارتفاع شاهق، تلك الثمار اللذيذة المغذية «الحيوية»، تحتوى على أنواع من المواد الضرورية التى يحتاج إليها جسم الإنسان «۱».

وأخيراً نصل إلى هذه النتيجة وهى:، إنّ الهدف من هذا أنّ اللّه سبحانه يهب (رزقاً للعباد)، «وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيتاً» «۲» «ك مقدمه لك الخرو عيد مبارك».

إنّ هذه الآية تكشف عن حقيقة وهى أنَّ خروج الإنسان يوم القيامة تابع لتلك القوانين المهيمنة على النباتات والبذور والأشجار بفواكهها المتنوعة، ذلك الأمر الذى نشاهده كل عام بأعيننا، ولكن بما أننا اعتدنا على ذلك فإننا نعتبره أمراً عادياً، وبما أننا لم نشاهد عودة البشر إلى الحياة بأعيننا فإنّ البعض يعتقد بأنّ ذلك امر غير معقول وأحياناً يعتقد بأنّه من المحالات، مع أنّ النظام المهيمن على الأمرين واحد.

وفى الآية الثانية طُرحت نفس المسألة ولكنْ بتعبيرٍ آخر، قال تعالى «يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الحَىِّ».

إنّ الفاصلة الزمانية التى ترونها بين الحياة والموت لا تكون امراً يُعتنى به بالنسبة للذات المقدّسة الإلهيّة، فهو على الدوام يُخرجُ الحيَّ من الميّت وبالعكس، (يجب الانتباه إلى أن «يخرج» فعل مضارع وهو يدل على الاستمرارية، أى أنّ هذا العمل مستمر ودائم) على هذا فإنّ منظر نهاية هذا العالم الذى هو عبارة عن خروج الموت من باطن الحياة، وكذلك منظر

---

(١) «الطلع» هو اسم ثمار النخيل فى بدء ظهورها، و «نضيد» بمعنى متراكم، ومن الغرائب هو أنّ الأشجار نادراً ما تحتوى على فواكه عنقودية الشكل والأكثر غرابه من ذلك أنّ عناقيد ثمار النخيل ثقيلة.

(٢) جاء هنا بالصفة «ميتاً» بصيغة المذكر مع أنّ الموصوف «بلدة» مؤنث والسر فى ذلك هو أن «بلدة» هنا جاءت بمعنى المكان.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۲

المعاد الذى هو عبارة عن خروج الحياة من باطن الموت امرٌ مستمر ويتكرر وقوعُه أمام أعيننا دائماً ولو على مستوىً محدود، فما المانع من أن تموت جميع الموجودات الحيّة مرّةً واحدة ويُعاد البشر إلى حياة جديدة فى يوم الحشر؟ أىْ أنْ يتحقّقَ قانونُ تبديل الموت بالحياة والحياة بالموت بصورة أوسع وأشمل ممّا عليه حالياً.

وأمّا بالنسبة لعروض الموت على الحياة فإنّه أمرٌ بديهى وواضح لدى الجميع، ولكن بما أنّ عروض الحياة بعد الموت يخفى على البعض ويحتاج إلى شىء من التأمل فقد قال تعالى فى ذيل الآية: «وَيُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا وَكَذلِكَ تُخْرَجُونَ».

وجملة «كذلك تُخرجون» تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة وهى أنّه لا يوجد هناك ايّ تفاوت بين القيامة الصغيرة التى تحدث فى عالم النباتات والأرض الميتة وبين تلك القيامة الكبرى الشاملة.

وبمجرّد أن يتأمل الإنسان قليلًا فى هذا الموضوع فإنّه سوف تزول عنه كل ظنونه الخاطئة والوساوس الشيطانية التى تنتابه فى أمر المعاد.

إنّ فى كل لحظة تمرُّ على هذا العالم الوسيع تنفلق فيها الآلافُ المؤلفة من البذور وتخرج منها براعم جديدة للحياة، وفى كل لحظة تبدأ أرض واسعةٌ بالحياة بعد أن كانت ميتة، إنّها سُنّة اللَّه السرمدية والتى تُوحى بها الآية الثالثة وبعد بيان كيفية تكوّن الأمطار بعد تسيير الرياح وتراكم الغمام على بعضها، قال تعالى: «فَانْظُرْ الَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوتِهَا»، «إِنَّ ذَلِكَ لُمحيِ الْمَوتَى ، نعم إنّه: «عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». و «آثار»: جمع «أَثَر»، قال فى «مقاييس اللغة»: إن الأَثَر له ثلاثةُ معانٍ، الشى الذى له سابق، والذكر الباقى بعد الموت، وما بقى من رسم الشى، لكن بعض علماء اللغة حَصَروا معنى الأثر فى المعنى الثالث، وذلك لأنّ المعنيين الأولين ناتجان عن الآثار الباقية من أجل الفضيلة وعوامل علوّ الشأن.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۳

والمراد من «رحمة اللَّه» هنا هو المطر الواهب للحياة الذى يعتبر نموذجاً حياً وبيّناً للرحمة الإلهيّة التى تتجلّى آثارها فى كل مكان، فهو يحيى الأرض الميتة ويفيض بالحياة على القلوب الميّتة ويهب النشاط والحياة للهواء الملوّث الميّت وأخيراً يجود بنور الحياة على جسم الإنسان.

واستعمال كلمة «ذلك» فى الآية للإشارة إلى اللَّه تعالى فى حين أنّه يستعمل للإشارة إلى البعيد للدلالة على عظمة مقامه وعلى أنّه لا تدركه العقول والأبصار.

والإتيانُ ب «أنّ» التى تفيد التوكيد و «اللام» فى «لَمُحيى» الذى يفيد التوكيد أيضاً بالإضافة إلى «الجملة الإسمية» التى تفيد التوكيد كذلك، كل هذا من أجل إثبات حقيقة إنّ الذى يحيى الأرض الميتة عن طريق إنزال مطرِ رحمتِهِ باستمرار بإمكانه أن يُحيىَ أمواتَ البشر وبعيدَ لهم الحياة من جديد.

واستعمال كلمة «انظر» تجلب الانتباه من جهة أنّها تشير إلى أنّ مسألة المعاد أمرٌ حسىّ مشاهد، ظاهرٌ للعيان دائماً، فكيف تُنكرون

ذلك أو تتخذونه سخريّاً؟!

وفى الآيـة الرابعـة بعـد أنْ ذكر المراحـل التكامليـة للنطفـة فى الرحم وبعـد ذِكْرِ تطوراتِ الجنين بانّها دليل واضـح على مسألـة إمكان المعاد، ينتقل إلى الحديث عن بذورِ النباتات التى تنمو فى أعماق الأرض، قال تعالى «وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً» «۱».

«فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ».

إنّ القرآن المجيـد كتـاب عجيب حقـاً، فإنّه عنـدما يريـد أن يؤكّـد على احـدى الحقائق ويرسـخها فى الأذهان ويكرر ذكرها يصورها بألوان مختلفة، فيشعر الإنسان عند سماع تلك

---

(۱) «هامـدة» من مـادة «همود» قـال الراغب فى المفردات: الهمود فى الأصل بمعنى انطفاء النار (وذهاب حرارتها ونورها)، لكنّ عـدداً من أصـحاب اللغـة والمفسـرين ذكروا لها معانى اخرى أيضاً، ومن جملة معانيها: الجفاف، والسـكوت، والموت، وصـيرورة الشـى بالياً عتيقاً، وهـذه المعانى جميعها يمكن أن تنطبق على هـذه الآيـة، فالأرض تموت وتخمـد وتطفأ فى فصل الشـتاء، بينما تـدبّ الروح فيها وتأخذ بالحركة فى فصل الربيع وكأنّها تصرخ!

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۴

الحقيقـة كأنّه يواجِهُ حقيقـةً غيرَ التى سـمعها سابقاً ويجـد نفسه أمام صورة جديدة من صور تلك الحقيقة، فلا يصـبح تكرارها مملًّا أو غير نافعٍ له، فالإنسان يتلقّى دروساً جديـدة باسـتمرار، ونحن نشاهـد فى مسألـة احياء الأرض الميتـة فى الآيات المعنيّـة بالبحث نموذجاً لذلك.

ومن الجـدير بالـذكر أنّ القرآن الكريم فى هـذه الآيـة التى عطفها على مسألـة التطورات الجنينيـة يؤكد على أنّحياة الإنسان والحيوان والنبـات تقـع جميعهـا تحـت مقولـة واحـدة، وكـل نمـوذج نراه ونلمسه فى هـذه الثلاثـة، يكـون دليلًا على إمكـان المعـاد لغيرهـا من المخلوقات، فالتعبيرُ ب «ترى كالتعبير ب «انظر» فى الآية السابقة وكلاهما للتأكيدِ على أنّ قيامة النباتات أمرٌ محسوس ومشاهد.

و «اهتزّت»: من مادة «اهتزاز» المشـتقّة من «هزّ» بمعنى الحركة الشديدة، وفسّرها البعض بمعنى الحركة الجميلة الجذّابة، وقد جاءت هنا للدّلالِة على التغيرات الجميلة والحركات المختلفة التى تحصل بفعل نمو أنواع النباتات التى تظهر على سطح التربة.

و «رَبَتْ»: من مـادة «ربو» وجـاءت هنـا بمعنى نموّ الأـرض لاـ نمو النباتـات، والمراد من نمو الأرض هنا هو بروز اجزاء من التربـة بفعل خروج النباتات وتوغّل الجـذور وظهور سـيقان النباتات، أمّا الـذين فسّـروا هـذه الجملـة بأنّها تـدلّ على نموّ النباتات فإنّهم فى الحقيقة غفلوا عن مفاد الجملة المتأخرة عنها، لأنّه تعالى يقول: «وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوجٍ بَهِيجٍ».

وتحمل الآية الخامسة فى طيّاتها نفس محتويات الآية السابقة ولكنّها تختلف عنها بعدّة أمور: أولًا أنّها اعتبرت احياء الأرض الميتة دليلًا على أصـل التوحيـد بالإضافـة إلى دلالتهـا على المعـاد، قـال تعـالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ»، (إِنَّ الَّذِى أَحيَاهَا لَمحْيِ الْمَوتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ».

وثانياً عبّرت عن الأرض الميتة ب «الخاشعة»، قال فى «الميزان» هى الأرض القاحلة،

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۵

وقـد شـبّهها هنا بالفقير الـذليل المسـكين الذى لا يمتلك شـيئاً، ثم شـبّهها بعد نزول المطر بالذى أُوتىَ مالًا كثيراً ولبس أفضل الثياب، حيثُ يمشى بنشاط مرتفعَ الرأس مستقيماً تبدو آثار النعمة على وجهه «۱».

وهناك أمرٌ آخر يمكن أن نسـتخلصه من هذا التعبير وهو درس من دروس الأخلاق، فكما أنّ الأرض الخاشعة الخاضعة تشملها رحمةُ اللَّه فتحصـل على كـل آثـار البركات والنمو والنشاط، فإنّ عباد اللَّه الخاشـعين والخاضـعين تنالهم رحمـة اللَّه الواسـعة أيضاً، وتنمو فى نفوسهم براعم العلم والإيمان والتقوى

و وردت هذه المسألة فى الآية السادسة بتعبير جديد من خلال بيان كيفية نزول المطر، قال تعالى «وَ اللَّهُ الَّذِى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاحْيَينَا بِهِ الْارضَ بَعْدَ مَوتِهَا»، «كَذَلِكَ النُّشُورُ».

وهـذِهِ الآيـة فى الحقيقـة من أدلـة إثبات المُبـدئ تعالى أيضاً، أى إثبات الـذات الإلهيّة المقدّسة، وفى نفس الوقت تستعمل دليلًا على المعـاد، فهو يشـير فى البدايـة إلى الآيات والبراهين الدالـة على وجوده تعالى عن طريق بيان النظام الـدقيق المهيمن على حركـة الرياح والسحاب وسقى الأرض الميتة وإحيائها، وأخيراً يشير إلى دليلٍ حىّ وعميق المعنى لإثبات المعاد.

وجملـةُ «كـذلك النشور» بالإضافـة إلى أنّهـا تشبّه إحيـاء الإنسان بإحياء الأرض الميّتـة، إلّا أنّها من الممكن أن تكون دليلًا على سوق الأرواح إلى الأبـدان فى يوم القيامـة ويساق التراب المنتشـر فيُجمع وتحلّ فيه الروح، كما هو الحال فى سوق الرياح للسُحُبِ وجمعها إلى بعضها كى تتلاقح وتهطل ثمارها التى هى عبارة عن قطرات المطر.

وفى الحديث الشريف أنّ أحد أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله سأله قائلًا: كيف يحيى اللَّهُ

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۴۱۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۶

الموتى وما آيـةُ ذلك فى خلقه؟ فقال رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله: «أمَا مَرَرْتَ بوادِىْ أهلِكَ مُمْحِلًا ثمَّ مَرَرْتَ بِهِ يهتزُّ خَضِرًا؟» «۱» فقال الصحابى: بلى يارسول اللَّه: فقال صلى الله عليه و آله: «فكذلك يُحيى اللَّهُ الموتى وتلك آيتُهُ فى خلقه» «۲».

وفى الآيـة السابعـة والأخيرة تحـدّث سبحانه أيضاً عن إرسال الرياح واعتبرها تُبشِّر عن نزول مطر رحمته، قال تعالى «وَهُوَ الَّذِى يُرسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَانْزَلْنَا بِهِ المَاءَ» «۳».

وبعد ذلك مباشرةً قال تعالى: «فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرون».

وجملـةُ «لعلّكم تـذكّرون» جاءت للدلالـة على أنّ اللَّه يريكم هذه المشاهد فى هذه الدنيا كى يثبت لكم وجوده تعالى من ناحية، ومن ناحية اخرى يُثبتَ لكم أنّهناك معاداً وقيامة فى العالم الآخر.

والعجيب مـا جاء فى الحـديث المنقول عن رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله، حيث قال: «ثمَّ يُرسلُ اللَّهُ مَطَراً كأنّهُ الطَّلُّ فتنبُتُ مِنهُ أجسادُ الناس، ثم يُقال: يا أيُّها الناسُ هَلُمُّوا إلى ربِّكُمْ، وقفوهُم إنّهم مسئولون» «۴».

ويُستفاد من أقوال بعض المفّسرين إنّ ذلـك المطر ليس كـالمطر المعتـاد، بل له شـبه بماء النطفـة التى يتكوّنُ الإنسان منها! ويسـتمرّ هطول هذا المطر مدّة أربعين يوماً، فيؤثّر فى أجزاء الإنسان الميّتة بشكل عجيب وينفخُ فيها الروح.

---

(۱) «ممحل» من مادة «مَحل» على وزن «نخل» ويعنى سَنة الجفاف وانقطاع الأمطار، وموت النباتات، مجمع‌البحرين، مادة (محل).

(۲) تفسير القرطبى وتفسير روح البيان فى ذيل الآية مورد البحث.

(۳) يجب الانتباه إلى أنّ «سحاب» تفيد الجمع من جهة المفهوم لذلك جاءت الصفة «ثقال» بصيغة الجمع، لكنّها من جهة اللفظ مفردة لذلك جاء الضمير فى «سقناه» مفرداً.

(۴) تفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۶۶۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۷

جواب عن سؤال:

أَعطى القرآن المجيد فى الآيات المذكورة آنفاً جواباً قاطعاً لمنكرى المعاد وذلك عن طريق مثال حسىّ واضح، وجعل «الشاهد» دليلًا على «الغائب» و «اليوم» دليلًا على «الغد».

وذلك لأنّ الأرض الميّتة تحيى فى كل عام مرّة أو مرّتين أو أكثر بفعل هطول مطر الرحمة الإلهيّة، بل يمكن القول بأنّ هذا الأمر يتكرر وقوعه فى كلّ يوم فى العالم، فينبت فى كل يوم نبتٌ جديد فى الأرض الميتة، وتظهر فى كل يوم ظاهرة المعاد أمام نظر الإنسان.

ومن هنا يُطرح هذا السؤال: إنّ العلماء المعاصرين اتفقوا على أنّ جميع التجارب أعطت نتيجة واحدة هى أنّ الموجودات الحيّة لا تولد إلّامن موجودات حية اخرى فإن لم توجدْ فى الأرض بذور نباتية فسوف لن يكون نزول المطر مؤثراً أبداً.

ومن ناحية اخرى إنّ البذور تتكوّن من قسمين، وأحد هذين القسمين والذى يعتبر القسم الأكبر من البذرة يشكّل المادّة الغذائية فيها، والقسم الآخر أى القسم الأصغر من البذرة عبارة عن خليّة حيّة، وهذه الخلية إذا توفرت لها الظروف المساعدة (على الأخص الماء) فإنّها سوف تنمو وتترعرع بواسطة التغذّى على المادة الغذائية الموجودة فى البذرة والموادّ الموجودة فى التربة، فإذا ماعُدمت هذه الخلية الحية فإنّه من المستحيل أن تحيى الأرضُ الميّتة.

وجوابنا عن ذلك هو: إنّ هذا ممّا لا شكّ فيه، وهو كما تقولون وإنّ تلك الخليّة الحيّة الصغيرة تتغذى على الأجزاء الميّتة التى تمتصها من التربة وتحولها إلى جسم حىّ وموجود حىّ (فتأمل).

وبتعبير آخر: إنّ النخلة التى يصل وزنها أحياناً إلى طن واحد كانت فى البداية خليّة صغيرة تأخذ مكانها فى النواة، ووزنها لا يتعدّى المليغرام الواحد، ثم بعد ذلك امتصّت ما يقارب الطنّ الواحد من الموادّ الميّتة الموجودة فى التربة والماء والهواء التى تعتبر جميعها موجودات غير حيّة، فأعطت الحياة لجميع هذه الموجودات، وهذا فى الواقع هو معنى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۸

تبديل الأرض الميّتة إلى موجودات حيّة.

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم يقول: تُحيى الأرض الميّتة (ولا يقول تُحيى الأشجار والبذور الميّتة، لأنّ هذه لم تمُت بالكامل) أى أنّ هذه الأرض الميّتة أصبحت جزءاً من بدن النباتات والشجر ثم تبدّلت إلى خلايا حيّة.

ومن البديهى إنّنا لو امعَنّا النظر فى ظهور الحياة على الكرة الأرضية لصار الأمر أكثر وضوحاً، لأنّ الأرض بعد انفصالها عن الشمس كانت كتلة من النار ولم يوجد أىّ موجود حى فى ذلك الحين طبعاً، ولكن بعد أن بردت الأرض وأصبحت مستعدة لاستقبال الموجودات الحيّة وهطلت الأمطار بغزارة عليها فبردت الأرض بفعل هطول المطر أكثر وأعدّها ذلك المطر لاستقبال الحياة فظهرتْ آنذاك أول براعم الحياة النباتية التى لم يكتشف لحدّ الآن سرّ ظهورها، وبقى هذا السرّ مخفياً عن العلماء وكأنّ ظهورها من تلك الموادّ الميّتة التى تحتوى عليها التربة، وبهذا النحوِ غمرت الحياة تلك الموجودات الميّتة (فتأمل جيّداً).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۳۹

۴- التطورات الجنينية

تمهيد:

الطريقة الاخرى التى اتبعها القرآن فى إثبات إمكان المعاد بالاستفادة من آيات متعددة هى طريقة التغييرات التى تطرأ على «النطفة» منذ استقرارها فى عالم «الرحم» العجيب والغامض حتى مرحلة الولادة، وكل مرحلة من هذه المراحل فى الحقيقة هى حياة جديدة ونموذج من نماذج المعاد! فالمراحل الكيفية لهذه التطورات كثيرة جدّاً، ممّا تثيرُ مطالعتها ومشاهدتها تعجّبَ الإنسان وتجعله يغرق فى التمعّن فى كيفية هذا التحول العجيب الذى يطرأ على النطفة الحقيرة فى هذه المدّة الوجيزة.

من هنا تعتبر هذه التحولات العجيبة التى لا تتوقف فى أى وقت دليلًا على وجود بارى هذا العالم القادر، الذى أوجد جميع هذه العجائب فى ظلمات الرحم الثالث، ومن ناحية اخرى فإنّ هذه التحولات لها شَبَهٌ كبير بمسألة الحياة بعد الموت، والقرآن المجيد فى كلا الأمرين (التوحيد والمعاد) يعتمد على هذه الآيات والدلالات، وحقاً إنّ مثل هذه الظاهرة تستحق أن يُعتمدَ عليها بهذا الشكل.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن المجيد ونمعن خاشعين فى الآيات التى وردت فى هذا المجال:

١- «يَا ايُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنتُمْ فِى رَيبٍ مِّنَ البَعْثِ فَانَّا خَلَقنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الْارْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى اجَلٍ مُّسَمّىً ثُمَّ نُخرِجُكُمْ طِفْلًا ...* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَانَّهُ يُحيِ المَوْتى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». (الحج/ ۵- ۶)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۰

٢- «الَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنهُ الزَّوجَينِ الذَّكَرَ وَالانثَى اَلَيسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلى انْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى . (القيامة/ ٣٧- ۴٠)

٣- «وَانَّهُ خَلَقَ الزَّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْانثَى مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيهِ النَّشْأَةَ الاخْرَى . (النجم/ ۴۵- ۴۷)

۴- «قُتِلَ الْانسَانُ مَا اكفَرَهُ* مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُ* مِن نُطفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَاقبَرَهُ* ثُمَّ إِذَا شَاءَ انْشَرَهُ». (عبس/ ١٧- ٢٢)

۵- «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلنَاهُ نُطفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَونَا العِظَامَ لَحمَاً ثُمَّ أَنشَأنَاهُ خَلقَاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ احْسَنُ الخَالِقِينَ* ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعدَ ذَلِكَ لَمَيِّتونَ* ثُمَّ إِنَّكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبعَثُونَ». (المؤمنون/ ١٢- ١۶)

جمع الآيات وتفسيرها

إن شككتم بأمر القيامة فانظروا إلى الجنين!

فالآية الاولى فى هذا الباب هى نداء لجميع البشر، البشر الذين لا يحدّهم زمان ولا مكان، قال تعالى «يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثَ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّن لَكُمْ».

فهو يشير إلى أربع مراحل من خلق الإنسان (وهى مرحلة التراب، ثم النطفة، ومن بعدها العلقة، ثم المضغة، وكل مرحلة هى بنفسها تعتبر عالماً عجيباً وصعب المنال).

ثم يواصل البيان فيقول تعالى «وَنُقِرُّ فِى الْأَرْحَامِ مَانَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمىً»، وأخيراً وبعد سلوك هذا الطريق الوعر «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا».

بعد ذلك يبيّن المراحل المختلفة لحياة الإنسان فى هذه الدنيا، ثم يلتفت إلى عالم النبات ويأتى بمثال آخر من امثلة استقرار البذور النباتية فى باطن الأرض ويشير إلى إحياء

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۱

الأرض الميّتة بواسطة المطر فيضيف تعالى قائلًا: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ».

فهو يسلّط الأضواء على البعد التوحيدى لهذه الظواهر المهمّة للوجود حيناً، ويُسَلِّطُ الأضواء على بُعد المعاد حيناً آخر.

وفى هذه الآية توجد إشارات دقيقة ولطيفة تساعدنا على التوصّل إلى هذه الغايات وهى:

١- مع أنّ منكرى المعاد يقطعون بنفى المعاد إلّاأنّ القرآن يخاطبهم بالقول: «إن كنتم فى ريبٍ ...» وهنا يدل على أنّه لا يوجد هناك أىّ دليل على إنكار هذه الحقيقة، وأكثر ما هنالك هو أنّكم من الممكن أن ترتابوا فى أمر المعاد، ومن الواضح أنّ المرتاب ما عليه

إلّاالفحص والتحقيق لا الانكار!.

والجدير بالذكر هنا أنّ «ريب» جاءت بصورة النكرة، وفى هذه الموارد تأتى لبيان حقارة الأمر، أىْ إنَّ شكّكم فى هذا المجال هو شكٌّ سقيم ولايُعتدُّ به أيضاً، لأنّ أدلةَ المعادِ نشاهدها جليّة التردّد.

۲- قد يكون شروع الآية بالحديث عن خلق الإنسان من التراب إشارة إلى خلق آدم عليه السلام أو جميع الناس منه، لأنّ أصل المواد التى تشكل القسم المهم من جسم الإنسان من التراب، وعلى أيّة حال فإنّ خلق الإنسان من تراب دليل واضح على إمكان إحياء الموتى

۳- الحديث فى هذه الآية كان أولًا عن خلق الإنسان من التراب، وبعد ذلك تحدثت الآية عن مسألة «البلوغ الجسمى والروحى» ثم عن «الكهولة والمشيب» فيصبح عدد تلك المراحل المختلفة سبع مراحل، وإنْ كان هدفنا هو المراحل الخمس الاولى التى تمثل كل واحدة منها حياة جديدة وولادة جديدة ومنظر من المعاد.

۴- وجملة «لنبيّن لكم» يمكن حملها على محملين، فمن الممكن أن يكون المراد من البيان هو بيان علم وقدرة الخالق ومسألة التوحيد، كما أنّه من الممكن أن يكون المراد هو بيان مسألة المعاد أى الحياة بعد الموت.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۲

۵- والظريف فى الأمر هو أنّ كافة التحولات الهائلة والعجيبة التى تحدث فى مرحلة الحياة الجنينية، حيث إنّ الفترة التى تمربها النطفة، تلك الذرة الصغيرة حتى تصل إلى مرحلة الإنسان الكامل، تمثل فترة قصيرة تساوى التسعة أشهر، ففى هذه الفترة تحدث أمور عجيبة وغريبة، لو سطرناها فى كتاب فإنّ الوقت اللازم لقراءة هذا الكتاب يستغرق زماناً أطول من تسعة أشهر، فأمام هذه الآيات والعلامات الواضحة، هل يمكن لأحد أن يفسح مجالًا للشك والريبة فى مسألة إمكان المعاد؟!

وفى الآية الثانية جى بنفس هذا المعنى ولكنها أَتَتْ بنحوٍ آخر وهى فى الحقيقة بيانٌ لما جاء فى بداية سورة القيامة فى قوله تعالى «أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أنْ لنْ نَّجمَعَ عِظَامَهُ»؟!

فإنّه تعالى يتحدّاهم ويقول لهم ماذا تظنون؟ «الَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنىٍ يُمنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوجَينِ الذَّكَرَ وَالْانْثَى . «أَلَيسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى .

فهو يكتفى فى هذه الآية بذكر أربع مراحل لتطورات الجنين فقط: مرحلة النطفة، فالعلقة، فتسوية الأعضاء، وظهور جنس الجنين ذكراً هو أم انثى

و «النطفة»: على ماقاله بعض أصحاب اللغة هى بمعنى الماء الصافى، ولهذا اطلقوا كلمة نَطَفَ» على اللؤلؤ «۱».

لكنّ البعض فسّروها بمعنى الكميّة القليلة من ماء، أو ما تبقّى من الماء فى الأناء «۲».

وصرّح البعض الآخر أيضاً بأنّ النطفة هى بمعنى الماء الصافى، قليلهُ أم كثيرهُ «۳».

والبعض الآخر اعتبر هذه المعانى كلّها جزءً من معانى النطفة ولكنّ الفرق هو أنّ «النُّطْفَة» بمعنى الماء الصافى أو الماء القليل و «النُّطفَة» بمعنى اللؤلؤ.

---

(۱) مقاييس اللّغة ومفردات الراغب.

(۲) لسان العرب.

(۳) قاموس اللّغة ومجمع البحرين ولسان العرب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۳

ومن الجدير بالذكر أنّه طبقاً للتحقيقات التى اجراها مؤخراً بعض العلماء هو أنّ هذا الماء القليل الذى يسمى «بالنطفة» مركّب من مياه

مختلفة تترشّح من غدد مختلفة فى الجسم، فقسمٌ منه يترشّح من البيضتين اللتين تحتويان على مادّة «الاسبرماتوزوئيد»، وقسمٌ منه يترشّح من أكياس البَيْض التى توجد بالقرب من غدّة «البروستات»، القسم الثالث يترشّح من نفس غدّة «البروستات» فيستمدّ شكله الظاهرى ورائحته الخاصّة من تلك الغدّة والقسم الرابع يترشّح من غدد «الكوبر» وغدد «الليترة» اللتين تقعان جنب مجارى الادرار.

وهذه المياه الخمسة تختلط مع بعضها بنسب دقيقة ومبرمجة وتشكّل مادّة الحياة، ومكتشف هذه المعلومات عالم فرنسى شُغف بحب القرآن والإسلام وكتب كتاباً فى هذا المجال، ويعتقد هذا العالم بأنّ كلمة «امشاج» (أى مختلط) التى ورد ذكرها فى القرآن كان محتواها خفياً على الناس والعلماء. أقتبست هذه العبارات من كتاب (المقايسة بين التوراة، والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور بوكارى وترجمة المهندس ذبيح اللّه دبير (ص ۲۷۱).

وعلى أيّة حال فإنّ اطلاق هذه العبارة على الماء الذّى يتدفّق من الرجل عند ممارسته العملية الجنسية هو من أجل التناسب الواضح الموجود بينها وبين المعنى الرئيسى.

و «مَنىّ»: من مادة «مَنْى» (على وزن مَنْع) وهى بمعنى تعيين العاقبة والتقدير، لذلك أطلقُوا «المنيّة» على الموت و «الأُمنيّة» على الآمال، والسبب فى اطلاق هذه الكلمة على الماء الذى يخرج من صلب الرجل لأنّه قُدّر له أن يكون إنساناً «۱».

بناءً على هذا يكون مفهوم جملة: «أَلَمَ يَكُ نُطْفَةً مِنّ مَّنىٍّ يُمْنَى هو: ألمْ يكن الإنسان فى بدايته ماءً مهيناً قُدِّر أن يُخلق الإنسانُ منه «۲»؟

إنّ كل مرحلة من المراحل الأربعِ التى بينتها هذه الآية نموذج واشعاع جديد من الحياة الدنيا والحياة بعد الموت، ومن الممكن أن تكون كل مرحلة دليلًا واضحاً على قدرة الخالق

---

(۱) تاجُ العروس فى شرح القاموس.

(۲) لكنّ عدداً من المفسرين لم يفسروا «يُمنى بمعنى التقدير، بل فسّروها بمعنى تدفّق ذلك الماء فى الرحم. على أيّة حال فإنّ «من» هنا بيانية لا تبعيضية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۴

من جهة، ودليلًا على إمكان مسألة المعاد والحياة بعد الموت من جهة اخرى على الخصوص فى مجال تعيين جنس النطفة من ذكرٍ أو أُنثى

إنّ المسائل المتعلّقة بعلم الجنين من أعقد وأعجب المسائل، والقانون المهيمن على هذا العلم لم يتضح لحدّ الآن حتى لدى الحاذقين من العلماء، وكل ما لدينا من العلم أنّ مسألة تشخيص جنس الجنين فى رحم الام غير ممكن أبداً، ولا يتميّز إلّابعد وصول الجنين إلى المراحل النهائية من الحمل، ونحن نعلم أيضاً بوجود قوانين دقيقة تهيمن على تلك الأُمور، هذه القوانين التى توجد التعادل والتقارب بين تعداد كلٍّ من الجنسين، لكنّ جزئيات وتفاصيل تلك الامور ظلّت مخفية وراء حجاب الابهام.

فلو افترضنا أنّ فى كل عشر ولادات تسع منها إناث وواحد منها ذكر أو بالعكس، فسوف يحدث اختلال عجيب وفوضى مخيفة وصراع رهيب فى المجتمع الإنسانى!

وفى الآية الثالثة بعد أن بيّن اللّه تعالى قدرته، قال: «وَانَّهُ خَلَقَ الزَّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْانْثَى مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشأَةَ الْأُخْرَى .

فالقرآن وإن لم يصرّح بهذه الحقيقة وأنّه يمكن أن نتوصل إلى إثبات النشأة الآخرة عن طريق المقايسة بينها وبين تطورات الجنين، إلّاأنّه يمكننا عن طريق ارتباط الآيات فيما بينها أن نجعل الأمر الأول دليلًا وشاهداً على الأمر الثانى كما انتبه إلى ذلك بعض المفسرين أيضاً «۱».

و «النشأة الآخرة»: بمعنى «الايجاد الآخر» والمراد منه برأى الأكثرية الساحقة من المفسرين «الحياة الاخرى لكنّ البعض أصرَّ على أنّ

المراد منه مرحلة نفخ الروح فى الجنين وجعلوا آية: «فَكَسَونَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ». (المؤمنون/ ۱۴) دليلًا على مدّعاهم الآنف.

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۳۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۵

لكن عند مراجعة هذا التعبير: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِيءُ النَشْأَةَ الْآخِرَةَ». (العنكبوت/ ۲۰)

و ما شابه هذا التعبير فى آيات اخرى من القرآن يتضح لنا جليّاً أنّ المراد من النشأة الآخرة يوم القيامة، حيث قال تعالى: «وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ».

(الواقعة/ ۶۲)

وفى الآية الرابعة وردت هذه الحقيقة أيضاً وبشكل آخر وبصورة اجمل واوجز واوضح، قال تعالى «قُتِلَ الْإِنسَانُ مَااكْفَرَهُ* مِنْ أَيِّ شَيءٍ خَلَقَهُ* مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدّرَهُ* ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ* ثُمَّ أَمَاتَهُ فَاقبَرَهُ* ثُمَّ إذا شَاء أَنْشَرَهُ».

أشارت هذه الآيات أولًا إلى خلق الإنسان من نطفة، ثم أشارت إلى تكامل الجنين إشارة مبهمة، بعد ذلك أشارت إلى مسألة الموت، ثم إلى الحياة بعد الموت، أمّا العلاقة والرابطة الموجودة بين هذه المسائل فهى إمكان الاستدلال بكل واحد من هذه الامور على إثبات الأمر الآخر.

وهنا توجد عدّة امور تجلب الانتباه:

۱- إنّ جملة «خلقهُ فقدّره» جملة عميقة المغزى فقد صُبّت فيها جميع مراحل تطورات الجنين فى مرحلة الحمل، فالتقدير فى أصل وجوده، وفى أعضاء بدنه، وفى تركيب أجزائه، وفى احتياجاته المتعددة وفى الفواصل الزمانية المختلفة التى عليه أن يقطعها للوصول إلى مراحل تكامله، إنّ اللَّه تعالى قدّر كل ذلك له، ووضع له نظاماً متقناً.

بناءً على هذا جيء بجملة «خلقه» للدلالة على المرحلة الاولى لخلق الإنسان من النطفة وبجملة «قدّرهُ» للدلالة على جميع المراحل التى تلى فيما بعد.

۲- وجملة «ثُمَّ السَبِيلَ يَسّرَهُ» أيضاً من الجمل العميقة المغزى ومن الجمل الجذّابة التى يمكن أن تكون دليلًا على الامور الآتية:

تسهيل طريقِ الولادة أمامه بعد خوض مراحل التكامل، فالجنين الذى يكون رأسه إلى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۶

الأعلى فى حالته الطبيعية يتغيّر وضعه فجأة ويتدلّى رأسه إلى الأسفل، وذلك لإعداده للولادة الطبيعية وفى نفس الوقت ترتخى عضلات الأُمِّ الموجودة فى طريق الولادة وتتهيأ لوضع هذا المولود، ثم يحصل ضغط على الجنين من جميع أنحاء الرحم كى يتيسّر عليه طريق الخروج من الرحم، بعد ذلك يتمزّقُ فجأة الكيس المملوء بالماء الذى كان يسبح فيه الجنين أيّام الحمل العاديّة فيترطّب مسير الخروج المعدّ للمولود، وخلاصة الكلام إنّ جميع الأمور تُعدّ وتتيسرُ له من أجل دخوله إلى دنيا جديدة.

ومن جهة اخرى أودعه اللَّه العقل وأنواع الغرائز، وكلّ واحد من هذه الامور يفتح أمامه طريق الحياة.

ومن ناحية اخرى أرسل إليه الرسل والكتب السماوية كى يتيسر له سبيل الطاعة وعبادة اللَّه وطريق سعادته.

إضافة إلى ذلك دلّ هذا التعبير على أنّ الإنسان خُلِقَ مريداً ومختاراً فى تصرفه، لأنّه تعالى لم يقل وسلكناه السبيل بل قال يّسرنا له السبيل، فهو مختارٌ فى سلوكه.

وفى الآية الخامسة والأخيرة إشارة إلى مراحل تكامل الجنين أيضاً بصورٍ مفصّله، بل جاء هنا بتفاصيل أكثر ممّا جاء فى جميع الآيات التى تحدثت عن ذلك، فتعرضت هذه المرّة إلى جزئيات دقيقة، قال تعالى «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مّن طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاه نُطفَةً فى

قَرَارٍ مَّكِينٍ (الرحم)* ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً (دم متخثر) فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً (تَشْبَهُ اللحم الممضوغ) فَخَلَقْنَا المُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَونَا العِظَامَ لَحْماً».

وبعد أن بيّن المراحل الخمس (النطفة والعَلَقةَ والمضغة والعظام واللحم) أشارَ إلى امرٍ آخر والذى يعتبر من أهمّ المراحل وهو مرحلة نفخ الروح الإنسانية، فقال تعالى «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ» «فَتَبارَكَ اللَّهُ احْسَنُ الْخَالِقِينَ».

وجملة «فكسونا العظام لحماً» لم تُذكر ضمن مراحل تكامل الجنين إلّافى هذه الآية

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۷

التى كشفت الستار عن أهميّة خلق العظام.

ولقد ثبت حديثاً بأنّ العظام لا- تكون هيكلًا لحفظ استقامة البدن وحفظ أعضاء الإنسان فحسب، بل إنّ فى عهدتها أَهمَّ الوظائفِ الحياتية والبايلوجية للبدن.

فالعظام تحتوى على جميع ما يحتاجه الجسم من قبيل الفسفور والكالسيوم والاملاح الاخرى التى تنظم الأعمال الحياتية لجسم الإنسان وضربات القلب وتقويم حركة العضلات، والأهمُّ من ذلك أنّالعظام تُقدِّم للجسم ما يحتاجه من كريات الدّم الحمر والبيض طيلة عمر الإنسان! ويكفينا أن نعلم بأنّ فى الدقيقة الواحدة تموت مايقارب ۱۸۰ مليون كرية حمراء وأنّ العظام تملأ الفراغ الحاصل من موت هذه الكريات بواسطة كريات جديدة ونشطة! «۱».

والجدير بالذكر أنّ بعض المفسرين قالوا: ثبت حديثاً أنَّ أوّل ما يظهر فى الجنين هى خلايا العظام، ثم خلايا اللحم، وهذه الحقيقة رفع القرآن الستار عنها قبل أربعة عشر قرناً عندما لم يكن لأحد علم بها «۲».

والتعبير ب «الكسوة» عن اللحم هو تعبير جميل وجذّاب، فالملابس تُجمِّل جسم الإنسان وفى نفس الوقت تحفظه من اضرار مختلفة، والعضلات كذلك فلو عُدِمَت وبقيت العظام لوحدها فما أقبح منظرها! ومن ناحية اخرى إنّ العظام تتأثّر بأدنى ضغط يرد عليها من أىّ جانب وتصاب بعطبٍ كبير جرّاءَ ذلك، والذى يحفظ العظام تلك الكسوة التى هى العضلات.

وهذا التعبير: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ» الذى ورد ذكره بعد مرحلة تكامل الجنين لم يأتِ إلّا فى هذه الآية من القرآن، وهذا البيان العجيب وإن كان قد ذُكِرَ سابقاً إلّاأنّه يختلف كثيراً عن ذلك، ذلك لأنّه سمّى هنا «خلقاً آخر»، حيثُ يرى أكثر المفسرين أنّ هذه الجملة جاءت للدلالة على خلق الروح، لأنّنا نعلم بأنّ الجنين من يومه الأول وحتى يبلغ ما يقارب

---

(۱) قرآن برفراز اعصار، ص ۱۸۷.

(۲) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۱۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۸

الشهر الرابع من الحمل أكثر ما يشبه النبات، فهو ينمو بسرعة من غير أن يمتلك أىّ حسٍ أو حركة، ثم تبدأ الأعضاء المُعَدّة لإدراك الحقائق بالظهور تدريجاً وهذا التحول المفاجى (الذى يشبه الطفرة) ظلّ مبهماً على جميع العلماء ولا يعلم مايطرأ على الجنين حينما ينتقل من مرحلة إلى اخرى إلّااللَّه العالم القادر.

على أيّة حال فإنّ اجتياز هذه المراحل خلال هذه المدّة الوجيزة دليل على عظمة مُبدئ عالم الوجود الذى هو اللَّه احسن الخالقين، وفى نفس الوقت دليل على إثبات وقوع الحياة بعد الموت التى اشير إليها فى ذيل تلك الآيات.

ثمرة البحث:

من خلال الآيات المذكورة التى صورت مراحل تكامل الجنين ووضعتها أمام انظار الإنسان الذى من طبيعته أن يكون باحثاً عن

الحقیقـة، أجیب منکری المعاد بوضوح، وهذه المراحل فی الواقع تُعْتَبَرُ کل واحدة منها حیاةً جدیدة ومظهراً من مظاهر المعاد، ویکفی التمعّن فی مرحلة واحدة من هذه المراحل فی إثبات هذه الحقیقة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۴۹

۵- المعاد فی عالم الطاقة

تمهید:

عندما تموت الکائنات الحیة فی هذا العالم المترامی الاطراف تُخَلِّف وراءها دائماً بقایا وآثاراً، لکن بالنسـبة لتبدد الطاقة فالأمرُ عجیب، لأنّهـا فی الظاهر عنـدما تتلاشـی تفنی کلیاً فلا یبقی لها أیّ اثر، فلو لاحظنا الشـمس کمثال لکلامنا هـذا لوجـدنا ضوءها وحرارتها هما عبارة عن طاقة تبعثها نحو کرتنا الأرضیة والسیارات الاخری التابعة للمنظومة الشمسیة، وبعد انحسار الإشعاع تفنی تلک الطاقة ولایبقی لها ایّ أثر، وإذا لم یستمر مصدر الإشعاع أی الشمس علی إرسال الأشعة، فإنّه سوف لن یبقی أثر للنور والضوء وتفنی الحرارة.

لکنّ العلم الحدیث أثبت بأنّ الطاقة أیضاً لا تفنی بالکامل، بل تَکمُن وتتحوّل من حالة إلی اخری وعندما تتوفر الظروف المناسبة فإنّها تعود ثانیاً وتُبعث من جدید بصورة عظیمة.

المثیر للـدّهشه هو أنّ القرآن المجیـد من أجل إثبات مسألـة إمکان المعاد یعتمـد علی هـذه المسألـة، ویتخـذ من تحوُّل الطاقة الضوئیة والحراریة فی هذا العالم دلیلًا علی القیامة العظمی الحاصلة للبشر فی العالم الآخر.

وبعد هذه الإشارة الوجیزة نذهب إلی آیات القرآن ونتأمل فیها خاشعین کی تتّضحَ لنا تلک الحقیقة:

۱- «قُـلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنشَأَهَا اوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ* الَّذِی جَعَلَ لَکُمْ مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَـرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُمْ مِّنْهُ تُوقِـدُونَ». (یس/ ۷۹- ۸۰)

۲- «افَرَأَیتُمُ النَّارَ الَّتِی تُورُونَ* ءَأَنتُم أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا امْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ* نَحنُ جَعَلْنَاهَا تَذْکِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقوِینَ». (الواقعة/ ۷۱- ۷۳)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۰

جمع الآیات وتفسیرها

استئناف عَوْدِ الطاقة یتجدد امام انظارنا!

فی آواخر سورة «یس» هناک بحوث جامعة ومتنوّعة وعمیقة فی مجال المعاد، واحد هذه البحوث الحبث عن معاد الطاقة.

لقـد أجـاب القرآن علی شـبهة من کـانوا یتعجّبون من إمکان اعادة العظم الرمیم إلی الحیاة بِعِـدّة أجوبـة، فقال تعالی «قُلْ یُحْیِیهَا الَّذِی أَنشَأَهَا اوَّل مَرَّةٍ وَهُوَ بِکُلِّ خَلْقٍ عَلِیمٌ».

وهذا القسم من الأجوبة یتعلّق بمقایسة المعاد بالنشأة الاولی التی بحثناها سابقاً.

ثم یضیف تعالی بعد ذلک: «الَّذِی جَعَلَ لَکُم مّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنْتُمْ مِّنهُ تُوقِدُونَ».

ومن البدیهیّ أن یکون هذا البیان دلیلًا علی مسألة المعاد وأن یکون جواباً آخر لمنکری المعاد.

ولکن کیف یکون ذلک، وبأیّ بیانٍ یتمّ؟

للمفسرین عدّة آراء فی هذا المجال هی:

۱- الكثير من المفسرين اعتبروا هذه الآية إشارة إلى الشجرتين المشهورتين لدى العرب وهما «مَرْخ» و «عَفار» وكان العرب يستخدِمونهما لإيقاد النار بدلًا من الكبريت المستخدم فى عصرنا الحاضر، فكانوا يضربون الخَشَبَتينِ ببعضهما بشدّة ليحصلوا منها على قدحة أو شرارة ليتمكّنوا بواسطتها من ايقاد النار، وفى الحقيقة كانوا يستخدمون ذلك بدلًا عن حجر القدحة الذى كان يُستخدم فى العصور الغابرة.

فالقرآن يقول: إنّ الذى يقدر على أن يُخرج النار من تلك الخشبتين الخضراوينِ بإمكانه أن يحيى الموتى فمن يتمكّن من جمع النار مع الماء كيف لا يتمكّن من خلق الحياة بعد الموت؟ ألا يشبه التضادُّ بين «الحياة» و «الموت» التضادَّ بين الماء والنار؟

۲- وتَجاوزَ آخرون هذا الحدَّ فقالوا: إنّ خاصيّة ايقاد النار لا تنحصر بخشب تلك الشجرتين (مَرْخ وعفار)، بل تعمّ جميع أشجار العالم، ولكنّها تشتدُّ فى أخشاب تلك

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۱

الشجرتين، لذا جاء فى المثل العربى: «فى كُلِّ شجرٍ نار»!

فخلاصة الكلام أنّ أخشابَ الأشجار عندما تصطدم ببعضها بقوّة تخرج منها شرارة من النار، وهذا الأمر يصدق حتى فى أخشاب الأشجار الطريّة! وبسبب هذه الظاهرة تَحدُثُ حرائقُ هائلة ومرعبة فى الغابات من دون أن يكون للإنسان ايُّ تدخّل فيها.

وهذه الحرائق تحدث بفعل الرياح الشديدة التى تضرب أغصان الأشجار ببعضها بشدّة فَتَسْقُطُ شراراتُها أحياناً على أوراق الشجر الجافّة فتحرقها، ثم تتسع بعد ذلك رقعةُ النار بسبب هبوب الرياح، فنرى فجأةً التهام النار لمناطق شاسعة من الغابات.

وأمّا تفسير هذه الظاهرة من وجهة نظر العلم الحديث فهى جليّة وواضحة، لأننا نعلم بأنّ الأشجار ليست الوحيدة التى تولّد شرارة من النارعند ارتطامها ببعضها بقوّة بل تتولّدُ شرارة كهربائية من ارتطام كل جسمين ببعضهما، وهذه النار موجودةٌ فى جميع ذَرّاتِ العالم المادّى حتى فى باطن الأشجار الخضراء.

إنّه أمرٌ عجيبٌ حقّاً، فما القدرة التى تخلط النار فى الماء؟ ومن أصلح فيما بين هذين العدوّين اللّدودين اللّذينِ عرّفهما القدماء بأنّ طبع أحدهما بارد رطب والآخر حارٌ جاف؟

فهل يكون الإصلاح بين الموت والحياة أمرٌ عسير على هذه القدرة؟ أو هل يصعب على القدرة أن تجعل أحدهما فى مكان الآخر؟!

وبتعبير آخر: هل يمكن لأحد أن يجمع النار والماء فى مكان واحد بحيث لا يُطفى الماءُ النارَ ولا تُحرقُ النارُ الشجرَ، وهل يكون إحياء الشجر اليابس مرّة اخرى أمراً عسيراً؟!

۳- وهناك تفسير آخر لهذه الآية قد خفى على المفسّرين السابقين، لكنّه أصبح واضحاً لنا بعد تطور العلم الحديث، ومن المحتمل أن يكون أنسب التفاسير، وهو: إنّ الأشجار خلال فترة حياتها تمتصُّ ضوءَ وحرارة الشمس باستمرار وتَدَّخِرُهُما فى باطنها، وعندما نُحرِق الخشب الجافَّ تنبعث الحرارة والضوءُ اللتان امتصّتهما الشجرة فى مدّة طويلة وتنفدُ فى مدّة وجيزة ونستفيد نحن منهما، أى أنّ الطاقة الخاملة تعودُ فى هذه القيامةِ وتُظهِرُ وجودها، فبناءً على ذلك نحن نرى منظر المعاد أمام أعيننا إذا أجّجْنا ناراً!

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۲

وتوضيح ذلك: إنّ «السليلوز» يشكّل المادّة الرئيسية للأشجار، وهو مركب من «الكاربون» و «الاوكسجين» و «الهيدروجين».

فالنباتات تحصل على الاوكسجين والهيدروجين من الماء، وتحصل على الكاربون من الهواء، أى أنّها تأخذ ثانى أو كسيد الكاربون الذى هو عبارة عن تركيب من الاوكسجين والكاربون وتحلل ذلك المركب فتحتفظ بالكاربون وتُطلِق الاوكسجين، ثم تصنع الخشب بواسطة تركيب الكاربون مع الماء.

ومن الجدير بالذكر هنا بناءً على القواعد المتّبعة فى علم الكيمياء إنّ الكثير من التركيبات الكيميائية لا تتمّ إلّاعند توفر نوع من أنواع الطاقة، والأشجار أيضاً تّتبع هذا القانون وتستخدم ضوءَ وحرارة الشمس فى انجاز التركيبات الكيميائية (فتأمّل).

على هـذا فالأشـجار عنـدما تنمو وتكبر وتقوى سـيقانها يوماً بعد يوم فإنّها تدّخر كميّة كبيرة من الطاقة الشمسـية فى داخلها، تلك هى الضوءُ والحرارة التى تظهر عنـد احتراق الخشب، فنفس تلك الطاقة المدّخرة التى قد كَمُنت فى الظاهر تعودُ مّرة اخرى من خلال معادٍ موزون ودقيق.

والدليل الذى يؤيد هذا التفسير هو التعبير الوارد فى القرآن لبيان هذه الامور وهو جملة:

«فإذا أنتم منه توقدون».

ولنرَ ما المراد من كلمة «وقود» لغوياً؟

بناءً على تصريح أكثر كتب اللغة أنّ «الوقود» بمعنى الحطب أو الشى المحترق «۱».

بينما اطلقوا على الأشياء التى تُوجِدُ القدحةَ اسم «الزَنْد» أو «الزناد»، قال فى المقاييس:

«الزند» فى الأصل بمعنى زند اليد، وأُطلِق على القدحة أو الشـرارة للملازمة الموجودة سابقاً بين زند اليد والآلات التى كانت تسـتخدم قديماً فى اشعال النار.

و «القَدْح»: اسـتُعمل أيضـاً فى هـذا المجـال، لكنّ الأمر المهمّ تأكيـد القرآن على ذكر الوقود لا «الزنـد» أو القَدْح، بينما فات القـدماء الانتباه إلى هذه المسألة، وفسّروا الآية على أنّالمراد

---

(۱) مفردات الراغب؛ ولسان العرب؛ ومقاييس اللّغة.

منها هو القدْح، لكنَّ ماجاء فى تفسيرنا الثالث ينطبقُ تماماً مع التعبير ب «الوقود» (فتأمّل).

والسؤال الوحيد الذى لم يُجَبْ عنه إنّ الخشب الذى يستخدم فى الحرق يكون جافاً، بينما عبّر عنه القرآن ب «الشجر الاخضر».

هنـاك جوابـان لهـذا السؤال: الأول إنّ الخشب الاخضـر قابل للاحتراق أيضاً وإنَّ إحراقه أصـعب من إحراق الخشب الجاف، جاء فى المثل المشهور: إذا اشتعلت النار فسوف تحرق الأخضر واليابس معاً للإشارة إلى هذا الأمر.

ولو تجاوزنا هـذا، فهنالك مسألـة مهمّة هى إنّ الأشـجار الخضـراء هى الوحيدة التى يمكنها أن تجذب وتدّخِر ضوءَ وحرارة الشـمس، ويحتمل أن يكون القرآن فى صـدد بيان هـذه المسألـة العلميـة الدقيقـة، لأنّ الأشـجار عندما تجفّ تتوقف فيها عملية جذب الكاربون نهائياً، ولا تدّخر الطاقة الشمسية بأى نحوٍ كان.

على أيّة حال فإنّ الآية المذكورة تعتبر من الآيات الرائعة فى مجال إثبات المعاد، وإنّ كلّ واحد من هذه التفسيرات الثلاثة يجسِّم منظر المعاد أمام الانظار، ولايوجـد أىّ مانع فى أن تكون هـذه التفسـيرات الثلاثـة مجموعـة فى مفهوم هـذه الآيـة، فهذه التفسـيرات منها ما يختصّ بالعوامّ من الناس، ومنها مايختصّ بالخواصّ منهم، ومنها مايختصّ بخواصّ الخواصّ، وبعضـها يختصّ بالناس الـذين عاشوا فى العصور الغابرة، وبعضـها يختصّ بالناس المعاصـرين، ومن المحتمل أن تكون هنالك تفسـيرات أعمق وأدقّ لعلماء المسـتقبل فى هذه الآية.

والآيـة الثانية من آيات سورة الواقعة، والتى يختصّ قسم كبير من آياتها بأدلّة المعاد والقيامة، على الأخصّ ماجاء فى الآية ۵۷ فيما بعد فى جوابِ منكرى المعاد (المسائل السبع) الـذين ذُكرتْ ادّعاءاتُهم فى نفس هـذه السورة فى الآية ۴۷ حيث كان كلّ واحـد من تلك الأجوبة دليلًا على مسألة المعاد بنفسه «۱».

---

(۱) ذكرت هذه الأدلة السبعة فى تفسير الامثل، ذيل الآية ۵۷ من سورة الواقعة.

والآية التى يدور بحثنا حولها تعتبر فى الواقع الدليل السابع والأخير، قال تعالى

«أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِى تُورُونَ «۱»* ءَأَنتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ* نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ «۲»». (الواقعة/ ۷۳- ۷۱)

وفى تفسير معنى المراد من شجرة النار هنا، يوجد تفسيران رئيسيّان:

الأول: إنّ المراد من شجرة النار الشجرتان المعروفتان «مَرْخ» و «عَفار» اللتان كانتا تُستخدمان لدى العرب فى ايجاد القدحة، حيث كانتا تُستخدمان بدلًا عن «الكبريت» لإشعال النار.

والثانى: إنّ المراد منها جميع الأشجار لأنّها لها قابلية توفير الحطب والوقود «۳».

وللمفسِّرين آراء فى معنى المراد من «تـذكرة»، فعـدد منهم يرى أنَّ المراد منها التذكّر بنار جهنم عند رؤية نار الدنيا، ففى هذه الصورة تصلح هذه الآية لأنّ تكون دليلًا لإثبات المعاد.

والرأى الثانى هو أنّ المراد منها التذكير بأمر المعاد، وذلك لأنّ الذى يقدر على أن يودع النار المحرقة فى قلب الشـجر الأخضر فإنّه لا يعجز عن ارجاع الحرارة الغريزيـة لبـدن الأموات، والـذى يقـدر على جمع الضِّدَّينِ كالماء والنار فإنّه بطريق أولى يمكنه أن يجمع بين الموت والحياة على التوالى، أى إيجادهما الواحد بعد الآخر.

أو بتعبير آخر كيف لايتمكّن مَن يُعيد الطاقة الكامنة والضوءَ والحرارة مِن أن يهب حياة جديدة للأموات من بنى الإنسان؟

والتفسير الأخير هو أكثر تناسباً مع آيات هـذه السورة التى تتصـدى للاجابـة عن شـبهات منكرى المعاد طبعاً، كما إنَّ الجمع بين هذه التفاسير ممكن أيضاً.

---

(۱) «تورون» من مادة «ايراء» بمعنى اشـعال النار، قال الراغب فى المفردات: ايراء فى الأصل بمعنى الستر والتغشية، لذا اطلق على ما فى الخلف «وراء» وبما أنّ النار تكمن فى الحطب أو فى القدحة اطلق العرب كلمة «ورى أو «ايراء» على اخراجها من مخبئها.

(۲) «المقوين» من مـادّة «قِواء» (على وزن كِتاب) بمعنى الصـحراء القاحلـة، وتطلق على المسافرين الـذين يقطعون الصـحارى من دون متاع أيضاً.

(۳) ورد هذان التفسيران فى تفسير روح المعانى، ج ۲۷، ص ۱۲۹؛ وفى تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۸۴ فى ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۵

والتعبير ب «متاعاً للمقوين» هو تلميح لفوائد وأهميّة النار فى حياة الإنسان ذلك لأنّ المفسـرين وأصحاب اللغة ذكروا معانىَ متعددة ل «المقوين» هى:

أولًا: ماذكرناه آنفاً أنّها من مادة «قواء» على وزن (كتاب) بمعنى الصـحراء القاحلـة، بناءً على هـذا يصـبح مصداق «المقوين» هم الذين يقتحمون الصـحارى القاحلـة، وهؤلاء يحتاجون بشدّة إلى الحطب والخشب الجاف لإيقاد النار، أمّا احتياجهم لخشب القدْح فلا يخفى على أحد.

ومن البـديهى أنّ الإنسان يحتاج إلى ذلك فى المـدن أيضاً، ولكن بما أنّ إيقاد النار فى المدن أمرٌ يسير، لأنّ الذى يريد أن يوقد ناراً يمكنه أن يستفيد فى ذلك من نار الآخرين، بالإضافة إلى ذلك لايشكّل عدم وجود النار فى المدينة خطراً جسيماً على الإنسان، بينما تعدّ النار بالنسبة لقاطعى الصحراء أمراً مصيرياً بسبب الحاجة إلى إعداد الطعام ودفع البرد والاستنارة.

والرأى الآخر أنّ المراد من «المقوين» هم الفقراء، وعُدّ هـذا من أحـد معانيها فى اللغـة، ومن المحتمل أن يكون السـبب فى ذلك أنّ سُكّانَ الصـحراء فقراء فى الغـالب، وقـد ذكرنـا أنَّ «قواء» بمعنى الصـحراء القاحلـة، وأنّ احتيـاج الجميع للنار امر بـديهى إلّاأنّ احتياج الفقراء لها اشدّ من غيرهم، ذلك لأنّ النار تأخذ مكان الملابس أحياناً بالنسبة لهم.

وقـال البعض أيضـاً: إنّ «المقوين» بمعنى «الاقويـاء»! لأنّ الكلمـة المـذكورة من الكلمات التى لها معانٍ متضادّة، فيحتمل أن تكون من

مادّة القوة والقدرة.

ففى هذه الحالة تكون للدلالة على استخدام الاغنياء للنار بكثرة، على الأخص فى دنيانا هذا اليوم، فإنّ الحرارة والنار كلٌّ منهما المحور الرئيسى الذى تدور عليه عجلات الصناعة والمحركات، فإذا ما نَفَدَ الوقود الذى تعتبر الأشجار والنباتات المنبع الرئيسى له (سواء كان بصورة مباشرة كالخشب والفحم الحجرى أو غير مباشرة كالبترول) فإنّ عجلات الحضارة البشريّة سوف تتوقف عن الحركة، وتذهب الثروات أدراج الرياح، فلا تطفأ شعلة الحضارة فحسب بل سوف تطفأ شعلة حياة جميع البشر.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۷

النماذج التاريخية الحيّة للمعاد

تمهيد:

اشارة

بالإضافة إلى ما ذُكر فى البحوث السابقة حول أدلّة إمكان المعاد فإنّ القرآن المجيد يشير إلى عدد من النماذج التأريخية الحيّة للمعاد من خلال آيات مُتَعَدّدة، وكلّ هذه النماذج مصاديق واقعيّة للحياة بعد الموت، ويمكن الاستعانة بها على إثبات إمكانية المعاد، والنماذجُ عبارة عن:

۱- قصة النبى عُزير عليه السلام الذى وُهِبَ الحياة بعد موته بمائة عام.

۲- قصة إبراهيم عليه السلام واحياء الطيور الأربعة.

۳- قصة أصحاب الكهف.

۴- قصة قتيل بنى اسرائيل وقصة البقرة.

من البديهى إن الاستدلال بهذه الحوادث التاريخية يتوقف على الاطمئنان بصحة وقوعها، وبما أنّ منكرى المعاد يعتقدون بصحة وقوع أغلب هذه الحوادث أو على الأقل كانت مدوّنة فى كتبهم التاريخية وكانت مشهورة بين الناس، فإنّ القرآن المجيد يستدلّ بها.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن ونمعن خاشعين فى القسم الأول من هذه الآيات المتعلّقة بقصة عُزير عليه السلام

۱- قصة حياة عُزير عليه السلام بعد موته

تحدّث القرآن الكريم عن هذه القصّة العجيبة فى أواخر سورة البقرة من خلال آية واحدة تعتبر فى الواقع دليلًا تاريخياً لدحض ادّعاءات منكرى المعاد، قال تعالى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۵۸

«أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَام ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْم قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَام فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ» «۱». (البقرة/ ۲۵۹)

وتوجد هنا عدّة امور تحتاج إلى الدقّة والتّأمُّل:

۱- من كان هذا الرجُل؟ وأين تقع هذه القرية؟ (يجب الالتفات إلى أنّ المراد من القرية هنا التجمّع السكانى سواء أكان قرية أو مدينة).

فالقرآن لم يوضح ذلك، والمستفاد من سياقِ الآيـة أنّه رجلٌ أُوحىَ إليه، أىْ كان من أحد انبياء اللّه لكنّ المفسّرين وبالاستناد إلى الروايات الواردة فى هذا المجال يذكرون اسمه بالتعيين، ففى كثير من الروايات وعبارات المفسرين ذُكر أن اسمه «عُزير» نبىّ بنى اسرائيل المعروف، وذكر آخرون بأنّ اسمه «الخضر» وآخرون، قالوا إن اسمه «اشْعيا» «۲».

وأياً كان فانّه لايؤثر على معنى ومحتوى الآية، أمّا ما احتمله البعض من أنّه كان رجلًا غير مؤمن وقد شك فى أمر المعاد فإنّ هذا كلام مردود، لأنّ الآية تدلّ بجلاء على أنّ الوحى نزل على هذا الرجل.

أمّا «القرية» فهى «بيت المقدس» طبقاً لما جاء فى الروايات، وهذه الحادثة التى وقعت بعد هدم بيت المقدس على يد «نبو خذ نصّر».

۲- هل أنّ هذا الرجل المؤمن (أياً كان) قد مات حقاً أم ذهب فى سباتٍ عميق؟ ظاهر الآية يدلّ على أنّه مات حقاً وعاد إلى الحياة مرّة اخرى بإذن اللّه بعد أن مضى على موته مائة عام، وأكثر المفسرين يعتقدون بهذا الرأى، والبعضُ منهم فَسَّرَ «الموتَ» فى هذه الآية

---

(۱) جملة (أو كالّذى مَرّ ...) طبقاً لتصريح كثير من المفسرين هى عطف على الآية التى قبلها «الم تر إلى الذى حاجَّ إبراهيم ...» بناءً على هذا يكون معنى هذه الجملة كالتالى «الَم ترَ إلى الذى مَرّ على قريةٍ ...».

(۲) تفاسير البرهان؛ نور الثقلين؛ مجمع البيان؛ روح المعانى؛ روح البيان؛ والكبير والقرطبى فى ذيل الآية مورد البحث.

بالنوم العميق المشابه للموت، كما هوَ الحال فى نوم بعض الحيوانات التى تغط فى سبات عميق فى فصل الشتاء وتخرج من سباتها فى فصل الربيع فتبدأ بالحركة.

وفى مثل هذا النوم تكون النشاطات الحيوية بطيئة إلى حَدٍّ ما ويقلّ ماتحتاجه من طاقة بكثير عمّا كان عليه فى حالاتها العادية، لكنّه لايُطْفِىءُ البصيصَ من الحياة على أيّة حال.

وقد رجّح هذا الاحتمال (اى احتمال السبات) صاحب «المنار» و «المراغى» وصاحب «أعلام القرآن» حتى أنّه ذكر فى أعلام القرآن أنَّ المراد من «مائة عام» ليس من الضرورى أن يكون مائة سنة! بل من المحتمل أن يراد منها مائة يوم أو مائة ساعة!!

إنّ بعض المثقفين الذين يصعب عليهم تصديق هذه الامور الخارقة للعادة، فإنّهم كلّما شاهدوا شيئاً من هذا القبيل سعوا للإتيان بالتبريرات والمغالطات بينما لا توجد أى ضرورة لهذا التكلّف أبداً.

إنّ القرآن المجيد والروايات الصحيحة وباختصار كل محتويات المذاهب السماوية مليئة بهذه الامور الخارقة للنواميس الطبيعية التى لايمكن إنكارها ولا السعى فى تبريرها، فإننا لو آمنّا بقدرة اللّه تعالى على الإتيان بمثل هذه الخوارق لكان التصديق بمثل هذه الأمور أمراً يسيراً، وكل ما فى الأمر أنْ نبتعد عن المبالغة، وعن تجاوز الحدود، وألّا ننسب كل امر إلى الاعجاز أو خرق النواميس الطبيعية.

و حتّى بالنسبة للعلماء الماديين، هُناك امور خارقة لا يمكن تفسيرها بالأساليب العلمية المعروفة فما هو الداعى لتحريف أيّة ظاهرة خارقة للعادة بمجرّد العجز عن كشف سرّها.

والقضية المذكورة، وبغض النظر عن الرجل المؤمن المذكور فيها والذى مات وبُعث من جديد وبغض النظر عن الهدف منها وهو الرغبة فى تقديم مثال لاحياء الموتى يوم القيامة، تشير إلى حماره أيضاً، وقد أخبر القرآن بأنّه قد مات وتلاشت عظامه، لأنّ الآية صريحة فى‌جمع العظام بإذن اللّه وتغطيتها باللحم ثم نفخ الحياة فيها، فهل يجب تعليل كلّ ذلك؟

۳- وأمّا ما يتعلق بالمدينة التى وقعت فيها تلك القصة فإنّ أغلب المفسرين يعتقدون بأنّها وقعت فى بيت المقدس بعد أن هُدمت على يد «نبو خذنصّر» وخُربت عن آخرها وقد عبّر عنها القرآن ب «خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» أى بعد تهديم سقوفها وتخريب جدرانها

ومساواتها بالأرض؟ وقيل هى قرية مجاورة لبيت المقدس.

أمّا ما يتعلق بحديث ذلك الرجل المؤمن مع نفسه فانّه لم يكن بسبب الإنكار ولا التعّجب والشك بل أراد أن يشاهد احياء الموتى بأم عينيه كى يطمئن قلبه كما أراد إبراهيم عليه السلام ذلك فى القصة التى سوف نذكرها عمّا قريب.

ومن الممكن أيضاً أن يكون طلبه هذا من أجل أن يقدم دليلًا مقنعاً للمنكرين والمشككين، لأنّه فى بعض الأحيان لا تكفى الاستدلالات العقلية ولا حتى نداء الفطرة والوجدان فى اقناع بعض الناس، فهم يصّرون على مشاهدة النماذج الحيّة لكى يأخذ الاستدلال طابع الحس وتزول جميع الوساوس عن قلوبهم ونفوسهم.

۴- وأمّا ما يتعلق بنوع طعامه وشرابه فإنّ القرآن لم يصّرح بشىء عنه، ولكن يظهر من جملة: «لَمْ يَتَسَنَّهْ» التى هى من مادّة «سَنَه» والتى يفهم منها عدم فساد الطعام والشراب على الرغم من مرور سنين طويلة انّهما كانا من الأغذية والأشربة التى لا تفسد بمرور الزمان، وقيل بأنّ الطعام الذى كان يحمله هو «التين» و «العنب» والشراب هو «عصير الفواكه» أو «الحليب».

والملاحظ هنا أنّ اللّه تعالى ومن أجل اظهار قدرته، حفظ المواد السريعة الفساد من التلف، بينما ترك حماره الذى يقاوم الفساد عادةً عرضةً للفساد، وبهذا أصبح دليلًا على المكوث مائة سنة ودليلًا آخر على إمكان الحياة بعد الموت، وذلك من أجل أن يشاهد الرجل المؤمن تلك الحقيقة بامّ عينيه فى كلا الأمرين (وجود نفسه ووجود حماره بعد الموت).

۵- عبارة: «وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنّاسِ» تدلّ على أنّ الفائدة المرجوّة من هذه الحادثة لا تختص بذلك الرجل المؤمن لوحده، بل لتكون عبرة نافعة لجميع الناس، لأنّ الناس قد عرفوا «عُزير عليه السلام» بالقرائن المختلفة، وتيقنوا من أنّه قد مات وبُعث ثانية بعد مرور مائة عام على موته، فإن كان الجيل المعاصر لحياة عزير قد مات وفنى فإنَّ الجيل الجديد عرفوا حقيقة الأمر بواسطة المعلومات التى حصلوا عليها من آبائهم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۱

۲- إبراهيم عليه السلام والمعاد

اشارة

إنَّ قصّة إبراهيم عليه السلام و «الطيور الأربعة» تعتبر من النماذج التاريخية الحيّة التى استدل بها القرآن الكريم على قضية المعاد، وقد ورد ذكر هذه القصة بعد ذكر قصة عزير عليه السلام مباشرة، قال تعالى

«وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبى قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (سورة البقرة/ ۲۶۰)

لو أمعنّا النظر فى ظاهر الآية بعيداً عن أى حكم مسبق وبعيداً عن تأثير آراء ونظرات الآخرين نراها تدلّ بوضوح على أنّ إبراهيم عليه السلام كان يريد أن يرى كيفية احياء الموتى ليطمئن قلبه، فأُمِرَ أن يمارس عملياً نموذجاً حيّاً لاحياء الموتى بإذن اللّه، وهو أن يجعل أجساد الطيور الأربعة بعد ذبحها وسحقها كالعجين ثم يجعل عدّة أجزاء من العجين على عدّة جبال وبعد أن يدعو هذه الأجزاء إليه تصبح طيوراً أربعة كما كانت بإذن اللّه وتُعاد إليها الحياة من جديد.

كما أنّ السبب الذى أشار إليه الكثير من المفسرين فى شأن نزول هذه الآية الشريفة يؤيد هذا المدعى فقد مرّ إبراهيم عليه السلام على ساحل البحر فوجد جيفة نصفها فى الماء والنصف الآخر على الساحل تأكل منها حيوانات البحر من جانب والطيور من جانب آخر، فأثر هذا المنظر فى نفسه عليه السلام وغرق فى التفكير فى كيفية جمع أجزاء هذا الجسد وإحيائه من جديد بعد أن صار جزءاً من حيوانات كثيرة اخرى

إنَّ إبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بالمعاد وكل مايرتبط به لأنّه نبى وله ارتباط مع الوحى وكان إيمانه أعمق من الإيمان الحاصل عن طريق الاستدلال العقلى، لكنّهُ كان يبغى شاهداً حسياً فى هذا المجال ولهذا جسَّد له اللّه هذا المشهد كى يتجسّد أمامه المعاد

الجسمانى بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى وليشاهده بأمّ عينيه كى يطمئن قلبه.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۲

وهنا ينبغى أن نشير إلى عدّة امور:

أولًا: إنّ جملة: «فَصُرْهُنَّ» كما صّرح بذلك بعض اللغويين وعدد من المفسيرين هى من مادّة «صور» على وزن (قول) بمعنى التقطيع والتمزيق، وهى دليل على أنّ إبراهيم عليه السلام أمر بأن يذبح تلك الطيور الأربعة ثم يقطعها ويخلط أجزائها.

لكنّ بعض اللغويين فسروها بمعنى التعويد والتربية (على الأخص عندما تتعدى ب «إلى) ومن أجل هذا أكّد بعض المفسرين الذين يسمّون أنفسهم بذوى الأفكار النيّرة على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يقطع تلك الطيور أبداً، بل أمر بأن تعود تلك الطيور إليه وبعد أن تأنس به يضع كل واحد منها على جبل ثم يناديها كى تسعى إليه جميعاً فيحصل من خلال هذا العمل على دليل لإحياء الموتى ولكى يعلم أنّ إحياء الموتى على اللَّه يبلغ من السهولة ما يبلغه نداء إبراهيم عليه السلام لتلك الطيور ومجيئها إليه بمجرّد أن يناديها «۱».

و قد فات هؤلاء أنّ إبراهيم عليه السلام أراد مشاهدة إحياء الموتى وأنّ اللَّه تعالى استجاب دعوته من هذا الباب كى يطمئن قلبه، فلو كانت المسألة تُحلّ بتربية الطيور وإتيانها بعد دعوتها لما تحقق ما أراده إبراهيم عليه السلام من مشاهدة إحياء الموتى ولما اطمئن قلبه بذلك، بل لا علاقة لهذا الأمر بما طلبه إبراهيم عليه السلام فإنّ مثل هذا الجواب لمثل هذا الطلب قبيح وغير لائق لو صدر من الفرد العادى، فكيف يصدر ذلك من اللَّه تعالى وبالأخص عندما يرد فى كلام فصيح ككلام القرآن ...؟

ثانيا: الظاهر أن تفسير كلمة «جزء» باطلاقها على كلٍّ واحد من الطيور الأربعة، غير مناسب أبداً.

ثالثاً: إنّ سبب نزول هذه الآية الشريفة والوارد فى روايات متعددة لا يتناسب مع هذا المعنى بل صرحت جميعها بالحقيقة التالية، وهى أنّ إبراهيم عليه السلام أخذ أربعة من الطير فذبحها وخلط أوصالها ببعضها ثم قسّمها حصصاً فوضع كلٍ منها على جبل «۲».

---

(۱) وهذا التفسير فى الأساس مقتبس من أحد المفسرين المعروف باسم (أبومسلم) وقد نقل عنه هذا التفسير فى «المنار» ودافع عنه وأيّده (ج ۳ ص ۵۶).

(۲) للاطلاع أكثر على هذه الروايات راجع تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۲۷۵- ۲۸۲؛ وتفسير الدّر المنثور، ج ۱، ص ۳۳۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۳

واما جملة «فصرهن» فهى لا تؤثر فى محتوى الآية إن كانت بمعنى التقطيع أو بمعنى التعود، لأنّ الآية- على أية حال- جاءت لتوضيح كيفية إحياء الموتى بإذن اللَّه.

وكما قلنا آنفاً إنّ السبب الرئيسى فى نزوع هؤلاء إلى مثل هذه التفاسير هو عدم استيعابهم للمعجزات الخارقة للنواميس الطبيعية، ولإرضاء المدافعين عن العقيدة المادية ولذلك ورطوا أنفسهم فى هذه المتاهات، بينما تعتبر هذه الخوارق ووقوع المعجزات من البديهيات لدى جميع الأديان، ونحن فى عالم الطبيعة نشاهد الكثير من هذه الخوارق التى عجز عن تفسيرها العلم الحديث (فتأمل).

۲- والمعروف من أنواع الطيور الأربعة هى: الطاووس والديك والحمام والغراب، وكلّ واحد من هذه الطيور يحمل صفات متميّزة وقد شبّهوا حركات الإنسان بحركات هذه الطيور، فالطاووس هو مظهر الكبرياء والرياء، والديك هو مظهر الشره الجنسى، والحمام هو مظهر اللهو واللعب، والغراب هو مظهر الآمال البعيدة المنال!

وجاء فى كثير من التفاسير احتمالات اخرى أيضاً منها: أنّ تلك الطيور هى الهدهد والبوم والقصر والنسر «۱».

ومن البديهى أنّ خصوصيات تلك الطيور المذكورة لا علاقة لها بأصل المسألة، غاية مانعلم هو أنّ أنواع الطيور كانت مختلفة وهذا الإختلاف جاء من أجل الحكاية عن اختلاط تراب البشر مع بعضه.

أمّا عدد الجبال التى وضع إبراهيم عليه السلام عليها أجزاء تلك الطيور فهى عشرة طبقاً لما ذُكر فى الروايات ويحتمل أن يكون وقوع هذه الحادثة بعد ذهاب إبراهيم عليه السلام إلى الشام، لأنّ أرض بابل خالية من الجبال.

۳- قصة أصحاب الكهف

ورد محتوى هذه القصة فى سورة الكهف خلال أربع عشرة آية، وجاء فى بعضها:

---

(۱) تفاسير مجمع البيان والقرطبى والكبير ونور الثقلين فى ذيل الآية مورد البحث.

«وَكَذلِكَ اعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَارَيْبَ فِيها». (الكهف/ ۲۱)

نستفيد بوضوح من هذا التعبير بأنّ أحد الأهداف المتوخّاة من هذا السبات العجيب والطويل الذى له شبه كبير بالموت هو أنّ هذه الحادثة تعتبر درساً لجاحدى المعاد أو للذين ينتابهم الشك والترديد فى هذا المجال.

ويعين على ذلك بالخصوص مااستنبطوه من جملة: «اذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ»، من أنّ الناس اختلفوا فى ذلك الزمان فى مسألة المعاد (المعاد الجسمانى) فالمخالفون كانوا يسعون لمحو آثار قصة أصحاب الكهف كى يسلبوا هذا البرهان القاطع من أيدى المؤمنين بالمعاد (لقد احتملوا فى تفسير هذه الجملة احتمالات جمّة، وماقلناه هو أحد هذه الاحتمالات).

وقد ذكر الفخر الرازى فى تفسيره خمس احتمالات اخرى فى تفسير هذه العبارة، منها الاختلاف فى عدد أصحاب الكهف، ومنها الاختلاف فى أسمائهم أو فى مدّة نومهم وفى مسألة المعبد الذى شُيّد بالقرب من الغار هل كان على غرار معابد المشركين أو معابد الموحّدين «۱».

فالآيات الواردة فى هذه السورة من القرآن صرحت بوضوح بأنّ مدّة نومهم امتدّت إلى ثلاثمائة وتسع سنين: «وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِيْنَ وَازْدَادُوا تِسْعاً». (الكهف/ ۲۵)

إنّ نوماً عميقاً كهذا يشبه الموت، والنهوض بعده أشبه بالحياة بعد الموت بلا شك، لذا فهو يصلح أن يكون نموذجاً حياً للمعاد من وجهة نظر التاريخ.

توضيحات

اشارة

هناك حديث طويل يدور حول هذه القصة، إلّاأنّ ما يتعلق بموضوع بحثنا هو عدّة امور:

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۱۰۵.

۱- ملخص الحادثة

إنّ ما جاء فى القرآن المجيد والروايات المستفيضة فى هذا المجال هو مايلى: كان هناك ملك ظالم يدعى «دقيانوس» وقيل إنّ اسمه

«دسيوس» وكان متسلطاً على شعب وثنى حوالى الفترة مابين القرن الأول إلى القرن الثالث الميلادى، وكانت عاصمة البلاد تدعى «أفسوس»، وكان لهذا الملك عدّة وزراء قد بانت لهم سخافة الوثنية من خلال أحد الحوادث فرجّحوا التحرر من قيود هذه الخرافات على الاحتفاظ بمناصبهم، فهجروا ديارهم سرّاً من دون أن يعينوا هدفاً لمسيرهم، وأخيراً عثروا على غارٍ فاختبؤا فيه فالقى اللّه عليهم نوماً عميقاً يثير العجب حتى إذا استيقضوا من نومهم العميق هذا تساءلوا فى ما بينهم فظنّوا أنّهم لبثوا فى نومهم يوماً أو بعض يوم ولكن مظاهر وسمات أطراف الغار كانت تُنبئ عن شيٍ آخر لذا تسرب الشك إليهم.

ولكونهم جياعاً بعثوا أحدهم إلى المدينة ليأتيهم بالطعام سرّاً، لكّن المسكوكات النقدية كشفت سرّهم وساعد فى ذلك أكثر تصرفاتهم وعاداتهم غير المألوفة لدى الناس فى ذلك العصر، بالإضافة إلى أنّ قصة توارى عدد من الشبّان من أصحاب المناصب الرفيعة عن الأنظار كانت متداولة بين الناس فى تاريخهم المعاصر، فاتحدت جميع هذه الشواهد للدلالة على أنّ هؤلاءهم الذين تواروا عن الأنظار فى تلك الفترة!

فسمع الملأ- بهذا الخبر والتفوا حولهم، لكن اولئك الشبان عادوا إلى كهفهم وتواروا إلى الأبد فبنى الناس هناك معبداً لتخليد ذكراهم.

۲- قصة أصحاب الكهف فى كتب التاريخ

هل ورد ذكر لهذه القصة فى كتاب آخر غير القرآن أم لا؟ وهل ذكر فى التوراة والانجيل الحاليين شيئاً عنها؟

إنّ الجواب عن السؤال الأول بنعم، أمّا الجواب عن السؤال الثانى فهو لا.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۶

لأنّ وقوع هذه الحادثة كما ذكر المؤرخون- يتعلق بالفترة التى تلت ميلاد المسيح عليه السلام، وقد صرّح البعض بأنّ وقوع هذه الحادثة حصل فى الفترة مابين عام ۲۴۹- ۲۵۱ ميلادى، فعلى هذا لا يمكن أن تكون مذكورة فى التوراة والانجيل، نلاحظ ماورد فى كتاب أعلام القرآن:

«إنّ خلاصة ما نقله المؤرخون الاوربيون عن قصة أصحاب الكهف هو: فى عصر دكيوس (۲۴۹ م- ۲۵۱ م) الذى كان يسوم المسيحيين سوء العذاب، هرب سبعة شبان من النبلاء ولجأوا إلى غار، فأمر دكيوس أن يغلقوا فوهة الغار ببناء جدار عليه ليهلكوا جوعاً وعطشاً، لكن هؤلاء السبعة غرقوا فى نوم عميق، وبعد مرور ۱۵۷ عام استيقظوا من نومهم فى عصر الملك «تيوذر الثانى» ويطلق المؤرخون الاوربيون على هؤلاء اسم النيام السبعة فى أفسوس».

وجاء فى فصل آخر من هذا الكتاب: إنّ أول من سرد هذه القصة هو «جاك» فى القرن الخامس الميلادى، وهو من سكنة «ساروك» الذى كان يرأس الكنيسة فى سوريا خلال رسالة كتبت بالسريانية، وترجم هذه الرسالة من السريانية إلى اللاتينية شخص يدعى «غوغويوس» وانتخب لها اسم «جلال الشهداء» «۱».

لقد احتلت هذه القصة مقاماً متميزاً فى التاريخ الإسلامى والادب الشرقى والغربى، وتمكنت هذه القصة من وضع بصماتها على الادب «الروسى» و «الحبشى» أيضاً «۲».

بناءً على هذا فإنّ القرآن الكريم لم ينفرد بذكر هذه الحادثة، بل ورد ذكرها فى الكتب التأريخية الاخرى

۳- مكان الغار

المشهورة أنّ الغار يقع بالقرب من مدينة «افسوس» أحد مدن آسيا الصغرى (تركيا

(۱) أعلام القرآن، ص ۱۷۱- ۱۷۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۸۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۷

الحاليـة التى تشـتمل على قسم من بلاـد الروم الشـرقية القديمـة)، بـالقرب من نهر «كـايستر» الواقع على بعـد ما يقارب أربعين ميلًا إلى جنوب شرق «أزمير» «۱».

وقد كسبت مدينة «افسوس» شهرتها العالمية من المعبد ومجمع الأصنام الشهير «اوطاميس» الذى يعتبر من عجائب الدنيا السبع «۲».

لكنّ البعض يرى بأنّ غار أصحاب الكهف يقع فى موضعٍ بالقرب من الشام يدعى «طرطوس» «۳».

ويوجد حالياً موضعٌ بالقرب من دمشق يزوره الناس اشتهر باسم غار أصحاب الكهف.

لكنّ الرأى الأول أشهر.

۴- قصة أصحاب الكهف فى تصور العلم الحديث

هل يمكن للإنسان أن يعمرّ ولعدّة قرون ويتساوى لديه أن يكون فى حالة اليقظة أم فى حالة النوم؟

ولو سلّمنا بامكانيـة ذلك فى اليقظـة فإنّ المعضـلة تزداد تعقيداً فى حالة النوم، لأنّ هذا يعنى أنّ الإنسان يمكنه البقاء حيّاً من دون أن يتناول طعاماً أو ماءً، بينما يحتمل أن يحتاج الإنسان خلال هـذه المدّة وفى الظروف العادية إلى أكثر من مائة طن من الغذاء ومائة الف ليتر من الماء!

هذه هى التساؤلات التى طرحها العلم حول هذه الحادثة، ويحتمل أن تكون هذه التساؤلات هى السبب فى سلوك طريق الجحود من قِبَل لم يجدوا جواباً لها، واعتبروا هذه القصة «اسطورة» من الأساطير.

لكنّ البحوث الأخيرة للعلماء من ناحية، والاكتشافات التى وصلت الينا عن

---

(۱) فرهنگ قصص القرآن، ص ۳۵۱.

(۲) القاموس المقدّس، ص ۸۷.

(۳) دائرة المعارف، دهخدا، مادة (أصحاب الكهف).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۸

الموجودات الحيّة من ناحية اخرى تؤكّد على إنكار هذا الأمر ليس بهذه البساطة.

ومن أجـل أن نتعرف إجمالًا على المنهـج العلمى للعلمـاء المعاصـرين فى هـذا المجال نُلقى نظرة خاطفـة على الصـحف العلميـة التى نشرت حديثاً:

جاء فى إحدى هذه الصحف فى موضوع تحت عنوان هل (ينتصر الإنسان على الموت)؟

فى عام ۱۹۳۰ سـعى عالم الاحياء الشهير «متالينكف» لأن يثبت بأنّ الحياة الخالدة موجودة بالقوة فى نفس الطبيعة، وأنّ مهمة العلم هى أن يصل إلى كشف أسرار الحياة الخالدة.

فهو يقول: إنّ الاحياء البسيطة مثل أحاديات الخلايا لا تموت فى الواقع، لأنّها تبقى حيّة إلى مالا نهاية عن طريق انشطار الخليّة الحيّة ... فلمـاذا نسـتغرب أن تكون هناك موجودات حيّـة مركّبـة من ملايين من الخلايا الخالـدة وأنّ علينا نحن العلماء أن نتوصل إلى كشـف أسرارها.

وجاء فى فصل آخر من هـذه المقالـة موضوع بعنوان (نوم سـتمائة عام) مايلى: مثل هـذه الأفكار كانت تقوى يوماً بعـد آخر حتى جاء

البروفسور «ايتنجر» فصاغها بصيغة علمية، قال ايتنجر: بإمكاننا الآن أن نتحدث عن الحياة الخالدة بلا تردد، لأنّ الحياة الخالدة ثبتت امكانيتها نظرياً، وقد بلغنا من التقنية ما يساعدنا على تحقيق ذلك عملياً.

ثم تحدّث عن استمرار الحياة بواسطة التجميد فأضاف: عندما تنخفض درجة حرارة الجسم بشدّة فإنّ سير الحياة يبطأ حتى كأنّه يتحرر من قيود الزمان، وعندما يقترب انخفاض درجة حرارة جسمنا من «الصفر المطلق»، (الصفر المطلق/ (۲۷۰) درجة سانتيغراد تحت الصفر فى المحرار المئوى!) فإنّ مقدار الحرارة الكافى لاستمرار الحياة لمدة ثانية واحدة فى الظروف الاعتيادية يكفى حينئذٍ لادامة الحياة عدة قرون!

ثم تحدّث عن جزيئات الملح البلورية الشكل التى تحتوى فى داخلها على خلايا متحجرة من البكتريا والعائدة لعصور مضت قبل مائة مليون عام، وقد هيأ هذا العالم لها

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۶۹

الظروف الملائمة فعادت إلى الحياة ثانية وبدأت بالتكاثر (وهذا فى الحقيقة يعنى أنّ تلك البكتريا نهضت من رقادها بعد مائة مليون عام) وبعد هذه التجربة قام هذا العالم بجمع بلورات الملح من جميع أرجاء العالم ومن مناطق مضى عليها ستمائة مليون عام! فهيّأ لها الظروف الملائمة ورأى ببالغ العجب بأنّ هذه المتحجرات انبعثت من نومها العميق! وبهذا سجّل رقماً قياسياً آخر «ستمائة مليون عام» لحياة هذه الموجودات الحيّة المجهرية!

وهذا العالم يرى أنّ هذا الأمر يمكن أن ينطبق على الإنسان أيضاً من وجهة نظر العلم (وهذا الإنجماد يحصل خلال اللحظة التى تسبق الموت طبقاً لظروف معينة بحيث تصان اجهزة البدن من حدوث أىّ تلف) «۱».

إنّنا لا نرى أنّ أصحاب الكهف كانوا منجمدين، بل نقول بالتحديد إنّ النوم العميق يؤدّى إلى بطء فعالية أجهزة الجسم إلى ادنى حدّ ومن المحتمل فى هذه الحالة أن تكفى الطاقة المخزونة لديه لإدامة الحياة عدّة قرون، لأنّ نوماً كهذا ليس أمراً معتاداً وقد تحقق بإذن اللّه وفى ظروف خاصة غير طبيعية.

يقول القرآن الكريم إنّ نور الشمس لم يمسّهم أبداً: «وَتَرى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَّزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الَيمِيْنِ وَاذَا غَرَبَتْ تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ». (الكهف/ ۱۷)

أمّا مسألة السبات (لو تتبعنا حياة كثير من الحيوانات لوجدنا أنّها تغرق فى سبات عميق طيلة الشتاء) فى عصرنا الحاضر من الامور البديهية، ففى هذا النوع من الرقاد تتوقف الحياة فى الأجسام تقريباً ولا يبقى إلّابصيص منها، فضربات القلب تهبط إلى حدٍ وكأنّه قد توقف عن العمل، ويمكن تشبيه جسم الحيوان فى هذه الحالة بأفران ضخمة لم يبق فيها بعد خمود نارها إلّاشعلة صغيرة، وممّا لا ريب فيه هو أنّ مقدار الوقود الذى تحتاجه الافران لحرقه فى يوم واحد قد تتغذّى عليه تلك الشعلة الصغيرة مئات السنين.

إنّ العلماء يرون أنّ السبات لا يختص بالحيوانات التى لا تتناسب درجة حرارة أبدانها مع درجة حرارة محيطها بل يحصل السبات لدى الحيوانات ذات درجة الحرارة الثابتة

---

(۱) مجلة (دانستنيها) تشرين الثانى- ۱۹۸۲، العدد ۸۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۰

أيضاً، ففى مرحلة السبات تصبح الفعاليّات الحياتية بطيئة كثيراً وتتغذى تلك الحيوانات على الشحم الذى تدّخرة فى أجسامها «۱».

وليس غرضنا هنا التعرض لكيفية نوم أصحاب الكهف، بل الغرض الرئيسى هو بيان أمرين:

الأول: هو أنّ نومهم بنحو الإجمال لم يكن نوماً طبيعياً، على الأخص لو استندنا إلى ماقاله القرآن: «لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً». (الكهف/ ۱۸)

والأمر الثانى: هو أنّ القوانين الحاكمة على النوم المعتاد لا تنطبق على هذا النوع من النوم، فمن المحتمل فى هذا النمط من النوم أن تبلغ مسألة استهلاك الطاقة فى البدن من الانخفاض حدّاً ينتفى معها موضوع التغذية كلياً.

۵- قصة هزيمة بنى اسرائيل

النموذج الآخر الذى ذكره القرآن الكريم هو القصّة الواردة فى سورة البقرة بخصوص مجموعة مؤلفة من آلاف الأشخاص فرّوا حذر الموت وهجروا ديارهم، لكن فرارهم هذا لم ينقذهم، فوقعوا فى مخالب الموت بإذن اللّه، وبعد ذلك احياهم اللّه مرّة اخرى قال تعالى

«اَلَمْ تَرَ اِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ اُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ». (البقرة/ ۲۴۳)

ادّعى المفسرون بأنّ هؤلاء كانوا فريقاً من بنى اسرائيل فرّوا من ديارهم خوفاً من الملاريا أو الطاعون، لكنّهم ما برحوا حتى ماتوا بذلك الوباء فمرّ أحد انبياء بنى اسرائيل ويدعى «حزقيل» ودعا اللّه عزوجل أن يمنّ عليهم بالحياة، فأحياهم اللّه ليكونوا دليلًا على احياء الموتى (فى مقابل جاحدى المعاد).

وجاء فى بعض الروايات أنّ هؤلاء كانوا يسكنون احدى مدن الشام وكان الطاعون

---

(۱) دائرة المعارف «فرهنگ نامه» مادّة (زمستان خوابى).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۱

يصيبهم بين الحين والآخر، فكلّما بان لهم أثر الوباء غادر المدينة أثرياؤهم وبقى الفقراء فريسة للهلاك فيموت منهم الكثير، أمّا الفارّون فإنّهم غالباً ما ينجون.

بعد ذلك قرروا أن يهاجروا جميعاً بمجرد ظهور آثار الطاعون وهكذا خرجوا فراراً من الموت.

إلّا أنّه لم ينج أحد منهم وماتوا جميعاً بأمر اللّه «۱».

إنّ الآية المذكورة لم تشر إلى أنّالغرض من احيائهم هو اجراء مشهد المعاد فى الدنيا، لكن بعض الروايات الواردة فى هذه الحادثة صرّحت بذلك «۲».

ونواجه هنا مرّة اخرى تفسيراً منحرفاً لبعض المفسرين الذين يصطلح عليهم بالمثقفين ونحن نعلم بأنّ فهم مثل هذه الحوادث ذات الأبعاد الاعجازية صعب على أفراد من هذا القبيل لذا فإنّهم رفضوا بالمرة حكاية وقوع هذه الحادثة بالشكل الوارد فى ظاهر القرآن الكريم واعتبروا بيان تلك الحادثة مجرّد مثال لحياة وموت الامم الذى يعتبر كناية عن النصر والهزيمة.

فقالوا: إنّ الآية المذكورة تخبر عن جماعة من الناس فقدوا سيادتهم واستقلالهم كلياً فأصبحوا كامّة ميتة، ثم نهضوا من نومهم وشمروا عن سواعدهم وحصلوا على استقلالهم وسيادتهم بما مَنَّ اللّه عليهم «۳».

لكننا نعلم بأنّ مثل هذه التفاسير والآراء إذا دخلت إطار القرآن الكريم فإنّ كثيراً من حقائقه سوف تكون عرضة للانكار، وحينئذٍ يستطيع كل شخص أن يفسّر الآيات الشريفة بتفسيرات ملائمة لميوله ورغباته ويصبح القرآن الذى يعتبر هادياً ومسيّراً للناس وسيلة لدعم أفكار وميول هذا وذاك! فيكون تابعاً بدلًا عن أن يكون متبوعاً.

وعندما تنهى الروايات بشدّة عن التفسير بالرأى، وتُشبهُ من يفسر القرآن برأيه بالذى يهوى من السماء إلى الأرض، فالمراد منه مثل هذا التفسير المنحرف الخارج عن الضوابط والقواعد السليمة لفهم القرآن.

---

(۱) تفسير مجمع البيان؛ وتفسير الكبير؛ وتفسير نورالثقلين فى تعليقهم على ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۳۴۷.

(۳) تفسير المنار، ج ۲، ص ۴۵۸.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۲

فإن أراد هؤلاء- بهذه التفاسير- اقناع الماديين، فإنّهم لن يقتنعوا بها، وإن أرادوا نفى وقوع الظواهر الخارقة للقوانين الطبيعية فهذا ممّا لا يرتضيه المؤمنون ولا المخالفون أيضاً.

قصة قتيل بنى اسرائيل:

الحدث الأخير الذى ورد ذكره فى القرآن المجيد كمثال ملموس لإحياء الموتى فى هذه الدنيا هو القصة المتعلقة بفئة من بنى اسرائيل.

فى هذه القصة يُقتل أحد الشخصيات البارزة منهم غيلةً، فيقع بينهم شجار عنيف من أجل العثور على القاتل، فكل قبيلة منهم تتهم القبيلة الاخرى بارتكاب القتل، وخوفا من اتساع رقعة النزاع بينهم بما يهدد بخطر جسيم، لذا فانّهم ذهبوا إلى موسى عليه السلام راجين منه الحل، فما كان من موسى عليه السلام إلّاأن حل هذه المعضلة بواسطة الاستعانة بألطاف اللّه تعالى عن طريق معجزة آمن بها الجميع.

فقد أمرهم بذبح بقرة لكن ذبحها لم يتم بسهولة طبعاً، فقد عاد إليه المتذرعون من بنى اسرائيل كراراً للسؤال عن اوصاف تلك البقرة وأخّروا انجاز ذلك العمل بهذه الأسئلة التافهة الفارغة، وأخيراً ذبحوا بقرة تحمل أوصاف معيّنة وضربوا القتيل بجزء منها فعاد مدّة وجيزة إلى الحياة وكشف عن قاتله.

وجاء فى القرآن الكريم فى القسم الأخير من هذه القصة قوله تعالى: «وَاذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا (فتنازعتم فيها) وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* فَقُلْنَا اضْرِبُوه بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيْكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعقِلُونَ». (البقرة/ ۷۲- ۷۳)

والعجيب فى هذه القصة هو أنّ الضرب بقطعة من جسم «ميت» بجسد «ميت آخر» يؤدّى إلى إحيائه لإحقاق الحقيقة!، فما هى العلاقة بين هذين الأمرين؟ وما هو المؤثر فى ذلك؟ بديهى أنّ هذا من الأسرار الإلهيّة التى لا يعلمها أحد إلّاذاته المقدّسة، فهو لا يوضّح أكثر من ذلك بل يقتصر على الاستدلال بهذا وهو أنّ إحياء الموتى فى عالم الآخرة أمر يسير

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۳

بالنسبة لقدرته، فلا توجد هناك ضرورة لأنّ يولد «الموجود الحى» من موجود حىّ آخر، بل يمكن أن تنبعث شرارة الحياة من تلاقى عضوين ميتين!

وجملة: «كَذلِكَ يُحيِ اللَّهُ المَوْتَى تدلّ بوضوح على هذه الحقيقة وهو أنّ القتيل فى هذه القصة قد عادت له الحياة واصبح نموذجاً محسوساً للدلالة على بعث البشر بعد موتهم.

ونواجه هنا أيضاً بعض الكُتّاب من أمثال مؤلف «المنار» الذى يصرّ على حمل جملة تامة الوضوح على خلاف ظاهرها من دون وجود أى قرينة عقلية أو لفظية على ذلك، ومن دون أن تكون هناك أى ضرورة.

قال صاحب المنار: «يحتمل وجود سنّة لديهم وهى أنّهم كانوا إذا وجدوا قتيلًا بالقرب من أحد المدن ولم يعثروا على قاتله كان كل واحد منهم يغسل يده خلال طقوس معيّنة ليبرأ من القتل، وكل من يمتنع من أداء ذلك فإنّهم يعتبرونه هو القاتل، والمراد من احياء الموتى هنا هو حقن الدماء التى كانت تراق بسبب هذه الاختلافات أى أنّ اللّه حقن الدماء بواسطة هذا التشريع!» «۱».

وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً فإنّ هذه التفاسير هى نوع من التلاعب بالالفاظ تحط من شأن «كلام اللّه» وتفسح المجال لأنّ نستدل بكل

الآيات على كل شيء وأن نحمل الألفاظ على الكناية والمجاز من دون وجود أى قرينة، ومن غير أى مبرر لهذا العمل، لأنّ المتدينين فى كل الأحوال يؤمنون بالمعجزات والخوارق؟ فما هى الضرورة لهذا التكليف.

ونضيف أيضاً: إنّ انتخاب البقرة للذبح يحتمل أن يكون من أجل تقديم قربانٍ للّه‌تعالى

أمّا مايتعلق بدوافع ارتكاب هذه الجريمة، فقد جاء فى الروايات أنّ شاباً قتل عمَّه من أجل الحصول على أمواله (أو من أجل أن يتزوج منه ابنته) على هذا يكون سبب تلك الجناية هو حب المال أو النساء (هذه هى الدوافع الرئيسية لارتكاب جرائم القتل فى العالم)، وتحتوى هذه الحادثة العجيبة وعلى الأخص تفاصيلها- على بنود تربوية كثيرة اعرضنا عن ذكرها لخروجها عن دائرة موضوع بحث المعاد ومن أجل الاطلاع راجع تفسير

---

(۱) تفسير المنار، ج ۱، ص ۳۵۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۴

الامثل ذيل الآية ۵۵ و ۵۶ من سورة البقرة. «۱»

كانت هذه هى النماذج المتعددة المحسوسة من إحياء الموتى التى ذكرها القرآن المجيد وبهذا الحديث ينتهى بحث إمكان المعاد، ونتوجه إلى بحث الأدلة العقلية لوقوع المعاد.

---

(۱) جاءت فى سورة البقرة إشارة إلى نموذج آخر من مشاهد الحياة المستأنفة بعد الموت عندما رافق وجهاء بنى اسرائيل موسى عليه السلام إلى جبل الطور وطلبوا منه أن يروا اللّه فأصابت الجبل صاعقة اندك لها الجبل وصُعِقَ موسى عليه السلام ومات بنو اسرائيل، ثم بعثهم اللّه لعلهم يشكرون «ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرونَ».

(البقرة/ ۵۶)

بما أنّ هذه الآية لم تأت من أجل إثبات المعاد، فلذلك لم نجعلها من ضمن آيات البحث، وعلى الاخص بعدما احتمل عدد من المفسرين أنّ بنى اسرائيل لم يموتوا عندما شاهدوا الصاعقة، بل اغمى عليهم، وفسر آخر الموت هنا بمعنى الجهل والبعث بمعنى العلم (ذكر الآلوسى هذين التفسيرين فى روح المعانى نقلًا عن بعض المفسرين، ج ۱ ص ۲۳۹) وإن كانت هذه التفاسير على خلاف ظاهر الآية وغير مقبولة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۵

دلائل وقوع المعاد

اشارة

۱- برهان الفطرة

۲- برهان الحكمة

۳- برهان العدالة

۴- برهان الغاية والحركة

۵- برهان الرحمة

۶- برهان الوحدة

۷- برهان خلود الروح

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۷

دلائل وقوع المعاد

تمهيد:

يوجد فى القرآن الكريم أدلة منطقية وعقلية متعددة لإثبات المعاد، فهو يصرّح بها حيناً ويلمح إليها حيناً آخر، وبعبارة اخرى أنّ القرآن من خلال تلميحاته وإشاراته ارشد المسلمين إلى تتبع هذه الأدلة والبراهين.

فالقرآن المجيد لم يعتمد فى الامور الاعتقادية على التعبد والكلام غير المستند، بل ارشد إلى الأدلة العقلية، لذا فقد تشكل الآية القصيرة أحياناً جسراً للوصول إلى دليل عقلى مهم، ولدينا فى مباحث التوحيد نماذج عديدة من هذا القبيل وسوف نلاحظ ذلك فى مباحث المعاد أيضاً- بإذن اللّه- من خلال بحثنا هذا.

والأدلة الصريحة والتلميحية الرئيسية فى القرآن المجيد هى سبعة براهين:

۱- برهان الفطرة.

۲- برهان الحكمة.

۳- برهان العدالة.

۴- برهان الغاية والحركة.

۵- برهان الرحمة.

۶- برهان الوحدة.

۷- برهان خلود الروح.

وسوف نتناول بالشرح كل واحد من هذه البراهين السبعة:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۷۹

۱- برهان الفطرة

اشارة

المراد من برهان الفطرة هنا (كما هو المراد من الاستدلال بالفطرة فى جميع الموارد) هو أنّ الإنسان يرى فى أعماقه عقيدة وإيماناً بحقيقةٍ ما، ويشعر من خلال الإيمان بوجود عالم الآخرة والقيامة والعدالة الإلهيّة.

ولا ريب أنّ هذا المعنى يمكن توضيحه وبيانه بعدّة طرق، وبعد شرح آيات القرآن المجيد سوف نتعرض لهذا الأمر فى فصل التوضيحات، والآن لنتأمل خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

۱- «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيْفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذٰلِكَ الَّدِيْنُ الْقَيِّمُ». (الروم/ ۳۰)

۲- «لَااُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ* وَلَااُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ* ايَحْسَبُ الْانسَانُ أَلَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ». (القيامة/ ۱- ۳)

جمع الآيات وتفسيرها

المعاد يكمن فى أعماق الروح:

قد يحتمل البعض بأنّ الآية الاولى المذكورة أعلاه لا تشير إلّاإلى الفطرة التى تهدى إلى معرفة اللَّه، لكن التعمق فى الآية يهدى إلى أنّ موضوع دلالتها عام، وأنّها تعتبر الدين كله فطرياً، بمعنى جميع الاصول الاعتقادية، بل حتى عموم فروع الدين فطرية وأنّ الأحكام الشرعية موجودة فى أعماق الفطرة بصورة إجمالية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۰

قال تعالى «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّيْنَ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الَّدِيْنُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُون».

وهكذا نلاحظ أنّ كلمة «دين» قد تكرر ذكرها مرتين فى الآية، وليس ذلك إلّالأجل الدلالة على جميع الحقائق الدينية، وهو سبحانه وتعالى يؤكد بالقول: «فطرة اللَّه» ثم يضيف إلى ذلك: «لا تبديل لخلق اللَّه» ويؤكد ثالثاً، على هذه المسألة ويقول: «ذلك الدين القيم».

وبهذا يستخدم التأكيد ثلاث مرات على أنّ الدين امر فطرى بالنسبة للإنسان «۱».

ويستفاد من مجموع ماورد فى هذه الآية أنّ مسألة معرفة اللَّه ليست هى القضية الوحيدة التى فطر اللَّه الإنسان عليها، بل إنّ الاعتقاد بالقيامة ومحكمة العدل الإلهيّة كذلك.

والجدير بالذكر هو أنّ الروايات التى وردت فى تفسير هذه الآية قد أشارت إلى هذا المعنى أيضاً.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه عندما سُئل عن معنى الفطرة فى هذه الآية، أجاب: هى الإسلام «۲».

وجاء فى الدر المنثور نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: فطرة اللَّه التى فطر الناس عليها: دين اللَّه «۳».

وجاء فى حديث مشهور روى من طرق الشيعة والسنة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«مامن مولود إلّايولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه وينصرانه ويُمجسانه ...» «۴».

---

(۱) «حنيف» بمعنى خالص أو لا يوجد فيه أى منعطف نحو الضلالة، والأصل فى الاستعمال هو «الميل» إلّاأنّها جاءت هنا بمعنى الانعطاف نحو الحق، و «الفطرة» من مادّة «فطر» على وزن (سَطَرَ) بمعنى الشقّ، وبما أنّ الإنشاء والخلق كأنّه شق لحجاب العدم فقد استخدمت هذه الكلمة فى الخلق والإنشاء، و «قيّم» بمعنى ثابت وذو استقامة.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۱۸۴، ح ۵۴.

(۳) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۱۵۵.

(۴) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۱۵۵؛ وتفسير جامع الجوامع فى تعليقه على الآية المعنية؛ وكذلك فى تفسير الميزان، ج ۲۱، ص ۱۸۸.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۱

وفى الآية الثانية اقسم تعالى بأمرين: «لَاأُقْسِمُ بِيَومِ الْقِيَامَةِ* وَلَا اقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ».

يرى البعض أنّ «لا» تحمل معنى النفى فى هذه الآية، فيكون مفهومها هو أننى لا اقسم بهذين الأمرين، والغرض من ذلك هو التأكيد، كما لو نقل لأحد: أنا لا أقسم بحياتك من أجل بيان أنّ حياتك أرقى من أن ينالها قسمى.

لكن أكثر المفسرين يرى أنّ «لا» زائدة جاءت من أجل التأكيد، فبناءً على هذا أقسم اللَّه ب «يوم القيامة» كما أنّه أقسم ب «النفس اللوامة» أيضاً.

و «النفس اللوامة»: هى وجدان الإنسان وضميره الذى يلومه على ارتكاب الذنوب، وكلّما كانت الخطيئة أكبر كان توبيخ الضمير

وعـذاب الوجـدان أشـدّ، وقـد يقـدم بعض الناس على الانتحار من أجل الخلاص من العذاب الحاصل من ارتكاب الذنوب العظيمة أو الجرائم البشعة، وقد سمع أو رأى أكثرنا بهذا الأمر بالنسبة للقتلة الذين ارتكبوا جرائم عظيمة أو الذين اقترفوا ذنوباً كبيرة.

وذكر هـذين الأمرين (يوم القيامـة النفس اللوامـة) مقترنين بعنوان موضوعين عظيمين وقيّمين يستحقان القسم بهمـا إنّمـا هو من أجل الدلالة على الرابطة الموجودة بينهما ... فيوم القيامة هو المحكمة الإلهيّة الكبرى و «النفس اللوامة» هى محكمة مصغرة وقيامة تستقر فى أعماق روح كل إنسان، أو بتعبير آخر كأنّ هـذا التقارن يقول بلسان الحال كيف تشكّون فى محكمـة يوم القيامة وأنتم تشاهدون فى أعمـاقكم نموذجـاً مصـغراً منه؟ إنّكم تلمسون ذلـك كثيراً فعنـدما تعملون عملًا صالحاً تمتلئون نشاطاً وبهجـة، فهـذه السـكينة وارتياح الضـمير هو ثواب تمنحه أيّـاكم روحكم، وعنـدما تقترفون ذنبـاً تـألمون وتنهال عليكم سـياط الضـمير من أعماقكم، فهـذا العـذاب هو عقاب تعيّنه لكم محكمة الضمير!.

فإن كانت هناك محكمة فى أعماق كل واحد منكم فكيف لا توجد هناك محكمة الهية عظيمة على مستوى الكون العظيم؟!

وممّا يجلب الانتباه هو القسم بنفس يوم القيامة لإثبات يوم القيامة، فكأنّه يقول: قسماً بيوم القيامة إنّ القيامة حق «۱».

---

(۱) يجب الالتفـات إلى أنّ «ماجاء القسم من أجله» محـذوف فى الآيـة، والـدليل عليه فى الجملـة اللاحقـة فيكون التقـدير «لتبعثن يوم القيامة».

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۲

وهنا يطرح السؤال الثانى نفسه وهو: إن كان هـذا القسم موجّه للمؤمنين فلا داعى له هنا، وإن كان موجه للمنكرين فكيف يقسم بما لا يؤمنون به؟!

وللتخلص من هذه المعضلة قدّر بعض المفسرين كلمة «ربّ» وقالوا إنّ التقدير هو اقسم بربّ القيامة بأنّ القيامة واقعة «۱».

واحتمـل أيضاً أنّ هـذا القسم جاء تأكيـداً للـذين يؤمنون بأصل يوم القيامـة إلّاأنّهم يشـككون فى تفاصـيلها، فالقرآن يقسم بأصل يوم القيامة لإثبات التفاصيل التى وردت بعد القسم فى الآية.

وهناك تفسير آخر يحتمل أن يكون افضل من التفسيرين السابقين، وهو: إنّ القرآن أشار بـذلك إلى أنّ الاعتقاد بيوم القيامة بلغ من البداهة حداً كبيراً حتى أنّه يُقسم به فى مقابل المعاندين، وبتعبير آخر أنّه استعان بفطرتهم على دحض آرائهم.

وأمّا بالنسـبة ل «النفس اللوامة» فللمفسـرين أقوال كثيرة فيها حتى نقل أحدهم سـتة تفسيرات لها، منها: إنّها للدلالة على النفس المؤمنة التى تلوم نفسها حين التقصير.

ومنها: أنّها للدلالة على النفس الكافرة التى تلوم نفسها يوم القيامة عندما تشاهد أعمالها.

ومنها: أنّها ذات مفهوم اشمل من المؤمن والكافر.

ومنها: أنّها إشارة إلى آدم عليه السلام بعد طرده من الجنّة.

لكنّ المناسب للمقام ووجود القسم الـدال على السـموّ، والشـرف للاقتران بيوم القيامـة هو أنّ النفس اللوامة هى نفوس المؤمنين الذين لم يبلغوا بعد حدّ الكمال.

توضـيح ذلـك: إنّالنفوس الإنسانيـة على ثلاثـة أنواع: فنوع من النفوس «مظلمـة» لا ترى قيمـة للقسم ولا تبـدو عليها آثار السـير نحو الكمـال ولا التنبيه من الغفلـة ولا تحمـل شـيئاً من آثـار يوم القيامـة، فهؤلاء هم أصـحاب «النفوس الأمارة» النفوس التى تأمرهم دوماً بالإساءة واقتراف الخطايا.

وهناك نفوس أخرى «نصف نورانية» تسير نحو الكمال على منهج الحق، وهذه النفوس

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۰، ص ۲۱۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۳

كلما ارتكبت خطيئة بمقتضى الحيثية المظلمة فإنّها تصحو من غفلتها بفعل نور الإيمان وتبدأ بلوم نفسها وتوبيخها ... ذلك اللّوم الذى يصبح سبيلًا لنيل الكمال، وهى نفس رفيعة ونموذج مصغّر من مشاهد القيامة والتى تُدعى ب «النفس اللوامة».

وثالثاً النفوس النورانية تماماً، فكلها «نور وصفاء» فقد تجاوزت النفس اللّوامة إلى مرحلة الاطمئنان والسكينة فجاءها خطاب: «يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ» وقد أمرت بالرجوع إلى منبع الكمال المطلق بخطاب «ارْجِعِي» فدخلت فى روضة عباد اللَّه الصالحين فهى: «رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً».

وقصارى الكلام فى تفسير هذه الآية وكيفية دلالتها على المراد هو إنّ هذا التقارن بين القسمين مع الأخذ بنظر الاعتبار فصاحة القرآن وبلاغته لا يمكن أن يكون مصادفة، بل يجب أن تكون هناك علاقة بين يوم القيامة وبين النفس اللّوامة، وهذه النسبة هى أنّ كل إنسان (إن لم تنحرف فطرته بفعل التربية الخاطئة) له وجدانٌ يؤنبهُ عند ركوب الخطايا ويستحسن فعله للخير.

وهذا الوجدان الشخصى الذى هو عبارة عن محكمة صغيرة تستقر فى روح الإنسان، دليل على ضرورة وجود ضمير كبير لهذا العالم العظيم يحاكم ويلوم المجرمين ويعاقبهم، وما هذا الضمير الكبير إلّايوم القيامة.

توضيح

المعاد يتجلى فى الفطرة

إنَّ المسائل الفطرية وإن كانت إدراكية لا استدلالية، واضحة ومرئية لا مسموعة، بل يجب على كلّ شخص البحث عنها فى أعماقه ليعثر عليها، ولكن مع ذلك ومن أجل مساعدة الجميع فى البحث وسماع صوت الوجدان بسهولة، ومن أجل قراءة كتاب الفطرة بتأنّى، وكذلك للحصول على بيان مُقنع للتحدث به أمام المعاندين فإنّ التوضيحات التالية تعتبر ضرورية:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۴

۱- إذا كنّا خلقنا للفناء فما معنى حبّ البقاء؟

لا يمكن لأحد أن ينكر هذه الحقيقة وهى فراره الدائم من الموت الذى يعتبره «العدم»، وحُبه لطول العمر، بل حبّه للخلود.

إنّ السعى من أجل البقاء والسعى من أجل الحصول على «إكسير الشباب» والسعى للحصول على «ماء الحياة» الذى ذكرت له نماذج فى طيّات كتب تاريخ البشرية ومساعى العلماء وأشعار الشعراء كلها بسبب حب البقاء عند الإنسان كما أنّ حب الإنسان لأبنائه يعتبر امتداداً لحياته وهو دليل على الحب الغريزى للبقاء أيضاً.

فلو كنّا مخلوقين من أجل الفناء فإنّ وجود هذه الغريزة لدينا يكون عبثاً، ولا يكون فى الحقيقة إلّاحباً مضراً لاهدف من وجوده، فكيف يضيف الخالق الحكيم إلى وجودنا مثل هذا الأمر المضر الزائد: (يرجى الالتفات إلى أنّ بحث المعاد يأتى بعد إثبات بحوث التوحيد والإيمان بالذات المقدّسة الإلهيّة).

فى الواقع أنّ وجود الغريزة فى الإنسان يدل على وجود طريق لاشباعها وتلبية متطلّباتها، فالعطش دليل على وجود الماء، والجوع دليل على وجود الغذاء، وحب الجنس الآخر دليل على وجوده، فإن يكن الأمر كذلك فهو لا يتلائم مع حكمته تعالى

بناءً على هذا يعتبر حبّ البقاء المغروس فى فطرة الإنسان دليلًا واضحاً على الحياة الخالدة.

وللعالم المعروف المرحوم الفيض الكاشانى حديث ظريف فى هذا المجال، فقد قال:

«كيف تفنى الروح الإنسانية وقد اودع فى طبيعتها حبّ الوجود والبقاء بمقتضى حركته كما أنّه اودع فى نفس الإنسان بغض العدم والفناء؟! بينما قد ثبت استحالة البقاء والخلود فى هذا العالم، فإن لم يكن هناك عالم آخر ينتقل إليه الإنسان فإنّ هذه المسألة الغريزية الارتكازية التى اودعها اللّه فى فطرة الإنسان، أى حبّ البقاء الدائم والحياة الخالدة سوف تصبح عبثاً، والخالق الحكيم قد تنزّه عن اللغو والعبث» «۱».

---

(۱) علم اليقين، المرحوم الفيض الكاشانى، ج ۲، ص ۸۳۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۵

أو على حدّ تعبير أحد العلماء المعاصرين: إن تعطّش البشر لحياة خالدة بلغ من السعة والقوة بما لا يمكن معه القبول بأنّ مثل هذه الآمال لا تتحقق.

۲- إن لم يكن المعاد أمراً فطرياً فلماذا لا يزول الاعتقاد به من نفس الإنسان على مرّ العصور؟

إنّ عادات وتقاليد الشعوب فى تغيير دائم، فالثقافة بصورة عامّة تابعة للتغيير، فلا يبقى شىء ثابت على مرّ العصور من دون أن يتأثر بمسار الزمان إلّاامور تأصلت جذورها فى أعماق الفطرة.

وبناءً على هذا التوضيح فإنّ فصل المسائل الفطرية عن الامور المعتادة أمرٌ عسير، وبتعبير آخر فإنّ كل شىء يحافظ على بقائه على مرّ التأريخ (وإن اختلفت مظاهره) يمثّل بقاؤه أفضل دليل على كونه أمراً فطرياً، وما قلناه يصدق تماماً على مسألة اهتمام الإنسان بالحياة بعد الموت (فتأمل).

يقول علماء النفس المعاصرون: إنّ العقائد الدينية، والتى تعتبر مسألة الاعتقاد بالمعاد واحدة منها، رافقت الإنسان على الدوام حتى فى عصور ماقبل التاريخ.

وكمثال على ذلك ننقل كلام «صاموئيل كنيغ» الذى ورد ذكره فى كتاب علم الاجتماع، قال: «العقائد الدينية لا تختصّ بعالمنا المعاصر فحسب، بل ثبت من خلال التحقيقات التاريخية الموثّقة بأنّ المجتمع البشرى القديم كانت لديه نوع من العقائد الدينية، فالأسلاف البشرية القديمة، أو ما يسمى بانسان (النياندرتال) كان لهم دين أيضاً لأنّهم كانوا يدفنون أمواتهم تحت التراب بصورة خاصّة، ويدفنون معهم الآلات التى كانوا يستخدمونها فى أعمالهم خلال حياتهم، وقد أثبتوا بسلوكهم هذا بأنّ هناك عالماً آخر» «۱».

إنّ التجذر العميق للعقائد الدينية لدى بنى الإنسان يعد بحد ذاته دليلًا على أنّالعقائد

---

(۱) جامعة شناسى «علم الاجتماع»، ص ۱۹۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۶

الدينية امور فطرية.

۳- هل يعقل أن توجد فى أعماقنا محكمة صغيرة بينما لا توجد فى هذا الكون الكبير محكمة عادلة؟

إنّ وجود الوجدان الأخلاقى أو بتعبير آخر وجود محكمة الضمير أمرٌ محسوس لدى الجميع، فكل إنسان يطير فرحاً ويشعر بالرضا العميق عندما يقدم خدمةً إنسانية عظيمة وينقذ مجموعة من المظلومين والمحرومين، وكل من يقترن بجريمة فيقع فريسة فى مخالب الاضطراب ويشعر بآلام عميقة، (إنّ الحديث هنا لايشمل المجرمين المدمنين على الاجرام الذين مسخت فطرتهم بسبب تكرار ارتكابهم للذنوب، بل الحديث عن سائر الناس).

فيتضح حينئذٍ أنّ الاعتقاد بالمعاد يكمن فى أعماق فطرة البشر من دون حاجة إلى استدلال آخر لإثباته مع توفر ما لايُحصى من الأدلة العقلية لإثباته.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۷

۲- برهان الحكمة

تمهيد:

لو ألقينا نظرة اجمالية على عالم الوجود لرأينا أنّ كل المخلوقات لم تخلق إلّالغرضٍ معين موافق للحكمة وخاضع لقوانين ومسارات محدّدة.

ثم لنلقى نظرة على حياة الإنسان ولنفترض بأنّ «الموت» هو نهاية كل شيء بالنسبة له، فبقاء الإنسان لمدّة معينة مع ما يواجهه من صعوبات مع تناول مقدار من الغذاء والماء ثم يموت وينتهى كل شيء سيكون عبثاً وبلا هدف، ومن البديهى فإنّ شيئاً كهذا لا يمكن أن يعتبر هدفاً من خلق الإنسان، كما أنّه لا يمكن أبداً أن يتلائم أمر كهذا مع حكمة الخالق الحكيم.

وقد جاء هذا المعنى بصورة حية وملموسة فى آيات القرآن المجيد فلنتفكّر فيما جاء فى هذا المجال من آياتٍ قرآنية كريمة:

۱- «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَانَّكُمْ الَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ». (المؤمنون/ ۱۱۵)

۲- «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ والْارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ» «۱».

(الحجر/ ۸۵)

۳- «أَيَحْسَبُ الْانْسَانُ انْ يُتْرَكَ سُدىً ... أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى .

(القيامة/ ۳۶- ۴۰)

---

(۱) وهناك آيات اخرى فى القرآن المجيد مثل الآية ۲۷ من سورة ص؛ الآية ۳۸ من سورة الدخان؛ والآية ۱۹۱ من سورة آل عمران حيث تحدثت أيضاً عن أهداف الخلق، ولكن بما أنّها لم تُشر بصراحة لمسألة المعاد ومحكمة القيامة فقد اعرضنا عن ذكرها ولم نجعلها ضمن الآيات المذكورة أعلاه.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۸

جمع الآيات وتفسيرها

الحياة بلا معاد لامعنى لها:

أشار القرآن المجيد إلى أوضح أدلة المعاد من خلال جملة قصيرة نافذة المعنى قال تعالى «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَانَّكُمْ الَيْنَا لَاتُرْجَعُونَ».

أى: إنْ لم تكن هناك قيامة وكانت حياتكم تتلخّص فى هذه الأيام المعدودة، لكانت حياتكم عبثاً ولم يكن لها أىّ قيمة، والحياة الخالدة هى التى تعطى لحياتكم معنىً فى هذه الدنيا وتخرجها من دائرة العبث وتجعلها متسقة مع الحكمة الإلهيّة.

ولأجل هذا ختم تعالى هذه الآية بقوله: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ». (طه/ ۱۱۴)

فوجوده حقّ من جميع الجهات، ولا يجد الباطل منفذاً إليه، وإنَّ العبث واللاهدفية أمرٌ باطل، والحق لايتلائم مع الباطل.

و «عبث»: على حدّ قول صاحب مقاييس اللغة وصاحب «المفردات»: فى الأصل بمعنى الشوب والخلط، ثم أطلقت على الامور غير الهادفة والتى لا تحمل أىَّ هدف صحيح.

وقال فى «لسان العرب»: هى بمعنى اللعب، وإن عـدّوا الخلط من معانيها، واطلقت اجمالًا على الأعمال غير الهادفـة والباطلة والخالية من الأغراض العقلائية، ولاشىء من هذه المعانى يصدق على خلق الإنسان.

وقـد ورد نفس هـذا المعنى فى الآية الثانية وبقالب آخر، قال تعالى «وَمَا خَلَقْنَا السَّموَاتِ والَارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا الّا بِالْحَقِّ»، ثم أضاف على الفور: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ».

من المحتمـل أن يكون ذكره‌لهاتين العبارتين مقترنتين دليلًا على هـذا الأمر فإن كان الهـدف من خلق هـذا العالم العظيم مع كل ما فيه من العجائب والبركات والنعم وكل هذه الأسـرار الخفية من أجل عدّة أيّام من الحياة المادية الدنيويّة فحسب، فهو أمرٌ باطل ولا يتلائم مع الحق إذن، فالحياة الاخرى تعطى معنى وحقانية لهذه الحياة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۸۹

ففى الآيـة السابقـة كان الحـديث يـدور حول «سـلب العبث» من خلق الإنسان، وفى هـذه الآيـة يـدور الحديث حول «حقّانية» خلق كلّ العالم، وكلاهما يرميان نحو هدف واحد، وهو إنّ الحياة الدنيا إذا ماجردت عن الحياة الآخرة فإنّها سوف تكون أمراً باطلًا لاغرض منه وخالياً من كل معنى وهذا ممّا لا يصدر عن الحكيم أبداً.

وجاء فى تفسير الميزان: إنّ المراد من الحق فى‌هـذه الآيـة هو ما قابل اللعب والباطل، والدليل على ذلك هو جملة «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ»، وتفسير «الحق» بمعنى «العدل والانصاف» غير صحيح «۱».

والجـدير بالالتفات هو أنّ اللَّه تعالى أمر رسوله بالعفو والصـفح ... ذلك الصـفح الجميل الخالص الـذى لا يشوبه حتى اللوم والعتاب، قال تعالى «فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الجَمِيلَ».

(الحجر/ ۸۵)

ومن المحتمل أن يكون هذا التعبير إشارة إلى هذا المعنى وهو: يا أيّها النبى بما أنّ الهدف من الخلق هو تربية البشر وإعدادهم لمرحلة الآـخرة، فعليك أن تراعى جميع اسـس التربيـة التى يعتبر الصـفح والعفو والرأفـة واللين من ضـمنها، وبالأخص مراعاة ذلك مع الجهلة والمتعصبين.

ومن الجدير بالذكر أيضاً أنّ مفهوم الآية الاولى هو إن لم تكن هناك آخرة فإنّ خلق الإنسان يكون «من العبث»، ومفهوم الآية، الثانية (طبقاً للتفسـير المذكور أعلاه) هو: إن لم تكن هناك آخرة فإنّ خلق كل العالم يكون باطلًا وعبثاً، فمن المحتمل أن يكون السـبب فى ذلك هو بيان سـمو ثمرة الخلق وهى الإنسان وسمو شجرة الخلق وهى العالم، فإن لم تكن هناك حياة خالدة تتمثل فى الآخرة فسوف يكون خلق «الثمرة» و «الشجرة» كلاهما أمراً عبثاً وغير هادف.

والمراد من تعبير «ما بينهما» شـمول جميع أصـناف الملائكة وكذلك النور والحرارة والسـحاب والهواء وأنواع الغازات، بل تشـمل فى أحد أبعادها اصناف الموجودات التى تعيش على وجه الأرض من البشر وجميع أنواع الحيوانات الاخرى والنباتات.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۲، ص ۱۹۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۰

وفى الآيـة الثالثة والأخيرة أشار تعالى إلى الهدف من خلق الإنسان، وأوضح العلاقة التى تربطه بالمعاد، قال تعالى «أَيَحْسَبُ الْانْسَانُ انْ يُتْرَكَ سُـدىً»، ثم أشار إلى خلق الإنسان من ماءٍ مهين (النطفـة) وأشار إلى مراحل تكامله فى الرحم فأضاف: «أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى .

وبهذا يتّضح أنّ الهدف من خلق‌الإنسان لا يحصل إذا جُرد من الحياة الآخرة.

فـإنَّ فعـل الخـالق الحكيم لاـ يخلو من الهـدف وهـذا أمرٌ بـديهى، ومن البـديهى أيضاً أنّ النفع الحاصل من أفعاله لايعود إليه بفائـدة،

وذلك لأنّه غير محدود وغنى بالذات من جميع الجهات، إذن فلا يعود النفع إلّالعباده، ولكن هل من الممكن أن تكون هذه الحياة القصيرة المشوبة بأنواع المصائب هى الهدف من هذا الخلق العظيم؟ كلّا طبعاً.

لذا لا يبقى أمامنا طريق إلّاالقبول بثبوت الآخرة واعتبارها هى الهدف من هذا المسير التكاملى للإنسان.

و «سُدىً»: على وزن (هُدى)- نقلًا عن كتاب «التحقيق»: فى الأصل بمعنى التحرك العبثى الخالى عن الفكر والتدبير والبرمجة الصحيحة، من أجل هذا اطلقوا على الجِمال التى تجول فى الصحراء من دون راع «إبل سُدى ، وقيل: إنّ «سَدى» على وزن (وَفا) وقد اطلقت على قطرات الندى التى تتساقط ليلًا، لأنّها لا تتساقط بنظم معيّن، واطلقوا «سدى على ما مُدّ من خيوط القماش قبل أن تُحاك بالكامل، لأنّه قبل الحياكة يكون مهملًا وغير مفيد.

وقصارى القول هو: إنّ الآية تقول- من خلال استفهام إنكارى- أيمكن أن يترك الإنسان مع كل هذه الاستعدادات والطاقات الفكرية والجسمية والإمكانات المختلفة بدون أن يوضع له برنامجٌ معينٌ؟ ثم تستنتج من كل ذلك مسألة حتمية التكاليف والمسؤولية ثم حتمية وجود المعاد.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۱

توضيح

هل يمكن للعاقل أن يعتبر الأيّام المعدودة من هذه الحياة هى الهدف من الخلق؟

إنّ ممّا لا ريب فيه أنّ العالم الذى نعيش فيه عظيم جدّاً ودقيق ومنظم، فالكرة الأرضية هى إحدى كواكب المنظومة الشمسية، ثم المنظومة الشمسية بدورها تعتبر أحد اجزاء المجرّة، ومجرّتنا أيضاً واحدة من المجرّات اللامتناهية فى العدد الموجودة فى هذا العالم.

جاء فى كتاب (جولة فى أعماق العالم) لمؤلفه البروفسور «كارل فليسيس» الذى يسافر إلى أطراف هذا الكون الفسيح عبر أجنحة الخيال:

«إنّ هذه المجموعات الضخمة التى تدور حول محورها تسبح فى الفضاء بفواصل عظيمة جدّاً ممّا يجعل تصورها أمراً عسيراً.

فكل واحدة من هذه المجرّات تتألف من عدّة مليارات من النجوم، والمسافة الفاصلة بين هذه النجوم تبلغ من العظمة حداً، أحياناً يحتاج النور (مع ماليه من سرعة هائلة) لاجتياز هذه الفواصل الموجودة بين نجمتين متقابلتين واقعتين فى محيط تلك المجرّة إلى مئات السنين من الزمان» «۱».

وإذا أضفنا لهذا الكلام هذه الجملة وهى: إنّ علماء الفلك المعاصرين توصلوا من خلال تحقيقاتهم إلى أنّ ما تحتويه مجرّتنا من النجوم يقارب مائة مليارد نجمة على الأقل، وما توصل إليه العلم الحديث هو اكتشاف ألف مليون مجرّة فى هذا العالم،- هذا من ناحية العظمة-.

وأمّا من ناحية الدقّة الموجودة فى كل جزء من أجزاء هذا العالم فإننا إذا قارنّا الدقّة الموجودة فى خلية واحدة بالدقّة الموجودة فى مدينة صناعية كبيرة بجميع ما تحتويه من مصانع فسوف يمكننا حينذاك تصور هذه الدقّة.

ومن بين المخلوقات يعتبر الإنسان أكمل الموجودات التى نعرفها على أقل تقدير، لما فيه من نظام خاص للروح وللجسم، ولاحتوائه على العجائب والدقة والظرافة، فإذا كانت

---

(۱) جولة فى أعماق العالم، ص ۸.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۲

جوهرة عالم الخلق (أى الإنسان) هى عبارة عن عيشه لأيام معدودة فى هذا العالم لقضاء حياته فى دور الطفولة والضعف حيناً وفى دور الشيخوخة والعجز حيناً آخر وتتأرجح به أمواج الشباب مدّة وفى مدّة اخرى يكون سالماً وأخرى مريضاً ويقضى أكثر مدّة حياته فى توفير متطلباته الحياتية التى تتلخص فى «الغذاء والنوم» ثم فى نهاية المطاف يموت ويفنى فياله من أمر قبيح وبعيد عن الحكمة، فإننا عندما نقول: إنّ اللَّه حكيم فهذا يعنى أنّ جميع أفعاله مطابقة للحكمة، أوَ ليس من الحكمة أن تكون جميع أفعاله ذات أهداف واضحة ومبرمجة؟ وهل يجوز أن يكون هدفه جلب النفع لنفسه مع أنّه غنى من جميع الجهات ولديه جميع الكمالات من غير أن تكون محدودة بحد، فإن كان النفع من أفعاله لا يعود على العباد فمن البديهى أن لا تكون تلك الحياة الماديّة المحدودة فى هذه الدنيا هى الهدف الرئيسى من هذا الخلق العظيم، تلك الحياة التى ينطفىء بصيصها فى طرفة عين.

أليس مثل هذا كمثل المهندس الذى يصنع محركاً صناعياً عظيماً ودقيقاً خلال سنين متمادية فيحطمه فور تشغيله والانتهاء منه؟ فهل هذا من الحكمة؟

ألا يشبه هذا الأمر أن نقوم بتربية طفلٍ فى رحمٍ صناعى وبذل جهود مضنية فى سبيل ذلك حتى يوشك على الاكتمال ويستعد للحياة فنعمد إلى قتله!

إنّ الماديين الذين لا يؤمنون باللَّه والمعاد، يرون أنّ الحياة غير هادفة وأنّها خالية من أىّ مفهوم، وهم محقّين فى ذلك بهذه النظرة! لأنّ الحياة عند تجريدها عن المعاد تصبح غير هادفة وعديمة المعنى

لذا فإنّ من آمن باللَّه وحكمته ليس له إلّاالإقرار بأنّ حياة الإنسان لا تنتهى بالموت، وإنّ هذا العالم يشبه رحم الأم الذى يحمل الإنسان ويُعده للخروج إلى عالم آخر، ومن البديهى أنّ الحياة داخل رحم الأم لا تُعتبر الهدف النهائى، بل تُعتبر مقدمة لحياة اخرى أوسع.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۳

۳- برهان العدالة

تمهيد:

إنّنا نعلم بأنّ «العدل» أحد صفات البارى تعالى تلك العدالة التى يدل عليها كل جزء من أجزاء عالم الوجود كالسماء والأرض، ووجود الإنسان وضربات قلبه وجريان دمه فى عروقه ... إلخ، وذلك لأنّه: «بِالعَدْلِ قَامَتِ السَّمواتُ وَالْاَرْضُ» «۱».

فهل يمكن أن يُستثنى الإنسان من هذا العالم الواسع؟ ولا تشمله العدالة المهيمنة على هذا العالم؟

ومن ناحية اخرى إنّ التأريخ البشرى والأحداث المعاصرة أثبتت بوضوح أنّ إحقاق حق المظلومين ومعاقبة الظالمين لا يتمّ بصورة كاملة فى هذا العالم وليس بالإمكان حتّى مشاهدة ذلك إلا بنحو «القضية الجزئية» إذن بمقتضى العدالة الحاكمة على هذا العالم والتى تعتبر جزءاً من عدالة اللَّه تعالى يجب أن يكون هناك يوم لمحاسبة أعمال جميع البشر بدّقة متناهية ومن دون أى استثناء، وذلك اليوم هو الذى نطلق عليه اسم (القيامة).

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن المجيد لنتأمل خاشعين فى الآيات الشريفة التالية:

۱- «افَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِيْنَ كَالْمجْرِمِيْنَ* مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ». (القلم/ ۳۵- ۳۶)

۲- «امْ نَجْعَلُ الَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الارْضِ امْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِيْنَ كَالْفُجَّارِ». (ص/ ۲۸)

۳- «امْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ انْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ* وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالارْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» «۲». (الجاثية/ ۲۱- ۲۲)

(۱) تفسير الصافى، ذيل الآية ۷ من سورة الرحمن.

(۲) وقد استدلوا فى هذا المجال بآيات اخرى أيضاً مثل: سورة يس، ۵۹؛ الزلزال، ۷ و ۸؛ الانبياء، ۴۷، ولكن بما أنّ دلالاتها غامضة فقد أعرضنا عن ذكرها.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۴

جمع الآيات وتفسيرها

العدالة لا تتحقق بدون القيامة:

قال تعالى فى الآية الاولى بعد أن أشار إلى ثواب المتقين العظيم فى سورة القلم:

«افَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِيْنَ كَالُمجْرِمِيْنَ».

فهل من الصحيح المساواة بين هذين الفريقين؟ وهل تقتضيى العدالة ذلك؟ ثم أضاف وقال: «مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ».

لا يمكن للعاقل القبول بأنّ عاقبة المسلم والمجرم، والمطيع والعاصى، والعادل والظالم تكون واحدة، أو أن ينسب هذا الأمر إلى اللّه الذى راعى الدقة والعدالة فى جميع افعاله.

وهناك احتمالان للمفسّرين فى تفسير هذه الآية:

الاحتمال الأول: إنّ هذه الآية تشير إلى مسألة المعاد، لأننا نرى المسلم والمجرم متساويين غالباً فى هذه الدنيا، بل قد يحصل المجرم على امتيازات لا مشروعة فى هذه الدنيا أكثر ممّا يحصل عليه المسلم، إذن يجب أن يتفوق «المسلم» على «المجرم» فى الآخرة، لأنّها من مقتضيات العدالة.

الاحتمال الثانى: إنّ هذه الآية أتت جواباً لقوم مشركين كانوا يقولون: لو كانت هناك قيامة فإنّنا سوف نتمتع بظروف حسنة كما نحن عليه فى هذه الدنيا كما يقال: (السَنَة الجيدة تعرف من ربيعِها) فأجابهم القرآن: هل من الممكن أن يساوى اللّه العادل بين المسلمين والمجرمين؟

ولا يوجد هناك منافاة بين هذين التفسيرين على الظاهر، بل يمكن حمل مفهوم الآية كلا المعنيين، وتبقى هناك ملاحظة وهى أنّهذه الآية الشريفة تثبت حكم العقل بالحسن والقبح والإدراكات العقلية الاخرى بقطع النظر عن تأييد الشرع لذلك، (فتأمل).

والملفت للنظر أنّ الفخر الرازى فى بداية حديثه عدّ هذه الآية من أدلة ما نقل عن مذاهب أهل السنّة أنّه يجوز للّهأن يُدخل العاصين الجنّة وأن يُدخل المطيعين النار، «الحسن والقبح العقليين» قال: ويقبح بحكم العقل طبقاً للآية ولكن بما أنّ الرازى من

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۵

الأشاعرة ومن منكرى الحسن والقبح العقليين فقد أجاب: إنّ إنكار هذه المساواة من باب الفضل والاحسان الإلهى لا من باب أنّ لأحدٍ حقّاً عليه تعالى «۱».

إنّ ضعف هذا الرأى لايحتاج إلى دليل فقد أمرهم القرآن بصراحة بأن يُحكِّموا العقل فى هذه الموارد ثم خاطبهم بخطاب مقرون باللوم والتوبيخ فى قوله: «مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ»؟

أى أنّ هذا الرأى لا يليق بالإنسان العادل، وهذا دليل واضح على إثبات حاكمية العقل والمنطق فى مثل هذه الامور.

وفى الآية الثانية تابع القرآن الكريم هذا المعنى بصراحة أكثر وبصورة أوسع، قال تعالى

«امْ نَجْعَلُ المُتَّقِيْنَ كَالْفُجَّارِ».

والملاحظة النظرية هنا هو أنّ الآية السابقة لهذه الآية وضّحت الهدف من خلق السماء والأرض وما بينهما فى قوله تعالى: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالارْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا». (ص/ ۲۷)

إنّ خلق السماء والأرض بالحق من ناحية وعدم المساواة بين المؤمنين الصالحين والمفسدين الفجّار من ناحية اخرى يقتضى أن تكون هناك قيامة ومحكمة عادلة، وبهذا اندمج «برهان الحكمة» وبرهان العدالة فى هاتين الآيتين.

أجل إنّ من ينكر المعاد هو الذى يشك فى حكمة اللَّه وعدالته معاً، لأنّه لا يبقى فى هذه الحالة هدف يليق بخلق الدنيا ولا يبقى هناك ما يميز المطيعين من الفاسقين.

ومن الجدير بالذكر هو أنّ «المفسدين» فى هذه الآية يقابلهم «المؤمنون الصالحون» وإن «الفجار» يقابلهم «المتّقون» وهذه المقابلة إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنّالإنسان إذا فقد الإيمان والعمل الصالح فإنّه سوف يكون فى زمرة المفسدين شاء ذلك أم أبى وإذا ما فقد التقوى أى القوة الرادعة عن ارتكاب الذنوب فسيقع فى زمرة الفجار.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۰، ص ۹۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۶

و «الفجّار»: من مادة «فجر» بمعنى الشق الوسيع، وكأنّ الفجور شق لحجاب الدين والطاعة.

وقد تحدثت هذه الآية بوضوح عن حاكمية العقل وحجيّة الإدراكات العقلية فى مجال الحسن والقبح، وهى دليل واضح لإثبات أنّ العقل يدرك بعض الحسن وبعض القبح قبل أن يصل إليه حكم الشرع، والعجيب هو أنّ الفخر الرازى- فى هذه الآية- سلم بهذا الأمر ضمنياً، بينما أنكره فى الآية السابقة! «۱».

وهذا يعنى أنّالإنسان إذا راجع وجدانه فسوف ترتقع عنه حجب التعصب ويعترف فى قرارة نفسه بهذا الواقع.

وفى الآية الثالثة ورد نفس هذا المعنى ولكن فى قالب آخر، قال تعالى «امْ حَسِبَ الَّذِيْنَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ انْ نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَماتُهُمْ».

إنّ هذا لا يمت إلى عدالة اللَّه بصلة، وصدور أمر كهذا عنه قبيح وهو محال: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ»، فهل يمكن أن يتساوى الحسن والقبح أو الطهارة والرجس أو الصالح والطالح أو المؤمن والفاسق أو الظلمات والنور ... إنّ هذا لأمر محال.

أمّا فى ما هو المراد من (سواء محياهم مماتهم)؟ فقد احتمل المفسرون فى تفسيرها عدّة احتمالات!

فقالوا تارة: إنّ المراد من الحياة والموت فى هذه الآية هو الحياة والموت فى دار الدنيا، وذلك لأنّ الإيمان والعمل الصالح له آثار إيجابية على كيان الإنسان فهو ينير القلب وينير الفكر مضافاً إلى أنّ المؤمن ينال هداية اللَّه ونصره وحمايته، بينما لا يكون الأمر كذلك فى حالة الكفر والعصيان، فإنّ الكفر يخيم بظلامه على القلب والروح ويحرم الإنسان من المدد الإلهى.

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۶، ص ۲۰۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۷

وقالوا تارةً اخرى إنّ هذه الآية تشير إلى الموت فى هذه الدنيا للانتقال إلى الآخرة، أى ان الفريق الأول يعتبر مصداقاً لهذه الآية: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِيْنَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ». (النحل/ ۳۲)

بينما يعتبر المذنبون مصداقاً لهذه الآية: «فَكَيْفَ اذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وَجُوْهَهُمْ وَادْبَارَهُمْ». (محمد/ ۲۷)

وهناك احتمالات اخرى لا تستحق الذكر فى تفسير هذه الآية، لكن الجمع بين التفسيرين المذكورين سهل، وإن كانت الآية التالية لها

تتناسب مع التفسير الثانى، لأنّه تعالى قال: «وَخَلَقَ اللَّهُ السَّموَاتِ وَالارْضَ بِالْحَقِّ». «وَلِتُجْزَى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ» «۱».

وبما أنّ الحديث عن العدالة الإلهيّة وحقانية خلق السموات والأرض وعن ثواب وعقاب كل إنسان على قدر عمله من ناحية، ومن ناحية اخرى وكما قلنا سابقاً- إنّ هذا الأمر لا يتمّ فى الدنيا بصورة شاملة، إذن يجب أن تكون هناك حياة اخرى بعد الموت لإقامة العدالة وإحقاق الحق.

توضيح

العدل هو النظام الحاكم على الخلق:

إنّ كل من لديه إلمامٌ بسيط بالعلوم الطبيعية بإمكانه أن يلاحظ أنّ جميع الكائنات فى هذا العالم تخضع لنظم وقوانين معيّنة، ودقّة هذه القوانين جعلت علماء الطبيعة يدوّنون فيها الكتب طبقاً لهذه المعادلات الدقيقة، ففى مجال الرحلات الفضائية مثلا نجد العلماء قد نظموا جميع برامجهم العلمية الدقيقة بالاعتماد على هذه القوانين الطبيعية.

---

(۱) قال الزمخشرى فى تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۲۹۰»: جملة «ولتجزى» معطوفه على قوله «بالحق»، لأنّها تحمل معنى التعليل (بناءً على هذا يكون مفهوم الآية بهذا النحو: خلق اللّه السموات والأرض ليحق الحق ولتجزى ...) ثم قال ويحتمل أن تكون معطوفة على جملة محذوفة فيكون التقدير: خلق اللّه السموات والأرض بالحق ليدل بها على قدرته وتجزى كل نفسٍ.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۸

وبتعبير آخر: إنّ كل ما تقع عليه أنظارنا يخضع للنظم والعدالة، وقد شملت هذه القوانين كل شىء ابتداءً بالمنظومات الشمسية وانتهاءً بأصغر ذرة.

ومن ناحية اخرى لا يمكن استثناء الإنسان من قانون العدالة السائد بمشيئة اللّه على جميع عالم الوجود، ولا يتسنى له عدم الانسجام مع أجزاء الكون الاخرى لأنّ هذا الاستثناء إن وجد يكون من دون مرجح، وبهذا ستوقِن من وجود محكمة أُعُدّت للإنسان أيضاً يحضر فيها جميع البشر ليتقاسموا حصصهم من العدالة الشاملة لكل عالم الوجود.

كان علماء العقائد فى السابق يستدلون بهذا الدليل لإثبات مسألة المعاد، وكانوا يحتجّون بأمثلة من مظالم البشر التى انتهت فى هذه الدنيا من دون تحكيم العدالة فيها، فالتاريخ يحفل بكثير من الظلمة الذين عاشوا مرفهين طيلة حياتهم حتى غادروا الدنيا، ومظلومين ظلّوا يعانون الظلم والعذاب حتى لفظوا أنفاسهم الأخيرة.

فهل من الممكن أن يرضى اللّه العادل بهذه الامور؟ ألا تتنافى هذه المشاهد وعدالته؟

وهكذا يصل العلماء إلى هذه النتيجة بسهولة وهى ضرورة وجود عالم آخر لتطبيق العدالة الإلهيّة فى خصوص البشر، وفى إطار مبدأ الآية القرآنية: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ». (الزلزلة/ ۷- ۸)

وبناء على هذا فإنّ القيامة تعتبر الموضع الذى يتجلّى فيه العدل الإلهى، وهناك يجاب عن جميع هذه الاستفهامات.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۱۹۹

۴- برهان الغاية والحركة

تمهيد:

ممّا لا شک فيه أنّ الإنسان قد خلق لهدفٍ معين، خلافاً لما يتصوره الماديون أنَّ خلق العالم ليس له هدف ولا غاية، فالرؤية الكونية للإلهيين ترى وجود هدف من خلق الإنسان وأنّه خلال سعيه وحركته التكاملية يسير نحو هذا الهدف.

فإن كانت الحياة تنتهى بالموت فمن البديهى أن لا يصل الإنسان إلى هذا الهدف، أو بتعبير آخر: إنّ حياة الإنسان يجب أن تستمر وتمتد إلى ما بعد الموت كى يصل الإنسان إلى التكامل اللائق به وليحصد هناك ما زرعه فى هذه المزرعة.

وقصارى القول: إنّ قبول وجود هدفٍ من الخلق لا- يجتمع وإنكار المعاد، فإنّنا لو جرّدنا ارتباط حياة الإنسان عن عالم ما بعد الموت فإنّ كل الامور تأخذ طابع الابهام وترتدى لباس الغموض.

وبهذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات الكريمة التالية:

۱- «يَا أَيُّهَا الانْسَانُ إِنَّکَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّکَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ۶)

۲- «وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ». (فاطر/ ۱۸)

۳- «إِنا لِلَّهِ وَانَّا الَيْهِ رَاجِعُونَ». (البقرة/ ۱۵۶)

۴- «الَى رَبِّکَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ». (القيامة/ ۱۲)

۵- «الَى رَبِّکَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ» «۱». (القيامة/ ۳۰)

---

(۱) هناک آيات اخرى متعددة فى القرآن تتناسب مع الآيات المذكورة أعلاه ترى أنّ الكل يرجع إلى اللَّه مثل: العلق، ۸؛ المؤمنون، ۱۰۸؛ الانعام، ۱۰۸، الأنبياء، ۹۳؛ الجاثية، ۱۵.

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع يسير نحو اللَّه:

وجّه تعالى خطابه فى الآية الاولى إلى جميع البشر فقال: «يَا أَيُّهَا الانْسَانُ إِنَّکَ كَادِحٌ الى رَبِّکَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ».

و «كدح»: على وزن (مَدْح)- على حدّ قول عدد من المفسرين- وهو فى الأصل بمعنى الخدش الوارد على الجلد، لذا اطلقت هذه الكلمة على السعى وبذل الجهد لأنّه يؤثر على الروح والبدن «۱».

وجاء فى مفردات الراغب: إنّ الكدح بمعنى السعى المشوب بالمعاناة والتعب.

ولكن جاء فى الميزان: بما أنّ «كدح» تعدت ب «إلى فهى تعنى السير والحركة (ولا تضاد طبعاً بين هذين المعنيين) «۲».

ومن مجموع ما تقدم نستنتج أنّ القرآن المجيد شبّه البشر بقافلة بدأت مسيرها من نقطة العدم فوضعت أقدامها فى أقليم الوجود، ثم اتّجهت من هناک نحو الربّ كى تصل إلى لقائه، ويشير إلى هذا المعنى التعبير ب «وَإِنَّ الَى رَبِّکَ الْمُنتَهى». (النجم/ ۴۲)

من الممكن أن ينحرف فريق عن هذا المسير ولا ينالوا لقاء اللَّه أبداً، لكن الأساس فى خلق الإنسان هو الوصول إلى هذا الهدف.

و «لقاء اللَّه»:- كما أشرنا سابقاً- يعنى مشاهدة الرّب مشاهدة قلبية والوصول إلى مقام الشهود القلبى الذى يصل إليه الإنسان عن طريق سيره التكاملى، وهو من أهم مقامات القرب إلى اللَّه.

وفى الآية الثانية تحدث سبحانه عن الطهارة والتقوى وتزكية البشر التى يعود نفعها عليهم جميعاً، قال تعالى «وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ». ثم يضيف: «وَالَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

والجملة الأخيرة جاءت للدلالة على أنّ الصالحين والطاهرين إن لم يدركوا كل

---

(۱) تفاسير الكشاف؛ وروح المعانى؛ والكبير، فى تعليقهم على الآية مورد البحث.

(۲) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۳۶۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۰۱

مقوّمات التقوى والنزاهة فإنّهم سوف يعودون إلى اللَّه وسوف يرون نتائج أعمالهم فى دار البقاء.

على أيّة حال فإنّ جملة «وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» هى تقرير لهذه الحقيقة وهى أنّ سير الإنسان التكاملى لا ينتهى بالموت وسوف يستمر حتى يلاقى اللَّه.

قال المفسر الكبير المرحوم الطبرسى فى تفسير الآية الثالثه من آيات بحثنا: «قالوا إنّا للَّه» هذا إقرار بالعبودية أى نحن عبيد اللَّه وملكه «وإنّا إليه راجعون» هذا إقرار بالبعث والنشور، أى نحن إلى حكم اللَّه نصير، ولهذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ قولنا «إِنَّا لِلَّهِ» إقرارٌ على أنفسنا بالملك، وقولنا «وَإِنَّا اليه رَاجِعُونَ» إقرارٌ على أنفسنا بالهلك» «۱».

ومن الجدير بالذكر إنّ القرآن المجيد ذكر هذه العبارة بعنوان كأفضل ما يقوله الصابرون عند حلول المصائب بهم ... فهى عبارة تزيل الهم عن الإنسان عند حلول المصائب وتوقظ قلبه وروحه عند مواجهة الصعاب وتطرد وساوس الشيطان عن روح الإنسان فى تلك اللحظات الحساسة، وذلك لأنّه يعترف من ناحية بأنّه وجميع ما يملك ملك للَّه، فهو الذى يعطى النعم وهو الذى يسلبها، وقد قال بعض المفسرين فى مجال سلب النعم: بما أنّ الكريم لا يسلب ما وهب فإنّ سلبه يعتبر ادخار ذلك لموضع افضل، وهذا بعينه يعتبر مواساة لمن حلت به المصيبة.

ومن ناحية اخرى فإنّه عندما يعترف بالرجوع إليه فإنّ هذا التعبير هو مواساة اخرى لأنّه يعنى الرجوع إلى مركز فيضه ولطفه ورحمته والرجوع نحو دار الخلد وموعد اللقاء مع اللَّه.

لذا قال البعض: إنّ هذه العبارة من المواهب الإلهيّة العظيمة التى منَّ بها اللَّه على هذه الامة كى يستعينوا بها فى المصائب، وكم من فرقٍ شاسع بين هذه الآية وبين كلام نبى اللَّه يعقوب عليه السلام الذى قال عندما فقد يوسف عليه السلام: «وَقالَ يا اسَفَى عَلى يُوْسُفَ». (يوسف/ ۸۴) أجل إنّ جملة الاسترجاع هذه لم تكن نازلة حينذاك.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱، ص ۲۳۸، وقد وردت هذه العبارة أيضاً فى نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۹۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۰۲

وعلى أيّة حال فإنّ هذه العبارة هى عصارة التوحيد الكامل والمعاد والتوكل على الذات المقدسة الإلهيّة فى جميع الاحوال وفى كل زمان «۱».

وفى الآية الرابعة تجلّت هذه الحقيقة بلباس جديد بعد أن أشار تعالى فى الآية التى سبقتها إلى الأحداث العجيبة التى يواجهها العالم عند تأهبه للقيامة، قال تعالى «الَى رَبِّكَ يَوْمَئذٍ الْمُسْتَقَرُّ».

وأشار بذلك إلى أنّ الدنيا ليست مقراً، وأنّ جميع العلائم تدل على أنّ الدنيا هى دار فناء وعدم، وتغيير وزوال، وعلى هذا فمن البديهى أن لا تكون الدنيا هى الهدف الرئيسى من السير التكاملى للإنسان، إذا لابدّ أن يكون مقر الإنسان فى عالم آخر.

لكن بعض المفسرين قدّروا كلمة محذوفة وقالوا: المراد هو «إلى حكم ربّك» أى إلى حكم ربّك يومئذٍ المستقر فبحكم اللَّه يقوم العدل ويتحقق أو بحكم اللَّه يستقر فريقٌ فى الجنّة وفريقٌ فى النار.

ولكن بما أنّ التقدير خلاف القاعدة، بالإضافة إلى أنّه لاضرورة له هنا فإنّنا لا نرى دليلا واضحاً لمثل هذه التفاسير.

وفى الآيـة الخامسـة والأخيرة ورد ما ذكر فى الآيـة السابقـة بتعبير جديـد بعـد أن أشار إلى حالات المحتضـر ولحظات الاحتضار وطىّ سجل حياة الإنسان، قال تعالى «الَى رَبِّكَ يَوْمَئِذِ الْمَسَاقُ».

و «المساق»: مصدر ميمى بمعنى «السوق» وهذا يدل على أنّجهة سير البشر التكاملى

---

(١) من خلال هذا التفسير يتضح تفسير الآيات المتشابهة لهذه مثل: المائدة، ١٠٥؛ العلق، ٨؛ الانعام، ٣۶؛ الغاشية، ٢۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ٢٠٣

يكون نحو اللَّه أى نحو الكمال المطلق والكمال اللامتناهى.

وهنا أيضاً قدّر البعض كلمة «حكم» أو «جزاء» وقالوا: المراد هو سوق الجميع نحو حكم اللَّه وجزائه، ولكن وكما أشـرنا فى تفسير الآية السابقة فإننا لا نرى أية ضرورة لمثل هذه التقديرات، فالتحرك يكون نحو اللَّه تعالى

وفى بعض آيـات القرآن أشـير أيضاً إلى أنّالـذات المقدسـة الإلهيّـة هى منتهى السـير التكاملى والهـدف النهائى، قال تعالى «وَأَنَّ الى رَبِّكَ الْمُنتَهى . (النجم/ ۴٢)

وهذا دليل آخر على الحقيقة المذكورة.

توضيح

نهاية المطاف:

ينصب التأكيـد فى الآيـات المـذكورة على (رجوع جميع البشـر إلى اللَّه) ... ذلـك الأـمر الـذى يمكن إثباته بواسـطة العقل أيضاً، لأنّ المجتمع البشرى يشبه القافلة التى بدأت مسيرها من نقطة العدم المظلمة واتّجهت نحو النور المطلق، وهذا المسير يتمّ تحت ظل الربوبية وبإذنها (يجب الالتفات إلى أنّ هذه البحوث تأتى بعد قبول مبدأ التوحيد والصفات الإلهيّة).

وكلمة «الرب» الواردة فى هذه الآيات تدلّ على أنّ هذه الحركة تكون تحت ظل ربوبية اللَّه تعالى وبصورة دقيقة.

ومن ناحيـة اخرى لو كان الموت نقطـة النهايـة للحركـة فانّها سـتكون حركـة غير هادفة ولا مقر لها، وبتعبير آخر تعتبر حركة عشوائية، بينما يكون السير الإلهى ذا هدف مناسب يسير نحوه يقيناً.

فلو تأمّلنا جيداً لوجدنا أنّ كل حركة تكاملية تسير بغية الوصول إلى مرحلة أعلى ونحو نقطة وجودية أرقى هى الذات الإلهيّة المقدّسة، بناءً على هذا فإنّ جميع هذه التحركات تستهدف الوصول إليه، ومادام الهدف النهائى لم يتحقق بعد فسوف لن يهدأ الإنسان ولا يقر

نفحات القرآن، ج۵، ص: ٢٠۴

له قرار إلّابعد بلوغ جوار اللَّه وحتى يصل إلى مقام شهود الذات المقدّسة فى زمرة المقرّبين، (فتأمل).

وهـذا الحـديث فى جميع أبعاده يـدل على أنّ السـير التصاعدى للإنسان لا يتوقف بالموت، بل يسـتمر فى العالم الآخر أيضاً، بناءً على هذا فإنّ وجود الحركة والهدف يعتبر بحد ذاته دليلًا ملموساً على مسألة الحياة بعد الموت.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ٢٠۵

۵- برهان الرحمة

تمهيد:

«الرحمة»: من صفات اللّه الواضحة والمعروفة، ومن البديهى أنّ الرحمة تعنى اعطاء الفيض والنعم لمن له القابلية والاستعداد لاستيعابها. وبما أنّ الإنسان له كيان خاص وله روحٌ ولجت بدنه ببركة النفخة الإلهيّة فهو يمتلك الاستعداد للخلود وبلوغ الكمالات الرفيعة، لذا فإنّ اللّه الموصوف بصفات الرحمن والرحيم لا يمكن أن يمنع النسان من هذا الفيض وهذه الرحمة، ولن يقطع عنه فيضه ورحمته بسبب موته.

وهذا ما نسمّيه ب «برهان الرحمة» بعد هذا نعود إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى هذه الآية المباركة:

«قُلْ لِّمَنْ مَّا فِى السَّموَاتِ وَالْارْضِ قُل لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَارَيْبَ فِيهِ». (الانعام/ ۱۲)

جمع الآيات وتفسيرها

تنقسم هذه الآية فى الحقيقة إلى أربعة أقسام: ففى القسم الأول ابتدأ سبحانه وتعالى بالاستفهام مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فقال: «قُلْ لِّمَنْ مَّا فِى السَّموَاتِ وَالْارْضِ»، ثم أضاف بلا فاصلة: «قُل لِلَّهِ» أىْ إنَّ أمراً كهذا لا يحتاج إلى مناقشة واستدلال.

وفى القسم الثانى قال تعالى «كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ» (كى يشمل برحمته الواسعة ولطفه وعنايته اللامتناهية جميع العباد).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۰۶

وفى القسم الثالث يُوَجِّهُ الأنظار نحو مسألة المعاد فيقول تعالى «لَيَجْمَعَنَّكُمْ الَى يَومِ القِيَامَةِ لا رَيبَ فِيهِ».

وفى القسم الرابع يلفت النظر إلى هذه النتيجة: «الَّذِيْنَ خَسِرُوا انْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمنُونَ».

ويرى عدد من المفسرين بالنسبة إلى الرابطة التى تربط هذه الأقسام الأربعة مع بعضها بأنّ القسم الأول يختص بأمر التوحيد، والقسم الآخر بالمعاد (أو بالنبوّة والمعاد معاً) لبيان أبعاد اصول الدين الرئيسية «۱».

لكنّ المرحوم العلّامة الطباطبائى يرى بأنّ الآية برمّتها تختصّ ببيان أمر المعاد، وهذا التفسير أقرب إلى الصّحّة، ولتوضيحه نقول:

إنّ اللّه تعالى بيّن فى القسم الأول من الآية مالكيته وحاكميته على عالم الوجود من خلال طرح سؤالٍ واحدٍ والإجابة عليه، فهو يوضّح ذلك الأمر بواسطة سؤالٍ ينبع جوابُهُ من صميم الفطرة والروح حتى أنّ المشركين أيضاً يخفضون جناحهم له كما لو قال الأب لولده: ألم اوفِّر لك جميع متطلبات طلب العلم والارتقاء؟ ومن دون أن ينتظر الجواب يقول: لقد فَعَلْتُ وذلك حقاً.

وبهذا يثبت أنّه لا يوجد فى عالم الوجود أى شىء يمكنه الوقوف أمام إرادة الحق تعالى وأوامره.

ثم يضيف: إنّ اللّه القادر كتب على نفسه الرحمة، وكيف لا يكتب ذلك على نفسه عندما يكون مصدراً للفيض الذى لا يتخَلَّلُهُ بخلٌ ولا ينقصه العطاء الدائم شيئاً.

فهل الرحمة إلّاعطاء النعم لمن يستحقّها ويليق بها؟ وهل هى إلّاايصال كل موجودٍ إلى كماله المطلوب وفقاً لاستعداده؟

وبعد أن أثبت هاتين المقدمتين (أىْ أنّ اللّه العالم منبع الرحمة من جهة، ومن جهة اخرى لا يمكن أن يمنع فيضه ورحمته أىُّ مانع) ذكر النتيجة فى الجملة الثالثة

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۱۶۴؛ وتفسير القرطبى، ج ۴، ص ۲۳۹۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۰۷

«لَيَجْمَعَنَّكُمْ الَى يَوْمِ القِيَامَةِ لَارَيْبَ فيهِ» لأنّ الموت انْ كان نهاية الإنسان فهذا يعنى أنّ الإنسان لم يصل إلى الكمال المطلوب فيبقى استعداده للحياة الخالدة من دون اشباع أو يعنى عدم وصول الرحمة الإلهيّة إليه لوجود مانع، ولكن بما أنّ المانع غير موجود وأنّ وصول رحمته أمرٌ حتمى فإنّ الوصول إلى الحياة الخالدة فى الدار الآخرة ومجاورة الحق للبشر أمرٌ لا شك فيه.

ومن الطبيعى أنّبعض الناس يفقدون استعدادهم الخاص لنيل الحياة الخالدة ويكونون فى عداد الخاسرين، لذلك نراهم لا يؤمنون

بالمعاد.

بناءً على هذا فإنّ «برهان الرحمة» الذى يعتبر عصارة هذه الآية هو برهان منطقى ذو استدلال تام، وبرهان آخر غير برهان العدالة وبرهان الحكمة، (فتأمل).

وقد يُطرح هذا السؤال: بما أنّ القيامة تعتبر رحمةً لبعض البشر ونقمة على البعض الآخر، فكيف يمكن التوفيق بين هذا المعنى وبين الرحمة الإلهيّة؟

والجواب عن هذا السؤال جاء فى ذيل الآية تلميحاً إلى أنّ اللّه تعالى مَنَّ على جميع البشر باستعداد نيل الرحمة ووضع بين أيديهم السبل المعدّةَ للوصول إليه، فلو أضاع فريق من البشر هذا العطاء على الرغم من امتلاكهم العقل وعلى الرغم من وصول تعاليم الوحى إليهم- فسوف يكونون السبب فى خروجهم عن دائرة الرحمة ولا تنزل اللائمة إلّاعليهم!

وكل هبات اللّه تعالى من هذا القبيل، ففريق يستمتعون بها وفريق يستبقون فى ضياعها ويصبح هذا الأمر حاجزاً أمام وصول الفيض والرحمة الإلهيّة للفريق الآخر، ومن الجدير بالذكر إنّ جملة ليجمعنكم ... جاءت مقرونة ب «لام القسم) و «نون التوكيد الثقيلة» معاً وبجملة «لا ريب فيه» التى تأتى جميعها للتوكيد، فهى مؤكدة بثلاثةِ توكيدات فى آنٍ واحد، وهذا لأَجْلِ الدلالة على أنّ وقوع القيامة بالنظر إلى الرحمة الإلهيّة أمرٌ حتمى من جميع الأبعاد.

وبما أنّ ما قدّمناه من التوضيح يكفى لاثبات هذا البرهان فإننا لا نرى حاجة لذكر توضيحات أكثر فى هذا المجال.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۰۹

۶- برهان الوحدة

تمهيد:

إنّ وجود الاختلاف فى الآراء والأفكار من مميزات الحياة الدنيا، حتى أنّ أصحاب المذهب الواحد غالباً ما ينقسمون إلى فرقٍ متعددة ذات عقائد مختلفة.

وهذا الاختلاف ينتقل أحياناً من المجتمع الكبير إلى الاسَر، وترى كل واحد من أعضاء الاسرة يحمل عقيدة معيّنة ويدافع عن فكر معين.

لا شك أنّ كل إنسان يتألّم لوجود هذه الاختلافات فى هذه الدنيا، ويتمنى الجميع أن يأتى اليوم الذى تقلع فيه جذور جميع هذه الاختلافات.

ومن البديهى إنّ الذى خلق الإنسان من أجل التكامل والهداية سوف لن يحرمه من نيل هذه الأمانى بمقتضى مقام ربوبيته، وبما أنّ هذا الهدف لم يتحقق فى هذه الدنيا- للأسباب التى سوف نطرحها فيما بعد وللشواهد الدالة على هذا المعنى أيضاً، فإنّ رفع الاختلافات والوصول إلى الوحدة سوف يتحقق فى الدار الآخرة.

فالقرآن المجيد أكّد كثيراً على هذا الأمر، وهناك أكثر من عشر آيات فى القرآن تشير إلى هذا الموضوع وهو أنّ إزالة الاختلافات لا تتمُّ إلّافى الدار الآخرة، وإنّ اللّه تعالى سوف ينجز هذا الأمر.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنتمعن خاشعين فى الآيات الكريمة الآتية:

۱- «وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ ايْمَانِهِمْ لَايَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ* لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيْهِ». (النحل/ ۳۸- ۳۹)

۲- «ثُمَّ الى رَبِّكُمْ مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». (الانعام/ ۱۶۴)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۰

۳- «انَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ القِیَامَةِ فِیما کَانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ». (یونس/ ۹۳)

۴- «اللَّهُ یَحْکُمُ بَیْنَکُمْ یَوْمَ الْقِیَامَةِ فِیما کُنْتُمْ فِیهِ یَخْتَلِفُونَ». (الحج/ ۶۹)

۵- «انَّ الَّذِیْنَ آمَنُوا وَالَّذِینَ هَادُوا وَالصَّابِئِینَ والنَّصَاری وَالَمجُوْسَ وَالَّذِیْنَ اشْرَکُوا انَّ اللَّهِ یَفْصِلُ بَیْنَهُمْ یَوْمَ القِیَامَةِ انَّ اللَّهَ عَلَی کُلِّ شَیءٍ شَهِیدٌ» «۱». (الحج/ ۱۷)

جمع الآیات وتفسیرها

متی تُحلّ هذه الاختلافات؟

بـدأت الآیة الاولی بنقل قَسَمَ منکری المعاد الذی ورد فی نفی تحقق الدار الآخرة، قال تعالی «وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ ایْمَانِهِمْ لا یَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ یَمُوتُ».

ثم یجیب تعالی بهذا الجواب: «بَلَی وَعْداً عَلَیْهِ حَقّاً وَلکِنَّ اکْثَرَ النَّاسِ لَایَعْلَمُونَ».

بعد ذلک یبیّن الهدف من البعث فیقول تعالی «لِیُبَیِّنَ لَهُمُ الَّذِی یَخْتَلِفُونَ فِیْهِ».

وبهـذا یتّضـحُ بأنّ «رفع الاختلافات والعودة إلی الاتحاد هو أحـد أهـداف المعاد» وذلک لأنّ طبیعـة هذه الدنیا التی تحتوی علی أنواع الحجب لاـ تسـمح بزوال هـذه الاختلافـات، ولکن بمـا أنّ یوم القیامـة یوم رفع الحجب وکشف الغطاء وکشف الأسـرار والسـرائر فإنّه سوف یتضح کل شئ فی ذلک الیوم وبذلک ینتهی الاختلاف.

فالمؤمنون یرسخ إیمانهم ویصلون إلی مقام عین الیقین، والکافرون واتباع المذاهب الباطلة یعترفون بخطئهم ویرجعون إلی الحق.

---

(۱) وهنـاک آیات اخری فی القرآن یشـبه مضـمونها الآیات المـذکورة مثل: آل عمران، ۵۵؛ المائدة، ۴۸؛ النحل، ۱۲۴؛ البقرة، ۱۱۳؛ الزمر، ۳؛ الجاثیة، ۱۷؛ الحج، ۶۹؛ الدخان، ۴۰؛ النبأ، ۱۷؛ المرسلات، ۱۳ و ۱۴؛ والسجدة، ۲۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۱

وفی الآیة الثانیة ورد نفس هذا المعنی ولکن بأسلوب آخر، فبعد أن أبطل ربوبیة آلهة المشرکین وذکر بأنّ کل إنسان رهین عمله وأن المذنب لا یحمل اصره غیرُهُ، قال تعالی «ثُمَّ الَی رَبِّکُمْ مَّرْجِعُکُمْ فَیُنَبِّئُکُمْ بِمَا کُنْتُمْ فِیهِ تَخْتَلِفُونَ».

فالآیـة الاـولی تتحـدث عن بیان الاختلاف وهـذه الآیـة اخبرت عن ذلک الاختلاف فالإخبار فی الواقع تعلیل لما جاء فی الآیـة الاولی وذلک لأنّ الإخبار الإلهی فی یوم القیامة یعتبر المصوِّرَ الرئیسی لبیان الحقائق، أو یکون «التبیین» متعلقاً بالامور المرئیة و «الإنباء» متعلقاً بالامور المسموعة.

وفی الآیـة الثالثة طُرِحَتْ مسألةُ الحکم والقضاء الإلهی فیما اختلف فیه الناس یوم القیامة، قال تعالی «انَّ رَبَّکَ یَقْضِی بَیْنَهُمْ یَوْمَ القِیَامَةِ فیما کَانُوا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ».

ومن البدیهی أنّ اللَّه تعالی عندما یحکم بینهم بنفسه فی ذلک الیوم فسوف تزول الاختلافات وتتضح الحقائق کما هی.

وهـذه الآیـة إمّـا أن تکون إشارةً لاختلاف بنی اسـرائیل فیما بینهم فی العصور الغابرة أو أنّها تشـیر إلی اختلافهم الـذی ظهر فی عصـر الرسالة ونزول القرآن بسـبب علائم ظهور الإسـلام وعلائم النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله التی آمن بها فریق منهم وجحدها آخرون حفظاً لمصالحهم الشخصیة.

وقد تكون إشارةً لاختلافهم الذى وقع فى عصر موسى عليه السلام بعد نجاتهم من مخالب الفراعنة ومشاهدتهم هذه المعجزة العظيمة، أو إشارةً إلى اختلافهم الذى حصل عند ذهاب موسى عليه السلام إلى جبل الطور وظهور السامرى بعجله.

وبالرغم من أنّ أكثر المفسرين رجّحوا الاحتمال الأول إلّاأنّ الآيات المتقدمة على هذه الآية ترجّح الاحتمال الثانى «۱»، كما أنّ الجمع بين التفاسير الثلاثة ممكن أيضاً.

---

(۱) وقد تبنى التفسير الأول الفخر الرازى فى تفسير الكبير وتفسير القرطبى والمرحوم الطبرسى فى تفسير مجمع البيان، لكنّ تفسير صاحب الميزان أكثر انسجاماً مع التفسير الثانى.

وعلى أيّة حال يرى بعض المفسرين المشهورين أنَّ الاختلافات من هذا القبيل لا يمكن القضاء عليها فى الدار الدنيا، ولا تنتهى إلّافى الآخرة عندما يقضى اللَّه عزَّوجل بين الناس ويُميِّزُ الحقُ من الباطل والصادقُ من الكاذب «۱».

وفى الآية الرابعة ورد التعبير بالحكم، بعد الإشارة إلى نبذة من اختلافات بنى اسرائيل قال تعالى «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

ولمعرفة الأمر الذى اختلف فيه اليهود يستفاد من بداية الآية حيث إنّهم اختلفوا فى يوم السبت الذى يعتبر يوم العطلة الاسبوعية لليهود (واختلافهم فى حكم الصيد فى ذلك اليوم هل هو حرام أو حلال على الرغم من أنّ نبيّهم عليه السلام قد حرّم عليهم ذلك، أو كان الاختلاف فى ترجيح ذلك اليوم على يوم الجمعة أو ماشابه ذلك).

إنّ تأريخ بنى اسرائيل يشهد على أنّهم كانوا بؤرة للخلاف والتشتت على العكس تماماً من تاريخهم المعاصر، فهم اليوم أصبحوا يداً واحدة بسبب بعض الأحداث التى هددّت مصيرهم لاسيما مجابهتُهم لمسلمى العالم.

وفى الآية الخامسة والاخيرة جاء مجموع ماورد فى الآيات السابقة لكن بصورة اجمالية وعامّة وتحت عنوان آخر، فهى تشير إلى الاختلافات الواسعة الحاصلة بين المؤمنين وأصناف من الكفّار، قال تعالى «انَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ والنَّصَارى وَالَمجُوْسَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا انَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ انَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ».

والجدير بالذكر إنّ «يوم الفصل» أحد الأسماء المعروفة ليوم القيامة، قال تعالى «إِنَ

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۱۷، ص ۱۵۹.

يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيْقَاتاً». (النبأ/ ۱۷)

وورد نفس التعبير عن يوم القيامة فى آيات متعددة اخرى من آيات القرآن أيضاً.

و «الفصل»: فى الأصل بمعنى افتراق شيئين عن بعضهما، ولهذا اطلق على يوم القيامة يوم الفصل، لأنّ الحق يُفْصَلُ عن الباطل فى ذلك اليوم وترفع جميع الاختلافات بواسطة القضاء الإلهى وبهذا يُفْصَلُ الصالحون والطاهرون عن الطالحين والأرجاس.

قال المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان»: «سوف تبيَّضُ هناك وجوه أصحابِ الحقِّ وتمتلئ بالنور وتسودّ وجوه أهل الباطل ويعمّها الظلام» «۱».

فهل يبقى داعٍ للاختلاف بين الحق والباطل عند ظهور مثل هذه العلائم البيِّنة؟

أشارت هذه الآية إلى ستة أديان كانت سائدة فى عصر نزول القرآن وكانت تمثّل الاديان الرئيسية آنذاك، قال تعالى الذين آمنو (المسلمون) واليهود والصابئة (وهم اتباع يحيى عليه السلام إلّاأنّهم انحرفوا عن رسالته فأطلقوا عليهم اسم عبدة النجوم) والنصارى

(المسيحيون) والمجوس (الزرادشتيون) والمشركين وعبدة الاوثان، ثم قال تعالى «إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ ...».

فإذا كان الإنسان فى هذه الدنيا بحاجة إلى الاستدلال والمنطق من أجل المتميز بين أهل الحق وأهل الباطل فهو فى ذلك اليوم يستغنى عن كل ذلك فإذا كان المصداق العيان فما الحاجة للبيان لأنّ لون الوجوه يدل على سرائر أصحابها!

توضيح

من خلال الآيات الخمس المذكورة وذكر خمسة عناوين مختلفة: «الانباء» و «التبيين» و «الحكم» و «القضاء» و «الفصل» اتضحت الحقيقة بأفضل أساليب البيان وأنّ يوم القيامة يوم انتهاء الاختلافات ويوم تجلّى الحقائق وفرز الحق عن الباطل ويوم الحكم والقضاء النهائى.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۷۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۴

وكيف لا يكون الأمر كذلك ويوم القيامة يوم البروز ويوم الظهور: «وَبَرَزُوا لِلّهِ الْوَاحِدِ القَهَّار». (إبراهيم/ ۴۸)

ويوم رفع الحُجب وكشف الغطاء: «فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ». (ق/ ۲۲)

إنّ الطبيعة المظلمة لعالم الدنيا أو التى يمتزج فيها النور بالظلمة لا تفسح المجال لظهور الحقائق على ماهِيَّتِها، كالليل بالضبط، فالإنسان مهما يبذل جُهْدَهُ لكشف الحقائق بواسطة المصابيح إلّاأنّ قسماً كبيراً منها يبقى فى دائرة الظلام، أمّا القيامة فهى تشبه سطوعَ الشمس التى تكشف بأشعتها كل شىء.

من الممكن أن يكتشف فريقٌ طريقهم فى الظلام إلّاأنّ فريقاً آخر يضلُّ عن الطريق، كما أنّه من الممكن للَّذينَ سلكوا طريقاً ما أن يصفه كل واحد منهم بوصفٍ يتناسب مع منظاره الخاصّ، وهناك مثال معروف فى توضيح هذا الأمر وهو إنّ عدداً من الأشخاص الذين لم يشاهدوا الفيل من قبل دخلوا فى غرفة مظلمة فيها ذلك الحيوان، ثم لمس كلّ واحد منهم عضواً من أعضاء الفيل، ولمّا خرجوا أخذ كل واحد منهم يصف ذلك الحيوان فوصفوه بصفات متناقضة، فالذى لمس رجل الفيل وصفه بأنّه يشبه العمود! ومن لمس خرطوم الفيل وصفه بأنّه انبوب كبير، والثالث الذى لمس صدر الفيل وصفه بأنّه يشبه السقف، ولكن عندما أُخرج الفيل من الظلام بانت الحقيقة لهم ورُفعت تلك التناقضات وعلم الجميع أنَّ وصفهم كان قاصراً!

فالإنسان- وكما أشرنا سابقاً- لديه الاستعداد التامُّ للخروج من خضم أمواج الاختلافات وأن يضع قدمه فى عالم اليقين وعدم الاختلاف، ومن البديهى أنّ اللَّه تعالى الذى خلق الإنسان سوف لن يحرمه من هذا الفيض.

فالاختلاف يسلب الطمأنينة وهو مِنْ موانع الوصول إلى التكامل، والسبب فى نفوذ الشكّ إلى جذور المعتقدات فى بعض الأحيان، بناءً على هذا علينا السعى لبلوغ المرحلة التى تنتهى فيها هذه المؤثّراتُ السلبية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۵

ومن الطبيعى أنّ الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وضّحوا الحقائق على قدر ما تسمح به طبيعة الحياة الدنيا بالاعتماد على الكتب السماوية، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلّاكمثل المصابيح التى تنير الطريق للإنسان، لذا يَحلُّ الاختلافُ محلَ الإتحادِ بمجرّد غياب ذلك النور عنهم، قال تعالى فى قرآنه المجيد: «وَمَا انْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذى اخْتَلَفُوا فِيْهِ». (النحل/ ۶۴)

وقال تعالى فى موضع آخر: «فَمَا اختَلَفُوا الّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ». (الجاثية/ ۱۷)

وهذا دليل على أنّ الأنبياء عليهم السلام قد سعوا فى إزالة الاختلاف الموجود بين الناس إلّاأنّه لم ينته كلياً.

إنّ حبّ المادّياتِ وجموح الشهوات والبغضاء والعداوة فى هذه الدنيا هى الأسس الحاكمة على الناس وهذه الامور هى اعظم

الحجب، وما لم ترفع لا يستطيعُ الإنسان أن يتقدم خطوة صوب الوحدة، لكنّ هذه الحجب سوف تفنى وتحترق جميعها فتنكشف الحقائق على ما هى عليه يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۷

۷- برهان خلود الروح

تمهيد:

تَعَرَّضَ الكثير من الفلاسفة فى بحث المعاد لمسألة خلود الروح واعتبروها من الأدلة الحيّة فى هذا المجال.

وممّا لا شك فيه إنّ الاعتقاد ببقاء الروح يعبّد لنا طريق الوصول إلى إثبات المعاد والحياة الآخرة، ولكنَّ هذا لايعنى أَنَّ من لا يعتقد بخلود الروح لا يمكنه الإيمان بالمعاد، بل يمكن إثبات المعاد من دون أن يكون لمسألةِ بقاء الروح أى أثر فى ذلك.

ومن المحتمل أن يكون هذا سبب عدم تأكيد القرآن على مسألة بقاء الروح، وبتعبير آخر إنّ القرآن لا يعتقد بأَنَّ هناك صلة ورابطة بين مسألة خلود الروح وبين المعاد- كما سنرى ، ولكن لا يخفى أنّ إثبات مسألة المعاد بالاعتماد على مسألة خلود الروح تكون اوضح وايسرَ كما أنّه لا يمكن إنكار الإشارات الظريفة واللطيفة التى وردت فى مسألة خلود الروح فى القرآن المجيد، لذا مِنَ المناسب أن نلقى نظرة إجمالية على مسألة خلود الروح من دون التوغُّلِ فى أعماق هذه المسألة، لأنّ البحوث المتعلقة بالروح بحوث واسعة ولها ميدان عريض وتحتاج لوحدها إلى تأليف كتاب مستقل أو عدّة كتب لبحثها بصورة مستقلّة.

نعود بعد هذه المقدمة إلى القرآن المجيد ونستمع خاشعين إلى الآيات الآتية:

۱- «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتاً بَلْ احْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

(آل عمران/ ۱۶۹)

۲- «وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ احْيَاءٌ وَلكِنْ لَاتَشْعُرونَ».

(البقرة/ ۱۵۴)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۸

۳- «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوا آلَ فِرعَونَ اشَدَّ العَذَابِ». (المؤمن/ ۴۶)

۴- «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ الَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ». (السجدة/ ۱۱)

۵- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الانْفُسَ حِينَ مَوتِهَا وَالَّتى لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْاخرى الَى اجَلٍ مُّسمًّى انَّ فى ذلِكَ لَايَاتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ» «۱».

(الزمر/ ۴۲)

جمع الآيات وتفسيرها

استقلالية الروح:

دار الحديث فى الآية الاولى حول الشهداء. فقد كان هناك عدد من ضعفاء الإيمان يتألّمون لهؤلاء الشهداء لأنّهم ماتوا ودفنوا وحرموا من كل شىء، لقد خاطب القرآن فى هذه المناسبة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله (كى يتّعضَ الآخرون) قال تعالى «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتاً بَلْ احيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ».

وبهذا غيّر نظرة الناس حول الموت تغييراً جذرياً وبالأخصّ نظرتهم إلى «موت الشهداء الذين قتلوا فى سبيل اللّه»، وأبان لهم أنّ هؤلاء يرقدون فى جوار رحمة اللّه ويملأ وجودَهم الفرحُ وينادون الآخرين بأنّهم لاخوف عليهم ولاهم يحزنون.

فهذا التعبير الحى الواضح يدل بجلاء على أنّ الروح خالدة وأنّ الشهداء احياء فى عالمٍ أرقى واعلى بكثير من هذا العالم.

فإذا كانت حياة الإنسان تفنى بالموت إلى الأبد تصبح هذه التعبيرات مبهمة وغير مفهومة حتى فى مجال اطلاقها على الشهداء، ولن تكون سوى حفنة من المجازات اللغوية لا غير.

---

(۱) هناك آيات عديدة فى القرآن المجيد تعبّر عن الموت بالتوفّى، وهذه دلالة لطيفة على مسألة خلود الروح، مثل: النساء، ۹۷؛ الانعام، ۶۱؛ النحل، ۲۷ و ۳۲ و ۷۰؛ يونس، ۴۶؛ الرعد، ۴۰؛ غافر، ۶۷ و ۷۷؛ الانفال، ۵۰؛ الاعراف، ۳۷؛ الحج، ۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۱۹

أمّا الذين لم يتمكنوا من إدراك مغزى ومفهوم هذه الآية فقد اتبعوا رأى ضعاف الإيمان الذين عاصروا الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وفسّروا هذه التعبيرات بمعنى خلود اسم الشهداء وخلود معتقدهم! أو ما شابه ذلك، بينما تُبطِلُ الآيةُ مثلَ هذه النظريات قطعاً، وقد أكّدت على أنَّ للشهداءِ حياة خالدة، ومن البديهى أن لا تكون هذه الحياة حياةً جسمانية ومادّيّة لأنّ أجساد الشهداء الداميةَ قد دُفنت تحت التراب، فلن يبقى أمامنا إذن إلّاأن نعتبرها حياةً تختصّ بالروح عن طريق خلودها فى البرزخ.

وعلى الرغم من اصرار البعض- على حدّ قول صاحب الميزان على أنّ الآية نزلت فى حق شهداء بدر (و على رأى البعض أنّها تتعلق بشهداء أحد) إلّاأنّ البديهه تفترض أنّ الآية ذاتُ مفهوم واسع وشامل، يشمل جميع الشهداء دون أىّ استثناء، بالإضافة إلى أنّها لا تنفى الانطباق على غير الشهداء أيضاً.

وعلى أيّة حال فإنّ لهجة الخطاب فى هذه الآية والآيات التاليه لها تَدلُ على خلود أرواح الشهداء والتنعّم بالرزق المعنوى عند ربّهم وسرورهم الحاصل من نيلهم تلك النعم وذلك الفضل الإلهى، وهذه الآيات تبطل جميع الآراء والتفسيرات المنحرفة.

عن الشهداء فى سبيل اللّه أيضاً:

ورد نفس هذا المعنى فى الآية الثانية من آيات البحث بتعبيرٍ آخر، والفرق بينهما أنّ الآية الاولى نزلت فى شهداء احد والآية الثانية نزلت فى شهداء بدر، إلّاأنّ محتواهما يدل على العموم والشمول، وهناك فرق آخر بينهما هو أنّ الخطاب فى الآية الاولى كان موجّهاً للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أمّا فى هذه الآية فقد وجّههُ تعالى لعامة المسلمين، قال تعالى «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ احْيَاءٌ وَلكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

فعلى الرغم من احتواء الآية الاولى على تأكيدات أكثر على مسألة الحياة الروحية للشهداء من خلال ضمّها إلى الآيات الاخرى إلّاأنّ الآية الثانية بدورها تعبّر عن ذلك

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۰

المفهوم أيضاً على الأخص فى قولِهِ تعالى «بَلْ احْيَاءٌ وَلكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

وفى هذه الآية أيضاً تُواجِهُنا أقوالٌ لبعض قاصرى التفكير الذين يرون أنَّ الحياة فى هذه الآية تعنى الهداية أو بقاء اسماء الشهداء حيّة أو بقاء معتقدهم، وهكذا اعتبروا استخدم عبارة احياء عند ربّهم يرزقون من باب المجاز وانحرفوا فى تفسيرهم وهم لا يملكون أىّ دليل لدعم ادّعاءاتهم.

وكأنَّ هؤلاء المفسرين لم ينتبهوا لكلمات هاتين الآيتين أبداً وإنّ الشهداء بالإضافة إلى وصفهم بأنّهم احياء فقد ذُكر بأنهم يرزقون

ويفرحون ويتمتّعون بأنواع النعم الإلهيّة ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وخاصة فى قوله تعالى ولكنْ لا تشعرون!

فلو كان المراد خلود اسمهم أو معتقدهم أو احياءهم يوم القيامة لما كان اطلاق أىّ واحد من هذه التعبيرات المذكورة بحقهم صحيحاً.

وبهذا شيّد القرآن أساس بحث خلود الروح وبدأه بذكر خلود حياة الشهداء.

عذاب آل فرعون فى البرزخ:

تَحَدَّثَتْ الآية الثالثة عن عاقبة طائفة ظالمة وهى «طائفة آل فرعون» وصوّرتْ حالها فى البرزخ فى قبال حال الشهداء، فهى تصفها بعد الموت على هذا النحو: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوا آلَ فِرعَونَ اشَدَّ العَذَابِ».

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ النار التى يُعرض عليها آل فرعون فى الصباح والمساء نار البرزخ، وذلك لأنهم ماتوا ولم تقم القيامة حتى الآن، بالإضافة إلى ذلك فإنّ القيامة ليس فيها صباح ومساء بل هم فى اشد العذاب على مرّ الزمان (كما يشهد على ذلك ماجاء فى ذيل الآية).

وهذا التعبير شاهد حيّ وملموس آخر على خلود الروح، لأنّ ما يعرض على جهنم صباحاً ومساءً إن لم يكن الروح فما هو إذن؟ هل هو الجسد المجرّد عن الروح الذى أصبح تراباً؟ كلّا طبعاً، لأنّ هذا لا يتأثر أبداً، إذن يجب أن تبقى ارواحهم خالدة حيّة كى يعرضوا

على العذاب غدواً وعشياً فى عالم البرزخ.

ويحتمل أن يكون السبب فى استخدام كلمتى «الغدوّ» و «العشىّ» فى الآية الشريفة أنّ هذين الوقتين من الأوقات التى كان الطواغيت يتجهون خلالها ويبرزون سطوتهم ومن الأوقات التى يستغلّونها فى اللهو والبذخ.

وأمّا التعبير ب «يُعرضون» فإنّه لايعنى دخولهم النار وهذا ممّا لا شك فيه، وهو غير ما اريد فى ذيل الآية، ومن المحتمل أنّ المراد منه الدلالة على اقتراب النار منهم، فهم يقتربون من النار فى عالم البرزخ ويلجونها يوم القيامة!.

لقد استدل الكثير من المفسرين بهذه الآية على عذاب القبر أو البرزخ «۱»، ومن البديهى أنّ عذاب القبر (أو البرزخ) لا معنى له من دون خلود الروح.

جاء فى الحديث المروى عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة وإن كان من أهل النار فمن النار يقال هذا مقعدك حين يبعثك اللّه يوم القيامة» «۲».

وهذا الحديث يشير إلى أنّ الثواب والعقاب البرزخى لا يختص بالشهداء وآل فرعون بل يشمل الجميع.

قبض الأرواح!

وفى الآية الرابعة (والآيات المشابهة لها) نلاحظُ تعبيراً آخرَ فى هذا المجال، قال تعالى «قُلْ يَتَوفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ الَى رَبِكُمْ تُرْجَعُونَ».

والتعبير الجديد واللطيف فى هذه الآية «يتوفاكم» من مادة «التوفّى» على وزن (الترقّى).

قال الراغب فى المفردات «وافى» فى الأصل بمعنى وصول الشىء إلى الكمال، بناءً

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۵۲۵؛ تفسير الكبير، ج ۳۷، ص ۷۳؛ تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۷۶۳؛ تفسيرالميزان، ج ۱۷، ص ۳۵۴.

(۲) نقل هذا الحديث صاحب مجمع البيان عن صحيح البخارى ومسلم (ج ۷ و ۸، ص ۵۲۶).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۲

على هذا فإنّ «التوفّى» يكون بمعنى أخذ الشى بصورة كاملة وهذا التعبير يدل بوضوح على هذه الحقيقة وهى أنّ الموت لا يعنى الفناء أبداً، بل نوع تام من أنواع القبض، والأخذ أخذ روح الإنسان بصورة تامّة، دليلٌ واضح وملموس على أنّ روح الإنسان لا تفنى بعد «التوفّى» (أى الأخذ الكامل) لها.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذه الآية وردت فى الجواب عن تساؤل منكرى المعاد، وقد نُقل عنهم فى الآية السابقة قولهم: «وَقَالُوا ءَاذَا ضَلَلْنَا فِى الْارْضِ ءَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيْدٍ».

فأجابهم تعالى فى هذه الآية: «أنّكم لستم أجساداً فحسب كى تضلوا بعد الموت، بل إنّ الروح هى الأصل فى وجودكم والتى تتوفاها الملائكة، وسوف تُعادُون وتحشرون يوم القيامة (بالجسم والروح معاً) وكما قلنا آنفاً: إنّ هذا التعبير قد تكرر ذكره فى آيات متعددة فى القرآن وقد اكّد عليه كثيراً».

إنّ خطاب الآيات القرآنية فيه ارشاد للاثبات بعدم النظر إلى الموت من منظارٍ مادّى أبداً، فالمادّيّون يعتقدون بأنّ الموت نهاية الطريق بالنسبة للإنسان وينادون دائماً بهذا الشِّعار: «انْ هِىَ الّا حَيَاتُنَا الدُّنيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا» بينما لا يكون الموت إلّاعبارة عن الانتقال من «الحياة الدنيئة» إلى «الحياة الراقية» ويتم ذلك الانتقال بواسطة ملائكة اللّه.

وفى بعض الموارد نسب اللّه التوفّى إلى نفسه: قال تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْانْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا». (الزمر/ ۴۲)

وقال من موضعٍ آخر: «وَلكِنْ اعْبُدُ اللَّهَ الَّذِى يَتَوفَّاكُمْ». (يونس/ ۱۰۴)

ومن البديهى أن لا يوجد هناك تناقض بين تعبيرات القرآن الثلاثة المذكورة (التوفى من قبل اللّه والتوفى بواسطه ملك الموت والتوفّى بواسطة الملائكة)، لأنّ هؤلاء جميعهم يطيعون أمر اللّه، واللّه عزّ وجلّ هو الفاعل الحقيقى، كما أنّ الملائكة التى تتوفّى الأرواح لهم رئيس أيضاً الذى يسمى بملك الموت وسائر الملائكة الموكلين بقبض الأرواح يعتبرون مسيّرين من قبل هذا المَلك.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۳

وفى الآية الخامسة والاخيرة ورد هذا المعنى نفسه مع مقارنة وضع الإنسان عند النوم مع وضعه عند الموت، وقد عبّر ب «التوفّى» عن كلتا الحالتين، قال تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الانْفُسَ حينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتى قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْاخْرَى الَى اجَلٍ مُسَمًّى انَّ فِى ذلِكَ لَايَاتٍ لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ».

و «انفس»: جمع «نفس» بمعنى الروح، والمراد من الروح هنا الروح الإنسانية ويستفاد من الآية المذكورة إنّ روح الإنسان تقبض فى كلتا الحالتين، حالة الموت وحالة النوم، مع فارق واحد أنّ التوفى فى حالة النوم غير تام حيث تعود الروح ثانية إلى الجسد، أمّا فى حالة الموت فلا عودة لها، (وهناك طبعاً من ينتقل من حالة النوم إلى الموت مباشرة ولا يستيقظ من نومه أبداً، وقد أشارت الآية المذكورة لهذه الحالة أيضاً).

وعلى حد تعبير بعض المفسرين: «إنّ للروح ثلاث حالات، فتارةً يشع نورها على ظاهر البدن وباطنه، واخرى على الظاهر فقط، وثالثة، ينقطع اشعاعها عن الظاهر والباطن معاً.

فالحالة الاولى حالة اليقظه، والثانية حالة النوم، والثالثة حالة الموت» «۱».

ولمزيد من الايضاح يجب الالتفات إلى هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان له ثلاثة أنواع من الحياة.

«الحياة النباتية» وهذا يعنى أنّ خلايا البدن تتغذى وتنمو وتتكاثر (كما هو الحال فى النباتات).

«الحياة الحيوانية» التى تشتمل على الحس والحركة، والحركة هنا تشمل الحركة الارادية كالمشى وحركة اليد والرجل أو الحركات غير الارادية كضربات القلب وغيرها من الحركات.

«الحياة الإنسانية» التى تختص بالإدراكات الرفيعة التى يمتلكها الإنسان والتى تتعلق بالإرادة وتحليل المسائل المختلفة والابداع والابتكار والشعور بالمسؤولية.

وممّا لا شك فيه أنّ النوعين الأول والثانى من أنواع الحياة لا يُسلب من الإنسان فى

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۶، ص ۲۸۴.

حالة النوم، والنوع الثالث الوحيد الذى يخرج عن اختيار الإنسان فى تلك الحالة.

وممّا يجدر ذكره أنّ هذه الآية تفيد بأنّ النوم «موت مخفف» أو بتعبير آخر إنّ الموت «نموذج كامل من النوم» كما يُفهم أيضاً بأنّ الإنسان مركب من الروح والجسد وأنّ الجسد مادّى والروح جوهر لا يخضع للقوانين المادّية:

ومن خلال ماتقدم يمكن التوصل إلى معرفة نبذة من أسرار الأحلام والرؤيا وما يدركه الإنسان من حقائق جديدة فى تلك الحالة، لأنّ روح الإنسان فى حالة النوم تنفصل عن الجسد وتنجز فعّالياتها بحريّة أكثر، إذن فهى تَحوم فى عوالم جديدة.

جاء فى الحديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنّ الروح يخرجُ عند النوم، ويبقى شعاعه فى الجسد، فلذلك يرى الرؤيا، فإذا انتبه عادَ روحُهُ إلى جسده بأسرع من لحظة!» «۱».

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات لا تفسر إلّابمسألة بقاء الروح، وذلك لأنّ توفّى الشىء أى أخذه بصورة تامة عند الموت لايصدق على التوفّى الجسدى، فالحياة النباتية والحيوانية تفْنى بواسطة الموت ولا يبقى منها شىء فلايمكن أن تكون مصداقاً لعنوان «التوفّى»، فبناءً على هذا تكون النتيجة أنّ المراد من التوفى توفى الروح الإنسانية التى تعتبر العامل الرئيسى فى حياة الإنسان.

توضيحات

۱- خلود الروح

إنّ مسألة خلود الروح لها علاقة وثيقة بمسألة استقلالها وأصالتها، لأنّ الروح إن كانت مستقلة فيحتمل أن تبقى على حالها بعد الموت، لكنّها لو كانت تابعة لقوانين المادة وكانت تشبه فى خواصها المادة فإنها سوف تفنى تبعاً لفناء الجسم (كما هو الحال فى حركة عقارب

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۱۱۵.

الساعة التى تتبع فى وجودها وعدمها نفس الساعة).

لذا علينا وقبل كل شىء أن نبحث فى هذه القاعدة هل أنّ روح الإنسان جوهر مستقل أم شىء مشابه للخواص الفيزيائية والكيميائية التى تمتلكها خلايا المخ التى تفنى تبعاً لفناء المخ، كما هو الحال فى الروح الحيوانية والنباتية التى هى عبارة عن التغذية والنمو والتكاثر والحس والحركة؟

إنّ ممّا لا شك فيه أنّ التغذية والنمو والتكاثر لا تبقى بعد فناء الجسم وكذلك تنعدم فيه الحركة والحس (فتأمل).

ولكن لدينا أدلة كثيرة تثبت أنّ الروح الإنسانية لا تشبه الروح النباتية والحيوانية، بل هى حقيقة مستقلة تتعلق بالبدن تارة وتنفصل عنه اخرى

من هنا ننطلق لبحث الأدلة العقلية التى أتى بها الفلاسفة لإثبات أصالة الروح واستقلالها أولًا، وبعد ذلك نشرع بذكر أدلة المنكرين أى الماديين ثم نشرعُ بنقد تلك الأدلة.

ومع أنّ مجرد إثبات خلود الروح لا يُثبت جميع ما نريد إثباته فى مباحث المعاد- كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- (لوجود قسم كبير من مسائل المعاد يرتبط بجانب المعاد الجسمانى) إلّا أنّه يُمهّد امامنا نصف الطريق على الأقل ويكبح جماح المنكرين.

۲- هل الروح مستقلة عن البدن؟

يشهد تاريخ العلم والحضارة البشرية على أنّ الروح وهيئتها وخواصّها الغريبة كانت موضع اهتمام العلماء دائماً.

وقد ساهم واحد منهم بجهوده ليكشف بُعداً من أبعاد دائرة الروح التى تعتبر لغز الالغاز وسر الخفايا ولهذا السبب كانت آراء العلماء فى مجال الروح متنوعة وكثيرة جدّاً.

ورغم أنّ أرواحنا أقرب الينا من كل شىء فى هذا العالم، إلّاأنّه قد لا تتمكن جميع علومنا المعاصرة- بل حتى علوم اللاحقين لعصرنا- أن تكتشف جيمع أسرار الروح، وليس

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۶

هذا من الامور الغريبة لأنّ جوهر الروح يختلف كثيراً عمّا أنسناه من عالم المادّة، ولاعجب فى إخفاقنا فى الاطلاع على أسرار وكنه هذا المخلوق العجيب الذى لا يخضع لقوانين المادّة.

ولكن هذا- على أيّة حال- لايمنعنا من مشاهدة ظل الروح بواسطة منظار العقل الثاقب ولا يمنعنا من التعرف على مجمل القوانين المهيمنة عليها.

وأهم ما ينبغى لنا معرفته هنا مسألة أصالة واستقلال الروح، وعلينا أن نثبت ذلك فى مقابل رأى الماديين الذين يرون أنّ الروح أمرٌ ماديّ وأنّها من افرازات خلايا المخ والخلايا العصبية ولا شىء وراء ذلك!

ونحن نتعرض بدورنا لهذا البحث هنا ونمعن النظر فيه، لأنّ بحث «خلود الروح» و «مسألة التجرد الكامل أو التجرد البرزخى» تعتمد على هذا الأمر.

إلّا أنّه قبل الولوج فى هذا البحث نرى من الضرورى ذكر هذه الملاحظة وهى أن تعلق الروح ببدن الإنسان ليس من قبيل حلول الهواء فى المنطاد مثلًا- كما يعتقد البعض- بل هو نوع من الارتباط القائم على اساس هيمنة الروح على البدن فى التصرف والتدبير، وقد شبّه بعضهم هذه الرابطة بالعلاقة الموجودة بين «اللفظ» و «المعنى وسوف تتضح هذه المسألة بجلاء خلال بحث مسألة استقلال الروح فلنعُد إلى صلب البحث.

ممّا لا شك فيه أنّ الإنسان يختلف عن الجمادات كالحجر والخشب، لأنّنا نشعر فى قرارة أنفسنا بأنّنا نختلف عن سائر الموجودات غير الحية، بل حتى عن النباتات، فنحن بإمكاننا أن نفهم شيئاً أو نتصور شيئاً أو نريد شيئاً ونمتلك إرادة ونحب ونبغض و ...، أمّا بالنسبة للجمادات والنباتات فهى لا تمتلك شيئاً من هذه الأحاسيس، إذن هناك شىء أساسى نتميز به عن هذه الموجودات، ذلك الشىء هو ما نسمّيه الروح.

لا أحد ينكر أصل وجود «الروح» و «النفس» أبداً، لا الماديون ولا غيرهم ولهذا فالجميع يعتقد بأنّ علم النفس (السيكولوجى) وعلم

التحليل النفسى (البيسكاناليزى) من العلوم الثابتة، وهذان العلمان على الرغم من كونهما فى مرحلة النشوء وفى المراحل

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۷

البدائية إلّاأنّهما من العلوم التى تُدرس فى الجامعات الكبيرة فى العالم ويتابع تطورهما الاساتذة والمحققون، وكما سنلاحظ فإنّ «الروح» و «النفس» هما حقيقتان غير منفصلتين عن بعضهما بل تمثلان حقيقة واحدة لمراحل مختلفة.

وسوف نطلق اسم «النفس» فى المجالات التى تتعلق بارتباط الروح بالجسم والتأثيرات المتبادلة كما نطلق اسم «الروح» عند الحديث عن الروح المستقلة عن الجسم.

وقصارى الكلام هو عدم وجود من ينكر امتلاكنا روحاً ونفساً، فمن هنا علينا أن نحدد دائرة النزاع المحتدم بين «الماديين» و «الميتافيزيقيين».

ولتحديد دائرة النزاع نقول: إنّ العلماء الالهيين والفلاسفة الميتافيزيقيين يرون أنَّ الإنسان بالإضافة إلى امتلاكه لجسم مادى يمتلك جوهراً آخر غير مادّى، والجسم يتلقى أوامره من ذلك الجوهر بصورة مباشرة.

وبعبارة اخرى إنّ الروح من الحقائق المتعلقة بعالم ما وراء الطبيعة وتختلف عن عالم المادة من ناحية وجودها ونشاطها معاً ورغم ارتباطها الدائم بعالم المادة إلّاأنّها ليست مادة ولا تملك صفات المادة!

والرأى المقابل لهذا هو رأى الماديين حيث يقولون: إنّ كياننا خالٍ من وجود شىء مستقل عن المادّة يسمى ب «الروح» أو اىّ اسم آخر وما كياننا إلّاهذا الجسم المادّى والآثار الفيزيائية والكيميائية المختصة به فنحن لدينا جهاز نسميه «المخ والأعصاب» وهو ينجز لنا قسماً كبيراً من أعمالنا الحياتية وهذا الجهاز مادّى كسائر أجهزة البدن الاخرى ويخضع فى نشاطاته لقوانين المادة.

فالإنسان لديه مثلًا غدد تحت اللسان تسمى «الغدد اللعابية» وهذه الغدد تمارس أفعالًا فيزيائية وكيميائية فى آن واحد، فعندما يدخل الطعام الفم تمارس هذه الغدد نشاطاتها بصورة ذاتية لا إرادية، وتضخ من الماء الكميّة اللازمة لمضغ الطعام بصورة دقيقة، فالغذاء الجاف يحصل على ما يكفيه من الماء من هذه الغدد وكذلك الغذاء الرطب، فكل واحد منهما

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۸

يحصل على ما يناسبه من كميّة الماء لا أكثر ولا أقل!.

والأغذية الحامضة بالخصوص تثير هذه الغدد لفرز كميّات أكبر من الماء إذا كان تركيز الحموضة كبيراً فيها، وذلك من أجل خفض نسبة الحموضة كى لا تؤثر على جدار المعدة والجهاز الهضمى.

وبعد بلع الطعام تتعطل هذه الغدد عن العمل وإذا اختلّ نظام هذه الغدد لساعة من الزمان فإمّا أن يجف الفم فلا يتمكن الإنسان من بلع الطعام، أو يسيل اللعاب بصورة مستمرة من الفم!.

وهذه هى المهمّةُ «الفيزيائية» لهذه الغدد، لكننا نعلم أنّ المهمّة الأكثر أهميّة لهذه الغدد هى الافرازات الكيميائية، فاللعاب يحتوى على مواد مختلفة تتفاعل مع الغذاء لهضمه ولتسهيل عمل المعدة فى هضمه.

فالماديون يقولون: إنّ الجهاز الهضمى والمخ يشبهان فى عملهما النشاطات الفيزيائية والكيميائية للغدد اللعابية، (التى تسمّى النشاطات (الفيزياكيميائية) التى نسميها «مظاهر الروح» أو «الروح».

فهولاء يقولون: عندما يمارس الإنسان عملية التفكير تشع من المخ مجموعة خاصة من الأمواج الالكترونية، وهذه الأمواج فى عصرنا الحاضر تُسجل على شريط من الورق بواسطة أجهزة معيَّنة متوفرة فى المستشفيات وبالأخص فى المصحات المعدّة لعلاج الأمراض النفسية، ويواكب الأطباء مطالعة هذه الأمواج المسجلة على الشريط لتشخيص الأمراض النفسية التى يعانى منها المرضى لغرض علاجها، وهذه هى النشاطات الفيزيائية للمخ.

وبالإضافة إلى هذه النشاطات تحدث فى خلايا المخ تفاعلات كيميائية عند ممارسة التفكير أو عند حدوث الانفعالات النفسية.

وبناءً على هذا ليست الروح والمظاهر الروحية إلّاتلك النشاطات الفيزيائية أو تلك التغييرات الكيميائية لا غير.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۲۹

وتوصل هؤلاء من خلال هذا البحث إلى النتائج الآتية:

۱- كما أنّ أفعال الغدد اللعابية وآثارها المختلفة لا توجد قبل وجود البدن وتفنى بفنائه، فكذلك الحال فى الروح التى توجد مع وجود المخ والجهاز العصبى وتفنى بفنائهما!.

۲- إنّ الروح من مختصات الجسم، فهى مادّية وليس لها بعدٌ ميتافيزيقى.

۳- إنّ الروح تخضع لجميع القوانين التى تتحكم بالجسم.

۴- لا يمكن وجود الروح بصورة مستقله عن الجسم أو أن تستقل عنه.

۳- أدلة الماديين على عدم استقلالية الروح

اشارة

وقد ذكر الماديون عدّة أدلة لإثبات زعمهم بأنّ الروح والفكر وسائر الظواهر الروحية الاخرى إنّما هى امور مادّية،: أى أنّها من الخواص الفيزيائية والكيميائية للخلايا العصبية وخلايا المخ، وهى كما يلى:

۱- «نحن نرى بوضوح أنّ مجموعة من الآثار الروحية تعطّل بمجرّد أصابه قسم من المخ أو مجموعة من الخلايا العصبية» «۱».

فمثلًا شوهد عند قطع قسم معين من مخ الطير- كما أثبتت التجربة- أنّ هذا الحيوان لا يموت بل يفقد قسماً كبيراً من معلوماته، فعندما يوضع الغذاء فى فمه فإنّه يبلع الغذاء ويهضمه ولكن عندما توضع الحبوب أمامه فإنّه لا يتناولها ولا يهتم لها ويظل على هذا الحال حتى يموت جوعاً!.

وكذلك الحال عند عطب قسمٍ من خلايا المخ عقب اصابتة بضربة أو مرض معين، والإنسان يفقد قسماً من ذاكرته بفعل هذه الأسباب.

فقد ذكرت احدى الصحف أنّ شاباً معلماً فقد ذاكرته إثر ضربة شديدة اصابت دماغه فى حادثة اصطدام، وأصبح لا يعرف أحداً من أقربائه حتى أنّه لم يعرف امّه واخته! وعندما

---

(۱) البيسكولوجيا، الدكتور أرانى، ص ۲۳.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۰

أخذوه إلى الدار التى ولد وترعرع فيها لم يُبد أى انفعال وأنكر أن يكون قد رأى أو دخل هذه الدار سابقاً!

فهذه الامور ونظائرها تدل على أنّ هناك علاقة وثيقة بين «عمل خلايا المخ» وبين «الظواهر الروحيّة».

۲- «عندما يفكّر الإنسان تحدث تغييرات مادّية على سطح الدماغ، حيث يفرز فسفوراً أكثر ممّا يفرزه فى حالة عدم التفكير، ويحتاج بذلك إلى غذاء أكثر، وعندما ينام الإنسان ولا يمارس الذهن عملية التفكير فإنّه يحتاج إلى غذاء أقل، وهذا دليل واضح على أنّ آثار الفكر مادّية» «۱».

۳- أثبتت التجارب أنّ وزن المخ عند المفكرين غالباً ما يكون أكثر من الحدّ المتوسط لوزن المخ عند الآخرين (الحد المتوسط لوزن المخ عند الرجال ۱۴۰۰ غرام تقريباً، والحدّ المتوسط عند النساء أقل من ذلك) وهذا دليل آخر على كون الروح مادّية.

۴- إذا كان التفكير والظواهر الروحية دليلًا على وجود روح مستقلة فهذا يعنى أنّ الحيوانات لها روح مستقلة كذلك، لأنّ الحيوانات

لها إدراك محدود أيضاً!.

وخلاصة القول فى رأى هؤلاء إنّنا لا نشعر بوجود روح مستقلة لدينا، بالإضافة إلى أنّ علم النفس الحديث قد أكّد على صحة هذهِ النظرية أيضاً.

ومن خلال هذه الأدلة يخرجون بالنتيجة الآتية: إنّ تطور علم الفسلجة المستمر توصل إلى وجود علاقة وثيقة وجليّة بين الظواهر الروحيّة وخلايا المخ.

النقاط المبهمة فى هذا الاستدلال:

إنّ الخطأ الفضيع الذى ابتلىَ به الماديون كان نتيجة لاستنادهم على هذا النمط من الأدلة وخلطهم بين «آلة الفعل» وبين «فاعل الفعل».

---

(۱) بشر از نظر مادّى، الدكتور أرانى، ص ۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۱

ولبيان كيفية خلطهم بين الآلة والفاعل والتباس الأمر عليهم نضرب مثالًا لتقريب هذا الموضوع إلى الأذهان.

لقد طرأ تطور كبير على علم الفلك منذ عصر «غاليلو» فقد تمكن العالم الايطالى غاليلو بمساعدة رجل يمتهن صناعة النظارات من صنع تلسكوب صغير وقد غمر الفرح كيانه إثر هذا الانجاز، وعند المساء كان غاليلو يشاهد النجوم بواسطة ذلك التلسكوب الصغير فظهرت أمامه أعاجيب لم يرها أحدٌ من قبل، وعندما علم غاليلو بأنّه توصل إلى كشف سر عظيم، اعتبرَ أنّ فى ذلك اليوم حصل الإنسان على مفتاح كشف أسرار العالم العلوى!.

فالإنسان قبل اكتشاف التلسكوب كان كالفراشة العاجزة عن رؤية ما حولها باستثناء أغصان معدودة من أغصان الأشجار المحيطة بها، ولكنّه عندما أمسك بالتلسكوب بيده صار بإمكانه مشاهدة عالم كبير من الأشجار الموجودة حوله فى غابة الكون العظيم.

ثم استمرَّ هذا الاكتشاف والتكامل حتى صنعت التلسكوبات الفلكية العظيمة التى بلغ قطر عدساتها عدّة أمتار، وقد نصبت هذه التلسكوبات على مناطق مرتفعة بعيداً عن الهواء الملوث.

واستطاعت هذه التلسكوبات التى تبلغ من الضخامة أحياناً بحجم بناء متعدد الطوابق أن تيسّر للإنسان مشاهدة حقائق كثيرة فى العالم العلوى لم يسبق له أنّ شاهد منها بعينه المجردة بنسبة واحد من الألف.

هذا ما توصل إليه الإنسان حتى عصرنا الحاضر، فإذا تطورت التقنية وتمكن الإنسان من صنع تلسكوبات يبلغ قطر عدساتها مائة متر واصبحت ملحقاتها تملأ رقعة من الأرض بسعة مدينة كاملة فإلى أى مدى سيصل الإنسان فى اكتشافاته فى مثل هذه الحالة؟!

وهنا يتبادر هذا السؤال إلى الاذهان: إذا ما فقدنا هذه التلسكوبات فإننا سوف نفقد قسماً كبيراً من معلوماتنا ومشاهداتنا الفلكية قطعاً، ولكن يا ترى من المشاهد الحقيقى؟

فهل هو التلسكوب أم الإنسان؟! وهل يعتبر التلسكوب هو الناظر الحقيقى أم هو آلة ننظر نحن من خلالها؟!

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۲

فأمّا بالنسبة للمخ فإنّه لا أحد ينكر أنّ التفكر والامور الاخرى لا تحصل من دون توفّر الخلايا العصبية، ولكن السؤال هو: هل المخ آلة تستخدمها الروح لانجاز فعاليتها أم هو نفس الروح؟!

وخلاصة الكلام: إنّ جميع الأدلة التى جاء بها الماديون هنا لا تثبت إلّاشيئاً واحداً وهو وجود علاقة بين خلايا المخ وإدراكات الإنسان لا غير، ولكنّها لا تثبت لنا بأنّ المخ هو الفاعل الرئيسى للإدراك، (فتأمّل).

ومن هنا يتضح أنّ السبب فى عدم إدراك الجسد الميت هو انقطاع اتصاله بالروح، وليس السبب فناء الروح، كما هو الحال بالضبط

بالنسبة للباخرة أو الطائرة التى تفقد اتصالها اللاسلكى بالقاعدة، فالباخرة لم تفن ولم يفن الرّبان والطاقم أيضاً ولكنهم مع ذلك غير قادرين على الاتصال بالساحل وكل مافى الأمر أنّهم فقدوا وسيلة الاتصال بالقاعدة.

۴- أدلة أنصار نظرية استقلال الروح

أ) خصوصية كشف الواقع (اى الاطلاع على العالم الخارجى)

اشارة

إنّ أوّل سؤال يمكن أن يطرح على الماديين هو: إذا كانت خواص المخ «الفيزياكيميائية» نفس الأفكار والظواهر الروحية فينبغى أن لا يكون هناك «فرق مهم» بين عمل المخ وبين عمل المعدة أو الكلية أو الكبد مثلًا، لأنّ عمل المعدة «مثلًا» يتمثل فى مجموعة من النشاطات الفيزيائية والكيميائية، فالمعدة بواسطة حركاتها الخاصة وضخ الافرازات الحامضية تهضم الغذاء وتعدّه لعملية الامتصاص، وهكذا الحال فى واجبات اللعاب الذى تقدم ذكره فهى مركزٌ من أعمال فيزيائية واخرى كيميائية، لكننا نرى بالوجدان بأنّ أعمال الروح تختلف عن جميع هذه الأعمال.

فجميع أعمال أجهزة الجسم لها شبه ببعضها البعض إلّا «المخ» فهو لا يشبه فى أفعاله أىّ واحدة من تلك الأجهزة لأنّ أجهزة الجسم ترتبط بالامور الداخلية للجسم بينما ترتبط الظواهر الروحية بالخارج أى أنّها تخبرنا عمّا هو خارج وجودنا.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۳

ولتوضيح ذلك يجب الالتفات إلى النقاط الآتية:

اولًا: هل يوجد هناك عالمٌ وواقعٌ خارج وجودنا أم لا؟

بالطبع إنّ وجود العالم الخارجى يُعد من الامور البديهية، أمّا المثاليون فقد انكروا وجود عالمٍ خارجٍ عن وجودنا وقالوا إنّ كل ما نراه إنّما هو «نحن» و «تصوراتنا»، ولا يوجد هناك عالم خارجى، والعالم الخارجى ماهو إلّاصور خاليةٌ من المحتوى تشبه الصور التى نراها فى المنام عند الرؤيا فليس وجود العالم الخارجى إلّاكوجود تلك الصور لا غير، وقد اخطأ هؤلاء فى اعتقادهم هذا، وافضل دليل على ذلك إيمانهم بالواقع أثناء عملهم، فكل ما يحملونه من نظريات مثالية ينسونها بمجرّد أن يخرجوا من مكتبة أفكارهم ويضعوا اقدامهم فى شوارع وأزقّة محيطهم الاجتماعى المعتاد، ويتعاملون مع كل شىء على أساس الواقعية!.

ثانياً: هل للإنسان علمٌ بالعالم الخارجى أم لا؟

والجواب عن هذا السؤال بالإيجاب أيضاً، وذلك لأنّنا نمتلك تصوّراتٍ كثيرة عن عالم الخارج ولدينا معلومات جمّة عن الموجودات المحيطة بنا أو عن المناطق النائية.

وهنا نواجه هذا السؤال وهو: هل تحضر الموجودات الخارجية بأعيانها فى ذواتنا؟

وبالطبع فإنّ الجواب بالنفى، فالذى يحضر فى ذواتنا صور تلك الموجودات، ونصل إلى إدراك الحقائق الخارجية بالاستفادة من خصوصية «معادلات كشف الواقع» الموجودة لدى الإنسان.

إنّ معادلات كشف الواقع، لايمكن أن تكون مجرد خواص فيزياكيميائية بالنسبة للمخ، وحتى لوكانت هذه الخواص نابعة حقاً من تأثرنا بالعالم الخارجى وناتجة عنه، إلّاأنّ تأثيرها يشبه تأثير الغذاء على معدة الإنسان، فهل تتمكن المعدة من الحصول على معلومات عن الغذاء بواسطة ممارستها الأفعال الفيزيائية والكيميائية عليه؟ إذن كيف يتمكن ذهننا من إدراك العالمِ الخارجى؟!

وبتعبير آخر: إنّ العلم بالموجوداتِ الخارجيةِ والعينيةِ لا يحصل إلّابواسطة حلول هذه

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۴

الموجودات فی وعاءٍ خاص، مع أنّ خلايا المخ لا يمكنها أن تكون وعاءً ملائماً لهذه الموجودات بل تتأثر بها خلايا المخ فقط، والتأثر هذا يشبه تأثر سائر أجهزة الجسم بالمؤثرات الخارجية، ونحن ندرک ذلک بوضوح.

فإذا كان علمنا بالموجودات الخارجيـة يحصل بمجرد التأثّر بأيّ نحوٍ كان فهـذا يستلزم حصول الإنسان على العلم عن طريق معـدته أو لسانه أيضاً، وهذا غير ممكنٍ بالبداهة.

فالخلاصـة: إنّ الوضع الاسـتثنائی لإدراكاتنا يـدل على أنّ هناک حقيقـة خفيّـة لا تخضع مطلقاً للقوانين الفيزيائية والكيميائية أی يجب علينا أن نرضخ أمام هذه الحقيقة وهی إنّ هناک جوهراً آخر فی ذواتنا وهو ما نطلق عليه اسم الروح يكون السبب فی إدراک الحقائق (فتأمل).

ب) وحدة شخصية الإنسان

اشارة

الدليل الآخر الذی يمكن التعويل عليه فی مسألة استقلال الروح مسألة اتحاد شخصية الإنسان طوال عمره.

وتوضيح ذلک: إنّنا لو شككنا فی أیّ شیء فإننا لا نشک فی أننا «موجودون».

و «أنا موجود» ولا أشک أبداً فی وجودی، كما أنّ علمی بوجودی من نوع «العلم الحضوری» لا «العلم الحصولی» أی أننی حاضر لدی نفسی ولم أنفصل عنها.

على أيّـة حال فإنّ علمنا بأنفسـنا من أوضـح المعلومات لدينا، وهذا الأمر لا يحتاج إلى إقامة البرهان، أمّا بالنسـبة للاسـتدلال المعروف الذی أتی به الفيلسوف الفرنسـی الشهير ديكارت لإثبات وجوده وهو: «أنا افكر إذن أنا موجود» فهو استدلال غير صحيح وغير مجدی، لأنّه اعترف بوجود نفسه مرّتين قبل أن يثبت وجودها! فمّرة عندما قال «أنا» واخرى عندما قال «افكر»، هذا من ناحية.

ومن ناحية اخرى فإنّ ال «أنا» لها وحدة واحدة لا تتبدل من بداية العمر حتى نهايته، ف «أنا

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۵

اليوم» عين «أنـا الأمس» ونفس «أنا قبل عشـرين عاماً»، «فأنا منـذ الطفولـة حتى اليوم لم أتغير» فأنا كنتُ ذلک الشـخص وسأبقى ذلک الشـخص حتى نهاية المطاف، ومن البديهی أننی تعلمت واصبحت مثقفاً وتكاملت وسوف أتكامل لكننی لم أتحول إلى شخص آخر، لذا فإنّ جميع الناس يعتبروننی شخصاً واحداً من البداية حتى النهاية فأنا لا أحمل إلّااسماً واحداً وهوية شخصية واحدة.

فلنری الآن ما هـذا الموجود الواحد الذی يرافقنا طيلة حياتنا، فهل هو خلايا جسـمنا أم مجموع خلايا المخ وفعالياتها؟ لا شـیء من هذا طبعاً، لأنّ هـذه الأشـياء تتبدّل عدّة مرات خلال فترة حياتنا ففی كل سـبعِ سـنين تقريباً تتبدّل جميع خلايا البدن، لأنّنا نعلم بأنّ الملايين من الخلايا تموت فی كل يوم وليلـة وتحلّ محلها ملايين اخرى كما هو الحال فی البناء الـذی يسـتبدل حجراً بالتدريـج ويوضع مكانه حجر جديـد، فهـذا البنـاء سوف يتبـدّل كليّاً بعـد فترة من الزمن حتى لوكـان ذلک التغيير خافياً على الناس أو كالمسـبح الكبير الـذی يـدخله الماء من أحـد جهاته بصورة بطيئـة ويخرج من الجهة الاخرى بمقدار مايدخل فيه من ماء جديد، فمن البديهی أن يتبدّل جميع ماء المسبح بعد مدّة من الزمان، حتى لو غفل الناس عن ذلک التغيير ولم يدركوه.

وبصورة عامة فإنّ كل موجود لا يحافظ على بقائه إلّابواسـطة الطعام ويسـتهلک ذلک الطعام بصورة تدريجية فهو يحتاج إلى «الترميم» و «التبديل».

بنـاءً على هـذا فالإنسـان البـالغ من العمر سـبعين عاماً تكون جميع خلايا جسـمه قـد تبـدّلت مايقارب العشـر مرات، لـذا فإننا لو اعتبرنا

الإنسان ذلك الجسم والمخ والجهاز العصبى والخواص الفيزياكيميائية فإنّ «أنا» ذلك الشخص البالغ من العمر سبعين عاماً قد تبدلت عشر مرات وأنّنى غير ذلك الشخص السابق، مع أنّ هذا الكلام مرفوض بالوجدان.

ومن هنا يتضح أنّ هناك حقيقة واحدة ثابتة فى جميع مراحل حياة الإنسان، وهذه الحقيقة غير تلك الأجزاء الماديّة وليست متغيرة وهى التى تمثّل أساس وجودنا وتعتبر العامل الرئيسى فى إيجاد وحدة الشخصية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۶

خطأ ينبغى اجتنابه:

يتصور البعض أنّ خلايا المخ لا تتبدّل أبداً، ويقولون: إننا قرأنا فى كتب الفسلجة أنّ عدد خلايا المخ لا يتبدّل من بداية العمر وحتى نهايته، أى أنّ عددها لا يزيد ولا ينقص أبداً، وكل مافى الأمر أنّها تنمو ويكبر حجمها لكنّها لا تتكاثر، لذا فإنّها لو اصيبت بعطب فلن ترمم. بناءً على هذا فنحن نمتلك شيئاً ثابتاً هو مجموع خلايا المخ، وهذه الخلايا هى التى تحفظ لنا وحدة الشخصية.

إلّا أنّ هذا التصور يُعتبر خطأً فادحاً، لأنّ هؤلاء خلطوا بين أمرين، فما توصل إليه العلم الحديث هو إنّ عدد خلايا المخ، ثابت من بداية الحياة حتى نهايتها فهو لا يزيد ولا ينقص، لا أنّ أجزاء هذه الخلايا لا تتبدّل، لأننا قلنا إنّ خلايا البدن تتغذى باستمرار وتفقد الأجزاء القديمة وتحل محلها أجزاء جديدة دائماً، كما هو الحال فى المسبح الذى يدخله الماء من أحد جهاته بالتدريج ويخرج من الجهة الاخرى وتتبدّل بعد فترة من الزمان جميع محتوياته على الرغم من ثبات مقدار كميّة الماء فى المسبح، بناءً على هذا فإنّ خلايا المخ تتبدّل أيضاً «۱».

ج) عدم مطابقة الكبير للصغير

اشارة

تصوروا أننا نجلس بالقرب من بحرٍ جميل تطفو على أمواجه عدد من القوارب الصغيرة وتعوم فيه باخرة عظيمة والشمس تغرب من أحد جوانبه والقمر يطلع من الجانب الآخر وبعض الطيور المائية فى حالة ذهاب وإياب إلى ماء هذا البحر، وبالقرب من البحر جبل شامخ ذو قمةٍ سامقة.

وهنا نغلق أعيننا لعدّة لحظات ونتخيّل كل ما رأيناه فى أذهاننا من الجبل العظيم والبحر

---

(۱) أتى فى كتب علم وظائف الأعضاء هذه المسألة أيضاً، يُراجَع على سبيل المثال كتاب الهورمونات، ص ۱۱، وكتاب علم وظائف اعضاء الحيوان، ص ۳۲ تأليف الدكتور محمود بهزاد وزملاؤه.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۷

الوسيع والباخرة الكبيرة، فكل هذه الصور تتجسد فى أذهاننا وكأنّ هناك لوحة كبيرة رُسمت فى أذهاننا أو فى أعماق أرواحنا.

وهناك سؤال يطرح نفسه وهو: أين تستقر هذه الصور الكبيرة؟ فهل تتمكن خلايا الدماغ البالغة فى الصغر أن تحتوى هذه الصور العملاقة؟ كلا طبعاً، اذن يجب أن يكون هناك قسم آخر من وجودنا لا يخضع لقوانين المادّة يبلغ من السعة مبلغاً يجعله يتمكّن من احتواء جميع هذه الصور.

هل يتمكن الإنسان من تشييد بناءٍ تبلغ مساحته ۵۰۰ متر فى أرض مساحتها عدّة أمتار؟! كلّا طبعاً، لأنّ الموجود الكبير لايمكنه أن ينطبق على الموجود الصغير مع حفظ حجمه الكبير، لأنّ من مستلزمات المطابقة إمّا أن يكون الظرف والمظروف متساويين فى الحجم وإمّا أن ينطبق الموجود الكبير على الصغير فى حالة صنع نموذجٍ مصغرٍ منه.

ومهما يكن من شيء يبقى هذا السؤال بلا جواب وهو كيف نتمكن من استيعاب صور كبيرة جدّاً فى خلايا أدمغتنا الصغيرة؟

فنحن نتمكن من تصور محيط الكرة الأرضية الذى يبلغ طوله أربعين مليون متر ونتمكن من تصور الشمس التى تعادل حجم الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرّة، وهكذا يمكننا أن نتصور المجرّات التى تعادل حجم الشمس بملايين المرات، فمثل هذه الصور لا يمكنها أن تستقر فى خلايا الدماغ الصغيرة طبقاً لقانون «عدم مطابقة الجسم الكبير للجسم الصغير»، إذن يجب أن نعترف بوجود شيء غير هذا الجسم يحتوى هذه الصورة الكبيرة.

تساؤل:

من الممكن أن يقال: إنّ الصور الذهنية تشبه «الميكروفلم» أو «الخرائط الجغرافية» التى يدّون فى إحدى زواياها مقياس الرسم الذى هو عبارة عن أعداد كسرية مثل: ۱۱۰۰۰۰۰۰ أو ۱۱۰۰۰۰۰۰۰۰ والتى تدل على مقياس نسبة التصغير، فإذا أردنا الحصول على المساحة الواقعية علينا أن نكبر تلك الخارطة بذلك المقياس، وقد شاهدنا أيضاً الكثير من

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۸

صور البواخر العظيمة التى لا يمكن من خلال تلك الصورة أن ندرك حجمها الحقيقى فهم من أجل اظهار حجمها الحقيقى يضعون على متنها إنساناً ثم يلتقطون لها صورة كى نتمكن من خلال مقارنة حجم الإنسان فى الصورة من معرفة حجمها الحقيقى.

فالصور التى نحملها فى أذهاننا صغيرة جدّاً أيضاً وقد صغرت طبقاً لمقاييس معيّنة، فإذا ماكبّرنا تلك الصور وفقاً لتلك المقاييس فسنحصل على تلك الصور بحجمها الحقيقى ومن البديهى إنّ هذه الصور الصغيرة تستقر بنحوٍ ما فى خلايا الدماغ، (فتأمل).

الجواب:

نحن نواجه هنا مسألة مهمة هى إنّ الميكروفلم يُكبّر عادةً بواسطة المكبرات ثم يعرض على العارضات، ويمكننا أنْ نتصور الحجم الواقعى فى أذهاننا للخارطة الجغرافية بواسطة إجراء عملية الضرب، وهنا يطرح هذا السؤال: أين تقع هذه العارضة الكبيرة التى يُعرض عليها الميكروفلم الذهنى الذى كُبّر عدّة أضعاف؟ فهل العارضة الكبيرة هى نفس خلايا المخ؟

وبعبارة أوضح: إنّ الموجود الخارجى فى مثال الميكروفلم والخارطة الجغرافية هو الأفلام والخرائط الصغيرة، أمّا الموجود الذهنى منها فهو الصور التى تطابق حجم الموجودات الخارجية لتلك الصور، ومن الطبيعى أن تحتاج تلك الصور المطابقة للواقع إلى مكان مطابق لحجمها، ونحن نعلم بأنّ خلايا الدماغ لا تتمكن من احتواء تلك الصور العظيمة.

وخلاصة الكلام: إننا نتصور تلك الصور فى أذهاننا بحجمها الخارجى وإنّ هذه الصور الكبيرة لايمكنها أن تستقر فى خلايا المخ الصغيرة، إذن فنحن نحتاج إلى مكان مناسب لها لذا فإننا نُدرك أنّ هناك وجوداً حقيقياً غير هذه الخلايا نسمّيه (الروح).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۳۹

د) الظواهر الروحية لا تتلائم مع الكيفيات الماديّة

الدليل الآخر الذى يمكن أن نثبت من خلاله استقلال الروح وكونها غير مادّية هو: إنّنا نشعر بالوجدان بأنّ الظواهر الروحية وخواص الروح وكيفياتها لا تشبه بأىّ نحو خواص وكيفيات الموجودات المادّية، وذلك لما يلى:

اولًا: إنّ الموجودات المادّية تخضع لقيد «الزمان» وتمتاز بالتدرج.

ثانياً: تتلاشى بمرور الزمان.

ثالثاً: قابلة للتحلل إلى أجزاء متعددة.

أمّا الظواهر الذهنية فلا تتصف بهذه الخصوصيات والآثار، فالمناظر التى انطبعت فى ذهننا فى مرحلة الطفولة مثلًا لا تتلاشى ولا تبلى

بمرور الزمان وتحافظ على كيفيتها طول هـذه المـدّة، على الرغم من تلاشـى خلايا المـخ إلّاأنّ صورة البيت الذى انطبع فى الذهن قبل عشرين سنة لا تفنى وتبقى تحافظ على نوعٍ من الثبات الذى هو من خصوصيات عالم ما وراء الطبيعة.

إنّ روح الإنسـان تملـك قوّة ابـداع عجيبـة فى مجـال خلق الصور، ومن دون أى تأمّل يمكنها أن تخلق أىّ صورة شاءت، كخلق صور الكواكب السيّارة والمجّرات أو صور الموجودات الأرضـية كالبحار والجبال وأمثالها، ولا تتصف الموجودات الماديّـة بشـىء من هذا القبيل، بل يعتبر هذا دليلًا على أنّها موجود غير مادى.

وبالإضافة إلى هذا فإننا نعلم مثلًا بأنّ ۲+ ۲/ ۴ وهـذا بديهى، ونتمكن أيضاً من تحليل طرفى المعادلة أى أن نحلل العدد اثنين أو العدد أربعـة، ولكن لا يمكننا أن نحلل هذه «المساواة» أى أن نقول: إنّ المساواة تنقسم إلى قسـمين يختلف أحدهما عن الآخر، لأنّ التساوى عبارة عن مفهوم وهو غير قابل للتحليل والتجزئة، فهو إمّا أن يكون موجوداً وإمّا أن لا يكون موجوداً ولكن لا يمكن تقسيمه أبداً.

فـالمفهوم لاـ يقبـل القسـمة ومن أجل هـذا لايمكن أن يكون مادياً، لأنّه لو كان مادياً لقبل الانقسام، ولهـذا السـبب أيضاً لا يمكن أن تكون الروح مادية لأنّها تعتبر الظرف الذى يحوى هذه المفاهيم غير المادية، إذن فالروح اسمى من المادة، (فتأمل) «۱».

---

(۱) راجع تفسير الأمثل، الآية ۸۵ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۰

۵- هل النفس مجردّة؟

هل الروح مسـتقلة ولا غير؟ وهل يمكنها البقاء بعـد موت الجسم وفنائه؟ أم لها حالة التجرّد عن المادة والاسـتقلال معاً؟ أى أنّها تفتقد خصوصيات المادة التى هى عبارة عن تقيدها بالزمان والمكان والتركيب.

لقـد ذهب جمع من الفلاسـفة إلى أنّ الروح مجرّدة ولا معنى لاحتوائها على كيفيات ماديـة، واسـتدلوا على ذلك ببعض الأدلة السابقة التى اقيمت على فرضية استقلال الروح.

والبعض الآـخر يرى أنّ الروح مادّيـة لكنهـا مكـوّنه من مـادة شـفافة وبتعـبير آخر إنّهم يرون أنّ الروح «نصـف مجرّدة» أى مجرّدة عن المادة الكثيفة والعناصر المادية.

فنحن نعلم مثلًا بـأنّ النور جسم، ولاـ فرق فى ذلـك فى كونه على شـكل أمواج أو ذرات «فوتونيـة»، ولكن ممّـا لا شك فيه هو عـدم خضوعه للقوانين التى تخضع لها الأجسام العادية، لذا فهو يخترق الأجسام الشفافة ولا فرق بالنسبة له بين الفراغ وغيره.

فهل أنّ روح الإنسان شبيهة بهذا حقاً؟ أم هى مجرّدة تماماً وأرقى من المادة بشقيها الكثيف والشفاف.

وبما أنّ إثبات مسألة تجرّد الروح أو إثبات كونها مادة شـفافة هى من الأبواب غير المجدية فى بحوث المعاد وبما أنّ المهم بالنسـبة لنا هو اسـتقلال الروح وبقاؤها بعد فناء الجسم، فإننا نعرض عن ذكر مزيد من التفاصـيل فى هذا المجال ونوكل ذلك لعلم الفلسفة، وكل مـا يمكن أن نقوله هنـا هو: إنّ الروح مسـتقلة سواء كانت مجرّدة أم كانت جسـماً مادياً شـفافاً وهى تبقى بعـد فناء الجسم المؤلف من عناصر مادّية وتحافظ على حيويتها، وهذه هى الخطوة الاولى نحو عالم ما بعد الموت، (فتأمّل).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۱

المعاد الجسمانى

اشارة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۳

المعاد الجسمانى

تمهيد:

هـل يختص المعـاد بالجـانب الروحى فقـط؟ أى هل ينفصل الإنسان بعـد موته عن جسـمه إلى الابـد فيتفسـخ جسـمه ويفنى ولا يتعلق خلوده فى الـدار الآـخرة إلّابـالروح؟ أم تتحقق مسألـة المعـاد بكلا الجانبين فيعاد الجسم والروح معاً ويتحـدان مرة اخرى هناك؟ أم لا يعاد إلّا الجسم لوحده لأنّ الروح ماهى إلّاآثار الجسم ومتعلقاته؟

أم يعـاد الجسم والروح معـاً، ولكن الجسم الـذى يُعاد هناك هو غير الجسم المادّى المؤلف من العناصـر الماديـة بل هو جسم شـفاف أرقى من الجسم الموجود فى الدنيا فيكون المعاد ذا حيثية «روحية» وحيثية «نصف جسمية»؟

إنّ لكل واحـدة من هـذه النظريات الأربع المـذكورة أنصاراً كثيرين، لكنّ ما يسـتفاد من القرآن والذى دلت عليه مئاتُ الآيات هو أنّ المعاد يتمّ بالروح والجسم معاً (وبهـذا الجسم المادى) وبما أنّ اعادة الروح من الامور البديهيـة لـدى العلماء والفلاسـفه فقد عبّروا عن المعاد ب «المعاد الجسمانى» مع أنّ مرادهم من ذلك هو «المعاد الجسمانى والروحى».

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد لنمعن خاشعين فى الآيات التى تحدثت عن المعاد الجسمانى:

ونظراً لكثرة هذه الآيات فقد قسمناها إلى «تسع مجموعات» واخترنا من كل مجموعة عدّة نماذج وهى كما يلى:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۴

المجموعة الاولى

اشارة

وهى الآيات التى تجيب على اعتراضات منكرى المعاد الذين كانوا كثيراً ما يسألون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: كيف نحيى ثانيةً بعـد أن نصـبح تراباً وعظاماً رميمة؟ فتقول لهم هذه الآيات إنّ اللّه قادرٌ على أن يحيى العظام المتفسـخة وأن يُلبسـها ثوب الحياة (أجل إنّه يحيى هذه الأجسام المؤلفة من العناصر المادية)، ومن هذه الآيات مايلى:

۱- «وَضَـرَبَ لَنَـا مَثَلًا وَنَسِـىَ خَلْقَهُ قَـالَ مَنْ يُحْيِ العِظَـامَ وَهِىَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى انْشَأَهَا اوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (يس/ ۷۸- ۷۹)

۲- «ايَحْسَبُ الْانْسَانُ الَّنْ نَّجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى انْ نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ».

(القيامة/ ۳- ۴)

۳- «ايَعِدُكُمْ انَّكُمْ اذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً انَّكُمْ مُّخْرَجُوْنَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ». (المؤمنون/ ۳۵- ۳۶)

۴- «وَكَـانُوا يَقولُونَ ءَاذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَانَّا لَمَبْعُوثُونَ* اوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ* قُلْ إِنَّ الْاوَّلِينَ وَالأَخِرِينَ* لَمجْمُوعُونَ الَى مِيقَاتِ يَومٍ مَّعْلُومٍ». (الواقعة/ ۴۷- ۵۰)

۵- «ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِانَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَاذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَانَّا لَمَبعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيْداً» «۱». (الاسراء/ ۹۸)

جمع الآيات وتفسيرها

كيف تحيى العظام البالية؟

بما أننا تعرضنا لتفسير الآيات المذكورة وبحثناها فى المواضيع السابقة فسوف نكتفى بالتركيز على بحث أجزاء منها تتعلق ببحثنا هذا:

---

(۱) وهناك آيات متعددة اخرى أيضاً وردت فى القرآن المجيد ولكن بسبب مشاكلتها فى المضمون مع الآيات المذكورة اكتفينا بذكر الآيات أعلاه.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۵

فالآية الاولى تجيب بصراحة عن هذا السؤال وتقول: «يُحْيِيهَا الَّذِى انْشَأَهَا اوَّلَ مَرَّةٍ».

وجملة «يُحييها» تدل على احياء الأجسام بكل وضوح، ولو لم يكن فى القرآن الكريم إلّا هذا التعبير لكان وافياً فى إثبات هذه المسألة، مع أنّنا ذكرنا آنفاً بأنّ هناك مئآت الآيات التى وردت للدلالة على إعادة الأجسام.

وممّا تجدر الإشارة إليه هو أنّ الآية المذكورة تؤكّد على احياء نفس هذا «الجسم المؤلف من العناصر المادية»، لا جسم آخر مشابه له أو جسم برزخى ونصف مادى.

والآية الثانية ابطلت ادّعاء اولئك الذين يرون أنّ اللَّه لا يعيد عظام الإنسان فقالت بكل وضوح: إننا لا نعجز عن إعادة الإنسان مرّة اخرى «بَلَى قَادِرِينَ عَلَى انْ نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ».

ووضوح هذه الآية فى الدلالة على المعاد الجسمانى ممّا لا يشوبُهُ أىّ ريب.

وأشارت الآية الثالثة إلى مجادلة قوم «۱» ثمود لنبيهم صالح، إذ قالوا فى محاورتهم وهم يقرّعون نبيّهم: «ايَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ اذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً انَّكُمْ مُّخْرَجُوْنَ* هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ».

فهذه التعبيرات تشير إلى أنّ نبى هؤلاء القوم وهو صالح أو هود عليه السلام كان يعدهم بأنّ أجسامهم سوف تعاد يوم القيامة، إلّاأنّهم عارضوه بشدّة وأخيراً ابتلاهم اللَّه بعذاب شديد واهلكهم عن آخرهم بسبب تكذيبهم (كما دل على ذلك ما ورد فى هذه الآيات من سورة الحج).

وفى الآية الرابعة كان الحديث عن «أصحاب الشمال» وقد كرر القرآن ذكر هذا المعنى فقال: «وَكَانُوا يَقُولُونَ ءَاذَا مِتْنا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً ءَانَّا لَمَبعُوثُونَ».

وهذا الذم العنيف فى الواقع جاء دفاعاً عن هذه الحقيقة وهى أنّ العظام التى أصبحت تراباً سوف تلبس ثوب الحياة ثانية.

والآية الخامسة والاخيرة تحدثت عن جميع الكفار أيضاً، قال تعالى: «ذَلِكَ جَزَاوُهُمْ

---

(۱) لم يصرّح فى الآية المذكورة باسم القوم أو اسم نبيهم، فالبعض يرى أنّ هؤلاء هم قوم ثمود (قوم صالح) والبعض‌الآخر يرى أنّهم قوم عاد (قوم هود)، ولكن بالالتفات إلى نوع العذاب (وهو الصيحة) الذى ذكرت فى ذيل الآية فإنّه من المناسب أن يكونوا هم قوم ثمود.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۶

بِانَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا ءَاذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً ءَانَّا لَمَبعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً».

ويستفاد من هذه الآية بالإضافة إلى ماتقدم بأنّ منكرى المعاد الجسمانى هم من أصحاب النار، وهذا دليل آخر لإثبات المدّعى

ومن خلال الآيات المذكورة نصل بسهولة إلى هذه النتيجة وهى إن الجسم بعد فنائه يعود إلى الحياة مرّة اخرى

المجموعة الثانية:

اشارة

وهذه المجموعة هى عبارة عن الآيات التى صرّحت بخروج البشر من القبور يوم القيامة، فالقبور هى محل رقود الأجسام وهذا واضح من دون الحاجة إلى دليل، وهذا التعبير دليل واضح آخر على المعاد الجسمانى.

وقد ورد هذا النوع من الآيات فى القرآن بكثرة أيضاً إلّاأننا نكتفى بذكر نماذج منها:

۱- «وَانَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَانَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى القُبُورِ» «۱». (الحج/ ۷)

۲- «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَاذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ» «۲». (يس/ ۵۱)

۳- «قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ».

(يس/ ۵۲)

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يُبعث من فى القبور؟

طُرحت الآيات المذكورة أعلاه تحت ثلاثة عناوين (الخروج من القبور والأجداث

---

(۱) جاء نفس المضمون فى سورة الانفطار الآية ۴ والعاديات الآية ۹.

(۲) ورد هذا المعنى فى آيتين أُخريين من القرآن الكريم (المعارج ۴۳؛ والقمر ۷).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۷

والمرقد) وإذا شفعناها بالآيات المشابهة لأصبح عددها سبع آيات، وكل هذه الآيات تبحث بوضوح فى مسألة المعاد الجسمانى.

ففى الآية الاولى قال تعالى «وَانَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَارَيْبَ فِيهَا وَانَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِى القُبُورِ».

وممّا لا شك فيه هو أنّ ما يَرْقُد فى القبور هى أجسام البشر، وهذا التعبير يشير إلى أنّ ما يُحيى هو ذلك الجسم المادى.

وورد التعبير ب «الأجداث» فى الآية الثانية بدلًا من القبور، و «الأجداث» جمع «جَدَث» (على وزن قَفَصْ) بمعنى القبر، قال بعض اللغويين إن «جدث» لغة «أهل تهامة» أمّا «أهل نجد» فإنّهم يستعملون كلمة «جدف» بدلًا عن «جدث».

على أيّة حال فإنّ هذا التعبير لا يدلّ إلّاعلى المعاد الجسمانى، وذلك لأنّ القبور تضم فى باطنها أجساد البشر أو عظامهم البالية وترابهم، وخروج الناس من القبور يوم القيامة هو دليلٌ حىّ على احياء تلك الأجساد.

وفى الآية الثالثة نواجه تعبيراً ثالثاً هو مسألة بعث الأموات من «مرقدهم»، ويتمّ ذلك بهذا النحو وهو إنّ مجموعة من الكفار عندما يبعثون من مرقدهم ويرون أنّهم عادوا للحياة وقامت القيامة يضجون بالصياح والعويل ويقولون: «يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَّرْقَدِنَا هذَا». و «مرقد» من مادّة «رقود» و «رقاد» بمعنى النوم ليلًا أو نهاراً، ويرى بعض اللغويين أنّه يختص بالنوم ليلًا، وقيل أيضاً إنّه فى الأصل بمعنى الاستقرار والنوم عند نزول البلايا المعضلات (أى النوم المُسكِّن) لذا استُخدم فى المكث عند معالجة المعضلات أيضاً.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۸

بناءً على هذا ف «المرقد» بمعنى المقر ومحل الاستراحة ومحل النوم، واطلق على القبر من أجل أنّ الميت يتحرر من الابتلاءات النازلة فى هذه الدنيا وكأنّه يغرق فى القبر فى نوم مُسكّن ومُهدىء «۱».

واستعمال هذا التعبير بشأن القبور لوجود شبه كبير بين النوم والموت، من أجل هذا قالوا النوم أخُ الموت.

وقال البعض: إنّ هدف المنكرين من استعمال هذا التعبير هو أنّهم أرادوا بذلك أن يظهروا شكهم مرّة اخرى ولسان حالهم يقول هل كنّا نياماً فاستيقظنا أم كُنّا أمواتاً فعدنا للحياة؟! ولكن لا يلبثون حتى يجيبوا عن سؤالهم هذا ويعترفوا بالحق قائلين: «هَذا مَا وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ المُرْسَلُونَ».

فهؤلاء ومن خلال وصفهم اللّه ب «الرحمن» كأنّهم يريدون التمسك بالرحمة الإلهيّة بالإضافة إلى اعترافهم بخطئهم لعلهم يصلحون ماضيهم الأسود بسلوكهم هذا الطريق.

ومهما يكن من شيء فإنّ هذا التعبير دليل آخر على صحّة المعاد الجسماني، وذلك لأنّ المعاد إن كان بالروح فإنّ ذكر «المرقد» لا يكون له أيّ معنى

المجموعة الثالثة:

اشارة

وهى الآيات التى تتحدث عن خلق الإنسان من التراب وعودته إلى التراب ثانياً وحشره مرّة اخرى منه، مثل:

۱- «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً اخْرَى . (طه/ ۵۵)

۲- «وَاللَّهُ انْبَتَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ اخْراجاً».

(نوح/ ۱۷- ۱۸)

۳- «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ». (الاعراف/ ۲۵)

---

(۱) مقاييس اللغة؛ وصحاح اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن مادة (رقد).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۴۹

جمع الآيات وتفسيرها

من التراب نخرجكم تارة اخرى

تخللت الآية الاولى قصة موسى وفرعون، لكن الخطاب كان من قبل اللّه تعالى عندما أشار إلى الأرض فى الآيات السابقة، قال تعالى «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً اخْرَى .

فنحن جميعاً خُلقنا من التراب، إمّا لأننا خلقنا من آدم وآدم من تراب، وإمّا من أجل أنّ جميع الأغذية (من نباتات أو حيوانات تتغذى على النباتات) التى ينشأ منها لحمنا وجلدنا وعظامنا، قد خُلقت من التراب فمن البديهى أن نعودَ جميعاً إلى التراب ونُبعث ثانيةً من التراب، وهذا دليل واضح على إثبات المعاد الجسمانى، وهذا التعبير، بالإضافة إلى كونه جواباً لمن يقول بعدم إمكان تحقق المعاد بعد تحلل الأجسام وتحولها إلى تراب، وجواباً لمن غفلوا عن كونهم خلقوا من التراب، فهو انذارٌ لجميع الطغاة والمستكبرين المتغطرسين أمثال فرعون وأعوانه لاعلامهم بأنّهم كانوا فى بداية الأمر تراباً وسوف يعودون إلى التراب ويخرجون تارةً اخرى من التراب ويُحضرون فى محكمة العدل الإلهيّة.

إن أدنى تأمّل فى مراحل وجود الإنسان يكفى لتحطيم غروره واحياء روح التواضع والتسليم أمام الحق فى أعماقه.

والآيـة الثانيـة جـاءت على لسـان النبى نوح عليه السـلام حيث شـبّه الإنسان بالنبات الـذى ينبت فى التراب، قال تعالى «وَاللَّهُ انْبَتَكُمْ مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً* ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ويُخْرِجُكُمْ اخْراجاً» «۱».

إنّ استعمال «الإنبات» فى‌مورد الإنسان تعبير لطيف جدّاً، والمراد منه هو لفت الأنظار

---

(۱) تقتضـى القاعدة فى هذه الآيات بوجوب استخدام كلمة «انباتاً» التى‌هى مصدر لفعل «أنبتكم» لكن بعض المفسرين يرى أنّ هناك تقديراً فى الآية على النحو التالى: «أنبتكم من الأرض فنبتكم نباتاً- أو- أنبتكم من الأرض انبات النبات» (تفاسير الكبير؛ وروح الجنان؛ والميزان).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۰

إلى التشـابه الكبير بين القوانين السائـدة على الحيـاة النباتيـة وعلى الحيـاة الإنسانيـة، بالإضافـة إلى أنّ اللّه تعـالى لا يُعتبر معلماً للإنسان فحسب، بل هو كالفلاح الذى يزرع البذور فى الجوّ الملائم ويستمر فى سقيها ومداراتها حتى تُخرجُ ثمرها وهو الاستعداد الذى يكمن فيها!

إننـا نعلم بـأنّ النباتـات التى تسـتحق الحيـاة هى النباتـات التى تنبت وتنمو كى تعطى ثمراً وظلًا وتسـاهم فى تنقيـة الهواء، فإن لم تكن كذلك فهى لا تنفع إلّافى استعمالها حطباً، وهكذا الحال فى الإنسان، قال الشاعر الفارسى:

لتُحرق الأشـجار غير المثمرة هـذا جزاء لِلذى لا ينفع! وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآية تدل بوضوح على تحقق المعاد الجسـمانى، وذلك لأنّها تقول: سوف تعودون إلى التراب وتبعثون منه، فأنتم فى بداية الأمر كنتم تراباً وسوف تُبعثون مرّة اخرى من التراب.

وتحدثت الآية الثالثة عن آدم وحواء ونسلهم، قال تعالى «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوْتُوْنَ وَمِنْهَا تُخْرَجُوْنَ».

وجملـة: «وَمِنْهَا تُخْرَجُوْنَ» دليل واضـح على تحقق المعاد الجسـمانى من وجهـة نظر القرآن المجيـد، ولا يمكن بأىّ وجه أن تدل على معاد الروح فقط أو على المعاد النصف جسمانى (أى بالجسم البرزخى).

كما أنّ هـذا التعبير يشـير أيضاً إلى أنّ مسألـة المعاد الجسـمانى كانت مطروحة على طاولة البحث منذ بداية خلق آدم عليه السـلام ولا يختصُّ طرح هذه المسألة بعصر ظهور الإسلام ونزول القرآن المجيد.

المجموعة الرابعة:

اشارة

وهى الآيات التى تُشبِّه بعث الإنسان مرّة اخرى بحياة الأرضِ بعد موتها، مثل:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۱

۱- «وَاللَّهُ الَّذى أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ الَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَاحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذلِكَ النُّشُورُ». (فاطر/ ۹)

۲- «وَاحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الخُرُوجُ». (ق/ ۱۱)

جمع الآيات وتفسيرها

المعاد يشبه إحياء الأرض بعد موتها

لقـد تعرضـنا فى هـذه الآيات فى البحوث السابقـة لمناسـبات اخرى وهنا نتعرض لبحثها من زاويـة اخرى وهى أنّ القرآن المجيد شبّه

نشور الناس بحياة الأرض عند نزول المطر فقال: «كَذلِكَ النُّشُوْرُ». وقال فى موردٍ آخر: «كَذلِكَ الخُرُوجُ».

فهذه التعبيرات والتعبيرات المشابهة لها تتطرق للمعاد الجسمانى، وذلك لأنّ الجسم المادى إذا لم يتلبس بالحياة مرّة اخرى فإنّه سوف لن يكون له ايّ شبه بالأرض التى تحيى بعد موتها، لأنّ معاد الروح بمعنى بقاءها بعد موت الجسم، فما هو العامل المشترك بين احيائها واحياء الأرض ليكون التشبيه صحيحاً؟!

وكما أشرنا آنفاً فإنّ القرآن يحتوى على آيات اخرى تحمل نفس هذه المضمون أيضاً وردت بعبارات وصورٍ مختلفة تدل جميعها على تحقق المعاد الجسمانى.

المجموعة الخامسة:

اشارة

وهى الآيات التى تشير إلى شدّة مخالفة اعداء نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أو سائر الأنبياء فى مسألة المعاد، اولئك الذين كانوا يرون أنّ الاعتقاد بمسألة الاحياء بعد الموت ضربٌ من الجنون (والعياذ باللّه) وكانوا يعدّونه من الامور العجيبة غير المألوفة.

فلو كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يدعو الناس للتصديق بمسألة تحقق المعاد بالروح فقط لما كان هذا من العجائب طبعاً، وذلك لأنّ عرب الجاهلية كانوا يعتقدون ببقاء الروح ولم يكن بقاء الروح آنذاك أمراً عجيباً.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۲

وبالإضافة إلى ذلك تشير هذه الآيات إلى أن تعجب هؤلاء نابع من عدم تصديقهم بإمكانيّة جمع أجزاء الإنسان التى تحللت فى التراب.

فلنتأمل الآن بهذه الآيات:

۱- «وَقالَ الَّذينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ اذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفى خَلْقٍ جَديدٍ* افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً امْ بِهِ جِنَّةٌ». (سبأ/ ۷- ۸)

۲- «إِنْ هُوَ إِلّا رَجُلٌ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ومَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤمِنينَ». (المؤمنون/ ۳۸)

جمع الآيات وتفسيرها

هل يمكن أن نُخلقُ من التراب ثانية؟

قد تعرضنا سابقاً لتفسير هذه الآيات أيضاً، لكننا هنا ننظرإليها من زاوية اخرى جديدة، وكل مافى الأمر أنّ المشركين الذين عاصروا النبى صلى الله عليه و آله والذين هبّوا لمعارضته قالوا: لقد ظهر رجلٌ يدّعى بأنّكم سوف تُبعثون مرّة اخرى بعد أن تتحولوا إلى تراب وينتشر ترابكم فى كلِّ صوب، ثم يصفون هذا الادّعاء بالافتراء على اللّه وأن قائله أصابه مسٌ من الجنون، أى أنّه إنْ لم يكن مجنوناً فقد افترى على اللّه كذباً كى يخدع الناس بذلك، وإلّا فإنّه تحدّث بهذا بسبب ما أصابه من الجنون!

وفى الآية الثانية نواجه نفس هذا المعنى أيضاً، فهذه الآية تتحدّث عمّا جاءَ على لسان قوم ثمود عند مقابلتهم لنبيّهم صالح، فعندما تحدّث لهم النبى صالح عليه السلام عن المعاد غضبوا عليه وعدّوا ذلك نوعاً من الافتراء والكذب على اللّه!.

لقد كانت جميع هذه الاعتراضات التى جُوبه بها نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أو النبى صالح عليه السلام أو سائر الأنبياء منبثقة من دعوة الأنبياء الناس للتصديق بتحقق المعاد الجسمانى، فإنْ لم يكن الأمر كذلك فما معنى هذه الاعتراضات الشديدة، فهذه الامور

تعتبر أدلة اخرى ممّا ورد فى القرآن المجيد لإثبات تحقق المعاد الجسمانى.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۳

المجموعة السادسة:

اشارة

وهى الآيات التى تحدثت عن أنواع النعم الماديّة فى الجنّة كالفواكه والأنهار والأرائك وأنواع الشراب وأنواع الملابس الفاخرة والظل وأنواع الأشجار وعن جميع الملاذ الجسمية الاخرى وعدد ما ورد فى القرآن من هذه الآيات ممّا لا يحصى

ومن البديهى عدم إمكانية حمل جميع معانيها على المجاز فنصرف الألفاظ عن معناها الحقيقى من دون ايّ قرينة، فرغم اختلاف هذه الفواكه والأشربة والملابس والأطعمة الموجودة فى الجنّة عن أمثالها فى الدنيا وبالرغم من أننا اسارى هذه الدنيا المحدودة وأننا لا نتمكن من درك تلك الآفاق بصورة مُثلى إلّاأنّ هذه النعم مهما كانت كيفياتها فهى نعم مادية ولا يكون ذكرها مناسباً إلّامن أجل تحقق المعاد الجسمانى.

بالإضافة إلى عدم انحصار نعم الجنّة بالنعم المادية وأنّ هناك نعماً ومواهب معنوية وروحية لا مثيل لها أيضاً إلّاأنّ هذه النعم لا تتنافى مع وجود النعم المادية.

وبتعبير آخر: بما أنّ المعاد يتحقق بالجسم والروح معاً فإنّ نعم الجنّة لها حيثية مادية وروحية معاً، بناءً على هذا لايصح أن نحصرها فى البعد الروحى ونغض النظر عن جميع هذه الآيات الواضحة.

أمّا بالنسبة لعدد هذه الآيات فإنّه قد يبلغ المئات، وما نذكره من نماذج فيما يلى هو من سورة واحدة من القرآنالمجيد وهى سورة الرحمن فمن أراد تفصيلًا أكثر عليه تتّبع باقى الآيات فى مواضع اخرى من القرآن:

۱- «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ». (الرحمن/ ۴۶)

۲- «ذَوَاتَا افْنانٍ». (الرحمن/ ۴۸)

۳- «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ». (الرحمن/ ۵۰)

۴- «فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». (الرحمن/ ۵۲)

۵- «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ اسْتَبْرَقٍ». (الرحمن/ ۵۴)

۶- «وَجَنَى الجَنَّتَيْنِ دَانٍ». (الرحمن/ ۵۴)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۴

۷- «ومِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ». (الرحمن/ ۶۲)

۸- «فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ». (الرحمن/ ۶۶)

۹- «فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ». (الرحمن/ ۶۸)

۱۰- «فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ». (الرحمن/ ۷۰)

۱۱- «حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِى الخِيَامِ». (الرحمن/ ۷۲)

۱۲- «لَمْ يَطْمِثْهُنَّ انْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ». (الرحمن/ ۷۴)

۱۳- «متَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسانٍ». (الرحمن/ ۷۶)

جمع الآيات وتفسيرها

نِعَم الجنّة المادية دليلٌ على تحقق المعاد الجسمانى

كما لاحَظْتمُ فإنّ سورة الرحمن لوحدها والتى تعتبر من قصار السور تقريباً قد احتوت على اثنى عشر نوعاً من نعم الجنّة المادية على الأقل، وهذه الأنواع هى: بساتين الجنّة والأشجار المثمرة المتنوعة والفواكة المختلفة التى تدنو من أهل الجنّة ليسهل قطفها، وفرش الجنّة المصنوعة من قماش ناعم وجميل والزوجات الباكرات اللواتى يشبهن الياقوت والمرجان لشدّة جمالهن والعيون الجارية والحور المستورات فى خيام الجنّة والأرائك المزينّة بأنواع الأقمشة الجميلة التى يتكئ عليها أهل الجنّة وما شابه هذه النعم.

وقد ورد فى القرآن ذكر نماذج اخرى أيضاً فى سور اخرى كثيرة جدّاً كأنّهار الجنّة التى تحتوى على أشربة مختلفة والأوانى المختلفة التى يستخدمها أهل الجنّة وغرف الجنّة وأرائكها التى يتكئون عليها متقابلين يتسامرون.

فقد ورد ذكر هذه النعم الماديّة فى الآيات بصورة متتالية أحياناً وهذا النحو من ذكر الآيات لا يُبقى أى مجال للشك والتردد فى أنّها نعم ماديّة فلنتأمل بالإضافة إلى ماسبق فى عدّة آيات قصيرة وجميلة من سورة «الغاشية»:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۵

«وُجُوهٌ يَوْمِئِذٍ نَّاعِمَةٌ». (الغاشية/ ۸)

«فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ». (الغاشية/ ۱۰)

«فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ». (الغاشية/ ۱۲)

«فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ». (الغاشية/ ۱۳)

«وَاكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ». (الغاشية/ ۱۴)

«وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ». (الغاشية/ ۱۵)

«وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ». (الغاشية/ ۱۶)

ففى هذه السورة التى بلغ عدد آياتها ستاً وعشرين آية قد اختصت سبع آيات منها بالمعاد الجسمانى ونعم الجنّة المختلفة، فإذا أردنا احصاء جميع آيات القرآن التىاختصت بهذا المبحث فإننا بهذا تحصل على عدد كبير من هذه الآيات.

ومن الضرورى هنا أيضاً أنْ نوضّح أمرين:

۱- إنّ نِعَم الجنّة لا تقتصر على النعم الماديّة فحسب، بل تحتوىعلى نعم روحية ومعنوية كثيرة أيضاً- سوف نتطرق لبحثها باذن اللّه فى محلها المناسب-، ولكن هل من الممكن أساساً أن يوفّر اللّه تعالى جميع هذه النعم المادية لتنعّم الجسم بها من دون أن يوفّر النعم والمواهب الملائمة للروح التى تعتبر الجزء الرئيسى فى وجود الإنسان والتى هى أرقى وافضل من الجسم من جميع النواحى؟ كلّا طبعاً، لكنّ عدم ذكر هذه النعم هو لسبب قصور الألفاظ عن بيانها وشرحها ولعدم امكان دركها إلّاعن طريق الوصول إليها، من أجل هذا لم يأت شرحها فى القرآن المجيد، ولكن رغم ذلك فقد وردت عدّة تعابير غامضة ومختصرة وجذّابة فى هذا المجال لبيان عمق وعظمة هذه النعم، وسوف نتحدث عنها بالتفصيل فى بحثٍ مستقل.

۲- إنّ البعض تجرأ فى تاويل جميع هذه الآيات بجسارة وحملها على مفاهيم خارجة عن دلالة ظاهر ألفاظها وعدّها كناية عن النعم المعنوية، لكنّ القواعد المعروفة فى باب الألفاظ لا تسمح لنا أبداً بأن نرتكب مثل هذا العمل، فإذا ما سمحنا لأنفسنا باستخدام هذه

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۶

التأويلات فإنّه سوف لن يبقى هناك أىّ معنىً لحجيّةِ الظواهر وسوف تخرج الألفاظ عن كونها وسيلة لنقل المفاهيم وتفقد أصالتها وأهميّتها بالمرّة، وهذا العمل نوع من التجرّى على اللّه والقرآن المجيد.

المجموعة السابعة:

اشارة

وهى الآيات التى تحدّثت عن جزاء المجرمين وعقابهم يوم القيامة، وهذه العقوبات لها حيثية مادّية، فإذا كان المعاد بالروح فقط فإنّه يجب أن نحمل جميع هذه التعبيرات على معانيها المجازية، وهو عملٌ غير مسموح به أبداً.

وهنايجب أن نذكّر ثانية بأنّ عقوبات يوم القيامة على نوعين: عقوبات معنوية وعقوبات مادية، وقد ورد ذكر كلا النوعين فى آيات القرآن رغم تركيز القرآن على ذكر العقوبات المادية، وذلك لما أشرنا إليه فى البحث السابق.

أمّا بالنسبة لعدد هذه الآيات فهو كثير جدّاً، ولنمعن فيما يلى بنماذج منها:

١- «وَاصْحَابُ الشِّمَالِ مَا اصْحَابُ الشِّمَالِ* فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ* وَظِلٍّ مِّنْ يَحْمُومٍ* لَا بَارِدٍ وَلَاكَرِيمٍ». (الواقعة/ ۴۱- ۴۴)

٢- «يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوْبُهُم وَظُهُورُهُم».

(التوبة/ ۳۵)

٣- «... وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ اشَدُّ حرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ».

(التوبة/ ۸۱)

۴- «... كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِى النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ امَعَاءَهُمْ». (محمد/ ۱۵)

۵- «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ». (القمر/ ۴۸)

۶- «تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً* تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ* لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ الّا مِنْ ضَرِيعٍ* لَّايُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِنْ جُوعٍ». (الغاشية/ ۴- ۷)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۷

٧- «انَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الْاثِيمِ* كَالمُهْلِ يَغْلِى فِى البُطُونِ* كَغَلْيِ الْحَمِيْمِ». (الدخان/ ۴۳- ۴۶)

جمع الآيات وتفسيرها

دليل آخر على كون العذاب المادى فى جهنم

يتضح الجانب الذى يخص بحثنا فى تفسير هذه الآيات بشكل كامل، بدون حاجة للاطالة فيه لأنّ الآيات تحدثت عن نار جهنم التى يسحب المجرمون فيها على وجوههم.

وفيها نار وقودها كنوز الدراهم والدنانير التى لم تدفع الحقوق الإلهيّة منها فتحمى وتكوى بها جباه أصحابها وجنوبهم وظهورهم.

وكذلك ورد فيها الحديث عن الرياح ذات السموم القاتلة، وماء الحميم، وظلل من النار التى تنتظر المجرمين.

وكذلك جاء الحديث فيها عن الوجوه التى ترد جهنم وعن العيون الآنية التى يسقون منها ولا طعام لهم فيها إلّاالضريع.

وتحدثت عن شجرة الزقوم التى هى طعام المذنبين وكذلك عن الشراب الحميم الذى هو كالمهل يغلى فى البطون.

هذه الشواهد كلها وما شابهها دلائل واضحه على المعاد الجسمانى.

المجموعة الثامنة:

اشارة

وهى الآيات التى تتحدث عن اعضاء جسم الإنسان مثل اليد، والرجل، والعين، والاذن، واللسان، والوجه والجلد، وجميعها تدل على المعاد الجسمانى.

ومثل هذه الآيات كثيرة فى القرآن الكريم وسنلقى النظر على النماذج التالية.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۸

۱- «اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى افْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا ايْدِيْهِمْ وَتَشْهَدُ ارْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس/ ۶۵)

۲- «حَتّى اذَا مَا جَاؤُهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأبْصَارُهُمْ وَجُلُوْدُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(فصلت/ ۲۰)

۳- «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُّمْ عَلَيْنا قَالُوا انْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى انْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ».

(فصلت/ ۲۱)

۴- «فَامَّا مَنْ اوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه ... وَامَّا مَنْ اوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُوْلُ يَالَيْتَنى لَمْ اوْتَ كِتَابِيَه». (الحاقّة/ ۱۹- ۲۵)

۵- «وُجُوْهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ* وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ». (عبس/ ۳۸- ۴۱)

جمع الآيات وتفسيرها

تكلُّم اعضاء الجسم دليل ملموس آخر

بما أنّنا سنتعرّض لتفسير هذه الآيات فى مباحث اخرى مثل بحث شهود يوم القيامة وبحث كُتب الأعمال فإننا هنا نتعرض لتفسيرها بصورة إجمالية ولا نبحثها إلّامن بُعدٍ واحد وهو (كيفية دلالتها على المعاد الجسمانى).

فالآية الاولى تحدثت عن ختم الأفواه وتوقف اللسان عن النطق بصورة مؤقتة وتكلّم الأيدى والأرجل للادلاء بالشهادة على الأعمال التى ارتكبها الإنسان فى الدنيا.

ومن البديهى أنّ هذه المسألة لا تنسجم سوى مع المعاد الجسمانى، لأنّ المعاد إنْ كان ذا بعد روحى فقط لما كان هناك أيدٍ وأرجُل ولما كان هناك لسان وفم ولا أىّ نوع من التكلم.

وتحدثت الآيتان الثانية والثالثة عن شهادة الأذن والعين والجلد فى يوم القيامة على الأعمال التى ارتكبها الإنسان.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۵۹

وإدلاء تلك الأعضاء بالشهادة قد يكون بواسطة اعطائها القدرة على النطق أو بلسان الحال، وذلك لأنّ الاذن والعين واليد والرجل والجلد تُسجِّلُ الأعمال فى داخلها وتحتفظ بها وتظهر آثارها فى يوم القيامة الذى هو «يوم البروز» (سوف يأتى شرح هذه المطالب- باذن اللَّه- فى بحث أشهاد يوم القيامة).

وتحدثت الآية الرابعة عن الّذين يأتون يوم القيامة وهم يحملون كتاب أعمالهم بيدهم اليمنى (للدلالة على موفقيتهم وطهارتهم وفوزهم) فيدعون الناس فى المحشر بكل فخر واعتزاز لمطالعة كتب أعمالهم! وأمّا الذين يحملون كتب أعمالهم بيدهم اليسرى للدلالة على سوء أعمالهم فإنّهم ينادون بأعلى أصواتهم: ليتنا لم نؤت هذه الكتب!

والحديث هنا لم يقتصر على أعضاء البدن المختلفة فحسب بل قد أشير إلى اليد اليسرى واليمنى أيضاً.

وفى الآية الخامسة كان الحديث عن وجوه الصالحين المشرقة ووجوه الطالحين والمذنبين المغبرة المظلمة، وهذه الامور تدلّ أيضاً على أنّ المعاد يتحقق بإعادة الجسم.

وبالإضافة إلى ماتقدّم من نماذج هناك آيات كثيرة اخرى فى القرآن تحدثت عن الأغلال والسلاسل التى تثقل اعنان المذنبين كما جاء فى (سورة إبراهيم/ ۴۳) و (الإنسان/ ۴).

وهناك آيات اخرى تحدثت عن ظواهر تعرض على الجسم كضحك المؤمنين: «فَالْيَومَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الكُفَّارِ يضْحَكُونَ». (المطففين/ ۳۴)

كما أشير فى بعض الآيات إلى يوم القيامة بأنّه يوم رهيب تشخص فيه الأبصار من شدّة الخوف وتقف الاعناق عن الحركة وتبقى الوجوه مرتفعة نحو الأعلى ولا يرتد طرفهم وتبقى عيونهم مفتوحة من شدّة الخوف والرعب: «انَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَومٍ تَشْخَصُ فِيهِ الابْصَارُ* مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُؤُسِهِمْ لَايَرتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ». (إبراهيم/ ۴۲- ۴۳)

وتحدثت بعضها عن عضّ الظالمين ايديهم حسرةً على مافاتهم: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ». (الفرقان/ ۲۷)

وأمثال هذه الآيات.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۰

فهل يمكن أن تُحمل جميع هذه الآيات على الكناية والمجاز من دون أىّ دليلٍ واضح، وأن نضرب القواعد المسلّمة فى استعمال الألفاظ عرض الحائط؟!

المجموعة التاسعة:

اشارة

وهى الآيات التى أشارت إلى نماذج عينية من تحقق المعاد على مرّ التاريخ كقصة إبراهيم مع الطيور وقصة عزير أو أرمينيا عليه السلام وكقصة أصحاب الكهف وأحداث قتيل بنى اسرائيل التى مرّ شرحها بالتفصيل تحت عنوان «النماذج العينية والتاريخية لتحقق المعاد» «۱».

فجميع هذه النماذج تدلّ بوضوح على أنّ المعاد لا- يختص بالجانب الروحى فحسب، بل تهتم بالجانب المادىّ أيضاً، وإنّ استفسار الناس والأنبياء عن مسألة المعاد يدور حول محور الحيثية المادية للمعاد وإراءة تلك النماذج لم يتمّ إلّامن أجل إثبات الجانب المادّى للمعاد.

وبما أننا تعرضنا بالتفصيل لبيان هذه الآيات فإننا لا نرى ضرورة فى إعادة شرحها هنا.

ثمرة البحث:

بالاعتماد على المجموعات التسع من آيات القرآن المجيد التى تحدثت عن المعاد الجسمانى بكل وضوح وطرحت تلك المسألة بطرق مختلفة وببيانات متنوعة لن يبقى أى مجال للشك فى أنّ مسألة تحقق المعاد الجسمانى (بمحاذاة المعاد الروحى) هى من الامور القطعية الحدوث من وجهة نظر القرآن المجيد وهذه المجموعات هى:

۱- الآيات التى تحدثت عن إعادة العظام الرميم إلى الحياة مرّة اخرى

---

(۱) راجع الصفحة ۱۵۷ من هذا الكتاب.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۱

۲- الآيات التى تحدثت عن بعث من فى القبور.

۳- الآيات التى تحدثت عن خلق الإنسان من التراب وإنّه سوف يعود إليه ثم يبعث منه مرّة اخرى

۴- الآيات التى شبّهت احياء الموتى باحياء الأرض الميتة.

۵- الآيات التى تحدثت عن مواقف اعداء الإسلام الصارمة ازاء مسألة تحقق المعاد (على الرغم من أنّ أكثر هؤلاء كانوا يؤمنون بمعاد الروح إلّاأنّهم كانوا يتعجبون من تحقق المعاد الجسمانى).

۶- الآيات التى تحدثت عن أنواع النعم المادية فى الجنّة.

۷- الآيات التى تحدثت عن أنواع العقوبات المادية فى نار جهنم.

۸- الآيات التى تحدثت عن اعضاء جسم الإنسان وما يطرأ عليها يوم القيامة كالعين والاذن واليد والرجل والوجه والعنق، وأخيراً الآيات التى أشارتْ إلى نماذج عينية من تَحقّق المعاد.

ونظراً لصراحة وكثرة تلك الآيات يجب الاعتراف بأنّ المعاد الجسمانى هو من الضروريات من وجهة نظر القرآن المجيد، أمّا اولئك الذين يبحثون عن طريق آخر فإنّهم غرباء عن القرآن وتعاليمه.

من هنا نّتجه لذكر توضيحات هذا البحث، لنذكر الأدلة التى اقيمت على إثبات المعاد الجسمانى ثم نذكر ما أورده المخالفون بقالب منطقى ونتعرض لنقد تلك الايرادات.

توضيح

المعاد الجسمانى فى مقياس العقل:

هل يمكن إثبات المعاد بهذا الجسم المادّى المؤلف من العناصر المادية عن طريق العقل أم لا؟

يرى البعض عدم وجود دليل عقلى مقنع لاثبات هذه المسألة كما أنّه لا يوجد دليل على

نفيها أيضاً، وبما أننا لانمتلك دليلًا على استحالة ذلك فإننا نكتفى فى هذا المجال بأدلة كتاب اللّه والسنّة من دون تأويل ظواهرهما «۱» وبتعبير آخر إنّ دليل العقل يعجز عن إثبات هذه المسألة فعندما يتمكن الدليل العقلى من إثبات ذلك فإنّه لا يبقى أمامنا سوى التسليم للدليل النقلى.

هذا بالإضافة إلى مايراه البعض من أنّ المعاد الجسمانى مطابق للدليل العقلى ويقولون بأنّ روح الإنسان تنمو بموازاة نمو البدن وترتقى معه إلى الكمال. لذا فإنّه توجد هناك رابطة وثيقة بين «الروح» و «البدن» فتؤثّر حالات كلٍّ منهما فى الآخر، فالآلام الجسمية تؤثّر على الروح كما أنّ الآلام الروحية تؤثّر على الجسم أيضاً، فالسكينة وراحة البال فى كلٍّ منهما له تأثير إيجابى على الآخر بصورة تامة.

على هذا فإنّ الروح والجسم رفيقان حميمان ينشآن وينموان معاً.

ولا شك فى أنّ الموت يقطع هذا الارتباط بصورة مؤقتة، ولكن من أجل إقامة العدالة الإلهيّة والوصول إلى العقاب والثواب التام يجب أن تعاد تلك الرابطة على مستوى ارقى كى يتم لقاء الروح برفيقها الحميم ليتمكن من التحرك ونيل المواهب المعنوية والمادية التى اعدت لها فى الآخرة أو تحمّل العذاب إن كانت تستحق العقاب.

وقصارى القول إنّ إعادة كل واحد من هذين الاثنين بمفرده يعنى وجود نقص فى المعاد وكمال المعاد لا يتمّ إلّاعن طريق إعادتهما معاً.

ورغم أنّ الروح هى التى تتلقى العقاب أو الثواب واللذة أو الألم لكننا نعلم جيداً بأنّ الكثير من هذه الآلام والملاذ تتلقاها الروح عن

طريق الجسم، فإذا عُدِم الجسم فإنّ قسماً كبيراً من هذه الملاذ أو الآلام لن يبقى لها أىّ تأثير.

بناءً على هـذا فالعقل يقول: يجب أن يقترن هـذان ببعضـهما فى الآخرة كما كانا مقترنين فى الـدنيا، وذلك لأنّ كل واحد منهما يعتبر ناقصاً لوحده (فتأمل).

---

(۱) قال المرحوم العلّامة المجلسـى فى بحار الأنوار: إنّ المعاد الجسـمانى هو من المسائل المتفق عليها بين الأديانويعدُّ من ضـروريات الـدين، ومن أنكر ذلك فقـد خرج عن الإسـلام. فالآيات صـريحة الدلالـة على ذلك ولا تقبل التأويل كما أنّ الأخبار متواترة فى هذا المجال ولا تقبل الانكار (بحار الأنوار، ج ۷، ص ۴۷).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۳

شبهات جاحدى المعاد الجسمانى

اشارة

لنرى هنا ما هو السـبب الـذى دعا عدداً من الفلاسـفة وغيرهم لانكار مسألة المعاد الجسـمانى؟ وما هى العوامل التى دفعتهم لقبول هذا الاعتقاد؟

ومن خلال تتبع كلماتهم يُلاحظُ بأنّ «العوامل الثمانية» التالية هى السبب فى مخالفتهم لهذا الاعتقاد:

۱- استحالة إعادة المعدوم.

۲- شبهة الآكل والمأكول.

۳- معضلة تبدّل خلايا الجسم طيلة عمر الإنسان.

۴- شّحة العناصر الترابية على قشرة الأرض.

۵- إذا ما تحقق المعاد الجسمانى على الكرة الأرضية فسوف تظهر معضلة اخرى وهى شحّه المكان.

۶- كيف يحصل الجسم الذى من صفاته الفناء على حياة خالدة؟

۷- لا يمكن الجمع بين عودة الأرواح والأجسام.

۸- نحن نعلم بـأنّ جسم الإنسـان يتبـدّل عـدّة مرّات طول فـترة حيـاته، فهـل تعود إليه جميع تلـك المكونـات عنـد المعـاد أم لا- يعود إلّابعضها؟

ولنبدأ ببحث كل واحد من هذه الإشكالات المذكورة:

۱- استحالة «اعادة المعدوم»

إنّ عدداً من علماء العقائد نقلوا البحث فى مسألة المعادِ إلى بحث إعادة المعدوم وقالوا:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۴

بمـا أنّ جسم الإنسـان يفنى عن آخره فـإنّ إعادته يوم القيامـة من قبيل إعادة المعـدوم، ونحن نعلم باسـتحالة إعادة المعـدوم، فمن هنا تصبح مسألة المعاد الجسمانى أمراً معضلًا.

ولكننا لو أمعنّا النظر فى هـذه المسألة لتبيّن بأنّ إعادة المعدوم بتلك الصورة ليس بمحال، ويتضح أيضاً بأنّ المعاد ليس من قبيل إعادة المعدوم.

توضيح ذلك: لقد استدل الفلاسفة بأدلة متعددة على استحالة إعادة المعدوم، حتى أنّهم يرون بأنّ استحالة إعادة المعدوم إلى الوجود من الامور البديهية، وذلك لأنّ إعادة الشيء يجب أن تكون إعادة من جميع الجهات، ومن البديهي أنّ الشيء الذي كان موجوداً بالأمس يستحيل أن يعاد اليوم بجميع خصوصياته، وذلك لأنّ «وجوده بالأمس» هو من أحد خصوصياته فكيف يمكن أن نجمع بين اليوم والأمس في آن واحد؟ هذا عين التناقض.

ولكن إذا ما صرفنا «النظر عن هذه الخصوصية بالذات فإنّه لا يبقى أي مانع من إعادة عين الموجود الأول بجميع خصوصياته باستثناء خصوصية الزمان. ومن البديهي أنّ الموجود الجديد لا يكون عين الموجود السابق بالدقّة التامّة بل هو مثله، بهذا يعود النزاع في مسألة استحالة أو عدم استحالة المعدوم إلى نزاع لفظي، فالمنكرون يقولون باستحالة إعادة جميع الحيثيات، بينما يقول المؤيدون بإمكان الإعادة بجميع الحيثيات «باستثناء الزمان».

وممّا لا شك فيه أنّ أنصار تحقق المعاد الجسماني لا يعتقدون بإعادة نفس الموجود المقيد بالزمان الماضي، بل بإعادة الشي في زمانٍ آخر فهو عين الموجود السابق من جهة ومثله من جهة اخرى (فتأمل).

وإذا ما تجاوزنا ذلك لا ـ يُعتبر المعاد من مصاديق إعادة المعدوم، وذلك لأنّ الروح لا تفنى وتبقى بعينها، وبالرغم من اضمحلال الجسم وتفرّقه فهو «لا يفنى أيضاً، بل يتحوّل إلى تراب، وكل ما في الأمر أنّه يفقد شكله الظاهري فيعاد إليه يوم القيامة شكله السابق. فإذا كان المراد من إعادة المعدوم إعادة الصورة فحسب فإنّ ما يعاد يوم القيامة هو صورة مشابهة للصورة السابقة، لكنّ بقاء الروح مع وحدة مادة الجسم هما العامل الرئيسي لحفظ وحدة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۵

شخصية الإنسان، لذا يمكننا القول: إنّ الإنسان هو نفس الإنسان السابق، لأنّ روحه عين تلك الروح ومادة جسمه عين تلك المادّة والفارق الوحيد هو إنّ صورة الجسم تشبه الصورة السابقة لا عينها، ومن المحتمل أن يكون التعبير ب «مثل» كما في قوله تعالى: «اوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى انْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ»؟! يشير إلى هذا المعنى (يس/ ۸۱)

والطريف هو ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ». (النساء/ ۵۶)

في جوابه عليه السلام عن سؤال «ابن أبي العوجاء» عندما سأل الإمام عليه السلام: ماذنبُ الغير؟ (أي الجلود الاخرى ، فأجابه الإمام عليه السلام: «هي وهي غيرها». فطلب ابن أبي العوجاء توضيحاً أكثر وقال: اضرب لي مثلًا في هذا المجال ممّا اعتدناه في هذه الدنيا! قال الإمام عليه السلام:

«أرأيت لو أنّ رجُلًا أخذ لبنةً فكسّرها ثم ردّها في ملبنها، فهي هي وهي غيرها!» «۱».

۲- شبهة الآكل والمأكول

اشارة

إنّ شبهة «الاكل والمأكول» هي مسألة اخرى من المسائل التي طرحت على طاولة البحث وهي في الحقيقة من أكثر معضلات مباحث المعاد الجسماني من ناحية التعقيد.

و توضيح ذلك: يتفق في بعض الأحيان أن تحل بعض أجزاء بدنِ أحد الناس في بدن شخص آخر، إمّا بصورة مباشرة كما يحصل ذلك عند حصول المجاعات حيث يتغذى بعض الناس على لحوم البشر، وإمّا بصورة غير مباشرة كما لو تحللت اجزاء الإنسان وتحولت إلى تراب فتتغذى النباتات من ذلك الجسم فيأتي إنسان آخر ويتغذى من تلك النباتات (كالخضر والحبوب والفواكه)، أو

أن يتغذى أحد الحيوانات على تلك النباتات فيأكل الإنسان الآخر لحم تلك الحيوانات، كما أنّه من الممكن أن تتحلل بعض أجزاء جسم

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷، ص ۳۸، ح ۶، وقد جاء نفس هذا المعنى فى حديث آخر بصورة مختصرة (المصدر السابق، ص ۳۹، ح ۷) وقد ورد ذكر الحديث المذكور فى نور الثقلين أيضاً فى التعليق على الآية ۵۶ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۶

الإنسان وتتحوّل إلى بخار وغازات فيستنشقها إنسان آخر فتحلُّ فى جسمه.

ومن الممكن أيضاً أن تحل جميع أجزاء بدنِ الإنسان فى بدن إنسان آخر بالتدريج.

من هنا يُطرح هذا السؤال وهو: بأىِّ جسم تختص هذه الأجزاء عندما تعود الروح إلى البدن؟ فإن كانت مختصة بالجسم الأول فالأجسام الاخرى تكون حينئذٍ ناقصة وإذا مااختصت بالأجسام الاخرى فسوف لن يبقى للجسم الأول شىء، وبالإضافة إلى هذا من المحتمل، أن يكون أحد الشخصين صالحاً والآخر مذنباً فما مصير هذه الأجزاء فى هذه الحالة؟

كما يستفاد أيضاً من سبب نزول الآية ۲۶ من سورة البقرة فى قصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة أنّ سؤال إبراهيم عليه السلام كان منحصراً فى مجال المعاد الجسمانى وشبهة الآكل والمأكول، وذلك لأنّ الحيوان الميت الذى شاهده إبراهيم عليه السلام على ساحل البحر كان قسم منه فى ماء البحر وكانت تتغذى عليه حيوانات البحر وكان القسم الآخر على اليابسة وكانت تأكُلُ منه الحيوانات البرية، وهذا المشهد هو الذى جعل إبراهيم عليه السلام يغرق فى التفكير ثم عرض طلبه على اللَّه لمشاهدة كيفية إعادة الحياة للموتى

الجواب:

قد اجيب عن هذا الإشكال القديم بأجوبة مختلفة، وأشهر هذه الأجوبة هو التمسك بعدم فناء «الأجزاء الأصلية».

قال أنصار هذه النظرية: إنّ جسم الإنسان مركب من أجزاء أصلية وغير أصلية، فالأجزاءُ الأصلية هى التى لا تعرض عليها الزيادة ولا النقصان، وغير الأصلية ما تعرض عليها الزيادة والنقصان باستمرار.

فالأجزاء الأصلية تحافظ على بقائها بعد موت الإنسان وإذا ما تحولت إلى تراب فإنّ ذلك التراب لن يحل فى جسم موجودٍ آخر، وفى يوم القيامة تنمو هذه الأجزاء فيتكون منها

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۷

جسم الإنسان ثم تحلّ فيها الروح.

وقد دعموا هذه النظرية بذكر عدّة روايات والتى منها: ما رواه مصدق بن صدقة عن عمار بن موسى عن الإمام الصادق حيث سئل عليه السلام عن الميت يبلى جسده، قال: «نعم حتى لا يبقى لحم ولا عظم إلّاطينته التى خلق منها فانّها لا تبلى، تبقى فى القبر مستديرة حتى يخلق منها كما خلق أول مرّة» «۱».

وجاء فى رواية اخرى مرسلة عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً فى قصة ذبح بقرة بنى اسرائيل أنّه قال: «فأخذوا قطعةً وهى عَجْبُ الذنوب الذى منهُ خلِقَ ابنُ آدم، وعليه يُركبُ إذا اريدَ خلقاً جديداً فَضربوه بها» «۲».

الجدير بالذكر أنّ الرواية الثانية ضعيفة السند لأنّها مرسلة، أمّا الرواية الاولى فهى ضعيفة أيضاً لحصول الاختلاف بين علماء الرجال فى «عمرو بن سعيد» بالإضافة إلى أنّ هذه الروايات مخالفة لظاهر القرآن- كما سيأتى شرحه-، لذا فلا يمكن التعويل عليها.

ومهما يكن من شىء فإنّ العلوم التجريبية الحديثة أبطلت هذا الرأى من الأساس فهى لا- ترى أى فرقٍ بين أجزاء الجسم وترى أنّ جميع أجزاء جسم الإنسان تتحول إلى تراب ومن الممكن أن تحلّ جميعها فى أجسام أفرادٍ آخرين.

وقد أثبتت التجارب خلاف ما يعتقده أنصار نظرية الأجزاء الأصلية من أنّ الحلقة الأخيرة من العمود الفقرى التى تسمى «عجبُ

الذنب» هى الجزء الأصلى من أجزاء البدن وأنّها لا تفنى بمرور الزمان وكثيراً ما شاهدنا تبدّل جميع أجزاء البدن إلى رماد عند نشوب الحرائق كما أننا لم نشاهد أىّ فرق بين أجزاء الرماد المتخلف منها أيضاً.

وحتى لو تجاوزنا ذلك فإنّ النظريـة المـذكورة لا توافق ظاهر القرآن، لأنّ القرآن عندما أجاب عن إشكال الأعرابى الذى كان يحمل بيده عظماً رميماً قال: «قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى انْشَأَهَا اوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ». (يس/ ۷۸- ۷۹)

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷، ص ۴۳، ح ۲۱.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۸

فإنّه من المستبعد جدّاً أنّ الأعرابى كان يحمل الحلقة الأخيرة من العمود الفقرى عندما سأل عن ذلك.

كما يستفاد أيضاً من ظاهر قصة إبراهيم عليه السلام مع الطيور الأربعة أنّ الأجزاء المتفرّقة تعود جميعها إلى ما كانت عليه سابقاً.

وعلى أيّة حال لا يمكن الاعتماد على جواب هذه النظرية نظراً لما توصل إليه العلم الحديث، ونظراً للاستناد إلى آيات القرآن الواردة فى هذا المجال، كما أنّه لا يمكن الاعتماد على خبر الواحد لإثبات هذه النظرية.

وقد سلك آخرون للردّ على «شبهة الآكل والمأكول» طريقاً آخرَ فقالوا: ليس من الضرورى أن تعاد نفس الأجزاء السابقة لجسم الإنسان، لأنّ شخصية الإنسان تكمن فى الروح، وإذا ما حلّت الروح فى جسم ما فسوف يكون ذلك المركب عين الإنسان السابق، على هذا سوف لن يمس وحدة شخصية الإنسان أىّ ضرر بسبب التحولات التى طرأت على الجسم بسبب طول المدّة وتبدّل الأجزاء بأجزاء اخرى

بناءً على هذا فلا يوجد هناك مانع من أن يخلق اللّه جسماً آخر لتحل فيه الروح، فتتنعم الروح بواسطة هذا الجسم بنعم الجنّة أو تتعذب بواسطته بعقوبات النار، فنحن نعلم بأنّ اللذة والألم يتعلقان بالروح وما الجسم إلّاواسطة لا أكثر!

لكنّ هذا الجواب غير صحيح أيضاً، لمعارضته ظاهر كثير من الآيات القرآنية، وقد مرّ علينا فى البحوث السابقة تصريح القرآن بأنّ عين تلك العظام المتفسخة تخرج يوم القيامة من عين تلك القبور التى دُفِنت فيها، لا أنّ اللّه يخلق جسماً آخر لتحلّ فيه الروح. بناءً على هذا فالجواب المذكور يفتقد القيمة العلمية أيضاً.

الجواب النهائى لشبهة الآكل والمأكول:

إنّ الجواب المتين الذى أُجيب به عن هذه الشبهة يحتاج إلى ذكر عدّة مقدمات:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۶۹

۱- نحن نعلم بأنّ أجزاء بدن الإنسان منذ مراحل الطفولة وحتى نهاية العمر تتبدّل عدّة مرات، وهذا التبدّل يشمل خلايا المخ أيضاً على الرغم من أنّ البعض يرى أنّ عددها ثابت إلّا أنّ محتواها متغيّر، وذلك لأنها تحتاج إلى «التغذية» من جهة و «تتحلل» وتتفسخ من جهة اخرى وهذان الأمران هما السبب فى تبدّل محتوياتها بأكملها على مرّ الزمان.

والخلاصة: إنّه بمرور سبع سنين تقريباً لا يبقى أىّ أثر لخلايا الجسم السابقة وتحلّ محلّها خلايا جديدة.

ولكن يجب الالتفات إلى أنّ الخلايا السابقة عندما تموت تعطى جميع ما تحمله من صفات وخواص وآثار للخلايا الجديدة، لذا فإنّ خصوصيات جسم الإنسان من لون وشكل ومواصفات جسمية اخرى تبقى ثابتة على مرّ الزمان، وهذا لا يتمّ إلّابانتقال صفات الخلايا القديمة إلى الخلايا الجديدة، (فتأمّل).

بناءً على هذا سوف تحمل أجزاء جسم الإنسان الأخيرة- عند الموت والتى سوف تتحول إلى تراب- جميع الصفات التى كان يتصف

بها الإنسان طوال عمره وفى طياتها تاريخ ناطق بجميع فعاليات جسم الإنسان التى أدّاها خلال فترة حياته!

۲- رغم كون الروح هى الأساس فى تحقق شخصية الإنسان ولكن يجب الالتفات إلى أنّ الروح تنمو وتتكامل بموازاة نمو وتكامل الجسم، وإن كلًا منهما له تأثير متبادل على الآخر، وبما أنّ الجسمين المستقلين عن بعضهما لا يوجد بينهما شبه من جميع الجهات فإنّ الروحين المستقلّتين لا تتشابهان أيضاً بصورة تامّة، لذا لا يمكن لأىّ روح ممارسة نشاطاتها بصورة تامة بدون الجسم الذى نمت وتكاملت بموازاته، على هذا يجب أن يعاد يوم القيامة عين ذلك الجسم الذى كانت تحلّ فيه تلك الروح لتمارس نشاطها بعد حلولها بذلك الجسم على مستوى أرقى لتتمتع بنتائج الأعمال التى ارتكبها.

۳- كل خليّة من خلايا الجسم تحمل جميع خصوصيات ذلك الجسم، فلو تمكنّا من تربية اىّ خلية من خلايا الجسم وتنميتها لتتحوّل إلى إنسان كامل فإنّ ذلك الإنسان الجديد سوف يحمل جميع الخصوصيات التى كانت تحملها تلك الخلية والتى ورثتها من الإنسان السابق، (فتأمّل).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۰

أوَلَم يكن الإنسان فى يومه الأول خلية واحدة؟ فتلك النطفة كانت عبارة عن خلية واحدة كانت تحمل جميع صفات ذلك الإنسان ونمت بالتدريج عن طريق الانشطار إلى خليتين ثم إلى اربع وهكذا حتى تكوّنت منها جميع خلايا بدن الإنسان. بناءً على هذا فإنّ كل خلية من خلايا الإنسان هى فرعٌ من تلك الخلية الاولى ولو أنّها نمت وتكاملت مثل سابقتها لأصبحت إنساناً يشبه الإنسان السابق ويحمل صفاته من جميع الجهات.

۴- يُستفاد من آيات القرآن فى مجال المعاد الجسمانى أنّ جسم الإنسان الاخير الذى تحول إلى تراب فى القبر يحيى بأمر اللَّه ويُعدّ للجزاء.

ويؤيد هذا المعنى الآيات العديدة التى أشرنا إليها سابقاً فى مجال المعاد الجسمانى.

۵- لا يمكن لجسم ما أن يحلّ بجسم آخر بصورة تامّة، وبتعبير آخر لا يمكن أن يصبح الجسم الثانى عين الجسم الأول، بل قد يشكل الجسم الأول قسماً من الجسم الثانى، وذلك لأنّ هذا الأمر لا يتمّ إلّابوجود الجسم الثانى أولًا كى يتحول الجسم الأول- أو قسم منه- إلى جزءٍ من الجسم الثانى عن طريق التجزئة.

بناءً على هذا لا يوجد أىّ مانع من حلول جسم بصورة كاملة فى جسم ثانٍ ويصبح «جزءاً» منه، ولكن المستحيل أن يصبح «جميع» أجزاء الجسم الثانى، كما يُحتمل حلول أجسام متعددة فى جسم آخر لكنها لا يمكن أن تصبح جميع أجزائه، (فتأمل).

وبعد طرح هذه المقدّمات الخمس نتجه للجواب الرئيسى فى الرد على شبهة الآكل والمأكول:

يقول القرآن بكل وضوح: إنّ مكونات جسم الإنسان التى يمتلكها عند الموت هى التى تبعث يوم القيامة، بناءً على هذا فلو حلّت هذه الأجزاء بعد تحولها إلى تراب فى جسم إنسان آخر فإنّها سوف تعاد إلى صاحبها الأول يوم القيامة، لكن قد تقولون إنّ جسم الإنسان الثانى سيصبح ناقصاً لأنّه فقد قسماً من مكوناته. إلّاأنّهُ من الأفضل أن يقال إنّ جسم

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۱

الإنسان الثانى سوف يضمر (لا أن يكون ناقصاً) لأنّ أجزاء جسم الإنسان الأول بعد أن تغذّى عليها الإنسان الثانى قد انتشرت فى جميع أعضاء بدنه لا أنّها حلت فى مكانٍ معينٍ من بدنه (لأنّ الغذاء الذى يتناوله الإنسان يوزّع على جميع أعضاء البدن)، بناءً على هذا فإنّه من الممكن أن يفقد الإنسان الذى وزنه سبعون كيلو غرام مثلًا نصف وزنه أو أن يفقد جميع مكوناته باستثناء كيلو غرام واحد منها أو حتى أقل من ذلك ولا يبقى منه إلّاجسم صغير بحجم جسمه الذى ولد به أو بحجم جسمه عندما كان جنيناً!

ومع ذلك فإننا لا نواجه أيّة مشكلة، وذلك لأنّ الجسم الصغير يحمل فى طياته جميع خصوصيات ذلك الجسم الكبير، فإذا ما نما فسوف يعود عين ذلك الجسم الكبير.

فالمولود فى يومه الأول لا يمتلك إلّاجسماً صغيراً وقبل ذلك أى عندما كان جنيناً كان جسمه أصغر من ذلك فنما وكبُر حتى اصبح يحمل صفات الإنسان الكامل من دون أن تتبدّل شخصيته ويتحول إلى شخص آخر.

والسؤال الوحيد الذى ظل من دون اجابة هو: ما هو مصير الأجزاء التى أصبحت جزءً لجسمين أو عدّة أجسام إذا كان أحد صاحبيها مطيعاً والآخر مذنباً؟

والجواب عن هذا السؤال أمرٌ يسيرٌ أيضاً، لأنّه كما أشرنا سابقاً فإنّ الثواب والعقاب فى الحقيقة يتعلقان بالروح، والدليل على ذلك هو عندما ينقطع الارتباط الموجود بين الروح والجسم بسبب فقدان الوعى بعد ممارسة عملية التخدير فإننا نرى أنّ الروح لا تتأثّر عند استخدام المَشرط الحاد حتى لو قطّع الجسم إرباً.

وبتعبير آخر: إنّ الثواب والعقاب واللذة والألم لا يختصان بالجسم بل ليس الجسم إلّا واسطة لإيصال آثار الثواب والعقاب واللذة والألم إلى روح الإنسان.

بهذا يتضح أنّ المعاد الجسمانى- طبقاً لظاهر الآيات- يتحقق بعين هذا الجسم المؤلف من العناصر المادية، وحتى لو فرضنا أنّ شبهة الآكل والمأكول ترد على هذا الاستدلال فإنها سوف لن تخدش فيه أيضاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ بعض منكرى المعاد الجسمانى سعوا إلى تغطية حقيقة آرائهم فى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۲

الأوساط الإسلامية لتبرير جحودهم الواضح مخالفة للآيات القرانية وجاءوا بتعبيرات فى مجال المعاد الجسمانى تدل فى الواقع على أنّ المعاد يتحقق بالروح فقط أو بالروح مع جسم مادى غير هذا الجسم.

فتمسكوا أحياناً بالجسم النوعى وقالوا: إنّ شخصية الإنسان تتمثل بروحه وهذه الروح إذا ما تعلقت بجسمٍ ما فسوف تشكل نفس ذلك الشخص.

وقالوا أحياناً بإعادة الجسم البرزخى أى الجسم النورانى اللطيف.

وتارةً قالوا: إنّ شيئية الشى ووجوده يكمنان فى صورته لا فى مادته، فحيثُما وُجِدَتْ الصورة وُجِدَ ذلك الشى، وإنّ روح الإنسان هى قوام هذه الصورة، بناءً على هذا فأينما وُجِدَتْ روح الإنسان فسوف تتحقق شيئيته ووجوده.

لكن هذه التعبيرات جميعها لا تتلائم مع تعبيرات القرآن الواردة فى مجال المعاد الجسمانى، والسبب فى سلوك هؤلاء هذا الطريق هو ولعهم بكلام بعض الفلاسفة وعجزهم عن حلّ معضلة شبهة الآكل والمأكول، وهذا ممّا لا يليق بالعالم المسلم الذى يتمسك بتعاليم القرآن.

۳- شحّة العناصر الترابية على سطح الأرض

هناك مسألة اخرى شغلت أذهان البعض واصبحت تمثّل معضلة من معضلات المعاد الجسمانى هى مسألة شحّة العناصر الترابية على سطح الأرض.

توضيح ذلك: إننا إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار عدد البشر الذين وضعوا أقدامهم على الكرة الأرضية على مرّ التاريخ وكذلك البشر الذين يلونهم إلى يوم القيامة مع علمنا بأنّ هؤلاء جميعاً سوف يتحولون إلى كميّة هائلة من التراب فإنّه من الصعب جدّاً أن يكفى تراب الكرة الأرضية لإعادة هؤلاء جميعاً يوم القيامة إلّاأن نقول: إنّ البشر يبعثون يوم القيامة بحجم الدُّمى لكنّ هذا غير معقول أيضاً، وعلى أيّة حال فإنّ إعادة هؤلاء البشر بهذه المواصفات تشبه عملية صنع ملايين السيارات مثلًا من كمّية من الحديد لا تزيد على الألف طن.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۳

الجواب:

ألم يكن من الأفضل لهؤلاء الذين يطرحون مثل هذه الإشكالات أن يُتعبوا أنفسهم قليلًا قبل طرحها وأن يأتوا بقلم وورق لإجراء احصاء بسيط فى هذا المجال ليجدوا أنّ هذه الإشكالات لا أساس لها من الصحة؟

إنّ الماء يشكّل ۶۵ خ إلى ۷۰ خ من جسم كل إنسان. على هذا لا يشكل التراب إلّا مايقارب ۳۰ خ من وزن الإنسان، فلو فرضنا أنّ التراب يشكّل كلّ وزن الجسم فيا ترى كم هو وزن كميّة من التراب مقدار حجمها متر مكعب واحد؟ إنّه لا يزيد على طنين أو ثلاثة اطنان!، فلو كان الوزن المتوسط لكل إنسان يبلغ ستين كيلو غرام فسوف يكفى كل متر مكعب واحد من التراب لخلق أربعين إنساناً تقريباً.

وطبقاً لهذه الاحصائية فإنّ الكيلومتر المكعب الواحد من التراب الذى هو عبارة عن «مليار متر مكعب» يكفى لخلق ما يقارب ثمانية اضعاف سكّان الأرض الحاليين، وبما أنّ عدد سكان الكرة الأرضية كان قليلًا جدّاً بالنسبة لسكان الأرض الحاليين فإنّه من المحتمل أن لا يزيد عدد جميع البشر الذين وطأوا الأرض على أربعين مليار نسمة.

وكل هذه الحسابات تدور حول كيلومتر مكعب واحد من التراب الذى هو كقطرة فى بحر بالنسبة لحجم الكرة الأرضية، فإذا ما أجرينا هذه الحسابات على مائة كيلومتر مكعب أو ألف كيلومتر مكعب من التراب وهى نسبة ضئيلة جدّاً من حجم كل الكرة الارضية فإننا سوف نحصل على أرقام هائلة جدّاً وسوف تتضح لنا حقيقة الأمر بكل سهولة.

فبعد أن أجرينا هذه الاحصائيات على التراب تعالوا لنجرى الاحصاءات فى هذا المجال من زاوية الزمان.

فنقول: كم هو العمر المتوسط لحياة الإنسان؟ أو بتعبير آخر: كم عمر الجيل الواحد من البشر؟

من المحتمل أن يكون عمر الجيل الواحد ما يقارب الخمسين سنة أو أقل أو أكثر من ذلك بقليل.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۴

بناءً على هذا يكفى الكيلومتر المكعب الواحد من التراب لخلق ثمانية أجيال أى يكفى لخلقهم لمدّة أربعة قرون تقريباً (هذا لو فرضنا أنّ عدد نفوس الأجيال السابقة بعدد نفوس الجيل الحالى، ومن البديهى أنّة لم يكن كذلك).

على هذا فكل ألفين وخمسمائة كيلومتر مكعب من التراب تكفى لخلق هذا العدد من البشر لمدّة مقدارها مليون سنة، ولخلقهم لمدّة أربعة ملايين سنة نحتاج لعشرة الآف كيلومتر مكعّب من التراب فقط.

ونحن على يقين بعدم وجود أيّة نظرية تُقدِّرُ عمر البشر على الكرة الأرضية بأكثر من أربعة ملايين سنة، لكننا لا نعلم كم هى مدّة الفترة الزمانية الفاصلة بين وقتنا الحاضر وبين نهاية الحياة على الأرض.

لذا فإننا لو أجرينا هذا الاحصاء بأى نحو كان فلن يمثّل التراب المتخلّف من جميع البشر على مرّ التاريخ إلّاكمية ضئيلة جدّاً لا تقدّر بأكثر من رقعة صغيرة من الأرض تبلغ مساحتها الف كيلومتر مكعب لا أكثر فى بلد صغير.

هذا بالإضافة إلى أنّ احصاءاتنا كانت جميعها بحسابات الحد الأعلى لأننا لم نتقيّد بقيد، فلم نعر أيّة أهميّة للماء الموجود فى جسم الإنسان ولم نخفِّض من عدد سكّان الأرض فى الأجيال السابقة وهو قليل جدّاً بالنسبة لعدد نفوس الجيل الحالى، كما أنّنا اطلقنا العنان فى حساب السنين الباقية من عمر الحياة على الأرض.

وقصارى القول: إنّ الادّعاء بعدم كفاية تراب الأرض لإعادة الأجسام يوم القيامة لا يصدر إلّاممن لا يعرفون العمليات الحسابية الأربع! أى الذين يتكلمون بغير حساب ويرجمون بالغيب!

۴- هل تسع مساحة الأرض لحشر جميع البشر؟

لقد شغلت هذه المعضلة أذهان الكثيرين أيضاً وهى إذا كان المعاد يتحقق بالجسم

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۵

ويشمل جميع البشر الذين وطأوا الأرض منذ ظهور الحياة عليها حتى نهايتها فلن تسعهم مساحة سطح الأرض، وخلاصة مايمكن أن يقال: إنّنا إذا تمكنا من حل جميع المعضلات فى مجال المعاد الجسمانى فسوف تبقى معضلة شحة المكان على قوتها، وذلك لأنّ بعض المناطق من الكرة الأرضية تضيق حالياً من تحمل سكانها الذين يعيشون عليها، وقد حذّر الخبراء المتخصصون من مغبّة استمرار النمو السكانى على هذا السياق وقالوا: إنّ تزايد السكان إذا مااستمر على هذا المنوال فسوف تضيق الأرض بسكانها خلال فترة وجيزة.

وهنا يُطرح هذا السؤال: ماذا سيحدث إذا بُعث جميع البشر السابقين واللاحقين على هذه الكرة الأرضية؟!

فلو كان المعاد يتحقق بالروح فقط فإننا لن نواجه مثل هذه المعضلة من ناحية المكان، لأنّ الأرواح غير متميزة فهى لا تحتاج إلى مكان ولا تتميز بمكان.

الجواب:

لقد فات الذين طرحوا هذا الإشكال أنّ القرآن قد صرّح فى آياته المختصة بالمعاد بأنّ المعاد لا يتحقق على الكرة الأرضية بصورتها الحالية، بل سوف تتبدّل بغيرها، قال تعالى «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْارْضُ غَيْرَ الارضِ وَالسَّموَاتُ». (إبراهيم/ ۴۸)

وجاء فى القرآن أيضاً أنّ عَرض الجنّة يسع السماوات والأرض، قال تعالى «سَابِقُوا الَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرضِ السَمَاءِ وَالارضِ». (الحديد/ ۲۱)

يستفاد من هذه الآيات وعدد من الآيات الاخرى أنَّ هنالك احتمالين:

وهما: إمّا أن تتسع الأرض ويصبح حجمها بحجم السماوات والأرض فتضم فيها الجّنة والنار وجميع البشر، وإمّا أن ينتقل الناس يوم القيامة من الكرة الأرضية إلى مكان آخر.

وفى كلتا الحالتين ترتفع مشكلة شحة المكان فى مجال المعاد الجسمانى لجميع البشر ولا تبقى هناك مشكلة فى اسكان أهل الجنّة وأهل النار ... هذه المشكلة التى شغلت اذهان «ذوى اللجاج والعناد»!.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۶

۵- كيف يتلائم الجسم الذى من صفاته الفناء مع الخلود؟

الإشكال الآخر الذى طرح فى مسألة المعاد الجسمانى هو أنّ الآخرة هى دار الخلد، والآيات التى صرحت بهذا الخلود دليل واضح على الخلود يوم القيامة، بينما نرى بالوجدان أنّ الجسم المادى- على أيّة حال- يبلى ويندرس، وفى نهاية المطاف يصل إلى الفناء.

فإذا ما تحقق المعاد بالجسم فسوف يحصل التضاد وهو نفوذ «الفناء»، فى عالم «البقاء»، وسوف يخلد الجسم الذى من طبعه الفناء.

وقد طرح هذا الإشكال المرحوم العلّامة الطباطبائى فى شرح تجريد الاعتقاد بالنحو التالى: إن التناهى والمحدودية هى من ملازمات الجسم، والقول بخلود نعم أهل الجنّة يستلزم عدم المحدودية وعدم التناهى «۱».

الجواب:

ليس من الصعب أيضاً الإجابة عن هذا السؤال، لأنّه لا خلاف فى كون الفناء والاستحالة والتفسخ من طبيعة الأجسام، لكن هذا يتمّ فى حالة عدم وجود الدعم المستمر من الخارج، فإذا ما شمل الدعم الالهى حال الجسم فإنّه من الممكن أن يحافظ على طراوته على الدوام وأن يبقى فى حالة تجدد دائم.

وهذا يشبه حال الشجرة التى ترمم خلاياها المتفسخة وتبدّلها بخلايا جديدة لتبقى طرية وجديدة على الدوام وذلك عن طريق تغذيتها المستمرّة على نوع خاص من الغذاء، وهذا غير مستحيل.

وبتعبير آخر: إنّ مقتضى الذات شىء ومقتضى العوامل الخارجة عن الذات شىء آخر، والحديث يدور هنا عن خلايا الجسم التى من

طبيعتها أن لا تعمِّر طويلًا أو التى تحصل على

---

(۱) شرح التجريد، ص ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۷

عمر غير محدود بواسطة الترميم الحاصل من الخارج وعن طريق المدد الإلهى، تخلد وتحافظ على بقائها. و هناك مثال من القرآن المجيد يمكن أن يكون دليلًا على ما قلناه، وهو طول عمر النبىّ (نوح) عليه السلام حيثُ لبثَ فى قومه ألفَ سنة إلّاخمسين فيما عدا عمره قبل تكليفه بالنبوّة، و معنى ذلك أنّ اللّه تعالى قد جعلَ خلايا جسمه عليه السلام تتجدّد بالحياة دون أن تتفسّح وينالها الموت بينما جميع خلايا أجسام الناس تتفسّخ وتموت بعدَ عُمرٍ يناهز المائة سنة أو أقلّ أو أكثر وذلك لعدم تتدخّل المدد الإلهى فى تجديد حياة خلايا أجسامهم.

وخلاصةُ القول: إنّ القادر على خلق الإنسان ولم يكن شيئاً مذكوراً، والقادر على إحياء الموتى أليسَ بقادرٍ على جعل خلايا جسم الانسان فى حيوية متجدّدة ونشاطٍ دائم وحياةٍ خالدةٍ أبداً فى دار الخُلد؟!

وعندما طرح المرحوم العلّامة الحلّى إشكال هؤلاء، بالنحو المذكور لم يكترث به وقال:

إنّ هذه ليست بأدلة بل استبعادات لا غير «۱»! أى ماهى إلّاظنون غير مبرهنة منطقياً.

۶- هل يمكن الجمع بين (معاد) الأجسام والأرواح؟

يُتصور أحياناً بأنّ الجمع بين إعادة الأجسام والأرواح- وهو رأى القائلين بالمعاد الجسمانى- أمرٌ عسير، وذلك للزوم وجود الثواب المعنوى والمادى ووجود اللذات بنوعيها لمكافأة الروح والجسم معاً، مع أننا نعلم بأنّ الإنسان إذا ما غرق فى عظمة أنوار العالم القدسى فإنّه لا يمكن أن يعير أيّة أهميّة للملاذ المادية، وكذلك الحال إذا ما غرق فى الملاذ الماديّة فإنّه لا يمكنه التفرغ لنيل الملاذ المعنوية، وقصارى القول إنّ مقتضى المَعادَين متضاديّن فيما بينهما ولا يمكن الجمع بينهما!

---

(۱) شرح التجريد، ص ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۸

الجواب:

إنّ هذا الإشكال ضعيف جدّاً، لأنّ الروح إذا ماكانت تمتلك القدرة الكافية فسيُتاح لها التنعم بالملاذ المادية فى نفس الوقت الذى هى مستغرقة فى الأنوار الإلهيّة كما كان الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

قال المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار: «إن السبب فى انصراف الإنسان عن المادّيات عندما يشتغل بالمعنويات وبالعكس هو ضعف روح الإنسان فى الدنيا لكنه بعد الموت وبعد أن يصله المدد من العالم القدسى ويطهر من الدنس فإنّ روحه تشتد وتقوى فيتمكن آنذاك من الجمع بين الاشتغال بالماديات والمعنويات معاً» «۱».

و على أيّة حال فهذا الإشكال أيضاً غير مستند إلى دليل منطقى وهو شبه دليل وما هو إلّا استبعادٌ لا غير.

۷- ايّ جسمٍ يُعادُ يوم القيامة؟

والإشكال الأخير الذى يمكن طرحه هنا هو ما أشرنا إليه سابقاً من أنّ العلم الحديث أثبت أنّ جسم الإنسان فى حالة تبدّل وتغيّر دائم، فالخلايا تندرس بالتدريج ويحل محلها خلايا اخرى وبعد مرور سبع سنين تقريباً تتبدّل جميع خلايا الإنسان وتحل محلها خلايا

جديـدة، كما هو الحال فى الحوض الكبير الـذى يـدخله الماء من أحـد جوانبه ويخرج من جانب آخر، ومن الطبيعى أن يتبـدل جميع مائهِ بعد فترة.

بنـاءً على هـذا فإذا ما عمّر جسم الإنسان سـبعين سـنة فإنّه يتبـدل عشـر مرات، فهل تعاد جميع هـذه الأجسام العشـرة يوم القيامـة ويعاد الإنسان بحجم العمالقـة؟! أم لا يعاد إلّابحجم جسم واحـد منها؟ وإن قيل: إنّ أحد هذه الأجسام يعاد يوم القيامة فأيّها سوف يعاد؟ وما هو النصاب فى هذا الترجيح؟

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۷۹

الجواب:

إنّ هـذا السؤال استبعاد أيضـاً، فما المانع من أن تعاد جميع هـذه الأجسام؟ لكن الحق هو إعادة الجسم الأخير فقط، لأنّ القرآن يقول: «يبعث من فى القبور» وتحيى العظام الرميمة والتراب، وهذا لا يعنى إلّاإعادة الجسم الأخير.

أمّـا مـا هو المنـاطُ فى ترجيـح هـذا الجسم على الأجسـام الاـخرى فالمنـاط أنّ هـذا الجسم يحمـل جميع صـفات وخصوصـيات تلك الأجسـام، وذلـك لأـنّ الخلايا التى تتخلّى عن محلها تعطى بالإضافـة إلى ذلك جميع صـفاتها للخلايا الجديـدة التى تحل محلها، بناءً على هـذا فالجسم الأخير يحمل فى طياته عصارة جميع الأعمال والأوصاف السابقـة، وإذا ما توفر المنظار الثاقب الذى يكشف الحقائق لأمكن مطالعة جميع سوابق الإنسان من خلال بصمات خاصيّة جسمه الأخير.

ومن البديهى أن لا يتنافى هذا أبداً مع حشـر المؤمنين والصالحين على هيئة شباب يمتلئُون بالحيوية، وهذا يشبه عملية جمع تراب اللبنة البالية ووضعها فى قالب جديد لتصبح لبنة جديدة.

ثمرة البحث:

توصـلنا من خلال ما مّر من البحوث إلى هذه النتيجة، وهى أننا لا نواجه فى بحث المعاد مشـكلة عصيبة، وما عَدَّهُ البعض من المشاكل فى الغالب ناتجٌ عن عدم إعمال الدقّة الكافية خصوصاً فى هذه المسألة، ولا يسـتحق أى من هذه الإشـكالات السـبعة الذكر إلّاإشـكال الآكل والمأكول، أمّا بقية الإشكالات فهى جزئية تتضح الإجابة عنها بمجرّد إعمال شىء من الدقّة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۱

المعاد فى الحضارات السالفة

تمهيد:

كان لعقيـدة المعاد صـدىً واسع لـدى الأمم السابقة ويلاحظ تجسّد آثار هذه العقيدة بكل وضوح فى نفوس الشـعوب التى عاشت فى العصور الغابرة أى فى قرون ماقبل التاريخ ممّا لايبقى أى شك فى أنّ أولئك كانوا يحملون اعتقاداً راسخاً بوجود العالم الآخر.

وعنـدما نـدخل فى مرحلة ما بعد التاريخ نلاحظ أيضاً أنّ جميع الشـعوب والأقوام تقريباً يؤمنون بمسألة المعاد على الرغم من اختلاف ثقافاتهم.

وقبل الخوض فى مطالعة هذا الأمر عن طريق مشاهدة أسانيد ووثائق المؤرخين نعود إلى القرآن لنرى مايقوله فى هذا المجال:

أشـار القرآن الكريم إلى هـذه الحقيقـة أيضـاً وهى أنّ الاعتقاد بمسألـة المعاد والحياة بعـد الموت كانت مطروحـة منـذ خلق آدم عليه

السلام، حتّى أنّ ابليس كان يعترف بذلك، وبعد آدم عليه السلام كان الأنبياء أيضاً- الذين كانت مهمتهم هداية الشعوب- يدعون الناس إلى الإيمان بهذه المسألة (مسألة الحياة بعد الموت وحياة الآخرة)، وقد أدّت دعوة الأنبياء إلى أن تصبح هذه المسألة من المسائل المألوفة لدى الناس.

كما أنّنا نُقِرُّ بأنّ هذه المسألة وما يتعلق بها من المعارف التى نزلت عن طريق الوحى قد وردت على لسان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً وبصورة أوسع ممّا كانت عليه سابقاً، لذا فإنّ قسماً مهماً من آيات القرآن المجيد تصدت لشرح مسألة المعاد بجميع فروعها وتفاصيلها.

بعد هذا التمهيد نعود إلى القرآن لنتأمل خاشعين فى نماذج من الآيات المختصة بهذا المجال:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۲

۱- «قَالَ انْظِرْنى الَى يَوم يُبْعَثُونَ». (الاعراف/ ۱۴)

۲- «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ». (الاعراف/ ۲۵)

۳- «إِنّى ارِيدُ أَنْ تَبُوأَ بِإِثْمِى وَاثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ اصْحَابِ النَّارِ». (المائدة/ ۲۹)

۴- «ايَعِدُكُمْ انَّكُمْ اذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً انَّكُمْ مُخْرَجُونَ». (المؤمنون/ ۳۵)

۵- «وَلَا تُخزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَومَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ». (الشعراء/ ۸۷- ۸۸)

۶- «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ الّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارى . (البقرة/ ۱۱۱)

۷- «وَالسَّلَامُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ ابْعَثُ حَيّاً». (مريم/ ۳۳)

۸- «وَ الَى مَدينَ اخَاهُمْ شُعَيباً فَقَالَ يَاقَومِ اعبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا اليَوْمَ الآخِرَ».

(العنكبوت/ ۳۶)

۹- «... انِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَومٍ لَّايُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ* وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». (يوسف/ ۳۷- ۳۸)

۱۰- «لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ انْ هَذَا الّا اسَاطِيْرُ الْأَوَّلِينَ». (النمل/ ۶۸)

جمع الآيات وتفسيرها

الاعتقاد بالمعاد خلال العصور المختلفة:

الآيات المذكورة أعلاه يرتبط كل منها بأحد العصور.

فالآية الاولى تشير إلى قصة «ابليس» بعد طرده من الجنّة، فبدلًا من التوبة إلى اللّه من فعله الشنيع تمادى فى العناد بسبب وقوعه فى شراك الغرور والأنانية، وكان هذا طلبه من اللّه تعالى «قَالَ انْظِرْنى الَى يَوم يُبْعثُونَ».

وطلبه هذا لم يكن من أجل التوبة أو أن يعمل صالحاً، بل من أجل أن يكمن لآدم وذريّته ليصدهم عن الصراط القويم لكى يطفئ نار غضبه الجهنمية وحسده.

ويتّضح من خلال هذه الآية أنّ مسأله القيامة كانت موضع الاهتمام منذ البداية،

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۳

فالشيطان كان يعلم علم اليقين بحتمية وقوع مثل هذا اليوم.

أمّا طلب الشيطان فإنّه لم يتلق الجواب بالصورة التى أرادها، قال تعالى «فَإِنَّكَ مِنَ المُنْظَرِينَ* الَى يَوْمِ الْوَقْتِ المَعْلُومِ». (الحجر/ ۳۷- ۳۸)

وفسّر البعض هذا اليوم باليوم الذى تنتهى فيه الحياة الدنيا والذى يرفع فيه التكليف، وفسره آخرون باليوم الذى يظهر فيه المهدى الموعود (عج).

وهناك احتمال أيضاً جاء فى كلمات بعض المفسرين وهو أنّ المراد من اليوم المعلوم يوم القيامة، لكن هذا الاحتمال بعيد جدّاً، وذلك لأنّه لا يوافق ظاهر آيات القرآن ولاينسجم مع الروايات الواردة فى تفسير هذه الآية «۱».

وقد طرحت عدّة أسئلة فى هذا المجال وبالصورة التالية:

۱- لماذا أمهل اللَّهُ إبليس لينفذ خطته المشؤومة لإغواء الناس؟!

الجواب: إنّ إمهال إبليس كأصل وجوده وهو زاوية من زوايا الامتحانات الإلهيّة التى أعدّها للبشر، ففى ظل تلك الامتحانات يصل أولياء اللَّه إلى الكمال ويفترق عنهم اولئك الذين لم يخلص إيمانهم.

۲- ألا يعنى إعطاء الوعد لإبليس باستمرار الحياة حتى انتهاء العالم يشجعه على الاستمرار فى ارتكاب أعماله وعدم الكف عنها إلّاعندما يشعر بانتهاء عمره فيتوب إلى اللَّه تعالى

الجواب: إنّ الطريق الذى سلكه إبليس لا يسمح له بالعودة، وتحت تأثير حالة الطغيان الشديدة تصبح هذه الصفه من طبائعه الثانوية، ولايمكن العودة فى مثل هذه الحالة.

۳- لماذا يطلب الشيطان البقاء إلى يوم القيامة مع أنّ أهدافه تتحقق ببقائه إلى الفترة التى تنتهى بها حياة البشر؟

الجواب: جاء فى تفسير الميزان: إنّ إبليس كان يتمنى أن يستمر بإغوائه للبشر فى عالم

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۳.

البرزخ أيضاً، أى المدّة الفاصلة بين انتهاء الدنيا وقيام يوم القيامة «۱»!.

۴- كيف يتوقع إبليس أن تستجاب دعوته مع أنّه يعلم بأنّه طرد من ساحة الرحمة الإلهيّة؟

الجواب: قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «إنّ ابليس كان متيقناً بأنّ فضل اللَّه وكرمه يتسع لشمول المذنبين والمطرودين أيضاً» «۲».

وجاء فى احدى الروايات أيضاً إنّ استجابة دعاء إبليس كانت بإزاء العبادات التى أدّاها قبل ذلك.

وفى الآية الثانية التى تتعلق بقصة هبوط آدم عليه السلام وزوجه حواء من الجنّة إلى الأرض وطرد إبليس من مقام القرب الإلهى، قال تعالى «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ».

وهذه التعبيرات تشير إلى أنّ المقصود من الاخراج لا يختص بحشر البشر فحسب، بل يشمل حشر الجن أيضاً والذين كان الشيطان من زمرتهم، وتدلّ على أنّ هذا الأمر كان يعتبر من الامور البديهية منذ اليوم الأول، أمّا ما احتمله البعض فى تفاسيرهم أنّ المخاطب فى هذه الآية هم آدم وحواء عليهما السلام وذرّيتهما فحسب فلا يؤيده دليل واضح.

ويدل هذا التعبير بوضوح على أنّ الأرض هى مبدأ حياة الإنسان ومحل موته ومحل بعثه معاً «۳».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۸، ص ۲۸.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۰۳.

(۳) جاء شبيه هذا المعنى فى مسألة هبوط آدم والإشارة إلى مسألة الحشر فى سورة طه، الآية ۱۲۳ و ۱۲۴.

وتحدثت الآية الثالثة عن ابناء آدم «هابيل» و «قابيل» عندما تقبّل اللّه قربان هابيل بسبب إخلاصه ولم يتقبّل قربان قابيل لعدم اخلاصه فيه، فتأججت نار الحسد فى قلب قابيل وهدد أخاه بالقتل، فقال هابيل إن قصدت قتلى فإننى لن أفعل ذلك لأننى أخاف اللّه، ثم أضاف: «انِّى اريدُ انْ تَبُوأَ بِاثْمى وَاثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ اصْحَابِ النَّارِ».

وهذا يدل على أنّ مسألة المعاد كانت من الامور البديهية لدى أولاد آدم منذ ذلك الزمان، لذا هدد هابيل أخاه قابيل بعذاب اللّه فى الدار الآخرة.

و «بَوَأَ، تبوءَ» من مادة «بواء»، قال الراغب فى المفردات: هى فى الأصل بمعنى السطح الصقيل، وتقابلها «نبوة» التى بمعنى السطح غير الصقيل، لذا عندما يقال بوّأتُ مكاناً فهذا يعنى ساويت له سطح المكان.

وتأتى هذه الكلمة أحياناً بمعنى الإقامة وملازمة المكان أيضاً، لأنّ الإنسان إذا ما أراد أن يقيم فى مكانٍ ما فإنّه ينظم سطحه ويساويه، وقد فسروا هذه الآية بهذا المعنى أيضاً.

لكن صاحب «المصباح المنير» فسّرها بمعنى الاعتراف وحمل العبء الكبير، أمّا صاحب المقاييس فقد ذكر لها معنيين هما: عودة الشيئين، وتساوى الشيئين.

وقال صاحب كتاب «التحقيق»، إنّ الأصل فيها هو (السفول) والانحطاط، وعدّ جميع المعانى الاخرى من المجاز واعتبرها من لوازم المعنى الحقيقى، وطبقاً لهذا المعنى يصبح مفهوم الآية المعنية بالبحث: إنّى اريد أن تسقط من ساحة الرحمة الإلهيّة بإثمك وإثمى.

وتتبع موارد استعمال هذه الكلمة فى القرآن المجيد والمصادر الاخرى يؤيد ماذكره صاحب المقاييس من أنّ هذه الكلمة لها مفهومان وكلا المفهومين ينطبقان على الآية المعنية، فطبقاً للمعنى الأول تصبح الآية بهذا المعنى «إنّى اريد أن تعود (إلى اللّه) وأنت تحمل إثمك وإثمى»، وطبقاً للمعنى الثانى تصبح بهذا المعنى «إنّك تعدّ مكاناً لنفسك بارتكابك هذا الإثم وحملك إثمى».

وهنا يطرح هذا السؤال المهم: ما هو المراد من ذنب هابيل الذى قُتِلَ على يد أخيه حتى يثقل كاهل أخيه؟ وكيف يمكن قبول هذا الحديث أساساً مع أنّ الآية تقول: «الَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۶

وِزْرَ اخْرَى . (النجم/ ۳۸)

سلك مشاهير المفسرين عدّة طرق تحتاج أغلبها إلى التقدير فى الآية وقالوا: إنّ المراد من إثمى هو إثم قتلى.

لكن المناسب عدم التقدير، والمراد فى الآية هو: إنّك إن عملت بتهديدك هذا وقتلتنى فإنّك سوف تحمل ثقل جميع ما ارتكبته أنا من إثم، وذلك لأنّك يجب أن تدفع غرامة قتلى يوم القيامة وبما أنّك لم تعمل صالحاً فى الدنيا فعليك أن تحمل عبءَ ذنوبى غرامة فعلك!

وقد روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآية ما يؤيد هذا المعنى قال عليه السلام: «من قتل مؤمناً متعمداً أثبت اللّه على قاتله جميع الذنوب وبرئ المقتول منها، وذلك قول اللّه عزوجل: «انِّى اريدُ أنْ تَبُوأَ بِإِثْمى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ اصْحَابِ النَّارِ»» «۱».

وروى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ما يعزز هذا المعنى (وإن لم تكن الرواية واردة فى تفسير هذه الآية)، قال صلى الله عليه و آله: «يؤتى يوم القيامة بالظالم والمظلوم فيؤخذ من حساب الظالم فتراهُ فى حسنات المظلوم، حتى يُنتصف، فإن لم تكن له حسنات اخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه» «۲».

والآية الرابعة تشير إلى عصر نوح عليه السلام، فقد نقل القرآن دعوته على لسان الكافرين والجاحدين، قال تعالى: «ايَعِدُكُمْ انَّكُمْ اذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَاباً وَعِظَاماً انَّكُمْ مُخْرَجُونَ».

ويدل هذا التعبير بوضوح على أنّ نوح عليه السلام قد طرح على هؤلاء مسألة المعاد وبالأخص المعاد الجسمانى- وقد ملأت دعوته آذان جميع المخالفين، وبسبب انحطاطهم الفكرى بهتوا لماجاءهم وقالوا محدثين بعضهم البعض: «هَيهَاتَ هَيهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ».

ويستفاد بوضوح من الآيات الواردة فى سورة نوحٍ أيضاً أنّ نوحاً عليه السلام حاول رفع

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۱۳، ح ۱۳۳.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۲۱۳۴.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۷

الشبهات والخوف وعدم الاطمئنان الذى جثم على أذهانهم بسبب طرح مسألة المعاد فعمد إلى تشبيه حياة البشر بحياة النباتات ليوضح لهم الأمر، قال تعالى عن لسان نوح: «وَاللَّهُ انْبَتَكُمْ مِنَ الْارْضِ نَبَاتاً* ثُمَّ يُعيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ اخْرَاجاً». (نوح/ ۱۷- ۱۸)

ويتّضح ممّا تقدم أنّ المعاد كان معروفاً لدى قوم نوح عليه السلام بالاسلوب المشابه لُاسلوب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى استخدمه مع مشركى مكة أيضاً، ونوح صلى الله عليه و آله كان أول الأنبياء من اولى العزم وكان صاحب شريعة.

وتحدثت الآية الخامسة عن «إبراهيم عليه السلام» وإيمانه بمسألة المعاد، فقد بينت هذه الآية جانباً من ادعية إبراهيم عليه السلام عندما عاش الآلام بسب المعارضة الشديدة التى تلقّاها من كفّار عصره، قال تعالى عن لسان إبراهيم عليه السلام: «وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ* يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

وقال فى الآية التى سبقت هذه الآية بآيتين: «وَاجْعَلْنِى مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعيمِ».

فالادعية المذكورة أعلاه تشير بوضوح إلى أنّ إبراهيم عليه السلام يخاف الخزى يوم القيامة مع مالديه من مقام عظيم لأنّه كان من أعظم الأنبياء من اولى العزم.

ومن الممكن أن يعتبر البعض هذا التعبير عن أنّه رشاد للاخرين وتعليم لغير المعصومين، وذلك لأنّ المعصوم لا يخزى يوم القيامة، لكن البعض لهم تعبير لطيف فى هذا المجال وهو أنّهم قالوا: «حسنات الابرار سيئات المقربين» فالأعمال الصالحة العادية لا تلائم مقام الأنبياء والمعصومين، وكذلك الحال بالنسبة للمقربين فإنّهم إن حشروا يوم القيامة مع «الابرار» وهو مقام أدنى من مقام المقربين فهو خزى بالنسبة لهم، وذلك لأنّه يتوقع من كل شخص عمل يتناسب معه، كما أنّ لكل شخص مقامه المناسب!.

وتحدثت الآية السادسة عن عقيدة «اليهود والنصارى» فى المعاد، قال تعالى «وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ الَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَو نَصَارى .

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۸

أجل إنّهم كانوا يعتقدون بأنّهم أرقى الأمم وأنّ الجنّة خصصت لهم ولم يعبهوا بغيرهم حتى لوكانوا مؤمنين.

فأجابهم القرآن اولًا فقال: «تِلكَ أَمَانِيُّهُمْ» أى آمال بعيدة عن الواقع ولن تتحقق أبداً.

ثم وجّه الخطاب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقال: «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

(البقرة/ ۱۱۱)

أى أعطونى دليلًا عقلياً يدعم هذا التخصيص وبأى دليل خصص اللطف الإلهى بكم وحرم الآخرين منه؟ فهل من الممكن أساساً أن يتسق هذا التمييز مع العدالة الإلهيّة وأن يحرم المؤمنون المحسنون كما تزعمون؟

إن كانوا يدّعون بأنّ دينهم لن يمسخ إلى الأبد فلماذا حكموا على الامم السابقة التى كانت تتبع أنبياء السلف ويعملون بتكاليفهم بهذا الحكم؟ إنّ كل هذا يدل على أنّ هؤلاء فى تخصيصهم الجنّة بهم لم يتبعوا إلّاأوهامهم النابعة من أنانيتهم.

والجدير بالذكر إنّ «أمانى» جمع «امنية» وهى بمعنى الأمل (وقد صرح عدد من المفسرين بأنّ الأمانى بمعنى الآمال التى يستحيل تحققها).

بناءً على هذا ف «أمانى» بمعنى الآمال وتحمل معنى الجمع، بينما لا يشكل تخصص الجنّة إلّا «أمل واحد». وللاجابة على ذلك قال بعض المفسرين: إنّ الأمل الواحد هذا تتبعه آمال اخرى أيضاً وهى الخلاص من العذاب الإلهى وخوف المحشر وعُسر الحساب

ومسائل اخرى من هذا القبيل.

وقال آخرون: إنّ الأمل كلما كبُر يصبح بحكم «الآمال»، وهذا تعبير لطيف يشير إلى مدى بعد هؤلاء عن الواقع!.

وهناك احتمال آخر أيضاً وهو إنّ السبب فى عدّها آمالًا هو وجود هذا الأمل فى قلب كل واحد منهم، أو أن يكون الواحد منهم تمنى ذلك كثيراً، لذا جيء بصيغة الجمع للدلالة على أنّ هذا التوهم لا ينحصر بفرد معيّن منهم أو بمرحلة معينة، بل هو أمرٌ له طابع العموم والدوام.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۸۹

ومهما يكن من شيء فإنّ هذه الآية تدل بوضوح على وجود الاعتقاد بالمعاد لدى اليهود والنصارى

وفى‌الآية السابعة نلاحظ تعرّض «المسيح» عليه السلام لذكر المعاد عندما تكلم فى المهد بإذن اللّه تعالى فقال فى بعض كلامه: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ ابْعَثُ حَيّاً».

والسبب فى اختيار هذه الأيّام الثلاثة (يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث) هو خطورتها ودورها المهم فى تقرير المصير، وبتعبير آخر أنّ كل يوم من هذه الأيّام الثلاثة يشكل بداية لفصل جديد فى مسار الإنسان وتعتبر السلامة امرٌ مهم فيها ولا تتيسر إلّابلطف من اللّه، فطلب المسيح عليه السلام أن يمن اللّه بلطفه عليه فى هذه الأيّام الثلاثة.

بالإضافة إلى ذلك فقد وجّه نداءه بنفى الوهيته ومذ كان فى المهد وصرّح بأنّه كسائِر عباد اللّه بعثه اللّه للناس جميعاً.

وجاء فى الآية ۱۵ من نفس هذه السورة ذِكر هذا الموضوع عند الحديث عن النبى يحيى عليه السلام، لكن الفرق بينهما هو كون الخطاب هنا صدر عن المسيح عليه السلام والخطاب هناك عن اللّه تعالى

جاء فى الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «إنّ أوحش ما يكون هذا الخلق فى ثلاثة مواطن: يوم ولد من بطن امه فيرى الدنيا ويوم يموت فيعاين الآخرة وأهلها ويوم يبعث حياً فيرى أحكاماً لم يرها فى دار الدنيا».

ثم تعرّض الإمام لذكر الآيات المتعلقة بالنبى يحيى والمسيح عليهما السلام الواردة فى هذا المجال «۱».

وعلى أيّة حال فقد أشارت الآية المذكورة بوضوح إلى أنّ مسألة المعاد كانت من الامور البديهية لدى الأقوام السالفة ممّا جعل المسيح يتحدّث عنها وهو فى المهد.

إلى هنا تحدثنا بصورة موجزة عن موضوع المعاد فى شريعة أربعة أنبياء من «اولى العزم»، وإذا ما أضفنا الآيات الكثيرة الواردة فى موضوع المعاد فى شريعة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فسوف يختتم الحديث عن المعاد فى خمس شرائع.

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۳۵، ح ۷۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۰

كما لاحظنا هذا الموضوع أيضاً لدى الأنبياء «غير أولى العزم» فى الأحداث التى مرت على آدم عليه السلام وماتعلق بها مثل قصة أولاد آدم وقصة إبليس.

ولا بأس هنا من الاطلاع على هذا الموضوع من خلال ما جاء على لسان سائر الأنبياء عليهم السلام:

عندما بُعث شعيب عليه السلام الذى كان يعيش فى فترة حياة موسى عليه السلام إلى مدينة (مدين) (مدينة تقع جنوب غرب الاردن اسمها الحالى (معان) وتقع شرق خليج العقبة) قال لقومه:

«فَقَالَ يَا قَومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَاتَعْثَوا فِى الْارَضِ مُفسِدِينَ». (العنكبوت/ ۳۶)

لقد أكّد شعيب عليه السلام فى بداية دعوته على مبدأين أساسيين تعتمد عليهما جميع الأديان هما «المبدأ» و «المعاد» ودعا الناس للإيمان بهما.

والمراد من رجاء اليوم الآخر هو رجاء نيل الثواب الإلهى فى ذلك اليوم، أو أن يكون معنى الرجاء هنا بمعنى الإيمان والاعتقاد بذلك اليوم.

والآيـة التاسعة تتحدث عن حوار «يوسف عليه السلام» مع صاحبيه فى السجن، قال تعالى عن لسان يوسف: «... انِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَومٍ لَايُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالآخرَةِ هُمْ كَافِرُونَ».

والسبب فى استعماله لهذا التعبير هو أنّ مشركى ذلك الزمان عبدة الأصنام كانوا يعتقدون باللَّه إلّاأنّهم كانوا يعتقدون بأنّ المعاد والجزاء يحصلان بواسطة التناسخ، فهؤلاء كانوا يعتقدون بأنّ روح الإنسان بعد الموت تحل فى جسم إنسان آخر فى هذه الدنيا وتتلقى ثوابها وعقابها خلال الحياة الجديدة، لكنّ دين التوحيد يرفض عقيدة التناسخ وعودة الأرواح فى هذه الدنيا كما أنّه يرفض عقيدة الشرك أيضاً، لذا عدّهم يوسف مشركين وجاحدين للمعاد «۱».

و «الملّة»: فى الأصل بمعنى (الدين) والفرق بين الملّة والدين هو أنّ الدين يضاف إلى اللَّه وإلى الأشخاص معاً، فيقال دين اللَّه أو دين محمد صلى الله عليه و آله بينما تضاف الملّة عادة إلى الأنبياء

---

(۱) تفسير الميزان ج ۱۱، ص ۱۸۹.

(أو إلى الأقوام الذين بُعث فيهم النبيون أو مدّعو النبوة) فيقال ملّة إبراهيم وأمثال ذلك «۱» ولا يقال «ملّة اللَّه».

والمراد من القوم الذين ذكرهم يوسف عليه السلام هم عزيز مصر وزوجته زليخا وتابعوهم وهم شعب مصر بصورة عامّة، فهؤلاء لم يكن لديهم اعتقاد صائب لا بالمبدأ ولا بالمعاد.

وعلى أيّة حال فإن دلّ هذا على شىء فإنّه يدل على أنّ المعاد كان يشكل أحد الركنين الأساسيين فى دين يوسف عليه السلام أيضاً، وقد أشار إلى هذين الركنين معاً فى السجن عند محاورته للسجناء.

ومن الجدير بالذكر أنّ يوسف عليه السلام قال بعد هذا الحديث: «وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى ابْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ»، وهذا يدلّ على أنّ المبدأ والمعاد كانا ركنين ثابتين فى جميع الاديان الإلهيّة السابقة.

وتحدثت الآية العاشرة والأخيرة من آيات بحثنا عن خطاب «مشركى مكة» عند معارضتهم دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حين دعاهم للإيمان بالمعاد، فبعد اظهارهم التعجب من عودة الإنسان إلى الحياة بعد تحوله إلى تراب قالوا: «لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ انْ هَذَا الَّا اسَاطِيْرُ الْاوَّلِينَ».

ويشير هذا التعبير بوضوح إلى أنّ الدعوة إلى الإيمان بالمعاد كانت حاصلة من قبل الإنسان منذ القدم إلى الحد الذى عدّها المشركون من (أساطير الأولين)!.

و «اساطير»: جمع «اسطار». واسطار جمع «سطر» بمعنى الصف من الأشجار أو الكلمات وغيرها، ف «أساطير» جمع الجمع وتستعمل بمعنى الروايات المنقولة عن الأقوام السالفة، وبما أنّ روايات السالفين كانت تضج بالخرافات فقد استعملوا هذا التعبير عادةً فى مجال «الخرافات».

---

(۱) مفردات الراغب، مادة (ملّة).

وقال البعض: إنّ «أساطير» جمع «اسطورة» و «اسطارة» و «اسطير» ووجود الزيادة على المصدر الثلاثى دليلٌ على الإضافة فى المعنى فيكون المعنى الأصلى هو السطر الطبيعى والمعنى الاضافى هو الأسطر المزيّفة والكاذبة «۱».

ثمرة البحث:

يستفاد من خلال الآيات المذكورة وكذلك الآيات الكثيرة المشابهة لها فى القرآن المجيد أنّ مسألة المعاد قد طرحت منذ وطأ آدم عليه السلام الأرض وأنّ جميع الأنبياء دعوا الناس للإيمان بها، خلافاً لزعم المغفلين الذين يرون أنّ الحديث عن الإيمان بيوم القيامة طرح مؤخراً من قبل المؤمنين.

بل يستفاد من آيات متعددة من القرآن أنّ اللّه أيضاً يحاجج المجرمين بمسألة المعاد يوم القيامة، قال تعالى «يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالْانْسِ اَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ايَاتِى وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الانعام/ ۱۳۰)

فهذه الآية تدل بوضوح على أنّ انبياء اللّه دعوا جميع الجن والانس للإيمان بالمعاد.

وجاء هذا المعنى فى آية اخرى نقلًا عن لسان خزنة جهنم عند محاورتهم أصحاب النار: «وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا اَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الزمر/ ۷۱)

واللطيف أنّ أصحاب النار يعترفون جميعاً بهذا المعنى أيضاً، كما يدل على ذلك ماجاء فى تتمة هذه الآية: «قَالُوا بَلَى .

بناءً على هذا فالقرآن يرى أنّ مسألة المعاد تشكل العمود الفقرى فى دعوة الأنبياء، وان الدعوة للإيمان بالمعاد بدأت منذ خلق آدم عليه السلام واستمرت على مرّ العصور بواسطة دعوة الأنبياء وأنّ جميع الشعوب قد تعرّفت على هذا الموضوع.

والآن ننتقل إلى بحث الأسانيد التاريخية وتقارير العلماء الواردة فى هذا المجال.

---

(۱) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۳

توضيحات

۱- المعاد لدى شعوب ما قبل التاريخ

نحن نعلم بأنّ حياة البشرية تقسّم إلى مرحلتين: مرحلة ما بعد اختراع الكتابة عندما تمكن الإنسان من تدوين شىء من نفسه وسمّيت هذه المرحلة بمرحلة التاريخ، ومرحلة ماقبل اختراع الكتابة، فمن الطبيعى أنّ الإنسان لم يكن فى هذه المرحلة قادراً على تدوين شىءٍ ممّا كان يدور حوله كى يصبح له تاريخ مدوّن، وأطلق على هذه المرحلة اسم مرحلة ما قبل التاريخ.

لكن عدم اختراع الكتابة فى تلك العصور لم يكن حائلًا أبداً أمام معرفتنا لأوضاع تلك الشعوب، وذلك لأنّ ما خلّفوه من آثار تحت التراب وفى المغارات وغيرها كثير جدّاً ممّا يسهّل الكشف عن مجهولات كثيرة فى اسلوب معيشتهم.

فالعلماء ما زالوا مستمرين فى التنقيب فى مختلف أنحاء العالم عن الآلات المختلفه التى كان الإنسان يستخدمها فى تلك الفترة وما زالوا ينقّبون عن بيوتهم وقراهم التى كانوا يسكنونها، كى يطالعوها بدقّة بعد العثور عليها ليدوّنوا ما يكتشفونه من عاداتهم وتقاليدهم وثقافتهم فيتوصلوا عن هذا الطريق إلى معرفة طقوسهم وعقائدهم الدينية أيضاً.

يقول عالم الاجتماع الشهير «صاموئيل كينغ» فى كتابه: «إنّ أسلاف الإنسان الحالى (الذين عُثر على آثارهم خلال التنقيب) أى «النياندرتال» كانوا يمارسون طقوساً دينية، والدليل على ذلك هو دفنهم أمواتهم بطريقة خاصة ودفنهم آلاتِ عملهم معهم وهذا ما يكشف عن عقيدتهم بوجود عالم آخر» «۱».

ونحن نعلم بأنّ نسل النياندرتال يتعلق بعصورمضت عليها عشرات الآلاف من السنين فى زمانٍ لم تخترع فيه الكتابة ولم تدخل مرحلة

التاريخ البشرى.

إنّ عملهم هذا كان خرافياً وهذا ممّا لا شك فيه، لأننا نعلم بأنّ آلات العمل لا تنفع الإنسان فى الآخرة، لكنّ المحفّز لعملهم هذا هو الإيمان بالحياة بعد الموت كان واقعاً متجسداً بينهم.

---

(۱) علم الاجتماع، ساموئيل كينغ، ج ۱، ص ۲۹۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۴

وجاء فى كتاب دائرة معارف القرن العشرين نقلًا عن كتاب «اصول علم الاجتماع» لمؤلفه «هربرت اسبينسر»: «إنّ الإنسان القديم وبسبب عدم قدرتهم على التفكير العميق كانوا يتصورون وضع الحياة فى الآخرة على قدر عقولهم، لذا كانوا يحملون اعتقادات عجيبة وغريبة عن جزئيات تلك الحياة تشوبها الخرافات أحياناً، فالكثير منهم وعلى الرغم من اعترافهم بالحياة الآخرة كانوا يعتقدون بأنّ تلك الحياة تختص بمن مات موتاً طبيعياً، وكان البعض منهم يعتقد بأنّ تلك الحياة خاصة بالابطال والأقوياء. فقسم من هؤلاء كان يدفن مع الميت سلاحه، كما كانوا يدفنون الأدوات المنزلية مع النساء ووسائل اللعب مع الأطفال (كى ينتفعوا بها عندما يبعثون ثانياً!).

كما كانوا يدفنون أحياناً جميع ما يمتلك الميت من حيوانات معه، ويدفنون معه أحياناً شيئاً من حبوب الذرة والحبوب الاخرى لكى يستفيد منها فى زراعته فى الآخرة!.

كما كانوا يتجاوزون ذلك أحياناً فيدفنون مع الميت نساءه وغلمانه وبعض أعوانه المقربين كى يتسامر معهم فى الآخرة! حتى وصل الحد فى بعض مناطق المكسيك وأمريكا إلى قتل كاهنٍ (ودفنه) مع أصحاب النفوذ ليشاوروه فى الامور الدينية والمعنوية فى الآخرة!!.

كما كانوا يقتلون مهرّجه ويدفنونه معه أيضاً ليلهى سيده فى الآخرة بحركاته وما يقصّه عليه من الطرائف.

فعدد الذين يقتلون ليدفنوا مع الشخصيات يتناسب مع حجم شخصية ومكانة ذلك الرجل، وقد ذكر أحد المؤرخين: أنّ عدد ضحايا بعض هؤلاء الأموات يصل إلى مائتى شخص!

وفى بعض الأحيان عندما كان يتوفى أحد الأبناء الأعزاء كانوا يقتلون امّه وعمّته وجدّته فيدفنونهن معه كى يكنَّ إلى جواره فى الآخرة» «۱».

ممّا لا شك فيه هو أنّ هذه الخرافات المرعبة كانت وليدة أفكار تلك الشعوب المنحطة

---

(۱) دائرة المعارف قرن بيستم، ج ۱، ص ۹۰- ۹۴ (باختصار).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۵

فكرياً، لكن كل تلك الأحداث تتحد فى دلالتها على شىء واحد وهو أنّ الاعتقاد بعالم ماوراء الموت كان ذا جذور عميقة لدى الإنسان القديم.

وجاء أيضاً فى كتاب «تاريخ الحضارات العام» أنّ أجساد الموتى كانت تدفن باهتمام خاص ومراسم خاصة منذ مراحل ما قبل التاريخ وحتى نهاية التاريخ القديم، وكثيراً ما كانوا يدفنون مع الأموات الأدوات المنزلية أو اشكال غريبة اخرى وكان ذووهم يهدونهم الهدايا، وهذه العادات والتقاليد إن دلت على شىء فإنها تدل على إيمانهم بالحياة الآخرة «۱».

۲- المعاد فى ضمير شعوب ما بعد التاريخ

اشارة

تـدلّ الوثـائق التاريخيـة على أنّ الشـعوب التى كـانت تعيش فىمناطق مختلفـة من العالم كانت تشترك مع الشـعوب الأُخرى فى هـذه العقيدة، وغالباً ما كانت المجتمعات تؤمنُ بِعقيدة راسـخة فى مسألة الحياة بعد الموت، وَتُولى اهتماماً كبيراً بإقامة تلك الشـعائر بالرغم من إدخالهم عليها بعض الخرافات، ونحاولُ أنْ نلقى نظرةً على بعض المعتقدات لدى المجتمعات القديمة.

أ) المعاد لدى المصريين القُدماء

جاء فى كتاب تاريخ «آلبر ماله» فى هذا المجال: «كان المصـريون يعتقدون بأنّ أرواح الموتى تخرج من القبور، وتمثل بين يدى الربِّ العظيم «آزيريس».

وعنـدما تُقـاد الروح لتمثـل أمام أحكم الحاكمين فانَّ «آزيريس» يأخـذ قلب الشـخص ويضـعُهُ فى ميزان الحقيقـة ليزنه، فُترسل الروح الطاهرة إلى بستان لا يسع تصور الإنسانِ خيراتِهِ ...

---

(۱) تاريخ الحضارات العام، ج ۱، ص ۹۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۶

وكـانوا يضـعون إلى جوار كـلٍ من الأموات سِـفراً يُعينه ويَهـديه فى سَـفرهِ إلى ذلك العالم، وذلك السِـفر العجيب يحتوى على جُمل ينبغى على الميّت أن يقولها أمام الإله العظيم «آزيريس» كى تبرأ ذمّته، وهذه الجُمل هى:

إنّ العظمة تليق بك أيّها المتعال! إله الحقيقة والعدالة!

إننى لم اراوغ مع الناس الـذين كنت أعيش معهم، ولم اضـجّر امرأة عجوزاً ولم أكـذب فى محكمة، ولم أدنّس نفسـى بالحيل وتلفيق الحقائق.

إننى لم احمّل العامل أكثر ممّا يطيق من عمل فى يوم واحـد، ولم أتماهل فى انجاز وظائفى، ولم اتّخذ من التوانى موضـعاً، ولم أرضَ بهتك المقدسات ولم أنمَّ على عبدٍ لدى سيده، ولم أُلقِ برزق احدٍ إلى القطط! ولم أقتل، ولم أسرق لفائف وأمتعة الموتى «۱».

إننى لم اغتصب أرض أحد ولم أصد عن رضع الأطفال، ولم أُوقِفْ جريان نهرٍ، إننى طاهر طاهر! ...

أيّهـا القضـاة! افسـحوا المجـال أمـام هـذا المرحـوم فـاليوم يوم الحسـاب، وهـذا لم يقـترف ذنبـاً ولم يكـذب ولم يُسْ، إنّه نصـر الحق والانصاف فى حياته، فكان الناس يحمدون أفعاله وقد أرضـى الإله، إنّه أطعم الجياع وقدّم القرابين فى سبيل الإله ومدّ الموتى بالغذاء، أنّ فمه طاهر ويديه طاهرتان أيضاً.

قال المؤرخ المذكور (آلبر ماله) فىنقد هذا الكلام: يلاحظ بوضوح من خلال هذه العبارات كيفية تصنيف المصريين للذنوب الكبيرة والحسنات والمستحبّات «۲».

ويجب أن نضـيف إلى هـذا الكلام أن هـذه العبـارات تـدل أيضاً على أنّ هؤلاء كانوا يؤمنون بالحساب الإلهى بالإضافة إلى إيمانهم بتمحيص الأعمال وإيمانهم بوجود الجنان، كما يجب أن نضيف إلى هذا أنّ هذه الأعمال أشبه ما تكون بتلقين الميّت لدى المسلمين، وتشير إلى تطهير السلوك من دنس جميع الذنوب، هذا بالإضافة إلى قياس حجم الذنوب بالنسبة إلى بعضها البعض.

---

(۱) المراد من لفائف الموتى ظاهراً هو القماش الـذى يلف على أجسام الموتى لتحنيطهم، وكان ذا قيمـة عاليـة، أمّا الأمتعة فهى الغذاء الذى كانوا يدفنونه مع الموتى على أمل أن ينفعهم فى حياتهم بعد الموت.

(۲) «آلبر ماله» تاريخ ملل شرق ويونان، ج ۱، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۷

وعلى أيّ حال فالمصريون بناءً على ما جاء فى تاريخهم، كان لهم اعتقاد راسخ بمسألة الحياة بعد الموت على الرغم من نفوذ خرافات كثيرة فيها، ومن جملة معتقداتهم هو وضعهم الأدوات التى كانوا يستخدمونها فى حياتهم والأمتعة، ووضعهم صور وتماثيل ورسوم الموتى فى القبور، لاعتقادهم بأنّ هذه الصور والرسوم يمكنها أن تحل محل الموتى

ففى بعض المقابر عثر على صورة مزرعة وفى بعضها عثر على صورة تُصوّر كيفية عمل الرغيف، وفى بعضها عثر على صورة تحتوى على منظر ذبح بقرة، واخرى تحتوى على منظر تقديم اللحم المشوى الموضوع فى الآنية للضيوف «۱»، كما أنّ تحنيط الموتى وبناء القبور الرصينة مثل الأهرام، كلها تصب فى هذا الميدان، والهدف منها هو حفظ أجساد الموتى من التفسخ إلى يوم القيامة، كى تتمكن مِن الحصول بسهولة على وسائل العيش بعد أن تحل فيها الروح (لذا) كانوا يضعون أنواع المأكولات وتماثيل الطبّاخين والخبّازين، وأنواع الأسلحة والجواهر فى القبور إلى جوار الأجساد، ولمّا كانت هذه القبور عادةً عرضة لعبث الحيوانات الوحشية، أو عرضة لحملات اللصوص لما يوجد فيها من جواهر فقد بادر أصحاب النفوذ والأثرياء إلى بناء الأهرام، أو بناء الأبنية الرفيعة على القبور واطلقوا عليها اسم «پيرموس» أى «مرتفع» «۲».

ب) «البابليون»

إنَّ البابليين أيضاً كانوا مِن أصحاب الحضارات القديمة، وتدل الآثار الباقية من حضارتهم على أنّهم كانوا يدفنون أجساد الموتى فى قبور على شكل غرف مُسقّفة تحت الأرض، وبالرغم من عدم تحنيطهم الموتى إلّاأنّهم كانوا يُلبسونهم الملابس الفاخرة بعد غسلهم، وكانوا يصبغون وجنات الموتى بالألوان ويكحّلون أجفانهم باللون الأسود! وكانوا

---

(۱) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ۲، ص ۷۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۷۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۲۹۸

يضعون الخواتم فى أصابعهم، أمّا بالنسبة للنساء فإنّهم كانوا يدفنون معهنَّ حِقاق الطيب والمشط ودقيق وزيوت التجميل، كى يحتفظن بطيب الرائحة وطراوتهنَّ وجمالهنَّ فى العالم الآخر «۱»!

ج) «السومريون»

يعتبر السومريون من أصحاب الحضارات السالفة، الذين كانوا يقطنون جنوب العراق، قال المؤرخ «ول ديورانت»: كان السومريون يدفنون الأمتعة والآلات مع الأموات.

وقال فى هذا المجال أيضاً: إنّ السومريين كانوا يدفنون الأمتعة وآلات العمل مع الموتى فإنّ من الممكن أن نفترض بأنّهم كانوا يعتقدون بالدار الآخرة «۲».

د) «الزرادشت»

إنَّ الزرادشت الـذين كانوا يقطنون ايران، كالشـعوب الاخرى يعتقـدون بعودة الحياة بعـد الموت، بل قـد ذكروا لهـذه المسألة جزئيات أكثر ممّا ذكرتهُ الشعوب الاخرى فهؤلاء لديهم عبارات حول الجنّة والنار والصـراط، حتّى أنّهم كانوا يصنفون أهل النار على دَرَكات تشبه إلى حد كبير المعتقدات المعاصرة.

وعلى حـدّ قول «ول ديورانت» إنّهم كانوا يعتقـدون بالآخرة و «جهنم» و «محلّ التطهير» (الاعراف) ويعتقـدون بوجود الجنّـة، كما انّهم يعتقـدون بأنّ الأرواح عليها أن تجتاز الصـراط، لتمييز الأرواح الخبيثة عن الأرواح الطيّبة فتهبط الأرواح المنزّهة بعد عبور الصـراط إلى أرض «السرور»، ليخلدوا إلى جوار «اهورامازدا» فى النعيم والسعادة، بينما لا

---

(۱) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ۲، ص ۲۲۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۰.

تتمكّن الأـرواح الخبيثـة من عبور الصـراط فتهوى فى حفر النار، فالأرواح التى ارتكبت ذنوباً أكثر خلال حياتها تسـقط فى حفرٍ أعمق من حفر جهنم! «۱».

وكما لاحظتم أنّ هؤلاء كانت لديهم تفصيلات أكثر من غيرهم فى مسألة الحياة بعد الموت.

ه) «الصينيون»

والصـينيون أيضاً كانوا يؤمنون بوجود الحياة الاخرى فى طيّات معتقـداتهم، قال «ول ديورانت» فى هذا المجال: إنّ عقائد هؤلاء الدينية كانت مليئـة بتمنى الوصول إلى الآلهـة والجنّة، وكانوا يعتبرون الإله «أميتبها» حاكم الجنّة (من المحتمل أن يكون الإله هنا هو المَلَك) «۲».

وجاء فى مصدر آخر: إنَّ الصـينيين كانوا يعتقدون بأنّ الذين يموتون موتاً طبيعياً إذا ما كانوا صالحين، فسوف تسـمو أرواحهم وتصـل إلى مراحل راقية بالتدريج من خلال تقديم الهدايا والقرابين، وأخيراً يتحولون إلى آلِهة (ملائكة) «۳».

و) «اليابانيون»

واليابانيون أيضاً كانوا يشتركون فى هـذه العقيـدة مع الشـعوب الاخرى فعندما وصـلت الديانة البوذية إلى اليابان كانت مُلَبّدةً بغيوم من التشاؤم، ولكن سـرعان ما تغيَّرَتْ تحت السـماء اليابانيـة وأصـبحت لها آلِهـة حفظـة (ملائكـة حفظـة)، وطقوس جذّابـة وجنّة آمنة، ولا يخفى أن هذه الديانة كانت تؤمن بوجود جهنم والوحوش الخرافية أيضاً «۴».

---

(۱) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ۲، ص ۴۳۰.

(۲) المصدر السابق، ج ۴، ص ۲۶۱.

(۳) اسلام وعقائد وآراء بشرى، ص ۱۵۸.

(۴) قصة الحضارة، ول ديورانت، ج ۵، ص ۳۵.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۰

ز) «اليونانيُّون»

أظهَرَ اليونـانيُّون (الاـغريق) اعتقـادهم بالحيـاة بعـد الموت بصور مختلفـة، فمن جملتها إنّهم كانوا يـدفنون مع الموتى بعضاً من الامتعة ووسائل التنظيف ليكونوا سـعداء تحت التراب، كما كانوا يدفنون معهم تماثيل فخارية صـغيرة بهيئة النساء كى تحافظ عليهم وتسلِّيهم فى الدار الآخرة «۱».

ح) «الرومان»

وللرومان أيضاً تعابير مختلفـة فى هـذا المجال. ف «الاتروريون» الـذين هم احـدى الفرق القديمـة والـذين حكموا روما، كان من أهم اعتقـاداتهم هـو أنّ الميّت يحشـر فى المحكمـة الإلهيّة تحت الأرض طبقـاً للصـورة الـتى تنقش على قـبره، ويمهـل فى آخر لحظـات المحاكمـة للـدفاع عن أعماله التى ارتكبها فى‌حياته، فإن لم يتمكن من الـدفاع عن نفسه فسوف يبتلى بأنواع العـذاب ... وهؤلاء أيضـاً كـانوا يـدفنون الموتى أحيانـاً فى قبور تشـبه البيوت يحفرونهـا فى الصـخور، وكـانوا يضـعون مع الميت جميع مـا يتعلق به من أدوات كالملابس والمزهريات والأسلحة والمجوهرات والمرآة وأدوات التجميل «۲».

وكـان المؤرخ اليونانى «بلوتارخُس» الـذى كان يعيش فى الفترة مابين (۵۰- ۱۲۰) ميلادى، الـذى الّف كتبه فى العقائد وسـير مشاهير اليونان كان يعتقد بوجوب الإيمان بخلود الإنسان وبأنّ الجنّة محل الثواب، وأنّ البرزخ محل التطهير، وجهنم محل العقاب «۳».

---

(۱) يونان القديم، ج ۲، ص ۱۸.

(۲) تاريخ تمدّن، ول ديورانت، ج ۳، ص ۹ (قيصر ومسيح).

(۳) المصدر السابق، ج ۳، ص ۵۷۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۱

۳- الاعتقاد بالمعاد فى‌كتب اليهود «۱»

إنّ ممّـا لاـ شـك فيه هو أنّ النصـارى واليهود كـانوا يؤمنون بعالم ما بعـد الموت، وقـد اشـير إلى هـذه المسألـة كثيراً فى كتب «العهد الجديد» والأناجيل الكثيرة، بالرغم من قلّة الإشارة إليها فى كتب «العهد القديم» أى كتب اليهود.

ومن «المحتمل» أن يكون السـبب فى وجود هـذا الفرق، هو حب اليهود المفرط للحياة الماديّة، والذى أشار إليه تاريخهم بوضوح ممّا يجعـل الاعتقاد بالمعاد يزاحم برامجهم، لـذلك عنـدما كانوا يحرفون كتبهم المأثورة كانوا يثبتون كلّ ما شاهـدوه يتحـدّث عن الامور المادّيـة فى الحياة بنحو أفضل وأبرز ممّا ذكر، لكنهم كانوا يحذفون كلّ ما كانوا يواجهونه من حديث حول القيامة وعقوبة عبدة الدنيا والظلمة!

وقـد وصـفهم القرآن المجيـد بهـذا الوصف أيضاً، قال تعالى «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ». (البقرة/ ۹۶)

ولكن بالرغم من جميع هذه الاحتمالات التى نشاهدها فى‌كتب العهد القديم بالنسـبة لمسألة المعاد، فإننا نواجه عبارات واضحة الدلالة

على الاعتقاد بمثل هذا العالم والتى منها:

۱- جاء فى كتاب «النبى أشعيا»: «سوف تحيا أمواتك وسوف تبعث أجسادى» «۲».

۲- وجاء فى الكتاب الأول ل «صومائيل» مايلى: «إنّ اللّه يميتُ ويحيى ويُدخِلُ القبور ويبعث» «۳».

---

(۱) تشتمل كتب اليهود المقدسة والتى تسمى بالعهد القديم على ۳۹ كتاباً، خمسة منها اسفار التوراة الخمسة، وسبعة عشر كتاباً منها تسمى بمدوّنات المؤرخين وكما هو ظاهر من اسمها فهى تحمل فى طياتها ما دوّنه المؤرخون حول سِيَر الملوك والحكّام وغيرهم، أمّا الكتب السبعة عشر الاخرى والتى، تسمى بمدوّنات الأنبياء فهى تتألف من شرح سِيَر الأنبياء وكلماتهم القصار ونصائحهم ومناجاتهم، وأمّا بالنسبة لكتب المسيح المقدسة (العهد الجديد) فمجموعها سبعة وعشرون كتاباً لا غير، فالاناجيل الاربعة دوّنت على يد تلاميذ المسيح أو تلاميذ تلاميذه وأثنان وعشرون كتاباً منها هى رسائل (بولص) وسائر رموز الدين المسيحى الذين بعثوا للتبشير إلى مناطق مختلفة، وآخرها كتاب الرؤيا (ليوحنا) الذى شرح فيه مشافهاته الغيبية.

(۲) كتاب أشعيا، باب ۲۶، جملة ۱۹.

(۳) كتاب صاموئيل الأول، باب ۲، ج ۶.

۳- وجاء فى سفر المزامير ل «داود»: «بما أننى أسير تحت ظل الموت دائماً فإنى سوف لن أخاف السوء، لأنّك معى، وسوف تتبعنى الرحمة والاحسان فى كل لحظات عمرى، وسوف أسكن بيت اللّه إلى الأبد «۱».

بهذا أشار كل من الأنبياء «صاموئيل» و «اشعيا» و «داود» إلى القيامة بإشارات بارزة، بالرغم من أنّ هذه الأحاديث وأمثالها لم يتلقّها اليهود بقناعة، ومن المحتمل أن يكون هذا هو السبب فى حذفهم لعبارات كثيرة اخرى فى هذا المجال.

قال بعض المؤرخين فى معرض ذكره لنبذة من عقائد اليهود: «إنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بأنّ الأموات سوف يبعثون أخيراً (وتحل فيهم الروح من جديد) ... فيأتى المنقذ على الفور، وبعد انتصاره يجتمع المحسنون جميعاً ويلتحق بهم (حتى من كان فى القبور فيحشرون فى الجنّة التى هى مقرّه الأبدى» «۲».

وقد أشار هذا الكاتب فى محل آخر إلى العقيدة الزرادشتية فقال: «سوف يبعث الأموات؛ وتحل الروح فى أجسادهم، ويعود التنفس إلى صدورهم فيتخلّص العالم المادى من الكهولة والموت والتفسخ والانقراض، ويبقى على هذه الحالة إلى الأبد».

۴- القيامة من وجهة نظر الأناجيل

وكما أشرنا سابقاً إلى أنَّ مسألة الحياة بعد الموت قد ذكرت بوضوح أكثر فى أناجيل النصارى فمن جملة ذلك:

جاء فى انجيل «مَتّى الذى هو من أقدم الأناجيل: «عندما يَمْتَثِلُ ابن آدم بين يدى الأب مع ملائكته، حينئذٍ يجازى كل على قدر عمله» «۳».

---

(۱) مزامير داود، مزبور ۲۳، جملة ۴ إلى ۶.

(۲) تاريخ تمدن، ول ديورانت، ج ۳، ص ۶۳۷ (باختصار).

(۳) انجيل متّى باب ۱۶، جملة ۲۷.

وجاء فى انجيل «يوحنا» مايلى:

«... تأتى تلك الساعة فيستمع جميع من فى القبور نداءها فيخرجون جميعاً، فمن عمل صالحاً يذهب إلى قيامة الحياة، ومن عمل سيئاً يذهب إلى قيامة الجزاء» (المراد من قيامة الحياة ظاهراً هى الحياة فى النعيم الإلهى التى هى ثواب الصالحين، والمراد من قيامة الجزاء هو مجازاة المذنبين طبقاً لمقتضى قضاء العدل الإلهى) «۱».

ثمرة البحث:

من خلال البحوث المذكورة يمكننا بكل وضوح الوصول إلى هذه النتيجة وهى: إنّ الاعتقاد بالحياة بعد الموت فى نظر مؤرِّخى الأديان وغيرها هو من أقدم المعتقدات لدى الأقوام المختلفة للبشر بل هو أقدم من اختراع الخط وتدوين التاريخ أيضاً، وإنَّ جميع الأقوام والشعوب كان لديهم نوعٌ من هذه الاعتقادات التى لم تؤثّر فيها لا القومية ولا الجنس ولا اللغة ولا الخصوصية الجغرافية، بل هى عقيدة شمولية حملها البشر على مرّ التاريخ وقبل تدوينه.

وطبقاً لما جاء مفصلًا فى بحث كون المعاد فطرياً، فإنّ شمولية هذه العقيدة نابعة من كونها ذات جذور فطرية، فهى ذاتية وليست من الامور الطارئة على البشر من الخارج، كى تتطوّر بمرور الزمان أو بتطور الشعوب.

---

(۱) انجيل يوحناً، الباب ۵، جملة ۲۸ و ۲۹ (اقتباس من ترجمة «وليام غلن» طبع المجتمع البريطانى للترجمة الاجنبية للكتب المقدسة سنة ۱۸۷۸).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۵

الإيمان بالمعاد وعلاقته بالتربية

تمهيد:

إنّ ممّا لا شك فيه هو أنّ الإيمان بالمعاد له تأثير بالغ على أعمال البشر، فأعمال الإنسان أساساً، ما هى إلّاانعكاسات لعقائده، أو بتعبير آخر إنّ سلوك كل إنسان له علاقة وثيقة بنظرته الكونية.

فمن يعتقد بأنّ جميع أعماله بلا استثناء، سوف تناقش قريباً فى محكمة يتّسم قضاؤها بالعلم بجميع الامور، وأنّه لا تنفع فى تبديل حكمهم شفاعة الآخرين أو الرشوة، وأنّه لا مجال لدخول التعديلات على احكامها الصادرة، التى سوف يثاب أو يعاقب وفق مفادها، بل من ناحية اخرى إنَّ من يعتقد بأنّ أعماله محفوظة على الدوام وتتسم بصبغة الخلود، وأنّها سوف تحشر معه فى الآخرة لتعيين مصيره من ناحية الفخر أو الذّلة، والطمأنينة أو العذاب، وبأنّها تجرّه إلى السعادة الخالدة أو العذاب الأبدى، فإنّه من البديهى أن لا يسعى مثل هذا لإصلاح نفسه فحسب، بل يصبح حذراً جدّاً فى ممارسة سلوكه وأعماله المختلفة ويتمعن فيها كثيراً، كما هو الحال فى العالم المطّلع على خواص العقاقير الطبيّة النافعة والسموم القاتلة، فإنّ هذا يسعى لتجنيد جميع طاقاته للحصول على العقاقير النافعة، كما أنّه يحذر كل الحذر من السموم القاتلة، فهذه المسألة تصدق على موارد الاعتقاد بالحياة بعد الموت ومحكمة القيامة.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنتأمل خاشعين فى الآيات التالية الواردة فى هذا المجال:

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۶

۱- «فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً».

(الكهف/ ۱۱۰)

۲- «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً* إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً

عَبُوساً قَمْطَرِيراً».

(الانسان/ ۸- ۱۰)

۳- «وَمَالِيَ لَاأَعبُدُ الَّذِی فَطَرَنِی وَإِلَیْهِ تُرْجَعُونَ». (یس/ ۲۲)

۴- «قَالَ الَّذِینَ یَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّلَاقُوا اللَّهِ کَم مِّنْ فِئَةٍ قَلِیلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً کَثِیرةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِینَ». (البقرة/ ۲۴۹)

۵- «قَالُوا لَنْ نُّؤْثِرَکَ عَلَی مَا جَاءَنَا مِنَ البَیِّنَاتِ وَالَّذِی فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِی هَذِهِ الحَیاةَ الدُّنْیَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِیَغفِرَلَنَا خَطَایَانَا». (طه/ ۷۲- ۷۳)

۶- «فِی جَنَّاتٍ یَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِینَ* مَا سَلَکَکُمْ فِی سَقَرَ* قَالُوا لَمْ نَکُ مِنَ المُصَلِّینَ ... وَکُنَّا نُکَذِّبُ بِیَومِ الدِّینِ». (المدثر/ ۴۰- ۴۶)

۷- «وَیَلٌ لِّلْمُطَفِّفِینَ ... الَا یَظُنُّ اولَئِکَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ* لِیَومٍ عَظِیمٍ».

(المطففین/ ۱- ۴- ۵)

۸- «إِنَّمَا یَسْتَأْذِنُکَ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْیَومِ الآخِرِ». (التوبة/ ۴۵)

۹- «أَرَأَیتَ الَّذِی یُکَذِّبُ بِالدِّینِ* فَذلِکَ الَّذِی یَدُعُّ الیَتِیمَ». (الماعون/ ۱- ۲)

۱۰- «بَلْ یُرِیدُ الْإِنْسَانُ لِیَفْجُرَ أَمَامَهُ* یَسْئَلُ أَیَّانَ یَومُ القِیَامَةِ». (القیامة/ ۵- ۶)

۱۱- «إِنَّ الَّذِینَ لَایُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَیَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ یَعْمَهُونَ». (النمل/ ۴)

۱۲- «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَیْنَکَ وَبَیْنَ الَّذِینَ لَایُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّستُوراً* وَجَعَلْنَا عَلَی قُلوبِهِمْ أَکِنَّةً أَنْ یَفْقَهُوهُ وَفِی آذَانِهِمْ وَقْراً». (الاسراء/ ۴۵- ۴۶)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۷

جمع الآیات وتفسیرها

الإیمان بالمعاد هو المحفِّز علی عمل الصالحات:

لقد عکست لنا الآیة الاولی الرابطة الوثیقة بین الإیمان بالآخرة والعمل الصالح، قال تعالی «فَمَنْ کَانَ یَرْجُو لَقَاءَ رَبِّهِ فَلْیَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا یُشْرِکْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً».

فالایمان بالآخرة طبقاً لمفاد هذه الآیة یمکنه فی الواقع أن یؤثّر فی الإنسان من جهتین، الاولی هی حثّه علی العمل الصالح، والاخری علی الإخلاص فی العبودیة. والظریف هو أنّ هذه الآیة اطلقت علی یوم القیامة عنوان «لقاء اللَّه»، ونحن نعلم بأنّ هذا اللقاء المعنوی والشهود الباطنی هو قمّة التکامل بالنسبة للبشر، وتذکّر ذلک الیوم بإمکانه أن یوجد دوافعاً للاخلاص الکامل والعمل الصالح. (وقد اصطلحوا علی هذا بتعلیق الحکم علی وصف مشعر بالعلیة).

وهذه الملاحظة أیضاً جدیرة بالإهتمام، وهی أنّ التطرّق إلی رجاء المعاد بدل الیقین به، إشارة إلی أنّ مسألة المعاد، بدرجه بحیث إنّه حتی الرجاء بتحقُّقِهِ یکفی لوحده لکی یکون منبعاً لمثل هذه الآثار «۱».

وبالإضافة إلی ذلک فإنّ الإتیان بصیغة المضارع «یَرْجُو» التی تدل علی الاستمراریة، ثم الإتیان بعدها بالأمر بالعمل الصالح والإخلاص بصورة مطلقة، کل ذلک من أجل الدلالة علی أنّ ذلک الرجاء وهذا العمل مقترنان ویحاذیان بعضهما علی الدوام.

کما یمکن الکشف عن هذه المسألة الظریفة من هذه الآیة أیضاً وهی أنّ القرآن شبّه العباد بالمسافرین الّذین یعودون لیلاقوا محبوبهم بعد انصرام مدّة الفراق، ومن البدیهی أنّه یجب علیهم بأن یأتوا معهم بهدایا وأن یتصرّفوا بما یلیق بهذا اللقاء کی لا یقفوا خجلین بین

يدى الحبيب.

جاء فى بعض التفاسير فى سبب نزول هذه الآية: إنّ رجلًا أتى النبى صلى الله عليه و آله وقال: إننى أحب الجهاد فى سبيل اللَّه ولكنّى أحبُّ أن أبرز ما لدىّ من مفاخر أمام الآخرين، فنزلت هذه

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۴۰۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۸

الآية (وأكّدت على الإخلاص فى العمل).

وجاء فى رواية اخرى فى سبب نزول هذه الآية أنّ رجلًا أتى النبى صلى الله عليه و آله فقال:

يارسول اللَّه إنّى أتصدق وأصل الرحم ولا أصنع ذلك إلّاللَّه‌تعالى فيذكر ذلك منى وأحمد عليه فيسّرنى ذلك وأعجب به، فسكت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ولم يقل شيئاً، فأنزل اللَّه تعالى

«فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً» «۱».

إنّ هذه الروايات الواردة فى سبب نزول الآية تدل بوضوح على أنّ الإخلاص التام يعتبر اساس العبادة والعمل الصالح ... الإخلاص الذى لا يشوبه شىء من الرياء ولا يحتوى على اىّ نوع من أنواع الشرك.

والآية الثانية تتحدّث عن القصة المعروفة وهى نذر اهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله صيام ثلاثة أيّام واهداؤه طعام الافطار إلى «المسكين» و «اليتيم» و «الأسير»، وهذه الآية تشير بوضوح إلى هذه الحقيقة وهى أنّ هذا الايثار الذى لا مثيل له ينبع من الإيمان بالمعاد، قال تعالى «وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَانُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَاشُكُوراً* إنا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً» «۲».

أجل إنّ من يخاف اللَّه ويخاف يوم الجزاء، لا ينفق ممّا فَضَل عن حاجته فحسب، بل ينفق ممّا هو بأمسّ الحاجة إليه وذلك فى سبيل الحبيب الذى لا مثيل له، هذا بالإضافة إلى أنّه ينفقه بإخلاص تام، ولا ينفقه من أجل الحصول على مكافأة أو اظهار الشكر على لسان من أحسَن إليهم، وهذا انّما يدل على أنّ الإيمان بذلك اليوم العظيم هو محفّز قوى لعمل

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۴۱۰۹.

(۲) «عبوس» بمعنى متقطّب الوجه و «قمطرير» بمعنى صعب وشديد، وتشبيه يوم القيامة بالإنسان العبوس هو تعبير لطيف يصوّر ما لذلك اليوم من رعب وخوف شديدين، ثم إنّ كلمة «قمطرير» على رأى البعض مشتقة من مادة «قَمْطَر» وعلى رأى البعض الآخر هى من مادة «قُطر» (على وزن قُفل)، ولكن المشهور هو الرأى الأول. الدهر آية ۷- ۹.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۰۹

الصالحات والإخلاص فى النيّة.

وممّا يجدر بالذكر هنا هو أنّ الآية السابقة تحدثت عن تأثير الرجاء والأمل بتحقق القيامة، على الإخلاص وعمل الصالحات، وفى الآية الثانية جاء الحديث عن تأثير الخوف من ذلك اليوم، فعند الجمع يتشكّلُ لدينا ركنان اساسيان للحثّ على العمل الصالح والإخلاص وهما (الرجاء والخوف).

والآية الثالثة تنقل ما جاء على لسان رجلٍ مؤمن نهض فى انطاكيا للدفاع عن مبعوثى المسيح عليه السلام، وليهدى أهل تلك المنطقة للسير على خطى اولئك السفراء، إنّ هذا الرجل كان يقول خلال دعوته للناس وكما قال تعالى «وَمَالِيَ لَاأَعْبُدُ الَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فهو فى الحقيقة ذكر خلال دعوته دليلين على وجوب العبودية للرب وهما:

أولًا: لأنّه خلقنا وأنّ وجودنا وعلمنا وقدرتنا كلّها منه.

وثانياً: أنّه هناك دنيا اخرى أمامنا سوف يلحق بها الجميع، ويمتثلُ الكل بين يدى اللّه تعالى ومحكمته العادلة.

والملفتُ للنظر هو أنّه نسب الخلق واعطاء المواهب إلى نفسه، أمّا بالنسبة للمعاد والقيامة فقد نسبها إليهم، وهذا يدلّ على أنّ المورد الأول يتضمّن شكره للنعمة، والمورد الثانى يتضمن تهديد المخالفين من عذاب اللّه يوم القيامة.

الإيمان بالمعاد وتأثيره على الثبات:

وفى الآية الرابعة جاء الحديث عن تأثير الإيمان بالمعاد فى الثبات والصمود أمام الأعداء فى سوح الجهاد، وهى تنقل ما جاء على لسان قوم من مؤمنى بنى اسرائيل الذين

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۰

رافقوا «طالوت» (قائد الجند الّذى نُصِّب من قبل البارى تعالى فى حربهم مع «جالوت» الملك الظالم، وبعد خوضهم لامتحان صعب تخلّف فريق منهم ولم يبقَ فى ساحة القتال إلّا عدد ضئيل، ثم إنّ هذا العدد الضئيل انقسم بدوره إلى قسمين، فقسم منهم استحوذَ عليهم الخوف والهلع فقالوا: «قَالُوا لَاطَاقَةَ لَنَا اليَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ». (البقرة/ ۲۴۹)

وفى قبال هذا القسم، قسم آخر كانوا يعلمون بأنّهم ملاقو اللّه حيث قالوا: «قَال الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ».

والتعبير ب «يظنون»- على رأى كثير من المفسرين- وَرَدَ هنا بمعنى «اليقين بقيام يوم القيامة» وهو كذلك؛ لأنّ هذا الحديث صدر عن الذين خاضوا مختلف أنواع الامتحانات، ثم دخلوا ساحة الجهاد بإيمان راسخ.

ولا يخفى أنّ «الظنَّ» بمعنى الاعتقاد الناشىء من الأدلة والشواهد، وكلّما كانت الأدلة قوية، فإنّه سوف ينتهى إلى العلم وكلّما ضعفت شواهده فإنّه لايتجاوز حدّ الوهم.

وقال بعض المفسرين أيضاً: إنّ الظن هنا لا يصل حدّ العلم، لكن «لقاء اللّه» لم يأتِ هنا بمعنى القيامة، بل جاء بمعنى الشهادة فى سبيل اللّه، أى أنّ هذا الحديث كان صادراً عن الذين كانوا يظنّون بأنهم سوف ينالون وسام الشهادة الرفيع.

لكنّ هذا المعنى بعيد جدّاً، وذلك لأنّه لا يتناسب مع «غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة»، بالإضافة إلى أنّ «لقاء اللّه» الذى ذُكِر فى آيات القرآن يدل عادةً على القيامة لا على الموت أو الشهادة.

وعلى أيّة حال فمن البديهى أنّ الذين يؤمنون بالقيامة لا يعتبرون الموت نهاية الحياة أبداً، بل يعتبرونه بداية حياة أرقى فمثل هؤلاء لا يخافون الموت بل يذهبون لاستقباله بكل شجاعة وشهامة.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۱

والآية الخامسة تتضمّن ما جاء على لسان سحرة فرعون عندما آمنوا بموسى عليه السلام، بعد أن هددهم فرعون بالعذاب الأليم والتقتيل، قال تعالى نقلًا عن لسانهم: «فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَذِهِ الحَيَاةَ الدُّنْيَا* إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيرٌ وَأَبْقَى .

إنّ الإيمان بالقيامة وعدم الإكتراث بقيمة الحياة الدنيا، دفع بالسحرةِ الفراعنة أن يمارسوا أقوى درجات الإيثار والتضحية، فقد صرفوا أنظارهم عن جميع ما أعدّه لهم فرعون من الهدايا، وصرفوا أنظارهم عن جميع الماديّات وذهبوا لاستقبال القتل والتنكيل، و وقفوا بكل صلابة أمام استفزازات ذلك الطاغية الجبّار، وشربوا شهد الشهادة بكل شجاعة.

أجل عندما يبرق الإيمان بالمعاد فى القلوب، فإنّه يؤجج النّار فيها بنحوٍ لا ينفع معه أىّ تهديد، فيفقد كل شىٍ أهميته فى نظر الإنسان

إلّااللّه ولقاء الآخرة ونعيمها الخالد.

إنّ هـذا الإيمان القوى المتقد بدّلَ السـحرة الذين كانوا بالأمس عبيد الدنيا وكانوا أذلة متملقين بدّلهم اليوم وحولهم إلى رجال أقوياء وشجعان صامدين «۱».

والتعبير ب «الحَيَاةَ الـدُّنْيَا» هو دليل على إيمانهم بالحياة الآخرة الخالـدة السامية، والآيات التى تتلو هذه الآية أيضاً قد صـرحت بوضوح أكثر على إيمان هؤلاء بالدار الآخرة ومحكمة العدل الإلهى، والجنّة والسـعير والدرجات المختلفة لأصحاب الجنّة وأنواع النعم الخالدة فى الجنّة.

إنكار المعاد هو السبب الرئيسى لاقتحام الفجور:

اشير فى الآيات الخمس السابقة إلى الآثار الإيجابية للإيمان بالمعاد والحياة بعد الموت

---

(۱) ذُكِرَ فى تفسـير جمله «والذى فطرنا» احتمالان الأول أنّ الجملة تدل على القسم- كما ذكرنا فى تفسيرها أعلاه- والثانى أنّ الجملة معطوفة على جملة سابقة، ففى هذه الحالة يصبح المعنى بهذا النحو: «قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات وعلى الذى فطرنا» لكنّ المعنى الأول أقرب على الأخص إذا أخـذنا بنظر الاعتبار أنّ السـحرة فى عـدّة آيات كانوا يقسـمون بعزّة فرعون، وهنا أقسـموا بخالق جميع البشر!.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۲

فى أبعاد مختلفة وحيثيات متعددة، وابتداءً من الآية السادسة فما بَعدها اشير إلى الآثار السلبية لعدم الإيمان بالمعاد.

ففى الآية السادسة قال تعالى «فِى جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ» «۱».

فينادى أصحاب السعير ليبّينوا أسباب دخولهم النار ويلخصونها فى أربعة عوامل هى:

ترك الصـلاة، وترك اطعام المساكين، ومعاشـرة أهل الباطل، وأخيراً التكـذيب بيوم الجزاء على الدوام، قال تعالى بلسان حالهم «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَومِ الدِّينِ».

إنَّ هذه الآيات تدلَّ بوضوح على أنّ أحد عوامل السقوط فى احضان جهنّم، وَالعامل الأساس المؤدّى إليها هو إنكار يوم الجزاء، الذى يجعل من الإنسان موجوداً غير مكترثٍ ولا مسؤول وفاقد للتقوى والإيمان.

والجـدير بالـذكر هو أنّ المتسـائلين لم يسـألوهم: لمـاذا ألقاكم اللّه فى النار؟ بل كان سؤالهم: ما هو السـبب الـذى أدّى إلى دخولكم النار؟، وذلك لتوضيح القانون الطبيعى الذى يربط «المنكرات والعقائد السيئة» ب «دخول جهنّم».

وممّا يجدر الإشارة إليه أيضاً هو أنّ العامل الأول من هذه العوامل الأربعة، هو ترك الارتباط باللّه (الصلاة)، والثانى هو ترك الارتباط بالضعفاء (اطعام المساكين)، والثالث هو معاشرة أهل الباطل (الخوض مع الخائضين)، والرابع هو عدم الإيمان بالقيامة.

والتأكيـد على «يَومِ الـدِّينِ» (يوم الإدانـة) من بين أسـماء القيامـة هو للدلالة على هذه الحقيقة وهى أنّ المحرّك الرئيسـى نحو الإيمان والعمل الصالح هو الاعتقاد بأنّ يومَ القيامة هو يوم الإدانة والجزاء.

---

(۱) «سَـقَر» على وزن «سَـفَر» فى الأصل من مادة «سَـقْر» على وزن «فَقْر» وهى بمعنى التبـدّل والذوبان إثر حرارة الشـمس، وعدّ البعض (مثل صاحب مقاييس اللغة) من معانيها الاحراق والاحتراق أيضاً، وفى «صحاح اللغة» عدّها من أسماء النار، وعلى أيّة حال فإنّ انتخاب هـذا الاسم لجهنم هو من أجـل أنّ جميع المعـانى مجموعـة فيهـا، وجاء فى كتاب «التحقيق» أنّ سـقر هى نفس النار لا محلّها كما هو الحال فى جهنم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۳

وتحدثت الآية السابعة عن «المطففين» (الذين ينقصون الكيل)، قال تعالى «وَيلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ... الا يَظُنُّ اولَئِکَ أَنَّهُمْ مَّبْعُوثُونَ* لِيَومٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ».

ومن المحتمل هنا أن يكون الظن بمعنى اليقين، أو بمعنى الظن بالمعنى الثانى، والهدف هو التأكيد على هذا الواقع وهو أنّ يوم الجزاء يبلغ من الأهميّة والعظمة، ممّا يجعل من يظن وقوعه يحرص على عدم ارتكاب المعصية فضلًا عن أن يكون متيقناً.

لكن الكثير من المفسرين انتخبوا المعنى الأول أيضاً، كما جاء فى بعض الآيات السابقة مثل الآية ۲۴۹ من سورة البقرة، وقد أكّدت الروايات على هذا المعنى أيضاً «۱».

على أَىِّ حال فإنّنا إن فسّرنا الظنّ باليقين أو بالظن الذى هو أقل درجةً من اليقين، ففى كلا الحالتين تعتبر الآية دليلًا على أنّ الإيمان بالقيامة له أثر احترازى مهم، فى ترك الظلم والكف عن غصب حقوق الناس وأمثال ذلك.

فكلما قطع أحدٌ، أو حتّى لو احتمل أنّ هناك محكمة عظيمة، يُحاسَبُ فيها على الأعمال الصالحة أو الطالحة حتى لو كان مقدارها «مثقال ذرة»، وينالُ جزاءه على كل عمل، وأنّه لا مفر له من الامتثال أمام تلك المحكمة، فمن البديهى أن يراقب الشخص أعماله فى هذه الدنيا، وإيمانه هذا واعتقاده سوف يؤثّر فى تربيته.

ومن الطبيعى أنّه ليس المراد هنا بأنّ كل من ينقص الكيل، أو يرتكب ذنباً آخر لا يؤمن بالمعاد وهو كافر، بل المراد هو أنّ هؤلاء إمّا أن يكون إيمانهم ضعيفاً جدّاً أو أن يكونوا غافلين، وإلّا فكيف يؤمن الإنسان إيماناً راسخاً بمثل هذا اليوم ويبتلى بالغفلة أيضاً ويغرق بمثل هذه الذنوب.

لو آمنوا بالمعاد لما ارتكبوا الذنوب:

تحدثت الآية الثامنة عن الذين تقاعسوا عن الاشتراك فى الجهاد عندما صدر الأمر بهذه

---

(۱) ورد فى احدى الأحاديث المروية عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «الظنّ ظنان: ظنُّ شكٍّ وظنُّ يقين، فما كان من أمرِ المعاد من الظنّ فهو ظنُّ يقين وما كان من أمرِ الدنيا فهو على الشك». (تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۲۸، ح ۶) كما جاء فى عبارة الراغب أيضاً إنّ (ظنّ) فى اللغة تستعمل فى كلا الموردين.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۴

الفريضة الإلهيّة، فهؤلاء كانوا يذهبون إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويتحجّجون بحجج واهية، ليحرجوا النبى صلى الله عليه و آله حتّى يأذن لهم بعدم الذهاب إلى سوح القتال، وبهذا كانوا يريدون أن يتخلّصوا من ثقل هذه الفريضة المهمّة، من دون أن يكونوا فى الظاهر قد ارتكبوا معصية!

قال تعالى «لَايَسْتَأْذِنُکَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَانْفُسِهِمْ». (التوبة/ ۴۴)

بل عندما يأتى الأمر بالجهاد يذهبون نحو ميادين القتال بكل اشتياق ورغبة، فهل يحتاج القيام بالواجب إلى الاذن؟

ثم يضيف: «إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُکَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ».

وهذا لا ينحصر طبعاً بفريضة الجهاد، فالمؤمنون الذين لديهم اعتقاد بالمعاد، يتسلحون بعزم راسخ وإرادة قوية لا تتزلزل فى جميع المجالات، عند انجازهم للتكاليف الإلهيّة الموكلة إليهم، لكن عديمى الإيمان والذين ضعف إيمانهم وتزلزل، وبالأخص المنافقون يسعون دائماً للتخلص من عبء التكاليف، مع أنّهم فى نفس الوقت يحاولون أن يظهروا بمظهر من يلتزم بالموازين الشرعية وأنّ الشرع قد استثناهم من هذا المجال، ويالها من علامة حسنة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين الذين يضمرون الكفر!.

وتحدّثت الآيـة التاسـعة عن الذين يتعاملون بعنف مع الأيتام بسبب عدم إيمانهم بيوم الدين، والذين لا يشـجعون الآخرين على اطعام المساكين، قال تعالى «أَرَأَيتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ* فَذلِكَ الَّذِى يَدُعُّ اليَتِيمَ* وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ».

وكلمـةُ «يـدعّ» مشـتقة من مادة «دعّ» (على وزن سـدّ) وهى فى الأصل بمعنى الطرد المقرون بالغلظـة، وكلمـة «يحُضُّ» مشـتقة من مادة «حضّ» وهى بمعنى تشـجيع الآـخرين على القيـام بعملٍ مـا، وبمـا أنّهمـا جاءتا فى الآيـة المـذكورة بصـيغة المضارع فهما تـدلان على الاستمرار، و «طعام» بمعنى «إطعام».

وبما أنّ «الفاء» فى «فذلك» فى الآية المذكورة «للسببية» فهذا يدل بوضوح على أنّ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۵

إنكار يوم الجزاء هو المنبع الرئيسى لهـذه الأعمال السيئة والمشؤومـة، فهو لا يحرم الأيتام فحسب، بل يمنعهم بغلظة وشدّة، ولا يكف نفسه عن اطعام المساكين فحسب، بل يـدفع الآخرين أيضاً على الكف عن اطعامهم، ويقف حائلًا دون تصدّق الآخرين عَليهم، وذلك لأنّه لا يخاف عاقبة سوء أعماله.

إنّه لا يؤمن بمحكمـة العـدل الإلهيّـة ولا يؤمن بالحساب والثواب والعقاب، فهو لا يعتقـد إلّا بالحياة الدنيوية المحدودة والامور المادية فقط، لذا فهو مشغوف بحبها ولا يفكّر بسواها.

وجملة «أَرأَيتَ» مأخوذة من مادة «الرؤية»، ويحتمل دلالتها على الشهود العينى أو على الشهود اللّبى، وهى بمعنى العلم والمعرفة، وعلى أيّة حال فالآية تفيد هذا المعنى وهو:

إنّـك إنْ لم تعرف من ينكر يوم الجزاء فهم يحملون علائـم واضـحة، إحـداها أنّهم قساة القلوب ولا يرحمون اليتيم، والاخرى أنّهم لا يَعبأون بحال المعدمين، فبهذه الصفات السيّئة يمكنك تمييزهم بوضوح، وتلمسُ حقيقة غيابِ الإيمان بالمعاد فى وجودهم.

وقـد ذكر المفسـرون أسـباباً عديـدة فى نزول هـذه الآيات، منها: إنّ هـذه الآيات نزلت فى شأن (أبو سـفيان)، فإنّه كان يذبـح فى كل اسـبوع إثنين من الابـل (لكنّه كـان يحتفـظ بها لنفسه وذويه)، فجاءه فى أحـد الأيّام فقير يطلب منه شـيئاً، فـدفعه أبوسـفيان بعصاه إلى الخلف (فنزلت هذه الآية إثر تلك الحادثة).

ونقل الفخر الرازى عن «الماوردى» أنّ هـذه الآيـة نزلت فى شأن (أبوجهل)، فأبو جهل كانت له وصايـة على أحـد الأيتام، فجاءه اليتيم وهو عريان، وطلب من أبى جهل أن يمدّه بشى من أمواله، لكن أبا جهل طرد اليتيم بعنف، فقال وجهاء قريش لليتيم اليائس: اطلب من محمد أن يذهبَ إلى أبى جهل فيشـفع لك عنده، وكانوا يريدون بذلك الاستهزاء والسخرية، فتوجَّهَ الطفل إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وهو لاـ يعلم الهـدف من كلام وجهـاء قريش، وطلب من النبى صـلى الله عليه و آله أن يشـفع له عنـد أبى جهل، وكان من عادة النبى صـلى الله عليه و آله أن لا يردّ طلب محتاج أَبداً، فقام صـلى الله عليه و آله فاصـطحب الطفل وذهب إلى أبى جهل، وعندما وقع نظر أبى جهل على النبى صلى الله عليه و آله رحّب به (وقد ملأ وجوده العجب)، ثم أعطى اليتيم مالًا كثيراً، بعد ذلك وجَّهَ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۶

وجهـاء قريش اللوم لأـبى جهـل على فعله، وقـالوا له أملكـك حبُ محمـدٍ يـا أبا جهل؟ فقال كلّا واللّه إنّ حبّه لم يـدخل قلبى، لكننى شاهدتُ حراباً على يمينه وشماله فخفت إنْ لم البِّ دعوته أن تمزقنى تلك الحراب «۱»!.

وعلى أيّة حال فإنّ دلالة الآية على تأثير الإيمان بالمعاد على سلوك الإنسان ظاهر بكل وضوح.

وفى الآيـة العاشـرة طُرِحت نفس هـذه المسألـة أى العلاقـة بين «الإيمـان بالحياة بعـد الموت والحساب والجزاء والقيامـة» وبين «أعمال الإنسان فى هذه الدنيا والمسائل المتعلّقة بالتربية» ولكن بنحوٍ آخر، قال تعالى «بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ* يَسْئَلُ أَيَّانَ يَومُ القِيَامَةِ».

وَهل يمكن للإنسان الذى يؤمن بعظمة اللّه، وقدرته على خلق جميع هذه الأجرام السماوية والمجرّات والعوالم العجيبة، أن ينكر قدرته على احياء الموتى !

بناءً على هـذا لا يكون الهـدف من انكار هذا الإنسان إلّاالتحرر من القيود من أجل اشـباع جميع غرائزه، وليبسط يديه فى الظلم وهتك حـدود العدالـة وارتكاب الـذنوب، أنّه يريد أن يخدع نَفسهُ بهذا الاسـلوب حتى تصل به القناعة المزيّفة بأُسـلوبه هذا حدّاً يجعله يخلق الاعـذار والتبريرات لإخفـاء قباحـة أعمـاله عن أنظـار النـاس، إنّه يريـد أن يحطّم السـدّ العظيم الـذى أوجـده الإيمان بالمعاد للمنع من ارتكاب أى نوع من المعصية، وهذا الأمر لا يختص بالزمان الماضى، فاليوم كالأمس أيضاً.

لهـذا ذُكِر فى البحوث المتعلّقـة بالدوافع نحو التمايل إلى الماديّة وإنكار المبدأ والمعاد، أنّ إحدى تلك الدوافع هو الهروب من عِبءِ المسؤوليات وتجاوز السنن الإلهيّة وخداع الوجدان الإنسانى.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۱۱؛ وتفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۷

والمراد من «الإنسان» فى هـذه الآيـة هو نفس ذلك الإنسان الـذى جاء الحـديث عنه فى بدايـة سورة الـدهر، ذلك الإنسان الذى انكر القيامـة، وكـان يظن بـانّ اللّه لاـ يقـدر على جمع العظـام الرميم واحيائهـا مرةً أخرى والفرق هنـا- كما ورد فى تفسـير «الميزان»- عـدم اسـتخدام الضـمير واسـتبداله بالاسم الظاهر (كلمـة الإنسان)، وهذا فى الواقع هو من أحد أشـكال اللوم والتحقير وكأنّه قال: كيف لمن حصل على مقام الإنسانية أن يسلك هذا الطريق الخاطىء «۱».

أمّا اسـتعمال صيغة المضارع فى (يُريدُ- يفجُرَ) التى تستعمل عادة للدلالة على الاستمرارية، فقد جاء هنا للدلالة على هذه الحقيقة وهى أنّ الإنسان انانيٌّ ويحبّ الذات على الدوام ويريد الاستمرار على المضىّ فى فجوره.

و «فجور»: من مادة «فجر» بمعنى تمزُّق الشـىء بشـدّة، وبما أنّ الـذنب يسـبب خرق حُجب التـديّن لذا اسـتخدمت هذه الكلمة فى هذا المورد «۲».

وأمّـا كلمـة «أمـام» (على وزن مقام) فهى فى الأصل بمعنى الجهـة الإماميـة وهى تقابل «الخلف» وبتعبير آخر إنّ «أمام» بمعنى ما يقابل وجه الإنسان، وبما أنّ الجهـة المقابلـة لوجه الإنسان ذات أهميّة بالغة بالنسـبة له، لذا اسـتخدمت هذه الكلمة هنا (لأنّ مادة «أمّ» بمعنى «قصدَ»).

لكنّه من الواضـح أنّ اسـتخدام هـذا التعبير هنـا هـو من أجـل الدلالـة على مسـتقبل العمر، وهى ظرف مكـان- على حـدّ تعبير بعض المفسـرين- وقد استخدمت للدلالة على ظرف الزمان من باب الكناية «۳»، والمراد هنا فى الحقيقـة هو أنّ الإنسان المتصف ذاتاً بحبّ الذات، يتّخذ من إنكار المعاد ذريعة لكسب الحرية فى ارتكاب الذنوب خلال فترة حياته.

أمّا ما احتمله البعض أنّ «أمام» للدلالـة على القيامـة فإنّه بعيد جدّاً؛ وذلك لأنّها لا تتلاءم مع مادة الفجور، بالإضافة إلى أنّ هذا المعنى يقطع صلة الترابط الموجود بين الآيات.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۱۹۰.

(۲) مفردات الراغب مادة (فجر).

(۳) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۲۴۵، وقد أخذ أيضاً بهذا المعنى صاحب الميزان، ج ۲۰، ص ۱۹۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۸

الإيمان بالمعاد وعلاقته بالرؤية الواقعية:

طرحت هـذه المسألـة بشـكل جديـد فى الآيـة الحاديـة عشـرة، حيث قـال تعـالى «إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآـخِرَةِ زَيَّنَـا لَهُمْ أَعْمَـالَهُمْ فَهُمْ

يَعْمَهُونَ».

وكما اشتهر لدى علماء الأدب وعلماء علم اصول الفقه أنّ هذا هو من باب تعليق الحكم على الوصف، وهوَ يُشعِرُ بعلّيةِ الوصف للحكم، بناء على هذا إنْ كانت الآية تنسب تزيين الأعمال إلى عدم الإيمان بالآخرة فيكون مفهومها هو: عندما يفقد الإنسان الإيمان بالآخرة فإنّه سوف يبتلى بهذه العاقبة، (فتأمّل).

كما يمكننا الحصول على هذه النتيجة أيضاً بإعمال شيء من التحليل وهي: إنّ الإيمان بالآخرة بمعنى الإيمان بوجود محكمة عادلة يباشر البارى تعالى فيها القضاء، وإنّ الشهود هم الملائكة، وإنّ الكذب والاحتيال والشفاعة والرشوة لا تنفع هناك، فالايمان بوجود هذه المحكمة يبعث الإنسان على التدقيق فى أعماله، ويجعله ينظر إليها من منظار الواقع.

أمّا بالنسبة لمن يبتعد عن هذه الحقيقة ويشعر بأنّه حرّ أمام الفوارق الموجودة بين المفاهيم من حسنها وسيئها، فإنّ ذلك يؤدّى بالإنسان الأنانى إلى الإتيان بالاعذار والتبريرات لخداع نفسه وخداع الآخرين فى اضفاء صبغة التقوى والصلاح على شهواته الجموحة، واظهار السيئات بمظهر جميل ممّا يؤدّى به فى النهاية إلى الوقوع فى أحضان الحيرة والضياع، (وهذا يستفاد من فاء التفريع التى تدلّ على السببية) وهذا من أخطر النتائج المترتبة على إنكار المحكمة الإلهيّة العظمى

ومن الجدير بالالتفات هنا هو أنّ تزيين الأعمال نُسبَ إلى اللَّه، بينما اسند ذلك إلى الشيطان وحب الهوى فى آيات اخرى من القرآن المجيد (فى ثمانية موارد)، كما ورد بصيغة المبنى للمجهول «زُيّن» فى آيات عديدة اخرى (فى عشرة موارد)، وإذا ما تأمّلنا فى ذلك لوجدنا أَنها تشير إلى حقيقة واحدة هى:

إذا اسند التزيين إلى اللَّه فذلك لأنّ اللَّه هو مسبب الأسباب، لأنّ كل ما للمخلوقات من أفعال تنتهى أخيراً إلى اللَّه، أو بتعبير آخر إنّ اللَّه جعل هذا الأثر مترتباً على إنكار يوم القيامة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۱۹

أو على تكرار أعمال السوء، كى تظهر هذه الأعمال بمظهر حسن فى نظر الإنسان وتُسْلَبُ منه قوّة التميز بين الحسن والقبيح.

أمّا إذا اسند التزيين إلى حب الهوى أو إلى الشيطان فذلك لأنّ هذين هما العلّة القريبة والمباشرة فى تزيين الأعمال السيئة.

وأمّا لو اسند التزيين إلى الفاعل المجهول فذلك للدلالة على أنّ طبيعة إنكار القيامة أو الاصرار على ارتكاب السيئات، تقتضى اعتياد الإنسان على تلك الأعمال أولًا، ثم تصبح تلك الأعمال محبوبة لديه وتلبس ثوب الحسن فى نظره.

ومن البديهى أنّ تزيين الأعمال يجّر وراءه الضياع الدائم والحيرة المستمرّة فى وادى الضلالة والانحراف؛ وذلك لأنّ الإنسان لا يكف عن ممارسةِ عمل ما إلّاإذا ما وجده سيئاً وَيُلحق به الأذى

ويتضح ممّا قلناه أعلاه أنّ من فسّر الآية بأنّ اللَّه يُزيّن أعمال هؤلاء فى نظرهم، فيصيبهم الغرور فيبتلون بالضياع، أنّ تفسيره غير مناسب، ومن المحتمل إنّ هؤلاء اتجهوا إلى هذا التفسير بسبب عدم تمكنهم من حل مغزى ما جاء فى الآية من نسبة التزيين إلى اللَّه، ففسروها بهذا التفسير المخالف للظاهر.

وفى الآية الثانية عشرة والأخيرة من الآيات المعنية بالبحث توجّه تعالى بالخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: «وَإِذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّستُوراً»، ثم اضاف تعالى «وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِى آذَانِهِمْ وَقْراً».

وهنا أيضاً نواجه مسألة «تعليق الحكم على الوصف» أى أننا نرى أنّ مسألة وجود الحجب المعنوية بين النبى صلى الله عليه و آله والمشركين وإسدال الحجب على القلوب وانسداد آذانهم تَرَتّبَ على وصفهم بعدم الإيمان بالآخرة، وهذا يدل بوضوح على أنّ عدم الإيمان بالمحكمة الكبرى يؤدّى إلى ظهور هذه الحجب والابتعاد عن إدراك الواقع، ودليل ذلك

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۰

واضح وهو: إنّ عدم الاكتراث بالحساب وجزاء الأعمال يؤدّى بالإنسان إلى ركوب مركب الغرور والأنانية والعناد والتعصّب وعبادة الهوى ففى مثل هذه الحالة كيف يتمكّن من أن يرى الحقائق كما هى ويؤمن بها.

فهل يوجد حجاب أسوأُ من حجاب الهوى وهل يوجد مركب أسوأُ من مركب الأنانية والغرور؟

قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من «الحجاب المستور» هو حجاب وجدار غير مرئى كان يحجب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن أنظار المشركين، حين تلاوته للقرآن كى لا يرونه ليكف عنه أذاهم، وقد روى فى سبب نزول الآية ما يشابه ذلك أيضاً.

لكنّ ظاهر الآية ينافى هذا التفسير؛ وذلك لأنّ ظاهرها يدل على أنّ هذا الحجاب يمنع من فهم وإدراك الحقائق واللطائف القرآنية، بناءً على هذا يجب القبول بأنّ المراد من هذا «الحجاب المستور» هو تلك الحجب المعنوية، التى تمنع عيون وآذان وقلوب المشركين عبّاد الهوى الأنانيين المتعصبين من إدراك وفهم المعارف القرآنية السامية.

وهذا هو ما أشارت إليه الآيات المتعددة، والذى بحثناه مفصلًا فى الجزء الأول من هذا الكتاب تحت عنوان «حُجُب المعرفة» «۱».

وجاء فى ما يقارب هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى «فَالَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنكِرَةٌ وَهُمْ مُّستَكْبِرُونَ». (النحل/ ۲۲)

فهنا اشير أيضاً إلى أنّ «عدم الإيمان بالآخرة» هو من عوامل «إنكار الحق والمكابرة».

ثمرة البحث:

اتّضح من خلال ما جاء فى الآيات الإثنتى عشرة الآنفة الذكر (والآيات المشابهة) أنّ

---

(۱) وصف «الحجاب» ب «مستور» يستخدم أحياناً فى معناه الظاهرى، أى «الحجاب اللامرئى» وأحياناً قيل: إنّ اسم المفعول هنا جاء بمعنى اسم الفاعل فمستور هنا جاء بمعنى ساتر.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۱

الإيمان بالآخرة (محكمة العدل الإلهى فى الدار الآخرة)، تارةً يبعث على الصحوة والانتباه والتقوى وتهذيب النفس والخوف من ارتكاب الذنوب أو ممارسة الظلم والاستبداد، وتارةً يكون عدم الإيمان بها سبباً فى ابتعاد الإنسان عن الحقائق، وسبباً فى استكباره على الحق وانغماسِهِ فى بحر المفاسد والذنوب.

وبهذا يتضح بكل جلاء تأثير الإيمان الراسخ بالمعاد على تربية البشر من وجهة نظر القرآن المجيد.

توضيحات

۱- الآثار الإيجابية العميقة للإيمان بالقيامة

إنّ «المراقبة والمحاسبة» هما عاملان مهمّان فى التربية. ومن أحد معانى المراقبة هو أن يعلم الإنسان بأنّ هناك من يراقبه وهو يخضع لرقابته فى جميع الأحوال، بل يعلم بأنّ جميع أسراره الخفية أيضاً تخضع لرقابته.

فالالتفات إلى هذا الحقيقة يجعل الإنسان فى حالة انذار دائم، كما أنّ الالتفات إلى «المحاسبة» وإلى أنّ جميع أعماله الصغير منها والكبير والحسن منها والسىء، سوف يخضع للحساب وسوف تجازى الأعمال بعدالة على قدرها، ممّا يؤدّى إلى أن لا يرى الإنسان نفسه مطلق العنان فى إنجاز أعماله وإلى أن لا يهملها ويعدّها صغيرة، وكلّما كانت قوّة الرقابة والحساب دقيقة كلّما دقق الإنسان أكثر فى إنجاز أعماله.

ففى زماننا الحاضر تخضع بعض الطرق الخارجية فى بعض البلدان للمراقبة بواسطة الكاميرات الخفية، ويراقب شرطة المرور تلك

الطرق وهم جالسون فى مراكز المراقبة بكلّ دقّة، وتتمُّ ملاحقة سائقى السيارات المخالفين لقوانين المرور بواسطة اعلام مراكز المراقبة (بواسطة المرسلات اللاسلكية) النقاط المستقرّة فى بوابات تلك الطرق أو الدوريات المتجوّلة لايقاف تلك السيارات وتغريم سائقيها.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۲

فهذه المراقبة وتلك الغرامات تؤدّى إلى استقرار نظام المرور حتّى فى الطرق الخارجية.

فإذا كانت المراقبة والمحاسبة من قبل الإنسان غير المعصوم من الوقوع فى الخطأ لها هذا الأثر، فإنّ أثر الإيمانِ بمراقبة اللَّه الدائمة، الذى يعلم أسرار ما يكن الإنسان وما يعلن، والإيمان بمحكمة العدل التى تحاسب على ما مقداره «مثقال ذرّة» والتى لا تنفع معها الشفاعة، فإنّ عمق تأثير هذا الإيمان واضح من دون الحاجة إلى البرهان.

ومن الواضح أنّ هذا الأمر يتبدّل من صورة أفعال متفرّقة إلى عادة دائمة ومن عادة إلى ملكة، وتتحوّل الحقيقة التى يطلق عليها اسم «الوجدان الاخلاقى» و «التقوى الإلهيّة» فى قلب الإنسان إلى إيمانٍ راسخ.

إنّ الغاية الاساسية من وجود المحاكم والعقوبات المطبقة وكذلك المكافآت والمدح السائد هى إيجاد الاستقرار وهيمنة القانون وتربية الإنسان، والفرق بين المحاكم الموجودة فى هذه الدنيا وبين المحكمة الإلهيّة هو أنّ هذه المحاكم يمكن استئناف الأحكام الصادرة عنها، وغالباً ما تخضع أحكامها لتأثير الوساطة والرشوة، بالإضافة إلى نقص القوانين المتّبعة فيها والاستثناءات والأحكام الفرعية، وإمكان الإتيان بأدلّة كاذبة تؤدّى فى أكثر الموارد إلى خلاص المجرمين من مخالب العدالة، أو أحياناً إلى تأخير صدور الحكم إلى سنين عديدة بسبب الاستفادة من الروتين، لكنّ محكمة القيامة لا تحتوى على أىّ شىء من هذه النواقص، بل كما سنشير لاحقاً فإنّ المكافآت والعقوبات هناك تشبه إلى حدٍّ كبير الآثار والخواص الطبيعية للأشياء، فهل يمكن تبديل آثار الدواء النافع إلى آثار سم قاتل عن طريق الإتيان بأدلّة كاذبة واستخدام الوساطة والرشوة؟!

إنّ ممّا لا شك فيه هو أنّ الإيمان بمثل هذه المحكمة له أثر فى تربية وتطهير الإنسان يفوق كثيراً آثار المحاكم الدنيوية.

ومن ناحية اخرى فإنّ الإيمان بهذه المحكمة يؤجج روح الايثار والتضحية فى قلب الإنسان، وذلك لقاعدة: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ». (النحل/ ۹۶)

فهذه الدنيا ممرٌّ ودنيا فانية، بينما سوف يبقى ما ذُخِر لذلك العالم مستقراً وخالداً، فأىّ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۳

عاقل يتردد فى شراء «المواهب الجمّة»، بل المواهب التى لا تنضب ب «المتاع القليل»؟ من أجل هذا يمكن للإيمان بالمعاد أن يصبح منبعاً لجميع أنواع الإنفاق والإيثار والتضحية.

و من ناحية ثالثة فإنّ هذا الإيمان يعطى الإنسان روح الشجاعة والشهامة والصبر والاستقامة، فمن يخاف الموت يقول: «إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا». (الانعام/ ۲۱)

أمّا من لا يخاف من الموت يعتقد بأنّ «الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ». (العنكبوت/ ۶۴)

وكيف يبخل فى بذل روحه وماله، أو أن يخاف كثرة صفوف الاعداء مَنْ يعتقد بأنّ الشهادة فى سبيل اللَّه هى بوّابة للدخول فى رحمة الحق تعالى والوصول إلى مقام القرب منه وَنيْل هبات الجنّة التى لا يسعها الوصف؟!

وما شاهدناه فى حروب صدر الإسلام والحرب المفروضة الأخيرة من صمود المقاتلين الشجعان الذى لم يسبق له مثيل، ومن شجاعة خارقة وانتصارهم على الأعداء بالرغم من كثرة عددهم وعدّتهم فإنّ السرّ فى ذلك يكمن فى أنّ الإيمان بالمعاد هو الّذى صنع منهم اناساً آخرين ... اناساً لا يخافون الموت أبداً، ويعتبرون الشهادة فى سبيل اللَّه مِن أرقى المفاخر.

وقصارى القول: إنّنا كلّما أمعنّا النظر أكثر فى هذه الرابطة (علاقة الإيمان بالمعاد بتربية الإنسان)، فإننا سوف نكتشف أهميّتها بصورة أوضح، وكما كررنا القول كثيراً فإنّ تأكيد القرآن على هذه المسألة فى آيات عديدة لا تحصى هو فى الأساس من أجل هذا الأمر.

ومن المحتمل أن يقال: إنّ ما قلتموه هو بيان للعلاقة الموجودة بين «العمل» و «الإيمان» لا العلاقة الموجودة بين «الأخلاق» والإيمان.

لكننا قد أشرنا آنفاً أيضاً إلى أنّ «العمل» إثْرَ التكرار يتحوّل بالتدريج إلى «حالة» ثم تتحوّل الحالة إلى «عادة» وأخيراً تتحوّل العادة إلى «ملكة اخلاقية»!.

۲- الآثار التربوية للمعاد من وجهة نظر الروايات

إنّ هذا الموضوع لم يذكر فى آيات القرآن فحسب، بل له صدىً واسعٌ فى الروايات

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۴

أيضاً، وقد وضّحت الروايات العلاقة الوثيقة والجذرية والدائمة الموجودة بين هذين الموضوعين، ونذكر فيما يلى نموذجاً من هذه الروايات:

۱- قال على عليه السلام فى نهج البلاغة: «واللَّهِ لأَنْ أَبيتَ على حَسَكِ السَّعْدان مُسَهَّداً، أو اجَرَّ فى الأَغلالِ مُصفداً، أَحَبُّ الىَّ من أنْ القى اللَّه ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد وغاصباً لشيءٍ من الحطام» «۱».

وذكر عليه السلام بعد هذه الجُمَل قصة أخيه «عقيل» المعروفة، إذْ لجأ إليه أخوه من شدّة ما أصابه من الفقر والفاقة فطلب منه أن يعطيه أكثر ممّا يستحقّه من بيت المال خلافاً لما تقتضيه العدالة الإسلامية.

لكنّ الإمام عليه السلام وضع قطعة من الحديد فى النار وبعد أن احمرّ لونها قرّبها من يد أخيه فضجّ أخوه بالعويل، فقال له الإمام عليه السلام: «كيف تصرخ من ألم هذه النار التى هى العوبة يُلهى بها؟ وتجرّنى إلى نارٍ أججها الجبار لغضبه وانتقامه» «۲»!

يلاحظ من خلال هذه الكلمات قوّة الإيمان بالمعاد وتأثيرها فى الحثّ على إقامة العدالة والوقوف أمام جميع الانحرافات، وهى نموذج حىّ عن تجلّى الإيمان بالقيامة ومحكمة العدل الإلهى فى أعمال الإنسان.

۲- وَرُوِى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «من أَيقنَ بالخلف جاد بالعطية» «۳».

وهذه الرواية تدل بوضوح على أنّ الإيمان بالمعاد يجعل الإنسان متصفاً بالجود والسخاء.

۳- وجاء فى غرر الحكم نقلًا عن الإمام على عليه السلام فى عبارة صريحة أنّه قال: «اجعل هَمّك لمعادك تصلُح» «۴».

۴- وجاء فى ملحمة كربلاء وعاشوراء أنّ الحسين عليه السلام جمع أصحابه يوم عاشوراء وقام

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۲۴. (باختصار).

(۳) بحار الأنوار، ج ۷۴، ص ۳۸۵؛ نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۳۸.

(۴) غرر الحكم؛ ميزان الحكمة، ج ۱، ص ۳۷، ح ۱۳۳.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۵

خطيباً فيهم فقال: «صبراً بنى الكرام فما الموت إلّاقنطرةٌ تعبُرُ بكُمْ عن البؤس والضَّراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيَّكُم يكرهُ أن ينتقل مِنْ سجنٍ إلى قصرٍ»؟

والّذى دعا الإمام لإلقاء خطابه هذا هو أنّه كان كلّما اشتدّ حصار الأعداء عليه وعلى أصحابه وكلّما حَمِىَ الوطيس كان وجهه أكثر اشراقاً ونفسهُ أكثر اطمئناناً، هنا قال أصحابه لبعضهم الآخر: «انظروا إليه إنّه لا يبالى بالموت»!

فسمع الإمام هذا منهم فالقى عليهم الخطاب المذكور، ثم أضاف إليه قوله: روى أبى عن جدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ الدُّنيا سجنُ المؤمن وجنّةُ الكافر، والموت جسرُ هؤلاء إلى جنانهم وجسر هؤلاء إلى جحيمهم ما كذِبتُ ولا كُذِّبت» «۱».

فالسّر فی ملحمة عاشوراء وشجاعة الإمام الحسین علیه السلام وأصحابه، التی لم یکن لها مثیل والتی سُجِّلت فی التاریخ بأحرفٍ من ذهب لامعه، یجب أن نبحث عنه فی هذا المیدان أیْ الإیمان الراسخ لهؤلاء بالمعاد والحیاة الآخرة الخالدة.

۵- إنّ تأثیر الإیمان بالمعاد فی إصلاح الأعمال بلغ من الوضوح حداً جعل أمیر المؤمنین علیاً علیه السلام یتعجّب ممن یؤمن بالآخرة ولا یسعی فی إصلاح أعماله، قال علیه السلام:

«عجبتُ لِمَنْ یَعلمُ أنّ للأعمال جزاءً کیف لا یُحسنُ عَملَهُ» «۲».

۶- ونختتم کلامنا هذا بحدیثٍ عمیق المغزی عن مؤسس الإسلام النبی الأکرم صلی الله علیه و آله:

عند حدیثه صلی الله علیه و آله عن علامات أهل الیقین قال صلی الله علیه و آله: «ومن علائمه أنّه: أیقن بأنّ الجنّة حقٌ فاشتاق إلیها، وأیقن بأنّ النار حقٌ فظَهَر سعیهُ للنجاة منها، وأیقن بأنّ الحسابَ حقٌ فحاسَبَ نفسهُ» «۳».

إنّ الروایات المَرویّة فی هذا المجال کثیرة جدّاً وما ذکرناه هنا ما هو إلّاقلیل منها، وتتفق جمیعها علی أنّ الإیمان بالدار الآخرة له أثر عمیق فی تربیة الإنسان.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۴، ص ۲۹۷ (باب فضل الشهداء معه وعلّة عدم مبالاتهم بالقتل)، ونقل المرحوم الصدوق هذا الحدیث فی کتاب «معانی الإخبار» عن علی بن الحسین علیه السلام فی باب «معنی الموت» ص ۲۸۸.

(۲) غرر الحکم، ج ۲، ص ۴۹۵.

(۳) تحف العقول، ص ۲۳.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۶

۳- الإیمان بالمعاد وعلاقته باطمئنان النفس

إنّ الاعتقاد بالحیاة بعد الموت یؤثّر فی تهذیب النفس وإخلاص القلوب وسموّ الأخلاق وطهارة الأعمال وله أثر کبیر فی إصلاح حال الإنسان فی هذه الدنیا أیضاً.

کلنا یعلم أنّ القلق هو خطر یهدد حیاة الإنسان، فیُحوِّل حلاوة العیش إلی مرارة لا تطاق، ویصاب الإنسان بالانهیار العصبی جراء القلق الذی یسیطر علیه.

القلق الناشیء من ماضی الإنسان واضاعة الفرص والآلام التی حلّت فی ساحته، والقلق بشأن المستقبل ونهایة الحیاة وفقدان الأصدقاء والأقارب والاولاد والمال والثروات والقوی الجسمیّة والروحیّة ... والقلق الناشیء من الأحداث التی لم تکن بالحسبان والتی تعصف بالإنسان فتحطّم استقراره.

لذا قال العلماء أصحاب الخبرة: إنّ البشر فی زماننا الحاضر وَبالرغم مِن تطوّر الطّب والجراحة وفی نفس الوقت الذی قُضیَ فیه علی الکثیر من الأمراض، حتّی أنّ قسماً منها قد تلاشت واجتثت من جذورها، إلّاأنّ الإنسان مازال یعانی من الأمراض النفسیة أکثر ممّا کان علیه فی السابق، لذا فإننا نری أنّ الاحصاءات تدل علی أنّ هذه الأمراض فی تزاید مستمر یوماً بعد یوم.

حتّی قال أحد أساتذة علم الاجتماع فی جامعة پرینستون الاستاذ «دونالد لایت»:

«یعیش فی أمیرکا لوحدها حالیاً ما یقارب خمسة وعشرین ملیون فرداً! أقْدَمُوا علی الانتحار خلال حیاتهم مرّة واحدة علی الأقل، ولم یکن لجمیع المساعی التی بذلت فی هذا المجال من قبل لجان مکافحة الانتحار أثر یعتد به، وهؤلاء یقدمون علی هذه الأعمال بسبب الیأس وشعورهم بتفاهة الحیاة، وبسبب الوحدة وعدم ثقتهم بالدنیا والاضطراب والتشویش الناشیء من تدهور المجتمع، وهذا الأمر لا یمکن معالجته بالسبل المذکورة أعلاه» «۱».

بالرغم من أنّ عصرنا الحاضر فی أحد أبعاده هو عصر راحة الإنسان فقد انخفض مقدار

---

(۱) غربت غرب، ص ۱۸ (باختصار).

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۷

ساعات العمل عمّا كان عليه سابقاً، وازيحت الاعباء التی كانت تثقل كاهل الإنسان وأُلقی ثقلها علی كاهل عجلات المصانع العظيمة، وفی المنازل أيضاً تحملت الآلات الكهربائية أعباء القيام بالأعمال الصعبة فأصبحت المنازل أكثر تطوراً وعدّة، والوسائط النقلية أكثر فائدة، فالسفر الذی كان فی الماضی يعتبر قطعة من الجحيم أصبح اليوم من أسباب الرّاحة واللهو، وأخيراً أدْخَلَت وسائل اللهو الحديثة والجيّدة علی حياته لوناً جديداً.

فعلی غرار هذا التطوّر فإنّه يُتوقّع أن يعيش الإنسان فی عصرنا الحاضر وهو يتمتع بهدوءٍ تام، وصحّة تامة من الناحية البدنية والروحية معاً، لكننا نری بوضوح أنّ الاضطراب والقلق ينتابانه أكثر ممّا كان عليه سابقاً.

والأسباب الرئيسية فی هذا الأمر هی الشعور بتفاهة الحياة وعدم كونها هادفة، والشعور بعدم وجود ملجأ عند حلول المعضلات المدمّرة ورسم صورة مرعبة للموت والتشاؤم القاتل، والخوف من المستقبل المجهول للعالم وللحياة الشخصية، وممّا لا شك فيه هو أنّ الإيمان بالآخرة، والحياة الخالدة فيها التی تكتنفها العدالة والطمأنينة بإمكانه أن يُنهی كل هذا القلق.

قال البروفسور المعروف «يونغ»: إنّ ثلثی المرضی الذين قدموا الیّ من جميع انحاء العالم للعلاج هم أفراد مثقفون وموفقون فی حياتهم لكنّهم يعانون من مرضٍ خطير وهو الشعور بتفاهة الحياة، والسبب فی ذلك هو أنّ إنسان القرن العشرين بسبب التقدّم التقنی وقصور الرؤية والتعصّب، فقد الدين فعاد يبحث عن هويته ومالم يعثر علی دين فإنّه سوف لن يهدأ، «وذلك لأنّ فقدان الدين يؤدّی إلی تفاهة الحياة وفقدانها لمفهومها» «۱»!

وهنا نلجأ إلی القرآن ونطلب منه العون: ففی سورة يونس نلاحظ إشارة لطيفة فی هذا المجال فی قوله تعالی «الَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَاهُمْ يَحْزَنُونَ ...* لَهُمُ الْبُشْرَی فِی الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفی الاخِرَةِ». (يونس/ ۶۲- ۶۴)

أجل إنّ هؤلاء تعلّقت قلوبهم باللّه والتحقوا بركب الأولياء فی هذا الوجود، واعتبروا

---

(۱) معاد از نظر روح وجسم، ج ۱، ص ۴۴.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۸

الدنيا قنطرة للوصول إلی حياة الآخرة الخالدة، لذا فهم لا يشعرون بالوحدة ولا بتفاهة الحياة.

وإلی هنا ننهی الحديث عن الآثار المختلفة الماديّه والمعنوية للإيمان بالقيامة، علی حياة الأفراد والمجتمعات بالرغم من وجود بحوث كثيرة لم نَتَحَدَّثْ عنها هنا.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۲۹

المدخل إلی عالم البقاء

اشارة

۱- الموت

۲- البرزخ

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۱

۱- الموت

تمهيد:

بالرغم من أنّ اسم الموت مرعب جدّاً ومهيب فى نظر الكثيرين، إلّاأنّه لا يتّصف بذلك فى نظرية المعرفة الإسلامية، وذلك لأنّ الموت جسر عبور نحو العالم الآخر، بل ويعدّ الموت فى الحقيقة ولادة جديدة.

ويحتمل أن يكون بكاء المولودِ الشديد عند الولادة وذلك لأنّه يحتمل الفناء، بالرغم من كونه قد خرج إلى عالمٍ أوسع بكثير من بطن الام.

وفى نفس الوقت لا يكون العبور من هذه البوّابة محبوباً لدى الجميع، بل لا يستحسنه إلّا الذين يصطحبون الزاد والعدّة الكافية لهذا السفر الصعب، لذا فليس من العجيب أن يسيطر الخوف والهلع من الموت على قلوب المسيئين والمجرمين- حتّى لو كانوا يؤمنون بالحياة بعد الموت-.

فهذه النظرة للموت تمنح الإنسان القدرة على الجهاد والإيثار والتضحية، ولا يصبح ذليلًا وحقيراً بسبب الخوف من الموت من جهة، ومن جهة اخرى يكون تحذيراً للبشر من الابتلاء بارتكاب الذنوب، ومن العوامل المؤثّرة فى تربيتهم.

إنّ القرآن المجيد أكّد على هذه المسألة كثيراً وشرح هذا الحديث المهم الذى يبتلى به جميع البشر من دون استثناء من خلال تعابير مختلفة وقال كُلّ ما يمكن أن يقال حوله.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن فى الآيات الواردةِ فى هذا المجال خاشعين.

(يجب الالتفات إلى أنّ كل آية من هذه الآيات تسلّط الأضواء على أحد أبعاد هذا الموضوع):

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۲

۱- «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّونَ أُجُورَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ». (آل عمران/ ۱۸۵)

۲- «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِيْنَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرسِلُ الْاخْرى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمّىً». (الزمر/ ۴۲)

۳- «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ». (السجدة/ ۱۱)

۴- «الَّذِينَ تَتوفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ ظَالِمى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَاكُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل/ ۲۸)

۵- «الَّذِينَ تَتوفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النحل/ ۳۲)

۶- «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ للَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* وَلَا يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَالِمِينَ».

(الجمعة/ ۶- ۷)

۷- «تَبَارَكَ الَّذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ* الَّذِى خلَقَ المَوْتَ والحَيَاتَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ».

(المُلك/ ۱- ۲)

۸- «وَجَاءَتْ سَكرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ». (ق/ ۱۹)

۹- «كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِىَ* وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ* وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ* وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ* إِلَى رَبِّكَ يَومَئذٍ الْمَسَاقُ». (القيامة/ ۲۶- ۳۰)

۱۰- «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». (المؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰)

جمع الآيات وتفسيرها

۱- الموت قانون شمولى

تحدثت الآية الاولى عن شمولية قانون الموت، الذى هو نهاية جميع البشر وجميع

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۳

الموجودات الحيّة، بل هو أمرٌ حتّى بالنسبة للموجودات غير الحيّة، قال تعالى «كُلُّ نَفسٍ ذَائقَةُ المَوتِ».

وقد ورد هذا التعبير فى ثلاث آيات فى القرآن المجيد «۱»، والسبب فى تكرار هذا الأمر هو التأكيد على حتمية الموت، هذا بالإضافة إلى تحذير جميع البشر كى لا يغفلوا عن حتميّة هذه العاقبة.

ولمّا كان الموت هو نافذة نحو عالم البقاء، فقد اضاف تعالى على الفور: «وَإِنَّمَا تُوَفَّونَ اجُوْرَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ»، وذلك للدلالة على أنّ الدنيا دار عملٍ ولا حساب ولا جزاء وإنّ الآخرة دار حساب وجزاء ولا عمل.

وعلى الرغم من وجود إثابة محدودة فى عالم الدنيا وعالم البرزخ، لكنْ من البديهى هو أنّ لا يتمّ الحصول على الأجر والثواب الكامل إلّافى الدار الآخرة.

وهناك احتمال آخر أيضاً وهو أنّ التعبير المذكور أعلاه يدلّ على أنّ المنقذ الوحيد للإنسان يوم القيامة هو أعماله الصالحة فقط، لأنّ المال والجاه والمنصب والأولاد والعشيرة لا تعالج حتّى معضله واحدة من معضلات الإنسان، وهذا التعبير يشبه ما جاء فى سورة الشعراء: «يَومَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ». (الشعراء/ ۸۹)

لكنّ التفسير الأوّل أقرب للصحة، وقد انتخبه الكثير من المفسرين.

إنّ الإنسان يمكنه أساساً أن يشك فى كل شىء، إلّاأنّه لايمكنه أن يشك فى تحقق الموت، إنّ جميع أهل السماء والأرض سوف يموتون وسوف يبتلع الموت جميع الموجودات الحيّة، فالجميع من دون أىّ استثناء لهم اجلٌ ونهاية معينة لا تتأخّر عن موعدها لحظة واحدة، أمّا بالنسبة لدعاء الناس لبعضهم أو لحكّامهم بالخلود فما هو إلّا مجاملة خالية من أىّ محتوى فأىّ خلودٍ هذا؟ وأَىُّ بقاء؟ إنّ الأنبياء جميعاً مرّوا بهذه المرحلة، والجميع من دون استثناء عبروا هذا الممر.

ويستفاد من هذه الآية بالإضافة إلى ذلك، أولًا: أنّ روح الإنسان لا تموت بموته، وذلك

---

(۱) آل عمران، ۱۸۵؛ الأنبياء، ۳۵؛ العنكبوت، ۵۷.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۴

لأنّ الآية تقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ المَوتِ»، ومعنى الذوق هو أنّ الروح باقية فتدرك الموت وتتذوّقه، ويستفاد منها ثانياً: أنّ الروح هى غير الجسد، وذلك لأنّها تبقى بعد موت الجسد.

جاء فى إحدى الروايات لمّا نزلت الآية الشريفة «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ». (الرحمن/ ۲۶) قالت الملائكة: «مات أهلُ الأرض» وعندما نزلت الآية الشريفة «كُلُّ نَفْسٍ ذَائقَةُ المَوتِ» قالت الملائكة: «متنا نحن أيضاً» «۱».

بالرغم من أنّ كلمة «النفس» اطلقت أحياناً على اللَّه كما جاء فى حديث عيسى عليه السلام عندما كان بين يدى اللَّه حيث قال: «وَلَاأَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ». (المائدة/ ۱۱۶)

لكنّ التعبير ب «كل نفس» فى الآية المذكورة يراد منه المخلوقات لا الخالق.

۲- حقيقة الموت

يعتبر كثير من الناس الموت فناءً وعدماً ونهايةً كلّ شيء، لذا فهم يخافون الموت ويهابونه بشدّة، بينما يفسّر القرآن المجيد حقيقة الموت ب «التوفّى» (أى قبض واستلام روح الإنسان من قِبَلِ الخالق) أو بتعبير آخر هو انتقال من عالم حقيرٍ إلى عالم كبير وَسامٍ)، قال تعالى فى الآية الثانية: «اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حينَ مَوْتِهَا» «۲».

ثم من أجل أن يذكر نموذجاً للموت فى هذه الدنيا أضاف تعالى «وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا»، «فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَى عَلَيْهَا المَوتَ» أى التى لن تصحو من نومها بعد ذلك أبداً «وُيُرسِلُ الاخْرَى أى التى يجب أن تستمرّ فى حياتها «إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً».

إنّ هدف القرآن هو بيان هذه الحقيقة وهى: كما أنّ روحَ الإنسان لا تفنى فى عالم النوم، بل يضعف ارتباطها بالبدن بصورة مؤقتة، ومن أجل هذا يمكنها التجوّل فى عوالم مختلفة، فإنّها لا تفنى أيضاً بالموت، بل تتحرر وتتجوّل فى عوالم كبيرة اخرى

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۹، ص ۱۲۵.

(۲) الضمير فى «موتها» وإن كان يعود للانفس فى الظاهر لكنّه فى الواقع يدلّ على موت الابدان، وذلك لأنّ البدن هو الذى يموت لا الروح، وكذلك الحال فى ضمير «منامها».

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۵

و «يتوفّى : من مادة «وفى وهى فى الأصل بمعنى الكمال، لذا اطلقوا على الدّرهم الكامل «درهماً وافياً» (أى الكامل من حيث الوزن ومقدار الفضة) على هذا يكون التوفّى بمعنى القبض التام، وبما أنّ القابض هو اللّه فإنّ هذه الجملة تدل على أنّ الإنسان سوف يضع قدمه فى عالم أعلى وأرقى

إنّ هذه النظرة إلى الموت تغيّرُ كثيراً من المعادلات والمفاهيم، ومن أجل هذا عرّفوه ببوّابة العبور إلى عالم البقاء.

ومن الجدير بالذكر هو أنّ الآية المذكورة تحذّر الناس لأنّها تعتبُر «النوم» مساوياً «للموت» وكأنّها تقول: كيف تغفلون عن الموت وهو يأتيكم فى كل يوم وليلة وأنتم تلمسونه بأيديكم؟! إنّكم فى حالة النوم تنفصلون عن هذا العالم وتفارقون حياتكم ومنصبكم ووجودكم بصورة مؤقتة، فالموت أيضاً هو عبارة عن نوم خالد كما أنّ النوم هو عبارة عن موت مؤقت، ومن المحتمل أن تكون الجملة الاخيرة فى هذه الآية: «إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ» ناظرة إلى جميع هذه الحيثيات.

۳- ملائكة الموت

بالرغم من أنّ الآية السابقة أسندت قبض الأرواح إلى اللّه، لكنّه يستفاد من آيات اخرى من القرآن إسناد هذا العمل إلى الملائكة، ففى الآية الثالثة من آيات البحث وُجِّه الخطاب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وامِر بأن يجيب على إنكار المشركين للمعاد بقوله تعالى «قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَّلَكُ المَوْتِ الَّذى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ».

ومن الجدير بالذّكر هو أنّ الآية هنا تحدّثت عن ملك الموت، الملك الذى اوكِلت إليه هذه المهمّة، بينما لاحظنا فى الآية السابقة إسناد القبض إلى اللّه، وفى الآية اسند القبض إلى مجموعة من الملائكة: «الَّذِيَنَ تَتَوفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ». (الزمر/ ۴۲)

كما أسند القبض إلى الرّسُل: «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا». (الانعام/ ۶۱)

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۶

إنّنا إذا ما تمعّنا بشيٍ من الدقّة فى الآيات المذكورة لا تّضح لنا عدم وجود أىّ تضاد فى هذه المسألة، وذلك لأنّ المتوفّى الرئيسى هو

اللّه تعالى ثمّ تناط مهمّة قبض الأرواح ب «ملك الموت الكبير» (عزرائيل عليه السلام) الذى اوكلت إليه هذه المهمّة وهو بدوره ينجز هذا العمل أيضاً بواسطة «مجموعة من الملائكة» والرُسل الذين هم نفس أولئك الملائكة.

إنّ الأحداث المهمّة فى هذا العالم تنجز أساساً بواسطة الملائكة الّذين لا هدف لهم إلّا الطاعة للّهوالعمل بأوامره، والموت الّذى هو أحد هذه الأحداث المهمّة فى هذا العالم لايستثنى من هذا القانون.

وجملة: «ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ» تدلّ على أنّ الموت مقدّمة العودة نحو الحق فى مرحلة السير الصعودى، كما أنّ الولادة هى نافذة نحو عالم الفناء والسير النزولى لروح الإنسان، والتعبير ب «ثمّ» من المحتمل أن يكون إشارة لوجود البرزخ.

۴ و ۵- حال المؤمنين والظالمين عند سكرات الموت

إنّ حال المؤمنين والمحسنين لا يشبه حال الظالمين والمذنبين عند حلول الموت فى ساحتهم، أو بتعبير آخر إنّ نتائج أعمالهم وعقائدهم تظهر بالتدريج فى تلك اللحظة، و «الآية الرابعة والخامسة» لهما دلالة عميقة على هذه الحقيقة.

قال تعالى «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ»، وتدلّ هذه الكلمات على أنّهم لم يخضعوا بالكامل، فهم لا يعلمون بأنّ هذا الانكار لا معنى له أمام اللّه الّذى يعلم الغيب وأمام الشهود من الملائكة، لذا أضاف تعالى فى ذيل الآية: «بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». ثمّ وجّه الأمر إليهم فقال: «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا».

ومّما تقدّم يظهر أنّ اعلان التسليم بالنسبة لهؤلاء هنا هو بمعنى اظهار التوحيد والتسليم للحق (كما يرى عدد من المفسرين) ولكن بما أنّ جوّ الدنيا لم يفارقهم بعد ولم يَتعرَّفوا على

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۷

القوانين المهيمنة على مراحل ما بعد الموت فإنّهم ينكرون ما عملوا من سوءٍ ويتوسّلون بالكذب، لكنّهم سرعان ما يتضح لهم أنّ الكذب لا ينفع هناك!

وهناك احتمالان فى هل أنّ المراد من «جهنم» هنا هو جهنم عالم البرزخ أم جهنم يوم القيامة؟ والّذى يتلاءم مع سكرات الموت هو الدخول فى جهنم البرزخ، لكنّ التعبير بالخلود يصلح لأنّ يكون قرينة على أنّ المراد هو جهنّم القيامة، إلّاإذا قيل: إنّ المراد هنا هو دخول أبواب جهنّم فى عالم البرزخ لا دخول نفس جهنّم، والخلود هنا هو صفة للكافرين عند دخولهم البرزخ لا عند دخولهم أبواب البرزخ.

وتعبير: «بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»، يحتمل أن يكون صادراً عن ملائكة الموت لتحذير الكافرين فكأنهم يقولون: لا تسعوا عبثاً فى الانكار فإنّه غير نافع لأنّ علم اللّه الواسع سوف يرفع الستار عن أعمالكم.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآية تشبه ما جاء فى سورة محمد: «فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ المَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ». (محمّد/ ۲۷)

بلى سوف تستقبلهم الملائكة بالضرب على وجوههم وأدبارهم، ومن المحتمل أن يكون إقرارهم بالتوحيد والحقّ هو من أجل مشاهدة هذه المشاهد لا من أجل الإخلاص.

وفى قبال هذا المشهد هناك ملائكة الرّحمة التى تأتى لقبض أرواح المؤمنين، قال تعالى فى الآية الثانية: «الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ المَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

وفى الواقع لا يمكن أن تكون مكافأة الطهارة والتقوى إلّابمثل هذا وهو أن تستقبلهم ملائكة اللّه بالسلام والترحاب، وتدعوهم لدخول الجنّة ... تلك الدعوة التى يغمرها اللطف والمحبّة والاحترام!

وهنا أيضاً قد يراد من الجنّة جنّه البرزخ كما يحتمل أن يكون المراد جنّة القيامة وجنّة البرزخ تعتبر من أبوابها.

على أيّة حال فإنّ هذا من أحد أبعاد الموت الذى هو بالنسبة للصالحين يختلف تماماً عمّا هو عليه بالنسبة للمذنبين.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۸

۶- علّة الخوف من الموت

إنّ صورة الموت مرعبة لدى الناس عادةً، والسبب فى ذلك يكمن فى أمرين، فهو إمّا أن يكون باعتبار الموت نهاية كلّ شىء أى يساوى معنى الفناء، وإمّا أن يكون بسبب التلوّث بارتكاب الذنوب وحب الدنيا الشديد، فلماذا يخاف الموت من يعتبره ولادة جديدة وبداية انتقال إلى عالم اوسع وحياة أرقى ومن يحمل فى جعبته كميّة هائلة من الأعمال الصالحة إعداداً لسفره والذى ليس للدنيا فى قلبه موضعٌ يعتنى به؟ وقد أشار تعالى فى الآية السادسة إشارة لطيفة لهذا الأمر، قال تعالى «قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَولِيَاءُ للَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» ثم يضيف «وَلَا يَتَمَنَّونَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْديهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ».

وممّا يجدر بالالتفات هنا هو أنّ المخاطب فى هذه الآية هم اليهود، والسبب فى ذلك على مايبدو أمران:

الأول: هو أنّ اليهود يعتبرون أنفسهم شعب اللّه المختار دائماً- حتّى فى يومنا هذا- ويتصورون أنّهم يمتازون عن الآخرين بصفات خيالية، فهم يعتبرون أنفسهم أبناء اللّه المختار تارةً! وأحياناً إنّهم أولياؤه وأحبّاؤه: «وَقَالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبّاؤُهُ». (المائدة/ ۱۸)

واخرى، يقولون: لن تمسنا النار أبداً مهما ارتكبنا من الذنوب إلّاأيّاماً معدودة: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلّاأَيَّاماً مَّعْدُودَةً». (البقرة/ ۸۰)

فيجيبهم القرآن: إنْ كنتم صادقين فى عقيدتكم هذه فلِمَ تخافون الموت بهذه الشدّة إذن؟

فهل يخاف الخليل من لقاء خليله؟ وهل يكون الانتقال من السجن إلى جنّة عامرة خضراء أمراً مخيفاً؟!

و جاء ما يشبه هذا المعنى فى قوله تعالى «قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ»! (البقرة/ ۹۴)

والثانى: هو أنّهم كانوا يعبدون الدنيا وتعلّقت قلوبهم بعالم المادّة، هذا بالإضافة إلى

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۳۹

ارتكابهم الذنوب الكثيرة وتلوث أيديهم بدماء الابرياء، لذا فهم يخافون الموت بشدّة.

لذا قال تعالى «وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ». (البقرة/ ۹۶)

وقال أيضاً: «وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ». (البقرة/ ۹۵)

وَعلى هذا الأساس فقد بيّن القرآن المجيد علل الخوف من الموت بوضوح كما أنّه هدى إلى طرق الخلاص من هذا الخوف والهلع الّذى يعمُّ الجميع، ويرى بعض المفسّرين أنّ الآية المذكورة أعلاه والتى نزلت فى شأن اليهود هى نوع مباهلة والتى هى إحدى طرق مقارعة الكذّابين، وهى تستخدم فى إثبات صدق الدّعوة، وهى أن يَطلبَ المدّعى من اللّه أن يُخْزِيَهُ إنْ كان كاذباً (فإذا كانت شروط المباهلة متوفّرة فإنها تكون مؤثّرة).

والدليل على هذا التفسير هو ما جاء فى الروايات أنّ الكذابين أى (اليهود) لو كانوا تمنّوا الموت أمام النبى صلى الله عليه و آله لَغصّوا بريقهم وماتوا!

جاء فى الحديث الشريف: «والّذى نفسى بيده لا يقولها احَدٌ منكم إلّاغُصَّ بريقه» «۱».

۷- الغاية من الموت والحياة

إنّ حياة الإنسان محدودة على أيّة حال، والموت يرافق كل حياة، وأوّل سؤال يُطرح هنا هو: ما هى الغاية من الحياة والموت؟

وقد تحدّث القرآن المجيد فى الآية «السابعة» من آيات البحث عن هذا الأمر فقال:

«تَبارَكَ الَّذى بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ* الَّذِى خلَقَ المَوْتَ والحَيَاتَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ».

فالقرآن هنا يبيّن أولًا أنّ خلق الموت والحياة هما من دلائل قدرته الواسعة، ثم يضيف إلى ذلك: إنّ الهدف من هذا الخلق هو امتحان لأحسنِ الأعمال .. امتحان يهدف إلى تربية البشر وهدايتهم إلى منزلة القرب الإلهى.

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۸، ص ۸۵؛ وتفسير المراغى، ج ۲۸، ص ۱۰۰.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۰

ويستفاد من هذه الآية عدّة امور:

أولًا: إنّ الموت والحياة كلاهما مخلوقان، فإذا كان الموت بمعنى الفناء والعدم المطلق فإنّ كونه مخلوقاً سوف لا يكون ذا معنىً، والسبب فى ذلك هو أنّ الموت عبارة عن الانتقال من عالم إلى عالم آخر، لذا فهو أمرٌ وجودىٌ وبالامكان خلقه.

ثانياً: إنّ ذِكْرَ الموت قبل الحياة إمّا أن يكون للدلالة على موت الدنيا وحياة عالم الآخرة، وإمّا أن يكون للدلالة على المرحلة التى كان فيها الإنسان تراباً، فتعتبر الحياة بمعنى الخلق من التراب، وإمّا أن يدلّ على كليهما معاً.

ثالثاً: قد عُرِّفت الدنيا بأنّها ساحة اختبار .. ساحةٌ لانتخاب «أفضل الأفراد من حيث العمل»، ومن البديهى أنَّ شهادة النجاح فى هذا الامتحان تُمنَح فى الدار الآخرة.

رابعاً: إنّ المقياس الذى يعيّن قيمة الإنسان لدى اللّه تعالى هو العمل الصالح، ومن البديهى أيضاً أنّ الأعمال الصالحة تنبع من العقائد المخلصة والقلب المؤمن والنّية الخالصة، وذلك لأنّ العمل يكون دائماً انعكاساً لهذه الامور.

ومن المحتمل أن يكون هذا هو دليل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عند تفسير جملة «أَحْسَنُ عَمَلًا» فى أحد الأحاديث المروية عنه، قال صلى الله عليه و آله فى تفسيرها: «أَتَقَّكُمْ عَقْلًا وَأَشَدُّكُمْ لِلَّهِ خَوْفاً وَأَحْسَنُكُمْ فِيما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهى عَنْهُ نَظَراً، وَإِنْ كَانَ أَقَلُّكُمْ تَطَوُّعاً» «۱».

فمن هنا يتضح أنّ التفسيرات المختلفة التى فُسِّرت بها «أَحْسَنُ عَمَلًا» مثل: تفسيرها بالأعمال الخالصة أو الأكثر عقلًا أو الأكثر زهداً أو الأكثر ذِكراً للموت أو الأكثر تأهّباً لسفر الآخرة، يتضح أنّها مترابطة مع بعضها البعض، ولا تعتبر تفسيرات مختلفة، وذلك لأنّ هذه التفسيرات كالسيقان والأوراق والجذور والجذع والفواكه للشجرة الواحدة.

خامساً: إنّ القيمة الواقعية تختصّ ب «جوهر الأعمال» لا ب «كمّها وحجمها»، فرُبَّ عملٍ صغيرٍ ذى كيفية عالية من جهة الإخلاص والإيمان والمعرفة فاقَ أعمالًا كثيرة، لذا جاء فى احدى الروايات عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير أنّه «أَحْسَنُ عَمَلًا» قال: «لَيْس يَعْنى أَكثَرُ

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۱

عَمَلًا وَلكِنْ أَصْوَبُكُمْ عَمَلًا» «۱».

سادساً: إنّ الأفعال الإلهيّة هادفة ويصطلح عليها بأنّها «معللة بالاغراض»، على خلاف مايراه المغفَّلون من أنّ أفعال اللّه غير هادفة.

سابعاً: ومن أجل احتمال أن يشعر الإنسان بالوحدة والعجز فى ساحة الاختبار العظيمة، أو أن يُهيمن عليه اليأس بسبب العثرات وصف

اللَّه نفسه فی ذیل الآیـة بالعزیز الغفور وذلک للقضاء علی هذه المخاوف، فالآیة تقول للإنسان: إنّک لست وحیداً، فلا تخف من رهبة الاختبار، ولیکن قلبک مع اللَّه، فإنّ عثرت فالجأْ إلی عفو اللَّه وغفرانه.

۸ و ۹- مقدمات الموت وسکراته

یستفاد من مضامین آیات القرآن أنّ الموت تصاحبُهُ شدائد ومخاوف محیّرة، لذا قال تعالی فی الآیة الثامنة من آیات البحث: «وَجَاءَتْ سَکْرَةُ المَوْتِ بِالحَقِّ» فیقال للإنسان فی هذه الاثناء: «ذلِکَ مَا کُنْتَ مِنْهُ تَحِیدُ».

وکلمـة «سَـکْرَة» مأخوذة من مادة «سُـکر» وهی- علی حـدّ قول اللغویین- حالـة تَحُولُ بین الإنسان وعقله، وغالباً ما تسـتخدم فی موارد شرب الخمر، وقد استخدمت تارةً فی الحالات الناجمة عن شدّة الغضب أو الحالات الناجمة عن شدّة الحبّ الملتهب.

ولکن جـاء فی «مقاییس اللغـة» إنّ الأصل فی هـذه المادة بمعنی «الحیرة». کما فسّـرها آخرون ب «الشـدّة»، والظاهر هو أنّ جمیع هـذه المعانی تعود إلی معنیً واحد وإن کانت التعبیرات مختلفة.

إنّ ظهور حالة تشـبه حالة السُـکر عند الإحتضار إمّا أن تکون بسبب طبیعة الانتقال من عالم إلی عالم آخر مجهول من جهات مختلفة، کما هو الحال فی حالة الاضطراب عند المولود عندما ینتقل من عالم الجنین إلی عالم الدنیا، وإمّا أنْ یکون بسبب أجواء ما بعد

---

(۱) اصول الکافی، ج ۲، ص ۱۶، (باب الإخلاص) ح ۴.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۲

الموت ومواجهة تتائج الأعمال والخوف من العاقبة، وإمّا أن یکون بسبب فراق الدنیا والأقارب والامور التی تعلق قلبه بها.

ویستفاد من الروایات أنّ الأنبیاء والالهیین الذین لم تتعلق قلوبهم بحب الدنیا ولم یخافوا العاقبة، والذین یمتازون بطمأنینة متمیّزة بسبب ذلـک، إنّ هؤلاء أیضاً لهم نصیب من هـذه المعضـلات والشدائـد التی تنزل فی هـذه اللحظـة، کما جاء فی ذکر حالات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه عنـد آخر لحظات عمره المبارک، کان یضع یده فی إناءٍ فیه ماء ویمسح بیده علی وجهه ویقول «لا اله إلّااللَّه»، ثم یقول: «إنّ للموتِ سکرات» «۱».

وَرُوِی عن علی علیه السلام أیضاً أنّه قال: «إنّ للموت غَمَراتٍ هی أفظع من أن تستغرِق بصفةٍ أو تعتدل علی عقول أهل الدنیا» «۲».

ولو وضعنا کل هذا فی جهة، فمن جهة اخری یستفاد من الآیات أمرٌ آخر أیضاً وهو أنّ انفصال الروح عن الجسد یتّم بصورة تدریجیة، وهذا «بنفسه یزید من الهلع»، فإنْ کان الانفصال فوریاً ویتم خلال لحظة واحدة لکان تحمّله أسهل.

وقد جاء فی الآیة التاسعة من آیات البحث قوله تعالی «کَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِیَ* وَقِیلَ مَنْ رَاقٍ* وَظَنَّ أَنَّهُ الفِرَاقُ* وَالتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ* إِلَی رَبِّکَ یَومَئِذٍ الْمَسَاقُ».

وجاء نفس هذا المعنی فی قوله تعالی «فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الحُلْقُومَ* وَأَنْتُمْ حِینَئِذٍ تَنْظُرُونَ». (الواقعة/ ۸۳- ۸۴)

و «تراقی»: جمع «ترقوة» وهی العظام التی تحیط بأطراف الرقبـة، ووصول الروح إلی الحلقوم هو کنایـة عن اللحظات الأخیرة من العمر، ویحتمل توقف الأعضاء البعیدة عن القلب والمخ عند انفصال الروح قبل الأعضاء الاخری

وجملة «التفت الساق بالساق» من المحتمل أن تکون للدلالة علی ما ذُکر (ففی تفسیر مجمع البیان جعل توقف السیقان عن العمل من أحد تفاسیر هذه الجملة).

---

(۱) تفسیر روح البیان، ج ۹، ص ۱۱۸.

(۲) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۳

هـذا بالإضافة إلى أنّ وصول الروح الحلقوم هو تعبير آخر عن هذا المعنى ومن البديهى أنَّ جهاز التنفس يقف عن العمل عندما تصل الروح الحلقوم، وعندما يقف جهاز التنفس عن العمل يسبب فقدان الاوكسجين والاختناق ووقوف المخ عن العمل.

ففى هذه اللحظات يضطرب الحاضرون عند المحتضر ويصيبهم الجزع والفزع، ويبذلون قصارى جهدهم لإعادة الروح، إلّاأنّ مساعيهم تذهب هباءً، وبعد لحظات ينقطع المحتضر عن هذه الدنيا إلى الأبد، فيستقرّ جسده جانباً وكأنّه لم يكن واحداً من أهل هذه الدنيا.

والعجيب هو أنّ العبور من هـذه المراحل التى تطول مدّتها تارةً وتمرّ بسرعة تارةً اخرى هو امرٌ حتميّ يعمّ الجميع، فالملوك والجبابرة الظلمة سوف يموتون، كما سوف يموت المستضعفون والمظلومون كذلك، بل تكون لحظات الموت بالنسبة للجبابرة والظلمة أشدّ ألماً، وذلك لأنّ فراق الاموال والمناصب التى بذلوا أعمارهم للحصول عليها يكون صعبا وغضّ النظر عنها بالنسبة للذين تعلقت قلوبهم بالدنيا المادية أمرٌ عسير.

۱۰- تمنّى العودة والإصلاح

بعد اجتياز لحظات الموت، وبعد فراق الدنيا عندما تفتح العيون فى البرزخ ويشاهد الإنسان بعض الأسرار التى كانت محتجبة خلف ستار الغيب، ويرى نتائج أعماله بأمّ عينيه ويرى خُلُوَّ يديهِ من الحسنات وتراكُمَ الذنوبِ الثقيلةِ يُثقِلُ كاهِلهُ، فإنّه يندم بشدّه على ما فعل فى الماضى ويفكّر فى إصلاح ما اقترفه، هنا يلتفت إلى الملائكة الذين قبضوا روحه ويتوسّل إلى اللّه- كما جاء فى الآية العاشرة من آيات البحث- ويضج بالعويل ويطلب من اللّه العودة إلى دار الدنيا، قال تعالى: «حَتّى اذَا جَاءَ احَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى اعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ».

لكن السنن الإلهيّة لا تسمح لأحدٍ بهذا، فلا الصالحون يتمكنون من العودة لإضافة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۴

الصالحات إلى أعمالهم، ولا المسيئون يمكنهم العودة للتوبة والإصلاح، لذا يجاب عن هذا الطلب بحزم ويقال له: «كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا».

إنّ جميع المجرمين عندما يقعون بقبضة المُقتَصِّ يتوسلون بمثل هذه الأساليب، ولكن غالباً ما يعودون إلى تكرار أعمالهم فور ارتفاع أمواج البلاء عنهم.

وممّا يجلب الإنتباه هنا هو أنّ المخاطب فى كلمة «ربِّ»، هو الذات المقدّسة الإلهيّة، لكن المخاطب فى «ارجعون» جاء بصيغة الجمع.

يرى المفسرون: أنّ هـذا إمّا من أجل التعظيم لمقام الحق تعالى وإمّا أن يكون المخاطب فى الواقع هم الملائكة الذين يأتون أفواجاً لقبض الأرواح.

كما أنّ هذا المعنى محتمل أيضاً وهو أنّهم يتوسلون بساحة اللطف الإلهى أولًا، ثم يلتفتون إلى الملائكة يطلبون منهم العودة «۱».

وجاء ما يشابه هـذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى: «وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ انْ يَأْتِىَ احَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا اخَّرتَنِى الَى اجَلٍ قَرِيبٍ فَاصَّدَّقَ وَاكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

(المنافقون/ ۱۰)

وقد اجيبوا هنا بجواب سلبى أيضاً فى ذيل الآية، وبصورة اخرى قال تعالى: «وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً اذَا جَاءَ اجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

(المنافقون/ ۱۱)

كما يستفاد من الآية ۲۸ من سورة الأنعام أيضاً أنّ المجرمين يتحدّثون بهذا الحديث عندما يعرضون على جهنّم، وبما أنّ ذلك خارج عن موضوع البحث فإننا نعرض عن ذكره هنا.

ثمرة البحث:

اشارة

إتضحت بجلاء وجهة نظر القرآن الكريم فى مسألة الموت من أبعادها المختلفة، من

---

(۱) واحتمل صاحب تفسير الميزان هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ ضمير الجمع يدل على الجمع فى الفعل لا على الجمع فى الفاعل، فكانّ المحتضر يريد أن يقول «إرجع، ارجع» عدّة مرات فيأتى بكلمة ارجعوا بدلًا عن التكرار. (تفسير الميزان ج ۱۵، ص ۷۱) ولكن من البديهى لو جاز هذا فى اللغة لكان قليلًا جدّاً.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۵

مجموع ما جاء فى الآيات والعناوين العشرة المذكورة.

وممّا يجدر بالالتفات هو أنّ القرآن سلّط الاضواء فى جميع هذه الموارد على الآثار التربوية منها، وذلك لأنّ القرآن كتابٌ تربوى كامل، فهو يعنى بالجانب التربوى عند ذكر اصول وفروع الدين، والمسائل الاجتماعية والتاريخية وغيرها، أى أنّه يطرح الواقع بكلّ وضوح ويستخدمه للسيطرة على النفس الجموح، فى الدعوة نحو التقوى والورع وسلوك الطريق المؤدى إلى مرضاة اللّه بظرافة ودّقة، فما أجمل وألطف ظرافة ودقّة القرآن فى جميع هذه المجالات!

۱- الموت هو مدخل عالم البقاء

إنّ ما جاء فى البحوث المذكورة آنفاً مُعَزَّزاً بالآيات القرآنية، غالباً ما يستدلّ عليه بالطرق المنطقية الصالحة للاستدلال (باستثناء ما يرتبط بالعوالم الغيبية التى لا نمتلك طريقاً للوصول إليها، فقد رفع القرآن الستار عنها).

إنّ ممّا لاـ شك فيه هو أنّ نظرة الإلهيين والمؤمنين إلى المعاد والموت تختلف عن نظرة الماديين والمنكرين للمعاد اختلاف السماء عن الأرض، وهذان المنظاران هما اللذان يؤثران فى حياة الأفراد والمجتمعات البشرية، ويميزان هذين الفريقين عن بعضهما.

فالماديون يعتبرون الموت عالماً مظلماً ومعتماً جدّاً .. عالماً ينتهى معه كل شىء، وتختتم به جميع آمال ومساعى وجهود البشر، وَعلى هذا الأساس فإنّه ليس من العجب أن يخاف الإنسان المادى من الموت وينتابه الوهن، وتتبدل لديه حلاوة تلك التصورات عن الحياة إلى ما هو أكثر مرارةً من السم.

وليس من العجيب أن لا يقدموا على الإيثار والتضحية وإذا أقدموا على عملٍ كهذا فبتأثير ضغوط من قبل الآخرين أو بتأثير الضغوط الاجتماعية، وذلك لأنّه لا يوجد بعد الإيثار شىء يحل محلّه، أو بتعبير آخر إنّ الإيثار سوف لا يكون الهدف الأساسى لهؤلاء.

وليس من العجيب أن يعدّ هؤلاء الحياة أمراً تافهاً خالياً من المحتوى وذلك لأنّ الموت

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۶

إنْ كان نهاية لكل شىء فإنّ الحياة الدنيا والتى هى عبارة عن تكرار مجموعة من الأعمال الدنيئة، كالأكل والنوم والكسب

والاستهلاك لا يمكن أن تعتبر «هدفاً سامياً» لإرواء الروح الإنسانية، لذا فإنّ أفراداً يقدمون على الانتحار ويعتبرون ذلك اختياراً صحيحاً لانهاء هذا «التكرار والمكررات التافهة»! فهم يعتبرون ذلك عين العقل والمنطق، ويعتبرون استمرار حياتهم حماقة وذلّة وبلادة! بينما يرى الإلهيون الذين يؤمنون بالمعاد، الموت أشبه ما يكون بتولّد الجنين من بطن امّه.

فالجنين يموت فى الواقع، أى فقد الحياة فى بطن الأم، لكنّه بعد الولادة يضع قدمه فى عالم أوسع وأفسح، وإذا ما قيس بالمحيط الضيق والمظلم فى بطن الأم، الذى يعدُ عالماً مملوءً بالنعم والجمال.

فالموت هو ولادة اخرى أيضاً، والإنسان بواسطة الموت يخرج من محيط هذه الحياة الضيق إلى عالم أكثر اتساعاً.

ومن البديهى هو أنّ الجنين لو كان يعلم اين سيضع قدمه بعد الولادة لظل يعدّ اللحظات للخروج، ولما خاف أبداً من ذلك اليوم، ولما عد حياةَ الأجنّةِ حياةً تافهة، ولما عزّ عليه الإيثار فى سبيل الخروج.

وقصارى القول إنّ نظرة الإنسان للموت باعتباره «باباً ينفذ منه إلى عالم البقاء» تغيّر لون حياته وتمنحها لوناً جديداً وتعطيها مفهوماً يسكن إليه القلب وتخرجه من الحيرة والكآبة والشعور بالتفاهة واللاهدفية التى تقصم آلامها الظهر.

۲- لماذا نخاف الموت؟

اتّضح ممّا قلناه آنفاً: أنّ الخوف من الموت لا معنى له بالنسبة لمن يؤمن بالمعاد، ويستثنى من ذلك من كانت صحيفة أعماله سوداء ومظلمة، الذين يخافون العقوبات الإلهيّة

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۷

التى سوف يُبْتَلَوْنَ بها فى الدار الآخرة، وبتعبير آخر: إنّ من يخاف الموت هم ثلاث فرق:

الفرقة الاولى: وهم من يعتبرون الموت أمراً يساوى الفناء والعدم، فالعدم مرعب، والفقر والمرض والضعف والعجز هى من عوامل الرعب،؟ لأنّها بمعنى عدم الثروة وعدم السلامة وعدم التمكّن وعدم القدرة، فالإنسان هو من سنخ الوجود، والوجود يأنس بالوجود كما يأنس الحديد بالمغناطيس، لكنّه لا يسانخ العدم ولا يأنس به، فما عليه إلّاأن يهرب منه.

لكننا إذا اعتبرنا الموت سُلَّماً للصعود إلى «وجودٍ أرقى وكنّا نعتبر العالم الذى يلى الموت لا يقاس بهذا العالم من جهة السّعة والنعيم، وكنّا نعدّ الدنيا سجناً والموت بمثابة التحرر من هذا السجن، وإذا شبّهنا الحياة بالقفص بالنسبة إلى طائر والموت بانفتاح هذا القفص وتحليق الطائر، فسوف لن يصبح الموت أمراً مرعباً، بل سوف يكون فى بعض الموارد محبوباً ومستساغاً، قال أحد الحكماء:

مُتْ أيها الحكيمُ واقلع عن مثل هذه الحياة فإنّك إن مُتَّ فسوف تخلد فيسافر طائر روحك إلى العُلا عندما تحررها من أسرِ الطمع

وقال شاعر آخر:

اننى طائر جنّة الملكوت، ولستُ من عالم التراب لقد صنعوا من جسمى قفصاً قصير الامد إنّ أسعد الأيّام هو ذلك اليوم الذى أطير به نحو الحبيب فترفّ جناحاىَ بأمل الوصول إلى دياره وأخيراً يستقبل شاعر آخر الموت بصدرٍ رحب، فيدعوه إليه قائلًا:

إن كان الموت إنساناً لقلت له أقبل إلىّ لأضّمه إلى صدرى بشوق شديد كما أحصل منه على روحٍ خالدة ويحصل منّى على جنَّةٍ خلقة ومن الواضح هو أنّ تصوراً كهذا عن مسألة الموت يطرد الخوف والهلع عن الإنسان، كما أننا لا نقول إنّه ينتحر، لأنّ هذه الحياة هى وسيلة لجمع رأسمال أكثر ولكسب الزاد وتهيئة الراحلة للإعداد للسفر نحو ذلك العالم، بل نقول: إنّه يبسط جناحيه عندما ينفصل منها، ويذهب إلى استقبال شيٍ يمدّه بحياة جديدة بكل شهامة وشجاعة.

الفرقة الثانية: وهم الذين يؤمنون بالحياة بعد الموت لا يعتبرون الموت فناءً وعدماً أبداً، لكنهم بسبب اسوداد صحائفهم يهربون من الموت، لخوفهم من العقوبات التى ستحل بهم بعده، والتى اعدّت لهم فى المحشر، فهم يهربون منها كما يهرب المجرمون الذين

يتمنون دائماً تأجيل يوم المحاكمة، والبقاء فى السجن من دون محاكمة!

ومن حق هؤلاء أيضاً أن يخافوا من الموت، فالخلاص من السجن بنفسه أمرٌ حسن، ولكنّه ليس كذلك بالنسبة لمن يخرجُ من السجن إلى خشبة الاعدام.

الفرقة الثالثة: وما يجدر بالالتفات أيضاً هو أنّ حبّ الدنيا والتعلّق بها والحبّ الشديد للمال والمنصب والمظاهر الاخرى تجعل الإنسان يخاف الموت .. الموت الذى يُخرج جميع هذه الامور من قبضته.

أمّا بالنسبة لِمنْ لا يعتبرون الموت فناءً ولم تسودّ صحائف أعمالهم، ولم تربطهم بالدنيا المادية جميع العلائق، فلا داعى لأن يخاف هؤلاء الموت حتّى لو كان بأقّل درجات الخوف.

۳- أسباب الخوف من الموت فى نظر الروايات

ذكرت الروايات فى مجال الخوف من الموت والفزع منه مسائل لطيفة أيضاً وهذه المسائل تتّسم بالاسلوب التربوى، وهى كما يلى:

۱- سأل رجلٌ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام فقال: يا ابن رسول اللّه! ما بالُنا نكره الموت ولا نحبُّهُ؟ فقال عليه السلام: «إنّكُم أخربتُم آخرتكم وعمرّتم دنياكم، وأنتم تكرهون النَّقلة من

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۴۹

العمران إلى الخراب» «۱».

۲- قال الإمام الصادق عليه السلام: جاء رجلٌ إلى النبى صلى الله عليه و آله وسأل: مالى لا احبُّ الموت؟ فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أَلَكَ مالٌ؟» فقال الرجل: بلى فقال صلى الله عليه و آله: «فقدّمته؟» فقال الرجل كلّا، فقال صلى الله عليه و آله: «فمن ثَمَّ لا تحبُّ الموت» «۲».

۳- وجاء فى رواية اخرى عن الإمام الهادى عليه السلام (على بن محمد) أنّه ذهب لعيادة أحد أصحابه فوجده يطيل البكاء ويتضجّر من الموت، فقال له الإمام عليه السلام: «يا عبد اللّه تخافُ مِنَ الموت لأنّك لا تعرفه، ثمّ شبّه الإمام عليه السلام الموت بحمّامٍ نظيف يدخله الإنسان الوسخ فيغتسل، ويلقى جميع همومه وآلامه فيعمّه السرور والفرح» «۳».

۴- قال الإمام على بن الحسين زين العابدين عليه السلام: «لمّا اشتدَّ الأمرُ بالحسين بن على بن أبى طالب ... كان الحسين وبعضُ من معه تُشْرِقُ ألوانهم وتهدأ جوارحهم وتسكن نفوسُهُم، فقال بعضهم لبعضٍ: انظروا إليه أنّ لا يبالى بالموت» «۴»!

إنّ هذه الأحاديث التى وردت فى بيان أسباب الخوف من الموت، بدرجة من الوضوح بقدر الكفاية ولا نرى هناك ضرورة لشرحها.

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۶، ص ۱۲۰، ح ۱۸.

(۲) المصدر السابق ۹.

(۳) معانى الإخبار، ص ۲۹۰، ح ۹ (باب فى معنى الموت).

(۴) المصدر السابق، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۱

۲- البرزخ

تمهيد:

«البرزخ»: هو الشيء الحائل بين شيئين، ثم توسّع هذا المعنى واطلق على كلّ ما يحول بين الشيئين أو بين المرحلتين «۱».

والمراد من «البرزخ» هنا هو العالم الذى يتوسط بين الدنيا وعالم الآخرة، أى أنّ الروح بعد انفصالها عن الجسم وقبل عودتها إليه ثانيةً يوم القيامة سوف تبقى فى عالم يتوسط العالمين ويطلق عليه اسم البرزخ.

والأدلة الرئيسية التى يمكن بواسطتها إثبات وجود عالم البرزخ هى الأدلة النقلية (الآيات والروايات) وإنْ كان بالإمكان إثبات هذه المسألة بالسبل العقلية أو الحسيّة (عن طريق احضار الروح) أيضاً.

وبالرغم من عدم تعرّض القرآن بكثرة لذكر مسألة البرزخ ومروره عليها مرّ الكرام، إلّا أنّه فى نفس الوقت له تصريحات وتعابير واضحة فى هذا المجال وردت خلال آيات متعددة، والتى يمكنها أن تبيّن لنا القوانين العامّة المتعلقة بعالم البرزخ.

بعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

۱- «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى اعْمَلُ صَالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (المؤمنون/ ۹۹- ۱۰۰)

---

(۱) جاء فى الآية ۲۰ من سورة الرحمن حول البحر الذى يضم ماءً عذباً وماءً أجاجاً فى آن واحد: بينهما برزخٌ لا يبغيان.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۲

۲- «وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (آل عمران/ ۱۶۹- ۱۷۰)

۳- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

(البقرة/ ۱۵۴)

۴- «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ اشَدَّ الْعَذَابِ* وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ». (المؤمن/ ۴۶- ۴۷)

۵- «مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ اغْرِقُوْا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوْا لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً». (نوح/ ۲۵)

۶- «قِيلَ ادْخُلِ الجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ». (يس/ ۲۶- ۲۷)

۷- «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ».

(الروم/ ۵۵)

۸- «قَالُوْا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ». (المؤمن/ ۱۱)

جمع الآيات وتفسيرها

ماهية البرزخ وخصوصياته:

تحدثت الآية الاولى عن وضع الكفّار والظلمة والمجرمين، قال تعالى: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ* لَعَلِّى اعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ»، ولكنّه سرعان ما يواجه بجواب سلبى مدعوم بالأدلة والبراهين فيقال له: «كَلَّا إِنَّها كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا» ثم

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۳

يضاف إلى الجواب: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ».

فبداية الآية تشير إلى المنزل الأول أى «الموت» وذيلها يشير إلى المنزل الثانى أى «البرزخ».

وبالرغم من اصرار البعض على تفسيرهم البرزخ هنا بمعنى الحائل الذى يحول بين الإنسان ودرجات الجنّة العُليا، إلّاأنّ جملة «إلى يوم يبعثون» تعتبر قرينة واضحة، على أنّ عالم البرزخ هو مرحلة تسبق يوم القيامة، وتقع بعد الموت.

كما فسّر البعض البرزخ أنّه بمعنى المانع الذّى يحول بين الإنسان والعودة إلى الدنيا، لكنّ هذا المعنى أيضاً لا يتلاءم مع ذيل الآية وهو التصريح ببقاء هذا البرزخ إلى يوم القيامة، وبهذا أثبتت الآية المذكورة بوضوح وجود عالم يتوسط بين الدنيا والآخرة.

وكلمة «وراء» تأتى أحياناً بمعنى «الخلف» وأحياناً اخرى بمعنى «الأمام»، وذلك لأنّ هذه الكلمة من مادة (ورى على وزن (سعى وهى بمعنى الاخفاء، فمن يقف إلى أحد جانبى الجدار مثلًا يعدّ الطرف الآخر الذى يخفى عليه «وراء» بالنسبة له، بناء على هذا فالإنسان فى أىّ جهة كان من الجدار يعدّ الطرف المقابل له «وراء» بالنسبة له «۱».

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «اتخوَّف عليكم من البرزخ». «۲» فسأله الراوى: ما البرزخ؟

فقال عليه السلام: «القبرُ منذ حينَ موتهِ إلى يوم القيامة» «۳».

وجاء فى حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «إنّ القبر روضةٌ من رياض الجنّة، أو حفرةٌ من حُفَر النيران» «۴».

---

(۱) مفردات الراغب، مادة (ورى .

(۲) منازل الآخرة، ص ۱۶۱.

(۳) تفسير البرهان، ج ۳، ص ۱۲۰، ح ۲ و ۱.

(۴) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۴

وفى الآية الثالثة توجّه تعالى بالخطاب إلى جميع المؤمنين وقال بوضوح: «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللَّهِ امْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلكِنْ لَاتَشْعُرُونَ».

فكلا هاتين الآيتين هما من الأدلة الواضحة على وجود عالم البرزخ (وإن كان الحديث يقتصر على ذكر الشهداء)، وذلك لأنّهما تحدثتا عن حياة الشهداء بل حتى عن رزقهم واستقرارهم عند ربّهم.

والعجيب هو أنّ بعض المفسرين ومن دون أن يلتفتوا إلى العبارات الواردة فى الآيات اللاحقة لها والتى تتحدّث جميعها عن حياة الشهداء (الحياة بالمعنى الواقعى لهذه الكلمة) حملوا الحياة هنا على معناها المجازى، مثل بقاء أسمائهم وآثارهم، أو بقاء هدايتهم وطاعتهم ومذهبهم، أو بعثهم من القبور واحيائهم يوم القيامة!

فهل غفلوا عن وصف القرآن لهم بأنّهم عند ربّهم؟

أم غفلوا عن إرزاقهم؟

أم غفلوا عن وصفهم فرحين بما آتاهم اللَّه من فضله ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون؟

فكيف تتلائم جميع هذه التعابير مع المعنى المجازى؟

هذا بالإضافة إلى قوله تعالى بل احياءٌ ولكن لا تشعرون، فإنْ كان معنى الحياة هو بقاء الاسم والمنصب والهداية والمذهب فإنّ هذه الامور قابلة للإدراك.

والظاهر هو أنّ هؤلاء المفسرين لم يتمكّنوا من إدراك حياة البرزخ بدقّة، فتوسّلوا بالخرافات بعد ما غابت عنهم الحقيقة، لكنّ الرازى صرّح فى تفسيره بالقول: إنّ أكثر المفسرين على أنّ الحياة هنا هى الحياة الواقعية «۱».

وعلى الرغم من ذكر المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان لاربعة تفاسير للآية، إلّاأنّه رجّح التفسير الأول الذّى فسّر الحياة فى هذه الآية

بالحياة الحقيقية، واعتبره هو الصحيح من بينها «۲».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۴، ص ۱۳۵.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۲۳۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۵

وهناك روايات كثيرة فى هذا المجال طبعاً سوف نُشير إليها لاحقاً- إن شاءاللَّه-.

ومن العجائب الاخرى هو ما نُقل فى تفسير «الميزان» عن بعض المفسرين الّذين اعتبروا الآية مختصة ب «شهداء بدر» وادّعوا بأنّها لا تشمل جميع الشهداء! (يجب الالتفات إلى أنّ المفسرين صرّحوا بأنّ الآية الاولى نزلت فى شهداء احُد والثانية فى شهداء بدر «۱»، ولكن على أيّة حال فإنّ أسباب النزول لا تحّد من مفهوم الآيات مهما كان المورد، فالآية إذن تشمل جميع الشهداء بصورة مطلقة).

وما يلفت الانتباه هو أنّ المرحوم العلّامة الطباطبائى بعد أن نقل هذا التفسير أضاف: «إنّ بعض المفسرين فسّروا الآية السابقة لهذه الآية (أى الآية ۱۵۳ من سورة البقرة) الّتى تأمر بالاستعانة بالصبر» «۲».

ولكن على أيّة حال فإنّ الآية تحدّثت عن الشهداء فقط، إلّاأنّها لم تنفِ غيرهم، من هنا يطرح هذا السؤال وهو: إن كانت حياة البرزخ تعمّ جميع البشر فما هو فضل الشهداء على الآخرين؟!

والجواب على هذا السؤال واضح، وهو أنّ فضلهم على غيرهم هو فى كيفية حياتهم ..

الحياة فى جوار رحمة اللَّه والتنعّم بأنواع النعم والرزق الإلهى، لكنّ حياة البرزخ للآخرين لا تشتمل على هذه البركات طبعاً.

أمّا الآية الرابعة فهى فى الواقع تمثّل النقطة المقابلة لما جاء فى آيات الشهداء، وذلك لأنها تتحدّث عن عذاب «آل فرعون» فى البرزخ، قال تعالى: «وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ»، ثم يُبيّن ماهية هذا العذاب بقوله: «النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِّياً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ اشَدَّ الْعَذَابِ»، ومِنَ الواضح هو إنَّ النّار التى ذُكرت فى

---

(۱) وقال البعض أيضاً: إنّ الآية المتعلقة بسورة آل عمران نزلت فى شهداء بدر بينما نزلت الآية المتعلقة بسورةالبقرة فى شهداء بدر واحد معاً.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱، ص ۳۵۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۶

الآية وَالتى يُعرض عليها آل فرعون صباحاً ومساءً هى نار البرزخ، وذلك لأنّ ذيل الآية تحدّث عن عذابهم يوم القيامة بصورة مستقلة، لذا فقد فسّر أغلب المفسرين هذه الآية بأنّها تشير إلى عالم البرزخ وعذاب القبر.

ومن الجدير بالالتفات هو أنَّ الآية عندما تحدّثت عن عذاب البرزخ لآل فرعون قالت:

«النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِّياً»، لكنها عندما تحدثت عن عذابهم فى الآخرة قالت:

«ادْخِلُوْا آلَ فِرْعَوْنَ اشَدَّ الْعَذَابِ».

ويستفاد من اختلاف هذين التعبيرين (العرض والادخال) بأنّ المراد من النار هى نفس نار البرزخ، إلّاأنّهم فى البرزخ يشاهدونها عن بُعد فيعمّ القلق والهم وجودهم، لكنهم يشاهدونها يوم القيامة عن قرب بواسطة الدخول فيها، فهذه العقوبات تحلّ بهم فى البرزخ صباحاً ومساءً، بينما تكون مستمرة ومن دون انقطاع فى يوم القيامة.

وقد رُوىَ عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى هذا المجال ما يؤيد هذا المعنى بكلّ وضوح، قال صلى الله عليه و آله: «إنَّ أَحَدَكُمْ إذا ماتَ عُرِضَ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بالْغَداةِ وَالْعَشِيِّ فانْ كانَ مِنْ أهْلِ الْجَنَّةِ، فَمِنْ الجَنَّةِ وَإنْ كانَ مِنْ أهْلِ النارِ فَمِنَ النّارِ، يُقالُ هذا مَقْعَدُكَ

حِيْنَ يَبْعَثُكَ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ» «۱».

ويستفاد من هذه الروايات أنّ الأمر لا يختصّ بآل فرعون، بل يشمل الجميع.

وهل يعذب أو ينعّم أهل البرزخ عن طريق المشاهدة لجهنم أو الجنّة فقط؟ أم يكون لهذين تأثيرٌ مادّيٌ عليهم أيضاً؟ كما لو مرّ الإنسان بالقرب من حفرة من النّار فإنّ النار تحرق وجهه، أو إذا مرّ بالقرب من بستان عامرة خضراء فيدبّ النشاط فيه أثر نسيمها المنعش العطر، أم يثاب أو يعاقب بكلا الوجهين؟ (الروحى والجسمى، والمراد هنا هو الجسم المثالى طبعاً).

الاحتمال الثالث أقوى (فتأمّل).

كما يجدر الالتفات إلى هذه المسألة أيضاً وهى أنّ ظاهر الآية يدل على أنّ آل فرعون

---

(۱) رُوِىَ هذا الحديث فى مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۶ عن صحيح البخارى ومسلم فى تفسير ذيل الآية مورد البحث.

يعرضون على النار، لكن بعض المفسرين قالوا: إنّ هذا كناية عن عكس ذلك الأمر، أى أنّ النار هى التى تعرض عليهم، كما هو الحال فى «عرضتُ الناقة على الحوض» المراد منه عرض الماء على الناقة. (وما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه و آله يؤيّد هذا المعنى أيضاً، وذلك لأنّه صلى الله عليه و آله قال: «إذا ماتَ عُرِضَ عليه مقعُدهُ من الجنّة أو من النار بالغداة والعشىّ».

وتحدّثت الآية الخامسة عن «مؤمن إل يس» (الرجل المؤمن الّذى ورد ذكر قصته فى سورة «يس»، فقد نهض هذه الرجل لدعم رُسُل المسيح عليه السلام الذين بعثوا إلى مدينة «انطاكية» ودعا الناس ونصحهم باتباع هؤلاء الرُسُل، لكن هؤلاء القوم المعاندين الفّجار لم يكتفوا بعدم الاكتراث بنصحه فحسب، بل ثاروا عليه وقتلوه). قال تعالى: «قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ* بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُكْرَمِينَ».

ومن الواضح هو أنّ هذه الجنّة ليست هى جنّة القيامة، بل هى جنّة البرزخ، لأنّ مؤمن إل يس تمنّى هنا لو كان قومه الذين هم فى هذه الدنيا يعلمون بعاقبته، ويعلمون بما غفر له ربّه وجعله من المكرمين!

قال المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان»: «إنّ هذه الآية تشير إلى نَعِم القبر (البرزخ)، لأنّ مؤمن إل يس قال هذا عندما كان قومه احياءً، فإذا امكننا تصوّر وجود النعيم فى القبر، فإنّ تصوّر العذاب سوف يكون ممكناً أيضاً» «۱».

وجاء فى كثير من التفاسير أن هذا الرجل المؤمن يدعى ب «حبيب النّجار» والسبب فى اطلاق «مؤمن إل يس» عليه فى بعض الروايات «۲» فالظاهر هو لأنّهُ كان رجلًا مؤمناً بالإضافة إلى ذكره فى سورة «يس»، لذا قال البعض: إنّ «إل» هنا زائدة والمراد هو «مؤمن يس» «۳».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۴۲۱.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۷۶ نقلًا عن تفسير در المنثور.

(۳) تفسير روح الجنان، ج ۹، ص ۲۷۰ (تعليقة المرحوم العلّامة الشعرانى).

والآية السادسة تصف وضع المجرمين يوم القيامة، قال تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ»، ثم يضيف: «كَذلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ».

وعلى الرغم من أنّ هذه الآية لم تتحدث عن محل اللبث، إلّاأنّ الآية اللاحقة أشارت إلى أنّ المراد من محل اللبث هو البرزخ، لأنها تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ اوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ وَلكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ».

وهذا التعبير يشير إلى أنّ مكث هؤلاء يطول أمده إلى يوم القيامة، ولا يصح هذا إلّافى البرزخ.

وقد انتخب هذا التفسير عدد كبير من المفسرين الكبار، وهو أنّ الآية تشير إلى حياة البرزخ، لكنّ البعض الآخر يرون أنّ الآية تشير إلى اللبث الحاصل فى الدنيا، الذى يراه المجرم قصيراً جدّاً كانصرام ساعة، وادّعى بعضهم بأنّ هذه الآية تدل على هذا المطلب، وهو ما جاء فى قوله تعالى: «كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلّا عَشِيَّةً اوْ ضُحَاهَا»!

(النازعات/ ۴۶)

لكن لا يوجد فى هذه الآية أىّ دليل واضح على أنّ المراد من اللبث هو اللبث فى الدنيا، بل يحتمل أيضاً دلالتها على أنّ اللبث هو فى عالم البرزخ.

وإذا تجاوزنا ذلك فإنّنا لا يمكننا أن نفسّر الآية إلّابدلالتها على «البرزخ»، وذلك بالاستناد إلى ما ذكرته الآية من أنّ يوم القيامة هو اليوم الذى ينتهى فيه اللبث.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: لماذا يُعدّ هؤلاء الزمان الطويل لعالم البرزخ قصيراً وقليلًا؟

ويتضح الجواب على هذا السؤال من خلال ذكر مقدمة، وهى: عندما يُوعد الإنسان بوعد جميل وشيّق، فإنّ نار الشوق للوصول إلى تلك اللحظة سوف تستعر فى قلبه، فتمر الساعات والدقائق عليه ببطءٍ شديد، فتمرّ عليه الساعة كأنّها أيّام أو سنين، وعلى العكس من ذلك عندما يتوعّد العقاب الشديد فإنّه يودّ لو تتوقف عجلات الزمان، لكنْ تمرُّ عليه الأيّام والشهور بسرعة فى نظره وكأنّها لحظات أو دقائق لا أكثر، وهذا هو حال المجرمين

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۵۹

يوم القيامة!

وبالرغم من أنّ العذاب الإلهى لا يتخطّاهم فى عالم البرزخ، لكن اين عذاب البرزخ من عذاب يوم القيامة؟!

ويوجد احتمال آخر أيضاً وهو أن يعتبر البرزخ كالنوم بالنسبة للبعض بعد ابتداء عذاب القبر، ومن البديهى أن لا يعلم هؤلاء مقدار مدّة لبثهم عندما تقوم القيامة، التى هى بمنزلة النهوض من النوم.

وبما أنّ جميع الحقائق لا تنكشف أسرارها للإنسان فى البرزخ، فلا عجب من خفاء هذه الامور عليهم، لكنّه مِنَ الطبيعى أن تنكشف أسرار الحقائق بجلاء يوم القيامة الذى هو «يوم البروز».

وفى الآية السابعة من آيات البحث جاء ما يرد على لسان الكفار عند مثولهم بين يدى اللَّه يوم القيامة، قال تعالى: «قَالُوْا رَبَّنَا امَتَّنَا اثْنَتَينِ وأَحْيَيتَنَا اثْنَتَينِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ».

تدل هذه الآية على وجود عالم البرزخ من جهة أنّ تصوّر إماتَتَيْنِ وإحياءَيْنِ غيرُ ممكنٍ، إلّا إذا سلّمنا بوجود عالم البرزخ، وهما الموت فى هذه الدنيا ثم حياة البرزخ ثم الحياة فى عالم الآخرة.

وهذا من أجل أنّ جميع البشر وحتّى الملائكة والجِنّ وأرواح الأموات التى هى على هيئة أجسام مثالية فى عالم البرزخ يموتون جميعاً عند انتهاء هذا العالم، أى عند نفخ الصور بمقتضى قوله تعالى: «فَصَعِقَ مَنْ فى السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فى الأَرْضِ». (الزمر/ ۶۸)

ولا يبقى حيٌّ موجوداً فى ذلك اليوم سوى اللَّه تعالى إذن، هناك موت بعد حياة البرزخ أيضاً.

وأمّا حياة عالم الدنيا فهى خارجة عن المراد، وذلك لأنّ الآية الشريفة تحدثت عن

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۰

حياتين بعد الموت، لا عن حياة الدنيا بعد الموت.

لكن البعض احتمل أن يكون المراد من الموت الأول هو ما قبل وجود الإنسان فى الدنيا، أى عندما كان تراباً، بناءً على هذا الاحتمال سوف تكون الحياة الدنيا هى الحياة الاولى أيضاً، والموت الثانى هو الموت الحاصل عند انتهاء هذا العالم، والحياة الثانية هى حياة يوم

القیامة، فیکون هذا شبیه ما جاء فی قوله تعالی: «کَیْفَ تَکْفُرُونَ بِاللَّهِ وَکُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْیَاکُمْ ثُمَّ یُمِیتُکُمْ ثُمَّ یُحْیِیکُمْ ثُمَّ إِلَیْهِ تُرْجَعُونَ». (البقرة/ ۲۸)

لکنّه من الواضح هو أنّ التعبیر ب «الموت الأول» علی هذا التفسیر یکون صحیحاً، إلّاأنّ التعبیر ب «الإماته» غیر صحیح، وبتعبیر آخر فإنّ الإنسان عندما کان تراباً فهو میّت لا أنّ اللّه اماته، لأنّ الإماتة یجب أن تکون بعد الحیاة، بناءً علی هذا لا ینطبق تعبیر الآیة إلّاعلی التفسیر الأول (أی علی وجود عالم البرزخ)، إلّاإذا اعتبرنا الإماتة جاءت هنا بمعناها المجازی، لکن هذا لا یجوز عند غیاب القرینة.

کما استدل بعض المفسرین بهذه الآیة علی حیاة القبر أیضاً .. تلک الحیاة التی تنتهی بعد مدّة وجیزة بالموت (وفی الواقع أنّ هذه الحیاة هی أیضاً من أنواع الحیاة المؤقتة فی البرزخ).

وهناک کلام بین العلماء فی کیفیة الحیاة فی القبر، فهل هی حیاة بالجسم المادّی أم بالجسم المثالی فی عالم البرزخ؟ أم بجسم خلیط من المادة والمثال؟ وسوف نتحدّث لاحقاً عن هذا الموضوع بإذن اللّه.

ثمرة البحث:

اتّضح إلی حدٍ کبیر من خلال الآیات السبع المذکورة وجهة نظر القرآن المجید حول عالم البرزخ (العالم الذی توسّط بین هذه الدنیا وعالم الآخرة).

ولو فرضنا وجود الخلاف فی بعض هذه الآیات، فإنّ وضوح البعض الآخر منها (کالآیات الاولی سوف لن یبقی أیَّ مجالٍ للشک والترديد.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۱

هذا بالإضافة إلی أنّ استعمال «التوفّی» (قبض الأرواح) فی الموت فی آیات متعددة من القرآن، یعتبر دلیلًا ملموساً وواضحاً علی وجود عالم البرزخ. وکل ما هنالک هو عدم ذکر الکثیر من جزئیات عالم البرزخ، ولم یُشَرْ إلّاإلی أصل وجود هذا العالم مع شیء من مکافآت المحسنین وعقوبات المسیئین، ولکن الروایات أشارت إلی تفاصیل کثیرة فی هذا المجال وسوف نتعرّض إلی ذکر قسم منها.

توضیحات

۱- البرزخ فی الأحادیث الشریفة

ورد ذکر عالم البرزخ فی الأحادیث الشریفة بصورة واسعة جدّاً، وقد بلغ حجم هذه الروایات من الکثرة ممّا جعل المرحوم الخواجة الطوسی أن یعدّها فی کتابه تجرید الاعتقاد من المتواترات، فی قوله «وعذابُ القبر واقعٌ بالإمکان وتواتر السمع بوقوعه».

ونشیر هنا إلی نماذج واضحة من هذه الروایات:

۱- جاء فی الحدیث: «القبرُ إمّا روضةٌ من ریاض الجنّة أو حفرةٌ من حفر النیران».

رواه «الترمذی» فی «صحیحه» عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، کما رواه المرحوم «العلامة المجلسی» فی «بحار الأنوار» فی موضعٍ عن أمیر المؤمنین علی علیه السلام وفی موضع آخر عن الإمام علی بن الحسین علیه السلام «۱».

۲- وجاء فی المشهور عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله: أنّه عندما ألقوا بأجساد قتلی مشرکی مکّه، الذین قتلوا فی غزوة بدر فی أحد الآبار وقف صلی الله علیه و آله: علی البئر وقال: «یا أهل القَلیب هل وجدتُم ما وعَدَ ربُّکُم حقاً؟ فإنّی وجدتُ ما وعدنی ربّی

حقاً. قالوا، يا رسول اللّه هل يسمعون؟ قال ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم: ولكنَّ اليوم لا يجيبون» «۲»!

---

(۱) صحيح الترمذى، ج ۴، كتاب صفة القيامة، باب ۲۶، ح ۲۴۶۰؛ بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۱۸، و ص ۲۱۴.

(۲) كنز العمال، ج ۱۰، ص ۳۷۷، ح ۲۹۸۷۶. والقليب: بمعنى البئر.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۲

وروىَ هذا المضمون بتعابير اخرى فى روايات متعددة، منها ما جاء فى الحديث: نادى رسول اللّه صلى الله عليه و آله عدداً من المشركين بأسمائهم وقال: يا اباجهل يا عتبة يا شيبة يا أُميّة! هل وجدتُم ما وعد ربُّكم حقاً؟ فإنّى وجدتُ ما وعدنى ربّى حقّاً، فقال عُمَرُ: يا رسول اللّه أما تُكلِّم من أجسادٍ لا أرواح فيها؟ فقال: «والّذى نفسى بيده ما أنتم باسمع لِما اقولُ منهُم غير انّهم لا يستطيعون جواباً» «۱»!

إنّ هذه الأحاديث لا تدل على وجود عالم البرزخ فحسب بل تدل على وجود نوع من الحياة بعد موت الجسم، بل وتدلّ على أنّهم لهم نوع من الارتباط بهذا العالم أيضاً، فهم يسمعون بعض الحديث على الأقل.

۳- جاء فى نهج البلاغة عن أمير المؤمنين على عليه السلام: أنّه عندما عاد من حرب صفين وقف على مقبرة تقع خلف باب الكوفة وتحدث إلى الأموات بهذه الكلمات: «أنتم لنا فرطٌ سابقٌ ونحن لكم تبعٌ لاحقٌ، أمّا الدورُ فقد سُكِنَت وأمّا الأزواج فقد نُكِحَت وأمّا الأموالُ فقد قُسِّمَت، هذا خبرُ ما عندنا فما خبرُ ما عندكم»؟

والتفت إلى أصحابه وقال: «أمّا لو اذن لهم فى الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى «۲».

وهذا الحديث أيضاً يدلّ على أنّه بالإضافة إلى أنّ عالم البرزخ يتحقق بالنسبة للأموات فإنّ للموتى نوعاً من الارتباط مع هذا العالم أيضاً.

۴- وهناك خطب متعددة فى نهج البلاغه أيضاً تحدثت عن البرزخ بوضوح، فقد جاء فى إحدى خطبه عليه السلام حيث ذكر الإمام عدداً من السابقين وقال: «اولئِكم سلفُ غايتكُم ...

سلكوا فى بطون البرزخ سبيلًا» «۳».

وجاء فى خطبة اخرى عنه عليه السلام عندما كان يصف «أهل الذكر»: «فكأنّما قطعوا الدُّنيا إلى الآخرة وهم فيها، فشاهدوا ما وراء ذلك، فكأنّما اطلعوا عيوب أهل البرزخ فى طول الاقامة

---

(۱) كنز العمال، ج ۱۰، ص ۳۷۶، ح ۲۹۸۷۴.

(۲) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۳۰.

(۳) المصدر السابق، الخطبة رقم ۲۲۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۳

فيه» «۱».

۵- وجاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «واللّه ما أخاف عليكُم إلّا البرزخ». (اراد بهذا أن يشير إلى أنّ المؤمنين تشملهم شفاعة النبى صلى الله عليه و آله، والأئمّة المعصومين عليهم السلام يوم القيامة، لكنّ محاسبة البرزخ تختلف) «۲».

۶- وَرُوى عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً أنّه قال: «البرزخُ القبرُ، وهو الثواب والعقاب بين الدُّنيا والآخرة» «۳».

۷- وفى الدر المنثور عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «حينما تقبض روحُ المؤمن يستقبله عبادُ اللّه الذين شملتهم رحمتهُ ويقولون: أهلًا بك أيها الضيف الجديد، استرح لأنك تعبت كثيراً، ثم يسألونه عن بعض معارفهم واصدقائهم، وحينما يلتفتون إلى أن

بعضهم قد فارق الحياة قبل هذا الضيف الجديد، يقولون (إنّاللّه وإنا إليه راجعون)، لقد أخذوهُ إلى الجحيم»، (ولذا لا أثر له هنا) «۴».

۸- وهناك روايات كثيرة تشير إلى فرح أرواح المؤمنين إثر أعمال الخلف الصالحة، ومن جملة هذه الروايات ما روى عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الميّت ليفرحُ بالترحُّم عليه والاستغفار له كما يفرحُ الحيّ بالهدية» «۵».

وروى هذا المضمون عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «إنّ هدايا الأحياءِ للأمواتِ الدّعاء والاستغفار» «۶».

۹- وروى فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «مَنْ أَنكَرَ ثلاثة أشياء فليس

---

(۱) المصدر السابق، الخطبة رقم ۲۲۲.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۵۵۳، ح ۱۲۰.

(۳) المصدر السابق، ح ۱۲۲.

(۴) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۴۹۴ نقلًا عن الدّر المنثور (باختصار).

(۵) المحجّة البيضاء، ج ۸، ص ۲۹۷.

(۶) المصدر السابق، ص ۲۹۱.

من شيعتنا: المعراج والمساءلة فى القبر والشفاعة» «۱».

ومن الواضح هو أنّ السؤال فى القبر من عالم البرزخ.

۱۰- ونختتم هذه الروايات بحديثٍ روى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كنز العمّال، (بالرغم من كثرة الأحاديث وتواترها فى هذا المجال)، فقد ذكر النبى صلى الله عليه و آله شهداء احد وقال: «أيُّها الناسُ زوروهُم وأتوهم وسلِّموا عليهم، فوالذّى نفسى بيده لا يُسلِّمُ عليهم مُسلمٌ إلى يوم القيامة إلّاردّوا عليه السلام» «۲».

وقد تضمّن هذا الكتاب أحاديث متعددة اخرى فى هذا المجال.

من هنا يتضح أيضاً مدى جهل من ينكر زيارة أهل القبور ويعدّهم جمادات لجهلهم بالاحاديث الشريفة ومدى بعدهم عن تعاليم رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

إنّ جميع الروايات التى تحدثت عن سؤال وضغطة القبر، والروايات التى تخبر الإنسان عن نتا ئج أعماله الحسنة منها والسيئة بعد الموت، والروايات التى تتحدّث عن ارتباط الأرواح بذويهم والإطلاع على أوضاعهم، والروايات التى تتحدّث عن ليلة المعراج ولقاء النبى صلى الله عليه و آله بالرسل والأنبياء، إنّ جميع هذه الروايات تدلّ أساساً على وجود عالم البرزخ، فإذا لم نتصّور عالماً كهذا فإنّ جميع هذه الروايات وأمثالها ستصبح مبهمة.

۲- البرزخ فى ميزان العقل والحس

بالإضافة إلى وضوح ما دلت عليه الآيات والروايات المذكورة على إثبات وجود عالم يتوسط الدنيا والآخرة، فإنّ هذا الأمر يمكن إثباته عن طريق العقل والحس أيضاً، وذلك لأنّ جميع الأدلة التى دلت على وجود الروح وخلودها مستقلة عن البدن تدلّ على وجود عالم البرزخ، لأنّها دلت على عدم فناء الروح بموت الجسم، وذلك لأنّها ليست من عوارض الجسم حتى تفنى بفنائه، بل هى جوهر مستقل يمكنها الحفاظ على بقائها من دون بقاء

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۲۳.

(۲) كنز العمّال، ج ۱۰، ص ۳۸۲، ح ۲۹۸۹۶.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۵

الجسم أيضاً، والاعتراف بهذا يساوى الاعتراف بعالم البرزخ، وذلك لأنّ الحديث هنا هو عن أصل وجود عالم البرزخ، لا عن كونه روحياً.

وبالإضافة إلى هذا فإنّ إحضار الروح يدلّ بوضوح على أنّ الأرواح بعد انفصالها عن الأجسام تستقر فى عالمٍ خاص بها، وتحافظ على بقائها وتتصف بسعة الإدراك هناك، حتّى أنّها تبوح بشيءٍ من علمها عن طريق اتصالها بالناس الموجودين فى هذا العالم.

إنّ الذين تلقّوا نداءات من الأرواح هم كثيرون، وكذلك الذين ادّعوا بأنّهم شاهدوا الروح فى «قالب مثالى»، ونحن لا نقول: إنّ جميع هذه الادعاءات صحيحة، وذلك لأنّ الكذابين والمحتالين المنحرفين كثيراً ما استغلوا هذه المسألة لتمرير اغراضهم، لكن هذا لا يدعو إلى الانكار، والشك فى صحة هذا الموضوع المدعوم بالتجربة والعلم، وذلك لكثرة ما أخبر به الثقات عن نتائج تجاربهم فى هذا المجال، ولكثرة ما كتبه العلماء الكبار والمجامع العلمية فى هذا الميدان، ممّا لا يبقى محلًا للانكار فى أصل المسألة، وقد بلغت من الكثره ما لو حاولنا ذكر زاوية منها لطال الحديث عنها كثيراً «۱».

بناءً على هذا يمكننا عن هذا الطريق أيضاً، أن نثبت وجود عالم البرزخ.

۳- قبسات من عالم البرزخ

بغضّ النظر عن الاختلاف الموجود بين العلماء المسلمين فى التفاصيل الجزئية لعالم البرزخ، فإنّهم اتفقوا جميعاً على أصل وجود مثل هذا العالم سوى عدد قليل لا يعتدّ به.

والسبب فى ذلك، هو وجود الآيات القرآنية والروايات الكثيرة، التى دلّت على ذلك، وقد تحدثت تلك الآيات بصراحة عن وضع الإنسان بعد الموت، والثواب والعقاب، وارتباط أهل القبور بهذا العالم، وأمثال ذلك (وقد ذكرنا هذا المطلب آنفاً).

بناءً على هذا فلا يوجد هناك اختلاف فى أصل وجود عالم البرزخ، والمهم هنا هو الاطلاع على صورة حياة البرزخ، وقد طرح العلماء تصورات مختلفة فى هذا الميدان

---

(۱) راجع كتابنا «عود أرواح وارتباط أرواح» لكسب توضيحات أكثر.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۶

أوضحها ما كان ينسجم مع ما جاء فى الروايات وهو:

إنّ روح الإنسان بعد انتهاء الحياة الدنيا تحلّ فى جسمٍ لطيف يفتقد الكثير من اعراض الجسم المادّية، ولكن لِشَبَهِ هذا الجسم بالمادة اطلق عليه اسم «الجسم المثالى» أو «القالب المثالى» وقيل: إنّه ليس مجرّداً بتمام الأبعاد وليس مادياً كذلك، بل له نوع من «التجرد البرزخى». (فتأمل).

ولكن بما أنّ إدراك حقيقة حياة عالم الآخرة غير ممكن بالنسبة لنا نحن اسارى عالم المادة، فالاطلاع الكامل على عالم البرزخ لا يكون ممكناً أيضاً، وذلك لأنّ عالم البرزخ هو أعلى مرتبة من هذا العالم، وبتعبير آخر: إنّ عالم البرزخ عالمٌ محيط بهذا العالم لا محاط.

ولكن- على حدّ قول بعض العلماء-: يمكننا تشبيهه بعالم الرؤيا، فالروح الإنسانية فى الأحلام الصادقة تتجوّل فى نقاط مختلفة، بواسطة

القالب المثالی وتشاهد المناظر وتتلذذ بالنعم، كما أنّها أحياناً تشاهد المشاهد المرعبة فتتضجّر بشدّة، وتصرخ وتصحو من نومها.

وتؤكّد صحّة هذه الحقيقة قوله تعالى «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فى مَنَامِهَا». (الزمر/ ۴۲)

قال المرحوم العلامة المجلسى فى بحار الأنوار: «إنّ تشبيه عالم البرزخ بحالة النوم والرؤيا كثيراً ما ورد فى الإخبار.

ثم يضيف: كما يحتمل أن يكون للنفوس القوية العالية اجسامٌ مثاليةٌ متعددة، لذا فإنّ ما ورد من الروايات على أنّ الأئمة يحضرون عند كلّ من يحتضر من الناس، سوف لا يحتاج إلى التأويل والتكلّف فى تفسيرها». (فتأمّل) «۱».

كما أنّ البعض يعتقد بأنّ القالب المثالى موجود فى جسم كلّ إنسان، لكنّه ينفصل عن الجسم بعد الموت ويبدأ حياته فى البرزخ، فالروح فى عملية التنويم المغناطيسى تتجوّل وتذهب إلى مناطق مختلفة، وتمارس كثيراً من الفعاليات، والأكثر من ذلك أنّ بعض الأرواح القوية تتمكن من السفر إلى مناطق بعيدة فى عالم اليقظة أيضاً فتطّلع على أسرار

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۷۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۷

تلك المناطق، وهذه الفعاليات تنجز بواسطة القالب المثالى أيضاً.

وقصارى القول هو أنّ الجسم المثالى يشابه هذا الجسم المادى- كما هو ظاهر من اسمه ولكنّ هذه المادة ليست مادة كثيفة ولا تتشكل من العناصر المادية، بل هو جسم لطيف نورانى لا يحتوى على العناصر المادية المعروفة فى هذا العالم المادى.

وقد اشتبه الأمر على البعض هنا، ومن المحتمل أن تكون هذه الشبهة هى السبب فى انكارهم للجسم المثالى، والشبهة التى وقعوا فيها هى اعتقادهم بأنّ وجود جسمٍ كهذا سوف يؤدّى إلى الاعتقاد بمسألة «التناسخ»، وذلك لأنّ التناسخ ما هو إلّاعبارة عن انتقال الروح إلى أجسام متعددة.

لكننا إذا سلّمنا بوجود القالب المثالى فى باطن هذا الجسم المادى، فسوف لن نقع فى محذور انتقال الروح إلى جسمٍ آخر، وسوف لن يبقى محلٌّ لمحذور التناسخ.

هذا بالإضافة إلى ما قاله «الشيخ البهائى» إنّ «التناسخ الذى أجمع المسلمون على بطلانه هو عبارة عن انتقال الروح بعد فناء الجسم إلى أجسام اخرى فى نفس هذه الدنيا، وأمّا ما يتعلّق بحلول الأرواح فى أجسام مثالية فى عالم البرزخ وبقائها حتى انتهاء أمد البرزخ لتنتقل بعد ذلك إلى الأجسام الاولى يوم القيامة، فإنّه لا يمتُّ بأىّ صلة لمسألة التناسخ» «۱».

ونقل المرحوم «الكلينى» فى «فروع الكافى» عدّة روايات تحدثت عن الجسم المثالى بكل وضوح، منها: ما جاء فى الصحيح عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سأله أحد أصحابه قائلًا: يرى بعض الناس أنَّ أرواح المؤمنين تُجعل فى حوصلة طيور خضر تحيط بالعرش!! فقال عليه السلام: «لا، المؤمن أكرمُ على اللَّه من أن يجعل رُوحهُ فى حوصلة طير، ولكن فى أبدانِ كأبدانهم» «۲».

وجاء فى حديث آخر عنه عليه السلام أيضاً: «فإذا قبضهُ اللَّهُ عزّ وجلّ صيّر تلك الرّوح فى قالبٍ

---

(۱) نقل هذا الكلام العلامة المجلسى عن المرحوم الشيخ البهائى فى بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۷۷.

(۲) فروع الكافى، ج ۳، ص ۲۴۴ (باب آخر فى أرواح المؤمنين)، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۶۸

كقالبه فى الدنيا» «۱».

وجاء فى حديث آخر عن الصادق عليه السلام: عندما سُئل عن أرواح المؤمنين، أجاب: «فى حُجُراتٍ فى الجنّة يأكلونَ من طعامها ويشربون من شرابها، ويقولون رَبّنا أقِم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا» «۲».

ومن الواضح هو أنّ المراد من الجنّة هنا هى جنّة البرزخ التى هى أدنى بكثير من جنّة القيامة، لذا يتمنى المؤمن قيام القيامة، هذا بالإضافة إلى أنّ وجودهم فى البرزخ المكانى يدل على حلول أرواحهم فى القالب المثالى، وذلك لأنّها فارقت أجسامَ هذه الدنيا.

۴- خصوصيات عالم البرزخ

اشارة

إنّ القرآن المجيد لم يتعرّض كثيراً لذكر هذه الخصوصيات، وكلّ ما تعرّض له هو: أنّ هناك برزخاً وأنّ فيه فريقاً يتنعّم بنعم اللّه وفريقاً آخر فى العذاب، ولكن ماهى التفاصيل؟

فإنّها لم تبيّن، ومن المحتمل أن يكون السبب فى ذلك هو أنّ سيرة القرآن هى بيان الاصول العامة وترك التفاصيل للسنّة.

أمّا ما بينته السنّة فى هذا المجال فهو ما يلى:

أ) سؤال القبر

دلّت روايات عديدة على أنّ الإنسان عندما يوضع فى القبر يأتى إليه اثنان من ملائكة اللّه، فيسألانه عن اصول دينه، التوحيد والنبوة والإمامة، كما أنّ بعض الروايات أشارت إلى أنّه يُسأل حتى عن كيفية قضاء عمره من جوانب عدّة، كالسؤال عن سُبل كسبه للمال وانفاقه إيّاه، فإنْ كان من المؤمنين الصادقين فإنّه سوف يجيب عمّا سُئل بسهولة، وتغمره الرحمة

---

(۱) المصدر السابق، ح ۶.

(۲) فروع الكافى، ج ۳، ص ۲۴۴ (باب آخر فى أرواح المؤمنين)، ح ۴.

الإلهيّة واللطف، وإن لم يكن كذلك فإنّه سوف يفشل فى الإجابة ويغرق فى عذاب البرزخ الأليم.

وقد اطلِق على هذين الملكين فى بعض الروايات اسم «ناكر» و «نكير» وفى بعضها الآخر اسم «منكر» و «نكير» «۱».

روى عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه كان يعظ الناس فى كلّ جمعة فى مسجد الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بهذه الموعظة: «أيُّها الناسُ اتقوا اللّه واعلموا أنّكم إليه ترجعون ...»، حتّى حفظ الناس ذلك ودوّنوه.

ثم يشير فى قسم آخر من كلماته الشريفة والنافذة إلى الأعماق، إلى حضور الملكين (منكر ونكير) للسؤال فى القبور فيقول عليه السلام: «أَلا وأنّ أوّل ما يسألانك عن ربّك الذّى كنت تعبُدهُ وعن نبيّك الذّى ارسل اليك وعن دينك الذى كنت تُدينُ به وعن كتابك الذى كُنت تتلوه وعن إمامك الذى كنت تتولّاه، ثم عن عُمرك فيما أفنيته ومالك من اين اكتسبته وفيما أتلفته، فخُذ حذرك وانظُرْ لنفسك واعِدَّ للجواب قبل الامتحان والمساءلة والاختبار، فإن تكُ مؤمناً تقياً عارفاً بدينك متبعاً للصادقين، موالياً لأولياء اللّه لقاك اللّه حُجّتك وانطق لسانك بالصواب فأحسنت الجواب فبُشِّرتَ بالجنّة والرضوان من اللّه، والخيرات الحسان، واستقبلتك الملائكة بالرَّوح والرَّيحان، وإن لمْ تكُن كذلك تلَجْلَجَ لسانُك ودحضَتْ حُجّتك، وعميت عن الجواب، وبُشِّرتَ بالنار واستقبلتك ملائكة العذاب بنزل من حميم وتصلية جحيم» «۲»! ...

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: هل يتوجّه السؤال هناك إلى الروح التى هى فى القالب المثالى والبرزخى أم إلى نفس الجسم المادّى على نحوٍ تعود الروح إلى الجسم المادى بصورة مؤقتة (ومن البديهى أننا لا نقصد عودة الروح بصورة تامة، بل على قدر ما يمكنه من

---

(۱) ورد ذكر الاسم الأول فى كتاب اصول الكافى، ج ۲، ص ۶۳۳، ح ۲۶ (باب النوادر) والاسم الثانى فى كتاب بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۲۲ و ۲۲۳ ح ۲۲ و ۲۴.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۲۳، ح ۲۴. وهناك روايات عديدة فى هذا المجال فإن أردت كسب معلومات أكثر عليك بمراجعة نفس الجزء من بحار الأنوار وكذلك مراجعة تفسير البرهان، ج ۲، من ص ۳۱۲، فما فوق (فى تفسير ذيل الآية ۲۷ من سورة إبراهيم) والمحجّه البيضاء، ج ۸، ص ۳۰۹ فما فوق.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷۰

الاجابة) فتوجّه إليه الأسئلة؟ وَما يستفاد من مضمون بعض الروايات هو، أنّ الروح ترتبط وتتعلق بنفس هذا الجسم المادّى بنوعٍ من التعلّق على قدر ما يتمكن الميت من فهم الاسئلة، والإجابة عليها «۱».

لكنّ المرحوم العلّامة المجلسى فى تحقيقه حول أحاديث هذا الباب، قال فى إحدى عباراته: «فالمراد بالقبر فى أكثر الإخبار ما يكونُ الروحُ فيه فى عالم البرزخ» «۲».

وهناك مسألة اخرى يجدر الالتفات إليها وهى طبقاً لما جاء من قرائن فى الروايات يتضح أنّ أسئلة وأجوبة القبر هى ليست اسئلة وأجوبة عادية يتمكن الإنسان من الإجابة عليها بما يحلو له، بل هى أسئلة تنبع اجاباتها من أعماق روح الإنسان، ومن صحيح معتقداته، ولا يؤثر تلقين الأموات إلّافى إثارتها لا أنّه يؤثّر فى الإجابة بصورة مستقلة، فالجواب كأنّه ينبع من عمق التكوين والحقيقة الكامنة فى الباطن

ب) ضغطة القبر

هذه المسألة هى من المسائل التى ورد ذكرها فى أحاديث كثيرة أيضاً، كما يستفاد من الروايات أيضاً؛ أنّ ضغطة القبر تشمل الجميع بدون استثناء، كلّ ما هنالك أنّها تكون شديدة على البعض وتكون من عقوبات الأعمال، وتكون أقّل شدّة على البعض الآخر وتعتبر كفّارة للذنوب؟

جاء فى الحديث الشريف عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عند دفن الصحابى المعروف (سعد بن معاذ) أنّه قال: «إنّه ليس من مؤمنٍ إلّاوله ضمّةٌ» «۳».

وفى رواية اخرى عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ضغطة القبر للمؤمن كفارةٌ لما كان منه من تضييع النّعم» «۴».

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۳۱۴، ح ۹، فى ذيل الآية ۲۷ من سورة إبراهيم.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۷۱.

(۳) المصدر السابق، ح ۱۶ و ۱۹.

(۴) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷۱

لكن يستفاد من رواية اخرى أنّ المؤمنين لا تمسّهم ضغطة القبر أبداً، وأنّ ضغطة القبر التى حلت بسعد بن معاذ هى من أجل سوء خلقه مع اهله، جاء فى هذه الرواية: «إِنّهُ كانَ فى خُلُقِهِ مَعَ أَهْلِهِ سوءٌ» «۱».

لذا جاء فى بعض الأخبار أنّ الذين يمارسون بعض الأعمال الصالحة (مثل حج بيت اللّه عدّة مرات، أو المواظبة على قراءة بعض سور القرآن، أو بعض الأذكار) ينجون من ضغطة القبر «۲».

وعلى أيّة حال فإنّ ضغطة القبر هى اوّل العقوبات فى عالم البرزخ، ولكن هل تنزل ضغطة القبر على هذا الجسم المادى ثم تنتقل منه إلى الروح (سبب العلاقة الموجودة بين هذا الجسم والروح على أيّة حال)، أم تنزل على ذلك الجسم المثالى؟ للإجابة عن هذا السؤال يأتى نفس الرأيين السابقين أيضاً، ولكن بما أنّ الدخول فى التفاصيل الجزئية لا ثمرة منه، لذا نمّر عليها مرّ الكرام، ونقتصر فى القول على أنّ أصل وجود ضغطة القبر هى من المسلّمات، وذلك طبقاً لمفاد كثير من الروايات «۳»، وقد جاء فى إحداها عند الجواب عن سؤالهم: إنّ من علّق بخشبة الصَلب عدّة أيّام كيف تناله ضغطة القبر؟، قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ ربّ الأرض هو ربُّ الهواء فيوحى اللَّه عزّوجلّ إلى الهواء فيضغطه ضغطةً اشدّ من ضغطة القبر» «۴».

ج) عن أىّ الامور يُسأل؟

تدل الأخبار الكثيرة الواردة فى موضوع سؤال القبر، على أنّ أسئلة القبر توجّه إلى

---

(۱) المصدر السابق، ح ۱۴.

(۲) لكسب معلومات أكثر راجع سفينة البحار، ج ۲، ص ۳۶۷ مادة (قبر).

(۳) كالروايات القائلة: إنّ «القبر إما روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران» التى أشرنا إليها سابقاً، فإنّها يحتمل أن تكون دليلًا على أنّ ضغطة القبر تنزل على القالب المثالى والروح وذلك لأنّ القبر المادى لا يتحول إلى جنّة أو حفرة من النار.

(۴) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۶۶، ح ۱۱۲.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷۲

فريقين هما: الفريق الذّى محّضَ الإيمان محضاً، والفريق الذّى محّض الكفر محضاً، أمّا المستضعفون الذين هم لا لهؤلاء ولا لهؤلاء فإنّ السؤال منهم يُرجأ إلى يوم القيامة.

جاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا يُسألُ فى القبر إلّامن محضَ الإيمان محضاً أو محضَ الكفر محضاً والآخرون يلهون عنهم» «۱».

وجاء نفس هذا المعنى فى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام عندما سأله أحد أصحابه:

مَن المسؤولون فى قبورهم؟ فأجابه الإمام عليه السلام: «مَنْ محّضَ الإيمان ومن محّضَ الكفر».

فسأله الراوى: وما حال بقيّة الناس؟

فأجابه الإمام عليه السلام «يُلهى عنهم».

فسأله الراوى: وعن أىّ شىء يُسأَلون؟

فقال الإمام عليه السلام: «عن الحُجّة القائمة بين أظهركم» «۲».

يظن البعض بأنّ السؤال لا يكون إلّاعن العقيدة لا عن الأعمال، واعتبروا جملة «من محضَ الكفر ومن محضَ الإيمان» (جاراً ومجروراً» لا «صلةً وموصولًا» فيكون مفهومها فى هذه الحالة: «لا يُسألُ إلّاعن الإيمان الخالص والكفر الخالص».

ولكن نظراً إلى أنّ الروايتين المذكورتين تحدثت عن الأفراد بوضوح «لا عن الأعمال» إذن لا يكون التفسير الثانى مناسباً، هذا بالإضافة إلى ما جاء فى رواية على بن الحسين عليه السلام التى ورد ذكرها سابقاً وهو أنّ السؤال هناك يشمل ساعات العمر وسبل كسب المال أيضاً.

د) ارتباط الروح بهذا العالم

يوجد فى هذا المجال روايات متعددة أيضاً تشير إلى أنّ الروح عندما تنتقل إلى عالم البرزخ لا تنفصل عن الدنيا بالمرّة، بل تطلّ عليها بين الحين والآخر.

وفى المجلد الثالث من كتاب الكافى يوجد هناك باب تحت عنوان «إنّ الميّت يزور أهله»، قد ذكر فيه خمس روايات تدلّ على أنّ المؤمنين، وغير المؤمنين أيضاً يزورون

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۶۰؛ اصول الكافى، ج ۳، ص ۲۳۵ (باب المسألة فى القبر، ح ۱).

(۲) اصول الكافى، ج ۳، ص ۳۳۷، ح ۸.

أهلهم بين الحين والآخر، قال الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن ليزورُ أهلَهُ فيرى ما يحبُّ ويُسترُ عنه ما يكره، وإنّ الكافر ليزورُ أهلَهُ فيرى ما يكرهُ ويُستَرُ عنه ما يحبُّ» «۱».

وقال العلماء الذين تمكنوا من الاتصال بالأرواح بالطرق العلمية الخاضعة للتجربة: إنّ أرواح البشر بعد موتهم لا تنفصل عن هذا العالم كلياً، بل لديهم معلومات معيّنة عن هذا العالم، كما أنّ الاتصال بهم ممكن أيضاً (ويوجد فى هذا المجال تجارب وقصص كثيرة، يخرجنا ذكرها عن صلب الموضوع).

ه) انتفاع الأرواح بأعمال الآخرين الصالحة

وهناك أمرٌ آخر تجدر الإشارة إليه وهو وجود روايات كثيرة وردت فى مصادر إسلامية مختلفة، دلّت على أنّ عمل الخيرات لأرواح الأموات تصل إليهم على شكل هدايا، وهذا الأمر يدل من أحد جهاته على وجود عالم البرزخ، ومن جهة اخرى على ارتباط الأرواح بهذا العالم.

جاء فى الحديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام: «ما من عبدٍ زار قبر مؤمنٍ فقرأَ عليه انّا انزلناه فى ليلة القدر سبع مرّات إلّاغفرَ اللّه له ولصاحب القبر» «۲».

بل يستفاد من بعض الروايات: «أنّ المسيح عليه السلام مرّ على أحد القبور فوجد صاحبه فى العذاب، وعندما مرّ فى العام المقبل عليه وجده فى النعيم، فعندما سأل من اللّه عن ذلك خوطب بأنّ السبب فى هذا هو فعل خيرٍ ادّاه ابنٌ مؤمن له، وهو اصلاحه لاحد الطرق وإيواؤهُ يتيماً» «۳».

كما يستفاد من روايات متعددة أيضاً أنّ من سنَّ سنّة حسنة، أو سنّة سيئة فله ثوابها أو عليه وزرها، كما أنّ الحسنات الجارية تصل بركاتها إليه على الدوام «۴».

---

(۱) المصدر السابق، ص ۲۳۰، ح ۱.

(۲) المحجّة البيضاء، ج ۸، ص ۲۹۰.

(۳) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۲۰، ح ۱۵.

(۴) راجع ما جاء فى الروايات المتعلقة بالسنّة الحسنه والسنّة السيئة فى بحار الأنوار، ج ۶۸ (طبعة الوفاء- بيروت) ص ۲۵۷ باب ۷۳.

وجاء فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «ستٌّ خصال ينتفع بها المؤمن من بعد موته: ولدٌ صالح يستغفر له، ومصحفٌ يقرأُ فيه، وقليب يحفره، وغرسٌ يغرسه، وصدقة ماءٍ يُجريه، وسُنّةٌ حسنةٌ يؤخذ بها بعده» «۱».

۵- هل يمرّ الجميع فى مرحلة البرزخ؟

هل يعلم جميع من يفارق الدنيا وينتقل إلى عالم البرزخ بما يدور حولهم؟ أم أَنَّ فريقاً منهم يقضون حياتهم فى البرزخ، وهم لا يعلمون بما يدور من حولهم فهم كالنيام، فينهضون من نومهم يوم القيامة، فيتصورون مرور ألف عام عليهم وكأنّه ساعة؟

يستفاد المعنى الثانى من قوله تعالى: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقسِمُ الْمجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ». (الروم/ ۵۵)

وهذا يتمّ طبعاً فى حالة تفسيرنا للآية على أنّ عالم الدنيا أو عالم البرزخ لا يعدّ شيئاً فى مقابل القيامة، (فتأمّل).

ولكن بعض الآيات التى تحدثت عن البرزخ ظاهرها الاطلاق والعموم، مثل الآية التى فى شأن الكفّار ظاهراً، قال تعالى: «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (المؤمنون/ ۱۰۰) (إلّا إذا قيل: إنّ الآية السابقة خاصة، وهذه عامّة فتقيد الأخيرة بها).

كما تكرر ذكر هذا المعنى فى الروايات أيضاً وهو أنّ سؤال القبر يختص بفريقين فقط:

«وهم من محّض الإيمان محضاً أو محّض الكفر محضاً، أمّا الباقون فيلهى عنهم».

وقد ورد ذكر هذه الروايات فى البحث السابق، ولمزيدٍ من الاطلاع على هذه الروايات راجع المجلد السادس من بحار الأنوار الصفحة ۲۶۰، الأحاديث رقم ۹۷- ۱۰۰.

أمّا بالنسبة لعبارة «يُلهى عنهم» فليس مفهومها عدم شمول البرزخ لهم، بل تدل على عدم توجّه الأسئلة لهم فى القبر، على عكس ما جاء فى روايات ضغطة القبر فهى تشمل الجميع باستثناء بعض أولياء اللّه (وقد مرّ ذكر الروايات المتعلقة بهذا البحث).

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۹۳، باب ۱۰، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷۵

۶- الغاية من وجود البرزخ

اتّضحت بجلاء الغاية من الحياة الدنيا، وهى كونها محل ابتلاء وتعليم وتربية وكسب الكمالات العلمية والعملية للإعداد للآخرة، فالدنيا فى نظر الروايات وبعض الآيات القرآنية هى مزرعة ومكسب ومدرسة وهى ساحة إعداد، أو بتعبير آخر هى بمنزلة «عالم الجنين» بالنسبة لعالم الآخرة.

والآخرة هى منبع الأنوار الإلهيّة ومحكمة الحق الكبرى ومحل حساب الأعمال ومنزل القرب والرحمة الإلهيّة.

ويبقى هنا سؤال يجب الإجابة عنه وهو: ما هى الغاية من وجود «البرزخ»؟

وللإجابة عن هذا السؤال يمكن أن يقال: إنّ الغاية من توسط البرزخ بين الدنيا والآخرة، هى نفس الغاية المتوخاة من كل مرحلة متوسطة اخرى وذلك لأنّ الانتقال من محيطٍ إلى محيطٍ آخر يختلفان تمام الاختلاف مع بعضهما، وسوف لن يَتَحَمّل إلّابوجود مرحلة متوسطة تحمل بعض خصوصيات المرحلة الاولى مع بعض خصوصيات المرحلة الثانية معاً.

هذا بالإضافة إلى أنّ يوم القيامة بالنسبة لجميع البشر يتحقق فى يوم واحد، وذلك لوجوب تبدّل الأرض والسماء لإيجاد عالم جديد، وحياة جديدة للبشر فى ذلك العالم الجديد، لذا فإنّه لا يوجد أىّ سبيل آخر لتحقق ذلك إلّابتوسط البرزخ بين الدنيا والآخرة، وانتقال الأرواح بعد انفصالها من الجسم المادى إلى البرزخ لتبقى هناك حتّى انتهاء الدنيا، وبعد انتهاء الدنيا وقيام القيامة يحشر الجميع معاً، وذلك لعدم إمكان تخصيص قيامة مستقلّة لكل إنسان، وذلك لأنّ القيامة لا تتحقق إلّابعد فناء الدنيا وتبدّل الأرض بغير الأرض

والسماء بغير السماء.

بالإضافة إلى ذلك فقد دلّت بعض الروايات على إصلاح بعض النواقص العلمية والتربوية للمؤمنين فى البرزخ، وعلى الرغم من أنّ البرزخ لم يُعدّ لعمل الصالحات، لكن ما المانع من أن يكون هناك مَوضعٌ لا رتقاء المعرفة والعلم؟

نفحات القرآن، ج۵، ص: ۳۷۶

جاء فى الحديث عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «مَن ماتَ من أوليائنا وشيعتنا ولم يُحسن القَرآن عُلِّم فى قبره ليرفع اللَّه به من درجته، فإنّ درجات الجنّة على قدر آيات القرآن، يقال له اقرأ وارق، فيقرأ ثمَّ يرقى «۱».

ملاحظة:

كنّا نود أن نجمع كل مباحث «المعاد فى القرآن» فى مجلد واحد كى يسهل تناولها، لكننا عند العمل وجدنا أنّ البحوث بلغت من السعة ما يقارب التسعمائة إلى الالف صفحة (مع الاختصار!) وأنّ جمعها فى مجلد واحد أمر عسير، لذا لم نرَبداً من وضع البحوث المتعلقة بكليات «المعاد» فى مجلد والبحوث المتعلقة «بخصوصيات المعاد» فى مجلد آخر، على أمل أداء حق جميع البحوث على قدر الإمكان.

اللّهم! إننا نعلم بأنّ أمامنا سفراً طويلًا ومليئاً بالمخاطر وبأننا لم نعدّ أنفسنا له، فوفقنا لاعداد أنفسنا إعداداً أكمل وأسرع.

ياربّ! إنّ عبدك المخلص على عليه السلام كان يذرف الدموع ويقول: آهٍ من قلة الزاد وبعد السفر، فكيف بنا وقد خلت أيدينا من الزاد، فإننا لا نرجو إلّالطفك الدائم.

لكننا نعلم ياربّ بأنّ كل ما لدينا من العلم هو أنّ هناك عالماً أسمى وأرقى وراء هذا العالم المحدود الضيّق المظلم .. عالماً تشع عليه أنوارك على الدوام، وأنّ آثار قدرتك وعظمتك فيه أكثر وضوحاً واشعاعاً، وهو يبشّرنا بلقائك المعنوى الذى حرمنا منه فى هذه الدنيا، ويدعونا إلى المأدبة الكبرى ويبشّرنا بالجلوس على خوان «مالا عين رأت ولا اذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر»، فلا تحرمنا من ذلك يا عظيم!

انتهى المجلد الخامس

من التفسير الموضوعى «نفحات القرآن» فى

۱۳/ ۱۰/ ۱۳۶۹ ه. ش

۱۶/ ج ۲/ ۱۴۱۱ ه. ق

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۰۶، باب فضل حامل القرآن، ح ۱۰.

الجزء السادس

منازل الآخرة

المقدّمة:

اشارة

إنّ مسألة المعاد مسألة واسعة النطاق والابعاد، لأنّ الحديث عنها هو حديث عن عالم واسع، وبما أنّ عالم المعاد عالم مجهول ويختلف من جهات عديدة عن عالمنا هذا، لذلك سيكون البحث فى هذا المجال بحثاً معقداً، ومع كونه معقداً فهو ممتع وجذّاب فى نفس الوقت ويعود ذلك لسببين:

الأول: لكونه موضوعاً مثيراً، وهذا ما يبعث عند كل إنسان حبّ الاطلاع وكشف المجهول.

الثانى: إنَّ التوجّه إلى هذه المسألة ومعرفة جزئياتها له أثر نفسى وروحى وتربوى كبير فى بناء النفس الإنسانية، إذ إنَّها تشتمل على جميع مراحل حياة الإنسان، وربّما هذا هو السبب الذى جعل القرآن الكريم يتناول الكثير من الموارد والمسائل التى تتعلق بالمعاد، وهذا ما لا نجده فى غيرها من المسائل.

إنَّنا فى بادئ الأمر كنّا قد ارتأينا أن نجمع جميع البحوث المتعلّقة ب (المعاد) وفق المنظور (القرآنى) فى مجموعة واحدة (كتاب واحد) ونضعها بين يدى القارىء الكريم تحت عنوان (تفسير نفحات القرآن).

ولهذا نحن بذلنا جهدنا فى تلخيص هذه البحوث بالقدر الذى لا يؤثر على المحتوى العام، مع الحرص على تلافى أى خلل أو نقص فى المسائل المطروحة فيه، ولكن وبعد أن خضنا فى أعماق الآيات القرآنية- بهذا الفكر القاصر- عثرنا على كنوز من الجواهر النفيسة بحيث لايمكن جمعها فى كتاب واحد، حيث أصبح عدد صفحاته يزيد على الالف ممّا

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸

اضطرنا إلى أن نعيد النظر فى هذا الكتاب وندوِّنه فى مجلَّدين.

واتفق أن البحوث المتناولة فى المجلد الأول مغايرة تماماً لبحوث المجلد الثانى، ففى المجلد السابق كان الحديث يدور حول المسائل المرتبطة بالمعاد، أمّا هذا المجلد فيتناول جزئيات وخصوصيات المعاد وفق المنظور القرآنى، وبتعبير آخر لو أننا شبَّهنا مسألة المعاد ببناء عظيم شامخ لكان المجلد الأول يمثل أساس هذا البناء، وأمّا المجلد (الثانى) فيتناول جزئيات وتفاصيل البناء وما يتعلق به.

ولهذا كان من المناسب أنْ نسمّى هذا الكتاب باسم (منازل الآخرة) أو منازل القيامة.

ولابدّ لنا من الإشارة إلى أنّ البحث حول المعاد عموماً، وما يرتبط بجزئياته خصوصاً، يثير الكثير من الأسئلة، لهذا فقد سعينا واستطعنا أن نجيب عن جميع الأسئلة من القرآن نفسه أو من الأحاديث الشريفة أو الأدِلَّة المنطقية الفعلية.

كذلك بذلنا جهدنا لتقريب هذه المفاهيم المهمّة والمعقّدة إلى الأذهان بضرب الأمثلة الحية، ولقد استفدنا فى هذا المجال من التجارب التى حصلنا عليها من خلال البحوث العقائدية والتفسيرية، آملين التوفيق فى هذا الطريق، والرأىُ لكم.

ولا شكّ فى أنَّ هذا العمل سيمهِّد الأرضية لبذل جهود أكبر فى المستقبل، وهو عامل مساعد فى استمرارية هذه الجهود فى هذا المجال، ولا يمكن أنْ يدّعى أحد بأنّه قال فى هذا المجال كل شىء، ولم يبق ما يقال.

نسأله تعالى أنْ يعصمنا من الزلل سواء كان فى العلم أو فى العمل، فى القلم أو فى الكلام، كما نطلب منه تعالى أنْ يسلِّمنا ويدخلنا فى المنازل الرفيعة منازل الرحمة، رحمته (جنات عدن)، (جنّة الخلد) ولا يمكن لأحد أنْ يدخلها بسلام إلّاأنْ تشمله ألطاف وعناية البارى عزّ وجلّ.

قم المقدّسة- ناصر مكارم الشيرازى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹

۱- علامات القيامة

الفصل الأول: أشراط الساعة

تمهيد:

يبدأ المنزل الأول من منازل الآخرة بظهور علامات القيامة، وهذه الحقيقة الملموسة نجدها بكثرة فى القرآن الكريم حيث إنّ الكثير من الآيات القرآنية تتحدث عن علامات قرب الساعة، وقد عُرفت هذه العلامات ب (أشراط الساعة) وقد اخذ هذا العنوان- كما سنرى ذلك- من القرآن الكريم نفسه:

«أشراط» جمع شَرَط على وزن هَدف بمعنى (العلامة)

و «الساعة» هنا تعنى القيامة، وهذه العلامات عبارة عن حوادث مهمّة ورهيبة تحدث قبل يوم القيامة تنذر كل منها بنهاية هذا العالم أو هى البداية لقيام الساعة ولابدّ أن نشير هنا إلى أنّ هذه الحوادث ليست متشابهة بل هناك فوارق واختلافات بينها، وبنظرة عامّة يمكن تقسيم هذه الحوادث إلى ثلاثة أقسام وهى:

۱- الحوادث المهمّة التى تتحقق «قبل نهاية هذا العالم».

۲- الحوادث المرعبة التى تحدث على «اعتاب نهاية هذا العالم».

۳- الحوادث الرهيبة التى تحصل أيضاً عند «بداية البعث» والعودة إلى حياة جديدة، ولابدّ من التأمل فى كل واحدة منها. وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم ونبدأ «بالقسم الأول» منها ونستعرض الآيات التى تدور حول هذا الموضوع وهى.

۱- «فَهَل يَنْظُرُونَ إِلّا السَّاعَةَ انْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا». (محمد/ ۱۸)

۲- «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ». (القمر/ ۱)

۳- «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ». (الدخان/ ۱۰)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰

جمع الآيات و تفسيرها

ظهور علامات القيامة:

إنّ الآية الاولى من آيات هذا البحث تشير إشارة عابرة إلى (أشراط الساعة) من دون بيان مصداقها، فتقول: هل ينتظر هؤلاء (الكفّار والمستهزئون) أن تقوم الساعة بغتة حتى يؤمنوا فى حين أتتهم علاماتها: «فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلّا السَّاعَةَ انْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ اشْرَاطُهَا» عِندئذٍ لايَنفَعُ إيمانُهُم «فَانَّى لَهُم اذَا جَاءَتْهُم ذِكرَاهُم» وكما أشرنا سابقاً فإنّ (أشراط) جمع (شَرَط) بمعنى العلامة- وبناءً على هذا فإنّ معنى (أشراط الساعة): علامات القيامة.

أمّا ما المراد من تحقيق هذه العلامات التى أخبرت عنها الآيات السابقة الذكر؟ فنبيّنه كالآتى:

للمفسرين آراء مختلفة فى ذلك، فيرى أغلبهم أنّ المقصود من (أشراط) هنا هو مبعث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وقيامه بالدعوة ونزول القرآن الكريم الذى هو آخر كتاب سماوى، والدليل على هذا الرأى هو الأحاديث الواردة عن الرسول صلى الله عليه و آله بهذا الخصوص، كالحديث المشهور الذى رُوى عنه صلى الله عليه و آله: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وضمّ السبابة والوسطى «۱».

ولقد عدّ البعض الآخر من المفسّرين انشقاق القمر من (أشراط الساعة) هذا فيما لو كانت جميع الآيات التى تحدثت حول (أشراط الساعة) تشير إلى قرب الساعة وليس إلى إمكانية المعاد إلّاأنّ البعض اختار المعنى الثانى وقال: إنّ أصل خلق الإنسان هو من تراب، وإن خلق السموات والأرض كلها علامات على قدرة اللّه تبارك وتعالى على إعادة الحياة من جديد بعد الممات، وعليه ستكون جميع دلائل إمكانية المعاد جزءاً من علامات القيامة و (أشراط الساعة).

ولكنَّ المعنى الأول هو الأصح خصوصاً أنّ بعض الروايات الإسلامية عدّت بعض

(۱) نقل هذا الحديث الكثير من مفسرى الشيعة وأهل السنّة بقليل من الاختلاف مثل تفسير مجمع البيان؛ تفسير القرطبى؛ تفسير فى ظلال القرآن؛ و تفسير روح البيان؛ وفى تفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱

الامور من علامات قرب القيامة و (أشراط الساعة) مثل الحديث المنقول عن الرسول صلى الله عليه و آله:

«من أشراط الساعة أن يرفع العِلْم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويفشو الزنا» «۱».

حتى أنّ بعض الروايات عدّت قيام المهدى (عج) لمقارعة الظلم والفساد جزءاً من أشراط الساعة.

إقتربت الساعة:

تتحدث الآية الثانية عن قرب القيامة وانشقاق القمر، قال تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وانشَقَّ القَمَرُ». (القمر/ ۱)

وهذا جواب عن سؤال طالما تكرر طرحه على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وهو متى تقوم الساعة؟ فيجيب صلى الله عليه و آله: إنّه قريب ومن علاماتها شق القمر، وكما أنّها دليل على قدرة اللَّه عزّ وجلّ على كل شىء (بضمنهما قدرته على إحياء الموتى كذلك فهى تتحدث عن صدق دعوى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الذى هو آخر السفراء الإلهيين، وتُخبر كذلك عن قرب وقوع القيامة، كما ذكرنا فى شرح الآية السابقة أنّ الرسول صلى الله عليه و آله نفسه قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

ولكن بعض المفسرين المتقدمين والمتأخرين يرون أنّ الآية تشير إلى حوادث ستقع فى نهاية هذا العالم قبيل القيامة.

ومن جملة هذه الحوادث تكوير الشمس، أى ذهاب ضوئها ونورها وانشقاق القمر، أمّا لماذا عبرت الآية عن هذه الحادثة (انشق) بصيغة الماضى؟ فجوابه: إنّ اللغة العربية تعبر عن المسائل المستقبلية الحتمية الوقوع بصيغة الماضى.

ولكن هذا الرأى (أى إنّ الآية ناظرة إلى حوادث آخر الزمان لم يأخذ به أكثر المفسرين، لأنّ ظاهر الآية بصيغة الماضى ومرتبط به، وليس من الصحيح أن تفسر الآية بكونها تدلّ

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۳۷، ح ۴۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲

على المستقبل من دون أيّة قرينة واضحة).

ويقول صاحب تفسير (فى ظلال القرآن): «فهذه روايات متواترة من طرق شتى عن وقوع هذا الحادث وتحديد مكانه فى مكة» «۱».

وينقل العلّامة المرحوم الطباطبائى فى الميزان: «وقد روى انشقاق القمر بدعاء النبى صلى الله عليه و آله بطرق مختلفة كثيرة» «۲»، باستثناء بعض المفسرين القدماء غير المعروفين.

ويقول أبو الفتوح الرازى: «إنّ من يقول إنّ الآية أعلاه تشير إلى الحوادث المستقبلية هو خلاف لإجماع واتفاق العلماء» «۳».

وهناك بحوث كثيرة تتعلق بمسألة كيفية شق القمر.. وشَرْحِ هذا الاعجاز النبوى والروايات المتعلقةبه، وإمكانية وقوعه من الناحية العلمية، وبما أنّها خارجة عن هدفنا الرئيس وهو شرح (أشراط الساعة) لذا فقد صرفنا النظر عنها، وللمزيد من المعلومات فى هذا المجال راجع تفسير (الأمثل) الجزء ۲۳، ص ۱۲- ۱۹.

يوم تأتى السماء بدخان مبين:

تشيرالآية الثالثة إلى علامة اخرى من علامات قرب الساعة وهى (الدخان) حيث يغطى دخان كثيف صفحة السماء فى ذلك اليوم

ويأتى على شكل عذاب: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّماءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ* يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ اليِمٌ» (الدّخان/ ۱۰- ۱۱)

ولقد ذكر المفسرون آراء عديدة فى تفسير هذه الآية نذكر ثلاثة منها:

الأول: يرى بعض المفسّرين أنّ الدخان إشارة إلى عذاب يوم القيامة وهو دخان مرعب شرّه مستطير يظلل رؤوس المجرمين، ولكننا نرى هذا الاحتمال بعيداً لأننا نجد فى ذيل الآية أنّ المجرمين يطلبون رفع هذا العذاب الإلهى ويظهرون الإيمان ويأتيهم الخطاب: «انَّا

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۴۴.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۶۰- ۶۱.

(۳) تفسير روح الجنان، ج ۱۰، ص ۳۶۴.

كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا انَّكُمْ عَآئِدُونَ». (الدخان/ ۱۵)

فلا يمكن تصوّر وقوع هذا المعنى فى يوم القيامة خاصة وأنّ الآية التى بعدها تشير إلى القيامة وعقوباتها بشكل مستقل، وهذا يدل على أنّ ما ذكر قبلها يتعلق بغير يوم القيامة:

«يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى انَّا مُنْتَقِمُونَ». (الدخان/ ۱۶)

الثانى: ويرى بعض آخر أنّ الآية تشير إلى أنّ الكفّار بعد أن حلّت بهم المجاعة والجدب جاءوا إلى النبى يطلبون منه الدعاء لرفع هذا العذاب فدعا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فرفع العذاب عنهم ولكنّهم عادوا إلى عتوّهم وجحودهم.

وبناءً على ذلك فإنّ الدخان هنا يراد به المعنى المجازى؛ لأنّ الادب العربى يستخدم كلمة دخان كناية عن الشر والبلاء الغالب، كما ذكر ذلك الفخر الرازى فى تفسيره «۱».

أو قد يراد بالدخان، الأتربة والغبار الذى يغطى صفحة السماء أثناء سنوات القحط حيث لا وجود للأمطار التى تزيل هذا الغبار وهذه الأتربة «۲»، من هنا يطلق على سنة القحط ب (السنة الغبراء) أو (عام الرماد).

والمأخذ الذى يؤاخذ عليه هذا التفسير هو أنّ الدخان الوارد فى الآية الكريمة لم يستعمل بمعناه الحقيقى وقد حمل على معناه المجازى بدون أية قرينة.

الثالث: ويرى الآخرون أنّ الآية تشير إلى احدى علامات قرب القيامة حيث تغطى السماء بدخان مبين فيلجأ الناس إلى لطف اللَّه تعالى ليكشف عنهم العذاب فيرفع بكرمه ولطفه عنهم قليلًا منه ورغم كل هذا لا يؤمن المنكرون.

إنّ هذا التفسير إضافة إلى كونه مطابقاً لظاهر الآية فانّه يتفق مع الأخبار المتعددة التى وردت فى مصادر تفسير الشيعة والسنّة، ونقرأ هنا حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: عن حذيفة قال: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أول الآيات خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم ونار تخرج من قعر عدن أبين تسوق الناس إلى المحشر تَبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم إذا

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۴۲.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۵، ص ۱۰۷؛ و تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۴۰۶.

قالوا، وتصبح معهم إذا أصبحوا وتمسى معهم إذا أمسوا، قلت: يانبىاللَّه وما الدخان؟ قال هذه الآية: «فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ» يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أمّا المؤمن فيصيبه منه شبه الزكام وأمّا الكافر فيكون بمنزلة السكران يخرج الدخان من فمه ومنخره وعينيه وأذنيه ودبره» «۱».

ولقد ورد هذا المعنى فى مصادر الشيعة بشىء من الاختلاف فقد نقل الإمام على عليه السلام عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قوله: «عشرة قبل الساعة لابدّ منها: السفيانى، والدجال، والدخان، والدابة، وخروج القائم، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى عليه السلام، وخسف بالمشرق، وخسف بجزيرة العرب، ونار تخرج من قعر عدن تسوق الناس إلى المحشر» «۲».

وقد وردت روايات اخرى تؤيد هذا المعنى

وبناءً على ذلك يكون التفسير الثالث للآية الشريفة هو التفسير الأفضل.

هذه هى أهم (أشراط الساعة) التى ذكرها القرآن الكريم.

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۱۶، ص ۱۳۱.

(۲). بحار الأنوار، ج ۵۲، ص ۲۰۹؛ وفى تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۵۹۵، وغيرها من الأحاديث تنقل نفس هذا المضمون.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵

الفصل الثانى: العلامات التى تنذر بنهاية هذا العالم

اشارة

يستفاد من طائفة اخرى من آيات القرآن الكريم حدوث اضطراب عظيم فى نظام الكائنات والأرض والسماء عند نهاية هذا العالم وبتعبير آخر إنّ انتهاء العالم لا يكون تدريجياً وإنّما يكون مباغتاً ومقترناً بمشاهد وحوادث مرعبة.

ومن جملة هذه الحوادث التى تعد قسماً من علامات الساعة ما يأتى:

۱- تلاشى الجبال

لقد ورد هذا الموضوع فى آيات متعددة من القرآن الكريم وذُكرت له مراحل عديدة ومختلفة ويمكن تقسيمها وتلخيصها فى سبعة مراحل هى:

۱- المرحلة الاولى اهتزاز الجبال: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ». (المزمل/ ۱۴)

۲- المرحلة الثانية: قلعها: «وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ». (الحاقة/ ۱۴)

۳- المرحلة الثالثة: تسييرها: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً». (الطور/ ۱۰)

۴- المرحلة الرابعة: الدك والهدم: «فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً». (الحاقة/ ۱۴)

وفى هذه المرحلة تصبح الجبال كالكثبان المتراكمة: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَّهِيلًا».

(المزمل/ ۱۴)

۵- المرحلة الخامسة: تصبح فيها الجبال كالغبار المتفرق: «وبُسَّتِ الجِبَالُ بَسّاً* فَكَانَت هَبَآءً مُّنبَثّاً». (الواقعة/ ۵ و ۶)

۶- المرحلة السادسة: تكون الجبال فيها كالعهن المنفوش أى كالصوف المندوف المتطاير فى الريح الشديدة ولا يرى فى السماء إلّالونها: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ». (القارعة/ ۵)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶

۷- المرحلة السابعة: تلاشى الجبال ولا يبقى منها إلّاشبح كشبح سراب فى صحراء قفر: «وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا». (النبأ/ ۲۰)

وهكذا سوف تزول الجبال تماماً ولا يبقى منها أى أثر وتبدل إلى أرض مستوية لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً: «فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفصَفاً» «۱».

(طه ۱۰۶)

والسؤال الـذى يطرح هنا هو: هل أنّ هـذه الحوادث العجيبة والمرعبة تقع للجبال على أثر انفجارات داخلية فيها واندثار لنظامها الذرى وتحرر الطاقة الكامنة فى داخلها؟ أم أنّها على أثر ضـربة خارجية توجه إليها من اصطدام الأجرام السماوية بسرعة وجاذبيه عالية بعضها مع البعض الآخر..؟ أم هناك علل اخرى لم يكتشفها العلم اليوم..؟

لا يمكن لأىشخص اعطاء جواب صحيح عن هذه الأسئلة، فالعلوم اليوم عاجزة عن تفسير هذه الظواهر.

إنّ هناك انفجارات عظيمـة حدثت وتحدث فى الأجرام السـماوية، ولكن العلم يعجز عن تفسـير علل تلك الانفجارات فنحن لانعرف إلّاما أخبرنا عنه القرآن الكريم بأنّ هذه الحوادث تقع فى نهاية هذا العالم.

۲- انفجار البحار

من العلامـات الاـخرى لنهايـة هـذا العـالم وقرب قيـام الساعـة، انفجـار البحـار، ونقرأ فى هـذا الصـدد قوله تعالى «واذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ». (الانفطار ۳)

وقال فى موضع آخر: «وَاذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ». (التكوير/ ۶)

وقال فى الآيـة السادسة من سورة الطور بعد أن أقسم بأيمان متعددة ومتتابعة: «وَالْبَحْرِ المَسْجُورِ».

---

(۱). «القاع» الأرض الملساء المستوية و (صـفصف) الأرض الخاليـة من أى نبات أو الأرض الملساء المستوية، وفى هذه الحالة يكون المعنيان مترادفين- لغرض التاكيد.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷

بلاـ شـك أنّ الآيـة الاـولى والثانيـة أشارتا إلى (أشـراط الساعـة) وذلك لأنّ الآيات التى وردت بعـدها دلّت على هـذا المعنى بشـكل واضح، أمّا فيما يتعلق بالآية الثالثة فقيل فى تفسيرها إنّها كانت ناظرة إلى علامات القيامة.

ولقـد وردت فى إحدى هذه الآيات عبارة (فجّرت) وهذه الكلمة مشـتقة من (فَجر) واسـتعملت بمعنى الانفجار ومن الممكن أن تكون هذه إشارة إلى انفجار البحار.

لقـد أصـبحت هـذه الحالـة اليوم مفهومـة نظراً لأـنّ الماء يتكون من عنصـرين، الأول هو الاوكسـجين والثانى هو الهيـدروجين وهـذان العنصـران قابلان للاحتراق فلو كان هناك عامل يسبب فى تجزئة الماء لتبدلت البحار إلى كتلة عظيمة من نيران محرقة، وتكفى قدحة صغيرة لإحراق العالم بأسره.

ويحتمل أن تكون الزلزلة الشديدة التى تقع قبيل القيامة هى السـبب فى تشقق الأرض واتصال البحار مع بعضها البعض وعلى أثر ذلك سوف تتصل جميع البحار البحيرات الموجودة على الأرض وهذا أيضاً أحد الأقوال التى ذكرت فى تفسير هذه الآية.

وهناك تفسير ثالث يقول: عندما تتلاشى الجبال يسقط غبارها فى البحار فتمتلئ ويطغى الماء على اليابسة فتصير كلها بحراً واحداً.

وبهـذه المعانى الثلاثـة فسّـرت الكلمة الثانية (سـجّرت) المشـتقة من مادة (تسـجير) وذلك لأنّ التسـجير فى الأصل يعنى الإيقاد ويأتى أحياناً بمعنى المل ولذا يقال للتنور المملوء بالنار (مسجر).

وقد يكون اشـتعال البحار بسـبب تجزئتها إلى عنصـرين قابلين للاحتراق (الاوكسـجين والهيدروجين) أو لعلل اخرى نجهلها، أمّا امتلاء البحار فهو إمّا بسبب تلاشى الجبال وسقوطها فى البحار أو بسبب سقوط الأحجار السماوية الكبيرة فيها أو لعلل اخرى غير معروفة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸

۳- الزلزال العظيم المدمر

من العلامات الاخرى لنهايـة هـذا العالم وقرب قيام الساعـة حـدوث زلزلـة عظيمة ليس لها نظير بحيث تهزّ جميع أنحاء الكرة الأرضـية فتدمّر كل شيء ويدفن جميع الناس فى لحظات.

يقول القرآن: «يَاايُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيءٌ عَظِيمٌ». (الحج/ ۱)

ثم يقول: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارى وَمَاهُمْ بِسُكَارى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». (الحج/ ۲)

وسنشـير فى الفصل الثالث تحت عنوان (أشـراط الساعة) إلى أنّ هناك زلزلة اخرى تقع قبيل إحياء الأموات أشارت إليها بعض الآيات الكريمـة، ويحتمل أن تكون الآيـة الكريمـة التى نحن بصـددها قـد أشارت إلى هـذا المعنى بقرينـة: «وَلَكِنَّ عَـذَابَ اللَّهِ شَديدٌ»، وبهذا يجب أن نفسّـر المراد بالمرضعات والحوامل تفسيراً مجازياً، فشدّة الهلع والخوف الناشئ من أثر الزلزلة العظيمة تجعل كل امرأة حامل تسـقط جنينها تفسيرٌ على خلاف ظاهر الآيـة، وعلى أيّـة حال إنّ هـذا المعنى ورد أيضاً فى قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ». «۱» (المزمل/ ۱۴)

وجاء نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: «اذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا* وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً».

(الواقعة/ ۴)

۴- ذهاب ضوء الشمس والقمر والكواكب

من العلامات الاخرى لقرب الساعـة انطفاء قرص الشـمس واختفاء ضوء الكواكب كما ذكرت الآية: «اذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ* وَاذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ». (التكوير/ ۱- ۲)

---

(۱). «ترجف» مشـتقة من مادة «رجف» على وزن كشف وهى بمعنى الاضـطراب والهزّة العنيفة.. من هنا يطلق علىالأخبار الكاذبة التى تتسبَّب فى اضطراب المجتمع ب (الأراجيف).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹

«كـورت»: مشـتقة من مـادة (تكوير)، وهى بمعنى الطى أو اللف أو جمع الشـىء مثـل لف العمامـة على الرأس وكـذلك جـاءت هـذه الكلمـة بمعنى الانطفـاء أو الاسـقاط، والظـاهر من هـذين المعنيين فيمـا يتعلق بالشـمس أنّهمـا من باب اللازم والملزوم، فيـذهب ضوء الشـمس بالتدريج وتعمّ الظلمة. أمّا (انكدرت) فهى مشتقة من مادة (انكدار) وهى الظلمه أو السقوط والتناثر، والظاهر أنّ كلا المعنيين بخصوص الكواكب من بـاب اللازم والملزوم، نعم وحسب شـهادة القرآن ينطوى ويجمع فى نهايـة هـذا العالم أعظم مصـدر للنور فى منظومتنـا الشمسـية وهو الأساس لإضاءة جميع السـيارات وبهـذا سـيكون مصـير الكواكب الاخرى نفس مصـير الشـمس، ويقول الفخر الرازى: «إنّ البعض يرى أنّ كلمة «كورت» مأخوذة من مادّة (كور) بمعنى الأعمى وهذا يعنى أيضاً ذهاب ضوء الشمس ونورها» «۱».

ويعتقد علماء اليوم أنّ مصدر الطاقة الشمسية هو الانفجارات الذرّية (التى يكون وقودها الهيدروجين ورمادها الهليوم) «۲».

وبنـاءً على ذلك سوف ينقص من وزن هـذا الكوكب ۳۵۰/ ۰۰۰ مليون طن فى كـل ۲۴ ساعة وهذا الأمر يكون سـبباً فى ضعف وقلة ضوء الشمس تدريجياً وهذا هو مفهوم جمع نور الشمس وانطفائها وهما المعنيان الكامنان فى مادة (تكوير) حسب مايذكر أرباب اللغة بالرغم من أن نقص هذا المقدار وبحكم الظروف الحالية ليس له تأثير فورى عليها وذلك بسبب كبر حجمها.

فاذا حسبنا سرعة النقصان بمقاييسنا الحالية فمن الممكن أن يطول تحقق ذلك ملايين أو مليارات السنين.

ولا أحـد يعلم ماذا يحـدث غداً فى هذا العالم، فمن الممكن أن تحدث امور تُعجِّل فى نقصان هذه الأشـعة الكونية وتساعد فى انطفاء

هذا المصدر العظيم للنور وللحرارة بصورة كلية وفى فترة قصيرة.

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۶۶.

(۲). زندكى ومرك ستاركان، ص ۹۲ (الكتاب باللغة الفارسية).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰

ويصدق هذا المعنى على سائر الأجرام السماوية فينحل النظام الذى يجمع الكواكب، وينحل كذلك توازن القوّة الجاذبة والدافعة التى لها ارتباط بالأجرام وسرعة حركتها.

ولعل هذا هو نفس الشيء الذى يذكره القرآن فى موضع آخر: «وَإِذَا الْكَواكِبُ انْتَثَرَتْ». (الانفطار/ ۲)

وسوف نتعرض إلى تفسير هذه الآية فى بحث لاحق إن شاء اللّه.

ونقرأ فى سورة القيامة: «فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ* وَخَسَفَ الْقَمَرُ* وَجُمِعَ الشَّمسُ وَالقَمَرُ* يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ ايْنَ المَفَرُّ». (القيامة/ ۷- ۱۰)

يتضح من خلال هذه الآيات أنّ جميع هذه الحوادث تقع بصورة مباغتة وليست تدريجية وإلّا سوف لا يكون هناك إنسان فى ذلك الزمان يقول: «أَيْنَ المَفَرُّ»، (فتأمل).

ومن الممكن أن يكون جمع الشمس والقمر بفعل فقدان تعادل القوى الجاذبة والطاردة وسوف ينجذب القمر إلى مركزه الأصلى وهو الشمس.

وننهى هذا الحديث بالإشارة إلى آية اخرى من القرآن فى هذا المجال، قال تعالى «فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ». (المرسلات/ ۸)

هذا التعبير يتوافق مع الآيات السالفة الذكر ومن لوازمها أيضاً ونذكر فى نهاية هذا المطاف أنّ هذه الامور موجودة فى عالمنا وتسير بشكل تدريجى ولكن تزداد شدّتها فى نهاية الكون حيث تحدث سلسلة حوادث متصلة سريعة ومباغتة تزيل هذا النظام وتنهى عمره بأمر من اللّه تعالى

۵- انشقاق الأجرام السماوية

من العلامات الاخرى لنهاية العالم اختلال نظام الكواكب وانشقاق الأجرام السماوية، ولقد أشار القرآن الكريم فى آيات عديدة وبتعابير مختلفة إلى ذلك، فأحياناً عبر عنه ب (الانشقاق): «إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ». (الانشقاق/ ۱)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱

وجاء نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: «وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ».

(الحاقة/ ۱۶)

كما ورد نفس هذا المعنى بشيء من الاختلاف فى قوله تعالى «وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ». (الفرقان/ ۲۵)

والمراد من السماء فى هذه الآيات هى الأجرام السماوية حيث تشقق هذه الأجرام فى نهاية العالم على أثر الانفجارات المتتابعة، أمّا المقصود من تشقق السماء بالغمام فيحتمل أن يرافق انشقاق السماء حصول غمام كثيف بفعل الأتربة والغبار المتولد عنها، والباء فى قوله (.. بالغمام) كما يحتمل ذلك صاحب الميزان، للملابسة أى تنفتح السماء متلبسة بالغمام (أى متغيمة) «۱».

ولكن المرحوم العلّامة الطباطبائى لم يستبعد أن يكون الكلام كناية عن انكشاف غمة الجهل وبروز عالم السماء وهو من الغيب وبروز سكانها وهم الملائكة ونزولهم إلى العالم الأرضى (فالباء فى هذه الآية تكون بمعنى (عن) أى تذهب الغيوم جانباً ويظهر غيب العالم).

ولكن لما لم يكن هناك دليل على هذا التفسير الكنائى فيكون من الصعب قبوله.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للإمام على عليه السلام فى هذا الصدد حيث يقول: «إنّها تنشق من المجرّة» «۲».

إنّ هـذا التعبيرالرائع ينطبق مع آخر الاكتشافات التى توصـل إليهـا العلمـاء فى مجـال المجرّات، حيث يقولون: إنّ المنظومـة الشمسـية والكواكب التى نشاهـدها هى جزء من مجرّات عظيمـة «درب التبانـة» ويمكن رؤيتهـا بالعين المجرّدة ويكون انشـقاق الشـمس والقمر والكواكب مصاحباً لانشقاق هذه المجرّات الكبيرة (تأمل..).

وأحياناً يعبر القرآن بالانفطار: «إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرِتْ». (الانفطار/ ۱)

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۵، ص ۲۰۲.

(۲). تفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۱۰۳.

ولقد ورد نظير هذا المعنى فى قوله تعالى: «السَّماءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ». (المزمل/ ۱۸)

وكما ذكرنا سابقاً فإنّ كلمة انفطار مشتقة من مادة (فطر) وهى بمعنى الانشقاق.

وأحياناً يقول تعالى «وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ». (التكوير/ ۱۱)

فيمكن أن يكون هـذا التعبير إشارة إلى ازالة الحجب المانعة عن رؤية ملكوت السـموات والملائكة والجنّة والنّار فى ذلك اليوم فتزال الحجب وتنكشف للإنسان حقائق عالم الوجود وفى هذه الحالة سوف لايكون للآية علاقة بتلاشى السموات.

ولقد فسّر بعض المفسرين أمثال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان، هذه الآية بقوله:

«أُزيلت عن موضعها كالجلد عندما يزال عن الجزور ثم يطويها اللّه، وقيل: معناها قُلعت كما يُقلع السـقف» «۱»، وقال تعالى فى موضع آخر: «وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ». (المرسلات/ ۹)

إنّ كلمتى (فطر) و (فرج) تـدلّان على نفس المعنى بشـئ‌من الاختلاف، فيطلق على حل عقـدة المشاكل والمحن، بالفرج وهو ما يقابل الشدّة والعسر.

وعبر أحياناً اخرى ب (فتح) كما نقرأ: «وَفُتِحَتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ ابوَاباً». (النبأ/ ۱۹)

ويمكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى انشـقاق السماء، كما ذكر ذلك بعض المفسرين، وفى هذه الحالة تكون هذه الآية منسجمة مع الآيات السالفة الذكر، أى تحدث شقوق عديدة فى السماء كأنّها أبواب ونوافذ عديدة.

ولكن بعض المفسـرين حملوا ذلك على المعنى الكنائى وقالوا: إنّ المراد من فتح السـماء هو انفتاح أبواب عالم الغيب وإزالة الحجب وارتباط عالم الملائكة بعالم الناس «۲».

وأحياناً اخرى يقول: «يَوْمَ تَمُورُ السَّمَآءُ مَوْراً». (الطور/ ۹)

«مَوْر»: على وزن (دَوْر) وتأتى أحياناً بمعنى الحركة العنيفة وأحياناً اخرى بمعنى

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

(۲). لقد اختار التفسير الأول- الطبرسى والفخر الرازى ومفسرون آخرون، أمّا التفسير الثانى فقد اختاره صاحب الميزان.

الحركة الدائرية واخرى بمعنى الذهاب والمجى المضطرب، ويطلق على الغبار والأتربة التى تحملها الريح إلى كل جانب ب (مَوْر).

على كل حال فإنّ هذا التعبير يعنى اضطراب الأجرام السماوية واختلال نظمها وزوالها.

وأحياناً اخرى يقول تعالى «يَوْمَ تَكُونُ السَّمَآءُ كَالْمُهْلِ». (المعارج/ ۸)

ولقد فسّر المفسّرون كلمة (المَهْل) بردىء الزيت أو الفضة إذا ذابت «۱»، والمعنى الأخير يناسب الآية أعلاه.

على أيّة حال إنّ حصول مثل هذه الحالة فى الأجرام السماوية إنّما هو نتيجة لزوالها.

وفى النهاية عبر القرآن بتعبير آخر فقال: «يَومَ نَطْوِى السَّمَآءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا اوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ». (الأنبياء/ ۱۰۴)

هذا التعبير يوضح ابعاد تغيير السموات والكواكب فى نهاية هذا العالم ويدل أيضاً على أنّ جميع المنظومات والكواكب السيارة والثابتة تطوى كطى السجل للكتاب ويعاد الخلق كما خلقه أول مرّة ويضع اللَّه سبحانه وتعالى نظاما جديداً لعالم الوجود وتقوم القيامة على هذا العالم الجديد.

فنستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أنّ القيامة هى ليست استمراراً للحياة الدنيا بل إنّ هذا النظام يتغير تغيراً كاملًا وذلك لوقوع انفجارات عظيمة وزلازل مرعبة تدمّر كل شىء ثم يقوم نظام جديد بعد ذلك وتقوم القيامة فيه.

---

(۱) تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۶۰۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵

الفصل الثالث: علامات بدء القيامة

عند قيام الساعة تقع حوادث عظيمة، فكما أنّ الدنيا تنتهى بوقوع حوادث عظيمة، كذلك تقترن بداية القيامة بحوادث عظيمة أيضاً، وقد ورد هذا المعنى فى آيات مختلفة من القرآن الكريم.

۱- قال تعالى فى سورة إبراهيم: «يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرضِ وَالسَّمواتُ وَبَرَزُوا للَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ». (إبراهيم/ ۴۸)

هذا التبديل هو إشارة واضحة إلى المرحلة الثالثة وذلك لأنّه تعالى يقول فى ذيل الآية «وَبَرَزُوا للَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ».

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام، فليس المراد من تبديل الأرض بأرض اخرى هو تبديل لذات الأرض كما يتصور البعض بل إنّ المقصود هو تبدل صفاتها مثل ازالة الجبال أو استوائها وصيرورتها قاعاً صفصفاً كما يذكر القرآن الكريم أو زيادة مساحتها وغير ذلك من دون تبديل ذاتها.

ودليل هذا الكلام آيات عديدة عن نشور الأموات من قبورهم وبالخصوص منها: «مِنْهَا خَلَقنَاكُم وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تارَةً اخَرَى . (طه/ ۵۵)

على كل حال ذكر المفسرون آراء عديدة حول هذه الآية ولا يوجد لديهم أىدليل إلّا بعض الروايات المرسلة، أو الاستناد إلى بعض أقوال الآخرين، فاحياناً يقولون إنّ الأرض تبدل بالفضة والسماء بالذهب وأحياناً اخرى يقولون إنّ الأرض تبدل بالنار والسماء بالجنان أو كل قطعة من الأرض تبدل إمّا إلى فضة أو إلى نار حسب ما يناسب وضعها مع المؤمنين والكفّار.

وكل ما نستفيده من هذه الآية بشكل عام: إنّ هناك تغيرات عظيمة لم تتضح تفاصيلها لنا.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶

۲- قال تعالى فى موضع آخر: «اذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا* وَاخرَجَتِ الْأَرْضُ اثْقَالَهَا». (الزلزال/ ۱- ۲)

وهنا يطرح هذا السؤال هل أنّ هذه الزلزلة هى نفس الزلزلة التى تعمّ جميع أنحاء الكرة الأرضية عند نهاية الكون وتؤدّى إلى تدمير العالم بأسره؟ أم أنّها هى التى تقع أثناء يوم القيامة؟ هناك اختلاف بين المفسرين بصدد هذه الآية ولقد نقل الفخر الرازى فى تفسيره كلا التفسيرين «۱» ولكن إذا تأملنا الآية الثانية من هذه السورة: «وَاخرَجَتِ الْأَرْضُ اثْقَالَهَا» لكان المعنى الثانى هو الأنسب مع سياق الآية، وذلك لأنّ (الاثقال) جمع (ثَقَل) أىيخرج كل ما دفن فى الأرض، وهناك احتمال قوى أنّ المراد بالأثقال الموتى حيث يخرجون من قبورهم كما ورد فى قوله تعالى «وَالْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ». (الانشقاق/ ۴)

وبهذا المعنى تحدث الزلزلة الثانية قبل إحياء الأموات وشروع القيامة، وهذه الزلزلة تعمّ كل الكون على خلاف سائر الزلازل التى تتحدد بمنطقة صغيرة، فإنّ تعبير: «اذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ» يفيد الاطلاق وتعبير زلزالها يؤكد هذا المعنى

ولقد ورد ما يشابه هذا التعبير بل وبصورة أوضح فى قوله تعالى: «يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ» «۲». (ق/ ۴۴)

ويتضح من الآيات أعلاه أنّ انشقاق الأرض بأسرها وخروج الناس دفعة واحدة من قبورهم يكون متزامناً مع وقوع زلزلة عنيفة تشمل كل أرجاء العالم.

إنّ هذه الزلزلة تقع قبيل إحياء الأموات وليس فى نهاية العالم خاصة، وقد ورد فى الآية تعبير (حشر) بدلًا من إحياء الأموات، والحشر يعنى (اجتماع الناس بعد إحيائهم أو جمع أجزاء الأبدان المتفرقة أو جمع الأرواح والأجساد).

إنّ هذه الزلزلة وعلى خلاف سائر أنواع الزلازل زلزلة بناء وإعمار، فهى ليست مدمرة أو مميتة بل إنّها تاتى لإخراج الناس من قبورهم ليستأنفوا حياة جديدة.

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۵۸.

(۲). «تُشقق»، كانت فى الأصل تتشقق فحذفت احدى التائين.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷

وقد ورد نظير هذا المعنى فى الآية: «يَومَ تَرجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ».

(النازعات/ ۶- ۷)

ويرى الكثير من المفسرين أنّ الآية الاولى هى إشارة إلى نفخة الصور الاولى (وهى الصيحة العظمى التى تنهى العالم) أمّا الآية الثانية فهى إشارة إلى النفخة الثانية (صيحة الاحياء) وهى الصيحة التى تبدأ بها القيامة، وهذا المعنى على خلاف ظاهر الآية وذلك لأنّ الراجفة مشتقة من رجف وهى على ما ذكره صاحب مقاييس اللغة، تعنى الاضطراب.

وقد ذكر الراغب فى مفرداته (الرجفة) بمعنى الاضطراب الشديد، ويقال للبحر الهائج (بحر رجاف)، و (أراجيف) هى الأخبار التى تزلزل الأفكار العامة للمجتمع، صحيح أنّ الصيحات العظيمة تقرن عادة مع الزلازل ولكن لا- توجد هناك ضرورة لترك المعنى الحقيقى للزلزلة الاولى والثانية واختيار الكناية أو المعنى اللازم.

۳- إنّ تبدل سطح الكرة الأرضية من احدى علامات شروع القيامة فتصبح الأرض مسطحة ملساء تماماً ويبرز جميع الناس بوضوح على سطح الكرة الأرضية: «يَومَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُم فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ احَداً». (الكهف/ ۴۷)

إنّ حركة الجبال هى مقدّمة لتدمير الأرض، وعلى أثر هذا التدمير الذى ذكرته الآية التى نحن بصددها والآيات الاخرى أيضاً تصبح الأرض قاعاً صفصفاً: أى مسطحة ومستوية لا يعلوها شىء ويظهر جميع الناس عليها بشكل واضح.

ولو تأملنا فى هذه الآيات: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبّى نَسفاً* فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفصَفاً* لَّا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً* يَومَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لَاعِوَجَ لَهُ». (طه ۱۰۵- ۱۰۸)

لاتّضح لنا أنّ هذه الآيات تعرض لنا مشاهد من حوادث نهاية العالم ومشاهد اخرى من حوادث قيام الساعة.

هذه خلاصة للبحوث المتعلقة ب (أشراط الساعة) وإمارات القيامة ولقد عرضناها فى ثلاثة فصول وذلك بالاستفادة من الآيات القرآنية وكذلك عرضنا مشاهد من التغيرات العظيمة التى تقع فى نهاية العالم وبداية القيامة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹

۲- النفخ فى الصور

نفخة الموت ونفخة الحياة:

تمهيد:

لقد أشارت الكثير من الآيات القرآنية إلى النفخ فى الصور، ويستفاد ممّا ورد فيها أنّ هناك نفختين بالصور:

الاولى وتقع فى نهاية العالم وهى التى تسبب موت جميع الخلائق.. وتسمى بنفخة الموت.

أمّا النفخة الثانية: فتقع قبيل يوم القيامة وتعمل على إحياء جميع الأموات وتسمى نفخة الحياة.

وفى الحقيقة أنّ توقف هذا العالم وبدء حركة عالم آخر يشبه توقف وحركة القطعة العسكرية حيث يتوقف أفرادها عند سماعهم لصوت بوق خاص ويتحركون مرّة اخرى عند سماعهم لصوت بوق آخر.

وهنا يُطرح هذا السؤال: مامعنى الصور؟ وما المقصود بالنفخة..؟

لقد خصصنا لهذا الموضوع بحثاً مفصلًا سنتطرق إليه فيما بعد- إن شاء اللّه- والجدير بالذكر أنّ القرآن ذكر ستة تعابير مختلفة حول هذا الموضوع.

فأحياناً عبر عنه ب (نفخة الصور).

وأحياناً اخرى ب (الصيحة).

وثالثة ب (النقر فى الناقور).

ورابعة ب (الصاخة).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰

وخامسة ب (القارعة).

وسادسة (الزجرة).

وسوف نشرح هذه العناوين من خلال الآيات الآتية فلنتأمل فيها بخشوع:

۱- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَواتِ وَمَن فِي الْأَرضِ إِلّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ». (الزمر/ ۶۸)

۲- «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرضِ إِلّا مَن شَآءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ». (النمل/ ۸۷)

۳- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ». (يس/ ۵۱)

۴- «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ* وحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً».

(الحاقة/ ۱۳- ۱۴)

۵- «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلآ أَنسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ». (المؤمنون/ ۱۰۱)

۶- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً». (الكهف/ ۹۹)

۷- «يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحشُرُ الْمجرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً». (طه/ ۱۰۲)

۸- «يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً». (النبأ/ ۱۸)

۹- «قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ». (الأنعام/ ۷۳)

۱۰- «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ». (ق/ ۲۰)

۱۱- «ان كَانَتْ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَينَا مُحْضَرُونَ». (يس/ ۵۳)

۱۲- «ما يَنْظُرُونَ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ». (يس/ ۴۹)

۱۳- «وَمَا يَنْظُرُ هؤُلَآءِ إِلّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ». (ص/ ۱۵)

۱۴- «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ». (ق/ ۴۲)

۱۵- «فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ* فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ». (المدثر/ ۸- ۹)

۱۶- «فَإِذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ اخِيهِ». (عبس/ ۳۳- ۳۴)

۱۷- «الْقَارِعَةُ* مَاالْقَارِعَةُ* وَمآ ادْرَاكَ مَاالْقَارِعَةُ* يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱

الْمَبْثُوثِ». (القارعة/ ۱- ۴)

۱۸- «فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ». (الصافات/ ۱۹)

جمع الآيات و تفسيرها

نفخة الموت ونفخة الحياة!

لقد عبّرت الثمان عشرة آية السالفة الذكر كما أشرنا إلى ذلك سابقاً- عن نفخة الصور تحت ستة عناوين مختلفة، وقد جمعنا هذه الآيات مع بعضها كى نسلط الأضواء على تفسيرها حتى يتّضح المفهوم الحقيقى لنفخة الصور من خلال المقارنة بينها.

لقد أشارت الآية الاولى إلى نفخة الصور الاولى وكذلك إلى نفخته الثانية وهذه هى الآية الوحيدة التى جمعت كلا النفختين «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمواتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ» ويرى صاحب كتاب (مقاييس اللغة) أنّ مادة (صعق) على وزن (صُعْق) يعنى الصوت الشديد، ويرى أنّ الصاعقة مشتقة من نفس المعنى وهى سبب الموت والدمار، وجاءت هذه المادة أيضاً بمعنى الموت.. وذكر صاحب كتاب لسان العرب أنّ المعنى الأول للصعق هو الإغماء، وشل العقل على أثر سماع الصوت الشديد وذكر بأنّ (الموت) من المعانى الاخرى لهذه الكلمة، حتى أنّه ذكر قول بعضهم إنّ الموت هو أحد معانى الصاعقة.

على أيّة حال فإنّ مفهوم الصعق فى الآية يعنى الموت المباغت الذى يعمّ جميع أهل السموات والأرض، وذكرت الآية الكريمة: «إِلَّامَنْ شاءَ اللَّهُ» فما المقصود من هذه العبارة؟

هناك كلام للمفسرين فى هذا الصدد، قال بعضهم: إنّ هذه العبارة هى إشارة إلى جمع من ملائكة اللّه الصالحين وهم (جبرائيل، وميكائيل، واسرافيل، وعزرائيل)، وقال بعض آخر:

إنّهم الشهداء، وقيل: إنّ الآية تشمل أيضاً إضافه إلى الملائكة الأربعة الذين سبق ذكرهم حملة العرش الإلهى، ومع ذلك فالنتيجة أنّ جميع هؤلاء يذوقون الموت بحكم قوله تعالى

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». (آل عمران/ ۱۸۵)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲

ولم يبق إلّاوجه اللّه الذى هو حى لا يموت: «وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ».

(الرحمن/ ۲۷)

ولقد أشار ذيل الآية إلى النفخة الثانية: «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ».

الصور فى الأصل بمعنى البوق الذى يستخدم عادة لايقاف أو لتحريك الجند وأحياناً القوافل.. ولقد استخدم فى هذه الآية بمعنى توقف الحياة بأسرها فى عالم الوجود ومن ثم حركتها مرّة اخرى

وهناك شرح مفصل لهذا الموضوع سنتعرض إليه- إن شاء اللّه- فى فقرة (التوضيحات).

وقد أشارت الآية الثانية إلى النفخة الثانية فقط: «وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى السَّموَاتِ وَمَن فِى الْأَرْضِ».

ولم يستبعد البعض ومنهم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان أنّ المراد من هذه الآية كلا النفختين.

ولكن ذيل الآية يذكر: «وَكُلٌّ اتَوْهُ دَاخِرِينَ» وهذا يدل على أنّ المقصود هو النفخة الثانية، وفى هذه الآية أيضاً نواجه الجملة الاستثنائية: «إِلَّا مَن شَآءَ اللَّهُ» حيث أشرنا إلى تفسيرها فى ذيل الآية الاولى

أمّا الآية الثالثة فتشير إلى النفخة الثانية (نفخة الإحياء): «وَنُفِخَ فى الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ» «۱».

ولقد ذكر المفسرون أَنَّ هذه الآية تختص بالنفخة الثانية ويشهد على هذا المعنى ذيل الآية، وما بعدها من آيات.

وربّما يطرح البعض هذا السؤال: إذا كان الناس يهلعون فى ذلك اليوم من الحساب الإلهى فكيف يفزعون إليه؟

---

(۱). «أجداث» جمع «جَدَث» على وزن «حَدَث» وهو بمعنى القبر، و «ينسلون» من مادة «نَسْل» على وزن «فَصْل» وهو بمعنى السير السريع، ويقول الراغب إنّ المعنى الأصلى لها أخذ من الفصل ويرى أنّه من هذه الجهة يطلق «نسل» على بنى آدم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳

فقيل فى جواب ذلك: إنّ هذه الحالة حالة لا إراديّة، وبهذه الوسيلة يدعوهم اللَّه تعالى إلى محكمة عدله.

والآية الرابعة ناظرة إلى النفخة الاولى وهى نفحة إماتة جميع المخلوقات وفناء العالم بأسره: «فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ* وحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً* فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الوَاقِعَةُ».

إنّ تعبير (واحدة) الذى تكرر مرّتين فى هذه الآية يدل على أنّ هذه الحوادث تتحقق بصورة مباغتة على شكل ضربة مميتة، ومن جهة اخرى فإنّ هذه الآيات تبين القدرة اللامتناهية للَّه‌سبحانه وتعالى حيث تفنى جميع المخلوقات بنفخة صور واحدة، بالضبط مثل نفخة البوق التى تحرك جيشاً عظيماً أو توقفه فى مكانه.

بلا شك أنّ الآيات السابقة أشارت إلى النفخة الاولى أمّا الآيات اللاحقة فقد ورد فيها إضافة إلى ذلك كلام عن حوادث المحشر وصحيفة الأعمال وأوصاف الجنّة، وبحكم كون الحوادث المذكورة تقع فى نهاية العالم وبداية القيامة ولا توجد فاصلة كبيرة بينهما، لهذا السبب نرى فى كثير من الآيات القرآنية أنّ حوادث نهاية العالم وقيام القيامة جاءت مرادفة لبعضها البعض.

ويرى بعض المفسرين الكبار، ومنهم صاحب الميزان أنّها النفخة الثانية، قال: «والذى يسبق إلى الفهم من سياق الآيات أنّها النفخة الثانية التى تحيى الموتى «۱» ونحن نستبعد أن تكون هذه الآية قد أشارت إلى النفخة الثانية، حيث إنّها لا تتوافق مع سياق الآية التى تليها والتى تخبر عن دك الأرض والجبال، ولعل الآيات التى وردت (بفاصلة) عن هذه الآية هى‌التى ساقته إلى هذا المعنى فى حين أنّ التأمل فى الآيات المختلفة التى تتحدث عن القيامة يدلل على أنّ هذه الآيات تذكر أحياناً حوادث هاتين النفختين معاً وتميز بينهما بالقرائن.

أمّا الآية الخامسة فقد أشارت بوضوح إلى (النفخة الثانية) وذلك لأنّها تخبر عن عدم

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۳۹۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴

تأثير روابط الأنساب بين الناس أثناء (نفخة الصور): «فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلآ أَنسَابَ بَيْنَهُم يَوْمَئِذٍ وَلَايَتَسَآءَلُونَ» فمن الواضح أنّ السؤال سواء كان بمعنى التساؤل عن أحوال بعضهم البعض أو بمعنى طلب العون والمساعدة فإنّ كل هذا يحدث فى نفخة القيامة (نفخة الحياة).

ومن الغريب أن نرى بعض المفسرين يحتملون أنّ المراد فى هذه الآية النفخة الاولى

على أيّة حال، فإنّ عدم سؤال بعضهم للبعض الآخر محمول على كلا الاحتمالين بحكم انشغال كل واحد بنفسه وبالاهوال التى

يتعرض إليها فلا يفكر بالآخرين.

من هنا يطرح هذا السؤال وهو كيف تتوافق هذه الآية مع غيرها من الآيات التى تذكر:

«فَأَقْبَلَ بَعضُهُمْ عَلَى بَعضٍ يَتَسَآءَلُونَ». (الصافات/ ۵۰)

وكذلك قوله تعالى: «وَبَرَزُوا للَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَآءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوآ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فَهَل أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَىْءٍ». (إبراهيم/ ۲۱)

فيتضح الجواب عن هذا السؤال من خلال ملاحظة الآيات الكريمة بالنسبة إلى غيرها.

فيستفاد من الآيات أنّ هناك مراحل ومواقف متعددة يوم القيامة ولكل مرحلة من هذه المراحل خصائصها، والشاهد على هذا الكلام حديث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى جوابه عن هذا السؤال نفسه حيث قال صلى الله عليه و آله: «ثلاثة مواطن تذهل فيها كل نفس: حين يرمى إلى كل إنسان كتابه، وعند الموازين، وعلى جسر جهنّم» «۱».

أمّا الآية السادسة والسابعة فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية، قال تعالى «وَتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فى بَعْضٍ». (الكهف/ ۹۹)

فهل أنّ هذا المشهد العظيم يكون بسبب كثرة الناس أم بسبب حالة الخوف والهلع أم لسيادة الفوضى فى نهاية العالم؟

يرى البعض أنّ هذه الآية هى إشارة إلى (قوم يأجوج ومأجوج) «۲» بعد بناء سد ذى

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۶، ص ۱۰۷.

(۲). راجع قصّة يأجوج ومأجوج، تفسير الأمثل ذيل الآية ۹۸، من سورة الكهف.

القرنين (حسب سياق ما قبلها من الآيات) ولكننا نستبعد هذا المعنى بقرينة الآيات التالية لها، (تأمل).

على كل حال فإنّ اللَّه تعالى يضيف فى نهاية الآية: «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً» وقال فى الآية التى تليها: «يَوْمَ يُنْفَخُ فى الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً».

«زرق»: جمع «ازرق» وفى الأصل بمعنى زرقاء اللون، ومن الممكن أن يكون هذا اللون إشارة إلى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يحشر المجرمين زرق الأبدان أو عمياً أو عطاشاً لشدّة العطش الذى تتعرض له أبدانهم.

إننا نرى أنّ المعنى الأول هو الأنسب وذلك لأنّه معنى حقيقى، أمّا الثانى والثالث فله بعد كنائى (مجازى).

أمّا الآيتان التاسعة والعاشرة: فقد أشارتا أيضاً إلى النفخة الثانية أى‌نفخة الحياة والقيامة فقال تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً» وقال: «وَنُفِخَ فِى الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ».

إنّ الإتيان أفواجاً فى ذلك اليوم قد يكون لورود كل امة مع إمامها إلى المحشر (الأنبياء وغيرهم) أو أنّ كل زمرة من المجرمين الذين اقترفوا ذنباً معيناً يحشرون معاً.

على أيّة حال فهذه الآية لا تتنافى مع قوله تعالى: «وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيمَةِ فَرْداً».

(مريم/ ۹۵)

وذلك- كما أشرنا سابقاً- أنّ هناك مواطن ومواقف مختلفة فى يوم القيامة فمن الممكن أن يحشر الناس فى البداية على شكل مجموعات ثم يحضرون فى محكمة العدل الإلهى فرادى (فتأمل).

«الوعيد»: تستعمل هذه المفردة على قول الراغب الإصفهانى ومجموعة من المفسرين وأهل اللغة، فى الشرّ، فى حين كلمة «وعد» تستعمل فى الخير والشر، واستخدمت الآية الكريمة هذا اللفظ (الوعيد) لإنذار المجرمين من ذلك اليوم بالرغم من أنّ القيامة تشتمل على الوعد بالخير والوعيد بالشر.

الآيتان الحادية عشرة والثانية عشرة اللتان وردتا فى سورة يس تنذران بوقوع صيحة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶

شاملة تحدث فى نهاية هذا العالم هى (صيحة الموت) أو (صيحة الحياة) التى تقع فى بداية القيامة.

وفى موردٍ واحد أشارت الآية إلى صيحة نهاية العالم.

فقد كانوا يسألون دائماً متى يتحقق الوعد الإلهى..؟ وكانوا يظنون أنّ هذا الأمر عسير على اللَّه سبحانه وتعالى فيقول اللَّه تبارك وتعالى ليس الأمر كما يعتقد هؤلاء: «ما يَنْظُرُوْنَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ».

وأشار فى المورد الثانى إلى الصيحة الثانية (صيحة الإحياء): «ان كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

والصيحة كما يقول الراغب فى مفرداته، فى الأصل تعنى تشقق الخشب أو اللباس المصحوب بالصوت، ويطلق هذا الاصطلاح أيضاً على كل الأصوات والصرخات المرتفعة، وتأتى أحياناً بمعنى طول القامة، وذلك لأنّ الشجرة المرتفعة كأنّما تصرخ وتدعو الناس إليها.

ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة ذكر أنّ المعنى الأصلى للصيحة هو الصوت العالى و (تصيح) بمعنى تشقيق الخشب وهى كلمة أصلها واوى، ويقول إنّها كانت فى الأصل (تصوح) (فتأمّل).

على أيّة حال، فإنّ المفسرين يرون أنّ الصيحة الاولى هى نفخة الصور الاولى والصيحة الثانية هى نفخته الثانية فى حين أنّ الآية ۵۱ من نفس السورة والتى تقع بين هاتين الآيتين قد أشارت صراحة إلى نفخة الصور ونشور الأموات من قبورهم، وقيل لا منافاة بين الآيتين حيث إنّ الآية الثانية جاءت موضحة ومفسرة للآية الاولى ويكون مفهومها أنّ نفخة الصور الثانية ما هى إلّاصيحة عظيمة «فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ».

إنّ جميع هذه التعابير تدلل على حقيقة واحدة وهى أنّ نهاية الدنيا وبداية قيام الساعة أمر سهل يسير على اللَّه القادر سبحانه وتعالى ولا مبرر لعجب المخالفين من وقوع هذا الأمر، فالكل يموت بصيحة واحدة عظيمة ثم يصبحون رميماً وتراباً وبصيحة عظيمة اخرى يرجعون مرّة اخرى إلى الحياة، ويحضرون جميعاً أمام اللَّه تبارك وتعالى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷

الآيتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة: أشارتا مرّة اخرى إلى الصيحتين (صيحة الموت وصيحة الحياة).

تقول الآية الاولى «مَا يَنظُرُ هؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّالَهَا مِنْ فَوَاقٍ» وهناك عدّة أقوال فى تفسير هذه الآية، فقيل إنّها تشير إلى عذاب الاستئصال (وهو العذاب الدنيوى الذى يستأصل جذور الكافرين والظالمين مثل عذاب قوم نوح ولوط وغيرهما).

وقيل: إنّ الآية أشارت إلى نفخة الصور والمعنى الأول يتفق مع سياق الآيات السابقة للآية التى تتحدث عن مجازاة قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، ولكن مع أخذ ذلك بنظر الاعتبار فإنّ هذه الآية جاءت تهديداً لكفّار مكة مع أنّ هؤلاء مستثنون من عذاب الاستئصال بحكم قوله تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم وَأَنْتَ فِيهِمْ». (الانفال/ ۳۳)

وعلى هذا الأساس لا يمكن تفسير العذاب فى الآية بعذاب الاستئصال فيكون الرأى الثانى هو الأنسب.

وبناء على ذلك فهل أنّ الآية أشارت إلى نفخة الصور الاولى أم الثانية؟ هناك اختلاف بين المفسرين ولكن وبلا شك أنّ لحن الآية يتوافق مع النفخة الاولى ذلك لأنّ ذيل الآية يقول: «مَالَهَا مِنْ فَوَاقٍ» وهذا التعبير يقال عادة لنفخة الموت ولقد استشهد بحديث نقل عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حول هذه الآية لبيان النفخة الاولى «۱».

«فواق»: حسب قول الكثير من المفسرين وأهل اللغة، هو مابين حلبتى الناقة وأصله من الرجوع يقال، آفاق من مرضه أى رجع إلى الصحة.

وعلى أيّة حال فإنّ صيحة فناء العالم لا تعطى فرصة لأحد، وينتهى كل شىء فى وقت قصير ويصبح هشيماً تذروه الرياح ويقوم سد

محكم يحول بين الإنسان وماضيه.

ولقد أشارت الآية اللاحقة إلى صيحة يوم القيامة: «يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوْجِ».

ويعتقد المفسرون بأنّ هذه «الصيحة» هى نفس صيحة القيامة حيث إنّ ذيل الآية دليل

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۶۰۱؛ تفسير الكبير، ج ۲، ص ۱۸۳.

واضح على ذلك، والمراد من (الحق) كما يقول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان والفخر الرازى فى التفسير الكبير والآلوسى فى روح المعانى، هو نفس البعث والنشور.

ولكن ظاهر الآية أنّ المراد بالحق الوارد فى الآية الكريمة هو نفس معناه الأصلى، وبتعبير (الميزان) يعنى القضاء الحتمى، والنشور هو مصداقه، أمّا تعبير (يوم الخروج) فالمقصود منه يوم خروج الناس من قبورهم.

وهنا يطرح هذا السؤال: ومن الذى يسمع هذه الصيحة؟ هل تسمعها الأرواح قبل ورودها الأجساد؟ أم أنّ الأبدان تحيى وترجع إليها الأرواح عند الصيحة؟ وبهذا يستمر الناس فى سماعهم للصيحة، ومثل ذلك كمثل ساعة الجرس التى تدق قرب شخص نائم فتوقظه، وهناك أقوال اخرى والمعنى الثانى هو الأنسب لسياق الآية.

فى الآية الخامسة عشرة نجد تعبيراً جديداً وهو (نقر) قال تعالى «فَإِذَا نُقِرَ فى النَّاقُورِ* فَذلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ* عَلَى الْكَافِرِينَ غَيرُ يَسِيرٍ» و (نقر) كما يقول أرباب اللغة، فى الأصل يعنى طرق شىء، والمنقار هى وسيلة الطرق، ومن هنا يكون الطرق ملازماً للصوت و تأتى هذه الكلمة أحياناً بمعنى إيجاد الصوت أو سببه وهو هنا النفخ فى الصور، ولذا نجد أنّ مجموعة من المفسرين فسروا الآية بشكل مباشر بالنفخ فى الصور، فالنقر بمعنى النفخ والناقور بمعنى الصور «۱».

وهناك احتمال آخر وهو أنّ تعبير (النقر) جاء لأنّ الصوت الذى ينبعث من البوق من العظمة والشدّة وكأنّه ينقر الاذن نقراً ويغوص إلى المخ.

على أيّة حال، فإنّ هذا التعبير هو إشارة إلى النفخة الثانية بشهادة الآيات التى بعد هذه الآية والتى تخبر عن الوضع العسير الذى يعيشه الكافرون فى ذلك اليوم، ويقول الفخر الرازى: «إذا كان المقصود هو النفخة الاولى (كما يحتمل المفسرون) فسوف لا يكون ذلك اليوم عسيراً على الكافرين لأنّهم يموتون فى تلك الساعة، إنّما اليوم الشديد على الكافرين عند صيحة الإحياء ولذلك يقولون: ياليتها كانت القاضية» «۲».

---

(۱) راجع تفاسير مجمع البيان؛ وروح البيان؛ و الكبير فى ذيل الآية مورد البحث.

(۲) راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح المعانى؛ روح البيان؛ الفخر الكبير.

وفى الآية السادسة عشرة نلاحظ تعبيراً جديداً هو الصاخة، قال تعالى: «فَاذَا جَآءَتِ الصَّآخَّةُ* يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ اخِيهِ».

«الصاخة»: مشتقة من مادة (صخ) ويقول الراغب هو الصوت الشديد الذى ينبعث من أصحاب النطق.

وقال صاحب مقاييس اللغة، هى الصيحة التى تصم الآذان، وفسّرها البعض: بمعنى طرق رأس الإنسان بالحجر «۱»، وقيل: الاستماع والانصات، الصاخة هى التى تصخ الآذان حتى تكاد تصمّها «۲» وتسمى بالصاكة لشدّة صوتها.

وفى كل الأحوال فهذا التعبير إشارة إلى «نفخ الصور» النفخة الثانية، تلك الصيحة العظيمة التى هى صيحة الصحوة والحياة، حيث يساق الجميع إلى عرصات المحشر، وكل واحد مشغول بنفسه إلى الحد الذى يفرّ من أخيه وأبيه وامه وأصدقائه.

ونواجه فى الآيـة السابعـة عشـرة تعبيراً آخر حول مسألـة نفـخ الصور، يقول تعالى «الْقَارِعَـةُ* مَا الْقَارِعَـةُ* وَما ادْراكَ مَا الْقَارِعَـةُ* يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ* وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ* فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ* فَهُوَ فى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ».

«القارعة»: من مادة (قَرْع) على وزن (فَرْع) وفى الأصل بمعنى الطرق الشديد الذى ينبعث منه صوت عال، ومنها (المقرعة).

فما المقصود من القارعة فى هذه الآيات:

قال بعض المفسـرين: إنّ هـذا التعبير هو أحـد أسـماء القيامة وذلك لأنّ الحوادث التى تقع فيها حوادث شديدة وتقرع القلوب لشدّتها وهولها ولقـد صرّح البعض من المفسـرين بأنّ هذا التعبير يطلق على مجموعة حوادث القيامة التى تبدأ من نفخة الصور الاولى وتنتهى بخاتمة المحكمة الإلهيّة «۳».

---

(۱) راجع تفاسير روح المعانى؛ روح البيان؛ الكبير.

(۲) راجع تفسـير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۰؛ التفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۴۳؛ تفسير روح المعانى، ج ۳، ص ۴۸؛ و تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۰۱۵.

(۳) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۹؛ و تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۲۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰

يقول الفخر الرازى فى تفسيره: واختلفوا فى لمّية هذه التسمية على وجوه:

أحدها: إنّ سبب ذلك هو الصيحة التى تموت منها الخلائق.

وثانيها: إنّ الأجرام العلوية والسـفلية تصـطدم مع بعضها بشدّة عند تخريب العالم، فيحدث على أثر هذا الاصطدام تلك القرعة فسميت القيامة بالقارعة.

وثالثها: إنّ القارعة هى التى تقرع قلوب الناس بالأهوال والخوف.

ورابعها: إنّها تقرع أعداء اللّه بالعذاب والخزى والنكال. «۱»

ولكن الآيـات التى تأتى بعـد هـذه الآيات تـدلل على أنّ هـذا التعبير ناظر إلى النفخـة الاولى وهى النفخـة التى ترعب جميع الناس ثم تهلكهم وتخرب الجبال، ولقد ذكرت فى تعقيب هذا الموضوع حوادث القيامة كتسلسل طبيعى.

على أيّة حال، فإنّ التعبير أعلاه إمّا أنّه يشـير إلى نفخة الصور الاولى أو أنّ النفخة الاولى جزء منها، وإمّا أن يكون قد أشار إلى النفخة الثانيـة، وهـذا ما لا يتوافق مع سـياق الآيات، فمن المسـتبعد جـدّاً أن تكون الآية: «يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَراشِ الْمَبْثُوثِ» قد أشارت إلى النفخة الثانية والآية التى بعدها: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ» أشارت إلى النفخة الاولى

أمّا الآيـة الثامنـة عشـرة فنلاحظ فيها تعبيراً جديداً آخر ألا وهو (الزجرة) أو (الصـيحة العظيمة)، فى جواب من يعجب من رجوع الحياة بعد الموت، إذ تقول الآية لا تعجبوا فذلك ليس بالعسير: «فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ».

«زجرة»: فى الأصل بمعنى الطرد وبصوت مرتفع، مثل طرد الإبل، وتأتى بمعنى الصـيحة من قولك زجر الراعى الإبل أو الغنم إذا صاح عليها فريعت لصوته «۲».

وفى كشاف الزمخشرى، زجره يزجره، إذا صاح بمنعه ثم استعملت بمعنى الطراد، وترد أحياناً بمعنى الصوت.

و جملة (ينظرون) ربّما تعنى النظر بحيرة من شدّة الخوف أو نظر أحدهم إلى الآخر أو انتظار الحكم النهائى.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۷۰.

(۲). راجع مقاييس اللغة والمفردات للراغب، مادة (زجر).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱

على أيّة حال فظاهر الآية الكريمة يشير بوضوح إلى نفخة الحياة ونشور الناس من قبورهم وتهيئتهم للحساب، وإنّ أغلب المفسرين قد أشاروا إلى هذا المعنى

يستفاد من مجموع الآيات أنّ نهاية وبداية العالم الآخر إنّما تحدثان بصورة مباغتة وتتزامنان عند وقوع صيحة عظيمة، ولقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك تعابير مختلفة، فأحياناً استخدم الصيحة وأحياناً الزجرة والصاخة والتى هى بمعنى الصيحة واخرى النقر، كما عبّر عنها فى كثير من الموارد بنفخة الصور.

وفى الظاهر لم يلاحظ فى هذه الآيات شرحاً أو توضيحاً لكيفية النفخ، وحكم هذه الحادثة فى الواقع كحكم سائر الحوادث المتعلقة بمشاهد يوم القيامة التى لم ترسم لنا صورة تفصيلية عنها، إلّاأنّ الأحاديث التى سنوردها بهذا الصدد قد تعرضت إلى هذه الحوادث وفصلتها إلى حدّ ما، ولكنّها لم ترفع الابهامات بشكل كلى وبعبارة اخرى لم تستطع أن ترفع هذه الإشكالات وذلك لأنّ هذه الامور من أسرار العالم الآخر من جهة، ومن جهة اخرى أنّ عقولنا المحدودة بحدود هذه الدنيا وعاجزة عن إدراك هذه الحوادث على حقيقتها.

توضيحات

۱- ما المراد ب (نفخة الصور) أو صرخة الموت والحياة

علمنا أنّ الصور وحسب قول الكثير من أرباب اللغة يعنى البوق أو القرن العظيم (كانوا يصنعون البوق من قرن الحيوان).

فكانوا ينفخون فيه من جهة فيخرج الصوت عالياً من الجهة الاخرى

فهل أنّ هذا التعبير تعبيرٌ مجازىٌّ كناية عن الأمر الصادر من قبل اللّه تبارك وتعالى ينذر بنهاية العالم المباغتة وبداية القيامة؟ هو تشبيه لما اعتاد عليه الناس فى ايقاف القطعات العسكرية أو إيقافها أو لدعوتها للتجمع، فهى وسيلة تستعمل لإعلام الجميع بالوقوف أو

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۲

الحركة أو التجمع؟ (حيث إنّ لحن بوق الوقوف يختلف عن لحن بوق الحركة) ولا- زال هذا الأسلوب معمولًا به فى بعض الثكنات والقطعات العسكرية، فهناك بوق النوم وبوق النهوض وبوق التجمع «۱»؟ أم أنّ هذا التعبير ليس له بعد كنائى وإنّما هى نفخة حقيقية؟ ولكن من الواضح أنّ هذا البوق ليس بوقاً عادياً وإنّما هو صاعقة وصيحة عظيمة تعمّ أرجاء السموات والأرض وتسبب موت جميع الموجودات الحية أو إحيائها وبعث الحياة والحركة فيها.

إنّ هذا الاحتمال هو الأرجح، ويتناسب مع ظاهر الآيات: ونقرأ فى هذا الصدد حديثاً ورد عن الإمام على بن الحسين عليه السلام: «إنَّ الصُّورَ قَرْنٌ عَظيمٌ لَهُ رَأسٌ واحدٌ وَطَرفانِ، وَبيْنَ الطَّرفِ الأَسْفَل الَّذى يلى الأرضَ إلى الطَّرف الأعلى الَّذى يَلى السَّماءَ مِثْلُ ما بَيْنَ تَخُومِ الأَرضينَ السّبع إلى فوقِ السَّماء السّابعةِ، فيه اثْقابٌ بعَدَدِ أرْواحِ الخلائقِ، وَسِعَ فَمُهُ ما بَيْنَ السَّماءِ والأَرضِ» «۲».

ولقد ورد فى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله: «الصُّور قَرْنٌ مِن نورٍ فيهِ اثْقابٌ على عَدَدِ أرْواح العِبادِ» «۳».

وهذان الحديثان يؤكّدان أنّ هذا التفسير هو كناية عن موضوع هام بيّن فى هذا المجال.

ولكن نلاحظ فى أقوال بعض المفسرين أنّ (الصور) مأخوذ من جمع (صورة) وقالوا: إنّ المراد النفخ فى صُوَر وأبدان الناس فتدب الحياة فيهم.

إنّ هذا التفسير يتناسب مع النفخة الثانية أىنفخة الاحياء وليس النفخة الأُولى ولقد رُفض هذا التفسير من قبل بعض أرباب اللغة حيث ورد هذا المعنى فى (لسان العرب) عن بعض علماء اللغة قال: هذا خطأ فاحش ونوع من التحريف فى كلام اللّه تعالى وذلك لأنّه ورد جمع (الصورة) فى آيات قرآنية أُخرى على (صُوَر) على وزن فُعَل وليس (صُوْر) وإذا

(۱). ورد هذا الكلام فى تفسير روح الجنان، ج ۹، ص ۴۲۱.

(۲). لئالىء الأخبار، ج ۵، ص ۵۳.

(۳). علم اليقين، ص ۸۹۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۳

قرأ أحد جملة «ونُفِخَ فى الصُّوْر» «الصُّوَرِ» بفتح الواو فقد إفترى على اللّه وحرَّف كتابه، فكما أنّ هذا التفسير لا يتوافق مع الروايات السالفة الذكر كذلك لا يتوافق مع الآيات التى وردت فيها تعابير (صعقة) (وزجرة) و (ناقور) وغيرها.

ولا يستبعد أنْ يكون هذا ناتجاً عن عدم هضم معنى (نفخ فى الصور)، فى حين أنّ الصور ليس بوقاً عادياً وليست النفخة شبيهة بنفخاتنا.

وعلى أيّة حال فإن التفسير الثانى هو الأنسب من بين التفاسير الثلاثة التى قيلت بهذا الصدد، حيث إنّه ينسجم وسياق ظاهر الآيات ولابدَّ لنا من الاعتراف بعجزنا عن اعطاء توضيح كامل عن نفخة الصور.

۲- تأثير الأمواج الصوتية على الإنسان وسائر الموجودات

من المعلوم أنّ الصوت نوع من الأمواج التى تتحرك فى الهواء وفى السوائل أو الجمادات والأصوات التى تسمعها اذن الإنسان يجب أن لا تقل ذبذباتها عن ۲۰ ولا تزيد عن ۲۰۰۰۰ فى الثانية.. وهناك مخلوقات تسمع الأصوات التى تزيد ذبذباتها عن ذلك، ومن بينها طائر الخفاش حيث إنّ لهذا الحيوان القابلية على سماع الأصوات التى يبلغ مقدار ذبذباتها ۱۴۵ ألف ذبذبة «۱» فى الثانية، ومن المعروف أنّ الحيوانات تدرك الهزة الأرضية قبل الإنسان ولعل السبب فى ذلك يعود إلى هذا العامل حيث إنّها تسمع الأمواج الصوتية المنبعثة منها والتى لا يتمكن الإنسان من إدراكها، وكما هو معلوم فإنّ الأمواج الصوتية الشديدة تسبب أحياناً تدمير كل شىء، وما تأثير القنابل والمواد المنفجرة على الإنسان والأبنية إلّابفعل هذه الأمواج الشديدة التى يُعبّر عنها ب (أمواج الانفجار) فهى قادرة فى لحظة واحدة على تحطيم أىمقاومة تواجهها، فتحول الإنسان والأبنية إلى حطام متناثر.

على هذا الأساس ليس من العجب أن تكون صيحة القيامة هى السبب فى إماتة الناس

(۱). يراجع كتاب الصوت، ص ۵۷؛ والنجوم للجميع، ص ۹۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۴

وجميع المخلوقات وازالة الجبال فى مدّة قصيرة، ويُحبذ أن ننقل كلاماً للإمام على عليه السلام ورد فى نهج البلاغة: «ويُنفَخُ فى الصُّوْرِ فتزهَقُ كُلُّ مُهْجةٍ وتبكُم كُلُّ لَهْجَةٍ وَتذلُّ الشُّمُّ الشوامخ والصُّمُّ الرَّواسخُ فَيَصيرُ صَلْدُها سَراباً رقرَقاً وَ مَعْهَدُها قاعاًسَمْلَقاً» «۱».

فحَريٌّ بنا أن نُدرك أنّ هذه الأشياء تخص (نفخة الإماتة) ومن البديهى أنّ (نفخة الإحياء) شىء آخر فهى صرخة النهوض والحياة والحركة والنشاط.

وتبقى معرفتنا بهذه النفخة وسائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة محدودة جدّاً.

۳- إجابات حول نفخة الصور

۱- هل أن نفخة الصور تقع مرتين فقط؟

من المعلوم أنّ الآيات القرآنية تشير إلى وجود نفختين (نفخة الإماتة ونفخة الإحياء) وقد لاحظنا ذلك فى الآيات السالفة الذكر.

ولكن يستفاد من بعض الروايات أنّ نفخة الصور تتحقق ثلاث مرات حتى أنّ بعض الروايات تستدل بالقرآن على ذلك ولقد نُقل فى كتاب لئالئ الأخبار عن المرحوم (الديلمى) فى كتاب إرشاد القلوب هذا الحديث: «وله أى «اسرافيل» ثلاث نفخات «نفخة القرع» و «نفخة الموت» و «نفخة البعث») فاذا فنيت الدنيا أمر اللّه اسرافيل أن يهبط إلى الأرض وينفخ نفخة الفزع كما قال تعالى «وَيَومَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِى السَّموَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ». (النمل/ ۸۷)

... وتزلزلت الأرض وتذهل كل مرضعة عمّا أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ويميد الناس ويقع بعضهم على بعض كأنّهم سكارى وما هم بسكارى وأمّا نفخة الإحياء فقال تعالى «وَنُفِخَ فى الصُّور فَصَعِقَ مَنْ فِى السَّموَاتِ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ». (الزمر/ ۶۸)

وكما قال تعالى «ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرى فَإِذَا هُمْ قِيامٌ يَنْظُرُونَ» «۲». (الزمر/ ۶۸)

---

(۱). نهج البلاغة، خطبة ۱۹۵.

(۲). لئالىء الأخبار، ج ۵، ص ۵۴ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۵

ولقد أضاف البعض نفخة رابعة إلى هذه النفخات الثلاث وهى نفخة الجمع والحضور، والظاهر أنّ هذه النفخة أخذت من قوله تعالى: «إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحضَرُونَ» (يس/ ۵۳)

ولكن فىالواقع أنّها نفس هاتين النفختين، اتسعتا وتبدلتا إلى أربع نفخات، وذلك لأنّ الفزع الأكبر ماهو إلّامقدمة لموت الناس الذى يحدث على أثر إدامة واستمرار نفخة الحياة، ويمكن أن نُؤكد هذا المعنى بالرجوع إلى قوله تعالى: «يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ* تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ» (تأمل). (النازعات/ ۶- ۷)

۲- مَن الملك المأمور بنفخة الصور

ورد فى الأحاديث الشريفة أنّ هذا الملك هو اسرافيل، ويعتقد البعض أنّ هذه الكلمة تعنى فى اللغة السريانية (عبداللّه)، ولقد ورد فى حديث عن الإمام السجاد عليه السلام: «أنّ اللّه يأمر اسرافيل فيهبط إلى الدنيا ومعه صور ...» «۱».

ويستفاد من بعض الروايات أنّ اسرافيل هو أقرب الملائكة للّه «۲» وهو أول من سجد لآدم من الملائكة «۳».

وما كون نفخة الموت والحياة بيده إلّادليلًا على عظمة منزلة هذا الملك، ويستفاد من الرواية الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام: «أنّ نفخة الموت تكون من قبل اسرافيل، وبعدها يقول اللّه لاسرافيل: مت فيموت اسرافيل وتنفخ نفخة الحياة من قبل الخالق نفسه تبارك وتعالى «۴».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۳۲۴، ح ۲.

(۲). لغتنامه دهخدا، مادة (اسرافيل).

(۳). سفينة البحار، ج ۱، ص ۴۱۴ مادة (سرف).

(۴). تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۵۰۲، ح ۱۱۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۶

۳- ما هى الفترة الزمنية بين النفختين

يستفاد من آيات القرآن الكريم بشكل عام أنّ هناك فترة زمنية بين نفختى الإماتة والإحياء وأنّ تعبير (ثم) الذى ورد فى الآية ۶۸ من

سورة الزمر يؤكد هذا المعنى ولكن ورد فى بعض الروايات أنّ أمد هذه الفترة أى (أنّ ما بين النفختين أربعون سنة) ولا أحد يعلم هل أنّ هذه السنين من سنىّ الدنيا أم من سنىّ الآخرة التى يعادل كل يوم منها خمسين الف سنة.

وعلى أيّة حال فإنّ هناك حوادث عظيمة تقع مابين النفختين يتشكل خلالها عالم جديد وحياة جديدة للناس، فلا يبقى فى هذه الفترة أىُّ مخلوق حىّ فى العالم بأسره إلّاوجهُ اللَّه الحىّ القيوم، وأمّا ما جاء فى الآيتين ۶۸ من سورة الزمر و ۸۷ من سورة النمل اللتين ذكرتا جملة «إِلَّا مَنْ شَآءَ اللَّهُ» لا يعنى أنّ هؤلاء لا يشملهم الموت بل إنّ موتهم موكول إلى زمان لاحق، أىأنّ أجلهم يتأخر، والشاهد على ذلك هذه الآية التى وردت فى ثلاث آيات من القرآن الكريم: «كُلُ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». «۱» (آل‌عمران/ ۱۸۵)

والجدير بالذكر هنا أنّ (النفس) لها مفهوم واسع يشمل جميع الموجودات الحية، أمّا من هم الذين استثنتهم الآية؟ فقد ذكر المفسرون احتمالات عديدة فى ذلك، فقال البعض: إنّهم مجموعة من ملائكة اللَّه المقربين أمثال (اسرافيل وجبرائيل وميكائيل وعزرائيل)، ولقد أضاف بعضهم جملة العرش.، وقيل أرواح الشهداء (فى الأبدان المثالية) وقيل: خزنة الجنّة ومالكو النّار.

ويستفاد من رواية الإمام السجاد عليه السلام أنّ جميع الكائنات تموت عند الصيحة الاولى ماعدا اسرافيل الذى ينفخ فى الصور ثم يموت بعد ذلك بأمر اللَّه تعالى

۴- فلسفة نفخة الصور؟

إذا كانت حقيقة نفخة الصور غير واضحة لنا بشكل تام، فلم تكن فلسفته التربوية خافية

---

(۱) راجع الأنبياء، ۳۵؛ العنكبوت، ۵۷.

علينا.. والمهم لنا هو الآثار التربوية لهذه العقائد الحقّة.

فنفخة الصور تبيّن لنا:

۱- إماتة واحياء جميع المخلوقات ليست حالة عسيرة على اللَّه تبارك وتعالى فهو تعالى قادر على إماتة جميع الخلائق بأسرها بصيحة واحدة تصعقها جميعاً، وكذلك هو قادر على أن يحيى جميع الخلائق بصيحةٍ عظيمة اخرى وكأنّ المخلوقات كانت فى سبات فتبعث هذه الصيحة على ايقاظهم من نومهم العميق، وهذا جواب لمن يشك فى المعاد أو لمن يعتقد بأنّ المعاد من الامور المستحيلة الوقوع كما كانوا يسألون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مراراً.

۲- نفخة الصور انذار لجميع الناس بعدم الركون إلى الدنيا والاطمئنان إليها لكى لايقعوا فى الغرور والغفلة، وأن يؤمنوا بأنّ صيحة القيامة ونفخة الموت ممكنة الوقوع فى كل حين وأنّهم سائرون إلى ديار العدم إلى الموت الذى يطوى جميع آمالهم وأمانيهم.

۳- تعتبر نفخة الصور وايعازها بنهاية هذا العالم وبداية عالم آخر من الدروس التربوية العميقة للناس، فالإيمان بذلك يجعلهم مُهيّأون لاستقبال مثل هذه الحادثة العظيمة وإذا آمنوا بذلك فانّهم لن يتواكلوا بتأخير الأعمال إلى الغد، فليس هناك تاريخ معين لوقوع هذه الحادثة المباغتة التى تقع من غير مقدّمات.

ونذكر حديثاً للإمام السجاد عليه السلام فى هذا المعنى ينقله الراوى بعد شرح موجز حول نفخة الصور فيقول: عندما يصل الإمام عليه السلام إلى هنا: (رأيت على بن الحسين يبكى عند ذلك بكاءً شديداً) (فالإمام فى غاية الوجل من مسألة النهاية المباغتة للدنيا وحلول الآخرة والحضور أمام اللَّه تبارك وتعالى «۱».

---

(۱) تفسير على بن إبراهيم، ذيل الآية ۶۸ من سورة الزمر؛ بحار الأنوار، ج ۶، ص ۳۲۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۹

۳- صحيفة الأعمال

اشارة

ملاحظة: نجد فى الكثيرمن الآيات القرآنية بحوثاً واسعة حول صحيفة الأعمال وقد ذُكرت بتعابير مختلفة، فقد ورد فى أكثر الآيات تعبير (الكتاب) الذى يحمل مفهوماً واسعاً فهو يشمل الصحيفة ويشمل الكتاب أيضاً.

ولقد ورد فى البعض الآخر تعبير (زُبر) جمع (زبور) وهذا التعبير له مفهوم قريب من الكتاب.

وقد جاء فى البعض الآخر منها تعبير (طائر) وهو الطير الذى كان العرب يتفاءلون به، وكانوا يعتقدون بأنّ مصيرهم مرتبط به، فيقول القرآن لهم إنّ طائر الخير والشر هو نفس صحيفة أعمالكم.

وقد وردت فى بعض الآيات أشارة إلى كلام محررى صحف الأعمال وعبرت عنهم بتعابير مختلفة كالرقيب والعتيد أو رسل اللّه أو (كراماً) أو (متلقيان) وكل واحد منهم مأمور بعمل خاص، (تأمل).

من هنا نقول: ماهى صحيفة الأعمال؟ وهل أنّ لكل إنسان صحيفة أعمال واحدة، أم أكثر من ذلك؟ ومن هم كُتاب صحف الأعمال؟ وكيف يتمّ تسجيل هذه الصحف؟ وكيف تعطى باليمين أو بالشمال؟

هناك بحث واسع فى هذا الصدد سنتعرض إليه بعد ذكر الآيات التى تدور حول هذا الموضوع، مع عدم الغفلة عن التعرض بالدرجة الاولى للمسائل التربوية والأخلاقية فى هذه الآيات:

۱- «إِنَّا نَحْنُ نُحيِ الْمَوتَى وَنَكْتُبُ مَاقَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىءٍ احْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ».

(يس/ ۱۲)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۰

۲- «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا».

(الكهف/ ۴۹)

۳- «أَمْ يَحسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ».

(الزخرف/ ۸۰)

۴- «وَترَى كُلَّ امَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ امَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَاكُنْتُم تَعْمَلُونَ». (الجاثية/ ۲۸- ۲۹)

۵- «وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً* إِقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً».

(الإسراء/ ۱۳- ۱۴)

۶- «وَكُلُّ شَىءٍ فَعَلُوهُ فِى الزُّبُرِ* وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ». (القمر/ ۵۲- ۵۳)

۷- «وَكُلَّ شَىءٍ أَحصَيْنَاهُ كِتَاباً». (النبأ/ ۲۹)

۸- «كَلَّا إِنَّ كِتابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ* وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ» «كِتَابٌ مَّرْقُومٌ* كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ* وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ* كِتَابٌ مَّرقُومٌ* يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

(المطففين/ ۷- ۹ و ۱۸- ۲۱)

۹- «إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ* مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ». (ق/ ۱۷- ۱۸)

۱۰- «وَإِنَّ عَلَيكُم لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

(الانفطار/ ۱۰- ۱۲)

۱۱- «فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه» «وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُوْتَ كِتَابِيَه* وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَه». (الحاقة/ ۱۹- ۲۵- ۲۶)

۱۲- «فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً* وَأَمّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ وَرَآءَ ظَهْرِهِ* فَسَوفَ يَدْعُواثُبُوراً* وَيَصْلى سَعِيراً».

(الانشقاق/ ۷- ۱۲)

۱۳- «فَأَصْحَابُ المَيْمَنةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنةِ* وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَآأَصْحَابُ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۱

نفحات القرآن ج۶ ۹۹

الْمَشْئَمَةِ». (الواقعة/ ۸- ۹)

۱۴- «وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَا أَصحَابُ اليَمِينِ* فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ» «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ* فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ». (الواقعة/ ۲۷- ۲۸ و ۴۱- ۴۲)

۱۵- «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» ... «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ». ۱ (التكوير/ ۱۰- ۱۴)

جمع الآيات وتفسيرها

تتحدث الآية الاولى عن الحياة بعد الموت وعن كتاب الأعمال، ذلك الكتاب الذى يكتب بيد القدرة الإلهيّة وتثبت فيه أعمال الناس كلها وعبر عنه ب «الإمام المبين» «إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ مَاقَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَىءٍ أَحصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ».

فما المراد بالآثار؟

قيل: إنّ عبارة (ما قدموا) إشارة إلى الأعمال التى يؤدّيها الإنسان، (وآثارهم) إشارة إلى السنن التى يخلفها بعد موته أو آثار الخير والصدقات الجارية مثل الأبنية والأوقاف والكتب العلمية والتربوية.

وقيل أيضاً: إنّ المراد ب (ما قدموا) النيات التى تحصل قبل أداء العمل، و (آثار) إشارة إلى الأعمال التى تنجز بعد النيّة وقيل إنّ (ماقدموا) إشارة إلى الأعمال الصالحة والسيئة، و (آثار) إشارة إلى الخطوات التى يخطوها الإنسان لانجاز هذه الأعمال، فيقال للقدم من هذه الجهة (أثر) حيث تترك الاقدام أثرها على الأرض وخاصة الترابية.

ونذكر حديثاً حول نزول هذه الآية، حيث إنّ فريقاً من الأنصار (طائفة من بنى سلمة كانوا فى ناحية المدينة فشكوا إلى الرسول بعد منازلهم من المسجد والصلاة معه فأرادوا النقلة فقال صلى الله عليه و آله: «إنّ اللّه يكتب خطواتكم ويثيبكم عليه فالزموا بيوتكم» «۱».

«الإمام المبين»: هو اللوح المحفوظ الذى تثبت فيه جميع الحقائق حسب قول الكثير من المفسرين وبناءً على ذلك يستفاد من التعبير أعلاه أنّ الإمام المبين هو غير صحيفة

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۴، جزء ۲۲، ص ۴۱۸؛ تفسير الكبير، ج ۶، ص ۴۹؛ تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۴- ۵۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۲

الأعمال التى تختص بكل فرد، بل هو كتاب عمل عام، فهذا اللوح بمنزلة سجل عام تحصى فيه جميع أعمال الناس، وسوف نوضح هذا الكلام فى موضوع (تعدد صحف الأعمال).

عبارة (مبين) إشارة إلى ذكر اللوح المحفوظ وصحيفة الأعمال لجميع الأعمال نظراً لأنّه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الأعمال الصالحة أو السيئة إلّاأحصاها.

ولقد جاء فى روايات متعددة أنّ المراد من (الإمام المبين هو الإمام المعصوم الذى يبيّن جميع الحقائق بأمر اللَّه تعالى وبتعليم من الرسول صلى الله عليه و آله، وفى هذا الصدد ورد حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام فى تفسير على بن إبراهيم عليه السلام قال: «أنا واللَّه الإمام المبين! أُبيّن الحق من الباطل، ورثته من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۱».

ومن خلال هذه التفاسير يتبيّن أنّ للإمام المبين مفهوماً واسعاً فكما يشير ظاهرهُ إلى كتاب الأعمال الذى يدون جميع أعمال الناس كذلك يشير باطنه إلى الإمام المعصوم الذى يُبيّن الحق من الباطل من خلال العلم الذى يرثه عن الرسول صلى الله عليه و آله.

ولقد أشارت الآية الثانية إلى هذا المعنى بصراحة أكثر: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا» فهل أنّ هذا الكتاب هو كتاب أعمال الناس الذى أشارت إليه الآيةُ الاولى أم أنّه كتاب أعمال كل امءٍ أو كتاب أعمال كل إنسان؟ (وذلك- وكما سنوضح ذلك فى البحوث المقبلة إن شاء اللَّه- أنّ هذه الأنواع الثلاثة من كتب الأعمال.. أخذت من آيات القرآن الكريم).

فالاحتمالات الثلاثة ممكنة فى تفسير هذه الآية ولو أنّ من الممكن أن يكون ذكر (الكتاب) بصورة المفرد إشارة إلى كتاب أعمال جميع الناس، ويستفاد من الآية الكريمة أنّ هذا الكتاب يعرض جميع جزئيات أعمال الإنسان الصالحة والسيئة، الكبيرة والصغيرة، حتى أنّ أصحابها يصيبهم الوجل والخوف من أعمالهم، وسبب وجلهم يعود إلى حضورهم

---

(۱). تفسير على بن إبراهيم، ج ۲، ص ۲۱۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۳

فى محكمة العدل الإلهى من جهة ومن جهة اخرى أنّهم قد نسوا الكثير من الأعمال ولم يعطوها أهميّة، ولكنّها اليوم تجسدت أمام أعينهم، ومن جهة ثالثة، الفضيحة العظمى أمام الخلائق.

ويجب أن ننتبه إلى هذا المعنى وهو أنّ كلمة (يغادر) مشتقة من مادة (غَدْر) بمعنى الترك، و بناء على ذلك يكون مفهوم هذه الجملة هو أنّ هذا الكتاب لا يترك شيئاً إلّاوسجّلهُ، ويقال لنكث العهد غدر وذلك بسبب عدم الوفاء به.

وتتحدث الآية الثالثة عن كتابة رسل اللَّه تبارك وتعالى «أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَانَسْمَعُ سِرَّهُمْ ونَجْواهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِم يَكْتُبُونَ».

ومن الواضح أنّه لا يوجد هناك تضارب بين هذه الآية والآية التى تقول: «إِنَّا نَحنُ نُحْيِ المَوتَى وَنَكتُبُ مَا قَدَّمُوا وآثَارَهُم» نظراً لأنّ عمل الرسل والملائكة إنّما هو فى الحقيقة عمل اللَّه تبارك وتعالى لأنّه يجرى بأمره، وهناك احتمال بأنّ كتاب أعمال الناس جميعاً (الإمام المبين) يكتب بيد القدرة الإلهيّة، أى بصورة مباشرة، أمّا كتاب أعمال كل إنسان الذى عرض فى هذه الآية فيكتب بواسطة الملائكة، أمّا تعبير (الرسل) وهو جمع رسول فالمراد به هنا الملائكة المأمورون بكتابة الأعمال، وليس المقصود وجود عدد من الملائكة لكل إنسان بل يمكن أن يكون لكل فرد ملك واحد أو ملكان فيكون بصورة الجمع بالنسبة لمجموع الناس.

يقول الزمخشرى فى الكشاف: (السّر) ما حدّث به الرجل نفسه أو غيره فى مكان خال أمّا النجوى ما تكلّموابه فيما بينهم همساً «۱».

---

(۱). تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۲۶۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۴

الكتاب الذى يتكلم:

الآيـة الرابعـة تنسب عمليـة تـدوين الأعمال إلى اللّه سـبحانه وتعالى إضافة إلى ذلك دلّلت على أنّ صـحف الأعمال تنطق يوم القيامة: «وَتَرى كُلَّ امَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ امَّةٍ تُدعى إلى كِتابِها ...* هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بِالحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَاكُنْتُم تَعْمَلوُنَ».

فهى تتحـدث بوضوح عن كتاب أعمال الامم والـذى هو أحد الأقسام الثلاثة لكتب الأعمال، وتعدد هذه الكتب يؤكد حقيقة تسـجيل كـل أعمـال الإنسـان وعـدم ترك صـغير ولاـ كبير منهـا، ويـدل تعبير- تُـدعى على أنّهم يـدعون ليقرأوا كتبهم، وبالتـالى يكونون هم المحاسبين لأنفسهم، كما جاء صراحة فى الآية الشريفة: «إِقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَومَ عَلَيكَ حَسِيباً». (الاسراء/ ۱۴)

«وجاثية»: مشـتقة من (الجُثوّ) على وزن (عُلوّ) بمعنى الجلوس على الركب والسبب فى اتخاذ هذه الجلسة من قبل أهل المحشر يعود إمّا لشـدّة الخوف أو هى شَـبَه للحالـة التى كان يتخذها المتهمون فى قديم الزمان عند الحضور فى المحكمة لإبداء الرأى، حيث يجلسون جلوس القرفصاء، وهو الوضع الذى يتخذه الإنسان عند انتظاره للحوادث المهمّة.

ومن الملفت للنظر هنا نسبة تسجيل الأعمال إلى اللّه سبحانه وتعالى وهذا يدل على أنّ كاتب الأعمال ليس بالذى تتصور فيه الغفلة أو الخطأ وهو عليم ومحيط بكل شـىء، و (نستنسخ) من مادة (نسـخ) وحسب قول أهل اللغة أنّ النسـخ إزالـة شـىء بواسـطة شـىء آخر ويلازمه نفى لشـىء وإثبات لشـى آخر، وتسـتعمل هـذه الكلمة بمعنى النفى أحياناً واخرى بمعنى الإثبات وثالثة بمعنى الإثبات والنفى معاً.

من هنا يتبين أنّ الاستنساخ يعنى إثبات موضوع مع صرف النظر عن آخر.

ونجـد فى الآيـة الخامسـة تعبيراً آخر هو (الطـائر): «وَكُـلَّ إِنسَـانٍ أَلْزَمْنَـاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَـةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً* إِقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفسِكَ الْيَومَ عَليكَ حَسِيباً».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۵

و «الطـائر»: فى الأسـاس، هو الطير ويراد به العمـل أو كتـاب الأعمـال حسب قول الكثير من المفسـرين، ويعود هـذا الربط إلى العادات والتقاليـد العربيـة حيث كانوا يتفاءلون للخير والشـر بواسـطة الطيور، فبعض الطيور يبشـر بالسـعادة واليمن والبركـة، فاذا عرض لهم هذا الطير أثنـاء خروجهم من منزلهم أو من مـدينتهم استبشـروا ورأوا ذلـك دليلًا على الانتصـار والنجـاح، وعلى عكس بعض الطيور التى يعتقدون بأنّها نذير شؤم، فالطائر يسـتخدم للتفاؤل والتشاؤم معاً، لذا فقد قال بعض المفسـرين إنّ ما يقابل كلمة طائر فى اللغة الفارسـية هو (البخت) ومن هنا يعتبر القرآن الكريم أنّ العامل الرئيس للسـعادة والشـقاء هو أعمال الإنسان، وقد استعملت هذه الكلمة للتعبير عن كتاب هـذه الأعمال، وبهـذا المعنى فقـد صـنع القرآن الكريم من مفهوم خرافى لا أساس له حقيقـة واقعية ودعا الناس إليها، مع الأخذ بنظر الاعتبـار جملـة: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَـةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً» حيث يمكن القول أنّ تفسير الطائر بالعمل أنسب من تفسـيره بكتاب الأعمـال وذلـك لأنّه ذكر كتاب الأعمال بشـكل مسـتقل فلكون الأعمال متعلقـة بعنق الإنسان فهى لا تنفك عنه أبـداً، فإن كان العمل صالحاً فيسعد ويأنس به صاحبهُ وإن كان سيئاً فيؤذى صاحبه كالغل أو السلسلة.

وهناك مسألتان اخريان فى هذه الآية:

الاولى عرض كتاب الأعمال يوم القيامة واطلاع الآخرين عليه، فيكون عاملًا فى فضيحة صاحبه لدى جميع الخلائق.

الثانية: إنّ كتابة صحيفة الأعمال واضحة بحيث لا حاجة إلى الحسيب بل يكفى أن يطلع الإنسان على أعماله ويحاسب نفسَهُ بنفسِهِ.

فكما يدلّل اصفرار اللون والكآبة على وجود حالة مرضية كذلك تدلّل الطراوة وامتلاء الوجنات والنشاط على الصحة والسلامة، وبهذا يستطيع المريض أن يحكم على نفسه بالمرض أو السلامة ولا حاجة لشهادة الآخرين.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۶

فی الآیة السادسة نلاحظ تعبیراً جدیداً بخصوص الأعمال وهو کلمة (زبر)، والزبر جمع زبور وهو بمعنی الکتاب.

قال تعالی «وَکُلُ شَیءٍ فَعَلُوهُ فی الزُّبُرِ* وَکُلُّ صَغِیرٍ وَکَبِیرٍ مُّسْتَطَرٌ» ومع أنّ هذه الآیة أشارت إلی وضع الأقوام السابقة التی کانت لدیها أعمال کأعمال الکفّار الذین عاصروا الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله لکن من البدیهی أنّه تعالی عندما یصرّح بأنّ جمیع أعمالهم مثبتة ومسجلة فی کتاب، فهذا المفهوم یعنی أنّ أعمال جمیع الناس تکون علی هذا النحو..

«وزُبُر»: مشتق من (زُبْرَة) علی وزن (سُفرة) بمعنی قطعة الحدید الکبیرة ثم اطلقت هذه الکلمة علی الخطوط العریضة التی تکتب علی الصفحات الکبیرة، لذا یقول الراغب الإصفهانی فی مفرداته: کل کتاب غلیظ الکتابة یقال له (زَبُور) ویستفاد من هذا التعبیر أنّ الزبور لا یطلق علی کل کتاب بل یشترط فیه عظمة الخط وغلظته، وأنّ اختیار هذا التعبیر لکتاب الأعمال یعبر عن عمق المعنی فهو یبیّن ثبوت ووضوح هذا الکتاب.

إنّ تعبیر (الصغیر) و (الکبیر) وتقدیم الصغیر علی الکبیر الذی لم یرد فی هذا الموضع من القرآن فقط بل فی مواضع متعددة، إشارة إلی عدم وجود أی استثناء فی تسجیل أی عمل وأی شخص.

أمّا «مستطر» فمأخوذة من مادة (اسطر) وتعنی الکتابة، وهذا تأکید آخر علی أنّ تسجیل الأعمال وجمیع الأقوال وحتی النیات قد جمع فی مفهوم الآیة، (تأمل).

وقد صرحت الآیة السابعة بأنّ الکافرین یظنون أنّهم لن ینالوا جزاء أعمالهم یوم القیامة، فهم یکذبون الآیات الإلهیّة فی حین: «وکلَّ شیءٍ احْصَیْنَاهُ کِتَاباً».

و «أحصیناه»: مأخوذة من مادة (إحصاء) ومشتقةٌ فی الأصل من احصی حیث کانوا فی الماضی یستعملون الحصی لعد الأشیاء بدلًا من أصابع الید، وکلمة إحصاء بمعنی العد وجاءت لحفظ الحساب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۷

یقول بعض المفسرین: إنّ مفهومها هنا ینطبق مع مفهوم الکتابة ولهذا السبب أعربوا کتاباً، مفعولًا مطلقاً لأحصینا، فی حین یجب أن یکون المفعول المطلق من مادة نفس الفعل الذی قبله، وبما أنّ معنی الکلمتین واحدٌ فیمکن أن یحل أحدُهما محل الآخر «۱».

کتب فی علیین وأخری فی سجین:

الآیة الثامنة التی وردت فی موضعین من سورة المطففین تشیر إلی کتاب أعمال الأبرار والفجار، وقد کشفت عن جزئیات أکثر، فقد ذکرت أولًا کتاب أعمال الفجار: «کَلَّا إِنَّ کِتابَ الْفُجَّارِ لَفِی سِجِّینٍ* وَما أَدْراکَ مَا سِجِّینٌ* کِتابٌ مَرْقومٌ».

وبعد عدّة آیات من نفس السورة جاء کتاب أعمال الأبرار: «کَلَّا إِنَّ کِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِی عِلِّیین* وَمَا أَدْرَاکَ مَا عِلِّیُّونَ* کِتابٌ مَّرقُومٌ* یَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ».

وقد ورد فی هذه الآیات کلام عن (سجین) و (علیین) التی تحفظ فیها کتب أعمال الفجار والأبرار، لذا یجب توضیح معنی هاتین الکلمتین بدقّة:

«سِجّین»: هی صیغة مبالغة مشتقة من مادة (سِجن) بمعنی السجن، ولقد ذکر المفسرون معانیَ مختلفة لهذه الکلمة مثل النّار أو موضع خاص من النّار تحفظ فیه کتب الفجار.

و نحن نقول: إنّ أصح الأقوال هو إنّ سجین کتاب جامع تجمع فیه کتب أعمال جمیع الفجار، وبتعبیر أوضح أنّ هذا الکتاب کمثل السجل العام الذی یسجل فیه حساب جمیع الدائنین والمدینین.

أمّا «عليين» فهى جمع (على) على وزن (ملى) وهو فى الأصل مشتق من العلو، وهو إشارة إلى المكان المرتفع، ولذا يطلق هذا الاسم على الأشخاص الذين يسكنون المناطق المرتفعة من الجبال، وحسب قول بعض المفسرين: إنّ المراد (بعليين) أعلى أماكن الجنّة أو أعلى مكان فى السماء، ومن خلال المقارنة بين الآراء حول سجين يتضح أنّ عليين كذلك

---

(۱). وقيل إنّ (كتاباً) حال، ولكن الاحتمال الأول هو الأصح.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۸

يعنى السجل الكبير الذى تجمع فيه كتب أعمال الأبرار والصالحين وهو سجل عالى المرتبة والمقام فى جوار اللَّه تبارك وتعالى «۱».

الملائكة المراقبون:

الآية التاسعة لم تتحدث فىالظاهر عن كتاب الأعمال لكونها عرضت هذه الحقيقة بتعبير آخر: «اذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ» فمن الواضح أنّ التلقى هنا إشارة إلى التسجيل فى صحف الأعمال، ثم قال تعالى للتأكيد أكثر «مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ».

«يتلقى : مشتق من مادة (لقاءِ) ولكن تلقى الأعمال هنا كناية عن أخذها وتسجيلها.

«المتلقيان»: هُما الملكان المأموران بأخذ وتسجيل أعمال الناس.

«قعيد»: من مادة قعود وهو الجلوس، ويراد منها الملازم والمراقب كما نقول فى كلامنا المتداول أنّ فلان جليس فلان بمعنى الملازم والمراقب له «۲».

«يلفظ»: مشتقة من مادة (لفظ) بمعنى قذف الشىء، كما يقال (لفظت الرحى الدقيق) وتطلق هذه الكلمة على ما يخرجه الإنسان من فمه، فكأنّها أشياء تقذف إلى الخارج.

«رقيب»: كما قال الراغب فى مفرداته مشتق من مادة (رقبة)، ويطلق على الشخص الذى يحافظ ويراقب شيئاً معيناً أو شخصاً.

«عتيد»: مشتق من مادة (عتاد) على وزن (جِهاد) بمعنى إعداد عدّة وذخيرة شىء قبل الحاجة، لذا يطلق على الشخص المستعد لأداء فعل معين ب (عتيد).

---

(۱). يجب الالتفات إلى أنّ عليين جمعت حسب قاعدة جمع المذكر السالم فى حين أنّ سجين مفرد ولكن هذا لا يمنع من أن يطلق ذلك على المكان المرتفع والمقام العالى بسبب علو مكانته ومنزلة ساكنيه.

(۲). المتلقيان مثنى وعلى هذا فلابدّ أن يكون (قعيد) مثنى أيضاً، ولكن هناك حذف فى الآية والتقدير، عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، وحذفت الاولى بقرينة الثانية.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۵۹

ولقد قال صاحب كتاب مقاييس اللغة: إنّ المعنى الأصلى ل (عتيد) القوة والضرب، وهذا المعنى بالنسبة للمعنى السابق كنسبة اللازم إلى الملزوم، على كل حال فهل أنّ كل واحد من هذين الوصفين مختص بأحد الملكين والآخر بالملك الثانى فيكون الأول مراقباً والثانى معداً للتدوين والتسجيل أم أنّ كليهما يدلان على هذا المعنى أى كلاهما يقومان بمراقبة أعمال الإنسان وتسجيل وتثبيت أعماله أيضاً.

يعتقد بعض المفسرين، أنّ الرقيب هو إسم لملك اليمين (الذى هو مأمور بكتابة أعمال الخير) والعتيد اسم لملك الشمال (الذى هو

مأمور بكتابة أعمال الشر).

ولكن يظهر من أقوال بعض المفسرين، أنّهم ذكروا كلا الوصفين لكلا الملكين، أي إنّ كل واحد منهما رقيب وفي عين الحال عتيد أيضاً ولقد نقلت حول هذين الملكين روايات عديدة بالغة الأهميّة نذكر من جملتها حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «صاحب اليمين أمير على صاحب الشمال فاذا عمل حسنة كتبها له اليمين بعشر أمثالها وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتبها قال له صاحب اليمين امسك فيمسك عنه سبع ساعات فإن استغفر اللّه منها لم يكتب عليه شيء وإن لم يستغفر اللّه كتب له سيئة واحدة» «۱».

وتحمل مثل هذه الروايات للإنسان رسالة تربوية واضحة، ونستنتج من خلال هذه الرواية وبعض الروايات الاخرى أنّ عمل كلٍّ من هذين الملكين منفصل عن الآخر وسوف نفصّل الموضوع أكثر في فقرة (التوضيحات).

كُتّاب صحيفة الأعمال:

لقد ورد في نفس هذه الآية كلامٌ عن (الكاتبين) وسعة اطلاعهم ومعلوماتهم: «وَإِنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِينَ* كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ».

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۴۴؛ وكذلك في تفسير روح المعاني، ج ۲۶ ص ۱۶۴؛ وكذلك ورد في تفسير المراغي، ج ۲۶، ص ۱۶۱.

فمن الواضح أنّ المراد ب (حافظين) الملائكة المأمورين بحفظ وتسجيل الأعمال، وليس المراد حفظ الإنسان من الحوادث المختلفة، واللّه تبارك وتعالى وصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف ولكنها لازمة وملزومة لبعضها في نفس الوقت، وهذه الأوصاف هي:

۱- حفظ ومراقبة الأعمال.

۲- «الكرام» و «كرام» جمع (كريم) وهي إشارة إلى عظمتهم وعلو شأنهم وإن كانوا مأمورين بإحصاء أعمال الإنسان، لكنهم لا يشوبون هذا العمل بالغلظة والقوة بل يقرنونه باللطف والكرامة.

وقيل إنّهم كرام لأنّهم يكتبون الأعمال الصالحة مباشرة بعشرة أمثالها، أمّا الأعمال السيئة وكما ذكر في الرواية السالفة فانّهم يمهلون صاحبها سبع ساعات لعله يتوب.

وقيل: إنّهم كرام لأنّهم يطيرون بالأعمال الصالحة إلى السموات ويعرضونها على الملائكة، أمّا الأعمال السيئة وبحكم كونه تعالى (ستار العيوب) فانّهم يسترون عليها، وكونهم كراماً يجعل الإنسان يراقب أعماله أكثر وذلك لأنّه يستحي من أن يرتكب عملًا قبيحاً في محضر شخص كريم.

۳- (كاتبين)، وهذا الوصف يعني كيفية حفظهم الأعمال بصريح قوله تعالى فهم يكتبون كل الأعمال ولا يعزب عنهم شيء، ومن المعلوم أنّ الحفظ والكتابة بحاجة إلى اطلاع واسع من جميع الجوانب.

۴- (يعلمون ما تفعلون)، وهذا التعبير يشمل قول الإنسان وأعمال جوارحه وكذلك الأعمال القلبية.

وذكر كلمة (حافظين) بصورة الجمع، إمّا أن يكون هناك ملكان في النهار وملكان آخران في الليل يراقبون أعمال الإنسان (كما جاء في بعض الروايات) «۱»، أو لكون المخاطب جميع الناس وبهذا فسيكون الملائكة الذين يراقبون الجميع جمعاً.

---

(۱). وسائل الشيعة، ج ۳، ص ۱۵۴ و ۱۵۵، باب ۲۸ من أبواب المواقيت.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۱

كتاب الأعمال فى اليمين أو فى الشمال:

تشير الآية الحادية عشرة إلى موضوع جديد وهو إتيان كتاب الأعمال، فيؤتى الأشرار والأشقياء كتابهم بشمائلهم أمّا الصالحون والأخيار فيؤتون كتابهم بأيمانهم، وهذه علامة فارقة لتمييز الأخيار من الفجار فى محكمة العدل الإلهى: «فَأَمّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَه ...»، وعلى العكس: «وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِى لَمْ أُوْتَ كِتابِيَه* وَلَم أَدْرِ مَا حِسَابِيَه* يالَيْتَها كَانَتِ الْقَاضِيَةَ»، فهل أنّ اليد اليمنى واليسرى إشارة إلى هذا العضو الخاص من البدن أم هو كناية عن الخير والشر، ولماذا اليد اليمنى كناية عن الخير، واليسرى كناية عن الشر؟

لقد ورد هذا المعنى (كاحتمال) فى تفسير (فى ظلال القرآن) ولكن نقول لا توجد ضرورة لهذا التأويل لأنّ إتيان كتاب أعمال الصالحين باليد اليمنى والأشرار باليد اليسرى وسيلة لتمييزهم والتعرف عليهم.

أمّا كلمة (هاؤم) فهى على رأى الكثيرين من المفسرين وأرباب اللغة مركبة من (هاء) وهى اسم فعل (أمر) بمعنى خذ و (ميم) وهو ضمير جمع مذكر مخاطب، وهذه الكلمة تعامل معاملة فعل الأمر فيقال (هاءَ، هاءِ، هائماً، هاؤُم، هاتُن (للمفرد، المذكر والمفرد المؤنث والمثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث) وأحياناً تبدل الهمزة بالكاف فيقال: (هاكَ، هاكِ، هاكما، هاكن) أمّا الهاء الواردة فى آخر كلمتى (كتابِيَهْ وحَسابِيهْ) فيطلق عليها اصطلاحاً ب (هاء السكون) وهى ليست بضمير وإنّما هى للاستراحة فى الكلام وليس لها مفهومٌ خاص والأصل: (كتابىَ) و (حِسابىَ).

ولقد ورد فى حديث عن عبداللّه بن حنظلة المعروف بغسيل الملائكة وهو من شهداء أُحد، قال: إنّ اللّه يوقف عبده يوم القيامة فيبدى سيئاته فى ظهر صحيفته فيقول له أنت عملت هذا، فيقول نعم أى ربّ، فيقول له: إنّى لم أفضحك به وإنّى قد غفرت لك، فيقول عند ذلك هاؤم اقرؤا كتابيه إنّى ظننت أنّى ملاقٍ حسابيه، حين نجا من فضيحته يوم القيامة «۱».

---

(۱). تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۲۶۱؛ تفسير فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۲۵۶ ولو أنّ هذا الحديث نقل عن عبداللّه بن حنظلة ولكنه قد سمعه بالواسطة عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۲

لقد ورد نفس هذا المعنى بشىء من الاختلاف (إيتاء كتاب أعمال الأبرار باليمين والفجار بالشمال) فى الآية الثانية عشرة من الآيات السالفة الذكر: «فَأَمّا مَن أُوتِىَ كِتابَهُ بيَمِينِه فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً* وَأَمّا مَنْ أُوتِىَ كِتابَهُ وَرآءَ ظَهْرِهِ* فَسَوفَ يَدْعُوا ثُبُوراً* وَيَصْلى سَعِيراً».

فذكرت الآيات السابقة أنّ كتاب أعمال الفجار يؤتى بالشمال، أمّا هذه الآيات فذكرت أنّ كتاب الفجار يوتى (وراء الظهر) ويراد بهذا المعنى أنّ المجرمين عندما يعطون كتبهم بشمائلهم فانّهم ولشدّة حيائهم يجعلون أيديهم وراء ظهورهم حتى تقل رؤية الجمع لهذا السند، سند الجريمة والفضيحة، أو لأنّ أيدى الشمال مغلولة وراء ظهورهم فكما أنّهم جعلوا كتاب اللّه وراء ظهورهم فى الحياة الدنيا فهنا تجعل كتب أعمالهم وراء ظهورهم، أو لكون وجوههم مقلوبة وراء ظهورهم ولأجل رؤية كتب أعمالهم فهم يأخذون كتبهم من وراء ظهورهم ولا منافاة لأىمن هذه المعانى الثلاثة للآية وما ورد فى الآيات السابقة.

ما المراد ب (الأهل) الذى ذكرته الآية الكريمة؟

قيل: إنّ المراد بالأهل هم النساء والأولاد والآخرين من أهل الإيمان الذين يدخلون الجنّة قبلهم، وقيل: إنّ الأهل هنا إشارة إلى الحور العين، وقيل: إنّ المقصود بالأهل هم سائر المؤمنين الذين لهم سبق قدم فى الجنّة وذلك لأنّ المؤمنين كلهم أهل لبعضهم البعض، وفى الحقيقة (إنّهم جزء من أُسرة واحدة)، ونرى أنّ التفسير الأول هو الأنسب بدليل أنّ نفس هذا التعبير ورد فى الآية ۱۳ من نفس السورة ويراد به الأسرة والزوجة والأولاد والأقرباء، واتحاد السياق يدلّ على أنّ المعنى واحد.

ولقد قسمت الآية الثالثة عشرة هذا التقسيم (أصحاب اليمين وأصحاب الشمال) بشكل آخر: «فَأَصْحَابُ المَيمَنَةِ مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ* وَأَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ».

«الميمنة»: مشتقة من مادة (اليمن) بمعنى السعادة والبركة، ولقد فسرها البعض وقال:

إنّها مأخوذة من مادة (يمين) أىاليد اليمنى يقولون: إنّهم الأفراد الذين يعطون كتبهم

بأيمانهم (صحيح أنّ مادة يمن) و (يمين) مشتقة من أصل واحد ولكن يعنى أحدهما الخير واليمن والسعادة، ويعنى الآخر اليد اليمنى التى يرونها مظهراً من مظاهر البركة.

ويعتقد الراغب- كما ورد فى مفرداته- أنّ أساس الكلمتين يحمل نفس مفهوم اليد اليمنى فيرى أنّ الخير واليمن والبركة تحصل بالأفعال التى تنجز بواسطة اليد اليمنى

فهذه الكلمة جاءت بمعنى الخير والبركة ويقابلها كلمة المشئمة.

«والمشئمة»: مشتقة من (شؤم) وعلى قول صاحب كتاب مقاييس اللغة أنّ المعنى الأصل لهذه الكلمة هو نفس اليد اليسرى وأنّهم يعتقدون بأنّ اليد اليسرى والأعمال التى تنجز بواسطتها إشارة إلى الشر وسوء الحظ.. ولهذا استعملت كلمة شؤم بهذا المعنى وبهذا السياق، ويكون المراد من (أصحاب الميمنة) و (أصحاب المشئمة) فى الأصل نفس معنى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال الذين يؤتون كتبهم إمّا باليمين أو بالشمال، وبهذا فإنّ تفسير الآية بمجموعة تكون (سعيدة مسرورة) واخرى (شقية تعيسة) بعد المعنى الثانى من معانى الآية الكريمة، ولقد فسر الفخر الرازى أصحاب الميمنة ب (أصحاب الجنّة) إذ يقول «۱»:

هم أصحاب الجنّة وتسميتهم بأصحاب الميمنة إمّا لكونهم من حملة كتبهم بأيمانهم وإمّا لكون أيمانهم تستنير بنور من اللّه تعالى كما قال تعالى «يَسعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمانِهِمْ». (الحديد/ ۱۲)

وإمّا لكون اليمين يراد به الدليل على الخير، والعرب تتفاءل بالسانح وهو الذى يقصد جانب اليمين من الطيور إذ يتفاءلون بها بالخير، والتى تطير من الشمال، بالشر.

جملة (ما أصحاب الميمنة وما أصحاب المشئمة) جاءت على صيغة استفهامية، وهذه إشارة إلى المقام الرفيع جدّاً للطائفة الاولى والمقام الدنىء جدّاً للطائفة الثانية فكان منزلة وبركات الطائفة الاولى من العلو والسمو بحيث تخرج عن مستوى تفكير الإنسان، وهذا التفسير كناية لطيفة عن هذا المعنى على عكس التعبير الثانى الذى هو كناية عن شدّة

---

(۱). التفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۴۲.

الانحطاط والتدنى، ومع عدم ورود كلام عن كتاب الأعمال فى هذه الآيات إلّاأننا إذا أخذنا سائر الآيات القرآنية التى جاءت فيها هاتان الكلمتان بنظر الاعتبار يكون التفسير أعلاه مناسباً لهذا المعنى

أمّا الآية الرابعة عشرة من الآيات السالفة الذكر والتى وردت فى نفس سورة الواقعة:

«وَأَصْحَابُ اليَمِينِ مَاأَصحَابُ اليَمِينِ* فِى سِدرٍ مَّخْضُودٍ» «وَأَصحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصحَابُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ».

فقد ذكر المفسرون فى تفسير هذه الآيات نفس المعانى التى وردت فى تفسير الآيات السابقة.

فقيل: هم الـذين يعطون كتبهم بأيمانهم أو بشـمائلهم أو هم أصـحاب اليمين والبركـة أو تعيسو الحظ أو الـذين يتجهون نحو الجنّة من اليمين أو نحو الجحيم من اليسار أو هم الذين يظهر نورهم على يمينهم «۱».

صحيفة أعمالنا أمام أنظار الجميع:

نلاحظ فى الآية الخامسة عشـرة تعبيراً جديداً حول صحف الأعمال وهذا التعبير عميق المحتوى «وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ» «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ».

«نشـرت»: مشتقة من مادة (نشر) بمعنى الفتح، أمّا سبب ذكر هذا التعبير بخصوص كتاب الأعمال فامّا لكون الكتاب يطوى أثناء الموت ويعاد فتحهُ عنـد الحساب يوم القيامـة ومثله كمثل الملف الـذى يُغلَق بختم المحقق ثم يفتـح أثناء المحكمـة، وإمّا أن تكون الصـحف كلّها مجموعة عند اللّه تبارك وتعالى وتنشر وتقسم بين أصحابها يوم القيامة.

لقد انتخب بعض من المفسرين أحد المعنيين السالفين، واحتمل البعض الآخر كليهما، ونحن نقول: إنّ التفسير الأول هو الأنسب لسياق الآية، على أيّة حال فإنّ صحف الأعمال

---

(۱). تفسيرالتبيان، ج ۹، ص ۴۹۳؛ وتفسيرالبيان؛ وتفسيرالكبير؛ وتفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيات مورد البحث.

سوف تنشـر فى ذلك اليوم بحيث لا يطلع عليها أصـحابها وحسب بل يطلع عليها أهل المحشـر أيضاً وتستذكر جميع الأعمال المنسية، وهذا هو أحد عوامل الفرج واستبشار الصالحين، وعذاب وثبور وخزى أهل النّار، وهذه شهادة على هذا المعنى ولذا تقول الآية: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيمَةِ كِتَاباً يَلقَاهُ مَنْشُوراً». (الاسراء/ ۱۳)

يسـتفاد ممّا ورد فى مجموع الآيات السالفة الذكر أنّه إضافة إلى إحاطة وعلم اللّه تبارك وتعالى بأعمال الناس وشهادة الجوارح وسائر شهود يوم القيامة فإنّ أعمالنا مسجلة فى كتاب، وهذا التسجيل يؤدّى بواسطة رسل وملائكة اللّه.

وفى يوم القيامة يؤتى الأخيار صحائف أعمالهم بأيمانهم والأشرار بشمائلهم وتنطق هذه الكتب وتخبر عن كل ما فيها، وتنشر الصحف وتعرض على الخلائق ويطلع أهـل المحشـر على أسـرار وأخبار هـذه الصـحف، فأصـحاب اليمين يتلقون كتبهم مسـرورين مستبشـرين ويدعون الجميع لقراءة كتبهم، أمّا أصحاب الشمال فيعلو صراخهم وعويلهم وثبورهم من شدة خوفهم وهلعهم.

ونحن نجد فى هذه التعابير الكثير من الجوانب التربوية، سنتعرض إليها فى فقرة التوضيحات.

توضيحات

۱- صحف الأعمال فى الروايات الإسلامية

إنّ لموضوع كتب الأعمال أو صـحف الأعمال صدىً واسعاً فى الروايات الإسلامية، وقد جاءت بعض الروايات كتعبير للآيات السابقة، وهناك روايات مستقلة عن الآيات.

وسنشير إلى بعض من هذه الروايات التى تتضمن كل واحدة منها جوانب تربوية هامة:

۱- نقرأ حـديثاً ورد عن الإمـام الصـادق عليه السـلام: «إذا كـان يوم القيامـة دفع إلى الإنسان كتابه ثم قيل له اقرأ، قلت: فيَعرفُ ما فيه؟

فقال: إنّ اللّه يذكره فما من لحظةٍ ولا كلمةٍ ولا نقل قدمٍ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۶

ولا شيء فعله إلّاذكره كأنّه فعله تلك الساعة! فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيره إلّاأحصيها» «۱».

۲- نقرأ فی إحدی خطب نهج البلاغة أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «ونستغفره ممّا احاط به علمه وأحصاه كتابه، علم غير قاصر وكتاب غير مغادر» «۲».

۳- جاء فی حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: «وليست تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب، فأمّا المؤمن فيؤتى كتابه بيمينه» «۳».

۴- ونقرأ حديثا آخر للإمام الصادق عليه السلام: «إنّ اللّه تبارك وتعالى إذا إراد أن يحاسب المؤمن أعطاه كتابه بيمينه وحاسبه فيما بينه وبينه فيقول: عبدی فعلت كذا وكذا وعملت كذا وكذا. فيقول: نعم يارب قد فعلت ذلك. فيقول: غفرتها لك وأبدلتها حسنات. فيقول الناس سبحان اللّه أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟ وهو قول اللّه عزّ وجلّ: «فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً* وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً»» «۴».

۵- نقل فی سنن الترمذی عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات: فأمّا عرضتان فجدال ومعاذير، وأمّا العرضة الثالثة فعند ذلك تطير الصحف فی الأيدی: فآخذ بيمينه وآخذ بشماله» «۵».

إنّ هذا التعبير تضمن إشارة إلى (تطاير الكتب) الذی جاء فی عبارات مختلفة، واتضح من خلال هذا الحديث أنّ صحف الأعمال تتحرك من محلها الأصل (عند العرش أو عليين أو سجين الذی هو مركز جمعها) فتلقى بيد صاحبها فهذا التعبير يدل بوضوح على أنّ كتاب الأعمال هو ليس صفحة الروح الإنسانية بل هو الآثار التی تثبت خارج وجوده (تأمل).

---

(۱). بحارالأنوار، ج ۷، ص ۳۱۵.

(۲). نهج البلاغة، خطبة ۱۱۴.

(۳). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۳۱۸، ح ۱۴.

(۴). المصدر السابق، ص ۳۲۴، ح ۱۷.

(۵). سنن الترمذی، ج ۴، ص ۶۱۷، ح ۲۴۲۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۷

۲- ماهية صحف الأعمال

ممّا لا شك فيه أنّ صحف الأعمال الذی تعرض يوم القيامة ليست كمثل الأوراق والدفاتر والكتب المتداولة وإنّما هی نقوش معبرة غير قابلة للانكار، فلو أنّ كتاب الأعمال كمثل هذه الأوراق والدفاتر المستعملة اليوم لاستوجب الأمر ملايين الأوراق لكتابة أعمال الإنسان خلال فترة عمره ولما أمكن للجميع مطالعة مثل هذا الكتاب ولما كان موجباً لخزی وفضح الأشرار وفخر الأخيار، فی حين يستفاد من الآيات والروايات أنّ أعمال الإنسان مثبتة بحيث يمكن الوقوف عليها بإلقاء نظرة واحدة، إضافة إلى ذلك أنّ الخطوط والنقوش الاعتيادية ليست بالشكل الذی لايمكن انكارها، فی حين يتضح من الآيات والروايات أنّ خطوط هذا الكتاب ليست قابلة للانكار وهی سند حی وواضح لكل شخص وحتى لأصحابها.

نتطرق هنا بدقّة إلى بعض التفاسير المختلفة التی قيلت بخصوص صحف الأعمال:

۱- قيل فی تفسيرها: (هی بعينها نفس الإنسان التی رسخت فيها آثار أعماله بحيث نقشت بها).

وجاء ما يطابق هذا التعبير فى كتاب المرحوم الفيض الكاشانى حيث يقول: «إنّ كتاب الأعمال هو كناية عن نفس الإنسان التى رسخت فيها آثار أعماله» «۱»، إلّاأنّ هذا المعنى الكنائى لايتوافق مع ظواهر آيات القرآن الكريم وذلك لأنّ القرآن يذكر إتيان كتاب أعمال أصحاب اليمين بأيمانهم وكتاب الفجار بشمائلهم أو من وراء ظهورهم وهذا التعبير لا يتلائم مع التفسير المذكور إلّاإذا حمل تعبير (يمين) و (شمال) وسائر التعابير الاخرى على المعنى الكنائى وهذا خلاف الظاهر وهو غير جائز بدون دليل، إضافة إلى ذلك لا يمكن أن يتوافق هذا التعبير مع تطاير الكتب الذى ذكرناه سابقاً.

۲- للمرحوم العلّامة الطباطبائى تعبير آخر فى هذا الصدد فيقول فى تفسير الميزان مستفيداً من الآية الشريفة: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ ...». (آل عمران/ ۳۰)

---

(۱). تفسير الصافى، ذيل الآية ۱۳ من سورة الاسراء.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۸

«إنّ الكتاب يتضمن نفس الأعمال بحقائقها دون الرسوم المخطوطة على حدّ الكتب المعمول بها فيما بيننا فى الدنيا فهى نفس الأعمال يطلع اللَّه الإنسان عليها عياناً ولا- حجّة كالعيان، إنّ كتاب الأعمال بحقائقها مستور عن إدراك الإنسان محجوب وراء حجب الغفلة وإنّما يخرجه اللَّه سبحانه وتعالى يوم القيامة فيطلعه على تفاصيله» «۱».

كذلك لا ينسجم هذا المعنى بما يتعلق ب (الملائكة الكاتبين) وسائر الصفات الأخرى التى وردت فى الآيات والروايات وذلك لأنّ المراد من حقائق الأعمال على الظاهر هو نفس الآثار التى تترك أثراً فى داخل نفس الإنسان، وهنا يرد نفس الإشكال على تفسير المرحوم الفيض الكاشانى.

ولقد ذكر صاحب كتاب (روح المعانى) نفس هذا التفسير بشىء من التفصيل ثم اعترف بأنّ هذا التفسير لا ينسجم مع ظاهر آيات القرآن الكريم «۲»، ومن الممكن أن يقال: كما تترك أعمال الإنسان أثراً فى داخل نفسه كذلك تترك أثراً فى العالم الخارجى أيضاً، وتترك أثراً فى الفضاء والهواء وعلى الأرض التى يعيش عليها وفى كل شىء، وكأنّ أعماله نقشت بها نقشاً طبيعياً غير قابل للانكار.

وهذه النقوش تنقش فى أعماق هذه الموجودات بواسطة قوى عالم الوجود والملائكة، ويوم القيامة يكشف عنها الحجب وتظهر للعيان وتعطى بيد كل إنسان وتكفى نظرة واحدة عليها للاطلاع على حال كل شخص.

ومن البديهى أنّ هذه الآثار لا يمكن إدراكها والاحساس بها فى هذه الدنيا رغم أنّها موجودة ومثبتة، وعندما يأتى ذلك اليوم الذى يكشف فيه هذا الغطاء ويصبح البصر حديداً فسوف نراها عياناً ونقرأُها فنصدق.

وقد استطاع علماء اليوم من خلال دراسة علم الآثار ودراسة المتحجرات المتبقية من

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۳، ص ۵۸. ذيل الآية ۱۳ الاسراء.

(۲). تفسير روح المعانى، ج ۱۵، ص ۳۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۶۹

الكائنات الحية منذ ملايين السنين أن يكتشفوا- إضافة إلى شكل هياكلها- الكثير من حقائق حياتها مع أنّ المتحجر ليس حيواناً بعينه بل هو بقايا منه بقيت لحقب طويلة داخل الطبقات الأرضيّة.

الصخور الأرضيّة هى فى الواقع كتاب أعمال وأشكال تلك الحيوانات مدون بخطوط غير قابلة للانكار.

نحن لا نقول إنّ كتاب الأعمال الذى يعرض يوم القيامة هو على هذه الصورة وذلك لأننا ذكرنا أكثر من مرّة أننا لا ندرك من القيامة

والمسائل المتعلقة بها إلّانزراً يسيراً، ولكن فى بعض الأحيان يمكن أن يكون الأثر الطبيعى هو نفس الأثر، ومن المناسب هنا أن نذكر حديثاً للإمام الصادق عليه السلام ورد فى تفسير الآية ۱۴ من سورة الاسراء: «يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها» «۱».

۳- احتمل البعض أنّ كتاب الأعمال هو (الضمير الباطن) للإنسان فقد أثبت علم النفس اليوم أنّ أعمال الإنسان تؤثر فى وجدانه أو اللاشعور، وهذا التعبير لا يختلف عن تعبير الفيض الكاشانى وسائر المفسرين الذين أشرنا إليهم سابقاً، وفى الواقع أنّ هذا التعبير هو تعبير جديد مشتق من المعنى القديم، والتفسير الثالث هو الأنسب من بين التفاسير الأربعة.

على أيّة حال يجب أن نقول بما أنّ مسألة كتاب الأعمال وردت فى القرآن الكريم وأكدتها الروايات المختلفة لذا يجب أن نؤمن بها حتى وإن لم ندرك مفهومها ومحتواها بشكل تفصيلى، مثلها كمثل سائر المسائل المتعلقة بيوم القيامة، أو أنّ كتاب الأعمال هو مجموعة الآثار التى خطتها أعمالنا خارج وجودنا وتجمع يوم القيامة وتوضع بين أيدينا حسب الأمر الإلهى، وبتعبير آخر هى مجموعة الآثار التكوينية التى يمكن تشبيهها من بعض الوجوه بالأفلام أو أشرطة التسجيل أو ما شاكلها.

ونحن لا نجزم بأنّ الأمر هكذا بل نقول أنّ هناك أوجه للشبه بينها.

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۲۶۷، ح ۱۱۵.

۳- فلسفة كتاب الأعمال

ممّا لا شك فيه أنّ البيان المفصل لكتاب الأعمال فى الآيات القرآنية والروايات، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا وأقوالنا ونيّاتنا إلّا أحصاها يهدف بالدرجة الاولى إلى إيجاد آثار تربوية على نفس الإنسان.

ولقد ذكرنا أنّ القرآن اتخذ من بيان جميع المعارف الواقعة وسيلة لتهذيب النفوس وتكامل الأرواح وتنمية مكارم الأخلاق وتقوية عامل التقوى عند الإنسان، كما أنذر الناس كافة ليراقبوا أفعالهم وأقوالهم وسلوكهم وصرّح بأنّ كل شىء فى كتاب وسوف تعرض الأعمال من خلاله يوم القيامة من غير نقصان.

حقّاً إنّ الاحاطة العلمية للّه‌تعالى هى فوق كل شىء، ومن يؤمن إيماناً كاملًا بالاحاطة العلمية للّه‌وحضوره الوجودى فى كل شىء وفى كل زمان لا حاجة له بكتاب الأعمال ولكن فى الغالب يمكن أن يكون الالتفات لهذه الحقيقة منشأً لكثير من الآثار على أغلب الناس، فمن يعلم بأنّ هناك أشرطة لتسجيل صوته أينما كان وهناك جهاز مجهز بأفلام لتصوير كل حركاته وسكناته، سرّها وعلنها، ظاهرها وباطنها، وأنّ هذه الأشرطة والأفلام سوف تعرض على شكل ملف كامل غير قابل للانكار فى احدى المحاكم الكبيرة، فيقيناً أنّ مثل هذا الإنسان سوف يراقب كل أفعاله وأقواله وسلوكه بشكل كامل وتكون التقوى هى الحاكمة على ظاهره وباطنه.

إنّ الإيمان بكتاب الأعمال الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها والإيمان بالملائكة الذين يراقبون الإنسان ليلًا ونهاراً ويحصون عليه كل أعماله، وكذلك الاعتقاد بأنّ هذه الصحف سوف تنشر يوم القيامة فى ساحة المحشر ويكشف فيها عن جميع السرائر فتوجب الخزى والفضيحة أمام الأصدقاء والأعداء، كلّها لها أثر عجيب فى الكفّ عن الذنوب وارتكاب المآثم.

هذا على عكس كتاب الأبرار الذى يكون موجباً للفخر والكرامة فى المحشر وحتى أنّه أفضل وأعلى وأكثر تأثيراً ممّا ذكر فى مقال الشريط والفلم، وهذا عامل مهم جدّاً للتزود من

الأعمال الصالحة، ولولا ضعف الإيمان أحياناً ووجود حجب الغفلة التى تكون العامل فى أبعاد الإنسان عن هذه الحقائق المهمّة لكان

الاعتقاد بهذا المبدأ القرآنى كافياً لتربية وتزكية كل إنسان.

ونذكر هنا إنّ بعض الأدعية تتضمن دروساً تربوية للإنسان وتركز على ابراز هذا المعنى فنقرأ فى الدعاء المعروف بدعاء كميل: «وكل سيئةٍ أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون منى، وجعلتهم شهوداً علىّ مع جوارحى، وكنت أنت الرقيب عَلَىَّ من ورائهم والشاهد على ما خفى عنهم».

ونختم هذا البحث بذكر حديث للإمام الصادق عليه السلام، جاء فى الاحتجاج للطبرسى أنّه:

سأل رجل الإمام الصادق عليه السلام: عن علة وجود الملائكة المأمورين بتثبيت الأعمال الصالحة والسيئة ونحن نعلم بأنّ اللّه (عالم السر والخفيات وما هو اخفى .

فقال الإمام عليه السلام: «استعبدهم بذلك وجعلهم شهوداً على خلقه ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة اللّه مواظبةً وعن معصيته أشدّ انقباضاً، وكم من عبد يهم بمعصيته فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّى يرانى، وحفظتى علىّ بذلك تشهدُ!» «۱».

۴- أقسام كتب الأعمال

كما أشرنا سابقاً ومن خلال الآيات القرآنية أنّ هناك ثلاثة أنواع من كتب الأعمال:

الأول: هو الكتاب الذى يختص بكل إنسان ويعرض جزئيات الأعمال ويعطى باليمين أو بالشمال.

ولقد ورد هذا المعنى فى كثير من الآيات التى سبق ذكرها ومن جملتها: «وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقَاهُ مَنْشُوراً* إِقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً». (الاسراء/ ۱۳)

إنّ تعبير (كُلَّ انْسانٍ)، وكذلك تعبير (كِتابَكَ) إشارة واضحة إلى كتاب الأعمال الخاص،

---

(۱). الاحتجاج، ج ۲، ص ۹۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۷۲

وكذلك جملة: «هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتابِيَه»، وجملة: «يا لَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتابِيَه» وفى سورة الحاقة الآيات ۱۹، ۲۵ إشارات اخرى إلى هذا المعنى

الثانى: كتاب أعمال الامم، أىالكتاب الذى تجمع فيه أعمال الامة كما ورد قوله تعالى:

«كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا». (الجاثية/ ۲۸)

وقد ورد تعبير كتاب بصيغة المفرد وليس بصيغة الجمع وهذا يدل على أنّ المراد (الامة الواحدة).

الثالث: الكتاب الذى تثبت فيه أعمال جميع الأمم وكافة الناس من الأولين والآخرين، فهو بمثابة السجل المركزى العام الذى تسجل فيه جميع الحسابات، ولقد أشار إليه تعالى:

«وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». (الكهف/ ۴۹)

وجاء هذا التعبير بصورة أوضح فى قوله تعالى بعد ذكر الأموات وبيان كتابة الأعمال وآثارها من قبل اللّه تبارك وتعالى: «وَكُلَّ شَىءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِى إِمَامٍ مُّبِينٍ». (يس/ ۱۲)

فورد الكتاب فى هذه الآية بصيغة نكرة (التى تفيد الأفراد) وهذا يدل على أحصاء جميع أعمال الخلائق بل إنّ كل الأشياء جمعت فى كتاب واحد.

وقد أشار المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان إلى هذه الكتب الثلاثة «۱»: ولو أنّ هناك اختلاف بين الآيات التى استشهد بها وبعض هذه الأقسام التى ذكرناها.

ويمكن أن نستفيد من الآيتين ٧، ٨ من سورة المطففين أنّ (الأبرار) أو (الفجار) كل منهم له كتاب خاص وهذا يعدّ النوع الرابع من كتب الأعمال.

على أيّة حال فلا توجد أيّة منافاة بين هذه الكتب، ولا مانع من تسجيل عمل ما فى عدّة كتب وسجلات مختلفة لغرض التأكيد والدقّة، وهذا ما نلاحظه فى حياتنا اليومية.

إنّ هذه الكتب وعلى اختلاف أنواعها كلّها تؤكد على حقيقة واحدة مفادها أن يكون الإنسان واعياً يقظاً وليعلم بأنّ أعماله لم تسجل فى مكان واحد بل إنّها مثبتة فى عدّة أماكن وسجلات، ومن غير الممكن أن يصدر من الإنسان عملٌ ما ولا يحاسب عليه يوم القيامة، ويجب أن نعلم بأنّ اللّه تعالى هو الرقيب على الإنسان من وراء كل هذه الكتب والشهود.

---

(١). تفسير الميزان، ج ٣، ص ٣۴٨.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ٧٣

۵- خصائص كتاب الأعمال

من مجموع الآيات والروايات السابقة يمكن تحديد الخصائص الآتية لكتاب الأعمال وهى:

١- كتاب الأعمال هو صحيفة عمل لمجموع عمر الإنسان وهو لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها.

٢- كتاب الأعمال حى ناطق ولا مجال فيه لأدنى شك أو ريب وهو غير قابل للانكار، وكل شخص يتمكن من الفصل والحكم بمشاهدته وحتى المجرمون أنفسهم.

٣- إنّ كاتبى صحيفة الأعمال ملكان وقد عبّر عنهما القرآن ب (رقيب) و (عتيد)- وكما ذكرنا- يستفاد من بعض الروايات أنّ ملائكة الليل والنهار منفصلون عن بعضهم البعض وكل واحد منهم يعطى مكانه للآخر، ولقد أشارت بعض آيات القرآن الكريم إشارة عابرة إلى هذا المعنى

۴- يظهر من بعض الروايات أنّه إضافة إلى ذلك يوجد ملائكة آخرون توكل بهم مهمّة تسجيل بعض الأعمال الخاصة كما ورد فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إذا كان يوم الجمعة كان على كل باب من أبواب المسجد ملائكة يكتبون الأول فالأول، فاذا جلس الأمام طووا الصحف وجاؤوا يستمعون الذكر» «١».

۵- يستفاد من بعض الروايات أنّ الحسنات تكتب فوراً أمّا السيئات فتكتب بعد حين (لعل صاحبها يتوب عن فعله).

ونختم هذا البحث بذكر بعض الجمل القيمة من أدعية الإمام السجاد عليه السلام والتى وردت فى (الصحيفة السجادية) ولنردد معه هذا الدعاء: «اللهم يسر على الكرام الكاتبين مؤنتنا، واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا ولا تخزنا عندهم بسوء أعمالنا» «٢» وفى مكان آخر قال:

«فصل على محمد وآله واجعل ختام ما تُحصى علينا كتبة أعمالنا توبة مقبولة» «٣».

---

(١) صحيح مسلم، ج ٢، ص ٥٨٧، ح ٨۵٠ ولعل مفهوم الحديث هو إذا تأخر المصلى عن الوقت المحدد لصلاة الجمعة فسوف لن يكتب اسمه فى تلك الصحف.

(٢) الصحيفة السجادية الدعاء ۶.

(٣) المصدر السابق، الدعاء ١١.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ٧۵

۴- حضور الأعمال

تمهيد:

المطّلعون على الآيات القرآنية يعلمون جيداً بأنّ بعضاً منها يتحدث عن حضور الأعمال يوم القيامة.

أى أنّ عمل كل شخص يعرض أمامه فى ذلك اليوم خيراً كان أو شراً ويكون موجباً لسروره وسعادته أو عذابه ومعاناته، موجباً للفخر والكرامة أو للفضيحة والعار.

فهل بالإمكان بقاء أعمال الإنسان التى هى عبارة عن مجموعة حركات تمحى وتزول بعد انقضائها؟ وهل من الممكن أن يتحول «العمل» الذى هو جزء من مقومات وجود الإنسان إلى مادة وجسد ويظهر بصورة مستقلة؟

إنّ الكثير من المفسّرين عجزوا عن الإجابة عن هذه الأسئلة، فما كان لهم من حيلة إلّا إلى الحدَس والتقدير، فقالوا مثلًا إنّ المراد ب (حضور الأعمال) أو مشاهدة العمل «حضور وشهادة جزاء العمل، ثوابه أو عقابه».

ولكننا نعتقد اليوم بأنّ لكل من هذه المسائل جواب وعلى هذا الأساس لا نجد أى دليل لانكار ظواهر هذه الآيات التى تدلّ على تجسّد أعمال الإنسان.

والجدير بالذكر، أنّ محتوى هذه الآيات- مع الأخذ بنظر الاعتبار معناها الحقيقى لا المجازى- ذات معنى عميق ونافذ ومؤثر، ويحلّ لنا الكثير من المشاكل ويجيب عن الكثير من الأسئلة التى تطرح حول عالم القيامة والحساب، كما تترك أثراً كبيراً ومفيداً فى حياة الإنسان من الناحية التربوية، وقبل أن نتناول هذا الموضوع نمعن خاشعين فى بعض الآيات

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۷۶

القرآنية التى تشير إلى مسألة حضور الأعمال:

۱- «يَومَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُم* فَمَن يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ». (الزلزال/ ۶- ۸)

۲- «وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً». (الكهف/ ۴۹)

۳- «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَاعَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً». (آل عمران/ ۳۰)

۴- «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاكَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَّاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». «۱» (الزمر/ ۴۸)

۵- «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (آل عمران/ ۱۸۰)

۶- «وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ».

(التكوير/ ۱۲- ۱۴)

۷- «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُم وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ». (الاحقاف/ ۱۹)

۸- «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ». (الزمر/ ۷۰)

۹- «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ». «۲» (البقرة/ ۲۷۲)

۱۰- «ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّاكَسَبَتْ». (البقرة/ ۲۸۱) (آل عمران/ ۱۶۱)

۱۱- «يَومَ يُحْمَى عَلَيهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هَذَا مَاكَنَزْتُم لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكْنِزُونَ». «۳» (التوبة/ ۳۵)

۱۲- «إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». «۴» (الطور/ ۱۶) (التحريم/ ۷)

(۱). وجاء نظير هذا المعنى فى الآية ۵۱ من سورة الزمر.

(۲). هناك آيات اخرى بهذا المضمون، النمل، ۱۱۱؛ آل عمران، ۲۵؛ هود، ۱۱۱.

(۳). الزمر، ۲۴ تفيد نفس المعنى

(۴). هناك آيات اخرى بنفس المضمون، وفى الأعراف، ۱۴۷ و ۱۸۰؛ سبأ، ۳۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۷۷

جمع الآيات وتفسيرها

يومئذ كلٌ يرى عمله:

لقد أشارت الآيات الاولى الواردة فى آخر سورة الزلزال ثلاث مرّات إلى مسألة رؤية الأعمال «يَومَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ» و «فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ» ثم «وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ».

«اشتاتا»: جمع (شت) على وزن (شط) بمعنى «التفرق»، وقد يكون سبب تفرق صفوف الناس فى ذلك اليوم ورود كل امة بإمامها أو أن يتفرق أهل الإيمان عن أهل الكفر والعلماء عن المتعلمين والشهداء عن غيرهم «۱».

«مثقال»: بمعنى وزن، والذرة هى الأجزاء الصغيرة جدّاً، لذا فقد فسّرت الذرة أحياناً بذرات الغبار واخرى بالنملة الصغيرة جدّاً، ويشير ظاهر الآيات بوضوح إلى أنّ الأعمال الصالحة أو السيئة تتجسد أمام صاحبها فى المحشر، ولو أنّ بعض المفسّرين- وبسبب عدم قبولهم لمسألة تجسم الأعمال للأسباب التى أشرنا إليها فى بداية الموضوع- قالوا بالتقدير فقدروا كلمة «جزاء»، والمراد حضور ومشاهدة جزاء الأعمال، وقال البعض: إنّ الرؤية هنا بمعنى العلم والمعرفة أى المشاهدة بعين العقل، وقال البعض الآخر: المراد مشاهدة كتاب الأعمال.

ومن المسلّم أنّ التفاسير الثلاثة لا تتوافق مع ظاهر الآية وذلك لأنّ تقدير أخذ (الجزاء) أو (صحف الأعمال)، مخالف لظاهر الآية والرؤية هنا بمعنى المشاهدة بالعين لا بالقلب التى تنصب مفعولين، فمن المعلوم أنّ الرؤية القلبية تتعدى إلى مفعولين والرؤية الظاهرية تتعدى إلى مفعول واحد، وفى هذه الآية لا نرى إلّامفعولًا واحداً لا أكثر (فتأمل).

والجدير بالذكر أنّ ابن عباس وبالرغم من كونه أقدم المفسّرين قد قبل هنا بمسألة رؤية الأعمال، فيقول فى رواية وردت عنه:

«ليس من مؤمن ولا كافر عمل خيراً أو شرّاً إلّاأراه اللّه إيّاه، أمّا المؤمن فيغفر له سيئاته

---

(۱). تاج العروس فى شرح القاموس مادة (شت) ويقول البعض أنّها جمع شتيت والبعض الآخر جمع شتات.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۷۸

ويثيبه بحسناته، وأمّا الكافر فيردّ حسناته تحسيراً له» «۱».

ونرى فى أحاديث المعصومين الواردة فى تفسير الآيات تعابير واضحة تدلل على رؤية وحضور الأعمال، منها ماقاله أمير المؤمنين عليه السلام فى هذا المعنى

«فمن كان من المؤمنين عمل فى هذه الدنيا مثقال ذرة من خير وجده ومن كان من المؤمنين عمل فى هذه الدنيا مثقال ذرة من شر وجده» «۲».

ونجد فى الآية الثانية تعبيراً آخر فى هذا المعنى فبعد الإشارة إلى كتاب الأعمال قال تعالى «وَوَجَدُوا مَاعَمِلُوا حَاضِراً».

وقال تعالى «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً».

لقد استبعد جمع من المفسّرين فكرة حضور الأعمال فى هذه الآية فقد فسروها أحياناً بمعنى حضور أخبار الأعمال فى كتاب الأعمال وأحياناً اخرى بمعنى حضور جزاء الأعمال ولكن البعض الآخر احتمل حضور نفس العمل «۳».

وعلى حد قول المرحوم العلّامة الطباطبائى «يمكن أن يكون ذيل الآية شاهداً على هذا الموضوع، وذلك لأنّ حضور نفس العمل لإثبات نفى الظلم عنه تعالى أفضل وأوضح» (فتأمل جيداً).

ولقد طرحت الآية الثالثة هذا التعبير بصراحة وتفصيل أكثر، وذلك لأنّ الكلام كان يدور فى الآية السابقة حول الكافرين والمجرمين، أمّا فى هذه الآية: «يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرَاً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً»، فهناك قولان فى تفسيرها:

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۴.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۰.

(۳). تفسير روح المعانى، ج ۱۵، ص ۲۶۷؛ و تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۲۵۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۷۹

الأول: هو أن يجد كل إنسان ما عمل من أفعال الخير والشرّ محضرة يوم القيامة.

الثانى: هو أن يجد كل إنسان ماعمل من أعمال الخير محضرة ويود أن تكون هناك فاصلة زمانية بينه وبين أعماله السيئة، ويرجع هذا الاختلاف فى تفسير الآية إلى مكان الوقوف فيها، فمنهم من قال: «إنّ الوقوف بعد (محضراً) ومنهم من قال: إنّ الوقوف بعد سوء» «۱».

لكن النتيجة فى كلا التفسيرين واحدة، وذلك لأنّ المستفاد من المعنى الثانى أيضاً هو حضور أعماله السيئة لديه وإن كان يتمنى وجود فاصلة بينه وبينها.

وقد ورد احتمال آخر لبعض المفسرين فيرى أنّ المجرمين يودون لو أنّ بينهم وبين السوء الذى عملوه أمداً بعيداً أو أن بينه وبين هذا اليوم أمداً بعيداً «۲».

ومن المعلوم أنّ الإنسان يتمنى أن يكون بينه وبين الامور التى ينفر منها فاصلة مكانية بعيدة، فى حين أنّ المراد ب (أمداً بعيداً) الذى ورد فى الآية الكريمة يقصد بها الفاصلة الزمانية البعيدة.

ومن الممكن أن يكون سبب هذا التعبير هو أنّ احتمال الحضور والتلاقى يكون أكثر فى الفواصل المكانية، أمّا احتماله فى الفواصل الزمانية فهو معدوم.

فمثلًا أنّ الشخص الذى يعيش خلال سنوات الحرب العالمية يشعر بنوع من القلق والاضطراب، حتى وإن كان بعيداً عن ساحة العمليات العسكرية، أمّا الذين تفصلهم فواصل زمنية (بعيدة) عن تلك الحرب فهم لايشعرون بأى قلق أو اضطراب بسببها.

ومن المعلوم أنّ (الأمد) يأتى دائماً للزمان، ويقول الراغب فى مفرداته: «إنّ معناه يقترب من معنى (أبد) مع فارق بسيط هو أنّ (أبد) زمان ليس له أى حد محدود، أمّا (أمد) فهو زمان له حد مجهول».

---

(۱). الحالة الاولى (الواو) وما عملت من سوء استئنافية، أمّا الحالة الثانية فلكون الواو: عاطفة فجملة «تود» جملة حالية.

(۲). ورد هذا الاحتمال فى تفسير روح البيان، ج ۲، ص ۲۱؛ وفى تفسير فى ظلال القرآن، ج ۱، ص ۵۶۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۰

فالحديث فى الآية السابقة يدور حول حضور الأعمال، وتتحدث هذه الآية عن احضار الأعمال، أى إنّها تتناول موضوعاً أوسع، ووِفقها فإنّ اللّه تعالى وبقدرته المطلقة يحضر جميع الأعمال الصالحة والسيئة شاء صاحبها أم أبى ولذا قال بعض المفسّرين: إنّ هذا التعبير هو

أكثر اخافة وفزعاً من تعبير الآية السابقة.

ونواجه فى الآية الرابعة تعبيراً جديداً أيضاً حول هذا الموضوع، قال تعالى «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَاكَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَّاكَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ».

«بدا»: مشتقّة من مادة (بدو) بمعنى الظهور التام، ولهذا قالوا للبرارى (البادية) لظهورها بعكس المدن التى كانت تحاط بالأسوار والحصون فتختفى وراءها.

«سيئات ما كسبوا»: تعنى أعمال السوء، وقد فسّرها البعض بمعنى جزاء هذه الأعمال، أو أنّهم قدروا كلمة جزاء، ولكن ظاهر الآية يفيد أنّ أعمالهم السيئة تظهر واضحة جلية فى ذلك اليوم، وذلك لأنّ السيئات- جمع سيئة- تعنى العمل السىء وليس سوء العمل (تأمل جيداً).

ومن الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى أنّ الكثير من الأعمال السيئة فى هذا العالم تخفى صورتها الحقيقية مثل الرياء الذى يراد به غير اللَّه تعالى ولكن فى ذلك اليوم وهو يوم الكشف عن السرائر ويوم الظهور يكشف عن الوجه الحقيقى لجميع الأعمال، كما نقرأ فى الحديث الوارد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى تفسير هذه الآية: «هى الأعمال حسبوها حسنات فوجدوها فى كفة السيئات».

وهذا الحديث بدوره شاهد آخر على نظرية تجسّم الأعمال «۱».

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۸، ص ۱۲۱.

ونواجه فى الآية الخامسة تعبيراً جديداً أيضاً، فبعد أن ذمّت الآية البخلاء وأخبرت بأنّ البخل ليس خيراً لهم وإنّما هو ضرر عليهم: «سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

يستفاد من هذا التعبير أنّ الأموال التى لم تدفع الحقوق المفروضة عليها ولم ينتفع بها أحد ستكون على شكل طوق تطوّق به رقاب البخلاء يوم القيامة، فكما كان وزرها على عواتق أصحابها دون الانتفاع بها فكذلك الأمر فى يوم القيامة.

ولقد ورد فى تفسير العياشى نقلًا عن الإمام الباقر عليه السلام فى توضيح معنى هذه الآية قال:

«مامن عبد منع زكاة ماله إلّاجعل اللَّه ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوّقاً فى عنقه» «۱».

ولكن ما المقصود بالبخل فى الآية الكريمة: ممّا آتاهم اللَّه من فضله؟

يعتقد بعض المفسِّرين أنّ الآية ناظرة إلى البخل فى العلم والمعرفة وحسب ما جاء فى سبب نزولها حيث نقل عن ابن عباس أنّ الآية نزلت فى كتمان اليهود لعلامات الرسول صلى الله عليه و آله «۲».

فى حين نجد أنّ هناك روايات عديدة ذكرت أنّ الآية تتعلق بمانعى الزكاة ولا يستبعد أن يكون للآية مفهومٌ واسعٌ بحيث تشمل كل الهبات الإلهيّة التى ذكرناها والتى لم نذكرها.

ويلاحظ أنّ جمعاً من المفسرين لم يأخذوا بظاهر الآية وفسّروها بجزاء الأعمال، وقال البعض منهم: إنّ المراد بالآية الكريمة البخلاء فهم مكلّفون يوم القيامة بالإتيان بمثل هذه الأموال ولكنّهم لن يتمكنوا من ذلك (أى إنّ الذى سيطوقون به هو التكليف وليس نفس الأموال).

ولكنّ هذا النوع من التفاسير إضافة إلى كونه يفتقر إلى الدليل كذلك فهو مخالف لظاهر الآية ولا يتوافق مع الروايات الكثيرة المنقولة عن أئمّة الهدى عليهم السلام فى تفسير هذه الآية.

وتتحدث الآية السادسة عن موضوع جديد وهو (حضور واحضار العمل) قال تعالى

---

(۱). تفسير العياشى، ج ۱، ص ۲۰۷، ح ۱۵۸.

(۲). لقد وردت رواية ابن عباس فى كثير من التفاسير من جملتها تفسير القرطبى؛ تفسير روح المعانى؛ تفسير المنار، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۲

«وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ* وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ* عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ».

قال المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «ما احضرت بمعنى ما وجدت حاضراً من عملها، والعجيب أنّه يقول على أثرها: إنّ لإحضار الأعمال معنى مجازياً لأنّ العمل ليس بالشىء الذى يبقى إذ إنّه يفنى بعد الأداء، وقال البعض إنّ المقصود هو حضور صحيفة الأعمال» «۱».

فى حين- كما سنوضح ذلك فى فقرة (التوضيحات)- أنّ الأعمال لا تفنى أبداً ولا مانع من تجسمها على شكل صور مناسبة فى ذلك اليوم.

إنّ احضار العمل سواء كان بمعنى (الاحضار) أو (الحضور) (حيث فسّر بكلا المعنيين) يدلّ على ما نصبو إليه من هذا البحث.

استيفاء الأعمال يوم القيامة:

يلاحظ فى الآيات السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة تعبيراً آخراً فى مسألة تجسّم وحضور الأعمال، حيث ورد فى هذه الآيات أنّ أعمال الإنسان الصالحة والسيئة (الخير والشرّ) ترجع إلى الإنسان يوم القيامة كاملة غير منقوصة، والظاهر من كل هذه الآيات أنّ المراد هو استيفاء العمل نفسه وليس جزاء العمل أو كتاب العمل.

قال تعالى فى الآية السابعة: «وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُم وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

وقال تعالى فى الآية الثامنة بعد الإشارة إلى محكمة القيامة وكتاب الأعمال والشهود ونفى الظلم: «وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ»، فكأنّ هذه الآية تبيّن علّة الحكم بالحق وعدم ظلم الآخرين الذى ورد فى الآية التى تسبقها فتقول: كيف يقع الظلم والجور على أحد فى حين أنّ نفس أعماله توفى إليه؟! إضافة إلى ذلك أنّ هذه المحكمة

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۳

تدار من قبل من هو أعلم بما يفعلون.

ولقد جاء نفس هذا المعنى فى الآية التاسعة: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَاتُظْلَمُونَ».

وكذلك ورد فى الآية العاشرة نفس هذا المعنى أيضاً ولكن بعبارات أكثر عمومية وشمولية: «ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّاكَسَبَتْ وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ».

«ووفيت وتوفى ويوفى» كلّها مشتقّة من مادة (وفا) التى تعنى الوصول إلى الكمال و «توفيه»: بمعنى دفع الشىء بصورة كاملة و (توفى) بمعنى أخذ الشىء كاملًا.

ويجب أن نذكر أَنَّ القرآن الكريم يشير فى بعض الموارد بقوله: «انَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيرِ حِسَابٍ». (الزمر/ ۱۰)

ولكنه يقول فى الآيات السابقة وبعض الآيات الاخرى إنّهم يستوفون نفس أعمالهم، ونحن نقول: إنّه لامنافاة بين الاثنين وذلك للاستفادة من مجموع الآيات الكريمة، فبالإضافة إلى تعلّق الأجر والجزاء بالأعمال فإنّ أعمال الإنسان تستوفى فى ذلك اليوم، ويمكن أن نشبّه هذه المسألة بالسائق الذى يخالف مقررات المرور فكما أنّه يتعرض لخسارة الاصطدام كذلك يجب عليه دفع الغرامة.

ولقد فسّر الكثير من المفسّرين هذه الآيات بأنّها كناية عن أخذ جزاء الأعمال، لكننا نقول: هذا كلام لا دليل عليه بل وكما لاحظنا أنّ هناك الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة (التى سنشير إليها لاحقاً) تدلّ على تجسّم وحضور أعمال الإنسان يوم القيامة، لذا فنحن ندع الآيات ومعناها الظاهرى.

وعلى هذا الأساس نتناول بحث تجسّم الأعمال كما فعل ذلك جمع من أهل التحقيق والتفسير والحديث.

وفى الآية الحادية عشرة إشارة إلى الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل اللَّه، وكذلك إشار إلى العذاب الأليم الذى ينتظر هؤلاء، فتذكر هذه الآية بوضوح الدراهم والدنانير التى اكتنزوها ولم ينفقوها فى سبيل اللَّه فسوف يؤتى بها يوم القيامة ويحمى عليها

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۴

فى نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم، ويقال لهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون.

من هنا يطرح هذا السؤال: لماذا خصت الآية هذه الأعضاء الثلاثة دون غيرها؟

قال البعض: لأنّها تشمل معظم البدن (وإنّما خصت هذه الاعضاء لأنّها تمثل معظم البدن) «۱».

وقيل: لأنّ صاحب المال إذا رأى الفقير قبضَ جبهته وزوى يمينه وطوى عنه كشحه وولاه ظهره.

وقيل: إنّ المقصود من كسب الأموال حصول فرح فى القلب يظهر أثره فى الوجوه، وحصول شبع ينتفخ بسببه الجنبان، ولبس ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم، فلما طلبوا تزيين هذه الأعضاء الثلاثة، لا جرم أن حصل الكى على الجباه والجنوب والظهور «۲».

صحيح أنّ هذه الآية لم تذكر صراحة تجسّم الأعمال، ولكنّها دلّت على حضور الأموال فى عرصات يوم القيامة، ويمكن أن نعتبر نفس هذا التعبير إشارة إلى مسألة تجسّم الأعمال، وبالرغم من الزوال والفناء الظاهرى لهذه الأموال ولكنها بحكم المعاد سوف تعود وتتجسّد هناك ويحمى عليها فى نار جهنّم وتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم.

ثم يطرح هذا السؤال: ما المراد بالكنز هنا؟ هناك آراء عديدة فى الإجابة عنه: فمما لا شكّ فيه أنّ للكنز مفهوماً واسعاً يشمل جميع الأموال النفيسة التى تجمع وتدخر فى مكان ما، فهل يدلّ مفهوم الآية على أنّ حرمة ادّخار جميع الأموال الفائضة عن الحاجة والتى يترتب عليها ماورد فى هذه الآية من عقوبات؟ أم أنّ الآية تخصّ الذين يمتنعون من أداء الحقوق الشرعية كالزكاة وغيرها؟ أمّا الذين يؤدّون الحقوق الواجبة فلم تشملهم هذه الآية وماورد فيها من عقوبات؟

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۶.

(۲). لقد ذكر الفخر الرازى ستة أوجه فى تفسير هذه الآية، تفسير الكبير ج ۱۶ ص ۴۸، وأشار إلى هذا المعنى تفاسير روح البيان؛ وروح المعانى؛ والقرطبى.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۵

المشهور بين الفقهاء والمفسّرين والمحدِّثين: هو المعنى الثانى، ولقد وردت بهذا الخصوص أحاديث كثيرة منقولة عن الطرفين (السُنّة والشيعة) ومن جملتها الحديث المنقول عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «أى مال أديت زكاته فليس بكنز» «۱».

كما أنّ هناك احتمالًا آخر وهو أنّ المجتمع الإسلامى إذا تعرض نتيجة تجميد رؤوس الأموال إلى أزمة اقتصادية شديدة، فيجب على أصحاب رؤوس الأموال اخراجها، إمّا عن طريق الانفاق أو عن طريق استثمارها فى مجالات العمل المختلفة من أجل تأمين المتطلبات الضرورية للمجتمع.

فاذا اكتنزوا أموالهم فى مثل هذه الأوضاع ولم يخرجوها للتداول والاستثمار فسوف تشملهم الآية الكريمة، ولعل مايؤكد هذا المعنى ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام إذ قال:

«مازاد على أربعة الآف فهو كنز أدّى زكاته أو لم يؤدها وما دونها فهى نفقة فبشرهم بعذاب اليم» «۲».

لا تجزون إلّاما كنتم تعملون:

يلاحظ فى الآية الثانية عشرة تعبير جديد فى هذا الصدد وخلاصته أنّ جزاءكم يوم القيامة هو نفس أعمالكم ونجد هذا التعبير فى كثير من الآيات القرآنية فتارة يقول تعالى

«إِنَّمَا تُجْزَونَ مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

ولقد ورد عين هذا التعبير فى الآية ۱۶ من سورة الطور والآية ۷ من سورة التحريم.

و قال تعالى: «وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (يس/ ۵۴)

و قال أيضاً: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ». (النمل/ ۹۰)

---

(۱). تفسير المنار، ج ۱۰، ص ۴۰۶ وفى صحيح البخارى هناك باب تحت عنوان (ما أدى زكاته فليس بكنز) ج ۱، الجزء ۳، ص ۱۳۲، وكذلك تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۳.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۳، ح ۱۳۲.

و قوله تعالى: «هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ». (يونس/ ۵۲)

وهناك تعابير اخرى من هذا القبيل بشىء من الاختلاف، وبناءً على ما جاء فى ظاهر هذه الآيات فإنّ جزاء الإنسان نفس عمله، فأعماله ترجع إليه فتكون سبباً إمّا فى شقائه ومعاناته وإمّا فى سعادته وسروره، وهذا دليل واضح على مسألة تجسّم الأعمال وعودتها إلى صاحبها وهذا من العدل الإلهى.

وقد اعتبر بعض المفسّرين أنّ (الباء) هى باء السببية فيصبح المعنى «بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» أى إنّما تجزون بسبب الأعمال التى اقترفتموها «۱».

فى حين أنّ هذا التعبير على خلاف ظاهر الآية وهو غير جائز من غير دليل ولا علة للتقدير فى الآيات السالفة الذكر، فما المانع من أن تحضر هناك نفس أعمال الإنسان لتشكل القسم الأعظم من جزائه.

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان فى ذيل الآية ۷ من سورة التحريم:

«أى إنّ العذاب الذى تعذبون به هو عملكم السيء الذى عملتموه وقد برزت لكم اليوم حقيقته» «۲».

يتضح من مجموع الآيات التى تعرضنا إلى تفسيرها أننا إذا لم نتلاعب بظواهرها ولم نؤولها أو نحملها على معنى آخر ولن نقدر لها أى تقدير كجملة أو كلمة، وبتعبير أوضح إن فسّرنا ظواهر الآيات كما هى عليه اتّضح لنا أنّ أعمالنا تتجسد فى يوم القيامة وفى محكمة العدل الإلهى أو المواقف الاخرى من ذلك اليوم، فتتجسّم وتبرز أمامنا بأشكال تناسب تلك الأعمال فتظهر السيئة على صورة موجودات قبيحة مخيفة ومزعجة، أمّا الصالحة فتتجسد على صورة موجودات لطيفة مؤنسة وتكون قرين الإنسان.

---

(۱). قدر البعض كلمة (على) فيصبح المعنى (على ماكنتم تعملون).

(۲). تفسير الميزان، ج ۱۹، ص ۳۸۸.

توضيحات

۱- رؤية الأعمال فى الروايات الإسلامية

لقد وردت مسألة رؤية الأعمال بنطاق واسع فى الروايات الإسلامية المنقولة عن الشيعة وأهل السُنّة، وهذه الكثرة بلغت إلى حدّ جعل المرحوم الشيخ البهائى يقول فى احدى محاضراته: «تجسم الأعمال فى النشأة الأخروية قد ورد فى أحاديث متكثرة من طرف المخالف والموالف»، وسنتطرق هنا إلى بعض من هذه الأحاديث:

۱- ورد فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: روى أصحابنا «رضى اللَّه عنهم» عن قيس بن عاصم قال: وفدت مع جماعة من بنى تميم على النبى صلى الله عليه و آله فدخلت عليه فقلت: يانبى اللَّه عظنا موعظة ننتفع بها، فإنّا قوم نعبر فى البرية، فقال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «يا قيس إنّ مع العزّ ذلًا، وإنّ مع الحياة موتاً وإنّ مع الدنيا آخرة، فإنّ لكل شىء حسيبا، وإنّ لكل أجل كتاب وأنّه لابدّ لك ياقيس من قرين يدفن معك وهو حى وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ثم لا يحشر إلّامعك، ولا تحشر إلّامعه، ولا تسأل إلّا عنه فلا تجعله إلّاصالحاً فانّه إن صلح أنست به وإن فسد لا تستوحش إلّامنه وهو فعلك».

وورد فى ذيل الرواية أنّ قيس قال: يارسول اللَّه أحب أن يكون هذا الكلام أبياتاً من الشعر نفتخر بها على من يلينا وندّخرها فأمر من يأتيه بحسّان، فقال الصلصال (و كان حاضراً فى المجلس) يارسول اللَّه قد حضرتنى أبيات أحسبها توافق ما أراد قيس، فقال هاتها، فقال:

تجنب خليطا من مقالك إنّماقرين الفتى فى القبر ما كان يفعل

ولن يصحب الإنسان من قبل موتهومن بعده إلّاالذى كان يعمل! «۱»

۲- فى حديث آخر نقله أبو بصير عنالإمام الباقر عليه السلام أو الإمام الصادق عليه السلام: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه فى قبره ست صور، فيهن صورة أحسنهن وجهاً وأبهاهن هيئة، وأطيبهن ريحاً، وانظفهن صورة، قال: فتقف صورة عن يمينه، واخرى عن يساره، واخرى بين يديه، واخرى خلفه، واخرى عند رجليه وتقف التى أحسنهن فوق رأسه، فإن أتى عن يمينه منعته التى عن يمينه ثم كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الست قال: فتقول التى أحسنهن صورة: ومن أنتم جزاكم اللَّه عنّى خيراً؟ فتقول التى عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التى عن يساره أنا الزكاة وتقول التى بين يديه أنا الصيام، وتقول التى خلفه: أنا الحج والعمرة وتقول التى عند رجليه، أنا بر من وصلت من اخوانى؛ ثم يقلن من أنت؟

فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً وأبهانا هيبة فتقول أنا الولاية لآل محمّد صلوات اللَّه عليهم أجمعين» «۱».

۳- ورد فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله: أنّه قال: «قال لى جبرائيل: يامحمد! عش ما شئت فانّك ميت، واعمل ما شئت فانّك ملاقيه» «۲».

۴- وفى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله: «إنّ المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له من أنت؟ فواللَّه إنّى لأراك امرأ صدقٍ، فيقول له أنا عملك فيكون له نوراً وقائدا إلى الجنّة» «۳».

۵- وفى الختام نذكر حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا وضع الميت فى قبره مثل له شخص وقال له ياهذا كنّا ثلاثة، كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلفوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك، أما أنّى كنت أهون الثلاثة عليك» «۴».

والأحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة ومن جملتها أحاديث المعراج، فلما عرج

(۱) كتاب المحاسن طبق نقل بحارالأنوار، ج ۶، ص ۲۳۴، ح ۵۰.

(۲) كنز العمال، ج ۱۵، ص ۵۴۶.

(۳) المصدر السابق، ج ۱۴، ص ۳۶۶.

(۴) فروع الكافى، ج ۳، (كتاب الجنائز)، ص ۲۴۰، ح ۱۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۸۹

بالرسول صلى الله عليه و آله مرّ على الجنّة والنّار فرأى كل زمرة من العاصين تعذب بعذاب شبيه بأعمالهم، كذلك شاهد أعمال الصالحين وهم منعمون برفقة أعمالهم.

وما الأخبار الواردة حول الغيبة وتجسمها على صورة قطعة لحم متعفنة يتناولها المغتاب إلّادليلا آخر على هذا المعنى

ويمكن أن نستنتج من مجموع الروايات والآيات السابقة أنّ أعمال الإنسان تتجسد فى عالم البرزخ والقيامة فى صور متناسبة مع العمل، وأن تعبير: «إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً». (النساء/ ۱۰)

يدل على أنّ باطن العمل يتمتع بنوع من الحضور، فأكل مال اليتيم يكون فى بطنه على شكل نار محرقة ومن لم تكن له عين باصرة لا يرى حقيقة هذا الأمر.

من هنا نقول إنّه ليس من الضرورى حمل جميع هذه الآيات والروايات على المعنى المجازى والكنائى أو إيجاد تأويل أو تقدير لها مع العلم بأنّه لا يوجد أى مانع من العمل بظواهر مثل هذه الآيات وكما سنبيّن ذلك لاحقاً.

۲- تجسد الأعمال فى منطق العقل

الإشكال الأول الذى يرد على مسألة رؤية وحضور الأعمال- كما يتضح من بعض كلمات المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان- هو أنّ العمل من جنس «العرض» لا «الجوهر» فلا يحمل خواص المادة ولا هو مادة بنفسه لذا فهو ينعدم بعد حدوثه.

والإشكال الثانى: هو أنّ العمل يمحى ويزول بعد وجوده، لذا فإنّنا لا نجد آثاراً من أحاديثنا وأفعالنا الماضية إلّاما أحدثت تغييراً فى بعض المواد الموجودة كتحول الحصى والخشب والجص إلى بيت معين، وهذا ليس بتجسم وإنّما هو تحّول ناشىء من العمل (تأمل).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۰

ولكن إذا أخذنا النكتتين أدناه بنظر الاعتبار فسوف تتضح الإجابة عن الشبهتين السالفتين وكذلك تتضح مسألة تجسم الأعمال:

النكتة الاولى لقد ثبت اليوم أنّ المادة لا تفنى وحتى الأعمال فانّها تتحول إلى صور مختلفة.

فإن تحدّثنا فستنتقل أصواتنا على شكل أمواج صوتية إلى الفضاء المحيط بنا وتصطدم بالأجسام التى تعترضها من جدران وأبنية وأجسام اخرى وتتحول إلى طاقة اخرى ومن الممكن أن يتغير شكل هذه الطاقة مرّات عديدة ولكنها لن تفنى وما حركات أيدينا وأرجلنا إلّانوعٌ من الطاقة وهذه الطاقة (الميكانيكية) لا تفنى أبداً وإنّما تتحول إلى طاقة حرارية أو طاقة اخرى

والخلاصة: ليست المادة لا تفنى فقط بل وحتى طاقتها ثابتة ولا تفنى أيضاً بل تتحول من شكل إلى آخر.

النكتة الثانية: وقد تمّ إثباتها بشكل قاطع من خلال بحوث العلماء وتجاربهم وهى: إنّ هناك علاقة قريبة بين المادة والطاقة، أى أنّ المادة والطاقة مظهران لحقيقة واحدة، فالمادة عبارة عن طاقة مخزونة أمّا الطاقة فهى مادة غير مخزونة (حرة)، لذا يمكن أن تتحول أحداهما إلى الاخرى تحت شروط معينة، فالطاقة الذرية هى تحول المادة إلى طاقة، وبتعبير آخر أنّ الطاقة الذرية: هى انشطار نواة الذرة وتحرير طاقتها الكامنة، ولقد أثبت العلماء أنّ الطاقة الحرارية للشمس تحصل نتيجة الانفجارات الذرية فيها، ولهذا السبب تفقد مقداراً كبيراً من وزنها كل أربع وعشرين ساعة ولو أنّ هذا النقصان ضئيل قياساً بوزن وحجم الشمس.

بلا شكّ وكما أنّ المادة قابلة للتحول إلى طاقة كذلك الطاقة فانّها قابلة للتحول إلى مادة، أى إذا تراكمت الطاقة المنتشرة فانّها تأخذ

حالة الجسم المادى.

وعلى هذا الأساس لايوجد أى مانع من عدم فناء ومحو أعمالنا وأقوالنا التى هى طاقات مختلفة وارجاعها مرّة اخرى بأمر اللَّه على صورة جسم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۱

ومن المسلَّم به أنّ كل عمل سيكون جسماً بما يتناسب مع خواصه وصفاته، فالطاقات التى تبذل فى سبيل الإصلاح وخدمة الناس والتقوى تظهر على شكل صورة جميلة تتناسب مع ذلك العمل.

أمّا الطاقات التى تستعمل فى مجال الظلم والجور والقبح والفساد فتتجسم على شكل صورة قبيحة مخيفة.

وعلى هذا الأساس تعتبر حالة تجسّم الأعمال احدى المعاجز العلمية للقرآن، وكما اتّضح أنّ بقاء الطاقة وتحول المادة إليها وبالعكس لم تكن مطروحة آنذاك، لكن الآيات والروايات تحدثت عن هذا الأمر بشكل واضح، وبناءً على ذلك لم تكن هناك مشكلة لا من حيث كون الأعمال من جنس «العرض» ولا من حيث كونها- كما أشرنا- لا تفنى وأنّ العرض والجوهر وجهان لحقيقة واحدة ويتضح هذا المعنى أكثر بالالتفات إلى حركة الجوهر حيث إنّ القائلين بحركة الجوهر يستدلون بالحركات التى تقع فى العرض ويرون أنّ العرض والجوهر لاينفكان عن بعضهما البعض.

ومن المناسب أن نشير إلى هذه النكتة فى نهاية الموضوع.

إنّ العالم الفرنسى (لافوازيه) استطاع بعد جهود حثيثة أن يكتشف أصل بقاء المادة وأثبت أنّ مواد العالم لا تفنى أبداً بل تتحول من شكل إلى آخر.

ولم يمر طويلًا إلّاواكتشف (پيركورى وزوجته) ولأول مرّة العلاقة بين الطاقة والمادة من خلال تجاربه على المواد النشطة اشعاعياً (وهى أجسام تتكون من ذرات غير ثابتة وتتحول بعض أجزائها تدريجياً إلى طاقة) وبهذا الاكتشاف تبدل قانون بقاء المادة إلى قانون بقاء (المادة- الطاقة).

وبهذا تزلزل أصل بقاء المادة وحلّ محله أصل بقاء مجموعة (المادة- الطاقة)، وأخذت عملية تحول المادة إلى طاقة عن طريق انشطار الذرة بعداً علمياً واسع النطاق.

ومن خلال هذا تبيّن أنّ هناك علاقة قريبة بين انشطار المادة والطاقة، ويمكن أن تتحول إحداهما إلى الاخرى وبعبارة اخرى أنّ المادة والطاقة شكلان لحقيقة واحدة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۲

إنّ هذا الاكتشاف العلمى الكبير أحدث تحولًا واسعاً فى مجال البحوث والتجارب العلمية التى أثبتت وحدة العالم أكثر فأكثر.

إنّ هذا المبدأ فى مسألة المعاد وبحث تجسّم الأعمال ودفع الإشكالات التى كان الأقدمون يطرحونها حول هذه المسألة كان له أكبر الأثر فى ازالة موانع إثبات تجسّم الأعمال.

۳- تجسد اخلاق وسجايا الإنسان

يستفاد من الروايات الإسلامية إضافة إلى مسألة تجسّم الأعمال أنّ أخلاق الإنسان تتجسّد أيضاً فى ذلك اليوم على صورة إنسان.

وعلى هذا الأساس فإنّ الناس يردون المحشر على صور مختلفة بما يتناسب مع أخلاقهم وطباعهم، فالذين لهم قلوب مملوءة بنور الإيمان تظهر وجوههم بيضاء ونورانية منيرة، وبعكس ذلك القلوب المظلمة الذين كانوا يعيشون فى ظلمات الكفر فإنّ وجوههم سوف تكون مسوودة وكالحة، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك بالقول: «يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ».

(آل‌عمران/ ۱۰۶- ۱۰۷)

وقال تعالى فى موضع آخر فيما يتعلق بعاقبة المذنبين والظلمة: «كَأَنَّمَا اغْشِيَتْ وُجُوهُهُم قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظلِماً». (يونس/ ۲۷)

نعم، إنّ ذلك اليوم هو يوم ظهور وتجسد الأعمال، فتبرز كل الأخلاق والطباع الداخلية والملكات النفسية ويصطبغ جميع جسد الإنسان بلونها الخاص كما قال الشاعر الفارسى:

كُلُّما يستوطنُ القَلبَ، لهُ هيئَةٌ يومَ انبعاث البَشَرِ

والذى كنتَ عليهِ عاكِفاًفيهِ تُحشَرُ يومَ المَحشَرِ

ونقل بعض المفسرين الكبار عند تفسيرهم قوله تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً». (النبأ/ ۱۸)

حديثاً عن الرسول صلى الله عليه و آله، وخلاصته:

كان معاذ بن جبل جالساً بالقرب من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى منزل أبى أيوب الأنصارى، فقال: يارسول اللَّه أرأيت قول اللَّه تعالى «يَوْمَ يُنْفَخُ فِى الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً»، فقال:

«يامعاذ سألت عن عظيم من الأمر ثم أرسل عينه ثم قال: عشرة أصناف من امّتى يحشرون أشتاتاً قد ميّزهم اللَّه من المسلمين فبعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير، وبعضهم عمى يترددون وبعضهم صم بكم لايعقلون وبعضهم يمضغون ألسنتهم يسيل القيح من أفواههم لعاباً يتقزرهم أهل الجمع، وبعضهم أشد نتناً من الجيف» الحديث، فأمّا الذين على صورة القردة، فالقتات من الناس، وأمّا الذين على صورة الخنازير، فأهل السحت، والعمى، الجائرون فى الحكم، والصم البكم، المعجبون بأعمالهم، والذين يمضغون السنتهم العلماء والقضاة الذين خالفت أعمالهم أقوالهم، والذين أشد نتناً من الجيف، الذين يتمتعون بالشهوات واللذات ويمنعون حق اللَّه تعالى فى أموالهم «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۲۳ ولقد نقل هذا الحديث الكثير من المفسرين مثل أبى الفتوح الرازى فى روح الجنان؛ والقرطبى؛ وروح البيان؛ وتفسير الصافى فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۵

۵- محكمة العدل الإلهى

الشهود والميزان والحساب:

تمهيد:

إنّ أهم منازل يوم القيامة هو مرحلة حساب الخلائق فى محكمة العدل الإلهى بحضور مختلف الشهود، فتوزن الأعمال هناك بميزان خاص.

نعم، هى محكمة يتزلزل الجميع فيها ويغمرهم الخوف والوجل.

قاضيها وحاكمها هو اللَّه جلّ جلاله، وشهودها الملائكة المقرّبون.

محكمة كتابها لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلّاأحصاها فيُسأل الإنسان فيها عن كل شىء حتى عن نيّاته.

وآيات المعاد فى هذا المجال كثيرة فأحياناً تشير إلى أصل محكمة الآخرة وإلى قاضيها سبحانه وتعالى وأحياناً اخرى تشير إلى الشهود وثالثة إلى الميزان ورابعة إلى كيفية الحساب فى ذلك اليوم.

إنّ الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الموضوع إضافة إلى ماتطرحه من نكات ظريفة ودقيقة فى كافة المجالات، فانّها تحمل رسالة تربوية هامة لها أبلغ الأثر فى تنوير القلوب بنور التقوى والهداية وتدفع الإنسان إلى القيام بمسؤولياته على أكمل وجه لتوصله إلى طريق السعادة والتكامل.

بعد هذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ولنقرأ هذه الطائفة من الآيات:

١- «وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ». (يس/ ٣٢)

٢- «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَومَ القِيَامَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ». (الحج/ ٦٩)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۶

٣- «فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ* أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ». (التين/ ٧ و ٨)

۴- «فَإِلَيْنَا مَرجِعُهُم ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَايَفعَلُونَ». (يونس/ ۴۶)

۵- «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هؤُلَآءِشَهِيداً». (النساء/ ۴۱)

۶- «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ». (ق/ ۲۱)

٧- «يَومَ تَشهَدُ عَلَيهِم أَلسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِم وأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (النور/ ۲۴)

٨- «وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَينَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ».

(فصلت/ ۲۱)

٩- «يَوْمَئِذٍ تُحَدّثُ أَخْبَارَهَا* بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا». (الزلزال/ ۴- ۵)

١٠- «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسطَ لِيَوم القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَ إِنْ كَانَ مِثقَالَ حَبَّةٍ مِّن خَرْدَلٍ أَتَينَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ». (الأنبياء/ ۴۷)

١١- «وَالْوَزْنُ يَومَئذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم». (الأعراف/ ٨- ٩)

١٢- «هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوم الْحِسَابِ». (ص/ ۵۳)

١٣- «إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ». (آل‌عمران/ ١٩٩) (المائدة/ ۴) (إبراهيم/ ۵١) (غافر/ ١٧)

١۴- «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ». (الانعام/ ۶۲)

١۵- «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم». (الغاشية/ ٢۵- ٢۶)

١۶- «اقْرَأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَومَ عَلَيكَ حَسِيباً». (الاسراء/ ١۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الجميع محضرون فى تلك المحكمة العظمى

الآية الاولى تتحدث عن حضور جميع الامم أمام اللّه تعالى فى محكمة عدله، فبعد أن أشارت إلى الأقوام السالفة وكيفية هلاكها بذنوبها، قال تعالى «وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ» «١».

---

(١). يرى جمع من المفسرين أنّ الآية تعرب على هذا النحو: إنْ: نافية، ولمّا: بمعنى إلّا، وجميعٌ: بمعنىE مجموع خبر (كل)، وتنوين كلٌ: بدل من المضاف إليه المحذوف، وكانت فى الأصل (كلهم)، ومحضرون: إمّا هو خبر بعد الخبر أو صفة لجميع، وعلى هذا المعنى تكون الجملة هكذا: (وما كلهم إلّامجموعون يوم القيمة محضرون لدينا) وهناك احتمالات اخرى فى إعراب الآية.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۷

صحيح، أنّ الناس وجميع المخلوقات فى هذه الدنيا وفى كافة الأحوال حاضرون دائماً، فى محضر اللَّه تبارك وتعالى فهو حاضر فى كل مكان وهو معنا أينما كنّا، وهو أقرب إلى أنفسنا منّا، ولكن هذه المسألة تتخذ بعداً آخر يوم القيامة، فمن جهة يكشف عن جميع حجب الغفلة والجهل فتصبح الأبصار حادة قوية والقلوب ذات بصيرة نافذة ومن جهة اخرى تتجلى فى ذلك اليوم آثار اللَّه أكثر من أى وقت آخر فتقام محكمة عدله وتوضع موازين القسط.

حقاً إنّه مشهد عظيم، الجميع يحضر ليقف على ماقدم وعمل فى الحياة الدنيا، الكل فى محضر اللَّه تعالى

وتتحدث الآية الثانية عن حكمه وقضائه تبارك وتعالى بين الناس فى ذلك اليوم، وعن الفصل بين جميع اختلافات ومنازعات الناس فى دار الدنيا بمختلف أشكالها وألوانها (العقائدية، أو اليومية)، قال تعالى «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ القِيمَةِ فِيما كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

من البديهى أنّ أنواع الحجب التى تحيط بفكر وقلب الإنسان فى هذه الدنيا (حب الذات، الأنانية، المصالح الشخصية والطائفية، العصبية وحجاب الذنوب) لا تسمح بحل اختلافات الأقوام والشعوب، ولكن عندما ترفع جميع هذه الحجب ويصبح الحكم للَّه الواحد القهار عند ذلك تنتهى جميع الاختلافات والمنازعات.

إنّ المبطلين بعد ازالة هذه الحجب ينقادون ويرجعون إلى عقولهم بحيث يصبحون هم المحاسبين لأنفسهم، وسنبيّن ذلك فى البحوث المقبلة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۸

أمّا الآية الثالثة فقد أبرزت نفس هذا المعنى بنحو آخر فتحدثت عن الإنسان الجحود الذى خلقه اللَّه سبحانه وتعالى «فِى أحسَنِ تَقوِيم»، وعلى أثر سوء أعماله سقط فى (أسفل سافلين) فتقول الآية: «فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ» «۱» أىُّ شىء يكذبك أيّها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالدين الذى هو الجزاء والحساب (أو أىُّ شىء يُكذِّبُكَ أيها الإنسان بعد كل هذه الحجج والدلائل بالمعاد).

«أَلَيسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ»، أى (أليس اللَّه بأقضى القاضين فيحكم بينك يامحمد وبين أهل التكذيب بك).

أجل فهو أحكم الحاكمين لعلمه المحيط بكل شىء فلا تخفى عليه خافية، فالعلم هو الشرط الأول الذى يجب توفره فى الحاكم، هذا من جهة، ومن جهة اخرى أنّه تعالى غير محتاج لأحد وليس له مصلحة فى شىء حتى يقضى لأجله على خلاف الحق.

أمّا الناس فهم محتاجون فيقعون تحت تأثير المصالح الشخصية أو الجماعية وأحياناً العواطف والأحاسيس فيحكمون حكماً على خلاف الحق والعدل، وبما أنّ اللَّه سبحانه وتعالى منزّه عن كل ذلك فهو أحكم الحاكمين وخير الفاصلين.

والجدير بالذكر أنّ كثيراً من التفاسير ذكرت هذه الرواية عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وهى أنّه صلى الله عليه و آله عندما كان يكمل هذه الآيات كان يقول: «بلى وأنا على ذلك من الشاهدين».

هذا الحديث هو دليل على التفسير الذى ذكرناه سابقاً (تأمل جيّداً).

شهود المحشر:

ورد فى الآية الرابعة كلام عن شهود يوم القيامة فأشارت إلى الذات الإلهيّة المقدّسة فهو

---

(۱) عد أغلب المفسرين الخطاب موجهاً إلى الذين سبق ذكرهم فى السورة المباركة واحتمل البعض أنّه موجّه إلىالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، (تفاسير مجمع البيان؛ الكبير؛ والقرطبى؛ وفى ظلال القرآن- وفى الصورة الاولى تفسير كلمة (يكذّبك) (يجعلك كاذباً) وفى الصورة الثانية يفسر على معناه الظاهر بمعنى ماينسبك إلى الكذب، وعلى أية صورة كانت فإنّ المراد أن لا مجال لانكار المعاد وتكذيب النبى صلى الله عليه و آله لكثرة الآيات والأدلة الواضحة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۹۹

تعالى الشاهد الأول، قال تعالى «فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مايَفْعَلُونَ» «۱».

فالمحكمة التى يكون حاكمها اللَّه جلّ جلاله وشاهدها الأول ذاته المقدّسة فهل من الممكن أن يغفل عن شىء ويفوته عند الحساب؟!

ومن البديهى أن تكون مثل هذه المحكمة محكمة مثيرة للقلق والوجل لا لاحتمال الحكم بغير الحق بل بسبب سوء أعمالنا.

لقد فسّر بعض المفسرين الشهادة هنا بمعنى الجزاء والمجازاة فى حين أنّه لا ضرورة لمثل هذا التفسير الذى يخالف ظاهر الآية، وذلك لعدم وجود أى مانع لشهادة الذات الإلهيّة المقدّسة على أعمال العباد فى ذلك اليوم وتعيين شهادته تعالى عن طريق الهام الملائكة المأمورين بالحساب.

وقيل: إنّ شهادة اللَّه تكون بإنطاق أعضاء جسم الإنسان فتجيب عمّا اقترفت من أعمال فى الدنيا.

الآية الخامسة تحدّثت عن شهود المحشر أيضاً ولكن كان الكلام فيهايدور حول شهادة الأنبياء على أممهم وشهادة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله على سائر الأنبياء، قال تعالى «فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئنَا بِكَ عَلَى هؤُلَآءِ شَهِيداً».

ومع أنّ هذه الآية لم تذكر صراحة أنّ شهداء كل امة هم أنبياؤها، ولكن القرائن تؤكد هذه المسألة وذلك لأنّ نبى كل امة هو أكثر الناس صلاحية للشهادة على امته كما أنّ الآية الكريمة لم تذكر من المراد بكلمة (هؤلاء) أى من هم بالدقّة؟ ولذا فقد ذكر المفسرون احتمالات لذلك، قال بعضهم: إنّها إشارة إلى قوم الرسول صلى الله عليه و آله فهو الشاهد عليهم يوم القيامة «۲».

---

(۱). جاء فى تفسير الميزان: أنّ (ثم) الواردة فى الآية أعلاه تُفيد التراخى فى البيان لا التراخى فى الزمان فى حين أنّه يمكن تصور التراخى الزمانى فى مورد الآية أيضاً، وذلك لأنّ اللَّه تعالى يحشر الناس أولًا وبعدها يشهد على أعمالهم نظراً لأنّ المقصود هو الشهادة عند الحساب.

(۲). ورد هذا الاحتمال فى تفسير الكشاف، ج ۱، ص ۵۱۲ وكذلك فى تفسير مجمع البيان ج ۳، ص ۴۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۶ ۱۴۹

ولكن الكثير من المفسرين قالوا: (هؤلاء) إشارة إلى الأنبياء الذين أشارت إليهم الجملة السابقة، وبهذا سيكون الرسول صلى الله عليه و آله هو الشاهد على جميع الشهود.

ويطرح هنا هذا السؤال: وهو كيف تكون شهادة الأنبياء عليهم السلام على اممهم أو شهادة الرسول صلى الله عليه و آله على الأنبياء مع العلم أنّ معنى الشهود مقترن مع الحضور، وأنّ كل نبى من الأنبياء وبضمنهم الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله جاؤوا فى مقطع زمنى محدد من تاريخ اممهم؟

من الممكن أن يكون المعنى أنّ أرواحهم فى عالم البرزخ ناظرة إلى أحوال اممهم وهذا ينافى قوله تعالى فى الآية التى تتكلم عن لسان المسيح عليه السلام: «وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّادُمتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنْتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ»، (المائدة/ ۱۱۷)

فيتضح من خلال هذه الآية الكريمة أنّ الشهادة تعنى الحضور المقترن بالرقابة والتصدى للانحراف وليس بالحضور فقط، أمّا فيما يتعلق بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فمن الممكن أن يكون حضور روحه المقدّسة على طول تاريخ البشرية هو السبب لهذه الشهادة كما ورد فى الروايات أنّ أول ماخلق اللَّه تعالى نور محمد صلى الله عليه و آله.

عن على عليه السلام: «إنّ اللَّه تبارك وتعالى خلق نور محمد صلى الله عليه و آله قبل أن يخلق السموات والأرض والعرش والكرسى واللوح والقلم والجنّة والنّار» «۱».

وهناك احتمال آخر فى معنى الشهادة وهو مقياس الوزن، وذلك لأنّ الإنسان النموذجى يمكن أن يكون بعمله شاهداً على أعمال الصالحين (الأشخاص الذين تشبه أعمالهم أعمال القدوة) وكذلك شاهداً على أعمال الطالحين، وبهذا المعنى لا ينحصر مفهوم الآية بشهود القيامة.

ومن المناسب أن نذكر حديثاً للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى هذا الصدد، فقد روى أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال لابن مسعود: «اقرأ القرآن علىّ» قال: قلت: يارسول اللّه أنت الذى علمتنيه.

قال: «أحبّ أن أسمعه من غيرى». قال ابن مسعود: فافتتحت سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية فبكى الرسول صلى الله عليه و آله. قال ابن مسعود: فامسكت عن القراءة «۲».

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۱۵، ص ۴.

(۲) التفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۰۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۱

وفى نقل آخر وفى امتداد هذه الرواية قال صلى الله عليه و آله: «ياربّ هذا على من أنا بين ظهرانيهم فكيف من لم أرهم» «۱».

والظاهر أنّ بكاء الرسول صلى الله عليه و آله إنّما كان للمواقف المرعبة فى يوم المحشر ولثقل المسؤولية التى وضعت على كاهله صلى الله عليه و آله ألا- وهى مسؤولية الشهادة على الحاضرين والأهم منها الشهادة على الغائبين والتى سوف يقدر عليها بالتأييد الإلهى.

ولقد جاء فى الآية السادسة حديث عن شهادة الملائكة فى تلك المحكمة العظيمة، قال تعالى «وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ».

«السائق»: هو الذى يسوق النفوس إلى محكمة العدل الإلهى.

«الشهيد»: هو الذى يشهد على أعمالها.

ومع أنّ الآية الكريمة لم تصرّح بأنّ هذا (السائق) و (الشهيد) هو من الملائكة أو من غيرهم؟ وفى حال كونه من الملائكة فأى ملك منهم؟

ولكن القرائن تؤكد أنّه من الملائكة حتماً نظراً لكونهم الأنسب لتحمل مثل هذه المسؤولية الثقيلة وأنّ هذا العمل يناسب نفس الملكين المأمورين بتسجيل «الحسنات» و «السيئات» حيث إنّهما أكثر الملائكة اطّلاعاً على أعمال بنى آدم.

وقيل: إنّ السائق هو ملك الموت الذى يسوق الإنسان نحو الموت، والشاهد هو عمل الإنسان أو جوارحه أو صحيفة أعماله.

و فسّر البعض، السائق (بالشيطان) والشاهد بالملك.

و يلاحظ أنّ جميع هذه التفاسير لا تنسجم مع ظاهر الآية باستثناء التفسير الأول، على أيّة حال فإنّ الملك الأول هو المانع من الفرار، أمّا الملك الثانى فهو المانع من الانكار

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۱۷۶۷. ولقد نقل هذا الحديث الآخرون بشىء من الاختلاف.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۲

فيومئذ لامحيص للفرار ولا حيلة لانكار الأعمال.

ويمكن أنّ نشبه حال هؤلاء كمثل حال المجرمين الذين يساقون فى هذه الدنيا إلى المحكمة، فهناك مأمور يسوقهم من ورائهم وآخر يتقدمهم بصحيفة أعمالهم.

وجاء فى نهج البلاغة: أنّ الإمام امير المؤمنين على عليه السلام قال بعد هذه الآية: «سائق يسوقها إلى محشرها وشاهد يشهد عليها

بعملها» «۱».

ولقد ورد فى الآية السابعة كلام عن (شهادة الجوارح) فى تلك المحكمة المرعبة، قال تعالى «يَوْمَ تَشهَدُ عَلَيهِم أَلْسِنَتُهُم وَأَيدِيهِم وَأَرجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ».

و قال فى موضع آخر: «يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ». (نور/ ۲۵)

أمّا الآية الثامنة فهى تشبه الآية السابقة مع شىء من الاختلاف ألا وهو حديثها عن شهادة الجلود، قال تعالى «حَتَّى إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيهِمْ سَمْعُهُم وَأَبصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ* وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَينَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ».

يظهر من الآيات أعلاه أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يعطى لأعضاء البدن وحتى الجلد، القدرة على التكلم والنطق، فكل عضو من الأعضاء يجيب عمّا فعله، فالأذن تجيب عمّا سمعت، والعين عمّا رأت، والجلد عمّا لمس، واللسان عمّا قال، واليد عمّا انجزت، والقدم عن الطريق الذى سلكته، فيعترف كل من الأعضاء الستة بالأعمال التى اكتسبها.

و يقول بعض المفسرين، إنّ بعض هذه الأعضاء يشهد على جميع أعمال الإنسان كشهادة الزمان وليس على أعمال ذلك العضو فقط، وهذا لا يتناسب مع ظاهر الآيات، ومن هنا يتضح أنّه إذا لم تذكر بعض الأعضاء (كالقلب والمخ والشفتين والأسنان بالنسبة للنيات والأغذية والأقوال) فلا يعنى ذلك أنّ الشهادة تنحصر بهذه الأعضاء الستة، وعلى ما يبدو أنّ

---

(۱). نهج البلاغة، خطبة ۸۵.

كل عضو يجيب عن أعماله، وأى شاهد أصدق من هذا!

ومن الواضح أنّ هذه الشهادة (شهادة الجوارح) ولو أنّها تنطق بقدرة اللَّه سبحانه وتعالى إلّا أنّها ليست شهادة اللَّه مباشرة ولقد نقل ذلك الفخر الرازى فى تفسيره «۱» كأحد التفاسير التى قيلت بشأن هذه الآية.

ومن الطريف، طبق هذه الآيات أنّ المذنبين يعاتبون جلودهم: «لِمَ شَهِدتُّم عَلَينَا» أو- كيف شهدتم ضدنا- (السؤال الأول سؤال عن السبب أمّا السؤال الثانى فهو سؤال عن الكيفية).

أمّا بقية الأعضاء الخمسة فلا تسأل مثل هذا السؤال، ولعل السبب فى ذلك هو أنّ شهادة الجلود أكثر عجباً من سائر الشهادات وأنّها شهادة غير متوقعة تماماً، إضافة إلى ذلك أنّ الجلود تلمس بشكل من الأشكال جميع الأفعال ولا تختص بعضو معين لا كما قال بعض المفسرين إنّ هذه إشارة إلى «الفرج» فقط.

ونختم كلامنا فى هذا البحث بالإشارة إلى أنّه يستفاد من بعض الآيات الكريمة أنّ سائر أعضاء الجسم ماعدا «اللسان» تشهد على الإنسان أولًا، وبعد أن تتضح المسائل يعترف اللسان أيضاً بالحقيقة كما ورد ذلك قوله تعالى: «اليَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ». (يس/ ۶۵)

الآية التاسعة تتحدث عن (شهادة الأرض) على الإنسان بما عمل، قال تعالى «يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا» «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا».

وبهذا تعتبر الأرض التى نؤدّى عليها أعمالنا من أهم الشهود فى ذلك اليوم، كما ورد ذلك فى حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله إذ قال: «أخبارها أن تشهد على كل عبد وامة بما عمل

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۳، ص ۱۹۴.

على ظهرها تقول عمل كذا وكذا، ويوم كذا وكذا، وهذا أخبارها» «۱».

وقال أبو سعيد الخدرى: إذا كنت بالبوادى فارفع صوتك بالاذان فانّى سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «لا يسمعه جنّ ولا انس ولا حجر ولا شجر إلّايشهد له» «۲».

وأعطى بعض المفسرين احتمالات اخرى فى تفسير الآية: من جملتها أنّ الأرض تخبر عن قيام الساعة فى هذه الأثناء وعندما يشاهد الإنسان زلزلة الساعة يقول: ما لها: «وَقالَ الإِنسان ما لَها» «۳».

و ورد هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ الأرض تُحدِّث أخبارها بما أخرجت من أثقالها فتقول (هذا جسد فلان وهذا جسد فلان)، مشيرة إلى الأبدان التى تلفظها.

ولكن التفسير الأول إضافة إلى أنّه ينسجم مع سياق آيات السورة كذلك يتوافق مع الأحاديث الكثيرة المنقولة عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله.

ولقد وردت أحاديث كثيرة عن الإمام على عليه السلام بخصوص شهادة الأرض على الصلاة وعلى تقسيم بيت المال: حيث قال: «صلّوا فى المساجد فى بقاع مختلفة فإنّ كل بقعة تشهد للمصلى عليها يوم القيامة» «۴».

وهنا يطرح هذا السؤال: كيف تتحدث الأرض عن أخبارها؟ لقد أخذ بعض المفسرين بظاهر الآية فقالو: إنّ الأرض ستكون فى ذلك اليوم وبقدرة اللّه ذات إدراك وشعور وقدرة على النطق فهى تجيب عن الحوادث التى جرت على ظهرها ولا عجب من هذا الأمر، حيث: «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ». (العنكبوت/ ۶۴)

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۶، ولقد ورد نفس هذا المعنى فى تفسير القرطبى؛ وتفسير روح المعانى؛ وتفسير الكبير، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۶، العبارة الموضوعة بين الأقواس هى مطابقة لرواية تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۳.

(۳) تفسير القرطبى، ج ۲۰، ص ۱۴۹، ذيل الآية مورد البحث.

(۴) لئالئ الأخبار، ج ۵، ص ۷۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۵

فحياة القيامة هى الحياة الحقيقية وكل شىء يصبح حيّا وحتى الأرض فمن الممكن أن يكون لها نوع من الإدراك والشعور.

وقيل إنّ المراد: هو أنّ اللّه سبحانه وتعالى يخلق فيها أمواجاً صوتية، ففى الواقع أنّ المتحدث هو اللّه سبحانه وتعالى (ويمكن أن نشبه هذا المعنى بأشرطة التسجيل، حيث إنّ المتكلم ليس جهاز التسجيل وإنّما هو الإنسان الذى سجّل الكلام على الشريط).

وهناك احتمال آخر: هو أنّ المقصود من (حديث الأرض) هو اظهار آثار الأعمال التى اكتسبها الإنسان على ظهرها حيث إنّ لكل عمل آثاراً.

وانسب هذه التفاسير هو التفسير الأول:

نستنتج من مجموع الآيات السالفة الذكر أنّ فى يوم القيامة بالإضافة إلى شهادة اللّه تبارك وتعالى بالنسبة لأعمال العباد، كذلك تشهد الأنبياء والملائكة والجوارح والأرض.

ميزان الأعمال:

الآية العاشرة ناظرة إلى مسألة «ميزان الأعمال»، قال تعالى «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَومِ القِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً ...».

فكل شىء يوزن بهذا الميزان كبيراً كان أو صغيراً حتى وإن كان بمقدار حبة من خردل فسوف يأتى به اللّه تعالى للحساب.

و «حبّة الخردل»: حبة صغيرة جدّاً خفيفة الوزن وتضرب بها الأمثال لصغر حجمها وخفتها، وهى إشارة إلى أصغر الأعمال أى كل

شيء فى ميزان حتى صغائر الأعمال.

«موازين»: جمع ميزان وهو الوسيلة لقياس الأشياء، وهذا التعبير يدل على أنّ فى ذلك اليوم لا يوجد ميزان واحد للأعمال بل هناك عدّة موازين، قيل: من الممكن أن يكون لكل إنسان، أو امة أو عمل، ميزانٌ، فالصلاة مثلًا توزن بميزان وكذلك الصيام والحج والجهاد أى لكل واحد منها ميزان خاص.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۶

وقيل: إنّ الميزان هو واحد لا أكثر «۱»، والدليل على هذا القول بعض الروايات فى هذا المجال (وسنعرض لها لاحقاً) وما صيغة الجمع (موازين) إلّالبيان عظمة الميزان حيث يعادل آلاف الموازين، ولكن- وكما سنتطرق إلى ذلك- لا يوجد أى دليل على هذا التفسير الذى يخالف ظاهر الآية بل هناك عدّة أدّلة على تعدد الموازين.

وما يجب معرفته هنا، هو أنّ ميزان القيامة هو كالموازين الدنيوية، فلكل ميزان كفتان ولكن يختلف عنها بكبره وعظمته؟

وإذا كان الأمر كذلك فكيف توزن الأعمال وهى لا وزن لها؟

هناك عدّة آراء فى هذا المجال:

فقيل: إنّ ما يوزن هو صحيفة الأعمال، وقيل: إنّ الأعمال تتجسّم يوم القيامة. ويصبح لها وزن.

والخلاصة أنّ الذين يعتقدون بأن موازين القيامة تشبه موازين هذه الدنيا قد اجبروا على القول إنّ هناك نوعاً من الأوزان والاثقال حتى يمكن وزنها بمثل هذه الموازين.

ولكن القرآن يدلّل على أنّ المقصود بالميزان هو وسيلة لقياس الأوزان بمعناها العام وذلك لأننا نعلم أنّ لكل شيء وسيلة وزن تناسبه، فمثلًا وسيلة قياس الحرارة يقال لها ميزان الحرارة أو المحرار، ووسيلة قياس الهواء «ميزان الهواء» أو المحرار أيضاً.

وبناءً على ذلك فإنّ المراد ب (موازين الأعمال) الوسائل التى بها تقاس أعمال الأخيار والأشرار. وكما ينقل المرحوم العلّامة المجلسى عن الشيخ المفيد رحمهما الله: «أنّ أمير المؤمنين والائمّة من ذرّيته عليهم السلام هم الموازين» «۲».

وقد نقل فى (اصول الكافى ومعانى الأخبار) عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى هذه الآية، فقال: «هم الأنبياء والأوصياء» «۳».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۷، ص ۵۰- ۵۱.

(۲) بحارالأنوار، ج ۷، ص ۲۵۲.

(۳) تفسير البرهان، ج ۳، ص ۶۱؛ اصول الكافى، ج ۱، ص ۴۱۹ وقد ورد نظير هذا الحديث فى تفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۷

ونقرأ فى احدى الزيارات المطلقة لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «السلام على ميزان الأعمال» «۱».

فهذه الشخصيات العظيمة هى موازين الأعمال، فالأعمال التى تشابه أعمال هذه الشخصيات تعتبر ثقيلة فى الميزان والأعمال التى لا تشابه أعمالهم تعتبر خفيفة أو لا وزن لها أصلًا، فأولياء اللَّه هم موازين الأعمال فى هذه الدنيا ولكن تبرز وتتجسد هذه المسألة فى العالم الآخر.

ومن هنا اتضح الجواب عن سبب ورود (الموازين) بصيغة الجمع لكون هؤلاء العظماء متعددين.

وهناك روايات ومسائل اخرى فى مجال (ميزان الأعمال) وسوف نتعرض لها فى فقرة التوضيحات.

الآية الحادية عشرة جاءت مكملة ومفسرة لموضوع ميزان الأعمال:

«وَالْوَزْنُ يَومَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يظلِمُونَ».

والجدير بالذكر أنّ اللَّه سبحانه وتعالى جعل لكل إنسان عدداً من الموازين، وهذا التعبير يؤيد التفسير الذى يقول: إنّ لكل عمل ميزاناً، وهناك احتمال: أنّ لكلٍّ من الروح والجسم والأقوال والأفعال ميزاناً خاصاً وهذا المعنى على فرض أنّ الموازين جمع ميزان، فى حين يرى البعض أنّ موازين جمع موزون (يعنى الشىء الذى يوزن وهى نفس أعمال الإنسان)، فمن المسلم أن يكون لكل إنسان والحالة هذه موازين، أى أنّ له أعمال متنوعة توزن فى ذلك اليوم، لكن هذا المعنى يبدو بعيداً نظراً لذهاب أغلب أرباب اللغة والمفسرين إلى أنّ

---

(۱) المرحوم المحدِّث القمى فى كتابه (مفاتيح الجنان) ولقد أورد هذه الزيارة. كزيارة أولى من الزيارة المطلقة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۸

الموازين جمع ميزان، وقد دلّت الروايات السالفة الذكر على أنّ الموازين بمعنى وسائل لقياس الوزن، وبناءً على هذا يكون ثقل الموازين بسبب ثقل الأعمال التى توضع فيها.

وهناك بحث آخر حول ميزان العدل فى يوم القيامة سنتطرق إليه فى فقرة التوضيحات.

السرعة فى الحساب:

تحدّثت الآية الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة عن يوم الحساب وسرعة الأعمال فى ذلك اليوم من قبل اللَّه تعالى

ولقد تحدّثت الآية الاولى بعد أن أشارت إلى الآيات التى قبلها إلى جنّات عدن وما فيها من نعم كثيرة من أطعمة وأشربة، وحور عين. فقالت: «هَذَا ما تُوعَدُونَ لِيَومِ الحِسَابِ».

إنّ مسألة الحساب يوم القيامة مسألة واضحة جلية بحيث إنّ ذلك اليوم يسمى بيوم الحساب «۱».

ولقد ورد فى الآية التى بعدها حديث عن سرعة الحساب «إِنَّ اللَّه سَرِيعُ الحِسَابِ» وكذلك ورد هذا المعنى فى آيات عديدة من القرآن الكريم «۲»، وهذا التكرار يدلّل على أهميّة وعظمة هذه المسألة، فمن جهة أنّها بشرى للصالحين. حيث تخبرهم هذه الآيات بأنّهم ينالون جزاءهم بسرعة، ومن جهة اخرى أنّ هذه المسألة هى وعيد للكافرين والأشرار بأنّ مجازاتهم لن تتأخر أبداً وسوف ينالون مصيرهم بسرعة.

ولقد وردت حول هذا الموضوع (سرعة الحساب) روايات مثيرة نذكر منها:

ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إنّه سبحانه يحاسب جميع عباده على مقدار حلب شاة» «۳».

هذا التشبيه فى الحقيقة يدلّ على قصر فترة الحساب، لذا جاء فى رواية اخرى «إنّ اللَّه

---

(۱). اللام فى (ليوم الحساب) لام الاختصاص. وقيل: إنّها لام التعليل وهذا غير صحيح.

(۲). بالإضافة إلى الآية أعلاه ورد نفس هذا المعنى فى الآية ۴، المائدة؛ ۵۱ إبراهيم؛ و ۱۷ غافر.

(۳). تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۳۱۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۰۹

يحاسب الخلائق كلهم فى مقدار لمح البصر» «۱».

إنّ سبب هذه السرعة واضح. حيث إنّ الحساب منوط بالعلم والاطّلاع الكامل ومنوط أيضاً بالقدرة الخارقة. ورعاية العدالة.

وبما أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يمتلك الحدّ الأكمل من هذه الصفات لذا فانّه تعالى له القدرة على محاسبة جميع الناس فى لمحة بصر.

إنّ وضع أعمال الإنسان والآثار التى تتركها فى روحه وجسمه تذكّره دائماً، فهى تحتفظ بنفسها بحساب جميع الأعمال، ويمكن تشبيهها من هذه الجهة بالسيارات أو الطائرات أو السفن. حيث من الممكن حساب جميع ما قطعته السيارة أو الطائرة طيلة عمرها من خلال العدّاد (جهاز الكيلومتر) فكذلك حساب أعمالنا فلا تحتاج إلّاإلى نظرة واحدة لترى وتقرأ هذا المقياس فى وجود الإنسان وعينه وأذنه ويده ورجله وروحه.

إنّ كل هذه التعابير لها أهداف تربوية هامة، ويتضح هذا بشىء من التأمل والتدبّر فى هذه الآيات.

لقد تحدّثت الآية الخامسة عشرة عن حساب أعمال العباد من قبل اللّه تبارك وتعالى فقالت صراحة: «إِنَّ إِلَيْنَا ايابَهُم* ثُمَّ إِنَّ عَلَينَا حِسَابَهُم».

فى حين أنّ الآية السادسة عشرة تقول: «اقرأ كِتابَك كَفَى بِنَفسِكَ اليَوْمَ عَلَيكَ حَسِيباً»، ولكن لا يوجد أى تضاد أو منافاة بين الاثنتين. فالحسيب الأصل هو اللّه تبارك وتعالى ولكنّه يقول للإنسان أيضاً، أنت تستطيع أن تُحاسب نفسك بنفسك، وفى النتيجة تكون جميع المحاسبات واحدة، لا تحيد عن الحق والعدل، لماذا؟

لأنّ أدلة الحساب فى غاية الوضوح والجزاء معين، والقوانين الإلهيّة فى ذلك اليوم

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۲۹۸.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۰

صريحة جليّة فلا مجال للاستنباطات النظرية التى هى منشأ الاختلافات فى أحكام القضاء.

ومن الجدير بالذكر أنّ كلمتى «إلينا» و «علينا» اللتين وردتا فى: «انَّ الَينَا ايابَهُم» «ثُمَّ انَّ عَلَينَا حِسَابَهُم»، خبر مقدّم تفيدان الحصر، أى رجوعهم إلينا وحدنا، وسيكون حسابهم علينا فقط، وبهذا الترتيب فإنّ هذا ينفى جميع الاحتمالات والإشكالات الاخرى على أيّة حال فإنّ هذا وعيد للكفّار والمجرمين الذين أعرضوا عن آيات الحق، وقد أشارت إلى هذا المعنى الآيات التى تسبق هذه الآية.

ويمكن أن تكون هذه الآيات بشرى لأولياء اللّه الذين يعلمون بأنّ حسابهم على اللّه وسوف يرجعون إلى محبوب قلوبهم فيجزيهم الجزاء الأوفى وإن كان عندهم زلل أو خطأ فهو يغفره لهم بلطفه وكرمه، وهناك نكتة اخرى جديرة بالاهتمام حيث ورد فى بعض الروايات والزيارات أنّ إياب الخلق وحسابهم على على عليه السلام والأئمّة المعصومين عليهم السلام، ولقد انتقد هذا الاعتقاد بعض مفسّرى أهل السنّة مثل الآلوسى فى روح البيان حيث قال إنّ هذا الكلام يتنافى مع ما ورد فى الآيات أعلاه.

فى حين نحن نعلم بأنّ الإمام علياً والأئمّة المعصومين عليهم السلام كلّهم مطبّقون لأوامر اللّه وأحكامه، وبناءً على ذلك يصبح حسابهم هو حساب اللّه تعالى وحكمهم كحكم الأعمال التى تقوم بها الملائكة فى عالم «التكوين» و «التشريع» وتُنسب جميع هذه الأعمال إلى اللّه سبحانه وتعالى لحكم حصولها بأمره، وفى نفس الوقت تُنسب إلى الملائكة أيضاً.

وهناك شبهة اخرى مشهورة طرحها هؤلاء فى هذا الصدد وهذه الشبهة هى «مابالعرض» و «ما بالذات»، وبتعبير أوضح أنّه لا أحد يزعم بأنّ حساب الخلائق وإيابها ينسب إلى على والأئمّة عليهم السلام بصورة مستقلة، بل إنّ الكل يقول إنّ هذا الفعل بذاته يختص باللّه وينسب بالواسطة إلى على عليه السلام والأئمّة عليهم السلام، وهذه المسألة لا تختلف عن مسألة الشفاعة وعلم الغيب وغيرها من المسائل، فجميع هذه الامور تُنسب بالذات إلى اللّه تعالى وتُنسب بالعرض للأنبياء والأوصياء والملائكة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۱

ومن العجب أنّ الآلوسى قد التفت فى آخر كلامه بشكل عابر إلى هذه النكتة، ولكنه عاد وأدار مسير الحديث معترضاً بقوله: «إن كان المقصود هذا فلماذا يختار علياً عليه السلام لأداء هذا العمل من بين الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين» «۱».

إنّ الإجابة عن هذا السؤال واضحة: وهى أنّ الإمام على عليه السلام رجل شامخ وذو درجة رفيعة وكان مجهول القدر فى الامة

الإسلامية، فشاء اللَّه تعالى وعن هذا الطريق أن يبرز مقامه الرفيع لكافة الناس.

والشاهد على هذا الكلام أنّ هناك روايات كثيرة رويت عن طرق أهل السنّة تدلّل على أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال بحق الإمام على عليه السلام: «يا على أنت قسيم النّار والجنّة».

ومن جملة هذه الأحاديث:

۱- ينقل «ابن المغازلى» فى كتاب «مناقب أمير المؤمنين عليه السلام» عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّك قسيم الجنّة والنّار» «۲».

۲- ورد نفس هذا المعنى أيضاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى مناقب الخوارزمى «۳».

۳- ينقل ابن حجر فى الصواعق المحرقة عن (الدار قطنى)، قال الإمام على عليه السلام ضمن خطاب طويل فى الشورى التى أوصى بتشكيلها عمر (الستة أشخاص): هل فيكم رجل غيرى، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بحقّه: «ياعلى أنت قسيم الجنّة والنّار؟!» فأجاب الجميع: كلا «۴».

۴- لقد خصص «الحافظ سليمان القندوزى الحنفى فى كتابه «ينابيع المودة» باباً تحت هذا العنوان (فى بيان كون على عليه السلام قسيم الجنّة والنّار) ونقل فى هذا الباب الكثير من الروايات «۵».

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۱۱۸ و ۱۱۹.

(۲). احقاق الحق، ج ۴، ص ۲۵۹.

(۳). المناقب، ص ۲۳۴.

(۴). الصواعق المحرقة، ص ۱۲۴.

(۵). ينابيع المودة، ص ۸۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۲

۵- لقد نقل (ابن الأثير) فى كتابه «النهاية» هذا الحديث.

۶- يلاحظ هذا المعنى صراحة فى الشعر المنسوب للإمام الشافعى:

على حبه جُنّةقسيم النّار والجنّة

وصى المصطفى حقّاًإمام الانس والجِنّة «۱»

وهناك أحاديث كثيرة فى هذا المجال.

مع كل هذه الأدلة فكيف يجرؤ الآلوسى فى روح المعانى ويقول إنّ هذا الحديث كذب وافتراء على على عليه السلام؟ لماذا نسمح للتعصب بأن يحول بيننا وبين التحقيق العلمى؟

توضيحات

۱- وصف للمحكمة الكبرى

من البديهى أننا (سجناء هذه الدنيا) لا نستطيع أن ندرك الحقائق المتعلقة بيوم القيامة بشكل تفصيلى، وذلك لأنّ عالم القيامة من العلو والرفعة بحيث لا يمكننا حتى تصور المفاهيم الحاكمة على ذلك العالم، ويعدُ هذا الأمر من المشاكل العويصة، ومثل ذلك مثل تصور العلوم والدراسات الجامعية بالنسبة لطفل فى المرحلة الابتدائية.

و مع هذا يمكننا أن نتصور صورة اجمالية عن هذه المحكمة على ضوء الآيات والروايات الواردة فى هذا المجال.

إنّ عالم الآخرة عالم يكشف عن جميع الحقائق المستورة، عالم تعمّ الحياة فيه كل شيء، وكل مكان، وحتى الجمادات، اليد، الرجل، العين، الاذن، وحتى الجلد وسائر أعضاء البدن كلها تصبح ناطقة وتجيب عن الأعمال التى اكتسبها الإنسان فى الدنيا، هذا من جهة، ومن جهة اخرى تتجسم أمام الإنسان جميع أعماله، وتعرض صحف الأعمال بخطوط غير قابلة للانكار ويؤتى بالشهود من الملائكة والأنبياء والأوصياء، والأهم من هذا كلّه شهادة

---

(۱). ينابيع المودة، ص ۸۶. نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۳

الذات الإلهيّة المقدّسة على أعمال الإنسان.

نعم، إنّها عرصات مرعبة مخيفة فيحاسب الإنسان على كل شيء وحتى عن الأعمال التى بمقدار حبّة خردل أو مثقال ذرة فتبدو فى صحف الأعمال حتى النيات، وفى لحظة واحدة يتمّ حساب جميع الخلائق وتُظلل راية الحق والعدل جميع أرجاء هذه المحكمة العظيمة، فيحضر فيها الصغير والكبير حتى الأنبياء والمرسلون فتطوى جميع الخلافات وينهى كل جدل ويحق حق جميع مظلومى العالم ويرى الناس بأعينهم الكثير من الحقائق التى ما كانوا يصدقون بها من قبل.

إنّ الإيمان والاعتقاد بهذه الحقائق له آثار تربوية عميقة فى الإنسان فتنقذه من الضياع والحيرة وتخمد الشهوات وتقضى على المفاسد وتصنع من هذا الإنسان- المادى- ملاكاً طاهراً. وفى الحقيقة أنّ الهدف من عرض هذه الآيات هو نفس هدف القرآن الكريم فى بناء الإنسان وتزكيته.

۲- شهود يوم القيامة

كما قرأنا فى الآيات السالفة الذكر أنّ شهداء تلك المحكمة كثيرون وعلى رأسهم الذات الإلهيّة المقدّسة.

ثم الأنبياء والمرسلون.

وبعدهم الملائكة المقربون.

وبعدهم أعضاء وجوارح الإنسان.

ثم الأرض التى نعيش على ظهرها.

إضافة إلى ذلك فقد أشارت الروايات الإسلامية إلى شهداء آخرين ومن جملتهم:

الأوصياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام:

نقرأ حديثاً ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حول قوله تعالى: «فَكَيفَ اذَا جِئنَا مِن كُلِّ امَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئنَا بِكَ عَلَى هؤُلَاءِ شَهِيداً». (النساء/ ۴۱)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۴

قال: «نزلت فى امة محمد صلى الله عليه و آله خاصة! فى كل قرن منهم إمام منّا شاهد عليهم، ومحمّد شاهد علينا!» «۱».

من الممكن أن يكون ذكر امة محمّد صلى الله عليه و آله خاصة للتأكيد، على أنّ هذه الامة خاصة يوجد فيها فى كل قرن إمام معصوم يشهد عليها.

وبناءً على ذلك فإنّ هذا لايتنافى مع شهادة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله على الأنبياء السابقين.

والشاهد السابع من شهود المحشر كما تنقل بعض الروايات هو «الزمان» فقد ورد فى رواية عن أميرالمؤمنين على عليه السلام قال: «ما من يوم يمر على ابن آدم إلّاقال له ذلك اليوم يابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فقل فىّ خيراً، أو اعمل فىّ خيراً أشهد لك به فى يوم القيامة، فانّك لن ترانى بعده أبداً» «۲».

ومن هنا يطرح هذا السؤال: لماذا كل هذه الشهود؟

الأرض والزمان والملائكة والرسل وجوارح الإنسان والأهم من هذا كلّه شهادة اللَّه تبارك وتعالى ألا تكفى شهادة اللَّه وحدها؟

نعم، إنّها كافية لأنّه (أحسن الناظرين) و (أحكم الحاكمين) (وعالم السر والخفيات).

ولكن الهدف من كل هذه الشهادات هو تربية الإنسان وتزكيته، فكلما كان عدد الشهود والمراقبين للإنسان أكثر زاد من تأثيرها التربوى على الإنسان، من هنا نرى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى زاد عدد الشهود وجعلهم يحيطون بالإنسان ويقفون على أعماله بشكل تام.

بلا شك أنّه يكفى للمؤمن الالتفات إلى أحد هؤلاء الشهود ليكون مراقباً لأعماله، فكيف وكل هذه الشهود؟

إنّ عمل الشهود ليس له بعد تكليفى (إدارى) حتى نقول لماذا نصب هذا العدد من الشهود لعمل واحد؟ وإنّما هى سلسلة حقائق غيبية خارجية، حيث إنّ أعمالنا تترك أثراً على أعضاء جسمنا وجلودنا، وجوارحنا، والمحيط الذى يحيط بنا والأرض التى نمشى عليها والزمان الذى نعيش فيه كمثل الشريط يحفظ ويسجّل آثار عمرنا بأكمله، إنّ حضور

---

(۱). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۹۰.

(۲). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۱۸۱، ح ۳۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۵

الملائكة أو شهادة الأرواح الطاهرة للأنبياء والأوصياء هى احدى الحقائق التى تنبع من قدرة أرواحهم وعظمتها، وإنّ حضور اللَّه تبارك وتعالى أيضاً فى كل مكان وكل زمان حقيقة غير قابلة للانكار.

لقد تمكن العلماء اليوم من خلال التجارب والبحوث التى أجروها على الطبقات الأرضية والحيوانات المطمورة فى باطنها، والآثار الباقية من الإنسان القديم من اكتشاف حقائق عن هذه الحيوانات، فقد وقفوا على كيفية معيشتها وطراز حياتها فى تلك العصور السحيقة وكتبوا عنها الكثير من الكتب والمقالات.

فاذا تمكن الإنسان بعلمه المحدود أن يتكلم عن مثل تلك الحوادث ويكتشف الكثير من حقائق الحيوانات، والإنسان القديم من خلال آثارها الباقية، فى حين أنّ الدنيا دار الخفيات و الآخرة دار الظهور ويوم البروز، اذن فكيف ستكون القيامة؟

من هنا عندما يتأمل الإنسان بدقّة فى هذه المسائل ويفكر فى عمقها وعظمتها حقّاً حقّاً فانها تهزّه ولعله يصرخ: واغفلتاه، أهكذا عملت مع كل هذه الشهود؟!

۳- ماهو ميزان العمل؟

يقول المرحوم الشيخ المفيد رحمه الله: «ليس الأمر فى معنى ذلك على ماذهب إليه أهل الحشو من أنّ فى القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الأعمال فيهما، فالخبر الوارد أنّ أميرالمؤمنين والأئمّة من ذرّيته هم الموازين فالمراد أنّهم المعدلون بين الأعمال فيما يستحق عليها والحاكمون فيها بالواجب والعدل» «۱».

ولكن بعض المفسّرين ردوا هذا الكلام. وقالوا: إنّ الميزان فى الآخرة كموازين الدنيا فتوضع الأعمال فيها، حيث تصبح الأعمال ذات وزن أو توزن صحف الأعمال التى لها وزن.

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۲ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۶

ويقول البعض كالعلّامة المجلسى رحمه الله: نحن نؤمن إجمالًا بالميزان أمّا فيما يتعلق بجزئياته وكيفيته فلا نقول شيئاً من عندنا.

روى أنّ داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان فأراه، كل كفّة كما بين المشرق والمغرب، فغشى عليه، ثم أفاق فقال: «الهى! من الذى يقدر أن يملأ كفّته حسنات؟ فقال: يا داود إنّى إذا رضيت عن عبدى ملأتها بتمرة» «۱».

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّه سئل عن الميزان، فقال: الميزان العدل» «۲».

من هنا يطرح هذا السؤال: كيف يكون الجمع بين كل هذه الأحاديث؟ فقد ورد فى بعضها: أنّ الميزان بمعنى الوجود المقدّس للأئمة المعصومين عليهم السلام وفى حديث آخر بمعنى العدل وفى حديث داود: (كل كفة كما بين المشرق والمغرب)، وفى الظاهر أنّ هذه الأحاديث الثلاثة متضادة، ولكن إذا أخذنا هذه النكتة بنظر الاعتبار فسوف يزول هذا الاختلاف الصورى، أنّ حقيقة الميزان هى العدل الإلهى وأنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام هم مظهر عدله تعالى ومن جهة اخرى أننا نعلم أنّه (بالعدل قامت السموات والأرض) «۳».

ومن هنا يتّضح سبب دهشة داود عليه السلام عند مشاهدته لعظمة الميزان وذلك لأنّه رأى عظمة مقام العدل، ومقامات محمّد وآله عليهم السلام بحيث وجد أعماله لا شىء قبالها.

ومن الطريف أنّ هذا الميزان وبهذه العظمة يمتلئ بتمرة واحدة إذا كان فيها روح الإخلاص فتوجب رضا اللّه تبارك وتعالى

ويعتقد بعض المحققين: أنّ الأئمّة المعصومين وأولياء اللّه بمنزلة كفّة الميزان الاولى

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۴۸۶ ذيل الآية ۴۷ الأنبياء، ولقد ورد نفس المضمون مع شىء من الاختلاف فى تفسير الكبير ذيل الآية مورد البحث، وكذلك فى تفسير روح المعانى الآية نفسها.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۵.

(۳). الفيض الكاشانى، ورد هذا الحديث فى تفسير الصافى ذيل الآية ۷ من سورة الرحمن.

وأعمال الإنسان وعقائده ونيّاته بمنزلة الكفّة الاخرى فيوازن بينهما يوم القيامة.

ويمكن أن نستفيد من هذا الكلام من خلال الآيات القرآنية التى تذكر: «ومَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ» أو «فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ...» أو التعبير الذى ورد فى قوله تعالى: «فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَومَ القِيَامَةِ وَزناً». (الكهف/ ۱۰۵)

إنّ خفة موازين هذه الطائفة ناشئة من عدم امتلاك الاعتقادات الحقة والأعمال الصالحة وأمّا ثقل موازين الطائفة الاخرى فهى ناتجة عن امتلاك الرصيد الثقيل من الأعمال الصالحة والاعتقادات الحقّة، وعلى أيّة حال، تقام الموازنة بين الناس من جهة وأولياء اللّه من جهة اخرى فكلما كانت أعمالنا وعقائدنا شبيه ومقاربة لأعمال أولياء اللّه فسيكون ميزان عملنا ثقيلًا (تأمل).

۴- ماهى الأعمال الثقيلة فى الميزان؟

تلاحظ فى الروايات الإسلامية تعابير مختلفة حول الأعمال الثقيلة فى ميزان العدل الإلهى، وهذه الأعمال هى موجبات النجاة ونيل الكرامة فى يوم القيامة، وتجسد هذه الأعمال نظرية الإسلام فى المسائل المختلفة ومن جملة هذه الأعمال مايأتى:

۱- ورد عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «مامن شىء يوضع فى الميزان أثقل من حسن الخلق وأنّ صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة» «۱».

۲- وجاء فى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله فى باب الشهادة بوحدانية اللّه ونبوّة الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال: «خَف ميزان ترفعان منه وثقل ميزان توضعان فيه» «۲».

۳- وفى حديث آخر عن الإمام الباقر أو الصادق عليهما السلام قال: «ما فى الميزان شىء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد وأنّ

الرجل لتوضع أعماله فى الميزان فتميل به فيخرج صلى الله عليه و آله الصلاة عليه فيضعها فى ميزانه فيرجح به» «۳».

---

(۱). سنن الترمذى، ج ۴، ص ۳۶۳، ح ۲۰۰۳.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۹، ح ۸.

(۳). اصول الكافى، ج ۲، ص ۴۹۴ باب الصلاة على النبى، ح ۱۵ ورد هذا المعنى نفسه فى كتاب بحار الأنوارE فى ج ۹، ص ۵۶، ح ۳۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۸

۴- ورد فى بعض الروايات: «أنّ بعض الأذكار مثل الحمد للّهوسبحان اللّه واللّه أكبر وكذلك لا إله إلّااللّه تملأ ميزان العمل يوم القيامة» «۱».

ويستفاد من الأحاديث السابقة أنّ العمل قد يكون صغيراً ولكن له أهميّة كبيرة يجعل ميزان العمل ثقيلًا ويملأ كفتيه وهذا بسبب الأهميّة العظيمة التى يوليها الإسلام لمثل هذه الحقائق (حقيقة التوحيد) (حقيقة محمد صلى الله عليه و آله) (حقيقة التسبيح) وكذلك الإرتباط المعنوى بمحمد وآل محمد صلى الله عليه و آله أو (حسن الخلق) وغيرها.

ولقد قرأنا فى بعض الأحاديث السابقة أنّ تمرة واحدة تنفق بإخلاص لوجه اللّه تعالى وابتغاء مرضاته تملأ كفّة ميزان العدل الإلهى الذى يملأ مابين المشرق والمغرب.

۵- يستفاد من بعض الروايات أنّ الناس يوضعون فى الميزان ويوزنون، فذكر المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذيل الآية ۱۰۵ من سورة الكهف قال: ورد فى رواية صحيحة أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «إنّه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضة» «۲».

والسبب واضح وهو أنّ هؤلاء وعلى الرغم من حسن ظاهرهم لكن أعمالهم وأفكارهم وشخصياتهم كانت فى هذا العالم فارغة جوفاء.

۵- المسائل التى يسأل عنها يوم القيامة

هناك روايات كثيرة تتعلق بالامور التى يُسأل عنها يوم القيامة وكل واحدة من هذه الروايات تحتوى على تعابير عميقة المعنى وأنّ دراسة هذه الروايات له أبلغ الأثر فى تربية الإنسان وابراز معالم القيم الإسلامية.

ومن هذه الروايات ما يأتى:

۱- جاء فى حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى

---

(۱). اصول الكافى، ص ۵۴۷، ح ۵.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ۴۹۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۱۹

يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وشبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن حبّنا أهل البيت» «۱».

۲- وجاء فى حديث آخر عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «أنّه تفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيّام عمره أربعة وعشرون خزانة- عدد ساعات الليل والنهار- فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النّار لأدهشهم عن الاحساس بألم النّار، وهى الساعة التى فيها اطاع ربّه- ثم يفتح له خزانة اخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسم على أهل الجنّة لنغص عليهم نعيمها وهى الساعة التى عصى فيها ربّه ثم يفتح له خزانة

اخری فیراها فارغة لیس فیها ما یسره ولا مایسوؤه وهی الساعة التی نام فیها أو اشتغل فیها بشی من مباحات الدنیا فیناله من الغبن والأسف علی فواتها حیث کان متمکناً من أن یملأها حسنات ما لا یوصف ومن هذا قوله (ذلک یوم التغابن)» «۲».

۳- وجاء فی حدیث آخر للرسول الأعظم صلی الله علیه و آله: «أنا أول قادم علی اللّه ثم یقدم علیَّ کتاب اللّه ثم یقدم علیَّ أهل بیتی، ثم یقدم علیَّ امتی فیقفون، فیسألهُم ما فعلتم فی کتابی وأهل بیت نبیّکم» «۳».

۴- وجاء فی حدیث آخر: «أول ما یحاسب به العبد الصلاة فإن قبلت قبل ماسواها» «۴».

۵- وجاء فی حدیث آخر: «ان أول مایسأل عنه العبد یوم القیامة عن جلسائه» «۵».

فمن الممکن أن یشعر القاری بأنّ هناک تضادا فیما یتعلق بأول مایسأل عنه الإنسان یوم القیامة فاذا کان أحدهما هو الأول فکیف یکون غیره الأول أیضاً، ولکن یظهر أنّ المراد بأنّ هناک مجموعة من الأعمال یسأل عنها ضمن المرحلة الاولی وکل الذی ورد فی هذه

---

(۱). خصال الصدوق، (مطابق لماورد فی بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۵۸، ح ۱).

(۲). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۶۳، ح ۱۵.

(۳). المصدر السابق، ح ۲۲.

(۴). المصدر السابق، ص ۲۶۷، ح ۳۳.

(۵). تفسیر درّ المنثور، ج ۵، ص ۲۷۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۰

الأحادیث إنّما من أجزاء هذه المجموعة، ومن المعلوم أنّ هذه الأحادیث توضح أهمیّة الموضوعات المذکورة فی المنظور القرآنی، أی توضح أهمیّة (التوحید، والنبوة، وحب أهل البیت، والصلاة، والجلساء).

ویوجد احتمال آخر وهو أنّ هناک مواقف عدیدة یوم القیامة وأول ما یسأل عنه فی کل موقف من هذه المواقف هو أحد هذه الأمور.

۶- وجاء فی حدیث آخر عن أمیر المؤمنین علیه السلام أنّه قال: «اتقوا اللّه فی عباده وبلاده فإنّکم مسؤولون حتی عن البقاع والبهائم» «۱».

یخبر هذا الحدیث بأنّ الإنسان مسؤول حتی عن البیئة والحیوانات وسوف یسأل عنها یوم القیامة.

۶- الیسر والعسر فی حساب المحشر

نستفید من مجموع الروایات وحتی الإشارات الواردة فی بعض الآیات القرآنیة أنّ حساب یوم القیامة حساب دقیق للغایة، وجاء فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال لرجل: «یا فلان مالک ولأخیک؟ قال: جعلت فداک کان لی علیه حق فاستقصیت منه حقی، قال أبو عبداللّه: أخبرنی عن قول اللّه: «وَتَخافُون سُوء الحِساب» أتراهم خافوا أن یجور علیهم أو یظلمهم؟ لا- واللّه خافوا الاستقصاء والمداقة» «۲».

وفی حدیث آخر عن الإمام الباقر علیه السلام قال: «إنّما یداق اللّه العباد فی الحساب یوم القیامة علی قدر ما آتاهم من العقول فی الدنیا» «۳».

ونستفید من هذا التعبیر أنّ هناک علاقة متینة بین «مستوی الفهم والإدراک» و «التکلیف» فالحساب یکون علی قدر العقول.

---

(۱). نهج البلاغة، خطبة ۱۶۷.

(۲). بحار الأنوار، ج ۷، ص ۲۶۶، ح ۲۷.

(۳). اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۱، ح ۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۱

وفيما يقابل هذه الطائفة (ذات الحساب العسير) طائفة اخرى يكون حسابها يسيراً للغاية قال تعالى «فَأَمَّا مَن أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ* فَسَوفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً».

(الانشقاق/ ۷- ۸)

وورد فى حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ثلاث من كن فيه حاسبه اللَّه حساباً يسيراً، وأدخله الجنّة برحمته: تعطى من حرمك، وتصل من قطعك، وتعفو عمن ظلمك» «۱».

ويستفاد من بعض الروايات أيضاً أنّ (حسن الخلق) يخفف من حساب يوم القيامة، قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «حَسّن خلقك يخفف اللَّه حسابك» «۲».

على أيّة حال، يستفاد من كل هذه المصادر الإسلامية أنّ الناس يختلفون اختلافاً كبيراً فيما بينهم بالحساب يوم القيامة، فطائفة يشدد اللَّه فى حسابها وتضم الذين يشددون فى حساب الناس فى الدار الدنيا وذوى الاخلاق السيئة، والظلمة.

وطائفة اخرى يكون حساب أفرادها سهلًا يسيراً، بسبب أعمالهم الصالحة وحسن أخلاقهم، وتساهلهم وتسامحهم مع عباد اللَّه أو عدم تلبسهم بمال ومقام الدنيا.

وطائفة ثالثة وهى التى تدخل الجنّة بغير حساب كما ورد فى حديث عن الامام على عليه السلام فى تقسيم الناس يوم القيامة قال: «ومنهم الذين يدخلون الجنّة بغير حساب، لأنّهم لم يتلبسوا من أمر الدنيا بشىء، وإنّما الحساب هناك على من تلبس بها هاهنا» «۳».

وفى المقابل: منهم الذين يدخلون النّار بغير حساب كما ورد هذا الحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «إنّ اللَّه عزّ وجلّ يحاسب كل خلق إلّامن أشرك باللَّه عزّ وجلّ فإنّه لا يحاسب ويؤمر به إلى النّار» «۴».

ونقل عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «وأمّا الثلاثة الذين يدخلهم النّار بغير حساب

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۳۷، ح ۱۲.

(۲). بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۸۳، ح ۲۰.

(۳). ميزان الحكمة، ج ۱، ص ۶۲۳.

(۴). بحار الأنوار، ۷۰، ص ۲۶۰، ح ۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۲

فإمام جائر، وتاجر كذوب، وشيخ زان» «۱».

ونختم هذا البحث بحديث آخر للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «ستة يدخلون النّار بغير حساب الأمراء بالجور، والعرب بالعصبية والدهاقين بالكبر، والتجار بالكذب، والعلماء بالحسد، والأغنياء بالبخل» «۲».

إلهى نسألك بلطفك وكرمك لما يسرت علينا حساب يوم القيامة، وارحمنا برحمتك، إلهى إنّك تعلم أننا قادمون إليك بيد خالية وصحيفة سوداء ياأرحم الراحمين ويا أكرم الأكرمين.

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۷۲، ص ۳۳۷، ح ۵.

(۲) ميزان الحكمة، ج ۲، ص ۴۱۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۳

۶- الصراط والمرصاد

تمهيد:

«الصراط»: هو جسر ينصب على جهنّم وعلى الجميع عبوره وقد اشير إليه فى الآيات الكريمة بينما ورد ذكره بالتفصيل فى الروايات الإسلامية، وكذلك وردت إشارات حول «المرصاد» الذى يفسر أحياناً بمعنى الصراط وأحياناً اخرى بأنّه ممر خاص من نفس الصراط. وتدلّ كل التعابير أنّه لأجل الوصول إلى موضع الرحمة الإلهيّة أى الجنّة يجب العبور على جهنّم وهذا الأمر غير ميسّر إلّاللصالحين والأخيار.

فالمذنبون والمجرمون والفاسقون والظالمون لا يمكنهم اجتياز وعبور هذه القنطرة وسوف تزل أقدامهم عنها ويقعون فى جهنّم، ولقد وردت فى تفسير هذين اللفظين وكذلك فى حقيقة الصراط والمرصاد أحاديث كثيرة فى الروايات الإسلامية وبحوث المفسرين.

إنّ الاهتمام بهذا الموضوع يساعد فى فهم وبيان الكثير من المسائل المتعلقة بالمعاد من جهة، ومن جهة اخرى أنّ هذا الموضوع له أثر تربوى كبير فى تزكية نفوس المؤمنين.

نكتفى بهذه المقدمة، ونرجع إلى القرآن الكريم ولنمعن فى آياته خاشعين:

۱- «وَانْ مِّنكُم إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِيّاً* ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً». (مريم/ ۷۱- ۷۲)

۲- «انَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرصَادِ». (الفجر/ ۱۴)

۳- «وَلَو نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى اعْيُنِهِمْ فَاستَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ». (يس/ ۶۶)

۴- «انَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً* لِّلطَّاغِينَ مَآباً». (النبأ/ ۲۱- ۲۲)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۴

جمع الآيات وتفسيرها

طريق الجنّة يمر عبر جهنّم:

الآية الاولى تخاطب الجميع، وتقول: «وَانْ مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلى رَبِّكَ حَتماً مَّقضِيّاً» ثم تقول: «ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً» من هنا يطرح هذا السؤال، ما المقصود من ورود جهنّم؟

هناك آراء عديدة وتفاسير مختلفة حول هذه الآية فيعتقد البعض من المفسرين أنّ الورود خلاف الصدور وهو قصد الماء ثم يستعمل فى غيره.

يقال وردت الماء أرده وروداً فأنا وارد والماء مورود، وقد وردت الابل الماء، قال تعالى «وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ». (القصص/ ۲۳)

ومفهوم هذا أنّ الناس إنّما يحضرون النّار ويشرفون عليها من غير أن يدخلوها، ويكون هذا المعنى نفس تفسير (الصراط) أىالجسر الذى يمر على جهنّم فعلى الجميع اجتيازه وعبوره، فتزل أقدام المجرمين ويتردون فى النّار، أمّا المؤمنون فيجتازونه بسرعة ويدخلون الجنّة.

وخلاصة الحديث، يقول صاحب الميزان: «والحق أنّ الورود لا يدل على أزيد من الحضور والاشراف عن قصد» «۱»، أو بتعبير الفخر الرازى: (وقد ذكر وجهين لمعنى الورود) أحدهما أنّ الورود بمعنى القرب.

ويستفاد من مجموع الآيات القرآنية التى وردت فيها هذه الكلمة أنّها قد استعملت بمعنى الحضور والقرب واستعملت أيضاً بمعنى الدخول أى إنّها تحمل مفهوماً عاماً يشمل كلا المعنيين، لذا قال تعالى مخاطباً المشركين: «انَّكُمْ وَمَا تَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّم انْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ* لَو كَانَ هؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ».

(الأنبياء/ ۹۸- ۹۹)

وعلى هذا الأساس فلا مانع من أن نفسر (الورود) بمعنى القرب والاشراف وأنّه إشارة

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۴، ص ۹۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۵

إلى جسر الصراط، والشاهد على هذا التفسير حديث ورد عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فى تفسير الآية المذكورة: «أما تسمع الرجل يقول: وردنا ماء بنى فلان، فهو الورود ولم يدخله» «۱».

وأوضح من هذا التعبير ماورد فى حديث قصير نقله القرطبى فى تفسيره وهو مروىّ عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «الورود الممر على الصراط» «۲».

وهناك تفسير آخر يرجحه أغلب المفسرين: وهو أنّ البر والفاجر يدخلان جهنّم فتكون برداً وسلاماً على المؤمنين وعذاباً لازماً على الكافرين والمجرمين، كما أصبحت النّار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، فالنار لا تحرق أجسام المؤمنين بسبب عدم سنخية هذه الأجسام مع النّار فيكون حكم أجسامهم كحكم المواد التى تخمد النيران فى حين أنّ سنخية الكفّار تتلائم مع النّار، كمثل المواد المساعدة على الاحتراق.

والدليل على هذا الكلام رواية نقلت عن جابر بن عبداللَّه الأنصارى رضى الله عنه إذ سئل عن هذه الآية فقال: سمعت رسول اللَّه يقول: «الورود الدخول لا يبقى بر ولا فاجر إلّادخلا فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً حتى أنّ للناس ضجيجاً من بردها» «۳».

و إذا رجحنا هذا التفسير فسوف لا تكون الآية دليلًا على مسألة جسر الصراط.

الآية الثانية: عبارة عن تهديد ووعيد للظالمين فبعد أن ذكر عذابهم الدنيوى الشديد قال تعالى «انَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ».

«المرصاد»: مشتقة من مادة (رصد) على وزن (حَسَد) وهو المكان الذى يرصد منه

---

(۱). تفسير البرهان، ج ۳، ص ۲۰.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۶، ذيل الآية مورد البحث.

(۳). تفسير روح الجنان، ج ۷، ص ۴۳۱ (وقد نقل هذا الحديث جمع آخر من المفسرين من جملتهم صاحب نور الثقلين؛ والفخر الرازى).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۶

ويرقب (قال الراغب الرصد الاستعداد للترقب) والمرصد: موضع الرصد.

فما المراد ب (المرصاد)؟ قال البعض: إنّ اللَّه سبحانه وتعالى رقيب يرقب أعمال عباده فى هذه الدنيا ويأخذهم بالعذاب إذا طغوا، وجاء فى الميزان: «إنّ اللَّه سبحانه وتعالى رقيب يراقب أعمال عباده حتى إذا طغوا وأكثروا الفساد أخذهم بأشد العذاب» «۱».

ولكن ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «المرصاد قنطرة على الصراط لا يجوزها عبد بمظلمة» «۲».

و جاء فی حدیث آخر فی روضة الکافی عن الإمام الباقر علیه السلام عن الرسول صلی الله علیه و آله بعد أن ذکر خصائص جسر الصراط أنّه قال: «وهو قول اللّه تبارک تعالی «انَّ رَبَّکَ لَبِالْمِرصَادِ»» «۳».

نستفید من هذین الحدیثین اللذین وردا فی تفسیر الآیة أعلاه أنّ الآیة ناظرة إلی القیامة وجسر الصراط مع عدم وجود أیمانع من أن تکون الآیة ناظرة إلی کلیهما، یعنی أنّ اللّه تبارک وتعالی کما أنّه رقیب یرقب أعمال عباده فی هذه الدنیا کذلک هو رقیب فی العالم الآخر فی جواز الصراط، لکن وعلی کل حال فالآیة لیس لها مفهوم مکانی وذلک لأنّ اللّه تعالی لا یحدد بمکان والمقصود هو الاحاطة الوجودیة للّهعلی جمیع الامور.

وجاء فی حدیث عن ابن عباس: أنّه قال: «إنّ علی جهنّم سبع قناطر، یسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإیمان، فإن جاء به تاماً جاز إلی القنطرة الثانیة، ثم یسأل عن الصلاة فإن جاء بها جاز إلی الثالثة، ثم یسأل عن الزکاة فإن جاء بها جاز إلی الرابعة، ثم یسأل عن صیام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلی الخامسة، ثم یسأل عن الحج والعمرة، فإن جاء بهما جاز إلی السادسة ثم یسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز السابعة، ثم یسأل عن المظالم، وینادی مناد: ألا من کانت له مظلمة فلیأت، فیقتص للناس منه، ویقتص له من الناس،

---

(۱). تفسیر المیزان، ج ۲۰، ص ۴۰۹، ص ۲۸۱.

(۲). بحارالأنوار، ج ۸، ص ۶۴ ولقد وردت نفس هذه الروایة فی تفسیر البرهان ج ۴، ص ۴۵۸ کتفسیر لهذه الآیة الشریفة «إنّ ربّک لبالمرصاد» ونقلت عن الإمام الصادق علیه السلام.

(۳). تفسیر نور الثقلین، ج ۵، ص ۵۷۲؛ تفسیر البرهان، ج ۴، ص ۴۵۸.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۷

فذلک قوله تعالی «ان رَبَّک لِبالمِرصادِ»» «۱».

ونحن نستبعد أن یکون هذا الحدیث وبهذه التفاصیل من الاستنباطات الشخصیة لابن عباس، فلابّد أنّه قد سمعه کروایة من الرسول الأعظم صلی الله علیه و آله أو الإمامعلی علیه السلام.

ولقد ورد تعبیر (المرصاد) فی قوله تعالی: «انَّ جَهَنَّمَ کَانَت مِرصَاداً». (النبأ/ ۲۱) ولکن الظاهر من هذه الآیة أنّ جهنّم نفسها مرصاد للطاغین والمجرمین، ومع أخذ الآیات السابقة لها بنظر الاعتبار ذهب جمع من المفسرین إلی أنّ المقصود بالمرصاد هو القنطرة التی تمر من فوق جهنّم (یقال للمکان الذی اختص بالرصد وبما أنّهم غیر قادرین علی اجتیازه فیسقطون فی جهنّم). «۲» إضافة إلی أنّ التعبیر ب (المرصاد) یطلق علی الطرق والمعابر، وبما أنّ جهنّم التی تعتبر باصطلاح آخر خطاً، لذا لاتتناسب مع معنی المرصاد وهذه قرینة اخری علی التفسیر أعلاه.

الآیة الثالثة والأخیرة أشارت إلی وضع الکفار والمجرمین یوم القیامة وأنّهم سیختم فی ذلک الیوم علی أفواههم ولا تتکلم إلّاأیدیهم وأرجلهم، قال تعالی «وَلَو نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَی اعْیُنِهِم فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّی یُبْصِرُونَ» «۳» لقد ذکر الکثیر من المفسرین: أنّ هذه الآیة ناظرة إلی وضع هذه الطائفة فی دار الدنیا حیث فسروا الصراط ب (طریق الحق) أیأنّهم یجهدوا أنفسهم فی سبیل العثور علی طریق الحق وطریق النجاة، ولکن اللّه سبحانه وتعالی وبسبب أعمالهم السیئة جعلهم عمیاً لا یبصرون وبهذا فهم لیسوا بقادرین علی تمییز ومشاهدة طریق النجاة.

---

(۱). تفسیر القرطبی، ج ۱۰ ذیل الآیة مورد البحث.

(۲). ورد هذا التفسیر فی تفسیر المیزان وفی التفسیر الکبیر (الفخر الرازی) وفی المفردات والقرطبی فی تفسیره.. ذیل آیة سورة النبأ، وذکروا هنا المعنی کتفسیر للآیة أو کأحد الأقوال فی تفسیر الآیة.

(۳). «طمسنا» من مادة «طَمْس» على وزن «شَمْس» بمعنى محو وازالة آثار الشى ويمكن أن يكون هنا بمعنى محوالعين تماماً أو إطفاء نورها والمطموس والطميس: الأعمى الذى ليس فى عينه شق.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۸

ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو أنّ هذه الآية ناظرة إلى وضع هذه الطائفة أثناء عبورها من الصراط (جسر جهنّم) فاذا أراد اللّه جردهم أعينهم بشكل كامل حتى لا يقدروا على المرور من الصراط مهما جهدوا أنفسهم فى ذلك.

والظاهر أنّ عبارة تفسير (فى ظلال القرآن) لها نفس هذا المعنى ونقل القرطبى هذا التفسير كأحد الأقوال فى تفسير الآية، وإلى ذلك ذهب (عبداللّه بن سلام) «۱» فى تفسير هذه الآية حيث قال: «إذا كان يوم القيامة ومد الصراط، نادى مناد ليقم محمد صلى الله عليه و آله وامته، فيقومون برّهم وفاجرهم يتبعونه بجواز الصراط، فاذا صاروا عليه طمس اللّه أعين فجّارهم، فاستبقوا الصراط فمن أين يبصرونه حتى يجاوزوه، ثم يناد مناد ...» «۲».

ونحن نستبعد أن يكون هذا البيان من استنباط (عبداللّه بن سلام) حيث إنّ ماورد فى هذه الرواية يعد من أخبار الغيب ولا يطلع على الغيب، إلّاالمعصومون عليهم السلام.

ولايستبعد بأنّه قد نقل ذلك كرواية عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله.

توضيح

ماهى حقيقة الصراط؟

لقد أشرنا عدّة مرات إلى أنّ أهل الدنيا ليس لهم معلومات مفصلة عن الحقائق المتعلقة بيوم القيامة وعالم ما بعد الموت، حيث هو عالم فوق هذا العالم، ولكن هذا الأمر لا يمنع من المعرفة الإجمالية بهذا الموضوع.

ويستفاد من الروايات الإسلامية أنّ الصراط جسر على جهنّم فى طريق الجنّة ويرده كل

---

(۱) (عبداللّه بن سلام) كان من علماء أهل الكتاب الذين اعتنقوا الدين الإسلامى، وكان اسمه الأصل (الحصين) وبعد الإسلام غير الرسول صلى الله عليه و آله اسمه إلى (عبداللّه) ويعتقد بعض علماء الرجال بأنّه مجهول الحال ويعتقد آخرون بأنّ رواياته ضعيفة، ولكن بما أنّ ابن داود ذكر فى القسم الأول من كتابه فى الرجال أنّه معتبر.. فقد اعتبروا هذا الشىء قرينة على حسن حاله.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۴۹۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۲۹

برّ وفاجر فالأبرار يمرون عليه بسرعة ويصلون إلى النعم الإلهيّة غير المتناهية أمّا الفجّار فتزل أقدامهم ويتردون فى نار جهنّم.

ولقد ورد فى بعض الروايات أنّ سرعة عبور الناس على الصراط ترتبط بمستوى إيمانهم وإخلاصهم وأعمالهم الصالحة.

فقد ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «منهم من يمر مثل البرق، ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النّار منه شيئاً وتترك شيئاً» «۱».

وهنا يطرح هذا السؤال:

لماذا يجب المرور عبر جهنّم للوصول إلى الجنّة؟

هناك نكات لطيفة سنتعرض لها وهى أنّ أصحاب الجنّة عندما يمرون على جهنّم يدركون قيمة الجنّة أفضل إدراك، ومن جهة اخرى أنّ وضع الصراط هناك عبارة عن تجسم لأعمالنا فى هذه الدنيا، لذا يجب المرور عبر جهنّم (المحرقة للشهوات) من أجل الوصول

إلى جنـة التقوى ومن جهة ثالثة فهو انذار جدى لكافة المجرمين والمذنبين حيث إنّ مصيرهم يؤول إلى العبور من هذا الممر الخطير، لذا ورد فى حديث (مفضل بن عمر) قال:

سألت الإمام الصادق عليه السلام عن الصراط، فقال: «الطراط الطريق إلى معرفة اللّه سبحانه وتعالى .

ثم قال: «هما صراطان: صراط فى الدنيا، وصراط فى الآخرة، فأمّا الصراط الذى فى الدنيا، فهو الإمام المفروض الطاعة، من عرفه فى الدنيا واقتدى بهداه مرّ على الصراط الذى هو جسر جهنّم فى الآخرة، ومن لم يعرفه فى الدنيا زلت قدمه عن الصراط فى الآخرة فتردى فى نار جهنّم» «۲».

---

(۱) أمالى الصدوق، مجلس ۳۳.

(۲) معانى الأخبار، ص ۳۲، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۰

وفى تفسير عن الإمام الحسن العسكرى عليه السلام «۱» أنّه فسّر الصراطين (صراط الدنيا والآخرة) الصراط المستقيم فى الدنيا فهو ما قصر من الغلو وارتفع عن التقصير وأمّا الصراط فى الآخرة فهو طريق المؤمنين إلى الجنّة.

وهناك نكتة مهمّة أشارت إليها الروايات الإسلامية، وهى أنّه من العسير العبور على هذا الطريق، فقد ورد حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وكذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «إنّ على جهنّم جسراً أدق من الشَعرة وأحد من السيف» «۲».

نعم، هكذا الصراط (المستقيم) وحقيقة (الولاية) و (العدالة) فى هذه الدنيا فهى أدق من الشعرة وأحد من السيف، وهذا يرجع إلى أنّ الخط المستقيم خط واحد دقيق لا- أكثر، أمّا الخطوط الاخرى فهى منحرفة نحو اليمين أو الشمال، ومن الطبيعى أن يكون صراط القيامة هكذا فهو تجسيد عينى للصراط الدنيوى، ومع هذا فهناك طائفة تمر على هذا الطريق الخطر سريعاً فى ظل إيمانها وأعمالها الصالحة.

و ممّا لا- شك فيه أنّ التمسك بالرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وأهل بيته الطاهرين عليهم السلام يسهل اجتياز هذا الطريق المخوف، فقد جاء فى حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «إذا كان يوم القيامة ونصب الصراط على جهنّم لم يجز عليه إلّامن كان معه جواز فيه ولاية على بن أبى طالب» «۳».

ولقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير آخر يتعلق ب فاطمة الزهراء عليها السلام ومن البديهى أنّ ولاية الإمام على عليه السلام وولاية الزهراء عليها السلام هما من ولاية الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله ولا يمكن الفصل بين القرآن والإسلام وسائر الائمّة المعصومين عليهم السلام، فإذا لم يكن هناك ارتباط إيمانى

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۶۹، ح ۱۸.

(۲). ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۳۴۸ ووردت كلمة «الصراط» فى حديث الإمام الصادق بدل جملة «إنَّ على جهنّم جسراً» (بحارالأنوار، ج ۸، ص ۶۴، ح ۱).

(۳). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۶۸، ح ۱۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۱

وأخلاقى مع هؤلاء العظام فلا يمكن الجواز على الصراط، وتوجد فى هذا المجال روايات عديدة، وللمزيد من المعلومات راجع كتاب بحار الأنوار المجلد ۸ وبالأخص هذه الروايات: (۱۲، ۱۳، ۱۴، ۱۵، ۱۶، ۱۷).

ونختم حديثنا بالإشارة إلى البعد التربوى للإيمان والاعتقاد بمثل هذا الصراط حيث هو صراط مخوف مرعب متزلزل تشوبه الاخطار،

صراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، صراط له عدّة مواقف وفى كل موقف يُسأل فيه عن شيء فأمّا الأول فيسأل عن الصلاة وأمّا الثانى فعن الأمانة وصلة الرحم والثالث عن العدالة وما شابه ذلك، ممر لا يمكن لأحد العبور عليه واجتيازه إلّاإذا كان معه جواز فيه ولاية الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله وولاية الإمام على عليه السلام والتخلق بأخلاقهم والسير على نهجهم.

وفى النهاية نقول: إنّه ممر تتوقف قدرة اجتيازه على قدر نور الإيمان والعمل الصالح، ومن لم يقدر على اجتيازه فسيقع حتماً فى نار جهنّم وسوف لن يصل إلى موضع النعم الإلهيّة المادية والمعنوية (الجنّة) أبداً.

وممّا لا شك فيه أنّ الاهتمام بمثل هذه المفاهيم والاعتقاد بها له آثار واسعة فى أفعال الإنسان وتربيته فتحثه على التخلق بأخلاق أولياء اللَّه وتمنحه البصيرة فى انتخاب سبل حياته والتمييز الدقيق بين الحق والباطل.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۳

الجنّة

اشارة

۱- موجبات دخول الجنّة

۲- النعم المادية فى الجنّة

۳- اللذّات الروحية

۴- أبواب الجنّة

۵- سعة الجنّة

۶- هل الجنّة مخلوقة؟

۷- درجات الجنّة

۸- أسئلة وأجوبة حول الجنّة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۵

الجنّة

تمهيد:

إنّ جميع بحوث المعاد تختتم لا محالة بإحدى النقطتين: إمّا (الجنّة) أو (النّار).

فأمّا «الجنّة»: فهى مركز لأنواع المواهب والنعم الإلهيّة المعنوية والمادية.

وأمّا «النّار»: فهى مكان لأنواع العذاب ومختلف العقوبات والحرمان، من هنا نتساءل عن حقيقة الجنّة، وكيف تكون؟ واين تقع؟ وهل هى مخلوقة أم لا؟

هناك آراء عديدة فى هذا المجال، ولأخذ الجواب الصحيح عن هذه الأسئلة يمكننا الاستعانة بالتصريحات أو الإرشادات الواردة فى الآيات الكريمة، إضافة إلى ذلك هناك آيات كثيرة تتحدث عن خواص الجنّة وأصحابها، والنعم الموجودة فيها من الحدائق، والأنهار، والعيون، والأطعمة، والأشربة الطهورة، والألبسة، والحور العين، والولدان المخلدين، والخدم، والحشم، والاحترام، والإكرام المنقطع النظير من الملائكة وكذلك المواهب المعنوية واللذائذ الروحية، وتشكل مجموع هذه الآيات القسم الأعظم من آيات (المعاد).

ونرى من الضرورى الإشارة إلى هذه النكتة وهى: أنّ أفكارنا وتصوراتنا محدودة ضمن المعايير والاطر الدنيوية، لذا فإنّ عقولنا لا تدرك حقيقة الجنّة وما فيها من نعم مخفية، الجنّة أفضل وأعلى وأعمق ممّا رأينا أو كتبنا أو قرأنا.

ولكن على أيّة حال يمكننا- وعلى ضوء دراسة الآيات القرآنية والروايات الواردة فى هذا المجال- أن نرسم صورة إجمالية عن الجنّة ومافيها من نعيم، ومن المعلوم أنّ لهذا

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۶

التصور آثاراً تربوية قيمة، فمهما كانت دوافع الإنسان المادية أو المعنوية فانّها تدعوه إليها وتجذبه نحوها.

بهذه المقدمة نرجع إلى القرآن الكريم ونستعرض الآيات التى تتحدث عن الجنّة، ومن الطريف أنّ هذه الآيات جاءت فى ثمان مجموعات بعدد أبواب الجنّة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۷

۱- موجبات دخول الجنّة فى المنظور القرآنى

اشارة

لقد تحدثت آيات كثيرة فى القرآن الكريم عن أوصاف أهل الجنّة كما حددت الأوصاف والأعمال التى توصل الإنسان إلى الجنّة والتنعم بالمنزلة الرفيعة فيها.

وبهذا فقد بيّنت هذه الآيات المنظور الإسلامى فى مسألة النجاة والسعادة الأبدية وتكامل الإنسان، ويمكن إجمال هذه الأوصاف بالنقاط الآتية:

۱- الإيمان والعمل الصالح

إنّ رأس المال للنجاة والسعادة وفتح أبواب الجنّة هو الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى

«وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِكَ اصحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ».

(البقرة/ ۸۲)

ولقد ورد نفس هذا التعبير أو ما يشبهه فى كثير من الآيات، وما تكراره إلّادليلًا على أهميّة الموضوع وعناية القرآن الخاصة به «۱».

وبهذا فإنّ القرآن الكريم قد كشف النقاب عن الأوهام التى كان يعتقد بها جمع من أهل الكتاب والسائرين على نهجهم من سائر الامم حيث كانوا يتصورون أنّ النجاة ودخول الجنّة تقوم على أساس سلسلة علاقات وروابط معينة، أو أنّهم وضعوا ضوابط غير الإيمان والعمل الصالح، فجاء القرآن ليعبى الناس ويبنى أنفسهم على أساس بعدين رئيسيَّين هما (العقيدة) و (العمل).

وهذه الآية التى نحن بصددها جاءت على أثر الآيات التى تتحدث عن اليهود الذين

---

(۱). آل عمران، ۱۳۶؛ النساء، ۱۲۴؛ الأعراف، ۴۲؛ الحج، ۱۴، ۲۳، ۵۶؛ العنكبوت، ۵۸؛ الزمر، ۷۴؛ الاحقاف، ۱۴؛ محمد، ۱۲ وآيات اخرى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۸

كانوا يعتقدون بأنّهم أولياء اللّه واحباؤه: «وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدودَةً ...». (البقرة/ ۸۰)

ومن البديهى أنّ علاقة الإيمان والعمل الصالح هى كعلاقة (الشجرة) و (الثمرة) فالشجرة الطيبة (من أشجار الفواكه) لا تخلو من الثمار

الطيبة وكذا الحال بالنسبة للإيمان فهو لا ينفك عن العمل الصالح إلّاأن يكون ضعيفاً أو خالياً من الروح فيتأثر بالشهوات.. والأهواء النفسية، لذا نقرأ حديثاً عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سئل عن حقيقة الإيمان، فقال:

«الإيمان أن يطاع اللّه فلا يعصى «۱» وبتعبير أوضح: «العمل الصالح هو تجسيم الإيمان القلبى» ولا يعنى هذا الحديث أنّ العاصين أو مرتكبى الكبائر كفارٌ «۲» كما يعتقد الخوارج وإنّما المقصود أنّ الإيمان القوى لا ينفك أبداً عن العمل الصالح، أمّا الإيمان الضعيف فيمكن أن ينفك عن هذا العمل الصالح ويقع صاحبه فى ارتكاب الكبائر.

ومن الجدير بالذكر أنّ أغلب الآيات الكريمة تقدم الإيمان على العمل الصالح بالرغم من أنّ الإتيان بالواجبات وترك المحرمات هو أكثر صعوبة من الإيمان ومقدم عليه عرفاً، ولعلّ السبب فى تقديم الإيمان على العمل الصالح يعود إلى أنّ القرآن الكريم يريد أن يبيّن أنّ الإيمان هو أساس الأعمال الصالحة.

وأخيراً فإنّ تعبير الإيمان والعمل الصالح تعبيران واسعان إلى حد يشملان جميع مراحل الإيمان باللّه وسائر الاصول الاعتقادية، من جهة، والإتيان بكافة الأعمال الفردية والاجتماعية والعبادية والسياسية من جهة اخرى وهذا هو المفتاح الأول من مفاتيح الجنّة.

۲- التقوى

العامل الآخر من عوامل دخول الجنّة هو (التقوى ولقد ذكرت الكثير من الآيات

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۳، ح ۳.

(۲). من الاصول المتفق عليها عند الخوارج هى أنّهم يكفرون مرتكبى الكبائر؛ سفينة البحار، مادة (خرج).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۳۹

القرآنية هذا العامل من جملتها ماورد فى سورة مريم بعد الإشارة إلى (جنات عدن) وبعض من نعمها: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيّاً». «۱» (مريم/ ۶۳)

من المعلوم أنّ الإسلام أعطى أهميّة كبيرة للتقوى واعتبرها أحد شعاراته المشهورة كما ورد ذلك فى قوله تعالى: «انَّ اكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ اتْقَاكُمْ». (الحجرات/ ۱۳)

فتقول الآية: إنّ الشرف والكرامة هو بتقوى اللّه سبحانه وهى الوسيلة الوحيدة إلى سعادة الدار الآخرة، فليس من العجب أن تصف الكثير من الآيات القرآنية (التقوى بأنّها مفتاح الجنّة.

«والتقوى : هى اجتناب الذنوب والمعاصى والامتثال لأوامر اللّه ونواهيه، واتّباع الحق والعدل، وبتعبيرآخر: هى حالة الخوف الباطنية والوازع الذاتى الذى يمنع الإنسان من الوقوع فى المعاصى والآثام، أىأنّ التقوى مفهوم جامع يضم كافة التكاليف الإلهيّة والأخلاقية والإنسانية.

التعبير ب (تلك) فى بداية الآية والذى يشير إلى البعيد هو إشارة إلى عظمة الجنّة وكأنّها عالية بدرجة خارجة عن نطاق الفكر والخيال.

وأمّا كلمة (الإرث) فيمكن أن يشير بها إلى المعانى الآتية:

۱- كل تمليك ثابت، لأنّ الملك الوحيد الذى لا يقبل الرجوع والفسخ هو ما ينتقل عن طريق الارث وكذلك الجنّة فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يورثها للمتقين.

۲- قبل أن يكون للوراثة بعدٌ قانونى وتشريعى فإنّ لها بعداً تكوينياً وطبيعياً إذ تنقل مجموعة الصفات الوراثية للآباء والامهات إلى الأبناء، وبهذا يكون المراد بالإرث فى الآية أعلاه: هو أنّ هناك علاقة معنوية تكوينية بين التقوى والجنّة.

۳- الأموال الموروثة: هى أموال تصل إلى الإنسان بدون تعب وعناء غالباً، والنعم

---

(۱). هناك الكثير من الآيات التى تشير إلى العلاقة بين (التقوى و (الدخول إلى الجنّة) ومن جملتها: آل عمران، ۱۵، ۱۳۳، ۱۹۸؛ الرعد، ۳۵؛ الحج، ۴۵؛ النحل، ۳۱؛ الفرقان، ۱۵؛ الشعراء، ۹۰؛ الزمر، ۳۰، ۷۳؛ الدخان، ۵۱؛ محمد، ۱۵؛ ق، ۳۱؛ الذاريات، ۱۵ وغيرها.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۴۰

الإلهيّة فى الجنّة من العظمة بحيث تعتبر أعمال المتقين لا شى قبالها، فكأنّ الجنّة تعطى لهم مجاناً وبدون أىمقابل لضآلة أهميّة أعمال المتقين قياساً بهذه النعمة العظيمة.

وبتعبير آخر نقول: حقاً أنّ أعمال الإنسان وتقواه هى الأساس فى استحقاق الجنّة ولكن عظمة الجنّة وما فيها من النعم كأنّها أعطيت للمتقين مجاناً.

من هنا يجب القول: إضافة إلى كون الجزاء الاخروى له بعد استحقاقى كذلك له بعد تفضّلى أيضاً، أىأنّ الجنّة هى تفضّل من اللّه سبحانه وتعالى للمتقين.

۴- ونقرأ رواية وردت فى تفسير هذا المعنى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «ما من أحد إلّا وله منزل فى الجنّة، ومنزل فى النّار: فأمّا الكافر فيرث المؤمن منزله من النّار والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنّة» «۱».

فيدل هذا الحديث على أنّ جميع الناس خلقوا أحراراً فى اختيارهم فكما خلق عندهم الاستعداد لدخول الجنّة كذلك خلق عندهمالاستعداد أيضاً لدخول النّار وهذا يرتبط بكامل اختيارهم وإرادتهم «۲».

۳- الاحسان

الاحسان عامل آخر من عوامل الدخول فى موضع النعمة الإلهيّة ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المفهوم الواسع فى آيات عديدة من جملتها الآية ۸۵ من سورة المائدة فبعد أن أشارت هذه الآية إلى وضع مجموعة من علماء أهل الكتاب الذين انقلبوا بعد سماعهم آيات القرآن الكريم وفاضت أعينهم بالدمع ممّا عرفوه من الحق، قال تعالى بصددهم:

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۳۱، ح ۱۲۱؛ تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ۴۳، من سورة الأعراف، ولقد ورد فى تفسير على بن إبراهيم نفس المعنى بتعبير آخر عن الإمام الصادق عليه السلام، ذيل الآية ۱۱، من سورة المؤمنون.

(۲). إنّ هذا التعبير «الارث» لم ينحصر فى الآية السالفة الذكر بل قد ورد فى آيات اخرى نذكر منها: المؤمنون، ۱۰، ۱۱؛ الأعراف، ۴۳؛ الزخرف، ۷۲؛ الشعراء، ۸۵، فهو تعبير واسع.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۴۱

«فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمحْسِنِينَ» «۱».

صحيح أنّ القرآن يصرّح بأنّ كل هذه النعم التى أثابهم اللّه بها لما قالوا بعظمة القرآن والإيمان به ولكن من البديهى أنّ هذا لم يكن قولًا فقط بل كان قولًا ممزوجاً بالإيمان، ذلك الإيمان الذى ملأ كل وجودهم، لذا تقول الآيات التى قبلها: «تَرَى اعْيُنَهُم تَفِيضُ مِنَ الدَّمعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ» (المائدة/ ۸۳)

لكن كيف يكون كلام هؤلاء مصداقاً للاحسان؟ يمكن القول: إضافة إلى أنّهم درسوا القرآن وتدبروا معانيه جيداً كذلك أقروا واعترفوا بدين الحق وعملوا به بشكل جيد.

ونستفيد من بعض الروايات أنّ الاحسان هو العبودية المقترنة باليقين الكامل والشعور بأنّ الأنسان تحت رقابة اللّه تبارك وتعالى فى

جميع الاحوال.. كما ورد ذلك فى حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فقد سئل عن الاحسان فقال: «أن تعبد اللّه كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فانّه يراك» «۲».

ومن الواضح أنّ من يشعر بمثل هذه المراقبة فستكون عبادته عبادة حقّة لها روح وحقيقة وليس ذلك فحسب بل إنّ آثار هذا الشعور ستنعكس على جميع أعمال الإنسان وأقواله وسلوكه.

۴- الجهاد والشهادة

إنّ كل من له أدنى اطلاع على منطق القرآن والإسلام يعلم جيداً بالمقام السامى والدرجة الرفيعة للمجاهدين والشهداء فى الإسلام، فلقد وعد القرآن صراحة هذه الطائفة المضحية بالجنّة، ومن جملة الآيات قوله تعالى «انَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ انْفُسَهُم

---

(۱). ورد نفس هذا المعنى فى الزمر، ۳۴؛ المرسلات، ۴۴.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۵۵۳، ح ۵۷۹ ذيل الآية الشريفة ۱۲۵ من سورة النساء.

وَامْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقتُلُونَ وَيُقتَلُونَ وَعداً عَلَيهِ حَقّاً فِى التَّورَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرآنِ وَمَن اوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العَظِيمُ» «۱». (التوبة/ ۱۱۱)

حقّاً إنّها لتجارة لا نظير لها، فالمشترى هو اللّه سبحانه وتعالى والبائعون هم المؤمنون المجاهدون.

«البضاعة»: الأنفس والأموال التى وهبها اللّه لهم والثمن الذى يدفع إليهم هو جنّة الخلد وسند هذه المعاملة الكتب السماوية الثلاثة إضافة إلى كل هذا هناك تبريك من قبل المشترى للبائع.

كم هى تعابير جميلة ورائعة! وكم هى معاملة رابحة مقابل متاع زائل وغير ثابت وكم هو ثمن مبارك وخالد، وكم هو مقدار اللطف والمحبة فى هذه المعاملة من قبل اللّه تبارك وتعالى

وعن جابر بن عبداللّه قال: «انزلت هذه الآية على رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهو فى المسجد (ان اللّه..) فكبر الناس فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفى ردائه على عاتقه فقال: يا رسول اللّه انزلت هذه الآية؟ قال: نعم، فقال الأنصارى: بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل» «۲».

ونستفيد من الآية السابقة أنّها لا تختص بالشهداء فقط بل إنّ هذه المعاملة تشمل المجاهدين فى سبيل اللّه أيضاً.

ونلاحظ فى الآية تقدم عبارة «يَقْتُلُونَ» على «يُقتَلونَ» وهذا دليل على أنّ الهدف الرئيس من الجهاد هو القضاء على العدو لا الشهادة، وبناء على ذلك فإنّ الشهادة درجة رفيعة لا يبلغها إلّاالخاصة من أوليائه.

من هنا لا يمكن أن يكون الغرض من الجهاد هو الشهادة أبداً وبتعبير أدق الشهادة ليست هدفاً وإنّما هى وسيلة لتحقيق الهدف.

---

(۱). كما ورد نفس هذا المعنى فى الآيات ۲۰، ۲۱، ۸۸، ۸۹، من نفس السورة، و الصف، ۱۲؛ آل عمران، ۱۴۲.

(۲). تفسير درّ المنثور وطبق نقل تفسير الميزان، ج ۹، ص ۴۲۹.

۵- نهى النفس عن الهوى

من الامور الاخرى التى هى من موجبات دخول الجنّة، الخوف من اللّه تعالى ونهى النفس عن الهوى قال تعالى «وَامَّا مَن خَافَ مَقَامَ

رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى . (النازعات/ ۴۰- ۴۱)

ممّا لا شک فیه أنّ هناک علاقة متبادلة بین (الخوف من اللّه) و (نهی النفس عن الهوی فالاولی بمنزلة الشجرة والثانیة ثمرها، فعندما یتجذر الخوف من اللّه تعالی فی أعماق روح الإنسان، عندئذٍ تشن حرب من الداخل لمواجهة هوی النفس، ومن المعلوم أنّ مصدر جمیع المفاسد والذنوب علی سطح الأرض هو (عبادة الهوی ، فمن هنا یکون الخوف من اللّه مصدر کل الإصلاحات، لذا ورد هذا الحدیث النبوی: «ما تحت ظل السماء من إله یُعبد من دون اللّه أعظم عند اللّه من هویً مُتَّبع» «۱» فی ذیل الآیة الشریفة «أَرَایْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ». الفرقان/ ۴۳)

والجدیر بالذکر أنّ ما یقابل هاتین الصفتین (الخوف من اللّه ونهی النفس عن الهوی صفتان أخریان وردتا فی الآیات التی تسبق هذه الآیة من نفس السورة وهما (الطغیان وایثار الحیاة الدنیا علی الآخرة): «فَأَمَّا مَن طَغَی وآثَرَ الحَیَاةَ الدُّنیَا* فَإِنَّ الْجَحِیمَ هِیَ الْمَأْوَی . (النازعات/ ۳۷- ۳۹)

والحقیقة أنّ هاتین الصفتین مصدر کل البلایا کما أنّ تلک الصفتین مصدر کل خیر.

وعلی حد قول بعض المفسرین فالمصادر التی تأتی منها الذنوب السبعة المذکورة فی قوله تعالی «زُیِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالبَنِینَ وَالقَنَاطِیرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَیْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالانْعَامِ وَالحَرثِ». (آل عمران/ ۱۴)

تتلخص فی هوی النفس، وأنّ مصدر هوی النفس هو عدم المعرفة وعدم الخوف من اللّه تعالی «۲».

من هنا فما المقصود من (مقام ربّه)؟ هناک آراء مختلفة حول تفسیر هذا التعبیر فقیل:

المراد مقامه من ربّه یوم القیامة حین یسأله عن أعماله.

---

(۱). تفسیر در المنثور، ج ۵، ص ۷۲.

(۲). تفسیر روح البیان، ج ۱۰، ص ۳۲۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۴۴

وقیل: إنّه إشارة إلی مقام علم اللّه ومراقبته لعباده.

وقیل: إنّه إشارة إلی مقام عدالته تعالی

ولکن هذه التعابیر ترجع فی الحقیقة إلی الخوف من الأعمال والذنوب وذلک لأنّ اللّه (أرحم الراحمین) ولا یوجد فی ذاته تعالی مایوجب الخوف منه، فکما أنّ المجرمین یخافون رؤیة القاضی العادل ویفزعون من سماع إسم المحکمة فکذلک الحال بالنسبة للمذنبین فانّهم یخافون من مقام العدل والحساب والعلم الإلهی، وفی الحقیقة أنّ هناک جحیم فی هذه الدنیا هی جحیم الشهوات، والجحیم الاخرویة إنّما هی جحیم مجازاة تنبع من هذه الجحیم.

ونختم هذا البحث بحدیث عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «من علم أنّ اللّه یراه، ویسمع ما یقول، ویعلم مایعملهُ من خیر أو شر، فیحجزه ذلک عن القبیح من الأعمال، فذلک الذی خاف مقام ربّه ونهی النفس عن الهوی «۱».

۶- السابقون إلی الإیمان

من المعلوم أنّ ظهور أیدین جدید یقترن بمخالفة السنن والتقالید الرائجة فی ذلک المجتمع، وخصوصاً الدین الإسلامی الذی ظهر فی محیط خرافی ملی بأنواع المفاسد والسنن الباطلة الخاطئة.

فمن البدیهی أن یکون السبق إلی الإیمان بمثل هذا الدین أمراً عسیراً للغایة ویحتاج إلی شهامة منقطعة النظیر، فالسابقون للإیمان یتعرضون عادة لأشد هجمات الجاهلین المتعصبین وبما أنّهم یشکلون الأقلیة من المجتمع، لذا فتکون أنفسهم وأموالهم فی خطر دائماً،

إضافة إلى ذلك يعتبر هؤلاء القدوة الحسنة والانموذج الأمثل للآخرين وهم الوسيلة والعامل الرئيس فى نشر تعاليم السماء فى الأرض، فمن هنا يكون للسابقين فى الإيمان

---

(۱). تفسير الثقلين، ج ۵، ص ۱۹۷ ح ۴۸؛ اصول الكافى، ج ۲، ص ۷۰ باب الخوف والرجاء ح ۱۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۴۵

امتياز كبير ودرجة رفيعة وقد وعدهم اللَّه تعالى وعداً قاطعاً بدخول الجنّة، كما ورد ذلك فى قوله تعالى «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ* فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ» «۱».

(الواقعة/ ۱۰- ۱۲)

هذا فى حالة تفسير (السابقون) بمعنى السابقين إلى الإيمان، لكن بعض المفسرين فسّروا (السابقون) بمعنى السابقين إلى طاعة اللَّه (اطاعة أوامر اللَّه) أو السابقين إلى الصلوات الخمس أو الجهاد، أو الهجرة، أو التوبة وأعمال البر، لأنّ السابق إلى الخير إنّما يقتدى به فى الخير وهو شاهد على المراد حتى على هذه الصورة.

وكذا الرجال السابقون المؤثرون المتوكلون على اللَّه تعالى لهم الأحقية فى السبق إلى جنات النعيم.

وقيل: (السابقون)- كما جاء فى الروايات الإسلامية- (الإمام على بن أبى طالب عليه السلام) حيث كان أول القوم إسلاماً من الرجال وقيل إنّ السابقين هم (هابيل) و (مؤمن آل فرعون) و (حبيب النجار) و (الإمام على بن أبى طالب عليه السلام) حيث يمثل كل واحد منهم فى عصره مصداقاً واضحاً للقدوة الحسنة فى السبق إلى الإيمان والجهاد وأعمال الخير «۲».

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أول موهبة جعلها اللَّه لهم هى موهبة القرب من اللَّه تبارك وتعالى «أُولئِكَ الْمُقَرَّبُونَ» والتى تفوق كل النعم العظيمة بما فيها جنات النعيم.

ومن المعلوم أنّ (جنات) تفى بالغرض من دون ذكر (النعيم) الذى هو جمع نعمة، وإنّما ذكرها تعالى للتأكيد، ولإعطائها أهميّة أكبر، من هنا يمكن الإشارة إلى نكتة اخرى وهى أنّ الجنات موضع الرحمة والنعم الإلهيّة فقط وهى على خلاف البساتين الدنيوية التى يلزم إدارتها وصيانتها وحفظها جهود كبيرة إضافة إلى ذلك فإنّها معرضة للآفات والفناء والعدم.

---

(۱). لقد ورد نفس هذا المعنى فى الآية ۲۱ من سورة الحديد وكذا الآية ۱۳۳ من سورة آل عمران.

(۲). للاطلاع على هذه الأحاديث راجع كتاب احقاق الحق، ج ۳، ص ۱۱۴ و ج ۱۵، ص ۳۴۵؛ وتفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۲۰۹، ح ۱۸، ۱۹، ۲۰، ۲۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۴۶

۷- الهجرة والجهاد

الهجرة بمعنى الابتعاد عن بؤرة الكفر والشرك والظلم والمعاصى، وتكون فى كثير من الموارد السبيل الوحيد لخلاص المؤمنين والصالحين وانقاذهم من معاناتهم، فهم يبتعدون عن أجواء محيطهم الملوث ليعملوا على بناء أنفسهم وإعدادها من أجل تعبئة كافة إمكاناتهم وطاقاتهم للهجوم على أعداء اللَّه من كافرين ومشركين وظلمة، ولقد هاجر المسلمون مرّتين فى عصر صدر الإسلام، الهجرة الاولى (هجرة الحبشة) وهى هجرة خاصة حيث هاجرت مجموعة من المسلمين من مكة إلى الحبشة، والهجرة الثانيه (هجرة عامة) من مكة إلى المدينة وتعتبر هذه الهجرة بداية فصل جديد فى تاريخ الإسلام، ومن البديهى أن ترك المنازل والممتلكات والأهل والأقارب والأصدقاء والوطن الذى نشأ فيه المرء وترعرع فيه أمر عسير للغاية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى مواجهة المشاكل لغرض

الاعداد للجهاد والهجوم على مواطن الكفر والفساد، لذا فإنّ القرآن الكريم وعد المهاجرين بأعظم الدرجات وبشرهم برحمته ورضاه: «وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ».

وقال تعالى «الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ* يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ». «۱» (التوبة/ ۲۰- ۲۱)

تتحدث الآيتان الكريمتان عن ثلاث صفات (الإيمان، الهجرة، الجهاد) طبعاً أنّ كل واحدة من هذه الصفات ترتبط مع الاخرى برابطة العلة والمعلول فكان إيمانهم هو السبب فى هجرتهم وهجرتهم مقدمة لجهادهم وجعل اللَّه سبحانه وتعالى جزاءهم ثلاثة امور هى (الرحمة الإلهيّة) و (الرضوان) و (جنات النعيم) وبهذا فقد جعل اللَّه سبحانه وتعالى مقابل كل صفة اجراً عظيماً، فالإيمان يستوجب مغفرة الذنوب والهجرة تستوجب جلب الرضوان الإلهى والجهاد بالأموال والأنفس هو السبب فى دخلوهم جنات النعيم.

روى الحاكم أبو القاسم الحسكانى قال: «بينما شيبة والعباس يتفاخران إذ مرّ عليهما

---

(۱). لقد ورد هذا المعنى فى الآية ۱۰۰ من سورة التوبة.

على بن أبى طالب عليه السلام قال: بِمَ تفخران؟ قال العباس: لقد أوتيت من الفضل مالم يؤت أحد، سقاية الحاج، وقال شيبة: أوتيت عمارة المسجد الحرام. وقال على عليه السلام: وأنا أقول لكما لقد أوتيت على صغرى ما لم تؤتيا. فقالا: وما أوتيت ياعلى؟ قال: ضربت خرطوميكمابالسيف حتى آمنتما باللَّه تبارك وتعالى ورسوله فنزل جبرائيل عليه السلام بالآية «اجَعلتم سِقايةَ ...»» «۱».

وللمفسرين بحوث كثيرة فى مسألة (كيف اعتبر القرآن درجة الذين هاجروا وجاهدوا أعلى من درجة غير المؤمنين؟ فى حين أنّ (غير المؤمنين) ليس لهم أية درجة أصلًا).

يمكن القول فى جواب قصير إنّ المراد بيان أنّ النسبة بينهما هى نسبة الأفضل إلى من لا- فضل له وهذا كثير فى مورد الصفات التفضيلة كقوله تعالى «وَلَعَبْدٌ مُّؤمِنٌ خَيرٌ مِّن مُّشرِكٍ». (البقرة/ ۲۲۱)

ويلاحظ أمثال هذا التعبير الكثير فى القرآن والروايات وكلام العرب.

والخلاصة: أنّ نفس عمل سقاية الحجيج وعمارة المسجد الحرام عمل حسن من أى شخص كان أمّا إذا كان الفاعل كافراً أو مشركاً فلا قيمة له، حيث إنّ الكفر والشرك يحبطان الأعمال الصالحة.

۸- الصبر والتحمل عند الشدائد

مسألة الاستقامة هى أساس لكل الأعمال الصالحة وركن أساس فى امتثال كل طاعة واجتناب كل معصية.

وعلى هذا الأساس فلا عجب أن تعدّ الاستقامة من العوامل المهمّة فى دخول الجنّة كما ذكر فى ذيل هذه الآية: «وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً». «۲» (الدهر/ ۱۲)

وعند دخولهم الجنّة تستقبلهم الملائكة بالترحيب، وهذا دليل على عظمة مقام

---

(۱). شواهد التنزيل لابى القاسم الحسكانى، ذيل الآية مورد البحث ص ۲۴۴ فما بعدها. ولقد ورد نفس المضمون بشىء من الاختلاف فى كتب كثيرة لأهل السنّة راجع إحقاق الحق، ج ۳، ص ۱۲۲ و ۱۲۷.

(۲). لقد ورد نفس هذا المعنى فى سورة الرعد، ۲۱، ۲۴؛ الفرقان، ۷۵.

الصابرين: «سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ». (الرعد/ ۲۴)

ومن المعلوم أنّ الآيـة الـتى نحن بصـددها هى من آيـات سورة الـدهر الـتى نزلت على قول أكثر مفسـرى الشـيعة والسـنة فى حق على وفاطمـة والحسن والحسـين عليهم السـلام، حيث ضـربوا أروع الأمثلـة فى الصـبر والتحمـل حينمـا تصـدقوا بمـا عنـدهم من طعـام إلى (المسكين) و (اليتيم) و (الأسير) وبقوا ثلاثة أيّام متتابعة يفطرون بالماء فقط وهذا هو الصبر على الطاعة.

من البـديهى: أنّ الصبر والتحمـل عنـد مشاكـل ومصاعب الحياة وكـذلك الصبر والتحمل على ترك مانهى اللَّه عنه من عوامل الاثارة والذنوب والمعاصى.. يكون مفتاح من مفاتيح الجنّة فيبدل اللَّه تعالى ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة.

وممّا تجـدر الإشارة إليه أنّ هـذه الآيـة خصت من بين جميع النعم الإلهيّة الألبسة الفاخرة الجميلة ويعود السـبب فى ذلك إمّا لأنّ هذه الثلة من الصابرين إضافة إلى ما جادوا به من الطعام للجياع كذلك أنّهم وما وهبوه من الألبسة إليهم واكتفوا بلباس بسـيط أو أنّ جمال ظاهر الإنسان بالدرجة الاولى يكمن فى زيه ولباسه كما أنّ لباس (التقوى هو زينة وجمال الباطن.

۹- الإيمان والاستقامة

ركزت بعض الآيات القرآنية على مسألة الاسـتقامة والثبات على طريق الإيمان واطاعة الأوامر الإلهيّة فقد ورد فى قوله تعالى «انَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ* أُولَئِكَ اصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ». «۱» (الاحقاف/ ۱۳- ۱۴)

اسـتقاموا مشـتقة من مـادة (الاسـتقامة) أى ملازمـة الطريق المسـتقيم والثبـات على الطريق الصـحيح وبتعبير آخر الابتعـاد عن كـل زيغ وانحراف والثبات على ماشهد الإنسان به من دين

---

(۱). ولقد ورد نفس هذا المعنى فى الآية ۳۰، ۳۱ من سورة فصلت.

الحق، والتفسير ب «الاعتدال» من أربات اللغة إنّما هو من هذا الباب أيضاً.

قال الراغب فى مفرداته: «يقال: الاسـتقامة: الطريق الذى يقع على خط مسـتقيم ولهذا يقال للطريق الحق: (الصـراط المستقيم) واستقامة الإنسان هى ملازمة الطريق المستقيم» «۱».

إضافة إلى أنّ مفهوم الاسـتقامة يعنى اسـتواء الطريق كذلك أنّه يعنى المقاومة والثبات، وعلى هذا الأساس فتعبير الاستقامة على النهج الصـحيح من عوامل الدخول إلى موضع اللطف والكرامة الإلهيّة (ألا وهى الجنّة) وورد عن الأئمّة المعصومين عليهم السـلام فى تفسير الآية أنّهم قالوا: «استقاموا على ولاية اميرالمؤمنين» والتى تعد الخط المستقم للإسلام الصحيح «۲».

ولو تأملنا فى الآيـة الكريمـة لوجـدنا أنّها ذكرت (الإيمان) أولًا (قالوا ربّنا اللَّه) وبعـدها عطفت (الاسـتقامة على الطريق الصـحيح) على الإيمان ب «ثم» التى تفيـد العطف المباشـر لتوحى إلى أنّ عملًا كهـذا هو نتيجة مثل ذلك الإيمان، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الإنسان يحزن على امور قـد حـدثت فى الماضـى وأحياناً اخرى يخاف ويقلق من أمور قد تحدث فى المسـتقبل، يقول القرآن الكريم فى الآية مورد البحث: «فلا خَوفٌ عَلَيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ونختتم هـذا الموضوع بحـديث عن الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله قال سـفيان الثقفى: قلت: يارسول اللَّه أخبرنى بأمر أعتصمُ به. قال الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله: «قل ربّى اللَّه ثم استقم، قال: فقلت: ما أخوف ما تخاف على: فأخذ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بلسان نفسه فقال: هذا» «۳».

۱۰- إطاعة اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله

من الأعمال التى توجب دخول الجنّة هى اطاعة اللّه والرسول صلى الله عليه و آله كما ورد ذلك فى ق. له

---

(۱). مفردات الراغب، مادة (قوم).

(۲). تفسير على بن إبراهيم ج ۲، ص ۲۶۵، ذيل الآيتين ۳۰ و ۳۱ من سورة فصلت واللتين تشبهان الآية أعلاه.

(۳). تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۲۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج۶ ۱۹۹

تعالى «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ». «۱» (النساء/ ۱۳)

تعبير (جنات) يدلّ على تعددها وأنّ كل واحدة منها أحد مقامات العارفين والصالحين والأطهار.

أمّا تعبير (تجرى من تحتها الأنهار) فدلالة على جمال بساتينها ورونقها ودوام خضرتها لأنّ أنهارها دائمة الجريان.

«خالدين فيها»: إضافة إلى أنّ الآية نفت احتمال فناء وسلب النعمة التى هى عادة من عوامل القلق جاءت الآية بصيغة الجمع وهذه إشارة إلى أنّ أهل الجنّة يتمتعون بنعمة الاجتماع والانس مع بعضهم البعض.

فى حين أنّ الآية التى بعدها والتى تتحدث عن عصيان اللّه ورسوله جاءت بصيغة المفرد (خالداً) وهذه إشارة إلى أنّهم (أهل النّار) يتعذبون بالوحدة والعزلة وكأنّ كل واحد منهم سجين فى زنزانة انفراديه فى نار جهنّم.

۱۱- الاخلاص

خلوص العقيدة، وخلوص العمل، وخلوص النية، من موجبات دخول الجنّة، قال تعالى «وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَاكُنْتُم تَعْمَلُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ* أُولئِكَ لَهُم رِزْقٌ مَّعْلُومٌ* فَوَاكِهُ وَهُمْ مُّكرَمُونَ* فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ». (الصافات/ ۳۹- ۴۳)

فبعد أن أشارت هذه الآيات إلى عذاب أهل النّار استثنت المخلصين وقالت إنّهم فى معزل من كل هذا العذاب.

من هنا يجب أن نعرف من هم (المخلَصين) (بفتح اللام)؟ إذا تأملنا فى الآيات القرآنية فسوف ندرك جيداً أنّ (المخلِص) بكسر اللام يعنى الشخص الذى أخلص نفسه وأعماله

---

(۱). نفس هذا المعنى ورد فى الآية ۱۷ من سورة الفتح.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۱

ونيّته، وغالباً ما يستعمل هذا فى مراحل بناء الإنسان لنفسه، فى حين أنّ (مخلَص) (بفتح اللام) يطلق على الذين بلغوا الدرجات العلى من الإيمان والمعرفة والعمل، فهؤلاء خارجون عن وساوس الشيطان وأحابيله، فلا سلطان للشيطان عليهم، قال تعالى «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ اجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنهُمُ الْمخلَصِينَ». (ص/ ۸۲- ۸۳)

وفى الحقيقة أنّ أدران وجود الإنسان على قسمين: الأول يمكن تشخيصه وعلاجه، والثانى لا يمكن ازالته وعلاجه إمّا لكونه مخفى عن الإنسان أو أنّه ظاهر وجلى ولكن لا قدرة له على ازالته، فعندما يضع الإنسان قدمه فى طريق الإخلاص ويعمل على تخليص نفسه من أدران القسم الأول والتى تقع ضمن استطاعته وقدرته فإنّ اللّه سبحانه وتعالى يخلصه ويزكيه بلطفه وكرمه من أدران القسم الثانى وحينئذٍ يليق لمقام ال «مُخلَص».

والعجيب أنّ اللَّه سبحانه وتعالى وهب لهذه المجموعة من المواهب والعطايا ما لم يَهَب غيرهم، ومن جملتها الرزق المعلوم وهو رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم فهؤلاء يتلذذون بلذة القرب من الذات الإلهيّة المقدّسة فاللَّه تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد حيث إنّ قلوبهم لم تتعلق بشى غيره تعالى فليس فيها إلّااللَّه سبحانه، ولقد أشار تعالى إلى ذلك فى قوله: «أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ»، ومن خواصهم كذلك بلوغهم مقاماً سامياً من العرفان فعباد اللَّه المخلصين يصفونه تعالى وصفا يليق به أو بما يلقب به من الأوصاف، لا كما يصفه الكفّار أو المشركون، قال تعالى «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ* إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ». (الصافات/ ۱۵۹- ۱۶۰)

وبهذا فإنّ معرفتهم باللَّه أعلى المعارف وأليقها، وصيانتهم من الشيطان وهوى النفس أشد وجزاؤهم يوم القيامة أجزل وأوفر وهذا هو جزاء المخلَصين.. (اللهم اجعلنا من المخلَصين بحق محمد وآله الطاهرين).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۲

۱۲- الصدق

قلما نجد فى أعمال الإنسان مثل جمال وجاذبية (الصدق والواقعية)، ويتبيّن من الآيات والروايات أنّ وزن الصدق ثقيل جدّاً فى ميزان الأعمال، وذلك لأنّه يعد من أسمى أوصاف أولياء اللَّه وهو أحد مفاتيح الجنّة كما صرح بذلك القرآن الكريم: «هَـذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَآ ابَداً». «۱» (المائدة/ ۱۱۹)

ومن الواضح أنّ المراد بالصدق فى هذه الدنيا هو الصدق فى العقيدة والقول والفعل وكل صفة من هذه الصفات هى علامة من علامات (التقوى عند الإنسان فى هذه الدنيا وإلّا فلا محل للصدق فى الآخرة حيث لايُكذب هناك.

إضافة إلى هذا فإنّ الأوضاع يوم القيامة لا مجال فيها إلّاللصدق، وحتى المذنبون فإنّهم إن عمدوا إلى انكار الحقائق مؤقتاً فسُرعان ما يدركون بأنّ لا جدوى من الانكار وبالتالى يعترفون بجميع ذنوبهم.

ويمكن أن نستفيد من هذا التعبير ضمناً أنّ جميع الأعمال الصالحة تنحصر فى الصدق، ويتضح التحليل المنطقى لذلك بشىء من التأمل حيث إنّ جميع الذنوب إنّما هى ناشئة من عدم الصدق فى ادّعاء الإيمان والإسلام، فالشخص الذى يعترف ويقر بقانون كيف يسمح لنفسه بمخالفته؟

وتتّضح أهميّة الصدق من هذه الناحية وهى أنّ اللَّه سبحانه وتعالى جعله الوسيلة لكشف حقائق الناس، كما ورد ذلك فى حديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قال: «لا تنظروا إلى كثرة صلاتهم وصومهم، وكثرة الحج والمعروف، وطنطنتهم بالليل، ولكن انظروا إلى صدق الحديث، وأداء الأمانة» «۲»، وقال صلى الله عليه و آله فى حديث آخر: «إنّ الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنّة» «۳».

إذن فالصدق مفتاح من مفاتيح الجنّة.

---

(۱) فى هذه الآية يكون «هذا» مبتدأ و «يوم» خبر وجملة «ينفع ...» مضافة إلى «يوم».

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۹، ح ۱۳.

(۳) المحجة البيضاء، ج ۸ ص ۱۴۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۳

۱۳- تزكية النفس

ممّا لا شك فيه أنّ الجنّة هى محل الصالحين والأخيار، ولقد ذكر القرآن ذلك صراحة كجزاء لمثل هؤلاء الأشخاص ورد فى قوله تعالى، عن لسان سحرة فرعون بعد غلبة معجزة موسى وإيمان وتسليم السحرة بما جاء به والتمرد على فرعون فقالت: «ومَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَاولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدنٍ تَجرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى . (طه/ ۷۵-۷۶)

«تزكى : مشتقة من مادة (تزكية) وتشمل تزكية العقيدة وكذلك تزكية الأقوال والأفعال أيضاً.

وفى الحقيقة أنّ الجنّة محل مطهر من جميع القذارات والأدران، ومن الطبيعى أنّ هذا المحل لا يصلح إلّاللأخيار الذين لم يلبسوا إيمانهم بظلم.

وقد قال بعض المفسرين: إنّ (الدرجات العلى جعلها اللّه لمن كان له إيمان وعمل صالح وتزكية نفس.

وعلى هذا الأساس لا يتنافى أن تكون الدرجات الأقل للمؤمنين الذين خلطوا أعمالًا صالحة بأخرى سيئة، أو حتى الذين ارتكبوا أحياناً المنكرات.

ولكن هؤلاء لن يستطيعوا دخول الجنّة التى هى محل القدس والطهارة ما لم يتطهروا من هذه الذنوب، وهناك احتمال آخر وهو أنّ هذه الآيات لم تكن عن لسان سحرة فرعون وإنّما هى كلام اللّه المباشر، ولكن ومهما كان تفسير الآية فإنّ المعنى واحد.

۱۴- الانفاق والاستغفار

الاستغفار من الذنوب والتوبة والانفاق فى السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو والصفح عن الناس وعدم الإصرار على الذنب مجموعة من الصفات تعرضت لها بعض الآيات من القرآن الكريم ووعدت فى مقابل ذلك الجنّة، قال تعالى «وَسَارِعُوا إِلَى مَغفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُم

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۴

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ وَالْأَرْضُ اعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ»، وهذه الآية كالتوطئة لذكر ما يذكره تعالى بعد من أوصاف المتقين ثم شرع ببيان هذه الأوصاف وقال: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ اذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا انفُسَهُم ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغفَرُوا لِذُنُوبِهِم»، ووعدهم فى نهاية الآية المغفرة والجنّة: «اولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغفِرَةٌ مِّنْ رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحتِهَا الْأَنهارُ ...».

(آل عمران/ ۱۳۳- ۱۳۶)

«المسارعة»: هى الاشتداد فى السرعة وهى ممدوحة فى الخيرات ومذمومة فى الشرور، والمسابقة إلى المغفرة هى إشارة إلى السبق إلى أسباب المغفرة، لذا فسرها البعض بالإسلام وقيل أداء الفرائض وقيل الهجرة وقيل الصلوات الخمس وقيل الجهاد وقيل التوبة والتى تعد كل واحدة منها من عوامل المغفرة الإلهيّة، وتشكل هذه الأوصاف موجبات السبق إلى الجنّة والفوز بها، ولقد أشارت الآيات بعدها إلى مسألة الانفاق والاستغفار والعفو والصفح والاحسان وكل هذه الامور من الأسباب المهمّة للمغفرة ودخول الجنّة.

ولقد ورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى بشىء من الاختلاف حيث حَلَّ تعبير (سابقوا) محل (سارعوا) قال تعالى «سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». (الحديد/ ۲۱)

ومن البديهى أن (سارعوا) من باب (مفاعلة) وتأتى بمعنى التسابق والنتيجة واحدة (تأمل).

ولكن بعض المفسرين فسروا (سارعوا) بمعنى المبادرة أو الاشتداد فى السرعة ولم يروها من باب (مفاعلة).

على أيّة حال، فإنّ هذه التعابير تدلل على أنّ الدنيا ساحة تسابق، والهدف النهائى من هذه المسابقة هو الوصول إلى المغفرة والفوز بالجنّة وبهذه السعة التى وصفتها الآية الكريمة، وسوف نتكلم حول (سعة الجنّة) فى نهاية هذا الجزء إن شاء اللّه.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۵

۱۵- الخوف من اللّه

الخوف من اللّه تبارك وتعالى يعنى الخوف من عدالته وحسابه وكتابه وعقابه درع حصين أمام الذنوب والمعاصى وعامل فعال فى مواجهة الظلم والفساد والعصيان ولهذا السبب يعتبر الخوف مفتاحاً من مفاتيح الجنّة كما قال تعالى «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتانِ». (الرحمن/ ۴۶)

ولقد ذكر المفسرون فى تفسير (مقام ربّه) احتمالين:

الأول: الاحاطة العلمية للرب تعالى بجميع أعمال الإنسان ونواياه.

الثانى: مقامه بين يدى ربّه للحساب (حيث يوجد مقدَّر فى هذه الصورة والتقدير هو:

«مقامه بين يدى ربّه» «۱».

ومهما كان التفسير فإنّ الخوف من اللّه هو الوازع من كل معصية وخطيئة كما ورد ذلك فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من علم أنّ اللّه يراه ويسمع ما يقول من خير أو من شر فيحجزه ذلك عن القبيح من الأعمال فله جنتان» «۲».

ولقد قيل فى تفسير (جنتان) آراء عديدة:

۱- المقصود الجنّة (المادية) و (المعنوية) كما ورد ذلك فى قوله تعالى: «جَنَّاتٌ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ ... وَرِضوانٌ مِّنَ اللَّهِ»، فالاولى هى البساتين التى تجرى من تحتها الأنهار والثانية رضا المعبود والمحبوب الحقيقى أى اللّه تعالى

۲- وقيل الجنّة الاولى للإيمان والثانية للعمل.

۳- وقيل جنّة لفعل الطاعات وجنّة لترك المعاصى.

۴- وقيل جنّة جزاء للعمل وجنّة تفضل من اللّه.

وهذه الأقوال- كما ترى لا دليل على شى منها، ويمكن أن يكون التعبير الأول هو الأنسب، واعتبار جميع الآراء ممكن أيضاً.

---

(۱) ورد كلا الاحتمالين فى تفسير مجمع البيان، و تفسير الميزان.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۲۰۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۶

۱۶- التولى والتبرؤ

أى محبّة أولياء اللّه ومعاداة أعداء اللّه، وبتعبير آخر التودد للصالحين والأخيار، والتبغض للكفار والأشرار، والقرآن الكريم اعتبر التولى والتبرؤ مفتاح الجنّة كما جاء ذلك فى قوله تعالى «لَّاتَجِدُ قَوماً يُؤمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَن حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَآءَهُم أَو أَبْنَاءَهُم أَو إِخْوانَهُم أَو عَشِيرَتَهُم». (المجادلة/ ۲۲)

ثم قال تعالى «أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنهُ وَيُدْخِلُهُم جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الْأَنْهَارُ». (المجادلة/ ۲۲)

وكما أشار تعالى فى ذيل الآية الكريمة إلى أجرهم المعنوى بقوله: «رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ»، وفى النهاية أعطاهم اللّه تاج الفخر والشرف ونعتهم بأنهم حزب اللّه: «أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ» ومن الواضح أن لا تجتمع محبتان فى قلب واحد فإمّا محبة اللّه أو محبّة أعدائه، وعلى هذا الأساس فإنّ أقوى الأواصر وأمتنها هى تلك المبنية على أساس محبّة اللّه ومحبّة أوليائه، أمّا ما سواها فهى علاقات زائفة لا معنى لها.. (فيبيّن تعالى أنّ بين الإيمان وموادة أهل المحادة تضاد فلا يجتمعان لذلك).

إنّ هـذه الموادة ليست هى علاقة فحسب بل هى برنامج عمل متكامل فى كافة المجالات والأصـعدة، أىهى حرب ضد ظلم الظالمين وفسـاد المفسـدين وجرم المجرمين وهؤلاء هم المخلصون فى إيمـانهم، وقوله تعـالى «أُولَئِكَ كَتَب فِى قُلُوبِهِمُ الْإِيْمَـانِ» يحمل معنى عميقاً، فالكتابـة جرت بيـد القـدرة الإلهيّـة وعلى صـفحة القلب وهى بمعنى ثبات ورسوخ حقيقة الإيمان فى قلوبهم بحيث لا تتغير ولا تزول أبـداً، أجـل فمثـل هؤلاء الأفراد المؤيـدين بروح القـدس أيضاً هم الجـديرون بحمل اسم (حزب اللّه) الـذى هو مظهر من مظاهر التولى والتبرؤ.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۷

۱۷- الاهتمام بالصلاة

اشارة

ذكرت الآيات ۲۲- ۳۴ من سورة المعارج تسع صـفات من صـفات أهل الجنّة وعلى أثر هذه الصـفات يعدهم اللّه تعالى بالجنّة، وهذه الصـفات هى: المحافظة على الصـلاة، وتعيين حق ثـابت فى أمـوالهم للمحرومين، والإيمـان بيـوم الجزاء، والخـوف من عـذاب اللّه، والمحافظة على الفروج، وأداء الأمانة، والوفاء بالعهد، والقيام بالشـهادة، والمحافظة على آداب وشـرائط وروح الصـلاة، وبعد ذكر هذه الصفات قال تعالى «أُولَئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُّكرَمُونَ». (المعارج/ ۳۵)

وهذا التعبير تعبير واحد لجميع النعم الجسمانية والروحانية.

ومن الطريف أنّ هـذه الصـفات التسع ابتـدأت بالصـلاة واختتمت بالصـلاة أيضاً مع هـذا الاختلاف، وهو أنّها ابتدأت بالاسـتمرار على الصـلاة وانتهت بالمحافظة عليهـا أىحفـظ آدابهـا وشـرائطها وخصوصـياتها، تلـك الآداب والشـرائط تحفظ مظهر الصـلاة من الفساد والبطلان وكـذلك تقوّى روح الصـلاة التى تتمثل بحضور القلب وازالـة موانع قبولها كأكل السـحت، وشـرب الخمور، والغيبة، وأمثال ذلك.

إذن فالآية تدلل على أنّ أعمال الخير كلها تبدأ بالصلاة وتنتهى بالصلاة أيضاً، ومن الناحية العملية أنّ أول ما يجب على الإنسان البالغ، الصلاة وآخر ما يلازمه حتى نهاية عمره، الصلاة أيضاً، اللطيف هو أنّ للمحافظة على الصلاة طرفين: الأول: وجوب المحافظه عليها من الفسـاد والخلل، والثـانى: أنّ الصـلاة تحفـظ الإنسان من الفحشاء والمنكر «إِنَّ الصَّلاةَ تَنهى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»، ونختم هـذا البحث بحديث عن الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله إذ قال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاةً يوم القيامة» «۱».

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۱۶۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۸

الخلاصة:

إنّ كل ما أشـرنا إليه فى الفقرات الماضـية يمثل جانباً مهماً من أسباب دخول موضع الرحمة وهذه الامور تعكس النظرية الإسلامية فى مجـال توفير أسـباب النجـاة والسـعادة الأبديـة، ومن جهـة اخرى تمثـل الـدافع القوى، للـتزود بالأعمـال الصالحـة الإنسانيـة والأخلاقية والاجتماعية، وبلا شك أنّ استلهام هذه المفاهيم له أكبر الأثر فى ايصال الإنسان إلى أوج التكامل والتربية والافتخار.

إلهى وفقنا لطاعتك ولا تحرمنا من مفاتيح أبواب جنانك

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۵۹

۲- النعم المادية فى الجنّة

تمهيد:

اشارة

لقد اتّضح فى بحث المعاد الجسمانى أنّ المعاد فى التصور القرآنى له بعد جسمانى وبعد روحانى أيضاً، حيث إنّ الإنسان فى تلك العرصات يحضر بجسمه وروحه، وأنّ المواهب والعطايا الإلهيّة تشمل الاثنين معاً، فالذين يعتقدون أنّ النعم فى الجنّة كلها نعم معنوية وروحية وأنّ الآيات التى تتحدث عن هذه النعم المادية إنّما هى تعبر بلغة الكناية فإنّ هؤلاء قد غفلوا عن هذه الحقيقة وهى أنّهم وبحصرهم النعم هناك بالنعم الروحية فانّهم ينفون المعاد الجسمانى وهذا خلاف صريح للآيات القرآنية التى تؤكد على وجود هذه النعم، وكما ذكرنا فى بحث المعاد الجسمانى فإنّ الجسم والروح توأمان مرتبطان معا ولا يمكن أن يبلغا التكامل بمعزل عن أحدهما الآخر، إضافة إلى هذا أنّه لايمكن للروح أن تلتذ بالمواهب والعطايا الإلهيّة بمعزل عن الجسم.

على أيّة حال، فالنعم الجسمانية فى الجنّة كالنعم الروحية متنوعة وواسعة للغاية وجاذبة للنفس، ولقد أكد على ذلك القرآن كثيراً لكى يلفت انتباه الناس إلى الأعمال والصفات والفضائل التى توجب هذه المواهب (ومن المعلوم أنّ الإنسان يفكر بالنعم المادية قبل الروحية) وفى نفس الوقت فتح اللَّه سبحانه فصلًا مهماً لبيان النعم المعنوية واللذات الروحية (وسنتطرق إلى هذا فى الفصل اللاحق).

وإذا لم تكن النعم الروحية من ناحية شمولية البيان بمقدار النعم المادية لكنّها أكثر بكثير من النعم المادية من الناحية الكيفية، وسنستعرض أدناه جملة من المواهب والنعم المادية الموجودة فى الجنّة تحت هذه العناوين:

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۰

۱- حدائق الجنان

۲- الظل الظليل.

۳- قصور أهل الجنة.

۴- الفرش والأرائك.

۵- الأغذية والأوانى.

۶- الشراب الطهور.

۷- أفضل شراب أهل الجنّة.

۸- الأكواب والصحاف والأوانى والكؤوس (الأقداح).

۹- ألبسة الجنة.

۱۰- حلى الجنّة.

۱۱- الحور العين.

۱۲- الخدم والسقاة.

۱۳- المضيفون.

۱۴- النُزُل.

۱۵- النعم التى لا تتصور.

ولقد وردت فى كل من هذه المواضيع آيات متعددة فى القرآن الكريم وسوف نستعرض هذه المواضيع على ضوء تلك الآيات.

۱- حدائق الجنان

يتبيّن على ضوء الآيات الواردة فى هذا المجال أنّ الجنّة هى مجموعة حدائق وبساتين لا مثيل لها ولا نظير فى هذه الدنيا وكل ما رسمه لنا القرآن الكريم لا يمثل إلّاصورة تقريبية كى يتمكن ساكنو هذه الدنيا من إدراك هذه المعانى، وإلّا فإنّ حقيقة الجنّة هى‌ما وراء إدراكنا، لقد ذكر القرآن أكثر من مائة آية حول الجنّة وبتعابير مختلفة مثل (جنات) أو (جنّة)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۱

أو (جنتان)، فنقرأ قوله تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللَّه وَرَسُولَهُ يُدخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ». (النساء/ ۱۳)

وفى قوله تعالى: «واللَّهُ يَدْعُوَا إِلَى الْجَنَّةِ وَالمَغْفِرَةِ بِاذنِهِ». (البقرة/ ۲۲۱)

وفى قوله تعالى: «وَلِمَن خَافَ مَقامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ». (الرحمن/ ۴۶)

فهذه الكلمات (جنات، جنتان، جنة) مشتقة من مادة (جنّ) على وزن (فَنّ) وهو الستر والتستر، ويقول الراغب فى مفرداته ستر شى‌من الحس، وعلى هذا الأساس له مشتقات كثيرة.

«والجنّة»: بمعنى البستان وذلك لأنّ أرضها مستورة بأغصان الأشجار ولكن صاحب كتاب مقاييس اللغة يقول: الجنّة مايصير إليه المسلمون فى الآخرة وهو ثواب مستور عنهم اليوم، ولكن نحن نستبعد هذا المعنى وذلك لأنّ بساتين الدنيا يقال لها أيضاً جنّة وهذا لا يكون إلّالسبب ستر أرضها بواسطة أغصانها، (تأمل).

و «الجنين»: الولد فى بطن امّه، والجَنان: القلب لأنّه مستور فى الصدر والمِجَن: الترسُ، وكل ما استتر به من السلاح فهو جنة (على قول صاحب مقاييس اللغة) و (الجِن) و (الجان) يطلق على الموجودات الحيّة المستورة عن أعين الخلق، وكذلك على الثعابين العظيمة تشبيها لها ب «الجن» (الذى هو موجود خطر خفى)، ويطلق على عظام الصدر- جناجن- ولعل السبب فى هذه التسمية كونها درعا لحفظ القلب.

«جنون»: بمعنى ذهاب العقل واصل الجنون هو الستر، جنون الليل: سواده وستره للاشياء، على أيّة حال فإنّ المهم فى هذا الموضوع هو أنّ بساتين الجنّة كثيفة الأشجار إلى درجة سترت أرضها بأغصانها المتدلية.

ولقد وردت فى عشرات الآيات بعد ذكر (جنات) جملة (تجرى من تحتها الأنهار) وهذا يدل على أنّ الماء يجرى دائماً تحت الأشجار وبتعبير آخر أنّ أغصان أشجارها تظل على المياه التى تجرى تحتها، فيكون الماء تحتها (تأمل جيداً)، وهذا يعود إلى

أولًا: أنّ الماء والشجر يشكلان مع بعضهما البعض منظراً جميلًا فى منتهى الروعة والجمال، وكأنّ كل واحدٍ منهما ناقص ويحتاج إلى اكمال من الآخر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۲

وثانياً: أنّ الأنهار تؤَمِّن طراوة دائمية للأشجار، فالتى تجرى من تحتها المياه تكون خضراء زاهية، إمّا الأشجار التى لا تتوفر لها مياه دائمة أو يؤتى به من الخارج فلا- تتمتع بمثل هذه الطراوة والاخضرار، فالماء هو أساس حياة النباتات ولابدّ من توفر هذا العنصر الأساس للحياة بجانبها دائماً، وجاء فى احدى الروايات: «إنّ أنهار الجنّة ليست فى اخاديد إنّما تجرى على سطح الجنّة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها» «۱»! والأعجب من هذا أنّه ليس فقط الأشجار تجرى من تحتها الأنهار بل- وكما جاء فى بعض الآيات- إنّ (الغرف)

بنيت على الأنهار أيضاً فالأنهار تجرى من تحتها كما ورد فى قوله تعالى «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الجَنَّةِ غُرَفاً تَجرِى مِن تَحتِهَا الأَنهَارُ». «۲» (العنكبوت/ ۵۸)

۲- ظلال الجنّة

لقد أشارت آيات عديدة إلى ظلال الجنّة ومن جملتها: «وَاصحَابُ اليَمِينِ مَااصحَابُ اليَمِينِ* فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ* وَظِلٍّ مَّمدُودٍ* وَمَآءٍ مَّسكُوبٍ».

(الواقعة/ ۲۷- ۳۱)

من المعلوم أنّ ظلال الأغصان هى أجمل وأروع من أىظلال، فظلال الأشجار ليست كمثل ظلال الخيام والغرف المظلمة الفاقدة للتهوية، حيث تعمل الرطوبة الملائمة للأوراق على تلطيف الظل ويضيف لها عطر الأشجار وتفتح الأزهار جمالًا آخر إلى جمالها، وظلال الجنّة ظلال دائمة لذا فلا تختل سكينة الإنسان وراحة باله أبداً: «اكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا». (الرعد/ ۳۵)

وعبر عنه أحياناً ب (ظل ظليل)، قال تعالى «وَنُدخِلُهُم ظِلّاً ظَلِيلًا» «۳». (النساء/ ۵۷)

---

(۱). تفسير القرطبى، ج ۱، ص ۲۴۰.

(۲). ورد نفس هذا المضمون فى الآية ۲۰ الزمر أيضاً.

(۳). «الظل الظليل» كناية عن الظل الكامل والدائم والعالى، ولقد أشارت آيات عديدة إلى مسألة الظل فى سورة الرعد، ۳۵؛ يس، ۵۶؛ المرسلات، ۴۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۳

اتّضح من خلال ما مرّ: أنّ أجواء الجنّة لا مثيل لها ولا نظير فهى فى منتهى اللطافة والجمال والاعتدال، كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى «لايَرَوْنَ فِيهَا شَمساً وَلَا زَمهَرِيراً». «۱» «۲» (الإنسان/ ۱۳)

أى أنّهم لا يرون شمساً يتأذون بحرها ولا زمهريراً يتأذون ببرده.

۳- قصور أهل الجنّة

لقد أشارت آيات عديدة من القرآن إلى مساكن أهل الجنّة وبتعابير مختلفة، قال تعالى

«ومَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ». (التوبة/ ۷۲)

ولقد ورد نفس هذا التعبير فى سورة الصف الآية ۱۲.

«طيبة»: لها معنى واسع جدّاً يشمل جميع المزايا، ومعناها فى الأصل: الشىء الذى ترتضيه النفس الإنسانية ويبعث عند الإنسان (طيب النفس)، أو أنّ السكن فيها مطهر وصالح فى كل الأحوال، وهذه الكلمة جمعت كل خواص السكن الجيد، وقد عبرت سورة الفرقان عن المساكن بتعبير (غرفة) وتعنى: البناء فوق البناء.

قال تعالى: «أُولئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرفَةَ بِمَا صَبَرُوا». (الفرقان/ ۷۵)

«غرفة»: من مادة (غَرف) على وزن (فعل): وتأتى بمعنى رفع شى وتناوله، ويقال (غرفة) للشىء الذى يرفع ويتناول، ثم اطلق ذلك على القسم العلوى للبناء (الغرفة كما قيل:

البناء فوق البناء فهو الدرجة العالية من البيت وهى كناية عن الدرجة العالية فى الجنّة).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ الغرف تتمتع بعدة خصائص فأجواؤها ألطف وأجمل الأجواء ومناظرها أحسن المناظر، ومحلها يؤمن أفضل سكن لساكنيها، وماتعبير «غرفة» إلّا إشارة إلى هذه الخيرات، ولذا نقرأ فى قوله تعالى «وَهُم فِى الغُرُفاتِ آمِنُونَ». (سبأ/ ۳۷)

---

(۱). «زمهرير» مشتقة من مادة «زمهر» بمعنى شدة البرد أو شدة الغضب والمراد هنا المعنى الأول.

(۲). ورد نفس المعنى فى سورة الواقعة، ۳۰؛ ويس، ۵۶؛ والمرسلات، ۴۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۴

وهناك تعبير آخر فى هذا المجال قال تعالى «لَهُم غُرَفٌ مِّن فَوقِهَا غُرَفٌ مَّبنِيَّةٌ تَجرِى مِن تَحتِهَاالْأَنْهَارُ». (الزمر/ ۲۰)

وعندما أشار إلى محل إقامة أهل الجنّة قال تعالى: «انَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ امِينٍ* فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ». (الدخان/ ۵۱- ۵۲)

ومن هنا يجب الإشارة إلى هاتين النكتتين:

۱- لقد أشارت بعض الآيات الكريمة (مثل الآية ۱۲ من سورة الصف) من بين جميع النعم فى الجنّة إلى (المساكن الطيبة) ويعود فى ذلك إلى أنّ (السكن) يعتبر أحد أهم عوامل راحة الإنسان وسكينته، وهذا المسكن هو مسكن طاهر ومطهر من جميع القذارات الظاهرية والباطنية فهو يُؤمن كل أسباب الأمن والأمان والاستقرار وراحة البال للإنسان، وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ (السكن) أخذ من مادة (سكون) وتعنى الهدوء.

۲- لقد ذكر القرآن الكريم عدة امور واعتبرها من موجبات السكينة والاطمئنان وهى:

۱- البيوت السكنية المناسبة سواء فى الدنيا أو فى الآخرة: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَناً». (النحل/ ۸۰)

۲- الازواج الصالحة: «وَمِن آيَاتِهِ ان خَلَقَ لَكُم مِّن انفُسِكُم أَزوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيهَا».

(الروم/ ۲۱)

۳- الليل من موجبات السكينة والهدوء: «وَجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً». (الانعام/ ۹۶)

۴- دعاء الرسول صلى الله عليه و آله للذين يؤتون الزكاة: «انَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُم». «۱» (التوبة/ ۱۰۳)

۵- السكينة الناتجة عن الإيمان: «هُوَ الَّذِى انزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ المُؤمِنِينَ». (الفتح/ ۴)

ولا شك أنّ لبعض هذه الامور بعداً مادياً، وللآخر بعداً معنوياً.

---

(۱). ميزان الحكمة، ج ۲، ص ۱۵۹۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۵

۴- الفرش والأرائك

من النعم الإلهيّة الاخرى فى الجنّة الفرش والأرائك المختلفة وهى فى منتهى الروعة والجمال والجذابية.

قال تعالى «مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ اسْتَبْرَقٍ». (الرحمن/ ۵۴)

ومن الطريف أنّ بطانة هذه الفرش من أفخر الأقمشة فى الدنيا أمّا ظاهرها فهو من اللطافة والجمال والقيمة بحيث يعجز عنها الوصف، وعلى قول بعض المفسرين هى من الامور التى يقول القرآن بصددها: «فَلَا تَعلَمُ نَفسٌ مَّا اخفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ اعيُنٍ». (السجدة/ ۱۷)

ولقد ورد حديث عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «ظواهرها نور يتلألأ» «۱».

وفی سورة الغاشية نجد تعبيراً آخر ضمن توصيف النعم المختلفة فی الجنّة: «وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ». (الغاشية/ ۱۶)

«زرابیّ»: جمع (زَرْبيّة) علی وزن (شَرْقية) وهی علی قول بعض أرباب اللغة مشتقة فی الأصل من الكلمة الفارسية «زربفت» وهو القماش الذی يستعمل فی نسيجه الذهب بدلًا من القطن والصوف، وتأتی أحياناً بمعنی القماش الغالی الثمن «۲» (البسط الفاخرة)، وقال بعض أرباب اللغة والمفسرين أنّ (زِربی) جمع ازربی بكسر الزاء و (زربية) فی الأصل بمعنی أنواع النباتات التی اختلطت فيها الألوان الصفراء والحمراء الخضراء، ولهذا السبب يطلق علی الفرش التی تحمل ألواناً زاهية متنوعة، «۳» وقد وصفت هذه الفرش ب (مبثوثة)، وهی (المبسوطة المنشورة أو المفرقة فی المجالس).

ونجد فی نفس هذه السورة فی الآية السابقة عبارةاخری تصف الوسائد وتقول:

«وَنَمارِقُ مصفُوفةٌ».

---

(۱). تفسير القرطبی، ج ۹، ص ۶۳۴۹.

(۲). التحقيق فی كلمات القرآن الكريم مادة (زرب).

(۳). تفسير المراغی، ج ۳۰، ص ۱۳۳ قاموس اللغة مادة (زرب).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۶

«نمارق»: جمع (نُمرقة) علی وزن (غُلْغُلة) ويقول صاحب (صحاح اللغة) هی وسائد صغيرة يُتكأ عليها (وقد توضع أثناء الاستراحة والجلوس علی الرجلين ويُتكأ عليها).

وفی سورة الرحمن نجد تعبيراً آخر فيما يتعلق بالفُرش فی الجنّة قال تعالی «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ». (الرحمن/ ۷۶)

«رفرف»: علی قول الراغب فی المفردات الأوراق والمناشف، ثم اطلق علی الأقمشة الزاهية الألوان، وقال بعض أرباب اللغة أنّ الرفرف: بمعنی أطراف الخيمة التی تهتز بحركة الريح، ورفرفة: بسط جناحی الطائر «۱» (تحريك الطائر جناحيه).

وقيل: ثياب خضر تبسط علی السرير، ويوجد هذا الاحتمال أيضاً وهو البساتين التی ترف من نضارتها، لأنّ رفرف تعنی كسر الخباء ونحوه حيث تتحرك حين هبوب الريح، ويقول أبو الفتوح الرازی فی تفسير (الرفرف): المروج الخضراء.

أمّا «عبقریّ»: فهو مشتق من «عَبْقر» (علی وزن جعفر) ويقول (صحاح اللغة) و (المفردات): موضع كانت العرب تزعم أنّه كثير الجن ثم اطلق علی كل ما يتعجب من كماله وقوته وحذقه، ويطلق علی كل شخص عالم ماهر عبقری، وجمعه عباقرة «۲».

علی أيّة حال، فإنّه يطلق علی الأشخاص الذين ليس فوقهم شیء وعلی الأشياء الفاخرة النفيسة، وفی الآية هو وصف للاقمشة الفاخرة وقيل هو الديباج، وقيل البسط.

وقيل: (عبقر) اسم مدينة مشهورة بحياكة أحسن أنواع الأقمشة «۳».

أمّا فيما يتعلق بالسُرُر التی يجلس عليها أصحاب الجنّة وقد عبّر ب (السرر) جمع (سرير) كما فی قوله تعالی: «عَلَى سُرُرٍ مَّوضُونَةٍ* مُّتَّكِئِينَ عَلَيهَا مُتَقابِلِينَ». (الواقعة/ ۱۵- ۱۶)

ولقد تكرر هذا التعبير فی خمسة مواضع من القرآن الكريم، فقد وصف هذه السرر فی

---

(۱). مقاييس اللغة.

(۲). اعترض بعض أرباب اللغة وبعض المفسرين علی هذا الجمع وذلك لأنّه منسوب إلی شیء لا يجمع إلّافی حالة مجی الكلمة علی صيغة الجمع كأن يقال (عباقر) ثم تنسب (عباقری) ومن المعلوم أنّ الجمع بين النسبة وصيغة الجمع غير وارد عند الادباء.

(۳). تفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۷

الآية السالفة ب (موضونة) وهى مشتقة من مادة (وَضْن) على وزن (وَزْن) وفى الأصل بمعنى (النسج) واطلاقه على نسج السرر استعارة يراد بها إحكام نسجه.

ومن هنا يمكن أن يكون هذا المعنى إشارة إلى أنّ الأسرّة منسوجة بنسج خاص من اللؤلؤ والياقوت والجواهر أو منسوجة من خيوط الذهب والفضة (أو منسوجة بقضبان الذهب مشبكة الدرر والجواهر) أو لأنّها مرتبة بترتيب خاص، على اختلاف آراء المفسرين، وقد وصفت فى آيات اخرى ب «مصفوفة» مثل: «مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصفُوفَةٍ».

(الطور/ ۲۰)

وقال فى آيات اخرى «مرفوعة»: «فِيهَا سُرُرٌ مَّرفُوعَةٌ». (الغاشية/ ۱۳)

فلقد أشارت الآية الاولى إلى ترتيبها وتقاربها، والثانية إلى علوها وارتفاعها.

ويشير ارتفاع سُرُر أهل الجنّة إلى علو مكانتهم وطهارتهم وقربهم أو أنّهم يشرفون من فوقها على مناظر الجنّة المحيطة بهم من كل جانب.

على أيّة حال، فإنّ هذه السرر تكون بهيئة مجاميع حتى يبلغ أصحابها أنسهم وحسن عشرتهم وصفاء باطنهم، كما جاء ذلك فى موضعين من القرآن حيث ورد تعبير: «على سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ». (الحجر/ ۴۷) (الصافات/ ۴۴)

أى (يستمتع بعضهم بالنظر إلى وجوه بعض ولا يرى بعضهم قفا بعض).

والجدير بالذكر هو أنّ (سُرُراً) جمع (سرير) من مادة (سُرور) وكأن الجلوس على الأسرة عموماً وعلى أسرة الجنّة خصوصاً من عوامل النشاط والارتياح والسرور، إضافة إلى أنّها متعلقة بمجالس الانس والسرور.

وفى مواضع اخرى عبر القرآن الكريم بتعبير آخر وهو (الأرائك)، وورد هذا التعبير خمس مرات فى القرآن فقال فى موضع: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَآئِكِ». (الكهف/ ۳۱)

ولقد ورد نفس هذا التعبير بشى من الاختلاف فى الآية: «فِى ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ». (يس/ ۵۶)

وورد نفس هذا التعبير أيضاً فى سورة الإنسان، وقال تعالى فى آيتين من سورة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۸

المطففين: «عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ». (الانسان/ ۱۳) (المطففين/ ۲۳- ۳۵)

«أرائك»: جمع أريكة، وعلى قول الكثير من المفسرين (مثل صاحب مجمع البيان، والقرطبى، والفخر الرازى، وصاحب روح المعانى) بمعنى الحجلة إذا كان فيها سرير، وفسّرها البعض بالسرير الذى فيه مظلة، فالأريكة السرير وهى (البيت المزين للعروس).

ويقول الراغب فى المفردات: مأخوذة من (اراك) وهى اسم شجرة معروفة.

ويقول أبو الفتوح الرازى فى ذيل الآية ۱۳ من سورة الإنسان: إنّ «السرير» و «الأريكة» معنيان مختلفان أحدهما فيه مظلة والآخر بدونها.

وتدل تعابير القرآن على هذا المعنى لأنّ الكلام عن السرر طرح فى موارد مجالس انس أهل الجنّة حيث يتقابلون ويتسامرون، فى حين أنّ الأرائك تختص بجلساتهم الخاصة أى عندما يختلون مع ازواجهم كما ورد فى قوله تعالى «هُم وَازوَاجُهُم فى ظِلالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ». (يس/ ۵۶)

ومن هنا يمكن أن نستنتج: أنّه عندما يقول القرآن: «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَونَ فِيهَا شَمساً وَلَا زَمْهَرِيْراً». (الإنسان/ ۱۳)

ومن الممكن أن تكون الآية قد أشارت إلى هذا المعنى وهو أنّ الشمس تشرق عليهم عندما يجلسون على هذه الأَسِرّة الخاصة، ولو أنّ هناك تفسيراً آخر قد اشير إليه فى حينه.

ومن الطريف أنّه وردت فى القرآن خمس آيات حول الأَسِرّة وخمس آيات حول الأرائك، ولقد وردت إشارات متساوية عن الحياة

العامة والخاصة لأهل الجنّة.

وهناك كلام طويل حول أوصاف هذه الأَسِرّة والأرائك ورد فى الأخبار والروايات اعرضنا عن ذكره لأجل الاختصار.

۵- الأغذية والأوانى

إنّ الأغذية المادية لأهل الجنّة- كما يستفاد من القرآن الكريم- متنوعة للغاية، ويستفاد

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۶۹

من مجموع آيات القرآن الكريم أنّ الغذاء الرئيسى لأهل الجنّة هو من جنس الفواكه، وورد هذا المعنى تحت عناوين مختلفة مثل «فاكهة» «وفواكه» «وثمره» و «ثمرات» و «أُكُل» فى آيات كثيرة من القرآن الكريم.

وقد ورد فى قوله تعالى: «فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ». (الرحمن/ ۵۲)

و «فاكهة»: حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة مشتقة فى الأصل من «فكه»، والتى تعنى طيب الخاطر، وعلى هذا الأساس سميت الفاكهة، فاكهة، حيث إنّ أكلها يطيب الخاطر.

و «المفاكهة»: تعنى الممازحة بالكلام اللطيف.

و «الفاكه»: يطلق على الشخص المزّاح ذى المعشر الطيب.

ويعتقد الكثير من المفسرين أنّ الفاكهة تشمل جميع أقسام الفواكه، ويؤكد الراغب فى مفرداته هذا المعنى، فى حين أنّ البعض يقول: (الفاكهة) تشمل جميع الفواكه ماعدا العنب والرمان (أو ماعدا الرطب والرمان)، وذلك لأنّ سورة الرحمن، الآية ۶۸ عطفت هذين الجنسين على الفواكه، من هنا فانّهم يعتقدون أنّها لن تدخل فى مفهوم الفاكهة، فى حين أنّ هذه الآية لا تدلّ على هذا المعنى وإنّما نجد فى كثير من المواطن يذكر الخاص بعد العام لأهميّة الخاص.

وفى اعتقاد جمع من المفسرين أنّ تعبير «زوجان» إشارة إلى أنّ لكل ثمرة نوعان وضربان متشاكلان: نوع فى هذه الدنيا، ونوع من شكله غريب لم يعرفوه فى الدنيا، وقيل:

إنّ هذا التعبير هو إشارة إلى تنوع فواكه الجنّة كل نوع أكثر لذة من الآخر، ولقد بيّن القرآن الكريم تنوع اغذية أهل الجنّة بهذا الشكل: «وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ». (الواقعة/ ۲۰)

وقال فى موضع آخر: «وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ». (المرسلات/ ۴۲)

ولقد أكدت بعض الآيات على فواكه خاصة باعتبارها فاكهة الجنّة: «فِيهِما فَاكِهَةٌ وَنَخلٌ وَرُمَّانٌ». (الرحمن/ ۶۸)

وقال الفخر الرازى فى تفسيره: «إنّه تعالى ذكر نوعين من الفواكه الشجرية وهما الرمان والرطب لأنّهما متقابلان فأحدهما حلو والآخر غير حلو وكذلك أحدهما حار والآخر بارد

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۰

وأحدهما فاكهة وغذاء والآخر فاكهة، وأحدهما من فواكه البلاد الحارة والآخر من فواكه البلاد الباردة، وأحدهما أشجاره فى غاية الطول والآخر أشجاره بالضد وأحدهما ما يؤكل منه بارز وما لايؤكل كامن والآخر بالعكس فهما فى الضدين والإشارة إلى الطرفين تتناول الإشارة إلى مابينهما» «۱».

وقال تعالى فى موضع آخر: «حَدَائِقَ وَاعْناباً». (النبأ/ ۳۲)

وجاء فى آية اخرى «فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ». (الواقعة/ ۲۸- ۲۹)

لقد فسّر أغلب المفسرين (الطلح) بمعنى شجرة الموز التى لها أوراق عريضة خضراء جميلة، وثمرتها حلوة ولذيذة الطعم.

و «منضود»: من مادة (نضد)، وتعنى «المتراكم»، أى إذا جعل بعضه على بعض، وهذه إشارة إلى عذق الموز وشجرة الموز ذات الأوراق العريضة الخضراء الجميلة وثمرتها حلوة المذاق.

وقيل: المنضود (المراد الورق لأنّ شجر الموز من أوله إلى أعلاه يكون ورقاً بعد ورق) «۲».

ويجمعهما (السدر، والطلح) نوعان: أوراق صغيرة، وأوراق كبيرة، والسدر فى غاية الصغر والطلح وهو شجر الموز فى غاية الكبر فقوله تعالى «فى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ* وطَلْحٍ مَّنْضُودٍ» إشارة جامعة لجميع الأشجار نظراً إلى أوراقها «۳».

وإضافة إلى ذكر الفاكهة أشار القرآن الكريم إشارة عابرة مختصرة إلى «الطلح» بشكل عام وإلى «لحم الطير» بشكل خاص، فقال فى أحد المواضع بعد ذكر مجموعة مهمّة من النعم الموجودة فى الجنّة: «وَامْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحمٍ مِّمَّا يَشتَهُونَ» «۴». (الطور/ ۲۲)

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۳۴.

(۲). المصدر السابق، ج ۲۹، ص ۱۶۲.

(۳). المصدر السابق.

(۴). «أمددناهم» من مادة «إمداد» وهو العطاء المتتابع أو المستمر، وقال بعض أرباب اللغة مثل صاحب القاموس: إنّ الامداد بمعنى تأخير الأجل وإدامة الحياة، وهو لا يختلف كثيراً عن المعنى الأول.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۱

جملة: «مِّمَّا يَشتَهُونَ» لها معنى واسع جدّاً حيث تشمل كل أنواع الأغذية بكافة أقسامها وأشكالها وكيفياتها.

وقال فى موضع آخر بعد ذكر أنواع النعم وأنواع الفواكه فى الجنّة: «وَلَحمِ طَيرٍ مِّمَّا يَشتَهُونَ». (الواقِعَة/ ۲۱)

ولعل السبب فى تقديم الفواكه فى كلا الآيتين: هو أنّ الفواكه تعد الغذاء الأفضل والأحسن والألذ، ويعتقد البعض أنّ الغذاء الطبيعى للإنسان هو الفواكه، ويرونه موجوداً «آكلًا للفواكه» ولهذا السبب لا يستطيع الإنسان الانتفاع من اللحوم أبداً على وضعها الطبيعى، بل لابدّ من إجراء تغييرات عليها، ومزجها مع أشياء اخرى حتى يمكن الاستفادة منها.

فى حين أنّ الفواكه مألوفة لديه على شكلها الطبيعى ومن دون إجراء أى تغييرات عليها.

فضلًا عن أنّ أكل الفاكهة قبل اللحوم فيه لطف خاص.

۶- الشراب الطهور

إنّ الأشربة فى الجنّة كالفواكه وسائر الأغذية متنوعة ومنعشة للغاية، ولقد عبّر القرآن الكريم عنها بتعابير مختلفة، والغريب أنّ الكثير من هذه الأشربة تكون على شكل أنهار، ولقد أشار القرآن الكريم إلى أربعة أقسام منها.

قال تعالى «مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا انْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيرِ ءَاسِنٍ وَانهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّر طَعْمُهُ وَانهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وانهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى». (محمد/ ۱۵)

هذه الأشربة الأربعة والتى تجرى فى أنهار الجنّة الأربعة (لا يجرى كل واحد منها فى نهر خاص بل فى كل الأنهار) تبين مجموعة من أنواع الأشربة المختلفة، فالماء لرفع العطش، واللبن للتغذية، والعسل للذة والقوة، والخمر للذّة والنشاط وهو شراب طهور.

إنّ هذه الأشربة مخلوقة بشكل لا يعتريها الفساد وإن طال الزمن ولا يتغير طعمها أبداً،

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۲

وتحتفظ دائماً بحداثتها، فالجنّة محيط منزه من كل كدر، فلا وجود فيها حتى لميكروب واحد يفسد أطعمة أهلها وأشربتهم.

والجدير بالذكر أنّ ماء هذه الدنيا يتغير لونه وطعمه بمرور الزمان، أمّا مياه أنهار الجنّة فهى تبقى على حالها ووضعها الأول صافية، زلال مطهرة، وكذلك الحال بالنسبة للبن، ففى الدنيا يفسد سريعاً بعد برهة من الزمن فيتبدل طعمه إلى طعم حامض وهذه مقدمة لفساده وتلفه، أمّا لبن الآخرة فهو لبن سائغ شرابه لذيذ لا يتغير طعمه ولا يعتريه عارض كالذى يصيب الألبان فى الدنيا.

الخمر والشراب، شراب غير مستساغ ولا لذّة فيه ويوصف بمرارة المذاق ورداءة الطعم فهو مذهب للعقل، ومفسد للروح.

أمّا خمر أهل الجنّة فهو شراب لذيذ منعش يبعث فى النفس النشاط والحيوية الرحمانية لا الشيطانية.

وعسل الدنيا تشوبه فى الغالب الكثير من الكدورات والشوائب، أمّا عسل الآخرة فهو عسل مصفى خالص بمعنى الكلمة، ومن الجدير بالذكر: أنّ القرآن الكريم اعتبر العسل جزءً من المشروبات وحتى فى سورة النحل والتى تتحدث عن (النحل) ذكره كشراب: «يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ الوَانُهُ». (النحل/ ۶۹)

ولعل السبب فى ذلك هو أنّ العسل إذا شرب كمشروب (شربت العسل) فيكون أكثر لذّة ومنفعة وحيوية.

ولقد أشارت آيات سورة الدهر والتى تعرضت لأنواع النعم التى وعدها اللّه سبحانه للأبرار من عباده إلى مجموعة اخرى من الاشربة قال تعالى «انَّ الأَبرَارَ يَشرَبُونَ مِن كَأسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً* عَيْناً يَشرَبُ بِهَا عِبادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً». (الدهر/ ۵- ۶)

وقال تعالى فى نفس السورة: «وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا* عَيناً فِيهَا تُسَمَّى سَلسَبِيلًا». (الدهر/ ۱۷- ۱۸)

وقال تعالى فى السورة ذاتها: «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً». (الدهر/ ۲۱)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۳

فهذه الآيات أشارت إلى عدد من الأشربة «الطهور» فى الجنّة:

الأول: الكافور، وهو شراب خاص مهدىء، حيث إنّ الكافور فى اللغة له عدة معان:

منها الرائحة الطيبة، ومنها مادة بيضاء اللون يضرب المثل فى برودتها وبياضها ولها رائحة قوية خاصة مهدئة، وهى تقابل الزنجبيل الحار وهو عبارة عن جذور بنية لها طعم ونكهة طيبة تضاف أحياناً إلى الأطعمة والأشربة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ العرب يستخدمون نوعين من الشراب ولحالتين مختلفتين، تارة: منشط ومقوى، والاخرى: مضعف ومهدئ، الأول يمزجونه مع الزنجبيل، والثانى: مع الكافور.

ومن المعلوم أنّ حقائق العالم الآخر لا تستوعبها عقولنا، لذا فلا حيلة لبيان هذه الحقائق إلّا أن نستخدم هذه الألفاظ بمفاهيم أوسع وأعلى

وقال جمع من المفسرين أيضاً: إنّ الكافور: اسم عين ماء فى الجنّة تشبه الكافور فى صفارها وبياضها ورائحتها الطيبة وبرودتهاولكن ليس بطعمها، (ولابدّ من الإشارة إلى أنّ الكافور المألوف هو نوع من الصمغ يستخرج من شجرة فى جنوب الصين أو بلاد الهند وله استخدامات طبية).

إنّ التفسير الذى أشرنا إليه هو الأنسب وذلك لا نّ شراب الكافور يقابل شراب (الزنجبيل).

والجدير بالذكر أنّ القرآن يقول: إنّ هذا الشراب الزنجبيلى ينبع من عين فى الجنّة اسمها (سلسبيل) ويعتقد الكثير أنّ هذه الكلمة مشتقة من (سَلاسَة) بمعنى الجُريان، ويرى البعض أنّها مشتقة من (تسلسل) بمعنى الحركة المتتابعة والمستمرة وهى إشارة إلى أنّها سلسلة تتسلسل فى الحلق.

وقيل: إنّ هذه الكلمة مركبة من كلمتين «سال» و «سبيل» بمعنى طلب الطريق وهذه إشارة إلى غاية سلاسته وعذوبته.

على أيّة حال، يستفاد من مجموع التعابير أنّ عين السلسبيل فيها شراب فى غاية اللذة والسلاسة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۴

الشراب الثالث الذى أشارت إليه الآية الكريمة هو «الشراب الطهور» وساقيه هو اللّه تبارك وتعالى وهو يبعث على تطهير الجسم

والروح من كافة الأدران والكدورات (وهذا شراب خاص للأبرار والمحسنين كالنوعين السابقين) بعكس خمر الدنيا الذى هو نجس وينجس الروح والبدن.

ويعتقد بعض المفسرين أنّ هذا الشراب يسقى بعد تناول الأغذية (فاذا أكل [الإنسان ماشاء سقى شراباً طهوراً فيطهر بطنه ويصير ماأكل رشحاً يخرج من جلده أطيب ريحاً من المسك)، لقد ذكر الفخر الرازى هذا التفسير كرواية.

وقال صاحب تفسير الميزان: « (وسقاهم..) أى بالغاً فى التطهير لا يدع قذارة إلّاأزالها ومن القذارة قذارة الغفلة عن اللّه سبحانه وتعالى والاحتجاب عن التوجُّه إليه فهم غير محجوبين عن ربّهم» «۱».

وورد فى تفسير «منهج الصادقين» نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام: «إذا شرب المؤمن الشراب الطهور نسى ما سوى اللّه وانقطع إليه بالكامل» «۲».

وذكرت سورة المطففين ضمن عرضها للنعم الإلهيّة التى وعدها اللّه سبحانه وتعالى للأبرار: «يُسقَونَ مِن رَّحِيقٍ مَّختُومٍ» ثم قال: «خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِى ذلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ» وفى الختام قال: «وَمِزَاجُهُ مِن تَسنِيمٍ* عَيناً يَشرَبُ بِها الْمُقَرَّبُونَ».

(المطففين/ ۲۵- ۲۸)

كلمة (رحيق) على قول أغلب المفسرين هو الشراب الخالص من الغش والقذى (أى خمر صافية خالصة من كل غش).

«مختوم»: ممنوع من أن تمسّه يد حتى يفكّ ختمه للأبرار، وهذا تأكيد آخر على خلوصه وصفائه.

«ختامه مسك»: إشارة إلى الذى خُتم إناؤه بالمسك، ويستخدم الختم عادة للتأكد والاطمئنان من عدم لمسه أو فتحه حيث يوضع الشى فى إناء معين ويغلق غلقاً محكماً من

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۱۳۰.

(۲). منهج الصادقين، ج ۱۰، ص ۱۱۰. (طبقاً لنقل التفسير الاثنى عشرى، ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۵

جميع الجوانب ثم يختم ويوضع على (الختم) مقدار من الطين أو العجين أو الشمع الأحمر أو النحاس أو أيّة مادة اخرى تفى بالغرض، وبهذا (لا يمكن فتح أو كسر هذا الإناء) فلا سبيل إلى مافى الإناء إلّابكسر ذلك الختم، وكان العرب ينظرون إلى ختم الإناء قبل كل شى ليعرفوا أنّه لم تصل إليه يد. ويسمونه (المختوم).

وهناك تفاسير عديدة فى هذا المجال لا نراها تتناسب وظاهر الآية.

«تسنيم»: من مادة (سَنَم) على وزن (صَنَم) وفى الأصل على رأى صاحب (مقاييس اللغة) بمعنى (العلو والارتفاع) ومنه (سنام البعير)، واطلق على ألسنة النّار، والغيوم المرتفعة والدخان وسنابل النباتات أيضاً.

لذا «عين التسنيم» عين فى الجنّة تكون سبباً فى الارتفاع والعلو، يقال: سنمه أى رفعه ومنه سنام الابل، ولذلك إذا شربها المقربون يتقربون من المقام الإلهى والفناء فى نور الحق أكثر فأكثر.

وقيل: «تسنيم»: عين تقع فى الطبقات العليا فى الجنّة يَنصبُّ شرابها عليهم من عُلوٍّ انصباباً.. وقيل هو نهر يجرى فى الهواء فيصب فى أوانى أهل الجنّة وهو خالص للمقربين ويمزج بمقدار من الرحيق المختوم للأبرار وهو نوع آخر من شراب الجنّة.

ويظهر من خلال الجمع بين هذه المعانى: أنّ هذه العين لها مكانة عالية رفيعة من ناحية المكان وكذلك من حيث التأثير المعنوى فهى توصل الروح وتجذبها إلى مقام القرب الإلهى.

۷- أفضل شراب أهل الجنّة

لقد ذكرت الآيات السالفة الذكر سبعة أنواع من الأشربة، ونستنتج من مجموع هذه الآيات أنّ مشروبات الجنّة على أنواع وأقسام مختلفة، فمنها يجرى فى الأنهار (أنهار من لبن وعسل وماء وخمر)، ومنها: مختومة، ومنها ينبع من عيون من سماء الجنّة أو طبقاتها

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۶

العليا، ومن الواضح أنّ أشرف شراب أهل الجنّة هو الشراب الذى يسمى «تسنيم» وهو خاص بالمقربين.

وورد فى تفسير على بن إبراهيم: «إنّ أشرف شراب أهل الجنّة يأتيهم من أعالى تسنيم وهى عين يشرب بها المقربون، والمقربون آل محمد صلى الله عليه و آله، والمقربون يشربون من تسنيم بحتاً صرفاً وسائر المؤمنين ممزوجاً!» «۱».

ويأتى (الشراب الطهور) فى الدرجة الثانية، ولقد أشارت إليه سورة الإنسان، الآية ۲۱، بقرينة، أنّه الشراب الوحيد فى القرآن الكريم الذى يكون ساقيه هو اللَّه تعالى

ومن المعلوم أنّ جميع هذه الأوصاف التى نسمعها ونقرأُها ماهى إلّاصورة غير واضحة تتجسم فى أذهاننا عن ذلك العالم الكبير، وإلّا فلا يمكن توصيف هذه النعم وهذا الشراب الطهور من قبل سجناء عالم المادة: «فَلا تَعْلَمُ نَفسٌ مَّا اخفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ اعيُنٍ». (السجدّة/ ۱۷)

والطريف أنّ القرآن الكريم عبر بتعابير مختلفة لرفع أىابهام فى مجال الاختلاف الواضح بين الأشربة الدنيوية المكدرة بأنواع الكدورات، والشراب الطهور فى الجنّة قال تعالى «بَيضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ». (الصافات/ ۴۶)

لا كمثل شراب الدنيا المر الطعم غير المستساغ الشرب حتى أنّ شاربيه يتجرعونه فى بادئ الأمر بكراهة، أمّا شراب الجنّة فهو شراب لذيذ منعش تعقبه نشوة معنوية وروحية غير قابلة للوصف.

ثم يضيف تعالى بقوله: «لَافِيهَا غَولٌ وَلَا هُم عَنهَا يُنزَفُونَ». (الصافات/ ۴۷)

إنّ شراب الدنيا يفسد العقل ويسكر الأبدان بحيث يصبح الجسم من الضعف والوهن فلا يقدر على الحركة وحفظ التوازن.. أمّا أشربة الجنّة فتعمل على تأجيج شعلة العقل والذكاء، وتشد من جاذبية العشق، وتهّى الجسم والروح للتمتع باللذات المعنوية والمادية بشكل أفضل «۲».

---

(۱). تفسير على بن إبراهيم، ج ۲، ص ۴۱۲.

(۲). «غَوْل» على وزن «قَوْل» فى الأصل بمعنى غالَ: أهلكه وأخذه من حيث لا يدرى، وتطلق هذه الكلمة على الفساد الخفى الذى ينفذ فى الشىء.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۷

وقال تعالى فى مكان آخر بعد الإشارة إلى بعض من أشربة الجنّة: «لَّايُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلَا يُنزِفُونَ» «۱». (الواقعة/ ۱۹)

«يُصَدَّعون»: من مادة (صداع) على وزن (رُباع) وهو الصداع المعروف (أى لا يأخذهم من شربها صداع)، وأصله (صَدْع).

فعندما يتعرض الإنسان إلى صداع شديد فكأنّ رأسه يريد أن يتصدع من شدّة الألم، فتستعمل هذه الكلمة للتعبير عن آلام الرأس الشديدة.

الخلاصة: أنّ خمر الدنيا ردىء الطعم.. كريه الرائحة.. يجلب الصداع ويسبّب فقدان الوعى وضعف العقل.. ويسبب الكثير من الأمراض الجسمية والروحية، وقد يعقبه حالة التهوع.. والتقى والآلام المعوية، فى حين أنّ خمر الآخرة شراب لذيذ منعش يزيد العقل ويعمل على تربية الجسم والروح وله نشوة روحية ومعنوية غير قابلة للوصف.

۸- الأكواب والصحاف والكؤوس

ممّا لا شك فيه أنّ المطلوب الرئيس من الأغذية والأشربة هو نفسها لا الأوانى، ولكن بلا ريب أنّ لكيفية عرض الغذاء والأوانى المستعملة فيها تأثير عميق فى جذابية الأطعمة والأشربة وصفائها ومضاعفة اللذّة الناتجة منها، لهذا السبب رسم القرآن الكريم وفى آيات عديدة صورة إجمالية عن هذه الأوانى التى هى فى منتهى الروعة والجمال فى عبارات قصيرة عميقة المحتوى

إنّ جميع هذه الألفاظ والمعانى لا تمثل إلّاصورة باهتة عن الوضع هناك، وإلّا فكل شىء هناك فوق حد التصور.

قال تعالى «يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ». (الزخرف/ ۷۱)

---

(۱). «ينزفون» من مادة «نَزْف» على وزن «حَذْف» بمعنى ذهاب الشى بصورة تدريجية ومنه نزف الدم.. وهذا ما يفعله الشراب الدنيوى فى وجود الإنسان، إذ يحطمه تدريجياً.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۸

«صحاف»: جمع (صَحفة) على وزن (صفحة) وتعنى: الأوانى الكبيرة والواسعة (لأنّ هذه المادة فى الأصل بمعنى الاتساع).

«اكواب»: جمع (كَوْب) وهو القدح الذى لا عروة له (وهناك معان اخرى ولكن المشهور هو هذا القول).

والجدير بالذكر أنّ وصف (من ذهب) ذكر بخصوص الصحاف ولكن عطفها على الأكواب يدلل على أنّها من ذهب أيضاً «۱».

وقال تعالى فى موضع آخر: «بِاكْوَابٍ وَّابَارِيقَ وَكَأْسٍ مّنْ مَّعِينٍ». (الواقعة/ ۱۸)

«أباريق»: جمع (ابريق) وحسب ماصرح به أرباب اللغة أنّها مشتقة من الكلمة الفارسية (آبريز) بمعنى القدح الذى له عروة وخرطوم لسكب السوائل.

يقول: «الجواليقى» فى «المعرب من الكلام الأعجمى» إنّ هذه الكلمة تعنى فى الفارسية، إمّا طريق العبور من الماء، أو سكب الماء، وقيل: إنّ هذه الكلمة مأخوذة من مادة «برق» والتى هى كلمة عربية «۲»، وبناءً على ذلك فإنّ ما جاء فى تفسير مجمع البيان والقرطبى (فى ذيل الآية) غيرصحيح.

«كأس»: القدح الممتلى بالشراب وقال بعض المفسرين: وعلى عادة العرب فى شرابهم تكون لديهم أوان كبيرة فيها الخمر معدة ثم يغرفون منها بالأباريق ثم يصبونه فى الأقداح ويلاحظ هذا الترتيب أيضاً فى (الشراب الطهور).

حيث تكون فى البداية فى الأكواب ثم الأباريق وأخيراً الكأس «۳»، وعُبِّر فى الشعر القديم عن هذا الموضوع بتعبير (القدح) (الكأس).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ جنس أوانى الجنّة حسب مايستفاد من الآيات الكريمة،

---

(۱). فى الحقيقة: كانت الجملة فى الأصل (اكواب من ذهب) وحذفت عبارة (من ذهب) تجنباً للتكرار مثل قوله تعالى «الذاكرين اللّه كثيراً والذاكرات».

(۲). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(۳). تفسير الكبير، ذيل الآية مورد فى البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۷۹

مختلف، فبعضها من الذهب كما أشرنا إلى ذلك وبعضها من «الفضة» وبعضها من «البلور».

قال تعالى «وَيُطَافُ عَلَيهِمْ بانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكوَابٍ كَانَتْ قَوارِيرَا». (الدهر/ ۱۵)

والعجب أنّه يقول بعدها مباشرة: «قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً». (الدهر/ ۱۶)

«قوارير»: زجاجات لها بياض الفضة وصفاء القوارير وهذه من خواص الجنّة، وذلك لأنّ القوارير فى الدنيا لا تصنع من الفضة وإنّما

تصنع من الزجاج، فى حين أنّ الفضة احدى الفلزات، ولكن ليس ببعيد أن يخلق اللّه نوعاً من الفضة الشفافة تصنع منها هذه القوارير كما ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «ينفذ البصر فى فضة الجنّة كما ينفذ فى الزجاج» «۱».

وهذا دليل على أنّ كل شى فى الآخرة هو أعلى وأفضل وأكمل من هذا العالم.

وعلى أيّة حال وكما أشرنا سابقاً فإنّ أوانى أهل الجنّة من اللطافة والرونق والجمال..

بما يضاعف لذة المأكول والمشروب لأهل الجنّة.

۹- ألبسة الجنّة

اللباس له أهميّة كبيرة فى الحياة الدنيا فهو أولًا: يحفظ الجسم ويقيه الحر والبرد والاضرار المختلفة، وثانياً: يعتبر اللباس زينة مهمة للإنسان فكم نجد أنّ لطراز الألبسة ابتداء من جنس القماش وحتى نوع خياطته ولونه يحكى عن طرز تفكير المرء وشخصيته، ونجد على طول التاريخ أنّ للملابس دوراً مهماً فى زينة الإنسان وبهائه.

مّما لا شك فيه أنّ اللباس فى الجنّة لا يهدف إلى دفع البرد والحر أو حفظ الجسم من أنواع الآفات والأمراض والعوارض، حيث إنّ كل شى هناك فى حد الكمال فلا أمراض ولا آفات و.. من هنا تكون الملابس مظهراً من مظاهر الزينة، ولعل لهذا السبب ركزت الآيات القرآنية على إبراز مظهر زينة اللباس وجاء ذلك ضمن تعابير مختلفة، ولكنّها تحكى جمال

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۱۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۰

وبهاء وجذابية ملابس أهل الجنّة.

قال تعالى «وَيَلبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (الكهف/ ۳۱)

وورد نفس هذا المعنى بشى من الاختلاف فى قوله تعالى فى آيتين الاولى «يَلبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِستَبرَقٍ» وفى الآية الثانية: «عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضرٌ وَإِسْتَبرَقٌ» «۱».

(الدخان/ ۵۳) (الدهر/ ۲۱)

ونقرأ فى تعبير آخر: «وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ». (الحج/ ۲۳)

ولقد ورد نفس هذا التعبير فى الآية ۲۳ من سورة فاطر، وشبيهه فى سورة الدهر، الآية ۱۲.

وكلمة «سندس» حسب اجماع أهل اللغة والمفسرين (ما رقّ من الثياب) وهى ثياب حريرية فاخرة. وأصل هذه الكلمة غير عربى فلقد ورد فى بعض كتب اللغة أنّ أصلها فارسى أو رومى «۲»، ولو أننا لم نعثر على هذا المعنى فى اللغة الفارسية.

و قال البعض: إنّ أصلها يونانى «۳».

وقال آخرون: السندس: قماش من الحرير يستعمل فى نسجه خيوط من الذهب.

وأمّا «استبرق» على قول أرباب اللغة والمفسرين (ما غلظ من الملابس الحريرية ولا يراد به الغلظة فى الخيوط إنّما يراد به المتانة فى النسيج).

وقيل: إنّ (الاستبرق) فارسى معرب اصله «استبر» أو (ستبر) والذى يعنى السميك، وقيل هو الديباج المنسوج بالذهب، وقيل السندس: الديباج الرقيق الفاخر الحسن، والاستبرق:

الديباج الغليظ الذى له بريق. وهذا يدل على أنّ ثياب أهل الجنّة من الحرير الخالص وبأشكال مختلفة.

(۱). «عـاليهم» من مـادة «علوّ» أى‌من فوقهم. وقيـل: فى اعرابهـا احتمالاـن، الأول: أنّها «ظرف» لأنّها تحمل معنى «فوق»، والآخر: «حال» للضمير «هم» الذى جاء فى الآيات السابقة.

(۲). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

(۳). معجم اللغة ل (دهخدا).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۱

ويمكن الإشارة هنا إلى أنّ الحرير وبسبب نعومته ولطافته وقبوله لألوان مختلفة يعتبر من أفضل الأقمشة وأفخرها.

وبما أنّ الناس لم يعرفوا لباساً أغلى وأفخر من الحرير لذا استعملت هذه الكلمة فى توصيف لباس أهل الجنّة، وإلّا فكل شى فى الجنّة فوق حد التصور.

والجدير بالذكر أنّ الآيات الكريمة تحدثت عن اللون الأخضر، ولعل السبب فى ذلك هو أنّ هذا اللون أجمل الألوان فى عالم الطبيعة والخلق، فهو لون يبعث على البهجة والارتياح فى النفس، فالنباتات بشكل عام خضراء، والبحار والمياه تبدو أحياناً زرقاء وأحياناً اخرى خضراء، ولهذا فإنّ هذا اللون يبعث فى الروح الإنسانية البهجة والطمأنينة والارتياح.

ويعتقـد بعض العلماء بأنّ اللون الأخضـر لون مهـدئ ومسكن، ونقرأ فى أحـد الكتب مقالة تحت عنوان: (الصحة واللباس): «إنّ اللون الأخضـر له أثر كـبير فى علاـج الأمراض العصبيـة والنفسـية والهستريـا والارهـاق العصبى، وكـذلك له الأـثر فى زيـادة قوة الإـدراك والتحمل ويبعث الأمل والاعتـدال، كـذلك له الأثر فى ازالة حالات الأرق وتخفيف ضـغط الدم، وتسكين أوجاع الأعصاب، ويلاحظ أنّ أغلب الذين ينتخبون اللون الأخضر فى الوهلة الاولى رحماء واقعيون، ويتمتعون بتعادل روحى ونفسى.

ولقد اجريت تجربة على ثلاث مجاميع من العمال.. المجموعة الاولى عهد إليها حمل صـناديق خضـراء اللون، والثانية، صـناديق سوداء اللون والثالثـة، بنيـة اللون، فلوحظ أنّ أغلب المراجعين للمستشـفى هم من المجموعـة الثانية والثالثة وكانوا يشـكون من آلام فى الظهر وآلام اخرى

يذكر أنّه كان فى لندن جسـر أسود اللون وكان الكثير من الناس ينتحرون بإلقاء أنفسـهم من فوقه، ولما غيروا لونه إلى الأخضر لوحظ انخفاض نسبة الانتحار بشكل كبير» «۱».

وعرف منذ القدم هذا القول: (ثلاث يذهبن الحزن: الماء والخضراء والوجه الحسن).

(۱). الجامعة الاولى والنبى الخاتم، المرحوم الشهيد الدكتور پاك نجاد، ج ۱۸، ص ۱۳۳- ۱۳۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۲

ونختم هذا الموضوع بما نقله أحد المفسرين: «لو بسط ثوب من أثواب الجنّة فى الدنيا لاندهش أهلها جميعاً» «۱».

۱۰- حلى الجنّة

أشرنا فى البحث السابق إلى ألبسة أهل الجنّة، وسنتطرق فى هذا البحث إلى حليهم أيضاً.

من المعلوم أنّ للحلى والزينـة المناسـبة أثر نفسـى كبير على روح الإنسـان، فتبعث فيها الارتياح والانبساط والبهجـة، وإذا لم تخرج عن حـد الاعتـدال فلاـ بـاس فى ذلك وهو عمل مرضـى، لـذا نجـد أنّ الكثير من الآيات القرآنيـة والروايات أكـدت على الزينـة والتجمل والتطيب حتى أثنـاء العبـادة ومن جملتهـا: ارتـداء الألبسـة الطـاهرة، اختيار الألوان المناسـبة، تمشـيط الشـعر، اسـتعمال العطور والطيب،

والتختم باليمين ونحو ذلك.

ويستفاد من آيات عديدة من القرآن أنّ أهل الجنّة يتجملون ويتزينون بأفخر أنواع الحلى، وبهذا فهم يتمتعون بلذة نفسية كافية، ولقد ورد فى ثلاث آيات من القرآن الكريم قوله تعالى «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ اسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ». «۲»

«أساور»: جمع (اسْوِرَة) على وزن (تجربة) وهى أيضاً جمع (سُوار) على وزن (غبار) و (كتاب) ومشتقة من الكلمة الفارسية (دستوار).

ولقد صرحت آيتان من الآيات الثلاث بالإضافة إلى (الذهب) ب (اللؤلؤ) أيضاً، ويقول بعض المفسرين أنّها إشارة إلى أساور الجواهر واللؤلؤ، ولو أخذنا بنظر الاعتبار أنّ (اللؤلؤ) عطف على محل (من أساور) وهو منصوب فيكون بمنزل المفعول به ل «يحلون» فيكون معنى الآية هكذا: «يُحَلَّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُولُؤاً وَ لِبَاسُهُم فِيهَا حَرِيرٌ».

(الحج/ ۲۳)

ومن الممكن أن تكون زينة اللؤلؤ مشتقة من الأساور، وكذلك يمكن أن تكون جزءاً منها.

---

(۱). روح المعانى، ج ۱۵، ص ۲۴۹.

(۲). الكهف، ۱۳ والحج، ۲۳ وفاطر، ۳۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۳

ويحتمل البعض: أنّ أهل الجنّة بالإضافة إلى تزينهم بأساور من ذهب كذلك أنّهم يتزينون بأساور من اللؤلؤ الخالص أيضاً.

ولقد أشار القرآن الكريم فى موضع واحد إلى (أساور الفضة): «وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ». (الانسان/ ۲۱)

من هنا يطرح هذا السؤال: أنّ الأساور سواء كانت من ذهب أو من فضة فهى من زينة النساء، ولا يتحلى الرجال عادة بالأساور فهل يختلف الأمر فى الجنّة؟

يجب أن نلاحظ هذه المسألة وهى أننا نجد وفى أماكن مختلفة من هذا العالم أنّ كلا الجنسين يتزينون بالأساور ولا يختص بالنساء فقط.

ويتبيّن من اعتراض فرعون على موسى الذى كان يقول: «فَلَولَا الْقِىَ عَلَيهِ اسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ». (الزخرف/ ۵۳)

إنّ هذا الموضوع كان له شياع فى عرف أهل مصر، وتدل الزينة على شخصية الرجال وعظمتهم.

لقد أشرنا فى البحوث السابقة ولمرات عديدة إلى هذه المسألة وهى أنّ القرآن يحدثنا بلغتنا وماهو سائد عندنا، ومن البديهى أنّ زينة أهل الجنّة وحتى زينتهم المادية هى أعلى من أن تحيط بها أفكار أهل الدنيا.

۱۱- الحور العين

يعتبر اختيار الزوجة الصالحة من أهم عوامل الراحة والسكينة والأُنس والحيوية فى هذه الدنيا.

فالزوجة الصالحة (وكذلك الأمر بالنسبة للزوج الصالح) تسهل على الزوج تحمل جميع مشاكل الحياة وصعوباتها، وتعطى للحياة طعماً خاصاً مليئاً بالمحبة والبهجة والسعادة.

وعلى العكس- فى حالة عدم امتلاك زوجة أو امتلاك الزوجة غير الصالحة- فسوف تتبدل حلاوة الحياة وعذوبتها إلى جحيم لايطاق حتى وإن توفرت جميع أسباب الراحة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۴

وبتعبير آخر، إنّ الزوجة الصالحة التى تتحلى بالفضائل الأخلاقية والخصال الحميدة.

لم تكن أساس اللذة الجسمانية فقط وإنّما تعتبر أساس اللذة الروحانية أيضاً.

فليس من قبيل المصادفة أن يركّز القرآن الكريم ضمن عرضه لأنواع النعم فى الجنّة على هذه المسألة، فقد عبّر بتعابير عميقة المحتوى فى هذا المجال.

قال تعالى فى موضع: «وَلَهُمْ فِيهَا ازوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ». (البقرة/ ۲۵)

وصف الأزواج بكونها (مطهرة) له مفهوم جامع وشامل، فكما يدل التعبير على نقائها وصفائها من كل النقائص والأقذار الجسمية والخلقية، كذلك يشمل أيضاً نزاهتها من العيوب والأدران المعنوية والخُلقية، ومن المعلوم أنّ أهم شرط فى اختيار الزوجة هو طهارتها.

إنّ تعبير (مطهرة) أكثر عمقاً من تعبير طاهرة (فمطهّرة) تشير إلى أنّ اللّه سبحانه وتعالى هو الذى طهّرها ومن يطهره اللّه ويشهد على طهارته تكون حالته واضحة بيّنة.

وجاء نفس هذا المعنى فى هذا الحديث (أزواج مطهرة من أنواع الأقذار والمكاره) «۱».

لقد عبّر القرآن فى عدّة مواضع عن زوجات أهل الجنّة ب (الحور العين)، فقال تعالى:

«وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ». (الدخان/ ۵۴)

وورد نفس هذا التعبير فى الآية ۲۲ من سورة الطور. وذهب إلى أبعد من ذلك فى قوه تعالى: «وَحُورٌ عِينٌ* كَامثَالِ اللُّؤْلُؤِ المَكْنُونِ». «۲» (الواقعة/ ۲۲- ۲۳)

وقال تعالى «حُورٌ مَّقصُورَاتٌ فِى الخِيَامِ». (الرحمن/ ۷۲)

و نقرأ فى قوله تعالى: «فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ...* كَانَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرجَانُ». (الرحمن/ ۵۶- ۵۸)

«حور»: جمع (حوراء) و (أحور)، وعلى قول الكثير من أرباب اللغة والمفسّرين (شدة

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱ ذيل الآية ۲۵ من سورة البقرة وهكذا ذكرها المرحوم العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۴۰.

(۲). هناك احتمالات عديدة فى محل اعراب «حور عين»، ومن جملتها مبتدأ لخبر محذوف تقديره (لهم حور عين)، أو عطف على (ولدان مخلدون ...) والاحتمال الأول هو الأرجح وذلك لأنّ الحور العين ليست للخدمة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۵

بياض العين فى شدة سوادها) وهذا غاية جمال العين. ولعل السبب فى ذكر القرآن لجمال العين هو أنّ أكثر جمال الإنسان فى عينيه، ولقد فسّره البعض ببياض جميع الجسم لذا تطلق كلمة التحوير على عملية غسل الملابس وتبييضها. ويمكن الجمع بين المعنيين على أساس اتّصافهما ببياض الجسم وجمال العيون وسعتها.

ومن هذا الباب أيضاً أُطلقت كلمة (الحواريون) على أصحاب السيد المسيح عليه السلام الذين كانوا يرتدون الملابس البيضاء.

أمّا كلمة «عِين» جمع (أعين) على وزن (أفضل) و «عَيناء» فى الأصل بمعنى العين الوسيعة، وتطلق هذه الكلمة على المرأة التى تمتلك عينين واسعتين جميلتين وجذّابتين أو الرجل كذلك.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كلمتى «حور» و «عين» تطلق على المذكر والمؤنث أيضاً، لهذا فهى تحمل مفهوماً واسعاً بحيث يشمل جميع الأزواج فى الجنّة، زوجات للرجال المؤمنين، وأزواج للنساء المؤمنات (سنتكلم عن هذا الموضوع أيضاً فى مكان آخر).

يلاحظ أنّ القرآن الكريم قد أكّد على جمال العيون- وكما أشرنا- أنّ جمال الإنسان يكون قبل كل شىء وبعد كل شىء فى عينيه، فالعيون معيار جمال الجسم والروح.

«لؤلؤ»: أى الدر المصون المخزون فى الصدف لم تمسّه الأيدى، والذى يكون له صفاء ورونقٌ خاصٌّ حين استخراجه من الصدف.

وتشبيه «حور العين» ب (اللؤلؤ المكنون) إشارة إلى لطافتها وجمالها الخارق. ومن الممكن أن يكون إشارة إلى أنّها مستورة بشكل كامل عن أنظار الآخرين، فلا يد مسّتها ولا عين وقعت عليها.

وقال بعض المفسِّرين أيضاً «۱»: بما أنّ (حور) مشتقة من مادة (حيرة)، فيكون مفهومها هو أنّ الحور العين من الجمال بحيث تتحير العيون عن النظر إليها.

وبعدها امتدح اللّه (الحور العين) بقوله: (خيرات حسان)، أى نساء خيّرات الأخلاق حسان الوجوه، وذكر صفة اخرى لهن وهى (مقصورات فى الخيام)، قيل المقصور بمعنى

---

(۱). أبو الفتوح الرازى فى تفسيره. نقل ذلك عن بعض المفسرين القدماء (تفسير روح الجنان، ج ۱۱، ص ۱۳).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۶

المستور أى مستورات فى القباب، وقيل مصونات محفوظات مخدّرات لا يبتذلن، وقيل مقصورات أى قصرن على أزواجهن فقط دون غيرهم.

وقيل نفس الشىء فى تفسير قوله تعالى (قاصرات الطرف)، وذلك لأنّ «طرف» على وزن (حرف) بمعنى (جفن العين)، لأنّها تطرف فينطبق عليها تارة وينفتح تارة، ويكون المعنى: قصرن طرفهن على أزواجهن لم يرون غيرهم، وهذه أعظم صفة وأكبر امتياز حيث لاترى أحسن من زوجها، فليس لها أى علاقة بغيره.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ كلمة «الخيمة» فى اللغة العربية لا تنحصر بالخيمة المصنوعة من القماش، بل تطلق على كل بناية مدورة، حتى قال بعض أرباب اللغة: «كل بناية بنيت من الحجر و ... وغيره هى خيمة، وأنّ الخيمة فى الأصل حسب قول صاحب كتاب مقاييس اللغة بمعنى الإقامة والثبات».

ويستفاد من الروايات الإسلامية أنّ خيام الجنّة وحكمها كسائر النعم الإلهيّة الاخرى لا يوجد أى شبه بينها وبين الخيام الدنيوية، فبعضها قطعٌ من اللؤلؤ.

وجاء فى وصف آخر للحور العين حيث شبههن بالياقوت والمرجان: «كَأَنَّهُنَّ اليَاقُوتُ وَالمَرجَانُ». (الرحمن/ ۵۸)

أى هنّ على صفاء ولون وتلألؤ الياقوت وبياض وجمال المرجان.

ومن المعلوم أنّه إذا امتزج هذان اللونان مع بعضهما يشكلان أحلى الألوان وأجملها.

«ياقوت»: حجر معدنى فى غاية الشفّافية، وعادة يكون أحمراللون.

«مرجان»: يشبه أغصان النباتات. ويوجد فى البحار، وله ألوان مختلفة ويراد منه هنا اللون الأبيض، وقيل إنّه اللؤلؤ الصغير، حيث تتصف مثل هذه اللئالى ببياض وجمال وشفافية أكثر «۱»، ولكن يعتقد العلماء اليوم أنّ (المرجان) موجود حىّ ويشبه الأغصان الصغيرة للشجرة وينمو فى أعماق البحار، وكان العلماء يعتقدون لفترة طويلة بأنّه نوع من أنواع النباتات، ولكن اتّضح فيما بعد أنّ له صفات الحيوان رغم أنّه ملتصق بصخور قاع البحر.

---

(۱). ذكر هذا المعنى الراغب فى (مفرداته) ومجموعة من أهل اللغة والتفسير.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۷

وجاء فى سورة الواقعة وصف آخر لهن وهو (أبكار) ثم «عرب».

«أتراب»: قال للّه تعالى «فَجَعَلنَاهُنَّ أَبكَاراً* عُرُباً اترَاباً». (الواقعة/ ۳۶- ۳۷)

«أبكار»: جمع «بكر» أى خلقناهن عذارى كلما آتاهن أزواجهن وجدوهن أبكاراً، ويستفاد من بعض الروايات وكلمات المفسِّرين أنّ

هذه الحالة حالة دائمية لا تتغير.

«عُرُب»: على وزن (كُتُب) جمع (عَروب) على وزن (طَروب) أو (عربا) أى متحننات على أزواجهن متحببات إليهم، وقيل عاشقات لأزواجهن، وقيل العروب اللعوب مع زوجها، وفى الأصل مأخوذة من مادة (اعراب) التى تعنى الإظهار، وقد تعنى أنّ لسان حالها يدل على عفتها وطهارتها.

وفسّرها البعض أيضاً بمعنى الدلال وهو قريب من المعنى السابق.

ولقد ذكرت كلمة «أتراب» فى ثلاث آيات من القرآن الكريم كوصف للحور العين «۱» وهى جمع «تِرْب» على وزن (حزب) بمعنى (المتساويان) فى السن، وتستخدم فى الجنس المؤنث على الأغلب، وقيل: إنّها فى الأصل مشتقة من «ترائب» بمعنى اضلاع القفص الصدرى: أى متشابهات ... وقال البعض إنّها مشتقة من مادة (تُراب) وكأنّهم ولدوا فى وقت واحد ووطؤوا تراب الأرض معاً.

على أيّة حال فإنّ التساوى فى السن يمكن أن يكون إشارة إلى تقاربهم، حيث إنّ الأزواج المتقاربين فى السن يدركون غالباً أحاسيس ومشاعر بعضهم البعض على نحو أفضل، أو أنّه إشارة إلى تشابههم فى الخلقة والقامة والصورة والسن حتى أصبحوا متشاكلين.

ولكن ذكر هذا الوصف مع بقية الأوصاف الاخرى مثل «عرب» و «كواعب» و «قاصرات الطرف» يدلل على أنّ المعنى الأول هو الأنسب.

«كواعب»: لقد ورد هذا الوصف مرّة واحدة فى القرآن الكريم فى سورة النبأ، و (كواعب) جمع (كاعب) بمعنى الفتاة صغيرة السن، وهى مشتقة من مادة (كعب) والتى تعنى فى الأصل

---

(۱). سورة النبأ، ۳۳؛ ص، ۵۲؛ الواقعة، ۳۷.

بروز ظاهر القدم، واستعملت هنا للإشارة إلى الفتيات الصغيرات السن اللاتى أشرفت أثداؤُهُنَّ على البروز، ولقد ورد كذلك أنّ الكواعب إشارة إلى مرحلة البلوغ الجسمى حيث يبدأ الجسم بالنمو السريع فى هذه المرحلة.

وبهذا الشكل فإنّ الحور العين يتّصفن بجميع الصفات والمحاسن وحسن الظاهر والباطن والفضائل الجسمانية والروحانية والأخلاقية، وبذلك يتّصفن بكل ما هو حسن.

ونكرر مرّة اخرى ونقول: إنّ كل ذلك إشارات لحقائق مادية ومعنوية عليا للعالم الآخر ولا يمكن إدراك تفاصيلها.

۱۲- الخدم والسقاة

إنّ اللّه سبحانه وتعالى اتم نعمته على أهل الجنّة واعطاهم كل شىء ومن جملتها المضيّفون الذين يخدمونهم وبأعلى كيفية.

و «السُقاة»: وهم الذين يطوفون على أهل الجنّة ويسقونهم من الشراب الطهور.

إنّ حسن ظاهرهم ولطف باطنهم وصلاح خَلقهم وخُلقهم من الدرجة بحيث يجذب إليهم أهل الجنّة وينسيهم كل ما تحملوه من الآلام والمعاناة فى الدنيا فى سبيل اطاعة أوامر اللّه تعالى

ولقد تحدث القرآن الكريم فى آيات عديدة عن (الغلمان) و (الولدان المخلدون) ووصفهم بأجمل الأوصاف.

إنّ التعابير الواردة فى هذا الصدد، وكسائر المواهب والعطايا الإلهيّة متنوعة ومختلفة، فقد جاء تعبير «غلمان» فى قوله تعالى «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ».

(الطور/ ۲۴)

تعبير (يطوفُ) (مع ملاحظة كونه فعل مضارع يفيد الاستمرار) دليل على أنّ طوافهم حول أهل الجنّة طواف دائمى.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۸۹

«لؤلؤٌ مكنون»: وصف للخدمة، فهم فى حسنهم وصباحتهم وصفائهم وبياضهم كاللؤلؤ المصون فى الصدف، أو الذى اخرج تواً من الصدف.

صحيح أنّ الجنّة- حسب التعابير الواردة فى الآيات والروايات- لاتحتاج إلى خدم، وكل مايريد أهل الجنّة مهيأ وجاهز، ولكن هذا يعبّر عن مقدار الاحترام والاكرام المنقطع النظير لأهلها من قبل الخدم.

ولو أنّ هذه الآية لم تخبر صراحة، عن علّة طوافهم، ولكن الآيات التى بعدها أشارت إلى أنّ مهمتهم تتعلق بخدمة وتضييف أهل الجنّة بأنواع الأشربة والشراب الطهور، ومختلف الأغذية.

التعبير ب (لهم) يدل على أنّ لكل واحدٍ من أهل الجنّة خدماً خاصين به، وقيل: ليس على الغلمان مشقة فى خدمة أهل الجنّة بل لهم فى ذلك اللذة والسرور إذ ليست تلك الدار دار محنة.

وقد نقل الكثير من المفسّرين هذا الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله: قيل يارسول اللّه الخادم كاللؤلؤ فكيف المخدوم؟ فقال: «والذى نفسى بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» «۱».

ومن الجدير بالذكر أنّ (الغلمان) جمع غلام وتعنى فى اللغة (الصبى) لا العبد «۲».

ومن البديهى أنّ الأفراد بهذا السن يتمتعون بالنشاط والحيوية والجدية.

وذكر القرآن الكريم تعبيراً آخر بخصوص الخدم وهو «ولدان»، قال تعالى «يَطُوفُ عَلَيهِمْ وِلدَانٌ مُّخَلَّدُونَ* بِأَكوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ». (الواقعة/ ۱۷- ۱۸)

«ولدان»: جمع «وليد» بمعنى (مولود)، وهنا بمعنى (الغلام) وما ذهب إليه البعض من كونهم صغار المؤمنين يخدمون آباءهم فهو بعيد «۳»، وذلك لأنّهم إن كانوا مؤمنين فهم

---

(۱). راجع تفاسير مجمع البيان؛ روح الجنان؛ روح البيان؛ القرطبى؛ و الكشاف ذيل الآية مورد البحث.

(۲). لقد كتب الكثير من أرباب اللغة فى تفسيرها «الغلام هو الطار الشارب» (مقاييس اللغة، المفردات، لسان العرب).

(۳). تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۴۹ ذكر هذا الاحتمال فى تفسيره واستبعده.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۰

يُخدمون لا أنّهم خدم للآخرين، وإن كانوا غير مؤمنين فلا سبيل لهم.

وتعبير (مخلدون) إشارة إلى بقائهم على حالهم فيبقون صغاراً دائماً لا يكبرون ولا يلتحون فهم على هيئتهم من حداثة السن والنشاط والحيوية.

ولقد ورد نفس هذا التعبير بتوضيح أكثر وألطف، قال تعالى «وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلدَانٌ مُّخَلَّدُونَ اذَا رَأَيْتَهُم حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً». (الإنسان/ ۱۹)

وهذا شاهد آخر على أنّ المراد من (ولدان) هو نفس (الغلمان) الذين وصفتهم الآيات السابقة ب (لؤلؤ مكنون)، وهنا وصفتهم هذه الآية ب (لؤلؤ منثور).

ولقد احتمل الكثير من المفسرين أنّ هؤلاء الغلمان هم أطفال المشركين والمؤمنين الذين رجحت كفة سيئاتهم، فلم يؤاخذهم اللّه سبحانه بأعمال آبائهم ولكن جعلهم خدماً لأهل الجنّة وهم مسرورون بذلك.

ولو أخذنا بنظر الاعتبار ما أشرنا إليه سابقاً فى تضعيف هذا الاحتمال، وما الرواية التى نقلت فى هذا المجال إلّارواية مرسلة لا أكثر.

وجاء فى تعبير آخر (بصيغة المبنى للمجهول) يشير إلى المضيفين فى الجنّة، قال تعالى:

«يُطَافُ عَلَيهِم بِكَأسٍ مِّنْ مَّعِينٍ». (الصافات/ ۴۵)

ولقد ورد شبيه هذا المعنى بشىء من التفاوت كدليل على تنوع الموائد فى الجنّة فى قوله تعالى: «وَيُطَافُ عَلَيهِمْ بِآنِيَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكوَابٍ كَانَت قَوَارِيرَاْ». (الدهر/ ۱۵)

ونقرأ تعبيراً آخر فى قوله تعالى: «يُطَافُ عَلَيهِم بِصِحَافٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَأَكوَابٍ». (الزخزف/ ۷۱)

«صحاف»: جمع «صحفه» وعلى قول الزمخشرى (طبق ما جاء فى مصباح اللغة): إناء مستطيل (كبير)، وإذا أخذنا بنظر الاعتبار المادة الأصلية للكلمة والتى تعنى الانبساط والاستواء، فيمكن أن يكون إشارة إلى إناء يشبه (الصينية).

و «أكواب»: جمع (كوب) وهو إناء للشراب لاعروة فيه وقد يعبر عنه ب (القدح) أحياناً.

والجدير بالذكر وعلى قول بعض المفسِّرين (صحاف) (جمع كثرة) و «أكواب» جمع «قلة»، وهذا يعود إلى أن تنوع الأغذية وصحافها أكثر من تنوع المشروبات وأكوابها «۱»،

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۲۵، ص ۹۰.

وتقتضى فصاحة القرآن التطرق حتى لمثل هذه الجزئيات، (تأمل).

وأخيراً، ولو أنّ هذه الآيات الأخيرة لم تبيّن أوصاف المضيّفين، ولكن يمكن أن تفسرها الآيات السابقة وتدلل عليهم وعلى مواصفاتهم.

۱۳- المضيفون

يلاحظ فى مجالس الضيافة ولأجل تقدير واحترام الضيوف على أحسن وجه حضور شخصية أو مجموعة من الشخصيات المحترمة، وهؤلاء يقومون بواجب الضيافة كدعوتهم الضيوف إلى تناول الطعام أو المراجعات أو سائر لوازم الضيافة، وغالباً مايكون هؤلاء من غير الخدم.

وهذا يعتبر احتراماً مضاعفاً، وكذلك يمنح الضيف أهميّة وعظمة خاصة، بالإضافة إلى ذلك يزيد من احترامه وتقديره.

ويستفاد من الآيات الكريمة أنّ هذا المعنى عهد به إلى الملائكة وخزنة الجنّة. فإنّهم يدعون أهل الجنّة للانتفاع من نعمها.

ورد فى قرآن الكريم (ومن دون أن يذكر القائل): «كُلُوا وَاشرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُم تَعمَلُونَ». (الطور/ ۱۹)

ولقد ورد عين هذا التعبير فى الآية ۴۳ من سورة المرسلات.

فهل أنّ المتكلم هو اللّه تبارك وتعالى وهل ورد هذا الكلام كاحترام وأكرام وعناية ولطف خاص من قبل اللّه تبارك وتعالى؟ أم أنّ هذا الكلام صادر عن الخزنة والملائكة ...؟

على أيّة حال، فإنّ جميع نعم الجنّة هنيئة، وما قول «هنيئاً ...» إلّاعناية اخرى تضاف إلى جميع النعم.

ولقد ورد شبيه هذا التعبير بشىء من الاختلاف فى قوله تعالى «كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا اسْلَفْتُمْ فى الْايَّامِ الْخَالِيَةِ» «۱». (الحاقة/ ۲۴)

---

(۱). فى اعراب «هنيئاً» أقوال: يرى البعض أنّها وصف بمحل «المفعول المطلق» ويكون التقدير (كلو أكلًا هنيئاً»، وقيل: إنّها وصف

المفعول به ويكون المعنى (كلو واشربوا مأكولًا ومشروباً هنيئاً)، وفى الواقع أنّ هنيئاً هو نفس المأكول والمشروب.

وعلى أيّة حال، فإنّ المراد من «هنيئاً». أنّ الطعام أو الشراب لايترك أى أثر سيء على الإنسان. بل إنّه يهضم بكل سهولة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۲

إنّ هذه الآية لم تشر إلى المتكلم أيضاً، وما جاء فى الآيات لا يختلف عمّا ذكرناه فى الآية السابقة.

۱۴- النُّزل

نلاحظ فى بعض الآيات تعبيراً عميق المعنى يكشف عن حقيقة جديدة وهذا التعبير هو (النُزُل)، وقد ورد فى قوله تعالى: «لَهُم جَنَّاتٌ تَجرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّن عِنْدِ اللّهِ وَمَاعِنْدَ اللّهِ خَيرٌ لِّلابرَارِ». (آل عمران/ ۱۹۸)

كما ورد نفس هذا المعنى فى الآية ۱۰۷ من سورة الكهف، والآية ۱۹ من سورة السجدة، والآية ۶۲ من سورة الصافات والآية ۳۲ من سورة فصلت.

ولأجل توضيح المفهوم الحقيقى لهذه الآيات، فلابدّ من توضيح المعنى الدقيق للنزل.

قال الراغب فى مفرداته: (النزل مايعد للنازل من الزاد)، وعلى ضوء هذا التفسير تكون جميع النعم التى تعد لاستقبال الضيوف مصداقاً من مصاديق النزل، ولقد ورد نفس هذا المعنى فى «صحاح اللغة» و «المقاييس».

وقال بعض المفسرين: «النزل مايعطى الملك النازل وقت نزوله قبل أنّ يجعل له راتباً أو يكتب له خبزاً» «۱».

وقيل: (النزل) «۲» أول طعام يقدم إلى الضيف (وكما هو جارٍ فى زماننا حيث يقدمون عصير الفواكه، أو الفواكه للضيف فى أول حلوله) وينسجم هذا المعنى مع مفهوم (النُنزل).

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۸۲.

(۲). تفسير المنار، ج ۴، ص ۳۱۴- لقد ذكر ثلاثة معان مختلفة ومتقاربة فى نفس الوقت.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۳

وبناءً على ذلك ومع الأخذ بنظر الاعتبار «الجنات» بكل نعمها ومواهبها يكون مفهوم «النزل» فى ذلك المضيف الكبير هو: وجود استقبالات أعلى وأهم ولعلها تكون إشارة إلى تلك النعم المعنوية والجذبات الروحانية والمظاهر القدسية، ولهذا السبب ورد فى قوله تعالى بعد جملة: «نُزُلًا مِّن عِندِ اللَّهِ» قوله تعالى: «وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيرٌ لِّلابرَارِ».

(آل عمران/ ۱۹۸)

حتى وإن كان (النزل) بمعنى مايعد للضيف من الكرامة والبر والطعام والشراب (كما قال ذلك بعض المفسرين). فإنّه لا يمكن انكار أنّ ضيافة الشخص الكريم لاتنحصر بإطعام الضيوف فقط، بل تشمل إضافة إلى ذلك تقديم أنواع الهدايا والعطايا التى تهدى إليهم، وما الطعام والشراب إلّاشيئاً يسيراً قبال هذه الامور.

وبناءً على هذا ومهما كان معنى (النزل)، فانه إشارة لطيفة إلى تلك المواهب المعنوية والروحانية للجنّة.

۱۵- النعم التى لا تتصور

ممّا لاـ شك فيه أنّ النعم الماديـة فى الجنّة لا تنحصر بما قيل سلفاً، فطبيعة هذا العالم المحدود تحول دون أن يكون لدينا تصور

متكامل عن النعم المادية والروحانية فى العالم الآخر.

ومن جهة اخرى، أنّ حب التنوع عند الإنسان يدفعه لطلب المزيد من المواهب والنعم المختلفة، ولذا عنى القرآن الكريم بهذه المسألة عناية خاصة وأعلن صراحة: «وَفِيهَا ماتَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ». (الزخرف/ ۷۱)

وهذا التعبير هو أكثر التعابير شمولية وجمعاً فيما يتعلق بالمواهب والنعم الإلهيّة فى الجنّة.

يقول المرحوم (الطبرسى) فى مجمع البيان: «لو اجتمع الخلائق كلهم على أن يصفوا ما

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۴

فى الجنّة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمته هاتان الصفتان» «۱».

والملفت هو ذكر هذه الجملة بعد بيان العديد من نعم الجنّة حتى يُعْرف أنّ نعم الجنّة لاتنحصر بها.

وهنا يطرح هذا السؤال: لماذا ذكر تعالى لذة الأعين بعد لذة الأنفس؟ هناك عدّة احتمالات:

الأول: أنّ جملة «تشتهيه الأنفس» تشمل جميع اللذات، أمّا لذّة «الأعين» ولِما لها من أهميّة استثنائية فقد وردت على شكل (ذكر الخاص بعد العام).

الثانى: أنّ الجملة الاولى إشارة إلى لذات جميع الحواس (حاسة السمع، واللمس، والذوق، والشم)، أمّا جملة «تلذ الاعين» فهى إشارة إلى لذة حاسة البصر وهذه اللذة تعادل جميع اللذات أو أكثر.

الثالث: أنّ الجملة الاولى أشارت إلى جميع اللذات الجسمانية (المادية)، أمّا الجملة الثانية فقد أشارت إلى اللذات الروحانية (المعنوية). أى النظر بعين البصيرة إلى جمال الخالق المطلق، ومشاهدة صفات الجمال والجلال التى تعادل كل لحظة منها جميع النعم المادية فى الجنّة.

ومن الواضح أنّ محيط الجنّة محيط منزه ومقدس، لذا فإنّ طلبات الإنسان من أنواع النعم (المشروبة والمأكولة والملبوسة والمشمومة وغيرها) لا تتعدى الأشياء الظاهرة التى تليق بالإنسان الطاهر، وعلى هذا فلا استثناء فى عمومية الآية، ولا تحتاج إلى تساؤلات هذا وذاك من قبيل هل تشمل الطلبات السيئة للنفس؟

لقد ورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى «وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشتَهِى انفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا ماتَدَّعُونَ» «۲». (فصلت/ ۳۱)

قال بعض المفسرين: إنّ الجملة الاولى إشارة إلى جميع النعم المادية فى الجنّة، أمّا

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۵۶.

(۲). «يدَّعُون» من مادة «ادّعاء» (افتعال من دعاء) بمعنى طلب الشىء.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۵

الجملة الثانية فهى إشارة إلى المواهب المعنوية بقرينة قوله تعالى: «دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ انِ الْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ». (يونس/ ۱۰)

إنّ هذا التفسير يعتبر تفسيراً مناسباً، حيث إنّ شهوة النفس تكون أكثر فيما يتعلق ب (المسائل المادية)، أمّا الدعاء فيستعمل عادة فى المسائل المعنوية.

ونقرأ تعبيراً آخر فى قوله تعالى «وَهُمْ فِى مَا اشْتَهَتْ انفُسُهُمْ خَالِدُونَ». (الأنبياء/ ۱۰۲)

وإضافة إلى ماذكرنا هناك آيات اخرى فى هذا المجال:

فنجد فى تعبير جديد: «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ». (نحل/ ۳۱)

وكذلك ورد نفس هذا التعبير فى سورة الفرقان الآية ۱۶.

ويلاحظ هذا التعبير أيضاً (وبشيء من الاختلاف) فى ثلاث سور اخرى من القرآن (الزمر/ ۳۴، والشورى ۲۲، و ق/ ۳۵).

ويتّضح من مجموع ماذكر فى هذا الفصل، أنّ العطاء الإلهى فى الجنّة لا تحدّه أىحدود، لا من حيث المقدار، ولا الكيفية والنوع، ولا الزمان والمكان، وبناءً على ذلك فإنّ ما ذكر فى الفصول الماضية إنّما هو عبارة عن نماذج واضحة لما يمكن أن يدركه أهل هذا العالم إجمالًا، أمّا النعم التى هى فوق تصورنا وإدراكنا فقد أشارت إليها الآيات القرآنية المذكورة بعبارات أكثر شمولية وعمومية.

وفى الحقيقة أنّ الجنّة والعطاء الإلهى فيها ما هو إلّامظهر كامل من مظاهر القدرة واللطف الإلهى، وبما أنّه لا نهاية لقدرته ولطفه تعالى . فكذلك لا نهاية ولاحد لعطاياه ومواهبه فى الجنّة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۷

۳- اللذّات الروحية

اشارة

نظراً لوجود أبعاد روحية وجسمية فى «المعاد» ونظراً لكون الروح أسمى وأشرف من الجسم بمرّات وَمرّات، فينبغى إذن عدم الشك فى أنّ النعم الروحية والمعنوية للجنّة أفضل وأسمى وأعظم بمرّات من النعم المادّية والجسمية!

ولكن لمّا كان الوصف لا يتسع عادة للتعبير عن هذه النعم، وهى امور تعتمد على المشاهدة (القلبية) لا على القول والسماع فلهذا غالباً ما نعثر فى الآيات القرآنية على إشارات مبهمة لهذه النعم التى يتمتّع بها أصحاب الجنّة باستثناء الموارد التى يمكن شرحها وبيانها حيث تولى القرآن الكريم شرح وتبيان عدد منها.

وبعبارة أخرى فإنّ لذّة إدراك معرفة اللَّه وما فيها من نفحات جلالية وجمالية وأنوار ألطافه الخفيّة، والسكر لدى ارتشاف كأس العشق لذاته المقدّسة تعادل بل وتفوق اللحظة الواحدة منها كل النعم المادية فى هذا العالم.

وقد نتصور أحيانا نماذج بسيطة لهذه النعم فى الدنيا تتجلّى لنا عندما نقف بين يدى اللَّه سبحانه وتعالى وننقطع للعبادة والخلوة، فنمد الأيدى بالدعاء والمناجاة ونغرق بالاستغاثة ونداء يا قاضى الحاجات، فننسى الدنيا وما فيها، وفى لحظات قصيرة نحس وكأننا فى حالة ذوبان فى جمال اللَّه الذى لا مثيل ولا نظير له، وبالخصوص لو كنّا فى هذه اللحظات فى بعض الأماكن المقدّسة، فى بيت اللَّه الحرام أو عرفات والمشعر وغيرها من الأماكن والعتبات المقدّسة المخصصة للعبادة، فيشعر الإنسان بلذة لا يمكن لأىقلم أو بيان أن يصفها ويتصورها.

تصّور لو أنّ هذه الحالات تحصل وبشكل أكثر قوّة بآلاف المرات وتستمر لساعات

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۸

وأيّام وليال وأشهر وسنوات متواصلة، كيف سيكون الحال؟ خاصّة مع انعدام عوامل الغفلة عن ذكر اللَّه فى الجنّة وزوال المسببات التى تعصف باستقرار القلب وحضوره، وانكشاف الحجب وموانع المعرفة من أمام الابصار، حيث يصبح إدراك الإنسان وبصيرته أشدّ وأقوى ولا وجود هناك للوساوس الشيطانية التى تقف حجر عثرة دوماً فى وجه سالكى هذا الطريق.

يمكن حينذاك تصّور ما يجرى هناك، وما هى النعم المعنوية العظيمة التى تتجلّى لنا، وما هى النفحات الجذابة التى تستقطب الروح إلى جوار قرب اللَّه، وتجعلها غارقة فى أنوار ذاته وغافلة عن ذاتها حتى يصل بها الحال إلى عدم رؤية ما سواه ولا تطلب سواه، ولا ترى إلّا ما تحب، وتحب كل ما ترى

ونعود الآن إلى القرآن مع الالتفات إلى الإشارات المذكورة أعلاه لنرى القرآن نفسه وهو يبّين هذه النعم التى يمكن تلخيصها تحت الأبواب الآتية:

۱- الاحترام الخاص

تبدأ الاحترامات الخاصة لأهل الجنّة منذ لحظة دخولهم فيها فيقابلهم خزنتها مهنّئين، كما ورد فى القرآن الكريم: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى اذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ ابْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ». (الزمر/ ۷۳)

يُستفاد من هذه الآية أنّ خزنة الجنّة ينتظرون المتقين بلهفة على أبواب الجنّة وقد فتحوا لهم أبوابها من قبل وما أن يصلوا إليها حتّى يسارعوا إلى استقبالهم بأجمل التحيات ووافر الاحترام ويدعوهم بأطيب العبارات إلى الجنّة والحياة الخالدة فيها «۱».

---

(۱). الملفت للنظر هنا أنّ القرآن استعمل «واو» الحالية فى جملة «وفُتِحت أبوابها» للتعبير عن انفتاح الأبواب مسبقاً (كما ورد هذا فى الآية ۵۰ من سورة ص «جَنَّات عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الْأَبْوابُ». إلّاأنّه تعالى يقول عن النّار: «حتّى إذا جاءُوها وَ فُتِحت أبوابها» بدون استعمال «واو» الحالية.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۱۹۹

نعم هذه هى الأصول المتّبعة فى استقبال الضيف العزيز، فأول الأمر تفتح الأبواب والمضّيفون ينتظرون على الباب، وما يكاد يدخل حتّى يستقبلوه بالترحاب وهذه من اللذات المعنوية الثمينة.

«والخزَنة»: جمع (خازن) وهو بمعنى الحارس والمراقب، والمقصود هنا هو الملائكة الذين يتولون المحافظة على الجنّة وتسيير شؤونها.

وفى المرحلة اللاحقة بعد دخول الجنّة يُؤمر ملائكة اللّه المقربون بالدخول عليهم من كل باب والترحيب بهم وتهنئتهم. ورد فى قوله تعالى «وَالمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقبَى الدَّارِ» «۱». (الرعد/ ۲۳- ۲۴)

ويُفهم من الآية السابقة أنّ جموعاً من الملائكة يدخلون عليهم من كل باب، مع الالتفات إلى أنّ كل باب من أبواب الجنّة مخصص لواحد من الأعمال الصالحة مثل: (باب الصلاة، وباب الجهاد، وباب الحج) فيتضح أنّ كل مجموعة من الملائكة تدخل عليهم لأجل واحد من الأعمال الصالحة التى أدوها فى الدنيا، والطريف فى الأمر أنّ كل هذه الأعمال تتلخص فى معنى الصبر بكل أنواعه: الصبر على الطاعة والصبر على المصيبة، والصبر عن المعصية.

والأهم من كل ذلك التحية والسلام الصادر من اللّه إلى أهل الجنّة، وهو سلام مقرون بالمحبّة ومليء باللطف والرحمة، كما جاء فى قوله تعالى «سَلَامٌ قَولًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ» «۲».

(يس/ ۵۸)

هذا السلام وهذه التحية الإلهيّة التى تنفذ فى أعماق النفس وتملؤها بالطاقة فتشد إليها نفوس أهل الجنّة بما فيها من لطف واحسان وتجعلها مستغرقة بالبهجة، إنّها نعمة لا تضاهيها نعمة، أجل، إنّ سماع نداء المحبوب المنبعث من جوده ولطفه لَهُو أفضل من الدنيا وما فيها.

---

(۱). هذه الجملة تقديرية، وتقديرها هو: فنعم عاقبة الدنيا الجنّة.

(۲). قيل فى إعراب هذه الجملة: «سلام» خبر «أنّ» «لهم» مقدّرة. و «قولًا» مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: يقول قولًا، وهناك آراء اخرى أيضاً فى هذا الصدد. إلّاأنّ ما ذكرناه هو الأنسب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج۶ ۲۴۹

إنّ نفحة لقاء المحبوب ورؤية لطف الحبيب والسلام الذى يعنى رفع الحجب، يحوى من اللذّة والأشواق والبهجة بحيث لو بقى العشاق

بعيدين عن فيضه المعنوى لما صبروا، على تحمل ذلك، وقد روى بعض مفسرى السُنّة حديثاً قيّماً عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «لو حجبت عنه ساعة لمتّ» «۱».

وعلى أيّة حال، فإنّ أسمى أمانى أهل الجنّة وأشرف مفخرة لهم وأحبّ ساعة إليهم، هو أنّ يسلّم عليهم الرّب الرحمن الرحيم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ هناك آيات عديدة اخرى فى القرآن الكريم تتضمن اهداء التحية لأهل الجنّة من غير أن تحدد مصدر التحية والسلام كما فى «الآية ۴۶ من سورة الحجر- والآية ۷۵ من سورة الفرقان- والآية ۳۴ من سورة ق». فربّما يكون مصدر التحية الملائكة، ويحتمل فى بعضها أن يكون السلام من أهل الجنّة على بعضهم، أو ربّما يكون من اللّه وهذا أفضلها وأكملها.

۲- اجواء الامن والسلام

إنّ أكثر ما يعكر صفو روح الإنسان فى الدنيا هو عدم الشعور بالأمان فى شتى مناحى الحياة، وعدم الشعور بحلاوة الدنيا يعود فى الغالب إلى عدم ثقة الإنسان بما بين يديه، فهو غير واثق من المستقبل ولا هو واثق من أبناء جنسه، لا سيما إذا كانت لدية نعمة أكثر فهو يجد نفسه عرضة لأمواج متلاطمة من الحقد والحسد والكراهية بما يجعل الدنيا مظلمة فى عينيه.

واحدى النعم الروحية المتوفّرة فى الجنّة هى الشعور بالأمن والأمان فى جميع المجالات، فلا خوف من اندلاع الحرب ولا وجل من المخاصمات، ولا الحقد له وجود ولا الحسد، والعشق والوفاء يملأ الأرجاء، وكذلك المحّبة والاخوّة تحيط بالجميع.

---

(۱). تفسير روح البيان، ج ۷، ص ۴۱۶.

نلا حظ فى القرآن الكريم آيتين فيهما وصف جميل وغنى للجنّة وهو «دار السلام» وهذا ما جاء فى الآية الكريمة: «لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ».

(الأنعام/ ۱۲۷)

وكذلك جاء هذا الوصف فىقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَدعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ». (يونس/ ۲۵)

ينقسم المفسرون فى تفسيرهم لمعنى (دار السلام) إلى قسمين:

الأول: يرى أنّ السلام هنا يعنى السلامة من كل ألم وآفة وبلاء، وهو من أوصاف الدار أى: الجنّة، فلا وجود هناك لصراع الناهبين فى الدنيا المادّية ولا أثر للسلوكية المنحرفة لأصحاب الثروة الغافلين عن ذكر اللّه، ذلك المكان خالٍ من الحروب وإراقة الدماء ولا مكان فيه للاستعمار والاستثمار، نعم هناك دار السلام والوئام والأمن والأمان «۱».

الثانى: يرى أنّ السلام من أسماء اللّه، وعلى هذا فدار السلام هى من قبيل المضاف والمضاف إليه، وهو إشارة إلى أنّ الجنّة دار اللّه، وكلا المعنيين جميل رغم أنّ المعنى الأول يبدو مناسباً أكثر، لأنّ أصل هذه المفردة- بناءً على قول الراغب الإصفهانى- يعنى الخلو والسلامة من العيب والنقص الظاهرى والباطنى، حتّى أنّ هذه المفردة أطلِقت على ذات البارى عزّ وجلّ كواحدة من صفاته وأسمائه الحُسنى لأنّ ذاته المقدّسة سالمة من العيب والفناء.

ويظهر كذلك من جملة (لهم دار السلام) أنّها تتطابق والمعنى الأول. (تأمل).

وورد فى حديث عن ابن عّباس أنّه قال: «دار السلام: الجنّة وأهلها لهم السلامة من جميع الآفات والعاهات والأمراض والاسقام، ولهم السلامة من الهرم والموت وتغير الأحوال عليهم، وهم المكرمون الذين لا يهانون أبداً، وهم السعداء الذين لا يشقون أبداً، وهم الفرحون المسرورون الذين لا يغتمون ولا يهتمون أبداً، وهم الأحياء الذين لا يموتون

---

(۱). بلغنى وأنا أكتب هذه الجمل أنّ المستعمرين بقيادة أمريكا قد بدأوا قبل عدّة ساعات بهجوم على العراق وأنّ المئات من طائراتهم تضرب وبشكل متواصل جميع المنشآت الحيوية فى هذا البلد (۲۷/ ۱۰/ ۱۳۶۹ المصادف ليوم ۳۰ جمادى الثانية عام ۱۴۱۱).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۲

أبداً، فهم فى قصور الدر والمرجان أبوابها مشرعة إلى عرش الرحمن والملائكة يدخلون عليهم من باب سلام عليكم بماصبرتم فنعم عقبى الدار» «۱».

وأخيراً تأتى تكملة هذا الموضوع فى الآية الكريمة: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ اخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ* لايَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَاهُمْ مِّنهَا بِمُخْرَجِينَ» «۲». (الحجر/ ۴۷- ۴۸)

وبما أنّ كلمة «غل» تحتمل الكثير من المعانى الواسعة التى تدل فى الغالب على الصفات الباطنية القبيحة التى تعكر صفو الروح والجسد والعائلة والمجتمع، لهذا يفهم من هذه الآية أنّ صدور أهل الجنّة خالية من الحقد ولا تحمل قلوبهم أىضغينة وعداوة وكبر وحسد، فاللّه قد نزع من قلوبهم كل هذه الصفات الرذيلة، فسادتهم روح الاخوة والمحبّة. وما أجمل وألطف مثل هذه الأجواء الخالية من تلك الصفات التى يخيم عليها الحب والعطف والسلام والوئام.

وحتى فى الحياة الدنيا كلما أزيلت أمثال هذه الرذيلة من المجتمع كلما ساده الأمن والاستقرار، وعلى العكس من ذلك كلما انتشر وجود أمثال هذه الظواهر فى أىبيت أو مجتمع أصبحت مصدراً للنزاعات الدامية والمؤسفة وسبباً لزعزعة الأمن والاستقرار.

وممّا يثير الاهتمام أنّ القرآن الكريم جعل الاستقرار الداخلى مكمّلًا للاستقرار الخارجى حيث يقول: لا يوجد فى الجنّة تعب أو اضطراب، وينعدم فيها الخوف من زوال النعم، وهو الهاجس الذى يقلق بال الإنسان الذى ينعم بالخيرات ويكدّر عليه عيشه، وكل هذه الأسباب تجعل من نعم الجنّة هنيئة مستساغة «۳».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۹۴، ح ۱۷۶.

(۲). «غلّ» مشتقّة من كلمة «غلل» على وزن «بَلَل»، وتعنى فى الأصل النفوذ التدريجى للشىء، ولهذا يُقال للماء الذى يجرى ويتسلل بين الأشجار (غلل)، وكذلك يقال للحسد والحقد والعداوة «غل» لأنّها تنفذ إلى القلب خفية وبالتدريج، وكذلك يطلق على الخيانة اسم «الغلول» لهذا السبب.

(۳). ورد ما يشابه هذا المضمون مع بعض الاختلاف الجزئى فى: الآية ۴۳ من سورة الأعراف؛ والآية ۳۵ من سورة فاطر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۳

۳- الأمان بعد الخوف

إنّ نعمة الأمن وبغض النظر عن جذورها التى أشرنا إلى بعضها فى بحثنا السابق، تُعد من أكبر النعم المعنوية التى يعز على الإنسان فقدانها ولو للحظة واحدة، وهذه الحقيقة يشعر بها الأشخاص فى المناطق الصحراوية الموحشة، أو فى المناطق الحربية المعرّضة فى أى وقت للقصف بالصواريخ والقنابل، فهناك يتكدَّر معين الحياة الصافى وتمضى الساعات والدقائق ثقيلة وعسيرة، والنقطة المقابلة لذلك هى مناطق الأمن والأمان «۱».

يَصفُ القرآن المجيد حال المتقين بقوله: «انَّ الْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ امِينٍ». (الدخان/ ۵۱) فلا هم يخشون هجوم الشياطين ولا يخافون سلطة الطواغيت ولا هم يتعرضون للآفات والبلايا ولا يعتريهم الحزن والغم!

ولهذا السبب يضيف فى مكان آخر: «ادْخُلُوا الجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ».

(الأعراف/ ۴۹)

لقد لاحظنا من خلال التجربة أنّ بعض الناس- ورغم مايتوفر له من متطلبات الحياة ومستلزمات الراحة- يعيش حالة من القلق والاضطراب بسبب الحزن والهم الذى يستحوذ عليه، أو لوجود الخوف والهلع الذى ينتابه فيقض مضجعه فنراه لا يلتفت مطلقاً إلى كل تلك النعم ولا يعير أدنى اهتمام لما بين يديه، ففى مثل هذه الأحوال يمكن لمس حقيقة وعمق التعابير القرآنية بشأن أهل الجنّة.

لابدّ أنّ أهل الجنّة يشعرون حتّى فى هذه الدنيا بشىء من ذلك الأمان والسكينة فى ظل إيمانهم، وينعمون بالاستقرار حتّى فى أشدّ المعضلات من خلال الاعتماد على حقيقة التوكل وروح التسليم والرضا بالإرادة الإلهيّة: «أَلَا انَّ اوْلِيَاءَ اللَّهِ لَاخَوفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» ... «لَهُمُ البُشرَى فِى الحَيَاةِ الدُّنيَا وَفِى الْآخِرَةِ». (يونس/ ۶۲- ۶۴)

---

(۱). كلمة «آمنين» الواردة فى الآية ۵۵ من سورة الدخان؛ والآية ۴۶ من سورة الحجر بشأن أهل الجنّة، وكذلك كلمة «آمنون» فى الآية ۳۷ من سورة النبأ حيث تقول: «وهم فى الغرفات آمنون» هاتان الكلمتان تشيران إلى نفس هذا المعنى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۴

۴- الأخلّاء والأصدقاء الأوفياء

ومن أهم اللذائذ الروحية الأخرى معاشرة الأصدقاء المخلصين والاخلّاء الذين يتصفون بالإيمان والسجايا الرفيعة، ويفوح من أرواحهم عطر المحبّة والمودّة، إنّ الجلوس مع هؤلاء لحظة واحدة يغمر النفس ببهجة لاتوصف، وتذكر الآيات القرآنية الشريفة أنّ أهل الجنّة ينعمون بهذه النعم فيجالسون الأخلاء ويتحدثون إليهم، ولكن ما هى المواضيع التى تدور حولها أحاديثهم؟ هذا ما لا يمكن التكهن به، لعلهم يتحدثون فى مواضيع يستحيل علينا إدراكها اليوم، ولكن من البديهى أنّها من نوع الأحاديث التى تحيى القلوب.

تطالعنا الآيتان بما يأتى: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ انْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَآءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقاً «۱»* ذلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيماً». (النساء/ ۶۹- ۷۰)

نعم، إنّ الأخلاء فى الجنّة هم خيرة ذوى الفضائل فى العالم: كالأنبياء العظام والخلّص من أصحابهم والصديقين والشهداء والصالحين.

ولو قارنا هذا مع ما يجرى فى هذه الدنيا حيث يضطر الناس فى كثير من الأحيان إلى تحمل العذاب الناتج عن معاشرة أشخاص لا يجمعهم وإيّاهم انسجام أو ترابط، يمكن حينذاك فهم طبيعة الأوضاع الموجودة فى الجنّة.

والذى يسترعى الاهتمام هنا أنّ الكثير من المفسرين قد نقلوا روايات عديدة بشأن نزول هذه الآية، ننقل فيما يلى ملخّصها (مع وجود بعض الاختلاف بين المفسرين فى النقل):

يروى إنّها نزلت فى ثوبان مولى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، إذ كان شديد الحبّ لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله قليل الصبر عنه فأتاه يوماً وقد تغير وجهه ونحل جسمه وعرف الحزن فى وجهه، فسأله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن حاله، فقال: يارسول اللَّه ما بى وجع غير إنى إذا لم أرك اشتقت إليك واستوحشت

---

(۱). يرى البعض أنّ كلمة «رفيقا» جاءت هنا تمييزاً ولهذا وردت مفردة، واعتبرها البعض الآخر حالًا. وان مجيئهامفردة (مع أنّ الحال جمع) إمّا لكون كلمة رفيق تعنى المفرد وتعنى الجمع أيضاً أو تضمنها لمعنى الجنس.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۵

وحشة شديدة حتى ألقاك، فذكرت الآخرة فخفت أن لا أراك هناك لأنّى إن أُدخلت الجنّة فأنت تكون فى درجات النبيين وأنا فى درجات العبيد فلا أراك وإن أنا لم أُدخل الجنّة فحينئذٍ لا أراك أبداً. فنزلت الآية «۱».

وكلمة «ذلك» التى تستعمل عادة إشارة للبعيد، جاءت هنا للدلالة على عظمة هذه النعمة الإلهيّة، وكأنّها عالية إلى الحد الذى يجعلها

بعيدة عن متناول أيدينا، وكذلك عبارة «فضل من اللّه» إنّما هى تأكيد على هذا المعنى وإشارة إلى أنّ هذه النعمة لا يمكن الحصول عليها بمجرّد العمل، بل تنال بفضل اللّه.

وتجدر الإشارة إلى قضية أخرى فى هذه الآية، وهى ذكرها لأربع جماعات بالترتيب واعتبارهم كأصدقاء فى الجنّة وهم: «الأنبياء، والصديقين، والشهداء، والصالحين».

ويبدو أنّ هذا الترتيب يدل على تسلسل درجاتهم. فقال بعضهم: «إنّ الأنبياء وُضعوا فى المقام الأول لأنّهم وصلوا فى مجال المعرفة الإلهيّة إلى حد رؤيته عن قرب بباصرة القلوب، والصديقون فى المقام الثانى من المعرفة وهم كمن يرى الأشياء بعينيه من بعيد، والشهداء فى المقام الثالث وهم كمن يدرك وجود الشىء بالأدلة العقلية، والصالحون فى المقام الرابع وهم كمن يقبل الأشياء عن طريق تقليد الكبار واتّباع أهل الفن» «۲».

يمكن فى كثير من الحالات اطلاق كلمات (الشهداء والصالحين والصديقين) على الأنبياء أيضاً، لكن ربّما يُقال: إنّ هذه الأوصاف الأربعة عندما تصبح فى ازاء بعضها فانّها تعطى مثل هذا المعنى

ويبدو أنّ هناك تفسيراً أكثر روعة بشأن هذه الدرجات الأربع، وهو أنّ الحاجة إلى هداية المجتمع الإنسانى تحتاج فى بداية الأمر إلى الأنبياء أى (القادة الربّانيين). ومن بعدهم يأتى دور الصديقين أى‌المبلّغين الصادقين فى القول والعمل الذين ينشرون دعوتهم

---

(۱). راجع تفاسير مجمع البيان؛ والكبير؛ والقرطبى؛ والمراغى؛ وروح المعانى؛ وفى ظلال القرآن ذيل الآية مورد البحث.

(۲). مقتبس من تفسير روح المعانى، ج ۵، ص ۶۸.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۶

من بعدهم، وفى المرحلة التالية عند اصطدامهم بالعوائق والموانع تبرز الحاجة إلى أشخاص يهبّون للدفاع ويقدّمون التضحيات حتّى يتمكّن الصالحون أخيراً من حكم المجتمع.

وفى هذه المناسبة ينبغى الإشارة إلى أنّ مرافقة هذه الفئات الأربع لا تعنى وحدة المقام معها، بل تعنى إمكانية الإرتباط بها كما هو الحال فى اتصال الطالب باستاذه أو الجندى بآمره.

ورد ما يشبه هذا المعنى ولكن بثوب آخر- فى قوله تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ». (الحجر/ ۴۷)

ويلحظ فى الآية ۳۱ من سورة الكهف إشارة إلى نفس المعنى أيضاً.

وعلى أيّة حال، فإنّ مرافقة هؤلاء الصالحين والاتصال بهم يُعد من أكبر اللذات المعنوية لأصحاب الجنّة.

۵- العلاقات الطّيبة

إنّ ما يملأ أجواء الحياة بهجةً هى الأحاديث الطيّبة التى يتبادلها الناس مع بعضهم، فلو كانوا كلهم صادقين ويفكّرون بشكل اصولى ويتعاملون فيما بينهم بالانصاف والمودّة ويتبادلون الحبّ والاحترام، لكانت حياتهم مملوءة بالاستقرار والبهجة، ولكن لو انحرفت العلاقات فيما بينهم نحو الكلام القبيح وتبادلوا التهم والأكاذيب والذم والتقريع وتنابزوا بالكلمات الفجّة التى تأباها الآداب العامّة، يصبح من الصعب على أحدهم صيانة شخصيته والتعامل فى مثل هذه الأجواء بل إنّ هذه الأجواء تصبح خانقة ومؤلمة له.

وأحد الخصائص الموجودة فى الجنّة هى خلوّها من هذه الظواهر، فأهل الجنّة لا يسمعون كلمة كذبٍ واحدة على مدى خلودهم أبداً ولا تطرق أسماعهم الكلمات النابية ولا الأحاديث الباطلة، وهذه من أهم الفضائل المعنوية التى يتمتّعون بها.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۷

قال تعالى فى القرآن الكريم: «لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغواً وَلَا تَأْثِيماً* إِلَّا قِيلًا سَلَاماً سَلَاماً». (الواقعة/ ۲۵- ۲۶)

فيُحيى بعضهم الآخر، والملائكة أيضاً تسلّم عليهم، والأهم من كل ذلك هو سلام اللّه عليهم وما تحمله تلك التحيات من المحبّة والاخلاص والصفاء، أجل، إنّ مجالس أهل الجنّة فوّاحة بالحب والمودّة، وإذا توفّرت مثل هذه الأجواء فى أى مكان فهو نموذج من الجنّة.

وجاء فى موضع آخر من الكتاب المجيد: «لَايَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوَاً وَلَا كِذَّابَاً». (النبأ/ ۳۵)

«اللغو»: فى اللغة يعنى الكلام الفارغ، وبعبارة اخرى الكلام الذى لا يتضمن أيّة أفكار أو معانٍ، ويبدو أنّ الكلمة مأخوذة اصلًا من (لغا) وهو صوت زقزقة العصافير، أمّا الضمير «فيها»: فقد أرجعه اغلب من فسر هذه الآية إلى أحد هذين الاحتمالين:

الأول: أنّه يرجع إلى كلمة الجنّة. الثانى: أنّه يرجع إلى كلمة الكأس التى وردت فى الآية السابقة لها. فاذا كان الاحتمال الأول فالمعنى واضح. وإذا صح الاحتمال الثانى فيكون المعنى أنّ شراب أهل الجنّة لا يسكر ولايسبب فيه أىلغو.

لكن التفسير الأول أكثر انسجاماً مع معنى «فيها» والآيات الاخرى المشابهة، وورد نفس هذا المعنى فى آية اخرى أقصر وأكثر وضوحاً حيث يقول تعالى «فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ* لَاتَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً». (الغاشية/ ۱۰- ۱۱)

هناك آيات قرآنية أخرى تؤكد على هذا المعنى منها (مريم/ ۶۲) و (يونس/ ۱۰).

إضافة إلى ماذكر، يتنعم أهل الجنّة بكثير من المتع المؤنسة ومجالس الفرح والبهجة والأحاديث المسلّية والمزاح اللطيف كما يصفهم القرآن: «إِنَّ اصْحَابَ الْجَنَّةِ اليَوْمَ فِى شُغُلٍ فَاكِهُونَ». (يس/ ۵۵)

تعنى كلمة «شُغُل» أية حادثة أو حالة تشغل الإنسان، ولكنها هنا تفيد معنى الحالة المسلّية التى تبعث السرور، وذلك بوجود قرينة «فاكهون» وهى جمع «فاكه» وتعنى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۸

الإنسان المسرور، وهى مشتقة من كلمة «فكاهة» ومعناها المزاح، وتعنى كلمة «فاكه» فى اللغة العربية الإنسان الممازح المرح الذى يجيد الأحاديث الطريفة.

وبما أننا نجهل طبيعة الأشياء التى يتسلى بها أهل الجنّة لأننا نقيس كل شىء فى هذا العالم بمعيارنا المحدد الصغير، فمن البديهى أنّ النعم التى يشغلون بها هناك لا يمكننا حتّى تصّورها فى هذا العالم.

وعلى أيّة حال فإنّ الامور التى تستهويهم وتشغلهم هناك تكون سبباً لنسيان آلام هذا العالم وهول المحشر أو فقدان بعض الأحبّة، ولا شك أنّ مواضيع التسلية السبعة أو العشرة التى ذكرها بعض المفسرين، إنّما هى موضوعة وفقاً للمعايير والتصورات الدنيوية للتسلية، وإلّا فالاوضاع فى ذلك العالم تختلف عّما فى هذا العالم «۱».

۶- الانشراح النفسى

قد يُدعى الإنسان أحياناً إلى أجمل الحدائق، وتوفّر له كافة مستلزمات الراحة، إلّاأنّ روحه منقبضة فلا يتلذذ بأى منها، فالإنسان يشعر بلذة النعم الإلهيّة فيما إذا كان منشرح النفس.

يُستفاد من مجمل الآيات الواردة فى هذا الصدد أنّ الفرح والانشراح يظهر على وجوه أهل الجنّة بكل وضوح، وقد استخدم القرآن الكريم عبارات جذّابة فى هذا الصدد، فإليك مثلا قوله: «ادخُلُوا الْجَنَّةَ انْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ». (الزخرف/ ۷۰)

فكلمة «تُحبرون»: مأخوذه من المصدر (حبر) على وزن (فكر)، وتعنى فى الأصل الآثار الجميلة حسب ما وردت فى كتاب (مقاييس اللغة)، ولذلك يطلق على الأشياء المزّينة اسم «مُحَبَّر» على وزن مُشّجر وسمّى الحِبرُ حِبراً لأنّه يترك وراءه أثراً جميلًا، ويُقال للعلماء «أحبار» لأنّهم يمتلكون آثاراً قيّمة، وهذه الكلمة تعنى هنا البهجة والانشراح الذى يظهر أثره على الوجوه «۲».

(۱). ورد نفس هذا المضمون فى سورة الطور، الآية ۱۸.

(۲). ورد نفس المعنى فى سورة الروم، الآية ۱۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۰۹

وقد وردت الإشارة إلى هذا الموضوع بتعبير آخر فى قوله تعالى: «تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ». (المطففين/ ۲۴)

فكلمة «النضرة»: تعنى فى الأصل الجمال، والمقصود من (نضرة النعيم) الطراوة والنعومة التى تظهر من أثر وفرة النعمة والحياة المرفهة وتعكس حالة (الارتياح والانبساط الداخلى) كما أنّ «تعابير الوجه تفشى سر الداخل» «۱».

وقد فسّر بعضهم هذه الكلمة بمعنى السعيد والفرح والمستبشر كما جاء فى قوله تعالى

«وُجُوهٌ يَومَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ* ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ» «۲». (عبس/ ۳۸- ۳۹)

ولكن الآيات السابقه لها تظهر أنّ هذه الآية تشرح حال المؤمنين فى مشهد المحشر وليس فى الجنّة.

وفسرها البعض الآخر بمعنى النور والجمال والاشراق الذى لا يتيسر للبيان وصفه، «۳» وذهب البعض الآخر إلى أنّها تعنى البِشْر والبشاشة التى تظهر على وجوههم شعوراً منهم برضا المحبوب أىاللَّه سبحانه وتعالى «۴».

ونقرأ هذا الوصف الآية الكريمة: «وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَّاعِمَةٌ* لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ».

(الغاشية/ ۸- ۹)

كلمة «ناعمة»: مأخوذة من مصدر (النعمة) وتعنى هنا الاستغراق فى النعمة إلى حد ظهور آثارها من السرور والارتياح على الوجه.

وقال آخرون: إنّها تعنى النعومة واللطافة، وهذه أيضاً حاصلة من النعم المختلفة «۵».

ومن الطبيعى أنّ هذه النعومة والطراوة، أو تلك الوجوه المنيرة على قول بعض المفسّرين

---

(۱). جاءت تعابير مشابهة فى سورة القيامة، الآية ۲۲؛ وسورة الدهر، الآية ۱۱.

(۲). تفسير الكبير، ج ۳۱، ص ۹۸ (نقله باعتباره قولًا).

(۳). المصدر السابق، ص ۹۹.

(۴). روح البيان، ج ۱۰، ص ۳۷۱.

(۵). تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۷۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۰

وكأنّها القمر فى الليلة الرابعة عشرة، ليست معلولة للنعم المادية فقط لأنّ النعم المادية لا يمكنها لوحدها إيجاد مثل هذه الآثار، ومن المؤكد أنّ هذا الأثر ناتج عما يختلج فى نفوس أصحابها من أحاسيس ومشاعر معنوية وروحية سامية تنعكس آثارها على أجسامهم، وختام الآية شاهد على هذا المعنى أيضاً.

۷- الشعور برضا اللَّه

ليس هناك شعور يخامر الإنسان أكثر من شعوره برضا محبوبه وعزيز قلبه، فهذا الشعور يثير لديه بهجة وارتياحاً لا يوصفان.

نعم، إنّ نيل رضا المحبوب من أكبر اللذات المعنوية، وهى لذّة ممزوجة بالشعور بالشخصية وقيمة الوجود، لأنّه إن لم يكن يتحلّى بالقيمة والشخصية، لما كان موضع قبول محبوبه الأكبر.

لقد أشار القرآن الكريم مراراً إلى هذه القضية المهمّة وجعل منها ركيزة يستند عليها، فبعد الإشارة إلى الجنان اليانعة والأزواج المطّهرة، ورد فى قوله تعالى: «وَرِضوانٌ مِنَ اللَّهِ» (آل عمران/ ۱۵)

فهذه النعمة التى تُعتبر أفضل من جميع النعم قد لُخّصت فى جملة قصيرة وبليغة.

وفى الآية ۷۲ من سورة التوبة ازيح الستار أكثر عن هذا الموضوع، فبعد الإشارة إلى مجموعة من النعم المادية المتوفّرة فى الجنّة ومنها الحدائق التى تجرى من تحتها الأنهار والمساكن الطّيبة، يقول تعالى «وَرِضوَانٌ مِّنَ اللَّهِ اكبرُ» ثم تُختتم الآية بالجملة: «ذَلِكَ هُوَ الفَوزُ العَظِيمُ».

فاستخدام تعابير من أمثال «أكبر» و «ذلك هو الفوز العظيم» يُظهر بوضوح عدم وجود نعمة تضاهى هذه النعمة وبالشكل الذى يتضمن مفهوم الحصر وكأنّ الجملة تريد أن تقول:

(ذلك هو الفوز العظيم لا غير).

لقد ذكرنا عدّة مَرّات عدم إمكانية تصوّر أىٍّ من النعم المادّية للعالم الآخر فى نطاق هذا السجن الدنيوى المحدود، فكيف يجوز ذلك بشأن نعمة روحية ومعنوية كبرى ألا وهى «رضوان اللَّه».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۱

و يمكننا أن نفهم بشكل إجمالى الفارق بين النعم المادّية والمعنوية واللّذات المنبثقة عن أىٍّ منهما، فنحن نعرف مثلًا أنّ اللذة الناتجة عن لقاء الحبيب الغالى بعد سنوات من الفراق، أو الشعور باللذة من جرّاء اكتشاف قضّية علمية معقدة كُنّا نبحث عنها لسنوات طويلة، والأكثر من كل ذلك النفحات الروحية والانشراح النفسى الذى يغمرنا حين العبادة الخالصة والمناجاة المقرونة بحضور القلب والمحبّة الدافئة، نعرف أنّه لا يمكن مقارنة كل هذا بلذّة الطعام والشراب وسائر اللذات المادّية الاخرى

روى أبو سعيد الخدرى حديثاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال فيه:

«إنّ اللَّه يقول لأهل الجنّة: ياأهل الجنّة؛ فيقولون لبيك ربّنا وسعديك والخير فى يديك، فيقول: هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى ياربِّ وقد اعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقكَ:

فيقول: ألا ـ اعطيكم أفضلَ من ذلك، فيقولون ياربّ وأىُّ شىءٍ أفضل من ذلك فيقول: احلُّ عليكم رضوانى فلا أَسخطُ عليكم بعده أبداً» «۱».

وورد نفس هذا المعنى عن الإمام على بن الحسين عليه السلام ولكن بتعبير آخر، جاء فى آخرهِ: «فيقول تبارك وتعالى رضاى عنكم ومحبّتى لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه» «۲».

«رضوان»: يعنى الرضا والارتياح بالمعنى المصدرى، ومجيئُها هنا على هيئة النكرة يدل على العظمة، أى إنّ رضوان اللَّه الأكبر أهم من كل شىء.

و قيل أيضاً: إن تنكيرها هنا فيه دلالة على القِلّة، أى إنّ أقلَّ رضاً من اللَّه يُعتبر أكبر من جميع النعم المادية المتاحة فى الجنّة.

وعلى أيّة حال، فليس فى ميسور أحد وصف تلك النفحات الروحية واللذات المعنوية التى ينالها الإنسان بسبب الشعور برضا اللَّه، نعم إنّ أى جانب من هذه اللذة الروحية يفوق جميع النعم والمسرّات الموجودة فى الجنّة.

وممّا يسترعى الانتباه أَنَّ الآية (۱۱۹) من سورة المائدة، وبعد سردها للنعم المادية فى

---

(۱). تفسير روح الجنان، ج ۶، ص ۷۰؛ تفسير روح المعانى، ج ۱۰، ص ۱۲۲.

(۲). تفسير العيّاشى، آخر الآية مورد البحث وفقاً لما جاء فى تفسير الميزان.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۲

الجنّة، أشارت إلى الرضوان وصورته وكأنّه أمر متبادل بين الخلق والخالق قائلة: «رَضِىَ اللَّهُ عَنهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذلِكَ الفَوزُ العَظِيمُ». وما أجمل أن يكون الرضا من الجانبين، فهو يغرقهم بالنعم حتّى يرضون، ويغمرهم بالمحبّة بحيث يعلن لهم عن رضاه، وخلاصة القول أنّه

لا ـ فوز أكبر من أن يشعر الإنسان بأنّ مولاه ومحبوبه ومعبوده راضٍ عنه. ودلالة ذلك الرضا أنّه يفيض عليه بكل ما يتصور وما لا يتصور من النعم.

وعبارة «راضية مرضية» من الآية ۲۸ من سورة الفجر هى أيضاً إشارة إلى نفس هذا المعنى إذ تصوّر النفس المطمئنة لعباد اللّه المخلصين الذين يصلون إلى جوار قرب المحبوب قائلة: إنّ صاحب النفس المطمئنة يرجع إلى ربّه وهو راضٍ عنه ورّبه راضٍ عنه أيضاً، وهنا يصدر الأمر الإلهى: «فَادْخُلِي فِي عِبَادِي» كتاج للكرامة يزّين به الرأس، فياله من فخر كبير عندما يخاطب تعالى الإنسان فى قوله: «عبادى»!

نعم هذه هى عقبى من اجتاز مرحلة النفس الأمّارة والنفس اللوامة ووضع قدمه على أعتاب النفس المطمئنّة. فكبح جماح الأهواء، وأَلجم الشيطان وامتطى مركب التقوى

ولا تقتصر الآيات المتعلقة برضا اللّه فى يوم القيامة باعتباره نعمة إلهيّة، على ما ذكرناه، فهذا المعنى يلوح للعيان فى آيات اخرى أيضاً ويعكس الأهميّة الاستثنائية لهذا الموضوع «۱».

۸- نظر اللّه إليهم ونظرهم إليه

إنّ من أثمن اللذّات المعنوية هى أن يجود المحبوب الجامع لكل الكمالات بنظرة لطف على الإنسان ويتحدّث إليه، والأكثر أهميّة من كل ذلك أن يتمكن الإنسان من بلوغ مقام شهود ذاته المقدّسة أى إنّه يراه بقلبه ويغرق فى بحر جماله.

وقد أكّد القرآن الكريم مراراً على هذه النعمة المعنوية، فتذكر احدى الآيات العذاب

---

(۱). راجع سور، القارعة، ۷؛ والتوبة، ۲۱؛ والحديد، ۲۰؛ والبيّنة، ۸.

الإلهى الأليم على من يكتم آيات اللّه بالقول: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اليِمٌ». (البقرة/ ۱۷۴)

ويتحدث القرآن فى موضع آخر عن نفس هذا الموضوع والعذاب الإلهى على من يشترون بعهد اللّه ثمناً قليلًا: «وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ اليِمٌ». (آل عمران/ ۷۷)

نعم، إنَّهم محرومون من لذّة التكلم مع اللّه ونظرة رحمته ولطفه، ولذلك فهم لا يطهرون، ولما كانت الجنّة مأوى الأطهار فهم يبقون فى جهنّم يذوقون أليم عذابها.

و نستفيد من هاتين الآيتين أنّ هذه النعم والهبات سوف يخص بها اللّه سبحانه وتعالى المؤمنين وأصحاب الجنّة، وسوف يكلمهم بلطف، ولهم نفس المنزلة التى أولاها لأنبيائه فى هذه الدنيا، فالتذوا واستأنسوا بما وهبهم اللّه سبحانه وتعالى، وأيّة لذّة أعظم وأحسن من هذه اللذّة؟ فبالإضافة التى نعمة الحديث معهم، فإنّ اللّه ينظر إليهم نظرة لطف خاص، وآية موهبة أعظم من هذه الموهبة؟ حيث ينظر المحب نظرة لطف ومحبّة إلى محبوبه الصادق العاشق الولهان؟!

ومن البديهى أنّ الكلام لا يكون باللسان، ولا النظر يكون بالعين، فاللّه سبحانه أجل من الجسم والجسمانية.

ربّما يحصل أحياناً أن يغضب الأب على إبنه فلا يكلّمه ولا ينظر إليه، وإذا كان الابن واعياً فهو يعتبر هذا التجاهل من أبيه تجاهه أكبر عذاب نفسى له، أمّا فى حالة الرضا عنه فهو يجلس معه وينظر إلى قوامه ويحادثه بانشراح ومحبّة وهذا من دواعى فخر الابن وسعادته.

هذا فى عالم المادّة والجسم والصورة، ونفس هذه القضيّة تحدث بمقياس أسمى فى عالم المعنى بين المولى الحقيقى وعباده.

وذكرت سورة القيامة لذّة النظر إلى الجمال الذى لا مثيل له للمحبوب الحقيقى: «وُجُوهٌ يَومَئِذٍ نَّاضِرَةٌ* الَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ». (القيامة/ ۲۲- ۲۳)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۴

وما يلفت الانتباه هنا هو أنّ تقديم (إلى ربّها)- وهو ما يفيد الحصر-، يدلّ على أنّهم ينظرون إليه فقط فى ذلك اليوم ولا ينظرون إلى سواه، وهم إن نظروا إلى غيره فهى ليست إلّا نظرة عابرة، ومع ذلك فهم يرونه هو وحده لأنّ كل ما فى العالم مظاهر لذاته المقدّسة وآثار لطفه ورحمته، وفى الحقيقة أنّ رؤية الأثر هى بمثابة رؤية المؤثر.

وهناك احتمال آخر أيضاً فى تفسير هذا المقطع من الآية: «اَلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ» يشير إلى انتظار الناس لرحمة اللَّه ولطفه، كما نقول أحياناً إنّ الشخص الفلانى لا ينظر إِلّا إليك أى أنّه ينظر كرمك وفضلك، أو عندما نقول إننا نعقد الأمل عليك، ولا مانع من اتساع معنى الآية لتشمل كلا المفهومين.

وقد استدل أغلب مفسرى أهل السُنّة عند وصولهم إلى هذه الآية ببعض الروايات الضعيفة التى تشير إلى المشاهدة الحسيّة للَّه‌تعالى وقالوا: إنّ أحد نعم أهل يوم القيامة رؤية اللَّه بهذه العين، حتى أنّ بعضهم قال: إنّ اللَّه يظهر فى السماء على هيئة النور! وهم ينظرون فوق رؤوسهم ويلتذّون بمشاهدة نور اللَّه بهذه العين المجرّدة.

وقد بحثنا فى الجزء الرابع من هذا التفسير وبشكل موسّع فى بطلان مثل هذه التصوّرات المليئة بالشرك والتى تهبط فى تصوير الإله إلى أنّه جسم محدود بالمكان والاتّجاه، وشرحنا كذلك ضعف هذه الأحاديث، ولا نرى لزوم تكرار ما سبق القول فيه، وإننا نعتبر مثل هذا الخطأ الفاحش ناتجاً عن الابتعاد عن تعاليم أهل البيت عليهم السلام ونسيان حديث الثقلين المتواتر «۱».

من البديهى أنّ آثار عظمة اللَّه فى ذلك اليوم أوضح بكثير ممّا عليه الحال فى الدنيا، وكذلك الحجب المظلمة التى تغطى قلوب المؤمنين فى هذا العالم فانّها ستُزاح جانباً حتّى ليمكنهم مشاهدة ذاته المقدّسة من خلال نظرة قلبية وروحية واحدة، بل ويكون الفيض الشهودى أحياناً أعمق، فيغمرهم بجماله فينسون الجنّة والنعم التى هم فيها.

و نختم بحثنا هذا بآية أُخرى تتحدث عن هذا الموضوع بأسلوب آخر، إذ ورد فيها:

---

(۱). للمزيد من المعلومات، يرجى المراجعة الى ج ۴، ص ۱۷۵- ۱۹۲ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۵

«كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَومَئِذٍ لَمحْجُوبُونَ». (المطففين/ ۱۵)

وهل هناك جزاءٌ أشدّ ايلاماً من حرمان الإنسان من لقاء اللَّه ومنعه من الحضور فى المحضر الإلهى المقدّس.

ومفهوم هذا الكلام هو أنّ المؤمنين غير محجوبين فى ذلك اليوم، بل يتمتّعون برؤية جمال الحق ويتلذّذون بفيض لقاء المحبوب الذى لا نظير له، وإن كان ذلك الحجاب عذاباً أليماً للكفّار فهذا اللقاء هو من أمتع اللّذات بالنسبة للمؤمنين.

۹- لهم ما يشتهون

قد يقوم المضيّف أحياناً بتهيئة جميع المستلزمات الضرورية لضيفه العزيز، لكنَّها عادة ما تكون محدودة بشكل أو آخر، إلّاأنّه عندما يعِدُهُ بتوفير كل ما يشتهى وما يطلب بلا استثناء فالضيف يشعر فى مثل هذه الحالة بالارتياح والسكينة لأنّه يتأكد من انعدام أيّة قيود أو حدود فى هذا الصدد.

و كما أنّ هذا الكلام يصدق على النعم الماديّة فى الجنّة، وهو كذلك يصدق تماماً على النعم المعنوية فيها، وبعض تعابير الآيات القرآنية تتّسق معانيها أكثر مع النعم المعنوية، فمثلًا ورد قوله تعالى بعد التحدث عن حدائق الجنّة: «لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ». (الشورى/ ۲۲)

فتعبير «عند ربّهم» وتعبير «ذلك هو الفضل الكبير» يتناسبان مع العطايا المعنوية والروحية فى الجنّة، وقد اشير إليهما بعد تبيان النعم

المادّية.

وقد ورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى دون الإشارة إلى النعم المادية: «لَهُمْ مَّا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ». (الزمر/ ۳۴)

وعلى هذا فلا توجد هناك أيّة قيود على النعم فى الجنّة وخاصّة فى الأبعاد الروحية والمعنوية، بالإضافة إلى ما تتضمنه هذه التعابير من دلالات على عدم محدودية نِعَم الجنّة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۶

فى الاطُر المادية، فهى تُظهر أيضاً عدم وجود أيّة محدودية فى أىٍّ من الجانبين.

وبتعبير آخر إنّ اللَّه يهب الإنسان القدرة التى تجعل من إرادته سبباً لحصول أيّة نعمة، خلافاً لما عليه الحال فى الدنيا إذ إنّ إرادة الإنسان فيها تابعة لوجود الأسباب وتوفّر العوامل، فعندما يرغب الإنسان فى التجوال فى روضة أو بُستان ولا يكون الجو معتدلًا ولا الأشجار يانعة، فإرادة الإنسان لا تستطيع مطلقاً خلق أجواء ربيعية أو أشجار مورقة نديّة، ولكنه فى الجنّة ما أن يطلب شيئاً حتّى يتحقق له بإذن اللَّه، وهذا الامتياز مثير للعجب «۱».

وقد طرح بعض المفسرين، الذين يصرّون على قضية رؤية اللَّه تعالى هذه المسألة هنا وقالوا: إنّها تتضمن المشاهدة أيضاً، فمن ذا الذى لا يطلب ولا يبغى رؤية اللَّه جل وعلا؟! «۲»

لكن خطأهم الفاحش يكمن فى عدم رغبتهم للاذعان لهذه الحقيقة وهى أنّ مشاهدة اللَّه حسيّاً أمر غير ممكن، وذلك لأنّ الاتصاف بالجسمية والمكانية والأينية لا تعدو أن تكون من الصفات الخاصة بالمخلوقات وهو أمر مستحيل بشأن ذاته المقدّسة، وأهل الجنّة لا يطلبون المحال، أمّا المشاهدة القلبية والباطنية فهى متيسرة فى هذا العالم وكذلك فى العالم الآخر.

وفى نفس هذا السياق ورد فى قوله تعالى «لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ». (ق/ ۳۵) ويدلّ هذا التعبير على توفير كل ما تتسع له جملة «لهم ما يشاءُون» وكل ما تشتمل عليه إرادتهم إضافة إلى توفير جميع النعم والعطايا التى لم تخطر على بال أى إنسان، ويشملهم بلطفه الذى يستعصى على البيان وصفه.

ويُستدل من بعض الروايات أنّ جملة: «ولدينا مزيد» هى إشارة إلى أيّام الجمعة التى يحظى فيها أهل الجنّة بكرامات وعنايات خاصة من قبل البارى جلّ وعلا، وهو أكثر لديهم

---

(۱). مقتبس من تفسير الميزان، ج ۱۷، ص ۲۶۰.

(۲). تفسير الكبير، ج ۲۶، ص ۲۸۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۷

باثنين وسبعين مرّة «۱»، وتوجد هناك آيات اخرى فى القرآن الكريم تتّسق بشكل أو آخر مع الآيات السابقة الذكر «۲».

۱۰- النعم التى لا يدركها التصور

تُلحظ فى القرآن الكريم تعابير تذهب إلى أكثر بكثير ممّا ذكرناه لحد الآن، فهى تتحدث عن قضيّة تخرج عن إطار التفكير لدى جميع أبناء البشر ولا تسعها دائرة التصور والخيال والوهم، وهى أبعد ممّا قرأنا وكتبنا.

إنّ استدلال الآيات القرآنية بمثل هذا الأمر يعكس مدى عظمة النعم الإلهيّة والتى يعجز البيان عن وصفها، وهى من الآيات العجيبة فى القرآن، مثل: «فَلَا تَعلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِىَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ اعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». (السجدة/ ۱۷)

وجاء فى حديث مشهور عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ اللَّه يقول أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ولا اذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر» «۳».

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه البشارة العظمى قد وردت فى القرآن الكريم فى أعقاب سرده لصفات المؤمنين الذين يقومون الليل لمناجاة ربّهم (صلاة الليل) والذين ينفقون من أموالهم؛ وهذه دلالة على أنّ أفضل الطاعات والعبادات والأعمال الصالحة هى «صلاة الليل»، «والانفاق»، والغريب فى الأمر أنّ صلاة الليل تعنى عبادة يؤدّيها المؤمن فى الخفاء، وكذلك الانفاق الخالص فإنّه غالباً ما يجرى فى الخفاء كذلك، ويكون الجزاء على ذلك من قبل اللّه تعالى فى الخفاء أيضاً، فجعله مستوراً ولم يُطلع عليه أحداً.

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۲۶، ح ۲۷.

(۲). من جملة ذلك: سورة يس، الآية ۵۷؛ سورة فصلت، الآية ۳۱ والتى تشتمل على النعم المختلفة ويتبيّن ذلكمن خلال تعابيرها: «ولهم ما يدّعون» «ولكم فيها ما تدّعون».

(۳). نقل هذا الحديث عدد كبير من المفسرين منهم الطبرسى فى مجمع البيان؛ والآلوسى فى روح المعانى؛ والقرطبى فى تفسيره؛ والعلّامة الطباطبائى فى الميزان، وذكره كل من البخارى ومسلم فى كتابيهما.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۸

وهناك نقطة اخرى أيضاً تسترعى الإنتباه وهى أنّ تعبير «قرّة أعين» تعنى برودة الأعين «۱». لأنّه من المعروف بين العرب أن «دموع الشوق» التى تنهمر عادة من الأعين عند الفرح الشديد تكون باردة، على العكس من دموع الحزن التى تتصف عادة بالحرارة والحرقة، لذا فإنّ العربى عندما يريد القول: إنّ الموضوع أو الحادثة الفلانية مدعاة للسرور والارتياح، نراه يقول «قرة العين أو قرّة أعين».

وعلى أيّة حال فهنالك كلمات وآيات لا يبلغها عقل الإنسان مهما بلغ من التسامى ومهما ارتقى من الذُرى وكلما تعمّق لسبر أغوارها كلما توصل إلى مفاهيم وأبعاد جديدة، حتّى يصل الفكر إلى مكان يقف عنده ويعترف بعدم القدرة على بلوغ أعماقه، والآية التى نبحث فيها تمثل فى الواقع إشارة قيّمة وذات مغزىً للنعم الروحية والمعنوية العظيمة لأصحاب الجنّة، فهى تحمل بين طيّاتها هذا المفهوم وهو عدم استطاعة أى إنسان حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين من بلوغ هذه الحقيقة ومعرفة ما أخفى اللّه من جزاء لخاصة عباده، ومن المؤكد أنّهم يبلغون درجات عالية من القرب إلى ذاته المقدّسة ومراحل رفيعة من وصال لقائه ومنازل سامية من عنايته وألطافه لا يدركها إلّامن بلغها.

۱۱- خلود نِعَم الجنّة

وممّا يضفى على الجنّة أهميّة بالغة وقيمة معنوية كبيرة ويميّزها تماماً عن جميع النعم الدنيوية هو (عدم إمكانية فنائها أو زوالها)، فلا قلق هناك من ذلك ولا خوف ولا وجل من انقطاعها، فالإنسان مطمئن البال فى هذا الجانب تماماً، وهذا الشعور بالأمان يضفى على تلك النعم طعماً خاصاً.

هذه الحقيقة يعرف معناها كل من ينال نصيباً وافراً من النعمة ثم تنتابه الهواجس الداهمة فى إمكانية ذهابها، فتمسى حلاوتها مرارة فى فمه.

---

(۱). «قُرّ» فى اللغة على وزن «حُرّ» وتعنى البرودة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۱۹

ويتضمن القرآن الكريم آيات عديدة فى هذا المجال وهى تذكّر دوماً بهذه الحقيقة وتزفّ البشرى للإنسان معلنة عن خلود النعم الإلهيّة، ليهنأ بها الإنسان ويعيش فى فرح وحبور.

جاء فی قوله تعالی «أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا». (الرعـد/ ۳۵) ولما كان هذا البحث يرتبط ارتباطاً وثيقاً بمسألة الخلود فإننا سـنتناوله بالبحث فی فصل آخر وبشكل مستقل.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۱

۴- أبواب الجنّة

تمهيد:

من المتعارف أنّ طريق الـدخول إلى أيّـة دار أو بناية أو حديقة مسوّرة إنّما يكون من أبوابها، وعلى هذا فأبواب الجنّة تحدد مداخلها، وقـد تكون للأبواب أقفال لا تفتـح إلّا بأدواتها الخاصّـة، وهو ما يطلق عليه العرب اسم «مفتاح» وجمعه: «مفاتيـح»، أو «مقليـد ومقاليد»، لكن أبواب ومفاتيح الجنّة لها مفهوم آخر، وتشير إلى الأعمال والامور المفيدة الخالصة التی تكون سبباً لدخول الجنّة، وقد وردت فی القرآن إشارات غامضـة إلى أبواب الجنّـة، لكن التفسـيرات التی وردت بشأنها فی الروايات الإسـلامية، تجسّد بوضوح القيم الإسـلامية بشأن المعايير التی تؤدّی إلى دخول مستقر الرحمة الكبرى أی الجنّة، نعود إلى القرآن لنتأمل فی الآيات المختلفة التی وردت فی هذا الصدد:

۱- «حَتَّى اذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ ابْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ». (الزمر/ ۷۳)

۲- «جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوابُ». (ص/ ۵۰)

۳- «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرتُم».

(الرعد/ ۲۳- ۲۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الجنّة فی الانتظار!

تشـير الآيـة الاولى إلى حركـة أصـحاب الجنّة (زمراً زمراً) نحو الجنّة: «حَتَّى اذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ ابْوَابُهَا وَقَالَ لَهُم خَزَنَتُهَا سَـلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويفهم منها أنّ أصحاب الجنّة عند

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۲

وصولهم إليها تفتح لهم الأبواب وكأنّ الجنّة فی انتظارهم فتسـتقبلهم ويقول لهم خزنتها سلام عليكم، حتّى أنّهم لا يتحمّلون مشقة فتح الأبواب.

ويتجلّى نفس المعنى فی الآية اللاحقة ولكن بتعبير آخر: «جَنَّاتِ عَدنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْابوَابُ».

ولمـا كـانت كلمـة «مفتّحـة» من بـاب التفعيـل وتعطی فی مثـل هـذه الموارد مفهوم الكثرة والتأكيـد، فهی ربّما تشـير إلى انفتاح جميع الأبواب أمامهم لا باب واحدة، وأنّها مفتوحة على مصاريعها تماماً.

هـل تنفتـح هـذه الأبـواب من ذاتها وكأنّ لها روح وحياة، أم أنّها تنفتـح مع اقتراب أهل الجنّـة منها احتراماً لهم؟ أم أنّها تنفتـح بمجرّد القصد والأمر والإرادة ولا حاجة لأية واسطة أُخرى أم أنّ ملائكة الجنّة وخزّانها قد فتحوها من قبل احتراماً لأهلها ووقفوا جانباً ينتظرون قـدومهم، كمـا نفعـل نحن تجـاه الضـيوف الأـعزاء؟ يبـدو أنّ الاحتمـال الأـول يناسب المقام أكثر من غيره؛ ويحتمل أن تكون صـيغة المجهول دلالة على ذلك، وفی نفس الوقت يبدو أنّ انتظار ملائكة الجنّة وخزّانها إلى جانب الأبواب متناسباً مع الآية الاولى

وأخيراً ورد فى الآيـة الثالثـة دخول الملائكـة من الأبواب المختلفـة للجنّة، وذلك بعد اسـتقرار أصـحابها فيها، فتقول الآية: «وَالمَلائِكَةُ يَدخُلُونَ عَلَيهِم مِّن كُلِّ بَابٍ* سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ».

ألا يعنى هذا أنّ جميع الأعمال الصالحة، التى تمثل فى الحقيقة أبواب الجنّة، تتلخص فى الصبر والاستقامة؟!

توضيحان

۱- أبواب الجنّة فى الأحاديث الإسلامية

لم تُشِر أى من الآيات القرآنية إلى وجود ثمانية أبواب للجنّة، بل أُشير إلى أنّ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۳

جهنّم: «لَهَا سَبعَةُ أَبوَابٍ». (الحجر/ ۴۴)

لكن الأحاديث الشريفة قد أشارت مراراً إلى أنّ للجنة ثمانية أبواب، وذلك إشارة إلى أنّ طرق الوصول إلى السعادة والتى تمثل الجنّة مظهرها هى أكثر من طرق السقوط فى هاوية البلاء والتى تمثل جهنّم مركزها، وأنّ رحمة اللَّه تسبق غضبه: «سبقت رحمته غضبه».

وقد جاء فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «إن للجنّة ثمانية أبواب». ثم تطرق إلى شرح هذه الأبواب فقال: «يدخل من بعضها الصدّيقون ومن بعضها يدخل الشهداء والصالحون، ومن بعضها يدخل محبّو أهل بيت العصمة عليهم السلام و ...» «۱».

وورد فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «أحسنوا الظن باللَّه واعلموا أنّ للجنّة ثمانية أبواب، عرض كل منها مسيرة أربعين سنة» «۲».

هـذا فى حين تشـير بعض الأحاديث الأُخرى إلى وجود واحـد وسـبعين باباً للجنّة. وورد هذا المضـمون فى حديث لأمير المؤمنين عليه السلام «۳».

ويحتمل أن تكون هـذه الاعداد إشارة إلى كثرة الأبواب. إلّا أنّها ذكرت فى أحد المواضع على أنّها ثمانية مقارنة بأبواب جهنّم وذلك للدلالة على أنّ أسباب بلوغ السعادة تفوق أسباب الشقاء، بل ويشير موضع آخر إلى كثرة الأقوام الذين يدخلون مستقر الرحمة الإلهيّة، كل من طريقه الخاص.

و يتّضح من التعابير المختلفة لهذه الروايات أنّ أبوابها تتناسب والأعمال الصادرة عن الصلحاء والمخلصين.

جاء فى حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السـلام عن النبى صلى الله عليه و آله: «للجنّة باب يقال له باب المجاهدين، يمضون إليه فاذا هو مفتوح وهم متقلّدون بسيوفهم والملائكة ترحّب بهم» «۴».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۲۱، ح ۱۲.

(۲). المصدر السابق، ص ۱۳۱، ح ۳۲.

(۳). المصدرالسابق، ص ۱۳۹، ح ۵۵.

(۴). اصول الكافى، ج ۵، ص ۲، ح ۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۴

وورد نفس هذا المعنى فى نهج البلاغة ولكن بصياغة أُخرى «إنّ الجهاد باب من أبواب الجنّة فتحه اللَّه لخاصّة أوليائه» «۱».

وجاء أيضاً فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ للجنّة باباً يُدعى الرّيان لا يدخله إلّا الصائمون» «۲».

ونقل عنه أيضاً (صلوات اللّه عليه): «إنّ للجنّة باباً يُقال له باب المعروف لا يدخله إلّا أهل المعروف» «۳».

كما أشارت أحاديث أُخرى إلى «باب الصبر» و «باب الشكر» و «باب البلاء»، حتّى ذكر أنّ «أبواب الجنّة تحت ظلال السيوف» «۴» (وذلك إشارة إلى الجهاد).

و تنبغى الإشارة إلى أنّ بعض الأحاديث تفيد أنّ أبواب الجنّة هم رجال اللّه العظماء، كما جاء فى الكافى عن الإمام الكاظم عليه السلام أنّه قال: «إنّ عليّاً باب من أبواب الجنّة» «۵»، وهذه إشارة إلى أنّ كل من يتّبع هذا الرجل العظيم فى سلوكه وإيمانه وعمله، يدخل الجنّة.

يتّضح ممّا سبق معنى ومفهوم أبواب الجنّة وكيفيّتها أيضاً.

۲- المكتوب على أبواب الجنّة

إنّ المكتوب على باب كل بناية يعكس عادة المحتوى والهدف الحقيقى لتلك البناية، ويتبيّن من الروايات الإسلامية وجود كتابات على أبواب الجنّة تستوجب التأمل، وأنّ التمعّن فى مدلولات تلك الروايات يضفى عمقاً أبعد على ما ذكرناه آنفاً بشأن معانى أبواب

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

(۲). بحار الأنوار، ج ۹۳، ص ۲۵۲، ح ۱۷.

(۳). المصدر السابق، ج ۷۱، ص ۴۰۸، ح ۳.

(۴). ميزان الحكمة، ج ۲، ص ۱۰۴ (نقلًا عن تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۲۴۸).

(۵). اصول الكافى، ج ۲، ص ۳۸۹، ح ۲۱.

الجنّة ويستخلص منها حقائق أكثر سعة وأهميّة.

من جملة ذلك الحديث الوارد عن جابر بن عبد اللّه نقلًا عن النبى صلى الله عليه و آله: «مكتوب على باب الجنّة لا إله إلّااللّه محمد رسول اللّه، على أخو رسول اللّه» «۱».

ونظراً لكون الحديث أعلاه مذكوراً فى الكثير من كتب الشيعة والسنّة وبعبارات متباينة، فهو يبيّن مدى أهميّة هذه الأسس الثلاثة فى دين الإسلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام فى حديث له: «على باب الجنّة مكتوب الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر» «۲». فيشير هذا الحديث إلى أنّ أحد المبادىء الأساسية لدخول الجنّة، هو الاهتمام بالمشاكل المالية للفقراء والمساكين فى المجتمع وتقديم العون لهم.

وأخيراً جاء فى حديث آخر شرحٌ لما جرى فى المعراج ومشاهدة الجنّة والنّار فى ذلك السفر، فورد فيه أنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: «للجنة ثمانية أبواب ... على كل باب منها أربع كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها وللنار سبعة أبواب على كل باب منها ثلاث كلمات كل كلمة خير من الدنيا وما فيها لمن يعلم ويعمل بها فقال لى جبرئيل: اقرء يامحمد علىّ ما على الأبواب فقرأت ذلك؛ أما أبواب الجنّة فعلى أول باب منها مكتوب:

لا إله إلّااللّه محمد رسول اللّه على ولى اللّه لكل شىء حيلة وحيلة العيش أربع خصال:

القناعة، وبذل الحق، وترك الحقد، ومجالسة أهل الخير، وعلى الباب الثانى مكتوب: لا إله إلّا اللّه محمد رسول اللّه على ولى اللّه لكل شىء حيلة وحيلة السرور فى الآخرة أربع خصال مسح رؤوس اليتامى والتعطف على الأرامل والسعى فى حوائج المؤمنين والتفقد

للفقراء

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۳۱، ح ۳۴. ورد هذا الحديث أيضاً أو ما يشابهه فى الكثير من كتب السنّة منهم الحافظ أبونعيم الإصفهانى، فى حلية الأولياء، ج ۷، ص ۲۵۶، والحافظ أبو بكر البغدادى فى تاريخ بغداد، ج ۷ ص ۳۸۷، وابن المغازلى فى كتاب مناقب أمير المؤمنين (مخطوط)، والحافظ السمعانى النيسابورى فى مناقب الصحابة، والطبرى فى ذخائر العقبى (ص ۶۶)، وابن حجر العسقلانى فى لسان الميزان، ج ۴، ص ۸۱ ونقله جماعة آخرون (للاطلاع على مزيد من المعلومات يمكن مراجعة ج ۴ من كتاب احقاق الحق، ص ۱۹۹ وما تلاها، وص ۲۸۰ وما تلاها وص ۳۸۷).

(۲) بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۸۱، ح ۱۴۰ (ربّما يكون المراد من العدد ۱۸ مرّة هو أنّ القرض يتضمن عملين من أعمال الخير وهما أولًا: «قضاء حاجة المؤمن» وثانياً: الحفاظ على حيثيته. ولكل واحد منها عشرة حسنات، وبما أنّه يسترد المبلغ لذلك تنقص منه حسنتان وتبقى له ثمانية عشر).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۶

والمساكين، وعلى الباب الثالث مكتوب: لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه على ولى اللَّه لكل شىء حيلة وحيلة الصعبة فى الدنيا أربع خصال قلة الكلام وقلة المنام وقلة المشى وقلة الطعام، وعلى الباب الرابع مكتوب: لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه على ولى اللَّه من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم جاره من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم والديه من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيراً أو يسكت، وعلى الباب الخامس مكتوب: لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه على ولى اللَّه، من أراد أن لا يُظلم فلا يظلِم ومن أراد أن لا يُشْتَتم فلا يَشتِم ومن أراد أن لا يُذَل فلا يذِل ومن أراد أن يتمسك بالعروة الوثقى فى الدنيا والآخرة فليقل لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه على ولى اللَّه، وعلى الباب السادس مكتوب: لا إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه على ولى اللَّه من أراد أن يكون قبره وسيعاً فسيحاً فليبنِ المساجد ومن أراد أن لا تأكله الديدان تحت الأرض فليسكن المساجد ومن أحب أن يكون طرياً مطرّاً لا يبلى فليكنس المساجد ومن أحب أن يرى موضعه فى الجنّة فليفرش المساجد بالبسط، وعلى الباب السابع مكتوب: لا إله إلّا اللَّه، محمد رسول اللَّه، على ولى اللَّه، بياض القلب فى أربع خصال: عيادة المريض، واتباع الجنائز، وشراء الأكفان، وردّ القرض، وعلى الباب الثامن مكتوب: لا إله إلّااللَّه، محمد رسول اللَّه، على ولى اللَّه، من أراد الدخول من هذه الأبواب فليتمسك بأربع خصال: السخاء، وحسن الخلق، والصدقة، والكف عن أذى عباد اللَّه تعالى «۱».

إنّ الأبعاد التربوية والإنسانية لهذا الحديث شاملة وواضحة، وتبيّن أنّ دخول جنان الخلد رهين بأىّ أعمال وصفات.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۴۵، ح ۶۷ (مع شى من التلخيص).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۷

۵- سعة الجنّة

تمهيد:

لقد قلنا مراراً أنّ العالم الذى نعيش فيه محدود وحقير جدّاً بالقياس مع العالم الآخر، وأنّ البعث لا يمكن مقارنته فى السعة والشمول بالأطر الضيّقة الموجودة فى عالمنا، ولا أدلُّ على ذلك من الآيات القرآنية والروايات الإسلامية التى تتحدث عن مساكن أهل الجنّة وسعتها، ولابدّ لمثل هذه النعم العظمى أن توجد فى عالم عظيم وهائل.

نعود إلى القرآن لنتمعن فيه وهو يصف هذه السعة والعظمة:

۱- «سَابِقُوا إِلَى مَغفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرضِ السَّمَاءِ وَالْأَرضِ أُعِدَّت لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ». (الحديد/ ۲۱)

۲- «وَسَارِعُوا إِلَى مَغفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرْضُ اعِدَّت لِلمُتَّقِينَ». (آل عمران/ ۱۳۳)

۳- «وَاذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً ومُلْكاً كَبِيراً». (الدهر/ ۲۰)

جمع الآيات وتفسيرها

كعرض السموات والأرض:

لقد قدرت الآية الاولى سعة الجنّة بعرض السموات والأرض بقولها: «سَابِقُوا الَى مَغفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرضُهَا كَعَرضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ اعِدَّت لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

ومن الواضح أنّ المقصود من «العرض» هنا ليس ما يقابل الطول بل المقصود هو المفهوم

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۸

اللغوى الذى يعنى السعة والامتداد، «۱» وقد تحملت جماعة من المفسّرين مشقّة كبيرة للعثور على طول الجنّة بسبب الخطأ الذى وقعوا فيه فى فهم معنى «العرض».

وقال البعض أيضاً: إنّ لهذا التعبير بُعد كنائيٌّ، لأنّ أوسع ما يمكن أن يتصوّره ذهن الإنسان هو عرض السموات والأرض، وإلّا فسعتها الحقيقية أكبر من هذا بكثير.

وممّا يلفت الانتباه أنّ الحديث ابتدأ أولًا بالمغفرة الإلهيّة، ثم تطرق ثانياً إلى الجنّة وما فيها من امتداد وذلك لأنّ المغفرة تعنى التطهر من الذنوب ونيل الاستحقاق فى القرب الإلهى وهو ما يفوق الجنّة أهميّة، إضافة إلى أنّ الطهارة والمغفرة إذا لم تتحققا، فلن يكون هناك طريق للجنّة.

الفعل «سابقوا» مأخوذ من مصدر «المسابقة» وهو إشارة إلى هذه المسألة التى تعنى أنّ للجنّة والمغفرة أهميّة بالغة تحتّم على المؤمنين بذل الجهد لبلوغهما كما يفعل الابطال عادة حين التسابق لبلوغ هدف معيّن.

ويفهم من هذا التعبير أيضاً أنّ هذه الدنيا لا تعدو أن تكون سوى حلبة سباق والهدف النهائى لها هو ذلك العالم.

ولكن على أى شىء يجرى التسابق؟ لقد وضع الكثير من المفسيرين أصابعهم على مصاديق خاصة دون سواها، كأمثال التسابق نحو «الإسلام» أو «الهجرة» أو «الصلوات الخمس» أو «الجهاد» أو «التوبة».

إلّا أنّه من الواضح أنّ الآية تحمل مفهوماً أوسع يشمل جميع الطاعات والأعمال الصالحة، وأنّ ما ورد فى كلام هذه المجموعة من المفسرين يمثّل فى الواقع مصداقاً واحداً من هذا المفهوم الواسع.

---

(۱). قال الكثير من أصحاب اللغة أنّ «العرض» يقابل «الطول». لكنهم لم ينكروا أنّ العرض جاء أيضاً بمعنىالسعة، ووفقاً لما ورد فى كتاب «التحقيق فى كلمات القرآن الكريم» المعنى الأصل للعرض هو وضع الشىء فى مقابل الانظار، ولما كان نظر الإنسان غالباً ما يقع على عرض الأشياء لا طولها، لذلك استخدمت هذه الكلمة فى المعنى المذكور أعلاه، وعلى هذا فعرض السموات والأرض فى الآية التى نبحثها يعنى كل وجودهما الذى يمكن مشاهدته.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۲۹

أمّا الآية الثانية فهى انعكاس- ولكن بتعابير أخرى لنفس هذه القضية، فهناك كان الكلام عن السباق وهنا عن المسارعة، وهناك أوضحت الآية أنّ سعة الجنّة بعرض السماء والأرض، وهنا حُذِفت «كاف» التشبيه، وحلّت كلمة السموات محل كلمة السماء، وأشارت الآية هناك إلى أنّها- أى الجنّة- اعدّت للذين آمنوا باللّه ورسله، وهنا تقول الآية أنّها: «اعدّت للمتقين» حيث نصّت على «وَسَارِعُوا اِلَى مَغفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُم وَجَنَّةٍ عَرضُهَا السَّموَاتُ وَالْأَرضُ اعِدَّت لِلمُتَّقِينَ».

ولا يخفى أنّ «التسابق» يرتبط «بالمسارعة فى العمل» وأنّ «المتقين» هم «الذين يؤمنون باللّه ورسله» وذلك لأنّ التقوى هى انعكاس للإيمان الراسخ، وكلمة «السماء» تنطوى أيضاً على معنى الجنس الذى يشمل جميع السموات، إذن فالآيتان فى واقعهما تنشدان حقيقة واحدة.

وهنا واجه الكثير من المفسّرين سؤالًا حول ما إذا كانت سعة الجنّة كعرض السموات والأرض، فلن يبقى هناك مكان للنار! ويمكن تبيان جواب هذا السؤال بالصورة الآتية، وهى أنّ العالم يومذاك سيكون أوسع بمرّات عديدة من عالمنا هذا، لأنّه عالم أفضل وأكمل، وستكون سعة الجنّة فيه بسعة السماء والأرض فى عالم اليوم، والنّار فى معزل عنه، لأنّ ذلك العالم أوسع من عالمنا اليوم فى جميع الجوانب.

وهناك جواب آخر أيضاً عن هذا السؤال يتلخص فى أنّ النور والظلام متزاحمان، وكذلك النعمة والنقمة فى هذا العالم ولا تجتمعان طبعاً فى مكان واحد، ولكن ذلك العالم لا يحفل بمثل هذا التزاحم، فربّما يوجد الاثنان معاً وهما يغطّيان العالم فى وقت واحد، وبما أنّهما مرحلتان من مراحل الوجود والكينونة فهما لا يتزاحمان مع بعضهما.

ويمكن الإتيان بمثال بسيط لتوضيح هذا المعنى فى الأذهان وهو: ربّما تقوم احدى محطات الارسال الاذاعى ببث صوت رقيق وناعم على احدى موجاتها وفى نفس الوقت ينبعث من محطّة إرسال أُخرى صوت مزعج وكريه يصمّ الآذان مصحوباً بأنغام مرعبة،

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۰

وربّما تغطى هاتان الموجتان جميع أنحاء الكرة الأرضية إلّاأنّهما غير مسموعتين من قبل الناس العاديين، والشخص الوحيد الذى يمكنه الاستماع هو الذى يستطيع تنظيم أمواج محطته مع الموجه الاولى إذ يمكنه عند ذاك الاستغراق فى سماع النغمات الممتعة، أمّا الذين ينظمون أمواج محطتهم مع الموجة الثانية فيلقون العذاب والشقاء وكان الفريق الأول فى الجنّة والثانى فى جهنّم، وسنشرح هذا الكلام عمّا قريب بإذن اللّه.

وجاء فى الآية الثالثة والأخيرة تعبير غنى بخصوص عظمة الجنّة، وظاهر الآية يُخاطب به الرسول صلى الله عليه و آله: «وَاذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيتَ نَعِيماً وَمُلكاً كَبِيراً» «۱».

وطرحت فى تفسير الملك الكبير آراء متعددة تبلورت بصورة رئيسية حول محورين:

فقال جماعة: إنّ الملك الكبير إشارة إلى سعة وعظمة الجنّة وما فيها من قصور وغرف وحدائق، ومن جملة ذلك ماورد فى أحد التفاسير: «إنّ أدناهم منزلة ينظر فى ملكه من مسيرة الف عام، وفى بعض الروايات لمسافة الفى سنة» «۲».

واعتبره آخرون إشارة إلى العظمة المعنوية للجنّة والمقامات الرفيعة لأهلها، ومن جملة ذلك: أنّ الملائكة لا يدخلون عليهم إلّابإذنٍ منهم، ويؤدّون لهم التحية والسلام، أو أنّ الفناء والزوال لا وجود له هناك، أو أنّ لكل واحد منهم هناك سبعين باباً «۳».

وفسّر جماعة آخرون «الملك» بمعنى الملكية، والبعض الآخر قالوا إنّه يعنى الحاكمية.

وقال آخرون فى تفسير «الملك الكبير» أنّه يعنى «القرب إلى اللّه والشهود المعنوى

---

(۱). «ثَمّ» هنا ظرف مكان. و «رأيت» فعل لازم، وعلى هذا يكون معنى الآية: عندما تنظر هناك ترى نعمة كبيرةوملكاً عظيماً. وبناءً على التفسير الآخر يكون «رأيت» فعل متعدّ و «ثمّ» اسم إشارة للبعيد ومفعول به، فيكون مفهوم الآية: (إذا رأيت ذلك المكان رأيت

نعيماً وملكاً كبيراً).

(۲). تفسير روح الجنان، ج ۱۱، ص ۳۵۲؛ و تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۳۶۶۹؛ و تفسير المعانى، ج ۲۹، ص ۱۶۱؛ و تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۴۱۱.

(۳). تفسير البرهان، ج ۴، ص ۴۱۵؛ وتفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۴۱۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۱

لجلاله وجماله» ويمكن الجمع بين كل هذه المعانى، لعدم وجود أى تضاد بينها.

والذى يتّضح من مجموع هذه الآيات أنّه وكما أنّ النعم فى الجنّة تستعصى على الوصف بسبب أهمّيتها واتساعها وتنّوع أشكالها، فكذلك الحال بالنسبة لعظمة الجنّة وسعتها.

فكلّما يُقال فى هذا الباب يبقى قاصراً عن أداء الوصف المطلوب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۳

۶- هل الجنّة مخلوقة؟

تمهيد:

مع أنّ الوعد الإلهى حق، ولا تخلف فيه، وأنّ جزاء المؤمنين ومعاقبة وتعذيب الكافرين الذى وعد بهما اللّه سيتحقق قطعاً، لأنّ التخلف عن الوعد لا يكون إلّابسبب العجز والضعف أو بسبب الجهل والندم، وهذا ما لا يمكن أن توصف به ذاته المقدّسة، وعلى هذا يمكن للجميع أن يرجوا وعده ويخشوا وعيده وما أنذر به من العقاب، إلّاأنّ الآيات القرآنية- رغم ذلك- تؤكّد أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان الآن وهما موجودتان الآن وجاهزتان لاستقبال المستحقّين! و يُستفاد أيضاً من الروايات المختلفة أنّ الأعمال الصالحة التى تصدر عن الناس هى التى توجد الجنّة، وهذا يُعتبر دليلًا على وجود الجنّة فى هذا الوقت، وسبب هذا التأكيد من أجل أن تدخل مسألة العقاب والثواب مرحلة أكثر جدّية، ولأجل أنّ يشعر المحسنون بوجود جزاء لأعمالهم على مقربة منهم، وليتحسس المسيؤون عواقب أفعالهم.

ونعود بعد هذا التمهيد الوجيز إلى القرآن ونتدبّر فى الآيات الواردة فى هذا الصدد:

۱- «وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّموَاتُ وَالْارْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ». (آل عمران/ ۱۳۳)

۲- «وَجَنَّةٍ عَرضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْارْضِ أُعِدَّت لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ».

(الحديد/ ۲۱)

۳- «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ». (البقرة/ ۲۴)

۴- «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّت لِلكَافِرِينَ». (آل عمران/ ۱۳۱)

۵- «وَلَقَد رَءَاهُ نَزْلَةً أُخرى عِندَ سِدْرَةِ المُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى .

(النجم/ ۱۳- ۱۵)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۴

۶- «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَانَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ». (العنكبوت/ ۵۴)

۷- «إِنَّ الابرَارَ لَفِى نَعِيمٍ* وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ* يَصْلَونَهَا يَومَ الدِّينِ* وَمَا هُم عَنهَا بِغَائِبِينَ». (الانفطار/ ۱۳- ۱۶) ۸- «كَلَّا لَو تَعلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَينَ الْيَقِينِ». (التكاثر/ ۵- ۷)

جمع الآيات وتفسيرها

اعدّت للمتقين!

جاء فى الآية الاولى والثانية بعد الإشارة إلى سعة الجنّة وعظمتها وأنّها كعرض السموات والأرض، إلى أنّها «أعدّت للمتقين».

قال كبار المفسرين عند تفسيرهم لهذه الآية أنّه يُستفاد منها أنّ الجنّة مخلوقة وموجودة الآن «۱».

وممّا يلفت الانتباه أنّ القرطبى أشار فى تفسيره لهذه الآية قائلًا: «يرى غالبية علماء الإسلام أنّ الجنّة مخلوقة الآن وموجودة، وأنّ صريح روايات المعراج والروايات الاخرى الواردة فى «الصحيحين» وغيرهما يفيد هذا المعنى لكن المعتزلة رفضوا هذا المعنى ولم يعتقدوا به وقالوا: إنّها تخلق بعد نهاية هذا العالم، وذلك لأنّها دار الثواب وهنا دار التكليف، وهما لاتجتمعان» «۲». ولا يشكل استدلال المعتزلة هذا إلّامغالطة لا أكثر ولا أقل، لأنّ الحديث هنا يدور حول خلقها حالياً لا دخول الناس فيها.

وتناولت الآيتان الثالثة والرابعة موضوع الوجود الحالى ل «جهنّم» إذ جاء فى إحداهما:

«فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ».

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۵۰۴؛ و تفسير الكبير، ج ۹، ص ۴؛ و تفسير روح البيان، ج ۲، ص ۹۴؛ و تفسير روح الجنان، ج ۳، ص ۱۸۸؛ و تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۴۶؛ و تفسير روح المعانى، ج ۴، ص ۵۱؛ و تفسير المنار، ج ۴، ص ۱۳۲.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۴۴۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۵

فتدل هذه الآيات على الوجود الحالى لجهنّم أيضاً وقد صرح بهذا المعنى جماعة من المفسرين، رغم ما ورد بشأنها من تفسير، وما قيل فى معنى «اعدّت» فمع أنّه فعل ماض إلّا أنّه يدل على المستقبل لأنّ المستقبل المؤكد يأتى أحياناً على صيغة الفعل الماضى، وهذا بخلاف ظاهر الآية، ومثل هذا التفسير غير ممكن بلا وجود شاهد وقرينة.

وتتحدث الآية الخامسة عن قصة معراج النبى صلى الله عليه و آله قائلة: «وَلَقَد رَءَاهُ نَزلَةً أُخرى عِندَ سِدرَةِ المُنتَهَى عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى .

لكن هل أنّ «جنّة المأوى» هى جنّة البرزخ أم أنّها جنّة الخلد؟

فالمفسرون يختلفون فى الحكم على هذا الموضوع، فكلمة «المأوى ربّما تستدعى إلى الذهن معنى الخلود رغم ما يفترضه كون هذه الجنّة فى بعض السموات من تداعى معنى الجنّة البرزخية، لأنّ جنّة الخلد تمتد على سعة الأرض والسموات.

وعلى هذا فالاستدلال بالآية الآنفة الذكر بشأن مخلوقية الجنّة لا يتطابق إلّامع التفسير الأول، ورجّح جماعة من المفسرين هذا المعنى منهم: الطبرسى فى مجمع البيان والعلّامة الطباطبائى رحمه الله فى الميزان.

وتتحدث الآية التالية عن احاطة جهنّم بالكافرين بسبب اصرارهم وعنادهم إذ يقول القرآن الكريم: «يَسْتَعجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَانَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ».

إنّهم لم يؤججوا لأنفسهم جهنّم الدنيا بشركهم وذنوبهم وعصيانهم وظلمهم فحسب بل وحتّى جهنّم الآخرة قد أصبحت محيطة بهم لاسيما مع التنبّه إلى بداية الآية التى تتحدث عن استعجال الكفّار بالعذاب، ومن المناسب هنا القول: لماذا تستعجلون فإنّكم الآن فى جهنّم إلّاأنّ حجب هذا العالم تحول دون تأثيرها المباشر عليكم، لكن هذه الحجب ستزول يوم القيامة وتشاهدون حينها بأعينكم إحاطة جهنّم بكم «۱».

وطرح احتمال آخر فى تفسير هذه الآية وهو أنّها إشارة إلى يوم القيامة، والآية التالية لها والتى جاء فيها: «يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوقِهِم». (العنكبوت/ ۵۵)

هى بمثابة القيد لإحاطة جهنّم.

---

(۱). رجح المرحوم العلّامة الشعرانى هذا المعنى فى هامش تفسير روح الجنان، ج ۹، ص ۳۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۶

وبعبارة اخرى جُعلت هذه الجملة إشارة إلى المستقبل المؤكد، فكما ذكرنا أنّ اللغة العربية تعبر عن المستقبل المؤكد «المضارع المتحقق الوقوع» بالحال حيناً وبالفعل الماضى حيناً آخر.

ويمكن الاستعانة بآيات سورة الانفطار لتأكيد التفسير الأول حيث جاء فيها: «انَّ الْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ* وَانَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ* يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ* وَمَاهُم عَنهَا بِغَائِبِينَ».

يتّضح من هذا التعبير أنّ «الصلى» يكون يوم القيامة إلّاأنّ جهنّم محيطة بالكافرين الآن، رغم أنّ الحجب تحول دون احتراقهم فى الدنيا، لاسيما ما ورد فى جملة: «وَمَا هُم عَنهَا بِغَائِبِينَ» فهو تأكيد مجدد على هذا المعنى (فتأمّل).

وتخاطب الآية الآخيرة منكرى يوم القيامة قائلة: «كَلَّا لَو تَعلَمُونَ عِلمَ اليَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ» ثم تضيف مؤكّدة: «ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَينَ اليَقِينِ».

ولو أننا أخذنا معنى الآية كما هو فى الظاهر (واعتبرنا «لو» شرطاً وجزاؤها «لترونّ الحجيم») لكانت تعنى: إنّ الذين لديهم «علم اليقين» يشاهدون جهنّم وهم فى هذا العالم، وهذا الكلام يستلزم وجودها حالياً.

أثار المفسرون ضجّة فى تفسير هذه الآية، واختار كل منهم طريقاً خاصاً وكأنّهم فى الغالب لم يتمكنوا من هضم هذا المعنى وهو إمكانية إشارة هذه الآيات إلى مشاهدة جهنّم فى الدنيا، ومن ثم مشاهدتها فى الآخرة.

فنحن نرى عدم إمكانية اعتبار الآية مكرّسة تماماً للآخرة وذلك لأنّ جميع الكفار والمجرمين يرون جهنّم فى القيامة وهذا ممّا لايحتاج إلى الشرط، ولهذا اعتقد جماعة بحذف جزاء الشرط هنا بل وادّعى الفخر الرازى اتّفاق المفسرين على هذا المعنى «۱». ولكن من البديهى أنّ هذا الكلام مبالغ فيه فليس هناك اتّفاق فى الآراء بشأن هذه المسألة، وعلى أيّة حال فقد اعتبر جماعة من المفسرين أنّ المعنى يكون هكذا: «لو تعلمون علم اليقين لما ألهاكم التكاثر» «۲».

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۷۸.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۳۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۷

أمّا المجموعة الأخرى التى رأت عدم صحة الرأى القائل بحذف الجزاء، فإنّها اعتبرت الرؤية علمية وقلبية، واستناداً إلى هذا سيكون معنى الآية: «لو أنّكم علمتم علم اليقين لأيقنتم بجهنم».

من الواضح أنّ كلا التفسيرين الأول والثانى يخالف ظاهر هذه الآيات، لأنّ اعتبار الجزاء محذوفاً يخالف القاعدة وكذلك تفسير الرؤية بمعنى العلم «۱».

وعلى هذا لو أننا أخذنا الآية كما هى من غير حذف أو تقدير، وفسّرنا ألفاظها طبقاً لمعناها الحقيقى: فستكون النتيجة نفس التفسير المذكور آنفاً، وقد ارتضى بعض المفسّرين هذا المعنى ولو بأعتباره واحداً من الاحتمالات على أقل تقدير.

ويلحظ فى الروايات الإسلامية تعابير واضحة تتسّق وهذا المعنى من جملتها القصّة المشهورة لذلك الشاب المؤمن والتى وردت فى كتاب الكافى وبصورة حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صلّى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب فى المسجد وهو يخفق ويهوى برأسه، مصفرّاً لونه، قد نحف جسمه وغارت عيناه فى رأسه، فقال له رسول اللَّه صلى

الله عليه و آله كيف أصبحت يافلان؟ قال: أصبحت يارسول اللَّه موقناً، فعجب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من قوله وقال: إنّ لكل يقين حقيقة فما حقيقة يقينك؟ فقال: إنّ يقينى يارسول اللَّه هو الذى أحزننى وأسهر ليلى واظمأ هواجرى فعزفت نفسى عن الدنيا وما فيها حتى كأنّى أنظر إلى عرش ربّى وقد نصب للحساب وحُشر الخلائق لذلك وأنا فيهم وكأنّى أنظر إلى أهل الجنّة، يتنعمون فى الجنّة ويتعارفون وعلى الارائك متكئون وكأنّى أنظر إلى أهل النّار وهم فيها معذبون مصطرخون وكأنّى الآن أسمع زفير النّار يدور فى مسامعى، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأصحابه: هذا عبدٌ نوّر اللَّه قلبه بالإيمان، ثم قال له، ألزم ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع اللَّه لى يارسول اللَّه أن ارزق الشهادة معك فدعا له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلم يلبث أن خرج فى بعض غزوات النبى صلى الله عليه و آله فاستشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر» «۲».

---

(۱). كلمة «الرؤية» تفيد معنى العلم أيضاً وذلك فيما لو تعدت إلى مفعولين، بينما هذه الآية ليست كذلك، وينبغى الالتفات إلى أنّ الآية التالية «ثم لترونّها عين اليقين» يمكن أن تشير إلى القيامة.

(۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۳ باب حقيقة الإيمان، ح ۲ (مع بعض التلخيص).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۸

و جملة «كأنّى الآن اسمع زفير النّار يدور فى مسامعى» دليل على وجود جهنّم حالياً وأنّه يراها بعينه عن طريق الإيمان الممتزج بالشهود.

ويُستفاد من مجموع الآيات المذكورة أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان وموجودتان حالياً ولو عُرِض هناك شكّ فى دلالة بعض هذه الآيات لا يمكن- على أقلّ تقدير- التشكيك فى دلالة المجموع، وخاصة الآيات التى تدور فيها كلمة «أعدّت».

توضيحات

۱- آراء العلماء المسلمين فى خلق الجنّة والنّار

يعتقد أغلب العلماء المسلمين- كما أشرنا سابقاً- بأنّ الجنّة والنّار موجودتان فى الوقت الحاضر واستدلوا ببعض الآيات المذكورة مسبقاً لتدعيم معتقدهم هذا، لكن بعض علماء الكلام من أمثال أبى هاشم وعبد الجبار وهما من قدماء المتكلمين يعتقدون بأنّ الجنّة والنّار ليس لهما وجود حالياً وأنّهما سيخلقان فيما بعد، وتأكيداً لرأيهم هذا استدلّوا بالآية الشريفة: «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ إِلَّاوَجْهَهُ». (القصص/ ۸۸)

فلو كانتا موجودتين حالياً فانّهما ستتعرضان للفناء فى نهاية هذا العالم وعندئذ تتنافى هذه الآية مع الآية القرآنية القائلة: «اُكُلُهَا دَائِمٌ». (الرعد/ ۳۵)

يقول العلّامة الحلى رحمه الله رداً على هذا الاستدلال: «إنّ الهلاك والفناء اللذين وردا فى الآية يُراد منهما الخروج عن قابلية الاستفادة، ومن البديهى أنّ الناس وجميع المكلفين لو كُتب عليهم الفناء لما عادت للجنّة أيّة فائدة».

والجواب الآخر عن هذا السؤال هو أنّ الجنّة والنّار غير موجودتين فى ظاهر هذا العالم بل فى باطنه، والهلاك والفناء يصدقان على ظاهر هذا العالم. (سيأتى عمّا قريب مزيد من التفاصيل بهذا الصدد).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۳۹

وقال البعض أيضاً: إنّ الآية: «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ» تشير إلى أنّ اللَّه عزّ وجلّ وكل ماخلق بغير أسباب مادّية وبلطفه ورحمته،

خالـد، وأنّ كلمـة «وجه اللّه» تشـمل جميع هـذه المعانى ومنها الجنّـة والنّار وأنّ الفانى والهالك هو عالم المادّة الذى جاء إلى الوجود بعلل مادية.

۲- الوجود الحالى للجنّة والنّار فى الروايات الإسلامية

هناك الكثير من الأحاديث الإسلامية تدعم هذا المعنى وتؤكد أنّ الجنّة والنّار مخلوقتان حالياً، ومن جملة ذلك ماورد عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حين سأله أحد أصحابه عن الجنّة والنّار هل هما مخلوقتان؟ قال عليه السلام: «وإنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قد دخل الجنّة ورأى النّار لمّا عُرِج به إلى السماء». فقال له السائل: إنّ قوماً يقولون إنّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين. فقال عليه السلام: «ماأولئك منّا ولا نحن منهم، من أنكر خلق الجنّة والنّار فقد كذّب النبى وكذّبنا» «۱».

ووردت فى الكثير من الروايات الإسلامية المتعلّقة بمعراج النبى صلى الله عليه و آله إشارات إلى موضوع الجنّة والنّار ووجودهما حالياً وهى تشكل فى الحقيقة تأكيداً لما ورد فى الآيات التى تناولناها بالبحث وأشار إليها القرآن الكريم فى سورة النجم أثناء الحديث عن معراج النبى صلى الله عليه و آله.

قال على بن إبراهيم فى تفسير هذه الآية: «وَلَقَد رَءَاهُ نَزْلَةً اخرى عِندَ سِدرَةِ المُنتَهَى «... وأمّا الرد على من أنكر خلق الجنّة والنّار فقوله عندها جنّة المأوى أى عند سدرة المنتهى فسدرة المنتهى فى السماء السابعة وجنّة المأوى عندها» «۲».

وهناك روايات تؤيد هذا المعنى جاءت فى مصادر أهل السنّة ومصادر الشيعة بخصوص ولادة السيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام جاء فيها أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قال: «لما عرج بى

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۱۹، ح ۶.

(۲). تفسير على بن إبراهيم، ج ۲، ص ۳۳۵.

إلى السماء أخذ بيدى جبرائيل عليه السلام فأدخلنى الجنّة فناولنى من رطبها فأكلته فتحوّل ذلك نطفة فى صلبى فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة عليها السلام ففاطمة حوراء إنسية فكلما اشتقت إلى رائحة الجنّة شممت رائحة ابنتى فاطمة» «۱».

جاء فى تفسير قوله تعالى «كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيهَا زَكَرِيَّا المِحرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً ...».

(آل عمران/ ۳۷)

وفى الكثير من المصادر الإسلامية الشيعية منها والسُنّية أنّ ذلك الطعام كان من فاكهة الجنّة كان اللّه يعطيها لمريم فى غير أوانها «۲».

وهناك روايات إسلامية وردت بشأن فاطمة الزهراء عليها السلام منها أنّ اللّه تعالى قد أنزل عليها مائدة من الجنّة وقد أكل منها النبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام وعدد من نساء النبى صلى الله عليه و آله والجيران وأنّ النبى صلى الله عليه و آله قد شبّه ذلك بقصة مريم وقال: «الحمد للّهالذى جعلك شبيهة بسيّدة نساء بنى اسرائيل» «۳».

قد يُقال إنّ هذا الكلام يتعلّق بالجنّة البرزخية وهى الجنّة التى تستقر فيها أرواح الشهداء بعد الشهادة وقبل القيامة، والجواب على مثل هذا الاعتراض هو أنّ الجنّة البرزخية ليست جنّة مادّية بل هى ذات بعد مثالى والأرواح تنعم فيها على هيئة القوالب المثالية، ومن البديهى أنّ مثل هذه الجنّة الخالية من الجانب المادى لن تحوى فاكهة نظير الفاكهة الموجودة فى عالمنا هذا والتى يمكن أنّ يستفيد منها الجسم المادّى، بل هى تشبه فى بعض جوانبها المشاهد التى يراها الإنسان فى المنام ويتلذذ بها.

(۱). ورد مضمون هذا الحديث فى الكتب الشيعية وفى الكثير من الكتب السنّية مثل: ذخائر العقبى ص ۳۶ وص ۴۴؛ والمستدرك على الصحيحين، ج ۶، ص ۱۵۶؛ و تفسير الدر المنثور للسيوطى فى تفسير آية «سبحان الذى اسرى بعبده».. وكتب اخرى

(۲). تفسير العياشى؛ وتفسير البرهان؛ و تفسير نور الثقلين؛ وكذلك تفسير الدر المنثور ذيل الآية ۳۷ من سورة آل عمران.

(۳). نقله كل من الزمخشرى فى الكشاف؛ والسيوطى فى تفسير در المنثور فى ذيل الآية ۳۷ من سورة آل عمران؛ والثعلبى فى قصص الأنبياء فى ص ۵۱۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۱

إضافة إلى هذا نقرأ فى روايات عديدة أنّ الجنّة حالياً فى حالة بناء واتساع بواسطة أعمال الإنسان، فبعض أعمال الإنسان ينتج عنها غرس أشجار جديدة فى الجنّة، ولا- تصح مثل هذه الأخبار إلّاإذا كانت الجنّة موجودة حالياً، ومن جملة ذلك ماورد فى الروايات التالية التى تحمل ابعاداً تربوية رفيعة:

۱- نقل أبو أيوب الأنصارى حديثاً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «فى ليلة المعراج مَرَّ بى إبراهيم الخليل عليه السلام وقال: مُر امّتك أن يكثروا من غرس الجنّة فإنّ أرضها واسعة وتربتها طيّبة قلت وما غرس الجنّة؟ قال. لا حول ولا قوة إلّابالله» «۱».

۲- جاء فى حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قال لا إله إلّااللّه، غرست له شجرة فى الجنّة» «۲».

۳- نقل الإمام الصادق عليه السلام حديثاً عن آبائه عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من قال سبحان اللّه غرس اللّه له بها شجرة فى الجنّة، ومن قال الحمد للّهغرس اللّه له بها شجرة فىالجنّة، ومن قال لا اله إلّااللّه غرس اللّه له بها شجرة فى الجنّة، ومن قال اللّه أكبر غرس له بها شجرة فى الجنّة» فقام له رجل من قريش كان بين الحاضرين وقال له: اذن فشجرنا فى الجنّة أكثر، فقال له النبى صلى الله عليه و آله: «نعم ولكن إيّاكم أن ترسلوا عليها نيراناً فتحرقوها» «۳».

۴- وجاء فى حديث آخر عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لمّا اسرى بى إلى السماء دخلت الجنّة فرأيت فيها ملائكه يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا، فقلت لهم: مالكم ربّما بنيتم وربّما أمسكتم؟ فقالوا حتّى تجيئنا النفقة! فقلت لهم: وما نفقتكم؟ فقالوا: قول المؤمن فى الدنيا: سبحان اللّه والحمد للّهولا إله إلّااللّه واللّه أكبر، فاذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا» «۴».

نختم هذا البحث بحديث للمرحوم العلّامة المجلسى، فقد قال فى نهاية هذه الرواية

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۴۹، ح ۸۳.

(۲). ورد هذا الحديث فى كتب كثيرة منها: المحاسن؛ ثواب الأعمال؛ بحار الأنوار عن اصول الكافى، ج ۲، ص ۵۱۷ ح ۲.

(۳). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۸۶، ح ۱۵۴.

(۴). المصدر السابق، ج ۱۸، ص ۳۷۵، ح ۸۰ (بشىء من التلخيص).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۲

المتعلقة بالجنّة والنّار والتى أوردها فى بحار الأنوار: «إعلم أنّ الإيمان بالجنّة والنّار على ماوردتا فى الآيات والأخبار من غير تأويل من ضروريات الدين، ومنكرهما أو مؤولهما بما أوّلت به الفلاسفة خارج من الدين، وأمّا كونهما مخلوقتان الآن فقد ذهب إليه جمهور المسلمين إلّاشرذمة من المعتزلة والآيات والأخبار الواردة دافعة لقولهم مزيّفة لمذهبهم، والظاهر أنّه لم يذهب إلى هذا القول أحد من الإمامية إلّاما ينسب إلى السيد الرضى» «۱».

۳- جواب على اعتراضين

لعل منكرى الوجود الحالى للجنّة والنّار يتمسكون باعتراضين أحدهما عقلى والآخر نقلى، أمّا الاعتراض العقلى فهو أن إيجادهما قبل القيامة لغو وعبث، لأنّه مامن أحد يدخل الجنّة أو النّار قبل حساب يوم القيامة ويبدو هذا شبيهاً لمن يبنى قبل الف عام داراً لمن يأتى بعد ألف عام، أليس هذا عبث؟!

والجواب على هذا الاعتراض واضح وهو أنّ هذه القضية- كما سبق منّا القول فيها- تترك تأثيراً تربوياً على الناس، فاللّه سبحانه وتعالى يريد أن يُفهم الناس أنّ الثواب العظيم غير مؤجّل ولا العقاب الأليم، بل كلاهما حاضر، ويبدو هذا الفعل شبيهاً بتهيئة مجموعة من الجوائز فى بداية العام الدراسى للطلبة الذين يحوزون فى نهاية العام على أعلى الدرجات بل وقد نضعها معروضة أمام أنظارهم ونقول لهم هذه المكافأة لمن يبذل أقصى الجهد فى الدراسة، أو يبدو شبيهاً بإعداد السجن والمشنقة مقدّماً للقتلة والجُناة.

ومن البديهى أنّ مثل هذا العمل لا يُعَدُّ عبثاً، بل له آثار عميقة أيضاً فى الجانب التربوى، ولكن بما أنّ الجنّة والنّار محجوبتان عن أهل الدنيا بسبب الحجب الموجودة حافظت الآيات القرآنية والأخبار النبوية فى هذا الصدد على ذلك التأثير.

والاعتراض الآخر هو علمنا بأنّ «كُلُّ شَىءٍ هَالِكٌ الَّا وَجْهَهُ» فى نهاية هذا العالم، ويمكن تقديم عدّة إجابات على هذا الاعتراض.

الأول: إنّ المقصود من «كل شى» هو الدنيا بأجمعها وما يتعلق بها، أمّا معنى «الهلاك» فلا

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۲۰۵، ذيل ح ۶۲.

يصدق على الجنّة والنّار فهما من الأشياء الباقية والمستثناة من الهلاك فوق العالم المادى أو فى باطنه، وهما خارج نطاق الدنيا الفانية.

الثانى: إنّ «الوجه» المستثنى يشمل جميع الامور التى تنتسب إليه بقوّة بحيث تُعتبر داخلة ضمن مفهوم «الوجه» وبما أنّ الجنّة والنّار هما مظهر رحمته وغضبه وموضع الثواب والعقاب فهما داخلتان ضمن الاستثناء طبعاً.

الثالث: إنّ «الهلاك» يعنى انعدام المستفيدين من الشىء كالدار العامرة التى يموت أهلها وتبقى بلا وارث، فهذه الحالة تسمّى أحياناً بالهلاك.

۴- أين الجنّة؟

يُطرح هذا السؤال جدّياً مع أخذ قضيّتين بنظر الاعتبار:

الاولى وهى أنّ الجنّة موجودة الآن، (طبقاً للشواهد المتأتّية من الآيات والروايات المذكورة سابقاً).

والثانية: إن عرض الجنّة كعرض السماء والأرض (استناداً إلى صريح الآيات الواردة فى البحث السابق).

ولعل البعض يقول: أين يقع بالدقّة مثل هذا الوجود الذى هو كعرض السماء والأرض؟

وكيف يمكن وجود مثل هذا الشىء دون أن تطاله حواسّنا؟

وقد أجاب جماعة عن مثل هذا السؤال بقولهم: تفيد الآيات القرآنية أنّ الجنّة موجودة فى السماء، فكما أشرنا سابقاً، إنّ عروج النبى صلى الله عليه و آله كان إلى السماء حيث أخبرت الآية الشريفة: «عِندَهَا جَنَّةُ المَأْوَى (وهذه النقطة هى أسمى وأرفع نقطة فى السماء).

«۱»

(النجم/ ۱۵)

رغم أنّ البعض اعتبرها الجنّة البرزخية التى تصعد إليها أرواح الشهداء أو أنّها جنّة آدم،

(۱). صرّح بذلك المرحوم الطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والفخر الرازى فى التفسير الكبير؛ والعلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان؛ والبرسوئى فى تفسير روح البيان؛ فى ذيل الآية ۲۲ من سورة الذاريات أو ذيل الآية ۱۵ من سورة النجم أو فى كليهما.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۴

ولكن كلا هذين الاحتمالين يخالف معنى التعبير الظاهرى لجنّة المأوى

وجاء فى قوله تعالى «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُم وَمَا تُوعَدُونَ». (الذاريات/ ۲۲)

إذ يعتقد كثير من المفسرين أنّ المقصود من «ماتوعدون» هى جنّة الخلد التى وعد اللَّه بها عباده «۱»، وقال جماعة إنّ هذا يشمل الجنّة والنّار رغم قول البعض أنّ الغرض هو الإشارة إلى العذاب الدنيوى الذى ينزل على الكفّار والجبابرة (كعذاب قوم نوح وقوم لوط وأمثالهما).

محصّلة هذا الكلام هو أنَّ جنّة الخلد تقع فى ماوراء السماء الدنيا وسعتها كعرض السماء والأرض أو أنّها أوسع من ذلك بعدّة مرّات لعدم وجود ما هو أوسع من هذا البيان ليصف به القرآن سعة الجنّة، وعلى هذا الأساس فهى موجودة ومكانها فى السماء وسعتها كعرض السماء والأرض فى هذه الدنيا.

وقد طرح بعضهم عدّة مؤاخذات على هذا الرأى وهو إذا كانت الجنّة فوق الفلك التاسع فهذا يستلزم أنّها كائنة فى اللامكان واللاجهة! وهى إنّ كانت واقعة فى طبقات السماء أو بين فلكين من هذه الأفلاك فهذا إمّا يستلزم التداخل أو انفصال الأفلاك عن بعضها، وكل هذا محال ولا يتّسق مع التعبير القرآنى القائل: إنّ سعتها كعرض السموات والأرض.

ولا يخفى أنّ هذا الاعتراض قائم فى الحقيقة على أساس هيئة بطليموس والأفلاك التسعة التى يعتقد أنّها قائمة فوق بعضها كطبقات قشرة البصل ولا- يوجد بينها أىفاصل ولكن بعد أن ثبت الآن بالدلائل القطعية بطلان هذه العقيدة، وحتى أنّ بطلانها فى بعض الحوانب ثبت حسّياً، لم يَعُد هناك أىدليل تستند عليه مثل هذه الاعتراضات ولا يوجد هناك أىمانع من وجود عوالم كبيرة اخرى أوسع بكثير من سمائنا وأرضنا هذه فوق هذه النجوم الثابتة والسيارة وفوق المجّرات، وعليه فلا تتعارض مع مفهوم الآية الآنفة الذكر أيضاً.

(۱). صرّح بذلك المرحوم الطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والفخر الرازى فى التفسير الكبير؛ والعلّامة الطباطبائىفى تفسير الميزان؛ والبرسوئى فى تفسير روح البيان؛ فى ذيل الآية ۲۲ من سورة الذاريات أو ذيل الآية ۱۵ من سورة النجم أو فى كليهما.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۵

النظرية الأخرى تقوم على رأى جماعة من الفلاسفة الذين ينكرون مادّية الجنّة والنّار، وعلى هذا ذهبوا إلى عدم حاجة الجنّة إلى المكان المادّى بل هى فى ماوراء عالم الحس والمادّة، وقد تحدّث صدر المتألهين عن هذا الموضوع فى كتاب الأسفار قائلًا:

«واعلم أنّ لكل نفس من نفوس السعداء فى عالم الآخرة مملكة عظيمة الفسحة، وعالماً أعظم وأوسع ممّا فى السماوات والأرضين، وهى ليست خارجة عن ذاته بل جميع مملكته ومماليكه وخدمه وحشمه وبساتينه وأشجاره وحوره وغلمانه كلها، قائمة به، وهو حافظها ومنشئها بإذن اللَّه تعالى وقوته، ووجود الأشياء الاخروية وإن كانت تشبه الصور التى يراها الإنسان فى المنام أو فى بعض المرايا لكن يفارقها بالذات والحقيقة، أمّا وجه المشابهة فهو أنّ كلا منها بحيث لا يكون فى موضوعات الهيولى ولا فى الأمكنة والجهات لهذه المواد، وأن لا تزاحم بين أعداد الصور لكل منهما وأنّ شيئاً منهما لا يزاحم شيئاً فى هذا العالم فى مكانه أو زمانه، فإنّ النائم ربما يراه فى يقظة هذا العالم، وهى مع كونها مغايرة لما فى الخارج بالعدد لكن لا تزاحم ولا تضايق بينها.. وأمّا وجه المباينة فهو أنّ نشأة الآخرة والصور الواقعة فيها قوية الجوهر شديدة الوجود عظيمة التأثير إلذاذاً وإيلاماً، وهى أقوى وأشد وآكد، وأقوى من موجودات

هذا العالم، فكيف بالصور المنامية والمرآتية، ونسبة النشأة الآخرة إلى الدنيا كنسبة الانتباه إلى نشأة النوم» «۱».

وبالرغم من استخدامه لتعابير مختلفة بشأن المعاد فليس من السهل الحكم على رأيه من خلال هذه التعابير، لكن من الواضح أنّ هذا التفسير للمعاد لا- يتطابق مع ظاهر بل مع صريح القرآن، بل يتناسب مع آراء الذين يعتبرون المعاد روحياً فقط، فقد ورد فى النص السابق أنّ الجنّة فى داخل ذات الإنسان وفى نفسه وروحه وكل شىء هناك له صورة مثالية، وكل شىء روحانى، بل وأنّ الموجد له هى روح الإنسان!

لقد ذكرنا فيما سبق عشرات الآيات التى تثبت جسمانية المعاد، وذلك ضمن عدّة مجاميع وبإمكان كل مجموعة أن تكون جواباً على مثل هذا الرأى.

---

(۱). الاسفار الأربعة، ج ۹، ص ۱۷۶ الفصل ۱۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۶

أمّا الرأى الثالث الذى يمكن طرحه فى هذا الصدد فهو أنّ كلًّا من الجنّة والنّار تقعان فى باطن هذا العالم، وحجب عالم الدنيا تحول دون رؤيتهما، لكن أولياء اللّه بإمكانهم مشاهدتهما، وقد استطاع النبى الكريم صلى الله عليه و آله أثناء معراجه حيث صار بعيداً عن ضجيج سكان هذا العالم، أن يرى بعينه الملكوتية قطعة من الجنّة فى العالم الأعلى وحتّى أنّ أولياء اللّه قد يتاح لهم بين الفينة والأخرى أثناء بعض النفحات مشاهدة ذلك وهم على الأرض!

وقد تكون الآيات التالية إشارة إلى هذا المعنى «انَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

(العنكبوت/ ۵۴)

وقال: «انَّ الْأَبرَارَ لَفِى نَعِيم* وَانَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيم». (الانفطار/ ۱۳- ۱۴)

وكذلك: «كَلَّا لَو تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ». (التكاثر/ ۵- ۶)

يمكن تشبيه وجود الجنّة فى باطن هذا العالم بماء الورد فى الورود، فمع أنّ ماء الورد مادّة وكذلك الورود لكن ذلك لايمنع من وجود أحدهما مخفياً داخل الآخر فلا يشاهد بالعين.

والتشبيه الآخر الذى يمكن الإتيان به لتقريب الموضوع إلى الأذهان، وهو تشبيه سبق ذكره حيث توجد أشياء كثيرة فى عالم المادّة هذا لا يتيسّر لنا إدراكها فى الظروف الاعتيادية، وكثير منها موجود فى داخل هذا العالم المادّى فعلى سبيل المثال توجد فى فضاء هذا العالم أمواج إذاعية عديدة تبثها فى الفضاء محطات الاذاعة العالمية، وتصل أحياناً بواسطة الأقمار الصناعية إلى جميع أرجاء العالم، وتوجد أنواع متعددة من هذه الموجات فى كل بيت، لكنّ أحداً لايشعر بها، ولعل بعضها يحمل أنغاماً وأصواتاً جذّابة ورائعة، وقد يحمل بعضها الآخر أصواتاً مزعجة وصفّارات انذار وأنغاماً تشمئز منها النفوس، وكذلك محطات التلفزة، فقد تبث صوراً ومشاهد جميلة وجذّابة وتربوية فيما تبث محطّات اخرى مشاهد الحرب والدمار والخراب والمذابح والحرائق والجرائم، وكل هذه الصور والمشاهد والأصوات المختلفة موجودة فى عالمنا المادى هذا وفى هذا الفضاء

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۷

المحيط بنا، وقد اصطنعت لنفسها جنّةً وناراً فى داخل هذا العالم، فيقوم بعض الناس بتنظيم أجهزة الاستلام لديهم مع الأصوات الجّذابة والأنغام المريحة والمشاهد الممتعة والمفيدة، بينما ينظم البعض الآخر أجهزة الاستلام- اختياراً أو اضطراراً- مع الأنغام والأصوات والمشاهد المعاكسة للُاولى فيعيش الفريق الأول أجواء عالم ممتع، والفريق الثانى يعيش فى عالم من العذاب والأذى وهذه كلها كامنة فى قلب هذا العالم المادّى.

نأمل عدم حصول الالتباس فى الفهم، فنحن لا نقول أبداً إنّ الجنّة والنّار هكذا تماماً بل نقول ما المانع فى أن يكون فى عمق هذا

العالم عالم آخر أو عوالم اخرى ونحن لا نتمكن فى الظروف الحالية من الاطّلاع عليها مطلقاً لوجود الحجب المتعددة الحائلة بيننا وبينها؟

إنّ من أوتى القدرة على إزاحة هذه الحجب فبإمكانه رؤية تلك العوالم حتّى وإن كان هو فى هذا العالم، (فتأمّل).

وقد اتيح للنبى الكريم صلى الله عليه و آله أثناء معراجه إلى السماء- حيث خفّت ضجّة عالم المادّة، وتتقلصت الهموم والمشاغل وتتعاظمت مظاهر جلال اللَّه وجماله- ازاحة الحُجب ومشاهدة جوانب من العالمين (الجنّة والجحيم) الواقعتين داخل هذا العالم.

وليس معنى هذا أنّ الرسول الكريم صلى الله عليه و آله أو سائر أولياء اللَّه لا يتمكّنون من مشاهدة الجنّة والنّار وهم على الأرض، بل إنّ هذا قد حصل أيضاً فى بعض الأوقات على الأرض كما يتّبين من بعض الروايات.

جاء فى الحديث الذى نقله الراوندى فى «الخرائج» أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام حين أكدوا له وفاءهم الكامل له وامتنعوا عن مغادرة الميدان ونقض البيعة: «دعا لهم بالخير وكشف عن أبصارهم فرأوا ما حباهم اللَّه من نعيم الجنان وعرّفهم منازلهم فيها» «۱».

ويروى مؤلف كتاب «مقتل الحسين» بعد ذكره لهذه الرواية: «وليس ذلك فى القدرة الإلهيّة ولا فى تصرفات الإمام بغريب، فإنّ سحرة فرعون لما آمنوا بموسى عليه السلام وأراد فرعون قتلهم آراهم النبى موسى منازلهم فى الجنّة» «۲».

---

(۱). الخرائج للراوندى طبقاً لما ورد فى «مقتل الحسين» للمقرم، ص ۲۶۱؛ وبحار الأنوار ج ۴۴، ص ۲۹۸.

(۲). أخبار الزمان للمسعودى، ص ۲۴۷ (استناداً إلى مقتل الحسين، ص ۲۶۱).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۸

ورد فى بعض الروايات أيضاً أنّ الإمام الصادق عليه السلام أرى بعض أصحابه حوض الكوثر «۱».

وهذه النظرية حول مكان الجنّة تحل ضمناً مسألة سعتها التى هى كعرض السموات والأرض وترد على بعض اعتراضات المتكلمين بشأن ضرورة التداخل.

وعلى أيّة حال فإنّ ما طرحناه بخصوص وجود الجنّة والنّار فى باطن هذا العالم لا يتجاوز النظرية، والاعتقاد به يحتاج إلى مزيد من الدراسة والأدلة والشواهد.

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۶، ص ۲۸۷، ح ۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۴۹

۷- درجات الجنّة

تمهيد:

تدل العبارات القرآنية المختلفة على أنّ حدائق الجنّة متعددة ومتنوّعة، ولو أمعنا النظر فى الروايات الواردة فى تفسير الآيات النازلة فى هذا الصدد لاستخلصنا منها أنّها تحدد درجات ومنازل أهل الجنّة وتضع كل فئة منهم فى المكانة اللائقة بهم ضمن هذه الحدائق، كل شخص حسب أفضليّة وسمو مقامه.

فهناك- مثلا- حديث وارد عن النبى صلى الله عليه و آله فى تفسير الآيات من سورة (الرحمن) الواردة بخصوص حدائق الجنّة أنّه قال صلى الله عليه و آله: «جنّتان من ذهب للمقرّبين، وجنّتان من ورق لأصحاب اليمين» «۱».

ومن الواضح أنّ استعمال كلمتى الذهب والفضّة فى هذا الحديث يشير إلى تفاوت درجتَى هاتين الجنتين.

مع هذه اللمحة التمهيدية نعود إلى آيات القرآن الكريم لنشاهد، ماذا تقول عن ذلك:

١- «قُلْ أَذَلِكَ خَيرٌ امْ جَنَّةُ الخُلْدِ الَّتى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً».

(الفرقان/ ١٥)

٢- «اولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدنٍ تَجْرى مِن تَحْتِهِمُ الْأَنهَارُ». (الكهف/ ٣١)

٣- «امَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُم جَنَّاتُ المَأوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ».

(السجدة/ ١٩)

۴- «انَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِردَوْسِ نُزُلًا».

(الكهف/ ١٠٧)

---

(١). تفسير درّ المنثور، ج ۶، ص ۱۴۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۰

نفحات القرآن ج۶ ۲۹۹

۵- «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* اولَئِكَ المُقَرَّبُونَ* فِى جَنَّاتِالنَّعِيمِ». (الواقعة/ ١٠- ١٢)

۶- «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» «ذَوَاتَا افْنَانٍ» «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» «مُدْهَامَّتَانِ». (الرحمن/ ۴۶- ۴۸- ۶۲- ۶۴)

جمع الآيات وتفسيرها

جنّة أم جنان؟

تتحدث الآية الاولى عن العذاب الأليم لأصحاب النّار وتقارن حالهم بالمنزلة الرفيعة لأصحاب الجنّة: «قُلْ اذَلِكَ خَيرٌ امْ جَنَّةُ الخُلدِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً».

«جنّة الخلد»: وردت مرّة واحدة فى القرآن الكريم وهى تشير إلى خلود الجنّة.

يقول الراغب فى «المفردات»: «الخلود» بمعنى بُعد الشىء عن الفساد وبقاؤه على حاله، وقال صاحب «مقاييس اللغة»: إنّ الكلمة تعنى أساساً الثبات والملازمة، وفسّرها صاحب «مصباح اللغة» بمعنى الإقامة، رغم أنّ هاتين الكلمتين- أى جنة الخلد- جاءت أحداهما مضافة إلى الاخرى فإنّهما تفيدان معنى الوصف، ويبدو أنّه وصف للجنّة بشكل عام، لأنّ كل نعمة فيها خالدة، وكذلك أهلها فهم خالدون أيضاً، وعلى هذا فهى لا تختص بجانب من الجنّة دون الجانب الآخر، لأنّ هذا الوصف شامل لكل حدائق الجنّة.

واعتبر بعض أصحاب اللغة مثل ابن منظور فى «لسان العرب»: «الخلد» واحداً من أسماء الجنّة، ولا يستبعد أن تكون آراؤهم أيضاً بياناً لصفة الدوام والبقاء التى تحوّلت بالتدريج إلى اسم من أسماء الجنّة.

وفى الآية الثانية نلاحظ تعبيراً آخراً، فبعد أن تؤكد الآية على عدم ضياع أجر المؤمنين الصالحين، تبشرهم أنَّ: «اولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجرِى مِن تَحتِهِمُ الْأَنهَارُ».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۱

وردت كلمة «جنات عدن» احدى عشرة مرّة فى القرآن الكريم «١» وهذا التكرار يفيد الأهميّة فى المواصفات المتعلّقة بالجنّة.

و «الجنّات»: جمع (جنّة) وهى الحدائق الكثيرة فى الجنّة، و «عدن» تعنى فى الأصل الإقامة حسب ماذكر صاحب «مقاييس اللغة» أو

بمعنى الثبات والاستقرار حسب ماأفاد به كتاب المفردات، وهذا يتضمن إشارة إلى خلود الجنّة، لا إلى حدائق هذه الدنيا التى تتعرض أشجارها لتساقط الأوراق فى فصل الخريف وقد تيبس وتموت بعد عدّة سنوات، وقد تنقطع عنها مصادر المياه، أو قد تتعرض ثمارها للآفات أو تجف جذوعها من الداخل أو قد تقضى عليها الرياح الحارّة اللاهبة أو القارصة، بل وقد تتعرض للصواعق فتتحول إلى رماد، وخلاصة القول أنّها عرضة لألف آفة وبلاء بينما أشجار الجنّة باقية دوماً وحدائقها خضراء غنّاء لا يعتريها اليبس ولا المرض ولا تساقط الأوراق أو الذبول.

قال بعض المفسرين: إنّ المقصود من (جنّات عدن) وسط الجنّة، وهى فى الحقيقة جنّة من جنانها إلّاأنّ لها من السعة ما يجعل كل جزء من اجزائها وكأنّه جنّة قائمة بذاتها وقد ذُكرت على هيئة الجمع «۲»، لكن التأمل فيما سبق من القول يجعل مثل هذا المعنى بعيداً.

وأبرزت الآية الثالثة نفس هذا المعنى ولكن بعبارات اخرى فهى تقول: «امَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُم جَنَّاتُ المَأوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ».

«المأوى : مشتقة من كلمة «اوِىّ» على وزن (قوىّ)، قال الراغب فى المفردات: إنّها تعنى انضمام الشى إلى شىء آخر (ثم أصبحت تعنى الإقامة عند الشىء).

وقال صاحب مقاييس اللغة: إنّ أحد معانيها هو «التَجمُّع» وهذا يستلزم السكن عند الشىء، والمأوى يعنى باختصار: المكان والمسكن والمقر الذى يسكنه الإنسان ليلًا أو نهاراً ويستريح فيه، وعلى هذا ف «جنّات المأوى تشير إلى الخلود والدوام والاستقرار فى الجنّة

---

(۱). فى سور، التوبة، ۷۲؛ الرعد، ۲۳؛ النحل، ۳۱؛ الكهف، ۳۱؛ مريم، ۶۱؛ طه، ۶۷؛ فاطر، ۳۳؛ ص، ۵۰؛ غافر، ۸؛ الصف، ۱۲؛ البيّنة، ۸.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۶، ص ۴۶۷؛ وتفسير القرطبى، ج ۶ ص ۴۰۱۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۲

ويُستَشفُ منها أيضاً معنى الهدوء والسكينة.

قال البعض: إنّ هذا التعبير إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة وهى أنّ دار الدنيا ليست مأوى الإنسان (أى ليست دار مقّره النهائى)، بل هى ممر يجتازه، أو كما وصفتها الرواية المشهورة «الدنيا قنطرة» فهى ليست محل استقرار وثبات.

ولا يخفى أنّ مثل هذا الوصف ينطبق على جميع الجنّة، ومع ذلك فقد نُقِل عن ابن عبّاس أنّه قال: حدائق الجنّة ثمان: إحداها جنّة المأوى وسواها هى «دار الجلال» و «دارالقرار» و «دار السلام» و «جنّة عدن» و «جنّة الخلد» و «جنّة الفردوس» و «جنّة النعيم».

سبق أن قلنا أنّ «النزل» تعنى أول مايُستقبل به الضيف (كما يُستقبل اليوم مثلًا بالعصير أو الماء البارد أو الشاى). وإذا كان الأمر كذلك فهو يدل على أنّ جنات المأوى رغم سعتها وعظمتها- فهى أدنى درجات الاستقبال لعباد اللّه المخلصين! وعلى هذا فإنّ الاستقبال والتكريم الأساس لهم هى تلك النعم التى تتضاءل أمامها جّنات المأوى وهى ليست سوى قرب الإله ولقائه وجنّة معرفة جلاله وجماله.

التعبير الآخر الذى استخدمه القرآن الكريم لوصف مستقر هذه الرحمة الإلهيّة الكبرى هو «جنات الفردوس» إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «انَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِردَوسِ نُزُلًا».

هناك اختلاف بين المفسرين وأصحاب اللغة فى أصل كلمة (فردوس) هل هى رومية أم سريانية أم نبطية أم حبشية أم عربية؟ كما اعتبرها البعض فارسية الأصل تحوّرت إلى «پرادیزس» و «پرادیز» ثم إلى «فردايس» و «فردوس».

وقد ذكروا معانى عديدة لهذه الكلمة؛ منها: الحديقة والبُستان، وحدائق العنب والحدائق الشاملة لكل الأزهار والثمار، والحدائق المغطّاة بالأشجار والتى تحوى الكثير من المياه، وأحياناً الحاوية للكثير من العنب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۳

فأمّا الـذين عدّوها عربية الأصل فقد قالوا: إنّها مأخوذة من مصدر «الفَرْدَسة» وهو بمعنى السـعة واسـتعملت هذه الكلمة التى وردت فى القرآن مرّتين فقـط (فى سورة الكهف/ ۱۰۷ وسورة المؤمنون/ ۱۱) بمعنى الجنّة، ويُستشف من الروايات المنقولة عن النبى صـلى الله عليه و آله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ هذا الاسم يختص ببقعة ممتازة جدّاً من الجنّة.

جاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إذا سألتم اللّه تعالى فاسألوه الفردوس، فانّه وسط الجنّة وأعلا الجنّة وفوقه عرش الرحمن، ومنها تفجر أنهار الجنّة» «۱».

ونقل عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «لكل شىء ذروة وذروة الجنّة الفردوس وهى لمحمد وآل محمد» «۲».

وأخيراً ورد عن الإمـام الصادق عليه السـلام أنّه قال فى تفسـير الآيـة؛ إنّها نزلت بحقّ أبى ذر وسـلمان والمقـداد وعمار بن ياسـر وهى: «جَعل اللّه لهم جنّات الفردوس نُزلًا» أىمأوى ومنزلًا «۳».

ومن الواضح عدم وجود أى تضاد بين الحديث الثانى والثالث، لأنّ المؤمنين من أصـحاب الدرجات الرفيعة من أمثال أبى ذر وسـلمان والمقداد وعمّار وهم التابعون المخلصون لمحمد وآل محمد عليهم السلام يعدّون فى الحقيقة من زمرتهم.

ولكن ما معنى «نزلًا» هنا؟ اعتبرها البعض بمعنى دار النزول ومحل السـكن كما أشار إلى هذا حديث الإمام الصادق عليه السـلام. وقال بعض المفسرين: إنّ النزل يعنى وسائل الاستقبال أو اوّل ما يستقبل به الضيف، ولامانع أيضاً من جمع هذين المعنيين.

التعبير الآخر الذى ورد فى وصف حدائق الجنّة هو ما جاء فى سورة الواقعة «جنات النعيم» إذ يقول تعالى فى كتابه الكريم: «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* اولَئِكَ المُقَرَّبُونَ* فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ».

---

(۱). صحيح البخارى؛ وصحيح مسلم (نقلًا عن كتاب روح المعانى، ج ۱۶، ص ۴۷).

(۲). تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۹۵، ح ۲.

(۳). استناداً إلى ما نقله تفسير الميزان عن تفسير القمى، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۴

«الجنّات»: جمع «جنّة» ولعل اسـتعمال الجمع هنا لبيان أنّ لكل واحد من أصحاب الجنّة جنّة خاصة به فيكون جمعها جنّات، والنعيم هو جمع «نعمة» لأنّ الجنّة تحوى دوماً أنواع النعم المادّية والمعنوية، لا كمثل حدائق الدنيا التى تكون أحياناً مدعاة للتعب والمعاناة والألم وأحياناً سبباً للراحة والنعمة، إضافة إلى أنّ حدائق الدنيا تضم كل واحدة منها نعمة واحدة لا جميع النعم.

وما يسترعى الانتباه هنا هو أنّ اللّه ذكرهم أوّلًا، فقال: «اولَئِكَ المُقَرَّبُونَ» ومن ثم انتقل إلى ذكر «جنات النعيم» ومن الواضح أنّ جنات النعيم وبكل ماتزخر به من نعمة وعظمة لا تمثل فى قبالة القرب الإلهى إلّاقطرة فى بحر.

وقد تكررت هذه الكلمة (جنّة النعيم، وجنات النعيم)، عشر مرات فى الآيات الشريفة والتكرار دليل على التأكيد والأهميّة «۱».

وتجدر الإشارة إلى أنّ الإنسان كلما اقترب فى هذه الدنيا من مراكز القوى ازداد قلقه، لأنّه يعيش دوماً فى حالة من الوجل والهواجس والرعب خوفاً من تغيير آراء أصـحاب القوّة بشـأنه فيسـقط ويتعرض لأشـد أنواع العقوبـة والتنكيل، ولهـذا يحـذّر أهلُ المعرفـة وكبار الشخصـيات من «التقرّب إلى السـلطان»، وأمّـا القرب من الإله فعلى العكس من هـذا تمامـاً، فلا يشـعر بغير الاطمئنـان واللـذة الروحية والمعنوية، وجنّات النعيم.

وهناك قضّـية تسـتدعى الدقّة أيضاً وهو ماورد فى الروايات العديدة التى جاءت فى ذيل الآية الشـريفة: «ثُمَّ لَتُسْـئَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ». (التكاثر/ ۸)

حيث فُسر «النعيم» ب «نعمة الولاية» «۲»، ومن هذا المنطلق فمن المحتمل أنّ جنّات النعيم هى جنّة الولاية، ولاية اللّه وأوليائه، ومحبّتهم والاستضاءة بنورهم المعنوى.

(۱). المائدة، ۶۵؛ يونس، ۹؛ الحج، ۵۶؛ الشعراء، ۸۵؛ لقمان، ۸؛ الصافات، ۴۳؛ الواقعة، ۱۲- ۸۹؛ القلم، ۳۴؛ المعارج، ۳۸.

(۲). للحصول على مزيد من المعلومات عن هذه الأحاديث راجع كتاب بحار الأنوار، ج ۲۴، الباب ۲۹، ص ۴۸ وماتلاها.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۵

أمّا هل أنَ «جنّات النعيم» تشمل كل الجنّة أم تُشير إلى بقع مهمّة منها؟ فهنالك احتمالان، فمن جهة، قد يكون الوعد الإلهى للمقّربين دليلًا على الاحتمال الثانى لاسيما وأن تعبيراً مشابهاً لهذا قد ورد فى من نفس هذه السورة: «فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ* فَرَوحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ». (الواقعة/ ۸۸- ۸۹)

المجموعة السادسة والأخيرة من هذه الآيات تشير باختصار إلى أربع روضات من رياض الجنّة مع عدة خصائص، كل اثنين منهما على حدة، إذ قال الكتاب الكريم: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ» «ذَوَاتَا أَفْنَانٍ» «وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ» «مُدْهَامَّتَانِ».

كانوا يتصوّرون أنّ هذه الحدائق الأربع كلها لجميع المؤمنين، وهذا التعدد من أجل إيجاد التنوع لأنّ طبيعة الإنسان تميل إلى التنوّع، لكن لهجة الآيات وكذلك الروايات الواردة فى تفسيرها تظهر لنا بوضوح أنّها- أى تلك الحدائق- من نصيب فئتين مختلفتين وعبارة «من دونهما» تعطى معنى الأدنى وعلى هذا الترتيب فروضتان من رياض الجنّة من نصيب «المقّربين» واثنان أدنى منهما من نصيب «أصحاب اليمين» وهذا فى الحقيقة إشارة إلى درجات ومراتب أهل الجنّة، وهذا ما ينبغى أن يكون وذلك لأنّ أهل الجنّة ليسوا على سواء فى المرتبة والدرجة.

لقد وصف النبى صلى الله عليه و آله هذا الاختلاف بعبارات جميلة فى حديث ورد عنه إذ قال: «جنّتان من فِضّة آنيتهما وما فيهما، جنّتان من ذهب آنيتهما وما فيهما» «۱».

وورد نفس هذا المعنى فى حديث أكثر صراحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لا تقولَنَّ واحدة إنّ اللّه يقول: ومن دونهما جنّتان، ولا تقولن درجة واحدة إنّ اللّه يقول:

درجات بعضها فوق بعض، وإنّما تفاضل القوم بالأعمال» «۲».

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۹، ۱۰، ص ۲۱۰.

(۲). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۶

وذكر المفسرون احتمالات متعددة لسبب حصول كل واحدة من هاتين الفئتين على جنّتين، وهذه الاحتمالات لا تتعارض فيما بينها ولعلّها ملخّصة فى مفهوم الآية، ومن جملة ذلك أنّ إحداهما تشير إلى الجنّة الروحية والاخرى تشير إلى الجنّة المادية أو أنّ لكل واحد من أهل الجنّة جنّتين: إحداهما عامّة لمقابلة الاصدقاء، والاخرى خاصة لمعاشرة الزوجات.

أو أن تكون إحداهما كثواب على العقيدة والإيمان والأخرى جزاءً للعمل الصالح.

أو أن تكون إحداهما جزاءً للعمل والاخرى فضل من اللّه.

أو ربّما إحداهما جزاءً على طاعة الأوامر والثانية ثواباً على اجتناب الذنوب!

ويمكننا أن نستخلص من مجموع ماذكر أنّ للجنّة مقامات ودرجات ومراتب ويمكن اعتبار كل واحدة منها جنّة، ولا شك أنّ اختلاف درجات أولياء اللّه فى الدنيا يستوجب اختلاف مراتبهم فى الجنّة، فجنّة المقربين تختلف عن جنّة أصحاب اليمين، وجنّة الذين يحتلّون الذُرى فى الورع والإيمان والمعرفة والعمل الصالح تختلف عن جنّة من هم فى مراتب أدنى

ورغم عدم قدرة أذهاننا على استيعاب مواصفات أىمنهما، إلّاأننا نعلم قطعاً أنّهما عالمان مختلفان، ولعل أهل المراتب الأدنى فى الجنّة

لا يتمكّنون من معرفة أحوال العوالم الأرفع مكانة!

ينبغى الإشارة إلى أنّ كلمة الجنّة قد وردت فى القرآن الكريم أحياناً بصيغة المفرد الذى يحمل مفهوم اسم الجنس ويشمل جميع الحدائق والرياض فى الجنّة، وأحياناً اخرى بصيغة الجمع وهو مايشمل رياض الجنّة ودرجاتها ومراتبها المختلفة، وأحياناً بصيغة التثنية (جنّتان) وهو ما دلَّ على درجتين مختلفتين، وقد سبق لنا شرحه.

ويتحدّث القرآن فى بعض الأحيان عن خلود الجنّة ويستخدم عبارات من أمثال

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۷

«جنّات عدن» أو «جنّة المأوى و «جنّة الخلد»، ويتناول فى أحيان اخرى تبيان نعمها المادية والمعنوية المختلفة ويعبّر عنها ب «جنّة النعيم»، ويشير أحياناً اخرى إلى الرياض الفاخرة جدّاً فيها ويطلق عليها اسم «جنّة الفردوس».

يعبّر كل واحد من هذه الأوصاف الغنّية عن واحد من أبعاد هذا المكان وهو مقر الرحمة الإلهيّة الكبرى ودرجات القرب والوصال بالمحبوب الحقيقى:

«اللهم أرزقنا الجنّة بمنّك ورحمتك ياأرحم الراحمين»

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۵۹

۸- أسئلة وأجوبة حول الجنّة

۱- هل أنّ التكرار يولد الملّل؟

يعترض البعض قائلًا: إنّ ما يُستشف من الآيات والروايات يشير إلى أنّ النعم فى الجنّة ونمط الحياة فيها يسير برتابة وعلى وتيرة واحدة، ونحن نعلم أنّ هذا الوضع- ولاسيما إذا استمر لمدّة طويلة- يثير الملل ويطفىء شعلة الشوق والحماسة والنشاط، لأنّ تكرار أجمل المشاهد وأحلى المناظر وأطيب الأطعمة يضفى عليها مسحة طبيعية ويجعل منها وضعاً عادياً، حتى أنّ الإنسان قد يلجأ أحياناً إلى أساليب حياتية أبسط أو أكثر مشقّة من أجل كسر طوق الرتابة والملل وممارسة التجديد والتنوع، وللاجابة عن هذا السؤال ينبغى الالتفات إلى ثلاث نقاط:

الاولى يجب عدم تطبيق المقاييس والمعايير المادية والنفسية السائدة فى هذا العالم على ذلك العالم، فلعل هذه الحالة النفسية الموجودة فينا وهى سرعة التعب والضجر واللامبالاة فى هذا العالم قد تكون على العكس تماماً هناك، فكلما تكررت المشاهدة ازداد الشوق وتضاعفت الرغبة، ومع تزايد التكرار تزداد اللذة، فيكون التكرار مدعاة لمضاعفة اللذّة المعنوية والمادية.

فما هو الدافع الذى يجعلنا نتصور أنّ الوضع النفسى للإنسان فى هذا المجال واحد هنا وهناك؟

الثانية: توجد فى هذا العالم أيضاً نِعمٌ لا يملّها الإنسان ولا يشبع منها، فنحن كلما تنفسنا هواءً طلقاً جديداً ومليئاً بالاوكسجين، لا نملّه ولا نضجر منه، بل نلتذ به ويثير فينا البهجة والارتياح، وكذلك الماء هذا المشروب البسيط فلو أننا عمّرنا مئات السنين يبقى شرب

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۰

الماء العذب عند العطش من أعظم اللذات بالنسبة لنا، وهذا هو معنى قولنا إنّ طعم الماء هو طعم الحياة، فلا يبعث فينا الملل ولا الضجر بل يبقى الماء العذب مستساغاً ولذيذاً فى أفواه العطاشى

فما المانع فى أن يجعل اللَّه لدى الإنسان حالة شبيهة بحالة العطش (العطش اللذيذ الخالى من الازعاج والأذى مثل العطش للقاء المحبوب) لكى يلتذ الإنسان بواسطتها من النعم الروحية والجسمية الموجودة فى الجنّة؟

الثالثة: لما كانت ذات اللَّه وصفاته غير متناهية، فلا شكّ أنّ مظاهره الروحية والمعنوية لا نهاية لأمدها، فهو يفيض عليهم فى كل يوم

بألطاف جديدة ويمدّهم فى كل لحظة بهداية متجددّة لا تكرار فيها ولا رتابة وهل يمكن أن يتكرر ما لا نهاية له؟

والنعم المادية هى من مظاهر رحمانيّته ورحيمّيته، ولا حد لها ولا حصر.

فما المانع فى أن تكتسب أنهارُ الجنّة وأشجارها وأزهارها وتلك الألوان والعطور وتلك الأشربة الطاهرة، لوناً وطعماً وشكلًا وعطراً جديداً فى كل يوم وفى كل ساعة؟ فألوانها فى حالة تبدل دائم وهى فى تغيّر مستمر، تكتسى على الدوام بحلل جديدة بحيث لا يتكرر الطعام الواحد ولا المشهد الواحد على أهل الجنّة إلّامرة واحدة طوال حياتهم فيها! (فياله من مشهد عجيب!).

هناك بعض الآيات القرآنية والروايات التى تؤكّد ما ورد فى هذا الباب منها: «كُلَّ يَومٍ هُوَ فِي شَأْنٍ». (الرحمن/ ۲۹)

وقد طرح المفسرون آراءً كثيرة متنوعة فى تفسير هذه الآية ويشير كل واحدٍ منها إلى فعل من أفعال اللّه فى مسألة خلق الناس وموتهم أو رزقهم وحياتهم أو عزّة ومذّلة الامم والأقوام أو غفران الذنوب وكشف الهموم أو جلب النفع ودفع الضر، ولا شكّ أنّ لهذه الآية مفهوماً أوسع يشمل أىتغيير يطرأ على أوضاع العالم، ونظراً لانعدام الدليل على تخصيص هذه الآية فى مجال الدنيا، بل وإنّ مجيئها بعد الآية الشريفة: «كُلُّ مَنْ عَلَيهَا فَانٍ* وَيَبقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالإِكرَامِ». (الرحمن/ ۲۶- ۲۷)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۱

يمكن اعتباره قرينة على استمرارية التغير والتبدّل فى الدار الآخرة أيضاً، وأنّ أصحاب الجنّة كل يوم فى شأن بإرادة اللّه.

وقد اطلق بعض المفسرين عبارة «كل يوم» وأعطاها عمومية أوسع لتشمل أيّام الدنيا والآخرة كليهما معاً «۱».

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللّه خلق جنّة لم ترها عين ولم يطّلع عليها مخلوق، يفتحها الرب تبارك وتعالى كل صباح فيقول: إزدادى طيباً! إزدادى ريحاً» «۲».

وورد حديث آخر أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنَّ أهل الجنّة توضع لهم موائد عليها من سائر ما يشتهون من الأطعمة التى لا ألذّ منها ولا أطيب، ثم يرفعون عن ذلك إلى غيره» «۳».

تُظهر هذه التعبيرات وبكل وضوح أنْ لا رتابة فى الحياة هناك، بل فى كل لحظة نِعم وعطايا جديدة.

نختم حديثنا هذا بإشارة مقتضبة لأحد المفسرين حيث قال: «إنّ الآية تشير إلى تجلّى الحق فى كل زمن فرد ونفس فرد على حسب المتجلّى له واستعداده ولا نهاية للتجلّيات» «۴».

ولا شك فى أنّ هذا الكلام لا يشمل كل مفهوم الآية، بل يعبّر عن جزءٍ من مفهومها (فتأمل)!؟

۲- أتعرف قيمة اللذة بفقدانها؟

من المعروف أنّ «الفقدان» يبرز أهميّة «الوجدان» وبعبارة أخرى أنّ النعم الإلهيّة والعطاء الربّانى يُعرف عند زواله، فلو لم يكن للمرض وجود فى العالم لما عرف أحد قيمة الجوهرة الثمينة لنعمة السلامة، ولولا الخوف لما عرفت قيمة وأهمية نعمة الأمان.

وعلى هذا فالجنّة التى تخلو من الفقدان والخوف والمرض والتعب، ولا تعرف العوز

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۲۷، ص ۹۶.

(۲). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۹۹، ح ۱۹۸.

(۳). المصدر السابق، ح ۱۹۹.

(۴). تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۳۰۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۲

والقحط ... الخ، لن تعرف قيمة كل هذه النعم وستُنسى أهمّيتها بالتدريج، ولن يكون هناك أى شعور باللذة.

والجواب عن هـذا السؤال لاـ صـعوبة فيه، لأنّ أهل الجنّة مشـرفون على أهل النّار وبإمكانهم الاطلاع على أوضاعهم ومقارنتها بما هم عليه، وحين يرون هذا الفارق الشاسع يلتذّون بالنعم اللامتناهية التى يعيشون فيها.

تطرّق القرآن الكريم مرّات عديـدة إلى اطلالـة أهـل الجنّة على أهـل النّار، فجاء قوله تعالى: «وَنَادَى اصْحَابُ النَّارِ اصْحَابَ الجَنَّةِ ان أَفِيضُوا عَلَينَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا انَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ». (الأعراف/ ۵۰)

وفى سورة الصافات تحـدّثت عـدّة آيات منها عن هذا المشـهد قائلة: «فَأَقْبَلَ بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالَ قَائِلٌ مِّنهُم انِّى كَانَ لِى قَرِينٌ» «فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِى سَوَاءِ الجَحِيمِ* قَالَ تَاللَّهِ ان كِدتَّ لَتُرْدِينِ* وَلَولَا نِعمَةُ رَبّى لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

(الصافات/ ۵۰- ۵۱، ۵۵- ۵۷).

كما نقرأ أيضاً فى سورة الأعراف: «وَنَادَى اصْحَابُ الْجَنَّةِ اصحَابَ النَّارِ ان قَد وَجَدْنَا مَاوَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُم حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَينَهُم ان لَّعنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (الأعراف/ ۴۴)

يُفهم من مجموع هـذه الآيات أنّه لا أهل الجنّة يجهلون أوضاع أهل النّار، ولا أهل النّار محجوبون عن أحوال أهل الجنّة، فاطلاع أهل الجنّة يضـاعف مـا هُم فيه من السـرور والنعمـة لنجـاتهم من ذلك العـذاب الأليم، ويسـعدون لما يرفلون فيه من النعمـة والرفاه، وعلى العكس منهم أهل النّار إذ يتضاعف عذابهم عند إجراء مثل هذه المقارنة.

وورد عن الإمام الصادق عليه السـلام حـديث يقول: «ما خلق اللّه خلقاً إلّاجعل له فى الجنّة منزلًا وفى النّار منزلًا، فاذا سـكن أهل الجنّة الجنّة وأهل النّار النّار نادى مناد، ياأهل الجنّة اشرفوا، فيشرفون على النّار وترفع لهم منازلهم فى النّار ثم يقال لهم: هذه منازلكم التى لو عصيتم ربّكم دخلتموها؛ قال: فلو أنّ أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنّة فى ذلك اليوم فرحاً

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۳

لما صـرف عنهم من العذاب؛ ثم ينادون: يامعشـر أهل النّار ارفعوا رؤوسـكم فانظروا إلى منازلكم فى الجنّة فيرفعون رؤوسهم فينظرون إلى منازلهم فى الجنّة وما فيها من النعيم، فيقال لهم: هذه منازلكم التى لو اطعتم ربّكم دخلتموها...» «۱».

وجاء فى ذيل الرواية نفس هذا المعنى بشأن أصحاب النّار حينما يرون منازلهم فى الجنّة فيكادون يموتون من الحسرة والغيظ.

ونُقل فى تفسير الدر المنثور حديث مشابه عن الرسول صلى الله عليه و آله ولكن بشكل مختصر «۲».

إنّ وجود منزلين لكل إنسان يـدل على الطبائع والاسـتعدادات الموجودة فى كل إنسان بالقُوّة، حيث يُحـدّد منزله فى الجنّة أو فى النّار وفقـاً لتلـك الطبـائع والاسـتعدادات، ولاـ يتنـافى هـذا مع ماذكرناه سابقاً من أنّه يبنى تلك المنازل بعمله ويكملها من جميع الجوانب، ويخرج كل تلك الاسـتعدادات من حالـة القُوّة إلى حالـة الفعل، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ أهل الجنّة لا ينسون أبداً ذكريات الدنيا، ويمكنهم معرفة قيمة وأهّمية كل هذه النعم والفضائل من خلال مقارنة أوضاعهم الحالية مع ما كانوا عليه فى الدنيا.

ذكرت الآيات ما يأتى: «وَأَقبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعضٍ يَتَسَاءَلُونَ* قَالُوا انَّا كُنَّا قَبلُ فِى اهلِنَا مُشـفِقِينَ* فَمَنَّ اللَّهُ عَلَينَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ».

(الطور/ ۲۵- ۲۷)

ويُظهر هـذا التعبير أنّ أصـحاب الجنّة يتـذكرون معانـاتهم فى الـدنيا وشـقاءهم ويقـارنون بينهما وبين ماهم فيه، ومن الطبيعى أنّ هـذه المقارنة تُظهر لهم بوضوح عظمة النعم التى يتنعّمون بها.

۳- هل يوجد فى الجنّة تكامل؟

رغم أنّ جواب هذا السؤال قد اتّضح إجمالًا من خلال الإجابة عن السؤال السابق، لكن

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۱۲۵، ح ۲۶.

(۲). تفسير در المنثور، استناداً لما ورد فى تفسير الميزان، ذيل آيات سورة الأعراف.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۴

من الضرورى هنا البحث عن جواب أوسع، فنقول: نعم إنّ التكامل موجود هناك قطعاً ولا يبقى أهل الجنّة يراوحون فى أماكنهم، بل هم يقتربون- بفضل اللَّه ولطفه ورحمته- نحو ساحة قدسه يوماً بعد يوم، ويواصلون سيرهم فى التقدم صوب القرب إلى اللَّه.

وليس مفهوم هذا الكلام وجود العبادات والطاعات والأعمال هناك، لأنّ الجنّة ليست دار التكليف، فالمقوّمات الأوّلية للتكليف معدومة هناك، بل هم يواصلون مسيرتهم التكاملية فى ظل أعمالهم المنجزة فى الدنيا، تماماً كالأشجار المثمرة التى يغرسها الإنسان مَرّة واحدة، فتمتد جذورها وتخرج منها فروع وأغصان هنا وهناك حتّى تعم السهول والصحارى أو كسفينة الفضاء التى تحتاج فى بداية انطلاقها وخروجها عن مجال جاذبية الأرض إلى طاقة عظيمة، ولكنها بعد الخروج من هذا المجال تواصل حركتها- إذا لم تصطدم بمانع- من غير حاجة إلى أى وقود جديد.

وهناك آيات قرآنية تشير إلى هذه القضية، وتتحدث عن أصحاب الجنّة كما هو فى قوله تعالى: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً». (مريم/ ۶۲)

ويتضح جلياً من خلال الآيات السابقة لهذه الآية أنّ هذا الوصف ينطبق على جنّة الآخرة التى عبّرت عنها بكلمة «جنّات عدن» لا على جنّة البرزخ، وهنا يتبادر سؤال إلى الأذهان وهو إذا كانت الآيات الشريفة تشير إلى أنّ أهل الجنّة لهم فيها ما يشتهون فى أى وقت وزمان، فما هى هذه العطايا والفضائل التى تُمنح لهم فى كل بكرة وعشىّ؟

من المؤكد أنّها فضائل وأرزاق مادّية ومعنوية تقدّم لهم فى هذه الأوقات، إضافة إلى رفعهم نحو درجات أسمى وأعلى

و ورد حديث عن النبى صلى الله عليه و آله يُلقى الضوء على هذا الموضوع يقول فيه: «وتأتيهم طُرف الهدايا من اللَّه تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلّون فيها فى الدنيا، تسلّم عليهم الملائكة» «۱»، وهنا يثار سؤال آخر تُفرزه تعابير الآية، فحينما لا وجود لليلٍ ولا نهارٍ فى الجنّة فكيف تكون هناك بكرة وعشّياً؟

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۱۶، ص ۱۰۳؛ وتفسير القرطبى، ج ۶، ص ۴۱۶۶، ذيل، الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۵

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال كما يأتى:

إنّ الجنّة وإن كانت مضيئة بالنور دائماً إلّاأنّ ذلك ليس على وتيرة واحدة على الدوام بل هو فى حالة توهّج وخفوت يتيح لأهل الجنّة تحديد الليل من النهار تماماً مثل المناطق القطبية التى تمر عليها ستّة أشهر كاملة والوقت فيها نهار، إلّاأنّه يمكن تحديد الليل والنهار من خلال زيادة ونقصان درجة النور.

وبالنظر لاستعصاء هاتين القضيتين (قضية الرزق الجديد وقضية البكرة والعشى) على الكثير من المفسرين، فقد طرحوا بشأنها آراءً وتبريرات متعددة تتعارض فى الغالب مع ظاهر الآية ككونها كناية عن دوام النعمة، حيث كان من المتعارف بين العرب أنّ من يملك طعام الصباح والمساء (البكرة والعشى) يُعتبر غنيّاً، أو أنّ النعم الإلهيّة تأتيهم متوالية وبفواصل زمنية تعادل الليل والنهار فى هذه الدنيا.

ومن الواضح أنّ جميع هذه الآراء تخالف ظاهر الآية، أليس من الأفضل القول بوجود نوع من الليل والنهار الحاصلين من خلال اشتداد وانخفاض درجة الضياء ووجود نوع من الرزق مُستمد من فضل اللَّه وألطافه ومبشّر بطىّ مسيرة التكامل، بحيث ينطبق مع ظاهر الآية أو لا يتعارض معه كثيراً!؟

وهناك حديث نُقل عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «والذى أنزل الكتاب على محمد إنّ أهل الجنّة ليزدادون جمالًا وحُسناً كما يزدادون فى الدنيا قباحةً وهرماً» «۱».

وهـذا الحديث يُظهر بوضوح التكامل التدريجى لأصـحاب الجنّة وإن كانت فيه إشارة إلى الجوانب الجسـمانية فقط، لكن من البديهى أنّه يتضمن أيضاً الأبعاد الروحية من باب أَولى

---

(۱) علم اليقين، ص ۱۰۳، (استناداً على مانقله فى المعاد، كلام فلسفى).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۷

النّار

اشارة

۱- من هم أصحاب النّار؟

۲- ماهية جهنّم

۳- أبواب جهنّم وطبقاتها

۴- العذاب الجسدى لأصحاب النّار

۵- العذاب الروحى

۶- خلود العقاب

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۶۹

۱- من هم أصحاب النّار؟

تمهيد:

اشارة

رغم أنّ القاعـدة تسـتوجب التحـدّث أولًا عن ماهيـة النّار وأوصافهـا ومن ثم الانتقـال إلى الحـديث عن أصـحاب النّار، ولكن بما أنّ اسـلوب القرآن وسـنّته قـد دأبا على التركيز أكثر مايمكن على الأبعاد التربويـة والنتائـج الأخلاقيـة والإنسانيـة والاجتماعية فى مثل هذه البحوث، فإننا- واتباعاً لهذا النمط الإيجابى- سنبدأ أوّلًا بمن يستحق هذه العقوبة العظمى حتّى نقف على منطق الإسلام فى هذا الصدد من خلال استقراء الآيات التى تتحدث عن أصحاب النّار.

كثيرة هى الآيات الواردة بشأن أهل النّار وسوف نأتى بمثال عن كل قسم ونأتى بشاهد ومصداق عن كل موضوع.

و يتّضح بجلاء من خلال مضامين هذه الآيات أيضاً تفاوت الذنوب ودرجات قبح المعاصى.

بعد هذه المقدمة الوجيزة نعود إلى القرآن كى نلاحظ الأقسام المختلفة لأصحاب النّار فى ضوء ما ورد فى الآيات القرآنية.

۱- الكُفّار والمنافقون

إنّ أول فئـة تأخـذ طريقهـا إلى النّـار هم الكفـار والمنافقون، يقول القرآن الكريم: «انَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً»

(النساء/ ۱۴۰)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۰

وفی قوله تعالی «وَانَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ». (التوبة/ ۴۹)

وجاء: فی قوله تعالی «انَّ المُنَافِقِينَ فِی الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً».

(النساء/ ۴۵)

وفی الحقيقة أنّ أهم وأوسع مصدر للمعاصی والذنوب هو الكفر والنفاق وعدم الإيمان، لأنّ الإنسان إذا لم تشرق أعماق نفسه بنبراس الإيمان ولم يتطهر من الشرك والكفر والنفاق فلن تكون لديه أيّة دوافع نحو عمل الخير وستتغلب عليه النزعات المادية والشهوانية فقط، ولا يخفی علی أحد طبيعة الظواهر الناتجة عن سيطرة مثل هذه الدوافع، فنحن نری أمثلة منها فی الجرائم التی يرتكبها المجرمون فی عالم اليوم.

«الكفر»: يعنی تغطية الحق، و «النفاق» يعنی التظاهر بعكس ما يبطن (التظاهر بالإيمان واستبطان الكفر)، وهما أهم الموانع فی طريق الإصلاح فی المجتمعات الإنسانية، لذلك ركّزت الآيات المتعلّقة بالجنّة والنّار علی هاتين الفئتين.

۲- الصد عن سبيل اللّه

يُقسِّم القرآن الكريم الناس من زاوية موقفهم من الرسول صلی الله عليه و آله والآيات القرآنية إلی فريقين، فيقول: «فَمِنهُم مَّن آمَنَ بِهِ وَمِنهُم مَّن صَدَّ عَنهُ وَكَفَی بِجَهَنَّمَ سَعِيراً». (النساء/ ۵۵)

وقد أكثرت الآيات الشريفة من التهديد والوعيد لهذا الفريق «الذين يصدون عن سبيل اللّه»، وهو الفريق الذی لا يضل نفسه فقط بل ويعمد إلی إضلال جميع الناس، وكأنّه يجد لذّته فی هذا العمل، بل ويری مصالحه اللامشروعة فی كفر الناس وعدم إيمانهم، وذلك لأنّ المجتمع المؤمن المعتقد بالقيم الإلهيّة السامية لا يخضع أبداً للفراعنة وشياطينهم وأحزابهم، فالطريقة الوحيدة إذن للتسلّط علی أیّ مجتمع تكمن فی سلب جوهر الإيمان من قلوب أبنائه، وتاريخ الشعوب حافل بأمثال هذه المساعی المحمومة لهذا الفريق من أجل إضلال الناس، واليوم أيضاً تنصبُّ جهود جميع الدول والمؤسسات الاستكبارية فی

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۱

العالم علی سلب الشعوب إيمانها باللّه وبالقيم الرّبانية حتّی لايكون ذلك عائقاً أمام تحقيق أهدافهم وخدمة مصالحهم.

۳- ترک طاعة اللّه وشق عصا المسلمين

جاء فی قوله تعالی «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ابَداً». (الجن/ ۲۳)

وينص القرآن الكريم فی الآية الكريمة: «وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَی وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّی وَنُصلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَت مَصِيراً».

(النساء/ ۱۱۵)

كلمة «يشاقق» مأخوذة من (الشقاق) وتعنی المخالفة العمدية المصحوبة بالعداوة، وتدل جملة: «مِن بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَی أنّ مخالفته نابعة من العناد وتهدف إلی إيجاد الفرقة بين صفوف المسلمين.

۴- الاستهزاء بآيات اللّه

بالنظر لأنّ الاستهزاء بآيات اللّه يحمل دلالة على الكفر وعدم الإيمان والكفر من موجبات دخول النّار، لذلك فإنّ الآيات القرآنية أكدّت عليه كثيراً واعتبرته أحد الأسباب الأساسية التى تنتهى بالانسان إلى النّار، وهذا ما عبّرت عنه الآية الشريفة: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِى وَرُسُلِى هُزُواً» «۱». (الكهف/ ۱۰۶)

إنّ الاستهزاء بالحق نابع- كما هو متعارف- من الجهل والعناد والتعصّب والكفر المقرون بالبغض والعداوة، وكل واحد من هذه المفاهيم باب من أبواب جهنّم، لهذا فلا عجب أن

---

(۱). ورد ما يشابه هذا المعنى فى الآيتين ۹، ۳۵ من سورة الجاثية.

ينتهى مصير المستهزئين- الذين كان الأنبياء وأولياء اللّه فى صراع معهم- إلى جهنّم أو أدنى دركات الجحيم.

۵- عدم الاستفادة من العقل والعين والأذن

والفريق الآخر الذى يستحق دخول جهنّم هم الذين اغلقوا على أنفسهم أبواب المعرفة، فعطلوا العقل الذى منحه اللّه لهم، وأغمضوا أعينهم، وسدوا آذانهم حتّى لا يسمعوا صوت الحق ولا يروا وجه الحقيقة الناصع، ولكى لا يفكّروا بما يوجب الوعى واليقظة، تقول الآية الكريمة: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الجِنِّ وَالْانسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّايَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ اعيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّايَسمَعُونَ بِهَا اولَئِكَ كَالأَنعَامِ بَل هُم اضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ».

(الأعراف/ ۱۷۹)

ومن الواضح أنّ هذا الخلق ليس جبرياً، وما يقوله بعض انصار مذهب الجبرية مثل «الفخر الرازى» ومايستدّلون به لِاثبات مذهبهم، عارٍ عن الصحّة تماماً، وذلك لأنّ جوابه قد ورد ضمن الآية التى يقول تعالى فيها إننا وفّرنا لهم جميع مستلزمات المعرفة (كالعقول لإدراك المعقولات، والعيون لمشاهدة القضايا المحسوسة، والآذان لنيل العلوم النقلية) إلّا أنّهم لم يستعملوا تلك المستلزمات ولم يسفيدوا منها (تأمل)؟! ولهذا يقول فى وصفهم أنّهم كالحيوانات بل أدنى منها درجة، وذلك لأنّ الحيوان إنْ قَصُر عن فهم شىء فذلك ليس تقصيراً منه، بل لعدم امتلاكه لمستلزمات ذلك، والأضل من الحيوانات هو من يمتلك كل هذه الأسباب والعوامل مع توفّر الظروف اللازمة ولكنه لا يستفيد منها، والعامل الأساس لكل هذه الامور هو الغفلة التى اشير إليها فى ذيل الآية: «اولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ»، وجاء نظير هذا المعنى فى سورة الملك،، خلال إجابة أهل النّار عن تساؤلات خزنة النّار وملائكة العذاب: «وَقَالُوا لَو كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَاكُنَّا فِى اصْحَابِ السَّعِيرِ». (الملك/ ۱۰)

إنَّ علل كل هذا الشقاء الذى يرزح فيه الإنسان وسبب كل هذه المفاسد يكمن فى عدم

استخدام ابن آدم لعقله وأُذنيه وعينيه ولا يستغل هذه النعم الإلهيّة الكبرى فى سبيل المعرفة، فاللّه تبارك وتعالى قد حباه تلك النعم ومستلزمات المعرفة وأسبابها فهو- أى الإنسان- يمتلكها ولكنه لا يستفيد منها.

۶- اتباع الشيطان

ومن العوامل المهمّة فى دخول النّار (مركز الغضب الإلهى) هو الاستسلام للشياطين والانقياد لإرادتهم وتسليم زمام الامور لهم، كما تصف ذلك الآية الكريمة: «قَالَ اخْرُج مِنْهَا مَذءُوماً مَّدحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنهُم لَأَمْلَئَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ اجْمَعِينَ». (الأعراف/ ۱۸)

ومع أنّ الآية تتحدث عن رأس الشياطين ابليس، إلّاأننا نعلم أنّ خط الشياطين كلهم واحد، فهم فى كل مكان يسيرون على خُطى ابليس، واتّباع خُطى شياطين الجن والانس يُعد اتباعاً لِابليس، ومصير كل هؤلاء الأتباع دخول النّار.

فهم يخدعون من يتبعهم بالآمال الكاذبة وتزيين الشهوات والدعوة إلى المعاصى، والصد عن الخير والتشجيع على الانحراف، ويصدونهم عن سبيل اللّه، فيوقعونهم فى نار قهره وغضبه «۱».

۷- الطغيان والتكبر

إنّ «التكبّر» من أسباب دخول النّار، سواءً كان التكبر على اللّه سبحانه وتعالى أم على الخلق، أم عدم الاذعان والتسليم للحق، والطغيان أيضاً مصدر رئيس للكثير من الجرائم والمظالم وسلب الحقوق، لذلك فهو يؤدّى بالإنسان- كما هو الحال فى التكبر- إلى دخول النّار.

---

(۱). ورد مضمون هذا المعنى فى الآية ۲۱ من سورة لقمان؛ وأيضاً الآية ۲۲ من سورة ابراهيم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۴

يقول القرآن الكريم: «الَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثوىً لِّلمُتَكَبّرِينَ». (الزمر/ ۶۰)

ويقول كذلك: «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكبَرُوا عَنهَا اولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۱». (الأعراف/ ۳۶)

وكذلك جاء هذا المعنى فى آيات اخرى من القرآن الكريم فى وصف الجبّار العنيد:

«وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ* مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسقَى مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ».

(إبراهيم/ ۱۵- ۱۶)

لكلمة «الجبار» معان متعّددة: منها: القهر والتسلط والغلبة والنفوذ، إلّاأنَّ لهذا الأمر جانباً رحمانياً أحياناً، مثل سلطة اللّه على عالم الوجود وعلى كل شىء فيه، وله أحياناً جانب شيطانى، كسلطة وغلبة الطغاة والمتجبّرين.

و «العنيد»: على حد قول صاحب كتاب لسان العرب: «الجائر عن القصد الباغى الذى يَرُدّ الحق مع العلم به»، وكل هذا من نتائج الكبر والغرور والتعالى، ولو أمْعنّا النظر قليلًا لوجدنا أنّ هذه الرذيلة الأخلاقية هى واحدة من أهم الحُجب المانعة للمعرفة ومن عوامل إضلال الإنسان، وسلب حقوق الآخرين والاعتداء عليهم، وأنواع الذنوب الاخرى «۲».

۸- الظلم والجور

ورد فى الكثير من آيات كتاب اللّه تهديد للظلمة بنار جهنّم، والتعابير التى وردت بشأنهم قلّما وردت بشأن فئة اخرى وهذا يعكس مدى الأهميّة التى أولاها الإسلام لمواجهة الظلم والحث على التخلى عنه. وقد وردت أشدّ التهديدات فى قوله تعالى «انَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً احَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وانْ يَستَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهْلِ يَشْوِى الوُجُوهَ

---

(۱) ورد شبيه هـذا المعنى فى الآيـات ۶۰، ۷۲، ۷۶ من سورة غـافر؛ والآيتين ۴۰، ۴۱ من سورة الأـعراف؛ والآيتين ۲۱، ۲۲ من سورة النازعات؛ والآيتين ۵۵، ۵۶ من سورة ص.

(۲). ورد مايشابه هذا التعبير فى الآية ۲۴ من سورة ق؛ والآية ۱۶ من سورة المدّثر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۵

بِئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرتَفَقاً». (الكهف/ ۲۹)

وهناك تعبير آخر شديد اللهجة أيضاً ورد أيضاً فى قوله تعالى: «وَامَّا القَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً». (الجن/ ۱۵)

ويبيّن هـذا التعبير أنّ نار جهنّم تستعر فى داخل نفوسـهم، وكما كانوا فى هـذه الـدنيا ناراً محرقة للمظلومين، يتحول كيانهم هناك فى عالم تجسيد الأعمال إلى قطعة من نار، ولا تعبير أبلغ وأفصح من هذا التعبير بشأن القوم الظالمين «۱».

۹- الركون إلى الظالمين

ليس الظلم وحـده يؤدّى إلى ورود جهنّم المتوقدة بنار الغضب الإلهى، بل الركون إلى الظالمين واعانتهم يؤدّى إلى ذلك أيضاً- كما صرح بذلك القرآن الكريم- وقد جاء فى الآية الشـريفة: «وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ اوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ». (هود/ ۱۱۳)

كلمة «تركنوا» مشـتقة من مصدر (الركون) والذى يعنى فى رأى أصـحاب اللغة الاتكال على الشـىء والميل إليه، وهو مايستلزم اتصافه بالقوة والمقـدرة، لأنّ الإنسان يتوكّل ويعتمـد على ما فيه القـدرة، ولـذلك تطلق كلمـة «الركن» على العمود أو الجدار الذى يُقام عليه البناء أو الأشياء الاخرى «۲».

و تحمـل الآيـة أعلاه عنوانـاً عامـاً يطلق على كـل الظلمـة، وتشـتمل أيضـاً من خلال تعبير «الركون» على أىّ نوع من أنواع الارتبـاط والاعتماد على الظالمين، وتقول إنّ الجميع سيقعون فى نهاية المطاف فى قبضة العذاب الإلهى، بل وإنّهم حتّى فى هذه الحياة الدنيا لا

---

(۱). ورد نفس هذا المعنى فى سورة سـبأ، ۴۲؛ الزخرف، ۶۵؛ آل عمران، ۱۵۱؛ المائدة، ۱۲۹؛ إبراهيم، ۲۲؛ مريم، ۷۲؛ الأعراف، ۴۱؛ الأنبياء، ۲۹؛ والشورى ۴۵.

(۲). مصباح اللغة؛ صحاح اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۶

يجنون غالباً سوى الفشل والخسران والشقاء لأنّ الظالم حين يقوى لا تأخذه رأفة ولا رحمة على غيره.

وعلى أيّة حال، فإذا كان الركن الذى يُعتمد عليه سـبباً لمثل هذا الشقاء فمن البديهى- ومن باب أولى أن تكون تقوية الظلمة وإعانتهم سبباً لدخول الإنسان النّار، ولهذا السبب فقد شدّدَ القرآن فى النهى، وبكل صراحة، عن أى‌تعاون ومساعدة على الظلم، وقال:

«وَلاتَعاوَنُوا عَلَى الْأِثْمِ وَالْعُدوَانِ». (المائدة/ ۲)

وقـد انـذرت الروايات الإسـلامية بأشد العذاب والجزاء لمن يكون سـبباً فى تقوية وتعزيز الظالم بأى شـكل من الأشـكال، حتى فيما لو وضع بين يديه القلم أو الدواة لكتابة حكم فيه أى ظلم، وسنأتى على تبيان ذلك بإذن اللّه فى الموضع المناسب.

۱۰- نسيان الآخرة

تتحدث سورة الجاثية عن هذا الجانب وتقول: «وَقِيلَ اليَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَومِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَالَكُمْ مِّن نَّاصِرِينَ». (الجاثية/ ۳۴)

لا شك فى أنّ نسيان محكمة العدل الإلهى فى يوم القيامة يعتبر مصدر أنواع الذنوب والمعاصى، والانغماس فى مستنقع الظلم والرذيلة والفساد، وهذه الأعمال تؤدّى إلى أن يعاملهم اللَّه معاملة الناسين، ولا شك أنّ احاطة اللَّه بكل شىء وعلمه بكل شىء وفى كل زمان تجعل من مفهوم نسيانه أمراً لا معنى له، لكنه يعامل الناسين معاملة النسيان، أى أنّه يقطع عنهم بالكامل لطفه ورحمته، فتنغلق عليهم كل سبل النجاة، ولا يبقى أمامهم سوى هاوية جهنّم «۱».

---

(۱) ورد نفس هذا المعنى فى سورة ص، ۲۶؛ السجدة، ۱۴.

۱۱- حبّ الدنيا

حبّ الدنيا رأس كل خطيئة، ومن العوامل المهمّة فى إلقاء الكثير من الناس فى نار جهنّم، كما صرّح بذلك قوله تعالى «مَّن كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مانَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذمُوماً مَّدحُوراً». (الاسراء/ ۱۸)

أى إنَّ الأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة بحيث ينال أهل الدنيا كل مقاصدهم منها، بل قد يلجأون إلى الآف الحيل والمساعى، بل ويضطرون إلى ارتكاب الجرائم والمعاصى من أجل بلوغ بعض من اغراضهم، لكن جهنّم لهم بالمرصاد، فتحرق أجسادهم وأرواحهم أيضاً بحكم كونهم «مذمومين» و «مدحورين» ومطرودين من رحمة اللَّه «۱».

۱۲- اكتناز الذهب

إنّ اكتناز الذهب وإن كان يُعَدُ واحداً من مظاهر حب الدنيا، لكن القرآن الكريم قد أكّد عليه وخصّه بالذكر بأعتباره واحداً من الأسباب التى تؤدّى ببنى آدم إلى دخول نار جهنّم، حيث قال تعالى «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ اليِمٍ* يَوْمَ يُحمَى عَلَيهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُم فَذُوقُوا مَاكُنتُمْ تَكنِزُونَ». «۲» (التوبة/ ۳۴- ۳۵)

تحتوى هذه الآية على نقاط وبحوث متعددة سنشير إليها فى موضعها المناسب، أمّا ما ينبغى الإشارة إليه هنا فيتلخّص فى نقطتين:

الاولى إلى أىحدّ يُعتبر جمع الثروة اكتنازاً؟ وهذا الموضوع مُختلف فيه كثيراً بين المفسّرين، وما ورد فى الكثير من الروايات عن الشيعة وأهل السنّة، واتّفقت عليه آراء الكثير من المفسّرين هو: أنَّ المال الذى تؤدّى زكاته لايُعتبر كنزاً (أىُّ مال ادّيت زكاته فليس بكنز) «۳».

---

(۱). ورد نظير هذا المعنى فى سورة النازعات؛ ۳۸.

(۲). ورد نفس المعنى فى سورة الهمزة، ۲ إلى ۶؛ وسورة مسد، ۲- ۳؛ وسورة الحاقة، ۲۸ إلى ۳۱.

(۳). لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۳۵ من سورة التوبة.

ولكن فى الظروف الاستثنائية وحين توجب مصالح المجتمع الإسلامى على الحكومة الإسلامية تعيين حدود جمع الثروة- كما ورد فى بعض الروايات عن على عليه السلام- أو يكون الاجراء أبعد من ذلك فيعلن فى ظرف خاص عن وجوب صرف جميع المدّخرات والذخائر حفاظاً على وجود المجتمع الإسلامى (كما ورد فى بعض الروايات بشأن قيام الإمام المهدى «عج»). لكن لا تُعتبر النقاط المذكورة قاعدة عامّة، والقاعدة العامة الأساسية هى ماذكرنا فى بداية الموضوع.

الثانية: لماذا تقول الآية تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم؟ لعلَّ ذلك يعود إلى ردود الفعل التى تصدر منهم تجاه المحرومين والفقراء فهم أولًا يعبّسون ويقطّبون الجبهة، ومن ثم يظهرون اللامبالاة فيصدّون عنهم ومن بعد ذلك يديرون لهم الظهور، ولذلك تكوى بالترتيب جباههم ثم جنوبهم ثم ظهورهم بنفس تلك المسكوكات كما كانوا يكوون قلوب المساكين والفقراء.

۱۳- الفرار من الزحف

نحن نعلم أنّ الإسلام يعتبر هذا الذنب من أكبر الذنوب فهو يؤدّى إلى اندحار وذلّة وشقاء المسلمين ويستوجب أشد العقوبات وهنا يصرح القرآن: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الادبَارَ* وَمَن يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أو مُتَحَيِّزاً الَى فِئَةٍ فَقَد بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئسَ المَصِيرُ». (الانفال/ ۱۵- ۱۶)

«الزحف»: وفقاً لرأى أصحاب اللغة «۱» يعنى فى الأساس الحركة المصحوبة بجر الأرجل على الأرض كحركة الطفل فى بداية تعلمه للمشى، أو كسير الجمل عند شدّة التعب ثم استعملت هذه الكلمة لتعنى حركة المجاميع الكبيرة من الناس لأنّهم يبدون لكثرتهم وكأنّهم

---

(۱). مقاييس اللغة؛ مفردات الراغب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۷۹

ينزلقون على الأرض فى مشيهم ويتقدمون نحو الإمام.

وعلى أيّة حال، تحمل هذه الجملة إشارة إلى أنّ قوّة العدو مهما كانت كبيرة فلا ينبغى التراجع أمامها أو الفرار من ساحة المعركة عند المواجهة، إلّابأمر القائد.

ومن الواضح أَنَّ حرمة الفرار من الزحف يعتبر قانوناً إسلامياً عاماً، وأمّا قول بعض المفسرين الذين اعتبروه خاصاً بمعركة بدر دون سواها فهو قول لا دليل على صوابه كما اشير إليه فى تفسير الميزان «۱»، ولا سيما أنّ هذه الآية قد نزلت بعد معركة بدر «۲». إذن فالفرار من الجهاد من موجبات دخول النّار.

۱۴- قتل الأبرياء

إنّ الإسلام يكن احتراماً كبيراً لدماء الناس إلى درجة اعتبر معها قتل الواحد وكأنّه قتل لجميع الناس: «مَن قَتَلَ نَفساً بِغَيرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً». (المائدة/ ۳۲)

واعتبر إراقة دم المؤمن تستحق الغضب الإلهى والعذاب العظيم: «وَمَن يَقتُل مُؤمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَاعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً».

(النساء/ ۹۳)

وبهذا فقد انذر قاتل المؤمن بأربع عقوبات كبرى وهى: ۱- الخلود فى جهنّم، ۲- غضب من اللّه، ۳- لعنة من اللّه، ۴- العذاب العظيم، وهذا أقصى ما أظهره الإسلام إزاء احترام دم المؤمن، لأنّه لا يوجد فى القرآن أى موضع يشتمل على مثل هذه العقوبة «۳».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۹، ص ۳۷.

(۲). ورد ما يشابه هذا المعنى فى بعض جوانبه فى الآية ۸۱ من سورة التوبة.

(۳) ورد نفس المعنى بصيغة اخرى فى الآية ۲۱ من سورة آل عمران.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۰

۱۵- ترک الصلاة

تحظى الصلاة بقدر عظيم من الأهميّة، وقد وردت بشأنها الكثير من الآيات والروايات التى تشيد بمكانتها وخاصة فى الكتب الإسلامية الشهيرة، وعَدّ القرآن الكريم ترک هذه الفريضة من موجبات الهلاک ودخول النّار، حيث يقول فى وصف جماعة من أصحاب الجنّة يحادثون جماعة من أصحاب النّار فيقولون لهم: «مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ»؟ فيأتيهم الجواب: «قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ* وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ* وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ* وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ». (المدثر/ ۴۲- ۴۶)

ورغم وجود ثلاثة ذنوب اخرى فى الآية أعلاه إضافة إلى ذنب ترک الصلاة، لكن التركيز عليها وجعلها فى البداية يعكس مدى خطورة ترک هذه الفريضة الإلهيّة، إضافة إلى أنّ أيّاً من هذه الامور الأربعة كاف لوحده لإلقاء الإنسان فى النّار (ويبدو أنّ المقصود من عدم إطعام المسكين هو منع الحقوق الواجبة).

وللصلاة من وجهة نظر الإسلام مكانة رفيعة، ونقلت بعض الروايات المعروفة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله منها: «إذا كان يوم القيامة يدعى بالعبد فأول شىء يسأل عنه الصلاة فاذا جاء بها تامة وإلّا زُخَّ فى النّار» «۱».

ولعل السبب الكامن وراء ذلک هو أنّ الصلاة هى الشريان النابض بالإيمان، منها ينبع الإيمان وبها يتواصل ويستمر، وبتركها تتزعزع أركان الدين والإيمان، ولا يخفى أنَّ أحد شروط قبول الأعمال، وجود الإيمان، فلا يقبل عمل إلّابوجوده.

۱۶- عدم ايتاء الزكاة

الزكاة من أركان الإسلام الأساسية وتركها من أكبر الذنوب ونلاحظ أنّ القرآن قد جعل منعها فى مصاف الشرک وتكذيب المعاد، وهذا يعنى أنّها من دواعى دخول النّار، حيث

---

(۱). وسائل الشيعة، ج ۳، كتاب الصلاة، الأبواب ۶ و ۷ و ۸ وخاصّة ص ۲۲، ح ۱۰؛ ص ۱۹، ح ۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۱

يقول القرآن الكريم: «وَوَيلٌ لِّلمُشْرِكِينَ* الَّذِينَ لَايُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ». (فصلت/ ۶- ۷)

اثارت هذه الآية جدلًا واسعاً بين المفسرين، وطرحوا احتمالات متعددة فى تفسيرها وكان الدافع لذلک كونها من فروع الدين فكيف يصبح تركها دلالة على الكفر والشرک؟

يبدو أنّ البعض قد جعل منها معياراً، فقال: إنّ عدم ايتاء الزكاة حتّى وإن لم يقترن بانكار حكمها يعتبر مؤشراً ذاتياً على الكفر، وقال

البعض الآخر: إنَّ عدم ايتائها لايُعتبر كفراً لوحده، وإنّما يكون كذلك إذا اقترن بانكارها لأنّ وجوب الزكاة من ضروريات الإسلام ومنكرها كافر.

والنقطة التى تُعيننا على توضيح تفسير الآية هى المكانة الخاصة التى تميّز الزكاة من بين التعاليم الإسلامية، فأداؤها يعنى الاعتراف بالحكومة الإسلامية ومنعها يدل على التمرد ومناهضة الحكومة، وكما نعلم فإنّ القيام ضد الحكومة الإسلامية موجب للكفر. «۱»

وقد سبقت الإشارة إلى الآية ۳۵ من سورة التوبة والتى تتحدث عن اكتناز الذهب والفضة وهى من الآيات الدالّة على أنّ ترك دفع الزكاة من أسباب دخول النّار.

۱۷- أكل مال اليتيم

أكل مال أىِّ شخص كان، وبلا مجّوز شرعى، حرام، لكن هذا الحكم يتأكد أكثر بالنسبة لليتامى وذلك لحاجتهم الشديدة من جهة، وفقدانهم الولى من جهة ثانية، وعدم إمكانية الدفاع عن أنفسهم من جهة ثالثة، وهذا مايخرج القضيّة عن وضعها الطبيعى ويعطيها بُعداً استثنائياً.

و لهذا السبب هناك آيات قرآنية كثيرة مليئة بالوعيد والعذاب الشديد لمن يأكل أموال اليتامى ظلماً، فها هى الآية الشريفة تصرّح: «انَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ اموَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا

---

(۱). ورد شرح هذه القضية بالتفصيل فى التفسير الأمثل، ذيل الآيات ۶- ۸ من سورة فصلّت.

يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِم نَاراً وَسَيَصْلَونَ سَعِيراً». (النساء/ ۱۰)

و ورد فى الروايات عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «شرّ المأكل أكل مال اليتيم ظلماً» «۱».

ولكن هل أنّ التعبير القرآنى فى عقوبة آكل مال اليتيم جوراً بأنّه يأكل ناراً، هو تعبير مجازى؟ قال جماعة من المفسّرين بإمكانية حمله على المعنى الحقيقى لأنّ هذا التعبير يظهر أنّ لأعمالنا صورة باطنية إضافة إلى الصورة الظاهرية، وأنّ تلك الصورة خافية عنّا فى هذا العالم وتظهر فى يوم القيامة، ومسألة تجسد الأعمال نابعة من هذا الموضوع، وعلى هذا فلا يُستبعد حمل الآية على معناها الحقيقى (فتأمل).

۱۸- أكل الربا

وهذا العمل أيضاً من الأعمال التى وعد القرآن مرتكبيها بعذاب جهنّم حيث يقول:

«فَمَنْ جَاءَهُ مَوعِظَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ الَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَاولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة/ ۲۷۵)

وجاء ما يُشبه هذا المعنى فى الآيتين اللتين تهددان كذلك آكلى الربا بعذاب النّار وتصفانه بأنّ له نفس العذاب الذى ينتظر الكافرين:

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا اضْعَافاً مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ* وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى اعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ».

(آل عمران/ ۱۳۰- ۱۳۱)

فعندما يعلن المرابون العصيان على اللّه، أو يعلن هو جلّ شأنه الحرب عليهم فمعنى هذا أنّهم قد تنزّلوا إلى مستوى الكافرين، وهذا تعبير رهيب فى وصف هذه المعصية الكبيرة.

نستشف من بعض الروايات أنّ الربا محّرم فى جميع الكتب السماوية وفى جميع شرائع الأنبياء، كما تنص هذه الرواية التى وردت فى فقه الرضا عليه السلام: «وهو محرم على لسان كل نَبى وفى كلِّ كِتابٍ» «۲».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۶، ص ۲۶۷، ح ۱.

(۲) فقه الرضا عليه السلام، طبقاً لنقل مستدرك الوسائل، ج ۱۳، ص ۳۳۱، ح ۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۳

۱۹- كفران النعم الإلهيّة

وهذا أيضاً من الذنوب الكبيرة التى يُجازى عليها بعذاب النّار، حيث قال تعالى «اَلَم تَرَ اَلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَاَحَلُّوا قَومَهُم دَارَ الْبَوَارِ* جَهَنَّمَ يَصْلَونَهَا وَبِئْسَ القَرَارُ».

(إبراهيم/ ۲۸- ۲۹)

أمّا ماهو المقصود هنا بالنعم الإلهيّة؟ قال جماعة من المفسرين- وانطلاقاً من بعض الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية- إنّ النعمة هى وجود النبى الكريم صلى الله عليه و آله، ونقرأ فى رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «نحن واللَّه نعمة اللَّه التى أنعم بها على عباده وبنا يفوز من فاز» «۱».

كلمة «نحن» تشير إلى كل بيت النبى صلى الله عليه و آله، وإن كانت إشارة إلى المعصومين عليهم السلام فهى تشمل النبى من طريق أولى وتتضح مدى أهميّة هذه النعمة فيما لو التفتنا إلى حديث الثقلين وماله من مكانة، وعلى أيّة حال فإنّ وجود النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وإن كان يُعدّ من أكبر النعم الإلهيّة، فلا يمكن حصر مفهوم هذه الآية فى هذا النطاق، والظاهر أنّها تضم جميع النعم الإلهيّة الكُبرى

وقد أشار بعض المفسّرين إلى الكافرين بالنعمة الإلهيّة الكُبرى وقالوا: إنّهم بنو اميّة، أو بنو اميّة وبنو المغيرة، أو عموم الكفّار فى عصر النبى صلى الله عليه و آله ولكن هذا من قبيل ذكر المصداق أيضاً لا من باب الحصر.

وفى جميع الأحوال ينبغى شكر النعم الإلهيّة الكبرى والاستفادة منها ما أمكن وعلى أفضل وجه، وإذا استبدل الشكر بالكفران استوجب عذاب جهنّم «۲».

۲۰- المطففين

وقد أكّد القرآن على عذاب هؤلاء تأكيداً خاصاً، وأولى هذه القضيّة أهمّية استثنائية،

---

(۱). تفسير على بن إبراهيم، ج ۱، ص ۳۷۱.

(۲). جاء فى تفسير الميزان، هذه الآية فيها تقدير وهو كمايلى: بدّلوا شكر نعمة اللَّه كفراً.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۴

حتى أنّ اسم احدى السور هو «المطففين» وقد جاء فى مستهلّها: «وَيلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ* أَلَا يَظُنُّ اولَئِكَ انَّهُمْ مَّبعُوثُونَ* لِيَومٍ عَظِيمٍ.. كَلَّا انَّ كِتَابَ الفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ».

(المطففین/ ۱- ۴- ۵- ۷)

قال بعض المفسّرین: إنّ «الویل» یعنی شدّة عذاب القیامة، وقال آخرون: إنّها اسم وادٍ خاص فی جهنّم «۱».

وجاء أیضاً فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «لم یجعل اللّه الویل لأحد حتّی یسمّیه کافراً، قال عزّ وجلّ: فویل للذین کفروا...» «۲».

و ورد أیضاً فی حدیث عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «ویل وادٍ فی جهنّم یهوی فیه الکافر» «۳».

و یفهم من هذه التعابیر أنّ التطفیف- أی عدم ایفاء المیزان فی البیع- یصل حدَّ الکفر أو هو نوع من الکفر.

وکلمة «ویل» لها معنیً لغوی واسع، یرادف الشر والغم، والهلاک أو العذاب الألیم، وما ذکر آنفاً یمکن أن یکون مصداقاً لذلک.

وممّا یسترعی الانتباه أنّ ألفاظ الآیة وإن کانت تخصّ المطففین للمواد القابلة للوزن والکیل لغرض البیع والشراء، إلّاأنّه لا یُستبعد أن تتسع الآیة لما هو أبعد من ذلک لتشمل کل من یقصّر فی تأدیة واجباته الدینیة والأخلاقیة والاجتماعیة وذلک لأنّ کل من یقصر فی أداء واجبه وینتقص من عمله یُعتبر فی الحقیقة مُطفّفاً.

ولهذا نُقل عن الصحابی المعروف «عبداللّه بن مسعود» أنّه قال: «کل من طفف فی صلاته ینطبق علیة ماقاله اللّه تعالی بشأن المطففین» «۴».

---

(۱) تفسیر القرطبی، ج ۱۰ ص ۷۰۴۱.

(۲) اصول الکافی، ج ۲، ص ۳۲، ح ۱.

(۳) تفسیر روح المعانی، ج ۳۰، ص ۶۸.

(۴) تفسیر مجمع البیان، ج ۱، ص ۴۵۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۵

۲۱- الهمز واللمز والغیبة

وهذه أیضاً من الذنوب الکبیرة لأنّ فیها استهانة بکرامة وشخصیة الناس المؤمنین، والکرامة والشخصیة من الاعتبارات التی توازی فی الأهمیّة دم الإنسان بل وتفوقه أحیاناً، ولذلک توعد القرآن الکریم بالویل والعذاب لکل من یجترىء علی هذا الفعل، فقال: «وَیْلٌ لِّکُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ* الَّذِی جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ* یَحسَبُ انَّ مَالَهُ اخلَدَهُ* کَلَّا لَیُنبَذَنَّ فِی الحُطَمَةِ». (سورة الهمزة/ ۱- ۴)

هنالک اختلاف فی آراء المفّسرین بشأن معانی الهمزة واللمزة، فهاتان الکلمتان وردتا علی صیغة المبالغة من المصدرین «الهمز» «واللمز» قال البعض: کلاهما بمعنی واحد، وهو البحث عن عیوب الآخرین واغتیابهم، بینما قال آخرون، إنّ الاولی تعنی اقتفاء معایب الآخرین والتشهیر بهم علناً والثانیة بمعنی اقتفائها والتشهیر بها خفیة وعن طریق الإشارة بالعین والحاجب وأمثال ذلک، وقال آخرون: إنّ الاولی تعنی الغیبة، والثانیة تعنی اظهار العیوب وجهاً لوجه.

ویبدو فی جمیع الأحوال أنّ کل من یحاول الاستهزاء بالآخرین أو یتعمّد الاساءة إلیهم باللسان وحرکات العین والحاجب فی حال غیابه أو وجهاً لوجه، ویحاول تقصّی عیوبهم أو یکشف العیوب المستورة وافشائها لغرض الاساءة إلی کرامتهم فهو مشمول بالآیة المذکورة، فکما أنّه یحطم شخصیة وکرامة الآخرین فسیکون کذلک عرضة- فی یوم القیامة- لنار جهنّم «الحطمة» لکی تحطّم کل وجوده.

إنّ الأشخاص من أمثال هؤلاء هم أکثر خلق اللّه شراً کما جاء ذلک فی حدیث منقول عن سید الرسل صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«ألا أخبركم بشر الناس؟» قالوا بلى يارسول اللّه، قال: «المشّاؤون بالنميمة، المفرّقون بين الأحبّة، الباغون للبرئاء المعايب» «۱».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، باب النميمة، ح ۱؛ تفسير القرطبى ج ۲، ص ۷۱- ۷۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۶

۲۲- الاسراف والتبذير

الاسراف والتبذير بالمعنى الواسع للكلمة يعتبران من الكبائر أيضاً، وقد ذكرهما وأكّد عليهما القرآن الكريم بشدّة، فقال عن الاسراف: «وَانَّ المُسرِفِينَ هُمْ اصْحَابُ النَّارِ». (المؤمن/ ۴۳)

ورغم أنّ هذا الكلام قد ورد فى سورة المؤمن على لسان مؤمن آل فرعون، لكن القرآن أطلقه على هذا المجال.

وقال أيضاً عن التبذير: «انَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا اخْوَانَ الشَّيَاطِينَ». (الاسراء/ ۲۷)

ومن الواضح أنّ مصير الشياطين واخوانهم ليس سوى الوقوع فى بؤرة الغضب الإلهى- أى جهنّم-.

و «الاسراف»: و (السَرَف) وهى على وزن «الهدف» تعنى كما يقول أهل اللغة تجاوز الحد فى أى عمل، وإن كانت تُطلق على الأغلب على تجاوز الحد فى صرف الأموال «۱».

ولهذا يُطلق القرآن الكريم كلمة المسرفين على المشركين والمجرمين الذين يتجاوزون الحدود الإلهيّة، وحتّى قتل الناس الأبرياء يُعَدُّ نوعاً من الاسراف.

وكلمة «التبذير» مشتقة من مصدر «البذر» وتعنى فى الأصل النثر، وتُطلق عادة على الحالات التى تُنثر فيها الأموال بلا هدف، أو حين تُصرف هنا وهناك وتكون نتيجتها الاتلاف والتضييع «۲».

ولو فكّرنا فى وضع العالم الحالى والتبذير والاسراف السائد فيه والذى لا يقتصر على المواد الغذائية والإمكانات المادّية فحسب، بل ويتعداه إلى تجاوز الحدود فى كل شىء، لوجدنا أنّه وقبل أن يستحق الآخرة، جعل من هذه الدنيا جهنّم لاهبة يحترق فى نارها الصغير والكبير ولا مغيث لنداءاتهم، حينذاك سنوقن أنّ عقوبة الاسراف والتبذير يجب أن تكون نار جهنّم.

---

(۱) المفردات للراغب، مادة (سرف).

(۲) التحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (بذر).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۷

۲۳- الجرائم والذنوب

توجد فى القرآن الكريم أوصاف عامّة وشاملة لأصحاب النّار ومن جملة ذلك الجريمة و الذنب، إذ قال تعالى بشأنهم: «وَنَسُوقُ المُجْرِمِينَ الَى جَهَنَّمَ وِرْداً». (مريم/ ۸۶)

كلمة «مجرم» مأخوذة من المصدر (جُرْم) على وزن (ظُلْم) والذى يعنى أساساً القطع، لذلك تُطلق الكلمة على عملية قطع الثمار من الأشجار أو قطع الأشجار ذاتها، ولمّا كان المجرمون يحرمون أنفسهم من السعادة والنجاة بسبب سوء عملهم، لهذا صدقت عليهم هذه الكلمة.

هل يفهم من هذه الآية أنّ كل ذنب يستلزم دخول النّار، أم أنّها تخص مجرمين معيّنين؟

إنّ ظاهر الآية يدلّ على الاطلاق، إلّاأنّه يمكن أن يُستشف من خلال الآيات الاخرى أنّها تخص الجريمة التى يخالطها الكفر، كما جاء فى قوله تعالى «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ». (الزخرف/ ۷۴)

ومن البديهى أنّ الخلود فى النّار مقصور على الكفّار لا- كل المجرمين ودلّت على هذا قوله تعالى «يَتَسَاءَلُونَ* عَنِ الْمُجْرِمِينَ* مَاسَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ». (المدثر/ ۴۰- ۴۲)

فيعدّون لهم فى الجواب مجموعة من الذنوب منها التكذيب بيوم الدين وهو ما يساوى الكفر، وقد ورد نظير هذا المعنى وهو أنّ المقصود منه الجرم المقرون بالكفر- فى آيات عديدة اخرى «۱»، ويحتمل أيضاً أنّ المراد من المجرمين الوارد فى الآية موضع البحث هم المجرمون الذين انغمسوا تماماً فى الذنوب وبالشكل الذى يجعلهم لا يستحقّون الشفاعة ولا عفو اللّه، فهولاء عامّة يدخلون النّار.

---

(۱) وردت فى الآيات والسور التالية: الأعراف، ۴۰، ۸۴، ۱۳۳؛ سورة الحجر، ۱۲، ۵۸، سورة الفرقان، ۳۱، النمل، ۶۹، وغيرها، وتتحدث جميعها عن أقوام من أمثال قوم لوط وقوم فرعون وأعداء الأنبياء، واستخدمت بشأنهم كلمة «المجرم».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۸

۲۴- تعدّى حدود اللّه

اشارة

وهذا أيضاً واحد من العناوين العامّة التى وعد القرآن بأنّ جزاءها النّار: «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذابٌ مُّهِينٌ». (النساء/ ۱۴)

إنّ المقصود من الحدود الإلهيّة قوانينه وأحكامه وتعاليمه، وإن كان أهل اللغة قد نقلوا ثلاثة معانٍ مختلفة لكلمة «الحد» وهى: المنع، ونهاية كل شىء، والشدّة «۱»، ولكن يبدو أنّها تعود بأجمعها إلى معنى «المنع» لأنّ انتهاء الشىء يمنع اختلاطه بغيره كما أنّ حدود البيت والحقل والبلد تمنع اختلاطها مع غيرها من البيوت والحقول والبلدان، وبما أنّ مفهوم المنع يخفى بين طيّاته نوعاً من الشدّة، فقد استخدم أحياناً بمعناها أيضاً.

ولهذا اطلق على الأحكام الإلهيّة اسم «الحدود» التى تعيّن للإنسان «المناطق الممنوعة» التى لا يجوز له دخولها، وهذا هو السبب فى تسمية العقوبات الشرعية بالحد لأنّها تحول دون تكرارها.

وعلى أيّة حال فقد وردت عبارة «تلك حدود اللّه» فى عدّة مواضع من القرآن الكريم وكلها جاءت بعد تبيان سلسلة من الأحكام الإلهيّة.

وقد جاءت فى الآية التى نحن بصدد بحثها بعد بيانها لأحكام الإرث، وفى الآيتين (۲۲۹، ۲۳۰) من سورة البقرة والآية الاولى من سورة الطلاق بعد تبيان قسم من أحكام الطلاق، وجاءت فى الآية ۱۸۷ من سورة البقرة بعد تحريم الجماع خلال الاعتكاف وبعض أحكام الصوم، ووردت فى الآية ۴ من سورة المجادلة بعد بيان كفّارة الظهار، ويفهم من مجموعها أنّ (حدود اللّه) كلمة ذات مدلول واسع يشمل كل حكم من هذا القبيل.

فنحن نعلم من جهة أنّ ارتكاب أىّ جرم كان لا يستدعى الخلود فى النّار وعلى هذا قد يكون القصد من الآية أعلاه، الأشخاص الذين يتعدّون حدود اللّه بالطغيان والعناد والتمرّد وانكار آيات اللّه، أو كل من يتجاهل هذه الحدود وينغمس فى المعاصى حتّى يذهب من هذه الدنيا من غير أن يدخل الإيمان قلبه، وإلّا فنحن نعلم أنّ فريقاً من العاصين يشملهم

(۱) مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم، مادة (حد).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۸۹

العفو الإلهى، وفريقاً آخر تشملهم الشفاعة، وفريقاً آخر تغفر لهم صغائر الذنوب، وكذلك يغفر للتوابين «۱».

وقد استدلت فئة من (الوعيدية) الذين يعتقدون بخلود مرتكب الكبيرة فى النّار بهذه الآية وأمثالها، إلّاأنّ جواب ذلك واضح من خلال ماذكرناه، وسنتطرق إلى مزيد من التوضيح فى المكان المناسب بإذن اللّه.

الخلاصة:

المجاميع الأربع والعشرين التى اشير إليها تعتبر أهم الفئات التى ترد النّار وفقاً لما صرّح به القرآن الكريم، فبعضهم يخلد فيها والبعض الآخر يبقى إلى أمد معيّن، ويُستخلص من مجموع هذه الآيات رؤية الإسلام للمسائل الاجتماعية والحقوقية وأنواع الانحرافات الأخلاقية، والجوانب التى أعارها اهتماماً أكبر.

وتستبطن نظائر هذه الآيات نداءات تربوية فاعلة وتنبّه الناس وتحذّرهم من عواقب ومخاطر هذه الكبائر وهذا هو الغرض النهائى منها.

(۱). أورد العلّامة المجلسى فى بحارالأنوار بحثاً مفصلًا فى هذا الصدد وهو أنّ أهل الإيمان لا يخلدون فى النّار، فمن أراد الاطلاع عليه فسيجده بحارالأنوار، ج ۸، ص ۳۵۱ ومابعدها (باب ۲۷ وهو باب من يخلد فى النّار ومن يخرج منها).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۱

۲- ماهية جهنّم

تمهيد:

من البديهى أنّ «جهنّم» هى بؤرة الغضب الإلهى وتشتمل على العذاب الجسدى والروحى لمن يردها، كما ورد فى ظاهر أو صريح الآيات القرآنية، أمّا الذين ذهبوا إلى أنّها تشتمل فقط على العذاب الروحى والمعنوى فقد تجاهلوا وأنكروا قسم كبير من الآيات القرآنية أو حملوها على معانٍ مجازية بلا دليل معقول.

ولكن ما هى جهنّم؟ وما هى كيفية عذابها؟

إنّ أفضل الطرق لمعرفة ماهيتها هى الاستعانة بالأسماء والأوصاف الواردة بشأنها فى الآيات القرآنية المختلفة من أجل ازاحة الستار عن خفايا بؤرة الغضب الإلهى هذه، وكما قلنا مراراً: مهما كانت معرفتنا بالقضايا المتعلقة بالعالم الآخر واسعة فهى تبقى محدودة وكأنّها شبح يترائى لنا عن بعد، أمّا التفاصيل والخصوصيات فهى مبهمة لأنّ عالم الآخرة بشكل عام أرقى من هذا العالم وهو تماماً كعالم الجنين بالنسبة إلى العالم خارج بطن امّه.

وعلى هذا فمن غير المتيسّر للبشر فى هذا العالم الاحاطة الكاملة بأسرار ذلك العالم، لكن هذا لا يحول بتاتاً دون الحصول على المعرفة الإجمالية بشأنه أبداً.

وعلى أيّة حال ينبغى متابعة الأسماء والصفات والإشارات الواردة فى القرآن الكريم فى هذا المجال لغرض التعرّف على ماهية جهنّم، لنقرأ فيما يلى الآيات التالية وهى تعكس بعضاً من أسماء وأوصاف جهنّم:

۱- «وَانَّ جَهَنَّمَ لَمَوعِدُهُمْ اجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ ابوَابٍ». (الحجر/ ۴۳- ۴۴)

۲- «سَاصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَاادْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَاتُبقِى وَلَا تَذَرُ* لَوَّاحَةٌ لِّلبَشَرِ».

(المدثر/ ۲۶- ۲۹)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۲

۳- «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ». (البقرة/ ۲۴)

۴- «فَرِيقٌ فِى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ». (الشورى ۷)

۵- «فَامَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيَا* فَإِنَّ الجَحِيمَ هِىَ المَأْوَى .

(النازعات/ ۳۷- ۳۹)

۶- «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الحُطَمَةِ* وَمَاادرَاكَ مَاالحُطَمَةُ* نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ* الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ». (الهمزة/ ۴- ۷)

۷- «وَامَّا مَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَامُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَاأَدْرَاكَ مَاهِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةٌ».

(القارعة/ ۸- ۱۱)

۸- «كَلَّا انَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدعُوا مَنْ ادبَرَ وَتَوَلَّى . (المعارج/ ۱۵- ۱۷)

جمع الآيات وتفسيرها

تعابير القرآن بشأن جهنّم:

فى الآية الأولى نلاحظ أشهر أسماء النّار الذى تكرر ذكرها فى القرآن الكريم سبعاً وسبعين مرّة ألا وهو (جهنّم)، وتشير هذه الآية إلى أتباع ابليس وتقول: «وَانَّ جَهَنَّمَ لَموعِدُهُمْ اجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ ابوَابٍ».

اختلف اللغويون والمفسرون فى معنى كلمة «جهنّم»، فقال البعض منهم أنّها تعنى «النّار»، وقال آخرون أنّها تعنى «العميق والبعيد القعر».

جاء فى «لسان العرب» أنّ «جِهنّام» بمعنى العمق الشديد ولهذا يقال: «بئر جهنّم وجهنّام» ويراد به البئر العميقة القعر.

ونقل عن بعضهم فى نفس الكتاب أنّ أصل هذه الكلمة عبرانى وهو «گهنّام» وورد اسمها فى العربية «جهنّم» (ولهذا فهى تعتبر اسماً ممنوعاً من الصرف لأنّها اسم علم أولًا، وأعجمى ثانياً).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۳

واعتبرها بعض اللغويين مشتّقة من الكلمة العبرية «جهنّيون» «۱»، بينما أكّد آخرون أنّها عربية (وسبب عدم صرفها هو العَلَمية والتأنيث)، واعتبرها جماعة آخرون مشتقة من أصل فارسى

ويقال للحفرة تحت الأرض التى تنفخ فيها الحرارة لتدفئة أرضية الحمّام «جهنّم» أيضاً «۲».

وعلى أيّة حال فمهما كان أصلها، سواء كان عربياً أو فارسياً أو عبرانياً فهى فى القرآن الكريم اسم لمكان ملىء بالعذاب وهو بؤرة غضب اللّه وله دركات ومراتب متفاوتة.

وقد ورد أيضاً فى الآية أنّ لجهنّم سبعة أبواب وهذا ما سنتحدث عنه- إن شاء اللّه- لاحقاً.

ونواجه فى الآية الثانية اسماً آخر من أسماء جهنّم وهو «سقر»، فبعد الإشارة إلى أحد المشركين المعاندين (وهو الوليد بن المغيرة)- تقول: «سَاصْلِيهِ سَقَرَ* وَمَاادْرَاكَ مَا سَقَرُ* لَا تُبقِى وَلَا تَذَرُ* لَوَّاحَةٌ لِّلبَشَرِ».

ومهما يكن من أمر فكلمة «سقر» هى من أسماء جهنّم ومأخوذة فى الأصل من كلمة «سَقْر» على وزن (فَقْر) وتعنى التغيير والذوبان

والانصهار أثر حرارة الشمس «۳».

واعتبرها البعض اسماً لأحد طبقات جهنّم المفزعة كما وردت فى حديث منقول عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ فى جهنّم لوادياً للمتكبرين يقال له سقر شكا إلى اللّه شدّة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فأحرق جهنّم» «۴».

ونقرأ فى كتاب صحاح اللغة أنّ «سقرات الشمس» تعنى شدة حرارتها، و «يوم مسقر» بمعنى شديد الحرارة ولاهب.

وجاء فى كتاب (التحقيق فى كلمات القرآن الكريم) أنّ هذه الكلمة تعنى فى الأساس

---

(۱). قاموس دهخدا، مادّة (جهنّم).

(۲). قاموس دهخدا، مادة (جهنّم)؛ التحقيق؛ لسان العرب؛ المنجد؛ واقرب الموارد.

(۳). مقاييس اللغة؛ ومفردات الراغب.

(۴). تفسير الصافى، فى ذيل الآية ۴۸ من سورة القمر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۴

الحرارة الشديدة التى تغير لون الأشياء وصفاتها، لكنّها تحوّلت بالتدريج إلى اسم من أسماء النّار وتعنى النّار الشديدة المحرقة التى تغيّر كل شىء.

و يدعم هذا الادّعاء الصفات الواردة فى هذه الآيات، لأنّها تؤكد أنّها تغير الجلود تماماً من جهة، ومن جهة اخرى أنّها لا تبقى شيئاً على حاله ولا تذر.

ومن الأسماء الاخرى التى استخدمها القرآن لجهنّم بشكل واسع هى كلمة «النّار»، فقد تكرر ذكرها ۱۴۵ مرّة والتى تعنى فى أغلب الموارد نار جهنّم، وإن جاءت أيضاً فى بعض المواضع بمعنى نار الدنيا، ومن جملة ذلك، الخطاب الموجّه إلى المشككين بالقرآن إذ جاء فيه: «فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا» (أى لم تأتوا بسورة من مثله) «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اعِدَّت لِلكَافِرِينَ». (البقرة/ ۲۴)

يقول الراغب: إنّ كلمة «النّار» تعنى الشعلة التى تظهر أمام حس الإنسان، ويقال:

للحرارة وحدها نار أيضاً، ورأى البعض أنّ كلمتى «النّار» و «النور» مشتّقتان من مصدر واحد ومتقاربتان فى الوجود.

وعلى أيّة حال فقد كثر استخدام هذه الكلمة فى القرآن الكريم بشأن جهنّم إلى حد جعلها تصبح واحدة من أسمائها.

أشار القرآن الكريم إلى فئة من المجرمين قائلًا: «اولئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ».

(آل عمران/ ۱۰)

وجاءت كلمة «أصحاب النّار» فى العديد من الآيات لتدل على الأشخاص الذين يردون جهنّم ولهذا أصبح هذا التعبير مقابلًا لتعبير أصحاب الجنّة «۱».

ومن نافلة القول: إنّ من ضمن المواصفات التى ذكرت للنار هى أنّ وقودها من الناس والحجارة (أى الأصنام) وعلى هذا فهى لا تشبه نار الدنيا فى هذا الجانب.

---

(۱) الأعراف، ۴۴؛ الحشر، ۲۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۵

و نرى فى الآية الرابعة اسماً وصفة اخرى لهذا المكان الذى يتجسد فيه الغضب الربانى، وهذا الاسم هو «السعير».

فبعد أن يشير القرآن إلى الغاية من نزوله وينذر الناس من يوم القيامة، يقسم الناس يومذاك إلى فريقين ويقول: «فَرِيقٌ فِى الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ

فِي السَّعِيرِ».

وقد وردت كلمة «سعير» فى القرآن ۱۶ مرّة وورد جمعها أى كلمة «سُعُر» مرّتين، وهذه الكلمة مشتقة من المصدر «سَعْر» وهو على وزن (قَعْر) ويعنى اذكاء النّار وتأجيجها، وجاء أيضاً بمعنى شدّة الاضطرام، ولهذا «فالسعير» يعنى النّار الشديدة الاشتعال واللهب والاحراق، وجاءت أحياناً بمعنى «الجنون» أيضاً لأنّ الشخص فى هذه الحالة يلتهب ويغلب عليه الهيجان، ويقال كذلك للناقة المجنونة: ناقة مسعورة «۱».

ونظراً لاستخدام كلمة «السعير» فى الآية المذكورة فى قبالة كلمة «الجنّة» يفهم بأنّها أيضاً أحد أسماء النّار، واستخدام تعبير «أصحاب السعير» فى عدد من الآيات يعتبر أيضاً قرينة أخرى على هذه التسمية «۲».

إلّا أنّه لايمكن انكار مجيئها فى بعض الآيات القرآنية بنفس ذلك المعنى الوصفى لتشير إلى اضطرام نار جهنّم.

التعبير الخامس الذى تكرر فى القرآن فى ۲۵ موضعاً، هو الجحيم، فتقول الآية المطروحة لبحثنا: «فَامَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنيَا* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى .

وكلمة «الجحيم» على وزن (لَحْم) كما يفهم من عبارات القرآن هى واحدة من أسماء جهنّم، ومشتقة من مادة «جَحْم» على وزن (لحْم) التى تعنى «شدّة نورية النّار» كما يقول الراغب فى مفرداته.

وتأكّد نفس هذا المعنى فى «مقاييس اللغة» أيضاً، لكن صاحب صحاح اللغة فسّره

---

(۱) مقاييس اللغة؛ وصحاح اللغة؛ والتحقيق؛ ومفردات الراغب.

(۲) الملك، ۱۰- ۱۱؛ فاطر، ۶.

بالنار العظيمة المصحوبة بالحرارة واللهب.

إلّا أنّ كلمة (الجحيم) استخدمت فى موضع واحد فى القرآن الكريم بمعنى النيران المحرقة فى الدنيا عندما قال المشركون فى زمن النبى إبراهيم عليه السلام: «قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الجَحِيمِ». (الصافات/ ۹۷)

إلّا أنّ هذا الاستعمال لا يمنع من كون الكلمة المذكورة من أسماء جهنّم.

وفى الآية السادسة نلاحظ كلمة «الحطمة» التى تكررت فى موضعين فى سورة «الهمزة» فالآية قد تحدثت عن الذين يبحثون عن عيوب الآخرين ويغتابونهم ويحرصون على جمع المال فقد هددهم اللّه بقوله: «كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الحُطَمَةِ* وَمَا ادرَاكَ مَاالحُطَمَةُ* نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ».

وكلمة «الحطمة» على حد قول صاحب «صحاح اللغة» وصاحب «مجمع اللغة»: اسم من أسماء جهنّم، وهى صيغة مبالغة من كلمة «حطم» بمعنى الكسر والتهشيم، واعتبرها البعض بمعنى تكسير الأشياء اليابسة، ولهذا يطلق على سنوات القحط اسم «الحُطمة» لأنّها تحطّم كل شىء وتكسّره وتقضى على الناس، ويُطلق اسم «الحطيم» على موضع فى الكعبة يقع بين بابها والحجر الأسود لأنّ الناس يزدحمون هناك حتى أنّ عظامهم على وشك أن تتكسر من شدّة الضغط.

وعلى هذا الأساس تعود تسمية جهنّم بالحطمة لأنّ نارها المحرقة تدّمر كل شىء وتقضى عليه، وقد أوضح القرآن نفسُه معناها من خلال الآيات الواردة فى هذا الباب: فقال إنّها: «نَارُ اللَّهِ المُوقَدَةُ* الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ»، وهذه الآية بذاتها دليل على المعنى الذى ذكرناه.

ولكن يستفاد من بعض الروايات: أنّ كل اسم من أسماء جهنّم ومن ضمنها الحطمة يشير إلى قسم معين من أقسام النّار «۱».

---

(۱). تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۷- ۱۹، ح ۶۰، ۶۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۷

ذكرت الآيـة السابعـة كلمة «الهاوية» التى وردت فى القرآن الكريم مرّة واحدة حيث تقول الآية: «وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ* فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ* وَمَا ادْرَاكَ مَاهِيَهْ* نَارٌ حَامِيَةُ». (القارعة/ ۸- ۱۱)

قال ابن منظور فى «لسان العرب»: «إنَ «الهاوية» أحد أسماء جهنّم، وعلى هذا يكون معنى «امه هاوية» أى إنّ مقرّه ومسكنه جهنّم» «۱».

وأشـار صـاحب «مقـاييس اللغـة» والراغب فى «المفردات» إلى هـذه التسـمية وأنّ الكلمـة مـأخوذة فى الأصـل من مـادة «هُـوِى» بمعنى السقوط لأنّ الكفار والمجرمين يسقطون فيها، ويتضمن أيضاً إشارة إلى عمق جهنّم.

وفسّرت كلمة «ام» هنا بمعنى المستقر والمكان، وأحياناً بمعنى الأم أى كما تحتضن الأم ابنها تحتضن جهنّم من يرد فيها.

وفسـرها بعضـهم بمعنى الدماغ، قال: إنّ الهاوية وصف لأصـحاب النّار لأنّهم يسـقطون فيها على أُم رؤوسـهم إلّاأنّ التفسير الأول أصحّ على مايبدو.

ونرى فى الآية الثامنة والأخيرة كلمة «لظى وهى الاخرى قد ذكرت فى القرآن مَرّة واحدة، فقد جاء فى سورة المعارج بعد الإشارة إلى وضع المجرمين الـذين يرغبون فى يوم القيامة التضـحية بأزواجهم واخوانهم وأبنائهم لِانقاذ أنفسـهم: «كَلَّا انَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى تَدعُوا مَنْ ادْبَرَ وَتَوَلَّى . (المعارج/ ۱۵- ۱۷)

وكلمـة «لظى تعنى فى الأصل النّار أو شـعلة النّار الخالصـة، ولكن هـذه الكلمة اسم من أسـماء جهنّم حسب ماجاء فى «لسان العرب» و «مفردات الراغب» (ولهذا فهو ممنوع من الصرف بسبب عَلَميّته وتأنيثه).

---

(۱). لسان العرب، مادة (هوى .

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۸

وتعنى كلمة «النزاعة» الشـىء الذى ينزع ويفصل بشـكل متواصل، وتعنى كلمة «شوى اليد والرجل والأطراف، (وإن كانت تأتى بمعنى الاحراق فى النّار لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول، لأنّ الشىء عندما يسقط فى النّار، أول ما يحترق منه أطرافه وأغصانه).

وقال آخرون: إنّ «الشوى هو جلد البدن أو فروة الرأس، ومن عجائب هذه النّار المحرقة أنّها تدعو أصـحاب جهنّم إليها، فهل أنّها حقاً ذات شعور وإدراك فتفعل هكذا؟ أم أنّ فى جهنّم جاذبية خفية تستقطب نحوها كل من حق عليه العذاب؟

كلا الاحتمالين ممكن، ولكن الظاهر هو المعنى الأول.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنّ الروايات لم تذكر النّار كاسم من أسماء جهنّم، بل ذكرت سبعة أسماء اخرى واعتبرت كل واحد منها طبقة من طبقاتها، وليس كل واحد من هذه الأسماء السبعة يشمل جهنّم بأكملها.

ومن جملـة ذلـك حـديث منقول عن الإمـام أمير المؤمنين عليه السـلام قـال فيه: «إنّ جهنّم لها سـبعة أبواب أطباق بعضـها فوق بعض، ووضـع احـدى يـديه على الاـخرى فقـال: هكـذا، وأنّ اللّه وضع الجنـان على العرض ووضع النيران بعضـها فوق بعض فاسـفلها جهنّم، وفوقها لظى وفوقها الحطمة وفوقها سقر، وفوقها الجحيم وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» «۱».

ولا مانع من اطلاق الأسـماء السـبعة المذكورة على كل جهنّم أحياناً أو على قسم منها أحياناً اخرى كما يلاحظ ذلك فى أسـماء الدنيا حيث يطلق أحياناً اسم معين على محافظة من المحافظات بأكملها، ويطلق أحياناً على مدينة معيّنة من مدن تلك المحافظة.

أوصاف جهنّم:

يفهم من مجموع الآيات المتعلقة بجهنّم وأوصافها أنّها مركز جزائى رهيب ملىء

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ۶ ص ۳۳۸؛ و تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۹، ح ۶۴، وجاء أيضاً فى هذا الموضوع حديث مطوّل منقول عن الإمام الباقر عليه السلام.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۲۹۹

بالنيران اللاهبة وله أبواب ودرجات مختلفة، ولكن نارها ليست كنيران الدنيا بل تتميز بالخصائص الاتية:

۱- وقودها الناس والحجارة.

۲- تطّلع على الأفئدة، وتنفذ أولى شراراتها إلى القلوب.

۳- حطمة تسحقُ كل شىء وتقضى عليه.

۴- فيها درك يدعو المجرمين إليه!

۵- توصف بأنّها إذا رأت من يُحشرون فيها: «اذَا رَأَتهُمْ مِّن مَّكانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً». (الفرقان/ ۱۲)

۶- متحرّكة كما يقول تعالى «وَجِىءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَانّى لَهُ الذِّكْرَى . (الفجر/ ۲۳)

۷- محيطة الآن بالكافرين رغم أنّها محجوبة عن الأبصار: «وَانَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ». (التوبة/ ۴۹)

قد تكون هذه الأبعاد جميعها سبباً دفع بالكثيرين إلى تفسير جهنّم تفسيراً روحياً فاعتبروا نارها ناراً معنوية، لكن هذا التفسير- بلا شك- يتعارض مع ظاهر آيات القرآن الكريم، ولا ينسجم مع الروايات التى وردت فى تفسيرها.

وعلى هذا ينبغى القول: إنّ جهنّم بؤرة نار مستعرة وتختلف اختلافاً جذرياً عن نيران عالمنا هذا كما تختلف نِعم الجنّة مع نِعم هذه الدنيا.

توضيح

فلسفة وجود النّار:

يسأل الكثير عن مدى ضرورة وجود النّار، فاللّه تعالى لا يحب الانتقام وأنّ العقوبات توضع لكى لايرتكب الناس الاخطاء ثانية أو حتى تكون عبرة للآخرين، بينما نعلم أن لا

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۶ ۳۴۹

عودة لهذا العالم بعد هذه الحياة، ولا وجود هناك للتكليف والطاعة والذنب، وعلى هذا، ما المفهوم الذى ستحمله عقوبة باهضة كدخول النّار؟ هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ الهدف من جميع التعاليم الدينية هو تربية وتهذيب وتكامل الإنسان، وإن لم يقبل بذلك بعض الناس فستكون عقوبتهم الحرمان من بلوغ الدرجات الرفيعة.

فما هى الضرورة لوجود جهنّم، ومركز الغضب والعقاب الصارم؟

وللاجابة عن هذه التساؤلات ينبغى الالتفات إلى نقطتين:

۱- قلنا مراراً إنّ العقوبات الإلهيّة سواء فى هذا العالم أوفى عالم الآخرة هى نتيجة لأعمال الناس أنفسهم، وإنّما تنسب إلى اللّه جلّ

شأنه باعتباره مسبب الأسباب، فالكثير من نعم الجنّة هى تجسيد لأعمال الإنسان الصالحة، والكثير من عذاب جهنّم تجسيد لأعماله السيّئة، ونحن نعلم أنّ نتائج العمل وآثاره ليست بالأمر الهيّن الذى يمكن التساهل فيه.

فمثلًا، الشخص الذى يتناول المشروبات الروحية والمخدّرات، ليقضى فترات من الراحة وهدوء البال- حسبَ تصوره- فى ظل هاتين المادّتين المخدّرتين، ولينتشى باللذة المتأتّية من نسيان الدنيا، يُحذَّر بأنّ هاتين المادتين المخدّرتين هما من عوامل الافساد والتحلل وستؤدّيان فى النهاية إلى القضاء عليه، فالمشروبات الكحولية تسبب له أمراض القلب والشرايين والاعصاب والكبد، والمخدّرات تدمر أعصابه بل وتُنهى كل كياته.

فاذا لم يُصغ إلى هذا الانذار وتمادى فى ممارسته الخاطئة فانّه سيواجه عقوبته وجزاءه وهذا لا يحتاج إلى فلسفة ودليل سوى قانون العلّية، وهى النتيجة الطبيعية لعمل كل إنسان وغالباً ماتكون الذنوب على هذه الشاكلة، وتعقبها نتائج فى هذه الدنيا، وفى الآخرة فهى تتجسد على صورة العذاب فى جهنّم.

ولهذا يُلحظ هذا التعبير الذى يتكرر كثيراً فى الآيات الشريفة والذى يقول: إنّكم تجزون ما كنتم تعملون فنقرأ فى قوله تعالى «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّت وُجُوهُهُمْ فِى النَّارِ هَل تُجزَونَ إِلَّا مَاكُنْتُمْ تَعمَلُونَ». (النمل/ ۹۰)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۱

ونقرأ أيضاً: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَعتَذِرُوا الْيَوْمَ انَّمَا تُجْزَونَ مَاكُنْتُمْ تَعمَلُونَ». (التحريم/ ۷)

فالمعذرة نافعة حين لا تكون القضية متعلّقة بالعلة والمعلول والنتيجة للأعمال.

و الآيات التى تتحدث مثلًا عن تجسيد الأعمال وتشبّه أكل مال اليتيم بأكل النّار تدل بأجمعها على هذا المعنى وكذلك الروايات التى تقول إنّ الطباع الحيوانية فى الإنسان، تظهر من داخله يوم القيامة وترتسم على خارجه، فتغدو صور الأشخاص شبيهة بالحيوانات المتميّزة بتلك الطباع.

و خلاصة القول: إنّ هذه الدنيا مزرعة، والآخرة أوان وزمان الحصاد، فإن كان الإنسان قد زرع بذور الورد، فمحصوله أغصان طيبة وطرية ومعطّرة من الورد، وإن كان قد بذر الشوك فلا يجنى سواه.

جاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله: «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه و آله فقال: يا رسول اللّه أوصنى فقال: احفظ لسانك، قال: يا رسول اللّه أوصنى، قال: احفظ لسانك، قال: يارسول اللّه أوصنى، قال: احفظ لسانك ويحك وهل يكب الناس على مناخرهم فى النّار إلّاحصائد ألسنتهم» «۱».

۲- لا شك فى أنّ التبشير والتحذير يعتبران دعامتين أساسيتين فى إجراء البرامج التربوية، فكما أنّ التبشير بالجزاء الأوفر الذى يحظى به الإنسان فى الجنّة يُعَدُّ عاملًا فاعلًا فى الدعوة إلى طاعة اللّه وترك معصيته، فكذلك التحذير والوعيد بالعذاب الصارم فى جهنّم يُعتبر هو الآخر مؤثّراً قويّاً فى هذا الجانب، لا بل ثبت بالتجربة أنّ للعقوبات تأثيراً أقوى

ولهذا فإنّ جميع القوانين التى تسنّها مراكز التشريع القانونى فى العالم تضمن عقوبات للمخالفين وهو ما يصطلح عليه علماء الحقوق باسم الضمانة التنفيذية، وتحظى هذه الضمانة بقدر كبير من الأهميّة بحيث تُعتبر واحدة من العناصر الأساسية التى يبنى عليها القانون، ولو أنّ قانوناً استُنَّ ولم يتضمن أى عقاب للمخالفين (كالسجن والجلْد والغرامة

---

(۱). اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۱۵، ح ۱۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۲

المالية والحرمان من بعض الحقوق الاجتماعية) فلا يمكن أن يطلق عليه قانوناً.

فكيف تكون القوانين الإلهيّة- والحالة هذه- خالية من الضمانة التنفيذية؟! فهى عندئذٍ تفقد قيمتها القانونية، ولايرى المخالفون لها

والمتخلفون عنها أى دافع أو وازع لإطاعتها والالتزام بها، ويبقى هدف القانون عقيماً.

صحيح أنّ الآثار الوضعية والطبيعية لعدم الالتزام قد تكون رادعاً للذين يقومون بمخالفات شرعية، إلّاأنّها غير كافية لوحدها، ولهذا فقد أدرج سبحانه وتعالى سلسلة من العقوبات لمن يتخلف عن الالتزام بها، فكما يهدد أقواماً بالعقوبة الدنيوية (وأمثلة ذلك كثيرة وقد تحققت فى الوجود الخارجى وأشار إليها القرآن فى تبيانه لحياة الأقوام السالفة) فهو- جلّ شأنه- قد وضع أيضاً العقوبات فى الآخرة لمن يتوانى عن التقيّد بها.

ومن الواضح كذلك أنّه كلما اشتّدت لهجة الترغيب والترهيب، كلّما كان التأثير أقوى وأكثر.

وهذا الأمر يوضّح أحد الأبعاد الأساسية لفلسفة وجود الجنّة والنّار.

وربّما يقال هنا إنّ جميع الآثار التى عُرضت إنّما تترتب على الوعيد بالعقاب والجزاء، وعلى هذا، فما المانع من أن يكون سبحانه وتعالى قد عرض كل هذه التهديدات والتحذيرات، إلّاأنّها لا تتحقق فى القيامة، لعدم وجود ضرورة لها، وذلك لخلو ذلك العالم من دروس العبرة للآخرين وانعدام تكرار الذنب من قبل المجرمين؟

إنّ هذا الكلام يستلزم أن يرتكب اللّه عزّ وجلّ، القبيح وأنّه- والعياذ باللّه- يكذب ويتخلف عن وعده فهو يوعد بالعقاب للمتخّلفين وحتّى أنّه يُقسم بتنفيذ وعيده، وكيف لا يطبق ذلك فعلياً؟! من البديهى أنّ هذا الفعل قبيح لا يليق بذاته المقدّسة بل ولا يفعله الإنسان المهذب الحكيم.

والنتيجة: أنّ وجوب التهديد والوعيد بالعقاب والجزاء ضمانة تنفيذية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى لابدّ من تطبيق تلك الوعود والتهديدات لدفع القبح عن ذاته المقدّسة.

و هذه هى فلسفة وجود جهنّم وعقوباتها.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۳

ومن أجل هذا نصّت الآية الكريمة بالقول: «فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ». (إبراهيم/ ۴۷)

ثم يشرح فى أعقاب هذه الآية بعضاً من عذاب يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۵

۳- أبواب جهنّم وطبقاتها

تمهيد:

من خلال ملاحظة عدد من آيات القرآن الكريم نستنتج أنّ لجهنّم أبواباً متعددة، وصرّحت احدى هذه الآيات بأنّها سبعة، فهل تشير هذه الأبواب إلى الأعمال التى تُسقِط الإنسان فى النّار وهى فى الحقيقة طرق دخول الناس إلى جهنّم؟ كما هو الحال لأبواب الجنّة التى سبق الحديث عنها؟ أم أنّها إشارة إلى طبقات جهنّم ودرجاتها التى ذكرتها الكثير من الروايات؟ أم أنّ كلا المعنيين قد اجتمعا فى مفهوم هذه الآيات؟

من الأفضل أن نبحث أولًا فى تفسير الآيات المتعلقة بهذا الحقل، لكى نحصل على جواب السؤال المذكور أعلاه.

ومع هذا التمهيد الوجيز نعود إلى القرآن ونقرأ الآيات الآتية:

۱- «وَانَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ ابوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ».

(الحجر/ ۴۳- ۴۴)

۲- «فَادْخُلُوا ابْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ». «۱» (النحل/ ۲۹)

۳- «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى اذَا جَاءُوهَا فُتِحَت ابوَابُهَا». (الزمر/ ۷۱)

۴- «انَّ الْمُنافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْاسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً». (النساء/ ۱۴۵)

جمع الآيات وتفسيرها

ماهو المقصود من أبواب جهنّم؟

تتحدث الآية الاولى عن أتباع الشيطان، الذين وصفتهم الآيات السابقة لها، فقالت:

---

(۱). ورد نظير هذا المعنى فى الآية ۷۲ من سورة الزمر؛ والآية ۷۶ من سورة غافر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۶

«وَانَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ اجْمَعِينَ* لَهَا سَبْعَةُ ابوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ».

ولكن ما المقصود من «أبواب جهنّم»؟ ذكر المفسرون احتمالات مختلفة لذلك:

الأول: إنّها إشارة إلى مداخل جهنّم التى تنتهى جميعها فى مركز واحد، كالأبواب المتعددة لبناية واحدة فى دنيانا هذه، وهى فى الحقيقة تعبير عن كثرة الداخلين إلى هذا المكان الذى يتجسد فيه الغضب الإلهى، ويبدو هذا الاحتمال مستبعداً فى ظلّ الروايات المتعددة التى تفسر هذه الآية.

الثانى: المقصود هو الطبقات المختلفة فى جهنّم والتى تتفاوت فى شدّة العذاب، وعلى هذا فكل واحد من هذه الأبواب السبعة ينفتح على واحدة من تلك الطبقات.

وهناك روايات عديدة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وعن طريق أهل السنّة تشهد على هذا التفسير.

فقد ورد فى الدرّ المنثور حديث منقول عن الإمام على عليه السلام أنّه قال: «أتدرون كيف أبواب جهنّم؟ قلنا كنحو هذه الأبواب! قال: لا ولكنّها هكذا ووضع يده فوق يده وبسط يده على يده» «۱».

وجاء عنه عليه السلام أيضاً أنّه قال: «سبعة أبواب النّار متطابقات» «۲».

ونقل عنه عليه السلام أيضاً حديث آخر فسّر فيه الأبواب السبعة لجهنم بالطبقات التى تقع فوق بعضها وسماها بأسمائها وهى:

«فأسفلها جهنّم، وفوقها لظى وفوقها الحطمة، وفوقها سقر، وفوقها الجحيم، وفوقها السعير، وفوقها الهاوية» «۳».

الثالث: إنّ تعدد تلك الأبواب يرجع إلى تعدد الأقوام الذين يردون منها.

جاء فى تفسير روح المعانى نقلًا عن بعض المصادر الخبرية إنّ: «فى الدرك الأول

---

(۱). تفسير درّ المنثور، ج ۴، ص ۹۹.

(۲). تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۱۸، ح ۶۲.

(۳). المصدر السابق، ص ۱۹، ح ۶۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۷

المحمديون، وفى الثانى النصارى وفى الثالث اليهود، وفى الرابع الصابئون، وفى الخامس المجوس، وفى السادس مشركو العرب، وفى السابع المنافقون وآل فرعون ومن كفر من أهل المائدة» «۱».

الرابع: أنّ المقصود من تلك الأبواب هى الأعمال والذنوب التى تسبب دخول جهنّم.

والدليل على هذا الكلام ما يأتى:

أولًا: المقابلة الموجودة مع أبواب الجنّة، فتصف بعض الروايات صراحةً أنّ أحد أبواب الجنّة هو باب «الجهاد» أو أنّ أحد أبواب الجنّة يسمى «باب المجاهدين» «۲»، وأشارت روايات اخرى إلى الأبواب الاخرى وقالت بوجود صلة بينها وبين أعمال الإنسان كـ «الصبر» و «الشكر» وماشابه ذلك.

ثانياً: الروايات التى تنص على أنّ بعض أبواب جهنّم يدخل منها فرعون وهامان وقارون، ويرد من بعضها المشركون، وبعضها الآخر يرد منها أعداء آل بيت الرسول صلى الله عليه و آله «۳»، وهذا دليل أيضاً على الصلة بين أبواب جهنّم والذنوب المختلفة.

إلّا أنّ التفاسير الثلاثة الأخيرة يمكن جمعها مع بعضها لأنّ كل واحدة من طبقات النّار أكثر إيلاماً من الاخرى وكل واحدة من الفئات التى تردها أكثر ذنباً وإجراماً من الاخرى وكل عمل ارتكبته أسوأ من الآخر، وعلى هذا الأساس يمكن جمع التفاسير الثلاثة فى مفهوم واحد. وبالنتيجة تطالعنا أبواب جهنّم بحقيقة وهى كما أنّ أعمال الإنسان مختلفة مع بعضها وأصناف المجرمين والكفّار متباينة فيما بينها، فعقوباتهم فى العالم الآخر غير متساوية وتختلف فيما بينها اختلافاً شاسعاً.

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۱۴، ص ۴۸؛ تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۶۴۶.

(۲). اصول الكافى، ج ۵، ص ۲، ح ۲.

(۳). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۲۸۵، ح ۱۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۸

تخاطب الآية الثانية الكفّار الذين ظلموا أنفسهم بسلوكهم هذا السبيل الخاطىء وتقول لهم: «فَادْخُلُوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

وما يلفت النظر هنا أنّ «أبواب جهنّم» جاءت هنا بصيغة الجمع فى حين يدخل كل فريق من باب واحدة لا من أبواب متعددة، (فتأمل). ولعل مرد هذا التعبير هو كون المخاطبين جمعاً، ومن الطبيعى عندما تريد جماعة الدخول إلى مكان ما له أبواب عديدة، فكل فريق يدخل من باب، إذن فهم جميعاً يدخلون من أبواب متعددة، أو أنّ كل فريق منهم يدخل تحت عنوان خاص من الباب المخصصة له، كما ويحتمل أيضاً أن يكون مخاطبو هذه الآية فى الطبقات الدنيا من جهنّم وهذا ما يحتّم عليهم اجتياز أبواب وطبقات متعددة للوصول إلى هناك.

وعلى أيّة حال فالآية أشارت فقط إلى أبواب الجنّة من غير أن توضّح عددها، وبتعبير آخر يبدو أنّ جهنّم شبيهة بالسجون الرهيبة المتداخلة فى بعضها والمكوّنة من طبقات متعددة، وهنالك فريق من الضالين والمعاندين يجب أن يمّروا من خلال كل هذه الطبقات لكى يستقروا فى «قعر جهنّم» أو «الدرك الأسفل» أو فى الطبقات القريبة منه.

وورد نفس هذا الموضوع فى الآية الثالثة وبتعبيرات اخرى حيث قال تعالى «وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّى اذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ ابوَابُهَا».

وكأنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ جهنّم تدرك وصولهم حينما يقتربون، فتفتح لهم الأبواب فجأة وهذه الرؤية المفاجئة تزيد من روعهم، فى حين جاء نفس هذا المعنى بشأن أصحاب الجنّة فكان مدعاة لمزيد من الفرح والسرور لهم، ونواجه هنا ثانية ذكر تعدد أبواب جهنّم من غير ذكر لعددها، ومن ثم يتكرر الحديث هنا أيضاً عن انفتاح جميع الأبواب، فى حين يدخل كل فريق من باب، وقد يكون اختيار هذا التعبير لأسباب ذكرت فى الآية السابقة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۰۹

وفى الآية الرابعة ليس هناك ذكر للأبواب، بل تركّز الحديث عن الطبقة السفلى من جهنّم، وهو ما يظهر تعدد طبقات جهنّم، إذ تقول الآية: «انَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الدَّرْكِ الْاسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً».

يطلق فى اللغة العربية على الخطوات الصاعدة نحو الاعلى اسم «الدرجة» وعلى النازلة إلى الأسفل اسم «الدركة».

وهذه الكلمة مأخوذة من المصدر «الدرك» وهو بمعنى بلوغ الشىء ونيله، ولهذا يطلق على الحبال التى توصل مع بعضها لتصل إلى قعر البئر اسم «الدَرَك» وتسّمى أعمق نقاط البحر أو الاماكن الأخرى باسم «الدَرْك» على وزن (فلك)، وعلى هذا الأساس وصف «الدرك» فى الآية الشريفة ب «الأسفل» من باب التأكيد والقيد التوضيحى.

وعلى أيّة حال فهذه هى الآية الوحيدة الحاوية على إشارة لطبقات جهنّم ويمكن أن نطابق معها الآيات السابقة التى تحدثت عن أبواب جهنّم، والنتيجة هى نفس ما أفادت به الآيات السابقة وهى أنّ أبواب جهنّم ليست فى ازاء بعضها الآخر بل هى فوق بعضها طوليّاً، إحداها فوق الاخرى

يقول الفخر الرازى فى تفسيره بعد أن يُعطى معنى «الدرك» بأنّه أعمق نقطة فى قعر الشىء: «فالدرك مايلحق به من الطبقة، وظاهره أنّ جهنّم طبقات، والظاهر أن أشدّها أسفلها» «۱».

وممّا يسترعى الانتباه فى هذه الآية أنّها حددت أسفل قعر جهنّم كمكان أسوأ للمنافقين ما يدل على أنّ «النفاق» هو أسوأ الذنوب ويستوجب الدرك الأسفل من جهنّم، وسبب ذلك جلى فالخطر الذى يهدد المجتمع الإسلامى من جَرّاء وجود النفاق يفوق بمرّات عديدة الخطر القادم من الأعداء والكفّار الذين يبدون كفرهم وعداءهم علناً.

وجاء فى حديث شريف حول العلماء الفاسدين: «إنّ من العلماء من يحّب أن يخزن

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۱۱، ص ۸۷.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۰

علمه ولا يؤخذ عنه فذاك فى الدرك الأسفل من النّار» «۱».

وكما ذكرنا فإنّ بعض الروايات تفيد أنَّ لكل واحدة من أبواب جهنّم السبع أصحاباً خاصّين، ففرعون وهامان وقارون مثلًا يدخلون من باب واحد ومن باب اخرى يدخل بنو اميّة، ويدخل المشركون من باب اخرى وهكذا «۲».

ومن البديهى أنّ دخول فرعون وهامان وقارون أو بنى اميّة من هذه الأبواب إنّما يعود لطبيعة أعمالهم ومعتقداتهم، ولهذا فكل من يشايعهم ويسير على خطهم الفكرى والعقائدى يدخل تلقائياً من نفس تلك الباب، ومن هذا المنطلق تتضح طبيعة العلاقة بين الإنسان «وأعماله ومعتقداته».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۸، ص ۳۱، ح ۷۶.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۸۵، ح ۱۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۱

۴- العذاب الجسدى لأصحاب النّار

تمهيد:

اشارة

كما أنّ الثواب الإلهى والنعم الموجودة فى الجنّة تقسم يوم القيامة إلى قسمين «روحية» و «مادية» كما سبق شرحه بالتفصيل فكذلك عذاب جهنّم أيضاً، إذ يُقسم هو الآخر إلى نوعين: روحى، ومادى، لأنّنا نعلم أنّ للمعادِ بُعدين يستدعى كل منهما مايستحقه من الثواب والعقاب.

إضافة إلى أنّ أعمال الإنسان فى هذه الدنيا على شكلين أيضاً أولهما: «الأعمال القلبية والروحية»، وثانيهما «الأعمال الجسمية والمادّية»، وعلى هذا فمن غير الممكن أن يقتصر الثواب والعقاب هناك على نوع واحد.

وتمثل آيات القرآن والروايات الواردة فى هذا الصدد شاهداً على هذا القول.

بعد الانتهاء من هذا التمهيد الوجيز نحاول التعرف على العقوبات الجسدية لأصحاب النّار، ونتمعّن فى الآيات القرآنية الواردة فى هذا الحقل، ونبحثها تحت العناوين التالية:

۱- شدّة عذاب أصحاب النّار

۲- طعامهم.

۳- شرابهم.

۴- ثيابهم.

۵- سائر عذابهم الجسدى.

۱- شدّة عذاب أصحاب النّار

اشارة

۱- «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفتَدِى مِن عَذَابِ يَومِئِذٍ بِبَنِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۲

الَّتِى تُئْوِيهِ* وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ». (المعارج/ ۱۱- ۱۴)

۲- «فَيَومَئِذٍ لَّايُعَذِّبُ عَذَابَهُ احَدٌ* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ». (الفجر/ ۲۵- ۲۶)

۳- «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ». (الغاشية/ ۲۴)

۴- «انْطَلِقُوا الَى ظِلٍّ ذى ثَلَاثِ شُعَبٍ* لَّاظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ* انَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ* كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ». (المرسلات/ ۳۰- ۳۳)

۵- «وَيَتَجَنَّبُهَا الْاشْقَى الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى ثُمَّ لَايَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحيَى .

(الاعلى ۱۱- ۱۳)

جمع الآيات وتفسيرها

تبلغ شدّة العذاب فى يوم القيامة إلى الحد الذى يتمنّى فيه المجرم كما وصفهُ القرآن فى الآيات من بحثنا قائلًا: «يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفتَدِى مِن عَذَابِ يَومِئِذٍ بِبَنِيهِ* وَصَاحِبَتِهِ وَاخِيهِ* وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُئْوِيهِ* وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ» «۱».

فيتبيّن من هذا التعبير وبكل وضوح أنّ العذاب الإلهى فى ذلك اليوم شديد جدّاً ورهيب حتّى أنّ المجرم يغدو مستعداً للتضحية، بجميع ثروته وكل أعزّائه بل وبجميع سكان الأرض ليخلِّص نفسه (و لا تعبير أفصح ولا أبلغ من هذا)، ولكن ما الفائدة لأنّ أيّاً من هذه التضحيات لا تُقبل منه، فيقع ضحيّة أعماله وعواقبها المؤلمة.

وبعد أن تشير الآية الثانية إلى صحوة المجرمين يوم القيامة وندمهم وشدّة أسفهم على تفريطهم فى أداء الفرائض الرّبانية، تقول: «فَيَوْمَئِذٍ لَّايُعَذِّبُ عَذابَهُ احَدٌ* وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ» «۲».

---

(۱). كلمة «الفصيلة» مأخوذة عن المصدر «الفصل» ويعنى الافتراق والانقسام وتعنى هنا العشيرة والقبيلة التى جاء منها الإنسان.

(۲). يعود الضمير فى «عذابه» و «وثاقه» إلى اللَّه تعالى واحتمل بعض المفسرّين كالآلوسى فى روح المعانى والبرسوئى فى روح البيان رجوع الضمير على الإنسان لكن هذا الاحتمال يبدو بعيداً جدّاً.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۳

وعلى هذا المنوال فعذابه لا نظير له، وتوثيقه فى الحبال لم يجر على أحدٍ من قبله ولا من بعده على ضوء الآية.

وهذه التعابير بشكل عام تحمل أبعاداً تربوية تحثّ الناس على خشية اللَّه وتجنّب أليم عقابه، لأنّ أذهان الناس قد اعتادت على أنّ «اللَّه أرحم الراحمين» فهو لا يعذّب عباده وإذا عاقبهم فعقوبته خفيفة جدّاً، وهذا الوهم يدفع إلى الجرأة على ارتكاب المعاصى والذنوب، ولذلك يفصح القرآن وبشكل صريح عن وجود ذلك العذاب ليخرج الناس هذه التخيّلات الباطلة من أذهانهم ويراقبوا أعمالهم.

وانعكس نفس المعنى فى الآية الثالثة إلّاأنّه ورد بتعبير آخر فهى تتحدث عن الكفّار الذين يديرون ظهورهم للحق فتقول: «فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ العَذَابَ الاكبَرَ».

«والعذاب الاكبر»: إشارة إلى عذاب يوم القيامة فى قبالة العقوبات الدنيوية التى وُصِفت «بالعذاب الأدنى كما نصت من سورة السجدة: «وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدنَى دُونَ العَذَابِ الأَكبَرِ». (سجدة/ ۲۱)

وتجدر الإشارة إلى أنّ العذاب الإلهى فى الدنيا قد يكون أحياناً شديداً جدّاً بحق القوم المجرمين كما حصل لقوم لوط إذ دَكَّ مدنهم وقُراهم دكّاً وجعلهم هم وإيّاها قاعاً صَفْصَفاً، ومع ذلك فهذا العذاب يبقى عذاباً أدنى فى مقابل عذاب القيامة وهذا ما يُنْبىء عن شدّة العقوبة يوم القيامة.

وفى الآية الرابعة ورد تبيان لقسم من العذاب الصارم الذى يلقاه أصحاب النّار، فيقال يومذاك لمنكرى القيامة ومحكمة العدل الإلهى، اذهبوا إلى ماكنتم به تكّذبون: «انْطَلِقُوا الَى ظِلٍّ ذِى ثَلَاثِ شُعَبٍ* لَّاظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ* انَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ* كَأَنَّهُ جِمَالَةٌ صُفْرٌ».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۴

تستعرض هذه الآيات أوصافاً مثيرة حول شدّة عذاب جهنّم إذ يُقال لمنكرى هذه المحكمة الإلهيّة الكبرى والمحملين بشتّى المعاصى والذنوب:

أولا: انطلقوا إلى ظل؛ ولكن أى ظل؟ الظل الناتج عن الدخان الخانق المنقسم إلى ثلاث شعب، شعبة منها فوق الرأس والأخرى عن اليمين والثالثة عن الشمال، وهو باختصار ظل قاتل يحيط بهم من كل صوب، ظل لا كظلال الأشجار الهادئة فى الجنّة، أو ظلال السقوف والقصور، بل إنّه ظل حارق لشدّة حرارته.

ثانياً: إنّ لهذا الظل ثلاث شُعَب مليئة بالشرر المتطاير وكل شرارة فيه عظيمة بحجم القصر، أو كالجمال الصفراء المسرعة نحو كل صوب، يا له من مكان، إن كان ظلّه هكذا فكيف بناره؟!

ويالها من عبارات مرعبة ودقيقة، فالناس يهربون عادة من الحرارة إلى الظل، بينما لا ظل هناك سوى ظل الدخان الذى تنبعث منه النيران، وإذا كان تصّور مثل هذا الدخان صعباً فى أيّام نزول هذه الآيات، فساحات الحروب الإجرامية اليوم وما يُلقى فيها من قنابل تُغطّى كل شىء بالدخان والنّار فيها قد تكون صورة مصغّرة لذلك العذاب الأكبر، إضافة إلى وجود شرر كبير الحجم وشواظ من نار تتطاير فى مساحات واسعة، وهذا كله فى ظلال تلك النّار «۱».

وقد تكون كلمة «القصر» إشارة إلى قصور الظالمين، ولعل تشبيه شرر جهنّم بها، أى بتلك القصور التى تؤجج النيران دوماً فى قلوب المحرومين، يعكس معنىً عميقاً ودقيقاً، وكذلك التشبيه بالجمال الصفر ذات النمط الواحد فهو رمز لثروة المستكبرين، وهو أيضاً تعبير آخر ذو مغزىً عميق فى هذا السياق.

وقد يتوهّم البعض أن تشبيه الشرر بالقصر حيناً وبالجمال الصفر حيناً آخر يبدو غير

---

(۱). يعتقد البعض أنّ الضمير فى «إنّها» يعود إلى «النّار» وهو مؤنث مجازى، ورغم عدم ذكر النّار فى الآية إلّاأنّه يمكن الاستدلال عليها بقرينة ظل الدخان، ولكن الأفضل هو ارجاع الضمير إلى الظل ذى الثلاث شعب وهو الظل الخانق لأنّ الهدف هو الاطلاع على الآثار القاتلة لهذا الظل حتّى يتّضح موضوع النّار بطريق أوْلى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۵

منسجم وذلك لأنّ أحدهما كبير جدّاً والآخر صغير نسبياً.

ولكن ينبغى الالتفات إلى أنّ كل واحد من هذين التشبيهين يركز على جوانب خاصة، فالتشبيه الأول للدلالة على عظمة ذلك الشرر، والتشبيه الثانى يرمز إلى الكثرة والسرعة والتطاير فى كل صوب كافتراق الجمال المسرعة فى الصحراء أو هو إشارة إلى اختلاف ذلك الشرر، فشررها الكبير بحجم قصور الظالمين، وشررها الصغير بحجم جمالهم الصفر.

«الجمالة»: جمع «جَمَل» أىالبعير مثل حَجَر وحِجارة، و «صُفْر» جمع أصفر وهو اللون المعروف، وتُطلق أحياناً على الألوان الغامقة المائلة إلى السواد أيضاً، لكن الأنسب هنا هو المعنى الأول.

وتلحظ فى الآية الخامسة والأخيرة عبارة اخرى تصف شدّة عذاب النّار حيث تقول:

«وَيَتَجَنَّبُهَا الْاَشْقَى* الَّذِى يَصْلَى النَّارَ الْكُبرَى ثُمَّ لَايَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحيَى .

فهذه صورة تعكس العذاب الأليم فى جهنّم، حيث يعيش المعذّبون فيها حالة بين الموت والحياة فلا هم يموتون وفى ذلك راحة لهم، ولا الحال التى يحيونها يمكن أن يُطلق عليها اسم الحياة، كما هو حال من يعيش فى عذاب شديد فى الدنيا فيجعله يتخبّط بين الموت والحياة.

وكلمة «النّار الكبرى فى مقابل النّار الصغرى والتى هى عذاب هذه الدنيا.

جاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ ناركم هذه جزء من سبعين جزءً من نار جهنّم، وقد اطفئت سبعين مرة بالماء ثم التهبت، ولولا ذلك ما استطاع آدمى يُطيقها» «۱»

ونُقل نفس هذا المعنى عن على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله.

واحتمل بعض المفسرين أن تكون «النّار الكبرى هنا إشارة إلى قسم من جهنّم عذابه

---

(۱). تفسير الإمام العسكرى عليه السلام وفقاً لما جاء فى بحار الأنوار، ج ۸، ص ۲۸۸، ح ۱، ۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۶

أشد (أى أدنى الطبقات فيها) «۱»، ولكن يبدو أنّ التفسير الأول يناسب الحال أكثر من التفسير الثانى.

كان هذا جانباً من الأبعاد الواسعة لنار جهنّم وشدّة عذابها الأليم.

۲ و ۳- الطعام والشراب القاتل لأصحاب النّار

تمهيد:

ذكرنا مراراً بأنّ المعاد يتحقق ببعديه الجسمى والروحى، وعلى هذا الأساس فالجزاء له بُعدان أيضاً، ومن جملة القضايا التى تكون مدعاة للذة الجسم أو سبباً لعذابه هى الأطعمة والأشربة، فالطعام الكريه والفاسد النتن والمحرق يعتبر عذاباً أليما بينما الطعام أو الشراب اللذيذ والطيّب يكون سبباً لارتياح الجسم ولذّته حتّى أنّه يؤثر على روحية الإنسان أيضاً ويبعث فيها البهجة والانشراح على العكس من الأشربة الفاسدة التى تسبب الألم للجسد وللنفس.

ومن أجل التركيز على الجوانب التربوية لوجود جهنّم، حذّر القرآن المجرمين والمسيئين بشدّة من نتائج أعمالهم القبيحة وأماط اللثام عن النوعية الرديئة للأطعمة والأشربة فى جهنّم وعرض لهم جانباً منها، والتعابير المستخدمة فى هذا الصدد تثير الفزع والرهبة لدى كل انسان، وبعد هذا التمهيد المختصر نعود إلى القرآن الكريم لنمعن فى آياته الآتية:

١- «انَّ شَجَرَتَ الزَّقُّوم* طَعَامُ الاثِيم* كَالمُهْلِ يَغلِى فِى الْبُطُونِ* كَغَلِى الْحَمِيم».

(الدخان/ ۴۳- ۴۶) ٢- «أَذلِكَ خَيرٌ نُزُلًا امْ شَجَرَةُ الزَّقُّوم» «انَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِى اصلِ الجَحِيم* طَلْعُهَا كَأنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِين* فَانَّهُم لَاَكِلُونَ مِنهَا فَمَالِئُونَ مِنهَا البُطُونَ». (الصافات/ ۶٢- ۶۴- ۶۶) ٣- «فَلَيْسَ لَهُ اليَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ* وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسلِينٍ* لَّايَأكُلُهُ إِلَّا الخَاطِئُونَ».

(الحاقّة/ ٣۵- ٣٧)

---

(١). تفسير الميزان، ج ٢٠، ذيل الآية مورد البحث.

۴- «تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً* تُسقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ* لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ* لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغنِى مِن جُوعٍ». (الغاشية/ ۴- ٧) ۵- «انَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَان يَستَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهلِ يَشوِى الوُجُوهَ بِئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً». (الكهف/ ٢٩) ۶- «انَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرصَاداً* لِّلطَّاغِينَ مَئَاباً* لَّابِثِينَ فِيهَا احْقَاباً* لَّايَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً». (النبأ/ ٢١- ٢۵) ٧- «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ* مِّنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ* يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن‌وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ» «١».

(إبراهيم/ ١۵- ١٧)

جمع الآيات وتفسيرها

الزقوم- الحميم- غسلين- الضريع- الغساق- الصديد

نلاحظ فى الآية الاولى أول تعبير عن طعام أصحاب جهنّم، وهو شجرة الزقوم حيث يقول تعالى فى قرآنه الكريم: «انَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ* طَعَامُ الْأَثِيم* كَالمُهلِ يَغلِى فِى الْبُطُونِ* كَغَلِى الْحَمِيم».

للمفسرين وأصحاب اللغة آراء كثيرة فى معنى كلمة «الزقّوم» التى تكررت ثلاث مَرّات فى القرآن الكريم «٢». فقال البعض إنّها كلمة عربية ومشتقة من المصدر «زَقْم» على وزن (رَقْم) وتعنى البلع وقال آخرون إنّ هذه الكلمة لم يكن لها وجود فى اللغة العربية ودخلت الأوساط العربية من أفريقيا (الحبشة).

---

(١). ورد فى آيات عديدة أُخرى تعابير شبيهة بالآيات المذكورة، من جملة ذلك: الآية ١٣ من سورة المزمّل؛ والآية ٧٠ من سورة

الأنعام؛ والآية ۴ من سورة يونس؛ والآية ۵۷ من سورة ص؛ والآية ۴۶ من سورة محمد (ص)؛ والآيات ۵۲- ۵۷ من سورة الواقعة.

(۲). الآيات: ۶۲ من سورةالصافات؛ و ۴۳ من سورة الدخان؛ و ۵۲ من سورة الواقعة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۸

واعتبرها بعض المفسرين وأصحاب اللغة إسماً لعشب شديد المرارة كريه الرائحة له أوراق صغيرة وينمو فى أقليم تهامة من شبه جزيرة العرب وكان المشركون يعرفونه جيداً، وهو عشب عصارته شديدة المرارة وحادّة الطعم إذا لامس الجسم تورَّم «۱».

و يعتقد الراغب فى «مفرداته» أنّ «الزقوم» تعنى كل طعام تشمئز منه النفس وهو طعام أصحاب النّار.

وقال بعض المفسرين: عندما نزلت هذه الكلمة فى القرآن قال كفار قريش: «ما نعرف هذه الشجرة، فقدم عليهم رجل من أفريقيا فسألوه فقال: هو عندنا «الزُّبْد والتمر»، فقال ابن الزِّبَعرى أكثر اللّه فى بيوتنا الزقوم. فقال أبو جهل لجاريته: زقّمينا؛ فأتته بزبد وتمر. ثم قال لأصحابه: تزقّموا؛ هذا الذى يخوّفنا به محمد، يزعم أنّ النّار تنبت الشجر والنّار تحرق الشجر» «۲».

وقد أدّى هذا التفسير ببعض أصحاب اللغة والمفسرين إلى اعتبار هذا المعنى هو أحد معانى الزقوم ظناً منهم بجديّة وواقعية التفسير المذكور، كما نقل عن الجوهرى قول فى لسان العرب: «الزقّوم اسم طعام لهم فيه تمر وزبد».

أمّا المجموعة الثانية من الآيات فانّها تعطى توضيحاً أكثر لأوصاف «الزقوم» هذا الطعام الكريه المعد لأصحاب النّار، فتقول: «أَذَلِكَ خَيرٌ نُزُلًا امْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ* انَّهَا شَجَرةٌ تَخْرُجُ فِى اصلِ الجَحِيمِ* طَلْعُهَا كَأنَّهُ رُؤُسُ الشَّيَاطِينِ* فَانَّهُم لَآكِلُونَ مِنهَا فَمَالِئُونَ مِنهَا البُطُونَ».

وأول ما نواجه هنا الاعتراض الذى طرحة أبو جهل وقال مستهزئاً وهل ينمو الشجر فى النّار؟ فالنار عدو الشجر فهى تحرقه.

لكن هؤلاء المغرورين الظلمة فاتهم أنّ القوانين المهيمنة على الحياة الاخرى مغايرة تماماً لما هو سائد فى هذه الحياة، فقد ينمو فى الجنّة عشب أو شجر ينبثق من قعرها وهو

---

(۱). تفسير مجمع البيان؛ وتفسير مروج البيان؛ وتفسير روح المعانى.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۵۲۹، ذيل الآية ۶۲ من سورة الصافات.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۱۹

على لونها ويكبر فى ظل ظروفها ولا يشبه الأعشاب التى تنمو فى حدائقنا وحتّى فى الحياة الدنيا توجد عجائب من هذا القبيل إذ تنمو مخلوقات حيّة بين طبقات الثلج وهذا دليل على أنّ الحياة للكائنات الحيّة هناك لُايشترط فيها أن تكون (كحياة الكائنات الحيّة المعروفة فى بيئتنا العاديّة، أوَليس من العجيب بقاء الإنسان حيّاً فى جهنّم؟! فما الفرق بين الانسان والعشب؟).

أمّا تشبيه فروع هذه النبتة «برؤوس الشياطين» مع أنّ مخاطبى هذه الآيات لم يكن أحد منهم قد رأى الشيطان ولا رؤوس الشياطين، فقد يكون من باب تشبيه كل قبيح بالشيطان، كما يُشبّه كل كائن جميل بالملاك رغم أنّ أحداً لم ير الملاك، فنسوة مصر قُلن عن يوسف: «انْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف/ ۳۱) وفى محادثتنا اليومية نقول أحياناً أنّ الشخص الفلانى ك «العفريت» مع أنّ أحداً لم يكن قد رأى «العفريت»، بل العفريت كائن وهمى لا وجود له.

وكل هذه التشبيهات جاءت على أساس التصور الموجود لدينا عن كلمة «الملاك» و «الشيطان»، وهى على العموم تشبيهات بليغة ومؤثّرة وجميلة.

وعلى هذا فالزقوم ليس كريه الطعم والرائحة فقط بل وحتّى شكله الظاهرى قبيح جدّاً، على العكس من الكثير من النباتات السامّة فى هذه الدنيا ذات المظهر الجميل.

وقال جماعة من المفسرين أيضاً: إنّ أحد معانى الشيطان هو حيّة قبيحة المظهر شبّهت بها تفرّعات الزقّوم، لكن هذا التفسير يبدو مستبعداً، لأنّ استعمال الشيطان فى مثل هذا المفهوم نادر جدّاً.

وفى المجموعة الثالثة من الآيات ورد اسم طعام آخر من أطعمة أصحاب النّار وهو «غسلين»، فقالت الآية الشريفة: «فَلَيسَ لَهُ اليَوْمَ هٰهُنَا حَمِيمٌ* وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِن غِسْلِينٍ* لَّايَأْكُلُهُ إِلَّا الخَاطِئُونَ».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۰

تعنى كلمة «الغسل» التى وردت مرّة واحدة فى القرآن الكريم: التنظيف بالماء وهى مأخوذة من المصدر «غسل». قال الراغب فى «المفردات»: إنّ «الغسلين» هو غسالة أبدان الكفّار، لكن المعروف بين المفسرين وأصحاب اللغة أنّه دم يشبه الماء يخرج من ابدان أصحاب النّار، وبما أنّه يشبه الماء الذى يغسل فيه الإنسان لذلك سمّى ب «الغسلين». ولعل الراغب قصد نفس هذا المعنى فى مفرداته، لكن بعضهم اعتبر «الزقوم» و «الغسلين» بمعنى واحد، وهو- كما قلنا- نبات كريهُ الطعم والرائحة ومخصص لأهل جهنّم، لكن المشهور هو المعنى الأول.

ويواجهنا فى الآية الرابعة تعبير آخر بشأن طعام أصحاب النّار وهو اسم «الضريع» وبه أشارت الآية إلى فئة من المجرمين قائلة: «تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً* تُسقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ* لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ* لَّايُسمِنُ وَلَا يُغنِى مِن جُوعٍ».

وقد ذُكرت لكلمة «الضريع» معانٍ وتفاسير مختلفة لكنها متقاربة المعنى فقال جماعة إنّه نبات أخضر كريه الرائحة يلفظه البحر «۱»، وقال جماعة آخرون إنّه نبت ذو شوك لاصق بالأرض، تسميه قريش الشِّبرق إذا كان رطباً، فاذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا ترعاه، وهو سمٌ قاتل «۲».

وقال بعضهم أيضاً: إنّ الكلمة مأخوذة من المصدر «ضرع» بمعنى الضعف والذّلة وقالوا:

«هو طعام يضرعون عنده ويذلون، ويتضرعون منه إلى اللّه تعالى طلباً للخلاص منه، فسُمِى بذلك، لأنّ آكله يضرع فى أن يُعفى منه، لكراهته وخشونته» «۳».

ورد فى حديث عن الرسول محمد صلى الله عليه و آله أنّه قال: «الضريع شىء يكون من النّار يشبه

---

(۱). العين لاخليل بن أحمد.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۷۱۱۹.

(۳). المصدر السابق، ص ۷۱۲.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۱

الشوك، أشدّ مرارة من الصبر، وأنتن من الجيفة، وأحرّ من النّار، سمّاه اللّه ضريعاً» «۱».

و يفهم من جملة «لَا يُسمِنُ وَ لَايُغنِى مِن جُوعٍ» أنّ مثل هذا الطعام لا يقوّى الجسم ولا يشبع من الجوع، بل هو طعام غصص وهو بذاته نوع من العذاب، كما نقرأ فى قوله تعالى

«وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً اليِماً». (المزمل/ ۱۳)

ولكن ينبغى عدم التعجب من مثل هذا العذاب الصارم الذى هو فى انتظار المجرمين الذين كانوا يملأون بطونهم فى هذه الدنيا بأنواع الأطعمة اللذيذة الدسمة والحلوة والتى يحصلون عليها بالتجاوز على حقوق الآخرين بأنواع المظالم والتعدّى، بينما توجد حولهم الكثير من البطون الجائعة التى لم تشبع طيلة عمرها ولا حتّى مَرّة واحدة، ويموت سنوياً ملايين الأشخاص جوعاً فى البلدان الأخرى وفى الوقت الذى يرمى المجرمون بالفاضل من طعامهم فى المزابل، يجب أن يأكلوا مثل هذا الطعام فى العالم الآخر.

ونرى هنا ضرورة إعادة الكلام الذى كررناه مَرّات متعددة وهو أنّ هذه التعابير كلها إشارات إلى أليم العذاب فى العالم الآخر، وإلّا فلا نعم الجنّة ولا عذاب جهنّم يمكن إدراكها من قبلنا نحن المحبوسين فى سجن الدنيا، وكل ما نشاهده هو شبح يترائى لنا من بعيد.

وهنا يرد اعتراض بديهى وهو أنّ الآية (۶) من سورة الغاشية تفيد أنّ طعام أهل النّار هو من «الضريع» فقط: «لَيسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن

ضَريعٍ» بينما تذكر الآيات الآنفة نوعين آخرين من طعام أهل النّار وهما «الزقّوم» و «غسلين». وكذلك الآية ۳۶ من سورة (الحاقّة) تحدّثت عن الغسلين وقالت: إنّه الطعام الوحيد لأصحاب جهنّم.

وقد وردت أجوبة مختلفة عن هذا السؤال، وأهمها الثلاثة الآتية:

۱- إنّ كلمات «الضريع» و «الزقّوم» و «الغسلين» تعطى جميعاً معنىً واحداً وهو النبات الخشن كريه الطعم والرائحة والذى ينمو فى جهنّم (لكن هذا التفسير لا يتّسق مع ما جاء بشأن الغسلين فى الكثير من كتب التفسير واللغة).

۲- اعتبر البعض كلمتى «الزقّوم» و «الضريع» بمعنى واحد وهو ما سبقت الإشارة إليه

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۹- ۱۰، ص ۴۷۹، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۲

ويمثل طعام أصحاب النّار، أمّا «غسلين» فهو شرابهم، والتعبير عن الأشربة بالطعام ليس بالأمر الجديد.

۳- أنّ الأطعمة الثلاثة المذكورة أعلاه يختص كل لون منها بطائفة خاصة من أصحاب النّار مستقرة فى طبقة واحدة منها، وهذا الجواب هو الأنسب من بينها.

وفى الآية الخامسة تكرر الحديث عن الشراب الردىء لأصحاب النّار، فقالت الآية الشريفة فى وصف حالهم: «انَّا اعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَان يَستَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالمُهلِ يَشوِى الوُجُوهَ بِئسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً».

يُلاحظ أنّ هذه العقوبات القاسية قد أُعدّت للظالمين الذين كانوا يعيشون مُنعمين مُترفين فى هذه الدنيا خلف ستائر رقيقة ملوّنة يحتسون أنواع وألوان الشراب السائغ اللذيذ وتزهو حفلات شرابهم بسُقاة صبوحى الوجوه، أمّا فى جهنّم فهم يتعذبون خلف ستائر من نار وحينما يطلبون الماء يُسقون بماء كأنّه المعادن المذابة وحرارته دموع اليتامى وآهاتهم لأنّ ما يظهر هناك هو تجسيد لما كان هنا.

فهل يمكن شرب الماء الذى تشوى حرارته الوجوه؟ يدل هذا على أنّ بُنية الإنسان تختلف هناك كثيراً عمّا هى عليه هنا، وأنّ بناءها قد وضع بالشكل الذى يحتمل كل هذه الامور، فهو يذوق الألم والعذاب من غير أن يموت، أو أنّ ذلك إشارة إلى أنّه حينما يرى مثل هذا الماء ينصرف عن تناوله ويبقى يتلوّى فى نار العطش.

وكلمة «المُهل» على وزن (قُفْل) تعنى- كما قال جماعة من المفسّرين وأصحاب اللغة- ما يتبقى فى أسفل آنية الزيت فيكون وسخاً كريه الرائحة عادة.

وقال المرحوم الطبرسى رحمه الله فى مجمع البيان: «إنّه المعدن المذاب فى حين خصصه بعضهم بالنحاس المذاب» وقيل إنّه ماء أسود فجهنّم سوداء وماؤها أسود وشجرها أسود

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۳

وأهلها سود «۱». وقال آخرون: «إنّه ضرب من القَطِران، وقيل: هو السمّ» «۲».

إنّ هذه المعانى وإن كانت متفاوتة، إلّاأنّ نتيجتها واحدة وهى الألم والعذاب الأليم لأصحاب النّار.

وفى القسم السادس من الآيات يلاحظ تعبيران آخران بخصوص أشربة أصحاب النّار، وهما «الحميم» و «الغساق» وقد جاء أحدها إلى جانب الآخر، فتقول الآية: «لَّايَذُوقُونَ فِيهَا بَرْداً وَلَا شَرَاباً* إِلَّا حَمِيماً وَغَسَّاقاً». (النَّبأ/ ۲۴- ۲۵)

وقد فسّر أكثر المفسرين كلمة «الحميم» بمعنى الماء الحار الحارق، والكلمة مشتقّة من «حَمَّ» وتعنى الحرارة، و «الغساق» مأخوذ من المصدر «غَسَق» وتأتى هذه الكلمة أحياناً بمعنى الظلام وأحياناً بمعنى الجريان والانسياب، وهو هنا الصديد الذى تنضح به أجسام أصحاب جهنّم.

وممّا لا يخفى أنّ الشخص الذى يكون إلى جانب النّار أو فى داخلها يصيبه العطش الشديد، وحتّى فى أجواء الصيف الحارّة يغلب

مثل هذا العطش ولا يروى إلّابتناول مقدار من الشراب البارد، أمّا أصحاب النّار فلا شراب بارد لديهم، بل إنّ شرابهم حار كحرارة النّار فيزيد من عطشهم.

ولكن هل يعنى هذا الكلام أنّهم عند مشاهدتهم لهذا الشراب ينصرفون عن تناوله ويبقون يتحرّقون فى نار العطش؟ أم أنّهم يشربونه بالاجبار، فيتزايد عطشهم شيئاً فشيئاً؟

إنّ التعبير عن تلك الحالة بكلمة «الذوق» يجعل الموقف مناسب للتفسير الثانى.

رغم أنّ البعض يميل إلى تفسير كل هذه العبارات والتهديدات بخصوص أصحاب النّار

---

(۱). تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۴۶۶؛ وتفسير القرطبى، ج ۶، ص ۴۰۱۱.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۴۰۱۱.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۴

تفسيراً معنوياً وروحياً، كنتيجة للابتعاد عن اللّه والاقتراب من أُفق الشياطين، ولكن كما قُلنا مراراً لا يحق لنا حمل الألفاظ على خلاف ظاهرها بلا قرينة واضحة.

وفى المجموعة السابعة والأخيرة من هذه الآيات ورد ذكر شراب أصحاب النّار بتعابير اخرى كما فى الآية الشريفة: «وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ* مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسقَى مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ* يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ».

كلمة «الصديد» أصلها (الصد) وتعنى الاعراض والعدول والانحراف عن الشىء، ثم أُطلقت على الخراج والصديد الذى يتجمع بين الجلد واللحم أثناء حصول أى جرح وربّما سبب ذلك هو انحراف المزاج وتغيّره من السلامة إلى المرض.

يقول الراغب فى المفردات: وضرب مثلًا لطعام أهل النّار (بأنّه طعام ردىء وكريه الرائحة والطعم).

والدليل على كونه فاسداً ورديئاً هو أنّهم لا يشربونه عن رغبة أبداً بل كرهاً واجباراً ويتحملونه جرعة فجرعة، وهم فى موقف مرير ومؤلم وكأنّ الموت يتهددهم من كل صوب إلّا أنّهم خلقوا بالشكل الذى لا يموتون فيه حتى مع نيل جزائهم.

وممّا يسترعى النظر هنا هو أنّ هذا العذاب الأليم المذكور فى هذه الآية والآيات الاخرى يختص بالظالمين والجبابرة والطغاة (حيث وردت أحياناً كلمة «طاغين» وأحياناً كلمة «جبار» وكلمة «الظالمين» فى أحيان أُخرى وهذه هى عاقبة الظلم والجور وما هى إلّا تجسيداً لما صدر عنهم من عذاب بحق الأبرياء الذين كانوا كثيراً ما يقضون السنوات الطويلة فى سجونهم لا يذوقون إلّاأردأ أنواع الطعام والشراب، ويتعرّضون لأشدّ العذاب حتى أنّ مظاهرهم تتغيّر ولا يعود أحد يميزهم حتّى امّهاتهم (كما هو الحال فى وقائع سجناء الحجّاج الرهيبة. وفى عصرنا الحالى رأينا أو سمعنا بنماذج منها بحق المسجونين فى سجون الطغاة).

فهل أنّ أمثال هؤلاء لا يستحقّون مثل ذلك العذاب؟

يتّضح من مجموع ما ورد فى هذه الآيات أنّ إحدى أسوأ العقوبات التى يواجهها أهل النّار هى الطعام والشراب أى الأشياء التى ينبغى أن يلتذ بها الإنسان فتصبح وبالًا عليه

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۵

وسبباً للعذاب والألم. وقد وُصف طعامهم ب «الزقوم» حيناً وب «الضريع» حيناً وب «الغسلين» حيناً آخر، ووصف شرابهم بكلمات من قبيل: «المهل» و «الصديد» أحياناً أو «الغساق» أحياناً أُخرى وهى على العموم أوصاف للأطعمة والأشربة الحارّة المحرقة الكريهة الطعم والرائحة، وكلّما تمعّنا فى أعمال هؤلاء المجرمين فى الدنيا وما ارتكبوه بحق المظلومين، فلن نعجب من شدّة تلك العقوبات.

ندعو اللّه تعالى أن يجنّبنا بلطفه وكرمه كل ذنب تتبعه مثل هذه العقوبات.

۴- ثياب أهل النّار

تمهيد:

كل شيء فى النّار عليه صبغة العذاب والعقاب، حتّى الثياب التى تلبس عادة للوقاية من الحر والبرد ووسيلة لمواجهة بعض الأضرار التى قد تصيب البدن، وتُتّخذ كذلك كأداة للزينة والتجمّل، نعم، حتّى هذه الثياب تتحول هناك إلى واحدة من أسباب الألم والعذاب.

نعود إلى القرآن بعد هذا التمهيد السريع ونقرأ خاشعين الآيات الآتية: ۱- «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِم الحَمِيمُ* يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِم وَالجُلُودُ* وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ* كُلَّمَا ارَادُوا انيَخْرُجُوا مِنهَا مِنْ غَمٍّ اعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ». (الحج/ ۱۹- ۲۲)

۲- «وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَومَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى الْأَصْفَادِ* سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغشَى وجُوهَهُمُ النَّارُ». (إبراهيم/ ۴۹- ۵۰)

جمع الآيات وتفسيرها

اشارة

أشارت الآية الاولى إلى طائفة من الكفّار الذين يجادلون باستمرار حول الخالق جلّ شأنه، فتقول: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۶

فهل يُفهم من هذا الكلام أنّ النّار محيطة بهم من كل جانب وكأنّها غدت لباساً لهم؟

أوقطعاً حقيقية من النّار قد فُصّلت لهم وخيطت على هيئة الثياب؟ ظاهر الآية يشير إلى صحّة التفسير الثانى، والأكثر إيلاماً لهم من ذلك أنّهم: «يُصَبُّ من فَوقِ رؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ».

ثم تصف الآية فعل هذا الماء الحميم على بطونهم وجلودهم قائلة: «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِى بُطُونِهِم وَالجُلُودُ».

كلمة «يصهر»: مأخوذة من المصدر «صَهْر» على وزن (نَهْر) ويعنى إذابة الشحم أو ما أشبهه، وتُطلق أيضاً على كل ما يحمى ويتغير بفعل حرارة الشمس.

ثم تتحدث الآية عن العقوبات الأُخرى قائلة: «وَلَهُم مَّقَامِعُ مِن حَدِيدٍ».

«المقامع»: جمع «مِقمع» على وزن «مِنْبَر» وفُسّرت أحياناً بمعنى السوط وأحياناً أُخرى بالعمود الذى يُضرب به على رأس الشخص.

ثم أخيراً تصوّر الآية وضعهم الأليم بالهيئة الآتية: «كُلَّمَا ارَادُوا ان يَخْرُجُوا مِنهَا مِنْ غَمٍّ اعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ».

لا شك أنّ هذه العقوبات المؤلمة حتى وإن حصل أقل منها فى الدنيا تؤدّى إلى موت الإنسان: لكن البناء الجسدى للمجرمين هُناك يكون بالشكل الذى لا يؤدّى إلى القضاء عليهم لتنفيذ هذه العقوبات، ليذوقوا جزاء أعمالهم. وهذا يدل على أنّ القوانين السائدة فى ذلك العالم تختلف عمّا هو موجود فى عالمنا هذا، (فتأمّل).

نُشاهد فى الآية الثانية تعبيراً جديداً عن ثياب أهل النّار، ورد فيها: «سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطِرَانٍ وَتَغشَى وجُوهَهُمُ النَّارُ».

«سرابيل»: جمع (سربال). قال الراغب فى المفردات، هو القميص من أى مادة كان.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً فى «لسان العرب» و «صحاح اللغة»، وفسّرها البعض الآخر بأى نوع من الثياب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۲۷

وجاء فى كتاب «التحقيق» أنّ السربال يعنى الثوب الذى يغطّى القسم الأعلى من البدن، وكلمة «سروال» بمعنى الشىء الذى يغطّى الجزء الأسفل منه، وأُطلقت لفظة السربال أيضاً على القماش الذى لم يُخط وُيلقى على البدن وعلى الدرع التى تلبس فى الحرب.

أمّا «القطران» (ويُلفظ أحياناً قَطْران وأحياناً قِطران) فيعنى مادّة سوداء قابلة للاحتراق وتبعث عند احتراقها رائحة كريهة، وتستخرج هذه المادّة من شجرة تسمّى (أبْهَل) وتُغلى حتّى تصبح صلبة القوام وتطلى بها أبدان الجمال لعلاجها من الجرب فكانوا يعتقدون أنّ هذه المادة تزيل الجرب «۱».

وهناك نوع آخر من القطران أيضاً ويستخرج أثناء تقطير الفحم الحجرى لإعداد الغاز منه.

ويُفهم من بعض الكتابات أنّ القطران سائل دهنى لاصق يُستخرج من الأخشاب التى تفرز الصمغ ومن أشجار أُخرى ويُستفاد منها فى البيطرة لعلاج الالتهابات «۲».

وعلى أيّة حال يُستفاد من الآية المذكورة أنّ أبدان أهل النّار تُغَطّى بمادة سوداء قابلة للاحتراق بدل الثياب، وكل شىء فيها على العكس ممّا يتوقعه الإنسان من الثياب، فهو يتوقع أنّ الثياب زينة، وتقى الإنسان من مخاطر الحر والبرد، إلّاأنّ هذه الثياب المخصصة لأهل النّار قبيحة وكريهة المنظر، وكريهة الرائحة أيضاً. وتحترق فى نار جهنّم.

هذا جزاء من كان يتبختر أمام اليتامى والمستضعفين الحُفاة بأفخر أنواع الثياب الموشّاة بالذهب يتفاخرون عليهم فيحرقون قلوبهم، فهذا نصيب الظلمة والمجرمين من الثياب فى يوم القيامة.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۹، ص ۱۴۸.

(۲) قاموس فرهنك معين، كلمة (قطران).

سائر العذاب الجسدى لأهل النّار:

تمهيد

تمثّل جهنّم مبدئياً مركز الغضب الإلهى وكل شىء فيها مطبوع بطابع العذاب والعقاب بألوانه وأشكاله المختلفة التى يتصورها الذهن أو لا يتصورها ومُعَدٌّ للظالمين والمجرمين.

وقد أشار القرآن الكريم فى مواضع متفرقة إلى جوانب من ذلك العذاب (سوى ما تمّ ذكره)، نقرأ نماذج منها فى الآيات الآتية:

۱- «وَاصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ* فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ* وَظِلٍّ مِّن يَحمُومٍ* لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ». (الواقعة/ ۴۱- ۴۴) ۲- «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً». (النساء/ ۵۶) ۳- «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ* يَومَ يُحمَى عَلَيهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم هَذَا مَا كَنَزتُمْ لِأَنفُسِكُم فَذُوقُوا مَا كُنْتُم تَكْنِزُونَ». (التوبة/ ۳۴- ۳۵) ۴- «وَاذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوا هُنَالِكَ ثُبُوراً* لَّاتَدْعُوا اليَومَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً». (الفرقان/ ۱۳- ۱۴) ۵- «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ». (المؤمنون/ ۱۰۴) ۶- «اذ الْأَغْلَالُ فِى اعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ* فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فى النَّارِ يُسْجَرُونَ».

(غافر/ ۷۱- ۷۲) ۷- «وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ العَذابِ* قالُوا اوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَالٍ». (غافر/ ۴۹- ۵۰)

جمع الآيات وتفسيرها

۵- سائر عذابهم الجسدى

رياح مهلكه، وظلال محرقة:

قَسَّمت الآية الأولى الناس إلى ثلاث فئات وهى: فئة «المقربين» و «أصحاب اليمين» و «أصحاب الشمال». ثم قالت عن أصحاب الشمال (وهم الذين يتسلمون كتبهم بيد بشمائلهم دلالة على سوء عملهم) إنّهم: «فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ* وَظِلٍّ مِّن يَحمُومٍ* لَّابارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ».

وفى الحقيقة أنّ النّار كالجنّة فيها ماء وهواء ونسيم وظل، ولكن يا له من نسيم، فقد سمّاه القرآن ب «السموم».

«السموم»: مأخوذة عن كلمة (السم) وتعنى الهواء اللافح من شدّة حرارته الذى يدخل المسام (الفتحات الدقيقة على جلد الإنسان) ويسبب هلاكه.

(وقد سمّيت كلمة «السَم» بهذا الاسم لأنّها تنفذ إلى جميع دقائق وثغرات الجسم، لأنّ السَمَّ على قول الراغب يعنى أى فتحة دقيقة كفتحة الأبرة وفتحة الأنف والأُذن) «۱».

ويوجد لديهم ماء أيضاً إلّاأنّه حار وقاتل، ولديهم ظل إلّاأنّه من دخان أسود كثيف وحار!

حين يتعرض الإنسان للحرارة الشديدة فى هذه الدنيا، فإمّا أن يجعل نفسه عرضة لمهب النسيم أو يدخل فى الماء أو يلتجئُ إلى الظل، وهذه الثلاثة كلها حارة وقاتلة هناك على العكس من الجنّة التى تكون أماكنها الواحدة أبرد من الأُخرى وأكثر إثارة للبهجة والارتياح.

---

(۱) جاء «قاموس اللغة» إنّ كلمة «السموم» تُطلق على الرياح الحارّة التى تهب فى النهار وهى فى مقابل «الحرور» وهى الرياح الليلية الحارّة.

جاء الفخر الرازى فى تفسيره: إنّ السموم هى الرياح المتعفّنة التى عندما يستنشقها الإنسان يتعفن قلبه فيهلك. (التفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۱۹۸).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۰

وأشارت الآية الثانية إلى واحدة أُخرى من العقوبات الصارمة للكفرة، فقالت: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً» «۱».

ثم تضيف: «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلنَاهُمْ جُلُوداً غَيرَهَا لِيَذُوقُوا العَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً».

والجملة الأخيرة هى فى الحقيقة إجابة عن هذا السؤال: هل أنّ عذاباً كهذا ممكن؟ وإن كان ممكناً فهل هو عادل؟! القرآن يقول: إنّ هذا على اللَّه يسير ولا يتعارض مع حكمته أيضاً.

وعُرِض بين المفسرين سؤال معروف وهو: إذا تبدّلت هذه الجلود بجلود أُخرى فما ذنب هذه الجلود الجديدة حتّى تتعذب؟

طرح المفسرون الكبار اجابات متعددة عن هذا السؤال وأفضلها هو جواب الإمام الصادق عليه السلام حين أجابَ عن السؤال الذى طرحه «ابن أبى العوجاء» بعد قراءة هذه الآية: «ماذنب الغير»؟

فأجاب الإمام عليه السلام جواباً غيّاً ومقتضباً: «هى هى وهى غيرها».

قال: فمثل لى فى ذلك شيئاً من أمر الدنيا قال: «نعم أرأيت لو أنّ رجلًا أخذ لبنة فكسرها ثم ردّها فى ملبنها فهى هى وهى غيرها» «۲».

ووفقاً لهذه الرواية، فإنّ جلوداً جديدة ستنشأ من الجلود الأُولى فتتغيّر الصورة مع الحفاظ على وحدة المادّة.

وقال جماعة أيضاً: إن كانت الصورة والمادة غير الصورة والمادّة للجلود السابقة عندئذٍ لا تحصل أيّة مشكلة لأنّ عذاب القيامة تذوقه

الروح لا الجلد، ورأوا أنّ التعبير ب «ليذوقوا العذاب» دليل على صحة هذا القول. ولهذا السبب كثيراً ما يحصل ويرتكب الإنسان ذنباً بعضو فينزل العقاب على عضو آخر، كأن يشرب الخمر مثلًا فيضرب ثمانين سوطاً على ظهره، فيكون هذا فى مقابل ذاك وايذاء الجسم وسيلة لايذاء الروح.

---

(۱) يبدو أن تنكير النّار هنا لتبيان عظمتها.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۴۹۴، ح ۳۱۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۱

وفى الآية الثالثة إشارة إلى جزاء طائفة أُخرى من المسيئين من الذين كانوا يكنزون الذهب والفضة والدراهم والدنانير ولا يؤدّون ما عليها من حقوق شرعية فتقول الآية الشريفة: «وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ».

ثم تشير الآية إلى جانب من هذا «العذاب الأليم» وتُضيف: «يَومَ يُحمَى عَلَيهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكوَى بِهَا جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم»، ويقال لهم حينها: «هَذَا مَا كَنَزتُم لِأَنْفُسِكُم فَذُوقُوا مَاكُنْتُم تَكْنِزُونَ».

يُعطى هذا التعبير إجابة عن سؤال مهم بخصوص الآيات المتعلّقة بالعذاب الإلهى الشديد يوم القيامة، وهو أنّ هذا الجزاء يُعتبر ثمرة لأعمال العباد ونتيجة فعلهم تتجسد لهم يوم القيامة على هذه الشاكلة، فهم فى الحقيقة يذوقون أفعالهم تماماً كالشخص الذى يسرف عدّة أيّام فى تناول الخمر فيقع فريسة لأمراضٍ مؤلمة وشديدة ويبقى يعانى منها طوال حياته.

زنزانات جهنّم الانفرادية:

يواجهنا فى الآية الرابعة نموذج آخر من العقاب المتنوع الذى يلقاه أهل النّار إذ تقول:

«وَاذَا أُلقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضَيِّقاً مُّقَرَّنِينَ دَعَوا هُنَالِك ثُبُوراً».

فيقال لهم لا فائدة من صياحكم وصراخكم هذا فهو لا ينفع شيئاً، فمصائبكم جمّة تستحق الثبور والويل: «لَّاتَدعُوا اليَومَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً».

ويتضّح جيداً من هذا التعبير أنّهم ليسوا أحراراً حتّى فى جهنّم فهم فى ما يشبه الزنزانات مقيّدون بالاغلال والسلاسل حتّى تتعالى أصواتهم ولكنّها لا تحلّ لهم أيّة مشكلة.

كلمة «مقرنين» مأخوذة من المصدر «قرْن»، وتعنى فى الأصل- كما قال الراغب فى- المفردات: اجتماع شيئين أو أكثر لسبب من الأسباب، ولهذا يطلق على الحبل الذى تُربط به الأشياء «قَرَن» على وزن كلمة (وَطَن) وُيقال «قَرْن» للقوم والجماعة الذين يعيشون فى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۲

زمان واحد، ويُطلق أحياناً على الزمن لوحده، وحينما تدخل هذه الكلمة فى باب التفعيل فذلك دلالة على الكثرة والشدّة.

ولهذا فقد جاء أحياناً تفسير كلمة «مقرنين» فى هذه الآية بمعنى شد وتوثيق أيدى وأرجل أهل النّار، وقال آخرون أيضاً: يربط أهل النّار فى ذلك اليوم جماعات جماعات بسلسلة طويلة وهذا تجسيد للارتباط الفكرى والعملى للمجرمين الذين كانوا يتعاونون فى هذه الدنيا على الفساد والظلم والعدوان على حقوق المظلومين ويتآمرون عليهم.

ولكن لو التفتنا إلى عبارة «مكاناً ضّيقاً» لوجدنا التفسير الأول هو الأنسب، وهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم فى هذه الدنيا حين كانوا يزجّون بالأبرياء فى الزنزانات ويقيّدونهم بالسلاسل، أو يفرضون عليهم مثل هذه القيود فى الحياه الاجتماعية فيصبحون كالسجناء مسلوبى القدرة على أيّة حركة.

«الثبور»: فى الأصل بمعنى الهلاك رغم أنّ صاحب «مقاييس اللغة» قد ذكر له ثلاثة معانٍ وهى: الهلاك، والمراقبة، واللين. ولذا يقال

للأرض المتراكم ترابها فوق بعضه كالنورة «ثَبرة».

ولكن قد تكون كل تلك المعانى راجعة فى الأصل إلى معنى الهلاك، لأنّ اجتياز مثل هذه الأراضى لايخلو من الخطورة،، ولما كان الإنسان يشدد فى حماية نفسه وممتلكاته فى المواقف الحرجة لذا فقد استخدمت هذه الكلمة بمعنى المراقبة أيضاً، وعلى أيّة حال فانَّ العربى عندما كان يواجه أمراً خطيراً كان ينادى «واثبوراه» ومعناه: واويلتاه لقد هلكت وهذا مايعكس شدّة الأذى والشعور بالألم.

ولعل التعبير: «لَّاتَدعُوا اليَومَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً»، فيه إشارة إلى العوامل المتعددة للهلاك أو شدّة أو طول مدّة هذه العوامل فى جهنّم، وعلى أيّة حال فهذا أيضاً تجسيد لأعمالهم التى كانوا يمارسونها فى هذا العالم وما كانوا يرتكبونه من ذنوب وما يسبّبونه لعباد اللَّه من المصائب والمآسى وما يفتحونه عليهم من أبواب الهلاك من كل صوب.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۳

ونلاحظ فى الآية الخامسة وجه آخر من وجوه هذا العذاب الأليم، فتقول: «تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ» ولهذا: «وَهُم فِيهَا كَالِحُونَ».

كلمة «تلفح»: مأخوذة من المصدر «لَفْح» على وزن (فَتْح) وتعنى على قول معظم أصحاب اللغة تأثير حرارة الشمس والنّار والرياح السموم على الوجه وتغييره، وتُطلق هذه الكلمة أيضاً على ضربة السيف لشباهتها بضربة حرارة الشمس ولهيب النّار ورياح السموم.

وتُستخدم أحياناً كلمة «نفح» بدلًا من كلمة «لفح» على المراحل الأخف.

و «كالحون»: مشتقة من «الكلوح» ومعناها- حسب ما يراه الكثير من أهل اللغة والمفسّرين هو التعبيس والتقطيب، بينما تبقى الشفاه مفتوحة وهذه الحالة تحصل على وجوه أصحاب جهنّم بسبب شدّة لهيب النّار وهى تمثّل فى مجموعها وصفاً لتأثير ضربات لهيب النّار على وجوههم وهو أمر مؤلم جدّاً على تلك الوجوه التى كانت كثيراً ما تقطب بوجوه المستضعفين، والشفاه التى تبقى منفصلة عن بعضها للاستهزاء بهم والانتقاص منهم بضحكات السخرية.

إنّ هذه الأعمال القبيحة المؤلمة تتحول فى نهاية المطاف إلى عذاب أليم لهم.

وفى القسم السادس من هذه الآيات يطالعنا نمط جديد من الجزاء الذى يتعرض له هؤلاء، إذ تقول الآية إنّهم يطلعون سريعاً على نتائج أعمالهم وحينها: «اذِ الْاغْلَالُ فِى اعنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ»، ثم تضيف الآية: «يُسْحَبُونَ* فِى الحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ».

«الاغلال»: جمع «غل»، «والسلاسل» جمع «سلسلة» واختلافهما هو أنّ الغل حلقة توضع فى رقبة أو أيدى وأرجل السجناء والسلسلة هى ما يوثق أو يشد به السجناء أو توضع مباشرة على اليد والرجل والرقبة.

وكلمة «يُسحبون» مأخوذة من المصدر «سَحْب» على وزن (سَهْل) ولهذا السبب يُقال

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۴

للغيوم «سحاب» لأنّها تنسحب على صفحة السماء على نطاق واسع «۱».

ويرى بعضهم أنّ هذه الكلمة تعنى السحب على الأرض «۲» وهذا مالا- يتّسق والآية موضع بحثنا، ولا- مع بعض مشتقاتها ككلمة السحاب.

واشتقت كلمة «يُسجرون» من المصدر «سَجْر» وهو على وزن (زَجْر) وجاء لها ثلاثة معان فى كتاب مقاييس اللغة وهى: الملء، والمزاح، والاذكاء. لكن بعضهم يُرجع هذه الفروع الثلاثة إلى أصل واحد ويقول: المعنى الأصل لها هو الهيجان والتساقط من شدّة الامتلاء، ولهذا اطلقت كلمة «مسجور» و «سجير» على النّار المذكاة أو المتّقدة وعلى البحر الطافح الموّاج، وعلى الصديق الحميم الذى يفيض بالمحبّة والاثارة.

واستناداً إلى ما سبق ذكره، فهم يُغلّون ويُشدّون بالسلاسل أولًا ومن ثم يدخلون فى الماء الحار المحرق ثم فى النّار، ومن الواضح أنّ ادخالهم فى النّار بعد الماء الحار سيكون أشدّ ألماً.

وهذا تجسيد لأعمالهم التى كانوا يمارسونها بحق الأبرياء فى الدنيا إذ كانوا يذيقونهم أبشع صنوف العذاب، حيث يصادرون حرّياتهم

ويسحبونهم بالسلاسل والأغلال.

نستخلص من مجموع هذه الآيات أنّ عقوبات أهل النّار هى ممّا لا يسع لها الوصف، ولا يتحملها أشدّ الناس قوّة وجلداً، إنّها عقوبات أشد ما تكون من القسوة والإيلام.

توضيح

لماذا يكون العذاب الإلهى شديداً إلى هذا الحد؟

إنّ شدّة وتنوّع وطول مدّة هذه العقوبات تثير هذا التساؤل لدى الكثير من الناس، وهو كيف ينسجم هذا العذاب الأليم مع اللطف الربّانى، هذا من جهة، ومن جهة اخرى كيف

---

(۱). مقاييس اللغة؛ ومصباح اللغة؛ ومفردات الراغب.

(۲). التحقيق فى كلمات القرآن الكريم؛ وتفسير الميزان فى ختام الآية موضع البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۵

تتناسب العقوبات المذكورة مع أعمال أصحاب الجحيم؟ ولعل عدم القدرة على تقديم إجابة شافية على هذا الاعتراض دفع جماعة إلى حملها على معانٍ مجازية أو القول إنّها عقوبات روحية.

لكن الالتفات إلى النقطة التى تُعتبر المفتاح لحلّ مثل هذه المشاكل، والتى لفتنا إليها الانظار مَرّات متعددة سيُساعد على فكّ هذا اللغز، وهى أنّ هذه العقوبات تمثل على الأغلب تجسيداً لأعمال الإنسان وهى حصيلة لها.

وهو مانشاهد نماذج مختلفة منه فى عالمنا هذا.

فهناك مثلًا أشخاص يقعون ضحية لبعض أنواع الإدمان الخطيرة لمجرّد تحقيق لذّة وهمية عابرة، وهذا الإدمان يؤدّى عادة إلى استهلاك كل طاقاتهم وسريعاً ما يتحوّلون إلى كائنات منهكة مُصابة بأنواع الأمراض القاتلة التى يظلّون يعانون منها ومن آلامها بقيّة أعمارهم أو أنّهم يتعرضون للاصابة ببعض الأمراض المستعصية على العلاج- نتيجة للانحرافات الجنسية- أمثال مرض الايدز،

إنّ الإنسان عندما يرى الأشخاص المصابين بهذا المرض يتأسى ويحزن على حالهم ويتأسف على ماهم فيه من العناء.

فهل يمكن القول: لماذا تصبح حصيلة هذا الادمان أو هذا الانحراف على هذه الدرجة من الشدّة وطول المدّة؟ إذ لايوجد بينهما أى تناسب منطقى.

ولو تفوّه أحد بمثل هذا الكلام، لقيل له على الفور: هذه هى نتيجة عملهم وقداخطروا وانذورا بها من قبل. ويصدق نفس هذا المعنى على العذاب الذى يلقاه أصحاب جهنّم أيضاً فقد حذّرهم تعالى وأنذرهم مِراراً فى القرآن الكريم ولكنّهم كانوا معاندين.

وقد لوحظ فى كثير من الأحيان أنّ بعض الأشخاص قد تعرّضوا إلى حوادث السيارات- لعدم اهتمامهم بمراعاة اصول السوق- فاصيبت منهم الأيدى والأرجل أو العمود الفقرى وظلوا يعانون الألم طوال حياتهم، فى حين كان باستطاعتهم تجنّب كل ذلك من خلال الالتزام الصحيح بتعليمات المهنة، فحينما يدور الحديث عن نتائج العمل وآثاره الطبيعية،

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۶

لا يبقى هناك أى مجال لطرح التساؤلات الواردة أنفاً. إضافة إلى ذلك يوجد بين أصحاب النّار أشخاصٌ جلبوا للآخرين مثل هذا العناء وهذا العذاب، ولو تمعّن الإنسان فى أنواع التعذيب التى تُمارس فى عالم اليوم- ناهيك عمّا جرى منه فى العصور الغابرة- لأيقن أنّ مرتكبيها يستحقون بالتأكيد هذه العقوبات الشديدة، بل إنّ ظلم الظالمين يصل أحياناً إلى حد يبلغ مرحلة من التفنن والتمادى بحيث يحسب الإنسان عدم وجود أيّة عقوبة تناسب ما اقترفه من جرائم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۷

۵- العذاب الروحى

تمهيد:

كما توجد فى الجنّة نعم وفيرة ولذيذة للجسم والروح، إذ يكمل أحدهما الآخر ولا يمكنهما الانفصال عن بعضهما بسبب اقتران المعاد الجسمى بالمعاد الروحى، فكذلك توجد فى جهنّم عقوبات لكلا النوعين، والآيات الشريفة الواردة فى هذا الحقل تثبت صحّة هذا القول: فلنقرأ خاشعين هذه الآيات:

۱- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (الحج/ ۵۷)

۲- «رَبَّنَا انَّكَ مَنْ تُدخِلِ النَّارَ فَقَدْ اخْزَيتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ انصَارٍ». (آل‌عمران/ ۱۹۲)

۳- «كُلَّمَا ارادُوا انْ يَخْرُجُوا مِنهَا مِن غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَالحَرِيقِ».

(الحج/ ۲۲)

۴- «رَبَّنَا اخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَانَّا ظَالِمُونَ* قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونَ».

(المؤمنون/ ۱۰۷- ۱۰۸)

۵- «وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوماً مِّنَ العَذَابِ* قَالُوا اوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ الَّا فِى ضَلَالٍ». (المؤمن/ ۴۹- ۵۰)

۶- «اذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً». (الفرقان/ ۱۲)

۷- «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا انْفُسَكُمْ وَاهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّايَعْصُونَ اللَّهَ مَاأَمَرَهُمْ وَيفعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ» «۱». (التحريم/ ۶)

---

(۱). هناك أيضاً آيات اخرى تحتوى على نفس هذه المضامين وردت فى سور: المجادلة، ۵؛ السجدة، ۲۰؛ الأعراف، ۵۰؛ الحاقة، ۳۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۸

۸- «وَنَادَى اصْحَابُ الجَنَّةِ اصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدْتُّم مَّاوَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ ان لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (الأعراف/ ۴۴)

جمع الآيات وتفسيرها

الحزن والهم القاتل والحسرة اللامتناهية:

المقصود من العقوبات والآلام الروحية مجموعة من الممارسات التى تضغط على روح الإنسان ونفسه وإن كانت لاتؤثر على جسمه فى الظاهر أو أنّ لها تأثيراً ثانياً إذ تؤذى الجسم مباشرة وتؤلم الروح أيضاً.

فنرى فى الآية الاولى نموذجاً للقسم الثانى إذ تقول: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

لم يتسع حديث القرآن هنا لاعطاء مزيد من الايضاحات حول كيفية هذا العذاب، والاسلوب الذى يؤدّى لِاهانة وإذلال أصحاب النّار، بل أشار إلى الموضوع إشارة عامّة تشمل- بلا شك- جميع الجوانب المهينة فى عذاب جهنّم التى تؤدّى إلى إذلال المستكبرين

الطغاة ودفعهم إلى أدنى درجات الذلّة.

وقد احتمل بعض المفسّرين «كالقرطبى» أنّ العذاب المهين إشارة إلى المصير الذى آل إليه المشركون فى معركة بدر، ولكن لو التفتنا إلى الآية السابقة التى تحدثت عن «جنات النعيم» للمؤمنين لرأينا أنّ الآية دالّة على العذاب المهين الموجود فى النّار.

وعلى كل حال يدل هذا التعبير الذى ورد عدّة مَرّات فى القرآن الكريم على أنّ عذاب الجحيم مقرون بأنواع الاهانات التى تؤلم كلّا من الروح والجسد، وهذا تجسيد للتحقير والاستهانة التى كانوا يبدونها للأنبياء والمؤمنين والمستضعفين من أهل الإيمان، وهذا مايستلزم أن يتلقّوا فى ذلك اليوم نتيجة عملهم بهذه الصورة.

وفى الآية الثانية كان الحديث عن فضيحة أهل النّار وهذا هو عذاب معنوى مؤلم، فقد نقلت لنا الآية ذلك على ألسنة العلماء من أهل الإيمان الذين اطلقت عليهم «أولو الألباب»

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۳۹

فقالت: «رَبَّنَا انَّکَ مَنْ تُدخِلِ النَّارَ فَقَد اخْزَیتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِینَ مِنْ انصَارٍ».

«أخزیته»: مأخوذة من (الخزى) ولها معانٍ عديدة فى كتب اللغة مثل: سوء الحال، والابتعاد، والذلّة، والافتضاح، والاستهانة، ونفس هذه المعانى وردت فى كلام المفسّرين أيضاً «۱».

ويتضّح من سياق الآية أنّ العقوبات النفسية يوم القيامة أكثر إيلاماً، لأنّ اولى الألباب يطلبون من اللّه عزّ وجلّ أن لا يدخلهم النّار ويقولون: إنّك من أدخلته النّار فقد أخزيته إشارة إلى أنّ الشىء الأسوء من النّار هو ذلك الخزى، تماماً مثل بعض الأشخاص الذين لا يأبهون كثيراً لدخولهم السجن ولكنهم يحرصون كثيراً على عدم انتشار هذا الخبر، لأنّ انتشاره يؤدّى إلى فضيحتهم فى المجتمع وهو ما يعتبرونه أشدَّ إيذاءً وإيلاماً من السجن ذاته.

أمّا جملة: «وَمَا لِلظَّالِمِینَ مِنْ انصَارٍ»، فهى إشارة إلى هذه الحقيقة وهى أنَّ كل مايجرى عليهم اليوم إنّما جاء نتيجة لظلمهم، فمن الطبيعى أن يفتضحوا هناك ويُذلّوا ولا يجدون ناصراً ولا معيناً، (هذا التعبير لا يتنافى طبعاً مع قضيّة الشفاعة لمن يستحقّها، لأنّ المقصود هنا نفى الناصر الذى يعين الظالمين بقدرته ونفوذه، لا عن طريق الاستعانة بالقدرة الرّبانية).

وتطرّقت الآية الثالثة إلى موضوع الغم والحزن الذى يعانى منه أصحاب جهنّم وهو ما يعكس آلامهم النفسية، وقالت: «كُلَّمَا ارَادُوا انْ یَخْرُجُوا مِنهَا مِن غَمٍّ اعِیدُوا فِیهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِیقِ».

قال الكثير من المفسّرين إنّهم كلما أرادوا الخروج من هذا الغم والتحرر منه واللجوء إلى أطراف جهنّم، يقوم خزنتها بإرجاعهم بالهراوات أو المقامع النّاريّة، لأنّ الآية السابقة قد

---

(۱). مقاييس اللغة؛ مصباح اللغة؛ صحاح اللغة؛ لسان العرب؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الحكيم؛ وجاء فى تفسير مجمع البيان معنيان آخران لكلمة الخزى وهما: الهلاك، والوقوف فى موقف الفضيحة والذل.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۰

أشارت إلى هذا المعنى وخاصّة الجملة التى تنص على «وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِیدٍ».

(الحجّ/ ۲۱)

وجملة: «وَذُوقُوا عَذَابَ الحَرِیقِ» التى تُقال لهم من باب التقريع والاستهانة تُعتبر هى الاخرى نموذجاً لهذا العذاب النفسى «۱».

كثرة اللوم والتقريع:

نواجه فى الآية الرابعة صورة جديدة للإهانة والاحتقار التى يلقاها أصحاب النّار وهذا- كما قلنا- نوع من العذاب النفسى الأليم، وتقول الآية المباركة: «رَبَّنَا اخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَانَّا ظَالِمُونَ»، فيقال لهم من قبل اللَّه تعالى «قَالَ اخسَئُوا فِيهَا وَلَاتُكَلِّمُونَ».

وقد صَرّح جميع أصحاب اللغة والمفسرون بأنّ كلمة «اخسأ» تعبير يُستخدم لطرد الكلب وإن استخدامه هنا فيه دلالة على احتقار هؤلاء الظلمة والمستكبرين.

ولعل كلمة «لاتكلّمون» أكثر منها مرارة واستهانة، فالمولى الكريم الرحيم يطرد عبده ويقول له لا تكلّمنى أبداً، وهذا هو نفس المعنى الذى أشارت إليه العبارة الواردة فى دعاء كميل: «فهبنى ياإلهى وسيّدى ومولاى صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

ولكن لماذا يواجه هؤلاء مثل هذا العذاب النفسى القاتل؟ تزيح الآيات التالية الستار عن هذه القضيّة فتقول: «انَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّن عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارحَمْنَا وَانتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ* فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى انْسَوْكُمْ ذِكرِى وَكُنْتُمْ مِّنهُمْ تَضْحَكُونَ».

(المؤمنون/ ۱۰۹- ۱۱۰)

فكانت نتيجة ذلك الاستهزاء والضحك على المؤمنين أن أصبحتم اليوم عرضة للاستهزاء والاحتقار، وهذا فى الحقيقة تجسيد لأعمالكم!

---

(۱). كلمة «الحريق» وإن كانت هنا اسم مصدر إلّاأنّ لها معنى الفاعل، أمّا على قول البعض الآخر فهى صيغة مبالغة (أو صفة مشبّهة»، وعلى قول الراغب ف «الحريق» هنا بمعنى النّار وهذا التفسير يبدو أكثر ملائمة لأنّه أضاف العذاب إلى الحريق.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۱

ونرى فى الآية الخامسة مشهداً آخر يصور اللوم والتعنيف والاحتقار لأصحاب النّار من قبل خزنتها وملائكة العذاب، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ فِى النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يوماً مِّنَ العَذَابِ* قَالُوا اوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الكَافِرِينَ الَّا فِى ضَلالٍ».

فهذه التعابير تبدو وكأنّها سياط تلهب أرواحهم وتعذّبهم، فطلبوا يوماً واحداً للراحة من ذلك العذاب إلّاأنّ طلبهم رُفض، فطلبوا من خزنة النّار أن يدعوا لهم، لكن هؤلاء قالوا لهم:

أنتم ادعوا بأنفسكم، إلّاأنّ هذا الكلامُ يعتبر إهانة لهم بسبب عدم أهليّتهم للدعاء أو أنّ دعاءهم يجب أن يكون مسبوقاً بإذن من اللَّه- وهو جلّت قدرته- لا يسمح لهم ولا يأذن بمثل هذا الدعاء، أو أنّه دعاء غيرُ مستجاب فهو إذن عبث لا أكثر، ولذا فهم ينزعجون حتّى من الدعاء لهم ويقولون أنتم ادعوا ربّكم (واعلموا أنّه غير مستجاب لكم) وهذا أيضاً تعبير مؤلم آخر.

وتعكس الآية السادسة جانباً آخر من العذاب الروحى لأصحاب النّار فتقول: «اذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً».

تُصور هذه الآية هنا جهنّم وكأنّها تمتلك جميع صفات الحيوان المفترس فحين رؤيته لفريسته تنطلق منه أصوات مرعبة تنمُ عن الغضب مصحوبة بالتنفّس الشديد، وهذا العمل كفيل بإدخال الرعب فى قلبه ومن ثم القضاء عليه.

و «التغيظ»: مأخوذ من المصدر (غيظ)، وهو كما قال الراغب: يعنى شدّة الغضب، والتغيّظ بمعنى اظهاره، ومع أنّ حالة الغضب لا تسمع ولكن ترافقها أصوات دالة عليها قابلة للاستماع كالأصوات المرعبة.

وتعنى كلمة «الزفير» صعود ونزول النفس فى الرئة بحيث يرتفع الصدر إلى الأعلى وغالباً ما يصحبه صوت رهيب يمكن سماعه.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۲

أمّا المفسرون الذين لا يمكنهم التصديق بأنّ جهنّم موجود حى يرى ويدرك ويعرف المجرمين، فقد اضطروا إلى القول: إنّ هناك شيئاً مقدراً، فقالوا: المقصود هو رؤية خزنة النّار بينما نعلم أنّ التقدير خلاف القاعدة ولا حاجة له هنا، فما المانع أن يكون لجهنّم والجنّة روح وأنّهما تدركان الحوادث التى تقع فيهما؟ حتّى أنّ بعض الروايات ذكرت «يخرج عنق من النّار له عينان تبصران ولسان

ينطق فيقول وكّلت بكل من جعل مع اللّه إلها آخر فهو أبصر بهم من الطير بحب السمسم فيلتقطه» «۱».

ونحن نرى أمثلة مصغرة لهذه المسألة فى الدنيا منها مايتمثّل فى وضع العيون والآذان الالكترونية المرتبطة بأجهزة (الكامبيوتر) فى البنايات المختلفة، فتقوم تلك الأجهزة بمشاهدة وسماع الكثير من الأشياء والحوادث وتبدى ازاءها رد الفعل المناسب رغم أنّ البناية لا تدرك شيئاً، ولعل رد فعل جهنّم ازاء المجرمين هو من هذا الطراز أو من طراز أرفع، أى يكون مصحوباً بالإدراك.

ونرى فى الآية السابعة صورة اخرى من الآلام النفسية لأصحاب جهنّم فهى تخاطب المؤمنين بقولها: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا انفُسَكُم وَاهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ».

يتبيّن من هذا التعبير أنّ نار الآخرة تختلف كثيراً عن نار الدينا، سواء كان المقصود من «الحجارة» الأصنام الحجرية أو ماهو أشمل من ذلك، وسواءً كان المقصود هو النّار التى تخرج من داخل ذرّات تلك الأحجار أم كان المقصود شيئاً آخر، فكل ماهو موجود نار ينبثق بعضها من داخل ذات الإنسان؛ من معتقداته ونواياه الباطنية القبيحة وجوارحه الملوّثة بالذنوب، أو الأحجار التى كانت آلهة له أو من وسائل المفاخرة والتباهى كالقصور وما شابه ذلك.

---

(۱). تفسير القرطبى؛ و تفسير روح المعانى، فى ذيل الآية مورد البحث.

ثم تضيف الآية الشريفة: «عَلَيهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّايَعْصُونَ اللَّهَ مَاأَمَرَهُمْ وَيَفعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ».

فوجود مثل هؤلاء الملائكة القساة الأشداء يضاعف الآلام النفسية لأصحاب جهنّم، ويسدّ عليهم كل منافذ الحياة.

فقد كان هؤلاء فى حياتهم الدنيا يعاملون من هم تحت سلطانهم بكل قسوة، وكان عمّالهم الجناة يعاملون الناس بغلظة وشدّة وبلا أيّة رحمة أو شفقة، فوقعوا اليوم ضحية لمثل ذلك السلوك.

وممّا يلفت الانتباه هو أنّ الآية التالية لها تخاطب الكفّار قائلة: «لَاتَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ انَّمَا تُجْزَونَ مَا كُنتُمْ تَعمَلُون». (التحريم/ ۷)

قال بعض المفسرين الذين لا يسعهم تصّور اندلاع النّار من داخل الأحجار: إنّ المقصود من الأحجار تلك الأحجار الكبريتية التى ينبعث منها الشرر أثناء ارتطامها بالحديد، بينما نعلم اليوم بأنّ الطاقة الذريّة الكامنة فى كل كائن مادّى بإمكانها بعث مقادير عظيمة من النّار.

«الغلاظ»: جمع (غليظ)، و (الشداد) جمع (شديد) وكلاهما لمعنى واحد، وقد يكون ذكرهما سوية من باب التأكيد، لكن البعض يقول إنّ «الغلاظ» تعنى الخشونة فى القول و «الشداد» تعنىالخشونة فى الفعل، أو تعنى الأولى الخشونة الخُلُقية والثانية الخشونة الخَلقية، وعلى كل حال فهولاء الملائكة ملزمون بحكم اللّه لا يعصون له أمراً.

وقالوا أحياناً: إن وضع الإنسان بمنزلة الحطب إلى جانب الأحجار يُعتبر بحد ذاته استهانة بهم وعقوبة روحية ومعنوية «۱».

وتمر علينا فى الآية الثامنة والأخيرة محاورة مذهلة بين أصحاب الجنّة وأصحاب النّار

---

(۱). تفسير فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۱۶۸.

تكون سبباً لإيذاء أصحاب النّار: «وَنَادَى اصْحَابُ الجَنَّةِ اصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّاً فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً».

فأجابوا وقد استحوذ عليهم الحياء والانكسار: «قَالُوا نَعَم» وفى هذه الأثناء: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَينَهُمْ أَن لَّعنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ».

فيغدو هذا الحديث كالملح على جراحات أصحاب النّار فيلهب نفوسهم بمشاعل من النّار.

نعم إنَّهم كانوا قوماً يصدّون الناس عن سبيل اللّه (كما تصرح بذلك الآية اللاحقة) ولهذا فهم اليوم يُبعدون عن رحمة اللّه (لأنّ اللعنة

تعنى الطرد من الرحمة الإلهيّة).

ولكن من هو هذا المؤذّن الذى يمتلك هذه السيطرة على الجنّة والنّار فيسمع الكل نداءه ويتحدث عن اللَّه؟ ورد فى الكثير من الروايات المنقولة عن الشيعة والسُنّة أنّه أميرالمؤمنين عليه السلام الذى كان يجاهد الظلمة طوال حياته.

والعجب أنّ بعض المتعصّبين حاول التقليل من أهمّية هذه الفضيلة، فقال: «ولا يفهم من هذا العمل أنّه فضيلة لعلى عليه السلام».

بينما تقضى البداهة بأنّ هذا المؤذّن المهيمن على الجنّة والنّار المبلغ نداء اللَّه فى ذلك اليوم، ينبغى أن يكون له مقام سامٍ ورفيع.

والخلاصة هى أنّ الإنسان يتكون من جسم وروح، والمعاد أيضاً يتحقق بهذين البُعدين وهذا مايستلزم الثنائية أيضاً فى العقاب والثواب، وبناءً على ماذكرنا فأهل النّار لا يتألّمون من العذاب الجسمانى فقط، بل يعانون كذلك من العذاب النفسى والروحى وهو أشد وطأة عليهم، فهم يعيشون فى ألم وهمّ وحزن غير متناهٍ، وتلازمهم الفضيحة والندامة على ما مضى ولو قارنوا أنفسهم بأهل الجنّة لكانت المعاناة أشدّ، لاسيّما بوجود الملائكة الغلاظ وما يواجهونه من أنواع الاستهانة والتوبيخ والاحتقار، وهذه كلها من العوامل التى تؤذيهم نفسياً وتجعلهم يعيشون فى عذاب مرير.

ومن المؤكد أنّ هذه العقوبات تنسجم مع عملهم فى هذه الدنيا حين كانوا يعاملون

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۵

المظلومين بأنواع العذاب والعقاب وكانوا كثيراً ما يستهزئون بآيات اللَّه ويسخرون من عباده ويستخفّون بالمؤمنين ويتفاخرون على الآخرين.

فهل هنالك عجب لو تمثلت لهم أعمالهم أمام أعينهم ووقعوا فى مغبّة نتائجها، ليحصدوا فى الآخرة كل ما زرعوه فى مزرعة الدنيا؟

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۷

۶- خلود العقاب

تمهيد:

هنالك تناسب بين «الجريمة» و «العقاب» دائماً فكلما كانت الجريمة أعظم كانت العقوبة أشدّ، هذا فى مجال العقوبات الجزائية.

أمّا بالنسبة للآثار الوضعية والطبيعية لأعمال الإنسان فالقضية تأخذ منحىً آخر فقد يتعرض الإنسان- نتيجة لتساهله وتجاهله ولو لحظة واحدة- لحادثة لا يتيسّر له جبرانها أو علاجها، وربّما تكون حصيلة الجهل والتساهل فادحة جدّاً كأن تؤدّى مثلًا إلى اصابة عضو من أعضاء الجسم بالنقص أو الشلل إلى الأبد وهذا ما يحتم دفع كفّارة ذلك وتحمل تبعاته إلى نهاية العمر، مع أنّ الخطأ ارتكب لحظة واحدة.

يُفهم من آيات القرآن الكريم وبكل وضوح أنّ فريقاً من الناس يبقى فى العذاب الأبدى أو بتعبير آخر يخلد فى جهنّم، وقد اثارت مسألة «الخلود» هذه تساؤلات شَتّى وطرحت فى تفسيرها آراء مختلفة، سنأتى عليها لاحقاً بإذن اللَّه.

نقرأ أولًا الآيات الشريفة التالية التى تتضمن كل واحدة منها تعبيراً جديداً عن خلود العذاب:

۱- «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ».

(البقرة/ ۳۹)

۲- «يُرِيدُونَ ان يَخرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ بِخَارِجِينَ مِنهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ».

(المائدة/ ۳۷)

۳- «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ* خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۸

السَّموَاتُ وَالأَرضُ الَّا مَاشَاءَ رَبُّکَ إِنَّ رَبَّکَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ». (هود/ ۱۰۶- ۱۰۷)

۴- «وَنَادَوا يَا مَالِکُ لِيَقضِ عَلَيْنَا رَبُّکَ قَالَ انَّکُمْ مَّاکِثُونَ». (الزخرف/ ۷۷)

۵- «وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ انَّ لَنَا کَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم کَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا کَذلِکَ يُرِيهِمُ اللَّهُ اعمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِم وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ». (البقرة/ ۱۶۷)

جمع الآيات وتفسيرها

عذاب الخلد:

تطالعنا الآية الأولى بكلمة «الخلود» المعروفة، فتقول: «وَالَّذِينَ کَفَرُوا وَکَذَّبُوا بِآيَاتِنَا اولَئِکَ اصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ».

هذا فى وقت صَرّحت فيه بعض الآيات القرآنية الاخرى بكلمة «الأبدية» بعد كلمة الخلود وهو مايُعَدُّ تأكيداً لها، ومن جملة ذلك قوله تعالى «وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَانَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ابَداً». (الجن/ ۲۳)

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً فى الآية (۴۵) من سورة الأحزاب، حيث اقترنت كلمة الأبدية بكلمة الخلود.

وقد وردت كلمة الخلود فى نار جهنّم فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، فمنها ماورد وصفاً مثل «خالدون» و «خالدين»، ومنها ماورد على صيغة الفعل كما فى سورة الفرقان التى أشارت إلى مضاعفة العذاب على المشركين والقتلة والزُناة وقالت: «وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً». (الفرقان/ ۶۹)

وورد هذا العنوان أحياناً كقيد للعذاب، كما جاء فى قوله تعالى «ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الخُلْدِ». (يونس/ ۵۲)

وجاءت كلمة «الخلود» بصيَغها المختلفة (فعلًا، ووصفاً، ومصدراً) بخصوص عذاب النّار أكثر من ثلاثين مَرّة فى القرآن الكريم، وتأكيده على هذه الكلمة له مفهوم خاص سيتّضح سببه فى البحوث القادمة بمشيئة البارى عزّ وجلّ.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۴۹

وقد وردت هذه الكلمة أيضاً بخصوص نعم الجنّة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم والتى سبقت الإشارة إليها فى بحث نِعَم الجنّة.

لنرى الآن ما معنى «الخلود» فى اللغة، وما معناه عند المفسّرين:

فسَّر لسان العرب كلمة الخلود بمعنى دوام البقاء فى دار لا يخرج منها واطلق للآخرة (دار الخلد) لبقاء أهلها فيها.

وفى مقاييس اللغة ذكر معنىً واحداً لأصل الكلمة وهو الثبات والبقاء والتلازم.

وورد نفس هذا المعنى أيضاً فى «صحاح اللغة» وكتب اخرى

لكن الراغب قال فى «المفردات»: إنّ معناها الأصلى هو تبرّى الشىء من عروض الفساد وبقاؤه على الحالة التى هو عليها، وكل ما يتباطأ عنه التغيير والفساد تصفه العرب بالخلود، ويقال للذى يبقى مدة طويلة، وفيه قيل: رجل مخلّد لمن أبطأ عنه الشيب.

وعلى كل الأحوال نستخلص من مجموع كلمات أصحاب اللغة رأيين مختلفين.

الأول: هو المعنى الدال على الدوام والبقاء والأبدية، وإن اطلق على طول العمر فهو من باب التشبيه ليس إلّا.

والثانى: طول العمر، وإذا اطلق على الدوام والأبدّية فهو من باب البيان المطلق.

وللمفسرين أيضاً آراء مختلفة فى هذا الصدد.

فقد صَرّح بعضهم: إنّ «الخلود» هنا يعنى الاستمرار والدوام الذى لا انتهاء له مطلقاً «۱».

وقال آخرون إنّ معناه الحقيقى هو الاستمرار والتواصل والدوام ومعناه المجازى المدّة الطويلة، أمّا الاستخدام القرآنى للكلمة فهو بالمعنى الأول «۲».

وذكر بعضهم نفس هذا المعنى بتعبير آخر وهو أنّ الخلود فى اللغة يعنى المكث الطويل كما هو الحال فى قولنا للسجن المؤبد والفترات الطويلة الأمد، فنقول مثلًا خُلِّد فلان فى السجن، أمّا فى لسان الشرع فيعنى الأبدية «۳».

---

(۱). الطبرسى فى مجمع البيان.

(۲). تفسير القرطبى، ج ۱، ص ۲۰۷.

(۳). تفسير المراغى، ج ۱، ص ۶۹.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۰

نفحات القرآن ج۶ ۳۹۹

وجاء فى تفسير المنار أنّ فتح باب تأويل الخلود أدى إلى جرئة أصحاب استقلال الفكر فى هذا الزمان على الدخول فيه والقول إنّ معنى خلود الكافرين فى العذاب طول مكثهم فيه، لأنّ اللَّه الرحمن الرحيم، الذى سبقت رحمته غضبه ما كان ليعذب بعض خلقه عذاباً باق لا نهاية له «۱».

ويقول البعض أيضاً: رغم أنّ الكفرة والمعاندين الطغاة المتمّردين الذين استشرت الذنوب فى صميم كيانهم يبقون فى النّار، إلّاأنّ جهنّم لا تبقى دوماً على حال واحدة فلابدّ أن تبلغ اليوم الذى تخمد نارها ويرتاح أهلها.

وقد احتمل أيضاً أنّ أهل النّار سيعتادون بمرور الزمن على شدّة حرارة النّار وكثرة العذاب ويتلاءمون بالتدريج مع وضع جهنّم فلا يبقى لديهم أى شعور بالألم!

إلّا أنّ أمثال هذه الاحتمالات مرفوضة من قبل علماء الإسلام ومفسرى القرآن لأنّها تتعارض وصريح الآيات القرآنية، إضافة إلى أنّ الآيات التى قرأناها لم تقتصر عباراتها على ذكر كلمة الخلود فحسب حتّى تتحمل مثل هذه التأويلات بل توجد إضافة إليها تعابير اخرى وردت وهى لا تحتمل مثل هذه التأويلات، (فتأمل).

وخلاصة القول هى أنّ العجز عن حل مشكلة الخلود فى العذاب، قد دفع البعض فيما يبدو إلى الميل لمثل هذه التأويلات غير الصائبة، وإلّا فدلالة الآيات القرآنية والروايات الإسلامية بالنسبة لخلود العذاب لمجموعة من المجرمين مسألة لا تقبل النقاش.

وفى العبارة الثانية نلاحظ وجود كلمة «الإقامة» حيث تقول الآية الشريفة: «يُرِيدُونَ ان يَخرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنهَا وَلَهُم عَذابٌ مُّقِيمٌ».

إنّ وصف كلمة العذاب ب «المقيم» يدل بوضوح على أنّ هذه العقوبة بالنسبة لهم ثابته ومستمرة.

---

(۱) تفسير المنار، ج ۱، ص ۳۶۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۱

أبدية العذاب:

طرحت الآية الثالثة مسألة أبدية العذاب فى جهنّم لفئة من أصحاب الجحيم، ولكن بتعبير آخر يمتاز بصراحة أكثر، فتقول: «فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُم فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ* خَالِدِينَ فِيهَا مَادَامَتِ السَّموَاتُ وَالأَرضُ»، وفى الختام تستثنى فتقول: «الَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ انَّ رَبَّكَ

فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ».

(من البديهى أنّ السماء والأرض لن يكون لهما وجود آنذاك، وأنّ السموات والأرض اللتين تتحدث عنهما الآيات القرآنية، تقومان بعد زوال الأرض والسماء الحاليتين، وهما خالدتان إلى الأبد).

قال البعض: إنّ هذا التعبير فى اللغة العربية كناية عن الأبدية، إذ يوجد فى اللغة العربية الكثير من التعابير المستخدمة بمعنى الأبدية. مثل «مالاح كوكب» أو مثل ماورد فى كلامه عليه السلام حين اعترض عليه الجهلة بسبب تقسيمه بيت المال بالتساوى وكانوا يطمعون فى أن يميز بين الناس فى العطاء كما كان يفعل الخليفة الثالث ظناً منهم أنّ هذا الاسلوب سيُسهم فى تثبيت ركائز حكمه، فقال لهم الإمام عليه السلام: «أتأمُرُنىّ أن اطلب النصر بالجور فيمن وليّت عليه، واللّه لا أطور به ما سَمَر سمير وما أمَّ نجم فى السماء» «۱».

و يلاحظ فى شتّى اللغات تعابير من أمثال هذه ففيها دلالة على الاستمرارية والدوام والأبدية.

ويبقى هنا سؤال واحد وهو: إن كانت الآية أعلاه تعنى أبدية العقوبة فما مفهوم الاستثناء الوارد فى نهايتها وهو «إلّا ماشاء ربّك»؟ فالذى يبدو من ظاهر هذا الاستثناء على أقل تقدير هو عدم أبدية العذاب لفئة معينة منهم، بل ويحتمل أيضاً شموله لهم جميعاً، وستكون النتيجة معكوسة فى مثل هذه الحالة.

وقد نقل بعض المفسّرين من أمثال المفسّر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان عشرة أوجه لهذا الاستثناء عن علماء التفسير، إلّاأننا تجنّبنا نقلها هنا لضعفها وعدم أهمّيتها

---

(۱). نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۲

(والظاهر أنّ المرحوم الطبرسى لم ينقلها لاقتناعه بها، ولكن من باب ذكر جميع الآراء) ونكتفى بذكر مايستحق الاهتمام منها فقط وهو:

أوّلًا: إنّ الهدف من ذكر هذا الاستثناء هو تبيان حاكمية اللّه وقدرته المطلقة ومشيئته الكاملة، فلا تظنوا أنّ هذا الخلود يتحقق بدون إرادته، وإن شاء فهو على كل شىء قدير ولكن إرادته قضت بتخليد هذه الطائفة من أهل جهنّم فيها.

ولهذا ورد نفس هذا التعبير بشأن أهل الجنّة فى الآيات السابقة لها، فتقول الآية فى نفس الوقت: «عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ». (هود/ ۱۰۸)

وتُظهر هذه الجملة بوضوح أنّ المقصود من الاستثناء من الأشياء ليس هو قطع العذاب أو النعمة بل لمجرّد تبيان قدرة اللّه.

وثانياً: إنّ المقصودين بالاستثناء هم الذين لا يستحقّون الخلود فى العذاب كالمؤمنين المذنبين الذين يبقون فى النّار لمدّة من الزمن، فيتطهرون من ذنوبهم، ومن ثم يذهبون إلى الجنّة، وجملة «إلّا ماشاء اللّه» هنا تختص بهذه الطائفة، أمّا الكفرة فسيبقون فى العذاب (وهم كما يُقال جزء من المستثنى منه لا المستثنى .

ونفس هذا الاعتبار يُطرح أيضاً بشأن أصحاب الجنّة، فهم أيضاً خالدون فيها إلّا المؤمنين المذنبين منهم والذين كانوا سابقاً فى جهنّم ثم جاؤا إلى الجنّة.

وعلى كل حال فهذا الاستثناء لا يخلق أيّة مشكلة فى دلالة الآية على أبدية العذاب.

تصّرح الآية الرابعة بمسألة الخلود وعدم تخفيف العذاب للمجرمين وتؤكد أيضاً أنّ اللّه سبحانه وتعالى لم يظلمهم بل هم الذين ظلموا أنفسهم: «وَنَادُوا يَامَالِكُ لِيَقضِ عَلَينَا رَبُّكَ قَالَ انَّكُم مَّاكِثُونَ».

كلمة المكث جاءت هنا بشكل مطلق وغير محدود وهذه دلالة اخرى على خلود عذابهم «۱».

---

(۱). «المكث» يعنى البقاء المصحوب بالانتظار «كما قال الراغب فى مفرداته»، وكلمة المكث تطلق أيضاً على التوقف المؤقت، إلّاأنّها

عندما تذكر مطلقة وبلا قيد أو شرط، فهى تعنى التوقف الدائمى.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۳

لذلك يصرّح المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان بأنّ كلمة «ماكثون» هنا تعنى «دائمون»، ورغم أنّ الآية المذكورة لم تبيّن هل أنّ مالكاً أجابهم مباشرة أم بعد مدّةٍ من الزمن، إلّاأنّ جماعة من المفسّرين قالوا: أنّ هذا الجواب يأتيهم بعد مدّة للامعان فى تحقيرهم والاستخفاف بهم. فقال بعضهم: أنّ الجواب يرد بعد أربعين عاماً، وقال آخرون بعد مائة عام، ونُقِل عن ابن عباس أنّه قال: إنّ هذا الرد السلبى يأتيهم بعد ألف عام «۱»، من أجل أن يظلّوا فى الانتظار لمدّة أطول ويتحمّلوا العناء وذل الاستهانة!

وتظهر الآية بوضوح عدم وجود الموت فى ذلك العالم، بل هم دوماً أحياء يعيشون فى الألم والعذاب.

ويطالعنا فى الآية الخامسة تعبير يتحدث عن «عدم الخروج من النّار» بشكل مطلق، وهو تعبير آخر يحكى حقيقة خلود العذاب، وتصف الآية نفور المتّبعين من المتّبِعين فى قولها: «كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ اعْمالَهُم حَسَراتٍ عَلَيْهِم وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ».

نعم هؤلاء لا يجنون سوى الندم على مامضى والحسرة على ما كانوا يقومون به من تقليد أعمى وطاعة مطلقة لقادة الضلال، والتأسف على العمر الذى مَرَّ هدراً، وعلى الأموال التى جُمعت من الحرام وتُرِكت يتنعم بها الآخرون، وعدم استغلال فرص التوبة التى اتيحت لهم، ولكنها حسرة وندم لا طائل من ورائهما لأنّ فرص العودة قد مضت وإمكانية التعويض لن تأتى ثانية.

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان، عند تفسيره لهذه الآية: وهذا دليل ضد من يعتقد بنهاية عذاب جهنّم.

---

(۱). تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۲۲۷؛ وتفسير القرطبى، ج ۹، ص ۵۹۳۷، نقل أيضاً فى تفسير مجمع البيان مسألةالأربعين عاماً والألف عام.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۴

النتيجة:

نستخلص من مجموع التعابير الخمسة التى مَرّت أنّ عذاب جهنّم أبدى كما أنّ نعم الجنّة أبديّة، أمّا الذين يعتقدون بانقطاع العذاب فهم يذهبون خلافاً لما تنص هذه الآيات (وأمثالها)، ويفسّرون القرآن على طريقة (التفسير بالرأى).

صحيح أنّ الاعتقاد بخلود العذاب- وإن كان لفئة خاصة من أهل النّار- له مشكلاته وتعقيداته، ولكن بالنظر لصراحة الآيات القرآنية فى هذا الصدد، فينبغى حل تلك التعقيدات عن طريق المنطق والاستدلال، لا عن طريق تجاهل وانكار أصل الموضوع.

توضيحات

من هم المخلّدون فى النّار؟

اشارة

ذكرت الآيات القرآنية أشخاصاً وأقواماً بالخصوص يخلدون فى النّار ومن جملتهم:

۱- الكفّار

بمن فيهم المنكرون للمبدأ والمعاد والمشركون والمكذّبون بآيات اللّه وأعداء اللّه ورسوله صلى الله عليه و آله والمرتدّون، وهم الذين ذكرتهم الآيات القرآنية وقالت: إنّهم سيخلدون فى النّار، من جملة ذلك ما ورد فى قوله تعالى «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُم أَمْوَالُهُم وَلَا اوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً وَاولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» «۱». (آل عمران/ ۱۱۶)

---

(۱). هنالك آيات كثيرة اخرى تتحدث عن هذا الموضوع أيضاً من أمثال: الأعراف، ۳۶ وهى بشأن المكذّبين بآيات اللّه؛ وسورة البيّنة، ۶ التى تعتبر المشركين وأهل الكتاب مخلّدين فى النّار، وسورة التوبة، ۱۷ وفيها ذكر لخلود المشركين؛ والبقرة، ۲۱۷؛ وآل عمران، ۸۸، التى تتحدث بخصوص المرتّدين، وسورة فصّلت، ۲۸ والتى تشير إلى خلود أعداء اللّه فى النّار.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۵

۲- المنافقون

رغم أنّهم ينخرطون فى الظاهر فى سلك أهل الإيمان ويُعدّون فى زمرة المؤمنين، إلّا أنّهم من المخلدين فى جهنّم، كما دلّت على ذلك قوله تعالى، فقد أشار أوّلًا إلى أعمالهم وسلوكهم ثم قالت: «لَن تُغْنِيَ عَنْهُم أَمْوَالُهُم وَلَا اوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئاً اولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (المجادلة/ ۱۷)

ويقول أيضاً: «انَّ اللَّهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعاً». (النساء/ ۱۴۰)

۳- الغارقون فى الذنوب

يلحظ فى سورة البقرة عبارة فى وصف المذنبين، وهى غنيّة المعنى تقول: «بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ اصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة/ ۸۱)

ويقارب هذا المعنى ماورد فى سورة يونس، وجاء فيها: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّالَهُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّمَا اغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّن اللَّيْلِ مُظلِماً أُولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (يونس/ ۲۷)

ولكن هل أنّ المؤمنين من مرتكبى الكبائر يخلدون فى العذاب أم لا؟ هذا ما سنُجيب عنه فى بحث مفصل بعد تفسير هذه الآيات بإذن اللّه.

۴- القتلة والجُناة

يُفهم من آيات القرآن أنّ مرتكبى قتل العمد يخلدون أيضاً فى العذاب، كما ينص على ذلك قوله تعالى «وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيهِ وَلَعَنَهُ وَاعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً». (النساء/ ۹۳)

وقد عُرضت هنا أربع عقوبات لقاتل المؤمن عمداً وهى:

الخلود فى النّار، والغضب الإلهى، والطرد من رحمة اللّه، والاستعداد للعذاب العظيم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۶

ولكن هل أنّ هذه العقوبات تطبق فى حالة عدم التوبة وجبران مافات؟ أم أنّها فى رقابهم فى جميع الأحوال؟

يبدو الاحتمال الثانى مستبعداً جدّاً، وذلك لأنّ أكبر الذنوب وهو الشرك يمحى بالتوبة، فالمشركون كذلك يعفى عنهم بدخولهم الإسلام، فكيف يمكن القبول بأنّ قتل النفس يفوق كل هذا، إضافة إلى ذلك ما ورد فى تاريخ الإسلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عفا عن وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب قبل توبته، وكذلك عفا الكثير من المسلمين عن قتلة آبائهم وأبنائهم واخوانهم، بعد

دخولهم الإسلام. ومن نافلة القول، إنّ التوبة عن مثل هذا الذنب ليست بالأمر الهيّن ولا تنتهى القضية بالاستغفار بالقول بل ينبغى الانقياد للقصاص أو ارضاء أولياء القتيل بالدّية أو غيرها وجبران مامضى بعمل الخير فى المستقبل.

جاء فى حديث عن الرسول محمد صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لزوال الدنيا وما فيها أهون على اللَّه من قتل مؤمن ولو أنَّ أهل سماواته وأهل أرضه اشتركوا فى دم مؤمن لأدخلهم اللَّه تعالى النّار» «۱».

أمّا كيف يمكن خلود قاتل المؤمن عمداً فى النّار مع ما يدلّ على أنّ الكُفّار وحدهم سيخلدون فى النّار؟ فللمفسرين أجوبة مختلفة فى ذلك.

فقيل: إنّ أشخاصاً كهؤلاء لا يكتب لهم نصيب من التوبة أو قليلًا ما يوفقون لبلوغها، فيغادرون الدنيا فى نهاية المطاف بلا إيمان، ولهذا فهم يستحقون الخلود فى النّار.

وقيل: إنّ هذا هو جزاء من يقوم بالقتل العمد وهو منكر لتحريمه، وهذا الأمر يستلزم الكفر بذاته.

وقيل: إنّ كلمة الخلود تعنى هنا المدّة الطويلة لا العذاب الأبدى. يبدو أنّ التفسيرين الأول والثانى أنسب إلى واقع الحال.

۵- آكلو الربا

هددت الآيات القرآنية آكلى الربا أيضاً بالعذاب الأبدى، فقالت: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ

---

(۱). تفسير روح المعانى، ج ۵، ص ۱۰۴.

مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَاسَلَفَ وَامْرُهُ الَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَاولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». (البقرة/ ۲۷۵)

وهنا يعترضنا أيضاً سؤال وهو: كيف يخلد هذا الفريق فى النّار بينما الذنب الكبير لا يستوجب لوحده الخلود فى النّار؟

الاجابة عن هذا السؤال هنا أبسط، وذلك لأنّ نص الآية (فى الجمل السابقة) يشير إلى منكرى تحريم الربا، الذين كانوا يقولون: ما الفرق بين البيع والربا ولماذا أحلَّ اللَّه أحدهما وحرّم الآخر، فى حين أنّ الفارق بينهما واضح، فالبيع والشراء والتجارة والأعمال المشابهة كلها تصب فى مصلحة المجتمع، وهى من النشاطات الاقتصادية السليمة، أمّا الربا فهو ضار بالمجتمع، ولهذا الموضوع شرح واسع تطرقنا إليه فى مكانه المناسب.

۶- الظالمون والجبابرة

الفريق الآخر الذى اعتبره القرآن الكريم مستحقّاً للخلود فى العذاب هو فريق الظالمين، وهذا ما ورد فى الآية حيث جاء فيها: «وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا انَّ الخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا انفُسَهُم وَأَهلِيهِمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَلَا انَّ الظَّالِمِينَ فِى عَذابٍ مُّقِيمٍ». (الشورى/ ۴۵)

ويتبين من هذا التعبير أنّ عاقبة الظلم، الخلود فى النّار.

وقد أكّدت الآيات التى سبقت هذه الآية مراراً، العذاب الأليم للظالمين (الشورى ۴۲)، ندمهم الشديد وهم يتعذّبون فى نار جهنّم (الشورى ۴۴).

هل المقصود من الظلم هنا هو ظلم عباد اللَّه والمستضعفين أم هو ظلم النفس من خلال الشرك، لأنّ الشرك كما صرّح به قوله تعالى «لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ۱۳)

وجاء أيضاً فى قوله تعالى: «وَالكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة/ ۲۵۴)

رجّح بعض المفسّرين المعنى الثانى، ولعل جملة: «قالَ الَّذِينَ آمَنوا» دليل على هذا المعنى أيضاً وأنّ المؤمنين المظلومين قد واجهوا

ظلماً كبيراً على يد الكّفار الظالمين وهم- أى المؤمنون- الذين يتحدّثون بهذا الكلام فى يوم القيامة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۸

وتنص سورة الحشر، بعد الإشارة إلى خلود الشيطان وأتباعه فى النّار: «وَذَلِكَ جَزاءُ الظَّالِمِينَ». (الحشر/ ۱۷)

ولكن لو علمنا أنّ هذا الحديث يدور حول الشيطان وأتباعه الكافرين وما ورد فى الآية السابقة وهو: «كَمَثَلِ الشَّيطَانِ اذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ انِّى بَرِىءٌ مِّنكَ». (الحشر/ ۱۶)

لأدركنا أنّ المقصود من الظلم فى هذه الآية مصداقه الأتم، يعنى: الكفر.

۷- الذين خفّت موازينهم

يُستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ ثقل ميزان العمل فى يوم القيامة يدل على الفوز والنجاة، أمّا خفّة ميزان العمل فهى دالة على عدم قيمته، وهذا ما يؤدّى إلى الخلود فى النّار، جاء فى الآيتين من قوله تعالى: «فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ* وَمَنْ خَفَّت مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا انفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَالِدُونَ». (المؤمنون/ ۱۰۲- ۱۰۳)

وعبارة: «خسروا أنفسهم» إشارة لطيفة إلى أنّ أكبر رأس مالٍ يمتلكه الإنسان هو وجوده وعمره وحياته، وأنّ هؤلاء قد خسروا رأس مالهم فى سوق تجارة الدنيا من غير أن يحصلوا مقابله على شىء ذى أهميّة.

وقد يكون هذا التعبير إشارة إلى الكفرة، لأنّ المؤمن مهما ارتكب من ذنوب فلابدّ أن يحتوى ميزان عمله على شىء ما ولا يبقى خفيفاً تماماً وذلك لأنّ الإيمان والمعتقد الحق له بذاته وزن لا يُستهان به، وعلى هذا فإنّ خفّة ميزان أعمال هذة الفئة وخلوّه من أيّة حسنة دليل على كفرها، كما يتّضح هذا المعنى من قوله تعالى «اولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْناً». (الكهف/ ۱۰۵)

۸- المجرمون بشكل عام

يُفهم من بعض الآيات أنّ المجرم بشكل مطلق مخلد فى جهنّم، تقول الآية: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ابَداً». (الجن/ ۲۳)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۵۹

وجاء نفس هذا المعنى أيضاً مع إضافة اخرى فى الآية: «وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ». (النساء/ ۱۴)

وورد تعبير يشابه هذا فى قوله تعالى «انَّ الُمجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ». (الزخرف/ ۷۴)

ولكن لو التفتنا إلى الآيات السابقة كالآية (۲۰) من سورة الجن والتى يدور فيها الكلام عن دعوة النبى صلى الله عليه و آله إلى التوحيد وتقويض الشرك، وماجاء فى الآية (۲۴ من نفس السورة) التى نقلت كلام مشركى قريش الذين كانوا يعنّفون النبى صلى الله عليه و آله لعدم وجود الانصار والاعوان المتنّفذين، لتبيّن لنا أنّ المقصود من «العصيان» هنا هو الكف عن الدعوة إلى التوحيد والميل إلى الشرك والكفر، وعلى هذا فهى لا تتضمن أيّة دلالة على خلود جميع المجرمين فى النّار.

ويُلاحظ وجود قرينة فى ذيل الآية ۷۴ من سورة الزخرف دالة على هذا المعنى لأنّها تتحدث عمّن كانوا يضمرون العداء الشديد للدعوة، وكانوا يظنّون أنّ اللّه غير مطلع على سرّهم ونجواهم، ويُعتبر هذا بذاته من معالم الكفر، (فتأمل).

وقد صرح الكثير من المفسّرين عند تعرّضهم للآية المذكورة بأنّ المقصود من العصيان فيها هو العصيان فى التوحيد «۱».

إلّا أنّ هذا الاحتمال- وهو أنّ المقصود من الخلود هنا هو العذاب الطويل- يبدو مُستبعداً جدّاً، وذلك لأنّ تأكيد كلمة «الخلود» بكلمة

«أبداً» دالٌ على أنّ المقصود هو خلود العذاب الإلهى.

النتيجة:

لقد أدركنا من خلال النقاط الثمان الآنفة الذكر وجهة نظر القرآن فى موضوع المخلّدين

---

(۱). راجع تفسير مجمع البيان، ج ۹، و ۱۰، ص ۳۷۳؛ تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۵۲؛ وتفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۲۰۰؛ وتفسير روح المعانى، ج ۲۹، ص ۹۴.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۰

فى النّار، ولكن يتّضح من خلال النظرة الاجمالية للآيات المذكورة أنّ خلود الكفّار فى النّار امرٌ بديهى لا مفر منه، إلّاأنّه غير مُسَلّم به لجميع العاصين، ويستثنى من ذلك كون المعصية أو الذنب على درجة كبيرة بحيث تدفع الإنسان إلى الكفر والخروج عن خط الإيمان، أو أن يغادر هذه الدنيا وهو غير مؤمن، وسنصل إلى شرح مفصل عن هذا الموضوع قريباً.

سؤال: هل أنّ مرتكبى الكبائر مخلدون فى النّار؟

هناك فرقة إسلامية تُعرف ب «الوعيدية» (وهى من فرق الخوارج) تعتبر أىذنب من الكبائر موجباً للكفر وتعتقد أنّ مرتكبه يخلد فى النّار، ويقف فى مقابل هذه الفرقة «المرجئة» الذين يقولون: إنَّ الإيمان لا تضر معه المعصية (إحداهما تتصف بالافراط والاخرى بالتفريط!).

قال العلّامة الحلى رحمه الله فى (شرح التجريد) بعد أن نقل إجماع واتّفاق المسلمين على العذاب الأبدى للكفّار: «يختلف المسلمون فى مرتكبى الكبيرة، فالوعيدية يعتبرونهم كالكفّار، لكن الشيعة وكثير من المعتزلة يعتقدون بأنّ عذابهم له نهاية، ثم أقام الأدلة التى تثبت هذا المعنى .

يقول الشيخ المفيد رحمه الله فى «أوائل المقالات»:

«اتفقت الإمامية على أنّ الوعيد بالخلود فى النّار متوجه إلى الكفّار خاصة دون مرتكبى الذنوب من أهل المعرفة باللّه تعالى والاقرار بفرائضه من أهل الصلاة، ووافقهم على هذا القول كافة المرجئة وأصحاب الحديث قاطبة، واجمعت المعتزلة على خلاف ذلك وزعموا أنّ الوعيد بالخلود فى النّار عامّ فى الكفّار وجميع الفساق» «۱».

ويستدل هذا الفريق ببعض الآيات القرآنية لإثبات رأيه، وبالخصوص تلك الآيات القائلة بخلود مرتكبى القتل العمد وآكلى الربا فى نار جهنّم وأمثالها من الآيات، ومن أوسع

---

(۱). أوائل المقالات، ص ۵۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۱

تلك الأدلّة شيوعاً هى ما ورد فى من سورة الجن والتى مَرّ علينا تفسيرها مسبقاً وهى:

«وَمن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً». (الجن/ ۲۳)

ولكن هناك قرائن كثيرة فى هذه الآيات وفى غيرها تدل على أنّها (هذه الآيات) تختص بأولئك الذين تنتهى بهم ذنوبهم إلى الكفر

وانكار المعاد أو النبوّة أو ضرورة من ضرورات الدين، ومن جملة تلك القرائن الآية: «كَأَنَّمَا اغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ الَّيْلِ مُظْلِماً». (يونس/ ۲۷)

وبالنظر إلى أنّ هذا الوصف قد ورد فى القرآن هنا بحق الكفّار، حيث يقول تعالى «وَ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ* تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ* اولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ». (عبس/ ۴۰- ۴۲)

فهذا دليل على أنّ المقصود فى الآية موضع بحثنا هم الكفّار أيضاً.

ولهذا جاء فى الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات يسوِّد اللَّه وجوههم ثم يلقونه، يقول اللَّه: «كَأَنَّمَا اغشِيَت وُجُوهُهُم قِطَعاً مِّنَ الَّيْلِ مُظلِماً»، يسود اللَّه وجوههم يوم القيامة ويلبسهم الذل والصغار، يقول اللَّه سبحانه وتعالى: «اولَئِكَ اصحَابُ النَّارِ هُم فِيهَا خَالِدُونَ»» «۱».

والقرينة الأخرى هى عبارة «أَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ» الواردة فى الآية ۸۱ من سورة البقرة والتى تشير إلى أنّ ارتكاب الذنب الكبير وحده لايؤدّى إلى الخلود فى النّار، بل إنّ إحاطة الذنب بكل وجود الإنسان هى السبب فى طرح مثل هذا الموضوع لأنّها تسوقه نحو الكفر، والسبب فى ذلك- كما تفيد الروايات- أنّ الإيمان يظهر فى القلب على هيئة نقطة مضيئة، وكلما ازدادت أعمال الخير التى يؤدّيها كلما اتسعت تلك النقطة حتّى تحيط بقلبه كله، وكلما ارتكب ذنوباً ومعاصىَ كلّما خيم الظلام على قلبه حتى يحيط بقلبه كله ويجعله قلباً أسوداً (ينطفىء فيه نور الإيمان) لاسيما وأنّ بعض الروايات تستدل بقوله تعالى «كَلَّا بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكسِبُونَ» «۲». (المطففين/ ۱۴)

---

(۱). تفسير على بن إبراهيم، ج ۱، ص ۳۱۱.

(۲). اصول الكافى، ج ۲، ص ۲۷۳، باب الذنوب، ح ۲۰.

وبعض تلك الآيات تؤكّد تعمّد الذنب (كآية القتل)، ولعل المراد منها هو مخالفة امر اللَّه ومخالفة الحق، وهذا من أوضح مصاديق الكفر.

والاشتشهاد الآخر هو الوارد فى قوله تعالى: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُا السُّوأَى انْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهزِئُونَ». (الروم/ ۱۰) يُظهر هذا التعبير أنّ الاصرار على الذنب والاستمرار عليه يؤدّى بالنتيجة إلى الكفر وتكذيب آيات اللَّه وهو مايؤدّى إلى الخلود فى النّار.

إضافة إلى كل هذا، فإنّ الآية: «انَّ اللَّهَ لَايَغْفِرُ انْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ» والتى تكررت مرّتين فى سورة النساء ۴۸ و ۱۱۶، هى دليل آخر واضح على هذه الحقيقة وهى أنّ المشركين (الكفر بأنواعه أيضاً ملحق بالشرك) لايُغفر لهم ويخلدون فى جهنّم، وأنّ المجرمين الآخرين يمكن أن يُغفر لهم، وهذا مايدل على أنّ حسابهم يختلف عن حساب الكفّار ولا يمكن أن يُعدّوا ضمن صنف واحد.

لا يتوهم أحد أنّ هذه الآية تعطى الضوء الأخضر للمجرمين، لأنّه لم يصدر وعد قطعى بالعفو عنهم بل هو وعد احتمالى مرتبط بمشيئة اللَّه، ولما كانت مشيئة اللَّه وإرادته مرتهنة بحكمته، وحكمته تقتضى أن تكون هذه المقوّمات كلها معايير للعفو، اذن، فالحال يوجب على المجرمين عدم قطع علاقاتهم باللَّه وأوليائه والإبقاء على جسور العودة قائمة.

ورد فى الروايات أنّ هذه الآية هى أكثر الآيات التى تبعث الأمل والرجاء فى النفوس، كما جاء عن أميرالمؤمنين على عليه السلام أنّه قال: «ما فى القرآن آية أرجى عندى من هذه الآية» «۱».

ولطرح مزيد من التوضيح، ينبغى الالتفات إلى أنّ الآية المذكورة لا تشمل مرتكب الصغائر طبعاً لأنّ القرآن قد وعد بغفران الذنوب

الصغيرة لمن يتورّع عن اجتناب الكبائر منها، وهى أيضاً لا تشمل الذنوب الكبيرة بعد التوبة لأنّ التوبة سببٌ لغفران جميع الذنوب

---

(۱). لمزيد من الايضاح راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۴۸ من سورة النساء.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۳

حتى الشرك، وعلى هذا فالمفهوم الوحيد المتبقى لهذه الآية هو أنّها ميّزت بين الشرك وارتكاب الذنوب الكبيرة، فالأول لا يغفر لأنّ وجود الشرك يقضى على جميع مقوّمات العفو، أمّا الثانى فالعفو فيه محتمل ولكن بشروط اشير إليها فى جملة «لمن يشاء».

والشاهد الآخر على هذا الادّعاء هو الآيات القرآنية العديدة، ومنها هذه الآية:

«فَسَتَذْكُرُونَ مَااقُولُ لَكُم وَأُفَوِّضُ امرِى إِلَى اللَّهِ انَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالعِبَادِ». (المؤمن/ ۴۴) وهذه الآية: «فَمَن يَعمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ». (الزلزال/ ۷)

كذلك آيات الشفاعة، لأنّ الصغائر تُمحى فى ظل اجتناب الكبائر، والكبائر أيضاً يُعفى عنها بالتوبة، واستناداً إلى ماذُكر، فالشفاعة تختص فقط بمرتكبى الكبائر الذين لم يتوبوا فإن كانوا يستحقّون الشفاعة يُعفى عنهم.

فإن كان الحال كذلك، فكيف نعتبر مرتكبى الكبائر كالكُفّار والمشركين ونقول بخلودهم فى النّار؟

كيف يمكن أن تقضى الحكمة الإلهية بتخليد إنسان فى النّار قضى عمراً فى الإيمان والعمل الصالح لارتكابه ذنباً كبيراً كأن يكون كذب لمرّة واحدة فى حياته؟

نحن لا نقول هنا بعدم عقابه بل نرى أنّ عذاب الخلد لا ينطبق على مثل هذا الشخص.

هناك روايات كثيرة وردت عن المعصومين عليهم السلام تنفى قول «الوعيدية» بتخليد مرتكبى الكبيرة فى النّار «۱».

والحقيقة أنّ هذه الفرقة المتطرفة من الخوارج قد انحدرت فى هذا الوادى السحيق بسبب التعصب والعناد وعدم الإلمام بآيات القرآن وأحاديث النبى صلى الله عليه و آله والمعصومين عليهم السلام، وعدم الأخذ بالأدلّة العقلية البيّنة، والخوارج بشكل عام قد ابتلوا بعواقب جهلهم وتعصبهم، وماضيهم فى التاريخ الإسلامى أفضل دليل على ذلك «۲».

---

(۱). للاطلاع على ايضاحات أكثر يمكن مراجعة كتاب بحار الأنوار، ج ۸، ص ۳۵۱- ۳۷۶، الباب ۲۷؛ وتفسير الكبير، ج ۳، ص ۱۴۴ وما بعدها.

(۲). المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۴

توضيحات

اعتراضات على خلود العذاب:

اشارة

طرحت أسئلة مختلفة بشأن العقاب الأبدى لفئة خاصة من المجرمين يبدو أنّ البحث فيها ضرورى هنا.

۱- فناء المادة

هناك من يقول: إنّ المادة ليست خالدة حتّى تتعرض للثواب الأبدى أو العقاب الأبدى.

وبعبارة اخرى إنّ فناء المادّة لا يتناسب وخلود الثواب والعقاب.

وليس هناك صعوبة كبيرة للرد على هذا الاعتراض، فلا يوجد شيء فى العالم- سوى ذاته المقدّسة- أبدى بالذات. بل إنّ كل ذرّات العالم (سوى ذاته) فانية والبقاء لا- يصِح إلّا لها، لكن ذلك لا يمنع أن تكون الموجودات الإمكانية أبديّة بالغير. أى إنّ اللَّه تعالى يمدّها دوماً بأسباب البقاء وكلما استهلكت تجددت، أو كما يُعبّر عنه فى الفلسفة أنّ «الإمكان بالذّات» لا يتنافى مع «الوجوب بالغير». (تأمل جيداً).

أى كما أنّ اللَّه سبحانه وتعالى يمد الجنّة والنّار دوماً بأسباب الوجود ويجعلهما باقيتان قائمتان دائماً، فكذلك تكون أجسام أهل الجنّة وأهل النّار مشمُولة بهذا القانون إذ تبقى قائمة دوماً بالامداد الإلهى حتّى تلقى جزاءها الأبدى من عقاب أو ثواب، وخلاصة القول: إنّ الفناء يحصل فى حالة عدم وجود امداد خارجى وانعدام التجدد.

۲- هل يمكن للعرضى أن يصير دائماً؟

يلاحظ فى بعض كلمات الفلاسفة أنّ: «الاصول الحكمية دالة على أنّ القسر لا يدوم على الطبيعة، وأنّ لكل موجود من الموجودات الطبيعية غاية ينتهى إليها وقتاً وهى خيره

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۵

وكماله، وأنّ الواجب جلّ ذكره أوجد الأشياء على وجه تكون مجبولة على قوة يتحفظ بها خيرها الموجود وتطلب بها كمالها المفقود، إلّاأن يُعيقه له عن ذلك عائق ويقسره قاسر، لكنّ العوائق ليست أكثرية ولا دائمة وإلّا لبطل النظام وتعطلت الأشياء وبطلت الخيرات، فعلم أنّ الأشياء كلها طالبة لذاتها للحق مشتاقة إلى لقائه بالذات، وأنّ العداوة والكراهة طارئة بالعرض، فمن أحبّ لقاء اللَّه بالذات أحبّ اللَّه لقاءه بالذات ومن كره لقاء اللَّه بالعرض لأجل مرض طرأ على نفسه كره اللَّه لقاءه بالعرض، فيعذبه مدّة حتى يبرء من مرضه ويعود إلى فطرته الاولى «۱».

والإجابة عن هذه المقولة ليست صعبة لأنّ الاخطاء والانحرافات قد تتجذر أحياناً فى وجود الإنسان إلى درجة تغدو معها ذات طبيعة ثانوية مثلما يحصل فى هذا العالم حين يبلغ المجرم مرحلة من الانحراف حتى يصبح مُلتذّاً بجرائمه، وتستهويه الامور التى ينفر منها الإنسان السوى طبيعياً وفطرياً، كما يلاحظ عند الأشخاص الذين اعتادوا ارتكاب الأعمال القبيحة التى تشمئز منها النفوس.

وحينما يبلغ الإنسان مثل هذه المرحلة من الطبيعة الثانوية لا يبقى له أى طريق للعودة.

وهذا هو نفس الشيء الذى عبّرت عنه الآية السابقة بتعبير «أحاطت به خطيئته» الذى يسبب انقلاب الطبيعة الإنسانية.

۳- ألا يعتاد أهل النّار على العذاب

قِيل أحياناً: إنّ أصحاب الحجيم يُعّذبون بعد دخولهم فى نار جهنّم بمقدار المدّة التى قضوها وهم مشركون فى هذه الدنيا، ولكن بعد انتهاء هذه المدّة يتحول عذاب جهنّم إلى نعيم بالنسبة لهم لأنّه يصبح أمراً متناسباً مع طبيعتهم حتى أنّهم لو دخلوا الجنّة شعروا بعدم الارتياح، والسبب فى ذلك هو عدم تناسبها مع طبيعتهم، إنّهم يتلذذون بما هم فيه من نار وزمهرير وما فيها من لدغ الحيات والعقارب كما يلتذ أهل الجنّة بظلال أشجار الجنّة والحور والقصور وطوبى والكوثر، وفى هذا العالم نرى البلبل يطربه أريج الزهور فى حين

---

(۱). الاسفار، ج ۹، ص ۲۴۶ (مع التلخيص). لقد نقل صدر المتألهين هذا الموضوع باعتباره وجهة نظر.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۶

أنّ بعض الحشرات القذرة تلتذ وتنتشى بروائح القمامة الكريهة «۱».

هذا الوهم يشكل نقطة مقابلة للوهم السابق أيضاً ويتناقض معه، وهو فى نفس الوقت لا يتّسق مع أىمن الآيات التى تؤكّد خلود العذاب، لاسيّما وأنّ بعضها قد صَرّحت بأنّه «كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْناهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ». (النّساء/ ۵۶)

والتهديد بالخلود فى النّار هو تهديد بالعذاب الدائم، ولو أنّه تحّول إلى نعمة خالدة لما كان يتصف بالتهديد.

إنّ مثل هذه التفسيرات بشأن الخلود تدل على أنّ أصحابها لم يجهدوا أنفسهم بالقيام بدراسة دقيقة أو حتّى دراسة إجمالية لتلك الآيات القرآنية، ولو أننا أعدنا قراءة تلك الآيات لتبيّن مقدار التناقض بينها وبين هذا الكلام الفارغ القبيح.

إضافة إلى ذلك، يجب الالتفات إلى أنّ اعتياد الإنسان على الآلام له حدود، فبعض الآلام طفيفة يعتاد عليها الإنسان بمرور الزمن. لكن لو نقص الماء فى جسم الإنسان مثلًا فانّه يعانى العطش، ويتعذر عليه عندئذٍ الاعتياد على ذلك، كأن يكون بدنه يحتاج إلى الماء وهو لا يشعر بالعطش!.

۴- هل أنّ الخلود نوعى أم شخصى

يلاحظ أنّ البعض اعتبر الخلود «خلوداً نوعياً» لا «شخصياً»، ومعنى ذلك أنّ نوع «الإنسان الكافر» يبقى فى النّار إلى الأبد، لكن الأشخاص يتبدلون، أىأنّ كل واحد منهم يقضى مدّة معيّنة فى عذاب جهنّم، وبما أنّه يعطى مكانه إلى آخر، فإنّ بقاء الإنسان فى جهنّم سيبقى أبدياً.

ومفهوم هذا الكلام أنّ خلقاً آخر يأتى إلى الدنيا فى المستقبل، وينحرف منهم جماعة أيضاً، فيكونون وقوداً لنار جهنّم، ويتصادف دخولهم فيها مع نجاة وخروج الخلق السابق منها «۲».

---

(۱). هذا الكلام نقلناه بشىء من التلخيص عن كتاب الأسفار نقلًا عن محى الدين بن العربى فى الفتوحات المكية (الأسفار، ج ۹، ص ۳۴۹).

(۲). هذا التفسير موجود فى حاشية ج ۹، من الأسفار، ص ۳۴۸.

وهذا التفسير لاينسجم مع آيات خلود العذاب المتعلقة بالكفّار، ويكفى قليل من التدقيق فى الآيات السابقة لفهم ذلك التناقض وعدم الانسجام، لأنّ تلك الآيات تصرح بالخلود الشخصى، وهذه التأويلات لا تتعدى السبب الذى ذكرناه سابقاً وهو أنّ العجز عن حل المشاكل فى بحث الخلود قد دفعهم إلى التشبث بمثل هذه التأويلات غير واقعية.

۵- هل ينسجم الخلود مع العدل الإلهى؟!

إنّ أهم اعتراض يُطرح فى مسألة الخلود- وهو فى الحقيقة الاعتراض الأساس فيها- هو عدم التناسب بين الذنب وبين العقوبة، فيقال: كيف نرضى بأنّ يتعذب الإنسان الذى أساء فى كل حياته وهى مائة عام على أكثر تقدير وكان خلالها يتخبط فى الكفر والمعاصى ويعاقب مدّة ألف مليون عام؟

هذه القضية لا تثير أىاعتراض طبعاً فى ما يخص النعم الإلهيّة الخالدة فى الجنّة إذ لا عجب من فضل اللَّه ورحمته وجزائه الأوفى فرحمته قد وسعت كل عالم الوجود، أمّا فى مجال العقاب فينبغى أن يكون هناك تناسباً بين الجريمة والعقاب، وإن اختل ذلك التناسب والتوازن فذلك ما لا يتسق والعدل الإلهى، والخلاصة أنّ مائة سنة من الكفر والذنوب تستوجب مائة عام من العقوبة لا أكثر.

إنّ استعصاء هذا الاعتراض على الحل قد دفع ببعض الجماعات إلى تأويل آيات الخلود واعتبارها تعنى طول المدّة أو أنّه الخلود

النوعى لا الشخصى أو أنّه الاعتياد على تلك الأوضاع وأمثال ذلك ممّا سبق القول فيه، لكن وكما قلنا سابقاً فإنّ هذه التأويلات واهية جدّاً ولايمكن التعويل عليها ولاتنسجم قطعاً مع آيات الخلود.

الجواب:

إنّ الذين يطرحون هذا الاعتراض يغفلون عن نقطة أساسية وهى الفارق الموجود بين العقوبة الوضعية والعقوبة التكوينية التى هى النتيجة الطبيعية للأعمال أو الحياة فى محيط تلك الأعمال.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۸

وتوضيح ذلك: إنّ المقنن: قد يسُن أحياناً قانوناً يقول فيه إنّ من يرتكب المخالفة الفلانية فعليه أن يدفع مقداراً من المال كغرامة مالية أو يُسجن مدّة من الزمن، فمن البديهى فى مثل هذا الموقف أن يكون هناك تناسب بين «الجريمة» و «العقاب»، فلا يمكن أن تُقَرّر مثلًا عقوبة الاعدام أو السجن المؤبد للمخالفة البسيطة، وبعكس ذلك فمن غير المعقول تحديد عقوبة القتل بسجن يوم واحد، فالحكمة والعدالة تستوجب التناسب الكامل بين تلك الحالات.

لكن العقوبات التى هى فى الحقيقة الآثار الطبيعية للعمل وتعتبر من خاصّيته التكوينية أو نتيجة حضور ذات العمل أمام الإنسان، لا تقر مثل هذه الأقوال سواءً بشأن آثار العمل فى هذا العالم أم فى العالم الآخر.

فلو قيل مثلًا، إنّ من يخالف تعليمات المرور ويقود سيارته بسرعة عالية ويتسابق بلا مبرر ويجتاز المناطق الممنوعة قد يتعرض- وبسبب عدّة لحظات من المخالفة- إلى اصطدام عنيف يؤدّى إلى كسر يديه ورجليه ويبقى مقعداً طوال عمره، فهنا لا يستطيع أحد أن يقول إنّ هذه النتيجة المريرة غير عادلة ازاء هذه المخالفة البسيطة لأنّ من المسلّم به أنّ أمثال هذه العقوبات ليست من وضع إدارة المرور حتّى يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين المخالفة والعقوبة، بل هو الأثر الطبيعى للعمل الذى فعله الإنسان بإرادته وأوقع نفسه فيه.

وكذلك الحال، إذا قيل بضرورة اجتناب المشروبات الكحولية أو المخدرات لأنّها تتلف القلب والمعدة والمخ والاعصاب خلال فترة وجيزة، ولكن لو تعمد أحد تناولها واصيب بضعف الأعصاب الشديد وبأمراض القلب والشرايين والقرحة كل ذلك فى مقابل الفسق والمجون لأيام معدودة، أو يبقى إلى آخر عمره يعانى من شدّة الألم والعجز والضعف، ففى مثل هذا الحال لا يمكن لأحد أن يتحدث عن عدم التناسب بين الذنب وآثاره وجزائه.

ولو افترضنا أنَّ هذا الشخص قد عَمّر فى هذه الدنيا بدل المائة عام ألف عام أو مليون عام، فينبغى عليه تحمل العذاب والألم طوال هذه المدّة المديدة ازاء عدّة أيام قضاها فى اللهو والمجون.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۶۹

أمّا فى ما يخص العقوبات الأخروية فالمسألة أعمق من هذا بكثير، فالآثار التكوينية للأعمال ونتائجها بالغة الأهميّة و قد تبقى ملازمة للإنسان إلى الأبد، بل إنّ ذات العمل (كما ذكر فى موضوع تجسّد الأعمال) يتجسد أمام الإنسان وبما أنّ ذلك العالم خالد، فإنّ الأعمال الصالح منها والطالح تبقى خالدة مع الإنسان وتكون وسيلة إمّا لشقائه أو لسعادته.

وقد ذكرنا سابقاً أنّ ثواب وعقاب يوم القيامة يتصف بالآثار التكوينية وخواص العمل الذى أتى به الإنسان فى الدنيا، كمايقول القرآن الكريم: «وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ». (الجاثية/ ۳۳) وجاء فى قوله تعالى: «وَلا تُجْزَونَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعمَلُونَ». (يس/ ۵۴) وورد نفس هذا المضمون مع قليل من الاختلاف فى آيات اخرى عديدة.

وبناءً على هذا لا يبقى هناك أى مجال لطرح هذا التساؤل وهو: لماذا لم يؤخذ بنظر الاعتبار التناسب بين الذنب والعقوبة؟

ينبغى أن يحلّق الإنسان فى سماء السعادة بجناحى «الإيمان» و «العمل الصالح» لينال نعيم الجنّة الأبدى ولذّة القرب الإلهى، فإن كان قد كسر جناحيه فى لحظة من لحظات المجون أو خلال المائة سنة التى قضاها فى هذه الدنيا، فعليه أن يعيش إلى الأبد فى الذلة والشقاء، فالقضية هنا ليست قضيّة الزمان والمكان وحجم الجريمة، بل هى قضية العلة والمعلول، آثاره قصيرة المدى وبعيدة المدى فقد يكفى

عود واحد من الثقاب لاحراق مدينة بأكملها، وقد يؤدّى غرام واحد من بذور الشوك إلى تغطية صحراء واسعة بالاشواك بعد مدّة وجيزة ويكون سبباً دائمياً فى ايذاء الإنسان، كما قد تكفى عدّه غرامات من بذور الورد إلى تغطية صحراء شاسعة بأجمل الورود واشذاها رائحة تفوح منها العطور فتملأ النفوس والقلوب بهجة وارتياحاً.

فإن قال قائل ما التناسب بين عود الثقاب وإحراق مدينة بأكملها؟ وما العلاقة التناسبية بين عدّة بذور من الشوك أو من الورد وبين الصحراء الفسيحة؟

فهل هذا السؤال منطقى؟ من المؤكد، كلّا.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۰

فأعمالنا الصالحة والطالحة على هذا النمط أيضاً، فقد تخلّف وراءها آثاراً خالدة واسعة وكبيرة، (فتأمل).

والمسألة المهمّة هنا هى أنّ اللَّه تعالى القادة الربانيين والأنبياء العظام وأوصياءَهم كانوا يحذروننا باستمرار من أنّ نتيجة أمثال هذه الذنوب هى العذاب الأبدى، ونتيجة الأعمال الصالحة هى النعمة الأبدية الخالدة. تماماً كالبستانى الماهر الذى يبيّن لنا مسبقاً الآثار الواسعة التى تنتج عن بذور الورد أو الشوك، ونحن الذين نختار مسارنا بوعى خلال هذا الطريق.

فهل نلوم أحداً فى هذه الحال؟ ولمن نؤاخذ؟ وعلى من نعترض سوى على أنفسنا؟

إلى هنا ينتهى موضوع الثواب والعقاب وجوانبه المختلفة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۱

القرآن والشفاعة

اشارة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۳

القرآن والشفاعة

تمهيد:

إنّ العقوبات الإلهيّة يوم القيامة ليست ذات طابع انتقامى سواءً كانت قصيرة أم طويلة الأمد أم أبدية، وسواءً كانت جسمية أم روحية وسواءً اعتبرناها كآثار طبيعية للعمل أو وضعية، وقد وضعت بهدف تربية الإنسان أو كضمانة لتنفيذ القوانين الإلهيّة الرامية إلى تنمية الكمال الإنسانى.

ولهذا السبب، نرى سبل النجاة مشرعة أمام الإنسان- فى نفس الوقت الذى نرى فيه القرآن الكريم يصف العقوبات الإلهيّة بالشّدة- وتمنح الفرصة للمذنبين للرجوع عن الخطأ وإصلاح أنفسهم وسلوك الطريق المؤدى إلى اللَّه تعالى

وتعتبر الشفاعة واحدةً من هذه الوسائل لأنّها تعنى فى المفهوم الصحيح للكلمة انذاراً للمذنبين بعدم هدم جسور العودة بأجمعها والحفاظ على خطوط الاتصال مع أولياء اللَّه، وإن وقعوا فى بعض الذنوب فلا ييأسوا، وعليهم الشروع بالعودة حيثما كانوا والمسارعة نحو رحمة اللَّه الواسعة.

إنّ بحث الشفاعة بجميع تفاصيله ونقاطه التربوية المثيرة التى وردت فى آيات كثيرة من القرآن الكريم، يصب فى هذا السياق.

ومن الأفضل الاكتفاء بهذا التمهيد الموجز، ومن ثم نعود إلى القرآن الكريم لنتعرف من خلاله على حقيقة ومفهوم الشفاعة وعلى جميع الامور المتعلقة بها.

نمعن فيما يلى خاشعين فى الآيات التالية التى قُسمت إلى عدّة مجاميع وبالشكل الآتى:

١- «فَمَا تَنْفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ». (المدثر/ ۴۸)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۴

٢- «وَاتَّقُوا يَوماً لَّاتَجْزِى نَفسٌ عَن نَّفسٍ شَيئاً وَلَايُقبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤخَذُ مِنهَا عَدلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» «۱». (البقرة/ ۴۸) ٣- «مَالَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ» «۲». (السجدة/ ۴) ۴- «قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً لَّهُ مُلْكُ السَّموَاتِ وَالأَرضِ ثُمَّ اِلَيهِ تُرْجَعُونَ». (الزمر/ ۴۴) ۵- «مَن ذَا الَّذِى يَشفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِاذنِهِ». (البقرة/ ۲۵۵) ۶- «يَومَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَن اذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِىَ لَهُ قَولًا» «۳». (طه/ ۱۰۹) ٧- «مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعدِ إِذنِهِ». (يونس/ ۳) ٨- «وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى السَّموَاتِ لَا تُغنِى شَفَاعَتُهُم شَيئاً إِلَّا مِن بَعدِ انيَأذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرضَى . (النجم/ ۲۶) ٩- «وَلَا يَملِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُمْ يَعلَمُونَ». (الزخرف/ ۸۶) ١٠- «وَلَا يَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى . (الأنبياء/ ۲۸) ١١- «لَّايَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهداً». (مريم/ ۸۷) ١٢- «مَّا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ». (المؤمن/ ۱۸)

جمع الآيات وتفسيرها

المجاميع الخمسة لآيات الشفاعة:

اشارة

عندما نضع الآيات الإثنتى عشرة المذكورة أعلاه إلى جنب الآيات الأربع المذكورة فى الهامش إلى بعضها، تُحل بكل سهولة جميع المشاكل الموجودة فى موضوع الشفاعة،

---

(١). جاء نفس هذا المضمون مع اختلاف ضئيل فى الآية ۲۵۴ من سورة البقرة.

(٢). جاء نفس هذا المعنى أيضاً فى الآيتين ۵۱ و ۷۰ من سورة الانعام.

(٣). ورد نفس هذا المعنى مع وجود بعض الاختلاف فى الآية ۲۲ من سورة سبأ.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۵

ويقدّم الجواب المناسب لكل سؤال يُطرح فى هذا الصدد.

لكن عدم الاهتمام بالتفسير الموضوعى لهذه الآيات، والنظر إلى بعضها واهمال البعض الآخر فى الدراسات العامّة لموضوع الشفاعة قد آثار مشاكل عديدة وانتهى أحياناً إلى الضلال وإلى إضلال الآخرين أيضاً، ويُعد هذا تقصير من قبل أولئك الذين أداروا ظهورهم للتفسير الموضوعى وحاولوا حل مثل هذه البحوث- التى لا تحل إلّابه- من خلال الاستناد إلى آية واحدة أو عدّة آيات، أو حتّى يحتمل فيهم سوء النيّة فى اختيار الآيات التى تتحقّق بها مقاصدهم.

فالآيات المذكورة تُقسم فى الحقيقة إلى خمسة أقسام محددة يهدف كل واحد منها إلى غرض معيّن.

القسم الأول: الآيات التى تنفى الشفاعة بشكل قاطع

ومنها كالآية الأولى والثانية.

وصنفت الآية الأولى بعض أحوال المجرمين الذين لم يكونوا مؤمنين، وأوضاعهم فى جهنّم وحديثهم مع أهل الجّنة ثم قالت: «فَمَا تَنْفَعُهُم شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ».

إنّ هذه الآية وإن كانت تنفى أىنوع من أنواع الشفاعة بحق هذا الفريق (بما فى ذلك شفاعة الأنبياء والأوصياء والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين)، إلّاأنّ وجود كلمة «الشافعين» وهى ظهور الفعلية، تثبت وجود شافِعين ومشفَّعين فى ذلك اليوم وأنّ شفاعتهم لا تنفع هؤلاء الذين كانوا يكذّبون بيوم الدّين ولم يكونوا يصلّون ولا يطعمون المسكين.

وكذلك تعبير «فَمَا تَنْفَعُهُم» يدل أيضاً على أنّ أحوالهم وأعمالهم ومعتقداتهم هى التى جلبت إليهم هذا الحرمان.

وعلى هذا الأساس فإنّ هذه الآية وإن كانت من الآيات النافية للشفاعة، إلّاأنّ نصّها يثبت ضمنياً وجود الشفاعة.

ونفت الآية الثانية الشفاعة أيضاً وقالت: «وَاتَّقُوا يَوماً لَّاتَجْزِى نَفسٌ عَن نَّفسٍ شَيئاً

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۶

وَلَايُقبَلُ مِنهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤخَذُ مِنهَا عَدلٌ وَلَاهُمْ يُنصَرُونَ».

رغم أنّ المخاطبين فى هذه الآية هم اليهود- بقرينة الآية السابقة لها- إلّاأنّ حكمها يتّسم بالعمومية ويَسُدّ جميع المنافذ أمام المخالفين، وأشارت أثناء ذلك إلى أربعة طرق مهمّة تُعتبر وسيلة للنجاة فى هذه الدنيا لكثير من المجرمين:

الأول: أن تجزى نفس عن نفس، والثانى: أن يشفع لها محترم، والثالث: لو دفعت غرامة لجزت عن العقوبة، والرابع: أن يهب قوم لنصرتها وانقاذها من مخالب العذاب، لكن أيّاً من هذه الطرق ليس لها وجود يوم القيامة، والحديث هنا يدور حول نفى الشفاعة هناك نفياً قاطعاً، ولكن هل يختص ذلك باليهود الذين سلكوا طريق الكفر والعناد ومجانبة الحق، وقتل الأنبياء، وبهذا فهى لا تتنافى مع آيات الشفاعة والروايات المتواترة الدالة على أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وسائر المعصومين عليهم السلام يشفعون لمذنبى هذه الأمّة؟

أم أنّ هذه الآية تشير إلى ظن اليهود الذين كانوا يتوهّمون بأنّ آباءهم يشفعون لهم يوم القيامة، فالآية تبطل هذا الوهم وتجعلهم فى يأس منه؟ أم أنّ ظاهر الآية مطلق وينفى أى نوع من الشفاعة لأىأحد؟

وتشير الآيات الأُخرى التى ستأتى لاحقاً وكذلك الروايات المتواترة وإجماع الأمّة بأنّ هذه الآية تخص الكفّار والأشخاص الذين لا تشملهم الشفاعة بسبب عِظم ذنوبهم، وعلى هذا فالآية المذكورة ذات طابع عمومى، والآيات الأخرى ذات صيغة مختصة، وترفع أى غموض فى هذا المجال.

و سيأتى شرح هذا الكلام عن قريب إن شاء اللَّه.

القسم الثانى: الآيات التى تعتبر الشفاعة خاصّة باللَّه

ومنها الآية الثالثة التى ورد فيها بعد الإشارة إلى خلق السموات والأرض وحاكميَّة اللَّه على كل شىء قوله تعالى «مَا لَكُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ».

وبناءً على هذا فإنّ الشفيع هو الخالق المدّبر لعالم الوجود لأنّ الشفاعة هى أيضاً نوع من

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۷

التدبير والربوبية والتربية، ومعنى هذا وجوب عدم التعلّق بالأوثان والالتجاء إلى سوى ذاته المقدّسة، وأن وضع أحد من الأنبياء والأولياء على مقام الشفاعة فهو مستمد منه بالتأكيد:

كما أنّ مقام الحاكمية وهداية وتربية الناس ممنوحٌ لهم من قبل اللَّه تعالى

وورد نفس هذا المعنى فى الآية الرابعة من آيات البحث، ولكن بصورة اخرى إذ تقول لعبدة الأوثان الذين اتخذوها شفعاء لهم: «قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعاً».

ثم تؤكّد أنّ سبب ذلك هو أنَّ: «لَهُ مُلكُ السَّموَاتِ وَالأَرضِ ثُمَّ اليَهِ تُرجَعُونَ».

فمن البديهى أنّ من يمتلك حق العفو عن المذنبين وحق الشفاعة أو قبول شفاعة الشافعين هو الخالق والمالك لكل الموجودات التى بدأ وجودها منه ثم تعود إليه فى نهاية المطاف.

وعلى هذا فانَّ الشفيع فى الأساس هو اللَّه تعالى لا منافس له فى ذلك بل يستمد الآخرون منه مشروعية شفاعتهم، ومن الواضح أنّ انحصار حق الشفاعة به تعالى دون سواه لا ـ يتنافى أبداً مع مشروعيته للآخرين، كما أنّ الملكية والحاكمية له دون سواه، ويمكن للآخرين الملك والحكم بإذنه وبأمره وفى حدود خاصّة.

وما يسترعى الاهتمام هنا هو أنّ الآية السابقة لها قالت حين نفت شفاعة الأوثان: «قُلْ اوَلَوْ كَانُوا لَايَملِكُونَ شَيئاً وَلَا يَعقِلُونَ». (الزّمر/ ۴۳) وهذا التعبير دليل واضح على أنّ الشفاعة من مختصات المالكية والحاكمية، وإنّما اختص بها اللَّه تعالى لأنّه هو المالك والحاكم الأصل فى عالم الوجود والآخرون يقتاتون على فُتات مائدة نعمته.

القسم الثالث: الآيات التى تؤكّد على أنّ الشفاعة منوطة بإذن اللَّه

وهى فى الحقيقة مكملة لآيات القسم الثانى، ولذا ورد فى الآية الخامسة استفهام انكارى ينص على «مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ». (البقرة/ ۲۵۵)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۸

وبناءً على ماذكر فإنّ الأنبياء وأولياء اللَّه والشفعاء يستمدون مشروعية شفاعتهم يوم الجزاء من اللَّه تعالى ويشفعون بإذنه، ومن البديهى أنّ إذنه منبثق من حكمته أىوفق أسس محسوبة، فإن كان هناك شخص لا يستحق الشفاعة فلا يؤذن بالشفاعة له (احفظوا هذا الكلام جيداً فسيأتى شرحه فى الظرف المناسب).

ومن الجدير بالملاحظة أنّ الآية المذكورة (وهى آية الكرسى) قد أكّدت هذه الجملة بعد أن أقرّت مقام القيمومة والمالكية للَّه‌تعالى على كل ما فى السموات والأرض، وعلى هذا فانَّ هذه الشفاعة منبثقة من مالكيته وحاكميته وقيمومته.

وبهذا فهى تبطل معتقدات عبدة الأوثان الذين يتذرّعون بعبادتها بدعوى أنّها تشفع لهم عند اللَّه.

وورد نفس هذا المعنى بصورة اخرى فى الآية السادسة؛ إذ قالت: «يَومَئِذٍ لَّاتَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِىَ لَهُ قَولًا».

ولكن مَن المقصود مِن: «مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ»؟ هنالك احتمالان:

الأول: هم الشفعاء بإذن اللَّه، والثانى: هم الذين تشملهم الشفاعة بإذن اللَّه.

إلّا أنّ الاحتمال الأول يبدو هو الأصح لأنّه يتسق ومضمون الآية السابقة (آية الكرسى) فهناك كان الحديث يدور حول الإذن للشفعاء، وتمثل الآية اللاحقة شاهداً آخر على صحّة هذا القول، ولهذا السبب اختار الكثير من المفسّرين هذا المعنى

وينعكس كلا المعنيين فى جملة «وَرَضِىَ لَهُ قَولًا»، الأول: إنّها تعود على الشفعاء أى تُقبل شفاعة من رضى اللَّه قوله وشفاعته، وعلى هذا فإنّ الجملتين تؤكّد إحداهما الأخرى

والثانى: إنّ المقصود هو المشفوع له من الذين رضى اللَّه قولهم، وبعبارة اخرى هو الذى كان عمله وكلامه ومعتقده صالحاً وصار موضعاً لرضى اللَّه لكى يُشفع له، ولكن بما الجملة الأولى تقصد الشفعاء، فمن الأنسب أن تكون الجملة الثانية إشارة إلى ذلك أيضاً، لتكون عودة الضمائر على وتيرة واحدة.

وعلى جميع الأحوال تشكّل الآية دليلًا واضحاً على وجود الشفاعة بإذن اللّه، لفريق من المؤمنين.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۷۹

وقد بيّنت الآية السابقة نفس ذلك المعنى بصورة اخرى إذ قالت: «مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعدِ إِذنِهِ» فلماذا تعبدون الأصنام؟ «ذلِكم اللَّهُ رَبُّكُم فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وجاء نفس هذا المعنى فى الآية الثامنة بشأن شفاعة الملائكة، إذ تؤكّد أنّ شفاعتهم تقبل بإذن اللّه أيضاً، إذ ورد فيها: «وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِى السَّموَاتِ لاتُغنِى شَفَاعَتُهُم شَيئاً إِلَّا مِن بَعدِ ان يَأذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرضَى .

فالمكان الذى لا يستطيع فيه ملائكة السماء وبكل مالديهم من عظمة من الشفاعة إلّا بإذنه، فماذا نتوقع من الأوثان التى لا حس لها ولا تمتاز بأيّة قيمة معنوية؟ أليس من المخجل أن يقولوا نعبدها لتكون شفيعة لنا عند اللّه؟!

والملفت هنا هو استخدام كلمة «كم» للتعبير عن أهميّة الموضوع، وهو ما يُستخدم عادة للكثرة وهو موسوم هنا بطابع العموم، وجاء فى الآية كذلك تعبير «فى السموات» وهو دلالة على علو مقامهم، ووردت كذلك كلمة «شفاعتهم» بصيغة الجمع لكى يفهم شفاعتهم جميعاً لا أثر لها إلّابإذن اللّه ورضاه.

ولعل التأكيد على الملائكة دون بقية الشفعاء جاء هنا لأنّ فِئة من العرب كانت تعبد، الأوثان أو أنّ المقصود: فإن كانت شفاعة الملائكة لا تتحقق ولا تنفع إلّابإذن اللّه، فماذا يُتوقع من الأصنام الجامدة؟

والفارق بين «الإذن» و «الرضا» هو أنّ الإذن يُطلق حين يُعلن المرء عن رضاه، لكن الرضا منوط بالباطن، وانطلاقاً من أنّ الرضا قد يكون مفروضاً أحياناً وعارٍ عن الرضا الباطنى، فقد ورد الاثنان معاً فى هذا الموضع ليتم تأكيد الغرض رغم أنّ الفرض على اللّه لا يمكن تصوره (جل وعلا) وأنّ رضاه مستوسق مع إذنه، (فتأمل).

هل أنّ هذا الاذن مرتبط بالشفعاء أم بالمشفع لهم؟ فالآية التى نحن بصددها تحتمل المعنيين، رغم أنّ معناها العام يبدو أكثر اختصاصاً بالشفعاء أى إنّ اللّه يأذن ويرضى لهم بالشفاعة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۰

القسم الرابع: الآيات التى حددت بعض الشروط للشفيع والمشفوع له

من جملة ذلك الآية التاسعة التى تنفى بقولها: «وَلَا يَملِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ» ثم إنّها استثنت منهم فريقاً فقالت: «إِلَّا مَن شَهِدَ بِالحَقِّ وَهُم يَعلَمُونَ».

يبدو أنّ الصفة الاولى للشفعاء هى الشهادة بالحق؛ فلابدّ أن يكون الشفيع موحّداً، أى لا تتحقق الشفاعة إلّافى ظل التوحيد ونبذ الأصنام والاستعانة بلطف اللّه.

قال بعض المفسّرين: إنّ هذا الوصف للمشفوع لهم. أى إنّ الشفاعة لا تشمل إلّامن يقر بحقّانية اللّه ووحدانيّته، فهى لا تشمل المشركين مطلقاً.

لكن ظاهر الآية، دالّ على التفسير الأول، لأنّ التفسير الثانى يحتاج إلى التقدير «۱»، والتقدير خلاف للظاهر.

أمّا الوصف الثانى: «وهم يعلمون» فقد ورد كلا التفسيرين بشأنه أيضاً، فإن كان الوصف للشفعاء فسيكون معنى الجملة: اؤلئك الذين يشهدون بالحق عن علم ووعى، أو إن كان المقصود هم المشفوع لهم فيكون المعنى حينئذٍ أنّهم يعرفونهم ويعلمون لمن ينبغى أن تكون الشفاعة.

فإن كان الوصف للمشفوع لهم؛ يجب أن يكون مفهومها هو أنّ الشفاعة تشمل من ينطقون بحق كلمة التوحيد ويقولونها عن علم

ووعى انطلاقاً من الدليل والبرهان وهى غير مقصورة على اللسان.

وجاء نفس هذا المعنى بصورة اخرى فى نفس هذه الآية التى نحن بصددها، فبعد استنكار الآية ورفضها لقول عبدة الأوثان الذين يظنون أنّ الملائكة أبناء اللّه تقول لهم بأنّهم عباد اللّه وأنّهم: «وَلَايَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتَضَى وفى الحقيقة: «وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشفِقُونَ».

وعلى هذا فعبادة الملائكة لأجل نيل شفاعتهم (وهى عقيدة المشركين) لا طائل من

---

(۱). ينبغى أن يكون تقدير الآية على هذه الشاكلة: «إلّا لمن شهد بالحق».

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۱

ورائه، فهم يأتمرون بأمره تعالى ولا يشفعون إلّالمن يرتضى، أى للموحّد فقط.

وعلى هذا تكون جملة «لمن ارتضى إمّا إشارة إلى رضاه عن دينهم وتوحيدهم وإيمانهم، وإمّا كونه راضياً عن الشفاعة لهم، وكلاهما يرجعان إلى معنىً واحد.

وانطلاقاً ممّا ذكر فإنّ شفاعة غير اللّه لا تكون إلّابإذنه، واذنه يختص بالمؤمن والموحّد.

ويطالعنا فى الآية التاسعة تعبير جديد يجرى فى نفس هذا المجرى فالآية تتحدث عن سوق المجرمين نحو جهنّم ثم تقول: «لَّايَملِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهداً».

وهذا الوصف لمن يُشفع لهم (بقرينة الآية السابقة لها والتى تتحدث عن المجرمين).

ومن المؤكّد أنّ المقصود بالعهد هنا هو الإيمان باللّه والإقرار بوحدانيّته وتصديق الأنبياء وقبول ولاية الأوصياء، وقد أضاف البعض إلى كل ذلك العمل الصالح.

ورغم كثرة الاحتمالات التى طرحها المفسّرون فى تفسيرهم لكلمة «العهد»، إلّاأنّه يتضح خلال التمعن فيها أنّها تعود إلى المعنى الذى أشرنا إليه آنفاً.

واحتمل بعض المفسرين الكبار أن يكون هذا الوصف للشفعاء وأنّ المقصود ب «العهد» هنا هو نفس ما ورد فى الآية ۸۶ من سورة الزخرف؛ أى «الشهادة بالحق» «۱».

ولكن بما أنّ الضمير فى «لا يملكون» ينبغى أن يعود على صريح مذكور فى الآية السابقة وأنّ كلمة «المجرمين» هى المذكورة فى الآية، يبدو هذا الاحتمال مستبعداً، والظاهر أنّ الوصف يخص المشفوع لهم.

وعلى هذا الأساس يجب أن تكون هناك علاقة بين الشفيع والمشفوع له قائمة على الإيمان والعمل الصالح، لأنّ الشفاعة هناك محسوبة ولا تعنى مطلقاً التوسط لمن لا يستحق.

جاء فى حديث عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «من أدخل على مؤمن سروراً فقد سرّنى ومن سَرّنى فقد اتّخذ عند اللّه عهداً» «۲».

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱۴، ذيل الآية ۸۶ من سورة مريم.

(۲). تفسير در المنثور، (وفقا لنقل تفسير الميزان فى الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۲

من المؤكّد أنّ عبداً لو أدخل السرور على المؤمن لأجل إيمانه، فهو من ذوى الإيمان والعمل الصالح وذلك ممّا يوثّق علاقته باللّه من أجل قبول شفاعته.

القسم الخامس: الآيات التى تشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة

(وهو القسم الأخير من الآيات التى ندرسها) وتشير إلى الأشخاص الذين لا تنالهم الشفاعة بسبب ما ارتكبوه من أعمال، ومفهومها أنّ الشفاعة تشمل فئات اخرى تقول إحداهما: «مَّا لِلظَّالِمِينَ مِن حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ».

إذن فغير الظالمين بشكل عام يستحقّون الشفاعة.

ولكن ما المقصود بالظالمين؟ قال البعض من أمثال المحقق الطبرسى فى مجمع البيان أنّهم المشركون والمنافقون، لأنّ أسوأ الظلم هو الشرك والنفاق «۱».

وصرح الفخر الرازى بأنّ المقصود ب «الظالمين» هنا الكُفّار «۲».

والآيات السابقة لهذه الآية، ومطلع نفس هذه الآية الذى يحذّرهم من عذاب يوم القيامة وكذلك الآيات الواردة بعدها والتى تذكُر مصير الكفّار السالفين الذين أصبحوا عبرة من خلال تعرضهم للعذاب الإلهى، هى أيضاً شاهد ودليل على هذا المعنى

وقال بهذا الرأى كل من صاحب تفسير روح البيان، وصاحب روح المعانى والمراغى.

وعلى كل حال فإنّ نفى الشفاعة عن الظالمين بالخصوص (وبغض النظر عن المعنى الذى تُفسر فيه كلمة الظالمين) دليل على إثباتها لأقوام آخرين، وهذا ما أكدناه مَرّات عديدة فالشفاعة لا تحصل اعتباطاً بل تحتاج إلى نوع من الاستحقاق والتأهيل، أى إنّ المذنبين على صنفين: صنف يستحق الشفاعة وصنف لا يستحقّها.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ۸، ص ۵۱۹.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۳

النتيجة:

نظراً لكثرة وتنوّع الآيات الآنفة الذكر، وأقسامها الخمسة المخصص كل واحد منها لجانب من جوانب الشفاعة، وبالالتفات إلى الوجهة العامة لها وتفسيرها بالاستعانة ببعضها وهو ما أشرنا إليه سابقاً، يتّضح لدينا حقيقة ومفهوم الشفاعة وكذلك شروطها وفلسفتها وأهمّيتها ودورها البنّاء، ويمثل أيضاً إجابات عن الاعتراضات المختلفة التى يطرحها عديمو الاطلاع بسبب عدم احاطتهم بمجموعة الآيات المتعلّقة بموضوع الشفاعة.

لكن أهميّة المسألة تقضى بفصل كل واحد من هذه المواضيع عن بعضها وتفسيره على حِدة من أجل أن تتمّ الاستعانة بالآيات القرآنية والتحليل المنطقى لازالة الصدأ عن هذه المرآة، وإليكم فيما يلى الايضاحات المهمّة فى موضوع الشفاعة.

توضيحات

۱- مفهوم الشفاعة

لو تأملنا فى المفهوم اللغوى الصحيح لكلمة الشفاعة لاستطعنا الحصول على مدلولها الإسلامى لأنّ كلمة الشفاعة مأخوذة من المصدر «شَفْع» على ورن (نَفْع) ويعنى «ضم الشىء إلى مثله» ومن هنا تتضح ضرورة وجود نوع من التشابه بين الاثنين رغم الفروقات الموجودة بينهما.

ولهذا السبب فالشفاعة بمفهومها القرآنى تعنى أنّ الشخص المذنب الذى يتصف ببعض الجوانب الإيجابية (كالإيمان أو العمل الصالح) يشبه أولياء اللَّه، وهم بدورهم يبذلون له العون ويسوقونه نحو جادّة الكمال ويطلبون له المغفرة من اللَّه تعالى

ويمكن وصف حقيقة الشفاعة بصيغة اخرى فهى عبارة عن وقوف كائن أقوى وأفضل إلى جانب آخر أضعف ليعينه على طى مراتب الكمال.

إنّ الشفاعة للأشخاص المخطئين موجودة فىالمجتمعات البشرية على مر العصور وقد

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۴

كان الأشخاص المتنفّذون يشفعون للمخطئين عند أصحاب السلطة قبل نزول القرآن بآلاف السنين، إلّاأنّ الشفاعة السائدة بين أوساط الناس تختلف عن الشفاعة فى منطق القرآن والأديان السماوية بفارق واحد مهم وواضح وهو: أنّ الشفاعة فى المجتمعات الإنسانية غالباً ما يُقصد بها قبول شخص متنفّذ للحاجة إليه فى وجه من الوجوه، ولذلك تقبل شفاعته فى حق المخطىء، لكى يستفيد من الشافع فى الظرف المناسب لبلوغ بعض الغايات!

فالملوك مثلًا كانوا يقبلون شفاعة حواشيهم ورجال دولتهم فى بعض المجالات لكى يعظموهم ويمّجدوهم وليستفيدوا منهم فى انجاز أعمالهم فى الوقت المناسب.

وكذلك كان الشفعاء يأخذون بنظر الاعتبار علاقتهم الشخصية بالمشفوع له، وليس أهليته ومدى استحقاقه لها.

ولكن لما كان اللَّه غنيّاً بالذات وغير محتاج على الاطلاق، فالشفاعة لديه تأخذ طابعاً آخر وهو أنّ الشفعاء لديه ينظرون إلى المخطئين ليروا مَن مِنهم ينال رضا اللَّه بسبب بعض النقاط الإيجابية لديه كالإيمان والعمل الصالح، فيشفعون له عند اللَّه لأجل هذه الجوانب الإيجابية، وهذا هو الفارق الشاسع بين الشفاعة المتداولة بين الناس وشفاعة أولياء اللَّه لديه، إذ أنّ الاولى قائمة على العلاقات فى حين أنّ الثانية قائمة على الضوابط والاستحقاقات:

ومن هذا المنطلق يمكن الردّ على بعض المنتقدين الجهلة الذين يرون الشفاعة نوعاً من الوساطة أو أنّها بمثابة الضوء الأخضر للمذنبين، وقارنوها بشفاعة حواشى الملوك المتجبّرين، فالأسس التى تقوم عليها الشفاعة فى مفهومها الشرعى تعتبر بنّاءة ومبنية على عوامل اللياقة والاستحقاق، فى حين تنبع الشفاعة المتعارفة بين الناس فى أغلب أشكالها من الحاجة المتبادلة بين الطرفين وترتكز على العلاقات الخاصة والشخصية غير المنطقية.

فالشفاعة الإلهيّة تربوية، والشفاعة المتعارفة تكون سبباً للاجتراء على ارتكاب الذنب أحياناً.

وتمثّل الآيات التى ذُكرت سابقاً شاهداً حيّاً على هذا المعنى لأنّها تحدد خصائص لمن

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۵

تنالهم الشفاعة تقوم على الجوانب الإيجابية والتأهيل والاستحقاق، وكثيراً ما تكون الأسس المقبولة للاستحقاق هى العمل الصالح.

۲- أنواع الشفاعة (الشفاعة التكوينية والشفاعة التشريعية)

لو ألقينا نظرة امعان على مفهوم الشفاعة لوجدناها من زاوية المصداق الخارجى واسعة إلى حد أنّها تشمل كل عالم الوجود، لأنّ مساعدة الكائنات الأقوى للكائنات الأضعف على العيش والنجاة والحياة مشهودة فى جميع مجالات الحياة.

فحين تنفلق البذرة وتخرج منها نبتة ضعيفة تهيّء لها الأرض المواد الغذائية اللازمة، وترسل عليها الشمس أشعتها وحرارتها وطاقتها الخفية، وتُسقط عليها الغيوم قطرات متواصلة من المطر، لكى يشتد هذا الكائن الضعيف ويجتاز العقبات ليغدو فى نهاية المطاف شجرة ضخمة محمّلة أغصانها بالثمار، هذا مشهد واضح للشفاعة التكوينية.

وهنالك مشاهد اخرى للشفاعة التكوينية تتمثل فى وقوف الوالدين إلى جانب المولود الضعيف، والمزارع إلى جانب غرسه، والمعلم

إلى جانب الطفل الذى يتعلم حروف الهجاء، وعلى هذا يمكن اعتبار كل عالم الأسباب والعلة والمعلول مشاهد متنوعة لهذه الشفاعة.

إنّ الشمس والريح والمطر والأرض لا تهرع بالتأكيد لإعانة خشبة يابسة، فهى حطب ولا مصير لها سوى الاحتراق، بل تهب لمساعدة النبتة المتفتحة توّاً والبراعم الضعيفة، وباختصار فإنّ كل كائن يمتلك مقوّمات الكمال والنمو.

ولو نقلنا هذا المثال الواضح من عالم التكوين إلى عالم التشريع أىإلى شفاعة الأنبياء والأولياء للمذنبين، سيتضح لنا المفهوم الحقيقى للشفاعة القرآنية، ويكون ذلك ردّاً على انتقادات الجهلة، وهنا تبرز لنا الشفاعة بمفهومها التربوى على أكمل وجه.

وردت فى نهج البلاغة للإمام أميرالمؤمنين على عليه السلام ضمن كلماته القصار، جملة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۶

تعكس هذا المعنى بأسلوب جذّاب جدّاً يقول فيها: «الشفيع جناح الطالب» «۱».

فكما أنّ الطيور صغيرة السن لا يمكنها الطيران إلّابمساعدة الأب والأم وكأنّهما يمثلان اجنحتها التى بها تطير إلى أن تكبر، فكذلك الشفعاء يساعدون المشفوع لهم ليحلّقوا فى سماء السعادة والكمال، (فتأمل).

۳- فلسفة الشفاعة

اشارة

لقد اتّضحت لدينا فلسفة الشفاعة من خلال ما قيل فى تفسيرها وكذلك من خلال الإشارات العديدة التى أوردناها فى تفسير الآيات.

فالشفاعة لا تشجيع على الذنب، ولا تمثل الضوء الأخضر لارتكاب المعاصى، ولا هى من أسباب التخلف ولا هى شىء يشبه الواسطة فى مجتمعات عالم اليوم، بل هى مسألة تربوية تحضى بأهميّة بالغة، ولها آثار إيجابية فى الجوانب المختلفة، ومن جملة ذلك:

أ) بعث الأمل ومواجهة روح اليأس

كثيراً مايتغلب هوى النفس على الإنسان ويدفعه لارتكاب الذنوب الكبيرة، فتتغلب من بعد ذلك روح اليأس عليه، ممّا يدفعه لارتكاب المزيد منها حتّى يغدو غارقاً فى الذنوب لأنّه يتصور أنّه قد تجاوز الحد وغرق فى بحر آثامه فما هو الفرق إن انغمس فى الماء لقامة واحدة أو لمائة قامة!

لكن الاعتقاد بشفاعة أولياء اللّه يزرع فى نفسه الأمل، فلو وقف عند هذا الحد وأصلح نفسه، فقد يُعفى عمّا سلف منه وذلك عن طريق شفاعة الأبرار والصالحين، وعلى هذا فإنّ

---

(۱). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۶۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۷

الأمل بالشفاعة يساعد على الكفّ عن ارتكاب المزيد من الذنوب والعودة إلى الصلاح والتقوى

ب) إيجاد العلاقة المعنوية مع أولياء اللّه

لو أمعنا النظر فی ما قیل سابقاً فی تفسیر مفهوم الشفاعة لتوصّلنا وبکل سهولة إلی نتیجة مفادها أنّ الشفاعة مرهونة بوجود نوع من العلاقة بین الشفیع والمشفوع له، وهی رابطة معنویة منبثقة من الإیمان وبعض الخصال الفاضلة وفعل الحسنات.

ومن المؤکد أنّ الذی یرجو الشفاعة یسعی دوماً لإقامة نوع من العلاقة مع الشفعاء وفعل ما یرضیهم ولا ینسف جسور العودة من خلفه، ولا ـ یفسخ عری الصداقة والمحّبة عن آخرها، وسیکون مجموع هذه الإـجراءات عوامل مؤثرة فی تربیته، وسبباً لابتعاده عن صف المجرمین بالتدریج، أو أن یقوم علی أقل تقدیر ببعض الأعمال الصالحة إلی جانب المعاصی والذنوب، لانقاذ نفسه بالتدریج من الوقوع فی حبائل الشیطان.

ج) نیل شروط الشفاعة

وردت فی الآیات التی قمنا بتفسیرها سابقاً شروط مختلفة للشفاعة وأهمها استحصال الإذن من اللَّه بذلک، ومن البدیهی أنّ من یرجو الشفاعة لابدّ وأن یحاول التمهید للحصول علی الإذن، أی یفعل ما یُرضی اللَّه.

فقد ورد فی بعض الآیات السابقة أنّ الشفاعة یوم القیامة لا تنفع إلّامن رضی الرحمن قوله وأذِن له بالشفاعة (طه/ ۱۰۹).

وجاء فی فی قوله تعالی أنّهم: «لَا یَشفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتَضَی . (الأنبیاء/ ۲۸)

وقوله تعالی إنّ الشفاعة لا تکون إلّالمن: «اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهداً». (مریم/ ۸۷)

وکما قلنا سابقاً فإنّ هذه المقوّمات لا تتحقق إلّافی ظل الإیمان باللَّه وبمحکمته العادلة والاعتراف بحُسن العمل الصالح وقبح السّیئات والإقرار بصحة جمیع القوانین والتعلیمات الإلهیّة.

بالإضافة إلی ذلک فقد ورد فی بعض الآیات السابقة أنّ الشفاعة لاتشمل الظالمین، وبناءً علی هذا یتوجّب علی من یأمل فی نیل الشفاعة الخروج من صف الظالمین (بغض النظر عن المعنی الذی تفسر به کلمة الظلم).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۸

ومن مجموع هذه العوامل یتعیّن علی کل من یأمل الفوز بالشفاعة إعادة النظر فی أعماله السابقة واتخاذ القرارات الافضل بشأن سیرته المستقبلیة، وهذه أیضاً تعتبر بذاتها نقطة إیجابیة ومن العوامل التربویة الفاعلة.

د) الاهتمام بسلسلة الشفعاء

تُعتَبر الإشارات الواردة بخصوص الشفعاء فی الآیات الشریفة، وکذلک التصریحات التی نقلتها لنا الروایات، دلیلًا آخر علی الأبعاد التربویة للشفاعة.

جاء فی حدیث عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الشفعاء خمسة: القرآن، والرَّحِم، والأمانة، ونبیّکم، وأهل بیت نبیّکم» «۱».

وجاء فی مسند أحمد حدیث آخر عن النبی الکریم صلی الله علیه و آله قال فیه: «تعلّموا القرآن فانّه شافع یوم القیامة» «۲».

و ورد نفس هذا المعنی فی نهج البلاغة فی کلام مولی المتّقین أمیر المؤمنین علیه السلام قال فیه: «فانّه شافع مشّفع» «۳».

ویُستفاد من روایات أُخری أنّ أفضل الشفاعة التوبة، فعن علی علیه السلام قال: «لا شفیع أنجح من التوبة» «۴».

وصرّحت بعض الأحادیث أیضاً بشفاعة الأنبیاء والأوصیاء والمؤمنین والملائکة، کالحدیث المنقول عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «الشفاعة للأنبیاء والأوصیاء والمؤمنین والملائکة، وفی المؤمنین من یشفع مثل ربیعة ومضر، وأقل المؤمنین شفاعة من یشفع لثلاثین إنساناً» «۵».

(۱). ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۱۲۲.

(۲). مسند أحمد، ج ۵، ص ۲۵۱.

(۳). نهج البلاغة، الخطبة، ۱۷۶.

(۴). نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۳۷۱.

(۵). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۵۸، ح ۷۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۸۹

وجاء فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إذا كان يوم القيامة بعث اللَّه العالم والعابد، فاذا وقفا بين يدى اللَّه عزّ وجلّ قيل للعابد: انطلق إلى الجنّة، وقيل للعالم: قِف تشفّع للناس بحسن تأديبك لهم» «۱».

يظهر من هذه التعابير وخاصة الأخير منها أنّ الشفاعة نتاج العلاقة المعنوية القائمة مع الصلحاء والأبرار والمؤمنين والعلماء.

أمّا عن الشهداء فقد روى عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ويشفع الرجل منهم فى سبعين ألفاً من أهل بيته وجيرانه» «۲».

وحتى أنّ بعض الروايات أشارت إلى أنَّ: «شافع الخلق: العمل بالحق ولزوم الصدق» «۳».

و خلاصة القول التى يمكن استنتاجها من مجموع هذه الروايات وغيرها الواردة فى المصادر الإسلامية أنّ الشفاعة من المسائل التربوية المهّمة فى الإسلام والتى تعكس القيم الإسلامية السامية من خلال الاهتمام بنوع الشفعاء، وتحث جميع المسلمين للالتزام بهذه القيم والصفات التى يتمتع بها الشفعاء، وتشجّع على تقوية وتوثيق العلاقات معهم، وتجلو عنها كل تفسير خاطىء وكل تحريف باطل «۴».

۴- متى تكون الشفاعة؟

لا شك أنّ أحد الأوقات التى تتحقق فيه الشفاعة هو يوم القيامة، وذلك لأنّ الكثير من

(۱). بحار الأنوار، ج ۸، ص ۵۶، ح ۶۶.

(۲). تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۵۳۸، ذيل الآية ۱۷۱ من سورة آل عمران.

(۳). غرر الحكم.

(۴). ذكر فى تفسير الميزان: وبعد أن وضّح الشفاعة أنّها تأثير الأسباب فى المسببات- أنَّ الشفعاء يقسمون إلى فريقين فى عالم التشريع وعالم التكوين، فمن جملة الشفعاء التشريعيين: التوبة والعمل الصالح والإيمان والقرآن والأنبياء والملائكة والمؤمنون ويستدل فى هذا الصدد بالآيات الدالة على تأثير هذه الامور فى هؤلاء الأشخاص فى غفران الذنوب (رغم أنّ عنوان الشفاعة غير موجود فيها) كالآية ۵۴ من سورة الزمر؛ والآية ۲۸ من سورة الحديد؛ والآية ۹ ومن سورة المائدة؛ والآية ۱۶ من سورة المائدة؛ والآية ۶۴ من سورة النساء؛ والآية ۷ من سورة المؤمن؛ والآية ۲۸۶ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۰

آيات الشفاعة تختص بذلك اليوم، ولكن هل تحصل الشفاعة أيضاً فى عالم البرزخ أو فى عالم الدنيا؟ وهل هناك شفاعة فى الآخرة وقبل انتهاء الحساب، أم لا؟ هناك آراء فى ذلك، منها:

للعلّامة الطباطبائى رحمه الله بحث مفصل فى هذا الصدد، وفى ختامه يستنتج ما يأتى:

«إنّ الشفاعة تكون فى آخر موقف من مواقف يوم القيامة حيث يطلب فيها الشفيع المغفرة- فيحول دون دخول المشفوع له النّار، أو اخراج بعض من كان داخلًا فيها، باتساع الرحمة أو ظهور الكرامة.

ويشير فى بعض كلماته إلى عالم البرزخ وما يدل على حضور النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام عند الموت وعند مسائلة القبر واعانتهم إيّاه على الشدائد.

ويضيف: فليس من الشفاعة عند اللَّه فى شىء وإنّما هو من سبيل التصرفات والحكومة الموهوبة لهم بأذن اللَّه سبحانه» «۱».

والغريب فى الأمر أنّه عندما يتحدّث عن حقيقة الشفاعة يعطيها من الشمولية بحيث يعتبر أى نوع من تأثير الأسباب فى عالم التكوين والتشريع مشمولًا بالشفاعة، ولكنه لايعتبر هنا مساعدة أولياء اللَّه لجماعة من المؤمنين لإنقاذهم من مشكلات القبر والبرزخ، مصداقاً للشفاعة.

وعلى أيّة حال يستشف من مجموع الآيات والروايات أنّ الشفاعة- بالمعنى الواسع للكلمة- تتحقق فى العوالم الثلاثة (الدنيا والبرزخ والآخرة) رغم أنّ المكان الرئيسى لها والأثر المهم هو فى يوم القيامة لغرض النجاة من عذاب النّار.

جاء فى قوله تعالى «وَلَو انَّهُم اذ ظَّلَمُوا انفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاستَغفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَّحِيماً». (النساء/ ۶۴)

وهل أنّ استغفار الرسول صلى الله عليه و آله للمؤمنين المذنبين يعنى شيئاً سوى الشفاعة؟!

وجاء نفس هذا المعنى فى موضع آخر من القرآن الكريم فى قصة يعقوب وابنائه إذ

---

(۱). تفسير الميزان، ج ۱، ص ۷۴، ذيل الآية ۴۸ من سورة البقرة.

طلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم ربّهم (يوسف/ ۹۷).

وحصل فى هذه الدنيا الكثير من ذلك حيث نجا أشخاص أو أقوام من عذاب الدنيا بسبب شفاعة الأنبياء وأولياء اللَّه.

ولدينا روايات كثيرة أيضاً تفيد أنّ أعمال الإنسان الصالحة كالصلاة والصوم والولاية وأمثالها أو حضور أولياء اللَّه تكون سبباً فى تخفيف عقوبات وآلام الشخص فى عالم البرزخ كما يؤدّى دفن إنسان صالح لديه حسنات كثيرة فى مقبرة ما إلى تخفيف ذنوب من دفن فى تلك المقبرة.

وهذه كلها إشارات إلى وجود الشفاعة فى عالم البرزخ.

وحتّى أنّ صلاة الميّت وما تتضمنه من الاستغفار له لا تخلو من التأثير، وهى نوعٌ من الشفاعة أيضاً.

وعلى هذا فليست الشفاعة محدودة فى عالم خاص، بل تضم العوالم الثلاثة إلّاأنّ المكان المهم والأساسى لها هو القيامة لأنّها تمثل لحظات الوقوف على مشارف العذاب الإلهى.

سؤال:

قد يُقال: هناك روايات عديدة وردت عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام تؤكد خوفهم على شيعتهم من عذاب البرزخ كما نقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «واللَّه ما أخاف عليكم إلّا البرزخ، فإذا صار الأمر إلينا فنحن أولى بكم» «۱».

ونقرأ عنه عليه السلام حديثاً آخر يتضمن وعداً منه بالشفاعة للمؤمنين المخطئين يقول فيه:

«ولكنّى واللَّه أتخوّف عليكم من البرزخ. يقول الراوى: فقلت له: ما البرزخ؟ قال: القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة» «۲».

---

(۱). بحار الأنوار، ج ۶، ص ۲۱۴، ح ۲.

(۲). المصدر السابق، ص ۲۶۷، ح ۱۱۶.

ولكن يحتمل أن تخص هذه الروايات مرحلة معينة من البرزخ، أو أنّ لها بُعداً استثنائياً ومحدوداً قد يتحقق فى ظل مجاورة أحد أولياء

اللّه وهى غير شاملة لجميع من يستحقون الشفاعة.

۵- الإشكالات الأساسية المطروحة بشأن الشفاعة

اشارة

كما أسلفنا فى تفسيرنا لمعنى الشفاعة فى القرآن الكريم والإسلام بأنّ لها مفهوماً يختلف كُلياً عمّا هو متعارف بين أوساط الناس، وأن تشابهها هو السبب فى بروز الكثير من الإشكالات والأخطاء فى هذا المجال، والحقيقة أنّ الإجابة عن أغلب تلك الإشكالات يمكن فى التفسير الصحيح لمفهوم الشفاعة فى الإسلام.

نكتفى بهذا التمهيد الموجز ونعود لطرح تلك الاعتراضات ونجيب عنها:

أ) هل تُعتبر الشفاعة تشجيعاً على ارتكاب الذنوب؟

إلّا يكون الأمل بالشفاعة والاعتماد عليها سبباً لكى يعتبره البعض بمثابة الضوء الأخضر لارتكاب المعاصى، فيوغلون فى ممارسة أنواع الذنوب والجرائم متأملين انقاذ الشفعاء لهم من العذاب الإلهى فى يوم الجزاء وبهذا تكون نفوسهم فى راحة تامة وقد أمنت من التهديد الربانى بالعذاب؟ أو بتعبير آخر: ربّما تكون عقوبات القيامة ضماناً إجرائياً لتنفيذ القوانين الإلهيّة واجتناب معصيتها؛ أقلا تُعتبر الشفاعة خرقاً لهذه الضمانات؟

الجواب:

كما قيل سابقاً فإنّ الشفاعة بمفهومها القرآنى لا تحث ولا تشجع على ارتكاب الذنب، وليس هذا فقط بل إنّها عامل ردع قوى أيضاً يحول دون ذلك، لأنّها تجعل الأشخاص يتوقفون فى أىمرحلة كانوا ولا يوغلون فى طريق المعصية أكثر من ذلك، بل تكون بمثابة خط للرجعة تدريجياً.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۳

وبتعبير آخر، يمكن القول: إنّ الشفاعة بمفهومها الإسلامى تعتبر نتاجاً لنوع من العلاقة بين الشفيع (أولياء اللّه والقرآن و ...) والمشفوع له، وهى رهينة بإذن اللّه وتستلزم أرضية إلهيّة، وبناءً على هذا فإنّ أمل الشفاعة يقول للإنسان: يجب عليك إقامة علاقة إيمان وعمل مع أولياء اللّه، وأن تعمل ما من شأنه جلب رضا اللّه، ليكون لك رصيداً فى ذلك اليوم العصيب وسبباً للشفاعة عندهم.

ولهذا السبب يكون أصل الشفاعة رادعاً عن ارتكاب الذنب من جهة، وعاملًا لإعادة النظر فى ما ارتكب من سيّئات فى الماضى.

ولا يخفى أيضاً أنّ أحداً لم يتسلّم ضماناً بالشفاعة من أى ولى من أولياء اللّه، ولا يمكن لأى مذنب أن يطمئن إلى قول الشفاعة فيه، بل إنّها مطروحة كإحتمال وأمل، وهذا أيضاً مشروط بالشروط المذكورة آنفاً، وعلى هذا فهى لا تدفع مطلقاً على التجرؤ على ارتكاب الذنب.

ب) لمن الشفاعة؟

هل هى للشخص النادم على الذنب؟ فهذا فى غنىً عن الشفاعة لأنّ التوبة تعنى الندم وهى سبب الخلاص، وإذا وجدت التوبة فما

الحاجة للشفاعة؟ وإن كانت للعاصى غير النادم على الذنب، الذى يقف أمامه بكل صلافة وجسارة، فمثل هذا الشخص لا يستحق الشفاعة وهو ليس مصداقا لقوله «لِمَنْ ارْتَضَى فى الآية ۲۸ من سورة الأنبياء!؟

الجواب:

أوّلًا: إنّ للتوبة شروطها، وكثيراً ما يخفق الإنسان فى انجاز كل تلك الشروط، لأنّ عدداً من الآيات القرآنية نصّت على أنّ التوبة اصلاح الماضى، أى لو أنّ أحداً كان يرتكب الذنوب لسنوات متمادياً ويدخل باب التوبة نادماً، يجب عليه إصلاح ما مضى سواءً كان حق اللّه بعمل الخير، أو كان حق الناس فيجب عليه أداؤه عن آخره، وعلى هذا فالتوبة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۴

وخلافاً للتصور السائد لا تقتصر على الندم لوحده.

وما أكثر الناس الذين يفشلون فى تحقيق هذا الإصلاح، بينما هو غارق فى الندم فينقطع أمله فى الشفاعة ويسقط فى اليأس من الغفران، وإن هو يَئِسَ توغل أكثر فى ارتكاب الذنب.

ثانياً: قد يكون الشخص قد ارتكب الكثير من الذنوب إلّاأنّ الحظ لم يحالفه فى التوبة والندم، فإن شعر بإمكان الأخذ بيده يوم القيامة على يد الشُفعاء شريطة هجر بقية الذنوب أو القيام بأعمال الخير، فهذا سيشجعه على أقل تقدير على ترك الذنوب الاخرى وفعل عمل الخير.

ج) هل تنسجم الشفاعة مع العدل الإلهى؟

كيف يمكن لعدد من المذنبين المتشابهين مع بعضهم فى الذنوب، أن تنجو طائفة من العذاب الإلهى بالشفاعة، وتقع الاخرى فى مخالب ذلك العذاب؟ ألا يُعتبر هذا التمييز منافياً لعدل اللّه؟

السؤال: وقد يطرح هذا التساؤل أحياناً بضيغة اخرى فيقال: إن كان العقاب الرّبانى للمذنبين عدلًا: إذن فطلب أولياء اللّه الشفاعة هو خلاف للعدل، وإن لم يكن متسقاً مع مبدأ العدل، فينبغى أن لا تجرى تلك العقوبة من الأساس.

والجواب: عن هذا الاستفهام يمكن استخلاصه من بين طيات البحوث السابقة، وكما يلى.

أولًا: إنّ الشفاعة لا تتحقق بدون الأرضية المناسبة. فكل من يستحقها ينالها وكل من لا يستحقها فهو مُستبعد عنها، وعلى هذا لا يوجد فيها أى تمييز.

ثانياً: إنّ مجازاة المذنب هى عين العدل، أمّا قبول الشفاعة فهو نوع من التفضل لأجل ما يمتاز به المشفوع له من أرضية صالحة من جهة، وتكريماً واحتراماً للشفيع وما قام به من عمل صالح من جهة اخرى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۵

د) ألا تتعارض الشفاعة مع إرادة اللّه؟

قد يُتصور أحياناً أنّ الشفيع يحول دون تحقق إرادة الحاكم العادل، ويُنقذ من العقوبة الشخص الذى ينوى ذلك الحاكم معاقبته، إلّاأنّ هذا الكلام لا يصدق بحق اللّه جلّت عظمته.

فهذا التصّور الخاطىء ناتج من اعتبار الشفاعة التى يصورها القرآن مماثلة للشفاعة المتعارفة بين يدى الجبّارين والحكام الظالمين، فالأشخاص المتنفّذين عند هؤلاء الحكام يحاولون استنقاذ المذنبين الذين يرتبطون معهم بصلةٍ ما، خلافاً للاصول المرعّية، فيضطر

الحاكم أو السلطان إلى النزول عند رغبة هؤلاء المتنفذين- لحاجته إليهم- وقبول شفاعتهم والتغاضى عن معاقبة المذنب وقد تكون خلافاً لرغبته أحياناً.

إلّا أنّ هذه المسائل وكما قلنا سابقاً لا تصدق على اللّه تعالى ولاتنطبق على الشفاعة بين يديه، فالشفاعة هناك لها طابع آخر، فأولياء اللّه يطلبون الشفاعة بإذن اللّه لمن لديهم ذنوب لكنها ليست كبيرة، ولديهم فى مقابل تلك الذنوب أعمال صالحة أيضاً، وطرح هذا الموضوع يُعتبر فى الحقيقة تربية للنفوس وتطهيراً لها.

ه) عقوبات القيامة هى الأثر التكوينى للاعمال، فكيف يمكن ازالتها بالشفاعة؟

وهذا أيضاً واحد من الإشكالات التى طرحت على الشفاعة، فالذى يتبادر إلى الأذهان أنَّ الشفاعة يمكن تطبيقها على العقوبات التشريعية والوضعية فقط، فيكون الشفيع سبباً لايقاف تنفيذ الحكم على المشفوع له، ولكن عندما نعتقد بأنّ عقوبات القيامة هى فى الغالب من الآثار الوضعية والطبيعية للأعمال وهى بذلك تشبه فعل السم فى قتل الإنسان، فهذا الأثر ليس بالشىء الذى يمكن تغييره بالشفاعة.

الجواب: لو أننا لاحظنا ماذكرناه سابقاً فى كون الشفاعة على نوعين تكوينية وتشريعية، لاتّضح لنا جواب هذا السؤال جلياً، لأنّ العقوبات إن كان لها بُعد تكوينى، فإنّ وقوف أولياء اللّه باعتبارهم كيانات أقوى وأفضل إلى جانب المشفوع له وكمال استعداده

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۶

الناقص بواسطة إمدادهم المعنوى، فيتغلبون بالنتيجة على الآثار التكوينيّة للذنب، مثلما تُنمّى الشمس النباتات ذات الاستعداد للنمو وتنقذها من الآفات. أمّا إذا كانت تلك العقوبات وضعية، فَتُطلَبُ الشفاعة من اللّه تعالى ليغفر لمن يستحق غفران الذنب وفى جميع الأحوال فإنّ المقام المعنوى للشفيع يكون سبباً فى تأثير تلك الشفاعة بإذن اللّه.

ويمكن تكرار نفس هذا الكلام بخصوص تجسّد الأعمال لأنّه شبيه أيضاً بالآثار الوضعية والتكوينيّة للعمل (فتأمل).

و) أليس الاعتقاد بالشفاعة من عوامل التخلف؟

ويبدو هذا الوهم لبعض الناس أيضاً وهو: ألا يكون الاعتقاد بالشفاعة سبباً يحدو ببعض الناس إلى عدم الإتكال على عملهم، فلا يظهرون مالديهم من قابليات وكفاءات كامنة؟

الجواب؟

يبدو من هذا التعبير أنّ ذهنية أصحاب الإشكالات لا تختلف عن ذهنية الناس العاديين وتصورهم عن الشفاعة ومفهومها الدنيوى، فى حين طرح هذا الموضوع بالأدلة فى بداية هذا البحث، مِن أنَّ الشفاعة فى مفهومها القرآنى الإسلامى لا تُعتبر عامل تخلف، بل وحتّى أنّها تعتبر دعوة فاعلة لاصلاح الذات وترك الذنب والتعويض عمّا مضى والاستبشار بالمستقبل والتّحرك نحو الخير والصلاح. وبما أنّ هذا الموضوع قد تمّ تبيانه بالتفصيل، فلا نرى ضرورة لتكراره هنا.

ز) ألا تتعارض الشفاعة مع التوحيد؟

إنّ التصور بوجود تعارض بين الشفاعة والتوحيد هو واحد من الإشكالات المعروفة بشأن موضوع الشفاعة، ومَرَدُّ ذلك هو الإعلام

المكثف الذى وظّفهُ الوهابيون ضد هذه المسألة، ولهذا ينبغى الالتفات إليها جيّداً:

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۷

تدور عقائد الوهابيين بشكل أساسى حول عددٍ من المحاور، وأكثرها وضوحاً هى مسألة التوحيد فى الأفعال والتوحيد فى العبادة، فهم يفسّرون فرعى التوحيد هذين وكأنّهما يتعارضان مع موضوع الشفاعة والتوسل بأرواح الأنبياء والأولياء وشفاعتهم بين يدى اللَّه، ولهذا السبب فقد اعتبروا جميع فرق المسلمين التى تعتقد بهذه الامور (باستثناء الوهابيين) مشركة، ولا تعجبوا لو قلنا إنّهم يعتبرون أرواح غيرهم وأموالهم وأعراضهم مباحة مثلما كان يفعل عرب الجاهلية المشركون.

وانطلاقاً من هذا المعتقد فقد أراقوا دماء الكثير من المسلمين فى الحجاز والعراق، ونهبوا أموالهم، وارتكبوا جرائم كثيرة لم يسبقهم إليها أحدٌ فى الإسلام.

ولمؤسِّس هذه الفرقة وهو محمد بن عبدالوهاب (المتوفى عام ۱۲۰۶) كتابٌ يعرف باسم «رسالة القواعد الأربع» يقول فيه حول هذا الموضوع:

إنّ الخلاص من الشرك يكون بمعرفة أربع قواعد:

الاولى أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يُقِرون بأنّ اللَّه تعالى هو الخالق الرزاق المدبر ولم يدخلهم ذلك فى الإسلام لقوله تعالى «قُل مَن يَرزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالارضِ امَّن يَملِكُ السَّمعَ وَالْابصَارَ وَمَن يُخرِجُ الحَىَّ مِنَ المَيِّتِ وَيُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْامْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُل افَلَا تَتَّقُونَ». (يونس/ ۳۱)

الثانية: أنّهم يقولون مادعونا الأصنام وتوجهنا إليهم إلا لطلب القرب والشفاعة «وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَا يَضُرُّهُم وَلَا يَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هؤُلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَاللَّهِ». (يونس/ ۱۸)

الثالثة: أنّه صلى الله عليه و آله ظهر على قوم متفرقين فى عبادتهم فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر، فقاتلهم ولم يفرق بينهم.

الرابعة: أنّ مشركى زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأنّ أُولئك يشركون فى الرخاء ويخلصون فى الشدّة وهؤلاء شركهم فى الحالتين لقوله تعالى «فَاذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوُا

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۸

اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ الَى الْبَرِّ اذَا هُمْ يُشرِكُونَ» «۱». (العنكبوت/ ۶۵)

والغريب فى الأمر هو تمسكهم بهذه الأقاويل التى لا تعدو أن تكون مجرّد سفسطة ومغالطة، فيبيحون وبهذه البساطة أرواح وأموال خصومهم، ويجيزون قتلهم، كما يقول الشيخ «سليمان» وهو من زعماء هذه الفرقة الضالة فى كتابه «الهدية السنيّة» بأنّ الكتاب والسُنّة يشهدان على أنّ كلّ من يجعل الملائكة والأنبياء أو بعض الأصحاب وأهل البيت كابى طالب وابن عباس واسطة بينه وبين اللَّه عزّ وجلّ ليشفعوا له عند اللَّه تعالى لقربهم منه كما يشفع إلى السلاطين بواسطة المقربين منه فمثل هذا الشخص كافر ومشرك، ومباح دمه وماله حتى لو كان يشهد والشهادتين ويصلى ويصوم «۲».

لقد أثبتوا تمسكهم بهذا الحكم القبيح والمخزى أى اباحة دماء وأموال المسلمين من خلال الأحداث التاريخية المختلفة ومنها الحادثة المشهورة لقتل أهالى الطائف فى الحجاز قتلًا جماعياً وذلك (فى صفر عام ۱۳۴۳)، والقتل الجماعى لأهالى كربلاء فى العراق (فى ۱۸ ذى الحجّة عام ۱۲۱۶) وهذا ماورد فى الكثير من كتب التاريخ.

النقاط الخاطئة فى هذا الاستدلال:

۱- إنّ الآيات الاثنتى عشرة التى أوردناها فى بداية البحث بشأن موضوع الشفاعة وفسّرنا مفهومها تثبت لنا هذه الحقيقة وهى أنّ

الشفاعة مبدأ إسلامي وقرآني بديهي إلّاأنّها تضّمنت شروطاً للشفيع وللمشفوع له، وعلى هذا فلا يمكن لأحد أن يتحدث باسم الإسلام والقرآن وينكر هذا المبدأ بجميع دلائله البيّنة، وإننا لنعجب كيف أنّهم يعتبرون أنفسهم مسلمين وينكرون هذا المبدأ الذى يُعَدُّ من ضرورات الإسلام والقرآن، فهل ينكر المُسلم ضرورات الإسلام وأحكام القرآن؟

---

(۱). «رسالة القواعد الأربع» تأليف محمد بن عبد الوهاب زعيم الوهابيين: من ص ۲۴ إلى ص ۲۷ وفقاً لما نقله كتاب كشف الارتياب، ص ۱۶۳.

(۲). الهدية السنية، ص ۶۶.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۳۹۹

۲- إنّ الشفاعة التى ذكرها القرآن وذبَّ عنها، شفاعة يرتبط خطّها الأصيل ب «إذن اللَّه» وما لم يأذن بالشفاعة فلا يحق لشفيع أن يشفع، وبتعبير آخر فإنّ هذه الشفاعة صادرة من الأعلى ومشروطة بإذن اللَّه، وهى ليست كشفاعة حاشية السلاطين الجائرين، فهى صادرة من الأسفل وقائمة على أساس العلاقات الشخصية.

إنّ شفاعةً كهذه تُعّد تأكيداً لمسألة التوحيد لأنّ خطّها الاصلى يصدر عن اللَّه تعالى وهذا هو التوحيد البعيد عن أى لون من ألوان الشرك، لكن الوهابيين الذين تشابهت عليهم الشفاعة القرآنية مع الشفاعة الشيطانية لحواشى السلاطين انكروا هذا المبدأ واعتبروه مضادّاً لأصل التوحيد، وفى الحقيقة أنّهم قد اعترضوا على أوهامهم فى هذا الطرح، لا على مبدأ الشفاعة القرآنية.

۳- الشفاعة فى حقيقتها سبب للنجاة: كما هو الاعتقاد بوجود الأسباب فى عالم الخلقة والتكوين (كتأثير أشعة الشمس وتساقط المطر فى نمو الأعشاب) لا يتنافى مطلقاً مع مبدأ التوحيد، لأنّ تأثير هذه الأسباب يتحقق بإذن اللَّه وأمره، وفى الحقيقة أنّ عملها هو نوع من الشفاعة التكوينية، كما أنّ وجود مثل هذه الأسباب فى عالم الشريعة للمغفرة والنجاة بأنّ اللَّه لا يتعارض مع التوحيد بل هو تأكيد له، وهذا هو ما نطلق عليه اسم الشفاعة التشريعية.

۴- إنّ الشفاعة التى يرفُضها القرآن فى عبادة الأصنام هى أنّهم كانوا يجعلون كثيراً من الأشياء الخالية من أيّة ميزة أو خاصية شفيعة لهم إلى اللَّه؟ ولذا صَرّح الآية التى يستندون عليها بالخصوص: «وَيَعبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَالَا يَضُرُّهُم وَلَايَنفَعُهُم وَيَقُولُونَ هؤُلَآءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ». (يونس/ ۱۸)

هذا من جهة؛ ومن المؤكد أنّ هذا لا علاقة له بشفاعة الأنبياء والأولياء، فهذا الكلام يخص الأصنام وهى الأحجار المجرّدة من أى عقل وأحاسيس.

ومن جهة اخرى فالقرآن يذم الشفاعة القائمة على أساس الاعتقاد باستقلال الشفيع، وتأثيره فى مصير الناس بلا اذن من اللَّه، ولذا جاءت فى سورة الزمر آية وهى من الآيات التى يستندون إليها: «وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَولِيَاءَ مَانَعْبُدهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا الَى اللَّهِ زُلْفَى

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۰

نفحات القرآن ج۶ ۴۱۵

إنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَينَهُمْ فِى مَا هُم فِيهِ يَختَلِفُونَ». (الزمر/ ۳)

ووفقاً لهذه الآية فانّهم كانوا يعتبرون من يعبدون من دون اللَّه أولياء، وقيِّمين وحماة وحافظين لهم، فكانوا يعبدونهم، وكلا هذين الفعلين (اعتبارهم أولياء وعبادتهم) شرك.

أمّا إذا لم يعبد أولياء اللَّه وأنبياء وملائكته، بل يحترمهم ويكرّمهم ويرى فيهم أنّهم شفعاء له بين يدى اللَّه وبأذنه، فهو غير مشمول بهذه الآية قطعاً.

وبسبب عدم احاطة الوهابيين بالآيات القرآنية الواردة بخصوص الشفاعة، ومسألة الكفر والإيمان والشروط التى حدَّدها اللَّه للشفيع

والمشفوع له، فقد اشتبهت عليهم هذه المسألة مع ما كان يعتقد به عبدة الاوثان، وبهذه الشاكلة التَبَسَتْ عليهم الحقيقة.

۵- أمّا قول الوهابيين إنّ عبدة الأوثان العرب كانوا يعتقدون بأنّ كلَّ شيء بما فيه المالكية والرازقية للَّه‌تعالى وكانت مشكلتهم تتمثل فقط فى شفاعة ووساطة الأوثان، فهو خطأ آخر من أخطائهم الناتجة عن فقرهم العلمى والثقافى وعدم المامهم بالآيات القرآنية.

وذلك لأنّهم- أى عبدة الأصنام- كانوا ينسبون بعض هذه الصفات للاصنام كما يفهم هذا المعنى من الآيات الشريفة ومن جملتها: «فَاذَا رَكِبُوا فِى الفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُم الَى الْبَرِّ اذَا هُم يُشرِكُونَ». (العنكبوت/ ۶۵)

يتبيَّن من هذا التعبير أنّهم كانوا فى الأوضاع العادية يتوسلون بالأصنام لحل مشاكلهم، وفى الشدائد يتعلّقون باللَّه فقط.

وكذلك ما فيها أمر للنبى صلى الله عليه و آله: «قُل أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرضِ أَم لَهُمْ شِركٌ فِى السَّموَاتِ». (فاطر/ ۴۰)

لو كان المشركون يعتقدون بتفرد اللَّه فى الخالقية وينظرون إلى الأصنام نظرة الشفيع فلا معنى لهذا السؤال، لأنّهم سيقولون فى الجواب: إننا لا نعتبرهم خالقين، ونعدّهم واسطة فقط بين الخالق والمخلوق، وهل يجب فى الواسطة أن يكون خالقاً أو شريكاً فى الخلق؟

و هذا يكشف بوضوح أنّ عبدة الأصنام قد جعلوا من أصنامهم بشكل من الأشكال أنداداً وشركاء للَّه‌سبحانه وتعالى، وأنّ الرسول صلى الله عليه و آله مأمور بكشف وفضح أكاذيبهم بأنّ يسألهم ماذا خلقوا؟

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۱

وتبيّن الآية ۱۱۱ من سورة الاسراء انّهم كانوا يظنّون أنّ أصنامهم أنداداً للَّه‌فى المالكية والحاكمية على العالم، وحتى أنّهم كانوا يعتقدون أنّ الأصنام تعين اللَّه فى بعض المشاكل:

«وَقُلِ الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِى لَم يَتَّخِذ وَلَداً وَلَم يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى المُلكِ وَلَم يَكُن لَّهُ وَلِىٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرهُ تَكبِيراً».

تمثل كل واحد من هذه الجمل الثلاث نفياً لمعتقدات عبدة الأوثان، الذين كانوا يظنون أنَّ: (الملائكة بنات اللَّه)، (يرجى الالتفات إلى كلمة الولد تعنى كلا المعنيين البنت والولد أى الذكر والانثى «۱» وأنّهم شركاء له فى الخلق وأنّهم اعوانه وأولياؤه.

ومن الواضح أنّ هذه المعتقدات لو لم يكن لها وجود فى تلك البيئة، لما كان لهذه التعابير القرآنية أىُّ مفهوم.

وممّا يسترعى الإنتباه أنّ القرآن الكريم وصف عبدة الأوثان ب «المشركين» واعتبر عملهم «شِركاً»، فلو لم يكونوا يعتقدون بنوع من الشِّركة بين اللَّه والأصنام وكانوا يحسبونها شافعة فقط بين يدى اللَّه، إذ لما كان هذا التعبير صحيحاً بشأنها، لأنّ كلمة «الشرك والمشرك» دالتان على أنّهم كانوا يعتبرون الأصنام شركاء للَّه‌فى الربوبيّة، وحل المشاكل والخلقة وأمثال ذلك، «كانت الأصنام الحجرية والخشبية فى عقيدتهم رمزاً ومظهراً للصالحين والملائكة).

وبعبارة اخرى كانوا يقولون: إنّ للأصنام نوعاً من الاستقلال فى تدبير شؤون العالم، وبتعبيرهم كانوا يعتبرونها أنداداً للَّه، لا مجّرد وسطاء بين يديه.

والتعابير الواردة فى الآيات القرآنية المختلفة تكشف لنا عن هذا الموضوع بكل وضوح، جاء مثلًا فى قوله تعالى «وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ». (العنكبوت/ ۲۲)

وهذه إشارة لاعتقاد المشركين بأنّ الأصنام أولياؤهم وأنصارهم (من دون اللَّه)، كما تُصرح بذلك هذه الآية: «وَلَا يُغْنِى عَنهُمْ مَّا كَسَبُوا شَيْئاً وَلَا مَااتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ

---

(۱). «الولد» بمعنى المولود وتُطلق على الصغير والكبير والذكر والأنثى والمفرد والجمع (راجع مفردات الراغب).

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۲

اولِيَاءَ». (الجاثية/ ۱۰)

تكرر فى القرآن الكريم تعبير «من دون اللَّه» فى وصف معتقدات المشركين وهذا دليل على أنّهم كانوا يتخذون موجودات من دون اللَّه لتكون لهم انصار أو أولياء، وهذا شرك فى الربوبية وليس بشفاعة.

وخلاصة القول أنّ القرآن الكريم قد أورد فى آياته المختلفة اعتراضين رئيسيين على المشركين، وهما أولًا: إنّهم اعتبروا هذه الكائنات الفاقدة للحس وللسمع والبصر مصدراً مؤثراً.

وثانياً: إنّهم يرون فيها أنداداً للَّهفى التدبير والربوبية.

وقد كان لعبدة الأصنام فى العصر الجاهلى آراء وكلمات متناقضة طبعاً، فهم لا يطرحون أقوالهم بلا أى تناقض أو تهافت، شأن أى إنسان منطقى وواعٍ، لذا فهم فى نفس الوقت الذى يعتبرون الأصنام شركاء للَّهفى حلّ المشاكل ويصوّرونها وكأنّها أولياء وأنصار لهم من دون اللَّه، فانّهم كانوا يطرحون أيضاً قضية الشفاعة بين يدى اللَّه، وهذا لا يدل مطلقاً على عدم الاعتقاد بالشرك فى الأفعال.

وهذا ما نلاحظه من دراسة مجموعة الآيات السالفة، واستقراء جميع أحوالهم من خلالها، ثم أنّهم لا يعتبرون الشفاعة مطلقاً منوطة ورهينة بإذن اللَّه.

وبناءً على هذا فاننا نستنتج وبكل ثقة لو أن الإنسان تمسك بأولياء اللَّه فقط (لا الأصنام الحجرية والخشبية) واعتبرهم- دون غيرهم- شفعاء له بين يدى اللَّه (لا- شركاء له فى الولاية والنصرة والتدبير) وأنّ شفاعتهم لا تحصل إلّابإذن اللَّه (لا بصورة مستقلة عنه) فلا اعتراض عليه أبداً فى مثل هذه الحالة، وإنّما يرد الاعتراض حينما يغفل المرء عن واحدٍ من هذه المبادىء الثلاثة أو بأجمها، ويسلك الطريق الخاطىء.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۳

الأعراف وأصحابها

اشارة

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۵

الأعراف وأصحابها

تمهيد:

توجد فى القرآن الكريم سورة باسم سورة «الأعراف» تختص أربع آيات منها بموضوع الأعراف، يستشف من هذه الآيات بشكل عام أنّ الأعراف مكان بين الجنّة والنّار وفيه بعض المؤمنين الذين يعرفون أهل الجنّة وأهل النّار.

ولكن ما هى مهّمة هؤلاء المؤمنين؟ وماهو الهدف الذى يسعون إلى تحقيقه؟ وما هى مكانة الأعراف فى القيامة؟ وهل يوجد سوى هؤلاء الرجال الإلهيين المكلّفين بمهمّة خاصة فى الأعراف، يعنى أشخاصٌ آخرون من ضعفاء المؤمنين وأمثالهم، أم لا؟

هذه المسائل ينبغى ايضاحها فى ظل تفسير الآيات الأربع فى سورة الأعراف، وكذلك الروايات الواردة فى تفسيرها فى المصادر الإسلامية المهمّة.

نعودُ بعد هذا التمهيد الموجز إلى القرآن الكريم لنمعن خاشعين فى الآيات الكريمة التالية الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ». (الأعراف/ ۴۶)

۲- «وَاذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (الأعراف/ ۴۷)

۳- «وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَاأَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكبِرُونَ». (الأعراف/ ۴۸)

۴- «أَهؤُلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَاخَوْفٌ عَلَيكُمْ وَلَا أَنْتُم تَحْزَنُونَ». (الأعراف/ ۴۹)

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۶

جمع الآيات وتفسيرها

موضع بين الجنّة والنّار:

تتضمن الآيه الاولى إشارة إلى الآيات التى سبقتها وتتحدث عن الجنّة والنّار، وأصحاب الجنّة وأصحاب النّار ثم تقول: «وبينهما حجاب».

وهذا الحجاب يمنع إلتقاء هذين الفريقين مع بعضهما، ولكن لا يمنع من سماع الطرفين لأصوات بعضهما، لأنّ الآيات السابقة تنقل لنا حديث أصحاب الجنّة وأصحاب النّار مع بعضهما إذ يُنادى أصحابُ الجنّة أصحاب النّار أن قد وجدنا ماوعدنا ربُّنا حقّاً فهل وجدتم ما وعدكم ربّكم حقّاً، قالوا: نعم.

ولا عجب فى هذا فكثيراً ما يتحادث الجيران من وراء الجدار ويتساءلون عن أحوال بعضهم بينما لا يرى بعضهم الآخر أو لايوجد بينهما طريق للالتقاء وورد شبيه هذا المعنى فى سورة الحديد حيث يقول المنافقون للمؤمنين انظرونا نقتبس من نوركم، فيقولون لهم ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً، وفى هذه الأثناء: «فَضُرِبَ بَينَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ* يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ». (الحديد/ ۱۳- ۱۴)

فهل أنَّ هذا لسور العالى هو الأعراف أمْ شىء آخر؟ سنجدُ جواب هذا السؤال لاحقاً.

ثم تضيف الآية: «وَعَلَى الْأَعرَافِ رِجَالٌ يَعرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُمْ».

ولما كانت كلمة «الأعراف» تعنى فى اللغة الموضع المرتفع، فيتبيّن أنّ هؤلاء الرجال أصحاب منزلة وشخصية، إذ يشرفون من ذلك المقام المرتفع على كلا الفريقين ويرون كلا الفريقين ويعرفون كلًّا بسيماهم.

لماذا هذه المعرفة؟

يُستفاد من مجموع القرائن الموجودة فى الآيات موضوع البحث- والتى سيأتى شرحها مفصّلًا فى البحوث القادمة- وكذلك من الروايات الكثيرة الواردة فى المصادر الإسلامية

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۷

بخصوص الأعراف، بأنّه يوجد فيها فريقان: فريق من رجال اللّه والشخصيات البارزة والمقرّبة إلى اللّه وفريق آخر من المستضعفين ومن الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيّئاً- فبعضهم غلبت حَسناتُهم سيّئاتهم وبعضهم سيئاتهم فاقت حسناتهم، وفى الحقيقة هم حائرون لا إلى الجنّة ولا إلى النّار.

وهنا يعرف أولئك الرجال هذا الفريق من سيماهم، فيقولون لمن يستحق الشفاعة والمغفرة، ويستمد من معدن أولياء اللّه: إذهبوا إلى الجنّة، ثم يسوقون الباقين إلى جهنّم.

وهذا هو أفضل تأويل وتفسير يوضّح مجموع الآيات المتعلّقة بالاعراف، وكذلك الآيات السابقة واللاحقة لها ويخلصنا من أى نوع من الكلام الزائد، ويشكل قاسماً مشتركاً وحلقة اتصال بين الكثير من أقوال وتفاسير المفسّرين.

فقد نقل المرحوم العلامة الطباطبائى- على سبيل المثال- اثنى عشر قولًا بخصوص من على الأعراف (نقل بعضهم فقط عشره أقوال أو سبعة، مثل تفسير القرطبى والتفسير الاثنى عشرى وبهذا الترتيب.

١- إنّهم أشراف الخلق الممتازون بكرامة اللّه.

٢- إنّهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فلم تترجح حسناتهم حتى يدخلوا الجنّة، ولا غلبت سيئاتهم حتى يؤمروا بدخول النّار، فأوقفهم اللّه تعالى على هذه الأعراف لكونها درجة متوسطة بين الجنّة والنّار.

٣- إنّهم أهل الفترة.

۴- إنّهم مؤمنو الجن.

۵- إنّهم أولاد الكفّار الذين لم يبلغوا فى الدنيا أوان البلوغ.

۶- إنّهم أولاد الزنا.

٧- إنّهم أهل العجب بأنفسهم.

٨- إنّهم ملائكة والتعبير عنهم بالرجال لأنّهم يتشكلون بأشكال الرجال.

٩- إنّهم الأنبياء عليهم السلام يقامون عليها تمييزاً لهم على سائر الناس ولأنّهم شهداء عليهم.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۰۸

١٠- إنّهم عدول الامم الشهداء على الناس يقومون عليها للشهادة على اممهم.

١١- إنّهم قوم صالحون فقهاء علماء.

١٢- إنّهم العباس والحمزة وعلى وجعفر يجلسون على موضع من الصراط، يعرفون محبيهم ببياض الوجوه، ومبغضيهم بسوادها .... «١»

وورد فى الكثير من الروايات المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام: عن هلقام، عن أبى جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول اللّه تعالى «وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعرِفُونَ كُلّاً بِسِيمَاهُم» مايعنى بقوله «وَعَلَى الْأَعرَافِ رِجَالٌ»؟ قال: «ألستم تعرفون عليكم عرفاء، وعلى قبائلكم ليعرف من فيها من صالحٍ أو طالح؟ قلت: بلى فقال فنحن أولئك الرجال الذين يعرفون كلًا بسيماهم» «٢».

ولكن كل تلك الأقوال الاثنى عشر أو الثلاثة عشر مجموعة فى الحقيقة فى التفسير الذى ذكرناه سالفاً، ألا وهو وجود فريقين فى الأعراف: فريق من الأبرار والصالحين وأولياء اللّه وفى طليعتهم «محمد وآل محمد» عليهم السلام ومن ثم الأنبياء والملائكة، وجماعة من الصالحين والعلماء والفضلاء، وفريق من المستضعفين ومن أصحاب الأعمال والصالحة والأعمال السيّئة، أو الذين ليست لديهم أعمال صالحة ولا سيّئة (كالأبناء غير البالغين للكفّار والجهلة القاصرين وأهل الفترة).

إنَّ الروايات التى ذكرناها آنفاً تؤيد بصراحة وجود هذين الفريقين فى الأعراف.

ولهذا تواصل الآية الأولى الكلام عن الفريق الثانى فتقول: «وَنَادَوا أَصْحَابَ الجَنَّةِ أنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدخُلُوهَا وَهُمْ يَطمَعُونَ».

وبهذا السياق يشير صدر الآية وذيلها إلى هذين الفريقين المختلفين المذكورين فيما سبق.

---

(١). تفسير الميزان، ج ٨، ص ١٢۶ ذيل الآيات مورد البحث.

(٢). أورد المرحوم العلّامة المجلسى هذه الرواية فى بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٣۶، و ٣٣٧؛ ونقلها أيضاً المرحوم الكلينى فى اصول الكافى، ج ٢، ص ۴٠٨.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴٠٩

وتضيف الآية الثانية: «وَإِذَا صُرِفَتْ ابصَارُهُم تِلقَاءَ اصحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَاتَجْعَلْنَا مَعَ القَومِ الظَّالِمِينَ».

تعود الضمائر فى هذه الآية (الضميرين فى كلمتى «أبصارهم» و «قالوا»)، كما هو الحال فى ذيل الآية السابقة، إلى الفريق الثانى، بينما

يدور الكلام فى مطلع الآية الأولى عن الفريق الأول.

وهذا هو فقط الخلاف الظاهر الذى نراه نحن فى تفسير هذه الآية، أى أن نفصل مَرَدَّ هذه الضمائر، لكن القرائن المتعددة لهذا الخلاف الظاهرى موجودة فى الآية الاولى وكذلك فى الآيات اللاحقة، لأنَّ الرجال الموجودين على الأعراف يعرفون الكل بسيماهم، ويأمرون هناك وينهون، ويلومون أهل النّار، ويرسلون إلى الجنّة من يستحقّها بفضل اللّه، هم ليسوا ممن تشملهم جملة: «لَم يَدخُلُوهَا وَهُم يَطمَعُونَ».

و خلاصة القول هى أنّ فى هذه الآيات تعابير دالة على وجود رجال ذوى مقام رفيع على الأعراف، وبيدهم الأمر والنهى. وهم أصحاب المقام الرفيع فى معرفة أصحاب الجنّة وأصحاب النّار (حتّى قبل دخولهم فيهما)، وكذلك توجد تعابير فى هذه الآيات تدل على وجود فريق حائر على الأعراف وعليهم آثار القلق البالغ خوفاً على مصيرهم.

فهم طامعون فى الجنّة وخائفون من النّار، وينبئ مجموع هذه القرائن عن وجود هذين الفريقين على الأعراف، ويمكن فى ظل هذا التفسير حل جميع المشاكل العالقة فى تفسير هذه الآيات.

وتعود الآية الثالثة إلى الفريق الأول مَرّة ثانية فتقول: «وَنَادَى أَصحَابُ الْأَعرَافِ رِجَالًا يَعرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَاأَغنَى عَنكُمْ جَمعُكُمْ وَمَاكُنتُمْ تَستَكبِرُونَ».

ويعكس هذا اللّوم والتوبيخ الشديد الصادر من أصحاب الأعراف إلى أصحاب جهنّم أحد المؤشرات الجلِيّة على سموِّ مقامِهم، فهم يعاقبونهم بسياط الملامة والتعنيف مثلما يفعل الملائكة معهم.

وفى الآية الرابعة يتحدث نفس أصحاب المقامات السامية فى الأعراف، وهم يشيرون

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۰

إلى جماعة من ضعفاء المؤمنين من جهة، وموجّهين الخطاب من جهة اخرى إلى المستكبرين من أصحاب النّار، وبأسلوب التوبيخ، قائلين لهم: «أَهؤَلَآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَايَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ».

ثم يلتفتون فى نفس الوقت إلى ضعفاء المؤمنين فيقولون لهم: «ادخُلُوا الجَنَّةَ لَاخَوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُم تَحزَنُونَ».

و يظهر من خلال هذا التعبير وبوضوح وجود فريقين هناك وهما: فريق ذوى المقام الرفيع، وفريق الحيارى من ضعاف المؤمنين الذين تشملهم الرحمة الإلهيّة فى ختام المطاف، ويُساقون بأمر ذوى المقام الرفيع الموجود فى الأعراف، نحو الجنّة.

توضيحات

۱- الأعراف فى اللغة والتفسير

«الأعراف»: جمع (عُرف) على وزن (قُفل) وهو بمعنى المكان المرتفع العالى. ومأخوذة فى الأصل من «عرف الفرس» و «عرف الديك» ويُقال أيضاً إنّها مشتقة من أصل المعرفة والعرفان الذى يعنى المعرفة بالأشياء والاطلاع على خصائصها لأنّ الاراضى المرتفعة أكثر وضوحاً وأقرب إلى المعرفة من الأراضى المنخفضة، (ومن فوقها يمكن الاطّلاع على كل مكان والتعرّف عليه).

ويُقال أيضاً أنّ الأعراف هى مقامات الأشخاص ذوى المكانة الرفيعة والدرجة السامية «۱».

أمّا بخصوص مكان الأعراف اين يقع؟ وماهى كيفيّته؟ ففيه أقوال عديدة، أورد من بينها صاحب الميزان ستة أقوال:

۱- موضع يشرف على أهل الجنّة وأهل النّار.

---

(۱). التحقيق، و تفسير مجمع البيان، وغيرهما من القواميس والتفاسير.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۱

۲- سورٌ له تاج خاص كعرف الديك.

۳- تلٌّ بين الجنّة والنّار.

۴- هو السور الذى يفصل بين المؤمنين والمنافقين، وقد اشير إليه فى القرآن الكريم بقوله تعالى «فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ العَذَابُ».

(الحديد/ ۱۳)

۵- الأعراف بمعنى الصراط والجسر الممتد فوق جهنّم.

۶- الأعراف بمعنى المعرفة بأوضاع الناس.

ولكننا نعتقد لو أمعنّا النظر فى الآيات الأربع المذكورة التى تتحدث عن الأعراف، لما بقى أى غموض فى معنى «الأعراف»، حيث يفهم منها وبكل وضوح بأنَّ الأعراف موقع يشرف على الجنّة والنّار، وفيه طائفة من أولياء اللَّه ذوى المنزلة الرفيعة، وطائفة اخرى من ضعيفى الإيمان هذا فى الوقت الذى ذهب فيه المؤمنون المخلصون إلى الجنّة، والكفرة المذنبون إلى النّار، أمّا الفئة الاخرى من الذين خلطوا عملًا صالحاً وآخر سيّئاً، ولديهم نقاط إيجابية فى جانب ونقاط سلبية فى جانب آخر، فهم باقون على الأعراف ينتظرون الموقف الذى يتخذه بحقهم رجال الأعراف المؤمنون.

وأمّا بخصوص هذين الفريقين الموجودين على الأعراف ومن هُما؟ فقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل ضمن تفسير الآيات.

ومن هنا يتّضح أنّ مهمّة رجال الأعراف المؤمنين تمثل فى الحقيقة نوعاً من الشفاعة، لِمَن: «خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً». (التوبة/ ۱۰۲)

وهؤلاء فى حالة اضطراب وقلق دائم، فحينما ينظرون من الأعراف إلى أصحاب الجنّة يتمنّون أنْ يكونوا معهم، وحين تقع أبصارهم على أصحاب النّار يضطربون ويرجون ألّا يُحشروا معهم.

ومن هنا تتوضح فلسفة وجود الأعراف ضمنياً وهى اظهار الدرجات الرفيعة لأولياء اللَّه، وأخذهم بيد المغلوبين على أمرهم، وكذلك تبيان مصير فئة من المذنبين الذين تشملهم

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۲

فى خاتمة المطاف شفاعة هؤلاء الرجال ذوى المكانة السامية.

۲- الأعراف فى العقل والمنطق

من الواضح أننا لانمتلك أىَّ دليل عقلى يثبت وجود الأعراف، لأنّ العقل يثبت فقط العموميات المتعلّقة بالحساب والكتاب والثواب والعقاب، وذلك لأنّ عدم وجودها لا يتّسق وحكمة اللَّه وعدالته.

أمّا موقف القيامة، ومراحل الثواب والعقاب، وكيفية دخول أصحاب الجنّة فيها، وأصحاب النّار فيها والصراط والأعراف وماشابه ذلك من التفاصيل الجزئية للقيامة، فهى من المسائل التى لا تثبت إلّابالدليل النقلى.

ولكن بما أنَّ الشفاعة تنبثقُ أيضاً من حكمة اللَّه تعالى (كما ورد فى موضوع الشفاعة) وأنّ الشفعاء يجب أن يكونوا من ذوى الدرجات الرفيعة والمكانة العالية حتّى يأخذوا بأيدى الضعفاء، يمكن نتيجة لذلك العثور على إشارة ضعيفة فى اعماق حكم العقل بخصوص مسألة الأعراف (فتأمل).

۳- الأعراف فى الروايات والأحاديث

اشارة

تحوى المصادر الإسلامية الشيعية منها والسُنية على روايات كثيرة بخصوص الأعراف وأصحاب الأعراف، ومتى ما وضعناها إلى جانب بعضها بشكل صحيح لاستنتجنا منها ما استنتجناه من تفسير الآيات المذكورة.

وهى فى الحقيقة أخبار كثيرة حتّى أنَّ البعض قال إنّها تربو على ۲۸ حديثاً «۱».

تختص بعض تلك الأحاديث بموضوع الأعراف، وبعضها بالرجال الذين على الأعراف ويتحدث بعضها عن طائفة الحيارى من ضعيفى الإيمان الموجودين هناك ونحن نكتفى هنا بالإشارة إلى بعض الأمثلة المهمّة منها:

---

(۱). تفسير الاثنى عشرى، ج ۴، ص ۷۵.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۳

۱- نقل عن الإمام الصادق عليه السلام إنّه حين سُئِل عن معنى الآية الشريفة: «وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعرَافِ رِجَالٌ» قال: «سور بين الجنّة والنّار» «۱».

وجاء فى تفسير الطبرى نفس هذا المعنى عن الإمام الباقر عليه السلام «۲».

۲- جاء فى حديث للإمام الباقر عليه السلام يفسر فيه قوله تعالى «وَعَلَى الْأَعرَافِ رِجَالٌ» قال: «نزلت فى هذه الأمة، والرجال هم الائمة من آل محمد صلى الله عليه و آله. قلت: فالأعراف قال:

صراط بين الجنّة والنّار، فمن شفع له الإمام منّا من المؤمنين المذنبين نجا، ومن لم يشفع له هوى «۳».

فهذا الحديث أوضح معنى الأعراف وكذلك الفريقين الموجودين عليه.

۳- وجاء فى حديث آخر نقله المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال فيه: «الأعراف كثبان بين الجنّة والنّار، فيقف عليها كل نبى وكل خليفة نبى، مع المؤمنين من أهل الزمان كما يقف صاحب الجيش مع الضعفاء من جنده» «۴».

وجاء فى آخر هذا الحديث شرح يبيّن أنّ المحسنين يذهبون مُسبقاً إلى الجنّة، فيقول رجال الأعراف المؤمنون للمذنبين الذين بجانبهم انظروا إلى اخوانكم المحسنين سبقوكم ودخلوا الجنّة، وهنا ينظر إليهم المذنبون ويسلّمون عليهم وهذا هو ماذكره القرآن فى قوله: «وَنَادَوا أَصحَابَ الجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيكُمْ لَمْ يَدخُلُوهَا وَهُمْ يَطمَعُونَ».

فهؤلاء المذنبون لم يدخلوا الجنّة ويأملون دخولها ببركة شفاعة النبى صلى الله عليه و آله والإمام عليه السلام، ثم يفسر بقية الآيات على هذا المنوال وبالشكل الذى لايبقى معه شك فى معنى الأعراف والفريقين الموجودين عليها. ويعرض بدقة نفس التفسير الذى بيّناه سابقاً بشأن آيات

---

(۱). تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۸، ح ۱۰.

(۲). تفسير جامع البيان، ج ۸، ص ۱۳۷.

(۳). تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۸، ح ۸.

(۴). تفسير مجمع البيان، ج ۳، ۴، ص ۴۲۳.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۴

الأعراف الأربع وعلاقتها مع بعضها «۱».

۴- جاء فى الدرّ المنثور حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله أنّه قال: «يُجمع الناس يوم القيامة فيؤمر بأهل الجنّة إلى الجنّة

ویؤمر بأهل النّار إلی النّار، ثم یقال لأصحاب الأعراف: ما تنتظرون؟ قالوا: ننتظر أمرک، فیقال لهم: إنّ حسناتکم تجاوزت بکم النّار أن تدخلوها، وحالت بینکم وبین الجنّة خطایاکم، فادخلوا الجنّة بمغفرتی ورحمتی» «۲».

طبعاً سبب دخول الجنّة هنا هی شفاعة الشفعاء والرجال المؤمنین فی الأعراف وبإذن من اللّه.

۵- جاء فی حدیث آخر فی الدرّ المنثور منقول عن أبی سعید الخدری بأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله سُئل عن أصحاب الأعراف فقال: «هُم رجالٌ قُتِلوا فی سبیل اللّه، وهم عُصاة لآبائهم فمنعتهم الشهادة أنْ یدخلوا النّار، ومنعتهم المعصیة أنْ یدخلوا الجنّة، وهم علی سورٍ بین الجنّة والنّار.. فاذا فرغ اللّه من حساب خلقه فلم یبق غیرهم تغمّدهم منه برحمة فأدخلهم الجنّة برحمته» «۳».

وکما قلنا سابقاً لایوجد أیُّ مانع من شمولهم برحمة اللّه فی ظل شفاعة الأنبیاء والأولیاء.

خاتمة بحث المعاد:

وبانتهاء موضوعی الشفاعة والأعراف، نصل إلی ختام بحوث المعاد، وکما نوّهنا سابقاً، کان من المؤمّل أن نضع جمیع بحوث المعاد فی مجلّد واحد، إلّاأنّ سعة الأبحاث القرآنیة فی هذا الصدد دفعنا إلی تقسیمها إلی مجلّدین، ثم إنّ المواضیع التی عرضناها تمثّل امّهات

---

(۱). تفسیر مجمع البیان، ج ۳ و ۴، ص ۴۲۳.

(۲). تفسیر در المنثور، ج ۳، ص ۸۷.

(۳). المصدر السابق، ص ۸۸.

نفحات القرآن، ج۶، ص: ۴۱۵

مسائل المعاد وبحوثه الأساسیة، وإلّا فإنّ هذه البحوث تضم بین طیاتها مسائل اخری متنوعة صرفنا النظر عنها حالیاً تجنّباً للاطالة إلی أن تحین فرصة اخری

اللّهمّ لا تَدَعْنا لِوَحْدِنا فی هذا السفرالملیء بالخوف والمخاطر، وفی نفس الوقت ملیء بالرحمة والبرکة، وخذ بأیدینا ونجّنا من مواقف الخطر ومواضع العذاب، وأوصلنا إلی جوارِ رحمتک.

إلهی إنَّ أیدینا خالیة، وأعمالنا قلیلة وذنوبنا کثیرة، وکتاب أعمالنا خفیف وکواهلنا مثقلة بأعباء المسؤولیات، وفی هذه الأحوال آمالنا معقودة علیک.

ربَّنا إنَّ رحمتک واسعة، وألطافک غیر متناهیة، وکرمک غیر محدود، اللّهمّ نُقسمُ علیک بأَولیائک الکرام أنْ تشملنا برعایتک فی ذلک الیوم، وتجعلنا ممن یَسعد بلقاک ولا تحرمْنا رؤیتک.

ختام بحث المعاد فی القرآن

ونهایة المجلّد السادس

آمین یاربّ العالمین

التاریخ ۲۱/ ۳/ ۱۳۷۰ هجری شمسی

الموافق ۲۷ ذی القعدة ۱۴۱۱ هجری قمری

الجزء السابع

اشارة

الاهداء:

إلى الذين يعشقون القرآن

إلى الذين يريدون أن يشربوا من عين الحياة الصافية أكثر

إلى الذين يريدون أن يعرفوا القرآن ويفهموه أكثر

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴

بالتعاون مع العلماء الأفاضل وحجج الإسلام السادة:

محمد رضا الآشتيانى

محمد جعفر الامامى

عبدالرسول الحسنى

محمد الاسدى

حسين الطوسى

سيد شمس الدين الروحانى

محمد محمدى الاشتهارى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵

فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام فى التصور القرآنى

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷

القرآن الكريم والهدف من إرسال الرسل عليهم السلام

تمهيد:

إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب، وبعبارة اخرى بعثة أنبياء اللّه عليهم السلام ونزول الكتب السماوية، لها علاقة مباشرة بالنظرة الكونية للقرآن الكريم.

حينما يقول القرآن الكريم: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ». (الذاريات/ ۵۶)

وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ». (الانشقاق/ ۶)

إنّنا نستطيع أن نفهم أنّ الإنسان فى طريقه الطويل المملوء بالمخاطر والمحفوف بالمخاوف، والذى يهدف من خلاله الوصول إلى الكمال المطلق، يعنى السير للوصول إلى الذات الإلهيّة المقدّسة، فإنّه لا يستطيع أن يجتاز هذا الطريق دون الحاجة إلى القادة والموجهين الربانيين.

إنّ من مستلزمات تجاوز هذه المرحلة مرافقة الخضر، وما عدا ذلك تكون النتيجة الولوج فى الظلمات والابتلاء بالتيه والحيرة والظلالة.

ومن هنا يعتبر الأنبياء عليهم السلام قادة الامم والكتب السماوية بمثابة «القوانين»، التى تأخذ بيد الإنسان لتوصله إلى غايته وتخرجه من

الظلمات إلى النور.

وبعبارة اخرى، لا يمكن تصوّر الحياة الاجتماعية للإنسان مجرّدة عن هداية عالم الغيب والذات المقدّسة، لا فى التقنين والتنفيذ، ولا فى مجال ضمان العدالة الاجتماعية، فالأنبياء عليهم السلام فى الواقع يمثّلون همزة الوصل بين عالمى الإنسانية والغيب.

بعد هذه الإشارة العابرة نعود إلى القرآن الكريم ولنتأمل خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸

۱- «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ» «۱». (الجمعة/ ۲)

۲- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة/ ۱۲۹)

۳- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ۱۵۱)

۴- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ». (الحديد/ ۲۵)

۵- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الْأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ... أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

(الأعراف/ ۱۵۷)

۶- «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ». «۲» (إبراهيم/ ۱)

۷- «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». «۳» (الأنعام/ ۴۸)

۸- «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ». «۴»

(النساء/ ۱۶۵)

۹- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ

---

(۱) قريب من هذا المعنى جاء فى سورة آل عمران، ۱۶۴.

(۲) قريب من هذا المعنى جاء أيضاً فى الحديد، ۵۷؛ والطلاق، ۱۱؛ وإبراهيم، ۵.

(۳) قريب من هذا المعنى بخصوص جميع الأنبياء عليهم السلام جاء فى البقرة، ۲۱۳ والأنعام، ۴۸ والكهف، ۵۶ وآيات اخرى.

(۴) قريب من هذا المعنى جاء فى طه، ۱۳۴؛ والقصص، ۴۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹

بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ». (البقرة/ ۲۱۳)

۱۰- «هَذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ». (ابراهيم/ ۵۲)

۱۱- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

(الانفال/ ۲۴)

جمع الآيات و تفسيرها

أهداف وفلسفة بعثة الأنبياء:

۱ و ۲- التربية والتعليم

ورد فى هذه الآيات عشر غايات لبعثة الأنبياء عليهم السلام:

ففى الآيتين الاولى والثانية إشارة إلى هدفين رئيسيين من أهداف البعثة وفلسفة إرسال الرسل عليهم السلام، ألا وهما «التربية والتعليم».

يقول تعالى فى الآية الاولى «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ»، ونظراً إلى كون التلاوة لآيات الحقّ تعالى بمثابة المقدّمة بالنسبة للتزكية وتعليم الكتاب والحكمة ومحو آثار الضلالة والشرك، يضيف تعالى قائلًا: «وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ».

صحيح أنّ الغاية الرئيسية من تلاوة الآيات وتعليم الكتاب والحكمة هو تزكية وتطهير الروح والبدن والفرد والمجتمع، وأن تعلم الكتاب والحكمة له دور الطريقية، وبمثابة مقدّمة بالنسبة إلى التزكية، لكنّها مع ذلك تقدّمت عليهما نظراً لأهميّتها.

فى حين أنّنا نجد الآية الثانية من آيات بحثنا التى تتعرّض لدعاء إبراهيم عليه السلام فى حقّ الامّة الإسلامية، تقوم بتقديم «تعليم الكتاب والحكمة» على «التزكية»، وتضع كلًا فى مكانه الطبيعى له، حيث تقول: «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

أجل، هذا هو طلب إبراهيم عليه السلام من اللَّه تعالى للُامّة الإسلامية واتّباع محمّد صلى الله عليه و آله، حيث أبان الهدف من بعثة هذا النبى العظيم (وسائر الأنبياء) بكلّ وضوح.

إنّ التأمّل فى هاتين الآيتين يكشف عن نكات جديرة بالاعتبار:

أوّلًا: العبارة الواردة فى الآية الاولى دليل على معرفة اللَّه تعالى من جهة، وعلى النبوّة الخاصّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله من جهة اخرى، حيث تؤكّد الآية أنّ اللَّه تعالى هو الذى بعث نبيّاً بهذه الخصوصيات وهذا لا يتمّ إلّاعن طريق القدرة الإلهيّة فقط: «هُوَ الَّذِى بَعَثَ ...».

وكذلك تقول: إنّ النبى هو ذلك الشخص الذى ظهر من بين جماعة اميّين، لكنّه على الرغم من ذلك فقد أصبح معلّماً للمئات والآلاف، وأفاض على أتباعه العلم والحكمة حتّى ظهر من بينهم بعد فترة قصيرة أكابر العلماء الذين قاموا بتأسيس حضارة عظيمة مشرقة.

ثانياً: دار الحديث فى كلتا الآيتين عن أربعة مواضيع وهى «تلاوة آيات اللَّه تعالى» و «تعليم الكتاب» و «تعليم الحكمة» وأخيراً «التزكية والتطهير والتربية».

إنّ الحالة الطبيعية لهذه المواضيع الأربعة، هى كما اشير إليها، بأنّه يجب ابتداءً أن يتعرف ويستأنس سمع الإنسان بكلمات الحقّ تعالى ليدرك بعد ذلك مضمون الكتاب من أعماق هذه الكلمات، ثمّ يتعرّف بعد ذلك على الحكمة أى الأسرار الكامنة فيها، وأخيراً يُطهر وينقى الروح والجسم.

هذا الترتيب الطبيعى يُلاحظ فى الآية المرتبطة بدعاء إبراهيم عليه السلام: لكن «التزكية» قد تقدّمت على «تعليم الكتاب والحكمة» كما جاء فى قوله تعالى «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ». (الجمعة/ ۲) (آل عمران/ ۱۶۴)

وذلك لكى تتبيّن هذه الحقيقة التى ترى أنّ الهدف الرئيس من كلّ هذه المقدّمات فى تلك الآيات هو الطهارة والتقوى وتربية الإنسان ونمو المثل والقيم الأخلاقية والإنسانية.

ثالثاً: نظراً لتقدّم «التزكية» على «التعليم» فى آيتين من القرآن الكريم وتأخّرها عنه فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱

آية واحدة، يرد هذا السؤال وهو: أى منهما يكون الأصل حقيقة والآخر فرع؟

الجواب عن هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة كما تقدّمت الإشارة إلى ذلك لأنّ «العلم» له حيثية الطريقية المقدّمية، والهدف الرئيسى هو تربية الإنسان وتزكية النفس وتكامل الروح، وبعبارة اخرى إنّ تلاوة آيات القرآن الكريم وتعليم العلم والحكمة كلّها تهدف إلى هذا الهدف الأسمى، وبناءً على ذلك تعدّ كلّ هذه مقدّمة بالنسبة للتزكية التى تعتبر ذى المقدّمة، وما السبب وراء ذكر «التزكية» قبل «تعليم الكتاب والحكمة» فى آيتين اخريين إلّالبيان دورها الخطير هذا.

فضلًا عن ذلك، فإنّ كلّ واحد من هذين الأمرين يترك أثره على صاحبه، أى إنّ الإنسان لا يسعى وراء العلم ما لم تتحقّق مرحلة تزكية النفس، وما لم يتحقّق العلم فسوف لن تحصل المراحل العالية من التزكية، وبناءً على هذا ف «التعليم» و «التزكية» لهما أثران متقابلان، كما يحتمل أن يكون الغرض من تنوّع الآيات حول هذا الموضوع هو إلفات النظر إلى هذا الأمر.

وينبغى ألّا يخفى أنّ البعض من العلوم كالعلوم المرتبطة بالمعرفة بصورة عامّة ومعرفة اللَّه تعالى ونظائرها لها حيثية ذاتية وعينية، أو بعبارة اخرى فهى مطلوبة بالذات، فى حين أنّ العلوم الاخرى ليس لها حيثية مقدمية، ولهذا يمكن أن يكون تنوّع الآيات الآنفة الذكر إشارة إلى هذه الملاحظة أيضاً.

رابعاً: حول الاختلاف المحتمل بين «الكتاب» و «الحكمة» يعتقد البعض بأنّ الكتاب إشارة إلى القرآن الكريم، والحكمة إلى الأحاديث والسنّة النبويّة الشريفة، أو أنّ «الكتاب» إشارة إلى مجموعة الأحكام والأوامر الإلهيّة و «الحكمة» إشارة إلى أسرار تلك الأحكام وفلسفتها، لأنّ الإحاطة بتلك الأسرار تزيد من عزم الإنسان على تنفيذها، كما أنّ هناك احتمالًا آخر وجيهاً أيضاً وهو إنّ ذكرهما معاً «الكتاب والحكمة» إشارة إلى مصدرى المعرفة الرئيسيين أى «الوحى» و «العقل».

خامساً: لفظة «الامّيين» على حدّ قول الكثير من المفسّرين، إشارة إلى اولئك الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ويجهلون العلم والمعرفة على الإطلاق، أى كأنّما ظلّوا كما ولدتهم امّهاتهم بالضبط لم يتغيّروا قيد أنملة أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲

وظهور النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بين قوم كهؤلاء هو دليل على عظمته وصدق دعوته.

لكن البعض من المفسّرين اعتبر لفظة «الامّيين» إشارة إلى أهل مكّة التى كانت تسمّى ب «امّ القرى»، وربّما قيل: إنّ المراد من «الامّيين» هم العرب وذلك لجهلهم بالقراءة والكتابة أيضاً.

لكن المعنى الأوّل أكثر تناسباً من تلك المعانى.

سادساً: إنّ التعبير ب «ضلال مبين» هو أفضل تعبير يعكس حالة عرب الجاهلية، فهم كانوا فى ضلال، وأى ضلال، إنّه ضلال مبين ظاهر بجميع أبعاده، ألم يكن وأد البنات وعبادة الأوثان والتعصّبات القبلية المقيتة والحروب الدائمة والإفتخار بالإغارة على الآخرين وأمثالها ضلالًا مبيناً؟

والآية الثالثة تشير أيضاً إلى مسألة التربية والتعليم التى حصلت عند المسلمين على يدى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مع هذا الفارق وهو التأكيد بصورة خاصّة على العلوم والمعارف التى يستحيل كسبها بدون بعثة النبى صلى الله عليه و آله، حيث تقول: «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وتفسير هذه الآية كسابقاتها، مع فارق وجود جملة فى ذيلها تشير إلى أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد علّم الناس علوماً يستحيل الحصول عليها من دون الوحى، وهنا ينبغى ألّا يفوتنا التفاوت الواضح بين جملة «لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ» النافية لإمكانية التعلّم و «لَمْ تَعْلَمُوا» النافية للعلم.

قال فى «روح المعانى» بعد الإلتفات إلى الجملة الأخيرة التى تشير إلى العلوم التى لا يمكن اكتسابها إلّاعن طريق الوحى: على هذا فالجملة المشار إليها هى من قبيل ذكر الخاص بعد العام «۱».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲، ص ۱۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳

لكن المرحوم الشيخ الطوسى فى «التبيان» والشيخ الطبرسى فى «مجمع البيان» سبقاه فى التوجّه إلى هذه الملاحظة وأشارا إليها بعبارة مختصرة واضحة.

إنّ كتابنا السماوى القرآن الكريم يحتوى فى الحقيقة على قسمين من العلوم، فالقسم الأوّل هو من المعارف التى يمكن أن تكتسب عن طريق الاستدلال العقلى، وإن كان القرآن قد عرض هذا القسم بشكل أكمل وأكثر اطمئناناً من الاستدلال العقلى.

والقسم الآخر يستحيل اكتسابه بغير الوحى كما تقدّم، وهو الذى تمّ الاستناد إليه فى الجملة الأخيرة (كالكثير من الحقائق المرتبطة بعالم ما بعد الموت والقيامة)، أو التواريخ المعتبرة للأقوام والأنبياء عليهم السلام السابقين والتى ضاعت على مرّ الزمن، وكذلك العلوم والمعارف التى حجبت عن أنظار المفكّرين فى ذلك الزمان على أقلّ تقدير.

۳- إقامة القسط والعدل

تمّت الإشارة فى الآية الرابعة بشكل عامّ إلى أحد الأغراض الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام ألا وهو إقامة العدالة الاجتماعية، وأنّ نزول الكتاب والميزان بمثابة المقدّمة لذلك، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

لقد اشير فى هذه الآية إلى ثلاثة امور باعتبارها مقدّمة لإقامة العدل، وهى «البيّنات» التى تعنى الأدلّة كما لا يخفى، والمشتملة على المعاجز والأدلّة العقليّة على أحقّية دعوة الأنبياء عليهم السلام وأخبار السابقين منهم، و «الكتاب» الذى يشير إلى الكتب السماوية التى تحتوى على بيان المعارف والعقائد والأحكام والأخلاق، و «الميزان» الذى يعنى القوانين المميّزة للخير من الشرّ والفضائل من الرذائل والحقّ من الباطل.

تمتّع أنبياء اللَّه عليهم السلام بهذه القوى الثلاث التى تمكّنهم من دفع البشريّة نحو إقرار العدالة، والملفت للنظر هنا هو عدم نسبة إقامة العدالة إلى الأنبياء، بل التصريح بأنّ المجتمعات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴

البشرية تنشأ على نوع من التربية يدفعها بالنتيجة إلى إقامة العدالة بنفسها! والمهمّ أيضاً هو ظهور هذه المسألة فى المجتمع بصورة إراديّة لا قهرية.

والتعبير ب «الميزان» عن القوانين الإلهيّة إنّما هو لدورها المهمّ فى المسائل الحقوقية المشابهة لدور الميزان فى بيان وزن كلّ شىء كما هو عليه، وإنهاء حالة الخلاف والنزاع القائمة، ونظراً لكون القوانين البشرية الوضعية صادرة من علم الإنسان الناقص فلا يمكن الإعتماد عليها ولا يمكنها أبداً تحقيق العدالة، بل ينحصر تحقّق هذا الأمر فى القوانين الإلهيّة النابعة من علم اللَّه تعالى اللانهائى الذى لا يخالطه الخطأ والإشتباه، ذلك العلم الذى تنسجم معه النفس المؤمنة وتركن إليه.

ويوجد أيضاً فريق لا يبالى بأىّ من هذه الامور، بل نراه يضع كلّ شىء تحت قدميه حفاظاً على مصالحه الشخصية، فلابدّ من مقاومة هؤلاء بقوّة السلاح، وما جملة «وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد» المتمّمة لهذه الآية إلّاإشارة إلى هذا الفريق الذى لا يعرف سوى لغة السيف.

ومع أنّ البعض قد ذهب إلى أنّ التعبير ب «أنزلنا» يعنى مجيء الحديد (الصخور الحديديّة) إلى كرتنا الأرضية من الكواكب الاخرى لكن تعبير أنزلنا يأتى أحياناً فى غير الحديد أيضاً فمثلًا فى أنواع الحيوانات كما ورد قوله تعالى «وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ...». (الزمر/ ۶)

وجاءت أيضاً للألبسة التى تغطّى بدن الإنسان حيث قال تعالى «يَا بَنِى آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِى سَوْآتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ». (الاعراف/ ۲۶)

تبيّن هذه الآية أنّ المراد منه هو الخلقة والإبداع الإلهى فى نفس الأرض، ونزول هذه الموهبة الإلهيّة من مقام الربوبية الشامخ إلى مقام الإنسان الدانى، يعبر عنها بأنزلنا وبعثنا.

كما يُشاهد هذا التعبير أيضاً فى المحاورات اليومية، فحينما تصدر أوامر أو تبعث هديّة من رئيس دولة مثلًا إلى مادونه يقال: إنّ هذه الأوامر أو الهديّة قد جاءت من المراتب العليا!

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵

۴- حريّة الإنسان

واشير فى الآية الخامسة إلى بُعد آخر من أبعاد فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام، ألا وهو نجاة الإنسان من مخالب الأسر والاستبداد، يقول تعالى: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ».

إنّ القرآن الكريم يقيم عدّة أدلّة على أحقيّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذكره لهذه الأوصاف:

الأوّل: كونه اميّاً، فهل يمكن عرض كتاب كهذا أو علوم كهذه من قبل شخص لم يحضر حلقات الدرس.

والثانى: هو شهادة الأنبياء عليهم السلام السابقين على حقانية نبوته.

والثالث: إنسجام تعليماته مع أوامر العقل والوجدان (إذ يستحيل إيجاد مذهب ورسالة لها مثل هذا الإنسجام مع حكم العقل والوجدان، والدعوة إلى الإحسان والنهى عن السيّئات والتوجّه نحو الفضائل وترك الرذائل فى محيط ملىء بالخرافات والجهل والجاهلية والفظاظة).

والدليل الرابع: بيان حريّة الإنسان والسعى لإنقاذه من مخالب الأسر فطالما كبل الحكّام الماديّون الإنسان بالأغلال والقيود لتقوية مكانتهم، وأجازوا أنواع العذاب فى حقّه، بل قد سلبوا حرّيته باسم الحرية، ولم تكن هناك مدرسة تنادى بخلاص الإنسان من ظلم الطواغيت وتحريره سوى مدرسة الأنبياء عليهم السلام.

والجدير بالذكر هو أنّ كلمة «إصر» على وزن (مِصْر) التى تعنى عقد الشىء وحبسه وقهره على حدّ قول الراغب فى مفرداته وقد فسّرها البعض بالحبس المؤكّد أيضاً، ثمّ استعملت فى لوازم هذا المعنى «۱» (مثل العهد والميثاق وثقل الذنوب والحبل الذى تربط به الخيام وأمثال ذلك) وجاءت هنا كناية عن أنواع القيود التى تُثقل كاهل الإنسان.

---

(۱) مفردات الراغب؛ ومقاييس اللغة؛ والتحقيق فى كلمات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶

و «الأغلال» جمع «غل» وهى مشتقّة فى الأصل من مادّة «غَلَلْ» المأخوذة من النفوذ التدريجى للأشياء كنفوذ الماء الجارى وسط الأشجار، ونظراً لكون «الغل» هى تلك الحلقة التى تحيط بالرقبة أو بها مع اليد والرجل مجتمعة فقد سمّيت «غلًا» وأحياناً يطلق عليها «الجامعة» لنفس ذلك الغرض أيضاً.

وأكثر ما استعمل القرآن الكريم هذه المفردة للتعبير عن «طوق العنق» ولذا قالوا: هى الأغلال التى فى أعناق الكفّار.

على أيّة حال، فقد وردت هنا كناية عن أغلال الأسر، والغريب إنّ الكثير من المفسّرين قد اعتبر «الإصر» و «الأغلال» إشارة إلى التكاليف الشاقّة التى فرضها اللّه تعالى على اليهود، وإنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد رفعها بشريعته السهلة السمحاء فى حين أنّه لا يوجد أى دليل على هذا التقييد والتخصيص، إذ إنّ للآية مفهوم أوسع حيث شملت كافة أنواع الاثقال المعنوية وقيود الأسر:

قيود عبادة الأوثان والخرافات والعادات والتقاليد الخاطئة.

قيود الجهل والضياع.

قيود أنواع التفرقة والحياة الطبقية.

قيود القوانين الخاطئة.

وقيود الأسر والاستبداد فى مخالب الطواغيت.

لقد أعاد نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وسائر الأنبياء عليهم السلام الحرية الحقيقية إلى الإنسان وذلك برفعهم لهذه الأثقال وفكّهم لتلك القيود والأغلال عنه، فقد منحوه حريّة التفكير والتعبير عن الرأى والتأمّل والتحرّر من عبودية أهواء النفس، التحرّر من قبضة الحكّام الظالمين والتحرّر من شباك الشياطين والطواغيت والتحرّر من سيطرة الخرافات والأوهام وعبادة غير اللّه تعالى.

ومن المسلّم أنّ عدم ارتياح الطواغيت لتحرّر الآخرين هو لرغبتهم فى تسخيرهم لتحقيق أغراضهم الشخصية، ولا زالت- فى عصرنا الحاضر الذى ينطلق فيه شعار حريّة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷

الإنسان فى أقصى نقاط المعمورة- تفرض على الإنسان تلك القيود والأغلال والأثقال المضنية التى تعود إلى العصر الجاهلى وبعناوين ومصطلحات جديدة، فالقوى العظمى تسعى دائماً وبصورة علنية للسيطرة على الشعوب واسترقاقها وتسخيرها مستخدمة كافّة الوسائل العسكرية أو الإعلامية أو بنشر ألوان ونهب ثرواتها الفساد الأخلاقى، وقد بلغ ظهور هذا الأمر اليوم حدّاً يستحيل إنكاره بل لا يكاد يخلو منه التاريخ المعاصر فى كافّة أرجاء المعمورة، وهى تسعى للقضاء على شعارات الحرية الجميلة.

أجل، فإنّ أحد الأهداف الرئيسية من بعثة الأنبياء عليهم السلام هو إنقاذ الإنسان وتخليصه من أسر وقيود العبودية المقيتة.

۵- النجاة من الظلمات

وذكر فى الآية السادسة الهدف وراء البعثة ونزول القرآن المجيد وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور، يقول تعالى: «كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ».

و «الظلمات» نظراً لورودها بصيغة الجمع فانّها تمثل مفهوماً واسعاً وشاملًا لكلّ أنواع الظلمات: ظلمة الشرك والظلم والجهل وهوى النفس، وأنواع الحجب التى تسدل على قلب الإنسان وكذلك الظلمات التى تخيّم على المجتمعات.

فالهدف من نزول الكتب السماوية هو إنقاذ الإنسان من كلّ هذه الظلمات والأخذ بيده نحو نور التوحيد والتقوى والعدل والإنصاف والاخوّة و ...

والملفت للنظر هنا مجيء «الظلمات» بصيغة الجمع و «النور» بصيغة المفرد، وذلك لأنّ طريق التوحيد والحقّ واحد لا يوجد طريق سواه، وهو ذلك الطريق المستقيم الذى يربط بين المبدأ والمعاد فهو يختلف عن طرق الضلال المتشعّبة، فنور الإيمان والتقوى هو أساس الوحدة والإتّحاد، أمّا ظلمات الشرك واتّباع الهوى والطغيان فهى السبب الأساس فى الاختلاف والحيرة والضياع.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸

وحَصْرُ بعض المفسّرين «الظلمات» ب «الشرك»، و «النور» ب «التوحيد» فقط لا يستند إلى دليل، إذ ليس ما ذهبوا إليه إلّاأحد

المصاديق الواسعة للآية.

وبناءً على هذا فأحد أهداف البعثة هو نجاة الإنسان من الظلمات الفكرية والعقائدية والأخلاقية والعملية، وهدايته نحو النور والحياة الواقعية.

ويمكن أيضاً إيراد هذا الهدف فى أهداف التربية والتعليم وإقامة العدل والحرّية، أو العكس، ولكن نظراً لورود كلّ هدف على حدة فى القرآن الكريم، فقد راعينا عرضها بصورة مستقلّة أيضاً.

والنور والهداية لا يختصّان بالقرآن الكريم فحسب بل قد ورد تعبير «النور» فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً فى الآية «وَدَاعِياً إِلَى اللّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً». (الأحزاب/ ۴۶)

والتعبير ب «الناس» بحسب ما ذهب إليه تفسير الميزان، هو لبيان أنّ الهدف من بعثة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هو لهداية عامّة الناس (فى كلّ زمان ومكان ما دامت السماوات والأرضون) والتعبير ب «بإذن ربّهم» هو لبيان أنّ هداية الأنبياء عليهم السلام هى فى الواقع جزء من «ربوبية البارى جلّت قدرته» وفى مساره الذى يرتضيه هو، انسجام الربوبية فى عالم التشريع مع ربوبيته فى عالم التكوين.

۶- البشرى والإنذار

مع أنّ الترغيب بأنواع الهِبات والمكافئات المادّيّة والمعنوية الإلهيّة والترهيب والانذار من العقاب الشديد النفسى والبدنى هما الطريق إلى التربية والتعليم، والعامل المساعد للاخراج من الظلمات إلى النور، لكن نظراً لتركيز القرآن الكريم عليهما كثيراً يمكن اعتبارهما أحد أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام.

وفى الآية السابعة من آيات البحث تمّت الإشارة إلى هذا الأمر إذ قال تعالى: «وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹

هذه الآية ونظائرها التى تعتبر «بشارة» و «إنذاراً» هى بمثابة برنامج رئيسى للأنبياء عليهم السلام، وتعدّ أيضاً رداً على اولئك الذين يعتبرون الأنبياء عليهم السلام آلهة ويرجون منهم إظهار كلّ أنواع القدرة الإلهيّة، وعلى اولئك الذين انكروا دعوتهم وخالفوهم فى مسيرتهم إذ يؤكّد اللّه تعالى أنّ وظيفة الأنبياء عليهم السلام هى البشرى والإنذار فقط، أمّا باقى الامور فهى موكولة إليه تعالى وأنّ الهداية مرتبطة بالناس أنفسهم كما فى الآية: «فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» «وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» ففى الواقع يمكن حصر كلّ الدوافع الإنسانية فى هاتين الجملتين المعروفتين: «جلب المنفعة» و «دفع الضرر»، (الأعمّ من المادية والمعنوية)، وقد ركّزت «البشارة» و «الإنذار» عليهما، كما أنّهما بمثابة الأساس الذى تعتمد عليه كلّ تربية إلهيّة وبشرية مادية ومعنوية.

البشارة لا تكفى لوحدها وكذلك الإنذار، بل لابدّ من حاكميتهما معاً على حياة الإنسان وفى كلّ مراحل التربية منذ نعومة أظفاره حتّى الرمق الأخير، والذى يلتزم بإحداهما دون الاخرى سيفشل فى برامجه، إذ كما أنّ التشويق يعدّ عاملًا محرّكاً، فكذلك التهديد يعدّ رادعاً قويّاً بالنسبة للمعاندين.

۷- إتمام الحجّة

من الطبيعى إنّ فريقاً من الأنانيين والمتغطرسين المعاندين الذين يرون دعوة الأنبياء عليهم السلام مخالفة لأغراضهم الشخصيّة يمتنعون عن قبولها ويقفون منها موقفاً سلبياً، ولو أنّ اللّه سبحانه وتعالى لم يبعث نبياً فمن الممكن أن يدعى هؤلاء ادّعاءات وحجج واهية، من بينها، أنّ اللّه سبحانه وتعالى لو بعث نبياً لاستقبلناه بصدور رحبة ولآمنا برسالته وبما يقول، إلى غير ذلك من الادعاءات الكاذبة.

وعلى هذا الأساس فإنّ أحد أهداف بعثة الأنبياء هو إلقاء الحجة على هذه المجموعة على كافة المعاندين، وأنّ إلقاء الحجّة هذا، يمثل

أولًا: العدل الإلهى بالشكل الواضح والدقيق.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰

وثانياً: يقطع على أهل الكذب الطريق ويحول دون تقديمهم الحجج والادّعاءات الجوفاء، أو بتعبير علمى أدقّ فإنّ مسألة استحقاق الجزاء بالنسبة لهذه المجموعة تخرج من إطار «الاستعداد والقوة» إلى حَيّز «الفعلية».

ولذا قال تعالى: «رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ»، كما ورد نظير هذا المعنى فى آيتين أخريين يتّحد مضمونهما فى قوله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى . (طه/ ۱۳۴)

وورد قريب من هذا المعنى فى قوله تعالى: «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». (القصص/ ۴۷)

۸- رفع الاختلاف

المجتمعات البشرية كانت ولا تزال تعانى الأمرّين من الاختلاف وتحترق بناره، وتضيّع المزيد من القدرات والإمكانات الهائلة بسببه، تلك الإمكانات التى لو وضعت فى مكانها المناسب لغدت الدنيا جنّة الفردوس.

ومن جهة اخرى فإنّه من المُسلّم أنّ الناس لا يستطيعون تسوية الاختلافات التى تقع بينهم، وذلك بسبب قصور ومحدودية علمهم بكل جوانب الحياة، بالإضافة إلى الأنانية والتكبر الذى يمنعهم من الاذعان والركون إلى بعضهم البعض.

أمّا الأنبياء عليهم السلام الذين ينبع علمهم من بحر علم اللّه تعالى اللامتناهى والذى لا يُقارَن بمستوى علم البشر، فإنّهم يتمكّنون من أداء دور فعّال فى حلّ تلك الاختلافات وإزالتها.

صحيح أنّ عالم المادّيات هو عالم الحجب، إذ لا يمكن رفع الاختلافات كليّاً بين الناس بأىّ طريقة، ولكنّه من المؤكّد إمكان إزالتها نسبيّاً فى ظلّ تعاليم الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱

ولذا أشارت الآية التاسعة من البحث إلى هذا الهدف، قال تعالى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ».

و «الامّة»: فى الأصل على ما ذهب إليه الراغب فى مفرداته تطلق على كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا أن يكون دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع قسريّاً أو اختياريّاً، وجمعها امم.

لكنّ هذه اللفظة وردت بمعنى العقيدة أيضاً: «بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ* وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ». (الزخرف/ ۲۲- ۲۳)

وأحياناً جاءت بمعنى نفس الزمان قوله تعالى «وَقَالَ الَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ». (يوسف/ ۴۵)

وكذلك قوله تعالى «وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ». (هود/ ۸)

وفى الآية مورد البحث يبدو أنّ «الامّة» جاءت بمعنى الجماعة الواحدة.

لكن ما هى هذه الامّة الواحدة التى عاشت فى بداية الخلقة يا ترى؟ وما هى عقيدتها؟ يوجد بين المفسّرين حديث طويل وعريض حول هذا الموضوع، ولهم احتمالات عديدة فى تفسير لفظ «الامّة» ومصيرها، وأهمّها ثلاثة احتمالات:

الأوّل: أنّها كانت امّة مهتدية، وكانت هدايتها نابعة من الفطرة الإلهيّة المودعة لديها، ثمّ اختلفت ذلك الاختلاف الناشىء من علمها

المحدود، وذلك لعجز أحكام الفطرة والمستقلات العقلية عن الأخذ بزمام الامور لوحدها، ومن هنا بعث اللّه تعالى الأنبياء عليهم السلام إلى البشرية لتخليصها من مشكلة الاختلافات الناشئة من الجهل ومحدودية معرفتها.

فبعث اللّه الأنبياء عليهم السلام ووضعوا حدّاً لهذه الاختلافات وبيّنوا الحقائق، لكنّه ظهر بعد ذلك اختلاف آخر نشأ من البخل والظلم والفساد، وهنا أيضاً شملت الألطاف الإلهيّة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲

المؤمنين المخلصين، فسلكوا الطريق إلى الحقّ مهتدين بنور إيمانهم وتقواهم إلى أن بلغوا الصراط المستقيم، بينما بقى الآخرون غارقين فى ظلمات الاختلاف.

وطبقاً لهذا التفسير، فالامّة الواحدة التى ظهرت أوّلًا كانت على الحقّ، لكنّ محدودية إدراك العقل البشرى كانت سبباً فى الاختلافات، ثمّ أعلن الأنبياء عليهم السلام عن خاتمة هذه الاختلافات عن طريق الوحى المعصوم من الخطأ، لكنّ هوى النفس والميول والتكبّر والعجب كان السبب وراء بروز اختلافات جديدة، ولم ينج من هذه الاختلافات سوى المؤمنين الصالحين.

والدليل على هذا التفسير هو مضمون الآية التى تذكر نوعين من الاختلاف فى الامّة، الاختلاف الذى كان السبب فى بعثة الأنبياء عليهم السلام وذلك لرفعه، والاختلاف الذى ظهر بعد نزول الكتب السماوية والبيّنات، أمّا إصرار بعض المفسّرين على كون هذه الامّة الواحدة ضالّة منحرفة بمجموعها منذ البداية، لا ينسجم مع لحن الآية وفطرةِ الإنسان التوحيدية التى يصرّح بها القرآن (خصوصاً تلك الفطرة الملموسة عند الناس السذّج فى أوّل الخلقة الذين لم تكن الميول والرغبات النفسانية قد هيمنت عليهم بشكل خطير بعد).

أمّا فيما يتعلّق بالعصر الذى استوعب المجتمع البشرى الأوّل الذى عبّر عنه القرآن ب «الامّة الواحدة»، فقد ذهب البعض إلى أنّه إشارة إلى الفترة ما قبل بعثة نوح عليه السلام وبعد هبوط آدم عليه السلام وبناءً على هذا ف «الامّة الواحدة» هى نفس تلك الامّه التى ظهرت منذ زمن تناسل ذرّية آدم عليه السلام، والتى كان الإيمان والتوحيد حاكمين عليها إلى أن اتّسعت فيها آثار الشرك يوماً بعد آخر، بسبب الجهل وقلّة المعرفة، ممّا هيّأ الأرضية المناسبة لرسالة نوح عليه السلام.

ومن الطبيعى أنّ استثناءً من قبيل وجود «قابيل» بين أولاد آدم عليه السلام لا يحول دون إطلاق كلمة «الامّة الواحدة» على مجموعة أولاده، وهناك احتمالات اخرى حول هذا الموضوع لا تفى بالغرض بحسب الظاهر.

على أيّة حال يستفاد من مجموع ما جاء حول تفسير الآية أعلاه أنّ أحد أهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام هو رفع الاختلافات الناشئة من جهل الناس، ولا يخفى أيضاً أنّ الاختلافات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳

الناشئة من هوى النفس والعجب والتكبّر ستبقى ما بقى الإنسان بالرغم من أنّ الأنبياء عليهم السلام قد خفضوا من نسبتها بتعليماتهم القيّمة.

۹- التذكير (بالنسبة للبديهيات والمستقلات العقليّة)

تمّت الإشارة فى نفس هذه الآية إلى أنّ أحكام الأنبياء عليهم السلام وتعليماتهم تؤيّد أحكام العقل وتدعمها، وهذه بنفسها أحد أهداف بعثتهم.

وتوضيح ذلك: إنّ الإنسان يدرك الكثير من «حقائق» الكون وكذلك «ما ينبغى» و «ما لا ينبغى» بواسطة عقله، لكنّ هناك وساوس مزمنة كامنة فى هذه الإدراكات العقلية، خصوصاً إشكالات السوفسطائيين أو الطوائف المنكرة للحسن والقبح العقليين وأمثالها التى تؤدّى إلى إضعاف العقل وبالتالى النظر إلى هذه الإدراكات والمستقلّات العقلية نظرة سلبية.

وهنا يستوجب اللطف الإلهى إرسال الأنبياء عليهم السلام ليؤكّدوا ضمن دعوتهم إلى اللّه تعالى صحّة الإدراكات العقليّة وعلى أنّ

الفتن الواقعية إنّما هى من فعل العقل البشرى، وذلك من خلال بياناتهم الصادرة من الوحى السماوى، ويقطعوا الطريق أمام الوساوس التى تعترض هذه الإدراكات.

هذا هو الذى عبّر عنه القرآن ب «التذكّر»، يقول تعالى فى الآية مورد البحث: «هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ» والتعبير ب «الذكر» كثير جدّاً فى القرآن، ومجموع ما ذكر إثنتان وخمسون مرّة فى مختلف الآيات والتى تشير أغلبها إلى القرآن الكريم.

أمّا التعبير ب «ذكّر» (مخاطبة النبى بصيغة الأمر) فقد جاء فى ستّة موارد، وتعبير «يتذكّر» فى ثمانية موارد، و «تذكّرون» فى سبعة عشر مورداً، و «يتذكّرون» فى سبعة موارد، وما أكثر مشتقّات هذه المادّة فى القرآن الكريم والتى تبيّن بمجموعها أنّ قسماً عظيماً من تعليمات الأنبياء عليهم السلام لها صبغة تذكّرية وإعادة المنسيّات إلى الأذهان على أقلّ تقدير.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴

يستفاد من كلمات بعض أرباب اللغة أنّ «الذكر» لا- يعنى العلم والمعرفة، بل يعنى «إعادة الإطّلاع على الشىء»، يقول الراغب فى مفرداته بعد مقارنته بين «الذكر» و «الحفظ»: «التفاوت بينهما هو أنّ الحفظ يقال اعتباراً بالإحراز، والذكر يقال اعتباراً بالإستحضار»، ثمّ يضيف قائلًا: الذكر ضربان: ذكر عن نسيان وذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ.

وهذا التعبير يبيّن أنّ الذكر هو فى كلّ الأحوال نوع من الإلتفات المستأنف للشىء الذى كان ساكناً فى الذهن سابقاً، سواء كان بعد النسيان أم لا، وقد ورد «الذِكر» بمعنيين أيضاً فى «مقاييس اللغة»: الأوّل إشارة إلى الجنس المذكّر فى قبال الجنس المؤنث، والثانى ما يقابل النسيان.

إنّ هذه التعابير القرآنية يمكنها أن تكون إشارة إلى ما ذكر أعلاه، وهو أنّ الإنسان يدرك سلسلة من الحقائق عن طريق العقل، كما ويحصل على القسم الأعظم من (ما ينبغى) و (ما لا ينبغى) الذى يعدّ من المستقلّات العقلية كحسن أنواع الإحسان وقبح أنواع الظلم والفساد، لكنّ الشكّ والترديد يراود هذه البديهيات أحياناً بسبب وساوس الشياطين.

وهنا يأتى دور الأنبياء عليهم السلام لمساعدة الناس وتأييد هذه الإدراكات العقلية، إذ يبطلون مفعول هذه الوساوس، أو بعبارة اخرى يعيدون هذه الامور إلى الأذهان.

بعض الفلاسفة كأفلاطون وأتباعه يعتبرون العلوم الإنسانية ضرباً من الذكريات، ويعتقدون بأنّ الروح الإنسانية قبل نزولها إلى هذا العالم كانت تدرك كلّ هذه الحقائق ولكن حجب عالم المادّة تسبّبت فى نسيانها «۱» وبناءً على هذا فالتعلّم والتعليم سواء أكان عن طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام أم عن طريق التجربة وشرح الاستاذ لا تخرج عن كونها ضرباً من التذكّر والتذكير ليس إلّا.

ومن البديهى عدم وجود دليل واضح يدعم هذا الإدّعاء بهذه السعة، بل الصحيح هو ما تقدّم أعلاه من أنّ قسماً من معلومات الإنسان تحصل عن طريق الفطرة أو العقل، وأحياناً

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع راجع «سير حكمت در اروپا» ج ۱ ص ۲۳، مبحث فلسفة أفلاطون (بالفارسية).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵

تودع فى زاوية النسيان والإهمال، أو تجد الوساوس طريقها إليها، فمهمة الأنبياء عليهم السلام حينئذ بالإضافة إلى تعليم الناس مسائل جديدة، من شأنها تقوية بنية مثل هذه الأحكام الواقعية و تنقيتها من الوساوس التى تخالطها.

كما يستفاد من الآية الآنفة الذِكر أنّ دور الأنبياء عليهم السلام يكمن فى أربعة أمور، الأوّل: إبلاغ الدعوة الإلهيّة للبشرية جمعاء، والثانى: إتمام الحجّة، والثالث: الإنذار (والتبشير)، وأخيراً التعليم والتذكير وقد تمّت الإشارة إليها فى الآيات السابقة أيضاً.

۱۰- الدعوة إلى الحياة الإنسانية الطيبة

لقد أشارت الآية الحادية عشرة من آيات بحثنا هذا إلى نقطة اتفقت عليها الاهداف التى سبقت الاشارة إليها من بعثة الأنبياء، وهى أنّ الأنبياء عليهم السلام دعوا أفراد البشر لكى يحيون حياة طيبة حقيقية وشاملة لكل متطلبات العيش.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ».

وهذا التعبير هو أقصر وفى نفس الوقت أشمل تعبير ورد بحقّ دعوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله (ودعوة كافّة الأنبياء عليهم السلام) والذى يؤكّد على أنّ هدف البعثة هو الحياة فى كافّة أبعادها:

الماديّة والمعنوية والثقافية والاقتصادية والسياسيّة والأخلاقية والاجتماعية.

مع أنّ الحياة فى آيات القرآن قد وردت بمعنى الحياة النباتية فى قوله تعالى «اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ». (الحديد/ ۱۷)

وأحياناً الحياة الحيوانية فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِىأَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ». (فصلت/ ۳۹)

لكنّها وردت هنا بمعنى الحياة الإنسانية، قال تعالى (فى بعض المؤمنين الذين آمنوا):

«أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ...». (الأنعام/ ۱۲۲)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶

وبناءً على هذا فلو رأينا البعض يعتبر الآية المعنية ناظرة إلى «الجهاد» لوحده باعتباره العامل الاساسى فى حياة الامم، أو «الإيمان باللَّه» أو العلم والمعرفة أو الحياة الاخروية، فهم فى الواقع إنّما يحدّدونها فى بعض مصاديقها فحسب، وإلّا فمفهومها أوسع وأشمل من هذه كلّها.

والملفت للنظر أنّ الحياة فى هذه الآية قد فسّرت فى الروايات «۱» بمعنى ولاية على بن أبى طالب عليه السلام، وهى فى الحقيقة أحد مصاديقها الهامّة وذلك لأنّ ولايته عليه السلام هى السبب للدعوة إلى الإسلام فى كافّة المجالات، فولايته دعوة إلى العلم والزهد والتقوى والإيثار والإخلاص.

ثمرة البحث:

بالإمكان إدغام واختصار الأهداف العشرة من بعثة الأنبياء والمذكورة سابقاً فى ستة اهداف، وهى: «التعليم، تهذيب النفوس، اقامة القسط والعدل، الحرية، اقامة الحجة ورفع الاختلافات»، ولكن بالنظر لأهميّة الموضوع فإنّ القرآن الكريم تناول كل واحدة منها على حدة، ونتيجة لذلك فإنّه يبدو واضحاً أنّه لولا الأنبياء واديانهم السماوية والتعاليم المقدسة التى جاءوا بها، ومنذ اليوم الأول لنشأة المجتمع الانسانى، فأى مصير مظلم سوف ينتظر الانسانية؟

و فى عصرنا الحاضر، أىّ عالم رهيب ومخوف سوف يصبح فيه عالم اليوم لو تنكر الانسان لتعاليم الأنبياء والتزم بالقيم الجوفاء البعيدة عن الرحمة والنورانية وجعلها بديلًا للقيم الإلهيّة التى جاء بها الأنبياء فى دعواتهم وتعاليمهم، وكما هو متعارف اليوم فى بعض دول العالم؟!

كما يمكن الإستنتاج من الشرح أعلاه أنّ الدين والمذهب على خلاف ما يراه الكثير من

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۴۱، ح ۵۰ و ۵۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷

البسطاء وذوى النظر الضيق، أنّه لم يعد مسألة شخصية خاصّة، بل حقيقة لها وجودها ودورها الفاعل فى كافّة أبعاد حياة الإنسان، وأنّها تضيف على كافّة شؤون الحياة صبغة إلهيّة وإنسانيّة.

إنّ الشعار الذى ترفعه اليوم كلّ القوى العظمى فى العالم أى الدول التى يصطلح عليها بالمتطوّرة، هو الحفاظ على منافعها الخاصّة، فكل خطوة تخطوها تعلن بكلّ صراحة أنّها إنّما تخطوها لأجل المنافع الماديّة للدولة، وليس من الغريب أن يكون عالم كهذا بؤرة للأزمات ومركزاً للصراعات وأنواع الظلم والإعتداء، ونقض العهود والإستعمار واستغلال المستضعفين، وذلك لأنّ هدفهم الرئيسى هو حفظ المصالح الشخصيّة والوطنية لا حفظ المثل والقيم كالعدالة الاجتماعية وإقامة القسط والحرّية والأخلاق الإنسانية، إذ إنّ مثل هذه القيم لا توجد إلّابمعيّة دعوة الأنبياء عليهم السلام ولا غير.

توضيحات

۱- فلسفة بعثة الأنبياء والرسل فى الروايات الإسلامية

ما تقدّم فى الآيات المذكورة حول اهداف بعثة الأنبياء عليهم السلام وعللها، قد تمّ ذكره فى الروايات الإسلامية أيضاً وبتعابير اخرى لا تخلو بنفسها من فائدة قصوى، وكنموذج على ذلك يمكن التأمّل فى البعض من الروايات أدناه والتى تنظر كلّ واحدة منها إلى هدف واحد أو أكثر:

۱- ورد فى الحديث: عندما أعلن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله عن دعوته، جاء أشراف قريش إلى أبى طالب وقالوا له: ياأبا طالب، إنّ ابن أخيك يتّهمنا بالسفه ويطعن فى آلهتنا ويفسد شبابنا ويحدث التفرقة بيننا لو كان يبغى مالًا لجعلناه أغنى رجال قريش أو جاهاً لأمّرناه علينا! فذهب أبو طالب إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأخبره بذلك، فقال صلى الله عليه و آله: «لو وضعوا الشمس فى يمينى، والقمر فى يسارى ما أردته، ولكن كلمة يعطونيها يملكون بها العرب

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸

وتدين بها العجم ويكونون ملوكاً فى الجنّة.

فقال لهم أبو طالب ذلك، فقالوا: نعم، وعشر كلمات، فقال لهم رسول اللَّه: تشهدون أن لا إله إلّااللَّه وأنّى رسول اللَّه» «۱».

هذا الحديث يكشف بكلّ وضوح أنّ قبول دعوة الأنبياء عليهم السلام يعدّ فى الحقيقة نصراً فى الدارين وعزّاً وحرّية وحياة راضية مرضيّة.

۲- وفى حديث آخر عن هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السلام روى أنّه عليه السلام وفى معرض الردّ على سؤال أحد الكفّار والزنادقة حول الغرض من بعثة الأنبياء عليهم السلام قال: «إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً متعالياً لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا يلامسوه، فيباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه ثبت أنّ له سفراء فى خلقه يعبّرون عنه إلى خلقه وعباده ويدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفى تركه فناؤهم» «۲».

۳- ورد فى نهج البلاغة بيان جذّاب لأميرالمؤمنين عليه السلام حول فلسفة بعثة الأنبياء عليهم السلام حيث يقول: «فبعث فيهم رسله، وواتر إليهم أنبياءَه، ليستأدوهم ميثاق فطرته، ويذكروهم منسىّ نعمته ويحتجّوا عليهم بالتبليغ، ويثيروا لهم دفائن العقول» «۳».

۴- وفى حديث آخر جاء عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّما بعثت لُاتمّم صالح الأخلاق» «۴»، وقريب من هذا المعنى ورد فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «بعثت لُاتمّم مكارم الأخلاق» «۵».

۵- جاء عن الإمام على عليه السلام فى كتاب فروع الكافى أنّه خطب ذات مرّة فقال فيما قال: «أمّا بعد فإنّ اللَّه تبارك وتعالى بعث محمّداً صلى الله عليه و آله بالحقّ ليخرج عباده من عبادة عباده

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص، ۴۴۲، ح ۷؛ وفى ترجمة على بن إبراهيم ج ۲ ص ۲۲۸.

(۲) اصول الكافى، ج ۱ ص ۱۶۸، كتاب الحجّة باب الاضطرار إلى حجّة، ح ۱.

(۳) نهج البلاغة، الخطبة ۱.

(۴) طبقات ابن سعد، ج ۱، ص ۱۹۲ (ط. بيروت).

(۵) كنز العمّال، ج ۱۱، ص ۴۲۰، ح ۳۱۹۶۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹

إلى عبادته ومن عهود عباده إلى عهوده، ومن طاعة عباده إلى طاعته، ومن ولاية عباده إلى ولايته، بشيراً ونذيراً وداعياً إلى اللَّه بإذنه وسراجاً منيراً» «۱».

۲- الغاية من إرسال الرسل فى التصور العقلى

أ) عجز الإنسان عن التقنين الدقيق

هناك علاقة وثيقة وواضحة جدّاً بين بعثة الأنبياء عليهم السلام والهدف من خلق الإنسان، ولا يمكن لأحد الجمع بين الإيمان باللَّه وبين إنكار حكمته فى كلّ الكون، خصوصاً خلقة الإنسان، بناءً على هذا فلابدّ من وجود هدف وراء خلق الإنسان، وليس هذا الهدف سوى تربية مخلوق كامل يشعّ منه نور من صفات جمال الحقّ وجلاله، ويليق بنيل القرب الإلهى.

ومن البديهى أنّ تربية موجود كهذا بدون تخطيط دقيق ومسبق فى كافّة أبعاد الحياة غير ممكن، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فهذه البرامج ليست بتلك السهولة التى يمكن للإنسان الإحاطة بجميع أبعادها مستعيناً بعقله الناقص ولعدم تمكّن الجميع من التعامل مع الوحى الإلهى بصورة مباشرة.

ويُفهم من هذه المقدّمات التى اشير إلى كلّ منها بصورة مختصرة، بداهة أن يختار اللَّه تعالى نوّاباً من قبله ليحملوا مشعل الهداية الإلهيّة إلى المجتمع البشرى ليخرجوه من الظلمات إلى النور، ومن النقص إلى الكمال، ومن الجهل إلى العلم، ومن الإنحراف إلى التقوى ومكارم الأخلاق، ولا يخفى أنّ عدم تحقّق بعثة الأنبياء يؤدّى إلى عبثية خلق الإنسان وانتفاء الغاية والهدف.

وحيث إنّ الإنسان مدنى بالطبع يستأنس بالحياة الاجتماعية، فقد أودع اللَّه تعالى حبّ مثل هذه الحياة فى باطنه ليقوده عن طريقها نحو الهدف الأسمى، إذ إنّ محدودية القوّة البدنية والفكرية للإنسان المنزوى لا يمكن إنكارها، فلو عاش لوحده بعيداً عن أفراد نوعه لما وجدت هناك حضارة ولا اختراع واكتشاف ولا علوم ومعارف، إذ إنّ اجتماع

---

(۱) فروع الكافى، ج ۸، ص ۳۸۶، ح ۵۸۶.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰

وتلاقح عقول وأفكار وتجارب بنى الإنسان هى السبب وراء ظهور قوّة عظيمة وتوفير الأرضيّة المناسبة للحركة التكاملية فى تمام الجوانب الماديّة والمعنوية وبسرعة خاطفة.

فلو عاش الإنسان على انفراد لبقى لحدّ الآن فى العصر الحجرى، ولما تعلّم القراءة والكتابة على أكبر الظنّ، فضلًا عن كلّ هذه العلوم

والإختراعات والإكتشافات، وخلاصة القول هى أنّ أكبر إنجازين للإنسان هما حريّة التفكير، والتمتّع بالإبتكار والابداع والاختراع، فضلًا عن الرغبة فى حياة اجتماعية فى المرحلة المتقدّمة.

لكنّ من الواضح جدّاً أنّ الحياة الجماعية مع كلّ ما تحمله من بركات هى السبب من جهة اخرى وراء خلق المشاكل والمصادمات والازمات وتعارض الأهواء الشخصية، وإنّ طىّ المسير التكاملى إنّما يتسنّى لذلك المجتمع الذى تشخّص فيه واجبات كلّ فرد وحقوقه، ومن هنا تظهر الحاجة إلى سنّ القوانين الاجتماعية وتنظيم حقوق أفراد المجتمع، فالقانون هو الذى يعيّن واجبات كلّ فرد بالضبط كما يعيّن حقوقه، وأخيراً يقدّم خطّة القضاء على المشاكل وحلّ الخصومات ويبيّن كيفيّة مواجهة التخلّفات والانحرافات.

وبناءً على هذا فالحياة الجماعية بدون القانون السليم والنظام الصحيح هى أسوأ من الحياة الفردية بعدّة مراتب، وذلك لزوال منافع المجتمع وبسبب التناقضات.

ولبّ الكلام يكمن فى السؤال عن الطرف الذى يسنّ هذه القوانين، فهل هو الإنسان أم الخالق؟

ويمكن الإجابة عن هذا السؤال بتحليل مختصر: وهو أنّ المقنن الكامل يجب أن يتمتّع بالشروط أدناه ليتمكّن من سنّ أفضل قانون:

١- يجب قبل كلّ شىء أن يكون المقنّن خبيراً بالإنسان عالماً بكلّ أسرار جسمه ونفسه وعواطفه وغرائزه وميوله وأهوائه وأمانيه وفطرته وإدراكاته العقليّة، وكذلك محيطاً بكلّ الاصول الحاكمة على الروابط التى تجمع الناس مع بعضهم البعض ليتمكّن على ضوئها من وضع قوانين تنسجم معها.

٢- يجب أن يكون له علم تامّ بالماضى والمستقبل البعيدين، ليقف على جذور مسائل

اليوم المعقّدة من خلال الماضى، ويتمكّن من تقييم آثار قوانين اليوم على مستقبل الحياة البشرية، نظراً لاستحالة إمكانية حلّ مشاكل اليوم مع الجهل بجذورها الماضية، كما هو الحال تماماً فى استحالة فائدة قوانين اليوم مع عدم الأخذ بنظر الإعتبار مضاعفاتها فى الغد (تأمّل جيّداً).

٣- المقنّن المناسب يجب أن يتمتّع ب «علم كامل» ليتمكّن عن طريق قوانينه من إخراج كلّ القابليات والإمكانات والاستعدادات الكامنة فى داخل أفراد المجتمع إلى حيّز الوجود، ويُضفى الفعلية على ما هو كامن فى طبيعة الإنسان بالإمكان والقوّة، ويغذّى المجتمع بأكبر قدر ممكن من الإنجازات وبأقلّ ثمن يكلّف طبيعة الحياة الجماعية.

۴- يجب أن تكون القوانين ذات جنبة واقعية لا خيالية، وتتمتع بضمان تنفيذها بشكل وافٍ من قبل مؤيّديها، وبعيدة عن التعقيد ليسهل على الجميع إدراكها.

۵- المقنّن الحقيقى هو الذى لا يرتكب ذنباً وخطأً وسهواً، فضلًا عن ضرورة كونه رحيماً باولئك الذين تُسنّ لهم القوانين، وحازماً قوى الإرادة وشجاعاً فى نفس الوقت.

۶- المقنّن اللائق من ليست له مصلحة شخصية فى ذلك المجتمع، لأنّها إنّما تشغل فكر المقنّن وتجلبه نحوها، إذ إنّه لو تمكّن على سبيل المثال من اجتناب آثارها الظاهرة للعيان لعجز عن الوقوف على آثارها المخفية بالتأكيد، وإنّ أكبر معضلة لعالم اليوم، والتى تسبّبت فى خلق المواجهات والمشاحنات الدامية هى هذه القوانين التى تسنّ من قبل ما يصطلح عليهم بمفكّرى كلّ مجتمع على حده، إذ كلّ واحد منهم لا يأخذ بنظر الاعتبار سوى منافعه الشخصية أو منافع أتباعه ووطنه، وبديهى أنّ مثل هذا التكبّر والأنانية وضيق النظر لا يحمل معه سوى زيادة فى حدّة الصراعات والمواجهات.

وهل تتوفّر ياترى هذه الحيثيّات الستّ المتقدّمة فى غير ذات البارى جلّت قدرته؟

الذى لا نهاية لعلمه بالماضى والمستقبل المحيط بجذور وأسرار كلّ شىء وكلّ موضوع ونتائجه والذى لا يجد الخطأ والسهو والإشتباه طريقاً إلى ذاته المقدّسة.

وأخيراً هو الذى لا يحتاج لشىء ولا لأحد لضمان منافعه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۲

ومن هنا نستدلّ على نقص وعدم جدوى كلّ قانون غير قانون اللَّه تعالى، بل كلّ حكم دون حكمه تعالى زائل لا محالة ولا يمكن الاعتماد عليه، وحينما ندقّق النظر القويم نجد أنّ كلّ مشاكل الإنسان ومعضلاته نابعة من رغبته فى سنّ قانون لنفسه اعتماداً على علمه المحدود، وبدوافع هوى النفس! وهذا هو أحد الأدلّة العقليّة على لزوم بعثة الأنبياء عليهم السلام.

ب) التنسيق بين التكوين والتشريع

يمكن توضيح مسألة ضرورة بعثة الأنبياء عليهم السلام عن طريق منطق وبيان آخر وهو أنّ إلقاء نظرة واحدة على عالم الخلقة كافية لإدراك حقيقة أنّ خالق الكون ومن أجل إيصال كلّ موجود إلى كماله النسبى، قد وضع تحت تصرّفه كلّ ما يحتاجه وأزال عن طريقه كلّ الموانع، ولم يقتصر على اللوازم الضرورية لطى هذا الطريق، وإنّما منحه ما يحتمل كونه عاملًا مساعداً لبلوغ هذا الهدف وإن لم يكن ضرورياً، فالطائر الذى خلق ليطير مثلًا، نراه يتمتّع بهيكل يسهّل عمليه طيرانه من كافّة الجهات فضلًا عن أجنحته القويّة التى تكسبه قدرة عظيمة على التحليق عالياً.

وعندما منح الإنسان عينين لمشاهدة المناظر المختلفة، فلم يكتف بالأعضاء الضرورية التى تستحيل الرؤية بدونها، بل وضع تحت اختياره الكثير من الأعضاء التكميليّة إذ زوّد العين ب «الأهداب» للحؤول دون دخول ذرّات الغبار، ووضع فى سقف الأجفان «غدداً دهنية» لتبقى رطبة دائماً وجهّز العيون ب «غدد دمعية» ليبقى سطح العين رطباً دائماً لئلّا تحدث حركة الأجفان أدنى جرح فيها، وأوجد «الحاجبين» كالسدّ فوق العينين لإكمال عملهما ولكى تمنع نزول العرق من الجبين عليهما، وزوّد كرة العين ب «عضلات» تمكّنها من الحركة إلى الجهات الستّ بحريّة.

كما أنّ بالإمكان الوقوف على الكثير من هذه النماذج فى عالم الخليقة كلّه.

وهنا يرد هذا السؤال وهو أنّه هل يمكن للخالق الذى وضع كلّ هذه الوسائل المتطوّرة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۳

تحت تصرّف الموجودات فى عالم التكوين (الخلقة) أنّ يغضّ النظر عن إرسال الأنبياء عليهم السلام والدور المهمّ لهذه البعثة فى طريق تكامل النوع البشرى وتحقيق الهدف من حياته فى كافّة أبعادها الماديّة والمعنوية كما تقدّم ويحرم المجتمع الإنسانى من هذه الموهبة العظيمة؟!

أشار الشيخ الرئيس ابن سينا فى كتاب «الشفاء» إلى هذه الحقيقة بعبارة مختصرة وتمثيل رائع حيث قال:

«فحاجة الإنسان إلى هذا «بَعْثِ الرُّسُلِ» فى أن يبقى نوع الإنسان ويتحصّل وجوده، أشدّ من الحاجة إلى انبات الشعر على الحاجبين وتقعير الأخمس من القدمين وأشياء اخرى من المنافع التى لا ضرورة فيها فى البقاء ... فلا يجوز أن تكون العناية الأزلية وتقتضى تلك المنافع ولا تقتضى هذه التى هى اسّها» «۱».

وقد بيّن هشام بن الحكم التلميذ المعروف للإمام الصادق عليه السلام هذا الاستدلال بشكل آخر ل «عمرو بن عبيد» العالم السنّى المعروف وقد سبق ابن سينا بذلك، ومن جملة ما ذكر فى هذه المحاورة: «.. قلت:- لابدّ من القلب وإلّا لم تستيقن الجوارح؟ قال: نعم. فقلت له:

ياأبا مروان فاللَّه تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتّى جعل لها إماماً يصحّح لها الصحيح ويتيقّن به ما شكّ فيه، ويترك هذا الخلق كلّهم فى حيرتهم وشكّهم واختلافهم، لا- يقيم لهم إماماً يردّون إليه شكّهم وحيرتهم ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكّك؟! قال: فسكت ولم يقل لى شيئاً» «۲».

ج) التربية العلمية

الطريق الثالث الذى يمكننا أن نستفيد منه للحصول على تحليل منطقى لمسألة علّة إرسال الرسل، هو أن تربية الإنسان لها بعد علمى قبل أن يكون لها بعد وجانب عملى.

---

(۱) الشفاء، الإلهيات، المقال ۱۰، الفصل ۲، ص ۴۴۱.

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۶۹، كتاب الحجّة، باب الإضطرار إلى الحجّة، ح ۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۴

والشرط فى موفّقية المربّى فى مهمّته أنّ يتمكّن من الظهور كقدوة متكاملة فى تطبيق تعليماته من الناحية العملية فضلًا عن التربية اللازمة، وأن يعكس كلّ المسائل التربوية من خلال صفاته وأخلاقه وتصرّفاته، ولا يمكن هذا إلّاأن ينتخب الأنبياء عليهم السلام من جنس البشر كقدوة حسنة، فيعكسوا صفات الإنسان الكامل وسلوكه من الناحية العملية ليقتدى بهم الناس، ويسيروا على خطاهم فيقطعوا هذا الطريق الملىء بالعثرات والعقبات بقيادتهم.

وبعبارة اخرى: هناك فى وجود الإنسان شىء اسمه روحية «المحاكاة» أى أنّه ينجذب بصورة لا إرادية نحو ما يراه فى أفراد جنسه، وهذا الإحساس طبعاً لا يبلغ مرتبة الدافع القهرى بل هو بمثابة الأرضية المناسبة لحركة إرادية كما هو الحال فى الظمأ فإنّه لا يجبر الإنسان العطشان على شرب الماء لكنّه يعدّ بمثابة الأرضية لذلك.

حينما يأتى الأنبياء عليهم السلام أو الأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين هم من جنس البشر بالتعليمات الإلهيّة الجامعة إلى من يماثلهم ويطبّقون هذه التعليمات عمليّاً ويعكسون الفضائل الإنسانية بالتقوى والصدق يحصل باقى البشر على أرضية مناسبة لاكتساب مثل هذه الصفات.

ولذا فالقرآن الكريم يصرّح بضرورة كون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من جنس البشر، كما أنّه لو كان هنالك ملائكة يعيشون فى الأرض لوجب ظهور أنبياء من جنسهم، وذلك ردّاً على اولئك الذين يصرّون قائلين لماذا لم يكن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من جنس الملائكة أو لماذا لم يصطحبه ملك على أقلّ تقدير؟ يقول تعالى: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَسُولًا* قُلْ لَو كَانَ فِى الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولًا». (الإسراء/ ۹۴- ۹۵)

يبدو أنّ التعبير ب «ملائكة يمشون مطمئنين» لبيان هذه المسألة وهى أنّه حتّى لو كان هناك ملائكة يعيشون فى الأرض متسالمين لبعثنا إليهم ملكاً من جنسهم كقائد يقودهم بالرغم من انعدام الخصومات فيما بينهم، نظراً إلى أنّ مهمّة الأنبياء عليهم السلام لا تنحصر فى إنهاء حالة التخاصم وإقامة القسط والعدالة الاجتماعية، بل تعدّ كلّ هذه مقدّمة لطىّ طريق

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۵

الكمالات المعنوية للتقرّب إلى اللّه تعالى.

على أيّة حال فقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى لباس آخر كإجابة على تذرع المشركين، حيث قال تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ».

(الأنعام/ ۹)

كما أنّ هناك ملاحظة جديرة بالإعتبار، وهى أنّ القرآن يؤكّد على كون نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أو سائر الأنبياء عليهم السلام قدوة ومثالًا يقتدى به ويوصى الناس بضرورة الإقتداء بهم فى برامجهم العملية، يقول تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ». (الأحزاب/ ۲۱)

ويقول فى موضع آخر: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ». (الممتحنة/ ۴)

كما تكرّر نفس هذا المعنى فى الآية السادسة من نفس هذه السورة.

على أيّة حال فمسألة التربية والتعليم عن طريق الإقتداء بالقادة الإلهيين مؤيّدة بالتحليل المنطقى والآيات القرآنية أيضاً.

۳- اسلوب المخالفين

فى قبال الأدلّة الكثيرة على لزوم إرسال الأنبياء عليهم السلام المتقدّمة، والتى نالت قبول الأكثرية القاطعة من العقلاء فى العالم، نجد أنّ مذهب البراهمة «۱» نفى ضرورة بعث الأنبياء عليهم السلام من الأساس، بل اعتبرها مستحيلة وغير معقولة، لاعتقاده بكفاية ما يعينه العقل للإنسان! وقد نقل الشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل» بعضاً من شبهاتهم حول هذا الموضوع وقال:

---

(۱) مذهب البراهمة هو من أقدم المذاهب المعروفة التى ظهرت فى المشرق، ومركزه الأصلى «الهند»، قالالشهرستانى فى كتاب «الملل والنحل»: هذا الاسم مأخوذ من اسم «براهام» مؤسس هذا المذهب، فى حين أنّ «فريد وجدى» يقول فى «دائرة المعارف»: إنّ هذا الاسم مشتقّ من اسم أحد آلهتهم الكبيرة أى «براهما»، والبراهمة وفضلًا عن إنكارهم للنبوّة يعتقدون بنوع من التثليث أى الآلهة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۶

أ) أنّ الذى يأتى به الرسول لم يخل من أحد أمرين: فإمّا أن يكون معقولًا وإمّا أن لا يكون معقولًا، فان كان معقولًا فقد كفانا العقل التامّ بإدراكه والوصول إليه، فأى حاجة لنا إلى الرسول؟ وإن لم يكن معقولًا فلا يكون مقبولًا، إذ قبول ما ليس بمعقول خروج عن حدّ الإنسانية ودخول فى حدّ البهيميّة.

ب) قد دلّ العقل على أنّ اللّه تعالى حكيم والحكيم لا يتعبّد الخلق إلّابما تدلّ عليه عقولهم، وقد دلّت الدلائل العقليّة على أنّ للعالم صانعاً عالماً قادراً حكيماً، وأنّه أنعم على عباده نعماً توجب الشكر، فننظر فى آيات خلقه بعقولنا ونشكره بآلائه علينا ... وإذا عرفناه وشكرنا له استوجبنا ثوابه وإذا أنكرناه وكفرنا به استوجبنا عقابه فما بالنا نتّبع بشراً مثلنا؟!

ج) إنّ أكبر الكبائر فى الرسالة اتّباع رجل هو مثلك فى الصورة والنفس والعقل، يأكل ممّا تأكل ويشرب ممّا تشرب حتّى تكون بالنسبة إليه كجماد يتصرّف فيك رفعاً ووضعاً، أو كحيوان يصرفك أماماً وخلفاً، أو كعبد يتقدّم إليك أمراً ونهياً، فأى تفوّق له عليك؟ وأيّة فضيلة أوجبت استخدامك؟، وما دليله على صدق دعواه؟ وما فضل حديثه على غيره؟ ولو أنّهم جاؤا بأشياء تفوق العادة، فانّ هناك من يخبر عن المغيبات أيضاً.

د) قد دلّ العقل على أنّ للعالم صانعاً حكيماً، والحكيم لا يتعبّد الخلق بما يقبح فى عقولهم، وقد جاء أصحاب الشرائع بمستقبحات من حكم العقل: كالإحرام والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار وأمثالها، فما فائدتها؟ لماذا حرّموا بعضاً من طعام الإنسان وحلّلوا ما يكون مضرّاً؟ «۱».

الجواب:

يمكن الإجابة عن هذه الشبهات بسهوله:

أ) يجب ألّا ننسى أنّ معلوماتنا وإدراكاتنا العقليّة ما هى إلّاقطرة من محيط عظيم

---

(۱) الملل والنحل، الشهرستانى، الباب ۴، آراء الهند، الفصل ۱- البراهمة- ص ۲۵۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۷

وغيض من فيض بالنسبة إلى مجهولاتنا، وهذه الحقيقة يعترف بها جميع العلماء والمفكّرين سواءً من الإلهيين أو المادّيين.

فمن يقول إنّ رسالات الأنبياء عليهم السلام إمّا أن تكون موافقة لعقولنا أو مخالفة، فإنّه يفهم من كلامه أنّ العقل يدرك كلّ شيء! لكنّ الأمر ليس كذلك، بل هناك شقّ ثالث أوسع من صاحبيه، وهو تلك الامور التى ليس لنا علم بها أصلًا ولا يمكننا نفيها ولا إثباتها، لكن حينما تثبت إجمالًا عن طريق الأدلّة التى سنشير إليها فيما بعد بأنّ الأنبياء عليهم السلام يتكلّمون نيابة عن اللَّه تعالى ويخبرون من علمه اللامحدود فإنّه سوف لن يبقى هناك مجال سوى قبولها والإذعان بصحّتها.

فإشكال البراهمة الأوّل يشبه قولنا بعدم لزوم التوجّه إلى الاستاذ والاستفادة من علمه وتجربته، لأنّ ما يقوله الاستاذ إمّا أن يكون موافقاً لعقل التلميذ أو لا، ففى الحالة الاولى لا حاجة للذهاب وفى الحالة الثانية لا يجب التسليم وقبول قول الاستاذ.

وبديهى أنّ هذا الكلام صبيانى لا يخفى جوابه على أى مفكّر، فالاستاذ إنّما يعلّم التلميذ أشياء يعجز عقله عن نفيها أو إثباتها بالإضافة إلى ذلك فقد يلتبس الأمر علينا فنقع فى الشكّ والإضطراب أحياناً فى مسائل عرفناها بصورة صحيحة فلا ندرى هل فهمناها بصورة صحيحة أم لا؟

وبدون شكّ فانّنا سنطمئن ونتيقّن إذا ما أيّدها الأنبياء وصدّقوها، لذا فنحن محتاجون إلى الأنبياء فى كلّ الامور سواء علمناها أم لم نعلمها، (فتأمّل).

ب) صحيح أنّنا نعرف اللَّه تعالى بالأدلّة العقليّة، وأنّ حكم العقل هو الذى يفرض علينا شكر نعمه، لكنّ هذا لا يكفى، فطريق السعادة والكمال الإنسانى ملىء بالعقبات والمخاطر، ولابدّ من وجود أشخاص مجهّزين بالقدرة الإلهيّة والإمدادات الغيبية ليأخذوا بأيدينا عند اجتيازنا لهذه المخاطر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۸

نحن لا نقتدى بإنسان مثلنا أبداً، بل بإنسان له اطّلاع واسع جدّاً، وعلمه متصل بعلم اللَّه اللامحدود عن طريق الوحى، واتّباع شخص كهذا منطقى جدّاً.

ج) ممّا تقدّم يتّضح الجواب على الإشكال الثالث أيضاً، إذ إنّ إطاعتنا لأوامر الأنبياء عليهم السلام والوقوف رهن إشارتهم لتقواهم التى لا مثيل لها والتى لمسناها فيهم.

نحن نضع أحياناً قلوبنا وعقولنا التى تعدّ أهمّ وأعزّ أعضائنا تحت تصرّف الجرّاح الذى نثق به، فينهال عليها بمبضعه، وحينما نوافق على تخديرنا من قبله ليفعل ما يريد، فهل يُعدّ هذا العمل حماقة؟

بديهى إنّه ليس كذلك، فعلم ومعرفة الطبيب الجرّاح من جهة، وحسن ظنّنا بعمله من جهة اخرى، يبعثان على التسليم له بلا قيد أو شرط، ولا يخفى أنّ الأنبياء عليهم السلام الإلهيين يفوقون الطبيب علماً وتقوى بكثير.

د) أى أمر غير منطقى يوجد فى تعليمات الأنبياء عليهم السلام؟ فهل مراسم الحجّ والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمرات والإحرام هى خلاف العقل؟

إنّ تأمّلًا بسيطاً فى فلسفة هذه الأعمال يكشف عن مدى حكمتها، وكيف أنّها تربّى الإنسان تربية صالحة.

فنحن نخرج عند الإحرام من حجاب عالم المادّة، ونترك كلّ الفوارق القوميّة والعرقية والطبقية جانباً ونقف كلّنا سواسية ونترك كلّ ما يشغل القلب جانباً ولو مؤقتاً، ونتفرّغ ل «معرفة وجودنا وخالقنا» فى عالم معنوى خالص.

والجمرات الثلاث تمثّل الشيطان، إذ نرميه بالحصى سبع مرّات متعاقبة، وبهذا نعلن عن رفضنا واستيائنا من الاعمال والأفكار الشيطانية.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۹

وعند السعى بين الصفا والمروة نتذكّر سعى «هاجر» تلك المرأة الطاهرة المؤمنة وجهدها لنجاة وليدها «إسماعيل»، فنطوى المسافة بين

الصفا والمروة عدّة مرّات.

وقصارى الكلام، إنّ الأعمال التى ننجزها يعتبر كلّ واحد منها مثالًا لبرنامج تربوى مسبق، وعند الانتهاء نشعر بأنّنا قد حصلنا على شخصيّة جديدة ومعرفة جديدة عن اللّه تعالى وعن نفوسنا، ذلك الإحساس الذى يحصل لكلّ إنسان بعد مراسم الحجّ.

إنّ تحريم الأنبياء عليهم السلام بعض المواد الغذائية والمشروبات مثل «الخمر» و «لحم الخنزير» إنّما للأضرار الكامنة فيها والتى غفل الناس عنها سابقاً ثمّ اطّعلوا عليها بالتدريج فى هذا العصر، فنحن لا نعرف شيئاً حلّله الأنبياء عليهم السلام وتسبّب فى ضرر الإنسان ماديّاً أو معنويّاً.

وخلاصة القول، إنّ هذه الإشكالات الأربعة للبراهمة قد نشأت عن جهلهم بالأنبياء عليهم السلام أو تعليماتهم من جهة وعدم معرفتهم لمدى قدرة العقل من جهة اخرى، وبهذا نصل إلى نهاية البحث حول فلسفة «البعثة».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۱

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۳

الخصائص العامّة للأنبياء عليهم السلام

إنّ مهمّة هداية الخلق وتهذيب النفوس وتعليم الناس وتربيتهم وإقامة العدل وإزالة الاختلافات وتحرير الإنسان من مخالب الأسر مهمّة شاقّة وصعبة ممّا يجعلها تتطلّب استعداداً خاصّاً من الناحية الجسمية والروحية والعلمية والأخلاقية.

ولهذا السبب لا يتسنّى لأىإنسان تحمّل أعباء مثل هذه المسؤولية، إلّالمن حصل على القدرة على تهذيب النفس وبنائها من جهة والإمداد الإلهى من جهة اخرى، ومن البديهى أنّ الفرد العادى غير الناضج لا يتمكّن أبداً من تقبّل مثل هذه المهمّة الخطيرة.

والكلام هنا هو عن ماهيّة هذه الخصائص التى ينبغى توفّرها لدى كلّ نبى، ومن الطبيعى أنّ الأنبياء عليهم السلام واولى العزم وأصحاب الشرائع والسنن يجب أن يكون لهم النصيب الأوفى منها.

وهنا يسعفنا القرآن فى ذكر هذه الخصائص فضلًا عن الأدلّة العقليّة، المتوفرة فى هذا المجال.

بهذه الخلاصة نعود إلى القرآن لنمعن خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً». (مريم/ ۴۱)

۲- «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً».

(مريم/ ۵۴)

۳- «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ».

(الشعراء/ ۱۰۶- ۱۰۷)

۴- «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ». (الأعراف/ ۶۸)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۴

۵- «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». (الشعراء/ ۱۰۹)

۶- «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ».

(الأنعام/ ۸۴)

۷- «الَّذِینَ یُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَیَخْشَوْنَهُ وَلَا یَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَکَفَی بِاللَّهِ حَسِیباً». (الأحزاب/ ۳۹)

۸- «قَالَ إِنِّی أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّی بَرِیءٌ مِمَّا تُشْرِکُونَ* مِنْ دُونِهِ فَکِیدُونِی جَمِیعاً ثُمَّ لَاتُنْظِرُونِ* إِنِّی تَوَکَّلْتُ عَلَی اللَّهِ رَبِّی وَرَبِّکُمْ». (هود/ ۵۴- ۵۶)

۹- «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ مُوسَی إِنَّهُ کَانَ مُخْلَصاً وَکَانَ رَسُولًا نَبِیّاً». (مریم/ ۵۱)

۱۰- «فَبِما رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ کُنْتَ فَظّاً غَلِیظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِکَ».

(آل عمران/ ۱۵۹)

۱۱- «وَإِذِ ابْتَلَی إِبْرَاهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّیَّتِی قَالَ لَایَنَالُ عَهْدِی الظَّالِمِینَ». (البقرة/ ۱۲۴)

جمع الآیات و تفسیرها

۱- صدق الحدیث

إن أوّل خصلة لکلّ نبی قبل کل شیء هی صدق الحدیث، وذلک لأنّه یخبر عن اللّه تعالی، فمع عدم الإطمئنان بصدقه لا یمکن الإعتماد علی کلامه، ولذا فقد أکّد القرآن علی هذه المسألة عدّة مرّات، من جملتها أوّل آیة من آیات بحثنا إذ یقول تعالی: «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ إِبْرَاهِیمَ إِنَّهُ کَانَ صِدِّیقاً نَبِیّاً»، کما أنّ نفس هذا الوصف قد ورد بحقّ إدریس فی سورة مریم، الآیة ۵۶ و یوسف فی سورة یوسف الآیة ۴۶.

والملفت للنظر أنّ وصفه ب «الصدق» قد سبق وصفه ب «النبوّة» فی هذه الآیة، وهذا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۵

یبیّن أنّ أصل النبوّة إنّما یرتکز علی الصدق، خصوصاً إنّ «صدّیقاً» هی صیغة مبالغة للصدق «۱»، وتعنی کثیر الصدق أو الذی لا یکذب أبداً والذی یوافق قوله عمله، وبناءً علی هذا فالأرضیة المناسبة لتقبّل النبوّة المتوفّرة لدی جمیع حملة الوحی الإلهی هی «الصدق المطلق» لیتمّ من خلاله إیصال أمر اللّه تعالی إلی عباده بدون أیّة نقیصة.

طبعاً یمکن للناس اکتشاف هذه الخصلة فی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله من خلال تتبّع حیاته السابقة کما هو الحال تماماً فی أهالی مصر عندما عرّفوا یوسف ب «الصدّیق» وخاطبوه ب «یُوسُفُ أَیُّهَا الصِّدِّیقُ». (یوسف/ ۴۶)

۲- الالتزام بالعهود والمواثیق

الکلام فی الآیة الثانیة عن الصدق أیضاً لکن لا فی القول بل فی العهود والمواثیق، واللطیف هنا أیضاً هو ورود هذه الخصلة قبل الوصف بالرسالة والنبوّة والتی تشیر إلی صنعها الأرضیة المناسبة لمنزلة النبوّة، لأنّ القسم الأعظم من دعوة الأنبیاء علیهم السلام إنّما یرتکز علی أساس الوعود التی تعطی للمستقبل، ولو لم یکن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله صادقاً فی وعوده لانهارت أُسس دعوته، قال تعالی فی ذلک: «وَاذْکُرْ فِی الْکِتَابِ إِسْمَاعِیلَ إِنَّهُ کَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَکَانَ رَسُولًا نَبِیّاً»، وبدیهی إنّ من کان کاذباً فی کلّ شیء حتّی فی وعوده لا یمکن أن یبلغ مقام الرسالة الشامخ وذلک لأنّ الشرط الأوّل لهذه المنزلة هو إیمان الناس بأقواله ووعوده واختبارهم لصدقه فی کافّة المیادین.

ولذا فحتّی الأفراد المعدودون الذین لا یعتبرون مکانة «العصمة» شرطاً أساسیّاً للنبوّة فی کافّة المجالات نراهم یعتبرون الصدق من بین الشروط.

وفيما يتعلّق بكون «إسماعيل عليه السلام» صادق الوعد، فقد جاء فى الكثير من كتب التفسير

---

(۱) يقول الزمخشرى: الصدّيق من صيغ المبالغة وتعنى الغاية فى الصدق والتصديق بالآيات الإلهيّة (تفسير الكشّاف ج ۳، ص ۱۸).

والروايات أنّ اللّه تعالى قد اعتبره «صادق الوعد» نظراً لعزمه على الوفاء بالوعد حتّى إنّه انتظر شخصاً كان قد وعده فى مكان ما، لمدّة سنة كاملة وحينما جاء ذلك الشخص قال له إسماعيل: لقد كنت فى انتظارك طيلة هذه المدّة! «۱».

ولا يبعد أن يكون المراد من الإنتظار لمدّة سنة هو التردّد على ذلك المكان ومراقبته بين الحين والآخر لعودة ذلك الشخص لا المكوث هناك سنة كاملة تاركاً كلّ أعماله ومشاغله الحياتية.

لكن هل يا ترى إنّ إسماعيل هذا هو نفس «إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام» المعروف أم «إسماعيل بن حزقيل» الذى هو من أنبياء بنى إسرائيل، فهذا محلّ بحث، وقد اختار الكثير الإحتمال الأوّل، لكن تمّ التصريح بالإحتمال الثانى فى البعض من الروايات الواردة فى مصادر أهل البيت عليهم السلام، وذلك لوفاة إسماعيل فى حياة أبيه إبراهيم طبقاً لبعض الروايات، وهذا لا يتلاءم والتعبير بالرسالة فى حقّه، فى حين أنّ القرآن يقول فى الآية الآنفة الذكر:

«وكان رسولًا نبيّاً»، وما قيل: إنّه كان يمتلك رسالة من قبل أبيه لهداية قبيلة «جرهم» من سكنة مكّة لا يبدو مناسباً أيضاً لأنّ ظاهر الآية هو أنّ «إسماعيل» المذكور هنا كانت له رسالة إلهيّة لا رسالة من قبل إبراهيم عليه السلام.

علاوة على ذلك فلو كان المراد هو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام لكان من المناسب ذكره بعد إبراهيم عليه السلام فى الآيات السابقة لا بعد موسى عليه السلام.

وعلى أيّة حال فلا أثر لهذا الكلام فى بحثنا الذى يدور حول مسألة خصوصيات الأنبياء عليهم السلام.

۳- الأمانة

إن منزلة النبوّة والرسالة هى مكانة تتطلب «الصدق» و «الأمانة»، الأمانة فى نقل الوحى

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۰۵، ح ۷.

وإيصاله إلى الناس والأمانة فى حفظ الأسرار الإلهيّة، والصدق والأمانة يعودان فى حقيقة الأمر إلى أصل واحد، غاية الأمر أنّ الصدق أمانة فى الحديث والأمانة صدق فى العمل! ولذا يقول القرآن فى ثانى آية من آيات بحثنا: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ* إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ* إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ»، كما أنّ نفس هذا التعبير «إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» قد ورد بحقّ كلّ من «هود» (الشعراء/ ۱۲۵)، و «صالح» (الشعراء/ ۱۴۳) و «لوط» (الشعراء/ ۱۶۲) و «شعيب» (الشعراء/ ۱۷۸) و «موسى» (الدخّان/ ۱۸)، وممّا لا شكّ فيه هو أنّ هؤلاء الأنبياء عليهم السلام وغيرهم من الأنبياء الإلهيين كانوا قد أثبتوا أمانتهم للناس عمليّاً كما قرأنا عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه كان يلقّب ب «محمّد الصادق الأمين» من قبل خاصّة الناس وعامّتهم وذلك قبل نزول الوحى، ولذا كان صلى الله عليه و آله يستدلّ بسابقته هذه أمام المخالفين بأنّهم كيف لا يصدقون بإنذاره فيما يتعلّق بالوحى الإلهى مع علمهم وإقرارهم بصدقه وأمانته؟! «۱».

والملفت هو أنّ القرآن قد وصف جبرئيل حامل الوحى الإلهى بهذا الوصف أيضاً حيث قال: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ». (الشعراء/ ۱۹۳- ۱۹۴)

وفى الحقيقة إن حملة الوحى، سواءً الملائكة الذين هم الواسطة فى إبلاغ الوحى، أم الأنبياء أنفسهم أو الأئمّة ونواب المعصومين الذين أُنيطت بهم مسؤولية إبلاغ وحفظ الوحى الإلهى، هم أُمناء اللّه فى خلقه، ومن هنا فاننا نرى أن الامام علياً عليه السلام وباقى الأئمّة الاطهار عليهم السلام ينعتون بأمناء اللّه فى الزيارة المعروفة بزيارة «أمين اللّه»، حيث ورد هذا الخطاب: «السلام عليك يا أمين اللّه فى أرضه» وهو شاهد آخر على إثبات هذا الادعاء.

---

(۱) جاء فى التواريخ فى ذيل الآية «وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» أنّه صلى الله عليه و آله صعد إلى جبل الصفا بعد نزول هذه الآية ودعا كلًا من «بنى عبدالمطلّب» و «بنى عبد مناف» فلمّا اجتمعوا حوله قال لهم صلى الله عليه و آله، لو أخبرتكم بأنّ جيشاً عظيماً يتّجه نحوكم بمحاذاة هذا الجبل فهل ستصدقّوننى أم لا؟ فقال الجميع: بلى! ما عرفنا فيك الكذب أبداً، فقال صلى الله عليه و آله: «إذن فاعلموا أنّى لكم نذير من العذاب الإلهى». (الكامل، ج ۲، ص ۶۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۸

۴- الرغبة والشفقة الفائقتان

إنّ الإنسان الذى يقود الناس ويتحمّل مسؤولية هدايتهم وتربيتهم كمعلّم صالح لهم هو ذلك الشخص الذى له رغبة شديدة بهذا العمل وفى قلبه شفقة على الناس، بل إنّه يعشقهم فلولا حبّ الأبوين لولدهما لما تحمّلا أبداً كلّ هذه المشاكل لرعايته وتربيته، ولولا حبّ الأنبياء عليهم السلام لهداية الناس لما تحملوا أبداً أعباء هذا العمل الذى يفوق طاقه الإنسان، ولما عرّضوا أنفسهم لأنواع المخاطر فى هذا الطريق.

وقد أكّد القرآن مراراً على هذه المسألة كما ورد فى الآية الرابعة من بحثنا، ونقلًا عن لسان «هود» نبى اللّه تعالى حيث قال لقومه المعاندين المتعصّبين: «أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّى وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ».

ونفس هذا المعنى ورد بتعبير أدقّ فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث يواسيه تعالى ويقول: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً». (الكهف/ ۶)

كما جاء نظير هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوامُؤْمِنِينَ».

(الشعراء/ ۳)

«ناصح» مأخوذة من مادّة «نصح» وتعنى على حدّ قول الراغب فى مفرداته، تحرّى فعل أو قول فيه صلاح صاحبه (أى أنّه يشمل تحرّى الصلاح قولًا وفعلًا)، وقد جاء فى القرآن أنّ نوحاً عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلّاخمسين عاماً فتحمل أنواع المشقّة لتبليغهم رسالات ربه وهدايتهم وبالنتيجة لم يؤمن به خلال كلّ هذه المدّة إلّانفر قليل، (ذكرت التواريخ أنّ عددهم لم يتجاوز نيفاً وثمانين نفراً فقط)، وبعبارة علمية بسيطة فانّ نوحاً قد تحمّل مشقّة اثنتى عشرة سنة تقريباً لهداية كلّ واحد منهم على انفراد، وبديهى أنّ تحمّل مثل هذا التعب والمشقّة لا يتحقّق إلّافى ظلّ الرغبة والحب الشديدين لهداية الخلق.

۵- الإخلاص والإيثار الكامل

من الصفات المهمّة للأنبياء عليهم السلام التى أكّد عليها القرآن هى عدم انتظارهم لأىنوع من

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۴۹

الأجر والمكافأة الماديّة فى مقابل دعوتهم إلى اللّه تعالى ودين الحقّ، فنقرأ مثلًا فى الآية الخامسة من آيات بحثنا حول أوّل نبى من

اولى العزم أى نوح عليه السلام: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ» كما أنّ هناك آيتين اخريين بنفس هذا المضمون قد وردتا فى حقّ نوح عليه السلام أيضاً (هود/ ۲۹) و (يونس/ ۷۲).

وفى حقّ «هود» فى موردين (هود/ ۵۱) (الشعراء/ ۱۲۷).

وفى حقّ «صالح» فى آية واحدة (الشعراء/ ۱۴۵).

وفى حقّ «لوط» فى مورد واحد (الشعراء/ ۱۶۴).

وفى حقّ «شعيب» فى مورد واحد (الشعراء/ ۱۸۰).

وأخيراً فقد تكرّر التأكيد على هذه المسألة فى عدّة مواضع من القرآن فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: (الأنعام- ۹۰) (سبأ- ۴۷) (الفرقان- ۵۷) (ص ۸۶) «۱».

على أيّة حال فإنّ تأكيد القرآن على مسألة أنّ أوّل كلام للأنبياء عليهم السلام الإلهيين هو عدم انتظارهم لأيّة مكافأة فى مقابل جهودهم، وسلوكهم وأفعالهم تكشف عن إمكانية التعرّف عليهم من خلال هذه الخصلة.

إنّهم عليهم السلام كانوا يقولون ذلك ويعكسونه من خلال سلوكهم وأفعالهم، فى حين إنّ المدّعى زوراً ربّما يقول مثل قولهم لكنّه لا يلتزم به عمليّاً أبداً.

ويحتمل أنّ ملكة سبأ أرادت اختبار سليمان عليه السلام وهل أنّه نبى صادق أم ملك يبغى وراء تظاهره بالدعوة إلى اللّه تعالى منافع ماديّة، فقالت: «وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ». (النمل/ ۳۵)

فإذا وافق سليمان عليه السلام على الهدية وفرح بها لاتّضح أنّ له دافعاً ماديّاً، بينما النبى من

---

(۱) الجدير بالذكر هو أنّ القرآن الكريم يقول أحياناً فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً» (الأنعام/ ۹۰) ويقول أحياناً: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا» (الفرقان/ ۵۷) وفى موضع آخر يقول: «قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى». (الشورى ۲۳) ولا يخفى أنّ هذه الآيات بمجموعها تبيّن أنّ مسألة مودّة ذوى القربى إنّما تعود فائدتها إلى الناس، وهذه فى الواقع بمثابة ترعة تصبّ فى خاتمة المطاف فى نهر «الإمامة والولاية المنصوصة» التى عيّنها اللّه تعالى لهداية الناس وللعمل بتعليمات نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله، وبالنتيجة فكلّ منفعة تجنى من هذا الطريق إنّما تصبّ فى خير الناس ولأجلهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۰

نفحات القرآن ج۷ ۹۹

لا يهتمّ لزخرف الدنيا وزينتها ودافعه إلهى محض.

وعلى أيّة حال فإنّ تصريح القرآن بهذه النكتة فى حقّ ستّة من أنبياء اللّه عليهم السلام، والذين من بينهم إثنان من اولى العزم يثبت وجود هذه الحالة فى كلّ الأنبياء عليهم السلام، ولا مناسبة لحصرها فى خصوص هؤلاء الستّة فقط، بل إنّ كل الأنبياء يتصفون بهذه الصفات.

۶- البرّ والإحسان

من صفاتهم البارزة الاخرى هى الإحسان للصديق والعدو معاً، فلقد كانوا فى الحقيقة مظهراً لصفات «الرحمن» و «الرحيم» والفضل والإحسان للجميع.

ولذا فقد نسب القرآن هذه الصفة إلى الكثير من الأنبياء عليهم السلام ومن جملة ذلك ما جاء فى الآية السادسة من آيات بحثنا بعد

الإشارة إلى «إسحاق» و «يعقوب» ولدى إبراهيم البارّين اللذين وهبهما اللَّه تعالى له فى آخر عمره، وكذلك «نوح» و «داود» و «سليمان» و «أيّوب» و «يوسف» و «موسى» و «هارون» (عشيرة من الأنبياء العظام) من بينهم ثلاثة من اولى العزم يقول تعالى: «وكذلك نجزى المحسنين» أى أنّ إحدى الصفات البارزة التى كانت لديهم هى صفة «الإحسان».

كما ورد نفس هذا المعنى أيضاً على انفراد فى آيات متعدّدة من جملتها: «سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصافات/ ۷۹- ۸۰)

و «سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ* كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصافات/ ۱۰۹- ۱۱۰)

و «سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصافات/ ۱۲۰- ۱۲۱)

وأخيراً: «سَلَامٌ عَلَى إِل يَاسِينَ* إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ». (الصافات/ ۱۳۰- ۱۳۱)

وهذا التكرار فى التأكيد هو خير شاهد على ما تقدّم أعلاه من ماهية المراد من البرّ و «الإحسان» الذى جاء فى الكثير من الآيات، وللمفسّرين عبارات شتّى فالبعض منهم كالمرحوم الطبرسى قد فسّر «الإحسان» فى الكثير من الموارد فى «مجمع البيان» بمعنى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۱

طاعة المولى جلّت قدرته بل قد صرّح أنّه لو حصل هذا المعنى أى مقام العبودية والطاعة للآخرين لشملتهم مثل هذه العنايات الخاصّة أيضاً!.

لكنّ البعض الآخر كصاحب تفسير «روح البيان» قد فسّر ذيل الآية الثمانين من سورة الصافات بمعنى الصبر والتحمّل أمام أذى العدو واعتدائه.

كما يحتمل أيضاً أنّ كلّ واحد من الأنبياء عليهم السلام قد برز فى أحد فروع البرّ والإحسان نظراً إلى أنّ كلّ الطاعات والأعمال الحسنة تندرج تحت عنوان «الإحسان»، الصبر والتحمّل، الطاعة والعبودية، العفو والمغفرة، وأمثالها.

۷- عدم الخشية من غير اللَّه تعالى

نظراً لتمتّع الأنبياء عليهم السلام بمقام رفيع فى معرفة اللَّه تعالى، فقد كانوا يدركون جيّداً أنّ اللَّه تعالى هو المنبع الرئيسى لكلّ خير وقوّة ولو أنّه تعالى دافع عن شخص لما تمكّن العالم بأسره من إلحاق الضرر به.

وثمرة هذه المعرفة هى الخوف من مخالفة أمر اللَّه تعالى وحده وعدم المبالاة بمن سواه كائناً من كان.

ولذا يقول تعالى فى الآية السابعة من آيات بحثنا بعد أن أشار إلى عدد من الأنبياء عليهم السلام السابقين، «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً».

إنّ هذه الخاصيّة منحت الأنبياء عليهم السلام قدرة فائقة باعتبارهم قادة إلهيين، ومنحتهم صموداً أمام الأعداء المعاندين بل هى فى الواقع أحد أسباب موفّقيتهم.

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه وهو: أنّ اللَّه تعالى خاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فى آيتين سابقتين على هذه الآية ۳۷ فى نفس سورة الأحزاب حول زواجه من زوجة زيد المطلقة وقال: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ»، أى أنّك تخاف غير اللَّه فيما يتعلّق بموضوع

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۲

زواجك من هذه المرأة باعتبار أنّ زيداً هو إبنك بالتبنّى لا حقيقة، ومن العار الزواج من زوجة الإبن بالتبنّى عند عرب الجاهلية، فى حين أنّ الأنسب أن تخاف اللَّه تعالى.

فهذا التعبير يبيّن أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على الرغم من كونه أفضل الأنبياء عليهم السلام كان يخاف غير اللَّه أيضاً فى

حين أنّ الآية تقول: «الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً». (الأحزاب/ ۳۹)

فكيف يتمّ التوفيق بين هذين التعبيرين؟!

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تتّضح من خلال ملاحظة واحدة، وقد ذكرناها فى «التفسير الأمثل» وهى أنّ خوف نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هنا لم يكن على شخصه بل كان يخشى فى الواقع أن يكون إقدامه هذا على نقض عادة الجاهلية تلك (زواجه من زوجة زيد المطلّقة) سبباً فى خدش مكانته وتزلزلها فى أذهان عموم ذلك المجتمع باعتباره واحداً من الأنبياء عليهم السلام وبالتالى لا يتمكّن من تحقيق أهدافه الإلهيّة وإلّا فالإقدام على عمل كهذا وسط ذلك المجتمع الذى تغمره الامور العجيبة والغريبة لا أهميّة له أبداً من الناحية الشخصية مهما كان مخالفاً لفكر الناس وعاداتهم.

كما أنّ تقارب محلّ الآيتين من بعض يمكن أن يكون شاهداً آخر على هذا المدّعى أيضاً.

إذن فخوف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى هذه القضيّة هو مصداق للخوف الإلهى لا الشخصى (فتأمّل جيّداً).

۸- التوكّل المطلق على اللّه تعالى

إنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يُبعثون عادة بين أقوام قد غرقوا فى الفساد الأخلاقى فضلًا عن الانحراف الفكرى والعقائدى، ولذا كانت دعوتهم لإزالة هذه الآثار السيّئة تواجه بثورة عنيفة من قبل ذلك المجتمع حتّى أنّهم كانوا يتّخذون العزلة فى بعض الأحيان، والذى كان يغذّيهم بالقوّة والمنعة لمواصلة تحقيق أهدافهم فى مثل هذه الظروف هو مسألة التوكّل على

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۳

اللّه، والتى نجد أحد مصاديقها فى قصّة هود فى الآية الثامنة من بحثنا:

إذ قال له قومه إنّك لم تأتنا بدليل واضح ولن نترك آلهتنا لكلامك هذا، بل لن نؤمن بك أصلًا، ونحن نعتقد بأنّ آلهتنا قد غضبت عليك وسلبتك لبك! لكنّه صمد بجرأة وقال: «إِنِّى أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ* مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَاتُنْظِرُونِ* إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ».

عندما يرى الإنسان شخصاً جاهلًا ومتعصباً، فيصاب بالذهول والفزع، فكيف به إذا أراد أن ينهض لمواجهة قوم منحرفين ويحملون كافة الصفات الرذيلة، وهو لا يملك العُدة والعدد ليتغلب بها عليهم؟! من البديهى إن عملًا كهذا لا يمكن تحققه إلّابواسطة المدد الإلهى، وهى القوة النابعة من التوكل، حيث أن التوكل لا يأتى إلّامن الايمان باللّه سبحانه وتعالى المهيمن على كافة أرجاء العالم.

والملفت للنظر هو عدم اكتراث الأنبياء عليهم السلام لتهديدات أعدائهم وعدم إبراز أى رد فعل تجاههم، بل على العكس كانوا يحتقرون قدرتهم ويعرضونها للإستفهام ويفهمونهم بأنّهم لا يعيرون لكلّ ذلك المجتمع الوثنى المعاند أى اهتمام يذكر، فهذا التوكّل المنقطع النظير هو أحد خصائص الأنبياء عليهم السلام.

۹- الإخلاص المنقطع النظير

وصف «المخلص» ورد ذكره فى القرآن مرّة واحدة فقط، وذلك فى حقّ موسى بن عمران عليه السلام فقد وصفه بالإخلاص قبل وصفه بالرسالة والنبوّة، يقول تعالى: «وَاذْكُرْ فِى الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً».

لكن نظراً لما ورد على لسان الشيطان فى آيتين من القرآن: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (الحجر/ ۳۹- ۴۰) (ص/ ۸۲- ۸۳)

ولبداهة كون الأنبياء عليهم السلام من الذين يعجز الشيطان عن إغوائهم بأى حال من الأحوال

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۴

فيمكن استنتاج شمولية هذا الوصف لكلّ الأنبياء سواءً موسى عليه السلام أو غيره.

فما هو «الإخلاص»؟ إنّ الإخلاص منزلة رفيعة جدّاً يؤكّد عليها علماء الأخلاق والعرفان كثيراً وهو أن يعتبر الإنسان ذات البارى جلّت قدرته هى المؤثّر الحقيقى فى عالم الوجود لا- غير، وهذا نابع من المعرفة التامّة لتوحيد اللَّه تعالى، فيتوجّه العارف إلى اللَّه تعالى بخالص نيّته ويعتبر كلّ البواعث غير الإلهيّة عبثاً، ويضع كلّ وجوده رهن من يملك كلّ شىء، وأخيراً يرى كلّ ما سواه باطلًا فانياً.

إنّ عمليّة تهذيب الإنسان من شوائب الشرك والهوى والبواعث الوهميّة، لها مرحلتان:

المرحلة الاولى: عن طريق تربية النفس على قدر طاقة الإنسان أى أنّه يرى نفسه بعد اجتيازه هذا الطريق بالجدّ والسعى الحثيثين فى زمرة «المخلصين» (الذين قاموا بتنقية أنفسهم).

المرحلة الثانية: مرحلة تصفية الوجود الإنسانى من الشوائب التى تخفى عليه لدقّتها، وهنا يأتى دور العنايات الإلهيّة لمساعدة العبد فى التخلّص من تلك الشوائب والأخذ بيده إلى مرتبة المخلصين وهذه هى المنزلة الرفيعة لأنبياء اللَّه تعالى عليهم السلام وأوليائه وخاصّة عباده.

ولا- يخفى أنّ آثار هذا الإخلاص تتجلّى بكلّ وضوح فى أعمالهم كما يمكن إدراك بلوغهم لهذه المنزلة من خلال حسن أقوالهم وتصرّفاتهم بكلّ سهولة، وعلى أيّة حال فالإخلاص أحد الصفات البارزة لأنبياء اللَّه تعالى عليهم السلام.

۱۰- اللين والمحبّة وحسن الخُلق

إنّ مسؤولية الأنبياء عليهم السلام القيادية تفرض عليهم ضرورة مسايرة الناس، واللّين أمام غلظة وفظاظة الجهّال المتعصّبين قدر الإمكان، وبعبارة أدقّ: النفوذ فى قلوب مختلف شرائح المجتمع عن طريق المحبّة، وهذه صفة اخرى من صفات الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۵

يقول القرآن الكريم فى الآية العاشرة من آيات البحث وخصوصاً فيما يتعلّق بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَبِما رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ» و «الفظّ»: و «غليظ القلب» لهما نفس المعنى تقريباً وهو الشدّة والخشونة وقساوة القب، لكن البعض فرّق بينهما وقال: إنّ «الفظّ» يعنى الخشن فى القول، و «غليظ القلب» الخشن فى الفعل. وذهب البعض الآخر إلى أنّ «فظّ» إشارة إلى الخشونة الظاهرية (الأعمّ من القول والفعل)، و «غليظ القلب» إشارة إلى الخشونة الباطنية والقلبية والتى تعدّ المصدر الرئيسى لكلّ الخشونات.

والذى يقابل هذين الوصفين هو اللّين والمحبّة والهدوء قولًا وفعلًا ممّا يؤدّى إلى استقطاب طبقات الامّة بشكل عجيب.

ويرى محقّقو التاريخ أنّ وجود هذه الصفات فى شخص نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كان له أكبر الأثر فى الإسراع من مهمّة نجاح وانتشار رسالته خصوصاً فى أوساط مجتمع يدور فيه كلّ شىء حول محور الخشونة الفعليّة كالقتل والإغارة فضلًا عن الخشونة فى القول، ومن هنا فمن السهل الوقوف على الدور الفعّال لهذه الصفة الأخلاقية للنبى صلى الله عليه و آله.

وهناك الكثير من الشواهد حول هذا الموضوع فى تاريخ حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ولو تعرّضنا لها كلّها لخرجنا عن جوهر موضوع بحثنا لكثرتها، لكنّنا سنكتفى بنموذج واحد فقط:

ففى معركة احد التى وجّهت فيها أكبر ضربة لكيان الإسلام والمسلمين بسبب عدم التزام فريق ممّن كانوا جديدى العهد بالإسلام وهروب فريق آخر، فضلًا عن الجراح التى اثخن بها شخص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبشهادة الكثير من أقطاب الإسلام، نراه صلى الله عليه و آله بعد انتهاء المعركة حليماً مع المسلمين يكلّمهم بلسان طيّب ولم يبد أى غضب بل كان يدعو لهداية أعدائه المجرمين أيضاً.

كما أنّ تاريخ باقى الأنبياء عليهم السلام يعكس أيضاً تمتّعهم بهذه الفضيلة الإنسانية الخطيرة.

إنّ تصريح القرآن بأنّ «نوحاً» عليه السلام قد دعا قومه تسعمائة وخمسين سنة وأنّه استعان

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۶

بكلّ الطرق والوسائل لهدايتهم على حدّ قوله، إذ أنّه كان يدعوهم علناً أحياناً وأحياناً اخرى سِرّاً، ليلًا أو نهاراً، يذهب إلى بيوتهم أو يشاركهم فى جلساتهم العامّة فى بعض الأحيان، وإنّه لم يؤمن به طوال كلّ هذه المدّة إلّانفر قليل، يعكس مدى مداراته لهؤلاء الوثنيين العاصين.

ولحن قوله تعالى الوارد فى سورة نوح عليه السلام يبيّن بكلّ وضوح استخدامه اسلوب الترغيب، وأنّه لم يقدم على لعنهم والدعاء عليهم إلّابعد أن يئس تماماً منهم ومن ذرّيتهم.

إنّ الإنسان تصيبه الدهشة أحياناً عندما يرى ما لبعض الأنبياء من رأفة وحسن خُلق، فقد ورد عن «لوط» عليه السلام مثلًا فى القرآن الكريم إنّه عرض بناته على قومه المذنبين للزواج منهنّ (بعد الإيمان) أملًا فى أن يمنعهم من القيام بأعمالهم الشنيعة تلك.

وعلى أيّة حال فإنّنا كلّما تمعّنا أكثر فى حياة هؤلاء العظام كلّما وقفنا على مميزات وصفات أخلاقية أكبر لهم.

۱۱- الفوز فى المحن الشاقّة

تعرّض الكثير من الأنبياء عليهم السلام خلال حياتهم لمختلف أنواع الإختبارات الشاقّة، وكانت صفاتهم البارزة هى تحمّل أنواع الشدائد، وعدم الغرور عند النصر، وباختصار الفوز فى الإمتحانات الإلهيّة الصعبة.

فالنبى نوح عليه السلام فى فترته التبليغيّة البالغة تسعمائة وخمسين سنة، وموسى عليه السلام خلال خدمته لشعيب فى مدين وخلال فترة تحدّيه الطويلة لفرعون وفترة انحراف بنى إسرائيل عن التوحيد والخروج على أوامره، وكذلك سائر الأنبياء مثل أيّوب وعيسى ولوط وشعيب وهود عليهم السلام وخصوصاً إبراهيم عليه السلام قد ابتلوا جميعاً فى ميادين الإبتلاء هذه.

وقد جاء فى الآية المعنية عن إبراهيم عليه السلام إنّه تعالى قد منحه مقام الإمامة المطلقة فضلًا عن مقام النبوّة وذلك بعد فوزه فى الإختبار، قال تعالى: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۷

فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً».

وبالرغم من أنّ الآية أعلاه قد أشارت إلى الإبتلاءات بشكل غامض، لكن وكما ذكر المفسّرون فانّ هذه «الكلمات» (أى الامور التى اختبر اللَّه تعالى بها إبراهيم) هى من قبيل الإستعداد لتقديم ولده قرباناً وأخذ زوجته وإبنه إسماعيل إلى أرض مكّة القاحلة وإسكانهم فيها بأمر من اللَّه تعالى ووقوفه الشجاع أمام عبدة الأصنام والهجرة المقرونة بالحرمان إلى المناطق المؤهلة أكثر للإيمان وأمثالها.

ويرى بعض المفسّرين أنّ ابتلاءات إبراهيم عليه السلام قد بلغت الثلاثين مورداً «۱»، لكن ما تقدّم هو أهمّها، فهو فى الحقيقة قد وضع «حياته» و «أمواله» و «مكانته» و «زوجته» و «ولده» و «وطنه الذى كان قد ألفه» والتى تشكّل بمجموعها كيان الإنسان ووجوده فى سبيل اللَّه تعالى وخرج من بودقة الإختبار نقيّاً.

وعلى الرغم من أنّ هناك حديثاً طويلًا للمفسّرين حول تفسير «الكلمات» إذ اعتبرها البعض إشارة إلى مناقشاته الحادّة مع عبدة النجوم والشمس والقمر وبينما اعتبرها آخرون إشارة إلى سلسلة من الأحكام الفرعية للدين، إلّاأنّ ما تقدّم هو أنسبها.

ثمرة البحث:

يمكن الإستنتاج ممّا تقدّم أنّ الأنبياء عليهم السلام يتمتّعون بحصيلة من- الصفات والمميزات الخاصّة من وجهة نظر القرآن، ولا نقول

أنّ كلّ واحدة من هذه الصفات منحصرة بهم، أو أنّها

---

(۱) نقل كلّ من المرحوم الطبرسى فى «مجمع البيان»؛ والآلوسى فى «روح المعانى» والقرطبى فى تفسيره أنّهذه الخصال الثلاثين من شرائع الدين قد وردت فى أربع سور من القرآن الكريم عشرة منها فى سورة (التوبة/ ۱۱۲) «التَائِبُونَ الْعَابِدُونَ ...» وعشرة فى سورة (الأحزاب/ ۳۵) «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ ...» وعشرة فى سورة (المؤمنون/ ۱ و ۲) «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ...» أو فى سورة «المعارج» «سأل سائل». لكن يجب الالتفات إلى أنّ الصفات الواردة فى السور أعلاه، لا تبلغ الثلاثين صفة من معنى ولا تتجاوز الثلاثين من معنى آخر فضلًا عن أنّ تكرارها ممّا لا يمكن إنكاره، وبناءً على هذا فقبول العدد ۳۰ لهذا الموضوع يبدو بعيداً بعض الشىء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۸

تعكس النبوّة لوحدها، بل نقول بإمكان العثور عليها بمجموعها عند الأنبياء عليهم السلام، وبأنّ لها أثراً عميقاً للتعرّف عليهم لأنّ إحدى طرق معرفتهم كما سيأتى تفصيله هى جمع القرائن المختلفة والتى من جملتها «خصائصهم الخلقية».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۵۹

شروط الرسالة

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۱

التقوى والعصمة

تمهيد:

بالنظر لتحمّل الرسل وحملة الوحى الإلهى أهمّ وأخطر مسؤولية فى عالم البشرية، وهى مسؤولية هداية الإنسان وتربية النفوس وتهذيبها وتنقيتها من كافّة الشوائب والممارسات اللاأخلاقية، بالإضافة إلى تطهير المجتمعات البشرية من أنواع الظلم والتعسّف، بطرق لا يمكنهم طيّها اعتماداً على العقل والفكر والمعلومات الخاصّة فحسب، بل لابدّ والحالة هذه من تمسّكهم بأعلى درجات «التقوى»، والتى نطلق عليها منزلة «العصمة» التى لا يمكن ضمان أهداف الرسالة بدونها.

ومن المؤكّد أنّ منزلة العصمة لا تعنى «العصمة من الذنب والمعصية» فحسب، بل لها فرع آخر لا يقلّ أهميّة عنها، ألا وهو «العصمة من كلّ خطأ واشتباه وانحراف وضلال»، ولا يخفى أنّ تحقيق الهدف من البعثة مرهون بإمدادهم بالتأييدات الإلهيّة من هذه الناحية.

ولكلٍّ من هذين القسمين تشعّبات اخرى أيضاً: كالعصمة من الذنوب كبيرها وصغيرها، فى فترة ما قبل النبوّة وبعدها والعصمة من الخيانة فى تبليغ الوحى والرسالة و ...

كما يندرج فى قسم العصمة من الخطأ أيضاً كلّ من «العصمة من الخطأ فى تلقّى الوحى وإبلاغه»، والعصمة من الخطأ فى القيام بالفرائض الدينيّة والأوامر الشرعية، وكذلك العصمة من الإنحراف فى الامور الدنيوية والشخصية. وهناك سؤال يتبادر للذهن وهو: هل تعود مسألة عصمة الأنبياء فى كلّ هذه الأبحاث إلى هذين القسمين؟ وما هو الدليل على ذلك على فرض الصحّة؟ وما هو الدليل على الاختلاف الحاصل بينهما لو وجد؟

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۲

هـذه صورة عن مسألـة عصـمة الأنبياء اصولًا وفروعاً من الناحيـة المبدئية، والتى ينبغى بيانها فى ظلّ الآيات القرآنية والأدلّة العقلية نظراً لأهميّتها الأساسية والمصيرية، وبهذه الإشارة الخاطفة نعود ثانيةً إلى القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

١- «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ». (البقرة/ ١٢۴)

٢- «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ». (الحشر/ ٧)

٣- «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً».

(النساء/ ٨٠)

۴- «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء/ ۶۵)

۵- «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً». (الأحزاب/ ٢١)

۶- «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». (الأحزاب/ ٣٣)

٧- «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص/ ٨٣- ٨٢)

٨- «وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى الْأَيْدِى وَالْأَبْصَارِ* إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ* وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ». (ص/ ۴۵- ۴٧)

٩- «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ». (الأنعام/ ٩٠)

١٠- «وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى . (النجم/ ٣- ۴)

نفحات القرآن، ج٧، ص: ۶٣

جمع الآيات وتفسيرها

كيف يكون المذنبون دعاةً للتقوى؟

إنّ الآية الاولى من آيات بحثنا تكشف النقاب عن ثلاثة مواضيع:

الأوّل: الإبتلاءات الكبيرة التى أُبتلى بها إبراهيم من قبل اللّه تعالى، والتى اجتازها بنجاح تامّ.

الثانى: المكافأة العظيمة التى نالها إبراهيم من اللّه بعد هذا الاختبار، أى مقام الإمامة.

الثالث: طلب إبراهيم منح هذه الموهبة لبعض ذرّيته، وجواب اللّه تعالى له بأنّ الظالمين من ذرّيته لن ينالوا هذا المقام الرفيع أبداً:

«وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِى قَالَ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ».

أمّا فيما يتعلّق بالقسم الأوّل فقد تقدّم الكلام عنه بشكل وافٍ فيما مضى، كما أنّ هناك حديثاً طويلًا فيما يتعلّق بالقسم الثانى أى نيل مقام الإمامة الرفيع وماهيتها.

فهل أن الإمامة تعنى «النبوّة»؟ فى حين أنّ هناك قرائن واضحة تدلّ على أنّ إبراهيم عليه السلام قد تطرّق لهذا الأمر بعد وصوله لمقام النبوّة، وفى أواخر سنىّ عمره، حينما كان له أولاده وذرّيته كإسماعيل وإسحاق، وعلى أمل امتداد ذرّيته هذه إلى الأجيال اللاحقة، ومن هنا فقد تمنّى لهم أيضاً مقام الإمامة، إذ إنّه وكما نعلم لم يرزق ولداً لمدّة مديدة، حتّى أنّه أخذته الدهشة حينما بشّره الملائكة الموكّلون بهلاك قوم لوط، هو وزوجته بولد كما تقرأ فى قوله تعالى: «قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسَّنِىَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ* قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ». (الحجر/ ۵۴- ۵۵)

بل قد تعجّبت زوجته أيضاً لهذه البشرى واستغربت قائلة: «قَالَتْ يَا وَيْلَتى ءَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ».

(هود/ ۷۲)

لكن الملائكة حذّرته من تبعة اليأس من رحمة اللَّه فى كلّ الأحوال.

وبناءً على هذا فمن المستبعد جدّاً أن يكون المراد هو النبوّة، بل المراد هو الحكومة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۴

الإلهيّة المطلقة على الأموال والأنفس وكلّ شؤون الحياة الإنسانية، أو الحكومة الظاهرية والباطنية على الأرواح والأنفس عن طريق التربية الظاهرية والباطنية لإيصال الناس إلى الكمال المطلوب بإذنه تعالى، وعدم الإقتصار على رسم الطريق فحسب، والذى يعدّ من مهام كلّ الأنبياء.

على أيّة حال فإنّه مقام يفوق النبوّة، ولم ينله إلّاالبعض من الأنبياء فقط.

وامّا فيما يتعلّق بالموضوع الثالث وهو طلب إبراهيم هذا المقام لبعض أولاده، وسماعه الجواب فى الحال من أنّ هذا المقام هو نوع من التعهّد الإلهى لا يناله الظالمون، فالكلام فيه يدور حول المراد من «الظالم» معنىً ومفهوماً.

يجب معرفة ما المراد بالظالم؟ هل هو فقط ذلك الشخص الموصوف بهذه الصفة فعلًا؟

مع أنّه يستبعد جدّاً بل يستحيل أن يطلب إبراهيم عليه السلام مثل هذا الطلب للظلمة من ذرّيته خصوصاً بعد اجتيازه لكلّ تلك الإختبارات الصعبة وشموله بمثل تلك العناية، هذا الشيء غير معقول أبداً سواء كان هذا الظلم بمعنى الكفر كما يصرّح بذلك القرآن الكريم: «إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ۱۳)

أو بمعناه الواسع الشامل لكل أنواع الفسق والفجور والمعصية.

وبناءً على هذا فالمراد ب «الظالم» هنا هو ذلك الشخص الموصوف بتلك الصفة ولو للحظة واحدة طول عمره مهما انقضى على تلك اللحظة من مدّة، فان مثل هذا المصداق بحاجة إلى بيان.

وفى الحقيقة إنّ اللَّه تعالى أراد ببيانه هذا إيقاف إبراهيم على هذه الحقيقة، وهى أنّ مقام الإمامة رفيع بدرجة لا يناله إلّااولئك الذين يليقون لهذه (النعمة) العظيمة المنزّهون عن كلّ أنواع الظلم والشرك والكفر والمعصية، وبعبارة اخرى، المعصومون.

ولذا يقول الفخر الرازى حين يصل إلى تفسير الآية المذكورة: «هذه الآية تدلّ على عصمة الأنبياء من وجهين:

الأوّل: إنّه قد ثبت أنّ المراد من هذه العصمة: الإمامة، ولا شكّ أنّ كلّ نبى إمام، فانّ الإمام هو الذى يؤتمّ به، والنبى أولى الناس بذلك، وإذا دلّت الآية على أنّ الإمام لا يكون فاسقاً،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۵

فإنّها تدلّ على أنّ الرسول لا يجوز أن يكون فاسقاً فاعلًا للذنب والمعصية أولى.

الثانى: إنّ التعبير ب «عهدى» لو كان يشير إلى النبوّة فالقصد منه أن أحداً من الظلمة لا ينال مقام النبوّة، وأنّ النبى يجب أن يكون معصوماً، ولو كان يشير إلى الإمامة فدلالة الآية تامّة أيضاً، لأنّ كلّ نبى إمام نظراً لاقتداء الناس به (فى كلّ الامور بلا قيد أو شرط)» «۱».

مع أنّ كلام الرازى فى تفسير الإمامة لم يف بالمطلوب (كما تقدّم)، لكن اعترافه الصريح فيما يتعلّق بالدلالة على لزوم عصمة الأنبياء (والأئمّة) ملفت للنظر، والإشكال الوحيد الذى يمكن إيراده على هذا الاستدلال، هو أنّ عصمة الأئمّة هى المستوحاة من الآية المذكورة لا الأنبياء (الأئمّة بالمعنى المتقدّم).

لكن هذا الإشكال يمكن ردّه بالقول: إنّ طلب إبراهيم عليه السلام مع أنّه يدور حول مقام الإمامة، فلفظ «العهد» الوارد فى جواب البارى جلّت قدرته: «لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ» تشمل كلًا من «الإمامة» و «النبوّة» معاً، لكون كلّ منهما عهداً إلهيّاً لبداهة شموله لهما كيفما فسّرناه، وموهبة كهذه لا تكون من نصيب الظالمين كما جاء فى روح البيان أيضاً: «وفى الآية دليل على عصمة الأنبياء عليهم

الصلاة والسلام من الكبائر قبل البعثة وبعدها» «۲».

فى الآيـة الثانيـة يـأمر اللَّه تعـالى المؤمنين كافّـة بالامتثـال لأوامر النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله واجتناب ما ينهى عنه، ويحثهم على التقوى لأنّه تعالى شديد العقاب.

«وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ».

التأمّل فى الآيـة يكشف عن أنّ المراد من: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ»، هو كلّ أوامر النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، باعتبار أنّ نواهيه هى الطرف المقابل: «وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، ومن هنا فقد صـرّح الكثير من المفسّرين بعموميـة مفاد الآيـة (كالطبرسى فى مجمع البيان، أبى الفتوح

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۴، ص ۴۸.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱، ص ۳۳۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۶

الرازى فى روح الجنان، القرطبى فى تفسيره، والفخر الرازى فى التفسير الكبير، بالإضافة إلى العديد من المفسّرين المعروفين أيضاً)؟

وطبقاً لهذه الآيـة يجب التسـليم المطلق فى مقابل أوامر النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله ونواهيه، ولا يمكن تصوّر التسـليم والطاعة بلا قيد أو شـرط لشـخص غير المعصوم، إذ مع ارتكاب الخطأ أو المعصـيـة والذنب يجب على المؤمنين تنبيهه على ذلك أو نهيه عنه فضلًا عن حرمة التسليم له.

كما ورد نظير هـذا المعنى أيضاً بصـيغة اخرى فى الآيـة الثالثة من آيات بحثنا حيث تقول كحكم مطلق: «مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً».

الملفت للنظر هو ما قاله الفخر الرازى فى تفسـيره: «إنّ هذه الآيـة هى من أقوى الأدلّة على عصـمـة نبى الإسـلام فى كلّ أوامره ونواهيه، وبأنّ كلّ ما يقوله هو عن اللَّه تعالى، لأنّه لو أخطأ فى شىء فلن تكون إطاعته إطاعة اللَّه تعالى، كما يجب أن يكون معصوماً فى أفعاله أيضاً، لأنّ اللَّه تعالى قد أمر باتّباعه» (بشكل مطلق) «۱».

و كـذلك فقـد جـاء نظير هـذا المعنى أيضـاً بقـالب آخر فى الآيـة الرابعـة مـن آيـات بحثنـا حيث تقـول: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً».

من الواضح أن هناك مجالًا للاعتراض أو عدم قبول حكم القاضى إذا قطعنا بخطئه، فلا يجب الانصياع لحكمه، فى حين أننا يجب أن لا نشك طرفة عين فى صوابية أحكام الرسول الاكرم ويجب أن نُسـلم تسليماً مطلقاً ونرضى من الأعماق بما يقضى ويحكم به الرسول الأـكرم صـلى الله عليه و آله من دون أن يساورنـا الشك أو يـدخل فى نفوسـنا الحرج، وما أكّـدت عليه الآيـة أعلاه دليل واضـح على معصوميته، ولذا يصرّح الفخر الرازى فى ذيل هذه الآيـة بأنّها

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۹۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۷

تـدلّ على أنّ الأنبيـاء عليهم السـلام معصومون من الخطـأ فى الفتـاوى والأحكـام، لأـنّه تعالى أوجب الإنقياد لحكمهم وبالغ فى ذلك الوجوب، وبيّن أنّه لابدّ من حصول ذلك الإنقياد فى الظاهر وفى القلب، وذلك ينفى صدور الخطأ عنهم «۱».

صحيح أنّ الآيـة قد نزلت فى تحكيم نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله، لكنّها توجب إطاعته فى كلّ شىء طبقاً للقرائن التى تحفّ بها، ولذا نقرأ فى الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لو أنّ قوماً عبدوا اللّه، فأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصاموا شهر رمضان، وحجّوا البيت، ثمّ قالوا لشيء صنعه رسول اللّه ألا صنع خلاف ما صنع أو وجدوا من ذلك حرجاً فى أنفسهم لكانوا مشركين! ثمّ تلا هذه الآية ...» «۲».

واضح أنّ هذه الآية لا تختصّ بزمن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فقط، بل هى قائمة إلى يوم القيامة، وقد أشار البعض من المفسّرين إلى ذلك أيضاً «۳».

وبناءً على هذا فكلّ من خالف سنّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله القطعيّة وأحكامه، أو وجد من ذلك حرجاً فى نفسه أصبح مصداقاً لهذه الآية.

وبالجملة فالآيات الثلاث السابقة هى بصدد بيان حقيقة واحدة بعبارات شتّى، ألا وهى ضرورة التسليم المطلق أمام أوامر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأحكامه، ولا يتمّ هذا إلّابالقول بضرورة عصمته.

والغريب هو أنّ بعضاً من مفسّرى أهل السنّة قد استدلّ بما جاء فى صحيح مسلم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مرّ بقوم يلقّحون (النخل) فقال: «لو لم تفعلوا لصلح، قال: فخرج شيصاً (لم يثمر)، فمرّ بهم فقال: ما لنخلكم؟ قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم بأمر دنياكم» «۴».

ومن هنا فقد قسّم البعض منهم أحاديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إلى قسمين: ما يقوله عن اللّه

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۶۵.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۶۹.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۵، ص ۶۵.

(۴) جاء فى صحيح مسلم فى هذا الموضوع ثلاثة أحاديث متّفقة مضموناً وبعبارات شتّى، (صحيح مسلم، ج ۴، الباب ۳۸ ص ۱۸۳۵، ح ۱۳۹ و ۱۴۱ باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً دون ما ذكره صلى الله عليه و آله من معايش الدنيا على سبيل الرأى).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۸

تعالى فى المسائل الدينية والشرعية، وما يقول عن نفسه فى امور الدنيا، فهو معصوم فى الأوّل دون الثانى!!

لكننا لا نعتقد بصحة مثل هذه الاحاديث مطلقاً لانها من أجلى مصاديق الروايات المخالفة لكتاب اللّه تعالى، لأنّ القرآن اعتبر كلام الرسول صلى الله عليه و آله وأحاديثه مقياساً وميزاناً، واعتبره عين الوحى، حيث ورد فى قوله تعالى «وَما يَنطِقُ عَنِ الهوى . (النجم/ ۳) فكيف يمكن التصديق بأنّ نبيّاً بكلّ تلك العظمة يدعو الناس إلى شيء من دون علم، بحيث يكون سبباً لدمار محاصيلهم ثمّ يتنازل عن كلامه هذا ويقول لهم: أنتم أدرى منّى بامور دنياكم، فى حين أنّه وبلا شكّ يعدّ من أعلم وأذكى الناس وله اطّلاع واسع بامور من قبيل تأبير النخل و ... بل كيف يمكن لشخص يبدى رأيه رجماً بالغيب (والعياذ باللّه) أن يكون رئيساً لحكومة إسلامية بتلك العظمة.

ولهذا السبب لا نستبعد كون مثل هذه الأحاديث من الموضوعات التى دبرها المنافقون وأعداء الإسلام، وأدخلوها بين طيّات الكتب الإسلامية للحطّ من عظمة ومنزلة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وعلمه وعقله وتعريضه للشكّ والريبة والاستفهام.

إن عدم نقل هذا الحديث فى الكثير من المصادر الإسلامية الاخرى، يعدّ بنفسه دليلًا على عدم اطمئنان علماء الإسلام بمثل هذه الأحاديث الواهية، والذى يدعو للعجب هو الاستشهادبها من قبل أشخاص ك «المراغى» وصاحب «المنار» فى تفاسيرهم، فى الوقت الذى يُشكلون على الكثير من المسائل الاخرى.

على أيّة حال فتقسيم أقوال وافعال وتقريرات الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى قسمين، يفتح الطريق أمام الذين فى نفوسهم مرض، لتفسير ما يقوم به النبى الأكرم وفى شتّى المجالات الاجتماعية والحياتية والبشرية، والتشكيك به، ثم الاستفهام هل هو من

القسم الأوّل أو الثانى؟

لـذا- وكما سيأتى إن شاء اللَّه- لو وجد الخطأ والإشتباه طريقه إلى شىء من كلام النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لما بقى هناك مجال للاعتماد على كافّة أحاديثه، ولهذا نعتقد نحن بوجوب

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۶۹

عصمة الأنبياء والأئمّة من جميع الجهات.

الآية الخامسة تخاطب المسلمين وتقول لهم: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً».

«الاسوة»: لها معنيان: فهى تارة تعنى الإصلاح والعلاج ومن هنا قيل للطبيب «آسى»، وتارة تعنى «الغمّ والحزن».

يعتقد البعض أنّ هذه المفردة لو كانت «معتلًا واوياً» لكانت بالمعنى الأوّل، ولو كانت «معتلًا يائياً»، لكانت بالمعنى الثانى.

كما احتمل أيضاً عودة كلا المعنيين إلى معنى واحد باعتبار أنّ الغمّ والحزن والأسى إنّما يكون على ما فيه الصلاح والعلاج.

على أيّة حال فظاهر معنى الآية الخامسة هو الإقتداء والإقتفاء (باعتبار أنّ الإقتداء بالعظماء يعدّ من أفضل طرق الصلاح).

الملفت للنظر أنّ «الاسوة» ك «القدوة» لها معنىً مصدرى وهو الإقتداء والمتابعة وليس معنىً وصفيّاً كما هو متداول اليوم، وبعبارة اخرى فالقرآن الكريم لا يقول: النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قدوة لكم، بل يقول: فى وجوده قدوة حسنة (تأمّل جيّداً).

التعبير ب «لقد» للتأكيد، وذكر «كان» إشارة إلى حقيقة كون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قدوة للمسلمين على مرّ الزمن.

مع أنّ المخاطب فى هذه الآية (لكم) يشمل كلّ المؤمنين، لكن جملة: «لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً» تفيد أنّ الأشخاص الذين يتّصفون بهذه الأوصاف، وهى رجاء رحمة اللَّه واليوم الآخر والذكر الكثير للَّه‌تعالى، هم فقط اولئك الذين يتسنّى لهم الاستفادة من هذه القدوة الحسنة.

وبالرغم من أنّ هذه الآية ناظرة إلى استقامة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وشجاعته الخارقة فى معركة الأحزاب: ولكن هذا لا يحدّد مفهوم الآية نظراً لإطلاقه وخلوّه من كلّ قيد أو شرط.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۰

الإجابة عن سؤال:

وهنا يتبادر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن الإقتداء المطلق بلا قيد أو شرط بمن لا يتمتّع بمقام العصمة؟! والجواب واضح وهو يمثل دليلًا وشاهداً على مسألة العصمة، إذن فالأمر بالإقتداء هذا خير دليل على حقيقة معصوميته، وإلّا لما جاز أن يكون قدوة فى كلّ شىء، ولكلّ شخص فى أىّ زمان ومكان.

ومن هنا فالآية الآنفة الذكر متّفقة مع الآيات التى تأمر المؤمنين بإطاعة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بلا قيد أو شرط (الآيات السابقة).

ربّما قيل: إنّ التعبير ب «الاسوة» قد جاء فى القرآن فى موضعين آخرين (الممتحنة/ ۴ و ۶) وأنّه شامل للمؤمنين الذين كانوا مع نبى عظيم كإبراهيم عليه السلام، بالإضافة إليه، بالرغم من عدم عصمتهم، يقول تعالى: «قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». (الممتحنة/ ۴)

لكنّ التدقيق فى الآية المذكورة يكشف انحصار الإقتداء والتأسّى هنا فى بُعد واحد فقط، ألا وهو مسألة البراءة من المشركين إذ إنّ هناك طائفة من المسلمين فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حديثو عهد لم يستسيغوا التخلى عن أقربائهم ومعارفهم من المشركين بسهولة، وهنا يقول القرآن: اقتدوا بإبراهيم وأصحابه فعندما أصبحوا موحدين أعلنوا عن استيائهم من المشركين والبراءة منهم.

كما أنّ الآيـة السادسـة من هـذه السورة تؤكّـد على هذا الموضوع أيضاً، وبناءً على هذا فالخطاب لم يقصد منه مطلق الإقتداء والتأسّـي بأصحاب إبراهيم عليه السلام (تأمّل جيّداً).

والمخاطب فى الآية السادسة هم أهل بيت النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله إذ يقول تعالى: «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً».

جاء فى مقاييس اللغة أنّ أصل «الرجس» هو «الإختلاط»، ثمّ أطلق على الأشياء النجسة لاختلاطها بشىء آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۱

لكن «الراغب» فسّـر أصل الرجس فى «مفرداته» بمعنى «الشـىء القـذر» وقال: إنّه يكون على أربعـة أوجه: إمّا من حيث الطبع، وإمّا من جهة العقل، وإمّا من جهة الشرع، وإمّا من كلّ ذلك.

وقـد ذكر البعض مصـاديق أو معـانىَ عديـدة ل «الرجس» كالـذنب والشـرك والحسـد والبخـل، والقـذارة، النجس المختلط، الصـديد والجراحة، الصياح الخارج عن الحدّ المتعارف، الشكّ، الكفر، اللعن، الرائحة الكريهة وأمثالها.

يبـدو أنّ «الرجس» فى هذه الآية ونظراً لإطلاقها، له معنى واسع شامل، لكلّ أنواع الذنب والشـرك والبخل والحسد والفسوق الظاهرى والباطنى والأخلاق والعادات السـيّئة التى تشـمئز منها النفوس، والحقيقة أنّ أهل بيت النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وبإرادة من اللَّه تعالى كانوا مطهّرين من كلّ هـذه الامور، ولا شكّ أنّ هـذه الآيـة تثبت مسألـة العصـمة فى شـخص النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وأهـل بيته (أمّـا فيمـا يتعلّق بـالمراد من أهـل البيت ومن هم؟ فسـيأتى الكلام عن ذلك إن شاء اللَّه تعالى)، إنّ إرادته تعالى لابـدّ وأن تتحقّق، وإرادته فى إذهاب الرجس عن هذه الاسـرة لا يعنى سوى «ضـمان عصـمتهم» مفهوماً، لبداهة كون الشرك والذنب من أجلى مصاديق الرجس والقذارة، ولا شكّ أنّ نفى الرجس بشكل مطلق يشمل الذنوب أيضاً.

هل أنّ هذه الإرادة تشـريعية أم تكوينية؟ وبعبارة اخرى، هل أنّ اللَّه تعالى أمر أهل البيت بعدم ارتكاب الذنوب والقبائح، أم أنّه تعالى أودع الطهارة فى نفوسهم؟

بـديهى أنّ المراد ليس المعنى الأوّل، نظراً لعـدم انحصـار الإرادة التشـريعية (التكليف بأداء الواجبات وترك المحرّمات) باسـرة النبى فقط، بل شـمولها لكلّ الناس بلا اسـتثناء فى اجتناب الـذنوب، فى حين أنّ كلمـة «إنّما» تدلّ على اختصاص وانحصار هذه الموهبة فى أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (تأمّل جيّداً).

وبنـاءً على هـذا ف «الإرادة» هنا تنحصـر بالإرادة التكوينيـة، لكن ليس بـذلك المعنى الـذى يسـتلزم القول بالجبر وأنّ أهل بيت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مجبرون على العصمة، لأنّ الأنبياء

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۲

والأئمّة- وكما سـيأتى الحديث عن ذلك بالتفصـيل- لا يذنبون مع قدرتهم على ارتكاب الذنب، حيث إنّ اللَّه تعالى قد منحهم سلسلة من المعارف والمبادىء الفطريـة التى تـدعوهم إلى الطهارة، بالضـبط مثل العاقل الـذى تمنعه معرفته ومبادؤه الفطريـة من خروجه إلى الزقاق عارياً كما خلقه اللَّه تعالى، مع بداهة قدرته على ذلك (سيأتى شرح وافٍ لهذا الموضوع فى ذيل الآيات).

من هم أهل البيت؟

مع كون عبـارة أهـل البيت مطلقـة، لكن المراد منهـا هم أهل بيت النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله بقرينـة الآيات السابقـة واللاحقـة، واتّفاق علماء الإسلام والمفسّرين على ذلك.

المهمّ هنـا هو مَنِ المراد من أهـل البيت عليهم السـلام، هـل النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله وعلى وفاطمـة والحسن والحسـين عليهم

السلام (هذه الأنوار الخمسة المقدّسة) فقط، أم زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وباقی أقربائه أیضاً؟

عموم علماء الشیعة والبعض من علماء السنّة أخذوا بالقول الأوّل، فی حین ذهب الکثیر من علماء أهل السنّه إلی القول الثانی «۱».

ولأجل الوقوف علی حقیقة المراد من أهل البیت فی الآیة الشریفة، لابدّ من التأمّل فی الروایات الکثیرة المذکورة فی ذیل هذه الآیة عن الکثیر من الصحابة عن النبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

۱- السیوطی فی «الدرّ المنثور» الذی یُعدّ من أشهر کتب أحادیث تفسیر القرآن عند أهل السنّة، ذکر حوالی عشرین حدیثاً فی ذیل هذه الآیة، جاء فی خمسة عشر منها أنّها نزلت فی حقّ الخمسة أهل الکساء، أی: النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وعلی وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام، واللطیف هنا هو انتهاء عشر من هذه الروایات الخمس إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله

---

(۱) جاء فی «فی ظلال القرآن» أنّ التعبیر بأهل البیت بشکل مطلق إشارة إلی أنّ البیت الحقیقی فی العالم هو بیت النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، «مثلما أنّ هذا التعبیر قد ورد بشکل مطلق فی حقّ بیت اللّه الحرام فی البعض من آیات القرآن» وفی الواقع فانّ هذا التعبیر هو نوع تکریم وتعظیم خاصّین لأهل بیت النبی الأکرم صلی الله علیه و آله.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۳

وکون رواتها هم امّ سلمة، أبو سعید، عائشة، سعد، واصل بن أصقع، أبو سعید الخدری، أنس، أبو الحمراء. (البعض من هذه الروایات ینتهی سندها إلی امّ سلمة زوجة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله).

فی حین أنّ أربعة من هذه الأحادیث فقط تشیر إلی أنّ الآیات ناظرة إلی زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، والملفت للنظر هو أنّ أیّاً من هذه الأحادیث الأربعة لا ینتهی سنداً إلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، بل قد نقلت عن ابن عبّاس وعروة وآخرین کما شهدوا علی ذلک بأنفسهم، فضلًا عن رائحة الوضع التی تشمّ منها، إذ قد ورد فی أربعتها أنّ المراد من الآیة زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فقط! فی حین أنّ الخطاب ب «کم» فی جملة «لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ» و «وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً»، الوارد بصیغة المذکّر یبیّن أنّ هناک رجالًا مخاطبین فی هذه الآیة أیضاً، علی خلاف الآیات السابقة النازلة فی خصوص نساء النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، والتی استعمل فیها «نون النِسوة»، إذن فالحدیث القائل بأنّ المراد هو زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، هو خلاف ظاهر القرآن ولا یمکن قبوله.

۲- هناک العدید من الروایات فی باب حدیث الکساء بین طیّات المصادر الإسلامیة (وخاصّة مصادر أهل السنّة) التی یستخلص منها هذا المعنی وهو أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، دعا علیّاً وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام (أو أنّهم حضروا عنده) وغطّاهم بردائه، وقال طبقاً لروایة عن جعفر الطیّار (ابن عمّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله) اللهمّ لکلّ نبی أهل وإنّ هؤلاء أهلی، فأنزل اللّه تعالی: «إِنَّمَا یُرِیدُ اللَّهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهِیراً»، وفی هذه الأثناء تقدّمت زینب زوجة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وقالت: ألا أدخل معکم؟ قال مکانک فإنّک علی خیر إن شاء اللّه «۱».

---

(۱) شواهد التنزیل للحسکانی، ج ۲، ص ۳۲، ح ۶۷۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۴

هذا الحدیث یصرّح بعدم دخول زوجات النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی آیة التطهیر.

والأهمّ من هذا هو الحدیث الوارد عن عائشة بنفس هذا المعنی والذی تقول فی خاتمته: فقلت: یارسول اللّه ألست من أهلک؟ قال صلی الله علیه و آله: «إنّک لعلی خیر، ولم یدخلنی معهم» «۱».

کما أنّ نفس هذا المعنی جاء فی صحیح مسلم، غایة الأمر أنّ ذیل الحدیث الذی یرتبط بطلب عائشة لم یرد فیه «۲».

وورد نفس هذا المعنى فى حديث آخر عن «امّ سلمة» وأنّها قالت فى ذيله: يارسول اللّه وأنا معهم؟! قال: إنّك على خير (لكنّك لست منهم) «۳».

ونقل «الحاكم» نفس هذا المعنى بصراحة أكبر فى «مستدرك الصحيحين» عن امّ سلمة أنّه صلى الله عليه و آله قال: «إنّك على خير وهؤلاء أهل بيتى» «۴».

حديث امّ سلمة هذا ورد فى الكثير من الكتب المعروفة، من جملتها ما جاء فى «صحيح الترمذى» أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حينما غطّى عليّاً وفاطمة والحسن والحسين بردائه وقال: «اللهمّ! هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، فقالت امّ سلمة: وأنا معهم يانبى اللّه؟! فقال النبى صلى الله عليه و آله: أنت على مكانك وأنت على خير» (وإن لم تكونى فى زمرة أهل البيت فى هذه الآية) «۵».

هذه التعابير تبيّن بمجموعها وبكلّ وضوح أنّ الآية لم تشمل أيّاً من زوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لا «امّ سلمة» ولا «عائشة» ولا سواهما، والذى يدعو للإستغراب هو إصرار البعض من مفسّرى أهل السنّة على شمول هذه الآية لزوجات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع عدم اكتراثهم بكلّ هذه الأحاديث المعروفة المعتبرة.

---

(۱) شواهد التنزيل للحسكانى، ج ۲، ص ۳۸، ح ۶۸۳.

(۲) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۸۳ (باب فضائل أهل بيت النبى) ح ۶۱.

(۳) ابن الأثير نقل هذا الحديث فى اسد الغابة، ج ۳، ص ۴۱۳.

(۴) مستدرك الصحيحين، ج ۲، ص ۴۱۶ (ط. حيدر آباد دكن) نقلًا عن إحقاق الحقّ، ج ۳، ص ۵۱۸.

(۵) صحيح الترمذى، ج ۵، كتاب تفسير القرآن، الباب ۳۴، ص ۳۵۱، ح ۳۲۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۵

والعجيب من الفخر الرازى المعروف بشروحه وتفصيلاته الوافية ودقّة ملاحظاته عند تناول آيات القرآن، هو مروره مرّ الكرام على هذه الآية التى يطول فيها الحديث من كافّة الأبعاد، وتفسيره لها لفظيّاً بسطرين أو ثلاثة لا غير؟!

لماذا يبتلى عالم بمثل هذا التعصّب الذى يغلق عليه أبواب الحقيقة مع ما تميّز به من قابلية واطّلاع واسع؟!

۳- الملاحظة الاخرى هى أنّه: قد جاء فى الكثير من الأحاديث، والتى اشير إلى البعض منها فيما تقدّم أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وبعد نزول هذه الآية كان ينادى لمدّة أربعين يوماً أو ستّة أشهر أو ثمانية أشهر أو أكثر من ذلك عند صلاة الفجر، أو كلّ الصلوات أو حين مروره ببيت فاطمة الزهراء عليها السلام: الصلاة يا أهل البيت إنّما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً»، وجاء فى البعض منها أنّه صلى الله عليه و آله كان يقول: «السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته أهل البيت إنّما يريد اللّه ...» «۱».

التفاوت الملحوظ فى هذه الروايات من الناحية الزمنية لا أهميّة له أصلًا، إذ من الممكن أنّ «أنساً» قد شهد هذا الموقف ستّة أشهر، وأبا سعيد الخدرى ثمانية أشهر وغيرهما أكثر أو أقل، إذ فى الواقع كلّ يذكر المدّة التى شهدها هو بنفسه دون أن ينفى ما زاد عليها.

ولكن على أيّة حال فهذه الرواية دليل واضح جدّاً على أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، كان يريد بيان هذه الحقيقة لعموم المسلمين وترسيخها فى أذهانهم، وهى أنّ هذه الأسرة فقط دون سواها هى أهل بيته فى هذه الآية.

وإلقاؤه الرداء على هؤلاء النفر من أهل بيته وتشخيصه لهم به، وحجب الآخرين حتّى

---

(۱) جاء هذا الحديث فى شواهد التنزيل عن أنس بن مالك، ج ۲، ص ۱۱، وعن أبو سعيد الخدرى فى نفس الجزء، ص ۲۸ و ۲۹،

وفى الدرّ المنثور فى ذيل الآية مورد البحث عن ابن عبّاس و أبو الحمراء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۶

زوجاته من الدخول تحته إنّما هو لبيان أنّ مصاديق هذه الآية هم أهل الكساء فقط.

نحن لا نـدرى لو أنّ أحـداً أراد تمييز أفراد معـدودين من بين جمع كثير، ومخاطبتهم، بحيث لا يعترض عليه أهل الشـبهات والحجـج، ماذا ينبغى له أن يفعل؟ ألا يكفى لهذا الغرض إلقاء الرداء عليهم، أو مخاطبتهم عند المرور بالقرب من منازلهم لشهور متوالية!

ألا يثير الدهشة والعجب إهمال البعض لهذه الحقائق، والإصرار على توسيع دائرة تلك الفضيلة المهمّة المحدودة بالخمسة أهل الكساء لتشمل غيرهم؟

والملفت للنظر أنّ الحاكم الحسكانى من علماء أهل السنّة المعروفين، قد ذكر أكثر من مائة وثلاثين حديثاً! حول هذا الموضوع.

و «السيّد علوى بن ظاهر الحضـرمى» يقول فى كتاب «القول الفصل»: «حـديث آيـة التطهير هو من الأحاديث المشـهورة المتواترة التى تقبّلتها الامّة الإسلامية .. واعترف بصحّته سبعة عشر من كبار حفّاظ الحديث» «۱».

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع، هو أنّ الكثير من الروايات الواردة بهذا الشأن مذكورة فى كتاب «فضائل الخمسة من الصحاح الستّة» عن صحيح مسـلم، صـحيح الترمذى، تفسير الطبرى، مستدرك الصحيحين، مسند الإمام أحمد، خصائص النسائى، تاريخ بغداد، مسند أبى داود، اسد الغابة، وكتب اخرى يمكن الرجوع إليها لمزيد من الإطّلاع والتعمّق ولإمكانية الحكم بشأنها بشكل أفضل «۲».

فى الآيـة السابعـة نطـالع تعبيراً آخر يشـير هو الآـخر إلى مسألـة عصـمة الأنبياء أيضاً، وذلك حينما طرد الشـيطان من رحمـة اللّه تعالى (وبدأت عداوته مع الإنسان)، إذ يقول: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ».

---

(۱) هذه الأحاديث ذكرها فى القول الفصل، ج ۲، ص ۱۰ إلى ۹۲، (ص ۸۲) فراجعها.

(۲) فضائل الخمسة من الصحاح الستّة، ج ۱، ص ۲۷۰ إلى ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۷

هـذا التعبير لاـ ينحصـر بالآيـة المـذكورة، بـل قـد ورد نفس هـذا المعنى أيضـاً بتفاوت ضـئيل: «وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (الحجر/ ۳۹- ۴۰)

و فى الآيـة الثامنـة نرى هـذا المعنى أيضاً بشـكل آخر حيث يحكى تعالى عن فريق من الأنبياء الكبار: «إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ».

وكما قلنا فى خصائص الأنبياء عليهم السـلام ف «المخلص» (بكسـر اللام) هو الذى يسعى لتصفية قلبه وهى المرحلة الرفيعة من التقوى وطهـارة القلب والمرحلـة الأـرفع والأسـمى منهـا هى «المخلص» (بفتـح اللاـم) وهو يختصّ باولئـك الـذين طهّرهم اللّه تعالى من كلّ الشوائب والقبائح، نتيجة سعيهم المتواصل لتهذيب أنفسهم، ولهذا يرتبطون باللّه تعالى بكلّ وجودهم، وبديهى أنّ الشيطان لا يجد إلى نفوسهم طريقاً أبداً، إذ لا مكان لغير اللّه فى قلوبهم ولذا لا يفكّرون بمن سواه ولا يتمنّون غير رضاه.

ومن المسـلّم أنّ صـفة كهـذه ملازمـة لمرتبـة العصـمة، وذلك لخروجهم عن دائرة طاعـة الشـيطان، وبالشـكل الذى جعله لا يفكّر فى صرفهم أبداً، كما أنّهم خالصون للّه‌تعالى من ناحية الصـفات النفسانية والميول والرغبات، ولهذا السـبب لا تدنّسهم الخطيئة ولا يتّبعون الهوى.

ومن البديهى أنّ اسـتثناء الشـيطان للانبياء من بين بنى آدم، وعدم السعى لإغوائهم، ليس لاحترام خاصّ يكنّه لهم باعتبارهم مخلصين، بل ليأسه وقنوطه ويقينه بعجزه عن الوسوسة لهم.

و بالرغم من أنّ الآيات الآنفة الذكر لا تشير صـراحة إلى الأنبياء أو الأئمّة المعصومين، لكن لفظة «المخلصـين» وكيفما فسّرناها تخصّ

الأنبياء وأوصياءهم، لعدم وجود أفضل منهم من بين عباد اللّه، والملفت للنظر أنّ هذا التأييد الإلهى المانع من ارتكاب المعصية وهو السبب فى العصمة، والذى يدور حول محور الإخلاص متجسّد فى قصّة يوسف أيضاً، يقول

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۸

تعالى: «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ». (يوسف/ ۲۴)

هذا التعبير يبيّن أنّ من يكون «مخلصاً» يتخلّص من ثورة هوى النفس وطغيانه، والوساوس الشيطانية ببركة الإمدادات الغيبية، وجملة «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» هى من قبيل القياس منصوص العلّة، الذى يضفى العمومية على مفهوم الآية.

مفهوم عصمة الأنبياء فى ظلّ الإخلاص يتّضح من خلال مقاومة يوسف عليه السلام، مع كونه شاباً أعزباً، وصموده أمام أمواج الخطيئة المتلاطمة التى أحاطت بزورق وجوده من كلّ حدبٍ وصوب، وفى ظروف حسّاسة تفوق المتعارف أمام الوساوس الكثيرة، التى أثارتها تلك المرأة الجذّابة، ولذا نجد أنّ لأقطاب المفسّرين عبارات تشير إلى مقام عصمة الأنبياء فى ذيل الآيات المذكورة «۱».

وفى الآية التاسعة خوطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ضمن الحديث عن الأنبياء السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى، وفريق آخر من الأنبياء الكبار بقوله تعالى: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» «۲».

الملفت للنظر أنّها تأمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالإقتداء بهدايتهم بلا قيد أو شرط!، فهل يعقل عدم حصول اولئك الأنبياء عليهم السلام على مقام العصمة ثمّ يؤمر نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالإقتداء بهم بلا قيد أو شرط؟

وبعبارة اخرى: فى الآية أعلاه تمّ التأكيد أوّلًا على الهداية الإلهيّة لهم، ثمّ تمّ التفريع على ذلك بالقول: الآن وبعد أن شملتهم الهداية الإلهيّة اقتد بهداهم (تأمّل جيّداً).

ومن المسلّم أنّ المراد، بالهداية الإلهيّة هنا ليس رسم الطريق فحسب، لعدم اختصاصه بالأنبياء فقط بل لشموله لكلّ الناس حتّى الكفّار، وعليه فالهداية المذكورة هى نفس معنى الإيصال إلى المطلوب (وبلوغ المقصود) بعيداً عن أى خطأ وانحراف واشتباه ومعصية.

---

(۱) راجع تفسير مجمع البيان للطبرسى؛ تفسير جامع البيان للشيخ الطوسى؛ وتفسير الميزان للعلّامة الطباطبائى؛ تفسير روح البيان للقرطبى؛ وتفسير فى ظلال القرآن لسيّد قطب فى ذيل الآيات مورد البحث.

(۲) يجب ألّا يفوتنا أنّ «الهاء» فى لفظة «اقتده» ليست ضميراً بل هاء السكتة التى تلحق الكلام عند الوقوف على الحرف المتحرّك.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۷۹

يقول المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير «الميزان»: إنّ هذه الآية خاصّة بالمعصومين.

بديهى أنّ المراد بهداية الأنبياء هى تلك الاصول والمعارف التى بلغوها بأنفسهم، مضافاً إلى اصول تعليماتهم العبادية والسياسية والأخلاقية والتربوية، ولا منافاة لهذا مع نسخ قسم من تفاصيل أحكام شريعتهم، كما أنّ تفسيرهم للهداية بمعنى الإيمان أو الصبر وأمثالهما إنّما هو لاقتناعهم بما ذكره البعض من المصاديق.

واعتقاد البعض بأنّ الآية منسوخة ليس فى محلّه، يقوله تعالى «لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً» (المائدة/ ۴۸)

وهذه لأنّ هداية الأنبياء التى تشكّل الاصول العامّة لتعاليمهم غير قابلة للتغيير، ولا تتأثّر بالتغيّرات الجزئية للشرائع الناتجة عن الظروف الزمانية والمكانية، ولذا يقول القرآن على لسان المؤمنين الحقيقيين: «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ».

(البقرة/ ۲۸۵)

وخلاصة الكلام هى: أنّ الإقتداء بهُدى الأنبياء السابقين هو نوع من «التحقيق» لا «التقليد» كما يراه البعض، لأنّ التحقيق هو قبول الشىء بالدليل، ومقام عصمة الأنبياء وصدقهم هو بمثابة الدليل على حقّانية ما يقولونه، ولذا فاستنباط صفات اللّه تعالى أو تفصيلات المعاد

من القرآن، هو فی الحقیقة نوع من التحقیق لا التقلید، وذلک لعدم انحصار الدلیل بالعقل، بل هناک الدلیل النقلی الثابت عن طریق الوحی والمقبول کالدلیل العقلی (تأمّل جیّداً).

الآیة العاشرة من آیات البحث إشارة إلی شخص النبی الأکرم صلی الله علیه و آله یقول تعالی: «وَمَا یَنْطِقُ عَنْ الْهَوَی إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحَی .

یستفاد من هذا التعبیر بکلّ وضوح أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله لا یکذب ولا یخطأ فی کلامه أبداً، ولا سبیل للضلال والإنحراف إلیه: «مَا ضَلَّ صَاحِبُکُمْ وَمَا غَوَی .

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۰

ولذا- وعلی حدّ قول بعض المفسّرین- یستفاد من هذه الآیات بما لا یدع مجالًا للشکّ، أنّ سنّة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله هی ک «الوحی المنزل» «۱».

امّا إلی ماذا یعود الضمیر «هو» فی جملة «إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحَی ؟ الظاهر أنّه یعود علی «النطق» المستفاد من جملة «ومَا یَنْطِقُ عَنْ الْهَوَی ، أی أنّ «کلامه وحی إلهی»، سواء أکان هذا الکلام آیات قرآنیة أم أحکام ومواعظ وحکم، وأمثال ذلک، فکلّها تتمتّع بجذور إلهیّة.

وکما یستفاد من الآیات أعلاه أنّ المصدر الرئیسی للضلال والانحراف هو اتّباع هوی النفس، وأنّ من یسیطر علی هوی نفسه بشکل تامّ لا یعصی اللّه تعالی، لأنّ تقواه تحفّظه من الإنحراف لاقترانها بوضوح الرؤیة فی کافّة المراحل، وحین بلوغ المرحلة السامیة، یصل وضوح الرؤیة بدوره إلی مرحلة الکمال أیضاً، وبناءً علی هذا لا یرتکب ذنباً ولا خطیئة (تأمّل جیّداً).

ثمرة البحث:

ممّا لاشک فیه أن الآیات السابقة لا تتماثل ولا تتشابه فی بیان کیفیّة وأبعاد عصمة الأنبیاء، فبعضها یعتبرها عصمة من الذنب أو الصیانة من الخطأ فقط، والآخر یعتبرها عمومیّة وشمولیّة لکلّ الامور، والبعض تحدثت عن نبی الإسلام صلی الله علیه و آله، والبعض الآخر عن الأنبیاء السابقین، بعضها وصفت العصمة بعصمة القول، بینما البعض الآخر اعتبرتها شاملة للفعل أیضاً.

لکنّ مجموع هذه الآیات یثبت هذه الحقیقة، وهی: أنّ الأنبیاء منزّهون معصومون من أی ذنب أو خطأ، کما أنّ عصمة أهل بیت النبی الأکرم صلی الله علیه و آله الثابتة بالآیات المذکورة، هی ممّا لا یخفی وهو ما کنّا بصدده.

---

(۱) یقول القرطبی فی تفسیره، ج ۹، ص ۶۲۵۵ وفیها أیضاً دلالة علی أنّ السنّة کالوحی المنزل فی العمل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۱

تنزیه الأنبیاء علیهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۳

تنزیه الأنبیاء

اشارة

إن أوّل ما نتناوله فى هذا البحث التعابير الواردة فى آيات القرآن المجيد، التى توهم لأوّل وهلة أنّها دليل على صدور ذنب أو خطأ من اولئك الأنبياء العظماء فى بعض الأحيان.

سنذكر فيما يلى أهمّ الآيات التى تحدّثت حول هذا الموضوع، طبقاً للترتيب التأريخى للأنبياء عليهم السلام.

۱- آدم عليه السلام

نقرأ فى القرآن الكريم: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . (طه/ ۱۲۱)

وكذلك فى قوله تعالى «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً».

(طه/ ۱۱۵)

لقد نسبت الآية الاولى العصيان والغى إلى آدم، والثانية نسبت إليه النسيان وعدم العزم مع أنّ هذا لا يتناسب مع عصمة الأنبياء وبعيد عنهم كلّ البعد.

الجواب:

هنالك أبحاث متنوّعة للمفسّرين منذ قديم الأيّام وإلى الآن حول الإجابة عن هذا السؤال، لقد ذهب بعض المفسرين- ودون الأخذ بنظر الاعتبار الأدلة العقلية والنقلية- إلى أنّ ما صدر من آدم عليه السلام يُعدُّ من الذنوب الكبيرة، إلّاأنّه يرتبط بالفترة التى سبقت نُبوّته.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۴

وبعضهم حمل هذه المعصية على كونها من الذنوب الصغيرة ولم يعرها أية اهمية.

وبالرغم من الآيات الواردة والمتعلقة بعصمة الأنبياء والمنزلة الرفيعة التى أولاها اللّه سبحانه وتعالى لهم، وبالأخص لآدم عليه السلام، حيث جعله خليفتهُ وحجّته، إلّاأنّهم لم يذعنوا لمثل هذه الادلة ولم يسلِّموا لها، بل أخذ كل واحد منهم يبتكر حلًا ويذهب مذهباً للخروج من هذه المعضلة، ومن بين هذه التفاسير يمكن الركون إلى ثلاثة آراء باعتبارها الطريق الامثل لحل هذا الاشكال وهى:

أ) كان نهى آدم نهيّاً إختبارياً- مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ آدم كان قد خلق للعيش فى الأرض لا الجنّة، وأنّ فترة وجوده فى الجنّة كانت فترة اختبار لا- تكليف، إذن فأوامر اللّه ونواهيه هناك كانت لغرض إعداد آدم، بحيث يتلاءم وحوادث المستقبل فيما يتعلّق بالواجب والحرام.

وبناءً على هذا فقد خالف آدم أمراً إختبارياً فقط لا أمراً واجباً قطعيّاً.

فى حديث للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وفى معرض ردّه على «على بن محمّد بن الجهم»، الذى يعدّ من متكلّمى ذلك العصر المعروفين، وكان يعتقد بعدم عصمة الأنبياء استناداً إلى بعض ظواهر الآيات القرآنية، قال عليه السلام له: «ويحك ياعلى اتّق اللّه ولا تنسب إلى أنبياء اللّه الفواحش ولا تتأوّل كتاب اللّه برأيك فإنّ اللّه عزّوجلّ يقول: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ» ثمّ أضاف قائلًا: أمّا قول اللّه عزّوجلّ فى آدم عليه السلام: «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ، فانّ اللّه عزّوجلّ خلق آدم حجّته فى أرضه وخليفته فى بلاده، لم يخلقه للجنّة وكانت المعصية من آدم فى الجنّة لا فى الأرض، (والجنّة لم تكن دار تكليف بل دار اختبار) لتتمّ مقادير أمر اللّه عزّوجلّ، فلمّا اهبط إلى الأرض وجعل حجّة اللّه وخليفته عصم بقوله عزّوجلّ: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ»» «۱».

ب) كان نهى آدم نهياً إرشادياً- يعتقد جمع من المفسرين أنّ أوامر الأنبياء ونواهيهم ومن جملتهم آدم عليه السلام والتى لم تطبّق، كانت ذات جانب إرشادى، مثل أمر الطبيب للمريض

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۵

بتناول الدواء الفلانى، والاجتناب عن الطعام الفلانى غير المناسب، فمتى ما خالف المريض أمر الطبيب فسيضرّ نفسه، لعدم اكتراثه بإرشاد الطبيب وتعليماته.

فمن الممكن هنا عصيان أمر الطبيب ومخالفته، ولكن من المسلّم أنّ هذا سيكون على حساب صحّة المريض، ولا يعنى الإستهانة بمقام الطبيب أبداً، وهكذا فقد قال اللّه تعالى لآدم: لا- تأكل من هذه «الشجرة» وإلّا فستطرد من الجنّة ونعيمها، وتلاقى المشقّة والعذاب: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى* إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَاتَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَى . (طه/ ۱۱۷- ۱۱۹)

وبناءً على هذا فقد خالف آدم نهياً إرشادياً، لا أمراً إلهيّاً واجباً، فواجه المصاعب، كما أنّ التعبير ب «العصيان» لا يخدش فى عصمة آدم أبداً، لو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الموجودة فى سائر الآيات.

ومن هنا يتّضح أيضاً تفسير جملة «فغوى» فى ذيل نفس هذه الآية، وأنّ المراد منها هو حرمانه من نعيم الجنّة، لا «الغواية» التى تعنى التصرّفات المنبثقة عن الإعتقادات الخاطئة، أو الامور التى تحول دون بلوغ الإنسان لمراده، وعلى أيّة حال فلو أنّ آدم لم يخالف هذا النهى الإرشادى لمكث فى الجنّة فترة أطول.

ج) كان تركاً للأولى هذا الجواب له مؤيّدون أكثر ليس هنا فقط، بل فى كلّ الموارد التى ينسب فيها الذنب إلى الأنبياء فإنّها تفسّر بهذه الطريقة.

توضيح ذلك: الذنب والمعصية على نوعين: مطلق، ونسبى، والمراد بالقسم الأوّل هو كلّ تلك الذنوب التى تعدّ ذنباً حين صدورها من أى شخص ولا استثناء فيها أبداً، كأكل المال الحرام والظلم والزنا والكذب.

امّا الذنب النسبى فهو ذلك الذنب الذى يعدّ تصرّفاً غير مرغوب فيه قياساً بمقام وشخصية ومعرفة الأشخاص، وما أكثر ما يعد صدور هذا الشىء من الآخرين فضيلة فضلًا عن عدم اعتباره عيباً.

فمثلًا الصلاة المناسبة لشخص امّى لا تليق أبداً بعالم عارف له تاريخ علمى طويل، أو

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۶

أنّ تبرّعاً متواضعاً من عامل بسيط يكلّفه اجرة يومه لمشروع خيرى عام كبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد يعدّ فى نفسه عملًا خيّراً بل إيثاراً كبيراً، فى حين أنّه لو تبرّع أحد الأثرياء المعروفين بنفس هذا المبلغ، لتعرّض للذمّ والإتّهام بضعف الهمّة والبخل وهذا هو مصداق القول المعروف بين العلماء والفضلاء إنّ: «حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين».

وبناءً على هذا فما يصدر من الأنبياء يسمّى عصياناً لعدم لياقته بمنزلتهم الرفيعة وإيمانهم ومعرفتهم، قد يكون عين «الطاعة» حين صدوره عن غيرهم، فأداء الصلاة بقليل من حضور القلب يعدّ للشخص العادى فضيلة بينما يعدّ ذنباً بالنسبة للنبى أو الإمام (ذنب نسبى لا مطلق).

كلّ التعابير حول معصية الأنبياء وذنوبهم سواء فيما يتعلّق بآدم أو بخاتم الأنبياء عليهما السلام، والتى تلاحظ فى الآيات والروايات، يمكن أن تكون إشارة إلى نفس هذا المعنى.

كما ويعبّر أحياناً عن هذا المعنى ب «ترك الأولى»، والمراد به ذلك العمل الذى يكون تركه أولى من فعله، هذا العمل الذى يمكن

أن يكون من «المكروهات» أو «المباحات» بل وحتّى «المستحبّات» أيضاً، فالطواف المستحبّ مثلًا، ومع كونه عملًا حسناً مقبولًا، لكن تركه والسعي وراء قضاء حاجة المؤمن أولى وأفضل «كما جاء في الروايات».

الآن لو أنّ أحداً لم يقدم على قضاء حاجة المؤمن، وذهب بدل ذلك للطواف حول بيت اللّه تعالى، فقد ترك الأولى مع إتيانه بعمل مستحبّ بذاته، ولا يليق هذا الشيء بأولياء اللّه وأنبيائه وأئمّة الهدى عليهم السلام، وتوهّم البعض بأنّ ترك الأولى يطلق على الموارد المكروهة فقط، إلّاأنّ هذا الوهم في غير محلّه بل هو خطأ محض. (فتأمّل).

على أيّة حال فمقولة الذنب النسبي وتحت عنوان ترك الأولى يمكن أن يكون جواباً حسناً لكلّ الأسئلة التي تثار حول الآيات والروايات التي نسب فيها الذنب إلى المعصومين.

الملفت للنظر أنّ التعبير ب «المعصية» فيما يتعلّق ب «ترك المستحبّات» قد ورد في الروايات الإسلامية أيضاً، من جملتها الحديث المعتبر عن الإمام الباقر عليه السلام في حديثه

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۷

عن النوافل اليومية قال: «إنّما هذا كلّه تطوّع وليس بمفروض إنّ تارك الفريضة كافر وإنّ تارك هذا ليس بكافر ولكنّها معصية» «۱».

كما أنّ معنى «العصيان» لغويّاً وكما ذكره الراغب في مفرداته، هو كلّ خروج عن دائرة الطاعة (سواء أكانت هذه الطاعة في الأوامر الوجوبية أو الإستحبابية) «۲».

سؤال: يمكن أن يقال هنا: صحيح أنّ للعصيان والذنب مفهوماً واسعاً بحيث يشمل أحياناً ترك المستحبّ والأولى أيضاً، وأنّه يتفاوت بتفاوت الأشخاص، لكن ما هي الحكمة من تكرار اللّه تعالى التعبير بالمعصية بحقّ أنبيائه المكرّمين في آيات القرآن المجيد؟

جواب هذا السؤال ذكر في حديث لطيف نقله المرحوم الطبرسي في كتاب الإحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام، وهو حديث طويل جاء في فقرة منه أنّ زنديقاً قال: إنّي أجد اللّه قد شهر هفوات أنبيائه مثل «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (فما الحكمة من هذا؟).

فقال الإمام عليه السلام: «وأمّا هفوات الأنبياء عليهم السلام وما بيّنه اللّه في كتابه و ... فانّ ذلك من أدلّ الدلائل على حكمة اللّه عزّوجلّ الباهرة وقدرته القاهرة، لأنّه علم أنّ براهين الأنبياء تكبر في صدور اممهم، وأنّ منهم من يتّخذ بعضهم إلهاً، كالذي كان من النصارى في ابن مريم، فذكرها دلالة على تخلّفهم عن الكمال الذي تفرّد به عزّوجلّ» (ولئلّا يراود فكر الوهيتهم ذهن أحد أبداً) «۳».

ثمرة البحث:

ما جاء عن آدم وكذلك سائر الأنبياء من أنّهم ارتكبوا الذنب والمعصية، له ثلاثة أجوبة رئيسية تفي بالمطلوب مجتمعة أو منفردة، ولا منافاة بينها في نفس الوقت، أي أنّ هذه التعابير يمكن أن تُشير إلى ترك الأوامر الإختبارية والإرشادية وكذلك ترك الأولى، هذا

---

(۱) تهذيب الأحكام (طبقاً لما نقله تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۰۴، ح ۱۶۵).

(۲) مفردات الراغب، مادّة (عصى).

(۳) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۳۰۳، ح ۱۷۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۸

بالنسبة لآدم، امّا سائر الأنبياء فيمكن أن تنظر إلى القسمين الأخيرين، أي ترك الأوامر الإرشادية وترك الأولى (تأمّل جيّداً).

۲- نوح عليه السلام

تقرأ فی قصّة نوح علیه السلام: أنّه حینما بدأ الطوفان بسبب الأمطار الغزیرة المنهمرة من السماء، والمیاه المتدفّقة من باطن الأرض، لم تمض مدّة طویلة حتّی أحاط الماء بکلّ مکان، وأنّ نوحاً وأصحابه رکبوا السفینة، وتعرّض إبنه للغرق لتمرّده علی أمر أبیه، وعدم إیمانه الذی یعدّ شرطاً لرکوب السفینة، فنظر نوح إلی السماء وقال: «رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَإِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ». (هود/ ۴۵)

أی قد وعدتنی بإنقاذ أهلی، فعاتب اللّه سبحانه نوح علی الفور بخطاب قال فیه: «إِنَّهُ لَیْسَ مِنْ أَهلِکَ». (هود/ ۴۶)

فَلِمَ تطلب ما لیس لک به علم؟! فاعتذر نوح وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّی أَعُوذُ بِکَ أَنْ أَسْأَلَکَ مَا لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِی وَتَرْحَمْنِی أَکُنْ مِنَ الْخَاسِرِینَ». (هود/ ۴۷)

فی هذه الآیة یعتذر نوح علیه السلام عن طلبه ما لیس له به علم، ویطلب من اللّه تعالی العفو والرحمة والمغفرة، کما ویقول أیضاً: إن لم تغفر لی وترحمنی أکن من الخاسرین.

السؤال هو: کیف تتلاءم هذه المواضیع الثلاثة ومقام عصمة الأنبیاء؟

الجواب: یجب أوّلًا التدقیق فی نوع الخطأ الذی ارتکبه نوح؟ هل کان ذنباً، أم تصرّفاً فی حدّ ترک الأولی؟ طبعاً کان اللّه تعالی قد حذّر نوحاً من مغبّة الشفاعة للظالمین (المشرکین) لأنّهم مغرقون، قال تعالی: «وَلَا تُخَاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ». (هود/ ۳۷)

ولکن هل أنّ نوحاً کان یعلم بأنّ ابنه من زمرة الکفّار؟، إذ من الممکن وکما احتمله بعض المفسّرین أنّ الولد کان یخفی حاله عن أبیه، وما أکثر اولئک الأبناء الذین نسمع عنهم أو نراهم یتظاهرون أمام آبائهم بالصلاح، فی حین ینتهجون نهجاً آخر فی غیابهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۸۹

مضافاً إلی ذلک، وطبقاً للآیة «قُلْنَا احْمِلْ فِیهَا مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَأَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ» «۱». (هود/ ۴۰)

فقد کان نوح یتصوّر أنّ إبنه سیکون من أهل النجاة، إعتماداً علی الوعد الإلهی، ولذا طلب من اللّه تعالی ذلک فی الآیات مورد البحث: «وَنَادَی نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِی مِنْ أَهْلِی وَإِنَّ وَعْدَکَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْکَمُ الْحَاکِمِینَ». (هود/ ۴۵)

فی هذه الحادثة لا نشاهد أی مصداق للذنب والمعصیة من نوح سوی ترک الأولی، إذ کان ینبغی علیه أن یتحقّق أکثر فی حال ولده قبل أن یطلب من اللّه تعالی نجاته، کما أنّ تعبیر نوح بالنسبة لولده حین ناداه وقال له: «یَا بُنَیَّ ارْکَبْ مَعَنَا وَلَا تَکُنْ مَعَ الْکَافِرِینَ» (هود/ ۴۲) ولم یقل (من الکافرین) قرینة علی أنّ نوحاً لم یکن یعتبر ولده من الکافرین بل معهم.

کما قال البعض أیضاً: إنّ نوحاً کان یعلم بکفر إبنه، لکن حبّه الشدید له (بالإضافة إلی حالة الإضطراب التی أحاطت به عند حدوث الطوفان، والتی کانت تفوق العادة) کان السبب وراء تجاهل نوح لوضع إبنه ولو مؤقتاً للجوء إلی اللّه تعالی لإنقاذه، لکنّه انتبه بعد الإنذار الإلهی واعتذر لترکه الأولی.

۳- إبراهیم علیه السلام

هناک تعابیر تبدو عند تفسیرها لأوّل وهلة وکأنّها نوع من الذنب، وردت حول هذا النبی العظیم الذی یتمیّز بمکانة خاصّة حتّی من بین الأنبیاء علیهم السلام، من حیث الإیمان والإخلاص والإیثار والشجاعة والصبر والإستقامة، نقر أ فی القرآن الکریم أنّه القی القبض علیه بعد تحطیمه للأصنام وَمَثُلَ فی المحکمة فسألوه: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا یَا إِبْرَاهِیمُ»؟

(الانبیاء/ ۶۲- ۶۳)

فأجاب: «بَلْ فَعَلَهُ کَبِیرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ کَانُوا یَنطِقُونَ».

(۱) يمكن أن يكون هـذا التعبير إشارة إلى الآيـة ۳۷ من نفس سورة هود «عـدّة آيـات قبل الآيـة مورد البحث» حيث يقول تعالى: «وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ» وأنّ واحـداً من أجلى مصاديقها يتحقق فى زوجـة نوح التى التحقت بالكفّار وأنّ نوحاً بـدوره لم يتعرّض للحديث عن نجاتها أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۰

وهنا يرد إشكال وهو: كيف نسب ابراهيم عليه السلام عمله هذا إلى كبير الأصنام، أليس هذا كذباً؟!

وفى نفس هـذه الحادثـة وعنـدما طلب منه المشـركون الخروج معهم خارج المدينـة للإحتفال بعيد الأصـنام، إعتذر من الذهاب معهم بقوله: «إِنِّي سَقِيمٌ». (الصافات/ ۸۹)

ومع أنّه لم يكن مريضاً، فكيف يتناسب هذا الكلام مع منزلة عصـمته؟ كما نقرأ فى القرآن الكريم أنّ إبراهيم يصرّح بأنّه يتمنّى غفران ذنوبه ويقول: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ». (الشعراء/ ۸۲)

ألم يكن هذا الإعتراف دليلًا على صدور الذنب من ذلك النبى العظيم؟

كمـا وأشـكلوا عليه أيضـاً أنّه عليه السـلام لماذا اتفق موقفه مع عبـدة النجوم والقمر والشـمس بالرغم من إيمانه الخالص المنزه من أى شائبة من شوائب الشرك حيث قال بمقولتهم «هَذَا رَبِّي». (الأنعام/ ۷۶ و ۷۷ و ۷۸)

هـذه هى المواضع الأربعـة الواردة فى القرآن المجيـد والتى أثار كلّ واحـد منها بـدوره جدلًا حول منزلة وعصـمة إبراهيم وتنزيهه من الذنب والمعصية.

الجواب:

ذكر كبار المفسّرين ورواة الحـديث ادلـة ومواضـيع جمّة للإجابة عن هذه الإسـتفسارات الأربعة، ولكن بعض تلك المطالب ليس لها أسانيد معتبرة، والجواب الذى سنذكره هنا هو أنسب تلك الأجوبة وأكثرها اعتماداً:

أمّا فيما يتعلّق بالسؤال الأوّل، فإنّ إبراهيم لم يقل: إنّ كبير الأصنام قد فعل هذا، إنّما قال:

«بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنطِقُونَ».

هذه العبارة يمكن أن تكون من باب «القضيّة الشرطية»، أى أنّ إبراهيم قد نسب هذا العمل إلى كبيرهم بشرط نطقهم، ولا يخفى عدم وجوب الكذب فى هذه القضيّة الشرطية.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۱

هذا هو نفس ما نقل عن الإمام الصادق عليه السـلام فى حديث أنّه قال: «ما فعله كبيرهم وما كذب إبراهيم، وحينما استفسر السائل عن كيفية ذلك؟ قال عليه السـلام قال إبراهيم: (فاسألوهم إن كانوا ينطقون فكبيرهم فعل، وإن لم ينطقوا فلم يفعل كبيرهم شيئاً، فما نطقوا وما كذب إبراهيم)» «۱».

كما أنّ نسـبة إبراهيم عليه السـلام هـذا العمل إلى كبير الأصـنام إنّما جاء من باب الكناية، التى هى أفضل من التصـريح، فلقد أراد أن يوقف عبـدة الأصـنام على خرافـة عقائـدهم عن هذا الطريق، ويفهمهم أنّ هذه الأحجار والأخشاب الجامدة عاجزة حتّى عن التفوّه ولو بجملة واحدة وأنّها محتاجة إلى عبدتها، فكيف يمكنها والحالة هذه من حلّ مشاكلهم؟

وبعبارة اخرى، فالكـذب إنّما يكون فيما لو لم تكن هناك قرائن تـدلّ على أنّ المقصود كنايـة، وهنا تشير كلّ القرائن إلى أنّ إبراهيم لم يكن جـدّياً فى كلامـه هـذا، بـل كان يسـخر من أفكارهم، وما أكثر أمثال هـذه التعابير فى المحاورات اليوميـة، كما لو فرض وقوع سرقـة مـا فى محيـط محـدود يقطن فيه أشـخاص معينين، وعنـد التحقيق ينفى كلّ منهم هـذا الإتّهام عن نفسه، فيقول المحقّق، أنت لم تفعل هذا وذاك لم يفعله و ... حتماً قامت به ملائكة السماء! وبديهى أنّ هذا الكلام لا يعتبر كذباً، بل الهدف منه هو تكذيب أقوالهم الواهية التى لا أساس لها.

هناك احتمال ثالث أيضاً، وهو أنّ جملة «بل فعله» مطلقة، وهى فى الواقع إشارة إلى تحليل منطقى مطابق لعقائد الوثنيين، وهو أنّه: ألا تعتقدون أنّ حادثة تحدث داخل المعبد لا يمكن أن تكون بفعل من خارج المعبد، وذلك لهيمنة الأصنام على كلّ شىء وكلّ فرد، ومهما كان فهو داخل المعبد، وحيث إنّ كبير الأصنام أكثرهم قوّة ومنعة، بالإضافة إلى وجود الفأس فى عنقه (يقال أنّ إبراهيم وضع الفأس على رقبته)، فضلًا عن كونه الصنم الوحيد الذى لم يلحق به أى أذى.

إذن بناءً على هذا فالقرائن تشير إلى أنّه من فعل كبيرهم، وهذا نظير التحاليل التى

---

(۱) تفسير نور الثقلين ج ۳، ص ۴۳۴، ح ۸۴؛ بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۶، ح ۴ (باب عصمة الأنبياء).

يستخدمها المحقّقون لمعرفة الجانى عن طريق تتبّع آثاره وبصمات أصابعه، حينما يدخلون فى محيط قد وقعت فيه جريمة، وكما قلنا فإنّ هذا التحليل كان مطابقاً لعقائد الوثنيين لغرض إدانتهم بما يعتقدون.

وفيما يتعلّق بالآية الثانية فلا دليل أصلًا على أنّ إبراهيم عليه السلام لم يكن مريضاً حقّاً، فهناك علّة فى بدنه، غاية الأمر أنّها لم تكن بتلك الخطورة التى تقعده عن نشاطه البدنى بالمرّة، وتستفحل عليه بحيث تمنعه حتّى عن تحطيم الأصنام، وما أكثر المرضى المشغولين بأعمالهم طول النهار، خصوصاً تلك التى تبعث على ترسيخ العقيدة كتحطيم الأصنام لبطل التوحيد إبراهيم! هذا أوّلًا.

وثانياً مع أنّ «السُقم» و «السَقم» هو المرض المختصّ بالبدن، لكنّه قد يكون فى النفس أيضاً كما صرّح به البعض من أصحاب اللغة، وبديهى أنّ روح إبراهيم كانت متعبة وكالمريضة فى ذلك الجو الملىء بالشرك، إذن فقوله انّى سقيم إشارة إلى الجانب النفسى.

ثمّ إنّ الأمراض النفسية حين تشتدّ وطئتها تظهر مضاعفاتها السلبية حتّى على البدن أيضاً، وقد أصبحت هذه المسألة اليوم من المسلّمات، والقرآن الكريم أيضاً يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً».

(الكهف/ ۶)

كما أنّ بعض المفسّرين قال: إنّ لإبراهيم عليه السلام مرضاً (كالحمى المزمنة) ينتابه بين الفينة والاخرى، وأنّ مراده من جملة، (إنّى سقيم) هو اقتراب زمن هذا المرض فانا معذور من مرافقتكم، كما أنّ الجملة التى قبلها: «فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ» (الصافات/ ۸۸) دليل على هذا المدّعى، لأنّ النظر إلى النجوم إنّما يكون لحساب الوقت أى للوقوف على زمن ظهور ذلك المرض.

وفيما يتعلّق بالآية الثالثة، فالجواب هو نفس ما تقدّم تفصيله فى الآيات المتعلّقة بآدم عليه السلام، وهو أنّ مراد إبراهيم من «الخطيئة» هو «الذنب النسبى» و «ترك الأولى» و «حسنات الأبرار سيّئات المقربين» «۱».

---

(۱) مع أنّ «الخطيئة» مأخوذة من مادّة «الخطأ» والتى تعنى فى الأصل الزلّات الصادرة من الإنسان لكنّها اتّسعت تدريجيّاً لتطلق على كلّ ذنب يشمل العمد وغيره، واستعمالها فى الذنب غير العمد واسع جدّاً، لكن «الإثم» يطلق على الذنوب العمدية، وهو يعنى فى الأصل: الشىء الذى يثنى الإنسان عن عزمه، وحيث إنّ الذنب يحول دون بلوغ الإنسان للمنزلة الرفيعة ويمنع عنه الكثير من الخيرات والبركات فقد سمّى «إثماً».

لكن ما هو «ترك الأولى» بالنسبة لإبراهيم ياترى؟ قال البعض: إنّ المراد به هو كلّ تلك الحالات التى تتسبّب فى غفلة الإنسان عن اللَّه تعالى بأى نحو كان، كالإشتغال بشؤون الحياة مثل الأكل والشرب وأمثالها التى يعتبرها أولياء اللَّه ذنباً لغفلتهم عن اللَّه تعالى ولو بهذه الدرجة «۱».

وفيما يتعلّق بالآيـة الرابعـة، أى إشارة إبراهيم إلى النجم والقمر والشـمس، ووصـفه إيّاها «هـذا ربّى» فللمفسّـرين فيه أقوال وآراء كثيرة أيضاً، أقواها أن نقول: إنّ إبراهيم كان فى مقام الحوار والاستدلال مع المشركين من عبدة النجم والقمر والشمس (بقرينة الآيتين اللتين تحفّان بهذه الآية، واللتين تتعرّضان لحوار إبراهيم واحتجاجه على الوثنيين).

وبناءً على هـذا فقـد وقف إبراهيم عليه السـلام بوجه هذه المجاميع الثلاث كلّ على حدة، إذ وافقهم على آرائهم فى أوّل الأمر، وعلى سبيل الفرض لحين أُفول هذه الكواكب السماوية لكى يتبيّن لهم خطأهم، بالضبط مثلما نواجه القائلين بسكون الأرض وحركة الشمس حول الأرض فنقول لهم حسناً، كما تقولون، لكن هـل تعلمون أيّـة دائرة عظيمـة يسـتلزمها كلامكم هـذا لكى تتمكن الشـمس التى تفصـلها عن الأرض تلك المسافـة البعيـدة، وأى سـرعة عظيمـة تحتاج للـدوران حول الأرض دورةً كاملة كلّ ۲۴ ساعـة، وثبوت هذه السرعة لمثل هذا الجرم السماوى من المستحيلات، إذن، يتّضح من ذلك بطلان فرضيتكم، (فتأمّل جيّداً).

هـذا هو أحـد أفضـل الطرق التى يمكن اسـتخدامها لإبطال نظريات الخصم، أى الوقوف معه أوّلًا، وموافقته (على سبيل الفرض)، دون إثارة روح التعصب والعناد عنـده، ثمّ إيقافه على نتائجها الباطلة، كما قال البعض أيضاً: إنّ اسـتخدام جملة «هذا ربّى» أمام هؤلاء القوم كان بمثابة «استفهام»، ذلك الإستفهام الذى يعدّ مقدّمة لإبطال نظرياتهم عند غروب وافول تلك الكواكب.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱۵، ص ۲۸۵.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۴

أمّا القول: إنّ إبراهيم عليه السـلام قـد نطق بهـذه الجمل للتحقيق بنفسه ولا مانع من قبول الإنسان لمختلف الآراء مبـدئيّاً واختبارها، فلا يبـدو صـحيحاً لأنّ جملة: «يَا قَوْمِ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْـرِكُونَ» (الانعام/ ۷۸) دليل على أنّه كان بمثابـة الإحتجاج على هؤلاء المشـركين لا التحقيق بنفسه.

وقول البعض تأييـداً لهـذا الإدّعاء: إنّ إبراهيم لم ير السـماء إلى تلك اللحظـة بصورة جيّـدة، لأنّ والدته كانت قد خبأته فى غار خارج المدينـة خوفاً من عيون نمرود، فيبدو كلاماً بعيداً جدّاً، إذ كيف يعقل أن يبقى إبراهيم فى الغار طوال سـنين عديدة منذ طفولته وحتّى ريعان شبابه ولا يخرج منه ولو لمرّة واحدة، لا ليلًا ولا نهاراً؟! هذا الكلام أقرب إلى الاسطورة من الواقع «۱».

فضـلًا عن أنّ هـذه الآيـات قـد وردت على الفور، بعـد الآيـة التى تتعرّض للحوار الجـدّى لإبراهيم مع آزر حول مسألـة تسـفيه اعتقاده بالأصـنام، أى أنّ إبراهيم عليه السـلام كـان قـد بلغ مقام التوحيـد الرفيع واليقين الراسـخ قبل ذلك، وأنّ اللّه تعالى كان قـد أطلعه على ملكوت السماوات، وقد بدأ إبراهيم عليه السلام بعده بدعوة الآخرين لا التحقيق لنفسه.

الملاحظـة الجديره بالاهتمام هى: إنّ إبراهيم ولبيان بطلان ربوبية هذه الكواكب الثلاثة، أورد دليلًا يعدّ من أدقّ البراهين الفلسـفية، فى الوقت الـذى يسـهل على الجميع استيعابه، فيقول فى هـذا الدليل: إنّ «الربّ» يجب أن يبقى على اتّصال دائم بمخلوقاته، وبناءً على هذا فالموجود الذى يغرب فينقطع نوره وبركاته لساعات طوال، لا يمكن أن يكون ربّاً لهذه الموجودات.

فضـلًا عن أنّ الشـروق والغروب المسـتمرين لهذه الأجرام السـماوية، دليل على خضوعها لقانون ما، وكيف يتسـنّى للموجود الواقع فى قبضة القوانين الكونية، والطبيعية أن يكون

---

(۱) وقـد جـاء ذلـك فى عيون أخبـار الرضـا عن الإمـام على بن موسـى الرضـا عليه السـلام أنّ إبراهيم خرج من مخبئه والتقى بثلاث طوائف من المشركين (تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۷۳۵).

يعدّ فى ذاته دليلًا على خلاف هذا الإدّعاء فضلًا عن دعمه له «تأمّل جيّداً».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۵

حاکماً علی هذا العالم وخالقاً له؟!

بالإضافة إلی أنّ «الحرکة» بذاتها موجود «حادث»، وبناءً علی هذا فالشیء المتحرّک مخلوق وحادث حتماً، ومثل هذا لا یمکن أن یکون موجوداً أزلیّاً أبدیّاً (هذا هو نفس الشیء الوارد فی البراهین الفلسفیة تحت عنوان «العالم متغیّر» و «کلّ متغیّر حادث»).

وبناءً علی هذا فقد کان لحوار إبراهیم ثلاثة مفاهیم مختلفة ومثیرة، ولا یمکن الإستغناء عنها لإبطال الوهیة النجم والقمر والشمس.

۴- یوسف علیه السلام

امّا فی شأن النبی یوسف علیه السلام فنحن نواجه بعض الآیات التی تبدو لأوّل وهلة غیر منسجمه مع منزلة عصمته، من أهمّها ماجاء فی القرآن الکریم: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَآ بُرْهَانَ رَبِّهِ کَذَلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ».

(یوسف/ ۲۴)

إذ یتصوّر القارىء فی البدایة أنّ هذه الآیة تجعل من یوسف شریکاً لزلیخا فی قصد المعصیة.

الجواب:

یکفی التمعّن فی نصّ هذه الآیة لرفع هذا الالتباس، لأنّ القرآن یقول: «لَوْلَا أَنْ رَآ بُرْهَانَ رَبِّهِ» ومفهوم هذا الکلام هو بالضبط أنّه لم یقصد المعصیة لأنّه رأی برهان ربّه.

ما هو المراد بهذا البرهان؟ (علماً أنّ البرهان یعنی کلّ دلیل قوی ومحکم یتبنّی بیان الحقیقة وإیضاحها، وهو مأخوذ من مادّة «بره» التی تعنی: إبیضّ).

للمفسّرین هنا احتمالات متعدّدة، أفضلها هو القول: إنّ المراد من برهان الربّ، هو

اطّلاعه علی أسماء اللّه تعالی وصفاته وکونه تعالی عالماً قادراً سمیعاً بصیراً.

أو بعبارة اخری: المراد بالبرهان هو الإمدادات الإلهیّة، والتأییدات الربّانیة التی تسرع لنجدة المؤمنین والمتّقین فی اللحظات الحرجة والمصیریة، إذ تمدّهم بالقوّة أمام جنود الشیطان ووساوس النفس.

الدلیل علی هذا الکلام هو ما جاء فی آخر الآیة حیث یقول تعالی: «کَذَلِکَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِینَ».

یتّضح من هذا الکلام أنّ عباد اللّه المخلصین مشمولون بالألطاف والعنایات الإلهیّة الخاصّة، فی مثل هذه اللحظات الحسّاسة، والتی هی فی الواقع ثمن إیمانهم الخالص وأعمالهم الطاهرة.

وهنا نقل بعض الغافلین خرافات تحت عنوان «الروایات» لا تکاد تخرج عن حدّ الإسرائیلیات، وذهبوا بیوسف ظلماً إلی حافّة الهاویة والإقدام علی ذلک العمل الفاحش إلی أنّ منعه جبرئیل من هذا العمل بضربه علی صدره! أو رؤیته لشبح أبیه یعقوب وهو یعضّ علی یدیه لهذا العمل!.

وهذا کلام لا علاقة له بالقرآن مطلقاً، وخرافات لا تستحقّ الإجابة عنها، وذیل الآیة التی تعتبره من عباد اللّه المخلصین خیر دلیل علی بطلان مثل هذه الإحتمالات القبیحة، وذلک طبقاً لآیات القرآن التی تصرح بأن لا سبیل للشیطان إلی عباد اللّه المخلصین.

أما الاشکال الثانی الذی اثیر حول یوسف علیه السلام ومقام عصمته فهو ما ورد فی الآیة السبعین من سورة یوسف علیه السلام، والتی جاء فیها أنّه حینما شدّ رحال اخوته وضع السقایة، أی الاناء الذی یشرب فیه أو المکیال الذی یکیل فیه فی رحل أخیه، ثمّ أذّن مؤذّن: «فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَایَةَ فِی رَحْلِ أَخِیهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَیَّتُهَا الْعِیرُ إِنَّکُمْ لَسَارِقُونَ».

(یوسف/ ۷۰)

فهل يجوز أن يقوم الإنسان بعمل ما، ويتّهم بريئاً وخاصّة إذا كان ذلك البرىء أخاه؟

وهل يعقل أنّ المؤذّن قد نسب هذه النسبة (نسبة السرقة) إلى اخوة يوسف بدون علم يوسف، واطّلاعه؟ ولماذا رضى النبى المعصوم باتّهام الأبرياء بمثل هذه التهمة؟!

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۷

وحاولوا أحياناً توسيع دائرة الإشكال فقالوا: لماذا لم يكشف يوسف عليه السلام النقاب عمّا جرى له بسرعة ليطّلع اخوته على حقيقة الأمر وليوصلوا خبر حياته وعظمة مكانته إلى أبيه الشيخ؟، ليطمئن ويتخلّص من ألم الفراق الذى أضناه كثيراً، فهل أنّ مثل هذا التصرّف يتناسب مع الوضع الذى كان يعيشه ذلك الأب المسنّ؟ ثمّ ما هى عقوبة السارق فى ذلك الزمن ليبقى أخو يوسف عندهم كرهينة بتهمة السرقة؟ هل كان هذا حكماً إلهيّاً، أم سنّة أهل مصر الخرافية؟ لو كانت سنّة أهل مصر، فلماذا وافق يوسف على تطبيق هذا الحكم الجائر بحقّ أخيه؟

الجواب:

من الممكن العثور على أجوبة هذه الأسئلة بشكل واضح، من خلال الآيات الواردة فى سورة يوسف وقرائن اخرى.

أوّلًا: يبدو حسب الظاهر أنّ هذا الأمر قد تمّ بموافقة «بنيامين نفسه» (الأخ الأصغر ليوسف)، إذ إنّ آيات هذه السورة تشهد كاملًا على أنّ يوسف قد عرّف نفسه لبنيامين قبل ذلك، فعلم بنيامين أنّ هذه الخطّة قد وضعها يوسف للإحتفاظ به عنده فوافق على هذه الخطة.

ثانياً: إنّ القائل: «إنّكم لسارقون» مجهول؟ غاية ما نعرفه عنه أنّه كان من حاشية يوسف عليه السلام، وحينما وجدوا الوعاء المخصوص داخل متاع أحد اخوة يوسف تيقّنوا من كونه هو السارق، وبديهى أنّ ارتكاب عمل ما من قبل أحد الأفراد فى مجموعة واحدة، يُعرِّض كلّ أعضاء تلك المجموعة لخطاب: إنّكم قمتم بهذا العمل.

على أيّة حال فهذا الكلام والتشخيص إنّما يتعلّق بحاشية يوسف ولاعلاقة له به، بل الشىء الوحيد الذى قام به يوسف هو وضع الوعاء فى رحل أخيه لإثارة ذلك الإتّهام، الذى كان السبب وراء خلاص وراحة أخيه الذى وافق على ذلك، كما تقدّم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۸

ثالثاً: هذا المخطّط بمجموعه سواء فيما يتعلّق بالاخوّة أو الأب، كان إتماماً لاختبار إلهى لهم، وبعبارة اخرى كان يوسف طبقاً للأمر الإلهى الذى تلقّاه عن طريق الوحى سبباً لإختبار مقاومة يعقوب مقابل فقد ولده الثانى الذى كان ولهاناً بحبّه، ولتتمّ من خلال ذلك دائرة تكامله ومكافأته وثوابه، كما تمّ هنا وضع الاخوّة ثانية فى بودقة الاختبار، لمعرفة مدى استعدادهم للوفاء بالعهد الذى عقدوه مع أبيهم فى عدم ترك «بنيامين» وحيداً؟

وليُعرف من جهة اخرى الأشخاص الذين قالوا: «إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ». (يوسف/ ۷۷)

وأراد اخوته من هذا الكلام يوسف عليه السلام.

الخلاصة: إنّ قصّة يوسف عليه السلام مليئة بالإختبارات، سواء فيما يتعلّق بيوسف، أو أبيه، أو اخوته، وفى الآية أدناه إشارة إلى هذا القول:

«كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ». (يوسف/ ۷۶)

كما أنّ هذا التعبير يكشف النقاب عن السؤال الأخير أيضاً ويجيب عنه، وهو أنّ تطبيق خطّة «عبودية السارق» كان أمراً إلهيّاً إلى يوسف (لإكمال الإمتحان المذكور) فى خصوص هذا المورد «تأمّل جيّداً»، وبناءً على هذا فلا نجد فى البين إشكالًا يمكن توجيهه إلى هذا النبى العظيم فيما يتعلّق بمنزلة العصمة.

۵- موسى عليه السلام

هنالک آیات قرآنیة فی مختلف السور مرتبطة بمنزلة عصمة موسی علیه السلام، وقد تعرّضت للإستفهام أیضاً:

نقرأ فی الآیة ۱۶ من سورة القصص، أنّ موسی علیه السلام وبعد صراعه مع أحد أعدائه (أتباع فرعون)، الذی کان فی شجار مع رجل من بنی إسرائیل، وتوجیه ضربة قاضیة إلیه أردته

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۹۹

قتیلًا، توجّه إلی اللَّه تعالی وقال: «قَالَ رَبِّ إِنِّی ظَلَمْتُ نَفْسِی فَاغْفِرْ لِی فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِیمُ».

یا تُری «ألم یکن التعبیر بأنّی ظلمت نفسی وطلب العفو والمغفرة من اللَّه تعالی، دلیلًا علی ارتکاب الذنب»؟

ثمّ إنّه ورد فی الآیة التی قبلها أنّ موسی وبعد قتله لعدوّه قال: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطَانِ».

(القصص/ ۱۵)

وبعد هذه الحادثة وحینما بلغ موسی مرتبة النبوّة، وجاء إلی فرعون یدعوه إلی اللَّه، عاتبه فرعون وقال: «وَفَعَلْتَ فَعْلَتَکَ الَّتِی فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْکَافِرِینَ* قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّینَ». (الشعراء/ ۱۹- ۲۰)

صحیح أنّ موسی لم یکن قد بلغ مرتبة النبوّة فی ذلک الوقت، ولکن نظراً لضرورة تمتّع الأنبیاء بدرجة العصمة حتّی قبل النبوّة، فالتعبیر ب «الضالّین» یبدو غیر مناسب هنا بعض الشیء.

الجواب:

أوّلًا، وقبل کلّ شیء یجب البحث فی ماهیة هذا القتل الذی لم یکن بقصد وسبق إصرار، وهو ممّا یصطلح علیه بقتل الخطأ، هل کان جائزاً أم لا؟!

لا شکّ أنّ هذا العمل لم یکن معصیة، مع الأخذ بنظر الإعتبار ذلک الموقف المعادی الذی کان یتّخذه قوم فرعون الظالمین من بنی إسرائیل، حتّی أنّهم کانوا یذبحون أبناءهم الرضّع ویأخذون بناتهم للخدمة، بل کانوا قد أذاقوهم أقسی أنواع الظلم والعذاب، حتّی أصبحوا مصداقاً للتعبیر القرآنی: «مفسد فی الأرض»، خصوصاً أنّ موسی کان فی مقام نصرة المظلوم والدفاع عنه، إذن فجواز قتل هذا الفرعونی الظالم هو ممّا لا شکّ فیه علی أقلّ تقدیر، فکیف یمکن الخدش فی درجة عصمة موسی فی مثل هذه الحال.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۷ ۱۴۹

إذن، فالذی یحتمل کونه مخالفاً للوجدان یکمن حتماً فی ترک الأولی المتجسّد فی کیفیة تصرّف موسی (لا أصل تصرّفه).

ویبدو أنّ مراد موسی علیه السلام من: «ظلمت نفسی» هو الوقوع فی المشقّة، باعتبار أنّ قتله لأحد الأقباط لیس بتلک السهولة التی یتناساها أتباع فرعون، ولا یخفی أنّ ترک الأولی یعنی العمل المباح ذاتاً، إلّاأنّه یَحرم صاحبه من العمل الأفضل.

وجملة: «هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّیْطَانِ» إشارة إلی أصل نزاع القبطی والسبتی (الفرعونی والاسرائیلی)، أی أنّ نزاعهم الأعمی التافه هذا هو من عمل الشیطان.

إذن، فطلب المغفرة من اللَّه إنّما هو لترکه الأولی، وقد ورد نظیره فی القرآن الکریم بحقّ آدم وحواء أیضاً، حیث انّهما قد أوقعا نفسیهما فی المشقّة وذلک بترکهما للأولی، وأکلهما من الشجرة الممنوعة، فطلبوا المغفرة لذلک «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَکُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِینَ». (الأعراف/ ۲۳)

امّا التعبیر ب «الضالّین» المأخوذ من مادّة «الضلال» التی تعنی فی الأصل ترک الطریق السوی، فله معنی واسع ولا ینحصر بمعنی الإعراض عن الدین والحقّ فقط، بل یصدق بحقّ شخص کموسی علیه السلام الذی عرض حیاته للخطر بقتله لذلک الفرعونی أیضاً، وبعبارة اخری فقد ترک طریق السلامة، وسلک طریق ذات الشوکة، ولذا لم یتمکّن من البقاء فی مصر بعد تلک الحادثة فغدی مشرّداً

فى البوادى والجبال إلى أن وصل أرض «مـدين»، وشـملته الألطاف الإلهيّـة فى خاتمة المطاف، حيث عاش هناك ولعدّة سـنين وتربى على يد شعيب عليه السلام، وتهيّأ لتحمّل مسؤولية الرسالة.

لا يخفى أنّ البعض يعتقد بأنّ معنى «الضـلال» هنا هو عدم الإطّلاع، أى لم أعلم بأنّ تلك الضـربة ستقضى على الرجل، وبناءً على هذا فالقتـل المـذكور يعـد مصـداقاً لقتـل الخطأ لا العمـد، لكن المعنى الأوّل يبـدو أنسب، رغم أنّ فرعون قـد يفهم من كلام موسـى عليه السلام شيئاً آخر، ولذا اقتنع بذلك ولم يعلّق عليه بشىء.

ثانياً فى الآية ۱۴۳ من سورة الأعراف تستوقفنا هذه الحادثة، وهى أنّ موسى عليه السلام

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۱

طلب من اللّه تعالى أن ينظر إليه ببصره وسمع الجواب: إنّك لن ترانى أبداً!

«وَلَمَّا جَـاءَ مُوسَـى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِى» وفى هـذه الأثناء جاءه الأمر بالنظر إلى الجبل: «انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْـتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ مُوسَـى صَـعِقاً فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُـبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ». (الأعراف/ ۱۴۳)

من هنا يقال:

أوّلًا: لماذا طلب موسى مثل هذا الطلب من اللّه تعالى مع كونه يتمتع بمنزلة رفيعة فى المعرفة والإيمان؟

ثانياً: لابدّ وأن صدرت منه مخالفة ليبتلى بالصعقة ويغمى عليه؟

ثالثاً: جملة «تُبت إليك» تظهر أنّه تاب من عمل سىء قام به.

و للمفسّرين هنا أجوبة متنوّعة أيضاً، أجلاها هى: إنّ آيات القرآن تبيّن بكلّ وضوح أنّ ذلك الطلب لم يصدر من موسى عليه السلام، بل من بنى إسرائيل الذين ألحّوا عليه ليُريهم اللّه تعالى:

«وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ».

(البقرة/ ۵۵)

بـل الآيـات الاـخرى أيضـاً تبيّن أنّ موسـى كان مأموراً بأخـذ جمع من أشـراف بنى إسـرائيل معه إلى جبل الطور لتكرار طلبهم هناك «حتّى يقفوا على الجواب بشكل عملى»، ويشير الى ما تقدّم ما أطلق على هذه الحادثة، اسم «ميقاتنا» فى الآية الآنفة الذكر وكذلك فى الآية «وَاخْتَارَ مُوسَـى قَوْمَهُ سَـبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِـئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِى مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ». (الأعراف/ ۱۵۵)

وبناءً على هـذا فما قاله موسـى عليه السـلام كان بأمر وتكليف من اللّه تعالى، كما أنّه ليس لنزول الصاعقـة أيّـة صـفة جزائيـة، بل كان الهدف إيقاف عامّة بنى إسـرائيل على هذه الحقيقة، وليبين لهم بأنهم عاجزون عن رؤية شرارة صغيرة من قدرته تعالى بحيث تسقطون على الأرض

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۲

فيغمى على البعض منكم ويصعق البعض الآخر، فكيف والحالة هذه تطلبون رؤية ذاته تعالى بعظمتها؟

أمّا جملة «انّى تُبت» فقد كانت من جانب بنى إسرائيل، كما أنّ جملة «رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ» كانت من قبلهم أيضاً.

يستفاد من عدّة آيات من سورة الكهف أنّ موسى عليه السلام ابتلى بالنسيان، فهو تارةً يقول:

«فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى الْبَحْرِ سَرَباً». (الكهف/ ۶۱)

إذن فلقد وجد النسيان طريقه إليهما.

وفى آيتين بعدها ينقل عن صاحب موسى عليه السلام: «فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ». (الكهف/ ۶۳)

فلو كان صاحبه وهو يوشع بن نون- كما هو معروف بين أقطاب المفسّرين- وكان فى تلك الحالة نبيّاً، فسيثبت جواز النسيان للأنبياء.

كما نقرأ فى عدّة آيات بعدها وعلى لسان موسى عليه السلام، أنّه حينما التقى بذلك الرجل الإلهى «الخضر» تعهّد بألّا يسأله عن أسرار ما قام به إلى أن يبيّنها هو بنفسه، لكن موسى عليه السلام نسى ذلك فى أوّل مرّة، ولذا اعترض على الخضر لخرقه تلك السفينة السالمة، وحينما ذكّره الخضر بالعهد قال: «قَالَ لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ». (الكهف/ ۷۳)

كما تكرّر هذا الشىء ثانية وثالثة أيضاً.

ألّا يستفاد من مجموع هذه الآيات إمكان نسبة النسيان للأنبياء؟! أوليس الصيانه عن ارتكاب الخطأ والنسيان أحد فروع العصمة؟

الجواب:

لقد سلك المفسّرون طرقاً شتّى للإجابة عن هذا السؤال: إذ قال البعض: إنّ «النسيان» يعنى تارةً ترك الشىء وإن لم يكن منسياً، كما نقرأ فى قصّة آدم: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِىَ ...». (طه/ ۱۱۵)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۳

من المسلّم أنّ آدم لم ينس العهد الإلهى فيما يتعلّق بالإجتناب عن الأكل من الشجرة الممنوعة، لكن نظراً لعدم اهتمامه بذلك العهد فقد عبّر عنه بالنسيان.

وقال البعض أيضاً: إنّ «الناسى» هو فى الحقيقة صاحب موسى عليه السلام وليس موسى عليه السلام، والناسى لم يكن نبيّاً، إذ لم يثبت ذلك فيما لو اقتصرنا على الآيات القرآنية على أقلّ تقدير، فنحن نقرأ فى الآيات مورد البحث أنّ صاحب موسى عليه السلام قد شاهد سقوط الحوت فى الماء واستعادتها للحياة والحركة، وقرّر إخبار موسى عليه السلام بذلك لكنّه نسى، إذن فالناسى هو صاحب موسى لا غيره باعتباره الشاهد الوحيد لهذه الحادثة، والنسبة إليهما فى جملة «نسيا» هى من قبيل نسبة عمل الفرد إلى الجماعة وهى شائعة الإستعمال.

ولو قيل: كيف يعقل إيداع مسألة بكلّ هذه الأهميّة فى زاوية النسيان؟ لقلنا: إنّ صاحب موسى عليه السلام كان قد شاهد معجزات أهمّ من هذه، فضلًا عن كونهما فى هذا السفر يطلبان هدفاً أهمّ، فنسيان الحوت بسبب هذا الهدف لا يدعو للعجب.

ونسبة النسيان إلى الشيطان، قد تكون لوجود علاقة بين حادثة إحياء السمكة ومسألة العثور على ذلك الرجل العالم، الذى كان من المقرّر أن يستفيد موسى عليه السلام من علمه، وحيث إنّ عمل الشيطان هو الإغواء والحؤول دون بلوغ بنى الإنسان أهدافهم المقدّسة، أو تأخيرهم عنها على أقلّ تقدير، فقد قذف النسيان فى ذهن «صاحب موسى».

جاء فى بعض الروايات عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ما مضمونه: إنّ موسى كان نائماً حين انسابت الحوت وسقطت فى البحر وذهبت فى سبيلها، وأنّ صاحبه «الذى كان يشاهد هذا الموقف» لم يرغب فى إيقاظه وإخباره بذلك، كما أنّه نسى أن يخبره بعد استيقاظه أيضاً ولذلك فقد واصلوا مسيرهم يوماً وليلة آخرين، ثمّ تذكّر هذا الرجل الحادثة وقصّها على موسى عليه السلام فاضطرّا للرجوع إلى مكانهما الأوّل، الذى سقطت فيه السمكة فى الماء «۱».

كما قال البعض أيضاً: إنّ الأنبياء معصومون من النسيان المرتبط بدعوتهم، دون ما له علاقة بأمر عادى يومى، فالنسيان أمر عادى لا يرتبط من قريب أو بعيد، بمسألة الوحى

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۱۵، ص ۱۷۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۴

والنبوّة والتربية والتعليم والتبليغ، بل إنّ عدم ترابطهما أمر واضح للجميع ولا يخدش هذا فى مقام عصمة الأنبياء، والنسيان الوارد فى الآيات المذكورة هو من هذا القبيل.

يقول العالم الكبير المرحوم السيّد المرتضى رحمه الله: إنّ هناك ثلاثة أوجه فيما يتعلّق بقول موسى للخضر: «لَاتُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ»:

الأوّل: النسيان بمعناه الحقيقى المتعارف، ولا عجب أن ينسى موسى مثل هذا العهد خلال هذه الفترة القصيرة، لانشغاله فكريّاً (بمسائل أهمّ).

الثانى: أنّ مراده هو أن لا تؤاخذنى على ما تركته (أى أنّ موسى كان قد ترك العهد عمداً، ومعلوم أنّه كان مشروطاً، أى لو شئت البقاء معى فلا تسألنى حتّى اوضّح لك بنفسى).

الثالث: مراد موسى هو أن لا تؤاخذنى على عمل شبيه بالنسيان.

ثمّ يضيف قائلًا: ولا إشكال لو حملنا الجملة على النسيان غير الحقيقى، وإلّا لو حملناه على النسيان الحقيقى فتعليله أنّ النسيان بهذا المعنى لا يجوز بحقّ الأنبياء، فى بيان الامور الإلهيّة، أو التشريعية، أو الخارجة عن المتعارف، ولا مانع لما خرج عن نطاق هذه الدائرة، كما لو نسى النبى طعامه، أو شرابه لكن لا بتلك الدرجة والتكرار الزائدين عن الحدّ لاستحالة مثل هذا الشيء فى حقّه.

الآية الاخرى المتعلّقة بأعمال هذا النبى العظيم والتى دار حولها النقاش وردت فى قوله تعالى: «وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». (الأعراف/ ۱۵۰- ۱۵۱)

وهنا ترد عدة علامات للإستفهام:

أوّلًا: لماذا ألقى موسى بالألواح المكتوب فيها احكام اللّه وآيات التوراة على الأرض؟

ثانياً: لماذا أبدى ردّ الفعل الشديد تجاه أخيه الذى لم يكن قد ارتكب إثماً؟

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۵

ثالثا: لماذا طلب العفو والمغفرة لنفسه ولأخيه؟!

لكن لو تأمّلنا فى تلك الحادثة التى واجهها هذا النبى العظيم بعد رجوعه من ميقات ربّه، لسلّمنا بصحة وضرورة تصرفه هذا.

فلقد قضى موسى سنوات طويلة مليئة بالمشقّة، لزرع بذرة «التوحيد» فى قلوب «بنى إسرائيل» القاسية، وذهب إلى مكان الوحى لميقات ربّه حينما نبتت تلك البذرة على أمل نموّها، لكنّه حينما رجع لاحظ أنّ كل جهوده ذهبت أدراج الرياح وقد استسلم الأكثرية الساحقة من بنى إسرائيل لوساوس «السامرى» وسجدوا للعجل! فضلًا عن إحاطة فتنة الوثنية والشرك بكلّ شيء وانطفاء نور الإيمان والتوحيد.

وهنا استغرب موسى كثيراً وغضب غضباً شديداً، وكان غضبه للّه‌طبعاً، هذا من جهة.

ومن جهة اخرى كان لابدّ له من مواجهة ماحدث بشدة، حيث تعدّ أقسى حادثة فى حياة موسى عليه السلام، وذلك ليقف بنو إسرائيل على خطورة الموقف وقبح عملهم، وبالنتيجة تزال كلّ آثار الشرك والوثنية من قلوبهم، وإلّا لاحتمل بقاء آثار الشرك فى قلوبهم وقلوب الأجيال القادمة أيضاً، فليس المهمّ هنا مسألة احترام إنسان أو بعض الألواح المقدّسة، بل المهمّ هو مسألة التوحيد وخطورة انحراف قوم بأكملهم.

كان ينبغى لموسى عليه السلام التعبير عن غضبه الكامن فى نفسه، وإظهار قبح هذا العمل للجميع، وذلك ما كان ميسوراً إلّابإبداء ردّ فعل عنيف، ولذا عاتب أخاه هارون بشدّة حتّى أنّه جرّه من رأسه بعد أن ألقى الألواح جانباً، بل صرخ فى الواقع من أعماق وجوده، حتّى تردّد صداه بين بنى إسرائيل ليقول بعضهم لبعض: ما أقبح عبادة العجل يا ترى! بحيث يتعامل موسى عليه السلام بكلّ هذه الخشونة مع أخيه؟ وعلى فرض أنّ مثل هذا التصرّف لا يليق بشأن هارون عليه السلام (مع أنّ علاقة الاخوّة بين الأخوين تنفى مثل هذا الشيء) فإنّه وبسبب التأثير الاجتماعى العميق له لم يجد موسى عليه السلام بدّاً من فعله.

كما أنّ نفس هذا الهدف كان وراء إلقاء الألواح، بالرغم من اعتقاد البعض بأنّ لفظة «الإلقاء» هنا تعنى الوضع على الأرض والذهاب

وراء عمل ما، ولذا لم تنته المسألة عند هذا الحدّ، بل كان ذلك القرار الشديد على بنى إسرائيل بسبب ارتداد ذلك الفريق بالشكل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۶

الذى جاء فى ذيل الآية ۵۴ من سورة البقرة.

كما واجه مؤسّس الوثنية بين بنى إسرائيل، أى: «السامرى» ذلك العقاب الشديد أيضاً، خلاصة القول هى أنّ ردّ الفعل العنيف كان يرمى إلى أهدافٍ عظيمة، ولم يكن خالياً من الإشكال فحسب، بل كان واجباً أيضاً فى مثل تلك الظروف (تأمّل جيّداً).

۶- داود عليه السلام

هناك آيات فى القرآن الكريم تشير إلى أنّ نبى اللَّه العظيم داود عليه السلام قد استغفر ربّه لعمل قام به، وأنّ اللَّه تعالى قد غفر له وذلك قوله: «وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ* فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ». (ص/ ۲۴- ۲۵)

ألم يكن استغفار داود والعفو عنه من قبل اللَّه سبحانه وتعالى دليلًا على صدور الذنب منه؟ وهل يتلاءم هذا ومقام عصمته؟

للحصول على جواب هذا السؤال لابدّ من الرجوع إلى القرآن، والبحث قبل كلّ شىء عن العمل الذى يرتبط به هذا الإبتلاء وتلك المغفرة.

تحكى الآيات التى سبقت آيات بحثنا أنّ خصمين تسوّرا محراب داود عليه السلام، ودخلا عليه على حين غرّة، ففزع لدخولهما المفاجىء عليه: «إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ* إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ». (ص/ ۲۲- ۲۳)

فقال داود بدون تحقيق أو استفسار: «قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ...». (ص/ ۲۴)

هذه هى القصّة التى ذكرت فى آيات القرآن بأكملها بلا زيادة أو نقصان.

هناك تفاسير مقبولة قدّمت تفسيراً مقنعاً لهذه الآيات، كما أنّ هناك روايات موضوعة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۷

وردت فى بعض الكتب، تعرّضت لمعانى هذه الآيات بشكل مسىء ومشوّه.

أمّا ما يتّفق ومحتوى الآيات المذكورة، فهو القول: إنّ الشىء الوحيد الذى صدر من داود عليه السلام كان فقط تركه للأولى وذلك بتسرّعه فى القضاء، لكن لا بتلك السرعة التى تكون على خلاف «واجبات» موازين القضاء، إذ «يستحبّ» للقاضى التمعّن أكثر ما يمكن، فلو ترك الأكثر واكتفى بالحدّ الأوسط أو الأقل فقد ترك الأولى، وهذا ما فعله داود، فقد قضى بظلم الأخ لأخيه الفقير، وربّما كان السبب وراء هذا التسرّع هو ذعره من دخولهما المفاجىء عليه فى خلوته، فضلًا عن أنّ اجحافاً كهذا من قبل أخ لأخيه يبعث على الأسف والشفقة.

صحيح أنّ داود عليه السلام أصغى لادّعاء طرف واحد فقط، لكن سكوت الطرف الآخر وعدم التفوّه بأى كلام، أو اعتراض يعدّ فى نفسه دليلًا على اعترافه، وعلى أيّة حال فمن آداب مجلس القضاء أن يطلب القاضى توضيحاً أكثر من الطرف المقابل وهذا ما لم يفعله داود.

وما استغفار داود إلّالتركه الأولى، وقد تقبّل اللَّه تعالى توبته وغفر له.

وهو أفضل دليل على عدم صدور أى ذنب عن داود عليه السلام، والجملة الواردة فى ذيل نفس هذه الآيات: «وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ» تشير إلى ذلك، كما أنّ هناك أوصافاً أخرى كثيرة فى حقّه قد وردت فى الآيات السابقة، ونُعت بتلك المنزلة الرفيعة

عند اللّه تعالى بحيث غدت سيرته نموذجاً لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله يقتدى به، ولا شكّ أنّ هذا المعنى لا يتناسب مع العصيان والذنب أبداً.

حينما يصرّح القرآن فى ذيل هذه الآيات ويقول: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ ...». (ص/ ۲۶)

يتبيّن بكلّ وضوح أنّ خليفة اللّه لا يذنب، ومسألة ردعه من اتّباع هوى النفس إنّما هى بمثابة الأمر ولا تدلّ على ارتكاب معصية، ومن هنا يتّضح مدى تفاهة تلك القصّة التى أبرزتها التوراة بشكل مُشوَّه، وبالغت فى تضخيمها أكثر من الوضع الطبيعى، وربطت هذه القضيّة بحادثة مختلقة وهى عشق داود عليه السلام لزوجة أحد ضبّاط جيشه وهيامه فى حبّها،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۸

والتدبير لقتله فى خاتمة المطاف وأخذ زوجته.

تشتمل التوراة التى حُرِّفت عن مواضعها على بعض العبارات التى تبيّن مدى فضاعة هذه القصّة، والتى لا تسمح عفّة القلم ومنزلة الأنبياء عليهم السلام «۱» بذكرها.

هذه القصص الموضوعة، والعبارات البذيئة تعدّ بنفسها أفضل دليل على تحريف التوراة الحالية.

من الطبيعى أنّ مثل هذا التحريف ليس غريباً بالنسبة لمحقّقى تاريخ التوراة على مدى آلاف السنين، لكنّ العجب إنّما هو من كيفية إقدام بعض المفسّرين المسلمين على نقل تلك الخرافات القبيحة فى كتبهم، فى الوقت الذى نقرأ فى رواية عن على أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: «لا اوتى برجل يزعم أنّ داود تزوّج امرأة أُوريا إلّاجلدته حدّين حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام» «۲».

كما احتمل البعض كون هذه الحادثة إشارة إلى أنّ داود عليه السلام لم يأسف لنبأ مقتل اوريا فى ميدان القتال كأسفه على غيره، وذلك لرغبته فى الزواج من امرأته بعد مصرعه، ولكن من دون (اتّفاق مسبق) حول الموضوع.

لكن وكما أشار المرحوم السيّد المرتضى أيضاً، فانّ هذه التصرّفات وإن لم تعدّ ذنباً لكنّها ممّا تشمئزّ منها النفوس، ومعلوم أنّه لا ينبغى للأنبياء والأئمّة القيام بمثلها «۳».

كما احتمل بعض المفسّرين أنّ العادة فى ذلك الزمان كانت جارية على عدم تزويج المرأة الأيّم أبداً، وأنّ داوداً قد تزوّج زوجة اوريا بعد موته لتحطيم هذه السنّة الخاطئة.

لكنّ هذا التفسير أيضاً لا يتناسب بدوره مع ظاهر الآيات التى تبيّن صدور ترك الأولى من داود، لأنّ تحطيم هذه السنّة الخاطئة يعدّ واجباً فضلًا عن عدم كونه تركاً للأولى، إلّاأن

---

(۱) لمزيد من الإطلاع راجع الكتاب الثانى ل «اسموئيل» (من كتب التوراة) الفصل الحادى عشر، الجملة الثانية إلى السابعة والعشرين، ثمّ نقدها وتحقيقها من التفسير الأمثل ذيل الآيات ۲۱ إلى ۲۵ من سورة ص.

(۲) تفسير مجمع البيان، ذيل الآيات من سورة ص، كما ذكر الفخر الرازى نفس هذا الموضوع بعبارة اخرى.

(۳) تنزيه الأنبياء، ص ۹۱ و ۹۲.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۰۹

يقال: إنّ هذا العمل كان سبب العناء الروحى لُاوريا، كما جاء فى إحدى الروايات «۱».

لكن التفسير الأوّل هو الأنسب من بين هذه التفاسير.

۷- سليمان عليه السلام

وهناك أيضاً آيـة فى القرآن الكريم وردت بحقّ هـذا النبى العظيم، تبيّن أنّه قـد طلب العفو من ربّه واسـتغفره على بعض الأعمال التى صدرت منه، (وأنّ اللّه تعالى قد قبل توبته).

يقول القرآن حول هذا الموضوع: «وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيمانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ* قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِاَحَدٍ مِنْ بَعْدِى إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ* فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ ...». (ص/ ۳۴- ۳۶)

و لنرى مـا هو هـذا الإختبار؟ ولمن يعود هـذا الجسـد الجامـد الـذى القى على كُرسيّه؟ فهـذا ما لم يتعرّض القرآن لبيانه، لكن هناك تفاسير إسـلامية تناولت هـذه الحادثـة، وروايات تعرضت لها، كما أنّ الرواة الذين وجدوا فى هذا الموضوع أرضاً خصبـة لهم فحاكوا حوله أساطير وهمية لا أساس لها، ونسـبوا إلى هذا النبى العظيم ما لا يتناسب حتّى مع المنطق والعقل السليمين، فضلًا عن منزلة العصمة والنبوّة، ومن جملـة ذلـك اسـطورة شـنيعة وملفّقـة تـدّعى ضـياع خاتم سـليمان، واختطافه من قبل أحـد الشـياطين وجلوسه على عرش سليمـان ثمّ اسـتلامه للحكم، (وذلك لوجود علاقـة بين الخاتم والحكومـة والتسلّط على الإنس والجنّ طبقاً لهـذه الاسـطورة)، وهـذه الاسـطورة المـذكورة فى بعض‌الكتب بكلّ جدّيـة واعتقاد، والتى تبـدو حسب الظاهر من خرافات الاسـرائيليات الممتـدّة جذورها إلى «التلمود» كتاب اليهود، (وهو عبارة عن مجموعة روايات فى تفسير قوانين موسى)، والتى يصعب التفوّه بها أو نقلها لوقاحتها.

---

(۱) عيون أخبار الرضا، ج ۱، الباب ۱۴، ص ۱۵۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۰

والذى يبدو صحيحاً من بين التفاسير والذى اشير إليه فى الروايات الإسلامية، تفسيران:

الأوّل: أنّ سليمان عليه السـلام كان يتمنّى أن يكون له أبناء شـجعان وأكفاء ليـديروا حكومته من بعـده، ويعينوه فى حياته على إدارة البلاد والنظام والجيش، ولـذلك قال فى إحـدى الليالى: لقـد صـممت على مقاربـة العديد من نسائى على أمل أن ارزق بأولاد أكفاء، لكنّه لم يقل: (إن شاء اللّه)، فبسبب ترك الأولى هـذا لم يرزق من زوجاته سوى طفل ناقص الخلقـة كالجثّة الهامدة حيث ألقوه على كرسيّه.

جاء فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «والذى نفس محمّد بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا فى سبيل اللّه فرساناً!» «۱».

وهنا انتبه سليمان عليه السلام إلى أنّه ترك الأولى فتاب لذلك وعفى اللّه تعالى عنه.

الثانى: أنّ المراد من جملـة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً» هو أنّ سـليمان قـد مرض مرضاً شديداً حتّى عاد كالجثّة الهامدة فوق كرسيّه، فكان ذلك ابتلاءً إلهيّاً، ثمّ استعاد عافيته وشفى، وهو المراد من كلمة «أناب» فى الآية.

طبقاً لهذا التفسير الوارد فى تفاسير الكثير من أقطاب المفسّرين تكون جملة: «أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً»، بمعنى: «القيناه على كرسيه جسداً» وهى خلاف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

فضـلًا عن عـدم وضوح ما هو ترك الأولى الصادر من سليمان عليه السـلام على أثر هذا المرض ليسـتغفر ربّه؟ إلّاأن يقال: إنّ الإنسان يرتكب تركاً للأولى فى حالاته المختلفة بشـكل عامّ وحال مرضه بشـكل خاصّ، وأنّ سـليمان قد استغفر ربّه لمثل هذه الحالات، لكنّ هذا الجواب مبهم وغير مقنع.

الموضوع الآخر الـذى اثير حول هـذا النبى العظيم، هو الجملـة التى تلى نفس هـذه الآيـة وهى قوله: «وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى».

فهل يتلاءم، هذا الطلب مع الروح السامية والنظرة البعيدة والزهد المنقطع النظير

---

(۱) ذكر البخارى هـذا الحـديث فى صـحيحه، كمـا ذكرته بعض التفاسـير ومن جملتها روح البيان؛ وفى ظلال القرآن فى ذيل الآيات

مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۱

الذى يتمتّع به الأنبياء المعصومون عليهم السلام؟ ألا يُشمُ من هذا الكلام رائحة البخل ياترى؟

ورغم أنّ الحديث يدور هنا حول عصمة الأنبياء عليهم السلام، لكن على أيّة حال فالنقائص الأخلاقية الاخرى خصوصاً تلك التى تشمئزّ منها النفوس لا تتناسب مع درجاتهم ومنزلتهم الرفيعة.

وقد أجاب المرحوم السيّد المرتضى فى «تنزيه الأنبياء» والمحقّق الطبرسى فى «مجمع البيان» وباقى المفسّرين عن هذا السؤال فى تفاسيرهم بأجوبة متعدّدة «۱»، والأجوبة أدناه تعدّ أنسبها:

إنّ سليمان عليه السلام طلب من اللَّه تعالى أن تكون له معجزة خاصّة، كما أنّ لكلّ نبى معجزته الخاصّة، وكانت معجزته هى الحكم الذى لا مثيل له، الحكم على الإنس والجنّ وعلى الرياح والسحاب و ...، فوهبه اللَّه مثل هذه المعجزة، حكومة واسعة تتصف بالإعجاز فى مختلف الجوانب، ومن البديهى أنّ طلباً كهذا لا يعدّ عيباً ونقصاً للنبى.

والجواب الآخر هو: إحساس سليمان بالإذن لمثل هذا الطلب عن طريق الوحى، أو بعبارة اخرى: أنّ اللَّه تعالى شاء أن يتجسّد شعاع من قدرته وحاكميته عن طريق أحد أنبيائه العظام، فوجد سبحانه سليمانَ صالحاً لهذا الغرض فأجازه لمثل هذا الطلب، فطلب سليمان بدوره تلك المعجزة، فوهبه اللَّه تلك الحكومة العجيبة التى لا مثيل لها، والتى لم ولن يكون لها نظيرٌ فى العالم، ومن المسلّم أنّه حينما يجد اللَّهُ أحداً صالحاً لعمل ما، ويجيزه فى ذلك، لا يبقى هناك أدنى مجال للشكّ والترديد والإشكال.

الدليل على هذا الكلام هو ما ورد عن سيرة سليمان من أنّه كان زاهداً جدّاً فى حياته، كما نقرأ فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال حول هذا الموضوع: «كان يأكل الشعير ويطعم الناس الحُوَّارى! «۲» وكان لباسه الشَعر وكان إذا جنّه الليل شدّ يده إلى عنقه فلا يزال قائماً يصلّى حتّى الصباح!» «۳».

---

(۱) تنزيه الأنبياء، ص ۹۷ و ۹۸؛ تفسير مجمع البيان، ج ۸، ص ۴۷۶.

(۲) الحوارى (بالحاء المضمومة والواو المشدّدة) هو «الطحين الأبيض».

(۳) سفينة البحار، مادّة (الزهد)، وتفاسير اخرى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۲

وهناك تفسير لطيف حول هذا الموضوع فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وذلك حينما سئل عن تفسير الآية: «رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى» قال عليه السلام: «الملك ملكان ملك مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، وملك مأخوذ من قبل اللَّه تعالى، كملك آل إبراهيم وملك طالوت وذى القرنين، فقال سليمان (وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى) أن يقول إنّه مأخوذ بالغلبة والجور وإجبار الناس، فسخّر اللَّه عزّوجلّ له الريح ... وسخّر اللَّه عزّوجلّ له الشياطين ... وعلّم منطق الطير، ومكّن فى الأرض، فعلم الناسُ فى وقته وبعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل الناس، والمالكين بالغلبة والجور» «۱».

والمراد من هذا الحديث هو أنّ سليمان عليه السلام لم يطلب حكماً محدوداً، بل حكماً لا مجال فيه للقيل والقال والإتّهام بالزور والظلم، ولذا فقد مزج اللَّه هذه الحكومة بالمعجزات العجيبة لإثبات كونها من عنده تعالى، لا من الناس ولا عن طريق الظلم والغلبة «۲».

الجواب الثالث: ما أُثير حول مقام عصمة سليمان عليه السلام هو ما جاء فى نفس الآيات السابقة حيث يقول تعالى: «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ* (الخيل الأصيلة)- فَقَالَ إِنِّى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى (إنّى أحبّ هذه الجياد فى سبيل اللَّه ومن أجل

الجهاد، فبقى ينظر إليها ..) حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ* رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (يمسح عليها لأنّها لائقة للقتال)». (ص/ ۳۱- ۳۳)

طبقاً للمعنى المتقدّم الذى تبيّن من هذه الآيات، لا يبدو هناك أى إشكال فى عمل سليمان عليه السلام هذا، فهو يعتدّ بقدرته العسكرية ويلتذّ بالتطلّع إلى الجياد المهيأة للجهاد، ويأمر بردّها عليه ثانية لاعتزازه بها، وهذه التصرّفات كلّها تبدو بشكل عام معقولة ومنطقية وإلهية.

لكن البعض فسّر هذه الآية بشكل آخر واعتبرها كبداية للإشكال على سليمان، وقال:

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۴۵۹، ح ۵۶.

(۲) وبناءً على هذا التفسير فهناك جملة مقدرة فى الآية تقديرها: وهب لى ملكاً لا ينبغى لأحد من بعدى أن يقول ليس من عند اللّه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۳

إنّ الضمير فى كلتا جملتى «توارت» و «ردوها» يعود إلى الشمس التى لم ترد فى العبارة، والتى يمكن استنتاجها من التعبير ب «العشى» الوارد فى الآية، وطبقاً لهذا التفسير فقد ذهل سليمان بالنظر إلى هذه الجياد، إلى أن غابت الشمس وتوارت وراء الحجب، فغضب لذلك كثيراً لفوات صلاة العصر عليه، وحينئذ طلب من الملائكة إعادة الشمس ثمّ توضّأ وصلّى، وأنّ جملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلى وضوئه.

كما ذهب البعض إلى أبعد من هذا أيضاً، وقال: إنّ المراد من هذه الجملة هو: أنّه أعطى أمراً بقطع أعناق الجياد وقوائمها، باعتبارها السبب وراء غفلته عن ذكر اللّه (العذر الذى هو أقبح من الفعل)، والقول: إنّه ذبحها ووزّع لحومها فى سبيل اللّه يبدو عجيباً أيضاً، لأنّ جياداً بتلك القيمة والخاصيّة التى تلفت نظره إليها حتّى يذهل لذلك لا ينبغى ذبحها كالأبقار والأغنام، إذ لو أراد إنفاقها لوجب إعطاؤها للآخرين وهى على قيد الحياة، ولا يخفى على أحد سقم هذه التفاسير، وذلك لأنّ:

۱- لو كانت هذه الجملة «فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ» إشارة إلى وضوئه، فليس لديه سوى رقبة واحدة، والتعبير ب «الأعناق» بصيغة الجمع مما يكون، كما أنّ لديه ساقَين، والتعبير ب (السوق) بصيغة الجمع يكون لا معنى له أيضاً، ومَن قالَ إنَّ الوضوء كانَ بالمَسْح؟ لا معنى له.

ولو كانت بمعنى قطع أعناق وقوائم الجياد، فهو عمل غير منطقى جدّاً، لا يقدم عليه حتّى الفرد العاقل العادى فكيف بنبى عظيم كسليمان عليه السلام، إذ لا ذنب لها، بل لو كان هناك ذنب فهو منه حينما انشغل بالنظر إليها.

أكثر ما يمكن أن يقال هنا هو أن يهبها للآخرين لتبقى بعيدة عنه ولا تشغله بنفسها، ولا داعى للقتل أبداً؟!

۲- لم يرد فى هذا الحوار كلام عن «الشمس»، والاستدلال عليها عن طريق «العشى» بعيد جدّاً، لأنّ أقرب ما يعود إليه الضمير هنا هو «الخير» الذى يعنى هنا «الجياد» بكلّ تأكيد، كما لم يرد شىء عن الملائكة أيضاً ليكونوا من مخاطبى سليمان، فضلًا عن أنّ هذا التعبير الذى وجهه سليمان إلى الملائكة تشمّ منه رائحة صيغة الأمر، ويبدو مستبعداً جدّاً لعدم لياقته وشأن الملائكة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۴

۳- لو قبلنا هذا التفسير على سبيل الفرض، لأمكن القول: إنّ الصلاة التى أدّاها قضاءً كانت صلاة مندوبة، قد فاتت سليمان وأنّها كانت قبل غروب الشمس، فكيف يثبت كونها صلاة واجبة؟ وأساساً كيف يثبت كون الفائت هى الصلاة؟! ربّما كانت أذكاراً خاصّة يؤدّيها سليمان قبل الغروب، وقال بعض المفسّرين أيضاً: إنّ «ذِكر رَبّى» لو كان يعنى الصلاة الواجبة، وأنّ سليمان عليه السلام كان قد غفل عنها لانشغاله بالجياد استعداداً للجهاد، فلن يرد عليه إشكال أبداً، لأنّ نفس عمل سليمان هذا يعدّ عبادة عظيمة قد أغفلته عن عبادة اخرى.

لكن هذا التفسير أيضاً يبدو بعيداً، نظراً للأهميّة الخاصّة التى تتمتّع بها الصلاة، والصحيح هو ما قيل أوّلًا.

۸- يونس عليه السلام

وهناك آية فى القرآن الكريم حول هذا النبى العظيم أيضاً، حيث تبيّن أنّه اعترف أمام اللَّه تعالى بالظلم ثمّ طلب العفو والمغفرة وأنّ اللَّه استجاب دعاءه وغفر له بعد اختبار طويل، يقول تعالى: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ» ثمّ يضيف قائلًا: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ». (الأنبياء/ ۸۷- ۸۸)

وهنا يثار هذا السؤال وهو: كيف يتناسب وضع يونس فى صفوف الظلمة مع منزلة عصمته، ولمن ظلم؟، وما هى نوعية الظلم؟ ثمّ أنّ يونس عليه السلام على من غضب؟ ولماذا ظنّ أنّ اللَّه لن يضيّق عليه؟ ألا يمكن لهذه الجهات الثلاث مجتمعة أن تكون بمثابة علامة إستفهام على مسألة عصمته؟

ورد نفس هذا المعنى بشكل غامض فى القرآن الكريم: «فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ* لَوْلَا أَنْ تَدارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ* فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ». (القلم/ ۴۸- ۵۰)

كما يستفاد من هذا التعبير أيضاً أنّه كان قد تسرّع فى أمره وأشرف على الهلاك لولا أن أسعفه لطفه تعالى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۵

ونفس هذا المعنى تكرّر أيضاً فى سورة الصافات، وذلك بعد الإشارة إلى قصّة هربه من قومه وركوبه فى السفينة، وإلقاء القرعة ثمّ إلقائه فى فم حوت عظيم، يقول تعالى: «فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ». (الصافات/ ۱۴۳- ۱۴۴)

ما هو الذنب الذى اقترفه ليسجن فى بطن الحوت، ويلبث فيه مدّة مديدة لولا تسبيحه للَّه تعالى؟، خلاصة القول: إنّ قصّة يونس عليه السلام التى جاءت فى ثلاث سور من القرآن الكريم (الأنبياء، القلم، الصافات) وبعبارات مختلفة تثير استفهامات شتّى حول مقام عصمة هذا النبى العظيم وتستدعى جواباً منطقيّاً.

الجواب:

صحيح أنّ التعابير المختلفة للآيات المذكورة تبيّن أنّ ذنباً ما قد صدر من يونس عليه السلام، فالتعبير ب «الظالم» و «المليم» (يأتى أحياناً بمعنى ملامة النفس، أو القيام بعمل يستوجب ملامة الآخرين لفاعله، لأنّ لفظة «المليم» قد فسّرت بكلا المعنيين)، وكذلك التعبير بأنّ يونس عليه السلام: «فلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ* لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ الى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، والتعبير ب «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ» وتعبير «لَاتَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ»، الذى يأمر نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: بأن لا يكون كيونس عليه السلام، وكذلك تعبير: «لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ»، كلّ هذه التعابير تبيّن وقوع شىء ممّا لا ينبغى وقوعه.

لكن القرائن تشير إلى أنّ هذا العمل المخالف لم يكن سوى ترك الأولى، لأنّ اللَّه تعالى وفى نفس هذه الآيات قد تحدّث عن يونس كنبى مرسل، موضع العناية الإلهيّة الخاصّة، وفى سورة (الأنعام/ ۸۶) يعتبره اللَّه تعالى من الأنبياء العظام الذين فضّلهم على العالمين، كما يعتبره فى عداد الأنبياء عظيمى الشأن كإبراهيم ونوح وإسماعيل وعيسى عليهم السلام، وذلك فى سورة (النساء/ ۱۶۳).

امّا ما هو ترك الأولى هذا؟ فهناك احتمالات متنوّعة، يمكن لكلّ واحد منها منفرداً

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۶

فضلًا عن مجموعها، أن يكون دليلًا على ترك الأولى فقط، من جملتها: أنّه تسرّع فى ترك قومه إذ كان الأجدر به أن يصبر أكثر، أو أنّه تعجّل بالدعاء عليهم، أو أنّه كان ينبغى عليه انتظار الأمر الإلهى حين خروجه من بين قومه حتى ولو كان قد يئس من هدايتهم على

ما يبدو.

ولا يخفى أنّ أيّاً من هذه الامور لا يعدّ ذنباً، لكنّها لو لم تكن لكان أفضل، وبناءً على هذا فقد استحقّ العتاب والملامة، والتعبير ب «الظلم» أو «الإبتلاء بالعقاب الإلهى» إنّما هو من باب «حَسَناتُ الابْرارِ سَيِئاتُ الْمُقَرَّبينَ»، والذى تقدّم الكلام عنه مفصّلًا عند البحث عن ترك آدم عليه السلام للأولى، كما يحتمل أيضاً تصوّره بأنّ اللَّه تعالى لن يضيق عليه «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ»، أنّ تصوّره هذا كان بمثابة ترك الأولى، وذلك لأنّ تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمستوى عالٍ من الإيمان يفرض عليهم العيش دائماً بين الخوف والرجاء لا اعتبار أنفسهم فى أمان من العقاب الإلهى، أو القنوط من رحمته.

أمّا التعبير ب «مغاضباً» فواضح أنّه يعنى الغضب على أعمال قومه المذنبين، لا الغضب على اللَّه تعالى! كما ذهب إليه بعض المغفّلين، لأنّ هذا ليس فقط متنافياً مع مقام الأنبياء، بل لا يتناسب وأدنى حدّ من الإيمان أيضاً لأنّ ما يقابل الغضب على اللَّه هو الكفر باللَّه.

وعبارة «مغاضباً لربّه» الواردة فى الروايات أو كلمات بعض أقطاب أهل التفسير إنّما تعنى «مُغَاضِباً لَاجْلِ رَبِّهِ» أى أنّه غضب لأجل اللَّه تعالى نتيجة أعمال قومه.

ومن هنا يتّضح سبب مكوثه فى سجن مظلم تتوالى ظلماته الواحدة بعد الأخرى (ظلمة بطن الحوت، ظلمة البحر، وظلمة الليالى)؟ وسبب عزمه على التضرّع والإستغفار وطلب العفو، بتلك العبارات الموزونة المتينة: «لَاإِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ».

الملفت للنظر هو ما جاء فى البعض من الروايات، أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام قال: «حينما كان يونس فى خلوته فى بطن الحوت متوجّهاً بكلّ وجوده إلى العبادة مستجيراً باللَّه تعالى وحده، اعتبر نفسه من الظالمين لأنّه لم يأت بعبادة خالصة كهذه من قبل، فقال أن

لا إله إلّاأنت سبحانك انّى كنت من الظالمين، بتركى مثل هذه العبادة التى فرغْتَنى لها فى بطن الحوت، فقبل اللَّه تعالى منه ذلك، وقال عزّوجلّ: «فلولا أنّه كان من المسبّحين للبث فى بطنه إلى يوم يبعثون»» «۱».

امّا فيما يتعلّق بتفسير الآيات المتعلّقة ب «يونس» عليه السلام وما هو ذلك الحوت الذى تمكّن من الإحتفاظ به فى بطنه؟ وكيف يمكن للإنسان البقاء حيّاً مدّة طويلة بلا ماء أو طعام أو هواء؟ وكيف يمكن لذلك الإنسان ألّا يذوب ويهضم فى المعدة الواسعة للحيوان؟ واسئلة أُخرى من هذا القبيل، فالكلام عنها خارج عن موضوع بحث العصمة، ومن أراد الوقوف على أجوبة هذه الأسئلة يمكنه الرجوع إلى «التفسير الأمثل»، الأجزاء ۱۳ و ۱۹ و ۲۴ فى تفسير الآيات التى تتحدّث عن يونس عليه السلام.

۹- نبى الإسلام صلى الله عليه و آله

هناك آيات قرآنية مختلفة تثير التساؤلات حول مسألة عصمة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فيما يلى أهمّها:

أ) «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً». (الفتح/ ۱- ۲)

بما أنّ كلمة «الذنب» تعنى المعصية، إذن فكيف ينسجم هذا المعنى مع العصمة والمنزلة الرفيعة لهذا النبى العظيم؟

للمفسّرين أبحاث كثيرة وآراء متنوّعة فى معرض إجابتهم عن هذا السؤال، من جملتها:

إنّ المراد هو ترك الأولى ليس إلّا، والذى لا يتنافى أبداً مع مقام العصمة، إذ إنّ الإنسان حينما يرجّح المهمّ على الأهمّ والحسن على الأحسن يقال له: لقد «ترك الأولى». (تأمّل جيّداً)، إذ إنّه وفضلًا عن عدم ارتكابه لذنب فقد أدّى مستحبّاً أيضاً، غاية ما فى الأمر أنّه كان هناك مستحبّ أقوى ممّا أدّاه، وإطلاق الذنب والمعصية على مثل هذا العمل إنّما هو لعلو

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۵۰، ح ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۸

مقامه إذ كما قلنا: «حسنات الابرار سيئات المقربين».

الآخر هو أنّ المراد بالذنب هو معصية الامّة (وبناءً على هذا ففى الآية شىء مقدّر وهو كلمة «الامّة»)، أى (من ذنب امّتك ..).

وقول ثالث يشير إلى أنّ المراد به الذنوب التى ارتكبت فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، (إذ إنّ للذنب معنىً مصدريّاً يضاف أحياناً إلى الفاعل واخرى إلى المفعول)، ومن المسلّم أنّ الأعداء لم يتمكّنوا من تكرار ارتكاب نفس تلك المظالم والذنوب، التى ارتكبوها فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل فتح مكّة.

لكن ما عدا التفاسير الثلاثة المتقدّمة وتفاسير اخرى أهملناها لعدم أهميّتها، فلدينا تفسير أنسب وأكثر انسجاماً مع مضمون ومحتوى الآيات المذكورة والقرائن الموجودة فيها، وذلك من جهات شتّى، كما ويتلاءم مع روايات المعصومين عليهم السلام أيضاً:

توضيح ذلك: لغرض فهم معنى الآية يجب التركيز على التعابير السابقة واللاحقة لها، بالإضافة إلى التعابير التى تتضمّنها الآيات نفسها، إذ تمّ التصريح فى هذه الآية بوجود علاقة بين «الفتح» المذكور وغفران هذه الذنوب، يقول تعالى: إنّ الهدف من هذا «الفتح المبين» (صلح الحديبية أو فتح مكّة على حدّ قول البعض) هو أن يغفر اللَّه ذنوبك السابقة واللاحقة.

علاوة على هذا، فغفران الذنوب السابقة معلوم، امّا الذنوب التى لم ترتكب بعد فكيف تشملها المغفرة الإلهيّة، ألا يفهم من هذا الكلام إعطاء الضوء الأخضر بجواز ارتكاب أى ذنب فى المستقبل؟ فهل هذا الأمر منطقى ومعقول؟!

من خلال التدقيق فى هاتين الملاحظتين يمكننا إدراك المفهوم الواقعى للآية، وهو أنّ من الطبيعى عند حدوث ثورة إلهيّة فسوف يتعرّض ذوو المصالح اللامشروعة للخطر بسببها، ومنهم المؤيّدون للعادات الخرافية، والمتعصّبون بلا دليل، والمتحجّرون الجامدون الذين يجدون عقائدهم الخاطئة مهددة بالخطر والزوال، فسوف يقفون فى وجه تلك الثورة بكلّ قوّة، ونراهم ينسبون إليها كلّ ما هو مُشين، لغرض إجهاضها وإخمادها، فيصطنعون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۱۹

ضدّها الأكاذيب، ويلصقون بها التّهم، وينسبون لقائدها شتّى الرذائل، من جملتها أنّه قد أحدث الفرقة وشقّ وحدة الصفّ، وأهان المقدّسات، ولا يرمى سوى الوصول إلى السلطة والحكومة واستعباد الناس ونيل المنزلة والثروة، وأنّه آلة بيد الآخرين ومنفذ لأهداف الأجانب!! فلو لم يحالف النجاح هذه الثورة، فانّ هذه التّهم تتعاظم شيئاً فشيئاً بدل انحسارها وتوقّفها، وبديهى أنّ فشلها يعدّ بمثابة الدليل على صدق هذه الإدّعاءات.

لكن حينما انتصرت الثورة بلطف الرعاية الإلهيّة، وتم القضاء على العادات الخرافية، وتلاشت المصالح الشخصية اللامشروعة، واتّضحت حقّانية دعوة ذلك القائد السماوى، فسرعان ما تبدّدت كلّ تلك الإساءات التى نُسبت إليه والإتّهامات الباطلة سواء المتعلّقة منها بالماضى أو التى كان من المقرّر طرحها فى المستقبل، وحلّ الندم والاسف محلّ التهجّمات والإتّهامات الزائفة، وخسِئ حتّى المنافقون الذين أعمى اللَّه أبصارهم، والمتعصّبون الذين يعاندون ولا يؤمنون، لأنّهم أيقنوا بالفشل أمام هذه الحقيقة.

ولذا يقول تعالى للنبى صلى الله عليه و آله «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً* لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ» (أى ممّا كانوا يعدّونه ذنباً وممّا سيرمونك من تهمة الذنب) «۱».

ومن هنا يتّضح السبب وراء نسبة هذا الغفران إلى اللَّه، باعتباره هو الذى هيّأ مقدّمات هذا الغفران، والتى هى عبارة عن نفس ذلك «الفتح المبين».

والملفت هنا هو انّنا نجد هذا المطلب متجسّداً بكلّ وضوح فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى كتاب «عيون أخبار الرضا»، حيث قال عند ردّه على سؤال المأمون عن كيفية تناسب هذه الآية مع درجة عصمة الأنبياء: «لم يكن أحد عند مشركى

مكّة أعظم ذنباً من رسول اللّه، ثمّ يضيف موضّحاً ذلك قائلًا: وحيث إنّهم كانوا يعبدون ثلاثمائة وستّون صنماً، فحينما دعاهم النبى صلى الله عليه و آله إلى التوحيد شقّ عليهم ذلك كثيراً وقالوا باستغراب، هل تستبدل كلّ آلهتنا بإله واحد؟ ياللعجب؟! كما أضاف قائلًا: (فلمّا فتح اللّه

---

(۱) «غفر» و «غفران» و «مغفرة» تعنى فى الأصل ستر الشىء وتغطيته على حدّ قول صاحب مقاييس اللغة، ومن هنا اطلق على غفران الذنوب أيضاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۰

تعالى على نبيّه مكّة قال له يامحمّد إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك اللّه ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر عند مشركى أهل مكّة، بدعائك توحيد اللّه فيما تقدّم وما تأخّر لأنّ مشركى مكّة أسلم بعضهم وخرج بعضهم عن مكّة، ومن بقى منهم لم يقدر على إنكار التوحيد إذ دعا الناس إليه فصار ذنبه عندهم فى ذلك مغفوراً بظهوره عليهم).

فحينما سمع المأمون هذا التفسير قال: للّه درّك ياأبا الحسن! «۱».

كما ورد نفس هذا المعنى بعبارات اخرى فى حديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، رواه السيّد ابن طاووس فى كتاب «سعد السعود»، وهو: أنّ قريشاً وأهل مكّة قد نسبوا الكثير من الذنوب إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قبل الهجرة وبعدها، وحينما تمّ فتح مكّة وتعامل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بتلك الرأفة مع أعدائه المعاندين، غضّوا الطرف عن كلّ تلك الذنوب التى كانوا قد نسبوها إليه «۲».

وأخيراً يقول القرآن: «وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً».

واضح أنّ نعمة اللّه قد اكتملت ليس فقط بالنسبة للنبى، بل لكلّ المجتمعات الإسلامية عن طريق هذا الفتح العظيم، فلقد خسر أعداء الإسلام وإلى الأبد، بينما مهّد الطريق لمسير النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وكافّة المسلمين لتقدّم أكبر.

ب) نقرأ فى آية أخرى أنّ اللّه يخاطب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قائلًا: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ».

أو ليس التعبير ب «العفو» من جهة و «العتاب والملامة»، والإستغفار عن سبب ترخيصه لهم من جهة أخرى، دليلًا على أنّ سماح النبى لبعض المنافقين بعدم الإشتراك فى القتال كان عملًا مخالفاً؟ هل تتلاءم هذه الآية مع درجة عصمة هذا النبى العظيم؟

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۶، ح ۱۸.

(۲) المصدر السابق، ح ۱۷ بتلخيص واقتباس.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۱

اللطيف هو أنّ اللّه أشار فى هذه الآية إلى العفو أوّلًا ثمّ يأتى العتاب، لكن البعض من المغفّلين تناول هذا الموضوع بشكل مسىء حتّى اعتبر الآية دليلًا على صدور الذنوب من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، دون الإلتفات إلى لطف هذا البيان الإلهى الذى أشرنا إليه! من جملتهم «الزمخشرى» فى «الكشّاف» حيث قال فى تفسير هذه الآية: «جملة عفا اللّه عنك كناية عن الجناية لأنّ العفو مرادف لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت» «۱».

لكنّه لو تأمّل أكثر فى محتوى الآية وصدرها وذيلها، والتعابير الواردة فيها لأدرك أنّ كلمة العفو والعتاب إنّما هى فى الحقيقة لبيان سوء معاملة المنافقين للنبى صلى الله عليه و آله، وتوجيه الكلام إليه صلى الله عليه و آله إنّما هو نوع من التعبير الكنائى اللطيف لبيان واقعة خطيرة.

وتوضيح ذلك: يخاطب الإنسان أحياناً أحد أصدقائه ويعاتبه لأنّه لم يَدَع الشخصَ الفلانيَّ يُفتَضَح وتُبيّن حقيقتُه للناس! فى حين أنّ هذا العتاب والخطاب يعدّ مقدّمة لانتقاد شخص ثالث فى حقيقة الأمر.

ويمكن توضيح هذا الموضوع بضرب مثال بسيط: لو فرضنا أنّ أحداً أراد أن يوجه صفعة إلى إبنك البرىء، فمنعه أحد أصدقائك، فمع انّك لم تنزعج من تصرف صديقك بطبيعة الحال، لكن أحياناً ولغرض إثبات سوء سريرة ذلك الشخص، تلتفت إلى صديقك وتقول له معاتباً: لماذا لم تدعه يصفع إبنى حتّى يتعرّف الناس على قساوة قلبه، هذا الخطاب الذى هو على صيغة العتاب والملامة، هو فى الواقع كناية بليغة عن قساوة ذلك الظالم.

جاء فى بعض التعابير الواردة عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى تفسير هذه الآية:

هذا ممّا نزل «اياك اعنى واسمعى ياجارة» خاطب اللّه تعالى بذلك نبيه، واراد به امته «۲».

يحتمل أن يكون هذا الكلام إشارة إلى نفس ذلك المطلب المتقدّم أعلاه، والدليل على هذا الأمر هو الصلاحية التى اعطيت للنبى صلى الله عليه و آله فى الآيات القرآنية الأخرى، وذلك بالسماح لمن شاء من المؤمنين بالتفرّغ لمشاغلهم الشخصية، وعدم الإشتراك فى بعض

---

(۱) تفسير الكشّاف، ج ۲، ص ۲۷۴.

(۲) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۳۰، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۲

الأعمال الهامّة، فيما لو طلبوا ذلك وكان فيه صلاح: «فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ». (النور/ ۶۲)

وبناءً على هذا فلا مانع من سماح النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لبعض المنافقين بعدم الإشتراك فى المعركة، خصوصاً وأنّ إشتراكهم لن يحلّ للمسلمين أيّة مشكلة، هذا إن لم يخلق لهم مزيداً من المتاعب.

من مجموع هذه الإعتبارات يمكن إدراك أنّ التفسير الأخير يناسب الآية المتقدّمة، إذ لا وجود لما يخدش مقام العصمة فيها.

ج) الآية الأخرى التى نزلت فى مسألة زواج نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من مطلّقة إبنه بالتبنّى (زيد)، أثارت استفهاماً لدى البعض أيضاً.

هذه الآية تقول بصراحة: كلّما حدث خلاف بين زيد وزوجته، كان النبى يحثّ زيداً على عدم طلاقها، ويكرّر عليه ذلك، ولكن حينما لم تؤثّر هذه التوصيات، وطلّق زيد زوجته تزوّجها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ليحطّم تلك العادة الجاهلية البغيضة التى كانت تعتبر زوجة (الإبن بالتبنّى) حراماً على الإنسان، كزوجة الإبن الحقيقى، هذا من جهة.

وليعيد من جهة أخرى إلى (زينب) حيثيتها واعتبارها، لأنّها حفيدة عبدالمطّلب وابنة عمّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن أُسرة معروفة، وكانت قد تزوّجت زيداً العبد المعتق امتثالًا لأمر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بذلك، ومن المسلّم أنّ زواجاً كهذا كان صعباً عليها وكان هذا الفراق أصعب. (تأمّل جيّداً).

وهنا يقول القرآن: «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا». (الأحزاب/ ۳۷)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۳

وهنا فُسِحَ المجال لبعض المغفّلين وأحياناً المغرضين لنسج مجموعة من الأساطير الكاذبة، وفرضها على القرآن ونسبتها إلى نبى

الإسلام صلى الله عليه و آله «۱».

المهمّ لدينا هنا وما ينبغى توضيحه جملتان وردتا فى الآية السابقة، وإلّا فالأساطير الخرافية التى لا أثرلها فى القرآن، ليست شيئاً يستحقّ التحقيق فيه والردّ عليه.

جاء فى إحدى الجمل: «وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ».

كما نقرأ فى الجملة الثانية: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ».

ألا تتنافى هاتان الجملتان مع مقام عصمة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله؟

مفهوم الجملة الاولى يبدو مبهماً، لكن الذين يحوكون الأساطير ربطوا بها مطالب كثيرة، وقدّموها كلقمة سائغة لأعداء الإسلام حتّى يتّهموا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (والعياذ باللّه) بعشقه لزوجة زيد.

فى حين أنّ نفس الآية تكذب هذا الإدّعاء، إذ تقول: إنّك أوصيت زيداً مراراً بعدم طلاق زوجته (لا يفوتك أنّ جملة «إذ تقول» هى بصيغة المضارع الدالّ على الإستمرار)، ولو كانت المسألة كما توهّمها الأعداء لوافق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على الطلاق بكلّ رحابة صدر، أو لاختار السكوت على أقلّ تقدير، فكيف يعقل أن ينهاه عن ذلك والحالة هذه.

امّا فيما يتعلّق بالجملة الثانية فقد قالوا: بأىّ دليل يخاف النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من الناس، واللّه أحقّ أن يخافه ويخشاه؟

بالرغم من الإحتمالات الكثيرة التى اعطيت لتفسير هذه الآية، خصوصاً هاتين الجملتين، حتّى أنّ بعض المفسّرين المعروفين تورّط فى الإشتباه، فمجرّد إمعان النظر فى متن نفس الآية (خصوصاً الجمل السابقة واللاحقة لهاتين الجملتين) يُدرك المرء وضوح وجلاء مفهوم الآية، امّا لو لوحظت لوحدها مجرّدة عمّا يحيط بها فما أكثر الإبهامات التى ستحفّ بها.

---

(۱) لمن أراد مزيداً من الإطلاع على هذه القصص الموضوعة ونقدها، الرجوع إلى التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۴

لو أخذنا الآية جملة جملة، وفسّرناها لكان معناها كما يلى أنعم اللّه بالإيمان على «زيد» ابن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بالتبنّى (الذى كان سابقاً عبداً للنبى صلى الله عليه و آله ثمّ أعتقه، وتبناه لذكائه ودرايته)، كما أنعم عليه النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إذ أعتقه واعتبره كولده، وزوّجه ابنة عمّته التى كانت لها شخصيّة مرموقة فى المجتمع، هذا هو مفهوم جملة «أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ».

كما يستفاد من الجملة الثانية وقوع سوء التفاهم بين زيد وزوجته حتّى جال فى ذهنه طلاقها، وأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يحثّه على عدم الطلاق، ويدعوه للورع والتقوى: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ».

كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هنا أمام محذورين: فهو من جهة يفكر فى أنّه لو انتهى الأمر بالطلاق لوجب عليه أن يتزوّجها، لِينهى كلم الناس السىّ الذى سيلحق بإبنة عمّته زينب، باعتبار أنّ العبد المعتق أيضاً لم يرض بها فطلّقها، ومن جهة أخرى كان يخشى الناس خصوصاً المنافقين، الذين كانوا يتربّصون به الدوائر والذرائع ليعيروه بهذا الأمر من جهتين:

الاولى تجاوزه لاحدى عادات عرب الجاهلية المتأصّلة، والتى كانت تعتبر زوجة الإبن بالتبنّى كزوجة الإبن الحقيقى وأنّ الزواج منها هو كالزواج من تلك.

الثانى: إعتقادهم بأنّ الزواج من مطلّقة العبد المعتق هو دون شأن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وأنّه انتقاص من مكانته.

لكن شاء اللّه أن يتحقّق هذا الزواج بعد ذلك الفراق؟ وأن تتحطّم تلك العادة السيّئة، كما جاء فى ذيل الآية: «لِكَىْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً».

وبناءً على هذا، فالذى كان النبى الأكرم صلى الله عليه و آله يخفيه فى قلبه، وأعلنه اللّه فى خاتمة المطاف هو الزواج من زوجة زيد فى حالة إصراره على طلاقها.

والـذى كان يخشاه النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله هو ردّ الفعل نتيجـة لقضائه على احدى عادات الجاهلية، كذلك زواجه من امرأة دون شأنه صلى الله عليه و آله، واستمرّ خوفه ما دام الأمر الإلهى القطعى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۵

لم يصـدر بحقّه، لكن بعـد صـدوره بلزوم زواجه منهـا وتحطيمه لكلتـا العـادتين الخاطئتين، بل حتّى أنّ صـيغة عقـد زواجه أجراها اللَّه تعالى كما فى متن الآية: «زَوَّجْنَاكَهَا»، لم يبق هناك بعد ذلك أى مجال لخوفه وتردّده بالنسبة لهذه المسألة.

اللطيف هو التأكيـد على هـذه المسألة فى الآية التى بعدها أيضاً: قال تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُـنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً».

هذه الآية تشـير بصـراحة إلى أن ما قام به النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله هنا، كان فريضة إلهية وسـنّة كانت فى الأوّلين أيضاً، وأمراً إلهيّاً مقدّراً ينبغى وقوعه.

بـديهى أنّ هـذه المسألـة لو كـانت نابعـة عن رغبـة شخصـية، لمـا كـان لهـذه التعـابير النازلـة بشأنها أى معنى يـذكر، لكن لا الأعـداء المغرضون يصـغون لمثل هذه الحقائق، ولا البعض من رواة القصـص المغفّلين الذين يرجّحون الأساطير المفتعلة الصاخبة فى مثل هذه الحوادث على الحقائق.

لكن ولحسن الحظّ فانّ تعابير القرآن هنا كافية وواضـحة جدّاً، والملفت للنظر هو ما نقرأه فى حديث نقله «القرطبى» المفسّـر المعروف من أهل السـنّة عن الإمام على بن الحسين عليه السلام حيث يقول: «إنّ النبى صلى الله عليه و آله كان قد أوحى اللَّه تعالى إليه أنّ زيداً يطلّق زينب، ويتزوّجهـا النبى صـلى الله عليه و آله، فلمّـا اشـتكى زيـد للنبى صـلى الله عليه و آله خُلُق زينب، وأنّها لا تطيعه، وأعلن أنّه يريد طلاقها، قال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على جهة الأدب والوصيّة: (اتّق اللَّه فى قولك وأمسك عليك زوجك)، وهو يعلم أنّه سيفارقها ويتزوّجها، وهذا هو الذى أخفى فى نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنّه سيتزوّجها، وخشـى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يلحقه قول من الناس فى أنّ يتزوّج زينب بعـد زيد، وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه اللَّه تعالى على هذا القدر من أن يخشى الناس لشىء قد أباحه اللَّه له، بأن قال (أمسك) مع علمه بأنّه يطلّق، واعلمه أنّ اللَّه أحقّ بالخشية أى فى كلّ حال».

ثمّ يضيف (القرطبى) قائلًا: «قال علماؤنا رحمة اللَّه عليهم وهذا القول أحسن ما قيل فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۲۶

تأويل هذه الآية، وهو الذى عليه أهل التحقيق من المفسّرين والعلماء الراسخين».

ثمّ يتابع كلامه هـذا قائلًا: «يقول الترمـذى فى نوادر الوصول (وضـمن الإشارة إلى هذا الحديث) بأنّ على بن الحسين قد جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر ودرّاً ثميناً من الدرر ...» «۱».

د) الآيـة الأـخرى الـتى تثير الاسـتفهام حول النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله هى قوله تعـالى: «وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِى آيَـاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». (الانعام/ ۶۸)

السؤال هو: لو تمكّن الشـيطان من النفوذ إلى روح النبى الطـاهرة وأنسـاه الحكم الإـلهى بعـدم مجالسـة أهـل الباطل، فكيف يمكن أن يكون معصومـاً من الخطأ؟ وبعبارة أخرى أنّه يفتقـد أحـد فرعى «العصـمة» وهو الصون من السـهو والخطأ والنسـيان، ألا تخـدش الآية أعلاه فى عصمة الرسول صلى الله عليه و آله؟

الجواب:

التأمّـل فى الآيـة التى تليهـا يبيّن بكـلّ وضوح أنّ الحـديث وإن كان حسب الظاهر موجّهاً إلى النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، لكنّ المراد فى الواقع هو أصحابه، وأنّهم لو ابتلوا بالنسيان وشاركوا فى المجالس الملوثة بالذنوب، واستهزأ الكفّار بمقدساتهم فيجب عليهم ترك ومغـادرة ذلـك المكان فوراً، وذلك لكى يلتفتوا إلى أنفسـهم، وهـذا فى الحقيقـة من قبيل المثل العربى المعروف: «ايّاكَ اعْنِى

وَاسْمَعِی یَاجَارَةُ».

إذ انّنا نقرأ فی الآیة التی تلیها: «وَمَا عَلَی الَّذِینَ یَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَیْءٍ وَلَکِنْ ذِکْرَی لَعَلَّهُمْ یَتَّقُونَ». (الأنعام/ ۶۹)

---

(۱) تفسیر القرطبی، ج ۸، ص ۵۲۷۲، ذیل الآیات مورد البحث.

وکما نلاحظ فالکلام فی هذه الآیة یخصّ المتّقین، والمقصود منه عامّة المسلمین لا شخص النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وهذه الآیة تکمل بحث الآیة السابقة علیها.

نظیر هذه الأبحاث یشاهد فی الکثیر من الحوارات الیومیة أیضاً وفی آداب مختلف اللغات، والتی توجّه الکلام إلی شخص معیّن وتقصد شخصاً غیره.

من جملتها ما نشاهده فی القرآن الکریم وذلک عند التوصیة فی حقّ الأبوین:

«وَقَضَی رَبُّکَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِیَّاهُ وَبِالْوَالِدَیْنِ إِحْسَاناً إِمَّا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْکِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ کِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا کَرِیماً». (الاسراء/ ۲۳)

واضح أنّ الضمیر فی «ربّک» یعودإلی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، فی حین أنّ خطاب «ألّا تعبدوا» موجّه إلی کافّة المؤمنین (لوروده بصیغة الجمع)، ثمّ أنّه فی جملة: «إِمَّا یَبْلُغَنَّ عِنْدَکَ الْکِبَرَ»، وإلی آخر الآیة، فالضمائر کلّها مفردة والمخاطب فیها هو النبی الأکرم صلی الله علیه و آله مع علمنا بأنّه صلی الله علیه و آله کان قد فقد أبویه لسنین طویلة قبل النبوّة، وبناءً علی هذا فمثل هذه الأوامر حول احترام الأبوین التی تخاطب النبی الأکرم صلی الله علیه و آله إنّما هی من قبیل المتقدّم: «ایَّاکَ اعْنِی وَاسْمَعِی یَاجَارَةُ».

وما ذهب إلیه جمع من مفسّری أهل السنّة، من عدم المانع من کون النبی الأکرم صلی الله علیه و آله هو المخاطب فی الآیة مورد البحث، وجواز مثل هذا النسیان فی حقّه، لا یبدو صحیحاً، حیث إنّ مورد آیة النسیان هو أحکام اللّه تعالی، وهل یصحّ أن ینسی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله الأحکام الإلهیّة، وأی اعتماد واطمئنان بعد ذلک فی کلامه عن الوحی الذی هو أساس دعوته والحالة هذه؟!

ه) البعض من آیات سورة «الضحی» هی من جملة الآیات التی تدعونا، نحن الذین نعتقد بلزوم عصمة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله منذ ولادته، للإستفسار، یقول تعالی: «أَلَمْ یَجِدْکَ یَتِیماً فَآوَی* وَوَجَدَکَ ضَالًّا فَهَدَی* وَوَجَدَکَ عَائِلًا فَأَغْنَی». (الضحی/ ۶- ۸)

للمفسّرین آراء مختلفة حول تفسیر هذه الآیة وبیان محتواها: فالقلیل منهم فسّر الآیة بمعنی الکفر والضلال، بل حتّی أنّ بعض المفسّرین الغافلین الذین یجهلون أدلّة العصمة

قالوا: إنّ نبی الإسلام صلی الله علیه و آله کان علی دین قومه (الوثنیة) أربعین سنة إلی أن هداه اللّه.

لکن کلّ مفسّری «الشیعة» وجمهور مفسّری «السنّة» (کما اعترف بذلک الفخر الرازی) لم یقبلوا مثل هذا التفسیر، بل متّفقون بالجملة علی أنّ نبی الإسلام صلی الله علیه و آله لم یکفر طوال عمره، ولو لحظة واحدة ولم یشرک أبداً.

ولهؤلاء المفسّرین آراء عدیدة حول تفسیر الآیة وقد بلغ عددها عشرین تفسیراً، جمعها الفخر الرازی فی ذیل الآیة مورد البحث، ومن التفاسیر التی تلفت النظر وتتسق مع مضمون الآیة وسائر آیات القرآن هی التفاسیر التالیة:

۱- مع الإلتفات إلی الآیتین السابقة واللاحقة لها واللتین تشیران إلی فترة طفولته صلی الله علیه و آله وشبابه، أی الإشارة إلی أنّک أیّها النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قد تعرضت للضیاع فی تلک الفترة (مراراً) وتعرّضت حیاتک للخطر (تارةً حینما جاءت بک امّک من مرضعتک «حلیمة السعدیة» وذلک بعد انقضاء فترة رضاعک إلی مکّة لتسلّمک إلی عبدالمطّلب فضعت فی الوادی، وتارةً أخری

بين أوديـة مكّة حين كنت فى كفالة عبدالمطّلب، وثالثة حينما كنت متّجهاً مع عمّك أبى طالب فى قافلة إلى الشام، إذ ضـللت الطريق فى ليلـة حالكـة الظلام، وانقطع عنـك رفـاق طريقـك)، فهـداك اللَّه فى كـلّ هـذه الموارد وأعادك إلى أحضان جـدّك أو عمّك الحنونين.

الـدليل على هـذا التفسير هو إشارة الآية التى سـبقتها إلى مسألة يُتم النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، واللاحقة لها المشـيرة إلى فقره المادّى، «الضـلالة» و «الهداية» اللتين توسـطتا هاتين الآيتين، هما تلك الهداية والضـلالة الماديّة والجسمية، وإلّا فثبوت الهداية المعنوية بين هذين الأمرين المادّيين لا يبدو مناسباً كثيراً (تأمّل جيّداً).

٢- المراد من الضـلالة والهداية هو الإطّلاع وعدمه، على الأسرار النبوية وقوانين الإسلام ومعارف القرآن، أى أنّك لم تكن مطّلعاً أبداً على هذه الامور، بل قذف اللَّه هذا النور فى قلبك لتهدى به الناس.

الدليل على هذا الإدّعاء هو آيات أخرى من القرآن، من جملتها الآية التى تقول: «مَا

كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا».

(الشورى/ ۵۲)

بـديهى أنّ النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله وقبـل بلوغه لمقـام النبوّة والرسالـة كـان يفتقر إلى هـذا الفيض الإـلهى، أى مقام الرسالة والمعارف القرآنية رغم كونه موحّداً، فأخذ اللَّه بيده وهداه وبلغ به هذا المقام.

التعبير «نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا» فى هذه الآية يبيّن أنّ المراد من الهداية هنا هو نفس الهداية إلى الإسلام.

ونقرأ فى ثالث آية من سورة يوسف أيضاً:

«نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ».

مع أنّ هـذا التفسير قد أعطى الهداية والضـلالة مفهومهما المعنوى الذى يتفاوت وكما قلنا مع الآية السابقة واللاحقة عليهما، لكنّه يعدّ قرينة لما ذكرنا مع الأخذ بنظر الاعتبار بأنّ الْقُرآن يُفَسِّرُ بَعْضُهُ بَعْضَاً، التفاتاً إلى الآيات الأخرى.

٣- المراد من «الضـالّ» هنـا هو «الضـياع بين قومه وأهله من الناحيـة الشخصـية» وذلك كما نقرأ فى حـديث عن الإمام على بن موسـى الرضا عليه السلام أنّه قال: « «وَوَجَدَكَ ضَالّاً»، أى ضالّة فى قوم لا يعرفون فضلك فهداهم إليك» «۱».

و تفسير هذا المعنى جاء بتعبير آخر فى تفسير نور الثقلين عن عيون أخبار الرضا عليه السلام «۲».

إطلاق لفظة «الضالّ» و «الضالّة» على هذا المعنى شىء طبيعى، كما جاء فى الحديث:

«الحكمة ضالّة المؤمن» «۳».

إذن فهناك تفاسير مقبولة عديدة لهذه الآية لا تتنافى ومقام العصمة.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۵۰۶.

(۲) تفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۵۹۶.

(۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۸۰.

۱۰- الأنبياء السابقون بشكل عامّ

هناک تعبیر فی القرآن الکریم حول عامّة الأنبیاء یثیر الاستفهام حول مسألة العصمة، وذلک حینما یقول تعالی: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِیٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّی أَلْقَی الشَّیْطَانُ فِی أُمْنِیَّتِهِ فَیَنْسَخُ اللَّهُ مَا یُلْقِی الشَّیْطَانُ ثُمَّ یُحْکِمُ اللَّهُ آیَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِیمٌ حَکِیمٌ».
(الحجّ/ ۵۲)

وهنا ربّما یطرح هذا السؤال، وهو أنّه کیف یکون الأنبیاء معصومین فی حین أنّ قلوبهم- طبقاً للآیة أعلاه- معرّضة للإغواء الشیطانی؟!

اسطورتا الآیات الشیطانیة والغرانیق:

ذکروا حول هذا الموضوع قصّة عرفت ب «قصّة الغرانیق»، هذه القصّة تقول: إنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کان مشغولًا بقراءة سورة «النجم» أمام المشرکین، فوصل إلی هذه الآیة:
«أَفَرَأَیْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّی* وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَی» وفی هذه الأثناء أجری الشیطان علی لسانه هاتین الجملتین: «تِلْکَ الْغَرَانِیقُ الْعُلی وَانَّ شَفاعَتُهُنَّ لَتُرْتَجی «۱» فابتهج المشرکون لسماعهم هاتین الجملتین، وقالوا: لم یذکر «محمّد» آلهتنا بخیر إلی الآن أبداً، فسجد النبی وسجدوا معه أیضاً فی تلک الحال، بعد ذلک تفرّق مشرکو قریش فرحین، فلم یمض وقت حتّی نزل جبرائیل وأخبر النبی قائلًا: إنّی لم آتِک بهاتین الجملتین أبداً!، إنّه من القاء الشیطان!! ونزل بالآیة: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِکَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِیٍّ ...» کما حذّر النبی والمؤمنین أیضاً من هذا الشیء «۲».

مع هذا الحدیث تکون عصمة الأنبیاء حتّی فی تلقّی الوحی، معرّضة للخطر والإعتماد علیها غیر ثابت.

---

(۱) «الغرانیق» جمع «غرنوق» نوع من الطیور المائیة البیضاء أو السوداء اللون ... کما جاءت بمعانی أخری أیضاً (نقلًا عن قاموس اللغة).

(۲) ذکر معظم المفسّرون هذا الحدیث بتفاوت ضئیل وانتقدوه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۱

الجواب:

فی البدایة یجب فصل نصّ الآیة عن الروایات الموضوعة التی حیکت حولها ولننظر إلی ما تقول، ثمّ نتعرّض لنقد وتحقیق الروایات:
من المحقّق أنّ هذه الآیة وبقطع النظر عن الهوامش المصطنعة، لا تخدش عصمة الأنبیاء فحسب، بل تعدّ من الأدلّة علی عصمتهم أیضاً: إذ یقول: حینما یتمنّی الأنبیاء امنیة صالحة («الامنیة» تطلق علی کلّ أنواع الأمل والرجاء، لکنّها هنا تعنی البعد الایجابی البنّاء لتحقیق أهداف الأنبیاء، لأنّها لو لم تکن ذات بعد إیجابی لما ألقی فیها الشیطان إلقاءاته)، کان الشیطان ینقض علیهم ویلقی القاءاته لکن اللّه کان یبطلها علی الفور، ویحکم آیاته قبل أن تترک تلک الوساوس أثرها السیء علی إرادة الأنبیاء وتصرّفاتهم.
(لا یخفی أنّ «الفاء» فی (فینسخ اللّه) إشارة إلی الترتیب المتصل، أی أنّ اللّه کان ینسخ ویزیل القاءات الشیطان مباشرة)، الدلیل علی هذا الکلام هو آیات القرآن الأخری التی تقول بصراحة: «وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاکَ لَقَدْ کِدْتَ تَرْکَنُ إِلَیْهِمْ شَیْئاً قَلِیلًا». (الإسراء/ ۷۴)
نظراً إلی أنّ الآیة (۷۳): «وَإِنْ کَادُوا لَیَفْتِنُونَکَ عَنِ الَّذِی أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ لِتَفْتَرِیَ عَلَیْنَا غَیْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوکَ خَلِیلًا» من نفس سورة الإسراء والتی سبقت هذه الآیة، تبیّن أنّ الکفّار والمشرکین کانوا یسعون بوساوسهم إلی حرف النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عن الوحی السماوی، فیتّضح أنّ اللّه تعالی لم یدع لهم المجال أبداً لیفلحوا بوساوسهم تلک (تأمّل جیّداً).
کما نقرأ أیضاً: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ یُضِلُّوکَ وَمَا یُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا یَضُرُّونَکَ مِنْ شَیْءٍ».
(النساء/ ۱۱۳)

هذه کلّها تبیّن أنّ اللّه قد حفظ نبی الإسلام من کلّ أنواع الإنحراف ولم یفسح المجال أبداً بمنّه وفضله من نفوذ وساوس شیاطین الإنس والجنّ إلیه.

هـذا كلّه فيما لو حملنا «الامنيـة» على «الغايـة» أو «الخطّة» أو «الشـروع» (لأنّ جـذور هـذه الكلمـة الأصـيلة تعود إلى «التقـدير والتصوّر والفرض»).

لكن لو حملنا «الامنية» على التلاوة، كما احتمله معظم المفسّرين، بل وحتّى استشهدوا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۲

ببعض أشعار «حسّان بن ثابت» لإثبات هذا المدّعى «۱».

كما أنّ الفخر الرازى قال فى تفسيره: فالحاصل من هذا البحث أنّ الامنية إمّا القراءة وإمّا الخاطر «۲».

ففى هـذه الصورة سـيكون مفهوم الآيـة هو أنّ الأنبيـاء الإلهيين، عنـدما كانوا يقرأون آيات اللّه ومواعظه أمام الكفّار والمشـركين كان الشـياطين يلقون وساوسـهم وسـمومهم بين ثنايا كلماتهم لإغفال الناس، بالضـبط كما طبّقوا هذا الشـىء فى حقّ نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله أيضاً، أى كما نقرأ فى قوله تعالى «وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَاتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ». (فصلت/ ۲۶)

طبقـاً لهـذا المعنى يتّضـح مفهوم الآيـة التى بعـدها أيضـاً والتى تقول: «لِيَجْعَـلَ مَا يُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَـةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِـيَةِ قُلُوبُهُمْ». (الحجّ/ ۵۳)

كمـا أنّ من المتعـارف اليوم أيضـاً أنّه حينما يشـرع مصـلحو المجتمعات البشـرية، بإلقاء خطبهم البنّاءة وسط جمهور من الناس يسـعى المنحرفون الذين فى قلوبهم مرض، إلى محو آثار تلك الخطب بالقيل والقال والشعارات الفارغة والتعابير الشيطانية التافهة.

وهـذا فى الحقيقـة اختبـار لأفراد المجتمع، وهنا ينحرف المرضـى القاسـية قلوبهم عن طريق الحقّ، فى حين يزداد إيمان المؤمنين شـيئاً فشيئاً بحقّانية الأنبياء، والتمسّك بدعوتهم «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ».

لكن تفسـير الآيـة طبقاً للمعنى الأخير لا يخلو من إشـكال، لأنّ الإلقاءات الشـيطانية فى نفوس الأنبياء عليهم السـلام مهما كانت تنسـخ وتزال بالإمدادات الإلهيّة على الفور، لكنّها لا يمكنها

---

(۱) الشعر هو هذا:

تمنّى كتاب اللّه أوّل ليلةوآخرها لاقى حمام المقادر

جـاء تمنّى الكتـاب بمعنى تلاـوة الكتاب فى «تاج العروس» القاموس وكـذلك فى متن «القاموس»، ثمّ ينقل الزهرى أنّ «الامنيـة» تطلق على التلاـوة لكن القـارىء كلّمـا انتهى بآيـة رحمـة تمنّاهـا، وكلّمـا وصـل إلى آيـة منهـا ذكر للعـذاب تمنّى النجـاة منه. لكن صاحب «مقاييس اللغة» يعتقد أنّ إطلاق هذه اللفظة على التلاوة إنّما هو لأجل وجود نوع من القياس ووضع كلّ آية فى مكانها.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۳، ص ۵۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۳

أن تكون أساساً لاختبار المنافقين والـذين فى قلوبهم مرض لبداهـة عـدم تحقّق وجود خارجى لهذه الوساوس، إنّما هى القاءات عابرة فى نفوس الأنبياء.

إلّا أن يقال بأنّ المراد هو أنّه حينما يريد الأنبياء الإلهيون تجسـيد (امنياتهم وخططهم) وتنفيذها فى الخارج، يشـرع الشـياطين بتحطيمها وإلقاء السـموم والوساوس عليها، وهنا تتجسّد ساحة الإختبار الساخنة، وطبقاً لهذا البيان فالإنسجام والإرتباط بين الآيات الثلاث (الحجّ/ ۵۲ و ۵۳ و ۵۴) محفوظ وقائم.

العجيب أنّ بعض المفسّـرين ذكروا للآية الاولى احتمالات وتفاسـير مختلفة دون الحفاظ على انسـجامها مع الآيتين اللتين تليانها (تأمّل جيّداً).

على أيّة حال نسـتنتج من مجموع ما تقدم عدم وجود ما ينفى مسألة عصمة الأنبياء من الخطأ والانحراف فى الآية مورد البحث، بل هى

على العكس من ذلك تؤكّد على هذه المسألة لأنّها تقول إنّ اللّه يحفظ أنبياءه من القاءات الشيطان حين تلقّى الوحى أو التصميم على إنجاز أعمال أخرى.

والآن يجب أن نلتفت إلى الروايات والأساطير التى ذكرت فى هذا القسم، والتى دفعت بالبعض من شياطين الإنس فى الأونة الأخيرة إلى تأليف كتاب «الآيات الشيطانية»، أملًا فى إيجاد الفتنة وإلقاء السموم والشبهات حول سيرة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لنعرف ما قيمة مثل هذه الروايات والأساطير؟

نقد الروايات المرتبطة بأسطورة الغرانيق:

كما تقدّم القول إنّ الآيات السابقة لا تحتوى على ما يتنافى وعصمة الأنبياء، بل هى على العكس دليل على عصمتهم، لكن هناك قضايا عجيبة جدّاً يمكن مشاهدتها فى الروايات المذكورة فى بعض مصادر أهل السنّة من الدرجة الثانية والتى ينبغى التحقيق فيها على انفراد، هذه الروايات التى ذكرناها فى بداية البحث، منقولة تارةً عن ابن عبّاس وأخرى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۴

عن سعيد بن جبير وثالثة عن البعض من الصحابة أو التابعين «۱».

مع أنّ هذه الروايات لم تشاهد فى أى مصدر لأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام، كما أنّه لا وجود لها أيضاً فى كتب الصحاح الستّة على حدّ قول بعض علماء أهل السنّة، حتّى أنّ المراغى يقول فى تفسيره: «وقد دسّ بعض الزنادقة فى تفسير هذه الآية أحاديث مكذوبة لم ترد فى كتاب من كتب السنّة الصحيحة، وأصول الدين تكذبها، والعقل السليم يرشد إلى بطلانها ... ويجب على كلّ العلماء طرحها وراء ظهورهم، ولا يضيعوا فى تأويلها وتخريجها، ولا سيّما بعد أن نصّ الثقات من المحدّثين على وضعها وكذبها» «۲».

كما ونقرأ نفس هذا المعنى بشكل آخر فى تفسير «الجواهر» ل «الطنطاوى» حيث يقول: «هذه الأحاديث لم تذكر فى أى واحد من كتب الصحاح الستّة مثل موطأ مالك، صحيح البخارى، صحيح مسلم، جامع الترمذى، سنن ابن داود، وسنن النسائى» «۳».

ولذا لم يذكره كتاب «تيسير الوصول لجامع الأصول» الجامع للروايات التفسيرية للكتب الستّة، وذلك عند تفسيره لآيات سورة النجم.

ومن هنا فليس من اللائق الإهتمام بهذا الحديث أو حتّى التحدّث به، فضلًا عن التعليق عليه أو ردّه ... هذا الحديث كذب واضح!» «۴».

من الأدلّة التى يذكرها «الفخر الرازى» على كون هذا الحديث من الموضوعات قوله:

«وأيضاً فقد روى البخارى فى صحيحه أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجنّ، وليس فيه حديث «الغرانيق»، وروى هذا الحديث من طرق كثيرة وليس فيها حديث الغرانيق بتاتاً» «۵».

ولم يقتصر الأمر على المفسّرين الذين ذكرناهم، بل هناك أفراد آخرون أيضاً مثل

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع على طرق هذه الروايات عند أهل السنّة يمكن الرجوع إلى تفسير درّ المنثور، ج ۴، ص ۳۶۶- ۳۶۸ ذيل الآية ۵۲ من سورة الحجّ.

(۲) تفسير المراغى، ج ۱۷، ص ۱۳۰، ذيل الآيات مورد البحث.

(۳) يجب الإلتفات إلى أنّ سنن ابن ماجه هى من الصحاح الستّة لا موطأ مالك.

(۴) تفسير الجواهر، ج ۶، ص ۴۶.

(۵) تفسير الكبير، ج ۲۳، ص ۵۰.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۵

«القرطبى» فى تفسير «الجامع» وسيّد قطب فى تفسيره «فى ظلال القرآن» وغيرهما وعموم كبار مفسّرى الشيعة أيضاً، حيث اعتبروا هذه

الرواية من الخرافات والموضوعات ونسبوها إلى أعداء الإسلام.

ومع كلّ هذا فلا عجب أن يضع أعداء الإسلام خصوصاً المستشرقون الحاقدون الأموال الطائلة فى خدمة نشر هذه الرواية ويقومون بالعمل عليها بكلّ جديّة، وقد رأينا فى الأونة الأخيرة كيف أنّهم شجّعوا كاتباً شيطانياً لتأليف كتاب تحت عنوان «الآيات الشيطانية»، حيث إنّه استفاد من عبارات ركيكة جدّاً ومن خلال قصّة خيالية لم يقتصر على هتك مقدّسات الإسلام ووضعها فى معرض الشكّ والترديد فحسب، بل أهان الأنبياء العظام الذين تكنّ لهم كلّ الأديان السماوية الاحترام أيضاً (مثل إبراهيم على نبيّنا وآله وعليه السلام).

وليس عجيباً أيضاً أن يترجم النصّ الانكليزى لهذا الكتاب إلى مختلف اللغات وبسرعة خيالية، ويوزّع فى كلّ أنحاء العالم، وحينما أصدر الإمام الخمينى قدس سره فتواه التأريخية بارتداد كاتب هذا الكتاب أى «سلمان رشدى» ولزوم قتله، بادرت الدول الاستعمارية وأعداء الإسلام إلى حمايته بشكل منقطع النظير. هذه الحركة العجيبة أثبتت أنّ هناك من يقف وراء سلمان رشدى وأنّ المسألة هى أكبر من مجرّد تأليف كتاب معادٍ للإسلام، وأنّها فى الواقع خطّة مدروسة من قبل الغرب المستعمر والصهيونية لضرب الإسلام من خلال وقوفهم معه بكلّ حزم.

لكن الصمود القوى للإمام الخمينى قدس سره فى فتواه، واستمرار نهجه من قبل نوّابه، وما نالته تلك الفتوى من القبول والترحاب من قبل غالبية الشعوب المسلمة فى العالم خيّب آمال المفتعلين، بل لا زال مؤلّف هذا الكتاب وإلى لحظة تدويننا لهذا البحث يعيش متخفياً فى محلّ مجهول بالكامل، تحت رقابة مشدّدة من قبل الدول الاستعمارية، ويبدو أنّه مضطرّ للعيش هكذا إلى آخر لحظات حياته إن لم يقتل على أيدى نفس تلك الدول، فيما لو أرادت غسل ذلك العار الذى لحق بها نتيجة دفاعها عنه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۶

وبناءً على هذا فالدافع ل «وضع» هذه الرواية المزورة سيكون هو السبب فى بقائها أيضاً، وبعبارة اخرى هناك محاولة من قبل أعداء الإسلام كانت قد بدأت فى السابق، ثمّ واصلت مسيرها بعد الف سنة أو أكثر مدعومة من قبل طائفة أخرى وبصورة مكثفة.

ومن هنا فلا حاجة لنقل التبريرات التى اثيرت بشأن هذا الحديث كالتى وردت فى تفسير «روح المعانى» بشكل موسّع، أو فى تفاسير أخرى بشكل مركّز.

وكما أكد كبار علماء الإسلام فان الحديث الذى يكون أساسه خاوياً فإنّه لا يستحق أن يعطى اهمية فى تفسيره أو تسليط الأضواء عليه.

لكن هناك بعض الملاحظات ينبغى ذكرها لتوضيح المطلب ليس إلّاوهى:

۱- الصراع المرير لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله ورفض المساومة مع عبدة الأصنام والأوثان عند بدء الدعوة وإلى آخر عمره، وهو أمر لا يخفى على أحد من الأعداء والأصدقاء، وأهمّ شىء لم يساوم عليه أبداً ولم يتصالح أو يزيغ عنه هو هذا الموضوع، فكيف يمكن والحالة هذه أن يمدح أصنام المشركين بهذه الأوصاف ويذكرها بخير؟

وقد أكدت التعاليم الإسلامية أنّ الذنب الوحيد الذى لم يغفر أبداً هو الشرك وعبادة الأوثان، ولذا اعتبر مسألة ضرب أماكن عبادة الأصنام واجبة على كلّ مكلّف مهما كلفه الأمر، كما أنّ القرآن من ألفه إلى يائه شاهد على ذلك ويشكل بنفسه قرينة واضحة على وضع حديث الغرانيق الذى ذكر فيه تمجيد ومدح الأوثان والوثنية.

۲- فضلًا عن أنّ الذين وضعوا اسطورة الغرانيق لم يلتفتوا إلى هذا الموضوع وهو أنّ مروراً بسيطاً على آيات سورة النجم يبطل هذه الخرافة، ويثبت عدم وجود الإنسجام بين مدح وتمجيد الأوثان فى جملة «تلك الغرانيق العلى، وأنّ شفاعتهنّ لترتجى» وبين الآيات التى تحفّ بها، إذ قد صرّح فى بداية نفس هذه السورة بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم ينطق عن هوى النفس أبداً وأنّ كلّ ما يقوله بالنسبة لعقائد وقوانين الإسلام إنّما هو من الوحى الإلهى «وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى». (النجم/ ۳- ۴)

وتصرّح الآيات بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم ينحرف أبداً عن طريق الحقّ «مَا ضَلَّ صَاحِبُكَمْ وَمَا غَوَى».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۷

وأى ضلال وانحراف أعظم من يأتى بحديث عن الشرك والثناء على الأصنام بين آيات التوحيد؟ وأى منطق أسوء من أن يضيف كلام الشيطان (تلك الغرانيق العلى) إلى كلام اللَّه تبعاً للهوى.

والمثير هنا أنّ الآيات التى تتلوها تذمّ الأصنام والمشركين وتقول «إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ». (النجم/ ۲۳)

أى عاقل يصدّق أنّ شخصاً رزيناً حكيماً وفى مقام النبوّة وإبلاغ الوحى، يمدح الأصنام فى الجملة السابقة ويذمّها بشدّة وعنف فى جملتين بعدها؟! كيف يمكن توجيه هذا التناقض الصارخ بين الجملتين تباعاً؟

ومن هنا يجب الإعتراف بأنّ الإنسجام القائم بين آيات القرآن هو بشكل يرفض كلّ شبهة تضاف إليها من قبل المعاندين والمغرضين، ويثبت كونها جملة غريبة وإضافة غير متجانسة وأنّها ليست فى محلّها، هذا هو المصير الذى ابتلى به حديث الغرانيق بين طيّات آيات سورة النجم.

وهنا يبقى سؤال واحد، وهو البحث عن السرّ وراء كلّ هذه الشهرة، التى لاقاها موضوع تافه لا أساس له كهذا؟

جواب هذا السؤال ليس بتلك الصعوبة أيضاً، إذ إنّ الفضل فى شهرة هذا الحديث يعود بالدرجة الاولى إلى مساعى الأعداء والمرضى، الذين يظنّون أنّهم قد عثروا على اداة جديدة للطعن فى مقام عصمة نبى الإسلام واصالة القرآن، وبناءً على هذا التحليل يتّضح شهرته بين الأعداء وهو ممّا لا يخفى، امّا شهرته بين المؤرخّين الإسلاميين المسلمين فعلى حدّ قول بعض علماء الإسلام، ناتج من كون هؤلاء المؤرخّين يبحثون عن كلّ ما هو مثير وغريب وفريد من نوعه وإن كان يفتقر إلى الاصالة التأريخيّة لدرجه بين طيّات كتبهم، ليزيدوا من جاذبيتها قدر المستطاع، ونظراً لكون قصّة كأسطورة الغرانيق حادثة غريبة تنسب إلى حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فلم تخلُ منها كتبهم التأريخية، بل وحتّى الروائية منها

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۸

بغضّ النظر عن ضعف أسانيدها وتفاهة محتواها. كما أنّ البعض أيضاً قد ذكرها للنقد والتحليل.

ثمرة البحث:

يتّضح من مجموع ما مرّ أنّ آيات القرآن تشكّل دليلًا واضحاً يؤكّد على عصمة الأنبياء، فضلًا عن خلوّها عما يتنافى وتلك المنزلة الرفيعة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۳۹

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۱

أقوال وآراء حول عصمة الأنبياء عليهم السلام

مسألة تنزيه الأنبياء من الذنب والخطأ يتفق عليها أغلب المسلمين، بل وحتى أصحاب الملل والشرائع الاخرى لكن هناك اختلافات كثيرة وآراء وأقوالًا متنوّعة فيما يتعلّق بخصوصياتها، قد تناولتها كتب العقائد والتفسير، والحديث بالشرح والتفصيل.

المرحوم العلّامة الحلّى فى كتابه «نهج الحقّ وكشف الصدق» «۱» وكذلك هو وكل من شرح «تجريد العقائد» فى شرح كلام الخواجة الطوسى «ويجب فى النبى العصمة»، وكذلك «ابن أبى الحديد» فى شرح نهج البلاغة «۲»، حيث تناولوا كلّهم هذه الأقوال بشكل مطوّل، لكن المرحوم «العلّامة المجلسى» قام بشرح وترتيب هذا البحث بشكل أفضل من غيره، وهو ما سنذكر خلاصته أدناه على أمل الإحاطة بكل الأقوال المتعلقة بهذه المسألة، (إضافات وضعناها بين قوسين تخللت كلام هذا المحقّق العظيم).

يقول فى بحث عصمة الأنبياء عليهم السلام:

اعلم أنّ الاختلاف الواقع فى هذا الباب بين علماء الفريقين يرجع إلى أربعة أقسام:

أحدها، ما يقع فى باب العقائد. وثانيها، ما يقع فى التبليغ. وثالثها، ما يقع فى الأحكام والفتيا.

ورابعها، فى أفعالهم وسيرهم عليهم السلام. وأمّا الكفر والضلال فى الإعتقاد، فقد أجمعت الامّة على عصمتهم عنهما قبل النبوّة وبعدها، غير أنّ الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب.

وكلّ ذنب عندهم كفر، فلزمهم تجويز الكفر عليهم، بل يحكى عنهم أنّهم قالوا: يجوز أن

---

(۱) دلائل الصدوق، ج ۱، ص ۳۶۸.

(۲) شرح نهج البلاغة لإبن ابى الحديد، ج ۷، ص ۷- ۲۰.

يبعث اللَّه نبيّاً علم أنّه يكفر بعد نبوّته! (لكن ضعف هذا الكلام هو بدرجة لا يمكن اعتباره ضمن أقوال العلماء المتقدّمين، وكذلك تعبير بعض مفسّرى أهل السنّة فى ذيل الآية:

«وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى». (الضحى/ ۷)

وذيل الآية: «مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ». (الشورى/ ۵۲)

وذيل الآية: «وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ». (الشرح/ ۲)

والآية: «قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ». (البقرة/ ۱۳۱)

يبيّن أنّ البعض منهم يقول بجواز مسألة الكفر والشرك قبل النبوّة، لكن- وكما قلنا- لا يمكن اعتبار هذا الكلام من أقوال علماء الإسلام).

وامّا النوع الثانى وهو ما يتعلّق بالتبليغ فقد اتّفقت الامّة، بل جميع أرباب الملل والشرائع على وجوب عصمتهم عن الكذب والتحريف، فيما يتعلّق بالتبليغ عمداً أو سهواً إلّا «القاضى أبو بكر الباقلانى»، فإنّه جوّز ما كان من ذلك على سبيل النسيان وفلتات اللسان، (هذا القول نادر بدرجة بحيث لا يعتبر شيئاً فى مقابل القول بالإجماع).

أمّا النوع الثالث وهو ما يتعلّق بالفتيا فأجمعوا على أنّه لا يجوز خطأهم فيها عمداً وسهواً، إلّاشرذمة قليلة من العامّة (التى خرقت هذا الإجماع، والتى لا يعتدّ بها أيضاً) (ينقل ابن أبى الحديد هنا عن الكرامية والحشوية «۱» بأنّهم لم يقتصروا على القول بجواز الخطأ فقط فى هذا القسم، بل استدلّوا باسطورة الغرانيق الموضوعة لإثبات هذا المقصود بالنسبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله «والعياذ باللَّه»).

وامّا النوع الرابع وهو أفعالهم، فقد اختلفوا فيها على خمسة أقوال:

۱- مذهب الشيعة الإمامية وهو أنّه لا يصدر عنهم الذنوب الصغيرة أو الكبيرة ولا العمد والنسيان والخطأ فى التأويل ولا للإسهاء من اللَّه سبحانه، ولم يخالف فيه (وفى مورد واحد فقط) إلّاالشيخ الصدوق وشيخه محمّد بن الحسن بن الوليد فانّهما جوّزا الإسهاء لا السهو،

(۱) «الكراميـة» هم أتباع محمّـد بن كرام الـذى ظهر فى القرن الثالث وقال بالتجسـيم، و «الحشوية» (بفتح الشـين أوسـكونها) طائفة من المعتزلـة الـذين ذهبوا وراء ظواهر القرآن وقالوا بالتجسيم، وقال البعض إنّ هذه الفرقة الضالّة شاركت أوّلًا فى درس الحسن البصـرى، وحينما سمع الحسن منهم كلاماً يخالف الإسلام أمر بإخراجهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۳

الذى يكون من الشيطان وكذا القول فى الأئمّة الطاهرين عليهم السلام.

۲- أنّه لاـ يجوز عليهم فعـل الكبائر، ويجوز عليهم فعل الصـغائر إلّاالصـغائر التى تشـمئز منها النفوس، وكلّ ما ينسب فاعله إلى الـدناءة والضعّة، وهذا قول أكثر المعتزلة «۱».

۳- أنّه لاـ يجوز أن يـأتوا بصـغيرة ولاـ كبيرة بشـكل عمـد، لكن يجوز على سبيـل الخطأ أو السـهو، وهو قول «أبى على الجبائى» أحد متكلّمى المعتزلة ومن أقطابهم «۲».

۴- أنّه لاـ يقع منهم الـذنب إلّاسـهواً اوخطأً، لكنّهم مسؤولون عمـا يقع منهم سـهواً، وإن كان موضوعاً عن أممهم، لقوّة معرفتهم وعلو رتبتهم وكثرة دلائلهم، وأنّهم يقـدرون من التحفّظ على مـا لاـ يقـدر عليه غيرهم .. وهو قول النظام «۳» (الـذى هو من علماء المعتزلة المعروفين فى عهد بنى العبّاس) وجعفر بن مبشّر ومن تبعهما.

۵- أنّه يجوز عليهم الكبـائر والصـغائر عمـداً وسـهواً وخطأً، وهو قول «الحشويـة» (الاخبـاريين من أهـل السـنّة، لكن لا يُعلم فى الوقت الحاضر أحد منهم مؤيّد لهذا المذهب) وكثير من أصحاب الحديث من العامّة.

ثمّ يضيف المرحوم «العلّامة المجلسى» قائلًا:

ثمّ اختلفوا فى وقت عصمة الأنبياء على ثلاثة أقوال.

الأوّل: إنّهم معصومون منذ ولادتهم إلى أن يلقوا اللّه سبحانه، وهو مذهب أصحابنا الإمامية.

الثانى: إنّ عصمتهم تبدأ من حين بلوغهم، ولا يجوز عليهم الكفر والكبيرة قبل النبوّة، وهو مذهب كثير من المعتزلة.

الثالث: إنّ عصمتهم تبدأ من وقت «النبوّة»، وأمّا قبل ذلك فيجوز صدور المعصية عنهم،

(۱) «المعتزلـة» أتبـاع «واصـل بن عطـاء» الـذى هو من تلاميـذ الحسن البصـرى ثمّ أعلن عن مخالفته إيّاه واعتزله، ولـذا عرف أصـحابه بالمعتزلة ولهم مؤيّدون كثيرون بين أهل السنّة.

(۲) «جبا» كان إسماً لإحدى مناطق خوزستان.

(۳) إسـمه «إبراهيم بن سيّار» ولقّب ب «النظـام» لأنّه كـان يمتهن حرفـة ترتيب الأختـام وبيعها فى سوق البصـرة، أو لأنّه كان يتحـدّث بشكل منظّم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۴

وهو قول أكثر «الأشاعرة» ومنهم الفخر الرازى، وبه قال «أبو هذيل» «وأبو على الجبائى» من المعتزلة «۱».

والملفت للنظر أنّ المصدر الرئيس لهذه الأقوال المتفرقة يعود بالدرجة الاولى إلى عاملين كما يبدو:

۱- عـدم وضوح البعض من ظواهر آيات القرآن التى يشمّ منها للوهلـة الاولى نفى العصـمة فى بعض امورهم، فى حين أنّ التدقيق فى هـذه الآيـات، وتفسيرها على ضوء آيـات القرآن الاـخرى ينفى هـذا التوهّم بـالمرّة، ولكن نظراً لأـنّ أهـل الظـاهر والجمود لم يكلّفوا أنفسهم عناء التحقيق والتدقيق فقد ابتلوا بمثل هذه العقائد.

۲- فريق اعتبر بعض افراده الأدلّـة العقليّة دخيلـة فى هـذه المسألـة، وفسّر آيـات القرآن أفضـل من صـاحبه، كلّ اعتمـد أحـد الأقوال

المتقدّمة، نظراً لتوهّمهم بأنّ الهدف من البعثة إنّما يتحقّق بالعصمة بعد النبوّة، أو العصمة فى خصوص نطاق دائرة التبليغ، أو من الذنوب الكبيرة.

لكن الحقّ هو أنّ الأنبياء معصومون بشكل عامّ من الذنوب العمدية وغيرها، كبيرة كانت أم صغيرة، قبل «البلوغ» و «النبوّة» أم بعدها، وكذلك من الخطأ سواء أكان فى العقيدة، أو تبليغ النبوّة وأداء الرسالة، أو بيان الأحكام أو غيرها.

هذه هى عقيدة علماء الشيعة، عقيدة أصحابنا فى تنزيه الأنبياء والأئمّة عليهم السلام من كلّ ذنب ودناءة ومنقصة قبل النبوّة وبعدها، ودليلهم على ذلك روايات أئمّة الهدى عليهم السلام الثابتة قطعاً عن طريق إجماع الأصحاب، والروايات المتظافرة، حتّى صار ذلك من قبيل الضروريات فى مذهب الإمامية» (انتهى كلام العلّامة المجلسى) «۲».

ومع هذا فمن المثير للعجب ما ينسبه بعض أعداء الشيعة لهذا المذهب بما يتنفّرون منه فى كلماتهم، كقولهم مثلًا: إنّ الشيعة يجوّزون تظاهر الأنبياء بالكفر تقيّة خوفاً على حياتهم!

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۸۹- ۹۱.

(۲) المصدر السابق، ۹۱.

ثمّ إنّهم انهالوا على هذه العقيدة بكلّ عنف! «۱».

فى حين أنّه لم يقُل أى من علماء الشيعة أى شىء حول هذا الموضوع، وكم كان مناسباً لو أنّ هذا القائل ذكر ولو اسم شخص واحد، أو كتاباً واحداً على أقلّ تقدير تذكر فيه مثل هذه العقيدة، وحسب قول المرحوم «العلّامة المظفّر» إنّ هذا الكلام كذب جلى، وربّما يكون السبب وراء هذه النسبة هو جعل عقيدة الشيعة فى التقيّة محوراً لاستنباطهم الخاطىء، فمع أنّ إظهار الكفر بل وحتّى ما دونه غير جائز للأنبياء أبداً، مهما تعرّضت حياتهم المقدّسة للخطر فى هذا الطريق، وغدت قرباناً للدين والعقيدة.

لكن التقية العملية، كالتى ظهرت من نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى مسألة الهجرة، حين خروجه من مكّة سرّاً حتّى وصل المدينة فلا محذور فيها، ولا ربط لهذا بما قالوه.

الأدلّة العقليّة على عصمة الأنبياء عليهم السلام:

اشارة

ذكر أقطاب علماء الكلام أدلّة كثيرة على لزوم عصمة الأنبياء عن طريق العقل، والتى يمكن دمج البعض منها فى البعض الآخر، واستبدال الضعيفة منها بالقوية، بحيث ينتج من مجموعها، أدلّة أربعة تستحقّ القبول والذكر:

۱- العوامل الداخلية- النفسية-

بتحليل مختصر يمكن القول بسيطرة العوامل المانعة عن الذنب على العوامل الدافعة إليه فى نفوس الأنبياء.

بيان ذلك: للذنوب التى يقترفها الأنسان عوامل ومصادر شتّى لكنّها تعود بالدرجة الاولى إلى عاملين مهمين:

۱- الجهل وعدم تصور سوء عاقبة الأمر.

۲- سيطرة الشهوات والأهواء بشكل، بحيث يستسلم لها العلم والعقل مع قدرتهما على إدراك الآثار السيّئة للذنوب.

---

(۱) الشيخ روزبهان فى كتاب إبطال الباطل، طبقاً لما نقله فى كتاب دلائل الصدوق، ج ۱، ص ۳۶۹.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۶

فالشخص الذى تتلوث يداه بدماء ضحيّة بريئة مثلًا، أو يختار طريق السرقة والسقوط والرشوة، أو يبتلى بلعب القمار وشرب الخمور وتعاطى المواد المخدّرة، لا يخرج عن أحد حالين: إمّا أنّه لا يعلم بمفاسد هذه الأمور بشكل تامّ، أو أنّه عالم بها إلّاأنّه لا يستطيع الصمود أمام ثورة الشهوات والأهواء وعنفوانهما.

وبناءً على هذا فالعلم والإطّلاع لوحدهما غير كافيين للردع عمّا هو غير مرغوب فيه، بل لابدّ- إلى جانب ذلك- من التسلّط على النفس والأهواء.

إن الثمرة التى يمكن أن نجنيها من هذا البحث هى أنّ الإنسان لو كان له اطّلاع كافٍ بقباحة عمل ما، وتسلّط كامل على نفسه وميوله، فيستحيل صدور هذا العمل منه (المراد هنا بطبيعة الحال هو المحال العادى لا العقلى كاجتماع الضدّين) (تأمّل جيّداً).

ويمكن بيان هذه الحقيقة ببعض الأمثلة، وهى أنّ الكثير منّا يمتلك حالة شبيهة بالعصمة فى قبال البعض من الذنوب، (أمام البعض منها فقط) مثلًا، لا نجد بيننا من يوافق على الخروج إلى الأزقّة عارياً فى وضح النهار، ولو صادف أن قام أحدنا بمثل هذا العمل فسوف نقطع بزوال عقله ورشده، وإلّا فيستحيل الإقدام على هذا الشىء مع وجود العقل والوعى.

شرب مياه المجارى القذرة والملوّثة حرام قطعاً، فهل ياترى يوجد بيننا عاقل يُقدم على عمل كهذا؟

الطبيب الماهر المتبحّر فى أسرار علم الطب وخطورة أنواع الأمراض المعدية، لا يوافق أبداً على شرب غسالة ملابس المرضى المبتلين بالأمراض والأوبئة المعدية.

وبهذا يمكن القول باختصار: إنّ لنا حصانة ومناعة أمام مثل هذه الأعمال القبيحة، وذلك لوقوفنا عن كثب على مفاسدها، بل إنّ قوّة عقولنا ومعارفنا وإيماننا ستحطّم تلك الميول والرغبات، لو حاولت فى يوم ما إيقاعنا فى مخالب مثل هذه الأمور، إذن فلو وجد هناك من له اطّلاع كاطّلاعنا على قبح الذنوب والمعاصى، فمن المسلّم أنّه سيتجنّبها بجديّة.

وبعبارة أخرى، إنّ الدوافع نحو المعصية- أعمّ من الجهل أو غلبة الشهوات والأهواء- وقد انتهت وتلاشت فى وجود الأنبياء والأئمّة المعصومين فى ظلّ علمهم ومعرفتهم وتقواهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۴۷

ولا يخفى أنّ الأنبياء- وبفضل ارتباطهم بعالم الغيب وبحر علم البارى اللامتناهى- لهم إحاطة كافية بحجم مفاسد الذنوب، وقبح مثل هذه الأعمال وفلسفة النهى عنها، ومن جهة أخرى فنفس هذا الإرتباط الذى يكون على مستوى الشهود ومشاهدة عالم الغيب، يخلق فيهم حالة من التقوى بحيث تعدّ رادعاً قويّاً أمام دوافع تلك الأهواء والميول.

خلاصة القول هى: إنّ الوقوف على دوافع المعصية من جهة، وعلى مستوى معرفة وتقوى الأنبياء الناتج من ارتباطهم بعالم الغيب من جهة أخرى، يدعونا للتصديق بحصانتهم وابتعادهم عن كلّ أنواع المعصية.

ورد فى رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام الإشارة باختصار، مع دلالة تامّة إلى الملاحظة الأولى، حيث يقول: «قرنت الحكمة بالعصمة» «۱».

مع أنّ العصمة هنا قد جاءت بمعناها العام، أى كلّ أنواع الحصانة من المعصية وفى كلّ مراحلها، لكنّها على أيّة حال تعدّ شاهداً على مرادنا.

وجاء فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال «المعصوم هو الممتنع باللَّه من جميع المحارم، وقد قال اللَّه تبارك

وتعالى ومن يعتصم باللَّه فقد هدى إلى صراط مستقيم» «۲».

و يمكن أن يكون هذا الحديث إشارة إلى الملاحظة الثانية أو كلتيهما، كما ورد نفس هذا المعنى فى حديث هشام بن الحكم بشكل أوفى، فعن ابن أبى عمير- الذى يعدّ من كبار أصحاب الإمام الصادق عليه السلام- أنّه قال: «ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم فى طول صحبتى إيّاه شيئاً أحسن من هذا الكلام فى صفة عصمة الإمام، فانّى سألته يوماً عن الإمام أهو معصوم؟ قال نعم، قلت له: فما صفة العصمة فيه؟ وبأى شىء تُعرف؟ قال:

إنّ جميع الذنوب لها أربعة أوجه لا خامس لها: الحرص والحسد والغضب والشهوة، فهذه منتفية عنه. ثمّ أضاف قائلًا:

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) بحار الأنوار، ج ۵، ص ۱۹۴، ح ۶؛ والآية من آل عمران ۱۰۱.

لا يجوز أن يكون حريصاً على هذه الدنيا وهى تحت خاتمه، لأنّه خازن المسلمين فعلى ماذا يحرص؟

ولا يجوز أن يكون حسوداً لأنّ الإنسان إنّما يحسد من هو فوقه وليس فوقه أحد، فكيف يحسد من هو دونه.

ولا يجوز أن يغضب لشىء من أمور الدنيا، إلّاأن يكون غضبه للَّهعزّوجلّ ...

ولا يجوز أن يتّبع الشهوات ويؤثر الدنيا على الآخرة، لأنّ اللَّه عزّوجلّ حبّب إليه الآخرة، كما حبّب إلينا الدنيا فهو ينظر إلى الآخرة كما ننظر إلى الدنيا، فهل رأيت أحداً ترك وجهاً حسناً لوجه قبيح؟ وطعاماً طيّباً لطعام مرّ؟ وثوباً ليّناً لثوب خشن؟! ونعمة دائمة باقية لدنيا زائلة فانية؟» «۱».

مع أنّ «هشام بن الحكم» لم ينسب هذا الحوار إلى أئمّة أهل البيت عليهم السلام مباشرة، لكن نظراً لكونه من ألمع تلاميذ الإمام الصادق عليه السلام، وتصريحه قائلًا: «كلّ ما عندى فهو من الإمام الصادق عليه السلام»، فيبدو أنّه قد استلهم تحليله اللطيف والمنطقى هذا، والذى يمكن أن يكون أحد الأدلّة العقلية على مسألة عصمة الأنبياء والأئمّة، من إمامه الإمام الصادق عليه السلام.

۲- دليل الإعتماد

من الواضح أنّ الهدف من بعثة الأنبياء هو هداية البشرية على ضوء التعاليم الإلهيّة، هذا الهدف الذى يمكن ضمانه حيث لا يبقى هناك أدنى مجال للشكّ والترديد، يساور الناس فيما يتعلّق بأقوالهم وأفعالهم، بشكل بحيث يعتبرون كلامهم كلام اللَّه، وتعاليمهم تعاليم إلهية، حتّى يتقبّلوها قلباً وقالباً ويسلّموا لها تسليماً ويعتمدوا عليها.

ومن البديهى أنّ احتمال الكذب، وتحريف الحقائق والخطأ والإشتباه سيجد طريقه إلى كلماتهم إن لم يكونوا معصومين عن «الذنب» و «المعصية»، وبالتالى يسلب الاعتماد عليهم

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۵، ص ۱۹۲، ح ۱.

حتّى لو كانوا أناساً طيبين، لأنّ فقدان منزلة العصمة يستلزم احتمال تعلقهم فى يوم ما بالمظاهر المادية ومغرياتها، أو أن يرتكبوا الخطأ والزلل من حيث لا يشعرون وبلا سبب يذكر.

هذا الاحتمال يبعث على التشويش الفكرى لأتباعهم على الدوام، كما أنّه سيكون أساساً للشكّ والريبة، فضلًا عن بقاء مسألة «إتمام

الحجّة» ناقصة أيضاً، نظراً لوجود ذريعة بيد المخالفين على الدوام مفادها أنّ سبب عدم اتّباعهم لتعاليم النبى يكمن فى احتمال صدور الخطأ والزلل (لا سمح اللّه) منه.

خلاصة القول: إنّ رأس المال الحقيقى للنبوّة هو كسب ثقة طلّاب الحقيقة، ولا يتحقق هذا المعنى بفقدان منزلة العصمة والصيانة من الذنب والخطأ.

ويمكن القول: أنّ الناس عموماً إنّما يتّبعون العلماء الأتقياء، ويأخذون منهم أحكام دينهم ويثقون بهم، مع علمهم بعدم عصمتهم من الذنب والخطأ.

لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ أصل الدين يختلف عن فروعه وجزئياته، ويمكن إرساء أصل الدين وأساسه على الشكّ أو الظنّ، ولا يمكن قبول الوحى الإلهى مقروناً بالاحتمال والشكّ والترديد، فى حين أنّ احتمال الخطأ والإشتباه فى الفروع والجزئيات لا يؤثّر فى أساس العقيدة، إذن فلابدّ من القول هناك بالعصمة والإكتفاء بالعدالة هنا، وذلك لإمكان غضّ الطرف عن احتمال الخطأ فى هذه الجهة، دون الخطأ والإشتباه فى الوحى وإبلاغ الرسالة، حيث لا يمكن غض البصر والتسامح فى هذا المورد، كما يثار هنا سؤال آخر أيضاً وهو أنّ آخر شىء يمكن أن يستفاد من هذا الدليل هو تنزيههم من الخطأ والكذب والتحريف فى تبليغ الرسالة، لكن هذا الدليل قاصر عن شمول كافّة الذنوب والمعاصى.

لكن الإنصاف هو اشتراك معظم الذنوب باسس مشتركة، فالكذب والإتّهام والسرقة والإبتلاء بشرب الخمر ولعب القمار والسقوط الأخلاقى، نابعة من اتباع هوى النفس واتّباع الشهوات وحبّ الدنيا، فكيف يمكن ألا يكذب أبداً من يبتلى بأنواع المعاصى؟

وعلى فرض وجود مثل هذا الشخص ولو نادراً، فإنّه لن يفلح مع ذلك فى كسب ثقة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج۷ ۱۹۹

الناس، إذ سيقولون كيف يمكن الإعتماد على كلام الشخص الفلانى الخائن والظالم والمنحرف؟ لأنّ الفصل فى هذه المسائل وعلى فرض إمكانه فى الواقع مرفوض عند عامّة الناس (تأمّل جيّداً).

فكيف يمكن لشخص يخطىء فى امور الحياة اليومية أن يكون مورد اعتماد فى إبلاغ الوحى الإلهى؟ وسيقول الناس حتماً: إنّه ربّما ابتُلى عند إبلاغ الوحى بنفس تلك الإشتباهات التى يقع بها فى حياته الشخصية.

خلاصة القول أنّ مسألة تجزئة وفصل الأخطاء والذنوب مرفوضة عند السواد الأعظم من الناس، وأنّ من يرتكب ذنباً أو خطأً لا يمكن أن يكون مورد اعتماد فى تبليغ الوحى (تأمّل جيّداً).

۳- مخالفة الغاية وعدم تحقق أهداف البعثة

من المسلّم أنّ الشخص العاقل الحكيم لا يقدم أبداً على عمل يخالف هدفه وغايته، وإلّا فلا يصح أن ينعت بالحكمة والوعى، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فنحن نعلم أنّ اللّه عزّوجلّ قد أرسل أنبياءه لهداية العباد وتربيتهم، فلو لم يكونوا معصومين عن الذنب والمعصية لأضلّوا الناس بدل هدايتهم، وهذا هو الجانب المنافى للهدف من بعثة الأنبياء بالضبط.

بالإضافة إلى أنّ الدور الرئيسى فى تربية الناس، إنّما يعود للبرامج العملية للأنبياء، لأنّ كيفية تصرّف المربّين وصفاتهم وحالاتهم تعدّ النموذج الأمثل لمن يتبعهم ويتولّاهم، وإنّ الأدلّة العقليّة والخطب الحماسية والبيان الجيّد مهما كان لها دور مهم فى توعية الناس، إلّا أنّها لا تعدّ شيئاً أمام النماذج العملية، خصوصاً لو ظهر هناك تضادّ بين القول والفعل، وبين النظرية والتطبيق، فانّ حالة من الشلل

ستسرى إلى تلك البيانات والنداءات وتعدم تأثيرها!

ومن هنا ينبغى أن يكون الأنبياء عليهم السلام قدوة حسنة للناس فى كافّة أبعاد الحياة، وأن تنعكس دروسهم الدينية للناس من خلال تصرّفاتهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۱

ولو كانوا أفراداً مثقلين بالذنوب، مبتلين بالكذب والخيانة والظلم واتّباع أهوائهم لفقدوا اعتبارهم تماماً، ولاصبح الهدف من بعثتهم غير مجدٍ ولا مفيدٍ.

كيف يعقل أن يضع اللَّه هذا المنصب الخطير الذى يعدّ أسمى منصب دينى ومعنوى واجتماعى، فى عهدة شخص قد تمكنت منه الذنوب ووقع فى أسر الهوى والشهوات، ولم يسيطر على نفسه؟ هل يمكن لشخص كهذا ياترى أن يكون قائداً ربّانياً وروحياً للناس؟!

وهنا يجب الإذعان بأنّ هذا الهدف الحسّاس لا يمكن ضمان القيام به، إلّافى حالة تنزيههم عن كلّ أنواع الذنوب صغيرها وكبيرها، بل مطلق الخطأ والإشتباه.

ولذا نقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّه قال فى وصف الإمام عليه السلام:

«هو معصوم مؤيّد موفّق مسدّد قد أمن الخطايا والزلل والعثار يخصّه اللَّه بذلك ليكون حجّته على عباده وشاهده على خلقه» «۱».

۴- لا يمكن الإغراء بالجهل والتشجيع على الخطأ

بديهى أنّ اللَّه تعالى ولغرض هداية عباده لا يقدم على أدنى شىء يكون سبباً فى انحرافهم وركونهم للباطل وسلوكهم سُبل الضلال لأنّ صدور عمل كهذا من أى كان فهو قبيح فكيف بذاته تعالى؟

لو وضع اللَّه أسرار النبوّة- الشاملة للاعجاز والأدلّة العلمية- تحت تصرف غير المعصوم، أى فى خدمة من يحتمل كذبه وخطأه وارتكابه للمعاصى، فقد أوقع عباده فى الضلال، وهذا بالضبط يشبه قيام شخص معروف بانتخاب شخص مخادع منحرف وكيلًا عنه، أليس هذا العمل قبيحاً؟

كيف نحتمل صدور مثل هذا العمل من اللَّه تعالى، أن يضع المعجزات وأسرار النبوّة بيد شخص مذنب كذاب منحرف وعاصٍ؟!

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۰۳، باب النادر الجامع فى فضل الإمام وصفاته، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۲

وقد صرح القرآن بكلّ جلاء بهذا الموضوع قائلًا: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ» (أى فلا أحد منكم يقدر على منعنا من ذلك أو الدفاع عنه). (الحاقة/ ۴۴- ۴۶)

هذه الآيات تؤكّد على نفس الحقيقة التى تمّت الإشارة إليها، وهى أنّ من يمتلك الآيات والحجج الإلهيّة والمجهّز بسلاح الإعجاز القوى، فقد وعده اللَّه تعالى بقوله، لو انحرف حتّى للحظة واحدة عن المسير الإلهى، فلن يمهله اللَّه تعالى، بل سيضربه فى أخطر نقطة من بدنه أى شريان قلبه ويقضى عليه، وفيما عدا ذلك فانّ اللَّه هو السبب وراء إضلال الناس وإغرائهم بالجهل، وهذا بنفسه يعدّ دليلًا صارخاً على مسألة العصمة.

ومع أنّ مسألة الخطأ خارجة عن إرادة الإنسان فلا يمكن معاقبة أحد على الأخطاء التى يستحيل اجتنابها، ولكن بما أنّ هفوة النبى وخطأه يترك نفس الأثر الذى يتركه افتراؤه على اللَّه، أى يكون السبب وراء إضلال خلق اللَّه، إذن يمكن الاستفادة من مضمون هذه الآية أنّ النبى مصون من مثل هذا الخطأ أيضاً.

وكدليل على ذلك نقرأ هذا الحديث عن على بن موسى الرضا عليه السلام حيث قال للمأمون:

«من دين الإماميـة، لاـ يفرض اللَّه طاعـة من يعلم أنّه يضـلّهم ويغويهم، ولاـ يختـار لرسالته ولا يصـطفى من عباده من يعلم أنّه يكفر به وبعبادته، ويعبد الشيطان دونه» «۱».

و نقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«إنّ اللَّه إنّمـا أمر بطاعـة رسوله لأنّه معصوم مطهّر لا يأمر بمعصـية اللَّه وإنّما أمر بطاعـة اولى الأمر لأنّهم معصومون مطهّرون لا يأمرون بمعصية اللَّه، فهم اولو الأمر، والطاعة لهم مفروضة من اللَّه ومن رسوله، لا طاعة لأحد سواهم» «۲».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۶، ح ۳، باب عصمة الأنبياء.

(۲) من كتاب بحرالمناقب المخطوط ص ۱۰۰ طبقاً لما نقله صاحب إحقاق الحقّ، ج ۱۳، ص ۷۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۳

۵- عدم أهلية غير المعصوم لتلقّى الوحى

إنّ كلّ مأموريـة- كما نعلم تتطلّب فى نفسـها اسـتعداداً وأهلية مناسبتين لها، وأنّه يستحيل أن يقوم بأدائها على أتمّ وجه من لا أهلية ولا قابليـة له عليها، كما نعلم أيضاً أنّ أنبياء اللَّه يتلقّون كلام اللَّه عن طريق الوحى، وهو ذلك النـداء الملىء بالنور والمعنويـة، والمتضـمّن لكـلّ درجـات الإيمـان والتقوى ويبلغونه للناس. ومن البداهـة أنّ التلقّى لمثل هـذا الوحى ينبغى أن يكون منزّهاً طاهراً، بدرجـة بحيث يتمكّن من الإتّصـال بعـالم مـا وراء الطبيعـة، وذات البارى الطاهرة المنزّهـة من كلّ عيب ونقص، واسـتلام الرسالـة المشـحونة بالطهارة والتقوى ..

كيف يستطيع الملوّث بالذنوب صاحب القلب المظلم أن يجد الطريق إلى عالم النور؟

كيف يصير القلب الملىء بالشهوات والأهواء مهبطاً للوحى الإلهى ومحلًا للعلم الربّانى؟

هل يُعقل تحقّق هذا المعنى بدون وجود التجانس والسنخية بينهما؟

ثمّ أنّ وكيل كلّ شـخص إنّما يعكس وجود موكّله وصـفة من صـفاته، ولذا لا يسمح مرجع دينى كبير لنفسه أبداً بانتخاب وكلائه من بين الأفراد المشبوهين، ولو اتّفق وفعل ذلك لعابه الناس كلّهم، واعتبروا تصرّفه هذا قبيحاً، ولخرجوا على أمره أيضاً.

فهل يمكن أن ينتخب اللَّه الـذى هو مصدر القدسيّة والتقوى والطهارة، وخليفته من بين المذنبين، ويوكل هذه المسؤولية العظيمة لغير المعصوم؟

نرى أنّ القرآن وفى معرض إجابته على المشـركين حينما صـرّحوا: «قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ اللَّهِ». يقول: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ». (الأنعام/ ۱۲۴)

۶- أدلّة اخرى

ذكر بعض من العلماء العظام أدلّة أخرى فى هذا الباب لها صبغة فرعية وتعود أحياناً إلى الأدلّة المتقدّمة، من جملتها:

۱- أنّه لو صدر عن النبى ذنب لزم اجتماع الضدّين، أى صدور أمرين متضادّين، الأول

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۴

وجوب الامتثال له فى كلّ شىء من جهة، ووجوب مخالفته عند الخطأ من جهة أخرى، ونعلم باستحالة صدور أمرين متضادّين من اللّه الحكيم.

۲- لو أقدم النبى على المعصية لوجب أن يكون مردود الشهادة، لأنّ شهادة الفاسق وأخباره غير مقبولة، فكيف يمكنه والحالة هذه أن يكون شاهداً على الوحى الإلهى فى الدنيا أو على الأمم يوم القيامة؟!

۳- لو صدر من الأنبياء ذنب فهذا يعنى أنّ منزلتهم أقلّ من عصاة الأمّة، إذ إنّ مقام النبوّة فى غاية الرفعة والسمو، فارتكابهم للمعاصى، والإعراض عن أوامر ربّهم ونواهيه من أجل لذّة فانية أقبح وأشنع من عصيان هؤلاء، وهذا ما لا يقرّه عاقل.

۴- أنّهم لو كانوا يأمرون الناس بصالح الأعمال واجتناب قبيحها، ولم يلتزموا هم بذلك لدخلوا تحت قوله تعالى: «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَونَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». (البقرة/ ۴۴)

وهو غير معقول.

۵- لو صدر عن النبى ذنب صار مصداقاً للظالم (ظلم الآخرين أو ظلم نفسه) ولجاز لعنه، إذ يقول القرآن: «أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ». (هود/ ۱۸)

فكيف يمكن لعن النبى؟ وهل يتناسب هذا مع مقام نبوّته؟

۶- أنّ القرآن الكريم صرّح بأنّ الشيطان أقسم بعزّة اللّه تعالى على إغواء جميع الناس، إلّا المخلَصين: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ». (ص/ ۸۲- ۸۳)

فلو صدر من النبى ذنب لوجب أن يكون من حزب الشيطان، مع بداهة كونه من المخلَصين.

هذه الأدلّة الستّة قويّة ومتينة، وبالرغم من أنّها ترجع إلى الأدلّة الرئيسية المتقدّمة، لكنّها فروع يانعة من تلك الأصول المعطاءة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۵

أسئلة متعدّدة:

اشارة

هنالك عدّة أسئلة مطروحة فى بحث عصمة الأنبياء والأئمّة عليهم السلام نشير إلى أهمّها:

۱- هل لعصمة الأنبياء صفة «جبريّة»؟

الكثير من الأشخاص حينما يقرأون بحث عصمة الأنبياء، يتبادر إلى أذهانهم فوراً هذا السؤال وهو أنّ مقام العصمة موهبة إلهيّة مفروضة على الأنبياء والأئمّة، وكلّ من نال هذه «الموهبة» فقد حُفظ من المعصية والخطأ، ومن هنا فلن تعد معصوميتهم فضيلة وفخراً، لكونها أمراً إلهيّاً مفروضاً كما تقدّم.

وبناء على هذا فارتكاب الخطأ مع وجود مقام العصمة مستحيل، وواضح أنّه لا فضيلة فى ترك المحال، فعدم ظلمنا مثلًا للناس الذين سيأتون بعد مائة عام أو الذين عاشوا قبل مائة عام لا يعدّ لنا فضيلة وفخراً، لأنّ أداء مثل هذا العمل بالنسبة لنا محال!

الجواب:

بالرغم من أنّ هذا الإشكال لا- يتعرّض إلى عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل إلى كونها فضيلة أم لا- مع ذلك فالتمعّن فى عدّة

ملاحظات يمكن أن يزيح الستار عن الغموض المحيط بهذا السؤال:

۱- إنّ الذين يثيرون هذا الإشكال لا يلتفتون إلى جذور عصمة الأنبياء عليهم السلام، بل يتصوّرون أنّ مقام العصمة مثلًا هو كالمناعة من بعض الأمراض والتى تحصل للإنسان عن طريق بعض اللقاحات، فكلّ من يلقّح بمثل هذا اللقاح لن يبتلى بذلك المرض شاء أم أبى.

لكنّنا عرفنا فى الأبحاث السابقة أنّ مصونية المعصومين من المعاصى نابعة من مقام معرفتهم وعلمهم وتقواهم، بالضبط كاجتنابنا لقسم من الذنوب لعلمنا وإحاطتنا بسلبياتها، كعدم الخروج إلى الزقاق عراةً، وهكذا بالنسبة لمن له اطّلاع تامّ بالآثار السلبية للمواد المخدّرة ويعلم بأنّ الإدمان عليها يتسبّب فى موت تدريجى بطىء، فسوف يتجنب تعاطيها.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۶

فمن المسلّم أنّ تركه هذا يعدّ فضيلة حتّى لو كان الدافع له على تركها هو علمه بمفاسدها، وذلك لقدرته على استعمالها، إذ لا إجبار فى البين.

ولهذا السبب نسعى لرفع مستوى معرفة وتقوى الأفراد عن طريق التربية والتعليم، لنضمن ابتعادهم عن الذنوب الكبيرة والأعمال الشنيعة على أقل تقدير.

أفلا يعدّ ترك البعض لقسم من هذه الأعمال نتيجة للتربية والتعليم فضيلة؟!

وبعبارة أخرى إنّ ترك الأنبياء للذنوب محال عادى لا- عقلى، ونعلم بعدم المنافاة بين المحال العادى وبين الإختيار، وكمثال على المحال العادى هو: أن يصطحب عالم جليل معه خمراً إلى المسجد ويشربه بين صفوف الجماعة، فهذا محال عادى لا عقلى كما لا يخفى.

خلاصة القول: إنّ المستوى الرفيع للإيمان ومعرفة الأنبياء عليهم السلام والذى يعدّ بنفسه فضيلة وافتخاراً، هو السبب فى فضيلة أخرى، ألا وهى مقام العصمة (تأمّل جيّداً).

ولو قيل من أين لهم هذا الإيمان وتلك المعرفة؟، لقلنا من الألطاف الإلهيّة، إلّاأنّها لا تعطى لأىشخص اعتباطاً، بل لوجود الأهلية الكامنة فيهم، بالضبط كما يقول القرآن الكريم بالنسبة لإبراهيم الخليل إنّه لم يبلغ مقام الإمامة إلّابعد اجتيازه للإمتحانات الإلهيّة الخطيرة: «وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً». (البقرة/ ۱۲۴)

أى أنّ إبراهيم وبعد طيّه لهذه المراحل بمحض إرادته واختياره، نال تلك الموهبة الإلهيّة العظيمة.

وكما يقول تعالى بالنسبة ليوسف عليه السلام: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». (يوسف/ ۲۲)

وذلك بعد تكامله البدنى والروحى واستعداده لتلقّى الوحى.

إنّ جملة «وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ» تعدّ شاهداً قويّاً على مرادنا، إذ يقول القرآن: إنّ أعمال يوسف الإيجابية ولياقته هى التى هيّأته لتلك الموهبة الإلهيّة العظيمة، كما أنّ هناك

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۷

تعابير توضّح هذه الحقيقة بالنسبة لموسى عليه السلام حيث يقول القرآن: «وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى». «۱» (طه/ ۴۰)

ومن الواضح وجود مؤهلات وقابليات كامنة فى نفوس هؤلاء العظماء، لكن تنميتها وتقويتها ليس فيه صفة إجبارية مطلقاً، بل إنّهم قد قطعوا هذا الطريق بمحض اختيارهم وإرادتهم، وما أكثر اولئك الذين يتمتّعون بالقابليات لكنّهم مع ذلك لا يسعون لتطويرها ورفع مستواها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، فتمتّع الأنبياء عليهم السلام بمثل هذه المواهب، قد وضع بالمقابل فى اعناقهم مسؤوليات خطيرة، وبعبارة أخرى إنّ

اللّه تعالى إنّما يهب الشخص قدرة وطاقة بحيث تتناسب والمسؤولية التى يضعها على عاتقه، ثمّ يختبره فى أداء وظيفته.

۲- الجواب الآخر لهذا السؤال هو أنّه ومع فرض كون الأنبياء منزهين من ارتكاب أى ذنب وخطأ، بالعناية الإلهيّة اجبارياً لغرض كسب ثقة الخلق، وليكونوا مشعلًا ينير الطريق لهدايتهم، فلا زال الطريق فى «ترك الأولى» أى العمل الذى لا يتناسب وشأنهم مع عدم كونه معصية، مفتوحاً أمامهم بالرغم من كلّ ذلك.

ففضيلتهم تعود إلى عدم تركهم حتّى للأولى مع كونه اختيارياً بالنسبة إليهم، وتعرّض البعض من الأنبياء للخطاب والعتاب الإلهى الشديد اللهجة والإبتلاء بالحرمان فى بعض الأحيان، إنّما هو لاحتمال تركهم للأولى نادراً، وأيّة فضيلة أسمى من اجتنابهم لترك الأولى طاعة لأوامر الحقّ؟

إنّ فخر الأنبياء يكمن فى تحمّلهم للمسؤولية بحجم هذه المواهب، واجتنابهم حتّى لترك الأولى، ولو حدث أن صدر منهم ترك للأولى استثناءً فسرعان ما يبادرون إلى جبران ذلك.

---

(۱) جملة «ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى» فسّرت أحياناً بالإستعداد لتلقّى الوصيّة وأحياناً أخرى بالمعنى الزمانى أى أنّه ولغرض تلقّى الرسالة كان من المقدّر أن تأتى إلى هنا.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۸

۲- هل تنسجم العصمة مع التقيّة؟

يقال أحياناً: كيف يمكن أن يكون الأنبياء والأئمّة معصومين مع جواز التقيّة لهم، وجواز الكذب وأمثاله فى مقام التقيّة، أليست تلك ذنوباً؟ فلو جازت التقيّة لهم لاستحالت عصمتهم من الذنب والمعصية.

الجواب:

يجب الإلتفات إلى ملاحظتين دقيقتين:

۱- الشبهة الخطيرة التى راودت البعض من المغفّلين حول «التقيّة» والتى غدت مصدراً لشبهات جمّة أخرى، هى توهّمهم بأنّ «التقيّة» تعنى إبداء موقف الضعف أمام الآخرين، واسدال الستار على الحقائق، وانحصار مؤيّديها فى أتباع المذهب الشيعى فقط.

فى حين أنّ «التقيّة» بمعناها الحقيقى قانون عقلائى معروف وواضح يتّبعه كلّ العقلاء فى الوقت المناسب، وهى فى الحقيقة نوع من التكتيك لمحاربة العدو أو مواجهة الأحداث الخطيرة.

بيان ذلك: هناك أحداث فى تاريخ الجهاد الدينى والاجتماعى والسياسى، يتعرّض أتباع الحقّ ومذهبهم للخطر فيما لو قاوموا بشكل علنى، ومن هنا نرى أنّ وجه الصراع يتغيّر وتستبدل المقاومة المباشرة بغير المباشرة والعلنية بالسرّية، والهدف هو توجيه «ضربات أكثر» للعدو ب «خسائر أقل»، وبعبارة أخرى الحدّ من ضياع القوى، وهذا النوع من الصراع والعمل السرّى ليس سوى «التقيّة» ولكن بأسلوب آخر.

إنّ النشاط السرّى مقابل العدو يعتبر فى كلّ حروب العالم على طول التاريخ (خصوصاً اليوم) من أهمّ أصول المقاومة، الخطط الحربية كلّها سرّية، كلّ ملابس الجنود وأنواع العتاد والسلاح بعيدة عن أنظار العدو، وهذه كلّها صور أخرى من «التقية».

لو وقع أحد الضبّاط الكبار فى أسر العدو، واحتمل أن يستفيد العدو كثيراً من معلوماته،

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۵۹

لوجب عليه كتمان أمره وعدم إخبار العدو بالحقيقة، بل لو تمكّن من إغوائهم بعباراته لوجب ذلك، وهذه أيضاً من أوجه التقيّة.

لِمَ نـذهب بعيـداً، ففى صدر الإسـلام حين كان المسـلمون يشـكّلون الأقلّيـة، كانوا يكتمون عقائدهم حين وقوعهم فى قبضة العدو، لئلّا تذهب الطاقات سدى، فالكل قد سمع قصّة عمّار وأبيه، كما أنّ القرآن أجاز هذه المسألة فى العديد من الآيات «۱».

ومؤمن آل فرعون الذى وردت قصّته بالتفصيل فى القرآن كمثال على ذلك، حيث استخدم أسلوب التقيّة، وعبّر عنه القرآن صراحةً ب «رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ». (غافر/ ۲۸)

ولا- يجيز أى عاقل أن يكشف المجاهدون عن أنفسهم فى مثل هذه الظروف الحسّاسة وهم قلّة، لئلّا يتعرّف عليهم العدو بسهولة ويقضى عليهم.

اللطيف هو أنّ «التقيّة» قد اعتبرت بمثابة الدرع الواقى بالنسبة للمؤمن فى الروايات الإسلامية، كما ورد ذلك عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «التقيّة ترس المؤمن» «۲».

فلو أنّ أحداً لجأ إلى مكان منيع فى ساحة المعركة ليقى نفسه من ضربات العدو، هل يعدّ مرتكباً لعمل مخالف ياترى؟!

ومن هنا يتّضح أنّه كلّما ابتلى أحد بموارد التقيّة وكتم أمره وعقيدته التى يؤمن بها لمصلحة أهمّ، أو تحدّث على خلافها، فهو فضلًا عن عدم ارتكابه للذنب يكون عاملًا بالمباح أو الواجب، وشأن ذلك شأن الكذب لإصلاح ذات البين، أو لإنقاذ حياة مؤمن.

واللطيف هو أنّ القرطبى المفسّر السنّى المعروف، وفى ذيل الآية (۱۰۶) من سورة النحل حينما يصل إلى مبحث «التقيّة» يقول: «يعتقد كلّ علماء الإسلام أنّه لو أجبر أحد على التفوّه بعبارات الكفر خوفاً على حياته، فلا حرج عليه فى ذلك مع اطمئنان قلبه بالإيمان، ولا تبين منه زوجته، ولا يحكم بأحكام الكفر» وبعد تعرّضه لقول ضعيف حول

---

(۱) راجع (آل عمران/ ۲۸) و (النحل/ ۱۰۶).

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ح ۶، من الباب ۲۴ من أبواب الأمر بالمعروف ص ۴۶۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۰

الإرتداد الظاهرى لشخص كهذا يقول: «هذا كلام ينفيه الكتاب والسنّة والقرآن وحديث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله».

طبعاً الأنبياء عليهم السلام فى موقع لا يسمح لهم بالتقيّة أبداً، أى إنّهم لا يكتمون حقائق الدين بأىّ ثمن، ولا يقولون خلاف الواقع فى هذا الطريق، وإلّا لبقيت حقائق دعوتهم خفيّة، ولزال الإعتماد على كلامهم، ولفقد إخبارهم عن الوحى السماوى اعتباره، لكنّهم لو ابتلوا بمشاكل شخصية فيحتمل كتمانها من قبلهم، وقد اختفى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى غار ثور أثناء هجرته من مكّة إلى المدينة وسلك الأودية والبوادى، وسار ليلًا واختفى نهاراً لئلّا يعثر عليه العدو وتتعرّض حياته المباركة للخطر، هذه كلّها كانت تقية ولا معصية فى ذلك كلّه، كما إنّه لم يصدر منه صلى الله عليه و آله ما يخالف الحقّ.

وبهذا نكون قد وصلنا إلى خاتمة مبحث عصمة الأنبياء عليهم السلام.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۱

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۳

المنزلة العلمية للأنبياء عليهم السلام

لا- شكّ أنّ قادة المجتمعات البشرية عموماً، والقادة الإلهيين خصوصاً ينبغى لهم أن يتمتّعوا بقسط وافر من العلم والمعرفة، وفى شتّى

المجالات، وبما أنّ دائرة رسالة الأنبياء عليهم السلام تشمل بدن الإنسان وروحه، وبعبارة أخرى إنّها تسع جميع البشر فى دنياهم وآخرتهم، فلابدّ لهم من معلومات جمّة لا تشوبها شائبة الخطأ والسهو، لكى لا يقودوا الناس إلى طرق الضلال تحت عنوان نيابتهم عن اللّه، وليثق بهم عباد اللّه ولا ينحرفوا.

ولهذا السبب فقد جهزهم اللّه وقبل كلّ شىء بسلاح العلم والمعرفة، كما شهدت بذلك آيات القرآن الكريم، فالآيات أدناه دليل واضح على هذا المعنى ابتداءً بآدم وانتهاءً بالخاتم.

١- لقد وهب اللّه آدم عليه السلام علماً ومعرفة حتّى أنّ الملائكة بمقامهم العلمى وإحاطتهم بأمور العالم قد سجدوا له:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِى بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ* قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ». (البقرة/ ٣١- ٣٣)

ولغرض إكمال هذا البحث لابدّ لنا من معرفة أمور:

نفحات القرآن، ج٧، ص: ١۶۴

ما هو علم الأسماء؟

للمفسّرين كلام طويل حول ماهية علم الأسماء هذا، الذى يعدّ من أعظم المواهب الإلهيّة لآدم عليه السلام، والمنشأ لفضيلته وافتخاره ولياقته لتسلّم مقام الخلافة الإلهيّة.

فتارة قيل: إنّ المراد به هو علم اللغات، فى حين أنّ معرفة مجموعة من اللغات لا يمكن أن تكون المنشأ لفضيلة كهذه، فضلًا عن عدم تناسب هذا المعنى مع التعبير الوارد فى هذه الآيات، لأنّ التعبير ب: «غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» يبيّن عودة هذا العلم إلى أسرار السماوات والأرضين الخفيّة، التى بقيت خافية عن أنظار الملائكة.

وقالوا تارةً اخرى إنّ المراد هو أسماء حجج اللّه، خصوصاً الأئمّة المعصومين الذين كانت أرواحهم مخلوقة من قبل، وقد ورد مثل هذا التفسير فى بعض الروايات.

لكن من المسلّم أنّ مثل هذه الروايات ليست أكثر من إشارة إلى البعض من المصاديق المهمّة لهذا العنوان الكلّى، كما عليه أسلوب الروايات التفسيرية، لا أنّ «علم الأسماء» يختصّ بها.

لكن الكثير من المفسّرين قالوا: إنّ المراد من «الاسم» هنا هو «المسمّى»، أى أنّ اللّه علّم آدم كلّ العلوم المرتبطة بالأرض والسماء، وأنواع الصناعات واستخراج المعادن وغرس الأشجار وخواصها ومنافعها، (أو أنّه تعالى وضعها فى كيانه ووجوده بشكل مركّز).

وعلى هذا فقد تعرّف آدم على كلّ أسرار العالم، وهيّأ الأرضية لذرّيته للإحاطة بكلّ هذه الأسرار. فأيّة فضيلة أسمى وأرفع من التمتّع بمثل هذا العلم، وكذلك جعل القابلية على نيله فى متناول أولاده أيضاً.

ولذا نقرأ فى حديث الإمام الصادق عليه السلام حو تفسير هذه الآية قال: «الأرضين والجبال والشعاب والأودية ثمّ نظر إلى بساط تحته فقال هذا البساط ممّا علمه» «١»، (وباختصار كلّ موجودات العالم).

هذا التعبير يبيّن أنّ آدم عليه السلام كان عالماً بكلّ هذه العلوم.

---

(١) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٧۶.

وهناك كلام للمرحوم «العلّامة الطباطبائى» فى «الميزان» حاصله: «أوّلًا يستفاد من تعابير الآية أنّ هذه «الأسماء» سلسلة أمور غائبة عن

العالم السماوى والأرضى، خارج محيط الكون، ولها مفهوم عام واسع أشير إليه بلفظة «كلّها» كما أنّ الضمير «هم» بصيغة الجمع، مشعر بأنّ كلّ هذه الأسماء كانت موجودات حيّة عاقلة مستورة فى عالم الغيب»، ثمّ يضيف قائلًا: «وإذا تأمّلت هذه الجهات أعنى عموم الأسماء، وكون مسمّياتها لها حياة وعلم، وكونها غيب السموات والأرض، قضيت بانطباقها بالضرورة على ما أشير إليه فى قوله تبارك وتعالى: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ».

(الحجر/ ۲۱)

وأخيراً يقول العلّامة: «فتحصّل أنّ هؤلاء الذين عرضهم اللَّه على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند اللَّه، محجوبة بحجب الغيب، أنزل اللَّه كلّ اسم فى العالم بخيرها وبركتها، واشتقّ كلّ ما فى السموات والأرض من نورها وبهائها» «۱».

على أيّة حال فقد كان «علم الأسماء» علماً واسعاً محيطاً بكلّ الحقائق المهمّة لهذا العالم.

۲- يقول اللَّه تعالى حول موسى بن عمران عليه السلام:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ». (القصص/ ۱۴)

۳- ويقول عن داود عليه السلام:

«وَقَتَلَ دَاوُدُ (الذى كان فى ذلك الزمان فتى فى ريعان الشباب) جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». (البقرة/ ۲۵۱)

۴- ويقول عن داود وسليمان عليهما السلام:

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱ ذيل الآيات مورد البحث، يمكن أن يكون مراد العلّامة من هذا الكلام المجمل شيئاً شبيهاً بالمثل الافلاطونية أو العقول العشرة.

«وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً». (الأنبياء/ ۷۹)

۵- ويقول عن النبى لوط عليه السلام:

«وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً». (الأنبياء/ ۷۴)

۶- كما يكرّر نفس هذا المعنى فى حقّ يوسف عليه السلام إذ يقول:

«وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً». (يوسف/ ۲۲)

و لابدّ من الإلتفات هنا إلى هذه النكتة، وهى أنّ لفظة «علماً» قد وردت فى هذه الآيات بصيغة «النكرة» وذلك لبيان العظمة التى لا نعرف لها حدّاً وحدوداً.

البعض فسّر لفظة ال «حكم» فى هذه الآيات بمعنى مقام «القضاء» والبعض فسّرها بمعنى مقام «النبوّة»، وحملها البعض الآخر على معنى العلم الخاصّ الذى يساعد الإنسان على تمييز الحقّ من الباطل، وبعبارة أخرى أن المراد هو العقل والفهم والقدرة على القضاء الصحيح، والفصل بين الحقّ والباطل «۱»، لكن بالنتيجة يمكن لكلّ واحدة من هذه المعانى أن تكون شاهداً على المراد.

۷- ويقول حول السيّد المسيح عليه السلام:

«وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ». (المائدة/ ۱۱۰)

۸- ويقول حول نبى الإسلام صلى الله عليه و آله:

«وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً». (النساء/ ۱۱۳)

۹- وفى موضع آخر وبعد الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام، أى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيّوب ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس واسماعيل واليسع ويونس ولوط يقول:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ». (الأنعام/ ۸۹)

وبناءً على هذا فقد وهب اللّه ثلاثة امتيازات مهمّة لهؤلاء الأنبياء العظام الثمانية عشر،

---

(۱) راجع تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۲۲، ذيل الآية ۲۲ من سورة يوسف.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۷

لكنّها لم تكن تختصّ بهم فقط بل كانت شاملة لكلّ الأنبياء الإلهيين ببداهة الحال، وهى:

«الكتاب السماوى» و «الحكم» و «النبوّة»، طبعاً ينبغى ألّا يفهم من هذا الكلام أنّ كلّ واحد منهم كان يمتلك كتاباً مستقلًا، بل إنّ فريقاً منهم كان قد اوحى إليه كتاب، وفريقاً آخر كان حافظاً لكتب السلف.

۱۰- هناك تعبير بليغ آخر يشاهد فى آيات القرآن حول هذا الموضوع بالنسبة للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وخلفائه المعصومين، وهو تعبير «الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ» حيث يقول القرآن، وبعد تقسيمه للآيات القرآنية إلى «المحكمات» (الآيات الصريحة والواضحة) و «المتشابهات» (الآيات التى ليست كذلك):

«وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ (أى المتشابهات) إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، (ونظراً لفهمهم أسرار آيات القرآن) يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ».

(آل عمران/ ۷)

ومعلوم أنّ هناك حديثاً مفصّلًا بين المفسّرين حول تفسير هذه الآية، وأنّه هل يجب الوقوف بعد لفظ الجلالة «اللّه» وفصل جملة «وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ»، ليفهم منها أنّ الراسخين فى العلم يؤمنون إجمالًا بالآيات المتشابهة وإن لم يكن لهم إلمام كافٍ بها، أم أنّ جملة «الراسخون فى العلم» معطوفة على لفظ الجلالة «اللّه» ليفهم منها أنّ كلًا من اللّه وكذلك الراسخين فى العلم لهم اطّلاع بتأويل هذه الآيات، وقد اخترنا فى التفسير الأمثل الشقّ الثانى، وذكرنا هناك أربعة أدلّة على مدّعانا «۱».

على أيّة حال فعبارة «الراسخون فى العلم» تدلّ على أنّ لهؤلاء القادة العظام سهماً وافراً من العلم، لأنّ لفظة «الرسوخ» وعلى حدّ قول صاحب المفردات تعنى ثبات الشىء متمكّناً، وأنّ الراسخ فى العلم هو المحقّق به الذى لا تعترضه شبهة.

فنستنتج من مجموع هذه الآيات بكلّ وضوح، أنّ للأنبياء الإلهيين حصّة كبيرة من العلوم والمعارف.

---

(۱) يرجى مراجعة التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۸

توضيحان

۱- حدود علم الأنبياء عليهم السلام

لا شكّ فى ضرورة تمتّع الأنبياء عليهم السلام بمعرفة تامّة بكلّ أصول الدين وفروعه، وما يرتبط بالمعارف الإلهيّة، والأحكام، والأخلاق وأسباب سعادة الإنسان وشقائه، وطرق نجاته وهدايته، وذلك لاستلزام مهمّة إبلاغ هذه الأمور، ونيل أهداف النبوّة السامية لمثل هذه العلوم. ومن البديهى عدم إحاطتهم التامّة بهذه الأمور يحول دون تحقّق المقصود، وحسب التعبير المعروف، فهذه المسائل من القضايا التى تكون قياساتها معها.

كما يجب أن يكون لهم إلمام بالمسائل التنفيذية والامور المرتبطة بإدارة المجتمع، وتشكيل الحكومة الإلهيّة ومسائل من هذا القبيل، وذلك لأنّ للأنبياء مقام الولاية فضلًا عن جانب التربية والتعليم، ولو لم نتمكّن من تعميم حكم هذه المسألة على كلّ الأنبياء عليهم السلام، فهذا المقام ممّا يمكن إثباته لكبار الأنبياء على أقلّ تقدير، فإبراهيم كان إماماً وقائداً للناس، وكان كلّ من سليمان وداود وموسى بن عمران ويوسف متصدّياً للحكومة عمليّاً، كما أنّ نوحاً كان شبيهاً برئيس الحكومة وذلك فى ظروف خاصّة بعد مسألة الطوفان، والأوضح من الكلّ هو مقام ولاية وحكومة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى شكّل حكومة إلهية كاملة بكافّة أبعادها.

إنّ ضرورة تمتّعهم بالمعلومات الكافية لإدارة هذه الحكومات هو ممّا لا يخفى، لأنّ أى خطأ واشتباه منهم فى أمر الحكومة سيترك أثراً سلبيّاً فى مسألة دعوتهم إلى اللَّه، وعلى العكس فالقيادة الصحيحة للحكومة ستكون السبب فى نجاحهم فى هذه المهمّة.

ويمكن إثبات هذين القسمين من العلوم والمعارف- الدينية والحكومية بالدليل العقلى، باعتبار عدم ضمان الهدف من البعثة لو لم يكن للأنبياء اطّلاع عليهما.

لكن هل يلزم عقلًا أن يكون الأنبياء والأئمّة المعصومون مطّلعين على العلوم الأخرى، التى لا ترتبط بأهدافهم مباشرةً؟ مثلًا هل يجب أن يكون لهم اطّلاع بعلم الطبّ والرياضيات والأعشاب والنجوم والهيئة وسائر العلوم؟

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۶۹

بعبارة أخرى هل يلزم أن يكون لهم إلمام بكافّة العلوم على مستوى إلمام الأخصائى وما فوقه- الدكتوراه وما فوق ذلك- لا مجرّد المعلومات العامّة التى يحتاجها كلّ قائد؟

يعتقد البعض بعدم وجود أدلّة عقلية على إثبات مثل هذه العلوم الكثيرة للأنبياء، مهما تمّ الإستشهاد بالآيات والروايات كأدلّة نقلية على اتّساع دائرة علومهم فى شتّى المجالات.

وبعبارة أخرى: فعلوم الأنبياء عليهم السلام الضرورية لهم هى ما تمّت الإشارة إليها طبقاً للأدلّة العقلية، لكن عند الاستدلال بالأدلّة النقلية تتّسع مسألة علومهم بشكل أكبر ولا مانع من عدم لزوم هذه العلوم لهم عقلًا، لأنّ الأدلّة النقلية تثبت لهم هذه العلوم من باب الفضيلة والكمال، نظراً لإمكان هذه العلوم من إضفاء عظمة أكبر عليهم، ومن الإسراع فى تقبّل الناس لدعوتهم.

۲- القرآن والعلوم الأخرى للأنبياء عليهم السلام

ومن جهة أخرى فلا يمكن إنكار هذه الحقيقة وهى ارتفاع الحجب عن قلوب الأنبياء، بسبب سمو نفوسهم وتهذيبهم الكامل للنفس وتصفية قلوبهم من الشوائب، وأنّ هذه المعرفة وان لم تكن ضمن شروط النبوّة لكنّها تعتبر ضرورية فى سلّم الكمال كما لا يخفى.

وبعبارة أخرى، فان مسألة نقض الغرض شىء، ومسألة قدرة نفوس وعقول الأنبياء يمثل شيئاً آخر، ولو أنّنا عجزنا عن إثبات ما زاد عمّا له علاقة بعالم الشريعة والتربية وإدارة المجتمع الإنسانى، فبالإمكان إثباته بالطريق الثانى.

ويمكن لآيات القرأن أن تكون دليلًا حسناً على هذه المسألة أيضاً، إذ قد تمّت الإشارة فى القرآن، بالإضافة إلى مسألة الأسماء التى وهبت لآدم والتى اتّسع نطاقها بما يفوق الحدّ- كما علمنا- إلى موارد أخرى من علوم مختلف الأنبياء الإلهيين، والتى لا تبدو حسب الظاهر لازمة لمسألة التشريع وبيان أحكام الدين، لكنّها تعدّ الأساس لكمالها. لاحظ الآيات الآتية المرتبطة بهذا الموضوع.

۱- نقرأ عن داود عليه السلام: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء/ ۸۰)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۰

ال «لبوس» يعنى فى الأصل كلّ أنواع الألبسة، لكنّه استعمل هنا فى خصوص ملابس المعركة كالدرع مثلًا، ولكن بعض أرباب اللغة كابن منظور فى لسان العرب وبعض المفسّرين كالمرحوم الطبرسى فى مجمع البيان قالوا فى ذيل هذه الآية: كلّ أنواع السلاح

(الأسلحة الهجومية والدفاعية)، إذ إنّه يصدق بحقّها استعمالها للدفاع فى الحروب التى اشير إليها فى الآية وإن كانت ظاهرة فى الدرع كما هو واضح.

ذكر بعض المفسّرين أنّهم وقبل داود عليه السلام كانوا يربطون بأبدانهم صفحات حديدية رقيقة لوقاية أنفسهم من ضربات الأعداء، (وأنّ هذا العمل كان شاقّاً وصعباً للغاية، وأنّ أوّل من صنع الدرع من الحلقات الصغيرة المرتبطة ببعضها البعض هو نبى اللَّه داود الذى خطر على باله هذا الشيء بإلهام إلهى «۱».

وقد ورد نفس هذا المعنى بتعبير أشمل فى موضع آخر إذ يقول تعالى: «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً». (سبأ/ ۱۰- ۱۱)

«السابغات» جمع «سابغ» الذى يعنى الدرع الكامل العريض بالضبط، كما أنّ «إسباغ النعمة» يعنى وفورها و «إسباغ الوضوء» يعنى كثرة ماء الوضوء.

«السرد» يعنى فى الأصل غزل الأشياء الخشنة، وقد ورد فى جملة «وقدّر فى السرد» الأمر برعاية الأحجام الملائمة لحلقات الدرع وكيفية غزلها.

وبهذا تبيّن أنّ اللَّه قد ألآن له الحديد بالإضافة إلى تعليمه لفنون غزل الدرع الكامل.

هل كان الحديد يلين فى يد داود كالشمع؟ أم أنّ اللَّه قد علّمه طريقة إذابة الحديد وصناعة القضبان الحديدية الدقيقة والمتينة؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن يكون لين الحديد فى يده معجزة إلهية، أم أنّ اللَّه علّمه الأسلوب الخاصّ لإذابة الحديد، والذى لم يكن معروفاً حينذاك؟ أيّاً كان فقد علّم اللَّه داود كيفية صناعة القضبان المناسبة واستبدالها بحلقات الدرع القويّة ونسجها، وكانت نتيجة ذلك هى صناعة ثوب يسهل ارتداؤه مع مرونة حركته، طبقاً لحركات بدن الإنسان وأعضائه، لا كصفحات الحديد القويّة التى يتعذر

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۱، ص ۲۱؛ و تفسير فى ظلال القرآن، ج ۵، ص ۵۵۲.

تطويعها والتى تقيّد المقاتلين فتجعلهم وكأنّهم فى قفص.

وهنا ملاحظة لابدّ وأن تؤخذ بنظر الإعتبار وهى أنّ داود عليه السلام حينما كان يلين الحديد بيديه كان يرجّح صناعة المعدّات الدفاعية على الهجومية كالسيف مثلًا.

على أيّة حال فمع أنّ عدم الإلمام بصناعة آلية دفاعية مهمّة ومصيرية، فى حروب ذلك الزمان لم يكن بتلك الأهميّة، بحيث يحدث خللًا فى دعوة النبى الدينية، لكن اللَّه علّمه هذه الصنعة وبقيت رائجة بين الناس.

۲- نقرأ فيما يتعلّق بسليمان عليه السلام: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ». (النمل/ ۱۶)

هذا فى الواقع جزء من العلم العظيم الذى وهبه اللَّه لداود وسليمان، والذى جاء فى الآية السابقة: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً».

بديهى أنّ الإطّلاع على منطق الطير (محاورات الطيور) بأى معنىً كان ليس من شروط النبوّة، وفى نفس الوقت فالقرآن يصرّح بأنّ اللَّه تعالى كان قد وهب سليمان عليه السلام علماً كهذا، بل أشار أيضاً فى آيتين لاحقتين إلى معرفة سليمان بمنطق النمل: «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَايَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ* فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَى وَالِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ». (النمل/ ۱۸- ۱۹)

وكما نقرأ حوار سليمان مع الهدهد فى الآيات اللاحقة كذلك: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ...». (النمل/ ۲۰- ۲۸)

مع أنّ هناك أبحاثاً كثيرة تبحث فى تفسير هذه الآيات، أنّه هل لهذه الطيور كالهدهد والحشرات كالنمل ذلك المستوى من العقل والشعور، بحيث تدرك مفاهيم الكلمات

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۲

والجمل وتتحدّث بشكل منطقى؟ وهل أنّ اسلوب محاوراتها يتمّ بالألفاظ أم من خلال حركات تعكس المراد؟ (ذكرنا ذلك مفصّلًا فى التفسير الأمثل) «۱».

لكن تفسير هذه الآيات أيّاً كان فلن يؤثّر على الهدف الذى نبغيه هنا، لأنّ المراد هو وجود سلسلة من المعلومات التى تخرق العادة عند الأنبياء، وعدم وجودها عند الناس العاديين، مع عدم كونها من شروط النبوّة فى نفس الوقت.

۳- وحول يوسف عليه السلام جاء فى العديد من الآيات أنّ له علماً خارقاً للعادة فى تفسير الأحلام.

ففى أحد المواضع يبشّره أبوه يعقوب عليه السلام بأنّ اللَّه سيختارك ويعلّمك من تفسير الأحلام:

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۶)

وفى موضع آخر حينما يدور الحديث حول مجيء يوسف عليه السلام إلى قصر عزيز مصر يقول القرآن الكريم: «وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۲۱)

ويتحدّث فى موضع آخر عن تفسير يوسف عليه السلام لرؤيا السجينين، وقوله لهما: «ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي». (يوسف/ ۳۷)

وأخيراً حينما يدور الحديث عن ابتهال يوسف عليه السلام ومناجاته لخالقه بعد تصدّيه لمقام الحكومة، ولقائه بأبيه وامّه واخوته، يقول القرآن الكريم على لسان يوسف عليه السلام: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۱۰۱)

مع أنّ البعض من المفسّرين قد ذكروا احتمالًا آخر غير تفسير الأحلام فيما يتعلّق بعبارة «تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ» وقالوا: إنّ المراد هو تعليمه أسرار الكتب الإلهيّة ودقائق سنن

---

(۱) راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۳

الأنبياء عليهم السلام «۱»، لكن ومع الأخذ بنظر الإعتبار مجموع الآيات الأربع أعلاه ولفظة «التأويل» التى تتلاءم كثيراً مع تفسير الأحلام، بالإضافة إلى قرائن اخرى يكون المراد هو نفس علم تفسير الأحلام وهو مختار الكثير من المفسّرين أيضاً «۲».

ومع أنّ علم تفسير الأحلام لم يحض بتلك الأهميّة عند البعض، لكنّه يعدّ من الحقائق، وذلك للشواهد والقرائن العينية الكثيرة التى تحفّ بهذا الموضوع، كما أنّ بإمكانه كشف اللثام عن بعض الغوامض لمن له إلمام به. وقد تناولنا هذا الموضوع بالشرح والتفصيل فى التفسير الأمثل ذيل الآية السادسة سورة يوسف عليه السلام.

كما أنّ القرآن قد أيّد صحّة ذلك أيضاً وذكر لذلك مثالًا عجيباً، وبيّن أنّ مستقبل بلاد كبيرة كمصر قد تغيّر عن طريق تفسير يوسف عليه السلام للرؤيا بصورة دقيقة، كما أنّ نفس هذا التغيّر قد ترك أثره فى مستقبل يوسف عليه السلام أيضاً وأوصله إلى أرفع المناصب الحكومية فى مصر.

و لا شكّ أنّ علم تفسير الأحلام بنظر المنطق العقلى ليس بذلك الشيء الذى ترتكز عليه اسس الرسالة، لكن مع ذلك فقد وهب اللَّه قسطاً وافراً منه ليوسف عليه السلام.

۴- وحول موسى عليه السلام أيضاً يشاهد هذا المعنى بوضوح فى القرآن، حيث أن قصّة «الخضر» و «موسى» وبذلك التفصيل الرائع والبليغ، الذى جاء فى سورة الكهف (وان لم يصرّح القرآن باسم الخضر) تبيّن وجود علوم لدى الخضر كانت غائبة عن ذهن موسى، وأنّه جاء إلى «الخضر» ليتعلّم قسماً منها.

(۱) تفسیر روح المعانی ج ۱۲، ص ۱۸۶، نقل هذا التفسیر عن البعض من المفسّرین کما أنّ المفسّر الکبیرالطبرسی ذکر ذلک کأحد الأقوال فی ج ۵، ص ۲۱۰، ذیل الآیة السادسة من سورة یوسف.

(۲) تفسیر مجمع البیان ذیل الآیة ۱۰۱؛ وتفسیر روح المعانی ذیل الآیة ۲۱؛ وتفسیر القرطبی ذیل الآیة ۶؛ وتفسیر روح البیان ذیل الآیة ۶؛ وأخیراً تفسیر فی ظلال القرآن ذیل الآیة ۱۰۱ من سورة یوسف.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۴

هذه العلوم لیست اموراً مرتبطة بالشریعة وأصول الدین وفروعه، بل هی حقائق مرتبطة بتکوین الإنسان وحیاته، مثل تلک السفینة التی کانت لفریق من المستضعفین، والتی خرقها الخضر لیحول دون غصبها من قبل الملک الظالم، أو الشاب الذی قتله الخضر لأنّه سوف یکون سبباً فی انحراف أبویه المؤمنین مستقبلًا، أو الجدار الذی کاد ینقضّ حیث قام الخضر بترمیمه حفاظاً علی کنز الأیتام الموجود تحته.

فالخضر کان یسعی دائماً بأسلوبه الخاصّ لمساعدة المظلومین والمؤمنین، فی حین کان تصرّفه هذا بنظر موسی خاطئاً وغیر مطابق للموازین الشرعیة، وذلک بسبب عدم اطلاعه علی بعض الحقائق التی کانت محجوبة عنه، ولذا کان یغضب کثیراً حتّی أنّه نسی أکثر من مرّة عهده الذی أعطاه للخضر، بعدم الإعتراض علی ما یفعله قبل بیانها واعترض علیه بشدّة، ثمّ اعتذر منه بعد التفاته إلی ذلک.

هذه القصّة بکلّ نکاتها اللطیفة تؤکّد علی حقیقة أنّ موسی علیه السلام کان بصدد تعلّم مثل هذه العلوم من الخضر علیه السلام بأمر من اللَّه، فی حین أنّ هذه العلوم لم یکن لها دخل فی مسألة إبلاغ النبوّة، بل تعتبر سبباً فی تکاملها لأنّها تعنی التعمّق فی المسائل بشکل أکبر.

ولو اعتبرنا الخضر نبیّاً (نظراً لوجود الخلاف بین المفسّرین والمحدّثین حول نبوّته) فسنصل إلی هذه النتیجة أیضاً وهی أنّ هناک علوماً لدی الخضر وراء علوم الشریعة، وبدیهی أنّ اطّلاع الأنبیاء علیهم السلام علی هذه الحقائق یعنی أنّ اللَّه تعالی قد جهّزهم بعلوم کثیرة، لتکون لهم قدرة أکبر علی هدایة الخلق ورسم الطریق لنیل المطلوب، وإن کانت هذه العلوم بعیدة کلّ البعد عن الشروط القطعیة للنبوّة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۵

مصادر علم الأنبیاء علیهم السلام

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۷

مصادر علم الأنبیاء علیهم السلام

۱- یتلقّی أنبیاء اللَّه علیهم السلام حقائق علومهم بالدرجة الاولی عن طریق الوحی، الذی ینزل علیهم أحیاناً عن طریق «ملک الوحی»، کما نقرأ ذلک فی الآیة (۱۹۲- ۱۹۵) من سورة الشعراء: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِیلُ رَبِّ الْعَالَمِینَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِینُ* عَلَی قَلْبِکَ لِتَکُونَ مِنَ الْمُنذِرِینَ* بِلِسَانٍ عَرَبِیٍّ مُّبِینٍ»، أو عن طرق أخری، فهناک أنواع وطرق متعدّدة للوحی وسیأتی تفصیلها فی محلّه إن شاء اللَّه.

۲- الطریق الآخر لعلوم الأنبیاء علیهم السلام هو الإرتباط الروحی والمعنوی بعالم الغیب، فلقد جعل اللَّه تعالی حقیقة أبصارهم قویّة بدرجة أنّها اخترقت حجب عالم الغیب لتجد سبیلها إلی ما وراء ذلک، کما یقول تعالی بالنسبة لإبراهیم الخلیل علیه السلام: «وَکَذَلِکَ نُرِی إِبْرَاهِیمَ مَلَکُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِیَکُونَ مِنَ الْمُوقِنِینَ». (الأنعام/ ۷۵)

أجل فقد کانت لهم معرفة بعالم «الملکوت»، فضلًا عن معرفتهم بعالم «الملک»، وقد تلقّوا الکثیر من علومهم عن طریق المشاهدة النفسیة والباطنیة للملکوت، وبعبارة أخری فإدراکاتهم وأبصارهم هی غیر تلک الظاهریة التی عندنا، وقد توصّلوا عن طریقها إلی

حقائق كثيرة.

۳- الطريق الثالث هو السير ومشاهدة الآفاق الذى عرض للبعض من الأنبياء بأمر من اللَّه عزّوجلّ، حيث اطّلعوا عن هذا الطريق على العوالم المختلفة لهذا الكون، بالضبط كما حدث ذلك لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى مسألة المعراج، يقول القرآن:

«سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۸

بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». (الاسراء/ ۱)

كان هذا فى الواقع القسم الأوّل من المعراج، امّا القسم الثانى فهو الذى يبدأ من المسجد الأقصى باتّجاه السماوات، والذى أشير إليه فى آيات سورة النجم إذ يقول تعالى: «لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى». (النجم/ ۱۸)

وهو مضافاً إلى هذه الآيات الشريفة التى تذكر المعراج بشكل مجمل، نجد أنّ الأحاديث الإسلامية قد ذكرته بشكل تفصيلى، إذ يتبيّن من مجموعها بكلّ وضوح الحجم العظيم من المعلومات التى حصل عليها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، من ذلك السفر الليلى السماوى وهو المعراج.

وكذلك الأنوار البهيّة التى أشرقت على قلبه، فرفعت مقامه العلمى ممّا هو عليه إلى أعلى علّيين.

۴- الطريق الرابع وهو المستفاد من عدّة آيات فى القرآن بأنّ هناك حقيقة باسم «روح القدس» كان برفقة الأنبياء يؤيّدهم ويقوّيهم ويرشدهم فى مسيرهم.

وردت لفظة «روح القدس» فى القرآن المجيد أربع مرّات، مرّة فى حقّ عيسى وأخرى فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله. يقول القرآن فى حقّ السيّد المسيح عليه السلام «وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ». (البقرة/ ۸۷)

وحول تكلّم عيسى عليه السلام فى المهد يقول: «إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا». (المائدة/ ۱۱۰)

ونقرأ عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ». (النحل/ ۱۰۲)

لقد ذكر المفسّرون معنيين لكلمة «روح القدس»، أحدهما أنّه ملك الوحى جبرئيل عليه السلام.

والآخر هو القوّة الغيبية المجهولة التى ترافق الأنبياء عليهم السلام، فالآية المرتبطة بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله تناسب المعنى الأوّل، والآيات المرتبطة بالسيّد المسيح تناسب المعنى الثانى، فهو الذى أيّد المسيح عليه السلام فى تكلّمه بالمهد أو فى إحيائه للموتى.

هذا الروح المقدّس والطاهر، كان المنبع لإلهامات عظيمة للأنبياء عليهم السلام، بل وحتّى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۷۹

يستفاد من بعض تعابير الروايات أنّ روح القدس يرافق الأفراد المؤمنين أيضاً (طبقاً لسلسلة مراتب الإيمان)، وهو الذى يؤيّد الخطباء الصالحين والشعراء المؤمنين فى خطبهم وقطعهم النثرية وقصائدهم العملاقة، كما يمدّ المؤمنين الحقيقيين بالعزم على اتّخاذ التصاميم المصيرية.

ويبدو فى الكثير من الروايات أنّ روح القدس حقيقة عند الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأنّهم قد أدركوا بواسطته الكثير من الحقائق، من جملتها ما جاء فى الكثير من الروايات أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يستمدّون العون من روح القدس عند القضاء والإفتاء.

هذا التعبير ورد بحقّ «حسّان بن ثابت» حيث قال له النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لن يزال معك روح القدس ما ذببت عنّا» (سفينة البحار، مادّة كميت).

كما جاء فى حقّ الكميت شاعر أهل البيت عليهم السلام المعروف، من أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال له: «لا تزال مؤيّداً بروح

القدس» «۱»، وورد نظير هـذا المعنى فى حقّ دعبل الخزاعى أيضاً، وذلك عنـدما ألقى القصـيدة المعروفـة «مدارس آيات» فى مجلس الإمام الرضا عليه السلام، وحينما وصل إلى هذا البيت حول ظهور المهدى عليه السلام:

خروج إمام لا محالة واقع يقوم على اسم اللّه والبركات!

بكى الإمام الرضا عليه السـلام كثيراً ثمّ قال: يادعبل نطق روح القـدس على لسانك، هل تعلم من هـذا الإمام؟ قال دعبل: كلّا، لا أعلم سوى ما سـمعته من أنّ إماماً منكم سـيظهر ويملأ الأرض قسطاً وعدلًا. فأيّد الإمام الرضا عليه السلام كلامه وتحدّث بشىء من التفصيل عن ظهور المهدى، باعتباره الخليفة الثانى عشر للرسول صلى الله عليه و آله (الغدير الجزء ۲ الصفحة ۳۵۵).

وفى حـديث عن الإمام الصادق عليه السـلام نقرأ أنّ أحـد أصـحابه سأله: تسألون عن الشـىء فلا يكون عندكم علمه؟! قال الإمام عليه السلام: «ربّما كان ذلك!».

قال الراوى: كيف تصنعون؟

---

(۱) الغدير، ج ۲، ص ۲۰۲، حالات الكميت.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۰

قال الإمام عليه السلام: «تلقّانا به روح القدس؟» «۱» (بمعنى لقينا).

نقرأ فى حديث آخر: أنّ أحد أصحاب الإمام الباقر عليه السلام قال: سألته عن علم العالم (المراد به النبى والإمام المعصوم).

فقال عليه السـلام: «يا جابر إنّ فى الأنبياء والأوصياء خمسة أرواح: روح القدس، وروح الإيمان ... فبروح القدس ياجابر عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى» «۲».

كمـا ورد فى روايـة أخرى عن الإمـام البـاقر عليه السـلام أيضاً حول تفسـير الآيـة: «وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ...» أنّه عليه السلام قال: «منذ أنزل اللّه ذلك الروح على نبيّه ما صعد إلى السماء وإنّه لفينا» «۳».

هـذا التعبير يبيّن أنّ الروح الـذى يشـكّل أحـد المنـابع الرئيسـية لعلوم ومعارف النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله، والأئمّـة المعصومين عليهم السلام ليس جبرئيل، وأنّه حقيقة كامنة فى وجودهم قد انتقل من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله إليهم واحداً بعد الآخر.

۵- الطريق الخامس لمنابع علومهم هو العقل الخارق والذى أودعه اللّه عزّوجلّ عند الأنبياء وأوصيائهم المعصومين عليهم السلام، نظراً لإمكانية إدراك الكثير من الحقائق عن طريقه، عقل ومعرفة الناس العاديين يضـىء شـعاعاً خاصّاً فى حين أنّ عقول الأنبياء والأوصـياء لها امتداد واسع جدّاً، وهذا هو السبب فى كشفهم لحقائق لا يدركها الآخرون.

لذا نقرأ فى قصّة ليلة المبيت (الليلة التى هاجر فيها النبى سرّاً من مكّة إلى المدينة وترك عليّاً عليه السـلام فى فراشه) أنّه: حينما اقتحم أشراف قريش المنزل عند الفجر، ووجدوا عليّاً عليه السلام فى فراش النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، صاحوا: أين محمّد؟

قال عليه السـلام: أجعلتمونى عليه رقيباً؟ ألسـتم قلتم نخرجه من بلادنا؟ فقـد خرج عنكم، وهنا قال «سـراقة بن مالك المخزومى»: الآن حيث لا يوجد محمّد صلى الله عليه و آله فلا تتركوا عليّاً عليه السلام

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۵، كتاب الإمامة، ص ۵۶، ح ۱۹، كما ورد نفس هذا المضمون فى، ح ۱۸ و ۲۰ و ۲۱ و ۲۲ و ۲۳ أيضاً.

(۲) المصدر السابق، ص ۵۵، ح ۱۵، كما ورد نفس هذا المعنى بتفاوت ضئيل فى الأحاديث ۱۴ و ۲۵ و ۲۶.

(۳) المصدر السابق، ص ۶۱، ح ۳۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۱

وأريحوا العالم من وجوده، قال أبو لهب: كفّوا عنه، فهو مخدوع من محمّد وقد أفدى نفسه له.

حينئذ التفت على عليه السلام إلى أبى جهل وقال: «ياأبا جهل بل اللّه قد أعطانى من العقل ما لو قسّم على جميع حمقاء الدنيا ومجانينها لصاروا به عقلاء، ومن القوّة ما لو قسّم على جميع ضعفاء الدنيا لصاروا به أقوياء، ومن الشجاعة ما لو قسّم على جميع جبناء الدنيا لصاروا به شجعاناً، ومن الحلم ما لو قسّم على جميع سفهاء الدنيا لصاروا به حلماء» «۱».

فحينما يتمتّع على عليه السلام بهذه المرتبة من العقل والمعرفة فمن المسلّم أن يتمتّع النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بمثل هذه الموهبة العظيمة بطريق أولى.

كما أنّ حياة الأنبياء تبيّن أنّ لهم من العقل والمعرفة ما يخرق العادة، وهذا بنفسه هو أحد المنابع المهمّة لعلومهم ومعارفهم.

۶- الطريق السادس والمصدر الأخير هو العلوم التى ورثوها خلفاً عن سلف، ولدينا أدلّة كثيرة على أنّ الأنبياء عليهم السلام قد نقلوا علومهم ومعارفهم إلى الأنبياء الآخرين أو إلى أوصيائهم وأورثوها إيّاهم.

قال فريق من المفسّرين فى تفسير الآية: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ». (النمل/ ۱۶)

إنّ «الإرث» هنا يعنى إرث علم ومعرفة ذلك النبى، أو أنّه يعنى مطلق التوارث الشامل للعلم والمعرفة أيضاً.

كما أنّ بعض المفسّرين اعتبر توارث العلم فى قصّة زكريا عند تفسير الآية ۶ من سورة مريم: «يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ» داخلًا فى المفهوم الجامع للآية «۲».

كما نقرأ فى العديد من الروايات: أنّ العلوم التى وهبها اللّه لآدم (علم الأسماء) لم تغب عن الوجود، بل ورثها أولاده المنتجبون!

من جملتها ما نقرأه فى رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: «إنّ العلم الذى نزل مع آدم لم يرفع

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۸۳.

(۲) من جملتهم الآلوسى فى تفسير روح المعانى؛ والسيّد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن.

والعلم يتوارث، وكان على عالم هذه الامّة، وأنّه لم يهلك منّا عالم قطّ إلّاخلّفه من أهله من علم علمه أو ما شاء اللّه» «۱».

وفى حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام نقرأ أنّه قال: «أما إنّ محمّداً صلى الله عليه و آله ورث علم من كان قبله من الأنبياء والمرسلين» «۲».

كانت هذه المصادر الستّة بمجموعها السبب وراء اطّلاع الأنبياء الإلهيين، ليس فقط على المسائل المرتبطة بمعارف الدين وأحكام الشريعة، بل وكذلك على العلوم والمعارف الأخرى الأعمّ من كونها ذات تأثير مباشر فى أداء مهمّة الرسالة، أو غير مباشر فى تكميل أهداف النبوّة (تأمّل جيّداً).

---

(۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۲۲۲، (باب أنّ الأئمّة عليهم السلام ورثة العلم) ح ۲، كما ورد نفس هذا المعنى فى ح ۴ و ۵ و ۸ من نفس ذلك الباب، وبنفس هذا المنوال الحديث المتظافر المنقول عن أئمّة أهل البيت بأسانيد مختلفة.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۴ (باب أنّ الأئمّة ورثوا علم النبى)، ح ۲.

الأنبياء عليهم السلام وعلم الغيب

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۵

تمهيد:

لفظة «الغيب» تقابل «الشهود»، والشهود يطلق على الموارد التى يكون فيها الشيء قابلًا للإحساس والمشاهدة، وبهذا فالغيب يطلق على كلّ الامور الخافية عن شعور الإنسان، ولذا ورد فى البعض من الآيات القرآنية تعبير «الإيمان بالغيب» عند التطرّق للإيمان باللّه واليوم الآخر: «الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ». (البقرة/ ۳)

وفى موضع آخر يصف القرآن المتّقين: «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ». (الأنبياء/ ۴۹)

بل وحتّى يمكن أن يعدّ الشيء واضحاً محسوساً لفرد وغير محسوس لآخر وذلك لعدم حضوره فى ذلك المكان حيث يطلق «الغيب» على ذلك أيضاً، كما نقرأ فى قصّة يوسف عليه السلام أنّ امرأة عزيز مصر حينما اعترفت بطهارة يوسف فى غيابه أضافت قائلة: «ذَلِكَ لِيَعْلَمَ (يوسف) أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ». (يوسف/ ۵۲)

بعد هذا يدور الكلام حول الأنبياء الإلهيين وهل أنّهم مطّلعون على أسرار الغيب والامور الخافية عن حواس الإنسان (الشاملة للمحسوس غير الحاضر، أو غير المحسوس أصلًا) أم أنّ علم الغيب يختصّ بذاته تعالى، وأنّه لا سبيل لسواه إليه أبداً؟

تبدو آيات القرآن وللوهلة الاولى وكأنّها على قسمين متفاوتين: القسم الأوّل يعتبر علم الغيب خاصّاً به تعالى، والقسم الآخر يقول بإمكانه لغيره أيضاً، ولغرض الإجابة على السؤال أعلاه لابدّ من مراجعة هذه الآيات أوّلًا، ثمّ التطرّق لكيفية الجمع بينها.

أمّا بالنسبة للقسم الأوّل فالآيات الآتية ملفتة للنظر:

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۶

۱- «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ». (الأنعام/ ۵۹)

۲- «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ». (يونس/ ۲۰)

۳- «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ». (النمل/ ۶۵)

۴- «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (الأنعام/ ۵۰)

۵- «وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ». (الأعراف/ ۱۸۸)

۶- «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». (الأنعام/ ۷۳)

جمع الآيات و تفسيرها

اعتبر علم الغيب فى هذا القسم من الآيات التى وردت بتعابير شتّى خاصّاً باللّه تعالى وأنّه لا سبيل لغيره إليه.

قال تعالى فى الآية الاولى: «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ».

إنّ تقديم ظرف المكان (عنده) فى أوّل الآية دليل على الإنحصار، وكذا ذيل الآية الذى يصرّح قائلًا: لا يعلمها إلّاهو.

المفاتح جمع «مِفْتَح» (على وزن مِنْجل) بمعنى المفتاح، وجمع «مَفْتَح» (على وزن دفتر) بمعنى الخزانة ومحلّ حفظ الأشياء «۱»، وقد ذكر المفسّرون كلا المعنيين للآية، إذ قالوا تارةً: إنّ كلّ خزائن الغيب عند اللّه، واخرى كلّ مفاتيح الغيب، لكن نتيجة كليهما واحدة وإن اختلفت العبارات.

وقد اعتبرها بعض المفسّرين، واستناداً إلى ما جاء فى صحيح البخارى فى تفسير الآية، إشارة إلى الامور الخمسة الواردة فى آخر سورة لقمان، لكن لايخفى أنّ مفهوم الآية أوسع من ذلك بكثير، بحيث يشمل كل خزائن الغيب ومفاتيحه.

ويبدو أنّ ما جاء فى الرواية حول آخر سورة لقمان كان بياناً لمصاديق جليّة له، ولذا أشار فى ذيل الآية مورد البحث إلى كلّ الأوراق

الساقطة من الأشجار، والحبوب فى باطن

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۳، ص ۸، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۷

الأرض، وكلّ رطب ويابس فى عالم الوجود، واعتبرها ثابتة فى اللوح المحفوظ، لوح علم البارى تعالى.

وفى الآية الثانية كان الخطاب موجّهاً إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ».

وكان هذا فى معرض الجواب عن سؤال المشركين الذين يتحججون على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بإظهار المعجزات (المعجزات التى كانوا يقترحونها هم بأنفسهم من باب الإصرار والعناد للتذرّع بها متى ما مشاءوا)، وبناءً على هذا فالقرآن يقول للنبى صلى الله عليه و آله: تخلى عن مسؤولية مثل هذه الامور، إنّها من أسرار الغيب التى لا يعلمها إلّااللّه، ومتى ما شاء فسيصدر أمره، فلا تستسلم أبداً لرغبات المتذرّعين الحمقى

ونفس هذا المعنى جاء فى ثالث آية وبتعبير آخر، حيث إنّ اللّه تعالى يعلّم نبيّه صلى الله عليه و آله ماذا يقول لأهل الحجج الذين يصرّون على السؤال عن موعد يوم القيامة، فيأمره أن يقول لهم: إنّ هذا من أسرار الغيب وأنّه لا أحد فى السماوات والأرض يعلم الغيب، وموعد يوم القيامة ومتى يكون البعث؟: «قُلْ لَايَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

صحيح أنّ مورد نزول هذه الآية هو يوم القيامة، لكن مفهومها أوسع بل شامل لكلّ الغيوب.

وفى رابع آية يأمر اللّه نبيّه بصراحة: «قُلْ لَاأَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ... إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۸

هذا الكلام أيضاً كان ردّاً على المشركين المعاندين، الذين يطلبون منه كلّ يوم معجزة ثمّ لم يقتنعوا حتّى بمشاهدتها، كما كانوا يطلبون منه أن يطلعهم على أسرار الغيب.

واعلم جيّداً أنّ جملة «إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَىَّ» الواردة فى ذيل الآية هى إحدى المفاتيح لحلّ غوامض علم الأنبياء عليهم السلام، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل ان شاء اللّه.

كما ورد نظير هذا المعنى وبتفاوت ضئيل فى الآية: «وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ». (هود/ ۳۱)

هذا التفاوت هو أنّ الاولى كانت على لسان نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والثانية على لسان نوح عليه السلام.

و نلاحظ فى الآية الخامسة تعبيراً جديداً حول هذا الموضوع، حيث يؤمر النبى بنفى علم الغيب عن نفسه باستدلال لطيف، إذ يأمره تعالى: «قُلْ لَاأَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ».

مع أنّ هذه الآية قد جاءت بعد الآية التى تتحدّث عن موعد يوم القيامة، وانحصار علمه باللّه تعالى، لكن مفهومها واستدلالها أوسع كثيراً.

ومن البديهى أنّ الكثير من المنافع التى تفوت الإنسان أو الأضرار التى تلحق به ناشئة من عدم وقوفه على عاقبة الامور وأسرار الغيب، ولو كان له اطّلاع عليها لتجنّب شرّها ولجلب لنفسه خيرها، فعجزه عن ذلك دليل على عدم اطّلاعه على أسرار الغيب.

فى سادس آية يعتبر علم الغيب إحدى الصفات الخاصّة باللّه تعالى حيث يقول: «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».

هذا التعبير الذى ورد فى عدّة آيات من القرآن «۱» باعتباره إحدى الصفات البارزة للّه

---

(۱) الأنعام، ۷۳؛ التوبة، ۹۴ و ۱۰۵؛ الرعد، ۹؛ المؤمنون، ۹۲؛ السجدة، ۶؛ الزمر، ۴۶؛ الحشر، ۲۲؛ الجمعة، ۸؛ التغابن، ۱۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۸۹

تعالى، يبيّن أنّ اللّه وحده هو المحيط بغيب وشهود الكون، حيث إنّها ذكرت كصفة خاصّة وفى مقام الحصر، فيستفاد منها أنّ غيره تعالى حتّى الأنبياء لم يكونوا مصاديق ل «عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ».

ومع أنّ المفسّرين قد ذكروا عدّة احتمالات لتفسير هذه الآية، إذ فسّرها بعضهم ب «عالم السِّرِّ والعَلانِيةِ»، والبعض الآخر ب «ما كان وما يكون»، وثالث ب «العالم بالدنيا والآخرة»، ورابع ب «العالم بما هو ظاهر لخلقه وما هو خفى عنهم» «۱»، لكن من الواضح أنّ كلّ هذه قد وردت حول معنى الآية بصيغة الجمع، لأنّ كلمتى «الغيب» و «الشهادة» اللتين تعنيان هنا العموم، والمذكورتين ب (الف ولام الجنس)، شاملة لكلّ الغيوب والشهود الأعمّ من السابقة واللاحقة، الدنيا والآخرة، السرّ وأخفى، السماوات والأرض، الماديات والمجردات.

ومع أنّ هذا التعبير فى الآيات العشر المشار إليها، قد ذكر فى كلّ مناسبة لغرض معيّن، وأنّ القرآن استنتج من كلّ مورد نتيجة، لكن مفهومه فى كلّها واحد، وهو الإحاطة العلمية للّه بأسرار الغيب والشهادة الخاصّة بذاته المقدّسة.

النتيجة:

يمكن الإستنتاج بوضوح من مجموع العبارات الستّ أعلاه والتى تكرّر بعضها فى القرآن أنّ علم الغيب والإحاطة بالأسرار الغامضة خاصّ بذاته تعالى.

والآن نذهب وراء القسم الثانى من الآيات والتى تعطى الأنبياء عليهم السلام سهماً من علم الغيب، إذ ينبغى التحقيق فيها جيّداً ليتّضح الدليل على عدم تضادّها مع آيات القسم الأوّل

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۹، ص ۶۵۲۴، ذيل الآية ۲۲ من سورة الحشر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۰

المخفية بين ثنايا نفس هذه الآيات:

۱- «عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً* إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً* لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً». (الجنّ/ ۲۶- ۲۸)

۲- «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

(آل عمران/ ۱۷۹)

۳- «وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ». (آل عمران/ ۴۹)

جمع الآيات وتفسيرها

وصف اللّه فى أوّل آية بأنّه: «عَالِمُ الْغَيْبِ» المطلق، أى المطلع على كلّ الأسرار الخفيّة، يقول تعالى: «عَالِمُ الْغَيْبِ» ثمّ يستثنى قائلًا: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ».

أى أنّ اللّه يطلع مثل هؤلاء الرسل على ما شاء من أسرار الغيب، وبناءً على هذا فهم بأنفسهم لا يعلمون شيئاً عن الغيب، لكنّهم يطّلعون عليه بتعليم إلهى.

ثمّ يضيف: «فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (ليحفظه من كلّ انحراف)».

هذا التعبير دليل على مقام عصمة الأنبياء، وكذلك تأكيد على علمهم بأسرار الغيب.

هذا طبعاً فى حالة كون «رَصَداً» بمعنى «المراقب» أو «المراقبين» من الملائكة الإلهيين، لكن هناك تفاسير اخرى أيضاً لهذه الجملة،

من جملتها أنّ المراد ب «رصداً» هو الطرق التى رسمها للماضين، أو الذين سيأتون فى المستقبل و (جملة «مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ» إشارة إلى الحوادث السابقة و «وَمِنْ خَلْفِهِ» إشارة إلى الحوادث اللاحقة).

وقيل أحياناً إنّه إشارة إلى الحفظة من الملائكة الذين يحفظون الأنبياء من شرّ الأعداء «۱».

---

(۱) يجب ألّا يفوتنا أنّ «الرصد» يعنى فى الأصل المراقب الذى يكمن فى موضع ليراقب الأحداث عن كثب أى الإستعداد للترقّب وربّما كان إطلاق هذه اللفظة على الطريق لنفس هذا السبب، وإلّا فأصلها هو ما قيل أعلاه طبقاً لقول صاحب مقاييس اللغة؛ والراغب فى المفردات.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۱

لكن على أيّة حال فلا شكّ فى دلالة الآية على اطّلاع الأنبياء على أسرار الغيب عن طريق التلقين الإلهى.

أمّا فيما يتعلّق بجملة «لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا ...»، التى جاءت بعد هذه الآية، وكيفية ارتباطها بالآية التى قبلها، فللمفسّرين احتمالات كثيرة معظمها على خلاف ظاهر الآية، وتؤدّى إلى انعدام الإنسجام بين الضمائر، بل وحتّى بين الجمل فى الآية.

والذى يبدو أقرب إلى الصواب هو أنّ الضمائر فى «لِيَعْلَمَ» و «أَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ» و «أَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً» عائدة كلّها إلى لفظ الجلالة «اللَّه»، وأنّ الضمير فى «أَبْلَغُوا» إمّا إشارة إلى الأنبياء أو إلى الملائكة الإلهيين المأمورين بإبلاغ الوحى، وبناءً على هذا فمفهوم الآية بمجموعها هو: «إنّ الهدف من تعليم أسرار الغيب أو مراقبة الملائكة لكى يعلم اللَّه أنّ رسله قد أبلغوا رسالات ربّهم، وأنّه تعالى قد أحاط بما لديهم وأحصى كلّ شىء عدداً».

طبعاً ليس المراد من جملة «لِيَعْلَمَ» أنّه لم يكن يعلم شيئاً ثمّ علم، بل المراد هو التحقّق العينى لعلم اللَّه والذى يُعبَّر عنه بالعلم الفعلى، أى أنّ الهدف كان حصول علم اللَّه حول إبلاغ الرسالة وتجسّده خارجاً.

فالنتيجة هى أنّ علم الأنبياء عليهم السلام بأسرار الغيب عن طريق اللَّه تعالى أو الملائكة، يكون السبب وراء إكمال إبلاغ الرسالة وتحكيم اسس النبوّة (تأمّل جيّداً).

والآية الثانية وبعد نفيها لاطّلاع عامّة الناس على الغيب استثنت الأنبياء عليهم السلام، يقول تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِى مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ».

مع أنّه لم تبد هناك إشارة صريحة فى هذه الآية إلى مسألة اطّلاع الأنبياء عليهم السلام على أسرار الغيب للوهلة الاولى، لكن نظراً لكون جملة «ولكِنَّ اللَّهَ ...» مشعرة بالإستدراك والإستثناء، فسيكون مفهوم الآية هو أنّه ينتخب فريقاً من الرسل ويعلّمهم من أسرار الغيب «۱».

---

(۱) جمهور المفسّرين اتّخذوا هذا المعنى فى تفسير الآية، لكن البعض ذكر احتمالات واهية لتلك الآية لا علاقة لها بمسألة اطّلاع الأنبياء على علم الغيب، وسبب النزول الذى ورد فى البعض من التفاسير مثل روح المعانى شاهد على ذلك التفسير المشهور أيضاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۲

صحيح أنّ بداية الآية إشارة إلى الحوادث التى ميّزت صفوف المنافقين عن فريق المؤمنين، وفضحت ما يكنّونه فى قلوبهم، لكن من الواضح أنّ شأن النزول هذا لا يحدّد المفهوم الكلّى للآية، لأنّ الكلام إنّما هو عن عدم اطّلاع عامّة الناس على الغيب، واطّلاع الأنبياء على ذلك التعليم الإلهى.

كما ويستفاد من هذه الجملة أنّ الإطّلاع على الغيب مقام رفيع يمنح للأنبياء الإلهيين فقط، وهو فى الواقع مكمّل لبرامجهم وسبب لتحقّق أهدافهم (تأمّل جيّداً).

وهنا يرد سؤالان:

۱- إنّ هذه المرتبة لا تنحصر بالأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام فحسب، بل أن بعض الصلحاء ذوى القلوب النورانية الذين بلغوا درجات سامية من الشهود، مطّلعون على زاوية من أسرار الغيب، فكيف يتلاءم هذا الشيء مع النفى المطلق لاطّلاع عامّة الناس على أسرار الغيب الواردةِ فى الآية الآنفة الذكر؟

الجواب:

نظراً لكون هذا الإطّلاع محدوداً غير ذى شأن قياساً باطّلاع الأنبياء عليهم السلام، فلم يؤخذ فى الآية بنظر الإعتبار، وبعبارة اخرى أنّ المراد هو نفى المعرفة الواسعة عن أسرار الغيب، وهو ما يصدق فى حقّ غير الأنبياء عليهم السلام.

كما يحتمل أيضاً أن يكون لهاتين الآيتين مفهوم واسع بحيث يشمل كلًا من الأنبياء وكذلك الملائكة وأصحاب الكشوف والشهود، الذين بلغوا مقاماً عالياً عن طريق المجاهدات النفسية والرياضات المشروعة وإرشادات المعصومين، لأنّهم إنّما يحصلون على معارفهم عن طريق الإرتباط بالأنبياء والأئمّة أو الملائكة، وبناءً على هذا فانّ اللّه يضع

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۳

علم غيبه عند أنبيائه فقط ثمّ يستعين الآخرون بهم، أى بالضبط مثلما أنّ «مريم» مثلًا، أو امرأة إبراهيم «سارة» اطّلعتا عن طريق الملائكة الإلهيين على البعض من أسرار الغيب فيما يتعلّق بولادة عيسى أو إسحاق ويعقوب عليهم السلام.

كما ويحتمل أيضاً كون العلوم العينية على ثلاثة أقسام: قسم منها خاصّ بذاته تعالى، لم يطّلع عليها سواه حتّى الأنبياء المرسلين والملائكة المقرّبين (كالعلم بزمان قيام الساعة وأمثالها).

الثانى: العلوم الغيبية الخاصّة التى يودعها اللّه عند المعصومين (الأنبياء والأئمّة والملائكة المقرّبين)، والقسم الثالث: العلوم التى يودعها عند فريق من الأتقياء الذين يبلغون مقام الشهود، وتزال الحجب عن قلوبهم كما ورد عن بعض أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأصحاب أئمّة الهدى عليهم السلام، مثل سلمان وأبى ذرّ وميثم التمّار ورشيد الهجرى وأمثالهم، أو ما نقل فى عصرنا عن فريق من العلماء المتقدّمين أو المتأخّرين، وبالإمكان إطلاق اسم «خاصّ الخاصّ» على القسم الأوّل و «الخاصّ» على الثانى و «العام» على الثالث.

ويمكن أن تكون العبارات من قبيل «فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ» إشارة إلى نفس هذا المعنى، لأنّ لفظة «غيبه» لها دلالة على الأسرار الغيبية الخاصّة.

۲- إنّه فضلًا عمّا قيل عن الصلحاء من أرباب الكشف والشهود، فلقد سمعنا مراراً وتكراراً أنّ فريقاً من الكهنة فى العصر الجاهلى، أو المرتاضين فى عصرنا، الذين لم يكونوا من أهل الإيمان والتقوى، يخبرون أحياناً عن أسرار الغيب أو الامور الخافية عن أنظار الناس، ويتوقّعون اموراً تحدث بعد ذلك، أليس هذا منافياً لما قيل آنفاً حول تفسير الآيات؟

لكن الإلتفات إلى نكتة واحدة يكشف الإجابة عن هذا السؤال، وهى إنّ توقّعات المرتاضين وإخبارات الكهنة الغيبية لم تكن أبداً إخبارات يمكن الإعتماد عليها، فضلًا عن عدم خلوّها من الإشتباه بأى حال من الأحوال، فقد تصدق أحياناً وقد تكون كاذبة أحياناً اخرى، وهناك أمثلة كثيرة جدّاً عليها، وبناءً على هذا فلا يمكن أبداً اعتبار هذه الأخبار والمعلومات من علم الغيب، بل إنّهم يعترفون بأنفسهم أحياناً بأنّ هذه الأخبار هى تلقين

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۴

الشياطين الذين لا يصدقون القول معهم أبداً!

وبعبارة اخرى أنّ هناك أشباحاً تتراءى فى افق أذهانهم بسبب رياضتهم، فيفسّرون هذه الأشباح من عندهم، لتقع تارةً صحيحة واخرى خاطئة، مثل الأحلام التى يراها الناس، والتى تكون تفاسيرهم لها صحيحة أحياناً واخرى غير صحيحة.

هذه المعلومات والمواضيع الخاطئة والتى يخالطها الشكّ لا يمكنها أبداً أن تعدّ من علم الغيب، أو أن تخدش فى تفسير الآية.

اما فی الآیـة الثالثـة فیـدور الکلام عن معرفـة المسـیح علیه السـلام بأسـرار الغیب، وإظهاره لها صـراحةً کمعجزة، وقوله لمن شکّ فی دعوته: «... أَنِّی قَـدْ جِئْتُکُمْ بِآیَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ أَنِّی أَخْلُقُ لَکُمْ مِّنَ الطِّینِ کَهَیْئَةِ الطَّیْرِ فَأَنفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَکْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْیِ الْمَوْتَی ...». (آل عمران/ ۴۹)

ثمّ یضیف قائلًا: «وَأُنَبِّئُکُمْ بِمَا تَأْکُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِی بُیُوتِکُمْ».

وبهذا فلقد وضع مسألة خلق الطائر الحی من الطین، ومعالجة المرضـی الذین یستحیل علاجهم، وإحیاء الموتی، إلی جانب الإخبار عن أسرار الغیب واعتبرها جمیعاً أدلّة علی نبوّته.

وبـدیهی أنّ الطعام الذی یأکله الناس، أو الذی یدّخرونه فی بیوتهم یتعلّق بحیاتهم الشخصـیة، فلیس للآخرین اطّلاع علیه عادةً، فاطّلاع أحد علی هذه الجزئیات، والحالة هذه دلیل علی اطّلاعه علی الغیب.

قال بعض المفسّـرین إنّ هـذین الموردین هما مجرّد مثال، ولا یمکن أن تتحـدّد بهما معرفـة المسـیح علیه السـلام أبـداً، فقد کان یعلم الکثیر من أسرار الغیب.

مضافاً إلی مـا قیـل، فهناک العدیـد من آیات القرآن تعـدّ مصـداقاً جلیّاً لإطّلاع نبی الإسـلام صـلی الله علیه و آله علی بعض أحـداث المستقبل، والتی تعتبر من أسرار الغیب، کالآیات الاولی

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۵

من سورة الروم: «غُلِبَتِ الرُّومُ* فِی أَدْنَی الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَیَغْلِبُونَ* فِی بِضْعِ سِنِینَ». (الروم/ ۲- ۴)

ومن الواضح أنّ الإخبار عن انتصار دولة مغلوبة علی أمرها فی المسـتقبل القریب (خلال بضع سـنین) وبکلّ هذه الصراحة والثقة، لیس بالشیء الذی یمکن الإحاطة به بالطرق الإعتیادیة، ولهذا فهو مصداق بارز لعلم الغیب.

وفی موضع آخر یخاطب القرآن الکریم المسلمین «لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِینَ». (الفتح/ ۲۷)

وکان هذا الکلام فی وقت أحکم فیه المشـرکون سـیطرتهم علی مکّة، وقویت شوکتهم بدرجة بحیث تمکّنوا من فرض شـروط صـلح الحدیبیـة علی النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله بحسب الظاهر، إذن فالإخبار عن النصـر السـریع للمسـلمین علیهم بشـکل یمکنهم من إزالة أکبر عقبة تعترض طریقتهم، ودخول مکّة بکل اطمئنان لم یکن سوی إخبار غیبی.

وفی موضع آخر حینما علم النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله بأنّ إحدی زوجاته قد أطلعت الاخریات سرّاً علی أمر کان أودعه عندها، سألته قائلة: «مَنْ أَنْبَأَکَ هَذَا».

قال صلی الله علیه و آله: «نَبَّأَنِیَ الْعَلِیمُ الْخَبِیرُ». (التحریم/ ۳)

وکـذلک حینمـا أخفی فریق من المنـافقین أعمـالهم الشـنیعة، وجاءوا بأعـذار واهیـة لغرض عـدم الإشتراک فی غزوة تبوک، قال لهم الرسول: «لَاتَعْتَذِرُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَکُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِکُمْ». (التوبة/ ۹۴)

کما یخبر تعالی فی موضع آخر عن حتمیة هزیمة المشرکین صراحةً، مع أنّهم کانوا بکامل قوّتهم، حیث یقول: «أَمْ یَقُولُونَ نَحْنُ جَمِیعٌ مُّنْتَصِرٌ».

ویضیف علی الفور: «سَیُهْزَمُ الْجَمْعُ وَیُوَلُّونَ الدُّبُرَ». (القمر/ ۴۴- ۴۵)

لا شکّ أنّ المسـلمین کانوا قلّة قلیلة حین نزول هذه الآیات والعدوّ فی أوج القدرة والغطرسة، وتوقّع مثل هذا النصـر المؤزّر والسـریع غیر ممکن بالطرق الإعتیادیة، ولکن لم یمض وقت حتّی وجّهوا ضربة قاصمة إلی العدو فی أوّل حرب طاحنة معه، أی فی معرکة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۶

(بدر) ثمّ توالت الإنتصارات الواحدة تلو الاخری، وأصبحت کلّ الجزیرة العربیة تحت رایة الإسلام خلال فترة قصیرة.

ونظیر هـذا المعنی جاء فی قوله تعالی: «قَاتِلُوهُمْ یُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَیْدِیکُمْ وَیُخْزِهِمْ وَیَنْصُرْکُمْ عَلَیْهِمْ وَیَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِینَ* وَیُذْهِبْ

غَيْظَ قُلُوبِهِمْ». (التوبة/ ۱۴- ۱۵)

وورد نفس هذا المعنى فى القرآن الكريم حيث يخاطب أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ويقول: «وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ». (آل عمران/ ۱۱۱)

كلّ التعابير التى فى هذه الآيات تخبر بشكل قاطع عن انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء، ذلك الإخبار الذى لم يكن يصدّق به أحد فى ذلك الزمان.

ونفس هذا المعنى ورد بقالب آخر فى سورة القصص الآية ۸۵، عندما اضطرّ الرسول صلى الله عليه و آله إلى ترك أرض مكّة المقدّسة، نتيجة للضغط الشديد الذى تعرض له من قبل المشركين، الذين كانوا بكامل قدرتهم فى ذلك الوقت حيث نزلت الآية: «إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ».

هذه البشارة القطعية فى تلك الفترة العصيبة حين كان المسلمون أضعف ما يكونون بحسب الظاهر لم تكن سوى خبر غيبى.

وفى آية اخرى حينما كان يستبشر الأعداء بانقراض ذرّية النبى، وعدم وجود من يحافظ على دينه باعتبار انحصار عقبه فى ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فقط، وقالوا: إنّ «محمّداً أبتر»، نزلت سورة الكوثر وبشّرت النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بخبر حتمى بأنّنا أعطيناك خيراً كثيراً ... وأنّ عدوّك هو الأبتر الذى لا عقب له بكلّ تأكيد: «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ».

واليوم نجد أنّ نسل ذلك العظيم قد انتشر عن طريق ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام فى كلّ أرجاء المعمورة، وظهر منهم الكثير من القادة الذين وظّفوا أنفسهم لخدمة الإسلام طيلة عمرهم.

فى حين أنّ من كان يؤذى النبى ويعيره صلى الله عليه و آله بذلك وهم (مشركو قريش)، قد اضمّحلوا ولم يبق لهم اليوم أثر يذكر، ولو بقى شىء على سبيل الفرض فهو غير معروف. وبهذا فقد

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۷

أمسى كلّ واحد منهم أبتراً، والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله ذا نسل عظيم.

ونلاحظ فى قوله تعالى ملاحظة اخرى تعدّ من إخبارات القرآن الغيبية، حيث قال:

«وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ». (النحل/ ۸)

مع أنّ الكثير من المفسّرين يعتبرون جملة «وَيَخْلُقُ مَا لَاتَعْلَمُونَ» إشارة إلى الحيوانات التى ستخلق مستقبلًا، أو التى ستؤلف عند الإنسان، أو كلّ الأشياء الضرورية التى سيخلقها اللَّه فى المستقبل سواء الحيوانات أم غيرها، ولكن إدراك مفهوم هذه الجملة بالنسبة لنا نحن الذين نعيش فى عصر التكنلوجيا المتطورة يعد أمراً يسيراً- كما أشار إلى ذلك بعض المفسّرين المتأخّرين كالمراغى والسيّد قطب فى تفسير «فى ظلال القرآن»، بل هو إخبار القرآن عن عصرنا، ولا منافاة بين عبارة (يخلق) مع اختراعها من قبل الإنسان، إذ إنّ عمل الإنسان ليس سوى تركيب المواد التى خلقها اللَّه تعالى، هذا أوّلًا.

وثانياً: إنّ إبتكار الإنسان فى صنع هذه الوسائل ناتج من الإستعداد الذى وهبه اللَّه تعالى له! كلّ هذه الآيات تبيّن أنّ اللَّه قد وضع بعضاً من العلم الغيبى تحت تصرّف نبيّه صلى الله عليه و آله.

الثمرة من مجموع آيات علم الغيب:

أوضحنا إلى الآن طائفتين من الآيات التى تتحدّث عن علم الغيب، طائفة تنفى علم الغيب عن الأنبياء عليهم السلام على الإطلاق والاخرى تُثْبِتُهُ. وحينما نضعهما إلى جانب بعضهما البعض، ونجمع بينهما ندرك مفهومهما الأصلى النهائى (وهذا ما يمكن أداؤه عن طريق التفسير الموضوعى بسهولة) وهو الطريق الأوّل للجمع بينهما.

أجل، يستفاد من مجموع هذه الآيات بوضوح أنّ علم الغيب بإطلاقه وبلا قيد أو شرط مختصّ ب «الذات» المقدّسة فحسب.

هو المحيط بكلّ عالم الغيب والشهود، وهذا العلم قائم بذاته المقدّسة غير منفكّ عنها أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۸

أمّا الآخرون (كالأنبياء والأئمّة المعصومين والملائكة) فالطريق الوحيد لاطّلاعهم على علم الغيب هو الالهام الإلهى فحسب.

وبعبارة اخرى أنّ أشهر طريق للجمع بين هذه الآيات هو القول: إنّ المراد باختصاص علم الغيب باللَّه تعالى هو «العلم الذاتى الإستقلالى»، ولذا فلا اطّلاع لأحد غيره على أسرار الغيب مستقلًا، بل لابدّ أن يكون منه تعالى وعن طريق تعليمه ولطفه وعنايته، وهذا فى الواقع له «ميزة غير استقلالية».

الأدلّة على الجمع بين الآيات المذكورة كثيرة يمكن الإحاطة بها بالتحقيق والتدقيق فيها ثانية.

كما أنّ الأحاديث الشريفة أيضاً تشير إشارة لطيفة إلى هذا الأمر:

منها: ما ورد فى نهج البلاغة أنّ عليّاً عليه السلام خلال حديثه للإخبار عن وقائع المستقبل (وتوقّعه لهجوم المغول على الدول الإسلامية) قال: كأنّى أراهم قوماً كأنّ وجوههم المجان المطرّقة ... فقال أحد أصحابه: لقد أعطيت ياأمير المؤمنين علم الغيب.

فابتسم عليه السلام وقال: ليس هو بعلم غيب، وإنّما هو تعلّم من ذى علم (أى من النبى الأكرم صلى الله عليه و آله) «۱».

الطريق الثانى: للجمع بين هذين القسمين من الآيات هو القول: إنّ علم الغيب الذى يختصّ باللَّه هو الإطّلاع على اللوح المحفوظ، الذى يتحقّق كلّ ما فيه بلا زيادة ولا نقيصة لا محالة، (وهو فى الواقع علم بالعلل التامّة للأشياء التى لا تنفكّ أبداً عن معلولاتها).

وأمّا الأنبياء والأئمّة المعصومون عليهم السلام فلهم اطّلاع على لوح المحو والإثبات القابل للتبديل والتغيير، لأنّه علم ب «العلل الناقصة» لا «العلل التامّة».

وبعبارة اخرى: إنّ من المحتمل أن تتواجد هناك موانع تعترضها وتغيّرها، أو تغيب شروط تكاملها، كما جاء فى حديث عن الإمام على بن الحسين عليه السلام أنّه قال: «لولا آية فى كتاب اللَّه لحدثتكم بما كان وما يكون إلى يوم القيامة! فقلت له: أيّة آية؟ فقال: قول اللَّه:

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۱۹۹

يمحو اللَّه ما يشاء ويثبت وعنده امّ الكتاب» (أى اللوح المحفوظ)» «۱».

الطريق الثالث: للجمع بين هذه الآيات هو القول بانقسام أسرار الغيب إلى قسمين:

أحدهما يختصّ به تعالى ولا يعرفه أحد سواه، والآخر هو الذى يعلّمه لأنبيائه وأوليائه، كما جاء فى نهج البلاغة ذيل الخطبة المتقدّمة أنّه عليه السلام قال: «وَانَّما عِلْمُ الغَيبِ عِلْمُ الساعَةِ وَما عَدَّدَهُ اللَّه سُبْحانَهُ بِقَولِهِ: إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِلُ الْغَيث (آخر آية من سورة لقمان)، (لا اطّلاع لأحد على كمّه وكيفه وجزئياته وإن كان أصل نزوله قابلًا للإحتمال) وَيَعْلَمُ ما فِى الأَرْحام (لم يكن اطّلاعه على جنسيته وهل أنّه ذكر أو انثى فحسب، بل على كلّ القابليات والمميّزات التى تكمن فى جسمه وروحه) وَما تَدْرِى نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غَدَاً وَما تَدرى نَفْسٌ بِاىِّ ارضٍ تَمُوتُ» (المراد هو العلم التفصيلى بهذه الامور).

ثمّ يضيف فى خاتمة هذا الكلام: «فيعلم اللَّه سبحانه ما فى الأرحام من ذكر أو انثى وقبيح أو جميل، وسخى أو بخيل، وشقى أو سعيد، ومن يكون فى النار حطباً، أو فى الجنان للنبيين مرافقاً، فهذا علم الغيب الذى لا يعلمه أحد إلّااللَّه، وما سوى ذلك فعلم عَلَّمه اللَّه نبيّه فعلَّمنيه، ودعا لى بأن يَعِيَهُ صدرى، وتضطَمُّ عليه جوانحى» «۲».

وعلى هذا فالذى يختصّ بالذات المقدّسة هو العلم بكلّ خصوصيات وتفاصيل الأجنّة الروحية والبدنية.

نفس هذا الكلام يمكن تطبيقه على نزول المطر وأعمال الإنسان أو مكان موته والذى لا يعلم جزئياته إلّااللَّه تعالى.

الطريق الرابع للجمع بين هذه الآيات هو التفريق بين «العلم الفعلى» و «العلم الشأنى والإستعدادى»، إذ لا يخفى شيء عن علمه اللامحدود، فى حين أنّ الكثير من أسرار الغيب يمكن أن تغيب عن الأنبياء والأولياء فعلًا، لكن اللَّه يعلمهم ذلك متى ما أرادوا (طبعاً هذه

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۵۱۲، ح ۱۷۰.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۲۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج۷ ۲۴۹

الإرادة لا تتحقّق إلّابإذنه تعالى ورضاه (تأمّل جيّداً).

هذا المطلب يشابه حالة كون كلّ الأسرار العسكرية لدولة ما مدوّنة فى كتاب ضخم محفوظ عند شخص أو أشخاص منتخبين من قبل الدولة بحيث يمكنهم الإطّلاع عليه بإذن من القائد العام للقوات المسلحة، فالقائد هنا له إحاطة تامّة بهذا الكتاب كما ويمكن للآخرين أيضاً الإطّلاع عليه متى شاؤا (على فرض كون مراجعتهم للكتاب مرهونة بإذن القائد وإجازته طبعاً).

الدليل على هذا الكلام هو الروايات التى جمعها المرحوم الكلينى فى كتاب الكافى فى فصل تحت عنوان «إنّ الأئمّة إذا شاؤا أن يعلموا علموا» «۱».

نستنتج من مجموع ما قيل أنّ للأنبياء والأولياء اطّلاعاً على عالم الغيب بلا شكّ، كما ويمكن استخلاص طرق الجمع بين الروايات المرتبطة بعلم الغيب بأربعة:

۱- العلم الذاتى المستقلّ خاصّ باللَّه، وعلم الأنبياء والأولياء يرتبط به تبعاً.

۲- العلم التفصيلى هو من شأنه تعالى، والعلم الإجمالى من شأن الأولياء والأنبياء.

۳- العلم باللوح المحفوظ خاصّ باللَّه، والعلم بلوح المحو والإثبات من شأن الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

۴- العلم الفعلى خاصّ باللَّه، والعلم بالقوّة من شأن الأنبياء والأولياء.

روايات علم الغيب:

إنّ لمسألة «علم الغيب» بالنسبة إلى الأنبياء والأولياء عليهم السلام بحثاً موسّعاً فى الروايات الإسلامية أيضاً، وقد ذكرت كلّ الفرق الإسلامية نماذج كثيرة عن علم الغيب فيما يرتبط

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۵۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۱

بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أو أئمّتهم وقادتهم، ونسبة مسألة علم الغيب إلى الشيعة من قبل بعض المغفّلين، أو القول بأنّهم يعتبرون أئمّة أهل البيت عليهم السلام شركاء مع اللَّه فى هذه الصفة، هو اشتباه عظيم لا يمكن جبرانه، لأنّه:

أوّلًا: لا يرى أى أحدٍ من علماء الشيعة أى إنسان لا نبى الإسلام صلى الله عليه و آله ولا الأئمّة عليهم السلام نظراء لله تعالى بأيّة صفة أبداً، واعتقادهم بعلمهم بالغيب إنّما هو من باب «تعلّم من ذى علم» (الأئمّة من النبى والنبى من اللَّه العظيم).

وبعبارة اخرى، كما أنّ كلّ ما لدينا هو من عند اللَّه وانّنا محتاجون إليه ومتعلّقون به فى كافّة شؤون حياتنا، فكذلك علم غيب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة عليهم السلام إنّما هو من عند اللَّه ومرتبط بعلمه.

ثانياً: اطّلاع الأنبياء والأولياء عليهم السلام على الغيب مسألة واردة بشكل كبير فى الروايات أيضاً، فضلًا عن الآيات القرآنية، وحسبنا ما فى كتب أهل السنّة من أنّ لبعض الصحابة وغيرهم فضلًا عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، اطّلاع على كلّ أسرار الغيب أو جلّها! ويكفى هنا ذكر خلاصة البحث التحقيقى الذى ذكره العلّامة الأمينى فى كتابه «الغدير» الجزء ۵، (بالإضافة إلى التطرّق لبعض الروايات الاخرى إكمالًا للبحث):

۱- جاء فى الكثير من المصادر المعروفة لأهل السنّة أنّ «حذيفة» قال: «إنّ النبى صلى الله عليه و آله علّمنى علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة «۱».

۲- وجاء فى حديث آخر عن «حذيفة» أيضاً أنّه قال: «واللَّه انّى لأعلم الناس بكلّ فتنة هى كائنة فيما بينى وبين الساعة» «۲».

۳- نقرأ فى حديث آخر فى صحيح مسلم أنّ أبا زيد أى «عمرو بن أخطب» قال: صلّى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله صلاة الصبح، ثمّ ارتقى المنبر وخطب خطبة دامت إلى الظهر ثمّ صلّى الظهر وصعد المنبر إلى صلاة العصر ثمّ نزل وصلّى العصر وصعد المنبر ثانية وخطب إلى

---

(۱) صحيح مسلم (كتاب الفتن باب إخبار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فيما يكون إلى قيام الساعة)، مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۸۶ وكتب اخرى.

(۲) مسند أحمد، ج ۵، ص ۳۸۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۲

غروب الشمس، «فأخبرنا بما كان وبما هو كائن فأعلمنا أحفظنا» «۱».

ثمّ يذكر أحاديث أخرى متعرّضة لمسائل الغيب فى بعض الأحيان عن بعض من الصحابة وأمثالهم، من جملتها قوله: وذكر الخطيب البغدادى فى تأريخه عن أبى الحسن المالكى قال: كنت أصحب- محمّد بن إسماعيل- سنين كثيرة، ورأيت له من كرامات اللَّه تعالى ما يكثر ذكره، إنّه قال لى قبل وفاته بثمانية أيّام، إنّى أموت يوم الخميس المغرب فادفنّى يوم الجمعة قبل الصلاة ... قال أبو الحسن: فنسيته إلى يوم الجمعة فلقينى من خبّرنى بموته، فخرجت لأحضر جنازته فوجدت الناس راجعين، فسألتهم لِمَ رجعوا فذكروا أنّه يدفن بعد الصلاة، فبادرت ولم ألتفت إلى قولهم فوجدت الجنازة قد اخرجت للدفن قبل الصلاة!

ثمّ يضيف العلّامة الأمينى رحمه الله: توجد فى طى كتب الحفّاظ ومعاجم أعلام القوم قضايا جمّة فى اناس كثيرين، عدّوها لهم فضلًا وكرامة تنبىء عن علمهم بالغيب وبما تخفى الصدور ولا يراها أحد منهم شركاً وهو ما يدعو للعجب «۲».

كما نشاهد مسائل علم الغيب فى روايات أهل البيت عليهم السلام بكثافة أيضاً، من جملتها الباب الذى عقده المرحوم العلّامة المجلسى فى «بحار الأنوار» الجزء ۲۶ حول هذا الموضوع، وجاء بالعشرات من الروايات حول اطّلاع الأئمّة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب، من جملتها الرواية التى وردت بتعابير شتّى، ومن مختلف الطرق من أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «أترى من جعله اللَّه حجّة على خلقه يخفى عليه شىء من أمورهم؟».

ونقرأ عبارة اخرى لهذا الإمام نفسه عليه السلام: «أنّ اللَّه أحكم وأكرم وأجلّ وأعلم من أن يكون احتجّ على عباده بحجّة ثمّ يغيّب عنه شيئاً من امورهم» «۳».

كما نجد فى نهج البلاغة أيضاً على العديد من الجمل التى تخبر عن الإطّلاع الواسع

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۲۲۱۷ (باب إخبار النبى فيما يكون إلى قيام الساعة من كتاب الفتن) يتبيّن من هذا الحديث أنّه صلى الله عليه و آله كان مشغولًا ببيان إخبار الغيب لأصحابه يوماً بأكمله من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

(۲) الغدير، ج ۵، ص ۵۹- ۶۲ (باختصار) وورد الحديث الأخير فى تاريخ بغداد، ج ۲، ص ۴۹.

(۳) بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۱۳۷- ۱۵۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۳

لعلى عليه السلام على علم الغيب، لكن وكما قال هو بنفسه فى الخطبة ۱۲۸ فهذه ليست علم غيب (إستقلالى ذاتى)، بل هى تعلّم من ذى علم (أى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى تعلّم هو بدوره من اللَّه تعالى).

هذه الإخبارات الغيبية جاءت فى عدّة خطب من جملتها الخطبة ۱۳ حول أحداث البصرة القادمة.

وفى الخطبة ۴۷ حول مستقبل الكوفة.

وفى الخطبة ۵۷ حول بعض سلاطين بنى اميّة.

وفى الخطبة ۵۹ حول عدد قتلى الخوارج وأصحابه ومريديه فى معركة النهروان وذلك قبل نشوبها.

وفى الخطبة ۱۱۶ حول ظهور الحجّاج وجناياته العجيبة البشعة فى المستقبل.

وفى الخطبة ۱۲۸ حول الفتن العظيمة التى ستقع فى البصرة (فتنة صاحب الزنج أو الأتراك والمغول).

وفى الخطبة ۱۳۸ حول أحداث الشام فى المستقبل.

وفى الخطبة ۱۵۸ حول الجرائم الفجيعة لبنى اميّة.

وفى الحكمة ۳۶۹ يتعرّض لحوادث آخر الزمان.

واللطيف هنا هو اتّكاؤه فى الكثير من هذه الموارد على الجزئيات، وعدم اقتناعه أبداً بذكر الكليّات التى ربّما تخطر على ذهن المتأمّل الفطن غير المعصوم أيضاً، ويتّضح جيّداً أنّ كلّ هذه الأخبار نابعة من الإطّلاع على علم الغيب.

ونذكر هنا ما جاء فى الخطبة ۵۹ حول خوارج النهروان كمثال على ذلك، قال:

«مصارعهم دون النطفة! واللَّه لا يفلت منهم عشرة ولا يهلك منكم عشرة»!.

وفى الخطبة ۶۰ حينما قالوا لعلى عليه السلام، لقد اضمحلّ الخوارج وانقرضوا، قال: كلّا! واللَّه إنّهم نُطفٌ فى أصلاب الرجال وقرارات النساء، كلّما نَجَمَ منهم قرنٌ قطع، حتّى يكون آخرهم لصوصاً سلابين!

فأشار عليه السلام هنا إلى مسألة إخماد نار الخوارج خلال مختلف الأنظمة وعاقبة أمرهم

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۴

أيضاً، وعلى حدّ قول ابن أبى الحديد «وهكذا وقع وصحّ إخباره عليه السلام أيضاً أنّه سيكون آخرهم لصوصاً سلّابين، فانّ دعوة الخوارج اضمحلّت، ورجالها فنيت، حتّى أفضى الأمر إلى أن صار خَلفَهُم قطّاع طرق، متظاهرين بالفسوق والفساد فى الأرض».

ثمّ تعرّض بعد ذلك لمقاطع مختلفة من تأريخهم بالتفصيل، وخروج بعضهم فى أيّام الخلفاء والقضاء عليهم «۱».

وزبدة الكلام هى أنّ مسألة العلم بأسرار الغيب سواء فيما يتعلّق بالماضى أو المستقبل أو حتّى الامور الخافية عن الأنظار فى الوقت الحاضر، ليست بذلك الشىء الذى يمكن إنكاره من وجهة نظر القرآن، والأحاديث الإسلامية وتواريخ الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

وهذه المسألة من الوضوح بحيث إنّهم عدّوا اشتمال القرآن على الأخبار الغيبية أحد وجوه إعجازه، وقد اشير فى كتب إعجاز القرآن إلى تلك الموارد على الأعمّ الأغلب، كما تعرّضنا نحن أيضاً فى التفسير الأمثل إلى الموارد ذات العلاقة بهذا القسم فى ذيل كلّ آية، ألم يكن القرآن بمثابة تعاليم إلهيّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله؟ فما هو الفرق بين تعليمه عن طريق القرآن أو غيره؟!

حدود علم الغيب وكيفيته:

لا كلام فى مسألة اطّلاع الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام على علم الغيب عن طريق التعليم الإلهى، وقد تقدّمت أدلّتها مفصّلة

فى الأبحاث السابقة.

لكنّ هناك كلاماً مطوّلًا حول كيفية هذا العلم ومساحته، وهذه المسألة تعدّ من أعقد المسائل التى تواجه الباحث فى مثل هذه الأبحاث، وقد وردت بحقّها أخبار متفاوتة، كما وتلاحظ هنالك آراء متنوّعة من قبل العلماء أيضاً، ومجموع هذه الإحتمالات الأساسية فى هذه المسألة كالتالى:

١- إنّهم يرون كلّ شىء «بالفعل» باستثناء القسم الخاصّ بالذات المقدّسة، كالعلوم

---

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۵، ص ۷۳.

الخمسة الواردة فى آخر سورة لقمان والتى تمّت الإشارة إليها سابقاً، وكالعلم بكنه ذات البارى جلّت قدرته وكنه أسمائه وصفاته.

الدليل على هذا الكلام هو الروايات المتظافرة التى تقول صراحة: إنّ للأئمّة «علم ما يكون وما هو كائن حتّى تقوم الساعة»، ومن البديهى أنّ للنبى ذلك العلم بطريق أولى.

المرحوم الكلينى وفى اصول الكافى ذكر باباً تحت عنوان: «إنّ الأئمّة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون وأنّه لا يخفى عليهم شىء» «١».

٢- إنّهم يعلمون كلّ هذه الامور لكن «بالقوّة» لا «بالفعل»، أى أنّهم كلّما شاؤا أن يعلموا شيئاً من أسرار الغيب ألهمهم اللَّه به، أو أنّهم يمتلكون قواعد واصول يستندون عليها للإطّلاع على كلّ أسرار الغيب، أو أنّ معهم كتباً يطّلعون على أسرار الغيب من خلال التأمّل فيها، أو أنّهم يعلمون بهذه الأسرار كلّما شاء اللَّه ذلك، أى كلّما منحهم حالة البسط اصطلاحاً، فى حين أنّ هذه العلوم تختفى عند عودة المشيئة وحصول حالة القبض كما يصطلح على ذلك.

الدليل على هذا القول (فى الحالة الاولى) هو الروايات القائلة: إنّ الأئمّة والقادة المعصومين إذا أرادوا أن يعلموا شيئاً علموه، وقد عقد المرحوم الكلينى فى اصول الكافى باباً حول هذا الموضوع تحت عنوان: «إنّ الأئمّة إذا شاؤا أن يعلموا علموا» «٢».

هذا البيان يحلّ الكثير من المشاكل المتعلّقة بعلم الأنبياء والأئمّة أيضاً، من جملتها أنّه لماذا شرب الإمام الحسن عليه السلام مثلًا من ماء الجرّة المسموم؟ وتناول الإمام الثامن عليه السلام العنب أو الرمّان المسموم؟ لماذا انتخبوا فلاناً المناسب للقضاء أو القيادة؟ ولماذا كان يعقوب قلقاً إلى ذلك الحدّ على إبنه؟ مع أنّ ابنه كان يتدرّج فى المناصب الحسّاسة، ثمّ استبدل الفراق إلى الوصال فى خاتمة المطاف، لماذا ...، ولماذا ...؟

---

(١) أصول الكافى، ج ١، ص ٢۵ (ذكر المرحوم الكلينى فى هذا الباب ست روايات) كما أنّ المرحوم العلّامة المجلسى قد تعرّض لشرح هذه الروايات فى مرآة العقول، ج ٣، من ص ١٢٩- ١٣۴.

(٢) المصدر السابق، ص ٢۵٨ (ذكرت فى هذا الباب ثلاث روايات بنفس هذا المضمون) كما أشار إليها المرحوم العلّامة المجلسى فى مرآة العقول، ج ٣، ص ١١٨.

يمكن القول أنّهم وفى كلّ هذه الموارد لو شاؤا أن يعلموا لعلموا، لكنّهم كانوا يعلمون أنّ اللَّه لم يجز لهم الإطّلاع إمّا اختباراً أو لمصالح اخرى.

و يمكن توضيح هذه المسألة بذكر هذا المثال: لو أعطى أحد رسالة حاوية على أسماء أشخاص أو مناصبهم أو على حقائق سرّية اخرى، لشخص آخر فبإمكان ذلك الشخص الإطّلاع على هذه الحقائق بمجرّد فتح الرسالة، لكن حيث إنّها لم تفتح بعد فليس له

اطّلاع على محتواها، كما أنّ الشخص الرئيسى الذى أعطاه الرسالة كان قد خوّله فتح الرسالة متى شاء.

۳- المراد من اطّلاع المعصومين على علم الغيب هو الإطّلاع على كلّ المسائل ذات العلاقة بهداية البشرية بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وبناءً على هذا فهم مطّلعون بالفعل على كلّ المعارف والأحكام، وتواريخ الأنبياء ومسائل الخلق والحوادث السابقة واللاحقة إلى كلّ ما يرتبط بهداية الناس، لكن ليس من الضرورى القول بما هو خارج عن نطاق هذه الدائرة فى حقّهم.

الروايات المتعدّدة التى أشرنا إليها والقائلة: «إنّ اللَّه أحكم وأكرم وأجلّ وأعظم وأعدل من أن يحتجّ بحجّة (للخلق) ثمّ يغيّب عنه شيئاً من امورهم» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «من زعم أنّ اللَّه يحتجّ بعبد فى بلاده (بين خلقه) ثمّ يَستُر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على اللَّه!» «۲».

هذه كلّها إشارة إلى العلوم الضرورية لهداية الخلق.

۴- إنّهم مطّلعون على كلّ أسرار الغيب، لكنّ اطّلاعهم هذا مبتنٍ على اصول كلّية، فهم يعلمون بكلّيات كافّة الامور، فى حين أنّ العلم بكلّيات العالم وجزئياته كلّها خاصة بذاته تعالى.

هذا الكلام فى الواقع يشبه ما ورد فى روايات متعدّدة من أنّ عليّاً عليه السلام قال: «إنّ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۳۸، ح ۵ (ورد هذا الحديث قبل عدّة صفحات بتفاوت ضئيل).

(۲) المصدر السابق، ص ۱۳۹، ح ۸.

رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله علّمنى الف باب من الحلال والحرام وممّا كان وممّا يكون إلى يوم القيامة، كلّ باب منها يفتح الف باب فذلك الف الف باب» «۱».

العدد (الف) فى هذا الحديث سواء كان للعدد أو كناية عن الكثرة فهو دليل على الكثرة، التى تفوق الحدّ لأبواب العلم التى علّمه إيّاها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وكذلك إشارة إلى اشتمال هذه الأبواب على سلسلة من الاصول الكلّية التى تطلّ عليها مئات بل آلاف الأبواب الاخرى.

والملاحظة الجديرة بالإعتبار هى أنّ الحديث، (إذا شاؤا أن يعلموا علموا) يمكن أن يكون إشارة إلى نفس هذا المعنى وهو أنّهم إذا شاؤا أن يعلموا بعضاً من الجزئيات، لراجعوا الاصول الكلّية التى علّمهم إيّاها اللَّه تعالى أو النبى الأكرم صلى الله عليه و آله واطّلعوا عليها.

۵- إنّ علمهم يكون بكلّ حقائق العالم لكن من خلال «لوح المحو والإثبات»، فى حين علم اللَّه بكلّ الحقائق هو من خلال «اللوح المحفوظ».

بيان ذلك: حوادث الكون لها مرحلتان: المرحلة القطعيّة التى لا سبيل لأى‌تغيير إليها، أى أنّ حادثة ما بكلّ أسبابها وعللها حاضرة عند العالم، وحيث إنّه مطّلع على كلّ أسبابها وعللها وموانعها وعلاقتها بالماضى والمستقبل، فهو يعلمها قطعاً ويخبر عنها بجدّية، وقد تمّ التعبير عن هذه المرحلة على لسان الآيات والروايات ب «امّ الكتاب» أو «اللوح المحفوظ».

والمرحلة الاخرى هى «المرحلة غير القطعية» أو بعبارة اخرى «المرحلة المشروطة»، فالشخص العالم مطّلع على علل الحوادث فى هذه المرحلة، لكن من الممكن عدم وضوح كلّ شروطها وموانعها لديه، ولذا لا يمكنه البتّ فى وقوع الحوادث إنّما يمكنه ذلك مشروطاً، وهذا ما تمّ التعبير عنه على لسان الآيات والروايات ب «لوح المحو والإثبات».

الاختلاف بين علم اللَّه وعلوم الأنبياء والأولياء هو نفس الاختلاف بين هاتين

(۱) المرحوم العلّامة المجلسی عقد فی المجلّد الأربعین باباً تحت نفس هذا العنوان (إنّ النبی صلی الله علیه و آله علّمه الف باب) وذکر ۸۲ حدیثاً حول هذا الموضوع والذی ذکرناه أعلاه هو الحدیث السادس (بحار الأنوار، ج ۴۰، ص ۱۳۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۸

المرحلتین، أی أنّه وفضلًا عن کون أحدهما ذاتیاً ومستقلًا دون الآخر فانّ لأحدهما صفة القطع والبتّ دون صاحبه.

۶- آخر کلام ونظریة یمکن بیانها فیما یتعلّق بکیفیة اطّلاع الأنبیاء والأولیاء علیهم السلام علی أسرار الغیب، هو القول باطّلاعهم علیها إجمالًا، لکن ما هی مساحة ذلک یاتری؟ فلا نعلم ذلک بالدقّة، وما نعلمه فقط هو أنّ اللّه العالِم یعلّمهم کلّما وجد فی ذلک مصلحة وضرورة، لکن کیف؟ وکم؟ فهذا ما لا نعلمه.

کانت هذه هی الطرق الستّة التی یمکن ذکرها للإجابة عن مسألة کیفیة اطّلاع الأنبیاء والأولیاء علیهم السلام علی أسرار الغیب وحدود ذلک.

ونظراً إلی أنّ البحث حول کلّ الجزئیات المرتبطة بعلم الغیب قد أفرد فی کتاب مستقلّ، فضلًا عن أنّ هدفنا الرئیس من عرض هذه المباحث شیء آخر (وهو رفع التضادّ الذی ربّما یتوهّمه بعض المغفّلین بین الآیات المرتبطة بعلم الغیب) فسنوکل مزیداً من الشرح والتفصیل حول هذا الموضوع، واختیار النظریة الأقوی من بین هذه النظریات إلی بحثه الخاصّ به.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۰۹

إثبات علم القادة الإلهیین عن طریق العقل

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۱

إثبات علم القادة الإلهیین عن طریق العقل

کان الکلام لحدّ الآن عن الآیات والروایات التی أثبتت مسألة إمکان علم الغیب للأنبیاء والأئمّة المعصومین علیهم السلام، لکن علاوة علی ذلک فهناک طریق آخر أیضاً لإثبات هذا المعنی وهو عن طریق العقل، حیث إنّ هؤلاء العظماء لا یستطیعون أداء وظیفتهم علی أتمّ وجه فی حالة عدم اطّلاعهم علی أسرار الغیب أو بعض منها.

بیان ذلک: نحن نعلم أنّ دائرة وظیفتهم واسعة جدّاً، سواء من الناحیة الزمانیة أو المکانیة، خصوصاً فیما یتعلّق بمسألة رسالة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله وإمامة الأئمّة علیهم السلام إذ هی «عالمیة» و «خالدة»، أی أنّها شاملة لکلّ بقاع العالم ومحیطة بکلّ الأزمنة إلی قیام الساعة.

فهل یمکن لمحافظ مدینة ما مثلًا أن یؤدّی دوره فی تلک المحافظة دون الوقوف علی أوضاع أهالیها، وإمکانات المنطقة وامتیازاتهم ومحروملیاتهم؟ من البدیهی أنّه غیر قادر علی ذلک.

ومع هذا فکیف یمکن لرسول مرسل إلی البشریة جمعاء، وإلی یوم القیامة تبلیغ رسالته دون الإطّلاع علی وضع العالم إلی آخر یوم من مهمّته؟!

بدیهی أنّهم لا یتمکّنون من الإحاطة بکلّ الأعصار والقرون، أو الإطّلاع علی الأقوام والطوائف عن طریق العلوم الإعتیادیة، إذن فلا سبیل لهم إلی ذلک سوی علم الغیب (بالتعلیم الإلهی).

علاوة علی ذلک فمساحة دائرة مسؤولیتهم لا تنحصر بالظواهر فحسب إنّما تمتدّ لتشمل ظاهر المجتمع، وباطنه وجوهر الإنسان ومظهره

أيضاً، واتّساع المسؤولية هذه يستلزم بدوره الإطّلاع على أسرار أفراد المجتمع الباطنية أيضاً، وهذا هو نفس ذلك الذى ورد فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۲

روايات متعدّدة بشكل استدلال عقلى، لا حكم تعبّدى (تأمّل جيّداً).

يقول الإمام الصادق عليه السلام- على سبيل المثال- لأحد الرواة باسم «عبدالعزيز الصائغ» فى حديث أشرنا إليه سابقاً: «أترى أنّ اللّه استرعى راعياً (على عباده) واستخلف خليفة عليهم يحجب عنه شيئاً من امورهم» «۱»؟!

كما ورد نفس هذا المعنى بتعبير أوضح فى حديث إبراهيم بن عمر أنّه قال، قال الإمام الصادق عليه السلام: «من زعم أنّ اللّه يحتجّ بعبد فى بلاده ثمّ يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على اللّه» «۲».

العلوم الأخرى للأنبياء فى القرآن المجيد:

اشارة

يستفاد بوضوح من آيات قرآنية مختلفة أنّ لبعض الأنبياء الإلهيين فضلًا عن العلوم ذات العلاقة بهداية الخلق وتربيتهم والحفاظ على نظام المجتمع البشرى وبلوغ الأهداف النهائية للخلق، علوماً أخرى أيضاً، من جملتها الموارد أدناه:

۱- تعلّم موسى من الخضر

ورد فى سورة الكهف ۲۳ آية تمّ من خلالها بيان قصّة موسى عليه السلام بعبارات لطيفة جدّاً وموزونة، وتعلّمه من عبد للّه‌لم يذكر القرآن إسمه لكنّه فى الحقيقة هو «الخضر» كما هو المتعارف (الكهف/ ۶۰- ۸۲).

هذه الحادثة تبيّن بوضوح أنّ موسى عليه السلام قد ذهب وراء ذلك المعلّم الإلهى طبقاً للعنوان الذى كان لديه، ليستفيد من العلوم التى تعلّمها من اللّه، ولذلك فحينما وصل إليه بعد جُهدٍ جهيد قال: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً». (الكهف/ ۶۶)

---

(۱) بصائر الدرجات طبقاً لما نقله صاحب بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۳۷، ح ۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۳۹، الرواية الثامنة.

فوافق الخضر على ذلك ورافقه موسى عليه السلام بدوره، ثمّ إنّه واجه ثلاث حوادث مؤلمة وغير مألوفة بحسب الظاهر (وذلك لعدم إحاطته بها)، الاولى خرق السفينة التى تعود إلى فريق من الطبقة المسحوقة، والتى كانت تعدّ مصدراً لمعيشتهم، الثانية قتل الشاب، والثالثة إقامة الجدار الذى يريد أن ينقضّ، مع عدم وجود أى دليل لها ظاهراً.

وفى كلّ مرّة كان يتصاعد اعتراض موسى عليه السلام وذلك لتعرّض أحكام شرعية مهمّة فى هذه الحوادث الثلاث لخطر الزوال والإضمحلال، ففى أوّل حادثة تمّ التعدى على حرمة أموال الناس من قبل الخضر، وفى الثانية أُنتهكت حرمة حياة الناس، وفى الثالثة صدر منه تصرّف غير مسؤول بحسب الظاهر، وذلك ببنائه للجدار الذى كان مشرفاً على السقوط بلا أخذ أجر عليه أو دليل على لزوم إعادة بنائه.

وأخيراً بَيَّنَ له الخضر أسرار هذه الامور الغامضة ليقف على فلسفتها وحكمتها، وتبين أنّه لو لم يخرق السفينة لأخذها ملك غاصب ولتدهورت أحوال أصحابها، ولو لم يُقتل ذلك الشاب المرتدّ لاحتمل أن يُضِلّ أبويه المؤمنين، وأنّه كان هناك كنز خفى تحت ذلك الجدار ليتيمين وكان أبوهما صالحاً، وأراد اللّه الحفاظ على كنزهما عن هذا الطريق إلى أن يبلغا أشدّهما ويستخرجا كنزهما

للاستفادة منه، ومع أنّ موسى المأمور بظاهر الشريعة لم يتمكّن من البقاء أكثر من هذا مع الخضر الذى كانت له وظائف اخرى أيضاً وأنّه انفصل عنه طبقاً للعهد الذى أخذه على نفسه، لكنّه توصّل من خلال هذه القصّة بشكل عامّ إلى أنّ الكثير من الحوادث التى لها ظاهر مؤلم تعدّ أسباباً لليمن والبركة فى جوهرها، فضلًا عن وقوفه على العلم التفصيلى لهذه القصص الثلاث، وانّنا لعلمنا المحدود نتوهّمها فى غير محلّها فى حين أنّ وقوفنا على حقيقة الأمر يدفعنا لاقتفاء أثره وإدراكه بكلّ سرور.

كانت هذه علوماً تعلّمها موسى من الخضر إلى جانب علم الشريعة، والأسمى منها هو الخضر الذى يعدّ من الأنبياء الإلهيين عظيمى الشأن، والذى كان له اطّلاع واسع على هذه الامور «۱».

---

(۱) لمزيد من التوضيح فيما يتعلّق بهذه الآيات وجزئيات هذه القصّة، راجع التفسير الأمثل، ذيل الآيات ۶۰- ۸۲ من سورة الكهف.

۲- اطّلاع داود على إعداد وسيلة دفاعية

تمّ البحث فى سورتين من القرآن المجيد حول اختراع الدرع المناسب، الذى كان يعدّ وسيلة دفاعية مهمّة لحروب الأزمنة الغابرة، وذلك من قبل داود النبى الإلهى العظيم الشأن.

يقول تعالى فى أحد المواضع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ». (الأنبياء/ ۸۰)

يتّضح جيّداً من هذه الآية أنّ إبداع هذه الوسيلة الدفاعية قد تمّ فى عهد داود عليه السلام وبتعليم ربّانى، فى حين انّنا نعلم بعدم ضرورة أن يكون نبى إلهى مبتكراً لمثل هذا الموضوع.

كما ونقرأ فى قوله تعالى «وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ* أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ». (سبأ/ ۱۰- ۱۱)

لا شكّ أنّ هذا الأمر يكشف عن أنّ إقدام داود عليه السلام على صنع شىء فريد من نوعه، كان بأمر إلهى وأنّه تعالى هو الذى علّمه كيفية الصنع وسبل تليين الحديد، سواء كانت لهذه المسألة صفة إعجاز أم تعليم إلهى بالاستفادة من المعدّات والأسباب، وعلى أيّة حال فابتكار هذا الأمر (صنع الحلقات الدقيقة والقويّة لغرض نسج الدرع فى ذلك الزمان، بحيث لا يعيق حركة المقاتل، كما ويسهل ارتداؤه بالإضافة إلى مقاومته لضربات وأسنّة السهام والسيوف والرماح فى نفس الوقت) كان عملًا شاقّاً ومعقّداً للغاية، ولم تكن أهميّته فى ذلك العصر أدنى من إبداع الأسلحة المتطوّرة فى عالم اليوم.

كما ويحتمل أن تكون الآية ۱۵ من سورة النمل إشارة إلى نفس علم ومعرفة داود بصناعة هذه الوسيلة الدفاعية أيضاً، أو أن تكون مضافة إلى العلوم الأولى حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً». «۱»

لقد تناولنا هذا البحث فيما سبق أيضاً- بمناسبة أخرى-.

---

(۱) ورد هذا الاحتمال فى تفسير القرطبى، ج ۷، ص ۴۸۷۹ ذيل الآية مورد البحث.

۳- معرفة يوسف بتفسير الاحلام

هل بإمكان الرؤيا إزالة الستار عن حوادث المستقبل والكشف عن المسائل؟

لو كان الجواب «نعم»، فأى رؤيا هذه، وهل تنطق الأحلام صراحةً أم كنايةً، أو تكون صريحة تارةً وكنائية أخرى؟ وفى الحالة الثانية

فمن أولئك الذين يجيدون لغة كناية الرؤيا، ومن بيده هذا العلم؟

وأساساً ما هى حقيقة الرؤيا؟ وكيف ترتسم فى روح الإنسان وذهنه؟

هذه هى الأسئلة المعقّدة التى تتطلّب الإجابة عنها الخوض فى أبحاث مطوّلة ومفصّلة، وخارجة عن موضوع بحثنا فى نفس الوقت «۱».

إنّ من المسلّم به فى الأبحاث القرآنية أنّ بإمكان الرؤيا الدلالة على الأحداث كناية أو صراحة، وقد أشار القرآن إلى سبع أحلام صادقة فى سور مختلفة بالإمكان الوقوف عليها فى «رسالة القرآن»، المجلّد الأوّل فى مبحث مصادر المعرفة (المصدر السادس- الكشف والشهود) «۲».

إنّ بعضاً من هذه الأحلام كان كنائيّاً (مثل حلم عزيز مصر) وبعضها صريحاً مثل حلم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حول دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، وأداء مراسم الحجّ.

ويصرّح القرآن فى سورة يوسف بأنّنا علّمنا يوسف هذا العلم، ونقرأ فى قوله تعالى:

«وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۶)

و قال أيضاً: «وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ». (يوسف/ ۲۱)

ثمّ تجسّدت نماذج من تفسير يوسف للأحلام، بما فيها الرؤيا التى قصها كلّ من السجينين عليه، ورؤيا ملك مصر، والتى تحكى كلّها عن إحاطته الكاملة بعلم تعبير الاحلام.

بديهى أنّ عدم اطّلاع الأنبياء عليهم السلام على تعبير الأحلام لا يخدش فى نبوّتهم، لكن

---

(۱) ورد هناك فى التفسير الأمثل، فى الآيات المرتبطة بيوسف عليه السلام، بحث مفصّل نوعاً ما حول هذا الموضوع، وان كان بيانه بالكامل يحتلّ كتاباً مستقلًا لوحده.

(۲) لمزيد من الايضاح راجعوا الى ج ۱، ص ۲۱۲ من هذا التفسير.

بإمكان هذا العلم أن يلعب دوراً فعّالًا فى الإسراع من عجلة تطوّر مأموريتهم، وإضفاء المزيد من التقدّم على خططهم.

۴- العلم بمنطق الطير

تمّت الإشارة فى القرآن الكريم إلى نوع آخر من العلم والمعرفة بالنسبة لسليمان عليه السلام، والذى يبدو لأوّل وهلة أمراً عجيباً، ألا وهو مسألة القدرة على مخاطبة الطيور وفهم حوارها، ونقرأ فى قوله تعالى «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ». (النحل/ ۱۶)

الكلام هنا طويل:

هل حقّاً تتكلّم الحيوانات؟ كيف يكون حديثها؟ هل بهذه الأصوات المتنوّعة التى تنبعث منها فى مختلف الحالات، أم أنّ هناك كيفية خاصّة أخرى؟

لا شكّ أنّ للطيور أصواتاً متفاوتة وبحسب الظروف المختلفة، كالغضب والرضا والجوع والعطش والمرض والضجر، وأنّ بإمكان من لهم أدنى اطّلاع على حالها إدراك مرادها.

لكن من المستبعد أن تكون الآية أعلاه وأمثالها ناظرة إلى هذا المعنى، إذ إنّها تحكى عن مطالب أدقّ وأهمّ، فالبحث هو عن تفاهمها وتخاطبها مع الإنسان، والحديث هو عن سلسلة من المفاهيم العالية والراقية.

مع احتمال إقدام البعض على حمل هذه الآيات وأمثالها على الكنايات أو لغة الأساطير، توهّماً منهم باستحالة مثل هذا الشىء

للحيوانات، فامتلاك سليمان عليه السلام للمعجزة واطّلاعه على العلوم الإلهيّة الخاصّة لا يستبعد أبداً.

وهناك سؤال وهو: هل أنّ للحيوانات مثل هذا الفهم والشعور لتتحدّث مثلًا عن عبادة ملكة سبأ للشمس من دون اللَّه؟

التمعّن فى أسرار حياة الطيور، والمطالب العجيبة التى ينقلها العلماء فيما يتعلّق بذهنها

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۷

ومهارتها ودقّتها، يكشف عن سقم وسطحية افتراض تجرّد الحيوانات خصوصاً الطيور من الشعور.

إنّ أبحاث العلماء تشير إلى أنّ للكثير من الحيوانات القدرة على تحديد الظروف الجويّة، حتّى قبل حدوثها بعدّة أشهر، فى حين أنّ الإنسان ومع كلّ الأجهزة التى يستعين بها يعجز أحياناً عن مثل ذلك، ولو لساعات قليلة قبل ذلك.

أغلب الحيوانات تعلم بالزلازل قبل وقوعها وتبدى ردّ فعلها لذلك، فى الوقت الذى تعجز فيه أجهزة رصد الزلازل عن تخمين ولو مقدّماتها.

غرائب حياة النحل واقتفائها العجيب للمناطق التى تكثر فيها الزهور، ونشاطات النمل العجيبة وتطوّرها المعقّد، ومعرفة الطيور المهاجرة بوضع الطرق حين تطوى أحياناً المسافة بين القطبين الشمالى والجنوبى للكرة الأرضية، واطّلاع البعض من الطيور على أحوال فراخها قبل تفقيسها، وتوقّعها الدقيق لاحتياجاتها مع عدم امتلاكها لتجربة سابقة، وأمور أخرى من هذا القبيل والتى ذكرت فى الكتب المعتبرة والمستندة فى هذه الأيّام، تشير بمجموعها إلى أنّ لا غرابة فى تمتّع الحيوانات بنوع من الحوار فيما بينها، مع تمكّنها من التحدّث مع من له اطّلاع على أبجديات لغتها، وخلق رابطة ما معه.

الكثير من آيات القرآن تدلّل على أنّ للحيوانات شعوراً وإدراكاً على خلاف ما يتوهّمه البسطاء، بل بلغ الحدّ بالبعض إلى الإعتقاد بأنّ لكلّ ذرّات الكون بما فيها الجمادات نوعاً من الشعور، ومن هنا فقد اعتبروا عموم تسبيحها مقروناً بالشعور.

هذه المواضيع تعود بطبيعة الحال إلى بحوث أخرى ذكرناها فى محلّها، امّا الذى ينبغى الإلتفات إليه هنا فهو مسألة اطّلاع البعض من الأنبياء على «منطق الطير»، وتحدّث قسم من الحيوانات معهم، والتى لا تعدّ علماً ضرورياً لأداء الرسالة بل باعثاً على كمال النبوّة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۱۹

طرق معرفة سفراء اللَّه

اشارة

۱- الاعجاز

۲- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

۳- جمع القرائن

۴- شهادة الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۱

طرق معرفة سفراء اللَّه

تمهيد:

اشارة

لا شكّ أنّ أىّ ادّعاء لا يمكن قبوله إذا لم يكن معززاً بدليل، خصوصاً الإدّعاء الخطير جدّاً وهو ادّعاء النبوّة مثلًا، وبالأخصّ بعد

معرفتنا للكثير من الأشخاص وعلى امتداد التاريخ ممّن ادّعوا السفارة و النبوّة، و رسالة هداية الخلق من قبل اللّه زوراً وبهتاناً، بهدف إضلال البسطاء من الناس، فادّعوا أنّهم مرسلون من قبل اللّه لتحقيق أهدافهم المشؤومة وضمان طموحاتهم اللامشروعة، وقد وُفّقوا بعض الشيء فى كسب بعض المغفلين نحوهم.

وبناءً على هذا فلابدّ من وجود مقاييس يمكن من خلالها تمييز الأنبياء الإلهيين من المدّعين الكذّابين، وبعد مطالعة هذا الموضوع بدقّة تنكشف أمامنا أربعة طرق:

۱- «الإعجاز» و هو القيام بأمور خارقة للعادة و خارجة عن قدرة الإنسان، مرفقة بدعوى النبوّة.

۲- التحقيق فى مضمون دعواتهم والتى يمكن أن تكون لوحدها فى بعض الأحيان دليلًا على صدقهم وحقّانيتهم، وقد يكون هذا الطريق أكثر قبولًا وثقة لدى العلماء حتّى من المعجزة.

۳- جمع القرائن التى تحوم حول مدعى النبوّة، وسوابقه وسلوكه ومحيطه والذين آمنوا به، بالإضافة إلى الطرق التى يسلكها لنشر دعوته، و ما إلى ذلك.

وكثيراً ما يحدث أن تدفع هذه القرائن مجتمعة للإيمان برسالته وصدق دعوته دون حاجة إلى اللجوء إلى شيء آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۲

۴- شهادة الانبياء السابقين التشخيص عن طريق الأخبار وتزكية الأنبياء السابقين، أى أنّه يمكن لأخبار من اتّضح أنّه نبى أن تكون دليلًا وعاملًا مساعداً لمن يأتى بعدهم.

على أيّة حال فالشيء المسلّم به هو عدم إمكان قبول أى دعوى بلا دليل مقنع، وقد عاتب القرآن مراراً وكراراً أولئك الذين يدّعون أو يتّبعون بلا علم ولا دليل.

ومن البديهى أنّ أشخاصاً كهؤلاء سيكونون فى مهب ريح اللوم والعتاب على الدوام، وعلى حدّ قول بعض الفلاسفة: «من يقبل كلاماً بلا دليل لا يستحقّ إسم الإنسان».

كما أنّ القرآن يعتبر أمثال هؤلاء الأشخاص أى الذين يتبعون الهوى بلا علم ولا دليل من أضلّ الناس إذ يقول: «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِّنَ اللَّهِ». (القصص/ ۵۰)

وفى موضع آخر يقول بصراحة لمن يدّعى دعوىً فيما يتعلّق بالتوحيد أو النبوّة: «هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ». (البقرة/ ۱۱۱) (النمل/ ۶۴)

كما يقول فى موضع آخر: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». (الإسراء/ ۳۶)

وأخيراً فقد اعتبر أولئك الذين يتكلّمون بغير علم من أكثر الناس كذباً وافتراءً وظلماً، يقول اللّه تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

(الأنعام/ ۱۴۴)

بعد هذه المقدّمة الخاطفة يأتى دور كلّ واحد من هذه الطرق الأربعة ونبدأ بمسألة «الإعجاز».

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۳

۱- الاعجاز

اشارة

وينبغى الإلتفات إلى أنّ القرآن لا يعبّر بالإعجاز أو المعجزة فى هذه المسألة، بل يستعمل وبشكل رئيسى ثلاثة تعابير أخرى وهى: «آية» و «بيّنة» و «برهان»، والآن لنمعن خاشعين فى الآيات الواردة فى هذا المجال:

١- «قَالَ (فرعون) إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ (من جيبه) فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

(الأعراف/ ١٠۶- ١٠٨)

٢- «وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ».

(آل عمران/ ۴٩)

٣- «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ». (الأعراف/ ١٣٢- ١٣٣)

۴- «وَإِلَى (قوم) ثَمُودَ (أرسلنا) أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ...». (الأعراف/ ٧٣)

۵- «قَالَ (نوح) يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (فهل تنكرون دعوتى ثانية) أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ». (هود/ ٢٨)

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٢۴

۶- «وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ...* اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ... فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

(القصص/ ٣١- ٣٢)

٧- «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً». (الإسراء/ ٨٨)

جمع الآيات وتفسيرها

الإعجاز، أوّل دليل على النبوّة:

كما تمّت الإشارة سابقاً فانّ لفظة ال «معجزة» لم ترد فى القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم أبداً، بل إنّ ألفاظاً أخرى من قبيل «آية» و «بيّنة» و «برهان» قد حلّت محلّها، وعلى الرغم من إطلاق هذه الألفاظ الثلاثة فى القرآن على معانى أخرى أيضاً، فانّ «المعجزة» أحد معانيها.

الآيات المختارة المذكورة هى من أجلى الآيات التى تتحدّث عن المعجزة بالاستفادة من هذه الألفاظ الثلاثة، بالإضافة إلى بعض الآيات الأخرى التى تعكس مفهوم ضعف الإنسان وعجزه عن مقابلة بعض ما يقوم به الأنبياء من بعض الممارسات الخارقة للنواميس الطبيعية بالمثل، بالرغم من خلوّها من كلّ واحدة من هذه الألفاظ الثلاثة، وبالنتيجة فهى تثبت استعانة الأنبياء ب «الإعجاز» للتدليل على حقّانيتهم من جهة، ومطالبة الناس ب «المعجزة» من جهة أخرى.

ورد فى الآية الاولى «قَالَ إِنْ كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ* فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ* وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ».

إذ نرى هنا أنّ فرعون قد اعتبر المطالبة ب «آية» أى «معجزة» حقّاً مشروعاً له، ومن المعلوم أنّ موسى قد وافق بدوره على هذا الطلب برحابة صدر، وجاء بنموذجين من معجزاته.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۵

وبهذا فهذه الآيات تعتبر الأمور الخارقة للعادة (المشروطة) تمثل الطريق لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

هذه الآيات لم تقل أبداً أنّ هذا الشيء قد تجسّم أمام أنظار فرعون، بل تحكى عن حقيقة متحقّقة ألا وهى استبدال العصا بثعبان رهيب، وبياض يد موسى حينما أخرجها من جيبه، كما أنّ التعبير بال «مبين» إشارة إلى نفس هذا الشيء أيضاً.

يحتمل أن يكون السبب وراء اختيار هاتين المعجزتين يعود إلى امتلاك إحداهما ميزة الإرهاب للمستكبرين والمعاندين وتهديدهم، والأخرى ميزة الترغيب لإيمان المؤمنين، على أمل أن يمتزج «اللين» ب «الشدّة» ليقدما معاً دواءً شافياً للعباد.

و فى الآية الثانية تمّت الإشارة بقوّة إلى معجزات السيّد المسيح، وتمّ التعبير عنها بال «آية»، وكان ذلك فى وقت بشّرت فيه مريم عليها السلام بولادة المسيح عليه السلام، إذ قال تعالى: «وَرَسُولًا إِلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ».

وقد تمّ فى هذه الآية ذكر مجموعة من معجزات السيّد المسيح: خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص الذى يستحيل علاجه، وإحياء الموتى، والتى تمّت كلّها بإذن اللّه بالإضافة إلى الإطّلاع على الأمور الخفيّة وأسرار الغيب.

لم تكن معجزة المسيح لتنحصر بهذه المعاجز الأربع فحسب، إذ إنّ هناك خوارق أخرى للعادات قد نقلت عنه فى القرآن الكريم، من جملتها تكلّمه فى المهد، ونزول مائدة من السماء على الحوارين بدعائه.

والمعروف هو أنّ اختيار اللّه لقسم من هذه المعجزات للمسيح عليه السلام، إنّما كان بسبب انتشار العلوم الطبيّة وتطوّرها فى ذلك الزمان، وحاجة الناس الماسة إلى مهنة الطبابة نظراً

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۶

لشيوع الأمراض آنذاك، فوضع اللّه هذه المعجزات الخاصّة تحت تصرّف المسيح، ليتعرّف به العالم وغيره ويستسلم له ولتتجلّى عظمة إعجازه بشكل أكبر «۱».

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالاعتبار وهى وجود نوع من التنسيق بين هذه المعجزات الماديّة، وبين البرامج المعنوية والتربوية للسيّد المسيح: فلقد ربى بدعوته هذه أناساً متفتّحين على أفكار ومعارف جديدة، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، شفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم على يديه، وإحياء ضحايا وادى الضلال وهداهم، ومسح بأسرار الغيب وأنوار المعرفة على القلوب، وبهذا كانت تلك المعجزات الماديّة متناسبة مع هذه الأهداف المعنوية.

صحيح أنّ «المعجزة» يجب أن تكون عملًا خارقاً للعادة بحيث يعجز الكلّ عن الإتيان بمثله، لكن اللّه الحكيم الذى يتصرّف بحكمة، قد اختار المعجزات طبقاً لبرنامج مدروس.

هذه الملاحظة أيضاً جديرة بالتأمّل والتفحّص وهى أنّ التعبير ب «إذن اللّه» قد تكرّر مرّتين فى هذه الآية، لئلّا يضل الجهّال فى وادى الشرك أو يبالغوا فى درجة النبى إلى مرتبة الغلو، خصوصاً وأنّ كيفية خلق عيسى كانت بشكل يساعد على تهيئة الأرضية المناسبة للغلو فى أفكار قصيرى النظر، ولذا فقد تمّ التأكيد مراراً على إذن اللّه وأمره لئلّا يذهب بهم خيالهم إلى اتّصافه واقعاً بصفات الربوبية، وكون هذه الأعمال صادرة منه بنفسه، بل ليعلموا أنّها جميعاً من عند اللّه.

الآية الثالثة تبيّن بوضوح أنّ موسى عليه السلام قد جاء للفراعنة بالعديد من خوارق العادة، (أو بعبارة أخرى بالآيات المفصّلات)، لكن الملأ من آل فرعون لم يؤمنوا بحجّة كون ذلك «سحراً»، يقول تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ* فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ».

(۱) وردت هذه الملاحظة فی حدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام (بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۷

هذه الحوادث العجیبة وغیر المتوقّعة کانت لها صفتی التأدیب والإعجاز معاً.

کما أنّ الآیات اللاحقة لها تبیّن أیضاً أنّهم کانوا یلجأون إلی موسی عند الشدائد، ویرجون منه الطلب من اللَّه برفع «البلاء» ویعدونه لئن کشفت عنّا الرجز لنؤمننّ لک، ولکن حینما کان یکشف عنهم الرجز ینکثون عهدهم، إلی أن استحقّوا أخیراً «عذاب الإستئصال» واجتُثُّوا عن بکرة أبیهم.

صحیح أنّ الفراعنة وبنی إسرائیل کانوا یعیشون معاً، لکن لا یخفی أنّ الفراعنة کانوا هم المستهدفین بهذه البلایا، فتلک قصورهم الفخمة تطلّ علی طرفی النیل، بینما منازل بنی إسرائیل تقع فی مناطق نائیة، ولذا ذهب الطوفان والفیضان بقصور الفراعنة.

کما دمّر الجراد والآفات الزراعیة مزارعهم الواسعة، وحصلت زیادة مطّردة ومفاجئة فی تکاثر الضفادع لتخرج من النیل وتدخل فی کلّ جزئیات حیاة الفراعنة، بل لم تترک حتّی غرف نومهم وموائد طعامهم وأوانیهم بالإضافة إلی تحمّلهم لخسائر فادحة جدّاً حینما تلوّن نهر النیل بالدم.

لکن هذه البلایا أو بعبارة أخری «المعجزات المتبهة» التی ورد شرحها فی التوراة الحالی، فی «سفر الخروج» الفصل السابع إلی العاشر، لم توقظهم أبداً.

ویحتمل أن یکون اختیار هذه المعجزات الخمس ناظراً إلی إحاطة العذاب الإلهی بکافّة شؤون حیاتهم، فالطوفان قلب قصورهم رأساً علی عقب، والجراد دمّر بساتینهم، و «القمّل» ذهب بزراعتهم، والضفادع سلبتهم راحة بالهم وسکینتهم، وإستبدال ماء النیل بالدم حرمهم ماء شربهم!

وهناک إشارة مختصرة فی الآیة الرابعة إلی معجزة نبی آخر وهو النبی صالح علیه السلام، حیث تعبّر عنها ب «البیّنة»، وکذلک ال «آیة»، یقول تعالی:

«وَإِلَی ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ یَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَکُمْ مِنْ إِلَهٍ غَیْرُهُ قَدْ جَاءَتْکُمْ بَیِّنَةٌ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۸

مِنْ رَبِّکُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَکُمْ آیَةً ...».

«الناقة»: تعنی فی الأصل أُنثی البعیر، وقد أشیر فی القرآن إلی ناقة صالح بهذه اللفظة أکثر من مرّة، والتی کانت ناقة إستثنائیة بلا شکّ، وذلک فی کیفیة خروجها بالإضافة إلی بقیّة الحالات والصفات التی یکون الخوض فی جزئیاتها خارجاً عن موضوع هذا البحث، إذ لا نعلم أکثر من عدم کونها ناقة عادیة، ولذلک یعتبرها بمثابة البیّنة و الآیة ولغرض الوقوف علی أهمیّة هذه المعجزة فقد تمّ التعبیر عنها فی الآیة المذکورة ب «ناقة اللَّه».

لماذا اختار اللَّه هذه المعجزة من بین کلّ المعجزات لصالح علیه السلام؟ قال البعض: کان ذلک استجابة لطلب القوم لمثل هذه الناقة.

نقرأ فی إحدی الروایات: «حینما بُعث صالح بالنبوّة بین قوم ثمود الذین کان لهم سبعون صنماً یعبدونها، لبث فیهم مدّة طویلة یدعوهم وینصحهم، لکنّهم لم یجیبوه إلی خیر، فقال لهم ذات یوم: أنا أعرض علیکم أمرین، إن شئتم فاسألونی حتّی أسأل إلهی فیجیبکم فیما تسألون، وإن شئتم سألت آلهتکم فان أجابونی خرجت عنکم، فقد شئتکم وشئتمونی، فقالوا قد أنصفت!

فتواعدوا لیوم یخرجون فیه، فخرجوا بأصنامهم إلی عیدهم وأکلوا وشربوا فلمّا فرغوا، دعوه فقالوا یاصالح سل فسألها فلم تجبه، فقال: لا- أری آلهتکم تجیبنی فاسألونی حتّی أسأل إلهی فیجیبکم الساعة، فقالوا یاصالح! اخرج لنا من هذه الصخرة (وأشاروا إلی صخرة منفردة) ناقة مخترجة جوفاء وبراء فان فعلت صدّقناک وآمنا بک، ففعل صالح ذلک ولم یؤمنوا» «۱».

الکلام فی الآیة الخامسة هو عن «البیّنة» أیضاً، وقد ذکرت هنا «بیّنة نوح» تلک البیّنة التی یراد منها «معجزة ظاهرة»، إذ نراه یعقّب علی

كلام مشركى القوم حينما قالوا: «بل

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۴، ص ۴۴۱ (بتلخيص).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۲۹

نظنّكم كاذبين»، بالقول: «قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَّبِّى وَآتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ (تعصّباً وعناداً) أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ» «۱».

قال الكثير من المفسّرين أنّ «البيّنة» تعنى هنا المعجزة، وعلى الرغم من المنقول عن ابن عبّاس أنّ المراد بالبيّنة هو الدليل المنطقى الجلىّ، لكن نظراً للتعبير ب «من ربّى» ولكون هذه البيّنة قد اقيمت فى مقابل تكذيب نوح وأتباعه، فلا يمكن أن يفهم منها سوى المعجزة، وربّما كان مراد ابن عبّاس من الدليل الواضح نفس المعجزة أيضاً.

ونلاحظ فى الآية السادسة تعبيراً آخر حول هذا الموضوع ألا وهو «البرهان»، إشارة إلى معجزتى موسى المعروفتين واللتين وردتا فى الآيات السابقة، أى استبدال العصا بثعبان عظيم، وبياض اليد، يقول تعالى: «فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ».

و «البرهان»: وعلى حدّ قول الراغب فى المفردات يعنى الدليل المحكم، وقد اعتبره البعض مصدراً لمادّة «بَرَهَ- يَبْرَهُ» إذا ابيضّ، وإطلاق هذه المفردة على الأدلّة المحكمة من باب بيانه للمطلب، وتوضيحه له، أو لأنّه يبعث على افتخار المتكلّم، أو أنّه إشارة إلى الكلام الواضح الذى يعتريه الإبهام.

وفى «لسان العرب» فسّر البرهان بمعنى الدليل الواضح الذى يميّز الحقّ عن الباطل، ومن هنا فسّر المفسّرون لفظة «برهانان» فى ذيل الآية بمعنى الدليلين الجليين «۲».

لكن صاحب كتاب «التحقيق» يعتقد بأنّ استعمال لفظة البرهان بمعنى الدليل اصطلاح منطقى خارج عن دائرة اللغة، وأنّ معناه هو ذلك الكلام الواضح الخالى من الإبهام، أو الموضوع الواضح تماماً.

على أيّة حال، ففى الآية أعلاه قد استعملت هذه اللفظة فى التعبير عن المعجزة، التى تعدّ دليلًا جليّاً وواضحاً على صدق مدّعى النبوّة، أى النبى موسى عليه السلام هنا.

---

(۱) جملة «أنلزمكموها» هى بمثابة الجزاء للقضيّة الشرطية «إن كنت».

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۲۳۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۰

وفى الآية السابعة والأخيرة من الآيات التى وردت فى البحث لم يكن التعبير بال «آية» أو ال «بيّنة» أو ال «برهان»، بل بمصداق من المصاديق البارزة جدّاً للمعجزة، وبعد ذلك تمّ التصريح بالقول: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً».

الهدف لا يكمن فى الخوض فى بحث «إعجاز القرآن» لأنّ هذا البحث قد جاء فى ذيل هذه الآية فى المجلّد الثانى عشر من «التفسير الأمثل»، كما سيأتى أيضاً فى المجلّد القادم من نفحات القرآن، بشرح أوفى، إنّما الهدف هو بيان حقيقة كون المعجزة هى إحدى الطرق القطعية لمعرفة الأنبياء عليهم السلام.

ولذا نقرأ فى ذيل آية أخرى دعوة القرآن المخالفين للإتيان بعشر سور مثل سور القرآن:

«فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ». (هود/ ۱۴)

ثمرة البحث:

يمكن الإستنتاج بوضوح من مجموع ما تقدّم، أنّ المعجزة لم تكن بنظر القرآن أحد الأدلّة الرئيسيّة لإثبات نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فحسب، بل لنبوّة سائر الأنبياء أيضاً.

لكن ينبغى الإلتفات إلى أنّ هناك آيات قرآنية تعدّ بمثابة العلّة لمنكرى المعجزة، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل فى قسم التوضيحات.

توضيحات

۱- ما هى حقيقة الإعجاز

لفظة الإعجاز والمعجزة وكما أشرنا سابقاً لم ترد فى القرآن بالمعنى المصطلح عليه اليوم، بل قد تمّت الإستعانة بتعابير أخرى فى هذا المجال، وقد تقدّم شرحها فى الآيات التى مرّ ذكرها، فالبحث هنا ليس بحثاً لغوياً، إذ الهدف هو بيان حقيقة الإعجاز والمعجزة، لكن لا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۱

بأس بإشارة خاطفة قبل ذلك إلى المفهوم اللغوى للفظة «الإعجاز»، ليتّضح السبب الذى دفع العلماء والأكابر إلى انتخاب هذه المفردة لخصوص هذا المعنى.

مع أنّ هناك معنيين قد ذكرا فى مقاييس اللغة لأصل «الإعجاز» أى «العجز» وهما:

«الضعف» و «عقب كلّ شىء»، لكن الراغب أرجع هذين المعنيين فى المفردات إلى معنى واحد، واعتبر المعنى الأصلى هو «عقب كلّ شىء»، وقد ترد بمعنى «الضعف» نظراً لتبعية الأفراد الضعفاء للآخرين، وحيث إنّ معجزات الأنبياء هى من القوّة بحيث يعجز الآخرون عن التصدّى لها ومقابلتها بالمثل، فقد اطلقت لفظة المعجزة عليها.

على أيّة حال ف «المعجزة» فى التعريف الذى ذكره لها علماء العقائد، عبارة عن ذلك الشىء الجامع للشروط الثلاثة أدناه:

۱- العمل الخارق للعادة والخارج كليّاً عن طاقة النوع البشرى، والذى يعجز عن الإتيان بمثله حتّى أكبر نوابغ العالم.

۲- أن تكون مرافقة لدعوى النبوّة أو الإمامة من قبل اللّه، وبعبارة أخرى أن تكون بمثابة الدليل على حقّانية مدّعى الرسالة والإمامة.

۳- أن تكون بلسان «التحدّى» أى الدعوة للمعارضة والمقابلة بالمثل، وبعبارة أخرى أن يتحدّى مدّعى النبوّة أو الإمامة أولئك الذين ينكرون كونها من عند اللّه، الإتيان بمثلها، بالضبط كما عرض القرآن هذا الأمر أكثر من مرّة فيما يتعلّق بإعجاز هذا الكتاب السماوى، وقد مرّ بنا مثال ذلك فى الآيات السابقة.

وممّا تقدّم أعلاه يمكن استنتاج الأمور التالية:

أ) المعجزة مستندة على القدرة الإلهيّة

ولا يمكن قياسها بأعمال نوابغ العالم، والإكتشافات العلمية العجيبة، إذ يحتمل مثلًا وجود طفل ذكى لم يتجاوز عمره السبع سنين، ومع ذلك نراه يخطب خطبة عصماء، فهذا

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۲

نوع من النبوغ، ولذا يحتمل العثور على طفل آخر مثله أيضاً، أمّا الطفل الرضيع فمن غير الممكن (عادةً) أن ينطق بفصاحة ليقول كما نقرأ بالنسبة للمسيح: «قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللَّهِ آتَانِىَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً». (مريم/ ۳۰)

أو أنّ من الممكن لعالم إختصار فترة نضوج فاكهة ما من سبع سنين مثلًا إلى عدّة أشهر، وذلك باكتشاف علمى جديد وأدوية خاصّة، فمن الواضح أنّ هذا العالم قد جاء باكتشاف عظيم، لكن من المحتمل أن يأتى مكتشف ونابغة آخر بعمل مشابه له أيضاً، امّا لو

تحوّلت شجرة يابسة إلى مثمرة فى لحظة واحدة (وكانت ترافقها دعوى النبوّة والتحدّى) فهى معجزة إلهية.

ب) المعجزة لا تعنى عمل المستحيل عقلًا

(سواء كان محالًا ذاتياً كاجتماع النقيضين والضدّين فى مكان واحد وزمان واحد، أو محالًا بالغير كالأمر الذى ينتهى وجوده فى خاتمة المطاف إلى محال عقلى) لأنّه غير ممكن بحكم العقل، أو بعبارة أخرى هو خارج عن دائرة القدرة، أى أنّ استعمال كلمة «القدرة» فى حقّها لا معنى له أصلًا، مثل أن يريد أحد الأنبياء أن يكون الشىء موجوداً وغير موجود فى آن واحد، أو أن يضع صخرة عظيمة داخل بيضة دون أن تصغر الصخرةُ أو تكبر البيضة، مثل هذه القضايا إنّما تزرع التضادّ فى داخلها بنفسها، أى أنّها فى حقيقتها قضيّة خاطئة، ومفهومها فى الحقيقة هو أن يريد الإنسان شيئاً ولا يريده (تأمّل جيّداً).

وبناءً على هذا فالمحالات العقليّة لا محلّ لها لا فى بحث الإعجاز، ولا حتّى فى أى بحث آخر، بل الذى يمكن عرضه هو المحال العادى فحسب، وبهذا فالمعجزة محال عادى لا غير.

أى أنّ مثل هذا الشىء لا يمكن تحقّقه طبقاً للتسلسل الطبيعى لقانون العلّة والمعلول، واستناداً إلى الأسباب والشروط العادية والطاقة البشرية، لكن لا مانع من تحقّقه أبداً بالقدرة الإلهيّة كالأمثلة المذكورة آنفاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۳

ج) المعجزة لا تعنى تحطيم قانون العلّية

قد يتوهّم البعض أنّنا وبقبولنا للمعجزات يجب أن نضرب أصل العلّية عرض الحائط، وان نسلّم بإمكان صدور المعلول بلا علّة، إلّاأنّ هذا المعنى غير مقبول لدى أى عالم ومفكّر.

ومن الواضح أنّ أصل العلّية لا ينحصر فى الأصول البديهية للعلوم البشرية، بل يمتدّ ليعدّ فى الفلسفة أيضاً من المسائل البديهية، وذلك لعدم إمكان وجود أيّة حادثة بلا علّية، والقائلون بالمعجزة لا ينكرون هذا الأصل البديهى والمسلّم به.

وبناءً على هذا فللمعجزات علل وأسباب حتماً خلافاً لهذا التوهّم، ويحتمل أن تكون هذه العلّة أمراً ميتافيزيقيّاً أى ما وراء عالم الطبيعة (وذلك لعدم انحصار الوجود بعالم المادّة والطبيعة فقط)، بل يمكن أن تكون علّة طبيعية إلّاأنّها غير مكتشفة، أى تلك العلّة التى يستحيل لأفراد البشر إدراكها دون الإتّكاء على علم وقدرة الخالق، وبهذا فكلّما وصل إنسان ما لهذا العامل الطبيعى والمجهول فى نفس الوقت، لاستنتجنا اتّكاءه على قدرة إلهية.

ومعجزات الأنبياء عليهم السلام يمكن أن تكون من النوع الأوّل أو الثانى، وذلك لتساويهما فى إثبات ارتباطهم باللَّه.

وقد اعتمد القرآن فى موارد كثيرة على قانون العلّية وتقبّله كأصل مسلّم به، سواء فيما يتعلّق بعالم الطبيعة والخلقة أو بحياة الإنسان الاجتماعية أو حتّى بالحياة الشخصية لكلّ فرد، وهناك ما لا يعدّ ولا يحصى من الآيات الشريفة حول هذا الموضوع، وطبقاً لهذا فلا يمكن القول بأنّ المعجزات معاليل بلا علّة.

د) المعجزة لا تزلزل أُسس التوحيد ومعرفة اللَّه

قد يتوهّم البعض ويقول: لقد عرفنا اللَّه من خلال نظام عالم الخلقة الثابت، فلو أمكن زلزلة هذا النظام عن طريق المعجزات، لتزلزل أساس التوحيد ومعرفة اللَّه، إنّكم تريدون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۴

إثبات النبوّة بواسطة المعجزات، وفاتكم انّكم إنّما تهدمون بذلك أساس التوحيد.

وعلى حدّ قول البعض الآخر: إنّ النظام الإلهى ليس العوبة بيد المتلاعبين، يحرّكونه كيفما شاءوا وأمثال ذلك.

والحقيقة أنّ الذين يدّعون بمثل هذا هم من المتغرّبين المادّيين، الذين توهّموا أنّ إنكارهم للمعجزات هذا، سيلفت أنظار المفكّرين الغربيين إليهم، حتّى المادّيين منهم، مع كون هذا الكلام خطأ محض بسبب:

أوّلًا: كما تقدّم سابقاً أنّه لا شكّ لأحد فى «أصالة» و «عمومية» قانون العلّية، كما أنّ تفسير المعجزة ب «المعلول بلا علّة» خطأ فادح، وغياب مسير العلل العادية استثناءً بمثال محدود واحد أو أكثر، لا يخدش فى نظام الكون أبداً، لأنّ ما يتجسّد أمامنا كلّ ساعة من الآلاف المؤلّفة من مصاديقه لا يمكن أن يتزلزل بحالة استثنائية تحدث بالسنة مرّة مثلًا فضلًا عن كون حصول ذلك الاستثناء لإثبات هدف أكبر، نعم لو حدثت كلّ يوم آلاف الآلاف من المعاجز لكان هناك مجال لتردّد البعض فى أصل وجود نظام الكون.

ثانياً: لم يدّع أحد أنّ نظام اللَّه هو ألعوبة، أو أنّ الأنبياء عليهم السلام يتصرّفون به كما يحلو لهم، بل الذى نقوله هو أنّ الأنبياء عليهم السلام إنّما يظهرون أمراً خارقاً للعادة بأمر من اللَّه، ليثبتوا ارتباطهم بعالم ما وراء الطبيعة، مع اكتفائهم بالحدّ الأدنى من المعاجز، وعدم استعدادهم لتقبّل المعجزات المقترحة (المعجزات التى تقترح من قبل ذوى الحجج والشكوك الباطلة).

وهناك العديد من الآيات القرآنية التى تشير إلى هذا المعنى، والتى سنتكلّم عنها بالتفصيل إن شاء اللَّه عند عرضنا لمنطق «المخالفين للمعجزات».

ه) فرق المعجزة عن النبوغ

لقد اتّضح عدم وجود أى شبه بين المعجزة وعمل النوابغ، إذ إنّ المعجزة هى العمل الخارج أساساً عن قدرة الإنسان، فى حين من الممكن أن يظهر أمام كلّ نابغة شخص مثله

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۵

ليقابله بالمثل، فضلًا عن أنّ أعمال النوابغ محدودة بحدود معيّنة على الدوام، فأحدهم يبرز مثلًا فى الأدبيات والآخر فى الفنّ والثالث فى الرياضيات والرابع فى الصناعة و ...، امّا إعجاز الأنبياء عليهم السلام فلا يحدّه إطار معيّن.

وبعبارة اخرى فأهل النبوغ إنّما يؤدّون ما يعلمون لا ما يطلبه الناس منهم، فى حين أنّ معجزات الأنبياء تتمّ طبقاً لمراد الناس (وهم أتباع الحقيقة طبعاً، لا من يبحث عن الحجج والذرائع).

بالإضافة إلى قيام النوابغ عادةً بتنمية قدراتهم الباطنية عن طريق التربية والتعليم، وعجزهم عن أداء أى شىء مع غياب التعلّم المستمرّ والتمرين المتواصل، فى حين أنّ هذا لا يصدق فى حقّ الأنبياء عليهم السلام.

و) هل أنّ المعجزات عمل إلهى أو نتيجة قوّة نفوس الأنبياء؟

طبقاً لما قلناه سابقاً، فالأمور الصادرة من النبوغ أو إرادة الإنسان القويّة أو النفوس السامية، هى أمور محدّدة ومشخّصة، وبالإمكان العثور على نظير ذلك الشىء عند باقى البشر، فى حين أنّ المعجزات غير محدودة وغير قابلة للمعارضة، كما أنّه لا يمكن العثور على أمثالها فى غير الأنبياء والأئمّة عليهم السلام.

أمّا حديثنا فيدور حول المعجزة، وهل أنّها من عند اللَّه وأنّ دور الأنبياء يقتصر على الدعاء والطلب فحسب، أم أنّ اللَّه يمنح نفوس الأنبياء وإرادتهم قوّةً تمكّنهم من أداء هذه الأعمال الخارقة للعادة بإذنه تعالى؟

لا شكّ أنّ بعضاً من المعجزات كالقرآن المجيد هو عمل اللَّه وكلامه، والحديث هنا عن معجزات أخرى كمعجزة عصا موسى عليه السلام واليد البيضاء، ومعجزات المسيح عليه السلام فيما يتعلّق بإحياء الموتى وشفاء المرضى.

وكلا الاحتمالين ممكنان بنظر العقل، أى أنّه لا مانع أبداً فى أن تتحقّق المعجزة من قبل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۶

اللَّه ودعاء النبى وطلبه، أو أن يمنح اللَّه مثل هذه القدرة لنفوس الأنبياء، ولا منافاة لأىّ‌منهما مع أصل التوحيد وإسناد المعجزات إلى اللَّه.

كما أنّ هناك اختلافاً بين ظواهر آيات القرآن أيضاً، يقول تعالى فيما يتعلّق بإحياء الموتى من قبل المسيح عليه السلام: «وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ» إذ إنّه نسب إحياء الموتى هنا إلى نفسه.

فی حین أنّه یقول تعالی فیما یتعلّق بخلق الطیر: «فَأَنفُخُ فِیهِ فَیَکُونُ طَیْراً بِإِذْنِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۴۹)

فالاولی تبیّن أنّ بعضاً من المعجزات یکون من عمل الأنبیاء علیهم السلام بأمر من اللّه، والثانیة تدلّ علی أنّ البعض الآخر هو من عمل اللّه، وکما قلنا فکلاهما یعودان فی خاتمة المطاف إلی الإرادة الإلهیّة ولا منافاة لأیّ‌منهما أبداً مع أصل التوحید.

فهل أنّ الدواء الشافی بإذن اللّه یتنافی وأصل التوحید؟

من البدیهی أنّه لا مانع أبداً فی أن تؤثر إرادة شخص النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی إحیاء الموتی وشفاء المرضی بإذن اللّه، وقد فات المصرّین علی نفی هذا المعنی، تلک الحقیقة وهی أنّ تأثیر کلّ شیء إنّما هو بإذن اللّه وهذا هو عین التوحید.

۲- العلاقة بین الإعجاز والنبوّة

هناک کلام بین العلماء فیما یتعلّق بکیفیة دلالة المعجزة علی نبوّة صاحبها، أی کیف نثبت أنّ المعارف والقوانین والأحکام التی جاء بها هی وحی إلهی؟:

قال البعض: إنّ دلالة المعجزة علی هذا المعنی هی دلالة عقلیة، فی حین رجّح الکثیر منهم کونها دلالة وضعیة.

بیان ذلک: قد یُتصوّر أحیاناً أداء عمل خارق للعادة لا یمکنه أساساً أن یکون دلیلًا علی صدق مدّعی النبوّة، إذ لا مانع من قیام شخص بمعجزة ما مع عدم کونه نبیّاً، فلو أنّ أحداً

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۷

کان خطّاطاً ماهراً، فهل یدلّ هذا علی ضرورة کونه عالماً متبحّراً أیضاً؟!

لکن هناک ملاحظة لم ینتبه لها أصحاب هذا الکلام، ألا وهی أنّ الأمر الخارق للعادة الصادر من العلماء المتبحّرین لا یُعدّ معجزة والذی یفوق قدرة الإنسان، أی المستند علی خصوص القوّة الإلهیّة.

هل یمکن أن یضع اللّه أمراً خارقاً للعادة، خارجاً عن عهدة البشر، تحت تصرّف مدّع کذّاب لیُضلّ عباده؟ هل ینسجم هذا المعنی مع حکمة اللّه؟ هذا یشبه تماماً ادّعاء أحد بأنّی وکیل للشخص الفلانی إلیکم، ویستدلّ علی ذلک بالخاتم الخاصّ الذی فی یده، والذی یعود إلی ذلک الشخص، مع علم صاحب الخاتم بذلک.

لا شکّ فی کون هذا الأمر دلیلًا علی قبوله ورضاه، وإلّا فمن المستحیل أن یسکت علی عمل کهذا.

وهذا هو ما بیّنه القرآن فیما یتعلّق بنبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی الآیات: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَیْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِیلِ* لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْیَمِینِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِینَ». (الحاقّة/ ۴۴- ۴۶)

إشارة إلی أنّ نبی الإسلام صلی الله علیه و آله ومع امتلاکه لتلک المعجزات، لو انحرف عن الحقّ ونسب إلی اللّه کلاماً مخالفاً، لاستلزمت الحکمة الإلهیّة عدم إمهاله ولو لحظة واحدة ولأهلکته فی الحال.

من الطبیعی أنّ المدّعین للنبوّة کذباً کانوا ولا زالوا کثیرین فی العالم، ولا داعی لأن یهلک اللّه أحداً لمجرّد ادّعائه النبوّة کذباً، هذا الکلام إنّما یصدق فی حقّ اولئک الذین لدیهم معجزة، إذ إنّهم لو کذّبوا علی اللّه لما أمهلهم أبداً باعتباره اغراء بالجهل.

الجواب الآخر عن هذا السؤال هو أنّ الأنبیاء علیهم السلام کانوا یدّعون أنّ الرسالة إنّما تعطی لهم عن طریق الوحی، سواء کان الوحی نازلًا علیهم مباشرةً، أو عن طریق نزول الملائکة، أیّاً کان فهو أمر خارق للعادة غیر مشابه لإدراکات الإنسان الإعتیادیة، وحتماً فانّ هناک نوعاً من السیطرة علی عالم ما وراء الطبیعة فی نفوس الأنبیاء.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۳۸

ومن هنا کان المخالفون یستشکلون علی الأنبیاء بأنّکم بشر مثلنا فکیف تمکنتم من الإرتباط بما وراء الطبیعة؟ ولذا فقد توسّلوا

بالمعجزات لإثبات تفاوتهم مع الآخرين «۱».

ومع أنّ كلا الجوابين مناسبان وفى نفس الوقت لا تنافى بينهما، فالأوّل يبدو وكأنّه أوضح من الثانى.

۳- الاختلاف بين معجزات الأنبياء عليهم السلام

من المعلوم أنّ معجزات الأنبياء الإلهيين كانت متفاوتة ومتنوّعة كثيراً، فهل ياترى أنّ هذا الأمر كان من قبيل الصدفة؟ أم أنّ هناك فلسفة ما وراء ذلك.

إنّ احتمال الصدفة بعيد جدّاً، والظاهر هو أنّ اللّه الحكيم قد وضع معجزات الأنبياء بشكل بحيث تترك كلّ واحدة منها أكبر الأثر، قياساً بالظروف الزمانية والمكانية لكلّ نبى على حده.

فمثلًا حينما نجد أنّ القرآن يُعتبر أكبر معجزة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، فانّ ذلك بسبب:

أوّلًا: أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مبعوث إلى كلّ البشرية وإلى أبد الدهر، ومن هنا فلابدّ والحالة هذه أن يأتى بمعجزة خالدة لا تفقد دورها بمرور الأيّام.

ثانياً: أنّه صلى الله عليه و آله كان اميّاً، فمجيئه بمثل كتاب القرآن يعدّ من أرفع مراتب الإعجاز.

ثالثاً: إنحطاط المستوى الفكرى لبيئة الجاهلية مع رفعة مضامين القرآن، وهذا قرينة واضحة اخرى.

مضافاً إلى ذلك نجد أنّ أدبيات العرب وعلى اختلاف أفكارهم ومعارفهم كانت فى ذلك الزمان قد بلغت الذروة، إذ كان لهم شعراء فحول وخطباء يضرب بهم المثل، وبالإمكان الوقوف على نماذج منها فى الشعر الجاهلى. فحينما يستسلم مثل هؤلاء أمام فصاحة وبلاغة القرآن، تتجلّى هذه المعجزة بشكل أوضح.

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۱، ص ۸۶، ذيل الآية ۲۳ من سورة البقرة (باقتباس).

وهكذا بالنسبة لمعجزة سليمان عليه السلام فى مسألة تسخير الرياح والشياطين، ومعرفة منطق الطير كانت متناسبة مع اتّساع رقعة ملكه وحكومته، نظراً لتجاوز حدود مملكته لعالم البشرية.

هذا الكلام يمكننا استنتاجه بوضوح من قول الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام فى معرض جوابه عن سؤال «ابن السكيت» (العالم المعروف بأدبيات العرب).

حينما سأل «ابن السكيت»: لماذا بعث اللّه موسى بن عمران بيده البيضاء والعصا وآلة السحر، وبعث عيسى بالطب، وبعث محمّداً صلى الله عليه و آله بالكلام والخطب؟

قال الإمام عليه السلام: «إنّ اللّه تبارك وتعالى لمّا بعث موسى كان الغالب على أهل عصره السحر، فآتاهم من عند اللّه بما لم يكن فى وسع القوم مثله، وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة عليهم.

وأنّ اللّه بعث عيسى فى وقت ظهرت فيه العاهات واحتاج الناس إلى الطب، فآتاهم من عند اللّه بما لم يكن عندهم مثله، إذ أحيى لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن اللّه، وأثبت به الحجّة عليهم، (طبعاً كانت مهنة الطب والطبابة رائجة كثيراً).

وإنّ اللّه بعث محمّداً صلى الله عليه و آله فى وقت كان الغالب على أهل عصره الخطب والكلام، فآتاهم من كتاب اللّه ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم، وأثبت الحجّة عليهم.

فحينما سمع ابن السكيت هذا الكلام قال: «تاللّه ما رأيت مثل اليوم قطّ» أو (تاللّه ما رأيت مثلك اليوم قطّ)» «۱».

۴- السحر لا يضاهى المعجزة

وهنا يرد سؤال مهمّ آخر كان قد تجسّد فى كلمات العلماء منذ قديم الأيّام، وهو أنّه كثيراً ما يشاهد أنّ أشخاصاً حتّى من الكفّار قد نالوا قسطاً من خوارق العادات نتيجة للرياضات

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۷۰ (باب علّة المعجزة، ح ۱).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۰

الشاقّة ومقاومة ميول النفس والتمارين الصعبة للغاية، وبالخصوص بين مرتاضى الهند، وهناك نماذج مختلفة منها فى كتب العلماء والصحف اليومية، وهى بكثرة بحيث لا يمكن إنكارها، بل إنّ أصعب الناس تصديقاً حينما يرى هذه المواقف يذعن بإمكان صدور الامور الخارقة للعادة من أفراد لا يمتّون للدين بصلة.

والآن يثار هذا السؤال: وهو أنّه كيف يمكننا التمييز بين خوارق العادات هذه وبين معجزات الأنبياء؟ ولو كان هناك تفاوتاً بينهما فما هو؟ ألا يحتمل أن تكون معجزة النبى من قبيل خوارق العادات لدى المرتاضين أيضاً؟

الجواب: ينبغى أوّلًا تقديم تعريف مختصر عن «السحر» فهناك أبحاث موسّعة عن ماهية السحر وتاريخ ظهوره، إذ من الصعب تحديده بتأريخ معيّن، لكن يمكن القول: إنّ السحر يعنى فى الأصل كلّ أمر لا يعرف مصدره، ويطلقونه عادةً على الامور الخارقة للعادة التى تتمّ بطرق معيّنة، والهدف منه هو إغفال الناس وخداعهم.

كما ويتوسّلون أحياناً بالعوامل التلقينية أى إنّهم يعكسون أمام أنظار العوام مسائل لا حقيقة لها، بالتلقينات القويّة والمؤثّرة، ويستفيدون أحياناً من المهارة والخدعة، وهى ما يصطلح عليها ب «الشعوذة»، وهكذا يشغلون الناظر بأشياء معيّنة ثمّ يحرّكون الأشياء عن مواضعها بسرعة ومهارة بحيث لا يلتفت إليها الناظر بل يظنّها خرقاً للعادة.

كما ويستعينون أحياناً بالخواصّ الفيزيائية والكيميائية المجهولة لبعض الأجسام، أو الامور المرتبطة بكيفية صدور النور من زوايا مختلفة، بحيث يرى الناظر أمامه اموراً خارقة للعادة لا يعلم بأسرارها.

وأخيراً تلك الامور الخارقة للعادة عن طريق الإرتباط بالأرواح والإستعانة بالشياطين، وهذه كلّها تندرج تحت المفهوم اللغوى الجامع لكلمة «السحر».

كما يمكن اعتبار أعمال المرتاضين التى يؤدّونها عن طريق التمارين الشاقّة، وتمركز القوى الروحية والبدنية ضرباً من «السحر» أيضاً، وإن كانت تعدّ أحياناً خرقاً للعادة فى قبال السحر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۱

على أيّة حال فأداء هذه الامور من قبل البعض لا يمكن إنكاره، لكن الشىء المهمّ هو الوقوف على مميّزات كلّ من «المعجزات» و «السحر وخرق المرتاضين للعادات»، ليتبيّن الفرق بينهما بالكامل.

وهنا نواجه بعض الاختلافات البارزة:

۱- المعجزة مستندة على القوّة الإلهيّة فى حين أنّ سحر السحرة وخرق المرتاضين للعادات ينبعان من القوّة البشرية، ولذا فالمعجزات عظيمة جدّاً وغير محدودة، بعكس السحر وخرق العادات المحدودين.

وبعبارة اخرى، فالسحرة والمرتاضون على استعداد لأداء تلك الامور التى تمرّنوا عليها لا غير، دون التى تقترح عليهم، ولم يحدث إلى الآن أن عَبَرَ السحرة أو المرتاضون عن استعدادهم لأداء ما يشير إليه الآخرون، وذلك لِتدُرّب كلّ واحد منهم على نوع معيّن.

صحيح أنّ الأنبياء عليهم السلام كانوا يبادرون إلى إظهار المعجزات حتّى قبل أن يطالبهم بها الناس، (كالقرآن بالنسبة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، ومعجزة عصا موسى ويده البيضاء، وإحياء المسيح للموتى) لكنّهم مع ذلك لم يعجزوا عن إجابة إقتراحات الامم عليهم، كمسألة شقّ القمر، أو رفع الفتن والبلايا عن الفراعنة، أو نزول مائدة سماوية للحواريين، وأمثال ذلك (طبعاً على شرط كون ذلك بدافع الكشف عن الحقيقة لا التعنّت).

ولذا نجد فى قصّة موسى عليه السلام أنّ الفراعنة طلبوا منه مزيداً من الوقت لجمع السحرة وترتيب مقدّمات العمل، وذلك تحت عنوان: «فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً». (طه/ ۶۴) فى حين أنّ موسى كان فى غنىً عن مثل هذه المقدّمات، كما أنّه لم يطلب منهم اعطائه الفرصة للتفكير فى كيفية مقاومة السحرة، حتّى بعد اطّلاعه على سحرهم، وذلك لاعتماده على القدرة الإلهيّة واعتماد السحرة على القدرة البشرية المحدودة.

ومن هنا فالخرق البشرى للعادات قابل للمواجهة والمقابلة بالمثل، وبإمكان الآخرين الإتيان بمثله، ولنفس هذا السبب أيضاً لا يجرؤ من يأتى بهذا العمل على «التحدّى» أى الدعوة للمقابلة والإدّعاء بعجز الكلّ عن أداء ما يؤدّيه، فى حين أنّ المعجزات كانت مرفقة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۲

بالتحدّى دائماً، وذلك لعجز أى إنسان عن الإتيان بمثلها أبداً (إعتماداً على القوّة البشرية)، فقد أمر اللّه تعالى نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله أن يجيبهم بهذه الآية: «قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ...». (الإسراء/ ۸۸)

ومن هنا أيضاً فسرعان ما تقهر الخوارق البشرية أمام المعجزات، ولا يستطيع السحر الوقوف امام المعجزة أبداً لعجزه عنها، بالضبط كعجز أى إنسان عن الوقوف أمام الخالق.

المثال الواضح لهذه المسألة فى القرآن الكريم قصّة موسى وفرعون، إذ إنّهم جمعوا كلّ السحرة من مختلف اصقاع مصر، وأخذوا قسطاً وافراً من الوقت لترتيب مقدّمات إبداء السحر، وقاموا برسم الخطط لذلك، لكنّهم ما لبثوا أن تقهقروا فى لحظة واحدة أمام إعجاز موسى وأضحى سحرهم كسراب بقيعة.

۲- نظراً لكون المعجزات من قبل اللّه فهى غنية عن التدريب والتعليم الخاصّين، فى حين أنّ السحر ورياضات المرتاضين مسبوقة دائماً بنوع من التدريب والتمارين المستمرّة، إلى درجة أنّ التلميذ لو لم يتقن تعليمات استاذه لاحتمل عجزه عن أداء ذلك أمام الناس وافتضاحه فى خاتمة المطاف.

وبعبارة اخرى يمكن للمعجزة أن تتحقّق فى لحظة واحدة وبدون أيّة مقدّمات، فى حين أنّ الخوارق الاخرى للعادات عبارة عن تلك الامور التدريجية التى تحصل الإحاطة بها والسيطرة عليها بمرور الأيّام، بل السنوات والتى لا يمكنها الظهور بشكل دفعى فجائى أبداً.

وقد تمّت الإشارة فى قصّة موسى وفرعون إلى هذه المسألة أيضاً، حيث يتّهم فرعون السحرة بكونهم تلامذة موسى عليه السلام، وأنّه استاذهم الذى أطلعهم على أسرار السحر: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه/ ۷۱)

ومن هنا يحدث أحياناً أن يستغرق السحرة عدّة أشهر وسنين فى تعليم تلاميذهم وتدريبهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۳

۳- أحوال صاحب المعجزة دليل على صدقه، الطريق الآخر لتمييز المعجزات عن خوارق العادات البشرية هو المقارنة بين حالات أصحابها، فأصحاب المعجزات مبعوثون من قبل اللّه لهداية الناس، ولذا نراهم متّصفين بأوصاف تتناسب ودورهم هذا، فى حين أنّ السحرة والكهنة والمرتاضين لا يهدفون إلى هداية الناس، ولا يتكفّلون بمتابعة مثل هذه الأهداف، بل ينحصر هدفهم عادةً فى واحد من الامور الثلاثة التالية:

۱- إستغفال البسطاء من الناس.

۲- كسب الشهرة بين عامّة الناس.

۳- المكاسب المادّية التى تجنى عن طريق إشغال الناس وإلهائهم.

وحينما ينزل هذان الفريقان (الأنبياء، والسحرة وأمثالهم) إلى الميدان لا يتمكّنون أبداً من كتمان امنياتهم وأهدافهم مدّة طويلة، بالضبط كما طلب السحرة وقبل نزولهم للميدان أجراً عظيماً من فرعون، وقد وافق على ذلك: «قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ* قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ». (الأعراف/ ۱۱۳- ۱۱۴)

فى حين أنّ الأنبياء يكرّرون دائماً القول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». (الشعراء/ ۱۰۹) (وقد ورد هذا التعبير فى حقّ الكثير من الأنبياء فى العديد من الآيات).

ووقوف السحرة فى خدمة فرعون يكفى بنفسه للتمييز بين «السحر» و «المعجزة».

ولا يخفى أنّ حقيقة الإنسان لابدّ وأن تنعكس من خلال تصرّفاته، وإن أجاد فى كتمان أفكاره وأهدافه.

خلاصة القول هى أنّ الوقوف على بدايات حياة أمثال هؤلاء الأشخاص وكيفية استفادتهم من خرقهم للعادات التى يؤدّونها، مع الأخذ بنظر الإعتبار مكانة أمثالهم بين مختلف شرائح المجتمع، بالإضافة إلى نوعية تصرّفاتهم وأخلاقهم، يمكنها بمجموعها أن تكون دليلًا حسناً لتمييز «السحر» عن «المعجزة»، ومع غض النظر عن موارد الأخلاق الاخرى التى ذكرت، نجد أنّ من السهل تشخيص المعجزات عن السحر وبقيّة خوارق العادات من خلال هذا السبيل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۴

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة بتعابير دقيقة، إذ يقول فى موضع: «قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَايُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ». (يونس/ ۸۱)

أجل فالسحرة أشخاص مفسدون ذوو أعمال باطلة، ومن الواضح أنّ أعمالًا كهذه لا يمكنها أبداً أن تكون لها حيثية إيجابية فى المجتمع.

وفى موضع آخر حينما يخاطب اللَّه تعالى موسى يقول: «لَاتَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى» ثمّ يضيف: «وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى». (طه/ ۶۸- ۶۹)

نعم، فعمل الساحر مكر وخديعة، ولابدّ لميوله النفسية أن تتلاءم وعمله هذا، إنّهم أشخاص متقلّبون مخادعون، كما يسهل تشخيصهم بسرعة من خلال صفاتهم وتصرّفاتهم، فى حين أنّ إخلاص وصدق وصفاء الأنبياء عليهم السلام دليل مقرون بإعجازهم أضفى عليهم المزيد من الجلاء والوضوح «۱».

۵- منطق منكرى الإعجاز

يتشبّث منكرو الإعجاز فى بعض الأحيان بدلائل عقلية ظاهرية، وقد ذكرنا فيما سبق نماذج لها وأجبنا عليها، كما تمسّك البعض أيضاً بقسم من آيات القرآن ظنّاً منه بنفيها لمسألة معجزة الأنبياء، خصوصاً معجزة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، أو إنكارها للمعجزات من غير القرآن، وأهمّ الآيات التى تمسّكوا بها أو التى يحتمل البحث فيها هى الآيات التالية:

۱- نقرأ فى سورة الإسراء: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً* أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً* أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً (قطعاً) أَوْ تَأْتِىَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا* أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى (من هذا

---

(۱) ورد نظير هذا المعنى فى سورة يونس الآية ۷۷.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۵

الكلام الفارغ) هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا». (الإسراء/ ۹۰- ۹۳)

وكما نلاحظ فنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يستجب أبداً لواحدة من خوارق العادات والمعجزات التى طلبها هذا الفريق من مشركى قريش، بل اقتصر جوابه على القول: «سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولًا».

۲- كما ونقرأ فى نفس هذه السورة: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ». (الإسراء/ ۵۹)

إذ إنّ هذه الآية أيضاً تبين أنّ اللَّه لم يعط المعجزة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله وذلك لأجل تكذيب الأوّلين بالآيات الإلهيّة!

۳- وجاء فى سورة هود: «فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ». (هود/ ۱۲)

هذه الآية كالاولى أيضاً التى تقول فى قبال طلب الكفّار: «إنّما أنت نذير».

۴- وجاء فى سورة الرعد أيضاً: «وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد/ ۷)

ألا تصرّح هذه الآيات بعدم استجابة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لطلباتهم بشأن الاتيان بالمعجزة؟

۵- ونقرأ فى سورة الأنعام أيضاً: «وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَايَعْلَمُونَ». (الأنعام/ ۳۷)

يقول المفسّر الكبير المرحوم أمين الإسلام الطبرسى فى ذيل هذه الآية: وقد اعترض جمعٌ من الملاحدة على المسلمين بهذه الآية فقالوا: إنّها تدلّ على أنّ اللَّه تعالى لم يُنَزِّلْ على محمّدٍ آية، إذ لو نزّلها لذكرها عند سؤال المشركين إيّاها (ثمّ يتعرّض بعد ذلك للردّ على هذه الشبهة وهو ما سنشير إليه فيما بعد).

يتّضح من كلام هذا المحقّق أنّ مثل هذه الوساوس حول المعجزات كانت منذ قديم الأيّام، ولم تقتصر على عصرنا هذا.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۶

كما أنّ هنالك عدّة روايات ذكرت حول هذا الموضوع، لكن ضعف استدلالها دفعنا لغضّ الطرف عنها.

الجواب:

الإلتفات إلى بعض الملاحظات يكفى لتوضيح تفسير هذه الآيات، كما ويضع نهاية لهذه الحجج أيضاً.

۱- من الواضح أنّ أيّاً من هذه الآيات لا ينفى المعجزات بشكل مطلق، وعلى فرض دلالتها على ما توهّمه المستدلّون فهى لا تتعدّى أكثر من نفى المعجزة عن نبى الإسلام فحسب، فضلًا عن بداهة عدم نفيها لمعجزة القرآن، وذلك لأنّ الكثير من آيات القرآن قد اعتبرت هذا الكتاب السماوى معجزة خالدة، كما ودعت كلّ المخالفين للمنازلة، لكنّهم عجزوا عن مقابلتها، فأيّة معجزة أكبر وأرفع من دعوة الإنس والجن للمقابلة وعجزهم عن ذلك «۱».

وبناءً على هذا فعلى فرض صحّة كلّ هذه الإستدلالات ستنحصر معجزة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالقرآن المجيد، وهذه المسألة (وعلى فرض صحّتها) لا تخدش فى مسألة نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، كما أنّها لن تخدم مخالفى النبوّة بأى وجه.

آيات القرآن مليئة بمعجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، وبهذا فمعجزاتهم هى ممّا لا يمكن إنكاره، امّا فيما يتعلّق بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فانّها تصرّح بإعجاز القرآن، وهكذا لن يبقى سوى نفى باقى المعجزات عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وهذا على فرض صحته لا يؤثّر فى المسائل الإعتقادية باعتباره مسألة فرعية وتأريخية لا غير.

۲- لسان هذه الآيات يكشف عن أنّ الهدف ليس نفى المعجزات الحقيقية بل الإقتراحية.

بيان ذلك: إنّ الواجب على كلّ الأنبياء هو إثبات صدق دعواهم عن طريق المعجزات أو

(۱) راجع الآيات يونس، ۳۸ وهود، ۱۳ والإسراء، ۸۸.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۷

طرق اخرى، وبناءً على هذا فكلّما جاءوا بالمعجزة بما فيه الكفاية لم يبق هناك دافع يدفعهم لإظهار المزيد من المعجزات، إذ إنّ مهمّة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لم تكن خرق العادة فقط، ليجلس فى زاوية ويقترح عليه كلّ شخص معجزة طبقاً لهواه، ثمّ ليقترح اخرى بعد مشاهدتها لو طاب له ذلك ويعبث بقوانين الخلقة، وبعد كلّ هذا أيضاً فإمّا أن يذعن لدعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أو يرفضها لو لم يرغب فيها.

وبعبارة اخرى، فالنبى مكلّف بإبداء المعجزات لطالبى الحقّ، بما يكفى لإقامة الحجّة وليس مسؤولًا أبداً للإستجابة للمعجزات الإقتراحية التى يثيرها المتذرّعون طبقاً لأهوائهم، لا لتحقيق الحقّ، بل للحصول على منفذ يخلصهم من الحقيقة.

الإقتراحات التى ذكرت فى أوّل آية دليل واضح على هذا الموضوع، فهم من جهة قد طلبوا سبع معجزات! مع أنّ واحدة تكفى للباحث عن الحقيقة.

وطلبوا من جهة اخرى معجزات يكمن فيها فناؤهم، إذ قالوا مثلًا: «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً»، ومن الواضح أنّ طالب الحقيقة لا يطلب تلك المعجزة التى فيها فناؤه أبداً، إذ الهدف من المعجزة هو الإيمان لا الموت والفناء.

ومن جهة ثالثة فقد طلبوا المحال، كاقتراحهم مثلًا نزول اللَّه والملائكة عليهم: «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا»، وعدم وجود اللَّه فى مكان معيّن ليتركه ويأتى إلى هؤلاء المتعلّلين هو ممّا لا يخفى.

ومن جهة رابعة نراهم يصرّحون بعد طلبهم للمعجزة المقترحة بأنّهم لا يؤمنون به، حتّى تؤدّى العمل الفلانى الآخر أيضاً: «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً (من اللَّه) نَقْرَؤُهُ».

ومع الأخذ بنظر الإعتبار لما تقدّم نفهم بوضوح أنّ هدفهم لم يكن سوى المعجزات الإقتراحية، وليس هناك أى نبى يستجيب لمثل هذه الطلبات.

اللطيف هو ما نقرأُهُ فى الكثير من الحوادث التأريخية المرتبطة بعصر ظهور الأنبياء، خصوصاً نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أنّ الكفّاروبعد مشاهدتهم للمعجزات نراهم يتوسّلون بذريعة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۸

كونها سحراً، تهرّباً من المسؤولية وتحاشياً للرضوخ لها، وهو ما قام به بالضبط فرعون وأتباعه أيضاً فى قبال موسى عليه السلام، حيث إنّهم وحتّى بعد مشاهدتهم لغلبة موسى عليه السلام بمفرده على كلّ اولئك السحرة الماهرين المرتاضين وإيمان السحرة به، والذى يدلّ بما لا يدع مجالًا للشكّ على إعجاز موسى عليه السلام، واعتماده على القدرة الإلهيّة، لم يتنازلوا عن كلامهم أيضاً، بل قالوا:

«إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ». (طه/ ۷۰)

وكذلك يقول: «وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (ليجبرهم على الإيمان)». (الأنعام/ ۱۱۱)

وكذلك يقول: «وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَايُؤْمِنُوا بِهَا». (الأنعام/ ۲۵)

كما يصرّح وفى معرض الردّ على طلبهم لمعجزات مختلفة، بالقول: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ». (العنكبوت/ ۵۱)

مفهوم هذا الكلام هو أنّ المعجزة يجب أن تهدف إلى إثبات حقّانية دعوة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله وأنّ هذا الكتاب السماوى «القرآن» هو أفضل دليل ومعجزة، فما الداعى بعد كلّ هذا للإصرار على المزيد من المعجزات الواحدة تلو الاخرى؟

۳- لا شكّ أنّ المعجزات هى من عند اللَّه فى الواقع، وأنّ كلّ ما يملكه الأنبياء منها إنّما هو بإذن اللَّه وأمره، لكن ربّما يخطر على

ذهن البعض أحياناً تصوّر بأنّ الأنبياء عليهم السلام، قد أصبحوا فيما يتعلّق بالمعجزات مصداقاً ل «فعّال لما يشاء»، وأنّهم يفعلون كلّ ما يريدونه، وهذا ما ساعد على اتّساع رقعة الغلو فى الأنبياء عليهم السلام ودفع بالكثير إلى اعتبارهم كالإله، ولهذا السبب لم يستجب الرسل والأنبياء عليهم السلام الإلهيّون لما يقترح عليهم من المعجزات، بل قالوا: إنّ هذا ليس من شأننا، إنّما هو منوط بإذن اللّه وأمره ويجب أن نعرف ما هى إرادته.

الدليل على هذا الكلام هو ما نقرأه فى قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ». (الرعد/ ۳۸)

كما ورد نفس هذا المعنى بوضوح فى قوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۴۹

جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَايُؤْمِنُونَ».

(الانعام/ ۱۰۹)

هذه الآية تكشف عن إلحاحهم فى طلب المعجزات من جهة، وارتباط المعجزات بإرادة اللّه المطلقه من جهة اخرى.

آخر ما يتعلّق بهذا الموضوع هو أنّ القرآن قد ذكر الكثير من معجزات الأنبياء السابقين وخرقهم للعادات، ومن البديهى أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يتمكّن أبداً من ذكر هذه المعجزات فى كتابه السماوى، ويكشف الستار عن بعضها عن طريق الوحى الإلهى، لو لم يعكس هو بنفسه جزءاً منها فى وقت يعتبر نفسه خاتم الأنبياء وأفضلهم، وكون دينه دينَ الخلود وأفضل الأديان.

كيف يقتنع الناس بامتلاك باقى الأنبياء عليهم السلام لكلّ تلك المعجزات دون نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، مع كلّ ما يتمتّع به من منزلة وعظمة؟

هذا التحليل يبيّن أنّ لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالإضافة إلى القرآن معجزات اخرى كثيرة، لم تكن أقلّ أهميّة من معجزات سالف الأنبياء عليهم السلام، وهناك أيضاً آيات قرآنية تشهد على هذا الموضوع ستأتى فى محلّها إن شاء اللّه، وبناءً على هذا فالإصرار على نفى باقى المعجزات من قبل بعض المغفّلين لا يبدو صحيحاً بأى وجه.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۱

نفحات القرآن ج۷ ۲۹۹

۲- التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء عليهم السلام

إحدى الطرق الاخرى لمعرفة الأنبياء الإلهيين عليهم السلام هى التحقيق فيما تتضمّنه دعواتهم، أى مجموعة المعارف والأحكام والقوانين، والبرامج الإنسانية والأخلاقية البنّاءة التى يدعون إليها.

وسنتكلّم عن هذه المسألة بالتفصيل فى بحث النبوّة الخاصّة، أى إثبات نبوّة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كمثال على ذلك، إذ حينما نتأمّل فى تعاليمه بدقّه نجدها وبالرغم من ظهوره فى محيط يفتقر إلى كلّ أنواع الحضارة الإنسانية بين قوم نصف متوحشين غارقين فى الخرافات والعادات الجاهلية، تمزّقهم الخلافات الكثيرة والعقائد السخيفة والكثير من الأحقاد والعداوات، نعم، وبالرغم من كلّ ذلك نجد أنّ تعاليم الدين الاسلامى عبارة عن مجموعة من العقائد التوحيدية الخالصة الحاوية على أفضل المعلومات عن اللّه وصفاته الجلالية والجمالية، والعديد من تواريخ الأنبياء عليهم السلام المذكورة بما يتناسب ورفعة منزلتهم بالإضافة إلى الأحكام والقوانين المتضمّنة للعدالة الاجتماعية، والبرامج العارية عن أوهام الخرافات والأخلاق والقيم التى تعدّ بحقّ متمّمة لمكارم الأخلاق، ونظير هذه المسائل هو ما سنتطرق لشرحه مستدلّين بالآيات والروايات.

فهل بالإمكان ظهور مثل هذه التعاليم فى مثل تلك البيئة ومن إنسان امّى؟ أليس هذا بنفسه خير دليل على صدق من جاء بها؟

ويكفى صدق نظير هذا المعنى لوحده فى حقّ كلّ واحد من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام للتدليل على صدقهم أيضاً، وبعبارة اخرى:

هل هناك معجزة أكبر من ظهور مثل تلك التعاليم من البشر؟ إنّ استحالة هذه المسألة بدون إمداد إلهى لا تخفى على أحد، فهى المعجزة بعينها.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۲

بل التحقيق فى مضمون دعوة الأنبياء ونكاتها الدقيقة، وروعة إرشاداتهم يعدّ أحياناً عند أهل النظر والمعرفة أرفع درجة من المعجزات من قبيل شقّ القمر وإحياء الموتى وإشفاء المرضى، وإن كانت المعجزات المادية والحسيّة أهمّ عند عامّة الناس، وسنكتفى بهذه الخلاصة حول هذا البحث، ونترقّب شرحه فى مكان آخر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۳

۳- جمع القرائن

اشارة

المراد ب «جمع القرائن» الذى نطرحه هنا باعتباره أحد أدلّة النبوّة هو كون دعوة كلّ نبى مقرونة بسلسلة من الاوضاع الزمانية والمكانية، والحيثيات الاخرى المحيطة بحياته الخاصّة والعامّة، فتشكّل بمجموعها عاملًا قويّاً يدلّل على صدق مدّعى النبوّة (مع قطع النظر عن مضمون دينه والذى تمّت الإشارة إليه سابقاً).

وهذا هو ما يستفاد منه اليوم فى المحافل القضائية، للكشف عن الحقيقة عند عدم وجود الشهود وعدم إقرار أو اعتراف المتّهم، بل يتيقّن القاضى من سلسلة القرائن التى تحفّ بالواقعة ببراءة المتّهم أو إدانته، وقد تفوق هذه القرائن بمجموعها الإقرار وشهادة الشهود من حيث الأهميّة فى بعض الأحيان، نظراً لإمكان الإقرار بدافع المصلحة الشخصية كالإعتراف بالجريمة لتبرئة ساحة المجرم الحقيقى فى قبال ثورة كبيرة يحصل عليها المتهم غير الواقعى سرّاً، أو أن يكون فى الظاهر من ذوى الصلاح، أما سرائرهم فملوّثة، فى حين أنّه لو تمّ جمع القرائن بشكل صحيح وكانت بالقدر الذى يعتدّ به القاضى لكان لها دور أكبر.

فوقوع حادثة قتل مثلًا فى مكان ما مع إنكار المتّهم أو المتّهمين وعدم وجود البينة، يدفع بالقاضى الفطن إلى الخوض فى جمع القرائن وتسليط الضوء على امور من قبيل:

نوع العلاقة التى تربط المتّهمين بالمقتول وهل هى قائمة على الصداقة أم العداوة؟

مكان وقوع الحادثة ومميّزاته ومدى انسجامه مع المتّهمين.

وكذلك زمان وقوع الحادثة والمكان الذى كان فيه المتّهم حينها (وما هو الدليل على ذلك).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۴

كيفية القتل ونوعية السلاح الذى استخدم فى القتل، مع مقارنته بالسلاح الذى شوهد أحياناً عند المتّهم.

روحية المتّهم وسوابقه:

ومن القرائن ردود فعل المتّهم حين مشاهدة ثياب المقتول الملوّثة بالدماء أو باقى آثار الجريمة، وإفادات الجيران وتردّد المتّهمين هناك وامور اخرى من هذا القبيل.

والتحقيق فى بعض الامور الاخرى قد يدفع بالقاضى أحياناً للبتّ بانتفاء العلاقة بين المتّهم والجريمة، منها السيرة الحسنة وعدم تناقض الأجوبة وامور اخرى وبذلك يكشف عن براءة المتّهم أو كونه المجرم الحقيقى، وبإمكان القاضى إصدار حكمه النهائى على أساس يقينه وعلمه الحاصل من هذه المقدّمات التى هى أقرب إلى الحسّ.

هـذا النوع من الاسـتدلال لاـ يختصّ بالمسائل القضائيـة، بل كثيراً ما يسـتند إليه العلماء لحلّ المشاكل التأريخيـة والاجتماعيـة العالقـة، وحتّى فرضـيات العلوم الطبيعية، بل أن دور هذا الاسـلوب لا يمكن إنكاره خصوصاً فيما يتعلّق بالمسائل السياسـية التى تبقى جذورها- ولأسباب لا تستحقّ التعليق- غامضة على الأعمّ الأغلب.

كمـا ويمكن غالبـاً التعرّف عن هـذا الطريق على الأنبيـاء الصادقين، وتمييزهم عن غيرهم فيما يتعلّق بالمـدّعين للنبوّة، إذ ينبغى هنا مثلًا الإلتفات إلى الامور التالية:

١- ما هو وضع البيئة والاصول العقائدية والأخلاقية الحاكمة عليها، وهويّة القوم الذين ينتمى إليهم؟

٢- زمان الدعوة ووضع العالم آنذاك، وماهيّة الظروف المهيمنة على محيط حياة مدّعى النبوّة فى ذلك الزمان.

٣- الخصوصيات الأخلاقية والصفات والروحيات وسيرته من حيث التقوى والورع والأمانة.

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٥٥

۴- هل الأفراد الذين اتّبعوه متّصفون بالصدق والذكاء أم أنّهم سفهاء لا تقوى لهم؟

۵- مدى إيمانه بادّعائه وحجم تضحيته وإيثاره.

۶- الطرق التى يسلكها للتعجيل بتحقيق أهدافه وهل هى مشروعة، أم ظالمة وغير منطقية؟

٧- مـا هو ردّ فعله فيمـا يتعلّق بالقبائـح أو خرافات المجتمع، وهل أنّه يخطّط لإصـلاح المجتمع أم يساوم مع مفاسـد المجتمع طمعاً فى كرسى الحكم؟

٨- مدى حبّه للدنيا والمظاهر المادية والمال والمقام؟

٩- ما هو موقفه من الأعداء لحظة الإنتصار، وهل يتصرّف مع معارضيه بعدالة أم لا؟

١٠- هل تدور شعاراته مدار المصلحة الشخصية، أم أنّه يسير دائماً على اصول ثابتة بقدم راسخة؟ وقرائن اخرى.

جميع هـذه القرائن التى تحفّ بحياة المـدّعى العامّة والخاصّة (مع قطع النظر عن مضـمون دعوته، تكون أحياناً بمثابة المشـعل الوضّاء الـذى يكشف عن صدقه أو كذبه بكلّ وضوح دونما حاجة إلى معجزة أو دليل)، بل وأحياناً يُعتبر توفّر بعض ما تقدّم ذكره دليلًا قاطعاً على إثبات هذا المقصود، وسنتناول هذا البحث بالتفصيل فى مبحث النبوّة الخاصّة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله إن شاء اللّه.

والملفت للنظر هو ما نقرأُهُ فى العديد من الروايات فى التواريخ الإسلامية عن اعتناق أشخاص لدين اللّه، لمجرّد الوقوف على عدد من هـذه القرائن، بل إنّ عـدداً من الأعـداء اللّدودين غيّروا مواقفهم وعادوا أصدقاء حميمين نتيجة ذلك، ولو تمّ جمع هذه الروايات لظهر منهـا بحث موسّع ولطيف، يعكس نور الإيمـان الـذى سـطع من القلوب المؤمنـة لمجرّد اطّلاعها على هـذه القرائن دون البحث عن أيّة معجزة.

إرشادات القرآن حول هذين الدليلين:

إنّ لآيات القرآن الكريم تعابير لطيفة حول الدليلين الأخيرين (جمع القرائن، والتحقيق

نفحات القرآن، ج٧، ص: ٢٥۶

فى مضمون الدعوة) أو على الأقل هناك إشارات بليغة إليهما من جملتها:

١- نقرأ فى قوله تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ...».

(الأعراف/ ١٥٧)

تشـير هـذه الآيـة إلى أحد الأدلّة اللاحقة أى شـهادة الأنبياء السابقين من جهة، وإلى عظمة مضـمون دعوة ذلك النبى من جهة اخرى،

وتذكر من جهة ثالثة قسماً من صفاته كشاهد على حقّانيته.

ولا شكّ أنّ الدعاة غير الإلهيين إنّما يهدفون إلى كبت طاقات الامة واستثمارها واستعمارها بدل السعى لتحريرها.

إنّهم لا يؤيّدون أبداً الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وهل يعقل صدور كلّ هذه المعارف الرفيعة والأحكام والقوانين والأوامر المدروسة من شخص جاهل ياترى؟

۲- تمّت الإشارة إلى خمسة أوصاف من صفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، والتى يمكنها أن تشهد على صدق دعوته، يقول تعالى: «لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ». (التوبة/ ۱۲۸)

۳- تمّت الإشارة فى سورة (الكهف/ ۶) إلى حرص النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الشديد على هداية المؤمنين، والذى يعدّ بنفسه دليلًا ناطقاً على إيمانه بهذا الدين الإلهى: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً» «۱». (الكهف/ ۶)

۴- تمّ التأكيد على أنّ النبى الأكرم كان امّياً، لما فى ذلك من دور فى إزالة حالة الشكّ والتردّد التى تثار حول نبوّته، يقول تعالى: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ». (العنكبوت/ ۴۸)

---

(۱) وورد نظير هذا المعنى فى سورة (الشعراء/ ۳).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۷

۵- وفى الآية التى بعدها تمّت الإشارة إلى المبشّرين بهذا الدين والمؤمنين به، يقول تعالى: «بَلْ هُوَ (القرآن) آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ». (العنكبوت/ ۴۹)

لا شكّ أنّ تأكيد علماء الامّة ومفكّريها على شىء ما، يمكنه أن يكون دليلًا وقرينة على حقّانيته.

۶- كثيراً ما نقرأ فى آيات القرآن عند وصفها للأنبياء الإلهيين ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله أنّهم لم يطلبوا أجراً أبداً، ولم يفكّروا فى العطايا الماديّة وأنّهم بقوا على عهدهم هذا طول عمرهم، فى حين أنّ المدّعى كذباً لهذا الأمر سيكون ادّعاؤه بلا شكّ لُامور ماديّة.

من جملتها ما نقرأه فى قوله تعالى «اتَّبِعُوا مَنْ لَايَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُّهْتَدُونَ» (وآثار التقوى والنزاهة ظاهرة عليهم). (يس/ ۲۱)

۷- كما نجد فى أكثر آيات القرآن الطبقات المسحوقة والمستضعفة، كانت فى الصفّ الأوّل من الذين آمنوا بالأنبياء الإلهيين، وهذا ما كان يطعن به الأثرياء المتكبّرون غالباً.

ومن جملتها ما نقرأه فى القرآن الكريم حينما استشكل فريق من الأغنياء على نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حول هذا الموضوع إذ أمره القرآن بعدم التخلّى عن هذه الثلّة المؤمنة المستضعفة أبداً:

«وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً* وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...». (الكهف/ ۲۸- ۲۹)

ولا شكّ أنّ المصلحة المادية تدفع بالمدّعين كذباً، وعبدة الدنيا للإلتفاف حول أهل الثراء على طول الخطّ.

بل نقرأ فى قسم من الآيات الشريفة أنّ هذه الطبقة المستكبرة اعتبرت المؤمنين المستضعفين طبقة المجتمع السفلى، التى لم تثبت وجودها وعبّرت عنها ب «الأراذل»، والتدقيق فى آيات القرآن يكشف عن أنّ الكثير منها تشير إلى هذا الدليل والذى قبله.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۵۹

۴- شهادة الأنبياء السابقين

الطريق الآخر الذى يمكن من خلاله تمييز الأنبياء عليهم السلام عن المدّعين كذباً هو إخبار الأنبياء السابقين القطعية الصريحة بالنسبة

للأنبياء اللاحقين، باستثناء أوّل نبى إذ لا يمكن التعرّف عليه عن هذا الطريق بل لابدّ من الرجوع إلى أحد الطرق الثلاثة التى تقدّم شرحها وهى (الإعجاز، والتحقيق فى مضمون الدعوة، وجمع القرائن).

وهذا الطريق ليس بتلك السهولة التى توهّمها بعض النفعيين بالرغم من كونه أسهل من سابقيه، ولغرض الحصول على نتيجة قطعية غير قابلة للإنكار هنا ينبغى مراعاة الشروط الأربعة التالية:

۱- إثبات «نبوّة» النبى السابق الذى يخبر عمّن يأتى بعده ويذكر صفاته، بالدليل القطعى الذى لا يقبل الإنكار، ولا يعتدّ بإخباره وشهادته هذه إلّابعد إحراز نبوّته بشكل تامّ مسلّم به.

۲- صدور هذا الخبر عن النبى السابق يجب أن يكون قطعيّاً، وعلى هذا فلا يعتدّ بالأخبار الضعيفة والمشكوكة من أى مصدر كانت، بل لا يعتدّ حتّى بأخبار الكتب المعتبرة لو لم تبلغ مرتبة القطع واليقين.

۳- دلالة هذا الخبر يجب أن تكون صريحة قطعية غير قابلة للاحتمال، إذ من الخطأ التمسّك بأحد شقّى الإحتمال والتكلّف بتطبيقه على نبوّة المدّعى الجديد بتفاسير وتوجيهات، بل وحتّى «تحريفات» فى بعض الأحيان، لأنّ هدف النبى السابق من إخباره هذا إنّما هو الكشف عن حقيقة خطيرة تقرّر مصير المستقبل، وتوقف أصحابه على هويّة النبى الجديد، وليس اللعب بالألغاز لإسدال الستار على «السرّ المكتوم»، إذ الصراحة فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۰

موقف كهذا حاكمة على الكناية بكلّ تأكيد، وذلك لسدّ الباب أمام المتذرّعين ومثيرى الفتن.

وقد تمسّك بعض مبتدعى الدين المحترفين بتأويلات وتخريجات عجيبة بالنسبة للكتب السماوية، وبلغ بهم الحدّ إلى التوسّل بحسابات ال «ابجد»! وحسابات العرّافين وأمثالها.

كيف يفكّرون ياترى؟ فالنبوّة التى ينبغى أن تكون مشعلًا لهداية البشرية ليست شيئاً محظوراً مبهماً كأسرار الكيميائيين القدماء لتتمّ عن طريق حسابات الأبجد «الصغير» و «الكبير» خوفاً من وقوعها فى غير محلّها.

۴- يجب أن تنطبق العلامات التى جاءت فى أقوال الأنبياء السابقين بالكامل على حالة المدّعى الجديد، لا أن نتصرّف فيها بملء الفراغات وحذف الإضافات التى نتصوّرها، لأنّ ذلك يعنى بالتأكيد خداعنا لأنفسنا، إذ إنّ نبيّاً كهذا إنّما هو مرسل من قبل «أفكارنا الشيطانية» لا من قبل اللّه تعالى!

لو تمّ جمع هذه الجهات الأربع الواردة فى أخبار النبى السابق لأمكن التعرّف من خلالها على مقام نبوّة المدّعى الجديد ولو غاب أحدهما لاعتلّت النتيجة.

وعلى أيّة حال فقد تمّت الإشارة إلى هذه المسألة فى موردين قرآنيين على أقلّ تقدير، وقد اكتفينا فى هذا البحث الكلّى (النبوّة العامّة) بشرح مختصر على أمل تفصيل ذلك فى «النبوّة الخاصّة»:

۱- حول بشارة المسيح عليه السلام بالنسبة لظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله نقرأ فى الآية: «وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ».

(الصف/ ۶)

لا يخفى وجود هذه البشارة (أو البشارات) حتّى فى أناجيل اليوم المحرّفة، وهو ما سنوكل البحث فيه وكذا فيما يتعلّق بكون الإسم «أحمد» من أسمائه الشريفة صلى الله عليه و آله إلى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۱

جانب الاسم «محمّد» (مدعوماً بالشواهد والقرائن) إلى المستقبل.

۲- بشارة التوراة (أو التوراة والإنجيل) بظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والتى تعرّضت لها عدّة آيات قرآنية، هى من الوضوح عند ذكرها لصفاته وكأنّه صلى الله عليه و آله يعيش بين ظهرانيهم يعرفونه كأحد أبنائهم.

بل جاء فى التواريخ أنّ هجرة اليهود من الشام وفلسطين إلى المدينة والإستقرار فيها إنّما كان لأجل تلك البشارات التى وجدوها فى كتبهم حول ظهور النبى (هذا الموضوع ورد بالتفصيل فى التفسير الأمثل ذيل الآية ۸۹ من سورة البقرة) «۱»، وعلى الرغم من كون الكثير منهم من المبلّغين لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لكنّهم سرعان ما انقلبوا على أعقابهم وامتنعوا عن الإيمان به بعد ظهوره، نظراً لتعرّض مصالحهم الشخصية للخطر، وقد لامهم القرآن على ذلك.

من الآيات التى تشير إلى هذا المعنى ما جاءت فى قوله تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»!

(البقرة/ ۱۴۶)

وورد نفس هذا المعنى فى قوله تعالى «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ»! (الأنعام/ ۲۰)

وجاء هذا المعنى بصراحة أجلى حيث قال تعالى «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ».

(الأعراف/ ۱۵۷)

كما أنّ أحد الاحتمالات الواردة فى تفسير الآيات القائلة بتصديق القرآن، والكتب «السابقة» هو أنّ المراد من «التصديق» هو انطباق القرآن وصفات النبى الأكرم صلى الله عليه و آله على تلك العلامات التى جاءت فى تلك الكتب «۲».

كما وأشارت الروايات الإسلامية إلى بشارة الأنبياء السابقين باللاحقين، إذ نقرأ فى أوّل

---

(۱) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) لمزيد من الإطّلاع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۴۹ سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۲

خطبة من خطب نهج البلاغة: «مِن سابقٍ سُمِّىَ له من بعده، أو غابر عَرَّفَهُ مَن قَبْلَهُ».

هذا التعبير الذى كشف النقاب عن طرفى القضيّة يعدّ من أبلغ التعابير حول هذا الموضوع، كما تمّ التصريح بهذا الأمر فى حديث مفصّل عن الإمام الباقر عليه السلام إذ يقول: (وبَشَّرَ آدَمُ بِنُوح».

وقال فى مكان آخر: «وبَشَّرَ نُوحٌ ساماً بِهُودٍ».

وجاء عنه عليه السلام فى موضع آخر: «فَلَمّا نَزَلَتِ التَورَاةُ عَلى مُوسى بَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله ... فَلَم تَزَلْ الأنبِياءُ تُبَشِّرُ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله حَتّى بَعَثَ اللَّهُ تَبارَكَ وتَعالى المَسِيحَ عيسَى بنَ مَرْيَمَ فَبَشَّرَ بِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه و آله» «۱».

---

(۱) شرح نهج البلاغة للخوئى، ج ۲، ص ۱۳۸- ۱۴۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۳

مسألة الوحى

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۵

«كيفية الإرتباط بعالم الغيب»

تمهيد:

لا شكّ أنّ للأنبياء الإلهيين ارتباطاً بعالم الغيب وما وراء الطبيعة، وبعبارة اخرى، أنّ لهم علاقة خاصّة باللّه تعالى، وقد استلهموا عن هذا الطريق التعاليم الخاصّة والأحكام والقوانين الإلهيّة وبلّغوها الامم.

لكن كيف كانت هذه الرابطة ياترى؟ فهذه مسألة فى غاية التعقيد، ومن السهل الإطّلاع عليها إجمالًا فى حين تعدّ الإحاطة بها تفصيلًا فى غاية الصعوبة، لاستحالة إدراكها بالدقّة من قبل من يفتقر لهذه العلاقة، بالضبط كإحساس البصير منذ ولادته بامتلاك الآخرين لحسّ إضافى، يطّلعون من خلاله على كلّ الموجودات المحيطة بهم ولامتدادات واسعة، كما ويدركون من خلالها مختلف الألوان والأنوار، أمّا ما هو هذا الحسّ، وما هى حقيقة «اللون» و «النور»؟ فهذا ما لا يمكن إدراكه أبداً.

إذن فالذى سيعرض فى مبحث الوحى وحقيقته لا يتعدّى سوى الحصول على العلم الإجمالى بخواص الوحى، مع الإجابة عن الأسئلة التى ستثار هنا، ومن هنا لا ينبغى مطالبة هذه المباحث بالكشف عن «كنه» الوحى، لاستحالة ذلك لغير الأنبياء عليهم السلام بالضبط كالمثال المتقدّم أعلاه.

فى المجلّد الأوّل من هذا التفسير «نفحات القرآن» وعند شرح خامس مصدر من مصادر المعرفة تحدّثنا بالتفصيل عن مسألة الوحى، وكشفنا النقاب عمّا يرتبط به من معارف قدر المستطاع، ولذا فقد اكتفينا بذكر موجز لمبحث الوحى، مع إضافات جديدة على ما قيل هناك، وسنوكل توضيح باقى المسائل إلى ذلك البحث، وبهذه الخلاصة نعود إلى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۶

القرآن ونتأمل خاشعين فى الآيات التالية الواردة فى هذا المجال:

۱- «وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ». (الشورى/ ۵۱)

۲- «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ». (الشعراء/ ۱۹۳- ۱۹۴)

۳- «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى». (هود/ ۶۹)

۴- «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ». (الصافات/ ۱۰۲)

۵- «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». (القصص/ ۳۰)

جمع الآيات وتفسيرها

طرق الإرتباط بعالم الغيب:

تمّ فى هذه الآيات بيان مختلف الطرق التى اتّصل الأنبياء الإلهيون عن طريقها بعالم الغيب وما وراء الطبيعة بصورة إجمالية، والتى تبلغ أربعة أو خمسة طرق:

فى الآية الاولى اشير إلى ثلاثة طرق، يقول المرحوم الطبرسى فى تفسير هذه الآية:

«ليس لأحد من البشر أن يكلّمه اللّه إلّاأن يوحى إليه وحياً كداود الذى أوحى فى صدره الزبور، أو يكلّمه من وراء حجاب مثل موسى أو يرسل رسولًا كجبرائيل إلى محمّد صلى الله عليه و آله ليبلّغه أمرَه».

فهذا الإرتباط إنّما يكون أحياناً عن طريق الإلقاء فى القلب، واخرى عن طريق الأمواج الصوتيـة التى يسـمعها النبى من الخارج، وثالثة عن طريق نزول الملك الموكّل بالوحى.

أصـل «الوحى» الإشـارة السـريعة، وذلـك يكون بالكلام على سبيـل الرمز أو بـالصوت المجرّد عن التركيب اللغوى، وتارةً بالإشارة أو الكتابة.

هذا ما ذكره «الراغب» فى «المفردات»، لكن «ابن فارس» فى «المقاييس» يرى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۷

معناه الأصلى إلقاء علم ما بشكل خفى أو علنى على شخص آخر.

ذكر «ابن منظور» أهمّ معـانى هـذه اللفظـة واعتبرها الرسالـة والإلهام والكلام من غير معاينـة، والإلقاء فى الروع، كما ذكر معظم أرباب اللغة هذه المعانى بزيادة أو نقيصة، ولكنّ الخليل بن أحمد ذكر معناه فى كتاب (العين) بأنّه الكتابة والتدوين!

أمّـا فى اصـطلاح أهـل الشـرع فيطلق على إبلاـغ الرسائل الإلهيّـة من قبل اللّه إلى الأنبياء عليهم السـلام، وإن كانت دائرة اسـتعماله فى القرآن أوسع من هـذا المعنى كثيراً، وشاملـة لكلّ أنواع الإلقاء للعلم المرموز، ولـذا اسـتعمل فى مورد الغرائز أو العلوم التى اسـتودعت عند بعض الحيوانات كالنحل مثل: «وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ». (النحل/ ۶۸)

ويقول فيما يتعلّق بما ألقاه اللّه على قلب امّ موسى بالنسبة لولدها: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى». (القصص/ ۷)

إذ قـد تمّ التعبير عن الإلهام الإلهى لها بالوحى مع عدم كونها نبيّاً قطعاً، كما أنّ يوسف لم يكن فى طفولته نبيّاً ومع ذلك يقول القرآن فى حقّه: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ (اخوتك) بِأَمْرِهِمْ هَذَا (التخطيط لقتلك)».

كذلك اسـتعملت هذه المفردة فيما يتعلّق بوساوس الشـياطين الخفية إلى أتباعهم قوله تعالى: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ». (الأنعام/ ۱۱۲)

واستعملت الأوامر الإلهيّة الغامضة فيما يتعلق بالجمادات كالأرض قوله تعالى: «بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا». (الزلزال/ ۵)

جملـة «من وراء حجاب» تعنى أنّ اللّه كان يخاطب نبيّه بأمواج صوتيـة خاصّـة خافية على الآخرين أو أنّ نبيّه كان يسـمع الخطاب دون مشاهدة مصدره، بالضبط كالكلام الذى يطرق السمع من وراء الستار.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۸

ودار الحديث فى ثانى آية عن نزول ملك الوحى وإتيانه بالقرآن للنبى صلى الله عليه و آله، يقول تعالى:

«وَإِنَّهُ (القرآن) لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

الملفت للنظر هو أنّ ملـك الوحى قـد تمّ وصـفه بوصـفين «الروح» أى عين الحيـاة و «الأـمين» إشـارة إلى الأمانـة الـتى هى أهمّ شـرط للرسالة والتبليغ.

يسـتفاد جيّـداً من مختلف الآيات والروايات أنّ ملك الوحى المأمور بإبلاغ الرسالة إلى نبى الإسـلام كان اسـمه جبرائيل، فى حين أنّه يظهر من ثـالث آيـة من الآيـات مورد البحث، أنّ الملائكـة ب «صـيغة الجمع» كـانوا أحيانـاً يؤمرون بإبلاغ الوحى الإلهى إلى الأنبياء، يقول تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ».

البشارة التى كان يحملها هذا الفريق من الملائكة هى البشارة بولادة إسماعيل وإسحاق، إذ إنّ إبراهيم عليه السلام كان قد قضى كثيراً من عمره محروماً من الولد مع تمنّيه الذرّية لحمل لوائه.

كما كانت هنالك وظيفـة اخرى للملائكـة ذكرت فى الآيات التى بعدها، إلى جانب وظيفتهم الاولى فى إبلاغ إبراهيم بالبشارة الإلهيّة ألا وهى تدمير مدينة قوم لوط وقلبها رأساً على عقب.

هنالـك نوع آخر من أنواع الوحى ذكر فى رابع آيـة وهو الرسالـة التى كـانت تصل إلى النبى عن طريق الرؤيا، وهى «رؤيا صادقـة» لا

تتفاوت مع حالة اليقظة، يقول تعالى: «قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ».

ونقرأ فى الآيات التى بعدها أنّ إبراهيم عليه السلام استعدّ لتنفيذ هذا الأمر، ولا يخفى أنّ هذه الرؤيا لو كانت مثل الرؤيا العادية لما أقدم إبراهيم عليه السلام على ذبح ابنه أبداً وهذا يكشف عن كونها وحياً إلهياً قطعيّاً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۶۹

كما يصدق نفس هذا المعنى فى حقّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فيما يتعلّق بالبشارة التى بشّر بها فى (الحلم) من دخول المسلمين إلى المسجد الحرام، وأدائهم لمناسك الحجّ بكلّ أمان:

«لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ». (الفتح/ ۲۷)

التعبير ب «صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا» يدلّ بوضوح على كون هذا الحلم حلماً إلهياً أى نوعاً من أنواع الوحى.

فى خامس وآخر آية من الآيات مورد البحث تمّت الإشارة إلى إحدى طرق ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود، والتى اشير إليها كناية فى أوّل آية أيضاً بالتعبير (من وراء حجاب) يقول تعالى: «فَلَمَّا أَتَاهَا (حينما أتى موسى النار التى رآها بجانب الطور) نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

أجل فلقد سمع موسى عليه السلام كلام اللّه مباشرة، وطبقاً لبعض الروايات «۱» يقول موسى: «لقد سمعت كلام ربّى بجميع جوارحى، ولم أسمعه من جهة واحدة من جهاتى».

هذا الكلام سمعه موسى عليه السلام من كلّ الجهات وبكافّة جوارحه (لا الاذنين فقط)، ومثل هذا الإرتباط على حدّ قول الطبرسى فى مجمع البيان يعدّ من أفضل منازل الأنبياء وأرفع أنواع ارتباطهم بمبدأ عالم الوجود.

و لا شكّ أنّ اللّه لم يكن جسماً وليس له سائر العوارض الجسمانية واللسان والأمواج الصوتية، لكنّه يتمكّن من إيصال مشيئته إلى سمع خواصّ عباده بالأمواج الصوتية التى يوجدها، ولغرض العلم بكونه من كلام اللّه ينبغى أن يكون محفوفاً بالقرائن لنفى أى احتمال آخر عنه، وهذه القرائن كانت موجودة فى قصّة موسى عليه السلام وسائر الأنبياء عليهم السلام.

هذه القرائن يمكنها أن تكون رؤية النار من الشجرة الخضراء أو سماع الصوت من كافّة

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۱۳، ص ۲۸۳؛ تفسير مجمع البيان، ج ۴ ص ۲۵۱.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۰

الجهات، مع الإحساس بكونه صادراً من الشجرة أو سماعه بكلّ أعضاء بدنه، أو على حدّ قول البعض: اتّحاد صوت كلّ الكون بهذا الصوت، أو مضموناً خاصّاً غير ممكن من غير اللّه، أو قرائن اخرى. يستفاد من سور (طه/ ۱۱)، و (النمل/ ۸) أنّ هناك كلاماً آخر أيضاً قيل لموسى عليه السلام فى هذه اللحظة إذ نقرأ فى سورة طه: «نُودِيَ يَامُوسَى* إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً».

ونقرأ فى قوله تعالى «نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا»! (النحل/ ۸)

على أيّة حال فمن مجموع الآيات أعلاه انعكست أشكال مختلفة من ارتباط الأنبياء بمبدأ عالم الوجود.

إنّ عجز الأدلّة العقلية عن حلّ جزئيات هذه المسألة هو ممّا لا يخفى، لانحصار وظيفتها فى بيان لزوم إرسال الرسل، وإنزال الكتب المستلزمة لارتباط الأنبياء بعالم الغيب، ومن هنا فينبغى الرجوع إلى الأدلّة النقلية للوقوف على جزئياتها.

توضيحان

۱- أقسام الوحى وكيفيته فى الروايات الإسلامية

مع خروج مسألة الوحی عن دائرة حسّ الإنسان الإعتیادی، وامتلاکنا لعلم إجمالی عنه دون العلم التفصیلی کما قلنا، فهنالک توضیحات أکثر فی الروایات الإسلامیة حول هذا الموضوع نشیر فیما یلی إلی بعضها:

۱- نقرأ فی حدیث عن الإمام علی علیه السلام أنّه ذکر تفاسیر وأقسام متعدّدة للوحی:

الأوّل: «وحی النبوّة والرسالة» الوارد فی الآیة الشریفة: «إِنَّا أَوْحَیْنَا إِلَیْکَ کَمَا أَوْحَیْنَا إِلَی نُوحٍ وَالنَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ ...». (النساء/ ۱۶۳)

الثانی: «الوحی الإلهامی» الوارد فی الآیة: «وَأَوْحَی رَبُّکَ إِلَی النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبَالِ بُیُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا یَعْرِشُونَ». (النحل/ ۶۸)

الثالث: «الوحی بالإشارة» کما قال اللّه عن زکریا: «فَخَرَجَ عَلَی قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَی إِلَیْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُکْرَةً وَعَشِیّاً». (مریم/ ۱۱)

الرابع: «الوحی التقدیری» کما یقول تعالی: «وَأَوْحَی فِی کُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا». (فصلت/ ۱۲)

الخامس: «الوحی الأمری» کما نقرأ عن الحوارین: «وَإِذْ أَوْحَیْتُ إِلَی الْحَوَارِیِّینَ أَنْ آمِنُوا بِی وَبِرَسُولِی». (المائدة/ ۱۱۱)

السادس: «الوحی الکاذب» بالشکل الذی یخبر اللّه تعالی به عن الشیاطین: «یُوحِی بَعْضُهُمْ إِلَی بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً». (الأنعام/ ۱۱۲)

السابع: «الوحی الإخباری» کما یقول تعالی عن فریق من الأنبیاء: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً یَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَیْنَا إِلَیْهِمْ فِعْلَ الْخَیْرَاتِ ...». «۱» (الأنبیاء/ ۷۳).

۲- یستفاد من بعض الروایات أنّ حالة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله کانت طبیعیة عند نزول جبرائیل بالوحی علیه، فی حین کان صلی الله علیه و آله یحسّ بضیق شدید عندما یکون الارتباط مباشراً، بل ربّما یغشی علیه کما ورد فی توحید الصدوق عن الإمام الصادق علیه السلام حینما سألوه: «الغشیة التی کانت تصیب رسول اللّه صلی الله علیه و آله إذا نزل علیه الوحی؟ قال ذلک إذا لم یکن بینه وبین اللّه أحدٌ، ذاک إذا تجلّی اللّه له» «۲».

۳- الآخر هو أنّ جبرائیل حینما کان ینزل علیه صلی الله علیه و آله کان ینزل بأدب ووقار، کما جاء فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السلام: (کان جبرائیل إذا أتی النبیَ قعد بین یدیه قِعْدَةَ العبید، وکان لا یدخل حتّی یستأذنه) «۳».

۴- یستفاد من روایات اخری أنّ النبی الأکرم صلی الله علیه و آله قد تعرّف علی جبرائیل بتوفیق إلهی کما جاء فی حدیث عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «ما عَلِمَ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّ جبرائیل من قبل اللّه إلّابالتوفیق» «۴».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۲.

(۲) توحید الصدوق طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶، ح ۵.

(۳) علل الشرائع طبقاً لما نقله بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶.

(۴) بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۲۵۶.

۵- وهنالک تفسیر ملفت للنظر لمسألة غشیة النبی الأکرم صلی الله علیه و آله عند نزول الوحی علیه، فی حدیث عن ابن عبّاس إذ یقول: «کان النبی إذا نزل علیه الوحی وجد منه ألماً شدیداً ویتصدّع رأسُه ویجد ثقلًا، وذلک قوله إنّا سنلقی علیک قولًا ثقیلًا، وسمعت أنّه نزل جبرئیل علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله ستّین ألف مرّةٍ».

۲- الوحى فى كلمات الفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين

فات الكثير من الفلاسفة القدماء والمعاصرين هذه الملاحظة وهى كون مسألة الوحى ارتباطاً خاصّاً للأنبياء بعالم ما وراء الطبيعة، وانحصار علمنا به بالإجمال دون التفصيل، إذ انّنا لا نرى سوى شبحٍ من بعيد، ونتيقّن بوجوده دون العلم بحقيقة ماهيّته.

ومن هنا فقد سعوا للوصول إلى حقيقة الوحى، لكنّهم اصطدموا بطريق مسدود بطبيعة الحال.

وهنا نتعرّض لنقد وتحليل نظريتين أو فرضيتين على الأصحّ للفلاسفة المتقدّمين والمتأخّرين حول هذا الموضوع لتتضح الحقيقة أعلاه:

النظرية الاولى: الفلاسفة القدماء كانوا يعتقدون أنّ حقيقة الوحى هى ارتباط الإنسان ب «العقل الفعّال»!

بيان ذلك: إنّهم يعتقدون بالأفلاك التسعة البطليموسية وبوجود النفس المجرّدة لكلّ واحدة من تلك الأفلاك (أى ما يماثل الروح بالنسبة لأبداننا)! كما أضافوا: إنّ «النفوس» الفلكية تستلهم من موجودات مجرّدة تدعى «العقول»، وبهذا فقد قالوا ب «تسعة عقول» لتلك الأفلاك التسعة، واعتقدوا وراء ذلك ب «العقل العاشر» أو «العقل الفعّال» باعتباره المصدر لكلّ المعلومات.

كما كانوا يعتقدون من جهة اخرى بضرورة إفاضة العقل الفعّال على النفوس الإنسانية وأرواحها لتدرك الحقائق وتضفى الفاعلية على قابلياتها، ويعتقدون بكون

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۳

النسبة بين قوّة الروح الإنسانية وشدّة اتّصالها بالعقل الفعّال الذى هو مصدر العلوم طردية.

واستنتجوا من هذه المقدّمات أنّ اتّصال أرواح الأنبياء بالعقل الفعّال ولشدّة قوّتها يفوق العادة، ولهذا السبب تمكّنت من استلام معلوماتها الكليّة (صورها) من العقل الفعّال فى أغلب الأحيان، ونظراً لحدّة «قواهم التخيلية» التى يدركون بواسطتها «الصور الجزئية» ولتبعيّتها للقوّة العقلية فى نفس الوقت، فقد تمكّنت من إعطاء صور محسوسة مناسبة لتلك «الصور الكليّة» التى استلموها من العقل الفعّال، لتتجسّد فى افق أذهانهم متلبسة بلباس الحسّ.

فمثلًا لو كانت تلك الحقائق الكليّة من قبيل المعانى والمعارف والأحكام فبإمكانهم سماعها على شكل ألفاظ موزونة جدّاً، وفى غاية البلاغة والفصاحة على لسان شخص فى غاية الكمال، ونظراً لكمال هيمنة قواهم التخيلية على الحسّ المشترك (الحسّ الذى يدركون من خلاله صور المحسوسات) فبإمكانها إضفاء صبغة «الحسّية» على هذه الصور «الذهنية»، وتمكين النبى من مشاهدة ذلك الشخص على هيئة ملك ببصره وسماع ألفاظه باذنيه! (تأمّل جيّداً).

إنتقادات

هذه الفرضية قابلة للنقد من عدّة جهات:

أوّلًا- إبتناؤها على «الأفلاك البطليموسية التسعة» و «العقول العشرة» التى أبطل أحدها بشكل قاطع، ولم يوجد أى دليل لإثبات الآخر، وبديهى أنّ فرضية كهذه لا يمكن قبولها أو تقييمها.

ثانياً- هذه الفرضية ليست سوى محاولة للاهتداء إلى الطريق لحل مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا، والإحاطة بها تفصيلًا، (بالضبط كرغبة المكفوف للوقوف على حقيقة النور والألوان عن طريق الفرضيات التى ينسجها مستعيناً بحواسّه) إذ من الواضح أنّ فرضيّة كهذه لا يمكنها أن تلاقى النجاح أبداً.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۴

ثالثاً- لا تتناسب هذه الفرضية بأى وجه مع الآيات القرآنية التى تتحدث عن الوحى، لأنّ الأخيرة تقول بصراحة: الوحى نوع من الإرتباط باللّه، لا بالعقل الفعّال و لا عن طريق الإلهام بالقلب أو بواسطة ملك الوحى (الملك الذى هو وجود واقعى يظهر أمامه لا أنّه

متولّد من القوّة التخيليـة أو تـأثير الحسّ المشترك)، أو أنّه يسـمع تلـك الأمـواج الصوتيـة التى أوجـدها اللّه فى جسم مـا بأذنيه لا أنّ للأصوات صبغة خيالية ومتولّدة من تأثير القوّة التخيلية أو الحسّ المشترك.

وبناءً على هذا فالفرضية أعلاه مردودة عقلًا ونقلًا.

النظرية الثانية- فسّر بعض الفلاسفة المعاصرين الوحى كأحد مظاهر الشعور الباطنى.

يقول فريـد وجدى فى «دائرة معارف القرن العشـرين» فى مادّة «الوحى»: كان الغربيون إلى القرن السادس عشـر كجميع الامم المتديّنة يقولون بالوحى، لأنّ كتبهم مشحونة بأخبار الأنبياء فلمّا جاء العلم الجديد الذى فسر كل ظاهرةٍ تفسيراً مادياً، ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحى من بقايا الخرافات القديمة، وغالت حتّى أنكرت الخالق والروح معاً.

لكن بحلول القرن التـاسع عشـر الميلادى تغيّرت وجهـة النظر فى المسائل الروحانيـة وظهرت إلى الوجود ثانيـة مسألـة الوحى، إذ أعاد فريق من العلمـاء البحث فيهـا على قاعـدة العلم التجريبى، فتوصّـلوا إلى نتائـج وإن كانت غير ما قرّره علماء الـدين الإسـلاميون، إلّاأنّها خطوة كبيرة فى سبيل إثبات أمر عظيم كان قد نسب إلى عالم الخرافة»، ثمّ يضـيف قائلًا: إنّ المؤيّدين لمسألة الروح والمظاهر الروحية دوّنوا إلى الآن (زمن تأليف دائرة المعارف) خمسـين مجلّداً ضخماً حول المطالب أعلاه، وتمّ حلّ الكثير من المسائل الروحانية بها من جملتها مسألة الوحى «۱»!

هذا نموذج من كلمات العلماء حول هذه المسألة إذ الكلام حولها كثير، ولكن بالإمكان بيان خلاصة كلامهم كما يلى:

---

(۱) دائرة معارف القرن العشرين، مادّة (الوحى).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۵

إنّهم اكتشـفوا أنّ للإنسان شـعوراً وإدراكاً وراء شـعوره وإدراكه الظاهرى، أطلقوا عليه اسم الشـعور الباطن أو الوجدان الخفى واعتبروا القسم الأـعظم من شـعور الإنسان كامناً فيه، حتّى أنّهم شـبّهوه أحياناً بالثلوج الطافيـة فى مياه المحيطات، والتى لا يخرج منها فوق الماء إلّا عشرها فى حين تبقى تسعة أعشارها تحته.

لقـد اعتبروا الوحى نوع «تجلّ للشـعور الباطنى»، ونظراً لكون الأنبياء رجالًا يفوقون العادة، فمن الطبيعى أن يتمتّعوا بشـعور باطنى أقوى، وتجلّ يفوق العادة فى أهميّته، وهو نفس ما كان يطلق عليه القدماء اسم الوحى!

كمـا ذهب البعض أحيانـاً أكثر من هـذا وقـالوا: إنّ أفكـار وعلوم ورغبـات النبى، تخلّق له إلهامـات وتطـلّ من خلالـ شـعوره البـاطنى ووجدانه الخفى على تخيّله الرفيع! بل وتترك أثراً حتّى فى نظراته فيرى الملك أمامه ويسمع كلامه «۱»!

نقد وتحليل:

هذه الفرضـية التى قال بها فريق من الفلاسفة المتقدّمين تماثل الاولى، من حيث افتقارها للسند الكافى والدليل والشاهد، ومصدرها هو نفس ما أشـرنا إليه، أى إنّهم يريدون قياس مسألة خارجة عن نطاق أفكارنا بعمقها ومحتواها بالمقاييس المتداولة، ومن المسلّم أنّ هذا الأمر محال وغاية لا يبلغها مفكّر أبداً.

وحينما نـذعن بمحدوديـة المعلومات دون المجهولات، يجب أن نقبل هـذه الحقيقـة أيضاً وهى أنّ للأنبياء الواقعيين نوعاً من الإرتباط بعالم ما وراء الطبيعة، لا يمكن شرحه وتفصيله بحواسنا الفعلية وإدراكاتنا الإعتيادية.

على أيّة حال فلهذه الفرضية جذور مشتركة مع نظرية الفلاسفة القدماء من جملتها:

۱- الوحى يمثل نوعاً من الإرتباط الخاص بعالم ما وراء الطبيعة، غير مغاير للروابط الفكرية والعقلية لسائر الأفراد!

---

(۱) الوحی المحمّدی، الطبعة ۲، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۶

۲- مصدر الوحی هو نبوغ الأنبیاء وسموهم الروحی.

۳- الوحی لا یمثل وجود مجهول روحانی مستقلّ عن وجودنا یطلق علیه رسول الوحی أو الملک الإلهی، بل منشأه هو الشعور الباطنی والإتّصال بالعقل الفعّال الذی یترک أثره فی عالم الخیال، ثمّ فی إحساس النبی فیری مظاهر الوحی ویسمعها!

لا شکّ أنّ مثل هذه التحلیلات لا تتلاءم أبداً مع ما جاء به الأنبیاء وما یستفاد من آیات القرآن من جهة، ومع الدلیل العقلی الذی ذکرناه سابقاً من جهة اخری.

فضلًا عن افتقارها کلّها للسند والدلیل، وأساساً ما هو السروراء إعجاب بعض العلماء بعلومهم ومعارفهم المحدودة إلی هذا الحدّ الذی دفعهم لتفسیر وتحلیل کلّ أسرار الکون بهذه الحصیلة من العلوم والإکتشافات، هذا الأمر یشبه قیام النحلة بتفسیر وتحلیل أنواع رموز الکامبیوترات والسفن الفضائیة والأقمار الصناعیة بمعلوماتها المحدودة، فهل نعطیها مثل هذه المکانة یاتری؟

مؤلّف تفسیر المنار وبعد نقله لهذه النظریة عن فریق من الفلاسفة الماديین، وبعبارات شبیهة للتی ذکرناها أعلاه، یضیف قائلًا: «لقد سری هذا الإشتباه إلی الکثیر من المسلمین الغارقین فی الشکّ والترديد، الذین یقلّدون العلماء المادّیین (بأبصار وآذان مقفلة) أو یقتنعون بتفاسیرهم، ثمّ یتعرّض بعد ذلک لنقد مثل هذه الأفکار بالشرح والتفصیل» «۱».

وبهذا نکون قد وصلنا لخاتمة البحث المختصر الذی اعددناه حول مسألة الوحی، إذ وکما قلنا سابقاً فلقد شرحنا هذا الموضوع شرحاً وافیاً فی «نفحات القرآن» «المجلّد الأوّل» فی مبحث «مصادر المعرفة» (المصدر الخامس).

---

(۱) تفسیر المنار، ج ۱۱، ص ۱۶۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۷

الاصول العامّة لدعوة الأنبیاء علیهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۷۹

الاصول العامّة لدعوة الأنبیاء

تمهید:

من النکات المهمّة فی مباحث النبوّة العامّة هی الاهتمام بالاصول العامّة لدعوة الأنبیاء التی تحظی بإنسجام خاصّ، والتی تعکس النشاط الذی تقوم به هذه السلسلة الجلیلة لأنبیاء اللّه بین البشریة، کقافلة عظیمة متّحدة.

وبعبارة اخری: یمکن تشبیههم باللجنة العلمیة للجامعة التی تقوم بتعلیم الطلبة وفق برمجة دقیقة، اعتباراً من المرحلة الاولی وإلی الأخیرة بشکل منسجم صفّاً بعد صف.

ومن خلال مطالعة هذه الاصول العامّة تتجلی هذه الحقیقة المتکرّرة فی القرآن، وهی أنّه «لا تفاوت بین أنبیاء اللّه، کما لا ینبغی التفریق بینهم».

و مِنَ المسلَّم أنّه لا منافاة لهذا الإنسجام مع نسخ الأدیان بعضها للبعض الآخر أبداً، بالضبط کاستبدال المناهج الدراسیة للجامعة فی

كل سنة، إذ إنّ كتب السنة الاولى لا تصلح للثانية، وهذه لا تصلح للثالثة و ... مع أنّ اصولها العامّة منسجمة مع بعضها فى نفس الوقت، فكذلك لا منافاة لهذه المسألة مع تفاوت درجات الأنبياء لأجل تفاوت مسؤولياتهم.

هذا الإنسجام فى الاصول العامّة يؤكّد من جهة على الخطوط الأساسيّة للأديان الإلهيّة ويوقفنا عليها، كما ويوضّح حقّانية دعوتهم من جهة اخرى، إذ إنّ الساسة الدنيويّون ينفى خلفهم سلفهم طبقاً للآية: «كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا». (الأعراف/ ۳۸)

وباعتبار أنّ إحدى مميّزات الطواغيت هى حالة التضادّ القائمة بينهم على طول الخطّ.

كما ويمكن لهذه المسألة من جهة ثالثة أن تكون معياراً لمعرفة حقيقة الأنبياء، من

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۰

المدّعين كذباً، لأنّ انسجامهم وتوافقهم مع الأنبياء المعروفين السابقين سيكون كقرينة لها دورها المهم.

وبهذه الخلاصة نعود لنتأمل خاشعين فى الآيات القرآنية التالية الواردة فى هذا المجال:

۱- «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (ولا تدفعنا التعصّبات العرقية والمصالح الشخصية لقبول فريق ورفض الآخر). (البقرة/ ۱۳۶)

۲- «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بنى إسرائيل) وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً». (النساء/ ۱۶۳)

۳- «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

(الأنبياء/ ۲۵)

۴- «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً». (إبراهيم/ ۱۰)

۵- «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى‌وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا». (الأنعام/ ۱۳۰)

۶- «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

(النساء/ ۱۳۱)

۷- «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

(الحديد/ ۲۵)

۸- «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا (بنبى الإسلام) وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ۶۲)

۹- «مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً». (الأحزاب/ ۳۸)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۱

۱۰- «لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَايُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا* مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا* سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». (الأحزاب/ ۶۰- ۶۲)

۱۱- «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». (الأنبياء/ ۷۳)

۱۲- «وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ انَّ الارْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ».

(الأنبياء/ ۱۰۵)

۱۳- «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ». (البقرة/ ۲۱۳)

۱۴- «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ». (هود/ ۱۱۶)

۱۵- «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ». (آل عمران/ ۱۹)

جمع الآيات وتفسيرها

وحدة المسير لدى الأنبياء جميعاً:

۱- الكلام فى أوّل آية هو عن الأمر الذى أصدره اللّه إلى المسلمين كافةً بالقول لمخالفيهم: إنّنا آمنا باللّه وما أنزل إلينا وما انزل إلى الأنبياء السابقين، كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وورد نفس هذا المضمون فى آيتين اخريين من القرآن الكريم: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَانُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ». (البقرة/ ۲۸۵)

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۲

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً». (النساء/ ۱۵۲)

وبهذا فهى تؤكّد على أنّ المؤمنين الحقيقيين هم الذين لا يفرّقون بين الأنبياء الإلهيين، ويؤمنون بكلّ تعاليمهم، وهذا خير دليل على اتّحاد الاصول العامّة لتعاليمهم.

ولِمَ لا يكونون كذلك وقد بعثوا كلّهم من قبل اللّه، وتساوت أدوارهم، كما أنّ اصول المعارف الإلهيّة وسعادة البشرية واحدة فى كلّ مكان، إذ ليست بذلك الشىء الذى يتغيّر بتغيّر جزئياته على مرّ الأيّام.

بالضبط كحاجة الإنسان إلى الطعام والملبس والمسكن والصحّة والنظافة والتربية والتعليم، إذ إنّ اصول هذه الامور ثابتة لا تقبل التغيير، فى حين أنّ جزئياتها هى فى تحوّل وتغيّر، أى، إنّ فى حالة تكامل بعبارة اخرى.

لابدّ من القول: إنّ هذه الآية وطبقاً لسبب نزولها كانت ردّاً على اليهود والنصارى، حيث كان ينفى أحدهما الآخر ويعتبر نبيّه هو الأفضل وكتابه هو الأقدس (مع إهمالهم للآخرين)، فجاء دور المسلمين للتعبير بصراحة باستحالة التفريق بين أنبياء اللّه.

على أيّة حال فهذا يعدّ توضيحاً مجملًا لوحدة الاصول العامّة لدعوة الأنبياء، والآن نعود إلى بقية الآيات التى تؤكّد على كلّ واحد من هذه الاصول.

۲- مسألة الوحى هى واحدة من هذه الاصول والتى عرضت فى ثانى آية من الآيات مورد البحث، يقول تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ (أنبياء بنى إسرائيل) وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً* رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ».

وعلى هذا فالكلّ يشير إلى الوحى والإرتباط بعالم الغيب، والكلّ يخطو فى مسيرة إبلاغ الدعوة الإلهيّة وإتمام الحجّة على الناس، لم يقل أحد منهم شيئاً من عنده، والهدف النهائى للكلّ واحد.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۳

۳- أصل التوحيد ونفى الشرك هو أحد أهمّ اصول دعوة الأنبياء، وبشهادة آيات مختلفة من القرآن، فالتوحيد هو كلامهم الأوّل حين بعثتهم، التوحيد فى كافّة الأبعاد خصوصاً فى العبادة.

و الآية الثالثة من البحث تدور حول هذا الموضوع باعتباره أصلًا عاماً فى دعوة الأنبياء، يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ

إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَاإِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ».

وورد هذا المعنى بتأكيد أكبر فى قوله تعالى «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ». (النحل/ ۳۶)

وعلى هذا فمقاومة الطواغيت وتخصيص العبادة للّه كانا يتصدّران قائمة تعاليم كلّ الأنبياء، باعتبار كون الإنسان أسيراً ما دام فى عبادة الطاغوت، وحرّاً حيث ما يعبد اللّه وحده، اللّه الذى هو مصدر كلّ القيم السامية وصاحب الأسماء والصفات الحسنى.

الملفت للنظر هو أنّ «الطَّاغُوتَ» صيغة مبالغة للطغيان الذى يعنى التعدّى وتجاوز الحدّ، ومن هنا تطلق لفظة الطاغوت على الشيطان والوثن والحاكم الجبّار والمتكبّر والمستكبر، وكلّ طريق ينتهى إلى غير الحقّ، هذه المفردة وعلى حدّ قول الراغب فى المفردات التى تستعمل فى المفرد والجمع كليهما (كما وتجمع فى نفس الوقت على صيغة «طواغيت». وفسّر لسان العرب لفظة ال «طاغوت» بمعنى الشيطان وأئمّة الضلال والإنحراف «۱».

على أيّة حال فإحدى علامات الأنبياء الحقيقيين هى الدعوة للتوحيد، واجتناب كلّ الطواغيت، فى حين أنّ المدعين كذباً يدعون الناس للشرك وعبادة الأوثان، بل وحتّى إلى عبادتهم أحياناً كفرعون، هذا النحو من النظرة السلبية للطاغوت- كما قيل فى محلّه- له أثره فى كافّة شؤون الإنسان، خاصّة فى فكّ يديه ورجليه من قيود الرقّ والعبودية ودعوته للإتّحاد والعزّة والتحرّر.

---

(۱) العجيب هو أنّ المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير الميزان، ج ۱۲، ص ۲۴۲، قد اعتبر هذه اللفظة مصدراً، مع أنّها تستعمل بالمعنى الوصفى فى كلّ المواضع، خصوصاً الموارد الثمانية الواردة فى القرآن إذ إنّها أفادت المعنى الوصفى على الأعمّ الأغلب.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۴

۴- التأكيد على نظام الكون للتعرّف من خلاله على اللّه هو أحد الاصول العامّة لدعوة هؤلاء الرجال الإلهيين، كما نقرأ فى الآية الرابعة من آيات بحثنا: «قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ (مع كلّ هذه العظمة والنظام فى الكون والأسرار الكامنة) يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى» (لتطووا طريق معرفة اللّه وتبلغوا الكمال اللازم).

أى هل يبقى هناك مجال للشكّ فى وجود اللّه مع الأخذ بنظر الاعتبار كلّ أسرار خلق السماوات والأرض، وأنواع الابداعات التى تحتويها والأسرار التى يتمّ كشفها يوماً بعد آخر نتيجة تطوّر العلوم والمعارف؟

صحيح أنّ معرفة الإنسان بأسرار خلق السماوات والأرض كانت فى قديم الزمان بسيطة، لكن نفس ذلك النظام البسيط الحاصل للإنسان بدقّة متواضعة يكفى لإثبات وجود الخالق، أمّا اليوم حيث تمّ فلق الخليّة وانشطار الذرّة والجزىء، والوقوف على الكثير من أسرارها فالتأمّل فى إحدى الذرّات كافٍ ليبعث نور معرفة اللّه فى القلوب، ويتحقّق هذا فى البيت الشعرى المعروف باللغة الفارسية والذى مضمونه:

قلب كلّ ذرّة حين فتحه‌تجد نوره يشعّ فيه

وقريب من هذا المعنى نجده فى البيت الشعرى المعروف والمنسوب للإمام على عليه السلام:

أتزعم أنّك جرم صغيروفيك انطوى العالم الأكبر

۵- التأكيد على مسألة المعاد باعتباره أصل آخر من اصول دعوتهم كما يقول تعالى فى الآية الخامسة من آيات بحثنا: «يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا».

هذا الكلام سواء كان صادراً من اللّه أم الملائكة فلا فرق فى ذلك، إذ المهمّ أنّه يعكس قيام كلّ الأنبياء والمرسلين بتحذير الناس من هول يوم القيامة واشتراكهم فى هذا الأصل الأساسى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۵

وهل ياترى أرسل إليهم رسُلًا من «الجنّ» (كما يبدو من كلمة «منكم») أم أنّ كلّ الرسل الإلهيين كانوا من الإنس؟ هناك نقاش بين

المفسّرين، وإن ذهب معظمهم إلى الاحتمال الثانى باعتبار أنّ ما جاء فى الآية السابقة إنّما هو من باب التغليب اصطلاحاً، ومع ذلك لا مانع من قيام الأنبياء والرسل الإلهيين بتكليف رسل ووكلاء لهم من جنسهم لدعوتهم كما يستفاد ذلك من قوله تعالى «وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ». (الأحقاف/ ۲۹)

۶- الدعوة للتقوى: وهى أيضاً من الاصول العامّة لدعوتهم عليهم السلام، وذلك لاستحالة ضمان الهدف النهائى من خلق البشر ونظام حياته الفردية والاجتماعية بدونها، نقرأ فى سادس آية من البحث: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ».

وهذا التعبير إلى حدّ يشمل كلّ الكتب السماوية السابقة، وبناءً على هذا فالوصيّة بالتقوى، أى، حفظ النفس وتجنّب الذنوب وعدم الخروج عن طاعة اللَّه، كان ولا يزال من الاصول المشتركة للأديان السماوية.

كما نعلم أنّ للتقوى فروعاً كثيرة، التقوى فى العمل والحديث والتفكّر والنيّة والعزم، كما أنّ للتقوى العملية فروعاً متعدّدة أيضاً، التقوى الأخلاقية والاجتماعية والسياسية، والخلاصة هى أنّ للتقوى مفهوماً واسعاً يقابل كلّ إهمال وتسيّب فى كافّة الامور، ولذا جاء فى تفسير القرطبى عن بعض الفضلاء العرفاء أنّ هذه الآية هى بمثابة القطب من الرحى وأنّ كلّ الآيات القرآنية تدور حولها «۱».

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۳، ص ۱۹۷۸.

۷- الدعوة إلى العدالة الاجتماعية هى أصل آخر من هذه الاصول الأساسية، وقد وردت بصراحة فى الآية السابعة، يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ».

ولِمَ لمْ يكن كذلك حين يستحيل على المجتمع البشرى بلوغ أهدافه النهائية أى التكامل المعنوى مع غياب إقامة القسط والعدالة الاجتماعية؟

الملفت للنظر هو قوله: إنّ الهدف من إرسال الرسل والبيّنات والكتاب والميزان هو قيام الناس بالقسط والعدل مباشرة مع تنفيذه، لا أن يفرض عليهم ذلك فرضاً، أجل فضمان هذا الهدف مرهون ببلوغ المجتمع البشرى مرحلة إقامة القسط والعدل وتنفيذه بذاته.

وحول المراد من «البيّنات والكتاب والميزان» هناك أبحاث كثيرة للمفسّرين، أقواها كما يبدو أنّ «للبيّنات» معنىً واسعاً شاملًا لكلّ المعجزات وأنواع الأدلّة العقلية التى تقام لإثبات النبوّة، و «الكتاب» إشارة إلى مجموع تعاليمهم، وامّا «الميزان» فيعنى معايير قياس الحقّ من الباطل، أو القوانين والمقرّرات التى يصل بها الحقّ إلى أهله.

وهذه كلّها وسائل لبلوغ العدالة الاجتماعية وإقامة القسط والتى تكون بدورها مقدّمة لتوفير الأرضية المناسبة لتربية الإنسان وتعليمه وتكامله «۱».

۸- أهميّة «الإيمان» و «العمل الصالح» كقيم أساسية لإنقاذ البشرية هى أيضاً من الاصول المشتركة لتعاليم الأنبياء، نقرأ فى ثامن آية من البحث:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

جاء فى أحد التفاسير المعروفة: إنّ أهل النجاة هم المسلمون الذين آمنوا بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وثبتوا على إيمانهم وعملوا صالحاً وكذا الذين عاشوا قبل ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وآمنوا بالأديان السماوية وعملوا صالحاً.

طبقاً لهذا التفسير ف «الإيمان» و «العمل الصالح» كانا كأصلين عامّين فى برامج كلّ الأديان الإلهيّة لغرض نجاة الإنسان.

---

(۱) لمزيد من الإطّلاع حول هذا الموضوع راجع التفسير الأمثل ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۷

وهناك طبعاً تفاسير اخرى لهذه الآية بإمكانك الإطّلاع عليها بالرجوع إلى التفسير الأمثل ذيل الآية ۶۲ من سورة البقرة.

۹- القضاء على «السنن الخاطئة» التى تتسبّب فى انحراف المجتمعات البشرية وتأخّرها يعدّ أيضاً من الاصول العامّة لدعوة الأنبياء.

فى تاسع آية من البحث وضمن الإشارة إلى مسألة زواج النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من مطلّقة إبنه بالتبنّى والتى نزلت لازالة إحدى العادات الجاهلية (حيث كانوا يعتبرون الإبن بالتبنّى كالإبن الحقيقى) يقول تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً».

حول ماهيّة هذه السنّة التى كانت جارية فى الأقوام السابقة والتى عطف اللَّه عليها مسؤولية النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، قال فريق من المفسّرين: المراد بها هو السنّة الإلهيّة فى رفع الموانع من الاستفادة من اللذائذ المحلّلة، أو سُنّة تعدّد الزوجات التى كانت جارية فى الامم السابقة أيضاً «۱».

فى حين أنّ هناك أدلّة واضحة فى الآيات التى تحفّ بهذه الآية تشهد على أنّ هذه السنّة كانت ترتبط بإبلاغ رسالة إلهية لا تيسير اللذائذ المحلّلة، كما نقرأ فى الآية التى بعدها:

«الَّذِينَ (الأنبياء السابقون) يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ».

لكن أنسبها كما يبدو هو أنّ هذه الرسالة الإلهيّة ليست سوى «القضاء على السنن الخاطئة» فحسب.

كما نقرأ فى الآيات التى قبلها: «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» كما يصرّح بعد هذه الآية: «لِكَيْ لَايَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً».

(الأحزاب/ ۳۷)

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۳۶۱؛ تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۱۳؛ تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۲۷۷؛ وتفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۸

هذه القرائن بمجموعها تشهد بوضوح على أنّ المراد من هذه السنّة الخالدة للأنبياء السابقين هو إزالة السنن الخاطئة والخرافية تلك.

ولِمَ لا؟! وأحد أهداف بعثة الأنبياء هو تخليص الناس من مخالب مثل هذه السنن الباطلة، لتحلّ محلّها السنن الإلهيّة.

۱۰- مقاومة المنافقين بشدّة وعدم الرضوخ لهم هى إحدى الاصول الاخرى لتعاليم الأنبياء الثابتة، كما جاء فى نفس هذه الآية وبعد الإشارة إلى أعمال المنافقين القبيحة المتعمَّدة فى المجتمع الإسلامى، والتهديد بأنّ هؤلاء المنافقين الكذّابين، والذين فى قلوبهم مرضٌ والذين يشيعون الأباطيل لو لم ينتهوا عن غيّهم ويرجعوا عن مواصلة أعمالهم العدوانية، لجعلناك تثور عليهم وتطردهم من كلّ مكان وتمزّقهم شرّ ممزّق: «سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا». (الأحزاب/ ۶۲)

صرّح معظم المفسّرين بأنّ المراد من هذه السنّة هى نفس مجاهدة المنافقين والأفراد المضرّين الذين لا ينتهون عن أعمالهم الشنيعة فى المجتمعات البشرية وعن عدائهم للأنبياء والمؤمنين «۱».

۱۱- اصول العبادات والأعمال الحسنة: كانت أيضاً من ضمن التعاليم المشتركة لهؤلاء القادة الحقيقيين كما يقول تعالى فى الآية الحادية عشرة من البحث، وضمن الإشارة إلى فريق من الأنبياء العظام: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

إشارة إلى أنّه وفضلًا عن مقام النبوّة والرسالة اللذين يتطلّبان استلام الوحى وإبلاغه

---

(۱) راجع تفاسير مجمع البيان؛ والمراغى؛ والكبير؛ والقرطبى؛ وروح البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۸۹

للناس، كانت الإمامة أى القيادة الشاملة لكل الابعاد الجسمانية والروحانية، الظاهرية والباطنية للناس ضمن مسؤوليتهم، وكان دورهم فى هذه المرحلة هو «الهداية بأمر اللَّه» أى الإيصال إلى المطلوب وبلوغ المراد، وضمن هذه المرحلة أوحى اللَّه إليهم فعل الخيرات والعبادات.

و مع أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة تعدّان من الخيرات والأفعال الحسنة، فقد تمّ التأكيد عليهما بالخصوص نظراً لأهميّتهما.

حول المراد من «الوحى» هنا فى جملة «أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ»، فقد اعتبره أكثر المفسّرين بمعنى «الوحى التشريعى»، أى إنَّ أنواع الأعمال الحسنة وضعناها ضمن برامجهم الدينية «۱»، لكن البعض الآخر فسّره بمعنى «الوحى التكوينى» أى انّنا منحناهم التوفيق لأداء هذه الأعمال بلهفة وأيّدناهم بروح القدس ليؤدّوها على أتمّ وجه.

۱۲- حكومة الصالحين: وبشكل عامّ فقد كانت حكومة «العدل الإلهى» مندرجة أيضاً ضمن برامج الأنبياء، سواء وفّقوا فى إقامتها أم أعاقتهم ظروفهم وأوضاعهم الخاصّة عن ذلك.

فى الآية الثانية عشرة من البحث إشارة لطيفة إلى هذا المعنى، يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ (التوراة) انَّ الارْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُونَ».

المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذكر ثلاثة أقوال فى تفسير «الزبور» و «الذكر»:

۱- «الزبور» يعنى كلّ كتب الأنبياء و «الذكر» يعنى اللوح المحفوظ، أى أنّ هذا الحكم جاء أوّلًا فى اللوح المحفوظ ثمّ فى كلّ كتب الأنبياء.

۲- «الزبور» يعنى الكتب النازلة بعد التوراة و «الذكر» إشارة إلى التوراة.

---

(۱) طبقاً لهذا التفسير فللآية محذوف تقديره: وأوحينا إليهم الأمر بفعل الخيرات.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۰

۳- «الزبور» يعنى زبور داود و «الذكر» يعنى التوراة «۱».

على أيّة حال فالآية تبيّن أنّ هذا كان حكماً عامّاً وسنّة إلهيّة دائمة، تقوم بتوجيه تعاليم الأنبياء نحو تأسيس حكومة الصالحين والطاهرين فى الكرة الأرضية، وقد وفّق البعض منهم أحياناً فى تشكيل نموذج لها، وطبقاً للروايات المتواترة فسيتجسّد مصداقها الكامل عند ظهور المهدى (أرواحنا فداه).

ومن البداهة أيضاً أنّ ضمان أهداف أديان الأنبياء الإلهيين مرهون بتشكيل مثل هذه الحكومة، إذ أثبتت التجارب أنّ الأحكام الإلهيّة لا يمكن تطبيقها بالكامل عن طريق الوصايا والنصائح والحِكَم فقط، بل لابدّ من استثمار كلّ طاقات الحكومة وفى كافّة الأبعاد، مع وضع الإنسان منذ لحظة ولادته وإلى وفاته تحت إشراف التعاليم السماوية.

التعبير ب «عبادى الصالحون» تعبير جامع وبليغ جدّاً، شامل لكلّ المؤهلات من حيث «الإيمان» و «العلم» و «التقوى» و «الإدارة والتدبير»، أجل، فمثل هؤلاء الأشخاص يمكنهم أن يكونوا وارثى حكومة السماء فى الأرض.

۱۳- الدعوة إلى الوحدة: الاختلاف أكبر عامل لفساد المجتمع وضياع الطاقات الماديّة والمعنوية لكلّ قوم وشعب، ومن هنا فأحد الأهداف الرئيسيّة للأنبياء وبرامجهم العامّة هو محاربة الاختلافات، كما نقرأ فى الآية الثالثة عشرة من البحث حيث يقول تعالى:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (ثمّ ظهر الاختلاف فيما بينهم) فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيما اخْتَلَفُوا فِيهِ» (و ليقضوا على تلك الخلافات).

ومع هـذا فقـد أشـعل فريق نار الفتنـة وشقّ الكلمـة، بل اختلفوا حتّى فى الحقائق النازلة فى الكتب السـماوية: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۶۶، ووردت نفس هذه المعانى الثلاثة فى تفسير القرطبى.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۱

بَيْنَهُمْ».

لكن: «فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وبناءً على هذا فقد ظهر هنالك نوعان من الاختلاف بين الامم، الاختلاف الأوّل قبل ظهور الأنبياء والناشىء من اختلاط العلوم البشرية بـأنواع الأخطـاء والجهـل والإشـتباه فى تشـخيص الحقـائق، ففرّق الأنبيـاء بين الحقّ والباطل ووضـعوا نهايـة لتلك الخلافات مـدعومين بالوحى.

الاختلاف الـذى كان بعـد ظهور الأنبياء، والناشـىء من البغى والظلم والحسد وعبادة النفس، حيث قام فريق بتفسـير ثمرة تعاليم الأنبياء طبقاً لميولهم ومصالحهم وحرّفوا الحقائق وفقاً لأهوائهم، فلم ينج من عاقبة هذه الاختلافات سوى المؤمنين الحقيقيين نظراً لعدم إمكان إزالة هذه الاختلافات إلّافى ظلّ الإيمان والتقوى.

ومن هنا يتّضـح الجواب عن سؤال يثار حول هـذه الآيـة وهو أنّه: لو كان مجيء الأنبياء هو من أجل حلّ الخلافات العقائديـة والفكرية والاجتماعية، فلماذا واصلت هذه الاختلافات مسيرها بعدهم أيضاً؟

الآيـة المـذكورة تقول بوجود التفاوت بين هـذين الاختلافين، فالأوّل نابع من الجهل والغفلـة وعـدم الإطّلاع وقـد زال ببعثة الأنبياء، امّا الآخر فقد كان متضـمّناً لدوافع كالبغى والظلم والعناد والغرور حتّى دفع بالبعض إلى مواصـلة طريق الفرقة عن قصد، حتّى بعد أن تبيّن لهم الحقّ، وفى الواقع فقد كان الاختلاف الأوّل نابعاً من قصور الناس والثانى من تقصيرهم.

على أيّـة حال يستفاد من الآيـة الآنفـة الـذكر أنّ الـدعوة إلى الوحـدة ومحاربـة الاختلاف وفى أبعاد ومجالات مختلفـة كانت من بين الاصول العامّة لمسؤولية الأنبياء.

۱۴- الدعوة إلى الإصلاح والنهى عن الفساد: تعدّ أيضاً من البرامج الرئيسيّة لدعوة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۲

الأنبيـاء، وبعبـارة اخرى فالأديـان الإلهيّـة وبالإضافـة إلى المسائـل الشخصـية، كانت ترقب عن كثب وضع المجتمع أيضاً وتـدعو الكلّ للمشاركة فى إصلاحه ومحاربة الفساد.

ولـذا تُشَمُّ من الآيـة «الرابعـة عشـرة» من بحثنـا حالـة من الإعتراض العامّ على الأقوام السابقـة التى ابتليت بالعـذاب الإلهى، حيث يقول تعـالى: «فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِى الْأَرْضِ (لم يكن العلماء فى الامم التى قبلكم متصـدّين للحكم ولذا شاع بينها الفساد واستحقّت عذابنا) إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ».

«اولوا بقيّة» أى «أصـحاب إرث وثبات»، وحيث إنّ الإنسان يـدّخر عادة الأشـياء النفيسـة ويحتفظ بها، فقد ورد هذا التعبير بحقّ اولئك الـذين يمتلكون ثروة نفيسـة أى أصـحاب العلم والشخصـية والقدرة والنفوذ، ومثل هؤلاء هم الذين يتمكّنون من الوقوف بوجه الفساد ويساعدون على بقاء الامم.

على أيّـة حـال يتبيّن من هـذا التعبير أنّ التكليف بالأمر بـالمعروف، ومحاربـة الفساد خصوصاً على مسـتوى العلماء وأصـحاب القـدرة والنفوذ، كان موجوداً فى كلّ الأديان الإلهيّة، وأنّ الكثير من الامم قد استحقّ العقاب الإلهى نتيجة الانحراف عن هذه المهمّة.

۱۵- التسـليم لأمر الحقّ تعـالى: الأصل الآخر الموجود فى كلّ الأديان، والحاكم عليها هو أصل التسـليم المطلق لأمر اللّه، لـذا نقرأ فى

آخر آية من البحث: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ».

أجل فروح وجوهر كلّ الأديان تعبر عن الحق وعن أمر الخالق وتمثل القوانين الإلهيّة وجميع الحقائق، ونظراً لكون دين نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من أفضل الأديان الإلهيّة فقد اختير له اسم الإسلام وإلّا فبالإمكان إطلاقه على كلّ الأديان السماوية.

وبناءً على هذا فالآية لا تعنى أنّ دين نبيّنا هو الإسلام (وان كان هذا هو الواقع)، بل المراد أنّ الإسلام كان الدين الحقيقى فى كلّ العصور، لأنّ التسليم أمام العقيدة الواقعية فى

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۳

مقام العمل بالأحكام الإلهيّة كان موجوداً فى كلّ الأديان الإلهيّة، وبناءً على هذا فالأديان الإلهيّة وإن كانت قد بدأت بأبسط أشكالها إلى أن انتهت بأكملها إلى دين محمّد صلى الله عليه و آله، لكن روحها كلّها واحدة ألا وهى التسليم المطلق المشار إليه أعلاه، ولا تباين أبداً بينها من هذه الناحية.

كما يقول تعالى فى مكان آخر: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ (والتسليم لأمر اللَّه) دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ». (آل عمران/ ۸۵)

ثمرة البحث:

هذه الاصول الخمسة عشر هى من أهمّ الاصول المشتركة بين كلّ الأديان الإلهيّة، وبعبارة اخرى فانّها تشكّل العمود الفقرى لكلّ المذاهب السماوية وجميع تعاليم الأنبياء، كما أنّ بالإمكان تشخيص الأديان الحقيقية من المذاهب المختلقة والإنحرافية عن طريقها.

كما أنّ التدقيق فيها يعكس من جهة اخرى تلك القيم السامية لتعاليم الأنبياء وعلى مرّ القرون والأعصار، بالإضافة إلى كونها لوحدها من الأدلّة على صدق دعوتهم وحقّانية دينهم.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۵

الأنبياء عليهم السلام فى القرآن المجيد

اشارة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۷

الأنبياء فى القرآن المجيد

تمهيد:

اشارة

سيتمّ فى هذا البحث الإجابة عن عدّة أسئلة مهمّة تدور حول أنبياء اللَّه ورسله:

۱- عدد الأنبياء فى القرآن.

۲- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن.

۳- الكتب السماوية للأنبياء.

۴- الفرق بين الرسول والنبى.

۵- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟

۶- تكامل الأديان.

القرآن هو محور كلّ هذه الأبحاث بطبيعة الحال، وعلى أساس التفسير الموضوعى، أى أنّه سيتمّ البحث فى هذه الجهات على ضوء القرآن أوّلًا، ومن ثمّ نبحث على حدة باقى المسائل المستفادة من الروايات الإسلامية، والتواريخ والأدلّة العقلية، لتتّضح مختلف أبعاد هذه المباحث.

۱- عدد الأنبياء فى القرآن:

لنتمعن فى آيات القرآن الكريم خاشعين:

نقرأ فى قوله تعالى «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ». (المؤمن/ ۷۸)

يتّضح من هذه الآية عدم مجيء أسماء فريق من الأنبياء والرسل الإلهيين فى القرآن

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۸

المجيد (على الأقل فى السور النازلة قبل سورة المؤمن) «۱»، وأنّ عددهم يزيد على المذكور فى القرآن.

نظير هذا المعنى ورد أيضاً فى قوله تعالى «وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً» «۲». (النساء/ ۱۶۴)

طبعاً لم يتّضح عدد انبياء اللَّه ورسله من خلال تعرّض آيات القرآن لذكر العدد، لكن يستفاد من بعض الآيات أنّ عددهم كان كبيراً جدّاً، كما نقرأ فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى «إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ». (فاطر/ ۲۴)

مع الأخذ بنظر الإعتبار عنوانى «بَشيراً» و «نَذيراً»، الواردين فى حقّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى صدر الآية، يتّضح أنّ المراد من كلمة «نذير»، فى ذيل الآية هم انبياء اللَّه ورسله أيضاً، كما يستفاد من عموم مفهوم الآية أنّ هناك نبيّاً إلهيّاً كان قد ظهر بين كلّ امّة من الامم فيما مضى وأنّه قام بتحذيرهم. وتفسير بعض المفسّرين لكلمة «نذير» هنا بالمعنى الأوسع الشامل لكلّ الفقهاء والعلماء الذين ينذرون الناس ويحذّرونهم، يخالف ظاهر الآية بطبيعة الحال.

وبهذا يتّضح جيّداً أنّ عدد الأنبياء من وجهة نظر القرآن عدد هائل!

سؤال:

وهنا يرد هذا السؤال وهو: كيف يُمكن الجمع بين مضمون الآية أعلاه وبعض الآيات القرآنية التى تخاطب نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالقول: «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ». (سبأ/ ۴۴)

وكذا فى قوله تعالى: «تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ* لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ» «۳». (يس/ ۵- ۶)

---

(۱) سورة المؤمن وطبقاً لقولٍ: هى السورة السابعة والخمسون النازلة على النبى صلى الله عليه و آله.

(۲) سورة النساء طبقاً لروايةٍ: هى السورة الثانية والتسعون النازلة على النبى صلى الله عليه و آله.

(۳) ذهب معظم المفسّرين إلى أنّ «ما» فى جملة «مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ» «نافية، لجملة «فَهُمْ غَافِلُونَ»، والآية الثالثة من سورة السجدة: «لِتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ»، خير شاهد على هذا المدّعى، فى حين اعتبر البعض الآخر «ما» موصولة أو مصدرية، لكن كلا هذين الإحتمالين ضعيفان حسب الظاهر، والذى قيل إنّما على أساس المعنى الأوّل.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۲۹۹

الجواب:

الظاهر أنّ المراد من ال «نذير» فی هذه الآیات هم الأنبیاء العظام خصوصاً الأنبیاء اولی العزم، الذین شاعت سمعتهم فی کل مکان، وإلّا فهناک حجّة إلهیة فی کلّ زمان للمشتاقین والطالبین طبقاً لمختلف الأدلّة العقلیة والنقلیة التی بحوزتنا، ولو اعتبرت الفترة ما بین المسیح علیه السلام ونبی الإسلام صلی الله علیه و آله فترة رکود وجمود، فإنّما هی بسبب عدم ظهور نبی عظیم ومشهور، لا عدم وجود حجّة إلهیة مطلقاً.

ولذا یقول الإمام علی علیه السلام حول هذا الأمر: «إنّ اللَّه بعث محمّداً صلی الله علیه و آله ولیس أحد من العرب یقرأُ کتاباً ولا یدّعی نبوّة» «۱».

علی أیّة حال یستفاد من مجموع ما قیل أنّ عدد انبیاء اللَّه ورسله وعلی طول التاریخ کان کبیراً جدّاً، وأنّ القرآن لم یشخّص لهم رقماً بالخصوص.

عدد الأنبیاء الذین صرّح القرآن بأسمائهم یبلغ ۲۶ نبیّاً فقط وهم عبارة عن: آدم، نوح، إدریس، صالح، هود، إبراهیم، إسماعیل، إسحاق، یوسف، لوط، یعقوب، موسی، هارون، شعیب، زکریا، یحیی، عیسی، داود، سلیمان، إلیاس، الیسع، ذو الکفل، أیّوب، یونس، عزیر، ومحمّد (صلوات اللَّه وسلامه علیهم أجمعین).

وجاء فی سورة الانعام اسم ثمانیة عشر منهم، یقول تعالی: «وَتِلْکَ حُجَّتُنَا آتَیْنَاهَا إِبْرَاهِیمَ عَلَی قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّکَ حَکِیمٌ عَلِیمٌ* وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَیَعْقُوبَ کُلًّا هَدَیْنَا وَنُوحاً هَدَیْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّیَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَیْمانَ وَأَیُّوبَ وَیُوسُفَ وَمُوسَی وَهَارُونَ وَکَذَلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ* وَزَکَرِیَّا وَیَحْیَی وَعِیسَی وَإِلْیَاسَ کُلٌّ مِنَ الصَّالِحِینَ* وَإِسْمَاعِیلَ وَالْیَسَعَ وَیُونُسَ وَلُوطاً وَکُلًّا فَضَّلْنَا عَلَی الْعَالَمِینَ». (الأنعام/ ۸۳- ۸۶)

وجاء فی سورة الأنبیاء اسم کلّ من إدریس وذا الکفل: «وَإِسْمَاعِیلَ وَإِدْرِیسَ وَذَا الْکِفْلِ کُلٌّ مِنَ الصَّابِرِینَ». (الأنبیاء/ ۸۵)

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳۳ و ۱۰۴.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۵

واشیر فی سورة هود إلی إثنین آخرین منهم (هود وصالح): «وَیَا قَوْمِ لَایَجْرِمَنَّکُمْ شِقَاقِی أَنْ یُصِیبَکُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ». (هود/ ۸۹)

واشیر فی سورة العنکبوت إلی شعیب: «وَإِلَی مَدْیَنَ أَخَاهُمْ شُعَیْباً». (العنکبوت/ ۳۶)

واشیر فی سورة التوبة إلی عُزَیر: «وَقَالَتْ الْیَهُودُ عُزَیْرٌ ابْنُ اللَّهِ». (التوبة/ ۳۰)

ونقرأ فی سورة آل عمران: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَی آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِیمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَی الْعَالَمِینَ». (آل عمران/ ۳۳)

أخیراً وفی آخر آیة من سورة الفتح، ورد اسم خاتم الأنبیاء صلی الله علیه و آله: «محمّد رسول اللَّه».

وهذا هو مجموع اولئک العظماء الستّة والعشرین فی مقاطع خاصّة من آیات القرآن.

لکن علاوة علی هذا فهنالک ۲۶ نبیّاً عظیماً آخر اشیر إلیهم فی القرآن دون التعرّض لذکر أسمائهم مثل: اشموئیل «۱» الذی اشیر إلیه فی سورة البقرة تحت عنوان: «وَقَالَ لَهُمْ نَبِیُّهُمْ ...». (البقرة/ ۲۴۷)

ویوشع الذی اشیر إلیه فی سورة الکهف تحت عنوان: «وَإِذْ قَالَ مُوسَی لِفَتَاهُ ...». (الکهف/ ۶)

إذ یعتقد الکثیر من المفسّرین أنّ المراد به هنا هو یوشع بن نون.

و «أرميا» الذى ذكر فى سورة البقرة تحت عنوان: «أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ ...».

(البقرة/ ۲۵۹)

وإن اعتبره البعض «عُزير» أو الخضر، لكنّه ورد فى رواية الإمام الباقر عليه السلام باسم «أرميا».

«الخضر» الذى جاء فى آيات متعدّدة من سورة الكهف من جملتها الآية (۶۵) تحت عنوان: «عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا»، وإن لم يرد إسمه صريحاً فى هذه الآيات، لكن طبقاً للمشهور فهو أيضاً من أنبياء اللَّه ورسله، وهنالك قرائن متعدّدة على ذلك فى آيات من سورة الكهف.

كما يستفاد من قوله تعالى أنّ الوحى كان ينزل على «أسباط بنى إسرائيل»، حيث يقول تعالى: «وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ». (النساء/ ۱۶۳)

---

(۱) قال البعض أنّ إسمه «يوشع»، وذهب غيرهم إلى أنّه «شمعون»، لكن المشهور بين المفسّرين هو نفس «اشموئيل» (تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۳۵۰).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۱

«الأسباط»: جمع سبط على وزن (قِسْط) تعنى هنا قبائل بنى إسرائيل التى كان لكلّ واحدة منها نبيّاً، خلاصة القول هى أنّ عدد الأنبياء الذين أشار اللَّه إلى قصصهم وحياتهم فى القرآن يتجاوز ال ۲۶ نبيّاً، لاختصاص هذا العدد بمن صرّح القرآن بأسمائهم فقط.

۱- عدد الأنبياء فى الأحاديث والروايات الإسلامية:

هناك فى الروايات الإسلامية بحث واسع حول عدد الأنبياء والرسل، من جملتها ما جاء فى رواية مشهورة أنّ عددهم هو ۱۲۴ ألفاً، كما بلغ عددهم فى بعضها ۸ آلاف نبى فقط أربعة آلاف منهم من بنى إسرائيل وأربعة آلاف من غيرهم «۱».

جاء فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «خلق اللَّه عزّوجلّ مائة الف نبى وأربعة وعشرين الف نبى، أنا أكرمهم على اللَّه ولا فخر (لأنّ ذلك من لطف اللَّه)، وخلق اللَّه عزّوجلّ مائة الف وصى وأربعة وعشرين الف وصى، فعلى أكرمهم على اللَّه وأفضلهم» «۲».

ونقرأ فى حديث آخر للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله، عن أبى ذرّ رحمه الله، قلتُ: يارسول اللَّه كم النبيّون؟، قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبىّ. قلت كم المرسلون منهم؟ قال ثلاث مائة وثلاثة عشر جمّاً غفيراً» «۳».

وفى حديث آخر ينقل الإمام الباقر عليه السلام عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «كان عدد جميع الأنبياء مائة ألف نبى وأربعة وعشرين الف نبى، خمسة منهم اولوا العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد» «۴».

۲- الأنبياء اولوا العزم فى القرآن

تمّت الإشارة فى القرآن المجيد إلى الأنبياء اولوالعزم وذلك. حين كان الخطاب موجّهاً

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۴، ص ۵۳۷.

(۲) بحار الأنوار، ج ۱۱، ص ۳۰، ح ۲۱.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۲، ح ۲۴.

(۴) المصدر السابق، ص ۴۱، ح ۴۳.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۲

إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ».

(الاحقاف/ ۳۵)

للمفسرين كلام طويل عن هويّة اولى العزم من الأنبياء وهناك احتمالات وتفاسير متعدّدة حول هذا الموضوع يفتقر معظمها إلى الدليل.

ومن جملتها:

۱- الأنبياء كلّهم اولوالعزم لتمتّعهم بعزم راسخ وإرادة قويّة! لكن هذا التفسير إنّما يصحّ حينما تكون «مِنْ» فى جملة «من الرسل» بمعنى البيان فى حين أنّ ظاهر الآية يدلّ على كونها تبعيضية، وقد نقل المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان هذا الكلام عن أكثر المفسّرين «۱».

۲- الأنبياء اولوا العزم ۳۱۳ نبيّاً، كما جاء فى الدرّ المنثور عن جابر بن حيّان (مرسلًا) أنّه قال: «بلغنى أنّ اولى العزم من الرسل كانوا ثلاث مائة وثلاثة عشر».

۳- ويقول البعض بأنّهم اولئك الثمانية عشر نبيّاً المذكورة أسماؤهم فى الآيات ۸۳- ۸۶ فى سورة الأنعام «۲».

۴- أنّهم اولئك الأنبياء الذين تحمّلوا مزيداً من الصبر أمام أذى أقوامهم، وواجهوا كثيراً من الشدائد والمشاكل، وهم تسعة: نوح، إبراهيم، إسماعيل، يعقوب، يوسف، أيّوب، موسى، داود، عيسى عليهم السلام «۳».

لكن من الواضح أنّ الأنبياء الذين صمدوا أمام المشاكل والمصاعب لم ينحصروا بهؤلاء، إذ الكثير منهم ذاق مشاكل ومصاعب أقسى وأمرّ، فضلًا عن عدم كون الإبتلاء بالمشاكل دليلًا على كونهم من اولى العزم.

۵- أنّهم كانوا أنبياءَ صبروا أمام أذى الأعداء، وهم ستّة: نوح وإبراهيم وإسحاق (إسماعيل) ويعقوب ويوسف وأيّوب.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۹۴.

(۲) تفسير روح البيان نقل هذا التفسير عن الحسن بن الفضل، ج ۲۶، ص ۳۱.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۳

لكن وكما قلنا فالأنبياء الصابرون لا ينحصرون بهؤلاء، بل إنّ أنبياء مثل لوط ويحيى وجرجيس وأمثالهم تحمّلوا ضغوطاً وأذىً كثيراً.

۶- أنّهم كانوا أنبياء مأمورين بالجهاد ومحاربة الأعداء إعلاءً لدين اللّه، وكانوا ستّة: نوح وهود وصالح وموسى وداود وسليمان.

سقم هذا التفسير واضح أيضاً إذ لم يقاتل الأعداء كلّ هؤلاء الستّة كما لم يتخلّ عن القتال غيرهم مطلقاً «۱»!

۷- أفضل تفسير ورد حول اولى العزم فى القرآن المجيد هو أنّهم أنبياء جاءوا بشريعة جديدة، وكانوا أربعة من السابقين (نوح وإبراهيم وموسى وعيسى) حيث يكتملون بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله خمسة، والتعبير ب (اولو العزم) إنّما هو لأجل أنّ الأنبياء أصحاب الشريعة الجديدة تقع على عاتقهم مسؤولية خطيرة، وبالتالى يحتاجون إلى العزم والإرادة لأدائها، هذا المعنى نقل من حديث عن «الإمامين الباقر والصادق» عليهما السلام.

المرحوم الطبرسى نقل هذا القول فى مجمع البيان عن ابن عبّاس، كما جاء هذا التفسير فى «روح المعانى» عن الإمامين العظيمين الباقر والصادق عليهما السلام، وكذا عن ابن عبّاس، كما ينقل عن المفسّر المعروف السيوطى أنّ هذا من أصحّ الأقوال، وينقل عن بعض العظام من العلماء أنّ الأسماء المقدّسة لهؤلاء الأنبياء الخمسة قد ذكرت ضمن هذا البيت الشعرى:

اولوالعزم نوحٌ والخليل الممجَّدُوموسى وعيسى والحبيب محمّد صلى الله عليه و آله «۲»

۳- الكتب السماوية للأنبياء

بديهى أنّ لكلّ واحد من الأنبياء اولى العزم (طبقاً للتفسير الأخير الذى ذكرناه) كتاباً سماوياً حيث إنّ اسم البعض منها معروف بالكامل، فالقرآن المجيد هو الكتاب السماوى

---

(۱) هذه الأقوال والتفاسير نقلت بشكل رئيسى من تفاسير مجمع البيان؛ وروح المعانى؛ والدرّ المنثور ذيل الآية ۳۵ من سورة الأحقاف.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۶، ص ۳۲. نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۴

لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله والإنجيل كتاب المسيح عليه السلام والتوراة كتاب موسى عليه السلام.

لكن ما هو اسم الكتاب السماوى لنوح وإبراهيم؟ بالإمكان الإستنتاج من الآية ۱۹ من سورة الأعلى (صحف إبراهيم وموسى) أنّ اسم كتاب إبراهيم هو ال «صحف»، بالضبط كما ذكروا اسم ال «صحف» لكتاب نوح أيضاً.

كما ورد اسم البعض من الكتب الاخرى فى القرآن من جملتها ال «زبور» الذى أنزله اللَّه على داود «وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً». (النساء/ ۱۶۳)

و الظاهر أنّ الإسم الآخر للزبور هو المزامير (جمع مزمور أى الأشعار الروحية بالصوت الجذاب).

«الزبُور»: لم يكن كتاباً سماوياً حاوياً على الأحكام والشريعة الجديدة.

وبعبارة اخرى فالكتب السماوية النازلة على الأنبياء على ضربين:

۱- الكتب السماوية الحاوية على الأحكام التشريعية الجديدة، والتى تعلن عن دين جديد كالكتب الخمسة النازلة على الأنبياء الخمسة اولى العزم.

۲- الكتب الخالية من الأحكام الجديدة، المشتملة على النصائح والمواعظ والوصايا والأدعية والمناجاة، كتاب «الزبور» أو الكتاب المنسوب ل «إدريس» عليه السلام هو من هذا القبيل.

نختم هذا البحث برواية عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

يقول أبو ذرّ: قلت يارسول اللَّه كم الأنبياء؟ فقال: «مائة الف نبى وأربعة وعشرون الفاً.

قلت كم المرسلون منهم؟ قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر».

ثمّ يضيف قائلًا: فسألته: كم أنزل اللَّه من الكتب السماوية؟ قال: «۱۰۴ كتب، ۱۰ كتب على آدم و ۵۰ كتاباً على شيث و ۳۰ كتاباً على إدريس و ۱۰ كتب على إبراهيم (التى يبلغ مجموعها مائة كتاب) والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان» «۱».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۷۶.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۵

۴- الفرق بين الرسول والنبى

«نبى» من مادّة «نبأ» بمعنى «الرسالة» أو «الرسالة المهمّة»، وإنّما يطلق «النبى» على الأنبياء الإلهيين، نظراً لإيصالهم رسالة اللَّه إلى الخلق، وقيل أحياناً إنّ هذه المفردة مأخوذة من مادّة «نَبْوَة» (على وزن حمزة) بمعنى الرفعة والسمو، وإطلاق هذه المفردة على الأنبياء إنّما هو لعلو مقامهم ومرتبتهم.

«رسول» هى فى الأصل من مادّة «رِسْل» (على وزن فِعْل) التى أصلها الحركة بتؤدة وسكينة على حدّ قول الراغب فى المفردات، وحيث

إنّ المبعوثين من قبل اللّه مأمورون بمعاملة الناس بهدوء وسكينة فقد اطلقت لفظة «رسول» عليهم، لكن لكلمة «الرسول» معنىً واسعاً شاملًا لكلّ من الملائكة وكذلك الأنبياء الإلهيين، وقد استعمل كلا المعنيين فى القرآن بشكل مكثّف.

على أيّة حال فاستعمال كلّ من لفظتى «نبى» و «رسول» ومشتقّاتهما كثير جدّاً فى القرآن، وحول الفرق بينهما أى من الذى يسمّى نبيّاً ومن يسمّى رسولًا؟ فالحديث طويل.

جاء فى روايات متعدّدة منقولة عن أهل البيت عليهم السلام أنّهم قالوا فى معرض الإجابة عن السؤال عن الفرق بينهما: «النبىُ الذى يرى فى منامه (ويستلم الوحى الإلهى عن هذا الطريق) ويسمع الصوت (صوت الملك) ولا يعاين الملك، والرسول الذى يسمع الصوت، ويرى فى المنام، ويعاين الملك» «۱».

كما يعتقد البعض أنّ «النبى» هو الذى يستلم الوحى، سواء كان مكلّفاً بإبلاغه أم لا، لكن لو سألوه فسيجيب حتماً، أمّا الرسول فهو صاحب شريعة، ومأمور بإبلاغها دون انتظار للسؤال أو الطلب.

وبعبارة اخرى ف «النبى» هو كالطبيب الماهر الذى يقابل المرضى فى عيادته، فهو لا

---

(۱) هذا هو الحديث الذى نقله المرحوم الكلينى عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام اصول الكافى، ج ۱ ص ۱۷۶ كما نقل نفس هذا المضمون فى رواية اخرى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام (بتغيير بسيط)، وورد نفس هذا المضمون فى روايتين اخريين إحداهما عن الإمام الباقر والاخرى عن كلا الإمامين (الباقر والصّادق عليهما السلام) فى اصول الكافى بتفاوت بسيط، المصدر السابق، ص ۱۷۶ و ۱۷۷.

يذهب وراء المرضى، امّا لو راجعه أحدهم فلن يقصّر فى علاجه، امّا الرسول فهو كالطبيب السيّار الذى يطوى المدن والقرى والجبال والسهول والصحارى ويتوجّه إلى كلّ مكان ليتعرّف على المرضى ويشرع فى علاجهم، إذ هو فى الحقيقة عين نابعة يسعى معينها وراء العطاشى، وليس كمخزن الماء الذى يبحث عنه الظمئان!

الجمع بين هذا المعنى والذى سبقه هو فى غاية السهولة، إذ كلّما كانت المسؤولية أكبر كلّما كان استلام الوحى أوضح- وبعبارة اخرى فهناك تناسب طردى بين حجم المسؤولية وبين وضوح استلام الوحى- فالنبى يرى فى المنام فقط أو يسمع صوت المَلَك، أمّا الرسول فيعاين المَلَك فى اليقظة أيضاً.

كما اعتبر البعض الرسل أصحاب شريعة جديدة امّا الأنبياء فليس من الضرورى أن تكون لهم شريعة.

التأمّل فى آيات القرآن يبيّن أنّ مقامى «النبوّة» و «الرسالة» قد جمعا فى كثير من الموارد فى شخص واحد، مثل نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى اعطى له كلّ من عنوانى النبى وكذلك الرسول فى الآيات القرآنية «۱».

وكذلك الكثير من الأنبياء الإلهيين الآخرين كانوا يتمتّعون بمقامى النبوّة والرسالة، (وبناءً على هذا فالذين يقولون بوجود نسبة العموم والخصوص المطلق بينهما، إنّما ينطلقون من هذه الآيات).

لكنّهما ظهرا فى بعض الآيات كمعنيين متقابلين وكأنّهما مفهومان متغايران، كما جاء ذلك فى قوله تعالى: «مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ...». (الحجّ/ ۵۲)

إذ يجب أن يكون الرسول والحالة هذه مكلّفاً بالسعى لإبلاغ الرسالة الإلهيّة إلى الخلق

---

(۱) نقرأ فى سورة (الأعراف/ ۱۵۷) حول نبى الإسلام: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ»، وجاء فى سورة (الأحزاب/ ۴۵): «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً»، ونقرأ فى سورة (مريم/ ۵۱) حول موسى: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ

رَسُولًا نَبِيّاً» وفى نفس السورة الآية ۵۴ حول إسماعيل: «وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيّاً ...»، إذ يبدو من هذه الآيات أنّ كلا هذين المفهومين قد جمعا فى شخص واحد.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۷

والإنذار والبشارة دون «النبى».

نستنتج من هذا البيان أنّ لكلّ من هاتين المفردتين معنيين إثنين، تجتمعان فى أحدهما وتتقابلان فى الآخر.

۵- لماذا ظهر الأنبياء الكبار من منطقة خاصّة؟

يثار أحياناً السؤال عن ظهور الأنبياء اولى العزم أصحاب الشريعة والكتاب السماوى من الشرق الأوسط طبقاً لصريح تواريخهم، فقد ظهر نوح عليه السلام فى أرض العراق «۱»، وكان مركز دعوة إبراهيم عليه السلام العراق والشام كما سافر إلى مصر والحجاز.

وظهر موسى عليه السلام فى مصر ثمّ جاء إلى فلسطين، وكان مركز ولادة وظهور ودعوة المسيح عليه السلام الشام وفلسطين، وظهر نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى الحجاز.

كما عاش الأنبياء الآخرون غالباً فى هذه المناطق وبشكلٍ بحيث يمكن القول: إنّ منطقة الشرق الأوسط كانت مركزاً لظهور الأنبياء فى العالم!

فما هو السبب وراء ظهور كلّ اولئك الأنبياء من هذه المنطقة من العالم بالذات؟ وهل ياترى كانت المناطق الاخرى فى غنىً عن بعثة الأنبياء أو قبولهم؟

الجواب:

لدى التأمّل فى كيفية نشوء المجتمعات البشرية وظهور حضارتها لا يبقى هناك إبهام فى هذه المسألة يبعث على التساؤل والاستفهام، إذ إنّ أقطاب مؤرّخى العالم يصرّحون بأنّ الشرق (خصوصاً الشرق الأوسط) كان مهداً للحضارة الإنسانية، وأنّ المنطقة التى يطلق

---

(۱) نقرأ فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «كانت الكوفة ومسجدها فى زمن نوح عليه السلام وكان منزل نوح‌وقومه فى قرية على متن الفرات ممّا يلى غربى الكوفة» (تفسير العياشى، تفسير سورة هود، ح ۱۹).

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۸

عليها اسم الهلال الخصيب (الهلال الخصيب إشارة إلى المنطقة التى تبدأ من وادى النيل وتمتدّ إلى مصبّ دجلة والفرات وشطّ العرب، وتظهر فى الخارطة على شكل هلال كبير) هى مهد الحضارات العظيمة فى العالم.

حضارة مصر القديمة التى تعدّ أقدم حضارة عرفتها البشرية، وحضارة بابل فى العراق وحضارة اليمن فى جنوب الحجاز، وكذلك حضارة ايران والشامات، كلّها نماذج للحضارات البشرية المعروفة.

والآثار التاريخية الباقية فى هذه المناطق والكتابات الحجرية، كلّها شواهد حيّة على هذا المدّعى.

إنّ عودة الحضارة الإنسانية فى هذه المناطق إلى سبعة آلاف سنة أو أكثر من جهة، والملازمة الشديدة بين الحضارة البشرية وبين ظهور الأنبياء الكبار، نظراً للحاجة الماسّة للناس المتحضّرين إلى الأديان الإلهيّة أكثر من غيرهم، ضماناً للقوانين الحقوقية والاجتماعية، وتفجيراً لطاقات فطرتهم الإلهيّة، مع الحدّ من الإعتداءات والمفاسد من جهة اخرى، دفعتنا للقول بأنّ حاجة إنسان اليوم إلى الدين خصوصاً فى الدول الصناعية المتطوّرة هى أكبر من أى زمان آخر.

الأقوام المتوحشّة أو البعيدة عن ألوان المدنية ليس لها ذلك الإستعداد لتقبّل الأديان، بل ليس لها القدرة على نشرها على فرض تقبّلها

لها.

لكن حينما يظهر الدين فى المراكز المتحضّرة لا يلبث أن يمدّ بجذوره ليشمل باقى النقاط، وذلك لاستمرارية تردّد الآخرين على مثل هذه المناطق، أملًا فى حلّ مشاكلهم فضلًا عن تمركز وسائل الدعاية والإعلام فيها أكثر من غيرها.

يمكن أن يقال: إذن فلماذا ظهر الإسلام الذى هو أكبر الأديان السماوية فى منطقة متأخّرة حضارياً؟

وللاجابة عن هذا السؤال نقول: لو دقّقنا النظر فى الخارطة الجغرافية لرأينا أنّ هذه المنطقة المتأخّرة أى «مكّة» كانت فى الواقع همزة وصل بين آثار خمس حضارات كبيرة

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۰۹

وعريقة، بل هى بمثابة مركز الدائرة بالنسبة لتلك الحضارات.

ففى الشمال حضارة الروم الشرقية والشامات، وفى الشمال الشرقى حضارة ايران والكلدانيين والآشوريين، وفى الجنوب حضارة اليمن، وفى الغرب حضارة مصر القديمة.

ولنفس هذا السبب بالضبط وضع الإسلام وضمن مرحلة انتشاره واتّساعه كلّ امتدادات هذه الحضارات الخمس تحت سيطرته وصهرها فى بودقته حيث أخذ إيجابياتها وألغى سلبيّاتها، كما أضاف إليها مسائل عقائدية وعملية مهمّة حتّى أشرقت شمس الحضارة الإسلامية على كلّ هذه المناطق من أقصاها إلى أقصاها.

الخلاصة هى أنّه ومع الأخذ بنظر الإعتبار لما ذكرناه سابقاً يتّضح السبب وراء بعث اللَّه الحكيم لأنبيائه العظام من منطقة الشرق الأوسط، ولماذا كان مشرق الأرض قاعدة لانطلاق الأديان الإلهيّة الكبيرة؟

۶- تكامل الأديان

مقدمة: تاريخ الانبياء جزء من تاريخ الاديان

تعرّض القرآن وفى آيات عديدة لبيان تاريخ الأنبياء ومن هنا سمّيت الكثير من سور القرآن بأسماء الأنبياء العظام أو أسماء اممهم، حتّى أنّ تاريخ نبى عظيم مثل موسى بن عمران عليه السلام تمّ التعرّض له فى عدّة سور ومن مختلف الأبعاد.

بديهى أنّ ذكر هذه التواريخ وبهذه الكثافة ليس لقضاء الوقت أبداً، بل لأجل أنّ الكثير من مميّزات الأديان السماوية والأفكار والأخلاق الدينية والمعارف الإلهيّة، يمكنها أن تتجسّد بشكل حى بين ثنايا هذه التواريخ وأن تنعكس أمثلتها الحيّة من خلالها.

من هنا يمكن القول ومن أجل التعرّف على مسألة النبوّة، والحقائق المتعلّقة بأنبياء اللَّه و رسله، ينبغى التحقيق فى تواريخهم بدقّة، أو بعبارة اخرى فانّ التحقيق فى تاريخ الأنبياء يعدّ قسماً من تاريخ الأديان والمسائل المتعلّقة بالنبوّة.

و لا شكّ فى أنّ هذا التحقيق يمكنه أن يكمل ما ورد فى مختلف فصول هذا الكتاب، بل

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۰

وأن يجسّد المسائل العلمية المعقّدة أمام الأنظار.

لكن نظراً لسعة الأبحاث المتعلّقة بتاريخ الأنبياء فى القرآن المجيد، بحيث تتطلب تخصيص العديد من المجلّدات لذلك، فسنتجنّب الخوض فيها فعلًا، وسنعرض إلى «تاريخ الأنبياء فى القرآن المجيد بشكل موضوعى» عند إتاحة الفرصة إن شاء اللَّه، وهو بحث مفيد وجذّاب.

كما قيل فى الأبحاث المتقدّمة، فاصول الأديان السماوية إنّما وجدت واحدة، والتفاوت إنّما يكمن فى الفروع والجزئيات فقط.

نفس هذا الأمر يثير الاستفسارات التالية: لماذا ظهر الأنبياء اولوالعزم واحداً بعد الآخر بين المجتمعات البشرية بكتب وأديان جديدة؟

وما الحاجة إلى الأديان الجديدة مع وجود الأديان السابقة، حينما تكون الاصول واحدة؟! ولماذا يعلن أخيراً عن الخاتمية بحيث إنّ البشرية لا تحتاج بعد ذلك إلى نبى جديد أو دين جديد؟!

الإجابة عن هذا الاستفسارات تتّضح من خلال التمعّن فى مضمون الأديان الإلهيّة، صحيح أنّهم جميعاً قد جعلوا من التوحيد أساساً للدين، لكن من البديهى أنّ إدراك الأقوام البدائية لهذه المسألة لم يكن كإدراك الذين واجهوا المسألة بعدهم بآلاف السنين.

أو بعبارة اخرى فالجزئيات المتعلّقة بالتوحيد فى الذات والأفعال وفى العبادة والخالقية والحاكمية ليست بذلك الشىء الذى يتناسب والمستوى الفكرى للأقوام الاولى، إذ كانوا يقتنعون بمفاهيم بسيطة وإجمالية عن مسألة التوحيد، ولم يخوضوا أبداً فى هذه الجزئيات المعقّدة.

وهذا الشىء نفسه يمكن أن يقال بالنسبة للمسائل الاخرى المتعلّقة ب «المعاد» و «منزلة الأنبياء» وأوصافهم، وكذلك الجزئيات المتعلّقة ب «العبادات»، إذ كلّما زادت معرفة أهل الأرض بهذه المسائل، ونَمَتْ القابليات جيلًا بعد جيل تمّ تعليمهم المزيد من الجزئيات.

فضلًا عن أنّ التطوّر الحضارى كان قد عقّد الحياة البشرية يوماً بعد آخر، وهذا التعقيد

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۱

استلزم بدوره سنّ قوانين جديدة لحلّ المشاكل الناتجة عن ذلك، ولذا ظهر الأنبياء للوجود واحداً بعد الآخر من أجل إنقاذ الناس وحل مشاكلهم.

هذه المسألة يمكن بيانها بشكل أفضل من خلال هذا المثال: خذ بنظر الإعتبار المراحل الدراسية للأطفال والفتيان والشباب، بدءاً بالمرحلة الإبتدائية والمتوسطة وانتهاءً بالمرحلة الجامعية، ومرحلة التخصُّص، إذ العلوم المختلفة التى تدرّس فى هذه المراحل ثابتة تقريباً، لكنّها مختلفة بحسب المستويات، فالطلبة كلّهم يدرسون الرياضيات مثلًا، ابتداءً بطلبة المدارس الإبتدائية ومروراً بطلبة الإعداديات وانتهاءً برسالة الدكتوراه فى الرياضيات، فى حين أنّ مستوياتها متفاوتة كثيراً، إذ كلّما زاد استعداد الطالب كلّما ارتفع مستوى الدروس أكثر، ومن هنا تأتى المراحل الدراسية الخمس (الإبتدائية والمتوسطة والإعدادية والجامعية والدكتوراه).

والأديان الخمسة التى بعثها اللَّه للبشرية شبيهة بعض الشىء بهذه المراحل، نوح عليه السلام كان مسؤولًا عن تربية وتعليم الناس فى أوّل مرحلة، إبراهيم عليه السلام فى المرحلة الاخرى وكذلك موسى وعيسى كان كلّ واحد منهم معلّماً واستاذاً لإحدى هذه المراحل، لتصل النوبة إلى آخر مرحلة، ويتكفّل خاتم الأنبياء محمّد صلى الله عليه و آله بالتعليم فيها.

ومن هنا يتّضح الجواب عن السؤال الثانى الذى كان يدور حول كيفية إمكان تكامل الأديان فى منطقة واحدة والإعلان عن خاتميتها؟!

الدليل واضح، إذ كما أنّ الإنسان يصل فى مراحله الدراسية إلى ما يطلق عليه ب «التخرّج»، أو بعبارة اخرى أنّه يصل إلى المستوى الذى يكون قد استلم فيه الاصول العامّة والنهائية من معلّمه، بحيث يتمكّن لوحدِهِ من حلّ المسائل المستحدثة فى ظلّ تلك العموميّات.

فنبى الإسلام صلى الله عليه و آله أيضاً قد جاء بتعاليم واصول تُحلّ عن طريقها كافّة المشاكل المستقبلية، كما يمكن للمسلمين مواصلة طريق تكاملهم فى ظلّ تلك الاصول والتعاليم، والقرآن المجيد ذلك الكتاب الذى يكشف التمعّن فيه عن حقائق جديدة متناسبة مع متطلّبات كلّ عصر.

نفحات القرآن، ج۷، ص: ۳۱۲

هذا الكلام لا يعنى أنّ إنسان عصرنا قد بلغ مرتبة تغنيه عن الأنبياء كما يتوهّمه بعض المغفّلين، بل على العكس فهو يعنى أنّ اصول تعاليم خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله واسعة جامعة وبشكل بحيث يمكن من خلالها التغلّب على مشاكل العصر ومسائله.

ولابدّ انّک تسأل لماذا لم تعط هذه الاصول لنوح علیه السلام من البدایة؟ نقول فی جواب هذا السؤال: وذلک لنفس السبب الذی لم تدرّس دروس مرحلة الدکتوراه فی المرحلة الإبتدائیة وذلک لعدم وجود القابلیة والاستعداد لتقبّلها.

وسیأتی إن شاء اللَّه شرح أوفی لهذه المسألة فی بحث الخاتمیة من مباحث النبوّة الخاصّة.

وهنا تصل المباحث الکلیّة للنبوّة (النبوّة العامّة)، نهایتها شاکرین اللَّه علی هذا التوفیق.

ربّنا! اجعلنا من التابعین الحقیقیین الخُلَّص المخلصین لأنبیائک العظام.

إلهنا: أیقظ امم العالم الغافلة من سباتها

العمیق لتجتاز بسلوکها طریق الأنبیاء والأولیاء

مشاکل الحیاة الجمّة وتنال سعادة الدارین ولتتیقّن

بأنّ طی هذا الطریق مرهون باتّباع الوحی والإیمان

باللَّه والأنبیاء.

الهنا: وفّقنا لنشر تعالیم الإسلام، وخاتم

الأنبیاء التی تنبض بالنشاط والحیویة فی کلّ أرجاء

المعمورة بوسائل الإتّصال المتطوّرة لنروی ظمأ

العطاشی بزلال تعالیمهم

آمین یاربّ العالمین والحمد للَّه أوّلًا وآخراً.

الحادی عشر من شهر صفر ۱۴۱۳

الجزء الثامن

الرسول لأکرم صلی الله علیه و آله و سلم و ظهور الإسلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷

الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله و سلم وظهور الإسلام

قبل کل شیء یجب التمعن فی دراسة حقیقة الإسلام ومنزلة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی القرآن الکریم، والتحقیق فی النقاط الظریفة والدقیقة الواردة فی مختلف آیات القرآن الکریم، وحیث إنّ التعرف علی هذه النقاط یقتضی معرفة تاریخ الإسلام بشکل إجمالی فعلی هذا الأساس یجب أن نتوفر علی دراسة مختصرة ومرکزة للتاریخ الإسلامی کی یتسنی لنا معرفة عوامل انتشار وتقدم الدین الإسلامی الحنیف، الأمر الذی یساعدنا علی تمهید الطریق للبحوث الآتیة.

الرسول صلی الله علیه و آله وظهور الإسلام وسرعة انتشاره:

ظهر الإسلام قبل أربعة عشر قرناً فی مکة المعظمة، وفی مدة ۲۳ سنة (وهی فترة دعوة الرسول صلی الله علیه و آله) وقد أخضع لنفوذه أقصی منطقة فی جنوبِ الحجاز، أی الیمن، وإلی شمال شبه الجزیرة العربیة، أی الشام والعراق، بل إنّ قسماً من أفریقیا أی الحبشة قد تأثرت بأنواره، والیوم نری أکثر من ملیارد إنسان یدین به فی کل بقاع العالم.

وهنا نستعرض- ولو باختصار لحیاة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وسرعة انتشار الإسلام، والعوامل التی ساعدت علی ذلک.

من الطبيعى أنّ هـذا العمـل ليس بالأـمر اليسـير، لأـنّ الظروف التى أدّت إلى وصول الإسـلام إلى هـذا الحـد، أوسع بكثير ممّا جاء فى التاريـخ بحيث يمكن القول: إنّ مـا ذكره التاريـخ قطرة من بحر، والـذى نـذكره هنـا هو لمحات من ذلك التاريـخ الـذى لم يـذكر لنا إلّاالقليل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸

بـدأ الإسـلام بشخصـيـة الرسول الأـكرم محمـد صـلى الله عليه و آله وقـد بعثهُ اللَّه سـبحانه وتعـالى بالرسالـة وهو فى الأربعين من عمره الشـريف، ثم آمنت به السيدة خديجة عليها السلام، وبعدها أمير المؤمنين على عليه السلام، حيث كانت دعوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى المرحلة السرية، وكان قبل ذلك فى السنين الثلاث لم يعلن دعوته إلّالمن يثق به.

أمّا بعد تلك السنوات الثلاث، وعندما نزلت الآية الكريمة: «وَأَنْذِرِ عَشِيرَتَكَ الأقْرَبِين». (الشعراء/ ۲۱۴)

أعلن رسول اللّه صـلى الله عليه و آله دعوته أمام الناس، فصَعِدَ على جبل الصـفا ودعا أقرباءه وأعـدّ لهم وليمـة، وفى ذلك اليوم كان المسلمون يعدون بالأصابع «۱».

وقـد اقيمت الوليمـة مرّتين، إذ فى المرة الاولى لم يُعطِ أبو لهب النبى صـلى الله عليه و آله فرصـة للكلام، وفى المرة الثانية سـخروا من كلامه صلى الله عليه و آله والتفتوا لأبى طالب قائلين له: «قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع».

وفى هذه المأدبة كان النبى الأعظم صلى الله عليه و آله يرى بعين الغيب انتشار الإسلام الأكيد، حتى أنّه عيّن خليفة ووارثاً له فيها «۲».

ولم تمضِ مدّة طويلة حتى أدرك رؤساء مكة أنّ محمداً صـلى الله عليه و آله قد أضاء أفكار الناس وأيقظهم وأثبت عدم صحة عبادة الأوثان ولزوم الإيمان بخالق الكون، فأحسّوا بالخطر عنـدما ترسـخت دعوته، لأنّ منزلتهم الاجتماعيـة وعائـداتهم الماليـة كانت مرتبطة إلى حـد ما بتلك الأفكار والأعراف الجاهليـة، حتى أنّهم ذهبوا إلى أبى طالب راجين منه رفع اليـد عن حماية محمد صـلى الله عليه و آله أو المصالحـة بينهم وبين محمـد صـلى الله عليه و آله أو إصـلاحه، وقـالوا: «يـا أبا طالب إنّ ابن أخيك قـد سَبَّ آلهتنا وعابَ ديننا وسفّهَ أحلامنا وضلل آباءنا فإمّا أن تكفَّهُ عنّا وإمّا أن تخلّى بيننا وبينهُ» «۳».

ولكنَّ أبا طالب عليه السلام قال لهم قولًا جميلًا وردهم ردّاً رقيقاً، وأخذ الإسلام يشق طريق

---

(۱) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۶، طبع دار احياء التراث العربى؛ وتاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۶۱.

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۶۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۳، ط مصر؛ الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۸؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹

الرشـد والتكامل وأحس رؤوس الكفر بالخطر الـذى يهـدد عقائدهم الوثنية وثقافتهم الجاهلية، فعادوا مرّة اخرى إلى أبى طالب فقالوا: «يا أبا طالب إنّ لك سـناً وشـرفاً وإنا قـد أسـتنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل وإنّا واللَّهِ لا نصبر على شـتم آلهتنا وآبائنا وتسـفيهِ أحلامِنا حتى تكفّه عنّا أو نُنازلهُ وإيّاك حتى يهلكَ أحدُ الفريقين».

فى هذه المرّة أخبر أبو طالب الرسول صـلى الله عليه و آله بما جرى بينه وبين أقطاب قريش وأنّهم مصرون على مخالفته، عندها أحسّ الرسول صـلى الله عليه و آله أنّ عمهُ أبـا طـالب قـد تباطأ قليلًا فى حمايته، فقال الرسول الأعظم صـلى الله عليه و آله لعمهِ تلك المقولة المشـهورة: «ياعَماهُ لو وضَـعوا الشـمسَ فى يمينى والقَمرَ فى شمالى على أن أتركَ هذا الأمر، حتى يُظهِرَهُ اللَّهُ أو أهلكَ فيهِ ما تركتُهُ».

ثم بكى وقام، فلما ولّى ناداهُ أبو طالب، فاقبلَ عليه وقال: «إذهب يابن أخى فقل ما أحببتَ فواللَّه لا اسلِّمكَ لشىء أبداً» «۱».

عنـدما رأى رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله حمايةَ عمّه ثانية، انطلق بعزيمة كبيرة وثقة عالية، ولما عرف رؤساء قريش ذلك عادوا إلى أبى طـالب وعرضوا عليه أن يساومَ فى ابن أخيهِ مقابل أجمل شاب من قريش على أن يتخـذه ابناً له! وجاء الرفض القاطع «۲» كصاعقةٍ

دمرت ما يمكرون، فعمدوا إلى ايذاء المسلمين من كل طائفة.

ومرّة اخرى طلبوا من أبى طالب أن يبلغ الرسول صلى الله عليه و آله بأن يكفّ عن هذا الأمر، وجاء الردّ المحمدى صلى الله عليه و آله: «يا عم أو لا أدعوهم إلى ما هو خيرٌ لهم منها، كلمة يقولونها تَدينُ لهم بها العرب، ويملكون رقاب العَجَم» فقال أبو جهل: ما هى، وأبيك لنُعطِيَنَّكها وعَشرَ أمثالها، قال: «تقولونَ لا إله إلّااللّه ....» وقالوا: سَلْ غيرها، فقال: «لو جئتمونى بالشمسِ حتى تضعوها فى يدى ما سألتُكم غيرَها» «۳».

وفى هذا الوقت دخل فى الإسلام أُناس كانوا يرزحون تحت ظُلم جبابرة مكة، وآخرون واعون ليسوا بالأغنياء المغرورين، ممّا حدا برؤوساء قريش إلى تغيير اسلوبهم

---

(۱) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۸۹؛ وسيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۴- ۲۸۵؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۵.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۸۵، والكامل، ج ۱، ص ۴۸۹، والطبرى، ج ۲، ص ۶۶.

(۳) الكامل لابن الأثير، ج ۱، ص ۴۹۰؛ والطبرى، ج ۲، ص ۶۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰

فى الصراع مع الرسول صلى الله عليه و آله- غير الرجوع إلى أبى طالب- لكى ينجوا من هذا الخطر الداهم، وقد اتخذ الرسول صلى الله عليه و آله من بيت الأرقم مركزاً للإشعاع الفكرى ونشر الدعوة.

ممارسة الضغط على المسلمين الجدد:

بعد أن يئس زُعماءُ مكة من التأثير على أبى طالب ورسول اللّه صلى الله عليه و آله، التجأوا إلى تعذيب وايذاء المسلمين المستضعفين ليردوهم عن الإسلام فتضعف قدرة الرسول ومن ثم يترك الدعوة إلى الإسلام، ومن بين أولئك المسلمين بلال، وعمار، وياسر، وسمية، والخباب بن الارت، وصهيب، وعامر بن فهيرة، وأبو فكيهة، ولبيبة، وزبيدة، ونهدية، وأُم عبيس وأمثالهم، إذ صَبّوا عليهم ألوان العذاب حتى استشهد ياسر وسمية، ومر عليهم الرسول صلى الله عليه و آله مخاطبهم قائلًا: «صبراً آلَ ياسر فإنّ مَوعِدكُم الجنَّةُ» «۱».

ويحكى التاريخ عن كيفية تعذيبهم وصمودهم ما يستحق العجب.

التهمةُ والاستهزاء:

اتخذ المشركون اسلوباً آخر فى محاربتهم للرسول صلى الله عليه و آله كالتهمة والسخرية والاستهزاء، فأتهموا رسول اللّه صلى الله عليه و آله بأنّه ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون «۲»، وكذبوه وآذوه، ولم يتوقف رسول اللّه صلى الله عليه و آله عن نشر دعوته لإظهار أمر اللّه سبحانه، ولم تأخذه فى اللهِ لومةُ لائم.

ومن الذين كذّبوا واستهزأوا وآذوا رسول اللّه صلى الله عليه و آله أبو لهب، والاسود بن عبد يغوث، والحارث بن قيس، والوليد بن المغيرة، وابى، واميةُ بن خلف، وأبو قيس، والعاص بن وائل، والنضر بن الحارث، وعدة آخرون حيث ذكر ابن هشام فى سيرتهِ. «إنّه خَرَجَ يوماً فلم يَلقهُ أحدٌ من النّاس إلّاكذّبهُ وآذاهُ لا حرٌ ولا عبدٌ فرجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله إلى منزله فتدثَّر من شدّة ما أصابه» «۳».

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۴۹۱.

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۱؛ وسيرة ابن هشام، ج ۱ ص ۳۰۸؛ والكامل، ج ۱، ص ۴۹۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۱۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱

وذكر التاريخ أيضاً: إنّ أبا لهب كان شديداً عليه وعلى المسلمين، عظيم التكذيب له، دائم الأذى فكان يطرح العَذَرةَ والنتن على باب النبى وكان جارَهُ فكان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «أىُّ جوارٍ هذا يا بنى عبد المطلب». وكان الأسود عندما يمرّ عليه فقراءُ المسلمين يستهزىء بهم ويقول: «هؤلاء ملوك الأرض» وكذلك كان العاص بن وائل يقول: «إنَّ مُحمداً أبتر لا يعيش له ولدٌ ذكر ...» «۱».

الهجرةُ إلى الحبشة:

إزداد ضغط المشركين وتعذيبهم، ففكر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بإنقاذ ضعفاء المسلمين وتخليصهم من أذى المشركين فدعاهم للهجرة إلى الحبشة، وبالفعل هاجر إليها عدد منهم فى السنة الخامسة للبعثة النبوية بعد سنتين من اعلان الدعوة الإسلامية وفى شهر رجب «۲».

وبهذه الهجرة أخذ الإسلام يتحرك وينتشر بصورة جديدة لذلك قررت قريش اعادة المسلمين من الحبشة واخضاعهم لها، فأرسلوا هدايا ثمينة للنجاشى ملك الحبشة طالبين منه تسليم المسلمين لهم، وبالرغم من اعطاء هدايا اخرى لبطانة النجاشى للتعاطف معهم ولكن النجاشى قال لهم: إنّ هؤلاء قد لجأوا إلينا ولا يمكن تسليمهم مالم نسمع حديثهم، واحضر النجاشى المسلمين وأخذ يسألهم عن سبب لجوئهم إليه.

وانتخبوا جعفر بن أبى طالب ناطقاً عنهم للجواب عن استفسارات النجاشى الذى طلب منه أن يتلو عليه آيات من سورة مريم كانت تتضمن نظر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله فى المسيح وامّه مريم عليهما السلام، بعدها أعلن النجاشى إبقاء المسلمين عنده، وأرجع مبعوثى قريش.

ثم سأل النجاشى: «أى دين تدينون»؟ فقال جعفر: «أيّها الملك كنّا أهل جاهلية نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجِوار، ويأكل القوى منّا الضعيف حتى بعثَ اللَّه إلينا رسولًا منّا نَعرفُ نَسَبَهُ، وصدقَهُ وأمانتهُ وعفافهُ فدعانا لتوحيد

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۴۹۳؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۰.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۴۴؛ الكامل، ج ۱، ص ۴۹۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲

اللَّه وأن لا نُشرك به شيئاً ونخلع ما كنّا نعبد من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداءِ الأمانة وصلة الرحم وحسنِ الجوار والكفّ عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم، وأمرنا بالصلاة والصيام .... فآمنّا به وصدّقناهُ وحرَّمنا ما حرّمَ علينا وحللنا ما أحلَّ لنا فتعدى علينا قومُنا فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان فلما قهرونا وظلمونا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادِك واخترناكَ على من سواك ورَجَونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك» فقال النجاشى بعد أن سمع آيات من القرآن حول مريم والمسيح عليهما السلام: «اذهبوا فأنتم آمنون ما احبُّ أنّ لى جبلًا من ذهبٍ وأننى آذيتُ رجلًا منكم» «۱».

ورجع سفراء قريش خائبين منكسين رؤوسهم.

وقد اقترن بتلك الأيّام إسلام رجل قوى من بنى هاشم وهو الحمزة بن عبد المطلب «۲» فزاد المسلمون قوة فوق قوتهم وصمموا على تلاوة القرآن بشكل جماعى وسط الملأ من قريش، وأول من قام بهذا العمل هو ابن مسعود فتعرض للضرب والشتم.

ويذكر التأريخ: «فغدا عليهم فى الضحى حتى اتى المقام وقريش فى انديتها ثمَ رفعَ صوتَهُ وقرأ سورة «الرحمن» فلما علمت قريش أنّه

يقرأ القرآن قاموا إليه يضربونه وهو يقرأ ثم انصرف إلى أصحابهِ وقد اثّروا فى وجههِ، فقالوا: هذا الذى خشينا عليك، فقال: ما كان أعداءُ اللَّه أهون علىَّ منهم اليوم ولئن شئتم لأغادينَّهم، قالوا: حسبُك» «۳».

ومن هنا نفهم أنّ المسلمين كانوا يؤدون عباداتهم إلى جانب الكعبة حيث كان عددهم يزيدُ على الستين شخصاً وكانوا يتزاورون فى بيوتهم لتعلّم القرآن.

الحصار الاقتصادى:

ولما أدركت قريش عدم تأثير جميع الأساليب التى اتخذتها وظل الإسلام يشق طريقه

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۵۸؛ والكامل، ج ۱، ص ۴۹۹؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۳.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۱۱؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۰۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۴.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۱؛ ص ۳۳۶؛ الكامل، ج ۱، ص ۵۰۲؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳

بثبات قررت كتابة وثيقة تمنع فيها العلاقات الاقتصادية والاجتماعية مع بنى هاشم حتى تشكل ضغوطاً على الرسول صلى الله عليه و آله لمنع نشر الدعوة: «ولما رأت قريش الإسلام يفشو ويزيد وان المسلمين قووا وعاد إليهم عمرو بن العاص وعبد اللَّه بن أبى امية من النجاشى بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وآمنهم عنده، ائتمروا فى أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على أن لا ينكحوا من بنى هاشم وبنى المطلب ولا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ثم علّقوا الصحيفة فى جَوف الكعبة توكيداً لذلك الأمر على أنفسهم» «۱».

وهكذا قد ضيَّقوا الخناق على بنى هاشم وبنى المطلب ليقع الخلاف بينهم ويُسلِّموا لهم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

واستمر الحصار على مدى ثلاث سنوات «۲» وكانوا محرومين من كل شىء ما عدا القليل الذى يهيؤنه سراً، غير أنّ مؤامراتهم فشلت مرّة اخرى فأكلت الارضة لائحتهم المعلّقة داخل الكعبة وملَّ بعض الأشخاص هذا العمل الوحشى غير الإنسانى فاصبحوا بصدد إلغاء اللائحة، وقد الغيت بالفعل وانتهى الحصار «۳». ورجع الرسول وعشيرتهُ إلى مكة المكرمة.

واستمر الإسلام بتقدمه والرسول صلى الله عليه و آله بدعوتهِ، وهنا وقعت حادثتان مؤلمتان للرسول صلى الله عليه و آله «۴» قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهما: وفاة أبى طالب وخديجة عليهما السلام وكان للحادثتين أثر بالغٌ على الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين، وضيقوا الخناق على الرسول صلى الله عليه و آله «حتى ينثر بعضهم التراب على رأسهِ وحتى أن بعضهم يطرَحُ عليه رحم الشاة وهو يصلى ....».

بعدها صمم الرسول صلى الله عليه و آله على أن يستمد العون من مجموعة من قبيلة ثقيف الساكنة فى الطائف لحمايته ونشر الإسلام، ولكنهم كذبوه وطردوه فكان ذلك ثقيلًا على قلب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأخذ يدعو بهذا الدعاء المعروف، يقول التأريخ: «فقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقد يئس

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۴؛ وابن هشام، ج ۱، ص ۳۷۵؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۴.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۷۹.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۵؛ وابن هشام، ج ۲، ص ۱۴؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۸.

(۴) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۷، وابن هشام، ج ۲، ص ۵۷، وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴

من خير ثقيف ... واغروا به سفاءهم فاجتمعوا إليه وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابنى ربيعة ... ورَجعَ السفهاءُ عنه وجلس إلى ظلّ حبلة من عنب ... وقال: اللّهم إليك اشكو ضعف قوتى وقلةَ حيلتى وهوانى على الناس، اللّهم ياأرحم الراحمين أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربى إلى مَن تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عَدُوٍ ملكتَه أمرى إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أُبالى ولكن عافيتك هى أوسع، إنّى أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت به الظلماتُ وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة من أن تنزلَ بى غضبك أو تحل بى سخطك» «۱».

فلما رأى ابنا ربيعة ما لحقه صلى الله عليه و آله تحركت له رحمهما فدعوا غلاماً لهما نصرانياً اسمه «عداس» فقالا له: خذ هذا العنب إلى ذلك الرجل، ففعل فلما وضعه بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وضع يده عليه وقال «بسم اللّه» وثمّ أكل، فقال عداس: واللّه إنّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلدة.

فقال له النبى صلى الله عليه و آله من أى بلاد أنت وما دينك؟

قال: أنا نصرانى من أهل نينوى

فقال له رسول اللّه صلى الله عليه و آله: أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى؟ قال له: وما يُدريك ما يونس؟

قال الرسول صلى الله عليه و آله: ذلك أخى كان نبيّاً وأنا نبى.

فأكب عداس على يدى رسول اللّه ورجليه يقبلهما، وأسلم «۲».

فلم يرجع رسول اللّه صلى الله عليه و آله خائباً من سفره هذا.

بداية جديدة فى ابلاغ الرسالة:

رغم هذه المشاكل الجمة لم يَنْثَنِ الرسول صلى الله عليه و آله عن ابلاغ رسالته، فاتصل فى موسم الحج بالقبائل مُبتدئاً بقبيلة (كندة) حتى قبيلة (كلب) و (بنى حنيفة) وكل من جاء لزيارة بيت اللّه كان يدعوهم إلى الإسلام، وأبو لهب يلاحقه فى كل مكان ليُكذبه ويتهمهُ بخلق الأقاويل «۳».

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۰۸؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۱.

(۲) الكامل، ص ۵۰۸، وابن هشام، ج ۲، ص ۶۱ و ۶۲، وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۱.

(۳) الكامل، ص ۵۰۹؛ وابن هشام، ج ۲، ص ۶۳؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۳ و ۸۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵

الرسول يلتقى أهل المدينة:

اشارة

التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله (سويد بن صامت) أحد أفراد قبيلة الأوس فى المدينة الذى جاء حاجّاً إلى مكة المعظمة فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه بعض آيات القرآن الكريم فصدقه وآمن به وعاد إلى المدينة ومات مسلماً.

وعندما قدم (أبو الحيسر) أنس بن رافع مكة ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم أياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول اللّه صلى الله عليه و آله فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: «هل لكم إلى خير ممّا جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟

قال: أنا رسول اللَّه بعثنى إلى العباد ادعوهم إلى اللَّه أن يعبدوا اللَّه لا يشركوا به شيئاً وأنزل على الكتاب ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن»، فقال أياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً: أى قوم، هذا واللَّه خير ممّا جئتم له.

قال: فأخذ أبو الحيسر أنس بن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه أياس بن معاذ وقال: دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت أياس، وقام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، قال: ثم لم يلبث أياس بن معاذ أن هلك، قال محمود بن لبيد: فأخبرنى من حضره من قومى عند موته أنّهم لم يزالوا يسمعونه يهلل اللَّه ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات فما كانوا يشكون أنّه قد مات مسلماً لقد كان استشعر الإسلام فى ذلك المجلس حين سمع من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ما سمع «۱».

بيعة العقبة الاولى

وفى السنة الاخرى من موسم الحج التقى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله جماعة من أهل المدينة- عُرفوا بعد ذلك بالأنصار- وهم ينتسبون إلى قبيلة الخزرج ودعاهم صلى الله عليه و آله إلى الإسلام وكانوا قد سمعوا آنفاً من اليهود قولهم: سيُبعَثُ رسول فى هذه الأيّام ونحنُ نحميه ونُساعده للقضاء

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۰؛ سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۶۹؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۵.

عليكم فَنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا النبى الذى توعدكم به اليهود، فأجابوه وصدقوه، و قالوا له: إن بين قومنا شرّاً، وعسى اللَّه أن يجمعهم بك، فإن اجتمعوا عليك فلا رجل أعزّ منك». ثم انصرفوا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا وهم فيما ذكر سبعة نفر من الخزرج من بنى عبد النجار هم: أسعد بن زرارة، عوف بن الحارث، رافع بن مالك، عامر بن عبد حادثة، قطبة بن عامر، عقبة بن عامر، جابر بن عبد اللَّه «۱».

وبعد انتهاء موسم الحج رجعوا إلى المدينة حاملين معهم مشعل الحرية للناس ونشروا الإسلام بين أهل المدينة.

وبعد مرور سنة وفى أيّام موسم الحج أيضاً جاء إثنا عشر رجلًا إلى العقبة وبايعوا الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فسُميت هذه ببيعة العقبة الاولى وعند رجوعهم إلى المدينة أرسل الرسول صلى الله عليه و آله مصعب بن عمير لتعليمهم القرآن والإسلام وقد استقر فى بيت (أسعد بن زرارة) والتفوا حول (مصعب) فبدأ يدعوهم إلى الإسلام باسلوب خاص فلم يبقَ بيتٌ من بيوت بنى عبد الأشهل إلّاودخله الإسلام، ولم يقتصر على هذه القبيلة فحسب، بل دعا أهل المدينة الآخرين إلى الإسلام فدخل الإسلام جمعٌ كثير «۲».

بيعة العقبة الثانية:

اتسع نطاق الإسلام فى المدينة بين الأنصار حتى إزداد عدد المسلمين كثيراً فقرروا السفرَ إلى الحج والالتقاء برسول اللَّه صلى الله عليه و آله سرّاً ودعوته للقدوم إلى المدينة، وقد أرسلوا ممثلين عنهم يبلغ عددهم (۷۲) شخصاً، (۷۰) رجلًا وأمرأتين، وبدأوا عملهم سرّاً، بعد منتصف الليل وهم ينحدرون آحاداً إلى مكان معين فحضرَ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وصَحبهُ عمُّهُ العباس، فبايعوه على أن يبذلوا أرواحهم «۳» دونه، وأن يكونوا أوفياء له وللاسلام، وواعدهم الرسول على الوفاء أيضاً، وقد أورد التاريخ مقاطع ممّا قيل فى ذلك اللقاء حيث بدأ العباس الكلام قائلا:

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۰؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۷۰؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۸۶- ۸۸.

(۲) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۱؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۷۳.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۳؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۸۴؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۹۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷

«إن محمداً منّا حيثُ قد علمتم، فى عزٍ ومنعةٍ وإنّه قد أَبى إلّاالانقطاع إليكم فإنّ كنتم ترونَ أنّكم وافون له بما دعوتموهُ إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك وإن كنتم تَرونَ أنّكم مسلموهُ وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدَعُوه فانّه فى عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده»، فقالت الأنصار:

تكلّم يارسول اللَّه وخذ لنفسك وربّك ما أحببت «فتكلّم وتلاـ القرآن ودعا إلى اللَّه ورغب فى الإسلام ثم قال: ابايعكم على أن تمنعونى ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ (البراء بن معرور) بيده ثم قال: «والذى بعثك بالحقِ لنمنعنك ممّا نمنع منه أزرنا فبايعنا يارسول اللَّه فنحن واللَّه أهل الحرب ...».

وقال الآخر ويدعى أبو الهيثم بن تيهان: يارسول اللَّه إنّ بيننا وبين الناس حبالًا وإنا قاطعوها يعنى اليهود فهل عسيتَ إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك اللَّه أن ترجع إلى قومِك وتدعنا؟ فتبسم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال:

«بل الدَّم الدَّم والهدمَ الهدمَ أنتم منّى وأنا منكم اسالم من سالمتم وأحارب من حاربتم» ثم قال صلى الله عليه و آله: «أخرجوا إلىّ منكم اثنى عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم» فاخرجوهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهنا قال العباس بن عبادة صاحب الفكر العميق والنظرة الثاقبة: يا معشر الخزرج هل تَدرون عَلامَ تُبايعون هذا الرجل ... تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس فإنّ كنتم تَرون أنّكم إذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلًا أسلمتموهُ فمن الآن، فهو واللَّهِ خُزى الدنيا والآخرة إن فعلتم، وإن كنتم تَرون أنّكم وافون لهُ بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوهُ فهو واللَّه خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنّا نأخُذَه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف فمالنا بذلك يارسول اللَّه إن نحن وفينا؟ قال: الجنَّةُ، قالوا: أبسط يدكَ فبسط يده فبايعوهُ» «۱».

إنّ هذا النصر الكبير أدّى إلى ازدياد حقد وعداء أهل مكة للمسلمين فازدادوا ظلماً وتعذيباً لهم، فأمرهمالرسول صلى الله عليه و آله بالهجرة «۲» إلى المدينة.

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۱۳؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۸۸.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۱۲؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۱۵؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۹۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸

الهجرة انعطافٌ جديدٌ فى تاريخ الإسلام:

بعد هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة ظل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى مكة منتظراً أوامر اللَّه تعالى وأحسَّ رؤساء قريش بالخطر الشديد لإسلام أهل المدينة وهجرة مسلمى مكة فقرروا قتل الرسول صلى الله عليه و آله فاجتمعوا لذلك وبعد مشاورات طويلة قرروا إشراك القبائل كافة مع قريش فى قتل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فى ذلك الوقت نفسه أمر اللَّه سبحانه وتعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله بالهجرة «۱».

وفى بداية شهر ربيع الأول تخلص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من محاصرة الأعداء بمعجزة عجيبة وهاجر إلى المدينة فى يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ووصل إلى (قباء) «۲» وبقى فيها حتى الخميس وقد بنى هناك مسجداً سُمى (بمسجد قباء) وأقام أول صلاة للجمعة وخطبَ فى الناس أول خطبتين للصلاة فى تاريخ الإسلام، بالقرب من قباء فى (قبيلة بنى سالم).

بعدها دخل المدينة واستقبله أهلها استقبالًا عظيماً، وأول عمل قام به صلى الله عليه و آله هو بناء مسجد فيها اعتبره منطلقاً للرسالة وتعاليم الإسلام، ولتجمع «۳» المسلمين، غير أنّ الرسول والمسلمين تعرضوا إلى ألوان المؤامرات فاضطر النبى صلى الله عليه و آله إلى إشهار السلاح والاستفادة من القوة العظيمة لمسلمى المدينة لإبطال تلك المؤامرات.

وبعد سبعة أشهر من دخولهِ المدينة أرسل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أول كتيبة بقيادة عمّه (الحمزة بن عبد المطلب) للتعرض لقافلةِ قريش، ثم جهز سرية اخرى بقيادة «سعد بن أبى وقاص) وارسله إلى (الابواء)، بعدها غزوة (البواط) التى كان هدفها ضرب قافلة قريش، ثم غزوة (العشيرة) لملاحقة قافلة لقريش أيضاً وفى السنة الثانية أعدّ سرية (عبد اللّه بن جحش) للتعرض إلى قريش بين مكة والطائف.

وفى السنة نفسها وقعت معركة بدر الكبرى التى نكست بها رؤوس الشرك والضلالة من

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۲۳؛ والكامل، ج ۱، ص ۵۱۵.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۳۸؛ والكامل، ج ۲، ص ۵۱۸؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۱۰۰.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۱۴۳؛ والكامل، ج ۲، ص ۵۲۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۱۰۶- ۱۱۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹

قريش وأرسلوا إلى جهنم ووقع كثير من أهل مكة فى الأسر، بعد هذا الانتصار ازداد المسلمون قوة وعزيمة وأوقعوا الرُعب فى قلوب اعدائهم، ثم أعقبتها غزوة (بنى قينقاع) بسبب نقض يهود المدينة عهدهم مع الرسول صلى الله عليه و آله، بعدها (غزوة كدر) ضد بنى سليم ثم غزوة (السويق) ضد هجوم أبى سفيان.

وفىالسنة الثالثة للهجرة وقعت حربُ (غطفان) ضد (بنى ثعلبة) الذين أرادوا الهجوم على المسلمين ثم غزوة (بنى سليم) التى قُتل فيها اثنان من شياطين الكفر هما (كعب بن أشرف) و (أبو رافع) على أيدى المسلمين، وبعدها معركة (احد) ثم تبعتها غزوة (حمراء الاسد) وقد مُنى المسلمون بالهزيمة فى معركة أحد لكن ذلك كان باعثاً لهم على التهيؤ للحروب القادمة وليعلموا أنّ الغفلة والغرور والتعلق بالماديات هى من أسباب الهزيمة.

وفى السنة الرابعة للهجرة وقعت غزوة (رجيع) ضد قبيلة (عضل وقارة) حيث سلَّموا مبلغى الإسلام إلى الأعداء، بعدها حادثة (بئر معونة) فقد دعوا (۷۰) شخصاً لتعليمهم الإسلام ثم قتلوهم، وحادثة (إجلاء بنى النضير) إذ صمموا على قتل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وقد أخرجهم من المدينة بأجمعهم.

بعدها وقعت غزوة (ذات الرقاع) ضد طائفة (بنى محارب) و (بنى ثعلبة) من قبيلة (غطفان).

وفى هذه السنة وقعت (بدر الثانية) التى كان هدفها ملاحقة أبى سفيان. وقد كان لهذه الغزوات أثر بالغٌ فى تقدم وانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية.

وفى السنة الخامسة للهجرة أحسّت قبائل العرب بخطر هذه القوة الجديدة فقرروا الاتحاد والتنسيق فيما بينهم للقضاء عليها وعدم فسح المجال لها بتأصيل جذورها كقوة ضد الظلم والشرك فى المنطقة فحدثت (معركة الأحزاب) التى انتصر فيها المسلمون ورجع منها المشركون خائبين مندحرين وأصبحت فكرة القضاء على المسلمين وقلع جذورهم من المحال.

وفى السنة نفسها وقعت غزوة (بنى قريظة) وحاصر المسلمون قلعتهم للتخلص من شر

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰

اليهود الذين كانوا يحيكون الدسائس ضد المسلمين.

ثم فى السنة السادسة للهجرة وقعت غزوة (ذى قرد) حيث أغار الكفّار على أموال المسلمين وأموال رسول اللّه صلى الله عليه و آله

واجتمع كذلك (بنو المصطلق) ضد الإسلام ولكنهم اندحروا فى غزوة (بنى المصطلق)، إنّ هذه الحوادث كلها كانت دليلًا واضحاً على قدرة وعظمة الإسلام.

صلحُ الحديبية فتحٌ كبيرٌ وتقدمٌ للإسلام:

فى السنة السادسة للهجرة أمر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله المسلمين بالتهيؤ إلى حج العمرةِ مصطحبين معهم الإبل لذبحها قرابين إلى اللّه سبحانه وتعالى ومعلنين لأهل مكة بأنّهم لم يأتوا للحرب، وكان لهذه الحادثة أثران واضحان:

الأول: أراد الرسول صلى الله عليه و آله من ذهابه إلى مكة اعلان عدم خوف المسلمين من أى عدو فى الجزيرة العربية.

الثانى: مع دخولهم مكة تظهر قدرة الإسلام فى مقابل مركز عبادة الأوثان وهذا مؤشر واضح على قوة وانتصار الإسلام لأنّ مكة كانت من المراكز المهمّة والقوية فى مقاومة الإسلام، وأدرك أهل مكة ذلك فقرروا منع دخول المسلمين من مكة وعندها أمر الرسول صلى الله عليه و آله أصحابه بمبايعته فكانت بيعة شديدة المواثيق والعهود سُميت ب «بيعة الرضوان».

ولما سمع المشركون بخبر البيعة قرروا عقد صلح مع الرسول صلى الله عليه و آله جاء فيه: أن يخرج المشركون من مكة السنة القادمة ويدخلها الرسول صلى الله عليه و آله لأداء حج العمرة «۱». وبعد أن تمّ الاتفاق على هذا الصلح توفرت أرضية سهلة للقضاء على أعداء الإسلام الكبار والصغار الذين كانوا بين الحين والآخر يحوكون المؤامرات ضد المسلمين أو يتعرضون لهم، فبمجرد أن عاد الرسول صلى الله عليه و آله من الحديبية أعدّ العدّة لحرب هؤلاء الأعداء فارسل سرية (عكاشة)

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۵۸۲؛ سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۲۱؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۷۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱

إلى (بنى اسد)، وسرية (محمد بن سلمة)، إلى (بنى ثعلبة)، وسرية (أبى عبيدة الجراح)، إلى (ذى القصد)، وأرسل ست سرايا «۱» بقيادة (زيد بن حارثة) لحرب (الجموح) إلى (عيص وطرف وحسمى ووادى القُرى وام قرفة)، وسرية (عبد الرحمن بن عوف) إلى (دومة الجندل)، وسرية (على بن أبى طالب عليه السلام إلى (فدك)، وسرية (كرز بن جابر) «۲» إلى (عرينين)، وكل هذه المعارك وقعت بعد الحديبية «۳».

وكثير من القبائل التى كانت تعدُ العدّة لحرب المسلمين قد فشلت وانهزمت قبل أن تنجز شيئاً ذا بال ووصلت قدرة الإسلام إلى أوج عظمتها وحينها لم تحدّث قبيلة من القبائل نفسها فى أن تخوض معركة مع الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمين وأحست مكة بالضعف وعقدت هدنة مع الرسول فاعترفت برسمية الحكومة الإسلامية.

رسائله صلى الله عليه و آله إلى ملوك العالم:

وتعاظمت فى هذه الأثناء قدرة الإسلام وتوسع نفوذه فانتشر أول شعاع لشمسه خارج الجزيرة العربية، وقام الرسول بإرسال سفراء محملين برسائل إلى كسرى (ملك ايران)، وقيصر (حاكم الروم) «۴»، والنجاشى (حاكم الحبشة)، والمقوقس (حاكم مصر) «۵» وإلى عدّة اخرى من الرؤساء والحكام أداءً لتكليفه الإلهى ولدعوتهم إلى الإسلام فكان جواب بعضهم إيجابياً، وسكت بعضهم الآخر ماعدا خسرو برويز (شاه ايران) وهذا دليل على إمّا: أنّ التبليغ الإسلامى الصحيح قد وصلهم فاطلعوا على حقائق الإسلام، أو أحسّوا بقدرته ووصلتهم أخباره فكان صلاحهم فى عدم المواجهة العسكرية مع المسلمين «۶».

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۵۳.

(۲) المصدر السابق، ج ۴، ص ۲۹۰.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۵۸۸- ۵۹۰.

(۴) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۸۸.

(۵) الكامل، ج ۱، ص ۵۹۱.

(۶) الكامل، ج ۱، ص ۵۹۱؛ تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۲۹۸؛ وسيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۳۴۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲

ولم يبقَ من مراكز المؤامرات إلّاخيبر مركز اليهود «۱» الذى يجب القضاء عليه.

لذلك فقد صمّم الرسول صلى الله عليه و آله فى السنة السابعة للهجرة على اخضاعه مع قبيلة يهودية اخرى كانت تقطن أرض فدك.

بعد ذلك تجاوز الإسلام كل الموانع والعقبات التى كانت أمامه وارتفعت رايته عالية بالنصر المبين.

وفى هذه المرحلة وصل الإسلام فى الجزيرة العربية إلى أوج العظمة والازدهار واستغل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله فرصة الاستفادة من صلح الحديبية للذهاب إلى زيارة بيت اللّه لأداء فريضة حج العمرة.

وبعد أن رجع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من خيبر فى شهر ذى الحجة أعلن للمسلمين الذين ذهبوا معه العام الماضى للعمرة أن يتهيأوا إلى السفر فى العام الحالى «۲» فلما سمع أهل مكة بهذا الخبر تركوا بيوتهم وفروا لاجئين إلى الجبال (وفقاً للصلح الذى اتفقوا عليه)، ودخل المسلمون مكة رافعين رؤوسهم.

عند ذلك أعلن الرسول صلى الله عليه و آله بقوله: «رحم اللّه امرأً أراهم اليوم من نفسه قوّةً» وبهذا الاسلوب استطاع المسلمون أن يحققوا آمالهم فى زيارة بيت اللّه سبحانه وهم يعرضون عظمة وقدرة الإسلام أمام أهل مكة «۳».

وعند حلول السنة الثامنة من الهجرة وسّع الرسول صلى الله عليه و آله دائرة نفوذ الإسلام، فأرسل سرية (غالب بن عبد اللّه الليثى) إلى (بنى الملوح)، و (العلاء بن الحضرمى)، إلى (البحرين)، وحسب أحد الأقوال أرسل سرية (شجاع بن وهب) إلى (بنى عامر)، وسرية (عمرو بن كعب الغفارى)، إلى (ذات الاطلاح)، فى أحد نواحى الشام.

وفى هذه السنة بعث الرسول صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) إلى أرض (بلى وعُذْرة) ليدعوهم

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۳۹۰؛ وسيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۲.

(۲) المصدر السابق.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۰۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳

إلى الإسلام، فوقعت غزوة (ذات السلاسل) «۱».

وفى السنة نفسها أرسل صلى الله عليه و آله (عمرو بن العاص) نحو (جيفر وعياز) إبنى الجلندى فى عمان ليدعوهم إلى الإيمان، ويأخذ (الجزية) من المجوس.

كما أرسل جيشاً بقيادة (أبى عبيدة الجراح) فحدثت غزوة (الخبط) التى وافقت السنة الهجرية نفسها وأرسل صلى الله عليه و آله أيضاً سرايا (أبى قتادة) للوقوف بوجه من جهز جيشاً لمحاربة الرسول صلى الله عليه و آله وحدثت أيضاً غزوة (مؤتة) «۲» فى أرض مؤتة وهى إحدى القرى فى الشام.

وكان عدد المسلمين المشتركين فى هذه الغزوة ثلاثة آلاف مقاتل، وقد استشهد فيها عدد من قادتهم فكان ذلك سبباً لشعور المسلمين بالضعف الذى يعدُ نصراً للأعداء، غير أنّه سرعان ما تهيأت أسباب فتح مكة حيث إنّ قبيلة (خزاعة) كانت حليفة للرسول

صلى الله عليه و آله وقبيلة (بنى بكر) حليفة لقريش، فبغت قبيلة (بنى بكر) على (خزاعة) وساندتها قريش، أتاح للرسول صلى الله عليه و آله التدخل لنصرة (خزاعة) فأمر صلى الله عليه و آله بتجهيز جيش لغزو مكة وتمكن بعشرة آلاف من المسلمين وبخطة عسكرية حكيمة من السيطرة على مكة وفتحها بدون قتال.

وبلغ المسلمون آمالهم فى الدخول إلى بيت اللّه الآمن مطهراً من دنس الجاهلية والأوثان.

وعندما رأى (أبو سفيان) كثرة المسلمين وقدرتهم انبهر بعظمة الإسلام فصرح إلى (العباس) بقولهِ: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فأجابه العباس: «ويحك إنّها النبوّة» «۳».

وصل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله إلى الكعبة ووقف فى بابها بعمامته السوداء منادياً بالشعار

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۷۲.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۵؛ و تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۳۱۸.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۱۴.

المعروف لنبذ آداب واعراف الجاهلية بقوله صلى الله عليه و آله: «لا إله إلّااللّه وحدهُ صَدقَ وعدهُ ونَصرَ عبدَهُ، وهَزمَ الأحزاب وحدهُ»، ثم أضاف صلى الله عليه و آله: «ألا ـ كُلّ دَمٍ فى ـ الجاهليةـ أو مأثرة أو مال يُدعى فَهو تحت قدمىّ هاتين إلّاسدانة البيت وسِقاية الحاج»، ثم قال: «يا معشر قريش ما تَرون أنّى فاعل بكم»؟ قالوا: «خيراً أخ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ»، قال: «اذهَبوا فأنتُم الطُلَقاء» «۱».

ثم أرسل الرسول صلى الله عليه و آله مجموعة من الجيش لاطفاء الفتنة التى حدثت بين القبائل فى اطراف مكة «۲» وللوقوف بوجه هوازن التى كانت مصرّة على قتال المسلمين واشتبك المسلمون مع هوازن فى (حنين) وردوا بغيهم إلى نحورهم «۳». وبعدها حاصروا الطائف واجبروهم على التسليم «۴».

عندما حلت السنة التاسعة للهجرة تنفس المسلمون الصُعَداء بتدمير كل مراكز المؤامرات التى كان يحوكها المشركون واليهود والنصارى وبرزت قوة جديدة إلى الوجود، فأسلمت بعض القبائل المحيطة على يديها وخضع لها بعضها الآخر.

وفى خضم هذه الحوادث جاء خبرٌ مفاده أن (هرقل) امبراطور الروم وعدداً من العرب الذين اعتنقوا النصرانية يريدون الهجومَ على بلاد الإسلام، فأعلن الرسول صلى الله عليه و آله أن يعدّ المسلمون أنفسهم للحرب مع الروم.

ونقل أرباب التاريخ أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أعلن عن مكان الحرب ولم يتكتم عليه خلافاً لعادته فى الحروب السابقة. ربّما لبُعد الطريق وأمثال ذلك ولكن يبدو أنّ هدفه كان بث الرعب فى قلوب الأعداء وقد جهز جيشاً بصعوبة بالغة وبمعدات قليلة وسُمى ب (جيش العسرة) واتجهوا إلى (تبوك) «۵» وعند وصولهم إليها ومرورهم ب (ميناء ايله) فوافق حاكمها على اعطاء الجزية وتعاهد مع المسلمين على الصلح «۶». ثم أرسل صلى الله عليه و آله خالد بن الوليد إلى حاكم (دومة الجندل) فقبل الجزية أيضاً «۷».

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۲۰.

(۲) الكامل، ج ۱، ص ۶۱۸؛ سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۷۰.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۲۴؛ وسيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۸۰؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۳۴۴.

(۴) الكامل، ج ۱، ص ۶۲۸؛ وسيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۲۲.

(۵) الكامل، ج ۱، ص ۶۳۵؛ سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۵۹؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۳۷۳.

(۶) الكامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

(۷) الکامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵

وظل رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی تبوک خمسهٔ عشر یوماً تقریباً ولکن جیش الروم تخلف عن المجیء فرجع الرسول صلی الله علیه و آله إلی مکهٔ «۱».

وفی هذه السنهٔ جاءت مجموعهٔ من ثقیف وأعلنت إسلامها بین یدی الرسول صلی الله علیه و آله «۲»، وأمر الإمام علیاً علیه السلام بتطهیر قبیلهٔ (طی) من دنس الأوثان فحاربهم وانتصر علیهم وأسّر بنت حاتم الطائی وعلی أثر ذلک دخل الإسلام (عدی بن حاتم و ...) «۳».

إنّ فتح مکهٔ ودخول بنی ثقیف الإسلام والفراغ من تبوک کانت مؤشرات علی عظمهٔ الإسلام وصدق هذا الدین فتوافد کثیر من القبائل علی الرسول صلی الله علیه و آله واطلعوا تدریجیاً علی معارف الإسلام وعظمته فاعتنق بعضهم الإسلام وبعض عقد صلحاً وترک الحرب مع الرسولفسُمی ذلک العام (بعام الوفود) «۴»، فجاء وفد (بنی اسد) إلی الرسول صلی الله علیه و آله قائلین:

«أتیناک قبل أن تُرسل إلینا رسولًا» ووفد (بلی)، ووفد (زاریین)، ووفد (بنی تمیم) «۵».

و وصلت رسائل کثیرهٔ من ملوک وسلاطین (حِمْیر) تدل علی قبول قدرهٔ وحکومهٔ الإسلام «۶».

وکذلک جاء وفد (بهراء) ووفدُ (بنی البکاء) ووفدُ (بنی فزارهٔ)، ووفد (ثعلبهٔ بن منقذ)، ووفد (سعد بن بکر) «۷».

ونزلت سورهٔ البراءهٔ وقرأها الإمام علی علیه السلام معلناً البراءهٔ من الشرک وعبادهٔ الأوثان ومنع المشرکین من الدخول إلی مکهٔ للحج.

---

(۱) الکامل، ج ۱، ص ۶۳۸.

(۲) المصدر السابق، ص ۶۴۰.

(۳) المصدر السابق.

(۴) الکامل، ج ۱، ص ۶۴۱؛ وسیرهٔ ابن هشام، ج ۴، ص ۲۰۵.

(۵) الکامل، ج ۱، ص ۶۴۲.

(۶) سیرهٔ ابن هشام، ج ۴، ص ۲۳۵.

(۷) الکامل، ج ۱، ص ۶۴۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶

«فأقام الناس الحج وحجت العربُ الکفّار علی عادتهم فی الجاهلیهٔ وعلیُ Z]یؤذن ببراءهٔ فنادی یوم الأضحی لاـ یحجنَّ بعد العام مُشرِکٌ ولا یَطوفنّ بالبیت عُریانٌ ومن کان بینهُ وبین رسول اللَّهِ عهد فأجلُهُ إلی مدّتهِ» «۱».

وحَلَّ العام العاشر للهجرهٔ وصوتُ الإسلام یدوی فی کل مکان، فجاء نصاری (نجران) إلی المباهلهٔ، ثم قبلوا الصُلح بدونها: «وصالحوه علی ألفی حُلّهٔ ثمنُ کل حُلّهٔ أربعون درهماً وعلی أن یُضیّفوا رُسُلَ رسول اللّه Z]وجعل لهم ذمَّهَ اللّه تعالی وعَهدهُ ألّا یفتنوا عن دینِهم ولا یُعشِروا وشرط علیهم أن لا یأکلوا الربا ولا یتعاملوا به» «۲».

وتوالت الوفود تلو الوفود إلی المدینهٔ لتعلن وفاءها للاسلام والرسول الأعظم صلی الله علیه و آله، فجاء وفد (سلامان)، ووفد (غبشان)، ووفد (عامر)، ووفد (ازد)، ووفد (مراد)، ووفد (زبید)، مع (عمرو بن معدی کرب)، ووفد (عبد قیس)، ووفد (بنی حنیف)، ووفد (کندهٔ)، ووفد (محارب)، ووفد (رهاویین)، ووفد (عبس)، ووفد (صَدف)، ووفد (خولان)، ووفد (بنی عامر)، ووفد (طی) «۳».

وقد تجلّت قوّهٔ الإسلام فی حجهٔ الوداع فبناءً علی ماذکر فی بعض الروایات فإنّ مجموع المسلمین الذین ذهبوا لزیارهٔ بیت اللّه الحرام وحضروا (حجهٔ الوداع) کان أکثر من مائهٔ الف شخص، ویعد هذا الاجتماع من أکبر الاجتماعات الدینیهٔ فی ذلک العصر، کما

تعكس ذلك أيضاً خطب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى سفره سواء كانت فى مكة، أم فى عرفات، أم فى منى أم فى غدير خُم، لتعيين الخليفة والوصى من بعده وقد جاء فى التاريخ مايلى:

«فأرآهم مناسكهم وعلمهم سنن حجهم وخطب خطبةُ التى بيّن فيها للناس ما بيّن وكان الذى يبلغ عنه بعرفة (ربيعة بن اميهٔ بن خلف) لكثرة الناس، فقال بعد حمد اللّه: «ايّها الناس اسمعوا قولى فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبداً. أَيّها الناس إنّ دماءكم وأموالكم عليكم حرامٌ كحرمة يومكم هذا وكل ربا موضوع لكم رؤوس أموالكم وإن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كُلّهُ وكل دم كان فى الجاهلية موضوع أَيّها النّاس

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۴؛ سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۱۹۰.

(۲) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۶.

(۳) الكامل، ج ۱، ص ۶۴۷- ۶۴۹؛ وللاطلاع على غزوات وسرايا الرسول صلى الله عليه و آله) يمكن الرجوع إلى سيرة ابن هشام ج ۴، ص ۲۵۶؛ الكامل، ج ۱، ص ۲۵۲؛ وتفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۴۰۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷

إنّ الشيطان قد يئس أن يُعبد بأرضِكم هذه أبداً ولكنّه يُطاع فيما سوى ذلك وقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ...» «۱».

جاء فى تاريخ حجة الوداع: أنّه أثناء ذهاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلى الحج كان قد اجتمع خلق كثير فى المدينة على الرغم من انتشار أحد الأمراض الذى منع حج كثير منهم: «ومع ذلك كانت معهُ جموع لا يعلمها إلّااللّه، وقد قيل إنّه خرج معهُ تسعون الفاً، ويقال: مائة الف وأربعة عشر الفاً وقيل: مائة الف وعشرون الفاً، وقيل: مائة الف وأربعة وعشرون الفاً، ويقال أكثر من ذلك وهذه عدةُ من خرج معه وأمّا الذين حجوا معه فأكثر من ذلك كالمقيمين بمكة والذى اتوا من اليمن مع على Z]وأبى موسى «۲».

ولو يمكن تقدير عدد المسلمين الذين لم يستطيعوا الحجّ لتبين مقدار ما وصلت إليه شوكة الإسلام.

وأخيراً جهّز الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قبل وفاتهِ جيشاً بقيادة (أُسامة) لحرب ديار الشامات (بصرى فتخلف بعضهم عن أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

---

(۱) الكامل، ج ۱، ص ۶۵۲.

(۲) سيرة الحلبى، ج ۳، ص ۲۸۳؛ وتواريخ اخرى نقلًا عن الغدير، ج ۱، ص ۹ وهو مصدر جامع لمن أراد أن يستزيد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹

نبيُّ الإسلام فى القرآن

تمهيد:

استعرضنا فيما تقدم لمحات مختصرة من حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من وجهة نظر المؤرخين، والآن نستعرض حياتَه الشريفة منذُ نعومةِ أظفارهِ وحتى انتهاء عُمره- كما جاء فى القرآن الكريم- بتحقيق دقيق مختصر يصلح أن يكون مقدّمة خاصة للبحوث حول النبوة.

إنّ دراسة الآيات القرآنية وبالأخص ذات العلاقة بهذا البحث لها أهميّة بالغة وذلك للرد على أصحاب الشبهات والمخالفين، فلو أنّ هذه الآيات لم تنطبق على واقع حياة الرسول صلى الله عليه و آله فإنّ ذلك سيكون مدعاة لإثارة هذه الشبهات، والتى سوف يكتبونها

فى التواريخ كما كتبت الوقائع الأخرى

وبتعبير آخر: بغض النظر عن كون القرآن الكريم كلام اللَّه سُبحانه وتعالى وكل ما جاء به من الآيات القرآنية منسجمٌ مع الحقيقة والواقع. فلو فرضنا عدم صحة تطابقها فإنّ الآيات القرآنية التى تخص حياة الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله لا يمكن عدم تطابقها مع الواقع، لأنّها ستكون وسيلة جيدة يتذرع بها الأعداء لتمرير شبهاتهم وبهذه الإشارة نمعن النظر مرة أُخرى فى الآيات القرآنية والنقاط المهمّة التى جاءت بها حول مقاطع مختلفة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰

محيط دعوة الرسول صلى الله عليه و آله:

اشارة

بيّن القرآن الكريم فى سورتين منه وبتعبير فى غاية الوضوح حياة عرب الجاهلية المعاصرين للرسول صلى الله عليه و آله بقوله: «وَان كَانُوا مِن قَبلُ لَفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل‌عمران/ ۱۶۴) (الجمعة/ ۲)

وتعبير (ضلالٌ مُبين) فى الآيتين بيانٌ واضحٌ لتحكُّم الضلالةُ والضياع فى المجتمع العربى الجاهلى.

ضياع فى العقائد حيث كانوا مشركين يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم من الحجر والخشب.

وضياعٌ فى الجوانب الاجتماعية إلى الحد الذى كانوا يئدون بناتهم احياءً وهم يفتخرون بذلك.

وكانوا يطوفون رجالًا ونساءً حول الكعبة عُراة ويعتبرون ذلك من ضمن عبادتهم.

والإعتداء والحروب وإراقة الدماء بالباطل، كل ذلك كان له قيمة اجتماعية فى الجاهلية، حتى وصل الأمر إلى أن يَرِثَ الأبناء أحقاد واضغان الآباء.

والمرأة فى خضم ذلك مجرّد متاع يقامرون به.

وأفضل من رسم مفهوم (ضلال مبين) قولُ (جعفر بن أبى طالب) عندما بيّن أوضاع عرب الجاهلية لملك الحبشة (النجاشى) بقوله: «أيّها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبدُ الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار، ويأكلُ القوىُ منّا الضعيف حتى بعثَ اللهُ إلينا رسولًا منّا نعرفُ نسبهُ، وصدقهُ وامانتهُ وعفافهُ فدعانا لتوحيد اللَّه وان لا نشركَ به شيئاً ونخلعَ ما كنا نعبدُ من الأصنام وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحُسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ...» «۱».

ولمزيد من توضيح تلك الإشارة التى وردت فى الآيتين الكريمتين نستعين بآيات اخرى حيث جاء فيها:

---

(۱) الكامل، ج ۲، ص ۸۰؛ تفسير فى ظلال القرآن، ج ۸، ص ۹۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱

۱- الأصنام فى عقائد العرب

إنّ عقائدأىّ قوم أو شعب تشكل ركناً أساسياً فى ثقافتهم، وانحطاط تلك العقائد يدل على الانحطاط الثقافى والحضارى لهم.

وعلى هذا الأساس، فعرب الجاهلية كانوا فى أرذل درجات الانحطاط الثقافى والضياع حيث كانوا يعبدون الأصنام التى يصنعونها بأيديهم فيتصورون أنّها تتحكم فى مصائرهم بل يزعمون أنّها حاكمة على السماء والأرض أحياناً، وقد خاطب القرآن الكريم الرسول

الأكرم صلى الله عليه و آله بصدد ذلك بقوله: «قُلْ اتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَايَملِكَ لَكُم ضَرًّا وَلَانَفعَاً وَاللَّهُ هُوَ السَّميعُ العَلِيمُ». (المائدة/ ۷۶)

وبالإضافة إلى الأصنام الصغيرة فقد كانت لديهم ثلاثة أصنام كبيرة ذات شهرة خاصة فى مجتمعهم يزعمون بأنّها بنات الرب وهى وسيلة للتقرب إليه، أحدها (مَناة) وكان ما بين المدينة ومكة المكرمة بالقرب من ساحل البحر الأحمر، ولهذا الصنم احترامٌ خاص عند كل العرب انذاك، فيقدمون إليه القرابين، وأكثر القبائل احتراماً وتقديساً له قبيلة (الاوس) و (الخزرج).

والثانى فى الطائف يُعرف باسم (اللّات)، وقد شُيد فى مكانه اليوم مسجد وكانت (ثقيف) من أكثر القبائل احتراماً له.

والثالث من الأصنام الكبيرة هو (العُزى وقد وضع فى الطريق المؤدى إلى العراق قريباً من منطقة (ذات العِرق) ولقريش علاقة خاصة بهذا الصنم،

وهناك أصنام اخرى للقبائل والعشائر بل وللعوائل أيضاً إذ لا معنى لحياة عرب الجاهلية بدونها، فمثلًا لو أرادوا السفر فإنّهم يستاذنون من الصنم ولهم فى اسفارهم أصنام يصحبونها معهم.

وقد أشار القرآن الكريم فى سورة النجم إلى ذلك بقوله تعالى «افَرَأَيتُمُ اللَّاتَ وَالعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الاخَرى الَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الانثَى . (النجم/ ۱۹- ۲۱)

ومن الجدير بالذكر فى الحياة الجاهلية أنّهم كانوا يكرهون البنات ويئدونهن أحياناً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲

بالرغم من اعتقادهم بأنّ الملائكة بناتُ اللّه وهذه الأصنام تماثيل تلك الملائكة، لذلك واجههم القرآن الكريم بمنطقهم وهو كيف تقولون: أنّ لله بنات فى الوقت الذى تكرهونهن فيه؟

و قد استنكر القرآن وذم تلك الأفكار الخرافية المنحطة بقوله تعالى «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحمنِ انَاثاً اشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ». (الزخرف/ ۱۹)

وقد حارب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هذه العقائد الضالة الناشئة من التصورات الخاطئة وهوى النفس كما ورد فى ذيل الآية الكريمة بعد أن أشارت إلى الأصنام الثلاثة الكبيرة المعروفة بقوله تعالى: «انْ هِىَ إِلَّا اسمَاءٌ سَمَّيْتُمُوَها انتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا انزَلَ اللّهُ بِهَا مِنْ سُلطَانٍ انْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهوَى الأنْفُسُ». (النجم/ ۲۳)

صحيح أنّ المشركين قد تشبثوا بدليلٍ واهٍ ليبرّروا به عبادتهم للأصنام حيث قالوا: (إنّ ذاتَ اللّه أسمى من أن يصلَ إليها العقل والفكر الإنسانى وهو منزه عن أن نعبده بصورة مباشرة)، وعلى هذا الأساس فالذين وكّل إليهم أمر خلقهِ وتدبيرهِ هم الواسطةُ إليه وهؤلاء هم الملائكة والجن وكل الموجودات المقدسة فهؤلاء اربابٌ نعبدهم وهم الذين يقربوننا إلى اللّه «مَانَعبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللّهِ زُلفَى . (الزمر/ ۳)

وعلى هذا فإنّ أيدينا لا تصل إلى هذه المقدسات فنصنع لها تمثالًا ثم نَعبدُها! وهذه التماثيل هى أصنامهم وفى تصورهم أن هناك وحدة واتحاداً بين هذه الأصنام والوجودات المقدسة فهم يخاطبونها بالآلهة والأرباب.

وهم بهذه الخرافات الواهية ابتعدوا عن اللّه سبحانه وتعالى وهو أقرب إلى الإنسان من نفسه، وبدلًا من أن يتوجهوا إلى اللّه الذى هو منبع الفيض والقدرة البصير الموجود فى كل مكان لجأوا إلى مخلوقات ممكنة لا حول ولا قوة ولا شعور لها بل إنّها مخلوقة بايدى عبّادها ومع ذلك فقد أجلسوا تلك المخلوقات التى لا قيمة لها على عرش الربوبية والالوهية ناسين عظمة الذات الإلهيّة اللامتناهية ولاهثين وراء سراب يحسبونه ماءً.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۳

۲- تفشى حالة الفقر الشديد بين الناس

فى الوقت الذى بُعثَ فيه الرسول صلى الله عليه و آله كان عرب الجاهلية غارقين فى فقر شديد إلى الحد الذى كانوا يقتلون فيه أبناءهم- وحتى الذكور منهم أولئك الذين يشكلون الحجر الأساس لحياتهم المادية والاقتصادية- ليقللوا عدد الأفواه الجائعة، قال تعالى «وَلَاتَقتُلُوا اولَادَكُمْ خَشْيَةَ املَاقٍ نَّحنُ نَرزُقُهُمْ وَايَّاكُم» «۱». (الإسراء/ ۳۱)

وقد جسّم أمير المؤمنين على عليه السلام هذا المعنى فى تحليل جامع فقال عليه السلام: «إنّ اللَّهَ بَعَثَ محمداً صلى الله عليه و آله نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل وأنتم معشر العرب على شرِ دين وفى شر دار منيخون بين حجارةٍ خُشن وحيّات صُمٍّ، تَشربونَ الكَدِرَ، وتأكلونَ الجَشِبَ» «۲».

۳- عباداتهم العجيبة

كانت عبادة المشركين غريبة للغاية، ويجيب القرآن الكريم على ادّعاء المشركين الذين يزعمون: بأنّه إذا كان محمدٌ صلى الله عليه و آله قد اتى بعبادات فإنّ لنا مثلها وكنا نصلى إلى جانب الكعبة كذلك، فيقول القرآن: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُم عِندَ البَيتِ إِلَّا مُكَاءً وتَصدِيَةً». (الانفال/ ۳۵)

نعم، إنّهم يُسمّون صفيرهم الاحمق وتصفيقهم الأبله صلاةً، «فالمكاء» يعنى: صوت الطيور، وجاء تشبيه أصوات العرب فى الجاهلية حول الكعبة بصوت الطيور، ربّما لأنّه خالٍ من أى مفهوم كصوت الطيور الذى لا محتوى فيه، أو أن كل ماكان يفعلونه ما هو إلّا مجرّد غناء.

وأمّا «التصدية» فمعناها التصفيق، وهو ضرب اليد على الاخرى والصوت الناتج من

---

(۱) هناك احتمال أنّ هذه الآية إشارة إلى قتل البنات اللاتى ينظر إليهن المجتمع باحتقار ويعدهن لوحدهن مخلوقات وضيعة مستهلكة ولكن الاحتمال هنا يشمل الأولاد أيضاً لوجود ضمير جمع المذكر ولقوله تعالى «إن قتلهم كان خِطأً كبيراً) ويعود هذا الضمير إلى الأولاد فى صدر الآية التى نزلت إمّا بخصوص الأولاد فحسب أو الأولاد والبنات على أقل تقدير وقد استخدم ضمير الجمع للمذكر لتغليب الذكور على الإناث.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

ذلك يسمى تصدية، وعلى هذا الأساس سمى تردد الصوت بين الجبال بالصدى ولم ينتهوا إلى هذا الحد بل كانوا يطوفون عراة كما ولدتهم امهاتهم حول الكعبة، وهذا ما اشير إليه عندما نزلت سورة براءة وقام بإبلاغها أمير المؤمنين على عليه السلام فى شهر ذى الحجة بقوله: «لا يطوفَنَّ بالبيت عُريانٌ ولا يحُجنَّ البيتَ مشركٌ ...» «۱».

ويقال: إنّ السبب من طوافهم عراة أنّ مجموعة من العرب يُسمّون أنفسهم (حُمس) «۲» يعتقدون بأنّ طوافهم حول الكعبة يجب أن يكون بلباس خاص، ومن لم يملك ذلك اللباس ويطوف بملابسه المعتادة فعليه أن يرميها بعيداً بعد انتهاء الطواف ولا يحق له وللآخرين استخدامها ولذلك يطلقون على هذه الألبسة (اللَقاء)، أى ما يُلقى من الثياب، وإذا اخذ بنظر الاعتبار أنّ أكثر الناس كان يسودهم فقر مدقع ولا يملكون إلّالباساً واحداً فيضطرون لخلعه من أجل الاحتفاظ به ويطوفون عراة حول الكعبة.

وقد استفاد أصحاب الشهوات أحياناً من هذه الخرافة ليتمتّعوا بالنظر إلى الشباب من الرجال والنساء عندما يعرضون أجسادهم عارية «۳».

ويـذكر ابن هشـام أنّ الرجـال كانوا عراة تماماً. أمّا النساء فكنَّ يخلعن كل ملابسـهن ما عـدا ثوباً مشـقوق الـذيال يبـدى أجسامهن ثم ينشغلن بالطواف، وذات يوم طافت امرأة فى تلك الهيئة أمام أعين رجال شرهة فأنشأت هذا الشعر الذى حفظه لنا التاريخ:

اليَومَ يَبدُو بَعضُهُ أو كُلُّهُفما بَدا مِنهُ فَلا أحِلُّهُ «۴»

أمّا القرابين التى يقدمونها إلى الأصـنام فلها قصةٌ مفصـلةٌ، فمن جملة ذلك أنّ الناس فى (دومة الجندل) «۵» كانوا يقدمون شخصاً فى كل سـنة قُرباناً إلى الآلهـة مع مراسم خاصة ثم يدفنون جسده المدمى قرب المذبح، حتى كتب بعضـهم: ا نّ المصـريين كانوا يقدمون أجمل

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۳، فى ذيل الآيات الاولى لسورة البقرة.

(۲) «حُمس» على وزن «خُمس» جمع «أحمس» وهو من تعصب لدينهِ، ولأنّ قريش كانت توطد عقيدةالشـركلذلك وصـفوا أنفسـهم بال (حُمس).

(۳) الإسلام والعقائد والآراء البشرية، ص ۲۸۸.

(۴) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۱۵.

(۵) منطقة فى شمال غربى (نجد) فى قمة جبال الجزيرة العربية، وهناك كانت قصة وقوع التحكيم بصفين.

الشـباب والشابات قرابين إلى (آلهـة النيل)، وقـد بقى ذلك التقليـد عُرفاً اجتماعياً لبعض قبائل العرب فينذر الآباء أبناءهم أحياناً قرابين إلى الآلهة أيضاً «۱».

۴- الخرافات الاخرى لعربِ الجاهلية

ومن جملتها مسألـة اللحوم المحللـة والمحرمـة والقوانين المخزيـة الفارغة التى كانوا يسـنونها لأنفسـهم كما ذكر ذلك القرآن الكريم: «وَقَالُوا هَذِهِ انْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّايَطعَمُهَا الَّا مَنْ نَّشاءُ بِزَعمِهِم وَانعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا». (الأنعام/ ۱۳۸)

ويقول فى الآيـة التى بعـدها: «وَقَـالُوا مَـا فِى بُطُونِ هـذِهِ الانعَـامِ خَالِصَـةٌ لِّذُكُورِنـا وَمُحَرَّمٌ عَلَى ازوَاجِنَا وَانْ يَكُنْ مَّيْتَـةً فَهُم فِيهِ شُـرَكَاءُ». (الأنعام/ ۱۳۹)

وقـد وعَـد القرآن أصـحاب تلك البِدع القبيحة التى ابتدعوها بالخسـران كما ورد فى ذيل هذه الآيات من قوله تعالى «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا اولَادَهُم سفَهًا بِغَيرِ عِلمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَد ضَلُّوا وَمَاكَانُوا مُهتَدِينَ». (الأنعام/ ۱۴۰)

حتى أنّهم قـد حرَّموا بعض السـنن الباقية من الأنبياء عليهم السـلام وأصـبحت غير مؤثرة مثل سُـنة تحريم القتال فى الاشـهر الحرم (ذى القعدة، ذى الحجة، محرم، رجب) حيث كان ذلك المعتقد عاملًا مهماً فى منعهم عن سـفك وإراقة دمائهم، لكن تلك السُـنة الخرافية (النسـيء) كانت تبطل تأثيرها، فمتى ما أرادوا تجاوز حرمة هذه الأشهر الحُرم، قالوا لا مانعَ من جعل شهر آخر مكان هذا الشهر، فعابَ عليهم القرآن هذا العمل السيء بقوله تعالى «انَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الكُفرِ». (التوبة/ ۳۷)

إنّ الحـج وزيـارة بيت اللَّهِ الحرام الـتى كـانت من سـنن إبراهيم عليه السـلام ودافعاً إلى الوحـدة والتقرب إلى اللَّه سـبحانه، قـد تلوث بخرافـاتهم ولم تصـبح سـبباً وعاملًا للابتعاد عن اللَّه سـبحانه فحسب بل وللتفرقـة والتشـتت بين الناس، لأنّ التعصب للقوميـة والشـرك وعبادة الأصنام كانت سائدة عليها.

---

(۱) الإسلام وعقائد وآراء البشر، ص ۲۷۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۶

۵- شيوع الفساد الأخلاقى

لقد بلغ الفساد الأخلاقى أعلى درجاته عند عرب الجاهلية فقد كانت تحكمهم عداوات شديدة وأحقاد موروثة من السلف إلى الخلف، لم تقتل الأخلاق فحسب بل إنّ كل شىء فى المجتمع ذهب ضحية لهذه العداوات وقد بيّن القرآن الكريم ذلك للعرب الذين مَنَّ اللَّهُ وتعالى عليهم بالإسلام بقوله: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم اذْ كُنْتُم اعدَاءً فَالَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فاصبَحْتُم بِنِعمَتِهِ اخوَاناً وَكُنْتُم عَلى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانقَذَكُم مِّنهَا». (آل عمران/ ۱۰۳)

و «الشفا»: كما جاء فى «مقاييس اللغة» هى الإشراف والتسلُّط على الشىء و (الشفا) هنا يطلق على الأشياء التى يشرف الإنسانُ عليها، مثل الإشراف على جوانب الحفرة أو حافة الوادى أو حافة النهر، وكذلك (شفة) الإنسان على جانبى فمه ويُطلق أيضاً على تحسن صحة المريض لأنّه يتسلط ويتغلب على المرض.

وعلى أيّة حال فقد شبَّه القرآن الكريم حياة عرب الجاهلية بمن يقف على شفا حفرة من النار ليسقط فيها بسهولة، نار تحرق كل شىء وتحوله إلى رماد.

كانت العداوة والنفاق والاختلافات مطبوعةً فى نفوسهم وحاكمةً عليهم بحيث صرح القرآن الكريم لنبىّ الإسلام محمد صلى الله عليه و آله: إنّ من المستحيل القضاء على هذه الاختلافات بالطرق العادية وإيجاد الاتحاد والوحدة بينهم إلّابمعجزة إلهيّة، وقد حصل ذلك على يد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بإذن اللّه: «لَو انفَقتَ مَا فِى الأَرضِ جَمِيعاً مَّاأَلَّفتَ بَينَ قُلُوبِهِم وَلَكنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَينَهُم». (الانفال/ ۶۳)

إنَّ معاقرة الخمر واللعب بالميسر والأزلام كانت متفشية بحيث كان من الصعب القضاء عليها بمرحلة واحدة، لذلك جاء أمر تَحريم الخمر على عدّة مراحل «۱».

كما أنّ أحد أكبر المفاسد الأخلاقية والاجتماعية هو مسألة (حقوق المرأة) فى مجتمع عرب الجاهلية، فقد وصلت إلى الحد الذى يتفق مع ما قاله بعض المفسرين: إنّه عندما تحين ولادة المرأة فى العصر الجاهلى تحفر حفرة وتجلس على شفتها فإن كان المولود بنتاً

---

(۱) والتفصيل فى ذلك جاء فى التفسير الامثل ذيل الآية ۹۰ من سورة المائدة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۷

قذفته فيها، وإذا كان ولداً عصمته منها. وقد قال أحد شعرائهم بهذا الصدد مفتخراً:

سَميتُها إذْ وُلدت تَموتُ‌والقبرُ صِهرٌ ضامنٌ ذمِّيتُ «۱»

إنّ هذا العمل سواء كان بدافع الفقر المدقع والاعتقاد بعدم الفائدة الاقتصادية للبنات أو بدليل التعصب المفرط ضدهن لتفادى وقوعهن فى الحروب أسيرات بيد الأعداء فهو أفضع وأوحش عادات عصر عرب الجاهلية.

وقد عاب القرآن هذه الاعتقادات مراراً بقوله تعالى «وَاذَا بُشِّرَ احدُهُم بِالانثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوَارَى مِنَ القَومِ مِن سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ ايُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ امْ يَدُسُّهُ فِى التُّرابِ الَا سَاءَ مَايَحكُمُونَ». (النحل/ ۵۸- ۵۹)

إنّ هذا العمل نوع من أنواع التعصب الأعمى لحفظ الشرف وقد جرهم لاقتراف أفضع الجرائم: (قتل الإنسان لطفله المسالم) وهو دليل واضحٌ على أعظم حالات الجهل وسقوط الأخلاق وانعدام العواطف الإنسانية والاستهانة بمنزلة المرأة فى ذلك المجتمع الجاهلى وتعبير «أَيُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ» يشير إلى أنّ وجود البنت يعدّ عاراً عندهم إلى الحد الذى يهرب من قومه وقبيلته تخلصاً من عارها، غافلًا عن أنّ مسألة عدم وجود بنت تعنى عدم وجود امهات، وإذا انعدمت الامهات انعدم وجودهم أيضاً، يقول أحد شعرائهم فى هذا

الصدد:

لكل أبى بنت يُراعى شؤونهاثلاثةُ أصهارٍ إذا حُمِدَ الصهرُ

فبعلٌ يُراعيها وخِدرٌ يُكنّهاوقَبرٌ يُواريها وخيرُهُم القَبرُ «۲»

طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله:

لا يوجد بحث كثير فى القرآن الكريم عن طفولةِ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله إلّاسورة الضحى حيث نقرأ فيها: «أَلَمْ يَجِدْكَ يَتيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فاغنَى .

(الضحى/ ۷- ۸)

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۴۴۴.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۶، ص ۳۷۳۴. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۸

فى الآية الاولى إشارة إلى يُتمِ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث جاء فى التاريخ أيضاً أن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عندما كان فى بطن امه توفى والدهُ (عبد اللّه)، وفى السنة السادسة من عُمرهِ الشريف توفيت والدتُهُ فتكفّله جدُهُ (عبد المطلب).

وفى السنة الثامنة من عمرهِ توفى جدُّهُ، فاحتضنه عمُّهُ (أبو طالب) وآثرهُ على أولادهِ ونفسهِ.

وفى الآية الثالثة إشارة واضحة إلى فقر الرسول صلى الله عليه و آله فى بداية عمره الشريف فمنَّ اللّه سبحانه وتعالى عليه بإلقاء محبته فى قلب خديجة عليها السلام فتزوج منها واغدقت عليه ثروتها واعانته على حياته ودعوته.

وأمّا فى الآية الثانية فيقول تعالى «وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَى وفسّرهُ أحد المفسرين بمعنى عدم معرفة الحق.

وقال آخرون: إنّ مفهوم الآية هو أنّك كنت ضالًا لا تعرف الحق ونحن هديناك إليه.

وقال بعضهم: إنّ المراد بكلمة «ضالًا» هو (غافل) عن الأحكام والكتب السماوية، ولكن بعضهم يذهب إلى الضلالة الظاهرية فى الطفولة حيث ضاع الرسول صلى الله عليه و آله مرة أو مرات عديدة عند أبواب مكة أو فى أماكن اخرى واللّه سبحانه هداهُ إلى أحضان مملوءة بالمحبّة فأرجعه إلى أحضان (عبد المطلب) و (أبى طالب) و (حليمة السعدية) التى كانت امُهُ فى الرضاعة.

وقد بيّنا شرح هذه الآية فى المجلد السابع من رسالة القرآن فى بحث تنزيه الأنبياء، وفى التفسير الأمثل فى ذيل هذه الآية آراء مختلفة وأفضل التفاسير هو ما ذكر أعلاه.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات تُبيّن مراحل طفولة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

ومن أبرز خصائص الرسول صلى الله عليه و آله فى هذه المرحلة أنّه لم يتعلم القراءة والكتابة عند استاذٍ قط، ولربّما يبدو لأول وهلة أنّه نقص ما، ولكنه من النقاط المهمّة والقوية فى شخصية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، لأنّه عندما جاء القرآن الكريم بعباراته ومعارفه الراقية لم يشك أحد فى كون القرآن منزل من اللّه سبحانه من نتاج فكر إنسان امى.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۹

وقد أكدت سورة العنكبوت هذا المفهوم بقوله تعالى «وَمَا كُنتَ تَتلُوا مِن قَبلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ اذاً لَّارتَابَ المُبطِلُونَ»

(العنكبوت/ ۴۸)

لاشك أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله لو درس على يدى استاذ ما فى تلك البيئة التى يُعد عدد المتعلمين فيها قليل جدّاً لكان من المستحيل عليه أن يأتى بمثل هذا القول الجلى، ولجابهه بعض الأفراد المطلعين على مجريات الأحداث بهذه الحجّة القوية متهمين إيّاه بالكذب والافتراء.

وحتى لو كان الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله يعرف القراءة والكتابة فإنّ من المسلّمات أيضاً أنّ هذا القرآن لا يمكن أن يأتى به عقل بشرى، فعدم معرفة الرسول القراءة والكتابة دليل قاطع على هذا المعنى

وفى آيتين من القرآن الكريم جاء تصريح واضح أيضاً: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الاُمِّيَّ» و «فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الاُمِّيِّ». (الأعراف/ ۱۵۷- ۱۵۸)

وفى آية اخرى ضمنت ذلك المعنى بقوله تعالى «هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الاُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنهُم». (الجُمعة/ ۲)

ونحن نعرف أنّ أشهر تفسير لكلمة «أُمّى» هو من لا يقرأ ولا يكتب وحاله كحال الذى يخرج من بطن أُمه لم ير استاذاً ولا مدرسة.

وفسّر البعض كلمة «أُمّى» بأنّه من قام من بين الامة والنّاس لا من بين الطغاة والجبابرة.

وبعضهم يذهب إلى أنّه من وُلد فى مكة المكرمة لأنّ أحد أسمائها (أم القُرى أو من قام من مكة، وتختلف الروايات بهذا الصدد ولكن لا- مانع فى ذلك لو احتملنا أنّ كلمة «أُمّى» تتضمن معنى المفاهيم الثلاثة (لا يقرأ ولا يكتب)، وقام من بين الأمة، وولد فى منطقة مكة.

وقد حاول بعض المستشرقين المخالفين أن يسلبوا هذه الخصيصة من الرسول صلى الله عليه و آله حيث زعموا أنّه كان رجلًا غير (أمى)، ولو أنّه كان كما يدعون فكيف خفى ذلك على بيئة لا يمكن أن يخفى فيها شىء على أحد، بل إنّها ليس لها القدرة على انكار ذلك.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۰

بداية مرحلة البعثة النبوية:

ما تقدم يمثل لمحات مختصرة من القرآن الكريم حول حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قبل البعثة الشريفة، والآن جاء دور البحوث المفصلة حول البعثة النبوية.

فقد أشار القرآن الكريم إشارات مختلفة حول بعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ومن جملتها الآيات الخمس التى جاءت فى أول سورة العلق، التى اتفق المفسرون على أنّ نزولها فى بداية «۱» الوحى وبعثة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال عز من قائل: «اقْرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ* خَلَقَ الانسانَ مِن عَلَقٍ* اقْرَأ وَرَبُّكَ الاكرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ* عَلَّمَ الانسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ» وكما هو المشهور فإنّ هذه الآيات نزلت على النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى غار حراء.

أجل، إنّ اللَّه سبحانه وتعالى ذو القدرة هو الذى أنزل إليك كتاباً سماوياً عظيماً يحمل بين دفتيه أسمى العلوم والمعارف الجليلة والقوانين والدروس التربوية بوسائل بسيطة كالحروف الهجائية، وأكد مرة اخرى على ضرورة تعلم القراءة باسم الخالق العظيم، واضافة إلى مسألة القراءة أشار إلى تعلم الكتابة وإلى أنّ اللَّه سبحانه هو المعلم، اللَّه معلم البشر الأول الذى «عَلَّمَ الانسَانَ مَالَمْ يَعْلَم» فكانت طرق التعليم على ثلاثة أقسام: (قسم خلقها على هيئة علوم فطرية فى وجودها مع الإنسان فى الفطرة، وقسم آخر يعتمد العقل والتدبر والتفكير فى عالم الخلق، والقسم الثالث عن طريق الأنبياء).

إنّ هذه الآيات القرآنية تدل على أنّ البعثة بدأت فى جو مفعم بالمعنوية ومملوء بنور العلم والمعرفة «۲».

فثقل الوحى من جهة وثقل الرسالة التى أُلقيت على عاتق الرسول صلى الله عليه و آله من جهة اخرى والمستقبل المُرعب فى المجابهة المحتومة مع المشركين المعاندين المتعصبين من جهة

---

(۱) أورد بعض المفسرين ومن بينهم القرطبى قولًا ضعيفاً هو إنّ أول آية نزلت على الرسول صلى الله عليه و آله هى آيات، سورةالحمد، أو المدثر، ولكن وفقاً لما ورد فى تفسير روح البيان، إذا كان هناك خلاف ففى سورة العلق كلها ولا يوجد هناك

خلاف على الآيات الخمس الأوائل منها بكونها أول آيات نزلت، ج ۱۰، ص ۴۷۰.

(۲) فى الآيات ۱۶۴ من سورة آل عمران والآية ۲ من سورة الجمعة أيضاً إشارات إلى أصل البعثة ولم تذكر الآيات الاولى التى نزلت.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۱

ثالثة، كانت سبباً فى شعور النبى صلى الله عليه و آله بالتعب الشديد بعد نزول الوحى عليه أول مرةٍ، فرجع إلى بيته ونام على فراشه وإذا بصوت الوحى يقرع مسامعه للمرة الثانية بقوله تعالى «يَاايُّهَا المُدَّثِّرُ* قُمْ فَأَنذِرْ* وَرَبَّكَ فَكَبِّر». (المدثر/ ۱- ۳)

وهناك أقوال كثيرة حول سبب نزول هذه الآية عند المفسرين.

فبعضهم يقول: إنّها تتعلق بزمان تجمع فيه المشركون العرب فى موسم الحج، وتشاوروا لمجابهة الرسول صلى الله عليه و آله.

وقد جاء فى روايات متعددة أنّ الآيات الاولى من سورة العلق- على أقل تقدير- نزلت بعد حادثة غار حراء وبعثة الرسول صلى الله عليه و آله والآيات الباقية لها تتعلق بالسنوات التالية «۱».

وتشابه هذه الآيات، الآيات الاولى من سورة المزّمل التى أشارت أيضاً إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله تدثر بردائه ونام فى فراشه فنزل قوله تعالى «يَاايُّهَا المُزَّمِّلُ* قُمِ اللَّيلَ إِلَّا قَلِيلًا* نِّصفَهُ اوِ انقُصْ مِنهُ قَلِيلًا* او زِدْ عَلَيهِ وَرَتِّلِ القُرآنَ تَرتِيلًا* انَّا سَنُلقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا».

واسلوب هذه الآيات يدلل على أنّها نزلت فى أوائل الدعوة الإسلامية لأنّ إلقاء القول الثقيل يشير إلى القرآن المجيد الذى نزل على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى زمان كان عدد المؤمنين فيه قليلًا، فاضطر صلى الله عليه و آله إلى جمع المؤمنين ليلًا وبعيداً عن أنظار الأعداء ليقرأ عليهم الآيات القرآنية التى كانت تحتوى على المعارف والقوانين الإسلامية.

وطبيعى أنّ قسماً من آيات هذه السورة قد نزلت فى السنوات التالية، بل وهناك احتمال أنّ الآية الطويلة الواقعة فى آخر السورة والتى جاء فيها حثٌ على الجهاد فى سبيل اللَّه سُبحانه قد نزلت فى المدينة أواخر المرحلة المكية (لأنّ فيها أخباراً عن المستقبل القريب).

وعلى أيّة حال فليس هناك سبب يمنع نزول الآيات الاولى من السورة فى بداية الدعوة

---

(۱) فسّر المفسرون كلمة (المدثر) على خمسة تفاسير، وردت فى التفسير الامثل، ذيل هذه الآيات وأكثر الجميع ملاءمة هو أنّ الرسول صلى الله عليه و آله) كان مضطرباً فنام فى فراشه ونزلت تلكم الآيات.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۲

وبالأخص أنّ كثيراً من المفسرين قد أشاروا إلى ذلك.

ومن المعروف أنّ دعوة الرسول صلى الله عليه و آله كانت سرية فى بداية البعثة ولم يتصل ويدع إلى الإسلام إلّاالخواص الذين كان يطمئن باستعدادهم النسبى لتلبية دعوته، وفى هذه المدّة آمنت به عدّة معدودة.

قصة يوم الدار:

وفى السنة الثالثة للبعثة أمر اللَّه سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه و آله أن يعلن الدعوة الإسلامية فنزلت الآية الكريمة: «وَانذِرْ عَشِيرَتَكَ الاقرَبِينَ». (الشعراء/ ۲۱۴)

وفى ا لآية: «فَاصدَعْ بِمَا تُؤمَرْ وَاعرِضْ عَنِ المُشرِكِينَ». (الحجر/ ۹۴)

فأعلن الرسول صلى الله عليه و آله دعوته مبتدئاً بالأقربين من عشيرته، وهذه القصة معروفة، وقد بيّناها فى القسم السابق.

وفى هذه الأثناء تعرض الرسول صلى الله عليه و آله إلى ضغوط متنوعة، وتحرك الأعداء ضده من كل حدبٍ وصوبٍ.

والجدير بالذكر أن تحرك الأعداء ضد الرسول صلى الله عليه و آله كان على عدّة مراحل واشكال مختلفة (ويظهر أنّ هذه المراحل

كانت موجودة فى جميع الدعوات الإلهيّة).

المرحلة الاولى كانت مرحلة الاستهزاء وهى أول المراحل فى زمان لم ينظر فيه المشركون بشكل جدى إلى الدين الجديد، ولم يحسوا بخطره الحقيقى، بل تصوروا أنّ السخرية والاستهزاء سينهيان الأمر سريعاً ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك، وقد جاء تعبير عن تلك المرحلة بقوله تعالى «وَاذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا انْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً اهَـذَا الَّذِى يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بَذِكْرِ الرَّحمنِ هُمْ كَافِرُونَ» «۱». (الانبياء/ ۳۶)

ولم تنحصر السخرية والاستهزاء بنبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله بل تعرض لها جميع الأنبياء

---

(۱) وجاء مثل هذه المعنى فى الآية ۴۱ من سورة الفرقان «وَإِذَا رَأَوْكَ ان يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُواً أَهَذَا الَّذِى بَعَثَ اللهُ رَسُولًا».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۳

السابقين: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ الَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ». (الحجر/ ۱۱)

ولما رأى المشركون أنّ السخرية والاستهزاء لم تؤثرا شيئاً وأنّ الإسلام ما زال يواصل تقدمه دون تلكؤ، انتقلوا إلى المرحلة الثانية:

لقد تصور المشركون أنّهم سيخرجون الرسول صلى الله عليه و آله من ميدان الصراع بإلصاق التهم به كالجنون او (السحر)، أو (الشِعر)، أو أنّ ما جاء به قد تعلمه على يد هذا أو ذاك أو أنّه منقول من أساطير الأولين.

فمرة يقولون: «يَاايُّها الَّذِى نُزِّلَ عَلَيهِ الذِّكرُ انَّكَ لَمَجنُونٌ». (الحجر/ ۶)

واخرى يقول بعضهم للآخر: «ائِنّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنا لِشَاعِرٍ مَّجنُونٍ». (الصافات/ ۳۶)

وأحياناً يقولون: «هَذَا سِحْرٌ وَانَّا بِهِ كَافِرُونَ». (الزخرف/ ۳۰)

وأضاف القرآن الكريم: إنّه ليس مشركو العرب لوحدهم ألصقوا تلك التُهم بالرسول صلى الله عليه و آله فحسب بل إنّ هذه التهم قد عانى منها كل الأنبياء: على مر التأريخ: «كَذَلِكَ مَا اتَى الَّذِينَ مِن قَبلِهِمْ مِّن رَّسُولٍ الَّا قَالُوا سَاحِرٌ اوْ مَجنُونٌ». (الذاريات/ ۵۲)

وفى مكان آخر نقرأ قوله تعالى «وَلَقَدْ نَعلَمُ انّهُم يَقُولُونَ انَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِى يُلحِدُونَ الَيهِ اعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ» «۱». (النحل/ ۱۰۳)

وأحياناً يقولون: «وَقَالُوا اسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكتَتَبَها فَهِى تُمْلَى عَلَيهِ بُكرَةً وَاصِيلًا». (الفرقان/ ۵)

و «اساطير»: جمع (اسطورة) ومعناها القصص الخيالية التى لا صحة لها، وبهذا الاسلوب ألصقوا أنواع التهم وكل ما يختمر فى أذهانهم بالرسول صلى الله عليه و آله ولكن لم يؤثر أىّ منها، وأخذ الإسلام يشق طريقه بسرعة بين الطبقات المختلفة.

المرحلة الثالثة: بدأت المرحلة الثالثة بضغوط مختلفة: اجتماعية وسياسية ولأنّهم أدركوا مدى خطورة الإسلام عليهم سعوا إلى القضاء على الرسول صلى الله عليه و آله والمجموعة القليلة التى آمنت به من هذا الطريق.

---

(۱) جاء فى التفاسير أن رجلًا يدعى (بلعام) كان فى مكة وأصله عبد رومى لبنى حضرم وكان المشركون يقولون: إنّ محمداً صلى الله عليه و آله تعلم القرآن منه، وقال بعضهم: إنّ كلامه إنّما نقله من عبدين نصرانيين أحدهما يسار والآخر جبر أو ذكروا اسم سلمان الفارسى، ولم تكن لغة أىمنهم العربية بينما يعد القرآن معجزة فى الفصاحة والبلاغة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۴

وقصة (شِعب أبى طالب) معروفة إذ تمّ فيها محاصرة المسلمين فى ذلك الوادى المقفر لمدة ثلاث سنوات خلال السنة السادسة للبعثة حيث انتهت بموت اطفالهم وحتى بعض كبار السن.

وكذلك قصة الهجرة إلى الحبشة خلال السنة الخامسة للبعثة معروفة أيضاً على أثر تعرُّض المسلمين لضغوط شديدة وتعذيب

المشركين لهم.

والعجيب أنّه لم يتعرض المسلمون وحدهم لهذه الضغوط فحسب، بل جاء فى التاريخ أنّهم عقدوا معاهدة على مقاطعة كل بنى هاشم وبنى عبد المطلب سواء من أسلم منهم أم لم يسلم فلا يتزوجون منهم ولا يزوجونهم، وأن لا يشتروا منهم ولا يبيعوهم شيئاً حتى يزداد الضغط على المسلمين.

مع العلم أننا لا نرى فى الآيات القرآنية إشارات واضحة حول هذه المسألة ولكن ممّا كان يتواصى به المشركون والكفار والمنافقون مع بعضهم فى المدينة نستطيع أن نعرف وضع مكة: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَاتُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا».

(المنافقون/ ۷)

إنَّ هذه الضغوط لم تجدِ نفعاً أيضاً، بل ازداد تعاطف الناس شيئاً فشيئاً مع المسلمين وصار الإسلام أنشودة على كل لسان، حيث إنّ المسلمين اكتسبوا مظلومية تأثرت بها عواطف مجاميع عظيمة فانجذبوا إليهم.

وأخذت مواجهات الأعداء شكلًا أكثر حدة فى:

المرحلة الرابعة: وفيها صمموا على قتل الرسول صلى الله عليه و آله وإراقة دمهِ ليتخلصوا منه إلى الأبد أو أن يبعدوه عن مكة على اقل تقدير، ففى (دار الندوة) محل اجتماعهم ومركز مشاوراتهم، اجتمعوا ووضعوا خطة شيطانية دقيقة للوصول إلى أهدافهم تلك كما يقول القرآن: «وَاذْ يَمكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثبِتُوكَ او يَقْتُلُوكَ او يُخرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ». (الانفال/ ۳۰)

وكما نعلم أنّ اللَّه سبحانه وتعالى قد أبطل كل خططهم الشيطانية ونجا الرسول

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۵

الكريم صلى الله عليه و آله من سيوف الأعداء حيث هاجر إلى المدينة تلك الهجرة الكبيرة التى تركت آثاراً عظيمة وتحولًا كبيراً فى تاريخ الإسلام وفى العالم أجمع.

ومرة أُخرى نتأمّل فى القرآن حيث يُحدثنا بقوله تعالى «الَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ اذْ اخرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثنَينِ اذْ هُمَا فِى الغَارِ اذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَاتَحْزَنْ انَّ اللَّهَ مَعَنَا فَانْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيهِ وَايَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هىَ العُلْيا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة/ ۴۰)

وبهذا الترتيب تخلص الرسول صلى الله عليه و آله من الأخطار المختلفة المحيطة به بلطفٍ من اللَّه سبحانه وبدأ هجرته المباركة بهدوء وسكينة ودخل الإسلام عندها مرحلة جديدة فى حياته، وباء الأعداء بالفشل الذريع فى هذه المرحلة أيضاً.

انتشر الإسلام فى المدينة بسرعة فائقة وكثر اتباع الدين الإسلامى فشكل الرسول صلى الله عليه و آله الحكومة الإسلامية وصار للمسلمين جيش منظم وبيت للمال وكل ما تحتاجه الدولة آنذاك.

وفى مقابل توسع الإسلام وتثبيت أركانه احس الأعداء بخطر أكثر جدية فوسعوا مجابهتهم ودخلوا:

المرحلة الخامسة: وهى المواجهة المسلحة مع الإسلام، وبدأت الغزوات الإسلامية كغزوة (بدر الكبرى و (الصغرى و (أحد) و (خيبر) و (حنين) و ..... واحدة تلو الاخرى وفى كل مرة- إلّافى مورد واحد- كان المسلمون يشهدون انتصارات ملفتة للنظر وكانوا فى تقدم مستمر.

وقد أشار القرآن الكريم فى كثير من الآيات إلى هذه المرحلة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله حيث تعد من أكثر المرتكزات المهمّة فى هذا المقطع من تاريخ الإسلام.

فى الآية التالية إشارة اجمالية إلى هذه الغزوات بقوله تعالى «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَينٍ». (التوبة/ ۲۵)

فكلمة (مَواطِن) جمع (مَوْطِن) وتأتى أحياناً بمعنى وطن ومحل الإقامة الدائمية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۶

وأحياناً بمعنى ساحة القتال ومن هنا جاءت «مواطن كثيرة» أى الساحات المتعددة للحروب الإسلامية حيث بلغ عدد هذه الغزوات ثمانين غزوة، لذا نقرأ فى الحديث أنّه:

عندما نذر أحد خلفاء بنى العباس أنّه إذا عافاه اللّه سبحانه فإنّه يعطى مالًا كثيراً للفقهاء ولمّا تماثل للشفاء اجتمع الفقهاء حوله عاجزين عن تعيين مقدار (المال الكثير) إلّاأنَّ الإمام التاسع (محمد بن على التقى عليه السلام فسّر ال (كثير) ب (ثمانين) (ربّما تكون ثمانين ألف درهم) لأن الآية السالفة الذكر قد اطلقت مواطن كثيرة على الغزوات الإسلامية البالغة ثمانين غزوة «۱».

ثم جاء الفتح المبين و (فتح مكة) وحكم الإسلام شبه الجزيرة العربية بأجمعها وحطم المسلمون آخر معقل للأعداء.

ولكن العدو المهزوم لم يستسلم فقد اضطر إلى تشكيل جمعية سرية (وهم المنافقين الذين كانوا يتظاهرون بالإسلام وفى الخفاء كانوا منهمكين بأنواع المؤامرات ضده الدين الإسلامى).

وبهذا الاسلوب دخلوا:

المرحلة السادسة: (مرحلة نهاية الحرب مع الأعداء)، وبالطبع أنّ ظهور المنافقين بدأ مع أول انتصار للإسلام وتوسع فى مقابله وما زال مستمراً إلى الآن.

وفى هذه المرحلة فقد باؤوا بالفشل الذريع أيضاً حيث كلما أرادوا التآمر على الإسلام كشفهم اللّه سبحانه وأبطل حيلهم ولم يبقَ منها سوى نارٍ خامدة تحت الرماد لم يظهر اشتعالها ثانيةً إلّابعد رحلة الرسول الكريم صلى الله عليه و آله.

نزلت آيات قرآنية كثيرة حول هذه المرحلة أيضاً تعد من مقاطع القرآن المهمّة فى اسداء العبر والدروس، ففى سورة (الأحزاب)، و (التوبة)، و (المنافقون) بحوث حية ومجدية تحكى لنا عن عمق المؤامرات التى قام بها المنافقون ومن جملتها الآية الكريمة فى قوله تعالى حيث ذكرت بحوثاً كثيرة حول هذه الجماعة ومخالفتهم وفتنتهم وتجسسهم،

---

(۱) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۱۹۷.

قال تعالى «لَقَدِ ابتَغَوُا الفِتنَةَ مِن قَبلُ وَقَلَّبوا لَکَ الامُورَ حَتَّى جَاءَ الحَقُّ وَظَهَرَ امرُ اللَّهِ وَهُم کَارِهُونَ». (التوبة/ ۴۸)

إنّ هذه المراحل الست السالفة الذكر لم تكن فى مقابل الثورة الإسلامية للرسول الكريم وحده صلى الله عليه و آله فحسب بل فى مقابل كل الثورات الإلهيّة وهى بدورها موضوع لقصة مفصلة نتعلم منها الكثير.

ولكن لم يفلح الأعداء بكل مساعيهم للاطاحة بالإسلام وظلت شجرته زاهيةً مثمرةً حيث غطّت باغصانها واوراقها كل أصقاع شبه الجزيرة العربية كما دلت الآية الكريمة «اذَا جَاءَ نَصْرُ اللّهِ وَالفَتْحُ* وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دينِ اللَّهِ افْوَاجاً». (النصر/ ۱- ۲)

الأشهر الأخيرة من حياة الرسول صلى الله عليه و آله:

إنَّ السنة الأخيرة من حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هى السنة التى كانت فيها (حجة الوداع) ونزلت بها آخر سورة من سور القرآن يعنى سورة (المائدة)، ومع نزول آخر رسالة للوحى على الرسول صلى الله عليه و آله أمر اللّه سبحانه وتعالى نبيه الكريم صلى الله عليه و آله أن يعين أمير المؤمنين علياً عليه السلام وصياً له وخليفة من بعده كما فى قوله تعالى «يَاايُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا انْزِلَ اليَکَ مِن رَّبِّکَ وَانْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُکَ مِنَ النَّاسِ انَّ اللَّهَ لايَهْدِى القَوْمَ الکَافِرِينَ».

(المائدة/ ۶۷)

وفى (غدير خُم) ذلك المعبر الكبير الذى كان مُفتَرقَ طرق للمجاميع التى جاءت مع الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى (حجة الوداع) وأمام الجمع الكبير أدّى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حق الرسالة بإظهار هذا الأمر «۱».

وحلت الحادثة الكبيرة المؤلمة وهى رحيل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله من الدنيا فى وقت كان الإسلام ثابت الأركان من جميع النواحى. وله أرضية مهيأة للانتشار فى جميع أنحاء العالم.

ولذا فقد كانت توقعات الأعداء هى ذهاب الإسلام مع رحلة الرسول صلى الله عليه و آله ولكن خابت

---

(۱) ويمكن مراجعة تفصيل ذلك فى التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۸

ظنونهم وذهبت أدراج الرياح: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَايْن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ». (الأنبياء/ ۳۴)

وقوله تعالى «انَّكَ مَيِّتٌ وَانَّهُم مَّيِّتُونَ». (الزمر/ ۳۰)

وقال: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوتِ». (الأنبياء/ ۳۵)

إنّ هذا القانون شامل وعام لعالم الخلقة أجمع: «وَخَسِرَ هُنالِكَ المُبطِلُون». (الغافر/ ۷۸)

وتحقق وعداللّه كما ورد فى الآية: «يُرِيدُون انْ يُطفِؤا نُورَ اللَّهِ بِافوَاهِهِم وَيَأبَى اللَّهُ الَّا انْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ». (التوبة/ ۳۲)

وهكذا فإنّ هذا النور الإلهى يتألقُ يوماً بعد يوم، وهو الآن يُنير افقاً واسعاً من آفاق البشرية، وفى كل سنة تتنور آفاق اخرى بنور الإسلام ليزيح الظلام والظُلم عن العالم أجمع.

كان هذا شرحاً مختصراً عن المراحل المختلفة لحياة الرسول صلى الله عليه و آله فى القرآن المجيد، وشرح كل مرحلة منها يحتاج إلى كتاب خاصّ ومفصّل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۴۹

الأدلة التى تثبتُ صدق دعوة رسول الإسلام

اشارة

الطريق الاول: اعجاز القرآن

الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۱

الطريق الأول: اعجاز القرآن

تمهيد:

نفحات القرآن ج۸ ۹۹

بدون شك أنّ ادّعاء أىّ مدعٍ حول أى قضية لا يمكن قبوله إلّابالدليل المقنع، فكيف إذا كانت القضية غاية فى الأهميّة مثل نبوّة الأنبياء والادّعاء بنزول الوحى والارتباط باللّه سبحانه ودعوة الناس إلى اتباعهم؟!.

و على هذا فإنَّ أوّل المسائل التى نواجهها هى مسألة الأدلةُ على نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

وإنَّ هذه الدلائل التى نعلم إجمالًا بتفرعها تقع تحت أربعة عناوين وهى:

۱- المعجزات.

۲- مضمون الدعوة.

۳- أخبار الأنبياء الماضين والكتب السماوية السابقة.

۴- القرائن المختلفة: من دراسة سوابق حياته واقربائه وأصحابه والوسائل المتخذة للوصول إلى الهدف، ومقدار تأثيره فى المجتمع، ومقدار اعتقاده وايثاره فى سبيل هدفه، والأخلاق والصفات الاخرى التى تشكل أرضية لمعرفة صدق ادعائه.

بعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى معجزات النبى صلى الله عليه و آله فنقوم ببحث ودراسة للقرآن الذى يعتبر أول وأفضل وأخلد معجزة للنبى صلى الله عليه و آله وقبل كل شىء نقرأ منطق القرآن فى وصف نفسه:

۱- «قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى ان يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرَآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۲

كانَ بَعضُهُم لبعضٍ ظَهِيراً». (الاسراء/ ۸۸)

۲- «أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ استَطَعتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (هود/ ۱۳)

۳- «وَانْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَائَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَانْ لَّمْ تَفعَلُوا وَلَنْ تَفعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتى وَقُودُهَا النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اعِدَّتْ لِلكَافِرِينَ». (البقرة/ ۲۳- ۲۴)

۴- «أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثلِهِ وادعُوا مَنِ استَطَعتُم مِّنْ دَونِ اللَّهِ انْ كُنْتُم صَادِقِينَ». (يونس/ ۳۸)

۵- «أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَّايُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ انْ كَانُوا صَادِقِينَ».

(الطور/ ۳۳- ۳۴)

۶- «قُلْ فَأْتُوا بِكَتابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ اهدَى مِنْهمَا اتَّبِعْهُ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَانْ لَّمْ يَستَجِيبُوا لَكَ فاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اهوَاءَهُم وَمَن اضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ انَّ اللَّهَ لا يَهدِى القَومَ الظَّالِمِينَ». (القصص/ ۴۹- ۵۰)

۷- «وَقَالُوا لَوْلَا انزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّنْ رَبِّهِ قُلْ انَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وانَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ* اوَلَمْ يَكْفِهِمْ انَّا انَزَلْنا عَلَيْكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَرَحمَةً وذِكْرى لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ». (العنكبوت/ ۵۰- ۵۱)

جمع الآيات وتفسيرها

فى جميع الآيات السبع المذكورة ركّز القرآن الكريم على مسألة التحدى (الدعوة إلى المعارضة) التى هى من اركان الاعجاز، فتارة يقول بصراحة- وتارة اخرى بالدلالة الالتزامية-:

انَّ هذا الكتاب السماوى هو من عند اللَّه وإذا كنتم فى شك وريب ممّانزلنا فاجمعوا كلَّ قواكم من أجل الإتيان بمثله أو بسورة منه، لأنّه إذا كان من نتاج فكر البشر فأنتم بشر أيضاً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۳

ولديكم فكر وذكاء، وفى الواقع أنّ القرآن وبواسطة هذا المنطق العقلى الواضح أثبت اعجازه بصورة إجمالية.

إنَّ الآية الاولى تقف بوجه المعاندين قائلة: «قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الانسُ وَالجِنُّ عَلَى انْ يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثلِهِ وَلَو كانَ بَعضُهُم لِبَعضٍ ظَهِيراً».

فهذه الآية تدعو من جهة أفراد البشر كافة دعوة عامة، ومن جهة اخرى فهى تدعو جميع أفراد البشر فى عصرنا والعصور الآتية نظراً إلى خلود دعوة القرآن، ومن جهة ثالثة، وبملاحظة كلمة «اجتمعت»، وجملة «بَعضُهم لِبَعضٍ ظَهِيراً» تبين أنّها دعوة للمشركين كافة للتعاون فيما بينهم وشحذ الهمم، وتوحيد أفكارهم فى مجرى واحد من اجل المقابلة بالمثل، ومن جهة رابعة، فإنّ إثارة الخصم والتحرش به من أجل تأجيج غيرته قد اتخذ أقوى أشكال التحدى، وحينما خاطبهم بكلام قاطع: «لايأتون بمثله»، فهو دليل قوى على ارتباطه الوثيق

بعالم ما وراء الطبيعة.

إنّ هـذا التحـدى وهذا النداء كان موجهاً إلى أبناء البشـر جميعاً فى كل زمان ومكان، لأنّ دوافع أعداء الإسـلام للقضاء عليه فى عصـر النبوة وفى كل عصـر وزمان قائمـة وقويـة، ومن المُسـلَّم أنّه لو كانت لـديهم قـدرة على ذلك لما تماهلوا عن ذلك، وتاريـخ الإسـلام وتاريـخ كل العالم لم يـذكر لنا بأنّ شـخصاً أو جماعة قد أقدمت على هذا العمل، وهذا دليل على عجزهم وعدم قدرتهم، وفى النتيجة فهو دليل على عظمة واعجاز القرآن الكريم.

ويسـتفاد من هذه الآية أنّ الاجتماع وحده لا يؤثر فى حل المشـكلات مالم يكن بعضهم ظهيراً لبعض لحماية ومساعدة بعضهم للبعض الآخر وإسداء النصح لبعضهم الآخر.

كمـا نلفت الانظـار إلى أنّ القرآن لاـ يكتفى فى التحـدى بالبلاغـة وجمال البيان فقط، بل الشـبه من جميع الجوانب الشاملـة للمحتوى والمعارف والأحكام وكل شىء، وهذا ما تؤكده كلمة (مثله) الواردة فى الآية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۴

فى الآيـة الثانية يقلص القرآن تحديه عن الاتيان بمثله، ويطلب من الخصم أن يأتى بعشـر سور وهو أقل من عشـر كل القرآن قائلًا: «أَمْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثلِهِ مُفْتَرَياتٍ» ولم يكتف بهذا بل صرح: «وادعُوا مَنِ استَطَعْتم مِّن دُونِ اللَّه ان كُنتم صَادِقِينَ».

وفى الآية الثالثة نرى أنّ التحدى القرآنى يصل إلى أقل من ۱ خ قائلًا: «وَان كُنتُمْ فِى رَيبٍ مِّمَا نَزَّلنَا عَلَى عَبدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثلِهِ» ثم أضاف: «وَادعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إن كُنتُمْ صَادِقِينَ».

فمن الواضـح أنّ المراد من: «شُـهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّه» أنصـارهم وكـل من اعتقـد اعتقـادهم لأنهم هم الـذين شـهدوا لصالحهم فى رد وتكذيب رسالة النبى صلى الله عليه و آله. ومن الطبيعى أن يتعاونوا فيما بينهم ليأتوا بسورة واحدة مماثلة لسورة من القرآن وإلّا لو كان المراد من «شُـهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّه» الإتيـان بسورة تماثـل سورة من القرآن لكـان من المفروض مطالبـة اللَّه بالشـهادة قبل أى شـخص آخر، ولذا فإنّ أول تفسير للآية نقله المرحوم الطبرسـى فى مجمع البيان عن ابن عباس هو: المراد منها الأعوان والأنصار، وأضاف: إنّه يطلق على الأعوان والأنصار: شهداء، لحضورهم وشهودهم حين التعاون.

وقـدر رجـح الفخر الرازى فى تفسـيره بعـد ذكر معنيين للفظ الشـهداء (أى: الأصـنام، والأعوان، والأنصار) المعنى الثانى «۱». وارتضى بعض المفسرين هذا المعنى أيضاً.

والسورة: تمثل جزءاً من آيات القرآن، تبدأ ب «بسم اللَّه ...».

وتختم قبل مجيء «بسم اللَّه» جديدة فى السورة التى تليها، ماعدا سورة واحدة وهى سورة التوبة أو سورة براءة.

وقيل: إنّ كلمة سورة مأخوذة من «سُور» وهو الجدار المحيط بالمدن، فكأنّما أعتُبرَ

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲، ص ۱۱۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۵

القرآن بمجموع آياته، دولة عظيمة واسعة، والسور القرآنية مُدن هذه الدولة العظيمة.

وبناءً على هذا الدليل نعتقد بوجود ترابط واتصال بين آيات السورة الواحدة، وإن لم يكن واضحاً فى الظاهر أحياناً وهذا الارتباط نظير وجود نوع من الانسـجام والارتبـاط بين البيوت والعمـارات والشوارع لكل مدينـة مع أنّ فيها المساجـد والمـدارس والأسواق والمناطق المأهولة بالسكان، كل كيان فى موضعه المناسب.

ويسـتفاد من هذا المعنى أنّ السور كانت فى وقت نزول القرآن على هذه الهيئة العالية بخلاف تصوُّر بعض الجّهال وإن كان بعض من الآيات النازلة أحياناً يُتخذ له مكان معين فى سورة خاصة بأمر من النبى صلى الله عليه و آله.

وجملة: «من مثله» تتضمن معنى شيء يكون على شاكلة القرآن فى كل أوصافه التى تشمل (الفصاحة) و (بلاغة الألفاظ) مع المحتويات والمعارف القيّمة «۱».

والشاهد على هذا الكلام ما ورد فى قوله تعالى «فَأتُوا بِسُورَةٍ مِثلِهِ». (يونس/ ۳۸)

ونقرأ فى قوله تعالى «فَلَيأتُوا بِحَديثٍ مِّثلِهِ». (الطور/ ۳۴)

وعلى هذا الأساس يستبعد كثيراً احتمال عودة ضمير (مثله) إلى النبى صلى الله عليه و آله بأنّ يكون معناها: إذا كنتم مرتابين فى أصل هذه الآيات السماوية فأعثروا على رجل مثل محمد صلى الله عليه و آله لم يكن قد درس على الاطلاق وأتوا بآيات تناظر الآيات التى أتى بها.

إنَّ هذا المعنى بعيدٌ وإن ذكرهُ جماعة من المفسرين إمّا على وجه الاحتمال أو على وجه القبول.

ويحتمل أيضاً اجتماع التعبيرين فى هذا المعنى ويصير مفهومه بهذا الشكل: آتوا بسورة مثل سور القرآن من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، كالنبى صلى الله عليه و آله.

والحديث الذى ورد فى «تفسير البرهان» جمع هذين المعنيين فى عبارة واحدة «۲».

وعلى كل حال يقول عز من قائل فى تعقيب هذه الآية: «فَإِنْ لَّم تَفعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فاتَّقُوا النّارَ الَّتى وَقُودُها النَّاسُ وَالحِجَارَةُ اُعدَّتْ لِلكَافِرِينَ».

---

(۱) وبناء على ذلك فإنّ (من) إمّا زائدة أو بيانية.

(۲) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۶۷. ح ۱.

وتضمنت الآية الرابعة أيضاً التحدى بالاتيان بسورة تشابه سور القرآن فيقول عز وجل:

«امْ يَقولُونَ افتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بسُورَةٍ مِّثلِهِ وادعُوا مَن استَطَعتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ان كُنتُم صَادِقِينَ».

إنّ لفظة «سورة» تشمل السور الطوال والقصار فى القرآن، والتعبير (بمثله) إشارة إلى مماثلته من جميع الجهات، وجملة: «وَادعُوا مَنِ استَطَعتُمْ مِّن دوُنِ اللَّهِ» شاملة لكل ما سوى اللَّه تعالى.

فعلى هذا الأساس إذا كان القرآن نتاج فكر بشرى، فإنّ إنساناً آخر يستطيع أن يأتى بمثله فضلًا عن أن يستعين أيضاً بأشخاص لا يحصون، وبالأخص مع كثرة وجود الفصحاء والبلغاء فى أوساط العرب الجاهليين سابقاً.

ويستفاد ضمنياً من هذه الآية والآيات السابقة أنّ أفضل طريق للوصول إلى الأهداف المهمّة هو الاستفادة من الأطروحات المشتركة، وقد ذكر القرآن ذلك فى الوقت الذى لم تكن مسألة الاجتماعات والمؤتمرات للوصول إلى حقائق المسائل المهمّة مطروحة على صعيد الواقع وحتى مساعى وجهود العلماء كانت تتخذ صبغة فردية وشخصية.

فى الآية الخامسة ذكر هذا المعنى نفسه فى قالب آخر، يقول عز من قائل: «امْ يَقولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لَّايُؤمِنُونَ* فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثلِهِ إن كَانُوا صَادِقِينَ».

و «تَقَوَّلَ»: مأخوذة من لفظة (تَقُّول) بحسب ماورد عن المرحوم «الطبرسى» فى مجمع البيان: هو بمعنى الكلام الذى يختلق ويفتعل بتكلف ومشقة، ويستعمل عادةً فى الكذب والزور، لأنّه ليس من الواقع فى شيء ولايخلو من تكلف «۱».

ويمكن الإشارة «بحديث مثله» إلى تمام القرآن أو بضع سور أو سورة واحدة، أو حتى أقل من ذلك لاطلاق كلمة (الحديث) على كل منها.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۷

يقول الراغب فى المفردات: كل كلام ينقل إلى الإنسان عن طريق السماع المباشر، أو الوحى، فى اليقظة، أو فى المنام، فهو يسمى بالحديث.

الآية السادسة من سورة القصص تطرقت إلى الحديث عن الإتيان بكتاب يشابه هذا الكتاب (القرآن)، يقول عز من قائل: «قُل فأتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِندِ اللَّهِ هُوَ اهَدى مِنهُمَا اتَّبِعْهُ انْ كُنْتُم صَادِقِينَ».

ثم من أجل تعرية وفضح أساريرهم الملوثة، وبيان الاعجاز القرآنى يعقب اللَّه تعالى بقوله: «فَانْ لَّمْ يستَجيبُوا لَكَ فَاعلَم أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ اهَواءَهُم».

أى: إذا عجز هؤلاء عن الإتيان بمثله فهو دليل على أنّ هذا الكتاب ليس وليد فكر البشر. وإلّا فليس هناك مبرر لعجز الفصحاء والبلغاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم مع كل جهودهم ومساعيهم التى بذلوها.

و لفظة (كتاب) تعنى كل شىء (مكتوب) و (مدوّن).

وبناءً على هذا فهو شامل لتمام القرآن ولاجزائه المختلفة أيضاً، خصوصاً إذا نظرنا إلى أنّ هذه الآية جاءت فى سورة القصص، وقد نزلت فى مكة، ومن المعلوم أنّ القرآن لم ينزل بتمامه فى ذلك الزمان، فيتضح أنّه إضافة إلى كونه معجزة بأجمعه فإنّ أجزاءه المختلفة معجزة أيضاً.

وفى الآية السابعة والأخيرة من البحث جاء الردُّ على المحتجين فيقول تعالى على لسانهم: «وَقَالُوا لَولَا انزِلَ عَلَيهِ آيَاتٌ مِّن رَبِّهِ»، فيرد عليهم بقوله: «قُلْ انَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وانَّمَا أَنا نَذِيرٌ مّبِينٌ».

ثم يعقِّب على ذلك بقوله: «اوَلَمْ يَكْفِهِم أَنَّا انَزَلنَا عَليكَ الكِتَابَ يُتلَى عَلَيهِم».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۸

يعنى لماذا يطلب هؤلاء معجزات اخرى على الرغم من وجود هذه المعجزة الإلهيّة العظيمة؟

فعلى هذا الأساس يُعلن بصراحة عن اعجاز القرآن ويتحدى المناوئين بالدلالة الالتزامية ويدعوهم إلى المنازلة.

يقول المفسر الكبير المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: إنّ فى إنزال القرآن دلالة واضحة ومعجزة لائحة وحجة بالغة تنزاح معه العلة وتقوم به الحجة فلا يحتاج فى الوصول إلى العلم بصحة نبوته إلى غيره. على أنّ إظهار المعجزات مع كونها إزاحة للعلة تراعى فيه المصلحة فاذا كانت المصلحة فى اظهار نوع منها لم يجز إظهار غيرها «۱».

وتتبين أهميّة هذا البحث من خلال التوجه إلى النكتتين اللتين وردتا فى (تفسير القرطبى) و (ظلال القرآن):

إحداهما: إنّ خوارق العادات الجسمية تتوافق غالباً مع الأفراد المبتلين بالمسائل الحسية، وتتناسب مع بداية التفكير البشرى، أمّا مثل هذه المعجزة الروحية التى تنطوى على جنبة معنوية فهى تنسجم مع الحقبة المتفتحة للفكر البشرى.

والاخرى اضافة إلى مخالفته خوارق عادات الأنبياء (نظير معجزة موسى وعيسى عليهما السلام التى ألقيت عليها مسوح السحر تشكل هذا الإعجاز (الذى هو من جنس الكلام) من ألفاظ يقوى عليها جميع الأفراد من أصحاب تلك اللغة «۲».

تحصَّل من ذلك أنّ القرآن الكريم أشار فى سبع آيات من السور المختلفة على الأقل إلى أنّه معجزة إلهيّة كبرى وقام بتحدى المنكرين له بطرق مختلفة.

ومن المعلوم أنّ أىَّ شخص قام بعمل خارق للعادة ودعا جميع الناس إلى معارضته

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ۸، ص ۲۸۹.

(۲) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۶، ص ۴۲۲؛ وتفسير القرطبى، ج ۷، ص ۵۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۵۹

ومنازلته وعجزوا عن القيام به فذلك دليل على إعجاز عمله.

وبعبارة اخرى احتج القرآن عليهم فى هذه العبارات بكلام فريد من نوعه بقوله: إذا كنتم تعتقدون بأنّ هذه الآيات هى من صنع عقل البشر فأنتم أيضاً بشر، ولكم عقول وأفكار ولا يندر وجود البلغاء والمتكلمين والفصحاء فى أوساطكم، فاذا كنتم صادقين فى هذا الادّعاء فأتوا بآيات مثل هذه الآيات. فيدعوهم إلى المشاركة فى هذه المنازلة من خلال عباراته المتنوعة والمثيرة.

من جهة اخرى لو كان بإمكان أولئك الانتصار فى مثل هذه المنازلة، لحشدوا كلَّ قواهم لأنَّ الانهزام فى هذه المواجهة يساوى التضحية بكل شىء عندهم.

لقد كان القرآن فى مواجهة حادة مع اسس ثقافتهم المتمثلة فى عبادة الأوثان والمتغلغلة فى مختلف شؤون حياتهم، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أنزل شيوخهم ووجهاءهم وأثرياءهم المغرورين من اوج جبروتهم وقدرتهم إلى منتهى الحضيض، وسلب منهم امتيازاتهم المصطنعة والموهومة كافة.

وبغض النظر عن الشواهد التاريخية التى سوف نشير إليها لاحقاً فإنّ العوامل المحركة للمقابلة بالمثل كانت كثيرة جدّاً وإذا كان باستطاعتهم حقاً أن يجردوا النبى محمداً صلى الله عليه و آله من السلاح بهذا الاسلوب، لما دعت الحاجة إلى كل هذه الحروب الدموية، والمجابهات الساخنة وحيث إننا نراهم قد توسلوا بكل شىء سوى محاولة الإتيان بمثل آيات القرآن، فهذا بنفسه أكبر دليل على انهزامهم فى هذه المنازلة.

توضيحات

أ) تأثير القرآن وجاذبيته المنقطعة النظير

اشارة

هناك قصص ووقائع موثقة وعجيبة يذكرهالنا التاريخ تروى من جهة عمق التأثير الذى يتركه القرآن الكريم على قلوب المخاطبين، وحتى على أولئك الذين لا يؤمنون بالإسلام

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۰

ولا بالقرآن، ومن جهة أُخرى تمثل هذه القصص دليلًا دامغاً على عجز المناوئين عن الجواب عن تحدى القرآن لهم.

إنّ دراسة هذه الحوادث توفر للإنسان فرصة التعرف على دروس وعبر يمكن الاستفادة منها فى حياته وتبين عظمة وإعجاز هذا الكتاب السماوى وما ورد فيه، وهذه نماذج من هذه القصص:

۱- قصة الوليد بن المغيرة المخزومى

تتحدث آيات سورة المدثر بشكل واضح عن الشخص الذى خطر فى ذهنه أن يتحدى القرآن وقد آل أمره إلى مصيرٍ أسود حيث نطالع معاً هذه الواقعة التى حدثت وكانت سبباً لنزول هذه الآيات التى نقلها جمع غفير من المفسرين كالطبرسى، والقرطبى، والمراغى، والفخر الرازى وغيرهم. وهى كما يأتى:

يروى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لما نزلت عليه الآية الكريمة: «حم تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنْ اللَّهِ العَزِيزِ العَلِيمِ غَافِرِ الذَنْبِ وَقَابِلِ التَوْبِ

شَدِيْدِ العِقَابِ» قام إلى المسجد والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبى صلى الله عليه و آله لاستماعه لقراءته أعاد قراءة الآية فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه بنى مخزوم فقال: «واللَّه لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وإنّ له لحلاوة وإنّ عليه لطلاوة وإنّ أعلاه لمثمر وإنّ أسفله لمغدق وانّه ليعلو وما يعلى عليه»، قال ذلك ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: صبأ واللَّه الوليد، واللَّه لتصبأن قريش كلهم، وكان يقال للوليد ريحانة قريش: فقال لهم أبو جهل: أنا أكفيكموه، فانطلق فقعد إلى جنب الوليد حزيناً، فقال الوليد: مالى أراك حزيناً ياابن أخى، قال: هذه قريش يعيبونك على كبر سنك ويزعمون أنّك زينت كلام محمد. فقام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال: أتزعمون أنّ محمداً مجنون فهل رأيتموه يخنق قط؟ فقالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه كاهن فهل رأيتم عليه شيئاً من ذلك؟ قالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه شاعر فهل رأيتموه أنّه ينطق بشعر قط؟ قالوا: اللّهم لا، قال: أتزعمون أنّه كذاب فهل جربتم

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۱

عليه شيئاً من الكذب؟ فقالوا: اللّهم لا، وكان يسمى الصادق الأمين قبل النبوة من صدقه، فقالت قريش للوليد: فما هو؟ فتفكّر فى نفسه ثم نظر وعبس فقال: ما هو إلّاساحر، ما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر «۱».

۲- استماع زعماء قريش إلى القرآن

نقرأ فى سيرة ابن هشام: أنّ أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والاخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفى، حليف بنى زهرة خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يصلى ويتلو القرآن فى بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع منه وكلٌّ لا يعلم صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألّا نعود، فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا «۲».

نعم لقد كانت جاذبية القرآن شديدة إلى درجة بحيث خضع لها حتى ألدُّ الأعداء، فلو أُزيلت عنهم حجب العصبية والنعاد والتعلق بالمصالح الشخصية لآمنوا بالله بصورة قطعية.

۳- قصة ابن أبى العوجاء ورفاقه

ينقل المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج عن هشام بن الحكم العالم المعروف وأحد تلامذة الإمام الصّادق عليه السلام يقول:

---

(۱) ونقل الحديث مفسرون عديدون- بتفاوت- كالفخر الرازى؛ والمراغى؛ والقرطبى؛ والطباطبائى فى الميزان؛ وسيد قطب فى الظلال.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۲

اجتمع كل من (ابن أبى العوجاء)، و (أبى شاكر الديصانى)، و (عبد الملك البصرى)، و (ابن المقفع) وقد كانوا جميعاً من الملحدين الذين لا إيمان لهم، اجتمعوا إلى جوار الكعبة واخذوا يسخرون من أعمال الحجاج ويوجهون الطعن إلى القرآن.

قال ابن أبى العوجاء: هَلُمُّوا جميعاً لينقض كل واحد منّا ربعاً من القرآن ونأتى بشىء مثله، وسيكون موعد لقائنا فى السنة الآتية فى هذا

المكان، عندما ننقض القرآن بأكمله، لأن نقض القرآن هو السبب المؤدى إلى إبطال نبوة محمد صلى الله عليه و آله وإبطال نبوته هو إبطال للإسلام وإثبات لأحقية ادّعائنا، فاتفقوا وتفرقوا على ذلك.

وفى السنة المقبلة، وفى اليوم نفسه اجتمعوا إلى جوار الكعبة وأخذ ابن أبى العوجاء يحدثهم ويقول: منذ اليوم الذى تركتكم وابتعدت عنكم، كُنت افكر فى هذه الآية: «فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنهُ خَلَصُوا نَجِيّاً». (يوسف/ ۸۰)

فوجدتها على جانب كبير من الفصاحة والغزارة المعنوية بحيث إننى لم أتمكن من أن اضيف شيئاً إليها، إضافة إلى أنّ هذه الآية شغلت ذهنى عن التفكير بغيرها.

وأمّا عبد الملك فقال: وأنا كذلك كنت افكر فى هذه الآية حينما افترقت عنكم: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعُوا لَهُ إنَّ الَّذِينَ تَدعُونَ مِن دُونِ اللَّه لَنْ يَخلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجتَمَعُوا لَهُ وإنْ يسلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيئاً لَّايَستَنقِذُوهُ مِنْه ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ».

(الحج/ ۷۳)

وقد وجدت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

وقال أبو شاكر: منذُ ذلك الوقت الذى ابتعدت عنكم كنت افكر فى هذه الآية: «لَو كَانَ فَيهِمَا آلهةٌ إلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا». (الأنبياء/ ۲۲)

ولم أجد نفسى قادراً على الإتيان بمثلها.

وأضاف ابن المقفع فقال: «ياقوم إنّ هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر لأننى منذ تلك اللحظة التى افترقت فيها عنكم كنت أتأمل فى هذه الآية: «وَقِيلَ يَا ارْضُ ابلَعِى مَآءَكِ وَيَاسَمَاءُ اقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الْامْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعداً لِّلقَومِ الظَّالِمِينَ». (هود/ ۴۴)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۳

ورأيت نفسى عاجزاً عن الإتيان بمثلها.

يقول هشام بن الحكم: فى هذه الأثناء مر بالقرب منهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وتلا هذه الآية: «قُل لَّئِنِ اجتَمَعَتِ الانسُ وَالجِنُّ عَلَى انْ يَأْتُوا بِمِثلِ هَذَا القُرآنِ لَايأْتونَ بِمثْلِهِ وَلَوْ كانَ بَعضُهُمْ لبَعضٍ ظَهيراً». (الاسراء/ ۸۸)

عندئذٍ أخذ يَنظر كل واحد منهم إلى الآخر ويقول: إذا كان للإسلام حقيقة قائمة بذاتها، ولم يكن يمثل محمد صلى الله عليه و آله سوى جعفر بن محمد عليه السلام فتاللّه لا يقع نظرنا عليه فى وقت من الأوقات إلّاوتستحوذ علينا أُبهته، وتقشعر أبداننا من هيبته، قالوا هذا الكلام وتفرقوا معترفين بعجزهم.

۴- قصة عثمان بن مظعون

وهو أحد صحابة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله المعروفين، قال عثمان بن مظعون: كنت أسلمت استحياءً من رسول اللّه صلى الله عليه و آله لكثرة ما كان يعرض علىَّ الإسلام ولما يقر الإسلام فى قلبى فكنت ذات يوم عنده حال تأمله، فشخص بصره نحو السماء كأنّه يستفهم شيئاً فلما سرى عنه، سألته عن حاله، فقال: نعم بينا أنا أحدثك إذ رأيت جبرائيل فى الهواء فأتانى بهذه الآية: «انّ اللّه يَامرُ بالعدلِ والاحسان» وقرأها علىَّ إلى آخرها فقر الإسلام فى قلبى وأتيت عمه أبا طالب فأخبرته فقال: يا آل قريش اتبعوا محمداً صلى الله عليه و آله ترشدوا، فانّه لا يأمركم إلّا بمكارم الأخلاق. وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الآية فقال: إن كان محمد قاله فنعم ما قال وإن قاله ربّه فنعم ما قال «۱».

۵- قصة اسعد بن زرارة

وردت هذه القصة فى كتاب (أعلام الورى و (بحار الأنوار) وقد تحدثت عن الجاذبية والتأثير الهائل لآيات القرآن فى نفوس

المخاطبين.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵ و ۶، ص ۳۸۱، ذيل الآية ۹۰ من سورة النحل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۴

و استناداً إلى (بحار الأنوار) ننقل الحكاية بصورة موجزة وكمايلى:

«قدم أسعد بن زرارة وذكوان بن عبد قيس فى موسم من مواسم العرب وهما من الخزرج، وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهراً طويلًا وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم يوم بعاث، وكانت للأوس على الخزرج، فخرج أسعد بن زرارة وذكوان إلى مكة فى عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان أسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة فنزل عليه فقال له: إنّه كان بيننا وبين قومنا حرب وقد جئنا نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: بعدت دارنا من داركم، ولنا شغل لا نتفرغ لشىء، قال: وما شغلكم وأنتم فى حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجل يدّعى أنّه رسول اللَّه، سفّه أحلامنا وسبّ آلهتنا وأفسد شبابنا، وفرّق جماعتنا، فقال له أسعد: من هو منكم؟ قال ابن عبد اللَّه بن عبد المطلب من أوسطنا شرفاً، وأعظمنا بيتاً، وكان أسعد وذكوان وجميع الأوس والخزرج يسمعون من اليهود الذين كانوا بينهم: النضير وقريظة وقينقاع، أنّ هذا أوان نبى يخرج بمكة يكون مهاجره بالمدينة لنقتلنّكم به يا معشر العرب، فلما سمع ذلك أسعد وقع فى قلبه ما كان سمع من اليهود، قال: فأين هو؟ قال:

جالس فى الحجر وأنّهم لا يخرجون من شعبهم إلّافى الموسم، فلا تسمع منه ولا تكلمه فانّه ساحر يسحرك بكلامه.

وكان هذا فى وقت محاصرة بنى هاشم فى الشعب، فقال له أسعد: فكيف أصنع وأنا معتمر لابدّ لى أن أطوف بالبيت؟ قال ضع فى أذنيك القطن، فدخل أسعد المسجد وقد حشا اذنيه بالقطن، فطاف بالبيت ورسول اللَّه جالس فى الحجر مع قوم من بنى هاشم فنظر إليه نظرة فجازه، فلما كان فى الشوط الثانى قال فى نفسه، ما أجد أجهل منّى؟ أيكون مثل هذا الحديث بمكة فلا أتعرفه حتى أرجع إلى قومى فأخبرهم، ثم أخذ القطن من أذنيه ورمى به، وقال لرسول اللَّه: أنعم صباحاً، فرفع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رأسه إليه وقال: «قد أبدلنا اللَّه به ما هو أحسن من هذا، تحية أهل الجنة: السلام عليكم»، فقال له أسعد: إنّ عهدك بهذا لقريب، إلى ما تدعو يا محمد؟ قال: «إلى شهادة أن لا إله إلّااللَّه، وأنّى رسول اللَّه، وأدعوكم إلى

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۵

«أن لا تشركوا به شيئا وبالوالدين احساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإيّاهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى حرم اللَّه إلّابالحق ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون ولا تقربوا مال اليتيم إلّابالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلّاوسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد اللَّه أوفوا ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون».

فلما سمع أسعد هذا قال له: أشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّك رسول اللَّه، يارسول اللَّه بأبى أنت وامى أنا من أهل يثرب من الخزرج، وبيننا وبين اخوتنا من الأوس حبال مقطوعة، فإن وصلها اللَّه بك، ولا أجد أعزّ منك، ومعى رجل من قومى فإن دخل فى الأمر رجوت أن يتمم اللَّه لنا أمرنا فيك، واللَّه يارسول اللَّه لقد كنا نسمع من اليهود خبرك، ويبشروننا بمخرجك، ويخبروننا بصفتك، وارجو أن يكون دارنا دار هجرتك عندنا، فقد أعلمنا اليهود ذلك، فالحمد للَّهالذى ساقنى إليك، واللَّه ما جئت إلّالنطلب الحلف على قومنا، وقد آتانا اللَّه بأفضل ممّا أتيت له. ثم أقبل ذكوان فقال له أسعد: هذا رسول اللَّه الذى كانت اليهود تبشرنا به، وتخبرنا بصفته، فهلّم فأسلم ذكوان، ثم قالا: يارسول اللَّه ابعث معنا رجلًا يعلمنا القرآن، ويدعو الناس إلى أمرك، فقال رسول اللَّه لمصعب بن عمير، وكان فتى حدثاً مترفاً بين أبويه يكرمانه ويفضلانه على أولادهما ولم يخرج من مكة، فلما أسلم، جفاه أبواه، وكان مع رسول اللَّه فى الشعب حتى تغيّر وأصابه الجهد، وأمره رسول اللَّه بالخروج مع أسعد، وقد كان تعلم من القرآن كثيراً، فخرجا إلى المدينة، ومعهما مصعب بن عمير فقدموا على قومهم وأخبروهم بأمر رسول اللَّه وخبره، فأجاب من كل بطن الرجل والرجلان «۱».

۶- قصة الأصمعى المثيرة

ينقل الزمخشرى فى تفسير (الكشاف) عن الأصمعى «۲» أنّه قال: أقبلت من جامع البصرة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۸- ۱۰.

(۲) اسمه عبد الملك بن قريب، عاش فى أيّام هارون الرشيد، اشتهر بكثرة حفظه ومعلوماته الواسعة عن تاريخ‌العرب وآدابهم توفى فى البصرة سنة ۲۱۶، الكنى والالقاب، ج ۲، ص ۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۶

فطلع أعرابى على قعود له فقال: من الرجل؟ قلت: من بنى أصمع، قال: من أين أقبلت؟

قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: اتل علىَّ، فتلوت «والذاريات» فلما بلغت قوله تعالى «وَفِي السَمَاءِ رِزْقُكُمْ» قال: حسبك، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فاذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق، فالتفتُّ فاذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفّر، فسلم علىَّ واستقرأ السورة، فلما بلغت الآية صاح وقال: قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقاً، ثم قال:

وهل غير هذا؟ فقرأت: «فورب السماء والأرض إنّه لحق»، فصاح وقال: ياسُبحان اللَّه، من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف، لم يصدقوه بقوله حتى الجأوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً وخرجت معها نفسه «۱».

۷- رد فعل إعرابى تجاه آية من القرآن

وروى أنّ رجلًا تعلم من النبى صلى الله عليه و آله القرآن فلما انتهى إلى قوله تعالى «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ» (الزلزلة/ ۷- ۸)

قال: يكفينى هذه، وانصرف، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: انصرف الرجل وهو فقيه «۲».

۸- القصة المثيرة للسيد قطب

ينقل السيد قطب فى تفسيره فى ظلال القرآن قصة عجيبة من حياته، وذلك فى ذيل قوله تعالى «امْ يَقُولُونَ افتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ». (يونس/ ۳۸)

يقول: اذكر حادثاً وقع لى وكان عليه معى شهود ستة، وذلك منذ نحو خمسة عشر عاماً ... كنّا ستة مسلمين على ظهر سفينة مصرية تمخر عباب المحيط الأطلسى إلى نيويورك، من بين ۱۲۰ راكباً وراكبة أجانب ليس فيهم مسلم ... وخطر لنا يوم الجمعة أن

---

(۱) الكشاف، ج ۴، ص ۴۰۰.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۴۹۵؛ وتفسير نور الثقلين، ج ۵، ص ۶۵۰؛ وسفينة البحار، ج ۲، ص ۴۱۴، مادة (قرء) والتفسير الأمثل، ذيل آيات سورة الزلزال.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۷

نقيم صلاة الجماعة فى المحيط على ظهر السفينة! واللَّه يعلم- أنّه لم يكن بنا أن نقيم الصلاة لذاتها أكثر ممّا كان بنا حماسة دينية إزاء مبشر كان يقوم بمزاولة عمله على ظهر السفينة، وحاول أن يزاول تبشيره معنا! ... وقد يسَّر لنا قائد السفينة- وكان انجليزياً- أن نقيم

صلاتنا، وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمتها- وكلهم نوبيون مسلمون- أن يصلى معنا من لا يكون فى (الخدمة) وقت الصلاة! وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً، إذ كانت المرة الاولى التى تقام فيها صلاة الجماعة على ظهر السفينة ... وقمت بخطبة الجمعة وإمامة الصلاة، والركاب الأجانب معظمهم- متحلقون يرقبون صلاتنا، وبعد الصلاة جاءنا كثيرون منهم يهنئوننا على نجاح (القدّاس)! فقد كان هذا أقصى ما يفهمونه من صلاتنا! ولكن سيدة من هذا الحشد- عرفنا فيما بعد أنّها يوغسلافية مسيحية هاربة من جحيم تيتو وشيوعيته!- كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع ولا تتمالك مشاعرها جاءت تشد على أيدينا بحرارة، وتقول:- فى انجليزية ضعيفة- أنّها لا تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتنا هذه وما فيها من خشوع ونظام وروح! ... وليس هذا موضع الشاهد فى القصة ... ولكن ذلك كان فى قولها: أى لغة هذه التى يتحدث بها (قسيسكم)! فالمسكينة لا تتصور أن يقيم (الصلاة) إلّاقسيس- أو رجل دين- كما هو الحال عندها فى مسيحية الكنيسة! وقد صححنا لها هذا الفهم! وأجبناها: فقالت: إنّ اللغة التى يتحدث بها ذات ايقاع موسيقى عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً ... ثم كانت المفاجأة الحقيقية لنا وهى تقول: ولكن هذا ليس الموضوع الذى أريد أن أسأل عنه ... إنّ الموضوع الذى لفت حسى، هو أن (الإمام) كانت ترد فى أثناء كلامه- بهذه اللغة الموسيقية- فقرات من نوع آخر غير بقية كلامه! نوع أكثر موسيقية وأعمق ايقاعاً ... هذه الفقرات الخاصة كانت تحدث فىّ رعشة وقشعريرة! إنّها شىء آخر! كما لو كان الإمام- مملوءاً من روح القدس! حسب تعبيرها المستمد من مسيحيتها! وتفكرنا قليلًا، ثم أدركنا أنّها تعنى الآيات القرآنية التى وردت فى أثناء خطبة الجمعة وفى أثناء الصلاة! وكانت- مع ذلك- مفاجأة لنا تدعو إلى الدهشة، من سيدة لا تفهم مما نقول شيئاً «۱»!

---

(۱) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۴۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۸

۹- قصة النجاشى وعلماء الحبشة المسيحيين

لقد جاءت أول هجرة للمسلمين إلى الحبشة وذلك بسبب الضغوط والأذى الذى تعرضوا له من مشركى مكة، ممّا اضطرهم إلى الهجرة إلى الحبشة بأمر من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وقد آواهم ملك الحبشة وعاشوا فيها بأمان.

ويعدُ هذا الأمر من العوامل الرئيسية التى ساعدت فى انتشار الإسلام بشكل تدريجى فى الحبشة، وكذلك ساعد على انتشار الإسلام فى مكة وذلك لأنّ المسلمين وجدوا لهم مخرجاً، فعندما كانوا يتعرضون للاذى والمضايقة فكّروا أن يهاجروا إلى الحبشة.

يذكر ابن هشام فى تاريخه المعروف ....:

«فلما رأت قريش أنّ أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد آمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنّهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا رجلين من قريش جَلْدين إلى النجاشى فيردّهم عليهم ليفتنوهم فى دينهم ويخرجوهم من دارهم التى اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد اللَّه بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل وجمعوا لهما هدايا للنجاشى ولبطارقته ... وأمروهما بأمرهم وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بَطْريق هديته قبل أن تكلما النجاشى فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشى هداياه، ثم سَلاهُ أن يُسلِّمهم إليكما قبل أن يُكلِّمهم، فخرجا حتى قدّما إلى النجاشى هداياه وقالا لكل بَطْريق منهم: إنّه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا فى دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأنّ يُسلِّمهم إلينا ولا يُكلِّمهم فإنّ قومهم أعلى بهم عينا وأعلم بما عابوا عليهم.

فقالوا لهما: نعم، ثم كلّما الملك: ياأيّها الملك، إنّه قد ضوى إلى بلدك منّا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا فى دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه، فقال بطارقته الذين كانوا حوله: صدقا أيّها

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۶۹

الملك، قومهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشى ثم قال: لاها اللَّه إذا لا أسلمهم إليهما ولا يُكادُ قوم جاورونى ونزلوا بلادى واختارونى على من سواى حتى ادعوهم فاسألهم عمّا يقول هذان فى أمرهم، فإنْ كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما ورددتهم إلى قومهم وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاورونى. ثم أرسل إلى أصحاب محمد صلى الله عليه و آله فدعاهم فلما جاءهم رسوله اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول واللَّه ما علمنا وأمرنا به نبيّنا صلى الله عليه و آله فلما جاءوا وقد دعا النجاشى أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله، سألهم: ما هذا الدين الذى فارقتم قومكم فيه ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟ فقال جعفر عليه السلام: «أيّها الملك كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسىء الجوار ويأكل القوى منا الضعيف حتى بعث اللَّه إلينا رسولًا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته، وعفافه فدعانا إلى اللَّه لنوحده ونعبده ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمر بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم ... وأمرنا بالصلاة والزكاة، والصيام، فعدد علينا امور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من اللَّه ... فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان فخرجنا إلى بلادك ورغبنا فى جوارك ورجونا أن لا نُظلم عندك أيّها الملك»، فقال له النجاشى: هل معك ممّا جاء به عن اللَّه من شىء؟ قال جعفر: نعم، قال النجاشى: فاقرأه علىّ، فقرأ جعفر عليه السلام كهيعص ذِكرُ رحمتِ رَبّكَ عَبْدهُ زكريا ....، فبكى النجاشى حتى اخضلّت لحيته وبكى أساقفته حتى أخضلّت مصاحفهم ... فضرب النجاشى بيده على الأرض، فأخذ منها عوداً، ثم قال: «واللَّه ما عدا عيسى بن مريم ما قلتَ هذا العود إنّ هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاةٍ واحدة، إنطلقا، فلا واللَّه لا أسلمهم إليكما ولا يكادون».

فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به» «۱».

---

(۱) سيرة ابن هشام، ج ۱، ص ۳۵۶، بشكل مُلخص.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۰

۱۰- تأثير القرآن فى اوساط العلماء الاجانب

لم يقتصر تأثير القرآن على العرب فى الأدوار الاولى لعصر الرسالة وما بعدها، وإنّما شمل عصرنا هذا حتى أولئك الذين لايحيطون علماً برموز الأدب العربى؛ فإنّ تأثيره بينهم قوى عجيب؛ ولهذا السبب انبرى عدد من العلماء الغربيين إلى تعظيم القرآن والاعتراف بحقائقه التى هى مورد اعتزازنا ومن جملة هؤلاء:

الدكتور (واغليرى) الاستاذ بجامعة (فاپل). حيث يقول فى كتابه المعروف (التطور السريع للاسلام): «كتاب الإسلام السماوى هو أحد نماذج الاعجاز، والقرآن هو الكتاب الذى لا يمكن أنْ يُقلّد؟ فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب الاعجازى من انشاء محمد صلى الله عليه و آله الرجل العربى الذى لم يتعلم القراءة والكتابة، إننا نجد فى هذا الكتاب من المحتويات والمضامين العلمية ما يفوق قابلية واستعداد أذكى أفراد البشر وأكبر الفلاسفة واقوى رجال السياسة» «۱».

ويقول (كارلايل) العالم الانجليزى المعروف بصدد القرآن: «إذا ألقينا نظرة واحدة على هذا الكتاب المقدس، لوجدنا حقائق جلية، وخصائص أسرار الوجود مكنونة فى مضامينها الجوهرية، بالصورة التى تبين حقيقة القرآن وعظمته بوضوح، وهذا بحد ذاته مزية كبرى يختص بها القرآن وتفتقر إليها كل الكتب العلمية والسياسية والاقتصادية، وإن كانت بعض الكتب تحدث تأثيراً عميقاً فى ذهنية الإنسان، إلّاأنّها لا تشابه القرآن فى نفوذه وتأثيره».

يذكر (جان ديون بورت) فى كتابه (اعتذار إلى حضرة النبى والقرآن): «القرآن منزّه عن النواقص، والعيوب بحيث لا يحتاج إلى أدنى تصحيح أو تقويم.

ثم يضيف على ذلك قائلًا: إنّ القسيسين أوجدوا- ولسنوات طويلة- هوة بعيدة بيننا وبين التعرف على حقائق القرآن المقدسة وعظمة المبشِّر به (محمد) صلى الله عليه و آله إلّاأننا كلما قطعنا خطوة فى طريق العلم والمعرفة، كلما أنزاحت عنا حُجُب الجهل والتعصب، وسيستقطب

---

(۱) كتاب (التطور السريع للاسلام) ترجمة المرحوم سعيدى ص ۴۹ (بشكل ملخص).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۱

هذا الكتاب الغنى عن الوصف العالم إلى نفسه فى القريب العاجل، ويحدث تأثيراً عميقاً فى العلم والفكر البشرى، وسيصبح محور أفكار الدنيا «۱».

ويقول الشاعر الألمانى الكبير (غوته): «نحن كنا فى بادىء الأمر مبتعدين عن القرآن، ولم تنقضِ مدّة طويلة حتى أصبح هذا الكتاب موضع توجهنا واهتمامنا ومبعث حيرتنا، إلى الحد الذى أذعنا فيه بالتسليم لُاصوله وقوانينه العلمية الكبيرة».

ويقول العالم الفرنسى (جول لابن) فى كتاب (تفصيل الآيات): «إنّ الذى أوقد فتيل العلم والمعرفة فى العالم هم المسلمون، ونهلوا العلوم والمعرفة من بحر القرآن واجروا منه أنهاراً وينابيع إلى البشرية فى العالم» «۲».

يكتب (دينورت) أحد علماء الغرب فى مايلى: «يجب الاعتراف بأنّ الفضل فى انتشار العلوم الطبيعية والفلكية والرياضيات فى اروبا إنّما يعود إلى تعليمات القرآن والمسلمين وأننا لمدينون لهم، بل يمكن القول: إنّ اروبا- من هذه الجهة- هى احدى البلاد الإسلامية» «۳».

ويقول المستشرق الشهير (نولدكه): «لقد فرض القرآن سيطرته باستمرار على قلوب أولئك الذين يخالفونه عن بعد وأوجد فيما بينه وبينهم ارتباطاً قوياً» «۴».

ب) الذين لجأوا إلى المعارضة

ذكرنا فيما سبق إنّ المعجزة تمثل تحدياً ودعوة للآخرين بالمواجهة، فيعجز الجميع عن الإتيان بمثلها، وهنا يتبادر فى الذهن سؤال، وهو: لقد تحدى القرآن البشرية والجنّ وعلى مر التاريخ أنْ لا يستطيعون الإتيان بمثله أبداً، من أين يعلم القرآن بأنّ هذا التحدى سوف يستمر مفعوله على طول التاريخ؟

---

(۱) اعتذار إلى محمد والقرآن. ترجمة فارسية ص ۱۱۱.

(۲) المعجزة الخالدة.

(۳) المصدر السابق.

(۴) مجموعة مقالات على كتاب.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۲

الجواب واضح، فهذا الموضوع ليس بمسألة هامشية حتى يمكن للتاريخ أن ينساها، بل هى مرتبطة كثيراً بمصير هذه العقيدة المهمّة ومصير منافسيها الذين يمتلكون قدرة هائلة ويصرفون سنوياً مبالغ ضخمة فى محاربة الإسلام ومواجهته ولو كان يقع مثل هذا الأمر،

لاتخذوا من ذلك وسيلة اعلامية وبوقاً دعائياً واسعاً ومربحاً.

وعليه وبناءً على المثل المعروف القائل: «لو كان لبان» لابد أن يبدو للعيان كل مظهر من مظاهر المعارضة والمواجهة فى هذا المجال، ولهذا السبب كانت ترد بعض الاتهامات على عدة من الأفراد الذين قد لا يفكرون فى معارضة القرآن اطلاقاً واتُخِذَ من ذلك وسيلة دعائية، وهذا يدل بوضوح على الاصرار الكبير على هذه المسألة من قبل المناوئين ولهذا الأمر كانوا يتشبثون بكل الوسائل الممكنة فى سبيل الوصول إلى مقاصدهم الدنيئة.

١- الشخص الوحيد الذى سجله التاريخ هو (مُسَيلَمة) المشهور (بالكذاب) الذى قام بادّعاء النبوة فى عصر النبى صلى الله عليه و آله وعلى أرض (اليمامة) من منطقة شرق الحجاز.

كان اسمه الحقيقى (مسيلمة بن حبيب) وأظهر دعوته فى آواخر حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (فى السنة العاشرة للهجرة) وكان يبذل ما وسعه من أجل أن يقلد رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كل شىء.

ويدعى أنّ ملكاً ينزل عليه اسمه (رحمان) ويأتيه بآيات تشابه آيات القرآن.

وقيل: إنّه طلب من النبى أن يشاركه فى النبوة ويوصى بأنّ يقوم مقامه بعد وفاته صلى الله عليه و آله حتى يكف عن المخالفة والعداء.

ونستشف من الكثير من القرائن والامارات أنّ أيادى العصبيه القبلية كانت وراء مسيلمة وتؤيده على هذا العمل وتؤازره.

وكان أهل اليمامة يتخذون هذه الوسيلة للقضاء على سيادة قريش وحاكمية أهل مكة والمدينة التى تحققت تحت ظل مقام نبوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

ولهذا السبب كانوا يبحثون عن رجل يثير الشغب ويطلب الرئاسة والمال، فوجدوا هذه الصفات عند مسيلمة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۳

إلّا أنّ الحديث الذى ينقل عنه بعنوان المعارضة للقرآن يدل بوضوح- فضلًا عن كل ما مرّ- على أنّه رجل سخيف، يعتمد السجع فى الكلمات من دون أن يهتم بمحتوى كلامه.

من جملة عباراته المضحكة التى نقلت عنه فى هذا المجال كتقليد للقرآن، هى هذه الكلمات:

«والمبذرات بذراً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً» «۱».

يبدو أنّه يريد من وراء هذه الجمل المضحكة أن يتحدى آيات سورة العاديات أو الذاريات.

يقول القرآن: «وَالعَادِيَاتِ ضَبحَاً* فَالمُورِيَاتِ قَدحَاً* فَالمُغِيرَاتِ صُبحَاً* فَأَثَرنَ بِهِ نَقعَاً* فَوَسَطنَ بِهِ جَمعَاً* انَّ الانسَانَ لِرَبّهِ لَكَنُودٌ ...»

انظر إلى هذا التفاوت البعيد.

ينقل عنه فى عبارة اخرى أنّه نزلت عليه هذه الآيات «يا ضفدعة بنت ضفدعين نقى ماتنقين أعلاكِ فى الماء وأسفلك فى الطين لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين» «۲».

وسائر الأحاديث أو بحسب زعمه الآيات الاخرى التى نقلت عنه هى على هذه الشاكلة أيضاً، بل إنّ بعضها أسوء حالًا، وبعضها ركيك، فالإعراض عن ذكرها أولى

ويستفاد بوضوح من عباراته التى نقلت عنه أنه يولى السجع أهميّة كبيرة ويرى ذلك كافياً، بالضبط على غرار الأشعار التى تنظم فى زماننا للاطفال وهى مطالب خاوية لا قيمة لها تصب من دون معنى مترابط فى قوالب شعرية، ويكتفون بقافيتها فقط.

يذكر المؤرخون: أنّه كان فى عصره امرأة معروفة بالكذب اسمها (سَجاح) على وزن حَباح)، وكانت العرب تقول: «فلان أكذب من سجاح» نظراً لما اشتهر عنها بالكذب. وهى من بنى تميم، وكانت تدعى النبوة ونزول الوحى عليها أيضاً وتبعها ثلة من الناس، وأخذت هى الاخرى تنشىء الفاظ السجع كمسيلمة.

(۱) سفينة البحار، مادة (سلم)؛ تاريخ ابن الاثير، ج ۲، ص ۳۶۱؛ اعجاز القرآن للرافعى، ص ۱۲۷.

(۲) المصدر السابق ص ۱۲۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۴

يقال: انَّ أتباع هـذين الشخصـين المتجاورين اسـتعد كل منهما للحرب مع الآخر، إلّاأنّ مسـيلمة توسل بأسـلوب الحيلة والمكر واختلى بسَـجاح، وقال لها: هل ترغبين بالزواج منى، فتتحـد قبيلتى مع قبيلتك ونحمل حملة رجل واحد على العرب، فرضـيت بذلك، ومكثت معه ثلاثـة أيّام ولما رجعت سألها أفراد قبيلتها عن مهر هـذا الزواج، فجاءت إلى مسـيلمة وطالبته بالمهر، فأمر مسـيلمة أحـد الأشـخاص بالنداء بين القبيلتين: إنّ مهر سجاح هو رفع وحذف صلاتى الصبح والعشاء اللتين وردتا فى شريعة محمد.

وعندما قُتل مسـيلمة فى حرب اليمامة بعد رحلة نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله على يد قاتل حمزة المعروف (وحشى) أظهرت هذه المرأة الإسلام «۱».

ولقد اشتهر هذان الشخصان بالكذب إلى درجة بحيث قال أحد الشعراء فى حقهما:

والت سَجاح ووالاها مسيلمةٌ كذابةٌ من بنى الدنيا وكذّابُ

۲- ومن ضـمن الأفراد الـذين قاموا بمعارضة القرآن فى آواخر حياة النبى هو (الأسود العنسـى) وكان هو الآخر يكتفى بتلفيق الكلمات فى معارضـة القرآن وإن كانت فارغـة من المحتوى وادّعى النبوة فى أيّام حجة الوداع (فى آواخر حياة النبى) ولم تسـتغرق مدّة ادّعائه للنبوة أكثر من أربعة أشهر.

وقـد فرض سـيطرته على بلاد (البحرين) و (نجران) وقسم من بلاد (اليمن) وسواحل (الخليـج الفارسـى) وغيرها ومن ثمَّ قتل فى اليمن على يد «فيروز» الايرانى مستعيناً بزوجته، ووصلت أنباء قتله إلى المدينة فى حياة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «۲».

ويقال: إنّه كان يعيش فى الأماكن المنحطـة فكرياً وخلقياً، ولهـذا السـبب تبعه مجموعة من شذاذ الآفاق، وكان يراهن على السـجع فى كلماته لمعارضة القرآن، كما نقل عن مسيلمة ذلك آنفاً. إلّاأنّ اتباعه سرعان ما اطلعوا على فساد عقيدته وابتعدوا عنه.

۳- وردت بعض الاتهامات المفتعلة أيضاً إلى عدد من الشخصيات بمعارضة القرآن وإن

(۱) دائرة معارف القرن العشرين، فريد وجدى وفق نقل تنزيه التنزيل للمرحوم الشهرستانى ص ۱۷۶.

(۲) دايرة معارف البستانى وفق نقل تنزيه التنزيل للسيد هبة الدين الشهرستانى ص ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۵

لم يثبت تاريخيـاً، وقـد يكون السـبب وراء تلك الاتهامات أنَّ مجموعـة من الجهال فسـرت قسـماً من المقاطع المسـجعة لبعض الادباء العرب على انّها تحد للقرآن الكريم، أو أنّ الأعداء المحتالين أرادوا أنْ يستغلوا هذا الاحتمال.

ومن جملتهم: (عبد اللَّه بن المقفع) وهو من الكتاب والادباء المعروفين فى القرن الثانى للهجرة عاصر الإمام الصادق عليه السلام ويُقال عنه إنّه كان فى بداية الأمر مسيحياً ثم أسلم بعد ذلك، وكان يمتلك الاحاطة الكاملة باللغة الفارسية، وترجم إلى العربية بعض الكتب من جملتها كتاب (كليلة ودمنة) وقد أظهر الإسلام بوضوح فى المقدمة التى كتبها لهذا الكتاب.

ولكن يقال: إنّه سُمع منه أحياناً بعض الكلمات الجارحة.

ومن ثَمَّ سلَّموه إلى أمير البصرة (سفيان بن معاوية المُهلبى) فقتله بسبب بعض الاختلافات الجانبية بينهما ظاهراً.

ويقالُ: إنّه لما أراد سـفيان أن يلقيه فى التنور قال له: أقتلك ولا شـىء علىّ لأنّك زنـديق قد أفسدت عقائد الناس. وعلى أى حال فإنّ عقائده ليست واضـحة لنا بدقة، ولكن المسلّم به هو أنّه لم يدعُ إلى معارضة القرآن، وإن كان بعضهم يرى أنّ كتابه المعروف (بالدرة

اليتيمة) دُوِّنَ لهذا الغرض، ومن حسن الحظ أنّ كتابه هذا بين أيدينا وقد طبع عدّة مرات.

ولم نرَ فيه أيّة إشارة لمسألة المعارضة للقرآن، ولا يعلم ما هو السبب وراء هذه النسبة له ولكتابه.

وعلى أيّة حال لا توجد هناك وثيقة تاريخية تدل على معارضته للقرآن، وكتابه المذكور وإن دوّن بصورة أدبية إلّاأنّه لا يوجد فيه شيء يدل على (تحديه) للقرآن.

۴- من ضمن الأشخاص الذين نسبت إليهم هذه التهمة أيضاً: (أبو العلاء المعرى) وهو من الكتاب والشعراء المعروفين فى القرن الخامس للهجرة، وكان رجلًا ملحداً، نقل عنه كلام جارح، بحيث لايمكن القياس بينه وبين (عبد اللّه بن المقفع)، إلّاأنّه- وعلى أى حال- لا يوجد بين أيدينا سند تاريخى يدل على توجهه إلى تحدى القرآن؛ ولعل توجيه مثل هذه النسبة إليه يعزى إلى اتهامه بالإلحاد وعدم التدين من جهة، وإلى كونه أديباً وشاعراً وكاتباً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۶

من جهة اخرى يشهد على ذلك استخفافه بالعبارات المسجعة المذكورة فى كتاب (التاج) لابن الراوندى، إذ يقول بصراحة فى (رسالة الغفران) التى كتبها رداً، على كتاب (التاج):

بان قوافى وسجعيات ابن الراوندى لاتعدو أن تكون نظير ما يقوله الكهنة نحو: افٍ وتُفٍ وجَورَبٍ وخُفٍ «۱».

وعلى هذا الأساس، يرى هو الآخر أن حَبكَ العبارات المسجوعة من دون مضمون ليس لها أية قيمة وأهميّة.

ومن الجدير بالذكر، أنّه يمتلك مقالة جيدة بصدد القرآن فى رسالة الغفران نفسها تدل على اعترافه بعظمة القرآن وشموخ معانيه (وإن كان لا يعتبره وحياً سماوياً) فهو يقول بصراحة: عندما تأتى آية واحدة من القرآن فى حديث ما فهى كنجم مضيء يتلألأ فى ليل بهيم.

۵- (أحمد بن الحسين الكوفى) الشاعر المعروف بالمتنبى‌الذى يظهر من اسمه أنّه كان ادّعى النبوّة، وقد كان من ادباء القرن الرابع للهجرة، وهو على جانب كبير من الذوق الشعرى، فى بداية الأمر اعتنق الإسلام لكنه ادّعى النبوّة بعد ذلك كما قيل، ومن الجدير بالذكر أن دعواه هذه كانت فى السنة السابعة عشرة من عمره.

جاء فى حاشية كتاب (اعجاز القرآن) للرافعى: أنّه ادّعى النبوّة فى سنة ۳۲۰ ه. وتبعه جمع من (بنى كلب)، ومن ثَمّ ألقاه والى حمص فى السجن وتفرق عنه اتباعه، فتاب وافرِج عنه، ثم أنكر هذا الأمر بعد ذلك، ومرّت مدّة من الزمن أصبح فيها مقرباً إلى (سيف الدولة) وكلما ذُكِّر فى مجلسه ادّعائه للنبوّة كان ينكر ذلك؛ قُتل فى نهاية الأمر على يد (فاتك بن أبى جهل) بسبب وقوع اختلافات بينه وبين اتباع (عضد الدولة الديلمى) «۲».

۶- ومن ضمن الأشخاص الذى فكروا فى تحدى القرآن: (أحمد بن يحيى المعروف بابن الراوندى، وهو من متكلمى المعتزلة، لازَمَ الملحدين والمناوئين للاسلام دائماً لأنّهم

---

(۱) اعجاز القرآن للرافعى، ص ۱۳۷.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۷

كانوا يلومونه كثيراً، وكان يقول: أريد أن احيط علماً بعقائدهم؛ ثم تظاهر بالالحاد بعد ذلك ودخل فى منازعات مع الناس، يقال: إنّ أباه كان يهودياً ثم أسلم، لذا قال بعض اليهود لبعض المسلمين: إنّ ابن الراوندى سيضيع كتابكم كما ضيع والده كتاب اليهود.

وكتبوا عنه: أنّه لم يستقر على عقيدة معينة، إذ كتب لليهود كتاباً فى الرد على الإسلام، مقابل أربعمائة درهم تحت عنوان (البصيرة) ولما انتهى منه، انبرى للرد عليه، وامتنع عن ذلك مقابل استلامه لمائة درهم.

ويقال: إنّه قام بتأليف كتاب، يتحدى به القرآن اسمه (التاج) إلّاأنّه لم تقع فى ايدينا نسخة منه إلى وقتنا هذا. وهو الكتاب نفسه الذى يقول عنه (أبو العلاء المعرى): أمّا تاجُهُ فليس إلّانعلًا! وهل تاجه إلّاكما قالت الكهنة: افٍ وتُفٍ وجورَبٍ وخُفٍ «۱».

يُستنتج بشكل واضح من كل ما قلناه: أنّ أحداً لم يعطِ جواباً لدعوة القرآن إلى المناظرة والتحدى، على الرغم من توفر الدواعى لهذا الأمر، ابتداءً من زمن المشركين العرب وأهل الجاهلية، وانتهاءً بهذا اليوم الذى تخصص فيه القوى الاستكبارية رؤوس اموال ضخمة من اجل القضاء على الإسلام والقرآن، ومن الطبيعى أنه إذا كان باستطاعتهم أن يعبئوا طاقات الادباء العرب والعلماء الاجانب للإتيان بما يماثل القرآن لما ادخروا وسعاً فى ذلك.

وما نشاهد فى طول التاريخ من أشخاص كمسيلمة وسجاح مع كل فضائحهما فأنّهم لم يثبتوا قدماً واحداً فى هذا وعندئذ سندرك جيداً عدم إمكانية هذا الأمر، وإلّا لكان ذلك ذريعة كبرى يتوسل بها أعداء الإسلام المعاندون لنشر هذا الأمر فى كل مكان، وهذا هو معنى الضعف والعجز عن تحدى القرآن.

---

(۱) اعجاز القرآن ص ۱۳۳- ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۷۹

صور اعجاز القرآن

اشارة

۱- الاعجاز القرآنى فى الفصاحة والبلاغة

۲- الاعجاز القرآنى على صعيد المعارف الإلهيّة

۳- اعجاز القرآن فى تصور العلوم الحديثة

۴- الاعجاز التاريخى للقرآن

۵- الاعجاز القرآنى فى سن القوانين

۶- الاعجاز الغيبى للقرآن

۷- الاعجاز القرآنى فى عدم وجود التناقض والاختلاف

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۱

تمهيد:

يتصور البعض أنّ إعجاز القرآن يقتصر على جانب الفصاحة والبلاغة فحسب وهى:

المحسنات اللفظية والمعانى والبلاغة، فى حين أنّ أغلب أصحاب الخبرة والمحققين فى عصرنا يذهبون إلى عدم صحة هذا الكلام، لأنّ جوانب الاعجاز القرآنى متنوعة ومتعددة، حتى يمكن القول إنّنا مع مرور الزمان سنقف على جوانب جديدة من اعجاز القرآن لم تتضح معالمها لنا فى الماضى.

ويمكن التعرف على الجوانب التالية للإعجاز القرآنى فى وقتنا الحاضر من خلال الشواهد الموجودة فى القرآن نفسه:

۱- الإعجاز فى الفصاحة والبلاغة وهو الظاهر الحسن والباطن العميق والبيان المتين المنزّه والصراحة والحدية والشمولية فى المفاهيم، وانسجام الألفاظ مع المعانى.

۲- الإعجاز فی المعارف والاطروحات العقائدیة.

۳- الإعجاز فی طرح المسائل التاریخیة.

۴- الإعجاز فی سن القوانین.

۵- الإعجاز فی العلوم العصریة والمفاهیم العلمیة المجهولة فی عصر القرآن.

۶- الإعجاز فی التنبؤات المستقبلیة والأخبار الغیبیة.

۷- الإعجاز فی عدم وجود الاختلاف بین الآیات القرآنیة التی نزلت طیلة ۲۳ عاماً بالرغم من تغیّرات الظروف والأوضاع الزمانیة والمکانیة کافة.

ومع هذه الإشارة نعود إلی القرآن مرّة اخری لنبحث کل واحدة من الصور المتقدمة بصورة مستقلة:

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۳

۱- الاعجاز القرآنی فی الفصاحة والبلاغة

اشارة

یقول علماء المعانی فی تعریف البلاغة والفصاحة: إنّ الفصاحة تستعمل تارة لوصف الکلمة، وتارة اخری لوصف الکلام وهی: عبارة عن خلو الکلام من الحروف والکلمات الثقیلة غیر المحببة ذات الایقاع الردیء غیر المتجانس من العبارات الرکیکة والضعیفة والمنفرة والوحشیة والمعقدة والمبهمة.

وأمّا البلاغة فهی عبارة عن تناسب الکلام مع مقتضی الحال والانسجام التام مع الغایة المتوخاة من الکلام.

وبعبارة اخری الفصاحة ناظرة إلی کیفیة الألفاظ والبلاغة ناظرة إلی کیفیة المعنی والمحتوی أو بعبارة ثانیة: الفصاحة تقتصر علی الجوانب الشکلیة والظاهریة للکلام والبلاغة تقتصر علی الجوانب المعنویة والجوهریة.

ومما لا شک فیه أنّ هذین الأمرین ینطویان علی جانب ذوقی واستحسانی فضلًا عن الجانب العلمی والقانونی، ولکن هذا الجانب الفنی والذوقی نفسه یتفتح ویکتمل ویتسق فی ظل التعلیم والتربیة والاعتماد علی القواعد التی تستقی غالباً من کلمات الفصحاء والبلغاء. نظیر الحس الشعری أو القابلیة علی الخط اللذین یتکاملان بالتعلیم والممارسة والاستعانة بالمعلم.

وعلی کل حال یعتقد بعضهم أنّ اعجاز القرآن والدعوة إلی التحدی التی وردت فی آیات مختلفة مستندة إلی هذا المعنی نفسه، ویمکن الاستدلال علی ذلک بالامور التالیة:

۱- إنّ ما اشتهر به العرب فی ذلک العصر والزمان هوفن الفصاحة والبلاغة، بحیث بلغت

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۴

أشعار الجاهلیة أوج فصاحتها، وکان أحد أهم برامجهم هو قراءة أجمل قصائد تلک السنة خلال التجمع الاقتصادی الذی یعقد فی (سوق عکاظ) بالقرب من الطائف فی کل عام.

وعندما یقع اختیارهم علی أفضل هذه القصائد یعلقونها علی جدار الکعبة بصفتها أثراً أدبیاً قیماً، ومع مرور السنین علقت سبع قصائد عرفت فیما بعد باسم (المعلقات السبع).

وعلی هذا الأساس إذا أراد القرآن أن یدعوهم إلی التحدی والمعارضة فیلزم أن یکون فی هذا المجال.

۲- ولعل الاتهام الذی کان یوجهه المشرکون العرب إلی القرآن بکونه سحراً وإلی النبی بکونه ساحراً یعود إلی التأثیر السحری للقرآن، حیث اشتمل، علی روعة الکلام والفصاحة.

۳- نقرأ فی الحدیث الوارد عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام فی صدد انسجام معجزات الأنبیاء مع العلوم والفنون المتطورة فی أعصارهم: «إنّ اللَّه تعالی لما بعث موسی علیه السلام کان الغالب علی أهل عصره السحر فأتاهم من عند اللَّه تعالی بما لم یکن فی وسعهم مثله وما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجّة علیهم وأنّ اللَّه تعالی بعث عیسی علیه السلام فی وقت قد ظهرت فیه الزمانات (الآفات) واحتاج الناس إلی الطب فأتاهم من عند اللَّه بما لم یکن عندهم مثله وبما أحیی لهم الموتی وأبرء الأکمه والأبرص باذن اللَّه، وأثبت به الحجّة علیهم وأنّ اللَّه تبارک وتعالی بعث محمداً صلی الله علیه و آله فی وقت کان الغالب علی أهل عصره الخطب والکلام (وأظنه قال: الشعر) فأتاهم من اللَّه عزّ وجلّ بخطبه ومواعظه وأحکامه ما أبطل به قولهم، وأثبت به الحجة علیهم» «۱».

إنَّ جمیع هذه القرائن تدل علی أنّ الاعجاز القرآنی کان ولا یزال متکئاً علی جانب الفصاحة والبلاغة إلّاأنّ واقع الأمر هو أنّ الاعجاز فی الفصاحة والبلاغة کان مورد اهتمام عمیق وإن لم ینحصر به. خصوصاً أنّ الجوانب الاخری من الاعجاز القرآنی واضحة جلیة.

---

(۱) عیون اخبار الرضا، (وفق نقل تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۴۳) ونقله أیضاً الکلینی فی الکافی والعلامة المجلسی فی بحار الأنوار.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۵

وللحصول علی معلومات کافیة حول اعجاز القرآن فلابد من الالتفات إلی النقاط التالیة:

۱- تقدمت الإشارة إلی أنّ عرب الجاهلیة کانوا علی جانب کبیر من الفصاحة والبلاغة بحیث إنّ القصائد المتبقیة من ذلک العصر ومن جملتها (المعلقات السبع) مازالت تعرف بالقصائد المنتخبة لدی العرب.

إلّا أننا نعلم بانّهم جمعوا قصائدهم کلها بعد نزول القرآن وانحنوا إجلالًا أمام الفصاحة القرآنیة المنقطعة النظیر، وبالرغم من امتلاکهم کل الدوافع والحوافز الذاتیة لمعارضة القرآن ومنازلته إلّاأنّهم أخفقوا فی ابداء شیء ما.

ولقد اطلعنا علی نماذج حیة واضحة من تأثیر القرآن فی هذا المجال فی البحث السابق لجاذبیة القرآن.

۲- یقف ثلة من الذین تعرضت مصالحهم اللامشروعة للخطر بوجه رجال الحق دائماً وعلی طول التاریخ، لیوجهوا إلیهم التهم والافتراءات، وبالرغم من کونها کاذبة إلّاأنّها تحکی عن بعض الحقائق الموجودة فی تلک البیئة.

فعلی سبیل المثال، من ضمن الافتراءات والتهم التی وجهت إلی نبی الإسلام صلی الله علیه و آله هی مسألة السحر والساحریة، التی کانت تستخدم ضمن نطاق واسع.

ویقول القرآن فی الآیات (۲۴) و (۲۵) من سورة المدثر علی لسان الولید کبیر المشرکین: «فَقَالَ انْ هَذَا الَّا سِحْرٌ یُؤْثَرُ* انْ هَذَا الَّا قَولُ البَشَرِ» «۱»، فالسبب الرئیس وراء هذه النسبة المفتعلة للنبی صلی الله علیه و آله هو النفوذ العجیب والخارق للآیات القرآنیة التی استحوذت علی القلوب من خلال فصاحتها وبلاغتها العجیبة؛ بحیث لا یمکن أن یعتبروا هذا النفوذ أمراً عادیاً ولذلک لم یجدوا لفظة مناسبة ینسبونها له سوی لفظة (السحر)، التی تعنی فی اللغة کل عمل خارق للعادة ومجهول المنشأ، فأولئک وإن أرادوا بهذه النسبة أن یسدلوا الستار علی هذه الحقیقة الناصعة وینکروا الاعجاز الإلهی، إلّاأنّهم اعترفوا بحدیثهم هذا

---

(۱) ورد فی تفصیل قصة الولید بن المغیرة وحدیثه بصدد جاذبیة القرآن فی البحوث السابقة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۶

بدون وعی منهم بعظمة القرآن وجاذبیته السحریة.

۳- إنَّ من یتتبع آثار المؤلفین والادباء یجد أنّهم عادة ینقسمون إلی فئتین مختلفتین:

فئة تعلق اهتماماً کبیراً علی الجانب الفنی للألفاظ، وتجعل المعانی فی بعض الأحیان ضحیة للألفاظ. وبعکس ذلک فئة لا تولی اهتماماً کبیراً للألفاظ وإنّما تستخدم کامل قدرتها ونبوغها فی النظر إلی عمق المعانی ولهذا السبب قسّم کتّاب تاریخنا الادبی والآثار

القديمة للشعراء الكبار، إلى اسلوبين مختلفين، الاسلوب العراقى والاسلوب الهندى.

الشعراء الكبار الذين نظموا قصائدهم على النحو الأول، استخدموا قابلياتهم الفنية فى مجال التفنن بروعة الألفاظ وحسنها فى حين أنّ اتباع النحو الثانى وجهوا اهتمامهم فى الغالب إلى دقائق المعانى والملابسات المحيطة بها.

ومما لايقبل الانكار أنّ الذين أبدوا اهتمامهم بكلا الأمرين وخلفوا وراءهم آثاراً طيبة، هم نزر يسير، إلّاأنّ الحديث عن مدى نجاحهم فى هذا المضمار حديث ذو شجون.

والدليل على هذا الكلام واضح، لأنّ الألفاظ الجميلة العذبة لا تتحكم فى واقع المعانى المطلوبة، ولا تعكس حقائقها الدقيقة فيها، ولهذا غالباً مايقف الشاعر والمتكلم على مفترق طريقين: جمالية اللفظ وجمالية المعنى ومن ثَمَّ يضطر إلى اختيار أحدهما، ولذلك فى كثير من النثر والنظم تذهب المعانى ضحية للسجع والقافية.

غير أنّ الذين اطلعوا على آداب العرب وتعرفوا على حقائق القرآن يفهمون جيداً أنّ هذا الكتاب الإلهى العظيم حافظ على الامتياز المهم وهو الاعجاز، فألفاظه فى منتهى العذوبة والحلاوة، والجمل المحبوكة فى غاية الدقة والجمال. والكلمات فيه ذات ايقاع ووزن عذب، والمعانى قد اعطى حقها بكل خصائصها ودقتها، وهذه هى احدى أبعاد اعجاز القرآن فى الفصاحة والبلاغة.

إنّ القرآن لا يتكلف بأداء المعانى ويبين مراده بوضوح وفى الوقت نفسه يضفى على المعانى ألفاظاً عذبة وفى منتهى الجمال.

۴- اشتهر الشعراء والخطباء بهذه الصفة: وهى أنّهم غالباً مايبالغون إلى حد الكذب فى

أحاديثهم من أجل التوصل إلى حلاوة البيان وطراوته؛ وعلى سبيل المثال يجعلون الطبقات السبع للأرض ستاً، والطبقات السبع للسماء ثمانياً. لتصاعد غبار حوافر خيل العسكر، فى الصحراء أو وضع تسعة مقاعد من الفلك تحت قدميه ليصل إلى طول ركاب (قزل ارسلان)، أو يجعلون من القلب بحراً، ومن الدم ومن دمع العين نهر (جيحون) حتى قالوا:

لا تراوغ فى الشعر وفى فنهلأن أكذبه هو أحسنه

وعلى هذا الأساس فإنّ اعذب الشعر أكذبه ويشير التعبير القرآنى فى صدد الشعراء إلى أنّهم غالباً مايستغرقون فى تخيلاتهم وتشبيهاتهم الشعرية: «الَم تَرَ أَنَّهُم فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ». (الشعراء/ ۲۲۵)

غير أننا حينما نقرأ جميع آيات القرآن فلانرى فيها أى نوع من المبالغة الكاذبة، بالرغم من وجود كل الدقّة والجمال فى الالفاظ والمعانى والتى تشترك فى تبيين الحقائق.

ولهذا السبب نشاهد أنّ القرآن يبرىء ساحة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله من تهمة الشاعرية، وساحته أيضاً من تهمة الشعر «۱».

نعم على الرغم من خلو القرآن من التخيلات الشاعرية والمبالغات والاستغراقات البعيدة عن الحقيقة الشعرية، والتشبيهات والاستعارات الوهمية، فلايحتوى إلّاعلى بيان الحقائق بصورة واقعية وقطعية، بالرغم من كل ذلك نجده فى عين الوقت فى منتهى العذوبة والجاذبية بحيث استقطب البعيدين عن الإسلام بل حتى المخالفين للنبى صلى الله عليه و آله وذكرنا أمثلة لذلك فى البحث السابق عن جاذبية القرآن.

ومن الجدير بالذكر أنّ ما نقله التاريخ من أن كثيراً من الشعراء العرب عندما اصطدموا بفصاحة القرآن، ارتضوا الإسلام طوع أنفسهم، ومن جملة الشعراء الذين أسلموا تحت تأثير جاذبية القرآن هو (لبيد) الذى كان له فى زمن الجاهلية احدى المعلقات السبع (وهى

---

(۱) ينقل القرآن هذه التهمة عن المشركين فى ثلاث آيات فى سور: الأنبياء، ۵؛ والصافات، ۳۶؛ والطور، ۳۰؛ وينفيها اللَّه سبحانه وتعالى عن نبيه بصراحة فى آيتين من سورة يس، ۶۹؛ والحاقة، ۴۱.

سبع قصائد شعرية معروفة ومتميزة انتخبت وعلقت على جدار الكعبة).

وكذلك حسان بن ثابت وهو من الشعراء الأثرياء فقد أسلم تحت تأثير جاذبية القرآن.

ومن الشعراء الذين دخلوا إلى الإسلام طواعية واستفادوا كثيراً من جاذبية القرآن هم:

(الخنساء) الشاعرة والناقدة العربية، و (الاعشى الذى كان من نوادر الشعراء فى عصر الجاهلية.

۵- من الظواهر الاخرى للفصاحة والبلاغة القرآنية هو الايقاع الخاص الموجود فى القرآن نفسه.

إنّ أحاديث الادباء عادة إما أنْ تكون شعراً أو نثراً، أمّا القرآن فليس شعراً ولا نثراً عادياً ومعروفاً، وإنّما هو نثر ذو ايقاع خاص به، نثر حينما يتلوه قرّاء القرآن يقع غالباً فى قالب موزون كامل.

وإذا كان لا يمكن استعمال كلمة (الموسيقى فيما يخص القرآن لأنّه يمتزج فى عُرفنا بالمفاهيم السلبية. إلّاأنّ بعض الكتاب العرب المعروفين نظير (مصطفى الرافعى). يقول فى كتابه (اعجاز القرآن): «الاسلوب القرآنى يسبب ويوجد الحاناً تلفت اسماع كل مستمع إليها، وهى نوع من الموسيقى الخاصة التى لم تكن فى الكلام الموزون فى ذلك الزمان وهذا الترتيب والنظم كان يلطف طباع العرب ويعرفهم اسلوباً جديداً فى الكلام لم يكن موجوداً سابقاً».

ويقول (بولا-تيتلر) أحد العلماء الغربيين فى هذا المضمار: «من الخطأ أن نفكر بأنّ الفصاحة الإنسانية تستطيع أن تؤثر بمثل ما يؤثر القرآن لأنّه دائماً يسير باطرادٍ إلى الرفعة بدون أن يرى فيه أى ضعف وفتور، وكل يوم يفتح لنا قمماً جديدة، نعم إنّه معجزة يتضاءل أمامها اناس الأرض وملائكة السماء» «۱».

ويضيف إلى ذلك عالم آخر اسمه (كنت هنرى دى كسترى) قوله: «إذا لم تكن فى القرآن غير عظمة المعانى وجمال المبانى لكان كافياً لأن يتسلط على كل العقول ويجذب جميع القلوب إليه» «۲».

---

(۱) إثبات الهداة، ج ۱، هامش ص ۲۲۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۸۹

۶- ومن الامور المهمّة أيضاً: إنّ أىَّ حديث يبعث الملل والسأم مع التكرار عادةً، إلّا القرآن فإنّه فى منتهى الروعة بحيث لو قرىء مئات المرات لاحتفظ بجاذبيته ورونقه، الأمر الذى يدركه عشاق القرآن وغيرهم بوضوح.

وهذا ما نقرأه جلياً فى الحديث المشهور عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام والذى جاء فيه بأنّ رجلًا سأل الإمام الصادق عليه السلام «ما بال القرآن لا يزداد على النشر والدرس إلّا غضاضة، فقال: لأنّ اللّه تبارك وتعالى لم يجعله لزمان دون زمان ولا لناس دون ناس فهو فى كل زمان جديد وعند كل قوم غض إلى يوم القيامة» «۱».

ويقول على عليه السلام فى جملة مختصرة وبليغة أيضاً: «لا تُخلقُه كَثرة الرَدّ وَولوج السمعِ» «۲».

۷- ومن دقائق الفصاحة والبلاغة فى القرآن هو تجنب كثرة الألفاظ ومراعاة الاختصار، مع ما يؤديه من وضوح المعنى وبيان تمامية المقصود، وهو ما يسمى اصطلاحاً بترك «الايجاز المخل» و «الاطناب الممل».

وقد تمت مراعاة ذلك فى آيات القرآن على أحسن وجه، فنجد أحياناً آية واحدة من القرآن تبين معالم قصة طويلة بحيث إنّ كل جملة منها تتكلم عن مجال واسع من هذه القصة، ونقف على هذا فى أمثلة كثيرة من القرآن، ومنها الآية المشهورة التى تقول: «وَقِيلَ يَا ارْضُ ابْلَعِى مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ المَاءُ وَقُضِىَ الامْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الجُودِىّ وَقِيلَ بُعْدَاً لِّلْقُومِ الظَّالِمِينَ». (هود/ ۴۴)

نعم هذه هى الآية نفسها التى جثى لها الأديب العربى المعروف (ابن المقفع) على ركبتيه عندما قصد القيام بمعارضة أحد أرباع

القرآن حسب الاتفاق الذى عقده مع أصحابه، وحينما وصل إلى هذه الآية أعرض عن ذلك وأقرّ فى نفسه بالضعف والعجز الكامل.

ذلك لأنّها تروى قصة طوفان نوح عليه السلام باختصار بارع بكل تفاصيلها ونتائجها، وبعبارات قصيرة وغنية بالمعانى، وحسب قول أحد المحققين إنّها تشتمل على ٢٣ نكتة من

---

(١) بحارالأنوار، ج ١٧، ص ٢١٣.

(٢) نهج البلاغة، الخطبة ١٥۶.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٩٠

النكات الأدبية، من قبيل: (الإستعارة، الطباق، مجاز الحذف، الإشارة، الموازنة، الجناس، التسهيم أو الإرسال، التقسيم، التمثيل، الارداف و ...) «١».

٨- احدى خصائص القرآن من الناحية الادبية، هى الصراحة القاطعة بما يقل نظيرها، اضافة إلى اللطافة والدقّة فى العبارات.

ومن المعلوم أنّ كل إنسان يستمتع بالنبرة الصريحة لأحد الفصحاء، ذلك لأنّه يبيّن الحقائق بصدق وأمانة وبدون أى‌تشويه أو تشويش، وليس هناك لذة تفوق لذة درك الحقائق.

إنّ التشدق والتحدث بأشكال متعددة، يدل بوضوح (إلّافى الموارد الاستثنائية) على عدم إيمان المتكلم بأقواله، أو على مخاوفه واحتراسه من حكم المستمعين له، وفى كلتا الحالتين يحكى ذلك عن ضعف وعجز المتكلم.

وتقترن الصراحة والصدق القاطع بالخشونة فى أغلب الأحيان والمهم فى الأمر أنّ على المتكلم فى الوقت الذى يكون صريحاً فيه أن يهتم بلطافة البيان أيضاً، ونشاهد ذلك فى آيات القرآن بشكل واضح.

ومن أهم الجبهات القتالية للإسلام هى جبهة التوحيد والشرك، وقد استفاد القرآن من أعلى مراتب الصراحة والقاطعية فى هذا المجال فتارة يقول: «انَّ الّذينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابَاً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَانْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّايَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالمَطلُوبُ». (الحج/ ٧٣)

وتارة اخرى يقول رداً على عبدة الأوثان الذين احتموا بذريعة اتباع عقائد آبائهم وأشرافهم هروباً من المنطق الصاعق للقرآن: «بَلْ نَتَّبِعُ مَا الْفَيْنَا عَلَيهِ آبَاءَنَا اوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَايَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ». (البقرة/ ١٧٠)

وفى موضع آخر يصعد من حدة قاطعيته فى مقابل التوسل بآداب وتقاليد الأجداد بقوله على لسان إبراهيم عليه السلام: «لَقَدْ كُنْتُم انْتُم وَآبَاؤُكُم فى ضَلَالٍ مُّبِينْ». (الأنبياء/ ٥۴)

---

(١) أساليب اعجاز القرآن، ص ٥٢.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٩١

ويقول فى صدد الإيمان بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُم ثُمَّ لَايَجِدُوا فى انْفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (النساء/ ۶۵)

وعلى هذا الأساس يعتبر الشرط الأساسى للإيمان الصادق التسليم ظاهراً وباطناً وسراً وعلانيةً، إضافة إلى ايجاد الانسجام بين الرغبات الذاتية والأوامر النبوية الشريفة، وبالرغم من كل هذه الصراحة والقاطعية نشهد اللطافة والدقة فى العبارات بصورة كاملة أيضاً.

ونلاحظ هذه الحدية أيضاً بشكل واضح فى المباحث الاخرى ذات العلاقة بالمبدأ أو المعاد، والقوانين الاجتماعية، أو المسائل المتعلقة بالحرب والصلح، أو البحوث الأخلاقية، والتى يتطلب شرح كل واحدة منها كتاباً مستقلًا.

٩- المتانة والنزاهة فى البيان: الأشخاص الاميون لا يعبأون بعباراتهم عادة وغالباً ما يستعينون بالجمل البعيدة عن الأدب والذوق من

أجل التوصل إلى أداء مقاصدهم من الكلمات، وبالرغم من أنّ القرآن ظهر فى أوساط هذه الفئة من الناس، إلّاأنّه لم يتأثر بتلك البيئة على الاطلاق، وحرص على مراعاة منتهى المتانة والعفة فى تعبيراته وهو ممّا أضفى على فصاحة القرآن وبلاغته طابعاً خاصاً.

وحينما يتصدى الخطباء والكُتّاب الكبار لحوادث العشق أو مسائل اخرىمشابهة، فهم يضطرون لأن يطلقوا العنان لألسنتهم وأقلامهم كيفما شاؤا فيطرحون ألواناً كثيرة ومختلفة من التعابيرالمهيجة والمؤذية لرسم معالم الصورة الواقعية للأبطال الحقيقيين فى القصة، وإمّا أن يسدلوا ستار الغموض والإبهام على جانب من هذه الوقائع- مراعاةً للعفة والذوق العام- ويتحدثوا مع رقبائهم بشكل مغلق.

والجمع بين هذين الأمرين: أىرسم معالم الواقع بصورة كاملة، وعدم تلوث القلم واللسان بكل ما يخدش العفة والآداب، يعتبر أمراً فى منتهى الصعوبة لا يؤديه إلّاالقليل.

فكيف يمكن أن نتصور شخصاً اميّاً ظهر فى مجتمع متخلف متوحش يحدد المعالم الدقيقة كاملة للأوضاع القائمة، ثم لا نجد فى تعابيره أدنى معنى يخدش العفة والآداب؛ وعلى سبيل المثال حينما يبدأ القرآن فى وصف الوقائع الحساسة لقصة يوسف الواقعية وما

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۲

اشتملت عليه من معانى الحب والغرام الذى اشتعل فى قلب تلك المرأة الجميلة المتهورة نجده يستفيد من جميع اصول الأخلاق والعفاف من دون أى تمويه وتعتيم على الحقائق، أو إجمال الحوادث فى جو من الابهام والغموض، إنّه لا يدع أى شاردة وواردة فى الحديث إلّا وذكرها ولكنه لا يتطرق إلى أدنى انحراف عن اصول العفة فى البيان، فعلى سبيل المثال يقول فى صدد شرح قصة اختلاء زليخا بيوسف عليه السلام: «وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الابْوابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ انَّهُ رَبِّى احْسَنَ مَثْوَاىَ انَّهُ لَايُفْلِحُ الظَّالِمُونَ». (يوسف/ ۲۳)

ومن الجدير بالذكر استعمال القرآن لكلمة «راود» التى تستفاد فى مورد الالحاح فى الطلب من إنسان ما بشىء من الهدوء والمرونة، وهى تنسجم تماماً مع أداء المعنى المقصود هذا من جهة، ومن جهة ثانية، لا يذكر اسم زليخا ولا زوجها عزيز مصر بل يقول: «الَّتى هُو فى بَيْتِهَا» من أجل أن يبيّن مروءة يوسف وعدم خيانته لمولاه، كما يبين فى الوقت ذاته تقواه، ومقاومته لمن يعيش فى كنفه وتحت إمرته.

ومن جهة ثالثة تشير جملة «غَلَّقَتِ الابْوَابَ» التى تفيد معنى المبالغة بحكم مصدر باب التفعيل إلى مدى صعوبة الموقف وتلاطم الاحداث التى مرت بها هذه الواقعة.

ومن جهة رابعة توضح جملة «قَالَتْ هَيْتَ لَكَ» ذلك الحديث الأخير لزليخا الذى قالته لبلوغ وصال يوسف، إلّاأننا نلاحظ هنا مدى رزانته وقوة سبكه المصحوبة بنزاهة البيان وسمو المعنى

ومن جهة خامسة يشير كلام يوسف: «مَعَاذَ اللَّهِ انَّهُ رَبِّى احْسَنَ مَثْوَاىَ» راداً على زليخا منـدداً بها وبصرامة، بمعنى اننى لا أقوم بخيانة صاحب البيت الذى أنعم علىَّ وقاسمته هموم العيش، بالرغم من الأيّام القليلة لتى قضيتها فى هذا البيت فما بالك أنت وقد قضيت هنا عمراً طويلًا.

وتوضح الآيات اللاحقة التى يطول شرحها هذه القصة بشكل رائع، ومن ثم ترسم معالم المقاومة الخيرة، لعواصف الهوى والتهور وتسليم الامور الذاتية بيد اللَّه تعالى فى هذه المشاهد بشكل ممتع وجميل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۳

وفى آية اخرى عندما يصف أحاسيس نساء مصر، حينما دعتهن زليخا إلى ضيافتها لتبرئة نفسها، يقول فى جملة مختصرة: «فَلَمَّا رَأَيْنَهُ اكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ ايْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً انْ هَذَا الَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ». (يوسف/ ۳۱)

ويدل تعبير «مَلَكٌ كَرِيمٌ» على مدى عفَّته ونقائه الفائقين فضلًا عن دلالته على مدى جماله المنقطع النظير، وهذا مثل تعبيرنا عن عفة أحد الأشخاص عادة بأنّه مَلَك من الملائكة، وكذلك توجد على أثر هذه الحوادث جمل تحتوى على قدر كبير من الفصاحة

والجمال، تدلل على عظمة ومقام يوسف بصورة كاملة ذلك المثل الأعلى فى العفة والطهارة «۱».

۱۰- أمثلة القرآن: يستخدم القرآن أمثلة كثيرة من أجل تبيان الحقائق وهى بأجمعها تجليات واضحة للفصاحة والبلاغة فى هذا الكتاب الإلهى العظيم، ممّا يبعث على اعتزاز الإنسان واعجابه الكبير، وهى الادوات الدقيقة التى استخدمت فى هذه الأمثلة والامور الصغيرة الجذابة الممتعة التى نلاحظها فى كل واحد منها:

وممّا لا يقبل انكاره أساساً هو دور المثال فى توضيح وتفسير البحوث، ولهذا السبب لا يمكن الاستغناء عن ذكره فى أىمبحث مهم، لتوضيح الحقائق وتقريبها من الذهن.

فالمثال الجيد والمنسجم مع المعنى المقصود يمكن أن يؤدّى دور أحد الكتب أحياناً، فيوضح المطالب المعقدة ويجعلها قابلة للفهم، ولهذا يعتبر التمثيل من أحد الفنون التى يعتمد عليها الفصحاء والبلغاء والادباء والشعراء فى العالم؛ يقول الزمخشرى فى الكشاف فى صدد (المثل):

المثل فى أصل الكلام معناه المِثْل ويعنى النظير ... ولضرب الأمثال عندهم والتحدث بالأمثال والنظائر لدى العلماء شأن رفيع ذلك لأنّها ترفع الحجاب عن المعانى الخفية وتوضح النكات المبهمة بحيث يصبح الأمر المتخيل حقائق ويقع الشىء المتوهم مستيقناً فى محله وتتجلى صورة الغائب على غرار صورة الشاهد ولهذه الجهة أورد اللَّه تعالى أمثالًا كثيرة فى كتابه القرآن المبين وسائر كتبه الاخرى «۲».

---

(۱) لمزيد من الاطلاع يُراجع التفسير الأمثل ذيل الآية ۳۱ من سورة يوسف.

(۲) أمثال القرآن، ص ۱۲۰.

وللأمثلة فوائد عديدة، منها أنّها تجعل المسائل العقلية حسية وتقرب الطرق البعيدة، وتوصل فهم المسائل إلى جميع الناس وبصورة شاملة، وتصعّد درجة الاطمئنان بالامور المطروحة، ومن ثم المثال المناسب يعتبر رداً صاعقاً على منطق المعاندين، وقد جمع بعض المحققين أمثال القرآن فى كتاب درس وحلل فيه أكثر من مائة مثال قرآنى.

إنّ أمثلة القرآن معجزة حقاً، ويكفى من أجل الوصول إلى هذه الحقيقة، أن نجعل قسماً منها مورداً للبحث.

مقتطفات من الأمثلة الاعجازية للقرآن:

حينما يريد القرآن رسم مشهد دقيق عن الحق والباطل يقول: «انْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ اوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِيَاً وَمِمَّا يُوْقِدُونَ عَلِيهِ فِى النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ اوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الحَقَّ وَالبَاطِلَ فَامَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَامَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى الارْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الامْثَالَ». (الرعد/ ۱۷)

لقد بيّن اللَّه تعالى معالم صورة الحق والباطل على احسن وجه فى هذا المثال الغزير بالمعانى والمشتمل على ألفاظ وعبارات موزونة، وتجدر الإشارة هنا إلى بعض الحقائق المهمّة التى تضمنها هذا المثال:

۱- يحدث أحياناً أن تلتبس كثيراً عملية التمييزبين الحق والباطل ممّا يقتضى الرجوع إلى الأمثلة والأدلة.

۲- الحق دائماً يعود على الإنسان بالخير والفائدة شأنه شأن الماء الصافى الذى هو مادة الحياة أو نظير المعدن الخالص الذى يستخدم للزينة أو لوسائل الحياة الضرورية.

۳- الحق غنى فى ذاته قائم بنفسه دائماً، أمّا الباطل فيستمد العون من مكانة الحق ويسعى إلى التلبس به والاستفادة من قيمه مثلما يستمد أىنوع من أنواع الكذب وجوده وشأنه من الصدق بحيث لو لم يظهر على مسرح الوجود كلام صادق لم يتصور أحد معنى

الكذب، وإذا لم يكن للحق وجود لما عُرف الباطل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۵

۴- إنّ استفادة أى موجود بحسب قابليته وقدرته كما يجمع الوادى من ماء المطر على قدر اتساعه واستيعابه.

۵- الباطل يبحث دائماً عن سوق مضطرب، مثله كمثل الماء المنحدر من قمة الجبل فانّه ينهمر بسرعة مصحوبة بهدير وتلاطم يعلوه الزبد، أمّا عندما يصل إلى السهل فإنّ هديره وهيجانه سوف يهدأ وكذلك الزبد فانه يختفى ولا يبقى له أثر.

۶- الباطل لايظهر فى صورة واحدة وإنّما يظهر فى كل لحظة بشكل معين، مثلما يطفو الزبد على سطح الماء وعلى سطح المعادن فى فرن صهر المعادن، لذلك لا ينبغى الانخداع بتلك المظاهر المختلفة على الاطلاق، ولابد من تحديد مقاييس لمعرفة الحق والباطل، لتشخيص وفرز كل واحد منهما عن الآخر.

۷- الصراع بين الحق والباطل مستمر استمرار الحياة ويتوارث من جيل لآخر فهذا ماء عذب فرات وهذا ملح اجاج، يسرى بين الخلائق حتى ينفح فى الصور فكما أن تساقط الأمطار من السماء وذوبان المعادن فى فرن صهر المعادن مستمر ودائم، كذلك هذا الأمر مستمر ودائم أيضاً.

۸- الباطل يميل إلى التعالى وجلب الأنظار، لكنه خاوٍ من أى محتوى أمّا الحق فيمتاز بالتواضع والهدوء والمهارة فى الفن.

وهناك نكات أخرى يمكن استخلاصها من هذه الأمثلة وفى مجالات مختلفة إذا ما دققنا النظر فى الزوايا المختلفة لهذه الآية.

وهذه الآية تمثل نموذجاً من الأمثال القرآنية، وهناك أمثال أخرى نظير المثل الذى يدعو الناس للانفاق فى سبيل اللَّه سبحانه وتعالى، ويشبه ذلك بالحبوب والسنابل، كما ورد فى الآية ۲۶۱ من سورة البقرة، وكالمثال الذى ورد فى ذم الأعمال المقرونة بالرياء حيث صورها القرآن كالحجر الصلب الذى يعلوه التراب، فاذا أصابه المطر أزال عنه التراب وتركه صلداً أملساً، أما الأعمال الخالصة لوجه اللَّه فقد شبهها المثل بالجنة على مكان مرتفع وأصابها المطر فآتت ثمارها ضعفين. كل ذلك ورد فى الآيتين ۲۶۴ و ۲۶۵ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۶

وكالذى ورد فى صدد أعمال الكفار وتشبيهها بالرماد فى مهب الريح (إبراهيم/ ۱۸)، أو تشبيهها بالسراب (النور/ ۳۹)، أو بالظلمات المتراكمة فى البحر عند قدوم الليل والسحب تغطى السماء (النور/ ۴۰).

وكالذى ورد فى صدد أعمال المنافقين وتشبيهها بالشخص التائه فى صحراء مقفرة فى الليل البهيم، وقد هزمته صواعق الرعد والبرق وإذا به يرى لحظة واحدة أنّ أشعة البرق قد أضاءت ما حوله وحين يعقد العزم على التحرك فى طريقه تعود الظلمة لتغطى كل ما يقع عليه نظره (البقرة/ ۱۹ و ۲۰).

وكالذى ورد فى صدد تمسك عبدة الأصنام باصنامهم العديمة الشعور والقدرة وتشبيهها ببيت العنكبوت (العنكبوت/ ۴۱).

وما ورد فى صدد تشبيه المغتابين بأولئك الذين يأكلون لحوم إخوانهم الموتى (الحجرات/ ۱۲) ومن ثم ما ورد فى صدد الذات المقدّسة لله تعالى بأنّه نور السموات والأرض، وتشبيه ذلك النور بالمصباح والخواص المتعلقة به المقترن بأنواع الظرافة والروعة (النور/ ۳۵).

ويمكن إزاحة الستار فى هذا القسم من الفصاحة والبلاغة القرآنية عن موارد اخرى كثيرة يستغرق الكلام عنها وقتاً طويلًا، وهى بدورها تطلعنا على حياة مليئة بالقيم وأضدادها تواجهنا فى حياتنا اليومية وتبين لنا عالماً من المعارف فى حلة من الأمثلة البديعة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۷

۲- الاعجاز القرآنى على صعيد المعارف الإلهيّة

بعد الكلام عن مسألة الفصاحة والبلاغة وصل بنا المطاف للحديث عن المضمون وقبل كل شيء نتعرض لمسألة المعارف ونحاول بيان المسائل المتعلقة بالمبدأ والمعاد والعقائد الدينية.

ومن الامور الأساسية هى أنّ بيان المسائل ذات العلاقة بالمبدأ والمعاد والنبوة والإمامة، يُعدُّ أحد المعايير الفاصلة بين الأديان الحقة والباطلة، لأنّ بحوث هذا القسم وبالأخص ما يتعلق بالذات القدسية لله تعالى وصفاته واسمائه فى غاية الدقة والتعقيد، بحيث يصبح الحد الفاصل بين الشرك والتوحيد ادق من الشعرة أحياناً.

إنّ هذا القسم من الآيات القرآنية على جانب كبير من الابداع والعمق والدقة، بحيث لو لم يوجد دليل على اعجازه سوى الايضاحات الدقيقة التى يبينها فى هذه المسائل، لكان هذا كافياً للاستدلال عليه.

خصوصاً وأنّ القرآن ظهر فى بيئة عاكفةٍ على عبادة الأصنام مملوءه بالمعابد بدءاً من الأصنام المنزلية وانتهاءً بالاصنام العشائرية والأصنام الكبيرة العامة، التى كانت مقصداً لكل بلد وحى.

لقد كانوا يصنعون الأصنام بأيديهم من الاخشاب أو الصخور أو المعادن، وبالرغم من علمهم بعدم امتلاكها لأدنى احساس وشعور وحركة ورؤية، نجدهم ينسبون إليها القدرة الهائلة استناداً إلى جملة من التخيلات المحضة الركيكة التى تدور فى أذهانهم، ومن ثم يسلمونها مقاليد امورهم ومقدراتهم ويخضعون لها فى عجز وتضرع يلتمسونها ويسجدون

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۸

لها ويقدمون لها القرابين حتى تصير واسطة للفيض والشفاعة بينهم وبين اللّه تعالى وكان يصل بهم الأمر أحياناً إلى أن يصنعوا أصناماً من التمر، واتفق فى احدى سنى القحط أن خلت منازلهم من الطعام فحملوا على آلهتهم التى صنعوها بأيديهم فأكلوها، ومن شواهد هذه القصة هو الشعر الذى لا يزال شاخصاً بين أشعار عصر الجاهلية:

أكلت حنيفةُ ربَّها عامَ التقحم والمجاعةلم يحذروا مِن ربّهم سوءَ العواقبِ والتباعه

وهذه الأفكار هى من أسوأ الأفكار خرافية وانحطاطاً وأكثرها سخافة والتى يمكن أن تخطر فى ذهن إنسان.

إنّ الأكثرية الساحقة من عرب الجاهلية تعتبر الملائكة بنات اللّه، فى حين أنّهم أنفسهم كانوا ينفرون من مجرد سماع اسم البنت- لما أُثر عنهم من تحقيرهم للمرأة فى تلك البيئة- كما نقرأ ذلك فى قوله تعالى «وَاذَا بُشِّرَ احَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحمنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ». (الزخرف/ ۱۷)

وتوجد هناك مسائل خرافية اخرى كثيرة يطول شرحها سواء فى مبحث المعرفة الإلهيّة أو فى مبحث المعاد وغيرها.

وعندما نشاهد شخصاً ظهر من تلك البيئة يدعو إلى التوحيد الخالص والمعارف الأصيلة ببيان دقيق يذعن له كبار الفلاسفة، حينئذٍ لا يعترينا الشك بأنّ بيان مثل هذه المعارف لا يصدر إلّامن اللّه عزّ وجلّ، وليست هناك أدنى مبالغة فى هذا القول ولا حاجة إلى قطع طريق بعيد طويل للتوصل إلى الحقيقة، فاذا القينا نظرة على المجلد الثانى والثالث من هذا الكتاب «نفحات القرآن» حيث تضمن المجلد الثانى بحثاً عن اللّه سبحانه وتعالى والثالث حول معرفة اللّه لاطلعنا على سعة المعارف القرآنية وعمقها، وكذلك الحال بالنسبة إلى المعاد فى القرآن فقد افرد له بحث واسع فى المجلد الخامس والسادس من نفحات القرآن.

لذا نقف هنا عند البحث الإجمالى ونكتفى باشارات عابرة فى هذا المجال، الغرض منها

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۹۹

ان نعود بقرّائنا الأعزاء إلى المجلدات السابقة.

وبالرغم من سيطرة فكرة الشرك بالله وعبادة الأصنام على تلك البيئة بحيث لا يجرؤ احد على النيل من هذه العقيدة بادنى لوم أو اعتراض، انبرى القرآن بقاطعية كاملة إلى ضرب تلك العقيدة الخرافية، فتارة ينقل ذلك على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام فيقول: «قَالَ افَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ* افٍّ لَّكُم وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ افَلَا تَعْقِلُونَ». (الأنبياء/ ۶۶- ۶۷)

وتارة اخرى يقول فى صدد قصة عجل السامرىّ الذى أصبح مورداً لإغواء عدة من جهال بنى اسرائيل واغترارهم به: «افَلَا يَرَوْنَ الَّا يَرْجِعُ الَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». (طه/ ۸۹)

وبجملة مختصرة: إنّ القرآن ينـدِّد كثيراً بالشرك ويذم عبادة الأصنام بحيث إنّه يعفو ويصفح عن جميع الذنوب ما عدا الشرك، فيقول: «انَّ اللّهَ لَايَغْفِرُ انْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى اثْمًا عَظِيماً». (النساء/ ۴۸)

إنّ هذا التنديد القاطع والحاسم بفكرة عبادة الأصنام يعدّ بحق أمراً فريداً من نوعه؛ لأنّ هذه الفكرة تعتبر سُنّة معروفة للأجداد، والثقافة الرائجة فى جميع أنحاء تلك البيئة بحيث إنّ العدول عنها يُعد من عجائب الامور وموردا لكل أنواع الذم والتقريع، أمّا نحن ففى الوقت الحاضر نلقى نظرة عفوية على هذه الآيات ونعتبرها أمراً عادياً بغض النظر عن أنّ تلك البيئة كانت تعيش ضمن ظروف وأوضاع خاصة تختلف عن أوضاعنا، هذا من جانب ومن جانب آخر عندما يشرع فى بحث التوحيد، يعمد إلى طرح الدلائل الفطرية والمنطقية و (برهان النظام) و (برهان الصديقين) بشكل لا يتصور الإنسان ما هو أروع منه.

ويشير فى بحث التوحيد الفطرى إلى المسألة التى كانت تحدث فى حياة كل أولئك الناس وبأشكال مختلفة فيقول: «فَاذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الّدِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ الَى البَرِّ اذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». (العنكبوت/ ۶۵)

وبهذه الطريقة يبيّن استقرار نور التوحيد فى أعماق وجودهم ووجدانهم، ويزيح النقاب

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۱۴۹

عن طوفان الحوادث تلك الشعلة المستترة فى أقبية الجهل والجاهلية، فعندما يأتى إلى التوحيد الاستدلالى يقول فى جملة مختصرة: «أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّموَاتِ وَالارْضِ».

(إبراهيم/ ۱۰)

بعد هذا البيان الإجمالى يأخذ بيد البشرية ويجوب كل نقطة من نقاط هذا العالم الفسيح ليريهم الآيات فى الآفاق وفى أنفسهم واحدة تلو الاخرى فتارة يقول: «وَفِى الارْضِ آيَاتٌ لِّلمِوقِنِينَ* وَفِى انْفُسِكُمْ افَلَا تُبْصِرُونَ». (الذاريات/ ۲۰- ۲۱)

ثم بالبراهين المفصلة على عظمة اللَّه تعالى وقدرته وحكمته فى السماءوالنجوم والأرض، والنباتات والطيور، والليل والنهار، والهواء والمطر .... فيستأنس الإنسان عند البحث فيها وتأخذه حالة سرور غامر «۱».

ونجده يبدى رأيه أيضاً حينما يشرع فى بحث الصفات الإلهيّة وهو من أعقد الأبحاث العقائدية وواحد من أهم المنزلقات الفكرية المحيرة لكثير من العلماء؛ ففى أحد المواضع يكرم اللَّه تعالى وينزهه من أىنوع من الصفات الممكنة المحدودة الناقصة، فيقول فى جملة مختصرة: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ». (الشورى ۱۱)

وعلى هذا الأساس ينفى عنه جميع الأوصاف الممكنة، ويثبت له الصفات الجمالية والكمالية المنقطعة النظير.

ويتوسع فى كلامه أحياناً فيقول: «هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَااِلهَ الَّا هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمنُ الرَّحِيْمُ* هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَااِلهَ الَّا هُوَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ المُؤْمِنُ المُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَبَّارُ المُتَكَبِّرُ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ* هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِىءُ المُصَوِّرُ لَهُ الاسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِى السَّموَاتِ وَالارْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ». (الحشر/ ۲۲- ۲۴)

وفى الواقع أننا لو عقدنا مقارنة بين الوصف الذى رسمه القرآن فى عدّة آيات عن خالق الكون وبين الرؤية التى يمتلكها المشركون والانطباعات السائدة فى بيئة ظهور القرآن عن اللَّه تعالى لما أمكن تصور أن هذا البيان الساطع الفريد من نوعه هو وليد تلك البيئة الخرافية المظلمة اطلاقاً.

---

(۱) شرحنا هذه الآيات تحت عشرين عنواناً فى ج ۲، من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۱

ويصف فى موضع آخر العلم اللامحدود للّه تعالى بهذا الرسم الذى يفوق حد التصور «وَلَوْ انَّمَا فِى الارْضِ مِن شَجَرَةٍ اقْلامٌ وَالبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ ابْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ». (لقمان/ ۲۷)

فى واقع الأمر أنّ هذه الصورة تتضمن الإشارة إلى حالة غير متناهية إلّاأنّها صورة حية، لأنّ العدد اللامتناهى قد يستفاد منه بشكل جامد فى الرياضيات والتوضيحات الفلسفية، وقد يستفاد منه وهو ينبض بالحياة على شاكلة الصورة التى وردت فى هذه الآية بحيث ترتقى بفكر الإنسان، إلى ذرى اللانهاية.

ونحن عندما نستطيع أن نقف على عمق المعارف الإسلامية فيما يخص أدق المسائل التوحيدية والأسماء والصفات الإلهيّة نكون قد بحثنا دورة لكل القرآن المجيد بهذا الصدد «۱».

وحينما يضع القرآن اللبنات الاولى لمسألة المعاد والحياة بعد الموت نجده تارة يفند جميع المزاعم والافتراضات الخاطئة للمناوئين فى جملة مختصرة ويقول: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ». (الأعراف/ ۲۹)

وتارة يقول فى تبيان أوسع: «اوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمواتِ وَالارْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ* انَّمَا امْرُهُ اذَا ارَادَ شَيْئاً أنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس/ ۸۱- ۸۲)

وتارة اخرى يجسم لهم مشهد المعاد والبعث فى لوحة حية بدون أن يكلفوا تفكيرهم عناء الاستدلال: «يَا ايُّهَا النَّاسُ انْ كُنْتُم فِى رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَانَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الارْحَامِ مَا نَشَاءُ الَى اجَلٍ مُّسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُم طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا اشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَّنْ يُتَوَفّى وَمِنْكُم مَّنْ يُرَدُّ الى ارْذَلِ

---

(۱) يراجع ج ۳ من هذا التفسير، للحصول على معلومات واسعة ومنظمة بهذا الصدد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۲

العُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الارْضَ هَامِدَةً فَاذَا انْزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَانْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ* ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحَقُّ وَانَّهُ يُحْيِ المَوْتى وَانَّهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ». (الحج/ ۵- ۶)

وبناء على ذلك يبين القرآن مشهد البعث فى عالم الإنسان وطيّه لمختلف المراحل الجنينية التى تُعدُّ كل واحدة منها بعثاً عظيماً، وفى عالم النباتات أيضاً نلاحظ مشهد الموت والحياة وبعثها فى كل شتاء وربيع من كل سنة.

إنّ الآيات التى تطرقت إلى الحياة بعد الموت والأدلة المختلفة عليها تعرضت إلى المنازل والمشاهد المتعددة للآخرة، وما يقع هناك من حوادث، وكيفية تجسُّم الأعمال والحساب والكتاب والميزان والشهود فى يوم القيامة، وتحتوى هذه الآيات على امور ومسائل دقيقة، تجعل الإنسان عند مطالعتها والتأمل فيها فى حالة غامرة من العجب، وبإمكانكم مطالعة نبذة من هذه المسائل بشكل موسع فى المجلد الخامس والسادس من هذا الكتاب.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۳

۳- إعجاز القرآن فى تصور العلوم الحديثة

اشارة

قبل الدخول فى هذا البحث لابدّ من الإشارة إلى نقطتين لتصحيح أىّ نوع من سوء الفهم بصدد هذا البحث:

۱- يجب أن لا يتوقع أحد أن يُبيّن القرآن الكريم جميع مسائل العلوم الطبيعية وأسرار وخواص كل الأشياء، لأنّ القرآن لم ينزل لبيان

هـذه الامـور، فهو ليس دائرة للمعـارف أو كتاباً لعلم طبقات الأرض «الجيولوجيا» أو لعلم النبات وإنّما هو كتاب للتربيـة والهدايـة، نزل ليقود الناس إلى حياة طيبـة مقترنة بالسـعادة والفضـيلة ويحكمها الصدق والأمانة والنظام والرحمة، وليوصـلها فى النهاية إلى القرب من اللّه تعالى

وأمّا الغرض من قوله تعالى فى صدد القرآن الكريم: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانَاً لِّكُلِّ شَىءٍ». (النحل/ ۸۹)

فهو لبيـان كليـات الامـور التى تتعلق بنجاة الإنسان وسـعادته وتربيته ولـذلك يقول تعقيباً على هـذه الجملـة: «وَهُـدىً وَرَحْمَـةً وَبُشْـرَى لِلمُسْلِمِينَ». (النحل/ ۸۹)

بيـدَ أنّ بعضاً من الآيات الإلهيّـة ومن أسـرار الخلق فى العالم وفى وجود الإنسان ذاته تساعـد على معرفة اللّه والتعرف على عظمة عالم الخلائق الـذى هو من صـنع اللّه تعالى لذلك قد نجد أحياناً إشارات إلى هذه المسائل بين الآيات القرآنية وقد رفعت السـتار عن امور خفيت واستترت عن جميع علماء العالم فى ذلك الوقت.

وملخص الكلام هو: أنّ الإتيان ببعض أسـرار العلوم وحقائق عالم الوجود فى القرآن لا لعرض العلوم الطبيعية أو لتأليف دائرة للمعارف بل الغرض منه هو تبيين الأهداف التربوية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۴

والأخلاقية، وتعليم درس التوحيد ومعرفة اللّه، وفهم أسماء وصفات الحق، أو الاطلاع على جانب من أسرار المعاد وما شاكل ذلك.

۲- هـل من الصـحيح التشـبث بمثـل هـذه البحوث وتطبيق الآيـات القرآنيـة على الاكتشافـات العلميـة؟ هـل يحق لنـا أن نطبق المسائل المختلفـة للعلوم الطبيعيـة على الآيات القرآنيـة، أو بالعكس؟ فى حين أنّ آراء العلماء لا تسـتقر على حال، وهى فى تغير دائم، ولذلك ليس من المنطق فى نظرنا أن نطبق أمراً ثابتاً مستحكماً على آخر متغير؟

للاجابـة عن هـذا السؤال لابـدّ من القول: إنّ هناك ثلاثـة آراء مختلفـة، فأتباع الرأى الأول وهم الـذين اتخذوا جانب الإفراط فى هذا المجال، فقد طبقوا الآيات القرآنية على الفرضيّات العلمية لأدنى تناسب أو توافق بينهما- لا على الحقائق المسلَّمة والقطعية للعلوم- ظناً منهم أنّهم قد أسدوا خدمة إلى معرفة القرآن من هذا الطريق.

فى حين أننا نعلم فى وقتنا الحاضـر أنّ القيام بهذا العمل يعد خطأً كبيراً لأنّه لا يعد عدم خدمة للقرآن فحسب، بل سـبباً لسـقوط اعتبار القرآن ومكانته، لأنّ الفرضـيات العلميـة- لا القوانين المسـلَّمة- فى حالـة تحول وتغير مسـتمر، ولذلك ليس من المنطق ولا هى خدمة للعلم والعقيدة أن نقوم بتطبيق الحقائق القرآنية الثابتة على جملة من الامور المتحولة والمتغيرة، والمشكوكة أو المظنونة.

وأمّا القائلون بالرأى الثانى: فهم الذين سـلكوا طريق التفريط، واعتقدوا بعدم جواز التطبيق فى أىمورد من الموارد حتى فى المسـلّمات العلمية التى تنسـجم بصورة أو بأخرى مع العبارات القرآنية الصـريحة، وهذا يعدُ نوعاً من التعصب والجمود والبعد عن المنطق والدليل أيضاً.

و أمّـا الرأى الثـالث وهو الـذى يمثـل الحالـة الوسـط بين هـاتين النظريتين الخـاطئتين، فلو خرجنـا من حيز الافتراضات ودخلنا فى عالم القوانين العلمية الثابتة بالدلائل القطعية أو الشواهد المُسَلَّمة لكانت دلالة القرآن على هذه الامور صريحة وواضحة.

فما هو المانع من تطبيق هذه المسائل على آيات القرآن؟ ولماذا نتخوف من هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۵

الانسـجام الـذى هو أحـد الأدلة على عظمة هذا الكتاب السـماوى؟ وإذن ما المانع من أن يكشف القرآن السـتار بوضوح عن البحوث التوحيديـة ومعرفـة اللّه تعالى والمسائل التربويـة المسـتندة لجملة من الحقائق العلمية المجهولة بصورة كاملة فى ذلك العصـر، ومن ثم يوجه أتباعه ويوقفهم على هذا الأمر، فبالإضافة إلى تحقق النتائج التوحيدية والأخلاقية من وراء ذلك، يعتبر إمارة واضـحة على حقانية القرآن فضلًا عن أنه يفتح باباً واسعاً للعلوم والمعارف.

وعلى هذا الأساس سنتطرق بدقة إلى نقطتين مهمتين فى هذا البحث المتواصل وهما:

۱- سنختار المسائل الثابتة والمسلَّمة مائة بالمائة من العلوم الطبيعية مثل قانون الجاذبية، والزوجية فى عالم النباتات، حركة الأرض، وحركة المنظومة الشمسية، وأمثال ذلك ممّا ثبت بالأدلة الحسية فى يومنا هذا.

۲- سننتخب من الآيات فى هذا المجال ما هو صالح للانطباق على القواعد العلمية العصرية بدون أدنى تكلُّف أو تأويل، أو بعبارة اخرى فدلالة الآيات التى تقع مورداً للقبول، هى التى تكون وفق القواعد الأدبية التى يكثر فيها استفادة المعانى من الجمل والكلمات.

۱- القرآن وجاذبيته العامة

نقرأ فى قوله تعالى «اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ». (الرعد/ ۲)

مما يستحق الإهتمام فى هذه الآية، أنّ القرآن لا يقول: إنّ السماء ليس لها عمد، وإنّما يقول: ليس لها عمد قابل للرؤية والمشاهدة. يستفاد جيداً من هذا التعبير أنّ أعمدة السماء غير مرئية وأنّ هذه الأعمدة هى التى أرست دعائم السماء «۱».

---

(۱) يستفاد من ظاهر الآية أنّ «ترونها» وصف ل «عمد»، وقول البعض: إنّ مفهوم الآية «ترونها بغير عمدٍ» هو أنّكم ترون السماء بغير عمد (وعلى هذا، فعبارة «بغير عمد» جار ومجرور ومضاف إليه متعلقة ب «ترونها»)، خلاف الظاهر أولًا، وثانياً، إنّ هذا التعبير يشير إلى أنّكم ترون السماء بدون عمد فى حين أنّ لها اعمدة فى حقيقة الأمر.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۶

ونقرأ فى حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام وقد سأله أحد أصحابه وهو «حسين بن خالد» عن معنى قوله تعالى «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ...». (الذاريات/ ۷)

فقال الإمام عليه السلام: «سبحان اللَّه، أليس اللهُ يقول: «بغير عمدٍ ترونها»؟ قلت: بلى فقال:

ثَمَّ عمدٌ ولكن لا ترونها» «۱».

فهل يوجد توجيه وتفسير لهذا الحديث سوى العمد الذى نطلق عليه فى عصرنا هذا إسم «التوازن بين القوة الجاذبية والدافعة».

وتوضيح ذلك، يكمن فى أنّ النظرية الوحيدة التى غزت أفكار علماء ذلك العصر- زمان نزول القرآن الكريم- ومن ثم القرون السابقة واللاحقة، هى نظرية «الهيئة» لبطليموس التى سيطرت بقوة تامة على المحافل العلمية الدولية. ووفقاً لذلك صوَّرت السماوات على شكل كرات متداخلة نظير طبقات البصل المتلاصقة وكانت الأرض فى مركزها، ومن الطبيعى أن تستند السماوات كل منها إلى الاخرى

إلّا أنّه ثبت بطلان هذه العقيدة بالأدلة القطعية بعد مرور زهاء الالف سنة من نزول القرآن، وذهبت تماماً نظرية الأفلاك- قشور البصل- إلى غير رجعة، وأصبح من المسلّمات أنّ كلّاً من هذه الكرات السماوية معلقة وثابتة فى مدارها وموضعها، وأنّ المجاميع والمنظومات متحركة، والشىء الوحيد الذى يحافظ على ثباتها واستقرارها هو نفس هذا التعادل بين القوة الجاذبة والدافعة.

إنّ الذى يتسبب فى التحرك السريع لكل الكرات السماوية ومن ثم اجتماعها فى مركز واحد، هو القوة الجاذبة- التى تقول: إنّ الجاذبية بين كل جسمين تتناسب طردياً مع وزنيهما، وعكسياً مع الجذر التربيعى للمسافة بينهما-، بَيدَ أنّ الحركة الدورية موجودة فى الكواكب السيارة أو المنظومات- ولا يخفى أنّ الميزة الدورية هى نفس القوة الطاردة المركزية وهى التى تؤدّى إلى الابتعاد السريع لهذه الكرات والمنظومات عن بعضها (على

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۲۷۸. ورد هذا الحديث فى التفسير المزبور عن طريقين، عن تفسير على بن إبراهيم، وكذلك عن تفسير

العياشي.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۷

شاكلة الهروب من دائرة النار فى حالة دورانها وذلك عندما ينقطع سلكها ويتطاير الشرر من قطع النار المتقاذفة)، أمّا لو كانت القوة الجاذبة متساوية مع القوة الدافعة بدون أدنى نقيصة أو زيادة، فسيظهر فى هذه الحالة العمد اللامرئى القوى حتى يثبتها فى موضعها الخاص كما أنّ الكرة الأرضية تتحرك فى دورانها حول الشمس بمدار معين ملايين السنين بدون أن تقترب منها أو تبتعد عنها، وهذه من دلائل عظمة اللَّه وإعجاز القرآن.

ومن الظريف أنّ المفسرين القدامى وقفوا على هذه النكتة إجمالًا بيد أنّهم لم يعبّروا عنها سوى بالقول بمسألة القدرة الإلهيّة، بحيث يقول «ابن عباس» وفقاً لنقل الطبرسى فى «مجمع البيان» والآلوسى فى «روح المعانى»: إنّ معنى الآية هو أنّ السماء تكون بدون عمد قابل للمشاهدة، وعليه يكون عمدها هو القدرة الإلهيّة الهائلة «۱».

۲- القرآن وخلقُ العالم

إنّ للقرآن الكريم تعابير وإشارات متعددة حول حدوث العالم، إذ يقول فى أحد المواضع: «ثُمَّ اسْتَوَى الَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلَارْضِ ائتِيا طَوْعَاً اوْ كَرْهَاً قَالَتَا اتَيْنَا طَائِعِينَ». (فصلت/ ۱۱)

وفى موضع آخر يقول: «اوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا انَّ السَّموَاتِ وَالْارضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ المَاءِ كُلَّ شَيءٍ حَيٍّ افَلا يُؤْمِنُونَ». (الأنبياء/ ۳۰)

لقد اشير فى هاتين الآيتين إلى ثلاث نكات مهمة فى صدد خلق العالم والموجودات الحيّة:

۱- كان العالم فى بادىء الأمر على شكل غاز وبخار.

۲- كان العالم متصلًا فى البداية ثم فصلت الكرات السماوية عن بعضها الاخرى

۳- بدأت خلقة الموجودات الحية من الماء.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۵، ص ۲۷۴؛ وتفسير روح المعانى، ج ۱۳، ص ۷۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۸

وهذه هى نفس الامور التى عرفت فى هذا اليوم بعنوان النظريات العلمية المسلمة.

ويتقرر توضيح ذلك: بأنّه بالرغم من وجود فرضيات مختلفة لم تخرج عن حدود الفرضية فى صدد كيفية نشوء العالم، إلّاأنّه نظراً للمطالعات التى اجريت على المجرات والمنظومات التى تتجه نحو التكون والحدوث، بدا من المسلَّم أنّ العالم كان على شكل أكوام من الغاز فى بادىء الأمر نظير الشيء المضغوط الذى تنعزل منه قطعاته وتتطاير أوصاله على أثر دورانه حول نفسه، وهذه القطع تبرد شيئاً فشيئاً ثم تظهر بشكل مائع أو جامد فى كثير من الأحيان لتشكل الكرات المسكونة وغير المسكونة.

وبعبارة اخرى تدل دراسات العلماء الفلكيين فى مجال السُحب، والعوالم البعيدة عن متناول اليد والتى تأخذ طريقها نحو التكامل على أنّهم أخرجوا هذه النظرية وهى كون الدنيا على شكل أكوام من غاز البخار من حيّز الفرضية واعتبروها من النظريات القطعية، والتى تم تأييدها من قِبل المحافل العلمية الدولية.

وكذلك نقرأ فى بداية الآية الاولى بصراحة ب «أن السموات» الكرات السماوية كانت فى بداية الأمر على هيئة دخان وهذه الآية تنسجم مع الاكتشافات العلمية للعلماء التى لم تزل حديثة العهد، وفى ذلك دلالة واضحة على الاعجاز العلمى للقرآن الذى يكشف عن الحقيقة التى كانت مجهولة فى زمن نزول القرآن بصورة كاملة.

والآيـة الثانيـة أيضـاً تُعبِّر عن حالـة الارتبـاط الموجودة فى العـالم فى بـادىء الأمر، ومن ثم انفصال أجزائه الاخرى وهـذا أيضاً أيـدته المحافل العلمية كأصل من الأصول فى يومنا هذا، وكذلك الحال بالنسبة إلى ظهور الموجودات الحية من ماء البحار فى بادىء الأمر- سواء كانت نباتيـة أو حيوانية- هى الاخرى تعتبر اليوم من النظريات العلمية المعروفة، وإن كان البحث قائماً على قدم وساق بين العلماء فى صدد كيفية التحول والتطور، وظهور الأنواع المختلفة للنباتات والحيوانات.

والقرآن أيضاً يفصح عن حقيقة ظهور كافة الموجودات الحية من الماء فى الآية الثانية المتقدمة الذكر، وفضلًا عن ذلك تصرح الآيات التى تنسب خلقة الإنسان إلى التراب، بأنّ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۰۹

هذا التراب كان ممتزجاً مع الماء على هيئة طين.

ونقرأ أيضاً فى قوله تعالى «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ». (النور/ ۴۵)

وللمفسـرين أحـاديث مطولـة فى صـدد «الرتـق» و «الفتـق» الـواردين فى الآيـة الثانيـة واللـذيْنِ همـا فى الأصـل بمعنى «الإتصـال» و « «الإنفصال».

اختار البعض المعنى المتقدم، وهو السـماء والأرض واللتين كانتا على هيئة كُتل عظيمة من البخار والغاز الُمحترق، وتجزأت شـيئاً فشيئاً على أثر الانفجارات الداخلية وحركتها حول نفسها، ومن ثم ظهرت الكواكب والنجوم، من جملتها المنظومة الشمسية.

ويرى البعض الآخر أنّ ذلك إشارة إلى الوحـدة النوعيـة فى مواد العالم، بحيث كانت متداخلـة فى بدايـة الأمر حيث ظهرت على هيئة مادة واحدة، لكنها انفصلت عن بعضها الآخر، وتشكلت مع مرور الزمان بتركيبات جديدة.

وذهب جمع آخر أيضـاً إلى أنّ ذلـك إشارة إلى عـدم نزول المطر ونمو النباتات من الأرض، بمعنى أنّ السـماء كانت فى بدايـة الأمر متصـلة مع بعضـها الآخر، ولم يكن ينزل المطر، والأرض أيضاً كانت متصـلة مع بعضـها الآخر، فلم يكن للنبات وجود فيها، ثم بأمر من اللَّه تعالى انفجرت السماء ونزل المطر، وتفتحت الأرض فخرجت النباتات.

وقد أشارت إلى المعنى الأخير روايات متعددة من طريق أهل البيت عليهم السلام، وكذلك قسم من الروايات الواردة من طريق العامة «۱»، فى حين تضـمنت بعض الروايات الاخرى الإشارة إلى المعنى الأول «۲»، وتبـدو الإشارة إلى هذا الاتصال أيضاً فى الخطبة الاولى من نهج البلاغة، وفى كل الاحوال ينسـجم ظاهر الآية مع التفسير الأول، علاوة على عدم وجود مانع من الجمع بين التفاسـير المتقدمة، فمن الممكن الجمع بين كل من المعانى الثلاثة فى المفهوم الجامع للآية.

وممّا يسترعى الإنتباه ما ورد فى قوله تعالى «ءَانتُمْ اشَدُّ خَلْقَاً امِ السَّمَاءُ بَنها ...

---

(۱) راجع تفسير نور الثقلين، ج ۳، ص ۴۲۴، الأحاديث ۵۲، و ۵۳، و ۵۴، و ۵۵؛ وتفسير در المنثور، ج ۴، ص ۳۱۷.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۰

وَالارْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحهَا* اخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا* وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا».

(النازعات/ ۲۷- ۳۲)

وتدل هذه الآيات بوضوح أيضاً على كون السماء مخلوقة قبل الأرض، ثم إنّ ظهور الماء والنباتات والجبال كان بعد الانتهاء منها.

وبناءً على ذلك، يكون هذا الأمر هو الشـىء الذى يؤكّد عليه العلم الحديث، وهو يرى أنّ الأرض وجدت بعد وجود الشـمس، ويعتبر ظهور الماء من سطح الأرض، ومن ثم النباتات وكذلك ظهور الجبال بعد خلق الأرض.

۳- القرآن وحركة الأرض

نقرأ فى قوله تعالى «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِى اتْقَنَ كُلَّ شَىءٍ انَّهُ خَبيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ». (النمل/ ۸۸)

تتجلّى فى هذه الآية عدّة نكات:

أولًا: إنّ الجبال التى تبدو ساكنة فى نظركم، هى فى حركة سريعة كسرعة حركة السحب، (وينبغى الالتفات إلى أنّ السرعة الفائقة تُشَبَّهُ عادة بسرعة السَّحاب، إضافة إلى خلو الحركة السريعة للسحب من التزلزل والصخب).

ثانياً: إنّ هذا هو صنع اللَّه الذى خلق كل شىء بميزان معين.

ثالثاً: إنّ اللَّه عزّ وجل مطلع على أفعالكم.

عند التأمل بدقّة فى هذه الجمل الثلاث، يتضح أنّ الآية لا ترتبط بيوم القيامة كما تخيَّل بعض المفسرين، بل ترتبط بنفس هذه الدنيا، إذ تقول: «أنتم تتخيلونها وتتصورونها هكذا فى حين أنّها ليست كذلك»، وأمّا حركة الجبال فى القيامة أو على مشارف القيامة فليست هى من الامور المخفية والمبهمة، بل إنّها واضحة ومهوِّلة بحيث لا يقوى أحد على تحملها والصبر على مشاهدتها.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۱

إضافة إلى أنّ الاتقان فى الخلقة وحاكمية النظم والموازين فيها، هو إشارة ودلالة على وضعها الفعلى لا على زمن اقتراب يوم القيامة، حيث سيتلاشى النظام العالمى ليبنى على أنقاضه نظام جديد.

فضلًا عن ذلك فإنّ العلم الإلهى بالأفعال التى نقوم بها يرتبط بأفعالنا فى هذه الدينا، وإلّا فإنّ القيامة يوم حساب لا يوم عمل.

ويتضح من خلال هذه القرائن الثلاث أنّ هذه الآية لا تطابق حركة الجبال فى نهاية مسيرة العالم ووقوع يوم القيامة بأىّ شكل من الأشكال، غاية ما فى الأمر أنّ جماعة من المفسرين لم يتمكنوا من إدراك عمق المفهوم فى الآية، فما وجدوا بُدّاً سوى القبول بخلاف ظاهر الآية، وتفسيرها بمسألة القيامة.

كما تتضح هذه المسألة أيضاً وهى أنّ حركة الجبال لا تنفصل عن حركة الأرض، بل هما مترابطتان مع بعضهما الآخر كوحدة واحدة، فاذا تحركت الجبال تحركت الأرض الحركة الدائبة.

وربّما ينقدح فى الذهن هذا السؤال: لماذا اقتصر اللَّه تعالى على ذكر الجبال، ولم يقل إنّك ترى الأرض فتحسبها ساكنة فى حين أنّها متحركة.

والجواب عن هذا السؤال واضح، لأنّ الجبال من أعظم الموجودات على وجه الأرض، وهى مظهر من مظاهر الصلابة والصمود والاستحكام، ولذا نقول لضرب المثل المعروف:

«إنّ الشخص الفلانى منيع وصامد كالجبل»، ولذلك يمكن اعتبار حركة الجبال على عظمتها وصلابتها وثباتها، أحد العلائم على القدرة اللامتناهية للحق تعالى لكن ممّا لا جدال فيه أنّ حركة الجبال هى احدى التجليات الواضحة لحركة الأرض.

وفى كل الاحوال، تعتبر الآية المذكورة أحد المعاجز العلمية المهمّة للقرآن، إذ من المعلوم أنّ العقيدة الرائجة والحاكمة لدى كافة المحافل العلمية الدولية فى عصر نزول القرآن وزهاء الألف سنة بعد ذلك هى نظرية ثبات الأرض ودوران الكرات حولها، والتى نشأت من هيئة «بطليموس».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۲

ومن العلماء الأوائل الذين اكتشفوا حركة الأرض هم كل من «غاليلو» الايطالى، و «كبرنيك» البولندى، وذلك بعد مرور ما يقارب الألف سنة، إذ اعلنوا عقيدتهم فى آواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر الميلاديين، ممّا أثار على الفور حفيظة أرباب

الكنيسة بشدّة بحيث هدّدوهما بالقتل، فى حين أنّ القرآن الكريم كشف الستار عن هذه الحقيقة بعشرة قرون قبلها، وطرح بعباراته البديعة المتقدمة حركة الأرض باعتبارها إحدى علائم التوحيد والعظمة الإلهيّة.

وعلى كل حال، فممّا لا شك فيه أنّ هذه الآية تتحدث عن حركة الجبال (وبتعبير آخر حركة الأرض) فى هذه الدينا، ذلك لأنّ حركة الجبال عند وقوع يوم القيامة، تُحدثُ زلزالًا قوياً فى الكرة الأرضية بحيث يقول تعالى عنها «يَومَ تَروْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمّا أرْضَعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَملٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكارَى وَمَاهُمْ بِسُكارَى ...». (الحجّ/ ۲)

وهذا الكلام لا ينسجم مع جملة: «تَحْسَبُها جَامِدَةً» على الاطلاق.

إضافة إلى أنّه لا يبقى مجال لأفعال الخير والشر فى تلك اللحظات الحرجة، حتى يتأتى القول بأنّ اللّه تعالى مطلع على الأفعال التى نقوم بها.

والقول بأنّ الآيات التى تسبق الآية المتقدمة أو ما بعدها ترتبط بالقيامة لا يمكن اعتباره دليلًا قطعياً على أنّ مفهوم هذه الآية يرتبط بالقيامة، لأنّ هذا ليس أحد المصاديق النادرة فى القرآن، فَرُبَّ آية تتحدث فى مسألة معينة وتتحدث التى قبلها أو بعدها عن مسألة اخرى وبعبارة اخرى فالإطلاع على محتوى الآية نفسها والقرائن الموجودة فيها أهم وأفضل من الملاحظات الاخرى

وهذه النكتة تستحق الاهتمام أيضاً وهى أنّ التشبيه بحركة السحب بالإضافة إلى أنّه إشارة إلى السرعة الفائقة لها، يعتبر جواباً قاطعاً عن هذا السؤال، وهو إذا كانت الأرض متحركة فلماذا لا نشعر بها؟ فيأتى الجواب إنّها تتحرك ببطءٍ ومرونة وهدوءٍ بحيث لا يمكن تشخيص ذلك، كما لو صعد أحد على السحاب مثلًا، فانّه لم يكن يشخص حركتها أيضاً.

وممّا يدعو إلى الاهتمام هذه النكتة أيضاً وهى أنّ القرآن يقول: «الَمْ نَجْعَلِ الارْضَ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۳

كِفَاتَاً* احْيَاءً وَامْوَاتَاً». (المرسلات/ ۲۵- ۲۶)

ونشاهد فى قواميس اللغة التى من جملتها «المفردات» للراغب وكتاب «العين» أنّه قد ذكر معنيان للفظة «كِفات» المأخوذة من مادة «كَفْت» وهما الجمع والطيران السريع، فاذا كان المعنى الأول هو المقصود، يكون مفهوم الآية على أن جعلنا الأرض محطاً لاجتماع بنى البشر فى حياتهم، وما تحت الأرض مقراً لاجتماعهم بعد مماتهم، وإذا كان المقصود المعنى الثانى، يكون مفهومها الطيران السريع للأرض. وهذا يتناسب مع الحركة الانتقالية للأرض حول الشمس التى تسير دائريّاً بسرعة فائقة- تقدر ب (۲۰) كيلو متر فى كل ثانية و (۱۲۰۰) كيلو متر فى كل دقيقة- ثم إنّها تحمل الأموات والأحياء معها وتدور بهم حول الشمس.

ولعل السبب فى اطلاق لفظة «كَفْت» على الطيران السريع، هو أنّ الطيور عندما تريد أن تطير بسرعة فائقة فى السماء تجمع أجنحتها بصورة كاملة وبشكل متناوب وتسبح فى الفضاء، لكن نظراً لكون لفظة «كَفْت وكِفات» تحتمل معنين، لم نذكر هذه الآية بعنوان أحد الأدلة القطعية على مسألة دوران الأرض.

۴- القرآن وحركة المنظومة الشمسية

يقول القرآن الكريم: «وَالْشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذلِكَ تَقْدِيرُ العَزِيزِ العَلِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا انْ تُدْرِكَ القَمَرَ وَلَا اللَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

(يس/ ۳۸- ۴۰)

كما تقدمت الإشارة إليه من قبل أنّ النظرية التى تحدثت فى صدد السماء والأرض وسيطرت على المحافل العلمية فى عصر نزول القرآن والقرون السابقة واللاحقة عليه، هى نظرية الهيئة ل «بطليموس» الذى كان يعتبر الأرض مركز العالم، ويعتقد أنّ النجوم والشمس مندكّة فى قلب الأفلاك البلورية، ويتصور أنّ الأفلاك تدور حول أطراف الأرض.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۴

ويذكر القرآن فى الآيات أعلاه مطلباً يتنافى مع هذا الكلام بصورة كاملة، فهو يقول:

أولًا: إنّ الشمس تتحرك باتجاه احدى المقرات (أو إنّ الشمس تتحرك فى قرارها المختص بها)، لا أنّ الشمس مع فلكها البلورى تدور حول الأرض.

ثانياً: إنّ كلّاً من الشمس والقمر يسبح فى فلكه الخاص به.

وبعد إنهيار دعائم فرضية «بطليموس» على أثر اكتشافات القرون الأخيرة، وتحرُّر الأجرام السماوية من قيود الأفلاك الخارجية، استحكمت هذه النظرية التى ترى أنّ الشمس ساكنة وثابتة فى مركز المنظومة الشمسية، وتدور حولها المنظومة الشمسية بأكملها.

وفى هذا المضمار أيضاً لم تكن هناك معلومات عن حركة الشمس باتجاه قرارها الخاص أو فى دائرة نفسها.

وهكذا تطور العلم أكثر فأثبت من خلال مشاهداته النجومية بالاستفادة من المراصد الفلكية القوية جدّاً أنّ للشمس حركتين على أقل تقدير: الحركة الموضعية حول نفسها، والحركة الانتقالية بصحبة المنظومة الشمسية بأكلمها باتجاه نقطة معينة من السماء، او بتعبير آخر باتجاه نجم «ويكا» وهو يعتبر من نجوم الصورة الفلكية التى تسمى «الجاثى على ركبتيه» «۱».

جاء فى إحدى دوائر المعارف: أنّ للشمس- بالإضافة إلى الحركات الظاهرية- حركة واقعية، «الحركة الدورية للمجرات تسير بالشمس وتدور بها فى الفضاء بسرعة مليون ومائة وثلاثين ألف كيلو متر فى الساعة تقريباً، وكذلك ليست الشمس ثابتة فى داخل المجرات، بل تتحرك باتجاه الصورة الفلكية التى تدعى «بالجاثى» بسرعة تناهز (۷۲) ألف كيلو متر فى الساعة، والسبب فى عدم اطلاعنا على الحركة السريعة للشمس فى الفضاء هو الدورة الفلكية للأجرام السماوية».

---

(۱) تطلق الصورة الفلكية «الجاثى على ركبتيه» على النجوم التى تكون بمجموعها على هيئة شخص جاثٍ على ركبتيه يريد القيام، ونجم «ويكا» يعد من هذه المجموعة التى تدور حولها المنظومة الشمسية بما فيها الشمس.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۵

ثم تضيف على ذلك بالقول: إنّ للشمس فى دورانها حول نفسها حركة دورية موضعية أيضاً (الدورة الموضعية لحركة الشمس فى استوائها تستغرق (۲۵) ليلة تقريباً «۱».

إذن ممّا لا يقبل الشك أنّ الآية: «كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ» لا تتلاءم مع نظرية الأفلاك البلورية ل (بطليموس) التى أثبتت كل واحدة من الكرات فى موضعها الخاص، وتنسجم تماماً مع اكتشافات العلم الحديث، علاوة على أنّ الحركة باتجاه «المستقر» إشارة اخرى إلى حركة الشمس باتّجاه أحد جوانب المجرات أيضاً، وفى الواقع فإنّ بيان هذا الموضوع يُعدُّ معجزةً.

۵- القرآن واتساع العالم

نقرأ فى قوله تعالى «وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِايْيْدٍ وَانَّا لَمُوسِعُونَ». (الذاريات/ ۴۷)

«أيدٍ»: (على وزن صيدٍ) معناه القدرة والقوة، كما جاء هذا المعنى فى آيات اخرى من القرآن أيضاً، وذكر بعض المفسرين إضافة إلى ما قلناه معنى (النعمة) ل «أيد» أيضاً، فى حين أن «يَدْ» تأتى بمعنى «النعمة» فى بعض الأحيان والتى يكون جمعها «أيدى» وجمع جمعها «أيادى».

وعلى أيّة حال، تدل جملة «انّا لَمُوْسِعُون» بوضوح على أنّ اللّه تعالى الذى خلق السموات بقدرته التامة يضفى عليها عامل الاتساع والاستيعاب بصورة مستمرة، وبناء على عدم وضوح هذا المطلب بالنسبة للعلماء والمفسرين سابقاً، فقد فسَّر الكثير منهم هذه الجملة بأنّها تعطى معنى سعة رزق اللّه تعالى على عباده من خلال نزول المطر، أو من خلال طرق مختلفة. وفسَّرها بعض أنّها تعطى معنى

الغنى والكفاف، وبأنّ اللّه تعالى كلما أجزل نعمة وأعطى لا تنقضى خزائنه أبداً. بيدَ أنّنا لو ألقينا نظرة على ما أثبتته المشاهدة النجومية بواسطة المراصد الفضائية نلاحظ أنّ المجرات تبتعد إحداها عن الاخرى بسرعة، وأنّ

---

(۱) قاموس دهخدا، ج ۲۲، مادة (الشمس) «باللغة الفارسية».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۶

العالم فى حالة اتساع مطَّرد، ولكى يتّضح مفهوم هذه الجملة فى أذهاننا بصورة كاملة، نقرأ فى كتاب «بداية ونهاية العالم» لمؤلفه «جان ألدر»:

«لقد كشفت أحدث وأدق الحسابات على طول مسيرة الأمواج التى تنبعث من النجوم، الستار عن إحدى الحقائق العجيبة والمدهشة، حيث بيّنت أنّ مجموعة النجوم التى تشكل هيئة العالم تبتعد بسرعة فائقة عن مركز العالم بصورة مستمرة، وكلما اتسعت الفاصلة بينها وبين مركز العالم كلما زاد ذلك من سرعة سيرها، ويبدو أنّ النجوم بأكملها كانت مجتمعة فى هذا المركز فى يوم من الأيّام ثم تشتت شملها بعد ذلك، وانفصلت عنها مجموعة من النجوم الكبيرة لتشق طريقها فى مسالك الفضاء المختلفة، علاوة على أنّ العلماء استفادوا من هذا الموضوع على أنّ للعالم نقطة شروع فى بداية الأمر» «۱».

ونقل فى نفس الكتاب عن «جورج كاموف» قوله فى كتاب «خلق العالم»:

«إنّ فضاء العالم المتكون من مليارات المجرّات، فى حالة اتساع مطَّرد، وفى الحقيقة أنّ عالمنا ليس فى حالة سكون وإنّما فى حالة انبساط، والتوصل إلى الحقيقة القائلة بأنّ هذا العالم هو فى حالة انبساط وتوسع، هو المفتاح الذهبى للتعرف على لغز هذا العالم، قولنا: إنّ العالم فى حالة انبساط حالياً، يستلزم منه أنّ العالم كان فى حالة انقباض شديد جدّاً فى يوم من الأيّام» «۲».

ونقرأ فى كتاب «حدود النجوم» لمؤلفه «فورد هويل» حول سرعة الانبساط واتساع العالم مايلى:

«تصل أقوى درجات السرعة لتقهقر الكرات التى خضعت للقياس إلى وقتنا هذا إلى حدود ستة وستون ألف كيلو متر فى الثانية، إنّ نور المجرات الأبعد يبدو ضعيفاً بنظرنا إلى درجة بحيث يتعسر علينا قياس سرعتها، نظراً لعدم وجود النور الكافى، لقد بيّنت الصور التى التقطت من السماء بوضوح أنّ فاصلة هذه المجرّات ابعد بكثير من فاصلة المجرّات القريبة» «۳».

---

(۱) بداية ونهاية العالم، ص ۷۴- ۷۷ (باختصار).

(۲) المصدر السابق.

(۳) حدود النجوم، ترجمة رضا أقصى ص ۳۳۸، عن النسخة الفارسية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۱۷

وعلى هذا الأساس نقف على تفسير واضح جدّاً فى صدد الآية السابقة واتساع السموات، والتى تكشف الستار عن السر وراء أحد المعجزات العلمية للقرآن.

وممّا يستحق الاهتمام أيضاً أنّ عبارة: «إنّا لَمُوْسِعُونَ» والتى استعمل فيها اسم الفاعل والجملة الإسمية للدلالة على حالة الاستمرار والديمومة، وعلى تداوم حالة التوسع والانبساط.

۶- القرآن ووجود الحياة فى المجرات الاخرى

جاء فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالارْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ اذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ». (الشورى ۲۹)

يا ترى هل العيش والحياة مختص بالكرة الأرضية، والكرات الاخرى ليست مسكونة اطلاقاً؟ لقد كان العلماء الأوائل يتابعون هذه

المسألة دائماً بشيء من التردّد أو الحكم المنفي، بيدَ أنّ التحقيقات الأخيرة للعلماء أثبتت لنا أنّ الحياة لا تختص بالكرة الأرضية.

ونقرأ في كتاب «الحياة في العالم» من منشورات مجلة «لايف» ما يلي:

«من الممكن حسب احصاءات العلماء أن تتواجد في مجرتنا ملايين النجوم التي تكون سياراتها التابعة لها آهلة بالسكان».

وذهب البعض إلى أكثر من ذلك حيث اعتقدوا بوجود موجودات حية في بعض الكرات السماوية تفوق حالة التطور لدى الإنسان بكثير، فالإرسالات الراديوية التي يبثونها في الفضاء ولا نستطيع الإتيان بمثلها، قابلة للاطلاع عليها بصورة كاملة من خلال أجهزة الاستقبال التي بحوزتنا، وإن كنّا لا نفهم لغتهم ولا نعي مغزاها.

وعلى أيّة حال فتصريح الآية المتقدمة بالقول: إنّ اللّه تعالى بث الموجودات الحية في السموات والأرض، يخبر عن حياة الموجودات الاخرى بشكل واضح، ومن الاشتباه بمكان أن نتصور أنّ المقصود من الموجودات الحية في السماء هي (الملائكة)، وذلك لكون

كلمة «دابة» تطلق على الموجودات الجسمانية فحسب ولا تطلق على الملائكة.

ولهذا ففي الموضع الذي يريد القرآن الكريم أن يذكر الملائكة يتحدث عنها بصورة مستقلة بعد ذكر كلمة «الدابة»، كما نقرأ ذلك في قوله تعالى «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الارْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ». (النحل/ ۴۹)

بحيث نجد أنّ «الملائكة» جعلت في قبال «الدابة»، وهذا يدل على عدم شمول كلمة الدابّة للملائكة في الآية التي جاء ذكرها في بحثنا هذا.

ومن الظريف ما يقوله «الفخر الرازي» في تفسير الآية الواردة في بحثنا هذا بأنّه: «لا يستبعد أن يقال إنّ اللّه خلق في السموات أنواعاً من الموجودات الحية تمشي كما يمشي الإنسان على وجه الأرض» «۱».

ونقرأ في حديث ظريف عن الإمام علي عليه السلام ما يلي: «هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل المدائن التي في الأرض مربوطة كل مدينة إلى عمودٍ من نور» «۲».

ووردت في بعض المصادر الإسلامية روايات اخرى في هذا المجال «۳».

ومن المعلوم أنّ هذه المعلومات استقيت من نفس المصدر الذي استقاه القرآن الكريم، وإلّا لم يطلع أحد على هذه المسائل في ذلك العصر.

۷- القرآن وخلق الجبال

وردت في القرآن الكريم عبارات مختلفة وغنية في معانيها في مجال خلق الجبال، يقول تعالى في أحد المواضع: «وَالْقَى فِي الارْضِ رَوَاسِيَ انْ تَمِيدَ بِكُمْ وَانْهَاراً وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ». (النحل/ ۱۵)

وفي موضع آخر يقول تعالى «الَمْ نَجْعَلِ الارْضَ مِهَادًا* وَالْجِبالَ اوْتَادًا». (النبأ/ ۶- ۷)

ونقرأ في آية اخرى قوله عزّ وجلّ: «وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُمْ مَّاءً فُرَاتاً». (المرسلات/ ۲۷)

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۷۱.

(۲) سفينة البحار، ج ۲، ص ۵۷۴، مادة (النجم).

(۳) لمزيد من الاطلاع راجع كتاب «الهيئة والإسلام».

ويقول تعالى أيضاً: «وَالْقَى فِي الارْضِ رَوَاسِيَ انْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ». (لقمان/ ۱۰)

وهناك آيات اخرى بهذا المضمون أو قريبة منها فى القرآن الكريم أيضاً.

الأمر الذى نواجهه لأول وهلة فى هذه الآيات، هو تأثير وجود الجبال فى الحفاظ على استقرار الأرض، والتى عبر عنها تارة ب «الأوْتاد» والتى تستخدم عادة فى اقفال أقسام مختلفة من الأبواب والصناديق والسفن وما شابه ذلك، أو صيانة المخيمات وتقويتها فى مقابل هبوب الرياح.

وتارة اخرى عبر عنها ب «أنْ تَميدَ بِكُم» المأخوذة من مادة «مَيْدان» بمعنى الاهتزاز والاضطراب، ومعنى ذلك أنّ الجبال تَحُدُّ دون اضطراب الأرض واهتزازها. ولم يطلع أحد على هذا المطلب فى ذلك العصر، ونحن فى هذا الوقت نعلم جيداً مدى دور الجبال على هذا الصعيد، وذلك للنقاط التالية:

أولًا: إنّ الجبال فى واقع الأمر هى فى قوة أحد الدروع الفولاذية التى تحيط بالأرض من كل جوانبها، ونظراً لقوة ارتباطها واتصالها باعماق الأرض تشكل بدورها أحد الشبكات القوية الشاملة، وإذا لم يكن كذلك وكانت الرمال الناعمة تغطى صعيد الأرض، لوقعت تحت تأثير الجاذبية القوية للقمر بكل سهولة، ولهزَّ الجزر والمدُّ كل شىء على اليابسة نظير المد والجزر فى البحار، واستولى الاضطراب والاهتزاز والحركة على وجه الأرض فى الليل والنهار، ولتعرض لإمكان الانهدام والسقوط كل مبنى من المبانى.

بيدَ أنّ وجود هذا الحصن المنيع فى الأرض ينزل بالمد والجزر إلى أدنى مستوى وحالياً تأخذ القشرة السميكة للأرض بالارتفاع والانخفاض بمقدار ثلاثين سانتيمتراً فى كل يوم وليلة أيضاً، وهذا بعكس البحار التى ترتفع وتنخفض على أثر الجزر والمد امتاراً متعددة أحياناً.

وتوجِد جاذبية الشمس المد والجزر أيضاً وإن كان ضعيفاً، ولو وقع مسير الشمس والقمر فى خط واحد واتصلت الجاذبيتان فى جانب واحد، لاشتدت قوة هذه الحركات

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۰

وتضاعفت قوتها، إلّاأنّ القرآن يذهب بالقول إلى أنّ الجبال التى هى أوتاد الأرض تصونها من الاهتزاز.

ثانياً: إنّ الضغط الداخلى للأرض بواسطة حرارتها المركزية الهائلة يؤثر على قشرة الأرض بصورة دائمة، ولولا وجود الجبال لأصبح مصدراً من مصادر الاضطراب المستمر للأرض.

والآن تدبّروا لو اشتد الاضطراب الناجم عن المد والجزر والضغط الداخلى على أثر مرونة قشرة الأرض وطراوتها، فهل سننعم بالهدوء والاستقرار الذى نعيشه الآن على الكرة الأرضية؟ وهل سنجد بيتاً وملجأً ومأوىً نلجأ إليه؟

ثالثاً: لقد ثبت فى وقتنا الحاضر أنّ الجبال بأعمدتها القوية تحرك معها الهواء الحاصل فى أطراف الأرض، والآن لو فرضنا أنّ الأرض تتحرك فى دورانها حول نفسها بسرعتها الذاتية المعهودة- أى‌ما يقارب الثلاثين كيلو متر فى الدقيقة-، فلو لم تكن الجبال، لما تحقق مثل هذا الدوران للهواء الموجود فى أطرافها، ولثارت ثائرة العواصف والأعاصير والرياح الشديدة على أثر اصطدام جزيئات الهواء بوجه الأرض، فضلًا عما يولِّد ذلك من حرارة هائلة تحرق الأخضر واليابس. كما أنّ الطائرات السريعة لو سارت فى الطبقات السفلى للجو لارتفعت درجة حرارة أجنحتها بحيث قد يؤدّى ذلك إلى عواقب وخيمة، لهذا تضطر إلى الصعود فى الطبقات العليا للجو لتتحرك فى وسط الهواء الرقيق جدّاً حتى يقل احتكاكها بالهواء الذى هو المنشأ لإيجاد الحرارة.

أجل، لقد أزالت منخفضات ومرتفعات وجبال الأرض هذه الازمة وحرَّكت الطبقة السميكة للجو مضافاً إلى حركة الأرض، تماماً كدوران أسنان الدواليب ذات المقود التى تدور مع دورانها بقية الأشياء الاخرى

فبناءً على ذلك، تعتبر الجبال وسيلة من وسائل استقرار الأرض واستقرار ساكنيها سواء فى مقابل جاذبية القمر والشمس، أو فى مقابل الضغط الداخلى، أو فى مقابل العواصف الشديدة والمستمرة، أو فى مقابل تولد الحرارة الشاقة.

من جهة اخرى تقدمت الإشارة فى الآيات السابقة إلى وجود العلاقة بين الجبال وبين

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۱

نزول المطر وارتواء الأراضى والحصول على الماء الفرات وهو «الماء العذب»، يقول عزّ من قائل: «وَجَعَلْنا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَاسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُراتاً».

ممّا لا يقبل الشك هو أنّ العلاقة بين الاثنين- الماء والجبال- لم تكن معروفة فى السابق، إلّاأنّنا نعلم فى الوقت الحالى:

أولًا: أنّ الجبال هى سبب من اسباب تجمع بخار الماء، أى تراكم السحب.

وثانياً: أنّها سبب من أسباب برودة طبقة الهواء المجاور لها.

وثالثاً: أنّها تحتفظ بالقسم الأكبر من الأمطار على شكل ثلج، كما أنّها مصدر من مصادر الطاقة المستمرة لجريان المياه على سطح الأرض، ومن ثم صيانة المياه من الهدر والضياع.

بالإضافة إلى أنّ الامتداد الواسع للجبال، وقشرتها المتعرجة تقلب أمواج الماء وتعرضها للهواء النقى، فيصفو الماء ويتحول إلى «ماء فرات» وهو (الماء العذب).

وبغض النظر عن كل ذلك، فإنّ النكتة الظريفة الاخرى التى استأثرت باهتمام بعض العلماء فى صدد جبال الأرض، هى أنّ الجبال فى مقابل تغيرات الضغط الأرضى فى قوّة «الدولاب الثابت» الذى يحول دون تبدل السرعة.

توضيح ذلك: أنّ المقصود من «الدولاب الثابت» هو نفس الشىء الموجود فى جميع الوسائل التى لها حركة دورية مشابهة، وذلك فى صورة دولاب ثقيل يدعى بالدولاب الطيار أو الدولاب الثابت، ينصب فى محورها حتى ينظم سرعتها، وعلى سبيل المثال لو ورد ضغط من الخارج على هذه الوسيلة ذات الحركة الدورية ثم انقطع الضغط فجأة لقفزت إلى الأمام ووجهت صدمة إلى ذلك الجهاز، أمّا إذا نصب الدولاب الثابت عليها لاحتفظت بهذا الضغط فى داخلها، ثم تدفعه بالتدريج بدون أن تتوجه أى صدمة إلى ذلك الجهاز (تأمل جيداً).

هذا من جهة، ومن جهة اخرى بإمكان العواصف الهائجة التى تهب أحياناً فى الجهة المخالفة أو الموافقة لحركة الأرض أن تؤثر على حركتها ...، وحينما تهدأ فورة العاصفة تتحول الأرض إلى حالة من الاندفاع العشوائى الذى يوجه ضربة قاصمة إلى جميع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۲

الموجودات الأرضية، بحيث يولد الاضطراب فى كل شىء.

إلّا أنّ لوجود الجبال التى هى بمثابة «الدولاب الثابت» دور فى الاحتفاظ بكل هذه الضغوط المثبتة فيها والمنفية فتحدُّ دون حدوث الصدمات، وتحافظ على الحركة المتوازنة للأرض، وعلى حد تعبير القرآن تقف مانعاً دون حدوث الاهتزازات وزعزعة الاستقرار.

ولو كان البحث فى زمن هذه الآيات قائماً على قدم وساق فى مجال مباحث «الدولاب الثابت» وآثاره فى ذلك العصر، لما كانت التعبيرات فى هذه الآيات مدهشة ومثيرة، ولكن نظراً إلى عدم وجود مثل هذه المسائل فى ذلك الزمن على الاطلاق، خصوصاً أنّه لم يكن للفيزياء معنى فى محيط الجزيرة العربية، فضلًا عن هذه المسائل المعقدة، فلابدّ من الاعتراف بأنّ بيان مثل هذه الآيات تعبير عن احدى المعاجز العلمية الكبرى «۱».

والنكتة الاخرى هى أنّ القرآن الكريم عندما يتحدث عن تكوين الجبال يقول: «وَالْقَى فِى الارْضِ رَوَاسِيَ». ويقول فى مكان آخر: «أَمَّن جَعَلَ الارْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالِهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ». (النمل/ ۶۱)

هذه التعابير ونظائرها التى تكررت فى القرآن تبين بوضوح أنّ الجبال خلقت بعد خلق الأرض، وقد أثبت العلم الحديث هذا المعنى بوضوح أيضاً، وذهب إلى القول بأنّ الكثير من الجبال حدث على أثر إلتواء الأرض، والبعض حدث على أثر المواد الذائبة المحرقة، والبعض الآخر حدث بسبب تنقية المواد الرخوة من اطراف المواد الصلبة للأرض الذى يحصل على أثر نزول المطر، وكل ذلك تحقق بعد خلق الأرض وايجادها .. وممّا لا ريب فيه أنّ هذه المسائل لم تكن معروفة حين نزول هذه الآيات من القرآن.

۸- عنصر الزوجیة بین النباتات فی القرآن

وردت الإشارة إلی عنصر الزوجیة فی عالم النباتات فی آیات خمس من القرآن

---

(۱) ما تقدم أعلاه موجز من مقال محقق تحت عنوان «أثر الجبال فی استقرار الأرض» (مسألة الدولاب الثابت) فی المجلة الدینیة والعلمیة المدرسة الإسلامیة العدد ۸، السنة ۱۳ (ص ۶۸- ۷۳ باللغة الفارسیة)، ولمزید من الاطلاع حول هذا الموضوع والوقوف علی جزئیاته راجع المقال المذکور.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۳

الکریم، فنقرأ فی قوله تعالی «وَانْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَانْبَتْنَا فِیهَا مِنْ کُلِّ زَوْجٍ کَرِیمٍ». «۱»

(لقمان/ ۱۰)

و قوله تعالی «وَتَری الارْضَ هَامِدَةً فَاذا انْزَلْنَا عَلَیْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَانْبَتَتْ مِنْ کُلِّ زَوْجٍ بَهِیجٍ» «۲». (الحج/ ۵)

ونقرأ أیضاً فی قوله تعالی «وَانْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاخْرَجْنَا بِهِ ازْوَاجاً مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّی .

(طه/ ۵۳)

عندما وصل أغلب المفسرین الاوائل إلی هذه الآیات فسروا «زوج» بمعنی «النوع» «الصنف»، و «الأزواج» بمعنی «الأنواع» و «الأزواج» المختلفة للنباتات، لأنّ حقیقة الزوجیة فی حقل النباتات بمعناها المعروف لم یکن معروفاً فی ذلک الزمان.

إنّ الناس فی سالف الزمان وإن کانوا یعلمون نوعاً ما عن أنّ بعض أنواع النباتات یتکون من جنسین، الذکر والانثی وأنّهم کانوا یستخدمون عملیة التلقیح من أجل تکثیرها (خصوصاً شجرة النخل التی یُعلم بوجود الذکر والانثی فیها منذ قدیم الزمان، وأنّهم کانوا یحرصون علی إنمائها عن طریق التلقیح)، لکن أحد العلماء المعروفین فی حقل النباتات من السوید یدعی «لینه» کشف عن هذه المسألة لأول مرّة فی أواسط القرن الثامن عشر للمیلاد وهی أنّ عنصر الزوجیة (بین الذکر والانثی فی عالم النباتات تعتبر من احدی المسائل العامة، والمتفق علیها، وأنّ النباتات کأغلب الحیوانات إنّما تتکاثر وتنمو من خلال الامتزاج بین نطفة الذکر والانثی ومن ثم تعطی الثمار.

إلّا أنّ القرآن الکریم- کما رأینا- قد کشف النقاب عن هذة الحقیقة قبل هذا العالم بإثنی عشر قرناً، وأشار إلی عنصر الزوجیة فی عالم النباتات فی موارد متعددة، إلّاأنّه نظراً لعدم امتلاک هؤلاء للجرأة فی التصریح بهذه الحقیقة، عمدوا إلی تفسیر الزوجیة بمعنی آخر علی خلاف ظاهرها.

---

(۱) وورد نفس المضمون فی کل من الآیة (۷) من سورة الشعراء والآیة (۷) من سورة (ق).

(۲) ورد نفس هذا المضمون فی الآیة ۷ من سورة الشعراء و الآیة ۷ من سورة ق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۴

ومن الظریف أنّ النباتات مختلفة من هذه الجهة، ففی کثیر منها یجتمع الذکر والانثی فیها فی أصل واحد، وفی البعض الآخر تنفصل أشجار الذکر عن أشجار الانثی

خذوا وردة من الورود ثم افصلوا أوراقها عنها، وتأملوا بدقة فی داخلها تجدون عالماً ملیئاً بالعجائب والأسرار. وفی الواقع ینعقد هناک محفل کبیر، بیدَ أنّه لا صخب فیه، ویخلو من أی لون من ألوان العنف والاعتداء، حیث أنّ المیاسم الظریفة واللطیفة التی تحمل معها أکیاس حبوب اللقاح تحیط بما حولها ثم تتحرک مع هبوب الریاح، لتنثر تلک الحبوب علی المدقة. إنّ الحبات المذکرة التی تمثل

كل واحدة منها خلية صغيرة جدّاً، تتجذر بسرعة وبعد العبور من على عنق المدقة تمتزج مع نطفة الانثى فى المبيض فى أصل الورد لتشكل بدورها بذرة الورد أو الفاكهة.

وكأنّ الأوراق الزاهية للورد بمنزلة احدى معالم الزينة لهذا المحفل الغرامى العجيب أو الاستار الموضوعة على الحجرة المزينة للعروسين، ثم تُدعى الحشرات والفراشات الجميلة والنحل إلى هذا المحفل البهيج أيضاً.

ويتناول كل منهم الحلوى المخصوصة والمعدّة له من قبل رحيق الأزهار ويبعثون لنا حصةً منها، وما نشاهده من العسل فى الأسواق، هو نصيبنا من ذلك المحفل.

وعلى أيّة حال استناداً إلى تصريح القرآن فى آيات مختلفة على شمولية عنصر الزوجية للنباتات، وبالرغم من بعض الاستثناءات القليلة الواهية الموجودة فى كل قانون كلى، يكون قد رفع الستار عن هذا السر المهم الذى خفى عن أنظار العلماء فى ذلك العصر والقرون التى تلته وهذه بحد ذاتها من المعاجز العلمية البديعة.

۹- القرآن والزوجية العامة

نقرأ فى قوله عزّ من قائل: «وَمِن كُلِّ شَيءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ».

(الذاريات/ ۴۹)

ويقول تعالى «سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الازْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الارضُ وَمِن انفُسِهِم وَمِمَّا لَا

يَعْلَمُونَ». (يس/ ۳۶)

فهذه الآية تبين- بوضوح أكثر- شمولية عنصر الزوجية للنباتات والبشر والأشياء الخارجة عن حدود العلم البشرى، ونظراً لأنّ كثيراً من المفسرين لم يجدوا هنا مفهوماً للزوجية بالمعنى الحقيقى (أى عنصرى الذكر والانثى ، فقد عمدوا إلى تفسيرها بالأصناف المختلفة للموجودات فى العالم التى تبدو على شكل زوج زوج مثل: النهار والليل، النور والظلمة، البحر والبر، الشمس والقمر وغيرها.

لكننا نجد تفسيراً أدق لهاتين الآيتين فى وقتنا الحاضر، حيث إنّ التحقيقات العلمية أثبتت هذه الحقيقة بوضوح وهى أنّ جميع الموجودات لعالم المادة تتشكل من أجزاء صغيرة جدّاً تدعى بالذرة، وهذه الأجزاء التى عرفت قديماً بالموجود الذى لا يتجزء (أجزاء لا تتجزأ) وسمى ب «الذرة» لهذا السبب قد تحطم على أثر تطور القدرة العلمية والفكرية للإنسان، ومن هذا المنطلق نشأت القوة الذرية والصناعات المتعلقة بها.

وعندما حلّلوا الذرة وجدوا أنّها مركبة من أجزاء متكونة غالباً من الألكترونات (الجزئيات التى تغلف النواة، وتحمل شحنة سالبة)، البروتونات (الجزئيات التى تحمل شحنة موجبة).

وعلى هذا الأساس نستنتج من ذلك معنى أدق للزوجية فى كل ذرات عالم الوجود وهو توفر عنصرى (الذكر) و (الانثى ، (الموجب) و (السالب)، (الفاعل) و (القابل) وبدون أى استثناء أيضاً، فى حين أنّ التفسير الذى قال به العلماء الأوائل بالرغم من عدم انسجامه الكامل مع مفهوم الزوجية، فإنّ فيه استثناءات كثيرة أيضاً.

وعلى أى حال، توجد هناك جاذبية قوية بين الزوجين الحقيقيين، وكذلك بين جسمين بشحنتين كهربائيتين مختلفتين سالبة وموجبة، وهى كثيراً ما تشابه الجاذبية الجنسية، فى حين لا يوجد أى نوع من أنواع الجاذبية بين الليل والنهار، النور والظلمة، البحر والبر، وما شابه ذلك.

ومن الجدير بالذكر ماصرح به بعض المفسرين القدامى من خلال ما استلهموه من

الآيات السالفة، بأنّ المقصود من الزوجين فى هذه الآيات هو عنصرى الذكر والانثى نفسيهما، وإن لم يوضحوا هذا المطلب بصورة كاملة «۱».

۱۰- القرآن يكشف النقاب عن مسألة مراحل تطور الجنين

وردت ضمن الآياتالقرآنية المرتبطة بعلائم التوحيد ودلائل المعاد إشارات غزيرة المعانى إلى مسألة خلق الإنسان من النطفة ومن ثمَّ مراحل تطور الجنين. والتى يمكن عدّ بعض منها فى قائمة المعجزات العلمية للقرآن.

من جملتها ما نقرأه فى الآية الثانية من سورة الإنسان: «انَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُّطفَةٍ أَمشَاجٍ نَّبتَلِيهِ فَجَعَلنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً».

«النطفة»: فى اللغة بمعنى الماء الصافى أو الماء القليل «۲». (الامشاج) جمع مشج (على وزن نسج أو على وزن سَبب). أو جمع مشيج بمعنى الشيء المختلط. وقد ابدى المفسرون احتمالات متعددة فى صدد الجواب عن ما هو الشيء الذى تختلط به النطفة.

فتارة تصوروا أنّ ذلك إشارة إلى تركيب نطفة الإنسان من «الحيامن» و «البويضة»، وتارة أنّه إشارة إلى كونها مركبة من الاستعدادات المختلفة من الناحية الجسمية أو الروحية (القبح والحسن، الذكاء والغباء و ...). واخرى إلى أنّه إشارة إلى أنّ نطفة الإنسان مركبة من مواد مختلفة من المعادن ونحوها.

بطبيعة الحال أنّ ذلك كله حسن، ولعله كان من أفضل التفاسير فى عصره، إلّاأنّه لا ينطبق بدقة على معنى الآية. ذلك أنّ لفظة الأمشاج جمع، واطلاقها على شيئين أى (البويضة والحيمن) خلاف الظاهر، هذا أولًا، وثانياً: أنّ وجود الاستعدادات المختلفة فى

---

(۱) جاء فىتفسير مجمع البيان، ج ۹، ص ۱۶۰، عن أحد المفسرين القدماء ويدعى «ابن زيد» أنّه قال فى تفسير الآية «ومن كل شيء خلقنا زوجين ...» الزوجين الذكر والانثى. كما ورد هذا المعنى نفسه عن قتادة فى تفسير الآية «سبحان الذى خلق الأزواج كلها». (تفسير القرطبى، ج ۸ ص ۵۴۷۰).

(۲) تمت الإشارة إلى المعنى الأول فى معجم مقاييس اللغة والمفردات، والى المعنى الثانى فى لسان العرب.

الأشخاص بشكل مستقل لا يتلاءم مع معنى الأمشاج، وكذلك ليس من المناسب القول بتركيب النطفة من أنواع المعادن واشباهها، لأنّ هذا الأمر لا ينحصر فى النطفة فقط، وإنّما تتركب من هذه المواد كل الموجودات العالية نظير الإنسان والنبات وألوان الاطعمة، اضافة إلى أنّ كلمة النطفة فى آيات متعددة من القرآن جاء فى خصوص نطفة الرجل.

فمثلًا نقرأ فى قوله تعالى «الَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّنْ مَّنىٍّ يُمْنَى ؟ (القيامة/ ۳۷)

لكن مع تطور العلم واتساع نطاق تحقيقات العلماءثبت اليوم أنَّ القطرات القليلة للمنى والتى تدعىب (النطفة) مركبة من مياه متعددة تفرزها الغدد المختلفة للجسم، وبشكل رئيسى فهناك خمس غدد تتظافر فيما بينها لكى تصنع المنى من ترشحاتها، وهى عبارة عن: غدتان تقعان فى أكياس قريبة من غدة البروستات وتدعى ب (البيضة).

والاخرى هى غدة البروستات نفسها، وكذلك غدتا «الكوبر» و «الليترة» اللتان تقعان بالقرب من المجارى البولية هذا ما أثبته العالم الفرنسى الدكتور (بوكارى) «۱».

وتختلط هذه المياه الخمسة مع بعضها بنسب دقيقة وموزونة لتشكل مادة الحياة (النطفة).

ويعتقد هذا العالم الفرنسى أنَّ التعبير ب (الأمشاج) الوارد فى القرآن هو إشارة إلى تلك النكتة الدقيقة التى خفيت عن أنظار علماء ذلك العصر.

وممّا يسترعى الانتباه هو قوله تعالى فى ذيل الآية السابقة: «فَجَعلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً»، بمعنى أنّ نعمة السمع قد تقدمت على نعمة البصر،

لاحتمال أن يكون السبب فى ذلك كما ذهب إليه العلماء هو أنَّ الحس الأول الذى يبدأ بالعمل لدى الرضيع هو السمع، فهو يستعد لالتقاط الأصوات فى الأيّام الاولى من حياته. بل إنّ له قبل ذلك نشاطاً محدوداً فى العالم الجنينى أيضاً.

---

(۱) مقتبس من كتاب (مقارنة بين التوراة والانجيل والقرآن والعلم) تأليف الدكتور «بوكارى» ترجمة المهندس «ذبيح اللّه دبير» باللغة الفارسية- ص ۲۷۱. الملفت للنظر أنّ هذا الدكتور الفرنسى يميل كثيراً إلى القرآن حينما يصمم على مقارنة هذه الكتب فيما بينها، وحيث إنّ ترجمات القرآن المتداولة لا تشفى غليله، نراه يستفيد من الادب العربى ويحيط به احاطة تامة ليتمكن من الحصول على مايحتاجه من القرآن مباشرة دون حاجة للرجوع إلى ترجماته.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۸

وهذا بخلاف البصر فانّه يستعد للإبصار بعد ذلك ولعله بعد مرور اسبوعين، لعدم امتلاك العين المغمضة أى استعداد لرؤية امواج النور فى البيئة المظلمة للرحم. ولهذا السبب فإنّ عين الرضيع تبقى مغمضة بعد ولادته مدة من الزمن أيضاً، حتى تعتاد على الضياء بالتدريج.

من جانب آخر يقول تعالى «اَلَمْ نَخْلُقْكُّمْ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ* فَجَعَلْنَاهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ* الَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ* فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ». (المرسلات/ ۲۰)

لقد توصل علماء الأجنة اليوم من خلال مطالعاتهم ومشاهداتهم الدقيقة والمصورة عن تحولات الجنين إلى هذه النكتة، هى أنّ لقاء (الحيامن والبيوض) إنّما يتمّ خارج الرحم وفى الممرات المنتهية إليه. ثم تنعقد النطفة لتشق طريقها نحو قرارها الأصلى وهو الرحم فتلتصق بجداره.

ويتبيّن هذا المعنى بوضوح فى الآية الآنفة الذكر أيضاً، ففى البداية تتحدث عن خلقة الإنسان، ومن ثم عن استقراره فى قرار الرحم (وينبغى الالتفات إلى أنَ «ثمَّ» تُستعمل فى لغة العرب عادة للترتيب بشىء من الفاصلة)، وعليه فإنّ الأمر الذى غاب عن أنظار جميع العلماء فى ذلك العصر وما بعده قد جاء فى القرآن بشكل واضح.

والتعبير ب «القرار المكين» هو الآخر تعبير غنى جدّاً فى معناه والذى كان مجهولًا فى ذلك الزمان قطعاً.

ونعلم فى وقتنا الحاضر أنّ هناك خصائص مهمّة أخذت بنظر الاعتبار فى خلق الرحم بحيث أصبح من آمن الأماكن للجنين.

وبغض النظر عن الأغشية الثلاثة التى تحيط بالجنين من كل جوانبه (غلاف بطن الام، جدار الرحم، الكيس الخاص لاستقرار الجنين). فإنّ كل جنين يسبح فى كيس يحتوى على ماء لزج، ويستقر هناك تقريباً فى حالة من انعدام الوزن وعدم الاتكاء على شىء معين، وهو يتحمل كثيراً من الصدمات التى ترد على انحاء جسد الأم، ذلك أنّ الصدمات فى الواقع تصيب (كيس الماء) لا الجنين نفسه مباشرةً، وبعبارة اخرى يمكن أن نسمى ذلك

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۲۹

الكيس ومحتواه بالجهاز المضاد للصدمات نظير النوابض المرنة للسيارة التى تخفف من تأثير عراقيل الطريق. فضلًا عن ذلك أنّه يحول دون تسليط ضغط على أعضاء جسم الجنين، ذلك لأنّ هذا الضغط يلحق الضرر بذلك الجسم اللطيف، إضافة إلى أنّ البرودة والحرارة الخارجية لا- تنتقل إلى الجنين بسهولة كما لا- يخفى لأنّها وفى طريقها إلى الجنين لابدّ أن تخترق ذلك الكيس المملوء بالماء، فتصل إليه معتدلة الحرارة، وإلّا فمن الممكن أن يختل وضع الجنين بصورة كاملة عند استحمام واحد للُام بالماء البارد أو الحار. وبناءً على هذه الامور التى توضح لنا مفهوم (القرار المكين) بصورة كاملة لا يعتبر الرحم ملجأً آمناً ومناسباً للجنين فحسب، بل إنّ هذا الأمن والحصانة تسايره فى المراحل التى تمر بها ولادته أيضاً.

وكما قال بعض المفسرين الجدد: إنّ المادة السائلة الخاصة التى يسبح فيها الجنين تتسبب فى اتساع فوهة الرحم حين الولادة وتعقيم

المجرى الذى يمر منه الجنين ليتمكن من اجتياز هذا المجرى المتلوث بأنواع الميكروبات عادة فيخرج إلى الدنيا سالماً، فى منتهى الأمن والراحة «۱».

وممّا يستحق الاهتمام أنّ القرآن الكريم عندما يريد أن يفصح عن سلسلة المراحل التكاملية للجنين يقول تعالى «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضغَةً فَخَلَقْنَا المضغةَ عِظَاماً فَكَسَوَنا العِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ انشَأنَاهُ خَلْقًا آخَرَ* فَتَبَارَكَ اللَّهُ احْسَنُ الخَالِقِينَ».

(المؤمنون/ ۱۴)

ومن طريف القول هو ما اثبته علم الأجنة حالياً أنَّ الجنين عندما يطوى مرحلة كونه علقة ومضغة، تتبدل كل خلاياه إلى خلايا عظمية، ثم تغطيها العضلات واللحم بالتدريج (وقد أثبتت ذلك الأفلام الدقيقة الباهضة التكاليف التى أخذت لكل المراحل الجنينية).

وهذا هو ما جاءت به الآية السابقة بدقة إذ تقول: «فَخَلَقْنَا المُضَغةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَحْمًا»، وهذه هى احدى المعجزات العلمية للقرآن الكريم، ذلك أنّه لم يكن فى ذلك الزمن

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۱۸، ص ۱۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۰

مايسمى بعلم «الأجنة»، وعلى الخصوص فى محيط جزيرة العرب الذى لم يتوفر فيه الاطلاع على أبسط المسائل العلمية «۱».

۱۱- القرآن يتحدث عن الآثار المهمّة للغلاف الجوى للأرض

نقرأ فى قوله تعالى «وَجَعَلْنَا السَّمَاء سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعرِضُونَ».

(الأنبياء/ ۳۲)

لقد أبدى المفسرون القدماء وجهات نظر مختلفة فى صدد بيان حقيقة السقف السماوى المحفوظ، فتارة يذهبون إلى أنّه محفوظ من نفوذ الشياطين، وتارة يقولون: إنّه محفوظ من السقوط على الأرض، وتارة ثالثة: إنّه محفوظ من الانهدام بالرغم من تقادم الزمن «۲».

إنّ السر وراء هذه التفاسير المبهمة هو عدم اطلاع البشر على السماء اطلاعاً دقيقاً فى ذلك العصر.

وعندما وُجد علم الهيئة الجديد أثبت أنّ الكواكب بأجمعها تسبح فى الفضاء اللامتناهى، وأنّه لا يوجد سقف أساساً، أصبح مفهوم هذه الآية أكثر تعقيداً بالنسبة لبعض المفسرين، حتى لجأوا إلى القول: إنّ معناها هو أنّ السماء كالسقف المحفوظ الذى يحول دون حدوث أى اختلال فى نظام الوجود.

وعلى هذا الأساس صار المتبادر إلى الذهن من معنى السقف هو المعنى المجازى والذى جاء بصورة التشبيه والكناية.

إلّا أنّ العلم البشرى لم يزل يواصل تقدمه نحو الأمام، وأصبح مفهوم هذه الآية أكثر وضوحاً نظراً إلى ما حصل عليه العلماء من معلومات جديدة عن طبقات الغلاف الجوى، فثبت أنّه يوجد سقف محفوظ بمعناه الحقيقى.

---

(۱) أشار سيد قطب فى كتابه فى ظلال القرآن ج ۶ ص ۱۶ إلى ذلك. وقد شاهدنا ذلك أخيراً فى فيلم وثائقى عجيب عن المراحل التكاملية للنمو الجنينى.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۷ ص ۴۶؛ والتفسير الكبير، ج ۲۲، ص ۱۶۵ وتفاسير اخرى

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۱

توضيح ذلك: أنّه توجد طبقة عظيمة للهواء تحيط بالأرض من كل أطرافها تسمى «الغلاف الجوى» يصل سمكها مئات الكيلو مترات ونظراً لضخامة هذه الطبقة الشفافة ظاهراً والمتكونة من الهواء وبعض الغازات الاخرى نجدها على جانب كبير من القوة والمقاومة

يقدرها بعض العلماء بمقاومة سقف فولاذى سمكه عشرة أمتار، تُصان به الكرة الأرضية من ألوان المخاطر.

فمن جهة يقف سداً منيعاً أمام سقوط الصخور المستمرة- ليلًا ونهاراً والمعروفة ب (الشهب) المنجذبة نحو الأرض بسرعة هائلة وتشكل خطراً كبيراً فيما لو اصطدمت بإحدى الأماكن.

وتتضح أهميّة هذه المسألة أكثر من خلال النظر إلى ما قاله العلماء: إنّ ملايين من هذه الشهب تتجه نحو الأرض فى كل يوم وليلة، وعندما تصطدم هذه الأحجار السريعة بمقاومة الغلاف الجوى تتولد حرارة فتحترق وتشتعل متحولة إلى رماد، ينزل إلى الأرض رويداً رويداً، و فى بعض الأحيان تكون هذه الأحجار كبيرة جدّاً فتجتاز الغلاف الجوى (بعد أن يحترق جزء منها) فتصيب نقطة من الكرة الأرضية، وتحدث أضراراً مخيفة، وقد سُجلت نماذج لها فى التاريخ، ولعله انذار موجه إلى الغافلين بأنّ اللَّه تعالى لو لم يخلق هذا السقف المحفوظ، لتعرضتم بأجمعكم إلى هذا القصف الخطير، ولما كان للهدوء والاستقرار معنىً فى حياتكم.

ومن جهة اخرى نعلم أنّ الشمس تنبعث منها أشعة تدعى بالأشعة فوق البنفسجية (تلك الأشعة هى نفسها التى تقع فوق اللون البنفسجى عندما يتحلل ضوء الشمس ولا تشاهد بالعين المجرّدة) والمقدار القليل منها مفيد ونافع جدّاً، فضلًا عن أنّه لا يلحق الضرر بأحد، وبالأخص إنَّ له دوراً كبيراً فى قتل الميكروبات، إلّاإذا ازداد وكثر فانّه يحرق البدن بدون أن يشعر الإنسان بالحرارة، (إنّ السبب وراء الحروق التى تصيب جلد الرأس والوجه والبدن فى المناطق القريبة من خط الاستواء فى فصل الصيف هو أنّ الشمس تسطع بصورة عمودية وتجتاز طبقة قليلة من الهواء، فلا تحظى بقدر كافٍ من التصفية) ولو لم يوجد هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۲

(السقف المحفوظ) وهو «الغلاف الجوى» لم يستطع أى إنسان أن يقاوم الشمس ولو لحظة واحدة.

من جهة ثالثة أنّ الاشعاعات المميتة المسماة ب (الأشعة الكونية) تتجه بسرعة نحو الأرض ممّا وراء المنظومة الشمسية فيقف جزءٌ من الغلاف الجوى ويسمى ب «طبقة الاوزون» «۱» مانعاً من نفوذ هذه الأشعة القاتلة ويقاومها كالسقف المحفوظ.

أخيراً برزت مخاوف كثيرة للعلماء على أثر الثقب الذى حدث فى طبقة الاوزون بسبب تصاعد الغازات الضارة من بعض أجزاء السيارات فى الهواء وإلحاقها الضرر بتلك الطبقة، هذه المخاوف ظهرت بصورة جدية بحيث أخذ رجال الدول والعلماء يفكرون فى وضع مقررات دولية تمنع حدوث هذه الاضرار.

هذا ما توصلنا إليه حالياً من التعرف على الآثار العجيبة لهذا (السقف المحفوظ)، أى الطبقات العظيمة للهواء ومن الممكن الكشف عن حقائق أهم وأكثر فى هذا المضمار مستقبلًا.

وقد يخطر فى الذهن هذا السؤال وهو: هل يمكن اطلاق اسم «الغلاف الجوى» على السماء فتصدق عليه؟ وهل تعنى السماء الكواكب والأجرام السماوية والمنظومات والمجرّات؟

فى الجواب عن هذا السؤال نقول: إنّ القرآن الكريم هو الذى اطلق مراراً هذه الكلمة على الغلاف الجوى ومن جملة ذلك ما نقرأه فى قوله تعالى «وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخرَجَ بِهَ مِنَ الثَّمراتِ رِزقَاً لَكُم» «۲». (البقرة/ ۲۲)

ويتجلى بوضوح نموذج آخر لهذا المعنى فى قوله عز من قائل: «اَلَمْ يَروَا اَلَى الطَّيرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ». (النحل/ ۷۹)

---

(۱) الاوزون، غاز أزرق اللون ذو رائحة نفاذة ويعد أخطر من غاز الاوكسجين. ويتكون عند التفريغ الكهربائى للاوكسجين، ويستعمل لاغراض الصباغة وتصفية الماء والهواء.

(۲) وورد نظير هذا المعنى فى البقرة، ۱۶۴؛ الأنعام، ۹۹؛ الأعراف، ۹۶؛ يونس، ۲۴؛ هود، ۴۴؛ الرعد، ۱۷ وآيات أخرى متعددة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۳

۱۲- القرآن والغلاف الجوى للأرض أيضاً

نقرأ فى قوله تعالى «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ انْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدرَهُ لِلإِسلَامِ وَمَنْ يُرِد انْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَانَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَؤْمِنُونَ». (الأنعام/ ۱۳۵)

وربّ سؤال يتبادر إلى الذهن وهو:

ماهى العلاقة بين الصعود إلى السماء وضيق الصدر؟

وهو سؤال لم يجد له المفسرون الأوائل جواباً دقيقاً.

قال كثير منهم: إنّ المقصود من ذلك هو كما أنّ الصعود إلى السماء أمر عسير أو محال كذلك تحصيل الإيمان بالنسبة إلى الكفار المعاندين والجهلاء المتعصبين «۱».

فى حين أنّ الأعمال الشاقة والمستحيلة كثيرة على وجه الأرض فليس هناك مبرر للتشبيه، إضافة إلى أنّ هذا التفسير بحاجة إلى تقدير: وهو أنّ الإيمان يشابه الصعود إلى السماء، فى حين أنّ القرآن يقول: «يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَانَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّماءِ».

وقالوا فى بعض المواضع: شبّه اللّه الكافر فى نفوره من الإيمان وثقله عليه بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه، كما أنّ صعود السماء لايطاق «۲»، ولا يخفى عدم تناسب هذا التفسير مع محتوى الآية أيضاً.

أمّا بالنظر إلى الاكتشافات الأخيرة فإنّ للآية المتقدمة تفسيراً آخر يناسب هذا المعنى من كل الجهات وهو:

لقد ثبت اليوم أنّ الهواء المحيط بأطراف الكرة الأرضية مضغوط بصورة كاملة فى الأماكن المجاورة لسطح الأرض ويلائم تنفس الإنسان ويناسبه، لأنّه يحتوى على الاوكسجين الكافى، وكلما ابتعدنا عن سطح الأرض أصبح الهواء أقل كثافة فيغدو التنفس شاقاً جدّاً على ارتفاع عشرة كيلو مترات عن سطح الأرض بدون استخدام الإنسان نقاب الاوكسجين، ويصاب بحالة من الضيق الحاد فى التنفس، وكلما ارتفع إلى الأعلى أكثر،

---

(۱) تفاسير مجمع البيان؛ روح البيان؛ تفسير القرطبى و ... ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۱.

ازدادت حدّة الضيق فى تنفسه حتى يصل إلى الوقت الذى يغمى عليه لقلّة الاوكسجين.

إذن توجد هناك علاقة وثيقة بين ضيق النفس والصعود إلى السماء، ولم تتبلور هذه الحقيقة فى ذهن أى شخص فى ذلك العصر «۱». بيد أنّها قد تبلورت فى اذهان الجميع فى يومنا هذا، فقد سبق لنا أن سمعنا هذا الحديث من مضيّفى الطائرة عدة مرات أثناء سفرنا بها، بأنّ الهواء الموجود داخلها ينظم بجهاز خاص، فاذا حدث خلل فيه، فحينئذ ينبغى الاستفادة من نقاب الاوكسجين، لتستغل الطائرة سرعتها وتصل إلى الطبقات السفلى للجو الأكثر ضغطاً.

كما أنّ العلاقة بين هذا المعنى وبين تفسير الآية واضحة جلية.

وهى فى الواقع تشبيه المعقول بالمحسوس، فقد شبّه الجمود الفكرى والتعصب واللجاجة وقصر نظر الضالين المعاندين فى اعتناقهم للإسلام، بضيق التنفس الناجم عن قلة حصول الاوكسجين بالنسبة للشخص الذى يصعد إلى السماء.

ونُنهى هذا البحث بمقولة للمراغى فى تفسيره هذه الآية، إذ يقول: «سُبحانك ربّى نطق كتابك الكريم بقضية لم يتفهم سرها البشر، ولم يفقه معرفة كنهها إلّابعد أن مضى على نزولها نحو أربعة عشر قرناً، وتقدم فن الطيران، الآن علم الطيارون بالتجربة صدق ما جاء فى كتابك، ودلّ على صحة ما ثبت فى علم الطبيعة من اختلاف الضغط الجوى فى مختلف طبقات الهواء، وقد عُلم الآن أنّ الطبقات

العليا أقل كثافة من الطبقات التى هى أسفل منها، وأنّه كلما صعد الإنسان إلى طبقة أعلى شعر بالحاجة إلى الهواء وبضيق فى التنفس نتيجة لقلة الهواء الذى يحتاج إليه، حتى لقد يحتاجون أحياناً إلى استعمال جهاز التنفس ليساعدهم على السير فى تلك الطبقات، وهذه الآيات وأمثالها لم يستطع العلماء أن يفسروها تفسيراً جلياً لأنّهم لم يهتدوا لسرّها، وجاء الكشف الحديث وتقدُّم العلوم فأمكن شرح مغزاها وبيان المراد منها بحسب ما أثبته العلم، ومن هذا صح قولهم، «الدين والعلم

---

(۱) يُصاب الإنسان أحياناً بضيق فى النفس عند تسلق الجبال، هذا صحيح ومعروف منذ الأيّام السالفة، ويحصل نتيجة للجهد البدنى الشديد ويشاهد فى حالة الركض على الأرض المستوية أيضاً، غير أن القرآن يقول: إنّ ضيق النفس يسببه الصعود إلى السماء لا الجهد البدنى الشديد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۵

صِنوان لا عَدوّان»، وهكذا كلما تقدم العلم أرشد إلى إيضاح قضايا خفى أمرها على المتقدمين من العلماء والمفسرين» «۱».

۱۳- القرآن وأسباب نزول المطر والثلوج

نقرأ فى قوله تعالى «اَلَمْ تَرَ انَّ اللَّهَ يُزجِى سَحاباً ثُمَّ يُؤلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكاماً فَتَرَى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِن خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالابصَارِ». (النور/ ۴۳)

فى هذه الآية تعابير مختلفة، لم تتوضح معانيها بدقة فى الماضى.

«يزجى»: مأخوذة من مادة (إزجاء) ومعناها فى الأصل هو الدفع أو التحريك الملائم الهادىء.

يقول الراغب فى المفردات: «التزجية» معناها هو التحريك على سبيل الترتب والتسلسل.

واستعمل القرآن الكريم هذه الكلمة لحركة السفن على أثر هبوب الرياح فى البحر كما رودت فى سورة الاسراء، الآية ۶۶.

«الركام»: (على وزن غلام) وتعنى الأشياء الموضوعة فوق بعضها.

«وَدْق»: (على وزن شَرق)، وهى حسب رأى بعض المفسرين بمعنى قطرات المطر، وحسب رأى البعض الآخر بمعنى البرق.

«البَرَد»: على وزن (سَبَد) والمقصود به قطرات المطر المنجمدة، وهى فى الأصل مأخوذة من مادة بَرْد على وزن (فَرْد) وهى البرودة. ولأنّ قطع البَرَد ذات طبيعة باردة وتبعث على برودة الأرض أيضاً اطلقت هذه الكلمة عليها «۲».

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۸، ص ۲۵.

(۲) جاء فى كتاب (التحقيق): «البرودة فى الماء أن يبرد إلى أن يصل حدَّ الانجماد فيقال له البَرَد».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۶

«جِبال»: جمع جَبَل، جاء فى (معجم مقاييس اللغة) هو: بمعنى تجمع الشىء مصحوباً بالارتفاع، وورد هذا المعنى فى (التحقيق) أيضاً، وعليه فالجبل لايراد منه جبال الحصى والرمال فحسب، بل إنّ كل مرتفع متراكم ومخزون يقال له فى لغة العرب: جبل.

واستناداً إلى ما قيل فى هذا المجال نعود إلى الآية الآنفة الذكر: «وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ».

لم يدرك أحد فى ذلك العصر بدقّة أنّ السحب فى السماء على هيئة جبال بارتفاعات متفاوتة نشاهد قاعدتها غالباً. لأننا نراها بصورة لوحة واسعة فى السماء، لكن عندما نحلق بالطائرة إلى أعلى السحب، نشاهدها جبالًا ووديانا ومرتفعات ومنخفضات، كما نشاهد ذلك على سطح الأرض، وبعبارة اخرى إنّ السطح الأعلى للسحب غير مستوٍ وعلى غرار سطح الأرض يحتوى على تضاريس كثيرة، وفى كثير من الأحيان يكون متراكماً على هيئة جبل.

ومن أجل أن يتضح مفهوم الجبال فى الآية أكثر يمكن أن نضيف النكتة الدقيقة والتى ثبتت نتيجة لتطور العلوم وازدهارها وهى:

ذكر أحد العلماء فى تحليله الشخصى ما خلاصته: إنّ السحب المرتفعة عُبّر عنها بجبال الثلج، فى الآية التى وقعت مورداً للبحث؛ لأنّ العلماء فى تحليقاتهم الجوية اصطدموا بسحب متكونة من إبَرٍ ثلجية، يصدق عليها عنوان (جبال من الثلج) واقعاً، ومن الغريب هو ما ذكره بصددها أحد العلماء الروس أثناء شرحه لبعض (السحب المحملة بالأمطار) بأنّها جبال من الثلج، أو جبال من السحب.

هذا كله من جهة ومن جهة اخرى ذهب علماء معاصرون فى صدد كيفية نشوء البَردَ فى السماء إلى القول: إنّ قطرات المطر تنفصل عن السحاب وتصطدم بالمناطق العليا الباردة للجو فتنجمد، ولكونها صغيرة جدّاً تقذفها إلى الأعلى من جديد تيارات هوائية شديدة مسلطة على تلك المنطقة فتنفذ تلك الحبيبات داخل السحب مرّة اخرى لتستقر مقابلها صفحة جديدة من الماء، تنجمد مرّة ثانية حينما تنفصل عن السحاب، ويحدث أحياناً أن

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۷

يتكرر هذا الأمر عدّة مرات حتى يصبح حجم البَرَد كبيراً، ولا تقوى التيارات الهوائية على دفعه إلى الأعلى أو أن تهدأ تلك التيارات بصورة مؤقتة، فحينئذٍ يشق طريقه إلى الأرض ويسقط باتجاهها بدون أى مانع، ويحدث أن يكون كبيراً ثقيلًا فى بعض الأحيان فيلحق اضراراً بالمزارع والبساتين والحيوانات وحتى أفراد البشر أيضاً.

من هنا يتبيّن أنّ وجود بَرَد كبير الحجم ثقيل الوزن ممكن عندما تتراكم الحبيبات المنجمدة فوق قمم السحب الجبلية إلى أن تظهر رياح شديدة فتقذفها وسط السحب، وتجمع مقداراً أكثر من الماء، فتصبح ثقيلة الوزن.

وعلى هذا الأساس تعتبر السحب الجبلية منبعاً مهماً لتكوّن بَردٍ كبيرِ الحجم، سبقت الإشارة إليه فى الآية.

وتتضح المسألة أكثر فيما لو قلنا: إنّ هذه الجبال هى الأكوام المتكونة من الذرات الثلجية نفسها «۱».

والسؤال الوحيد الذى يبقى هنا هو: لماذا وجه القرآن الكريم الخطاب إلى النبى صلى الله عليه و آله بقوله: (اَلَم تَرَ) فى حين أنّنا نعلم أنّ هذه المسألة لا تقبل الرؤية على الاطلاق، وإنّما تمكن ملاحظاتها فى عصرنا فقط من خلال التحليق بالطائرة؟

والجواب عن هذا السؤال واضح، ذلك أنّ (اَلَم تَرَ) والجمل المشابهة لها يراد منها «اَلَم تَعْلم»، ولهذا يقول القرآن مخاطباً النبى فى سورة الفيل الآية ۱: «اَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِاصْحَابِ الفِيلِ»، بالرغم من ولادته صلى الله عليه و آله فى عام الفيل (العام الذى هاجم فيه أبرهة مكة المكرمة) وعدم حضوره تلك الواقعة.

---

(۱) ذهب المفسرون فى تفسير: «وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد» إلى قولين يمكن استنتاجهما من سياق تركيب الآية؛ الأول: إنّ الجار والمجرور فى «من برد» متعلق بينزل وهى فى حكم المفعول فيصبح معنى الآية: إنّ اللّه ينزل قطع الجليد من جبال فى السماء (وهنا ذكرت الجبال بصورة مطلقة). والثانى: إنّ الجار والمجرور متعلق بفعل محذوف يقع صفة ل «جبال» فيصبح معنى الآية بناء على ذلك: إنّ اللّه ينزل بَرداً من جبال الثلج التى فى السماء (وهنا يكون مفعول «ينزل» محذوفا ويفهم من سياق الكلام).

وكلا التفسيرين يوضح الاعجاز العلمى للقرآن وفقا لما ذكرناه سالفاً. لأنّ قولًا تضمن ذكر جبال من الثلج، وقولًا اخر تضمن جبال السحاب، وكلاهما لم يكن معروفا فى زمانه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۸

۱۴- القرآن وعلاقة الرعد والبرق والمطر

ورد الحديث عن الرعد والبرق فى القرآن الكريم بشكل مكرر ثم وردت الإشارة إلى هطول الأمطار بعد ذلك مباشرةً.

ورد فى قوله تعالى «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ ماءً فَيُحيِ بِهِ الارضَ بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ». (الروم/ ۲۴)

ونقرأ فى قوله تعالى «هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفَاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَال».

(الرعد/ ۱۲)

وفى الماضى لم يكن أحد يعرف بدقة منشأ (الرعد) و (البرق)، ولذا فقد كان كل واحد يختلق لنفسه فرضية معينة، ويضفى عليها أحياناً طابع الأساطير والخرافات، أما اليوم فقد أضحى مسلَّماً أن حدوث الرعد والبرق يرتبط بالتفريغ الكهربائى بين سحابتين لهما شحنتان كهربائيتان مختلفتان (أحدهما موجبة والآخرى سالبة).

وفى الواقع مثلما يتصل سلكان كهربائيان احدهما بالآخر فتحدث شرارة كهربائية يصحبها الصوت والحرارة معاً، كذلك يحدث هذا الأمر بين السحب. (فالبرق) هو الشرارة الكهربائية الهائلة، و (الرعد) هو صوت تلك الشرارة.

وقد يحدث هذا التفريغ الكهربائى بين قطع السحاب التى لها شحنات كهربائية موجبة وبين الأرض ولها شحنة كهربائية سالبة عادة، فتقذف شرارة نارية إلى سطحها يطلقون عليها اسم (الصاعقة) والتى تسبب الحرائق الكبيرة فى الصحارى والغابات وحتى فى المبانى والعمارات فى بعض الأحيان.

وبإمكانها أن تُحوِّل قطيعاً كبيراً من الحيوانات إلى رماد فى لحظة واحدة وإذا ما ضربت جبلًا ما فسوف يتلاشى وينهار، أو إذا اصابت سطح البحر قضت على كل ذى روح يعيش فى ذلك الموضع منه؛ ويُعزى ذلك كله إلى أنّ الحرارة الناجمة من تلك الشرارة النارية هائلة جدّاً، (تصل إلى حدود خمسة عشر الف سانتيكراد، أى ضعف حرارة سطح الشمس تقريباً)، فتحيل كل الأشياء إلى دخان ورماد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۳۹

وإذا ما كان البرق والرعد من المظاهر المرعبة لعالم الطبيعة إلّاأنّهما بالرغم من ذلك يشتملان على فوائد ومعطيات كثيرة أيضاً.

فمن احدى آثارهما المهمّة هى نزول الأمطار الغزيرة، وذلك لأنّ الحرارة المتولدة من البرق، تُسخن مساحة واسعة من الهواء المحيط بها، فيقلّ ضغطه، ومن المعلوم أنّ السحب ستفرغ ما فيها من أمطار على أثر قلة الضغط، ولهذا السبب تهطل أمطار غزيرة بعد حصول الرعد والبرق.

وممّا يجدر ذكره: عندما تقترب السحب المتراكمة من الأرض لتظلّلها يصبح الجو مظلماً، ويسمع صوت الرعد المخيف وتتراءى أنوار البرق، فى الوقت ذاته تؤثر العواصف العاتية على السحب فتجعلها محملة بقطرات كبيرة غزيرة وتؤدى إلى تزايد وزنها «۱»، وهذا هو عين ما قرأناه فى الآياتالسابقة التى تحدثت عن السحب الثقيلة بعد أن أشارت إلى مسألة البرق، إضافة إلى أنّ الحرارة الشديدة للبرق تؤدى إلى أن تتركب قطرات المطر من مقادير أكثر من الاوكسجين، فينتج من ذلك ماء مؤكسد ويسمونه بالماء الثقيل أيضاً (H_2O_2).

ولهذا الماء الثقيل تأثير كبير فى القضاء على كثير من الميكروبات والآفات النباتية، ولذا ذهب العلماء إلى القول بتكاثر الآفات النباتية فى السنة التى يقل فيها الرعد والبرق (وهذا تفسير آخر فى صدد السُحب الثقيلة).

وإضافة إلى ذلك فإنّ حامض الكربونيك يتولد من قطرات المطر الممتزجة بكاربون الجو وبواسطة الحرارة الشديدة للبرق، وبعد سقوطه على الأرض يتفاعل مع مواد اخرى لينتج مركبات تعد من أفضل الأسمدة لنمو الأعشاب، حتى ذهب العلماء إلى القول: إنّ مقدار الأسمدة الناشئة من الرعد والبرق فى الكرة الأرضية تصل إلى حدود العشرة ملايين طن فى جميع أنحاء الكرة الأرضية، وهو رقم كبير جدّاً.

وتتوضح عظمة القرآن العلمية بالمقارنة بين هذه الاكتشافات والآيات الآنفة الذكر،

(۱) العواصف والأمطار، ص ۱۳۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۰

خصوصاً إذا أُخذ بنظر الاعتبار عدم وجود أدنى أثر لهذه العلوم فى ذلك العصر وفى بيئة الجزيرة العربية.

۱۵- القرآن وكشف هوية الإنسان

نقرأ فى قوله عزّ من قائل: «اَيَحْسَبُ الانسَانُ الَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ* بَلَى قَادِرِينَ عَلَى انْ نُّسَوِّىَ بَنَانَهُ». (القيامة/ ۳- ۴)

جاء فى الروايات، أنّ أحد مشركى العرب ويُدعى (عدى بن ربيعة) وكان رجلًا معانداً ومتعصباً جدّاً، أتى إلى النبى صلى الله عليه و آله وسأله عن يوم القيامة وكيفية وزمان تحققه، وقال: إننى لا اصدقك ولا أؤمن بك وإن رأيت ذلك اليوم بأمّ عينى، كيف يمكن التصديق بأنّ اللَّه تعالى يجمع هذه العظام النخرة، هذا ممّا لا يقبل التصديق فنزلت الآية المذكورة أعلاه «۱».

«بَنان»: فى اللغة بمعنى الاصابع، وقد ورد أحياناً (بمعنى رؤوس الأصابع)، وهو مأخوذ من مادة (بَنَ) بمعنى الإقامة.

وبناءً على كون الأصابع، أداة لإصلاح أحوال إقامة الإنسان فى العالم، اطلق عليها هذا الاسم «۲».

إنّ للأصابع دوراً مهماً جدّاً فى حياة الإنسان، وتعد من عجائب الخلقة، وإن غفلنا عن أسرارها. لأنّها تحت تصرفنا دائماً، ولو قطعت أصابع يد أحد ما، فإنّه سوف لا يستطيع أن ينجز عملًا دقيقاً بأى شكل من الأشكال، وستستحيل عليه الكتابة، وتصفح أوراق الكتاب، وتناول الطعام بسهولة، والاتصال بالهاتف، وفتح الأبواب بالمفاتيح وأنواع الصناعات الدقيقة وتستحيل عليه بقية الصناعات الاخرى كانواع الأعمال المتعلقة بالسيارات، وحتى أخذ الأشياء الثقيلة باليد أيضاً، بل ويمكن لنقص أحد الأصابع أن يوجه

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۳، ص ۲۱۷؛ وتفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۸۸۵.

(۲) المفردات للراغب؛ ومجمع البحرين؛ ومعجم مقاييس اللغة، مادة (بن).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۱

ضربة عنيفة لكثير من الأعمال اليومية التى يقوم بها الإنسان. ولهذا السبب تنجز الحيوانات ذوات الأربع كثيراً من أعمالها بفمها أو رأسها.

وبعبارة اخرى يمكن القول: إنّ وجود الأصابع لدى الإنسان يعتبر من العوامل المهمّة للتقدم الحضارى له، والتعبير ب «البنان» المأخوذ من مادة الإقامة والدوام، إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة نفسها، وذلك لصعوبة وجوده فى العالم بدونها.

يقول اللَّه تعالى فى الآية الآنفة الذكر: إنّ بإمكاننا أن نعيد العظام الصغيرة الدقيقة فى يوم القيامة أيضاً فضلًا عن العظام الكبيرة.

واحتمل جماعة من المفسرين أيضاً أنّ المقصود من تسوية البنان هو وصالها مع بعضها واخراجها بصورة حافر حيوان من ذوات الأربع وليس لهذا التفسير تناسب مع آيات السورة.

من الامور التى يمكن استنتاجها من هذه الآية هو هذا الاكتشاف المهم، فقد أصبح من الثابت أنّ معرفة هوية أحد ما يتمّ بوسيلة رؤوس أصابعه. وهى أوثق وأدق من كل امضاء ولا يستطيع أحد تزويره، فى حين أنّ التزوير قادر على التسرب إلى أعقد التواقيع، ولهذا السبب أصبحت مسألة «أخذ البصمات» من الحقائق العلمية فى عصرنا الحاضر واستحدثت لأجلها دائرة خاصة فى المراكز الأمنية، من خلالها يكشف النقاب عن كثير من المجرمين، فيكفى أن يضع أحد السراق يده على مقبض الباب، أو زجاج الغرفة، أو على القفل والصندوق والكرسى عند دخوله لأحد الغرف أو المنازل فيبقى أثرها على تلك الأشياء، أو يتمّ العثور على سلاح فى قضية قتل، عليه بصمات أحد الأشخاص، وهذا يكفى لأخذ نماذج فورية لها فتتم مطابقتها على بصمات الأشخاص المشكوك بهم فى تلك الحادثة،- إضافة لما لديهم من معلومات عن المجرمين والسراق- ومن ثم يلقون القبض على الجانى.

إذن يكون مفهوم الآية بناءً على هذا التفسير: إنّنا لسنا قادرين على أن نجمع العظام الكبيرة والصغيرة فحسب، بل إنّ فى مقدورنا أيضاً أن نعيد الأصابع وبصماتها بجميع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۲

مزاياها، التى هى من أدق ما فى البدن من خصوصيات إلى حالتها الاولى

وبعبارة اخرى أنّ مفهوم تسوية البنان (ومعناها التنظيم والترتيب)، شامل لجميع الخصوصيات والجزئيات، من جملتها بصمات الأصابع.

ومن الجدير بالذكر هو ما نجده من توافق بين هذا المعنى وبين مسألة القيامة، المحكمة الكبرى للعدل الإلهى، التى يجب التحقيق فيها مع المجرمين والمذنبين، ذلك أنّ هذه المسألة يستفاد منها أيضاً فى محاكم الدنيا، قبل أى مكان آخر.

۱۶- القرآن يكشف الستار عن عظمة خلق السماوات

نقرأ فى قوله تعالى «لَخَلْقُ السَّمَواتِ وَالارضِ اكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (المؤمن/ ۵۷)

صحيح أنّ أغلب المفسرين اعتبر هذه الآية رداً على جدال المشركين فى (المعاد) «۱»، أى إنّكم تشكون فى بعث الإنسان من جديد، فى حين أنّ خلق الإنسان ليس بأعظم من خلق السماوات، بل إنّ خلق السماوات والأرض أهم من ذلك وأعظم، بيدَ أنّ جملة «ولكنّ أكثر الناسِ لا يَعلَمُون»، هى إشارة إلى حقيقة أنّ عظمة السماوات كانت مجهولة لدى معظم الناس سابقاً.

وبالرغم ممّا اكتشفه العلم الحديث من اسرار عظيمة ومهمة جدّاً عن وجود البشر لم يكن واحد من الألف منه معروفاً فى العصور السابقة، إلّاأنّ الاكتشافات التى تحققت فى مجال عظمة السماوات، تدل على أنّ خلقها والأرض يفوق بمراتب خلق البشرية بكل ما تنطوى عليه من عجائب.

إنّ آخر ما توصل إليه العلماء بصدد السماوات وبالأخص المجرات يقول: إنّه قد اكتشف إلى اليوم أكثر من مليارد مجرة بواسطة المراصد الفلكية الكبيرة، ومنظومتنا الشمسية ما هى

---

(۱) تفاسير مجمع البيان؛ الصافى؛ الكبير؛ الكشاف؛ روح المعانى؛ وروح البيان.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۳

إلّا جزء ضئيل من احدى المجرّات التى تسمى ب «درب التبانة»، ففى مجرّتنا فقط أكثر من مائة مليارد كوكب والشمس بعظمتها هى احدى النجوم المتوسطة فى هذا الجيش الجرّار للنجوم.

الفضاء واسع جدّاً بحيث إنّ سبر اغواره ليس يستحيل بالمركبات الفضائية البشرية فحسب، بل إنّنا لو ركبنا ذرات الضوء- التى تسير بسرعة فائقة تصل إلى ثلاثمائة الف كيلو متر فى الثانية الواحدة- لاستغرقت رحلتنا هذه ملياردات السنين الضوئية أيضاً حتى يمكننا أن نقطع المساحة المكتشفة فى هذا العالم.

وكلما كان حجم المراصد الفلكية أكبر وأدق، كلما كشفت لنا الحجب عن عوالم جديدة اخرى

بالرغم من هذه الاكتشافات فإنّنا لحد الآن لم نتوصل إلى ما وراء ما عرفناه وشاهدناه، وإنّ ما اكتشف بأكبر المراصد هو زاوية صغيرة وتافهة من هذا العالم العريض.

وحسب قول أحد العلماء: فإنّ كل هذا العالم الواسع الذى نشاهده ليس إلّاذرة صغيرة، وجزء لا حدود له من عالم أكثر عظمة «۱».

ومن هنا نقف على عمق الآية الآنفة الذكر التى تقول: «لَخَلقُ السَّمَواتِ وَالارض اكبرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعلَمُونَ».

ونتساءل ألا يُعدُّ بيان مثل هذه الامور من قبل فرد امى فى عصر نزول القرآن وفى بقعة من أكثر بقاع العالم تأخراً، معجزة؟

وبهذا النحو نصل إلى نهاية بحث الاعجاز العلمى للقرآن، وإن كانت لا تزال هناك ملاحظات كثيرة لم نتطرق إليها.

ونعتقد أنّ البحث فى النماذج الستة عشر السابقة أثبت بشكل منصف ولكل إنسان واع حقيقة استحالة أن يكون هذا الكتاب العظيم أى (القرآن) من صنع عقل البشر.

---

(۱) مجلة الفضاء، العدد ۵۶، سنة ۱۹۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۵

۴- الاعجاز التاريخى للقرآن

دور التاريخ فى المسائل التربوية:

ممّا لا يقبل الشك أنّ القرآن ليس كتاباً تاريخياً، لكنه ولأسباب مختلفة فانه يضم بحوثاً تاريخية متنوعة، وذلك لأن المسائل التربوية وبالأخص الاجتماعية لا يمكنها أن تنفصل عن المباحث المرتبطة ب (تاريخ القدماء) لأنّ التاريخ من أكبر معلمى الحياة وهو معيار جيد لتحديد وتبيين مزايا وخصائص المبادىء الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفصل الحقائق عن الأوهام والمثاليات عمّا يناقضها.

إنَّ عظمة التاريخ تكمن فى اظهاره المسائل الفكرية والعقلائية فى قالب محسوس تؤدى خدمة كبيرة لفهم المسائل الإنسانية بصورة صحيحة، فمن جملة المسائل التى تُستنبط من التاريخ هى: إلى أين تؤول عاقبة الظلم والجور والاستبداد، وماهى نتيجة الاختلاف والتشرذم، وما هى خاتمة التعصب والعناد والانانية، وعدم الاعتناء بالحقائق الواقعية؟

ولهذا السبب يمكن القول: إنّ التاريخ هو معين الحياة الذى يمد الإنسان بالعمر والبقاء، فمن خلال مطالعة تاريخ القدماء نحصل على صفحات مركزة هى عصارة آلاف السنين من التجارب الإنسانية توضع بين يدى جيل الحاضر والمستقبل.

وأشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة المهمّة بجملة مختصرة إذ يقول:

«لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّاوْلى الأَلبَابِ مَا كانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىءٍ وَهُدىً وَرَحمَةً لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ». (يوسف/ ۱۱۱)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۶

والجدير بالذكر هنا أنّ القرآن بيّن هذا المفهوم بعد قصة النبى يوسف عليه السلام المليئة بالحوادث والعبر التى يستفاد منها فى الأبعاد المختلفة للمسائل التربوية.

وفى موضع آخر يعتبر القرآن قصص وتاريخ القدماء وسيلة لإيقاظ الأفكار والعقول فيقول: «فَاقْصُصِ القَصَصَ لَعَلَّهُم يَتَفكَّرُونَ». (الأعراف/ ۱۷۶)

وفى آيات اخرى يُعد تاريخ الأنبياء الاوائل وسيلة ناجحة ل (تثبيت قلب) نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وتقوية إرادته ولتوعية المؤمنين وايقاظهم، فيقول عز من قائل: «وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيكَ مِنْ انْبَاءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجاءَكَ فِى هَذِهِ الحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرى لِلمُؤمِنِينَ». (هود/ ۱۲۰)

ويقول اللَّه سبحانه وتعالى فى صدد التعريف بقصّة نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ تَّرْكنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُّدَّكِرٍ». (القمر/ ۱۵)

ويذكر الآثار المتبقية للقدماء بتعبير حى جميل، فيقول: «افَلَمْ يَسِيرُوا فِى الارضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا او آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فانَّهَا لَاتَعْمَى الابْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِى فِى الصُّدُورِ». (الحج/ ۴۶)

وعلى هذا، فالأحداث التاريخية المفصلة والآثار التاريخية الغابرة للقدماء تساهم فى إنارة البصائر وتفتح آفاق جديدة رحبة.

ومن خلال هذه الإشارة إلى فلسفة تاريخ القدماء نعود إلى القرآن مرة ثانية لنلقى نظرة على الاعجاز التاريخى للقرآن.

الخطوط العریضة للتاریخ فی القرآن:

اشارة

سبق القول إلی أنّ مقطعاً مهماً من المباحث التربویـة والمواعظ والنصائح والبشائر والنُذر والعهود والآمال القرآنیة بُیّنت بصـفتها مسائل تاریخیة شیقة ومعبرة ومؤثرة تجذب السامع تلقائیاً نحو الأهداف العلیا، ولانستطیع الوقوف علی عظمة البحوث التاریخیة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۷

المعجزة فی القرآن مالم نطالع بدقة سورة یوسف، والأنبیاء، وطه، والقصص، ومریم، وآل عمران، وأمثالها.

و تنطوی البحوث التاریخیة علی الخصوصیات الأساسیة التالیة:

۱- الاستناد إلی المقاطع الحساسة وإلقاء نظرة فاحصة ونافذة علی المسائل التربویة المهمّة.

۲- خُلّوها من أی شکل من أشکال الحشو والإضافات.

۳- خُلّوها من حالات التضاد والتناقض وعدم السنخیة والانسجام.

۴- خلافاً لُاسلوب کتابة التاریخ المتعارف فی ذلک الزمان (وحتی فی القرون التی تلته)، حیث طرح التاریخ فیها کمادة مسلیة، ووسیلة للإطلاع علی اوضاع الماضـین، فلم یشـتمل علی أیّـة نظرة فاحصـة محللـة تشـکل فلسـفة التاریخ والدروس والعبر المسـتلهمة من حیاة القدماء.

بینمـا اهتم القرآن المجیـد فی تواریخه بـأصول المسائـل وبظواهرهـا أیضاً بشـکل یُنمی روح حب الإطلاع فی نفس القارىء والمتلقّی ویحفز ذهنهما علی التفکیر الدقیق فی الحوادث.

ومن الجدیر بالذکر: إنّه لم یرد ذکر للحوادث التافهة التی لا هدف لها سوی اطالة الکلام وإتلاف الوقت فی أی واحدة من آیاته.

۵- أولی القرآن اهتماماً بالغاً وبشـکل دقیق بمسألـة فصل الحقائق التاریخیة عن الأساطیر، وهی من المسائل المعقدة أحیاناً، لأنّ هناک عوامل مزجت التاریـخ بالأساطیر الکاذبـة دائماً: من جملتها، الترفیه وإرضاء العواطف الطفولیـة، إدارة الخیال وإیجاد الروابط المفتعلـة، بحیث یمکن القول: إنّ الأساطیر والخرافات تستأثر بمقطع مهم من تواریخ القدماء وتشکل أحد أرکانها الأساسیة.

فبناءً علی ذلک لو فرضنا أنفسنا فی زمن نزول القرآن وأجواء حیاة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله لشاهدنا مدی امتزاج تواریخ ذلک الزمان بخرافات تُتناقل علی الألسنة وتعد فی قائمة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۴۸

المسلمات بحیث لایستطیع المتعلمون الفصل بینهما، فضلًا عن أحد الامّیین.

وقـد کـان علماء ذلک العصـر من الربانیین و (أحبار) الیهود والنصاری ومشـرکی العرب یـدافعون عن هـذه الأساطیر والخرافات، ومن الطبیعی أنّ من یعیش فی مثل تلک البیئة ویصل سنّه إلی الأربعین تنسج أفکاره بهذه الأساطیر والخرافات ویستحیل الفصل بینها عادة، تری هـل یسـتطیع أحـد أن یُنقی التاریـخ فی تلـک البیئـة المظلمـة ویفصـل الحقـائق عن الأوهام والخرافات؟ إنّ أحـداً من المحققین، والمطلعین علی التاریخ فی یومنا هذا لا یتمکن من القیام بمثل هذا العمل إلّابشق الأنفس، فکیف یمکن توقع ذلک من شخص امّی لا یعرف القراءة فی ذلک العصر؟

والآن نتوقف عند بعض الأمثلة فی القرآن وبشیء من المقارنة یتضح ماقلناه سابقا:

۱- کیفیة خلق «آدم» کما ورد فی القرآن وفی العهدین

بيّنَ القرآن الكريم (خلقة) الإنسان فى سورة البقرة فى الآيات (٣٠ إلى ٣٧) بالشكل التالى:

«وَاذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلَائِكَةِ انِّى جاعِلٌ فِى الْأَرضِ خَلِيفَةً قَالُوا اتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيها وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ انِّى اعْلَمُ مَالَا تَعْلَمُونَ* وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْماءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلَائِكَةِ فَقَالَ انْبِئُونِى بِاسْماءِ هؤُلَاءِ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ* قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا الَّا مَاعَلَّمْتَنَا انَّكَ انْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ* قَالَ يَاآدَمُ انبِئهُمْ بِاسَمائِهِم فَلَمَّا انبَاهُمْ بِاسمائِهِم قَالَ الَمْ اقُلْ لَّكُمْ انِّى اعْلَمُ غَيْبَ السَّموَاتِ وَالارضِ وَاعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ* وَاذْ قُلْنا لِلمَلَائِكةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا الَّا ابلِيسَ ابَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ* وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ انْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلَا مِنهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُما وَلَاتَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ* فازَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنهَا فاخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنا اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الارضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ الَى حِينٍ* فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِماتٍ فَتَابَ عَلَيهِ انَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ». (البقرة/ ٣٠- ٣٧)

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١۴٩

وقد أشير إلى هذا المعنى أيضاً فى سور قرآنية اخرى كالأعراف وطه.

ويستفاد من الآية (١٢) من سورة طه بشكل واضح، أنّ الشيطان خدع آدم من خلال قوله له: إنّ هذه الشجرة، شجرة الحياة الأبدية، فى حين أنّ آدم تلقى إنذاراً مُسبقاً يقضى بأنّ الشيطان عدوٌّ لك فلا تغتر بأقواله.

وكذلك يستفاد من الآية (٢۶ و ٢٧) من سورة الأعراف و (١٢١) من سورة طه هذا المعنى أيضاً هو أنّ آدم وزوجته كانا يرتديان الأثواب فى الجنّة لكن عندما تناولا من تلك الشجرة المُحرّمة عليهم، خُلعت عنهما أثواب الجنة.

وصنعوا لأنفسهما لباساً من اوراق اشجار الجنة، واستناداً إلى الآيات السابقة نستنتج مايلى:

أولًا: من المميزات الأساسية لشخصية آدم عليه السلام هى نيله مقام الخلافة الإلهيّة وسجود الملائكة له، وهى نفس حالة اطلاعه على «علم الأسماء» وعلمه بالحقائق والأسرار الكونية.

ثانياً: السبب وراء خروج آدم من الجنّة، هو تناوله من تلك الشجرة التى حُظرت عليه من قبل وإن كان القرآن لم يذكر اسماً لهذه الشجرة، لكن ظاهر الأمر أنّها كانت تحمل فاكهة طيبة ولذيذة والغاية من الأمر بتركها هو اختبار آدم عليه السلام وامتحانه من أجل غربلة إيمانه وصقل إرادته فى مقابل الوساوس النفسانية والشيطانية.

ويتضح من عبارة «فأزَلَّهُما الشَّيطانُ» معنى أنّ التناول من تلك الشجرة المحظورة لايعدو أن يكون مخاضاً من المخاضات وليس هو من نوع ارتكاب الذنب والطغيان أمام قدرة اللَّه وانتهاك حرمة العبودية.

والآن نعرج على التوراة لنرى كيف امتزجت هذه الحادثة التاريخية بأنواع الخرافات والمسائل غير المنطقية والصبيانية؟

جاء فى الفصل الثانى من (سفر التكوين ٧- ٢۵) مايلى:

* ثم صور اللَّه تعالى آدم من صعيد الأرض ونفخ فى انفه نسمة الحياة، فأخذ روح آدم ينبض بالحياة.

نفحات القرآن، ج٨، ص: ١۵٠

نفحات القرآن ج٨ ١٩٩

* وغرس اللَّه تعالى بستاناً فى الجانب الشرقى من عدن، وأنزل الإنسان الذى صوره هناك.

* وأنبت اللَّه تعالى كل شجرة بديعة ولذيذة المطعم، وانبت شجرة الحياة وسط البستان وشجرة المعرفة (بالحسن والقبُح) ...* وأخذ اللَّه تعالى آدم وأنزله فى بستان عدن ليرعاه ويحرسه.* وأمر اللَّه تعالى آدم وقال انك مخير بأنّ تأكل من كل اشجار البستان.* ولكن لا تأكل من شجرة المعرفة، لأنك ستستحق الموت حين تناولك منها ...* وكان آدم وزوجته كلاهما عاريين ولا يستحيان.

ووردت تتمة هذه الواقعة فى الفصل الثالث من (سفر التكوين) نفسه على النحو التالى:

١- خلق اللَّه الأفعى (الشيطان) أمكر من كل ذى روح يدب على وجه الصحراء، فقالت للمرأة: هل قال اللَّه حقاً لا تأكلا من جميع

أشجار البستان.

۲- وقالت المرأة للافعى بأننا نأكل من فاكهة أشجار البستان.

۳- إلّاأنّ اللَّه تعالى أمرنا بأنّ لا نأكل من ثمار الشجرة التى فى وسط البستان ولا نلمسها حتى لا نموت.

۴- وقالت الأفعى للمرأة وبالطبع لا تموتان.

۵- الحقيقة أنّ اللَّه يعلم أنكما يوم تأكلان منها تتنور بصيرتكما، وتصبحان كالآلهة (الملائكة) الذين يعلمون الحسن والقبح.

۶- فرأت المرأة أنّ من الصلاح أن تأكل من الشجرة التى تبدو رائعة المنظر، جذابة لمن يعشق المعرفة فوظفت من ثمارها واكلت واعطت لزوجها أيضاً فأكل.

۷- حينئذٍ تنورت بصيرتهما، وعلما أنّهما عاريان فحاكا من أوراق شجرة التين إزاراً لهما.

۸- وسمعا صوت اللَّه تعالى حينما كان يتبختر صباحاً فى البستان، فاختفى آدم وزوجته بعيداً عن حضرة اللَّه بين الأشجار.

۹- ونادى اللَّه آدم وقال له اين أنت؟

۱۰- فأجابه إننى سمعت نداءك فى البستان وأصابنى الهلع، لأننى عارٍ من اللباس ولهذا اختفيت.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۱

۱۱- فقال اللَّه من قال لك إنّك عارٍ؟ هل تناولت من الشجرة التى أمرتك أن لا تأكل منها؟

۱۲- وقال آدم: إنّ المرأة التى منحتها لى لتكون معى هى التى أعطتنى من تلك الشجرة فأكلت.

۱۳- وقال اللَّه تعالى للمرأة ما هذا الذى فعلت؟ قالت المرأة لقد أغوتنى الأفعى فأكلت.

۱۴- وقال اللَّه تعالى للأفعى: لأنك فعلت ذلك فأنت ملعونة من بين كل البهائم، والحيوانات الصحراوية ستمشين على بطنك وستأكلين التراب طيلة أيّام حياتك ...

۲۲- وقال اللَّه تعالى نظراً لأنّ آدم أصبح واحداً منّا لعلمه بالحسن والقبح، فلا ينبغى أن يمد يده إلى شجرة الحياة أيضاً فيأكل منها ويعيش عيشاً أبدياً.

۲۳- إذن لهذا السبب ابعده اللَّه تعالى من بستان عدن، ليشتغل بزراعة الأرض التى نشأ منها.

۲۴- وأبعد آدم واسكن الكروبيين (الملائكة) فى الجانب الشرقى من «بستان عدن» وكانوا يطوفون حول شجرة الحياة بالسيف البتار ليحرسونها.

وخلاصة ما جاء فى التوراة بصدد تاريخ خلق آدم وخروجه من الجنّة على النحو التالى:

خلق اللَّه آدم، وأسكنه بستاناً فى الجانب الشرقى من عدن، ليرعاه، وختم هذا البستان بين أشجاره شجرتين.

إحداهما: (شجرة العلم، بالحسن والقبح) وهى شجرة يحصل من يأكل من ثمارها على العقل والذكاء، ولأنّ آدم لم يكن قد تناول منها شيئاً، فلم يدرك معنى الحسن والقبح. ولهذا السبب لم يستح من عُريه هو وزوجته قط، والاخرى كانت (شجرة الحياة) ومن أكل منها حَظى بالعمر الخالد.

وأمر اللَّه تعالى آدم أن لا يتناول شيئاً من شجرة العلم، المعرفة والحسن والقبح على الاطلاق وإلّا فسيموت، وسرعان ما ألقى الشيطان وسواسه فى روع زوجة آدم (حواء) وقال لها: لِمَ لا تأكلين من (شجرة العلم، والمعرفة) لأنّك لو أكلت لانُيرت بصيرتك ولاطّلعت على الحسن والقبح كالملائكة، وكان منظر تلك الشجرة جذاباً جميلًا، ومن ثمّ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۲

أكلت منها حواء واعطت منها لآدم أيضاً فتفتحت عيناهما، واطلعا على الحسن والقبح، وأدركا قبح العرى فصنعا من الورق العريض لشجرة التين ستراً لهما وربطوه حولهما، حينما كان اللَّه تعالى يتمشى فى الجنّة عمد آدم إلى اخفاء نفسه بين أشجارها، فلم يشاهده

اللَّه تعالى وناداه أين أنت؟ فأجاب اللَّه تعالى إنّى هنا بين الأشجار وقد أخفيت نفسى لأننى عارٍ فسأله اللَّه تعالى من أين علمت أنّك عارٍ؟ لعلك تناولت شيئاً من شجرة الحسن والقبح (شجرة العلم والمعرفة)، فالقى التبعة على عاتق زوجته، لما عُوتبت حواء ألقت التبعة على عاتق الأفعى (الشيطان)، هنا عاقب اللَّه الأفعى بأنّ تزحف على بطنها، وتأكل من تراب الأرض طيلة حياتها.

من ناحية اخرى بعد أن تناول آدم من (شجرة العلم والمعرفة) وأصبح كأحد الآلهة، احترس اللَّه تعالى من أن يتناول من (شجرة الحياة) أيضاً ويحظى بالعمر الخالد. ولذلك اصدر اللَّه تعالى أمراً بإخراجه من الجنّة وأمر الملائكة أن يحرسوا شجرة الحياة بالسيف البتار لئلا يقترب منها آدم.

ولا يخفى علينا أنّ هذا هو التوراة نفسه الذى يعد اليوم (الكتاب المقدس) لجميع يهود ومسيحيى العالم، ويؤمن جميعهم بمحتواه ويعتقدون أنّه الكتاب عينه الذى كان فى أيدى اليهود والنصارى فى عصر نزول القرآن.

وبطبيعة الحال فإنّنا لا نعتقد بوجود مثل هذا النوع من الخرافات الصبيانية المبتذلة فى الكتاب السماوى لموسى عليه السلام، أو أنّ الأنبياء بعده دافعوا عنه، ولكن على أى حال احتوت هذه الاسطورة الغريبة على امور جارحة فى حق اللَّه تعالى بحيث إنّ كل واحدة منها أشنع من الاخرى ومن جملتها:

۱- نسبة الكذب إلى اللَّه تعالى استناداً إلى ما نقلوه من قوله أنّكما لو تناولتما شيئاً من شجرة (العلم والمعرفة) فستموتان.

۲- نسبة البخل إليه جل وعلا بمانقلوه من أنّه لم يوافق على أن يأكل آدم وحواء من شجرة العلم والمعرفة، فيحظيا بالعقل والإدراك وكان يريد لهما البقاء على جهلهما وعدم معرفتهما.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۳

۳- إنّ اللَّه تعالى لم يمنحهما العقل والعلم الكافيين ليدركا قبح كونهما عاريين، بل وكان تعالى كثيراً ما يرتضى لهما هذه الحالة.

۴- القول بأنّ له جسماً وأنّه يتمشى على قدميه فى البستان، وفى الوقت نفسه يغفل ولا يعلم بما يدور حوله، بحيث يمكن لآدم وحواء أن يتواريا عن نظره وكل واحد من تلك الامور يعد كفراً، ولا ينسجم مع مقام الألوهية اطلاقاً.

۵- إنّ الشيطان (نعوذ بالله) أشد حرصاً من اللَّه تعالى على آدم وحواء لأنّه أرشدهما إلى معرفة الحسن والقبح، وهو لم يكف عن اضلاله فحسب بل دعاهما إلى طريق التكامل، بينما الحقيقة هى أننا ندين الشيطان فى علومنا ومعارفنا.

۶- إنَّ الجنة منزل الجهال والأغبياء لأنّ اللَّه أخرج آدم وحواء من الجنّة بجريرة حصولهما على العلم.

۷- إنّ الشيطان إنّما لعن وطرد من ساحة الرحمة الإلهيّة، لأنّه كان يطلب الخير لآدم، فعوقب من دون أن يرتكب ذنباً معيناً.

وكذلك فيما يخص الخرافات الاخرى كالعلم والمعرفة والحياة، وثمار أشجار البستان، أو أنّ غذاء الأفعى هو التراب دائماً، وأمثال ذلك.

والآن يمكننا اجراء مقارنة بسيطة بين ما بينه القرآن فى صدد تاريخ نشوء آدم وصراعه مع الشيطان، وبين ما قرأناه فى العبارات السابقة، لنعلم أيّهما هو الكتاب السماوى وأيّهما نتاج عقل إنسان جاهل؟

۲- لقاء إبراهيم عليه السلام بالملائكة

يبيّن القرآن الكريم قصة مجيء الملائكة إلى إبراهيم فى حالة مسيرتهم إلى قوم (لوط) لإنزال العقاب بحقهم فى قوله تعالى، على النحو التالى:

«وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا ابْرَاهِيمَ بالبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ ان جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ* فَلَمَّا رَءَآ ايْدِيَهُمْ لَاتَصِلُ الَيهِ نَكِرَهُمْ وَاوْجَسَ مِنْهُم خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ انَّا ارْسِلْنَا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۴

الَى قَومِ لُوطٍ* وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرنَاهَا بِاسحقَ وَمِنْ وَرَاء اسحقَ يَعْقُوبَ* قَالَتْ يَاوَيْلَتَى ءَأَلِدُ وَانَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِى شَيْخاً إِنَّ هـذَا لَشَىءٌ عَجِيبٌ* قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُم اهْلَ البَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ* فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ ابْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ البُشْرَى يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ* إِنَّ ابْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ* يَاابْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وإِنَّهُم آتِيهِم عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ». (هود/ ۶۹- ۷۶)

فى هذا المقطع التاريخى لا نواجه شيئا غريباً ومعقداً وغير متعارف أو غير منطقى مطلقاً، فالقصة واضحة المعالم بكل تفاصيلها: حيث أمر اللَّه الملائكة بمعاقبة قوم لوط عليه السلام، وقبل ذلك جاءوا إلى إبراهيم عليه السلام يبشرونه بأنّه سيرزق ولداً، فقرر أن يطعمهم، وسرعان ما اطلع علىحقيقة الأمر وأراد أن يشفع لقوم لوط عليه السلام ليدفع العذاب عنهم، غير أنّ الأمر قد انتهى فقوم لوط لا يستحقون الشفاعة، ثم يبشرونه وزوجته بولادة ابن لهما، وتنتهى فصول هذه القصة.

ولكن لنرى ماذا نسج الكتاب المقدس- (كما يسمونه)، وهو مورد قبول اليهود والنصارى من أساطير فى هذا المجال وما الذى طرحه من مسائل غير منطقية؟

نقرأ فى الفصل الثامن عشر من سفر التكوين مايلى:

«وظهر اللَّه تعالى فى معبر يسمى «بلوطستان» بينما كان (إبراهيم) جالساً على باب الخيمة فى يوم قائظ، وما أن فتح عينيه حتى رأى ثلاثة أشخاص واقفين أمامه. وحينما رآه أخذ يعدو من الخيمة لاستقباله وانحنى إلى الأرض وقال: سيدى الآن وقد حزتُ على التفاتة منك أرجوك ألّا ترحل قبل أن آتيك بقليل من الماء لأغسل رجليك، وتستريح تحت هذه الشجرة وسأجلب بعض الخبز لتقوى به قلبك، وبعد ذلك أرحل لأنّهم سيقولون لقد عمل كما أمره عندما عبر بالقرب منى.

ثمّ هرع إبراهيم إلى (سارة) فى الخيمة، وقال: عجلى فى ثلاثة مكاييل من الحنطة أعجنيها واخبزيها أقراصاً بالتنور، ثم اسرع إبراهيم إلى قطيع الأبقار وأخذ عجلًا ذكراً يافعاً واعطاه لشاب فأعده وحضره بسرعة ثم حمل الزبد والحليب مع العجل الذى أحضره ووضعه أمامه ووقف بالقرب منه تحت تلك الشجرة ليتناول طعامه!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۵

ثمّ قال له: أين امرأتك سارة؟ فقال: ها هى فى الخيمة، وقال آخر: سأعيد لك عمرك وهذه امرأتك سارة سيكون لها ولدٌ، وكانت سارة عند باب الخيمة وراءه تسمع ذلك وهى وإبراهيم كانا عجوزين طاعنين فى السن، وانقطعت عن سارة عادة النساء ضحكت سارة من دون قصد، وقالت: بعد أن هرمت أنا وزوجى هل يمكن أن أكون مسرورة؟!

ثم قال اللَّه تعالى لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة؟ قالت: هل سألد حقّاً بعدما أصبحت عجوزاً، وهل يصعب على اللَّه أمر ما، والحال سأعيد لك عمرك فى الوقت الموعود، وسيكون لسارة ولد، وانكرت سارة وقالت: لم أضحك، لأنّها ذعرت، فقال: ليس كذلك بل ضحكت حقاً!

ونهض هذا الشخص من هناك واتجه إلى سدوم وشايعه إبراهيم ليسلك الطريق.

وقال اللَّه: لا أخفى على إبراهيم الأمر الذى أفعله، لأنّ إبراهيم سيكون حقاً قوماً عظيماً وكبيراً وتتبرك به كافة طوائف الأرض ...

وقال اللَّه تعالى حيث إنّ صيحة (سدوم) و (عموراه) وعالية ذنوبهم عظيمة فسأهبط لأرى هل قاموا بهذه الصيحة كما أخبرت، وإذا لم يكن كذلك فسأطلع على الأمر، وتوجه هؤلاء الأشخاص من هناك وتحركوا باتجاه (سدوم) والحال أنّ إبراهيم لازال واقفاً أمام اللَّه، ثم أخذ إبراهيم يتقرب وقال: هل ستقوم باهلاك الصالح مع الطالح حقاً؟ من الممكن أن يوجد ۵۰ فرداً صالحاً، فى أعماق المدينة، هل يمكن أن تهلك المكان ولا تنقذه بسبب مايوجد فى الأعماق من ۵۰ فرد صالح، حاشا لك أن تقوم بهذا العمل وتهلك الصالحين مع الطالحين فيكون الصالح مساوياً للطالح، حاشا لك، هل يمكن لمن يحكم الأرض بأجمعها أن لا يكون عادلًا؟

ثم قال اللّه تعالى إذا وجدت ۵۰ فرداً صالحاً فى وسط مدينة سدوم فسأخلص كافة أهل ذلك المكان بسببهم، وقال إبراهيم فى الجواب: الآن وقد شرعت فى الكلام من التراب والرماد، أطلب من سيدى، لو انقصنا خمسة أفراد من مجموع ۵۰ فرد صالح .. هل يمكن أن تهلك كل أهل المدينة بسبب أولئك الخمسة أفراد؟ فقال اللّه: لو وجدت ۴۵ فرداً لما أهلكتها.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۶

وتحدث معه مرة اخرى قال لو وجد فيها ۴۰ شخصاً، فقال هو: لا أقوم بهذا الأمر بسبب ۴۰ شخصاً، وقال: إبراهيم أرجو أن لا يغضب سيدى حتى أتكلم بل وجد فيها ۳۰ شخصا، قال: لو وجدت فيها ۳۰ شخصا لما فعلت ذلك.

وقال اخرى والآن وقد منح لى أن أتكلم مع سيدى، بل وجد هناك ۲۰ شخصاً، قال هو لا أهلكها بسبب ۲۰ شخص، وقال تارة اخرى أرجو أن لا يغضب سيدى حتى أتكلم مرّة اخرى بل وجد هناك ۱۰ أشخاص، فقال هو سوف لا أهلكلهم بسبب ۱۰ أشخاص وعندما قضى اللّه الكلام مع إبراهيم بدأ المسير وعاد إبراهيم إلى مكانه» «۱».

استناداً إلى هذه المخطوطة فى التوراة إطلع اللّه تعالى وثلاثة من الملائكة على إبراهيم فى معبر يدعى «بلوطستان» فى أحد الأيّام الحارة، ويقوم إبراهيم باستقبال الملائكة الثلاثة استقبالًا حاراً، وهم بدورهم يتناولون من طعامه (وفهم البعض من هذه العبارة أنّ اللّه تعالى أكل من طعامه!! وأنّ هؤلاء النفر الثلاثة كانوا من المظاهر الثلاثية للّهوفقاً لعقيدة التثليث) وعلى كل حال حمل اللّه البشارة إلى «سارة» بأنها سترزق ولداً، إلّاأنّ سارة ضحكت وعاتب اللّه سارة بالقول لماذا ضحكت فأنكرت ذلك بأنّها لم تضحك إلّاأنّ اللّه أكد عليها بأنّك ضحكت.

ثم إنّ هؤلاء عزموا على الرحيل وأخذ إبراهيم يشايعهم، وفى منتصف الطريق يحدث اللّه نفسه بأنّه لماذا لا يخبر إبراهيم بالقرار الذى يريد أن يتخذه فى حق قوم لوط، لذلك قال له: سمعت ضجة كبيرة من بلاد قوم لوط وقد نقل عنهم ارتكابهم لمعاصى كثيرة، فهبطت من السماء لاحقق النظر فيما أخبرت به هل كان صحيحاً أم لا، وإذا كان صحيحاً فسأبيدهم عن آخرهم، ثم إنّ هؤلاء الثلاثة تحركوا تجاه «سدوم» غير أنّ إبراهيم لم يزل واقفاً أمام اللّه تعالى وبدأ بالمحاورة والمجادلة أو بالاصطلاح (الرد والبدل) فقال: ليس من العدالة بمكان أن تهلك هذه البلاد لو وجد فيها ۵۰ فرداً صالحاً، فطمأنه اللّه تعالى على أنّه لو وجد فيها ذلك لما أهلكهم، ثم يبدأ إبراهيم بالعد التنازلى بشىء من الحيطة والحذر، وفى كل مرة

---

(۱) التوراة، سفر التكوين، الفصل ۱۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۷

يشرع فى حديثه يطلب العفو والمسامحة لئلا يغضب اللّه تعالى حتى أنّه قال مرتين بصراحة: (أرجو أن لا يسبب ذلك فى ازعاجك وغضبك) إلى أن وصل العدد إلى عشرة، ويبدو أنّ إبراهيم لم يجرأ على التنزل أكثر من ذلك، لذا فى هذه الحالة اختار السكوت على مواصلة الحديث، ولما وصلت المحاورة إلى طريق مسدود، انتهى كلام اللّه مع إبراهيم وتحرك اللّه تعالى باتجاه (سدوم) وعاد إبراهيم إلى مقره الأصلى، وانطلاقاً من أنّ المقصود من اللّه عزّ وجلّ فى هذه الآيات (أو بالأصح، الجُمل) هو نفس بارى هذا الكون يمكن أن نستنتج المطالب التالية.

أ) نسبة الجسمانية إلى اللّه تعالى وقد لاحظنا هذا الموضوع فى موارد متعددة من هذه العبارات.

ب) نسبة الجهل إلى اللّه تعالى وذلك بقوله هبطت إلى الأرض، لاحقق النظر فى شأن قوم لوط.

ج) التعصب والتشدد الإلهى! بحيث يلتمس منه إبراهيم أن لا- يغضب، وكان يتوسل بالحيل اللطيفة، من أجل النزول بحالة الغلظة والحدة الإلهيّة ازاء عباده إلى ادنى مستوى ممكن!

د) الملائكة يتناولون الطعام!

ه) (سارة) تلك المرأة المؤمنة العارفة ضحكت على أثر بشارة اللّه ثم بعد ذلك أنكرت أيضاً.

هذه من نقاط الضعف الواضحة لهذه الاسطورة الكاذبة فى التوراة المحرفة التى نسبت إلى اللّه عز وجل ولكن عندما نطالع أصل الواقعة فى القرآن، لا نشاهد أى واحدة من هذه الاشتباهات والنسب الشنيعة، فمن خلال هذه المقارنة تتبين حقائق كثيرة فى هذا المضمار.

۳- منشأ اختلاف اللغات

من المسائل المثيرة التى كانت تقع دائماً فى قائمة الأولويات الأساسية هى مسألة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۸

اختلاف ألسنة شعوب العالم بالرغم من تولدهم جميعاً من وأب واحد وام واحدة، يقول القرآن الكريم فى هذا الصدد: «و مِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمواتِ وَالارْضِ وَاخْتِلافُ الْسِنَتِكُمْ وَالْوانِكُمْ انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلعَالِمِينَ». (الروم/ ۲۲)

إنّنا اليوم نعلم أنّ منشأ اختلاف اللغات فى الواقع يكمن فى شيئين:

أولًا: وجود قدرة (الابتكار) والاختراع فى ذهن البشر فهم يعمدون إلى خلق لغات جديدة وصياغة جمل جديدة فى سبيل تأمين حاجاتهم الذاتية.

وثانياً: الفواصل القائمة بين الملل والشعوب، ففى العصور السابقة عندما كانت الأقوام والشعوب تتباعد عن إحداها عن الاخرى كانت تتحقق تغيرات وتحولات فى ألفاظهم وعباراتهم القائمة شيئا فشيئاً، وذلك لعدم وجود وسائل الاعلام وأخذت هذه التغيرات تتضاعف عبر آلاف السنين فبدأت اللغات والألسنة تنفصل إحداها عن الاخرى فكان ذلك سبباً لبداية نشوء الاختلافات فى الألسنة واللغات.

وانطلاقاً من كون اختلاف اللغات هى أحد دعائم التعرف على الأقوام المختلفة واعتبر ذلك من العوامل المساعدة والمؤثرة فى مسألة التعرف على المجتمع البشرى وإذا كان القرآن الكريم يعدّ اختلاف اللغات إلى جانب اختلاف الألوان من آياته وعلائمه فهى إشارة إلى هذه الحكمة نفسها، لأنّ كلًا من اختلاف الألوان واللغات وسيلة وأداة للتعارف، غاية ما فى الأمر أن الأول خارج عن اختيار البشر والثانى له ارتباط واضح بالإبتكار والإبداع البشرى.

والآن لننظر إلى ما تقوله (التوراة) المحرفة على صعيد اختلاف اللغات.

فقد ورد فى الفصل الحادى عشر من سفر التكوين مايلى:

«وكان اللسان والكلام واحد فى جميع أنحاء الأرض- وحدث عندما أخذوا بالرحيل من الجانب الشرقى «إشارة إلى أبناء نوح وقبائلهم» أن وجدوا وادياً فى أرض شنعار «الاسم القديم لبابل» وسكنوا فيه- وقال بعضهم للآخر هلموا لنصنع الآجر وذلك بحرق اللبن بالنار، وكان الآجر يستعمل بدلًا عن الحجر، والطين اللازب بدلًا عن الجص- وقالوا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۵۹

هلموا لنبنى لنا بلدة وبرجاً يناطح السماء، ولنختار لنا إسماً لئلا نتفرق على وجه الأرض- ولان اللّه تعالى أراد أن يرى مايصنعه بنو البشر من بلدة وبرج، نزل- وقال: إنّ هؤلاء القوم مجموعة واحدة وهم على حد سواء فى اللسان وشرعوا بالقيام بهذا العمل، ولا شىء يمنعهم عما يريدون- بناءه- تعال لننزل إلى الأسفل وهناك نقوم بخلط ألسنتهم حتى لا يفهم أحدهم لسان الآخر- ومن هناك عمد اللّه إلى تفريقهم على وجه الأرض بأكملها، وحال دون اتمام بناء البلدة وصار سبباً لتسميتها ببابل، لأنّ اللّه خلط كل الأرض فيها، ومن هناك فرقهم على جميع وجه الأرض» «۱».

ووفقاً لهذه الرواية الموجودة فى التوراة، كانت لغة جميع الناس واحدة على وجه الأرض فى البداية إلى أن اجتمع أبناء نوح وقبائلهم

فی (شنعار) بابل، وصمموا علی عمل مهم، وهو بناء بلدة کبیرة وبرجاً عالیاً، ولم یکن هذا العمل مرضیاً عند اللّه تعالی فکان قلقاً من تحرکهم ومایؤول ذلک من نتائج لذا قال لبعض الملائکة هیا اهبطوا إلی الأرض لایجاد الاختلاف فی السنتهم حتی یتفرقوا (فأوجد الاختلاف بینهم حتی افرض هیمنتی الإلهیة) ووقع هذا الأمر، ونظرا لعدم فهم أحدهم للغة الآخر انتشروا فی البقاع المختلفة، وحال دون اتمام بناء البرج العظیم.

وقد أشیر فی کتاب (أعلام القرآن) إلی وجه تسمیة «بابل» بهذا الاسم بالقول:

(رواة القصة ظنوا أنّ لفظة «بابل» مأخوذة من بلبل وقالوا إنّ الناس اجتمعوا فی هذه المدینة بعد طوفان نوح وشیدوا فیها برجاً لتصبح علامة علی مرکزیتهم وشکلوا فیها المجامیع الرسمیة ولکنهم عندما ناموا فی اللیل واستیقظوا فی الصباح اختلفت ألسنتهم واخذ کل منهم یتکلم بلغة جدیدة، وعلی أثر عدم حصول التفاهم بینهم افترقوا فی أنحاء العالم ونشأ من کل واحد منهم شعب من الشعوب «۲».

هذه الاسطورة تنطبق تماماً مع مانقلناه سابقاً فی متن التوراة التی دلت علی أنّ

---

(۱) التوراة، سفر التکوین، الفصل ۱۱، من الجملة ۱ إلی ۹.

(۲) اعلام القرآن، ص ۲۳۸.

الاختلاف فی اللغات تحقق من قبل اللّه تعالی من أجل مقارعة قدرة المجتمع البابلی.

إلّا أنّ السید «هاکس» مؤلف کتاب «القاموس المقدس» له کلام آخر لتبریر ما ورد من جمل فی التوراة إذ یقول: «کانت الدنیا بأجمعها تمتلک لهجة ولغة واحدة إلی حدود الألفین عام تقریباً ... لکن بعد مائة سنة من الطوفان، أی فی زمن عصیان الکوشیون «۱» فی بابل، أوجد اللّه تعالی بشکل خارق للعادة الاختلاف فی لغاتهم، وبسط ولایته علی وجه الأرض مع هذه الأقوام المختلفة والألسنة المتنوعة» «۲».

وفی موضع آخر یقول:

«بناء علی عدم کون هذه المسألة وهی (بناء البرج العالی) موافقة للإرادة الإلهیة أوجد اللّه تعالی الاختلاف فی ألسنتهم بحیث لم یکن بمقدور أحدهم أن یفهم کلام الآخر ولهذا السبب انتشروا فی جمیع بقاع المعمورة وتحققت علی إثر ذلک امنیة اللّه تعالی وتعمرت الأرض» «۳».

هذه التعابیر توحی إلی أنّ الغایة الإلهیّة من ایجاد هذا التبعثر فی لغة مجتمع بابل، هی العمران والتشیید، والحال أنّ التوراة فی العبارة التی نقلناها تقول بصراحة: إنّ الهدف من ذلک لم یکن سوی إضعاف مجتمع بابل وکسر قدرتهم ووحدتهم وشوکتهم، إلّاأننا نعلم علی کل حال بأنّ منشأ اختلاف اللغات لم یکن مثل هذا الأمر علی الاطلاق، وأنّ العامل الأساسی لهذا الأمر هو مرور الزمان وتباعد الأقوام فیما بینهم، ولازال الحدیث فی المطلب متواصلًا أیضاً.

۴- عباده العجل من قبل بنی اسرائیل

وردت الإشارة إلی قصة عجل السامری فی القرآن الکریم فبعدما جاء موسی علیه السلام إلی

---

(۱) «کوشیان»، هو اسم والد نمرود.

(۲) القاموس المقدس، مادة (اللغة).

(۳) المصدر السابق، مادة (بابل).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۱

ملتقى الوعد الإلهى (جبل الطور) ليتسلم آيات الوحى وجه اللّه تعالى إليه الخطاب بالقول:

«قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَاضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ* فَرَجَعَ مُوسَى الَى قَوْمِهِ غَضْبانَ اسِفًا قَالَ يَاقَوْمِ الَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدَاً حَسَنًا افَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ امْ ارَدتُّم انْ يَحِلَّ عَلَيكُم غَضَبٌ مِن رَّبِّكُم فَاخْلَفْتُم مَّوْعِدِى* قالُوا مَا اخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا اوْزاراً مِنْ زِينَةِ القَوم فَقَذَفْنَاهَا فَكَذلِكَ الْقَى السَّامِرِيُّ* فَاخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقالُوا هَذَا الهُكُم وَالَهُ مُوسَى فَنَسِىَ* افَلَا يَرَوْنَ الّا يَرجِعُ الَيهِم قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُم ضَرًّا وَلا نَفْعًا* وَلَقَدْ قَالَ لَهُم هَارُونُ مِنْ قَبْلُ ياقَومِ انَّمَا فُتِنْتُم بِهِ وَانَّ رَبَّكُمُ الرَّحمنُ فَاتَّبِعُونِى وَاطِيعُوا امْرِى* قَالُوا لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيهِ عَاكِفِينَ حَتّى يَرْجِعَ الَيْنَا مُوسَى قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ اذْ رَايْتَهُم ضَلُّوا* الَّا تَتَّبِعَنِ افَعَصَيتَ امْرِى* قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَاتَاخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَاْسِى انِّى خَشِيتُ انْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِى اسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرقُبْ قَوْلِى* قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ* قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّن اثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى».

(طه/ ۸۵- ۹۶)

يستفاد من مجموع هذه الآيات أنّ بنى اسرائيل فى غياب موسى قد غرّر بهم «السامرى» ذلك الرجل المنحرف والذى يقال إنّ له خبرة فى صياغة الذهب، فصنع لهم من حُليّهم وزينتهم عجلًا من ذهب وانبرى هارون إلى منازلتهم. إلى أن يقول القرآن فى مقام اعتذار هارون من موسى «إنَّ القَومَ اسْتَضعَفُونِى وَكَادُوا يَقتلُونَنى». (الأعراف/ ۱۵۰)

وأخيراً انزعج موسى عليه السلام كثيراً من هذه القضية، وألقى باللائمة على أخيه، وعاتب السامرى، وأحرق صنمه بالنار، وذرَّ رماده فى البحر، ووجه عقاباً صارماً إلى بنى اسرائيل، والآن لنلقى نظرة على ما تقوله التوراة فى هذا المجال:

جاء فى الفصل الثانى من سفر الخروج فى التوراة مايلى:

«ولما رأى القوم أنّ موسى عليه السلام يتريث فى هبوطه من الجبل، اجتمع أولئك القوم عند

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۲

هارون)؛ وقالوا له: انهض واصنع لنا آلهة تسير أمامنا، لأننا لا نعلم ما حلّ بذلك الرجل الذى أخرجنا من ملك مصر- وقال لهم هارون أخرجوا الاقراط الذهبية من آذان نسائكم وصبيانكم! وبناتكم واجلبوها عندى- فاخرج جميع القوم الأقراط الذهبية التى كانت فى آذانهم وجاءوا بها إلى هارون، فأخذها من أيديهم، فصورها بشكل بارز، وصبت على شكل عجل وقالوا: ياأسرائيل هذه هى آلهتك التى أخرجتك من أرض مصر.

وعندما رأى هارون ذلك أقام مذبحة مقابل ذلك، ونادى هارون وقال غداً سيكون عيداً نعقده لهذا الإله- وقاموا فى وقت السحر وقربوا القرابين المحترقة وقذفوا الهدايا بالقرب منها للحفظ والسلامة وجلسوا للأكل والشرب وقاموا من فورهم للّعب- وقال اللّه تعالى لموسى عليه السلام انزل إلى قومك، لأنّ القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر قد فسدوا- بل إنّهم انحرفوا بسرعة عن المسلك الذى أمرتهم به، وصنعوا لأنفسهم عجلًا أعدوه من قبل وسجدوا له وقدموا له قرباناً أيضاً، وقالوا لاسرائيل هاهى آلهتك التى اخرجتك من أرض مصر، لكن موسى طلب من ربّه وقال: لماذا تصب غضبك على القوم الذين أخرجتهم من أرض مصر بحولك العظيم لكى لا يتكلم أهل مصر بأنّك أخرجتهم لقصد سيّء، حتى تقضى عليهم فى وسط الجبال ولتبيدهم من على وجه الأرض؛ تنازل من شدّة سخطك! وغيّر إرادتك بصدد انزال البلاء على قومك، واذكر عبادك إبراهيم واسحاق واسرائيل، لأنّهم أقسموا بذاتك من أجلهم، قلت لهم: بأنّى سأبارك فى ذرّيتكم واجعل عددكم بعدد النجوم.

ووقع الأمر بالفعل، فعندما اقترب من المخيم شاهد العجل والمهرولين وثارت ثائرة موسى، فألقى الألواح من يده، وكسرها تحت الجبل، وأخذ العجل الذى صنعوه وأحرقه بالنار وسحقه إلى أن أصبح تراباً ثم نثره فى الماء، وسقى بنى اسرائيل منه! وقال موسى

لهارون: ماذا فعل بك هؤلاء القوم حتى أقدمت على ارتكاب هذا الذنب العظيم، فقال هارون: لاتثر ثائرة سيدى لأنّك تعلم أنّهم يميلون إلى الخطايا، وقالوا لى اصنع لنا آلهة نقتدى بهم ونمضى خلفهم، لأنّ موسى الرجل الذى أخرجنا من أرض مصر، لا نعلم ماذا حلَّ به، وأنا قلت لهم: ليخرج كل من كان لديه قطع ذهبية، ثم أعطونى إيّاها والقيتها فى نار حامية فخرج هذا العجل ...

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۳

ورجع موسى إلى ربّه، وقال وا أسفى على ما ارتكب هؤلاء القوم من ذنب عظيم لأنّهم صنعوا لأنفسهم آلهة من ذهب، والآن لو رفعت عنهم وزرهم وإلّا ألتمس منك أن تمحو إسمى من الكتاب الذى عهدته لى (مقام النبوة)!

وقال اللَّه تعالى لموسى كل من أقام على الذنب امحو اسمه من كتابه، فإذن تحرك الآن وارشد هؤلاء القوم إلى المكان الذى أوصيتك به «۱».

ويستفاد من العبارات السابقة المنقولة عيناً من كتاب العهد القديم عدّة نكات:

۱- إنّ الأمر بصنع الصنم وعبادته صدر من هارون، كما أنّ الأمر تحقق بمعونته أيضاً وهو فضلًا عن عدم نهيه عن هذا العمل كان مروجا له ومرسياً لدعائمه، ولم يأت الحديث عن السامرى فى هذا الفصل مطلقاً، ترى هل يمكن تحقق هذا العمل من قبل شخص يقوم مقام موسى بصفته وزيراً مساعداً وملازماً ورئيساً لكهنة بنى اسرائيل- بشهادة التوراة- كيف يصدق العقل والمنطق أن تُنسب هذه النسبة القبيحة والمخجلة إلى هارون «۲»؟

۲- إنّ اللَّه تعالى اشتد غضبه على أثر هذه القضية بحيث أراد أن يبيد قوم موسى لكن موسى نبّهَ اللَّه تعالى إلى نكتتين (خصوصاً أنّه يخاطب اللَّه تعالى بجملة واحدة ويقول لا يعزب عن بالك ليهدأ من فورة غضبه وسخطه، الاولى إنّك إذا قمت بهذا العمل فإنّ أهل مصر سيقولون: ألهذه الغاية اخرجت بنى اسرائيل من مصر، كى تقتلهم فى وسط الجبال وتبيدهم من على وجه الأرض، والاخرى هى أنّك اعطيت موثقا بأنى سأزيد من نسل أبنائكم بعدد نجوم السماء، وهذا العمل لا ينسجم مع هذا القول والقسم! وتغيرت مشيئة اللَّه تعالى على أثر تنبيهات موسى له كما هو المصرح به فى التوراة.

۳- إنّ موسى عليه السلام بعد أن أحرق العجل بالنار، نثر رماده فى الماء وأعطى هذا الماء لبنى اسرائيل كى يشربوا منه فهل كانت هناك خصوصية فى الرماد المتبقى من العجل حتى يشربوا من مائه؟!

---

(۱) نقلًا عن التوراة المترجم والذى طبع فى بريطانيا سنة ۱۸۷۸ ص ۱۰۴ و ۱۰۵، (سفر الخروج الباب ۲۳).

(۲) مؤلف كتاب «القاموس المقدس» هاكس الاميركى يقدم توجيهاً مضحكاً لهذه القصة إذ يقول:

«لقد قام هارون بهذا العمل لإسكات القوم»، فمع أنّ هذا الكلام يصدق عليه القول المعروف «العذر أقبح من الفعل»، فهو لا يتلائم أبداً مع اقامة المذبحة والأمر بالقربان وتعيين العيد.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۴

۴- حينما اعترض موسى على هارون، قال هارون بهدوء تام له: أنت تعلم مدى ميل هؤلاء القوم نحو الخطايا وهم طلبوا منى وأنا لبيت طلبهم (ياله من عذر؟! ...) وموسى لم يعترض عليه فى المرة الثانية (فياله من مصلح متقاعس).

۵- وفى نهاية المطاف ذهب موسى عليه السلام إلى محضر القدس الإلهى، وهدد اللَّه بالاستقالة من مقام النبوة قائلًا: إذا غفرت لهؤلاء العاصين فهو الأحسن وإلّا فامحو اسمى من الكتاب الذى دونته! (واعهد بهذه المهمّة الشاقة إلى شخص آخر ...).

لاحظوا جيداً إلى ما رسمته التوراة عن اللَّه، والنبى، ووزيره، ثم قارنوا بعد ذلك بين هذا الفصل التاريخى وبين ماورد فى القرآن!

۵- قصة النبى داود عليه السلام وزوجة اوريا

من المقاطع التاريخية الاخرى للقرآن الكريم، هى مسألة «قضاء داود» النبى عليه السلام التى دارت بين أخوين متخاصمين.

ويفصل القرآن القول فى هذه القصة بالنحو التالى:

«وَهَل اتَاكَ نَبؤُ الخَصمِ اذْ تَسَوَّرُوا المِحْرَابَ* اذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لاتَخَفْ خَصْمَانِ بَغى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بالحَقِّ وَلاتُشْطِطْ وَاهْدِنَا الَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ* انَّ هَذَا اخِى لَهُ تِسعٌ وَتِسعُونَ نَعجَةً وَلِىَ نَعجةٌ وَاحِدةٌ فَقَالَ اكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الخِطابِ* قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ الَى نِعَاجِهِ وَانَّ كَثيراً مِنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ الَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاودُ انَّمَا فَتَنَّاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَانَابَ* فَغَفَرنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنا لَزُلفَى وحُسنَ مَآبٍ* يَادَاوُدُ انَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الارْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الـذَّينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُم عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَومَ الحِسَابِ».

(ص/ ۲۱- ۲۶)

فى هذا المقطع التاريخى من حياة داود عليه السلام، لانقع على أى مفهوم سلبى سوى أنّه تسرع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۵

شيئاً ما فى إصدار الحكم، فحينما طرح أحد هذين الأخوين ادّعاءه، أعرب عن قوله ومن دون أن يستمع إلى ادّعاءات الأخ الثانى: إنّ أخاك قد ظلمك وأنّه لاينبغى أن ينازعك فى صدد نعجة واحدة مع كل مايمتلكه من المال والثروة، وإن كان هذا لا يمثل الحكم النهائى لداود عليه السلام، إلّاأنّ نفس هذا المقدار من التسرع فى إصدار الحكم لا يصلح لمقام القضاء العادل بصورة عامة، وقضاء النبى داود عليه السلام بصورة خاصة، ولعل هذا هو السبب فى توبته واستغفاره وسجوده.

ولأجل هذه الدقّة فى مسألة القضاء والتماس المغفرة والمسامحة من هذه الزلة أعطاه اللّه المقام المحمود.

والشاهد على هذا التوجيه للآيات السابقة هى الآية التى وردت مباشرة بعد هذه الآيات وذلك عندما يقول: «يَادَاوُدُ انَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرضِ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ».

هذه الآية تدل بوضوح على أنّ المخالفة، أو بعبارة أصح، ترك الأولى الذى صدر من النبى داود عليه السلام لم يكن يتضمن فى حقيقته بعض الامور التى هى من قبيل الغرام والتعلق بزوجة أحد قادة جيشه الذى يدعى باسم (اوريا) وأمثال ذلك من المفاهيم التى نسجتها ذهنية أهل الأساطير استناداً إلى ما جاء فى التوراة.

والآن نعود إلى التوراة الفعلى المحرف لننظر إلى مايقوله فى هذا المجال:

نطالع فى الكتاب الثانى لاشموئيل هذه الحادثة:

«ووقع عند الغروب عندما نهض من فراشه وطاف حول سطح بيت الملك، ورأى من السطح امرأة تستحم وكانت هذه المرأة غاية فى الجمال والرشاقة، وأخذ داود يستفسر عن هذه المرأة، وقال شخص أليست «بث شبع» «۱» (وهذا اسمها) وهى بنت «اليعام» «۲» زوجة «اورياه حتّى» «۳»؟

---

(۱) «بث شبع» اسم تلك المرأة التى رآها داود- طبقاً لما تقوله التوراة- عارية من سطح البيت وعشقها، وهى ابنةاليعام أحد أصحاب المناصب العبرية.

(۲) المصدر السابق.

(۳) «اوريا»، بتشديد الياء اسم أحد القادة البارزين فى جيش داود، و «حتّى» بتشديد التاء وكسر الحاء نسبة إلى «حت بن كنعان» الذى يعرف قومه ب «بن حت».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۶

وأرسل داود اليجيان فأمسكها وجيء بها إليه، فاضطجع معها وبعد التطهير من النجاسة ذهبت إلى بيتها وحملت المرأة، وأرسلت إلى داود من يخبره أنّها حاملة وأرسل داود إلى «يوآب» (قائد جيشه) أن ابعث اليّ «اورياه حتّى» وبعث يوآب اورياه إليه وقدم عليه، فسأله داود عن سلامة يوآب وسلامة القوم وعن استقرار أوضاع الحرب.

وقال داود لاورياه انزل إلى بيتك واغسل رجليك، وخرج اورياه من قصر الملك واخرج من ورائه مقداراً من طعام الملك، إلّاأنّ اورياه نام مع سائر عبيد سيده في رحبة القصر ولم ينزل في بيته فحينما خبروا داود أنّ اورياه لم ينزل في بيته، فقال داود لاورياه ألم تأتِ من السفر فلمَ لم تنزل في بيتك؟ فقال اورياه لداود: إنّ الصندوق واسرائيل ويهوداه يسكنون تحت السقوف ويجلس سيدي يوآب وعبيده في خيمة وسط الصحراء، فهل يجوز لي أن أذهب إلى البيت لأقضي وطري من الطعام والشراب والنوم مع زوجتي، أقسم بحياتك أن لا أقوم بهذا العمل قط ...

وتحقق الأمر بالفعل بأنّ كتب في الصباح رسالة إلى «يوآب» وبعثها بيد اورياه، وكتب الرسالة بهذا المضمون. ألقوا بأورياه في اتون حرب ضارية ثم امنعوه من الانسحاب، حتى يصاب ويموت «أي يقتل» وتحقق الأمر بالفعل بعدما ألقى يوآب نظرته على المدينة، ووضع اورياه في الموضع الذي علم بوجود الرجال الشجعان فيه وخرج رجال المدينة، وقاتلوا ضد يوآب، وسقط البعض من القوم عبيد داود ومات «اورياه حتّى» أيضاً ... وعلمت زوجة اورياه أنّ زوجها قد مات وأقامت العزاء في حق زوجها وبعد انتهاء العزاء أرسل على أثرها داود عليه السلام وأتى بها إلى بيته وأصبحت زوجته! ... غير أنّ العمل الذي أقدم عليه داود لم يكن مرضيا عند اللّه تعالى » «۱».

خلاصة القصة أن داود عليه السلام عندما كان في «اورشليم» صعد في يوم من الأيّام إلى سطح القصر، فوقعت عيناه على البيت المجاور له، فشاهد امرأة عارية فوقع حبّها في قلبه وجلبت بعنف إلى قصره واضطجع معها فحملت منه!.

---

(۱) نقل عن الكتاب الثاني شموئيل الفصل ۱۱، من الجمل ۲، وحتى ۲۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۷

وكان زوج هذه المرأة من القادة المرموقين لجيش داود وكان رجلًا مجبولًا على الصفاء ونقاء الطبع بحيث إنّه عندما عاد من ميدان القتال لم تطاوعه نفسه أن يذهب إلى بيته ويضطجع مع زوجته ويستمتع بالأطعمة الممتازة مواساة منه لأترابه المقاتلين الذين لازالوا في ميدان القتال يعيشون في الخيمة، بالرغم من ذلك أصدر داود قراراً مجحفاً جدّاً، فكتب رسالة إلى قائد عسكره (يوآب) وأعطاها بيد (اورياه) نفسه ليوصلها بدوره إلى قائد العسكر، وقد كتب في هذه الرسالة أنّه لابدّ من تحديد مسؤوليته في احدى المواضع الخطرة لساحة القتال، ثم تخلية أطرافه كي يقضى عليه بسيف الأعداء، ونفذ هذا القرار الاجرامي المشؤوم، وقتل على أثره اورياه الطاهر القلب والنقي والشجاع واستأثر داود عليه السلام بزوجته!! .... ونقرأ في الجملة الأخيرة من هذا الفصل «أنّ هذا العمل لم يقع مورداً لرضا وقبول الحق تعالى ».

والآن نعود إلى تتمة الحكاية، فقد ورد في الفصل الآتي من التوراة مايلي:

«وبعث اللّه تعالى «ناثان» «۱» إلى داود فجاء إليه، وقال له: كان في احدى المدن شخصان أحدهما غني والآخر فقير، كان الغني يمتلك غنماً وبقراً كثيراً جدّاً، ولم يكن الفقير يمتلك سوى انثى واحدة من الغنم، اشتراها وربّاها وتعاهدها مع أولاده بالرعاية تأكل من طعامه وتشرب من إنائه وتنام في احضانه وكانت كأحد بناته.

وقدم مسافر إلى هذا الغني وآل على نفسه أن يأخذ من أغنامه وأبقاره حتى يعده للمسافر الذي قدم عليه وأخذ نعجة ذلك الرجل الفقير وذبحها على شرف الرجل المسافر الذي قدم عليه.

وثارت ثائرة داود وقال ل (ناثان) أقسم باللَّه الحى القيوم، أنّ الرجل الذى فعل ذلك يستحق القتل! وبسبب فعله هذا وعدم اعتنائه يجب أن يؤخذ منه!.

حينئذٍ قال ناثان لداود: إنّ ذلك الرجل هو أنت، يقول اللَّه تعالى ربّ اسرائيل: أنا الذى

---

(۱) «ناثان أو ناتان» أحد أنبياء بنى اسرائيل وكان مستشاراً لداود.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۸

جعلتك سلطانا على اسرائيل وأنقذتك من ربقة «شاوول» «۱» ... لماذا استهنت بأمر اللَّه تعالى وارتكبت عملًا قبيحاً لديه فضربت، (اوریاه حِتّی) بالسيف، وفعلت مع زوجته فعلا قبيحاً، إنّك قتلته بسيف «بنى عمون» «۲»، والآن لن يفارق بيتك السيف أبداً، والسبب فى ذلك هو تحقيرك لى، أخذت امرأة (اوریاه حتی» لتكون زوجتك، واللَّه تعالى يقول سأشعل فتيل البلاء عليك من قصرك وساخذ زوجاتك من أمام عينيك واعطيها لصاحبك! وسينام مع نساءك فى عين هذه الشمس! لأنّك قمت بهذا العمل سراً أمّا أنا فسأنفذ العقاب فى وضح النهار بمرأى ومسمع من بنى اسرائيل.

وقال داود ل «ناثان»: إنّى خالفت أمر اللَّه تعالى بارتكابى الذنب، وقال «ناثان» لداود أيضاً: إنّ اللَّه قد عفى عن ذنبك ولن تموت ...

وقدم داود التعازى إلى زوجته «بث شبع» وقاربها، نام معها فأنجبت ولداً سماه (سليمان) وقد أحبّه اللَّه تعالى «۳».

تظهر فى هذا المقطع من القصة بعض الملاحظات التى ينبغى التدقيق فيها:

أ) لم يأت إلى داود عليه السلام من يطالب بإجراء العدالة وإنّما جاء إليه أحد أنبياء بنى اسرائيل فى ذلك العصر وقد كان مستشاراً لداود وذكر له على سبيل المثال أحد القصص للموعظة والنصيحة، ولم يتطرق الحديث فى هذه القصة إلى الأخوين، وإنّما اتّجه البحث إلى الرجلين الغنى والفقير وكان أحدهما يملك قطيعاً كبيراً من الأبقار والأغنام والآخر لا يملك سوى نعجة واحدة، كما أنّه لم يتطرق الحديث فى هذا الموضع أيضاً إلى مسألة استدعاء الشخص الأول من الثانى، بل غاية ما فى الأمر أنّه حينما قدم ضيف إلى الرجل الغنى ذبح النعجة التى كَبُرت على يد الرجل الثانى واعدها طعاماً للضيف.

ب) ذهب داود عليه السلام إلى الاعتقاد بأنّ مثل هذا الظالم يستحق القتل (ولماذا يتوجّب القتل من أجل اغتصاب نعجة واحدة؟!).

---

(۱) «شاوول»، أحد سلاطين بنى اسرائيل.

(۲) «بنى عمون»، كانت من الشعوب المحاربة التى تعيش فى الطرف الشرقى من «البحر الميت» وقد حاربهم داود.

(۳) الكتاب الثانى، شموئيل الفصل ۱۲، من الجملة ۱، وحتى ۲۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۶۹

ج) حكم داود عليه السلام بإعطاء أربع نعجات عوضا عن نعجة واحدة (فلماذا أربع مقابل واحدة!).

د) اعترف داود عليه السلام بذنبه وعمله القبيح فى صدد قضية زوجة «أوریاه».

ه) وعفى اللَّه تعالى عن داود (بهذه البساطة؟!).

و) وقدر اللَّه تعالى لداود جزاء دنيوياً واحداً وهو أن تقع نساؤه فى أيدى أصحابه فيمارسون معهنّ هذا العمل فى وضح النهار وبمرأى من بنى اسرائيل!.

ز) وبالنتيجة أصبحت إحدى هذه النساء أمّاً ل (سليمان) وولد منها سليمان وكان اللَّه تعالى يحبّه أيضاً؟!

إذا اعتقدنا بنبوة داود من قبل اللَّه تعالى كما يقر بذلك جميع المسلمين وتؤيدها مقاطع من عبارات التوراة، فليست هناك أدنى حاجة للبحث والمناقشة فى منافاة هذه الأعمال لمقام النبوة، ولا يقتصر هذا الأمر على عدم انسجامه مع منزلة النبوة بل يعتبر من‌الأعمال

الإجرامية الكبرى والذى يعد حدوثه من قبل شخص عادى أمراً شاذاً وغريباً من نوعه ويستحق العقاب، فكيف يمكن التصديق بأنّ اللّه تعالى يعفو ويتسامح بهذه البساطة عن إنسان قاتل عرض أحد قادة جيشه للقتل عمداً، من أجل الإستيلاء على زوجته ثم اقترف الزنى بها قبل الزواج منها؟!

وإذا اعتبرناه ملكاً من ملوك بنى اسرائيل فقط- كما وردت أحواله فى كتاب الملوك والسلاطين فى التوراة- لايقبل منه ذلك أيضاً على الاطلاق لأنّه:

أولًا: لم يكن ملكاً عادياً، فالتوراة أفصح عن عظمة داود ومقامه الشامخ فى فصوله المختلفة، وأنّه هو الذى وضع الحجر الأساس للمعبد الكبير لبنى اسرائيل والذى لم يكتمل بناؤه فى زمانه بسبب الحروب الكثيرة وألقيت مسؤولية اكماله على ابنه سليمان، ترى هل يمكن صدور هذا العمل من قائد يمتلك مقاما معنوياً محموداً ويكون مسدداً ومؤيداً من قبل اللّه تعالى !

ثانيا: من الكتب المعروفة للتوراة كتاب «مزامير داود» وأناشيده الاعتقادية ومناجاته،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۰

فهل يمكن أن تقع مناجاة ودعوات «قاتل ارتكب الزنى بالمحصنة» ضمن الكتب السماوية؟

إلّا أننا عندما نعود إلى القرآن، نجد أنّه لا أثر لأىحديث عن عشق داود وإجرامه واقترافه للذنب ولا على فقرات هذه القصة الكاذبة، وإنّما ورد الحديث عن حكاية لأحد المحاكم العادلة- وذلك بشكل جدى لا على شكل مثال- والذى سبق شرحه من قبل، وممّا تجدر الإشارة إليه هو خلو القرآن من هذه التهم، والنكتة التى ينبغى ذكرها فى هذا الموضع أيضاً هى أنّ من المؤسف وقوع بعض المؤرخين والمفسرين الإسلاميين تحت تأثير الأساطير الكاذبة للتوراة ونقلهم إيّاها فى كتبهم، ومن البديهى أنّ أحاديث هذا النمط من الأفراد لا تمتلك أى قيمة علمية وتاريخية وتفسيرية، وذلك لعدم وجود أدنى دليل على مقالاتهم فى المنابع الإسلامية المعتبرة.

والجدير بالذكر هو مانقل عن الإمام على عليه السلام قوله: «لا اوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة اوريا إلّاجلدته حدّين حدّاً للنبوّة وحداً للاسلام» «۱».

۶- هل أنّ سليمان عليه السلام بنى معبداً للأصنام؟!

ورد التعريف بشخصية سليمان عليه السلام فى القرآن الكريم على كونه نبياً كبيراً وقائداً مقتدراً امتلك سلطة عريضة وفريدة من نوعها، واشيد بعظمته وصلاحه فى سور قرآنية مختلفة، من جملتها سورة البقرة، النساء، الأنبياء، النمل، سبأ وص، فعلى سبيل المثال نقرأ قوله تعالى

«وَوَهَبنَا لِدَاودَ سُلَيمانَ نِعْمَ العَبدُ إِنَّهُ اوَّابٌ». (ص/ ۳۰)

القرآن فى حكايته المفصلة نوعاً ما التى أوردها فى السور المتقدمة الذكر عن هذا النبى الكبير ليس فقط لا ينسب له نسبة عبادة الصنم وصناعته مطلقاً وإنّما يعدّ كافة جوانب حياته نزيهة من أى لون من ألوان التلوث بالشرك والمعصية.

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۸، ص ۴۷۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۱

يكفى فى هذا المجال مراجعة سورة الأنبياء (الآيات ۲۸ إلى ۸۲) وسورة النمل (الآيات ۱۵ إلى ۴۴) وسورة ص (الآيات ۳۰ إلى ۴۰) وعلى الخصوص قصة هداية (ملكة سبأ) وانقاذها من براثن الشرك ودعوتها إلى التوحيد الخالص، وخاصة عندما يقول: «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّها كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ». (النمل/ ۴۳) وأساساً، يستفاد من الآيات الموجودة فى نفس السورة أنّ الهدف

الرئيسى لسليمان فى واقعة ملكة سبأ يكمن فى محاربة الشرك والوثنية وانقاذها وقومهامن وطأة هذا الانحراف، والآن نعود إلى التوراة الفعلى المحرف لننظر إلى ما يقوله فى شأن سليمان وما يختلقه من صورة بشعة عن هذا النبى العظيم، صورة لرجل مفتون بالأهواء بحيث ساقه هوسه وهواه إلى حد الشرك والوثنية وحتى بناء معبد للأصنام.

جاء فى الكتاب الأول للملوك والسلاطين مايلى: «وأحبّ الملك سليمان نساء أجنبيات كثيرة من الامم التى قال الربّ لبنى اسرائيل فى شأنها: لا تذهبوا إليهن ولا يذهبن إليكم فإنّهنّ يستميلنّ قلوبكم إلى اتباع آلهتهن، فتعلق بهن سليمان حبّاً لهنّ، وكان له سبع مائة زوجة وثلاث مائة جارية فازاغت نساؤه قلبه، وفى زمن شيخوخة سليمان تمكن أزواجه من امالة قلبه إلى اتباع آلهة اخرى فلم يكن قلبه مخلصاً للربّ إلهَهُ، كما كان قبل داود أبيه فتبع سليمان عشتروت آلهة الصيدونيين، وملكوم بنى عمون ووضع الشر فى عينى الرب ولم يتبع الرب اتباعاً تاماً مثل أبيه داود.

حينئذٍ بنى سليمان مشرفاً لكاموش صنم قبيلة موآب فى الجبل المقابل لاورشليم ولمولك صنم بنى عمون، وكذلك صنع لجميع نسائه الغريبات اللواتى كن يحرقن البخور ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان، لأنّ قلبه مال عن الرب إله اسرائيل الذى تراءى له مرّتين وأمره فى ذلك أن لا يتبع آلهة اخرى فلم يحفظ ما أمره الرب به، فقال الرب لسليمان: بما أنّ أمرك هذا، وأنت لم تحفظ عهدى وفرائضى التى أمرتك بها، فسأنتزع الملك عنك واسلمه إلى عبدك، إلّاأنّى لا أفعل ذلك فى أيّامك نظراً لداود أبيك، بل انتزعه من يد ابنك» «۱».

---

(۱) سفر الملوك الأول، الفصل ۱۱: ۳۳: ۳۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۲

يستخلص من مضمون هذه القصة الكاذبة للتوراة مايلى:

أ) كان لسليمان عليه السلام علاقات كثيرة بنساء الطوائف المشركة، وقد استولى على قسم كبير منهن خلافا لأمر اللَّه ثم أخذ يميل إلى معتقداهن شيئاً فشيئاً، وبالرغم من كونه شخصاً ميالًا للنساء فقد حاز على ۷۰۰ امرأة بالعقد الدائم و ۳۰۰ امرأة بالعقد المنقطع! إلّاأن تعلقه الشديد بالنساء ادى به إلى ابتعاده عن طريق اللَّه تعالى .

ب) أصدر سليمان قرارا معلنا ببناء معبد للأصنام، وبنى على الجبل المطل على «اورشيلم» تلك البقعة المقدّسة لاسرائيل، معبدا لصنم كموش- الصنم المعروف لطائفة الموابيان- وصنم مولك- الصنم المختص بطائفة بنى عمون- وبرزت فى نفسه علاقة خاصة بصنم «عشتروت» الصنم المنسوب إلى الصيدونيان، وقد تحقق ذلك كله فى عهد شيخوخته!

ج) ووجه اللَّه تعالى له عقابا على هذا الانحراف والذنب العظيم، وتبلور هذا العقاب فى أن يسلب منه مملكته وسلطانه ولكن لا يسلبه من يده شخصاً وإنّما يسلبه من يد ابنه «رحبعام»! وسيمنحه فرصة البقاء فى الحكم متى شاء، وهذا الأجل لكونه من عباد اللَّه المقربين؛ لقد كان والد سليمان هو داود، ذلك العبد المقرب عند اللَّه والذى أقدم على قتل النفس وارتكاب الزنى بالمحصنة، وهى زوجة أحد قادة جيشه!!

هل يمكن لأحد الأشخاص العقلاء أن ينسب هذه التهم الفظيعة إلى ساحة إنسان مقدس كالنبى سليمان؟!

إذا اعتقدنا بنبوة سليمان عليه السلام- كما صرح به القرآن- فالأمر واضح وإذا وضعناه فى قائمة ملوك بنى اسرائيل، فكذلك لا يمكن أن تصدق فى حقه مثل هذه التُهم أيضاً.

ولو أننا أنكرنا نبوته فمن المسلم أنّه كان تالياً للنبى من بعده، لأنّ من الكتب التى اشتملت على أقوال هذا الرجل الإلهى الكبير كتابين من كتب العهد القديم أحدهما يقع تحت عنوان «مواعظ سليمان» أو «حكم سليمان» والآخر تحت عنوان «نشيد سليمان» بالإضافة إلى أنّ التوراة فى الفصل الثالث من الكتاب الأول لتاريخ الملوك «الجمل من ۵

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۳

إلى الأخير» يقول بصراحة: «لقد تجلى اللَّه تعالى لسليمان فى المنام ليلًا، وخاطبه بالقول، أطلب منى ما تشاء ونظراً لصغر سنه وقلة تجربته طلب سليمان من اللَّه الحكمة، واستجاب اللَّه دعاءه وأعطاه الفهم والحكمة وقال: إنّ هذا الفهم والحكمة التى أعطيته إليك لم أعطه لأحد من قبلك ولا من بعدك».

هل يعقل أن يتلقى أحد الأشخاص هذا النوع الفريد من العلم والحكمة من اللَّه تعالى فى أيّام شبابه ثم يقدم على بناء معبد للأصنام ارضاءً لرغبات زوجاته فى عهد كِبَرِهِ ونضج عقله واكتمال إدراكه؟!

ممّا لا يقبل الشك أنّ هذه الأساطير الكاذبة كانت من صنع الأدمغة العاجزة فى السابق، ومن المؤسف حقاً أنّ عدّة من الأفراد الجهلاء وضعوها فى سلسلة الكتب السماوية بعد ذلك، وقد أطلقوا على هذا الكلام «اللا مقدّس» اسم «الكتاب المقدّس» لكن، هل ترى واحدة من هذه النسب السيئة فى الوقائع والحوادث التى ينقلها القرآن؟ فاذا دققت وبحثت فسوف يكون الجواب بالنفى.

۷- المنافسة العجيبة بين يعقوب وأخيه عيسو

القرآن الكريم يسدى احتراماً بالغاً لابراهيم عليه السلام وابنه «اسحاق» وحفيده «يعقوب» ويشيد بعظمتهم واخلاصهم، فنقرأ فى قوله تعالى «وَاذكُر عبَادَنَا إبرَاهِيمَ وَإِسحَاقَ وَيَعقُوبَ أُولِى الايدِى وَالأَبْصَارِ* إِنَّا اخْلَصَنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكرَى الدَّارِ* وَإِنَّهُم عِندَنَا لَمِنَ المُصَطفَينَ الاخْيَارِ». (ص/ ۴۵- ۴۷)

وفى موضع آخر فى قوله تعالى فى شأن هذه الاسرة: «وَوَهَبنَا لَهُ إِسحَقَ ويَعقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلنا صَالِحِينَ* وَجَعَلْنَاهُم أَئِمَّةً يَهدُونَ بِأَمرِنَا وَأَوحَينَا إِلَيهِم فِعلَ الخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَآءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ». (الانبياء/ ۷۲- ۷۳)

هذه التعبيرات إن دلت على شىء فانما تدل على أنّ هؤلاء رجال موحدون، على جانب

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۴

كبير من الإيمان وصفاء السريرة وعلى اطلاع ولياقة عالية فى قيادة البشرية، ولذا فهم مطهرون ومنزهون عن كل رجس ودنس، لكن عندما يدوّن تاريخ حياة هؤلاء على أيدى أصحاب الخرافات يرسمون عنهم صورة قبيحة جدّاً تنزل بهم إلى مستوى الأشخاص الانتهازيين والجشعين والمتحللين الذين لا يدخرون وسعاً فى سبيل التوصل إلى منافعهم اللامشروعة، ولإثبات حقيقة هذا الكلام نلتجىء إلى التوراة المحرف لنرى ما اختلقه من ملامح ومعالم رهيبة عن «اسحاق» و «يعقوب» والأخ الأكبر ليعقوب «عيسو»:

«وحدث لما شاخ اسحاق وكلّت عيناه عن النظر فدعا عيسو ابنه الأكبر وقال له: يابنى، فقال هاأنذا، فقال: إننى قد شخت ولا أعرف يوم وفاتى فالآن خذ عدتك، واسلحتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيداً واصنع لى أطعمة كما أحب، وائتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت.

وكانت ربقاه سامعة لكلام اسحق مع عيسو ابنه، فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيداً ليأتى به، وأما ربقاه فكلمت يعقوب ابنها قائلة: إنّى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا: ائتنى بصيد وأصنع لى أطعمة لآكل واباركك أمام الرب قبل وفاتى، فالآن يابنى اسمع لقولى فى ما أمرك به، اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك نعجتين جيدتين، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب وحضرها إليه ليأكل حتى يباركك قبل وفاته، فقال يعقوب لربقاه امّه: هو ذا عيسو أخى رجل أشعر، وأنا رجل أملس ربّما يجسنى أبى فاكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا- بركة، فقالت له امّه: لعنتك علىَّ يابنى، اسمع لقولى فقط واذهب. فذهب وأحضر لُامه فصنعت منها أطعمة كما كان أبوه يحب وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الأصغر، وشدته على يديه وعنقه جلود جديى المعزى واعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها فدخل إلى أبيه

وقال: ياأبى، هاأنذا. من أنت ياإبنى؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك، قد فعلت كما كلمتنى، قم واجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك.

فقال اسحق لابنه: ما اسرع ما اصطدت يابنى؟ فقال: إنّ الرب إلهك قد يسرلى فقال

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۵

اسحق ليعقوب: تقدم لاحسك يابنى، أأنت هو ابنى عيسو أم لا؟ فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه؟، فجسه وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو، ولم يعرفه لأنّ يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه فباركه، وقال: هل أنت ابنى عيسو، فقال: أنا هو، فقال قدم لى لآكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى، فقدم له فاكل واحضر له خمرا فشرب، فقال له اسحق أبوه: تقدم وقبلنى يابنى، فتقدم وقبله فشم رائحة ثيابه وباركه وقال: انظر، رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب.

فليعطك اللَّه من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة الحنطة والخمر، ليستعبد لك شعوب، وتسجد لك قبائل، كن سيداً لاخوتك وليسجد لك بنو امك، ليكن لاعنوك ملعونين ومباركوك مباركين، وحدث عندما فرغ اسحق من بركة يعقوب وفى حين خروج يعقوب من عند أبيه فاذا بعيسو اخاه قد اتى بصيده، فصنع هو اطعمة ودخل بها إلى أبيه، وقال لابيه: ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك فقال له اسحق أبوه: من أنت؟

فقال؟: أنا ابنك، بكرك عيسو فارتعد اسحق ارتعاداً عظيماً، وقال: فمن هو الذى اصطاد صيداً وأتى به الىّ فأكلت منه قبل أن تجىء وباركته؟ فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة وقال لأبيه: باركنى أنا أيضاً ياأبى، فقال: قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك» «۱».

ونطالع فى الفصل الآتى هذا المعنى

«ثم إنّ اسحاق استدعى يعقوب ودعى له بالخير والبركة، وأوصاه أيضاً بوصية وقال لا تتزوج بامرأة من بنات كنعان ... وإنّ اللَّه القادر المطلق سيبارك لك وسيحيطك برعايته وعنايته لكى تصبح قيّماً على جماعة الامم، وليمدك اللَّه ولك ولنسلك ببركة إبراهيم حتى ترث الأرض التى اعطاها اللَّه لابراهيم ليسافر فيها» «۲».

خلاصة الحكاية تقع فى أنّ اسحاق كان له ولدان الأكبر يسمّى «عيسو» والأصغر يسمّى

---

(۱) التوراة، سفر التكوين، فصل ۲۷، الجمل ۱- ۴۰.

(۲) المصدر السابق، فصل ۲۸، الجمل ۱- ۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۶

«يعقوب»، وفى آواخر أيّام حياته حينما فقد بصره قرّر أن يجعل ولده الأكبر وصيّاً ونائباً عنه من بعده ويبارك له (يستفاد من القرائن أنّ المقصود من هذه البركة هو نفس مقام النبوة والروح الرساليّة وقيادة الامة) إلّاأنّ يعقوب توسّل بالحيلة ولبِس ثوب أخيه الأكبر بأمر من أمّه التى كانت متعلّقة به وتفضّل له أن يقوم مقام اسحاق، ثمَّ ربط على يده وعنقه قطعة من جلد الغنم لأن بدن أخيه كان مكتسياً بالشعر، ممّا قد يفضى به ذلك إلى إفشاء سره لدى أبيه (الإنسان الذى يكسوه الشعر إلى هذا الحد بحيث يكون بدنه كالغنم غريب فى بابه واقعاً) وبالتالى شغل مكان أخيه الأكبر بالحيلة والكذب والخداع، واقتنع والده العجوز بلمس يده المكسّوة بالصوف فقط مع أنّه قد عرف صوته فى الوهلة الاولى ثمَّ إنّه دَعا فى حقه وبارك له فى عمله وأعدّه وصيّاً ونائباً عنه وقيّماً على أهله وأسرته، وحينما اطلع اخوه الأكبر على القضية بكى بكاءً مرّاً، إلّاأنّ الأمر قد انقضى فحينما طلب من أبيه أن ينزل البركة عليه أيضاً، سمع جواباً يقضى بانتهاء البركة وأنّ ما كان منها استأثر به أخوه يعقوب ولم يعد هناك فرصة لاعادة النظر!!

والغريب فى الأمر هو ماذهب إليه إله اسحاق من تأييده هذا العمل أيضاً، وتسليم مقام النبوة لرجل محتال وكذاب ومزيف، وعلى حد

قول التوراة أنّه انشأه وتعاهده وطاف به كثيراً وجعله مالكا للجماعة والامم ووارثا لملك ومآثر نبيه (إبراهيم) العظيم، وليس فقط اسرة اسحاق مأمورة باتباعه فحسب، بل إنّ سائر الناس مأمورون باتباعه والخضوع له تعظيما واجلالًا له.

كيف يمكن اعتبار هذه الاسطورة الكاذبة والمضحكة على أنّها وحي سماوى؟!

لو أنّ شخصاً استولى على مقام بسيط بالحيلة والكذب- كأن يرتدى على سبيل المثال زيا عسكريا متواضعاً- فإنّه بعد الكشف عن حقيقته ليس فقط يسلبون منه ذلك، ويخلعون عنه هذا اللباس بل يعاقبونه على هذا العمل أيضاً، لكن كيف يمكن الاستيلاء على مقام النبوة والحصول على البركة الإلهيّة وقيادة المجتمع بالخداع والمكر، ثم الإبقاء عليه بعد الكشف عن حقيقته المخزية؟!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۷

۸- نسبة صنع الخمر إلى عيسى المسيح عليه السلام

أولى القرآن الكريم احتراماً بالغاً للسيد المسيح عليه السلام وتحدث عنه فى سور متعددة (من قبيل سورة البقرة وآل عمران والمائدة وبعض السور الاخرى ، وأشار إليه بكونه أحد أنبياء أولى العزم (صاحب شريعة وكتاب سماوى) وله معجزات كثيرة، نقرأ فى قوله تعالى

«وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإنجِيلَ* وَرَسُولًا الَى بَنِى اسْرَائِيلَ انِّى قَد جِئتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم انِّى اخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِاذنِ اللَّهِ وَابرِئُ الأَكمَهَ وَالأَبرَصَ وَاحِى المَوتَى بِاذنِ اللَّهِ وأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بِيُوتِكُم انَّ فِى ذَلِكَ لَآيةً لَّكُم انْ كُنْتُم مُّؤمِنِينَ». (آل عمران/ ۴۸- ۴۹)

وبناء على ذلك تشكل المعاجز الأربع من (خلق الطير) و (شفاء المرضى الميؤوس من معالجتهم) و (إحياء الأموات) و (الإخبار عن الغيب) (التى كانت تتحقق بإذن اللّه) عظمة معاجز السيد المسيح عليه السلام (وفقاً لبيان القرآن).

وفى موضع آخر يعد نزول المائدة السماوية (طعام الجنّة) إحدى معاجز المسيح عليه السلام وذلك فى (سورة المائدة آية ۱۱۵) نظراً إلى اعتبار المسائل المعقولة والمقبولة من المعاجز بصورة عامة، والآن لنلقى نظرة على ما تقوله (الأناجيل) فى هذا المجال، ففى الباب الثانى من «انجيل يوحنا» الأنجيل الرابع من الأناجيل الأربعة ورد هذا المعنى:

«وفى اليوم الثالث كان فى قاناى الجليل (أحد مدن بيت المقدس) عرس، وكانت ام يسوع هناك فدعى يسوع وتلاميذه إلى العرس ونفذت الخمر، فقالت له امه: ما بقى عندهم خمر، فأجابها: ومالى ولك يا امرأة ما جاءت ساعتى بعد، فقالت امه للخدم: اعملوا مايأمركم به.

وكان هناك ستة جرات من حجر يتطهر اليهود بمائها على عادتهم، يسع كل واحد منها مقدار مكيالين أوثلاثة، فقال يسوع للخدم: املأوا الجرات بالماء فملأوها حتى فاضت فقال لهم: استقوا الآن وناولوا رئيس الوليمة، فناولوه فلما ذاق الماء الذى صار خمرا، وكان لا يعرف من أين جاءت الخمر، لكن الخدم الذين استقوا منه كانوا يعرفون، دعا العريس

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۸

وقال له: جميع الناس يقدمون الخمر الجيد أولًا، حتى إذا سَكَر الضيوف، قدموا إليهم الخمر الردىء، أما انت فأخرت الخمر الجيد إلى الآن» «۱».

يستشف من هذه القصة النكات التالية:

۱- لما دخل السيد المسيح مع امّه مريم عليهما السلام إلى محفل العرس ونفذت المشروبات الخمرية، أقدم وبإيعاز من امه على خلق المعجزة، وأبدل ست جرات ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، بحيث إنّ الطعم اللذيذ لها استهوى على أفئدة الحاضرين.

۲- هذه هى المعجزة الاولى من نوعها للمسيح عليه السلام والتى تحققت بإيعاز من أمه.

۳- عظم شأن السيد المسيح وجلَّ قدره من خلال هذه المعجزة (تبديل الماء إلى خمر) ممّا أدى ذلك إلى إيمان تلامذته به.

والطريف هنا أنّ أهالى مدينة قاناى الجليل، لم يبرحوا يصنعون جرات المياه ويبيعوها للزوار والسياح احتفاء بذكرى جرات الخمر التى حدثت بإعجاز السيد المسيح عليه السلام.

و ممّا لا شك فيه أنّ هذه هى اسطورة من الأساطير المفتعلة والكاذبة المنسوبة إلى هذا النبى العظيم، ولا يخفى على أحد ما للخمر من قبح واضرار غير قابلة للحصر، وقد منعت وحرمت فى كافة الأديان السماوية، حتى أنّه سبق التصريح بها فى نفس الكتب المقدّسة لليهود والنصارى، كما ورد ذم الخمر بلهجة شديدة فى كتاب «أمثال سليمان» إذ يقول هناك:

«لمن الويل لمن الشقاوة لمن المخاصمات لمن الكرب لمن الجروح بلا سبب لمن ازمهرار العينين، للذين يدمنون الخمر الذين يدخلون فى طلب الشراب الممزوج، لا تنظر إلى الخمر إذا إحمّرت حين تظهر حبابها فى الكأس وساعت مرقوقة وفى الآخر تلسع كالحية وتلدغ كالاقحوان» «۲».

يفهم من هذه العبارة جيدا أنّ مفاسد الخمرة كثيرة جدّاً فهى السبب الأساسى لكل الالام

---

(۱) انجيل يوحنا عرس قانا الجليل ص ۲۵۶.

(۲) العهد العتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ۲۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۷۹

الجسدية والهموم النفسية والفكرية والمنازعات والمصادمات والاختلافات الاجتماعية، وهى من عوامل شقاء الإنسان وبؤسه، وتفعل فعلها فى وجود البشر كسم الحية وهى مبرر كاف على انعدام العفة والسقوط فى وحل الانحرافات الجنسية السيئة والوقوع فى شرك أنواع التخيلات والابتلاءات التى طرحت فى هذه العبارات بشكلٍ واضح جدّاً.

ونقرأ فى موضع آخر من كتاب «أمثال سليمان» هذه العبارة: الخمرة المستهزئة (وهى التى تدعو الإنسان إلى أن يقوم بحركات ويتحدث بكلمات تفضى إلى الاستهزاء والسخرية) والمسكرات الصاخبة (وهى التى تسبب المنازعات والمخاصمات) وكل من يقع فى أسره لايصبح حكيماً «۱».

كما ونقرأ فى الفصل ۲۸ من كتاب اشعياء هذه العبارة أيضاً: «أما هؤلاء (إشارة إلى مجموعة من المنحرفين) فقد ضلوا طريقهم وفقدوا صوابهم بفعل الخمر والمسكرات أيضاً».

وجاء فى موضع آخر من نفس الكتاب هذا المعنى: «الويل لُاولئك الذين استعانوا بشرب الخمرة على الغلبة وبمزج المسكرات على القوة» «۲»، أى أنّ قواهم تتحرك من خلال شرب الخمرة وتستعد للنزاع.

وجاء فى كتاب هوشيع (من التوراة): «إنّ الزنا والخمر وعصير العنب «بصورته المسكرة» كل منهم يؤدّى إلى ضعف القلب» «۳».

يتضح من هذه العبارات جيداً أنّ المعوّل فى حرمة الخمر ليس كونها من المشروبات العادية إنّما لكونها من المائعات المسكرة التى تلحق الضرر بالجسم والروح الإنسانية وتؤدى إلى الضياع والشقاء.

بناء على هذا أليس من المخجل أن يقال إنّ المعجزة الاولى للسيد المسيح عليه السلام التى ظهرت فى مدينة قاناى الجليل تبلورت فى التحول الذى طرأ ببركته على عدّة ظروف كبيرة

---

(۱) عهد عتيق، كتاب أمثال سليمان، فصل ۲۰، جملة ۱.

(۲) كتاب اشعياء، فصل ۵، جملة ۲۲.

(۳) كتاب هوشيع فصل ۴، جملة ۱۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۰

ممتلئة بالماء إلى خمور صافية، وعندما نقارن ذلك مع المعاجز القرآنية للسيد المسيح يتضح لنا مدى الفاصلة بين التواريخ المختلفة فى ذهن البشر وبين التاريخ الواقعى الناشىء من طريق الوحى.

۹- المسيح عليه السلام ودعوى الالوهية

القرآن يبرىء ساحة السيد المسيح عليه السلام من أى لون من ألوان الادّعاء المزيف على صعيد الالوهية، ويقول بصراحة: «وَإِذ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابن مَريَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونى وَأُمِّىَ إِلَهَينِ مِن دوُنِ اللَّهِ قَالَ سُبحَانَكَ مَايَكُونُ لِى ان اقُولَ مَالَيسَ لِى بِحَقٍّ انْ كُنتُ قُلتُهُ فَقَد عَلِمتَهُ تَعلَمُ مَافِى نَفسِى وَلَا أَعلَمُ مَافِى نَفسِكَ انَّكَ انتَ عَلَّامُ الغُيوُبِ* مَاقُلتُ لَهُم إِلَّا مَاأَمَرتَنِى بِهِ ان اعبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُم وَكُنتُ عَلَيهِم شَهِيداً مَّادُمتُ فِيهِم فَلَمَّا تَوَفَّيتَنِى كُنتَ انتَ الرَّقِيبَ عَلَيهِم وَانتَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ شَهِيدٌ». (المائدة/ ۱۱۶- ۱۱۷)

والآن لننظر إلى ماتقوله الأناجيل فى صدد المسيح عليه السلام.

نقرأ فى انجيل يوحنا هذا المعنى:

«وجاء عيد التجديد فى اورشليم، وذلك فى الشتاء وكان يسوع يتمشى فى الهيكل فى رواق سليمان فتجمع اليهود حوله وقالوا له: «إلى متى تبقينا حائرين؟ قل لنا بصراحة: هل أنت مسيح؟

فأجابهم يسوع: «قلت لكم، ولكنكم لاتصدقون، الأعمال التى أعملها بأسم أبى تشهد لى، وكيف تصدقون وما أنتم من خرافى، خرافى تسمع صوتى وأنا أعرفها وهى تتبعنى اعطيها الحياة الأبدية فلا تهلك أبداً ولايخطفها أحد منى الأب الذى وهبها لى هو أعظم من كل موجود، وما من أحد يقدر أن يخطف من يد الأب شيئاً، أنا والأب واحد».

وجاء اليهود بحجارة ليرجموه فقال لهم يسوع: «أريتكم كثيرا من الأعمال الصالحة من عند الأب، فلاى عمل منها ترجمونى

أجابه اليهود: لا نرجمك لاى عمل صالح عملت بل لتجديفك فما أنت إلّاإنسان، لكنك جعلت نفسك إلها. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۱

فقال لهم يسوع: «أما جاء فى شريعتكم أنّ اللَّه قال: أنتم آلهة؟ ماذا كان الذين تكلموا بوحى من اللَّه يدعوهم اللَّه آلهة، على حد قول الشريعة التى لا ينقضها أحد، فكيف تقولون لى، أنا الذى قدّسه الأب وأرسله إلى العالم: أنت تجدف لأنّى قلت: أنا ابن اللَّه؟ إذا كنت لا أعمل أعمال أبى فلا تصدقونى وإذا كنت اعملها فصدقوا هذه الأعمال إن كنتم لا تصدقونى حتى تعرفوا وتؤمنوا أنّ الأب فىّ وأنا فى الأب» «۱».

يتضح من خلال هذه العبارات عدّة نكات:

۱- اتّهم اليهود عيسى من ذى قبل أنّه ادعى الالوهية وأصدروا حكماً بتكفيره ورميه بالحصى

۲- يقول المسيح تارة فى صدد الدفاع عن نفسه: أنا الذى قلت إنّى ابن اللَّه، وأنّ أبى اللَّه، وتارة اخرى يقول: أنا أقوم بأعمال إلهيّة، ولو لم أنجز ذلك فلا تصدقوا كلامى، ولو انجزت ذلك فصدقوا أنى حالٌّ فى اللَّه واللَّه حالٌّ فى نفسى.

إنّ التعبير بالأب والابن والقيام بأعمال إلهيّة، والقول بحلول الإنسان فى اللَّه واللَّه فى الإنسان، كلها تعبيرات إلحادية، لا تلتئم مع كافة الموازين المنطقية، ولا دليل على أن يدلى أحد الأنبياء بمثل هذه العبارات فى حق نفسه وحق اللَّه تعالى ولو بصورة مجازية، لأنّ ذلك يؤدى إلى وقوع البسطاء فى دوامة الاشتباه والالتباس، ويساهم فى أن يجد الأعداء الذريعة المناسبة لأنّ يرموه بالحصى متى ماشاءوا.

هـذا فى الوقت الـذى يقول القرآن فى الآيات التى تلوناها سابقاً بصـراحة تامـة إنّه لم يصـدر من المسيح عليه السـلام أى ادّعاء سوى العبودية لله ودعوى النبوة والرسالة وكان فى غاية الخضوع والتذلل فى مجال العبودية والتسليم لأمر اللَّه تعالى

وفى آيـات اخرى يقول أيضـاً: إنّ كل ما أنجزه من معاجز كان جميعه بإذن اللَّه، نقرأ فى قوله تعالى «وَاذْ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيرِ بِاذْنِى فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِاذنِى وَتُبرِئُ الاكمَهَ وَالأَبرَصَ بِاذنِى وَاذْ تُخْرِجُ المَوْتَى بِاذْنِى». (المائدة/ ۱۱۰)

---

(۱) انجيل يوحنا، باب، اليهود يرفضون المسيح، ص ۲۸۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۲

إنّ المقارنة بين هذا النوع من المسائل التاريخية فى القرآن وبين ماورد منها فى الانجيل من شأنه أن يضع الحدود الفاصلة بينهما ويبين أيّهما هو الصادر من قبل اللَّه حقاً، وأيّهما هو المحرف والمختلق من الذهن البشرى.

۱۰- حضور المرأة العاصية فى مجلس السيد المسيح عليه السلام

لم تظهر فى الآيات المختلفة للقرآن التى وردت فى حق السيد المسيح حتى الحد الأدنى من ترك الأولى وقد وصفت الآيات التى وردت فى شأن أمه مريم قداستها فى أجلى صورها، بحيث إنّها ذعرت بشدة والتجأت إلى اللَّه حينما شاهدت ملك الوحى الذى جاءها من قبل اللَّه ليهبها ولداً، (لأنّه ظهر أمامها على هيئة شاب جميل مجهول) حتى أنّها لما قاست من آلام وضع الحمل، وجسدت فى مخيلتها مستقبل حياتها، بأنّ من الممكن أن ينسب لها الأعداء والبسطاء النسب القبيحة؛ قالت: «يَالَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَـذَا وَكُنْتُ نَسْياً مَّنْسِيّاً». (مريم/ ۲۳)

غير أنّ نبيّاً بهذه القداسة بحيث ينطلق لسانه بأمر من اللَّه فى المهد، ويبرهن عملياً على طهارة امه، ويتحدث عن الصلاة والزكاة، وكل مظهر من مظاهر التقوى من تلك اللحظة، مثل هذا النبى يرد وصفه فى بعض الأناجيل بأوصاف تبعث كلّ قارىء على الدهشة والاستغراب.

والآن لنستمع وننظر إلى مابينه «انجيل لوقا» عن حكاية المرأة السيئة الصيت التى جاءت إلى المسيح عليه السلام وتابت: «ودعا أحد الفريسيين (إحدى فرق اليهود، والفريس بمعنى المُعتزل) إلى الطعام عنده فدخل بيت الفريسى وجلس إلى المائدة وكان فى المدينة امرأة خاطئة فعلمت أن يسوع يأكل فى بيت الفريسى وجاءت ومعها قارورة طيب، ووقفت من خلف عند قدميه وهى تبكى واخذت تبل قدميه بدموعها وتمسحهما بشعرها، وتقبلهما وتدهنهما بالطيب فلما رأى الفريسى صاحب الدعوة ماجرى، قال فى نفسه: «لو كان هذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۳

الرجل نبيّاً لعرف من هى هذه المرأة التى تلمسه وما حالها فهى خاطئة!» فقال له يسوع:

«ياشمعون، عندى ما أقول لك»، فقال شمعون: «قل يامعلم»، فقال يسوع: «كان لمدين دين على رجلين: خمسمئة دينار على أحدهما وخمسون على الآخر وعجز الرجلان عن ايفائه دينه، فاعفاهما منه فأيّهما يكون أكثر حبّاً له؟».

فأجابه شمعون: «أظن الذى أعفاه من الأكثر» فقال له يسوع: «أصبت» والتفت إلى المرأة وقال لشمعون «۱»: «أترى هذه المرأة؟ أنا دخلت بيتك فما سكبت على قدمىَّ ماء، وأمّا هى فغسلتهما بدموعها ومسحتهما بشعرها، أنت ما قبلتنى قبلة، وأمّا هى فما توقفت منذ دخولى عن تقبيل قدمىَّ، أنت ما دهنت رأسى بزيت، وأمّا هى فبالطيب دهنت قدمىَّ، لذلك أقول: غفرت لها خطاياها الكثيرة لأنّها أحبتنى كثيراً، وأمّا الذى يغفر له القليل فهو يحب قليلًا» ثم قال للمرأة: «مغفورة لك خطاياك!» فأخذ الذين معه على المائدة يتساءلون،

من هذه حتى يغفر خطاياها» «۲».

ملخص هذه الحكاية أنّ السيد المسيح ينزل فى بيت لأحد الفريسيين وهم كانوا طائفة من اليهود، ولا يبدى له صاحب البيت احتراما بالغاً، وما أن اطّلعت المرأة العاهرة والمنحرفة «۳» التى تسكن ذلك البلد على حضوره حتى توجهت إلى بيت اليهودى وكانت العادة الجارية فى ذلك العصر على غسل رجل الضيف اكراماً له، وطلى شعره بالدهن أحياناً لأنّ الناس كانوا يمشون حفاة غالباً، ونظراً لعدم امتلاكهم وسيلة للتغطية والحفظ فى الأسفار كانت شعور وقشور أبدانهم تصاب بالجفاف على أثر هبوب الرياح.

ووفقا لهذه الحكاية المفتعلة قامت المرأة العاهرة بغسل رجلى المسيح عليه السلام بدموعها عوضاً عن الماء، وجففتهما بشعرها الطويل عوضاً عن المنشفة، وقبّلتهما بشفتيها بحرارة،

---

(۱) شمعون فى الأصل بمعنى السامع، وقد اشير إلى اسماء ۱۰ أشخاص فى الكتاب المقدس للمسيح طبقاً لما قالهمؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس)، وكان أحدهم شمعون الفريسى.

(۲) انجيل لوقا، باب يسوع يغفر لامرأة خاطئة، ص ۱۸۳.

(۳) هذه المرأة هى مريم مجدليته كانت عاهرة ومتمولة، فأعلنت عن توبتها على يد السيد المسيح عليه السلام طبقاً لماجاء فى انجيل لوقا فى الباب الثامن.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۴

بحيث أدّى هذا المشهد المثير إلى استياء الرجل اليهودى صاحب البيت وقلقه، وقال فى نفسه إن كان هذا نبياً وواقفاً على سيرة هذه المرأة لصدها عن هذا العمل على الأقل، المسيح بفراسته علم بذلك، وأقنعه بذلك من خلال المثال الذى ضربه فى صدد الشخصين المديونين وأعرب له: إننى كنت ضيفك إلّاأنّك لم تقم بما قامت به المرأة المنحرفة من حسن الضيافة، فأنت لم تغسل رجلىَّ بالماء وهى غسلته بدموع عينيها وأنت لم تقبلنى وهى قبلت رجلىَّ بلا انقطاع، ولم تدلك رأسى بالدهن وهى دلكت رجلى بالعطر.

والآن لنبدأ قليلًا بتحليل هذه القصة، لنرى هل من المناسب لهذا النبى العظيم وحتى لمؤمن عادى أن يضع نفسه تحت تصرف امرأة عاهرة كى تعامله بمثل هذه المعاملة.

أولًا: إنّ السيد المسيح عليه السلام كان شاباً يناهز عمره الثلاثين عاماً فى ذلك العصر، ولابدّ أن تكون تلك المرأة العاهرة شابة وجميلة أيضاً، ولا يعقل أن تكون قبيحة المنظر منهوكة القوى فى الأعم الأغلب فكيف يتأتى لنبى عظيم بعث لتهذيب الأخلاق ونشر مظاهر التقوى أن يسمح لامرأة فاجرة بأن تتمسّح برجليه مرات متعددة ثم تغسلهما بدموع عينيها وتجففهما بشعرها الناعم وتدهنهما بيديها الظريفتين وتطبع عليهما قبلات حارة، فهل يُعقل هذا؟

وعلى فرض أنّها أرادت التوبة من وراء ذلك فإنّ للتوبة حدوداً وقيوداً أيضاً، وهل سبق لأحد إلى يومنا هذا أن يتعامل مع أحد الروحانيين أو الرهبان العاديين بمثل هذه المعاملة، حتى تصل إلى نبى من أنبياء اللَّه؟

وعلى كل حال فالآثار الخرافية لهذه الرواية ظاهرة من بين ثناياها بصورة كاملة، فضلًا عن أنّ ما ذكره السيد المسيح عليه السلام من المثال لا يعتبر جواباً عن استفسار اليهودى على الاطلاق.

فإشكال اليهودى لم يقع على عظم محبّة هذه المرأة حتى يأتى الجواب على أنّ عظم محبتها وشدّة تعلقها ناتج عن كثرة ذنوبها، وإنّما وقع للاستفسار عن السبب فى سماح نبى من أنبياء اللَّه بأنّ تمسح أمراة عاهرة وسيئة السمعة برجليه إلى هذه الدرجة ثم تغسلهما

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۵

بدموع عينيها، وتجففهما بشعرها، وتدلكه بالعطر والدهن، فمما لا شك فيه أنّ كثرة الذنوب وقلتها لا صلة له بهذا العمل من قريب أو بعيد.

وعليه فما جاء فی تواريخ القرآن من وقائع وحوادث عن السيد المسيح عليه السلام تنزهه وتبرء ساحته من مثل هذه النسب السيئة.

نتيجة البحث:

يستنتج ممّا ذكر سابقا ضمن هذه النقاط العشر ومن خلال ما أجريناه من مقارنة واضحة بين تواريخ العهدين (الكتب المقدسة لليهود والنصارى) هی نفس الكتب التی عُدّت من أهم المصادر التاريخية للأديان فی عصر نزول القرآن- علی أنّ القرآن لا يمكن أن يكون وليد الفكر الإنسانی اطلاقاً، لأنّ ذلك يستلزم أن يتأثر بها، وقابلية التأثر هذه تترك أثرها فی نقل وقائع هذه القصص، فدلت نزاهة التواريخ التی ينقلها القرآن من هذه الخرافات والنسب القبيحة خصوصاً فيما يتعلق بشرح وقائع الأنبياء علی أنّه صادر من مصدر العلم الربانی وأنّه معجزة خالدة علی مر الدهور.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۷

۵- الاعجاز القرآنی فی سن القوانين

اشارة

من المعلوم أنّه قد ورد فی القرآن الكريم بالإضافة إلی المعارف والتعاليم المرتبطة بالمبدأ والمعاد والمسائل الأخلاقية والتاريخية والتشريعات المتعلقة بالعبادات، مجموعة من القوانين الاجتماعية أيضاً، والتی ترسم معالم القانون الأساسی للاسلام وبعض القوانين المدنية، الحقوقية والجزائية المتعلقة به.

إنّ الدقّة والحكمة الموجدتين فی النصوص القرآنية تكفيان لوحدهما فی اظهار معجزة القرآن استناداً إلی أنّ ظهور وبروز هذه القوانين الحكيمة جدّاً- والتی ستأتی أمثلتها فيما بعد- فی محيط تحكمه شريعة الغاب، أو بعبارة اخری فی جو يضجُّ بالفوضی والتسيب، هذه القوانين بإمكانها أن تحمل كل فرد منصف علی التسليم والاذعان، لذا نحن لسنا ملزمين بأنّ نفتش عن عظمة هذا الكتاب السماوی واعجازه فی المسائل المرتبطة بالفصاحة والبلاغة، أو المعارف والعلوم والجوانب التاريخية فقط، بل إنّ الاقتصار علی البحث فی مجموعة القوانين القرآنية يفتح نافذة بوجه هذا العالم الكبير.

وهنا ينبغی- وقبل كل شیء- أن نقدم مقدمة قصيرة حول بيان معنی القانون الصالح وحقيقته، وذلك من أجل تدعيم أساس هذا البحث.

ماهی أفضل القوانين؟

من الصعوبة الجواب عن هذا السؤال، ولكن إذا وقفنا علی الحكمة الواقعية من وراء وضع القوانين فی المجتمعات الإنسانية فإنّ معالم الطريق ستصبح واضحة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۸

إنّ المسألة تكمن فی كون الإنسان يميل فطرياً إلی الحياة الاجتماعية، ويعود الفضل فی رُقيه وتطوره إلی حياته الاجتماعية، فمن خلال هذه الحياة تتلاقح أفكار العلماء والمفكرين وتتآزر الاكتشافات والاختراعات والإبتكارات العلمية الموجودة فی المجتمع وتنتقل من جيل إلی جيل آخر، ففی كل يوم نشهد تطوراً وتقدماً ورقياً علی صعيد العلوم والتفكر والخصارة الإنسانية.

وأيّاً كان الدافع من وراء الاهتمام بهذا التعايش المشترك فإنّ له موضوعاً مستقلًا للبحث، ولكن ممّا لا شك فيه إذا كانت حياة الناس

مبعثرة ومشتتة شأنها شأن حياة الحيوانات الاخرى لم يكن هناك أى فرق بين إنسان اليوم وإنسان العصر الحجرى، ولا يوجد معنى للعلم والحضارة والاختراع والاكتشاف ولا الصناعات والفنون ولا اللغة والآداب ولا لأى شىء آخر، إلّاأنّ لهذه الحياة الاجتماعية طوارىء ومشاكل إذا لم تتمّ الوقاية منها بشكل صحيح فإنّها تؤدّى إلى حدوث نكبات وويلات تُودى بحياة الأجيال فضلا عمّا يترتب على ذلك من توقفٍ لعجلة التكامل والرقى.

إنّ هذه الافرازات عبارة عن: الصراعات التى تنشأ من تعارض المصالح وتزاحم الحقوق وطلب الاستعلاء، وحب الاستئثار، والأنانيات والمنافع الشخصية والتى تؤدّى بدورها إلى حدوث الخلافات والنزاعات والمناوشات الفردية أو الجماعية ونشوب الحروب الأقليمية، أو الدولية، ولهذا أدركت المجاميع الإنسانية منذ تلك اللحظة هذه الحقيقة وهى أنّه لو لم توضع المقررات اللازمة لتعيين حدود صلاحيات الأفراد وحقوقهم واسلوب حل المنازعات والد عاوى والمشاجرات، لانقلبت الموازين الاجتماعية رأساً على عقب وأدّت إلى حدوث كارثة كبرى

وأساساً إنّما يأخذ المجتمع الواقعى طريقه إلى الوجود والظهور بعد أن تسوده حالة التعاون والتعاضد والتعاطف بين أفراده، ومثل هذا الأمر لا يتحقق إلّافى ظل وضع القوانين والمقررات، وفى الواقع ليس هناك مفهوم للتعاون من دون تعهد أخلاقى، وهذا التعهد بحد ذاته منشأ حدوث القانون.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۸۹

علاوة على ذلك فإنّه من الخطأ أن نعتبر وظيفة القانون منحصرة فى نطاق الحد من حدوث الاعتداءات وإنهاء النزاعات- وإن كان هذا هو الهدف من وضع الكثير من القوانين- بل يقع على عاتق القانون قبل هذا مسؤولية توثيق العلاقات الاجتماعية وإيجاد الضمانات والتعامل معها بصدق وأمانة وتأمين الحرية اللازمة من أجل تمكين وتربية القابليات وتنميتها، وتمركز القوى وتعبئة الإمكانيات باتّجاه معين من أجل توسيع رقعة التكامل.

والواقع إنّ القانون هو بمثابة الدم الجارى فى عروق المجتمع البشرى، لهذا لابدّ من القول بصراحة: إنّه إذا انعدم القانون لم يكن لوجود المجتمع معنى، ولم يتحقق التقدم والازدهار.

إذن لم يعد الجواب عن السؤال المتقدم صعباً، فالقانون الأفضل هو الذى يمتلك صلاحية أكثر فى تأمين الامور التالية:

۱- أن يجمع بين كافة القوى المؤلفة للمجتمع الإنسانى تحت راية واحدة قوية، ويحل مشكلة الاختلافات الموجودة فيه كاختلاف الألوان والقوميات واللغات.

۲- أن يهيء الأرضية المناسبة لنمو الاستعدادات الكامنه وتطوير القدرات الخلاقة لدى المجتمع.

۳- أن يؤمّن الحرية الواقعية حتى يتمكن جميع الأفراد من العمل على تنمية استعداداتهم فى ظلها.

۴- يحدد الحق المشروع لكل شخص من الأشخاص وكل فئة من الفئات كى يقف حاجزاً دون حصول النزاعات والاختلافات والاعتداءات.

۵- أن يعمق فى النفوس روح الاعتماد والاطمئنان من خلال تعيين نظام إجرائى صحيح مضمون.

۶- القانون الصالح ليس كما يتصوره البعض بأنّه القانون الذى يحمل معه مجموعة من القوانين العريضة والموسعة والتى تشتمل على الأجهزة القضائية الواسعة والشرطة والسجون الكثيرة، بل إنّ هذا يدل على ضعف ذلك القانون وذلك المجتمع وعجزهما،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۰

فالقانون الصحيح هو الذى يتخذ إجراءات وقائية مناسبة من خلال وضع التعليمات الثقافية والمقررات الصحيحة حتى لا تدعو الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الامور.

إنّ الأجهزة القضائية والعقوبات والسجون بمثابة الطب العلاجى، أو بعبارة أصح، بمثابة إجراء عملية جراحية للمريض؛ بينما القوانين

السليمة والمقررات الدقيقة بمثابة الطب الوقائى الذى يعتبر أقل مؤونة وأسلم طريقة لخلوه من الطوارىء والأخطار.

بعد هذه المقدّمة نعود إلى القرآن مرّة اخرى لندقق فى قوانينه ونبحثها.

مزايا القوانين القرآنية:

اشارة

قبل كل شىء نرى من اللازم أن نذكر هذه النكتة وهى: إنّ جميع هذه القوانين إنّما خرجت فى محيط الحجاز، ذلك المحيط الذى لايعرف للقانون معنى تقريباً، والأمر الوحيد الذى حكم بشكل قانونى فى اوساط قبائله هىالعادات والتقاليد المحدودة والممتزجة بالخرافات، لذا فإنّ ظهور القوانين الإسلامية فى مثل هذا المحيط يعدّ بحق ظاهرة عجيبة لا يمكن تبريرها وتصورها تصوراً طبيعيا وعادياً، ومن هنا فلابدّ أن نتعرف على خصائص القوانين الإلهيّة، وليس لنا سوى القبول والتسليم بأنّ ذلك كله صادر من اللّه تعالى

أولًا: الشمولية والسعة

بالرغم من أنّ القرآن نزل فى محيط مغلق من جهات مختلفة، ومحدود فى ارتباطه مع عالم ما وراء شبه الجزيرة العربية، وكان الطابع الذى يسود ارجاءه هو طابع القومية والعنصرية والحياة القبلية، فكان من الطبيعى حتماً أن يصطبغ مثل هذا المحيط بصبغة القومية العربية، بل بصبغة التعصب القبلى ممّا يلفت النظر إلى أنّ القوانين لم تصطبغ بهذه الصبغة بأى شكل من الأشكال حتى أنّه لم يرد الخطاب ب (يا أيّها العرب) ولا مرّة واحدة فى القرآن، بل إنّ الخطاب كان موجهاً إلى عامة الناس فى كل المواضيع والخطابات حيث نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۱

ورد بصيغة- يا بنى آدم «۱» ويّا أيها الناس «۲» ويا أيّها الذين آمنوا «۳» وياعبادى «۴» ويا أيّها الإنسان «۵»- فالمخاطبين فى القرآن هم جميع أهل العالم، وقوانينه ناظرة إلى البشرية جمعاء.

وممّا يدل على هذا المدعى أيضاً هذه الآية: «وَمَا ارْسَلْنَاكَ الَّا رَحمَةً لِلعَالَمِينَ». (الأنبياء/ ۱۰۷)

والآية: «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً». (الفرقان/ ۱)

والآية: «انْ هُوَ الَّا ذِكْرٌ لِّلعَالَمِينَ». ونظائرها. (يوسف/ ۱۰۴)

لقد نبذ القرآن التميز العنصرى- فى ذلك المحيط العنصرى- بحيث أولى اهتماماً كبيراً وعناية فائقة للأواصر الأخوية ولجميع أبناء البشرية من خلال اطروحته الرائعة المتضمنة هذا المعنى «أنتم جميعاً أبناء آدم وخلقتم من أب واحد وام واحدة» فأنتم جميعاً اخوة لُاسرة واحدة، يقول عزّ من قائل فى هذا المضمار: «يَا ايُّهَا النَّاسُ انَّا خَلَقنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَانثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا انَّ اكْرَمَكُم عِندَ اللَّهِ اتْقَاكُم». (الحجرات/ ۱۳)

وفى موضع آخر ينفى كافة الارتباطات المحدودة ويبلور العلاقة القائمة بين المؤمنين فى إطار الاخوة والصداقة التى هى من أقرب العلائق التى تقوم على أساس المساواة والمواساة، إذ يقول عز من قائل: «انَّمَا المُؤمِنونَ إخوَةٌ». (الحجرات/ ۱۰)

وممّا يدعو إلى الانتباه والالتفات إلى ما فى هذه الآية هو مجيء كلمة «إنّما» التى تستعمل للحصر، هذا من جهة، ومن جهة اخرى أحاطت هذه القوانين بشموليتها سائر

(۱) وردت ۵ مرات.

(۲) وردت ۲۰ مرّة.

(۳) وردت ۸۰ مرّة.

(۴) وردت ۵ مرات.

(۵) وردت مرّتين.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۲

أنحاء الحياة البشريّة بدءاً بأهمّ المسائل الاعتقاديّة (كالتوحيد) وانتهاءً بأبسط المسائل الأخلاقيّة والاجتماعية، (كالرد على السلام وعلى أى لون من ألوان التحية والاستقبال)، فعلى سبيل المثال يقول تعالى فى أحد المواضع: «وَاذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِاحْسَنَ مِنْهَا اوْ رُدُّوها انَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ حَسِيبَاً». (النساء/ ۸۶)

وقد ضمَّ القرآن الكريم بين دفتيه آيةً تُعدُّ من أطول الآيات القرآنية التى دار الحديث فيها حول كتابة الديون والحقوق، فقد ذكر فيما يتعلق بهذه المسألة عشرين حكماً إلهياً، وهى (الآية ۲۸۲ من سورة البقرة) وهذا إن دل على شىء فإنّما يدل على أن تطرق القرآن للمسائل المرتبطة بالعقائد والمعارف الإسلامية لايتنافى بتاتاً مع بيانه للأحكام الضرورية العملية أيضاً، ولا نقصد من ذلك أنّه قد تمّ بيان جميع جزئيات الأحكام والقوانين على صعيد الظواهر القرآنية، لأنّ ممّا لا يقبل الشك أنّ حجمها يعادل أضعاف حجم القرآن، وإنّما المقصود أنّه تعالى قد بيَّن الاصول والقواعد الضرورية فى كل مورد من الموارد القرآنية.

ولا يضير فى هذا المجال أن نشير إشارات مختصرة إلى مقتطفات من هذه الأصول:

۱- أكَّدنا أنّ القرآن الكريم استند فى المسائل الاعتقادية قبل كل شىء على (أصل التوحيد)، وقد ذكر هذا المفهوم مئات المرات فى الآيات القرآنية، بحيث رسم الخطوط العريضة لأدقّ المفاهيم التوحيدية إلى أن يقول فى صدد الحديث عن ماهية اللَّه تعالى «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ». (الشورى/ ۱۱)

وقد بين صفاته الجلالية والجمالية فى مئات الآيات، ويمكنكك فى هذا المجال مراجعة المجلد الثالث من هذا الكتاب (نفحات القرآن)، ولا يقتصر الأمر عند تعريفه بوحدانية اللَّه من كل جهة، بل يعتبر نبوة الأنبياء دعوة واحدة أيضاً، بحيث لا يرى وجود الاختلاف والتفرقة بينهم، لذا يقول: «لَانُفَرِّقُ بَيْنَ احَدٍ مِّن رُسُلِهِ». (البقرة/ ۲۸۵)

وبالرغم من حمل كل واحدٍ منهم مسؤولية خاصة به وفقاً للمتطلبات الزمنية التى يعيش فيها كل نبى، إلّاأنّ حقيقة دعوتهم وجوهرها واحدة فى كل المواقع. بالإضافة إلى أن مسألة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۳

التوحيد تفرض سيطرتها على مرافق المجتمع الإنسانى أيضاً، وكما قلنا سابقاً: يعتبر أفراد البشر أعضاء لأسرة واحدة، ويعبّر عنهم بالأخوة المولودين من أب واحد وأم واحدة.

۲- «العدالة الاجتماعية» وتعتبر من أهم تعاليم الأنبياء يقول تعالى «لَقَدْ ارْسَلْنَا رُسُلَنا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسطِ». (الحديد/ ۲۵)

وتعقيباً لهذه الغاية فقد حرّض اللَّه تعالى كافة المؤمنين على هذا الأمر سواء كونهم كباراً أو صغاراً، شيباً أو شباباً، وبغض النظر عن انتمائهم العنصرى أو اللغوى، فيقول: «يَاايُّهَا الَّذينَ آمنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى انْفُسِكُم او الوَالِدَينَ وَالأَقرَبِينَ». (النساء/ ۱۳۵)

۳- وأما على صعيد «الروابط الاجتماعية» والاتفاقيات وكل عهد وميثاق فيدعو اللَّه الجميع إلى الالتزام بهذا الأصل، ويقول: «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اوْفُوا بِالعُقُودِ». (المائدة/ ۱)

ويقول أيضاً: «وَاوفُوا بِالعَهْدِ انَّ العَهْدَ كَانَ مَسْؤُولًا». (الاسراء/ ۳۴)

إنّ امتداد وسعة هذه الآيات شملت حتى المعاهدة والمفاوضة مع غير المسلمين، وفرضت سيطرتها على العلاقات الاجتماعية والفردية والاتفاقيات الدولية أيضاً.

۴- وعلى صعيد «الوقوف بوجه الاعتداءات»، وتفادى الاحباطات، يقول تعالى فى عبارة مختصرة ودقيقة جدّاً: «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيكُم فَاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثْلِ مَااعْتَدَى عَلَيكُم وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا انَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ». (البقرة/ ۱۹۴)

۵- وعلى صعيد «الدفاع» يقدم اطروحة أصيلة ومتينة عامة متجسدة بقوله تعالى

«وَاعِدُّوا لَهُم مَّااستَطعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم». (الانفال/ ۶۰)

وفى هذا الصدد يوصى «بإعداد القوة وتعبئة القوى بصورة عامة»، وتجهيز القدرة الحربية لذلك العصر بصورة خاصة «بعنوان أحد المصاديق» وذلك من أجل الحد من وقوع الحرب، والارهاب، وإلقاء الرعب فى قلوب الأعداء، وهذا من الأهداف المنطقية الكبرى لتقوية البنية العسكرية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۴

۶- وأما من ناحية المناوشات الكلامية والنزاعات التى تقع بين أصحاب المذاهب والرقباء الاجتماعيين فله وصية اخرى يقول فيها: بدلًا من المقابلة بالمثل وإعداد القوى استخدموا أسلوب مقابلة الضد بالضد، وردّوا القبيح بالحسن كى تُقتلع بذرة النفاق والعداوة من جذورها، يقول عزّ من قائل: «ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ فَاذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَانَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ* وَمَا يُلَقَّهَا الَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَايُلَقَّاهَا الَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ». (فصلت/ ۳۴- ۳۵)

۷- أما بصدد «المصير الإنسانى» يقول بصراحة: إنّ مصير كل شخص بيده، وموقوف على جهده وسعيه: «كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر/ ۳۸)

«وَان لَّيسَ لِلإِنسَانِ الَّا مَا سَعَى وَانَّ سَعيَهُ سَوفَ يُرَى . (النجم/ ۳۹- ۴۰)

۸- وحول «حرية العقيدة» وإنّه لا يمكن النفوذ فى الحيز الفكرى لشخص معين إلّاعن طريق الاستدلال وتوضيح معالم الدين يقول تعالى «لَا اكرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَىِّ». (البقرة/ ۲۵۶)

وفى مجال «حرية الإنسان» يقول: إنّ أحد الأهداف المهمّة لبعثة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هو اطلاق سراح الناس من قيود وسلاسل الأسر والعبودية: «وَيَضَعُ عَنْهُمْ اصْرَهُم وَالاغْلَالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

ولهذه الأغلال مفهوم واسع بحيث تشمل كافة أنواع سلب الحرية الإنسانية.

۹- وفى صدد «عدم التدخل فى الأمور الشخصية للآخرين»، والمحافظة على كرامة الأفراد، وعدم هتك حرمتهم يقول تعالى «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثِيرَاً مِّنَ الَظَّنِّ انَّ بَعضَ الظَنِّ اثمٌ وَلَاتَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَّعضُكُم بَعْضاً». (الحجرات/ ۱۲)

۱۰- ومن المبادىء التى أكد عليها القرآن الكريم هو مبدأ «التعايش السلمى» مع كافة الأفراد المسالمين الذين يعدونهم من أهل التفاهم والحوار فى الأهداف المشتركة، أو على الأقل من الذين اتخذوا طريق الحياد والاعتدال، لذا يقول تعالى «لَّايَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَم يُقَاتِلُوكُم فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُم انْ تَبَرُّوهُم وَتُقسِطُوا إِلَيهِم انَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ»، ثم يعقب على ذلك بقوله: «انَّمَا يَنهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُم فِى الدِّينِ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۵

وَأَخرجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخرَاجِكُمْ انْ تَوَلَوْهُمْ وَمَن يَتَولَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (الممتحنة/ ۸- ۹)

ثانياً: تقوية الروابط الاجتماعية

إنّ المجتمع البشرى هو المصدر الرئيسى لكل تطور وتقدم علمى واجتماعى ويستطيع أن يصل إلى هدفه المطلوب عندما تحكمه روابط وثيقة ومحكمة جدّاً، وفيما عدا ذلك فسوف يتحول إلى جحيم لا يطاق يحمل فى طياته مآسى وويلات اجتماعية، هذا فضلًا عن عدم استثماره لمعطياته ومكتسباته الذاتية، فمن جانب يؤكد على الوحدة الشمولية للعالم البشرى بصفتهم أعضاء لُاسرة واحدة، وإخوة من أب واحد وأم واحدة، كما جاء ذلك فى سورة الحجرات الآية ۱۳ وأشرنا إليه سابقاً.

ومن جانب آخر يعتبر المؤمنين أعضاء لكيان واحد بغض النظر عن الاختلافات الموجودة بينهم من الناحية اللغوية والعرقية، لذا يقول تعالى «بَعضُكُم مِن بَعْضٍ». (آل عمران/ ۱۹۵)

ويقول فى موضع آخر: «وَالمُؤمِنونَ وَالمُؤمِنَاتُ بَعضُهُم اوْلِيَاءُ بَعضٍ». (التوبة/ ۷۱)

ولم يكتفِ بهذا الأمر فقط، فبالإضافة إلى العلاقات الإنسانية والإيمانية أوصى وأكد على الروابط الشخصية أيضاً والتى تتحقق فى نطاق أضيق وأقرب.

ولذا يعتبر نقض هذا العهد والحلف جريمة كبرى يقول تعالى فى هذا الصدد: «الَّذِينَ يَنقَضوُنَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعدِ مِيثَاقِهِ وَيَقطَعُونَ مَا امَرَ اللَّهُ بِهِ انْ يُوصَلَ وَيُفسِدُونَ فِى الارْضِ اولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ». (البقرة/ ۲۷)

ونقرأ فى سورة محمد الآية ۲۲ و ۲۳ قوله تعالى «فَهَلْ عَسَيْتُم انْ تَوَلَّيْتُم انْ تُفسِدُوا فِى الارضِ وَتُقَطِّعُوا ارحَامَكُم* اولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصَمَّهُم وَاعمَى ابصَارَهُم».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۶

وبناءً على ذلك يرى أن قطع هذه العلاقات مقارن للفساد فى الأرض، ومن دواعى فقدان البصيرة والجمود الباطنى.

وتنبثق أهميّة هذه الروابط فى الإسلام من أنّ كل ما يساهم فى تحكيم العلاقات الاجتماعية يعتبر أمراً ضرورياً، حتى أنّ الكذب الذى هو من أبشع الذنوب يعدّ جائزاً لأجل إصلاح ذات البين، وعلى العكس من ذلك فإنّ كل مايساهم فى تضعيف هذه الارتباطات وتفككها يعتبر أمراً منبوذاً ومرفوضاً تحت أى عنوان وإسم كان.

ثالثاً: احترام حقوق الإنسان

إنّ القانون الناجح والممتاز هو القانون الذى يُقدم- بالإضافة إلى امتيازاته الاخرى أطروحة جامعة ودقيقة فى مجال حقوق الإنسان، وبناءً على هذه الحقيقة، كلما ألقينا نظرة حول الآيات القرآنية التى وردت فى هذا المجال تجلّت عظمة هذه القوانين أكثر فأكثر.

فالقرآن حرص كثيراً على مسألة حفظ النفس والمال والنواميس البشرية، بحيث وصل به الأمر إلى أن يعتبر النفس الإنسانية الواحدة مساوية لنفوس الناس جميعاً، لنقرأ قوله تعالى: «مَن قَتَلَ نَفْسَاً بِغَيْرِ نَفْسٍ او فَسَادٍ فِى الارْضِ فَكَانَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَن احْيَاهَا فَكَانَّمَا احْيَا النَّاسَ جَمِيعاً». (المائدة/ ۳۲)

ولا نجد لهذا التعبير مثيلًا فى أى قانون آخر.

ويذهب القرآن فى صدد مسألة حقوق الإنسان إلى أنّ أصل العدالة يحتل مركز الصدارة على جميع الأمور فى إجراء الحقوق، ويحذر من أن تقضى النزاعات الشخصية أو العلاقات الحميمة إلى عدم إجراء العدالة والعمل بها.

يقول تعالى فى محكم كتابه: «وَلَا يَجرِمَنَّكُم شَنَئَانُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقوَى . (المائدة/ ۸)

وفى مجال آخر يتعرض القرآن الكريم إلى تأثير الصداقة على إجراء العدالة حيث

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۷

يوجه هذا الانذار بقوله تعالى «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى انفُسِكُم او الوَالِدَينِ وَالاقرَبِينَ انْ يَكُن غَنِيّاً او فَقِيراً فَاللَّهُ اولَى بِهِمَا». (النساء/ ۱۳۵)

وتتضح هذه المسألة أكثر من خلال التأكيدات الكثيرة للقرآن على مسألة رعاية الأيتام والمراقبة الدقيقة لأوضاعهم، والتعهد بكفالتهم إلى أن يكبروا ويبلغوا سن الرشد، فيقول فى هذا الصدد: «ان تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالقِسْطِ». (النساء/ ۱۲۷)

والجدير بالذكر أنّ القرآن الكريم جعل مسألة الحماية والرعاية للأيتام مرادفة للتوحيد وللمسائل الإنسانية والأخلاقية الاخرى فيقول عزّ من قائل: «... لَاتَعبُدُونَ الَّا اللَّهَ وَبِالوالِدَينِ احْسَاناً وَذِى القُربَى وَالْيَتَامَى وَالمَسَاكِينَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسناً وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ». (البقرة/ ۸۳)

ومن طريف القول: إنّه تعالى قرر خمسة قوانين إنسانية لها علاقة بحقوق الإنسان فى ضمن شعيرتين من أهم الشعائر الإسلامية على صعيد الاعتقاد والعمل، ألا وهما- التوحيد والصلاة.

رابعاً: الحرص على تأمين الحرية والأمن

من أهم الأمور التى اهتمت بها القوانين القرآنية هى: حرية العقيدة، وحرية الإنسان، واستقرار الأمن على فى الأصعدة والمجالات كافّة، وتشير إلى هذا المعنى الآية الكريمة:

«لَآاكرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَّبَيَّنَ الرُّشدُ مِنَ الغَىّ». (البقرة/ ۲۵۶)

ومن الأهداف المهمّة لبعثة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله هى القضاء على الأسر والقيود والاغلال إذ يقول سبحانه: «وَيَضَعُ عَنهُم اصْرَهُم وَالاغلَالَ الَّتِى كَانَت عَلَيهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

وفى موضع آخر يخاطب المؤمنين بقوله: «يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا انَّ ارْضِى وَاسِعَةٌ فَايَّاىَ فَاعبُدُونِ». (العنكبوت/ ۵۶)

وينقل القرآن قصة عجيبة عن «أصحاب الاخدود»، أولئك الذين كانوا يعذبون المؤمنين

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۸

ويلقونهم فى حفر النيران لا لشىء إلّا لأنّهم حملوا اعتقادات راسخة، لذا يصفهم بالقول: إنّ هذه الزمرة المتسلطة ما أقدمت على عملها هذا إلّالأجل سلب حرية العقيدة والإيمان، ثم يبين لهم أشد العقوبات الإلهيّة النازلة بحقهم لنقرأ قوله تعالى «انَّ الَّذِينَ فَتَنُوا المُؤمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُم عَذابُ جَهَنَّمَ وَلَهُم عَذابُ الحَرِيقِ». (البروج/ ۱۰)

وكثيراً ما يُشيد القرآن الكريم بنعمة «الأمن» بحيث يعتبره مقدماً على أى شىء آخر، ولهذا السبب حينما قدم إبراهيم الخليل عليه السلام على الأرض القاحلة، ذات الحرارة المحرقة والخالية من النبات والشجر فى مكة، وبنى الكعبة، فإنّ أوّل حاجة طلبها من اللّه تعالى لساكنى هذه الأرض مستقبلا هى نعمة الأمن كما ورد ذلك فى القرآن: «رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارزُق اهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ». (البقرة/ ۱۲۶)

وقد ورد هذا الموضوع فى مكان آخر من القرآن وبتعبير آخر، فيقول تعالى «رَبِّ اجعَلْ هَذَا البَلَدَ آمِناً وَاجنُبنى وبَنِىَّ ان نَّعبُدَ الاصنَامَ». (ابراهيم/ ۳۵)

ففى الآية الاولى تقدم ذكر الأمن على الأمور الاقتصادية، وفى الآية الثانية تقدم ذكره أيضاً على مسألة التوحيد، ولعله إشارة إلى عدم تحقق الضمان الدينى والدنيوى للمجتمع بدون انتشار الواقع الأمنى فى المحيط القائم، بالإضافة إلى أنّ القرآن يصف حالة انعدام الأمن بأنّها أسوأ حالًا من القتل وسفك الدماء، فيقول: «وَالفِتنَةُ اشَدُّ مِنَ القَتلِ».

(البقرة/ ۱۹۱)

وبالرغم من أنّ للفتنة معانى كثيرة، (كالشرك، والتعذيب والتنكيل والفساد)، ولكن لايستبعد أن يكون مفهوم الآية شاملًا بحيث يستوعب كل هذه المعانى.

وعليه فإنّ إيجاد حالة من انعدام الأمن والفساد تفوق بمراتب حالة سفك الدماء لأنّها بالإضافة إلى كونها مصدراً لسفك الدماء، هى مصدر للمفاسد الاخرى أيضاً.

وتجدرالإشارة إلى هذه النكتة أيضاً وهى: إنّه قد تقرر فى الإسلام نوع خاص من «الأمن» لم يسبق له وجود فى أى قانون من القوانين الدولية ألا وهو الحفاظ على حيثية الأفراد وكرامتهم، حتى فى دائرة أفكار الآخرين.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۱۹۹

وبتعبير أدق: إنّ الإسلام لايسمح لأىمسلم أن يحمل فى نفسه الظن السيء والتفكير الخاطىء تجاه الآخرين فيعمد إلى خدش كرامة الآخرين وحرمتهم فى دائره التفكير الشخصى، وقد تجسد هذا المعنى بقوله سبحانه فى الآية: «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجتَنِبُوا كَثِيراً مِن الظَنِّ انَّ بَعضَ الظَنِّ اثمٌ وَلَاتَجَسَّسوُا». (الحجرات/ ۱۲)

إنَّ الإسلام يريد أن تسود حالة الامن والاطمئنان التام فى المجتمع الإسلامى، ولا يقتصر الأمر على النزاعات الشخصية بين الآخرين فحسب، وإنّما يشمل المناوشات الكلامية، وأكثر من ذلك على صعيد الاتجاهات الفكرية بين الأفراد مع بعضهم البعض، بحيث يشعر كل واحد منهم بأنّ أخيه لا يسدد باتجاهه سهام التهمة والافتراء، وهذه الحالة تمثل أعلى مستويات الأمن ولاتتحقق إلّافى ظل وجود المجتمع الإيمانى وسيادة القوانين الإسلامية.

والجدير بالذكر إنّه قد ورد النهى عن الكثير من الظنون، ولكن فى أثناء بيان العلة يقول:

إنَّ بعض الظنون إثم، ولعل منشأ التفاوت فى التعبير عائد إلى أنّ الظنون السيئة تجاه الآخرين تطابق الواقع أحياناً، ولاتطابقه أحياناً اخرى وبناءً على أنّ النوع الثانى يعدُّ ذنباً من الذنوب، فلابدّ من الابتعاد عن كل الظنون السيئة الواقعة تحت عنوان «كثيراً من الظن».

النكتة الأخيرة فى هذا البحث: هى أنّ الإسلام انطلاقاً من اهتمامه الكبير بتحقيق الأمن الداخلى فى المجتمعات الإسلامية أجاز التوسّل بالقوة والقدرة العسكرية لحل الاختلافات والمجابهات الداخلية فى حالة فشل الأساليب والطرق السلمية، ونطالع هذا المعنى فى قوله تعالى «وَانْ طَائِفَتَانِ مِنَ المُؤمِنِينَ اقتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَانْ بَغَتْ احدَاهُمَا عَلَى الاخرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ الَى امْرِ اللَّهِ فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالعَدْلِ وَاقسِطُوا انَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُقسِطِينَ». (الحجرات/ ۹)

إنّ مَن يمعن النظر جيداً فى تعبير هذه الآية: يجد أنَّ كلَّ مقطع من المقاطع فيها يحكى عن تحديد صورة لمنهج دقيق يقضى بإنهاء أى شكل من أشكال الاضطراب والفتن

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۲۴۸

الاجتماعية وذلك من خلال استخدام أفضل السبل السلمية، أو اللجوء إلى القوة فى نهاية المطاف إذا لم تثمر الأساليب الاخرى

ومن البديهى أنّ المقصودين بالخطاب فى هذه الآية هم أفراد المجتمع الإسلامى، أو بعبارة اخرى الحكومة الإسلامية.

خامساً: ضمانات تنفيذ القوانين القرآنية

إنّ وجود القوانين الدولية لا يمثل سوى حبرٍ على ورق، وغاية ماتقوم به من تأثير ذاتى أنّها تنقل النصيحة والموعظة لكن بدون الاستناد إلى أى دليل، وبعبارة اخرى فإنّ القوانين بحد ذاتها لاتنطوى إلّاعلى بعد ذهنى وفكرى، وحتى تكتسب قيمة اجتماعية تحتاج إلى أن تستند إلى قاعدة معينة تلزم أفراد المجتمع باتباعها والانصياع لها، وهذه القاعدة هى التى يطلقون عليها عنوان «الضامن

التنفيذى» أو «الضمانة التنفيذية».

يتضح جيداً من هذه المقدّمة أنّ قيمة القانون وصلاحيته متوقفة على مدى قوّة الضمانات لتنفيذ هذه القوانين وقدرتها، فمتى ما كانت الضمانة الإجرائية لأحد القوانين أقوى وأدق كانت قيمتُهُ الاجتماعية أعلى وأكثر.

إنّ الكثير من الضمانات التنفيذية للقوانين تنطوى على آثار سيئة للغاية، وتخلق مشاكل ومساوىء على صعيد المجتمع؛ وتؤدّى أحياناً إلى الاصطدام وانعدام الثقة، وسوء الظن بين الأفراد، أو أنّها تعكس القانون بشكل صارم ورهيب وهذه بحد ذاتها تعتبر خسارة كبرى ولو كانت الضمانة التنفيذية تستند إلى مجموعة من المبانى الثقافية والأخلاقية والعاطفية، لما اشتملت على أيٍّ من هذه المساوىء.

إنّ العالم المعاصر ومن أجل تطبيق القوانين الوضعية يمر فى دوامة قاتلة.

وهذه الدوامة ناشئة من عدم وجود ما يضمن تنفيذ هذه القوانين سوى العقوبات المادية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۱

والتى تشمل العقوبات الجسدية أو الغرامات المادية، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى عدم سن القوانين التى تقضى بمعاقبة المجرمين بالإعدام عند ارتكابهم للجرائم والجنايات الفجيعة والتى يستحق فاعلها ذلك.

إنّ عدم وجود الوازع النفسى والوجدانى الذى يضمن تنفيذ القوانين الوضعية، وكذلك ضعف الضمانات التنفيذية الخارجيه، أدّى إلى حصول الكثير من المخالفات القانونية وقد ترتب على ذلك ابتعاد الناس عن الضوابط والمقررات وتجذر حالة عدم المبالاة يوماً بعد يوم، والدليل على ذلك هو كثرة المؤسسات القضائية والسجون فى العالم.

وهذا الوضع هو الذى يمكن أن يطلق عليه عنوان «أزمة الضمانة التنفيذية»، وله نتائج وعواقب غير محمودة، الأمر الذى جعل المجتمعات الإنسانية بأسرها تدفع ضرائب ثقيلة، ويمكن الوقوف على شواهد من هذا القبيل فى أرقى الدول الصناعية فى العالم.

ومن العقبات الاخرى للضمانات التنفيذية فى القوانين الدولية المعاصرة، هو الاقتصار على الأحكام الجزائية وفقدان الجانب الإيجابى فى الجزاء أى الاتكاء على العقوبة وترك المكافاة.

إنّ الإنسان يتمتع بقوتين «القوة الجاذبة والدافعة» أو بعبارة اخرى الميل للحصول على المنافع ودفع المضار، ولابدّ من الاستعانة بكلا الجانبين فى إجراء القوانين، فى حين أنّ عالم اليوم يحصر جلّ اهتمامه على دفع المضار وفى دائرة محدودة أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأنّ العالم المادى ليس فى جعبته شىء ليجعله بعنوان مكافأة تقديرية أزاء كل من يعمل ببنود القانون.

وعلى ضوء هذه المقدّمات نعود إلى مسألة «الضمانة التنفيذية للقوانين القرآنية» لنرى اشتماله على أقوى الضمانات التنفيذية وأجمعها، وهذا الامتياز ينفرد به دون غيره.

وقد أُخذت بعين الاعتبار ثلاثة أنواع من الضمانات التنفيذية فى القرآن:

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۲

۱- الضمانة التنفيذية المستمدة من الدولة الإسلامية.

۲- الضمانة التنفيذية المستندة إلى الرقابة العامة.

۳- الضمانة الذاتية الداخلية أو بتعبير آخر، الضمانة الناشئة من الإيمان والاعتقاد بمبادىء الإسلام والقيم الأخلاقية والعاطفية.

ففى المورد الأول تقع على عاتق الدولة الإسلامية مسؤولية الوقوف بصورة حدّية بوجه أى شكل من أشكال المخالفة القانونية، فالخطوة الاولى التى أقدم عليها نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بعد هجرته إلى المدينة، وبعد التغلب على المشاكل العالقة، هى إرساء دعائم الدولة الإسلامية، وبيان معالم القوانين الإسلامية، وملاحقة أى نوع من أنواع الانحراف والشذوذ باعتباره من الذنوب التى تدخل فى دائرة (العقوبة الجزائية).

لقد اعتبر الإسلام القوانين القرآنية حدوداً إلهيّة، ووجه العقوبة إلى كل من يتجاوز هذه الحدود.

فمن جهة يُعرِّف المتخلفين بأنّهم ظالمون يقول تعالى «وَمَن يَتَعدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (البقرة/ ۲۲۹)

ومن جهة اخرى يؤكد على محاربة الظالمين.

فحينما يذهب القرآن إلى القول: «لَقَدْ ارْسَلنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَانزَلنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ وَانزَلْنَا الحَدِيدَ فِيهِ بَاسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرهُ وَرُسُلَهُ بِالغَيبِ انَّ اللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ». (الحديد/ ۲۵)

فإنّ معناه: إن شَخْصَ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله الذى هو خاتم الأنبياء وسيدهم هو الذى تقع على كاهله هذه المسؤولية قبل أى شخص آخر.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يدعو كل فرد من أفراد الأمة الإسلامية إلى المراقبة فى اجراء القوانين الإلهيّة، ووفقاً لمبدأ «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر»، يلزم الجميع بأن لا يتهاونوا ويتخاذلوا فى الوقوف بوجه الانحراف عن القوانين الربانية.

لذا يقول سبحانه فى أحد المواضع: «وَالمُؤمِنُونَ وَالمؤمِنَاتُ بَعضُهُم اولِيَاءُ بَعضٍ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۳

يَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ المُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ويُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (التوبة/ ۷۱)

وتتجلّى الأهميّة القصوى لهاتين الوظيفتين فى الآية الكريمة من خلال تقديم ذكرهما على الصلاة والزكاة وإطاعة اللّه والرسول، والسر فى ذلك يقع فى أنّ أركان الصلاة والزكاة والطاعة لاتستقيم أعمدتها من دون هذه الرقابة العامة على إجراء القوانين.

وفى موضع آخر حينما يعمد تعالى إلى طرح الصفات المختصة بالمجاهدين فى سبيل اللّه أولئك الذين اشتروا الجنّة من اللّه تعالى بأموالهم وأنفسهم، يقول بعد بيان ست صفات من الصفات المتعلقة بهؤلاء المجاهدين: «الآمِرُونَ بِالمَعرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ والحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ». (التوبة/ ۱۱۲)

وممّا يلفت النظر: إنّه نظراً إلى أنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر له مراحل مختلفة تبدأ من النصيحة والإرشاد والمواعظ الاخوية، وتشق طريقها حتى تصل إلى مرحلة التشدد والحزم العملى، بناءً على ذلك فقد قسمها القرآن إلى قسمين، جعل القسم الأول فى متناول الجميع، أمّا القسم الثانى فقد جعله فى متناول جماعة خاصة تمارس أعمالها تحت إشراف الحكومة الإلهيّة، ولذا يشير إلى هذا التقسيم بقوله تعالى «وَلتَكُن مِّنكُم امَّةٌ يَدعُونَ الَى الخَيرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعرُوفِ وَيَنهوَنَ عَنِ المُنكَرِ واولَئِكَ هُمُ المُفلِحوُنَ».

(آل عمران/ ۱۰۴)

ومن البديهى إنّ الامّة التى تأخذ على عاتقها مسؤولية الرقابة، على إجراء القوانين ويشاطرها فى هذا الشعور بالمسؤولية كافة أفراد المجتمع، سيكون القانون فى أوساطها معززاً مكرماً وصالحاً للتطبيق فى الوقت المناسب.

وحينما نخرج من دائرة الرقابة العامة يأتى الكلام عن الرقابة الذاتية، والروحية والاعتقادية والوجدانية للأفراد على حسن إجراء القوانين وهكذا رقابة تعتبر بحقّ أفضل أنواع الرقابات وذلك لوجود الرادع الذاتى للفرد.

أمّا «الإيمان بالمبدأ» أى بالله عزّ وجلّ الذى هو حاضر فى كل حين وهو أقرب إلى العباد من أنفسهم: «وَنَحنُ اقرَبُ الَيهِ مِن حَبلِ الوَرِيدِ». (ق/ ۱۶)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۴

وسبحان الذى: «يَعلَمُ خَائِنَةَ الاعُينِ وَمَاتُخفِى الصُّدُوُر». (غافر/ ۱۹)

واللّه الذى جعل الأرض والزمان وحتى أعضاء بدن الإنسان رقيباً عليه وشاهداً وشهيداً على أفعاله «۱».

و «الإيمان بمحكمة القيامة الكبرى بحيث لو كان فى صحيفة أعمال الإنسان مقدار ذرة من عمل الخير أو الشر لاحضروها أمامه، ويلاقى حسابه وجزاؤه: «فَمَن يَعملْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَهُ* وَمَن يَعملْ مِثقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ». (الزلزلة/ ۷- ۸)

وليست الأمثلة السابقة هى التى تعكس آثار الإيمان بالمبدأ والمعاد فحسب، بل لدينا مئات الأمثلة من هذه الآيات فى القرآن الكريم

يعدّ الاعتقاد بها من أفضل الضمانات لتنفيذ القوانين الإلهيّة.

وكم هو الفرق بين من يرى نفسه مراقباً من قبل القوى الامنية والعسكرية التى لا تتجاوز أعدادها الواحد بالالف وبما تمتلك من إمكانيات محدودة ونواقص كثيرة عندما تكون رقيبةً على أعمال الآخرين، ومع ما تراه لازماً من اتخاذ الاستعدادات الكافية من أجل الدخول فى الأماكن الهامة والمنازل العامة، وما أبعد الهوة بين هذا الشخص وبين من يرى نفسه فى كل الأحوال والأمكنة وبدون استثناء خاضعاً لرقابة اللّه المستمرة والملائكة، ويعتقد أنّ الموجودات من حوله وحتى أعضاء بدنه ستحتفظ بأعماله وتعلن عنها فى حينه.

إنّ الضمانة التنفيذية لا أثر لوجودها فى العالم المادى إطلاقاً، ولهذا السبب لم تتمكن الضمانات التنفيذية الاخرى بأى شكل من الأشكال أن تقف حاجزاً أمام المخالفات الاخرى فى حين تنحسر هذه المخالفات القانونية فى ظل الأجواء الدينية الواقعية التى يكون هذا الضامن التنفيذى فيها فعالًا، كما تحقق ذلك فى زمن حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ففى ذلك الزمان لم يكن لوجود السجون معنى على الاطلاق، وقلّما كانت تعقد المحاكم القضائية، فقد كانت شكاوى الناس تتلخص بمجيء بعض الأشخاص أحياناً إلى محضر النبى صلى الله عليه و آله فى المسجد ويطرحون دعاواهم، فيستمعون إلى الأجوبة فى المكان نفسه ويخرجون راضين بالحلول العادلة.

---

(۱) الزلزلة، ۴؛ ويس، ۶۵؛ والنور، ۲۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۵

وفى الوقت الحاضر أيضاً تصل الجنايات والانحرافات إلى الحد الأدنى فى المجتمعات الدينية خاصةً فى المناسبات الدينية (من جملتها مناسبة شهر رمضان المبارك).

سادساً: إحياء القيم الروحية

بالرغم من أنّ الوجود الإنسانى مركب من مادة وروح أو من جسم وروح، وحياة الإنسان متكونة من جانبين، جانب مادى وجانب معنوى، إلّاأن جميع القوانين فى العالم المادى ناظرة إلى القيم المادية، فأى عمل لا يتعارض مع المسائل المادية للمجتمع يعتبر جائزاً ومشروعاً فى نظرهم، ويدخل فى هذا المضمار تصويب الكثير من القوانين المخزية والتى يبعث ذكرها على الاشمئزاز والتقزز، والحال أنّ هذا الفصل لايوجه ضربة إلى الشخصية الإنسانية المرموقة ويحطها إلى مستوى الحيوان فحسب، بل يُعرض نفس القيم المادية للخطر أيضاً، وذلك لعدم إمكانية الفصل عملياً بين هذين الأمرين.

وانطلاقاً من كون القرآن منسجما مع الخلقة والفطرة الإنسانية فهو يأخذ بالاعتبار كلًا من القيم المادية والمعنوية معاً، فحينما يتطرق فى حديثه إلى اختيار الزوجة يقول: «الزَّانِى لَايَنكِحُ الَّا زَانِيَةً او مُشرِكَةً والزَّانِيَةُ لَايَنكِحُهَا الَّا زَانٍ او مُشرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى المُؤمِنِينَ». (النور/ ۳)

ويقول أيضاً: «قُلْ لَّايَستَوِى الخَبِيثُ وَالطَّيِبُ وَلَوْ اعجَبَكَ كَثرَةُ الخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا اولِى الالبَابِ لَعَلَّكُم تُفلِحونَ». (المائدة/ ۱۰۰)

من الواضح إنّ ذكر الخبيث والطيب فى هذه الآية إمّا ناظر إلى الطهارة المعنوية وعدمها، وإمّا ناظر على الأقل إلى العموم فيشمل المعنى المادى والمعنوى معا، لذا فإنّ كثرة الأوبئة وانتشار الموبقات لا يمكن أن يكون دليلًا على مشروعيتهم وحقانيتهم.

وتتبلور هذه المسألة أكثر فى القوانين والدساتير المرتبطة بالزواج خاصة لأنّه يحدث كثيرا أن يقع كل من الجمال الظاهرى والمعنوى على طرفى نقيض، فيقترن جمال الظاهر مع

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۶

تلوث الباطن، وحسن الباطن مع عدم جمال الظاهر. ففی هذه الحالة یرجّح القرآن الکریم الکفة الثقیلة لجمال الباطن وجاذبیة الروح والأخلاق والإیمان فیقول: «وَلَا تَنکِحُوا المُشرِکَاتِ حَتَّی یُؤمِنَّ وَلَامَةٌ مُّؤمِنَةٌ خَیرٌ مِّن مُّشرِکَةٍ وَلَو اعجَبَتکُم وَلا تَنکِحُوا المُشرِکِینَ حَتَّی یُؤمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤمِنٌ خَیرٌ مِّن مُّشرِکٍ وَلَو اعجَبَکُم اولَئِکَ یَدعُونَ الَی النَّارِ وَاللَّهُ یَدعُوا الَی الجَنَّةِ وَالمَغفِرَةِ بِإذنِهِ». (البقرة/ ۲۲۱)

ومن المؤسف حقّاً هو عدم الاهتمام بالقیم المعنویة فی وضع القوانین والمقررات الاجتماعیة فی عالم الیوم حیث أصبح من العوامل المهمّة للکثیر من المآسی والویلات، علاوة علی أنّ هؤلاء لا یجدون الطریق إلی هذه القیم فی الواقع، لأنّ الاعتراف بهذه القیم لا یتمّ بدون الاستناد إلی رؤیة معنویة للکون تقیم وزناً لها وتحتفظ بقیمتها، لذا أصبح العالم المادی عاجزاً عن الوصول إلیها، وما یشاهد حالیاً فی المتون القانونیة لعالم الیوم من قبیل حقوق الإنسان مثلًا فهو الآخر عرضة للتفاسیر المختلفة دائماً، أو مبرر لتوجیه الابتزازات المادیة، وغطاء للتستر علی الأهداف اللامشروعة المنافیة للأصول المنسجمة مع الإنسانیة فی کل الحالات.

سابعاً: الاصول الثابتة والمتغیرة

من المعلوم لدینا أنّ مسلمی العالم یعتقدون من خلال ما استلهموه من القرآن والأحادیث الإسلامیة المعتبرة أنّ نبی الإسلام هو خاتم الأنبیاء، وأنّ الدین الإسلامی هو الدین الخالد، ومع التسلیم بهذا الاعتقاد یبرز هذا السؤال وهو: کیف یمکن الحفاظ علی بقاء الأحکام والمقررات الثابتة والخالدة مع حدوث التغییرات المستمرة للحیاة الاجتماعیة للجنس البشری، وکیف یتم حصول المتطلبات المتغیرة مع وجود قوانین ثابتة؟

إنّ القوانین القرآنیة عالجت هذه المشکلة وذلک من خلال تصنیف القرآن لهذه القوانین

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۷

إلی صنفین: الصنف الأول منها هی القوانین الکلیة التی أصلها ثابت، ومصداقها وموضوعها الخارجی فی تغیر وتبدل مع مرور الزمن، والصنف الثانی منها هی القوانین الخاصة والجزئیة بالاصطلاح وهی غیر قابلة للتغییر.

وتوضیح ذلک: یُؤخذ من خلال ما خاطب به القرآن المؤمنین بقوله: «یَاایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اوفُوا بِالعُقُودِ». (المائدة/ ۱)

هذه هی إحدی الاصول العامه السائدة علی مرِّ العصور والأزمنة، وإن کان موضوعها ومصداقها فی حالة تغیر وتبدل، فمثلًا ظهرت مع مرور الزمن سلسلة من الارتباطات الحقوقیة الجدیدة والاتفاقیات المستحدثة بین أوساط الناس لم یسبق لها وجود فی عصر نزول القرآن، فعلی سبیل المثال لم یکن یبدو للعیان شیء اسمه «التأمین»، أو أنواع الشرکات المختلفة فی ذلک الزمن، والتی تحققت فی عصرنا هذا حسب حصول المتطلبات الیومیة، بیدَ أنّ القانون العام الآنف الذکر قد شمل کل هذه الأمور، فأی شکل من أشکال الاتفاقیات والمعاملات الجدیدة والعقود والمواثیق الدولیة، التی تظهر علی مسرح الوجود حسب المتطلبات إلی نهایة العالم وتکون منسجمة مع الاتفاقیات الإسلامیة تقع ضمن هذا الشمول، ونجد قسطاً وافراً من هذه القوانین فی الإسلام بصورة عامة والقرآن بصورة خاصة.

ولننظر فی قوله عزّ من قائل: «وَمَا جَعَل عَلَیکُم فِی الدِّینِ مِن حَرَجٍ». (الحج/ ۷۸)

بناءً علی ذلک إذا تعذّر أداء إحدی التکالیف الإسلامیة فی ظروف خاصة فإنّها تخرج من دائرة الوجوب والإلزام تلقائیاً، فیتبدل الوضوء فی ظروف قاسیة إلی التیمم، والصلاة من وقوف إلی الصلاة من جلوس، والصلاة من جلوس إلی الصلاة فی حالة الاضطجاع، ویتبدل صوم الأداء إلی صوم القضاء، ویرتفع الحج فی مثل هذه الظروف.

وقد وردت إشارات إلی «قاعدة لاضرر» فی موارد خاصة من آیات قرآنیة متعددة تدل علی خطر الأمور التی تلحق الضرر والأذی

بشكل أو بآخر، ولذلك تحدد وتضيق دائرة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۸

الأحكام والمقررات التى بينت على شكل حكم عام حينما تصل إلى موارد الضرر والحرج.

يقول القرآن فى موضوع النساء المطلقات: «وَلَا تُضَارُّوهُنَّ». (الطلاق/ ۶)

ويقول فى موضع آخر: «وَلَا تُمسِكُوهُنَّ ضِراراً». (البقرة/ ۲۳۱)

ويقول فى مورد الوصية: «مِن بَعدِ وَصيَّةٍ يُوصَى بِهَا او دَينٍ غَيرَ مُضَارٍ». (النساء/ ۱۲)

ويقول فى مورد الشهود وكتاب السندات: «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ». (البقرة/ ۲۸۲)

إنَّ هذه القاعدة المطروحة بشكل أكثر تفصيلا فى الروايات الإسلامية تعتبر من القواعد المهمّة التى تقوم بتطبيق الأحكام الإسلامية (من خلال التغيرات الطارئة على الموضوعات)، على الاحتياجات والضروريات الواقعية لكل زمان، وقد تمّ شرح ذلك فى كتب «القواعد الفقهية»، وعلى أى حال فإنّ من الشواهد الاخرى لهذا المدعى هى: «قاعدة العدل والانصاف»، وقاعدة: «عدم تكليف مالا يطاق»، وقاعدة: «المقابلة بالمثل»، فى المسائل المتعلقة بالجنايات والقصاص والاضرار المالية، وكلها لها جذور قرآنية، وخلاصة الكلام: إنطلاقا من «خاتمية نبوة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وفقاً للآية ۴۰ من سورة الأحزاب» واستمرارية القرآن الكريم، فإنّ القوانين القرآنية طرحت من الدقة بمكان بحيث لم تسنح لظروف الزمان وتحولات الظروف والمتطلبات البشرية التى عفا عليها الدهر وعلاها غبار الزمن الغابر.

وفى الوقت التى كانت تسد الاحتياجات القانونية لعصر النبى صلى الله عليه و آله الذى هو عصر نزول القرآن كانت ناظرة أيضاً إلى الأزمنة والقرون الآتية، ومن الأمثلة الرائعة والجلية هو مانلاحظه فى الآية المتضمنة لمفهوم (إعداد القوى وتعبئتها حفاظاً على بيضة الإسلام والمسلمين: «وَاعِدُّوا لَهُم مَّااستَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ». (الانفال/ ۶۰)

فمن جهة يضع بصماته على المستلزمات الضرورية لذلك العصر ويتحدث عن الخيول المُجرَّبة، ولكن من جهة اخرى يُنوِّه إلى أصل عام يتوافق مع ذلك العصر، ومع كل عصر

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۰۹

حتى قيام الساعة، وهذا الأصل هو تهيئة شتى أنواع القوى والقدرات التى تشمل كافة الوسائل القديمة والحالية والمستقبلية.

وأروع ماورد فى هذه الآية هو هذا المعنى: إنّ الغاية من كل هذه الأمور هو إلقاء الرعب فى قلوب الأعداء ليقف ذلك حاجزاً دون وقوع الاعتداء والحرب، لا أن يؤدّى ذلك إلى مزيد من إراقة الدماء.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۱

۶- الاعجاز الغيبى للقرآن

إشارة وتنبيه:

اشارة

بالرغم من وجود أصول وجذور للحوادث المستقبلية فى الماضى والحاضر إلّاأنّه لن يستطيع أحد أن يكشف النقاب بدقّة عن الحوادث المستقبلية، وبالرغم من إرادة الإنسان وعزمه المستمر فى التعرف والاطلاع على الحوادث المستقبلية، وبالرغم من المساعى الكثيرة التى بذلها فى هذا الطريق، إلّاأنّه لم يصل إلى وسيلة ناجحة ترفع الحجب الكثيفة التى حالت بينه وبين المستقبل.

إنّ الرغبة الشديدة التى يحملها الإنسان للاطلاع على الحوادث المستقبلية هو الذى بعث الحماس والحمية فى سوق الكهان والمنجمين وأصحاب الخرافات، بل حتى الذين يقرأون الطالع والفأل، وهؤلاء بدورهم كانوا يستثمرون حالة النهم والولع لدى الناس بالاستفادة من ألاعيبهم وخدعهم الماكرة، ويُسلّونهم بسلسلة من العبارات المبهمة أو الأقاويل المملة التى كان يتمكن كل شخص أن يطبقها على مراده ومقصوده بسهولة، وكانوا يكسبون المنافع والأرباح من هذا الطريق.

وفى يومنا هذا أيضاً تحصل نبوءات كثيرة فى عالم السياسة وغيرها من العوالم الاخرى ترمى الوصول إلى أهداف خاصة غالباً، وهى جزء لايتجزأ من المخطط السياسى للدول، لكن الكثير منها لا يتحقق فى الخارج. ويخالف ما هو عليه واقعاً.

والجدير بالذكر إنّ هذه الاقاويل الخاطئة لاتقف مانعاً أمام التنبؤات المستقبلية فى مثل هذا النوع من المسائل أيضاً، بيدَ أنّ الحقيقة التى لا يمكن التعتيم عليها هى لو أنّ شخصاً

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۲

عمد إلى بيان الأمور المستقبلية بدقة وبكل تفاصيلها (لا بصورة طرح المعانى الكلية والبيانات المبهمة والعبارات المتضاربة) فهذا إن دل على شىء فإنّما يدل على أنّه مطلع على أسرار الغيب بصورة إجمالية، وإذا تكرر وقوع هذا التنبؤ وكان متقارناً مع دعوى النبوة أو الإمامة فحينئذٍ يمكن التعويل عليه بصفته أحد البراهين والأدلة.

من خلال هذه الإشارة نعود مرة اخرى لنبحث أمثلة كثيرة من هذا القبيل فى القرآن الكريم:

۱- «الَم* غُلِبَتِ الرُّومُ* فِى ادنَى الارْضِ وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَيَغلِبُونَ* فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الامْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمئذٍ يَفرَحُ المُؤمنونَ* بِنَصرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ* وَعْدَ اللَّهِ لَايُخلِفُ اللَّهُ وَعدَهُ وَلَكِنَّ اكثَرَ النَّاسِ لَايَعلَمُونَ».

(الروم/ ۱- ۶)

۲- «لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ انْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحِلّقِينَ رُؤسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحَاً قَرِيباً».

(الفتح/ ۲۷)

۳- «وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَاخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ ايدِىَ النَّاسِ عَنكُم وَلِتَكونَ آيَةً لِّلمُؤمِنِينَ وَيَهدِيَكُم صِرَاطًا مُّستَقِيمًا* وَاخرَى لَمْ تَقدِرُوا عَلَيهَا قَدْ احَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَىءٍ قَديراً». (الفتح/ ۲۰- ۲۱)

۴- «امْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ* سَيُهزَمُ الجَمعُ وَيُوَلُّونَ الدُبُر». (القمر/ ۴۴- ۴۵)

۵- «وَاذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ احدَى الطَّائِفَتينِ انَّهَا لَكُم وَتَوَدُّونَ انَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ويُرِيدُ اللَّهُ ان يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ* لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَو كَرِهَ الُمجرِمُونَ». (الانفال/ ۷- ۸)

۶- «انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ الَى مَعَادٍ». (القصص/ ۸۵)

۷- «تَبَّتْ يَدَا ابِى لَهَبٍ وَتَبَّ* مَا اغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ».

(تبت/ ۱- ۳)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۳

۸- «انَّا اعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ* انَّ شَانِئَكَ هُوَ الابْتَرُ».

(الكوثر/ ۱- ۳)

۹- «لَنْ يَضُرُّوكُم الَّا اذًى وَانْ يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُم الادبَارَ ثُمَّ لَايُنصَرُونَ».

(آل عمران/ ۱۱۱)

۱۰- «ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِلَّةُ ايْنَ مَاثُقِفُوا الَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ». (آل عمران/ ۱۱۲)

۱- الأخبار عن هزیمة الأعداء فی اقل من عشر سنین

فی الآیة الاولی إخبارٌ عن هزیمة الرومیین «غُلِبَتِ الرُّومُ»، ثم یتحدث بعد ذلک عن محل وقوع هذه الحادثة فیقول: «فِی أَدْنی الأَرْضِ»، والمقصود منها أراضی الشام بحد ذاتها أی (المنطقة الواقعة بین بُصری واذْرُعات)، وهی داخلة ضمن دائرة الروم الشرقیة، وکانت تعتبر من المناطق القریبة بالنسبة إلی سکان الجزیرة العربیة.

وقد وقعت هذه الحرب بحسب ماورد عن بعض المؤرخین المعاصرین فی عهد «خسرو برویز» وهی حرب طویلة الأمد دارت رُحاها بین الفرس والروم فی حدود عام ۶۱۷ میلادی، حینما قام اثنان من القادة الایرانیین المعروفین، وهما «شهر بُراز» «۱» و «شاهین» بمهاجمة أراضی امبراطوریة الروم الشرقیة، وتمکّنا من إلحاق هزیمة مرة بجیش الروم، وکانت منطقة الشامات ومصر وآسیا الوسطی مسرحاً لهذه العملیات، وقد آلت امبراطوریة الروم أثر هذه العملیات إلی السقوط والانقراض بعد الهزیمة النکراء التی لحقت بها، وقد استولی الایرانیون علی کل ما بسط الروم نفوذهم علیه فی منطقة آسیا ومصر، وقد وقعت هذه الحرب فی حدود السنة السابعة لبعثة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله.

---

(۱) اسمه فرّخان، قائد ایرانی حارب الروم فی زمان خسرو برویز واستولی علی مصر سنة ۶۱۶ میلادی، معجم‌دهخدا- مادة (براز).

وفرح أعداء الإسلام والمشرکون فی مکة بهذه الواقعة وتفاءلوا بها خیراً واستدلوا علی حقانیة أهل الشرک فقالوا: إنّ الایرانیین «مجوس» ومشرکون و «وثنیون» أمّا الرومیون فهم مسیحیون أهل کتاب، فکما تغلب الایرانیون علی الرومیین، سیکون النصر حلیفنا أیضاً نحن المشرکین، وستطوی صحیفة حیاة محمد صلی الله علیه و آله وتکون الغلبة لنا ولمعتقداتنا.

إنّ هذا النوع من الاستنتاج والتفاؤل وإن لم یستند إلی أی قاعدة منطقیة، إلّاأنّه لم یخل من تأثیر إعلامی فی أوساط ذلک المحیط، ولهذا السبب کان تأثیره شدید الوطأة علی المسلمین.

ویضیف القرآن تعقیباً علی الآیة السابقة: اعلموا أنّ هذه الغلبة للفرس لا تدوم زمناً طویلًا «وَهُم مِّن بَعدِ غَلَبِهِم سَیَغلِبُونَ» أی‌الروم، ثم یشیر إلی الجزئیات بعد ذلک بقوله:

«فِی بِضعِ سِنِینَ لِلَّهِ الامرُ مِّن قَبلُ وَمِن بَعدُ وَیؤمئذٍ یَفْرَحُ المُؤمِنونَ».

إلّا أنّ هذا الفرح والسرور لیس قائماً علی أساس التفاؤل بالخیر بالنسبة لغلبة الإسلام علی الشرک فحسب، بل السبب الأساسی لغبطتهم هذه هو حصولهم علی المدد الإلهی (بالنصرة علی مجموعة من الأعداء فی محیطهم الداخلی) «بِنَصرِ اللَّهِ یَنصُرُ مَن یَشَاء وَهُوَ العَزِیزُ الرَّحِیمُ».

ومن أجل ترسیخ هذا المعنی أکثر، وازالة أی لون من ألوان الشک والتردد، یقول تعالی

«وَعْدَ اللّهِ لایُخلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَکِنَّ اکْثَرَ النَّاسِ لَایَعلَمُونَ».

إنّ هذا التنبؤ العجیب المشتمل علی ذکر الجزئیات، والذی یخبر عن أحد المسائل العسکریة والسیاسیة المهمّة، کیف یمکن له أن یتحقق بدون الإحاطة بأسرار الغیب؟

فمن جهة یخبر عن أصل وقوع الانتصار للرومیین المندحرین الذین وصل بهم الاحباط والهزیمة إلی حد الانقراض وفقدوا مساحة شاسعة من أرض بلادهم، ولم یعد هناک أمل بأنّ یستعیدوا قواهم ویثبتوا کیانهم بهذه السهولة، ومن جهة اخری یصرح بأنّ هذا الأمر سیتحقق فی بضعة أعوام.

ويضيف على ذلك بقوله: إنّ هذا سيقترن بنصر آخر للمسلمين على الكفار، وفضلًا عن

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۵

ذلك كله يؤكد تأكيداً قاطعاً على أنّ هذا الوعد الإلهى حتمى الوقوع وا نّ اللّه لن يخلف وعده.

ونرى أنّ هذا الوعد تحقق فعلا بكل جزئياته، فقام ملك الروم «هرقل» بإلحاق الهزيمة تلو الهزيمة بمعسكر «خسرو برويز» فى سنة ۶۲۶ م أى بعد ۹ سنوات تقريباً حيث كانت نتائج هذه الحروب لصالح الروميين إلى سنة ۶۱۷ م وحققوا النصر الكامل والشامل، وأصيب «خسروبرويز» بالفشل الذريع فأزاحه الايرانيون من على دسّدة الحكم وأجلسوا مكانه ابنه «شيرويه».

خلاصة الكلام: إنّ هزيمة الروميين وقعت فى سنة ۶۱۷ م الموافق للسنة السابعة للبعثة النبوية الشريفة، واستعاد الروميون نصرهم من جديد فى سنة ۶۲۶ م حينما ألحقوا الهزيمة «بالجيش الساسانى»، ووصلت هذه الهزيمة إلى أوجها فى السنة القادمة أى (سنة ۶۲۷ م) ذلك أن هرقل زحف إلى «دستجرد» الواقعة على بعد عشرين فرسخا من «تيسفون» عاصمة ايران وموطن «خسرو برويز»، واندحر «خسرو برويز» ولاذ بالفرار، وعُزل على أثرها من مقام السلطة ممّا أدى ذلك إلى قتله، ونجد أنّ الفاصلة بين هذين لم تتجاوز التسع سنوات، وهو مطابق تماماً لمعنى «بضع سنين»، لأنّ «البضع» فى قاموس اللغة وعلى حد قول الراغب فى المفردات: هو بمعنى حصة من العدد عشرة، فكل مايقع بين الثلاثة والعشرة يقال له: بضع، وقال البعض: إنّ البضع يطلق على العدد الذى يكون أكثر من خمسة وأقل من عشرة.

وجاء فى معجم مقاييس اللغة أيضاً أنّ «البضع» هو العدد الذى يقع بين الثلاثة والعشرة.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ هذه النبوءة أصبحت من الأمور المتعارفة والمسلَّمة لدى المسلمين حتى كان البعض منهم على استعداد لأنّ يراهن على هذه المسألة مع المشركين فى مكة، وتحقق هذا الرهان بالفعل، وفى بداية الأمر وقع الرهان على خمس سنوات، ولما لم يتغير من الأمر شىء جاءوا إلى النبى وأخبروه بحقيقة الأمر، وما جرى عليهم مع المشركين، فقال لهم: كان ينبغى عليكم أن تحاوروهم على أقل من عشر سنوات،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۶

وهكذاحصل وتحقق النصر بعد الهزيمة فى أقل من عشر سنوات.

ومن النكات المهمّة الاخرى هى اقتران هذا النصر بانتصار المسلمين فى «معركة بدر» لأنّ معركة بدر وقعت فى السنة الثانية للهجرة، والمقطع الزمنى الفاصل بين السنة السابعة للبعثة والسنة الثانية للهجرة هو تسع سنوات- هذا إذا ما أخذنا فى الاعتبار نفس السنة السابعة أيضاً وبدونها تكون الفاصلة بينهما ثمان سنوات.

من هنا كان انتصار الروميين وانتصار المسلمين متقاربين، وفى الواقع إنّما فرح المسلمون لأمرين، الأول: هو الذى حققه أهل الكتاب أى الروميّون على المجوسيين الذى كان أحد مشاهد انتصار العبودية لله تعالى على الشرك، فى الوقت الذى كانت هزيمة الروم مدعاة لارتياح مشركى مكة وغبطتهم، والآخر: هو ما حققوه من انتصار كبير على المشركين فى معركة بدر.

۲- التنبوء عن نصرين هامين آخرين

تكشف الآية الثانية- فى هذا البحث- الستار عن اثنين من الحوادث المهمّة الآخرى المرتبطة بمستقبل المسلمين. الحادثة الاولى تكشف عن هذه الحقيقة للمسلمين وهى:

إنّكم ستدخلون المسجد الحرام وتقيمون هذه الشعائر الكبرى فى منتهى الأمن والآمان فى المستقبل القريب بالرغم ممّا يحمله المشركون من رفض واعتراض على دخول المسلمين إلى المسجد الحرام وأدائهم لمناسك الحج والعمرة، والاخرى تبيّن هذه الحقيقة

لهم وهى:

إنّ النصر الحقيقى سيكون حليفكم قبل ذلك.

يقول عزّ من قائل: «لَقَد صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيَا بِالحَقِّ لَتَدخُلُنَّ المَسجِدَ الحَرَامَ ان شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلّقِينَ رُوسَكُم وَمُقَصِّرِينَ لَاتَخَافُونَ فَعَلِمَ مَالَمْ تَعلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحَاً قَرِيبَاً».

تخبر هذه الآية عن أنّ النبى رأى فى‌منامه رؤيا تعبّر عن أنّ المسلمين سيدخلون

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۷

المسجد الحرام آمنين لأداء مناسك الزيارة لبيت اللّه.

كان البعض يتصور أنّ هذه الرؤيا ستتحقق مباشرة فى السنة نفسها، فعندما توجه المسلمون إلى مكة للزيارة واعترض طريقهم مشركوا مكة فى الحديبية (وهى القرية التى تقع مسافة ۲۰ كيلومتر عن مكة واشتق اسمها من البئر أو الشجرة الموجودة فيها) ممّا أدّى ذلك إلى التوقيع على اتفاق الصلح المعروف بصلح الحديبية، عندئذٍ أخذ البعض يراوده الشك والتردد فى أن لا- تكون لهذه الرؤيا مصداقية، على مستوى الواقع، حتى أنّهم بدأوا يسألون النبى صلى الله عليه و آله فى هذا المجال عن السبب وراء عدم تحقق هذه الرؤية الرحمانية؟ فأكد لهم النبى صلى الله عليه و آله على أنّه لم يقل: إنّ ذلك يتحقق فى هذه السنة وإنّما قصد وقوعه فى المستقبل القريب، فى هذه الأثناء نزلت الآية المذكورة وأول ما أكدت عليه هو صدق هذه الرؤيا، ثم أشارت بعد ذلك إلى الجزئيات وقالت: إنّكم ستدخلون المسجد الحرام قريباً وتؤدّون مناسك الحج بكل حرية واطمئنان، كما أنّ النصر سيكون حليفكم قبل أداء هذه المناسك، وتحققت هذه النبوءة وفقاً لما ذكرها جميع المؤرخين، واستطاع جمع غفير من المسلمين أن يؤدّوا مناسك العمرة فى السنة التالية لواقعة «الحديبية» وهى (السنة السابعة للهجرة)، وسميت هذه المناسك (عمرة القضاء) لأنّها فى الواقع قضاء للعمرة التى أراد الجميع أن يؤدّوها فى السنة الماضية.

نخرج من كل ما قيل سابقاً بهذه النتيجة: أنّه قد تمّ الاعلان بقوة وحزم فى هذا المقطع من الآيات عن مسألة غير متوقعة الحدوث، والتى كانت مورداً من موارد مثار الاختلاف ونزاع شديد بين المسلمين والمشركين، كما اشير فيها إلى التفاصيل أيضاً بالإضافة إلى ماحصل من تنبؤ عن اقتران ذلك بنصر آخر للمسلمين، وهذا فى حد ذاته بيان مضاعف فيما يرتبط بهذا التنبؤ الهام.

هناك بحث ونقاش بين المفسرين حول المقصود «بالفتح القريب» فقد تحقّق للمسلمين على مقربة من هذه الواقعة، أحدهما هو صلح الحديبية الذى كان من دواعى الانفتاح، والآخر هو «فتح خيبر» الذى تحقق فى أوائل السنة السابعة للهجرة، أى بعد واقعة الحديبية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۸

بعدّة أشهر، والظاهر أنّ «الفتح القريب» هو إشارة إلى الواقعة الثانية كما ذهب إليه الكثير من المحققين على أساس قوله تعالى «مَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً».

(الفتح/ ۱۹)

صحيحٌ أنّ للغنيمة مفهوماً واسعاً وشاملًا لكل أنواع الغنيمة المادية والمعنوية، ولكن المتبادر فى مثل هذه الموارد هو معنى الغنائم الظاهرية فى الأعم الأغلب، وممّا نعلمه أنّ الغنائم الظاهرية كانت موجودة فى «فتح خيبر» لا فى صلح الحديبية.

إذن، يمكن الخروج بهذه النتيجة بوضوح وهى: إنّ مثل هذه التنبؤات الدقيقة، والصادرة بكل قاطعية وجدية، وبدون أن يشوبها الاحتمال والتردد، لايمكن أن تتأتى إلّامن خلال الارتباط بعالم الغيب.

۳- الغنائم الكثيرة فى المستقبل

يخبر القرآن فى الآية الثالثة- تعقيباً على قضية «صلح الحديبية» وما تنبّأ به من «عمرة القضاء» و «فتح خيبر»- عن فتوحات اخرى متتالية وحائزة على غنائم وافرة فيقول:

«وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ ايدىَ النَّاسِ عَنْكُم وَلِتَكُونَ آيَةً لِلمُؤمِنِينِ وَيَهْدِيَكُم صِرَاطاً مُّستَقِيماً».

ثم يضيف إلى ذلك قائلًا: «وَاخَرى لَم تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ احَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلِّ شَىءٍ قَدِيراً».

فى هذه الآيات ورد الإخبارُ عن انتصارين علىالأعداء مع الحصول على غنائم كثيرة، أحدهما قصير المدى والآخر بعيد المدى تلك الغنائم والفتوحات التى عجز عنها المسلمون بحسب الظاهر قد جعلها اللَّه فى اختيارهم وطوع إرادتهم بحوله وقوته الكاملين.

وثمة نقاش واختلاف بالرأى بين المفسرين فى تحديد نوعية الغنائم والفتوحات، فقد

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۱۹

ذهب الكثير منهم إلى أنّ المقصود من الغنائم التى يحظى بها المسلمون فى فترة قصيرة هى «غنائم خيبر»، وإن احتمل البعض أنّها إشارة إلى «الغنائم المعنوية لصلح الحديبية»، إلّاأنّ هذا الاحتمال ضعيف كما قلناه سابقاً.

وأمّا فى صدد الغنائم طويلة الامد فقد ذهب الكثير من المفسرين إلى أنّها إشارة إلى «غنائم حرب حنين» وقبيلة «هوازن» «۱» و «۲».

واحتمل البعض أيضاً أنّها إشارة إلى الفتوحات الكبيرة القادمة نظير فتح بلاد ايران والروم واليمن، وبالرغم من أنّ فتح حنين والحصول على غنائم قبيلة هوازن لم يكن مستبعدا من قبل المسلمين، إلّاأنّ التوصل إلى فتح «ايران والروم» وما شابهها كان بالنسبة إليهم أمراً شاقاً وبعيد المنال، ولهذا حينما أعطى النبى صلى الله عليه و آله البشارة وفقاً لرواية معروفة بفتح ايران والروم واليمن فى حرب الخندق بدأ المنافقون يسخرون من ذلك، والسبب فى ذلك يعود إلى عدم إمكان تحققه من ناحية الاسباب الظاهرية، لكن اللَّه تعالى القادر على كل شىء هو الذى جعل الوصول إلى هذه الفتوحات، والحصول على الغنائم الثمينة قيد الإمكان والتحقق، فكشف الستار عنها قبل التوصل إليها بسنين طويلة، وبيّنها بشكل تنبؤ صادق فى الآيات المتقدمة، فيا ترى هل يمكن حصول هذه التنبؤات بدون الارتباط بعالم الغيب؟

۴- التنبّؤ بالهزيمة الساحقة للاعداء

فى المقطع الرابع نقف على صورة اخرى للتنبؤ.

نزلت هذه الآيات فى مكة عندما كان اعداء الإسلام يسرحون ويمرحون فى أوج قدرتهم، فى حين كان المسلمون فى غاية الضعف وقلة العدد.

---

(۱) اشير إليه فى تفاسير مجمع البيان؛ الكبير للفخر الرازى؛ وروح المعانى؛ والميزان.

(۲) إنّ غنائم حنين كانت عظيمة حتى أنّ البعض قدرها ب ۲۴ الف ناقة و ۴۰ الف شاة ومقادير كثيرة من الفضة (تفسير روح البيان ج ۹، ص ۴۲؛ منتهى الآمال ج ۱، ص ۶۵).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۰

وكان الأعداء يفتخرون بقدرتهم وشوكتهم ويقولون: نحن جماعة قوية ومتحدة وسننتقم من مناوئينا وننتصر عليهم: «ام يَقُولُونَ نَحنُ جَمِيعٌ مُّنْتصِرٌ»، إلّاأنّ القرآن يعقب على ذلك مباشرة بقوله: «سَيُهْزَمُ الجَمعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ».

إنّ من المسلم هو عدم إمكان حصول التوقع والحدس بالانتصار السريع للمسلمين وكسر شوكة أعداء الإسلام فى ذلك الزمان، إلّاأنّه لم تمرّ فترة قصيرة من الزمن حتى هاجر المسلمون وعظمت قدرتهم وشوكتهم بحيث إنّهم وجهوا ضربة قوية ومباغتة إلى نحور

الأعداء فى أول اصطدام من نوعه مع الأعداء فى ساحة معركة بدر.

والجدير بالذكر أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى يوم بدر كما جاء عن ابن عباس بدأ بالدعاء فى خيمته ومن ضمن ما كان يدعو به أنّه صلى الله عليه و آله كان يقول: (اللّهم أقسم عليك بالعهد الذى عاهدته معنا»، ثم لما خرج بلامة الحرب من الخيمة ودخل ساحة القتال تلا هذه الآية: «سَيُهَزمُ الجَمعُ وَيُولُّونَ الدُّبُرَ» أى أنّ الوعد الإلهى سيتحقق هذا اليوم «۱».

وبطبيعة الحال فقد استمرت هزائم الأعداء ونكوصهم على اعقابهم مراراً وتكراراً، ولم تمر أعوام حتى اذعنت «شبه الجزيرة العربية» كافة- فضلًا عن كفار مكة- بالتسليم والانقياد للمسلمين.

ونقل فى تفسير القرطبى عن بعض المفسرين: إنّ هذه الآية نزلت فى ميدان معركة بدر، فى حين أنّ المعروف والمشهور هو نزول سورة القمر بأجمعها فى مكة، والظاهر أنّ منشأ الاشتباه راجع إلى نفس ما تقدمت الإشارة إليه بأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كرر هذه الآية فى ساحة بدر، فكانت إشارة واضحة إلى تحقق الوعد الإلهى فى ذلك اليوم، لهذا ظن البعض أنّ الآية نزلت فى ذلك المكان، على كل حال فهذه هى احدى التنبؤات القاطعة للقرآن التى تحققت على حين غرة فى فترة قصيرة.

---

(۱) نقل هذا الحديث عن صحيح البخارى عن ابن عباس فى تفسير فى ظلال القرآن، ج ۷، ص ۶۵۷ «مع التلخيص».

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۱

۵- نبوءة اخرى عن الانتصار فى معركة بدر

يدور الكلام فى الآية الخامسة عن أحد الوعود الصريحة بالنصر الذى منَّه اللَّه على المؤمنين من قبل، يقول عز من قائل: «وَاذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ احدَى الطَّائِفَتِينِ انَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ انَّ غَيرَ ذَاتِالشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ انْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيقْطَعَ دَابِرَ الكَافِرِينَ».

ثم يضيف على ذلك بقوله: «لِيُحِقَّ الحَقَّ وَيُبطِلَ البَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الُمجرِمُونَ».

وتوضيح ذلك أنّ «أبو سفيان» سيد مكة وزعيم المشركين كان فى حال عودته من الشام على رأس قافلة كبيرة تحمل معها بضائع تجارية تقدر بخمسين الف دينار كانت تتعلق به وبجماعة من أساطين مكة وأكابرها.

وأصدر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله أمرا إلى أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للهجوم على القافلة، وذلك لتحطيم جزء من القدرة الاقتصادية للأعداء عن طريق مصادرة أموالهم لأنّهم لم ينفكوا لحظة واحدة فى اظهار العداء للمسلمين وإيجاد العراقيل.

اطلع أصحاب «أبو سفيان» فى المدينة على هذه القضية ممّا حدا بهم إلى ايصال الخبر إلى مسامع أبى سفيان.

فلما علم بذلك اسرع فى إرسال أحد الأشخاص إلى مكة ليطلعهم على الخطر الكبير الذى يهدد أموالهم وممتلكاتهم، ولم تمضِ إلّافترة قصيرة حتى تحركت رجالات قريش وقواتها مع سبعمائة بعير ومائة فارس، وكان يقود عسكرهم أبو جهل، وقد حملت هذه المسألة على محمل كبير من الجد والخطورة بحيث أخذ زعماء مكة يهددون بهدم بيت كل من يستطيع الالتحاق بجبهة الحرب ثم يمتنع عن ذلك.

من جانب آخر سلك أبو سفيان طريقا آخر لينجو من قبضة المسلمين وأخذ يسير فى طريق مجهول لكى يبعد نفسه عن مواطن الخطر.

ووصل «نبى الإسلام» مع أصحابه البالغ عددهم ۳۱۳- مع عدّة وعتاد حربى بسيط ولكن بقلوب مملوءة بالايمان والعزم والإرادة- على مقربة من منطقة بدر أحد المنازل القريبة الواقعة بين مكة والمدينة، وجاءه الخبر هناك بتحرك جيش قريش المسلح من مكة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۲

إلى المدينة، فبدأ يشاور أصحابه فى ذلك المكان وما يرتأونه من ملاحقة القافلة التجارية أو الوقوف بوجه معسكر الأعداء، فوافق

البعض على مواجهة الأعداء إلّاأنّ البعض الآخر كان يميل باطنياً إلى ملاحقة القافلة والسبب فى ذلك يعود إلى أنّهم لا يجدون فى أنفسهم الاستعداد الكافى لمواجهة القدرة العسكرية الهائلة للأعداء.

لكن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله اختارالمسلك الصحيح وأصدر أمراً بالتحرك باتجاه العدو، ووصل الجيش الإسلامى إلى ناحية بدر (وبدر هو اسم لبئر فى تلك المنطقة من الأرض نسبة إلى صاحبها الأصلى المسمى بهذا الاسم، اطلق على جميع هذه الأرض بعد ذلك).

إنَّ الآية السابقة ناظرة إلى هذه الواقعة حيث تقول: إنّ اللَّه وعدكم أن تكون احدى الطائفتين (جيش قريش أو قافلتهم التجارية) من نصيبكم، إلّاأنّكم أحببتم الحصول على الطائفة غير المسلحة أىالقافلة التجارية، لكن اللَّه يريد اظهار الحق والقضاء على الكافرين.

لذا خاطب النبى المسلمين فى ذلك الموضع أنّ اللَّه تعالى قد وعدنا أن تكون احدى الطائفتين لنا وسنتحرك باتجاه جيش الأعداء، وسننتصر عليهم وأننا سنشاهد بأعيننا مصرع «أبى جهل» ومحل قتله ....

وتحقق هذا الوعد كما أراده اللَّه ورسوله حيث اشتبك الجيشان مع بعضهما البعض، وبعد حرب طاحنة وتضحيات جسيمة وردت تفاصيلها فى مجمل التواريخ الإسلامية، انتصر المسلمون وهزم مشركو مكة هزيمة مُرّة بحيث خلّفوا وراءهم سبعين قتيلًا، وسبعين أسيراً، ولاذ الباقون بالفرار.

وقعت هذه الحرب فى اليوم السابع عشر لشهر رمضان المبارك فى السنة الثانية للهجرة، وتركت تاثيراً بالغاً جدّاً فى مسيرة التاريخ الإسلامى، بحيث إنّ مجاهدى بدر كانوا يعدونها دائماً من أمجادهم ومآثرهم العظيمة.

هنا يطرح هذا التساؤل وهو: هل كان من المتوقع وفقا للمقاييس الاعتيادية أن يتحقق مثل هذا النصر للمسلمين بشكل أو بآخر؟ والجواب عن ذلك، كلا لأنّه:

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۳

أولًا: لم يتحرك المسلمون بنية القتال ومن الطبيعى لم تكن فى حوزتهم العدة والعتاد الكافى، لأنّهم كانوا بهدف الاستيلاء على القافلة فاذا بهم يباغتون بجيش جرار ومسلح من قريش (طبعاً فى مقياس ذلك الزمان).

ثانياً: من جهة الموازنة بين القوى فقط كان المسلمون يعيشون فى وضع سىء فى الظاهر فقد كان عدد أفراد جيش العدو يفوق عدد أفراد المسلمين بثلاثة أضعاف، وكانت فى حوزتهم الخيول والجمال الكثيرة والمستلزمات الحربية الكافية، فى حين كان المسلمون يمتلكون فارسين فقط، وكانت عدتهم الأساسية تتكون من ۷۰ ناقة يركبها كل واحد منهم بالتناوب.

ثالثاً: كان يوجد هناك أفراد أقوياء وشجعان بين صفوف جيش قريش، وكان الوازع والدافع النفسى للحرب ناشئاً من احساسهم بأنّهم لا يرون أنّ أموالهم وثروتهم هى المعرضة للخطر فحسب، بل كل شىء يمتلكونه هو معرض للخطر أيضاً.

لكن بالرغم من ذلك كله فإنّ اللَّه وعد المسلمين بالنصر وفقاً للآية الصريحة التى تقدم ذكرها، وأكّد النبى على ذلك تأكيداً بالغاً أيضاً.

والجدير بالذكر أنّه قد ظهرت على مدار هذه الحادثة قضايا مختلفة عبرت عن وجود «امدادات غيبية» من جملتها أنّ المسلمين غطوا فى نوم هادىء فى ليلة وقعة بدر بحيث أعدتهم وعبأت قواهم ليوم المنازلة، كما هطل المطر من السماء ليغتسلوا ويتطهروا ممّا هم عليه، ثم لتصبح الأرض الرخوة التى يصعب التحرك عليها صلبة ومتماسكة وصالحة للنزال، وهذا هو ما أشارت إليه الآيات اللاحقة بالقول: «اذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ امَنَةً مِّنهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيطَانِ وَلِيَربِطَ عَلَى قُلُوبِكُم وَيُثَبِّتَ بِهِ الَاقدَامَ». (الانفال/ ۱۱)

ملخص الكلام أنّه يتضح جيداً من مجموع الآيات المتعلقة بملحمة بدر فى القرآن الكريم مدى الاضطراب والتزلزل الروحى لدى بعض المسلمين من تزايد أفراد العدو وقدراته العسكرية وتفوقهم على المسلمين، لذلك كان من الطبيعى جدّاً التنبوء بهزيمة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۴

المسلمين، لكن على الرغم من كل هذه القرائن يقول القرآن: لقد وعد اللَّه المسلمين بالنصر من قبل وانتصروا فى نهاية المطاف.

قد يقال: إنّ هذه الآيات نزلت بعد الانتصار فى بدر كما يعبر عنه لحنها وسياقها، وعليه لا يمكن اعتبارها جزءً من التنبؤات القرآنية، إلّاأنّ الاجابة عن هذا الإشكال تتضح من خلال الدقّة والتأمل فى نفس هذه الآيات، لأنّ القرآن يقول بصراحة: إنّ الوعد بالنصر قد جاءكم من قبل ثم تحقق هذا الوعد بعد ذلك.

۶- الوعد بالعودة

فى الآية السادسة وهى- الآية ۸۵ من سورة القصص- وعد اللَّه تعالى نبيّه بالعودة إلى الحرم الإلهى الآمن، وقد جاء هذا الوعد فى أصعب أيّام حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أى فى الوقت الذى أراد أن يكسر طوق حصار الأعداء الحاقدين ويخرج من ضيق خناقهم ويهاجر من مكة إلى المدينة.

وقد قام بهذا العمل واتجه صوب المدينة ولما وصل إلى منطقة الجحفة التى لا تبعد عن مكة إلّاقليلًا تذكر موطنه الحرم الإلهى الآمن، وبدت على ملامح وجهه آثار هذا الشوق الممتزج بالحزن والاسى وفى هذا الأثناء نزلت الآية الآنفة الذكر، وأبلغ على هذا النحو:

«انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ لَرَادُّكَ الَى مَعَادٍ».

إنّ التنبوء بعودة النبى إلى مكة بصورة صريحة وقاطعة غير وارد فى تلك الظروف الحرجة والعصيبة عادة خصوصاً مع اقترانها بنزول القرآن وبأنّ اللَّه المنزل للقرآن سيقوم بهذا العمل قطعاً، لكننا نعلم أنّ هذا الوعد الإلهى تحقق فى النهاية، وعاد النبى صلى الله عليه و آله مع جيشه القوى المقتدر إلى مكة منتصراًبعد عدّة سنين، وانضم الحرم الإلهى الآمن تحت راية الإسلام بدون أى قتل وقتال، وهذه هى احدى النبوءات الاعجازية للقرآن التى أخبر فيها عن المستقبل بصورة صريحة وقاطعة، وبدون أى قيد أو شرط، هذا فى الوقت الذى لم

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۵

تظهر فيها القرائن والعلائم على تحقق النصر اطلاقاً.

يقول المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان: «فى الآية دلالة على صحة النبوة لأنّه أخبر به من غير شرط ولا استثناء وجاء المخبر مطابقاً للخبر» «۱».

ويقول الفخر الرازى فى تفسيره أيضاً: «قال أهل التحقيق: وهذا أحد ما يدل على نبوته صلى الله عليه و آله لأنّه اخبر عن الغيب ووقع كما أخبر» «۲».

واحتمل البعض فى هذا المقام أنّ المراد من «المعاد» هو معاد يوم القيامة، وهذا الاحتمال ضعيف كما نقل المحققون القول عن المفسرين، لأنّ المعاد لايختص بنبى الإسلام حتى يوجه الخطاب إليه فقط، بالإضافة إلى أنّ كلمة «لرادك» لاتتناسب نوعا ما مع معاد يوم القيامة، لأنّ العودة إلى مكان ما هى فرع الخروج منه.

كما أنّ الاستناد إلى نزول القرآن فى جملة: «انَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ القُرآنَ» التى وردت قبله، وكذلك جملة: «قُلْ رَبّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالهُدَى وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَال مُّبِينٍ» التى وردت بعده، كلاهما قرينة على أنّ الحديث يدور حول حقانية نبى الإسلام والقرآن، لا حول مسألة المعاد فى يوم القيامة، فضلًا عن أنّ هذا التفسير لا يلتئم مع شأن نزول الآية أيضاً.

بالإضافة إلى لفظة «المعاد» على مانقله المرحوم الطبرسى عن القتيبى هو بلد الإنسان ووطنه (معاد الرجل بلده»، لأنّه أينما يذهب يعود من حيث ذهب.

وتجدر الإشارة إلى أنّ كلمة «المعاد» وردت مرّة واحدة فى القرآن الكريم وذلك فى هذا الموضع الذى هو بمعنى مسقط الرأس والموطن.

۷- لن ينال الإيمان أبداً

يدور الحديث فى الآية السابعة حول أحد المشركين المعروفين وهو «أبو لهب» عم

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۲۶۹ فى ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۲۱ فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۶

النبى، وابن عبد المطلب، وهو الشخص الوحيد الذى ورد ذكره فى القرآن من بين مشركى مكة، وأكد على أنّه من أهل النار وفيه إشارة واضحة إلى أنّه لن يؤتى الإيمان أبداً، يقول عزّ من قائل: «تَبَّتْ يَدَا ابِى لَهَبٍ وَتَبَّ* مَااغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ* سَيَصْلَى نَارَاً ذَاتَ لَهَبٍ».

وبالرغم من أنّ أبا سفيان كان عدواً خطيراً لكنه آمن إيماناً ظاهرياً فى نهاية الأمر، وآمن الكثير من الأفراد الخطرين والمجرمين إيماناً ظاهرياً أمثال «وحشى» قاتل حمزة.

إنَّ هذا التنبوء القاطع عن مصير شخص ك (أبو لهب) لم يكن يتأتى من الطرق العادية، فهذه النبوءة القرآنية لا تتأتى إلّامن طريق الاعجاز.

إنّ الكثير من مشركى مكة آمنوا إيماناً واقعياً، والبعض آمن إيمانا ظاهرياً، لكن من الذين لم يؤمنوا لا فى الواقع ولا فى الظاهر هو: أبو لهب وزوجته «ام جميل» شقيقة أبى سفيان، وقد صرح القرآن بوضوح أنّهما لن يؤمنا أبداً، وهذه من الأخبار الغيبية للقرآن الكريم.

كيف يتأتى للقرآن أن يتحدث عن جهنمية شخص ما يمكن له أن يقف إلى جانب المسلمين فى نهاية الأمر، أو يتظاهر بالاسلام على الأقل إذا لم يكن صادراً من عند اللَّه تعالى

يدعى أبو لهب «عبد العزى (وعزى هو اسم لأحد الأصنام الكبيرة للعرب)، وكنيته: أبو لهب ولعل اختياره لهذه الكنية عائد إلى كونه ذا وجه يطفح بالحمرة والشرر، ولا ريب فى أنّ هذه الآيات نزلت فى زمن حياة أبى لهب، ولذا يقول: «تبت يدا أبى لهب»، وما نقله أغلب المفسرين عن شأن النزول يدل كذلك على أنّ هذه المسألة حدثت فى حياته، وذلك حينما أمر النبى بأنّ يدعو عشيرته الاقربين إلى الإسلام ويحذرهم من الكفر والشرك، فى تلك الأثناء صعد النبى إلى قمة جبل من جبال مكة يدعى ب (جبل صفا) ونادى ياصياحا، (و هذه الجملة لا تستخدم إلّاحين الهجوم المباغت للعدو) فظن أهل مكة أنّ هناك هجوماً عدوانيا على مكة من الخارج، فلما اجتمعوا عند النبى صلى الله عليه و آله قال لهم: «انِّى نَذِيرٌ لَكُم بَيْنَ يَدَىْ

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۷

عَذَابٍ شَدِيدٍ»، احذركم من عبادة الأصنام وادعوكم إلى التوحيد.

فاستشاط أبو لهب غضباً وقال: «تباً لك أما جمعتنا إلّالهذا» فعندئذ نزلت الآيات الآنفة الذكر، وقالت: الموت له لأنّه سيكون طعمة لنار جهنم فى النهاية «۱».

۸- إنّا أعطيناك الخير الكثير

نطّلع فى المقطع الثامن من الآيات وهى «سورة الكوثر» على ثلاث نبوءات هامة، لأنّه تعالى يقول: «انَّا اعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَر* انَّ شَانِئَكَ هُوَ الابْتَرُ».

ذكر معظم المفسرين شأن نزول هذه الآية، وهى متقاربة مع بعضها البعض ومن جملتها ما قاله «البرسوى» فى روح البيان: «وذلك أنّهم (أى المشركون) زعموا حين مات أولاده القاسم وعبد اللَّه بمكة، وإبراهيم بالمدينة، أن محمداً صلى الله عليه و آله ينقطع ذكره إذا ما مات وذلك لفقدان نسله، فنبّه اللَّه سبحانه الى: إنّ الذى ينقطع ذكره هو الذى يشنأه، فأمّا هو فكما وصفه اللَّه تعالى «ورفعنا لك ذكرك»، وذلك أنّه أعطاه نسلًا باقياً على مر الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت والعالم ممتلىء منهم» «۲».

وقال «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: «قيل: نزلت السورة فى العاص بن وائل السهمى وذلك أنّه رأى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يخرج من المسجد فالتقيا عند باب بنى سهم وتحدثا، واناس من صناديد قريش جلوس فى المسجد، فلما دخل العاص قالوا: مع من كنت تتحدث؟

قال: مع الأبتر، وكان قد توفى قبل ذلك عبد اللَّه ابن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو من خديجة، وكانوا يسمون من ليس له ابن أبتراً فسمته قريش عند موت ابنه أبتراً» «۳».

ونقل الفخر الرازى ستة أقوال فى شأن نزول هذه الآية بأنّ عدّة أفراد قالوا للنبى

---

(۱) نقل الكثير من المفسرين والمؤرخين شأن النزول هذا مع اختلاف طفيف (تفسير مجمع البيان؛ القرطبى؛ المراغى؛ الكبير؛ الدر المنثور؛ فى ظلال نهج البلاغة؛ كذلك الكامل لابن الاثير، ج ۲، ص ۶۰).

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۵۲۵.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۳۰، ص ۵۴۹.

الأكرم صلى الله عليه و آله: إنّك «ابتر»، وهذه السورة ناظرة إلى هؤلاء الأشخاص «۱».

وعلى الرغم من أنّه قد ذكر افراداً متعددين، إلّاأنّ المحتوى والمضمون واحد فى جميعها، وأنّ جميعهم كانوا يسمون النبى صلى الله عليه و آله «بالأبتر» حقداً وعداوة، وقد رد عليهم القرآن بأجمعهم، لأنّ هذه الأقوال الستة لا تتنافى مع بعضها البعض، فمن المحتمل أنّ هذا التعبير صدر من جميعهم، والرد القرآنى ناظر إليهم جميعاً.

وعلى أيّة حال فإنّ لفظة «الأبتر» فى الأصل، تعنى قطع عضو من أعضاء جسم الحيوان، ومن المتعارف أنّها تطلق على قطع الذنب، ثم اطلقت بعد ذلك على الأشخاص المقطوعى النسل، وكذلك على الذين ينقطع ذكرهم الحسن، أو يمحى من الخواطر، والخطبة «البتراء» أيضاً تقال للخطبة التى لا تبدأ باسم اللَّه (أو أنّها لا تشتمل على ذكر اللَّه).

وورد فى المقاييس أيضاً أنّ «البتر» هو القطع، و «السيف الباتر» هو السيف القاطع، ويقال لمن لا عقب له: «ابتر». أمّا «الكوثر» فهى مأخوذة من مادة الكثرة «۲»، وهى نفس هذا المعنى، ولها هنا فى هذا المقام معنى واسع وشامل، وهو عبارة عن الخير الكثير والبركة الكثيرة، واحد مصاديقها البارزة هم الأبناء الصالحون والسلالة الطيبة، واجلى مصداق لذلك هى بنت نبيّ الإسلام و «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين» فاطمة الزهراء عليها السلام.

وذكر المفسرون احتمالات كثيرة لمعنى «الكوثر» بحيث نقل الفخر الرازى خمسة عشر قولًا، ونقل صاحب تفسير روح المعانى عن بعض المفسرين ستة وعشرين قولًا، وأشار إليه المرحوم العلّامة الطباطبائى فى «الميزان» أيضاً، ومن جملة التفاسير المشهورة له هو نفس «حوض الكوثر» المتعلق بالنبى الأكرم صلى الله عليه و آله والذى يرتوى منه المؤمنون عند دخولهم إلى الجنّة «۳».

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۳۲.

(۲) يقول الآلوسى فى تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۵: الكوثر صيغة مبالغة، بمعنى الكثرة التى تجاوزت حداًمعيناً، وفى لسان العرب؛ الكوثر هو الكثير من كل شىء.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۳۰، ص ۵۴۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۲۹

وفسره البعض أيضاً بأنّه مقام النبوة، أو القرآن، أو نهر فى الجنّة، أو الشفاعة. وكما قلنا:

إنّ لهذه الكلمة معنى واسعاً وشاملًا لكل هذه المعانى وغيرها، ولا يمنع من جامعية المفهوم تعدد مصاديق هذا المفهوم، فليس ثمّة تضاد وتنافر بين هذه التفاسير المتعددة.

وعلى أى حال يستكشف من هذه السورة ثلاث نبوءات هامة:

أولًا: إنّه يقول: (انّا أعطيناك الخير الكثير).

إنّ كلمة «اعطيناك» وإن خرجت بهيئة الفعل الماضى إلّاأنّها من الممكن أن تكون من قبيل المضارع القطعى المبين بصيغة الفعل الماضى.

وهذا الخير الكثير فى الحقيقة يستوعب كل الانتصارات التى حظى بها النبى صلى الله عليه و آله، والتى لم تكن متوقعة حين نزول هذه السورة.

هذا مع الأخذ بنظر الاعتبار شأن النزول وكلمة «الأبتر» التى اطلقها الأعداء على النبى صلى الله عليه و آله، فيكون أحد المصاديق الجلية لهذا الخير الكثير هم «الأبناء»، والسلالة الخيرة التى تفرعت من ابنته الوحيدة «فاطمة الزهراء عليها السلام»، وانتشرت فى سائر أنحاء الكرة الأرضية، وعلى حد قول البعض: إنّهم ملأوا العالم فى يومنا هذا، وهذا هو الذى لم يكن متوقعا فى ذلك العصر.

وأشار إلى هذا الموضوع- بصراحة- جماعة من مفسرى أهل السنّة أيضاً، من ضمنهم الفخر الرازى، فالقول الثالث الذى ينقله فى تفسير «الكوثر» هم نفس أولاده وأبنائه وهذه السورة إنّما نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه و آله بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه اللَّه تعالى نسلًا يبقون على مر الزمان، فانظركم قتل من أهل البيت، والعالم ممتلىء منهم، ولم يبق من بنى امية فى الدنيا أحد يعبأ به، ثم انظركم من الأكابر من العلماء: كالباقر والصادق والكاظم والرضا عليهم السلام والنفس الزكية وأمثالهم «۱».

وجاء هذا المعنى فى تفسير روح المعانى أيضاً: وقيل: هو أولاده صلى الله عليه و آله لأنّ السورة نزلت رداً على من عابه صلى الله عليه و آله وهم والحمد لله كثيرون قد ملأوا البسيطة «۲».

(۱) تفسير الكبير، ج ۳۲، ص ۱۲۴.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۰

من جهة ثانية يخبر أنّ أعداءه سيكونون «مبتورين»، وبلا عقب، وتحققت هذه النبوءة أيضاً، ووصلت حالة التشرذم والتشتت بأعداء الرسول بحيث لم يبق لهم أثر فى هذا اليوم.

إنّ «أبو سفيان» وأبناءه وعشيرة بنى امية الذين كانوا من الأعداء الشرسين للإسلام قد وقف بعضهم بوجه النبى والبعض الآخر بوجه أبنائه، كانوا فى يوم من الأيّام جمعاً غفيراً، بحيث تجاوز عدد ذويهم وأبنائهم وأرحامهم عن حد الاحصاء، لكن لم يبق لهم شىء يذكر فى يومنا هذا فكل شىء عنهم انطوى فى صفحة النسيان.

يقول الآلوسى فى روح المعانى: «الأبتر، هو الـذى لا عقب له، حيث لا يبقى منه نسل ولا حسن ذكر، وأما أنت فتبقى ذريتك وحسن صيتك وآثار فضلك إلى يوم القيامة» «۱».

إنّ هـذه السورة وإن دلّ شـأن نزولها وفقاً للروايـة المشـهورة على أنّ القائل لهـذا الكلام هو «العاص بن وائل» الـذى كان من الأعـداء الألداء للنبى صـلى الله عليه و آله إلّاأنّه من البديهى أنّ هذه السورة ليست ناظرة إلى الشخص فقط، بل إنّ كلمة «شانىء» المأخوذة من مادة «شـنآن» التى هى بمعنى البغض والعـداوة، لها مفهوم واسع وشامل لكل الأعـداء، وهـذا التنبؤ صادق فى حقهم جميعاً، لأنّه لم يبق لهم ذكر يؤثر، ولا أبناء معروفون ولم يكن التكهن بهـذا المعنى ممكنا فى ذلك اليوم الـذى كان النبى صـلى الله عليه و آله يعيش فى مكة، والمسلمون فى منتهى القلة.

۹ و ۱۰- أولئک لن يضروكم بشىء

فى الآيتين التاسعة والعاشرة من هذا البحث نلاحظ تنبؤات مهمّة:

۱- «إنّ أهـل الكتاب لن يتمكنوا أن يلحقوا بكم ضـررا ذا بال ويهـددوا وجود الإسـلام والمسـلمين بالخطر لأنّ اضـرارهم طفيفـة وغير مؤثرة» «لَنْ يَضرُّوكُم الَّا اذىً».

إنّ كلمة «أذىً» وان شملت على حد قول «الراغب» فى «المفردات» كل مايلحق الضرر

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۳۰، ص ۲۴۷.

بروح الإنسان وجسـمه ومتعلقاته لكنه نظرا إلى أنّها وردت بصـيغة الاسـتثناء من جملة «لن يضروكم»، ومجيئها بصيغة النكرة أيضاً، دلّ ذلك على أنّ المقصود منها هى الاضرار الجزئية سواء كانت مبادرة بشكل كلام جارح، أو بشكل حركات استفزازية سطحية.

ولاـ تتـأتى هـذه النبوءة المسـتقبلية الصـريحة إلّـامن طريق الوحى نظراً إلى القوة العسـكرية الهائلـة الـتى كـان يتمتع بهـا أهـل الكتـاب وبالأخص اليهود، وإلى حالة الضعف التى يعانى منها المسلمون من الناحية الظاهرية.

۲- ثم يقـول تعـالى إنّ هؤلاـء سـيكون نصـيبهم الفشـل والانـدحار والفرار مـتى مـا قـاتلوكم وأثبتـوا وجودهم فى ميـدان النزال: «وَانْ يُقَاتِلُوكُم يُوَلُّوكُم الادْبَارَ ثُمَّ لَايُنْصَرُونَ».

إنّ هذا التنبؤ عن أنّ مصـير اليهود وسائر أهل الكتاب هو الفشل والتراجع فى كل حرب تقع بينهم وبين أصـحاب النبى صلى الله عليه و آله لم يكن بالشىء اليسير ولا يتأتى هذا التنبوء من الطرق العادية أيضاً.

۳- إنّ هؤلاـء اليهـود لن يصـمدوا بحـال من الأـحوال، وأينمـا وجـدوا كُتِبَ عليهم الـذل والهوان إلّابالارتبـاط بـاللّه (وإعـادة النظر فى سلوكهم الخاطىء)، أو الارتباط بالناس والتبعية لهذا وذاك: «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِلّةُ ايْنَ مَا ثُقِفُوا الَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ».

وتحققت هذه الوعود والبشائر السـماوية الثلاثة فى عصـر النبى كما ذكر التاريخ الإسـلامى، وبالأخص أنّ اليهود فى الحجاز وهم «بنى قريظة»، و «بنى النضـير»، و «بنى قينقاع»، و «يهود خيبر»، و «بنى المصـطلق»، قد خسـروا الجولة فى نهاية الأمر، وتواروا عن مسرح الحياة بعـدما قـاموا به من انتهاكـات كثيرة، وتحركات مثيرة ضـد الإسـلام، هـذا وإن لم يرد التصـريح بـذكر اليهود فى الآيات السابقـة، لكن يستفاد من القرائن الموجودة فى هذه الآية والآيات المشابهة لها (كالآية ۶۱ من سورة البقرة التى ذكر فيها اسم اليهود صريحاً).

إنّ هاتين الآيتين ناظرتان إلى اليهود، وبالأخص بالنسـبة لما جاء فى الآية الأخيرة من أنّ هؤلاء إنّما يسـتطيعون أن يمسحوا عن جبينهم وصمة الذل فى صورتين:

الاولى فى صورة «الرجوع إلى اللَّه، وترك العصيان، والذنب، والفساد فى الأرض»، ولا يتمّ ذلك (إلّا بحبل من اللَّه).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۲

والثانية: فى صورة «إتباع الناس والاتكال على الآخرين»، (وحبل من الناس).

وهذه الآية تشير إلى نفس الظاهرة المشهورة فى حياة اليهود إلى يومنا هذا، وتاريخهم يفصح إمّا عن حالة الضياع والتشرد والذل، وإمّا عن حالة التبعية والانقياد للقوى الاخرى وتسخير الذات فى خدمة مقاصدهم السيئة، (وتشاهد الحالة الاولى فى العصر الأخير فى عهد النازيين والحالة الاخرى فى يومنا هذا).

وبالرغم ممّا ذكره المفسرون من احتمالات متعددة لتفسير «حبل من اللَّه وحبل من الناس» إلّاأنّ ما تقدم ذكره آنفاً هو الأنسب ظاهراً، ويمكن الأخذ ببعض تفاسير هؤلاء بعنوان مصداق لهذا المفهوم الكلى الذى ذكرناه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۳

۷- الاعجاز القرآنى فى عدم وجود التناقض والاختلاف

اشارة

من الدلائل الاخرى على اعجاز القرآن الكريم، وكونه نازلًا من قبل اللَّه تعالى هو عدم وجود التناقض والاختلاف فى سائر أنحائه، فى حين أنّ الصفة الغالبة على الظروف التى نزل فيها القرآن والمبعوث به تدلل على أنّه لو لم يكن صادراً من قبل اللَّه لوقع فيه الاختلاف و التناقض، بل الاختلافات والتناقضات الكثيرة، وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة فى قوله تعالى «افَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ وَلَوْ كَانَ مِن عِنْدِ غَيرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اختِلَافاً كَثِيراً».

(النساء/ ۸۲)

ويمكن الوقوف على النكتة الأساسية لهذه المسألة من خلال تحليل بسيط، فنقول: إنّ الحالات الروحية لأىإنسان فى تغير مطرد- وقانون التكامل يحيط بالإنسان فكراً وروحاً فى حالة وجود ظروف طبيعية، وعدم حصول وضع استثنائى فهو يحدث على مرّ الأيّام والشهور والسنين تحولًا مستمراً فى ألسنة البشر وأفكارهم وأحاديثهم، وإذا ألقينا نظرة فاحصة على تصانيف أحد الكتّاب فسوف لن نجدها على نسق واحد اطلاقاً، بل لابدّ من وجود تفاوت فى بداية الكتاب ونهايته، خاصة إذا ماكان الإنسان واقفاً أمام موجة من الأحداث الكبيرة والساخنة، الأحداث التى تضع الحجر الأساس لأحد الانقلابات الفكرية والاجتماعية والدينية الشاملة، فهو مهما سعى وأراد أن يكون كلامه على سياق ونسق واحد، ومعطوفاً على سابقة لا- يقوى على ذلك وخاصة إذا ما كان اميّاً وناشئاً فى محيط متخلف جدّاً.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۴

أمّا القرآن فقد نزل على حسب الاحتياجات والمتطلبات التربوية للمجتمع فى ظروف وملابسات مختلفة تماماً طيلة ۲۳ عاماً، فهو الكتاب الذى تحدث عن مواضيع متنوعة، وهو ليس كسائر الكتب التى تواكب أحد البحوث الاجتماعية أو السياسية أو الفلسفية أو الحقوقية أو التاريخية فحسب، بل أحياناً يتحدث عن التوحيد وأسرار الخلقة، وأحياناً عن الأحكام والقوانين، والآداب والسنن، وتارة يتحدث عن الامم السابقة وقصصهم المثيرة، وتارة اخرى عن المواعظ والنصائح، والعبادات، والعلاقة القائمة بين اللَّه تعالى وعباده، وعلى ضوء قول الدكتور «غوستاولبون»: إنّ الكتاب السماوى للمسلمين- وهو القرآن- لا- يقتصر على التعاليم والدساتير الدينية فحسب، بل تندرج فيه الدساتير الاجتماعية والسياسية للمسلمين أيضاً.

إنَّ مثل هذا الكتاب المشتمل على هذه الخصوصيات لا- يمكن أن يخلو من التضاد والتناقض واختلاف الأقوال الكثيرة عادة، لكن

عندما نرى الانسجام القائم بين آياته كلها، وخلوها من كل ألوان التضاد والاختلاف والتهافت يمكننا حينئذٍ الحدس بأنّ هذا الكتاب ليس وليد أفكار الناس، بل هو صادر من قبل البارى تعالى كما بيّن القرآن نفسه هذه الحقيقة فى الآية السابقة.

وبعبارة اخرى إنّ كافة الموجودات المادية- ومن ضمنها الإنسان الذى له صبغة مادية بأحد اللحاظات- فى تغّير وتحول دائم ومطرد وتنقل هذا التغيّر إلى الموجودات الدائرة حوله، إنّ قابلية التأثر والتأثير جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان، وطبيعة أىموجود مادى آخر، ولهذا السبب تتبدل أفكار الإنسان وآراؤه مع تقدم الزمن، علاوة على أنّ ازدياد تجارب الإنسان ورقى مستوى إبداعه فى المسائل المختلفة يساهم فى تصعيد هذا التغير، وهذه هى التى تؤدّى حتما إلى التغير والتضاد واللاإنسجام فى المذكرات التى تعود إلى سنين متمادية لأحد الأشخاص فيما لو جمعت ونسقت بعد ذلك، واللّه القادر المتعال وحده هو الذى يكون بمعزل عن هذه التغيرات وقابلية التأثر والتأثير، فليس فى كلماته تضاد أبداً وهذه هى إحدى الطرق فى معرفة كلام الحق وتمييزه عن كلام غيره، حتى أنّ البعض من

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۵

المفسرين صرحوا بأنّه لايقتصر الأمر على عدم وجود التضاد فى القرآن فحسب، بل يتعداه إلى عدم وجود التفاوت والاختلاف فى درجة فصاحته وبلاغته أيضاً، ومن الصحيح القول بأنا نجد بعض الآيات القرآنية أبلغ من بعضها الآخر، وعلى حد قول الشاعر: متى كانت «تبت يدا» بمنزلة «ياأرض ابلعى» ولكن هذا يتأتى عند اختلاف المقامات أىأنّ كل واحدة منها تعتبر من أفضل التعابير وانسبها فى مقامها الخاص بها، ومن هذه الجهة لا يوجد تفاوت واختلاف.

سؤال:

وهناك سؤال لابدّ من طرحه وهو: إذا لم يكن هناك تضاد واختلاف فى القرآن الكريم فما هو السبب من وجود آيات ناسخة وآيات منسوخة؟

الجواب:

سبق وأن قلنا فى بحث الناسخ والمنسوخ فى القرآن: إنّ الآيات المنسوخة تشتمل على قرائن تدل على أنّ أمدها المضمونى قصير وسينتهى فى يوم من الأيّام، بمعنى وجود دواعى النسخ فى مضمونها، وبناء على هذه النكتة فليست لا تضاد فيها فحسب، بل- علاوة على ذلك- يوجد فيها نوع من التناسب والتوافق بينها.

وعلى سبيل المثال لو أردنا أن نعد برنامجاً دراسياً لمقاطع زمنية مختلفة حتى نساعد الأفراد الدارسين فى دائرة التعليم والتربية على تخطى المراحل المختلفة، والوصول بهم إلى المرحلة النهائية، فإنّ التغيرات الطارئة على البرامج فى فترات مختلفة لا تعد بعنوان تضاد وتناقض وذلك لوجود قرائن فى متن هذه البرامج، بل على العكس هناك نوع من التوافق والانسجام بينها.

وممّا قلناه آنفاً اتضح الجواب عن سؤال مشابه أيضاً يطرح فى مورد آيات «العام والخاص» أو «المطلق والمقيد» ذلك أنّ الجمع بين العام والخاص عن طريق التخصيص،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۶

وكذلك الجمع بين المطلق والمقيد هو جمع عرفى متعارف، ولا يعد تناقضاً بأى شكل من الاشكال.

فمثلًا لو أعلنت الحكومة عن موافقتها على حرية التصدير بشكل مطلق، ثم قررت وضع استثناءات معينة بعد ذلك، فإنّ وجود هذه الاستثناءات ليس دليلًا على التضاد، وبالأخص إذا ما تجسد هذا العمل على شكل سُنّة وخطّة معينة بحيث يقال له: حكم عام، ثم يقومون بتقييده وتخصيصه بعد ذلك، علاوة على أنّه لا يوجد حكم بدون استثناء عادة.

إلى هنا نصل إلى نهاية البحث فى الاعجاز القرآنى والصور المختلفة للاعجاز.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۷

خرق العادات والنواميس الطبيعية

اشارة

ممّا لا شك فيه أنّ لنبى الإسلام معجزات اخرى كثيرة غير القرآن الكريم، وقد أجمع المسلمون فى العالم كافة على هذه المسألة ودلت عليها روايات متواترة أيضاً، وكما أنّ القرآن الكريم أشار إليها مراراً وتكراراً، فذكرها تارة بشكل مجمل ومقتضب، وتارة بشكل مفصل من خلال الإشارة والتنويه إلى المعجزات الخاصة.

وممّا تجدر الإشارة إليه هنا هو المقطع الأول من الآية التالية:

۱- «وَاذَا ذُكِّرُوا لَايَذْكُرُونَ* وَاذَا رَأوا آيَةً يَستَسخِرُونَ* وَقَالُوا انْ هَذَا الَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (الصافات/ ۱۳- ۱۵)

التعبير ب (رأوا آية) يدل بوضوح على أنّهم لو شاهدوا معجزة أو معاجز للنبى، فبدلًا من أن يؤمنوا بها صدرت منهم ردود فعل وممارسات سلبية، من بينها، أولًا: إنّهم أخذوا يتوسلون بمنطق الاستهزاء والسخرية، وثانياً: إنّهم اعتبروا ذلك «سحراً مبيناً».

ومن المسلَّم أنّ الآيات القرآنية سمعيّة وليست بصريّة، وعليه لا يمكن أن تكون لفظة «الآية» هنا ناظرة إلى الآيات القرآنية، بالإضافة إلى ذلك فإنّ التعبير ب «السحر المبين» يتناسب تماماً مع المعجزات وخوارق العادات، والواقع أنّ اتهامهم نبى الإسلام بالسحر، وترويجهم لهذه المسألة بشكل واسع يدل على أنّهم رأوا منه خوارق عادات ومعجزات، وفضلًا عن ذلك كله كيف يتأتى للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن ينقل فى كتابه السماوى المعاجز الحسية للأنبياء السابقين كمعجزة «اليد البيضاء»، و «عصا موسى»، والمعجزات التسعة الصادرة منه (النمل/ ۱۲)، أو المعجزات المتعددة للسيد المسيح، نظير «إحياء الأموات»،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۸

«وشفاء المكفوفين الذين فقدوا بصرهم منذ الولادة»، و «المرضى الذين يستحيل علاجهم» وما شابه ذلك، وكذلك المعاجز التى جاء بها الأنبياء العظام إبراهيم، وصالح، ويوسف، وسليمان، وداود، والتى ورد ذكرها جميعاً فى القرآن- ثم لا يأتى بنفسه بمعجزة حسية؟! كيف يمكن له أن يقنع الناس بأنّ جميع الأنبياء كانوا يمتلكون معاجز حسية وهو لايمتلك شيئا منها فى حين أنّ نبوّته أفضل النبوّات، ودينه أفضل الأديان؟ إنّ كل هذه القرائن- مضافاً إلى الآية السابقة- تدل على أنّه كانت له صلى الله عليه و آله معجزات اخرى بالإضافة إلى الآية السابقة فهناك آيات كثيرة اخرى بصدد بيان مسألة معاجز نبى الإسلام، وقد وردت عن ائمة الدين روايات فى تفسيرها وذكر سبب وتاريخ نزولها، إنّ معاجز نبىّ الإسلام لا تعدّ ولا تحصى فعلى سبيل المثال لا الحصر نلاحظ نماذج منها:

۱- نطالع فى قوله تعالى «سُبْحَانَ الَّذِى اسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ الَى المَسْجِدِ الاقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِن آيَاتِنَا انَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ».

(الاسراء/ ۱)

لا شك أنّ الذهاب من «المسجد الحرام» إلى «المسجد الاقصى»، وأكثر من ذلك الصعود إلى السماوات، خاصة فى الظروف الموضوعية لذلك الزمان، كان أمراً خارقاً للعادة، بيدَ أنّه ما لم يشاهد الناس هذا المشهد لايمكن أن تكون له صبغة إعجازية ولا يمكن أن يقع فى طريق إثبات دعوى النبى صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ الروايات الإسلامية تدل على أنّ الناس اطلعوا على هذه القضية عن طريق الأخبار التى ألقاها النبى على القافلة أو القوافل التى كانت تشق طريقها بين مكة والشام «۱».

۲- جاء فى ذيل قوله تعالى «انّا كَفَيْنَاكَ المُسْتَهْزِئينَ». (الحجر/ ۹۵)

---

(۱) جاء فى إثبات الهداة، ج ۱، ص ۲۴۷، عن الإمام الصادق عليه السلام أنّ النبى صلى الله عليه و آله أخبر عن رؤية قافلة أبى سفيان

ومرورها ببئر قبيلة فلان بحثاً عن ناقة لهم ذات وبر أحمر، كما وصف سوق الشام الذى لم يره قط (تفسير مجمع البيان ج ۱، ص ۳۹۵؛ وسيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۴۳- ۴۴).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۳۹

أنّ ستة مجموعات (أو أقل) كانت كل واحدة منها تتعامل مع نبى الإسلام بنوع من أنواع الاستهزاء، وكلما انبرى إلى دعوة الناس كانوا يسعون من خلال أحاديثهم إلى تفريق الناس من حوله، غير أنّ اللَّه تعالى ابتلى كل واحد منهم ببلاء معين، ووصل الأمر بهم إلى أن ينشغلوا بأنفسهم كثيراً بحيث نسوا النبى الأعظم صلى الله عليه و آله «۱».

۳- يقول تعالى «يَاايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُم اذْ هَمَّ قَوْمٌ انْ يَبْسُطُوا اَلَيْكُم ايْدِيَهُمْ فَكَفَّ ايْدِيَهُمْ عَنْكُم». (المائدة/ ۱۱)

ورد فى بعض الروايات أنّ هذه إشارة مستبطنة ناظرة إلى المؤامرة التى دبرها «يهود بنى النضير» لاغتيال نبى الإسلام، وذلك حينما توجه النبى إليهم مع جمع من أصحابه ليتباحثوا حول الاتفاقية التى كانت معقودة بينهم بالنسبة إلى دِيَة المقتولين، فقالوا: لا مانع من ذلك، اجلسوا وتناولوا الطعام حتى يتحقق مرادكم، وفى تلك الحالة كان فى نيّتهم أن يقوموا بحملة مباغتة ويقضوا على النبى وأصحابه، فأطلع اللَّه تعالى النبى على ذلك وأخبر النبى بذلك أصحابه فعادوا بسرعة، «وكانت هذه احدى معجزات النبى» «۲».

۴- تعقيباً على قوله تعالى «وَاذَا قَرَأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابَاً مَّسْتُوراً». (الاسراء/ ۴۵)

ورد أنّ بعض الأعداء كانوا ينوون القضاء على حياة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله فى حالة انشغاله بتلاوة القرآن، فأسدل اللَّه تعالى حجاباً على أبصارهم يحول بينهم وبين رؤية نبيّه.

وورد فى الحديث الذى نقله المرحوم الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام: إنّ اللَّه تعالى أسدل خمسة حجب على انظارهم للحيلولة بينهم وبين رؤية محمد صلى الله عليه و آله، وقد اشير إلى هذه الحجب الخمسة فى القرآن الكريم.

فى أحد المواضع من سورة يس يقول: «وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ ايْدِيهِم سَدَّاً»، فهذا هو الحجاب الأول ثم يعقب بقوله: «وَمِنْ خَلْفِهِم سَدَّاً». (يس/ ۹)

وهذا هو الحجاب الثانى.

---

(۱) نقل الطبرسى فى تفسير مجمع البيان، ج ۵- ۶، ص ۳۴۶، وكذلك العلّامة المجلسى فى بحار الأنوار، ج ۱۸، ص ۴۸، وابن هشام فى السيرةج ۲، ص ۵۰، وبقية المفسرين والمؤرخين شرحاً وافياً لهذه الواقعة.

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۱۶۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۰

ثم يقول بعدها: «فَاغْشَيْنَاهُم فَهُمْ لَايُبْصِرُونَ» وهذا هو الحجاب الثالث.

ثم إنّه يقول: «وَاذَا قَرأْتَ القُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذينَ لَايُؤمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابَاً مَّسْتُوراً».

وهذا هو الحجاب الرابع.

وقال تعالى بعد ذلك: «انَّا جَعَلْنَا فِى اعْنَاقِهِم اغْلَالًا فَهِىَ الَى الاذْقَانِ فَهُمْ مُّقمَحُونَ» «۱».

(يس/ ۸)

ولذا لا يرون شيئاً، وهذا هو الحجاب الخامس.

إنّ هذه الحجب سواء كان لها صبغة مادية أو معنوية، فهى وقفت حاجزاً أمام المؤامرات المختلفة المدبرة ضد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وهذه بحد ذاتها تمثل إحدى المعاجز النبوية الشريفة.

۵- نطالع فى قوله تعالى «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ». (البقرة/ ۱۳۷)

إنّ الأشخاص المحيطين علماً بالتاريخ الإسلامى هم القادرون على الاطلاع على عمق مفهوم هذه الآية التى يُستشف من ظاهرها أنّ الأعراب المعاندين والمتعصبين الجاهليين وخاصة الاشراف من مشركى مكة الذين تعرضت منافعهم اللامشروعة للخطر مع ظهور الإسلام، لم يدخروا جهداً فى القضاء على الإسلام والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

فى الوقت ذاته تعطى الآية التى نحن بصددها وعداً صريحاً بأنّ اللَّه تعالى سوف يدفع شرورهم، ويسفِّه أحلامهم، ويفشل مؤامراتهم، وهذه من إحدى النبوءات الاعجازية.

۶- وردت الإشارة فى القرآن الكريم إلى اعجاز آخر حدث فى حرب الأحزاب، يقول عز من قائل: «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُم اذْ جَاءَتْكُم جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيهِم رِيحَاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً». (الأحزاب/ ۹)

إنّ الذين يطالعون قصة «حرب الأحزاب» فى القرآن الكريم، والروايات والتواريخ، يجزمون على وجود بون شاسع بين المسلمين واعدائهم، فقد فرض الأعداء حصاراً شديداً على المدينة بحيث أصبح سقوطها حتمياً بحسب الظاهر، ووصلت الحالة بالمسلمين إلى

---

(۱) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۴۲۳، ح ۲.

أنّ يُعبِّر القرآن عنهم بقوله: «وَاذْ زَاغَتِ الابْصَارُ وَبَلَغَتِ القُلُوبُ الحَنَاجِرَ ... وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيداً». (الاحزاب/ ۱۰- ۱۱)

فى خضم هذه الظروف هبَّت- على حين غِرّة- نسمة الرحمة الإلهيّة، وانقلبت الامور رأساً على عقب وتتابعت فيوضات المدد الإلهى على المسلمين وقذف اللَّه فى قلوب المشركين الرعب والفزع الشديد فتراجعوا خائبين بدون أن يحققوا عملًا معيناً وعادوا إلى مكة.

وفى الواقع أنّ جميع الأخبار الغيبية فى القرآن التى بحثناها مفصلًا فى الفصل السابق، يمكن الاستناد إليها فى هذا البحث أيضاً، وذلك لأنّ كل واحد منها يعتبر معجزة من معاجز نبى الإسلام ودليلًا على صدق قوله وادّعائه. طالعوا مرة اخرى كل ماذكرناه فى الفصول العشرة من بحث الاعجاز القرآنى من ناحية الأخبار الغيبية، إذ كل واحد من تلك الفصول يعتبر شاهداً على البحوث التى بين ايدينا فى هذا الفصل.

وأمّا الموارد الخاصة التى حددها القرآن الكريم، ففى مقدمتها قصة شق القمر التى جاء ذكرها فى قوله تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ* وَانْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ* وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا اهْوَاءَهُم وَكُلُّ امْرٍ مُّسْتَقِرٌّ». (القمر/ ۱- ۳)

الكلام يقع فى أنّ المقصود من شق القمر هل هو بعنوان معجزة من المعاجز الواقعة فى هذا العالم، أو أنّه إشارة إلى انشقاق القمر فى المستقبل أو فى نهاية العالم بصفته واحدة من العلامات على بداية الآخرة، فالمشهور بين المسلمين هو الاحتمال الأول على حد قول الفخر الرازى الذى يقول: «والمفسرون بأسرهم على أنّ المراد أنّ القمر انشق وحصل فيه الانشقاق، ودلت الأخبار على حديث الانشقاق، وفى الصحيح خبر مشهور رواه جمع من الصحابة» «۱».

وينقل المرحوم «الطبرسى» أيضاً حديث انشقاق القمر عن جمع كبير من صحابة النبى

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۸.

الأكرم صلى الله عليه و آله، وجماعة من المفسرين ويعد المخالفين لهذه المسألة ثلاثة أشخاص فقط، هم:

(عثمان بن عطاء، عن أبيه وكذلك الحسن والبلخى)، ثم يقول بعد ذلك: «وهذا لا يصح لأنّ المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتد بخلاف من خالف فيه ولأنّ اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه» «۱».

وذكر جماعة من المفسرين عبارات متشابهة لما نقلناه عن «الطبرسى» و «الرازى».

علاوة على ذلك فانه توجد قرائن واضحة على هذا المعنى فى نفس هذه الآيات من جملتها:

۱- جملة «وانشق القمر» المذكورة بصيغة الفعل الماضى التى تدل على وقوع مثل هذا الأمر، وأمّا كون الفعل الماضى بمعنى المضارع فإنّه وإن ورد ذكره فى موارد معينة من القرآن الكريم، لكن نظراً لكونه استعمالًا مجازياً فهو بحاجة إلى القرينة، ولا توجد قرينة فى هذا المقام.

۲- إنّ أفضل شاهد على هذا المعنى هى الآية الثانية التى تقول: «وَانْ يَرَوا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ»، لأنّ مشاهدة «الآية» و «الإعراض» عنها، ونسبة السحر إلى النبى كلها تدل فى الظاهر على وجود معجزة.

۳- تخبر جملة: «وكَذَّبوا واتَّبعوا أَهْواءَهم» فى الآية الثالثة عن تكذيب هؤلاء لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله حتى بعد مشاهدة المعجزة، ولو لم يكن إعجازاً فى البين لما كان لهذه التعابير أساس من الصحة بأى شكل من الأشكال.

۴- بالإضافة إلى ذلك فقد نقلت روايات كثيرة فى مصادر الحديث الإسلامى أخبار عن حدوث هذا الإعجاز وقد وصلت إلى حد الشهرة والتواتر، وقد أقر جمع من المفسرين مسألة تواتر الأخبار الواردة فى شق القمر، من جملتهم: الطبرسى، والفخر الرازى، وسيّد قطب، والبروسوى فى روح البيان فلا يمكن الإعراض عن هذه الآيات والروايات بالاستناد إلى بعض الهواجس والفرضيات البعيدة على الاطلاق.

وممّا يمكن ذكره بعنوان قرينة على وقوع هذه الحادثة فى المستقبل هو اقتران قرب

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۱۸۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۳

وقوع يوم القيامة إلى جانب شق القمر حينما فى قوله تعالى «اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَرُ».

إلّا أنّ الذى ذهب إليه جماعة من المفسرين هو أنّ اقتراب يوم القيامة تحقق مع ظهور نبى الإسلام، لأنّنا نقرأ فى المأثور عنه: «بعثت أنا والساعة لهاتين» وقد أشار إلى اصبعين متوازيين من أصابعه المباركة «۱».

ولذا نقرأ فى قوله تعالى «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُم وَهُم فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

(الأنبياء/ ۱)

ونقرأ فى قوله تعالى «قُلْ انَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا».

(الأحزاب/ ۶۳)

وذلك حينما سألوا النبى صلى الله عليه و آله عن موعد حصول يوم القيامة.

ووفقاً لما ورد فى الروايات المشهورة فإنّ المشركين جاؤوا إلى رسول اللّه وقالوا: «إذا كنت صادقاً فى قولك وإنّك نبى حقاً فاشطر القمر لنا شطرين» «۲».

ولم يمض شىء من الوقت حتى اتصل أحد شقى القمر بالآخر وعاد إلى حالته الاولى

وقد نقل الصحابى المشهور حذيفة قصة انشقاق القمر بحضور جمع من الناس فى مسجد المدائن، فلم يعترض عليه أحد مع أنّهم أدركوا عصر النبى، وهذا إن دلّ على شىء فإنّما يدل على قطعية هذه المسألة فى أوساطهم «۳».

إشكالات حول مسألة شق القمر

اشارة

فى قبال الآيات السابقة، والروايات الإسلامية المشهورة التى وردت فى جميع كتب الحديث المعروفة، وتفسير أهل السنة والشيعة، يميل البعض من خلال الاستناد إلى مجموعة من الإشكالات إلى رفع اليد عن ظهور هذه الآيات، وربطها بالحوادث المختصة ببدايات يوم القيامة وبالاصطلاح «أشراط الساعة».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۹؛ و تفسير مجمع البيان ذيل آية ۱۸ من سورة محمد.

(۲) تفسير مجمع البيان وكتب التفسير الاخرى فى ذيل الآية مورد البحث.

(۳) نقل السيوطى هذا الحديث فى تفسير در المنثور، وتفسير القرطبى فى ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۴

۱- إشكال من زاوية تاريخية

من جملة الإشكالات التى يوردها بعض البسطاء والسذج على مسألة «انشقاق القمر» هو أنّ هذا الأمر ينبغى أن يدون مع ماله من أهميّة كبرى فى تواريخ العالم، والحال أنّ الأمر ليس كذلك فلا نشاهد أثراً له يذكر فى التواريخ.

ومن الواضح إنّ هذا الاعتراض غير وارد، حيث يلزم ومن خلال دراسة وتحليل لجميع جوانب هذه المسألة تبيين مايلى:

أ) ينبغى الالتفات إلى أنّ القمر قابل للرؤية دائماً فى نصف الكرة الأرضية لا فى جميعها، ولهذا فإنّ نصف الناس مستثنون من هذه القاعدة.

ب) إنّ الأكثرية الساحقة فى هذا النصف من الكرة نائمون أيضاً بعد منتصف الليل، وعليه فإنّ الذى يحيط علما بمثل هذه الحادثة هم ربع الناس فى العالم فقط.

ج) لايبعد فى المجال القابل للرؤية أيضاً أن تكون مساحات شاسعة من السماء ملبدة بالغيوم، ويكون وجه القمر محجوباً عن الرؤية.

د) إنّ الحوادث السماوية إنّما تسترعى انتباه الأشخاص فى صورة كونها كالصواعق المصحوبة بالصخب الشديد، أو كالخسوف والكسوف الكلى المستلزم لانقطاع النور بصورة تامة ولمدّة طويلة نوعاً ما أيضاً.

ولهذا السبب قلما يطلع أحد على الخسوفات الجزئية، والكسوفات البسيطة إذا لم تكن مسبوقة بالاعلان من قبل الفلكيين، حتى أنّ الكثير من الناس تخفى عليهم حالة الكسوف التامة أيضاً فى بعض الأحيان.

إنّ العلماء الذين يترصدون القمر والأجرام السماوية، أو الأشخاص الذين تقع أعينهم على السماء صدفة، هم فقط يمكنهم أن يطلعوا على مثل هذه الحادثة ويخبروا عنها مَن لَم يَرَها من الناس.

ولذا فإنّ مثل هذه الحادثة القصيرة الأمد لاتسترعى انتباه جميع الناس فى العالم، لا سيما أنّ مجتمع ذلك العصر لم يبد الاهتمام المطلوب بالأجرام السماوية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۵

ه) بالإضافة إلى أنّ الوسائل اللازمة لتدوين المطالب فى التاريخ ونشرها كانت محدودة فى ذلك الزمان، وحتى الأفراد المتعلمون كانوا قليلين جدّاً، وكانت الكتب جميعها خطية، ولم تكن تنشر الحوادث المهمّة بواسطة وسائل الاعلام المسموعة والمرئية والصحف المحلية فى جميع أنحاء العالم، وتسجل فى جميع التواريخ كما هو الحال فى يومنا هذا.

واستنادا إلى هذه النقاط لا ينبغى الاستغراب من عدم ذكر هذه الحادثة فى التواريخ غير الإسلامية، واعتبار ذلك دليلًا على عدم وقوعها.

۲- من الزاوية العلمية

استناداً إلى «هيأة بطليموس» التى ترى أنّ الأرض هى مركز العالم والأفلاك التسعة المحيطة بأطرافها على شاكلة طبقات قشرة البصل، وكانت تعتقد أنّ هذه الأفلاك كالجسم البلورى المرتبط بعضه ببعض، والنجوم والأجرام السماوية مندكة فى قلب الأفلاك، وتدور مساوقة لحركة الأفلاك، وأىّ نوع من أنواع الخرق والالتئام فى الأفلاك محال، لهذا السبب أنكر اتباع هذه العقيدة كلًا من «المعراج الجسمانى»، و «انشقاق القمر» معاً، ذلك أنّ كليهما يوجب الخرق والالتئام فى الأفلاك!.

إلّا أنّه لم يعد هناك أرضية لهذا الكلام فى يومنا هذا بعد أن طويت فرضية الهيأة لبطليموس فى ملف الأساطير والخرافات وثبت بطلان الافلاك التسعة من الناحية العلمية والحسية.

وقد يقال: ليس من السهل تحقق مسألة انشقاق القمر بمنظار العلم الحديث أيضاً، لأنّ هذه الكرة «مساحة القمر» وإن كانت خمس الكرة الأرضية إلّاأنّها مع ذلك كرة عظيمة، ووقوع الانشقاق والانفجار فيها بحاجة إلى عامل قوى جدّاً، والجواب عن هذا الإشكال واضح فى نظر أهل التوحيد، إذ لم يَدَّعِ أحد بحدوث «انشقاق القمر» من جراء احدى العوامل الطبيعية، بل كان يُعزى سبب حدوث ذلك إلى الاعجاز مستنداً إلى القدرة اللامتناهية للبارى عزّ وجلّ.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۶

ولا يخفى عليكم أنّ اللَّه لا يصعب عليه انشقاق القمر، بل إنّ ايجاد المنظومات والمجرّات الاخرى كلها منقادة لإرادته ومشيئته أيضاً، ذلك اللَّه الذى أحدث الانفجار الأول فى قلب الشمس منذ البداية، وفصل عنها السيارات الكبيرة للمنظومة الشمسية، فقذفت كل واحدة منها فى ناحية من النواحى وبدأت تدور حولها، أجل، إنَّ مَن بيده كل شىء وقادر على كل شىء لقادر على إثبات نبوة نبيّه، وذلك أن يحدث فى لحظة من اللحظات مثل هذا الانفجار ثم الالتئام فى كرة القمر التى هى لا تساوى شيئاً أمام قدرته تعالى

إنّ الذين يستهينون بالقدرة الإلهيّة- والعياذ باللَّه- أو لم يحيطوا علماً بحدوث المنظومات السماوية الكبيرة على أثر الانفجارات المتتابعة، هم فقط الذين يثيرون الإشكالات على هذا النوع من المسائل.

۳- انشقاق القمر فى التصور القرآنى

يقولون إنّ هناك آيات فى القرآن الكريم تدل على أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله لم يمتلك معجزة سوى القرآن: واستدل هؤلاء على إثبات فكرتهم كما ورد فى قوله تعالى «وَمَا مَنَعَنَا انْ نُرسِلَ بِالآيَاتِ الَّا انْ كَذَّبَ بِهَا الاوَّلُونَ». (الأسراء/ ۵۹)

وكذلك تشبثوا بالآية ۹۰ إلى ۹۳ من سورة الاسراء، وذلك استناداً إلى أنّ جماعة طلبوا من النبى طلبات مختلفة، فتارة قالوا: لا نؤمن إلّاأن تفجر لنا ينبوعاً من هذه البقعة من الأرض (الجرداء القاحلة)، وتارة اخرى قالوا: لا نؤمن لك إلّاأن يكون فى حوزتك بستان كبير من أشجار النخل والعنب وتجرى من خلاله الأنهار، أو تنزل على رؤوسنا- كما تدعى- الأحجار السماوية، أو تحضر لنا اللَّه وملائكته، أو تمتلك بيتاً من الذهب، مليئاً بالرسوم والنقوش، أو تصعد إلى السماء، ولا نكتف بذلك إلّاأن تأتينا بكتاب من قبل اللَّه تعالى لنطّلع عليه، فما كان جواب النبى الأكرم على مطالبهم إلّاأن قال: «سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ الَّا بَشَراً رَسُولًا». (الاسراء/ ۹۳)

وعلى ضوء جوابه صلى الله عليه و آله ادّعى أولئك المرتابون بأنّه لم يأت بأى معجزة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۷

الجواب:

إنّ الالتفات إلى الكلمة التى وردت فى أقوال جمع من المفسرين الكبار توضح الجواب عن هذا الإشكال وهى: إنّ المعجزات على نوعين:

النوع الأول: هى المعجزات الضرورية لإثبات صدق دعوى النبى، وترغيب الناس فى الإيمان، وتخويف المنكرين، وهى المعاجز

المنطقية للذين ينشدون الحق والباحثين عن الحقيقة، بحيث يعبر القرآن الكريم فى ذيل الآية المذكورة بقوله: «وَمَا نُرسِلُ بِالآيَاتِ الّا تَخْوِيفًا». (الاسراء/ ۵۹)

النوع الثانى من المعجزات: هى المعجزات التى تسمى ب «الاقتراحية»، أى المعجزات التى يطالب بها المتعلّلون لا لأجل سلوك سبيل الحق واليقين بصدق دعوى النبوة ومن ثم الإيمان واعتناق الإسلام، وإنّما بقصد تعجيز الطرف الآخر، فإن وجدوا به قدرة على ذلك اتهموه بالسحر.

والأنبياء كانوا يتجهون صوب القسم الأول ولا يستسلمون اطلاقاً لمقترحات المتعللين والمعاجز الاقتراحية.

يشير لحن الآيات ۹۰- ۹۳ من سورة الاسراء بشكل واضح إلى أنّ هذه الموضوعات العجيبة والغريبة والمتهافتة لمشركى العرب لم يكن منشأُها هو البحث عن الحقيقة، بل الغاية منها هى اختلاق الأعذار والتشكيك فى‌نبوة نبى الإسلام وارساء دعائم الشرك والصنمية، ولذا لم يُمعِنوا النظر حتى فى مفهوم كلامهم، فمن ضمن مطالبهم مثلًا أنّهم يطلبون معجزة من المعاجز التى تبيدهم «كنزول الأحجار السماوية على روؤسهم»، وتارة يطلبون معجزة كمعجزة (الصعود إلى السماء)، ثم ينفون ذلك مباشرة ويقولون: نحن لا نؤمن بذلك حتى تبعث لنا كتاباً من قبل اللّه، وتارة يطلبون الامور المستحيلة كقولهم: أن تأتينا بالله والملائكة، والحال أنّ اللّه ليس له مكان، وليس بجسم ولا جسمانى.

ثم إذا كان الهدف هو التوصل إلى معرفة حقانية النبى فَلِمَ يطلبون ست معاجز مختلفة؟

ألا تكفى معجزة واحدة؟

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۸

من هنا لم يتسن لأى‌نبى أن يستسلم لهذا النوع من الأراجيف والأباطيل، فضلًا عن أنّ الاعجاز ليس من شأن النبى واختياره، وإنّما هو من شأن اللّه تعالى واختياره.

إنَّ النبى بإمكانه أن يطلب المعجزة من اللّه واللّه تعالى يضع بين يديه أى شىء يراه صالحاً، ولهذا نقرأ هذا المعنى فى ذيل قوله تعالى «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنْتُ الَّا بَشَراً رَّسُولًا» (الأسراء/ ۹۰- ۹۳)

وكذا فى قوله تعالى «وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ انْ يَاتِىَ بِآيَةٍ الَّا بِاذْنِ اللّهِ». (الرعد/ ۳۸)

وأمّا قوله: نحن لن نستسلم لمطاليبكم لأنّ الأولين كذبوا ذلك، فهذا يدعو إلى هذا التساؤل وهو: كيف يجوز أن يكون تكذيب الأولين سبباً لحرمان الأجيال المتعاقبة من مشاهدة المعجزات؟ فالاجابة عنه تكمن فى كون هذه العبارة متداولة وذلك بأن يقال للشخص العنيد الذى لا نريد أن نستسلم له: إنَّ اقتراحك لم يكن وجيهاً وقد سبق لغيرك أن اقترحه، ولم يرضخ للحق.

بعبارة اخرى أنّ المعاجز التى تقترحونها لا تستند إلى أساس البحث عن الحقيقة، وإنّما هى «اقتراحية» وتعجيزية، ولو نفذت طلباتكم لما آمنتم أيضاً، فقد سبق لافراد مثلكم فى الامم الغابرة أن طلبوا إظهار معاجز ثم كذبوها بعدما شاهدوها.

ملخص الكلام هو أنّ من الصحيح القول: إنّ القرآن لوحده معجزة خالدة، ولو لم يكن هناك معجزة اخرى سوى هذه المعجزة للنبى لاستطاعت أن تكون شاهداً على صدقه، ولكن هذا لا يدل على أنّ النبى لم يمتلك معجزات جسمانية ومادية غير هذه المعاجز الروحية والمعنوية، بل ذهبت الآيات والروايات والتواريخ الإسلامية وسيرة النبى إلى القول: إنّه كان يمتلك ذلك، ولا شك فى أنّ انضمام المعجزات المحسوسة والمادية إلى تلك المعجزة المعنوية الكبيرة يظهر حقانية الدعوة النبوية بصورة أجلى وأوضح.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۴۹

الطريق الثانى: جمع القرائن طريق آخر للاطمئنان

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۱

نفحات القرآن ج۸ ۲۹۹

الطریق الثانی: جمع القرائن طریق آخر للاطمئنان

تمهید:

خلافاً لما یظن البعض فإنّ سبیل إثبات صدق دعوی النبوة لایقتصر علی المعجزات فقط، بل أحیاناً تثبت عن طریق تجمیع القرائن المتعلقة بحیاة ذلک النبی، وصفاته وخصائصه الأخلاقیة والعملیة، ومضمون الدعوة وبرامجها المستخدمة یمکن الحصول علی سند واضح قد یعادل اقوی المعجزات بل أحیاناً یتقدم تلک المعجزات أیضاً.

إنَّ هذا النوع من الاستدلال یلاحظ أیضاً فی کلام القدامی وإن کان یبدو شکله اقل انسجاماً.

ولهذا السبب فمن اللازم تقدیم بعض التوضیحات حول هذا الموضوع مسبقاً.

جمع القرائن دلیل متداول فی کل العلوم:

اشارة

للتوصل إلی الحقائق فی العلوم المختلفة یتمّ الیوم الاستفادة من طریقة جمع القرائن بشکل کبیر لکشف الجرائم، ولتشخیص أنواع الأمراض، ولمعرفة خصائص الشخصیات العظیمة السالفة علی طول التاریخ، ولکشف القضایا المتعلقة بعالم الخلق، الأرض والسماء، النباتات والحیوانات.

والفرق بین هذا الاسلوب وأسلوب (الاستقراء) الذی هو أحد طرق البرهان هو: إنّنا نحصل بالاستقراء علی حکم کلی عند البحث والتنقیب عن الأفراد، فعلی سبیل المثال نقوم بعدّ فقرات أفرادٍ کثیرین ثم ندرج فی الکتب قانوناً عاماً یقول: إنّ الإنسان له کذا عدد من الفقرات.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۲

ولکن بطریقة جمع القرائن نقوم بدراسة آثار موضوع خاص أو مایسمی ب «الجزئی الحقیقی» ثم نتوصل من مجموع تلک الآثار إلی المؤثر.

وکمثال علی ذلک: حینما تقع جریمة فی نقطة ما ویؤتی بالمتهم إلی المحکمة فینکر التهمة الموجهة إلیه جملةً وتفصیلًا، مستفیداً من عدم وجود شاهد یثبت التهمة، فإنّ الحاکم الذکی لا یغلق ملفَّ القضیة بذریعة إنکار المتهم وعدم تیسّر الشاهد، بل یقوم بتجمیع القرائن عن طریق التحقیقات المختلفة، ودراسة امور کثیرة اخری مثل:

أ) سوابق المتهم.

ب) نوع العلاقة التی تربط بین المتهم والشخص الذی وقعت علیه الجریمة، وهل هناک من خصومة أو اختلاف بینهما أم لا؟

ج) مکان وزمان وقوع الحادثة، وهل بإمکان المتهم ایضاح المکان الذی کان فیه وقت وقوعها؟

د) نوع السلاح أو الرصاصة التی عُثر علیها فی هذه الحادثة، وهل أنّ المتهم یستخدم مثل هذا السلاح أم لا؟

ه) ملاحظة الحالة الجسدیة للمتهم والشخص الذی وقعت علیه الجنایة، وهل توجد آثار منازعة علیهما ام لا، وهل للمتهم توضیحات لهذه الآثار أم لا؟

و) الاحساس الذى ينعكس على المتهم عند مشاهدته رداء المقتول وآثار الجريمة، وهل تضطرب حالته أم يحتفظ بهدوئه أثناء ذلك؟

ز) الحالة النفسية للمتهم ومقارنتها بالسابق، هل هى متعادلة أم يسيطر عليها الاضطراب؟

ح) عند اجابته عن أسئلة المحقق والحاكم هل ينتابه الارتباك والاضطراب والتناقض وأمثالها أم لا؟

بالإضافة إلى مسائل اخرى كثيرة، وقد لاتكون آحادها كافية لإثبات الحقيقة، ولكن بحث هذه الجوانب أحياناً لايبقى أى شك أو ترديد بأنّ الجريمة نفذت من قبل المتهم، وهذا

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۳

مايقوى من عزم الحاكم أو القاضى بأنّ يتابع القضية بأناة وما أكثر ماتنتهى متابعته إلى إقرار الطرف المقابل أيضاً.

بل ويمكن القول: إنّ (الاقرار) هو دليل ظنى- لأنّه لوحظ كثيراً أنَّ البعض ومن أجل الهروب من قبضة العدالة أعطوا أموالًا طائلة لشخص آخر حتى يعترف بعد طمأنته بأنّهم سيخلصونه فى النهاية، وكذلك (شهادة الشهود) هى دليل ظنى أيضاً، لأنّ احتمالها للخطأ أو التواطؤ ليست مستحيلة (لا شك أنّ شهادة الشهود والاعتراف مقبولة، وأنّ المقصود هو أنّها دلائل ظنية مقبولة فى نهاية الأمر، فى حين أن تجميع القرائن يمكن قبولها عند وصولهامرحلة القطع واليقين).

وتلاحظ فى الأحكام الإسلامية أيضاً نماذج واضحة لهذه المسألة، وأحياناً تمّ إثباتها حتى بواسطة قرينة حكم واحدة مثل حكاية اختلاف (العبد) و (السيد) فى عصر أمير المؤمنين عليه السلام عندما أمر عليه السلام (صورياً) بضرب عنق العبد منهما إذ سحب أحدهما رأسه ليثبت على نفسه أنّه العبد.

أو كقصة اختلاف تينك المرأتين على وليدٍ، وأمره عليه السلام- صورياً- بقطع ذلك الوليد نصفين، عندئذٍ تنازلت الام الحقيقية لذلك الطفل عن حقها فكان موقفها ذاك دليلًا على صدق دعواها، وأمثال ذلك.

على أيّة حال إنّ الاستفادة من هذه الطريقة للوصول إلى نتائج قطعية ليس فى المسائل القضائية وحسب، بل وفى الكثير من العلوم، وكذلك القضايا الاجتماعية والسياسية المختلفة هو أمر معتاد وبنّاء، ويمكننا أيضاً الاستفادة منه فى مسألة إثبات نبوة الأنبياء وأحياناً يكون تأثيره فى ايجاد اليقين والاطمئنان أكثر من تأثير المعجزات العادية.

بهذه الإشارة نعود إلى الآيات القرآنية لنرى مالها من بيان حول هذا الدليل- بشكله الكلى، ثم نتجه نحو حياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لنجمع القرائن المختلفة عن حياته ونضعها إلى جانب بعضها البعض حتى يحكم القراء عليها بأنفسهم.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۴

فى القسم الأول وفى آيات متعددة من القرآن تلاحظ إشارات حافلة بالمعانى حول هذا الدليل، ومن جملتها:

الآيات التى تعبر عن وجود نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بأنّه (شاهد) و (سراج منير) و (برهان) و (شمس).

فنقرأ فى قوله تعالى

«يَاايُّهَا النَّبِىُّ انَّا ارْسَلْنَاكَ شَاهِدَاً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً* وَدَاعِياً الى اللَّه بِاذنِهِ وَسِراجاً مُّنِيراً». (الأحزاب/ ۴۵- ۴۶)

فى هاتين الآيتين يقدم القرآن الكريم نبى الإسلام صلى الله عليه و آله على أنّه (شاهد)، فقد ورد فى أحد التفاسير أنّه شاهد على أحقيته، لأنّ صفاته وأخلاقه، وخططه البناءة، وسوابقه الساطعة، وأعماله، تشهد على حقانية دينه وصدق دعوته، هذا من جهة «۱».

ومن جهة اخرى يعرّفه بعنوان (سراج منير)، واننا نعرف أنّ السراج هو دليل على نفسه ولا- يحتاج لدالٍ عليه، أو كالقول المعروف (طلوع الشمس دليل على الشمس).

وتعبير (برهان) الذى جاء فى قوله تعالى «يَاايُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرهَانٌ مِّنْ رَبِّكُم وَانْزَلْنَا اليكُم نُوراً مُّبِيناً». (النساء/ ۱۷۴)

هو إشارة اخرى لتلك الحقيقة، لأنّ (برهان) مشتقة من مادة (بَره) على وزن (فرح) وتعنى الإبيضاض، ولأنّ الاستدلالات الواضحة تنير

وجه الحق وتُبيِّضه، لذا أطلق عليها برهان.

ويعتقد جمع من المفسرين أنّ المقصود من البرهان فى هذه الآية هو ذات الرسول صلى الله عليه و آله «۲»، والمقصود من النور هو القرآن المجيد.

وبناءً على ذلك فإنّ شخص الرسول صلى الله عليه و آله جرى تعريفه بعنوان (برهان)، وذلك بسبب توفّر آثار وقرائن فى وجوده تنبىء بأحقيته فضلًا عن معجزاته.

---

(۱) فى تفسير آخر للآية المذكورة اعتبر النبى صلى الله عليه و آله كشاهد على الأنبياء قبله. أو شاهد على أعمال امته يوم القيامة. فى حين لا يوجد أى تنافض أو تعارض بين هذه التفاسير الثلاثة ويمكن جمعها فى معنى الآية.

(۲) من الذين قبلوا هذا المعنى أو نقلوه باعتباره تفسيراً: المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان، والعلّامة الطباطبائىفى تفسير الميزان؛ والمراغى؛ والقرطبى فى تفسيرهما (ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۵

وجاء فى تفسير: «والشمس وضحاها» فى روايات متعددة أنّ (الشمس) هى إشارة لوجود الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وأنّ (القمر) هو إشارة إلى وصيِّه بالحق «۱».

من البديهى أنّه لايوجد دليل لإثبات وجود الشمس سوى وجودها بالذات، لأنّ الجميع يطلعون على وجود الشمس المشرقة والمنيرة بمجرد طلوعها من افق المشرق.

وفيما عدا هذه التعابير أشار القرآن الكريم فى آيات اخرى إشارة واضحة إلى هذه المسألة، وأشار إلى بعض دلائل أحقية الرسول صلى الله عليه و آله ومن جملتها أنّه استند إلى قضية (امّيته) واعتبارها قرينة، مثلًا يقول تعالى

«وَمَاكُنتَ تَتلُوا مِنْ قَبلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ اذاً لَّارتَابَ المُبطِلُونَ».

(العنكبوت/ ۴۸)

وهنا يشير القرآن إلى أنّ الرسول صلى الله عليه و آله لو كان يقرأ ويكتب لكان الشك يقع بين كون القرآن منه أو من اللَّه، ولكن بالنظر إلى أنّه صلى الله عليه و آله كان امّياً وأنّ القرآن الكريم كان معجزة من جوانب مختلفة فلا يبقى لأحد أى مجال للشك فى أنّ هذا الكتاب هو من قبل اللَّه تعالى

وهذه طبعاً قرينة واحدة فقط من القرائن الكثيرة التى تلاحظ فى وجوده صلى الله عليه و آله، ودليلٌ على صدق دعوته، وكلما وضعنا مجموع هذه القرائن إلى جنب بعضها البعض لأضحت المسألة أكثر سطوعا من الشمس.

وتعبير (المبطلون) يدل على أنّه حتى لو كان النبى صلى الله عليه و آله قد تلقى التعليم فلا مجال أيضاً إلى أنّ نعتبر هذا الكتاب هو من بناة أفكاره، لماذا؟ لأنّه يقينا اسمى من فكر وعلم بنى البشر، ولكن هذا الأمر بمفرده قد يشكل ذريعة للمفسدين والمبطلين.

ونقرأ فى قوله تعالى:

«قُلْ لَّوْ شَآءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيكُمْ وَلَا ادرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثتُ فِيكُم عُمُراً مِّن قَبلِهِ افَلَا تَعقِلُونَ». (يونس/ ۱۶)

---

(۱) فى تفسير البرهان، ج، ۴ ص ۴۶۶ توجد خمسة أحاديث حول هذا الموضوع، وليس فى هذا التفسير تعارض مع التفاسير الاخرى للشمس، ويمكن جمعها كلها فى معنى الآية.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۶

وفى الحقيقة كان النبى صلى الله عليه و آله يعتمد على هذه القرينة عندما يقول: إننى عشت بينكم سنين طويلة ولم تسمعوا منى مطلقاً

مثل هذا الكلام (الآيات القرآنية)، ولو كانت هذه الآيات صادرة منى فلابدّ أن تجرى على لسانى خلال هذه الاربعين سنة أو لسمعتم منى قسماً منها على الأقل.

وكما يقول بعض علماء النفس: فإنّ النبوغ الفكرى، واكتشاف وإبداع المسائل المستحدثة يبدأ عادة عند الإنسان من سن العشرين، وتمتد على الأكثر إلى سن ۳۰ أو ۴۰ سنة، أى أنّ الإنسان إذا لم يأت حتى ذلك العمر بابتكار جديد ففى الغالب ينتفى عنده بعد ذلك.

وهذا الموضوع الذى يُعدّ اليوم كاكتشاف نفسانى كان فى الماضى غير واضح إلى هذا الحد، ولكن غالبية الناس كانوا يعرفون عادة بالهداية الفطرية أن ليس بمقدور الإنسان أن تكون له أفكار خاصة متمثلة بدين جديد وهو يعيش بين قومه وشعبه مدّة أربعين سنة ولا يظهرها مطلقاً، ولهذا يقول القرآن: كيف لا تدركون استحالة هذا الأمر؟

إنّ استناد القرآن الكريم فى آيات متعددة على (امّية) النبى صلى الله عليه و آله له دلالات مليئة بالمعانى، وكذلك القرائن بأنّ كيف يستطيع شخص لم يتلقَّ تعليماً أن يأتى بكتاب بهذا المحتوى الذى ليس له نظير، وبهذا الشمول الاستثنائى، والحقائق التى تحتفظ بطراوتها تماما بعد مضى الف سنة أو أكثر، والذى يعتبر وصفة راقية وناجعة لحل المشاكل الحياتية لبنى البشر فى الجوانب المعنوية والمادية؟

وممّا قيل نستنتج أنّ للقرآن الكريم اهتماماً خاصاً بهذا الدليل (أى تجميع القرائن).

والآن نعود إلى الشرح والبيان التفصيلى لهذه القرائن التى اختصّ بها النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، ونخضع الامور التالية للبحث والدراسة الدقيقين:

محيط دعوته والظروف السائدة هناك.

الخصائص الأخلاقية والنفسية لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله وسوابقه.

زمان دعوته من ناحية الوضع العام فى العالم وبالخصوص فى منطقة ظهوره صلى الله عليه و آله.

مضمون دعوته وأسس القضايا التى يدعو الناس إليها. نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۷

الوسائل التى يستفيد منها للوصول إلى أهدافه.

انسجامه وعدم انسجامه مع متطلبات البيئة المنحرفة وكيفية تصديه للخرافات.

ماهية الأفراد الذين آمنوا ومن أىطبقة وأى نوع.

ميزان اعتقاده بالاهداف التى يدعو الناس إليها.

سرعة انتشار دعوته ومستوى الاثر الذى تتركه أحكامها وقوانينها فى المجتمع.

بالإضافة إلى علائم اخرى

۱- محيط دعوة النبى صلى الله عليه و آله والظروف السائدة هناك

إنّ القضية التى يتفق عليها كل المؤرخين الكبار هى: أنّ العرب قبل بدء الرسول صلى الله عليه و آله بدعوته كانوا فى أوضاع سيئة للغاية من ناحية سيطرة المعتقدات الخرافية، والانحطاط الأخلاقى، والاختلافات، والحروب الداخلية المستعرة، والظروف الاقتصادية السيئة، ولا تتحرك فى تلك البيئة نسمة من رياح العلم والمعرفة، ولا يوجد حتى أثر من الحضارة الشكلية للبشر، ولهذا السبب كانوا يعتبرونهم قوما نصف متوحشين، ويطلقون على عصرهم اسم (العصر الجاهلى).

وللقرآن الكريم تعابير صريحة وواضحة عن ذلك العصر يمكنها رسم ملامح الأوضاع فى ذلك الزمان بشكل جيد (حتى لو لم

يصدّق أحد بأنَّ القرآن الكريم وحى إلهى، ولكن لا يمكنه انكار حقيقة أن ذكر تلك الصفات لذلك العصر فى القرآن هى دليل على واقعيته وحقيقته، وإلّا يكون منكراً لكل الجوانب).

فيقول اللَّه تعالى فى مكان: «لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى المُؤمِنِينَ اذْ بَعَثَ فِيهِم رَسُولًا مِّنْ انْفُسِهِم يَتلُوا عَلَيهِم آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَانْ كَانُوا مِنْ قَبلُ لَفى ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

(آل عمران/ ۱۶۴)

وعبارة (ضلال مبين) فى هذه الآية وفى أواخر الآية الثانية من سورة الجمعة أيضاً، هو

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۸

إشارة معبرة عن الاوضاع فى العصر الجاهلى الذى كانت الضلالة المبينة تسود أركانه، وأى ضلالة أوضح وأبين من عبادتهم لأصنام من الحجر والخشب صنعوها بأيديهم، والأسوأ من ذلك هو تلك الأوثان التى يعملونها من التمر ويعبدونها، ثم يأكلونها أيّام القحط والجفاف.

أو يدفنون بناتهم بأيديهم وهن أحياء، وهم يفخرون ويتباهون بعملهم هذا بدعوى أنّهم لا يدعون عرضهم وناموسهم يقع بأيدى الأجانب، أو يقتلون أبناء خوفاً من الإملاق.

وجاء فى قوله تعالى «وَاذا بُشِّرَ احَدُهُم بالانثَى ظَلَّ وَجهُهُ مُسوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِن القَومِ مِنْ سُوءِ مَابُشِّرَ بِهِ ايُمسِكُهُ عَلَى هُونٍ امْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ* الَا سَآءَ مَايَحكُمُونَ». (النحل/ ۵۸- ۵۹)

وأى ضلال أوضح من سيطرة أنواع الخرافات والأوهام عليهم، أو اعتبارهم الملائكة بنات اللَّه: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحمَنِ انَاثاً». (الزخرف/ ۱۹)

وفى مكان آخر يقول: «وَيَجعَلُونَ لِلَّهِ البَنَاتِ سُبحَانَهُ». (النحل/ ۵۷)

وهناك آيات اخرى نظير ما أشرنا إليها.

أىّ ضلالٍ أوضح وأبين من أن تسيطر عليهم الحروب وسفك الدماء فى كل أيّام السنة- باستثناء الأشهر الحرم-، وتوارث الأحقاد القبلية من الآباء للأبناء واستمرارها لسنوات وسنوات، كما يشير القرآن إلى ذلك بقوله: «وَاذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيكُم اذْ كُنْتُم اعدَاءً فَالَّفَ بَينَ قُلُوبِكُم فَاصبَحْتُم بِنعمَتِهِ اخوَاناً وَكُنتُم عَلَى شَفَا حُفرَةٍ مِنَ النَّارِ فَانقَذَكُم مِّنهَا». (آل عمران/ ۱۰۳)

أىّ ضلالة أوضح من أن تكون حتى مراسم صلاتهم ودعائهم مضحكة ومقززة، فحيناً تطوف النساء حول بيت اللَّه الحرام وهن عاريات تماماً ويحتسبن ذلك عبادة، وحيناً آخر يقيمون صلاتهم مصحوبة بالتصفيق والصفير: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُم عِنْدَ البَيتِ الَّا مُكَاءً وَتَصدِيَةً». (الانفال/ ۳۵)

لقد كانت الخرافات والأوهام تخيم على مجتمعهم، بضروب شتى وكانت كل قبيلة تسعى إلى إبراز نفسها على أنّها أرفع من القبيلة الاخرى وربّما يؤدّى إلى ظهور الأحقاد

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۵۹

والضغائن والحسد، وأحياناً سفك الدماء بين القبائل إلى الحد الذى يدعهم- من أجل إثبات كثرة عددهم- إلى التوجه صوب القبور لعدّ قبور موتاهم والتفاخر بالعظام النخرة لأجدادهم وهى تحت التراب.

يقول القرآن الكريم: «الَهكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرتُمُ المَقَابِرَ». (التكاثر/ ۱- ۲)

وما إلى ذلك من أوهام ومفاسد وكوارث اخرى من هذا القبيل.

إنّ الانحطاط فى تلك البيئة والفقر المعنوى والمادى جَعل تلك المنطقة فى قائمة أكثر مناطق العالم تخلُّفاً.

ينقل أحد المؤرخين الغربيين عن بعض المؤرخين المعروفين حول بيئة الحجاز فى العصر الجاهلى قائلًا: عندما دخل (ديمتريوس)

القائد اليونانى الكبير (البتراء)- إحدى مدن الحجاز القديمة- وهو فى طريقه لاحتلال المنطقة العربية، قال له العرب الساكنون هناك: (أيّها الملك ديمتريوس! لماذا تحاربنا؟ إنّنا نعيش فى أرض حصباء تفتقر لأبسط متطلبات الحياة، ومحرومة من كل النعم التى يتمتع بها أهالى المدن والقصبات، لقد اخترنا السكن فى هذه الصحراء القاحلة لأننا لا نريد أن نكون عبيداً لأحد، ولهذا تقبّل منّا هذه التحف والهدايا التى نقدمها لك وأخرج جيوشك من هنا وعُدْ ...).

وانتهز (ديمتريوس) رسالة الصلح هذه وقبلَ الهدايا وغض النظر عن هكذا حرب تُخلِّف مشاكل كثيرة «۱».

ومنطقة (الحجاز) لم تخضع لسيطرة الفاتحين القدامى على مدى التاريخ وقد حافظت على استقلالها، والسبب كما يقول المحلّلون: هو عدم استحقاق مثل هذه المنطقة- الجرداء التى تفتقر لكل شىء- هذه الجهود والمشاكل، وأيضاً افتقار منطقة الحجاز لحضارات البلدان القديمة مثل ايران وروما والتى تتواجد فى الكثير من نقاط شبه الجزيرة العربية.

وبعد أن تعرفنا على حال الجزيرة العربية لابدّ لنا من النظر إلى حال الإنسان البسيط الذى عاش فى محيطها مهما كانت قوة إرادته وقوة تفكيره (لاسيما إذا لم يكن قد تلقّى أى نوع من التعليم).

---

(۱) تاريخ حضارة العرب والإسلام تأليف كوستاف لوبون.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۰

هل أنّ الذى تربى فى محيط موبوء بالجهل والفساد يمكنه أن يكون مؤسسة للعلم والمعرفة والفضائل الأخلاقية؟

و هل سمعتم بأنّ علماء عظماء وفلاسفة نوابغ نهضوا من بين قبائل جاهلية نصف متوحشة؟

إذا نبتت ورود جميلة وحشائش طرية فى ارض خصبة ومهيأة فلا عجب فى ذلك، بل العجب عندما تنبت وردة جميلة فى ارض سبخة.

وعلى أية حال يمكن أن تكون هذه المسألة بمفردها غير كافية فى إثبات أحقية الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، ولكنها بدون شك تعتبر واحدة من القرائن التى متى ما ألحقناها بالقرائن الاخرى شكلت برهاناً قوياً ومبيناً.

نختم هذا الحديث بقول أمير المؤمنين على عليه السلام- الذى أدرك العصرين، عصر الإسلام والجاهلية- وهو يرسم لنا العصر الجاهلى: «أرسله على حين فترة من الرسل، وطول هجعةٍ من الامم، واعتزام من الفتن، وانتشار من الامور، وتلظ (تلظى من الحروب، والدنيا كاسفة النور، ظاهرة الغرور، على حين اصفرار من ورقها، وإياس من ثمرها، واغورار من مائها، قد درست منار الهدى وظهرت اعلام الردى، فهى متجهمة لأهلها، عابسة فى وجه طالبها، ثمرها الفتنة، وطعامها الجيفة، وشعارها الخوف ودثارها السيف» «۱».

وفى مكان آخر نقرأ له عليه السلام: «إنّ اللَّه بعث محمداً صلى اللَّه عليه وآله وسلم نذيراً للعالمين، وأميناً على التنزيل، وأنتم معشر العرب على شر دينٍ وفى شر دارٍ، منيخون بين حجارة خُشنٍ وحياتٍ صُمٍ تشربون الكدر، وتأكلون الجشب، وتسفكون دماءكم، وتقطعون أرحامكم، الأصنام فيكم منصوبة، والآثام بكم معصوبة» «۲».

وخلاصة القول هى: إنّ البحث فى القرآن الكريم والروايات الإسلامية ومجموع التواريخ التى كتبت فى الشرق والغرب حول العصر الجاهلى، تدلل على أنّها متفقة جميعاً

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۸۹.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۱

على أن البيئة التى ظهر فيها نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هى من أحط البيئات وأكثرها تأخراً، بيئة لا تنسجم أبداً مع ظهور هكذا

دين وتعاليم متطورة فى الأصعدة كافة.

۲- تاريخ الرسول صلى الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية

إنّ الخصائص الأخلاقية هى احدى أفضل الطرق إلى معرفة الدعاة الصادقين من الكاذبين، فهذه الخصائص يمكن اعتمادها كقرائن وأدلة واضحة لنفى أو إثبات احقية الداعى، وكلما شوهدت مظاهر الطهارة والتقوى، والعظمة والتسامح والرأفة والمحبّة، والزهد والتقشف، والشجاعة والشهامة والماضى الاجتماعى الحسن فى المدّعى، فمن الصعوبة بمكان أن لا نعتبره صادقاً، وبالعكس فاذا كان محبّاً للدنيا، ومنكباً على المادة، ومتعلقاً بالمال، والمقام، والجاه، والقدرة المصحوبة بالتهور والكذب، والحقد وحب الانتقام، وما شابه ذلك من رذائل خلقية (لا سمح اللّه)، فلا يمكن اعتبار مدعى النبوة هذا صادقاً مطلقاً.

ولحسن الحظ فإنّ سوابق النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قبل نبوته هى سوابق ساطعة ومضيئة حيث قضى أربعين عاماً بين ظهرانيهم والتاريخ الذى كتبته أيادى الأصدقاء والأعداء يعطى صورة ناطقة ومعبرة عن ذلك.

ففى كل التواريخ اعتبرت نزاهة النبى صلى الله عليه و آله وأمانته بأنّها مسألة متفق عليها وأن لقب (الأمين) سمعوه يطلق عليه من قبل الجميع.

والملفت للنظر هو أنّ الناس- بالرغم من مخالفتهم له- بعد بداية دعوته للإسلام بقوا يودعون أماناتهم عنده، ولذا أمر صلى الله عليه و آله علياً عليه السلام أثناء الهجرة إلى المدينة المنورة- أى بعد مرور ثلاثة عشر عاماً من البعثة- بأنّ يبقى فى مكة ليؤدّى عنه الأمانات إلى أهلها، ثم يهاجر إلى المدينة.

إنّ حسن خلق النبى صلى الله عليه و آله وحسن معاشرته وسخائه وكرمه، وخلاصة الصفات التى تليق

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۲

بقائد إلهى عظيم يمكن مشاهدتها به صلى الله عليه و آله بوضوح خلال الوقائع المختلفة فى حياته، وخاصةً أثناء فتح مكة، ومعركة احد، وكذلك فى تعامله مع أسرى الحرب، والرقيق، وطبقات المجتمع المحرومة، إلى الحد الذى اعتبروا فيه هذه المسألة بأنّها نقطة ضعف عنده، وأنّ دينه هو دين العبيد والمحرومين، وابتعد عنه الأغنياء والأثرياء، وعرضوا عليه طرد الحفاة والمستضعفين وإبعادهم مقابل تأييدهم له وتقربهم منه صلى الله عليه و آله، وقد جاء هذا المعنى بإشارة واضحة فى قوله تعالى

«وَاصْبِر نَفسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُم بِالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَينَاكَ عَنهُم تُرِيدُ زِينَةَ الحَيَاةِ الدُّنيَا وَلَاتُطِعْ مَنْ اغْفَلنَا قَلبَهُ عَن ذِكرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». (الكهف/ ۲۸)

وهو الذى صفح عن (أبو سفيان) ألدّ اعدائه والمؤجج الخطير لنيران الحروب ضد الإسلام، وجعل من بيته أثناء فتح مكة ملجأً ومأمناً لأهل مكة، وأعلن العفو العام عن المكيين الذين ارتكبوا جرائم كثيرة ضده وضد أتباعه، وهذا الخُلق الحسن والتسامح واللُّطف والكرم صار السبب فى جعلهم يلتفون حوله.

وفى (معركة احد) أيضاً عندما فرّ جماعة من حديثى الدخول فى الإسلام من أرض المعركة وتركوه وحيداً بين الأعداء متحملا ضربات شديدة منهم، عاد وأعلن العفو العام، وصفح عن الجميع إلى درجة استوجبت نزول الآية المباركة: «فَبما رَحمةٍ مَن اللهِ لِنْتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظّاً غَليظَ القلبِ لَانْفَضُّوا مِن حَولك فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُم فِى الأَمْرِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

فقد بيّنت هذه الآية لين قلب وباطن النبى صلى الله عليه و آله وصفاء سريرته وكذلك لهجته الرقيقة والمليئة بالعاطفة التى لم تأمره بالعفو عن أخطائهم فحسب، بل أمرته أيضاً بطلب المغفرة لهم من اللّه تعالى، وأن يحترم شخصياتهم ويشاورهم.

لقد كان صلى الله عليه و آله رحيماً بالمؤمنين وغير المؤمنين بالقدر الذى يجعله يتألم بشدّة من عدم إيمان البعض، وإلى حد يوشك

فيه على الهلاك أسفاً عليهم.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۳

ونقرأ فى قوله تعالى ما يتضّمن معنى التسلية للنبى صلى الله عليه و آله: «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفسَكَ عَلَى آثَارِهِم انْ لَّمْ يُؤمِنُوا بِهَذَا الحَدِيثِ اسَفَاً». (الكهف/ ۶)

وشبيه هذا المعنى جاء فى قوله تعالى «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ الَّا يَكُونُوا مُؤمِنِينَ» «۱».

(الشعراء/ ۳)

وحقاًإذا لم يتصف القائد بهذه الصفات فلا يستطيع أن يجسّد المعنى الحقيقى والواقعى للقيادة، وقد جاء فى قوله تعالى «لَقَدْ جَاءَكُم رَسُولٌ مِّن انفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّم حَرِيصٌ عَلَيكُم بِالمُؤمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ». (التوبة/ ۱۳۸)

ومن المسلَّم به أنّ البحث حول الملكات الخلقية للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وخصائصه الأخلاقية أوسع وأشمل من أن يضمها حديث قصير، وأنّ غايتنا فقط هى الإشارة العابرة لهذه المسألة باعتبارها إحدى القرائن.

۳- مضمون الدعوة

إنَّ تحقيق ودراسة محتوى أىّ دعوة يشكل فى الغالب دليلًا مقنعاً للتوصل إلى صدق أو كذب المُدّعى، فالدين السماوى الذى يصدر عن جهة السماء، وينزل عن طريق الوحى، له مزاياه الخاصة، فى حين أنّ الدين الكاذب الذى يبتدعه فرد أو أفراد لأهداف مادية وشيطانية له مزايا اخرى

فالأول: غايته هداية البشرية، وتقوية النفوس، وإقامة العدل، وتهيئة متطلبات الصلح والسلام والأمن، وأخيراً تكامل الإنسان مادياً ومعنوياً.

فى حين أنّ الثانى. يسعى لتحميق الإنسان وتخدير فكره، والانتفاع الأكثر منه والاستعمار والاستثمار له، ومسلّماً أن أهدافاً كهذه تتطلب خططاً وبرامج اخرى

وبملاحظة ما ذكر آنفا نلقى نظرة إجمالية على مجموع المعارف والقوانين والبرامج

---

(۱) «باخع» من مادة «بَخْع» على وزن «نَقْع» تعنى الهلكة من شدة الغم والحزن، وبتعبير آخر، الموت غصة.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۴

الإسلامية، لاسيّما تلك التى استند إليها القرآن الكريم وأكد عليها:

۱- إنَّ أول شىء يبدو للناظر ويشكل الأساس الرئيسى لكل العلوم والقوانين الإسلامية هو مسألة (التوحيد) ومحاربة كل أنواع الشرك بالاعتماد على هذا الأصل، فقد حرر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الإنسان من قيود كل عبودية إلّاعبودية اللَّه الأحد، ودعا البشرية إلى عبادة الآله الواحد الأحد خالق السماوات والأرض، وجامع كل صفات الكمال، المطلع على ظاهرهم وباطنهم، وحطم سلاسل الأوهام والخرافات وعبادة البشر أو الحجر أو الخشب وأنواع الأوثان والأصنام.

وقد ذّم القرآن الكريم اليهود والنصارى لعبادتهم البشر بقوله تعالى «اتَّخَذُوا احبَارَهُم وَرُهبانَهُم اربابَاً مِّن دُونِ اللَّهِ». (التوبة/ ۳۱)

وفى مقارنة بديعة على لسان نبى اللَّه يوسف وهو يخاطب رفاقه فى السجن يقول تعالى

«ءَاربَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيرٌ ام اللَّهُ الوَاحِدُ القَهَّارُ». (يوسف/ ۳۹)

۲- إنّ القرآن لايعتبر أىَّ مؤثر فى مصير الإنسان إلّااللَّه تعالى ويدعو الجميع للتوكل عليه ويقول: «اَلَيسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبدَهُ». (الزمر/ ۳۶)

۳- ومن جهة اخرى يعتبر الإنسان مرهوناً بأعماله، وأنّ طريق الخلاص والفلاح الوحيد هو الجد والاجتهاد الأكثر، فيقول تعالى: «وَأَن لَّيسَ لِلانَسانِ الَّا مَا سَعَى . (النجم/ ۳۹)

ويقول: «كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ». (المدثر/ ۳۸)

۴- إعتبر الإسلام كل بنى البشر ومن أى عنصر ولون وفى كل زمان متساوين، وبناءً على هذا لا يوجد أىّ تمايز بينهم أو تفاضل إلّاب (التقوى) والورع كما أشارت إلى ذلك الآية ۱۳ من سورة الحجرات.

۵- يخاطب القرآن كل المؤمنين بأنّهم (إخوة) لبعضهم البعض، ويعتبر أنّ أقرب رابطة ممكنة بين إنسانين هى الرابطة التى تقوم على العدالة والمساواة، بقوله تعالى «انَّمَا المُؤمِنونَ اخوَةٌ فَاصْلِحُوا بَينَ أَخَوَيْكُم وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرحَمُونَ». (الحجرات/ ۱۰)

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۵

۶- يعتبر القرآن (العدالة الاجتماعية) أصلًا اساسياً حاكماً على المجتمعات البشرية ويدعو كل المؤمنين للقيام بالقسط، فيقول: «وَلَايَجرِمَنَّكُم شَنَآنُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعدِلُوا اعدِلُوا هُوَ اقرَبُ لِلتَّقَوى وَاتَّقُوا اللَّهَ». (المائدة/ ۸)

وأن لا تكون صلة القرابة والابوة والبنوة ونظائرها حائلًا دون إجراء العدالة وترجيح كفّة الحكم لصالحهم- بدون دليل- كما أشارت إلى ذلك الآية ۱۳۵ من سورة النساء.

۷- أقرَّ الإسلام حاكمية أصل (الإنفاق) على العلاقات الإنسانية، ودعا الجميع إلى الإنفاق ممّا رزقهم اللّه من نعم على الآخرين: «وَمِمَّا رَزَقنَاهُم يُنفِقُونَ». (البقرة/ ۳)

يؤكّد على (صلة الرحم) ورعاية رابطة القرابة (البقرة- ۲۷). وقد أولى (الأب والام) خاصةً احتراماً بالغاً إلى الحد الذى أوصى بالتعامل الحسن معهما حتى وإن لم يكونا مسلمين فى سورة لقمان الآية ۱۴ و ۱۵.

۹- من المسائل التى أكد عليها الإسلام أيضاً هى: (حماية المظلومين) فى شرق العالم وغربه، حتى أنّ ظواهر الآيات القرآنية لم تفرق بين أبناء الدين الإسلامى وغيرهم فى هذه المسألة، كما ورد فى قوله تعالى «وَمَا لَكُم لَاتُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَالمُستَضعِفينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلَدانِ». (النساء/ ۷۵)

۱۰- أكد أيضاً على (احترام حقوق المرأة) فى ذلك المحيط الذى أهدر كل حقوقها ولم يعطها حتى الحق فى الحياة، ويقبرُ البنات وهنّ أحياء، فأعاد إليها مكانتها إلى الحد الذى يقول تعالى فيه: «ولَهُنَّ مِثلُ الَّذِى عَلَيهِنَّ بِالمَعرُوفِ». (البقرة/ ۲۲۸)

والحق لا ينفصل عن الواجب أبداً.

۱۱- دعوته ل (التعايش مع أتباع الأديان الاخرى وحملة الكتب السماوية، ودعوته كذلك الجميع اللالتفاف حول نقاط الالتقاء والاشتراك، كما نقرأ فى قوله تعالى «قُل يَاأَهلَ الكِتَابِ تَعَالَوا الى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَينَنَا وَبَينَكُم الَّا نَعبُدَ الَّا اللَّهَ وَلَا نُشرِكَ بِهِ شَيئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعضُنَا بَعضاً اربَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ». (آل عمران/ ۶۴)

۱۲- أعطى الإسلام أهميّة بالغة ل (العلم والمعرفة)، وقد أشارت مئات الآيات القرآنية

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۶۶

إلى ذلك، وهذا الأمر كان مثيراً وملفتاً للنظر لاسيما إذا لاحظنا المحيط الذى نزل فيه القرآن، والذى كان مركزاً للجهل والامّية، وأول الآيات التى نزلت على النبى صلى الله عليه و آله كانت تؤكد على العلم كما جاء فى سورة العلق الآية ۱- ۵.

ويقسم فى مكان آخر بالقلم كما جاء فى سورة القلم الآية ۱، واعتبر أنَّ أفضلية (آدم)، والبشر بصورة عامة تكمن فى (فضيلة العلم والمعرفة) هذه. (البقرة/ ۳۱- ۳۳)

۱۳- تعتبر فريضة (الأمر بالمعروف) و (النهى عن المنكر) احدى المميزات المشرقة لهذا الدين والتى يعتبرها نوعاً من الاشراف والرقابة العامة على كل المجتمع بواسطة كل المجتمع، ومسؤولية متقابلة لكل أفراده فى مقابل أى نوع من المفاسد الاجتماعية أو ترك القيام

بالواجب، انظر إلى سورة آل عمران الآية ۱۰۴ و ۱۱۰ وآيات اخرى

۱۴- بما أنّ مصدر الكثير من المفاسد الاجتماعية هو الميل الشديد للقضايا المادية، والتنافس فى حب التجمّل والبذخ فى الحياة فقد دعا الإسلام إلى (العيش البسيط) ونبذ حب التجمل من أجل اغلاق مصدر الشر هذا كما فى سورة الزخرف الآية ۳۳- ۳۵، فى نفس الوقت الذى اعتبر الانتفاع المعقول والمنطقى من المواهب المادية وحتى التزيينية والكمالية بأنّه مباح وقد أشار إليه فى سورة الأعراف الآية ۳۲.

۱۵- دعوته إلى ل (مراعاة الاداب)، وحسن المواجهة مع الآخرين، وملاحظة الموازين الأخلاقية فى أى مكان، وقد أشار لهذه المسألة فى سورة لقمان، الآيتين ۱۸ و ۱۹، وسورة الحجرات، الآيتين ۱۱ و ۱۲، وسورة الفرقان، الآية ۷۲، وآيات اخرى وورد ايضاً فى الآية: «خُذِ الَعفوَ وأْمُرْ بِالعُرفِ وَأَعرِضْ عَنِ‌الجاهِلِينَ» «۱». (الأعراف/ ۱۹۹)

۱۶- استخدام (البحث المنطقى) فى الحوار مع اتباع الأديان الاخرى بدلًا من التعصب الأعمى يقول القرآن الكريم: «ادعُ الَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ وَالموَعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلهُم بِالَّتِى هِىَ احسَنُ». (النحل/ ۱۲۵)

---

(۱) فى حديث للإمام الصادق عليه السلام أن هذه الآية أكثر الآيات الأخلاقية شمولًا فى القرآن المجيد (تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث).

۱۷- (الخضوع للحقّ) وقبوله من أىٍّ كان لأنه يعتبر واحداً من المبادئ السامية للدين الإسلامى، يقول تعالى «فَبَشِّر عِبَادِ* الّذِينَ يَستَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ احْسَنَهُ اولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَاولَئِكَ هُمْ اولُوا الالبَابِ». (الزمر/ ۱۷- ۱۸)

۱۸- (اخلاص النية من الدوافع غير الإلهيّة) من الاصول التى أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية مراراً، واعتبرها من الأعمال النزيهة المقبولة عند اللّه تعالى، والتى تؤدى إلى النجاة والسعادة هى الأعمال التى لم يقصد بها التظاهر والرياء، وإنّما التى يراد بها غايات إنسانية واخلاقية وإلهيّة سامية تشكل ركناً اساسياً، واستندت سبعة آيات من القرآن إلى جملة «مُخْلِصِين لَهُ الّدِينَ» «۱».

ومن جهة شبّهَ صدقات المؤمنين- الخالصة- فى سورة البقرة، الآية ۲۶۵ بالبستان الملىء بالثمر عندما تنزل عليه رحمة المطر الإلهيّة تتضاعف ثماره ضعفين.

ومن جهة اخرى شبّه فى سورة البقرة، الآية ۲۶۴ أعمال المرائين- غير المؤمنين- بالبذور التى بُذرت فى تراب قليل على صخر صلد جرفه المطر عندما نزل عليه.

۱۹- انتقد الإسلام بشدة (الاسراف والتبذير) وسمى المبذرين بإخوان الشياطين: «انَّ المُبَذِّرِينَ كَانُوا اخَوانَ الشَّيَاطِينِ». (الاسراء/ ۲۷)

۲۰- من الاصول الأساسية للإسلام أيضاً: (رعاية الأطفال الأيتام وفاقدى المعيل) وأكدت آيات وروايات كثيرة على ذلك إلى الحد الذى اعتبرت فيه أكل أموال الأيتام كأكل النار: «انَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ امْوَالَ اليَتَامَى ظُلماً انَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِم نَاراً». (النساء/ ۱۰)

وفى مكان آخر اوصى بإصلاح شؤونهم، يقول تعالى «وَيَسئَلُونَكَ عَنِ اليَتَامَى قُلْ اصلاحٌ لَّهُم خَيْرٌ». (البقرة/ ۲۲۰)

۲۱- احترام الاسرى فى الإسلام، وقد أوصى بحسن معاملتهم واعتبر مساعدتهم وإعانتهم فى القرآن الكريم بأنّها جزء من أعمال الابرار والاخيار: «وَيُطعِمُونَ الطَّعَامَ عَلى حُبِّهِ مِسكِيناً وَيَتِيماً وَاسِيراً». (الدهر/ ۸)

---

(۱) الأعراف، ۲۹؛ يونس، ۲۲؛ العنكبوت، ۶۵؛ لقمان، ۳۲؛ غافر، ۱۴ و ۶۵؛ البينة، ۵.

وجاء فى حديث للإمام على عليه السلام: (اطعام الأسير والاحسان إليه حقٌ واجبٌ) «۱».

۲۲- ومن المسائل المهمّة التى أكد عليها القرآن الكريم والروايات الإسلامية هى مسألة (التشاور فى الامور)، حتى أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله مع عقله الكامل كان مأموراً بالاستشارة:

«وَشَاوِرهُم فِى الامر». (آل عمران/ ۱۵۹)

واعتبر التشاور فى الامور الاجتماعية المهمّة بأنّه احدى علائم الإيمان: «وَامْرُهُم شُورَى بَيْنَهُم». (الشورى ۳۸)

۲۳- كانت (محاربة الخرافات) أيضاً من المهام الرئيسية للنبى صلى الله عليه و آله فى حين كان مدّعو النبوة الكاذبون يصرون على نشر الخرافات وتسميم أفكار الناس عن طريقها، ولترغيب العامة لقبول خرافاتهم، ولكن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله حطم هذا السد، بل كان يحارب كلّ خرافةٍ حتى لو كان الإسلام يستفيد منها ظاهراً.

وأى خرافة أكبر من (عبادة الأوثان) التى اجتاحت جزيرة العرب بأسرها، إلى حد أنّ مخالفتها والإعراض عنها أصبح مشكلة عويصةً وعجيبةً جدّاً، بل عدّ أحياناً من علامات الجنون، وأثناء ما كان النبى صلى الله عليه و آله يدعو لعبادة الإله الواحد الأحد، قالوا: «اجَعَلَ الآلِهَةَ الهَاً وَاحِدَاً انَّ هَذَا لَشَىءٌ عُجَابٌ». (ص/ ۵)

وظاهراً إن أحد أسباب نعت نبى الإسلام صلى الله عليه و آله بالجنون هى أنّه نهض لمحاربة قضية عبادة الأصنام التى كانت من أكثر بديهيات تلك البيئة والمحيط.

والخلاصة هى أنّ عرب الجاهلية كانت تخيم عليهم خرافات كثيرة يطول شرحها، وقد حاربها الرسول صلى الله عليه و آله كلها.

۲۴- من المسائل التى أعطاها الإسلام أهميّة كبيرة هى تحرير الإنسان من ربقة الهوى والهوس واستعباد الآخرين، أو الوقوع فى أسر الأعراف والتقاليد والسنن المغلوطة، إلى درجة اعتبر فيها أن احدى صفات النبى صلى الله عليه و آله هى: «وَيَضَعُ عَنهُم اصرَهُم وَالاغلَالَ الَّتِى كَانَت عَلَيهِم». (الأعراف/ ۱۵۷)

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۶۹ أبواب جهاد العدو، الباب ۳۲، ح ۳.

وجاء فى الحديث النبوى المعروف: أنّ أحد الذنوب التى لايغفرها اللّه أبداً هى أن يسلب الإنسان حرية الإنسان الآخر ويستعبده ويبيعه «۱».

۲۵- أحد البرامج الأساسية لهذا الدين (المنع من التكاثر) وطلب الزيادة والحرص والطمع فى الامور المادية، وقد اشير إلى ذلك فى آيات متعددة من القرآن الكريم، وكذلك الروايات الإسلامية، إلى حد اعتبرها من الصفات المذمومة فى الحياة الدنيا، وجعلها مرادفة للهو واللعب والتفاخر (الحديد- ۲۰)، وعدها سببا فى عدم الإيمان بالله، وذم بشدة أولئك الذين يتوجهون صوب القبور لحساب قبور موتاهم حتى يثبتوا كثرة قبائلهم: «أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ* حَتَّى زُرتُمُ المَقَابِرَ». (التكاثر/ ۱- ۲)

ويقصُّ عليهم- بالتفصيل- قصة «قارون» المستكبر المستكثر الذى كان يرى نفسه فوق الجميع، وعاقبته وعاقبة أمواله بعد أن خسفت به الأرض، وينهى نبيه صلى الله عليه و آله عن مد عينيه إلى الإمكانات المادية لهؤلاء الأفراد أو اعتبارها علامة على أفضليتهم وعلوهم، (طه/ ۱۳۱، القصص/ ۷۶ فما بعد).

۲۶- (الدعوة إلى الاتحاد والتضامن) يمكن اعتبارها جزء من الأوامر التى تحتل صدر قائمة البرامج الإسلامية، والتى ذكرها القرآن الكريم بتأكيد شديد، فكان يدعو الجميع إلى الاتحاد وينهاهم عن التفرقة، ويحذرهم من العودة إلى اختلافات الجاهلية وعد الأفراد المتفرقين المشتتين على شفير هاوية من النار، (آل عمران- ۱۰۳) واعتبر التنازع والاختلافات مصدراً لضعف المجتمع، وضياع قدرته وشوكته، (الانفال/ ۴۶).

۲۷- (احترام القانون) يعتبر من اهم وصايا الإسلام التى أكد عليها لدرجة أنّه قال:

احترموا القانون حتى لو حكم ضدكم، وجاء فى القرآن: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَو عَلَى انفُسِكُمْ او الْوَالِدَينِ وَالاقرَبِينَ». (النساء/ ۱۳۵)

واعتبر نقض حرمة القانون حراماً، والتعدى على (حدود اللَّه) ظلماً وجوراً: «وَمَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَاولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ». (البقرة/ ۲۲۹)

---

(۱) عن النبى صلى الله عليه و آله، إنّ اللَّه تعالى غافر كل ذنب إلّامن جحد مهراً، أو اغتصب أجيراً أجره، أو باع رجلًا حراً، سفينة البحار، مادة (أجر).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۰

وإنّ الإيمان الصادق هو التسليم المطلق لقانون الحق وترك معارضته حتى فى حيّز الفكر والعقل كما ورد فى الآية ۶۵ من سورة النساء.

۲۸- (نبذ حب الانتقام) ولم تكن هذه الصفة الحميدة مختصة بالرسول صلى الله عليه و آله وإن تجلّت بوضوح كامل فى حروبه وخاصةً فى فتح مكة، وإنّما أوصى أتباعه مراراً وتكراراً إلى العفو والصفح، وغض النظر عن زلات الآخرين وتذكيرهم بالعفو الإلهى: «وَلْيَعفُوا وَلْيَصفَحُوا الَا تُحِبُّونَ انْ يَغفِرَ اللَّهُ لَكُم». (النور/ ۲۲)

بل تعدى ذلك إلى القول: «ادفَع بِالَّتِى هِىَ احسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَينَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَانَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ». (فصلت/ ۳۴)

ولكنّه مع كل هذا لا يسمح بأنّ يستغل الأعداء الحاقدون رحمة الإسلام ورأفته، بل كان صلى الله عليه و آله يأمر أصحابه: مثلما عليكم أن تكونوا لينين وعطوفين مقابل الأصدقاء والأعداء المخدوعين فيجب عليكم أن تتعاملوا مع الأعداء الأشداء بخشونة وشدّة، حتى أنّه وصف الصادقين بأنّهم: «اشِدَّآءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم». (الفتح/ ۲۹)

۲۹- (الدعوة إلى التقوى وهى من القضايا التى يستند إليها الإسلام فى كل مناسبة، ويعتبرها السبيل الوحيد لخلاص الإنسان، وزاد آخرته «۱»، ومعيار شخصيته «۲»، وبركة الدنيا «۳»، وسعادة الآخرة «۴»، وسبباً للبصيرة والمعرفة «۵».

۳۰- (الحب والبغض فى اللَّه) من اسس التعاليم الإسلامية أيضاً، أو بتعبير أوضح اعتبر الإسلام كل من يخطو فى محجة الإيمان، والحق، والعدل، والتقوى والنزاهة، صديقاً يجب توثيق العلاقة معه، وبالعكس أوصى بالابتعاد عن الاشرار وذوى السمعة السيئة والملوثين والظالمين، واعتبر القرآن الكريم الامتثال لذلك من علائم الإيمان الأصلية (حزب اللَّه) «۶». واعتبرتها الروايات الإسلامية بأنّها من أقوى عرى الإيمان والإسلام (أوثق

---

(۱) البقرة، ۱۹۷.

(۲) الحجرات، ۱۳.

(۳) الأعراف، ۹۶.

(۴) مريم، ۶۳.

(۵) الانفال، ۲۹.

(۶) المجادلة، ۲۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۱

عرى الإيمان الحبُّ فى اللَّه والبغض فى اللَّه) «۱»، وأفضل الأعمال «۲».

هذه طائفة من تعاليم الإسلام فى الاصول والفروع.

فهل يصدق أن يأتى إنسان امّى لم يتلقَّ أىتعليم، وهو ابن بيئة غمرتها ظلمات الجاهلية، وعاش فى بؤرة الكفر والفساد والجور

والخشونة، بمثل هذه التعاليم؟ كلا بالطبع إلّا إذا كان مسدداً عن طريق الوحى السماوى والالهام والتأييد الإلهى.

إنَّ دراسة مضمون ومحتوى الدعوة لأىدين من أفضل الأدلة التى يستخدمها العلماء لإثبات صدق أو كذب مايدعيه ذلك الدين، وأحياناً تكون مقدمة على الكثير من المعجزات، لأنّ العديد من الوساوس التى تبرز من قبل المعاندين اللجوجين لها (من قبيل اتهامه بالسحر وأمثاله) تصبح لا معنى لها عند البحث فى محتوى الدعوة، بل وحتى يمكن تأليف كتاب ضخم حول هذا الموضوع وخاصةً حول تعليمات الإسلام فى كافة الجوانب الاعتقادية والأخلاقية والاجتماعية، وكذلك الميدان الواسع والفسيح لهذا المبحث فى المسائل الفردية والجماعية المعنوية والمادية.

بديهى أنّه لا يمكن أن تكون هذه المجموعة من التعاليم الصادرة من عربى صحراوى امى خرج من أكثر البيئات تخلفاً هى مسألة عادية، وباعتقادنا أنّه لا توجد أى معجزة أكبر من هذه المعجزة، أو على الأقل هى قرينة إذا ضممناها إلى القرائن الاخرى شكلت مجموعة مطمئنة وقوية.

۴- عمق تأثيره فى محيطه

صحيح إنَّ التأثير الواسع الذى تتركه مدرسة من المدارس فى بيئة معينة لا يمكن أن يكون بمفرده دليلًا على صحتها، لأننا نعرف العديد من الديانات والتعاليم الخاطئة تركت

---

(۱) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۲۵.

(۲) سفينة البحار ج ۱، ص ۲۰۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۲

تأثيرها على بيئات واسعة وكانت نهايتها أن انفرط عقدها أو لازال البعض منها متصلًا، ولكن كيفية هذا التأثير وماهيته يمكن اعتباره كقرينة حية إلى جانب القرائن الاخرى

وعندما يكون هذا التأثير على شكل قفزة وفى جوانب إيجابية ومع أقل الاضرار، فمن المسلَّم به أن يدلِّل على عمق تلك المدرسة وأصالتها.

ومن له أدنى اطلاع على تاريخ العرب والإسلام لا ينكر الفاصلة الزمنية التى مدّتها ۲۳ عاماً وهى سنى دعوة الرسول صلى الله عليه و آله- الفاصلة التى أحدثت (طفرة فلسفية) أكثر ممّا هى ثورة؟

فالمنبوذون الذين لم يتركوا فى التاريخ اسماً ولا رسماً ... ومن وجهة نظر علم الاجتماع لم يخطّ على جباههم أى استعداد للتطور المذهل حتى لو بعد عدة قرون، يتحولون فجأة ويدخلون مرحلة جديدة من الحضارة العظيمة، ولم يغيّروا أنفسهم فقط، بل غيروا أيضاً العالم المعاصر لهم ولتبقى آثار هذه الثورة والتغيير ظاهرة فى القرون اللاحقة وإلى زمان غير محدود ...

حضارة حولت مسير تاريخ البشرية، وغطت باشعاعها الحضارات الخمس العظمى فى عصرها، أى: (حضارة الروم) و (ايران) و (مصر) و (بابل) و (اليمن).

وهذا بالضبط مالم يستطع المؤرخون وعلماء الاجتماع تفسيره وفق المعايير المعروفة التى بين أيديهم، وإن كانوا قد الّفوا كتباً بعنوان: تاريخ حضارة الإسلام، أو مسميات اخرى ولكنهم يعترفون بأنّه لازالت عندهم نقاط كثيرة غامضة لم تجد الحل حول ظهور الإسلام ونفوذه فى العالم.

والملفت هو أنّ هذه الثورة وهذا التحول- خلافاً لسائر الثورات- لم يحدث على صعيد واحد، ولم تكن له جوانب سياسية أو اقتصادية

فحسب، بل وغيّر كل نُظُم المجتمع كالثقافة، والأخلاق، والاقتصاد، والآداب، والتقاليد، وكل شيء.

ملخص الكلام: هو أنّ ابعاد تأثير الإسلام فى محيط ظهوره، ثم فى العالم كله، وكل التاريخ البشرى، هو موضوع يستحق الدقّة التى تجعله قرينة ساطعة من قرائن حقانيته، وأن شرحه وبيانه يتطلب وضع كتاب منفصل.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۳

۵- ما هى الوسائل الكفيلة لبلوغ الهدف

كل فرد أو مجموعة مضطرون- من أجل الوصول إلى أهدافهم- إلى الاستفادة من وسائل معينة. واختيار هذه الوسائل يمكنه أن يساعد إلى حد بعيد فى التعرف على اصالة وأحقية تلك المدرسة أو على تزويرها وخداعها.

وبديهى أنّ أولئك الذين يعتبرون الاستفادة من كل وسيلة- للوصول إلى أهدافهم- جائزة، ويجعلون أصل (الغاية تبرر الوسيلة)، أو (الغايات تبرر الوسائط) برنامجهم الأصلى هم بعيدون عن الاصالة.

أمّا أولئك الذين يستخدمون الوسائل المقدسة لنيل أهدافهم المقدّسة فهم يعطون الدليل على أحقيتهم، ويمكن تمييز مُدّعى النبوّة الصادقين من الكاذبين عن هذا الطريق.

الأشخاص الذين لا يعترفون بأى قيد أو شرط للوصول إلى أهدافهم ويعتبرون كل وسيلة مشروعة أو غير مشروعة مباحة والذين يعتبرون مفاهيم من قبيل العدالة والامانة والصدق والاحترام للقيم الإنسانية محترمة طالما أنّها تعينهم للوصول إلى أهدافهم وإلّا تركوها ونبذوها فمسلّماً أنّهم فى مُدّعى النبوّة الكاذبين.

إنَّ الأنبياء الإلهيين هم أولئك الذين يحترمون الاصول الإنسانية حتى فى حروبهم، ولا يعدلون عنها فى الشدائد والمحن مطلقا، وعند انتصارهم لا يتجاوزون أصول العدالة، والعفو، والتسامح مع أعدائهم، وفى أوقات الخطر واحتمال عدم تحقيق النصر لا يلتجأون إلى الوسائل غير الإنسانية.

وإذا قسنا هذا الأصل الكلى مع حياة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله والتفتنا إلى سلوكه مع الأعداء والأصدقاء، فى اوقات تحقيق النصر أو عدم تحقيقه، فى الشدّة والرخاء، فسوف ندرك جيداً أنّه كان متّبعاً لقيم خاصة فى اختيار وسائل الوصول إلى الهدف.

لم يلجأ النبىُّ صلى الله عليه و آله مطلقاً فى لحظات الخطر إلى استخدام أساليب غير إنسانية، بل وراعى المسائل الأخلاقية الدقيقة حتى فى ساحة القتال.

فعند انتصاره فى (فتح مكة) أصدر (العفو العام) عن أخطر أعدائه، وصفح حتى عن القتلة ومجرمى الحرب.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۴

ولما سمع أحد قادة الجيش يعلن شعاراً ثأرياً ويقول:

(اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلّ اللَّه قريشاً) أمر فوراً بعزله وقال:

ليقولوا بدل هذا الشعار (القبيح وغير اللائق): (اليوم يومُ المرحمة ... اليوم أعزّ اللَّه قريشاً) «۱».

وحتى حين وقف كبراء مكة صفاً ليروا حكم الرسول صلى الله عليه و آله بشأنهم (وكان الكثير من الناس يتوقعون أن يشدد الرسول ويقسو على هؤلاء الأعداء الحاقدين) التفت إليهم صلى الله عليه و آله وقال: «ما تظنون أنّى فاعلٌ بكم؟» قالوا: لا نظنُّ إلّاخيراً. فقال صلى الله عليه و آله: «أقول لكم ماقال يوسف لإخوته: «لَاتَثْرِيبَ عَلَيكُمُ اليَوْمَ يَغفِرُ اللَّهُ لَكُم وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ». (يوسف/ ۹۲) اذْهَبُوا فأنتم الطلقاء».

وعندما قتل (خالد بن الوليد) أسرى بنى خزيمة بدون سبب ووصل الخبر إلى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله. تألم بشدّة وقال مرّتين

أو ثلاث: «اللّهم إنّى أبرءُ إليك ممّا صنع خالد»، ثم أمر علياً عليه السلام أن يذهب مع مبلغ من المال إلى تلك القبيلة فيعطيهم دِيَة قتلاهم ويعوض ممتلكاتهم التى تضررت بالمال وأن يسعى فى جلب رضاهم «۲».

إنَّ هذه الامور لا يمكن مشاهدتها فى حروب عالم اليوم، وحتى فى مهد الحضارة الصناعية، فقد شهد العالم افضع مآسى الانتقام فى نهاية الحرب العالمية الاولى والثانية، والجرائم التى لا تُعدّ للجيوش المنتصرة.

والآن كيف اتصف النبى صلى الله عليه و آله بكل هذا العفو والرحمة بين قوم نصف متوحشين؟ هذا السؤال يجب أن يجيب عليه العقلاء والحكماء.

كان ورعه واجتنابه عن الأساليب اللاإنسانية إلى درجة أنّه صلى الله عليه و آله، يرفضها حتى ولو تهيأت مقدماتها وأسبابها بصورة طبيعية، ومهما بدت فى الظاهر أنّها مؤيدة له، ففى حادثة وفاة إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه و آله قيلَ: إنّ الشمس كسفت تزامنا مع هذه الواقعة، وقال بعض الناس: إنّها كرامة ومعجزة من قبل النبى صلى الله عليه و آله، وإنّ الشمس كسفت لوفاة إبراهيم.

---

(۱) نقلت هذه القضية بعبارات مختلفة فى بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۱۰۵ و ۱۳۰؛ وفى حبيب السير: ج ۱، ص ۲۸۸؛ وتفسير جامع البيان فى ج ۲، ص ۳۳۴؛ وكامل ابن الأثير ج ۲، ص ۲۴۶.

(۲) حبيب السير، ج ۱، ص ۳۸۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۵

لكن النبى صلى الله عليه و آله صعد المنبر وقال: «أيّها الناس إنّ الشمس والقمر آيتان من آيات اللَّه يجريان بأمره مطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا أو أحدهما صلوا»، ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف، فلما سلَّم قال: «ياعلى قم فجهز ابنى» «۱».

تشير هذه القصة إلى أنّ النبى صلى الله عليه و آله سارع إلى هذا العمل حتى قبل اجراء مراسم دفن ابنه إبراهيم كى يقضى على هذه الفكرة الخاطئة قبل شيوعها وإن كانت لصالحه ظاهراً ... إنّه لا يريد أن ينتفع من أساليب مغلوطة وغير مشروعة فى التقدم لنيل أهدافه ومقاصده.

و على الرغم من أنّ الحديث قد طال حول هذا الموضوع، ولكن لابدّ فى الختام من ذكر هذه النقطة وهى: إنّ دقائق الامور التى جاءت فى اداب الحرب فى الإسلام وأكد عليها النبى صلى الله عليه و آله وأثبت عمليا التزامه بها هى شاهد آخر على الادّعاء الآنف الذكر.

فحينما كان الجيش الإسلامى يستعد للتحرك إلى أحد ميادين الجهاد، كان النبى صلى الله عليه و آله يبين لهم واجباتهم الحساسة بهذه العبارات: «سيروا بسم اللَّه وبالله وفى سبيل اللَّه وعلى ملة رسول اللَّه، لاتغلو، ولا تمثلوا ولا تغدروا ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبياً ولا امرأة ولا تقطعوا شجراً إلّاأن تضطروا إليه».

وفى حديث آخر: «... ولا تحرقوا النخل، ولا تغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تحرقوا زرعاً لأنّكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم يؤكل لحمه إلّا ما لابدّ لكم من أكله» «۲».

وكان النبى صلى الله عليه و آله ملتزماً بكل المبادئ الأخلاقية السامية إلى تلك الدرجة التى جعلته فى معركة خيبر يرفض اقتراح من أشار عليه بقطع الماء عن اليهود المحاصرين لمدّة طويلة فى داخل قلاع خيبر القوية، وأجابه صلى الله عليه و آله قائلًا: «إننى لا أقطع عنهم الماء أبداً».

وعندما قال له راعٍ لمواشى اليهود: إننى حاضر لأنّ أعطيك هذه المواشى كلها، رفض النبى صلى الله عليه و آله ذلك ونهاه أن يخون الأمانة التى أودعوها عنده «۳».

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۲، ص ۱۵۵، ح ۱۳ (باب عدد أولاد النبى).

(۲) جاء هذا الحديث فى مصادر متعددة وبعبارات مختلفة، من جملتها كتاب الوسائل، ج ۱۱، ص ۴۳ باب آداب امراء السرايا وأصحابهم، ح ۲ و ۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۳ ص ۳۴۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۶

۶- إيمانه وتضحيته فى سبيل هدفه

من القرائن الرئيسة الاخرى لمعرفة المدعين للنبوّة الصادقين من الكاذبين هو إيمانهم بما يدّعونه وتضحيتهم وايثارهم فى سبيله، ولأنّ المدعين الكاذبين مطّلعون على حقيقة الأمر فإنّهم بالطبع لا يضحون كثيرا فى سبيل هدفهم، بالإضافة إلى أنّهم مستعدون للمساومة وتحريف مدعياتهم، فى حين أنّ الصادقين منهم لا يُجوِّزون لأنفسهم أيّاً من ذلك.

صحيح أنّ هذا الأمر بمفرده غير كاف، ولكن يعتبر قرينة جيدة تضم إلى القرائن الاخرى

ولم ير فى أىٍّ من كتب التاريخ أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله قد تراجع أو تنصل عن معتقداته، أو فرَّ من ميدان الجهاد، وحتى فى معركة (احد) عندما وصلت الحرب إلى أقصى درجات الشدة وفرّ من ساحة المعركة أغلب الجيش (أو كله عدا علياً عليه السلام وبعض المخلصين والتجأوا إلى مكان ليضمنوا نجاتهم، هنالك حيث بقى النبى صلى الله عليه و آله صامداً فى الميدان، محتملًا أذى الجراحات بسبب اصابته فى جبهته وأسنانه ولم يبق له فى الظاهر أى أمل فى النجاة ولكنه ظل صامداً.

وفى قصة (مرض أبى طالب) وطلب قريش منه- التى قرأناها فى بداية الجزء السابق- أن يعرض على النبى صلى الله عليه و آله أن يكفَّ عن محاربته لعبادة الأصنام، ويكف عن الدعوة إلى الإله الواحد الأحد، قال صلى الله عليه و آله: «لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللَّه أو أهلك فيه ماتركته» «۱».

ونقرأ فى قصة اخرى إنّ قريشاً جاءت للنبى صلى الله عليه و آله وأعطته وعداً بأنّ تضع تحت اختياره من المال مايجعله أغنى رجال مكة، وأن يُزوِّجوه أى امرأة يريدها، ويجعلوه عليهم سيداً، بشرط (أن يدع تسفية أصنامهم. وقالوا له: إذا لم تقبل فلدينا اقتراح آخر ينفعك وينفعنا وهو

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲ ص ۶۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۷

أن تعبد الهتنا مثل (اللات) و (العزى عاماً ونحن نعبدُ آلهتك عاماً لنرى ما تكون العاقبة)، وهنا نزلت سورة «يَاأَيُّها الكَافِرُونَ»، وردّ عليهم النبى صلى الله عليه و آله بالسلب «۱».

وفى تفسير سورة طه (الآية الثانية) نقرأ: حينما كان النبى صلى الله عليه و آله- بعد نزول الوحى والقرآن- يتعبدُ كثيراً إلى حد تورّمت قدماه المباركتان، فنزلت الآية الآنفة لتمنعه من هذا العمل المُرهق، وقالت: «مَآانزَلنَا عَلَيكَ القُرآنَ لِتَشقَى . (طه/ ۲)

وهذه دلالة على أنّه إلى أى حدٍّ كان مؤمناً بتعاليمه.

و (قصة المباهلة) ودعوة النبى صلى الله عليه و آله أعداءه- أن إذا كنتم تقولون حقا فتعالوا بأهلكم، ويطلب كل منا من اللَّه أن ينزل العذاب على الكاذب ويفضحه- هى دلالة اخرى على إيمانه الراسخ بدينه، لأنّه صلى الله عليه و آله أعلن استعداده التام لهذا الغرض،

وتراجع مخالفوه لأنّهم غير مطمئنين بأحقيتهم فى المباهلة.

وقد نقل مؤرخو الشرق والغرب قصصاً وحكايات كثيرة عن (صمود النبى صلى الله عليه و آله أمام الحوادث ومواجهته للمشاكل الكبرى التى يعجز الإنسان العادى عنها.

قال (غوستاف لوبون) المستشرق الفرنسى المعروف: إنّه لا يهرب من أى خطر، وفى نفس الوقت لا يلقى بنفسه إلى الخطر بدون دليل «۲».

ويقول تلميذ تلك المدرسة العظيم أمير المؤمنين (عليه السلام بشأن أحوال النبى صلى الله عليه و آله فى سوح القتال: «كنّا إذا احمر البأس ولقى القوم القوم اتقينا برسول اللّه فما يكون أحدٌ أقرب إلى العدو منه» «۳».

۷- من هم المؤمنون به؟

عادة ما يجتذب الأفراد غير الصالحين حولهم أفراداً مثلهم، وهذه القاعدة وإن لم تكن دائمة ولكنها فى الغالب هكذا.

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲، ص ۷۰.

(۲) حضارة الإسلام والعرب، ص ۱۱۹.

(۳) بحار الأنوار، ج ۱۶، ص ۲۳۲، وبنفس المضمون مع بعض التفاوت فى نهج البلاغة. الكلمات القصار، الكلمة ۹.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۸

ويتضح ذلك من مطالعتنا للمثل المعروف: (إنّ المزور يُعرف من زائريه)، وعلة ذلك واضحة لأنّ أهل الدنيا ومنتهزى الفرص يتجهون دائماً إلى أولئك المهيئين للتساوم معهم، يعطونهم امتيازات ويأخذون منهم اخرى ليصلوا إلى مقاصدهم غير المشروعة.

وهذه المسألة خاصة تظهر أكثر وضوحا حول المقربين والخواص وحافظى أسرار ذلك الشخص، فاذا رأينا اخلاص خواص تلك المدرسة، وحملة أسرارها، وممن تثق بهم، أدركنا بالنهاية نزاهة وإيمان وصدق قائدها، وبالعكس، فاذا التفَّ حوله أفراد كذابون، نفعيون فسوف نفهم بأنّ الماء ينبع من منبع آسن.

والآن لنلقى نظرة على الخلّص وحملة الأسرار والتلاميذ الأصليين لمدرسة نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله ... أفراداً مثل (على بن أبى طالب)، وفى مراحل لاحقة أفراداً مثل (سلمان) و (أبو ذر) و (المقداد) و (عمار بن ياسر) و (صهيب) و (بلال) وأضرابهم، فنرى كل واحد منهم كان نموذجا للتقوى والفضيلة والإيمان والمعرفة والزهد.

ونموذج آخر من هؤلاء الأفراد هم (أصحاب الصفة) المهاجرون الأبرار الذين هجروا كل ما يملكون فى مكة، والتحقوا بصفوف أصحاب النبى صلى الله عليه و آله وكانوا يعيشون فى أسوأ الأوضاع الاقتصادية.

أو مجموعة السبعين شخصاً الذين توجهوا إلى منطقة (نجد) لنشر الإسلام، ثم تجرعوا كأس الشهادة كلهم فى هذا السبيل، وكانوا يقضون الليل بالعبادة، والنهار بجمع الحطب ليضعوا ما تجود به أيديهم باختيار أصحاب الصفة أولئك «۱».

وكان من بين خلص أصحابه أفرادٌ يعيشون فى مستويات دنيا من حيث الموقع الاجتماعى، والجوانب المادية والظاهرية، ولكن النبى صلى الله عليه و آله كان يكرمهم لمميزاتهم المعنوية ويقدمهم على الآخرين، إلى ذلك الحد الذى سبب اعتراض مخالفيه الشديد وجاءه عدد من أعيانهم وكان عنده أفرادٌ من أمثال سلمان، وصهيب، وأبى ذر، وعمار، وخباب،

---

(۱) منتهى الآمال- وقائع السنة الهجرية الرابعة- وجاء نفس المعنى مع بعض الاختلاف فى تاريخ الكامل لابن الاثير، ج ۲، ص ۱۷۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۷۹

ونظرائهم من المعوزين والفقراء، وحينما وقعت أعينهم على هذا المشهد قالوا بغرور وتكبر: (لو نحيت عن هؤلاء روائح صنانهم ... جلسنا نحن إليك وأخذنا عنك فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّاهؤلاء).

وهنا نزلت الآية الكريمة: «وَاصبِر نَفسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبّهُم بِالغَدَاةِ وَالعَشِيّ). (الكهف/ ۲۸)

وأُمرَ النبى صلى الله عليه و آله بأنّ يكون دوماً مع هذه الزمرة الحفاة من أصحاب القلوب الطاهرة، وأن لا يمد عينيه إلى الأُبَّهة الظاهرية للأثرياء الأنانيين «۱».

وفى الآية التى بعدها تَردُ كلمات حادة وموجعة على ما يطلبه المستكبرون فتقول: «وَقُلِ الحَقُّ مِن رَبِّكُم فَمَن شَآءَ فَليُؤمِنْ وَمَنْ شَآءَ فَليَكفُرْ انَّا أَعْتَدنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً احَاطَ بِهِم سُرَادِقُها». (الكهف/ ۲۹)

وهذا البيان الصريح والقاطع يثبت بشكل جيد أنّ الإسلام عن أى طبقة يدافع؟ وما هى الطبقات التى تحتل الصفوف المتقدمة فيه؟

ويعتبر القرآن الكريم التفاف الأفراد المؤمنين المخلصين والأبرار حول النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بأنّه واحد من شواهد حقانيته صلى الله عليه و آله إذ يقول: «افَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنهُ». (هود/ ۱۷)

ولكنّ أكثر المفسرين يعتقدون بأنّ (البينة) هى نفس القرآن والمعجزات، وأنّ المقصود ب (الشاهد) هم الاتباع المضحون المؤمنون المخلصون أنفسهم.

ومن البديهى أنَّ إيمان شخص كعلى عليه السلام بما يتصف به من المميزات العلمية والمعنوية والأخلاقية التى اتضحت فى (نهج البلاغة) يمكن أن يكون شاهداً ناطقاً على حقانية النبى صلى الله عليه و آله.

---

(۱) نقل هذه القصة الكثير من المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، تفسير مجمع البيان والقرطبى فى ذيل الآية ۲۸ من سورة الكهف.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۰

۸- التطور السريع

إنّ التطور السريع، والتقدم الخارق لدين ما، وإيجاده لتحول عظيم وواسع، يمكنه أن يشكل قرينة اخرى على أصالته وحقانيته، لأنّ تأثيراً كهذا يكون ممكناً فقط إذا كانت قواعد هذا الدين مستندة إلى فطرة الحياة وواقعياتها، ومنطبقة مع قوانين الخلق والإبداع، أى نفس القوانين المتحكمة بحياة البشر.

فالقانون غير الفطرى، وغير المنسجم مع التركيب النفسى والبدنى للإنسان، يتقدم بصعوبة بالغة، وإذا تقدم فبسبب استخدام عوامل سلطوية مشددة، فمثلًا فى بداية دعوة الشيوعية لنفسها كان لها تقدم سريع ومثير، ولكننا نعرف جميعاً أنّ ذلك تمّ باللجوء إلى استخدام القوّة وسفك الدماء والدكتاتورية الشديدة، فى حين أنّ التقدم الفكرى السريع والعميق إذا جرى فى عمق أفكار المجتمع كان دلالة على أصالته، ونحن نعلم بأنّ الإسلام قد انتشر فى مناطق شاسعة فى القرون الاولى من ظهوره بدون أن تطأها أقدام حتى جندى مسلم واحد.

على كل حال إنّ الانتشار السريع للإسلام فى ظاهر المجتمع البشرى وباطنه، وبمناطق شاسعة من هذا العالم، وذلك فى خلال برهة زمنية قصيرة أيضاً، ليس بالشىء الذى يبقى خافياً على أحد، والمثير أنّ هذا الدين ظهر فى منطقة نصف متوحشة، وبسط نفوذه على كل العالم المتمدن فى ذلك الزمان وفى مدّة وجيزة.

وهذا النفوذ السريع والشامل لازال يشكل لغزاً مُحيّراً للمؤرخين الكبار من غير المسلمين، وكنموذج على ذلك:

۱- عندما يصل مؤلفو كتاب (حضارة الغرب ومرتكزاتها فى الشرق) وهم ثلاثة من العلماء الغربيين المعروفين- إلى فصل ظهور وانتشار الإسلام، يعترفون بصراحة قائلين: «كل المحاولات التى جرت لمعرفة الإسلام وانتشاره السريع- إلى الحد الذى استطاع أن يبسط ظلاله على القسم الأعظم من العالم المتحضر آنئذٍ فى أقل من قرن- وعلى الرغم من كل التفسيرات والتحليلات التى وردت عن هذه الحقبة التاريخية فلا زالت هذه القضية باقية على شكل لغز من الألغاز» «۱».

---

(۱) حضارة الغرب ومرتكزاتها فى الشرق، فصل ظهور الإسلام وانتشاره.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۱

۲- كتبت السيدة (فاغلرى) العالمة الاوربية المعروفة كتاباً بعنوان (انتشار الإسلام السريع) يمكن اعتباره شاهداً آخر على هذه المسألة، إذ اعتبرت الانتشار السريع للإسلام بأنّه أمر اعجازى، كما أنّ القرآن كتابٌ اعجازىٌّ لا يمكن أبداً لمحمد صلى الله عليه و آله العربى الامى أن يبتدعه.

۳- وعبَّر باحث ايطالى فى أحد فصول كتابه عن تاريخ الرياضيات حول (الرياضيات عند المسلمين) بأنّها احدى معجزات العرب.

واعتبر أنّ ما أحدثه الإسلام سريعا وعميقاً إلى درجة يعجز المنطق والتعبير العادى عن تفسيره.

ثم يضيف: «إنّ ما ينسبه البعض من المسلمين للمشيئة والقدرة الربانية فى ظهور الإسلام وثقافته ... هو فى الحقيقة دلالة على أنّ أصل تطور الحضارة البشرية هذا كان غير متلائم مع موازين إمكانات ومقتضيات تلك الأزمنة إلى الحد الذى جعلهم لم يستطيعوا أن يجدوا له تفسيرا سوى مشيئة اللَّه وتقديره» «۱».

۴- يقول الكاتب الانجليزى الشهير (برنارد شو) فى أحد كتبه حول عظمة نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «إننى أنظر دائماً إلى دين محمد صلى الله عليه و آله باحترام كبير، لأنّه يتمتع بحركة وطراوة عجيبة، وأعتقد بأنّ الإسلام هو الدين الوحيد الذى يتطابق مع أدوار الحياة المختلفة، ويتلائم مع كل عصر وزمان ... نحن ننظر إلى القرآن ككتاب لمحمد صلى الله عليه و آله بنفس التعظيم والثقة التى ينظر فيها المسلمون له ويعتبرونه كتاب اللَّه» «۲».

۵- يتنبأ هذا العالم الانجليزى (برنارد شو) فى مقال عن جاذبية الإسلام وانتشاره ويقول: «إنّ الإسلام وبما يمتلكه من نفوذ معنوى يزيد باضطراد من اتباعه خاصةً فى البلدان الاوربية» «۳».

---

(۱) قاموس دارسى الشؤون الإسلامية الأجانب، ج ۱، ص ۶۰، تأليف حسين عبد اللهى خوروش (باللغة الفارسية).

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۷۴.

(۳) المصدر السابق، ج ۲، ص ۵۰۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۲

وإذا أردنا جمع شهادات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين حول هذا الموضوع فإنّها تشكل كتابا ضخماً، لذا نكتفى بهذا المقدار:

۱- الأخلاق والصفات الخاصة الاخرى لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله بذاتها شاهد معبر على أنّه يبتغى هدفاً مقدساً، وينفذ مهمّة إلهية، ولم تلاحظ أى علامة من علامات المدعين الكاذبين ومنتهزى الفرص المنتفعين فى أخلاقياته.

وأشارت كل كتب التاريخ تقريباً- سواء التواريخ التى كتبها المسلمون أو غير المسلمين- إلى قضية نزاهته وأمانته وإلى ذلك الحد الذى يعرف فيه كل الناس هذه الصفات حتى فى الجاهلية ويلقبونه ب (الأمين)، بل وبعد ظهور الإسلام كذلك كان معارضوه وأعداؤه يودعونه أماناتهم، ولهذا السبب عندما أراد النبى صلى الله عليه و آله الهجرة إلى المدينة بعد مضى (۱۳) عاماً من ظهور

الإسلام أمر علياً عليه السلام أن يبقى فى مكة ليعيد للناس أماناتهم ثم يهاجر إلى المدينة.

ومن المناسب أن نتأمل فى هذا الحديث عن لسان الآخرين، لنرى ما لدى أولئك الذين هم غرباء عنه فى الظاهر من شهادات صريحة عن هذا الموضوع:

ينقل عن كتاب (الاعتذار إلى محمد صلى الله عليه و آله) للانجليزى (جان ديفن بورت) قوله: «بلا شك إذا لم نأت به «محمد» كواحد من نوادر العالم وكأطهر نابغة استطاع الكون تربيتهم حتى الآن، فيجب أن نعتبرهُ من أعظم البشر، والشخصية الوحيدة التى يمكن لقارة آسيا أن تفتخر بوجود هكذا ابن لها» «۱».

۲- فى كتاب (محمد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله) نقلًا عن كتاب (الإسلام من وجهة نظر فولتير) أن (نابليون) قال منتقداً (مسرحية فولتير) التى وردت فيها اهانات لساحة الرسول صلى الله عليه و آله: «إنّ فولتير خان التاريخ والوجدان الإنسانى لأنّه أنكر السجايا السامية لمحمد صلى الله عليه و آله، وصور هذا الرجل العظيم الذى سلط نوراً إلهياً على وجوه العاملين، على صورة موجود آخر» «۲».

۳- وصدفة أنّ (فولتير) نفسه غير رأيه بهذه المسرحية المهينة أواخر عمره واعترف

---

(۱) عذر التقصير إلى ساحة محمد والقرآن، ص ۱۴ (فارسى).

(۲) محمد رسول اللَّه، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۳

صراحة بالقول: «يوجد فى محمد شىء يدفع الجميع لاحترامه، وأننى أسأت كثيراً بحق محمد» «۱».

۴- جاء فى كتاب (دائرة المعارف البريطانية) فى ذيل كلمة (القرآن): «يعتبر محمد من بين الرجال والشخصيات الدينية العظيمة فى العالم، أكثر الشخصيات توفيقا وظفراً، وكانت رسالته مرادفة للنجاح والانتصار» «۲».

۵- يقول الفرنسى (غوستاف لوبون) مؤلف الكتاب المعروف (حضارة الإسلام والعرب): «إنّ بساطة ووضوح اصول العقائد الإسلامية بالإضافة إلى التعامل مع الناس بالعدل والاحسان الذى طبع وجه الدين الإسلامى بطابعه المنير صار سبباً فى أن يبسط نفوذه على وجه الأرض كلها».

۶- يقول (لامارتين) الشاعر الفرنسى المعروف بعد بيان مفصل فى مدح نبى الإسلام صلى الله عليه و آله: «هذا هو محمد الذى لو أردنا أن نزنَ عظمته بأى ميزان فإننا سوف نضطر للقول: بأنّه ما من رجل فى العالم أعظم من محمد» «۳».

۷- طبيب وكاتب لبنانى مسيحى معروف اعتبر فى أشعاره التى نظمها عن (نبى الإسلام) صلى الله عليه و آله بأنّه أفضل مدبر وحكيم وعالم، ورب للكرم والكلام، ورجل العقل والسياسة، وبطل ميدان المعارك، ووصفه بصفات ليس لها نظير «۴».

۸- مع أنّ البعض من مؤرخى الغرب المغرضين والمنتفعين حاولوا أن يعطوا صورة عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله مخالفة للواقع، ولكن الرد عليهم هو نفس الرد الذى كتبه أحد من باحثيهم باسم (يوحنا واكنبرت) الذى انتقد فى كتابه (محمد والإسلام) الكتاب المتعصبين والمغرضين الذين كتبوا عن نبى الإسلام صلى الله عليه و آله خلافاً للحقيقة، يقول: «بالقدر الذى يعود فيه الشخص إلى الحقائق المعتبرة تاريخياً، والمصادر الموثقة والصحيحة التى كتبت عن أقوال

---

(۱) محمد رسول اللّه، ص ۱۴۳.

(۲) دائرة المعارف البريطانية، مادة (قرآن).

(۳) نقلًا عن كتاب (تاريخ تركيا) حسب كتاب (قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب) ص ۶۱ (فارسى).

(۴) قاموس دارسى الشؤون الإسلامية الاجانب، ص ۵۳۴ (فارسى).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۴

وأفعال وحالات محمد فسوف يبدو فى نظره شاتمو هذا النبى أمثال (ماركس) و (برايدر) وسائر هؤلاء الأشخاص توافه وحقراء وضعفاء جدّاً» «۱».

ملخص القول: ليس أصدقاؤه واتباعه فحسب، بل ومخالفوه والبعيدون عنه تحدثوا عن صفاته وسجاياه وملكاته الأخلاقية الفاضلة، وبرامج حياته الشخصية والاجتماعية القيمة بالقدر الذى لو جمعت أقوالهم هذه لشكلت عدة كتب كبيرة.

من مجموع هذه القرائن العشر التى كان لنا فى كل منها إشارة عابرة، يمكن أن نستنتج بأنّه كان نبيّاً صادقاً ورسولًا حقيقياً ومبعوثاً من اللَّه العظيم، ولا يوجد فى ذلك أدنى شك أو تردد وحتى لو غضضنا النظر عن كل معجزاته وخوارق العادات التى جاء بها.

هذا الدليل يعتبر كافياً لوحده، بل وكما أشرنا سابقاً أيضاً أنّ هذا الدليل بالنسبة للعلماء أسمى وأعلى من المعجزات.

---

(۱) محمد من وجهة نظر الآخرين، نقلًا عن قاموس دارسى الشؤون الإسلامية، الاجانب، ج ۱، ص ۱۶۴ (فارسى).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۵

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۷

الطريق الثالث: البشارات والإشارات

تمهيد:

الدليل الثالث، وهو من الأدلة التى يمكن إقامتها لتصديق أقوال نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله هى البشارات والإشارات التى جاءت فى (الكتب السماوية السابقة)، وبالرغم من أنّ الكثير من هذه البشارات قد غطتها سحب من التعصب وتم حذفها أو تغييرها وتزويرها من كثرة التحريفات التى جرت على الكتب السماوية السابقة، ولكن لازالت إشارات كثيرة عن هذا الموضوع تبدو للناظر فى نفس كتب الديانات الاخرى الموجودة بين أيدينا اليوم.

وتشير القرائن إلى أنّ هذه الإشارات والدلالات كانت فى متناول اليد فى بداية ظهور الإسلام أكثر من الوقت الحاضر بالشكل الذى كان القرآن الكريم يستند إليها مكرراً ويدعو (اليهود) و (النصارى) للتدقيق فيها، وبلا شك إذا لم يكن ذلك موجوداً، فلا يمكن للقرآن أن يعتمد على تلك الإشارات بهذه الصراحة.

وهناك نقطة تثير الانتباه، فكما صرحت الكثير من كتب التاريخ أنّ مجيء مجموعة من اليهود إلى أرض المدينة كان بدافع البشارات التى قرأوها فى كتبهم عن ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله، وأنّ الشوق وتمنى إدراك زمان ظهوره هو الذى أجبرهم على ترك ديارهم والجلاء عن أوطانهم وسكنوا المدينة، وإلّا فإنّ بيئة الحجاز عموماً والمدينة خاصةً ليس فيها مايجذب للحياة المادية من قبيل التجارة أو الزراعة أو تربية المواشى حتى يختاروها وطنا لهم.

كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر أهلية من الآخرين فى قبول الدين الذى كانوا ينتظرونه،

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۸۸

ولكن بعد ظهور الإسلام وتعرض مصالحهم غير المشروعة للخطر. غيّر قسمٌ منهم شكل القضية، وهبوا فى النهاية لمواجهة النبى صلى

الله عليه و آله، ولا مجال للتعجب والاستغراب هنا لأننا نشاهد مثل هذا فى علاقات الكثير من الأصدقاء والروابط الودية لمجموعة من المتحابين.

بهذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم، ونتابع الآيات التى تشير إلى هذا المعنى وتوبخ اليهود والنصارى بسبب عدم توجههم لها:

١- «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ ابنَاءَهُمْ». (البقرة/ ١۴۶) (الأنعام/ ٢٠)

٢- «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الامىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكتُوبًا عِندَهُم فِى التَّورَاةِ وَالاِنجِيلِ». (الأعراف/ ١۵٧)

٣- «وَاذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ يَابَنى اسرَائِيلَ انِّى رَسُولُ اللَّهِ اَلَيكُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَىَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعدِى اسمُهُ احمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ». (الصف/ ۶)

۴- «وَلَمَّا جَاءَهُم كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُم وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَستَفتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ». (البقرة/ ٨٩)

۵- «وَآمِنُوا بِمَا أَنزَلتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَايَّاىَ فَاتَّقُونِ* وَلَاتَلبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكتُمُوا الحَقَّ وَأَنتُم تَعلَمُونَ».

(البقرة/ ۴١- ۴٢)

إنّهم يعرفونه جيداً:

أول آية جاءت فى سورتين من القرآن الكريم تقول:

«الَّذِينَ آتَينَاهُمُ الكِتَابَ يَعرِفُونَهُ كَمَا يَعرِفُونَ أَبنَاءَهُمُ» أى أنّهم ليسوا مطلعين على أصل ظهوره ودعوته فحسب، بل ويعرفون أيضاً إشاراته وخصوصياته وجزئياته، ويقول تعالى فى ذيل الآية التى جاءت فى سورة البقرة: «وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنهُم لَيَكتُمُونَ الحَقَّ وَهُم يَعلَمُونَ». (البقرة/ ١۴۶)

نفحات القرآن، ج٨، ص: ٢٨٩

وينقل عن (عبد اللَّه بن سلام)- الذى يعد من علماء اليهود الكبار ثم أعتنق الإسلام- (أنا أعلم به منى بابنى) «١».

وجاء فى رواية اخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما جاء إلى المدينة قال (عمر) لعبد اللَّه بن سلام: إنّ اللَّه أنزل آية على نبيّه تقول: إنّ أهل الكتاب يعرفون كما يعرفونه أبناءهم، فما هى هذه المعرفة؟، فقال عبد اللَّه بن سلام: «إننا نعرفه بصفاته التى بينها اللَّه، وعندما نراه فيكم نشخصه من بينكم كما يشخص أحدنا ابنه عندما يراه بين الأولاد» «٢».

والتفسير المشهور للآية والذى ينطبق جيداً مع ظاهرها هو هذا التفسير الذى بيّناه، ولكن تمّ عرض احتمالين آخرين فى تفسير الآية وهما:

الأول: إنّ الضمير فى (يعرفونه) يعود إلى (الاطلاع على النبوة).

والثانى: إلى (مسألة القبلة)، وبناءً على ذلك فإنّ الأول هو إشارة لاطلاع ومعرفة أهل الكتاب بمسألة (النبوّة)، أمّا الثانى فهو إشارة لمعرفتهم بأمر (تغيير القبلة) عند المسلمين من (بيت المقدس) إلى (الكعبة). وكلا الاحتمالين ضعيفان جدّاً.

فى الآية الثانية- ورد ذكر تسعة أوصاف من صفات النبى صلى الله عليه و آله التى هى فى الواقع دلائل على حقانيته من زوايا مختلفة- بعضها إشارة إلى المضمون الرفيع لدعوته وبرامجه، وبعضها إشارة إلى قرائن اخرى مثل أمّيته وعدم تعليمه، وشفقته ورحمته، وأمثال ذلك، وتستند فى قسم آخر من هذه الدلائل إلى مسألة أوصافه وعلاماته وسماته فى الكتب السماوية السابقة (التوراة والانجيل)- يقول تعالى

«الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكتُوباً عِندَهُم فى التَّورَاةِ وَالإنجِيلِ ... اولَئِكَ هُمُ المُفلِحُونَ».

(۱) التفسير الكبير للفخر الرازى؛ وتفسير المنار فى ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۷، ص ۱۰۳؛ وتفسير مجمع البيان، ج ۳، ص ۲۸۲؛ وتفسير روح البيان، ج ۳، ص ۱۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۰

ومع عدم ذكر اسم النبى صلى الله عليه و آله فى هذه الآية صراحة ولكن الأوصاف التى ذكرتها ترمى بوضوح إلى أنّ المقصود هو نفسه.

فكيف يمكن القبول بأنّ القرآن يتحدث مع اليهود والنصارى بهذه الصراحة، ويخبرهم بوجود دلائل وعلامات النبى صلى الله عليه و آله فى كتبهم ولكن هذه المسألة لا تطابق الحقيقة وأنّهم يسكتون؟ ويقينا إذا لم تكن هذه الإشارات والعلامات موجودة فى كتبهم فإنّهم سيتخذونها حجة وذريعة مهمة ضد النبى صلى الله عليه و آله، ولصرّحوا بها فى كل مكان، وإذا كان ذلك قد حصل لنقله التاريخ لنا.

وبناءً على هذا فعلى الأقل أنّ سكوتهم يعتبر دليلًا ساطعاً على وجود هذه القرائن والأوصاف فى كتبهم، وعلاوة على ذلك على حد قول الفخر الرازى: إذا لم تكن لهذا الأمر حقيقة واقعية لكان موجباًلنفرة اليهود والنصارى من الإسلام، والشخص العاقل لا يقدم مطلقا على ما يوجب تنفر الناس (خاصةً فى مجال الدعوة) «۱»، وكما سيمر علينا لاحقاً فإنّ قسماً من هذه الدلائل والإشارات موجودٌ حتى فى كتبهم المحرّفة الحالية.

والملفت للنظر هو أنّ القرآن لايقول: (يجدون علائمه ودلائله)، بل يقول: (يجدونه)، أى يجدون نفس ذلك النبى صلى الله عليه و آله فى التوراة والانجيل، وهذا التعبير الذى يعنى حضور النبى صلى الله عليه و آله فى كتبهم هو تأكيد على منتهى وضوح هذا الأمر.

وفى البعض من الروايات الإسلامية جاء فى ذيل الآية: إنّ بعض المسلمين سألوا شخصين من المطلعين على التوراة كلًا على حدة وأنّهما ذكرا أوصاف النبى صلى الله عليه و آله بدقة متطابقة «۲».

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۲۳.

(۲) تفسير القرطبى، ج ۴ ص ۲۷۳۵ (الملخّص).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۱

فى الآية الثالثة نقرأ عن لسان عيسى بن مريم أنّه أعطى البشارة أمام بنى اسرائيل «وَاذْ قَالَ عِيسَى ابنُ مَريَمَ يَابَنِي اسرَائِيلَ انِّى رَسُولُ اللهِ اليَكُم مُّصَدِّقاً لِمَا بَينَ يَدَىَّ مِنَ التَّورَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَاتى مِن بَعدِى اسمُهُ احمَدُ»، ويقول فى نهاية الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُم بالبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحرٌ مُبِّينٌ».

والمثير للاهتمام هو أنّ القرآن ينقل أقوال هؤلاء فى مخالفتهم ومعارضتهم للمعجزات واتهامهم عيسى عليه السلام بالسحر، ولكنه لم يتحدث عن معارضتهم حول إخبار (المسيح عليه السلام) بمسألة مجيء (أحمد صلى الله عليه و آله)، وهذا دليل واضح على أنّهم لاينكرون هذا الخبر.

فى الآية الرابعة نواجه نقطة جديدة تقول: «وَلَمَّا جَآءَهُم كِتَابٌ مِّن عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّما مَعَهُم وَكَانُوا مِن قَبلُ يَستَفتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّاعَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الكَافِرِينَ».

إنَّ هذه الآية جاءت لتشير إلى السبب الذى استوجب نزولها من أن (اليهود) هاجروا من أرضهم وديارهم إلى المدينة لرؤيتهم علامات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله التى فى كتبهم، ولأنّهم قرأوا فيها أنّ محل هجرة هذا النبى صلى الله عليه و آله بين جبلى (عير) و (احد)- وهما جبلان على طرفى المدينة، ولهذا فقد جاءوا وسكنوا المدينة وكتبوا حتى لإخوانهم بإننا وجدنا الأرض الموعودة فتعالوا

إلينا.

فقال أولئك الذين ليسوا بعيدين جدّاً عنها: إنّه لا تفصلنا فاصلة كبيرة عن تلك المنطقة وحين يهاجر إليها النبى الموعود نلتحق بكم! وعندما يصطدمون مع سكان المدينة الأصليين من قبيلتى (الأوس) و (الخزرج) يقولون: «نحن فى ظل النبى الجديد سوف ننتصر عليكم» «۱».

---

(۱) اقتباس عن سبب النزول الذى جاء فى الدر المنثور من تفاسير أهل السنة. وتفسير العياشى عن الإمام الصادق (عليه السلام) (وذكره الكثير من مفسرى الشيعة وأهل السنة أيضاً فى ذيل الآية المذكورة)- ومع أنّ البعض من المفسرين مثل الفخر الرازى اعطوا احتمالات متعددة لعبارة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) ولكن أغلبها ترجع إلى نفس المعنى الذى ذكر أعلاه.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۲

ولكنهم للأسف عندما ظهر هذا النبى الأكرم صلى الله عليه و آله نهضوا لمخالفته، لأنّهم لم يروه ملبياً لميولهم وأهدافهم غير المشروعة.

وهذه كلها تدلل على أنّ مسألة ظهور نبى الإسلام صلى الله عليه و آله جاءت واضحة فى كتبهم إلى حدٍ ما.

النقطة الجديرة بالتأمل أن عبارة «مصدقٌ لما معهم» أو مايشابهها من تعبير وردت فى القرآن الكريم أكثر من عشر مرات، وليس مفهومها أنّ النبى صلى الله عليه و آله يؤيد كتبهم السماوية مع ما حدث فيها من تحريف)، بل المقصود أنّ أوصاف النبى صلى الله عليه و آله موافقة ومتطابقة مع العلامات والإشارات التى فى أيديهم، وبتعبير آخر أنّ للنبى صلى الله عليه و آله وكتابه السماوى نفس الأوصاف التى كانوا يعرفونها من قبل بالضبط وكان فى الحقيقة تصديقاً لكتبهم السماوية من ناحية تطابقها تماماً مع صفاته صلى الله عليه و آله.

وبهذا الترتيب تعتبر كل الآيات التى جاء فيها هذا التعبير فى زمرة الآيات التى نحن بصددها فى هذا البحث.

وختاماً فإنّ الآية الأخيرة- التى تخاطب اليهود حول الموضوع- ضمن تأكيدها على وجوب الإيمان بالكتاب السماوى للنبى صلى الله عليه و آله الذى يتطابق ومالديهم من علامات، تقول:

«وآمِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِمَّا مَعَكُم وَلَاتَكُونُوا اوَّلَ كَافِرٍ بِهِ».

أى أنّ عبدة الأوثان من العرب إذا كفروا به فلا عجبَ فى ذلك، بل العجب كل العجب هو أن تنكروه أنتم وتكفروا به، لأنّ المتوقع منكم أن تكونوا أولّ المؤمنين به، وإلّا ألستم الذين هجرتم مدنكم وديارکم وجئتم إلى المدينة شوقاً للقائه أوَ لَم تعدوا الأيّام والليالى انتظاراً لظهوره؟ ... إذن لِمَ تنعكس القضية وتكونون أنتم أوّل الكافرين به؟!

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۳

ثم تشير الآية إلى الباعث ل «تغيير أسلوبهم» هذا وتقول لهم: لا تكتموا الحقائق من أجل المنافع المادية: «وَلَا تَشتَرُوا بِآيَاتِى ثَمَناً قَلِيلًا وَايَّاىَ فَاتَّقُونِ».

و هذه إشارة إلى أنّ أىَّ ثمن يأخذونه مقابل ذلك فهو لا شىء، حتى ولو كان العالم كله، ولكنكم يا أصحاب الهمم الدنية، من أجل مصالحكم المادية التافهة (أحياناً من أجل ضيافة سنوية) كتمتم الآيات التى تحمل علامات وأوصاف النبى صلى الله عليه و آله.

ثم تقول الآية تأكيداً للمراد: «وَلَا تَلبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكتُمُوا الحَقَّ وأَنتُم تَعلَمُونَ».

وفى الحقيقة فإنّ اليهود ارتكبوا عدّة مخالفات فى هذا المجال:

الاولى: إنّهم تعاهدوا على أن يكونوا أول المؤمنين بالنبى صلى الله عليه و آله فى حين كانوا أول الكافرين به.

الثانية: إنّهم لبسوا الحق بالباطل حتى يطمسوا وجهه ويوقعوا الناس فى المتاهات.

الثالثة: إنّهم كتموا الحق وهم يعلمون بأنّه حق واشتروا بالآيات الإلهيّة ثمناً قليلًا.

وهناك فى القرآن الكريم آيات متعددة اخرى بنفس المعنى (أى تحكى عن «كتمان الحقائق» من قبل اليهود) والظاهر أنّ تلك الآيات كلها تشير إلى نفس مسألة كتمان آيات النبوة.

ويستفاد من مجموع ماجاء فى الآيات الآنفة بأنّ اوصاف وعلامات نبى الإسلام صلى الله عليه و آله وحتى اسمه المبارك قد وردت فى الكتب السابقة، وقدمت بشارات وإشارات كثيرة بالنسبة لظهوره.

ونتجه الآن صوب كتب العهدين الموجودة فى متناول أيدينا (التوراة والانجيل)، لنبحث فى نماذج من هذه العلامات والإشارات:

التبشير بظهور النبى صلى الله عليه و آله فى الكتب السماوية:

كما أشرنا من قبل، فإننا نجد فى كتب اليهود والنصارى الموجودة اليوم علامات ذلك

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۴

النبى العظيم، ولكن قبل ظهوره كانت توجد يقيناً مسائل كثيرة طمست فى ظلمات الكتمان على أثر عدم انسجامها مع التعصبات العمياء الصماء أو متطلبات مصالح زعمائهم.

وحول (بشارات العهدين) كتبت مؤلفات متعددة، أو خصصت لها أقسام من بعض الكتب، لا يسعنا ذكرها فى هذه العجالة، ونكتفى ببعض النماذج البارزة:

تمّ التأكيد فى ثلاثة موارد من «انجيل يوحنا» على لفظة (فارقليط) أو (فارقليطا) والتى تعنى فى العربية ب (المُعزّى).

ونقرأ فى مورد منها: «وسأطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر (فارقليطا)، يبقى معكم الى الأبد» «۱».

وجاء فى مورد آخر: «ومتى جاء المعزى الذى أرسله إليكم الأب، روح الحق المنبثق من الأب، فهو يشهد لى» «۲».

وفى الباب التالى له: «صدقونى، من الخير لكم أن أذهب، فإنْ كنت لا أذهب لا يجيئكم المعزى أما إذا ذهبت فارسله إليكم» «۳».

ممّا يجلب الانتباه أنّ الفخر الرازى ينقل فى الجزء (۲۹) من تفسيره صفحة (۳۱۳) عن الأناجيل الموجودة فى عصره (انجيل يوحنا- الباب ۱۴): (وأنا أطلب لكم إلى أبى حتى يمنحكم ويؤتيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد). وهذا عين ماذكرناه أعلاه ولكن بالتصريح بلفظة (فارقليط)، ويذكر نفس المعنى بالتصريح بلفظة (فارقليط) أيضاً فى الباب ۱۵ و ۱۶ منه.

إنّ (فارقليط) التى تلفظ باللغة اليونانية (بريكلتوس) أو (براقليتوس) فسرها الكثير من المسيحيين بمعنى (المُعَزّى) أو (روح القدس)، ولكن جمعاً منهم ذكر أنّ معناها (كثير الحمد) وهو مايتطابق تماماً مع اسم أحمد ومع الآية التى تقول: «وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى اسْمُهُ احْمَدُ». (الصف/ ۶)

---

(۱) انجيل يوحنا، الباب ۱۴، الجملة ۱۶.

(۲) المصدر السابق، الباب ۱۵، الجملة ۲۶.

(۳) المصدر السابق، الباب ۱۶، الجملة ۷.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۵

وإنّ مايتضح من المطالعة الدقيقة لجذور هذه الكلمة هو أن (فارقليط) كلمة يونانية الأصل، وأنّ جذرها (بريقلتوس) ومعناه (كثير الحمد) التبس عليهم مع (براقليتوس) التى تعنى (المُعَزّى).

ينقل السيد حسينيان مؤلف كتاب (السراج) «۱» فى بداية كراسه الصغير والملىء بالمضامين، عين المتن اللاتينى لإنجيل يوحنا عن كتاب باسم (الأناجيل) من تأليف «لامينيه»- طبع باريس- والموجود حالياً فى مكتبة مجلس الشورى الإسلامى:

مایدلل جیداً علی أنّ کلمهٔ (فارقلیط) وردت هناک علی صورهٔ (بِرِکلیت)- التی تعنی بالعربیهٔ (أحمد) وبالفارسیهٔ (کثیر الحمد) ولیس بصورهٔ بَرَکلیت (باراکلیت) التی تعنی (المُعَزّی) «۲»، ولکن للاسف حُـذف التعبیر الأول فیما بعد من متون الأناجیل وحلَّ محلّه التعبیر الثانی.

ویضـیف أیضـاً: «إنّ قـدماء النصـاری فهموا من لفـظ «براکلیت» اسـماً خاصـاً لشـخص، لأـنّ فی التراجم السـریانیهٔ جاء عین اللفظ «أی فارقلیـط»، وفی التراجم العبرانیـهٔ الموجودهٔ لـدی ورأیتهـا شخصـیاً «فرقلیـط». ولأـنّهم یعتبرونه اسم إنسـان «معین»، والترجمات العبرانیهٔ والسریانیهٔ عند المسیحیین لها کمال الأهمیّهٔ والاعتبار» «۳».

وفی الواقع فإنّ مفردات من قبیل (محمـدٍ) و (علی) و (حسن) و (حسـین) وأمثالها لا یمکن مطلقا ترجمتها عند ترجمهٔ العبارات، فمثلًا: بدل جملهٔ (جاء علی) لایقول الفارسی أبداً:

(بلنـد مرتبه آمـد) بـل یقول (علی آمـد)، ولکن المؤسف أنّ العلماء المسـیحیین فی الأزمان المتأخرهٔ، ومن أجل محو علامـهٔ نبوهٔ نبی الإسلام صلی الله علیه و آله هذه أبدلوا أولًا: لفظهٔ (برکلیت) ب- (باراکلیت).

وثانیاً: اخرجوها من صورتها کاسم علم إلی معنیً وصفیٍّ وقالوا بدلها «المُعَزّی» (فتأمل).

---

(۱) (چراغ)- فارسی.

(۲) کتاب جراغ، ص ۱.

(۳) المصدر السابق، ص ۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۶

یتضح من هذا الکلام أنّ اللفظهٔ الأصـلیهٔ إذا کانت (بریقلیتوس) فإنّ معناها (کثیر الحمد) ومن غیر المسـتبعد التباسـها مع (براقلیتوس)، وطبعاً أنّ احتمالات التعمد فی هذا التفسیر کثیرهٔ جدّاً.

یقول المرحوم (العلّامـهٔ الشـعرانی) فی کتـابه «نثر طوبی : «رأیت فی أحـد قوامیس اللغـهٔ الیونانیـهٔ أنّ «فارقلیـط» ترجم معناهـا ب «کثیر الحمد» أیمن تتناقله الألسن ویذکر بالخیر.

ثم یضیف: إنّ قوامیس اللغهٔ الیونانیهٔ باللغهٔ الانجلیزیهٔ، والقوامیس الفرنسیهٔ موجودهٔ فی کل مکان و (یمکنکم مراجعتها ولکن) یعتبرها المسیحیون مصحفهٔ ومحرفهٔ.

ویترجمونها بمعنی (المعزی) وقد کتبنا نحن رسالهٔ مستقلهٔ فی هذا الباب» «۱».

ونطـالع فی کتـاب قاموس مفردات القرآن «۲» تـألیف الـدکتور قریب: «أنّ المسـتفاد من الروایـات هو أنّ الأنبیـاء العظام کل بنوبته قد بشـروا فی کتبهم بحضـرهٔ نبی الإسـلام صلی الله علیه و آله ثم ینقل عن الکثیر من المصادر الإسلامیهٔ أنّ اسمه فی الانجیل «الفارقلیطا» التی یکون معناها (أحمد)» «۳».

وفیما عـدا ذلک ففی تعبیرات الانجیل نفسه توجد جمل تشـیر إلی أنّ هذه الکلمهٔ وبأی تعبیر تکون فهی تتحدث عن نبی یظهر ویبقی دینه خالداً.

فجملـهٔ (وسأطلب من الأب أن یعطیکم معزیاً آخر یبقی معکم إلی الأبد) «۴» دلیل واضح علی أنّ المقصود من (المعزی) هو نبی دینه أبدی وخالد.

ویقول هناک: «ومتی جاء المعزی الذی ارسله الیکم الأب، روح الحق المنبثق من الاب، فهو یشهد لی» «۵».

وواضح أنّ هذا المعزی هو نبی ولیس روح القدس. وتکمنُ فی تعالیمه کل الحقائق ولن یبق شیء یستحق القول.

---

(۱) نثر طوبى ج ۱، ص ۱۹۷.

(۲) فرهنك لغات قرآن (فارسى).

(۳) فرهنك لغات قرآن (فارسى)، ج ۱، ص ۳۵۱.

(۴) انجيل يوحنا، الباب ۱۴، الباب ۱۶

(۵) المصدر السابق، جملة ۲۶.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۷

وعلى أيّة حال فلا مجال لأىشك أو ترديد بأنّ كلمة (أحمد) أو مفردات من قبيلها كانت موجودة فى الأناجيل المتوفرة فى زمن النبى صلى الله عليه و آله، وإلّا فإنّ الآية السادسة من سورة الصف ستكون فى مظان الاعتراض الشديد من قبلهم ولأصبحتْ حجةً قوية لهم فى محاربة الإسلام. فى حين لم ينقل لنا التاريخ الإسلامى مثل هذا الشىء.

وبناء على ذلك يبدو أنّ البعض من علماء المسيحية حينما رأوا أن مواقعهم معرضة للخطر اتخذوا قرارهم بتحريف وتبديل تلك المعانى إلى معانٍ اخرى وحتى يمكن مشاهدة نفس الاسم المقدّس للنبى صلى الله عليه و آله فى بعض كتب المسيحيين التى كانت موجودة لقرون بعد ظهوره صلى الله عليه و آله فى زوايا العالم المختلفة.

والشاهد على هذا الكلام بيان مثير لأحد العلماء المسيحيين الذين أعلنوا إسلامهم فى كتابه (أنيس الاعلام) وهو كتاب تحقيقى فريد أزاح الستار عن هذا الجانب.

وباعتباره كان بنفسه أحد القساوسة المسيحيين المعروفين وأنهى دراسته عند كبار علماء المسيحية ووصل إلى مقام كبير فى نظرهم، يشرح فى مقدمة كتابه المذكور قصة اسلامه العجيبة بهذا الشكل، يقول: «بعد تنقيب كثير وجهود خارقة وجولات فى المدن المختلفة وصلت إلى قسيس رفيع المستوى كان ممتازاً من ناحية الزهد والتقوى. ويعود إليه أبناء الطائفة (الكاثوليكية) من ملوك وغيرهم بأسئلتهم الدينية، وقد درست عنده فترة مذاهب النصارى المختلفة، وكان عنده تلامذة كثيرون ولكن كان له تعلق خاص بى من دونهم وكانت مفاتيح المنزل كلها بيدى إلّامفتاح واحد لأحد الخزائن كان يحتفظ به عنده.

فى تلك الأثناء أحس القسيس المذكور يوماً بوعكة صحية، فقال لى: قل للتلاميذ أننى لا طاقة لى على التدريس، وعندما جئت للطلبة وجدتهم مشغولين بالبحث والنقاش الذى انجر إلى معنى لفظة (فارقليطا) فى السريانية و (بريكلتوس) باللغة اليونانية ... وقد امتد جدالهم وطال، وبدا لكل واحد منهم رأىٌ ... بعد أن عدتُ إلى الاستاذ سألنى: ما بحثتم اليوم؟ فقدمت له تقريراً عن اختلافهم فى لفظ (فارقليطا) ... قال: وأنت أى الأقوال انتخبت؟

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۸

قلت: انتخبت ما اختاره فلان مُفسِّر.

فقال القس: ما قصّرت ولكن الحق والواقع يخالف كل هذه الأقوال، لأنّ الحقيقة لايعلمها (إلّا الراسخون فى العلم) وقليل من هؤلاء أيضاً من يعرفها، فألححت عليه أن يقول لى معناها، فبكى بشدّة وقال: إننى لا أبخل عليك بأى شىء ... إن فى تعلم معنى الاسم أثراً عظيماً ولكن بمجرّد شيوعه سيقتلوننا أنا وأنت وإذا عاهدتنى بأنّ لا تقول لأحد سأبيّن لك المعنى ... فأقسمت له بكل المقدّسات أن لا أبوح باسمه، عندئذ قال: إنّ هذا الاسم هو من أسماء (نبى المسلمين) ومعناه (أحمد) و (محمد):

ثم أعطانى مفتاح تلك الغرفة الصغيرة وقال: افتح باب الصندوق الفلانى. وآتنى بكذا وكذا كتاب، فجلبت الكتابين له وكانا مكتوبين بالخط اليونانى والسريانى قبل ظهور نبى الإسلام، على الجلد.

وقد ترجم لفظ (فارقليطا) فى كلا الكتابين بمعنى (أحمد) و (محمد)، ثم اضاف الاستاذ قائلًا: لم يكن عند علماء النصارى أى اختلاف قبل ظهور نبى الإسلام بأنّ (فارقليطا) تعنى (أحمد ومحمد) ولكن بعد أن ظهر محمد أوَّلوا اللفظة واخترعوا لها معنىً آخر من

أجل الابقاء على رئاستهم ومنافعهم المادية، وقطعاً أنّ هذا المعنى لم يقصده صاحب الانجيل.

فسألته: ما تقول عن (دين النصارى ؟ قال: نسخَ بمجيء الدين الإسلامى وكرر هذا اللفظ ثلاث مرات، فقلت: فى هذا الزمان ما هو طريق النجاة والصراط المستقيم ...؟ قال:

أنّه منحصر فى اتّباع محمد صلى الله عليه و آله.

قلت: وهل أنّ تابعيه من أهل النجاة؟ قال: أىواللّه (كررها ثلاثا) ...

ثم بكى الاستاذ وبكيت أنا أيضاً، وقال: إذا كنت تريد الآخرة والنجاة فيجب أن تقبل دين الحق ... وسوف أدعو لك دائماً، بشرط أن تشهد لى يوم القيامة بأننى كنت مسلماً فى الباطن ومن أتباع حضرة محمد صلى الله عليه و آله ... وليس من شك اليوم أنّ «دين الإسلام» هو دين اللّه على وجه الأرض ...» «۱».

---

(۱) اقتباس مع قليل من الاختصار عن (الهداية الثانية) مقدمة كتاب أنيس الاعلام.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۲۹۹

وكما تلاحظون فإنّ علماء أهل الكتاب- وفق هذا السند- فسروا وبرروا اسم وعلامات النبى صلى الله عليه و آله بعد ظهوره بشكل آخر من أجل مصالحهم الشخصية.

سؤال:

يطرح هنا سؤال وهو: إنّ الاسم المعروف للنبى صلى الله عليه و آله (محمد) فى حين سمى فى الآية ۶ من سورة «الصف» باسم (أحمد)، وهاتان المفردتان وإن لم تختلفا كثيراً فى دلالتهما على معنى ومفهوم (محمود) ولكنهما فى الظاهر اسمان مختلفان. وبناءً على ذلك إذا كانت (فارقليطا) تعنى (محمود)، فإنّها تنسجم مع كليهما، ولكن تعبير القرآن ب (أحمد) لاينسجم مع الاسم المعروف للنبى صلى الله عليه و آله.

الجواب:

ستتضح الاجابة جيداً عن هذا السؤال ببيان بعض النقاط:

۱- جاء فى التواريخ بأنّ للنبى صلى الله عليه و آله منذ طفولته اسمين، وحتى أنّ الناس كانت تخاطبه بكليهما. أحدهما: (محمد) والآخر (أحمد)، والأول: اختاره له جده (عبد المطلب).

والثانى: أُمه (آمنة)، وقد ذكر هذا الموضوع بالتفصيل فى السيرة الحلبية.

۲- من بين الذين ينادونه مراراً بهذا الاسم، عمه (أبو طالب)، وفى أيدينا اليوم كتاب بعنوان (ديوان أبى طالب) نشاهد فيه قصائد كثيرة ذَكرت النبى صلى الله عليه و آله بعنوان (أحمد) مثل:

أرادوا قتل «أحمد» ظالموهمولیس بقتلهم فيهم زعيم

وإن كان «أحمد» قد جاءهمبحق ولم يأتهم بالكذب «۱»

وفى غير (ديوان أبى طالب) نقلت عنه أشعار فى هذا المجال مثل:

لقد أكرم اللّه النبى محمداًفأكرم خلق اللّه فى الناس أحمد «۲»

---

(۱) ديوان أبى طالب، ص ۲۵ و ۲۶.

(۲) تاريخ ابن عساكر، ج ۱، ص ۲۷۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۰

نفحات القرآن ج۸ ۳۲۵

۳- ويرى هذا التعبير أيضاً فى أشعار (حسان بن ثابت) الشاعر المعروف فى عصر النبى صلى الله عليه و آله:

ومفجعة قد شفها فقد أحمدفَظَلَّت لآلاءِ الرسولِ تعدد

والأشعار التى جاء فيها اسم (أحمد) بدلًا من محمد سواءً فى ديوان أبى طالب أو غيره كثيرة جدّاً ولا مجال لنقلها كلها هنا. ونختم هذا البحث ببيتين آخرين لابن أبى طالب (على عليه السلام) حيث يقول:

أتامرنى بالصبر فى نصر «أحمد»ووالله ماقلتُ الذى قلتُ جازعاً

سأسعى لوجه اللَّه فىنصر «أحمد»نبى الهدىالمحمود طفلًا ويافعا «۱»

۴- نقرأ فى الروايات التى جاءت تتحدث عن مسألة المعراج أنّ اللَّه خاطب النبى صلى الله عليه و آله فى ليلة المعراج مرات باسم (أحمد) وربّما من هنا اشتهر بأنّ اسمه فى السماء (أحمد) وفى الأرض (محمد).

وجاء أيضاً فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ للنبى صلى الله عليه و آله عشرة أسماء جاءت خمسة منها فى القرآن وهى: (محمد) و (أحمد) و (عبد اللَّه) و (يس) و (ن) «۲».

۵- عندما تلى النبى صلى الله عليه و آله الآيات المذكورة (آيات سورة الصف) لأهل المدينة ومكة وسمعها أهل الكتاب أيضاً، لم يعترض أى واحد من المشركين وأهل الكتاب بأنّ (الانجيل) بشر بمجىء (أحمد) بينما اسمك (محمد). وسكوتهم هذا دليل على اشتهار هذا الاسم فى ذلك المحيط، لأنّه إذا حدث مثل هذا الاعتراض لكان قد نُقل إلينا. مع أنّ اعتراضات الأعداء وحتى فى الموارد الجارحة جدّاً مثبتة فى التاريخ.

نستخلص من مجموع هذا البحث أنّ اسم (أحمد) كان من الأسماء المعروفة لنبى الإسلام صلى الله عليه و آله لدى أهل الكتاب.

---

(۱) الغدير، ج ۷، ص ۳۵۸.

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۱

نشاهد بشارة اخرى فى سفر التكوين والظهور فى (التوراة) فى الفصل السابع، لا يمكن تطبيق علاماتها إلّاعلى النبى صلى الله عليه و آله.

ففى الجمل من ۱۷ إلى ۲۰ نطالع: «وقال إبراهيم للرّب ياليت إسماعيل يعيش أمامك ...

فقال اللَّه سمعت دعاءَك فى حق إسماعيل وها أنا اباركه وأكثر نسله وسيلد منه اثنا عشر رئيساً وسنجعله امّةً عظيمة» «۱».

وفى كتاب (أنيس الأعلام) ينقل متن جمل التوراة المكتوبة باللغة العربية ويكتب ترجمتها على هذا الشكل: «... وأثمره وأعظمه ب «مادماد» والاثنا عشر إماماً الذى سيكون من نسله وسنجعله امّةً عظيمة» «۲».

ثم يضيف: «أنّ (مادماد) هو نفس (محمد صلى الله عليه و آله بالعبرانية».

ومع الالتفات إلى أنّ النبى هو من نسل اسماعيل، وجاء فى البشارة المذكورة بأنّه سيكون امّة عظيمة ويخرج منه (اثنى عشر سيداً وإماماً) سيتضح عدم وجود أى مصداق لها سوى شخص النبى صلى الله عليه و آله، وإذ ألحقنا بها لفظة (مادماد) التى وردت فى النص العبرى- وإن لم يأتوا بها فى الترجمة من العربية إلى الفارسية- ستتضح أكثر وأكثر.

إن قيل بأنّ هؤلاء (الاثنى عشر سيداً وإماماً) وكذلك الامّة العظيمة إشارة إلى (موسى عليه السلام) و (أسباط بنى اسرائيل الاثنى عشر) ففى الحقيقة أنّ اللَّه بشر إبراهيم بظهور موسى عليه السلام، ويكون الجواب عن ذلك واضحاً لأنّ موسى عليه السلام وأسباط بنى اسرائيل هم من نسل إسحاق، فى حين أنّ العبارة الآنفة تعرفهم على أنّهم من أبناء إسماعيل ولا يمكن أن يكون لها مصداقٌ إلّانبى

الإسلام صلى الله عليه و آله.

ج) جاء فى سفر التكوين (التوراة)- الباب ۴۹ رقم ۱۰: «ولن تؤخذ عصى السلطنة من يهودا حتى يأتى شيلوه الذى ستجتمع حوله الامم» «۳».

وظاهر هذه العبارة هو أنّ حكم (يهودا) وتسلط بنى اسرائيل سيستمر حتى ظهور (شيلوه) وتجتمع الامم حوله.

---

(۱) سفر التكوين، الفصل ۷.

(۲) أنيس الأعلام، ج ۵، ص ۶۹.

(۳) سفر ظهور التوراة، باب ۴۹، رقم ۱۰.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۲

أمّا من هو وما هو المقصود ب (شيلوه)، فإنّ مؤلفى اليهود والنصارى قدموا احتمالات كثيرة كان أغلبها لا تتسق مع العبارة المذكورة بأى وجه، ومن جملتها أن (شيلوه) تعنى مكاناً للاستراحة أو مدينة فى شمال «بيت ايل» أو محلًا يسمونه الآن (سيلون)، والمسلَّم فيه أنّ التعبير بمجيئه واجتماع الامم حوله هو إشارة إلى شخص وليس إشارة إلى مكان أو محل.

و (مستر هاكس) الأميركى مؤلف كتاب (القاموس المقدس) ضمن عَدِّهِ للمعانى المختلفة لهذه المفردة ذكر معنى (مرسل) التى تنطبق على لفظة رسول أو رسول اللَّه.

والشيء الوحيد الذى يمكن أن يقال هو أنّ بشارة التوراة هذه هى إشارة لظهور (المسيح عليه السلام) كما قالوا ولكن حسب قول فخر الإسلام فى (أنيس الأعلام): إنّ هذا الاحتمال غير صحيح لأنّ المسيح عليه السلام هو من أبناء (يهودا) من جهة الأم.

وبناءً على ذلك فإنّ حاكميته تعتبر امتداداً لحاكمية يهودا، وفى هذه الحالة لم يبق من مصداق لها سوى نبى الإسلام صلى الله عليه و آله المرسل من اللَّه الذى تزاح بظهوره حكومة (آل يهودا) خصوصاً فى المدينة وخيبر والشامات والكثير من المناطق الاخرى «۱».

طبعاً ذكرت بشارات متعددة اخرى أيضاً فى كتب العهدين يطول شرحها وأنّ البعض منها قابل للقدح والتجريح، والذين يرغبون بالبحث والتحقيق أكثر فى هذا الموضوع يمكنهم الرجوع إلى كتب (أنيس الأعلام) و (بشارات العهدين) و (البشارات والمقارنات).

---

(۱) أنيس الأعلام، ج ۵، ص ۷۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۳

الخاتمية فى القرآن الكريم

اشارة

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۵

الخاتمية فى القرآن الكريم

تمهيد:

مسألة (الخاتمية) وأنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله هو آخر الأنبياء الإلهيين من المسائل التى يعتقد بها كل المسلمين من أى فرقة أو مذهب كانوا، ولا يعرفها العلماء فحسب بل كل أفراد المسلمين أيضاً ويعتبرونها من (ضروريات الإسلام) التى يتوصل إليها أى أحد

بسرعة مهما قلت معاشرته لأتباع هذه المدرسة وهى أنّهم يعتبرون النبى الأكرم صلى الله عليه و آله هو آخر الأنبياء الإلهيين.

ومصدر هذا الاعتقاد يعود إلى (القرآن الكريم) و (الروايات الإسلامية) لأنّ هذه المسألة ليست بالشىء الذى يمكن إثباتها بالأدلة العقلية فقط، ويقيناً بعد قبولهم للقرآن الكريم بصفته كتاباً سماوياً، ونبى الإسلام صلى الله عليه و آله كونه رسولًا لله، يمكن الاعتماد على قولهم بهذا الصدد.

لهذا السبب نتوجه أولًا إلى الآيات القرآنية، ثم نتطرق إلى الشواهد التاريخية والروايات الإسلامية، ونختتمها ببعض الشبهات التى ألقاها مخالفو الإسلام حول خاتمية النبى صلى الله عليه و آله:

وردت الآية الرئيسية التى تشهد على هذا المعنى فى قوله تعالى «مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ ابَا احَدٍ مِّن رِجَالِكُم وَلكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَىءٍ عَلِيماً».

(الأحزاب/ ۴۰)

وذكر العلماء آيات متعددة اخرى حول الموضوع إذا لم نقبل دلالتها القطعية فعلى أقل

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۶

تقدير إنّها تحتوى على إشارات مثل:

۱- «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكرِ لَمَّا جَآءَهُم وَانَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لَّايَاْتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيمٍ حَمِيدٍ». (فصلت/ ۴۱- ۴۲)

۲- «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً». (الفرقان/ ۱)

۳- «وَاوحِىَ الَىَّ هَذَا القُرآنُ لِانذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ». (الأنعام/ ۱۹)

۴- «وَمَا ارْسَلْنَاكَ الَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً». (سبأ/ ۲۸)

۵- «قُلْ يَا ايُّهَا النَّاسُ انِّى رَسُولُ اللَّهِ الَيْكُم جَمِيعَاً». (الأعراف/ ۱۵۸)

۶- «انْ هُوَ الَّا ذِكرى لِلعَالَمِينَ». (الأنعام/ ۹۰)

۷- «وَمَا ارْسَلْنَاكَ الَّا رَحْمَةً لِّلعَالَمِينَ». (الأنبياء/ ۱۰۷)

جمع الآيات وتفسيرها

الآية الاولى التى وردت فى بحثنا، وهى الآية ۴۰ من سورة الأحزاب والتى أشارت قصة «زيد»، وهو ابن الرسول صلى الله عليه و آله بالتبنى، حيث إنّ الرسول صلى الله عليه و آله تزوج من زوجته التى طلقها، وذلك من أجل القضاء على احدى السنن الخاطئة التى كانت متداولة آنذاك والتى تقضى بعدم الزواج من زوجات أدعيائهم بعد الطلاق ولكى لا تبقى بعد زواجها من غير زوج.

والجدير بالذكر هو أنّ زواج زيد من هذه المرأة كان بواسطة الرسول صلى الله عليه و آله، وقد طلقها لعدم انسجامهما.

وقد نفت الآية الكريمة القرابة النَسبيّة بين زيد والرسول الأكرم صلى الله عليه و آله حيث قال: «وَمَا كَانَ مُحَمدٌ أبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ»، ثم أضافت: «وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِينَ».

حيث تُثْبت لرسول اللّه صلى الله عليه و آله الرابطة الروحية والمعنوية المتأتية من مقام النبوة والخاتمية، أى أنّه ليس أباكم الجسدى، بل هو أبوكم الروحى، وأبو كل الأجيال اللاحقة حتى نهاية الدنيا، وإذا نقل فى بعض الروايات عن النبى صلى الله عليه و آله قوله: «أنا وعلى أبوا هذه

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۷

الامّة» فهو أيضاً إشارة إلى نفس الابوة الروحية التى تنبع من التعليم والتربية والقيادة.

ويجب الالتفات إلى أنّ للنبى الأكرم صلى الله عليه و آله عدة أولاد نسبيين بأسماء (القاسم)، (الطيب)، (الطاهر)، و (إبراهيم) ورحلوا جميعهم عن هذا العالم قبل البلوغ. ولهذا السبب لم تسميهم الآية (رجالًا) «۱».

ضمنا هناك رابطة اخرى بين مسألة ختم النبوة وعدم وجود الولد وهى أن أولاد الأنبياء كانوا أنبياء أيضاً، ولأنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لا ابن له بلغ مبلغ الرجال لم يبق أىمجال للتوهم بأن سيكون بعده نبى آخر، وعلى هذا فإنّ فقدان الولد هى إشارة إلى ختم النبوة.

ويقول فى آخر الآية «وكان اللَّه بكل شىء عليماً».

ووضع تحت تصرف هذا النبى الخاتم ماكان لازماً من معارف وعلوم ومسائل الاصول والفروع.

وقد ابدى الاحتمال فى ربط بداية الآية بنهايتها، ففى بدايتها نفى عن النبى صلى الله عليه و آله ابُوَّته الجسمية لُامته، ولذا سيظهر هذا السؤال وهو: إذا كان بهذا الشكل فلماذا لا يحق لُامّته أن يتزوجوا زوجات النبى صلى الله عليه و آله من بعده؟ وفى الجواب على ذلك يقول: «إنّه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالإضافة إلى كونه خاتم أنبيائه وأفضلهم، ولهذا السبب فإنّ حفظ حرمته واجب وترك الزواج من أزواجه بعد وفاته هو جزءٌ من هذه الحرمة» «۲».

مفهوم خاتم النبيين:

مع أنّ معنى (خاتم) واضح جدّاً- لأنّ مادة ختم فى كافة معاجم اللغة العربية تعنى انهاء شىء- ولكن قسماً من وساوس المنحرفين تستوجب تقديم توضيحات أكثر بشأنها، يقول «ابن فارس»، أحد علماء اللغة المعروفين فى القرن الرابع الهجرى، فى «معجم مقاييس اللغة: «ختم، لها معنىً أصليٌّ واحدٌ لا أكثر وهو الوصول إلى نهاية الشىء. وأن قولهم (ختم)

---

(۱) تفسير القرطبى؛ وتفسير الميزان، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير القرطبى، ذيل الآية مورد البحث.

عندما يضعون ختما (مهرا) على شىء فهو من هذا الباب، لأنّهم دائماً بعد انهاء شىء ما يضعون ختما أو مهراً عليه».

ويقول (الخليل بن أحمد) وهو من أقدم المؤلفين والمحققين فى لغة العرب والذى عاش فى القرن الثانى للهجرة فى زمن الأئمّة المعصومين عليهم السلام عن معنى خاتِمْ وخاتَمْ: «خاتِم كل شىء هو نهايته وآخرته. وخاتَم تعنى الختم «المهر» الذى يضعونه على الطين»، وذلك عند اتمام الرسالة وطيها ومن أجل أن لا يفتحها الغرباء يلصقون قطعة لينة من الطين على محل ربطها ثم يختمون فوقها بحيث لايبقى أى طريق لفتحها إلّابكسر الختم.

وذهب سائر أصحاب اللغة أيضاًإلى هذا المعنى نفسه، وفسروا (خاتم) بمعنى الشىء الذى يؤدّى إلى النهاية أو الختم الذى يضعونه فى النهاية.

وفى كتاب (التحقيق) الذى يعد تحقيقاً جامعاً فى مصادر اللغة المهمّة بعد أن ينقل أقوال كبار اللغويين العرب يقول: «المتحقق أنّ لهذه المادة جذرٌ واحد وهو فى مقابل «بدء». أى اكمال شىء وايصاله إلى آخره ونهايته» «۱».

وكذلك المفسرون الإسلاميون من أقدمهم وحتى معاصريهم لم يخرجوا جميعهم عن أن معنى (خاتم النبيين) فى الآية المذكورة هو آخر الأنبياء.

ويقول المفسر المعروف (محمد بن جرير الطبرى) الذى عاش فى القرن الثالث فى تفسيره الذى يعتبر من أقدم التفاسير فى ذيل الآية آنفة الذكر: و «خاتم النبيين الذى ختم النبوة فختم عليها فلا تفتح لاحد بعده إلى قيام الساعة» «۲».

ويقول المرحوم (الشيخ الطوسى) وهو من عظماء الفقه والتفسير، وعاش فى القرن الخامس فى كتابه المشهور (البيان) بعد أن يذكر (خاتم النبيين): «أى آخرهم لأنّه لا نبى بعده الى يوم القيامة» «۳».

وكذلك المفسر الكبير (الطبرسى) الذى عاش بعده بقرن واحد جاء بنفس المعنى أيضاً وشرحه «۴».

---

(۱) التحقيق، مادة (ختم).

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲۲، ص ۱۲.

(۳) تفسير البيان، ج ۸، ص ۳۱۴.

(۴) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۳۶۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۰۹

يقول (أبو الفتوح الرازى) الذى يعدّ من المفسرين رفيعى الشأن فى القرن السادس وكتب تفسيره باللغة الفارسية فى تعبير جذّاب فى ذيل كلمة (خاتم النبيين): «وآخر الأنبياء حتى تظن أنّه ختم النبوة، وبنبوته ختم باب بعث الأنبياء» «۱».

ويقول كذلك المفسر السنى الشهير (الفخر الرازى) والذى يعدّ من مفسرى القرن السادس الهجرى المعروفين بعد كلمة (خاتم النبيين): «مفهومها أن لا نبى بعده، وشريعته تامة بحيث لم يبق شىء لم يذكر» «۲».

وسار بقية المفسرين قرناً بعد قرن على نفس المعنى حتى وصل إلى المفسرين المعاصرين.

والشىء الملفت للنظر هو أنّ مادة ختم ومشتقاتها- الآية المذكورة- استخدمت فى القرآن الكريم فى سبعة موارد جاءت كلها وبدون استثناء بمعنى الاتمام أو انهاء الشىء أو الختم الذى يضربونه أسفل الرسائل، وهذا بذاته يدلل على أنّ الآية موضوع البحث ليس لها اى مفهوم سوى أنّ النبى صلى الله عليه و آله هو خاتم سلسلة الأنبياء، والختم الذى وضع على نهاية سجل الرسالات.

وكذلك جاء فى (نهج البلاغة) والروايات الإسلامية نفس المعنى بشكل عام، وسوف يشار إلى قسم منها فى نهاية هذا البحث.

الاجابة عن بعض الاسئلة:

۱- يقال أحياناً: إنّ (خاتم) تعنى الزينة. وبناء عليه فإنّ مفهوم الآية هو أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان زينة لكل الأنبياء وليس خاتمهم.

لكن يجب الالتفات إلى أنّ (خاتم) لم تأت أبداً بمعنى الزينة وإنّما بمعنى (الخاتم الذى له

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۹، ص ۱۶۲.

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۵، ص ۲۱۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۰

فصّ ويوضع فى الأصابع) وأن هذا التعبير غير لائق تماماً أن يقال: إنّ النبى صلى الله عليه و آله هو خاتم أصابع النبيين، ثم إنّنا قلنا: إنّ المعنى الأصلى ل (خاتم) لم يكن أبداً (خاتم الاصبع) وإنّما الختم الذى يختمون به عند الانتهاء من الرسائل أو البرامج أو الكتب. وانطلاقاً من أن وضع الختم يكون فى (الختام) والنهاية. فإنّ اسم (خاتم) يطلق على الواسطة التى تختم بها الرسالة. (لاحظوا أنّ كلمة «خاتم» بفتح التاء معناها «مايختم به» أى الشىء الذى يختمون به).

وما يثير الاهتمام هو أنّ الختم الأصلى للأشخاص فى عصر نزول القرآن والقرون التالية له، كان على الخواتيم التى يحملونها على أصابعهم وبواسطتها كانوا يختمون رسائلهم، ولهذا السبب جاء فى سيرة النبى صلى الله عليه و آله «أنّ خاتم رسول اللّه كان من فضة

نقشه محمد رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله» «۱».

وجاء فى بعض التواريخ أنّ من جملة وقائع السنة السادسة للهجرة أنّهم «عرضوا على النبى صلى الله عليه و آله بأنّك تراسل زعماء البلدان والملوك وأنّهم لا يقرأون الرسائل التى لاتختم عليها.

لهذا السبب اختار النبى صلى الله عليه و آله خاتماً لاصبعه حتى يختم به الرسائل» «۲».

وجاء فى كتاب (الطبقات الكبرى) أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله عندما قرر أن ينشر دعوته ويكاتب الملوك والسلاطين فى العالم أمر فصنعوا له خاتماً كتب عليه (محمد رسول اللّه) وكان يختم به رسائله «۳».

بهذا البيان يتضح أنّ كلمة (خاتم) وإن كانت تطلق على خواتيم الزينة أيضاً ولكن فى زمان نزول القرآن وما بعده كان يطلق على الخواتيم التى يختمون بها رسائلهم أو يختمون بها على محل ربط الرسائل بعد طيها واغلاقها.

والنقطة الملفتة للنظر هى أنّ نفس المعنى استخدم فى آيات متعددة من القرآن الكريم،

---

(۱) سنن البيهقى، ج ۱۰، ص ۱۲۸؛ وفروع الكافى: ج ۶، ص ۴۷۳- باب نقش الخواتيم، ح ۱، (كان نقش خاتم النبى محمد رسول اللّه صلى الله عليه و آله).

(۲) سفينة البحار، ج ۱، ص ۳۷۶.

(۳) الطبقات الكبرى، ج ۱، ص ۲۵۸.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۱

فيقول حول مجموعة من الكفار: «خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِم». (البقرة/ ۷)

ويقول عن يوم القيامة: «اليَومَ نَخِتمُ عَلَى افْوَاهِهِم». (يس/ ۶۵)

وعلى كل حال فإنّ أقل اطلاع على معانى هذه المفردة فى الأدب العربى وجذورها الأصلية وموارد استعمالها يثبت بوضوح أنّ كلمة (خاتم النبيين) ليس لها أى معنى سوى معنى متمم عدة الأنبياء وخاتمهم.

السؤال الثانى:

الايراد الواهى الآخر طرح من قبل البعض من عديمى الخبرة وهو أنّ القرآن الكريم يقول: إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله (خاتم النبيين) ولم يقل (خاتم الرسل) ومن الممكن أنّ سلسلة الأنبياء تنتهى بظهوره ولكن سلسلة الرسل، لانهاية لها.

الجواب:

صحيح أنّ (النبى) معناه كل نبى يوحى إليه من قبل اللّه تعالى سواءً كان مكلفاً بالتبليغ أم لا، عنده كتاب سماوى أم لا. ولكن (الرسول) هو نبى مكلف بالبلاغ. وبتعبير آخر، أنّ كل نبى رسول ولكن ليس كل رسول نبى.

بهذا البيان تكون الاجابة عن السؤال المذكور واضحة تماماً، فعندما يكون شخص ما خاتماً للانبياء فبطريق أولى يكون خاتماً للرسل أيضاً، لأنّه كما قلنا قبل قليل: إنّ كل رسول هو نبى- لأنّ مرحلة الرسالة أشمل من النبوة-.

وهذا الكلام يشبه بالضبط قولنا إنّ فلاناً خرج من منطقة الحجاز. فبالتأكيد أنّ ذلك الشخص خرج من مكة أيضاً، أمّا إذا نقول إنّ فلانا ليس فى مكة. فمن الممكن أن يكون فى نقطة اخرى من الحجاز.

وبناء على هذا إذا كان النبى صلى الله عليه و آله خاتم المرسلين كان ممكناً أن لا يكون خاتماً للأنبياء.

ولكن حينما تقول الآية أنّه خاتم النبيين فمن المسلم به أن يكون خاتما للمرسلين كذلك.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۲

فى قسم آخر من الآيات المذكورة هناك تعبيرات يعتبرها الكثير من العلماء دليلًا ساطعاً على مسألة الخاتمية. وإذا افترضنا عدم قبول

دلالتها الصريحة. فلا أقل من أن تكون قرائن وشواهد على هذه المسألة:

نقرأ فى أول آيـة من هذا القسم: «انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكرِ لَمَّا جَاءَهُم وَانَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ* لَّا يَاتِيهِ البَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّن حَكِيم حَمِيدٍ».

و «الباطل»: فى هـذه الآيـة معناه الشـىء الـذى يبطل أو ينسخ، وعليه فإنّ مثل هذا الكتاب سـيكون خالداً وأبدياً، وهذا بنفسه دليل على خاتمية الدين الذى يعود له هذا الكتاب، كما هو دليل على عدم تحريف القرآن أيضاً.

وقد يقال: إنّ (الباطل) فى اللغة لا يعنى (المبطل) إذن كيف فسرتم الآية بهذا الشكل؟

فنقول: علاوة على أنّ الكثير من المفسرين ذكروا أنّ أحد معانى الباطل هنا هو المبطل «۱» فأصولًا عنـدما يقول (لا يأتيه الباطل) فإنّ مفهومها أنّ الباطل لا يمكنه أن يعيقه أو يعطله خصوصاً وأنّه قال قبلها: (وأنّه لكتاب عزيز) التى تدل على بقائه وثباته.

وفى الآية التالية يقول: «تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الفُرقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلعَالَمِينَ نَذِيراً».

ولفظة (عالمين) التى تشمل كل سكان العالم بالرغم من عدم تقييدها بأى قيد فهى تعم أبناء كل الأعصار حتى نهاية الدنيا.

وهى ليست غير محدودة من ناحية المكان فحسب، بل وحتى من ناحية الزمان أيضاً، وتشـمل حتى الآتين، ولهذا السـبب اعتبرها الكثير من المفسرين دليلًا على عالمية الدين الإسلامى أولًا وعلى خلوده ثانياً «۲».

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أنّ كلمة (عالمين) اخذت من مادة (علم) التى تشمل كل

---

(۱) مثل المرحوم الشيخ الطوسـى فى تفسـير البيان؛ والطبرسى فى تفسير مجمع البيان؛ والعلّامة الطباطبائى فى‌تفسير الميزان؛ والآلوسى فى تفسير روح المعانى وكذلك بعض المفسرين الاخرين (ذيل الآية مورد البحث).

(۲) تفسير الكبير، ج ۲۴، ص ۴۵؛ وتفسير القرطبى، ج ۷، ص ۴۷۱۸؛ وتفسير روح البيان، ج ۶، ص ۱۸۸.

الموجودات التى يحتويها علم الإنسان وحتى السـماوات والأرض، ولكن بمراعاة كلمة الانذار التى وردت فى الآية فإنّ مفهومها يكون هنا محصوراً بالمكلفين فى العالم.

على أيّـة حال، يكون الاسـتدلال على الآيـة الثالثة بنفس الطريقة أيضاً، لأنّ الرسول صـلى الله عليه و آله يقول وفق هذه الآية: «وَأُوحِىَ الَىَّ هَذَا القُرآنُ لِانذِرَكُم بِهِ وَمَنْ بَلَغَ».

فسـعة مفهوم (ومن بلغ) غير خافٍ على أحد ويكون شاملا لكل بنى الإنسان إلى نهاية العالم، وهو دليل على عالمية الإسـلام وديمومته وخلوده.

ويصرح (الطبرسى) رحمه اللّه فى مجمع البيان- ذيل الآية المذكورة- بأنّ (من بلغه القرآن إلى يوم القيامة) مشمولون بهذه الآية «۱».

وكـذلك الكثير من المفسـرين القـدماء والمحـدثين بينوا صـراحة فى ذيل هذه الآية أنّها دلالة على مسألة (الخاتمية) ومن جملة هؤلاء (أبو الفتوح الرازى) من علماء القرن الثالث للهجرة وصاحب تفسير (روح البيان) والعلّامة الطباطبائى فى (الميزان) وغيرهم.

ودلالة الآيات (۴ و ۵ و ۶ و ۷) مورد البحث تكون أيضاً بنفس الطريق لأنّ تعبير (كافة للناس) الذى جاء فى الآية الرابعة يشـمل عموم الناس. وفى الآيـة الخامسـة «انَّى رَسُولُ اللَّهِ اَلَيكُم» والآيـة السادسـة أيضاً اسـتندت إلى العالمين الـذى هو مفهوم واسع من جهـة الزمان والمكان.

ومجموع هذه الآيات يمكن أن يكون تأييداً وتأكيداً آخر على مسألة (خاتمية نبى الإسلام صلى الله عليه و آله) و (خلود القرآن).

وذكر بعض من الكتاب والمؤلفين آيات اخرى بهذا الصدد صرفنا النظر عن ذكرها لأنّ دلالتها غير كافية كما يبدو للناظر.

---

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۳ و ۴، ص ۲۸۲.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۴

الخاتمیة فی الروایات الإسلامیة:

کما اشیر من قبل إلی أنّ الاعتقاد بخلود الإسلام ودیمومیته من الامور التی اتفق علیها کل العلماء والمفکرین المسلمین، بل وتعتبر من ضروریات هذا الدین ومصدر هذه العقیدة- وبالإضافة إلی الآیات القرآنیة- هناک روایات لا تحصی وصلتنا عن النبی صلی الله علیه و آله وبقیة الأئمّة المعصومین علیهم السلام بما یشکل مجموعها کتاباً کاملًا، وسنشیر إلی قسم منها فی هذا الملخص کنموذج.

۱- الروایات العدیدة حول ختم سلسلة الأنبیاء والتی جاءت علی لسان النبی صلی الله علیه و آله وهذه الروایات بذاتها تشکل باباً واسعاً جدّاً، ومن جملة الأحادیث فی هذا الباب الروایات التالیة:

أ) فی الحدیث المشهور الذی نقلته الکثیر من مصادر الحدیث والتفاسیر عن النبی صلی الله علیه و آله والذی یقول فیه:

«مثلی ومثلُ الأنبیاء کمثلِ رجلٍ بنی داراً فأتمها وأکملها إلّاموضع لبنةٍ فجعل الناسُ یدخلونها ویتعجبون منها ویقولون: لولا موضع اللبنة، قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأنا موضع اللبنة جئت فختمت الأنبیاء» «۱».

ونقل نفس الحدیث بطریق آخر جاء فی آخره: «فأنا اللبنة وأنا خاتم النبیین) «۲».

ونفس المعنی نقل بطرق متعددة «۳».

وفی تفسیر (مجمع البیان) جاء هذا الحدیث بهذه الصورة: یقول: نقل فی حدیث صحیح عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاری عن النبی صلی الله علیه و آله أنّه قال: «إنّما مثلی فی الأنبیاء کمثل رجلٍ بنی داراً فأکملها وحسنها إلّاموضع لبنة، فکان من دخلها فنظر إلیها قال: ماأحسنها إلّاموضع هذه اللبنة، قال صلی الله علیه و آله: فأنا موضع اللبنة ختم بی الأنبیاء» ثم یقول: هذا الحدیث نقل فی

---

(۱) صحیح مسلم، ج ۴، ص ۱۷۹۱.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۵

(صحیح البخاری) و (صحیح مسلم) «۱».

وجاء أیضاً فی مسند (أحمد بن حنبل) و (الترمذی) و (النسائی) وکثیر من کتب الحدیث والتفاسیر الاخری وهو من الأحادیث المعروفة جدّاً والمشهورة.

والعلّامة الطباطبائی بعد أن یذکر هذا الحدیث یقول: «نفس هذا المعنی نقله أیضاً غیر البخاری ومسلم مثل: الترمذی والنسائی وأحمد وابن مردویه عن غیر جابر» «۲».

ب) وجاء فی (نهج البلاغة) أیضاً التصریح بمسألة خاتمیة نبی الإسلام صلی الله علیه و آله فی خطب متعددة. ونقرأ فی الخطبة ۱۷۳: «أمین وحیه وخاتم رسله».

وفی الخطبة ۱۳۳: «ختم به الوحی».

وفی الخطبة ۷۲ بعد أن یصلّی علیّ علیه السلام ویسلم علی النبی صلی الله علیه و آله یصفه هکذا: «الخاتم لما سبق والفاتح لما انغلق».

وفی الخطبة ۸۷ یخاطب الناس قائلًا: «أیّها الناس خذوها عن خاتم النبیین ...».

ویقول فی الخطبة الاولی من نهج البلاغة: «بعث اللَّه سبحانه محمداً صلی الله علیه و آله لانجاز عدته واتمام نبوته».

والمثير للاهتمام أنّه عنـد التدقيق الواسع الذى جرى على ۱۱۰ أجزاء من كتاب (بحار الأنوار) بواسـطة أجهزة الكومبيوتر تبيّن أنّ كلمة (خـاتم النبيين) أو (خـاتم الرسـل) و (خاتم الأنبياء) وردت فى أكثر من ۳۰۰ موضع من الكتـاب (من الجزء الثـانى وحتى الجزء ۱۱۰) والقسم الأـعظم منها فى روايات الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام والقليل منها فى تفاسـير العلّامـة المجلسـى وأمثاله. وتبيّن بوضوح ما تحظى به مسألة ختم النبوة بنبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى أوساط المسلمين فى كل عصر وزمان من شهرة وشيوع واسعين «۳».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۳۶۲.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۳۲۷. ذيل الآية مورد البحث.

(۳) نتقـدم بالشـكر إلى المركز الكومبيرترى للحوزة العلمية فى قم الذى قدم هذه الموارد التى جاءت فى ۲۳ صفحة من الحجم الكبير إلى مركز تفسير رسالة القرآن.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۶

وجاء فى كتب أهل السنة كرارا لفظ (خاتم النبيين) و (خاتم الأنبياء) «۱».

ج) حديث (المنزلة) المعروف- الذى ورد فى الكثير من كتب الشيعة وأهل السنة المعروفة بخصوص على عليه السلام ويعتبر من أشهر الأحـاديث النبويـة المتواترة- دليـلً واضـح على هـذا المعنى. لأـنّ النـبى صـلى الله عليه و آله كـان يريـد التوجه مع جيشه إلى (معركة تبوك) فخلف مكانه فى المدينة علياً عليه السلام وقال له: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبى بعدى» «۲».

والنقطة المثيرة للاهتمام أيضاً هى أنّ هذه الجملة لم يقلها النبى صـلى الله عليه و آله فى واقعة (معركة تبوك) فقط، بل وصرح بها فى مواضع اخرى أيضاً، وعلى الأقل أنّها سمعت منه صلى الله عليه و آله ستّ مرات فى غير (غزوة تبوك):

أولًا: فى يوم (المؤاخاة الاولى .

ثانياً: فى يوم (المؤاخاة الثانية).

ثالثاً: أثناء تعزية النبى صلى الله عليه و آله ل (ام سليم) عندما استشهد أبوها وأخوها.

رابعاً: فى الحديث الذى ينقله (ابن عباس) عن (عمر) بهذا الخصوص.

خامساً: فى الحديث الذى جرى أثناء المنازعة على كفالة بنت (حمزة سيد الشهداء).

سادساً: فى الحديث الذى ورد عن سد الأبواب التى على المسجد إلّاباب بيت على عليه السلام وبيت النبى صلى الله عليه و آله «۳».

وهذا الحديث يثبت بوضوح أنّ ما من نبى سـيأتى بعد نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله وأنّ هذه المسألة اعتبرت جزءا من الواضحات منذ نفس عصر ظهور النبى الإسلام صلى الله عليه و آله.

د) ورد فى أحاديث متعددة أنّ الأحكام الإسلامية باقية وقائمة إلى نهاية العالم. وهذا

---

(۱) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى مادة، (ختم).

(۲) الملفت أنّ هـذا الحديث نقل عن ۱۷۰ طريقاً- مائة منها عن طرق أهل السـنّة وسـبعون طريقاً من طرق أهل البيت عليهم السـلام- ومن جملة الكتب التى نقل فيها هذا الحديث: صـحيح مسـلم؛ صـحيح البخارى؛ سـنن ابن ماجه؛ مسـتدرك الحاكم؛ مسـند أحمد بن حنبل؛ ذخائر العقبى؛ الصواعق المحرقة؛ كنز العمال؛ ينابيع المودة وغيرها. (للاسيتضاح أكثر ارجعوا إلى «المراجعات» المراجعة ۲۸).

(۳) للاطلاع أكثر ارجعوا إلى (تفسير نمونة «فارسى») ذيل الآية ۴۲ من سورة الأعراف والمراجعات (المراجعة ۳۲).

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۷

الأمر لايسـتقيم إلّاب (خاتمية نبى الإسـلام صـلى الله عليه و آله لأنّ مجيء نبى جديد آخر سـينسخ قسـماً من أحكام النبى الذى سـبقه

على الأقل.

ومن جملتها نقرأ فى اصول الكافى: «حلال محمد حلالٌ أبداً إلى يوم القيامة وحرامهُ حرامٌ أبداً إلى يوم القيامة. لا يكون غيره ولا يجىء غيره» «۱».

وجاء نفس المعنى فى مكان آخر إذ يقول الإمام الصادق عليه السلام بعد أن ذكر الأنبياء: «حتى جاء محمد صلى الله عليه و آله فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة وحرامهُ حرامٌ إلى يوم القيامة» «۲».

ثم إنّه يتضح من هذا الخبر المشهور أنّه ليس النبى صلى الله عليه و آله (خاتم الأنبياء) فحسب، بل وأنّ دينه ومجموع تعاليمه وأحكامه خالدة وأبدية ولا تتعرض لاى تغيير، وأنّ أولئك الذين يتصورون- بقبولهم مسألة الخاتمية- أنّهم يستطيعون بأفكارهم إيجاد تغييرات فى تعاليم الإسلام وأحكامه مخطئون جدّاً، لأنّ الأحاديث آنفة الذكر تقول إنّ خلود نبوّته ملازماً لخلود تعاليمه وأحكامه.

ونقل (العلّامة المجلسى) رحمه اللّه هذا الحديث أيضاً فى الكثير من مجلدات بحار الأنوار «۳».

ه) فى آخر خطبة (حجة الوداع) الشهيرة وهى نفس الخطبة التى بينها النبى صلى الله عليه و آله للناس بعنوان وصيته الجامعة فى آخر حجة وآخر سنة من عمره الشريف جاءت مسألة (الخاتمية) صريحة.

إذ يقول: «ألا فليبلغ شاهدكم غائبكم لا نبى بعدى ولا امّةً بعدكم» ثم رفع يديه المباركتين إلى السماء- بعد أن انتهى من تبيين كل وصاياه- حتى بان بياض أبطيه وقال:

«اللّهم اشهد أنّى قد بلغت» «۴».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۵۸، ح ۱۹.

(۲) اصول الكافى، ج ۲، ص ۱۷، ح ۲.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۲۶۰، ح ۱۷.

(۴) بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۳۸۱ نقلًا عن الخصال ج ۲، ص ۸۴.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۸

و) وجاء فى حديث معروف اخر عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «إنّ الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدى ولا نبى» «۱».

وهذا الحديث بالخصوص ملفت للنظر من جهة أنّه اغلق الطريق أمام مختلقى الذرائع الذين يقولون: إنّه (خاتم الأنبياء) وليس (خاتم الرسل).

ز) ننهى هذه الروايات بحديث آخر عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فقد جاء فى كتاب (اسد الغابة):

«أنّ (العباس بن عبد المطلب) عم النبى كان يطلب منه صلى الله عليه و آله أن يأذن له بالهجرة من مكة إلى المدينة حتى يلحق به (حسب بعض الروايات أنّ العباس كان من المؤمنين الذين يكتمون إيمانهم وبقى فى مكة باذن من النبى صلى الله عليه و آله يكتب له أخبار المشركين ويلجأ إليه المسلمون، وعندما قويت شوكة الإسلام طلب العباس من النبى صلى الله عليه و آله أن يأذن له بالهجرة، ولكن النبى صلى الله عليه و آله قال له: «لا تعجل بهذا الأمر»)، ومتن هذه الرواية يشير إلى هذا الأمر:

«ياعمّ أقم مكانك الذى أنت به فإنّ اللّه تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة».

ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله فى المدينة قبل (فتح مكة) وهاجر ورافقه فى فتح مكة، وبفتح مكة انتهت الهجرة- لأنّ هذه المدينة أصبحت بعد فتح مكة دار إسلام وليس دار كفر يهاجر منها إلى المدينة» «۲».

وبناءً على ذلك كان (العباس) هو آخر من هاجر من مكة إلى المدينة إذ بعده فتحت مكة وانتهت الهجرة. وكتب البعض أنّ (العباس) الذى كان فى طريق هجرته إلى المدينة مع زوجته وأبنائه التقى بالنبى صلى الله عليه و آله فى أحد المنازل وسط الطريق عندما كان

صلى الله عليه و آله فى طريقه ل (فتح مكة) فانضم إليه وقال له صلى الله عليه و آله: «وهجرتك آخر الهجرة كما أنّ نبوتى آخر النبوة» «۳».

ويبلغ مجموع الأحاديث التى ذكرت تحت هذه العناوين السبعة التى ذكرنا الآف الأحاديث التى تدل بوضوح كلها على أنّ مسألة خاتمية نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كانت منذ البداية

---

(۱) سنن الترمذى، ج ۳، ص ۳۶۴.

(۲) اسد الغابة، ج ۳، ص ۱۱۰.

(۳) عيون الاخبار لابن قتيبة، ج ۱، ص ۵.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۱۹

من المسائل الواضحة والبديهية.

والنقطة الملفتة للنظر أيضاً أنّ كل واحد من الأئمّة المعصومين الأربعة عشرة عليهم السلام وصلنا عنه حديث أو أحاديث عن (الخاتمية) «۱».

والبعض من الكُتّاب قسموا هذه الأحاديث إلى عشرين قسماً «۲».

توضيحات

۱- هل أنّ السير التكاملى للإنسان ينسجم مع مسألة الخاتمية؟

أول سؤال يمكن أن يطرح فى هذا البحث هو: هل يمكن للمجتمع الإنسانى أن يتوقف؟

أو هل ل (السير التكاملى للبشر) حدً وحدود؟ أولا نرى بأعيُننا أنّ الناس هم اليوم فى مرحلة أعلى من العلم والمعرفة والثقافة نسبة إلى السابق؟

إذن بهذه الحالة كيف تختم النبوات بالكلية ويحرم الإنسان فى سيره التكاملى هذا من الأنبياء الجدد؟

الجواب:

إنّ الاجابة عن هذا السؤال تتضح بالالتفات إلى نقطة واحدة وهى أنّ الإنسان أحياناً يصل إلى مرحلة من النبوغ الفكرى والثقافى تمكنه من مواصلة سيره بالاستفادة المستمرة من الاصول والتعاليم التى وضعها باختياره النبى الخاتم بشكل جامع بدون أن يحتاج إلى شريعة جديدة.

وهذا بالضبط مايشبه إنساناً يحتاج فى كل مرحلة من المراحل الدراسية المختلفة إلى معلم ومُربٍّ جديد حتى ينهى المراحل الاخرى أما عندما يصل إلى مرحلة (الدكتوراه) أو (الاجتهاد) ويصبح صاحب رأى فى علم أو علوم متعددة، ينقطع عن ادامة تحصيلاته عند

---

(۱) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب الخاتمية من وجهة نظر القرآن والحديث والعقل.

(۲) للاطلاع أكثر راجعوا كتاب خاتمية آخر الأنبياء صلى الله عليه و آله من ص ۳۹ إلى ص ۴۱.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۰

استاذ جديد، ويكتفى بالاعتماد على ماتعلمه من اساتذته القدامى وخصوصاً الاستاذ الأخير وينشغل بالبحث والتحقيق والمطالعة والتدقيق ويواصل مسيره التكاملى.

وبتعبير آخر صار يضع الحلول للمشاكل التى تعترض طريقه اعتماداً على تلك الاصول الكليـة وما حصل عليه من آخر اساتـذته، وبناء على ذلك فلا حاجة لأن يظهر دائماًللوجود دين وتعاليم جديدة بمرور الزمان (تأملوا).

أو بعبـارة اخرى إنّ الأنبيـاء السـابقين- ومن اجل أن يتمكن الإنسان من متابعـة سـيره نحو التكامل فى هـذا الطريق الملىء بالمنعطفات والصـعود والانحدار وضع- كل واحد منهم على حدة- تحت تصـرفه جزءاً من خارطة هذا المسير حتى أصبح مؤهلًا لأنّ يتلقى خارطة المسير عامة وجامعة وكامله والتى وضعها اللّه تعالى من خلال آخر الأنبياء:.

ومن البديهى إذا تلقى الخارطة الكاملة والجامعة فسوف لن يحتاج إلى خارطة اخرى وهذا فى الحقيقة بيان لنفس التعبير الذى ورد فى أحاديث (الخاتمية) واعتبرت فيه نبى الإسـلام صلى الله عليه و آله هو آخر لبنة أو واضع آخر لبنة فى بناء ذلك القصر الجميل والمتين للرسالة.

كل ما ذكرنا له علاقـة بعـدم الحاجـة إلى دين أو تعاليم جديـدة، أما مسألة القيادة والامامة التى هى نفس الاشـراف الكلى على تطبيق هذه الاصول والقوانين وإعانة المتخلفين عن المسـيرة فهى مسألة اخرى لايسـتغنى عنها الإنسان فى أى وقت من الأوقات، ولهذا السبب فإنّ اتمام سلسـلة النبوّة لا تعنى مطلقاً اتمام سلسـلة الإمامـة، لأنّ تبيين وتوضـيح تلك الاصول والتحقق الخارجى لها غير ممكنـة بدون الاستفادة من وجود قائد إلهى معصوم.

۲- هل أنّ القوانين الثابتة تتماشى مع احتياجات الإنسان المتغيرة؟

فيمـا عـدا مسألـة السـير التكـاملى للبشـر التى طرحت فى السؤال الأول هناك سؤال آخر وهو: إننا نعلم أنّ مقتضـيات الزمان والمكان مختلفة من وقت لآخر، أو بتعبير آخر أنّ الإنسان دائماً فى حالة تغيير، فى حين أنّ شريعة خاتم الأنبياء لها قوانين ثابتة، فهل

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۱

باستطاعة هذه (القوانين الثابتة) تلبية احتياجات (الإنسان المتغيرة) على طول الزمن ...؟

يمكن الاجابة عن هذا السؤال أيضاً بالالتفات إلى النقطة التالية:

إذا كان لكل القوانين الإسلامية صفة (الجزئية) وتعين لكل موضوع حكماً محدداً وجزئياً فإنّ هذا السؤال يكون فى محله، أمّا إذا عرفنا أنّ فى التعاليم الإسـلامية توجـد سلسـلة من (الاصول العامة) الواسـعة جدّاً والتى بإمكانها مسايرة الاحتياجات المتغيرة وتلبيتها فلا يبقى أى مجال لمثل هذا الإشكال.

مثلًا: بمرور الزمان تظهر سلسـلة من المعاهدات والعقود والاتفاقيات الجديدة والعلاقات الحقوقية بين الناس لم تكن موجودة فى عصـر نزول القرآن أبـداً، كمـا هو الحـال فى مايسـمى اليوم ب (التـأمين) ففى ذلـك الزمـان لا يوجـد بتاتـاً شـىء يسـمى (التـأمين) وفروعه المتعددة، «۱» أو أنواع الشـركات فى عصـرنا وزماننا هذا والتى تظهر للوجود حسب مقتضيات الوقت الحاضر، ولكن مع هذا فإنّ لدينا فى الإسـلام قانوناً عاماً جاء فى بداية سورة المائدة عنوانه (وجوب الوفاء بالعهد والعقد) يقول: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوفُوا بِالعَقُودِ». وكل تلك المعاهدات والعقود يمكن وضعها تحت غطاء ذلك القانون.

وطبعاً جاءت قيود وشروط بصورة عامة أيضاً على هذا الأصل الكلى فى الإسلام يجب مراعاتها.

وبناءً على هذا فإنّ (القانون العام) ثابت وإن كانت مصاديقه فى حالة تغيير، وكل يوم يمكن أن يظهر مصداق جديد.

والمثال الآخر: إنّ لـدينا فى الإسـلام قانوناً بـديهياً باسم (قانون لا ضـرر) الذى يمكن بواسـطته الحد من كل حكم يشـكل ضـرراً على المجتمع الإسلامى، وعن طريق هذا القانون تسد الكثير من احتياجاته.

وبغض النظر عن هذا فإنّ مسألة (لزوم حفظ نظام المجتمع) و (وجوب تقديم الواجب)

(۱) طبعا توجد فی الإسلام موضوعات شبیهة بالتأمین وفی حدود خاصة مثل مسألة (ضمان الجریرة) ولکن کماقلنا إنّها شبیهة بهذه القضیة فقط.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۲

ومسألة (تقدیم الأهم علی المهم) یمکنها فی مجالات واسعة جدّاً أن تکون حلالة للمشاکل.

بالإضافة إلی کل ماورد فإنّ الصلاحیات الممنوحة للحکومة الإسلامیة عن طریق (ولایة الفقیه) تعطیها إمکانیات واسعة لحل المشکلات فی إطار الاصول الکلیة للإسلام.

وطبعاً أنّ بیان کل واحد من هذه الامور بالخصوص عند الالتفات إلی فتح باب الاجتهاد (الاجتهاد معناه استنباط الأحکام الإلهیّة من المصادر الإسلامیة) یحتاج إلی تحقیق کثیر یبعدنا القیام به عن هدفنا، ولکن مع هذا فإنّ ما أوردناه هنا إشارة بامکانها أن تشکل اجابة عن الاشکال آنف الذکر.

۳- هل یجب حرمان الإنسان من فیض الارتباط بعالم الغیب؟

السؤال الاخر هو: إنّ (نزول الوحی) والارتباط مع عالم الغیب وما وراء الطبیعة إضافة إلی کونه هبة ومبعث افتخار لعالم البشریة، یعد نافذة أمل لکل المؤمنین الصادقین، إذن لا یعتبر قطع طریق الارتباط هذا وغلق نافذة الأمل هذه حرماناً عظیماً للإنسان الذی عاش بعد وفاة النبی الخاتم؟

والجواب عن هذا السؤال یتضح أیضاً بالالتفات إلی مایلی:

أولًا: إنّ الوحی والارتباط مع عالم الغیب هو وسیلة لإدراک الحقائق، وعندما یقال کل مایراد قوله وتتضح کل الاحتیاجات إلی یوم القیامة فی الاصول الکلیة والتعلیمات الجامعة للنبی الخاتم، فإنّ قطع هذا الارتباط لا یسبب أی مشکلة.

ثانیاً: إنّ الذی قُطع للأبد بعد ختم النبوة هو (الوحی لشریعة جدیدة أو لتکمیل شریعة سابقة)، ولیس کل نوع من الارتباط بما وراء عالم الطبیعة، لأنّ الأئمّة علیهم السلام لهم ارتباط بعالم الغیب وکذلک المؤمنین الصادقین الذین ینالون مقام (الکشف) و (الشهود) علی أثر ازاحتهم للحجب عن قلوبهم بعد تهذیب نفوسهم.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۳

یقول الفیلسوف المعروف (صدر المتألهین الشیرازی) فی کتاب (مفاتیح الغیب): « (الوحی) یعنی نزول الملک بقصد مهمّة النبوة حتی وإن کانت منقطعة لأنّه بحکم «أکملت لکم دینکم» کان ما یجب أن یصل إلی نوع البشر عن هذا الطریق قد وصل، أما باب الالهام والاشراق فلم یغلق ولن یغلق أبداً ولا یمکن أن یغلق هذا الطریق» «۱».

واصولًا أنّ هذا الارتباط نتیجة لارتقاء النفس وتنقیة الروح وصفاء الباطن ولا علاقة له بمسألة الرسالة والنبوّة.

وبناء علی هذا ففی أی زمان تحصل مقدماته وشرائطه فسوف تتمّ هذه الرابطة المعنویة ولم یحرم نوع البشر أبداً من هذا الفیض الإلهی العظیم ولن یحرم.

۴- هل تنسجم هذه الآیات مع مسألة الخاتمیة؟

إنّ مجموعة من مبتدعی الأدیان فی عصرنا، من أجل أن یعبدوا الطریق أمام مدعیاتهم حول النبوة، لم یجدوا أیحل أمامهم سوی التوجه لمسألة (الخاتمیة) التی هی من بدیهیات وضروریات الدین الإسلامی ووضعها تحت الاستفهام. وکما هو اسلوب أصحاب القلوب المریضة تناولوا بعض الآیات القرآنیة التی وجدوها قابلة للتحریف والانسجام مع مقاصدهم وتشبثوا بها لنفی (الخاتمیة)، وکان

البعض منها غريباً عن مسألة الخاتمية إلى حد لا تستحق حتى طرحها، ونذكر هنا قسمين فقط من تلك التى يمكن طرحها إلى حد ما والتى استندوا إليها أكثر:

۱- يقولون: إنّ الآيات لا تنفى إمكانية ظهور أنبياء آخرين. لأنّها تقول: «يَابَنِى آدَمَ امَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيكُم آيَاتِى فَمَنِ اتَّقَى وَاصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحزَنُونَ». (الأعراف/ ۳۵)

إنّهم يقولون: بالالتفات إلى أنّ جملتى (يأتينكم) و (يقصون عليكم) هما فعلان

---

(۱) مفاتيح الغيب، ص ۱۳.

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۴

مضارعان، إذن فإنّ الآية تدلل على امكانية بعث أنبياء آخرين فى المستقبل، وفى هذه الحالة يكون اتباعهم واجباً.

أمّا إذا التفتنا إلى نقطة واحدة سيكون الجواب عن هذا الكلام واضحاً، وهى: إذا عدنا إلى ما قبل هذه الآيات ودققنا فيها من ۱۱ إلى ۳۴ من تلك السورة سنرى أنّ كل هذه المباحث هى حول (خلق آدم) من تراب ثم إصدار الأوامر للملائكة بالسجود لآدم، ثم اسكانه فى الجنّة وطرده وزوجته منها لتركهم الأولى، ثم هبوطهم إلى الأرض وأوامر اللّه لعموم بنى آدم عليه السلام.

وبعبارة اخرى أنّ المخاطب فى هذه الآيات ليس المسلمين فحسب. بل شرائح المجتمع الإنسانى كافّة وكل أبناء آدم ولا شك، فقد جاء لبنى آدم أنبياء ورسل كثيرون ذكرت أسماء بعضهم فى القرآن الكريم وسجلت كتب التواريخ اسماء البعض الآخر.

ولكن هؤلاء الذين أرادوا الانتفاع من هذه الآية أنكروا الخاتمية من أجل مقاصدهم ومهدوا السبيل أمام مدعى النبوة الكاذبين. وقطعوا تماماً ارتباط الآية بماضيها وصوروها على أنّها خطاب للمسلمين وخرجوا بنتيجة تقول: إنّ على المسلمين أن ينتظروا ظهور نبى جديد.

والملفت للنظر هو أنّ خطاب (يابنى آدم) تكرر عدّة مرات قبل هذه الآية فى نفس سلسلة الآيات، فى الآيات ۲۶ و ۲۷ و ۳۱، فالآية ۲۶ تأتى مباشرة بعد قصة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض والآية ۲۷ تأتى بعدها ثم جاءت الآية ۳۱، وفى المرحلة الرابعة تأتى الآية مورد البحث.

والمثير أيضاً أنّ خطاب (يابنى آدم) غير موجود فى أى خطاب من القرآن إلّافى هذه الآيات الأربع، ويكون الخطاب للمسلمين عادة ب «ياأيها الذين آمنوا» الذى جاء على نفس الصورة فى أكثر من ثمانين موضعاً من القرآن، وأحياناً جاء خطاب أكثر عمومية هو: «ياأيها الناس».

والشاهد الآخر على هذا المدّعى الآية التى نقرأ فيها نفس المضمون بعد مسألة هبوط

نفحات القرآن، ج۸، ص: ۳۲۵

آدم عليه السلام إلى الأرض. تقول: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدىً فَمَنْ تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوفٌ عَلَيهِم وَلَا هُم يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ۳۸)

ومعنى اتيان (الهدى هنا هو نفس معنى (اتيان الرسل).

وجاء المضمون نفسه فى الآية ۱۲۳ من سورة طه، وما يلفت النظر بالخصوص فيها هو أنّ المخاطب فى البداية (آدم) و (حواء) وجملة (اهبطا) جاءت بصورة التثنية- ولكن فى جملة «إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّى هُدىً» فالمخاطب جمع يشمل بنى آدم بلا شك، لأنّ الشيطان لاحَظَّ له من الهداية الإلهيّة مطلقاً، وبناءً عليه لا يمكن أن يكون ضمن المخاطبين فى هذه المجموعة، لأنّه بعد الخطاب يقول: «وَانَّ عَلَيكَ لَعَنتِى إِلَى يَومِ الدِّينِ». (ص/ ۷۸)

أى الذى صدر عقب عناده الشديد حيث لم يبق أى أمل بهدايته، ومعلوم أنّ آدم وحواء شخصان، إذن فالمخاطب هما وبَنوهما.

وهنا نصل إلى ختام الجزء الثامن من تفسير (نفحات القرآن)- مجموعة بحوث النبوة الخاصة- والحمد للّه‌ربّ العالمين.

إلهى! نور قلوبنا دائماً بنور القرآن وسنة النبى صلى الله عليه و آله وأبنائه المعصومين عليهم السلام.

إلهى! مُنَّ علينا بتوفيق إصلاح أنفسنا فى ظل هذه التعليمات المنجية.

ربنا! أزح من دربنا العقبات واهدنا إلى ما يوجب رضاك.

الجزء التاسع

الولاية والإمامة

اشارة

۱- الولاية والإمامة العامة فى القرآن الكريم

۲- الولاية والإمامة العامة فى السنة النبوية الشريفة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶

الولاية والإمامة

تمهيد:

اشارة

إنّ «الولاية» و «القيادة» بشكل عام، «والإمامة» بشكل خاص- والتى تعنى- خلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، هى من أهم الابحاث العقائدية والتفسيرية والروائية فى تأريخ الإسلام، ولم يجر الحديث بشأن اىّ قضية بالقدر الذى جرى بشأن الأمامة على مدى التاريخ الإسلامى.

ومن المؤسف حقاً خروج هذه المسألة عن نطاق الكلام والبحث والاستدلال ودخولها ميادين الصراع والحروب الدموية، وكما يقول بعض المتكلمين:

«ما سلّ فى الإسلام سيف كما سلّ فى الإمامة».

ومن هنا فقد تكامل هذا الجانب من العقائد الإسلامية أكثر من غيره، والِّفت حوله المزيد من الكتب، وجرى تحقيق كافة جوانبه بالنسبة للذين يريدون دراسته بدقة وتفحص، وإن كان البعض من هذه البحوث غير منطقى ويدعو إلى التفرقة والتعصب.

أمّا واجبنا نحن فى مثل هذه المسألة المهمّة والحساسة والواسعة فيتلخص فى مايلى:

۱- عزل البحوث المنطقية والاصولية عن غير المنطقية، والبحوث الاستدلالية والمحققة عن البحوث المليئة بالتعصب، والاستناد إلى الكتاب والسنة، والبرهان والعقل، ومن ثم تنظيمها.

۲- مطابقة المسائل المتعلقة «بالإمامة» مع «الولاية والقيادة» والتى هى من تفرعات الولاية الإلهيّة للمعصومين عليهم السلام.

۳- بالنظراً إلى أنَّ هدفنا الحقيقى فى هذا البحث التفسيرى هو ايضاح هذه المسألة من وجهة النظر القرآنية، فيتحتم علينا التمعن والتفسير الدقيق للآيات المتعلقة بالإمامة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷

وكما يقول بعض الباحثين: «إن قضية الإمامة لا تخص ماضينا، فحسب فهى قضية العالم الإسلامى المعاصر وقضية الامّة، فهى عامل بقاء واستمرار النبوة وقضية الإسلام المصيرية» «۱».

وبالطبع، فإننا نتناول بالبحث أولًا مسألة القيادة فى عالم الوجود ككَل، ثم فى عالم البشرية، ومن ثم نتطرق إلى قيادة الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وفى خاتمة المطاف نتعرض إلى مسألة حكومة وقيادة نوّابهم، ولكن يبدو من الضرورى ذكر بعض الامور:

۱- ماهى الإمامة؟

فيمايتعلق بتعريف الإمامة هنالك اختلاف كثير فى وجهات النظر، ولابدّ من وجود هذا الاختلاف، فالامامة فى نظر طائفة «الشيعة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام» من اصول الدين والاسس العقائدية، بينما تعتبر فى نظر طائفة اخرى «أهل السّنة» من فروع الدين والأحكام العملية.

فمن البديهى أن لا تتشابه نظرة الطائفتين إلى مسألة الإمامة، وأن لا يكون لهما تعريف واحد لها.

من هنا نرى أحد علماء السنة يعرِّف الإمامة هكذا: «الإمامة رئاسة عامة فى امور الدين والدنيا، خلافة عن النبى صلى الله عليه و آله» «۲».

واستناداً إلى هذا التعريف، فالإمامة مسؤولية ظاهرية فى حدود رئاسة الحكومة، وغاية الأمر أنّ الحكومة تتأطَّر بإطارٍ دينى، واتخذت طابع خلافة النبى صلى الله عليه و آله «الخلافة والنيابة فى أمر الحكومة»، وبطبيعة الحال يمكن انتخاب مثل هذا الإمام من قبل الناس.

واعتبر البعض أنّ الإمامة تعنى: «خلافة شخص للنبى صلى الله عليه و آله فى إقامة الأحكام الشرعية

---

(۱) الإمامة والقيادة، تأليف آية اللّه الشهيد المطهرى، ص ۱۳.

(۲) شرح التجريد للقوشجى، ص ۴۷۲

وحراسة الدين بنحوٍ تكون اطاعته واجبة على جميع الامّة» «۱».

وهذا التعريف لا يختلف عن التعريف الأول نوعاً ما، لأنّه يحتوى على نفس المفهوم والمضمون.

كما أنّ ابن خلدون قد سار على نفس هذا المعنى فى مقدمة تاريخه المعروف «۲».

ويقول المرحوم الشيخ المفيد فى «أوائل المقالات» فى بحث العصمة مايلى: «إنّ الأئمّة القائمين مقام الأنبياء فى تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وحفظ الشرائع، وتأديب الأنام معصومون كعصمة الأنبياء» «۳».

فطبقاً لهذا التعريف الذى يجارى مايعتقد به اتباع أهل البيت عليهم السلام أنّ الإمامة أعلى مرتبة وأشمل من الزعامة والحكومة على الناس، بل إنّ جميع مسؤوليّة الأنبياء «سوى استلام الوحى وما شابهه» ثابتٌ للائمة، من هنا فشرط العصمة المتوفر فى الأنبياء متوفر فى الأئمّة أيضاً.

لهذا فقد جرى تعريف الإمامة فى نظر الشيعة كما ورد فى كتاب شرح احقاق الحق كما يلى: «هى منصبٌّ إلهى حائز لجميع الشؤون الكريمة والفضائل إلّاالنبوة وما يلازم تلك المرتبة السامية» «۴».

وبناءً على هذا التعريف، فالإمام ينصب من قبل اللّه تعالى عن طريق النبى صلى الله عليه و آله، ويمتلك نفس الفضائل والخصائص التى يمتلكها النبى صلى الله عليه و آله «عدا النبوة»، ولا ينحصر عمله فى الحكومة الدينية فقط.

لهذا يعتبر الإيمان بالإمامة جزءً من اصول الدين لا من فروع الدين.

---

(۱) الشرح القديم للتجريد لشمس الدين الاصفهانى نقلًا عن توضيح المراد، تعليقة على شرح تجريد الاعتقاد للسيد هاشم الحسينى الطهرانى، ص ۶۷۲.

(۲) مقدمهٔ ابن خلدون، ص ۱۹۱.

(۳) أوائل المقالات، ص ۷۴.

(۴) احقاق الحق، ج ۲، ص ۳۰۰ (الهامش الأول).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹

۲- هل الإمامهٔ من الاصول أم من الفروع؟

یتبیّن جواب هذا السؤال ممّا قیل فی البحث السابق، لأنّ الآراء مختلفهٔ فی مسألهٔ الإمامهٔ، یقول «الفضل بن روزبهان» صاحب «نهج الحق» الذی یعتبر «احقاق الحق» رداً علیه، مایلی: «إنّ مبحث الإمامهٔ عند الأشاعرهٔ لیس من اصول الدیانات والعقائد بل هی عند الأشاعرهٔ من الفروع المتعلقهٔ بأفعال المکلّفین» «۱».

کما أنّ سائر مذاهب أهل السنّهٔ لا یختلفون مع الأشاعرهٔ فی ذلک، لأنّهم یعتبرونها من التکالیف العملیهٔ الموکولهٔ إلی الناس، فی حین أنّ الشیعهٔ واتباع أهل البیت علیهم السلام ونفر قلیل من أهل السنهٔ کالقاضی البیضاوی وبعض من اتباعه یعتبرونها من اصول الدین «۲».

والدلیل هو أنّهم یعدون الإمامهٔ منصباً إلهیاً یجب أن یعین من قبل اللّه تعالی وأحد شروطهاالعصمهٔ التی لا یعلمها إلّااللّه، والإیمان بالائمهٔ واجب کالایمان بالنبی صلی الله علیه و آله البانی الأول لقواعد الشریعهٔ، إلّاأنّ هذا لا یعنی أنّ الشیعهٔ یعتبرون المخالفین لهم فی قضیهٔ الإمامهٔ کافرین، بل إنّهم یعتبرون جمیع الفرق مسلمین، وینظرون إلیهم علی أنّهم اخوهٌ فی الدین، وإن لم‌یقبلوا آراءَهم فی مسألهٔ الإمامهٔ، ومردُّ ذلک لکونهم یقسمون اصول الدین الخمسهٔ إلی قسمین، الاصول الثلاثهٔ الاولی التوحید والنبوهٔ والمعاد علی أنّها اصول الدین، والإمامهٔ والعدل بأنّها اصول المذهب.

نختتم هذا الکلام بحدیث عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام- الذی یعتبر ملهماً لاتباع أهل البیت علیهم السلام- فی مسألهٔ الإمامهٔ: «إنّ الإمامهٔ زمام الدین ونظام المسلمین وصلاح الدنیا وعزّ المؤمنین، إنّ الإمامهٔ اسُّ الإسلام النامی وفرعه السامی بالإمام تمام الصلاهٔ والزکاهٔ والصیام والحج والجهاد وتوفیر الفیء والصدقات وامضاء الحدود والأحکام، ومنع الثغور والاطراف، الإمام یحلُّ حلال اللّه، ویحرّم حرام اللّه، ویقیم حدود اللّه ویذبُ عن دین اللّه، ویدعو إلی سبیل ربّه بالحکمهٔ والموعظهٔ الحسنهٔ والحجهٔ البالغهٔ» «۳».

---

(۱) احقاق الحق، ج ۲، ص ۲۹۴؛ دلائل الصدق، ج ۲، ص ۴.

(۲) دلائل الصدق، ج ۲، ص ۸

(۳) اصول الکافی، ج ۱، ص ۲۰۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰

۳- متی بدأ البحث فی الإمامهٔ؟

اشارهٔ

بعد رحیل النبی صلی الله علیه و آله جری جدلٌ حول من یخلف النبی، فطائفهٔ کانوا یعتقدون بأنّ النبی صلی الله علیه و آله لم ینصب احداً لخلافته، واوکل هذا الأمر إلی الأمهٔ، بأنْ یجلسوا ویختاروا قائداً من بینهم، القائد الذی یمسک بزمام الحکم، ویحکم الناس

باعتباره موكلًا من قبلهم، وإن لم يجر هـذا الاختيار أبـداً، بل إنّ مجموعـة صـغيرة من الصـحابة قامت باختيار الخليفـة فى مرحلـة، وفى المرحلة الاخرى اتخذ انتخاب الخليفة طابعاً تعينياً، وفى المرحلة الثالثة أُوكِلَ هذا الاختيار إلى مجلس من ستة أشخاص كلهم معينون.

ويطلق على اتباع هذا المنحى «أهل السّنة».

وفريق آخر كـانوا يعتقـدون بوجوب تعيين الإمـام وخليفـة النبى صـلى الله عليه و آله من قبـل اللَّه تعالى لأنّه يجب أن يكون مثل النبى صلى الله عليه و آله معصوماً من الزلـل والخطأ، وذا علم خارق للعادة لكى يتحمل قيادة الأمـة معنوياً ومادياً، ويحفظ أساس الإسـلام، ويبيّن مشاكل الأحكام، ويشرح دقائق القرآن، ويعمل على استمرار الإسلام.

ويطلق على هـذه الطائفـة «الإماميـة» أو «الشـيعة»، وقد أخذت هذه الكلمة من الأحاديث المعروفة والصادرة عن النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله.

فقـد روى فى تفسير الدر المنثور وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السـنّة عن جابر بن عبد اللَّه الأنصارى تعقيباً على الآية الكريمة: «اولئـكَ هُم خَيرُ البَرِيّـةِ»، أنّه قال: كنّا عنـد النبى فأقبل على عليه السـلام فقال النبى صـلى الله عليه و آله: «والـذى نفسـى بيـده أنّ هـذا وشيعته لهم الفائزون يوم القيامة»، ونزلت: «انَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اولئكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ». (البينة/ ۷)

فكان أصحاب النبى صلى الله عليه و آله إذا أقبل على، قالوا جاء خير البرية «۱».

ويروى الحـاكم النيسـابورى وهو من علمـاء أهـل السـنة المعروفين فى القرن الخـامس الهجرى هـذا المعنى فى كتابه المعروف شواهد التنزيل بطرق مختلفة عن النبى صلى الله عليه و آله، وقد

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۳۷۹، ذيل الآية ۷، من سورة البينة.

تجاوز عدد رواياته العشرين.

منها مانقله عن ابن عباس، لما نزلت آية: «انَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ اولئكَ هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ»، قال النبى صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام: «هم أنت وشيعتك» «۱».

وجاء فى روايـة اخرى عن أبى بريـدة: لما تلا النبى صـلى الله عليه و آله هـذه الآية، قال لعلى عليه السـلام: «هم أنت وشـيعتك ياعلى» «۲».

كما ذكر هذا الحديث الكثير من علماء الإسلام لاسيما من أهل السنّة مثل ابن حجر فى صواعقه ومحمد الشبلنجى فى نور الأبصار «۳».

بناءً على شهادة هذه الروايات، فإنّ النبى صلى الله عليه و آله هو الذى إختار لأتباع على عليه السلام ومحبيه هذه التسمية «الشيعة»، فهل يبقى مجال للعجب فى انزعاج البعض من هـذا الاسم ويعتبرونه شؤماً ونحساً، ويعـدون حرف (الشـين) الـذى فى مطلعه سـبباً «للشـر» و «الشؤم» وسـائر الألفاظ التى تبتـدئ بحرف الشـين؟! على الرغم من أنّ حرف (السـين) فى مطلع اسم المـذهب الآخر، تبترئ به كلمات من قبيل (السُمّ) و (السَرطان) و (السِلّ) و (السَفاحة) وغير ذلك.

إنّ هذه التعابير تعتبر بحق مثيرة للدهشة بالنسـبة للباحث الذى يرغب فى أن يسير فى ظل البراهين المنطقية دائماً. والحال يمكن اختيار كلمات حسنة أو سيئة لكل حروف الهجاء بدون استثناء.

على أيّة حال فتاريخ ظهور الشـيعة ليس بعد ارتحال النبى صلى الله عليه و آله بل فى حياته صلى الله عليه و آله، حين اطلق هذه الكلمة على محبى واتبـاع على عليه السـلام، وكـلُّ الـذين يعتقـدون بالنبى صـلى الله عليه و آله أنّه رسول اللَّه، يعرفون أنّه لا يتكلم عن الهوى «وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوى إنْ هُوَ إلَّا وَحىٌ يُوحى .

(النجم/ ۳- ۴)

وإذا ما قال لعلی علیه السلام: أنت وشیعتک المفلحون یوم القیامة فهذه حقیقة.

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۳۵۷.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۵۹.

(۳) الصواعق، ص ۹۶؛ ونور الابصار ص ۷۰ و ۱۰۱، ومن أجل المزید من الاطلاع علی رواة هذا الخبر والکتب التی ذُکر فیها راجعوا من احقاق الحق، ج ۳، ص ۲۸۷ وما بعدها والجزء ۱۴، ص ۲۵۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲

اصطلاح «الإمام» فی اللغة والقرآن:

کلمة إمام کما قال أرباب اللغة، هی اسم مصدر علی وزن «کتاب» وتطلق علی کل ما یتجه إلیه الإنسان ویقصده، ویختلف معنی هذه الکلمة باختلاف الموارد والجهات التی یستفاد منها لدی استعمالها فیها.

فتارة یقال: إمام الجمعة، وإمام الجماعة، وإمام الهدی واخری یقال: إمام الضلالة «۱».

وقد جاءت هذه الکلمة فی الأصل من مادة «أمَّ» وتعنی القصد، یقول صاحب مقاییس اللغة: «أمّ» تعنی الأصل والمرجع والجماعة والدین، والإمام تعنی منْ یُؤتمُّ به وهو إمام فی الأفعال.

کما ذکرت معان کثیرة لکلمة إمام فی لسان العرب، منها الإمام، المعلم، والشاقول الذی یستخدم أثناء تشیید المبانی لتنظیم العمل، والسبیل، والمقدمة ونحو ذلک.

إلّا أنَّ مؤلف التحقیق، ارتأی أنَّ أصل جمیع هذه المعانی هو القصد المقترن بالاهتمام الخاص، وحتی لو قیل للام «أماً» أو اطلقت کلمة «أم» علی أصل وقاعدة کلِّ شیء فهو لأنها غایة الإنسان ومرامه، کما تفید کلمة الإمام معنی المقتدی أی من یقصده الناس ویبدون عنایةً خاصة به.

ولابدّ من التذکیر بهذه الملاحظة وهی أنّ هذه الکلمة وجمعها «أئمّة» قد وردت فی القرآن الکریم اثنا عشر مرّة تماماً «سبع مرات بصیغة المفرد وخمس مرات بصیغة الجمع».

ففی مورد جاءت بمعنی اللوح المحفوظ: «وَکُلَّ شَیءٍ احْصَیْنَاهُ فِی امَامٍ مُبِینٍ». (یس/ ۱۲)

ولأنه قائد ودلیل الملائکة لتمییز أعمال العباد، وکلهم یستلهمون منه، واستخدمت أیضاً مرّة واحدة بمعنی السبیل والطریق: «وَانَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِینٍ». (الحجر/ ۷۹)

لأنّ الإنسان ومن أجل بلوغ هدفه یهتم بالسبل، وقد اطلق علی التوراة بأنّها إمام الیهود مرتین: «وَمِنْ قَبْلِهِ کِتَابُ مُوسَی امَامَاً وَرَحْمَةً». (الاحقاف/ ۱۲) (هود/ ۱۷)

واطلقت خمس مرات علی الأئمّة الصالحین مثل قوله: «قَالَ انِّی جَاعِلُکَ لِلنَّاسِ امَامَاً». (البقرة/ ۱۲۴)

---

(۱) التحقیق، مادة (أمّ).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳

وفی مکان آخر یقول تعالی بشأن فئة من الأنبیاء: «وَجَعَلْنَاهُم ائمَّةً یَهْدُونَ بِامْرِنَا».

(الأنبياء/ ۷۳)

كما ورد هذا المفهوم العام والجامع فى الآيات (۷۴ من سورة الفرقان، و ۵ من سورة القصص، و ۲۴ من سورة السجدة أيضاً).

وذكرت أيضاً بمعنى أئمّة الكفر والضلالة فى مورد واحد: «فَقَاتِلُوا ائِمَّةَ الكُفْرِ».

(التوبة/ ۱۲)

واطلقت أيضاً فى حالة واحدة على مفهوم يشمل أئمّة الهدى والضلال: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ انَاسٍ بِإِمَامِهِم». (الاسراء/ ۷۱)

على أيّة حال، فموارد استخدام هذه الكلمة فى القرآن اثنى عشر مورداً تماماً.

۴- عظمة منزلة الإمام فى القرآن الكريم

إنّ مسألة الإمامة والقيادة كما سنتطرق إليها فيما بعد ليست مسألة دينية وتشريعية فحسب، بل إنّ عالم الخلق والتكوين يخضع لها، اللّه هو إمام عالم الوجود ومكوناته المختلفة، وهو يهديها ويدبرها جميعاً.

ويعطى القرآن الكريم أهميّة خاصة للإمامة ويعتبرها آخر مرحلة من مسيرة تكامل الإنسان، لم يصلها إلّااولوا العزم من الأنبياء، إذ يقول تعالى «وَاذِ ابتَلَى ابرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَاتَمَّهُنَّ قَالَ انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَتِى قَالَ لايَنَالُ عَهدِى الظَّالِمِينَ».

(البقرة/ ۱۲۴)

هنالك جدل كثير بين المفسرين حول هذه الكلمات التى اشير إليها فى مطلع الآية، وكما يقول صاحب روح المعانى: لقد ذكروا حولها ثلاثة عشر قولًا «۱».

إلّا أنّ ما يبدو صحيحاً هو أنّ المراد من هذه الكلمات هو «الأوامر والنواهى» التى تلقى

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۳۶.

التكاليف الثقيلة والصعبة على كاهل إبراهيم عليه السلام، ليتمحص- جيداً- فى الابتلاء، وهى عبارة عن التصدى الشجاع لعبدة الأوثان، وتحطيم الأصنام، وإلقائه فى النار، والاستقامة والثبات فى جميع هذه المراحل.

وكذلك الاستعداد للتضحية بفلذة كبده، والتوجه به إلى مكان الذبح ووضع السكين على رقبته، ولم ينشغل بعياله وتركهم فى صحراء مكة القاحلة الرمضاء، غير المسكونة، وأخيراً الهجرة من بلاد عبدة الأوثان والتخلى عن الحياة من أجل أداء رسالته، وحقاً أنَّ كلًا منها كان اختباراً قاسياً وصعباً، إلّاأنّ إبراهيم قد خرج من جميع تلك الاختبارات ظافراً وذلك بفعل قوة الإيمان والثبات والصبر.

وقد أحصى بعض المفسرين الموارد التى ابتلى بها إبراهيم أنّها بلغت ثلاثين ابتلاءً، ويقولون: إنّ هذه الموارد الثلاثين قد ذُكرت فى ثلاثة آيات من القرآن الكريم، فقد ذُكرت «عشرة منها» فى الآية ۱۲۳ من سورة التوبة، و «عشرة» فى الآية ۳۵ من سورة الأحزاب، وذُكرت «عشرة منها» فى الآيات ۱ إلى ۹ من سورة «المؤمنون» إذ يصبح مجموعها ثلاثين وصفاً أو ثلاثين مادة امتحانية «۱» ولكن نظراً إلى أنّ جانباً مهماً من هذه الصفات قد تكرر ذكره وأنّ عددها لا يصل إلى الثلاثين، فإنّ هذا الكلام لا يحظى بالقبول نوعاً ما.

على أيّة حال فقد خرج إبراهيم بطل تحطيم الأصنام، والنبى المخلص والمضحى ظافراً من جميع تلك الابتلاءات القاسية والصعبة فاستحق ارتداء جلباب الإمامة، وشرفه اللّه بهذا الخطاب المفعم بالفخر: «انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَامَاً».

ما هو هذا المقام الذى ناله إبراهيم فى آخر عمره بعد نيله مقام النبوة والرسالة، وبعد ذلك الجهاد الطويل؟

من المسلم به أنّه كان أسمى وأرفع منها جميعاً، فمن اجتاز ذلك الاختبار الصعب يستحق هذه المكرمة الإلهيّة.

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱، ص ۳۳۵ (وقد اضاف عليها بعض المفسرين سورة المعارج وقالوا: إنّها جاءت فى أربع سورٍ من القرآن).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵

لقد كان للمفسرين جدالٌ طويل فى تفسير معنى الإمامة، وحيث إنّ بعضهم لم يستطع بلوغ أسرار المعنى السامى لهذه الكلمة، فقد وقعوا فى متاهات عجيبة.

والأعجب من ذلك هو أنّ طائفة من مشاهير المفسرين قد فسّروها بمعنى النبوة، بينما من المسلم به أنّ إبراهيم عليه السلام كان نبياً وقتذاك، وقد فاتت سنوات على نبوته ورسالته، وأصبح ذا ذرية، وفى سياق الآية يطلب الإمامة لأبنائه وذريته أيضاً.

يرى الكثير من المفسرين أنّ الكلمات التى ابتلى اللّه تعالى بها إبراهيم عليه السلام كانت عبارة عن مجموعة من التعاليم والأوامر التى أمره بها اللّه تعالى كمقارعة عبدة الأوثان وبناء الكعبة وذبح ابنه، إلّاأنّهم والحالة هذه قد فسّروا الإمامة بالنبوة، مع العلم أنّ هذه الأوامر وهذه التضحيات كانت بعد بلوغ إبراهيم عليه السلام مقام النبوة، وأنّ عبارة: «انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَامَا» غامضة تماماً فى تفسيرهم.

والمعنى الآخر الذى قالوه بصدد الإمامة هو وجوب الطاعة، ولا يخفى أنّ إطاعة كل نبى واجبة ولا حاجة له إلى نيل مقام آخر «۱».

وقد ذكر البعض تفسيراً ثالثاً لها وقالوا: المراد هو الرئاسة فى امور الدين والدنيا، أو بتعبير آخر: زعامة الحكم.

إنّ هذا التفسير وإن كان أفضل من سابقيه إلّاأنّه لم يدخل إلى عمق معنى الإمامة.

وحسب اعتقادنا واستناداً إلى سائر آيات القرآن التى تبحث فى مجال الإمامة، فإنّ المقصود بالإمامة هنا أنّها مقام أسمى وأرفع من هذا كله، وهو تطبيق الأحكام، وتنفيذ الحدود الإلهيّة، وتربية وتهذيب ظاهر وباطن الإنسان.

وللتوضيح أكثر أنّ الهدف من بعثة الأنبياء وارسال الرسل هو هداية المجتمع البشرى، وهذه الهداية تتخذ بعدين، الأول: الهداية التى تعنى «اراءة الطريق» أىما كلف به أىُّ نبىٍّ من الأنبياء، والثانى: «الايصال إلى المطلوب» وهو يتفرع إلى فرعين:

---

(۱) ذكر تفاسير روح البيان؛ والكشاف والمراغى؛ والقرطبى؛ والمنار؛ سُنن إبراهيم العشرة المعروفة؛ والأوامر والنواهى الإلهيّة، ومجموعة هذه التعليمات.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶

الفرع الأول: الهداية التشريعية، وتطبيق الأحكام الدينية، سواء عن طريق إقامة الحكم وتطبيق الحدود والأحكام الإلهيّة والعدالة الاجتماعية، أو عن طريق تربية وتعليم النفوس بشكل عملى، وكلاهما يؤدّى إلى تحقيق اهداف الأنبياء، ويحتاج إلى مخطط مرهق وصعب للغاية، وإلى مواصفات كثيرة كالعلم والتقوى والشجاعة والإدارة.

الفرع الثانى: الهداية التكوينية والهداية إلى المطلوب من خلال التأثير والنفوذ المعنوى والروحى وتوجيه شعاع الهداية إلى افئدة ذوى الاستعداد من الناس، وهذا يتطلب من أىّ نبىّ أو إمام أن يكون حسن السيرتين، الظاهرية والباطنية وهى التى كانت للأنبياء والأئمّة ازاء أتباعهم، ومن المسلم به أنّ مثل هذا الأمر يتطلب المزيد من المواصفات والمزايا والقابليات.

فمجموع هذين المخططين يحقق أهداف الدين والرسالات الإلهيّة، ويوصل ذوى الاستعداد من البشر إلى التكامل المادى والمعنوى، الظاهرى والباطنى، وهذا هو المراد من الإمامة فى الآية المذكورة، ولم ينل إبراهيم عليه السلام هذا المقام من دون أن يؤدّى الامتحان لنيل تلك المؤهلات والصفات.

ويستفاد ممّا تقدم أنّ مقام «الإمامة» يشترك مع مقام «النبوة» فى الكثير من الحالات، وبإمكان نبىّ من اولى العزم كإبراهيم أن يبلغ مقام الإمامة أيضاً، والأكثر وضوحاً من ذلك هو أنّ اجتماع مقام «النبوة» و «الرسالة» و «الإمامة» فى خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله متحقق فعلًا.

ويمكن أن ينفصل مقام الإمامة عن مقام النبوة والرسالة، كما فى الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين يعلمون مسؤولية الإمامة فقط، من دون أن ينزل عليهم الوحى ويكونوا «رسلًا» أو «أنبياء».

على أيّة حال، فمن خلال مطلع هذه الآية تتضح جيداً عظمة مقام الإمامة، وأن تعيين الإمام من قبل اللَّه تعالى «قَالَ انِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَاماً».

وذيل هذه الآية يوكّد كثيراً على هذا الموضوع، فهو يقول: إنّ إبراهيم عليه السلام لما أُعطى هذا المقام قال: «ومن ذرّيتى».

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷

فجاءه الخطاب قائلًا: «لا ينال عهدى الظالمين»، أى أن النفر من ذرّيتك الذين لم يظلموا، وكانوا معصومين ومطهرين هم المؤهلون لهذا المنصب فقط.

لا شك فى أنّ الظلم فى هذه العبارة ليس ظلم الآخرين فحسب، بل الظلم بالمعنى الشامل الذى يقابل العدالة، و «العدالة» بمفهومها الواسع تعنى وضع الشيء فى محله، والظلم يعنى وضعه فى المحل الذى لا يناسبه، لذا ينقل القرآن الكريم عن لسان لقمان حيث يقول لابنه: «يَا بُنَيَّ لَاتُشْرِكْ بِاللَّهِ انَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ». (لقمان/ ۱۳)

كما يتضح أنّ العدالة هنا تعنى العدالة التامة، أو بتعبير آخر مقام العصمة الذى يتناسب والإمامة بمفهومها الشامل، وإلّا فالعدالة القابلة للنقص والاقتران بالذنب لا تتلائم مع مقام الإمامة بمعناها الرفيع أبداً.

وبناءً على ذلك يمكن الاستدلال بالآية أعلاه لإثبات عصمة الإمام أيضاً، بَيدَ أنّ الكلام فى الصفات هل يكون مقروناً بالعدالة وترك جميع أشكال الذنب مدى الحياة، أم أثناء التصدى للإمامة؟ فالبعض واستناداً إلى البحث الاصولى المشهور من أنّ فى المشتق الحقيقى «من تلبس بالمبدأ» هو فى حال النسبة- أى حينما ننسب صفة من الصفات لأحد يجب أن يمتلك تلك الصفة فى حال نسبتها إليه، فمثلًا تطلق كلمة القائم على الذى يتمتع بصفة القيام أثناء نسبة هذه الصفة إليه، ولا تطلق على الذى كان قائماً وقد جلس الآن- يعتقد أنّ مفهوم الآية هو عدم تمتعه بصفة الظلم أثناء توليه الإمامة، لا بشرك ولا بذنب، وليس ملوثاً بأى معصية اخرى وعليه فالعدالة والعصمة لا تشمل بداية الحياة.

إلّا أننا نقرأ فى الروايات أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام واتباعاً لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد استدلوا بهذه الآية على العدالة فى جميع مراحل العمر: إذ ينقل عبد اللَّه بن مسعود عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّ اللَّه تعالى قال لإبراهيم عليه السلام: «لا اعطيك عهداً للظالم من ذريتك، قال: ياربّ ومن الظالم من ذرّيتى الذى لا ينال عهدك؟ قال من سجد لصنم من دونى لا اجعله إماماً أبداً ولا يصلح أن يكون إماماً» «۱».

---

(۱) أمالى الشيخ المفيد، (مطابق لنقل تفسير البرهان ج ۱، ص ۱۵۱ ح ۱۳).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸

وقد نقل هذا المعنى ابن المغاربى عالم أهل السّنة المعروف فى كتاب «المناقب» عن ابن مسعود عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله مع قليل من الاختلاف، إذ يقول: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى تفسير هذه الآية: قال اللَّه تعالى لإبراهيم عليه السلام ما معناه: «مَنْ سَجدَ لصنم من دونى لا اجعله إماماً».

ثم أضاف صلى الله عليه و آله: «وانتهت الدعوة إلىَّ وإلى أخى على، لم يسجد أحدنا لصنم قط» «۱».

وقد نقلت روايات اخرى عن طريق ائمة أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتبرة بهذا الصدد أيضاً، وتضم مجموعة هذه الروايات هذه النكتة وهى: إنّ النبى إبراهيم عليه السلام كان أعلم وأذكى من أن يسأل اللَّه الإمامة للذين كانوا مشركين أو ظالمين، ولم تكن هنالك حاجة للرد عليه بأنّ الظالمين لا تشملهم هذه الهبة، لأنّ الأمر واضح.

فعلى هذا الأساس، لو سأل اللّه شيئاً فمن المسلم به أنّه كان للذين كانوا ظالمين أو مشركين فى وقت ما ثم تابوا واصلحوا، وفى هذا المجال سمع الجواب بأنّ عهد الإمامة لا يشمل مثل هؤلاء، أى أن لا يكونوا ذوى سابقة فى الظلم والشرك.

يقول المفسر الشهير العلّامة الطباطبائى فى «الميزان»: «سأل بعض أساتذتنا عن تقريب دلالة الآية على عصمة الإمام، فأجاب: إنّ الناس بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام:

۱- من كان ظالماً فى جميع عمره.

۲- من لم يكن ظالماً فى جميع عمره.

۳- من هو ظالم فى أول عمره دون آخره.

۴- ومن هو بالعكس.

وإن إبراهيم عليه السلام أجلُّ شأناً من أنْ يسأل الإمامة للقسم الأول والرابع من ذرّيته، فبقى قسمان، وقد نفى اللّه أحدهم (وهو الذى يكون ظالماً فى أول عمره دون آخره، فبقى الآخر) وهو الذى يكون غير ظالم فى جميع عمره .. (تأملوا جيدا)» «۲».

وقد اعترف الفخر الرازى فى تفسيره بأنّ الآية دليل على عصمة الأنبياء، واللطيف هو

---

(۱) المناقب لابن المغازلى، مطابق لنقل تفسير الميزان ج ۱، ص ۲۷۸ فى ذيل الآية مورد البحث.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱، ص ۲۷۴.

«إنّه يثبت هذا الأمر من خلال وجوب عصمة الإمام وأنّ كل نبى إمام» (تأملوا جيداً أيضاً) «۱».

وبطبيعة الحال يستفاد من هذه الآية مطالب اخرى بشأن الإمامة ووجوب عصمة الإمام، وتنصيبه من قبل اللّه وغير ذلك مما لا يسع المقام لبحثه.

والآن وعلى ضوء ما مرّ تتضح عظمة وجلالة الإمامة فى نظر القرآن الكريم، وقد كان غرضنا هنا بيان هذه النقطة.

۵- فلسفة وجود الإمام

بالرغم من اتضاح فلسفة وجود الإمام بنحو إجمالى فى البحث السابق من خلال الاستعانة بالآيات المتعلقة بإمامة إبراهيم عليه السلام إلّاأنّ هذا الموضوع مهم إلى الحد الذى يتطلب فتح بحث مستقل له.

وبشكل عام فإنّ الكثير من الامور التى تذكر على أنّها الأهداف من بعثة الأنبياء أو فلسفة وجودهم، تصدق بحق الإمام أيضاً.

لقد تطرق الخواجة نصير الدين الطوسى قدس سره إلى بيان فلسفة بعثة الأنبياء فى فصل النبوة من كتاب تجريد الاعتقاد وأشار العلّامة الكبير الحلّى فى شرح ذلك الكلام إلى تسع نقاط من هذه الفلسفة إجمالًا ندرجها كما يلى، ونضعها أمام القارىء الكريم، وكما سنلاحظ فإنّ الكثير منها يصدق على قضية تعيين الأئمّة المعصومين عليهم السلام أيضاً:

۱- ترسيخ المعرفة العقلية عن طريق البيان النقلى، من هنا فإنّ الإنسان يدرك الكثير من الحقائق سواء فى الاصول أو فى فروع الدين من خلال القوة العقلية، إلّاأنَّ الوساوس قد تغزو قلبه أحياناً، وهذا الاضطراب يحول دون أدائها، أما إذا تم تأييد وترسيخ هذه الأحكام العقلية بكلام الأئمّة المعصومين فستزال جميع أشكال الغموض والاضطراب، ويسعى الإنسان لأدائها برباطة جأش.

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۴، ص ۴۳.

۲- فی بعض الأحیان یحذر الإنسان من القیام ببعض الأعمال وذلک لخوفه من الإتیان بتصرف فی حدود سلطة اللّه وهیمنته مخالف لإرادته فیکون کلام الإمام رافعاً لذلک الحذر والخوف.

۳- لا تجتمع اعمال الإنسان فی حدود «الحسن والقبح العقلیین»، وما أکثر الامور التی لا یدرک عقل الإنسان حسنها وقبحها، فهنا لابدّ من الاقتداء بالقادة الإلهیین، لإدراک حسنها وقبحها.

۴- إنّ بعض الأشیاء نافع وبعضها الآخر مضرٌ، ولا قدرة للإنسان علی إدراک نفعها وضررها من خلال تفکیره فقط بدون إرشاد القادة الإلهیین، فهنا یشعر بالحاجة إلیهم.

۵- إنّ الإنسان موجودٌ اجتماعی، وهو عاجز عن حل مشاکل حیاته بدون التنسیق والتعاون مع الآخرین، ومن المسلَّم به أنَّ المجتمع لن یستقیم ولن یبلغ الکمال المطلوب مالم یمتلک القوانین التی تحافظ علی حقوق جمیع الأشخاص، وتأخذ بأیدیهم نحو الصراط المستقیم، فتشخیص هذه القوانین بشکل صائب ومن ثم تطبیقها لن یحصل إلّاعن طریق القادة الواعین والطاهرین والمعصومین.

۶- إنّ الناس یتفاوتون فی إدراک الکمالات وکسب العلوم والمعارف والفضائل، فالبعض یمتلک القدرة علی السیر فی هذا الطریق، والآخر عاجزٌ، فالقادة الإلهیون یقومون بترسیخ الفئة الاولی وإعانة الفئة الثانیة کی تصل الفئتان إلی الکمال الممکن.

۷- إنّ النوع الإنسانی بحاجة إلی مستلزمات وصناعات وعلوم، ویستطیع القادة الربانیون تأمین هذه المستلزمات وذلک من خلال توجیه المجتمع نحو الحصول علیها.

۸- إنّ المراتب الأخلاقیة متفاوتة لدی الناس، والسبیل الوحید لتنمیة هذه الفضائل هو سبیل القادة الإلهیین الطاهرین والمعصومین.

۹- إنّ الأئمّة مطلعون علی الثواب والعقاب والأجر والجزاء إزاء الطاعة والمعصیة، وعندما یُعلِّمون الآخرین هذه الامور فهم یخلقون لدیهم حافزاً قویاً لأداء الواجبات «۱».

---

(۱) شرح التجرید، ص ۲۷۱ (مع قلیل من الاختصار والاقتباس).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱

ونظراً إلی أنّ الأئمّة لیسوا سوی استمرار لخط النبوة، فإنّ أغلب هذه الفلسفات بالإمکان تحقیقها بواسطة الأئمّة المعصومین علیهم السلام أیضاً.

وفی القرآن الکریم تتلخص هذه الامور بل وحتی أکثر منها فی ثلاثة مواضیع وهی:

«التعلیم» و «التربیة» و «القیام بالقسط» التی اشیر إلیها فی آیات عدیدة، فیقول تعالی بشأن الفلسفة من بعثة النبی صلی الله علیه و آله «هُوَ الَّذِی بَعَثَ فِی الامّیّینَ رَسُولًا مِّنْهُم یَتْلُوا عَلَیهِم آیَاتِهِ وَیُزَکِّیهِمْ وَیُعَلِّمُهُمُ الکِتَابَ وَالحِکمَةَ وَانْ کَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِی ضَلَالٍ مُّبِینٍ». (الجمعة/ ۲)

فقد تمّت الإشارة هنا إلی مسألة «التعلیم» و «التربیة» التی هی أهم أهداف الأنبیاء والأئمّة المعصومین علیهم السلام.

وفی مکان آخر یقول تعالی «لَقَدْ ارْسَلنَا رُسُلَنَا بالبَیِّنَاتِ وَانْزَلْنَا مَعَهُمُ الکِتَابَ وَالمِیزَانَ لِیَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ». (الحدید/ ۲۵)

وقد اشیر هنا إلی العدالة الاجتماعیة والقیام بالقسط الذی یوفر الأرضیة المناسبة «للتعلیم» و «التربیة» الصحیحة.

نعم، فالزعماء العادیون فی العالم یفکرون:

أولًا: بصیانة مکانتهم ومصالحهم الشخصیة أو الحزبیة، لهذا فهم دائماً یضحون بمصالح المجتمعات البشریة من أجل مصالحهم الخاصة، أمّا القادة الطاهرون والمعصومون واتباعهم فهم وحدهم الذین یستطیعون المحافظة علی حقوق الإنسان والمصالح العامة للمجتمع الانسانی کما ینبغی.

ثانیاً: هَب أنّ الزعماء غیر الربانیین یریدون تطبیق العدالة وقیادة المجتمعات البشریة نحو الکمال المطلوب، فإنّ تشخیص هذه الامور

فى الكثير من الحالات غير ممكن بالنسبة لهم، فهم يستطيعون فى هذه الحالة أن يشخصوا الامور ولكنّ تشخيصهم ناقص وغير دقيق.

وهذا الأمر- التشخيص الدقيق- ممكن فقط بالنسبة للقادة الربانيين الذين يعتمدون على البحر اللامتناهى من العلم الإلهى.

وقد أثبتت تجربة السبعين سنة من الحكم الشيوعى على نصف سكان الكرة الأرضية

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲

هذه الحقيقة بوضوح، فلقد كرسوا أوسع وأعظم جهاز اعلامىّ لترسيخ دعائم الماركسية، وقدموا الملايين من الكتب والكراسات والمقالات والخطب على هذا الصعيد، وزعموا بأنّ الشيوعية هى الطريق الوحيد لحل مشاكل المجتمع البشرى وتأمين العدالة الاجتماعية، وتكامل النوع الإنسانى، وأفضل وسيلة للتفسير الصحيح للتاريخ والعلوم الاجتماعية، وقمعوا المعارضين لهم بشتى الأساليب، لكننا رأينا أنّها لم تجلب سوى التعاسة والتخلف والديكتاتورية، وفى خاتمة المطاف اضطر مفكروهم إلى الاعتراف بأنّ ما كانوا يتصورونه الطريق الحقيقى للسعادة لم يكن إلّاانحطاطاً وتخلفاً للمجتمع الإنسانى! وربّما لم يشهد التاريخ نظيراً لهذه القضية، إذ تدافع طائفة كبيرة من المفكرين والعلماء واساتذة الجامعات عن عقيدة ما، وفى النهاية يتضح أنَّ ماكانوا يؤمنون به فارغٌ من أى محتوى

فما الضمان لعدم حدوث مثل هذه الحالة فى المستقبل، وعدم تلوث عقائد المجتمع الإنسانى بهذه الأفكار المضلّة؟

ومن هنا تبرز ضرورة الاستفادة من أفكار الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام المصانين من الزلل والخطأ من قبل اللَّه تعالى

وخلاصة الكلام هى أنّ الإله الذى خلق النوع الإنسانى وأمره بالسير فى طريق الكمال والسعادة، وأرسل الأنبياء المعصومين الذين يتلقون الأوامر الإلهيّة بواسطة الوحى، من أجل «تبيين الطريق» و «الايصال إلى المطلوب»، فلابدّ أن يجعل أئمّة معصومين لخلافة الأنبياء بعد رحيلهم وذلك من أجل استمرار هذا الطريق، وليعينوا المجتمع البشرى فى الهداية إلى الطريق والايصال إلى المطلوب، ومن المسلم به أنَّ هذا الهدف سيبقى ناقصاً بدونهم للأسباب التالية:

أولًا: من المتيقن أنّ العقول البشرية لا تستطيع تشخيص جميع عوامل وأسباب التقدم والرّقى وحدها، وقد لا تشخص عُشر ذلك.

ثانياً: ربّما يتعرض دين الأنبياء بعد ارتحالهم لانواع التحريف، فلابدّ من الحرّاس المعصومين والربانيين ليحافظوا عليه ويحولوا بين تحريف المبطلين وبين بلوغ مآربهم،

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳

وآراء الجهلة وتفسيرات أصحاب الأهواء والمآرب.

وهذا ما يشير إليه الحديث المعروف الوارد فى اصول الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إنَّ فينا أهل البيت فى كل خَلف عُدولًا ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» «۱».

وكذلك ما أشار إليه الإمام على عليه السلام فى احدى كلماته القيمة، إذ يقول: «اللّهم بلى لا تخلو الأرض من قائم للَّهبحجّة إمّا ظاهراً مشهوراً، وإمّا حافياً مغموراً لئلا تبطُل حجج اللَّه وبيناته» «۲».

ثالثاً: من المتعذر اقامة الحكومة الإلهيّة التى توصل الإنسان إلى الغاية التى خلق من أجلها، إلّاعن طريق المعصومين، لأنّ الحكومات البشرية- ووفقاً لشهادة التاريخ- كانت غالباً ما تسير فى خط المصالح الشخصيه، أو الفئوية، وأنّ جميع مساعيها كانت فى هذا الاتجاه، وكما جرّبنا مراراً وتكراراً أنّ شعارات «الديمقراطية» و «حكم الشعب للشعب» و «حقوق الإنسان»، وما شابه ذلك ماهى إلّاقناعٌ للوصول إلى أهدافهم الشيطانية عن طريق أسهل، فقد فرضوا أغراضهم على الشعوب بشكل خفى ومن خلال استغلال هذا المنطق وهذه الأدوات.

إنّ هذه الاصول الثلاثة أى «تبيين الطريق» الذى يعجز العقل عن تشخيصه، و «المحافظه على ميراث الأنبياء» و «إقامة حكومة العدل»، تمثل بالواقع الاسس الحقيقية لفلسفة وجود الإمام المعصوم.

ونختم هذا الحديث بكلام للإمام على بن موسى الرضا عليه السلام حيث يعتبر من أكثر الكلمات شمولية فيما يتعلق بفلسفة الإمامة، وحديث من نهج البلاغة لأمير المؤمنين عليه السلام:

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۳۲، باب صفة العلم، ح ۲.

(۲) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ۱۴۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴

الحديث الأول الذى تحدث به عليه السلام يوم الجمعة فى المسجد الجامع فى مدينة (مرو) بحضور حشد من الناس، يتناول مسائل كثيرة، نشير هنا إلى جانب منه، قال عليه السلام:

«إنّ الإمامة هى منزلة الأنبياء، وإرث الأوصياء، إنّ الإمامة خلافة اللّه وخلافة الرسول ... الإمام البدر المنير، والسراج الزاهر، والنور الساطع، والنجم الهادى فى غياهب الدجى ... الإمام الماء العذبُ على الظماء والدال على الهدى والمنجى من الردى ... الإمام السحاب الماطر، والغيث الهاطل، والشمس المضيئة ... الإمام أمين اللّه فى خلقه، وحجته على عباده، وخليفته فى بلاده ... نظام الدين، وعز المسلمين، وغيظُ المنافقين، وبوار الكافرين» «۱».

وفى عبارة قصيرة يصور أمير المؤمنين عليه السلام روح الإمامة، فيقول:

«ومكان القيّم بالأمر مكان النظام من الخرز، يجمعه ويضمه، فاذا انقطع النظام تفّرق الخرز والذهب ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً» «۲».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۰۰، باب نادر جامع فى فضل الإمام.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۴۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵

۱- الولاية والأمامة العامة فى القرآن الكريم

تمهيد:

هنالك بحثان مستقلان فى موضوع الولاية وهما:

۱- «الولاية العامة» أىلابدّ من وجود إمام بين الناس منصَّب من قبل اللّه، دائماً وفى كل عصر، سواءً كان يتمتع بمقام النبوة والرسالة، أو بمقام الولاية فقط.

۲- «الولاية والإمامة الخاصة» أىمن الذى يتصدى لهذا المنصب والمقام الإلهى بعد النبى صلى الله عليه و آله؟

وبتعبير آخر: كما أنّ النبوة تتفرع إلى «نبوة خاصة» و «نبوة عامة»، فكذلك الإمامة.

وقد ورد فى القرآن الكريم مايشير إلى الولاية العامة ندرجه فيما يلى:

۱- «انَّمَا انْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلّ قَوْم هَادٍ». (الرعد/ ۷)

۲- «يَا ايُّهَا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ». (التوبة/ ۱۱۹)

۳- «اطِيعُوا اللّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاولِى الأَمرِ مِنْكُم». (النساء/ ۵۹)

آية الانذار والهداية:

ففی الآیة الاولی یخاطب اللّه تعالی النبی صلی الله علیه و آله: «انَّمَا انْتَ مُنذِرٌ وَلِکَلّ قَومٍ هَادٍ».

ینقل الفخر الرازی ثلاثة أقوال فی تفسیر هذه الآیة:

الأول: إنّ «المنذر» و «الهادی» شیء واحد، وعلیه یکون مفهوم الآیة کما یلی:

«انَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَهادٍ لِکُلِّ قَومٍ».

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶

الثانی: المنذر هو النبی صلی الله علیه و آله والهادی هو اللّه تعالی

الثالث: المنذر هو النبی صلی الله علیه و آله والهادی هو علی علیه السلام، إذ یقول ابن عباس: إنّ النبی قد وضع یده علی صدره وقال: «أنا المنذر ثم أومأ إلی منکب علی علیه السلام وقال: أنت الهادی یاعلی، بک یهتدی المهتدون من بعدی» «۱».

وقد نقلت مجموعة اخری من المفسرین هذه التفاسیر الثلاثة، فیما أصرَّ بعض مفسری أهل السُنّة علی أنّ تفسیر الآیة أحد التفسیرین الاولین، لأنّ التفسیر الثالث لا یتناسب ونمط تفکیرهم الملیء بالتعصب.

بینما لا یتناسب التفسیر الأول مع ظاهر الآیة، فلو کان مقرراً أن یکون الوصفان لرسول اللّه صلی الله علیه و آله لقال: إنّما أنت منذرٌ وهادٍ لکل قوم، وبتعبیر آخر لاـینبغی تقدیم «لکل قوم» وهو جار ومجرور علی «هادٍ»، وإذا ما تقدم فیجب أن یتقدم علی الوصفین فیقال: إنّما أنت لکل قوم منذرٌ وهاد، وخلاصة القول: إنّه لا یبدو هنالک مبرر لتقدیم لکل قوم علی وصف وتأخیره عن الآخر، أو لابدّ من تقدیمه علیها أو تأخیره عنها (تأملوا جیداً).

والتفسیر الثانی غیر مألوف ولا مناسب، لأنّ کون اللّه هادیاً فلا شک فیه حتی یحتاج إلی بیان، أضف إلی أنّ ظاهر العبارة هو أنّ لکل عصر وزمان هادٍ خاص. والحال أنّ اللّه واحدٌ أحد، فهذه الوحدانیة لا تنسجم والتعددیة التی تستفاد من عبارة لکل قوم هادٍ.

بناءً علی ذلک فالتفسیر الوحید الذی یحظی بالقبول هو: إنّ النبی صلی الله علیه و آله منذرٌ ولکل قوم فی کل عصر ودهرٍ «هادٍ».

فهل هذا الهادی إشارة إلی علماء کل قوم وکل زمان؟

الاجابة عن هذا السؤال سلبیة أیضاً، فهنالک علماء عدیدون فی کل عصر ودهر ولیس هادٍ واحد، فکما کان النبی صلی الله علیه و آله واحداً فهادی المسلمین واحدٌ فی کل عصر وزمان.

وبتعبیر آخر، أنَّ النبی صلی الله علیه و آله مؤسس الدین عن طریق الانذار، والإمام یواصل طریقه من خلال الهدایة.

إنَّ هذه النکات تستفاد من الآیة نفسها، ولو بحثنا عن الروایات المنقولة عن طریق أهل

---

(۱) التفسیر الکبیر، ج ۱۹، ص ۱۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷

السنة والشیعة بهذا الصدد لاتضحت المسألة أکثر.

ففی تفسیر الدر المنثور وهو من تفاسیر أهل السنة المعروفة «تألیف جلال الدین السیوطی» المتوفی عام ۹۱۰ ه ق، والقائم علی أساس تفسیر الآیات والروایات، ینقل روایات عدیدة فی تفسیر هذه الآیة عن النبی صلی الله علیه و آله:

۱- یروی عن ابن جریر وابن مردویه وأبی نعیم والدیلمی وابن عساکر وابن النجار: لما نزلت «انَّمَا انتَ مُنْذِرٌ وَلِکُلِّ قَومٍ هَادٍ» وضع رسول اللّه صلی الله علیه و آله یده علی صدره فقال: «أنا المنذر، وأومأ بیده إلی منکب علی علیه السلام فقال: أنت الهادی یا علی، بک یهتدی المهتدون من بعدی» «۱».

۲- یقول أبو بریدة الاسلمی: سمعت من النبی صلی الله علیه و آله بشأن هذه الآیة «۲» وقد وضع یده علی صدره وقال: «إنّما أنت منذرٌ، ووضع یده علی صدر علی علیه السلام وقال: لکل قوم هاد».

۳- وفی الکتاب نفسه ینقل عن «عبد اللّه بن أحمد» و «ابن أبی حاتم» و «الطبرانی» و «الحاکم» و «ابن مردویه» و «ابن عساکر» عن علی علیه السلام فی تفسیر الآیة: «إنّما أنت منذر ولِکُلّ قوم هَاد» قال: «رسول اللّه المنذر، وأنا الهادی» «۳».

۴- ونقرأ فی روایة اخری عن ابن عباس، أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال: «أنا المنذر وعلی الهادی، وبک یا علی یهتدی المهتدون».

وقد أورد هذا الحدیث طائفة من مشاهیر حفاظ أهل السنة منهم: «الحاکم» فی «المستدرک» و «الذهبی» فی «التلخیص» و «الفخر الرازی» و «ابن کثیر» فی «تفسیریهما»، و «ابن الصباغ المالکی» فی «الفصول المهمّة» و «الکلبنجی الشافعی» فی «کفایة الطالب» و «العلّامة الطبری» فی «تفسیره» و «ابن حیان الاندلسی» فی «البحر المحیط» و «النیشابوری» فی «تفسیره»، و «الحموینی» فی «فرائد السمطین» وطائفة اخری فی کتبهم التفسیریة «۴».

---

(۱) تفسیر در المنثور، ج ۴، ص ۴۵.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

(۴) للاطلاع علی هذا الحدیث ووثائقه راجعوا کتاب احقاق الحق، ج ۳، ص ۸۸- ۹۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸

۵- یقول «میر غیاث الدین» مؤلف کتاب «حبیب السیر»: «قد ثبت بطرق متعددة أنّه لما نزل قوله تعالی «انّما انْتَ مُنذرٌ وَلکل قَوْمٍ هادٍ»، قال صلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام: «أنا المنذر وأنت الهادی، بک یاعلی یهتدی المهتدون من بعدی» «۱».

۶- وقد نقل الحموینی هذا الحدیث أیضاً عن أبی هریرة عن علی علیه السلام «۲».

۷- ونقل هذا الحدیث فی «مستدرک الحاکم» عن «أبی بریدة الاسلمی» بشکل واسع فقال: دعا رسول اللّه صلی الله علیه و آله بالطهور وعنده علی بن أبی طالب فأخذ رسول اللّه صلی الله علیه و آله بید علی بعد ما تطهر فألصقها بصدره ثم قال: «إنّما أنت منذر» ویعنی نفسه، ثم ردها إلی صدر علی ثم قال: «ولکل قوم هاد»، ثم قال له: «أنت منار الأنام وغایة الهدی وأمیر القرّاء، أشهد علی ذلک أنّک کذلک» «۳».

ولیس من المستبعد أنْ یکون النبی صلی الله علیه و آله قد بیَّن هذا الکلام فی حالات متعددة وبأشکال مختلفة، والتعابیر المختلفة للأحادیث المذکورة تشهد علی هذا الأمر.

کما وردت فی مصادر اتباع أهل البیت علیهم السلام روایات متعددة فی هذا المجال، ولا مجال لذکرها جمیعاً، بل نکتفی بالإشارة إلی بعضها، فقد ورد فی تفسیر نور الثقلین «۴» مایربو علی خمسة عشر حدیثاً منها ما روی عن الإمام الباقر علیه السلام والإمام الصادق علیه السلام أنّهما قالا: «کل إمام هاد کل قوم فی زمانه»، وفی تعبیر آخر: «کل إمام هادٍ للقرن الذی هو فیه» «۵».

والعجیب أنّ بعض المفسرین قد تناسوا جمیع هذه الأحادیث، وذکروا معانی اخری للآیة المذکورة، مستندین إلی أقوال بعض الصحابة التی لم تروَ عن النبی صلی الله علیه و آله، منها التفسیر الذی نُقل عن مجاهد حیث یقول: المراد من «المنذر» محمد صلی الله علیه و آله والمراد من «لکل قومٍ

---

(۱) حبیب السیر، ج ۲، ص ۱۲.

(۲) احقاق الحق، ج ۳، ص ۹۲.

(۳) تفسیر المیزان، ج ۱۱، ص ۳۲۷ ذیل الآیة مورد البحث.

(۴) تفسیر نور الثقلین، ج ۲، ص ۴۸۲- ۴۸۵.

(۵) المصدر السابق، ج ۱۹ و ۲۰، ص ۴۸۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹

هادٍ» «إنّ لكل قوم نبيّاً يدعوهم إلى اللَّه»! وهذا تفسير بعيد كما يبدو.

وروى تفسير آخر عن سعيد بن جبير حيث يقول: المنذر محمد صلى الله عليه و آله والهادى هو اللَّه! بينما ظاهر الآية هو أنّ هادى كلّ قوم يختلف عن هادى الآخرين، علماً أنّ اللَّه الواحد هادٍ لجميع الأقوام، ولا يتناسب مع مثل هذه التفاسير.

فهل من المناسب ترك الروايات المتواترة عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والذهاب وراء هذه التفاسير الخاطئة حرصاً على أن لا يمتلك الشيعة مستمسكاً؟

آية الصادقين:

وفى الآية الثانية خاطب تعالى المؤمنين داعياً إيّاهم إلى التقوى وبعدها أمرهم بأنْ يكونوا مع الصادقين «دائماً» «لئلا ينحرفوا»: «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ».

فمن هم الصادقون هنا؟ ثمّة تفاسير مختلفة أيضاً:

لقد احتمل البعض أنّ المراد من «الصادقين» هو شخص النبى صلى الله عليه و آله، وهذه الآية منحصرة بزمانه، ولا يخفى أنَّ خطاب هذه الآية كسائر خطابات القرآن عامة، وتشمل كل المؤمنين فى كلّ عصرٍ ومصرٍ.

وقال آخرون: إنّ «مَعَ» تعنى «مِنْ»، أى كونوا من الصادقين! فى الوقت الذى لا توجد ضرورة لمثل هذه التأويلات والتبريرات، بل ليس من المعتاد أبداً فى الأدب العربى وكلام الادباء استخدام «مع» بمعنى «من».

فطبقاً لظاهر الآية فإنَّ جميع المسلمين مكلفون أنْ يكونوا فى خط الصادقين ومعهم فى كل زمن وعصر.

من هنا يُعرف بأنّ ثمّة صادق أو صادقين فى كل عصر يتحتم على الناس أن يكونوا معهم فى طريق التقوى والزهد.

ومن أجل فهم معنى الصادقين، من الأفضل أن نعود إلى القرآن نفسه لنرى ماذا يذكر من

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰

صفات للصادقين، ففى مكان يقول: «انَّمَا المُؤمنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا باموالِهِم وَانْفُسِهِم فِي سَبِيلِ اللَّهِ اوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ». (الحجرات/ ۱۵)

ففى هذه الآية وصف تعالى الصدق بأنّه فرع أو شعبة من «الإيمان» و «العمل النزيه» عن كل أشكال الشك والريب والتردد.

وفى الآية ۷۷ من سورة البقرة بعد أن ذكر تعالى أنّ حقيقة الإيمان تكمن فى الإيمان باللَّه، واليوم الآخر، والملائكة، والكتب السماوية، والأنبياء، وكذا الانفاق فى سبيل اللَّه، وفى سبيل تحرير المستضعفين والمحرومين من ربقة الظالمين، وكذلك إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر والاستقامة إزاء المشاكل وأثناء الجهاد، يضيف: «اوْلئكَ الَّذينَ صَدَقُوا».

بناءً على ذلك فقد ذكر أنّ السمة المميزة للصادقين هى: الإيمان التام بجميع المقدسات، واطاعة أوامر اللَّه على جميع الأصعدة، لاسيما الصلاة وإيتاء الزكاة والانفاق والاستقامة فى الجهاد، وفى مواجهة المشاكل، وقد جاء نظير هذا المعنى فى الآية ۸ من سورة الحشر أيضاً.

من مجموع هذه الآيات وكذلك من اطلاق الآية مورد البحث التى تأمر باتباع الصادقين بدون قيد أو شرط، نستنتج أنّ المسلمين مكلفون باتباع الذين يتمتعون بأعلى مراحل الإيمان والتقوى وأسمى المستويات من ناحية العلم والعمل والاستقامة والجهاد، فالآية لا تقول: كونوا من الصادقين، بل تقول: كونوا معهم، بينما نراها تقول: كونوا من الزاهدين وهذا يبرهن على أنّ المراد مرتبة أسمى من المراتب التى يصلها الناس، وأجلى مصداق لهذا المعنى هم المعصومون هذا من جانب، ومن جانب آخر أنّ الأمر باتباع الصادقين

بشكلٍ مطلق، وعدم الانفصال عنهم بدون قيد أو شرط، دليل آخر على عصمتهم، لأنَّ الاتباع بلا قيد أو شرط لا معنى له إلّافيما يتعلق بالمعصومين.

ونظراً لوضوح محتوى الآية لم يستطع الفخر الرازى انكار دلالتها على وجود المعصوم فى كل زمان ومكان، إلّاأنّه ولعدم إيمانه بعقائد أتباع أهل البيت عليهم السلام يتحدث عن عصمة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱

جميع الأمـة، أو بتعبير آخر «إجماع الامّـة»، بينما نرى أنّ القضايا التى تحظى بإجماع الأُمّـة محـدودة للغايـة، والحال أنّ اتّباع الصادقين تكليف عام وفى كل الأحوال والشؤون.

وكـذلك لم يفهم أى نـاطق بالعربيـة أثنـاء نزول هـذه الآيـة أنَّ كلمـة «الصادقين» تعنى مجموع الامّـة، فكيف يمكن حملها على هـذا المعنى أليس من الأفضل الاقرار بوجود صادق فى كل عصر وزمان ليس فى سيرته السهو والخطأ ويجب علينا اتباعه؟

سؤال: وهنـا يثار سؤال وهو: إنّ «الصادقين» ذكرت بصـيغة الجمع، وعليه فلابـدّ من وجود عـدّة معصومين فى كل زمان، فكيف يتلائم هذا وعقائد أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام؟

إنّ الجواب على هذا السؤال من خلال الاسـتناد إلى نقطة، وهى: إنّ هذا الجمع ربّما يكون إشارة إلى مجموع الأزمنة، لأنّ «الصادقين» وعلى مـدى مجموع الأزمنـة يمثلون مجموعـة، تماماً كما يقال: يتحتم على الناس اتباع الأنبياء فى كل زمان، فليس مفهوم هـذا الكلام هو وجود أنبيـاء متعـددين فى كـل زمان، بل المقصود هو: أنَّ على كلّ قوم اتباع نبى زمانهم، أو يقال: على الناس أن يعرفوا تكاليفهم تجاه العلماء والمراجع، أى: على كلّ شخص اتباع عالم ومرجع زمانه.

والشاهـد على هـذا الأمر هو عدم وجود شـخص مفترض الطاعة فى عهد رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله غيره، فى الوقت الذى تشـمل الآية المذكورة زمانه أيضاً بكل تأكيد.

من هنا يتضح أنّ المراد ليس الجمع فى زمان واحد، بل فى عدّة أزمنة، وهذا الكلام هو بمثابة تحليل لهذه الآية.

وأمّا من ناحيـة الروايات، فإنّ الكثير من مفسـرى ومُحـدّثى أهل السّـنّة نقلوا عن ابن عباس قوله: إنّ هـذه الآيـة نزلت بحق على بن أبى طالب عليه السلام.

ومنهم «العلّامة الثعلبى» فى تفسيره، فقد روى إنّ ابن عباس قال فى تفسير هذه الآية:

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲

«مع الصادقين يعنى مع على بن أبى طالب وأصحابه» «۱».

كمـا ينقل «العلّامـة الكنجى» فى «كفايـة الطالب»، و «العلّامـة سـبط بن الجوزى» فى «التـذكرة» عن طائفـة من العلماء مايلى: «قال علماء السير: معناه كونوا مع على عليه السلام وأهل بيته، قال ابن عباس: علىٌ عليه السلام سيد الصادقين» «۲».

وجرى التأكيد على هذا المعنى أيضاً فى الروايات العديدة التى وصـلتنا عن أهل البيت عليهم السـلام، منها الرواية التى نقرأها عن جابر بن عبد اللَّه الأنصارى عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال فى تفسير آية «وكونوا مع الصادقين»، يعنى «محمد وآل محمد» «۳».

ونقرأ فى رواية اخرى أنّ «بريد بن معاوية» روى عن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير هذه الآية أنّه قال: «إيّانا عنى «۴».

وفى تفسـير البرهان ينقل عن كتاب نهج البيان: «روى أنّ النبى صلى الله عليه و آله سُئلَ عن الصادقين فقال: «هم على وفاطمة والحسن والحسين وذريتهم الطاهرون إلى يوم القيامة» «۵».

ومن البديهى أنّ جميع هذه الروايات إنّما هى فى الواقع بيان للمصداق، ولا تتعارض مع المفهوم العام للآية، لأنّها تشـمل شخص النبى صلى الله عليه و آله بالمرتبة الاولى ومن ثم الأئمّة المعصومين عليهم السلام فى كلّ عصر ودهرٍ.

من هنا فإنّ الآية الآنفة الذكر تثبت «الولاية العامة» وكذلك «الولاية الخاصة».

آية اولى الأمر:

والحديث فى الآية الثالثة عن وجوب اطاعة اللَّه ورسوله واولى الأمر، يقول تعالى

---

(۱) احقاق الحق، ج ۳، ص ۲۹۷.

(۲) المصدر السابق.

(۳) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۸۰، ح ۳۹۲.

(۴) المصدر السابق، ح ۳۹۳.

(۵) تفسير البرهان، ج ۲، ص ۱۷۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳

«أَطِيعُوا اللّهَ وأَطيعُوا الرَسُولَ وَاولِي الأَمْرِ مِنكُم». (النساء/ ۵۹)

فوجوب اطاعة اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله واضحٌ ومعلوم، أمّا من هم المقصودون فى «اولى الأمر» الذين اعتبرت اطاعتهم بموازاة اطاعة اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله، فهنالك جدلٌ بين المفسرين.

يتفق علماء الشيعة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من «اولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون عليهم السلام الذين هم قادة المجتمع معنوياً ومادياً فى كافة شؤون الحياة، ولا تشمل غيرهم، لأنّ الطاعة- بلا قيد أو شرطٍ- الواردة فى الآية الكريمة والتى اعتبرت موازية لطاعة اللَّه ورسوله صلى الله عليه و آله لا يمكن تصورها إلّابحقّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأمّا الآخرون الذين تجب طاعتهم فإنّها محدودة بحدود ومقيدة بقيود، ولا وجود للطاعة المطلقة بشأنهم أبداً، وهذا الأمر واضحٌ.

هذا فى الوقت الذى يختلف فيه مفسرو وعلماء أهل السّنة كثيراً فى معنى اولى الأمر.

فمنهم من فسّرها بمعنى «الصحابة»، ومنهم ب «قادة الجيش»، وبعضهم فسّرها ب «الخلفاء الأربعة».

وهم لم يقدموا أىدليل واضح لهذه التفاسير الثلاثة.

واعتبرت طائفة اخرى «اولى الأمر» بمعنى العلماء، مستندين إلى الآية: «وَاذَا جَاءَهُم امرٌ مِّنَ الامنِ اوِ الخَوفِ اذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ الَى الرَّسُولِ وَالَى اولِى الامْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُم». (النساء/ ۸۳)

ولكن نظراً إلى أنّ الآية التى هى محل بحثنا تبحث الطاعة بلا قيد أو شرط، والآية ۸۳ من سورة النساء تتعلق بالسؤال والتحقيق فإنّها توضح أمرين مختلفين، ولايمكن اعتبار كلا الأمرين بمعنى واحد، فالتحقيق من العالم أمر، والطاعة بلا قيد أو شرط أمر آخر، فلا يتصور الثانى إلّابصدد المعصومين، أمّا الأول فله مفهوم أوسع.

وقد أعطى بعض مفسّرى أهل السّنة احتمالًا خامساً وهو: أنّ المراد من اولى الأمر هم ممثلو طبقات الناس، والحكام، والزعماء، والعلماء، وذوو المناصب فى جميع شؤون الحياة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴

وبتعبير آخر: المقصود هم أهل الحل والعقد الذين حيثما اتفقوا على شىء تجب طاعتهم بلا قيد أو شرط «على شرط أن يكونوا منّا، حيث ذُكرت (منكم) كشرط فى الآية الكريمة، ولا يخالفون سنة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، ولا يتعرضون للإجبار فى مباحثاتهم، وأن يتمتعوا باتفاق الآراء، وتلك المسألة من المسائل».

فهذه المجموعة واجبة الطاعة فى المسائل التى لم يصلنا فيها نصٌ، ويمكن القول: إنّهم معصومون، لذا ورد الأمر باطاعتهم بلا قيد أو شرط «۱».

من هنا فالموما إليه يعتبر اولى الأمر مجموعة من العلماء وأهل الحل والعقد الذين تتوفر فيهم الشروط الخمسة التالية:

١- الإسلام، ٢- عدم مخالفة السّنة، ٣- غير مجبور فى ابداء الرأى، ۴- ابداء الرأى فيما لا نصَّ فيه، ۵- التمتع باتفاق الآراء، ويعدُّ مثل هذه الجماعة معصومة.

فهل ياترى أنّ المقصود من «اولى الأمر» فى الآية الكريمة هو هذا؟ وهل أنّ أهل العرف وأصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كانوا يستفيدون هذا المعنى عند سماعهم للآية؟ أم أنَّ هذا المعنى قد فُرض على الآية بتكلّف وعناء لئلا ينصرف معنى الآية إلى الأئمّة المعصومين عليهم السلام الذين يعتقد بهم الشيعة؟

ويظهر أنّ كلام تفسير «المنار» مشتق من كلام «الفخر الرازى» حيث يقول:

«واعلم أنّ قوله «اولى الأمر منكم» يدل عندنا على أنّ إجماع الأمّة حجة والدليل على ذلك أنّ اللَّه تعالى أمر بطاعة اولى الأمر على سبيل الجزم، وفى هذه الآية ومن أمر اللَّه بطاعته على سبيل الجزم والقطع لابدّ وأن يكون معصوماً عن الخطأ، إذ لو لم يكن معصوماً عن الخطأ كان بتقدير اقدامه على الخطأ، والخطأ لكونه منهى عنه، فهذا يفضى إلى اجتماع الأمر والنهى فى الفعل الواحد بالاعتبار الواحد، وأنّه محال، فثبت أنّ اللَّه تعالى أمر بطاعة اولى الأمر على سبيل الجزم وثبت أنّ كل من أمر اللَّه تعالى بطاعته على سبيل الجزم وجب أن يكون معصوماً عن الخطأ، فثبت قطعاً أنّ ولىَّ الأمر المذكور فى هذه الآية لابدّ وأن يكون معصوماً.

---

(١) تفسير المنار، ج ۵، ص ١٨١.

ثم يضيف: ذلك المعصوم إمّا مجموع الامة أو بعض الامّة، لا جائز أن يكون بعض الامّة، لأننا بيّنّا أن اللَّه تعالى أوجب طاعة اولى الأمر فى هذه الآية قطعاً، وايجاب طاعتهم قطعاً مشروط بكوننا عارفين بهم قادرين على الوصول إليهم والاستفادة منهم، ونحن نعلم بالضرورة أنا فى زماننا هذا عاجزون عن معرفة الإمام المعصوم، عاجزون عن الوصول إليهم، عاجزون عن استفادة الدين والعلم منهم، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أنّ المعصوم الذى أمر اللَّه المؤمنين بطاعته ليس بعضاً من أبعاض الامّة ولا طائفة من طوائفهم، وذلك يوجب القطع بأنّ إجماع الامّة حجّة» «١».

إنّ ما وضع الفخر الرازى وصاحب المنار وأمثالهم فى الزاوية الحرجة وجعلهم يفسرون هذه الآية بهذا التفسير الذى من المسلَّم أنّ أيّاً من أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يكن يفهمه حين نزول الآية، هو التعيين المسبق الذى يحول دون البحث عن مفهوم الآية فى أئمّة أهل البيت عليهم السلام المعصومين، فمن ناحية أنّ دلالة الآية على عصمة اولى الأمر جليّةٌ.

ولم يكن فى نيّتهم التسليم لشخص كإمام معصوم من ناحية اخرى لذا فهم يبحثون عن تفسير لم يفهمه أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أثناء نزول الآية.

والأعجب من جميع التفاسير هو التفسير الذى ينتخبه بعض مفسرى أهل السنّة، ويقولون: إنّ المراد من اولى الأمر: الحكام والأمراء والملوك ويجب اتباع أىحاكم يتسلط على المسلمين، عادلًا كان أم ظالماً، سالكاً جادة الصواب أم منحرفاً، يأمر بإطاعة اللَّه أم بمعصيته، كما يقول فى تفسير المنار فى إشارة غامضة: «وبعضهم اطلق فى الحكام فأوجبوا طاعة كلّ حاكم» «٢».

والأعجب من ذلك أيضاً، الروايات المشكوكة والموضوعة التى نُسبت لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله لإثبات تفسير هذه الآية، كالذى قاله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى جوابه لجابر الجعفى حين قال:

يانبى اللَّه أرأيت إن قامت علينا امراءُ يسألونا حقّهم ويمنعونا حقّنا فما تأمرنا؟

قال صلى الله عليه و آله: «إسمعوا وأطيعوا» «٣».

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۰، ص ۱۴۴.

(۲) تفسير المنار، ج ۵، ص ۱۸۱.

(۳) صحيح مسلم، ج ۳، ص ۴۷۴، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۶

وفى حديث آخر فى الكتاب نفسه، روى عن أبى ذر أنّه قال: «إنّ خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدع الأطراف» «۱». وقد فسّر البعض مجدع الأطراف بمعنى من ولد فى بيت غير طاهر وملوث. ومن المسلَّم به أنّ الساحة المقدّسة للنبى صلى الله عليه و آله أطهرُ من أن يأمر خلافاً لمنطق العقل والشرع فى الوقت الذى يروى عنه أنّه قال: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» وأجلى دليل على ابتداع مثل هذه الأحاديث هو أنّ أباذر الذى روى عنه الحديث لم يفعل هكذا بشهادة تاريخه، حتى أنّه قد ضحى بنفسه بسبب اعتراضه على انحراف امراء وحكام عصره!.

وعلى أيّة حال، من الواضح أنّ النبى صلى الله عليه و آله أسمى من هذه الأقاويل، فليس من إنسان عاقل ينطق بهذا الكلام ويقول: إنّ الحاكم واجب الطاعة فى كل مايقول ويعمل، لا سيما وأنّ هذا الحديث: «لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» «۲» مشهورٌ بين علماء المسلمين سواء الشيعة أو السّنة.

ولا طاعة لبشرٍ فى معصية اللَّه «۳».

من هنا نستنتج أنّ أصح تفسير للآية هو اطاعة الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

ويبقى لدينا سؤالان لابدّ من الاجابة عنهما، وهما:

۱- إذا كان معنى «أولى الأمر» هو الإمام المعصوم، فهل يتناسب مع كلمة «اولى» التى تفيد الجمع؟ فباعتقاد الشيعة أنّ الإمام المعصوم واحد لا أكثر فى كلّ عصر.

وقد اتضح الجواب عن هذا السؤال فى البحوث السابقة، فصحيحٌ أنّ الإمام المعصوم واحدٌ فى كل زمن، ولكن بالنظر لعمومية الآية بالنسبة لكافة الأزمنة، فإنّ الأئمّة المعصومين بمجموعهم يشكلون مجموعةً، ونظير هذا المعنى كثير فى كلمات العرب، فمثلًا نقول: السلام عليكم وعلى أرواحكم وأجسادكم. فلا يمكن الاعتراض على هذا السلام، فكل إنسان لا يمتلك أكثر من روح وجسم، فلماذا ذكرت الأرواح والأجساد هنا بصيغة

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۳، ص ۱۴۶۷، كتاب الامارة، باب طاعة الأمراء وإن منعوا الحقوق.

(۲) نهج البلاغة، كلمات القصار، الكلمة ۱۶۵.

(۳) تفسير در المنثور، ج ۲، ص ۱۷۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۷

الجمع؟ الجواب: إنّ هذا الجمع ناظرٌ للمجموع.

من هنا فبالرغم من أنّ النبى صلى الله عليه و آله له وصىٌ فى كل زمان لكنهم يتعددون فى مجموع الأزمنة، فيتحتم استخدام صيغة الجمع لهم.

۲- والسؤال الآخر هو: إنّ الإمام المعصوم لم يكن موجوداً فى عهد النبى صلى الله عليه و آله فكيف يؤمر بطاعته؟

وجواب هذا السؤال هو ما ورد سابقا وهو: لو كانت الآية ناظرة إلى زمان النبى صلى الله عليه و آله فقط لورد مثل هذا الإشكال، أمّا وأنّها تعتبر حكماً عاماً لجميع المسلمين حتى يوم القيامة فلا يرد ذلك الإشكال، ففى عهد رسول اللَّه كان هو الإمام صلى الله عليه و آله وفى سائر العصور كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام، فليس مفهوم الكلام «يجب على المسلمين اطاعة النبى وأوصيائه» هو

وجوب وجود أوصيائه فى عهده.

ونختتم هذا الكلام بإشارة سريعة إلى الروايات الواردة فى كتب الشيعة والسّنة فى ذيل هذه الآية والتى تفسرها بعلى عليه السلام وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام:

ينقل الشيخ سليمان القندوزى الحنفى فى كتاب ينابيع المودة، عن تفسير «مجاهد» أنّ آية: «اطِيعُوا اللَّه وَاطِيعُوا الرَسُولِ وَأولِى الأَمرِ مِنْكُم» نزلت فى على عليه السلام أثناء ما خلفه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى المدينة خلال «معركة تبوك»، ويروى عن على عليه السلام بأنّه استدل بهذه الآية أثناء محاججته للمهاجرين والأنصار، ولم يؤاخذه المهاجرون والأنصار «۱».

ونقل فى شواهد التنزيل عن الحاكم الحسكانى فى ذيل الآية: «اطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَسُولَ وَأُولِى الأَمرِ مِنْكُم»، سألتُ (أى على) رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يانبى اللَّه منْ هم؟ قال:

«أنت أولهم» «۲».

كما رويت روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أيضاً فى تفسير هذه الآية بالأئمّة المعصومين عليهم السلام وبلغت العشرات، وجاء فيها جميعاً أنّ «اولى الأمر» هم الأئمّة المعصومون «۳».

---

(۱) ينابيع المودة، ص ۱۱۴ و ۱۱۵ و ۱۱۶.

(۲) شواهدالتنزيل، ج ۱، ص ۱۴۸.

(۳) من أجل المزيد من الاطلاع راجعو تفسير البرهان، ج ۱ ص ۳۸۱ إلى ۳۸۷؛ و تفسير كنز الدقائق ج ۳ ص ۴۳۷- ۴۵۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۹

۲- الولاية والإمامة العامة فى السنة النبوية الشريفة

تمهيد:

يعتبر هذا القسم من أهم أقسام السنّة النبوية الشريفة وقد وردت بهذا الصدد روايات كثيرة عن النبى صلى الله عليه و آله فى أشهر وأهم المصادر الإسلامية وحيث من المناسب الالتفات إليها بكامل الدقة والحياد، من أجل إزالة الاتهامات التى الصقت بهذه المسألة سنوات طويلة، وذلك من خلال نور العلم والاخلاص والبحث، والكشف عن الصورة الحقيقية لها بعيداً عن التعصبات، وليتضح واجبنا الإلهى ازاء هذه القضية الإسلامية المهمّة.

ونكتفى هنا بتناول جانب من الروايات المشهورة التى تتناول مسألة الإمامة والولاية بشكل عام، مع شرح مختصر لمحتواها ومفهومها، ونرجو من القراء الكرام أنْ يكرروا ملاحظة هذه الروايات والوثائق والمصادر، وأن يطلعوا بدقة على مضمونها، ونوكل إليهم الاستنتاج والاستنباط النهائى.

إننا نعتقد أنّ اتخاذ موقف اللامبالاة ازاء هذه الأحاديث الناطقة والمرور عليها مرور الكرام، أو غض الطرف عن الحقائق، لا يقلل من مسؤليتنا، بل يضاعفها.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۱

۱- حديث الثقلين

اشارة

لقد سمى هذا الحديث بهذا الاسم لأنّ النبى صلى الله عليه و آله قال فيه: «إنّى تاركٌ فيكم الثقلين ...» «۱».

ونقل هذا الحديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بشكل واسع للغاية فى كتب الشيعة والسّنة المشهورة (وفى مصادر الدرجة الاولى بحيث لم يبق معه شك فى صدور هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه و آله. وبشكل عام، يمكن الاستفادة من هذه الأحاديث، بأنّه من الأحاديث التى لم يدل بها الرسول صلى الله عليه و آله لمرة واحدة فيكون حديثا واحداً، ورواته كثيرين، بل إنّه صلى الله عليه و آله ذكره فى موارد مختلفة، وقد روى بروايات متعددة.

ونذكر هنا رواة هذا الحديث والكتب الإسلامية التى ورد فيها:

۱- ففى صحيح مسلم الذى هو من أشهر المصادر لدى أهل السنّة وأهم الصحاح الستة، ينقل عن «زيد بن أرقم» أنّه قال: «قام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً، بين مكة والمدينة «۲»، فحمد اللَّه وأثنى عليه ووعظ وذكر، ثم قال: أمّا بعد ألا أيّها الناس فإنّما أنا بشر، يوشك أن يأتى رسول ربّى فاجيب وأنى تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب اللَّه فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به، فحث على كتاب اللَّه ورغب فيه، ثم قال:

وأهل بيتى اذكركُم اللَّه فى أهل بيتى، اذكركُم اللَّه فى أهل بيتى، اذكركم اللَّه فى أهل بيتى» «۳».

---

(۱) تقرأ كلمة «ثقلَين» على نحوين فتارة تقرأ على وزن «حَرَمَين»، ومفردها (ثَقَل) على وزن «حَرم» وتعنى الشىء الثمين والنفيس، كما تأتى بمعنى امتاع المسافر، وتارةً تُقرأ (ثِقْلَيْن) على وزن (سِبْطَيْن) حيث تعنى الشىء الثقيل، ويعتقد صاحب كتاب «التحقيق» أنّ الاولى تعنى القيمة المعنوية (والثانية أكثر شمولية) كما ينبغى الانتباه إلى أنَ (ثَقل) على وزن (حرم) صفة مشبهة، و (ثِقْل) على وزن (سبط) اسم مصدر.

(۲) جاء فى هامش صحيح مسلم أنّ غدير خم يبعد عن الجحفة ثلاثة اميال.

(۳) صحيح مسلم، ج ۴ ص ۱۸۷۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۲

إنّ جعل أهل البيت عليهم السلام فى موازاة القرآن باعتبارهما شيئين ثمينين، والتأكيد على التذكير بالمسؤولية الإلهيّة تجاههما يبرهن على علاقة هذا الأمر بمصير المسلمين وهدايتهم والمحافظة على اصول الإسلام، وإلّا لما اجتمعا.

۲- وجاءت فى نفس الكتاب رواية اخرى لنفس الراوى مع شىء من الاختلاف «۱».

واللطيف أنّه عندما يُسأل زيد بن أرقم تعقيباً على هذه الآية هل المقصود من أهل بيته زوجاته؟ فيجيب: لا، المقصود من أهل البيت أهله من النسب الذين تحرم عليهم الصدقة.

۳- ونقرأ فى كتاب سنن الترمذى الذى يعرف ب «صحيح الترمذى أيضاً فى بحث مناقب أهل البيت عليهم السلام عن جابر بن عبد اللَّه أنّه يقول: رأيت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يوم عرفة وقد صعد ناقته وخطب، فسمعته يقول: «ياأيّها الناس إنى قد تركتُ فيكم ما إنْ أخذتم به لن تضلّوا، كتاب اللَّه وعترتى أهل بيتى» «۲».

ثم يضيف الترمذى: وقد روى كل من أبى ذر، وأبى سعيد الخدرى، وزيد بن الأرقم، وحذيفة هذا المعنى أيضاً.

۴- بعد قليل وفى نفس الكتاب يروى عن أبى سعيد وزيد بن الأرقم أنّهما قالا: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «إنى تارك فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلّوا بعدى: أحدهما أعظم من الآخر، كتاب اللَّه حبل ممدود ما بين السماء والأرض، وعترتى أهل بيتى، وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما» «۳».

۵- وفى سنن الدارمى وهو من الكتب المعروفة أيضاً، روى حديث يشابه حديث زيد بن الأرقم عن النبى صلى الله عليه و آله، ويختتم

الكلام بالتصريح باسم الثقلين و «كتاب اللّه وأهل البيت» «۴».

ولا ينبغى نسيان أنّ (الدارمى) وبناء على ما قاله بعض العارفين هو استاذ مسلم وأبى داود، وكتاب سنن الدارمى أحد الكتب الستة المعتبرة المعروفة لدى أهل السُّنة (وان ذكر

---

(۱) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۷۴.

(۲) صحيح الترمذى، ج ۵، ص ۶۶۲، باب مناقب أهل بيت النبى، ح ۳۷۸۶.

(۳) صحيح الترمذى، ص ۶۶۳، ح ۳۷۸۸.

(۴) سنن الدارمى، ج ۲، ص ۴۳۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۳

البعض سنن ابن ماجه بدلًا عنه).

۶- ونقرأ فى مسند أحمد وهو من الأئمّة الأربعة لأهل السنّة رواية عن زيد بن ثابت حيث يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إنّى تارك فيكم خليفتين: كتاب اللّه حبل ممدودٌ ما بين السماء والأرض، أو ما بين السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض» «۱».

انتبهوا إلى أنّه فى بعض هذه الروايات ورد تعبير «الثقلين» «كما فى رواية صحيح مسلم». وفى بعضها «خليفتى» «كما فى الرواية الأخيرة التى نقلت عن سنن أحمد»، وفى البعض الآخر لم يرد اىّ منهما، بل مفهومها ومضمونها، وفى الحقيقة فانّها جميعاً تعود إلى أمر واحد.

۷- يروى أحمد بن شعيب «النسائى»- الذى يعتبر من أعاظم أهل السنّة أيضاً، وكتاب سننه من الصحاح الستة المشهورة أيضاً- فى كتاب «الخصائص» عن زيد بن الأرقم قوله:

إنّ النبى صلى الله عليه و آله وحين عودته من حجة الوداع ووصوله إلى غدير خم أمر بإقامة ظلة هناك واغتسل تحتها ثم قال: «كأنّى دعيت فاجبتُ، وإنّى تاركٌ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب اللّه وعترتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما، فإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ثم قال: إنّ اللّه مولاى وأنا مولى كل مؤمن ثم أخذ بيد على عليه السلام، فقال: منْ كنتُ مولاه فهذا وليه، اللّهم وال مَنْ والاه وعاد من عاداه».

وفى نهاية الرواية ورد أنّ الراوى الثانى «أبو طفيل» قال: قلتُ لزيد بن الأرقم: أسمعت هذا الحديث من رسول اللّه صلى الله عليه و آله؟.

قال: كلُّ من كان تحت الظلة رأى هذا المنظر بعينيه، وسمع هذا الكلام بأذنيه «۲».

هذه الرواية تبرهن جيداً على أنّ النبى صلى الله عليه و آله أدلى بهذا الكلام فى الملأالعام، وبحضور حشد غفير فى غدير خم، والجميع قد سمعوا ذلك.

---

(۱) مسند الإمام أحمد، ج ۵، ص ۱۸۲.

(۲) خصائص النسائى، ص ۲۰، وفقاً لما نقل عن فضائل الخمسة، ج ۲ ص ۵۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۴

۸- ويروى الحاكم النيسابورى- وهو من علماء القرن الرابع الهجرى فى كتاب مستدرك الصحيحين وهو من المصادر المعروفة لدى أهل السنة ويضم الروايات التى لم ترد فى صحيحى البخارى ومسلم، بينما هو فى مرتبتهما من ناحية القيمة والوزن- هذا الحديث عن ابن واصلة أنّه يقول: سمعت من زيد بن الأرقم أنّ النبى صلى الله عليه و آله وصل إلى أشجار بين مكة والمدينة وكانت هناك خمس

ظلل، فنزل وقام الناس بتنظيف ما تحت الأشجار، وبعد صلاتى الظهر والعصر، خطبنا رسول اللَّه فحمد اللَّه وأثنى عليه، وبالغ فى الوعظ ثم قال:

«أيّها الناس إنّى تارك فيكم أمرين لن تضلوا أن اتبعتموهما: وهما كتاب اللَّه وأهل بيتى عترتى» «۱».

ثم يضيف الحاكم: وهذا الحديث صحيح على شرط الشيخين «۲».

۹- يقول ابن حجر الهيثمى مفتى الحجاز وهو من ألد أعداء الشيعة، فى كتاب «الصواعق المحرقة»: فى رواية صحيحة «كأنّى قد دُعيت فاجبت، إنّى قد تركتُ فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر، كتاب اللَّه عزّ وجلّ وعترتى فانظروا كيف تخلفونى فيهما فإنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم يضيف: وقد وردت هذه الزيادة فى رواية اخرى أيضاً: «سألتُ ربّى ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا، ولاتعلموهم فإنّهم اعلم منكم».

ثم يضيف: إنّ لهذه الرواية طرقاً ورواة كثيرين يربون على نيف وعشرين راوياً، ولا حاجة لشرحه وتفصيله «۳».

إنّ هذا الاقرار الصريح بسعة هذا الحديث «إلى حد التواتر» ومن شخص طالما شنَّ أعنف الهجمات على الشيعة فيما يخص مسألة الإمامة لهو أمرٌ جديرٌ بالاهتمام.

---

(۱) مستدرك الصحيحين، ج ۳، ص ۱۰۹ (طبقاً لنفس المصدر).

(۲) المراد من شرط ذينك الشخصين هو أنّهما ينقلان الأحاديث التى تنتهى سلسلة سندها إلى النبى صلى الله عليه و آله وأنّ رواتها يحظون بثقتهما وليسوا متهمين، وحيث إنّهما لم ينقلا كل الأحاديث التى تتمتع بهذا الشرط، فقد قام الحاكم النيسابورى بجمع الأحاديث التى تتمتع بالشروط ولم تأت فى الكتابين، وذلك فى كتابه «المستدرك»، من هنا يمكن أن يكون المستدرك موازياً لصحيحى البخارى ومسلم.

(۳) الصواعق، ص ۲۲۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۵

۱۰- يروى ابن الأثير «محمد بن محمد بن عبد الكريم» صاحب الكتب المشهورة والتى من بينها كتاب «اسد الغابة فى معرفة الصحابة» فى أحوال «عبد اللَّه بن حنطب» أنّه قال:

«خطبنا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالجحفة فقال: ألستُ أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى يارسول اللَّه! قال إنّى سائلكم عن اثنين عن القرآن وعن عترتى» «۱».

۱۱- وذكر «جلال الدين عبد الرحمن السيوطى» وهو من العلماء المعروفين أيضاً وصاحب المؤلفات الكثيرة «۲»، فى كتاب «احياء الميت» ما أورده ابن الأثير فى اسد الغابة «۳».

۱۲- وقد أورد البيهقى «أبو بكر أحمد بن الحسين» الذى يقول الزمخشرى بحقه: «إنّ للشافعى دَيْناً على عاتق جميع أتباعه، إلّاأنّ البيهقى ولما كتبه فهو ذو حق على الشافعى نفسه وعلى أتباعه أيضاً» «۴».

وأورد هذا الحديث فى كتاب «السنن الكبرى وهو من أهم كتبه (نظيراً لما ورد فى صحيح مسلم لا سيما وأنّ كلمة أهل البيت قد تكررت فيه ثلاثاً) «۵».

۱۳- كما أنّ الحافظ الطبرانى وهو من المحدثين المعروفين لدى أهل السنة «وقد عاش فى القرن الثالث والرابع للهجرة» وكما يقول البعض: إنّه عاصر أكثر من ألف استاذ فىالحديث، يروى فى كتابه الموسوم «المعجم الكبير» بسنده إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنَّ النبى صلى الله عليه و آله دعا الناس إلى اتباع الثقلين، فقام رجل وسأله: يارسول اللَّه، وما الثقلان؟ قال:

«الأكبر كتاب اللّه، سببٌ طرفه بيد اللّه، وطرفه بأيديكم، فتمسكوا به لا تزلّوا ولا تضلوا، والأصغر عترتى وأنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض».

ثم أضاف النبى صلى الله عليه و آله: «وقد سألتُ ربّى لهما ذلك، فلا تتقدموهم فتهلكوا، ولا تعلموهم فإنّهم أعلم منكم» «۶».

---

(۱) اسد الغابة فى معرفة الصحابة، ج ۳، ص ۴۷.

(۲) قيل إنّه كتب أكثر من خمسمائة كتاب (الكنى والالقاب، ج ۱ ص ۲۰۷).

(۳) احياء الميت الذى طبع على هامش الاتحاف، ص ۱۱۶.

(۴) الكنى والألقاب، ج ۲، ص ۱۱۴.

(۵) سنن البيهقى، ج ۱۰، ص ۱۱۴.

(۶) المعجم الكبير، ص ۱۳۷، وفقاً لما نقله احقاق الحق، ج ۹، ص ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۶

۱۴- ونقل ابن تيمية «أحمد بن عبد الحليم الحنبلى» «المتوفى سنه ۷۲۸ ه» مؤسس «المذهب الوهابى» فى كتاب منهاج السنة، هذا الحديث كما ورد فى صحيح مسلم «۱».

كما نقله جماعةٌ آخرون من علماء السنة المشهورين والمعروفين فى كتبهم، منهم:

۱۵- ابن المغازلى على بن محمد، «الفقيهٔ الشافعى وهو من علماء القرن الخامس الهجرى» إذ نقل هذا الحديث بمزيد من التفصيل عن زيد بن الأرقم «۲».

۱۶- الخوارزمى وهو من مشاهير علماء القرن السادس وكان من الفقهاء والمحدثين والخطباء والشعراء، نقل هذا الحديث أيضاً فى كتابه الموسوم ب «المناقب» «۳».

۱۷- وذكره الذهبى «محمد بن أحمد بن عثمان الدمشقى الشافعى»- وهو من علماء القرنين السابع والثامن، وهو معروف بالتحيّز لمذهبه، وقد قال تاج الدين السبكى فى كتاب «طبقات الشافعية» بحقه: إنّه محدّث عصره، وختام الحفاظ، ورافع راية مذهب السنة والجماعة، وامام أهل زماننا- هذا الحديث أيضاً فى كتاب «تلخيص المستدرك» «۴».

۱۸- وذكر المؤرخ الشهير على بن برهان الحلبى الشافعى وهو من علماء القرن الحادى عشر، فى كتابه «إنسانُ العيون» المشهور بالسيرة الحلبية، حديث الثقلين ضمن بيانه لحديث الغدير وبعبارات صريحه كالذى ذكرناه آنفاً، وبعد ذكر هذا الحديث يقول بصراحة:

«هذا حديث صحيح حيث نُقل باسناد صحيحة وحسنة» «۵».

وذكر ابن حيان المالكى فى كتاب «المقتبس فى أحوال الاندلس» شبيه ما ورد فى صحيح مسلم، إلّاأنّه ذكر المكان الذى تلا فيه النبى صلى الله عليه و آله تلك الخطبة والواقع بين مكة والمدينة بأنّه «الحصائن» والتى تعنى «القلاع» «۶».

---

(۱) منهاج السنّة، ج ۴، ص ۱۰۴.

(۲) احقاق الحق، ج ۴، ص ۴۳۸، (نقلًا عن كتابه الخطى).

(۳) المناقب، ص ۹۳.

(۴) جاء هذا الكتاب على هامش كتاب المستدرك للحاكم، ج ۳، ص ۱۰۹.

(۵) السيرة الحلبية، ج ۳، ص ۲۷۴.

(۶) المقتبس، ص ۱۶۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۷

۲۰- وأورد «علاء الدین علی بن محمد البغدادی» المشهور ب «الخازن» وهو من علماء القرن الثامن الهجری فی تفسیره ما جاء فی صحیحی مسلم والترمذی «۱».

۲۱- وأورد «ابن أبی الحدیدالمعتزلی عز الدین عبد الحمید» وهو من علماء القرن السابع الهجری، هذه الروایة أیضاً فی شرح نهج البلاغة، فیقول: «قد بین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عترته من هی لمّا قال: إنّی تارکٌ فیکم الثقلین، فقال عترتی أهل بیتی».

ثم یضیف: وقد بین رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أهل بیته أیضاً فی مکان آخر، عندما نشر علیهم الکساء، وعندما نزلت الآیة: «انَّمَا یُرِیدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِجسَ ...»، قال: «إلهی هؤلاء أهل بیتی فأذهب عنهم الرجس» «۲».

۲۲- ونقل «زینی دحلان» الشافعی (سید أحمد) مفتی مکة وهو من علماء القرن الثالث عشر الهجری وله مؤلفات کثیرة، هذا الحدیث فی کتاب «السیرة النبویة» الذی طبع علی هامش السیرة الحلبیة کما نقلة صحیح مسلم تماماً، وکما رواه مسند أحمد بن حنبل عن أبی سعید الخدری «۳».

ترتیب مختصر:

کانت هذه مجموعة من مشاهیر العلماء منذ قرون الإسلام الاولی وحتی القرون الأخیرة، حیث نقلوا حدیث الثقلین فی کتبهم بکل صراحة، ولکن لا ینبغی أن ننسی أنّ هذه طائفةٌ قلیلة من مجموع رواة هذا الحدیث، وطبقاً لما جاء فی خلاصة عبقات الأنوار فقد ذکر المرحوم میر حامد حسین الهندی مائة وستة وعشرین کتاباً معروفاً، وقد أورد فی کتابه هذا نص العبارة مع رقم الجزء والصفحة فی الکتاب «۴».

ومن الجدیر بالذکر أنّ هذا الحدیث لم یُروَ عن جابر بن عبد اللَّه الأنصاری أو أبی سعید

---

(۱) تفسیر الخازن، ج ۱، ص ۴.

(۲) شرح نهج البلاغة، لابن أبی الحدید، ج ۲، ص ۴۳۷، طبع القاهرة.

(۳) السیرة النبویة، ج ۲، ص ۳۰۰؛ علی هامش ج ۳ من السیرة الحلبیة، ص ۳۳ وجاء أیضاً فی ص ۳۳.

(۴) نقلًا عن خلاصة عبقات الأنوار، ج ۲، ص ۱۰۵- ۲۴۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۸

الخدری أو زید بن الأرقم فحسب، بل رواه ما لا یقل عن ثلاثة وعشرین من صحابة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله عنه مباشرة، وفیما یلی أسماؤهم:

۱- زید بن الأرقم، ۲- أبو سعید الخدری، ۳- جابر بن عبد اللَّه الأنصاری، ۴- حذیفة بن أسید، ۵- خزیمة بن ثابت، ۶- زید بن ثابت، ۷- سهل بن سعد، ۸- ضمرة الاسلمی، ۹- عامر بن لیلی ۱۰- عبر الرحمن بن عوف، ۱۱- عبد اللَّه بن عباس، ۱۲- عبداللَّه بن عمر، ۱۳- عدی بن حاتم، ۱۴- عقبة بن عامر، ۱۵- علی بن أبی طالب علیه السلام، ۱۶- أبو ذر الغفاری، ۱۷- أبو رافع، ۱۸- أبو شریح‌الخزاعی، ۱۹- أبو قدامة الأنصاری، ۲۰- أبو هریرة، ۲۱- أبو هیثم بن التیهان، ۲۲- ام سلمه، ۲۳- أم هانی.

تکرار حدیث الثقلین علی لسان النبی صلی الله علیه و آله:

من الامور التى يجدر ذكرها هنا أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يدل بهذا الحديث لمرّة واحدة فقط كما هو الحال بالنسبة لحديث الغدير الذى صرح به النبى صلى الله عليه و آله مرّة واحدة وسمعه ونقله كثيرون، بل إنّه ردَّدَ حديث الثقلين فى مواطن عديدة ومناسبات مختلفة.

والمواطن التى ذُكر فيها الحديث ونُقل عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى كتب أهل السنّة عبارة عن:

۱- فى غدير خم أثناء عودة النبى صلى الله عليه و آله من حجة الوداع، حيث قام وأورد حديث الثقلين ضمن كلماته المفصلة.

وهذا ما ذكرناه آنفاً عن صحيح مسلم وخصائص النسائى مع ذكر الاسناد والمصادر.

۲- خلال أيّام الحج وفى يوم عرفة وعندما كان النبى صلى الله عليه و آله يخطب من على ناقته حيث أدلى بهذا الحديث.

وهذا ما رواه الترمذى فى صحيحه عن جابر بن عبد اللَّه الأنصارى، وأدرج سابقاً تحت الرقم ۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۴۹

۳- تحدّث النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الحديث فى «الجحفة» وهى أحد مواقيت الحج بين مكة والمدينة، كما ذكر ذلك ابن الأثير فى «اسد الغابة» فى أحوال «عبد اللَّه بن حنطب»، وذُكر سابقاً فى العدد ۸ من سلسلة الأحاديث.

۴- أثناء مرضه الذى انتهى بوفاته، وعندما كان يدلى بآخر وصاياه، أوصى صلى الله عليه و آله بالثقلين وقال: «أيّها الناس يوشك أن اقبض قبضاً سريعاً فينطلق بى وقد قدّمت إليكم القول معذرةً إليكم إلّاأنّى مخلف فيكم كتاب ربى عزّ وجلّ وعترتى أهل بيتى، ثم أخذ بيد على عليه السلام فرفعها، فقال: هذا علىٌ مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان حتى يردا على الحوض فاسئلوهما ما خلَّفت فيهما» «۱».

وهناك دقائق وظرائف لا تخفى على أهل الحقيقة.

۵- قال صلى الله عليه و آله فى «مسجد الخيف» اثناء «حجة الوداع»: ألا وإنّى سائلكم عن الثقلين، قالوا: يارسول اللَّه وما الثقلان؟ قال: كتاب اللَّه الثقل الأكبر، طرف بيد اللَّه وطرف بأيديكم فتمسكوا به لن تضلوا ولن تزلوا، وعترتى أهل بيتى، فانّه قد نبأنى اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا علىّ الحوض كاصبعىّ هاتين» «۲».

۶- أثناء عودته صلى الله عليه و آله من الطائف «بعد فتح مكة» حيث وقف النبى وذكر هذا الحديث وهذه النقاط المهمّة «۳».

إنّ هذا التكرار والتأكيد وفى أماكن مختلفة، فى المدينة وفى أيّام الحج، فى يوم عرفة، وفى مسجد الخيف «أيّام منى» وفى وسط الطريق بين مكة والمدينة، وموارد اخرى دليلٌ واضح وبرهانٌ قويٌ وناطق على أنّ التمسك بهذين الأمرين المهمين يعتبر قضية مصيرية ومهمة بحيث كان النبى صلى الله عليه و آله يريد توعية المسلمين على أهميّتهما لئلا يضلوا، والعجب العجاب إذا ما تخلينا عنهما بعد كل هذا التكرار والتأكيد، وألقينا بأنفسنا فى الضلالة، أو قللنا من شأنهم من خلال التبريرات الخاطئة.

---

(۱) الصواعق المحرقة، ص ۷۵.

(۲) تفسير على بن إبراهيم وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۱۲۹، ح ۶۱.

(۳) صواعق ابن حجر، الفصل الأول، الباب ۱۱ آخر ص ۸۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۰

نفحات القرآن ج۹ ۹۹

فكيف يمكن المرور مرور الكرام بحديث نقله نيفٌ وعشرون من صحابة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وورد فى المصادر الشهيرة ومن قبل الطبقة الاولى ونقل فى ما يقارب من مائتى كتاب إسلامى معروف، لا شك ولا ريب فى سنده، ولا غموض فى برهانه؟ من المسلم به أنّ مَن يمر بهذا الحديث مرور الكرام تقع على عاتقه مسؤولية عظيمة.

فالـذى يؤمن بالنبى صـلى الله عليه و آله باعتباره رسول اللّه صـلى الله عليه و آله وخاتم النبيين والأمين على الوحى، ويرى تأكيده على التمسـك بهـذين الأمرين المهمين رأى العين، ويعتـبر أنّ الهـدى فى اتباعهمـا، عليه أن يعلم أنَّ هنـاك سرّاً مهمـاً يكمن فى هـذين الأمرين.

المسائل المهمّة المستوحاة من حديث الثقلين:

إنّ هذا الحديث الشريف يرسم خطوطاً مهمّة أمام المسلمين، وسنشير إلى جانب منها بشكل مختصر:

۱- إنّ القرآن وأهل البيت عليهم السـلام متلازمان دائماً ولا يمكن فصـلهما، والذين يبحثون عن حقائق القرآن يتحتم عليهم التمسـك بأهل البيت عليهم السلام.

۲- كما أنّ اتّباع القرآن واجبٌ على المسلمين بلا قيد أو شرط فإنّ اتّباع أهل البيت عليهم السلام واجبٌ أيضاً بلا قيد أوشرطٍ.

۳- إنّ أهل البيت معصومون عليهم السـلام، فعـدم افتراقهم عن القرآن من ناحيـة، ووجوب اتباعهم بلا قيـد أو شـرطٍ من ناحيـة اخرى دليـل واضـحٌ على عصـمتهم من الزلـل والخطأ والـذنب، فلـو كـانوا يـذنبون أو يخطئـون لانفصـلوا عن القرآن، وأنّ اتبـاعهم لم يؤمِّن المسلمين من الضلالة والانحراف، وأنّ قوله صلى الله عليه و آله: «ما إن تمسكتهم بهما لن تضلوا»، دليل جلىٌّ على عصمتهم.

۴- والأهم من كل ذلك أنّ النبى صـلى الله عليه و آله قـد رسم هذا الخط للمسـلمين على مر الزمان إلى يوم القيامة، فيقول: «إنهما لن يفترقا حتى يردا علىَّ الحوض» فهذا يوضح بجلاء أنّ هناك

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۱

شخصاً من أهل البيت عليهم السـلام بعنوان أمام معصوم على مرّ التاريـخ، وكما أنّ القرآن نبراس هدايـة فإنّهم كـذلك، إذن لابـدّ أن نسعى ونبحث عنهم فى كلِّ عصر وزمان.

۵- يسـتفاد من هذا الحديث الشـريف أنّ الانفصال عن أهل البيت عليهم السلام أو التقدم عليهم يمثل أساس الضلال، ولا ينبغى تقدم شىء على ما يختارونه.

۶- إنّهم أفضل وأعلم من الناس كافّة.

نعم، فلا غموض فى استجلاء هذه الامور من الحديث المذكور أبداً.

واللطيف أنّ «السـمهودى» والشافعى «۱» وهمـا من علمـاء القرن التاسع والعاشـر الهجرى المعروفين، وصاحب كتاب «وفاء الوفاء» يقول فى احـدى مؤلفاته باسم «جواهر العقـدين» الـذى كتبه حول حديث الثقلين: إنّ ذلك يفهم وجود مَنْ يكون أهلًا للتمسك به من أهل البيت والعترة الطـاهرة فى كـلّ زمـانٍ وُجـدوا فيه إلى قيام الساعـة، حتى يتوجه الحثُ المـذكور إلى التمسك به كما أنّ الكتاب العزيز كذلك «۲».

سؤال أخير:

يبقى سؤال واحـد فقـط وهو: إنّه عبر فى بعض الروايـات وإن كانت قليلـة جـداً ب «وسـنتى» بـدلًا عن «وعترتى أهل بيتى»، حيث عثرنا عليهمـا فى مكـانين فى سـنن البيهقى، ففى مورد يروى ابن عباس عن النبى صـلى الله عليه و آله أنّه خطبنا فى حجـة الوداع وقال: «إنّى تارك فيكم ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً، ثم قال: كتاب اللّه وسنة نبيّه» «۳».

وفى سند آخر نقل هذا المعنى عن أبى هريرة أيضاً «۴».

ولكن من الواضح أنّ هذه الرواية لا يُستند عليها فى مقابل جميع تلك الروايات التى

---

(۱) «سمهود»، قرية كبيرة إلى جانب النيل فى مصر.

(۲) خلاصة عبقات الأنوار، ج ۲، ص ۲۸۵.

(۳) سنن البيهقى، ج ۱۰، ص ۱۱۴.

(۴) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۲

تصرح باسم أهل البيت والعترة، وحتى أنّ كلمة أهل البيت تكررت فى بعضها ثلاث مرات، وتم التأكيد عليهم، وفى بعضها جاء اسم علىّ عليه السلام بالنص، وأنّ النبى صلى الله عليه و آله أخذ بيده وعرَّف به، ويبدو أنّ سلاطين الزمان قاموا بهذا التغيير للإفلات من مؤاخذات الناس، إلّاأنّهم لم يستطيعوا التحريف.

فضلًا عن أنّ هاتين الروايتين على فرض صحة حديث «وسنتى» لاتتعارضان، ففى مكان يوصى النبى صلى الله عليه و آله بالكتاب والسنّة، وفى مكان آخر بالكتاب والعترة، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله وكما أسلفنا قد أدلى بهذا الحديث مرات عديدة (وفقاً للروايات التى وردت فى المصادر المشهورة لأهل السنّة)، فتارة فى حجة الوداع، واخرى أثناء عودته من الطائف، ومرّة فى المدينة وعلى المنبر، واخرى على فراش المرض والوفاة «۱»، فما الضير فى أن يقول مرات ومرات: «وعترتى» ومرة واحدة: كتاب اللَّه وسنتى؟

وهل هنالك شخص ينكر أنّ سنّة النبى صلى الله عليه و آله هى احدى آثاره العظيمة، التى يجب العمل بها؟ وهل يمكن لمسلم أن يغض الطرف عن سنة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله التى أكد عليها القرآن، وقال: «مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهاكُمْ عَنهُ فَانتَهوُا». (الحشر/ ۷)

إنّ هذا المعنى لا يتعارض والتأكيد على اتباع العترة والتمسك بها الوارد فى الموارد الاخرى

وبتعبير آخر: إنّ اختيار إحدى الروايتين يكون فى موضع يتعارضان فيه، والحال أنّهما لا يتعارضان على الاطلاق، إنّ التمسك بهدى أهل البيت عليهم السلام هو أحد المصاديق البارزة للعمل بسنة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فمن اطاع أهل البيت عليهم السلام فقد عمل بسنة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، والذى أدار ظهره لهم وقدم اختياره على اختيار رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقد تمرد على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وعلى أىحالٍ لا يمكن التنصل من المسؤولية التى حمَّلتها إيّانا أحاديث الثقلين الأحاديث المتواترة بلا شك، ولا يمكن التغاضى عنها من ناحية السند والبرهان.

ونختم الكلام بشعر أورده الإمام الشافعى بهذا الصدد:

---

(۱) لقد تمّت الإشارة إلى هذه الموارد سابقاً، ويجدر القول إنّ المرحوم السيد شرف الدين قد أشار إلى الموارد فىالرسالة الثامنة فى كتابه المراجعات.

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهممذاهبهم فى ابحرِ العين والجهلِ

ركبتُ على اسم اللَّه فى سفن النجاةوهم آل بيت المصطفى خاتم الرسلِ

وأمسكتُ حبل اللَّه وهو ولاؤُهمكما قد أمرنا بالتمسك بالحبلِ

وما أسعد الإنسان إذ يراهم الملاذ فى كلّ شىء ويعرف الحق من خلالهم «۱».

وقد استند فى الكثير من الروايات الآنفة إلى قضية حوض الكوثر، وسبب ذلك بحسب الظاهر أنّ حوض الكوثر يقع فى باب الجنّة،

وأنّ أول قدم للدخول تكون هناك، وأنّ الصالحين يزورون النبى صلى الله عليه و آله وأهل البيت عليهم السلام هناك.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۵

۲- حديث سفينة نوح

اشارة

من الأحاديث المشهورة بحق أهل البيت عليهم السلام والأئمّة المعصومين عليهم السلام هو «حديث السفينة» الذى ورد فى الكتب المعروفة لدى الشيعة وأهل السنّة بشكل واسع، ونحن هنا نبحث فى نص واسناد ومصادر هذا الحديث الشريف بشكل سريع:

لقد نقل هذا الحديث ما لا يقل عن ثمانية من أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهم (أبو ذر، وأبو سعيد الخدرى، وابن عباس، وأنس، وعبد اللّه بن الزبير، وعامر بن وائلة، وسلمة بن الاكوع، وعلى عليه السلام) «۱».

لقد وردت الروايات الآنفة فى الكتب المشهورة لدى أهل السنّة حيث نشير إلى جانب منها فيما يأتى،- وللمزيد من التوضيح نحث على مراجعة الكتب التالية: احقاق الحق، الجزء التاسع، وخلاصة عبقات الأنوار، الجزء الرابع وسائر الكتب-.

إن أبا ذر رحمه الله كان ماسكاً بباب الكعبة ويقول: «مَن عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فليعلم أنى أبو ذر الغفارى، سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: «مثل أهل بيتى فيكم كمثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك»، وجاء فى رواية: «ومَنْ تخلّف عنها غرق» «۲».

وعليه فهم سفينة النجاة فى بحر الحياة المتلاطم.

۲- يروى «ابن عباس» وكذا «سلمة بن الاكوع»- وفقاً لما ينقله أبو الحسن على بن

---

(۱) وفقاً لما نقل فى اسد الغابة أنّ عبد اللّه بن الزبير ولد فى بداية الهجرة، وفى سن السابعة أو الثامنة جاء به أبوه الزبير إلى الرسول صلى الله عليه و آله ليبايعه، فسمع منه صلى الله عليه و آله ما بقى من عمره ورواها (اسد الغابة، ج ۳، ص ۱۶۲).

(۲) روى هذا الحديث الحافظ الطبرانى فى المعجم الكبير والمعجم الصغير، ص ۷۸ طبعة دلهى؛ وابن قتيبة الدينورى فى عيون الأخبار، ج ۱، ص ۲۱۲ طبعة مصر؛ والحاكم النيشابورى فى المستدرك، ج ۳، ص ۱۵۰؛ والذهبى فى ميزان الاعتدال، ج ۱، ص ۲۲۴؛ والسيوطى فى تاريخ الخلفاء، ص ۵۷۳؛ وجماعة اخرى كثيرة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۶

محمد الشافعى، المشهور بابن المغازلى، فى كتاب المناقب- عن النبى صلى الله عليه و آله أنّه قال: «أهل بيتى فيكم مثل سفينة نوح مَنْ ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك».

وهذه العبارة نقلت عن ابن عباس، إلّاأنّ عبارة «ابن الاكوع» أكثر اختصاراً وهى:

«مثل أهل بيتى مثل سفينة نوح من ركبها نجا».

يقول الشيخ «محمد أمين الانطاكى»، مؤلف كتاب «لماذا اخترت مذهب الشيعة» فى بحث حديث السفينة: اتفقت آراء علماء الإسلام على صحة واستفاضة نقل هذا الحديث حتى بلغ حدّ التواتر، وهناك عدد كبير من الحفاظ وأئمّة الحديث وأهل السير والتواريخ نقلوا هذا الحديث حتى بلغ عددهم أكثر من مائة وحتى غير المسلمين نقلوا هذا الحديث ووضعوه بين الأحاديث الإسلامية» «۱».

وروى هذا الحديث فى كتاب «عبقات الأنوار» عن اثنين وتسعين كتاباً مكتوبة من قبل اثنين وتسعين من مشاهير علماء أهل السنة

بشكل مفصل مع جميع المشخصات:

وفى الملحقات التى ذكرها صاحب كتاب «خلاصة عبقات الأنوار» نقل هذا الحديث عن ثمانية من الصحابة، وثمانية من التابعين، وثلاثة من علماء القرن الثانى، وثمانية من علماء القرن الثالث، وأربعة عشر من علماء القرن الرابع، وهكذا قرناً بعد قرن حتى وصل إلى القرن الحالى، وذكرهم جميعاً بالإسم والمواصفات «۲».

مفاد حديث السفينة:

من أجل إدراك المعنى الدقيق لهذا الحديث لابدّ من إلقاء نظرة على أحوال سفينة نوح.

يقول القرآن الكريم: «فَفَتَحْنَا ابْوابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ* وَفَجَّرنَا الارضَ عُيُونًا فَالتَقَى المَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ». (القمر/ ۱۱- ۱۳)

---

(۱) لماذا اخترت مذهب الشيعة، ص ۱۶۶.

(۲) خلاصة عبقات الأنوار، ج ۲، ص ۱۲۶- ۱۹۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۷

لقد دمر هذا الفيضان الشامل وغطى الماء كل شىءً ولم يبق مأوى يلتجىء الإنسان إليه سوى سفينة نوح التى ضمن اللَّه تعالى لمن ركبها النجاة من الغرق، بحيث عندما قال ابن نوح بغرور: «سَآوِى الَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ المَاءِ» فليس هناك فيضان يصل إلى قمم الجبال، جُوبه برد أبيه الحازم والرادع حيث قال له: «لَاعَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الَّا مَنْ رَّحِمَ»! إشارة إلى المؤمنين الذين ركبوا فى السفينة، وظهر صدق كلام نوح مباشرة إذ: «وَحَالَ بَيْنَهُمَا المَوجُ فَكَانَ مِنَ المُغرَقِينَ». (هود/ ۴۳)

إنّ تشبيه أهل البيت بمثل هذه السفينة وفى تلك الظروف، زاخرٌ بالمعانى التى تعلَّمنا منها الكثير من الحقائق، ومن بينها:

۱- إنّ العواصف ستعصف بالامة الإسلامية بعد النبى صلى الله عليه و آله وتجرف الكثير معها ويغرق فى أمواجها الكثير أيضاً.

۲- هنالك طريق واحد فقط للخلاص من مخالب الأخطار التى تهدد الدين والإيمان وارواح الناس، ألا وهى سفينة أهل البيت عليهم السلام التى يُعتبر التخلف عنها أو تركها سبباً للهلاك.

۳- إنّ الانفصال عن واسطة النقل فى الصحراء قد لا- يؤدّى إلى الموت دائماً، إلّاأنّه يُعرِّض الإنسان إلى العناء، بَيدَ أنّ التخلف عن سفينة النجاة فى بحرٍ متلاطم لا ينتج عنه سوى الموت والهلاك.

۴- لقد كان شرط الركوب فى سفينة نوح عليه السلام الإيمان والعمل الصالح، من هنا فقد عرض نوح على ابنه الإيمان، والانفصال عن الكافرين، والركوب معه ومع أصحابه فى السفينة: «يَابُنَىَّ ارْكَبْ مَّعَنَا وَلَا تَكُنْ مَّعَ الكَافِرِينَ». (هود/ ۴۲)

بناء على ذلك فشرط نجاة هذه الامه من العواصف والانحرافات هو الإيمان واليقين بمقام سفينة النجاة هذه.

۵- ليست محبتهم فقط التى تؤدّى إلى النجاة، حيث طرح بعض علماء الإسلام ذلك بادّعائهم أنّ جميع المسلمين يحبون أهل البيت عليهم السلام ويعظمونهم، من هنا فهم جميعاً من الناجين. بل إنّ الكلام الذى جاء فى الرواية هو عن اتباعهم (مقابل التخلف عنهم)، فإنَّ ابن

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۸

نوح كان يحبُّ أباه إلّاأنّه لم يكن يتبعه، ولم تؤدّ محبتُه إلى نجاته ابداً (تأملوا جيداً).

۶- كما استفيد من «حديث الثقلين» خلال البحوث الآنفة أنّ التمسك بولاء أهل البيت عليهم السلام مستمرٌ حتى نهاية العالم، وأنّ القرآن وأهل البيت عليهم السلام لن يفترقا حتى يردا على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الحوض فى الجنة، يستفاد أيضاً من «حديث

السفینة»، أنّ هذا الخط مستمرٌ حتی نهایة الکون، لأنَّ الدنیا دائماً مرکز الابتلاءات والعواصف، أی أنّ الشیاطین ودعاة الضلالة والتائهین فی وادی الحیرة موجودون فی کل زمان، ولاتهدأ هذه العواصف أبداً، وهی قائمة إلی یوم القیامة حیث یحکم اللَّه تعالی بین عباده، فتزال الاختلافات «۱» علی هذا الأساس، فإنّ وجودالسفینة سفینة النجاة هذه ضروریٌ إلی الأبد والتخلف عنها یؤدّی إلی الهلاک.

۷- إنّ التمسک المطلق بأهل البیت علیهم السلام (فی قبال التخلف عنهم) یمکن أن یکون شاهداً جلیاً علی وجود الإمام المعصوم فی کل زمان من أهل البیت علیهم السلام، حیث یؤدّی اتّباعه إلی النجاة والتخلف عنه إلی الهلاک.

۸- إنّ هذا الحدیث تفسیرٌ للحدیث المعروف «ستفترق امّتی علی ثلاث وسبعین فرقة، فرقة ناجیة والباقون فی النار» «۲».

ویبرهن علی أنّ الفرقة الناجیة هم الذین یتمسکون بمذهب أهل البیت علیهم السلام، ویهتدون بهداهم فی اصول وفروع الدین.

من مجموع ما قیل یمکن الاستفادة أیضاً من هذا الحدیث المعروف: إنّ مسألة أهل البیت علیهم السلام یجب أن تکون مسألة بسیطة وعلی الهامش، بحیث یأخذ المسلمون ما یریدونه فی امور الدین والدنیا من الغیر ویکتفون بمحبة أهل البیت علیهم السلام.

---

(۱) یصرح القرآن فی آیات عدیدة أنّ یوم القیامة یوم یزال فیه الاختلاف وأن اللّه یفصل بین الامم.

(۲) لقد روی هذا الحدیث طائفة کثیرة من علماء الشیعة والسنّة، وجاء فی بعض طرق الحدیث أن النبی علیه السلام قال فی جوابه لعلی علیه السلام الذی سأله، من هی الفرقة الناجیة؟، المتمسک بما تمسکت به أنت و شیعتک و أصحابک (احقاق الحق، ج ۷ ص ۱۸۵).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۵۹

۳- حدیث النجوم

اشارة

الحدیث الآخر الذی ورد بشکل واسع بحق أهل البیت علیهم السلام فی المصادر الإسلامیة، ویؤکّد علی أنّهم علیهم السلام هداة وأئمّة الناس فی کل زمان هو حدیث النجوم. حیث رواه جماعة کثیرة من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله (ما لا یقل عن سبعة أشخاص، ومنهم علی علیه السلام، وجابر بن عبد اللَّه، وأبو سعید الخدری، وانس بن مالک، والمنکدر «۱»، وسلمة بن الاکوع، وابن عباس)، وجرت الإشارة إلیه فی عشرات الکتب من قبل حفاظ أهل السنّة ومحدثیهم، حیث ندرج جانباً منها فیما یأتی، ونشیر إلی بقیة المصادر بشکل إجمالی (للمزید من اطلاع القراء):

۱- ینقل «الحاکم النیسابوری» فی المستدرک عن «ابن عباس» أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال:

«النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بیتی أمان لُامتی من الاختلاف، فاذا خالفتها قبیلةٌ من العرب اختلفوا فصاروا حزب ابلیس».

وبعد ذکره لهذا الحدیث قال الحاکم: هذا حدیث صحیح السند «۲».

یقول العلّامة «الحمزاوی» فی «مشارق الأنوار»: جاء فی الروایة التی صححها «۳» الحاکم النیسابوری: «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق وأهل بیتی أمان لُامتی من الاختلاف».

ومن الذین أوردوا هذا الحدیث فی کتابه، «ابن حجر» فی «الصواعق» و «العلّامة علی المتقی» فی «منتخب کنز العمال» و «البدخشی» فی «مفتاح النجاح» و «الشیخ محمد صبان

---

(۱) المنكدر بن عبد اللّه، أبو محمد بن المنكدر- طبقاً لقول ابن الأثير فى اسد الغابة- هو من أصحاب رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله.

(۲) الحاكم النيشابورى فى المستدرك، ج ۳، ص ۱۴۹ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۹، ص ۲۹۴.

(۳) عبارة الحمزاوى‌هكذا، صححها الحاكم على شرط الشيخين (إشارة إلى المعايير التى على أساسها يعتبرالبخارى ومسلم الأحاديث صحيحة، فهذا الحديث صحيح)، مشارق الأنوار، ص ۹۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۰

المالكى» فى «اسعاف الراغبين» و «العلّامة النبهانى» فى «الشرف المؤبد» و «جواهر البحار» «۱».

كل هذا متعلق بالحديث الذى رواه ابن عباس عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، كما أشرنا أيضاً إلى أنَّ هناك رواة كثيرين أيضاً نقلوا هذا الحديث عن النبى صلى الله عليه و آله، حيث وردت رواياتهم فى كتب السنة والشيعة المعروفة (وبالطبع هناك تفاوت قليل فى عبارات هذه الروايات لا أثر لها فى ما يمثل الهدف الحقيقى).

فمثلًا نقرأ فى رواية «سلمة بن الاكوع»: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتى أمان لُامتى» «۲».

وقد روى هذا المعنى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله بشىء من الاختلاف كلٌّ من جابر بن عبد اللّه الأنصارى والمنكدر، وانس، وأبو سعيد الخدرى.

ونقرأ فى الحديث الآخر الذى رواه على عليه السلام عن النبى صلى الله عليه و آله بهذا الصدد: «النجوم أمان لأهل السماء فاذا ذهبت ذهب أهل السماء وأهل بيتى أمان لأهل الأرض فاذا ذهب أهل بيتى ذهب أهل الأرض».

وقد نقل هذا الحديث «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى عن «مناقب أحمد بن حنبل» «۳».

ونقله جماعةٌ آخرون فى كتبهم، مثل «الحموينى» فى «فرائد السمطين» و «ابن حجر» فى «الصواعق» و «محمد بن صبان» و «إسعاف الراغبين» و «الخوارزمى» فى «مقتل الحسين» و «النبهانى» فى «الشرف المؤبد».

---

(۱) للمزيد من الاطلاع يراجع احقاق الحق، ج ۹، ص ۲۹۴- ۲۹۶.

(۲) لقد أورد هذا الحديث كلّ من السيوطى فى الجامع الصغير، ص ۵۸۷؛ ومحب الدين الطبرى فى ذخائر العقبى وابن حجر فى الصواعق، وجماعة آخرون فى كتبهم.

(۳) ذخائر العقبى ص ۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۱

مضمون حديث النجوم:

إن حديث أو أحاديث النجوم تشير إلى امور مختلفة:

۱- إنّ هذا الحديث فى واقع الأمر إشارة إلى آيات القرآن التى تبيّن أنّ لنجوم السماء أثرين مهمين:

أولًا: قوله تعالى «وَبالنَّجْمِ هُم يَهتَدُونَ». (النحل/ ۱۶)

ويقول فى مكان آخر: «وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ». (الانعام/ ۹۷)

إنّ هذا فى الواقع إشارة إلى احدى الفوائد المهمّة للنجوم، فقبل اختراع البوصلة كان من المتعذر تشخيص الطرق لاسيما فى الأسفار البحرية- حيث لا وجود للجبال والأشجار- إلّا عن طريق النجوم، لهذا فإنّ السفن تتوقف عن المسير خلال الليالى التى تغطى فيها الغيوم السماء، وإذا واصلت طريقها فإنّ خطر الموت يهددها.

وهـذا يعود إلى أنّ نجوم السـماء متجمعـة ماعـدا النجوم الخمسـة السيارة (عطارد، الزهرة، المريخ، المشترى، وزحل) ولا تغير مكانها، وكأنّهـا جواهر قـد رصـعت قطعـة قماش سوداء، وهـذه القطعـة سـحبت باتّجاه معين وهنّ يأخـذن بها فى الاتّجاه المعاكس، لهـذا فقد سميت «الثوابت» بالإضافـة إلى النجمـة القطبيـة الثابتـة فى مكانهـا التى لاتبزغ أو تأفل كسائر النجوم، وهـذا الوضع أدّى إلى أن يتعرفوا على سائر النجوم ويعرفوا مكانها على مدار السنة، وأن يلتمسوا طريقهم نحو مقاصدهم من خلال الخارطة التى كانت لديهم.

والفائـدة الاـخرى هى مايقوله القرآن فى أنّ بعض النجوم «رجومٌ» للشـياطين، أىأنّها بمثابـة السـهام التى تنطلق نحو الشـياطين وتحول دون نفوذهم إلى السـموات، إذ يقول القرآن: «انَّا زَيّنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الكَواكِبِ* وَحِفْظاً مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مّارِدٍ* لَّا يَسَّمَّعُونَ الَى المَلَا الاعْلَى وَيُقذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ* دُحُوراً وَلَهُم عَذابٌ وَاصِبٌ». (الصافات/ ۶- ۹)

من هذه الآيات وسائر آيات القرآن يمكن أن ندرك مفهوم أمان النجوم لأهل الأرض.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۲

فكيف توصد النجوم أو «الشهب» الطريق أمام الشياطين، وتمنعها عن النفوذ إلى السموات؟ إنّ هذه المسألة يجب أن تبحث على حدة، وقـد أوردنـا شـرحها فى ذيـل هـذه الآيـات فى التفسـير الامثـل، وما يتوجب الاهتمام به هنا هو المفهوم الإجمالى للآيات التى تبين أنّ النجوم هى سـبب تقهقر الشـياطين عن الملأ الأعلى ويصـبح منطقـة منزهـة للملائكـة والكروبيين وهـذا المقـدار كاف لتفسـير حـديث النجوم.

نعـم فـآل النـبى صـلى الله عليـه و آلـه كنجـوم السـماء، فمن جهـة ينقـذون النـاس من الضـلالة فى ظلمـات الكفر والفسـاد والـذنوب، ويشخصون لهم سبيل بلوغ غاياتهم، ويحفظون سالكى سبيل الحق من الغرق وسط أمواج الضلالة.

ومن جهـة اخرى عنـدما يحـاول شـياطين الجن والاـنس النفوذ إلى حرم الإسـلام ليقوموا بتحريف أحكـام القرآن والسـنّة فإنّهم عليهم السلام يردونهم على أعقابهم كالشهب الثاقبة، ويردون كيدهم إلى نحورهم ويحولون دون اطلاعهم على الأسرار.

وهذه النكتة جديرة بالاهتمام أيضاً لاسـيما وأنّها تبيّن أنّ أهل البيت عليهم السلام أمان لِلُامة ازاء الاختلافات، فلو استمرت الاختلافات لصار الناس من حزب ابليس كما قال الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «اختلفوا فصاروا حزب ابليس» وهذا التعبير مفعم بالمعانى.

۲- يستفاد من هذا الحديث أن خطَّ هداية أهل البيت عليهم السـلام متواصل حتى فناء الكون، كاسـتمرار أمان النجوم لأهل السماء أو أهل الأرض.

۳- أنّه يثبت عصـمتهم من الخطـأ والـذنب أيضـاً، فلو أمكن صـدور الخطأ والـذنب عنهم لم يتسن لهم أن يكونوا أماناً- بشـكل كامل ومطلق- لأهل الأرض فى مواجهة الاختلاف والضلال، (تأملوا جيداً).

۴- كمـا أنّ نجوم السـماء تتبادل البزوغ فكلما أفل منها واحـدٌ بزغ آخر، وكلما اختفت منها مجموعـة فى الافق، طلعت اخرى فإنّ أهل البيت عليهم السلام كذلك أيضاً.

وقد وضح على عليه السلام هذا الأمر بصريح العبارة فى نهج البلاغة:

«ألا أن مثل آل محمد صلى الله عليه و آله كمثل نجوم السماء إذا هوى نجمٌ طلع نجمٌ» «۱».

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۰۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۳

ولعل الأمر لا يحتاج إلى تذكير بعدم إمكانية تفسير أهل البيت عليهم السلام فى هذه الروايات بنساء النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، لأنّه يتحدث عن أشـخاص يمثلون أساس هداية الامّة ونجاتها من الغرق فى الضلالة، ويتصدون للاختلافات فى كل عصر، ونحن نعلم أنّ نساء النبى كن يعشن فى زمان خاص، بالإضافة إلى أنهنَّ لم يكن لهنّ دور خاص فى التصدّى للاختلافات.

سؤال:

ربما يقال: إننا نقرأ فى الحديث المروى عن النبى صلى الله عليه و آله فى مختلف الكتب: «أصحابى بمنزلة النجوم فى السماء فأيّما أخذتم به اهتديتم» «۱».

فهل أنّ هذا الحديث لا يتعارض والأحاديث المذكورة التى وردت بحق أهل البيت عليهم السلام؟

للاجابة عن هذا السؤال، لابدّ من الالتفات إلى بعض الامور:

۱- على فرض أنّ حديث «أصحابى كالنجوم» حديث معتبر فهو لا يتعارض مع ما ورد بحق أهل البيت عليهم السلام، لأنّ وجود مرجع واحد فى بيان حقائق الإسلام لا يتعارض مع وجود المراجع الآخرين، لاسيما وأنّه لم يرد الكلام فى حديث «أهل بيتى كالنجوم» عن القرآن الكريم، بينما يمثل القرآن الكريم أهم سند للمسلمين.

۲- إنّ هذا الحديث «موضوع» و «مقدوح به» من ناحية السند لدى الكثير من علماء أهل السنة، أو مشكوك على أقل تقدير.

ومن الذين صرحوا بهذا المعنى «أحمد بن حنبل» أحد الأئمّة الأربعة لأهل السنّة، و «ابن حزم»، و «أبو إبراهيم المزنى»، أحد أصحاب الشافعى و «الحافظ البزاز» و «الدار قطنى» و «الذهبى» وطائفة اخرى حيث يخرجنا نقل كلام كل منهم عن إطار البحث التفسيرى، ولكن بإمكانكم مراجعة «خلاصة كتاب عبقات الأنوار» بغية الاطلاع الواسع على جميع هذه الأقوال «۲».

---

(۱) جامع الاصول، ج ۹، ص ۴۱۰.

(۲) خلاصة العبقات، ج ۳، ص ۱۲۴ إلى ۱۶۷ (وفى هذا الكتاب بين ضعف سند هذا الحديث عن أكثر من ثلاثين من علماء أهل السنة مع شرح لأحوالهم).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۴

۳- إنّ مضمون هذا الحديث لا يتناسب مع المعايير المنطقية، فانّنا نعلم أنّ اختلافات شديدة قد وقعت بين أصحاب رسول اللّه صلى الله عليه و آله (الأصحاب بالمعنى الشامل للكلمة، نعنى جميع الذين أدركوه صلى الله عليه و آله وكانوا إلى جانبه)، وقد أُريقت دماء كثيرة بسبب هذه الاختلافات ووقعت حروب رهيبة، فأى منطق يرتضى لنا أن نعتبر فرقتين متخاصمتين وكل منهما متعطش لدم الآخر، أنوار هداية، ونخيرُّ الناس بأنّ لا فرق بالنسبة لكم فى أن تلتحقوا بمعسكر أمير المؤمنين عليه السلام أو بمعسكر معاوية؟ أى: أنّ الأمر سيان للقوم فى حرب الجمل سواء كانوا مع على عليه السلام أو مع طلحة والزبير! فكلهم أنوار هداية ويأخذون بأيديكم إلى الجنّة؟

فلا عقل يقبل مثل هذا المنطق، والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله أسمى وأرفع من أن ينسب إليه مثل هذا.

إنَّ القرائن تبرهن على أنّ حكام «بنى أُمية» ومن لف لفهم قد ابتدعوا هذا الحديث ونسبوه إلى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله من أجل ترسيخ دعائمهم أو إضعاف معنى حديث النجوم والتقليل من أهميّة أهل البيت عليهم السلام، ليفهموا أهل الشام أن لو كانت حكومة على عليه السلام على الحق ومشعل هداية، فإنّ حكومة معاوية كذلك بحكم كونه من أصحاب رسول اللّه، فلا فرق فى أن تكونوا مع هذا أو مع ذاك، واللّه العالم بحقائق الامور.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۵

۴- حديث «الأئمّة الأثنى عشر»

اشارة

الحدیث الآخر الذی یکشف عن منزلة أهل البیت علیهم السلام فی الولایة والإمامة بشکل عام، وبإمکانه الاجابة عن الکثیر من الأسئلة التی ترد بهذا الصدد، هو ذلک الحدیث الذی یذکر أنّ الأئمّة اثنی عشر وهو من أشهر الأحادیث، وقد نقل فی أکثر کتب الصحاح، وفی البدایة نتجه نحو سند الحدیث، ومن ثم نتطرق إلی مضمونه:

روی هذا الحدیث عن جملة من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله إذ تنتهی أکثر الأسانید إلی «جابر بن سمرة»، ثم إلی «عبد اللَّه بن مسعود» و «عبد اللَّه بن عمر»، و «عبد اللَّه بن عمرو بن العاص»، و «عبد الملک بن عمیر»، و «أبی الجلد»، و «أبی جحیفة» (وهم سبعة أشخاص علی الأقل)، إلّاأنّ حفاظ الحدیث والذین نقلوه فی کتبهم بلغوا العشرات، والآن نلفت انتباهکم إلی جانب منها:

۱- روی فی صحیح مسلم عن جابر بن سمرة أنّه قال: «سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول:

«لایزال الإسلام عزیزاً إلی اثنی عشر خلیفة- ثم قال کلمة لم افهمها! فقلت لأبی: ما قال؟

فقال: کلّهم من قریش» «۱».

وینقل فی هذا الکتاب بسند آخر عن جابر، وجاء: «لایزال هذا الأمر» بدلا عن «لایزال هذا الدین عزیزاً»، وجاء فی تعبیر ثالث وبسند آخر: «لایزال هذا الدین عزیزاً منیعاً».

ویروی عن عامر بن سعد بن أبی وقاص بتعبیر رابع: إننی کتبت إلی جابر بن سمرة أن اکتب لی الأخبار التی سمعتها من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فکتب لی: سمعت رسول اللَّه یقول: «لا یزال الدین قائماً حتی تقوم الساعة، أو یکون علیکم اثنی عشر خلیفة کلهم من قریش».

---

(۱) صحیح مسلم، ج ۳، ص ۱۴۵۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۶

وسمعت أیضاً: «عصیبة من المسلمین یفتتحون بیت أبیض، بیت کسری أو آل کسری .

وسمعته یقول أیضاً: «إنّ بین یدی الساعة کذّابین فاحذروهم» «۱».

وعن طریق آخر جاء فی صحیح مسلم نفسه عن جابر: «لا یزال هذا الدین عزیزاً منیعاً إلی اثنی عشر خلیفة»، وفی آخر هذا الحدیث تلاحظ أیضاً جملة «کلهم من قریش» «۲».

۲- جاء هذا الحدیث فی صحیح البخاری وبعبارات مشابهة، یقول جابر: سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول:

«یکون اثنی عشر أمیراً فقال کلمة لم اسمعها، فقال أبی إنّه قال کلهم من قریش» «۳».

۳- وذکر هذا المعنی فی صحیح الترمذی أیضاً مع شیء من الاختلاف، ویقول الترمذی بعد نقله: «هذا حدیث حسن صحیح» «۴».

۴- کما جاء هذا الحدیث فی صحیح أبی داود أیضاً مع اختلاف بسیط، ویبرهن نمط الحدیث علی أنّ النبی صلی الله علیه و آله أدلی به علی الملأ العام، فقد جاء فیه أنّ النبی صلی الله علیه و آله حینما قال:

«لا یزال هذا الدین عزیزاً إلی اثنی عشر خلیفة فکبر الناس وضجوا ثم قال کلمة خفیة: کلهم من قریش» «۵».

۵- ذکر هذا الحدیث فی مسند أحمد أیضاً وفی عدّة موارد، بحیث عدّ بعض المحققین فی هذا الکتاب طرقه إلی جابر أربعةً وثلاثین طریقاً «۶».

وجاء عن «مسروق» أنّه قال: کنا جلوساً لیلة عند عبد اللَّه بن مسعود یقرئنا القرآن فسأله رجل فقال: یاأبا عبد الرحمن هل سألتم رسول اللَّه صلی الله علیه و آله کم یملک هذه الامّة من خلیفة؟ فقال عبد اللَّه: ما سألنی عن هذا أحد منذ قدمت العراق قبلک، قال: سألناه فقال:

(۱) صحيح مسلم، ج ۳، ص ۱۴۵۳.

(۲) المصدر السابق.

(۳) صحيح البخارى، ج ۳، الجزء ۹، ص ۱۰۱ (فى الباب الذى أورده قبل باب اخراج الخصوم وأهل الريب).

(۴) صحيح الترمذى، ج ۴، ص ۵۰۱، باب ما جاء فى الخلفاء، الحديث ۲۲۲۲۳.

(۵) صحيح أبى داود، ج ۴ ص ۱۰۳.

(۶) يراجع كتاب منتخب الأثر، ص ۱۲؛ واحقاق الحق، ج ۱۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۷

«اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل» «۱».

مانقلناه يتعلق بأشهر كتب السنة وأكثرها اعتباراً التى نقل فيها هذا الحديث عن طرق مختلفة، ومن بعدها جاء فى كتب اخرى أيضاً، حيث نشير إلى أسماء بعضها تجنّبا للاطالة فى الحديث، وبإمكانكم الحصول على مزيد من التفصيل فى كتب «احقاق الحق»، و «فضائل الخمسة»، و «منتخب الأثر» وأمثالها.

مضمون حديث «الأئمّة عليهم السلام اثنى عشر»:

إنَّ التعابير التى جاءت فى هذه الروايات متفاوتة، فقد عبر فى بعضها ب «اثنى عشر خليفة» وفى بعض «اثنى عشر أميراً» وفى بعض جرى الحديث عن ولاية وحكم اثنى عشر رجلًا «ماولاهم اثنى عشر رجلًا»، ولكن غالباً ما عبر ب «خليفة»، وفى بعضها جاء التعبير أيضاً بالعدد فقط «اثنى عشر كعدة نقباء بنى اسرائيل»، كما عبر فى بعضها ب «اثنى عشرة قيماً».

ولكن من الواضح أنّها جميعا تشير إلى مسألة الخلافة والولاية والحكومة، وبالتالى فهى واحدة.

ومن ناحية اخرى فقد ورد فى بعضها: «لا يزال هذا الدين عزيزا منيعاً»، وفى بعضٍ: «لا يزال أمر امتى صالحاً»، وفى بعض: «لا يزال أمر هذه الامة ظاهراً»، وفى بعض: «ماضياً» وفى بعض: «لا يضرهم من خذلهم».

وتعابير اخرى من هذا القبيل حيث تشير جميعها إلى حقيقة واحدة وهى: صلاح أمر الامّة واقتدارهم وظفرهم ونجاتهم.

(۱) مسند أحمد، ج ۱، ص ۳۹۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۶۸

ومن جهة ثالثة تلاحظ جملة «كلهم من قريش» فى أغلب هذه الروايات التى نقلت بأساليب مختلفة، ما عدا بعض الروايات مثل الرواية التى نقلها القندوزى الحنفى فى ينابيع المودة، إذ ينقل فى ذيل هذه الرواية عن كتاب «مودة القربى عن «جابر بن سمرة» أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «كلهم من بنى هاشم» «۱».

وجاء فى أغلب هذه الروايات أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله خفض صوته أثناء ذكره هذه الجملة، وصرح بها سرّاً، وهذا يدل بوضوح أنّ ثمّة أشخاص كانوا يعارضون أن يكون الخلفاء الاثنى عشر لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى قريش أو بنى هاشم، ممّا أدّى إلى أن يصرح النبى صلى الله عليه و آله بذلك بشكل سرى!

على أيّة حال فإنّ تفسير هذا الحديث الشريف الذى ورد فى المصادر المشهورة والمعتبرة ونظراً لاعتراف جميع علماء الإسلام به فإنّه واضح لأتباع أهل البيت عليهم السلام، وأنّهم لا يرون معنى له سوى الأئمّة الاثنى عشر، إلّاأنّ تفسيره بالنسبة لأتباع المذاهب الاخرى

أصبح عبارة عن مسألة غامضة ومعقدة ومعضلة، بنحو يمكن معه القول بكل اطمئنان: إنّ أيّاً منهم لم يقدم تفسيراً واضحاً له، والسر فى ذلك معلوم، فالخلفاء الأوائل كانوا أربعة، وحكام بنى امية كانوا اربعة عشر، وبلغ عدد حكام بنى العباس سبعاً وثلاثين شخصاً.

وإنّ أيّاً منهم لم ينطبق عليه حديث «الأئمّة اثنى عشر»، كما أنّ الجمع والتمييز بينهم لن يحل المشكلة، إلّاأن نلغى البعض ونقبل بالبعض الآخر وفقاً لميولنا، وننتخب اثنى عشر منهم بمشقة وعناء، وهذا أيضاً لاينسجم مع أى منطق.

من الأفضل لنا أن نضع زمام الحديث بيد «الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزى الحنفى» فهو يقول فى الكتاب المعروف «ينابيع المودة»:

قال بعض المحققين: إنّ الأحاديث الدالة على كون الخلفاء بعده صلى الله عليه و آله اثنى عشر قد اشتهرت من طرق كثيرة فبشرخ الزمان وتعريف الكون والمكان علم أنّ مراد رسول اللّه صلى الله عليه و آله من حديثه هذا الأئمّة الاثنى عشر من أهل بيته وعترته، إذ لا يمكن أن يحمل هذا الحديث على الخلفاء بعده من أصحابه لقلتهم عن اثنى عشر ولا يمكن أن يحمله على الملوك الأموية لزيادتهم عن اثنى عشر، ولظلمهم الفاحش- إلّاعمر بن عبد العزيز- ولكونهم غير

---

(۱) ينابيع المودة، ص ۴۴۵، الباب ۷۷.

بنى هاشم، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله قال: كلهم من قريش، فى رواية عبد الملك عن جابر واخفاء صوته صلى الله عليه و آله فى هذا القول يرجح هذه الرواية لأنّهم لايحسنون خلافة بنى هاشم، ولا يمكن أن يحمله على الملوك العبّاسيين لزيادتهم على العدد المذكور ولقلة رعايتهم الآية: «قُلْ لَّا أَسْئَلُكُم عَلِيهِ أَجْراً الَّا المَودَّةَ فِى القُربى . (الشورى/ ۲۳)

وكذلك حديث الكساء، فلابدّ من أن يحمل هذا الحديث على الأئمّة الاثنى عشر من أهل بيته وعترته صلى الله عليه و آله لأنّهم كانوا اعلم أهل زمانه وأجلهم وأورعهم واتقاهم وأعلاهم نسباً وأفضلهم حسباً وأكرمهم عند اللّه «۱».

يقول الدكتور «محمد التيجانى السماوى» الذى كان من أهل السنة ثم اختار التشيع، فى الكتاب الذى ألّفه حول سبب تشيعه واسماه «كونوا مع الصادقين» فى عدّة جمل قصيرة ومفعمة بالمعانى: «هذه الأحاديث لا تصح ولا تستقيم إلّاإذا فسرناها على أئمّة أهل البيت الذين تقول بهم الشيعة الإمامية، وأهل السنّة والجماعة هم المطالبون بحل هذا اللغز إذ إنّ عدد الأئمّة الاثنى عشر الذى اخرجوه فى صحاحهم بقى حتى الآن لغزاً لا يجدون له جواباً» «۲».

والعجيب أنّ البعض أرادوا تفسير هذا الحديث الشريف دون الاذعان لاعتقاد اتباع أهل البيت عليهم السلام فى هذا المجال فتعرضوا لعناء مدهش، فمن ناحية عدوا «يزيد بن معاوية» من الاثنى عشر الذين سما بهم الإسلام واصبح مقتدراً، ومن ناحية اخرى ألغوا عددا من الخلفاء وفقاً لرغبتهم.

وباعتقادنا أنّهم لو اختاروا السكوت لكان أفضل لهم من هذه التبريرات، والأعجب من ذلك كله التفسير الذى سمعناه فى احدى أسفارنا لحج بيت اللّه الحرام من أحد علماء مكة وفى المسجد الحرام وهو: إنّ الأئمّة الاثنى عشر أولهم الخلفاء الأربعة وثمانية منهم سيظهرون فى المستقبل!

بينما كل من يقرأ هذا الحديث يعرف أنّ المراد منه الوجود المتتابع للخلفاء الاثنى عشر،

---

(۱) ينابيع المودة، ص ۴۴۶، ملحق الباب ۷۷.

(۲) كونوا مع الصادقين، ص ۱۴۶.

والتعابير مثل: «لا يزال هـذا الـدين منيعاً عزيزاً»، أو «لا يزال هـذا الـدين قائماً حتى تقوم الساعـة» تفيـد هذا المعنى بجلاء وصـراحة بأنّ سلسلة خلفاء النبى صلى الله عليه و آله الاثنى عشر ستستمر إلى يوم القيامة.

ونختم هذا البحث بحديث عن الحافظ أبى نعيم الاصـفهانى فى كتاب «حلية الأولياء» فهو ينقل بسنده عن ابن عباس أنّ النبى صلى الله عليه و آله قـال: «منْ سـرهُ أن يحيـا حيـاتى ويموت مماتى ويسـكن جنـة عـدن غرسـها ربى، فليوال علياً من بعـدى، وليوال وليه وليقتد بالائمة من بعدى فإنّهم عترتى» «۱».

ملاحظة

وثمة ملاحظة مهمّة هنا نشـير إليها ونترك شـرحها للبحوث اللاحقة، وهى ورود أسـماء الأئمّة الاثنى عشـر- كما يعتقد به اتباع مذهب أهل البيت- فى العديـد من الروايات التى نقلت عن طريق السـنّة والشـيعة، وفى بعض طرق هذه الروايات تمّت الإشارة إلى اسم أولهم على عليه السـلام وآخرهم المهـدى (عـج) بصـيغة أولهم على وآخرهم المهدى، وفى بعضـها أشـير إلى ثالثهم أى الإمام الحسـين عليه السلام بهذا الشكل الذى نقل أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أومأ إليه وقال:

«هذا ابنى إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمّة تسع» «۲»، وهكذا اشير إلى جميع الأئمّة الاثنى عشر.

لا تخلو الأرض من حجّة:

من المسائـل المهمّـة التى يسـتند إليهـا فى الروايات هى أنّ الأرض لا تخلو من منـدوب عن اللَّه تعالى وقـد تكرر هـذه المضـمون فى الروايات المتواترة التى وصلتنا عن مصادر أهل

---

(۱) حلية الاولياء، ج ۱، ص ۸۶ (وفقاً لنقل الفضائل الخمسة من الصحاح الستة، ج ۲، ص ۳۴).

(۲) يقول المرحوم العلّامة فى كشف المراد (شـرح تجريد الاعتقاد)، إنّ هذا الحديث روى بشـكل متواتر عن‌النبى صلى الله عليه و آله كشف المراد، ص ۳۱۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۱

البيت عليهم السـلام، بأنّ الأرض لا تخلو من إمام أو «نبى» أو حجّـة على العموم، وقد احتوى كتاب الكافى على بابين فى هذا المجال، وروى فى باب منهما تحت عنوان: «إن الأرض لا تخلو من حجّـة»، ثلاثة عشـر حديثاً عن الإمام الباقر عليه السـلام والإمام الصادق عليه السـلام والإمـام على بن موسـى الرضـا عليه السـلام وبعض الأئمّـة، فى البـاب الآخر تحت عنوان: «إنّه لو لم يبق فى الأرض إلّا رجلان لكان أحدهما الحجّة»، ورويت فيه خمسة أحاديث بهذا المضـمون «۱»، حيث نشـير فيما يلى إلى بعض هذه الأحاديث الواردة فى كلا البابين.

نقرأ فى أحـد الأحـاديث الواردة عن الإمام الصادق عليه السـلام أنّه قال: «إنّ الأرض لا تخلو إلّا وفيها إمام كيما إنْ زاد المؤمنون شـيئاً ردّهم وإن نقصوا شيئاً أتمَّهُ لهم» «۲».

ونقرأ أيضـاً فى حـديث آخر عنه عليه السـلام: «ان اللَّه أجـلُّ وأعظم من أن يترك الأرض بغير امام عادل» «۳»، بل ورد فى بعض هـذه الأحاديث أنّ الأرض إذا خلت من الإمام والحجة ساعة واحدة لتزلزلت الأرض وساخت بأهلها «۴».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «لو كان الناس رجلين لكان احدهما الإمام»، «وان آخر من يموت الإمام»

«۵».

بالاضافة إلى الأحاديث الثمانية عشر المذكورة فقد اشير إلى هذا المعنى بصراحة فى نهج البلاغة أيضاً، ففى الكلمات المهمّة التى قالها الإمام على عليه السلام لكميل بن زياد، يقول:

«اللهم بلى لا تخلو الأرض من قائم للّه‌بحجة، اما ظاهراً مشهوراً واما خائفاً مغموراً لئلا تبطل حجج اللّه وبيناته» «۶».

وقد نقل المرحوم العلّامة المجلسى أيضاً فى الجزء ۲۳ من بحار الأنوار فى باب «الاضطرار إلى الحجة» ۱۱۸ حديثاً فى هذا المجال وهذه الأحاديث الموجودة فى اصول

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۱۷۸ و ۱۷۹.

(۲) المصدر السابق، ج ۱ ح ۲ من الباب الأول.

(۳) المصدر السابق، ج ۱، ح ۶ من الباب الأول.

(۴) المصدر السابق، ح ۱۱ و ۱۲ و ۱۳.

(۵) المصدر السابق، ح ۳، (باب إنه لو لم يبق إلّارجلان احدهما الإمام).

(۶) نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۲

الكافى هى قسم منها، وقسم كثير اضيف إليها من سائر الكتب «۱».

بناءً على ذلك فإنّ قضية وجود حجة على الأرض فى كل عصر تعتبر من الامور المسلَّم بها فى مذهب أهل البيت عليهم السلام، إلى الحد الذى نقرأ فى حديث للامام موسى بن جعفر عليه السلام:

«إنّ اللّه لا يُخلى أرضهُ من حجةٍ طرفة عين، إمّا ظاهر وإمّا باطن» «۲».

الإشارات القرآنية والمنطقية على وجوب الحجّة:

إنّ ما جاء فى الروايات الآنفة الذكر يمكن تطبيقه مع الدليل العقلى أيضاً، لأنّ «برهان اللطف» الذى ورد فى مستهل البحث حول لزوم وجود الإمام أو النبى فى كل عصر وزمان، وكذلك المفاسد المترتبة على فقدانه تصدق على ذلك فى جميع الأحوال حتى لو كان سكان الكرة الأرضية شخصين فقط.

تقول قاعدة اللطف: إنّ الذى خلق الإنسان من أجل السعادة والتكامل، وألقى على عاتقه التكاليف، من الواجب أن يهيء مقدمات هداية الإنسان وتربيته، وأن يضع تحت تصرفه مستلزمات بلوغ هذا الهدف لأنّه لو لم يفعل هكذا فقد نقض الغرض، ومن المستحيل أن يفعل اللّه الحكيم هكذا.

لا ـ شك فى أنّ وجود العقل أو القادة العاديين لا ـ يصون الإنسان من الأخطاء والزلات والمعاصى، وبتعبير آخر: إنّ علم الإنسان لايستطيع لوحده إرشاد الإنسان إلى غايته، أى طاعة اللّه والسعادة الأبدية، بل بالإضافة إلى ذلك فهو يحتاج إلى منْ يرتبط بالعلم الإلهى والمعصوم من الخطأ والزلل والمعصية، ليتسنى له اتمام الحجة وتوضيح السبيل للناس بشكل تام.

إنّ هذا البرهان يصدق فى كل عصر وزمان، ولكل مجتمع كبيراً كان أم صغيراً حتى ولو

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۳، من ص ۱ إلى ۵۶.

(۲) بحار الأنوار، ج ۴۷، ص ۴۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۳

كان من شخصين، وعليه فلو لم يكن فى الأرض إلّاشخصان فاحدهما النبى أو الإمام المعصوم.

على أيّـة حـال فكمـا قرأنـا فى الروايـات الآنفـة أنّ اللَّه أجلُ من أنْ يكلف الناس بلوغ مقام السـعادة من دون أنْ يرشـدهم إلى الطريق الصحيح الذى يخلو من الخطأ.

يلاحظ فى بعض آيات القرآن إشارات إلى هذا المعنى أيضاً.

فالآية الكريمة: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ». (الرعد/ ۷)

تـدل على أنّ لكل قوم فى كل عصـر وزمان هادياً، (هادٍ بالمعنى الحقيقى للكلمـة حيث يجسد الهداية الكاملة والخالية من كل خطأ)، ومن هنا نقرأ فى الحـديث الوارد عن الإمام الباقر عليه السـلام، إذ قال فى تفسـير هـذه الآية: «... وفى كلِّ زمانٍ إمامٌ منّا يهديهم إلى ما جاء به رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۱».

والتعبير الذى جاء فى نهج البلاغة يضم فى ثناياه دليلًا منطقياً أيضاً، وهو: إنّ أحد واجبات الإمام هو المحافظة على آثار النبوة والتعاليم الإلهيّة من كل تحريف، وبتعبير آخر:

لو فرضـنا أنّ كلَّ من على الأرض كفروا فلابدّ من وجود شخص يحافظ على تعاليم وآثار النبوة وينقلها إلى الأجيال القادمة التى تريد سلوك سبيل الهداية، وإلّا فإنّ الحجج الإلهيّة تُمحى وتزول، وتنتهى دلائله وبيناته «لئلا تبطل حجج اللَّه وبيناته».

وهنا نصل إلى خاتمة البحوث المتعلقة بالولاية العامة، والآن نتطرق إلى شروطها وخصائصها.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۵، ح ۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۵

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

اشارة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۷

الشروط والصفات الخاصة بالإمام

تمهيد:

نظراً للمسؤوليات الخطيرة الملقاة على عاتق الإمام وخليفة النبى صلى الله عليه و آله، فلابدّ بطبيعة الحال من أن تتوفر فيه شروط صعبة. وتلك الشروط تشابه إلى حدٍ ما شروط وخصائص النبى صلى الله عليه و آله لأنّهما يسيران فى طريق واحد، ويتحملان نوعاً واحداً من المسؤولية، فالنبى صلى الله عليه و آله يتقدم فى المرحلة الاولى والأئمّة يتابعونه فى المراحل اللاحقة.

وكمـا تحـدثنا فى بحث النبوّة، فالنبى وبحكم المسؤوليـة المهمّـة الملقاة على عاتقه يجب أن يتمتع بعلم واسع فى كل مجال، ليستطيع انقاذ البشـر من أخطار الضـلالة، ويهديهم فى القضايا العقائدية والأخلاقية والأحكام والأنظمة الاجتماعية إلى ما فيه خيرهم وسـعادتهم وكمالهم، ويوضح الأحكام الإلهيّة بلا نقصٍ أو زيادة.

أضف إلى هـذا فلابدّ أن يتمتع باطلاع عن روح وجسم الإنسان، والمسائل النفسـية والاجتماعية، وتاريخ المجتمع البشـرى، والخلاصـة

أن يتمتع بما يساعد على معرفة الناس الذين يحتاجون إلى التربية، بل وتم التوضيح فى بحث علم الأنبياء ووجوب تمتعهم بالعلم بما يخص وقائع المستقبل نوعاً ما، ليتسنى لهم وضع الخطط الدقيقة لذلك لشمولية رسالتهم (للمزيد من التوضيح بهذا الصدد راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن، بحث المقام العلمى للأنبياء).

وهذه الامور تصدق بالنسبة لأئمّة الحق وخلفاء الأنبياء أيضاً مع شىء من التفاوت لأنّهم يواصلون طريق الأنبياء وخطهم، وكل مايشرع به اولئك يواصله هؤلاء، وكل ما أقامه

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۸

الأنبياء يصونه ويكمله الأئمّة عليهم السلام فالشجيرات التى غرستها سواعد الأنبياء تسقى بسواعد الأئمّة الهداة عليهم السلام.

ومن جهة اخرى فالائمة الصالحون كالأنبياء يجب أن يوصلوا ما يعلمونه إلى الناس سالما من الخطأ والزلل والانحراف، وإذا لم يكونوا معصومين لا تتحقق الغاية من وجودهم.

ومن ناحية ثالثة فالأنبياء وبمقتضى مقام القيادة فى الدين والدنيا لابدّ وأن يكونوا ذوى أخلاق فاضلة وصفات محمودة ظاهرية كانت أو باطنية لئلا يتذمر منهم الناس ولكى تثمر الأهداف من بعثتهم ولايعرض امرٌ ينقض الغاية.

هذا الأمر يصدق بحق الأئمّة عليهم السلام تماما، فهم لا ينبغى عليهم التنزه عن أسباب التذمر فحسب، بل لابدّ من توفر الجاذبيات الأخلاقية لديهم بالقدر الكافى لجذب القلوب والعقول، وهنا لابدّ اولًا من البحث فى علم الإمام.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۷۹

علم الإمام

اشارة

يشير القرآن الكريم إلى هذه المسألة فى عدّة آيات:

فيقول تعالى فى مكان: «وَاذَا جَاءَهُم أَمْرٌ مِّنَ الامْنِ أَوِ الخَوْفِ اذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ الَى الرَّسُولِ وَالَى اولِى الامْرِ مِنْهُم لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيطَانَ الَّا قَلِيلًا». (النساء/ ۸۳)

ويقول فى آية اخرى «فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ انْ كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ». (النحل/ ۴۳)

تدل الآية الاولى على أنّ هناك اشخاصاً بين المسلمين كانوا يسلكون- وبلا وعى منهم- سبيل بث الشائعات التى يثيرها أعداء الإسلام أحياناً، فتارة يثيرون إشاعة الانتصار، واخرى إشاعة الهزائم، أو سائر الإشاعات، وسبب هذا الأمر الغفلة والجهل، وقد يتسبب فى انهيار معنويات المسلمين، يقول القرآن: على المسلمين أن يراجعوا النبى صلى الله عليه و آله أو اولى الأمر فى مثل هذه المسائل الاجتماعية المهمّة التى يجهلونها.

واولى الأمر تعنى أصحاب القرار، ومن المسلم به أنّها لا- تعنى هنا القادة الحربيين، لأنّه تعالى يقول بعد ذلك ما معناه: إنّ الذين يستنبطون الأحكام (أى الذين يبحثون القضايا من أصلها يمتلكون الاطلاع حول هذه الامور، وعلى الذين يجهلون مراجعة هؤلاء)، فإنّ «يستنبطونه» من مادة «نَبَطْ»- على وزن «فَقَطْ»- وتعنى فى الأصل الماء الأول الذى يستخرجونه من البئر ويتفجر من باطن الأرض، لذا يقال للحصول على الحقيقة من مختلف

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۰

الأدلة والقرائن، استنباط.

وهذا التعبير صادق بحق العلماء فقط، لا قادة الجيش ولا الأمراء، من هنا فإنّه تعالى يكلف المسلمين بالرجوع إلى العلماء وأُولى الأمر

فی المسائل الحساسة والمصیریة.

لکن ما المقصود هنا من «اولی الأمر»؟ ثمّة جدل بین المفسرین أیضاً، فبعض فسرها بمعنی امراء الجیش لاسیّما الجیش الذی فیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وبعضٌ بمعنی العلماء والفقهاء، وبعضٌ فسّرها بالخلفاء الأربعة، وبعضٌ بمعنی أهل الحل والعقد (زعماء المجتمع)، وطائفة اعتبرتهم الأئمّة المعصومین علیهم السلام.

والظاهر أنّ التفسیر الأخیر أکثر ملائمة من البقیة، فقد ذکرت خصلتان لُاولی الأمر فی ذیل الآیة لایمکن لهما أن تصدقا علی غیر المعصوم:

الاولی: ما یقوله تعالی بما معناه: ولو ردوه إلی اولی الأمر لأرشدهم أولئک الذین یعلمون اصول القضایا، وظاهر هذا التعبیر أنّ علمهم غیر مختلط بالجهل والشک، وهذا الأمر لا یصدق علی غیر المعصومین.

والثانیة: هی أنّه تعالی یعدُّ وجود اولی الأمر نوعاً من الفضل والرحمة الإلهیّة حیث تحول طاعتهم دون اتباع الناس للشیطان: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَیْکُم وَرَحمَتُهُ لَاتَّبَعتُمُ الشَّیطَانَ إلَّاقَلِیلًا».

ومن الواضح أنّ اتباع المعصومین فقط هو الطریق الأمثل والأصوب الذی بإمکانه الحؤول دون ضلال الإنسان واتباعه للشیاطین، لأنّ غیر المعصومین ربّما یزلون ویقعون فی الخطأ والمعصیة ویصبحون أُلعوبة بید الشیطان.

لهذا فقد فسّرت (اولی الأمر) فی هذه الآیة فی العدید من الروایات التی وصلتنا عن طرق أهل البیت علیهم السلام وأهل السنّة بمعنی الأئمّة المعصومین.

ففی روایة ذکرها المرحوم الطبرسی فی مجمع البیان عن الإمام الباقر علیه السلام قوله: «هم الأئمّة المعصومون» «۱».

---

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۸۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۱

ونقرأ فی الحدیث الذی نقل فی تفسیر العیاشی عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام:

«یعنی آل محمد، وهم الذین یستنبطون من القرآن ویعرفون الحلال والحرام وهم حجة اللَّه علی خلقه» «۱».

ونقرأ فی الحدیث الآخر الذی نقل فی «کمال الدین» للصدوق عن الإمام الباقر علیه السلام:

«ومنْ وضع ولایة اللَّه وأهل استنباط علم اللَّه فی غیر أهل الصفوة من بیوتات الأنبیاء فقد خالف أمر اللَّه» «۲».

أمّا فیما یتعلق بالآیة الثانیة أی: فهی توعز إلی الجمیع بسؤال أهل الذکر عن الامور التی یجهلونها یقول اللّه سبحانه: «فاسأَلُوا اهْلَ الذِّکرِ ان کُنتُم لَاتعلَمُونَ».

(النحل/ ۴۳ والأنبیاء/ ۷)

فممّا لا شک فیه أنّ الذکر هنا بمعنی العلم والاطلاع، وأهل الذکر تشمل العلماء والمطلعین بشکل عام، وعلی هذا الأساس فقد استدل بهذه الآیة بشأن التقلید ورجوع الجاهل للعالم، إلّاأنّ المصداق الکامل لها هم الذین یستلهمون علمهم من علم النبی صلی الله علیه و آله والباری جلّ وعلا، فعلمهم علم منزه من الخطأ والزلل، علمٌ مقترن بالعصمة، لهذا فقد فسرت هذه الآیة باهل البیت علیهم السلام والأئمّة المعصومین، ففی الروایة الواردة عن الإمام علی بن موسی الرضا علیه السلام فی اجابته عندما سئل عن الآیة: «نحن أهل الذکر ونحن المسؤولون» «۳».

والجدیر بالذکر أنّ نفس هذا المطلب أو ما یقاربه قد نقل عن التفاسیر الاثنی عشر لأهل السنّة، (المراد من التفاسیر الاثنی عشر، تفسیر «أبو یوسف» و «ابن حجر» و «مقاتل بن

---

(۱) تفسير كنز الدقائق، ج ۳، ص ۴۸۶.

(۲) المصدر السابق، ص ۴۸۶.

(۳) تفسير البرهان، ج ۲، ۳۶۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۲

سليمان» وتفسير «وكيع بن جراح» وتفسير «يوسف بن موسى القطان» وتفسير «قتادة» وتفسير «حرب الطائى» وتفسير «السدى» وتفسير «مجاهد» وتفسير «مقاتل بن حيان» وتفسير «أبى صالح» وتفسير «محمد بن موسى الشيرازى»).

فقد روى فى هذه التفاسير عن ابن عباس أنّ المراد من الآية «فاسألوا أهل الذكر هو محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، هم أهل الذكر والعلم والعقل والبيان، وهم أهل بيت النبوّة» «۱».

وملخص الكلام هو: بالرغم من سعة مفهوم الآية، إلّاأنّ نموذجها الكامل والشامل لا يتصور إلّافى الأئمّة المعصومين عليهم السلام المنزه علمهم من الخطأ والزلل، ومن هنا يتضح عدم معارضة نزول الآية بشأن علامات الأنبياء السابقين، والتوراة، والانجيل، والسؤال من علماء اليهود والنصارى مع ما قيل فى معنى هذه الآية.

ملاحظة

كما ذكرنا فى مبحث علم الأنبياء فى الجزء السابع من هذا الكتاب، فإنّ الأنبياء المكلّفين بهداية الناس فى جميع الجوانب المادية والمعنوية، الذين تمتد حدود مسؤولياتهم إلى الجسم والروح والدنيا والآخرة، يجب أن يكونوا على جانب كبير للغاية من العلم ليتسنى لهم انجاز هذا الواجب على أحسن وجه.

والأئمّة الذين هم خلفاء النبى يحظون بهذا الحكم أيضاً، فلابدّ من امتلاكهم لعلم يتناسب مع واجبهم العظيم ليطمئن إليهم الناس ويسلمونهم دينهم.

ويجب أن يكون هذا العلم منزهاً من الخطأ والعيب والزلل، وإلّا فإنّه لا يحظى بثقة الناس، ويسمح الناس لأنفسهم بتقديم بعض آرائهم على آراء النبى أو الإمام، باعتبار أنّ النبى والإمام يخطئان أيضاً ولا ينبغى التسليم لهما مطلقاً، إذن فالثقة المطلقة تتبع عصمتهما.

يقول القرآن الكريم بشأن إمام بنى اسرائيل «طالوت»: «انَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيْكُم وَزادَهُ

---

(۱) احقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۳

بَسطَةً فِي العِلمِ وَالجِسمِ». (البقرة/ ۲۴۷)

من هنا يقول تعالى فى مقابل مزاعم بنى اسرائيل الذين كانوا يقولون: إنّ طالوت من أُسرة فقيرة ومجهولة، وأنّه خالى اليدين من مال الدنيا: أنّ الأساس الحقيقى للحكم الإلهى هو «العلم» و «القدرة» حيث وهبه اللَّه ما يكفيه منهما.

وفيما يتعلق بيوسف عليه السلام عندما يصف نفسه بالأهلية للتصدى لجانب من حكم مصر، أى إدارة بيت المال، فهو يستند إلى العلم والأمانة: «قَالَ اجعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الارْضِ انِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

بل كما قلنا سابقاً بشأن علم الأنبياء: لابدّ أن يتمتعوا بجانب من علم الغيب على الأقل ليتسنى لهم القيام بواجبهم على أحسن وجه، وأنَّ الذى يصدق بحقهم يصدق بحق الأئمّة أيضاً.

إنّ تكليفهم عالَمى أيضاً، فلابدّ أن يكونوا مطلعين على أسرار العالم، وواجبهم مرتبط بالماضى والمستقبل، فكيف يمكنهم أداء رسالتهم جيداً إذا كانوا يجهلون الماضى والمستقبل، وأن يضعوا الخطط لجميع الناس؟

إنّ حدود رسالتهم تشمل ظاهر وباطن المجتمع، والناس، فمن المتعذر انجاز هذه الامور المهمّة بدون العلم بالغيب، وهذا ماورد بتعبير لطيف للغاية فى حديث الإمام الصادق عليه السلام يقول «مَنْ زعمَ أنّ اللّه يحتج بعبد فى بلاده ثم يستر عنه جميع ما يحتاج إليه فقد افترى على اللّه» «۱».

نعم فالعلم بأسرار العالم حالياً وفى الماضى والمستقبل هو فى واقع الأمر: السبيل إلى انجاز الرسالة المهمّة فى هداية البشر والتحول إلى حجة للّه تعالى

ومختصر الكلام هو أنّ أول شرط للتصدى لمقام الإمامة هو العلم والاطلاع وإلالمام بجميع العلوم الدينية، وحوائج الناس، وكل ما يلزم فى أمر تعليم وتربية وهداية وإدارة المجتمع الإنسانى، ومن المستحيل أداء هذه المسؤولية بدون مثل هذا العلم.

---

(۱) بصائر الدرجات وفقاً لنقل بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۱۳۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۵

مصادر علم الأئمّة!

اشارة

من الامور المهمّة الجديرة بالدقّة والاهتمام فيما يتعلق بعلم الأئمّة المعصومين عليهم السلام، مصادر علم الأئمّة عليهم السلام، إذ من أين يحصل لهم هذا الاطلاع الواسع على امور الدين والدنيا، وبالتسليم بأنّ الوحى لاينزل عليهم، وأنّ أبواب الوحى بعد وفاة خاتم الأنبياء صلى الله عليه و آله قد أوصدت والى الأبد، فكيف يطلعون على مسائل الشريعة ومصالح الإسلام والمسلمين والحقائق المتعلقة بالماضى والمستقبل التى تعتبر ضرورية فى أمر هداية الامة؟

من الممكن معرفة هذه المصادر جيدا من خلال الإشارات التى وردت فى آيات القرآن والبيانات المفصلة والواسعة التى جاءت فى الروايات.

إنّ هذه المصادر متنوعة وكثيرة نذكر بعضاً منها:

۱- العلم الكامل بكتاب اللّه

بنحو يلمّون فيه بمعرفة تفسيره وتأويله وباطنه وظاهره ومحكمه ومتشابهه.

يقول القرآن الكريم: «وَيَقُولُ الَّذينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُم وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتابِ». (الرعد/ ۴۳)

يتضح من خلال هذه الآية أنّ هناك شخصا لديه علم الكتاب جميعاً (انتبهوا إلى أنّ علم الكتاب قد جاء بشكل مطلق، وشامل لجميع العلوم المتعلقة بعلم الكتاب، على العكس ممّا ورد فى الآية: «قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ انْ يَرْتَدَّ اليكَ طَرْفُكَ». (النمل/ ۴۰)

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۶

من المسلَّم به أنّ كتاب اللّه معين لا ينضب من العلوم، وأنّ العلم به مفتاح لجميع الامور، فعندما يستطيع «آصف بن برخيا» وزير سليمان من القيام بهذا العمل المهم نتيجة لعلمه ببعض الكتاب، ويأتى بعرش ملكة سبأ بطرفة عين من أقصى جنوب الجزيرة العربية (اليمن) إلى أقصى شمالها (الشام مركز حكومة سليمان)، فمن المسلم به أنّ الذى عنده جميع علم الكتاب يستطيع القيام بأعمال أهم من ذلك كثيراً، ولكن من الذى عنده علم الكتاب؟ يشير القرآن الكريم إلى ذلك إشارة غامضة.

فقال البعض: إنّ المراد هو اللَّه تعالى (وعلى هذا سيكون عطف جملة «عنده علم الكتاب» عطفاً تفسيرياً، وهذا يخالف ظاهر الكلام).

كما قال عدد من المفسرين: المراد منه هم علماء أهل الكتاب وأشخاص كسلمان، وعبد اللَّه بن سلّام الذين كانوا قد شاهدوا علامات النبى صلى الله عليه و آله فى الكتب السماوية السابقة ويشهدون بحقانيته صلى الله عليه و آله.

إلّا أنّ أغلب المفسرين نقلوا فى كتبهم أنّ هذه الآية إشارة إلى على بن أبى طالب عليه السلام وأئمّة الهدى عليهم السلام.

يروى المفسر الشهير القرطبى فى تفسير هذه الآية عن عبد اللَّه بن عطاء: قلت لأبى جعفر على بن الحسين عليه السلام: إنّ الناس يظنون أنّ الذى عنده علم الكتاب هو عبد اللَّه بن سلام، فقال: «إنّما ذلك على بن أبى طالب رضى اللَّه عنه»، هو على بن أبى طالب فقط، وكذلك قال محمد بن الحنفية ذلك «۱».

والجدير بالذكر أنّ هذه السورة (سورة الرعد) نزلت فى مكة والحال أنّ عبد اللَّه بن سلام وسلمان الفارسى وسائر علماء أهل الكتاب أسلموا فى المدينة.

وقد ورد هذا الكلام عن سعيد بن جبير أيضاً عندما سئل: هل أنّ «مَنْ عنده علم الكتاب» هو عبد اللَّه بن سلام؟ قال: «كيف يكون هو وهذه السورة مكية» «۲»؟

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۵، ص ۳۵۶۵.

(۲) تفسير در المنثور، ج ۴، ص ۶۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۷

كما ينقل الشيخ سليمان القندوزى الحنفى «۱» فى «ينابيع المودة» عن «الثعلبى» و «ابن المغازلى» عن «عبد اللَّه بن عطاء»: كنت مع محمد الباقر عليه السلام فى المسجد ورأيت ولد عبداللَّه بن سلام فقلت: هذا ابنُ منْ عنده علم الكتاب، فقال: هذه الآية بحق على بن أبى طالب عليه السلام «۲».

وقد رويت فى نفس الكتاب رواية اخرى عن عطية العوفى عن «أبى سعيد الخدرى» قال: سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن آية «الذى عنده علم من الكتاب»، فقال صلى الله عليه و آله: هو وزير أخى سليمان، ثم سألته عن آية «قل كفى باللَّه شهيداً بينى وبينكم ومنْ عنده علم الكتاب»، فقال صلى الله عليه و آله: ذاك أخى على بن أبى طالب عليه السلام «۳».

ونقرأ أيضاً فى رواية اخرى عن ابن عباس أنّه قال: «مَنْ عنده علم الكتاب» إنّما هو علىّ عليه السلام، لقد كان عالماً بالتفسير والتأويل والناسخ والمنسوخ «۴».

وملخص الكلام هو: لا يمكن تفسير هذه الآية بعلماء أهل الكتاب ابداً، بسبب نزول هذه السورة الرعد فى مكة، وهؤلاء أسلموا بعد الهجرة فى المدينة، واستناداً إلى الروايات الآنفة فهى بحق علىّ عليه السلام ومن بعده تشمل (سائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام).

نعم، فهذا العلم الواسع بالقرآن الكريم وأسراره، ودقائقه، وظاهره وباطنه، هو أحد المصادر الرئيسة لعلم الأئمّة المعصومين عليهم السلام «۵».

ومن شواهد هذا المعنى قول الآية الكريمة: «وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ الَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ». (آل عمران/ ۷)

وللتوضيح ثمّة جدل بين المفسرين بأنّ هل «الرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ» معطوفة على «اللَّه» أى ليس هنالك من يعلم تأويل القرآن سوى اللَّه «والراسخون فى العلم»، أم أنّها مطلع جملة

---

(۱) «قندوز»، مدينة شمال أفغانستان نسب إليها هذا العالم السنّى.

(۲) ينابيع المودة، ص ۱۰۲.

(۳) المصدر السابق، ص ۱۰۳.

(۴) ينابيع المودة، ص ۱۰۴.

(۵) وردت عن أهل البيت عليهم السلام روايات عديدة فى هذا المجال، فللمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير كنز الدقائق، ج ۶، ص ۴۸۰ وتفسير البرهان ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۸

مستقلة؟ وعليه فإنّ مفهوم الآية يكون هكذا: لا يعلم تأويل القرآن غير اللَّه، أمّا الراسخون فى العلم فيقولون: وإن كنّا لا نعلم تأويل الآيات المتشابهة، إلّا أننا نُسلِّم أمامها».

وما يؤيد المعنى الأول هو أولًا: من المستبعد أن تكون فى القرآن أسرار لا يعلمها إلّااللَّه فقط، فالقرآن نزل لتربية الناس وهدايتهم، ولا معنى فى أن تكون فى هذا الكتاب آيات وجملٌ لايعلم مقصودها إلّااللَّه تعالى

ثانياً: كما يقول المفسر الكبير «الطبرسى» فى «مجمع البيان»: لا يوجد بين المفسرين من يقول: إنّ الآية الفلانية لايعلم معناها إلّااللَّه، بل إنّهم يسعون دائماً لكشف أسرار الآيات بطرق مختلفة، منها أحاديث المعصومين عليهم السلام، وفى الواقع أنّ هذا الكلام يناقض إجماع المفسرين.

ثالثاً: إذا كان المقصود هو التسليم بدون علم فيجب أن يقال: «الراسخون فى الإيمان، لا الراسخون فى العلم»، فالذى لا يعرف شيئاً كيف يمكن تسميته راسخاً فى العلم؟

رابعاً: جاء فى عدّة روايات أنّ «الراسخون فى العلم، يعلمون تأويل القرآن» وهذا دليلٌ على أنّ هذه العبارة عطف على لفظ الجلالة «اللَّه».

فنقرأ فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «الراسخون فى العلم أمير المؤمنين والأئمّة من بعده» «۱».

وجاء فى رواية اخرى عنه عليه السلام أنّه قال: نحن الراسخون فى العلم ونحن نعلم تأويله» «۲».

ونقرأ فى رواية اخرى أيضاً، أنّ الإمام الباقر عليه السلام (أو الإمام الصادق عليه السلام) قال فى تفسير الآية: «وَمَا يَعلَمُ تَأوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى العِلمِ»: «فرسول اللَّه أفضل الراسخين فى العلم، قد علمه اللَّه عزّ وجلّ جميع ما أُنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان اللَّه لينزل عليه شيئاً لَم يعلمه تأويله، وأوصيائه من بعده يعلمونه كله» «۳».

وهنالك روايات عديدة اخرى بهذا الصدد تؤيد هذا المعنى المفهوم «۴».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۱۳، ح ۳.

(۲) المصدر السابق، ح ۱.

(۳) المصدر السابق، ح ۲.

(۴) للمزيد من التوضيح، يراجع كتاب جامع الأحاديث، ج ۱، ص ۲۷؛ وتفسير كنز الدقائق، ص ۴۲- ۴۵؛ واصول الكافى، ج ۱، ص ۴۱۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۸۹

من خلال البراهين الأربعة التى ذكرناها آنفا- وكل برهان منها يكفى لإثبات الغرض- فلا يبقى شك فى أنّ عبارة «والراسخون فى العلم» معطوفة على «اللَّه» ومعناها علمهم بالتأويل وباطن الكتاب.

والجدير بالذكر أنّ التعبير ب «الراسخون فى العلم» جاء مرتين فى القرآن الكريم، فمرة جاء فى الآية محل البحث سورة آل عمران ۷، ومرّة فى سورة النساء حيث يقول تعالى بعد أنّ ذم أفعال أهل الكتاب (اليهود والنصارى القبيحة المتمثلة بأكل الربا ونهب أموال

الناس:

«لَّكِنِ الرَّاسِخُونَ فِى العِلْمِ مِنهُمْ وَالمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ اليَكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبلِكَ».

(النساء/ ۱۶۲)

ويبدو أنّ الذين ذكروا اسم «عبداللّه بن سلام» وأمثاله من علماء أهل الكتاب- الذين أسلموا- فى تفسير الراسخين فى العلم يقصدون هذه الآية ۱۶۲ من سور النساء، لا الآية ۷ من سورة آل عمران، لأنّ الآية التى تتحدث حول علماء أهل الكتاب الآية الاولى، أمّا الآية التى هى محل بحثنا (الآية ۷ من سورة آل عمران) فلا علاقة لها بقضية أهل الكتاب، (تأملوا جيداً).

كما تتضح هنا نكتة مهمّة اخرى وهى: ما ورد فى خطبة الأشباح فى نهج البلاغة حيث يقول عليه السلام: «واعلمْ أنّ الراسخين فى العلم هم الذين أغناهم اللّه عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب لاقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب» «۱».

وربّما يكون إشارة إلى آية سورة النساء أيضاً، حيث يتحدث عن تسليم بعض علماء أهل الكتاب والمؤمنين بلا قيد أو شرط أمام القرآن وسائر الكتب السماوية، لا الآية من سورة آل عمران (تأملوا جيداً كذلك).

وملخص الكلام أنّ ظاهر الآية ۷ من سورة آل عمرأن يقول: إنّ اللّه والراسخين فى العلم يعلمون تأويل القرآن، ونظراً إلى أنّ المقصود من الراسخين فى العلم هم النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومون عليهم السلام بالدرجة الاولى إذن يُعرف أحد مصادر علمهم وهو القرآن الكريم وتأويله وتفسيره وظاهره وباطنه.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱ (خطبة الأشباح).

ونختتم هذا الحديث بإشارة اخرى إلى آيات القرآن الكريم فنقرأ فى الآية: «بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّنَاتٌ فِى صُدُورِ الَّذِينَ اوْتُوا العِلْمَ».

(العنكبوت/ ۴۹)

ففى مصادر أهل البيت عليهم السلام تلاحظ روايات كثيرة بصدد تفسير جملة «الذين اوتوا العلم» فى هذه الآية بالأئمّة المعصومين بعد النبى صلى الله عليه و آله.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار وتفسير البرهان «۱».

۲- الوراثة من النبى صلى الله عليه و آله

المصدر الثانى من مصادر علوم الأئمّة المعصومين عليهم السلام هو الوراثة من النبى صلى الله عليه و آله، بمعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله قد علَّم عليّاً عليه السلام جميع العلوم وشرائع الإسلام، واستنادا إلى بعض الروايات فإنّ علياً عليه السلام قد كتب ذلك فى كتاب بخط يده وانتقل هذا العلم إلى أولاده أى الأئمّة المعصومين عليهم السلام نسلًا بعد نسل.

أو بتعبير آخر- كما ورد فى الروايات- أنّ النبى صلى الله عليه و آله علمَ علياً عليه السلام ألف باب من العلم ينفتح من كل باب ألف باب.

وقد احتوى فى كتاب الكافى على روايات عديدة فى هذا المجال، منها ما نقرأه فى حديث عن أبى بصير حيث يقول: سألت الإمام الصادق عليه السلام إنّ شيعتكم يقولون: إنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله علَّم علياً عليه السلام باباً من العلم ينفتح منه ألف باب، قال الإمام عليه السلام: «علم رسول اللّه علياً ألف باب يفتح من كل باب ألف باب».

ثم قال عليه السلام: «يا أبا بصير! ان عندنا الجامعة ... قلت وما الجامعة؟ قال: صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول اللّه صلى الله عليه و آله واملائه، من فَلْق فيه، وخطّ على بيمينه، فيها كل حلال وحرام، وكل شىء يحتاج الناس إليه حتى الارش من الخدش» «۲».

والجدير بالذكر أنّه قد وردت روايات لا حصر لها فى اشهر كتب السنة والشيعة حول

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۱۸۸- ۲۰۸؛ وتفسير البرهان، ج ۳، ص ۲۵۴- ۲۵۶ (لقد روى فى هذين الكتابين مايقارب عشرين حديثاً بهذا الصدد).

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۳۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۱

الحديث المعروف ب «مدينة العلم» ومن جملة رواة هذا الحديث «ابن عباس» و «جابر بن عبد اللَّه» و «عبد اللَّه بن عمر» و «على عليه السلام».

ومن الذين نقلوا هذا الحديث فى كتبهم هم «الحاكم النيسابورى» فى «المستدرك»، و «أبو بكر النيشابورى» فى «تاريخ بغداد» و «ابن المغازلى» فى «مناقب أميرالمؤمنين عليه السلام»، والكنجى فى «كفاية الطالب» و «الحموينى» فى «فرائد السمطين» و «الذهبى» فى «ميزان الاعتدال» و «القندوزى» فى «ينابيع المودة» و «النبهانى» فى «الفتح الكبير» وطائفة اخرى «۱».

ونقرأ أيضاً فى عدّة روايات بصريح القول أنّ أئمّة أهل البيت عليهم السلام كانوا يقولون: ما ننقله بإمكانك أن تنقله عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، لأننا سمعنا كل ذلك عن أجدادنا عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله!.

فقد سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام: ربّما نسمع حديثاً منك، ثم نشك فى هل أننا سمعناه منك أم من أبيك؟

فقال عليه السلام: «ما سمعته منّى فاروه عن أبى، وما سمعته من أبى فاروه عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۲».

ويقول فى مكان آخر أيضاً: «حديثى حديث أبى، وحديث أبى حديث جدى، وحديث جدى حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين عليه السلام حديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وحديث رسول اللَّه قول اللَّه عزّ وجلّ» «۳».

وجاء عنه عليه السلام فى رواية اخرى حيث قال بصريح العبارة: «مهما اجبتك فيه بشيء فهو من رسول اللَّه لسنا نقول برأينا من شيء» «۴».

---

(۱) للمزيد من الاطلاع راجعوا احقاق الحق، ج ۵، ص ۴۶۸- ۵۰۱ وللاطلاع على مصادر هذا الحديث فى كتب الشيعة راجعوا كتاب جامع الأحاديث، الطبعة القديمة، ص ۱۶ وما بعدها.

(۲) جامع الأحاديث، ج ۱، ص ۱۷، ح ۴، باب حجية فتوى الأئمّة.

(۳) المصدر السابق، ح ۱.

(۴) المصدر السابق، ح ۷ (وتوجد أحاديث اخرى أيضاً بهذا الصدد فى نفس الكتاب).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۲

۳- الاتصال بالملائكة

من مصادر علم الأئمّة، اتصالهم بالملائكة، لا بمعنى أنّهم كانوا من الأنبياء والرسل، فإنّنا نعلم أنّ نبى الإسلام صلى الله عليه و آله كان خاتم الأنبياء والرسل، وبوفاته انقطع الوحى، بل إنّهم كانوا ك «الخضر» و «ذى القرنين» و «مريم»، حيث كانوا على اتصال بالملائكة بناءً على ظاهر آيات القرآن، وكانت الحقائق تلقى فى قلوبهم من خلال عالم الغيب.

جاء عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ علياً كان مُحدَّثاً»؟ وعندما طلبوا منه عليه السلام معرفة من يُحدِّثه قال: يُحدِّثه ملك، ولما

سألوه: هل كان نبيّاً؟ فأومأ بيده بالنفى والانكار، ثم أضاف: كصاحب سليمان، أو كصاحب موسى أو كذى القرنين «۱»، (هناك روايات عديدة أيضاً بهذا المجال) «۲».

۴- إلقاء روح القدس

المصدر الرابع لعلم الأئمّة هو فيض روح القدس.

وتوضيح ذلك: إنّ الحديث قد تكرر فى آيات القرآن عن تأييد «روح القدس» فقد ورد ثلاث مرات بشأن المسيح عليه السلام، (البقرة/ ۸۷ و ۲۵۳ والمائدة/ ۱۱۰) ومرّة واحدة بشأن النبى صلى الله عليه و آله (البقرة/ ۱۱۰).

فمن هو أو ما هو «روح القدس»؟ ثمّة جدل كثير بين المفسرين، فقد فسّره جماعة من المفسرين ب «جبرائيل»، وفسّر بالروح المقدسة الطاهرة للمسيح عليه السلام، أو بمعنى الانجيل الذى انزل عليه، وتارة قالوا: إنّ المراد هو اسم اللّه الأعظم الذى كان المسيح يحيى به الموتى «۳».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۷۱.

(۲) المصدر السابق.

(۳) جاءت هذه المعانى الأربعة فى تفسير كنز الدقائق، ج ۲، ص ۷۸، ولكن فى بعض التفاسير المعروفة ذكر التفسير الأول فقط، واكتفى فى تفسير الكبير بذكر ثلاثة معانٍ وهى، جبرئيل، والانجيل، والاسم الأعظم (تفسير الكبير، ج ۳، ص ۱۷۷).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۳

ولكن يستفاد من تعابير القرآن الكريم، وكذا مختلف الروايات، أنّ روح القدس له عدّة معان وربّما يحمل معنىً خاصاً فى كل مكان، ففى احدى آيات القرآن الكريم: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالحَقِّ». (النحل/ ۱۰۲)

يعنى بحسب الظاهر «جبرئيل» الذى كان ينزل بالقرآن على النبى صلى الله عليه و آله من قبل اللّه تعالى

لكن يبدو أنّه يحمل مفهوماً آخر فى الموارد الثلاثة الاخرى والتى جميعها بحق المسيح عليه السلام، فالتعبير «إذ أيدتك بروح القدس»- أو- «وأيدناه بروح القدس» يدل على أنّه إشارة إلى الروح التى كانت ترافق المسيح عليه السلام وتؤيده وتسدده.

ويفهم من الروايات التى وردت فى مصادر أهل البيت عليهم السلام أنّ روح القدس هى الروح التى كانت مع الرسل والأنبياء والمعصومين عليهم السلام دائماً، وكانت تنقل إليهم الامدادات الغيبية فى مختلف الحالات، بل يستفاد من الروايات العديدة التى وردت فى مصادر السنّة أيضاً، أنّهم كانوا يصفون الكلام أو الشعر ذى المغزى الذى يصدر عن شخص ما: «كان هذا بتأييد من روح القدس».

ومن هذا الكلام ما نقرأه فى الرواية الواردة فى تفسير الدر المنثور أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قال بحق الشاعر الإسلامى المعروف «حسان بن ثابت»: «اللّهم أيّد حساناً بروح القدس كما دافع عن نبيّه» «۱».

ونقرأ بشأن شاعر أهل البيت المعروف «الكميت بن زيد الأسدى» أنّ الإمام الباقر عليه السلام قال له: كما قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله لحسان بن ثابت، «لن يزال معك روح القدس ما ذَبَبْتَ عنّا» «۲».

وورد فى رواية اخرى أنّ الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام بكى كثيراً عندما أنشده الشاعر دعبل الخزاعى بعض أبيات قصيدته المعروفة «مدارس آيات» ثم قال له: «نطق

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۸۷ (ذيل الآية ۸۷ من سورة البقرة) وجاء فى صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۹ و ۳۲ باب فضائل حسان بن

ثابت ما يشبه هذا المضمون.

(۲) سفينة البحار، ج ۲، ص ۴۹۵۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۴

روح القدس على لسانك بهذين البيتين» «۱».

من هنا يتضح جيدا أنّ «روح القدس» روح معينة تعين الإنسان أثناء ادائه للاعمال المعنوية الإلهيّة، وبطبيعة الحال فإنّها متفاوتة بتفاوت مراتب الأشخاص، فهى لدى الأنبياء والأئمّة المعصومين تكون فعالة وتعمل بشكل استثنائى وأكثر وضوحاً، ولدى الآخرين تكون وفقاً لقابلياتهم وإن كنّا نفتقد العلم بماهيتها وتفاصيلها.

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير «وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* اوْلَئِكَ الْمُقَرّبونَ»

(الواقعة/ ۱۰- ۱۱)

فقال: «فالسابقون هم رسل اللَّه عليهم السلام وخاصة اللَّه من خلقه، جعل فيهم خمسة أرواح، أيدّهم بروح القدس فبه عرفوا الأشياء ...» «۲».

وجاء فى رواية اخرى عن الإمام الباقر عليه السلام بهذا الصدد حيث قال بعد تعداده للأرواح الخمسة الموجودة لدى الأنبياء والأوصياء: «فبروح القدس .. عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى «۳».

وهناك روايات كثيرة اخرى بهذا المجال فى اصول الكافى وسائر الكتب، حيث لا يسع المجال لشرحها هنا.

نعم فالإمداد الإلهى عن طريق روح القدس مصدر آخر من مصادر علم المعصومين عليهم السلام.

۵- النور الإلهى

المصدر الخامس الذى يمكن ذكره لعلوم الأئمّة هو ماورد فى العديد من الروايات فى اصول الكافى، منها ما يقوله «حسن بن راشد»: سمعت الإمام الصادق عليه السلام يقول: «... فاذا

---

(۱) كشف الغمة، ج ۳، ص ۱۱۸؛ واعلام الورى ص ۳۳۱، وذانك البيتان هما، خروج إمام لا- محالة خارجيقوم على اسم اللَّه والبركات

يميز فينا كلَّ حقٍ وباطلويجزى على النعماء والنقمات

(۲) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۷۱.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۷۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۵

مضى الإمام الذى كان قبله رفع لهذا منار من نور ينظر به إلى أعمال الخلائق فبهذا يحتج اللَّه على خلقه» «۱».

وورد فى بعض الروايات أيضاً ب «عمود من نور» «۲»، إلّاأنّه غالباً ما جاء تعبير «منار من نور»، وبالطبع ليس هنالك تباين كثير بين هذين التعبيرين.

وللمزيد من الاطلاع راجعوا بحار الأنوار، ج ۶، ص ۱۳۲، إذ ينقل المرحوم العلّامة المجلسى ستة عشر رواية بهذا الصدد، وكذلك وردت روايات عديدة فى هذا المجال فى باب «عرض الأعمال» (ج ۲۳، ص ۳۳۳ وما بعدها).

يستفاد من مجموع ما قيل إنّ مصادر علم الأئمّة المعصومين عليهم السلام متعددة ومتنوعة، ويأتى علمهم بجميع معانى القرآن الكريم بالدرجة الاولى، وفى الدرجة الثانية تأتى العلوم التى يرثونها عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ويليها التسديد والتأييد الإلهى،

والالهامات القلبية والاتصال بالملائكة وعالم الغيب.

ومن فيض هذه المصادر يقتبس الأئمّة المعصومون علوماً ومعارف كثيرة ليتسنى لهم إنجاز مهمّتهم التى تتجسد فى المحافظة على الإسلام والقرآن وسنة النبى صلى الله عليه و آله وهداية الخلق نحو الخالق، وتربية النفوس وإقامة الحدود وتدبير الامور على أحسن وجه.

والملاحظة الاخرى الجديرة بالاهتمام هى أنّه يستفاد من بعض الروايات أنّ أرواح الأئمّة عليهم السلام تستلهم كل ليلة جمعة علوماً ومعارف جديدة بصدد القضايا المستجدة، وذلك من قبل اللَّه تعالى (لينسجموا مع متطلبات الامّة الإسلامية).

منها ما نقرأه فى الرواية الواردة عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال: «إنّ لنا فى كل ليلة جمعة سروراً».

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۳۸۷، ح ۲.

(۲) المصدر السابق، ح ۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۶

يقول الراوى فقلت: زادك اللَّه وما ذاك؟

قال عليه السلام: «إذا كان ليلة الجمعة وافى رسول اللَّه العرش ووافى الأئمّة معه، فلا تُرَدُّ أرواحنا إلى أبداننا إلّابعلم مستفاد، ولولا ذلك لأنفدنا» «۱».

وتشاهد روايات عديدة فى هذا البحث بهذا الصدد أيضاً يطول شرحها هنا.

نظراً إلى ما ذكرناه فى هذا الفصل يتضح أنّ مصادر علم الأئمّة ليست أمراً بسيطاً، فالمصادر التى يمتلكونها هى التى تميزهم عن سائر الناس، وتعينهم فى أدائهم للمسؤوليات المهمّة التى يتحملونها فى المحافظة على الإسلام وتعاليم القرآن وهداية العباد.

---

(۱) اصول الكافى، ج ۱، ص ۲۵۴ (باب فى أنّ الأئمة عليه السلام يزدادون فى ليلة الجمعة).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۷

عصمة الأئمّة عليهم السلام

تمهيد:

التوقى من الخطأ والسهو والمعصية شرطٌ آخر من الشروط العامة للأئمّة المعصومين، وفى الحقيقة أنّ القرائن كافّة التى تدل على عصمة الأنبياء عليهم السلام تدل على عصمة الأئمّة عليهم السلام أيضاً، لأنّ مسؤوليتهم تتشابه إلى حد كبير.

صحيح أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله الواضع لُاسس الشريعة ويتصل بعالم الوحى، أمّا الأئمّة فهم بمثابة الامتداد لوجود النبى صلى الله عليه و آله وهم حماة حراس الشريعة بالرغم من عدم نزول الوحى عليهم، لأنّهم يتبعون أثر النبى صلى الله عليه و آله فى هداية الناس، والدفاع عن الأحكام والحدود الإلهيّة وجميع ما يتعلق بالشريعة، من هنا فهم يشتركون فى الكثير من الصفات ويتشابهون فيما بينهم.

بناءً على ذلك فإنّ جميع الأدلة الرئيسة التى ذكرناها فى بحث عصمة الأنبياء «۱» تصدق فيما يتعلق بالائمّة أيضاً.

بعد هذه اللمحة المختصرة نرجع إلى بعض آيات القرآن الواردة بهذا الصدد ونبدأ بالكلام من القرآن:

۱- «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ اهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً». (الأحزاب/ ۳۳)

(۱) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ۷، ص ۱۴۵- ۱۶۰ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۸

فى البحوث السابقة وأثناء تفسير الآية ۱۲۴ من سورة البقرة، قرأنا ما يتعلق بعظمة مقام الإمامة والولاية فى قصة إبراهيم عليه السلام حيث أنّ اللَّه تبارك وتعالى قد أخضع هذا النبى العظيم إلى العديد من الاختبارات المهمّة، ولما خرج منها ظافراً قال له: «انِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ امَاماً» (فالإمامة تعنى الهيمنة على الجسم والروح، وتربية النفوس والمجتمعات البشرية).

وعندما سأل إبراهيم عليه السلام هذا المقام لبعض ذريته وأبنائه، جوبه بالرد الإلهى المشروط، فقال تعالى: «لَايَنَالُ عَهدِي الظَّالِمِينَ»، أى (أنّ الرهط الطاهر والمعصوم من أبنائك يستحقون هذا المقام فقط).

وقد تبيّن فى تلك البحوث كيف أنّ هذا المقطع من الآية دليل على عصمة الأئمّة، وأنّ الذين أمضوا عمرهم فى طريق الكفر والشرك من ناحية الاعتقادات، أو من ناحية أعمالهم حيث ارتكبوا الظلم بحق أنفسهم أو الآخرين، لا يستحقون هذا المقام، لأنّ الظلم بالمعنى الشامل للكلمة يشمل الظلم والشرك والكفر والانحرافات العقائدية، وكذلك جميع أشكال التجاوز على الآخرين، وظلم النفس عن طريق ارتكاب المعصية.

وحيث إنّ هذه البحوث قد جاءت هناك بشكل مفصل ومستفيض فلا نرى حاجة للتكرار، وعليه فقد وضع القرآن الكريم الركيزة الأساسية لشرط عصمة الأئمّة فى هذه الآية الكريمة.

والآن نعود إلى آية التطهير وبحث مسألة العصمة الواردة فى هذه الآية:

صحيح أنّ هذه الآية تتوسط الآيات المتعلقة بنساء النبى صلى الله عليه و آله إلّاأنّها تحمل نغمة مختلفة عنها، وتشير إلى معنى آخر، فجميع الآيات التى سبقتها وتلتها جاءت بضمير «جمع المؤنث» بينما جاءت الآية محل البحث بضمائر «جمع المذكر»!

ففى مستهل هذه الآية خاطب تعالى نساء النبى صلى الله عليه و آله وأمرهنّ بالمكوث فى بيوتهن، وأن لا يخرجن بين الناس كما كان سائداً فى الجاهلية، ويحافظن على معايير العفة، وأن يقمن الصلاة ويؤتين الزكاة ويطعن اللَّه ورسوله «وَقَرنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَاتَبَرَّجنَ تَبَرُّجَ الجَاهِلِيَّةِ الاولَى وَاقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَاطِعنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ». (الاحزاب/ ۳۳)

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۹۹

فجميع الضمائر الستة التى وردت فى هذا المقطع من الآية هى على صورة جمع المؤنث (تأملوا جيداً).

ثم يتبدل لحن الآية، ويقول: «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنْكُم الرِّجسَ اهلَ البَيتِ وَيُطهرِّكُم تَطهِيراً».

وقد استخدم فى هذا المقطع من الآية ضميرين جمع بصورة جمع المذكر.

صحيح أنّ مطلع ونهاية كل آية يستهدف امراً واحداً، إلّاأنّ هذا الكلام يجرى فى المكان الذى لا تتوفر فيه قرينة على الخلاف، وعلى هذا فالذين رأوا أنّ هذا الجانب من الآية ناظرٌ إلىّ نساء النبى صلى الله عليه و آله أيضاً فقد نطقوا خلافاً لظاهر الآية والقرينة التى فيها، أى تباين الضمائر.

بالإضافة إلى ذلك نمتلك روايات عديدة فيما يتعلق بهذه الآية حيث نقلها أكابر علماء المسلمين سواء الشيعة أم السنّة عن النبى صلى الله عليه و آله وجاءت بشكل وآخر فى أشهر كتب الفريقين التى تحظى بقبولهم.

هذه الروايات بأجمعها تفيد أنّ المخاطب فى هذه الآية هو النبى صلى الله عليه و آله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (لا نساء النبى) كما سيأتى بالتفصيل فيما بعد.

ولكن قبل الدخول فى البحث لابدّ من التطرق إلى تفسير العبارات:

إنّ التعبير ب «إنّما» الذى عادة ما يستعمل للحصر دليل على أنّ الموهبة الواردة فى هذه الآية تخص آل النبى صلى الله عليه و آله ولا

تشمل غيرهم.

وعبارة «يريد» إشارة إلى إرادة اللَّه التكوينية- أى أنّ اللَّه تعالى شاء من خلال أمر تكوينى أن يطهركم ويحفظكم من كل قذارة- لا الإرادة التشريعية، فالإرادة التشريعية تعنى تكليفهم بصيانة أنفسهم طاهرة، ونحن نعلم أنّ هذا التكليف لا يختص بآل الرسول صلى الله عليه و آله بل إنّ المسلمين جميعاً مكلفون بتطهير أنفسهم.

ربّما يتصور أنّ الإرادة التكوينية تفرض نوعاً من الجبر، وفى هذه الحالة لن تكون العصمة فضيلة وفخراً.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج۹ ۱۴۹

لقد ذكرنا الاجابة عن هذا السؤال بالتفصيل فى الجزء السابع فى بحث عصمة الأنبياء، ولابدّ من التعرض إليه باختصار: إنّ المعصومين يمتلكون نوعين من القابلية «قابلية ذاتية موهوبة» و «قابلية اكتسابية من خلال أعمالهم وملكاتهم الداخلية»، ومن مجموع هاتين القابليتين اللتين لا تخلو إحداهما على أقل تقدير من صبغة اختيارية لتحصيل هذا المقام السامى، وبتعبير آخر فإنّ المشيئة الإلهيّة توفر الأرضية للتوفيق من أجل بلوغ هذا المقام الشامخ، واستثمار هذا التوفيق يتعلق بإرادتهم (تأملوا جيداً).

فترك الذنب بالنسبة لهم محال عادى لا عقلى، فمثلًا، محال عادىٌ أن يصطحب إنسان عالم ومؤمن الخمر إلى المسجد ويحتسيه بين صفوف الجماعة، إلّاأنّه من المسلم به أنّ هذا الأمر ليس محالًا عقلياً، ولا يتعارض مع كون هذا الفعل اختيارياً، أو على سبيل المثال، أنّ الإنسان العاقل لا يخرج إلى الزقاق والشارع عارياً كما ولدته امه أبداً، فالقيام بهذا العمل ليس محالًا بالنسبة له، بل مستوى تفكيره ومعرفته لا يسمح له بالقيام بمثل هذا الفعل وإن كان فعله وتركه باختياره.

وهكذا حالة ارتكاب الذنوب بالنسبة للأنبياء والأئمّة، صحيح أنّ العصمة من الألطاف الإلهيّة، بَيدَ أنّ الألطاف الإلهيّة تخضع لحساب، كما يقول القرآن الكريم بشأن إبراهيم عليه السلام:

لن تنال منزلة الإمامة ما لم تفلح فى الابتلاءات الإلهيّة «وَاذِ ابْتَلى ابْرَاهِيمَ ربُّه بِكَلِماتٍ ...» «۱».

(البقرة/ ۱۲۴)

وأمّا كلمة «الرجس» فتعنى لغةً، الشىء القذر سواء من ناحية كونه قذراً ومقززاً لطبع الإنسان، أو بحكم العقل، أو الشرع، أو جميعها.

من هنا فبعد أن يفسر «الراغب» فى «المفردات» الرجس بأنّه الشىء القذر، يذكر له أربع حالات (نفس الحالات الاربع التى ذكر ت أعلاه من ناحية طبع الإنسان، أو العقل، أو الشرع، أو جميعها)، وإذا ما فسّر الرجس فى بعض تعابير العلماء بالذنب أو «الشرك» أو

---

(۱) للمزيد من الايضاح فى مجال أنّ العصمة لا تتنافى واختيارية أفعال المعصومين راجعوا، ج ۷، ص ۱۵۵ وما بعدها من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۱

«العقيدة الباطلة» أو «البخل والحسد» فهو فى الحقيقة بيان لمصاديق من هذا المفهوم الواسع الشامل.

على أيّة حال، نظراً لمجىء «الف ولام الجنس» فى بداية هذه الكلمة «الرجس» والتى تفيد العموم، يكون مفهوم الآية: إن اللَّه شاء أن يبعد كل أنواع الرجس عنهم.

وفى عبارة: «ويطهركم تطهيرا»، فبما أنّ «التطهير» تعنى التزكية فهى تمثل تأكيداً آخر على قضية نفى الرجس وكافة الاقذار التى وردت فى العبارة السابقة، وكلمة «تطهيراً» التى هى بعنوان مفعول مطلق فهى تأكيد آخر على هذا المعنى

والنتيجة: هى أنّ اللَّه تعالى شاء وبمختلف التأكيدات أن يُطهر ويُنزه آل النبى صلى الله عليه و آله من كل أشكال القذارة والرجس، ومن المسلم أنّه يشمل النبى صلى الله عليه و آله بالمرتبة الاولى باعتباره صاحب الدار ومن ثم البقية، والآن لنعرف من هم أهل البيت؟

مَنْ هم أهل البيت؟

رأى بعض من مفسرى أهل السنّة أنّ ذلك يعنى نساء النبى صلى الله عليه و آله، ولكن كما قلنا فإنّ تغيير سياق الآية، وتبديل الضمائر من «جمع المؤنث»- فيما قبل وبعد هذه الآية- إلى «جمع المذكر» دليل بَيّنٌ على أنّ لهذه العبارة مضمونا منفصلًا، وأنّ المراد منها أمر آخر، أليس اللَّه حكيماً والقرآن فى أعلى مراتب الفصاحة والبلاغة وجميع عباراته تخضع للحساب.

وطائفة اخرى من المفسرين خصتها بالنبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، والروايات الكثيرة الواردة فى مصادر أهل السنّة والشيعة والتى نشير إلى بعضها لاحقاً شاهدٌ على هذا المعنى

وبسبب وجود هذه الروايات ربما ذكر الذين لا يحصرون الآية بهؤلاء العظماء معنىً واسعاً لها بحيث يشملهم ويشمل نساء النبى صلى الله عليه و آله وهذا تفسير ثالث للآية.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۲

أمّا الروايات التى تدل على اختصاص الآية بالنبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام وسيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء عليها السلام وابنيهما الحسن والحسين عليهما السلام فهى- وكما أشرنا- كثيرة للغاية، منها ثمانية عشرة رواية، نقلت خمس منها فى تفسير «الدر المنثور» عن ام سلمة، وثلاث عن أبى سعيد الخدرى، وواحدة عن عائشة، وواحدة عن انس، واثنتان عن ابن عباس، واثنتان عن أبى الحمراء، وواحدة عن واثلة بن الاسقع، وواحدة عن سعد، وواحدة عن الضحاك بن مزاحم، وواحدة عن زيد بن الأرقم «۱».

ويحصى المرحوم العلّامة الطباطبائى فى تفسير «الميزان» الروايات التى وردت بهذا الصدد بما يربو عن سبعين رواية ويقول: وهى روايات جمة تزيد على سبعين حديثاً يربو ما ورد منها من طرق أهل السنّة على ما ورد منها من طرق الشيعة، ويضيف رواة آخرين سوى الذين ذكرناهم أعلاه (الرواة الذين ذكرت رواياتهم فى غير تفسير الدر المنثور).

وذكر البعض أنّ عدد الروايات والكتب التى نقلت فيها بلغ المئات ولا يُستبعد أن يكون كذلك.

وهنا نذكر طائفة من هذه الروايات فقط مع ذكر مصادرها ليتبين قول الواحدى فى «أسباب النزول»: أنّ الآية نزلت فى النبى صلى الله عليه و آله وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام خاصة لايشاركهم فيها غيرهم «۲».

ويمكن اختصار هذه الروايات فى أربعة اقسام:

۱- الروايات التى نقلت عن بعض نساء النبى صلى الله عليه و آله تقول بصريح التعبير: عندما كان النبى صلى الله عليه و آله يتحدث عن هذه الآية سألناه هل نحن منهم؟ فقال: «لا ولكنكم على خير».

منها ما يرويه الثعلبى فى تفسيره عن «ام سلمة» زوجة النبى صلى الله عليه و آله أنّ النبى كان فى بيتها وجاءته فاطمة عليها السلام بالطعام، فقال لها صلى الله عليه و آله: «ادع لى بعلك وابنيك» فجاؤوا فتناولوا الطعام ثم نشر صلى الله عليه و آله عليهم الكساء وقال: اللّهم هؤلاء أهل بيتى وعترتى فأَذهب عنهم الرجس

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۱۹۶ و ۱۹۹.

(۲) تفسير الميزان، ج ۱۶، ص ۳۱۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۳

وطهِّرهم تطهيراً، ونزلت آية «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ ...» فقلت يارسول اللَّه وأنا معكم؟! فقال: «إنّكِ على خير» «۱».

وكذلك الثعلبى وهو من العلماء المعروفين لدى أهل السنّة الذى عاش فى القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، وتفسيره الكبير معروف، يروى عن عائشة زوجة النبى صلى الله عليه و آله مايلى:

عندما سئلت عن حرب الجمل ودورها فى تلك الحرب المدمرة، قالت (بتأسف): لقد كان تقديراً إلهياً! وعندما سئلت عن على عليه السلام قالت:

«تسألنى عن أحبّ الناس كان إلى رسول اللَّه، وزوج أحب الناس كان إلى رسول اللَّه، لقد رأيت علياً وفاطمة وحسنا وحسيناً وجمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بثوب عليهم، ثم قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتى وحامتى فأذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً. قالت: فقلت يارسول اللَّه أنا من أهلك؟ قال: تنحى فإنّك إلى خير» «۲».

فمثل هذه الروايات تؤكد بصراحة أنّ نساء النبى صلى الله عليه و آله لم يكنّ من أهل البيت فى هذه الآية.

۲- وردت قصّة حديث الكساء فى روايات كثيرة للغاية وبتعابير مختلفة والمضمون المشترك لها جميعاً هو أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دعا علياً عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام- أو أنّهم حضروا عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله- أو أنّه غطاهم بالكساء أو بقماش، وقال: إلهى هؤلاء أهل بيتى فأذهب عنهم الرجس، فنزلت الآية: «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطْهِيراً».

والجدير بالاهتمام أنّ هذا الحديث روى فى صحيح مسلم عن «عائشة»، وكذلك نقله الحاكم فى «المستدرك»، والبيهقى فى «السنن»، وابن جرير فى «تفسيره»، والسيوطى فى «الدر المنثور» «۳».

---

(۱) ذكر الطبرسى فى مجمع البيان فى ذيل الآية مورد البحث، والحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۵۶، الحديث أعلاه.

(۲) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث.

(۳) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۸۳، ح ۲۴۲۴ (باب فضائل أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۴

وأورده الحاكم الحسكانى فى شواهد التنزيل أيضاً «۱»، كما نقل هذا الحديث فى صحيح «الترمذى» مراراً، ففى موضع رواه عن «عمرو بن أبى سلمة» وفى موضع آخر عن «ام سلمة» «۲».

والملاحظة الاخرى هى أنّ «الفخر الرازى» يضيف فى ذيل آية المباهلة (سورة آل عمران، الآية ۶۱) بعد نقله لهذا الحديث (حديث الكساء):

واعلم أنّ هذه الرواية كالمتفق على صحتها بين أهل التفسير والحديث «۳».

كما يجدر ذكر هذه الملاحظة وهى: أنّ الإمام «أحمد بن حنبل» أورد هذا الحديث فى مسنده بطرق مختلفة «۴».

۳- نقرأ فى جانب آخر من الروايات العديدة والكثيرة أيضاً أن النبى صلى الله عليه و آله وبعد نزول آية التطهير كان يمرّ على دار فاطمة عليها السلام ولعدّة أشهر «فى بعضها ستة أشهر، وفى بعضها ثمانية أو تسعة أشهر» أثناء ذهابه لصلاة الصبح وينادى: «الصلاة ياأهل البيت! إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيتِ ويُطَهِّرَكُم تَطهِيراً».

وروى هذا الحديث فى «شواهد التنزيل» للمفسر الشهير «الحاكم الحسكانى» عن «انس بن مالك» «۵».

وجاء فى نفس الكتاب رواية اخرى عن «أبى الحمراء» يذكر فيها أنّ المدّة كانت «سبعة

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۳۳، ح ۳۷۶.

(۲) صحيح الترمذى، ج ۵، ص ۶۹۹، ح ۳۸۷۱ (باب فضل فاطمة).

(۳) تفسير الكبير، ج ۸، ۱۰۵ ص ۸۰.

(۴) مسند أحمد، ج ۱، ص ۳۳۰ و ج ۴، ص ۱۰۷ وج ۶، ص ۲۹۲ (نقلًا عن فضائل الخمسة، ج ۱، ص ۲۷۶ وما بعدها).

(۵) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۱۱ و ۱۲ و ۱۳ و ۱۴ و ۱۵ و ۹۲ (انتبهوا إلى أنّ شواهد التنزيل نقل هذه الرواية بطرق عديدة).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۵

أشهر».

ورويت هذه الواقعة أيضاً فى نفس الكتاب عن «أبى سعيد الخدرى» ذاكراً أنّ المدّة كانت «ثمانية أشهر» «۱».

إنّ الاختلاف فى هذه التعابير أمر طبيعى، فربما شاهد أنس هذا الأمر لمدّة ستة أشهر، وأبو سعيد الخدرى لمدّة ثمانية أشهر، وأبو الحمراء لمدّة سبعة أشهر وابن عباس تسعة أشهر «۲».

فكل منهم نقل ما رآه، فلا تضارب بين كلامهم.

على أيّة حال، فاستمرار هذه الحالة وتكرار هذا الكلام خلال تلك الفترة الطويلة من قبل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان أمراً مخططاً له، فهو كان يريد أن يُبيّن بوضوح أنّ المراد من «أهل البيت» هم أهل هذه الدار فقط، لئلا يبقى شك بالنسبة لأىشخصٍ فى المستقبل، وليعلم الجميع أنّ هذه الآية نزلت بحق هذه الزمرة فقط، والعجيب أنّ القضية بالرغم من هذا التكرار والتأكيد بقيت غامضة بالنسبة للبعض.

لاسيّما وأنّ الدار الوحيدة التى كانت بابها مفتوحة على مسجد النبى صلى الله عليه و آله هى دار النبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام، (فقد أمر النبى صلى الله عليه و آله بإغلاق جميع الأبواب التى كانت تفتح على المسجد ماعدا هاتين البابين).

ويذكر أنّ الكثير من الناس طالما سمعوا هذا الحديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أثناء الصلاة، وبعد هذا التأكيد والإثبات أليس من المدهش أن يصر بعض المفسرين على سعة مفهوم الآية لتشمل نساء النبى صلى الله عليه و آله أيضاً، مع ما أوردناه سابقاً من حديث عائشة زوجة النبى صلى الله عليه و آله واستنادا إلى شهادة التاريخ حيث أنّها لم تَدعْ شيئاً أثناء ذكرها لفضائلها وتفاصيل حياتها مع النبى صلى الله عليه و آله، فهى لم تر نفسها غير مشمولة بهذه الآية فحسب، بل تقول: إنّ النبى قال لى:

«لستِ منهم»!

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۲۸؛ واحقاق الحق، ج ۲، ص ۵۰۳ إلى ۵۴۸.

(۲) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۱۹۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۶

۴- الروايات العديدة المروية عن الصحابى المعروف أبى سعيد الخدرى التى أشارت الى آية التطهير تقول بصراحة: نزلت فى خمسة: فى رسول اللّه وعلى وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام «۱».

وملخص الحديث هو: إنّ الروايات التى وردت فى المصادر الإسلامية بشأن آية التطهير واختصاصها بالنبى وعلى وفاطمة والحسن والحسين من الكثرة بحيث يجعلها فى صف الروايات المتواترة، ولا يبقى فيها أدنى شك من هذه الناحية، حيث إنّ صاحب شرح إحقاق الحق ينقلها عن مايربو على سبعين مصدراً من مصادر أهل السنة (بالإضافة إلى المصادر المعروفة لدى أتباع أهل البيت) ويقول: «لو أحصينا كافة هذه المصادر لتجاوزت الألف» «۲»!.

أجوابة عن عدّة أسئلة:

نظراً إلى أنّ الآية الآنفة الذكر التى تواترت الروايات فى المصادر الإسلامية المعروفة فى تفسيرها، تعد كرامة عظيمة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام يمكن اعتبارها دليلًا على حقانية خَطِّهم، وقد تشبث بعض العلماء وأخذوا كالعادة بالبحث عن إشكالات أشبه ما تكون باختلاق المبررات بعيداً عن الانتقاد العلمى، بينما أيقنت طائفة اخرى بالآية والروايات بشجاعة، وإن ظلوا أتباعاً لطريقة أهل السنّة من

الناحية الاصولية، وفيما يلى بعض الانتقادات:

۱- المراد من أهل البيت هم الساكنون فى بيت النبى صلى الله عليه و آله، لأنّ البيت يعنى الدار المسكونة، وسكنةُ بيت النبى صلى الله عليه و آله هم نساؤه، وليس الآخرين، وإذا ما جاء الضمير على صورة ضمير المذكر فالسبب يعود إلى أنّ لفظ «الاهل» مذكر، وإذا ما جاء البيت بصيغة المفرد لا الجمع، بينما نساء النبى صلى الله عليه و آله كنّ يسكنّ فى بيوت عديدة، فذلك بسبب أنّ النبى صلى الله عليه و آله كان واحداً، فذكر بيته بصفة الواحد أيضاً، والخلاصة أنّ الآية ناظرة إلى نساء النبى صلى الله عليه و آله فقط.

---

(۱) وردت فى شواهد التنزيل أربع روايات بهذا الصدد، ج ۲ من ص ۲۴- ۲۷ (ح ۶۵۹ و ۶۶۰ و ۶۶۱ و ۶۶۴).

(۲) اقتباساً من احقاق الحق، ج ۲، ص ۵۰۲ إلى ۵۶۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۷

لقد اتضحت الاجابة جيداً عن هذا السؤال أو التبرير من خلال الأبحاث السابقة، وآثار التكلف أثناء الدفاع عن هذا الرأى مشهودة تماماً، فلو كان المقصود من (الأهل) نساء النبى صلى الله عليه و آله يكون ظاهر اللفظ «مفرد مذكر» ومعناه «جمع مؤنث»، بينما لم يذكر فى الآية لا «المفرد المذكر» ولا «الجمع المؤنث» بل جاء بصيغة «الجمع المذكر».

كما أنّ التعبير ب «البيت» جاء بصيغة المفرد خلافاً لمطلع الآية الذى جاء بصيغة الجمع، فمن المتعذر أن تكون عبارة: «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» من أجل شخص النبى صلى الله عليه و آله، لأنّ النبى صلى الله عليه و آله لم يكن يمتلك بيتاً مستقلًا، فقد كان بيته هى البيوت التى كانت تعيش فيها زوجاته.

على هذا الأساس فلا سبيل سوى أن يكون المقصود من البيت هنا بيت القرابة والارتباط النسبى بالنبى صلى الله عليه و آله، لا بيت السكنى كما فى التعبير المتداول والمعتاد عليه.

بالإضافة إلى كل هذا فعلى فرض قبولنا بهذه الآراء البعيدة عن الواقع، فهل يمكن التغاضى عن روايات بهذه السعة والكثرة والصراحة وهى التى تحصر أهل البيت عليهم السلام بخمسة أشخاص؟ أم نعتبرها روايات ضعيفة السند؟ فلو لم تكن هذه الروايات متواترة وقوية، فليس لدينا- إذن- حديث متواتر وصحيح، ولو كانت هذه الروايات خالية من الصراحة، فأىّ رواية صريحة فى مضمونها؟!

والأدهى من ذلك كله مانقل عن «عكرمة» قوله: من شاء باهلتُه أنّها نزلت فى نساء النبى صلى الله عليه و آله «۱»، ونقل عنه فى تعبير آخر: إنّ عكرمة كان ينادى فى السوق أنّ قوله تعالى إنّما يريد اللَّه ... نزل فى نساء النبى صلى الله عليه و آله «۲».

إنّه لمدهش حقاً، فهل يمكن إثبات المسائل العلمية والاستدلالية بالمباهلة والصراخ فى الأسواق، وهو أمر يمتلك جميع هذه الأدلة والشواهد والقرائن، إذ يقوم النبى صلى الله عليه و آله ببسط الكساء على خمسة أشخاص ويشخِّصهم بدقّة ويخاطبهم، حتى أنّه لم يسمح ل «أم سلمة»

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۸

و «عائشة» بالدخول تحته، وأخذ يكرر هذه العبارة أمام دار فاطمة عليها السلام لمدة ستة أشهر أو ثمانية أشهر أو تسعة أشهر، دالًا على أنّ المرادف بهذه الآية هو أنتم، وإنّ كلمة «إنّما» التى تدل على الحصر واضحة للعيان.

والنبى صلى الله عليه و آله إنّما يريد بهذا التأكيد ازالة جميع اشكال الشبهات، بَيدَ أنّ عكرمة يريد من خلال الدوافع التى يعلمها جيداً أن يثبت بالمباهلة غير ذلك رافعاً عقيرته فى الأسواق ضد ذلك!.

إنَّ حماس وانـدفاع عكرمـة وراء المباهلـة النادرة والقليلـة الحصول فى الأبحاث العلميـة، وكذا مناداته فى الأسواق التى هى من النوادر فى القضايـا العلميـة أيضـاً، بحـد ذاته دليـلٌ على أنّ هناك أمراً وراء ذلك، وإنّ وراء هـذا القيل والقال تكمن أسـرارٌ اخرى فهل كان مكلَّفـاً بإنكـار هـذه الفضـيلة الإلهيّـة العظيمـة ارضـاءً لسـلاطين زمـانه، وأن ينبرى للتصـدى لأحاديث النبى صـلى الله عليه و آله بهـذه الصلافة؟!

۲- السؤال الآخر هو: إذا كان المراد هو تلك الأنوار المقدّسة الخمسة، فما هى منزلة سائر ائمة أهل البيت عليهم السلام؟

والجواب هو: أنّ الـذين كانوا يعاصـرون ذلك الوقت هم أولئك الخمسة، والآخرون جاءوا فيما بعد، وورثوا تلك الصـفات عن النبى صلى الله عليه و آله وآبائهم عليهم السلام.

۳- كمـا تمّ التلميـح آنفاً إلى أنّ المراد من الإرادة فى «إِنَّمَا يُرِيـدُ اللَّهُ لِيُـذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ»، الإرادة التكوينيـة، لا التشـريعية، وبتعبير آخر ليس المراد هو أنّ اللَّه أمركم بالابتعاد عن المعصية، لأنّ هذا الأمر الإلهى يعمّ المسلمين جميعاً ولا يخصُ أصحاب الكساء فقط.

يتضـح ممّا تقـدم أنّ الإرادة التكوينيـة والمشـيئة الإلهيّـة قضت بتطهيرهم، والمحافظة عليهم من كل ذنب، وصـيانتهم من شـر الشـيطان والأـهواء النفسـية، ونحن نعلم أنّ مشـيئة اللَّه غير قابلـة للتخلُّف، ومـا تفوَّه به البعض من أنّ إرادة اللَّه قابلـة للتخلف يمثـل غايـة الجهل والغباء، فمن الذى يستطيع الحيلولة دون مشيئة اللَّه، إلّاأن تكون مشيئة اللَّه متعلقة بشرط

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۰۹

ولم يحصل ذلك الشرط؟ ونحن نعلم أنّ الإرادة فى الآية أعلاه مطلقة، وليست مشروطة بشرط أبداً.

وما قاله البعض: إنّ هذا الكلام يسـتدعى أن يكون صـحابة النبى صـلى الله عليه و آله معصومين لاسيّما الذين شاركوا فى معركة بدر، حيث قال تعالى بحقهم:

«وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تَشْكُرونَ» «۱». (المائدة/ ۶)

وممّا يبعث على الأسف هو عند اضـطرام نار التعصب فإنّها تلتهم كل شـىء وتحوِّله إلى رماد، وبالأساس فإننا نفتقد فى القرآن الكريم مثل هذه الآية بشأن معركة بدر، وما نزل بشأن معركة بدر هو: «وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيطَانِ». (الانفال/ ۱۱)

وظاهر هـذه الآيـة تتعلق بنزول المطر (فى معركـة بـدر) واسـتثمار المسـلمين له للغسل والوضوء، ولا ترتبط ببحثنا أبـداً، إلّاأنّ هذا الأخ المتعصب حذف مطلع الآية وجاء بعبارة «ليطهركم» فقط، وعدّها دليلًا على طهارة وقداسة الصحابة كافّة.

وبـالطبع فـإنّ عبـارة: «وَلَكِن يُريـدُ لِيُطَهِّرَكُم وَلِيُتِمَّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكم تَشـكُرُونَ» لم تـأتِ بشأن أصـحاب بـدر، بل جاءت فى ذيل آية الوضوء والغسل والتيمم، وواضح أنّها تشير إلى الطهارة التى تحصل من هذه المطهرات الثلاثة، فكيف يصادرها هذا المفسر الشهير من هناك ويذهب بها إلى ميدان بدر، ويصادر أمراً يخص الغسل والتيمم ويقحمه فى موضوع بحث العصمة؟ إنّه أمرٌ غامض.

ويثار هنا سؤال آخر وهو: إذا كانت الآية دليلًا على عصمة هؤلاء العظماء، فلماذا جاءت «يريد» بصيغة «الفعل المضارع» إذن؟

فإن كانوا معصومين فلماذا يقول: «يريد اللَّه» فهل أنّ تحصيل الحاصل ممكن؟ لماذا لم يقل «أراد اللَّه بصيغة الفعل الماضى»؟ «۲».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۷، (ذيل الآية ۳۳ من سورة الأحزاب).

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۰

لو كـان قائـل هـذا الكلام يبحث التعبير ب «يريـد» فى آيات القرآن الكريم بدقـة وتمعُّن لما تفوَّه بمثل هـذا الكلام، لأنّ هـذه الكلمة طالمـا اسـتعملت فى الكثير من آيـات القرآن الكريم بشـأن الامور المتعلقـة بالإرادة المسـتمرة من الماضـى وحتى الآن، ومن الآن إلى

المستقبل، وبتعبير آخر: إنّ هذه العبارة غالباً ماتستعمل للدلالة على استمرار وثبات المشيئة على شيء ما فى الماضى والحاضر والمستقبل، ويمكن ملاحظة صدق هذا الكلام فى الآيات التالية:

«وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلعَالَمِينَ». (آل عمران/ ۱۰۸)

«يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ اليُسرَ وَلَايُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ». (البقرة/ ۱۸۵)

«يُرِيدُ اللَّهُ انْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ». (النساء/ ۲۸)

وبديهى أنّ مفهوم هذه الآيات ليس هو أنّ اللّه أراد ظلماً فى السابق، وكان يريد بكم العسر قبل ذلك، أو أنّه لم يُرِدْ سابقاً التخفيف عنكم واليوم فعل هكذا، بل إنّ مفاد هذه الآيات جميعها هو أنّه أراد هكذا فى الماضى والحاضر وفى المستقبل.

وكذلك قال تعالى بشأن الشيطان: «وَيُرِيدُ الشَّيطَانُ أَنْ يُضِلَّهُم ضَلَالًا بَعِيداً». (النساء/ ۶۰)

و «انَّمَا يُرِيدُ الشَّيطَانُ انْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوَةَ وَالبَغضَاءَ فِى الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ». (المائدة/ ۹۱)

و «بَلْ يُرِيدُ إِلانسَانُ لِيَفْجُرَ امَامَهُ». (القيامة/ ۵)

يتضح جلياً من خلال هذه الآيات بيان الإرادة المستمرة للشيطان فى الماضى والحاضر والمستقبل لإغواء الناس، وذلك بخلق العداوة والبغضاء عن طريق الخمر والقمار، وكذا مفهوم الآية الثالثة، وهو: إنّ الإنسان الجاحد يريد أن يكون متحرراً على الدوام ويرتكب الذنب، لذا فهو ينكر القيامة.

هنالك آيات كثيرة فى القرآن تتابع هذا الموضوع، غير هذه الآيات الست أعلاه التى تبيّن أنّ استعمال كلمة «يريد» بنحو الاستمرارية يشمل الأزمنة الثلاثة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۱

على هذا الأساس فمفهوم الآية الكريمة: «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِجْسَ»، هو تعلُّق الإرادة الإلهيّة المستمرة بطهارة وقداسة وعصمة أصحاب الكساء.

شبهات حول العصمة:

تثار عدّة أسئلة فيما يتعلق بعصمة الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام أهمها هو: أليس العصمة صفة إجبارية؟ فاذا كانت العصمة موهبة إلهيّة تمنح فقط إلى هؤلاء، وليس بمقدور الأنبياء والأئمّة المعصومين عليهم السلام ارتكاب الذنب، أو أنّ اللّه يحول دون عوامل الذنب بشكل حازم، فما الفضيلة والفخر فى ذلك؟

لقد تمّ تقديم الاجابة عن هذا السؤال بشكل مفصّل فى الجزء السابع من نفحات القرآن فى بحث عصمة الأنبياء وهو باختصار:

إنّ إثارة هذه الشبهة سببه عدم التمعُّن باصول عصمة المعصومين عليهم السلام، فهم لم يلتفتوا إلى أنّ هذه «التقوى الراسخة» تنبع من «إيمانهم القوى وعلمهم ومعرفتهم الخارقة» التى يكون جانب منها اكتسابياً والآخر هبة، فمثلًا: إنّ الإنسان الذى يبلغ درجة عالية فى الطب، محال أن يشرب ماءً ملوثاً بالجراثيم، بينما ربّما يفعل الإنسان الامى هذا الأمر، إنّ امتناع الطبيب عن شرب الماء الملوث كان باختياره، فهو يستطيع شرب ذلك الماء، إلّاأنّ إيمانه ومعرفته بعواقب الأمر تحول دون ذلك، فهو شبيه المعصوم فى حرية إرادته ازاء القيام بهذا العمل «۱».

السؤال الآخر هو: إنّ الأئمّة اعترفوا بالخطأ والذنب من خلال كلماتهم، فكيف يمكن اعتبارهم معصومين؟ ففى أدعيتهم يسألون اللّه أن يغفر لهم ذنوبهم، وهذا بحد ذاته دليل على عدم عصمتهم.

---

(۱) للمزيد من الايضاح راجعوا ج ۷، ص ۱۵۵- ۱۶۰ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۲

يقول أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب عليه السلام فى الخطبة ۲۱۶ من نهج البلاغة: «إنّى لستُ فى نفسى بفوق أن اخطىء ولا آمن ذلك من فعلى إلّاأن يكفى اللّه من نفسى ما هو أملك بى منّى» «۱».

ويثار نظير هذا الاعتراض بشأن الكثير من الآيات المتعلقة بقصص الأنبياء فى القرآن الكريم أيضاً، حيث ذكرناها جميعا فى نفس الجزء السابع تحت عنوان «تنزيه الأنبياء»، وأعطينا الجواب عنها، وتعقَّبنا هذه القضايا من خلال الإشارة إلى جزئيات تاريخ الأنبياء وما يمكن أن يتعرض إلى هذه الشبهات.

ولابدّ من الإشارة إلى بعض النقاط بشكل مختصر:

۱- فى الكثير من الحالات كان الأئمّة عليهم السلام يتحدثون لتعليم الناس باعتبارهم الاسوة، وأنّ أقوالهم كانت تحمل طابعاً تعليمياً، واللطيف أنّ تفسير روح المعانى وبعد إثارة هذا الاعتراض بشأن على عليه السلام يأتى بهذا الجواب، ثم يقول: وقصد الكلام كما فى بعض الأدعية النبوية بعيد «۲» فلماذا لا يكون مستبعداً فى كلام النبى صلى الله عليه و آله بينما يستبعد فى كلام على عليه السلام. إنّ هذا لا يدل إلّاعلى تعصب هذا المفسر المعروف.

۲- كان الغرض فى بعض الحالات هو أنّهم عليهم السلام يريدون أن يقولوا: إنّنا لا نملك شيئاً بدون الاعتماد على اللطف الإلهى، وهذه هى عطاياه ومواهبه وفيوضاته التى تجعلنا معصومين، وبتعبير آخر: إنّ ما نقل عن على عليه السلام فى العبارة يعاكس ما يقوله المشككون تماماً فهو يدل على عصمته بالاعتماد على الألطاف الإلهيّة، فالإمام يقول: لست معصوماً عن الخطأ «بدون اللطف الإلهى»، وهذه الموهبة ليست سوى لطف إلهى، أو وفقاً للتعبير الذى ورد فى سورة يوسف ليس إلّا.

۳- فى الكثير من الامور التى وردت فى الآيات أو الأدعية باعتبارها ذنباً، فهى ليست سوى ترك الأولى ومصداق للقول المعروف: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

---

(۱) يصرُ الآلوسى فى تفسيره، ذيل آية التطهير اصراراً عجيباً فى انكار أنّ مفهوم الآية يتعلق بعصمة أهل البيت عليهم السلام ويثير هذه الشُبهة (تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۷).

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۲۲، ص ۱۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۳

وهذه النكتة جديرة بالذكر أيضاً وهى أنّ المراد من ترك الأولى ليس ترك عمل واجب، أو ارتكاب محرم أو مكروه، بل أراد الفعل المباح أو المستحب فى قبال عمل أكثر استحباباً منه، وواضح أنّ ترك المستحب الأولى والإتيان بمستحب آخر ليس فى فعله خلاف، إلّاأنّه ترك للأولى لكن ليس هذا الفعل بالنسبة للآخرين لا يعتبر خلافاً فحسب، بل إنّ أداء المستحب بحد ذاته يعدُّ فضيلة، وربّما يؤدّى إلى اللوم بالنسبة إلى المقربين لدى اللّه تعالى

فالصلاة المقبولة من شخص عادى، تعد تركاً للأولى بالنسبة للعالم الكبير، وصلاة ذلك العالم لا تليق بالمعصوم، للمزيد من التوضيح راجعوا الجزء السابع من نفحات القرآن.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۵

خصائص الأئمّة عليهم السلام

اشارة

كما تكررت الإشارة فإنّ رسالة الأئمّة المعصومين عليهم السلام تشبه وتنسجم مع رسالة الأنبياء فى الكثير من الحالات، سوى أنّ الوحى لاينزل عليهم، ولم يضعوا الحجر الأساس للدين، بل واصلوا خط الأنبياء، من هنا فإنّ أكثر الصفات اللازمة فيهم تطابق صفات الأنبياء، ونظراً إلى أنّنا قد جئنا بهذه الصفات بشكل مفصّل، مستندين إلى آيات القرآن الكريم فى بحث الصفات العامة للأنبياء فى الجزء السابع، فلا نرى ضرورة لشرحها بشكل موسع هنا، ولكن من أجل التذكير لابدّ لنا من المرور عليها ثانية (التفتوا إلى أنّ هذه الصفات جميعها طرحت فى القرآن بشأن الأنبياء)، ولابدّ للقادة الالهيين والأئمّة المعصومين عليهم السلام بالاضافة إلى تمتعهم ب «العلم» و «العصمة» أن يتمتعوا بالصفات التالية:

۱- الصدق: فلو لم تتوفر لديهم هذه الصفة لم يحصل الاطمئنان والثقة اللازم توفرها من أجل اقامة العلاقات المعنوية بين الأتباع والقادة.

۲- الالتزام بالعهود والمواثيق: لأنّ جانباً عظيماً من دعوتهم يقوم على أساس الوعود التى يمنحونها للناس، فإن لم يكونوا «صادقى الوعد» تنهار ركائز ثقة العامة بهم.

۳- الأمانة فى المحافظة على الودائع والأحكام الإلهيّة وابلاغها: حيث إنّها تمثل إحدى دعائم الثقة والإعتماد.

۴- المحبة والحرص الفائق تجاه الناس: فلو لم تتوفر هذه الميزة من المستحيل أن يبدى الناس تحملًا للعناء والمشقات فى قيادة المجتمع- لاسيما الجهلة والمعاندون-.

۵- الاخلاص والتجرد التام وقطع الأمل بكل أجر مادى وإلّا ستفقد الدعوة والقيادة جاذبيتها.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۶

۶- الاحسان والتفضل بحق الأصدقاء بل وحتى الأعداء: وهى من مظاهر رحمانية اللَّه ورحيميته وسبب فى إقامة الارتباط المعنوى بين القيادة والقاعدة.

۷- الشجاعة الفائقة وعدم الخشية إلّامن اللَّه تعالى التى تعد ميزة أساسية للذين «يبلغون رسالات اللَّه» فى القرآن الكريم، لأنّها السر الحقيقى وراء النجاح، وبدونها لا يتقدم العمل فى مجال القيادة.

۸- التوكُّل المطلق على اللَّه: فغالباً ما يبقى القائد الربانى وحيداً فريداً ويعزله عن الآخرين الفساد الذى يسود البيئة، فلو لم يكن متوكِّلًا على اللَّه فمن المتعذر عليه مواصلة طريقه.

۹- الرفق وحسن الخلق: الميزة الاخرى التى وردت فى القرآن الكريم بشأن النبى صلى الله عليه و آله، وفى الحقيقة لابدّ لكل قائد إلهى (سواء كان نبياً أو إماماً) أن يتمتع بها، وإلّا فإنّ الخشونة والغلظة والاتصاف ب «فظ غليظ القلب» يؤدّى إلى تفرق الناس وعقم أهداف القائد الإلهى.

۱۰- النجاح فى الامتحانات القاسية: حيث يعتبر القرآن الكريم إعطاء منصب الإمامة لإبراهيم عليه السلام بسبب نجاحه فى اجتياز الامتحان والإبتلاء وتحمله المشاق.

وفى واقع الأمر يجب على المعصومين أن يخرجوا من الامتحانات القاسية ظافرين، ليكونوا مؤهلين لقيادة المؤمنين جسماً وروحاً وظاهراً وباطناً.

لقد وردت هذه المواضيع بشكل مفصّل ومستند إلى آيات القرآن الكريم فى بحث الصفات العامة للأنبياء فى الجزء السابع من نفحات القرآن.

اللَّه فقط الذى يُعيِّن الإمام:

يستنتج من مجموع الأبحاث التى جرت بشأن صفات الإمام وتشبيهه بالأنبياء فى الكثير من الحالات أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام

(أوصياء الأنبياء) يجب أن يكون تعيينهم من قبل اللّه تعالى.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۷

وبتعبير آخر: ليس ل «انتخاب الامّة» دور فى هذا المجال ولا «إجماع الامّة» أو «التنصيب» من قبل أشخاص عاديين، لأنّ الصفات اللازمة فى الإمام لا يعلمها إلّااللّه تعالى، وأهمها «العصمة»، و «العلم الخاص»، حيث يتعذر على الإمام التحليق فى سماء الإمامة والزعامة بدون هذين الجناحين!

فمن الذى يعلم أنّ فلاناً معصوم عن الذنب والخطأ، وأنّ هيمنة علمه على جميع مسائل التشريع وحياة البشر مسُلَّمة وثابتة؟

إنّ تشخيص سائر الصفات الخاصة بالإمام التى ذكرت آنفاً، متعذر على أغلب الناس، وربّما جميعهم.

من هنا يستفاد جيداً أنّ لا سبيل لتعيين الإمام سوى عن طريق التنصيب الإلهى، وهذا «التنصيب» يثبت من خلال ثلاثة طرق:

الأول: عن طريق النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم السابق الذى يعين خليفته بأمر اللّه تعالى ويعرِّفه لجميع الناس، وفى الحقيقة أنّه فى هذه القضية يمثل الواسطة فى نقل الأمر الإلهى إلى الناس.

الثانى: عن طريق مشاهدة «المعجزات» كما مر ذكره فى بحث النبوة، أى خرق العادة، وهو خارج عن طاقة البشر، وهو مترافق مع التحدى ودعوة الآخرين بالإتيان بمثلها إن لم يذعنوا.

غاية الأمر أنّ التحدى فى قضية «النبوة» يأتى فى مجالها وفى قضية «الإمامة» فى مجال الإمامة، أو بتعبير أكثر بساطة: إنّ الذى يدّعى الإمامة يقوم بخرق العادة الخارج عن طاقة أى إنسان تأكيداً على ادّعائه الإمامة.

ومن المسلَّم به أنّ خرقاً للعادة كهذا يعطى له من قبل اللّه تعالى ومن المحال أن يمنح اللّه الحكيم والعالم بالسرائر هذه الوسيلة للذى يدّعى الإمامة زوراً وبهتاناً.

الثالث: الطريق الثالث هنا هو كالذى مرّ فى بحث النبوة، وهو جمع القرائن، أى مجموعة الصفات والأفعال والخصائص المتوفرة لدى شخصٍ ما بحيث يتيقن الإنسان من

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۸

خلال مشاهدتها أنّه إمام معصوم وقائد إلهى، فيتظافر علمه ومعرفته مع المزايا الأخلاقية والصفات الإنسانية والأفعال والأقوال والسلوكيات لتثبت بكل يقين أنّه إمام معصوم وخليفة للنبى صلى الله عليه و آله.

راجعوا تفصيل هذه المسألة فى الجزء السابع من نفحات القرآن فى بحوث «النبوة والقرآن».

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۱۹

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمّة عليهم السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۱

الولاية التكوينية للأنبياء والأئمّة عليهم السلام

تمهيد:

نحن نعلم أنّ الولاية على نحوين:

۱- الولاية التشريعية.

۲- الولاية التكوينية.

المراد من الولاية التشريعية هو الحكم والاشراف القانونى والإلهى الذى يكون تارة بشكل محدود كولاية الأب والجد على الصغير، وتارة بشكل واسع وشامل كولاية الحاكم الإسلامى على كافة القضايا المتعلقة ب «الحكومة» و «إدارة شؤون الامّة الإسلامية»، حيث سيأتى بحث ذلك بشكل مفصل فى «الجزء العاشر من نفحات القرآن» إن شاء اللَّه تعالى

أمّا المراد من الولاية التكوينية، فهى: قدرة الإنسان على التصرف فى عالم الخلق والتكوين بأمر اللَّه وإذنه، والإتيان بأفعال خارقة للعادة والنواميس الطبيعية لعالم الأسباب، فمثلًا يبرىء المريض الذى لا علاج له بإذن اللَّه، وذلك من خلال الهيمنة والنفوذ الذى وهبه اللَّه تعالى له، أو يحيى الموتى وأعمال اخرى من هذا القبيل، وكل أشكال التصرف المعنوى غير الاعتيادى فى أرواح وأجسام البشر، وهذا النوع يشمل الطبيعة أيضاً.

وربّما تكون ل «الولاية التكوينية» أربع حالات بعضها «مقبولة» وبعضها «غير مقبولة».

۱- «الولاية فى أمر الخلقة وخلق العالم»: بمعنى أنّ اللَّه تبارك وتعالى يمنح عبداً من عباده أو ملكاً من ملائكته قدرة خلق العوالم أو محوها من الوجود، ومن المسلَّم به أنّ هذا الأمر ليس مستحيلًا، لأنّ اللَّه على كل شىء قدير وقادرٌ على منح أى نحو من القدرة لأى إنسان، بَيدَ أنّ آيات القرآن تؤكّد فى كل المواضع على أنّ خلق عالم الوجود والسموات

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۲

والأرضين والجن والانس والملائكة والنباتات والحيوانات والجبال والبحار قد حصل بقدرة اللَّه جلّ وعلا لا عن طريق عباده الخاصين أو ملائكته، لذا فقد نسب الخلق إليه فى جميع الأحوال، ولم ينسب هذا الأمر إلى غيره «بنحو واسع» فى أى موضع أبداً، وعليه فإنّ خالق السموات والأرضين والنبات والحيوان والإنسان هو اللَّه وحده.

۲- «الولاية التكوينية فى ايصال الفيض»: بمعنى أنّ كل إمداد ورحمة وبركة وقدرة من قبل اللَّه تعالى تصل إلى عباده أو سائر الكائنات فى عالم الوجود بواسطة أولياء اللَّه وخاصة عباده، كمياه الشرب بالنسبة للبيوت فى مدينة ما التى تمر من خلال الانبوب الرئيس وهذا الانبوب الكبير يستلم المياه من مصدرها ويوصلها إلى جميع النقاط، ويعبر عنه ب «الواسطة فى الفيض».

وهذا المعنى ليس محالًا أيضاً من الناحية العقلية، ويشاهد نموذجه فى العالم الصغير، وبناء الإنسان، وتوزيع المواد الغذائية على الخلايا كافّة عن طريق شريان القلب، فما المانع من ذلك فى العالم الكبير أيضاً؟

ولكن ممّا لا شك فيه أنّ إثباته بحاجة إلى دليل مقنع، وإذا ما ثبت فهو بإذن اللَّه تعالى

۳- «ولاية تكوينية فى حدود معينة»: كإحياء الموتى وشفاء المرضى الذين يستحيل علاجهم ونحو ذلك.

وقد وردت نماذج من هذا النوع من الولاية بشأن بعض الأنبياء فى القرآن الكريم بصراحة حيث سيشار إليها لاحقاً، والروايات الإسلامية شاهد على ذلك أيضاً، من هنا فإنّ هذا الفرع من الولاية التكوينية ليس ممكناً من ناحية العقل فحسب، بل هنالك أدلة نقلية عليه أيضاً.

۴- «الولاية التى تعنى الدعاء من أجل تحقيق المطالب»: ويأتى ذلك بقدرة اللَّه تعالى فإنّ النبى صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم يدعو فيتحقق ما طلبه من اللَّه تعالى

وهذا المعنى ليس فيه أى محذور عقلى ولا نقلى، وأنّ الآيات والروايات مليئة بنماذج منه، بل ربّما لا يمكن اطلاق اسم الولاية التكوينية عليه لأنّ استجابة دعائه تأتى من قبل اللَّه تعالى.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۳

ويشاهد فى الكثير من الآيات إشارات إلى ال «الاسم الأعظم» الذى كان لدى الأنبياء والأئمّة عليهم السلام أو بعض أولياء اللَّه (من غير الأنبياء والأئمّة)، ومن خلاله كانوا يستطيعون التصرف بعالم التكوين.

وبغض النظر عن المراد من «الاسم الأعظم»- الذى بحثناه بشكل مفصّل فى بحث صفات اللَّه- فإنّ مثل هذه الروايات ربما تكون ناظرة إلى القسم الثالث من الولاية التكوينية وتنطبق عليه بشكل تام.

بهذه الإشارة نعود إلى بعض آيات القرآن فى هذا المجال «الولاية التكوينية»:

۱- «وَيُعَلِّمُهُ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّوراةَ وَالإنجيلَ* وَرَسُولًا الَى بَنِي اسْرائِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُم انِّى اخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيئَةِ الطَّيْرِ فَانْفُخُ فِيهِفَيكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَابرِىءُ الاكْمَهَ وَالابْرَصَ وَاحْيِ المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَانْبِئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرونَ فِى بُيُوتِكُم انَّ فِى ذَلِكَ لَايَةً لَّكُمْ انْ كُنْتُم مُّؤمِنِينَ». (آل عمران/ ۴۸- ۴۹)

۲- «فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيثُ اصَابَ». (ص/ ۳۶)

۳- «قَالَ الَّذِى عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ انَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرتَدَّ اليكَ طَرْفُكَ فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرّاً عِنْدَهُ قَالَ هَذا مِنْ فَضْلِ رَبّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُأَمْ اكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبّى غَنِيٌّ كَرِيمٌ». (النمل/ ۴۰)

فى الآية الاولى يدور الحديث أولًا عن الألطاف الإلهيّة بحق عيسى عليه السلام حيث «وَيُعَلِّمُهُ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَالتَّورَاةَ وَالإنجِيلَ».

ثم بعثه كرسول إلى بنى اسرائيل، «وَرَسُولًا الَى بَنى اسرائِيلَ»، ومن ثم يشرح كلام المسيح عليه السلام فى إثبات حقانيته وبيان معاجزه التى تم بيانها فى خمس مراحل:

يقول فى الاولى:: «أَنِّى قَدْ جِئتكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَبِّكُمْ أَنِّى اخْلُقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ فَانْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِاذنِ اللَّهِ».

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۴

وفى الثانية والثالثة: «وَأُبرِىءُ الاكمَهَ وَالابرَصَ».

والرابعة: «وَأُحْيِ المَوتَى بِإذنِ اللَّهِ».

والخامسة: «وَانبِئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرونَ فِى بُيُوتِكُم انَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ انْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ».

إنّ التمعُّن فى مضمون هذه الآيات والتفاوت فى التعابير المستعملة فيها، يوضح هذه المسألة وهى: أنّ المسيح عليه السلام ينسب خلق الطير من الطين إلى اللَّه تعالى، بينما فى الأقسام الثلاثة الاخرى ينسب (شفاء الأعمى والأبرص، وإحياء الموتى إلى نفسه، ولكن باذن اللَّه وأمره، وهذا هو المقصود من الولاية التكوينية، حيث إنّ اللَّه تعالى قد يمنح مثل هذه القدرة للانسان بحيث يؤثر فى عالم الخلق والطبيعة بأمره، ويخرق الأسباب الطبيعية، فيحيى‌الميت ويشفى المرضى الذين يستحيل علاجهم.

هذا النموذجٌ من الولاية التكوينية التى وهبها اللَّه تبارك وتعالى لعبده المسيح عليه السلام، ولامانع أو حائل ابداً دون اعطاء مثل ذلك لسائر الأنبياء أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وإذا قال قائلٌ: إنّ مقصود هذه الآية هو أنّ المسيح عليه السلام كان يدعو فيبرىء اللَّه المريضَ، أو يحيى الميت، فقد نطق بما يخالف ظاهر الآية، لأنّ الآية تقول بوضوح: «بِإِذنِ اللَّه» أى إننى أفعل ولكن تحقيق الفعل بإذن اللَّه، وليس هنالك من دليل لترك هذا والبحث عن معنى يخالف الظاهر.

بل ليس هنالك مانع أيضاً فى مرحلة خلق الطير من أنْ يلقى اللَّه تعالى هذا الأثر فى فم عيسى عليه السلام فيكون القيام بمثل هذا العمل بإذن اللَّه، بَيدَ أنّ بعض المفسرين لم يقتنعوا بهذا المعنى وقالوا: إنّ خلق الطير مستندٌ إلى اللَّه مباشرة، ولعلّ هذا القول يأتى لئلا يدعى الجهلاء الوهية المسيح، لأنّ أمر الخلقة متعلقٌ به وحده:

وورد شبيه هذا المعنى أيضاً فى سورة المائدة، غاية الأمر أنّ الخطاب صادر من قبل اللَّه تعالى للمسيح عليه السلام لا على لسان المسيح عليه السلام، فيقول تعالى

«وَاذْ تَخلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيراً بِاذْنى وَتُبرِىءُ الاكْمَهَ

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۵

وَالْأَبرَصَ بِإِذْنِی وَاذْ تُخْرِجُ المَوتَی بِإِذْنِي». (المائدة/ ۱۱۰)

والملفت للنظر هو أنّ اختلاف التعبير الذی كان فی سورة آل عمران ظاهرٌ بدقّة هنا أيضاً، أی‌لم تُنسب مسألة الخلق وخلق الطير إلی المسيح عليه السلام، ولكن نُسبَ إليه احياء الموتی وشفاء المرضی والعمی الذين يستحيل علاجهم، وإنْ جاء التعبير بإذن اللّه فی كل ذلك.

وملخص الكلام أنّ هذه الآيات تثبت بأنَّ الولاية التكوينية لعيسی عليه السلام هی فی نطاق خاص، وليس هنالك دليلٌ علی اختصاصها المطلق بالمسيح عليه السلام، ويمكن أن تصدق بحق سائر الأنبياء أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام بمقتضی أنّ: «حكمُ الأمثال فی ما يجوز وما لا يجوز واحدٌ».

وفی الآية الثانية يتحدث تعالی عن تسخير الرياح لسليمان عليه السلام ويقول: «فَسَخَّرنَا لَهُ الرِّيحَ تَجرِی بِأَمرِهِ رُخَاءً حَيثُ اصَابَ».

ويستفاد من هذه الآية والآيات التی تليها أنّه وكما أنّ الشياطين كانت تُنفِّذ أمر سليمان وتنجزُ له أعمالًا مهمّةً فی البر والبحر، فإنّ الريح كانت تُنفِّذ أمره أيضاً، وكانت تتحرك حيث يأمرها، وهذا الأمر ليس سوی مصداق للولاية التكوينية فی هذا الجانب من الموجودات.

وورد نظير هذا المعنی أيضاً فی سورة الأنبياء، والحديث هنا عن أمر سليمان عليه السلام علی العواصف، إذ يقول تعالی «وَلِسُلَيمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجرِی بِأَمرِهِ الَی الارضِ الَّتِی بَارَكنَا فِيهَا».

(الانبياء/ ۸۱)

وهذا الاحتمال واردٌ أيضاً فيما جاء فی قصة موسی عليه السلام فی البقرة، الآية ۶۰: (من ضرب الحجر وانبثاق عين الماء فيه بإذن اللّه)، (وكذا ضربُ البحر بالعصا، حيث يقول تعالی «فَاوْحَينَا الَی مُوسَی انِ اضْرِبْ بِّعَصَاكَ البَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّودِ العَظِيمِ».

(الشعراء/ ۶۳)

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۶

وكل ذلك كان من قبيل الولاية التكوينية أيضاً.

والخلاصة هو أنّه فی جميع الحالات التی يمنح فيها اللّه تعالی لأحد عباده الخاصين القدرة والقوة للنفوذ فی عالم الخلق والطبيعة، يحصل لذلك العبد نوعٌ من الولاية التكوينية.

والحديث فی الآية الثالثة عن التصرف التكوينی لشخص من المقربين لسليمان ومن خاصته، بَيدَ أنّ اسمه لم يأت فی القرآن سوی بوصف (الذی عنده علمٌ من الكتاب)، فعندما خاطب سليمان عليه السلام أصحابه وخاصته: «قَالَ يَاايُّهَا المَلَأُ ايُّكُم يَأتِينِی بِعَرشِهَا قَبلَ أنْ يَأْتُونِی مُسلِمِينَ* قَالَ عِفرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ انْ تَقومَ مِن مَّقامِكَ»، ثم يضيف:

«قالَ الَّذِی عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الكِتَابِ انَا آتِيكَ بِهِ قَبلَ انْ يَرتَدَّ الَيكَ طَرفُكَ».

وبطبيعة الحال أنّ هذا لم يكن ادّعاءً فحسب، بل إنّه نفّذ وعده، إذ نقرأ فی سياق الآية:

«فَلَمّا رَآهُ مُستَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّی».

وهنا بحوث كثيرة:

من ذلك الذی كان عنده علمٌ من الكتاب؟ فالمعروف والمشهور أنّه كان وزير سليمان عليه السلام، (آصف بن برخيا) الذی يقال إنّه كان ابن اخته، وطبقاً لما ورد فی الرواية فی تفسير العياشی فی جواب الإمام محمد بن علی الجواد عليه السلام ليحيی بن الأكثم فإنّ «آصف» كان وصی وخليفة سليمان عليه السلام، وكان نبيّاً، وكان سليمان عليه السلام يريد بهذا العمل تعريف العامة بمكانته ومنزلته، وإلّا فإنّه كان يمتلك القدرة علی هذا العمل من باب أولی «۱».

وقد احتمل البعض أيضاً أنّ هذا الشخص كان سليمان نفسه «۲»، إلّاأنه لا ينسجم وظاهر الآية.

---

(۱) تفسیر نور الثقلین، ج ۴، ص ۹۱، ح ۷۷ کما نقل هـذا المعنی بصـریح القول فی تفسـیر الـدر المنثور عن ابن عباس وآخرین بأنّ القائل کان آصف بن برخیا حیث کان الاسم الآخر له «اتملیخا»، (تفسیر در المنثور، ج ۵، ص ۱۰۹).

(۲) نقل هذا الاحتمال فی تفسیر المیزان، ج ۱۵، ص ۳۶۳ واشکَل علیه.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۷

واحتمـل البعض أنّه کـان رجلًا من بنی اسـرائیل، حیث یتعـارض هـذا مع التفسـیر الـذی یقول إنّه کان آصف بن برخیا، لأنّه وحسـب الظـاهر کان من بنی اسـرائیل، علی أیّـۀ حالٍ فالـذی یحظی باهتمامنا هنا لیس شـخصاًبعینه، بل الغرض هو أنّ أحـد اولیاء اللّه کانت له القدرۀ فی التصـرف فی عالم التکوین وعالم الأسباب من خلال امتلاکۀ ل «علم من الکتاب» أو معرفۀ الاسم الأعظم، أو أیشیء آخر، وأن ینقل عرش وملکۀ سبأ من اقصی جنوب شبه الجزیرۀ العربیۀ إلی أقصی شمالها خلال طرفۀ عین، ولا یخفی أنّ هذا الأمر ممکنُ لسائر أولیاء اللّه لاسیّما والأنبیاء والأئمّۀ المعصومین علیهم السلام.

وقد ورد فی بعض الروایات عن الإمام الباقر علیه السلام:

«إنّ اسم اللّه الأـعظم علی ثلاثـۀ وسـبعین حرفـاً وإنّما کان عنـد آصف منها حرف واحـد فتکلم به فخسف بالأرض ما بینه وبین سـریر بلقیس حتی تناول السـریر بیـده ثم عادت الأرض کما کانت أسـرع من طرفـۀ عین ونحن عنـدنا من الاسم الأعظم اثنان وسـبعون حرفاً وحرف واحد عند اللّه تعالی استأثر به فی علم الغیب عنده، ولا حول ولا قوۀ إلّاباللّه العلی العظیم» «۱».

ونقـل هـذا المعنی أیضـاً فی روایـات اخری عن الإمـام البـاقر علیه السـلام والإمام الصادق علیه السـلام وبعض أئمّـۀ أهل البیت علیهم السلام.

ویستفاد بوضوح ممّا مرّ من الآیات أنّ الولایۀ التکوینیۀ أمرٌ ممکنُ وجدیر بالقبول فی نظر القرآن الکریم.

الولایۀ التکوینیۀ فی الأحادیث الإسلامیۀ:

کثیراً ما نصادف فی الروایات الإسـلامیۀ إشارات عن المعجزات التی حصـلت فی إطار الولایۀ التکوینیۀ، وتوضیح ذلک أنّ المعجزات لها أقسام وأنواع فبعضها یحصل بدعاء

---

(۱) اصول الکافی، ج ۱ ص ۲۳۰ استناداً إلی نقل تفسیر البرهان، ج ۳، ص ۲۰۳، ح ۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۸

النبی صـلی الله علیه و آله أو الإمام المعصوم فقط، وبعضٌ یحصل بطلب الناس منهم وبإذن اللّه، وبعضها یحصل عن طریقهم وبفعلهم، أی أنّ بعض المعجزات یحصل من خلال تصـرفهم ومقامهم الروحی والمعنوی وبإذن اللّه، بحیث لا یمثل سوی الولایـۀ التکوینیۀ التی نتحدث عنها الآن.

وهذه الحالات کثیرۀٌ للغایۀ، وفیما یلی نشیر إلی بعض النماذج منها:

۱- ورد نموذج ظریف منها فی نهج البلاغۀ- الخطبۀ القاصـعۀ- حیث یقولُ علیه السـلام «ولقد کنتُ معه صـلی الله علیه و آله کما أتاه الملأـ من قریش فقـالوا له: یامحمـد إنّـک ادّعیت عظیمـاً لم یـدعه أباؤک ولا أحـد من بیتک، ونحن نسألک أمراً إنْ أنت أجبتنا إلیه وأریتناه علمنا أنّک نبیٌ ورسول، وإن لم تفعل علمنا أنّک ساحرٌ کذاب».

فقال رسول اللّه صـلی الله علیه و آله «وما تسألون» قالوا: تـدعو لنا هـذه الشـجرۀ حتی تنقلع بعروقها وتقف بین یـدیک، فقال صـلی الله علیه و آله: «إنّ اللّه علی کـلّ شـیء قـدیر، فـإنّ فعـل اللّه لکم ذلـک، أتؤمنون وتشـهدون بـالحقّ»؟ قـالوا: نعم، قـال: «فانی ساریکم ما تطلبـون وإنّی لأـعلم أنّکـم لاـ تفیئـون إلی خیر، وإنّ فیکم من یطرحُ فی القلیب ومنْ یحزّبُ الأـحزاب»، ثم قـال صـلی الله علیه و آله:

«یاأیّتها الشجرة إنْ کنت تؤمنین باللّه والیوم الآخر، وتعلمین أنّی رسول اللّه فانقلعی بعروقک حتی تقفی بین یدیّ بإذن اللّه».

فوالذی بعثه بالحق (لا نقلعت) بعروقها وجاءت ولها دویٌ شدید وقصف کقصف أجنحة الطیر حتی وقفت بین یدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله مرفرفة، وألقت بعضها الأعلی علی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وببعض أغصانها علی منکبیه، وکنت عن یمینه صلی الله علیه و آله.

فلما نظر القوم إلی ذلک قالوا- علواً واستکباراً: فَمُرها فلیأتک نصفها، ویبقی نصفها، فأمرها بذلک فاقبل إلیه نصفها کأعجب إقبال وأشدّه دویّاً فکادت تلتفّ برسول اللّه صلی الله علیه و آله!

فقالوا- کفراً وعتواً-: فمرّ هذا النصف فلیرجع إلی نصفه کما کان، فأمره صلی الله علیه و آله فرجعَ، فقلت أنا: «لا إله إلّااللّه، إنّی أول مؤمن بک یارسول اللّه، وأول منْ أقرّ بأنّ الشجرة فعلت ما فعلت بأمر اللّه تعالی تصدیقاً بنبوتک وإجلالًا لکلمتک». نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۲۹

فقال القوم کلهم: بل ساحرٌ کذاب عجیب السحر، خفیفٌ فیه، وهل یصدقک فی أمرک إلّا مثل هذا «یعوننی»؟

«وإنّی لمن قوم لا تأخذهم فی اللّه لومة لائم، سیماهم سیما الصدیقین، وکلامهم کلام الأبرار، عمارُ اللیل ومنار النهار، متمسکون بحبل القرآن، یحیون سنن اللّه وسنن رسوله، لا یستکبرون ولا یعلون، ولا یغلون ولا یفسدون، قلوبهم فی الجنان وأجسادهم فی العمل» «۱».

تأملوا تعابیر هذه الخطبة قلیلًا، فإنّها تثبت أنّ هذا الأمر الخارق للعادة حدث بنفوذ وتصرف النبی صلی الله علیه و آله فی التکوین، وعلیه فما ورد فی ذیل هذه العبارة: «إنّ الشجرة فعلت مافعلت بأمر اللّه تعالی ، هو أمر اللّه وإذنه والقدرة التی قد وهبها لنبیه لمثل هذا التصرف، کما ورد التعبیر ب «إذن اللّه» فی بدایة هذه الکلمة.

بناءً علی ذلک، فالتعابیر مثل: مُرْ لیحدث کذا أو کذا، وکلام رسول اللّه صلی الله علیه و آله أیّتها الشجرة افعلی کذا وکذا، کلها أدلة علی ولایة النبی صلی الله علیه و آله ونفوذه التکوینی.

۲- یروی المرحوم العلّامة المجلسی فی کتاب بحار الأنوار عن سلمان الفارسی: لما قدم النبی صلی الله علیه و آله المدینة تعلق الناس بزمام الناقة، فقال النبی صلی الله علیه و آله: یاقوم دعوا الناقة فهی مأمورة، فعلی باب من برکت فأنا عنده (وهذا أفضل طریق للخلاص من کل اختلاف وتفرقة).

فأطلقوا زمامها وهی تهف فی السیر حتی دخلت المدینة، فبرکت علی باب أبی أیوب الأنصاری، ولم یکن فی المدینة أفقر منه، فانقطعت قلوب الناس حسرةً علی مفارقة النبی صلی الله علیه و آله، فنادی أبو أیوب: «یاامّاه افتحی الباب، فقد قدم سید البشر، وأکرم ربیعة ومضر، محمد المصطفی والرسول المجتبی .

فخرجت وفتحت الباب وکانت عمیاء، فقالت: «واحسرتاه لیت کانت لی عین أبصر بها

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ (القاصعة).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۰

وجه سیدی رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی المدینة»، وضع صلی الله علیه و آله کفه علی وجه ام أبی أیوب فانفتحت عیناها «ربّما یراد فی وضع الید الإشارة بالید، أو وضع الید فوق قطعة قماش» «۱».

۳- کما وردت هذه الروایة أیضاً فی الکتب المشهورة لدی الشیعة والسنة وهی لما لم یأت النصر علی ید بعض امراء الجیش فی معرکة خیبر، قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «سأعطی الرایة غداً إلی رجل یحبُّ اللّه ورسولهُ ویحبّهُ اللّه ورسولهُ، یفتح اللّه علی یدیه، ثم ارسل علی علیّ وکان أرمداً، فحضر فبصق فی عینیه فبرأتا، ثم سلّمه الرایة وفتح خیبر» «۲».

تفيد هذه الرواية المشهورة أنّ النبى صلى الله عليه و آله ابرء عينى على عليه السلام من خلال ولايته التكوينية- بإذن اللَّه-.

۴- وجاء فى تاريخ أمير المؤمنين عليه السلام أيضاً «مُد الفرات فى عهد على عليه السلام فأقبل إليه الناس، فقالوا: يا أمير المؤمنين نحن نخاف الغرق لأنّ فى الفرات قد جاء من الماء مالم ير مثله وقد امتلأت جنباه فاللَّه اللَّه، فركب أمير المؤمنين عليه السلام والناس معه وحوله يميناً وشمالًا ۰۰۰۰ حتى انتهى إلى الفرات وهو يزخر بأمواجه، فوقف والناس ينظرون فتكلّم بالعبرانية كلاماً فنقص الفرات ذراعاً، فقال: حسبكم؟ قالوا: زدنا» «۳».

فهل هذا الفعل سوى تصرفٌ تكوينى بإذن اللَّه؟

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۹، ص ۱۲۱.

(۲) لقد أورد ابن الأثير هذه الرواية فى الكامل بالتفصيل (ج ۲، ص ۲۱۹)؛ وكذا ابن هشام فى السيرة النبوية ج ۳، ص ۳۴۹؛ والعلّامة المجلسى فى بحار الأنوار ج ۲۱، ص ۲۹۸، ح ۳۰.

(۳) بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۲۳۷ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۱

۵- ونقرأ فى تاريخه عليه السلام أيضاً أنّه وأثناء مروره قرب الكوفه جاءه قوم من اليهود، وقالوا: «أنت على بن أبى طالب الإمام؟ فقال: أناذا، قالوا: لنا صخرة مذكورة فى كتبنا عليها اسم ستة من الأنبياء، وهو ذا نطلب الصخرة فلا نجدها فإنّ كنت إماماً أوجدنا الصخرة .... فسار القوم خلف أمير المؤمنين عليه السلام إلى أنّ استبطن فيهم البر فاذا بجبل من رمل عظيم فقال عليه السلام: أيّتها الريح انسفى الرمل عن الصخرة بحق اسم اللَّه الأعظم فما كان إلّاساعة حتى نسفت الرمل وظهرت الصخرة» «۱»

وهذا نموذج آخر من النفوذ والتأثير على عالم التكوين.

وقد وردت نماذج اخرى فى الكثير من كتب التاريخ والتفسير، والحديث، ومختلف المصادر الإسلامية للشيعة والسنّة، حيث يحتاج ذكرها كلها إلى تدوين كتاب مستقل.

إنّ هذه الآيات والروايات تؤكّد أنّ أولياء اللَّه سواء من الأنبياء أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام كانوا يتمتعون بقدرة بأمر اللَّه وإذنه، بحيث كانوا يستطيعون التصرف فى عالم التكوين من خلال ما وهبهم اللَّه تعالى من إذن فى حالاتٍ معينةٍ، وهذا ما نُعبر عنه بالولاية التكوينية.

وبطبيعة الحال، فإنَّ الولاية التكوينية لها تفرعات اخرى أيضاً، منها التأثير فى القلوب المستعدة لقبول الحق عن طريق الألطاف المعنوية والروحية، وتربية وهداية النفوس المؤهلة من خلال التأثير الروحى فيها، حيث تتوفر أمثلة كثيرة لذلك فى التاريخ الإسلامى.

وغالباً ماكان يحصل لكثير من الأشخاص تحولٌ وتغيرٌ مفاجئٌ، بنحوٍ لا ينسجم مع الموازين والمعايير الطبيعية، وذلك بمجرّد وجودهم فى محضر رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أو الإمام المعصوم عليه السلام، وبالتالى يستقيم سلوكهم فى الحياة على أثره.

إنّ هذا التحول والتغير المفاجىء والخارق للعادة يحصل أيضاً نتيجة ل «الولاية التكوينية» والتاثير فى النفوس المؤهلة.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۱ ص ۲۳۷ (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۳

الولاية والإمامة الخاصة

اشارة

۱- الآیات التی تهتم بمسألة الإمامة بشکل مباشر

۲- آیات الفضائل

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۵

الولایة والإمامة الخاصة

تمهید:

بعد الفراغ من البحوث العامة فی «الإمامة العامة» جاء دور الکلام فی بحث الإمامة الخاصة، حیث سیکون البحث فی معرفة الإمام المعصوم والوصی بعد النبی صلی الله علیه و آله، مُستعینین بمختلف المصادر الإسلامیة، والنصوص الواردة فی القرآن، والروایات الموثوقة فی هذا البحث.

کما نستعین بأسلوب جمع القرائن الذی هو أحد أهم الأسالیب لمعرفة الأنبیاء والأئمّة المعصومین علیهم السلام، ونسأل اللّه تعالی أن یأخذ بأیدینا وقلمنا وبیاننا إلی ما هو حقٌ، ویبعدنا عن کلّ خلاف وانحراف.

فی البدایة نیمّم وجوهنا صوب آیات القرآن الکریم لنری ما ورد من آیات بصدد الإمامة الخاصة.

حیث یمکن تقسیم هذه الآیات إلی قسمین:

۱- الآیات التی تهتم بمسألة الإمامة بشکل مباشر وتبحث فیها بجلاء.

۲- الآیات التی تبحث هذه المسألة بشکل غیر مباشر.

وبالرغم من کثرة الآیات فی کلا القسمین، فإنّنا سننتخب مجموعة من الآیات وذلک لمزید من التوضیح، ومن ثم نشرع بالبحث.

ففی القسم الأول نناقش الآیات التالیة:

۱- آیة التبلیغ وواقعة الغدیر.

۲- آیة الولایة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۶

۳- آیة اولی الأمر.

۴- آیة الصادقین.

۵- آیة القربی

وفی القسم الثانی نتجه نحو آیات الفضائل، وهذه الآیات لا تطرح مسألة الخلافة والولایة بشکل مباشر، إلّاأنّها تثبت الفضائل بحق أمیر المؤمنین علیه السلام، حیث تصفه بأنّه أفضل امّة محمد صلی الله علیه و آله، وأسمی شخصیة بعد النبی صلی الله علیه و آله، مع إلحاق مقدمة عقلیة واضحة (ترجیح المرجوح علی الراجح قبیح) حیث نستنتج عدم وجود شخص ألیق وأجدر منه لقیادة الأمة بعد النبی صلی الله علیه و آله.

وهذه الآیات کثیرة للغایة حیث تجری الإشارة إلی ۳۲ آیة، من بینها:

۱- آیة المباهلة. ۲- آیة خیر البریة. ۳- آیة لیلة المبیت. ۴- آیة الحکمة. ۵- آیات سورة هل اتی ۶- آیات مقدمة سورة براءة، ۷- آیة سقایة الحاجّ. ۸- آیة صالح المؤمنین.

۹- آیة الوزارة. ۱۰ و ۱۱- آیات سورة الاحزاب. ۱۲- آیة البینة والشاهد. ۱۳- آیة «الصدیقون»، ۱۴- آیة النور. ۱۵- آیة الانذار. ۱۶- آیة مرج البحرین. ۱۷- آیة النجوی

۱۸- آیة «السابقون». ۱۹- آیة أذن واعیة. ۲۰- آیة المحبّة. ۲۱- آیة «المنافقین»، ۲۲- آیة الایذاء. ۲۳- آیة الانفاق. ۲۴- آیة المحبّة.

۲۵- آية المسؤولين. ۲۳- آية اشقاها.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۷

القسم الأول: الآيات التى تهتم بمسألة الإمامة بشكل مباشر

۱- آية التبليغ

اشارة

«يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ اِلَيكَ مِن رَّبِّكَ وَإِنْ لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ انَّ اللَّهَ لَايَهْدِى القَوْمَ الكَافِرِينَ». (المائدة/ ۶۷)

شأن النزول:

جاء فى الكثير من كتب علماء السنّة (وكافة كتب الشيعة المعروفة) سواءً التفسير أو الحديث أو التاريخ، أنّ الآية أعلاه نزلت بحق على عليه السلام.

وروى هذه الروايات جمعٌ كثير من الصحابة، منهم «أبو سعيد الخدرى، وزيد بن أرقم، وجابر بن عبد اللّه الأنصارى، وابن عباس، والبراء بن عازب، وحذيفة، وأبو هريرة، وابن مسعود، وعامر بن أبى ليلى ، وجاء فى رواياتهم أنّ هذه الآية نزلت بشأن على عليه السلام وواقعة يوم الغدير.

واللطيف أنّ بعض هذه الروايات نُقلت بطرق متعددة منها:

رواية أبى سعيد الخدرى عن أحد عشر طريقاً.

رواية ابن عباس عن أحد عشر طريقاً أيضاً.

ورواية البراء بن عازب نُقلت عن ثلاثة طرق.

ومن بين الذين أوردوا هذه الروايات (بشكل واسع أو بالاجمال) فى كتبهم، العلماء

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۸

المعروفون المدرجة أسماؤهم فيما يلى:

«أبو الحسن الواحدى النيشابورى فى أسباب النزول ص ۱۵۰.

«ابن عساكر الشافعى نقلًا عن «الدر المنثور»، ج ۲، ص ۲۹۸.

«الفخر الرازى فى التفسير الكبير ج ۳، ص ۶۳۶.

«أبو اسحاق الحموينى فى «فرائد السمطين» (مخطوط).

«ابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمّة» ص ۲۷.

«جلال الدين السيوطى فى «الدر المنثور» ج ۲، ص ۲۹۸.

«القاضى الشوكانى فى «فتح القدير» ج ۳، ص ۵۷.

«شهاب الدين الالوسى الشافعى فى «روح المعانى» ج ۶، ص ۱۷۲.

«الشيخ سليمان القندوزى الحنفى فى «ينابيع المودّة» ص ۱۲۰.

«بدر الدين الحنفى فى عمدة القارى فى «شرح صحيح البخارى» ج ۸، ص ۵۸۴.

«الشيخ محمد عبدة المصرى فى تفسير المنار ج ۶، ص ۴۶۳.

«الحافظ ابن مردويه (المتوفى عام ۴۱۸ ه. ق) (على ضوء نقل السيوطى فى الدر المنثور) وكثيرٌ غيرهم.

وبالطبع لاينبغى نسيان أنّ بعض هؤلاء العلماء فى الوقت الذى ينقلون به الرواية وشأن النزول فإنّهم يمرون بها مرور الكرام للأسباب التى سنشير إليها لاحقاً، أو يبادرون إلى نقدها، حيث سنتطرق إلى بحث أقوالهم بشكل دقيق فى البحوث القادمة إن شاء اللّه.

حادثة الغدير:

اتضح من البحث السابق وبشكل إجمالى أنّ هذه الآية وعلى ضوء الشواهد التى لا تحصى قد نزلت بحق على عليه السلام، وأنّ الروايات التى نقلت فى الكتب المعروفة لأهل السنّة- فضلًا عن كتب الشيعة- أكثر من أن يستطيع أحدٌ إنكارها.

وبالإضافة إلى الروايات أعلاه، فلدينا روايات اخرى تفيد بصريح القول: إنّ هذه الآية وردت أثناء واقعة الغدير وخطبة النبى صلى الله عليه و آله فى التعريف بعلى عليه السلام على أنّه الوصى والولى،

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۳۹

وعددها يربو على الروايات السابقة، حتى أنّ المحقق الكبير العلّامة «الأمينى» ينقل فى كتاب الغدير، حديث الغدير عن ۱۱۰ من صحابة رسول اللّه صلى الله عليه و آله بالاسناد والوثائق الحية، وكذلك عن ۸۴ من التابعين و ۳۶۰ من مشاهير علماء المسلمين ومؤلفيهم.

إنّ كلّ من يلقى نظرةً على مجموعة هذه الأسانيد والوثائق يدرك بأنّ حديث الغدير من أكثر الروايات الإسلامية جزماً، ومصداقاً واضحاً للحديث المتواتر، ومن يشك فى تواتره، فعليه أن لا يؤمن بايّ حديث متواتر.

وحيث إنّ الولوج فى هذا البحث بنحوٍ واسعٍ يخرجنا عن اسلوب كتابة تفسير موضوعى، فنكتفى بهذا القدر بشأن اسناد الرواية وشأن نزول هذه الآية، ونتطرق إلى مضمون الرواية، ونرشد من يريد المزيد من المطالعة حول إسناد الرواية إلى الكتب التالية:

۱- كتاب الغدير، ج ۱.

۲- احقاق الحق، تأليف العلّامة الكبير القاضى «نور اللّه التسترى» مع شرح مفصلٍ لآية اللّه النجفى، ج ۲ و ۳ و ۱۴ ۲۰.

۳- المراجعات للمرحوم السيّد «شرف الدين العاملى».

۴- عبقات الأنوار للعالم الكبير «ميرحامد الحسينى الهندى» (من الأفضل مراجعة خلاصة العبقات، ج ۷ و ۸ و ۹).

۵- دلائل الصدق، تأليف العالم الكبير المرحوم «المظفر»، ج ۲.

مضمون روايات الغدير:

وهنا نأتى بقصة الغدير بشكل مختصر كما يستفاد من مجموع الروايات أعلاه، (وطبعاً فإنّ هذه الواقعة قد وردت فى بعض الروايات بشكل مفصّل ومطوّل، وفى بعضها بشكل مختصرٍ وقصير، وفى بعضها اشير إلى جانبٍ من هذه القصة وفى البعض إلى جانب آخر، ومنها جميعاً يستفاد ما يلى):

فى السنّة الأخيرة من حياة النبى صلى الله عليه و آله اقيمت مراسم حجة الوداع بكل جلال بمشاركة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۰

النبى صلى الله عليه و آله، وكانت الأفئدة تمتلئ بالمعنويات ولم تزل اشعاعات هذه اللذة المعنوية وهذه العبادة العظيمة تنعكس فى النفوس.

وكان أصحاب رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الذين كان عددهم كثيراً للغاية لا تسعهم أنفسهم نتيجة لإدراكهم هذا الفيض والسعادة العظيمة «۱».

ولم يكن أهل المدينة وحدهم الذين يرافقون رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى هذا السفر، بل كان المسلمون من مختلف بقاع الجزيرة العربية برفقته صلى الله عليه و آله لنيل هذا الفخر التاريخى العظيم.

وكانت شمس الحجاز تضفى على الجبال والأودية حرارة لا تطاق، إلّاأنّ حلاوة هذا السفر المعنوى النادر كانت تيسِّر كل شىء، وقد اقترب الظهر، وأخذت منطقة الجحفة، وصحراء «غدير خم» الجافة الرمضاء تبدو للعيان.

ومن هذا المكان الذى يتشعب إلى أربعة طرق يفرق أهل الحجاز، فطريق يتجه إلى الشمال نحو المدينة، وطريق إلى الشرق نحو العراق، وطريق إلى الغرب نحو مصر، وطريق إلى الجنوب نحو اليمن، وهنا يجب أن تُطرح آخر المستجدات فى هذا السفر، ويتفرق المسلمون بعد استلامهم لآخر حكم وهو فى واقع الأمر كان خط النهاية فى الواجبات الناجحة للنبى صلى الله عليه و آله.

كان ذلك فى يوم الخميس من السنة العاشرة للهجرة، وقد مضت عشرة أيّام على عيد الأضحى، وفجأة صدر الأمر من الرسول صلى الله عليه و آله إلى الذين معه بالتوقف، ونادىالمسلمون بأعلى أصواتهم أصحابَهم الذين تقدموا الركب بالتوقف والعودة، وامهلوا المتأخرين حتى يصلوا، وزالت الشمس وصدح صوت مؤذن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بالأذان: اللَّه أكبر، داعياً الناس إلى صلاة الظهر، وسرعان ما استعد الناس للصلاة، إلّاأنّ حرارة الجو كانت إلى الحد الذى اجبر البعض على أنّ يغطى أرجله بقسم من ازاره ويستر رأسه بالقسم الآخر، وإلّا فإنّ حصى الصحراء وأشعة الشمس ستحرق أرجلهم ورؤوسهم.

---

(۱) ذكر البعض أنّ عدد الذين كانوا مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ۹۰ ألفاً، والبعض ۱۱۲ ألفاً، وبعضٌ ۱۲۰ ألفاً، وبعضٌ ۱۲۴ ألفاً.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۱

فلا خيمة فى الصحراء، ولا خضرة، ولا نبات، ولا شجرة، سوى بعض الأشجار البرية الجرداء التى تقاوم حرارة الصحراء، والتى لاذ بها البعض، ووضعوا قطعة من القماش على إحداها وجعلوها ظلًا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله، إلّاأنّ الرياح اللاهبة تهب تحتها وتلفها بحرارة الشمس المحرقة.

وانتهت صلاة الظهر، وعزم المسلمون على اللجوء إلى خيامهم الصغيرة التى كانوا يحملونها معهم، بَيدَ أنّ النبى صلى الله عليه و آله أوعز لهم بالاستعداد لسماع بلاغ إلهى جديد يُوضح ضمن خطبة مفصلة، ولم يكن بمقدور البعيدين عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رؤية وجهه الملكوتى وسط زحام الناس، لذا فقد صنعوا له منبراً من أربعة من أحداج الإبل، فارتقاهُ النبى صلى الله عليه و آله، وفى البداية حمد اللَّه واثنى عليه واستعاذ به، ثم خاطب الناس قائلًا:

«أيّها الناس: يوشك أن أُدعى فأُجيب.

أنا مسؤول، وأنتم مسؤولون.

فكيف تشهدون بحقى؟

فصاح الناس: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجاهدت فجزاك اللَّه خيراً، ثم قال:

ألستم تشهدون أن لا إله إلّااللَّه، وأنّى رسول اللَّه إليكم، وأنّ البعث حق، وأنّ اللَّه يبعث من فى القبور؟! فقالوا: نشهد بذلك، قال: اللّهم اشهد، ثم قال:

أيّها الناس أتسمعونى؟ قالوا: نعم، ثم عمّ السكوت الصحراء فلم يسمع إلّاصوت الريح، فقال صلى الله عليه و آله: فانظروا ماذا صنعتم بالثقلين من بعدى؟

فقال رجل من بين القوم: ما هذان الثقلان يارسول اللَّه؟!

قال صلى الله عليه و آله: أمّا الثقل الأكبر فهو كتاب اللَّه حبل ممدود من اللَّه إليكم، طرفه بيد اللَّه والطرف الآخر بأيديكم، فلا تدعوه، وأمّا الثقل الأصغر فهم عترتى وقد أخبرنى اللطيف الخبير أنّهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، فلا تتقدموهما فتهلكوا ولا تتأخروا عنهما فتهلكوا.

ونظر الناس إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وهو يلتفت حوله، وكأنّه يبحث عن أحد، ولما وقعت

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۲

عيناه على على عليه السلام التفت إليه وأخذ بيده ورفعها حتى بان بياض ابطيهما، وشاهدهما جميع القوم، وعرفوا أنّه ذلك الفارس المقدام، وهنا ارتفع صوت النبى صلى الله عليه و آله، وقال: أيّها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: اللَّه ورسوله أعلم، فقال النبى صلى الله عليه و آله: اللَّه مولاى، وأنا مولى المؤمنين وأولى منهم بأنفسهم، ثم قال: فمن كنت مولاه فعلى مولاه، وكرر هذا الكلام ثلاث مرات، وكما قال أرباب الحديث: إنّه كرره أربعاً، ثم رفع رأسه نحو السماء، وقال:

اللّهم والِ من والاه وعاد من عاداه، واحب من أحبّه وابغض من أبغضه وانصر من نصره واخذل من خذله وأَدر الحق معه حيث دار.

ثم قال صلى الله عليه و آله: إلّافليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ».

هنا انتهت خطبة الرسول صلى الله عليه و آله وكان العرق يتصبب من النبى صلى الله عليه و آله وجميع من حضر، وما زال الناس لم يتفرقوا من ذلك المكان حتى نزل عليه الوحى وقرأ هذه الآية على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اليومَ اكملتُ لكُم دينَكُم وَأَتْمَمْتُ عَليكم نِعمتى».

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اللَّه أكبر، اللَّه أكبر على إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ برسالتى والولاية لعلى من بعدى».

فى هذه الأثناء عمّ الناس النشاط والحركة، وأخذوا يهنئون علياً عليه السلام بهذا المقام، وكان من الذين هنّأوه، أبو بكر وعمر حيث نطقا بهذه العبارة أمام أعين الحاضرين:

«بخ، بخ لك ياابن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة».

أثناء ذلك قال ابن عباس: «واللَّه أنّه عهد سيبقى فى أعناقهم»، واستأذن النبىّ صلى الله عليه و آله الشاعر المعروف «حسان بن ثابت» لينشد شعراً بهذه المناسبة، ثم استهل قصيدته المعروفة:

يناديهمُ يومَ الغدير نبيُّهمبُخمٍّ وأسمِعْ بالرسول مناديا

فقال فمن مولاكُمُ ونبيُّكمْ؟فقالوا ولم يُبدو هناك التعاميا

إلهكَ مولانا وأنت نبيُّناولم تلقَ منّا فى الولاية عاصيا

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۳ فقال له قم ياعليُّ فإننىرضيتُكَ من بعدى إماماً وهاديا

فمن كنت مولاهُ فهذا وليُّهُفكونوا له أتباعَ صِدقٍ مَواليا

هناك دعا اللّهُمَّ والِ وليَّهُوكُن للذى عادى علياً مُعاديا «۱»

دراسة وتحليل حول آية التبليغ:

لو تغاضينا عن جميع الروايات الواردة بشأن نزول الآية الآنفة الذكر، وكذا الروايات الواردة حول واقعة الغدير، وأمعنا النظر بمضمون الآية نفسها وما تلاها من الآيات، نستطيع من خلال عمق هذه الآيات اتخاذ موقف ازاء مسألة خلافة النبى صلى الله عليه و آله.

والتوضيح: إنّ الآية المذكورة باختلاف التعابير التى وردت فيها تؤكّد على أنّها ناظرة إلى قضية ذى ثلاث مزايا مهمّة:

۱- إنّها قضية تحظى بأهميّة فائقة من وجهة نظر الإسلام إلى الحد الذى يؤمر النبى صلى الله عليه و آله بإبلاغها، وإن لم يفعل فما بلّغ رسالة اللّه! وبتعبير آخر فقد كانت أمراً مرادفاً لقضية النبوة، فإن لم يؤدّها تبقى رسالة النبى صلى الله عليه و آله ناقصة!

ومن البديهى أنّهُ ليس المراد أنّ هذا أمرٌ الهىٌّ عاد وكل أمر إلهى لا يبلغ لم تبلغ رسالة اللّه، فهذا الكلام من قبيل توضيح الواضح وغنى عن البيان، بينما ظاهر الآية هو أنّ القضية المشار إليها تحظى باهتمام خاص من حيث إنّها خلاصة الرسالة والنبوة.

۲- إنّ هذه القضية لا تتعلق بالصلاة والصوم والحج والزكاة وما شابه ذلك من قواعد تعاليم الإسلام، لأنّها من آيات سورة المائدة، ونحن نعلم أنّ سورة المائدة هى آخر سورة نزلت على النبى صلى الله عليه و آله (أو من أواخر السور) أى فى آواخر عمر النبى صلى الله عليه و آله المبارك حيث كان قد تم بيان كافة الأركان المهمّة للاسلام «۲».

---

(۱) روى هذا الشعر جماعة من كبار علماء السنة منهم، الحافظ «أبو نعيم الاصفهانى»، والحافظ «أبو سعيد السجستانى»، و «الخوارزمى المالكى»، والحافظ «أبو عبد اللّه المرزبانى»، و «الكنجى الشافعى»، و «جلال الدين السيوطى»، و «سبط بن الجوزى»، و «صدر الدين الحموى».

(۲) يقول الفخر الرازى فى ذيل هذه الآية، قال أصحاب الآثار أنّه لما نزلت هذه الآية على النبى صلى الله عليه و آله لم يعمر بعد نزولها إلّاأحد وثمانين يوماً، أو اثنين وثمانين يوماً، التفسير الكبير، ج ۱۱، ص ۱۳۹؛ وجاء فى تفسير المنار أيضاً وبعض الكتب الاخرى أنّ سورة المائدة جميعها نزلت فى حجة الوداع (تفسير المنار، ج ۶، ص ۱۱۶) وبالطبع فقد نقل البعض بشأن عدد الأيّام أعلاه، أقل من ذلك.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۴

۳- إنّ عبارات الآية تدلل على أنّ القضية المقصودة من الآية كانت مسألة قد اتخذ البعض ازاءها موقفا متصلباً، ولربّما تعرضت حياة النبى صلى الله عليه و آله إلى الخطر بسببها، من هنا أعلن البارى تعالى دعمه الخاص لنبيه فى هذا الصدد وقال:

«وَاللَّهُ يَعصِمُكَ مِنَ النَّاسِ».

ثم يؤكد تعالى فى نهاية الآية:

«انَّ اللَّهَ لَايَهدِى القَومَ الكَافِرِينَ».

وهذه العبارة بحد ذاتها دليل على المواقف السلبية لبعض المخالفين.

إنَّ مجموع هذه الامور الثلاثة التى تستنتج من الآية تؤكد على أنّ المراد منها ليس إلّا ابلاغ خلافة ووصاية النبى صلى الله عليه و آله.

نعم، فمثل هذا الأمر يمكن أن يحظى بالبحث والتمعن فى آواخر حياة النبى صلى الله عليه و آله، وليس سائر دعائم الإسلام التى كانت قد بُينت آنذاك، ومثل هذا الأمر باستطاعته أن يكون مرادفاً للنبوة ومماثلًا لها، وربّما تثار الاعتراضات نتيجة لاظهار مثل هذا الأمر قبل هذا الوقت ويكمن فيه الخوف من الخطر.

إنّ أى تفسير آخر يعطى لهذه الآية عدا مايتعلق بالولاية والإمامة والخلافة، لا ينسجم معها.

فلو طالعتم جميع كلمات المفسرين الذين أرادوا صرف مضمون الآية إلى قضايا اخرى لم يستطع أى منهم أن يُشير إلى الأمر الذى تؤكّد عليه الآية، وهذا ما حدا بهم إلى أنّ يتوقفوا عن تفسيرها.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۵

توضيحات

۱- معنى الولاية والمولى فى حديث الغدير

لقد اطلعنا على حديث الغدير المتواتر بشكل إجمالى، والعبارة المشهورة التى جاءت عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى جميع الكتب وهى: «من كنتُ مولاه فعلىٌ مولاه» توضح الكثير من الحقائق، وإن أصرّ كثيرٌ من كتاب أهل السنّة على تفسير كلمة «المولى بمعنى الصديق والمحبّ والناصر، لأنّ هذا أحد المعانى المعروفة ل «المولى .

ونحن نسلّم بأنّ إحدى معانى «المولى الصديق والمحب والناصر، إلّاأنّ ثمّة قرائن عديدة تثبت أنّ المولى فى الحديث أعلاه تعنى «الولى والمشرف والقائد» وهى كما يلى بإيجاز:

۱- إنّ قضية محبّة على عليه السلام مع جميع المؤمنين لم تكن أمراً خفياً وسريا ومعقداً، بحيث يحتاج إلى هذا التأكيد والايضاح، وبحاجة إلى إيقاف ذلك الركب العظيم وسط الصحراء القاحلة الساخنة والقاء خطبة عليهم لأخذ الاقرارات من ذلك الجمع.

فالقرآن يقول بصريح القول: «انَّمَا المُؤمِنُونَ إِخوَةٌ». (الحجرات/ ۱۰)

وفى موضع آخر يقول: «وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعضُهُمْ اوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة/ ۷۱)

والخلاصة: إنّ الاخوة الإسلامية ومودّة المسلمين مع بعضهم من أكثر المسائل الإسلامية بداهة، حيث كانت موجودة منذ انطلاقة الإسلام، وطالما أكّد عليها النبىُّ صلى الله عليه و آله مراراً بالإضافة إلى عدم كونها مسألة تحتاج إلى بيان بهذا الاسلوب الحاد فى الآية، وأن يشعر النبى صلى الله عليه و آله بالخطر من البوح بها (تأملوا جيداً).

۲- إنّ عبارة: «أَلَسْت اولى بكم من انفسكم» الواردة فى الكثير من الروايات لا تتناسب أبداً مع بيان مودّة عادية، بل إنّه يريد القول إنّ تلك الأولوية والصلاحيات التى لى تجاهكم وكونى نبيّكم وإمامكم وقائدكم، فإنّ كل ذلك ثابت لعلى عليه السلام وأنّ أى تفسير لهذه العبارة غير ما قيل فهو بعيد عن الانصاف والواقعية، لاسيما مع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «من أنفسكم» (أنا أولى بكم من أنفسكم).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۶

۳- التهانى التى قدمها من حضر فى هذه الواقعة التاريخية لعلى عليه السلام، لاسيما التهانى التى قدمها أبو بكر وعمر، إذ إنّها تبرهن على أنّ القضية لم تكن سوى تعيينه للخلافة التى تستحق التبريك والتهانى، فالاعلان عن المودة الثابتة لدى كل المسلمين بشكل عام لايحتاج إلى تهنئة.

جاء فى مسند الإمام أحمد أنّ عمراً، قال لعلى بعد خطبة النبى صلى الله عليه و آله: «هنيئاً لك يا ابن أبى طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة» «۱».

ونقرأُ فى العبارة التى ذكرها الفخر الرازى فى ذيل الآية: «يَا أَيُّها الرَسُولُ بلِّغْ مَا أُنزِلَ الَيكَ» إنّ عمراً قال: «هنيئاً لك أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومومنة، وبهذا فإنّ عمراً يعدهُ مولاه ومولى المؤمنين جميعاً».

وفى تاريخ بغداد جاءت الرواية بهذا الشكل: «بخٍ بخٍ لك يا ابن أبى طالب! أصبحت مولاى ومولى كل مسلم» «۲».

وجاء فى «فيض القدير»، و «الصواعق»، أنّ أبا بكرٍ وعمراً باركا لعلى بالقول: «أمسيت يا ابن أبى طالب مولى كل مؤمن ومؤمن» «۳».

ومن نافلة القول: إنّ المودّة العادية بين المؤمنين ليست لها مثل هذه المراسيم، وهذا لا ينسجم إلّامع معنى الولاية التى يفيد الخلافة.

۴- إنّ الشعر الذى نقلناه آنفاً عن «حسان بن ثابت» بذلك المضمون والمحتوى الرفيع، وتلك العبارات الصريحة والجلية شاهد آخر على هذا الادّعاء، وتشير إلى هذه القضية بما فيه الكفاية (راجعوا تلك الأبيات مرة آخرى .

۲- آيات أُخرى فى القرآن تؤيد حديث الغدير

روى كثيرٌ من المفسرين ورواة الحديث فى ذيل الآيات الاولى من سورة المعارج:

---

(۱) مسند أحمد، ج ۴، ص ۲۸۱ (على ضوء نقل الفضائل الخمسة، ج ۱ ص ۴۳۲).

(۲) تاريخ بغداد، ج ۷، ص ۲۹۰.

(۳) فيض القدير، ج ۶، ص ۲۱۷؛ الصواعق، ص ۱۰۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۷

«سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ* لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ* مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ». (المعارج/ ۱- ۳)

سبب النزول وخلاصته:

إنّ النبى صلى الله عليه و آله عيَّن علياً خليفة يوم غديرخم وقال بحقه: «من كنت مولاه فعلى مولاه»، فمالبث أن انتشر الخبر، فجاء «النعمان بن الحارث الفهرى»- (وكان من المنافقين) «۱»- إلى النبى صلى الله عليه و آله وقال: لقد أمرتنا أن نشهد أن لا إله إلّااللَّه وأنّك محمد رسول اللَّه، فشهدنا، ثم أمرتنا بالجهاد والحج والصلاة والزكاة فقبلنا، فلم ترض بكل ذلك، حتى أقمت هذا الفتى «مشيراً إلى على عليه السلام خليفة لك، وقلت: مَنْ كنتُ مولاه فعلىٌ مولاه فهل هذا منك أم من اللَّه»؟ قال النبى صلى الله عليه و آله: «واللَّه الذى لا معبود سواه إنّه من اللَّه»، فالتفت إليه «النعمان بن الحارث»، وقال: «إلهى إن كان هذا حقاً منك فانزل علينا حجارة من السماء». وفجأةً نزلت حجارة من السماء على رأسه وقتلته فنزلت آية «سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ».

ما ورد أعلاه يطابق الرواية التى نقلت فى مجمع البيان عن أبى القاسم الحسكانى «۲» وقد نقل هذا المضمون الكثير من مفسرى أهل السنّة ورواة الأحاديث مع شىء من الاختلاف، مثل: القرطبى فى تفسيرهِ المعروف «۳»، والآلوسى فى تفسير روح المعانى «۴»، وأبو اسحاق الثعلبى فى تفسيره «۵».

وينقل العلّامة الأمينى هذه الرواية فى كتاب الغدير عن ثلاثين من علماء السنة (مع ذكر المصدر ونص العبارة)، منها السيرة الحلبية، «فرائد السمطين» للحموينى، و «درر السمطين» للشيخ محمد الزرندى، و «السراج المنير» لشمس الدين الشافعى، و «شرح الجامع الصغير» للسيوطى، و «تفسير غريب القرآن» للحافظ أبو عبيد الهروى، و «تفسير

---

(۱) جاء فى بعض الروايات أنّه «الحارث بن النعمان» وفى بعضها «النضر بن الحارث».

(۲) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۳۵۲.

(۳) الجامع لأحكام القرآن، ج ۱۰، ص ۶۷۵۷.

(۴) تفسير روح المعانى، ج ۲۹، ص ۵۲.

(۵) وفقاً لنقل نور الابصار للشبلنجى، ص ۷۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۸

شفاء الصدور» لأبى بكر النقاش الموصلى، وكتب اخرى

وقد أورد بعض المفسرين أو المحدِّثين الذين يُقرّون بفضائل على عليه السلام على مضضٍ إشكالات مختلفة على سبب النزول هذا، أهمها الإشكالات الأربعة التالية التى أوردها صاحب تفسير المنار وآخرون بعد ذكرهم لهذه الرواية:

الإشكال الأول: إنّ سورة المعارج مكية، ولا تتناسب مع واقعة غدير خم.

والجواب: إنّ كون السورة مكية لا يعتبر دليلًا على أنّ جميع آياتها نزلت فى مكة، فلدينا العديد من سور القرآن الكريم التى تُدعى بالمكية وكتبت فى جميع المصاحف على أنّها مكية، بيد أنّ عدداً من آياتها نزلت فى المدينة، وكذا العكس، فعلى سبيل المثال أنّ سورة العنكبوت من السور المكية، والحال أنّ آياتها العشر الاولى نزلت فى المدينة، على ضوء قول الطبرى فى تفسيرهِ المعروف، والقرطبى فى تفسيره وآخرين من العلماء «۱».

أو سورة الكهف المعروفة بأنّها مكية بينما نزلت آياتها السبع الاولى فى المدينة استناداً لتفسير «القرطبى»، و «الاتقان» للسيوطى، وتفاسير عديدة «۲».

وهكذا فهنالك سورٌ عُدَّت بأنّها مدنية بينما نزلت آيات منها فى مكة، مثل سورة «المجادلة» فهى مدنية كما هو معروف، إلّاأنّ الآيات العشر الاولى منها نزلت فى مكة، طبقاً لتصريح بعض المفسرين «۳».

وموجز الكلام أنّه توجد حالات كثيرة بأنّ تذكر سورة على أنّها مكية أو مدنية، ويكتب عليها فى التفاسير والمصاحف هذا الاسم إلّاأنّ جانباً من آياتها قد نزل فى موضع آخر.

وعليه فلا مانع أبداً من أن تكون سورة المعارج هكذا أيضاً.

الاشكال الثانى: جاء فى هذا الحديث أنّ الحارث بن النعمان جاء إلى النبى صلى الله عليه و آله فى الأبطح، ونحن نعلم أنّ الأبطح اسم لوادى مكة، ولا تتلائم مع نزول الآية بعد واقعة الغدير بين مكة والمدينة.

---

(۱) تفسير جامع البيان، ج ۲۰، ص ۸۶؛ وتفسير القرطبى ج ۱۳، ص ۳۲۳.

(۲) للمزيد من الاطلاع على الموضوع، راجعوا الغدير، ج ۱، ص ۳۵۶، و ۲۵۷.

(۳) تفسير أبى السعود الذى كتب على هامش تفسير الرازى، ج ۸ ص ۱۴۸؛ والسراج المنير، ج ۴، ص ۳۱۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۴۹

الجواب: أولًا: إنّ عبارة الأبطح فى بعض الروايات فقط لا فى جميعها، وثانياً: إنّ «الابطح والبطحاء» تعنى الأرض الرملية التى يجرى فيها السيل، وهنالك مناطق فى المدينة وسائر المناطق يطلق عليها اسم الأبطح أو البطحاء أيضاً، واللطيف أنّه قد اشير إليها مراراً فى الشعر العربى.

منها: الشعر المعروف الذى أنشده «شهاب الدين» المشهور ب «حيص بيص» فى رثائه لأهل البيت عليهم السلام، عن لسانهم فى مخاطبة قاتليهم:

ملكنا فكان العفو منّا سجيةفلما ملكتم سال بالدم أبطحُ

وحلّلتم قتل الاسارى وطالماغدونا عن الاسرى نعفُّ ونصفحُ

ومن الواضح أنّ مقاتل أهل البيت عليهم السلام كانت على الأغلب فى العراق وكربلاء والكوفة والمدينة، وما أُريق دمٌ فى أبطح مكة أبداً، نعم استشهد بعض أهل البيت عليهم السلام فى واقعة «الفخ» التى تبعد عن مكة ما يقرب من فرسخين، والحال أنّ الأبطح يجاور مكة «۱».

وشاعرٌ آخر يرثى الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء قائلًا:

وتأنُّ نفسى للربوعِ وقد غدابيت النبىِّ مقطّع الاطنابِ

بيتٌ لآلِ المصطفى فى كربلاضربوه بين اباطحٍ وروابى

وثمّة أشعار اخرى كثيرة ورد فيها تعبير «الأبطح» أو «الأباطح» لا تعنى منطقة خاصة فى مكة.

وملخّص الكلام، صحيح أنّ أحد معانى الأبطح هو بقعة فى مكة، إلّاأنّ معنى ومفهوم ومصداق الأبطح لا ينحصر بتلك البقعة.

۳- كيفية ارتباط هذه الآية بما قبلها وبعدها

إنّ بعض المفسرين ومن أجل مجانبة الحقيقة الكامنة فى هذه الآية توسّل بمبرر آخر

---

(۱) الغدير، ج ۱، ص ۲۵۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج۹ ۱۹۹

وهو: إنّ سياق الآيات السابقة واللاحقة بشأن أهل الكتاب لا تنسجم مع قضية الولاية والخلافة والإمامة، ولا تتناسب هذه الاثنينية مع بلاغة وفصاحة القرآن «۱».

إلّا أنّ كافة المطلعين على كيفية جمع آيات القرآن يعرفون أنّ آيات القرآن نزلت تدريجياً وبمناسباتٍ مختلفة، من هنا فكثيراً ما تتحدث سورةٌ ما حول قضايا مختلفة، فجانبٌ منها يتحدث عن الغزوة الفلانية، والجانب الآخر حول الحكم والتشريع الإسلامى الفلانى، وجانبٌ يخاطب المنافقين، وآخر يخاطب المؤمنين، فمثلًا لو طالعنا سورة النور لوجدناها تحتوى على جوانب متعددة، كلٌ منها ناظرٌ إلى موضوعٍ، بدءً من التوحيد والمعاد ومروراً بتنفيذ حدّ الزنا وقصة «الافك»، والقضايا المتعلقة بالمنافقين، والحجاب، وغيرها، (وكذلك سائر السور الطوال إلى حدٍ ما) بالرغم من وجود ارتباط عام بين مجموعة اجزاء السورة.

والسر وراء هذا التنوع فى المحتوى ما قيل: إنّ القرآن نزل تدريجياً وحسب المتطلبات والضرورات وفى مختلف الأحداث، وليس على هيئة كتاب كلاسيكى أبداً بحيث يتابع موضوعاً معداً سلفاً، على هذا الأساس لا مانع على الاطلاق من أن تنزل مقاطع من سورة المائدة بشأن أهل الكتاب، ومقاطع منها فى واقعة الغدير، بالطبع فمن وجهة النظر العامة أنّهما يرتبطان معاً إذ إنّ تعيين خليفة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله يترك أثره على قضايا أهل الكتاب أيضاً، لأنّه سيؤدّى إلى يأسهم من انهيار الإسلام برحيل النبى صلى الله عليه و آله.

۴- لماذا لم يحتج الإمام على عليه السلام بحديث الغدير؟

إنَّ البعض الآخر من اللاهثين وراء التبريرات يقول: إذا كان حديث الغدير يتمتع بهذه العظمة والواقعية فلماذا لم يحتج به على عليه السلام وأهل بيته وأصحابهُ ومحبوه عند الحاجة؟ ألم يكن من الأفضل أن يستندوا إلى مثل هذه الوثيقة المهمّة من أجل إثبات خلافة على عليه السلام؟!

---

(۱) تفسير المنار، ج ۶، ص ۴۶۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۱

إنّ هذا الإشكال شأنه شأن سائر الإشكالات فهو ناتج عن عدم الاطلاع الكافى على كتب الحديث والتاريخ والتفسير، فلقد رويت أحاديث عديدة فى كتب علماء السنّة أنّ علياً عليه السلام أو الأئمّة أو أنصارهم قد احتجوا بحديث الغدير، والمدهش هو: كيف غابت عن أنظار المشككين؟.

منها ما ينقله «الخطيب الخوارزمى الحنفى» فى كتابه «المناقب» عن «عامر بن وائلة» قال: كنت مع على عليه السلام يوم الشورى وسمعته يقول لهم: «لاحتجن عليكم بما لايستطيع عربيكم ولا عجميكم تغيير ذلك، ثم قال: أنشدكم اللَّه أيّها النفر جميعاً أفيكم أحد وحّد اللَّه قبلى؟ .... فانشدكم باللَّه هل فيكم أحدٌ قال له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: مَن كنتُ مولاه فعليٌ مولاه اللهمَّ والِ مَن والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره ليبلغ الشاهد الغايب، غيرى» «۱».

ونقل هذه الرواية الحموينى فى فرائد السمطين فى الباب ۵۸، وابن حاتم فى درر النظم، وابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة.

كما روى ابن حجر فى الصواعق هذا المضمون عن الدار قطنى «۲».

وفى كتاب الغدير ذكر بحث شامل وبمصادر واسعة حول «مناشدة» أمير المؤمنين عليه السلام فى مواطن عديدة، منها أيّام عثمان، وأبان خلافته، يوم الجمل، ومرّة اخرى فى الكوفة يوم صفين، بالإضافة إلى المواضع الستة عشر الاخرى المنقولة من احتجاجات فاطمة عليها السلام، والإمام الحسن عليه السلام، والإمام الحسين عليه السلام، وجماعة من الصحابة وغيرهم، التى تحكى عن المعلومات الواسعة لهذا الكاتب الكبير من ناحية، ومن ناحية آخرى تبرهن على أنّ الاحتجاج بهذا الحديث كان موضع اهتمام على مدى القرون المختلفة، بالرغم من سعى السياسات الخاصة التى كانت مهيمنة على هذه القضية فى التقليل من أهميّتها قدر الإمكان.

ونظراً إلى أنّ الغور فى هذه البحوث الواسعة يخرجنا عن الهدف الذى نبتغيه، فإنّنا نكتفى بهذا المقدار ونحيل الراغبين إلى هذا المصدر «۳» وسائر المراجع.

---

(۱) المناقب، ص ۲۱۷.

(۲) الغدير، ص ۱۶۱.

(۳) المصدر السابق، ص ۱۵۹- ۲۱۳.

۲- آية الولاية

اشارة

الآية الاخرى التى تعقب قضية الإمامة الخاصة، تقول:

«إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ». (المائدة/ ۵۵)

سبب النزول:

اشارة

روى الكثير من المفسرين والمحدثين فى سبب نزول هذه الأية أنّها نزلت بحق علىّ عليه السلام.

فقد نقل السيوطى فى «الدر المنثور» عن ابن عباس: إنّ علياً كان راكعاً وإذا سائل فأعطاه خاتمه، فسأله النبى صلى الله عليه و آله من الذى أعطاك هذا الخاتم؟ فأومأ إلى على عليه السلام وقال:

ذلك الراكع، فنزلت آية: «إنّما وليكم اللّه ...» «۱».

وفى الكتاب نفسه رويت روايات عديدة بنفس المضمون عن «ابن عباس»، و «سلمة بن كهيل» وعن على عليه السلام نفسه «۲».

وروى المعنى نفسه فى كتاب «أسباب النزول» للواحدى عن «جابر بن عبد اللّه»، وكذا عن «ابن عباس» «۳».

يقول المفسر الشهير «جاراللّه الزمخشرى» فى كتاب «الكشاف»: «إنّها نزلت فى

---

(۱) تفسیر در المنثور، ج ۲، ص ۲۹۳.

(۲) المصدر السابق.

(۳) أسباب النزول، ص ۱۴۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۴

علی علیه السلام حین سأله سائل وهو راکع فی صلاته فطرح له خاتمه» «۱»، وینقل الفخر الرازی فی تفسیره عن «عبد اللَّه بن سلام»: لما نزلت هذه الآیة، قلت: یارسول اللَّه أنا رأیت علیاً تصدق بخاتمه علی محتاج وهو راکع فنحن نتولاه

کما ویروی عن أبی ذر قوله: صلیت مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یوماً صلاة الظهر فسأل سائل فی المسجد فلم یعطه أحد فرفع السائل یده إلی السماء وقال: اللّهم اشهد أنی سألت فی مسجد رسول‌اللَّه صلی الله علیه و آله فما أعطانی أحد شیئاً، وعلی علیه السلام کان راکعاً فأومأ إلیه بخنصره الیمنی وکان فیها خاتم، فأقبل السائل حتی أخذ الخاتم بمرأی النبی صلی الله علیه و آله فقال: «اللّهم إنّ أخی موسی سألک فقال: رب اشرح لی صدری- وأشرکه فی أمری فأنزلت قرآنا ناطقاً «سنشدُّ عضدک بأخیک ونجعل لکما سلطاناً» فنزلت الآیة «۲».

وبطبیعة الحال فإنّ للفخر الرازی- وکالعادة- شبهات علی کیفیة دلالة هذه الآیة علی الإمامة حیث سنشیر إلیها لاحقاً.

ویروی الطبری أیضاً فی تفسیره روایات عدیدة فی ذیل هذه الآیة وسبب نزولها، إذ تفید أکثرها أنّ هذه الآیة نزلت بحق علی علیه السلام «۳».

وأوردت طائفة اخری هذه الروایة بعبارات مختلفة فی حق علی علیه السلام، منها فی کنز العمال ج ۶، ص ۳۱۹ حیث ینقل هذه الروایة عن ابن عباس.

کما ینقل «الحاکم الحسکانی» الحنفی النیشابوری من علماء القرن الخامس المعروفین فی «شواهد التنزیل» بخمسة طرق عن «ابن عباس»، واثنین عن «انس بن مالک»، ومثلهما عن «محمد بن الحنفیة»، وواحد عن «عطاء بن السائب»، ومثله عن «عبد الملک بن جریح المکی» عن النبی صلی الله علیه و آله آیة «إنّما ولیکم اللَّه» نزلت بحق علی علیه السلام عندما تصدق بخاتمه وهو راکع «۴».

---

(۱) تفسیر الکشاف، ج ۱، ص ۶۴۹.

(۲) تفسیر الکبیر، ج ۱۲، ص ۲۶.

(۳) تفسیر جامع البیان، ج ۶، ص ۱۸۶.

(۴) للمزید من الاطلاع علی الطرق المذکورة، راجعوا شواهد التنزیل ص ۱۶۱- ۱۶۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۵

ونقل المرحوم العلّامة الأمینی هذه الروایة ونزول هذه الآیة بحق علی علیه السلام عن کثیر من کتب السنّة فقارب العشرین کتاباً (مع ذکر دقیق لمصادرها ووثائقها)، وبإمکان الراغبین مراجعة ذلک الکتاب للمزید من الاطلاع «۱».

ونقل هذا المعنی فی کتاب احقاق الحق عن کثیر من الکتب «۲».

والأمر اللطیف الآخر هو أنّ شاعر الرسول صلی الله علیه و آله المعروف «حسان بن ثابت» أورد هذه القضیة فی شعره علی أنّها مسألة تاریخیة مُسلّم بها.

فهو یقول فی شعره مخاطباً علیاً علیه السلام:

وأنت الذی أعطیتَ إذ کنتَ راکعاًزکاةً فدتکَ النفس یاخیر راکعِ

فانزل فیک اللَّه خیر ولایةوَبیّنها فی محکمات الشرائعِ «۳»

ونقرأ فى القصيدة الاخرى التى رواها «سبط بن الجوزى» عن «حسان»:

منْ ذا بخاتمه تَصدَّقَ راكعاًواسرَّها فى نفسه اسرارا! «۴»

وموجز القول: إنّ نزول هذه الآية بحق على عليه السلام ليس بالأمر الذى يُشككُّ أو يرتاب فيه حتى أنّ مؤلف «منهاج البراعة فى شرح نهج البلاغة»، يقول: لقد نقلت روايات «متظافرة» بل متواترة عن طرق أهل السنّة وأتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام بهذا الصدد. والمهم هو تبيين كيفية دلالتها على الولاية وخلافة النبى صلى الله عليه و آله.

كيفية دلالة الآية على الخلافة:

لقد استند فى الآية المذكورة على مفهوم كلمة «الولى»، وذكر الإمام على عليه السلام على أنّه

---

(۱) الغدير، ج ۲، ص ۵۲ و ۵۳.

(۲) احقاق الحق، ج ۲، ص ۳۹۹- ۴۰۷.

(۳) روى شعر حسان بن ثابت فى كثير من الكتب باختلاف بسيط، منها فى تفسير روح المعانى، وكفاية الطالب للكنجى الشافعى وكتب اخرى

(۴) تذكرة الخواص، ص ۱۰، ونقله الكنجى الشافعى أيضاً فى كفاية الطالب ص ۱۲۳ وعد قائليه بعدة شعراء. نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۶

ولى المسلمين، صحيح أنّ لكلمة الولى معانِىَ عديدة كما أشرنا إليها آنفاً، فتارة تعنى الناصر والصديق، واخرى جاءت بمعنى المتصرّف والحاكم المشرف وكما يقول الراغب: إنّ أصلها بمعنى أن يحصل شيئان فصاعداً حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما ثم يضيف: «الولاية» بكسر الواو بمعنى «النصرة» و «الولاية» بفتح الواو تعنى تولى الأمر «۱».

أمّا القرينة الموجودة فى الآية فهى تدلّ على أنّ «الولى» هنا تعنى المتولى والمشرف وصاحب الخيار لأنّها لو كانت تعنى الناصر والصديق والمعين لشملت المؤمنين جميعاً، كما نقرأ فى الآية: «وَالمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ بَعضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». (التوبة/ ۷۱)

بَيدَ أنّ الولاية فى آية البحث اعتبرت منحصرة فى حالة خاصة بذلك المتصدق فى ركوعه، وكلمة «إنّما» التى تفيد الحصر جاءت معها (تأملوا جيداً).

إنّ هذا التعبير يجعلنا نتيقن بأنّ «الولاية» فى الآية الآنفة الذكر لا تعنى الصداقة والنصرة (وكذا سائر المعانى المشابهة والقريبة لهذا المعنى ، وعلى هذا الأساس فلا مجال إلّاأن تكون بمعنى المتولى وصاحب الأمر المشرف، الذى توازى ولايته ولاية اللّه والنبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

والآية التالية: «وَمَنْ يَتَولَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الغَالِبُونَ».

وحقيقة هذه الآية أنّها تتمّة لمضمون الآية المذكورة، وتلاحظ فيها قرينة اخرى على تفسير الولاية بمعنى تولى الأمر والاشراف، لأنّ التعبير ب «حزب اللّه» وانتصارهم على الأعداء يتعلق بإقامة حكومة إسلامية لا على أساس الصداقة العادية، وهذا يفيد أنّ كلمة الولى فى الآية تعنى المشرف والحاكم والماسك بزمام امور الإسلام والمسلمين، لانّ معنى «الحزب» هو ضربٌ من التنظيم والتضامن الاجتماعى من أجل تأمين اهداف مشتركة.

---

(۱) مفردات الراغب، مادة (ولى) وذكر البعض ۲۷ معنى للمولى (الغدير، ج ۱، ص ۳۶۲) إلّاأنّ اصول معانيها ذانك المعنيان والبقيّة ترجع إليهما.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۷

شبهات واعتراضات:

إنّ دلالة الآية على الإمامة والخلافة- كما رأينا- واضحةٌ، ولو كانت هذه الآية قد نزلت بحق الآخرين ربّما لم يجرِ حولها أَدنى جدال! ولكن لكونها قد نزلت بحق على عليه السلام ولا تنسجم مع الغاية الناشئة عن الطائفية، فقد أصر البعض على إيراد الشبهات على صدر الآية وذيلها وسبب نزولها ودلالتها من كل جانب.

ويمكن تصنيف هذه الشبهات إلى صنفين: فبعضها ذات صبغة علمية ظاهراً فيجب الرد عليها بصورة علمية، إلّاأنّ البعض يستند إلى ما يُستَشهدُ بهِ، وكذلك وجود المبررات حسب زعم مثيريها فينبغى أيضاً بحثها ونقدها بشكل إجمالى:

۱- الشبهة الاولى التى تعتبر من الصنف الأول هى أنّ الضمائر والأسماء الموصولة التى فى الآية جاءت بصيغة ضمير الجمع، مثل «الذين آمنوا» و «الذين يقيمون الصلاة» و «يوتون الزكاة» و «هم راكعون» فكيف والحالة هذه تنطبق على فردٍ واحدٍ.

فالآية تقول: إنّ أولياءكم هم الذين يتمتعون بهذه المزايا أى على بن أبى طالب عليه السلام.

والجواب: بالنظر إلى أن سبب نزول الآية الذى نقل بشكل مستفيض بل متواتر فى كتب الشيعة والسنّة لم يبق مجال للشكّ فى أنّها ناظرةٌ إلى شخص واحد، وبتعبير آخر: إنّ الروايات والتاريخ الإسلامى يشهد بأنّ التصدق على السائل فى حال الركوع يختص بعلى عليه السلام لأنّ القائم بالتصدّق واحد، ولم تقم به مجموعة، من هنا لابدّ من القول: إنّ التعبير بصيغة الجمع جاء من أجل احترام وتعظيم منزلة ذلك الشخص.

وكثيراً ما يُشاهد فى الأدب العربى أنّ لفظ الجمع جاء تعبيراً عن المفرد، فمثلًا جاءت كلمة «نسائنا» فى آية المباهلة بصورة الجمع، بينما المقصود منها فاطمة الزهراء عليها السلام فقط طبقاً لصريح سبب النزول، وفى نفس الآية جاءت كلمة «أنفسنا» بصيغة الجمع، والحال أنّ الجميع يسلّمون بأنّ لا أحد شارك فى المباهلة غير النبى صلى الله عليه و آله وعلى عليه السلام، وجاء فى القرآن أيضاً فى قصة «غزوة حمراء الأسد»: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» (آل عمران/ ۱۷۳)

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۸

وهنا ذكر الناطق بهذا الكلام كلمة «الناس» التى تفيد الجمع بينما جاء فى التاريخ أنّ القائل ليس سوى «نعيم بن مسعود».

وجاء أيضاً بشأن نزول الآية: «فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِم يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ...». (المائدة/ ۵۲)

إذ نعلم هنا أنّها نزلت بشأن «عبد اللّه بن أبى»، والحال أنّ الضمائر هنا جاءت بصيغة الجمع.

كما أنّ الخطاب فى الآية الاولى من سورة الممتحنة عامٌ بينما نزلت بشأن رجل يدعى «حاطب بن أبى بلتعة»، وفى الآية التالية جاء الضمير بصيغة الجمع أيضاً: «يَقُولُونَ لَئِنْ رَّجَعنا إِلَى المَدِينَة ...» بينما كان القائل هو «عبد اللّه بن أُبى». (المنافقون/ ۸)

وكذلك فى الآية: «الَّذِينَ يُنفقُونَ امَوَالَهُمْ بِالَّليلِ وَالنَّهَارِ». (البقرة/ ۲۷۴)

التى نزلت فى حق على عليه السلام طبقاً للكثير من الروايات، بينما ضمائرها جميعاً جاءت بصيغة الجميع.

وجاءت الآية ۲۱۵ من سورة البقرة المتعلقة بالسؤال عن الأشياء التى يجب أن ينفقوها:

«يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ» بصيغة الجمع بينما كان السائل هو شخص يدعى «عمرو بن الجموح» «۱».

ولكن ما السبب فى أن يأتى الكلام بصيغة الجمع فى هذه الحالات مع أنّ المراد شخص واحد؟ ربّما يكون سببه فى بعض الحالات، الاحترام، وفى بعضها إشارة إلى مؤازرة الآخرين لذلك الشخص، وبالتمعّن فى الحالات أعلاه يمكن تمييز حالات الاحترام عن حالات المؤازرة.

فضلًا عن كل ذلك فنحن نعلم أنّ ضمير الجمع «المتكلم مع الغير» قد استخدم فى آيات القرآن فى حالات لا حصر لها أثناء حديث اللَّه عن نفسه، مع أنّ ذاته المقدّسة لا نظير لها فى الوحدانية والتفرد، وهو «أحد واحد» من جميع الجوانب، وهذا مرده إلى أنّ العظيم يمتلك جنوداً مطيعين وممثلين لأوامره فى أداء ما يشاء، وهذا يؤدّى إلى استخدام ضمير الجمع مع

---

(۱) للمزيد من الاطلاع على مصادر هذه الروايات، يراجع التفسير الأمثل، ذيل الآية ۲۱۵ من سورة البقرة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۵۹

كونه مفرداً، وبتعبير آخر أنّ ضمير الجمع هذا دليلٌ على عظمته وسمو مقامه.

۳- الشبهة الثانيه هى أنّ من المُسلَّم به أنّ علياً عليه السلام لم تكن له ولاية بمعنى الحكم وقيادة المسلمين فى عصر النبى صلى الله عليه و آله، فكيف يتعين تفسير الآية هكذا؟ الجواب عن هذا السؤال واضح، فكثيراً ما شاهدنا خلال التعابير اليومية بأنّ يطلق اسم أو عنوان على أشخاص مرشحين أو منتخبين لذلك المنصب وإن لم يمارسوا العمل به بعد، أو بتعبير آخر: إنّهم يتمتعون بذلك المقام بالقوة لا بالفعل.

فمثلًا يقوم إنسان فى حياته بتعيين شخص ما «وصياً» له، وبالرغم من كونه حياً فإننانقول: إنّ فلاناً وصيّه أو القيّم على أطفاله.

فإطلاق الوصى والخليفة على على عليه السلام فى عهد النبى صلى الله عليه و آله كان من هذا القبيل أيضاً، حيث اختاره النبى صلى الله عليه و آله فى حياته لهذا الأمر بإذنٍ من اللَّه، وأثبت له الخلافة بعد رحيله.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً فى الآية الكريمة إذ يطلب زكريا من اللَّه تعالى «هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً». (مريم/ ۵)

واستجاب اللَّه له ووهبه يحيى ومن المسلم به أنّ يحيى لم يكن خليفته ووليه ووارثه فى حياته، بل عُيّنَ لما بعد حياته.

ويشاهد نظير هذا الكلام فى واقعة «يوم الانذار» (اليوم الذى جمع به النبى صلى الله عليه و آله أقرباءَه ليدعوهم إلى الإسلام للمرة الاولى ، فطبقاً لما ذكره «المؤرخون» الإسلاميون سواء من السنّة أو الشيعة، أنّ النبى صلى الله عليه و آله أومأ إلى على صلى الله عليه و آله فى ذلك اليوم وقال:

«إن هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له واطيعوه» «۱».

فهل يتسبب التعبير أعلاه فى خلق مشكلة فى عهد النبى صلى الله عليه و آله؟

فلا شكّ فى أنّ الجواب سيكون بالنفى، فالتعبير بالولى فى آية البحث هو كما أشرنا إليه.

أمّا شبهات الفريق الثانى (التبريرات) فهى عديدة أيضاً منها:

۱- قولهم: أى زكاة واجبة كانت متعلقة بذمة على عليه السلام وهو الذى لم يكن يجمع لنفسه

---

(۱) روى هذا الحديث الكثير من علماء السنّة مثل، ابن أبى جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه وأبى نعيم والبيهقى والثعلبى والطبرى، وأورد ابن الأثير هذا الكلام فى ج ۲ من كتاب الكامل، وكذلك «أبو الفداء» فى الجزء الأول من تاريخه، وجماعة آخرون (للمزيد من الاطلاع انتظروا البحوث الآتية).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۰

من مال الدنيا أى شىء؟ وإذا كان المراد الصدقة المستحبة فلا يقال لها زكاة؟

الجواب: أولًا: إنّ موارد إطلاق الزكاة فى القرآن الكريم على الزكاة المستحبة كثيرة، فكثيراً ماورد فى العديد من السور المكية اسم «الزكاة» والمراد منها الزكاة المستحبة، إذ إنّ وجوبها كان بعد هجرة النبى صلى الله عليه و آله إلى المدينة.

والآيات ۳ من سورة النمل، و ۳۹ من سورة هود، و ۴ من سورة لقمان من جملة الموارد التى جاءت فيها كلمة الزكاة، ونظراً لكون هذه

السور مكية فإنّ المراد هو الزكاة المستحبة.

ثانياً: صحيح أنّ علياً عليه السلام لم يدخر من مال الدنيا إلّاأنّه كانت تأتيه حصة من بيت المال، ومن المتيقن أنّه كان يمتلك وارداً بسيطاً من مجهوده أيضاً، وأنّ الخاتم المذكور من الفضة والظاهر أنّه كان رخيصاً، على هذا الأساس فإنّ تعلق هذا القدر من الزكاة البسيطة به عليه السلام ليس مستبعداً أبداً، وأنّ المبالغة بما قالوه بشأن قيمة ذلك الخاتم لا أساس لها من الصحة على الاطلاق.

ثالثاً: ألا يتعارض الانتباه إلى السائل مع حضور القلب فى الصلاة والاستغراق فى مناجاة الخالق جل وعلا مع القول السائد عنه: (حتى عرف بأنّ نصلًا وقع فى رجله فأخرجوه أثناء الصلاة ولم يُحسّ) «۱» فكيف يتسنى له الانتباه إلى السائل أثناء الصلاة؟!

الجواب: إنّ الذى يورد هذا الإشكال غافل عن سماع صوت السائل ومساعدته فما قام به علىٌّ عليه السلام لا يعتبر توجها إلى غير اللَّه، أو إلى الذات أو الامور الدنيوية، بل إنّه فى واقع الأمر توجّه إلى اللَّه.

فقد كان القلب المقدس لعلى عليه السلام يشعر بالسائلين، ويستجيب لندائهم فقد مزج عمله العبادى هذا بعبادة اخرى وتصدق أثناء الصلاة، وكلاهما كان للَّهوفى سبيله.

ومثل هذا الإشكال فى الحقيقة إشكال على القرآن الكريم، لأنّ اللَّه تعالى قد امتدح فى هذه الآية اعطاء الزكاة أثناء الركوع، ولو كان هذا العمل دليلًا على الغفلة عن ذكر اللَّه فلا ينبغى أن يستند إليها كصفة سامية وفائقة الأهميّة.

---

(۱) نص الرواية هكذا، روى أنّه وقع نصلٌ فى رجله فلم يُتَمكن من اخراجه فقالت فاطمة عليها السلام أخرجوه فى حال صلاته فإنّه لا يحسّ بما يجرى عليه حينئذٍ فأُخرج وهو فى صلاته (المحجة البيضاء، ج ۱، ص ۳۹۸- احقاق الحق، ج ۲، ص ۴۱۴).

فهؤلاء المتعصبون يريدون فى الواقع انكار فضل على عليه السلام فيُشكلون على اللَّه عزّ وجلّ.

انتبهوا هنا إلى كلام الرازى فهو يقول: «وهو أنّ اللائق بعلى عليه السلام أن يكون مستغرق القلب بذكر اللَّه حال ما يكون فى الصلاة، والظاهر أنّ من كان كذلك فانّه لا يتفرغ لاستماع كلام الغير ولفهمه» «۱».

علينا أن نسأل الفخر الرازى أن إذا كان هذا العمل خلافاً لآداب الصلاة وحضور القلب، فلماذا اثنى عليه البارى جلّ وعلا، واعتبر ولاية المؤمنين حقيقة بمثل هذا الشخص؟!

على أيّة حال، فلا مجال للشك فى أنّ سماع صوت المحتاج والاستجابة له فى حال الصلاة عبادة مضاعفة حصلت فى آن واحد، وعلينا أن نعوذ باللَّه من التعصب الذى يبعدنا عن الحقائق.

۳- ومن جملة التبريرات التى طرحت هنا بصيغة إشكال هو: إنّ التصدق بالخاتم على السائل فعل كثير ويتعارض مع الصلاة!.

ليس هناك ما يدعو للعجب، فعندما يريد الإنسان أن لا يذعن للواقع فإنّه يصطنع التبريرات ليحاجج بها، وهو على يقين بأنَّ تبريراته واهية؟!

والجواب: أولًا: إنّ عملية اخراج الخاتم تمّت باشارة بسيطة وعلى ضوء جميع الفتاوى فإنّ هذا العمل لايعتبر فعلًا كثيراً ولا يوجب الإشكال فى الصلاة، لا سيما إذا أشار الإمام عليه السلام إشارة بسيطة، والسائل اخرجه بنفسه.

ثانياً: لقد صرح الفقهاء بأنّ حتى قتل الحيوان اللادغ مثل «العقرب» أثناء الصلاة، أو رفع الطفل أثناء الصلاة، أو حساب عدد الركعات عن طريق الحصى، بل وحتى غسل جانب من اللباس أو اليد إذا تنجست أثناء الصلاة، لايضر بالصلاة، بينما يعتبر اعطاء الخاتم للسائل أو اخراجه أبسط من ذلك بكثير.

۴- يقول المبررون: من اين جاء على عليه السلام بذلك الخاتم النفيس؟ وألم يكن التختم به إسرافاً؟

---

(۱) التفسیر الکبیر، ج ۱۲، ص ۳۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۲

الجواب: من الـذی قال: إنَّ ذلک الخاتم کان نفیساً، ولماذا نصـغی ونصـدّق بمثل ذلک الهراء الفارغ، ونسـیر رویـداً رویداً نحو إنکار آیهٔ قرآنیهٔ؟

لقد ورد فی روایهٔ واحدهٔ مرسـلهٔ وضـعیفهٔ أنّ قیمهٔ ذلک الخاتم کانت تعادل خراج الشام! حیث من المسـلم به أنّها أکثر شِبهاً بالخرافهٔ لا بالحقیقهٔ، ولعلها جعلت من قبل الذین وضعوها بقصد التقلیل من قیمهٔ هذه الفضیلهٔ العظیمهٔ.

إنَّ فی مثل هـذه الحالات لیس المهم أن ینفق فیها بل المهم هو أنّ الإنسان نفسه محتاج إلی الشـیء ویغضُّ الطرف عنه فی سبیل اللَّه، ویکون هذا الفعل مقروناً بغایهٔ الاخلاص فی النیّهٔ.

فعنـدما تنزل سـورهٔ کاملـهٔ فی القرآن وهی (سـورهٔ هـل أتی بسـبب اعطـاء بضـعهٔ اقراص من الخبز (وفی حالـهٔ من الجـوع طبعاً) إلی المسکین والیتیم والأسیر فی سبیل اللَّه، فما العجب فی أن تنزل آیهٔ بشأن التصدق بخاتم علی فقیر أثناء الصلاهٔ.

وأمثال هذه الشبهات التی یؤدّی التطرق إلی ذکرها والرد علیها إلی ضیاع الوقت.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۳

۳- آیهٔ اولی الأمر

یقول تعالی فی الآیهٔ: «یَاایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا أَطِیعُوا اللَّهَ وَاطِیعُوا الرَّسُولَ وَأُولِی الامْرِ مِنکُمْ». (النساء/ ۵۹)

فی بحث الولایهٔ العامهٔ کان لنا کلام مفصل حول معنی هذه الآیهٔ ومن هم المقصودون فیها، وکما جرت الإشارهٔ إلیه فإنّ الأمر بالطاعهٔ المطلقهٔ ل «اولی الأمر» إلی جانب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله دلیل علی أنّ «اولی الأمر» تشمل الذین هم فی منزلهٔ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أی أوصیاؤه المعصومون، لأنّه من المتعذر الطاعهٔ المطلقهٔ لغیر المعصومین علیهم السلام.

وبالمناسـبهٔ فإنّ جمیع الاحتمالات التی قیلت فی تفسـیر «اولی الأمر» قد بحثت، ورأینا عدم وجود دلالهٔ ومعنی صـحیح لها إلّافی الإمام المعصوم.

إنّ ما یجب أن نضـیفه علی ذلک هنا- فی بحث الولایهٔ الخاصهٔ «خلافهٔ علی علیه السـلام»، وهو بحث أکثر تفصیلًا حول الروایات التی وردت فی المصادر الإسلامیهٔ المعروفهٔ (لاسیما مصادر أهل السنهٔ المشهورهٔ) فی دلالهٔ هذه الآیهٔ علی علی علیه السلام.

نقل المفسـر المعروف «الحاکم الحسـکانی» الحنفی النیشابوری خمسَ روایات فی ذیل هـذه الآیـهٔ حیث دلّت فیها جمیعاً صـفهٔ «اولی الأمر» علی علی علیه السلام (کمصداق جلی).

ففی الروایـهٔ الاـولی ینقـل عنه علیه السـلام لمـا قال رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله: شـرکائی الـذین قرنهم اللَّه بنفسه وبی وأنزل فیهم «یاأیّها الذین آمنوا اطیعوا اللَّه واطیعوا الرسول» الآیهٔ ... قلت: یانبی اللَّه من هم؟ قال: أنت أولهم «۱».

وفی الروایهٔ الثانیهٔ ینقل عن المفسر المعروف «مجاهد» أنّ هذه الآیهٔ نزلت بحق أمیر

---

(۱) سنذکر مصادر هذه الروایات عند الانتهاء من الروایات الخمس.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۴

المؤمنین علیه السلام حینما خلفه علی المدینهٔ (عندما توجه إلی معرکهٔ تبوک).

وفی الروایهٔ الثالثهٔ ینقل هذا المعنی عن أبی جعفر الباقر علیه السلام، وفی الروایهٔ الرابعهٔ ینقل عن «سعد بن أبی وقاص»، قوله: «لما نزل رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله لحقه علی علیه السـلام یحمل سلاحاً؛ فقال: یارسول اللَّه خلفتنی عنک ولم اتخلف عن غزوهٔ قبلها وقد

أرجف المنافقون بى أنّك خلفتنى لما استثقلتنى!!! قال سعد: فسمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله يقول: ياعلى أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبى بعدى فارجع اخلفنى فى أهلى وأهلك».

وروى عنهُ عليه السلام نفس هذا المعنى فى الرواية الخامسة «۱».

وفى تفسير «البحر المحيط» تأليف «أبو حيان الأندلسى المغربى» ومن بين مانقل حول معنى أولى الأمر، ينقل عن مقاتل وميمون والكلبى (وثلاثتهم من المفسرين): أنّ المراد منها امراء السرايا أو أئمة أهل البيت عليهم السلام «۲».

ثم آثار الموما إليه شبهتين على نزول الآية بحق على عليه السلام:

الاولى أنّ علياً عليه السلام كان واحداً، والحال أنّ «اولى الأمر» صيغة جمع.

والاخرى أنّ ظاهر هذه الآية هو أنّ الناس أمروا بأن يطيعوا اولى الأمر أثناء وجود رسول اللّه صلى الله عليه و آله بينما لم يكن على عليه السلام إماماً فى عهد رسول اللّه صلى الله عليه و آله «۳».

وكان قد طرح مايشابه هذه الشبهات والإشكالات فى آية الولاية، وقد تطرقنا إلى الاجابة عنها بوضوح هناك، فمن ناحية قلنا، كثيراً ما يعنى أشخاصاً وهم على قيد الحياة، ويقولون أو يكتبون: إنّ فلاناً وصيّ، وعليه أن يفعل كذا وكذا، وعلى أولادى اتباعه، ومعنى ذلك هو أن يتعهد القيام بهذه الأعمال بعد ممات الموصى له.

وإنّ قضية «الجمع» أيضاً كما قلنا لا تتسبب فى خلق مشكلة على الاطلاق، فكثيراً ما يطلق الجمع على المفرد فى القرآن وغيره من النثر والشعر، وفى الواقع أنّ «اولى الأمر» هنا تفيد الجمع وتشمل جميع الأئمّة المعصومين، وإن كان فى كل زمان إمام ومعصوم واحد، إلّا أنّهم سيكونون جمعاً فى النهاية.

---

(۱) هذه الأحاديث الخمسة أوردها صاحب شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۱۴۸- ۱۵۱.

(۲) البحر المحيط، ج ۳، ص ۲۷۸.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۷۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۵

للمزيد من التفصيل بصدد الرد على هذين الإشكالين راجعوا ذيل آية الولاية.

والجدير بالذكر هو أنّ فريقاً آخر نقل روايات فى شأن نزول هذه الآية غير «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» إذ يقولون: إنّها ناظرة إلى خلافة على عليه السلام. منهم العالم الشهير «أبو بكر بن المؤمن الشيرازى» الذى ينقل فى رسالة الاعتقاد (على ضوء نقل المناقب للكاشى) عن ابن عباس: إنّ الآية المذكورة نزلت بحق على عليه السلام عندما توجه الرسول الى غزوة تبوك وأبقى علياً فى المدينة، فقال له على عليه السلام: «أتخلفنى على النساء والصبيان؟»، فقال له الرسول صلى الله عليه و آله: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى حين قال: اخلفنى فى قومى واصلح، فقال عز وجل واولى الأمر منكم» «۱».

يروى صاحب كتاب «ينابيع المودة» الشيخ سليمان الحنفى القندوزى فى كتابه عن كتاب «المناقب» عن سليم بن قيس الهلالى: إنّ رجلًا جاء إلى على عليه السلام وسأله: أرنى أدنى ما يكون العبد مؤمناً، وأدنى مايكون به العبد كافراً، وأدنى ما يكون به العبد ضالًا؟ فقال له عليه السلام: «قد سألت فافهم الجواب ..... وأمّا أدنى ما يكون العبد به ضالًا أن لا يعرف حجّة اللّه تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذى أمر اللّه عزّ وجلّ عباده بطاعته وفرض ولايته»، قلت: ياأمير المؤمنين صفهم لى؟

قال: «الذين قرنهم اللّه تعالى بنفسه ونبيه فقال: «يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِى الْأَمرِ مِنْكُمْ»» «۲».

إنّ هذه الرواية شاهد على أنّ اولى الأمر حجج اللّه ووكلاؤه.

ووردت عشرات الروايات فى تفسير البرهان عن مصادر أهل البيت عليهم السلام فى ذيل الآية كلها تقول: إنّ الآية المذكورة نزلت

بحق على عليه السلام أو بحقه وسائر أئمّة أهل البيت عليهم السلام، بل وفى بعض هذه الروايات جاءت اسماء الأئمّة الاثنى عشر واحداً واحداً «۳».

---

(۱) احقاق الحق، ج ۳، ص ۴۲۵.

(۲) ينابيع المودة، ص ۱۱۶.

(۳) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۸۱- ۳۸۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۷

۴- آية الصادقين

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ». (التوبة/ ۱۱۹)

لقد تحدثنا عن تفسير هذه الآية بالتفصيل فى بحث الولاية العامة، وما يحتاج توضيح أكثر هنا هو شرح الروايات الكثيرة التى طبقت الآية على على عليه السلام أو جميع أهل البيت عليهم السلام فمثلًا:

۱- يروى المفسر المعروف «السيوطى» فى «الدر المنثور» عن ابن عباس فى تفسير الآية: «اتقوا اللَّه وكونوا مع الصادقين ...»، أنّه قال: «مع على بن أبى طالب عليه السلام».

ونقل شبيه هذا المعنى كل من «الخوارزمى» فى «المناقب»، و «الزرندى» فى «درر السمطين»، و «عبد اللَّه الشافعى» فى «المناقب»، و «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل»، مع فارق أنّ بعضها يعبر ب- «هو على بن أبى طالب»، وبعضها ب «على بن أبى طالب خاصة»، وبعض رواها «مع على وأصحاب على» «۱».

۲- يروى «الحافظ سليمان القندوزى الحنفى» فى «ينابيع المودة» عن سلمان الفارسى:

لمّا نزلت آية «ياايها الذين آمنوا اتقوا اللَّه وكونوا مع الصادقين»، قال سلمان: يارسول اللَّه هذه عامة أم خاصة؟

قال النبى صلى الله عليه و آله: «أمّا المأمورون فعامة الناس، وأمّا الصادقون فخاصة، أخى على وأوصياؤه من بعده إلى يوم القيامة» «۲».

۳- يروى «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» عن عبد اللَّه بن عمر فى ذيل عبارة

---

(۱) المناقب، ص ۱۸۹؛ درر السمطين، ص ۹۱؛ المناقب لعبد اللَّه الشافعى، ص ۱۵۴؛ شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۲۵۹.

(۲) ينابيع المودة، ص ۱۱۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۸

«وكونوا مع الصادقين» قوله: «يعنى محمداً وأهل بيته عليهم السلام» «۱».

۴- روى جماعة من كبار أهل السنّة مثل «العلّامة الحموينى» فى «فرائد السمطين» و «الشيخ أبو الحسن الكازرونى» فى «شرف النبى» عن أبى جعفر الباقر عليه السلام فى ذيل هذه الآية قوله: «مع آل محمد، أو مع محمد وآله، أو مع محمد وعلى» حيث إنّ معناها جميعاً متقارب «۲».

ولم يقتصر العظماء الذين نقلوا الرواية على الأشخاص الذين ذكرناهم.

وهذا الأمر يحظى بالأهميّة أيضاً حيث يأمر اللَّه تعالى المؤمنين أن يكونوا دوماً مع الصادقين، فهو حكم مطلق بلا قيد أو شرط، وهذا المعنى لايتحقق أبداً إلّابشأن المعصومين عليهم السلام، لأنّ غير المعصوم ربما يخطىء، وفى هذه الحالة فانَّ الشخص الذى يمكن الوقوف إلى جانبه واتباعه دائماً لن يكون إلّامن المعصومين، وعليه فالمراد من الصادقين فى هذه الآية ليس كل صادق، بل الصادقون

الذین لا سبیل للکذب إلیهم- لا عمداً ولا سهواً- مع هذا فالعجب من بعض مفسری أهل السنّة المعروفین کالآلوسی فی تفسیر روح المعانی مثلًا، فبعد ذکره لبعض الأخبار التی تفسر الصادقین فی هذه الآیة بعلی علیه السلام، یضیف: إنّ الشیعة قد استدلوا بها علی أحقیة علی علیه السلام، ثم یقول: إنّه استدلالٌ باطل ویمر منها بدون أن یأتی بدلیل واحد علی مزاعمه.

إنَّ مثل هذه المواقف تدلّ علی أنّه إلی أی حد یستطیع حجاب التعصب من الحیلولة دون اشعاع نور الفکر، ویسلب حریة التفکیر حتی من العلماء.

وفی المقابل یبرر اناس متحررو التفکیر کالدکتور محمد التیجانی الذی شخص طریقه فی ظل هذه الآیة والآیات المعنیّة، وأظهر إیمانه بعلی علیه السلام وسائر ائمة أهل البیت علیهم السلام بشجاعة فائقة، وألف کتاباً ظریفاً ولطیفاً للغایة فی هذا المجال اسماه (لاکون مع الصادقین)، وقد ترک هذا الکتاب أثراً عجیباً فی نفوس الکثیر من المسلمین.

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۲۶۲.

(۲) للمزید من الاطلاع، راجعوا احقاق الحق، ج ۱۴، ص ۲۷۴ و ۲۷۵؛ والغدیر، ج ۲، ص ۲۷۷؛ واحقاق الحق، ج ۳، ص ۲۹۶ ومابعدها، وج ۱۴، ص ۲۷۰- ۲۷۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۶۹

۵- آیة القربی

اشارة

یخاطب تعالی النبی صلی الله علیه و آله قائلًا فی الآیة: «قُلْ لَّاأَسأَلُکُم عَلَیهِ اجراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِی القُربَی . (الشوری/ ۲۳)

إنّ المراد من «القربی فی هذه الآیة، حسب ما قاله جمیع مفسری الشیعة وطائفة من مفسری السنّة: هم قرابة النبی صلی الله علیه و آله.

وفی قبال هذا التفسیر ذکرت احتمالات وتفاسیر اخری یبدو أنّ الدافع الحقیقی لها هو التقلیل من أهمیّة الإمامة وخلافة النبی صلی الله علیه و آله والاقلال من شأن أهل البیت علیهم السلام، منها التفاسیر الثلاثة الآتیة:

۱- المراد من اجر وثواب الرسالة هو حب الامور التی تدعوکم إلی القرب من اللّه، وعلیه فإنّ «القربی هی الامور التی تؤدی إلی القرب من اللّه تعالی ومن الواضح أنّ هذا التفسیر لایتلائم وظاهر الآیة علی الاطلاق، لأنّ المهم فیما یتعلق بالصلاة والصوم والجهاد ونحو ذلک من عوامل القرب الإلهی هو العمل بها لا مودتها ومحبتها، فالتعبیر بالمودة لا یتناسب وهذه القضیة بای شکل من الأشکال، إلّاأن یکون هنالک شخص بین مخاطبی النبی صلی الله علیه و آله لم یحب هذه الامور حتی الذین کانوا یقصرون فی عملهم منهم مَنْ کانوا یحبون هذه الامور بحکم تعلقهم باللّه والقرآن، وإن لم یکونوا یعملون.

فضلًا عن جمیع ذلک، ف «القربی تعنی: القرب والدنو لا- «المقرِّب»، لذا فإنّها جاءت فی جمیع الحالات التی استخدمت فیها هذه الکلمة فی القرآن الکریم (۱۵ مرة بالاضافة الی هذه الآیة التی هی مورد بحثنا) بمعنی الأشخاص الذین یتمتعون بالقرابة (وأساساً ذوی القربی النسبیة).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۰

فلماذا ولأی سبب تفسر آیة البحث خلافاً لجمیع حالات استعمال القرآن والمفهوم اللغوی لهذه الکلمة؟ هل هنالک دافع غیر ماأشیر إلیه آنفاً؟!

الجدير بالاهتمام أنّ الكثير من أرباب اللغة قد صرحوا بأنّ القربى أو ذى القربى تعنى قرابة النسب، فيقول صاحب مقاييس اللغة: فلان ذو قربتى، هو من يقرب منك رحماً، ثم يضيف: «القربى والقرابة» أى أنّ كلاهما بمعنى واحد وجاء فى لسان العرب، والقرابة والقربى الدنو فى النسب.

۲- وقال البعض الآخر: إنّ المقصود هو ايها المسلمون أحبّوا قرباكم كأجر للرسالة، والحال أنّ مودّة قرباهم لا علاقة لها بالرسالة.

عجبٌ، كيف تُتْرك محبّة قربى رسول اللّه صلى الله عليه و آله التى هى انسب معنى هنا، وتطرح مودة قرباهم على أنّها أجر الرسالة؟!

۳- وقال بعض من المفسرين: إنّ المقصود هو احفظوا قرابتى منكم كأجر للرسالة، وحيث إنّ لى قرابة سببية أو نسبية مع الكثير من قبائلكم فلا تؤذونى.

إنّ هذا التفسير هو اسوء تفسير لهذه الآية، لأنّ أجر الرسالة مطلوب من الذين تقبلوا رسالته فقط، ولا يعنى أولئك الذين يؤذون النبى صلى الله عليه و آله، وأمّا إذا كان المراد أعداؤه الذين يؤذونه، فأولئك لم يتقبلوا رسالته أبداً، ناهيك عن أجرهم واحسانهم! فكيف يمكن أن يقول إنّ أجرى أن لا تؤذونى لقرابتى منكم.

النقطة الأساسية فيما يخص الآية هى أنّ القرآن الكريم- من ناحية- ينقل عن الكثير من الأنبياء أنّهم كانوا يقولون بصريح القول «وَمَا أَسْأَلُكُم عَلَيهِ مِنْ أَجرٍ انْ أَجرِىَ إلَّاعَلَى رَبِّ العَالَمِينَ» «۱».

ومن ناحية اخرى تقول آية البحث فيما يتعلق بالنبى صلى الله عليه و آله: «قُلْ لَااسأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إلَّا المَوَدّةَ فِى القُربَى .

ومن ناحية ثالثة: نقرأ بشأن النبى صلى الله عليه و آله فى الآية: «قُلْ مَا أَسأَلُكُمْ عَلَيهِ مِنْ أَجرٍ إلَّامَنْ

---

(۱) بالتسلسل، الآية ۱۰۹ و ۱۲۷ و ۱۴۵ و ۱۶۴ و ۱۸۰ من سورة الشعراء.

شَاءَ انْ يَتَّخِذَ إلَى رَبِّهِ سَبِيلًا». (الفرقان/ ۵۷)

ومن ناحية رابعة جاء بشأن رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى الآية: «قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجرٍ فَهُوَ لَكُم إنْ أَجرِىَ إلَّاعَلَى اللَّهِ». (سبأ/ ۴۷)

من خلال جمع هذه الآيات الأربعة مع بعضها يمكن الاستنتاج جيداً أنّ النبى صلى الله عليه و آله شأنه شأن بقية الأنبياء لم يطلب أجراً لشخصه من الناس، بل إنّ فى مودة قرباه مرضاة اللّه، وهو امر يصب فى صالح هؤلاء تماماً، لأنّ هذه المودة نافذة فى الإمامة وخلافة النبى صلى الله عليه و آله واستمرار خط قيادة رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى الأمة، وهداية الناس فى ظلها (تأملوا جيداً).

نعم فحيثما فسرنا هذه الآيات الأربع بهذا الشكل لم تبق فيها نقطة غموض وتعقيد واشكال، وإلّا فسيشاهد تضاد فيما بينها من ناحية، ومن ناحية اخرى نضطر إلى تفاسير طويلة وعريضة لا تتلائم وظاهر الآيات بأى شكل من الأشكال.

ولكن بما أنّ هذا التفسير لا- يروق لبعض من المفسرين، لأنّه لايتفق مع حكمهم المسبق فقد تركوه، فتارة قالوا: إنّ طلب الأجر لا يتلائم ومقام النبى صلى الله عليه و آله، وعلى هذا الأساس فآية «إلَّا المَوَدَّةَ فِى القُربَى» يجب اعتبارها استثناءً منقطعاً، وتارة قالوا: إنّ هذه الآية لاتتفق بالآية: «قُل مَا اسأَلُكُم عَلَيهِ مِن اجرٍ وَمَا انَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ». (ص/ ۸۶)

وتارة يتورطون فى تبريرات معقدة.

إنّ هذه الحقيقة تتضح أكثر فيما لو رجعنا إلى الروايات الواردة عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله، فى شرح وتفسير هذه الآية ونضعها إلى جانب هذه الآيات.

من مجموع الروايات الواردة فى تفسير الآية نستنتج مايلى:

لا شك أنّ أيّة البحث ناظرة إلى قضية الإمامة والخلافة حيث يمكن اعتبارها أجراً للرسالة، الأجر الذى يقرب الناس إلى اللّه، وتعود فائدته إليهم.

وممّا قیل آنفا یتضح الرد علی بعض المفسرین الذین طالما یتخذون موقفاً ملؤه العصبیة ازاء الآیات المتعلقة بالإمامة.

یقول «الآلوسی» فی «روح المعانی» فی تفسیر هذه الآیة:

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۲

«علی کرم اللّه وجهه واجب المحبّة وکل واجب المحبّة واجب الطاعة وکل واجب الطاعة صاحب الإمامة وینتج علی رضی اللّه تعالی عنه صاحب الإمامة وجعلوا الآیة دلیل صغری «۱».

ولکن کما فهم من البحوث الآنفة فنحن لا نرید أبداً استغلال هذه الآیة من خلال الصغری والکبری الواهیتین، والأمر المهم فی الآیة شیء آخر وهو أنّ مودة ذوی القربی عدّت أجراً للرسالة، وفی الآیات الأخری ذکر الاجر المذکور علی أنّه وسیلة للتقرب من اللّه وفی صالح الناس، ومن مجموع ذلک تتضح مسألة الإمامة والخلافة بالتفصیل الذی ورد أعلاه، وأحادیث النبی صلی الله علیه و آله التی یشار إلیها سند لهذا الاستدلال.

آیة القربی فی الروایات الإسلامیة:

نقلت روایات کثیرة فی مصادر السنّة والشیعة فی ذیل هذه الآیة: «قُلْ لَاأَسْأَلُکُمْ عَلَیهِ أَجْراً إِلَّا الْمَودَّةَ فِی الْقُربی حیث لها تأثیر کبیر فی تفسیر وتبیین مفهوم الآیة، من جملتها الروایات الآتیة:

ینقل «الحاکم الحسکانی» وهو من مشاهیر علماء القرن الخامس الهجری فی «شواهد التنزیل» عن «سعید بن جبیر» عن «ابن عباس» مایلی:

«لمّا نزلت قل لا أسألکم علیه أجراً إلّاالمودة فی القربی قالوا: یارسول اللّه من هؤلاء القربی الذین أمرنا اللّه بمودتهم؟ قال: علی وفاطمة وولدهما» «۲».

ورویت فی الکتاب نفسه عدّة روایات اخری بهذا المضمون بطرق مختلفة عن ابن عباس «۳».

۲- وفی روایة اخری فی الکتاب نفسه یروی عن أبی امامة الباهلی أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال:

---

(۱) تفسیر روح المعانی، ج ۲۵، ص ۳۰.

(۲) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۱۳۰.

(۳) المصدر السابق، ص ۱۳۱- ۱۳۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۳

«إنّ اللّه خلق الأنبیاء من أشجار شتی وخلقت وعلی من شجرة واحدة، فأنا أصلها وعلی فرعها، وفاطمة لقاحها والحسن والحسین ثمارها وأشیاعنا أوراقها فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ومن زاغ هوی ولو أنّ عبداً عبد اللّه بین الصفا والمروة ألف عام، ثم ألف عام، ثم ألف عام، حتی یصیر کالشنّ الیابس، ثم لم یدرک محبتنا أکبّه اللّه علی منخریه فی النار. ثم قرأ: «قل لا أسألکُم علیه أجراً إلّاالمودة فی القربی «۱».

۳- یروی «السیوطی» المفسر السنّی الشهیر فی الدر المنثور فی ذیل آیة البحث عن مجاهد عن ابن عباس أنّ النبی صلی الله علیه و آله قال فی تفسیر الآیة: «قل لا أسألکم علیه أجراً- أنّ تحفظونی فی أهل بیتی وتودوهم بی» «۲».

۴- یروی «أحمد بن حنبل فی «فضائل الصحابة» عن «سعید بن جبیر»: لما نزلت آیة «قل لا أسألکم علیه أجراً إلّاالمودة فی القربی ، سأل القوم رسول اللّه: من هم قرباک الذین وجبت مودتهم علینا؟ قال: «علی وفاطمة وابناهما وقالها ثلاثاً» «۳».

ونقل القرطبی المعنی نفسه فی تفسیر الآیة بشیء من الاختلاف عن سعید بن جبیر عن ابن عباس.

۵- یروی «الحافظ أبو نعیم الاصفهانی» فی «حلیة الأولیاء» عن «جابر»: أنّ أعرابیاً جاء لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله وقال: یامحمد أعرض علیّ الإسلام، فقال: «تشهد أن لا إله إلّااللَّه وحده لا شریک له وأنّ محمداً عبده ورسوله، قال تسألنی علیه أجراً؟ قال: لا، إلّاالمودة فی القربی قال: قربای أو قرباک؟ قال: قربای، قال: هات ابایعک، فعلی من لا یحبّک ولا یحب قرباک لعنة اللَّه، قال صلی الله علیه و آله: آمین» «۴».

۶- ویروی المفسر المعروف «ابن جریر الطبری» أیضاً فی ذیل هذه الآیة عن ابن جبیر أنّه قال: «هی قربی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله».

---

(۱) شواهد التنزیل، ص ۱۴۱.

(۲) تفسیر در المنثور، ج ۶، ص ۷.

(۳) احقاق الحق، ج ۳، ص ۲.

(۴) حلیة الأولیاء، ج ۳، ص ۲۰۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۴

۷- یروی «الحاکم» فی «مستدرک الصحیحین» عن علی بن الحسین علیه السلام لمّا قتل علی علیه السلام خطب الحسن بن علی علیه السلام: «وممّا قاله فی خطبته أنّه عرف نفسه حتی بلغ هذه العبارة): إنا من أهل البیت الذین افترض اللَّه مودتهم علی کل مسلم فقال تبارک تعالی لنبیه صلی الله علیه و آله: قل لا اسألکم علیه أجراً إلّاالمودة فی القربی «۱».

کما نقل هذه الروایة فریقٌ من مشاهیر أهل السنّة، منهم محبّ الدین الطبری فی الذخائر (ص ۱۳۸) وابن حجر فی صواعقه الصفحة ۱۰۱، والسیوطی فی الدر المنثور ذیل آیة البحث.

۸- یروی المفسر المعروف أبو جعفر محمد بن جریر الطبری فی جامع البیان عن أبی الدیلم:

لما جیء بعلی بن الحسین علیه السلام أسیراً إلی الشام فاوقفوه عند باب دمشق، فقام رجل من أهل الشام وقال: الحمد للَّهالذی قتلکم واستأصلکم وقطع قرنی الفتنة، فقال له علی بن الحسین علیه السلام: أَقرأت القرآن یاشیخ؟ قال: نعم، فقال علیه السلام أقرات حم؟ قال: قرأتُ القرآن ولکن لم أقرء آل حم، قال علیه السلام أما قرأت: «قل لا أسألکم علیة أجراً إلّاالمورة فی القربی ، فقال: وإنّکم لأنتم هم؟ قال علیه السلام: «نعم!» «۲».

۹- یروی «ابن حجر» فی «الصواعق المحرقة» عن علی علیه السلام أنّه قال: «فینا آل حم آیة، لا یحفظ مودتنا إلّاکل مؤمن ثمّ قرأ: قل لا أسألکم علیه أجراً إلّاالمودّة فی القربی «۳».

وورد نظیر هذا المعنی أیضاً فی کنز العمال «۴».

و یستفاد جیداً من هذه الروایة أنّ المراد من «القربی فی آیة البحث هم قربی الرسول صلی الله علیه و آله.

والمقصود من آل حم مجموعة السور التی جاءت حم فی مطلعها وهی عبارة عن السور

---

(۱) مستدرک الصحیحین، ج ۳، ص ۱۷۲.

(۲) تفسیر جامع البیان، ج ۲۵، ص ۱۶.

(۳) الصواعق المحرقة، ص ۱۰۱.

(۴) کنز العمال، ج ۱، ص ۱۱۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۵

السبع التالية: المؤمن، فصلت، الشورى الزخرف، الدخان، الجاثية والاحقاف، وآية البحث فى واحدة منها «۱».

۱۰- نقل الزمخشرى فى الكشاف، وكذا الفخر الرازى فى التفسير الكبير، والقرطبى فى تفسيره حديثاً عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ذيل هذه الآية الكريمة تكشف عن أهميّة مودة آل محمد صلى الله عليه و آله بنحو مدهش، ونحن هنا ننقل نصّ الحديث عن تفسير الكشاف، إذ يقول: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ مات على حب آل محمّد مات شهيداً- ألا ومَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله مات مغفوراً له، ألا ومَنْ مات على حبّ آل محمّدٍ مات تائباً، أَلا ومَنْ مات على حبّ آل محمّد صلى الله عليه و آله مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله بشّرهُ مَلَك الموت بالجنّة ثم مُنكر ونكير، ألا وَمَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله يزف إلى الجنّة كما تُزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله فُتح له فى قبره بابان إلى الجنّة، ألا ومَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله جعل اللَّه قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومَنْ مات على حب آل محمّد صلى الله عليه و آله مات على السنّة والجماعة، ألا «۲» ومَنْ مات على بغض آل محمّد صلى الله عليه و آله جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه آيس من رحمة اللَّه، ألا ومَنْ مات على بغض آل محمّد صلى الله عليه و آله مات كافراً، ألا ومَنْ مات على بغض آل محمّد لم يشم رائحة الجنة».

والمدهش أنّه جاء فى بعض حواشى تفسير الكشاف التى دونت من قبل بعض المتعصبين بعد نقل هذا الحديث الشريف: وآثار الوضع عليه لائحة!.

ولكن ما الدليل على مجعوليته وفى أى موضع من هذا الحديث يلوح أثر هذا الجعل؟ لم يوضّح ذلك، سوى أنّ عظمة شأن آل محمّد صلى الله عليه و آله التى تمّ بيانها فى هذا الحديث النبوى الشريف لاتتفق والحكم المسبق للبعض، ولعلهم كانوا يرون عظمة آل محمّد صلى الله عليه و آله للمرة الاولى بهذا المستوى الراقى فى هذا الحديث النبوى الشريف، وقد نقل ذلك الحديث القديم

---

(۱) يراجع هامش تفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۵۱۲ مطلع سورة المؤمن.

(۲) تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۲۲۰ و ۲۲۱؛ تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۶۵ و ۱۶۶؛ تفسير القرطبى، ج ۸، ص ۵۸۴۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۶

ثلاثة من كبار المفسرين الذين يعتقدون به وتقبلوه بقبول حسن ولم يوردوا عليه مؤاخذه.

هذا فى الوقت الذى يقول الفخر الرازى فى ذيل هذا الحديث: وإن كان فى معنى «آل» جدل واختلاف، ولكن «لا شك أنّ فاطمة وعلياً والحسن والحسين كان التعلّق بينهم وبين رسول اللَّه أشدّ التعلقات وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل».

ويقيم «الفخر الرازى» أيضاً شواهد وقرائن كثيرة على هذا المعنى بأنّ علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام داخلون فى هذه الآية «۱».

يتبيّن ممّا قيل آنفاً أنّ بعض الروايات التى نقلت فى ذيل هذه الآية والتى تقول: «إنّ المخاطب فيها هم كفار قريش، والمراد هو أن لا تنسوا قرابتى منكم ولاتؤذونى لقرابتى منكم» لايمكن قبولها، ويحتمل أنّ وُضّاع الحديث قد نقلوا مثل هذا الأمر، للتقليل من أهميّة منزلة أهل البيت عليهم السلام، لأنّ مثل هذا الخطاب لكفار قريش يتعارض تماماً مع مفهوم الآية، فمن المستحيل أن يقول النبى صلى الله عليه و آله لهم لا أسألكم أجراً سوى أن لا تنسوا قرابتى منكم وهم غير موقنين أطلاقاً برسالة النبى صلى الله عليه و آله فضلًا عن رغبتهم فى اعطائه الأجر.

خلاصة القول، إنّ أولئك الذين تمسكوا بهذه الرواية ولكنهم يقطعون علاقة الآية بأهل البيت عليهم السلام هم فى الحقيقة ينكرون مضمون الآية لأنّ طلب أجر الرسالة من منكريها فارغ عن المعنى تماماً.

ونختتم هـذا البحث بأبيـات من الشـعر حيث ذكرهـا الفخر الرازى والآلوسـى فى «التفسـير الكبير» و «روح المعـانى» فى ذيل هـذه الآية ليكون ختاماً مباركاً لهذا البحث ويكون «ختامه مسك».

وهذا الشعر صادر عن الإمام الشافعى المعروف باعتقاده الراسخ بأهل البيت عليهم السلام إذ يقول:

يا راكباً قف بالُمحصب من منىواهتف بساكن خيفها والناهض

سَحراً إذا فاض الحجيج إلى مِنىفيضاً كَمُلْتَطَمِ الفرات الفائضِ

---

(۱) للمزيد من الاطلاع راجعوا تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۶۶ و ۱۶۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۷ إن كان رفضاً حبُّ آل محمّدٍفليشهد الثقلان انّى رافضى «۱»

جعلنا اللّه من محبى آل محمّـد صـلى الله عليه و آله الـذين نصـلى عليهم فى صـلاتنا وبـدون ذلك لا تقبل صـلاتنا، اللّهم اجعل هـذه المحبّـة مقدّمـة لمعرفـة «مقام ولايتهم» كى لانتصور أنّ قضـية بهـذه الأهميّـة طرحت على أنّها مودة عادية، ثم اجعل هذه المعرفة سبيلًا لاتباع مذهبهم.

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۲۷، ص ۱۶۶؛ و تفسير روح المعانى، ج ۲۵، ص ۳۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۷۹

القسم الثانى: آيات الفضائل

تمهيد:

كما أسـلفنا سابقاً، أننا فى هذه البحوث لانتقصى الآيات القرآنية التى تحدثت، مباشرة عن قضية الخلافة والولاية، بل نبحث فى الآيات التى ورد فيها ذكر لفضائل على بن أبى طالب عليه السـلام والتى بمجموعها توضح زوايا هذه القضية لمن فاتهم الاطلاع عليها، وجميع هـذه الآيات تشير إلى أن أمر الإمام على عليه السـلام مستثنىً عن الآخرين، ومع وجود على بن أبى طالب فى هـذه الأمـة فإنّ الإمامة والخلافة لاتناط أمورها بغيره.

بعبـارة اخرى إنَّ مـن خلاـل حـوار بيـن الإنسـان وعقلـه يمكن اسـتنتاج مسألـة الإمامـة والخلافـة منهـا، وهى: إنّ اللّه الحكيم لاـ يجعل «المفضول» حاكماً وقائـداً على الأفضل، بل وحتى عقلاء الدنيا فإنّهم يوجهون اللوم والتأنيب لمن يقوم بعمل كهذا، ويعتبرون فعله هذا دليلًا على ضعف إدارته وعدم تدبيره لأنّه جعل الأفضل تابعاً لمن هو أدنى منه.

إنّ هذه الآيات من الكثرة بحيث إنّ بعض العلماء ألّفوا كتباً مستقلة بهذه المسألة، إلّاأننا اخترنا من بينها آية تضم مفاهيم واضحة، كما أنّها تنسجم واختصار الكتاب.

وهنا نتجه نحو المصادر المعروفة لدى أهل السنة ونختزل الكلام عما ورد فى مصادر أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام لئلا يتصور أحد أنّ أتباع هذا المذهب قد نطقوا بشىء بدافع التعصب.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الآيات كثيرة، وقد اخترنا منها ۲۴ آية.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۱

۱- آية المباهلة

اشارة

«فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَکَ مِنَ العِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ابْنَاءَنَا وَابْنَاءَکُم وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَکُم وَانْفُسَنَا وَانْفُسَکُم ثَمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلی الْکَذِبِینَ». (آل عمران/ ۶۱)

هنا ینبغی توضیح بعض الامور:

اولًا: مضمون الآیة.

ثانیاً: من الذین ذکرتهم الروایات التی جاءت فی المصادر الإسلامیة المعروفة فی تفسیر هذه الآیة؟

ثالثاً: کیفیة الاستدلال بهذه الآیة علی أفضلیة علی وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام.

رابعاً: الرد علی بعض الشبهات فیما یتعلق بهذه الآیة.

مضمون آیة المباهلة:

تـدلُّ الآیـة أعلاه بالإضافـة إلی الآیـات التی نزلت قبلها وبعـدها أنّ النبی صـلی الله علیه و آله یُؤْمَر فی مواجهـة اصـرار النصاری علی التمسک بعقائدهم المحرفة کزعمهم بأُلوهیة عیسـی علیه السـلام مثلًا، وعدم جدوی المنطق والاسـتدلال ازاء عنادهم، فکان لابدّ للنبی علیه السـلام من التضرع وأن یسلک طریق المباهلة، ویثبت صدق کلامه من خلال هذا الطریق المعنوی، أی‌یباهلهم لیتبین الصّادق من الکاذب!

والمباهلـة فی الأصـل من مادة «بهلْ» علی وزن (أهلْ) وتعنی الترک، من هنا فعنـدما یترکون الحیوان لحاله ولا یلفون ثـدایاه فی کیس خاص- لمنع ولیده من الرضاعة- یقولون

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۲

له: «باهل»، و «الابتهال» فی الدعاء تعنی التضرع وایکال الأمر إلی اللَّه تعالی

وتارة فسـروا هـذه الکلمة بمعنی «الهلاک واللعن والطرد من اللَّه»، وذلک أیضاً بسـبب ترک العبد وایکاله إلی نفسه والخروج عن ظل لطف اللَّه سبحانه.

هـذا الرأی هو الأصل اللغوی، أمّا من ناحیـة «المفهوم المتـداول» الـذی أشـیر إلیه فی الآیـة، فالمباهلـة الملاعنـة بین شخصـین، من هنا فعنـدما لاتجـدی الاسـتدلالات المنطقیـة، ویجتمع الذین یدور بینهم جدول بشأن مسألة دینیة مهمّة ویتضـرعون إلی اللَّه سائلین منه أن یفضح الکاذب ویعاقبه، وهو مافعله النبی صلی الله علیه و آله فی مواجهة نصاری نجران، حیث اشیر إلیه فی الآیة.

ومن خلال ماذکر نلقی نظرة علی تفسیر هذه الآیة:

«فَمَنْ حَاجَّکَ فِیهِ مِنْ بَعدِ مَاجَاءَکَ مِنَ العِلمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ ابنَاءَنَا وَابنَاءَکُم وَنسَاءَنَا وَنسَاءَکُم وَانْفُسِنا وَانْفُسَکُم ثُمَّ نَبتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَی الکَذِبِینَ».

لاـ شـک أنّ هـذه الواقعـة التاریخیـة قـد حصـلت ولم یسـتطع أحـد انکارهـا، ومفادها: أنّ النبی الأکرم صـلی الله علیه و آله اختار نفراً واصطحبهم معه للمباهلة.

جاء فی الروایات الإسـلامیة التی نقلها المفسرون والمحدثون: لما نزلت الآیة أعلاه اقترح النبی صلی الله علیه و آله علی نصاری نجران المباهلة، فطلب زعماء النصاری من النبی صلی الله علیه و آله مهلة یوم واحد لیتشاوروا فی الأمر، فقال لهم حبرهم:

«انظروا محمّـداً فی غـدٍ فإن غـدا بولـده وأهله فاحذروا مباهلته، وإن غدا بأصـحابه فباهلوه فإنّه علی غیر شـیء فلما کان الغد جاء النبی

صلى الله عليه و آله آخذاً بيد على والحسن والحسين بين يديه يمشيان وفاطمة تمشى خلفه، وخرج النصارى يقدمهم أسقفهم، فلما رأى النبى صلى الله عليه و آله قد أقبل بمن معه سأل عنهم فقيل له: هذا ابن عمه وزوج ابنته وأحب الخلق إليه، وهذان ابنا بنته من على عليه السلام، وهذه الجارية بنته فاطمة أعزّ الناس عليه وأقربهم إلى قلبه، وتقدم رسول اللّه فجثا على ركبتيه قال الأسقف جثا واللّه كما جثا الأنبياء للمباهلة، فرجع ولم

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۳

يقدم على المباهلة، فقال الأسقف: ياأبا القاسم إنا لا نباهلك ولكن نصالحك» «۱».

وجاء هذا المضمون أيضاً باختلافات طفيفة لا تضر بأصل القضية فى الكثير من التفاسير الاخرى مثل تفسير الفخر الرازى (ج ۸، ص ۱۰)؛ والقرطبى (ج ۲، ص ۱۳۴۶)؛ وروح البيان (ج ۲، ص ۴۴)؛ وروح المعانى (ج ۳، ص ۱۸۸)؛ والبحر المحيط (ج ۲، ص ۴۷۲)؛ وتفسير البيضاوى (ذيل آية البحث) وتفاسير آخرى

والآن لنرى كتب الحديث، ماذا تقول:

المباهلة فى أقوال المحدثين:

وردت روايات كثيرة تعد موثوقة ومعتبرة فى مصادر أهل السنّة ومصادر أهل البيت عليهم السلام حيث تفيد بصريح القول: إنّ آية المباهلة نزلت بحق على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. منها:

۱- روى فى صحيح مسلم فى كتاب «فضائل الصحابة» فى باب فضائل على بن أبى طالب عليه السلام عن سعد بن أبى وقاص أنّ معاوية قال لسعد: ما منعك أن تسب أبا تراب؟ قال:

أما ما ذكرت ثلاثاً قالهن له رسول اللّه صلى الله عليه و آله فلن أسبّهُ لئن تكون لى واحدة منها لكانت أحبّ الى من حمر النعم، ثم أخذ يذكر قصة حديث المنزلة فى (معركة تبوك) وقصة اعطاء الراية لعلى عليه السلام أبان معركة خيبر، ثم يضيف: ولما نزلت هذه الآية «قل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم» دعا رسول اللّه صلى الله عليه و آله علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً فقال: اللّهم هؤلاء أهلى «۲».

روى هذا الحديث جماعة آخرون من عظماء أهل السنّة مثل! الترمذى فى صحيحه «۳».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۴۵۲ مع شىء من الاختصار.

(۲) صحيح مسلم، ج ۴، ص ۱۸۷۱، ح ۳۲، الباب ۴.

(۳) صحيح الترمذى، ج ۵، ص ۶۳۸، ح ۳۷۳۲ (الباب ۲۱ باب مناقب على عليه السلام).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۴

فبعد نقله يضيف. يقول أبو عيسى إنّه حديث حسن وصحيح وغريب (لعل غرابته تكمن فى عدم اتفاقه مع حكمه المسبق الملىء بالتعصب).

وأحمد بن حنبل فى مسنده «۱».

والبيهقى فى السنن الكبرى «۲».

والسيوطى فى الدر المنثور «۳».

۲- وفى موضع آخر من صحيح الترمذى أيضاً نقل الحديث عن سعد بن أبى وقاص: إنّه لما نزلت آية المباهلة دعا النبى صلى الله عليه و آله علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام وقال: اللّهم هؤلاء أهلى «۴».

والروایة نفسها نقلها الحاکم فی «مستدرک الصحیحین»، وأخیراً یقول: هذا حدیث صحیح موافق لمعاییر الشیخین «۵».

کما نقله البیهقی أیضاً فی السنن الکبری «۶».

۳- یروی السیوطی فی «الدر المنثور» عن «الحاکم»، و «ابن مردویه» و «أبو نعیم» فی «الدلائل»، عن «جابر بن عبد اللّه الأنصاری»: لما عزم النبی صلی الله علیه و آله علی مباهلة النصاری أخذ فی الیوم التالی بید علی وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام واتی بهم إلی المباهله، لکنهم لم یباهلوا، ثم یضیف جابر: إنّ آیة «تعالوا ندع ابناءنا وابناءکم ...» نزلت بحق هؤلاء «۷».

یقول السیوطی: هذا حدیث صحیح لدی «الحاکم».

۴- ویروی عن ابن عباس فی کتاب الدر المنثور نفسه أنّ وفد نصاری نجران جاء إلی النبی صلی الله علیه و آله وبعد تفصیله لقصة المباهلة ورجوع نصاری نجران یضیف: کان هذا لما خرج النبی صلی الله علیه و آله وکان معه علی وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام وقال لهم: إن دعوت أنا فأمنوا أنتم، فأبوا أن یلاعنوه وصالحوه علی الجزیة.

---

(۱) مسند أحمد بن حنبل، ج ۱، ص ۱۸۵.

(۲) السنن الکبری طبقاً لنقل الفضائل الخمسة، ح ۱، ص ۲۹۱.

(۳) تفسیر در المنثور، ذیل الآیة ۶۱ من سورة آل عمران.

(۴) صحیح الترمذی، ج ۵، ص ۲۲۵ (الباب ۴، ح ۲۹۹۹).

(۵) مستدرک الصحیحین، ج ۳، ص ۱۵۰.

(۶) السنن الکبری ج ۷، ص ۶۳.

(۷) تفسیر در المنثور، ج ۲ ص ۳۸ ذیل آیة البحث (مع الاختصار).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۵

۵- وفی نفس الکتاب یروی عن «ابن جریر» عن «العلباء بن أحمر الیشکری»، عندما «۱» نزلت آیة قل تعالوا ندعُ ابناءنا ... ودعا النبی صلی الله علیه و آله بعلی وفاطمة وابنیهما الحسن والحسین علیهم السلام واقترح علی المخالفین المباهلة فأبوا «۲».

۶- یروی العلّامة الطبری فی تفسیره وبسنده عن «زید بن علی» فی تفسیر هذه الآیة: کان النبی وعلی وفاطمة والحسن والحسین «۳».

۷- ویروی فی نفس الکتاب أیضاً بسنده عن السدیّ فی ذیل هذه الآیة: أخذ النبی بید الحسن والحسین وفاطمة وقال لعلی اتبعنا «۴».

۸- یقول العلّامة «أبو بکر الحصاص» وهو من علماء القرن الرابع الهجری فی کتاب «أحکام القرآن» فی تعبیر مفید بصدد المباهلة: أنّ رواة السیر ونَقلةَ الأثر لم یختلفوا فی أنّ النبی صلی الله علیه و آله أخذ بید الحسن والحسین وعلی وفاطمة علیهم السلام ودعا النصاری الذین حاجّوه إلی المباهلة «۵».

وعلی ضوء قول الجصاص فإنّ هذه القضیة محل إجماع واتفاق علماء الحدیث والتاریخ جمیعاً.

۹- یقول هذا العالم نفسه فی کتاب آخر تحت عنوان «معرفة علوم الحدیث» بعد ذکره لقصة المباهلة: قال الحاکم وقد تواترت الأخبار فی التفاسیر عن عبد اللّه بن عباس وغیره إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أخذ یوم المباهلة بید علیّ وحسنٍ وحسینٍ وجعلوا فاطمة وراءهم ثم قال:

هؤلاء أبناؤنا وأنفسنا ونساؤنا «۶».

هذا جانبٌ فقط من الروایات المتعلقة بقصة المباهلة ونزولها بحق هؤلاء، ومن الطبیعی أنّ اختلاف هذه الأحادیث فی بعض الجزئیات مثل إن کانت فاطمة مع النبی صلی الله علیه و آله أم أنّها

---

(۱) تفسیر در المنثور، ج ۲، ص ۳۹.

(۲) المصدر السابق.

(۳) تفسیر جامع البیان، ج ۳، ص ۱۹۲ (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ۳، ص ۴۷).

(۴) المصدر السابق.

(۵) أحکام القرآن للجصاص، ج ۳، ص ۱۴.

(۶) معرفة علوم الحدیث، ص ۵۰، (وفقاً لنقل احقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۶

جاءت خلفه، أم أنّ علیاً علیه السلام کان إلی جانب النبی صلی الله علیه و آله أم خلفه، لا- یترک أثراً علی أصل القضیة، لأنَّ ثمّة اختلاف فی نقل جزئیات وفروع ومتعلقات الکثیر من الوقائع التاریخیة المسلم بها، مثل معرکة بدر، وخیبر، والأحزاب، وفتح مکة، ومن النادر أن نستطیع العثور علی واقعةٍ تاریخیة مهمّة تخلو من هذه الاختلافات فی مثل هذه الامور الثانویة.

علی أیّة حال فالروایات المذکورة وبشهادة جماعة من عظماء أهل السنة کثیرةٌ ومشهورة بحیث وصلت إلی حدّ التواتر، مع هذا فإنّ من العجب أن یقول صاحب تفسیر المنار فی ذیل هذه الآیة: قال الاستاذ الإمام: الروایات متفقة علی أنّ النبی صلی الله علیه و آله اختار للمباهلة علیاً وفاطمة وولدیهما ویحملون کلمة (نساءنا) علی فاطمة، وکلمة (أنفسنا) علی علی علیه السلام فقط، ومصادر هذه الروایات الشیعة! ومقصدهم منها معروفٌ «۱».

وإنّه لمدهشٌ حقاً، فعندما تترکز قاعدة الحکم المسبق والتعصبات الطائفیة یتفوه عالم معروفٌ کمؤلف کتاب المنار بکلام لا یخفی خواؤه علی أحد، هل أنّ «صحیح مسلم وصحیح الترمذی ومسند أحمد من مصادر الشیعة؟ وهل أنّ علماء الشیعة کتبوا سنن البیهقی، والدر المنثور للسیوطی، وأحکام القرآن للجصاص، وتفسیر الطبری، ومستدرک الحاکم»؟

إنّ خطأً بهذا المستوی لا یحصل إلّانتیجة لحجاب التعصب.

فمن ناحیة یقول الموما إلیه: إنّ الروایات التی نقلت هذا الحدیث «متفقٌ علیها» ومن ناحیة اخری یضعها موضع التشکیک.

فاذا کانت کتب مثل صحیح مسلم، والترمذی، ومسند أحمد، وما شابهها بحیث یستطیع الشیعة وضع روایات ودسّها فیها بحیث تغدو متواترة، فای قیمة تبقی لهذه الکتب؟ وکیف یتسنی قبول ولو حدیثٍ واحدٍ منها؟

وفی واقع الأمر أنّ مؤلف المنار بکلامه هذا أفقد اعتبار المصادر المعروفة لأهل السنّة، وسلب منها قیمتها بالکامل، نعم فهو أراد التنکر لفضیلة علی وفاطمة وابنیهما علیهم السلام بَیدَ أنّه

---

(۱) تفسیر المنار، ج ۳، ص ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۷

وجَه ضربة قاصمة لأصل المذهب السنّی!.

والکلام الوحید الذی یبقی هنا هو الشبهة التی آثارها المنار وآخرون بصدد «ضمائر الجمع» الموجودة فی الآیة، وسنتطرق إلیه فیما بعد بشکل مفصل.

أهمیّة المباهلة:

إنَّ أول أمر یثیر الاهتمام فی هذه الآیة هو إمکانیة طرح قضیة المباهلة علی أنّها دلیلٌ جلیٌ علی حقانیة وصدق النبی صلی الله علیه و

آله فى مسألة ادّعائه للرسالة، لأنّه من المتعذر على الذى لا يملك إيماناً جازماً بصلته بالبارى عزوجل أن يدخل مثل هذا الميدان، أى ليدعو معارضيه أن تعالوا ندعو اللّه أن يفضح الكاذب، وأنا اعطى عهداً على أنّ دعائى على أعدائى سيحصل بشكل عملى، وسترون نتيجة ذلك!

ومن المسلَّم به أنّ دخول مثل هذا الميدان خطير للغاية، فلو لم يُستَجب الدعاء ولا يظهر أثرٌ من عقاب الخصوم، فلا تكون هناك نتيجة سوى فشل الداعى، وأى إنسان عاقل لا يدخل هذا الميدان مالم يطمئن إلى النتيجة.

من هنا نقرأ فى الروايات الإسلامية: لما حضر النبى صلى الله عليه و آله إلى المباهلة استمهله نصارى نجران ليفكروا فى الأمر، وعندما رأوا أنّ النبى صلى الله عليه و آله اصطحب معه الأشخاص الذين يمكن أن تستجاب دعوتهم، وحضر إلى المباهلة بعيداً عن المراسيم والضجيج، اعتبروا ذلك دليلًا آخر على صدق دعوته فانصرفوا عن المباهلة، لئلا يصيبهم العذاب الإلهى.

فعندما رأوا أنّ النبى صلى الله عليه و آله جاء بنفر قليل من خاصته وحامته وابنائه الصغار وابنته فاطمة عليها السلام، اضطربوا وذعروا وأبوا المباهلة.

ومن جهة أخرى فانَّ هذه الآية سندٌ واضحٌ على المقام الشامخ لآل النبى صلى الله عليه و آله، على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، لأنّ الآية فيها ثلاث كلمات، «أنفسنا، ونساءَنا، وأبناءنا»، ولا شك فى أنّ المراد من «أبنائنا» الإمام الحسن والحسين عليه السلام ولا اعتراض فى ذلك أبداً، ولا تنطبق كلمة «نساءنا» على أحدٍ سوى فاطمة عليها السلام، وأمّا كلمة «أنفسنا» فمن

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۸

المتيقن بأنّها ليست إشارة إلى شخص النبى صلى الله عليه و آله، لأنَّ الآية تقول:

ندعُ ... وأنفسنا، فإن كان المراد هو النبىّ صلى الله عليه و آله، فإنّ دعوة الإنسان لنفسه لا معنى لها، بناء على ذلك فلا يبقى سبيل إلّاأنّ نقول: أنّ المراد هو على عليه السلام فحسب.

والملفت للنظر هو أنّ «الفخر الرازى» ينقل فى ذيل هذه الآية عن «محمود بن الحسن الحمصى» وهو من علماء الشيعة، أنّه يثبت من خلال هذه الآية أنّ علياً أفضل من الأنبياء والصحابة أجمعين بعد النبىّ صلى الله عليه و آله. فيقول: ليس المراد بقوله (وأنفسنا) نفس محمّد صلى الله عليه و آله لأنّ الإنسان لا يدعو نفسه بل المراد به غيره، وأجمعوا على أنّ ذلك الغير كان علياً عليه السلام فدلّت الآية على أنّ نفس على هى نفس محمّد صلى الله عليه و آله، ولا يمكن أن يكون المراد منه أنّ هذه النفس هى عين تلك النفس، فالمراد أنّ هذه النفس مثل تلك النفس، وذلك يقتضى الاستواء فى جميع الوجوه ....

ثمّ الإجماع دل على أنّ محمداً صلى الله عليه و آله كان أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فيلزم أن يكون على أفضل من سائر الأنبياء عليهم السلام فهذا وجه الاستدلال بظاهر هذه الآية، ثمّ قال: ويؤيد الاستدلال بهذه الآية الحديث المقبول عند الموافق والمخالف هو قوله عليه السلام: «مَنْ أراد أن يرى آدم فى علمه، ونوحاً فى طاعته، وإبراهيم فى خلته، وموسى فى هيبته، وعيسى فى صفوته، فلينظر إلى على بن أبى طالب عليه السلام».

ثمّ يضيف قائلًا: (وأمّا سائر الشيعة فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أنّ علياً (رضى اللّه عنه) أفضل من سائر الصحابة، وذلك لأنّ الآية لما دلت على أنّ نفس على (رضى اللّه عنه) مثل نفس محمّد صلى الله عليه و آله إلّافيما خصّه الدليل وكان نفس محمّد أفضل من الصحابة (رضوان اللّه عليهم) فوجب أن يكون نفس على أفضل أيضاً من سائر الصحابة) «۱».

وبعد ايراده لهذا الدليل يمر الفخر الرازى مر الكرام ويكتفى فى الجواب قائلًا: (إنّه كما انعقد الإجماع بين المسلمين على أنّ محمّداً صلى الله عليه و آله أفضل من على، فكذلك انعقد الإجماع بينهم قبل ظهور هذا الإنسان، على أنّ النبىّ أفضل ممن ليس بنبىّ واجمعوا على أنّ علياً

(۱) التفسير الكبير، ج ۸، ص ۸۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۸۹

(رضى اللَّه عنه) ما كان نبيّاً، فلزم القطع بأنّ ظاهر الآية كما أنّه مخصوص فى حقّ محمّد صلى الله عليه و آله، فكذلك مخصوص فى حقّ سائر الأنبياء عليهم السلام) «۱».

تمعّنوا جيداً فى كلام «الفخر الرازى» تجدوا بأنّه فى واقع الأمر لا يمتلك جواباً لذلك الاستدلال القوى والمتين، وكأنّه يريد الكلام لملء الفراغ فحسب، وإلّا فالقول بأفضلية كل نبى من الأنبياء على من هو غير نبى ليس محل جدالٍ، لأنّ أفضلية جميع أنبياء اللَّه على غيرهم مسلّم بها فى الوحى فقط، وأمّا فى غير الوحى فربّما يكون هناك عظماء أفضل من الأنبياء جميعاً ما عدا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ولو غضضنا النظر عن هذا فإنّ الكلام حول أفضلية على على سائر الامّة، وهذا الأمر لايحتاج إلى إثبات أفضليته عليه السلام على سائر الأنبياء (تأملوا جيداً).

على أيّة حال، فالفضيلة التى تستنتج من هذه الآية والروايات المتواترة التى جاءت تعقيباً عليها تستطيع توضيح قضية خلافة النبىّ صلى الله عليه و آله لأنّ اللَّه تعالى يأبى أن يكون الأفضل مأموماً وغير الأفضل إماماً، وأن يكون الذى هو كنفس النبىّ صلى الله عليه و آله تابعاً، ومن سواه الذى يليه فى المرتبة متبوعاً!!

وفى هذه القضية لا فرق فى أن نرى الإمامة مشروطة بتعيين إلهى- كما نعتقد نحن أو عن طريق انتخاب الامّة، كما يعتقد أبناء السنّة، لأنّه فى الحالة الاولى من المحال أن يقدم اللَّه تعالى «المفضول» على «الأفضل»، وفى الحالة الثانية لا ينبغى للُامّة أن تقدم على فعل يخالف الحكمة، ولن يكون مقبولًا ومرضياً فيما أقدمت عليه.

مؤاخذاتهم على آية المباهلة:

المؤاخذة المعروفة التى أثارها صاحب المنار والآخرون بصدد نزول الآية بحق أهل البيت عليهم السلام، وهى: كيف يتسنى أن يكون المراد من «أبناءنا» الحسن والحسين عليهما السلام والحال إنّ كلمة «أبناء» جمعٌ ولا يطلق الجمع على المثنى؟ وأيضاً: كيف يمكن اطلاق كلمة

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۸، ص ۸۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۰

«نساءنا» وهى تفيد الجمع، على السيدة فاطمة عليها السلام فقط؟

وكذا كيف يمكن أن يكون المراد من «أنفسنا» علياً وحده؟ إذ إنّ «انفسنا» صيغة جمع أيضاً، وعلى عليه السلام كان واحداً.

الجواب:

فى الرد على هذا السؤال نلفت انتباهكم إلى عدّة امور:

۱- كما ذكر بالتفصيل فيما سبق فقد وصلتنا روايات كثيرة فى العديد من المصادر الإسلامية المعتبرة والمعروفة سواء من الشيعة أو السنّة بصدد نزول هذه الآية بشأن أهل البيت، حيث صرّح فيها أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله لم يصطحب معه إلى المباهلة غير على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وهذا بذاته سيكون قرينة واضحة لتفسير الآية، فإننا نعلم أنّ من بين القرائن التى تفسّر آيات

القرآن هى (السنّة وسبب النزول القطعى).

على هذا الأساس، فالمؤاخذة المذكورة لا تثير اهتمام الشيعة فحسب، بل يجب على علماء الإسلام جميعاً الرد عليها.

۲- إنّ اطلاق (صيغة الجمع- على «المفرد» أو «المثنى») ليس أمراً مستجداً، وكثيراً ما يشاهد هذا المعنى فى القرآن وغيره من الأدب العربى وغير العربى.

وتوضيح ذلك هو: كثيراً ما يحصل عند تفصيل قانون ما، أو تنظيم وثيقة ما، ايراد الحكم بصيغة العموم أو الجمع، فمثلًا يدوّنون فى الوثيقة أنّ: المسؤول على تنفيذها هم الموقّعون عليها وأبناؤهم، بينما ربّما يكون لأحد طرفيها ولدٌ واحدٌ أو ولَدَان، فهذا الموضوع لا يتعارض أبداً مع تنظيم القانون أو الوثيقة بصيغة «الجمع».

خلاصة الأمر لدينا مرحلتان: «مرحلة ابرام العقد»، و «مرحلة التنفيذ».

ففى مرحلة ابرام العقد تذكر الألفاظ بصيغة الجمع لكى تنطبق على كافة المصاديق، أمّا فى مرحلة التنفيذ فربّما ينحصر المصداق بشخص واحد، وهذا الحصر فى المصداق لا يتعارض وعمومية القضية.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۱

وبعبارة اخرى فقد كان النبيّ صلى الله عليه و آله مكلّفاً على ضوء العهد الذى كان أبرمه مع نصارى نجران أن يصطحب معه أبناءه ونساءه والذين هم بمنزلة نفسه جميعاً إلى المباهلة، ولكن لم يكن مصداقاً لهؤلاء سوى ابنين وامرأة واحدة ورجل واحد.

وفى القرآن الكريم لدينا موارد اخرى عديدة بأنّ تأتى العبارة بصيغة الجمع إلّاأنّ مصداقها يختص بشخص واحد لسبب ما، مثل الآية: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوهُمْ». (آل عمران/ ۱۷۳)

فالمراد فى كلمة الناس فى هذه الآية وعلى ضوء تصريح فريق من المفسّرين هو «نعيم بن مسعود» الذى كان قد أخذ الأموال من «أبى سفيان» لِيُرْعِبَ المسلمين من قوّة المشركين!

كما نقرأ فى الآية: «لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ انَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحنُ أَغْنِيَآءُ».

(آل عمران/ ۱۸۱)

فالمراد من «الذين» فى الآية وبناءً على ما صرّح به بعض المفسّرين هو «حى بن اخطب» أو «الفنحاص»، وأحياناً يشاهد اطلاق كلمة الجمع على المفرد أيضاً من باب الإكبار، كما نقرأ بشأن إبراهيم: «إِنَّ إِبرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ». (النحل/ ۱۲۰)

فهنا اطلقت كلمة «امّة» وهى جمع على شخص واحد (وكان لنا بحث مفصّل أيضاً بهذا الصدد).

۳- يُستفاد من آية المباهلة أيضاً أن يقال لأبناء البنت «ابن» على العكس ممّا كان شائعاً فى الجاهلية حيث كانوا يعتبرون أبناء الابن فقط أبناءهم، وكانوا يقولون:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتنابنوهنّ أبناء الرجال الأباعدِ

فهذا النمط من التفكير كان وليداً لتلك السنّة الخاطئة حيث إنّهم لم يكونوا يرون أنّ الانثى عضواً رئيساً فى المجتمع البشرى، ويعدونهن أوعية لحمل الأولاد فقط.

كما يقول شاعرهم:

وإنّما امهات الناس أوعيةمستودعاتٌ وللانساب آباءُ

بيدَ أنّ الإسلام قضى على هذا النمط من التفكير قضاءً مبرماً واجرى حكم الابن على

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۲

أبناء الولد والبنت على حدّ سواء.

ونقرأ فى القرآن الكريم بشأن أبناء إبراهيم: «وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيمنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهرُونَ وَكَذَلِكَ نَجزِى الُمحسِنِينَ*

وَزَكَرِيَّا وَيَحيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصلِحِينَ». (الأنعام/ ۸۵- ۸۴)

ففی هذه الآیهٔ عدّ المسیح من أبناء إبراهیم والحال أنّه کان ابن من البنت.

وفی الروایات الواردهٔ عن طرق الشیعهٔ والسنّهٔ بحقّ الإمام الحسن والإمام الحسین علیهما السلام کثیراً ما یلاحظ تکرار اطلاق کلمهٔ «ابن رسول اللّه».

ونقرأ فی الآیات المتعلقهٔ بالنساء اللواتی یحرّم الزواج منهن: «وحلائل أبنائکم ...»، فهذه المسألهٔ من المسلّم بها بین فقهاء الإسلام حیث إنّ زوجات الأبناء والأحفاد أولاداً کانوا أم بنات محرمات علی الشخص ومشمولات بالآیهٔ أعلاه.

ومن الامور الجدیرهٔ بالاهتمام بشأن آیهٔ المباهلهٔ ما ورد فی الروایهٔ المشهورهٔ أنّ المأمون العباسی سأل الإمام علیاً بن موسی الرضا علیه السلام: ما الدلیل علی خلافهٔ جدک علی بن أبی طالب؟ قال: «آیهٔ انفسنا»، قال: «لولا نسائنا» قال: «لولا أبنائنا».

یقول العلّامهٔ الطباطبائی فی تفسیر هذه الجمل القصیرهٔ:

«آیهٔ «أنفسنا» یرید أن اللّه جعل نفس علی علیه السلام کنفس نبیّه صلی الله علیه و آله، وقوله: لولا نسائنا.

معناه: أنّ کلمهٔ نسائنا فی الآیهٔ دلیل علی أنّ المراد بالأنفس الرجال فلا فضیلهٔ فیه حینئذٍ، وقوله: لولا أبنائنا، معناه: أنّ وجود أبنائنا فیها یدل علی خلافه، فإنّ المراد بالأنفس لو کان هو الرجال لم یکن مورداً لذکر الأبناء» «۱» (تأملوا جیداً).

ونُقلت هذه الحادثهٔ فی بحار الأنوار بنحو آخر، والظاهر أنّ السؤال وجواب الإمام الرضا علیه السلام عنه کان فی موضع آخر، تقول هذه الروایهٔ: قال المأمون یوماً للرضا علیه السلام: أخبرنی بأکبر فضیلهٔ لأمیر المؤمنین علیه السلام یدل علیها القرآن، فقال له الرضا علیه السلام: «فضیلهٔ فی المباهلهٔ، قال اللّه تعالی «فمن حاجک فیه ...» الآیهٔ، فدعا رسول اللّه صلی الله علیه و آله الحسن والحسین علیهم السلام فکانا

---

(۱) تفسیر المیزان، ج ۳، ص ۲۳۰- ذیل آیهٔ المباهلهٔ.

ابنیه، ودعا فاطمهٔ علیها السلام فکانت فی هذا الموضع نساءَه، ودعا أمیر المؤمنین علیه السلام فکان نفسه بحکم اللّه عزّ وجلّ، فقد ثبت أنّه لیس أحد من خلق اللّه تعالی أجلَّ من رسول اللّه صلی الله علیه و آله وأفضل فوجب أن لا یکون أحد أفضل من نفس رسول اللّه صلی الله علیه و آله بحکم اللّه تعالی ...».

فقال له المأمون: هل بالإمکان أن یذکر الدعاء لمن هو نفسه، ویکون المراد نفسه فی الحقیقهٔ دون غیره فلا یکون لأمیر المؤمنین علیه السلام ما ذکرت من الفضل؟ قال علیه السلام: «لیس یصحّ ما ذکرت، وذلک أنّ الداعی إنّما یکون داعیاً لغیره، کما أنّ الآمر آمر لغیره، لم یدع رسول اللّه صلی الله علیه و آله رجلًا فی المباهلهٔ إلّاأمیر المؤمنین علیه السلام فقد ثبت أنّه نفسه التی عناها اللّه سبحانه فی کتابه وجعل حکمهٔ ذلک فی تنزیله» «۱».

---

(۱) بحارالأنوار، ج ۱۰، ص ۳۵۰، مع الاختصار.

۲- آیهٔ خیر البریهٔ

«انَّ الَّذِینَ آمَنوُا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولئِکَ هُمْ خَیْرُ الَبرِیَّهِ* جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجرِی مِنْ تَحتِهَا الانهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا ابَداً رَّضِیَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِکَ لِمَنْ خَشِیَ رَبَّهُ». (البیّنهٔ/ ۷- ۸)

فی هـذه الآیات وما قبلها ذکر اللّه تعالی «خیر» و «شـر» مخلوقاته، فهو یصف الکفار والمشـرکین وأهل الکتاب الـذین یفکّرون بإطفاء نور اللّه من خلال مختلف الـدسائس والمؤامرات، وهم ضـالون ویجرّون الآخرین نحو الضـلالة، بـأنّهم شـر البریـة «۱»، وفی المقـابل وصف المؤمنین الـذین اکتشـفوا طریق الحقّ فی ظل إیمانهم وکانوا ولا زالوا مصـدراً للأعمال الصالحـة، فبالاضافـة إلی أنّهم مهتدون فهم نبراس هدایة الآخرین، علی أنّهم «خیر البریة».

صحیح أنّ مفهوم الآیة واسع وشامل، ولا یختص بشـخص أو أشـخاص معینین، ولکن تمت الإشارة فی العدید من الروایات الإسـلامیة التی جاءت فی مصادر الحدیث لأهل السنّة والشیعة، إلی أشخاص یقفون فی طلیعة (خیر البریة) وأفضل مخلوقات اللّه.

إنّ التمعن فی مضـمون هـذه الروایات بإمکانه ایضاح الکثیر من الحقائق التی یلفها الغموض لحـد الآن بالنسـبة للبعض. وأن یکون رداً علی الکثیر من الأباطیل النابعة عن الجهل.

---

(۱) «البریـة» من مـادة «برء» وتعنی الخلق، لـذا یقـال للّه تعـالی «الباری» بمعنی «الخالق» والمخلوقات بریـة، وقال البعض، إنّ «البریـة» من «البری» وتعنی «التراب» وبما أنّ المخلوقات برئت من التراب فیقال لها «بریـة»، وقال البعض أیضاً، إنّ «البریـة» أخذت من «بریت القلم» ونظراً إلی أنّ المخلوقـات تـأتی إلی الوجود بـأمر اللّه علی أشـکال مختلفـة من حیث الهیئـة والقامـة کأنّهم یشـبهون الأقلام المبراة فی مصنع الخلق فیقال لها «بریة» (یراجع تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۷۲۳۵؛ ومفردات الراغب وسائر کتب اللغة).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۶

وهنا نلفت انتباه القراء إلی جانب من هذه الروایات:

۱- یروی المفسـر المعروف «السیوطی» فی الدر المنثور عن «ابن عساکر» عن «جابر بن عبد اللّه» فی ذیل هذه الآیة: کنّا عند رسول اللّه صلی الله علیه و آله وإذا بعلی قادم نحونا، ولمّا وقعت عین رسول اللّه صلی الله علیه و آله علیه، قال: «والذی نفسی بیده إنّ هذا وشیعته لهم الفائزون یوم القیامـة، ونزلت «إنّ الذین آمنوا وعملوا الصالحات اولئک هم خیر البریة»، فکان أصـحاب النبی صـلی الله علیه و آله إذا أقبل علی علیه السلام قالوا: جاءَ خَیرُ البَرِیّة» «۱».

وجاءت هذه الروایة بنفس المضمون، فی «شواهد التنزیل» للحاکم الحسکانی «۲».

۲- ونقرأ فی روایة اخری عن ابن عباس: لما نزلت آیة: «إنّ الذین آمنوا وعملوا الصالحات أولئک هم خیر البریة»، قال النبیّ صـلی الله علیه و آله لعلی علیه السلام: «هو أنت وشیعتک، تأتی أنت وشیعتک یوم القیامة راضین مرضیین ویأتی عدوّک غضباناً مقمحین» «۳».

۳- جـاء فی روایـة اخری عن «أبو بریـدة»: لمّـا قرأ النبیّ صـلی الله علیه و آله هـذه الآیـة، التفت إلی علی علیه السـلام وقـال: «هم أنت وشیعتک یا علی ومیعاد ما بینی وبینک الحوض» «۴».

۴- جاء فی تفسیر الدر المنثور أنّ ابن مردویة یروی عن علی علیه السلام أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال لی:

«ألم تسـمع قول اللّه إنّ الـذین آمنوا وعملوا الصالحات أولئک هم خیر البریـة، أنت وشـیعتک وموعـدی وموعدکم الحوض إذا جِئْتُ الامَمُ للحِسابِ تُدَعَوْنَ غُراً مَحَجَلینَ» «۵».

۵- کما ورد فی «شواهـد التنزیل»: إن «عطیـة الکوفی» یقول: دخلنا علی «جابر بن عبد اللّه الأنصاری» وقد سـقط حاجباه علی عینیه من الکبر فقلنا له: اخبرنا عن علی، فرفع حاجبیه بیده ثم قال: «ذاک من خیر البریّة» «۶».

---

(۱) تفسیر در المنثور، ج ۶، ص ۳۷۹.

(۲) شواهد التنزیل، ج ۲، ح ۱۱۳۹.

(۳) شواهـد التنزیل، ج ۲، ص ۳۵۷، ح ۱۱۲۶؛ ونفس المضـمون أورده ابن حجر فی الصواعـق، ص ۹۶؛ والشـبلنجی فی نور الابصار،

ص ۷۰ و ۱۰۱ أیضاً.

(۴) المصدر السابق، ص ۳۵۹، ح ۱۱۳۰.

(۵) تفسیر در المنثور، ج ۶، ص ۳۷۹.

(۶) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۳۶۴، ح ۱۱۴۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۷

۶- یروی الکنجی الشافعی فی کفایهٔ الطالب عن عطاء: سألت عائشهٔ عن علی علیه السلام فقالت: «ذاک خیر البشر لایشک فیه إلّاکافر» «۱».

ونُقل فی نفس الکتاب أیضاً عن «حذیفهٔ» أنّه قال: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول: «علی خیر البشر، من أبی فقد کفر» «۲».

بدیهی أنّ هذه التعابیر جمیعها ناظرهٔ إلی شخص علی علیه السلام بعد النبیّ صلی الله علیه و آله، أی أنّه أفضل الناس بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

والملفت للانتباه أن الآلوسی المفسر السنّی المعروف الذی یمتاز بتشدد خاص فی الروایات الخاصهٔ بفضائل علی علیه السلام (وطالما أشرنا إلی نماذج من ذلک فی هذا الکتاب) وبعد بیانه لجانب مهم من الروایات الواردهٔ عن النبیّ صلی الله علیه و آله فی ذیل هذه الآیهٔ، یقول: «لیس معنی هذه الروایات أنّ هذه الآیهٔ تخص علیاً علیه السلام وشیعته، وإن کانوا داخلین فی هذه الآیهٔ ویقفون فی الصفوف الاولی بلا ریب.

ثمّ یقول: إنّ الإمامیهٔ وإن کانوا یعتبرون علیاً علیه السلام أفضل من الأنبیاء والملائکهٔ، إلّاأنّهم یفضلون النبیّ صلی الله علیه و آله علیه».

وخلاصهٔ القول: إنّ جماعهٔ کثیرهٔ نقلت الروایات المتعلقهٔ ب «خیر البریهٔ» فی المصادر الإسلامیهٔ المعروفهٔ، وهی من أجلی الأدلهٔ علی افضلیهٔ علی علیه السلام علی کافهٔ المسلمین والصحابهٔ بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله.

هذا فی الوقت الذی رکز أعداء علی علیه السلام وبسبب عدائهم له أبان عهد بنی امیهٔ الأسود علی کتمان فضائله، وَکَتَمَ شیعتُهُ فضائله بسبب خوفهم من أولئک المجرمین، إلّاأنّ هذه الفضائل العظمی قد تجاوزت جمیع هذه الحقب، وبعد کل هذه القرون والاعصار وصلت إلینا بأُعجوبهٔ، وهذا لم یتحقق إلّابااللطف الإلهیّ.

علی أیّ حال، یستفاد من هذه الروایات بالإضافهٔ إلی الآیهٔ الشریفهٔ أمران هما:

---

(۱) ۱. کفایهٔ الطالب، ص ۱۱۸، طبعهٔ الغری (علی ضوء نقل احقاق الحق، ج ۳، ص ۲۸۸).

(۲) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۸

۱- أفضلیهٔ علی علیه السلام علی جمیع أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله، وحیث إنّ تقدیم غیر الأفضل علی الأفضل فعل قبیح وغیر مقبول، فلا یمکن تقدیم غیره علیه، وعلیه یجب أن یکون هو أول خلیفهٔ لرسول اللّه صلی الله علیه و آله، سواء کان التنصیب من اللّه- کما تعتقد الشیعهٔ- أم من قبل الامّهٔ حیث تعتقد به طائفهٔ اخری

۲- الأمر الآخر الذی نحصل علیه من هذه الروایات العدیدهٔ هو أن تسمیهٔ اتباع علی علیه السلام ب «الشیعهٔ» أمر ورد علی لسان النبیّ صلی الله علیه و آله مراراً، والذین یعلنون عداءهم لهذه الصفهٔ، ویتنفرون منها، وأحیاناً یتخذون «الشین» فیها دلیلًا علی «الشؤم» و «الشر» هم فی الواقع قد انبروا إلی معارضهٔ رسول اللّه صلی الله علیه و آله ویعربون عن انزعاجهم لکلامه والعیاذ باللّه، ومن المسلّم به أنّ فعلهم صعب جدّاً فیما لو صرحوا بکلامهم هذا علانیهٔ، أ لیس الأفضل أن نقول:

«إنّهم كانوا يجهلون هذه الروايات الواردة عن النبيّ صلى الله عليه و آله؟».

نعم، فلقب الشيعة لا يثير الازعاج، إنّه تاج فخر وضعه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على رؤوس أتباع مذهب على عليه السلام، طبقاً للكثير من الروايات، نسأل اللَّه أن نكون أهلًا لهذا الفخر.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۱۹۹

۳- آية ليلة المبيت

نقرأ فى الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِى نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالعِبَادِ». (البقرة/ ۲۰۷)

وردت روايات كثيرة فى المصادر الإسلامية المعروفة فى شأن نزول هذه الآية منها:

۱- ينقل المفسر السنّى المعروف «الثعلبى» فى تفسيره فى شأن نزول هذه الآية مايلى:

«لما عزم النبى صلى الله عليه و آله على الهجرة إلى المدينة، ترك عليَّ بن أبى طالب عليه السلام فى مكّة ليؤدّى الديون التى عليه والأمانات إلى اهلها، وأمرهُ ليلة خرج إلى الغار وقد احاط المشركون بالدار، أن ينام فى فراشه صلى الله عليه و آله وقال له: اتشح ببردى الأخضر، ونم على فراشى فانّه لا يصل منهم إليك مكروه إن شاء اللَّه، ففعل ذلك على عليه السلام فأوحى اللَّه تعالى إلى جبرئيل وميكائيل إنّى آخيت بينكما وجعلت عمر أحدكما أطول من الآخر، فأيّكما يؤثر صاحبه بالحياة، فاختار كلاهما الحياة فأوحى اللَّه تعالى إليهما: أفلا كنتما مثل على؟ آخيت بينه وبين محمّد فبات على فراشه يفديه بنفسه ويؤثره بالحياة، إهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوّه، فنزلا فكان جبرائيل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبرائيل ينادى بخ بخ من مثلك يا على بن أبى طالب يباهى اللَّه تبارك وتعالى بك الملائكة فأنزل اللَّه على رسوله صلى الله عليه و آله وهو متوجه إلى المدينة فى شأن على عليه السلام: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِى نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاتِ اللَّهِ»».

وقد نقل رواية الثعلبى هذه وبنفس التفصيل كل من الغزالى فى إحياء العلوم (ج ۳، ص ۲۳۸) والكنجى فى كفاية الطالب (ص ۱۱۴) ... وابن الصباغ المالكى فى «الفصول المهمّة» (ص ۳۳) و «السبط بن الجوزى الحنفى» فى «تذكرة الخواص» (ص ۲۱) و «الشبلنجى» فى «نور الابصار» (ص ۸۲) «۱».

---

(۱) الغدير، ج ۲، ص ۴۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج۹ ۲۴۹

۲- ويروى الحاكم الحسكانى فى «شواهد التنزيل» عن «أبو سعيد الخدرى» هذا المضمون بشىء من التفاوت «۱».

۳- وفى نفس الكتاب «شواهد التنزيل» يروى عن ابن عباس أنّ علياً عليه السلام كان أول من آمن برسول اللَّه صلى الله عليه و آله بعد خديجة وارتدى رداءه وبات فى فراشه ... (لكنه لم يشر إلى الآية الشريفة فى هذه الرواية) «۲».

۴- وفى نفس الكتاب أيضاً يروى هذا المعنى عن «عبد اللَّه بن سليمان» (وفى نسخة عن عبد اللَّه بن عباس) قال: «أنام رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علياً على فراشه ليلة انطلق إلى الغار، فجاء أبو بكر يطلب رسول اللَّه فأخبره على أنّه قد انطلق، فأتبعه أبو بكر وباتت قريش تنظر علياً وجعلوا يرمونه، فلما أصبحوا إذا هم بعلى، فقالوا: أين محمّد؟ قال: لا علم لى به، فقالوا: قد أنكرنا تضوركَ كنّا نرمى محمّداً فلا يتضور وأنت تتضور، وفيه نزلت هذه الآية: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشرِى نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضاةِاللَّهِ» «۳».

۵- يروى الحاكم النيسابورى فى كتابه المعروف «مستدرك الصحيحين» عن ابن عباس أنّ علياً عليه السلام باع نفسه للَّه، وارتدى ثوب النبيّ صلى الله عليه و آله وبات فى فراشه ... وفى نهاية هذه الرواية يقول: هذا الحديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه «۴».

۶- فی نفس الکتاب یروی عن «حکیم بن جبیر» عن «علی بن الحسین علیه السلام: «إنّ أول من شری نفسه ابتغاء مرضاة اللّه علی بن أبی طالب علیه السلام» «۵».

ثمّ یضیف: لما أراد علی علیه السلام المبیت فی فراش رسول اللّه صلی الله علیه و آله، کان یردد هذه الأبیات:

وقیتُ بنفسی خیر منْ وطیء الحصیومن طاف بالبیت العتیق وبالحجر

رسول إله خاف أن یمکروا بهفنجاه ذو الطول الإله من المکر

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۱۹۶، ح ۱۳۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۹۸.

(۳) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۱۰۰.

(۴) مستدرک الصحیحین، ج ۳، ص ۴.

(۵) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۱ وبات رسول اللّه فی الغار آمناًموقی وفی حفظ الإله وفی ستر

وبتُّ اراعیهم ولم یتهموننیوقد وطنت نفسی علی القتل والأسر «۱»

وجاءت هذه الأبیات التی تعبّرُ عن التضحیة والإیثار وفخر علی علیه السلام بهذا الأمر، فی کتب اخری أیضاً.

۷- یقول «الطبری» المؤرخ المعروف بشأن هجرة النبیّ صلی الله علیه و آله واحاطة المشرکین بداره صلی الله علیه و آله: ثم جعلوا یطلّعون فیرون علیاً علی الفراش متسجیاً ببرد رسول اللّه صلی الله علیه و آله فیقولون:

«واللّه إنّ هذا لمحمد نائم علیه بُردُه فلم یبرحوا کذلک حتی أصبحوا فقام علی عن الفراش فقالوا: واللّه لقد صدقنا الذی حدثنا فکان ممّا نزل فی ذلک الیوم وما کانوا أجمعوا له: «وَإِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخرِجُوکَ وَیَمْکُرُونَ ....»» «۲». (الانفال/ ۳۰)

۸- یروی «ابن الأثیر» فی «اسد الغابة» فی فضائل علی علیه السلام: «لما أراد النبیّ صلی الله علیه و آله الهجرة، خلَّف علیَّ بن أبی طالب بمکة لقضاء دیونه ورد الودائع التی کانت عنده، وأمره لیلة خرج من الغار وقد أحاط به المشرکون بالدار أن ینام علی فراشه وقال: إِتَّشِحْ ببردی الحضرمی- وبعدها نقل قصة لیلة المبیت وما أوحی اللّه إلی جبرائیل ومیکائیل .. ثمّ قال:

فأنزل اللّه عزّ وجلّ علی رسوله وهو متوجه إلی المدینة فی شأن علی: «وَمِنَ النَّاس مَن یَشرِی نَفْسَهُ ابتغَاءَ مَرضَاتِ اللَّهِ»» «۳».

۹- یروی «أحمد بن حنبل» أحد أئمّة أهل السنّة الأربعة فی مسنده وهو من المصادر الإسلامیة المشهورة، عن ابن عباس فی تفسیر الآیة: «وَإِذْ یَمْکُرُ بِکَ الَّذِینَ کَفَرُوا لِیُثْبِتُوکَ أَوْ یَقْتُلُوکَ أَوْ یُخرِجُوکَ وَیَمْکُرُونَ ....» قال: تشاورت قریش لیلة بمکة، فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق- یریدون النبیّ صلی الله علیه و آله وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه، فأطلَع اللّه نبیّه صلی الله علیه و آله علی ذلک فبات علی علیه السلام علی فراش النبیّ صلی الله علیه و آله وخرج النبیّ صلی الله علیه و آله حتی لحق بالغار» «۴».

---

(۱) مستدرک الصحیحین: ج ۳، ص ۴.

(۲) تاریخ الطبری، ج ۲، ص ۱۰۰.

(۳) اسد الغابة، ج ۴، ص ۲۵.

(۴) مسند أحمد، ج ۱، ص ۳۴۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۲

ولم يشر الإمام أحمد إلى آية: «وَمِنَ النَّاس مَن يَشرِي نَفْسَهُ ...»، إلّاأنّه يتحدث عن آية: «وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...» التى وردت فى واقعة ليلة المبيت أيضاً.

ولا تنحصر الروايات بما قيل: بل هناك روايات كثيرة اخرى رويت فى المصادر المعروفة بهذا الصدد، وللمزيد من الاطلاع بإمكانكم مراجعة كتب: احقاق الحق «۱»، وشواهد التنزيل «۲»، وفضائل الخمسة «۳»، والغدير «۴»، وتفسير البرهان «۵».

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۹۶ وما بعدها.

(۲) فضائل الخمسة، ج ۲، ص ۳۴۵ وما بعدها.

(۳) الغدير، ج ۲، ص ۴۹ و مابعدها.

(۴) الغدير، ج ۲، ص ۴۹ و مابعدها.

(۵) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۲۰۶- ۲۰۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۳

۴- آية الحكمة

«يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً». (البقرة/ ۲۶۹)

يروى الحاكم الحسكانى فى «شواهد التنزيل» عن «الربيع بن الخيثم» أنّهم ذكروا عنده علياً، فقال: لم أرهم يجدون عليه فى حكمه واللَّه تعالى يقول: «يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً» «۱».

وفى نفس الكتاب نُقلت عدّة روايات اخرى بهذا المعنى أو ما يدانيه.

بالاضافة إلى أنّه يروى عن ابن عباس أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قال: «مَنْ أراد أن ينظر إلى إبراهيم فى حلمه، وإلى نوح فى حكمته، وإلى يوسف فى اجتماعه، فلينظر إلى على بن أبى طالب» «۲».

وفى موضع آخر يروى عن «أبى الحمراء»: كنّا عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقدم على عليه السلام نحونا، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ سرّه أن ينظر إلى آدم فى علمه، ونوح فى فهمه، وإبراهيم فى حُلمه فلينظر إلى على بن أبى طالب» «۳».

ويروى عن «ابن عباس» أيضاً، كنت عند رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فسئل عن على عليه السلام فقال:

«قُسمت الحكمة عشرة أجزاء فأُعطى على تسعة أجزاء وأُعطى الناس جزءً واحداً» «۴».

إنّ هذه العبارات تكشف بجلاء أن ليس هنالك من أحد من الامّة الإسلامية بعد

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۱۳۷، ح ۱۴۷.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۰۶، ح ۱۴۷.

(۳) المصدر السابق، ص ۷۹، ح ۱۱۶.

(۴) المصدر السابق، ص ۱۰۵، ح ۱۴۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۴

النبىّ صلى الله عليه و آله يضاهى علياً عليه السلام فى العلم والمعرفة والحكمة، وحيث إنّ أهم أركان الإمامة، العلم والحكمة فإنّه كان أجدر الناس للإمامة والخلافة بعد النبىّ صلى الله عليه و آله.

جاء أيضاً فی «صحیح الترمذی» أنّ النبیّ صلی الله علیه و آله قال: «أنا دار الحکمة وعلی بابها» «۱».

و من المسلّم به أنّ من أراد دخول البیت، علیه أن یدخل من الباب کما أمر بذلک القرآن الکریم: «وَأْتُوا البُیوتَ مِنْ أَبوابها». (البقرة/ ۱۸۹)

وعلیه فمن أراد الدخول إلی خزائن علم النبیّ صلی الله علیه و آله علیه المبادرة إلی علی علیه السلام وطلب مفتاح هذا الکنز منه.

---

(۱) صحیح الترمذی، ج ۵، ص ۶۳۷ (المناقب، باب مناقب علی بن أبی طالب، ح ۳۷۲۳).

۵- آیات سورة هل اتی (الإنسان)

اشارة

تعتبر سورة «هل اتی سنداً آخر من الأَسانید المهمّة لفضیلة علی علیه السلام وآل النبیّ صلی الله علیه و آله، وأنّ التمعن فی مضمون هذه السورة وعباراتها، وکذا شأن النزول الذی ذُکر لها یزیل الغموض عن الکثیر من القضایا.

صحیح أنّ آیات هذه السورة تعرض بحثاً عاماً، إلّاأنّ سبعة عشر آیة منها التی تبدء من الآیة ۵: «إِنَّ الابرَارَ یَشرَبُونَ مِنْ کَأْسٍ کانَ مِزاجُها کَافُورًا» وتستمر حتّی الآیة ۲۲، تتحدث عن نفر علی أنّهم «ابرار»، بَیدَ أنّ شأن النزول والروایات العدیدة التی وردت فی المصادر الإسلامیة المعروفة، تکشف أنّ أتم وأکمل مصداق للأبرار فی هذه الآیة هم: علی، وفاطمة، والحسن، والحسین علیهم السلام.

والجدیر بالاهتمام أنّ فی هذه الآیات السبعة عشر ذکرت أنواع نعم الجنّة، وأفضلها واسماها- سواءً المعنویة أو المادیة- إذ أنّها تتحدث عن بساتین الجنّة، وعیون ماء الجنّة الطاهر، والملابس، والزینة، والطعام، والارائک والأسِرَّة، والوِلدان، وبالتالی النعم العظیمة والملک العظیم، والنعمة الوحیدة التی لم تجرِ الإشارة إلیها فی ما بین هذه النعم هی الأزواج وحور الجنّة حیث یقول بعض العارفین بأسرار القرآن: إنّ هذا الأمر بمثابة الاحترام لسیدة الإسلام فاطمة الزهراء علیها السلام.

وقلیلًا ما تجتمع نعم الجنّة هذه وفی أقصی درجاتها فی سورة من سور القرآن الکریم، وهذا یبرهن علی أنّ المراد من «الأبرار» هنا لیسوا اناساً عادیین، بل أبرار ومطهرون وفی غایة العظمة والقرب من اللّه.

وهذا الأمر جدیر بالذکر أیضاً حیث ذکرت علامات لهؤلاء «الأبرار» إذا أنّها تکشف عن

منزلتهم، یقول تعالی: «یُوفُونَ بِالنَّذْرِ ویَخَافُونَ یَومًا کَانَ شَرُّهُ مُستَطِیراً* ویُطعِمُونَ الطَّعامَ عَلَی حُبِّهِ مِسْکِیناً وَیَتِیماً وَاسِیراً* انَّما نُطعِمُکُم لِوَجهِ اللَّهِ لَانُرِیدُ مِنکُمْ جَزَاءً وَلَا شُکُوراً* انَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنا یَوماً عَبُوساً قَمْطَرِیراً». (الإنسان/ ۷- ۱۰)

أمّا شأن نزول هذه الآیة: فیروی الزمخشری فی تفسیره المعروف «الکشاف» عن ابن عباس: «إنّ الحسن والحسین علیهما السلام مرضا فعادهما رسول اللّه صلی الله علیه و آله فی ناس معه، فقالوا: یا أبا الحسن، لو نذرت علی ولدک، فنذر علی وفاطمة وفضة إن بَرِئا ممّا بهما: أن یصوموا ثلاثة أیّام فشفیا وما معهم شیء فاستقرض علی علیه السلام ثلاثة أصوع شعیر فطحنت فاطمة صاعاً واختبزت خمسة أقراص علی عددهم فوضعوها بین أیدیهم لیفطروا فوقف علیهم سائل فقال: «السلام علیکم «۱» أهل بیت محمّد» مسکین من مساکین المسلمین، أطعمونی أطعمکم اللّه من موائد الجنّة، فآثروه وباتوا لم یذوقوا إلّاالماء، وأصبحوا صیاماً فلما أمسوا ووضعوا الطعام بین

أيديهم وقف عليهم سائل يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير فى الثالثة، ففعلوا مثل ذلك؛ فلما أصبحوا أخذ على عليه السلام بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلما أبصرهم يرتعشون كالفراخ من شدّة الجوع قال: ما أشد ما يسوءنى ما آرى بكم، وقام فانطلق معهم فراى فاطمة فى محرابها قد التصق ظهرها ببطنها وغارت عيناها فساءه ذلك، فنزل جبريل وقال: خذها يا محمد هنأك اللَّه فى أهل بيتك فأقرأه السورة» «۲».

ويروى القرطبى هذا المعنى باختلاف قليل فى تفسيره فى ذيل آيات البحث، وينقل أيضاً شعراً عن السائلين وعن سيدة الإسلام فى هذا المجال «۳».

ونقل «الفخر الرازى» أيضاً فى تفسيره نفس هذه القصة عن الواحدى فى كتاب «الوسيط»، والزمخشرى فى الكشاف، ولكنه يضيف فى ذيلها: إنّ عبارة «إنّ الأبرار يشربون ...» جاءت بصيغة الجمع، وأنّها تشمل الأبرار جميعاً، ولا يمكن حصرها بشخص

---

(۱) جاء نذر الحسن والحسين عليهما السلام فى رواية الجعفى طبقاً لنقل تفسير القرطبى (تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۲۲).

(۲) تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۶۷۰ (ذيل آيات هذه السورة).

(۳) تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۲۲.

واحد (على بن أبى طالب عليه السلام)، وبالطبع لا يمكن انكار أنّ علياً عليه السلام داخل فى عموم هذه الآيات، لكنها لاتختص به.

إلّا أن يقال: إنّ هذه السورة نزلت أثناء أداء على عليه السلام العبادة خاصة، ولكن ثبت فى اصول الفقه أنّ المعيار عموم اللفظ، لا خصوصية السبب «۱».

على أنّ الفخر الرازى كأنّه نسى هذ الأمر وهو أنّ شأن النزول يقول: إنّ هذه الآيات نزلت بحق على، وفاطمة، والحسن، والحسين عليهم السلام لا فى على بن أبى طالب خاصةً لتقع مشكلة صيغة الجمع.

أضف إلى ذلك: أنّ المراد من شأن النزول ليس إلغاء «عمومية مفهوم الآية»، بل المراد هو أنّ هذه الآيات نزلت للمرة الاولى بعد قيام هذه الاسرة بتلك العبادة والطاعة والايثار، وهذه فضيلة عظيمة ومنحة كبيرة أن تنزل هذه الآيات بعد أداء ذلك العمل.

وبتعبير آخر: إنّ علياً عليه السلام وأهل بيته المصداق السامى لهذه الآيات، بل يعدّون النموذج الكامل لها، لأنّ علة نزولها هو عملهم الطاهر، ومن أراد انكار هذه الفضيلة العظمى إنّما يخادع نفسه.

وينقل «الآلوسى» أيضاً هذه القصة بكاملها فى «روح المعانى» عن ابن عباس، ومن ثمّ يضيف: وهذا الخبر مشهور بين القوم.

ثمّ يسعى وعلى ديدنه إلى التقليل منها أو إضعافها، ومن أجل هذا الغرض يضيف بعد بيانه الامور بشأن اسناد هذه الرواية: فاحتمال أصل النزول فى الأمير «كرم اللَّه وجهه» وفاطمة (رض) قائم ولا جزم بنفى ولا إثبات لتعارض الأخبار ولا يكاد يسلم المرجح عن قيل وقال ... إذ دخولهما فى الأبرار أمر جلى بل هو دخول أولى فهما هما وماذا عسى يقول امرؤ فيهما سوى أنّ علياً مولى المؤمنين ووصى النبى صلى الله عليه و آله وفاطمة البضعة الأحمدية والجزء المحمدى وأمّا الحسنان فالروح والريحان وسيدا شباب الجنان وليس هذا من

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۳، ص ۲۴۴.

الرفض بشىء بل ما سواه عندى هو الغى «۱».

إلّا أننا نقول: لو تغافلنا عن منقبة بهذه الشهرة فإنّ سائر الفضائل يكون مصيرها هكذا، وسيأتى اليوم الذى ستوضح أفضلية على وفاطمة

والحسن والحسين عليهم السلام. فلماذا نتجاهل هذه الرواية المعروفة التى نقلها كبار المحدثين والمفسرين والتى لا معارض لها، ونسد على انفسنا طرق معرفة هؤلاء العظماء؟!

يروى «السيوطى» العالم السنى المعروف فى تفسير «الدر المنثور» عن ابن مردويه عن ابن عباس: إنّ الآية «ويطعمون الطعام على حبّه ....» نزلت بحق على وفاطمة عليهما السلام.

وأورد «الشبلنجى» أيضاً فى «نور الابصار» قصة شأن النزول بكاملها «۲»، وكذلك فريق آخر من كبار المفسّرين والمحدّثين.

هل أتى فى الشعر:

إنّ نزول هذه السورة بحق أهل البيت عليهم السلام جلى إلى الحد الذى أشار الكثير من الشعراء المعروفين إلى هذا المعنى فى شعرهم، منها هذه الأبيات التى نقلت عن إمام الشافعية «محمّد بن ادريس الشافعى» فى العديد من الكتب:

إلى مَ، إلى مَ، وحتى متىاعاتبُ فى حبِّ هذا الفتى

وهلْ زُوجتْ فاطمٌ غيرهُ؟وفى غيره هل أتى هل اتى «۳»

ينقل «ابن البطريق» وهو من علماء القرن السادس الهجرى فى كتاب «عمدة عيون صحاح

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۲۹، ص ۱۵۸.

(۲) نور الابصار، ص ۶۲.

(۳) احقاق الحق، ج ۳، ص ۱۵۸؛ وعلى فى الكتاب والسنة، ج ۱، ص ۴۴۷. نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۰۹

الأخبار» عن تفسير ابن اسحاق الثعلبى، أنّه قال:

أنا مولى لفتىانزل فيه هل أتى «۱»

ويقول «محمّد بن طلحة الشافعى» أيضاً (من علماء القرن السابع) فى كتاب «مطالب السؤال» بحق آل النبى صلى الله عليه و آله:

هم العروة الوثقى لمعتصم بهامناقبهم جاءت بوحى وانزال

مناقبُ فى الشورى وسورة هل اتىوفى سورة الاحزاب يعرِفُها التالى «۲»

المراد من مناقب تلك العترة فى الآية: «قُلْ لَّااسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ اجْراً الَّا المَوَدَّةَ فِى القُربَى .

(الشورى/ ۲۳)

والمراد من الآية «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ اهْلَ البَيتِ». (الأحزاب/ ۳۳) وقصة سورة هل اتى معلومة أيضاً.

كما نقلت أشعار كثيرة اخرى بهذا الصدد عن «طلائع» ابن رزيك (أبو الغارات) «۳».

المشككون وسورة هل أتى

إنَّ كل مطلع على كتب الحديث والتفسير والتاريخ للاخوة أهل السنّة يعرف جيداً حيثما يكون الحديث عن منقبة لعلى بن أبى طالب عليه السلام وآل النبىّ صلى الله عليه و آله ينبرى بعض المتعصبين من هنا وهناك ويثيرون الشبهات، ويسعون بشتى الذرائع اثارة المؤاخذات على سند ودلالة ومضمون ذلك الحديث، ويقللون من أهميّته، وإن كانت المؤاخذات ضعيفة وواهية، وكأنّهم قطعوا عهداً على أنفسهم على أنّ لا يتقبلوا أياً من هذه الفضائل، وإن تقبلوها فإنّها لا تتفق وحكمهم المسبق.

إنّ مطالعة كتب مثل تفسير «روح المعانى»، و «الفخر الرازى»، و «المنار»، ونحو ذلك شاهد على هذا الكلام بأنّ حكمهم العقائدى المسبق يقف حائلًا فى جميع الأحوال أمام

---

(۱) عمدة عيون صحاح الاخبار؛ ص ۳۴۹.

(۲) مطالب السؤال، ص ۸ (طبقا لنقل الغدير، ج ۳، ص ۱۰۹).

(۳) يراجع كتاب على فى الكتاب والسنة، ج ۱، ص ۴۴۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۰

الاذعان لهذه الروايات، إلى الحد الذى يصاب الإنسان بالدهشة أحياناً بسبب المؤاخذات الواهية التى أثاروها على هذه الروايات.

بينما يتقبلون مناقب الآخرين برحابة صدر، وإن بدت عليها آثار الضعف، ومع هذا فقد افلتَ الكثير من الحالات من سيف انتقاداتهم وهى تكفى لإدراك الحقيقة.

على أيّة حال من الواجب هنا الإشارة إلى جانب مهم من تلك المؤاخذات:

۱- إنّ هذه الفضيلة تصح فى حالة نزول هذه السورة فى المدينة وبعد ولادة الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام (والمشهور أنّ ولادة الإمام الحسن عليه السلام فى السنّة الثالثة للهجرة، وولادة الإمام الحسين عليه السلام فىالسنّة الرابعة للهجرة)، بينما يعتقد الكثيرون بأنَّ هذه السورة مكية، وعليه فإنّها لا تتفق وشأن النزول الآنف الذكر.

ولكن بناءً على قول المفسر السنى المعروف القرطبى، فإنّ المشهور أنّ العلماء يعتقدون بأنّ هذه السورة مدنية (وقال الجمهور مدنية) «۱».

وانضمت طائفة كثيرة إلى هذا الرأى أيضاً، منهم:

الحاكم الحسكانى إذ عدّ هذه السورة من السور المدنية حيث نزلت بعد سورة «الرحمن» وقبل سورة «الطلاق»، والجدير بالاهتمام أنّ العالم المذكور نقل ثمانية روايات بهذا الصدد جرى التصريح فيها جميعاً بأنّ سورة «هل اتى مدنية، وبعض هذه الروايات عن «ابن عباس»، وبعضها عن «عكرمة»، و «الحسن»، وبعضها عن آخرين.

وقد قال فى كلامه: إنّ بعض أعداء أهل البيت اعترضوا على سبب نزول هذه السورة، فقالوا: لقد اتفق علماء التفسير على أنّ هذه السورة مكية فى حين أن قصتها وقعت فى المدينة.

ثمّ يضيف: كيف يسوغ له دعوى الإجماع مع قول الأكثر أنّها مدنية «۲».

ونقل فى كتاب «تاريخ القرآن» لأبى عبد اللّه الزنجانى عن كتاب «نظم الدرر وتناسخ الآيات والسور»، عن جماعة من مشاهير أهل السنّة: إنّ سورة هل أتى مدنية «۳».

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۱۰، ص ۶۹۰۹.

(۲) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۳۱۰- ۳۱۵.

(۳) تاريخ القرآن، ص ۵۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۱

ويروى «السيوطى» المفسر السنّى المعروف أيضاً فى «الدر المنثور» المعنى نفسه عن ابن عباس بطرق مختلفة.

وفى «الاتقان للسيوطى» نقل أيضاً عن «البيقهى» فى «دلائل النبوة» عن عكرمة: إنّ سورة هل أتى مدنية «۱».

بالإضافة إلى أنّ كافة الذين يرون أنّ شأن نزول هذه السورة فى على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام،- وهم جماعة كثيرة

جرت الإشارة إليهم آنفا- وكلّهم يشهدون على كون السورة مدنية.

فضلًا عن جميع ذلك، على فرض أنّ قسماً من هذه السورة مكى، والقسم المتعلق بنذر على وأهل بيته مدنى، فلا مانع من أن يكون قسم من السورة مكيّاً والآخر مدنيّاً.

من هنا، فإنّ مؤلف تفسير «روح البيان» (البرسوئى الحنفى) بعد ذكره عن طائفة من كبار العلماء أنّ سورة «هل اتى مدنية، إشارة إلى كلام الذين يرون أنّ بعض آياتها مكى والآخر مدنى، فيقول: على هذا الأساس يمكنك القول: (إنّ هذه السورة مكية وإن شئت قلت إنّها مدنية على أنّ الآيات المدنية فى هذه السورة أكثر من الآيات المكية، فالظاهر أنّها تسمى مدنية لا مكية ونحن لا نشك فى صحة القصة) «۲».

من بين الامور التى اتخذها هذا المفسر وغيره من الواعين دليلًا على كون هذه السورة مدنية هو مجيء كلمة «أسير» فيها، ونحن نعلم أنّ لا وجود للأسير فى مكة، وأنّ قضية الأسر والأسير كانت بعد نزول حكم الجهاد فى المدينة.

يقول صاحب «روح البيان» فى هذا المجال: «دل على ذلك أنّ الأسير إنّما كان فى المدينة بعد آية القتال والأمر بالجهاد» «۳».

والمدهش أنّ المتزمتين الذين ليسوا على استعداد للتخلّى عن حكمهم المسبق بصدد الولاية والخلافة خلقوا التبريرات ل «الأسير» هنا، حيث بالإمكان أن تكشف عن الحقائق، فقد قالوا: إنّ المراد من الاسير اسير زوجة! أو أسير الديون، ونحو ذلك ... «۴».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲۰، ص ۲۲۱.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۲۶۹.

(۳) المصدر السابق.

(۴) نقلت هذه الأقوال فى البحر المحيط، ج ۸، ص ۳۹۵ عن بعض المفسرين، إلّاأنّ صاحب هذا الكتابE

(أبو حيان الاندلسى) يرى أنّه يعنى الاسير من الكفار.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۲

وينبغى التساؤل: لماذا نذهب وراء المجازيات، مع إمكانية تفسير الاسير بالمعنى الحقيقى؟

۲- كيف يتسنى حصر اللفظ العام للآية بأشخاص محددين؟

ولكن كما أسلفنا مراراً أنّ عمومية مفهوم الآيات لا يتعارض مع سبب النزول الخاص، وهذا يشاهد أيضاً فى الكثير من آيات القرآن الكريم الاخرى حيث يكون مفهوم الآية عاماً وشاملًا، إلّاأنّ سبب نزولها وهو مصداقها الكامل والسامى يكون مورداً خاصاً، والمثير للدهشة أنّ أحداً لم يتخذ عمومية مفهوم الآية فى سائر الآيات الواردة فى القرآن وسبب نزولها دليلًا على معارضة سبب النزول، إلّاأنّ القضية هنا مختلفة!!

۳- المؤاخذة الاخرى التى يثيرها المشككون هى: كيف يتمكن الإنسان من البقاء طاوياً ثلاثة أيّام ويفطر بماء فقط؟

بيدَ أنّ هذه المؤاخذة عجيبة، لأننا كثيراً ما رأينا- وعلى امتداد حياتنا- أشخاصاً يمسكون عن الطعام من أجل العلاج، فبعضهم قد يمسك ثلاثة أيّام وهذا يسير، وتارة يمسكون لمدّة عشرة أيّام أو عشرين يوماً بل وحتى أربعين يوماً، أى أنّهم وعلى مدى اربعين يوماً لا يشربون سوى الماء فقط، ولا يتناولون طعاماً أبداً (حتى عصير الفواكه والشاى)، وهذا الأمر- حسب اعتقاد الأطباء الذين يعالجون المرضى عن طريق الصيام أدى إلى علاج الكثير من أمراضهم، حتى أنّ طبيباً مشهوراً غير مسلم يدعى «الكسى سوفورين» ألف كتاباً حول آثار الصيام لمدّة أربعين يوماً مع بيان دقيق لطرقه «۱».

واعتبر بعض الكتاب الصوم لأكثر من عشرين يوماً علاجاً لبعض الأمراض.

إنّ الاضراب عن الطعام ومنه «الاضراب عن الماء» متداول فى عصرنا الراهن وأحياناً يتجاوز الأربعين يوماً.

ولكن لماذا يتعجب هؤلاء المشككون من الصوم لمدّة ثلاثة أيّام والامساك عن الطعام والافطار بالماء لوحده؟ أليس هدفهم هو تعطيل هذه الفضيلة العظمى بأى وسيلة متاحة؟

---

(۱) ترجم هذا الكتاب إلى العربية واسمه «التطبيب بالصوم».

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۳

۶ و ۷- آيات مقدّمة سورة «البراءة» وآية «سقاية الحاجّ»

اشارة

فى سورة التوبة، وفى موضعين منها نزلت آيات تتضمن مناقب عظيمة لأمير المؤمنين عليه السلام بلحاظ سبب نزولها والروايات التى نقلها أغلب المفسرين والمؤرخين والمحدّثين.

الاولى آيات مقدّمة سورة البراءة

اشارة

الآيات التى فى مطلع هذه السورة التى نزلت بشأن اعلان الحرب على المشركين الذين ينقضون العهد، وقد اتفق كافة المفسرين والمؤرخين تقريباً على أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله وأثناء نزول هذه الآيات فى السنّة التاسعة للهجرة التى تعلن فيها عن نقص العهد مع المشركين، اختار «أبا بكر» لابلاغ هذا الأمر إلى عامة الناس فى مكة خلال الحج، ولكن لم يمض من الوقت شىء حتى استرجع الآيات منه وأعطاها لعلى عليه السلام وأمره بابلاغها إلى أهل مكة فى مراسم الحج، وهكذا فعل.

وبالرغم من وجود جدل بين المحدثين والمفسرين والمؤرخين فى تفرعاتها، نشير هنا إلى جانب من هذه الروايات:

۱- يقول أحمد بن حنبل الإمام السنّى المعروف فى مسنده الذى هو أحد كتب الحديث المعروفة لدى السنةّ: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله بعث بالبراءة إلى أهل مكة مع أبى بكر، لا يحج بالبيت مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ولا يدخل الجنة إلّانفس مسلمة، من كان بينه وبين رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مدّة فأجله إلى مدّته، واللَّه برىء من المشركين ورسوله، قال: فسار بها ثلاثاً، ثم قال

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۴

لعلى عليه السلام: إلحقه فَرُدَّ علىَّ أبا بكر وبلغها أنت، قال: ففعل، قال: فلما قدم على النبى صلى الله عليه و آله أبو بكر بكى وقال: يارسول اللَّه حدث فىّ شىء؟ قال: «ما حدث فيك إلّاخير ولكن امرت أن لا يبلغه إلّاأنا أو رجل منّى» «۱».

وينقل الترمذى فى سننه المعروفة وهى من المصادر الرئيسة للحديث لدى أهل السنّة، هذه الرواية بتعبير آخر فى بحث تفسير القرآن عن أنس بن مالك، أنّ النبىّ صلى الله عليه و آله بعث بالبراءة مع أبى بكر، ثمّ دعاه وقال: «لا ينبغى لأحد أن يبلغ هذا إلّارجلٌ من أهلى فدعا علياً فأعطاه إيّاها» «۲».

ثمّ نقل الترمذى رواية اخرى عن ابن عباس حول هذا الموضوع، ولكن أكثر تفصيلًا وبياناً «۳»، واللطيف أنّه يقول بعد نهاية الحديثين، سواء عنه أم نقلًا عن الآخرين: هذا حديث حسن غريب، إلّاأنّه لم يعبر بهذا بشأن غيرهِ من الروايات سواء قبله أو بعده، وهذا بحدّ ذاته من الامور الغريبة، وكأن كل حديث يروى منقبة استثنائية بحق على عليه السلام يعتبر غريباً بنظرهم.

۲- ینقل السیوطی فی الدر المنثور عن «عبد اللّه بن أحمد بن حنبل» و «ابن مردویه» عن علی علیه السلام لما نزلت الآیات العشر الاولی من سورة التوبة علی النبیّ صلی الله علیه و آله دعا أبا بکر لیأخذ هذه الآیات ویقرأها علی أهل مکة؛ ثمّ دعانی النبی صلی الله علیه و آله فقال لی: أدرک أبا بکر فحیثما لحقته فخذ الکتاب منه فاذهب به إلی أهل مکة فاقرأه علیهم فلحقته بالجحفة فأخذت الکتاب منه، فرجع أبو بکر إلی النبی صلی الله علیه و آله فقال: یا رسول اللّه نزل فیّ شیء؟ قال: «لا، ولکن جبرئیل جاءنی فقال: لن یؤدّی عنک إلّاأنت أو رجل منک» «۴».

۳- وفی نفس الکتاب یروی عن «أحمد» و «الترمذی» و «ابن مردویه» أیضاً عن «انس» بأنّه صلی الله علیه و آله بعث بآیات البراءة مع أبی بکر، ثمّ دعاه وقال: «لا ینبغی لاحد أن یبلغ هذا إلّارجل

---

(۱) مسند أحمد، ج ۱، ص ۳.

(۲) سنن الترمذی، ج ۴، ص ۳۳۹، ح ۵۰۸۵.

(۳) المصدر السابق، ح ۳۰۹۱.

(۴) تفسیر در المنثور، ج ۳، ص ۲۰۹.

من أهلی، فدعا علیاً فأعطاها إیّاه» «۱».

۴- ویروی أیضاً فی هذا الکتاب عن «سعد بن أبی وقاص»: إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله بعث بآیات البراءة مع أبی بکر إلی مکة حتی إذا کان ببعض الطریق أرسل علیاً علیه السلام فأخذها منه ثمّ سار بها، فوجد أبو بکر فی نفسه، فقال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «لا یؤدّی عنی إلّاأنا أو رجل منّی» «۲».

۵- ویروی فی الکتاب نفسه عن «أبی سعید الخدری» الصحابی المعروف: إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله بعث أبا بکر یؤدّی عنه براءة، فلما أرسله بعث إلی علی علیه السلام فقال: یا علی أنّه لا یؤدّی عنّی إلّا أنا أو أنت فحمله علی ناقته العضباء فسار حتی لحق بأبی بکر فأخذ منه براءة، فأتی أبو بکر النبی صلی الله علیه و آله وقد دخله من ذلک مخافة أن یکون قد انزل فیه شیء، فلما أتاه قال: «مالی یا رسول اللّه؟ (وساق الحدیث) إلی أن ذکر قول النبیّ صلی الله علیه و آله: «لا یبلّغ عنّی غیری أو رجل منّی» «۳».

۶- وفی هذا الکتاب أیضاً یروی عن «أبی رافع» الصحابی المعروف: إنّ النبیّ صلی الله علیه و آله بعث أبا بکر بآیات البراءة إلی الحج فنزل علیه جبرئیل وقال: «إنّه لن یؤدّیها عنک إلّاأنت أو رجل منک» «۴».

۷- ۸- روی الحاکم الحسکانی فی «شواهد التنزیل» ما یقارب من اثنتی عشرة روایة بشأن هذا الموضوع عن أنس بن مالک، وابن عباس، وسعد، وأبی سعید الخدری، وأبی هریرة، وغیرهم حیث یطول المقام بذکرهم جمیعاً، وبمقدور الراغبین الرجوع إلی الکتاب المذکور الذی هو فی متناول الجمیع من أجل المزید من التحقیق «۵».

وروی جماعة کثیرة اخری أیضاً هذه الروایة بطرق مختلفة، وأنّ رواة هذا الحدیث کثیرون إلی الحد الذی یقول المرحوم العلّامة الأمینی: «هذا الحدیث أخرجه کثیر من أئمّة

---

(۱) تفسیر در المنثور، ج ۳، ص ۲۰۹.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۳۰ (بشیء من الاختصار).

(۴) المصدر السابق.

(۵) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۲۳۲- ۲۴۳ (الحدیث رقم ۳۰۹ و ۳۱۰ و ۳۱۱ و ۳۱۲ و ۳۱۴ و ۳۱۵ و ۳۱۶ و ۳۱۷ و ۳۱۸ و ۳۲۳ و ۳۲۴ و ۳۲۵).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۶

الحدیث وحفاظه بعدة طرق صحیحة یتأتی التواتر بأقل منها عند جمع من القوم ثم عدد ۷۳ نفراً منهم «۱» ثم یضیف: إنّ رواة هذا الحدیث ینتهی أسانیدهم إلی جمع من الصحابة الأولین منهم علی علیه السلام، أبو بکر، جابر بن عبد اللّه الأنصاری، أنس بن مالک، أبو سعید الخدری، سعد بن أبی وقاص، أبو هریرة، عبد اللّه بن عمر، حبش بن جنادة، عمران بن حصین، أبو ذر الغفاری» «۲».

ونختم هذا البحث بشعر ل «شمس الدین المالکی» وهو من شعراء القرن الثامن الهجری المعروفین، یقول:

وأرسلهُ عنهُ الرسول مبلّغاًوخصّ بهذا الأمر تخصیص مفردِ

وقال هل التبلیغ عنی ینبغیلمن لیس من بیتی من القوم فاقتدی

النتیجة:

إنَّ هذه الروایة بهذه السعة فی المصادر تعتبر أحد الأدلة الواضحة علی أفضلیة علی علیه السلام علی غیره بعد رسول اللّه صلی الله علیه و آله واعتماده صلی الله علیه و آله علیه، وغایة قربه من اللّه تعالی، فهو یقول بصریح القول: «أمرنی جبرئیل الامین عن اللّه بأن یبلغ علی هذه الآیات»، وقال صلی الله علیه و آله: «لن یؤدّی هذا الأمر إلّاأنا أو رجل منّی، وأنّ علیاً وحده المؤهل لأداء هذا العمل».

وبالنظر إلی أنّ: إلغاء العهود مع المشرکین کان أحد أکثر المراحل حساسیة فی تاریخ الإسلام ویقتضی اطلاعاً وتدبیراً وشجاعة استثنائیة وکان من الممکن أن یواجه ردود فعل قویة من قبل المعارضین أثناء مراسم الحج، فإنّ اختیار علی علیه السلام لهذه المهمّة کان أفضل دلیل علی أنّه أعلم الامّة وأشجعها وأکثرها تدبیراً، ومن المسلّم به أنّ الذی یُختار لهذا الأمر أکثر أهلیة وأجدر لخلافة النبیّ صلی الله علیه و آله.

والجدیر بالاهتمام أنّ أبا بکر نفسه أدرک هذا الأمر أیضاً، وعند حضوره عند النبیّ صلی الله علیه و آله

---

(۱) للاطلاع علی اسماء هؤلاء ال ۷۳ شخص راجعوا کتاب الغدیر، ج ۶، ص ۳۴۱- ۳۸۸.

(۲) الغدیر، ج ۶، ص ۳۴۱- ۳۴۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۷

استفسر باضطراب: هل نزل شیء بحقی؟ فأجابه النبیّ صلی الله علیه و آله: «هذا العمل یؤدّیه شخص منّی!».

وهنا نلاحظ أنَّ المشککین- بما امتلکوه من حکم مسبق- بذلوا کل مابوسعهم من أجل التقلیل من أهمیّة هذه المنقبة، وتجاوزوا هذه المسألة بتحلیلاتهم الواهیة.

فمثلًا یقول «الآلوسی» فی «روح المعانی»: هذا الحدیث یدل باختصار علی افضلیة علی علیه السلام وقربه من الرسول صلی الله علیه و آله، وهذا ما لا ینکره مؤمن، لکنه لا یدل أبداً علی أنّ علیاً أُلیق بامر الخلافة من أبی بکر، ثمّ یضیف قائلًا: وقد ذکر بعض أهل السنّة نکتة فی نصب أبی بکر أمیراً للناس فی حجهم ونصب الأمیر «کرم اللّه وجهه» مبلغاً نقض العهد فی ذلک المحفل، وهی أنّ أبا بکر کان مظهراً لصفة الرحمة والجمال، وعلی علیه السلام هو أسد اللّه ومظهر جلاله ففوض إلیه نقض عهد الکافرین الذی هو من آثار الجلال وصفات القهر فکانا عینین فوّارتین یفور من إحداهما صفة الجمال، ومن الاخری صفة الجلال فی ذلک الجمع العظیم الذی کان أنموذجاً للحشر وموردا للمسلم والکافر.

یقول الآلوسی بعد ذکره لهذا الکلام: «ولا یخفی حسنه لو لم یکن فی البین تعلیل النبی صلی الله علیه و آله» «۱».

وكما قال «الآلوسى» فى كلامه الأخير فإنّ هذا التحليل «الشاعرى» لا يتفق وقول النبيّ صلى الله عليه و آله، فهو يقول بصراحة: لقد أمرنى جبرئيل عن اللَّه أنّ هذا الأمر لايؤدّيه إلّاأنا أو رجل منّى، أى رجل نظير للنبى صلى الله عليه و آله ويمتلك مواصفات خاصة وأقرب الناس إليه، ونحن نعلم أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله كان جامعاً لصفات الجمال والجلال.

لماذا يصر هؤلاء الاخوة على إغفال منقبة بهذه العظمة أو يحرفونها عن منحاها الحقيقى بتبريرات شاعرية، مخافة أن يستند إليها الشيعة ويثبتوا حقانية مذهبهم؟!

وننهى كلامنا هذا بالحديث الذى روى عن أبى ذر الغفارى فى كتاب «مطالب السؤال»، فهو يقول: قال النبى صلى الله عليه و آله: «على منّى وأنا من على ولا يؤدّى إلّاأنا أو على» «۲».

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۰، ص ۴۷.

(۲) مطالب السؤال، ص ۱۸ (على ضوء نقل الغدير، ج ۶، ص ۳۴۸).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۸

الثانية: آية سقاية الحاج

نقرأ فى قوله تعالى «أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَجاهَدَ فِى سَبيلِ اللَّهِ لَايَستَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَايَهدِى القَومَ الظَّالِمِينَ».

(التوبة/ ۱۹)

لقد أورد الحاكم الحسكانى الحنفى فى «شواهد التنزيل» ما يربو على عشر روايات من طرق مختلفة فى ذيل هذه الآية، تثبت أنّها نزلت بحق على عليه السلام.

ففى احدى هذه الروايات ينقل عن أنس بن مالك: إنّ «العباس بن عبد المطلب» و «شيبة» قعدا يفتخران، فقال له العباس: أنا أشرف منك، أنا عم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ووصى أبيه وساقى الحجيج، فقال شيبة: أنا أشرف منك، أنا أمين اللَّه على بيته وخازنه، أفلا أئتمنك كما ائتمننى؟ فاطّلعَ عليهما على عليه السلام فأخبراه بما قالا، فقال على عليه السلام: أنا أشرف منكما، أنا أول من آمن وهاجر، فانطلقوا ثلاثتهم إلى النبى صلى الله عليه و آله فأخبروه فما أجابهم بشىء، فانصرفوا فنزل عليه الوحى بعد أيّام فأرسل إليهم فقرأ: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الحَاجِّ ...» إلى آخر العشر «۱».

وورد هذا المضمون أيضاً بشىء من الاختلاف فى بقيّة الروايات.

وجاء فى بعضها: لما سمع العباس بنزول الآية قال ثلاثاً: «إنا قد رضينا».

وبالإضافة إلى «الحاكم الحسكانى» فقد نقل هذه الروايات أيضاً جمع غفير- بعضهم بشكل مفصل وبعضهم على نحو الاختصار- فى كتبهم، منهم:

«الطبرى» فى تفسيره عن «أنس بن مالك» «۲».

«الواحدى» فى «أسباب النزول» «۳».

«القرطبى» فى تفسيره «۴».

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۲۴۹.

(۲) تفسیر جامع البیان، ج ۱۰، ص ۵۹.

(۳) أسباب النزول، ص ۱۸۲.

(۴) تفسیر القرطبی، ج ۸، ص ۹۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۱۹

«الفخر الرازی» فی «التفسیر الکبیر» «۱».

«الخازن» فی تفسیر «الخازن» «۲».

«أبو البرکات النسفی» فی تفسیره «۳».

«ابن الصباغ المالکی» فی «الفصول المهمّة» «۴».

وفی تفسیر «الدر المنثور» وهو تفسیر یستند إلی أحادیث أهل السنّة نقل روایات کثیرة بشأن نزول هذه الآیة بحق علی علیه السلام، والقصة الآنفة «۵».

وهنا یتبادر إلی الذهن سؤال هو: أ لیس التفاخر أمر منبوذ فی الإسلام؟ فلم یُقْدِم أمیر المؤمنین علیه السلام علی هذا الأمر؟

تتضح الاجابة عن هذا السؤال من خلال الالتفات إلی قضیة واحدة وهی: إنّ الناس ربّما یقعون بالخطأ فی تشخیص القیم، فیترکون القیمة الحقیقیة ویتبعون الامور المتأخرة من ناحیة القیمة، ففی مثل هذه الحالات لا- مانع من الافتخار والتباهی من أجل توضیح الحقیقة، بل تعتبر واجباً فی بعض الحالات، فمثلًا ربّما یفتخر شخص بنفسه فی احدی المجالس قائلًا: إننی امتلک الثروة الفلانیة، وآخر یقول: إنّ القصر الفلانی یعود لی، ویقول ثالث: کفانی فخراً إننی أمیر بلدی!.

وینبری شخص قد جلس هناک فیقول من أجل ابراز القیم الحقیقیة:

بالرغم من افتقاری للمال والثروة والمقام والجاه إلّاأننی افتخر بکونی حافظاً للقرآن.

فهذا الفعل لایعد قبیحاً بل هو درس بلیغ.

---

(۱) تفسیر الکبیر، ج ۴، ص ۴۲۲.

(۲) تفسیر الخازن، ج ۲، ص ۲۲۱.

(۳) تفسیر أبو البرکات، ج ۲، ص ۲۲۱.

(۴) الفصول المهمّة، ص ۱۲۳.

(۵) تفسیر در المنثور، ج ۳، ص ۲۱۸ و ۲۱۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲۱

۸- آیة «صالح المؤمنین»

نقرأ فی القرآن الکریم، أنّ الباری جل وعلا- خاطب بعض نساء النبیّ صلی الله علیه و آله اللواتی ارتکبن مخالفة، قائلًا: «وَانْ تَظَاهَرَا عَلَیْهِ فَانَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِیلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِینَ وَالمَلائِکَةُ بَعْدَ ذلَکَ ظَهِیرٌ». (التحریم/ ۴)

إنَّ عبارة «صالح المؤمنین» تشمل المؤمنین والصالحین والصادقین من أصحاب النبیّ صلی الله علیه و آله، ولیس الصحابة والأنصار الذین عاصروه فحسب، بل هی تشمل المؤمنین والصالحین فی سائر الدهور والأعصار أیضاً، أولئک الذین یتصدون لنصرة الإسلام والنبیّ صلی الله علیه و آله ورسالته بمختلف السبل.

بیدَ أنّ المهم هنا أنّ «صالح المؤمنین» فسرت فی روایات عدیدة بعلی علیه السلام، وتؤکد علی أنّه أفضل واکمل مصداق لهذه الآیة،

ونظراً لمجيئه جنباً إلى جنب جبرئيل تتجلى عظمة منزلته وأهميّة هذه الفضيلة جيداً.

نعم فقد كان على عليه السلام أفضل نصير لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله مدى حياته بعد اللَّه وجبرئيل الأمين، وعليه فمن يستحق أن يخلف النبيّ صلى الله عليه و آله غيره؟ ألا تدل هذه الروايات على أنّه كان أفضل الامّة، وأفضل الخلق بعد النبى صلى الله عليه و آله؟

والآن لننظر فى اسناد هذه الروايات ونتطرق إلى جانب منها الذى اقتطف بشكل عام من مصادر أهل السنّة:

ينقل «الحاكم الحسكانى» ثمانية عشر حديثاً! فى ذيل هذه الآية من مختلف الطرق، بأنّ المراد من «صالح المؤمنين» على بن أبى طالب عليه السلام، منها: إنّه يروى عن «أسماء بنت

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲۲

عميس» تقول: سمعت النبيّ صلى الله عليه و آله يقول: «صالح المؤمنين على بن أبى طالب» «۱».

وروى فى الكتاب نفسه عن «ابن عباس» أنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال بحق على بن أبى طالب عليه السلام: «هو صالح المؤمنين» «۲».

ويروى عن «عمار بن ياسر» قوله: سمعت علياً عليه السلام يقول: دعانى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وقال:

«ألا ـ أُبشرك: قلت: بلى يا رسول اللَّه ومازلت مبشراً بالخير، قال: قد أنزل اللَّه فيك قرآناً، قلت: وما هو يا رسول اللَّه؟ قال: قُرنت بجبرئيل، ثم قرأَ: وجبريل وصالح المؤمنين» «۳».

وينقل هذا المعنى أيضاً فى رواية أُخرى عن «حذيفة».

وفى رواية ينقل عن «ابن سيرين»، وفى اخرى عن «على بن أبى طالب» نفسه، أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله قال: «صالح المؤمنين، على بن أبى طالب» «۴».

كما نقل الكثير من المفسرين هذا الحديث فى تفاسيرهم، منهم السيوطى فى «الدر المنثور» فى ذيل الآية عن «ابن عباس» و «أسماء بنت عميس».

ويقول «البرسوئى» فى تفسير «روح البيان» بعد نقله لهذه الأقوال فى ذيل هذه الآية:

منها قول مجاهد فى أنّ المراد من صالح المؤمنين، على عليه السلام ويؤيده قوله صلى الله عليه و آله: «يا على أنت منّى بمنزلة هارون من موسى ، ثمّ ينقل آيات عديدة حيث اطلق البارى تعالى كلمة الصالحين فى القرآن الكريم على كبار الأنبياء، ويستنتج بأنّه لمّا كان على عليه السلام بمنزلة نبى اللَّه «هارون»، فهو جدير بصفة الصالحين «۵».

بالإضافة إلى أنّ هذه الرواية نقلت من قبل جماعة آخرين مثل «العسقلانى» فى «فتح‌البارى»، و «ابن حجر» فى «الصواعق»، و «علاء الدين المتقى» فى «كنز العمال».

وخلاصة القول: إنّها منقبة عظيمة لا نظير لها إذ قرن اللَّه تعالى صالح المؤمنين بجبرئيل،

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۲۵۶، ح ۹۸۲.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۵۸، ح ۹۸۷.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۵۹، ح ۹۸۹.

(۴) المصدر السابق، ص ۲۵۵- ۲۶۳.

(۵) تفسير روح البيان، ج ۱۰، ص ۵۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲۳

ومصداقها التام والكامل على ضوء هذه الروايات على بن أبى طالب عليه السلام.

نعم، فقد كان جنباً إلى جنب النبيّ صلى الله عليه و آله فى جميع مراحل حياته، وكان يعد نصيراً وظهيراً له فى الأحوال جميعاً، وهو اجدر الجميع بخلافته صلى الله عليه و آله.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲۵

۹- آية الوزارة

اشارة

نقرأ فى القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام: «وَاجْعَلْ لِيّ وَزِيرًا مِنْ أَهلِي* هارُونَ أَخِي* أَشْدُدْ بِهِ ازْرِى* وَاشْرِكْهُ فِي أَمْرِى». (طه/ ۲۹- ۳۲)

فهذه الآيات تبين طلبات موسى عليه السلام فى بداية بعثته.

فى ذيل هذه الآيات نشاهد روايات عديدة أيضاً فى مصادر أهل السنّة، مَفادُها أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله قد سأل اللَّه ذلك من أجل تحقيق أهداف رسالته، مع فارق أنّه جعل اسم على عليه السلام بدل اسم هارون، وفيما يلى تطالعون بعضاً من هذه الروايات:

۱- روى فى «شواهد التنزيل» عن «حذيفة بن اسيد» أنّ النبيّ صلى الله عليه و آله أمسك بيد على بن أبى طالب عليه السلام وقال: «ابشرْ، وأبشر، أنّ موسى دعا ربّه أن يجعل له وزيراً من أهله هارون، وإنّى أدعو ربّى أن يجعل لى وزيراً من أهلى عليّاً أخى، أُشْدُدْ به ظهرى واشركه فى أمرى» «۱».

۲- فى رواية اخرى يروى عن «أسماء بنت عميس» تقول: سمعت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يقول: «اللّهم إنّى أقول كما قال أخى موسى اللّهم اجعل لى وزيراً من أهلى، علياً أخى، أشدد به أزرى، واشركه فى أمرى، كى نسبحك كثيراً، ونذكرك كثيراً، إنّك كنت بنا بصيراً» «۲».

بديهى أنّ المراد من الاشتراك فى عمل النبيّ صلى الله عليه و آله لا تعنى الشركة فى النبوة، بل الشركة فى أمر قيادة الامّة.

۳- وفى رواية اخرى ينقل حديثاً عن «أنس بن مالك» ليس فيه إشارة إلى قصة

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۳۶۸، ح ۵۱۰.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۷۰، ح ۵۱۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۲۶

موسى عليه السلام، بل مطروح فيه مسألة الخلافة والوزارة، فيقول: قال رسول اللَّه عليه السلام: «إنّ خليلى ووزيرى وخليفتى فى أهلى، وخير من أترك بعدى، ينجز موعدى ويقضى دينى، على بن أبى طالب» «۱».

۴- روى هذا الحديث باختلاف بسيط أيضاً عن سلمان الفارسى «۲».

۵- ويروى الحافظ أبو نعيم الاصفهانى وهو من علماء القرن الخامس الهجرى فى كتاب «مانزل من القرآن فى على» ماتضمنهُ حديث «أسماء بنت عميس» عن «ابن عباس»، وفى نهايته يقول ابن عباس: بعد دعاء النبى صلى الله عليه و آله هذا سمعت منادياً ينادى: «يا أحمد قد اوتيت ما سألت» «۳».

۶- وينقل «الفخر الرازى» فى تفسيره الكبير هذه الرواية بمزيد من التفصيل عن «أبى ذر الغفارى» عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى أن يقول: لما تصدق على عليه السلام بخاتمه ... فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم بمرأى النبى صلى الله عليه و آله فقال: «اللّهم إنّ

أخى موسى عليه السلام سألك فقال: ربّ اشرح لى صدرى (إلى قوله) وأشركه فى أمرى فانزلت قرآناً ناطقاً، سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً، اللّهم وأنا محمد نبيّك وصفيك فاشرح لى صدرى ويسر لى أمرى واجعل لى وزيراً من أهلى علياً اشدد به ظهرى»، قال أبو ذر: فواللَّه ما أتمّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه الكلمة حتى نزل جبرئيل فقال: يامحمد اقرأ: «انَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...» إلى آخرها «۴».

إنّ إسناد وطرق هذه الرواية والكتب التى رويت فيها من الكثرة بحيث لا يستوعبها هذا الموجز وقد أُشير إلى جانب منها فقط.

مضمون آية وروايات «الوزارة»:

تقول هذه الروايات بجلاء: إنّ النبيّ صلى الله عليه و آله دعا واستجاب له اللَّه تعالى كما استجاب

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۳۷۴، ح ۵۱۶.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۷۷، ح ۱۱۵.

(۳) ملحقات احقاق الحق، ج ۲۰، ص ۱۲۸.

(۴) تفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۲۶ (ذيل الآية ۵۵ من سورة المائدة).

لموسى وكان دعاؤه أن يجعل له وزيراً من أهله يشاركه فى أمره، ويشدَّ به أزره، كما هو هارون لموسى عليه السلام تماماً.

وكما جرت الإشارة فإنّ من المسلَّم به ليس المراد من الشركة الاشتراك فى أمر النبوة، إذ لا نبى بعد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الذى كان خاتم النبيين، ومعلوم أيضاً ليس المراد المشاركة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإرشاد، وتبليغ الرسالة فحسب، لأنّها تكليف المسلمين جميعاً، فيجب على الجميع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وعلى الجميع كل حسب وسعه نشر الإسلام وهداية الآخرين.

على هذه الأساس، فالمراد مقام خاص غير النبوّة والتكليف العام بالأمر بالمعروف، وهل يمكن أن تكون هذه القضية سوى القيادة والوزارة من قبل البارى عزّ وجلّ؟ والنتيجة المباشرة لهذا الأمر هى أنّه عليه السلام سيكون خليفة النبى صلى الله عليه و آله.

وبعبارة اخرى، ثمّة تكاليف لا تمثل واجب جميع الناس، وهى صيانة الرسالة الإلهيّة من كل تحريف وانحراف، وكذلك توضيح ما ليس يدركه الناس فى مضمون الدين، وقيادة الامّة أثناء غياب النبى صلى الله عليه و آله وبعد رحيله، والمساعدة المؤثرة فى تحقيق أهدافه، حيث تختصر جميعها فى كلمة وزير «۱».

وهذا ما سأله النبيّ صلى الله عليه و آله من اللَّه بحق على عليه السلام، واستجاب اللَّه دعاءه.

وهنا يتضح الرد على وساوس بعض المفسرين الذين لايطيقون الاذعان لمثل هذه المناقب بحق على عليه السلام.

فهم يحاولون تفسير «الشركة فى أمر النبيّ صلى الله عليه و آله» بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «۲»، والحال أنّنا نعلم أنّها واجب المسلمين جميعاً، ولا تحتاج إلى تعيين وزير من قبل اللَّه تعالى.

---

(۱) «الوزير» من مادة «وزر»، حيث إنّ الوزير يتحمل ثقل المسؤوليات المختلفة على عاتقه، فقد اطلقت هذه الكلمة عليه.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۱۶، ص ۱۸۵.

۱۰ و ۱۱- آیات سورة الاحزاب

اشارة

هنالک آیات فی سورة الأحزاب نزلت بحق علی علیه السلام علی ضوء قول طائفة من المفسرین، أو أنّها ناظرة إلی تضحیاته الفریدة من نوعها.

فنقرأ فی قوله تعالی «مِّنَ الْمُؤْمِنِینَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَاعَاهَدوُا اللَّهَ عَلَیهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَی نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ یَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِیلًا». (الاحزاب/ ۲۳)

ویقول تعالی (أی بعد آیتین): «وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِینَ کَفَرُوا بِغَیْظِهِمْ لَمْ یَنَالُوا خَیْراً وَکَفَی اللَّهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتَالَ وَکَانَ اللَّهُ قَوِیًّا عَزِیزاً». (الاحزاب/ ۲۵)

نحن نعلم أنّ معرکة الأحزاب کانت من أهم الغزوات فی الإسلام، فهی کما یتضح من اسمها تعتبر صراع جمیع أعداء الإسلام ضد المسلمین، وتظافرت کافة الفرق التی تعرضت مصالحها للخطر نتیجة لانتشار الدین الإسلامی، من أجل القضاء علی الإسلام ورسول اللَّه صلی الله علیه و آله، ولتطمئن قلوبهم إلی الأبد!.

فهناک سبع عشرة آیة من سورة الأحزاب شرحت أحوال هذه المعرکة، وقد توضحت فیها دقائق الامور وخفایاها، وقد فصلت أحوال مختلف فرق المسلمین فی هذا المضمار بدقة وظرافة.

لقد مرّت علی المسلمین لحظات حرجة وخطیرة للغایة فی هذه المعرکة، فحشود العدو، وقلة الجیش الإسلامی فی مقابلهم (ذکر المؤرخون عدد جیش الأحزاب بعشرة الآف رجل، والجیش الإسلامی بثلاثة الآف رجل) بالإضافة إلی استعداد العدو من حیث المعدات الحربیة وقلة عدّة المسلمین.

فالآیتان من ضمن هذه الآیات السبع عشرة.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۰

ویروی صاحب «شواهد التنزیل» فی ذیل الآیة الاولی بسنده عن علی علیه السلام قوله: «فینا نزلت رجال صدقوا ما عاهدوا اللَّه علیه، ثمّ قال: فأنا واللَّه المنتظر» «۱».

ویروی عن «عبد اللَّه بن عباس» أیضاً: إنّ الآیة «مِّنَ الْمُؤْمِنِینَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَیهِ» ناظرة إلی علی علیه السلام والحمزة وجعفر، وعبارة «وَمِنْهُم مَّن یَنْتَظِرُ» إشارة إلی علی علیه السلام الذی کان ینتظر الشهادة فی سبیل اللَّه، «فواللَّه لقد رُزق الشهادة» «۲».

وروی هذا المعنی أیضاً فی کل من «الصواعق المحرقة» لابن حجر، و «الفصول المهمّة» لابن الصباغ المالکی، و «الکشف والبیان» للنیسابوری «۳».

البحث فیما یتعلق بالآیة الثانیة أکثر اتساعاً من هذا، فقد قال الکثیر من المحدثین والمفسرین: إنّ «کَفَی اللَّهُ الْمُؤْمِنِینَ الْقِتَالَ ...» إشارة إلی علی علیه السلام وضربته المؤثرة التی وجهها لعمر بن عبد ود وکفی المؤمنین قتال الکفار.

ومن بین الذین رووا هذا المعنی هو «عبد اللَّه بن مسعود»، فعندما کان یقرأ هذه الآیة کان یقول فی تفسیرها: «و کفی اللَّه المؤمنین القتال، بعلی بن أبی طالب» «۴».

ویروی «الحاکم الحسکانی» عدّة أحادیث بهذا المضمون عن عبد اللَّه بن مسعود «۵».

ویروی عن ابن عباس أیضاً أنّه لمّا قرأ آیة «وکفی اللَّه المؤمنین القتال» قال: «کفاهم اللَّه القتال یوم الخندق بعلی بن أبی طالب، حین قتل عمرو بن عبد ود» «۶».

كما روى عن حذيفة الصحابى المعروف حديثاً مفصّلًا حول نزال على عليه السلام لعمرو بن عبد ود وقتله، ثمّ يقول: قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «أبشر يا على! فلو وزن اليوم عملك بعمل امّة

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۱ و ۲، ح ۶۲۷.

(۲) المصدر السابق.

(۳) على فى الكتاب والسنّة، ص ۲۱۸.

(۴) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۳، ح ۶۲۹.

(۵) المصدر السابق، ح ۶۳۰ و ۶۳۱ و ۶۳۲.

(۶) المصدر السابق، ص ۵، ح ۶۳۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۱

محمد لرجح عملك بعملهم وذلك أنّه لم يبق بيت من بيوت المسلمين إلّاوقد دخله عزٌ بقتل عمرو» «۱».

وينقل نفس المعنى عن «ابن حكيم» عن جده عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله.

ينقل «السيوطى» فى الدر المنثور عن «ابن أبى حاتم»، و «ابن مردويه»، و «ابن عساكر» عن «ابن مسعود» أنّه لما كان يقرأ هذه الآية، يقول (فى شرحها): «وكفى اللّه المؤمنين القتال بعلى بن أبى طالب» «۲».

ونقل هذا المعنى العلّامة «الشيخ سليمان القندوزى» فى «ينابيع المودة» «۳».

ونقل فريق آخر يطول المقام بذكر أسمائهم، هذا الحديث أيضاً.

والجدير بالاهتمام أنّ مضمون هذه الآيات ومن خلال الشرح المذكور هو أنّ علياً عليه السلام كان السبب فى انتصار المسلمين بإذن اللّه فى ذلك الميدان الخطير للغاية، حيث كانت معركة الأحزاب السهم الأخير بيد العدو، وهى أصعب مؤامرات المشركين ضد الإسلام، نعم، فقد كان مجريا للإرادة الإلهيّة، واحد الأسباب المهمّة لانتصار المسلمين فى هذه المعركة، فلا تشاهد هذه المنقبة لأىأحد من امّة محمد صلى الله عليه و آله سوى على عليه السلام.

ألا يستحق من يفوق عمله هذا عمل كافة امّة محمد صلى الله عليه و آله، خلافة النبىّ صلى الله عليه و آله؟!

سؤال:

ربّما يقال هنا: إنّه قد جاء فى الآية التى تشير بالإجمال إلى قصة معركة الأحزاب:

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيراً». (الاحزاب/ ۹)

طبقاً لهذه الآية، فأحد أسباب هزيمة الاحزاب كانت الريح العاصفة التى هبت عليهم، والسبب الآخر الجنود غير المرئيين (الملائكة)، وعليه فكيف يمكن القول: إنّ علياً عليه السلام كان سبب الانتصار؟

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۷، ح ۶۳۴.

(۲) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۱۹۲.

(۳) ينابيع المودة، ص ۹۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۲

الجواب: هو أنّ الانتصار فی معرکة ما، ربّما تکون له عوامل متعددة کالعامل العسکری، والطبیعی، والمعنوی، وغیرها، وممّا لا شک فیه أنّ ثلاثة عوامل قد تظافرت فی هذه المعرکة بحیث لا یتسنّی انکار أی منها أبداً، وهی: مصرع عمربن عبد ود فارس الأحزاب علی ید علی علیه السلام، وهبوب الریاح، وجیش الملائکة، ففی جمیع الحالات التی تتظافر فیها عوامل عدیدة فی صنع حادث ما، یمکن نسبة ذلک الحادث إلی واحد منها أو إلیها جمیعاً.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۳

۱۲- آیة البینة والشاهد

«أَفَمَنْ کَانَ عَلَی بَیِّنَةٍ مِّنْ رَّبِّهِ وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ کِتَابُ مُوسَی إِمَامًا وَرَحمَةً أُولئِکَ یُؤْمِنُونَ بِهِ». (هود/ ۱۷)

لقد أورد «الحاکم الحسکانی» فی «شواهد التنزیل» روایات عدیدة تناهز ال ۱۶ روایة فی ذیل هذه الآیة تشهد بأنّ المراد من الشاهد فی الآیة أعلاه علی علیه السلام «۱»، من ضمنها ما نقله عن «أنس بن مالک» فی أنّ المراد من عبارة «أَفَمَن کَان عَلَی بَیِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ ...»، محمد صلی الله علیه و آله، والمراد من عبارة «وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ ...»، علی بن أبی طالب. فهو کان لسان حال النبیّ صلی الله علیه و آله لأهل مکة فی نقض العهد معهم».

وینقل فی روایة اخری عن «ابن عباس» أنّه قال فی تفسیر: « «وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنهُ ...»: هو علی خاصّة» «۲».

وینقل عن زإذان (أحد أصحاب علی علیه السلام) عن علی علیه السلام أنّه قال: «لو ثنیت لی الوسادة فجلست علیها لحکمت بین أهل التوراة بتوراتهم وبین أهل الانجیل بانجیلهم وبین أهل الزبور بزبورهم وبین أهل الفرقان بفرقانهم بقضاء یزهر یصعد إلی اللَّه، واللَّه مانزلت آیة فی لیل أو نهار ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر إلّاوقد عرفت أی ساعة نزلت وفیمن نزلت، وما من قریش رجل جری علیه المواسی إلّاقد نزلت فیه آیة من کتاب اللَّه تسوقه إلی‌جنة أو تقوده إلی نار، فقال قائل: فما نزل فیک یا أمیر المؤمنین؟ قال: «افَمَن کَان عَلَی بَیِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَیَتلُوُه شَاهِدٌ مِّنهُ» محمد صلی الله علیه و آله علی بیّنة من ربّه وأنا الشاهد منه أتلو آثاره» «۳».

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۲۸۰، ح ۳۸۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۶۹، ح ۳۸۷.

(۳) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۲۸۰، ح ۳۸۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۴

وأورد السیوطی فی تفسیر «الدر المنثور» أیضاً روایات عدیدة فی هذا الصدد، منها أنّه ینقل عن «ابن أبی حاتم»، و «ابن مردویه»، و «أبی نعیم» عن علی بن أبی طالب، أنّه قال: «ما من رجل من قریش إلّانزل فیه طائفة من القرآن».

فسأله رجل: مانزل فیک؟ قال علیه السلام: أما تقرأ سورة هود: «أفمن کان علی بیّنة من ربّه ویتلوه شاهد منه» رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی بیّنة من ربّه، وأنا شاهد منه «۱».

ثمّ أورد عدّة أحادیث بهذا المعنی «۲».

وفی تفسیر «روح المعانی» وبعد نقله لروایة «ابن أبی حاتم»، و «ابن مردویه»، عن علی علیه السلام فی أن نزول هذه الآیة بحقه علیه السلام، ویروی هذا المعنی أیضاً فی حدیث آخر عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال: «أَفَمَنْ کَانَ عَلَی بَیِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ»، أنا، «وَیَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنهُ» علی یقول:

لقد استدل بعض الشیعة أَنَّ علیاً (کرم اللَّه وجهه) هو خلیفة رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لأنّ اللَّه تعالی سمّاه شاهداً فی قوله: «انَّا

أَرْسَلنَاکَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً». (الفتح/ ۸)

فينبغى أن يكون مقام على كمقامه صلى الله عليه و آله، وحيث أخبر أنّه يتلوهُ أى يعقبه ويكون بعده دلّ على أنّه خليفته.

ثمّ يقول: هذا الخبر لا يكاد يصح، وبعد ذلك ينقل روايهٔ تفيد أنّ المراد من «الشاهد» زمان رسول اللّه صلى الله عليه و آله «۳».

وقد توسل مفسّر المنار الذى لا يقل تعصباً عن الآلوسى فى روح المعانى ازاء الشيعهٔ والقضايا المتعلقهٔ بإمامهٔ على عليه السلام بكل ما لديه فى تفسير الآيهٔ وأوقع نفسه فى عناء عجيب، فمن جملهٔ مايقول: ويجوز أن تكون البيّنهٔ على هذا علمه اليقينى الضرورى بنبوّته كما تقدم، ويكون الشاهد الذى يتلوه منه القرآن وهو الأظهر عندى وروى عن .... (سعيد بن جبير): إنّ البيّنهٔ القرآن والشاهد جبريل عليه السلام ... ويتلوه من تلاوهٔ القرآن لا من التلو والتبعيهٔ

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۳، ص ۳۲۴، (ذيل آيهٔ مورد البحث).

(۲) المصدر السابق.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۱۲، ص ۲۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۵

فهو الذى كان يقرأه على النبىّ صلى الله عليه و آله عند نزوله به وفى الشاهد روايات اخرى ضعيفهٔ ومنها أنّه على عليه السلام يرويه الشيعهٔ ويفسرونه بالإمامهٔ. «۱».

ويالأسف، فقد كانت الأحكام والفرضيات المسبقهٔ أهم حائل دون فهم آيات القرآن والروايات الإسلاميهٔ المشهورهٔ، وهنا ثمّهٔ مسائل تحظى بالأهميّهٔ، منها:

۱- المدهش أن يقال حول الروايهٔ التى تتمتع بهذه الطرق المختلفهٔ فى الكتب المشهورهٔ لدى أهل السنّهٔ إنّها روايهٔ ينقلها الشيعهٔ، ألم يشاهد مفسّر المنار هذه الروايات الواردهٔ فى «الدر المنثور» و «شواهد التنزيل» بل حتى «روح المعانى» بشأن تفسير الشاهد بعلى عليه السلام، ويدعى: إنّ هذه الروايهٔ نقلها الشيعهٔ فقط، أم يجب القول أنّ كل روايهٔ تصب فى صالح مذهب التشيع هى روايهٔ شيعيهٔ، وإن رواها العشرات من رواهٔ أهل السنّهٔ؟!

۲- هناك طائفهٔ من مفسرى السنّهٔ يؤمنون بأنّ المراد من الشاهد «لسان» النبىّ صلى الله عليه و آله (المعنى الذى لا يشاهد فى أى موضع من القرآن).

بينما يعتبر صاحب المنار أنّها روايهٔ ضعيفهٔ، لعله التفت إلى هذه الحقيقهٔ وهى أنّ تفسير «الشاهد» ب «لسان» النبى صلى الله عليه و آله، وكذا «يتلوه» ب «تلاوهٔ القرآن» ملىء بالتكلف.

فيصبح المعنى الإجمالى للآيهٔ: «أفمن كان يمتلك الدليل الواضح من ربّه وهو القرآن، ويتلوه لسانه ويشهد على ذلك ... كمن ليس كذلك»، فمفهوم هذا القول هو: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله شاهد على نفسه، فهل يمكن للمدعى أن يكون شاهداً على نفسه؟ أم يجب أن يكون الشاهد شخصاً آخر؟ ألم يأت النبىّ صلى الله عليه و آله بالقرآن، فكيف يكون لسان النبى صلى الله عليه و آله شاهد على القرآن؟

وهل أنّ لسان النبىّ صلى الله عليه و آله ليس منه؟ فكيف نجعلُ جزءً منه شاهداً عليه؟ إنّ الذى لا يريد الاعتراف بهذه الحقائق سيقع فى هذه المتاهات.

۳- ما قيل من أنّ المراد من «الشاهد» هو «جبرئيل»، والحال أنّ أيّا من الناس لم يره ويجهل وجوده، فكيف يتفق ومفهوم الشهادهٔ؟

فهل نحن مجبورون على إنشاد شعر نتورط فى قافيته؟

۴- الأعجب ما يقوله الآلوسى فى روح المعانى: المراد من «البيّنهٔ» القرآن و «الشاهد» صفته الاعجازيهٔ.

(۱) تفسیر المنار، ج ۱۲، ص ۵۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۶

والحال أنّ کون القرآن «بیّنة» یکون من خلال اعجازه فحسب، ولا یعد القرآن «بیّنة» بدون صفاته الاعجازیة، علی هذا الأساس ستکون «البیّنة» و «الشاهد» واحداً، وهذا لا یتفق ومضمون الآیة.

۵- إنّ تفسیر «البیّنة» ب «العلم الیقینی الباطنی لرسول اللّه صلی الله علیه و آله» بنبوته، ومن ثمّ تفسیر «الشاهد» بالقرآن الکریم من الغرائب أیضاً، فلابدّ أولًا من البحث عن معنی «البیّنة» فی القرآن نفسه، فقد استعملت «البیّنة» فی القرآن الکریم ۱۹ مرة، و «البینات» وهی جمعها ۵۲ مرة، وعادة ماجاءت بمعنی «المعجزة» أو «الکتب السماویة والقرآن الکریم» لا بمعنی العلم الباطنی الفطری اللازم.

وعلیه فلو أردنا تجاوز التکلفات، فالبیّنة فی الآیة المذکورة تعنی القرآن الذی هو المعجزة الخالدة لنبی الإسلام صلی الله علیه و آله، والشاهد شخص غیر النبیّ صلی الله علیه و آله حیث یشهد علی حقانیته صلی الله علیه و آله، أمّا الذین لا یرغبون فی أن یفضی هذا التفسیر إلی حقانیة مذهب التشیع فهم علی استعداد للخوض فی کل أشکال التکلف من أجل نبذ هذا التفسیر، لئلا یعاکس حکمهم المسبق الخط الصحیح.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۷

۱۳- آیة الصدّیقون

«وَالَّذِینَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولئِکَ هُمُ الصِّدِّیقُونَ وَالشُّهَداءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ اجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ». (الحدید/ ۱۹)

نقل فی «شواهد التنزیل» عن «ابن أبی لیلی عن أبیه: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «الصدیقون ثلاثة: حبیب النجار مؤمن آل یاسین، وحزبیل (حزقیل) مؤمن آل فرعون، وعلی بن أبی طالب الثالث وهو أفضلهم» «۱».

وورد هذا الحدیث أیضاً فی کتاب «الفضائل» لأحمد بن حنبل، و «معرفة الصحابة» لأبی نعیم، و «المناقب» لابن المغازلی «۲».

وفی نفس کتاب «شواهد التنزیل» نقل اربعة أحادیث اخری بهذا المعنی عن طرق اخری «۳».

ونقل الحدیث الآنف الذکر فی کتاب «ینابیع المودة» للشیخ سلیمان القندوزی عن مسند أحمد، وأبی نعیم، وابن المغازلی، والموفق الخوارزمی، عن «أبی لیلی» و «أبی ایوب الأنصاری»، أنّهما قالا: قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «الصدیقون ثلاثة، حبیب النجار، وحزقیل مؤمن آل فرعون ... وعلی بن أبی طالب وهو أفضلهم» «۴».

ونقل هذا المعنی أیضاً فی «کنز العمال» عن ابن عباس «۵».

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۲۳، ح ۹۳۸.

(۲) تعلیقات- وحواشی- المحمودی علی شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۲۴.

(۳) المصدر السابق، ح ۹۳۹ و ۹۴۰ و ۹۴۱ و ۹۴۲.

(۴) ینابیع المودة، ص ۱۲۴، الباب ۴۲.

(۵) کنز العمال، ج ۱۱، ص ۶۰۱، ح ۳۲۸۹۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۸

کما نقل «احقاق الحق» هذا الحدیث عن کتب وطرق مختلفة «۱».

وبالرغم من أنّ هذه الروایات لا تتناول قضیة الخلافة بصورة مباشرة، إلّاأنّ إثبات صفة صدیق الامّة لعلی علیه السلام ترجح کفة میزانه

فیما لو قیس مع غیره، حیث تکشف عن أهلیته للخلافة أکثر ممّن سواه.

والمدهش أنّه واستناداً إلی هذه الروایات الکثیرة أنّ علیاً علیه السلام صدیق هذه الامّة، إلّاأنّ البعض منحوا هذا اللقب إلی الآخرین، حیث نقلوا فی ذیل هذه الآیة أنّ الصدیقین ثمانیة، منهم أبو بکر وعلی علیه السلام، بَیدَ أنّ هذه الروایة لیست عن النبیّ صلی الله علیه و آله، فالروایات التی نقلت عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله تصف علیاً علیه السلام بأنّه صدیق هذه الامّة.

ویجدر ذکر هذا الأمر وهو أنّ عمومیة مفهوم الآیة لا تتعارض وهذه الروایات، فقد قلنا مراراً: إنّ مثل هذه الروایات ناظرة إلی الأکمل، أی أنّها تقول: إنّ أکمل مصداق ل «الصدیق» فی الامّة الإسلامیة، هو علی علیه السلام الذی کان صادقاً إلی أبعد الحدود، وقد سبق رجال هذه الامّة إیماناً، وصدّق برسول اللّه صلی الله علیه و آله، واطلق علیه النبی صلی الله علیه و آله لقب «الصدیق».

وستطالعون اموراً کثیرة فی هذا المضمار أیضاً فی تفسیر الآیة اللاحقة.

---

(۱) احقاق الحق، ج ۳، ص ۲۴۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۳۹

۱۴- آیة النور

«یاایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَیَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَیَغْفِرْ لَکُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِیمٌ». (الحدید/ ۲۸)

یروی فی «شواهد التنزیل» عن ابن عباس فی تفسیر هذه الآیة، أنّ المراد من عبارة «یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ»، الحسن والحسین علیهما السلام الذین وهبهما اللّه تعالی لعلی علیه السلام، والمراد من «وَیَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ»، علی بن أبی طالب علیه السلام (حیث إنّه نبراس الامّة الإسلامیة ووسیلة هدایتها) «۱».

إنّ «ابن عباس» لم یقل هذا اجتهاداً منه، ففی روایة اخری یروی فی الکتاب نفسه بسنده عن «جابر بن عبد اللّه» عن النبیّ صلی الله علیه و آله أنّه قال فی تفسیر «یُؤْتِکُمْ کِفْلَیْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ...»: «الحسن والحسین علیهما السلام»، وقال فی تفسیر «وَیَجْعَلْ لَکُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ ...»: «علی بن أبی طالب علیه السلام» «۲».

ویروی فی الکتاب نفسه عن أبی جعفر الباقر علیه السلام أنّه قال فی تفسیر هذه الآیة: «من تمسک بولایة علی فله نور» «۳». (تأملوا جیداً).

وفی تأییده لهذا المعنی یروی عن «أبی سعید الخدری» أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «أما واللّه لا یحب أهل بیتی عبد إلّاأعطاه اللّه عزّ وجلّ نوراً حتی یرد علیَّ الحوض» «۴».

ونقل فی «کنز العمال» عن علی علیه السلام أنّه قال: «أنا عبد اللّه وأخو رسوله وأنا الصدیق

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۲۷، ح ۹۴۳.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۲۸، ح ۹۴۴.

(۳) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۲۸، ح ۹۴۶.

(۴) المصدر السابق، ج ۲، ص ۲۲۸، ح ۹۴۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۰

الأکبر لا یقولها بعدی إلّاکذّاب مفترٍ، ولقد صلیت قبل الناس سبع سنین» «۱».

مشيرا إلى أنَّهُ أول من آمن برسول اللَّه صلى الله عليه و آله من الرجال، وعليه فإنّه الجدير بحمل لقب «الصديق الأكبر».

وفى نفس الكتاب، نقل عن «معاذ بن عدويـة» قوله: سـمع علياً عليه السـلام يقول على المنبر فى البصـرة: «أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم» «۲».

على أيّة حال، فهذه منقبة من أفضل المناقب، وصاحبها أجدر من غيره بخلافة النبى الأكرم صلى الله عليه و آله.

لقد أورد العلّامة الأمينى رحمه الله فى الجزء الثالث من الغدير بحثاً مطولًا بشأن إيمان على عليه السـلام بالنبى صلى الله عليه و آله على أنّه أول من آمن من الرجال، وذكر مصادر كثيرة عن أشـهر كتب علماء أهل السنة، حتى أنّه ذكر كثيرا من الشعر لشعراء الإسلام أيضاً كشاهد على ذلك «۳».

وسنخصص فصلًا كاملًا تحت عنوان «المسلم الأول»، وسيجرى البحث عن الكثير من القضايا هناك «إن شاء اللَّه».

---

(۱) كنزل العمال، ج ۱۳، ص ۱۲۲، ح ۳۶۳۸۹.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۶۴، ح ۳۶۴۹۷.

(۳) الغدير، ج ۳، ص ۲۱۱- ۲۴۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۱

۱۵- آية الانذار

«وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرِبينَ* وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ».

(الشعراء/ ۲۱۴- ۲۱۵)

إنَّ هذه الآيات لها قصة معروفة حيث ذكرها جميع مؤرخى الإسلام تقريبا.

وفى تفسير هـذه الآيـة، تشاهـد روايـة معروفـة لـدى الخـاص والعـام كمـا يقـول «الطبرسـى» فى «مجمـع البيـان»، وكـذا قول «الحـاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل»، يقول «البراء بن عازب»: لمّا نزلت آية «وَانْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقرِبينَ» جمع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بنى عبـد المطلب وهم يومئذٍ أربعون رجلًا، الرجل منهم يأكل المسـنة، ويشـرب العس، فأمر علياً عليه السـلام برجل شاة فأدمها ثمّ قال: ادنوا بسم اللَّه فدنا القوم عشـرة عشـرة فأكلوا حتى صدروا، ثم دعا بقعب من لبن فجرع، منه جرعة ثم قال لهم: اشـربوا بسم اللَّه فشربوا حتى رووا، فبـدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سـحركم به الرجل. فسـكت صـلى الله عليه و آله يومئذٍ ولم يتكلّم، ثم دعاهم من الغد على مثـل ذلك من الطعام والشـراب ثم أنـذرهم رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله فقال: يا بنى عبـد المطلب إنّى أنا النـذير إليكم من اللَّه عزّ وجلّ والبشير فأسلموا وأطيعونى تهتدوا، ثم قال: من يؤاخينى (منكم) ويؤازرنى ويكون ولىي ووصيى بعدى وخليفتى فى اهلى ويقضى دينى. فسكت القوم.

فأعادهـا ثلاثـاً، كل ذلك يسـكت القوم ويقول على عليه السـلام: أنا، فقال فى المرة الثالثـة: أنت، فقام القوم وهم يقولون لأبى طالب: أطع ابنك فقد أُمِّرَ عليك «۱»، نقل هذا الحديث فى هوامش شواهد التنزيل عن «عبد اللَّه بن عباس» وكذلك عن «أبى رافع».

وينقل عن «خصائص النسائى» أنّ «ربيعة بن ناجذ» يقول: إنّ رجلًا قال لعلى عليه السلام:

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۴۲۰ (مع الاختصار)؛ وتفسير مجمع البيان، ج ۷ و ۸، ص ۲۰۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۲

يـاأمير المؤمنين بم ورثت ابنَ عمـك دون أعمامـك؟ قال: جمع رسول اللَّه صـلى الله عليه و آله بنى عبـدالمطلب فصـنع لهم مـداً من

الطعام فأكلوا حتى شبعوا، وبقى الطعام كما هو كأنّه لم يُمس، ثم دعا بغمر فشربوا حتى رووا، وبقى الشراب كأنّه لم يُمس، أو لم يُشرب، فقال: «يا بنى عبد المطلب إنّى بعثت إليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم، أيّكم يبايعنى على أنّ يكون أخى وصاحبى ووارثى؟» فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر القوم فقال: اجلس، حتى كان فى الثالثة ضرب بيده على يدى، ثم قال على عليه السلام: بذلك ورثت ابن عمى دون عمى «۱».

وقد نقل «الطبرى» المؤرخ الشهير هذا الحديث أيضاً بالتفصيل، ويقول تعقيباً عليه: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله، أومأ إلى على عليه السلام وقال: «إنّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا». فقام القوم يضحكون ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع «۲».

ثمّ نقل الطبرى هذا المعنى بطرق اخرى

من الامور الظريفة أنّ الطبرى المؤرخ والمفسر السنّى الكبير، الذى نقل قصة يوم الانذار فى «تاريخه» بهذا النحو، عندما يأتى إلى «التفسير» (التفتوا إلى أنّ للطبرى تفسيراً مفصلًا فى ۳۰ جزء، عدا التاريخ) ويصل إلى هذه الآية ويروى الحادثة المذكورة، يقول: إنّ النبىّ عليه السلام قال: «أيكم يؤازرنى على هذا الأمر على أنّ يكون اخى وكذا وكذا ...، قال على عليه السلام: أنا يا نبىَّ اللَّه أكون وزيرك ... فقال النبىّ صلى الله عليه و آله: إنّ هذا أخى وكذا وكذا» «۳».

فكما تلاحظون فإنّ هذا المفسّر المعروف يعبّر «بكذا وكذا» بدلًا عن وصيى وخليفتى فيكم، وكرر هذا الأمر مرّتين لئلا يقع تعبير «الوصى والخليفة» بأيدى اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ويقدمونه وثيقة على خلافة على عليه السلام، ويصاب حكم الطبرى وأمثاله المسبق الملىء بالتعصب!.

فهل هذا هو معنى المحافظة على الأمانة فى تدوين ونقل أحاديث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟ ألم

---

(۱) تعليقات شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۴۲۳.

(۲) تاريخ الطبرى، ج ۲، ص ۶۳.

(۳) تفسير جامع البيان، ج ۱۹، ص ۷۵، ذيل الآية ۲۱۴ من سورة الشعراء.

يكن يفكر بأن تعبيره التاريخى سيوضع يوماً أمام تعبيره التفسيرى ويقام القياس بينهما، وتجرى محاكمتهما؟ ويجدر الانتباه إلى أنّ الطبرى ليس فريداً فى القيام بهذا الفعل، فهنالك الكثير ممن مارسوا ويمارسون هذه الأفعال.

فقد نقل الآلوسى هذه الرواية أيضاً فى روح البيان بشكل ناقص ومعيب، ثمّ يضيف:

«ومن الروايات ما يتمسك به الشيعة فيما يدعونه من أمر الخلافة وهو مؤول أو ضعيف أو موضوع» «۱».

إنّ الأحكام المسبقة لهذا المفسر المعروف عجيبة حقاً، فهو يقول: بما إنّ هذه الرواية تصب فى صالح الشيعة فأمّا يجب أن توجه، أو تضعف، أو تعتبر مزورة، أى أنّ أساس الحكم لايستند إلى الحقائق التاريخية والقرآن والسنّة، بل إلى الأحكام المسبقة وكل ما يخالفها يجب غض الطرف عنه وتبريره وتضعيفه.

ومن البديهى أنّه لو اجتمع جميع الأنبياء والكتب السماوية لعجزوا عن النفوذ إلى عقلية من يمتلك مثل هذا النمط من التفكير، وتغييره.

لقد ذكر «أحمد بن حنبل» أحد أئمّة مذاهب السنّة فى كتابه المعروف ب «مسند أحمد» قصة يوم الانذار إلى أن يقول: قال على عليه السلام قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: لما نزلت هذه الآية «وانذر عشيرتك الاقربين ...» قال: جمع النبى صلى الله عليه و آله من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا فقال صلى الله عليه و آله: من يضمن عنى دينى ومواعيدى ويكون معى فى الجنّة ويكون

خليفتى فى أهلى ... فقلت: أنا «۲».

يقول ابن أبى الحديد المعتزلى: أمّا خبر الوزارة (إشارة إلى الحديث الذى يثبت وزارة على عليه السلام) فقد نقله الطبرى فى تاريخه عن عبد اللَّه بن عباس عن على بن أبى طالب عليه السلام قال:

لما انزلت هذه الآية «وانذر عشيرتك الاقربين ...» على رسول اللَّه صلى الله عليه و آله دعانى ... ثمّ نقل القصة إلى أن ذكر قول الرسول صلى الله عليه و آله «وقد أمرنى اللَّه أن أدعوكم إليه، فأيّكم يؤازرنى على

---

(۱) تفسير روح المعانى، ج ۱۹، ص ۱۳۵ ذيل آية البحث.

(۲) مسند أحمد، ج ۱، ص ۱۱۱ (مع شىء من الاختصار).

هذا الأمر على أنّ يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ فقال على عليه السلام: أنا يارسول اللَّه أكون وزيرك عليه، فقال الرسول صلى الله عليه و آله: هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم» «۱».

انتبهوا إلى أنّه قد جاء فى هذه الرواية وبعض الروايات المتقدمة التعبير بخليفتى فيكم، ويتضح من ذلك أنّ التعبير بالاهل فى الروايات الاخرى يفيد هذا المعنى أيضاً (تأملوا جيداً).

ذكر «ابن الاثير» «۲» هذه الحادثة أيضاً بالتفصيل فى كتابه «الكامل»- بل وأكثر تفصيلًا من أغلب المحدثين والمؤرخين إلى أن يقول: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أيّكم يؤازرنى على هذا الأمر على أنّ يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟ فأحجم القوم عنها جميعاً»، فقال على عليه السلام: «أنا يارسول اللَّه أكون وزيرك عليه ... فقال الرسول صلى الله عليه و آله: إنّ هذا أخى ووصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا» «۳».

واللطيف أنّه قد عبر ب «خليفتى فيكم» فى هذا الحديث أيضاً، وفى الحقيقة أنّها احدى معجزات النبى صلى الله عليه و آله إذ أنّه قال هذه العبارة بحزم لعلى عليه السلام فى ذلك الحين، ولم يكن له من العمر سوى ثلاثة عشرة سنة، فمن يستطيع التنبؤ بأنّ هذا الصبى ذا الثلاث عشر عاماً سيصبح من أعظم رجال البشرية فى المستقبل، ويستحق خلافة النبى صلى الله عليه و آله، والكل يسمعون له ويطيعونه؟

واللطيف أيضاً: إنّ النبىّ صلى الله عليه و آله قال هذا فى الأيّام الاولى لدعوته، يوم الانذار، وكذلك فى الأشهر الأخيرة من حياته المباركة، أليس هذا الكلام أفضل دليل على إمامة على عليه السلام؟

---

(۱) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد، ج ۱۳، ص ۲۱۰.

(۲) «ابن الاثير» من أشهر المؤرخين حيث عاش فى القرن السابع، و تاريخه يقع فى ۱۳ جزء.

(۳) الكامل، ج ۲، ص ۶۳.

۱۶- آية مرج البحرين

«مَرَجَ البَحرَينِ يَلتَقِيَانِ* بَيْنَهُمَا بَرزَخٌ لَّايَبْغِيَانِ* فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ* يَخْرُجُ مِنْهُما اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرجَانُ». (الرحمن/ ۱۹- ۲۲)

لقد وردت أقوالٌ كثيرة فى تفسير هذه الآية، وقد ذكرنا أبحاثاً كثيرة بهذا المضمار فى التفسير الأمثل، فتارة قيل: المراد من البحرين بحران ذواتا ماء عذب ومالح، حيث يتجاوران فى الكثير من المناطق دون أن يختلطا مع بعضهما، ويلاحظ هذا المشهد جيداً فى جميع

المناطق التى تصب فيها الأنهار بالبحار.

والتفسير الآخر اللطيف لهذين البحرين، تيار «غولف استريم» والأنهار البحرية العملاقة التى تتحرك فى الكثير من محيطات العالم وتأخذ المياه الدافئة من المناطق الاستوائية نحو المناطق القطبية، وربّما يختلف لونها عن لون المياة المحيطة بها، والمدهش أنّ عرضها يبلغ أحياناً مائة وخمسين كيلو متراً وعمقها عدّة مئات من الأمتار، وقد تصل سرعتها إلى ۱۶۰ كم فى اليوم! وتختلف درجة حرارتها عن المياه المجاورة ب ۱۰- ۱۵ درجة!.

إنّ هذا التيار من المياه الدافئة يخلق رياحاً دافئة ويمنح قسماً من حرارته إلى المناطق المجاورة، ويعمل على تلطيف الجو فى المناطق الشمالية للكرة الأرضية التى يمر بها، ويجعلها ملائمة، ولولا هذه التيارات البحرية لتعسرت الحياة فى تلك البلدان، وربّما لا يمكن تجرعها.

وطبعاً فإنّ «غولف استريم» اسم لأحد التيارات والأنهار البحرية، ويشاهد شبيه ذلك فى مياه القارات الخمس، وأنّ السبب الرئيس لهذه الحركة هو الاختلاف بين درجة حرارة مياه المناطق الاستوائية ومياه المناطق القطبية. «۱»

---

(۱) للمزيد من التفصيل فى هذا الصدد وبشأن هذه الآيات راجعوا الى التفسير الأمثل ذيل الآيات مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۶

وحيث إنّ آيات القرآن ذوات ظاهر وباطن، فقد تفسر تفسيراً مادياً ومعنوياً، ففى الروايات الإسلامية فسر هذان البحران بعلى وفاطمة عليهما السلام، وفسر اللؤلؤ والمرجان معنوياً بالحسن والحسين عليهما السلام.

فقد روى فى «شواهد التنزيل» عن «سلمان الفارسى» فى تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان» أنّ «المراد هو على وفاطمة عليهما السلام» ثمّ يضيف: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين» «۱»، ونقل هذا المعنى بطريق آخر عن «ابن عباس» و «الضحاك» «۲».

وجاء فى رواية اخرى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنّ المراد من «مرج البحرين يلتقيان» على وفاطمة عليهما السلام، والمراد من «بينهما برزخ لا- يبغيان» حب دائم لا ينقطع ولا ينفد، والمراد من «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» الحسن والحسين عليهما السلام «۳».

وورد فى رواية اخرى تعبير أكثر وضوحاًا عن «ابن عباس» بشأن «بينهما برزخ لايبغيان» وهو أنّ المراد «ود لا يتباغضان» «۴».

وفى الحقيقة أنّ البرزخ يعنى «الحائل بين شيئين» فالمحبة هنا تحول دون البغى والتجاوز.

وبعد أن يذكر «السيوطى» أيضاً فى تفسيره الروائى «الدر المنثور» الروايات المتعلقة بالتفسير الظاهرى لهذه الآية، نقل مضمون الأحاديث المتقدمة عن «ابن عباس» وعن النبىّ صلى الله عليه و آله، فيقول: روى «ابن مردويه» عن «ابن عباس» فى تفسير آية «مرج البحرين يلتقيان»، أنّ المراد على وفاطمة عليهما السلام.

ثمّ يضيف: قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، يعنى الحسن والحسين عليهما السلام» «۵».

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۲۰۹ (ح ۹۱۹.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۰۸.

(۳) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۲۱۰.

(۴) المصدر السابق، ص ۲۳۰.

(۵) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۱۴۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۷

وروى هذا المعنى عن «انس بن مالك» أيضاً «۱».

واللطيف أنّ المفسر المعروف «الآلوسى» بعد أن ينقل الرواية الآنفة فى تفسير «روح المعانى» عن «ابن عباس» و «انس بن مالك»، وكذا عن طريق الطبرسى عن «سلمان الفارسى» و «سعيد بن جبير» و «سفيان الثورى» يضيف قائلًا: «والذى اراه أنّ هذا إن صح ليس من التفسير فى شىء بل هو تأويل كتأويل المتصوفة لكثير من الآيات، وكل من على وفاطمة رضى اللَّه تعالى عنهما عندى أعظم من البحر المحيط علماً وفضلًا وكذا كل من الحسنين رضى اللَّه تعالى عنهما أبهى وأبهج من اللؤلؤ والمرجان بمراتب جاوزت حد الحسبان» «۲».

إنّ اعترافه الصادق بمنزلة هؤلاء العظماء امر حسن فى ذاته، على شرط أن لا يكون غرضه سلب قيمة هذه الروايات!

ولعل الآلوسى تناسى أنّ هذا الحديث روى عن النبىّ صلى الله عليه و آله، بطرق عديدة، وأنّ النبىّ صلى الله عليه و آله له كامل الصلاحية فى تأويل الآيات، وأنّ مقارنته بتأويلات الصوفيين الموضوعة والمنحرفة التى تفتقد للسند مقارنة مجحفة لا تتناسب وشأن العالِم.

على أيّة حال، فهذه الآية من الآيات التى تدلل على الفضل العظيم والمقام الرفيع لعلى وزوجته وولديهما الحسن والحسين عليهم السلام، لأنّها شبهت علياً وفاطمة عليها السلام ببحرين عظيمين، البحر الذى يكشف عن عظمة البارى جلّ وعلا، والذى يعتبر مصدراً للبركات، ومنطلقاً للعلوم والمعارف الزاخرة، ومظهراً بارزاً لفضائل الأخلاق كالجود والسخاء والطهارة والعصمة، وتشبه ولديهما باللؤلؤ النفيس الذى لانظير له، الذى ينمو فى أعماق البحر، ثمّ يبرز إلى الخارج، تكامل فيه الحسن والجمال، ظاهرياً وباطنياً، والعلم والتقوى والفضيلة والطهارة والعصمة.

فأى شخص تشاهد فيه كل هذه المناقب؟ ومن أكثر جدارة بخلافة النبىّ صلى الله عليه و آله غير على وأولاده عليهم السلام، وكم مروا من هذه المناقب مرور الكرام!

---

(۱) المصدر السابق.

(۲) تفسير روح المعانى، ج ۳۷، ص ۹۳ (ذيل آيات البحث).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۴۹

۱۷- آية النجوى

اشارة

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُم صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُم وَاطْهَرُ فَانْ لَّمْ تَجِدُوا فَانَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ* ءَاشْفَقْتُمْ انْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَاذ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». (المجادلة/ ۱۲- ۱۳)

من القرائن المتوفرة فى هاتين الآيتين، وكذلك من شأن النزول الذى أورده الكثير من المفسرين من بينهم المرحوم «الطبرسى» فى «مجمع البيان»، و «الفخر الرازى» فى «التفسير الكبير»، و «القرطبى» فى تفسير «الجامع لأحكام القرآن»، و «الآلوسى» فى «روح المعانى»، وغيرهم يستفاد أن نفراً من المسلمين وكما يقول بعض المفسرين أنّهم جماعة من الأغنياء والأثرياء كانوا يناجون رسول اللَّه صلى الله

علیه و آله فی أبسط الامور من أجل الحصول علی مکانة لهم لدی الناس، غافلین عن حقیقة أنّ وقت النبی صلی الله علیه و آله اثمن من أن یضیّعها شخص من أجل قضایا بسیطة أو لا أهمیّة لها، اضف إلی ذلک أنّ هذا الأمر کان یؤدّی إلی انزعاج المستضعفین، وتمییز الأغنیاء، وأحیاناً کان یبعث علی التشاؤم.

فنزلت أول آیة من الآیتین أعلاه تأمر المسلمین أنّ: «اذَا نَاجَیتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَینَ یَدَی نَجوَاکُم صَدَقَةً»، فخلق هذا الایعاز اختباراً لطیفاً، وکان محکاً للذین یزعمون قربهم من النبی صلی الله علیه و آله، فقد أبی الجمیع اعطاء الصدقة والنجوی سوی شخص واحد وهو أمیرالمؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام، هنا تبیّن ما کان یجب أن یوضّح ویفهمه المسلمون ویعتبروا به، وأخذوا منه الدرس البلیغ.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۰

نفحات القرآن ج۹ ۳۰۲

وبعد مدّة وجیزة نزلت الآیة الثانیة، ونقضت هذا الحکم واصبح معلوماً استحکام حب المال فی قلوب البعض من الرغبة فی نجوی النبی الأکرم صلی الله علیه و آله، وان هذه النجوی غالباً ما کانت بشأن الامور غیر الضروریة، وکان القصد منها الحصول علی الوجاهة الاجتماعیة.

وقد وردت هنا روایات عدیدة مفادها أنّ علیاً هو الرجل الوحید الذی عمل بهذه الآیة.

روی فی شواهد التنزیل عن مجاهد، عن علی علیه السلام أنّه قال: «انَّ فی القرآن لآیة ما عمل بها أحد قبلی ولا بعدی وهی آیة النجوی قال: کان لی دینارٌ فبعته بعشرة دراهم فکلما اردت أن أناجی النبی صلی الله علیه و آله تصدقت بدرهم منه ثم نُسختْ» «۱».

ونقل فی روایة اخری عن أبی أیوب الأنصاری قال: نزلت هذه الآیة فی علی: «یَا ایُّهَا الَّذِینَ ... صدقة»، أنّ علیاً ناجی النبیّ صلی الله علیه و آله عشر نجوات، یتصدق فی کل نجوة بدینار «۲».

وجاء فی نفس الکتاب أیضاً فی روایةٍ اخری عن مجاهد انَّ فی القرآن آیة لم یعمل بها أحد غیر علی بن أبی طالب علیه السلام حتی نُسختْ، وهی: «یَا ایُّهَا الَّذِین آمَنُوا اذَا نَاجَیتُمُ الرَّسُولَ ...»، فهو قد ناجی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وتصدق بدینار «۳».

ونُقلت فی هذا الکتاب روایات اخری عدیدة بهذا الصدد تُناهز عشر روایات!.

وذکر السیوطی فی تفسیره الروائی «الدر المنثور» هذه الروایة أیضاً بطرق عدیدة (أکثر من سبع طرق)، لا سیّما أنّه ینقل عن «الحاکم النیشابوری» باقراره أنّ هذا الحدیث صحیحٌ، عن علی علیه السلام: «إنّ فی کتاب اللّه لآیة ما عمل بها أحد قبلی ولا أحد بعدی»، ثم ذکر بقیة الحدیث کما ذکرنا أعلاه عن شواهد التنزیل «۴».

وفی الکتاب نفسه ینقل عن الکثیر من الرواة عن علی علیه السلام: «إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله استشار علیاً بشأن تحدید مقدار هذه الصدقة قائلا: ما تری دیناراً، قلت: لا یطیقونه، قال: فنصف دینار قلت: لا یطیقونه، قال: فکم، قلت: قلت: شعیرة قال: إنّک لزهید، قال: فنزلت

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۳۱، ح ۹۵۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۴۰، ح ۹۴۶.

(۳) المصدر السابق.

(۴) تفسیر در المنثور، ج ۶، ص ۱۸۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۱

ءَأشفقتم أن تقدموا بین یدی نجواکم صدقات، قال: فبی خفف اللّه عن هذه الامّة» «۱».

وهنالك رواية لطيفة بهذا الصدد ينقلها «البرسوني» في تفسير «روح البيان» عن «عبد اللّه بن عمر» حيث كان يقول:» كان لعلي عليه السلام ثلاث لو كانت لي واحدة منهن كان أحبّ إليَّ من حمر النعم، تزويجه فاطمة عليها السلام، واعطاؤه الراية يوم خيبر، وآية النجوى «۲».

وأورد الزمخشري ذلك أيضاً في «الكشاف» «۳».

وكذلك القرطبي في تفسير «الجامع لأحكام القرآن» «۴».

والطبرسي في «مجمع البيان» «۵».

وفي الحقيقة أنَّ «عبد اللّه بن عمر» أشار إلى ثلاث قضايا مهمّة وهي: إنَّ فاطمة عليها السلام وكما يعبّر النبيّ صلى الله عليه و آله «سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين»، لم يكن لها كفوٌ سوى علي عليه السلام إذ كان رجل التاريخ بعد النبيّ صلى الله عليه و آله.

وقضية اعطائه الراية يوم خيبر، واحرازه للقب «كرار غير فرار»، بعد أن تقدم الآخرون وقفلوا خائبين، والظفر الذي تحقق من خلال ذلك يعدُّ منقبة اخرى لا نظير لها، وكذلك وجود آية في القرآن ما عمل بها إلّاعلي عليه السلام.

والمدهش أنّ البعض يصرّون على التقليل من أهميّة هذه المنقبة، بل انكار كونها منقبة بشكل تام! وكالمعتاد فإنّهم يتوسلون بمختلف المبررات والعلل الواهية، والتي لا أساس لها.

فتارةً يدَّعون أنَّ كبار الصحابة لما لم يقوموا بهذا العمل فلأنّهم لم يروا حاجة إليها! واخرى يقولون: لم يكن لديهم متسع من الوقت لأنّ الآية سرعان ما نُسختْ! وحيناً يقولون: إنَّ الآخرين كانوا يظنون أنّ اعطاء الصدقة والنجوى يؤدي إلى انزعاج الفقراء وذعر

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۱۸۵.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۴۰۶.

(۳) الكشاف، ج ۴، ص ۴۹۴ (ذيل آيات البحث).

(۴) تفسير القرطبي، ج ۹، ص ۶۴۷۲.

(۵) تفسير مجمع البيان، ج ۹ و ۱۰، ص ۲۵۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۲

الأغنياء، والفقراء عاجزون عن القيام بمثل ذلك، والأغنياء القادرون على ذلك يخشون التعرض للتأنيب إذا تركوه، وعلى هذا الأساس فانَّ عدم عمل الآخرين بهذه الآية لا يسلب الفضل عنهم «۱».

ولكن، يبدو أنَّ هؤلاء المفسرين الكبار! قد نسوا الآية الثانية خلال اختلاقهم لهذه المبررات، إذ وجّه القرآن الكريم اللَّومَ لمن تناجوا آنفاً وتركوا ذلك بعد نزول حكم الصدقة، فيقول تعالى «ءَاشْفَقْتُم انْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى نَجوَاكُم صَدَقَاتٍ».

ثم يعدُّ القرآن هذا الفعل وكأنّه معصية، ويعتبرهم إجمالًا مشمولين بالتوبة «وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُم»، ومن أجل تلافي هذا العمل القبيح أمرهم بإقامة الصلاة وايتاء الزكاة واطاعة اللّه ورسوله.

فلو كان الوقت ضيقاً لما كان هناك ما يدعو للتأنيب واللوم، ولا حاجة للتوبة، وإذا كان هدفهم استقطاب قلوب الفقراء وازالة الاضطراب عن قلوب الأغنياء فهو عمل يستحق التشجيع والتكريم، فلماذا يوجه البارى تعالى اللوم لهم ويتحدث عن التوبة؟ إذن من خلال التأمل في هذه الآية يتبيّن جيداً أنّ عملهم كان قبيحاً.

فالواقع أنّ القضايا الواقعة لا تتفق والحكم المسبق لهؤلاء الاخوة، فإنّ كل شيء وحتى آيات القرآن الكريم يلفّها النسيان، والحال أنّها شاخصة أمامهم.

وهنا يقول البعض من أجل التقليل من أهميـة هذه الفضـيلة: لقد كان الفاصل الزمنى بين نزول آية النجوى ونسـخها ساعة واحدة فقط، لهـذا لم يفلـح كبار الصـحابة بالعمل بها، فهؤلاء من الناسـين أيضاً، حيث لم ينتبهوا إلى لحن آية النسخ، الآية التى توجهت إلى بعض الصحابة باللوم لتركهم الصدقة خشية الاملاق، وتغاضوا عن النجوى والآن فإنّ اللَّه تعالى يقبل توبتهم.

فاذا كان الفاصل الزمنى بينهما ساعـة واحـدة فقط لن يبق مجال لهذه الجدالات، وعليه فمن المناسب أن تكون هناك رواية تقول: إنّ الفاصل الزمنى بينهما كان عشرة أيّام «۲».

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۲۹، ص ۲۷۲؛ وتفسير روح المعانى، ج ۲۸، ص ۲۸.

(۲) فى تفسير روح المعانى، نقل هذا القول عن مقاتل الذى كان معاصراً للمنصور الدوانيقى، ومن تلامذة التابعين.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۳

سؤال:

السؤال الوحيد الذى يبقى ههنا هو: كيف يعد هذا العمل فضيلة؟ وهل الأمر كما يقول بعض المتعصبين من المفسرين: أن لا العمل بها يعد فضيلة ولا تركها منقصة؟

أم أنّ الأمر كما جاء فى الروايات الإسلامية من أنّ علياً عليه السلام كان يعتبرها منقبة عظيمة بالنسبة له، وأنّ عبد اللَّه بن عمر كان يعدُّ الزواج من فاطمة عليها السلام سيدة النساء وفتح خيبر منقبة؟

لقد تبيّن الجواب عن هذا السؤال خلال البحوث المتقدمة، ونضـيف: إنَّ أفضل طريق للحصول على جواب هذا السؤال هو الرجوع إلى القرآن الكريم والتمعن فى الآية الناسخة (الثانية)، فهذه الآية تثبت أنّ اللَّه تعالى كان يريد بهذا الحكم اختبار المسلمين، هل أنّهم على استعداد لدفع شىء ما من أجل النجوى مع النبى صلى الله عليه و آله- حيث كانوا يزعمون أنّها تجرى من أجل مصالح المسلمين، وأن يتصدقوا فى سبيل اللَّه؟

وهنا يخرج شخص واحد ظافراً من هذا الاختبار، وهو على بن أبى طالب عليه السلام، أليس هذا هوالفخر بعينه؟

وبعبارة اخرى فإنّ جميع الناس شملهم التأنيب والتوبيخ والتوبة الواردة فى هذه الآية، والوحيد الذى لم يشمله هذا التوبيخ هو على عليه السلام، فلماذا ياترى يُنكر بعض العلماء حقائقَ بهذا الجلاء والوضوح؟ اجيبوا أنتم؟!

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۵

۱۸- آية السابقون

اشارة

«وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ* اولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ* فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ* ثُلَّةٌ مِّنَ الاوَّلِينَ* وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ». (الواقعة/ ۱۰- ۱۴)

روى فى تفسير «شواهد التنزيل» ل «الحاكم الحسكانى» عن «ابن عباس»: «السُّباق ثلاثة: سَبقَ يوشع بن نون إلى موسى وسَبقَ صاحب ياسين إلى عيسى وسَبقَ على إلى النبى صلى الله عليه و آله» «۱».

وروى فى الكتاب نفسه عن «ابن عباس» قوله: سألت رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عن تفسير هذه الآية، فقال: «حدثنى جبرئيل

بتفسیرها، قال ذاک علی وشیعتُه إلی الجنّة» «۲».

هذان التفسیران لا یتعارضان مع بعضهما، لأنّ علیاً علیه السلام کان سبَّاقاً إلی الإیمان بالنبی صلی الله علیه و آله وکذلک فهو سبّاقٌ إلی الجنّة، وفی الحقیقة أنّ بینهما ارتباط والتحام لا ینفک أبداً.

وفی الکتاب نفسه نُقلت عدّة أحادیث اخری فی هذا الصدد.

وفی تفسیر «الدر المنثور» أیضاً نُقلت روایتان عن «ابن عباس» فی هذا المجال، فی احداهما ینقل «ابن أبی حاتم»، و «ابن مردویه» عن «ابن عباس» فی تفسیر هذه الآیة، قال:

«یوشع بن نون سبق إلی موسی ومؤمن آل یاسین سبق إلی عیسی وعلی بن أبی طالب سبق إلی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله» «۳».

وفی الکتاب نفسه ینقل حدیثاً آخر بنفس المضمون «۴».

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۱۳، ح ۹۲۴.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۱۵ و ۲۱۶، ح ۹۲۷.

(۳) تفسیر در المنثور، ج ۶، ص ۱۵۴.

(۴) المصدر السابق.

ومن الذین نقلوا هذه الروایة هو «ابن المغازلی» (علی ضوء نقل ابن البطریق) فی کتاب «العمدة»، و «سبط ابن الجوزی» فی «التذکرة»، و «ابن کثیر» فی «تفسیره»، و «ابن حجر» فی «الصواعق»، و «العلّامة الشوکانی» فی «فتح القدیر»، و «الشیخ سلیمان القندوزی» فی «ینابیع المودة» «۱».

والمسألة الجدیرة بالاهتمام أیضاً هی أنّ «القاضی روز بهان» الذی یتّصف بتعصب خاص فی القضایا المتعلقة بالإمامة والخلافة، وکتابه المسمی «ابطال نهج الحق» شاهد علی هذا المعنی یقول فی معرض اجابته للعلّامة الحلّی بشأن هذه الآیة (حیث ینقل العلّامة الحلّی فی کتابه، عن طریق أهل السنّة عن ابن عباس سابقُ هذه الامّة علی بن أبی طالب) فی کتابه «ابطال نهج الحق»: هذا الحدیث جاء فی روایات أهل السنّة ولکن بهذه العبارة:

«سبّاق الامّة ثلاثة: مؤمن آل فرعون، وحبیب النجار، وعلی بن أبی طالب» ثم یضیف: ولا شک أنّ علیاً علیه السلام سابق فی الإسلام، وصاحب السابقة والفضائل التی لا تحصی ولکن لا تدل الآیة علی نص بإمامته «۲».

ولکن ینبغی الالتفات إلی عدم قول أیأحد بأنّ هذه الأحادیث لوحدها تعنی النصّ علی إمامة علی بن أبی طالب علیه السلام، بل الغرض أنّنا عندما نستجمع هذه الآیات والروایات مع بعضها نری أنّ علیاً علیه السلام ابرز شخص فی الأمّة الإسلامیة کان لائقاً لهذا المقام، ولا یلحقه أحد فی هذا المجال.

فهل من المناسب أن نقدّم غیره علیه مع کل هذه المناقب التی لا تقبل الانکار، ونتبع غیره مع وجوده؟!

---

(۱) احقاق الحق، ج ۳، ص ۱۱۴- ۱۲۰.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۲۱.

نستأنف هذا البحث بذکر أمرین:

۱- مَن المقصود من: «قليلٌ من الآخرين»؟

فی سیاق الآیات المتقدمة، وبعد ذکر القرآن الکریم لمنزلة السابقین الرفیعة علی أنّهم المقربون لدی اللّه تعالی وأنّ منزلتهم فی جنات النعیم، یضیف: «ثُلَّةٌ مِّنَ الاوَّلِینَ وَقَلِیلٌ مِّنَ الآخِرِینَ».

ینقل الحاکم الحسکانی فی «شواهد التنزیل» عدّة روایات عن «محمد بن فرات»، و «محمد بن سهل»، و «علی بن عباس» عن «جعفر بن محمد علیه السلام» انّه قال فی تفسیر آیة:

«وقلیل من الآخرین» هو علی بن أبی طالب علیه السلام «۱».

ومن البدیهی أن لیس مفهوم الآیة أنّ جنّة هذه الامة مختصة به، بل إنّ مقام السبق فی الإیمان یستدعی مقامات سامیة فی الجنّة والقرب من اللّه تعالی حیث یختص بعلی بن أبی طالب علیه السلام (بعد النبی صلی الله علیه و آله).

من هنا ففی الآیات اللاحقة من هذه السورة التی توضّح منازل ومزایا طائفة اخری من أهل الجنّة (أصحاب الیمین)، یقول تعالی فی آخر المطاف: «ثُلَّةٌ مِّنَ الاوَّلِینَ* وثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِینَ». (الواقعة/ ۳۹- ۴۰)

واضح أنّ أصحاب الیمین وإن کانوا من أهل الجنّة إلّاأنّهم یُدانون «المقربین من السابقین».

۲- مَنْ هو أول مسلم؟

اشارة

هذا بحث مهم «مَنْ هو أول مَن آمن»؟ والبحث حوله لا تخفی أهمیّته؟

فقد اتفقت الامّة الإسلامیة جمیعها علی أنّ خدیجة الکبری علیها السلام کانت أوّل مَنْ آمن من النساء، أمّا من الرجال فبالرغم من اصرار البعض علی تعقید المسألة وتعریضها للبحث

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۹۸- ۲۹۹، الأحادیث ۹۳۲- ۹۳۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۸

والجدال، فمن خلال تفحص الأحادیث والتواریخ لا یبقی شک لکل مراقب محاید، بأنّ علیَّ بن أبی طالب علیه السلام کان أول مؤمن، فهو کان أول مصدّق برسول اللّه صلی الله علیه و آله وأول مَن بایعه، وأول مَن صلّی معه.

إنّ القرائن والأدلة علی هذه القضیة متوفرة فی جمیع المصادر الإسلامیة حیث نشیر فیما یأتی إلی جانب منها:

لقد روی ما لا یقل عن ثمانیة عشر من الصحابة وبطرق مختلفة- هذا الحدیث عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله بأنّ علیاً علیه السلام کان أول مَن آمن من الرجال وصلّی مع النبی صلی الله علیه و آله:

۱- یقول أبو سعید الخدری وهو من کبار الصحابة: أنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله ضرب علی کتف علیه السلام وقال: «یا علی لک سبع خصال لا یحاجک فیهن أحد یوم القیامة أنت أول المؤمنین إیماناً باللّه ...» «۱».

۲- تقول عائشة: نقلت فاطمة علیها السلام هذا الحدیث عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله أنّه قال لها:

«زَوَّجتُکِ أعلمَ المؤمنین علماً واقدمَهمْ سلماً وافضلهم حلماً» «۲».

۳- یقول ابن عباس: سمعت «عمر بن الخطاب» یقول:

کفوا عن ذکر علی بن أبی طالب فقد رأیت من رسول اللّه صلی الله علیه و آله فیه خصالًا لئن تکون لی واحدة فهی فی آل الخطاب

أحب الیَّ مما طلعت علیه الشمس، کنت أنا وأبو بکر وأبو عبیدة فی نفر من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فانتهیت إلی باب أم سلمة، وعلی قائم علی الباب فقلنا:

أردنا رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، فقال: یخرج إلیکم، فخرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فصرنا إلیه فاتکأ علی علی بن أبی طالب ثم ضرب بیده منکبه، ثم قال: «إنّک مخاصم تخاصم، أنت أول المؤمنین إیماناً، وأعلمهم بأیّام اللَّه، وأوفاهم بعهده، وأقسمهم بالسویة، وأرأفهم بالرعیة وأعظمهم رزیة» «۳».

إنّ هذا الحدیث یکشف عن قضایا کثیرة لا یستوعبها هذا البحث.

---

(۱) أورد هذا الحدیث «أبو نعیم الاصفهانی» فی «حُلیة الاولیاء»، ج ۱، ص ۶۶.

(۲) ینقل هذا الحدیث «ابن عساکر» فی «تاریخ دمشق» فی ترجمة الإمام علی علیه السلام ج ۱، ص ۲۴۴.

(۳) کنز العمال، ج ۱۳، ص ۱۱۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۵۹

۴- یروی «معاذ بن جبل» عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال لعلی علیه السلام: «تخصمُ الناس بسبع لا یحاجک فیه أحد من قریش أنت أولهم إیماناً باللَّه» «۱».

۵- تروی «أسماء بنت عمیس» زوجة جعفر بن أبی طالب، أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال لفاطمة: «زوجتُک أقدمهم سلماً وأعظمهم حلماً وأکثرهم علماً» «۲».

۶- یقول «سلمان الفارسی»: إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله قال: «أولکم وروداً علی الحوض، أولکم إسلاماً علی بن أبی طالب» «۳».

۷- یقول «أبو سخیلة» حججت مع سلمان فنزلنا بأبی ذر فکنا عنده ما شاء اللَّه، فلما حان منا خفوف قلت: یا أبا ذر انی اری أموراً قد حدثت وانی خائف أن یکون فی الناس اختلاف فإن کان ذلک فما تأمرنی؟ قال: «إلزم کتاب اللَّه عزّ وجلّ وعلی بن أبی طالب فأشهد أنّی سمعت رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یقول: علی أول من آمن بی، وأول من یصافحنی یوم القیامة، وهو الصدیق الأکبر وهو الفاروق یفرق بین الحق والباطل» «۴».

۸- یقول «عبد الرحمن بن عوف» فی حدیث فی ذیل آیة «السابقون الاولون»، کانوا عشرة انفار من قریش: «کان أولهم إسلاماً علی بن أبی طالب» «۵».

۹- ینقل جمال الدین أبو الحجاج فی کتاب «تهذیب الکمال» عن «أبو رافع» من أصحاب رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: «أول مَنْ أسلم من الرجال علی» «۶».

۱۰- یروی أنس بن مالک خادم رسول اللَّه أنّه صلی الله علیه و آله قال: «أول هذه الامّة وروداً علی

---

(۱) أورد هذا الحدیث شهاب الدین الحسینی الشافعی فی کتاب «توضیح الدلائل»، ص ۱۷۱ (حسب نقل احقاق الحق، ج ۲۰، ص ۴۵۵.

(۲) تاریخ ابن عساکر، ج ۱، ص ۲۴۵.

(۳) أورد هذه الروایة محمد بن أبی بکر فی کتاب «الجوهرة»، ص ۸، ونقلها صاحب کتاب کنز العمال أیضاً دون ذکر سندها، ج ۱۱ ص ۶۱۶.

(۴) مختصر تاریخ دمشق، ج ۱۷، ص ۳۰۶، حسب نقل احقاق الحق، ج ۲۰، ص ۴۷۲، وأورد هذا الحدیث کنزُ العمال من عبارة (إنّ

هذا أول من آمن بی إلی الأخیر) فی ج ۱۱، ص ۶۱۶، ح ۳۲۹۹۰.

(۵) مختصر تاریخ دمشق، ج ۱۷، ص ۳۰۷، تألیف الإمام محمد بن مکرم المعروف بابن منظور).

(۶) تهذیب الکمال، ج ۳، ص ۸۵ (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۲۰، ص ۳۶۷).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶۰

الحوض أولها إسلاماً، علی بن أبی طالب» «۱».

۱۱- یقول ابن عباس یمتاز علی علیه السلام بأربع خصائص لسْنَ فی احد غیره: هو اول عربی وعجمی صلّی مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله «۲».

ویقول فی موضع آخر: «أول مَنْ أسلم بعد خدیجة، علی بن أبی طالب» «۳».

۱۲- ینقل المحدّث المعروف النسائی فی کتاب «السنن» عن زید بن أرقم أنّه قال: «اول مَن أسلم مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله علی بن أبی طالب» «۴».

۱۳- ینقل أبو أحمد الجرجانی الشافعی فی کتاب «الکامل فی الرجال» عن مالک بن الحوریث» أنّه قال: «کان علی أول مَن اسلم من الرجال وخدیجة أول مَن أسلم من النساء» «۵».

۱۴- تقول لیلی الغفاریة، وهی امرأة کانت تداوی جرحی الحرب فی عصر الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله: خرجت مع علی علیه السلام بالبصرة فلما رأیت عائشة واقفة دخلنی شیء من الشک فأتیتها، فقلت: هل سمعت من رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فضیلة فی علی؟ قالت: نعم، دخل علی علی رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وهو علی فِراش لی وعلیه جرد قطیفة فجلس بینهما فقلت له: أما وجدت مکاناً هو أوسع لک من هذا؟ فقال النبیّ صلی الله علیه و آله: «یا عائشة دعی لی أخی فإنّه أول الناس بی إسلاماً وآخر الناس بی عهداً عند الموت وأولی الناس بی یوم القیامة» «۶».

۱۵- ینقل أحمد بن حنبل أحد الأئمّة الأربعة لأهل السنّة فی مسنده- حدیثاً عن الصحابی المعروف «معقل بن یسار»: إنّی کنت ذات یوم جالساً عند الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله

---

(۱) أورد هذا الحدیث ابن عدیم الحلبی وهو من علماء القرن السابع الهجری، فی کتابه تاریخ حلب ص ۲۹۵.

(۲) المختار فی مناقب الابرار، ص ۱۶، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۲۰ ص ۴۵۷).

(۳) ورد هذا الحدیث فی کتاب آل محمد، ص ۱۷۴، عن حسام الدین الحنفی.

(۴) احقاق الحق، ج ۲۰، ص ۴۷۵.

(۵) الکامل فی الرجال، ج ۶، ص ۲۳۷۸.

(۶) نقل هذا الحدیث محمد بن مکرم الأنصاری فی کتاب مختصر تاریخ دمشق، ج ۱۷، ص ۳۰۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶۱

فقال: هل لک فی فاطمة علیها السلام تعودها؟ فقلت: نعم، فقام متوکئاً علیَّ، فقال: أمّا أنّه سیحمل ثقلها غیرک ویکون أجرها لک، قال: فکأنّه لم یکن علی شیء حتی دخلنا علی فاطمة علیها السلام، فقال لها: کیف تجدینک؟ قالت: واللَّه لقد اشتد حزنی، واشتدت فاقتی وطال سقمی .... قال:

«أوما ترضین أنّی زوجتُک أقدم امتی سلماً وأکثرهم علماً وأعظمهم حلماً» «۱».

تجدر الإشارة إلی أنّ هذا الحدیث أورده ابن أبی الحدید فی «شرح نهج البلاغة ج ۳ ص ۲۵۷»، وابن عساکر فی «تاریخ دمشق، ج ۱، ص ۲۳۲»، والهیثمی فی «مجمع الزوائد، ج ۹، ص ۱۰۱»، والمتقی الهندی فی «کنز العمال، ج ۱۲، ص ۲۰۵»، وأورده جمع آخر من

علماء السنّة فی کتبهم.

۱۶- یقول «عبد اللَّه بن صامت» (ثابت) وهو من صحابة الرسول صلی الله علیه و آله: دخلنا یوماً علی رسول اللَّه فقلنا: «من أحب أصحابک إلیک؟ فإن کان أمر کنّا معه، وإن کان ناسئة کنا دونه، قال هذا علی أقدمکم سلماً وإسلاماً» «۲».

ویظهر جلیاً من هذا الحدیث بأنّ «عبد اللَّه بن ثابت» وأصحابه کانوا یبحثون عن رجل أفضل الناس جمیعاً بعد النبی صلی الله علیه و آله للإمامة والولایة، فأشار النبی صلی الله علیه و آله إلی الإمام علی علیه السلام معرّفاً إیّاه لتحمل هذا الأمر.

۱۷- وینقل «بریدة» وهو صحابی من صحابة النبی صلی الله علیه و آله قصةً مشابهة لقصة «معقل بن یسار»، حیث نقرأ فی نهایة تلک القصة أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله واسی فاطمة الزهراء علیها السلام وقال: «أما ترضین أنّ اللَّه زوجک من أقدم امتی إسلاماً وأغزرهم علماً وأفضلهم حلماً»؟ ثم یضیف: قال رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: واللَّه «إنّ أبنیک سیدا شباب أهل الجنّة» «۳».

۱۸- الإمام علی بن أبی طالب علیه السلام نقل بنفسه هذا المعنی فی حدیثه المقبول من قبل الجمیع، وقد ورد فی کتاب «الجوهرة» تألیف محمد بن أبی بکر الأنصاری: إنّ الإمام

---

(۱) مسند أحمد، ج ۵، ص ۲۶.

(۲) نقل هذا الحدیث أحمد بن مردویه فی کتاب المناقب، احقاق الحق، ج ۱۵، ص ۳۳۶.

(۳) أورد هذا الحدیث «ابن عساکر» فی «تاریخ دمشق» فی کتاب «ارجح المطالب» تألیف العلّامة التستری، ص ۱۰۷ و ۳۹۶ فقط.

علی علیه السلام قال علی منبر البصرة: «أنا الصدیق الأکبر، آمنت قبل أن یؤمن أبو بکر، وأسلمت قبل أن یسلم» «۱».

کذلک ینقل «الشیخ محمد بن مکرم الأنصاری» فی کتابه «مختصر تاریخ دمشق» عن الإمام أنّه قال: «أنا أوَّلّ مَنْ أسلم» «۲».

وهناک موارد متعددة فی «نهج البلاغة» تستند علی هذا المعنی منها أنّ الإمام یقول فی الجملة رقم ۱۳۱: «اللّهم إنّی أول مَن أناب وسمع وأجاب، لم یسبقنی إلّارسول اللَّه صلی الله علیه و آله بالصلاة» «۳».

تجدر الإشارة إلی أننا خرجنا بعض الشیء فی هذا البحث عن اسلوبنا فی هذا التفسیر واسهبنا فی الحدیث، إلّاأنّ أهمیّة المسألة أوجبت علینا التوسّع فی البحث أکثر مما ینبغی.

علی أیّة حال نختم هذه الروایات والروایات التی أوردها «ابن هشام» فی تاریخه المعروف «السیرة النبویة» مع الاعتراف بهذه الحقیقة، أنّ المواضیع غیر المطروقة کثیرة فی هذا الباب.

إنّه ینقل أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله فی أوائل أیّام الإسلام کان یذهب إلی بعض مفاوز مکة عند دخول وقت الصلاة لأداء الصلاة، ویرافقه علی بن أبی طالب- خفیة- فقط ... وذات یوم قال له أبوه أبو طالب: یا ولدی ما هذا الدین الذی أنت علیه؟ قال: یا أبت! آمنت باللَّه وبرسول اللَّه، وصدّقته بما جاء به، وصلیت معه للَّه‌واتبعته، فقال له: أمّا أنّه لم یدعک إلّاإلی خیر فالزمه «۴».

---

(۱) الجوهرة، ص ۸، وقد نقل هذا المعنی طائفة اخری مثل «أبو أحمد الجرجانی» فی کتاب الکامل فی الرجال، ج ۳، ص ۱۱۲۳، وتوضیح الدلائل، ص ۱۷۱، و مختصر تاریخ دمشق وغیرها.

(۲) مختصر تاریخ دمشق، ج ۱۷، ص ۱۱۸.

(۳) ورد هذا المعنی فی الخطبتین ۷۱ و ۱۹۲ أیضاً.

(۴) سیرة ابن هشام، ج ۱، ص ۲۶۳.

إنّ أسبقية إيمان على عليه السلام من الوضوح والجلاء بحيث إنّ جمعاً من الشعراء المعروفين ذكروه فى أشعارهم كواحدٍ من مناقب الإمام على عليه السلام ومفاخره.

يقول أحدهم فى هذا المجال:

أليس أول مَنْ صلّى لقبلتكُمْوأعلم الناس بالقرآن والسنن؟

ويقول آخر:

فهذا وفى الإسلام أوَّلُ مسلمواوَّل مَنْ صلّى وصام وهلّلا

وينقل المرحوم «العلّامة الأمينى» فى «الغدير» بعد ذكره لعشرة شعراء أنّهم انشدوا هذا المعنى فى طيات أشعارهم «۱».

وجدير بالذكر أيضاً أنّ العلّامة الأمينى ينقل فى ذلك الكتاب أكثر من مائة حديث آخر عن «الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله»، و «أمير المؤمنين عليه السلام»، و «الصحابة»، و «التابعين»، و «المؤرّخين»، و «المحدثين»، كلها تنصّ على أنّ علياً عليه السلام أول مَن آمن برسول الإسلام صلى الله عليه و آله من الرجال.

سؤال واحد فقط!

بقى هنا سؤال معروف كان مطروحاً بين بعض «المرجفين» منذ القرون الاولى لظهور الإسلام، وهو «صحيحٌ أنّ علياً عليه السلام أول مَن اسلم من الرجال، ولكن: هل يصح إسلامُ غلامٍ فى العاشرة من عمره؟» ولو سلّمنا بجعل زمان بلوغه معياراً فإنّ جمعاً آخر آمنوا بالإسلام قبله على هذا الأساس.

الجواب:

من المناسب أن نورد هنا المحاججة التى جرت بين «المأمون» الخليفة العباسى، مع أحد علماء أهل السنّة المعروفين فى عصره ويُدعى «اسحاق»، وقد أورد هذا الحديث «ابن عبد ربه»، فى «العقد الفريد».

---

(۱) الغدير، ج ۳، ص ۲۳۱- ۲۳۳.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶۴

إذ قال له «المأمون»: يا اسحاق أى الأعمال كان أفضل يوم بعث اللَّه رسوله؟

قال اسحاق: الإخلاص بالشهادة، قال المأمون: أليس السبق إلى الإسلام؟ قال اسحاق: نعم، قال المأمون: فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟ قال اسحاق: إنّ علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم، وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم ... فقال المأمون: أخبرنى عن إسلام على حين أسلم؟ فهل يخلو رسول اللَّه صلى الله عليه و آله حين دعاه إلى الإسلام من أن يكون دعاه بأمر اللَّه أو تكلف ذلك من نفسه؟ ثم قال: يا اسحاق لا- تنسب رسول اللَّه إلى التكلف فإنّ اللَّه يقول: «وما أنا من المتكلفين»، قال اسحاق:

دعاه بأمر اللَّه، قال المأمون: فهل من صفة الجبار جلّ ذكره أن يكلّف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم قد تكلّف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله من دعاء الصبيان ما لا يطيقون ... أترى هذا جائزاً عندك أن تنسبه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟ قال اسحاق: أعوذ باللَّه «۱».

ويضيف المرحوم العلّامة الأمينى رحمه الله) بعد نقله هذا الحديث من «العقد الفريد»: قال أبو جعفر الاسكافى المعتزلى المتوفى سنة ۲۴۰ فى رسالته: قد روى الناس كافة افتخار على عليه السلام بالسبق إلى الإسلام وأنّ النبى صلى الله عليه و آله استنبئ يوم الاثنين

وأسلم على يوم الثلاثاء، وأنّه كان يقول: صليت قبل الناس سبع سنين وأنّه مازال يقول: أنا أول مَن أسلم ويفتخر بذلك ويفتخر له به أولياؤه، وما دحوه، وشيعته فى عصره، وبعد وفاته، والأمر فى ذلك أشهر من كل شهير، وقد قدمنا منه طرفاً وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف بإسلام على عليه السلام، ولا تهاون به، ولا زعم أنّه أسلم إسلام حدث غرير وطفل صغير، ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدوا عن رأيه، ثم يخالفه على ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة «۲».

وخلاصة الحديث توضح من خلال النقاط التالية:

أولًا: إنّ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله قَبِل إسلام على عليه السلام، ومَن لم يقرّ بإسلامه فى ذلك السن،

---

(۱) العقد الفريد، ج ۳، ص ۴۳، بشكل مختصر.

(۲) الغدير، ج ۳، ص ۲۳۷.

فانه فى الواقع إنّما يُشكل على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله.

ثانياً: من خلال الروايات المشهورة التى تمت الإشارة إليها آنفاً ورد فى قصة يوم الدار أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله اعدَّ طعاماً ودعا عشيرته الأقربين من قريش لتناول الطعام ودعاهم للاسلام وأنَّ: أول من يلبى دعوته صلى الله عليه و آله فى الدفاع عن الإسلام سيكون أخاه ووصيه، فلم يلب أحد دعوته صلى الله عليه و آله سوى على بن أبى طالب، حيث قال عليه السلام: «أنا أعينك وابايعك» فقال صلى الله عليه و آله: «أنت أخى ووصى وخليفتى من بعدى» «۱».

فهل يصدّق احد أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله يتخذ- من لم يبلغ فى ذلك اليوم سن البلوغ، ولم يكن إسلامه مقبولًا أيضاً حسب قول المرجفين- أخاً ووصياً وخليفة له من بعده ويدعو الآخرين لمؤازرته إلى أن يصل الأمر ليقول رؤوس الشرك لابى طالب مستهزئين: يجب أن تسمع لابنك وتؤازره.

إنّ سن البلوغ ليس شرطاً فى صحة الإسلام بدون أدنى شك، فكل صبى مميز عاقل بما فيه الكفاية يؤمن بالإسلام على فرض عدم إسلام أبيه، يفصل عن أبيه ويحتسب فى زمرة المسلمين.

ثالثاً: يستفاد من القرآن الكريم أنّ البلوغ ليس شرطاً حتى فى النبوة، وأنّ بعض الأنبياء بلغوا هذا المقام فى سن الطفولة، كما يقول تعالى بخصوص النبى يحيى «وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً». (مريم/ ۱۲)

وقد جاء كذلك فى قصة عيسى عليه السلام أنّه قال بصريح الكلام حين طفولته: «انّي عَبدُ اللَّهِ آتَانِيَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيّاً». (مريم/ ۳۰)

وأكثر من هذه الامور جميعاً أنّ رسول الإسلام صلى الله عليه و آله قَبِلَ علياً عليه السلام حتى أنّه اتخذه فى يوم الدار أخاً ووصياً ووزيراً وخليفة له من بعده.

وعلى أيّة حال فإنّ الروايات التى تقول إنّ علياً عليه السلام هو أول مَن قَبِلَ دعوة الرسول صلى الله عليه و آله تعد فضيلة لا مثيل لها للإمام لا يساويه فيها أحد، ولهذا السبب فإنّه أفضل الامّة لخلافة الرسول صلى الله عليه و آله.

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۲۶۰.

۱۹- آية «اذُنٌ واعِيَة»

اشارة

«لِنَجعَلَهَا لَكُمْ تَذكِرَةً وَتَعِيَهَا اذُنٌ وَاعِيَةٌ». (الحاقة/ ۱۲)

لقد كان الهدف هو أن نجعل من نجاة المؤمنين بواسطة سفينة نوح واغراق الكافرين بواسطة الطوفان تذكرةً (لكم) لتعيها (والحوادث المشابهة لها) اذُنٌ واعية (كى تنقلوها للآخرين فيتّعظوا).

ينقل «السيوطى» فى «الدر المنثور» من ستة طرق عن «بريدة» الصحابى المعروف، عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لعلى عليه السلام: «إنّ اللَّه أمرنى أن ادنيَكَ ولا اقصيَكَ، وأن اعَلّمَكَ وَأنْ تَعِىَ، وَحَقٌ لَكَ أنْ تَعِىَ، فنزلت هذهِ الآيَة: وَتَعِيهَا اذُنٌ واعِيَةٌ» «۱».

وينقل فى نفس ذلك الكتاب عن «أبو نعيم الاصفهانى» فى «حلية الاولياء» عن على عليه السلام أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال له ... ثم يذكر نفس مضمون حديث «بريدة»، ويضيف فى النهاية: «فَأنْتَ اذُنٌ واعَيَةٌ لِعِلْمى» «۲».

وينقل أيضاً فى نفس ذلك الكتاب من خمسة طرق عن «مكحول» وهو احد خدّام النبى صلى الله عليه و آله، عندما نزلت آية «وتعيها اذُنٌ واعية» قال الرسول صلى الله عليه و آله: «سألت ربى أن يجعلها اذن على، قال محكول: فكان على يقول ما سمعت من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله شيئاً فنسيته» «۳».

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۲۶۰.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶۸

ونقل «الزمخشرى» الحديث الأخير فى «الكشاف» أيضاً دون أن يشكل عليه «۱».

ونقل جمعٌ آخر من المفسرين مثل «الفخر الرازى» فى «التفسير الكبير» «۲»، و «الآلوسى» فى «روح المعانى» «۳»، و «البرسونى» فى «روح البيان» «۴»، و «القرطبى» فى «التفسير الجامع» «۵»، نقلوا جميعاً نهاية الآية بخصوص الحديث الأخير.

وأورد «الطبرى» أيضاً فى تفسيره هذا الحديث وطائفة اخرى من الأحاديث بصدد هذا الموضوع. «۶»

وقد ذكر «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» ثلاثة عشر حديثاً فى نهاية هذه الآية حيث نقلها من عدّة رواة، وتنتهى سلسلة سندها إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وبعض هذه الأحاديث مروية عن «مكحول» خادم النبى صلى الله عليه و آله، وبعض منها عن «بريدة»، وبعضها عن شخص «على بن أبى طالب عليه السلام»، والبعض الآخر عن «جابر بن عبد اللَّه الأنصارى»، حيث ستطالعون نماذج من تلك الأحاديث أدناه:

نقرأ فى حديث عن «أبو الدنيا» عن على عليه السلام أنّه عندما نزلت الآية «وَتَعْيِهَا اذُنٌ وَاعِيَةٌ»، قال لى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله: «سألت اللَّه أن يجعلها اذنك يا على» «۷».

ونقرأ فى حديث آخر عن «مكحول» أنّه عندما تلا الرسول صلى الله عليه و آله آية «وَتَعِيهَا اذُنٌ وَاعِيَةٌ»، التفت إلى على عليه السلام وقال: «سألت اللَّه أن يجعلها اذُنك» «۸».

وفى حديث آخر عن «بريدة» أورد مضمون الحديث الذى نقلناه بادىء الأمر نصاً «۹» واخيراً ينقل عن «جابر بن عبد اللَّه الأنصارى» أنّه عندما نزلت الآية الآنفة الذكر، سأل

---

(۱) تفسير الكشاف، ج ۴، ص ۶۰۰.

(۲) تفسیر الکبیر، ج ۳۰، ص ۱۰۷.

(۳) تفسیر روح المعانی، ج ۲۹، ص ۴۳.

(۴) تفسیر روح البیان، ج ۱۰، ص ۱۳۶.

(۵) تفسیر القرطبی، ج ۱۰، ص ۶۷۴۳.

(۶) تفسیر جامع البیان، ج ۲۹، ص ۳۵.

(۷) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۷۱.

(۸) المصدر السابق، ص ۲۷۷ ح ۱۰۱۵.

(۹) المصدر السابق، ص ۲۸۲، ح ۱۰۲۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۶۹

الرسول اللّه تعالی أن یجعل اذن علی علیه السلام (مصداقها الأتم) وتحقق مراد النبی هذا «۱».

ونقل مؤلف کتاب «الفضائل الخمسة» هذا الحدیث أیضاً، اضافة لما ذکر من «کنز العمال»، و «نور الابصار»، و «مجمع الزوائد» للهیثمی، و «أسباب النزول» للواحدی «۲».

النتیجة:

مع الأخذ بنظر الاعتبار ما نقلناه سابقاً بخصوص شروط الإمامة والولایة وخلافة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والتی تنص علی ضرورة تمتع الأئمّة الإلهیین بالمقدار الکافی والسهم الأعظم من العلم والمعرفة لکی یتمکنوا تحمل مسؤولیة قیادة الامّة، وهدایة الخلق فی أمر الدین والدنیا، ویحفظوا تعالیم الإسلام وقوانین اللّه تعالی ویحرسوا القرآن والسنّة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ علیاً علیه السلام کان الشخص الوحید من الامّة الذی یمتاز بمثل هذه المکانة والموهبة بما یطابق الروایات الآنفة الواردة فی تفسیر الآیة المذکورة، فقد ثبت لنا دون أدنی شک بأنّه لم یکن الیق منه لاحراز مقام الإمامة والخلافة أحد.

---

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۲۸۰، ح ۱۰۱۹.

(۲) الفضائل الخمسة، ج ۱، ص ۳۲۰ و ۳۲۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۱

۲۰- آیة المحبة

«انَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَیَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحمنُ وُدّاً». (مریم/ ۹۶)

لهذه الآیة دلالة واضحة علی أنّ الإیمان والعمل الصالح هما مصدر المحبة بین فئات المجتمع.

أجل، للإیمان والعمل الصالح جاذبیة عجیبة، ذلک أنّها تجذب القلوب نحو بعضها کما یجذب المغناطیس الحدید نحوه، وحتی الأفراد الملوثون والنجسون یستأنسون بالطاهرین والصالحین من الأفراد.

ونقلت روایات کثیرة فی تفسیر هذه الآیة الشریفة فی المصادر المعروفة لأهل السنّة بواسطة عدّة رواة عن شخص الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله تنص علی أنّ هذه الآیة نزلت فی علی بن أبی طالب علیه السلام، وقد قلنا مراراً بأنّ نزول الآیة فی أحد الأفراد، یراد منه بأنّ ذلک الشخص هو المصداق الأتم لتلک الآیة، ولا یتنافی مع شمولیة معنی الآیة.

ونتوجه هنا نحو المنابع الإسلامیة متناولین جوانب من هذه الروایات بالبحث والدراسة:

فی «شواهد التنزیل» ینقل روایات متعددة عن «البراء بن عازب»، و «أبو رافع»، و «جابر بن عبد اللَّه الأنصاری»، و «ابن عباس»، و «أبو سعید الخدری»، و «محمد بن الحنفیة»، وبطرق متعددة علی أنّ هذه الآیة نزلت فی علی بن أبی طالب علیه السلام بأنّ جعل اللَّه محبته فی قلب کل مؤمن.

وجاء فی حدیث عن أبی سعید الخدری أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام «یا أبا

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۲

الحسن! قل اللّهم اجعل لی عندک عهداً واجعل لی فی صدور المؤمنین مودةً» «۱».

فنزلت الآیة الکریمة: «انَّ الَّذِینَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَیجَعَلُ لَهُمُ الرَّحمَنُ وُدّاً»، ثم أردف قائلًا: «لا تلقی مؤمناً إلّافی قلبه حبٌّ لعلی بن أبی طالب» «۲».

ویلاحظ هذا المعنی فی حدیث آخر عن «جابر بن عبد اللَّه الأنصاری» باختلاف قلیل جدّاً «۳».

ونقل هذا المضمون أیضاً عن «البراء بن عازب» عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله «۴».

وکذلک نقل هذا المعنی عن «محمدبن الحنفیة» (بعدة طرق) مع هذا الفارق أنّه فی هذه الروایات وردت محبّة ذریة وأهل بیت علی علیه السلام إلی جانب محبّته «۵».

وقد وردت فی هذا الکتاب عشرون روایة تقریباً وکلها تتناول هذا المعنی بطرق متعددة.

ونقل «السیوطی» هذا الحدیث أیضاً فی «الدر المنثور» بطرقه المختلفة عن «البراء بن عازب»، وعن «ابن عباس» «۶».

ونقل «الزمخشری» فی تفسیر «الکشاف» هذه الروایة فی نهایة الآیة الشریفة أنّ الرسول صلی الله علیه و آله قال لعلی علیه السلام:

«یا علی قل اللهم اجعل لی عندک عهداً واجعل لی فی صدور المؤمنین مودة فأنزل اللَّه هذه الآیة» «۷».

وأورد المفسر المعروف «القرطبی» عین هذا المضمون فی تفسیره، ولم یشکل علیه أیضاً مثل الکشاف «۸».

---

(۱) هذا التعبیر إشارة للآیة ۸۷ من هذه السورة التی تقول حول مسألة الشفاعة أنّهم لایملکون الشفاعة إلّامن اتخذ عند الرحمن عهداً.

(۲) شواهد التنزیل، ج ۱ ص ۳۶۵، ح ۵۰۴.

(۳) المصدر السابق.

(۴) المصدر السابق، ص ۳۵۹، ح ۴۸۹ و ۴۹۰.

(۵) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۳۶۶ و ۳۶۷ الأحادیث ۵۰۵ و ۵۰۶ و ۵۰۷ و ۵۰۸ و ۵۰۹.

(۶) تفسیر در المنثور، ج ۴، ص ۲۸۷.

(۷) تفسیر الکشاف، ج ۳، ص ۴۷.

(۸) تفسیر القرطبی، ج ۶ ص ۴۲۰ (ذیل آیة مورد البحث).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۳

ومن الشخصیات المعروفة التی نقلت هذا الحدیث فی نهایة الآیة «سبط ابن الجوزی» فی «التذکرة» «۱»، و «محب الدین الطبری» «۲»، و «ابن الصباغ المالکی» فی «الفصول المهمّة»، «۳» و «الهیثمی» فی «الصواعق» «۴»، و «ابن صبان» فی «اسعاف الراغبین» «۵»، وقد وردت اسماؤهم فی الکتب المبسوطة حول الإمامة والولایة.

والمفسر الوحید الذی اتخذ موقفاً سلبیاً ازاء هذا الحدیث بین المفسرین المعروفین «هو الالوسی» فی «روح المعانی»، حیث إنّه ینقل الحدیث طبقاً لما هو معمول به ثم یسعی إلی التقلیل من شأنه أو اهماله بالکامل.

إنّه وبعد أن ينقل الحديث عن «البراء بن عازب» ويؤيده مع حديث «محمد بن الحنفية» يقول: «المعيار فى تفسير الآية عموم اللفظ دون خصوص سبب النزول» «۶».

قلنا مراراً ونعود فنقول مرة اخرى لا يدعى أحد أنّ سبب النزول يحدد المفهوم الشامل للايات، بل إنّ سبب النزول هو الاتم والاكمل للاية.

وبتعبير آخر: إنّ ما جاء فى هذه الروايات بشأن على عليه السلام على أنّ اللَّه تعالى جعل محبته فى قلوب المؤمنين جميعاً، لم يأت بشأن أى فرد آخر من امة محمد صلى الله عليه و آله، وهذه فضيلة كبرى لأمير المؤمنين على عليه السلام حيث لا يجاريه احد فى هذه الفضيلة.

يا ترى أليس من جعل اللَّه تعالى قلوب المؤمنين جميعاً تطفح بمودته ومحبته، أجدر من الجميع لمنصب الإمامة الإلهى، وخلافة الرسول صلى الله عليه و آله؟

---

(۱) التذكرة، ص ۲۰.

(۲) ذخائر اعقبى، ص ۸۹.

(۳) الفصول المهمة، ص ۱۰۶.

(۴) الصواعق المحرقة، ص ۱۷۰.

(۵) اسعاف الراغبين المدون فى حاشية نور الابصار، ص ۱۱۸.

(۶) تفسير روح المعانى، ج ۱۶، ص ۱۳۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۵

۲۱- آية المنافقين

«وَلَوْ نَشَاءُ لَاَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيَماهُم وَلَتَعْرِفَنَّهُم فِى لَحْنِ القَوْلِ». (محمد/ ۳۰)

تعدُّ هذه الآية- فى الحقيقة- نقطة مقابل شىء ما ورد فى الآية السابقة.

فقد نزلت هذه الآية بشأن المنافقين وصفاتهم، يقول تعالى ولو نشاء لأريناكهم بل ونضع العلامات فى وجوههم لتعرفهم بها.

ثم يضيف بعد ذلك: ولتعرفنّهم أيضاً فى طريقة حديثهم، لاسيما وأنّه كلما ورد الحديث عن الجهاد، تراهم يسعون للتنصل واضعاف معنويات الناس، وعندما يدور الحديث عن الصالحين والطاهرين والسابقين فى الإسلام، يسعون لخدش سمعتهم ومكانتهم.

ومن هنا حيث نقرأ فى حديث مشهور عن «أبى سعيد الخدرى» أنّه يقوله فى تفسير جملة «وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ القَوْلِ»: «ببغضهم على بن أبى طالب!» نقل هذا الحديث «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» من ثلاثة طرق «۱».

ونقل «السيوطى» أيضاً فى تفسير «الدر المنثور» هذا الحديث عن «ابن مردويه» و «ابن عساكر» عن «أبى سعيد الخدرى» «۲».

وينقل فى رواية اخرى عن «ابن مسعود» أنّه كان يقول: «ماكنا نعرف المنافقين على عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلّابببغضهم على بن أبى طالب عليه السلام» «۳».

ولا يقتصر رواة هذا الحديث والكتب التى نقل فيها على ما ذكره فقط، ذلك أنّ «جابر بن

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۱۷۸ (ح ۸۸۳ إلى ۸۸۵).

(۲) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۶۶.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۶

عبد اللّه الأنصاری»، و «أبوذر الغفاری» نقلا هذا الحدیث أیضاً.

ومنهم أنّ «ابن عبد البر» ینقل هذا الحدیث عن جابر فی «الاستیعاب» «۱»، وأنّ «محب الدین الطبری» ینقل عن «أبو ذر» فی «الریاض النضرة» بهذا النحو: «ما کنا نعرف المنافقین علی عهد رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلّابثلاث: بتکذیبهم اللّه ورسوله والتخلف عن الصلاة وبغضهم علیَّ بن أبی طالب» علیه السلام «۲».

ونقل هذا الحدیث أیضاً فی «صحیح الترمذی» وهو من المصادر الرئیسة لدی أهل السنة من طریقین عن «أبی سعید الخدری» و «أم سلمة»، وهناک فارق بسیط فی حدیث «أم سلمة» عن الحدیث السابق «۳».

ونقل ابن عساکر أیضاً فی تاریخ دمشق، نفس هذا المضمون أو نظیره مرة عن «أبی سعید الخدری»، ومرة عن «جابر بن عبد اللّه»، واخری عن «عبادة بن الصامت»، ومرة عن «محبوب بن أبی الزناد» «۴».

جاء فی حدیث «عبادة بن الصامت» أنّه قال «کنّا نبور أولادنا بحب علی بن أبی طالب علیه السلام، فاذا رأینا أحداً لا یحب علی بن أبی طالب علمنا أنّه لیس منّا، وأنّه لغیر رُشده»، وفی حدیث «محبوب بن أبی الزناد»، أنّه ورد علی لسان طائفة من الأنصار قولهم: «إنّ کنّا لنعرف الرجل إلی غیر أبیه ببغضه علی بن أبی طالب علیه السلام» «۵».

وننهی حدیثنا بنقل هذه الروایة التی تمتاز بسعة مفهومها وشمولیتها مع حدیث منقول عن شخص الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله.

تحدث الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله یوم خیبر بحدیث مفصل بشأن علی علیه السلام، ومن جملة ماقاله:

«یا أیّها الناس امتحنوا أولادکم بحبه، فإنّ علیاً لایدعو إلی ضلالة ولا یبعدعن هدی فمن

---

(۱) الاستیعاب، ج ۲، ص ۴۶۴.

(۲) الریاض النضرة، ص ۲۱۴.

(۳) صحیح الترمذی، ج ۵، ص ۶۳۵، ح ۳۷۱۷.

(۴) تاریخ مدینة دمشق، ج ۴۲، ص ۲۸۷.

(۵) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۷

أحبه فهو منکم ومن أبغضه فلیس منکم!» «۱».

یتضح لنا بشکل جلی أنّ الإنسان عندما یتأمل بشکل دقیق فی هذه الروایات والروایة السابقة المذکورة فی نهایة الآیتین الشریفتین من القرآن بانه یواجه شخصیة یعد حبه ومودته علامة الإیمان، ومخالفته ومعاداته علامة الکفر والنفاق، هذا فی الوقت الذی تمکنت فیه هذه الروایات أن تمر عبر الممرات الزمنیة السابقة، حیث قامت الحکومات السابقة مثل حکومة بنی امیة بمضایقة ومحاصرة أصحاب ومحبی علی علیه السلام باشد ما یکون، وحیث کان أعداؤه یمسکون زمام الامور فی کل مکان، بل وحتی أنّ سب ولعن علی فی المجالس العامة کان ممّا یتقرب به للحکومة ومراکز السلطة، حقاً أنّ الإنسان لیتعجب من أنّ کل هذه الفضائل الفریدة والنادرة التی ملأت الآفاق شرقاً وغرباً، وملأت صفحات کتب الروایة والتفسیر والتاریخ، کیف تمکنت أن تفلت من قبضة هؤلاء الأعداء الألداء وتصل الیوم إلی أیدینا.

لا یمکن أن ننظر إلی هذا الأمر سوی أنّه من مشیئة اللّه وامداده من أجل بقاء نور الحق مضیئاً علی مر القرون والأعصار، ولإتمام الحجة فی خلافة وولایة علی علیه السلام علی جمیع الاجیال.

(۱) مختصر تاریخ ابن عساکر، ج ۱۷، ص ۳۷۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۷۹

۲۲- آیة الإیذاء

«انَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِی الدُّنیَا وَالآخِرَةِ وَاعَدَّ لَهُمْ عَذابَاً مُّهِیناً».

(الأحزاب/ ۵۷)

من البدیهی أنّه لیس بوسع احد أن یلحق الاذی والضرر بالذات المقدسة للّه‌تعالی وبناءً علی ذلک فإنّ المراد من ایذاء اللّه- کما أکّد علی ذلک المفسرون أیضاً- أنّ الکفر والالحاد هما اللذأن یغضبان اللّه تعالی وقد أکدت الآیة علی معاقبة الذین یؤذون الرسول والمؤمنین، ذلک أنّ ایذائهم یعد بمنزلة ایذاء اللّه تعالی

ونقرأ هنا فی الروایات المتعددة التی وصلت عن طرق الاخوة من أهل السنّة، وعن طرق أهل البیت علیهم السلام أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله قال: «یاعلی! من آذاک فقد آذانی»، وعلی هذا النحو فإنّ ایذاءه یعد ایذاءً للرسول صلی الله علیه و آله.

ینقل «الحاکم الحسکانی» فی «شواهد التنزیل» عن «جابر بن عبد اللّه الأنصاری» أنّه قال: سمعت من الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّه قال لعلی «من آذاک فقد آذانی» «۱».

وینقل فی حدیث آخر عن «ابن أبی سلمة» عن أم سلمة زوج الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، أنّها قالت: سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول لعلی بن أبی طالب علیه السلام: «أنت أخی وحبیبی، من آذاک فقد آذانی» «۲».

ثم یضیف قائلًا: ونقل نفس هذا المعنی عن طائفة اخری مثل «عمر»، و «سعد بن أبی وقاص»، و «أبو هریرة»، و «ابن عباس»، و «أبو سعید الخدری» «۳».

(۱) شواهد التنزیل، ج ۲، ص ۸۹، ح ۷۷۷.

(۲) المصدر السابق، ص ۹۸، ح ۷۷۸.

(۳) المصدر السابق، ص ۹۹.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۰

ونقل فی حدیث آخر عن علی بن أبی طالب علیه السلام أنّه قال وقد اشار إلی شعره ومسکه بیده: حدثنی رسول اللّه صلی الله علیه و آله وقد أشار إلی شعره وقبض علیه بیده ثم قال: «من آذی شعرةً منک فقد آذانی، ومن آذانی فقد آذی اللّه، ومن آذی اللّه فعلیه لعنة اللّه» «۱».

إنّ الأحادیث التی ذکرت تشیر فقط إلی أنّ ایذاء علی علیه السلام یعد ایذاءً للرسول صلی الله علیه و آله، إلّاأنّه لم یستند فیها إلی الآیة السابقة، بینما ورد هذا الاستناد بشکل صریح فی بعض الروایات، منها ماقاله الحاکم النیسابوری فی «مستدرک الصحیحین» فی حدیث صحیح معتبر عن «ابن عباس» أنّه قال: إنّ رجلًا من أهل الشام سب علیاً علیه السلام أمامه، فقال ابن عباس: «یاعدو اللّه آذیت رسول اللّه صلی الله علیه و آله «انَّ الَّذِینَ یُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِی الدُّنیَا وَالآخِرَةِ وَاعَدَّ لَهُمْ عَذابَاً مُّهِیناً» لو کان رسول اللّه صلی الله علیه و آله حیاً لآذیته» «۲».

ونقل «الذهبی» هذا الحدیث أیضاً فی «تلخیص المستدرک» ویصرح أنّه حدیث صحیح «۳».

ونقل السیوطی فی «الدر المنثور» روایة ابن عباس واستناده إلی الآیة الشریفة السابقة أیضاً «۴».

وينقل أيضاً فى كتاب «مستدرك الصحيحين» عن «عمرو بن شاس» حديثاً مفصلًا جاء فى آخره: «يقول عمرو بن شاس الاسلمى وكان من أصحاب الحديبية قال: خرجنا مع على عليه السلام إلى اليمن فجفانى فى سفره ذلك حتى وجدت فى نفسى، فلما قدمت اظهرت شكايته فى المسجد حتى بلغ ذلك رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: فدخلت المسجد ذات غداة، ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى ناس من أصحابه فلما رآنى أبدنى عينيه، قال: يقول حدد إلىّ النظر حتى إذا جلست قال: ياعمرو أما واللَّه لقد آذيتنى، فقلت: أعوذ باللَّه أن أوذيك يارسول اللَّه، قال: بلى من آذى علياً فقد آذانى».

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۹۷، ح ۷۷۶.

(۲) مستدرك الصحيحين، ج ۳، ص ۱۲۱.

(۳) تلخيص المستدرك المطبوع نهاية مستدرك الصحيحين، ج ۳، ص ۱۲۲.

(۴) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۲۲۰.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۱

ويقول الحاكم النيسابورى بعد ذكره هذا الحديث: إنّه حديث صحيح معتبر «۱».

تجدر الإشارة إلى أنّ: مؤلف «مختصر تاريخ دمشق» أورد هذا الحديث فى كتابه مع عدّة أحاديث اخرى عن «جابر»، و «سعد بن أبى وقاص»، و «عمرو بن شاس»، وكلها تُجمع على أنّ ايذاء على عليه السلام يعد ايذاءً للرسول صلى الله عليه و آله «۲».

إنّ هذه الأحاديث «متظافرة» وكثيرة، وأنّ الكثير منها يعدّ من الأحاديث التى قال بصحة سندها علماء أهل السنّة، وهى تدل بشكل واضح على أنّ علياً عليه السلام هو نفس الرسول صلى الله عليه و آله، ومودته مودة للرسول صلى الله عليه و آله ومحبته محبة لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله وايذاؤه ايذاء لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله.

وبناءً على ما تقدم، هل من شك فى أنّ علياً عليه السلام أفضل الامّة بعد رسول اللَّه، وأنّه أليق فرد فى الامّة لتولى منصب الإمامة والولاية وخلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله؟

---

(۱) مستدرك الصحيحين، ج ۳، ص ۱۲۲، وقد ورد هذا ورد هذا الحديث نصاً فى تلخيص الذهبى.

(۲) مختصر تاريخ دمشق، ج ۱۷، ص ۳۴۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۳

۲۳- آية الانفاق

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ امْوَالَهُمْ بَاللَّيلِ وَالنَّهَارِ سِرّاً وَعَلَانِيَةً فَلَهُم اجْرُهُم عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ». (البقرة/ ۲۷۴)

لاشك أنّ مفهوم الآية مفهوم عام وشامل، إذ إنّ الترغيب بالانفاق فى سبيل اللَّه يتخذ اشكالًا مختلفة، فى السر والعلن وفى الليل والنهار، وتبشر المنفقين بشارة عظيمة: «فَلَهُمْ اجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِم وَلَا خَوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحزَنُونَ» ممّا قد سلف أو ممّا هو آت، ولكن يستفاد من الروايات الإسلامية أنّ مصداق هذه الآية الأكمل هو على عليه السلام.

لاسيما أنّه وردت روايات كثيرة فى سبب نزول هذه الآية، تؤكد على أنّها نزلت أول مرّة فى حق على عليه السلام.

يقول ابن عباس: نزلت هذه الآية فى على بن أبى طالب عليه السلام وكانت عنده أربعة دراهم فقط، أنفقهن فى سبيل اللَّه، درهماً فى الليل، ودرهماً فى النهار، ودرهماً فى العلن، ودرهماً فى السر، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله «ما حملك على هذا؟ قال: حملنى عليها رجاء أنّ استوجب على اللَّه ما وعدنى».

فقال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «ألا ذلك لك»، فنزلت الآية السابقة فى هذه الأثناء.

أورد هذا الحديث «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» مع سبعة أحاديث اخرى بنفس هذا المضمون بطرق مختلفة «۱».

وينقل «السيوطى» هذا المضمون نفسه فى «الدر المنثور» بطرق متعددة منها: عن ابن عباس، أنّ هذه الآية نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام وعنده أربعة دراهم، انفق منها درهماً

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۱۰۹- ۱۱۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۴

فى الليل، ودرهماً فى النهار، ودرهماً فى السر ودرهماً فى العلن، ونزلت هذه الآية «۱».

معنى هذا الحديث أنّ علياً عليه السلام كان يسلك مختلف السبل من أجل الحصول على رضا اللّه تعالى فقد انفق كل ما تحت بساطه فى سبيل اللّه، وكذلك فإنّه اعطى ليلًا وانفق فى حالتين مختلفتين سراً وعلناً، وفى النهار أيضاً انفق فى كلا الحالتين سراً وعلانية، إنّ هذا الإيثار والإخلاص المقرون بالشوق العظيم لكسب رضا اللّه تعالى وبكل وسيلة ممكنة، نال قبول اللّه تعالى فنزلت تلك الآية الشريفة.

ومن الذين نقلوا هذه الرواية، «محب الدين الطبرى» فى «ذخائر العقبى «۲»، و «سبط ابن الجوزى» فى «التذكرة» «۳»، و «العلّامة الكنجى» فى «كفاية الطالب» «۴»، والمفسر المعروف «القرطبى» فى تفسيره «۵»، وأورد هذا الحديث- بنفس تلك العبارة أو باختلاف بسيط- جمع آخر فى كتبهم.

وكذلك ذكره «الشبلنجى» فى «نور الأبصار» «۶»، و «الشيخ سليمان القندوزى» فى «ينابيع المودة» «۷».

وينقل مؤلف «الفضائل الخمسة» هذا الحديث أيضاً فى كتابه عن جمع آخر منهم «ابن الاثير» فى «اسد الغابة» «۸»، و «ابن حجر» فى «الصواعق المحرقة» «۹»، و «الواحدى» فى «أسباب النزول» «۱۰».

ونختم هذه الأحاديث بجملة عن ابن أبى الحديد المعتزلى: إنّه وبعد الإشارة إلى

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۳۶۳.

(۲) ذخائر العقبى ص ۸۸.

(۳) تذكرة الخواص، ص ۱۷.

(۴) كفاية الطالب، ص ۱۰۸.

(۵) تفسير القرطبى، ج ۲، ص ۱۱۱۵، (ذيل الآية مورد البحث).

(۶) نور الابصار، ص ۱۰۵.

(۷) ينابيع المودة، ص ۹۲.

(۸) اسد الغابة، ج ۴، ص ۲۵.

(۹) الصواعق المحرقة، ص ۷۸.

(۱۰) أسباب النزول، ص ۶۴ (استناداً لنقل الفضائل الخمسة)، ج ۱، ص ۳۲۱ و ۳۲۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۵

الصفات السامية لعلى عليه السلام، وعندما يصل إلى مسألة الجود والسخاء يقول بعد الإشارة لآيات سورة هل أتى: وروى المفسرون أنّه لم يملك إلّاأربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلًا، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، فأنزل فيه «الذين ينفقون أموالهم ...»

«۱».

یبین هذا التعبیر أنّ هذه المسألة متفق علیها بین المفسرین أو علی الأقل مشهورة.

---

(۱) شرح ابن أبی الحدید، ج ۱، ص ۲۱ (أورده ضمن مقدمة فی وصف المولی علی علیه السلام).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۷

۲۴- آیة المحبة

«یَا ایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا مَنْ یَرْتَدَّ مِنْکُمْ عَنْ دِینِهِ فَسَوْفَ یَأْتِی اللَّهُ بِقَوْمٍ یُحِبُّهُمْ وَیُحِبُّونَهُ اذِلَّةٍ عَلَی الْمُؤْمِنِینَ اعِزَّةٍ عَلَی الْکَافِرِینَ یُجَاهِدُونَ فِی سَبِیلِ اللَّهِ وَلَایَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِکَ فَضْلُ اللَّهِ یُؤْتِیهِ مَنْ یَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِیمٌ». (المائدة/ ۵۴)

تصرح هذه الآیة بوضوح: بأنّ ارتداد المسلمین الداخلین توّاً إلی الإسلام لا یشکل ضرراً علیه، فإنّ اللَّه تعالی قد أوکل أمر الدفاع عن هذا الدین المقدس إلی طائفة من المؤمنین ذوی الخصال المتمیزة، من الذین یحبون اللَّه ویحبهم.

والذین یمتازون بالتواضع والتخضع أمام المؤمنین، وبالشدة والشجاعة أمام الکافرین، الذین یحاربون ویجاهدون دون کلل فی سبیل اللَّه، ولا یخافون لومة لائم أبداً.

أجل، إنّ اجتماع هذه الصفات فی فرد أو مجموعة من الأفراد، یعد فضلًا إلهیاً لا یلیق بکائن من کان.

ولا- شک فی أنّ مفهوم هذه الآیة واسع وشامل کما هو الحال فی کثیر من الآیات السابقة، ولکن یستفاد من الروایات المنقولة عن طرق الشیعة والسنة وبشکل واضح أنّ علیاً علیه السلام أفضل واکمل مصداق لهذه الآیة.

وعندما یصل الفخر الرازی إلی تفسیر هذه الآیة، وینقل اقوالًا عن المفسرین حول تطبیق هذه الآیة، یقول فی نهایة البحث:

قال جمع إنّ هذه الآیة نزلت فی علی علیه السلام، ثم یستدل بدلیلین لدعم هذا القول، أولًا عندما اعطی الرسول صلی الله علیه و آله الرایة بید علی علیه السلام یوم خیبر، قال «لأدفعن الرایة غداً إلی رجل یحبُّ اللَّه ورسوله ویحبه اللَّه ورسوله». نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۸

ثم یقول: وهی عین الصفة التی اشیر إلیها فی الآیة الآنفة، والدلیل الآخر أنّ الآیة التالیة لها هی آیة: «انَّمَا وَلِیُّکُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ...» إذ نزلت بحق علی علیه السلام لذا من الأجدر القول أنّ الآیة السابقة هی الاخری نزلت بحقه أیضاً (نهایة کلام الفخر الرازی) «۱».

إنّ استدلال الفخر الرازی بکلام الرسول صلی الله علیه و آله یوم فتح خیبر إشارة إلی حدیث معروف نقل فی الکثیر من الکتب المشهورة علی أنّه قیل بحق علی علیه السلام، ویعد من أعظم فضائله علیه السلام، سیما وأنّه طبقاً لهذا الحدیث، وبعد أن فشل نفر من قادة جیش الإسلام فی فتح خیبر، فإنّ الرسول صلی الله علیه و آله وقف فی لیل ذلک الیوم وسط الجیش وخاطبهم قائلًا: «لأعطین الرایة غداً رجلًا یحب اللَّه ورسوله ویحبه اللَّه ورسوله کراراً غیر فرار، لا یرجع حتی یفتح اللَّه علی یده!».

ثم قال: این علی؟ قالوا: إنّه مریض، وعینه تؤلمه (ولا یقوی علی الحرب) فقال: علیّ به، فجاء علی ونفخ الرسول صلی الله علیه و آله فی عینه (أو مسح من ریق فمه علی عینه) فبرأت عینه المبارکة، فأعطاه الرایة، وفی الیوم التالی فتح خیبر فی هجوم خاطف (فتحقق هذا التنبوء العجیب للرسول صلی الله علیه و آله بشأنه).

وقد أورد هذا الحدیث- إضافة للفخر الرازی- کثیر من المحدثین والمؤرخین (باختلاف بسیط فی التعابیر) فی کتبهم، ومنهم الحاکم النیسابوری فی کتاب مستدرک الصحیحین: وقد أشار إلیه فی ثلاثة مواضع: أولًا نقل فی حدیث عن «ابن عباس» أنّ جماعة تحدثوا عنده بألفاظ غیر مناسبة بشأن علی علیه السلام فانزعج بشدّة وقال: «اف وتف، وقعوا فی رجل له بضع عشرة فضائل لیس لأحد غیره وقعوا فی رجل قال له النبی صلی الله علیه و آله لأبعثن رجلًا لا یخزیه اللَّه أبداً یحب اللَّه ورسوله ویحبه اللَّه ورسوله» «۲».

وينقل فى حديث آخر عن «عامربن سعدبن أبىوقاص» أنّ معاوية قال لأبى «سعد» ذات يوم: ما يمنعك أن تسب ابن أبى طالب؟ فقال: لا أسبه ماذكرت ثلاثاً قالهن له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأنّ تكون لى واحدة منهن احب الى من حمر النعم، قال معاوية: وما هن؟ قال: «حين أنزل

---

(۱) التفسير الكبير، ج ۱۲، ص ۲۰.

(۲) المستدرك، ج ۳، ص ۱۳۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۸۹

عليه «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجسَ اهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» فأخذ علياً وفاطمة وابنيها فادخلهم تحت ثوبه وقال: «ربّ إنّ هؤلاء أهل بيتى»، ولا أسبه ما ذكرت حين خلفه فى غزوة تبوك، فقال له: خلفتنى مع الصبيان والنساء، قال:

«إلّا ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلّاأنّه لا نبوة بعدى»، ولا اسبه ماذكرت يوم خيبر، وقال: «لأعطين الراية غداً رجلًا يحب اللَّه ورسوله ويفتح اللَّه على يديه» فتطاولنا لرسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقال: أين على، قالوا: هو أرمد، قال: ادعوه، فدعوه فبصق فى وجهه ثم أعطاه الراية ففتح اللَّه عليه، قال: فلا واللَّه ماذكره معاوية بحرف حتى خرج من المدينة «۱».

وينقل فى الحديث الثالث عن «عبد اللَّه بن بريدة الأسلمى» أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قال الجملة التالية فى خيبر ... ثم ينقل القصة مع بعض الإضافات علاوة على ماذكر آنفاً «۲».

ومن الذين صرحوا بأنّ الآية السابقة نزلت بحق على عليه السلام، «الثعلبى» فى تفسيره (استناداً إلى ما ورد فى مناقب عبد اللَّه الشافعى) إذ يقول فى نهاية الآية السابقة: «إنّها نزلت فى على عليه السلام» «۳».

ويصرح العلّامة «الثعلبى» فى نهاية هذه الآية أيضاً (بناءً على نقل ابن بطريق فى كتاب العمدة): أنّها نزلت فى على بن أبى طالب عليه السلام «۴».

وينقل ذلك أيضاً مؤلف «كنز العمال» فى كتابه عن «سعد بن أبى وقاص»، وفى حديث آخر عن «عامر بن سعد» أورد نفس هذا المعنى مع بعض الإضافات «۵».

إنّ هذه الأحاديث وما يشابهها التى وردت فى الكتب المعروفة للسنة واتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام تحكى عن فضيلة لا مثيل لها على قول سعد بن أبى وقاص، التى إن وجدت فى أحد الأفراد تكفيه فخراً وفضلًا.

---

(۱) تلخيص المستدرك المطبوع فى حاشية المستدرك، ج ۳، ص ۱۰۸ و ۱۰۹.

(۲) المستدرك، ج ۳، ص ۴۳۷.

(۳) المناقب، ص ۱۶۰ مخطوطة (بناءً على نقل احقاق الحق، ج ۱۴، ص ۲۴۸).

(۴) العمدة، ص ۱۵۱، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۳ ص ۱۹۸).

(۵) كنز العمال، ج ۱۳، ص ۱۶۲ و ۱۶۳ (الحديث رقم ۳۶۴۹۵ و ۳۶۴۹۶) (طبع مؤسسة الرسالة- بيروت).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۰

وبوجود مثل هذه الشخصية وسط الامّة، هل يجدر بنا أن نتصور أنّه بالإمكان تسليم خلافة الرسول صلى الله عليه و آله لغير شخصه؟!

ولهذه الملاحظة أيضاً أهميّة بالغة فى تأكيد مفهوم آية المودّة، أنّه يستفاد من الروايات الواردة فى الكتب المعروفة والمشهورة أنّ علياً عليه السلام لم يحظ برعاية الرسول صلى الله عليه و آله ولطف اللَّه تعالى به فحسب، بل إنّه كان أحبّ المخلوقات عند اللّه ورسوله أيضاً.

والشاهد على هذا الكلام حديث «الطير» المعروف.

نقرأ فى كتاب «المستدرك على الصحيحين» إنّ «أنساً» خادم الرسول صلى الله عليه و آله مرض بعد أن عمَّر طويلًا بعد النبى صلى الله عليه و آله فأتاه محمد بن الحجاج يعوده فى أصحاب له، فجرى الحديث حتى ذكروا علياً عليه السلام فتنقصه محمد بن الحجاج، فقال أنس: من هذا أقعدونى فأقعدوه، فقال: يا ابن الحجاج، إلّاأراك تنقص على بن أبى طالب، والذى بعث محمداً صلى الله عليه و آله بالحق، لقد كنت خادم رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بين يديه وكان كل يوم يخدم بين يدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله غلام من أبناء الأنصار، فكان ذلك اليوم يومى، فجاءت ام أيمن مولاة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بطير فوضعته بين يدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: يا ام أيمن ما هذا الطائر؟ قالت: هذا طائر أصبته فصنعته لك، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «اللّهم جئنى بأحبّ خلقك إليك وإلىَّ يأكل معى من هذا الطائر»، وضرب الباب، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: ياأنس انظر من على الباب، قلت: اللّهم اجعله رجلًا من الأنصار، فذهبت فاذا على بالباب، قلت: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال: يا أنس انظر من على الباب، فقلت: اللّهم اجعله رجلًا من الأنصار فذهبت فاذا على بالباب، قلت: إنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على حاجة فجئت حتى قمت مقامى فلم ألبث أن ضرب الباب، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله يا أنس اذهب فأدخله فلست بأول رجل أحبّ قومه ليس هو من الأنصار فذهبت فأدخلته، فقال: يا أنس قرب إليه الطير، قال: فوضعته بين يدى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأكلا جميعاً، قال محمد بن

الحجاج: يا أنس كان هذا بمحضر منك؟ قال: نعم، قال: اعطى باللَّه عهداً أن لا انتقص علياً بعد مقامى هذا ولا أعلم أحد ينتقصه إلّاأشنت له وجهه «۱».

وأورد «الذهبى» هذا الحديث أيضاً فى «تلخيص المستدرك» المطبوع فى حاشية «المستدرك».

وإضافة لما قلناه، فإنّ الحديث المعروف ب «حديث الطير» فى مختلف المصادر الإسلامية، ورد فى كتب كثيرة، بحيث إنّ العلّامة الأمينى رحمه الله يقول بشأنه: حديث الطير حديث متواتر وصحيح سلّم أئمّة الحديث بتواتره وصحته.

وأورد هذا الحديث «موفق بن أحمد» وهو فقيه، ومحدث كبير، وخطيب فذ، وأديب، وشاعر فى كتاب المناقب «۲».

والأهم من ذلك أنّ المحدث المعروف «الترمذى» ينقل فى كتابه المشهور باسم «صحيح الترمذى» عن «أنس بن مالك» أنّه كان بين يدى الرسول صلى الله عليه و آله طيراً، فقال: «اللّهم أئتنى بأحبّ خلقك إليك يأكل معى هذا الطير فجاء على فأكل معه» «۳».

يقول العلّامة الكنجى الشافعى فى «كفاية الطالب» بعد نقله هذا الحديث: «وفيه دلالة واضحة على أنّ علياً عليه السلام أحبّ الخلق إلى اللَّه وأدل الدلالة على ذلك اجابة دعاء النبى صلى الله عليه و آله فيما دعا به، وقد وعد اللَّه تعالى من دعاه بالاجابة حيث قال: «ادعونى استجب لكم» فأمر بالدعاء ووعد بالاجابة، وهو عزّ وجلّ لا يخلف الميعاد، وما كان اللَّه عزّ وجلّ ليخلف وعده رسله ولا يرد دعاء رسوله لأحبّ الخلق إليه ومن أقرب الوسائل إلى اللَّه تعالى محبته ومحبة من يحبّه لحبّه» «۴».

وينقل «العلّامة النسائى»- وهو من علماء القرن الثالث الهجرى- هذا الحديث أيضاً مع

---

(۱) المستدرك على الصحيحين، ج ۳، ص ۱۳۱.

(۲) المناقب، ص ۶۷.

(۳) صحيح الترمذى، ج ۱۳، ص ۱۷۰.

(۴) كفاية الطالب، ص ۵۹، (طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۵، ص ۳۱۹).

بعض الإضافات فی کتابه المعروف «الخصائص» «۱».

ومن العلماء الآخرین الذین نقلوا هذا الحدیث فی کتبهم: «سبط ابن الجوزی» فی «التذکرة»، و «ابن الأثیر» فی «اسد الغابة»، و «ابن مسعود الشافعی» فی «مصابیح السنة»، و «محب الدین الطبری» فی «ذخائر العقبی ، و «الشیخ سلیمان البلخی القندوزی» فی «ینابیع المودة»، وطائفة اخری غیرهم لو أردنا ذکر أسمائهم وشرح کلماتهم لطال بنا المقام.

ومن الملاحظات التی قد تثیر الدهشة لدی البعض أنّ ابن الأثیر فی «اسد الغابة» عندما ینقل حدیث الطیر بعدة طرق، یقول فی احدی طرق الحدیث المنقول عن أنس بن مالک: إنّ النبی صلی الله علیه و آله کان عنده طائر فقال اللّهم ائتنی بأحبّ خلقک إلیک یأکل معی من هذا الطائر فجاء أبو بکر فرده، ثم جاء عثمان، فرده (وفی روایة اخری نقلها النسائی فی الخصائص ورد اسم عمر بدل عثمان) فجاء علی فأذن له.

یقول «ابن الأثیر» فی نهایة هذا الحدیث أن ذکر أسماء «أبو بکر وعثمان» فی هذا الحدیث غریب جدّاً «۲».

والأعجب من ذلک أنّ بعض المحدثین من السنّة إذ أرادوا المرور بهذه الفضیلة الفریدة مرّوا مستطرقین وأغمضوا أعینهم عن الحقائق، ولجأوا إلی التشکیک فی سند هذا الحدیث، مثل ابن کثیر الدمشقی کاتب «البدایة والنهایة» إذ یقول بعد ذکر هذا الحدیث: «وفی القلب من صحة هذا الحدیث نظر وإن کثرت طرقه» «۳».

بینما نجد أنّ هذا الحدیث المتواتر الذی ورد فی الکثیر من المصادر المعروفة بشکل واسع، لا غبار علیه من حیث السند والدلالة سوی أنّه لا ینسجم مع الأحکام المسبقة للبعض، وللمرحوم العلّامة الأمینی جملة لطیفة بعد ذکر هذه العبارة إذ یقول: «باجتماع

---

(۱) الخصائص، ص ۵.

(۲) اسد الغابة، ج ۴، ص ۳۰.

(۳) البدایة والنهایة، ص ۳۵۳.

جمیع شروط الصحة فی هذا الحدیث إن کان شک ما فی القلب تجاه هذا الحدیث أیضاً، فالإشکال یکمن فی ذلک القلب ولیس فی الحدیث».

۲۵- آیة المسؤولین

نقرأ فی قوله تعالی بشأن الظالمین: إنّ الخطاب یأتی إلی ملائکة العذاب: «وَقِفُوهُم انَّهُمْ مَّسْؤولُونَ». (الصافات/ ۲۴)

وهناک أخذ ورد بین المفسرین فیما سیسألون عنه، قال بعضهم: عن البدع التی ابتدعوها، وقال بعضهم الآخر: عن أعمالهم السیئة وعن خطایاهم، وأضاف بعضهم: عن التوحید: «ولا إله إلّااللّه» «۱».

ولا مانع من اجتماعهن جمیعاً فی مفهوم الآیة.

إلّا أنّه ورد فی العدید من الروایات أنّ المراد هو السؤال عن «ولایة علی بن أبی طالب علیه السلام».

وقد وردت هذه الروایات فی المصادر الإسلامیة المعروفة.

ومنها فی «شواهد التنزیل»، إذ ینقل بطریقین عن أبی سعید الخدری، عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال فی تفسیر هذه الآیة: «عن ولایة علی بن أبی طالب» «۲».

وینقل فی حدیث آخر عن «سعید بن جبیر»، عن «ابن عباس» أنّ الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله قال: «إذا کان یوم القیامة أوقف أنا وعلی علی الصراط فما یمر بنا أحد إلّاسألناه عن ولایة علی، فمن کانت معه، وإلّا ألقیناه فی النار! وذلک قوله وقفوهم إنّهم

مسؤولون» «۳».

ونقل «الحاكم الحسكانى» هذا الحديث أيضاً فى الكتاب المذكور، عن طرق اخرى

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۷، ص ۴۴۱ (نهاية الآية التى نحن بصددها).

(۲) شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۱۰۶- ۱۰۷، ح ۷۸۶ و ۷۸۷.

(۳) المصدر السابق، ح ۷۸۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۴

ونقل «ابن حجر» أيضاً فى كتاب «الصواعق» هذا الحديث عن «أبى سعيد الخدرى» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «۱».

وممن نقل هذا الحديث «أحمد بن حنبل» (أحد الأئمّة الأربعة للسنّة) فى كتاب المسند عن أبى سعيد الخدرى: «إنّه يسأل فى يوم القيامة عن ولاية على بن أبى طالب عليه السلام».

ونقل هذا الحديث أيضاً كل من: «عز الدين الحنبلى» فى «كشف الغمة» «۲»، والآلوسى فى تفسيره «۳»، و «سبط ابن الجوزى» فى «التذكرة» «۴»، و «أبو نعيم الاصفهانى» فى «كفاية الخصام» «۵»، و «الشيخ سليمان القندوزى» فى «ينابيع المودة» «۶»، وجمع آخر لو أردنا ذكر اسمائهم وكتبهم لطال بنا المقام.

والطريف أنّه- فى بعض هذه الروايات- وردت «ولاية أهل البيت» إضافة لولاية على عليه السلام «۷».

كما أنّ هذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً وهى أنّ جميع الروايات الآنفة الذكر نقلت عن المصادر المعروفة والكتب المشهورة للسنة، والرواة المقبولين، ولكن مع ذلك فإنّ «الآلوسى» عندما ينقل هذه الرواية يقول: «روى بعض الإمامية عن ابن جبير عن ابن عباس يسألون عن ولاية على»، و «كذلك نقل الإمامية هذه الرواية عن أبى سعيد الخدرى» «۸».

ويضيف من عنده ولاية سائر الخلفاء بكل تعجب!

إنّ هذا المفسر المتعصب يتصور أنّ كل حديث بشأن فضائل على عليه السلام لابدّ وأن يكون

---

(۱) الصواعق، ص ۸۹.

(۲) كشف الغمة، ص ۹۲.

(۳) تفسير روح المعانى، نهاية الآية التى نحن بصددها.

(۴) التذكرة، ص ۲۱.

(۵) كفاية الخصام،، ص ۳۶۱.

(۶) ينابيع المودة، ص ۲۵۷.

(۷) على فى الكتاب والسنة، ج ۱ ص ۲۲۹.

(۸) تفسير روح المعانى، ج ۲۳، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۵

رواته من الإمامية والشيعة حتماً، وكأنّ أحكامه الطائفية المسبقة لا تسمح له التصديق بأنّ هذه الأحاديث منقولة بهذا الشكل الواسع فى المصادر المعروفة للسنّة، وكأنّه لا يصدق أيضاً بأنّ الاجيال اللاحقة سيقرأون كلماته، ويشكلون عليه، أنّ رواة هذا الحديث ليسوا من الإمامية فحسب، بل إنّهم غالباً من علماء السنّة.

وعلى أيّة حال فإنّ مفهوم هذه الأحاديث وكذلك الآية الآنفة لا يعنى أنّه فى يوم القيامة يسأل عن ولاية «على بن أبى طالب» فقط،

ذلک أنّ یوم القیامة هو یوم السؤال عن جمیع الأعمال، والنعم، وجمیع أنواع المسؤولیات، بل المراد أنّ احدی أهم الامور التی یسأل عنها هی ولایة هذا الإمام المعصوم، وبلا أدنی شک فإنّ الولایة هنا لیست بمعنی نوع من المحبة العادیة والدارجة التی لابدّ وأن یتحلی بها کل مؤمن تجاه الآخرین، ذلک أنّ هذا الأمر یعد أحد الفروع العادیة للدین، بل إنّ المراد شیء أبعد من هذه المسألة ویعد من أهم أرکان الإسلام واسس الدین.

فهل یمکن أن یکون هذا الموضوع شیئاً آخر غیر مقام القیادة والخلافة الإلهیّة بعد رسول الإسلام صلی الله علیه و آله؟!

نعم، علی بن أبی طالب علیه السلام هو ذلک الشخص الذی تعد ولایته من أهم أرکان الإسلام وشروط الإیمان، وعلی رأس تسلسل الامور التی یُسال عنها فی یوم القیامة.

وکیف لا یکون کذلک، وقد ملأت فضائله ومفاخره جمیع کتب الحدیث، وتتلألأت شخصیته الرفیعة فی آیات القرآن المجید، بالرغم من کل المواقف العدائیة التی اتخذها أعداؤه معه، وکتموا فضائله (ولایزالون یکتمونها لحد الآن أیضاً)، وبالرغم من أنّ أصحابه واتباعه اضطروا إلی اخفاء فضائله أیضاً خوفاً من بطش الأعداء!.

ونختم هذا الکلام بنقل حدیث معروف عن ابن عباس ورد فی الکثیر من المصادر الإسلامیة إذ یقول: ما نزل فی القرآن «یَا ایَّهَا الَّذِینَ آمَنُوا» إلّاعلی سیدها وشریفها وأمیرها، وما أحد من أصحاب رسول اللّه صلی الله علیه و آله إلّاقد عاتبه اللّه فی القرآن، ما خلا علی بن أبی طالب فإنّه لم یعاتبه بشیء، وما نزل فی أحد من کتاب اللّه مانزل فی علی ... نزلت فی علی ثلاثمائة آیة!» «۱».

---

(۱) مختصر تاریخ دمشق، ج ۱۸، ص ۱۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۶

ونقل هذا الحدیث- أو قسمه الأول- عن طائفة اخری کثیرة أیضاً، مثل الحافظ «أبو نعیم الاصفهانی» فی «حلیة الأولیاء»، و «محب الدین الطبری» فی «ذخائر العقبی ، و «العلّامة الکنجی الشافعی» فی «کفایة الطالب»، و «سبط ابن الجوزی» فی «التذکرة»، و «الشبلنجی» فی «نور الأبصار»، و «الهیثمی» فی «الصواعق»، و «السیوطی» فی «تاریخ الخلفاء»، و «القندوزی» فی «ینابیع المودة» «۱».

کانت هذه طائفة من الآیات التی نزلت بشأن علی علیه السلام فی القرآن، إذ عمدنا إلی اختیار هذا العدد منها.

---

(۱) للمزید من الاطلاع علی هذه المصادر یرجی مراجعة احقاق الحق، ج ۳، ص ۴۷۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۷

الأئمّة الاثنی عشر

اشارة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۲۹۹

الأئمّة الاثنی عشر علیهم السلام

تمهید:

اشارة

بالرغم من أنّ المذهب الشیعی لا ینحصر ب «الإمامیة الاثنی عشریة»، بل یضم الشعب والفرق الاخری مثل «الزیدیة» الذین یعتقدون

بأربعة من الأئمّة فقط، و «الاسماعيلية» الذين يعتقدون «بسبعة أئمّة» وغيرهم من الفرق، إلّاأنّه وبلا أدنى شك يعد الشيعة الاثنى عشرية أشهر تلك الفرق قاطبة، إذ يشكلون جزءً مهماً من المسلمين فى‌سائر انحاء العالم، ويشكلون فى بعض الدول كايران والعراق والبحرين الأكثرية القاطبة من السكان، وفى البعض الآخر يشكلون نسبة كبيرة من السكان كما هو الحال فى أغلب البلدان الإسلامية.

إنّ للشيعة الاثنى عشرية مراكز علمية هامة، تضم عشرات الآلاف من العلماء والطلاب المنهمكين فى التحقيق والتدريس وتعلم العلوم الإسلامية.

وقد تمّ تأليف وطبع ونشر عشرات الآلاف من الكتب العلمية حول العقائد الإسلامية، والفقه، والاصول، والتفسير، والحديث، والفلسفة، والرجال، والدراية، والتاريخ الإسلامى من قبل علماء الشيعة.

وقد ذكر المرحوم المحقق الجليل «الشيخ آقا بزرك الطهرانى» فى كتابه «الذريعة إلى تصانيف الشيعة» والذى تمّ طبعه مؤخراً فى ۲۶ مجلداً، أسماء عشرات الآلاف من كتب علماء الشيعة مع ذكر مؤلفيها مع شرح وجيز عن كل منهم، مما يوضح بشكل جلى حجم الخدمات الجليلة التى قدمها العلماء الشيعة للعلوم الإسلامية، وكيف أنّهم خلفوا وراءَهم تصانيف ثمينة جدّاً فى جميع الفنون الإسلامية والعلوم الإنسانية مخلدة ذكراهم.

ويجدر بالذين لا يدركون هذه الحقائق أن يقوموا بزيارة المراكز العلمية للشيعة فى

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۰

مختلف مناطق العالم، ليروا الطلاب والفضلاء وعلماء الشيعة الذين يمتازون بالمهارة الفائقة فى العلوم الإسلامية المختلفة عن كثب، ويطلعوا على مكتباتهم المملوءة بالكتب العلمية لهؤلاء العلماء، وكذلك بالكتب العلمية للعلماء السنّة.

ويلاحظوا عن قرب، الفقهاء، والمتكلمين، ومفسرى القرآن، والكتاب اللامعين، والخطباء، والكم الهائل من حفظة القرآن الكريم.

ولكن مما يؤسف له أنّ الرقابة الشديدة المفروضة على الكثير من المحافل الخبرية الإسلامية والحاكمة كذلك على أغلب المكتبات المعروفة للدول الإسلامية، لم تسمح لحد الآن بأن يقوم المحققون المحايدون للسنّة من التعرف بشكل واضح على اتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام والعلماء وآثارهم العلمية.

ونجد هنا أنّ المكتبات مليئة بكتب علماء السنّة إلى جانب كتب علماء الشيعة دون ملاحظة أدنى فرق بينهم من حيث الحضور فى المكتبات، ولا يشعر أى‌منهم أيضاً بأدنى خطر من هذه الناحية على مذهبه، إلّاأنّ مكتبات الاخوة السنة لها شكل آخر غالباً، ولا يلاحظ فيها أى أثر لعشرات الآلاف من المؤلفات العلمية المعروفة للشيعة، أو أنّها تقتصر على مقدار قليل منها فقط!.

وعلى أيّة حال نأمل أن يأتى اليوم الذى يتمكن فيه المحققون وبحياد تام، أن يدققوا ويبحثوا فيما قلناه آنفاً، ويعرفوا المجتمع الشيعى الإمامى كما هم عليه- وليس كما يقوله اعداؤهم، أو كما تحاول أن تصوره الأبواق الاستعمارية عنهم- ويقيناً سيشهد ذلك اليوم وقائع جديدة فى العالم الإسلامى مع اتباع هذا المذهب، وسينعم العالم الإسلامى بتفاهم وانسجام أفضل.

ولكى لا نبتعد عن أصل الموضوع، تلاحظ فى الآيات القرآنية، إشارات لأئمّة أهل البيت المعصومين عليهم السلام تزداد جلاءً ووضوحاً بمساعدة الروايات الواردة فى المصادر الإسلامية المعروفة بشأن تفسير هذه الآيات.

وهذه الآيات متعددة، ونشير فى النهاية إلى بعض منها فقط، وتمت الإشارة إلى مجموعة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۱

منها فى بداية البحث فى موضوع ولاية وإمامة على عليه السلام، ومنها:

۱- آية «انَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ». (الاحزاب/ ۳۳)

بشهادة محتواها، وكذلك الروايات الواردة فى شرحها وتفسيرها عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله فى المصادر الإسلامية المعروفة، أنّ مفهومها عام أى أنّها تشمل بالإضافة لعلى عليه السلام سائر الأئمّة المعصومين، وخاصة الإمام الحسن والإمام الحسين

عليهما السلام اللذين صُرح باسميهما فى هذه الروايات.

۲- آية «قُل لَّاأَسأَلُكُم عَلَيهِ اجراً إِلَّا المَوَدَّةَ فِى القُرَبى . (الشورى ۲۳)

تشير أيضاً وبنحو الإجمال لجميع الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وقد صرح فى روايات متعددة منقولة عن سعيد بن جبير وابن عباس عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّ المراد من «القربى فى هذه الآية، على عليه السلام وفاطمة عليها السلام وذريتهما، وصرح فى البعض الآخر باسم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام أيضاً.

ولغرض المزيد من التوضيح يرجى مراجعة «شواهد التنزيل» وسائر المصادر التى ذكرناها أثناء شرح هذه الآية «۱».

۳- آية «أَطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَاولِي الامرِ مِنكُم». (النساء/ ۵۹)

وهذه الآية هى الاخرى كسابقتها، لاسيّما أنّ لهذه الآية مفهوماً عاماً يشمل كل زمان، وبناء على ذلك لابدّ من وجود مصداق من «اولى الأمر» فى كل عصر وزمان، يكون فرداً معصوماً، وطاهراً من الذنوب (لأنّ الطاعة المطلقة الخالية من كل قيد وشرط غير مشروعة سوى للمعصومين خاصة).

إضافة إلى ذلك ففى بعض الروايات المعروفة الواردة فى مصادر أهل السنّة صرح باسم الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام.

۴- آية «كُونُوا مَعَ الصَّادقِينَ». (التوبة/ ۱۱۹)

هى الاخرى بنفس المفهوم الذى شرحناه سابقاً، إذ لها مفهوم عام شامل لكل عصر

---

(۱) أوردت روايات بطرق مختلفة فى هذا المجال فى شواهد التنزيل، ج ۲، ص ۱۳۰- ۱۳۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۲

وزمان، وهى دليل على أنّه يوجد فى كل عصر وزمان صادق معصوم (ذلك أنّ المؤازرة والتبعية المطلقة دون قيد أو شرط ليس لها مفهوم سوى للمعصومين فقط)، وإضافة إلى ذلك فإنّ بعض الروايات الواردة فى شرح هذه الآية، تفسر الصادقين بأنّهم محمد وأهل بيته عليهم السلام «۱».

وبما أنّ هذه الآيات والروايات المتعلقة بها، ذكرناها فى هذه المباحث بشكل مفصل لذا نحجم عن تكرارها مرة اخرى وننتقل إلى آيات الفضيلة.

ونؤكد مرّة اخرى على أنّ آيات الفضيلة لا تطرح باعتبار أنّها الآيات التى لها دلالة مباشرة على إمامة وولاية أئمّة أهل البيت عليهم السلام، بل الهدف من ذلك هو أن يتضح بشكل جلى أنّ كل واحد منهم كان أفضل أفراد عصره، وبما أنّه لابدّ من وجود اولى الأمر والإمام المعصوم فى كل عصر وزمان طبقاً لمفهوم الآيات السابقة، فإنّهم مصداق هذا المعنى

۱- آية الصلوات والتحية

نفحات القرآن ج۹ ۳۴۶

نقرأ فى قوله تعالى «انَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِىِّ يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً». (الأحزاب/ ۵۶)

لقد تم تجسيد مقام نبى الإسلام صلى الله عليه و آله فى هذه الآية بأفضل وجه، ذلك أنّ اللّه تعالى وملائكته المقربين يصلون على النبى صلى الله عليه و آله، وكذلك صدور الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا ويسلموا عليه بدون استثناء.

أى مقام اسمى من هذا المقام؟ وأ ىعظمة فوق هذه العظمة؟

صحيح أنّه لم يرد فى هذه الآية، كلام عن آل الرسول صلى الله عليه و آله إلّاأننا نقرأ فى الكثير من الروايات أنّ أصحابه وانصاره عندما سألوه: كيف نصلى ونسلم عليك، فقد جعل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «الآل» إلى جانب الصلاة عليه، وجميع الرحمة

والسلام اللذين يطلبان من اللّه

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۲۶۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۳

تعالى فهما له، وآله أيضاً، وهذه قرينة على أنّ الصلوات والتحية من اللّه والملائكة تتسم بالتعميم أيضاً، فهى تشمل الرسول صلى الله عليه و آله وآله وهذه ليست مسأله بسيطة، بل إنّها توضح أنّ لهم مقامات تاليـة لمقام الرسول صلى الله عليه و آله، وتكليف شبيه بتكليفه من بعض الجهات، وإلّا فإنّ هذا المقام الشامخ لا يمكن أن يكون لهم بسبب القرابة فقط.

وننتقل الآن إلى طائفة من هذه الروايات الواردة فى أشهر مصادر السنة:

۱- نقل فى «صحيح البخارى» عن أبى سعيد الخدرى قلنا: يارسول اللّه صلى الله عليه و آله السلام عليك معلوم، كيف نصلّى عليك؟ قال: «قولوا اللّهم صل على محمد عبدك ورسولك كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم» «۱».

وينقل هذا الحديث فى نفس الكتاب والصفحة بنحو اكمل عن «كعب بن عجره» أحد الصحابة المعروفين أنّه قال لرسول اللّه صلى الله عليه و آله: عرفنا كيفية السلام عليك، ولكن كيف يجب أن تكون الصلوات عليك؟ قال: «قولوا اللّهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنّك حميد مجيد» «۲».

تجدر الإشارة إلى أنّ البخارى يذكر هذه الأحاديث فى نهاية الآية الشريفة: «إنّ اللّه وملائكته ...».

۲- نقل فى «صحيح مسلم» وهو ثانى مصدر معروف للحديث عند الاخوة السنّة عن «أبى مسعود الأنصارى» أنّ الرسول صلى الله عليه و آله دخل علينا ونحن فى مجلس سعد بن عبادة، فقال بشير بن سعد: يارسول اللّه! لقد امرنا اللّه بأنّ نصلى عليك فكيف نصلى عليك؟ فسكت الرسول أولًا، ثم قال: «قولوا اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على آل إبراهيم، بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم فى العالمين إنّك حميد مجيد» «۳».

---

(۱) صحيح البخارى ج ۶، ص ۱۵۱.

(۲) المصدر السابق.

(۳) صحيح مسلم، ج ۱ ص ۳۰۵، ح ۶۵.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۴

۳- وفى تفسير «الدر المنثور» وهو اشهر تفسير روائى ينقل نفس رواية «أبو سعيد الخدرى» عن «البخارى» و «النسائى» و «ابن ماجة» و «ابن مردويه» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله «۱».

ونقل فى نفس الكتاب عبارة «أبو مسعود الأنصارى» عن «الترمذى» و «النسائى» و «ابن مردويه» «۲».

وينقل عين هذا المضمون أيضاً بفارق قليل عن «مالك» و «أحمد» و «البخارى» و «مسلم «و «أبو داود» و «النسائى» و» ابن ماجة» و «ابن مردويه» عن «أبى أحمد الساعدى» «۳».

و ينقل الحاكم النيسابورى فى المستدرك على الصحيحين عن ابن أبى ليلى أنّ «كعب بن عجرة» صادفنى وقال: أتريد أن اعطيك هدية سمعتها من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله؟! قلت: بلى اهدنى! قال: سألنا رسول اللّه صلى الله عليه و آله: كيف نصلى عليكم أهل البيت؟ قال قولوا: «اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد، اللّهم بارك على

محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد».

ثم يقول الحاكم النيسابورى وقد عزم على ذكر أحاديث غير مذكورة فى صحيحى البخارى ومسلم: نقل البخارى هذا الحديث فى كتابه عن «موسى بن إسماعيل» بنفس هذا السند والألفاظ، والسبب فى ذكرى إيّاه ثانية هنا يعود للإشارة إلى أنّ «أهل البيت» و «الآل» أمر واحد، وتجدر الإشارة إلى أنّ الحاكم نقل هذا الحديث بعد حديث «الكساء» الذى اشير فيه وبشكل صريح أنّ أهل بيتى على وفاطمة والحسن والحسين «۴»، وهذا تعبير عميق المعنى

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۵ ص ۲۱۷.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

(۴) المستدرك على الصحيحين، ج ۳، ص ۱۴۸.

وبعد ذلك ينقل «الحاكم» حديث الثقلين، وبعده حديث «أبو هريرة» أنّ الرسول صلى الله عليه و آله نظر إلى على والحسن والحسين وقال: «أنا حرب لمن حاربكم وسلم لمن سالمكم» «۱».

ونقل محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره نهاية هذه الآية الرواية أعلاه مع اختلاف بسيط عن «موسى بن طلحة» عن أبيه، ويروى برواية اخرى نفس الحديث عن ابن عباس، وفى رواية ثالثة عن «زياد» عن «إبراهيم»، وفى رواية رابعة عن «عبد الرحمن بن بشر بن مسعود الأنصارى» «۲».

ونقل البيهقى أيضاً فى كتابه المعروف «السنن» روايات متعددة بهذا الصدد حيث إنّ بعضها يوضح تكليف المسلمين فى الصلاة وأثناء التشهد، ومنها فى حديث عن «أبى مسعود وعقبة بن عمرو»، ينقل أنّ رجلًا جاء وجلس بين يدى الرسول صلى الله عليه و آله وكنا جلوساً عنده، فقال: يارسول اللّه إنا نعرف كيفية السلام عليك، ولكن كيف نصلى عليك أثناء الصلاة؟

فسكت الرسول صلى الله عليه و آله حتى قلنا: ليت الرجل لم يسأل مثل هذا السؤال، ثم قال: «إذا أنتم صليتم على فقولوا اللّهم صل على محمد النبى الامى وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد النبى الامى وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنّك حميد مجيد».

ثم ينقل عن «أبى عبد اللّه الشافعى» أنّه حديث صحيح بشأن الصلوات على النبى صلى الله عليه و آله فى الصلوة «۳».

وأورد البيهقى أحاديث متعددة اخرى بصدد كيفية الصلاة على الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بشكل مطلق أو فى الصلاة خاصة فى حديث عن «كعب بن عجرة» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله ينقل أنّه كان يقول فى الصلاة: «اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنّك حميد مجيد» «۴».

---

(۱) المستدرك على الصحيحين ج ۳، ص ۱۴۹.

(۲) تفسير جامع البيان، ج ۲۲ ص ۳۲.

(۳) سنن البيهقى ج ۲ ص ۱۴۶ و ۱۴۷.

(۴) سنن البيهقى ج ۲ ص ۱۴۷.

يتضح من هذا الحديث أنّه حتى الرسول صلى الله عليه و آله كان يذكر هذه الصلوات فى صلواته.

يقول البيهقى فى نهايـة احـدى الروايات التى لم يرد الحـديث فيها عن الصـلاة:- هـذه الروايات ناظرة إلى حال الصـلاة لأنّ جملة «قد علمنا كيف نسـلم» هى إشارة إلى السـلام فى التشـهد (السـلام عليك أيّها النبى ورحمة اللّه وبركاته) لذا فإنّ المراد من الصـلوات هى الصلوات فى حال التشهد «۱».

وعلى هذا الأساس فإنّ المسـلمين مأمورون بالصـلاة على الرسول صـلى الله عليه و آله فى التشهد أيضاً كما هم مأمورون حسب اعتقاد جميع الفرق الإسلامية بالسلام على الرسول صلى الله عليه و آله فى التشهد بلفظ: «السلام عليك أيّها النبى ورحمة اللّه».

وبالرغم من أنّه يلاحظ هنا اختلاف بسيط بين المذاهب الأربعة للسـنّة، إذ إنّ الشافعيين والحنبليين يقولون: الصـلاة على الرسول صلى الله عليه و آله فى التشـهد الثـانى واجبـة، فى الوقت الـذى يقول المالكيون والحنفيون: إنّها سـنّة «۲»، إلّاأنّه وطبقاً للروايات الآنفـة فإنّها واجبة على الجميع.

وعلى أيّة حال فإنّ الكتب التى نقلت فيها الروايات المرتبطة بالصـلوات على محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله (سواء بشكل مطلق أو فى خصوص التشـهد فى الصـلاة) أكثر ممّا أوضـحناه فى هـذا الموجز، وما ذكر هنا كان بمثابـة نموذج من هذه الروايات والكتب، وقـد نقـل هـذه الروايات مجموعـة من الصـحابة أمثال ابن عباس، وطلحـة، وأبو سـعيد الخـدرى، وأبو هريرة، وأبو مسـعود الأنصارى، وبريدة، وابن مسعود، وكعب بن عجره، وشخص على صلى الله عليه و آله.

الملاحظة المحيرة جدّاً أنّ علماء السـنّة بالرغم من كل هذه التأكيدات الواردة فى روايات الرسول صـلى الله عليه و آله بشأن إضافة آل محمد تراهم دائماً (باستثناء بعض الموارد النادرة) يحذفون «آل محمد» ويقولون صلى اللّه عليه وسلم!.

---

(۱) سنن البيهقى ج ۲ ص ۱۴۷.

(۲) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ۱، ص ۲۶۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۷

والأعجب من ذلك أنّه فى كتب الحـديث، وحتى فى الأبواب التى تنقل فيها الروايات الآنفـة بشأن إضافة «آل محمد صـلى الله عليه و آله» فإنّهم عنـدما يـذكرون اسم الرسول صـلى الله عليه و آله فى طيات هـذه الأحاديث يقولون: «صـلى اللّه عليه وسـلم»! (بدون إضافة الآل) ولا ندرى ما عذرهم بين يدى رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى هذه المخالفة الصريحة لأوامره وتوجيهاته؟

فمثلًا يكتب البيهقى فى عنوان هذا الباب «باب الصـلوة على النبى صـلى اللّه عليه وسـلم فى التشـهد»! وكذا الحال فى البعض الآخر من مصادر الحديث المعروفة.

إنّ اختيار هـذا العنوان سواء كان من قبل مؤلفى هذه الكتب أو من قبل المحققين التالين لهم، ومع الأخذ بنظر الاعتبار ماورد فى نهايته عجيب ومتناقض جدّاً.

وننهى هذا الموضوع بذكر حديثين آخرين:

۱- ينقل ابن حجر فىالصواعق هكـذا: إنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قال: «لا تصـلوا على الصـلاة البتراء، قالوا: ومّاالصـلاة البتراء؟ قال: تقولون اللّهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا:

اللهم صل على محمد وآل محمد» «۱».

يوضـح هـذا الحـديث أنّه حتى كلمـة «على يجب أن لاـ تفصـل بين محمـد، وآل محمـد ويجب القول: «اللهم صـل على محمـد وآل محمد».

۲- ينقـل السـمهودى فى الاشـراف على فضل الاشـراف عن ابن مسـعود الأنصارى أنّ رسول اللّه صـلى الله عليه و آله قال: «من صـلى

صلاة لم يصل فيها على وعلى أهل بيتى لم تقبل» «۲».

وعلى ما يبدو أنّ الإمام الشافعى فى شعره المعروف، أخذ بنظر الاعتبار هذه الروايةيقول:

ياأهل بيت رسول اللَّه حبكمفرض من اللَّه فى القرآن انزلهُ

كفاكم من عظيم القدر أنّكممن لم يصل عليكم لا صلاة لهُ «۳»

يا ترى أنّ الذين يمتلكون مثل هذا المقام الذى يجب ذكر أسمائهم إلى جانب اسم

---

(۱) الصواعق، ۱۴۴.

(۲) السمهودى فى الاشراف، ص ۲۸ طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۱۸، ص ۳۱۰.

(۳) فى كتاب الغدير النفيس ورد أن انتساب هذه الابيات هى للإمام الشافعى عن شرح المواهب للزرقانى ج ۷، ص ۷ وجمع آخر.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۸

النبى صلى الله عليه و آله فى الصلوة كواجب وفريضة إلهيّة، هل يمكن مساواتهم مع الآخرين.

وهل يبقى مكان لغيرهم للتصدى لمسألة الولاية والإمامة وخلافة النبى صلى الله عليه و آله بوجودهم؟ وأى منصفٍ بوسعه أن يرجّح الآخرين عليهم- مع حيازتهم على كل هذه الفضائل والمقام الشامخ-؟ ألّا توضح كل هذه الادلة مسألة الولاية والخلافة بشكل مباشر؟ لكم أن تحكموا بأنفسكم.

۲- آية النور والبيوت

نقرأ فى الآيات التى تأتى بعد آية: «اللَّهُ نُورُ السَّموَاتِ وَالْأَرْضِ»، ما يلى: «فِي بُيُوتٍ اذنَ اللَّهُ انْ تُرفَعَ ويُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ وَالآصَالِ* رِجَالٌ لَّاتُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ واقَامِ الصَّلَاةِ وإيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخافُونَ يَوماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالابصَارُ* لِيَجزِيَهُمُ اللَّهُ احسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِن فَضلِهِ وَاللَّهُ يَرزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيرِ حِسَابٍ». (النور/ ۳۵- ۳۸)

بعد أن بيّن اللَّه تعالى فى الآية ۳۵ من هذه السورة، النور الإلهىّ بمثال دقيق وظريف ولطيف، ينتقل إلى مكان هذا النور فى الآيات التالية.

تأملوا جيداً فى التعابير الآنفة الذكر، ولاحظوا ما لهذه البيوت الإلهيّة وحرّاسها من مكانة وعظمة، حسب الوصف والتجسيد الوارد فى هذه الآيات، ثم تأملوا الروايات الواردة ادناه:

ينقل السيوطى فى تفسير الدر المنثور عن «أنس بن مالك»، و «بريدة» (وهما من صحابة الرسول صلى الله عليه و آله) أنّه عندما تلا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله هذه الآية، قام رجلٌ، وقال: «ايُّ بيوت هذه يارسول اللَّه!».

قال الرسول صلى الله عليه و آله: «بُيُوتُ الأنبياء!».

فقام «أبو بكر» وقال: «هذا البيت منها لبَيْتُ علىٍّ وفاطمة؟!». نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۰۹

قال: «نَعَمْ من أفاضلها» «۱».

ونقل «الحاكم الحسكانى» شبيه هذا المعنى فى «شواهد التنزيل» عن «أبو برزة» (رجلٌ آخر من الصحابة) عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، دون أن يذكر شخصاً معيّناً، بل هكذا: «قيل:

يارسول اللَّه أَبيتَ علىٍّ وفاطمة منها؟ قالَ: مِنْ أفضلها» «۲».

وبعد ذكر هذه الرواية، ينقل الرواية السابقة أيضاً بطريقين عن «أنس بن مالك» و «بريدة» «۳».

ومن الملفت للنظر أنّ «الآلوسى» فى «روح المعانى» وبالرغم من ذكره لجميع فضائل أهل البيت عليه السلام دون رغبةٍ منه إلّاأنّه

يضيف هنا بعد أن ينقل الرواية الاولى عن «أنس بن مالك» و «بريدة»: «هذا إن صَحّ لا ينبغى العُدول عَنْهُ» «۴». (وبعبارة اخرى إنّه أفضل كلام فى تفسير الآية إذ إنّ المراد بذلك بيوت الأنبياء وأفضلها بيت علىّ وفاطمة).

وأورد جمعٌ آخر من كبار علماء السنّة هذه الرواية فى كتبهم أيضاً.

ويقيناً فإنّ هذه الروايات، تشمل علياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام وولديهماالحسن والحسين عليهما السلام وكذا أولاد فاطمة عليها السلام من نسل الحسين عليه السلام أى الأئمّة المعصومين فإنّهم مشمولون بهذه الآية أيضاً، ذلك أنّهم يواصلوان نفس الطريق ونفس النهج.

نعم، إنّ بيوتهم كبيوت الأنبياء، بل من أفضلها، إنّه بيت يتلألأ منه نور اللّه دائماً، ولا تصل إليه يدُ الشيطان، ويقيناً فإنّ الساكنين فى هذا البيت هم من أفضل البشر، وهم كالأنبياء فى الفضل والفضيلة.

۳- الصراط المستقيم

فى الآية السادسة من سورة الحمد التى نقرأها ليل نهار فى الصلوة نسأل اللّه تعالى

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۵، ص ۵۰.

(۲) شواهد التنزيل، ج ۱ ص ۵۳۲، ح ۵۶۶.

(۳) المصدر السابق، ح ۵۶۷ و ۵۶۸.

(۴) تفسير روح المعانى، ج ۱۸، ص ۱۵۷ نهاية الآية التى نحن بصددها.

ونقول: «اهدنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ».

الصراط الذى يوصلنا إليك وإلى ما يرضيك، صراطاً غير صراط الذين غضبت عليهم ولا الضالّين.

اللّهم اهدنا أيضاً إلى هذا الصراط، وثبتنا عليه.

بلا شك أنّ مفهوم «الصراط المستقيم» مفهوم واسع جدّاً ولذا فسره البعض على أنّه بمعنى «الإسلام»، والبعض الآخر فسّره على أنّه «القرآن»، وبعض على أنّه «الرسول صلى الله عليه و آله وائمة الحق» وبعض آخر بمعنى «دين اللّه»، وبعض آخر بمعنى طريق واسلوب أنبياء اللّه، إذ إنّ كلًا من هذه التفاسير بوسعه أن يشكّل جزء من مفهوم الآية الواسع.

ولكن فى العديد من الروايات التى نقلت عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بطرق مختلفة، وُضِع الاصبع على واحدةٍ من ابرز مصاديق هذه الآية، ذلك أنّ الصراط المستقيم فُسِّرَ بمعنى صراط وطريق على بن أبى طالب عليه السلام أو محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله.

ينقل «الحاكم الحسكانى» فى «شواهد التنزيل» عن «جابر بن عبد اللّه الأنصارى» عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «انّ اللهَ جَعلَ علياً وزوجتَهُ وابناءَهُ حُجَجَ اللهِ على خلقِهِ وهُمْ أبوابُ العِلْمِ فى امَّتى، مَن اهْتدَى بهِمْ هُدِىَ إلى صراطٍ مستقيم» «۱».

وينقل فى حديث آخر عن «ابن عباس» عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال لعلى بن أبى طالب عليه السلام: «أنت الطريق الواضحُ وأنت الصِّراطُ المستقيمُ وأنت يعسوبُ المؤمنين!» «۲».

وينقل أيضاً فى حديث ثالث عن «ابن عباس» أنّه كان يقول فى تفسير «اهدنا الصّراط المستقيم»: «قولوا- معاشرَ العبادِ- اهدنا إلى حُبِّ النبىِّ واهلِ بيتِهِ»! «۳».

وينقل فى الحديث الرابع عن «أبو بريدة» فى نهاية هذه الآية أنّه قال: المراد بالصراط محمدٌ وآله» «۴».

(۱) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۷۶، ح ۸۹.

(۲) المصدر السابق، ح ۸۸.

(۳) المصدر السابق، ح ۸۷.

(۴) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۷۴، ح ۸۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۱

وقد أورد «العلّامة الثعلبی» هذا الحدیث فی تفسیره أیضاً «۱».

ونقله أیضاً «الشیخ عبید اللّه الحنفی» فی کتاب «ارجح المطالب» عن «أبو هریرة» «۲».

وینقل فی الحدیث الخامس الوارد فی «شواهد التنزیل» عن «عبد الرحمن بن زید» عن أبیه أنّه قال فی تفسیر آیة: « «صِرَاطَ الَّذِینَ انعَمتَ عَلَیهِمْ»: هو النبیُّ ومن مَعَهُ وعَلیُّ بنُ ابی طالبٍ وشیعَتُه» «۳».

وقد وردت روایات متعددة بهذا الشأن أیضاً فی مصادرالشیعة واتباع مذهب أهل البیت علیهم السلام، ومنها أنّه ورد فی روایة عن الإمام الصادق صلی الله علیه و آله فی تفسیر الآیة: «صراط الَّذِینَ انعَمتَ عَلَیهِمْ» أنّه قال: «یعنی محمداً وذرِّیَتَهُ علیهمُ السلامُ» «۴».

وبناءً علی ذلک فإنّ أبرز وأوضح مصادیق الصراط المستقیم هو صراط النبی وعلیٍّ علیه السلام وأولاده المعصومین من نسل فاطمة الزهراء علیها السلام، من اهتدی بهم وسار علی نهجهم، هُدی إلی صراطٍ مستقیمٍ یقرّبه إلی اللّه تعالی ویبعده عن الضلالة والانحراف.

۴- وسیلة قبول توبة آدم علیه السلام

جاء فی قوله تعالی أنّ آدم علیه السلام بعد «ترک الأولی تلقی «کلماتٍ من ربّه، وتاب بهن، وقبل اللّه توبته ذلک أنّ اللّه توابٌ رحیم» وهو قوله تعالی «فَتَلَقَّی آدَمُ مِنْ رَبِّهِ کَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَیهِ انَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ». (البقرة/ ۳۷)

فما هی هذه الکلمات التی أوحاها اللّه تعالی لآدم کی یتوب بهن؟ هناک جدال بین المفسّرین، إذ یری البعض منهم أنّ ذلک یعد إشارةً لما جاء فی الآیة: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا انْفُسَنَا

(۱) تفسیر الثعلبی بناءً علی نقل کفایة الخصام، ص ۳۴۵.

(۲) أرجح المطالب، ص ۸۵.

(۳) شواهد التنزیل، ج ۱، ص ۸۵، ح ۱۰۵.

(۴) تفسیر نور الثقلین، ج ۱، ص ۲۳، ح ۱۱۰۱ (للمزید من الاطلاع علی هذه الأحادیث یرجی مراجعة تفسیر نور الثقلین والبرهان).

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۲

وَانْ لَم تَغفِر لَنا وَتَرْحَمْنَا لَنَکُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِینَ». (الأعراف/ ۲۳)

ویری البعض الآخر أنّ ذلک إشارة للأدعیة الاخری ومنها دعاء یونس أثناء مکثه فی بطن الحوت، أی جملة: «سُبحَانَکَ انِّی کُنْتُ من الظَّالِمینَ».

ولکن جاء فی الروایات المتعددة التی نقلت عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله أو عن الصحابة، أنّ تلک الکلمات کانت القسم علی اللّه بحق محمدٍ وعلیٍّ وفاطمة والحسن والحسین علیهم السلام.

ینقل السیوطی فی «الدر المنثور» فی نهایة هذه الآیة عن «ابن عباس» إنّی سألت رسول اللّه صلی الله علیه و آله: عن الکلمات التی تلقاها آدم من ربّه فتاب علیه، قال: «سأل بحق محمد وعلی وفاطمة والحسن والحسین إلّاتُبت علیَّ، فتاب علیه» «۱».

وينقل أيضاً فى ذلك الكتاب عن علىٍّ عليه السلام إنّى سألت الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله عن تفسير هذه الآية، قال: ... أمر اللّه آدم أن قل: «اللهم إنّى أسألك بحق محمدٍ وآلِ محمدٍ، سبحانك لا إله إلّا أنت عملتُ سوءً وظلمتُ نفسى فَاغْفِرْ لِي إنّكَ أنتَ الغفورُ الرحيم، اللهم إنّى أسأَلُكَ بحق محمدٍ وآلِ محمدٍ سبحانك لا إله إلّاأنت عملتُ سوءً وظَلمتُ نفسى فَتُبْ علىَّ إنَّكَ أنت التّوابُ الرحيم فهؤلاءِ الكلمات التى تلقّى آدَمُ» «۲».

يُعلَمُ جيداً من هذه الروايات أنّه لا منافاة بين هذه التفاسير الثلاثة، وكل هذه الكلمات كانت مجموعة فى دعاء آدم عليه السلام.

ونقل «ابن المغازلى» فى مناقبه نفس هذا المعنى عن «سعيد بن جبير» عن «ابن عباس» أنّه سأل الرسول صلى الله عليه و آله بشأن الكلمات التى تلقاها آدم من ربّه فتاب عليه، فقال الرسول صلى الله عليه و آله:

«سَألهُ بحَقِّ محمدٍ وعلى وفاطِمةَ والحسن والحسينِ إلّا ما تُبْتَ علىَّ فتابَ عليهِ» «۳».

ونقل «العلّامة القندوزى» هذا الحديث أيضاً فى «ينابيع المودّة»، والبيهقى فى «دلائل النبوّة»، و «البدخشى» فى «مفتاح النّجاح»، و «عبد اللّه الشافعى» فى «المناقب» «۴».

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۶۰.

(۲) المصدر السابق.

(۳) مناقب ابن المغازلى، طبقاً لنقل احقاق الحق، ج ۹ ص ۱۰۲.

(۴) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۳

وبالرغم من أنّ الكثير من الكتب، انهت سند هذا الحديث ب «ابن عباس»، إلّاأنّ الراوية لا ينحصر ب «ابن عباس»، ذلك أنّه ينقل نفس هذا المعنى فى «الدر المنثور» عن الديلمى فى «مسند الفردوس» بسندٍ ينتهى ب علىٍّ عليه السلام، أنّ علياً عليه السلام يقول: سألت من الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بشأن هذه الآية إلى أن يقول: «فعليك بهؤلاء الكلمات فإنّ اللّه قابل توبتك وغافر ذنبك. قل: اللّهم إنّى اسألك بحق محمد وآل محمد سبحانك لا إله إلّاأنت عملت سوءً وظلمتُ نفسى فتب علىَّ إنّك أنت التوابُ الرحيم» «۱».

ونقل هذا المعنى فى مصادر أهل البيت عليهم السلام ومصادر السنّة عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً، ورواياته متعددة وطرقهُ متنوعة «۲».

لا ينبغى النظر إلى هذا الحديث على أنّه فضيلة عابرة، والمرور به مروراً عابراً، إذ إنّ آدم عليه السلام عندما يريد أن يتوب من تركه الأولى (وهذا أول ترك للأولى يؤمرُ من قبل اللّه أن يسأَلَهُ بحق محمد وآل محمد صلى الله عليه و آله، أو بحق محمدٍ وعلىٍّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، كى يقبل توبته.

لاسيّما وأنّ هذا المعنى لم يرد بشأن أحد سواهم، وهو مقام رفيع مختصٌ بهم، وهذا دليل العظمة الفائقة للخمسة الطيبة وللرسول وأهل بيته والأئمّة المعصومين عليهم السلام.

وعلى هذا كيف يمكن القول بوجود مَن هو أفضل وأليق منهم لخلافة وولاية الرسول صلى الله عليه و آله، وكيف يمكن ترجيح سواهم عليهم؟

وبالرغم من وجود مثل هذه الأسانيد، أَمِنَ العجب- ياترى أن تبقى الإمامة فى نسل الرسول صلى الله عليه و آله إلى يوم القيامة؟!

۵- أفضل الحسنات

اشارة

«مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئذٍ آمِنُونَ». (النمل/ ۸۹)

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۱، ص ۶۰ (مع الاختصار).

(۲) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۸۶؛ تفسير نور الثقلين، ج ۱، ص ۶۷ فما فوق؛ بحار الأنوار، ج ۲۶، ص ۳۱۹ فما فوق.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۴

للحسنة هنا، مفهوم واسع بأنّها تشمل جميع الحسنات، وتبشّر مَن يأتى بحسنة، فله خيرٌ منها، وأحد آثارها المهمّة الأمان من خوفِ وفزعِ يوم المحشر وهو أعظم الفزع.

ولكن ورد فى بعض الروايات «إنّ محبّة أهل بيت النبى صلى الله عليه و آله تعتبر واحدة من أهم وأبرز مصاديق الحسنة فى هذه الآية، وتبيّن أنّ هذه المحبّة تعد من أفضل وسائل الأمان فى يوم المعاد».

ونقلت عدّة روايات فى «شواهد التنزيل» فى نهاية هذه الآية بهذا المعنى أنّ المراد من «الحسنة» فى الآية أعلاه محبّة أهل البيت عليهم السلام.

ومنها أنّه يُنقل عن «أبى عبد اللّه الجدلى» عن علىٍّ عليه السلام أنّه قال له: «ألا أُخبرك بقول اللّه تعالى «مَن جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا- إلى قوله- تعملون»؟ قال: بلى جُعلت فداك.

قال: «الحسنة حبّنا أهل البيت والسيئة بغضنا»، ثم قرأ الآية» «۱».

ونقل نفس هذا المعنى فى الحديثين ۵۸۲، و ۵۸۷ مع هذا الفارق أنّه جاء فى نهاية الحديث الثالث: «ألا اخبركَ بالسيئةِ التى مَن جاء بها أَكبَّهُ اللّهُ على وجههِ فى نارِ جهنَّمَ، بُغْضَنا أهلَ البيتِ»! ثم تلا أمير المؤمنين عليه السلام الآية الثانية وقال: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِى النَّارِ» «۲». (النمل/ ۹۰)

ويُنقل فى حديث آخر عن «أبو امامة الباهلى» «۳» أنّ رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال: «إنَ اللّه خلق الأنبياء من شجرٍ شتّى وخلقنى وعلياً من شجرةٍ واحدة فانا أصلها وعلىٌّ فرعها، والحسنُ والحسينُ ثمارها، واشياعنا اوراقُها، فمَن تعلقَ بغُصْنٍ من أغصانها نجا، ومَنْ زاغَ هوى وَلَوا أنّ عابداً عَبَد اللهَ الفَ عامٍ، ثم الف عامٍ، ثم ألف عام ثم لم يدرك محبَّتَنااَكَبَّهُ اللهُ على مِنْخرَيْهِ فى النارا!» «۴».

---

(۱) شواهد التنزيل، ج ۱، ص ۵۴۸، ح ۵۸۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۵۵۲، ح ۵۸۷.

(۳) أبو امامة الباهلى كان من أصحاب الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، وذكروا أنّ وفاته كانت سنة ۸۱، وهو آخر مَن توفى فىالشام (اسد الغابة، فى مادة صَدَيَهْ)، ولكن فى كتاب الكنى والالقاب ذكروا أنّ وفاته كانت سنة ۸۶ واسمه صُدَى على وزن رُجَيل، وكان من جملة الذين جعل عليهم معاوية العيون لئلا يذهب إلى علىٍّ عليه السلام.

(۴) شواهد التنزيل، ج ۱ ص ۵۵۳، ح ۵۸۸.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۵

وينقل العلّامة القندوزى أيضاً مضمون الحديث الأول عن علىٍّ عليه السلام ويختم الحديث، أنّه قال: «الحسنَةُ حبّنا والسَّيئَةُ بغضنا» «۱».

وينقل عن «ابن كثير» عن الإمام الصادق عليه السلام فى ذلك الكتاب نفسه أنّه قال (آية): «مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ امثَالَهَا»، قال: هى للمسلمين عامة واما الحسنة التى من جاء بها فله خير منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون فهى ولايتنا وحبنا».

وبالرغم من أنّ طائفة من المفسرين وأرباب الحديث لم يوردوا مودة أهل البيت عليهم السلام على أنّها حسنة كبيرة فى نهاية الآية التى نحن بصددها، إلّاأنّهم نقلوا هذا المضمون لهذه الاحاديث فى نهاية الآية: «وَمَنْ يَقتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسناً». (الشورى ۲۳)

ومن جملة هؤلاء «السيوطى» إذ نقل فى «الدر المنثور» عن «ابن أبى حاتم» عن «ابن عباس» أنّه قال فى تفسير هذه الآية: «المودَّةُ لآلِ محمَّدٍ صلى الله عليه و آله» «۲».

ويقول «الآلوسى» فى «روح المعانى» فى نهاية هذه الآية ۲۳ من سورة الشورى بعد أن يقول: إنّ بعض المفسرين قالوا: المراد من «الحسنة» المودّة لذوى قربى رسول اللّه صلى الله عليه و آله، يقول: هذا المعنى نُقل عن «ابن عباس» و «السدّى»، ثم يضيف قائلًا: محبّة آل الرسول من أعظم الحسنات، وجاء عنوان «الحسنة» فى صدر هذه الآية «۳».

وهناك أحاديث اخرى شبيهة بالأحاديث السابقة وردت فى كتب اخرى لو أردنا ذكرها لطال بنا المقام.

ونختم هذا البحث بحديثٍ ورد بشأن محبّة أهل البيت عليهم السلام (وإن لم يرد فى نهاية الآية):

نقل «الشبلنجى» حديثاً عن الرسول صلى الله عليه و آله، فى كتاب «نور الأبصار» وصرّح بأنّه حديث صحيح، وقد ورد ضمن الحديث أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «واللّهِ لا يدخُلُ قَلب رجلٍ، الإيمان

---

(۱) ينابيع المودّة، ص ۹۸.

(۲) تفسير در المنثور، ج ۶، ص ۷.

(۳) تفسير روح المعانى، ج ۲۵، ص ۳۱.

حتى يحبَّهُم (اهلَ بَيتى) لِقرابتِهِم مِنّى» «۱».

وهذه الملاحظة أيضاً لها أهميتها، إذ إنّ المحبّة العادية والمألوفة لا يسعها اطلاقاً أنّ تصبح وسيلةً للنجاة من فزع يوم القيامة، أو أن تكون شرطاً من شروط الإيمان، إنّ هذه التعابير توضح بشكل جلىّ أنّ محبّة أهل البيت إنّما هى إشارة لمسألة الولاية والإمامة الهامة لبناء الدين، إذ تعد سبب بقاء الدين واستمرارية خط النبوّة وحفظ الإيمان.

ومن مجموع ما ورد بنحو الإشارة فى الآيات السابقة، وما ورد بشكل صريح فى الروايات الواردة فى تفسير تلك الآيات، تتّضح لنا هذه المسألة، وهى: إنّ آل محمدٍ صلى الله عليه و آله وأهل بيت الرسول صلى الله عليه و آله خاصةً على وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام يحظون بمقام رفيع جداً وذلك لأنّهم:

أولئك الذين تعد محبتهم اجراً على الرسالة.

من لم يصلّ ويسلّم عليهم لا صلاة له.

تعد منزلتهم بمثابة الصراط المستقيم.

إنّ آدم عليه السلام ومن أجل الفكاك من غضب اللّه تعالى عليه بسبب «تركه الأولى أقسم بأسمائهم على اللّه تعالى وتاب لكى تقبل توبته!

وأخيراً فإنّ مودتهم حسنة تنقذ كل مؤمن من خوف وفزع يوم القيامة.

نعم، إنَّ الذين يتصفون بهذه الصفات الحميدة، ويحظون بهذا المقام الشامخ كما ورد فى الروايات المعروفة للسنّة والمصادر المشهورة لأهل البيت، لا يمكن أن يجاريهم الآخرون اطلاقاً، وبالنتيجة لا يمكن الذهاب لغيرهم مع وجودهم، ويقيناً فإنّ هذه المحبّة والمودةَ تعد مقدمةً لمسألة الولاية والقيادة والتى بدورها تعد استمراراً لخط قيادة الرسول صلى الله عليه و آله.

---

(۱) نور الأبصار، ص ۱۲۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۷

وكذلك الذين ذكروا فى الروايات المتواترة لحديث الثقلين وأصبحوا إلى جوار القرآن الكريم يمثلون أحد الثقلين، واصبح الاثنان يمثلان وسيلتى النجاة من الضلال، تلك الوسيلتان اللتان ستبقيان قائمتين فى الامّة الإسلامية حتى قيام الساعة، ولابدّ للمسلمين أن يلجأوا إليهما.

والذين عُرفوا بأنّهم سفينة النجاة، ونجوم الهداية الساطعة هم خير البريّة وأفضل الناس، هذه الأوصاف التى وردت فى أغلب المصادر المعروفة والمشهورة لكلا الفريقين.

نعم، إنّنا نعتقد بأنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله وتأكيداً على الإشارات الواردة فى آيات القرآن الكريم بهذا الشأن أتمّ الحجة بحديثه على جميع المسلمين، وبقى على المسلمين أن يختاروا سبيل نجاتهم بعيداً عن مشاعر التعصب والأحكام المسبقة، أى أن يلجأوا إلى آل محمد صلى الله عليه و آله ليصلوا من خلال هدايتهم وقيادتهم إلى السعادة وبر الأمان، والذين لا يعتنون بكل هذه الإشارات والتصريحات المستندة إلى هذا الكم من الوثائق المعتبرة أو يبررون ويؤوّلون ويفسّرون بالرأى، عليهم أن يجيبوا عن أعمالهم هذه.

التصريح باسماء أئمّة أهل البيت عليهم السلام:

هذه الملاحظة جديرة أيضاً بأنّ تذكر وهى: إنّ فى البعض من الروايات الواردة فى مصادر السنّة ذكرت أسماء الأئمّة الاثنى عشر بشكل كامل أيضاً، أى أنّه بعد ذكر علىّ عليه السلام ورد اسم الإمام الحسن عليه السلام ثم الإمام الحسين عليه السلام ثم الإمام على بن الحسين عليه السلام ثم الإمام محمد بن على الباقر عليه السلام وبعده جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، ثم موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، ثم على بن موسى الرضا عليه السلام، ثم محمد بن على الجواد التقى عليه السلام، وبعده على بن محمد الهادى النقى عليه السلام، ثم الحسن بن على العسكرى عليه السلام، ثم محمد بن الحسن المهدى عليه السلام!

ومن هؤلاء الذين ذكروهم «سليمان بن إبراهيم القندوزى الحنفى» إذ نقل فى كتاب «ينابيع المودّة» حديثين بهذا الشأن:

الحديث الأول: ينقله عن «فرائد السمطين» بسندٍ ينتهى بابن عباس أن يهودياً جاء إلى

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۸

الرسول صلى الله عليه و آله وسأل أسئلة متعددة حول الإسلام والتعاليم الإسلامية، ومن جملة أسئلته أنّه قال: أخبرنى عن وصيك مَن هو؟ فما من نبى إلّاوله وصى، وأنّ نبيّنا موسى بن عمران أوصى إلى يوشع بن نون، فقال صلى الله عليه و آله: إنّ وصيى على بن أبى طالب، وبعده سبطاى الحسن والحسين، تتلوه تسعة أئمّة من صلب الحسين «۱».

الحديث الثانى: وينقل فى حديث آخر عن «المناقب» عن جابر بن عبد اللّه الأنصارى قصّة مشابهة لهذه القصة أيضاً، وردت فيها أسماء الأئمّة الاثنا عشر واحداً بعد الآخر بشكل صريح، وقد أشرنا إلى كلا الحديثين بنحو الاختصار لطولهما «۲».

ويجب أن لا ننسى بأننا نقلنا روايات كثيرة فى السابق لها دلالة على الأئمّة الاثنا عشر بنحو الإجمال، ومتى ما عاودتم الرجوع إلى ذلك البحث، وأخذتم بنظر الاعتبار تلك الروايات المعتبرة والمشهورة المنقولة عن طرق السنّة والشيعة ستلاحظون بأنّه لم يطرح أى تفسير صحيح وجدير بالملاحظة بشأن الأئمّة الاثنى عشر (أو الخلفاء والأمراء الاثنى عشر) سوى ما نقله الشيعة، وبقى الجميع متحيرين فى تفسير عدد الاثنى عشر بشأن خلفاء الرسول صلى الله عليه و آله.

إنّ هذه الروايات المنقولة فى أكثر مصادر الحديث اعتباراً، على درجةٍ من القوة بحيث أنّها غير قابلة للانكار، والتفسير الصحيح

والوحید لهذه المسألة هو التفسیر الذی ذکره «الإمامیة».

نأمل أن یأتی الیوم الذی ندع فیه أحکامنا المسبقة جانباً، ونشرع بانجاز بحثٍ جدید ومستقل فی هذه الروایات والآیات القرآنیة بشأن الإمامة وخلافة رسول اللّه صلی الله علیه و آله، لعل ذلک یؤدی إلی فتح آفاقٍ جدیدة امام الجمیع.

---

(۱) ینابیع المودة، ص ۴۴۰، الباب ۷۶.

(۲) المصدر السابق، ص ۴۴۲، الباب ۷۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۱۹

الإمام المهدی علیه السلام

اشارة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۱

الإمام المهدی علیه السلام

تمهید:

اشارة

علی العکس مما یتصوره بعض الجهلة فإنّ الاعتقاد بقیام المهدی علیه السلام وحکومته العالمیة، لا یختص فقط بالشیعة واتباع مذهب أهل البیت علیهم السلام، بل إنّ جمیع الفرق الإسلامیة دون استثناء یعتقدون بظهور رجل من ذریة الرسول فی آخر الزمان یسمی المهدی، یملأ الأرض قسطاً وعدلًا، ونقلوا روایة هذا الموضوع فی کتبهم عن الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله.

وقد کُتبت مصنفات کثیرة وذکرت روایات عدیدة فی هذا الصدد علی أیدی علماء السنّة والشیعة سنشیر إلی بعضٍ منها فی الأبحاث القادمة.

هذه الروایات من الروایات المتواترة والقطعیة وأیّدها جمیع المحققین من الإسلامیین- بصرف النظر عن مذاهبهم الخاصة، باستثناء عدد محدود مثل «ابن خلدون»، و «أحمد أمین المصری» اللذان شککا فی صدور هذه الروایات عن الرسول صلی الله علیه و آله، وبین ایدینا مجموعة من القرآئن الدالة علی أنّ الباعث الذی حملهم علی هذا السلوک لم یکن ضعف الروایات، بل لعلهم کانوا یتصورون بأنّ الروایات المتعلقة بظهور المهدی تنطوی علی الخارق من العادات بحیث لا یسعهم تصدیقها بسهولة.

هذا فی الوقت الذی وافقت علی ذلک أکثر الفرق الإسلامیة تعصباً لاسیما الوهابیون، واعترفوا بتواتر أحادیثه.

والشاهد علی هذا الادّعاء بیان صدر قبل عدّة سنوات من قبل رابطة العالم الإسلامی

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۲

الواقعة بشدة تحت نفوذ الوهابیین وحکومة آل سعود، جواباً علی سؤالٍ موجهٍ لهم بشأن ظهور الإمام المهدی علیه السلام.

وکان هذا البیان بمثابة جواب لأحد أهالی (کینیا) باسم «أبو محمد» وبتوقیع الامین العام «لرابطة العالم الإسلامی» «محمد صالح القزاز»، وقد ورد فی هذا البیان مایلی:

انَّ «ابن تیمیة» مؤسس مذهب الوهابیین یؤید الأحادیث المتعلقة بالمهدی علیه السلام. وقد تطرق البیان بعد ذلک إلی الرسالة التی اعدها خمسة من علماء الحجاز المعروفین فی هذا الشأن: ونقرأ فی مقطع من هذه الرسالة:

(عندما يظهر الفساد فى العالم وينتشر الكفر والظلم، سوف يملأ اللّه تعالى العالم عدلًا ب (المهدى) كما ملىء ظلماً وجوراً، وأنه آخر الخلفاء الراشدين الاثنى عشر الذين أخبر عنهم النبى صلى الله عليه و آله فى كتب الصحاح المعتبرة ...).

وقد نقل الكثير من صحابة النبى صلى الله عليه و آله الأحاديث المتعلقة بالمهدى، ومن جملتهم:

عثمان بن عفان، على بن أبى طالب، طلحة بن عبيد اللّه، عبد الرحمن بن عوف، عبد اللّه بن عباس، عمار بن ياسر، عبد اللّه بن مسعود، أبو سعيد الخدرى، ثوبان، قرة بن اياس المزنى، عبد اللّه بن الحارث، أبو هريرة، حذيفة بن اليمان، جابر بن عبد اللّه الأنصارى، أبو امامة، جابر بن ماجد، عبد اللّه بن عمر، أنس بن مالك، عمران بن الحصين، وام سلمة.

وهؤلاء عشرون شخصاً ممن نقلوا روايات المهدى، ويوجد كثير غيرهم.

كما نقلت أحاديث كثيرة حول ظهور المهدى عبر أولئك الصحابة أنفسهم بما يمكن اعتبارها من ضمن الروايات النبوية، لأنّ هذه المسألة ليست بالتى يمكن الاجتهاد حولها (ولذلك فإنّ الصحابة سمعوا بها من النبى صلى الله عليه و آله).

ثم يضيف: إنّ هاتين المسألتين- أى روايات النبى صلى الله عليه و آله وروايات الصحابة التى لها هنا حكم الحديث- وردتا فى الكثير من المتون الإسلامية المعروفة وكتب الحديث الرئيسية فضلًا عن (السنن) و (المعاجم) و (المسانيد).

ومن جملتها (سنن أبى داود، سنن الترمذى، ابن ماجة، ابن عمرو، مسند أحمد، وابن

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۳

ليلى والبزاز، وصحيح الحاكم، ومعاجم الطبرانى، والدارقطنى، وأبو نعيم، والخطيب البغدادى، وابن عساكر وغيرهم).

ثم يضيف: ولأهميّة هذه القضية كتب وألّف البعض من علماء المسلمين كتباً خاصة بموضوع أخبار المهدى، من ضمنهم (أبو نعيم الاصفهانى) فى [أخبار المهدى و (ابن حجر الهيثمى) فى [القول المختصر فى علامات المهدى المنتظر] والشوكانى فى [التوضيح فى تواتر (ما) جاء فى المنتظر والدجال والمسيح و (ادريس العراقى المغربى) فى كتاب [المهدى وأبو العباس ابن (عبد المؤمن المغربى) فى كتاب [الوهم المكنون فى الرد على ابن خلدون .

يضيف بعد ذلك: وقد صرح قسم من علماء المسلمين الكبار- قديماً وحديثاً- فى تأليفاتهم بأنّ الأحاديث المتعلقة بالمهدى وصلت إلى حد التواتر (ولهذا فهى غير قابلة للانكار).

ومن جملة هؤلاء (السخاوى) فى كتاب [الفتح المغيث ومحمد بن أحمد السفاوينى فى [شرح العقيدة]، وأبو الحسن الابرى فى [مناقب الشافعى ، وابن تيميه فى كتاب فتاواه، والسيوطى فى [الحاوى ، وادريس العراقى فى كتابه، والشوكانى فى [التوضيح ، ومحمد جعفر الكنانى فى [نظم التنافر].

ويقول فى نهاية هذا المبحث: إنّ (ابن خلدون) فقط حاول النيل من أحاديث المهدى ولكن سادة الدين وعلماء المسلمين ردّوا أقواله، وبعض آخر مثل (ابن عبد المؤمن) ألّفوا كتباً خاصة فى الرد عليه.

وخلاصة القول: إنّ حفظة الحديث وعظماء الشريعة قد صرحوا بأنّ أحاديث المهدى تشتمل على روايات صحيحة وحسنة تؤدى بمجموعها إلى التواتر.

ويستنتج فى الختام: (وبناءً على ذلك فإنّ الاعتقاد بظهور المهدى يعتبر واجباً على كل مسلم، وهو جزء من عقائد أهل السنّة والجماعة، ولا ينكر ذلك إلّاكل جاهل أو مبتدع) «۱».

---

(۱) من الرسالة المؤرخة فى ۲۱ مايو ۱۹۷۶ التى جاءت بتوقيع مدير المجمع الفقهى الإسلامى محمد منتظر الكنانى، وهى الرسالة التى جاءت نتيجة مباحثة المذكور مع أربعة أشخاص آخرين من فقهاء الحجاز المعروفين وهم، الشيخ صالح بن عثيمين، والشيخ أحمد محمد جمال، والشيخ أحمد على، والشيخ عبد اللّه الخياط.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۴

ومن الضروری أيضاً الإشارة إلى هذا المطلب، أنّه حسب اعتقاد طائفة من المحققين، فإنّ الاعتقاد بوجود المهدی لا يقتصر على المسلمين فقط، بل إنّ سائر اتباع المذاهب الاخرى أيضاً فی انتظار مصلح كبير لهذا العالم، وقد اشير إلى هذا المعنى فی مصادرهم المختلفة، وللتعرف على الشرح الوافی لهذا الموضوع لابدّ من مطالعة الكتب المصنّفة بشأن ظهور المهدی «۱».

والآن ومع الأخذ بنظر الاعتبار اسلوب مباحث الكتاب التی تدور حول محور التفسير الموضوعی، ننتقل إلى الآيات التی تشير إلى هذا الظهور الكبير:

۱- حكومة الصالحين فی الأرض

نقرأ فی قوله تعالى «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكرِ انَّ الارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِیَ الصّالِحُونَ* انَّ فِی هَذَا لَبَلَاغاً لِّقَومٍ عَابِدِينَ». (الأنبياء/ ۱۰۵- ۱۰۶)

تأتی هذه الآيات بعد الآيات التی تبيّن الأجر الاخروی للصالحين، وفی الواقع فانها تكشف عن الاجر الدنيوی لهم، وهو أجرٌ مهمٌ جداً، ذلك أنّه يهيء أرضية السعادة وتطبيق أحكام اللّه تعالى وصلاح ونجاة المجتمع الإنسانی.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «الأرض» بمعناها المطلق تشمل كل الكرة الأرضية، وجميع أنحاء العالم (إلّا إذا كانت هناك قرينة خاصة)، فإنّ هذه الآية تعدّ بشارةً بخصوص الحكومة العالمية للصالحين، وإذ لم يتحقق هذا المعنى فی الماضی، فلابدّ من انتظار تحققه فی المستقبل، وهذا هو نفس الشیء الذی نتوخاه تحت عنوان «الحكومة العالمية للمهدی».

---

(۱) بإمكانكم مراجعة كتاب ثورة المهدی العالمية بهذا الشأن.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۵

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً إذ تقول الآية: ولقد كتبنا هذا الوعد فی كتب الأنبياء السابقين أيضاً، وهذه إشارة إلى أنّ هذا الوعد ليس وعداً جديداً، بل إنّه امرٌ متجذر ورد فی المذاهب الاخرى أيضاً.

والمراد ب «الزبور» على الأقوى نفس «زبور داود»، وهو عبارة عن مجموعة من المناجاة، والأدعية، ونصائح داود النبی المذكورة فی كتب العهد القديم (الكتب الملحقة بالتوراة) باسم «مزامير داود».

واللطيف أنّه- بالرغم من كل التحريفات التی طالت كتب العهد القديم بمرور الزمان- فإنّ هذه البشارة الكبيرة يمكن ملاحظتها بشكل واضح فی نفس هذا الكتاب أی «مزامير داود».

ونقرأ فی المزمور/ ۳۷ الجملة/ ۹: (... لأن الأشرار سينقطعون، وأمّا المتوكلون على الرب فسيكونون ورثة الأرض، وحالًا يختفی الأشرار، وكلما بحثت عنهم فسوف لن تجد لهم أثراً).

وجاء فی الجملة/ ۱۱: (أما المتواضعون فقد ورثوا الأرض، وهم يتلذذون من وفور النعمة).

وورد المعنى نفسه أيضاً فی الجملة/ ۲۷ من نفس المزمور بالعبارة التالية: (لأنّ مباركی الرب سيرثون الأرض، اما ملعونوه فسوف يتقطعون).

وجاء فی الجملة/ ۲۹: (فالصديقون ورثوا الأرض، وسيسكنونها أبداً).

ومن الواضح أن التعابير السابقة من قبل «الصديقون»، «المتوكلون» «المتبركون» و «المتواضعون» إشارة لعبارة «عبادی الصالحون» التی وردت فی القرآن الكريم.

والمراد من «الذكر» فی الآية الآنفة، الذكر حسب اعتقاد الكثير من مفسّری التوراة، وتشهد على ذلك الآية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ

الفُرقَانَ وَضِياءً وَ ذِكرى لِلّمُتَّقِينَ».

(الأنبياء/ ۴۸)

واحتمل البعض الآخر أنّ المراد من «الذكر»، «القرآن»، وجميع كتب الأنبياء السابقين

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۶

من «الزبور»، (وبناء على ذلك فإنّ معنى الآية يصبح بهذا الشكل: لقد كتبنا هذه البشارة فى جميع كتب الأنبياء السابقين بالاضافة «للقرآن»).

وعلى أيّة حال فإنّ هذه البشارة قد جاءت أيضاً فى قسم من ملحقات التوراة مثل كتاب «النبى اشعياء» كما نقرأ ذلك فى الفصل الحادى عشر من هذا الكتاب:

«الاذلاء بعدالة الحكم، وستكون الأرض حقاً نكالًا «ورمزاً لليقظة» للمساكين ... حزام ظهرها العدل ... ونطاق وسطها سيكون الوفاء ... سيسكن «سيأنس» الذئب مع الشاة ...

وسيكون الطفل الصغير راعيها ... لأن الأرض ستمتلىء من علم اللّه، كما تمتلىء البحار من المياه).

كما تلاحظ مثل هذه الإشارات فى كتاب التوراة نفسه أيضاً من جملتها: الفصل/ ۱۳ رقم ۱۵: (سنعطى الأرض إلى واحد من أولاد إبراهيم. ولو عد أحد ذرات غبار الأرض لعدَّ ذريته).

وجاء فى الفصل/ ۱۷ الجملة/ ۲۰: (اعطيته «إسماعيل» بركتى واربيته (ابناؤه) إلى أقصى غاية وسيظهر منه اثنا عشر سيداً وامّة عظيمة).

لاحظوا الجملة الثانية عشر فانه سيبعث السرور ممّا يدل على أنّ الأئمّة الاثنى عشر كلهم من ذريته وأولاده.

وفى الفصل/ ۱۸ الجملة/ ۱۸: (سيتبارك منه جميع أقوام الدنيا ...).

وهناك تعابير واشارات اخرى من هذا القبيل لو اردنا ذكرها لطال بنا المقام.

لقد وردت هذه المسألة بشكل صريح فى الروايات الإسلامية أيضاً- بالإضافة إلى الإشارات الواضحة لمسألة قيام المهدى عليه السلام فى الآية السابقة، ومنها أنّ المرحوم «الطبرسى» فى «مجمع البيان» نقل فى نهاية هذه الآية عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «هم أصحابُ المهدىِّ فى آخر الزَّمانِ». نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۷

وجاء فى تفسير القمى أيضاً فى نهاية هذه الآية مايلى: «قال القائمُ وَاصحابُه».

ليس من شك فى أنّه من الممكن أن يقيم عباد اللّه الصالحون حكومة على جزء من الأرض، كما حصل فى عصر رسول اللّه صلى الله عليه و آله وبعض الأعصار الاخرى إلّاأنّ استقرار الحكومة بأيدى الصالحين على وجه الأرض كلها ستحصل فى عصر المهدى عليه السلام فقط، وهناك روايات كثيرة بلغت حد التواتر، وقد وردت عن طرق السنّة والشيعة بهذا الصدد.

كما أنَّ «الشيخ منصور على ناصف» مؤلف كتاب «التاج الجامع للاصول»- وهو كتاب يضم الاصول الخمسة المعروفة لدى السنّة، وقد كتب علماء الازهر تقاريض مهمة عليه- أورد فى الكتاب المذكور ما يلى: «اشتهر بين العلماءِ سَلَفاً وخَلَفاً انَّهُ فى آخِرِ الزمانِ لابدَّ من ظهورِ لرجلٍ من أهلِ البيت مُسَمّى المهدى يستولى على الممالكَ الإسلاميةِ ويتَّبعُهُ المسلمونَ ويَعدِلُ بينهم ويؤيِّدُ الدين».

ثم يضيف قائلًا: «وقد روى أحاديث المهدى جماعة من خيارِ الصَّحابةَ، واخرَجها أكابرُ المَحدّثين: كابى داود، والترمذى، وابن ماجة، والطبرانى، وأبى يعلى والبزاز والإمام أحمد والحاكم «۱».

لم يستطع حتى ابن خلدون المعروف بمخالفته لأحاديث المهدى، انكار شهرة هذه الأحاديث بين جميع علماء الإسلام أيضاً «۲».

ومن الذين أوردوا تواتر هذه الأخبار فى كتبهم «محمد الشبلنجى» العالم المصرى المعروف فى كتاب «نور الأبصار» إذ يقول: «تواتُرِ الأخبار عن النبى صلى الله عليه و آله على أنَّ المهدى من أهل بيتهِ وأنّه يملأ الأرضَ عدلًا».

لقد ورد هذا التعبير فى الكثير من الكتب الاخرى أيضاً، حتى أنّ «الشوكانى» من علماء السنّة المعروفين يقول فى كتاب ألَّفَهُ حول

تواتر الأحاديث المرتبطة بالمهدى عليه السلام، وخروج الدجال، وعودة المسيح عليه السلام، بعد بحثٍ مفصّل بشأن تواتر الأحاديث المتعلقة بالمهدى عليه السلام:

---

(۱) التاج الجامع للُاصول، ج ۵ ص ۳۴۱ (ورد هذا المطلب كهامش فى تلك الصفحة).

(۲) ابن خلدون، ص ۳۱۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۸

«هذا يكفى لمن كان عندَهُ ذرَّةٌ من الإيمان وقليل من انصافٍ» «۱».

ومن المستحسن هنا أن نذكر على الأقل بعضاً من روايات النخبة الواردة فى أشهر المصادر الإسلامية كنموذج من هذا البيدر:

۱- ينقل «أحمد بن حنبل» من أئمّة السنّة الاربعة فى كتابه «مسند أحمد» عن «أبو سعيد الخدرى» أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «لا- تقوم الساعَةُ حتى تمتلأ- الأرض ظلماً وعدواناً، قال ثم يخرجُ رجلٌ من عترتى او مِنْ أهل بيتى يملأها قسطاً وعدلًا كما مُلِئَتْ ظلماً وعدواناً» «۲».

۲- ونقل الحافظ أبو داود السجستانى نفس هذا المعنى فى كتابه «السنن» مع فارق ضئيل «۳».

۳- نقل الترمذى المحدّث المعروف بسند صحيح (طبقاً لتصريح منصور على ناصف فى التاج) عن عبد اللّه، عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «لو لم يبقَ من الدنيا إلّايومٌ لطوَّلَ اللهُ ذلك اليومَ حتى يبعثَ رجلًا منّى أو من أهل بيتى يواطئُ اسمَهُ اسمى، واسم ابيهِ اسم ابى «۴»، يملأُ الأرضَ قسطاً وعدلًا، كما مُلئَتْ ظلماً وجوراً» «۵».

وأورد الحاكم النيسابورى فى «المستدرك» ما يشبه هذا الحديث مع فارق قليل، ويقول فى نهايته: هذا حديث صحيح «۶».

۴- ونقل أيضاً فى صحيح «أبى داود» عن امّ سلمة أنّها قالت: سمعتُ رسول اللّه صلى الله عليه و آله: إنّه كان يقول: «المهدىُّ من عترتى من ولدِ فاطمَةَ» «۷».

---

(۱) نقلًا عن كتاب التاج، ج ۵، ص ۳۶۰.

(۲) مستدرك أحمد، جملة ۳، ص ۳۶.

(۳) سنن أبى داود، ج ۴ ص ۱۵۲.

(۴) صرّح بعض العلماء الكبار أنّ الصحيح هنا، اسم ابيه اسم ابنى، وبهذا الشكل يكون موافقاً تماماً للاسم المبارك للامام المهدى حسب اعتقاد الشيعة أى (محمد بن الحسن العسكرى).

(۵) التّاج، ج ۵، ص ۳۴۳.

(۶) المستدرك، ج ۴، ص ۵۵۸.

(۷) صحيح أبى داود، ج ۲، ص ۲۰۷.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۲۹

۵- نقل الحاكم النيسابورى فى المستدرك، حديثاً أكثر تفصيلًا بهذا الشأن عن أبى سعيد الخدرى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ينزِلُ بأُمتى فى آخِرِ الزمانِ بلاءٌ شديد من سلطانهِمْ، لم يُسمع بلاءٌ اشدّ منه، حَتّى تضيقَ عَنْهُمُ الأرضُ الرَّحْبَةُ، وحتى يملأُ الأرضَ جوراً وظَلماً، لا يجدُ المؤمنُ مَلْجأً يَلتَجِأُ اليهِ مِنَ الظلْمِ فيبعثُ اللهُ عزَّ وجَلَّ رجُلًا من عترتى، فيَملأُ الأرضَ قسطاً وعدلًا كما مُلِئتْ ظُلماً وَجَوراً، يرضى عنه ساكن السماء وساكنُ الارضِ، لا تَدَّخِرُ الأرضُ مِنْ بَذرها شَيْئاً الّا اخْرَجَتْهُ، ولا السماءُ من قطرها شيئاً الّا صَبَّهُ اللهُ عليهم مدراراً» «۱».

وبعد ذكر هذا الحديث يقول الحاكم: هذا حديث صحيح وبالرغم من أنّ «البخارى» و «مسلم» لم يورداه فى كتبهما.

ومثل هذه الأحاديث- الواردة عن مختلف الرواة من المصادر المشهورة- كثيرة جدّاً، وتشير إلى الحكومة العالمية التى ستقام فى نهاية المطاف على اليد المقتدرة الكفوءة للإمام المهدى عليه السلام، ويملأ العدل والقسط كل مكان، ويتحقق بالتالى مضمون الآية السابقة: «أنَّ الأرضِ يَرثُها عبادىَ الصالحون».

۲- آية سورة النور

نقرأ فى قوله تعالى «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الارْضِ كَمَا استَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّنْ بَعْدِ خَوفِهِمْ امْناً يَعْبُدُونَنِى لَايُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ».

(النور/ ۵۵)

لقد بُشر المؤمنون الصالحون فى هذه الآية المباركة وبشكل صريح، أنّهم سيمسكون زمام السلطة والحكومة على الأرض فى نهاية المطاف، وسيُنشر الدين الإسلامى، وستتبدل حالات اللا أمن والخوف إلى الاستقرار والأمن، وتُقلع جذور الشرك فى جميع أنحاء العالم،

---

(۱) المستدرك على الصحيحين، ج ۴، ص ۴۶۵.

ويتمكن عباد اللَّه من مواصلة عبادة اللَّه الواحد الأحد بكل حرية، وتتم الحجّة على الجميع، بحيث لو أنّ أحداً أراد أن يواصل مسير الكفر سيكون فاسقاً ومقصراً، (أرجو أن تتأملوا فى القسم الأخير من الآية بدقّة).

وبالرغم من أنّ هذه الامور الهامة كانت تعد وعداً إلهياً تحقق فى عصر الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأزمنة اللاحقة من بعده بنحو أوسع للمسلمين فى العالم، وعاد الإسلام الذى كان يوماً ما تحت قبضة الأعداء يعانى من وطأة الظلم بحيث لم يسمحوا له بأدنى فرصةٍ للظهور والبروز على الساحة، ويعيش المسلمون فى حالة دائمة من الخوف والفزع، عاد فى نهاية المطاف وانتشر ليس فى شبه جزيرة العرب فحسب، بل عمَّ أجزاءً عظيمة واسعة من العالم، وانكفأ الأعداء منهزمين فى جميع الجبهات، ولكن بالرغم من هذا كله، فإنّ حكومة الإسلام العالمية التى يجبُ أن تعمّ كافة أرجاء المعمورة وآفاق الأرض، وتقلع جذور الشرك وعبادة الأوثان بشكل نهائى، وتنشر الأمن والآمان والهدوء والحرية والتوحيد الخالص، لم تتحقق بعد، إذن يجب انتظار تحقق هذا الأمر.

سيتحقق هذا الأمر طبقاً لما ورد فى الرواية المتواترة التى أشرنا إليها آنفاً فى عصر قيام المهدى عليه السلام، وبناءً على ما تقدم فإنّ احدى مصاديق هذه الآية تحقق فى عصر النبى صلى الله عليه و آله والأعصار المقارنة له، وسيتحقق شكله الأوسع فى عصر قيام المهدى عليه السلام، ولا منافاة بين هذين الأمرين، ولابدّ من تحقق هذا الوعد الإلهىّ فى كلا المرحلتين.

المراد من الاستخلاف هنا خلافة الأقوام الكافرة الماضية، إذ تزول فيها حكومتهم وتحل محلها حكومة الحق، نظير ما جاء فى قوله تعالى «ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلَائِفَ فِى الارْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ». (يونس/ ۱۴)

وقد ورد شبيه هذا المعنى فى الآيتين ۶۹ و ۷۴ من سورة الأعراف.

وبناءً على ذلك، فالذين تصوروا أنّ الآية تعد دليلًا واضحاً على خلافة الخلفاء الأربعة- أمثال الفخر الرازى- باعتبار أنّ أولئك هم الذين استخلفوا الرسول، وأنّ الوعد الإلهىّ قد تحقق فى عصرهم، إنّما وقعوا فى الخطأ، لأنّ هذه الآية لا يراد بها خلافة الرسول، بل خلافة

الأقوام السابقة كما ورد ذلك فى الآيات الثلاثة الآنفة الذكر، وكما ورد فى قوله تعالى

«وَاوْرَثْنَا القَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُستَضعَفُونَ مَشَارِقَ الارْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا». (الأعراف/ ۱۳۷)

من البديهى أنّ بنى اسرائيل ورثوا الفراعنة وسيطروا على جميع أنحاء ذلك البلد الواسع الملى بالبركات (مصر وأطرافها).

على أيّة حال فإنّ الآية تُبشر بقيام حكومة المؤمنين الصالحين فى جميع أنحاء العالم، تلك الحكومة التى تحقق مقدار واسع منها فى عصر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله وبعده، وهى وإن لم تعمُ جميع العالم، إلّاأنّها كانت نموذجاً على تحقق هذا الوعد الإلهى، ولكن لم تتحقق بعد على هيئة حكومة عالمية تعمّ أرجاء المعمورة، والمصداق النهائى لها سوف يتحقق بقيام حكومة الإمام المهدى عليه السلام مع توفر الأرضية والظروف بمشيئة اللّه تعالى إذ ستُملأ الدنيا عدلًا وقسطاً طبقاً لما ورد فى الروايات الصادرة عن الرسول صلى الله عليه و آله وسائر الأئمّة المعصومين عليهم السلام، بعد ما ملئت ظلماً وجوراً، ونحن بانتظار تحقق هذا الوعد القرآنى.

والروايات الواردة فى المصادر المختلفة فى تفسير هذه الآية تؤكد وتؤيد هذه المسألة أيضاً.

ومنها إنّ المفسّر المعروف «القرطبى» ينقل فى تفسير «الجامع لاحكام القرآن» فى نهاية هذه الآية عن «سليم بن عامر»، عن «المقداد بن اسود»، يقول: سمعت رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال: «ما على ظهر الأرض بيتُ حجرٍ ولا مدرٍ إلّاأدخَلَهُ اللّه كَلِمَةَ الإسلام» «۱».

وفى تفسير «روح المعانى» نُقل عن «الإمام على بن الحسين عليه السلام» أنّه قال فى تفسير هذه الآية: «هم واللّه شيَعتُنا أهل البيتِ يُفعَلُ ذلِكَ بهِمْ على يَدِ رَجُلٍ منّا وهو مهدىُّ هذه الامّة وهو الَّذى قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: لو لم يبقَ من الدنيا إلّايوم واحد لطوَّلَ اللّه تعالى ذلك اليومَ حتى يلِىَ رجلٌ من عترتِى اسمُهُ اسمى يملأُ الأرضَ عدلًا وقسطاً كما مُلِئَتْ ظلماً وجَوراً».

---

(۱) تفسير القرطبى، ج ۷ ص ۴۶۹۲.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۲

ويمكن مشاهدة هذا المعنى باختلاف قليل فى الكثير من مصادر أهل البيت عليهم السلام.

وبالرغم من أنّ «الآلوسى» لم يقيّم هذا الحديث برأى ايجابى فى تفسير «روح المعانى»، إلّاأنّه يقول فى نهايته:

وردت عدّة روايات عن طرقنا تؤيد هذا المعنى وإن لم نعوّل عليها- كرواية «عطية» عن النبى صلى الله عليه و آله بعد أن تلا هذه الآية، قال صلى الله عليه و آله: «أهل البيت هاهنا وأشار إلى القبلة» «۱».

وينقل القرطبى حديثاً آخر بهذا الشأن أيضاً أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قال: «زُوِيَتْ لى الأرضُ فَرأَيتُ مشارِقَها ومغارِبَهَا وسيبلُغ مِلْكُ امَّتى ما زوىَ لى منها» «۲».

يتّضح من كل ما أسلفناه، الجواب عن الكثير من مؤآخذات المخالفين لمنطق اتباع أهل البيت عليهم السلام فى تفسير هذه الآية.

وتوضيح ذلك: إنّه كما قلنا سابقاً: إنّ تحقق هذا الوعد الإلهى له عدّة مراحل، واحدى هذه المراحل حصلت مع المؤمنين الصالحين فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله، إذ بعد فتح مكة وسيطرة الإسلام على الجزيرة العربية، شعر المسلمون فى ظل الإسلام والرسول صلى الله عليه و آله بأمنٍ نسبى واستولوا على جزء عظيم من المنطقة، وتحقق بذلك ما ورد بشأن نزول هذه الآية.

(وقد ورد سبب نزول هذه الآية فى العديد من التفاسير، ومنها أسباب النزول، ومجمع البيان، وفى الظلال، والقرطبى (باختلاف بسيط)، أنّه عندما هاجر رسول الإسلام صلى الله عليه و آله والمسلمون إلى المدينة واستقبلهم الأنصار بأحضانهم، نهض العرب بأجمعهم ضدهم، بحيث إنّهم اضطروا إلى عدم مفارقة اسلحتهم، فينامون الليل بالسلاح، ويستيقظون الصبح مع السلاح، وكان الاستمرار على هذه الحالة يثقل على المسلمين، وأخذ بعضهم يتساءل إلى متى ستستمر هذه الحالة؟ هل سيأتى زمان ننام فيه الليل براحة بال واطمئنان، ولا نخشى احداً سوى اللّه؟ فنزلت هذه الآية، وبشرت بقرب حلول هذا الوقت).

(۱) تفسیر روح البیان، ذیل آیة مورد البحث.

(۲) تفسیر القرطبی، ذیل آیة مورد البحث.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۳

والمرحلة الاخری لهذا الوعد، حصلت فی زمن الخلفاء إذ سیطر الإسلام علی أجزاء واسعة من العالم وأخضعها لسلطته، فعادت علی المسلمین بمزید من الأمن والاستقرار.

إلّا أنّ المرحلة الثالثة والنهائیة أی عالمیة الإسلام وحاکمیته المطلقة علی العالم المتزامنة مع الأمن والاستقرار وانتصار جیش التوحید علی معسکر الشرک ولم یتحقق بعد، وسیقتصر تحققهُ علی عصر قیام المهدی علیه السلام فقط، وهذه المعانی الثلاثة التی تمثل سلسلة مراحل لحدیثٍ واقعی لا توجد بینها أیّة منافاة.

کما یستفاد من هذه الآیة أیضاً، أنّ هذا الوعد الإلهیّ یختص بالأفراد الذین یمتلکون الإیمان والعمل الصالح، ویقیناً کلما تحقق هذان الشرطان وفی أی عصر ومصر سوف تتهیّأ للمسلمین احدی مراحل هذه الحاکمیة الإلهیّة، وبالمقابل کلما حدثت هزیمة ما، وعاد المسلمون أذلاء ضعفاء فی قبضة الأعداء، یجب أن نعلم بأنّ ذینک الأساسین اللذین یمثلان شرطی تحقق الوعد الإلهیّ قد طوتهما صحف النسیان، فالإیمان عاد ضعیفاً، والاعمال آلت ملوثة!

۳- آیة ظهور الحق

نقرأ فی قوله تعالی «هُوَ الَّذِی ارسَلَ رَسُولَهُ بِالهُدَی وَدِینِ الحَقِّ لِیُظهِرَهُ عَلَی الدِّینِ کُلِّهِ وَلَوْ کَرِهَ المُشرِکُونَ». (التوبة/ ۳۳)

تجدر الإشارة إلی أنّ هذه الآیة تأتی بعد آیة: «یُرِیدُونَ انْ یُطفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِافواهِهِم وَیَأبَی اللَّهُ الَّا انْ یُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ کَرِهَ الکَافِرُونَ».

وأعطی اللَّه فی هذه الآیات- کما فی الآیات السابقة- الوعد فی غلبة وانتصار الإسلام علی کافة الأدیان فی العالم.

وحول السؤال القائل: ما هو المقصود بانتصار الإسلام علی کافة الأدیان؟ اعطی المفسرون عدّة احتمالات.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۴

فالفخر الرازی یعطی خمسة تفاسیر هنا تعد جواباً علی الاسئلة المرتبطة بکیفیة هذه الغلبة:

۱- المقصود بالغلبة هو الغلبة النسبیة والموضعیة، ذلک إنّ الإسلام انتصر بمنطقه علی جمیع الأدیان والمذاهب.

۲- المراد هو الانتصار علی الأدیان فی الجزیرة العربیة.

۳- المراد إخبار النبی صلی الله علیه و آله بجمیع الأدیان الإلهیّة (فسّرت جملة «لیظهره» هنا بمعنی الإخبار).

۴- المراد النصر والغلبة المنطقیة، أی أنّ اللَّه ینصر منطق الإسلام علی سائر الأدیان.

۵- المراد النصر النهائی علی جمیع الأدیان والمذاهب عند نزول عیسی علیه السلام وقیام المهدی علیه السلام إذ سیصبح الإسلام عالمیاً.

ولا شک بأنَّ تفسیر الآیة بالنصر المنطقی وبصورة وعدٍ مستقبلی لا ینطوی علی مفهوم صحیح، لأنّ النصر المنطقی للإسلام کان واضحاً منذ البدایة، إضافة إلی ذلک فإنّ مادة «الظهور» و «الاظهار» (لیظهره علی الدین کُلِّهِ) وکما یستفاد من موارد استعماله فی القرآن المجید، بمعنی الغلبة الخارجیة والعینیة کما نقرأ ذلک فی قصة أصحاب الکهف: «انَّهُم انْ یَظْهَرُوا عَلَیکُم یَرجُمُوکُم». (الکهف/ ۲۰)

ونقرأ فی قوله تعالی «کَیفَ وَانْ یَظْهَرُوا عَلَیْکُمْ لَایَرقُبُوا فِیکُم الًّا وَلَا ذِمَّةً».

(التوبة/ ۸)

ومن البديهى أنّ عَبَدة الأصنام من قوم أصحاب الكهف، ومشركى مكة لم ينتصروا منطقياً على المؤمنين باللّه اطلاقاً، واقتصرت غلبتهم على الغلبة الخارجية فقط، وبناءً على هذا فإنّ المراد بغلبة الإسلام على جميع الأديان هى الغلبة الخارجية والعينية، وليس الغلبة المنطقية والفكرية.

إنَّ هذه الغلبة- وكما ورد نظير ذلك فى البحث الماضى- لها مراحل مختلفة:

حصلت احدى مراحلها فى عصر الرسول صلى الله عليه و آله، ومرحلتها الأوسع حصلت فى القرون

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۵

التالية، ومرحلتها النهائية ستحصل عند قيام المهدى عليه السلام، لأنّ الآية الشريفة تتحدث عن غلبة الإسلام على جميع الأديان دون أى قيد وشرط، والغلبة المطلقة دون أى قيد أو شرط إنّما تتحقق بشكل كامل عندما تلقى ظلالها على جميع أرجاء المعمورة، كما ورد فى رواية رسول الإسلام صلى الله عليه و آله إذ قال: «لا يبقى على ظهر الأرض بيتُ مَدَرٍ ولا وَبَرٍ الّا أدخَلَهُ اللهُ كلمة الإسلام» «۱».

ونقل شبيه هذا المعنى فى تفسير «الدرّ المنثور» عن «سعيد بن منصور، و «ابن المنذر» و «البيهقى» فى سننه عن «جابر بن عبد اللَّه» أنّه قال فى تفسير هذه الآية:

«لا يكون ذلك حتى لا يبقى يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ صاحبُ ملةٍ الّا الإسلام» «۲».

أجل سيتحقق هذا الوعد الكبير فى ذلك اليوم الكبير.

ونقل هذا المعنى عن الإمام الصادق عليه السلام فى تفسير الآية السابقة، إذ قال: «واللّه ما نزل تأويلها بَعْدُ ولا ينزلُ تأويلها، حتى يخرُجَ القائمُ، فاذا خرجَ القائمُ لم يبق كافرٌ باللّه العظيم» «۳».

وهذه الملاحظة على جانب من الأهميّة إذ إنّ الآية: «هُوَ الَّذِى ارسَلَ رسُولَهُ بِالهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظهِرَهُ عَلَى الّدِينِ كُلِّهِ» قد ورد فى ثلاث سورٍ من القرآن: الاولى فى التوبة الآية ۳۳ (كما مرَّ سابقاً)، والثانية فى سورة الفتح الآية ۲۸، والثالثة فى سورة الصف الآية ۹.

هذا التكرار يبيّن أنّ القرآن المجيد قد تابع هذه المسألة بتأكيد متزايد.

ونقرأ فى حديث آخر نُقل فى مصادر السنّة عن أبى هريرة: المقصود من الآية: «لِيُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ»، خروج عيسى بن مريم عليه السلام (ونحن نعلم أنّ خروج عيسى ابن مريم عليه السلام وطبقاً لما ورد فىالروايات الإسلامية سيكون أثناء قيام المهدى عليه السلام) «۴».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، الآية التى نحن بصددها.

(۲) تفسير در المنثور، ج ۳، ص ۲۳۱.

(۳) تفسير نور الثقلين، ج ۲، ص ۲۱۲.

(۴) تفسير در المنثور، ج ۳، ص ۲۳۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۶

ونختم هذا البحث بحديث منقول عن «قتادة» المفسّر المعروف، إذ يقول فى تفسير هذه الآية: «الأديانُ ستَّةٌ: الَّذين آمنوا، والذين هادوا، والصابئون، والنصارى والمجوس، والذين اشركوا، فالأديان كُلُّها تدخل فى دين الإسلام» «۱».

ومن الواضح أنّ هذا المعنى لم يتحقق بَعْدُ بشكل نهائى، ولن يتحقق إلّافى عصر قيام المهدى عليه السلام.

وهذه الملاحظة جديرة بالاهتمام أيضاً، وهى: أنّ المقصود بزوال الديانة اليهودية والمسيحيّة ليس بشكل كامل، بل المقصود حاكمية الإسلام على العالم اجمع (تأملوا جيداً).

آثار انتظار المهدى عليه السلام:

تصوّر بعض الجهلة أنّ انتظار ظهور المهدى عليه السلام بناءً على الآيات والروايات الآنفة، يمكن أن يتسبب فى الركود والتخلف، أو الهروب من تحمّل أعباء المسؤوليات، والاستسلام أمام الظلم والاضطهاد، ذلك أنّ الاعتقاد بهذا الظهور الكبير يعنى فى مفهومه اليأس وقطع الأمل فى إصلاح العالم قبله، بل وحتى الاعانة على انتشار الظلم والفساد لكى تتهيأ الأرضية المناسبة لظهوره!

لقد مرّت سنوات عديدة وألسن المخالفين والمنكرين لقيام المهدى عليه السلام تتناول هذا الحديث، وأشار إلى ذلك ابن خلدون، فى الوقت الذى تعد هذه المسألة على العكس من ذلك تماماً، وأنّ انتظار هذا الظهور الكبير له آثار بناءة جداً، سنشير إليها لاحقاً بشكل سريع ومختصر، كى يتّضح أنّ مثل هذا الحكم يعدُ حكماً متسرعاً وغير دقيق أمام مسألة اشير إليها فى القرآن المجيد، وكذلك فى الأحاديث المتواترة الواردة فى الكتب المعروفة للسنّة،

---

(۱) تفسير در المنثور، ج ۳، ص ۲۳۱.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۷

والمصادر المشهورة للشيعة، ومبيّنة بشكل صريح.

حقيقة الانتظار وآثاره البناءة:

لقد كان الحديث يدور حول حقيقة الإيمان بظهور المهدى عليه السلام ببرنامجه العالمى الذى يملأ بموجبه العالم عدلًا وقسطاً ويقطع جذور الظلم والاضطهاد، فهل لتلك الحقيقة آثار تربوية بناءة أم آثار سلبية؟

وهل أنّ الإيمان بمثل هذا الظهور يحمل الإنسان على الاستعراض فى افكار تخيلية بحيث يغفل عن واقعه المعاش ويجعله مستسلماً أمام كل الظروف؟

أم أنّ ذلك فى حالة صحة هذه العقيدة يعد نوعاً من الدعوة للثورة وبناء الفرد والمجتمع؟

هل يبعث على التحرك أم الركود؟

هل يخلق روح تحمّل المسؤولية أم يكون داعياً إلى الهروب من اعباء المسؤوليات؟!

وأخيراً: هل هو عامل مخدّر أم منبّه؟

ولكن قبل توضيح ومتابعة هذه الاسئلة، يعدُ الالتفات إلى هذه النقطة أمراً ضرورياً جدّاً، وهى: أنّ أفضل القوانين وارقى المفاهيم إذا وقعت فى ايدى الأفراد غير الكفوئين أو غير اللائقين أو الانتهازيين يمكن أن تتعرض إلى المسخ الشديد، بحيث تعطى نتائج مغايرة للهدف الأصلى تماماً، وتتحرك بالاتّجاه المضاد منها، ولهذه القضية نماذج كثيرة، ومسألة «الانتظار» وبالنحو الذى سنراه فى عداد هذه المسائل.

وعلى أيّة حال فإنّ التخلّص من كافة أنواع الخطأ فى الحساب فى مثل هذه الأبحاث، لابدّ- كما يقال- من أخذ الماء من مصدره، لكى لا يُؤثر فيه التلويث المحتمل للأنهار والقنوات التى يمرُ فيها الماء خلال مسيره.

أى إنّنا سنتوجه فى بحث مسألة «الانتظار» مباشرةً نحو المصادر الإسلامية الأصلية، ونُخضع مضامين الأحاديث المختلفة التى تؤكد على مسألة «الانتظار» للبحث والتحقيق، كى نصل إلى الهدف الأساسى.

والآن تأمّلوا فى هذه الطائفة من الروايات بدقّة:

۱- سأل سائل من الإمام الصادق عليه السلام: ماذا تقول فيمن مات وهو على ولاية الأئمّة

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۸

بانتظار ظهور حكومة الحق؟

فقال الإمام عليه السلام فى جوابه: «هو بمنزلة مَنْ كان مع القائم عليه السلام فى فسطاطِه- ثم سكت هنيئَةً- ثم قال: هو كَمَنْ كانَ مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله» «۱».

ونُقل هذا المضمون نفسه فى روايات كثيرة وبتعابير مختلفة.

۲- وجاء فى بعضٍ منها: «بمنزلة الضاربِ بسيفهِ فى سبيل اللَّه».

۳- وفى البعض الآخر: «كمَنْ قارَعَ مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله بسيفِهِ».

۴- وفى البعض الآخر: «بمنزلةِ مَنْ كانَ قاعداً تحت لِواءِ القائم».

۵- وفى البعض الآخر: «بمنزلةِ المجاهِدِ بين يدىْ رسولِ اللَّه صلى الله عليه و آله».

۶- وفى البعض الآخر: «بمنزلةِ مَنْ استشهِدَ مع رسول اللَّه صلى الله عليه و آله».

انَّ هذه التشبيهات السبعة الواردة فى هذه الروايات السّتّة بشأن انتظار ظهور المهدى عليه السلام، تكشف عن هذه الحقيقة، بوجود نوع من الرابطة والتشابه بين مسألة «الانتظار» من جهة، و «الجهاد»، ومقاتلة الأعداء بأعلى صورة من جهة اخرى (تأملوا).

۷- ورد انتظار مثل هذه الحكومة أيضاً فى روايات متعددة، واشير إليه على أنّه أفضل العبادات.

ونقل هذا المضمون فى بعض الأحاديث عن الرسول صلى الله عليه و آله، وفى البعض الآخر عن أمير المؤمنين عليه السلام، ونقرأ فى حديث أنّ الرسول صلى الله عليه و آله قال: «أَفضَلُ اعمالِ امَّتى انتِظارُ الفرجِ من اللهِ عَزَّ وَجَلَّ» «۲».

ونقرأ فى حديث آخر عن الرسول صلى الله عليه و آله: «أَفضَلُ العبادَةِ انتظارُ الفرج» «۳».

وهذا الحديث سواء نظرنا فيه إلى مسألة انتظار الفرج بالمعنى الواسع للكلمة أو بالمفهوم الخاص لها أى بمعنى انتظار ظهور المصلح العالمى الكبير، يُوضّح أهميّة الانتظار فى بحثنا هذا.

---

(۱) محاسن البرقى طبقاً لنقل بحار الأنوار، ج ۱۳، ص ۱۳۶.

(۲) اصول الكافى بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ۱۳، ص ۱۳۷.

(۳) اصول الكافى بناءً على نقل بحار الأنوار، ج ۱۳، ص ۱۳۶.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۳۹

كل هذه التعابير تقول بأجمعها إنّ الانتظار يعد ثورة مقرونة بشكل مستمر بالجهاد الواسع الشامل، اجعلوا هذه المسألة نصب أعينكم كى ننتقل إلى مفهوم الانتظار، ثم نستخلص النتيجة من مجموع هذه المفاهيم.

مفهوم الانتظار:

«الانتظار»: يُطلق عادةً على حالة من يشعر بعدم الارتياح من الوضع الموجود، ويسعى من أجل ايجاد وضع أفضل.

ومثله كمثل المريض الذى ينتظر تحسن حالته، أو الأب الذى يعيش حالة انتظار عودة ولده من السفر، أو مَن يشعر بعدم الارتياح من مرض أو فراق الولد ويسعى من أجل وضعٍ أفضل.

وكذا الحال بالنسبة للتاجر الذى يشعر بعدم الارتياح من وضع السوق المضطرب ويعيش الانتظار كى تنتهى الأزمة الاقتصادية، فانه يعيش كلا الحالتين «عدم الانسجام مع الوضع الموجود»، و «السعى من أجل وضعٍ أفضل».

وبناءً على ذلك فإنّ مسألة انتظار حكومة الحق والعدالة للامام «المهدى» وقيام المصلح العالمى مركّبة فى الواقع من عنصرين، عنصر

«النفى» وعنصر «الإثبات». ويمثل عنصر النفى عدم الانسجام مع الوضع الموجود، ويمثل عنصر الإثبات السعى من أجل الحصول على الوضع الأفضل.

وإن حلّت هاتان الخصلتان بصورة متجذرة فى روح الإنسان فستكونان مصدراً لنوعين من الأعمال الواسعة الشاملة.

وهذان النوعان من الاعمال يتمثلان بترك أى نوع من أنواع التعاون والانسجام مع عوامل الظلم والفساد، وحتى النضال والاشتباك معها من جهة، وبناء الذات واعدادها والمحافظة عليها من الزلل، واكتساب الاستعدادات الجسمية والروحية والمادية والمعنوية من أجل تبلور تلك الحكومة العالمية والشعبية الموحّدة من جهة اخرى

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۰

ولو تأملنا جيداً نرى أنّ كلًا منها يعدُ بنّاءً وعامل تحرّكٍ ووعيٍ ويقظة.

ومع أخذ المفهوم الأساس «للانتظار» بنظر الاعتبار يمكن أن نُدرك جيدا معنى الروايات المتعددة التى نقلناها آنفاً بشأن البشارة، ونتيجة عمل المنتظرين. والآن نفهم لماذا عُدَّ المنتظرون الحقيقيون أحياناً كالذين مع المهدى عليه السلام فى فسطاطه، أو تحت لوائِهِ، أو كالضارب بسيفه فى سبيل اللّه، أو المتشحط بدمه، أو المستشهد؟

أليست هذه الحالات إشارة إلى المراحل المختلفة، ودرجات الجهاد فى سبيل الحق والعدالة، والتى تتناسب مع مقدار الاستعداد ودرجة انتظار الأفراد؟

أى، كما أنّ ميزان تضحية المجاهدين فى سبيل اللّه ودورهم متفاوت فيما بينهم، فإنّ الانتظار وبناء الذات والاستعداد له درجات متفاوتة أيضاً، بحيث إنّ كلًا منها يتشابه مع ما يقابلها من حيث «المقدمات» و «النتيجة»، فكلاهما يمثلان الجهاد، وكلاهما يريدان الاستعداد وبناء الذات، فمن كان فى فسطاط قائد مثل تلك الحكومة أى فى مركز القيادة العامة لحكومة عالمية لا يسعه أن يكون فرداً غافلًا وغير مبال، لأنَّ ذلك المكان ليس لكائن مَنْ كان، إنّه مكان أولئك الذين يليقون حقاً بتلك المنزلة والأهميّة.

وكذلك فإنّ الذى يحمل السلاح بيده ويقاتل بين يدى قائد هذه الثورة ضد المخالفين لحكومته، حكومة الصلح والسلام والعدالة، لابدّ وأن يمتلك استعداداً روحياً وفكرياً وقتالياً عالياً.

ولغرض المزيد من الاطلاع على الآثار الواقعية لانتظار ظهور المهدى عليه السلام نرجو الالتفات إلى التوضيح التالى:

الانتظار يعنى الاستعداد التام:

اشارة

لو كنت ظالماً ومضطهداً كيف يمكن أن أنتظر فرداً تكون دماء الظلمة طعمة لسيفه؟

لو كنت ملوثاً نجساً كيف بوسعى أن أكون فى انتظار ثورةٍ ستأتى شرارتها على حضائر النجسين والملوثين؟

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۱

فالجيش الذى ينتظر أن يخوض حرباً شعواء يجب أن يعمل على رفع الاستعداد القتالى لأفراده، ويؤجج فيهم روح الثورة، ويعمل على إصلاح أى نقطة ضعف فيه.

لأنّ كيفية «الانتظار» تتناسب دائماً مع الهدف الذى نحن بانتظاره.

انتظار مسافر عائد من سفره.

انتظار عودة أحد الأحبّة الأعزاء.

انتظار حلول موسم جنى الثمار من الأشجار وحصاد المحصول.

وكل نوع من حالات الانتظار هذه ممزوج بنوعٍ من الاستعداد، ففى احداها لابدّ من اعداد البيت وتوفير وسائل الاستقبال، وفى الاخرى تهيئة الأدوات اللازمة، كالمنجل.

من هنا لكم أن تنظروا إلى أنّ الذين ينتظرون قيام مصلحٍ عالمي كبير فإنّهم ينتظرون فى الواقع ثورةً وانقلاباً وتحولًا يعدُ من أوسع واشمل الثورات الإنسانية على مرّ تاريخ البشرية.

إنّهم ينتظرون انقلاباً مغايراً للثورات السابقة التى كانت تفتقر إلى الصيغة المنطقية فى محتواها، بل ثورة عامة شاملة لجميع الشؤون والجوانب الحياتية للبشرية، ثورة سياسية وثقافية واقتصادية وأخلاقية.

الفلسفة الاولى بناء الذات فردياً

إنَّ مثل هذا التحول يحتاج قبل كل شيء إلى العناصر الإنسانية المستعدة والأمينة لكى يكون بوسع القائمين به تحمّل أعباء تلك الإصلاحات الواسعة فى العالم، ويحتاج ذلك بالدرجة الاولى إلى رفع مستوى التفكير والوعى والاستعداد الروحى والفكرى للمساهمة فى تطبيق ذلك البرنامج العظيم، إنّ النظرات الضيقة والمحدودة، والأفكار المنحرفة، والحسد، والنزاعات الصبيانية وغير العقلائية، وبشكل عام كل نوع من النفاق والتشتت لا ينسجم مع مكانة «المنتظرين الواقعيين».

والملاحظة المهمّة هى أنّ المنتظر الحقيقى ليس بوسعه أن يتخذ دور المتفرّج أمام هذا

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۲

البرنامج المهم اطلاقاً، ولابدّ أن ينخرط من الآن فى صفوف الثوريين.

إنّ الإيمان بنتائج وعاقبة هذا التحول لا يسمحان له بأنّ يكون فى خندق المعارضين اطلاقاً، كما أنّ الانضمام لخندق المؤيدين أيضاً لا يحتاج فقط إلى امتلاك «اعمال نظيفة»، وروحٍ أنظف، والتحلّى «بالشهامة» و «الوعى»، إذ إنّ ذلك وحده لا يكفى.

فلو كنت شخصاً فاسداً وغير مستقيم كيف بوسعى أن أعدّ الأيّام فى انتظار نظامٍ ليس فيه للفاسدين وغير الصالحين أى دور أو أثر، بل سيكونون مطرودين وغير مرغوب فيهم.

ألا يكفى هذا الانتظار لتصفية الروح والفكر، وغسل الجسم والروح من الدرن والنجاسات؟

إنّ الجيش الذى يعيش الانتظار لخوض جهاد التحرير لابدّ وأن يكون فى حالة الانذار القصوى والاستعداد الكامل، ويعمل جاهداً للحصول على السلاح اللائق بساحة القتال هذه، ويبنى المواضع اللازمة، ويرفع المستوى القتالى لمنتسبيه،

ويقوى معنوية أفراده، ويعمل على ابقاء شعلة الحب والشوق لمثل هذه المنازلة حيّة فى قلوب جنوده، والجيش الذى لا يتحلى بمثل هذا الاستعداد لا يمكن أن يعيش حالة الانتظار مطلقاً، وإن ادّعى ذلك فإنّما يكذب.

إنّ انتظار مصلحٍ عالمى بمعنى الاستعداد الفكرى والأخلاقى، المادى والمعنوى الكامل، إنّما هو من أجل إصلاح العالم اجمع، تأملوا كم أنّ هذا التهيؤ والاستعداد يُعدّ بنّاءً.

إنّ إصلاح جميع أرجاء الأرض وإنهاء كل أنواع المظالم والاضطرابات ليس مزاحاً، ولا يمكن أن يكون عملًا بسيطاً، فالاستعداد والتهيؤ لمثل هذا الهدف العظيم يجب أن يكون متناسباً مع حجمه، أى: يجب أن يكون بسعته وعمقه!

ومن أجل تحقيق هذه الثورة، لابدّ من رجال عظماء جداً يمتازون بالتصميم العالى والاقتدار الرفيع ولا يقبلون الهزيمة، طاهرين وبعيدى النظر وبشكل استثنائى، وعلى استعداد كامل، ويمتلكون نظرة ثاقبة للُامور.

ويستلزم البناء الذاتى لمثل هذا الهدف استخدام اعمق البرامج الأخلاقية والفكرية

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۳

والاجتماعية، هذا هو معنى الانتظار الواقعى، فهل يتسنى لاحدٍ الادّعاء بأنّ مثل هذا الانتظار ليس بنّاءً؟

الفلسفة الثانية: أعمال الرعاية الاجتماعية

المنتظرون الصادقون مكلفون فى نفس الوقت بأن لا يركّزوا اهتمامهم بأنفسهم فحسب، بل بمراقبة أحوال بعضهم البعض، وأن يبادروا فى إصلاح الآخرين وإصلاح أنفسهم، لأنّ البرنامج العظيم والثقيل الذى ينتظرونه ليس برنامجاً فردياً، بل إنّه برنامج ينبغى أن تساهم فيه جميع عناصر الثورة، ولابدّ أن يكون طابع العمل طابعاً جماعياً وجماهيرياً، ولابدّ أن تتناغم الجهود والمساعى، وينبغى أن يكون عمق الانسجام وسعته بعظمة ذلك البرنامج الثورى العالمى الذى يعيشون انتظاره.

وفى هكذا ميدان واسع للمنازلة الجماعية، ليس بوسع أى فردٍ أن يبقى غافلًا عن أحوال الآخرين، بل إنّه مكلّف بإصلاح أى نقطة ضعف فى أى مكانٍ يراها، وأن يرمم أى موضعٍ متضرر، وأن يقوى كل جزء ضعيف، لأنّه بدون الاشتراك الفعّال والمنسجم لكل المناضلين فإنّ تطبيق مثل هذا البرنامج يعدُ امراً مستحيلًا.

وبناءً على هذا فإنّ المنتظرين الواقعيين واضافة لسعيهم فى إصلاح أنفسهم، مكلفون أيضاً بإصلاح الآخرين.

هذا هو الأثر البنّاء الآخر لانتظار قيام مصلحٍ عالمى، وهذه هى فلسفة كل تلك الفضائل المعدّة للمنتظرين الحقيقيين.

الفلسفة الثالثة: المنتظرون الحقيقيون لا يذوبون فى فساد المحيط

الأثر المهم الآخر الذى يمتاز به انتظار المهدى هو عدم الذوبان فى مفاسد المحيط، وعدم الاستسلام أمام الانحرافات والفساد.

وتوضيح ذلك: إنّه عندما يشيع الفساد ويجر الأكثرية نحو التلوث، فإنّ الأفراد الطاهرين

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۴

يواجهون أحياناً مأزقاً نفسياً حاداً لا مخرج منه، مأزقاً مغلقاً نابعاً من اليأس من الإصلاحات.

إنّهم يعتقدون أحياناً بأنّ الأمر قد خرج من أيديهم ولا أمل بالإصلاح قط، والسعى من أجل المحافظة والابقاء على الطهارة يعد عبثاً، ومن الممكن أن يجرهم هذا اليأس والاحباط نحو الفساد والتأقلم مع المحيط تدريجياً، بحيث لا يتمكنون معه من المحافظة على أنفسهم بصورة أقلية صالحة أمام الأكثرية الطالحة، وينظرون إلى مسألة عدم التأقلم مع الجماعة كباعثٍ على الفضيحة!

والشىء الوحيد الذى يمكن أن يبعث فيهم «الأمل» ويدعوهم إلى المقاومة والمحافظة على النفس، ولا يدعهم يذوبون فى المحيط الفاسد هو الأمل بالإصلاح النهائى، فى هذه الصورة فقط سوف لن يرفعوا أيديهم عن بذل المساعى والجهود للمحافظة على طهارتهم وإصلاح الآخرين.

وإن كنّا نلاحظ فى القوانين الإسلامية أنّ اليأس من غفران الذنوب يعدّ من الذنوب الكبيرة، ومن الممكن أن يتعجب الجاهلون أنّه لماذا يعد اليأس من رحمة اللَّه على هذا القدر من الأهميّة، بل حتى أنّه أهم من كثير من الذنوب، إنّ فلسفة هذه المسألة تكمن فى حقيقة مفادها هو أنّ المذنب الآيس من الرحمة لا يرى أى مبررٍ للتفكير بالتكفير عن ذنبه، أو على الأقل الاعراض عن الاستمرار بارتكاب الذنب، ومنطقه يرتكز على أنّ الماء قد تجاوز هامتى سواء بمتر أو مائة متر! أنا المفضوح فى الدنيا فلن ابالى بهموم الدنيا! ولا لون بعد السواد أشد منه، سأدخل جهنم لا محالة، أنا الذى اشتريت ذلك لنفسى، فممّ الخوف إذن؟! وأمثال هذا المنطق ...

أمّا عندما تفتح أمامه نافذة أمل، الأمل بعفو اللَّه، الأمل بتغيير الوضع الموجود، ستتولد نقطة عطفٍ فى حياته تدعوه إلى التوقف عن مسيرة الذنوب والعودة نحو الطهارة والإصلاح.

ولهذا السبب يمكن اعتبار الأمل على أنّه عامل تربوى مؤثر فى أوضاع الفاسدين دائماً، وكذلك الصالحون المبتلون بالأوساط الفاسدة، لا يسعهم المحافظة على أنفسهم بدون الأمل.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۵

والنتيجة إنّ انتظار ظهور مصلحٍ يزداد الأمل بظهوره كلما إزدادت الدنيا فساداً، له أثر نفسى متزايد لدى المعتقدين، ويصونهم أمام أمواج الفساد المتلاطمة؛ إنّهم لا يعرفون اليأس بمجرّد انتشار رقعة فساد المحيط، بل بمقتضى «اقتراب موعد الوصل* يزداد لهيب الشوق والوله» فإنّهم يرون موعد الوصل والوصول إلى الهدف الذى هو نصب أعينهم، وتزداد حدّة المنازلة مع الفساد أو المحافظة على النفس بكل شوق واستماتة.

من مجموع الأبحاث الماضية نستخلص النتيجة التالية: إنّ الأثر التخديرى للانتظار يقع فى حالة واحدة بأن يصبح مفهومه المسخ أو التحريف- كما حرّفه إلى هذا المفهوم جمعٌ من المعارضين، ومسخه جمعٌ من المؤيدين- أمّا لو تُرجم إلى مفهومه الواقعى فى المجتمع والفرد فيتحوّل إلى عاملٍ مهم للتربية وبناء الذات والتحرك والأمل.

ومن جملة الأسانيد الواضحة التى تؤيد هذا الموضوع ما جاء فى آخر هذه الآية «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الارْضِ ....». (النور/ ۵۵)

ونقل عن أئمّة الإسلام الكرام المقصود بهذه الآية «هو القائِمُ وأصحابُهُ» «۱».

ونقرأ فى حديث آخر: (نَزَلت فى المهدى).

وفى هذه الآية اشير إلى المهدى عليه السلام وأصحابه بأنّهم «الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»، وبناءً على ذلك فإنّ تحقق هذه الثورة العالمية بدون الإيمان الراسخ الذى لا يداخله أى نوع من الضعف والتخاذل، وبدون الأعمال الصالحة التى تفتح الطريق أمام إصلاح العالم يعدّ أمراً غير ممكن البتة، وعلى الذين ينتظرون مثل هذا البرنامج أن يرفعوا مستوى وعيهم وإيمانهم، وأن يجتهدوا فى إصلاح اعمالهم.

ويمكن لهؤلاء الأفراد أن يمنحوا أنفسهم أمل الاشتراك فى حكومته فقط، وليس الذين يتعاونون مع الظلم والاضطهاد، وليس البعيدون عن الإيمان والعمل الصالح، ولا الأفراد

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱۳، ص ۱۴.

نفحات القرآن، ج۹، ص: ۳۴۶

الجبناء والأذلاء الذين يخشون كل شىء وحتى يخافون من ظلهم بسبب ضعف إيمانهم.

ولا الأفراد المتقاعسون والكسالى والعاطلون الذين يقفون مكتوفى الأيدى أمام مفاسد محيطهم ومجتمعهم مفضلين السكوت دون أن يكون لهم أدنى سعيٍ أو جهدٍ على طريق مواجهة معالم الفساد.

هذا هو الأثر البنّاء لقيام المهدى عليه السلام فى المجتمع الإسلامى.

اللّهم! نوّر أبصارنا بجمال طلعته البهيّة، واجعلنا من أنصاره المخلصين وجنوده المضحّين!

نهاية الجزء التاسع من نفحات القرآن

ربيع الثانى سنة ۱۴۱۵ ه ق

المطابق لشهر مهر

سنة ۱۳۷۳ ه ش

الجزء العاشر

العلاقة بين الإمامة والحكومة

تحدثنا فى المجلد التاسع من نفحات القرآن عن مسألة الإمامة والولاية من وجهة نظر القرآن الكريم، وحيث إنّ مسألة (الإمامة) لا تنفصل عن مسألة (الحكومة) بل إنَّ روح الإمامة والولاية تعنى حكومة النفوس والأبدان، وهدايتها إلى الصراط المستقيم والتحرّك نحو الكمال والسعادة، لذا وجب علينا بحث مسألة (الحكومة الإسلامية) بعد الانتهاء من بحث مسألة (الإمامة) والقيام بتحليلها وتفصيلها، حيث لم يكتمل موضوع الإمامة والولاية بذلك القدر.

ألم نَعُدّ اقامة حكومة العدل الواحدة فى العالم احدى أهم الأهداف فى قيام المهدى (عج)؟ ونعنى به نفس الشىء الذى كان بصدده الرسول صلى الله عليه و آله وباقى الأئمّة عليهم السلام، ولم تسنح الفرصة لا من حيث الزمان ولا المكان للوصول إلى هذا الهدف بالرغم فى وجود الأسس اللازمة لإقامتها، نعم لقد بذل الجميع جهوداً للوصول إلى تشكيل حكومة العدل الإلهى. فكيف يمكن اذن فصل موضوع (الحكومة) عن (الإمامة)؟ بل، ولقد بدأ الرسول صلى الله عليه و آله بعد الانتصار فى الغزوات الاولى بتشكيل الحكومة الإسلامية واعتبرها ركناً مهماً من أركان الإسلام، بل الضامن الوحيد لإجراء القوانين بأكملها، وقد كان الهمّ الوحيد لأولئك الذين خلفوا الرسول صلى الله عليه و آله سواء كانت خلافتهم حقّه أم لم تكن، هو تشكيل وإدامة الحكومة الإسلامية.

ولقد دعى سكان الكوفة الإمام الحسين عليه السلام إلى تشكيل الحكومة الحقّة ومحاربة غاصبيها، ولو لا نقض العهد من قِبل أهل الكوفة وتخاذ لهم وعدم وفائهم، لرفع الإمام عليه السلام علم الحكومة الإسلامية عالياً، والروايات الواردة عن طريق الأئمّة المعصومين عليهم السلام

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶

ونهج البلاغة احتوت على تعابير كثيرة توضّح من خلالها أنّ أعداءهم قد غصبوا حقهم عليهم السلام، وهذا الحقّ ليس إلّا (حكومة العدل الإسلامية).

كل هذه الأدلة وتلك الشواهد التى لا تُحصى برهانٌ آخر على أنَّ مسألة (الإمامة) لا تنفصل عن (الخلافة) و (الحكومة).

ونرى فى رواية (هارون الرشيد) الذى أراد بزعمه أن يُرجعَ «فدكاً» إلى الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ملاحظة جديرة بالاهتمام لتوضيح المقصود:

إنّ «فدكاً»- وكما هو معلوم- ضيعة قريبة من (خيبر) وكانت خضراء يانعة، وقد وهبها الرسول صلى الله عليه و آله إلى ابنته الزهراء عليها السلام فى حياته، وقد اغتصبت منها بعد وفاته مباشرة، فكانت دائماً موضع اعتراض المحبين لأهل البيت عليهم السلام فلذلك وبعد ضغط الرأى العام، فكّر الرشيد بارجاعها إلى أولاد فاطمة عليها السلام فقال للإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «حدَّ فدكاً حتّى أردَّها إليك» وألحَّ عليهَ كثيراً، فقال الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «لا آخذها إلّابحدودها».

قال هارون: وما حدودها؟

قال الإمام عليه السلام: «إنْ حددتها لم تردّها».

قال هارون: بحقّ جدّك إلّافعلتَ.

قال الإمام عليه السلام: «أمّا حَدُها الأوّل فعدن»، فتغيّر وجه الرّشيد. وقال: أيهاً.

قال الإمام عليه السلام: «والحدُّ الثّانى سمرقند». فأربد وجهه.

قال الإمام عليه السلام: والحدُّ الثالث أفريقية»، فاسودّ وجهه.

وقال هارون: هيه.

قال الإمام عليه السلام: «والرابع ساحل بحر الخزر وأرمينية».

قال الرّشيد: فلم يبقَ لنا شىء، فتحوّل إلى مجلسى.

قال الإمام عليه السلام: «قد أعلمتك أنّنى إن حددتها لم تردّها فعند ذلك عزم على قتلى» «۱».

هذا الحديث يدلّ على أنّ بين مسألة (فدك) و (الخلافة) رابطة قوية وتعنى أن ما غُصِبَ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۴۴ (نقلًا عن كتاب أخبار الخلفاء).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷

كان خلافة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله والتى تعتبر فدك جزءاً منها، ولو أراد هارون ارجاع فدك لكان يجب عليه أن يتخلى عن الخلافة، ممّا أشعره أنّ الإمام إذا ما وصل إلى حالة من القوّة لفعل ذلك وسيتولى الخلافة حتماً، لذا عزم على قتله «۱».

الغرض، هو أنّ المسائل ذات العلاقة ببحث الإمامة لها رابطة مع المسائل ذات العلاقة بالحكومة وقيادة المسلمين، وهذا أمر بديهى ولا يقبل أى شك أو شبهة، ونرى هذا الارتباط واضحاً فى كل مكان ويتجلى بوضوح فى الروايات الإسلامية وفى تاريخ سيرة وحياة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام وفى طبيعة الأحكام الإسلامية.

ولقد اجملت مباحث الفقه الإسلامى فى ثلاثة أقسام هى: قسم «العبادات» وقسم «المعاملات»، وقسم «السياسة».

و يعتبر قسم (السياسة) والذى هو من الأبواب الفقهية المهمّة ويشتمل على مسائل عدّة مثل (الجهاد، الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، القضاء والشهادات، والحدود والديّات والقصاص) جزءاً من المسائل المتعلقة بالحكومة، إذن لا يمكن إجراء أقسام الجهاد وبعضاً من مسائل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وكذلك القضاء والشهادات وتنفيذ الحدود والقصاص بدون وجود الحكومة على الاطلاق.

وترسم كذلك المسائل المرتبطة بالانفال والخمس والزكاة والأراضى الخاصة بالخراج، الخطوط العريضة لجزء مهم من الحكومة باعتبارها الدعامة الأساسية لإقامة بيت المال الإسلامى.

وعلى هذا فقد امتزجت المسائل السياسية والحكومية بالفقه الإسلامى بشكل كامل بحيث لا يمكن وضعها موضع التنفيذ دون تشكيل الحكومة.

كل ذلك شاهد جلى على أنّ الإسلام ليس بمعزل عن الحكومة والسياسة، وقد نفذت المسائل المتعلّقة بالحكومة والسياسة- والتى تعنى بإدارة نظام المجتمع- فى التعاليم الإسلامية بصورة لو أردنا أن نفصل بينها لا يكون للاسلام معنىً ومفهومٌ، والذين يحاولون

---

(۱) الزهراء سيدة نساء العالمين، ص ۱۳۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸

فصلهما عن بعضهما يقومون فى الواقع (بفصل الإسلام عن الإسلام)، والإسلام بدون الإسلام تناقض واضح.

ويتبيّن لنا من خلال ذلك، السبب الذى دفع بنا إلى بحث مسائل الحكومة وزعامة المسلمين بعد انتهائنا من بحث الإمامة فى الجزء السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹

ضرورة إقامة الحكومة فى المجتمع البشرى

اشارة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱

تمهيد:

بعد أن لاحظنا الصلة الوثيقة بين الإمامة والحكومة نتحول إلى مسألة مهمّة اخرى ألا وهى ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية.

وكما يُبيّن لنا التاريخ، أن هناك أنواعاً معينه من الحكومات فى المجتمعات البشرية، كحكومة القبيلة، وحكومة الملوك والسلاطين، والحكومات التى هى من النوع الذى نشهده فى الوقت الحاضر، ويعنى ذلك أنّ البشر وعبر مراحله العلمية والثقافية يُدرك تماماً ضرورة وجود الحكومة، ويعلم كذلك أنَّ الحياة الاجتماعية من دون تحكيم النظام والقانون لا يمكن إيجادها ولو ليوم واحد.

ولهذا السبب يمكن ملاحظة الهرج والمرج والشغب الذى يحدث بُعَيْدَ سقوط حكومة ما، وحتى قيام حكومة اخرى حيث يبسط النظام الجديد ظلّه على الحياة، فيحترق كل شىء ويتحول إلى رُكام.

لذا فلا يمكن لأىعاقل ان يشك فى ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية، وقد وردت الكثير من الآيات والروايات الإسلامية التى تصرّح وتلمّح إلى هذا المعنى نذكر بعضها باختصار:

۱- فى قصة بنى اسرائيل نلاحظ أنّه وعلى أثر الفوضى الداخلية وغياب الحكم القوى قد أصابهم الضعف والانحطاط والهزيمة وتسلّط الأعداء عليهم، فجاءوا إلى نبىّ لهم طالبين تعيين حاكم لهم حتى يتسنى لهم السير فى طريق اللّه تحت إمرته، يقول القرآن الكريم: «أَلَمْ تَرَ إلى المَلَإِ مِن بَنِى إِسرَائِيلَ مِن بَعدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبىٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲

نُقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيتُم ان كُتِبَ عَلَيكُمُ القِتَالُ أَلَّاتُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنا أَلَّا نُقاتِلَ فى سَبِيلِ اللَّهِ وَقَد اخرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبنَائِنَا». (البقرة/ ۲۴۶)

مع أنّ هذه الآية تشير إلى أبعاد وآثار وجود الحاكم على قوم أو شعب فى مسألة الجهاد ضد العدو الخارجى وتطهير الأرض من دنس الأجنبى وتحرير الأسرى إلّاأنّها تتعدى إلى أبعاد معانٍ اخرى حيث تصدق فيها كذلك.

والقرآن يوضح بهذا التعبير أنَّ الوصول إلى الحرية والاستقرار الاجتماعى مستحيل بدون وجود الحكومة والحكم القوى، وقد يُتصور هنا أنّ بنى اسرائيل أرادوا قائداً للجيش فقط لا- حاكماً عليهم، إلّاأنّه يجب ملاحظة كلمة (ملك) والتى تعنى الحاكم على جميع الشؤون وإن كان المعنى العام للقصة يشير إلى وجود ساحة قتال مع عدوّ خارجى.

والحقيقة أنّ النبى (أشموئيل) فى ذلك الوقت كان يمتلك صلاحية قيادة المجتمع كذلك، بينما كان لطالوت الذى انتخبه لبنى اسرائيل دور القائد للجيش.

۲- وقد ورد فى القرآن الكريم فى ذيل هذه الآيات المذكورة، خبر اندحار جيش جالوت فى مقابل بنى اسرائيل، حيث يقول: «فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلكَ وَالحِكمَةَ وعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَولَا دَفعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعضَ هُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدتِ الأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى العَالَمِينَ». (البقرة/ ۲۵۱)

وتشير الجملة الأخيرة إلى أنّه لولا وجود حكومة قوية ومهيبة تقف بوجه الطغاة والخارجين على القانون، لامتلأت الأرض بالفساد، وعلى هذا فإنّ الحكومة العادلة هى هبة من اللّه للحدّ من الفساد الدينى والاجتماعى.

۳- وقد ورد معنىً مشابه لهذا فى سورة الحج حيث تقول بعد اعطاء الضوء الأخضر للمسلمين للجهاد ضد الاعداء: «الَّذِينَ اخرِجُواْ مِن دِيَارِهِم بِغَيرِ حَقٍّ إِلَّا انْ يَقُولُواْ رَبُّنَا اللَّهُ وَلَولَا دَفعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَ هُم بِبَعضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذكَرُ فِيهَا اسمُ اللَّهِ كَثِيراً». (الحج/ ۴۰)

و هنا أيضاً كان الحديث عن دور الحكومة فى البعد الجهادى، ولكن من الطبيعى أنّ الجهاد من دون التشكلات المنظمّة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة لا يمكن تحقيقه،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳

وذلك لأنّ المجاهدين يتألفون من قسمين: «القوّات العسكرية» و «القوّات الشعبية» وتعتبر الأخيرة الظهير والسند لما وراء ميدان القتل

والتى تضمّ فى الواقع كل المجتمع.

۴- ونقرأ فى الآيـة الـتى تليهـا عبـارة تشـير إلى المؤمنين الحقيقيين: «الَّذِينَ انْ مَّكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَـاةَ وأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ». (الحج/ ۴۱)

وتُشير هذه الآية ضمناً إلى أنّ إقامة الصلاة وايتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر (فى معناها الواسع والعام) لا يتيسّر إلّاعن طريق تشـكيل الحكومـة، ولـذا فالآيـة تصف المؤمنين الحقيقيين بأنّهم عنـدما يمتلكون القـدرة ويصـلون إلى تشـكيل الحكومـة فإنّهم سيقيمون هذه الفرائض الإلهيّة الكبيرة، وهنا يتبيّن لنا دور الحكومة فى إصلاح المجتمع من وجهة نظر الإسلام.

۵- تشير الآيات (۴۳- ۵۶ من سورة يوسف) بوضوح إلى حـدثٍ يتبيّن من خلاله ضـرورة الحكومة، وذلك أنّ ملك مصـر يرى مناماً ويطلب من يوسف الذى كان وقتها فى السجن أن يفسّر له تلك الرؤيا بدقّة بعد أن ذاع صيته فى تفسير الأحلام، فيكشف يوسف عليه السـلام شـيئاً من مسـتقبل مصـر من خلال تلك الرؤيا حيث ينتظر الناس سـبع سـنوات من القحط والجوع، وإذا مرّوا من تلك السـنين بسـلام فإنّهم سـيُلاقون سـنين الخير والرفاه، ثم يُبيّن كيفية إجراء الأعمال الضرورية لمواجهة تلك السنين الصعبة وطرق تحضير وخزن المواد الغذائية وطريقة الاسـتهلاك، فيطلق الملك سـراحه ويخرج من السجن ثم يعيّنه مسؤولًا عن خزانة مصر، وهكذا يتمّ انقاذ شعب كبير بأكمله وذلك بمديرية النبى يوسف عليه السلام الصحيحة جنباً إلى جنب مع ملك مصر.

وتبيّن هذه القصة بشكل لا لبس فيه ضرورة وجود الحكومة ذات الاطلاع والتدبير لتقوم بمهامها لإدارة المجتمعات الإنسانية وخصوصاً فى الوقـائع الصـعبة، وأنّه إذا مـا حُرمت هـذه المجتمعات من الحكومات من ذلك النوع فإنّها لا محالـة سـتقع فى مشاكل عويصـة ممّا ستُسبّب لها اضراراً جسيمة لا يمكن تعويضها.

۶- نلاحظ الكثير من الآيات القرآنية تشير إلى أنّ الحكومة الإلهيّة إنّما هى نعمة من نِعَم

اللّه، وذلك بملاحظـة الحكومـة ودورها الفعّال فى تنظيم المجتمع الإنسانى والحيلولـة دون بروز الظلم والعـدوان، وتوفير الجو الملائم للوصول إلى الكمال الإنسانى.

ومن ذلك ما ورد عن النبى داود عليه السلام وابنه سليمان عليه السلام: «وَكُلًّا آتَيْنَا حُكماً وَعِلْماً».

(الانبياء/ ۷۹)

عنـدما تُعدّ نعم اللّه الكثيرة على بنى اسـرائيل تقول: «وَإِذْ قَالَ مُوسَـى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذكُرُوا نِعمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُم أَنبِيَاءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وآتَاكُمْ مَّا لَم يُؤتِ أَحَداً مِّنَ العَالَمِينَ».

(المائدة/ ۲۰)

وطبعاً لم يكن جميع بنى اسرائيل حكاما وملوكاً، لكن عندما ينتخبوا من بينهم حاكماً وملكاً عليهم فإنّ الخطاب يتوجه إليهم باعتبارهم قوم حباهم اللّه سبحانه هذه النعمة فانتخب منهم ملوكاً وحكاماً.

ويتحـدث القرآن الكريم عن لسـان النبى سـليمان عليه السـلام: «قَـالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلكاً لَّا يَنبَغِى لِأَحَـدٍ مِّن بَعـدِى إِنَّكَ أَنتَ الْوَهّابُ». (ص/ ۳۵)

وتُشير الآيات التى تليها إلى أنّ اللّه سـبحانه اسـتجاب دعاءه ووهب له حكومة عظيمة ومواهب كثيرة لا نظير لها، وجاء فى قوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبرَاهِيمَ الكِتابَ وَالحِكمَةَ وَءَآتَيْنَاهُمْ مُّلكاً عَظِيماً». (النساء/ ۵۴)

وتكمن أهميّة هذه المسألة فى أنّ اللّه سبحانه يُعِدُّ موهبة الحكم مرادفة للعزّة ويَعتبر فقدانها قرينة للذلّة.

يقول سـبحانه وتعـالى «قُـلِ اللَّهُمَّ مَالِـكَ المُلكِ تُؤتِى المُلْكَ مَن تَشَاءُ وتَنْزِعُ المُلكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُـذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَـدِكَ الخَيرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىءٍ قَدِيرٌ».

(آل عمران/ ۲۶)

تشير كل الآيات التى ذكرناها إلى أهميّة وجود الحكومة للمجتمعات البشرية من وجهة نظر القرآن الكريم، وفى الواقع إنّ هذا الآيات نافذة على العالَم الواسع للحكومة فى المجتمعات البشرية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵

ضرورة الحكومة فى الرويات الإسلامية:

تُعَدُّ مسألة ضرورة الحكومة ذات أهميّة وصدى واسع فى الروايات الإسلامية، وقد بيّنت تلك الروايات أنّه لا يمكن للناس العيش دون وجود الحكومة، وأنَّ وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى فى غياب الحكومة.

وهنا لنرى نموذجاً من تلك الروايات ذات المعنى المذكور:

۱- عن أمير المؤمنين عليه السلام فى نهج البلاغة جواباً على ادّعاء الخوارج حين قالوا: «لا حُكم إلّاللّه ، فقال عليه السلام: «كَلِمَةُ حَقٍّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ ثم استطرد قائلًا: «نَعَمْ إِنَّهُ لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَلكِنَّ هؤُلَاءِ يَقُولُونَ لَاإِمرَةَ إِلَّا لِلَّهِ، وإِنَّهُ لَابُدّ لِلنَّاسِ مِن أَمِيرٍ بَرٍّ أو فَاجِرٍ يَعْمَلُ فِى امْرَتِهِ الْمُؤمِنُ وَيَسْتَمتِعُ فِيهَا الكَافِرُ، وَيُبَلِّغُ اللَّهُ فِيهَا الأَجَلَ وَيَجْمَعُ بِهِ الفَىءَ وَ يُقَاتَلُ بِهِ العَدُوَّ، وَتَأمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ القَوِىِّ حَتَّى يَستَرِيحَ بَرٌّ وَيُستَرَاحَ مِن فَاجِرٍ» «۱».

و بديهيٌّ أنَّ الإمام علياً عليه السلام لم يَقصد من عبارة «أمير بَرّ أو فاجر» أنّ هذين متساويين، بل قصد به أنّه لابدّ من وجود حاكم عادل وصالح، وإلّا فوجود حاكم وإن كان ظالماً خيرٌ من الفوضى والشغب، وعلى كل حال فلا تنفى هذه الحالة الأخيرة الحكم الإلهى الصالح على العالم كلّه، ذلك أنَّ الحكم يشبه النبوة والقضاء النّابعين من ذات الخالق المقدسة، ولقد بيّنت هذه العبارة ضمناً الأبعاد المختلفة لفلسفة الحكومة والأدلة الواردة فى إثبات ضرورتها، وسنبحث ذلك بالتفصيل فى صفحات قادمة.

۲- اشير فى الروايات المعروفة والتى نقلها (الفضل بن شاذان) عن الإمام الرضا عليه السلام إلى ثلاث نقاط مهمّة حيث بيّن فيها دلائل وأسباب تعيين (اولى الأمر) والحكم فى المجتمع.

قال الفضل بن شاذان إنّه سمع من الرّضا عليه السلام مرّة بعد مرّة، أنّه قال: فإنْ قال: فلم جعل أولى الأمر وأمر بطاعتهم؟

قيل: لعلل كثيرة منها أنّ الخلق كما وقفوا على حد محدود وأمروا ألّا يتعدوا ذلك الحد لما فيه من فسادهم لم يكن يثبت ذلك، ولا يقوم إلّابأن يجعل عليهم فيه أميناً يمنعهم من

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۴۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶

التّعدى والدّخول فيما حظر عليهم لأنّه لو لم يكن ذلك كذلك لكان أحد لا يترك لذته ومنفعته لفساد غيره، فجعل عليهم فيما يمنعهم من الفساد ويقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: أنا لا نجد فرقة من الفرق ولا ملة من الملل بقوا وعاشوا إلّابقيّم ورئيس كما لابدّ لهم منه فى أمر الدّين، فلم يجز فى حكم الحكيم أن يترك الخلق ممّا يعلم أنّه لابدّ لهم منه ولا قوام إلّابه، فيقاتلون فيه عدوهم ويقسمون به فيئهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم، ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: إنّه لو لم يجعل لهم إماماً قيماً أميناً حافظاً مستودعاً لدرست الملّة وذهب الدين وغيرت السُّنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون ونقّص منه الملحدون، وشبّهوا على المسلمين لأنا قد وجدنا الخلق منقوصين محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتت أنحائهم، فلو لم يجعل لهم قيماً حافظاً لما جاء به الرّسول لفسدوا على نحو ما بيّنا وغيّرت الشرايع والسنن والأحكام والإيمان

وكان فى ذلك فساد الخلق أجمعين «۱».

۳- فى تفسير النعمانى عن أمير المؤمنين عليه السلام وعند ذكر آيات من القرآن الكريم، مثل:

«يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا استَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِما يُحيِيكُم». (الانفال/ ۲۴)

وآية «وَلَكُم فِى القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا اولِى الأَلبَابِ». (البقرة/ ۱۷۹)

إنّه كان يقول: «وفى هذا أوضح دليل على أنّه لابدّ للُامة من إمام يقوم بأمرهم فيأمرهم وينهاهم ويُقيم فيهم الحدود ويجاهد العدو، ويقسّم الغنائم ويفرض الفرائض ويعرّفهم أبواب ما فيه صلاحهم ويحذرهم ما فيه مضارهم، إذ كان الأمر والنهى أحد أسباب بقاء الخلق، وإلّا سقطت الرغبة والرّهبة، ولم يُرتدع، ولفسد التدبير وكان ذلك سبباً لهلاك العباد» «۲».

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام فى حديث آخر أنّه قال: «لا يستغنى أهل كلّ بلد عن ثلاثة يُفزع إليهم فى أمر دنياهم وآخرتهم، فإن عُدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع،

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۶، ص ۶۰، الرّواية طويلة لكننا انتخبنا قسماً منها.

(۲) بحار الأنوار، ج ۹۰، ص ۴۱.

وأمير خيّر مُطاع، وطبيب بصير ثقة» «۱».

و قلنا مراراً إن ما ورد فى الروايات الإسلامية يدلّ على ضرورة وجود حكومة وإن كانت ظالمة خير من الفوضى، حيث نقرأ لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «وال ظلوم غشوم خيرٌ من فتنة تدوم» «۲».

ويعنى ذلك أنَّه حتى فى حالة عدم القدرة على تحقيق حكومة عادلة فلا أقل من إقامة حكومة وإن كانت ظالمة وجائرة وذلك فى سبيل الاستقرار والأمن للبلد وحدوده ومنع العدوان عليه، وفى غير هذه الحالة تسود حالة من اللّا أمن والتدهور حيث ستُراق دماء الكثير من الأبرياء دون أىّ وازع مِمّا سيسهّل على الأعداء النفوذ إلى داخل البلد والسيطرة عليه.

ضرورة الحكومة فى التصور العقلى:

كان ما ذكرناه حول ضرورة الحكومة فى التصور القرآنى والروائى والتى أشارت جميعها وبالأدلة القاطعة على ضرورة وجود الحكومة للمجتمعات الإنسانية، وهنا نُشير إلى ضرورة الحكومة من خلال الأدلة العقلية حتى تتّضح المسألة لنا أكثر.

وتنطلق هذه الأدلة أحياناً فى تصور شخص يؤمن بالتوحيد، وأحياناً اخرى نراها من وجهة نظر الشخص المادى، حيث نلاحظ عاملًا مشتركاً بينهما وهو اعتقادهما بضرورة وجود الحكومة للمجتمع البشرى وإن كانت آراؤهما تتفاوت وتتباين فى أحايين اخرى

ويمكن الإشارة إلى الأدلة المشتركة فى التصور العام فيما يخصّ هذا الموضوع وهى:

أولًا: إنّ حياة الإنسان تنطبع بطابع اجتماعى بحيث لو خَلَتْ حياته من هذه الصفة فإنّها ستكون فى أدنى مستوى لها من الجاهلية والوحشية والانحطاط، لأنّ كل المنافع والآثار

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۲۳۵.

(۲) غرر الحكم، ج ۲، ص ۷۸۴، ج ۵۰، باب الواو.

الإيجابية والبنّاءة فى حياة البشر بما فيها الحضارة والتقدّم والكمال والعلوم والفنون والصناعات المختلفة، كلها نابعة من بركة الحياة

الاجتماعية والعمل المشترك والتعاون فيما بين البشر فى المجالات المتعددة.

فما لَمْ تَنَضَّم الطاقات الفكرية والبدنية البسيطة بعضها إلى البعض الآخر، فلا مجال لوجود الحركات والانبعاثات العظيمة فى المجتمع بأى حال من الأحوال، وببساطة: لو إنفصل الإنسان عن المجتمع فسيكون كالحيوان، فمن جهة نجد الرّغبات والآمال الداخلية والحياة الاجتماعية التى تهبه كل تلك القدرة والإمكان للتقدم والتطوّر نحو الأفضل، ومن جهة اخرى بما أنّ الحياة الإنسانية فى داخل المجتمع على الرغم من أنّ كل تلك الآلاء والنَّعم لا تخلو من النزاع والمنافسة ليس بسبب غلبه الأنانية وحب الذّات فقط، بل لاشتباه الكثير من أفراد المجتمع فى تشخيص الحدود والحقوق فيما بينهم، لذا فإنّ دور القوانين هنا يكون ضرورياً لتحديد حقوق الأفراد وسَدّ الطريق أمام التعدّيات والتجاوزات اللامشروعة.

كذلك فإنّ هذه القوانين لا يمكن أن تؤثر لوحدها فى ردع الاعتداءات والنزاعات إلّاإذا انبرى إلى تنفيذها أفرادٌ يُعتمد عليهم فى المجتمع، وبعبارة اخرى فالحكومة وحدها تستطيع أن تعزّز القوانين وتنفذها فى المجتمع وتحول دون انتشار الفساد وسفك الدماء والاعتداء على حقوق الآخرين- ولو بصورة نسبية.

ولذلك نرى الأقوام البشرية ومنذ القِدمَ سعتْ إلى إيجاد حكومة لها.

ثانياً: لو افترضنا أنّه يمكن للناس العيش بسلام بدون حكومة (وهو مُحال بالطبّع)، فلا يمكن على أية حال الوصول إلى التقدّم والكمال فى العلوم والمعارف والصناعات ومختلف الشؤون الاجتماعية دون وجود برنامج دقيق ومديرية عالمة، وهذه هى أشكال اخرى للحكومة.

ومن هذا المنطلق فإنّ جميع العُقلاء فى العالم يؤكدون على ضرورة تشكيل الحكومة للمجتمعات البشرية إلّاما يُرى نادراً فى كلمات بعض المؤيدين للشيوعية من أنّه لو قُضىَ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹

على النظام الطبقى للمجتمع فلا تعود هناك ضرورة لأىحكومة، إذ يعتقدون أنَّ الدولة والحكومة إنّما تُساعد على الحفاظ على منافع الطبقة الرأسمالية وحسب، وعندما يتمّ القضاء على هذه الطبقية فلا يبقى سبب لوجود الحكومة.

ولكن من الواضح أنّ كل ذلك إنّما هو محض خيال وأوهام لا وزن لها فى ميزان العقل والمنطق، ذلك أنَّ الوصول إلى حالة عدم وجود الطبقية فى العالَم، أو أن يكون كل البشر فى مستوى معاشى واحد، إنّما هو حُلُمٌ وخيال لا أكثر وخاصة فى الوضع الحالى الذى تمرّ به المجتمعات البشرية.

ولو فرضنا أننا يمكننا الوصول إلى مجتمع كهذا والقضاء على النظام الطبقى والحكومى الحافظ لهذا النظام، تبقى الحاجة إلى برنامج دقيق ومديرية ضرورية للوصول إلى التقدّم العلمى والصناعى والحفاظ على السلامة الاجتماعية والنظام والحرية وتأمين الغذاء والسكن وسائر الاحتياجات. فهل يمكن مثلًا الاستغناء عن وزارة التربية والتعليم فى سبيل وضع برنامج صحيح لغرض تعليم وتربية الشباب؟ وهل يمكن بدون وجود وزارة الصناعة الحفاظ على العوامل الصناعية؟ وهل بالإمكان ردّ العدوان والهجوم الأجنبى دون وجود وزارة الدفاع؟ ولو افترضنا عدم حدوث حرب فى العالم، فهل يمكن إيجاد النّظم فى المجتمع الإنسانى مع غياب قوى الأمن فى ذلك المجتمع؟

على أيّة حال فإنّ هذه المسألة تعتبر من البديهيات وهى أنَّ المجتمع الإنسانى لا يمكنه العيش بسلام دون وجود الحكومة ولو ليوم واحد، وحتى الذين لا يؤيدون هذه القاعدة لم يصلوا إلى أيّة نتيجة ورجعوا خائبين.

صحيح أنَّ الحكومات المستبدّة والظالمة هى التى تكون بؤرة للفساد ومنبع البؤس على طول التاريخ للبشرية ولا تزال، ولكن لوحدث وتهدّم النظام القائم لهذه الحكومات وتأخر تشكيل حكومة اخرى تخلف تلك الحكومة ليوم أو أكثر، وفى حالة غياب الحكومة، فستكون النتيجة لذلك، الهرج والمرج وحالة من اللاأمن والتدهور وإزدياد الشَغَب فى جميع البلاد، وسنرى أنَّ وجود الحكومة

الظالمة أفضل بكثير من غيابها.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰

وأمّا الذين يؤمنون بإرسال الرّسُل وانزال الكتب السماوية من قِبَل اللّه تعالى فهم يفهمون مسألة ضرورة الحكومة بشكل أوضح وأكثر بياناً، لأنّهم يؤيدون من جهة، الأهداف التى من أجلها بُعِثَ الأنبياء والتى ذُكِرَتْ فى المصادر اللاهوتية، إضافة إلى الأدلة العقلية التى تسندها، ومن جهة أُخرى فإنّ الوضع بدون تشكيل الحكومة لا يمكن أن يُطاق أبداً، فمثلًا إنَّ مسألة التربية الصحيحة والتعليم وتزكية النفوس وتطهيرها لا يمكن أجراؤها دون وجود الحكومة.

والآن تصوّروا أنَّ جميع المدارس والجامعات فى عصرنا الحاضر هى تحت سلطة حكومة علمانية أو أنّها لاتعير أهميّة للقيم الدينية، وأنَّ وسائل الاعلام كالراديو والتلفزيون والصُّحف تُدار أيضاً من قِبَل نفس النظام، ثم سعينا عن طريق النصائح والإرشادات أو على الأكثر الاستفادة من المساجد والمنابر لتعليم الناس أهداف ومبادىء الأنبياء والتعليم والتربية الدينية، فإننا حتماً لن نصل إلى أىّ مردود، بل ستبقى أنواره ضعيفة فى قلوب بعض الاتقياء وهم أقلية، ولكن متى ما تشكّلت حكومة تبنى أساسها على الإيمان والتوحيد والاعتقاد باللّه وتؤمن بالمقدّسات وتأخذ أمر هذه المراكز الحساسة على عاتقها، فإنّ الأمر حينئذٍ سيختلف تماماً.

وبالنسبة إلى موضوع (العدالة الاجتماعية) و (قيام الناس بالقسط) وهما الهدف الآخر فإنّ الأمر يبقى هو هو، إذ كيف يمكن إقامة القسط والعدل مع وجود حكومة ظالمة تفتقدُ إلى الإيمان والدين أو عميلة ومرتبطة بالاستكبار والاستعمار؟

وباختصار، فإنّ أيّاً من الأهداف التى جاء من أجلها الأنبياء لا يمكن تحقيق الجزء الأعظم منها إلّابوجود الحكومة، ولذا نرى أنَّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لم يكن ليتمكّن من الوصول إلى الأهداف الإسلامية السامية إلّابعد أن قام بتشكيل الحكومة، وكذلك الحال مع الأنبياء الآخرين الذين استطاعوا التوصل إلى التوفيق المنقطع النظير بعد أن قاموا بتكوين الحكومة، بينما ظَلَّ أولئك الأنبياء الذين لم يحققّوا نجاحاً فى تشكيل الحكومة مضطهدين من قِبَلِ الطبقات الفاسدة فى مجتمعهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱

ونفس الحالة ستتواجد فى آخر الزمان على ما ذُكِرَ، إذ لا يمكن نشر التوحيد والعدل إلّا بتشكيل الحكومة، حكومة المهدى (عج) العالمية، هذا من جهة، ومن جهة اخرى فإنّ الأحكام الإسلامية لا تنحصر فى إطار (العبادات) وحسب، بل إنّ لدينا احكاماً جمّة تهتم بالشؤون السياسية والاجتماعية للمسلمين، كأحكام الحدود والديّات والخُمس والزكاة والانفال وما شاكل.

فهل يمكن جمع حقوق مستحقى الزكاة وأخذها من الأغنياء دون وجود حكومة؟ أو هل يمكن تنفيذ كافة الامور القضائية فى الإسلام؟ كيف يمكننا ضمان إجراء الحدود والحدّ من أعمال المفسدين؟ وإذا تعرّض البلد المسلم إلى الهجوم والعدوان، كيف يمكن بدون وجود الحكومة تعبئة الجيوش المجرّبة وتهيئة الأسلحة المختلفة للدفاع عن حياض الإسلام ودرء الخطر الخارجى؟

وخلاصة الكلام: إنّه من غير تشكيل حكومة عادلة وشعبية على أساس العقائد الدينية، فإنّ القسم الأعظم من الأحكام الإسلامية ستظلّ معطّلة، لأنّه لا يمكن بدون مساندة ووجود الحكومة إجراء الأقسام الثلاثة الرئيسية فى الدين الإسلامى، (السياسيّات) وهو برنامج الحكومة وعمودها الفقرى، و (المعاملات) التى لا تستقرّ إلّابوجود الحكومة، وحتى (العبادات) كالحج وصلوة الجمعة والجماعة، كل ذلك لا يمكن أن يتبلور ويتألق إلّافى ظل حكومة اللّه العادلة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳

أهداف الحكومة الإسلاميّة

بناءً على ماورد فى البحث المتقدّم حول ضرورة وجود الحكومة اتضحت أيضاً أهداف الحكومة الإسلامية بشكل اجمالى، ولمزيد من التوضيح نشير ادناه إلى بعض الآيات الشريفة:

۱- نقرأ فی قوله تعالی: «الَّذِینَ انْ مَّکَّنَّاهُم فِی الأرضِ اقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّکَاةَ وَأمَرُوا بِالمَعرُوفِ وَنَهَوا عَنِ المُنکَرِ». (الحجّ/ ۴۱)

انَّ تعبیر (مَکَّنَّاهُم فِی الأَرضِ) یُشیر إلی القدرة المعطاة للمؤمنین فی الأرض، لکن هذا التعبیر نفسه قد استُخْدِمَ مراراً فی القرآن الکریم معبّراً عن قدرة الحکم، کما نطالع فی آیتین من سورة یوسف: «وَکَذَلِکَ مَکَّنَّا لِیُوسُفَ فِی الأَرضِ». (یوسف/ ۵۶)

وفیما یخصّ ذا القرنین تقول الآیة: «انَّا مَکَّنَّا لَهُ فِی الأَرضِ وَآتَینَاهُ مِن کُلِّ شَیءٍ سَبَباً».

(الکهف/ ۸۴)

وطبقاً لما تعنیه الآیة الشریفة الاولی فإنّ المعنی یکون هکذا: إنَّ أولیاء اللَّه إن اعطُوا زمام الامور والحکم فإنّهم سیقیمون الصلوة، وهی من جهة، مظهر فی مظاهر التقرّب والوصول إلی اللَّه تعالی، ومن جهة اخری فإنّهم سیعبّدون الطریق المؤدی إلی العدالة الاجتماعیة، وأبرز مظاهر هذا الطریق أداء الزکاة، بالاضافة إلی ذلک فإنّهم سیعملون علی اشاعة الفضائل الإنسانیة والقضاء علی المنکرات بواسطة الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر فی المجتمع بأبعادهِ المختلفة.

علی هذا، فلو افترضنا أنّ کلمة (مکّنا) تعنی أیَّ نوع من القدرة سیتمّ معنی الآیة ضمن

التعبیر الذی قلناه سابقاً، ذلک أنّ الحکومة هی أبرز انموذجٍ للقدرة.

وقد ذکر العلّامة الطباطبائی فی ذیل هذه الآیة

فهل یمکن الوصول إلی هذه القدرة من دون استلام الحکم «۱»؟

وقد ورد هذا المعنی فی تفسیر القرطبی بشکل أوضح حیث یفسّر جملة «الَّذِینَ إِنْ مَکَّنَّاهُمْ فِی الأَرْضِ» بالامراء وأصحاب الحکومة «۲».

وطبیعی أنّ الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر المذکور فی هذه الآیة وکما ورد ذلک فی مختلف البحوث الفقهیة، یلزم لتنفیذه مراحل عِدّة، واحدی هذه المراحل یختصّ بالحکومة وتشکیلها.

۲- ورد فی القرآن الکریم ما یتعلّق بحکومة الصالحین حیث تقول الآیة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنکُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَیَسْتَخْلِفَنَّهُم فِی الأَرضِ کَمَا استَخلَفَ الَّذِینَ مِن قَبلِهِم وَلَیُمَکِنَنَّ لَهُم دِینَهُمُ الَّذِی ارتَضَی لَهُم وَلَیُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعدِ خَوفِهِم أمناً یَعبُدُونَنِی لَا یُشرِکُونَ بِی شَیئاً». (النور/ ۵۵)

وفی هذه الآیة وبعد أن وعد اللَّه المؤمنین الصالحین باستخلافهم وتسلیمهم مقالید الحکم، عقَّب قوله ببعض العبارات وهی فی الواقع أهداف هذه الحکومة، أوّلها: التمکین والقدرة للدین الإلهی وتحکّمه علی المجتمع، والاخری إزالة حالة اللاأمن وتبدیله إلی الأمن والاستقرار الاجتماعی الکامل والعبادات الخالیة من کل أنواع الشّرک، وعلی هذا فإنَّ أهداف الحکومة طبقاً لذلک هی کما یلی:

۱- سیادة الدّین والقوانین الإلهیّة علی کلّ المجتمع.

۲- نشر الأمن والاستقرار الکاملین فی کلّ مکان.

۳- إخلاص العبادة للَّهوحده وإزالة کلّ آثار الشرک والوثنیة.

والواقع أنّ الهدف الأصلی لکلّ ذلک هو کمال الإنسان والسیّر نحو اللَّه سبحانه، وأنّ الأمن والاستقرار وتحکیم القوانین الإلهیّة إنّما هی مقدمة للوصول إلی ذلک.

---

(۱) تفسیر المیزان، ج ۱۴، ص ۳۸۶.

(۲) تفسیر القرطبی، ج ۷، ص ۴۴۶۵.

۳- ونقرأ خطاب اللّه لنبيّه داود عليه السلام: «يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَينَ النَّاسِ بِالحَقِّ». (ص/ ۲۶)

وتبيّن هذه الآية بوضوح النتيجة المرجوّة للخلافة والحكومة فى الارض وهى احقاق الحقوق أو ما يُعَرفُ بالحدّ من الاعتداء والتعدّى على حقوق الآخرين وأخذ حق الضعفاء والمحرومين من الأقوياء والمترفين.

وبديهيٌّ أنّ هدف حكومة النبى داود عليه السلام وأنبياء بنى اسرائيل الآخرين لم يكن هذا فحسب، بل إنّه أحد الأهداف لايّة حكومة فى ايّ مكان وزمان.

و صحيحٌ أنّ عبارة (الحكم) الواردة فى القرآن الكريم تعنى أغلبها (القضاء) ولكن وبعد ملاحظة أنّ الشطر الأول من الآية يتحدّث عن الخلافة فى الأرض، يتّضح أنّ أىّ نوع من الحكم بالعدل مشمول فى مضمون الآية ككل، مضافاً إلى ذلك فانَّ القضاء هو شأن آخر من شؤون الحكومة، وقد ورد ما يشبه هذا المعنى فى سورة النساء حيث يقول تعالى: «انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُم ان تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمتُم بَينَ النَّاسِ انْ تَحكُمُوا بِالعَدلِ».

(النساء/ ۵۸)

ولقد ورد فى روايات كثيرة فى تفسير هذه الآية صراحة أنّ المقصود من هذه الامانة هو مقام الولاية والتى يُؤدّيها كلُّ إمام إلى الإمام الذى يليه، وإن كان المعنى العام لها يشمل باقى أنواع الأمانات كذلك، «۱» وبالأخص ما ورد فى بعض الروايات من أنّ المخاطب فى الآية هم الحكّام والامراء، «۲» ويدلّ ذلك على أنّ المراد بالحكومة العادلة فى الآية المذكورة ليس القضاء فحسب، بل يشمل كلّ نوع من أنواع الحكم العادل.

۴- إنّ جميع الآيات والرّوايات التى تذكر هدف بعثة الأنبياء على أنّه تعليم وتربية وتزكية النفوس واقامة القسط بين الناس ورفع الأغلال وتحطيم القيود، فإنّها فى الواقع تبيّن أهداف تشكيل الحكومات الإلهيّة، لأنَّ هذه الحكومات هى مقدمة ووسيلة لضمان أهداف

---

(۱) تفسير نورالثقلين، ج ۱، ص ۴۹۵ و ۴۹۶؛ تفسير العيّاشى، ج ۱، ص ۲۴۹؛ بحار الأنوار، ج ۲۳، ص ۲۷۴ فمافوق.

(۲) تفسير البرهان، ج ۱، ص ۳۸۰ (أنّه خاطب بها الحكام).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶

بعثة الأنبياء، وعلى هذا يمكن تلخيص أهداف الحكومات الإلهيّة بالنقاط التالية:

۱- تعليم وتربية أفراد المجتمع فى المجالات العلمية والأخلاقية.

۲- ضمان الحرّيات الإنسانية، ورفض كل أنواع العبودية واستعمار الإنسان لأخيه الإنسان سواءً فى المجالات الفكرية أو السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية.

۳- إقامة العدل والحقّ وضمان العدالة الاجتماعية فى كلّ الطبقات الاجتماعية.

۴- استتباب الأمن الاجتماعى بوصفه مقدمة للوصول إلى الأهداف الأخرى

۵- تركيز المبادىء الخاصة بالعبودية للّهوالسّير إليه تعالى والكمال الإنسانى والوصول إلى منزلة القُرب من اللّه والتى هى غاية الغايات ومنتهى الرّغبات.

ونختم هذا البحث بكلام لأمير المؤمنين على عليه السلام والذى ورد فى أوّل عهده إلى مالك الأشتر، حيث يرسم له بوضوح أهداف الحكومة الإسلامية اذ يقول: (هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبدُ اللَّهِ عَلِىٌّ أَمِيرُ المُؤمِنِينَ، مَالِكَ بنَ الحَارِثِ الاشْتَرَ فِى عَهدِهِ إِلَيهِ حِينَ وَلَاه مِصْرَ، جِبَايَةَ خَرَاجِهَا، وَ جِهَادَ عَدُوِّهَا وَ استِصلَاحَ اهلِهَا وَ عِمَارَةَ بِلَادِهَا) «۱».

وهكذا فإنّ عمارة البلاد واستصلاح أهلها وجهاد عدّوها وتعزيز بيت المال كلّ ذلك يعنى دعامة لانجاز تلك الامور، وهى أهداف

هـذه الحكومة، ولكن كما أشـرنا سابقاً فإنّ هذه الأهداف هى بمثابة اسـس المرحلة الاولى أمّا الأهداف النهائية والاصـلية فهى التعليم والتربية وتهذيب النفوس والسير إلى اللَّه سبحانه.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷

أنواع الحكومات

اشارة

لقد كانت للحكومات على مدى التاريخ أشـكال متباينة، وربّما كانت تلك الأشكال بعدد أنواع حكومات العالم، ولكن يمكن تقسيم اصولها إلى ثلاثة أنواع:

۱- الحكومات الاستبدادية

وهى الحكومات المتشكلة على أساس الحكم الفردى أو حكم جماعة معينة حيث تدور حول محور المصلحة الفردية أو مصلحة تلك الجماعة، وطبيعى أن تخدم تلك الحكومة منافع ومصالح تلك الفئة فقط، ونتيجتها سـتكون استعباد المجتمع وانتشار البؤس والحرمان فيه، هـذا وقد قام حكّام وسـلاطين من هذا القبيل على طول التاريخ بارتكاب أفضع الجنايات وذلك لحفظ مصالحهم الشخصـية، وقد تعدّوا كلّ الحدود المعروفة، بل لقد سفكوا دماء إخوتهم وبنيهم عند احساسهم بالخطر منهم على مناصبهم.

وفى هـذا النوع من الحكومات لا تؤخذ آراء الشـعب بنظر الاعتبار بل ولا يُقام لها أى وزن على الاطلاق وكلّ شـىء يدور حول محور الظلّم والجبروت، وتنقسم هذه الحكومات إلى أنواع اخرى منها الحكومة الفردية الاسـتبدادية (المسـتبدة)، والحكومة الحزبية المستبدة حيث يسـيطر فيها الحزب ذو الأقلية على الأكثرية المطلقة وذلك باستخدام اسلوب القوة، ثم تفرض على تلك الأكثرية آراؤها وايديو لوجيتها وهو ما كان يشـيعه الماركسيّون حيث كانوا يسمّونها بالدكتاتورية البروليتارية (المقصود بالبروليتارية (الطبقة المُنتجة) والبعض منهم الذى ثبت ولاؤه وإخلاصه للماركسيين، فتُسَجَّلُ أسماؤهم فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸

الحزب الشـيوعى حيث كانوا يشـكّلون مجموعة صـغيرة فى مقابل الجموع الغفيرة للشعب ويتحكمون بمصير الشعب بأكمله، ولم يكن الحزب الشـيوعى حزبـاً ممثلًا لمختلف قطاعـات الشـعب، ولا يهتم بالانتخابات الحرة، ولم يكن بمقـدور أىّ كان الانتماء إليه، بل ولم تكن فى أفكاره أىُّ نوع من الديمقراطية.

۲- الحكومة الديمقراطية

وهى أفضل وأكمل حكومة معروفة فى عالمنا الحاضر.

والأساس فى حكومة من هذا القبيل هو أنَّ جميع الناس فى أيّة فئة كانوا أو طبقة يمكنهم- وبحريّة تامة- الذهاب إلى صناديق الاقتراع والادلاء بآرائهم حول من يريـدون انتخابه من الممثلين وتسليمهم زمام أمور الشـعب لفترة معينـة تحت ضوابط خاصة وشـروط معينة، فيضع الممثلون للشـعب بعـد ذلك وبحرية واسـتقلالية كاملتين على الأرجح كل القوانين الضـرورية، ثم يشـكّلون هيئة بواسطة هؤلاء الممثلين تارةً أو بصورة مباشـرة من قبل الشـعب تارةً اخرى باسم مجلس الوزراء أو رئيس الجمهوريـة، ويطلق- كما أشـرنا- على هـذا

النوع من الحكومة بالحكومة الديمقراطية (أى حكومة الشعب أو حكومة الشعب على الشعب).

وتنقسم هذه الحكومة بدورها إلى قسمين: النوع الأول وهو الحكومة التى لها صفة شعبية واقعاً، وهى نادرة الوجود سواءً فى الماضى أو حتى فى الحاضر وربّما لم تظهر ملامحها فى الخارج بعد.

والنوع الآخر هى حكومة شعبية الظاهر والمظهر لكنها ليست كذلك فى الواقع، فحقيقتها (استبدادية) وظاهرها (ديمقراطية)!

وهذا التفاوت الموجود بين الظاهر والواقع ينقسم كذلك إلى صنفين، فإمّا ان يتدّخل فرد أو أفراد مَيَلحيون فى نمط الانتخابات وبصورة علنية مرسلين أفراد الشعب إلى صناديق الاقتراع عنوةً، أو أنّهم يعملون على ملء صناديق الاقتراع بأوراق انتخابية مزيّفة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹

حتى يتمّ لهم انتخاب الأفراد الذين يرغبون فى فوزهم فى هذه الانتخابات والخروج بأصوات انتخابية أكثر، وقد تأخذ هذه العملية، أى عملية تدخّل أولئك الأفراد طابعاً آخر هو طابع التدخّل الخفيّ وقد يكون غير محسوس، فيبدو للبعض من أصحاب العقول الساذجة وذوى النيّة الحسنة أنّ هذه الانتخابات إنّما جرت بحرية كاملة تماماً، بينما يختلف الواقع عمّا يَرَوْنَهُ، إذ يسيطر ذوو الإمكانات والنفوذ على وسائل الاعلام ويروّجون عن طريقها، لمن يريدون مستفيدين من أساليب علم النّفس بحيث يتصوّر النّاس أنَّ هؤلاء المرشحين عبارة عن علماء مدبّرين وكأنّهم ملائكة منزلين، لكنهم فى الواقع عملاء يخدمون تلك الطبقة الثريّة وذات السلطة القويّة وكل المصلحيين والوصوليين.

والحقّ أنّ الحكومة فى مثل هذه المجتمعات والتى نجدها بكثرة فى اروبا وعلى الأخص فى أمريكا، هى حكومة مستبدة وظالمة إلّاأنّها ترتدى زىّ الحكومة الديمقراطية والشعبية.

۳- الحكومة الإلهيّة

وهى الحكومة التى لا تعتمد لا على الإرادة الفردية ولا على الأكثرية الساحقة من الشعب، بل تنبثق طبقاً لإرادة اللّه، ولا شك أنّ إرادة البارىء عزّ وجلّ لا تقتضى سوى ضمان المصالح الواقعية لعباده ليس إلّا، ويمكن مشاهدة مثل تلك الحكومة من خلال حكومة الأنبياء وأوصيائهم الحقيقيّين وأولئك الذين يسيرون على خطاهم وينتهجون منهجهم، ومثل هذه الحكومة يندر وجودها فى العالم.

لقد ذكر القرآن الكريم نماذج للانواع الثلاثة لهذه الحكومات:

۱- أشار القرآن الكريم إلى حكومة فرعون باعتبارها حكومة مستبدة وفردية حيث يقول: «انَّ فِرعَونَ عَلَا فِى الأَرضِ وجَعَلَ أَهلَهَا شِيعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبنَاءَهُم وَيَسْتَحيِى نِسَاءَهُم انَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ». (القصص/ ۴)

كان فرعون يعتبر كل أرض مصر ملكاً شخصياً له وكل ما فيها من أنهار ومياه هى له

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰

أيضاً. وكان يقول: «يَا قَومِ الَيْسَ لِى مُلكُ مِصرَ وَ هَذِهِ الأَنهَارُ تَجرِى مِن تَحتِى أَفَلَا تُبصِرُونَ». (الزخرف/ ۵۱)

إنّه لم يقنع بحكومته المستبدة على الشعب فحَسب، بل كان يتوقع أن يعبده الجميع ولا يعبدون غيره! ولذا قال لموسى عليه السلام: «لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ». (الشعراء/ ۲۹)

و حتّى أنّه كان يتصوّر ان من يُريد الاعتقاد والإيمان بشخص يدّعى النبوّة بعد ما رأى معجزاته لا يمكن أن يفعل ذلك إلّابعد موافقته وإذنه! ولذلك نرى أنّه وبّخَ السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام بعد مشاهدة أدلّته ومعجزاته حيث قال: «قَالَ فِرعَونُ آمَنتُم بِهِ قَبلَ ان آذَنَ لَكُم». (الاعراف/ ۱۲۳)

ونرى انموذجاً آخر لحكومة مستبدة اخرى ألا- وهى حكومة «نمرود» والذى صَرَّحَ مخاطباً إبراهيم عليه السلام: «أنا أحيى وأميت» ولكنه واجه بعد ذلك استدلال إبراهيم عليه السلام الدامغ عندما قال له: «فَإِنَّ اللَّه يَأْتِى بِالشَّمسِ مِنَ المَشرِقِ فَأتِ بِهَا مِنَ المَغرِبِ

فَبُهِتَ الَّذِی کَفَر».

(البقرة/ ۲۵۸)

والحقيقة أنّ الناس جميعاً وحتى السلاطين المستبدين أنفسهم كانوا يعلمون بهذه الحقيقة وهى أنّ الملوك مفسدون فى الأرض ومخلّون بأنظمة المجتمع الإنسانى، ولذا نقرأ فى القرآن الكريم أنّه عندما وصلت رسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ، وبدأت تحقيقاتها حول سليمان لتبيّن فيما إذا كان ملكاً مستبداً أو نبيّاً مُرسلًا، فأرسلت إليه الهدايا، وقالت معبّرةً عن قلقها: «انَّ المُلُوکَ اذَا دَخَلُوا قَرِيَةً أَفسَدُوهَا وَ جَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهلِهَآ اذِلَّةً وَکَذَلِکَ يَفْعَلُونَ». (النّمل/ ۳۴)

فقد كان الملوك يضطهدون ويعذّبون مخالفيهم بأبشع الصور بل حتى يدفنوهم أحياءً، وقد ورد ذلك فى سورة البروج التى تتحدّث بعض آياتها عن أصحاب الاخدود (إذ يذكر التاريخ أنّ الملك «ذو نواس» أصْدر أمراً بحفر خندق ووضع كمية كبيرة من الحطب فيه وأشعل ناراً عظيمة ثم قذف ببعض المسلمين الذين فضّلوا البقاء على دينهم وسط تلك

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱

النيران ولم يرحم منهم لا شيخاً ولا طفلًا رضيعاً)، وما كان ذنبهم إلّاأن آمنوا باللَّه العزيز القهار: «وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم الّا انْ يُؤمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ». (البروج/ ۸)

ويضمّ التاريخ بين صفحاته الكثير من هذه الوقائع التى مارستها الحكومات المستبدة والتى كانت تُعامل شعوبها كالعبيد، بل أدنى من ذلك أيضاً، وقد أشار القرآن فى عدّة مواطن إلى مثل تلك الحكومات، ولذلك كان أحد أهم الأهداف لثورات الأنبياء عليهم السلام محاربة الاستبداد وإنقاذ الشعوب من براثن المستبدّين.

۲- ونرى كذلك بعض الآيات القرآنية الشريفة التى تشير إلى حكومة الشورى أو كما هو المصطلح عليه بحكومة الشعب للشعب، وإن لم يكن هذا المصطلح واضحاً كما عليه اليوم.

نطالع فى قوله تعالى وفيما يخصّ قصة (سليمان عليه السلام) مع (بلقيس- ملكة سبأ): لما وصلت رسالة سليمان إلى بلقيس جمعت الأخيرة مستشاريها وبدأت معهم بالتحدث عن مضمون تلك الرسالة قائلة: «يَا أَيّها الْمَلَوُاْ أفتُونِی فِی أَمْرِی مَا کُنْتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّی تَشْهَدُونِ». (النحل/ ۳۲)

ومن المتيقّن أنّه لم تكن فى ذلك الزمان انتخابات ولا آراء شعبية، لكن مع وجود مثل هذه الحالة عند الملكة وهى الالتزام بالشورى فى سير الأمور والبتّ فيها فذلك يدّل على وجود حكومة الشورى نوعاً ما.

إضافة إلى ذلك فإنّ مسألة الشورى هى احدى المسائل التى تتضمنها البرامج الإسلامية و تؤكد عليها فى الامور الاجتماعية والحكومية عامة، وكما يذكر القرآن الكريم واصفاً المؤمنين الحقيقيين بقوله: «وَأَمْرُهُم شُورَی بَيْنَهُم». (الشورى ۳۸)

بل حتى أنّه أمر النبىّ صلى الله عليه و آله بالمشورة مع المؤمنين حيث يقول القرآن مخاطباً الرسول صلى الله عليه و آله: «وَشَاوِرهُم فِی الأَمرِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

ومع أنّ حكومة الرسول صلى الله عليه و آله كانت من نوع الحكومات الإلهيّة، إلّاأنّه صلى الله عليه و آله كان يُؤمر بمشاورة الناس لتبقى حكومته ذات صبغة شعبية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲

۳- وأمّا ما يتعلّق بالحكومات الإلهيّة فقد وردت آيات قرآنية كثيرة تبحث ذلك، يقول القرآن الكريم عن لسان داود: «قَالَ رَبِّ اغفِرْ لِی وَهَبْ لِی مُلْکاً لَّايَنبَغِی لِأَحَدٍ مِّن بَعدِی إِنّکَ أَنْتَ الوَهّابُ». (ص/ ۳۵)

ونتبيّن من الآيات التى تلت هذه الآية أنّ دُعاء سليمان عليه السلام كان قد استُجيبَ ووهبه اللَّه حكومة لم يسبق لها مثيل، فقد كانت الرِيح تجرى بأمره، وسخَّرَ اللَّه له الشياطين والعفاريت، وكان يستفيد حتى من الطيور فى إنجاز بعض أعماله.

ويقول القرآن الكريم متحدثاً عن آل إبراهيم: «فَقَد آتَينَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَآتَينَاهُم مُّلكاً عَظِيماً». (النساء/ ۵۴)

وتشمل كلمة (آل إبراهيم): بنى اسرائيل ويوسف وداود وسليمان وغيرهم).

ويذكر القرآن الكريم (طالوت)، أحد ملوك بنى اسرائيل المعروفين وعلى لسان نبيّ ذلك الزمان (شموئيل) قائلًا: «وَقَالَ لَهُم نَبِيُّهُم إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً». (البقرة/ ۲۴۷)

ويُقصَدُ بذلك أنّ هذه الهبة قد وهبها اللّه سبحانه لطالوت.

ولكن بنى اسرائيل الذين لم يكونوا على علم واطّلاع كاملين بأمور الحكومة الإلهيّة، عارضوا هذا الانتخاب واعتبروا أنفسهم أفضل منه لاستلام ذلك المنصب لأنّ طالوت كان رجلًا قروياً، فلم يكن صاحب مال ولا عشيرة معروفة، لكن نبيّهم رفع تلك الشبهة بقوله: «إِنَّ اللَّهَ اصطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤتِي مُلكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ». (البقرة/ ۲۴۷)

وقد اشير فى سورة النساء إشارة واضحة إلى حكومة النبى صلى الله عليه و آله وآله بقوله: «أَم يَحسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضلِهِ فَقَد آتَينَا آلَ إِبرَاهِيمَ الكِتَابَ وَالحِكمَةَ وَآتَينَاهُم مُّلكاً عَظِيماً». (النساء/ ۵۴)

كانت تلك لمحة حول بعض أنواع الحكومات المذكورة فى القرآن الكريم، والآن نبدأ بنقد ودراسة كل نوع من تلك الحكومات الثلاث:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳

دراسة ونقد لأنواع الحكومات

اشارة

لا يخفى على أى شخص ما تستبطنه الحكومات المستبدة والدكتاتورية فى ثناياها من مفاسد، وما أصاب المجتمعات من ويلات ومصائب مدمرة على مر التّاريخ، من قتل الأبرياء وتعذيبهم، والحروب المدمّرة والاستيلاء على الأموال، واستعباد المحرومين والضعفاء، وانتشار التعصّب والتمييز العنصرى والظلّم، وصرف أموال المجتمع على التّرف والبذخ، كلّ ذلك من آثار تسلط الحكومات المستبدة، وقد ذكر القرآن الكريم وصفاً حقّاً لذلك حيث قال: «انَّ المُلُوكَ اذَا دَخَلُوا قَرِيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا اعِزَّةَ أَهلِهَا اذِلَّةً وَكَذلِكَ يَفعَلُونَ». (النمل/ ۳۴)

ولا فرق بين أن يكون الاستبداد فردياً أو جماعياً، بل إنّ آثار الاستبداد الجماعى أكثر سوءاً من الاستبداد الفردى، وأوضح مثال على هذا النوع من الاستبداد هو الحزب الشيوعى فى روسية والذى كان السبب فى جرّ أنواع المصائب والفجائع التى لا ميثل لها فى التاريخ.

إنَّ الحكومات المستبدة والتى تتظاهر بزىّ الحكومات الشعبية والديمقراطية لا تقلّ سوءاً عن الحكومات المستبدة المطلقة، بل إنّها أسوء بكثير من جهات شتى ذلك لأنّ الشعب حسّاسٌ دائماً تجاه استبداد الدكتاتوريين ويتحين الفرص للانتفاض ضدهم والتخلّص منهم، أمّا فى حالة الحكومة المستبدة المتلبسة بلباس الديمقراطية- كما هو الحال فى كثير من الحكومات الغربية التى تستلم السلطة بصرف مبالغ طائلة على الاعلام والصحف بالإستعانه بالرأسماليين- فلا تبيّن شيئاً يمكّن الناس من معارضتهم والثورة ضدهم فى الفرصة المناسبة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۴

وأمّا الحكومة الديمقراطية الواقعية والّتى تمثل أكثرية الشعب (إذا وجدت حكومة كهذة فى العالم) فهى كذلك، حيث تنطوى على مساوىء كثيرة، بل وحتى تمارس الظلم والاعتداء، وذلك لأمور منها:

أولًا: إنّ الكثير من النّاس فى أغلب الدول التى تكون حكوماتها واقعاً أو ظاهراً من هذا النوع، لا يشاركون بصورة عملية فى الانتخابات فيها، إذ ربّما شارك ستون أو سبعون فى المئة بل وأقل من ذلك أيضاً؛ ومع ذلك فاننا نرى ان نتائجها تشير إلى أنّ المرشّح الفلانى قد حاز على أكثرية الأصوات، إنّها لم تكن أكثرية فى المجتمع. (مثلًا نسبة ۳۱ خ مقابل ۲۹ خ من مجموع ۶۰ خ من الأفراد المشتركين فى تلك الانتخابات).

وفى هذه الحالة، توجد مصاديق عديدة فإنّ الأقلية من الناس تتسلّم مقاليد الامور، بينما ترضخ الأكثرية تحت حكمهم وسيطرتهم، وبديهىّ أن ينظّموا كل القوانين حسب أهوائهم ومصالحهم، وهذا هو الظلم الفاحش بعينه.

ثانياً: لو فرضنا أن جميع أفراد الشعب الذين لهم حقّ المشاركة فى الانتخابات قد اشتركوا فيها (طبعاً إنّ مثل هذه الفرضية لم تحدث أبداً) فيمكن أيضاً فوز البعض بأكثرية قليلة وضئيلة (كأن يكون ۵۱ خ فى مقابل ۴۹ خ أو أكثر أو أقل).

وهذا أيضاً أحد أنواع (استبداد الأكثرية) ضد الأقلية، ففى دولة يبلغ عدد سكانها ۱۰۰ مليون نسمة مثلًا تخضع فيه ۴۹ ميلون نسمة لسلطة ۵۱ مليون شخص، فكلّ شىء فىالمجتمع يسير وِفقاً لمصلحة الأكثريّة وقد يكون بضرر الأقليّة، ولهذا فقد أذعن كثير من المفكرين إلى أنّ حكومة الأكثرية هى نوع من الحكومة الظالمة الّتى لابدّ منها، لأنّه لا حيلة لهم ولا بديل سواها.

ثالثاً: وبعيداً عن ذلك وعلى فرض أنّ الحكومة الديمقراطية لا تنطوى على أىّ من الإشكالين المذكورين فإنّها حكومة تتبعُ رغبات الأكثرية من الشعب، ونحن نعلم أنّه يحدث أحياناً أن ينحرف أكثرية الشعب نتيجة للمستوى العلمى والثقافى المتدنّى، أو فى هذه الحالة يتحتَّم على العلماء والمتقفين النهوض ومحاربة هذه الآفة الخطيرة، بينما لا نرى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۵

فى هذه الموارد معارضة ولا محاربة فى الأنظمة الديمقراطية، بل نرى العكس، حيث أخذت هذه الانحرافات شكلًا قانونياً واجيزت من قبل المشرّعين هناك، فمثلًا أصبح الزواج من الجنس المماثل فى انجلترا وأمريكا مجازاً من قِبلِ القانون، وكذلك الحال مع مسألة سقط الجنين أو الإجهاض، ذلك أنّ الممثلين فى هذه الدوّل يعبّرون عن رغبات الشعب لا رعاية مصالحه.

ومن هنا نجد أنّنا بحاجة إلى البحث عن النوع الثالث من الحكومة، ألا وهى حكومة الصالحين، الحكومة التى اقترحها الأنبياء عليهم السلام، وحتّى لو كانت هناك انتخابات فإنّها تجرى على أساس انتخاب الأصلح وقت رعاية الإمام العادل.

ففى هذا النوع من الحكومة لا نجد الآفات الثلاث التى وجدناها فى الحكومات الديمقراطية، فلا مجال للرأسمالية ولا للاستبداد حيث يسيطر بواسطتها نصف المجتمع على النصف الآخر، ولا مكان للرغبات المنحرفة فى المجتمع.

وعلى هذا، فإنّ الحكومة الوحيدة التى يمكن قبولها تماماً هى حكومة اللَّه، وحكومة الرسول صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، وأولئك الذين يمتلكون الشروط الخاصّة لخلافتهم، وطبيعى أن لا نرى الدنيا فى حالة من العدالة والصلاح والسعادة التامة إلّافى ظل الحكومة الإلهيّة.

الحكومة تنصيب أم انتخاب:

الجواب عن هذا السؤال يختلف باختلاف وجهات النظر فالذين لاينتمون إلى دين معين، أو ينتمون إلى دين، لكن انتمائهم محدود بالامور والمسائل الشخصية وليس له أى نفوذ فى الامور الاجتماعية، مثل «الكثير من المسيحيين» فإنّ جوابهم عن هذا السؤال واضح.

فهم يقولون: إنَّ أفضل أشكال الحكومات هى التى تكون منبثقة عن الشعب، ولأنّ اتفاق الآراء غير ممكن غالباً، فلذلك يجب انتخاب الحكّام عن طريق الأكثرية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۶

ولكن ما هو جدير بالذكر أنّ الموالين لهذه الفكرة يؤيدون الحكومات التى تصل إلى دفّة الحكم عن طريق الانقلابات واستخدام

القوة من قِبلَ العسكريين ويقيمون معها نفس العلاقات التى يقيمونها مع الحكومات الشعبية، ولا يهمّهم كيف وصلت هذه الحكومة إلى سدة الحكم! المهم هى على كرسى الحكم وتستطيع تثبيت حكمها وسيادتها.

ولهذا السبب نراهم يتريثون قليلًا حينما يقع انقلاب عسكرى فى أى بقعة من بقاع العالم ليروا هل ينتصر ويستلم مقاليد الحكم؟ فاذا انتصر وثبت دعائم حكمه ووطّد أركانه فعندئذ تتبارى الحكومات المادية للإعتراف به.

والاعجب من ذلك أنّ جميع فقهاء المذاهب الأربعة من السنّة، حسب قول مؤلف كتاب (الفقه الإسلامى وادلّته) يتفقون على أنّ الإمامة والحكومة يمكن حيازتهما بالقوّة والغلبة، وكلّ من يصل إلى الحكم بالقوّة! دون الحاجة إلى بيعة الناس أو خلافة امام ومجىء خليفة من بعده «۱». وقد ورد هذا المعنى بصراحة أكثر على لسان الفقيه السنّى المعروف «أحمد بن حنبل»، حيث لا يعتبر الإمامة مشروطة بالعدل ولا بالعلم ولا الفضيلة، وينقل حديثاً يتضمن معناه أنّ كلّ من تغلّب على الحكم بالسيف فهو خليفة وأمير للمؤمنين ولا يجوز لأحد انكار إمامة ذلك الغالب سواء كان بارّاً أم فاجراً «۲».

وورد نظير هذا المعنى فى كتاب (منهاج السنن) «۳».

وربّما خطر على بال البعض ان القول بهذا المعنى لا يصدر إلّامن أولئك الذين لا يؤمنون بأى اله أو دين، ولكن لماذايصدر هذا القول وتلك الفتوى ممّن يدّعى الإيمان والإسلام ويتمسّك بالقيم الخاصة للحكومة كالإيمان والعدالة؟

ولكننا وبعد فهمنا لهذه الحقيقة وهى أنّهم كانوا غالباً بصدد تبرير موقف الخلفاء من بنى امية وبنى‌العباس ومسايرتهم، حينئذٍ لا يعترينا العَجَب من اعترافهم بالحكومات الظالمة والفاجرة التى وصلت إلى سدّة الحكم بالقوة والبطش.

---

(۱) الفقه الإسلامى وأدلّته، ج ۶، ص ۶۸۲.

(۲) الأحكام السلطانية، ص ۲۰.

(۳) كتاب المنهاج السنّة كتاب البغاة، ص ۵۱۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۷

على أيّة حال، فإننا وكلّما نظرنا بمنظار القرآن الكريم إلى هذه المسألة يتّضح لنا بجلاء أنّ الحكومة هى من حقّ الذات المقدّسة للخالق ثم لمن يراه عزّ وجلّ صالحاً لذلك.

فقد ذكر القرآن الكريم هذه الآية فى أكثر من مكان: «إِنِ الحُكْمُ إِلَّا للَّهِ».

(الانعام/ ۵۷) (يوسف/ ۴۰- ۶۷)

ونرى نفس هذا المضمون فى آيات اخرى

إنَّ كلمة «حُكم» تتضمّن معنىً واسعاً حيث تشمل (الحكومة) و (القضاء) كذلك.

والواقع أن توحيد الخلقة ملازمٌ لتوحيد الحكم، بمعنى أننا عندما نُسَلِّم أنّ العالَم بأجمعه مخلوق من مخلوقات اللَّه سبحانه، علينا أن نقبل أنَّه ملكٌ تامٌ له أيضاً، وطبيعى أن يكون الحكم المطلق لهذا العالم بيد اللَّه كذلك، لذا وجب أن نسير حسب أوامره، واعتبار من يجلس على كرسى الحكم دون اذنه وأمره متعدياً وغاصباً.

هذه الفكرة النابعة من (التوحيد الافعالى للخالق) (توحيد المالكية والحكم)، معروفة كاملًا للموحدين كما أنّ عقائد المذاهب الالحادية معروفة للجميع، (تأمل جيداً).

ولهذا السبب فإننا نعتبر الأنبياء حكّاماً حقيقيين من قبل اللَّه، ولهذا السبب أيضاً بدأ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بتشكيل الحكومة فى أول فرصة سنحت له، أى عند هجرته إلى المدينة حيث كان الوقت مناسباً لذلك.

وبعد ذلك فالحكومة من حقّ الذين عُيّنوا من قِبَلِهِ بواسطة أو بدونها.

وهناك روايات كثيرة تحدد الأمراء والأئمّة بعد الرسول صلى الله عليه و آله بإثنى عشر إماماً وقد أوردنا المصادر لذلك فى المجلد التاسع من نفحات القرآن بأن هذا الحقّ من نصيب الأئمّة الاثنى عشر من آل البيت عليهم السلام، (إذ لم يظهر أىّ تفسير مقبول لتلك الرّوايات غيره).

وعلى هذا الأساس، فإنّ الأشخاص الذين لهم حق الخلافة والحكومة فى زمن غيبة الإمام المهدى (عج) هم الذين ينصّ بهم الإمام بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ويتبيّن لنا ممّا قيل أعلاه أنّ الحكومة من وجهة نظر المسلم الموحِّد يجب تعيينها من قبل اللَّه تعالى بل وحتى تلك الحقوق التى نقر بها للشعب فهى أيضاً تتعين من قبله تعالى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۸

ولا يتمكن الموحِّد ابداً ان يجعل إرادة الخلق اساساً للحكومة دون أن تنتهى إلى إرادة الخالق. (تأمل جيداً).

وما كتبه بعض المغفلين من أنّ: «هناك حقيقة يدركها الجميع وهى أنّ كل من حاز على أكثرية الأصوات وأيده الشعب فهو الحاكم لأنّ القوّة الحقيقية للمجتمع هو الشعب ... الشعب هو الذى يمنح الولاية لشخص ويجسّد حاكميته على الآخرين» لا يتلاءم مع النظرة التوحيدية.

نحن نقول: إنّ النظرة التوحيدية هى عكس هذا الأمر، أى: إنّه اللَّه تعالى هو الذى يمنح الولاية لشخص ما ويجسِّد حاكميته على الآخرين، ولو كان للشعب حق فى هذا المجال فهو أيضاً من اللَّه تعالى

زبدة الكلام هى أنّ الحكومة وحسب النظرة التوحيدية تكون من السماء، بينما حسب الأفكار الالحادية فهى من الأرض!.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۹

حقيقة الحكومة الإسلامية

اشارة

البحث حول حقيقة الحكومة الإسلامية مع الاخذ بنظر الاعتبار ما تقدم من كلام فى البحث السابق ليس بتلك الصعوبة، لان حق الحكومة هو اولًا وبالذات من شأنه سبحانه، وذلك بعد قبول التوحيد فى الحاكمية الذى يعد من فروع التوحيد الافعالى، وفى المرتبة الثّانية من شأن كل من يعيِّنُه لذلك. وعلى هذا، فالحكومة الإسلامية ليست حكومة دكتاتورية استبدادية، ولا حكومة ديمقراطية، بل نمط من الحكومة الأفضل، اى الحكومة الإلهيّة.

لكن هذا لا يعنى أنّ أصل (الشورى ، والاهتمام بآراء الشعب ليس له دور فى الحكومة الإسلامية، وأنّه لا يعتد به لا من قريب ولا من بعيد.

لأنّ «مالك الملوك» و «أحكم الحاكمين» حينما يأمر بالشورى والاصغاء إلى آراء الشعب، تكتسب هذه الامور شرعيتها، ونعلم بوجود الأمر الصريح بالشورى فى آيتين من القرآن الكريم.

ففى الآية ۳۸ من سورة الشورى التى سميت بهذا الاسم لأجل نفس هذه الآية، ذكرت سبع خصال جلية للمؤمنين المتوكلين على اللَّه تعالى أحداهما، المشورة فى الامور المهمّة، يقول تعالى «وَ أَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُم»!.

وذهبت الآية ۱۵۹ من سورة آل عمران ابعد من ذلك إذ أوصت النبى صلى الله عليه و آله ثلاث توصيات فيما يتعلق بالمؤمنين، احداهما مشاورتهم فى الامور الحساسة، يقول تعالى

«وَشَاوِرْهُم فِى الأَمْر».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۰

وبناءً على هذا، فاحترام آراء الناس يكتسب مشروعيته من أمره تعالى هذا من جهة ومن جهة اخرى فالنبى صلى الله عليه و آله وخلفاؤه المعصومون، وكذلك العلماء الذين يكتسبون مشروعيتهم بالواسطة من قبله سبحانه باعتبارهم من مصاديق «الولى الفقيه» ملزمون برعاية مصالح الناس فى كل مكان وزمان، أى الاهتمام بغبطة العامّة كما يصطلح عليه، ومن البديهى أنّ مصلحة الناس تستلزم اسهامهم فى أمر الحكومة نوعاً ما والاصغاء لآرائهم، وبهذا يكتسب الاهتمام بآرائهم صبغة إلهيّة.

وبعبارة اخرى فالحكومة الإلهيّة إنّما تبدو منسجمة حينما تتمتع بقدرة تنفيذية عالية، ولا سبيل إلى هذه القدرة إلّابمشاركة الشعب فى أمر الحكومة، وبما أنّ تنفيذ الأحكام الإلهيّة واجب، فيكون اسهام الشعب فى أمر الحكومة مقدّمة لذلك الواجب، ومقدّمة الواجب واجبة.

وخلاصة الكلام:، إنّ جوهر الحكومة الإسلامية هو الحكومة الإلهيّة، لكن هذه الحكومة تنبع فى خاتمة المطاف من الحكومة الشعبية، فتعيين الأنبياء والأئمّة وخلفائهم يشكل جوهر الحكومة الإلهيّة، والتزام هؤلاء بمسألة الشورى واحترام آراء الشعب الذى يكون بأمر اللَّه تعالى أيضاً، يشكل الصبغة الشعبية لها.

فالذين يتصورون أنّ الحكومة الإسلامية متكئة على آراء الشعب مائة بالمائة، ويهملون عنصرها الإلهى، يذهبون شططاً، كما أنّ الذين يولون اهتمامهم للجانب الإلهى ويغضون الطرف عن جانب الشورى وآراء الشعب مخطئون أيضاً.

وسنتناول فى الأبحاث القادمة (فى بحث البيعة والشورى) هذا الأمر بتفصيل أكثر.

وعلى أيّة حال، فكيف يمكن تجاهل هذه الحقيقة، وهى أنّ مشاركة الشعب فى أمر الحكومة تضيف قدرة ومنعة للحكام، كما أنّهم أعجز ما يكونون عند غياب مشاركة الشعب، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى الخطبة الشقشقية:

«أَمَا وَالَّذِى فَلَقَ الحَبَّةَ وَ بَرءَ النَّسَمَةَ لَولَا حُضُورُ الحَاضِرِ وَ قِيَامُ الحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى العُلَمَاءِ إِلَّايُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ وَلا سَغَبِ مَظلُومٍ، لَأَلقَيتُ حَبلَهَا عَلَى غَارِبِهَا» «۱».

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۱

هذا التعبير يحكى بكل وضوح عن أنّ تأييد الشعب يؤدّى أيضاً إلى إقامة الحجّة على الولى المنصوب من قبل اللَّه تعالى

ولا شك أنّ ولايته عليه السلام كانت ثابتة من قبل اللَّه تعالى وعن طريق الرسول صلى الله عليه و آله، وأنّ هذه الولاية فعلية، فهى- وعلى خلاف ما قاله بعض المغفلين- لم يكن لها جنبة الشأنية والقوة، أمّا من الناحية التنفيذية والعملية فلا تستغنى عن دعم الشعب، ولا يتحرك لها ساكن بدون ذلك الدعم.

أمّا بالنسبة لفقهاء الإسلام- وكما سيأتى- فالولاية الفعلية ثابتة للجميع، لكن تجسيد هذه الولاية إنّما يكون ممكناً حينما تتمتع بدعم وتأييد الشعب فقط، ولهذا السبب فالولى الفقيه الذى يحظى بآراء الشعب تكون له الأولوية قياساً بالفقهاء الآخرين، لتمكنه من تطبيق ولايته التى يتمتع بها دون غيره، (وسيأتى تفصيل هذا الكلام فى محله إن شاء اللَّه تعالى .

وعلى هذا، فلو تمّ التعبير فى مثل هذه الموارد ب «الانتخاب»، فذلك لا يعنى أنّ هذا المنصب يُمنح لهم من قبل الشعب، لأنّ حقّ الولاية من وجهة النظر التوحيدية إنّما هو للَّه لا غير، وهذا المنصب إنّما يكون للذين عيّنهم اللَّه تعالى مباشرة أو عن طريق أوليائه، أمّا اعتبار الشعب هو الأساس ونفى الجانب الإلهى للحكومة فنابع من عقائد الشرك غير التوحيدية.

والمقصود أنّ الشعب إنّما يعلن دعمه لفقيه ما حينما يراه أفضل وأليق من كل الفقهاء، ولو كان الانتخاب بيد الشعب، ولما كانت هنالك ضرورة لانتخابه من بين الفقهاء، بل لأمكنهم انتخاب من شاؤوا لهذا الأمر، سواء كان فقيهاً أم لم يكن.

وخلاصة القول: إنّ الشعب لا يضع أحداً على سدة الحكم، لأنّ هذا الحق خاص باللّه تعالى ودور الناس إنّما يقتصر على انتخاب شخص من بين الذين منحهم اللّه تعالى حق الولاية، ولو تمّ التعبير ب «الانتخاب» فهذا لا يعنى ما يروج له العالم المادى، والقرائن الحالية والمقالية شاهد صدق على هذه الحقيقة، وهى أنّ حقيقة هذين الانتخابين متفاوتة تماماً.

(تأمل جيداً).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۲

وعلى هذا، فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان ولياً من قِبل اللّه تعالى حتى قبل بيعة الناس له، ومن الجدير بالذكر أنّ اللّه تعالى قد منح هذه الولاية له عليه السلام طبقاً لصريح آية الولاية: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم رَاكِعُونَ». (المائدة/ ۵۵)

وطبقاً لحديث الغدير المتواتر وجملة: «مَنْ كُنْتُ مَولَاه فَهذا عَلِيٌّ مَولَاه»، حيث إنّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله قد عيّنه رسمياً لهذا المنصب من قبل اللّه تعالى لكن بيعة الناس للآخرين حالت بينه وبين تطبيق ولايته مدّة من الزمن، ولم يمكن تجسيد هذه الولاية إلّابعد بيعة الناس له عليه السلام. أجل، فالشعب قد هيأ الأرضية للتنفيذ، لا أنّه أوصله إلى مقام الولاية الفعلى.

وكذا الأمر بالنسبة للفقهاء، حيث إنّهم- وطبقاً لما سيأتى من الأدلة- كلما تمتعوا بحسن التدبير والإدارة والإحاطة بأمور الزمن وشروطه فضلًا عن الاجتهاد والعدالة، فلهم الولاية الفعلية من قبل اللّه تعالى لكن تطبيق هذه الولاية يحتاج إلى مقدمات وعلى رأس هذه المقدّمات دعم الشعب وتأييده.

وهكذا الحال فى النبى الأكرم صلى الله عليه و آله، إذ إنّه لم يتمكن من تشكيل الحكومة فترة وجوده فى «مكة»، بل قام بتشكيلها حينما دخل المدينة وكان دعم الشعب كافياً لذلك والعقبات قد ازيلت، لكن هذا لا يعنى أنّ النبى صلى الله عليه و آله لم تكن له الولاية فى مكة، وأنّها منحت له من قبل الناس فى المدينة، (تأمل جيداً).

الولاية الخبرية والإنشائية؟!

يعتقد البعض أنّ العلماء الذين تحدثوا عن «ولاية الفقيه» لهم رأيان متفاوتان، فالبعض قال بولاية الفقيه بالمعنى «الخبرى»، والبعض الآخر بالمفهوم «الإنشائى»، وهذان المفهومان يختلفان فى الماهيّة عن بعضهما.

فالأوّل يقول: إنّ الفقهاء العدول منصوبون من قبل اللّه تعالى للولاية.

ويقول الثانى: يجب على الناس انتخاب الفقيه الجامع للشرائط للولاية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۳

لكننا نعتقد أنّ هذا التقسيم لا أساس له أصلًا، لأنّ الولاية كيفما تكون فهى إنشائية، سواء أنشأها اللّه تعالى أو النبى صلى الله عليه و آله أو الأئمّة، كأن يقول الإمام عليه السلام: «إنّى قَدْ جَعَلْتُهُ حَاكِماً»، أو أن ينتخبه الناس «على سبيل الفرض»، فينشئون له الولاية والحكومة.

فكلاهما إنشائى، والتفاوت يكمن فى أنّ إنشاء الحكومة يكون تارة من قبل اللّه تعالى واخرى من قبل الناس، والتعبير ب «الإخبارى» هنا يحكى عن عدم احاطة القائل بهذا القول، أو أنّه يدرك الفرق، إلّاأنّه استعمل هذه العبارات من باب المسامحة.

والتعبير الصحيح هو أنّ الولاية إنشائية فى كل الأحوال، وهى من ضمن المناصب التى لا تتحقق بدون الإنشاء، والتفاوت هنا هو أنّ إنشاء هذا المنصب والموهبة قد يكون من قبل اللّه تعالى أو من قبل الناس، فالمدارس التوحيدية تراه من قبل اللّه تعالى (وحتى لو كان من قبل الناس فلابدّ أن يكون بإذنه تعالى أيضاً)، وتتوهمه المدارس الإلحادية بأنّه من قبل الناس.

وعلى هذا، فالخلاف ليس حول «الإخبار» و «الإنشاء»، بل حول الذى ينشىء ذلك، هل هو اللّه تعالى، أم الخلق؟ أو بعبارة اخرى هل

أنّ أساس مشروعية الحكومة الإسلامية يكون بإذن اللّه تعالى وإجازته فى كل مراحل ومراتب الحكومة، أم بإذن الناس واجازتهم؟ لا شك أنّ الذى يوافق النظرة الإلهيّة هو الأول دون الثانى.

الحكومة والوكالة:

يقال أحياناً إنّ الحكومة الشعبية نمط من الوكالة، لا منح منصب، لأنّ مالك الملوك هو اللّه تعالى فيجب أن يهبه هو تعالى لمن يشاء، وبعبارة اخرى فكما أنّ كل واحد يتمكن أن يوكل غيره فى الامور الشخصية، ولا شك أنّ لهذا الأمر مشروعيته، فكذا الأمر فى القضايا الاجتماعية، إذ بإمكان الشعب اعتبار شخص ما وكيلًا له لإدارة الشؤون الاجتماعية، والشعب ملزم بتحمل نتائج تلك الوكالة ما بقيت.

لكن هذا الكلام سقيم لوجوه:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۴

أولًا: بأى حق يتدخل وكيل الأكثرية فى شؤون الأقلية؟ لنفرض أنّ ۵۱ مليون نفر قد انتخبوا أحد الأشخاص وكيلًا عنهم، و ۴۹ مليون قد وكّلوا شخصاً آخر، فبأى دليل يمتلك وكيل ال (۵۱ مليون) حق التدخل فى شؤون ال (۴۹ مليون نفر).

ثانياً: هنالك شريحة يعتد بها من الشعب لا تشترك فى الانتخابات فى أكثر الأحيان ولأسباب شتى ولا يمنحون أصواتهم لأحد باعتباره وكيلًا لهم، فأيّة ضرورة تقضى بوجوب اتباعهم لمن يتمتع بوكالة الآخرين؟!

ثالثاً: الوكالة عقد جائز، وبإمكان الموكّل عزل وكيله متى شاء، فى حين أنّ الشعب لا يمكنه أبداً فى ظل الأنظمة السياسية فى العالم عزل مرشحيه- والمرشحين لرئاسة الجمهورية وأمثالها.

الحقيقة هى أنّ الديمقراطية لا يمكن تحجيمها بهذه العناوين، إذ إنّ للديمقراطية هويتها الخاصة بها، وهى فى الواقع نوعٌ من العقد الاجتماعى تفرضه الضرورة، لأنّ الشعب بحاجة إلى حكومة ما على كل الأحوال، ومن جهة اخرى فاتفاق آراء الشعب على هذا الأمر غير ممكن، إذن، فلابدّ من الذهاب- شئنا أم أبينا- وراء رأى الأكثرية، كما يجب على الأقلية الرضوخ أمام الأكثرية، إذ لا سبيل لإدارة المجتمع ولا توجد رؤية اخرى سوى ذلك، وهى أنّه نتوافق مع رأيهم، حتّى لو لم يكن هذا الأمر متصفاً بالعدالة المحضة.

أمّا الذين ينظرون إلى الحكومة بأنّها من قبل اللّه تعالى فلهم رؤية اخرى وهى أنّه لنرى من ذلك الشخص الذى وضع اللّه تعالى الحكومة تحت اختياره؟ وبهذه الحالة تكون آراء الشعب- عند تعدد الأفراد اللائقين من وجهة نظر الإسلام- قادرة على صنع القرار عند تعيين الشخص المتفق عليه، فيتغلب ذلك الشخص الذى يحظى بدعم جماهيرى أكبر لتنفيذ أهداف الحكومة.

وبإمكان المسائل المتعلقة بالبيعة توضيح هذا الأمر بشكل أكبر، وسنتكلم إن شاء اللّه بالتفصيل فى الأبحاث القادمة عن دور البيعة فى الحكومة، وحقيقة البيعة وشروطها.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۵

العلاقة بين الدين والحكومة من وجهة نظر القرآن الكريم

اشارة

إنَّ شعار فصل الدين عن السياسة هو الأكثر رواجاً فى الدول الغربية، وقد يعد من بديهياتهم المتفق عليها، ومن هنا يأخذهم الرعب والخوف من تشكيل الحكومة الإسلامية التى تجمع بين «الدين» و «السياسة» بشكل تام! وذلك لسببين:

۱- الدين الموجود فى المجتمعات الغربية هو دين المسيحية الحالى، ونحن نعلم أنّ هذا الدين ونتيجة للتحريفات الكثيرة التى طرأت

عليه على مرّ الزمن قد تجسّد فى سلسلة من التوصيات الأخلاقية، ولا علاقة له بالقضايا الاجتماعية خصوصاً السياسية منها.

والفرق بين الشخص المتديّن وغير المتديّن فى هذه المجتمعات، هو أنّ الأول ملتزم بسلسلة من الاصول الأخلاقية، ويذهب فى الاسبوع مرّة واحدة إلى الكنيسة ليتضرع ويناجى ربّه ساعة من الزمن، أمّا غير المتدين فلا يبالى بمثل هذه الأخلاقيات (وإن احترموها أحياناً باعتبارها من المثل الإنسانية لا الدينية)، ولا يذهبون إلى الكنيسة أبداً.

۲- الذكرى المؤلمة جدّاً التى يحملونها معهم من حكومة أرباب الكنيسة فى القرون الوسطى وعهد «انكيزيسيون» (تفتيش العقائد)، سَببت فى أن يفصلوا الدين عن السياسة وإلى الأبد.

توضيح ذلك: لقد هيمن رجال الكنيسة فى القرون الوسطى على كافة الشؤون السياسية والاجتماعية لشعوب اوربا، وحَكم البابوات دول هذه القارة بكل قوة، بحيث انتهت حكومتهم إلى الاستبداد والطغيان، حتى أنّهم وقفوا أمام كل تقدم علمى، وسحقوا كل تطور

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۶

علمى وفكرى باعتباره منافياً للدين، فأسسوا محاكم سميت فيما بعد ب «انكيزيسيون» «محاكم تفتيش العقائد»، وحكموا على أعداد كبيرة فى هذه المحاكم بالموت، فقطعوا رؤوس بعضهم، وأحرقوا البعض الآخر بالنّار وهم أحياء، أو أنّهم حكموا عليهم بالسجن، ومن بينهم عدد من العلماء الطبيعيين المعروفين. وكلُّ الملوك كانوا يحسبون لرجال الدّين هؤلاء حساباً ويطيعون أوامرهم.

بالإضافة إلى الأموال الطائلة التى أخذوها وعاشوا فى نعيم لا يوصف.

وقد أثارت كل هذه الامور الشعب ضدهم، خصوصاً علماء العلوم الطبيعية، حيث إنّهم وقفوا فى وجوههم بقوة، وعمّ شعار «فصل الدين عن السياسة» من جهة، والتنافى بين العلم والدين، من جهة اخرى كلَّ مكان، ثم وبانتصار هذا الجناح، انسحبت الكنيسة ورجالها من المجتمع والحكومة، والدولة الوحيدة التى بقيت بيد رجال الكنيسة من تلك الامبراطورية الواسعة هى دولة الفاتيكان الصغيرة التى لا تتجاوز الكيلومتر المربع الواحد أى بمساحة قرية صغيرة «۱».

كانت هذه كلها، تطورات قد حدثت فى اوربا وخلال تلك الظروف الخاصة.

ثم إنّ فريقاً من الدول الإسلامية حينما ذهب إلى الغرب للدراسة أو التجارة أو السياحة جاء بمثل هذه الأفكار معه كهدية من الغرب للشرق الإسلامى وهى لزوم فصل الدين عن السياسة، دون الوقوف على البون الشاسع بين «الإسلام» وبين «المسيحية» المحرّفة، وبدون التأمل فى التفاوت بين الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه الدول وثقافة الكنيسة.

ومع الأسف فقد رضخت بعض الدول الإسلامية لهذه المؤامرة الاعلامية واعتبرتها أصلًا لا يمكن التنازل عنه (لا يخفى أنّ الدول الغربية التى كانت ولا تزال تخاف قوّة

---

(۱) ذكرت مساحة الفاتيكان فى قاموس دهخدا وقاموس معين بأنّها ۴۴ هكتاراً (أقل من نصف كم)، وبلغ عدد نفوسها حسب بعض المصادر ۵۲۵ نفراً! وفى البعض الآخر ۷۰۰ نفر، وفى البعض الآخر ألف نفر! وفى الحقيقة فإنّ هذه الدولة عبارة عن مجموعة من الكنائس والأبنية المتعلقة بها، وفيها محطة قطار، دائرة البريد، محطة الاذاعة، ولها قانون خاص بها وحكومة مستقلة، وهناك حوالى خمسين دولة لها ممثلين لدى البابا. والملفت للنظر أنّ هذا البلد يقع فى قلب روما عاصمة ايطاليا (قاموس دهخدا، قاموس معين، والمنجد فى الاعلام).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۷

الحكومة الإسلامية، قد تابعت هذه القضية بجدية، وأن الدول المستغربة مثل تركيا، قد اتبعت هذا الأصل ووضعته على رأس قائمة أعمالها وقامت بتشكيل الحكومة العلمانية).

هذا فى الوقت الذى وقفت الكثير من الدول الإسلامية وشعوبها اليقظة فى وجه هذه المؤامرة، التى أرادت فصل «المسلمين» عن

«الإسلام»، وجعل الإسلام كمسيحية اليوم مجرد طقوس ظاهرية خاصة بالخلق والخالق بعيدة عن المجتمع والسياسة.

ولهذا السبب، فحينما نجحت الثورة الإسلامية الايرانية وآتت اكلها وقامت بتشكيل أول حكومة إسلامية ثورية، أخذت الحيرة والدهشة كل من فى الغرب من كيفية إمكان إمساك الدين بزمام الحكم؟ وهل بإمكان الدين تلبية كل متطلبات عصرنا؟ ولكن بعد أن فوجئوا بثبات وصلابة هذه الحكومة، ولغرض حصرها ضمن حدودها الجغرافية ولئلا تكون نموذجاً لبقية الدول الإسلامية، فقد توسّلوا بعمليات تخريبية كثيرة، بالإمكان الوقوف عليها فى الكتب التى تتناول هذا الموضوع.

ولحسن الحظ بقيت هذه المؤامرات عقيمة، وتجذّرت نظرية تأسيس الحكومة الإسلامية فى الكثير من الدول الإسلامية، فى قارة آسيا وأفريقيا وأصبح تياراً حياً ومنقذاً، مع ما يحاول الغرب بكل ما اوتى من قوّة، ولم يترك أى شىء فى هذا الطريق إلّاوتوسل به من كيل الاتهامات المغرضة الكاذبة والإعلام المغرض والمدسوس.

أمّا كيف أنّ الإسلام اقترن بمسألة الحكومة من حيث الاصول والفروع والتاريخ، فهذه المسألة ليست بتلك الصعوبة، وكل من يتأمل فى القرآن الكريم وسنة النبى صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وكذلك تاريخ الإسلام، يدرك هذه المسألة بكل وضوح، وهى استحالة فصل الحكومة والسياسة فى الإسلام، ولأنّ ذلك بمنزلة فصل الإسلام عن نفسه!.

والشاهد على هذا الأمر وقبل كل شىء هو تاريخ الإسلام، فكما تمّت الإشارة سابقاً فإنّ أول عمل قام به النبى الأكرم صلى الله عليه و آله بعد الهجرة إلى المدينة كان تشكيل الحكومة الإسلامية،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۸

فقد كان صلى الله عليه و آله يدرك جيداً أنّ أهداف النبوة وبعثة الأنبياء وهى التربية والتعليم، وإقامة القسط والعدل وسعادة الإنسان ورفعته، غير ممكنة بدون تشكيل الحكومة، ولهذا السبب فقد بدأ فى أول فرصة ممكنة بإرساء اسس الحكومة وذلك بأمر من اللّه تعالى

فشكل جيشاً من المهاجرين والأنصار، وأوجب على الجميع فى أى سن كانوا وتحت أى ظروف (باستثناء النساء والأطفال والمرضى والمقعدين) المشاركة فيه، وكان قسمٌ من تأمين السلاح والمؤونة والدواب لهذا الجيش المتواضع والبسيط على عاتق الشعب، والقسم الآخر على عاتق الحكومة الإسلامية، وكلما ازادادت الغزوات والمطاحنات مع الأعداء الشرسين واتّسعت رقعة الحروب أكثر، ازداد جيش الإسلام رسوخاً وتنظيماً.

ونزل حكم الزكاة، وتمّ ولأول مرّة تأسيس بيت المال الإسلامى لضمان تكاليف الجهاد، واحتياجات المحرومين.

ثم نزلت أحكام القضاء والعقوبات المترتبة على الجرائم والتخلفات الواحدة تلو الأخرى ودخلت الحكومة الإسلامية مراحل جديدة.

ولو لم يكن للإسلام حكومة، فما هى ضرورة تشكيل الجيش وبيت المال وكيف يمكن معاقبة المجرمين والجناة إذا لم تكن هناك محاكم.

وقد امتد هذا الوضع على هذا المنوال إلى ما بعد النبى صلى الله عليه و آله فى فترة الخلفاء، بل وحتى فى عهد خلفاء بنى امية وبنى العباس، حيث إنّهم كانوا يحكمون باسم خلفاء رسول اللّه صلى الله عليه و آله، ومع أنّ حكومتهم كانت تتسم بالظلم والخروج عن اطار الشرعية والقوانين الإسلامية، لكن مهما يكن فهى تعكس هذه الحقيقة وهى أن تشكيل الحكومة الإسلامية يعدّ من المسائل الأولية والأساسية فى الإسلام.

والضغوط الموجهة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، وثورة الإمام الحسين عليه السلام، وولاية عهد الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام، وحبس الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، ونفى الإمام الهادى عليه السلام والإمام الحسن العسكرى عليه السلام إلى سامراء ووضعهم تحت الرقابة خوفاً من الثورة على الحكومة، كلها تبيّن بوضوح أنّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام كانوا يعتبرون تشكيل حكومة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۴۹

العدل الإلهی من مسؤولیاتهم الأکیدة، وقد استغلوا کل فرصة من أجل إثبات حقهم، کما أنّ عدوهم کان یدرک هذا الأمر جیداً.

ولو کان الإسلام کمسیحیة الیوم محدوداً بسلسلة من الأحکام الأخلاقیة، لما کان لهذه الظواهر فی تاریخ الإسلام أی مفهوم، إذ لا أحد یعارض معلماً بسیطاً للأخلاق أو زاهداً منعزلًا فی زاویة مکتفیاً بإقامة صلاة الجماعة.

إنّما تبدأ المعارضة حینما یتعلق الأمر بالحکومة، هذا من جهة، ومن جهة اخری فهنالک الکثیر من الأحکام الإسلامیة فی القرآن المجید والتی تصرخ عالیاً بضرورة تشکیل الحکومة وإرساء اسسها، وبعبارة اخری فهذه الأحکام أحکام سیاسیة، وهی الّتی ترسم الخط السیاسی للمجتمع الإسلامی.

هناک آیات قرآنیة کثیرة حول الجهاد، وتکلیف المجاهدین، وغنائم دار الحرب، والشهداء، والاسری فهل یا تری بالإمکان توجیه مثل هذه الأحکام خارج نطاق الحکومة؟

الکثیر من الآیات القرآنیة سلطت الأضواء علی مسؤولیات القاضی، وأحکام القضاء، وتطبیق الحدود والقصاص وأمثالها، والکثیر منها ناظر إلی أموال بیت المال.

وأمّا فریضة الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر وهی من واجبات کل فرد مادام فی حدود التذکیر والأوامر والنواهی الکلامیة، لکن بعض مراحل الأمر بالمعروف والنهی عن المنکر التی تحتاج إلی الصلابة والقوة، بل وحتی المواجهة العسکریة المسلحة غیر ممکنة إلّا عن طریق الحکومة.

وتطبیق العدالة الاجتماعیة وإقامة القسط والعدل، وفتح الطریق للتبلیغ بحریة فی أقصی نقاط العالم، لا یکون بالنصیحة والموعظة والممارسات الأخلاقیة أبداً، الحکومة هی التی ینبغی أن تنزل إلی المیدان لتفک قید الظالم عن عنق المظلوم، وتعید حقوق المستضعفین، وتوصل نداء التوحید إلی اسماع کل سکان المعمورة عن طریق وسائل الإعلام المتوفرة فی کل زمان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۹۹

وقد وردت نفس هذه المضامین وبشکل أوسع فی أحادیث النبی الأکرم صلی الله علیه و آله وروایات المعصومین علیهم السلام، والّتی تشکّل قسماً کبیراً من فقه الإسلام والکتب الفقهیة، ولو أردنا فصل هذه المسائل عن الروایات والکتب الفقهیة لما بقی هنا لک ما یعتد به.

وکما تقدم فالکتب الفقهیة تقسم إلی ثلاثة أقسام، وهی «العبادات»، و «المعاملات»، و «السیاسة».

فالعبادات هی علاقة الخلق بالخالق.

والمعاملات هی علاقة الناس بعضهم ببعض.

کما وأنّ السیاسة هی علاقة الناس بالحکومة.

لکن لو دققنا النظر، لوجدنا أنّ قسم السیاسة لیس الوحید الذی لا یطبق بغیاب الحکومة، بل إنّ المعاملات أیضاً لو لم تکن تحت اشراف الحکومة لحدثت الآلاف من المصاعب والعراقیل، ولضاعت حقوق المستضعفین، وانقسم المجتمع إلی قطبین أغنیاء وفقراء، ولعانی الشعب من مئات المشاکل المصطنعة.

بل وحتی العبادات لا تُقام إلّافی ظل حکومة قویة عادلة، ومن العبادات الحج وهو فریضة ذات صبغة سیاسیة قویة جدّاً.

وصلاة الجمعة عبادة مهمّة اخری حیث إنّه وفضلًا عن الحضور الواسع لکل شرائح المجتمع فیها، فإنّ أهم القضایا الإسلامیة والسیاسیة والاجتماعیة والثقافیة المعاصرة تطرح فی خطبتیها.

کما أنّ صلاة الجماعة الیومیة لا تخلو من هذا المحتوی أیضاً، وإن کانت صبغتها السیاسیة أقل درجة.

وفى سورة الحج إشارة لطيفة إلى هذه الامور، يقول تعالى «الَّذِينَ انْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وآتُوا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالمَعرُوفِ ونَهَوا عَنِ المُنكَرِ». (الحج/ ۴۱)

وممّا تقدّم، لا يبقى هناك أدنى شك فى أنّ فصل التعاليم الإسلامية عن المسائل السياسية أمر غير ممكن، وأنّ الشعارات التى تُطلق فى الغرب لفصل الدين عن السياسة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۱

فارغة من المحتوى تماماً فى الشرق الإسلامى.

ونختتم هذا الكلام بحديث جامع ولطيف عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

حينما جاء «أبو الدرداء» و «أبو هريرة» برسالة معاوية إلى على عليه السلام وكان قد طلب فيها تسليم قتلة عثمان إليه ليحاكمهم، قال الإمام على عليه السلام: «لقد أبلغتمانى ما قاله معاوية، والآن اسمعا كلامى وأبلغاه عنّى، إنّ عثمان بن عفان لا يعدو أن يكون أحد رجلين: إمّا إمام هدىً حرام الدّم وواجب النّصرة لا تحلّ معصيته ولا يسع الامّة خذلانه، أو إمام ضلالة حلال الدّم، لا تحلّ ولايته ولا نصرته، فلا يخلوا من احدى الخصلتين.

والواجب فى حكم اللَّه وحكم الإسلام على المسلمين بعد ما يموت إمامهم أو يقتلُ، ضالّاً كان أو مهتدياً، ومظلوماً كان أو ظالماً، حلال الدّم أو حرام الدّم، أن لا يعملوا عملًا ولا يحدثوا حدثاً ولا يقدّموا يداً ولا رجلًا ولا يبدأوا بشيٍ قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً عالماً ورعاً بالقضاء والسنّة، يجمع أمرهم ويحكم بينهم ويأخذ للمظلوم من الظّالم حقّه ويحفظ أطرافهم ويجبى فيئهم ويقيم حجتهم ويجبى صدقاتهم، ثم يحتكمون إليه فى إمامهم المقتول ظلماً ليحكم بينهم بالحقّ، فإن كان إمامهم قتل مظلوماً حكم لأوليائه بدمه، وإن كان قتل ظالماً نظر كيف الحكم فى ذلك» «۱».

وعلى هذا الأساس وجب عليك يا معاوية وقبل التطرق لقضية قتل عثمان الرضوخ للحكومة الإسلامية وتبايع من بايعه كل الناس ولا تتأخر ولو لحظة بالتوسل بهذه الحجج والذرائع.

فريقان لا يروق لهما تشكيل الحكومة الإسلامية:

اشارة

مع كل ما تقدم- وطبقاً للأدلة اليقينية أنّ- «الإسلام بدون حكومة» إسلام ممسوخ وفارغ من المحتوى وفى الواقع «فهو إسلام بدون الإسلام»، فمع كل ذلك لا زال هناك فريق يصرّ ويخالف مسألة تشكيل الحكومة الإسلامية، وعلّة هذه المخالفة- فى الواقع- أمران

---

(۱) كتاب سليم بن قيس، ص ۱۸۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۲

أحدهما له صبغة نفسية، والآخر له صبغة روائية.

أمّا العامل النفسى فهو إنّهم يعيشون ذكرى مُرة مع الحكومات، واعتقادهم بعجز أى أحد فى الظروف الراهنة من تشكيل الحكومة الإسلامية وبسط العدل الإلهى، نظراً للضغوط المستمرة الموجهة للحكومة من الداخل من قبل المتطرفين الذين يحاولون انتهاك حدود القوانين الإسلامية وضرب العدالة الاجتماعية، وتقديم الشعارات الفارغة على تعاليم الكتاب والسنة المعروفة.

ومن جهة اخرى فهناك الضغوط الواردة من الخارج، والمؤامرات التى تحاك من قبل الأجانب التى يقوم بها عملاؤهم من العناصر «السرية» و «العلنية» كل ذلك يحول دون نجاح الحكومة الإسلامية فى مواصلة طريقها، ويتسبب فى حرفها حتماً عن مسيرها الحقيقى

لتضعها فى خدمة أهدافهم، ولهذا السبب، يرون أنّ الحكومة الإسلامية الحقيقية غير قابلة للتطبيق عملياً.

وهم يستدلون على ادّعائهم هذا بقضيّة الحكومة الدستورية فى ايران حيث إنّ علماء الدين قد توغلوا فيها بكل ما اوتوا من قوّة، ليعكسوا للعالم تشكيلة الحكومة الإسلامية (أو ما يماثلها ولو من بعض الجهات)، لكن رغم كل تلك الجهود، فقد وقف مؤيدو الخط المنحرف من الداخل والأجانب وقفة رجل واحد وفى خاتمة المطاف استبدلوها بحكومة مستبدة ظالمة.

أمّا من الناحية الروائية فهم يتمسكون بالرّوايات القائلة: «كل راية ترفع قبل قيام القائم فهى راية ضلال»! وهذه الروايات تنقسم إلى عدّة أقسام:

الطّائفة الأولى

وفيها إشارة إلى أنّه ما لم يحن الوقت للثورة فى وجه سلاطين الجور والحكومات الظالمة، فلا تحركوا ساكناً، مثل:

۱- الرواية التى ينقلها «ابو المرهف» عن «الإمام الباقر» عليه السلام حيث يقول: «الغبرة على

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۳

من أثارها، هلك المحاصير، قلت جُعلت فداك: وما المحاصير؟ قال: المستعجلون ...» «۱».

۲- ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه الكرام فى وصية النبى صلى الله عليه و آله لعلى عليه السلام أنّه قال: «يا عَلى، إنَّ إزالَهَ الجِبالِ الرَّواسى أهوَنُ مِن إزالهِ مُلكٍ لَم تَنقَضِ أيّامُهُ» «۲».

۳- وجاء فى حديث عن «عيسى بن القاسم» أنّ الإمام الصادق عليه السلام قال: «اتّقوا اللَّهَ وانظروا لأنفُسكم، فإنّ أحقّ من نَظَر لها أنتم ... ثم أضاف عليه السلام قائلًا: إنْ أتاكُم مِنّا آتٍ لِيدعُوكُم إلى الرضا مِنّا فَنَحن نُشهدكُم إنا لا نرضى إنّه لا يُطيعُنا اليوم وهو وحده، فكيف يُطيعُنا إذا ارْتَفَعَتْ الراياتُ والاعلام؟» «۳».

۴- ونقرأ فى نهج البلاغة عن امير المؤمنين عليه السلام: «الْزَموا الأَرضَ وَاصبِرُوا عَلَى البَلَاءِ وَلَا تُحَرِّكُوا بأَيدِيكُم وَسُيُوفِكُم فِى هَوَى أَلْسِنَتِكُم وَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِما لَمْ يُعَجِّلْهُ اللَّه لَكُم، فَإنّهُ مَنْ مَاتَ مِنْكُم عَلَى فِرَاشِهِ وَهُوَ عَلَى مَعرِفَةِ حَقِّ رَبِّهِ وحقِّ رَسُولِهِ وَأَهْلِ بَيتِهِ مَاتَ شَهيداً، وَوَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَاستَوجَبَ ثَوابَ مَا نَوَى مِنْ صَالِحِ عَمَلِهِ، وَقامَتِ النِّيَّةُ مَقَامَ إصلَاتِهِ لِسَيفِهِ فَانَّ لِكُلِّ شَىءٍ مُدَّةً وَأَجَلًا» «۴».

ولا شك أنّ هذه الطائفة من الأخبار لا دلالة لها لا من قريب ولا من بعيد على النهى عن إقامة الحكومة الإسلامية قبل ظهور المهدى (عج)، بل الشىء الوحيد الذى تتضمنه هو تحيُّن الفرص، وعدم البدء بهذه الامور قبل توفر الفرصة المناسبة، لأنّكم ستدفعون ثمناً غالياً وخسائر فادحة دون أية نتيجة تذكر.

بل ربّما يكون مفهوم هذا الكلام عكس ما يتوقعه هؤلاء، وهو أنّه متى ما تهيأت الظروف لتشكيل الحكومة الإسلامية، فعليكم بها.

وهذه الرويات- فى الواقع- هى نفس ما جاء فى الخطبة الخامسة من نهج البلاغة، حيث

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۶ (ذكر صاحب الوسائل هذه الروايات فى الوسائل ج ۱۱، كتاب الجهاد، الباب ۱۳ من أبواب جهاد العدو).

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱ ص ۳۸.

(۳) المصدر السابق.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۰ (القسم الأخير منها).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۴

يقول عليه السلام: «وَمُجتَنى الثَمرَةَ لِغيرِ وَقتِ ايناعِها كالزارع بِغيرِ أرضِهِ». (إذ لن يحصّل أىٌّ منهماعلى النّتيجة المتوقعة).

والطائفة الثانية:

هناك بعض‌الروايات تقول: يجب أن تكون أهداف الثورة هو توجيه‌الناس لطلب الرضامن آل محمد صلى الله عليه و آله، أى أنّ الدعوة للأئمّة المعصومين عليهم السلام وأهدافهم، وعدم جواز الثورة بدونهم.

ومن جملتها ما نقرأه عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول: «إن أتاكم آت منّا فانظُروا عَلى أىّ شَىء تخرجون؟ ولا تقولوا خرج زيد، فانَّ زيداً كان عالماً وكان صدوقاً ولم يَدْعُكُم إلى نَفسِهِ وَانّما دَعاكُم الى الرّضا من آلِ مُحَمَّد، وَلَو ظَهَر لوفى بما دَعاكُم اليه، انّما خَرَجَ إلى سُلطانٍ مُجتَمعٍ لِيَنْقُضَهُ، فالخارجُ مِنّا اليومَ الى أىّ شَىءٍ يَدْعُوكُم؟ الى الرّضا مِن آل محمّد؟

فنحن نُشْهَدُكُم انّا لَسْنا نَرضى بِهِ وَهُوَ يَعْصينا اليومَ وَلَيسَ مَعَه أَحَدٌ، وَهو إذا كانت الرّاياتُ وَالالويّةُ أجدَر أن لا يَسْمَعَ مِنّا ...» «۱».

ومن البديهى أنّ هذا الحديث وأمثاله لا يدلّ أيضاً على النّهى عن تشكيل الحكومة الإسلامية، بل يقول: يجب أن يكون الهدف من تشكيل الحكومة هو إدخال السرور على الأئمّة عليهم السلام وكسب رضاهم، باعتبارهم الخلفاء الحقيقيين للنبى صلى الله عليه و آله، ولا يجب البدء بهذا العمل عشوائياً بدون موافقتهم!

وعلى هذا، فمتى ما توفرت الظروف المناسبة فى عصر «الغيبة» لتشكيل الحكومة الإسلامية، وتيقنا بأنّ الإمام (عج) راضٍ عنها، وكان الهدف من تشكيلها هو احياء الإسلام والقرآن وارضاء آل محمد صلى الله عليه و آله، فلا مانع منها، بل يجب السعى إليها أيضاً، (تأمل جيداً).

والطائفة الثّالثة:

بعض الروايات، تقول: كلّ ثورة تقوم قبل قيام القائم عليه السلام فإنّ مصيرها الفشل، كالروايات أدناه:

۱- نقرأ فى حديث عن أبى بصير عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «كُلُّ رَايَةٍ تُرفعُ قَبلَ قيامِ القائمِ فَصاحِبُها طاغوتٌ يُعبدُ مِنْ دونِ اللَّهِ عَزَّوَجَل» «۲».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۶، ح ۱.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۷، ح ۶.

۲- ونقرأ فى حديث آخر عن «الحسين بن خالد» أنّه قال: قلت لأبى الحسن الرضا عليه السلام:

إنّ عبد اللَّه بن بكير كان يروى حديثاً وأنا أحسب أنّه عرضه عليك، فقال: ما ذلك الحديث؟

قلت: قال ابن بكير: حدثنى عبيد بن زرارة قال: كنت عند أبى عبداللَّه عليه السلام أيّام خروج محمد بن عبداللَّه بن الحسن «۱» إذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له: جعلت فداك إنّ محمد بن عبداللَّه قد خرج فما تقول فى الخروج معه؟ فقال: «اسكنوا ما سكنت السماء والأرض»، فقال عبد اللَّه بن بكير: فإن كان الأمر هكذا ولم يكن خروج ما سكنت السماء والأرض فما من قائم وما من خروج، فقال أبوالحسن عليه السلام «صدق أبوعبداللَّه عليه السلام وليس الأمر على ما تأوله ابن بكير، إنّما عنى أبوعبداللَّه عليه السلام اسكنوا ما سكنت السماء من النداء» (النداء الخاص الذى يأتى من السماء قبل قيام القائم عليه السلام)، والأرض من الخسف بالجيش (أى السفيانى الّذى يحكم قبيل ظهور المهدى عليه السلام) «۲».

ويستفاد من هذا الحديث أيضاً أنّه لا ينبغى الثّورة قبل قيام المهدى عليه السلام.

۳- وفى حديث آخر عن سُدَيْر من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، أنّ الإمام عليه السلام قال له:

«الزَمْ بَيتكَ وَكُنْ حَلَساً مِن أحْلاسِهِ، وَاسْكُنْ ما سَكَنَ الليلُ والنَّهار، فاذا بَلغك أنْ السُفيانى قَد خَرَجَ فارحَل إلينا وَلوَ عَلى رِجلِك» «۳».

«السفيانى»: أحد الجلادين والحكام الظالمين ويظهر قبل قيام المهدى عليه السلام، ويرسل الجيوش إلى مناطق مختلفة، من جملتها الجيش الذى يبعثه إلى المدينة المنوّرة فيصل إلى الصحراء القريبة من المدينة، فتحدّث زلزلة هناك وتنشق الأرض لتبتلعه وجيشه!.

وهناك روايات كثيرة اخرى بنفس هذا المضمون، وهو عدم جواز القيام ما لم تظهر علامات ظهور المهدى عليه السلام، كرواية «عمرو بن حنظلة» عن الإمام الصادق عليه السلام، ورواية المعلى بن خنيس عنه عليه السلام، ورواية جابر عن الإمام الباقر عليه السلام «۴»، و ....

---

(۱) محمد بن عبدالله بن الحسن، حفيد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ثار أيام المنصور العباسى، وبايعه جمع غفير، استولى على مكة والمدينة واليمن، لكن المنصور أرسل إليه جيشاً جراراً تغلب عليه ونال بدوره الشهادة، وهو معروف بالنفس الزكية، كانت شهادته فى رمضان سنة ۱۴۵ للهجرة (تتمة المنتهى، ص ۱۳۵ فما بعدها).

(۲) وسائل الشيعة، ص ۳۶، ح ۳.

(۳) المصدر السابق، ص ۳۶، ح ۳.

(۴) وسائل الشيعة، ج ۱۱، ص ۳۵ و ۴۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۶

نقد وتحليل:

حول هذه الروايات نلفت نظركم إلى عدّة نقاط لابدّ منها:

۱- توجد لدينا فى الشريعة الإسلامية مجموعة اصول بديهية لا يجوز تخطيها، من جملتها «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» الذى لا سبيل للشك بوجوبه أبداً ومن حيث بداهته وكونه من الاصول المسلَّم بها، وما أكثر الآيات والروايات التى أكدت عليه.

لنفرض أننا نعيش فى محيط قد ضاعت فيه الأحكام الإلهيّة، وعمّ التجاهر بالمنكرات، واودع المعروف فى زاوية النسيان، وأحاط الظلم والفساد فى كل مكان، وكان باستطاعتنا تغيير الوضع الفاسد بثورة قوية ضد النظام الحاكم ونشر المعروف بدل كل تلك المنكرات على نطاق واسع، فهل يدّعى أحد حُرمة هذا العمل فى مثل هذه الظروف، وأنّه ينبغى التفرج على هذه الأوضاع الفاسدة التى تصادر فيها الأحكام الإلهيّة، ويخرج بواسطتها الشباب المسلم عن الدين؟!

قد يدّعى المتذرعون عدم حدوث مثل هذا الأمر، لنفترض أنّه يمكن حدوثه، إذ ليس هذا الفرض محالًا عقلياً، فهل يقولون ثانية بضرورة الامتناع عن كل تحرك والتسليم أمام الإنتشار السريع للفساد والظلم ومصادرة الأحكام الإسلامية؟!

لا أظن أنّ عالماً ومحققاً يتفوه بمثل هذا الكلام!

من الشواهد على هذا الكلام محمد بن عبداللّه من أحفاد الإمام المجتبى عليه السلام المعروف ب «النفس الزكية»، حيث نقرأ عنه:

«حينما بايعه عدد من الوجهاء باعتباره المهدى عليه السلام، وبلغ الإمام الصادق عليه السلام ذلك الخبر بل وحتى طلبوا منه عليه السلام أن يبايعه! قال عليه السلام: دعوا هذا الأمر، فإنّه لم يحن الوقت بعد (وسيكون ظهور المهدى فى المستقبل)، فلو أنّك (عبداللّه أبو محمد) تعتبر ابنك هو المهدى الموعود، وأنّه ليس بالمهدى، ولم يحن وقت ذلك بعد، ولو أردت اجباره على الخروج فى سبيل اللّه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فواللّه لن ندعه لوحده، وسنبايعه!».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۵۷

فغضب عبداللّه وأجاب بجواب غير مناسب «۱».

خلاصة القول: هى أنّه لو فرضنا أنّ هذه الروايات تصرح بأنّ كل ثورة قبل قيام المهدى عليه السلام على ضلال، لكننا لا نتمكن أبداً لاجل خبر واحد أو عدّة أخبار هى فى حكم خبر الواحد، من تجاهل الاصول المسلّمة للإسلام والتى جاءت فى القرآن الكريم وأحاديث الأئمّة المعصومين عليهم السلام، وعلى هذا، فمتى ما توفرت مقدمات تشكيل الحكومة الإسلامية وأمكن محو الظلم والفساد والاعتداء و ... فلا ينبغى التشكيك فى ضرورة القيام بذلك. إذ لا يمكن تناسى أدلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتطبيق الحدود وإقامة القسط والعدل بحجة ورود النهى عن هذا العمل فى عدّة أخبار مشكوكة!

۲- لدينا فى قبال هذه الروايات روايات اخرى عن أهل البيت عليهم السلام تحكى عن أنّ الأئمّة عليهم السلام قد أثنوا على بعض الثورات التى حدثت فى زمانهم، مع أنّ هذه الثورات لم تبلغ غايتها، فكيف يعقل منع هذه الثورات مع ثنائهم عليهم السلام عليها؟!

ومن جملة ذلك ما جاء فى الروايات حول قيام «زيد بن على» باعتبارها ثورة مقدّسة:

يقول المرحوم الشهيد فى القواعد فى بحث الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: «كان خروجه بإذن الإمام عليه السلام» ويقول الشيخ المفيد فى الإرشاد: «كان زيد أفضل أبناء الإمام السجاد عليه السلام بعد الإمام الباقر عليه السلام، وكان عالماً عابداً تقياً سخياً شجاعاً، قام بالسيف ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأخذ بثأر شهداء كربلاء» «۲».

يذكر المرحوم العلّامة المامقانى روايات كثيرة فى فضل ومدح زيد بن على، وقسماً من هذه الروايات وردت فى ذمه، حيث يقوم بمناقشتها ولا يراها تستحق الذكر أمام روايات المدح تلك «۳».

يقول المرحوم العلّامة المجلسى بعد ذكره لاختلاف الروايات حول «زيد» وثورته:

«الأخبار التى تدل على مكانته الرفيعة ومدحه والثناء عليه وأنّه لم يدع لغير الحق هى

---

(۱) إرشاد المفيد، ج ۲، ص ۱۸۵ (الباب ۱۳ فى حالات الإمام الصادق عليه السلام).

(۲) تنقيح المقال (رجال المامقانى)، حالات زيد.

(۳) المصدر السابق.

الأكثر، وقد أقر جُل الأصحاب بعظمة مكانة زيد» «۱».

فحينما تكون كل ثورة قبل المهدى عليه السلام ثورة ضلال وشرك، فكيف يمكن الثناء على ثورة زيد بن على عليه السلام، وتمجيدها؟!

والنموذج الآخر هو الروايات التى جاءت فى مدح الحسين بن على شهيد فخ.

وكان الحسين بن على هذا من أحفاد الإمام الحسن المجتبى عليه السلام، ثار فى أيّام الخليفة العباسى (موسى الهادى) سنة ۱۶۹ ه، توجه من المدينة إلى مكة للحج فى ذلك العام، وحينما وصل مع أنصاره أرض «فخ» قريباً من مكة، حدثت معركة ضارية بينه وبين أنصاره من جهة، وبين عمال وجنود الخليفة العباسى من جهة اخرى فاستشهد الحسين بن على مع جماعة من أنصاره فى هذه المعركة، وهو الذى عدّه دعبل الخزاعى فى أبياته المعروفة «مدارس آيات» باعتباره شهيداً من شهداء أهل البيت عليه السلام، ولم يعترض الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام على قوله:

قُبورٌ بكوفان وأُخرى بِطيبِةٍواخرى بِفَخٍّ نالها صَلَواتى

ونقرأ فى حديث عن الإمام التاسع، (الإمام الجواد عليه السلام): بينما كان النبى صلى الله عليه و آله يجتاز أرض فخ إذ نزل وصلى وبينما هو فى الركعة الثانية أخذته العبرة، فبكى بكاءً أبكى من معه، وحينما انتهت الصلاة، سألوه صلى الله عليه و آله عن سبب بكائه،

فقال صلى الله عليه و آله: لقد جاءنى جبرائيل وقال لى:

«أى محمد! إنّ رَجلًا مِن ولِدك يُقتل فى هذا المكان، أجر الشهيد معه، أجر شهيدين» «۲».

بل جاء فى حديث عن الإمام الجواد عليه السلام أنّه قال: «لم يكن لنا بعد الطف مصرع أعظم من فخ» «۳».

كما جاء فى رواية عن الحسين بن على (شهيد فخ) نفسه أنّه قال: «ما خرجنا حتى

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴ ص ۲۰۵.

(۲) تنقيح المقال، ج ۱ ص ۳۳۷ (حالات الحسين بن على شهيد فخ)؛ بحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۷.

(۳) المصدر السابق.

شاورنا موسى بن جعفر فأمرنا بالخروج» «۱».

يقول المرحوم العلّامة المامقانى فى خاتمة ما يتعلق بشرح أحواله: «يتضح ممّا قلنا أنّه كان من الثقات، لأنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام قد أمضى ذلك فى أحد الأخبار، وجاء فى الحديث: «أجر الشهيد معه، أجر شهيدين»، وقد بكى عليه النبى صلى الله عليه و آله فى زمانه، وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ستدخل روحه الجنّة قبل جسده».

ولمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع راجع كتاب تنقيح المقال الذى تقدم (ج ۱ ص ۳۳۷ وبحار الأنوار، ج ۴۸، ص ۱۶۰ فما بعدها).

مضافاً إلى ما تقدم، فقد جاء فى الروايات أنّ أقواماً سيثورون قبل قيام المهدى عليه السلام، ويمهدون لظهوره عليه السلام، وقد ورد مدحهم فى الأحاديث الشريفة، فلو كانت ثورتهم باطلة داعية إلى الطاغوت، لما كان لهذه الروايات مفهومٌ صحيحٌ.

ونكتفى هنا بروايتين عن طريقى الشيعة والسنّة، مع أنّ الروايات أكثر من هذا بكثير.

نقرأ فى حديث عن الإمام أبى الحسن الأول (الإمام الكاظم عليه السلام) أنّه قال: «رَجلٌ مِن قُم يدعو النّاسَ إلى الحقّ يجتمع معه قَومٌ كزبُرِ الحَديدِ لا تَزِلُّهُم الرياحُ العواصِفُ ولا يَملّونَ مِن الحَربِ وَلا يجَبنون وعلى اللَّهِ يتَوكّلُون والعاقبة للمتقين» «۲».

وقد تمّ التصريح فى قسم من الروايات التى تشير إلى مثل هذه الثورات بأنّها ممهدة لظهور المهدى عليه السلام. وعلى أيّة حال، فهى حاكية عن أنّ ثورات مشروعة ستحدث قبل قيام المهدى عليه السلام، ثورات دامية داعية إلى الحق مع ضمان النصر.

ونقرأ فى حديث فى سنن ابن ماجة وهو من المصادر السنية المعروفة:

حضر جمع من شباب بنى هاشم بين يدى الرسول صلى الله عليه و آله، وحينما وقع نظره المبارك عليهم أخذته العبرة وتغير لونه، فسئل عن ذلك، فقال صلى الله عليه و آله:

---

(۱) المصدر السابق.

(۲) سفينة البحار، لفظة (قم).

«إنّا أهلُ بَيتٍ اختارَ اللَّهُ لَنا الآخرةَ عَلى الدّنيا، إنّ أَهل بيتى سَيَلقونَ بَعدِى بلاءً وتَشْريداً وَتَطْريداً حتى يأتى قَومٌ مِن قِبلِ المَشرقِ معهم رايات سود فَيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون وينصرون فيُعطون ما سألوا فلا يَقبلونَهُ حتّى يَدفَعوها إلى رَجُل مِن أهلِ بيتى فَيملأها قِسطاً كما ملأوها جَوْراً، فمن أدركَ ذلكَ مِنْكُم فليأتهم وَلَو حَبواً على الثَلْج» «۱».

يستفاد من ذيل هذه الرواية بكل وضوح أنّ هذه الثورة ستحدث قبيل ثورة المهدى عليه السلام، وأنّها الممهدة له عليه السلام فضلًا

عن مشروعيتها.

ويظهر بجلاء من كل ما قيل فى هذا الفصل أنّ ثورات ستحدث قبل ظهور المهدى (عج) فيها صبغة إلهيّة، بعضها يؤتى أُكله وبعضها ينتهى بالفشل، وليس أن كل راية ترفع قبل المهدى (عج) راية ضلال وطاغوت حتّى لو كانت بإذن أهل البيت عليه السلام وعلى خطاهم، (تأمل جيداً).

٣- والحاصل أنّ الروايات التى تقول: «كل راية ترفع قبل قيام المهدى عليه السلام راية ضلال وصاحبها طاغوت ...»، يجب تفسيرها بشكل بحيث تتلاءم مع المسلّمات الفقهية وأحكام الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر «محاربة الفساد»، وكذلك مع الثورات العديدة التى حدثت فى زمان المعصومين عليهم السلام وأمضوها بدورهم عليهم السلام. ولدينا لتفسير هذه الروايات عدّة سبل:

١- المراد بها، تلك الثورات المنحرفة، الثورات التى تقع بدون إذن واجازة المعصومين عليهم السلام، أو الحكّام الشرعيين أو نواب الإمام المهدى (عج) فى عصر الغيبة.

٢- المراد منها، الثورات التى تحدث بقصد الدعوة لأنفسهم لا لأهداف آل محمد صلى الله عليه و آله، حيث تمّت الإشارة إلى ذلك فى الروايات أكثر من مرّة.

٣- المراد بها، الثورات التى تظهر فى فترات معينة بدون استعداد لها، وأنّ الأئمّة عليه السلام إنّما تلفظوا بتلك الجمل ونهوا عن ذلك للحد من الثورات التى لم تنضج بعد.

---

(١) سنن ابن ماجة، ج ٢ ص ١٣٦٦، ح ٤٨٢.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦١

ونعود هنا ثانية إلى القرآن الكريم لنتأمل فى النداء العام للقرآن بدعوة الامّة الإسلامية للثورة فى وجه الظالمين والدفاع عن المظلومين وبسط القسط والعدل.

نقرأ فى قوله تعالى: «وَمَا لَكُم لَاتُقَاتِلونَ فِى سَبيلِ اللَّهِ وَالمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالوِلـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجنَا مِنْ هَـذِهِ القَريَةِ الظَّالِمِ أهلُهَا وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَّدُنكَ وَلِيّاً واجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً». (النساء/ ٧٥)

لا يخفى أنّ هـذه الآيـة ونظائرها التى تتحدث حول إقامة القسط والعدل أو الدفاع عن المظلومين ومقارعة الظالمين لا تنحصر بزمان ومكان معينين، وأنّها من الاصول المهمّة للإسلام، وأنّه كلما توفرت الفرص والمقدّمات لهذا الهدف المقدس فلابدّ من الإقدام على ذلك فوراً.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٣

أركان الحكومة الإسلامية

اشارة

١- السلطة التشريعية

٢- السلطة التنفيذية

٣- السلطة القضائية

٤- التربية والتعليم

٥- الدفاع (القوات المسلحة) نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٦٥

أركان الحكومة الإسلامية

المقدّمة:

نحن نعلم أنّ أية حكومة بحاجة إلى ثلاثة أركان أساسية، ليس بمقدورها مواصلة السير والبقاء بدونها:

۱- ركن التقنين (وضع القوانين).

۲- ركن التنفيذ.

۳- ركن القضاء.

فلابدّ أولًا من توفّر القوانين القادرة على معالجة مشاكل المجتمع ولتنظيم علاقات النّاس بعضهم بالبعض الآخر، والعمل على تحريك عجلات المجتمع على طريق الرقى والتكامل، سواءً كان مصدر سنّ القوانين الوحى الإلهى، تارة، وتارة، بأمر أحد الأفراد على من تسلط عليهم، وأحياناً بمجالس سنّ القوانين، الّذى سنتحدث عنه لاحقاً.

وحتى المجتمعات الّتى تُدار وفق القوانين الإلهية، والّتى تستمد قوانينها من مصدر الوحى، تحتاج هى الاخرى أيضاً إلى سلطةٍ مقننة كى تعمل على تطبيق القوانين الإلهيّة العامة لإدارة حياتهم اليومية، وتعمل أيضاً على تطبيق المسائل الجزئية واحتياجات كل زمان الّتى يعرض عليها التغيير والتبديل بمرور الزمان على المسائل الّتى هى محل ابتلاء، أو كما يصطلح على ذلك «ردّ الفروع إلى الأصول» أو بتعبير آخر، تقوم بعملية «التقنين الموضوعى». نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۶

وبعد أن تُكتب نصوص القوانين وتجعل موضع التنفيذ والعمل، يجب أن يوكل أمر تنفيذها بيد مجموعة من الأفراد يقومون بتطبيقها على المجتمع، فلو كانت هذه القوانين بحاجة إلى مقررات تنفيذية، يقوم هؤلاء بتدوين هذه المقررات، وإن لم تكن هناك حاجة إلى ذلك، ينتقلون مباشرة إلى مرحلة التطبيق، وهذا ما يُعمل به فى عالم اليوم والمسمى ب «السلطة التنفيذية» أو «الحكومة».

وللدول أيضاً رئيس يُعبّر عنه أحياناً برئيس الجمهورية، وأحياناً رئيس الوزراء، وأخرى بالصدر الأعظم، وهؤلاء أيضاً يقومون بدورهم بتعيين الوزراء والمديرين العامّين، والمديرين من الدرجة الأولى، ورؤساء الأقسام والشعب، إذ يقسّمون بينهم الواجبات التنفيذية، ويطبّقون من خلالها برامجهم الحكومية.

وفى هذا الخضم يحتمل حدوث مشاكل واختلافات بين النّاس، أو بين دوائر الدّولة، أو بين الدولة والنّاس فى المسائل الحقوقية المختلفة، والسلطة الّتى تأخذ على عاتقها تشخيص الظالم من المظلوم وصاحب الحق من المدّعى الفاقد له، تسمى ب «السلطة القضائية»، ولا شك فى أنّ الحكم الصادر من قبل هذه السلطة، يحتاج بعد صدوره أيضاً إلى السلطة التنفيذية لغرض تنفيذه، والّتى يجب أن تنفذ هذه الأحكام بشكل دقيق.

وفى هذا المجال توجد أقسام أخرى فى النّظام، قد نتصور أحياناً بأنّها تشكل أركاناً مستقلة بحد ذاتها، ومن الممكن أن ينظر لها على أنّها تمثل الركن الرابع والخامس و ...، كالشرطة والإستخبارات، وكذلك التربية والتعليم والمؤسسات الخبرية والقوات العسكرية وقوى الأمن الداخلى وما شاكل ذلك.

إلّا أنّه من الواضح أنّ هذه الأمور تُعد جزءً من السلطة التنفيذية وبمنزلة الأداة بيدها إذ تستخدمها لغرض تنفيذ القوانين بأفضل الطرق وأكثرها تأثيراً.

وتقوم الإستخبارات بكشف النقاب عن المؤامرات السريّة، وتضع المعلومات الوافية عن الحوادث الّتى تقع هنا وهناك بين يدى المسؤولين التنفيذيين، ليتسنى لهم أحباط تلك المؤامرات، والوقوف على ما يضر المجتمع وما ينفعه لاتخاذ الموقف المناسب، وفى الوقت

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۷

المناسب أزاءَها، وكذلك تقوم المراكز التعليمية والمؤسسات الخبرية بمساعدتهم للوصول إلى أهدافهم من خلال الطرق الثقافية، سيّما وأنّ أفضل الطرق لتطبيق القانون هو الطريق الثقافي، الّذى يدفع المجتمع إلى تطبيق القوانين بشكل ذاتى وآلى، ويصبح المجتمع بالتالى مصداقاً لقوله تعالى: «لِيَقومَ النَّاسُ بِالْقِسْط»، وكذا الحال بالنسبة للمراكز الّتى ذكرت آنفاً.

وبعد هذه الإشارة المختصرة نعود إلى القرآن المجيد ونبحث عن كلٍ من هذه الأركان الثلاثة فى آيات القرآن الكريم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۶۹

الركن الأول: السلطة التشريعية

تمهيد:

طبقاً للرؤية القرآنية وأحاديث المعصومين عليهم السلام وعلماء الإسلام، فإنّ مسألة تشريع القوانين تختص باللّه تعالى، والواقع أنّ مسألة التقنين (سنّ القوانين) تعد شأناً من شؤون التوحيد فى الأفعال، فكما أنّ اللّه تبارك وتعالى هو الحاكم المطلق على جميع عالم الوجود وعالم البشرية، فإنّه كذلك حاكمٌ على نظام التشريع أيضاً.

وهذه المسألة فضلًا عن كونها وردت بشكل صريح فى الآيات المباركة والروايات الإسلامية، فهى مؤيدّة أيضاً بدليل العقل، لأنّ المقنّن الواقعى هو الّذى يجب أن يمتلك الصفات التالية:

۱- يجب أن يكون مطلعاً على حقيقة الإنسان وملمّاً بجميع خصائصه من حيث الجسم والروح، بحيث يكون خبيراً كاملًا بالإنسان، وعارفاً بجميع أسراره، وعواطفه، وميوله، وغرائزه وشهواته، ومسائله الفطرية، ومطلعاً أيضاً على جميع القابليات والكفاءات الكامنة فى الفرد والمجتمع، والكمالات المتيسرة له بالقوة، وبعبارة أخرى: يجب أن لا يخفى عليه أى شىء فى تركيبة الإنسان وكيانه.

۲- يجب أن يكون عالماً بآثار وخواص جميع الأشياء فى الوجود من حيث انسجامها وتناغمها مع وجود الإنسان أو عدم انسجامها، وبشكل أدق يجب أن يعلم فوائد ومفاسد جميع الأعمال الفردية والاجتماعية وآثارها ونتائجها.

۳- أن يكون خبيراً بجميع الحوادث الّتى يمكن وقوعها فى المستقبل البعيد أو القريب،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۰

والتى تلعب دوراً مؤثراً بنحوٍ أو آخر فى مصير الإنسان.

۴- المقنن أو المشّرع الحقيقى هو الذى يكون مصوناً من كل خللٍ أو ذنبٍ أو خطأ، وأن يكون قوى الإرادة شجاعاً فى الوقت الذى يكون فيه رؤوفاً رحيماً، وأن لا يداخله الخوف من أى قوةٍ فى المجتمع.

۵- يجب أن لا تكون له أية مصلحةٍ أو منفعةٍ فى المجتمع البشرى، لئلا يتّجه محور أفكاره أثناء سنِّهٔ للقوانين- من حيث يعلم أو لا يعلم- نحو الجهة الّتى تحافظ على مصالحه الشخصية، ويضحى بمصلحة المجتمع لحساب مصالحه الشخصية.

فهل تتوفر هذه الصفات فى غير ذات اللّه تعالى؟ وهل بإمكانكم العثور على من يقول: أنا عالمٌ بالإنسان وبجميع خصائصه؟ فى حين أنّ أعاظم العلماء، يبدون عجزهم عن الإجابة عن هذا السؤال، بل إنّهم يقولون علناً إنّ الإنسان يُعدّ كائناً مجهولًا، حتى أنّهم اختاروا هذا العنوان لكتبهم ومؤلفاتهم؟

وهل هناك من هو خبيرٌ بالماضى والمستقبل والروابط الدقيقة فيما بينها وبين زماننا الحاضر؟

وهل هناك من يكون عارفاً بآثار وأسرار جميع الموجودات، ومصاناً من كل نوع من أنواع الإنحراف والذنب والخطأ؟

من المسلَّم أنّ هذه الصفات والخصائص لا تتحقق إلّافى اللّه تعالى وأنبيائه الكرام.

ونخلص من هذه الإشارة القصيرة إلى نتيجة طيبة، وهى أن المشرّع الحقيقى هو اللّه تعالى الذى خلق الإنسان وأطّلع على جميع أسرار

خلقته، ویعلم أسرار جمیع الموجودات، وخبیرٌ بحوادث المستقبل والماضی وعلاقتها بأحداث الحاضر علی أحسن ما یرام.

ولا طریق لأیخطأ أو زلل إلی ذاته الطاهرة المقدّسة ولا یخشی أحداً، ولا حاجة له أو مصلحة شخصیّة لکی یشبعها عن طریق القوانین الموضوعة، بل إنّه تعالی یلاحظ منفعة الإنسان فقط فی تشریعاته المقدّسة.

وفضلًا عن ذلک کله فإنّ الوجود بأسره ضمن دائرة حکومته وسلطته، ولا معنی لأن یقوم

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۱

غیره بإصدار أحکامه فی هذه الدائرة، بل إنّ الخضوع لأحکام الآخرین والإعتراف بقانونٍ غیر قانونه جلّ وعلا یعدّ نوعاً من الشرک والضَّلال.

وبهذه الإشارة نعود مرة أخری إلی القرآن الکریم، ونستعرض الآیات الّتی تؤکّد علی أنّ مسألة التشریع وسنّ القوانین مختصة باللّه تعالی.

۱- «مَالَهُمْ مِّن دُونِهِ مِن وَلِیٍّ وَلَا یُشرِکُ فی حُکمِهِ أَحَداً». (الکهف/ ۲۶)

۲- «وَمَا اختَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیءٍ فَحُکمُهُ إِلَی اللَّهِ». (الشوری/ ۱۰)

۳- «وَمَن لَّمْ یَحکُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأولَئِکَ هُمُ الکَافِرُونَ». (المائدة/ ۴۴)

۴- «وَمَن لَّم یَحکُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (المائدة/ ۴۵)

۵- «وَمَن لَّمْ یَحکُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ فَأُولئِکَ هُمُ الفَاسِقُونَ». (المائدة/ ۴۷)

۶- «وَأَنِ احکُمْ بَینَهُم بِمَا أنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهوَاءَهُم وَاحذَرْهُمْ أَن یَفتِنُوکَ عَن بَعضِ ما أَنزَلَ اللَّهُ إِلَیکَ». (المائدة/ ۴۹)

۷- «افَحُکْمَ الجَاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ ومَنْ أَحسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکماً لِّقُومٍ یُوقِنُونَ». (المائدة/ ۵۰)

۸- «إِنَّما کَانَ قَولَ المُؤمِنِینَ إِذَا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِیَحکُمَ بینَهُم أن یَقولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعنَا وَأُولئِکَ هُمُ المُفلِحُونَ». (النور/ ۵۱)

۹- «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِی مُستَقِیماً فاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَّرقَ بِکُم عَن سَبِیلِهِ ذَلِکُم وَصَّاکُم بِهِ لَعَلَّکُم تَتَّقُونَ». (الأنعام/ ۱۵۳)

۱۰- «الیَومَ أَکْملتُ لَکُم دِینَکُم وَأَتمَمتُ عَلَیکُم نِعمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الإِسلَامَ دِیناً». (المائدة/ ۳)

جمع الآیات وتفسیرها

فی الآیات السبع الأولی من هذه الطائفة یدور الحدیث علی أنّ الحکم هو حکم اللّه فقط وعلی الجمیع إطاعة أحکامه تعالی.

صحیح أن «الحکم» یأتی بمعنی «المنع» «۱» أساساً، ولکن بما أنّ الأمر والنّهی یصبح سبباً

---

(۱) یرجی الرجوع إلی کتاب مصابیح اللغة، ومصباح اللغة، ومفردات الراغب.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۲

لمنع وقوع المخالفات والأعمال الخاطئة، سُمّی ب «الحکم»، وسمیت العلوم والمعارف لهذا السبب ب «الحکمة» إذ إنّها تمنع وقوع الأعمال الجاهلة وغیر العقلائیة.

والملاحظة الاخری الجدیرة بالإهتمام أیضاً، هی أن مصطلح «الحکم» فی القرآن الکریم، یأتی أحیاناً بمعنی التحکیم والفصل، وأخری بمعنی الأمر والنّهی، وعندما یأتی بمعنی التحکیم، یُعدُّ أیضاً نوعاً من الأمر والنّهی الّذی یصدر عن القاضی.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار ما تقدم ذکره، نعود مرّة اخری إلی الآیات المبارکة، إذ إنّ الآیة الأولی، تصرح بأنّ الحاکمیة والحکومة، والأمر والنّهی وکذلک الولایة، مختصة بأجمعها باللّه تعالی إذ تقول: «مَالَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِیٍّ وَلَا یُشرِکُ فِی حُکمِهِ أَحَداً».

والواقع أنّ صدر الآیة وذیلها هما بمنزلة العلّة والمعلول، لأنّه عندما تختصّ الولایة باللّه تعالی، فمن الطبیعی حینئذٍ أن یقتصر الحکم

والقانون أيضاً به تعالى، ومن الواضح، أنّ «الحكم» يشمل هنا الأمر والنّهى وكذلك القضاء والحكومة أيضاً، لأنّ كل هذه الأمور تعدّ بمثابة فروع الولاية، وبما أنّ الولاية منحصرة به تعالى، إذن فالحكم من شأنه أيضاً، بل يعتقد البعض أنّ ولاية اللَّه تعالى تشتمل حاكميته التكوينية على عالم الخليقة أيضاً، لإنّ ولايته فى عالمى التشريع والتكوين ثابتة، إذن فحاكميته تمتاز بالشمول والعمومية.

ويدور الحديث فى الآية الثانية عن حكم اللَّه وقضائه: «وَمَا اخْتَلَفتُم فِيهِ مِن شَىءٍ فحُكمُهُ إِلى اللَّه».

ويقول تعالى فى نهاية الآية: «ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلتُ وإِليهِ انيبُ».

وبما أنّ كل شىء (وخاصة الحكم والقضاء) بيده تعالى، إذن يجب أن يكون التوكّل عليه والإنابة إليه فقط.

وطالما أنّ التحكيم والقضاء غير منفصلين عن الحكم والقانون (بمعنى أنّ الكثير من موارد النزاع هى من قبيل الشبهة الحكمية، وليس الشبهة الموضوعية)، نصل إلى أنّ الحكم والأمور والقانون أيضاً بيده تعالى فقط.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۳

أمّا الآيات الثالثة والرابعة والخامسة، فقد تحدثت عن الذين لا يحكمون بما أنزل اللَّه تعالى، ولا يعيرون لذلك أهميّة تذكر، أو بعبارة أخرى، يحكمون بغير حكم اللَّه، فقيل عنهم فى إحداها أنّهم «كافرون» وفى الآية الاخرى «ظالمون» وفى الثالثة أنّهم «فاسقون» وهو قوله تعالى: «وَمَن لَم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ... فَأُولَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ».

فهم كافرون بسبب إعراضهم عن أحد فروع التوحيد الافعالى، أى التوحيد فى حاكمية اللَّه حيث يؤكّد هذا الفرع من التوحيد أنّه: ليس لغيره سبحانه الحق فى الحكم وإصدار الأوامر ولا فى الحكومة، ولا فى القضاء والتحكيم، لذا من المسلَّم به أن من ينحرف عن هذه النظرية، فقد ابتُلىَ بنوع من الشرك.

«وهم ظالمون»: بسبب ممارستهم الظلم بحق أنفسهم والآخرين، وتركهم جانباً الأحكام الّتى تمثل أساس سعادتهم وسبب رقى مجتمعهم، وأخذهم بأحكام قليلة الأهميّة أو فاقدة لها تماماً، والتى لا تأخذ بنظر الاعتبار سوى مصالح محدودة وقليلة.

«وهم فاسقون»: لكونهم تجاوزوا حدود العبودية وخرجوا عنها، لعلمنا بأنّ معنى الفسق هو الخروج عن الواجب والأمر.

هذه التعابير الثلاثة المختلفة (الكافرون والظالمون والفاسقون) فى الآيات الثلاث الآنفة دقيقة جدّاً، ومن الممكن أن تكون إشارة إلى الأبعاد الثلاثة للقانون الإلهى، لأنّ «القانون» ينتهى فى أحد جوانبه ب «المقنن» «اللَّه تعالى»، إذ تعتبر مخالفته «كفراً»، ومن ناحية أخرى ينتهى بعباد اللَّه تعالى، إذ تعد مخالفته «ظُلماً»، والثالثة، ينتهى بشخص الحاكم والقاضى من البشر، إذ يعد حكمه- «عندما يكون مخالفاً لحكم اللَّه»- «فسقاً».

والآية السادسة تأمر النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بأن يحكم بينهم بما أنزل اللَّه ولا يتبع فى ذلك أهواءهم ويحذرهم لئلا يفتنوه عن بعض الأحكام الّتى أنزلها اللَّه عليه، وهو قوله تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۴

«وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

إن المقارنة بين «الحكم بما أنزل اللَّه» و «إتباع الهوى» يبين لنا أن الذى يعرض بوجهه عن حكم اللَّه تعالى، سيسقط فى وادى الهوى المرعب، وقول الآية: «واحْذرهم أَنْ يَفْتِنُوكَ» تأكيد آخر ومكرر على اتباع أحكام اللَّه تعالى، والوقوف بوجه الوساوس وعدم الإعتراف بغيره، وممّا لا شك فيه أنّ النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله لم يكن ليفتتن بهم إطلاقاً بسبب تمتعه بمقام العصمة الرفيع، إلّاأن التعبير أعلاه يُعدّ درساً لسائر النّاس، لكى يحذروا مكائد الأعداء وألاعيبهم من أجل حرف المؤمنين وإبعادهم عن الإمتثال للاحكام الإلهيّة ومع الأخذ بنظر الاعتبار سبب نزول هذه الآية والّذى ذكره المفسرون، فإنّ الآية الآنفة تتعلق بمسألة القضاء والفصل فى الإختلافات والمنازعات، وكلمة «بينهم» أيضاً تعبّر عن هذا المعنى، ولكن من المسلّم به هو أنّ الفصل يجب أن يكون مستنداً إلى حكم وقانون، ومفهوم هذه الآية يشير إلى أن مستند القضاء والفصل يجب أن يكون ما أنزل اللَّه فقط.

والآیة الّتی تأتی بعد الآیة السابقة مباشرة فی القرآن الکریم، تقول: «أَفَحُکْمَ الجَاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْماً لِّقَومٍ یُوقِنُونَ».

وهنا تصرح هذه الآیة الکریمة بأنّ الأحکام غیر الإلهیّة إنّما هی أحکام جاهلیة، تلک الأحکام النّابعة من الجهل وعدم المعرفة، وأحیاناً عن الهوی والوساوس الناجمة عن الجهل، ولو تأملنا فی هذه الآیة جیداً، لوجدنا أنّ هذا المعنی لا یختص فقط بعصر النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله ونهضته فی العصر الجاهلی للعرب، بل إنّ کل حکم غیر إلهی- وکما أشرنا إلی ذلک آنفاً- لا یمکن أن یکون منزّهاً من الجهل، لأنّ علم الإنسان محدود یقیناً، إذ إنّه لا یملک معرفةً کاملة بجمیع خصائص وزوایا وجوده، ولا یملک اطلاعاً کاملًا علی أسرار الموجودات والحوادث الماضیة والحالیة والمستقبلیة، التی تلعب دوراً مؤثراً فی نوعیة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۵

الأحکام سلباً وإیجاباً، مضافاً إلی أنّ لکل فرد فی المجتمع میولًا ومصالح معینة، ولا یمکنه أن یُبعد نفسه تماماً عن تلک المصالح أثناء سنّ القوانین، واللَّه تبارک وتعالی وحده العالم بکل شیء والغنی عن عباده.

یقول «البرسوئی» فی تفسیره روح البیان، فی تبیین معنی «الجاهلیة»: «وهو کل ما لا یستند إلی الوحی والکتاب السماوی» «۱».

ونقرأ فی تفسیر «فی ظلال القرآن» «۲».

ونقل فی تفسیر «مجمع البیان» عن بعض المفسرین المتقدمین قولهم:

«إنّ هذا النوع من التمییز والإزدواجیة المطبّقة أیضاً فی عصرنا هذا، والقوانین الّتی تطبق علی الضعفاء فقط سواء داخل الدول أو فی العلاقات الدولیة أیضاً، والتی غالباً ما یستثنی منها الأقویاء، دلیل بارز علی وجود المجتمعات الجاهلیة!».

والملفت للنظر أن الکثیر من الآیات الآنفة الذکر والتی صرّحت باختصاص حق التقنین والتشریع باللَّه تعالی موجودة فی سورة المائدة، والمعلوم لدینا أن سورة المائدة وکما هو معروف هی آخر سورة، أو من أواخر السور التی نزلت علی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله، إذ إنّ الکثیر من المسائل الإسلامیة الهامة ومنها المسائل المتعلقة بالحکومة التی تعدّ من أرکان الإسلام المهمّة وردت فی هذه السورة، وتمّ التأکید فی آیات عدّة من هذه السورة المبارکة، علی أن «الحکم» و «الأمر» و «تشریع القوانین» مختصٌ باللَّه تعالی، وهذه التأکیدات المتکررة فی هذه السورة ذات مغزی عمیق.

وتتحدث الآیة الثامنة عن الإیمان والتسلیم المطلق أمام حکم اللَّه ورسوله صلی الله علیه و آله إذ تقول:

«إِنَّما کَانَ قَولَ الْمُؤْمِنِینَ إِذَا دُعُوا إِلَی اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِیَحْکُمَ بَیْنَهُمْ أن یَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولئِکَ هُمُ المُفلِحُونَ».

---

(۱) تفسیر روح البیان، ج ۲، ص ۴۱۰.

(۲) فی ظلال القرآن، ج ۲، ص ۷۵۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۶

ویتضح لنا من سبب النزول الوارد فی بعض التفاسیر للآیات التی تأتی بعدها- وهو أنّ جماعة من المنافقین لما شعروا بضعف موقفهم جاءوا إلی الرسول صلی الله علیه و آله وأقسموا علی تسلیمهم لأوامر النّبی صلی الله علیه و آله- ومن الواضح أنّ الآیة أعلاه تتحدث عن المجموعة المقابلة لهذه المجموعة، أی المؤمنین، وتقول: إنّ التسلیم المطلق لابدّ أن یکون أمام قوانین اللَّه تعالی، ولا عبرة بأی قانون غیره، وإنْ کان المراد بالآیة مسألة القضاء والفصل بین المنازعات فکذلک أنّها تدلل علی ما قصدناه، لإنّه وکما سبق وأن قلنا: إنّ مسألة التحکیم تقوم علی أساس القانون أیضاً، وبناءً علی ذلک فإنّ التسلیم لقضاء اللَّه تعالی ورسوله صلی الله علیه و آله یعنی التسلیم، التسلیم أمام القانون الإلهی، ولهذا نجد أنّ القضاة دائماً عندما یصدرون أحکامهم، یستندون فی ذلک إلی مادة واحدة أو أکثر من المواد القانونیة، یعنی التسلیم، فعلی المؤمنین الإستناد إلی مواد القانون الإلهی فقط.

وقد وردت الآیة التاسعة بعد أوامر إلهیّة عشرة جاءت قبلها (بخصوص الشرک، والإحسان إلی الوالدین، والکف عن قتل الاولاد-

وبشكل عام- إهراق الدماء البريئة، والأعمال القبيحة الاخرى) إذ يقول تعالى فى نهاية هذه الطائفة من الأحكام: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَ لَاتَتَبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ».

ومن هذا التعبير يتضح لنا جيداً أنّ «الصراط المستقيم» يعنى حكم اللَّه تعالى وقانونه وأوامره، وكل ما هو دونه يعدّ من الطرق المعوجّة والمنحرفة والتى تبعد الناس عن صراط اللَّه المستقيم، ويستفاد من هذا التعبير أيضاً، أن اتباع الطرق الاخرى تؤدى إلى بث التفرقة والتشتت والاختلاف، والدليل على ذلك واضح أيضاً، لأنّ رأى النّاس وحتى العلماء الكبار فى تشخيص منافع ومفاسد الأعمال يختلف اختلافاً كبيراً عن بعضهم البعض، ومتى ما احيلت مسألة تشريع القوانين إلى النّاس، فإنّ الاختلاف والتشتت سوف يحكمان

المجتمعات الإنسانية على الدوام.

ينقل «ابن مسعود» فى حديثٍ عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، أنّ النّبى صلى الله عليه و آله خطَّ خطاً مستقيماً، ثم قال «۱»: «هذا سبيل الرشد، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال: هذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه؟ ثم تلا هذه الآية «وأنّ هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه».

وفى الآية العاشرة والأخيرة، وبالرغم من عدم تصريحها بإختصاص سنّ القوانين باللَّه تعالى، إلّاأنّها تنطوى على تعبير معين يستفاد منه بشكل جيد عدم وجود أى مصدر للتشريع غير اللَّه تعالى، إذ تقول الآية المباركة: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً».

ونعلم أن «الدين» بمعناه الحقيقى يشمل جميع شؤون الحياة البشرية، وبالنظر إلى أنّ الإسلام هو خاتم الأديان السماوية، وسيبقى قائماً حتى قيام الساعة، فإنّ مفهوم هذه الآية يعنى أنّ جميع ما يحتاجه الإنسان من حيث القوانين قد أخذه الإسلام بنظر الاعتبار حتى قيام الساعة، وبناءً على ذلك لا يبقى أىّ مجال لقوانين أخرى.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض هذه القوانين خاصّة وجزئية، والبعض الآخر عامّة وكليّة، وواجب علماء الدين والمشرّعين الإسلاميين، القيام بتطبيق تلك الكليات على مصاديقها، واستنباط القوانين والضوابط اللازمة منها.

وقد تمّ التأكيد مراراً على هذا المعنى فى الروايات الإسلامية أيضاً، وللإمام على عليه السلام خطبة مؤثرة ومفصلة فى ذمّ الذين يسمحون لأنفسهم بتشريع القوانين فى المحيط الإسلامى معتبرين ذلك اجتهاداً، إذ يقول عليه السلام فى جانب من هذه الخطبة: «أَمْ أَنْزَلَ اللَّهُ سُبحَانَهُ دِيناً

---

(۱) تفسير الكبير، ج ۱۴، ص ۳.

نَاقِصاً فَاسْتَعَانَ بِهِم عَلَى إِتمَامِهِ، أَمْ كَانُوا شُرَكَاءَ لَهُ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا وَعَلَيهِ أَنْ يَرْضَى «۱».

وهناك روايات متعددة تصرّح بأنّ كل ما تحتاجه الامّة الإسلامية إلى يوم القيامة مأخوذ بنظر الاعتبار فى القوانين الإسلامية، حتى دية خدش بسيط فى بدن الغير، على أنّه يجب أخذ هذه الأحكام من أهلها، وهذه تبيّن وبشكل واضح أنّ التشريع فى الإسلام مختصّ باللَّه تعالى، ولا مجال لتشريع الآخرين، وبناءً على ذلك فإنّ ما يحصل فى المجالس التشريعية الإسلامية، هى عملية تطبيق القواعد العامة لقوانين الإسلام على مصاديقها وموارداها.

ونقرأ فى حديث ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «إنّ اللَّهَ تَبارَكَ وَتَعالى لَمْ يَدَعْ شَيْئاً تحتاج إليه الامَّةُ إلّاأنْزَلَهُ فى كِتابِهِ وبَيَّنَهُ لِرَسُولِهِ» «۲».

ونقرأ فى حديث آخر ورد عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّه قال: «ما مِنْ شَىء إلّا وَفيهِ كتابٌ وَسُنَّة» «۳».

وورد فی روایات أخری أنّ جمیع الأحکام والقوانین اللازمة، شُرّعت لِلُامّة الإسلامیة، ومنها ماورد فی حدیثٍ عن الإمام الصّادق علیه السلام أنّه قال: «ما تَرَکَ عَلِیّ شَیْئاً إلّاکَتَبهُ حتی أرشِ الْخَدْشِ» «۴». ولمزید الإطّلاع علی کثرة وسعه الأحادیث الواردة فی هذا المجال یراجع المجلّد الأوّل الباب ۴ من کتاب جامع أحادیث الشیعة.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۱۸.

(۲) أصول الکافی، ج ۱، ص ۵۹، ح ۲.

(۳) المصدر السابق، ح ۴.

(۴) جامع أحادیث الشیعة، ج ۱، باب ۴ من أبواب المقدمات، ح ۲۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۷۹

هل یمتلک الرسول صلی الله علیه و آله والمعصومون حق التشریع؟

إنّ مسألة الولایة علی التشریع، أو بتعبیر أبسط، حق التشریع بالنسبة للرسول صلی الله علیه و آله والأئمّة المعصومین علیهم السلام من المسائل المعقدة جدّاً، إذ تناولت الأحادیث الإسلامیة هذه المسألة مراراً وتکراراً.

فهل یمتلک الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله الحق فی أن یضع مایراه من المصلحة علی شکل قانون للمسلمین حتی مع عدم نزول الوحی الإلهی بشأن تلک المسألة؟

لا شک فی أنّ هذا الأمر لیس محالًا، بشرط أن یمنحه اللَّه تعالی مثل هذا الحق (أی حق التشریع)، ومفاد الکلام هنا هل وقع مثل هذا الأمر، وهل تشهد الأدلّة النقلیة علی ذلک أم لا؟

لدینا الکثیر من الروایات (بعضها صحیحة السند والبعض الآخر ضعیفة) إذ تقول: إنّ اللَّه تبارک وتعالی قد «فوض الأمر» إلی الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والأوصیاء من بعده (والمراد من مسألة «تفویض الأمر» هنا حق التشریع).

وقد جمع المرحوم الکلینی الروایات المتعلقة بموضوع «التفویض» فی الجزء الأول من أصول الکافی، وصنّفها فی باب واحد، إذ ینقل فی هذا الباب عشرة أحادیث فی هذا المجال، ومن جملة هذه الأحادیث نقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الباقر والإمام الصادق علیهما السلام حیث قالا: «إنّ اللَّه تَبارَکَ وَتَعالی فَوَّضَ إلی نَبیّهِ أَمرَ خَلْقِهِ لِیَنظُر کَیفَ طاعَتُهم، ثمَّ تَلی هذِهِ الآیة: وما آتاکُمُ الرَّسولُ فَخُذُوهُ وَما نهاکُمْ عنه فانتهوا» «۱».

---

(۱) أصول الکافی، ج ۱، ص ۲۶۷، ح ۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۰

ونقرأ فی‌حدیث آخر عن الإمام الصّادق علیه السلام:

(إنّ اللَّهَ عَزَّوَجَلّ أدَّبَ نَبیَّه عَلی مَحَبتهِ فقال: وإنَّک لَعَلی خُلُقٍ عَظیم، ثمَّ فَوّضَ إلیه فقالَ عَزَّوَجَل: وَما آتاکُم الرَّسولُ فَخذُوهُ وَما نَهاکُمْ عَنهُ فانْتهوا، وَقَالَ عَزَّوَجَلْ: مَنْ یُطعِ الرَّسولَ فَقَدْ أطاعَ اللَّهَ ...» «۱». فإذن، القرائن الموجودة فی العبارات الواردة فی هذا الحدیث توضّح بشکل جلی ما المراد من التفویض.

وقد جاء فی بعض هذه الروایات أنّه بعد هذا التفویض الإلهی، مارس الرسول صلی الله علیه و آله أمر التشریع وشرع بعض القوانین، منها: أن اللَّه تبارک وتعالی جعل الصلاة رکعتین وأضاف الرسول صلی الله علیه و آله رکعتین أخریین علیهما (فی صلوات الظهر والعصر والعشاء)، ورکعة واحدة فی المغرب، وتشریع الرسول صلی الله علیه و آله هذا ملازم للفریضة الإلهیّة والعمل به واجب، کما

أضاف صلى الله عليه و آله على ذلك (۳۴ ركعة أخرى (أى ضعف الفرائض) بعنوان صلاة النوافل، وأوجب اللَّه تعالى صيام شهر رمضان المبارك، وقال الرسول صلى الله عليه و آله باستحباب صيام شهر شعبان وثلاثة أيام من كل شهر ... «۲».

ويلاحظ فى أحاديث أخرى واردة فى أمر تفويض التشريع إلى الرّسول صلى الله عليه و آله، نماذج أخرى من تشريعات الرسول صلى الله عليه و آله «۳».

وفيما يتعلق بالمراد من «تفويض الأمر» هناك عدة احتمالات بخصوص هذه المسألة، منها:

۱- تفويض أمر التشريع للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله كلياً.

۲- تشريع جزئى فى الموارد المحدودة، وفيها أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله قام بتشريع بعض الأحكام قبل نزول الأحكام الإلهيّة أو بعدها، وأمضاها اللَّه تعالى.

۳- تفويض أمر الحكومة والتدبير والسياسة وتربية النفوس والمحافظة على النظام.

۴- تفويض أمر العطاء والمنع (فيعطى من بيت المال لمن يرى فيه الصلاح، ويمنع من لا

---

(۱) أصول الكافى، ج ۱، ص ۲۶۵، ح ۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۶۶، ح ۴.

(۳) للمزيد من التوضيح ودراسة جميع روايات التفويض عليكم بمراجعة كتاب أنوار الفقاهة، ج ۱، ص ۵۵۲.

يرى فيه الصلاح).

۵- التفويض فى بيان حقائق أسرار الأحكام، أى يبيّن للناس كل ما يرى فيه المصلحة من الأسرار والأحكام، ولا يفصح عمّا لا يرى فيه المصلحة.

والمعنى الثانى هو المستفاد من مجموع الروايات الواردة فى باب التفويض، وهو أنّ الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله قام بالتشريع فى موارد محدودة بإذن اللَّه تعالى (ولعلها لم تتجاوز حدود العشرة موارد)، وأنّ اللَّه تعالى قد أمضى هذا الأمر، وبعبارة أخرى، أنّ اللَّه تعالى قد أعطاه هذه الصلاحية فى قيامه بالتشريع فى بعض الموارد، ومن ثم أمضاها اللَّه تعالى.

ويستفاد أيضاً من هذه الروايات وبشكل جيد، أنّ اللَّه تبارك وتعالى، قد أعطاه هذا المقام لعدّة أسباب:

أولًا: لكى يبيّن عظمة مقامه ومنزلته وبأن تشريعاته من سنخ تشريعات اللَّه تعالى.

والثانى: لكى يمتحن الناس ويرى مدى تسليمهم لأوامر النّبىّ صلى الله عليه و آله.

والثالث: إنّ اللَّه تعالى قد أيّده بروح القدس، وأطلعه من خلال ذلك على أسرار الأحكام الإلهيّة.

ومن خلال ماذكرنا، تتضح لنا عدّة أمور:

۱- يُستفاد من مجموع روايات التفويض، أنّ اللَّه تبارك وتعالى أعطى رسول الإسلام صلى الله عليه و آله الولاية على التشريع إجمالًا، لكى يمتحن طاعة الخلق من جهة، ولتعظيم المقام الرفيع للرسول صلى الله عليه و آله وبيان منزلته عند اللَّه‌تعالى من جهة أخرى.

۲- إنّ هذا التفويض لا يتمتع بصفة الكلية والشمول، بل يتحقق فى موارد محدودة ومعدودة، ولهذا السبب كان الرسول صلى الله عليه و آله ينتظر نزول الوحى فى الأمور المهمّة الّتى كان المسلمون يسألونه عنها غالباً، وهذا دليل على عدم شمول التفويض، وإلّا لما دعت الضرورة إلى أن ينتظر الرسول صلى الله عليه و آله نزول الوحى، بل كان بمقدوره أن يشرّع أى قانون يراه، (فتأمل).

۳- هذا المقام الرفيع أُعطىَ له صلى الله عليه و آله بإذن اللَّه تعالى، وإضافة لذلك فإنّ بعض القوانين الّتى شرعها الرسول صلى الله عليه و آله، أمضاها اللَّه سبحانه وأقرها، وبناءً على ذلك فلا دليل على تعدد الشارع

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۲

والمشرّع إطلاقاً، بل إنّ تشريع النّبى صلى الله عليه و آله يُعدّ أيضاً فرعاً من تشريع اللّه تعالى.

۴- هـذا المقام الرفيع والسامى تحقق للنّبىّ صـلى الله عليه و آله بعـد النّبوّة وبعد أن صار مؤيّداً بروح القدس، وكان معصوماً، ولم يطرأ على فعله أى خطأ أو زلل، وبناءً على ذلك فالذين لا يتمتعون بهذه الشروط لن تتحقق لهم مثل هذه المنزلة الرفيعة.

۵- بالرغم من أنّ الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام كانوا مؤيـدين بروح القـدس، ولم يصدر عنهم أى خطأ أو انحراف إطلاقاً، إلّاأنّهم لم يصـدروا تشـريعاً جديـداً، لإنّه بعـد إكمال الدين وإتمام النعمة الإلهية، فإنّ جميع الأحكام الّتى تحتاجها الأمة إلى يوم القيامة وطبقاً للروايات الكثيرة الّتى قـد تصل إلى حـد التواتر، قـد تمَّ تشـريعها ولم يبق مجال لأىتشـريع جديـد، وبناءً على ذلك فإنّ واجب الأئمّة المعصومين عليهم السـلام إقتصـر على توضـيح وتبيين الأحكام الّتى وصـلت إليهم عن الرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله سواء بدون واسطة أو بالواسطة.

سؤال:

هـل من الممكن أن يُقـال أنّه يُستفاد من بعض الروايـات، أنّ أمير المومنين عليه السـلام فرض الزكـاة على الخيل فكان ذلك تشـريعاً جديداً حيث وردت رواية بأنّ الإمامين الباقر والصّادق عليهما السـلام قالا: «وَضَعَ أميرُ المؤمِنين عَلى الخَيل العِتاقِ الرّاعية فى كُلِّ فَرسٍ فى كلِّ عام دِينارَيْن وَعَلى البَراذِين دِيناراً» «۱».

وجاء أيضاً فى رواية على بن مهزيار أنّ الإمام الجواد عليه السـلام عندما جاء إلى بغداد فى عام ۲۲۰ ه، فرض خُمساً آخر غير الخُمس الواجب المتعارف عليه فى قسم عظيم من الأموال، ولمرّة واحدة فقط «۲».

وكلاـ الحـديثين معتبران من حيث السـند، وبنـاءً على ذلـك لابـدّ من القول: إنّ الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام كـانوا يمتلكون حق التشريع أيضاً.

---

(۱) الخلاف، ج ۲، ص ۵۵.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۶، أبواب ما يجب فيه الخمس، الباب ۸، ح ۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۳

الجواب:

إنّ الأحكام الكليّـة فى التشـريع تختلف عن الأحكام التنفيذية للحاكم، فالأحكام الكليّة هى نفس القوانين الثابتة والمسـتمرة التى تبقى قائمـة فى كـل عصـر ومكـان إلى يوم القيامـة، إلّا أنّ الأحكام الصادرة عن الحاكم الشـرعى هى الّتى تصـدر بسـبب الأمور الضـرورية وأمثالها وبشـكل مؤقت (مثل حكم تحريم التنباكو الذى صدر فى فترة محدّدة لغرض محاربة الاسـتعمار الاقتصادى الإنجليزى من قبل مرجع كبير ثم رفع بعد انتهاء الخطر).

ويسـتفاد من القرائن الواردة فى رواية الإمام الجواد عليه السـلام وبشـكل واضح، أنّه عليه السلام لما جاء إلى بغداد كان الشيعة يعانون الفاقـة والضـنك، وقـد أقرّ الإمام تعدد الخمس فى تلك السـنة لغرض حل هذه المشـكلة بشـكل خاص، والواقع أنّه عليه السـلام طبّق أحكام العناوين الثانوية والضرورية على إحدى مصاديقها، بدون أن يمثل ذلك تشريعاً جديداً.

ويمكن أن يكون حكم الزكـاة الوارد فى روايـة الإمـام أمير المؤمنين عليه السـلام من هـذا النوع أيضاً، ولـذا فإنّ هـذا الحكم محـدود بذلك الزمان فقط، ولم ينظر إليه الفقهاء كتشريع عام ولم يصدروا فتاواهم طبقاً لتلك الفتوى، (فتأمل).

۶- ممّا ورد فى البند الخامس يتضح لنا أنّ غير الأئمّة المعصومين عليهم السلام لا أحد يملك حق تشريع القوانين الكلية الإلهيّة بطريق أولى لأنّه باختتام النبوة وارتحال النّبىّ صـلى الله عليه و آله وإكمال الـدين وإتمام النعمة، لم يبق مجال لتشـريع الآخرين من جهة، وأنّ

جميع الأحكام الإلهيّة الكليـة الّتى يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامـة تمّ تبيينها طبقاً للكثير من الآيات القرآنيـة والروايات الواردة بذلك الشأن، ومن جهـة أخرى فإنّ غيرهم من الناس ليسوا معصومين وغير مؤيـدين بروح القـدس لكى يثبت لهم مثل هذا الحق، خاصة وقد اعتبرت الروايات السابقة هذا المعنى شرطاً للحاكمية على التشريع.

۷- لابـدّ من الإلتفـات إلى أن البعض من روايـات التفويض، لم تنظر إلى مسألـة تشـريع الأحكـام، بـل تنـاولت تسـليمهم أمر الحكومة والولاية، أو تسليمهم بيت المال.

۸- تعتقد طائفة من علماء السنة بتفويض تشريع الأحكام إلى الفقهاء فى ما لا نصّ فيه،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۴

وتوضيح ذلك: يقسّم علماء السّنة المسائل إلى قسمين: مافيه نص (فى القرآن والسنة) وما لا نصّ فيه.

وفيما يتعلق بالقسم الأول يعتقدون جميعاً بوجوب العمل بالأوامر والنصوص، وفى القسم الثانى يعتقد الكثير منهم بوجوب الذهاب إلى القياس أولًا، بمعنى قياس تلك المسألـة التى لم يرد فيها نص مع المسائل التى ورد فيها حكم معين، والإفتاء بحكم شبيه بذلك الحكم لتلك المسألة، وبغير ذلك فإنّ علماء الدين مكلفون بدراسة مصلحة ومفسدة ذلك الأمر، ثم وضع حكم مناسب حسب ما هو أفضـل وأقوى برأيهم، ويجب على أتباعهم القبول بذلك الحكم، والعمل به كحكم إلهى.

وهـذا مـا يصـطلحون عليه أحيانـاً ب «الإجتهـاد» (طبعـاً الإجتهـاد بمعنـاه الخـاص، وليس الإجتهـاد بمعنى اسـتنباط الأحكـام من الأدلة الشـرعيّة)، وأحياناً يصـطلحون عليه بكلمة «التصويب»، ويقولون إنّ ما يضـعه الفقيه فى هذه الموارد على شـكل قانون يحظى بتصويب اللّه تعالى! ولو وضع فقهاء مختلفون أحكاماً متعددة ومختلفة، فإنّها جميعاً تحظى بالقبول بعنوان حكم إلهى!

وبهذا الشكل فإنّهم يعطون للفقهاء حقّ فى التشريع فى الموارد التى لم يرد بشأنها نصّ أو دليل خاص.

إلّا أنّ فقهاء الشـيعة السائرون على مـذهب أهل البيت عليهم السـلام يخالفون هـذا الكلام جملةً وتفصـيلًا، ويقولون: إنّ جميع الأحكام التى يحتاجها الإنسان إلى يوم القيامة وردت فى الشـريعة الإسـلامية ولم يبق شـىء لم يُذكر له حكم لكى يقوم أحدٌ بتشـريع قانونٍ ما، ولكن البعض من هـذه الأحكام وردت بشـكل صـريح فى القرآن الكريم أو السـنة النبويـة الشـريفة، أو سـنّة الأئمّـة المعصومين عليهم السـلام، والبعض منها ورد بشكل القواعد الكلية والأصول العامّة، أو بعبارة أخرى إنّ فى «العمومات» و «الإطلاقات» أدلة أولية وثانوية، بحيث إنّ لكل موضوع من المواضيع، هناك حكم ثابت له، سواء كان هذا الحكم حكماً واقعياً تارةً أو حكماً ظاهرياً تارةً أخرى.

وبناءً على ذلك لا وجود لشىء بإسم الإجتهاد (بالمعنى الخاص) أو القياس أو ما لا نص

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۵

فيه فمسؤولية الفقهاء تقتصر على تطبيق الأحكام الكليّة على مصاديقها فقط.

ويتضح لنا ممّا تقدم ذكره أن «التشريع» فى المجالس التشريعية لا يعنى فى عُرف مذهب أهل البيت عليهم السلام وضع أحكام جديدة بشـأن المسائـل الـتى يواجههـا الإنسـان، بـل المراد به تطبيق الأصول على الفروع أو تشـخيص الموضوعـات المختلفـة بمعنى التشـريع الموضوعى.

وخلاصة القول: إنّ مجالس التشـريع فى مذهب الشـيعة، ليست بمعنى وضع الأحكام الكليّة ازاء أحكام الإسلام، أو بدل ما لا نصّ فيه، والمسألـة هىمن قبيـل تطـبيق الأحكـام، أو التشـريع الموضـوعى، ولهـذا السـبب وُضـع «مجلس صـيانة الدسـتور» إلى جـانب المجلس التشريعى، لكى يُشرف عليه جمعٌ من الفقهاء ويتأكدوا من أنّ القوانين الموضوعة غير مخالفة لأحكام الإسلام.

وحتى مجلس «تشخيص المصلحة» الذى أُقرّ مؤخراً فى الدستور، هو الآخر مسؤول عن تشخيص الموضوع أيضاً، وليس جعل القانون.

وبعبارة أوضح: إنّ أحد العناوين الثانوية هو عنوان الأهم والمهم، يعنى متى ما تعارضت مسألتان شـرعيتان مع بعضـهما، كما هو الحال مثلًا فى المحافظـة على أموال الناس وعـدم التصـرّف بها إلّابإذن صاحبها مع مسألـة الحاجـة الملحّة لفتح شارع فى المدينة أو طريق فى

الصحراء، فمن جهة تعتبر مسألة المحافظة على النظام فى المجتمع الإسلامى واجبة، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلّامابشق الطرق الضروريّة، ومن جهة أخرى فإنّ المحافظة على أموال النّاس أمرٌ واجب، ففى هذه الحالات يجب تقديم الأهم على المهم، وأن تُمنح الإجازة بفتح هذه الطرق، مع دفع الأضرار والخسائر الناجمة عن ذلك إلى مالكى تلك الأراضى.

وكذلك الحال فيما يتعلق بمسألة وضع الأسعار على المواد المختلفة، فالقانون الإسلامى أساساً، يقول بحرية الأسعار والتسعيرة، ولكن فى الحالات التى تصبح فيها هذه الحرية سبباً لاستغلال الانتهازيين والجشعين الذين يجعلون المجتمع فى وضع حرج بحيث تتوقف معها مسألة المحافظة على النظام الاقتصادى فى المجتمع على تحديد

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۶

الأسعار، فممّا لا شك فيه أنّ مسألة المحافظة على النظام مرجّحة، ومن الممكن هنا القيام بإصدار قانون لتحديد الأسعار، وتكليف الحكومة الإسلامية بتنفيذه.

وعلى مجلس تشخيص المصلحة فى هذه الموارد، اختيار الأهم من خلال دراسته الدقيقة للأمر، لكى تقوم الحكومة الإسلامية بتنفيذ القانون، بالضبط كما هو معروف أنّ المحافظة على النّفس واجبة وأكل اللحم الحرام ممنوع، ولكن فى موارد خاصّة عندما ينحصر فيها حفظ النفس على الاستفادة من اللحم الحرام فقط، نسمح بذلك ونعتبره أمراً مجازاً، وذلك لأنّ أهميّة حفظ النسل أكبر وأهم من ذلك.

وبناءً على هذا المفهوم فإنّ (مجلس تشخيص المصلحة) يختلف كثيراً عن الإجتهاد والإستحسان والمصالح المرسلة الشائعة بين علماء السنّة، إذ يدور الأمر هنا بين تعارض وتضاد حكمين، فتصبح مسألة تشخيص المصلحة هى الأهم، فى حين أنّ الذى يحصل هناك عبارة عن وضع حكم معين لموضوعٍ يعتقد بعدم وجود حكم معيّن له، (فتأمل).

ومن مجموع ما ذكرنا نستنتج أنّ المجلس التشريعى يعد أحد أركان الحكومة الإسلامية، ذلك أنّه فى كل زمان ومكان وفى كل مرحلة معينة تبرز مجموعة من المتطلبات والمسائل المستحدثة التى تستوجب تحديد القانون الخاص بها بشكل دقيق، ولكن التشريع هنا يعنى التخطيط وتطبيق الأصول على الفروع، واستخراج الفروع من القوانين الكلية وتشخيص المواضيع بشكل دقيق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۷

مجلس الشورى وانتخاب النوّاب

اشارة

يجب علينا هنا أن نبحث أولًا مسألة أهميّة الشورى فى الإسلام، ومواردها، وصفات الذين ينبغى أن نستشيرهم.

أهميّة وضرورة المشورة:

تُعدّ مسألة المشاورة وخاصة فىالأمور الاجتماعية وما يتعلق بمستقبل المجتمع من أهمّ المسائل التى عرضها الإسلام بدقّة وأهميّة خاصة، ولها مكانة متميزة فى آيات القرآن الكريم والروايات الإسلامية وتاريخ أئمّة الإسلام العظام.

وقد جاء الأمر بالمشورة فى عدّة آيات من القرآن الكريم.

ففى سورة آل عمران أمر اللَّه تعالى رسوله الكريم صلى الله عليه و آله، بأن يشاور المسلمين فى الأمور المهمّة وهو قوله تعالى:

«وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ». (آل عمران/ ۱۰۹)

وفى سورة الشورى، وعند بيان الأوصاف المتميزة للمؤمنين حقاً يقول تعالى: «وَالَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِم وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ». (الشورى/ ۳۸)

وكما تلاحظون فى هذه الآية، أنّ مسألة الشورى هى بمستوى الإيمان باللَّه تعالى والصلاة، إذ يبيّن ذلك أهميّتها الاستثنائية.

ويُقال أحياناً إنّ السبب فى صدور الأمر إلى الرسول صلى الله عليه و آله بمشاورة النّاس كان لغرض احترام المسلمين وإشراكهم فى المسائل الاجتماعية فقط، ذلك أنّ الذى يعزم على الأمور فى نهاية المطاف هو شخص الرسول صلى الله عليه و آله وليس الشورى، وهذا هو قوله تعالى فى نهاية الآية الكريمة: «فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». (آل عمران/ ۱۵۹)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۸

ولكن من المسلّم به أنّ المراد من الآية الكريمة لاسيما نهايتها ليس المقصود به أن يقوم الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله بمشاورة النّاس ومن ثم لا يأخذ بوجهات نظرهم وآرائهم، ويختار طريقاً آخر، فمثل هذا الأسلوب لا ينسجم، من جهة، مع الهدف الذى تقصده الآية (لأنّه سيصبح سبباً لعدم احترام الرأى العام، ويؤدّى بالتالى إلى انزعاج المسلمين وترتُّب نتائج عكسية)، ولا ينسجم من جهة أخرى مع تاريخ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أيضاً، لأنّه صلى الله عليه و آله عندما كان يشاور النّاس فى الحوادث والملمات المهمّة، فإنّه كان يحترم آراء النّاس، حتى أنّه كان يتجاهل أحياناً وجهة نظره الكريمة، بهدف تقوية ودعم مبدأ المشاورة بينهم.

وتجدر الإشارة إلى أنّ آية المشاورة ونظراً للآيات الورادة قبلها وبعدها، يُراد بها غزوة «احُد»، ونعلم أنّه فى غزوة أحُد، لم يكن الرسول صلى الله عليه و آله موافقاً على الخروج بالجيش من المدينة، ولكن بما أنّ أكثرية آراء المسلمين استقرت على هذا الأمر، فقد وافق صلى الله عليه و آله على الخروج «۱».

وعلى فرض أنّ هذه الآية تعطى هذه المزية للرسول صلى الله عليه و آله بأن تكون مشاورته للناس ذات جنبة تشريفية، إلّاأنّ الآية الواردة فى «سورة الشورى» والتى توضح القانون العام للمسلمين بشكل واضح وجلى، تؤكد على أنّ الأمور المهمّة يجب أن تُنجز من خلال الشورى بين المسلمين، وأنّ الشورى تلعب دوراً مصيرياً.

ومن البديهى أنّ العمل بالشورى يكون فى المسائل التى لم ينزل بها حكم خاص من قبل اللَّه تعالى، وعندما نقول: إنّ الشورى فى مسألة خلافة الرسول صلى الله عليه و آله لا اعتبار لها، بسبب وجود أمر خاص من قبل اللَّه تعالى فى هذا المجال، ومع تعيين الوصى وخليفة الرسول صلى الله عليه و آله عن طريق الوحى ومن خلال شخص رسول الإسلام صلى الله عليه و آله، لم يبق مجالٌ للشورى بعد ذلك.

وبعبارة أخرى، إنّ الشورى يُعمل بها دائماً فى المواضيع، وليس فى الأحكام التى صدر حكمها من قبل اللَّه تعالى.

وعلى أيّة حال فإنّ مسألة الشورى التى ذكرت فى الإطار المبين أعلاه، تُعدّ ركناً ومبدأً

---

(۱) كتاب سيد المرسلين، ج ۲، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۸۹

أساسياً فى الإسلام، إذ إنّ التعبير بكلمة «أمر» إشارة إلى الأمور المهمّة، وخاصة المسائل التى يحتاجها المجتمع، ويحمل هذا المصطلح مفهوماً واسعاً لدرجةٍ يشمل معها جميع الأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية والثقافية المهمّة.

وقد صدر الأمر بالشورى فى القرآن الكريم كذلك فى الأمور المهمّة المتعلقة بنظام الأسرة (المجتمع المصغر، ومن ذلك فطام الطفل قبل بلوغ الحولين الكاملين إذ يشير إلى مبدأ الشورى، وهو قوله تعالى: «فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُما وَتَشاوُرٍ فَلَا جُناحَ عَلَيهِمَا». (البقرة/ ۲۳۳)

وهذا دليل على الأهميّة البالغة للشورى فى الأمور.

أهميّة الشورى فى الأحاديث الإسلامية:

لقد ذكرت أهميّة استثنائية للشورى فى الأحاديث الإسلامية، سواءً تلك التى نقلت عن شخص الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله، أو عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، لدرجةٍ اعتُبرت معها مسألة الشورى فى الحديث النبوى الشريف إحدى أسباب إحياء المجتمع، وتركها يُشكل إحدى أسباب موت المجتمع إذ قال صلى الله عليه و آله:

«إذا كانَ امَراؤُكُمْ خِيارَكُمْ وَاغْنِياؤُكُمْ سُمَحاؤَكُمْ وَأمْرُكُمْ شُورى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأرْضِ خَيرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِها، وَإذا كانَ امَراؤُكُمْ شِرارَكُمْ وَأغْنياؤُكُمْ بُخَلاؤُكُمْ وَلَمْ يَكُنْ أمْرُكُمْ شُورى بَيْنَكُمْ فَبَطْنُ الأرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِها» «۱».

وبلغت أهميّة الشورى إلى درجة أن قال عنها الإمام على عليه السلام:

«الإسْتِشارَةُ عَيْنُ الْهِدايَةِ، وَقَدْ خاطَرَ مَنْ اسْتَغنى بِرَأيِهِ» «۲».

ونقرأ فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أيضاً أنّه قال:

---

(۱) تحف العقول، باب الأحاديث القصيرة للنّبى صلى الله عليه و آله، ح ۱۳.

(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۴۲، ح ۱۰.

«لا يَسْتغنِى الْعاقِلُ عَنِ الْمُشاوَرَةِ» «۱».

والسببُ فى ذلك واضحٌ أيضاً، وجاء ذلك فى تعبير جميل ورد فى بعض الروايات عن الإمام على عليه السلام فى هذا المجال إذ قال:

«حَقّ عَلى العاقِلِ أنْ يُضيفَ إلى رَأيِهِ رَأىَ الْعُقَلاءِ وَيَضُمَّ إلى عِلْمِهِ عُلُومَ الَحُكَماءِ» «۲».

وجاءَ فى حديث آخر أيضاً عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«من شاورَ ذوى العقول استضاءَ بأنوار العقولِ» «۳».

وبناءً على ذلك، فالمشاورة هى السبب فى إضافة عقول الآخرين وعلومهم وتجاربهم إلى عقل المرء وعلمه وتجربته، إذ إنّ الإنسان فى هذه الحالة قليلًا ما يقع فى الخطأ والانحراف. والاحاديث الواردة فى هذا المجال كثيرة جدّاً، ونختتم هذا البحث المختصر بحديث آخر عن النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله، وحديث عن الإمام على عليه السلام.

قال النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«لا مظاهرةَ أوثقُ من المشاورةِ» «۴».

وقال الإمام على عليه السلام:

«شاور ذوى العقولِ تأمنْ من الزَّللِ والنَّدم» «۵».

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالإشارة إليها، إذ ليس من الضرورى أن يكون مستوى الذين نشاورهم أرفع درجةً من المشاورين أنفسهم، والدليل على ذلك مشاورة الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله لأصحابه، ولربما نجد أفراداً بسطاء يمتلكون من العقل والفطنة الفطرية ما يجعل مشاورتهم تحل الكثير من المعضلات، كما ورد ذلك فى حديث عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السلام، إنّه دار الحديث ذات مرّةٍ فى مجلسه عليه السلام عن أبيه المعصوم عليه السلام فقال: «إنَّ اللّه

---

(۱) غرر الحكم.

(۲) المصدر السابق.

(۳) المصدر السابق.

(۴) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۱۰۰.

(۵) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۱

تبارك وتعالى ربَّما فتح على لسانِهِ» «۱».

ونختتم الحديث حول أهميّة المشاورة بأبيات من الشعر الحسن لأحد الشعراء العرب إذ يقول:

أَقرِنْ برأيكَ رَأى غيركَ واسْتَشِرفالحقُّ لا يخفى على الإثنينِ

للمرءِ مِرآة تريهِ وجههُويرى قفاهُ بجمعِ مرآتيْنِ

أى أنّ المرآة الواحدة تريه جانباً منه، فإذا أراد أن يرى جوانب متعددة فعليه بمرآتين.

صفات المستشارين:

ممّا لا شك فيه أنّ الطرف الذى يشاوره الإنسان، وخاصة فى الأمور المهمّة والمسائل الاجتماعية الحساسة، لا يمكن أن يكون أى شخصٍ كان، بل يجب أن يمتلك صفات خاصة تجعله فرداً صالحاً للمشورة، ولهذا السبب نجد الروايات الإسلامية وصفت مجموعة من النّاس بأنّهم «أفراد جديرون بالمشاورة» ومجموعة أخرى بأنّهم «غير جديرين».

ويقول الإمام الصّادق عليه السلام فى حديث مروى عنه:

«إن المشورة لا تكونُ إلّابحدودها الأربعةِ ... فأولها أن يكون الذى تشاوِرُهُ عاقلًا، والثانى أن يكونَ حُرّاً متديناً، والثالثُ أن يكونَ صديقاً مؤاخياً، والرابع أنْ تطلعه على سرِّك فيكون علمُهُ به كعلمك ...» «۲».

ونطالع فى حديث آخر عن الإمام على عليه السلام أنّه قال:

«خيرُ ما شاورتَ ذووا النُّهى والعِلم واولوا التجاربِ والحزم» «۳».

وورد فى النقطة المقابلة لهذا المعنى، نهى شديد عن المشورة مع الأفراد «البخلاء» و «الجبناء» و «الحريصين» و «الحمقى»، إذ قال النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله للإمام على عليه السلام:

«يا على لا تشاور جباناً فإنّه يضيّقُ عليك المخرجَ، ولا تشاور البخيل فإنّه يقصِّرُ بك عن

---

(۱) ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۲۱۱.

(۲) ميزان الحكمة، ج ۵، ص ۳۱۸.

(۳) غرر الحكم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۲

غايتك، ولا تشاور حريصاً فإنّه يزيّن لك شَرَهاً» «۱».

كما ورد النّهى فى الروايات أيضاً عن مشاورة الأفراد الحمقى والجهلاء والكذّابين.

ويُستفاد ممّا تقدم أنّ المستشارين- وخاصة فى الأمور المهمّة- يجب أن يكونوا من الأذكياء، والعقلاء، والمحسنين، وذوى التجربة،

والصادقين، والأمناء، والشجعان والأسخياء، وإن فقدان أو زوال كل واحدة من هذه الصفات يوجب وهن وتخلخل أركان واسس المشاورة.

وعلى سبيل المثال، عندما يكون المستشار فرداً أحمقاً وجاهلًا، فإنّه سيقلب الحقائق للإنسان، وبالشكل الذى ورد ذكره فى الأحاديث، فإذا أراد أن يُحسن إليك فسوف ينقلب عليك شراً! ولو كان جباناً فإنّه سيحول دون الإقدام المناسب والحزم فى الأمور، فتذهب تلك الفرصة السانحة، ولو كان كذّاباً- وكما تعبّر الروايات عنه- يقرّب إليك البعيد، ويبعّد عنك القريب ويشبه فى ذلك السراب الذى يخدع العطاشى فى الصحراء، ولو كان بخيلًا يحول دون أعمال الخير ويخوّفك دائماً من الفقر وعسر الحال، ولو كان قليل التجارب أو عديمها، فإنّه سيؤدّى إلى العبث وإفشال البرامج والمناهج البنّاءة، ولو كان حريصاً فإنّه سيدعوك إلى ممارسة الظلم والعدوان لكى يطفىء بذلك نار الحرص «۲».

ومن خلال ما تقدم ذكره من الملاحظات يجب أن نتوخى الحذر الشديد فى اختيار من نستشيرهم، وخاصة فى المسائل الاجتماعية المهمّة التى تأخذ بنظر الاعتبار حقوق الآخرين، وأن تؤخذ المعايير الآنفة الذكر بنظر الاعتبار بشكل دقيق.

وهناك ملاحظة أخرى جديرة بالذكر أيضاً، إذ إنّ المشاورة فى الإسلام تؤدّى إلى إيجاد الحق بمعنى أنّ الشخص المستشار إمّا أن لا يقبل المشاورة، أو يقبلها ولكن بشرط أن يراعى حق أداء الأمانة فى ذلك، وأن يجعل بين يدى من استشاره ما يرى فيه الخير والصلاح، وبغير ذلك فإنّه يعد «خائناً»!، والخيانة فى المشاورة تعدّ من كبائر الذنوب.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۰، ص ۳۴.

(۲) إن جميع ما ذكر أعلاه تقريباً ورد فى الروايات المختلفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۳

ونقرأ فى حديث ورد عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله:

«إنّ استشاره أخوه المؤمن فلم يمحِّضه النصيحةَ سَلبَ اللَّهُ لُبَّهُ» «۱».

وورد فى حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «خيانة المستسلِم والمستشير من أفظع الأمور وأعظم الشرور وموجبُ عذابِ السعير!» «۲».

إنّ الحديث عن المشاورة وفروعها وما يتعلق بها واسعٌ جدّاً، وما ذكرناه يعدّ غيضاً من فيض وعصارة من هذه الأبحاث التى تساعد على فتح الطريق أمام الأبحاث اللاحقة.

ونختتم بحثنا هذا بمقطع جميل آخر من الشعر الذى يتناول صفات المستشارين:

لا تستشر غير ندبٍ حازمٍ فطنٍقد استوى منهُ اسرار واعلان

فللتدابير فرسان إذا ركظوافيها أبرّوا كما للحربِ فرسانُ «۳»

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۱۰۴.

(۲) غرر الحكم.

(۳) حياة الحيوان، الدميرى، ج ۱، ص ۱۷۳. نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۵

كيفية انطباق مجالس الشورى مع موازين المشورة الإسلامية

اشارة

هناك سؤال مهم يطرح نفسه وهو: إنّنا موافقون على أنّ مسألة الشورى والمشاورة تعدّ من أهمّ القوانين الإسلامية الأساسية، ولكن الطريقة المتبعة حالياً فى انتخاب مجموعة من الأفراد، الذين يجتمعون فى مجلسٍ معين مثل «مجلس الشورى الإسلامى»، وتتمّ إدارة جلساته طبقاً لقانون خاص بهذا المجلس، ويتناولون فيه القضايا المختلفة بالبحث والدراسة والمشاورة، ومن ثم يصوّتون على تلك الأمور بأكثرية الآراء، وتصبح تلك القرارات لازمة التنفيذ، فما هو الدليل الشرعى على صحة هذا الأسلوب فى الشورى؟!

وبعبارة أخرى: إنّ مثل هذه المراسيم والإجراءات المعمول بها فى المجالس التشريعية الفعلية، لم ترد فى أيّة آية أو رواية أو سند تأريخى، فكيف نثبت شرعيتها ولزوم الالتزام بلوازمها؟ فى الوقت الذى يشكّل فيه مجلس الشورى فى عصرنا هذا واحداً من الأركان الأساسية الثلاثة للحكومة الإسلامية، بلوائحه الداخلية وآدابه وتقاليده الخاصة به.

ويلاحظ هذا المعنى أيضاً فى إقرار اللوائح فى المستويات الأدنى، وعلى مستوى مجالس الوزراء والمسؤولين عن المسائل الاقتصادية والثقافية والسياسية والعسكرية.

وفى معرض الإجابة عن هذا السؤال المهم لابدّ أن نقول وباختصار: إنّ مجلس الشورى الحالى يمثل فى الواقع نفس «الصورة المتبلورة للمشورة» والتى وردت فى تعاليم الدين الإسلامى.

وتوضيح ذلك: إنّه من الأفضل فى المسائل الاجتماعية المتعلقة بالبلاد، التشاور مع

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۶

جميع النّاس وفى جميع أنحاء البلاد، ولكن بما أنّ مثل هذا الأسلوب غير ممكن عملياً، وفضلًا عن أنّ جميع النّاس لايملكون الخبرة اللازمة فى جميع المسائل، فلذلك لا يوجد أىّ حلّ آخر لهذه المسائل سوى أن يُصار إلى انتخاب النواب من قبل النّاس لكى يتشاوروا فيما بينهم، وما يختاره هؤلاء النواب- حيث يمثل حضورهم فى ذلك المجلس حضور جميع النّاس- ويصادقون عليه، يعدّ مصداقاً كاملًا وجامعاً للشورى الإسلامية الحقيقية.

وبما أنّ اتفاق جميع الآراء فى أغلب المسائل لا يتحقق عادةً، فلا يوجد حلّ لذلك إلّا من خلال رأى الأكثرية كمعيار ومقياس لذلك، والذى غالباً ما يكون أقرب إلى الواقع.

والأكثرية هنا طبعاً هى الأكثرية المتشكلة من الأفراد المؤمنين والواعين، سيّما وأنّ افتراضنا مبنىّ على أنّ النّاس وبحكم تكليفهم الدينى ينتخبون ممثليهم من الأفراد الذين يمتلكون الصفات اللازمة لهذا الأمر.

وبناءً على ذلك فإنّ ما يُقال إنّ القرآن الكريم يذم الأكثرية فى كثير من الموارد، لا يشمل الموضوع الذى نتحدث عنه قطعاً، إذ إنّ الأكثرية المقصودة فى قوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ». (المائدة/ ۱۰۳)

وقوله تعالى «أَكْثَرُهُمْ لَايَعْلَمُونَ». (الأنعام/ ۳۷)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ». (التوبة/ ۸)

وقوله تعالى: «أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ». (المؤمنون/ ۷۰)

وأمثالها ناظرة إلى الأكثرية فى المجتمعات المنحرفة والضالّة لا الأكثرية المؤمنة والعالمة والملتزمة.

إنّ هذه الضمائر وبقرينة ما جاء قبلها، تعود جميعاً إلى المشركين والجهلاء والمتعصبين وغير الملتزمين، إذ لم يصرح القرآن أبداً بأن: «أكثر المؤمنين أو أكثر المتقين لا يعلمون ولا يفقهون»، ولهذا السبب فإنّنا نقرأ فى علم الاصول فى باب «التعادل والتراجيح» عندما يدور الحديث حول الروايات المتعارضة: إنّ الشهرة بين الفقهاء هى إحدى المرجّحات، والمشهور هو نفس الاستناد إلى قول أكثرية الفقهاء، وقد ورد فى الحديث: «خُذْ بِما اشتَهَرَ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۷

بَينَ أصْحابِکَ وَدَعِ الشّاذَّ النادِرَ، فإنّ المُجْمع عَلَيه لا رَيبَ فِيه» «۱».

بـل ويسـتفاد من تاريـخ النبى الأـكرم صـلى الله عليه و آله أنّه كان يحترم رأى الأكثريـة من المسـلمين فى موارد المشاورة، بالرغم من كونه صلى الله عليه و آله يمثل العقل الكلى.

ويتضـح ذلك فى معركـة أُحُـد عندما شاور المسـلمين بخصوص مسألة البقاء داخل المدينة أو الخروج منها وخوض الحرب خارجها، فلمـا رأى إجماع أكثريـة المسـلمين على تأييـد النظريـة الثانيـة، قبلها وعمل بها، حتى إنّه صـلى الله عليه و آله لم يعتن برأيه الشخصـى المؤيد للأقلية.

فأعطى بذلك أكبر درسٍ فى تاريخ الإسـلام بشأن مسألة الشورى «۲». وكما هو معلوم لـدينا أنّ نتيجة هذا الأمر لم تكن إيجابية تماماً، ولكن بالرغم من ذلك فإنّ فوائد احترام الشورى كانت أكثر بكثير من الخسائر الفادحة لمعركة أُحُد! (فتأمل).

وحصل ما يشـبه هـذا الأمر أيضاً فى معركـة «الخندق»، فقد جاء فى (مغازى الواقدى) أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله كان يشاور أصـحابه كثيراً فى المسائل والامور العسـكرية والحربية، ومن ذلك أنّه قال صلى الله عليه و آله لأصحابه قبل وقوع معركة الخندق: هل نغادر المدينة ونقاتل جيش المشـركين، أم نبقى فى المدينة ونحفر خندقاً حول المدينة، أم نكون على مقربةٍ من المدينة ونجعل الجبل خلفنا؟! وعندها اختلف أصحاب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله حول هذه المسألة ...

فرأى جمعٌ من أصـحابه أن يخرج النبى صـلى الله عليه و آله خارج المدينة، ولكن سلمان قال: كنّا إذا داهمنا فرسان العدو وخشيناهم، نحفر الخنـدق حول المدينـة، فهل تجيزنا يا رسول اللّه أن نحفر خنـدقاً حول المدينة؟ فنالت وجهة نظر سـلمان قبول (أكثر) المسـلمين (ورجّحوا حفر الخندق وقبل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بهذا الرأى) «۳».

ونكرر القـول مرّة أخرى أنّه فى عمليـة الشـورى عنـدما تتعرض مجموعـة مـا للقيـام بمسألـة الشورى وخاصـة فى المسائـل الاجتمـاعية المهمّة- فقلّما يحصل الإجماع على رأى واحد، ولو أهملت الأكثرية ولم يؤخذ بها، لن ينجز أىّ عمل على الاطلاق.

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۷۵، الباب ۹ من أبواب صفات القاضى، ح ۱،

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۶۶.

(۳) مغازى الواقدى، ج ۱، ص ۴۴۴ (مع التلخيص).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۸

ومن اللازم أن نذكر الملاحظة التالية أيضاً، وهى أنّ مسألة الشورى والمشاورة، قبل أن يقرّها الدين الإسـلامى كانت متداولة بين سائر العقلاء فى العالم أيضاً، وقـد أقرها الدين الإسـلامى- مع إضافة بعض الشـروط المهمّة إليها- حيث إنّ الأمر بين سائر العقلاء فى العالم يستند إلى أنّ المعيار هو رأى الأكثرية، هذا فيما يتعلق برأى الأكثرية.

وأمّا اللوائـح المعمول بها فى المجالس التشـريعية لُاسـلوب إدارة تلك المجالس وكيفيـة أخـذ الآراء، فهى موضوعـة أيضاً على أساس تصويت ذلك المجلس وعن طريق تلك الشورى.

وبنـاءً على ذلك فإنّ مجالس التشـريع الإسـلامية، بجميع التشـريفات المتّبعـة فى أمر الانتخابات، والمنتخبين، وإدارة الجلسات، وكيفية مناقشة المسائل، وتقسيمها إلى مسائل فوريةوغير فورية، وأمثال ذلك، فإنّها تمثل نفس «الشكل المنظّم لقاعدة الشورى التى ينظر إليها الإسلام باعتبارها إحدى الثوابت الأساسية، إذ يمكن مطابقة جميع تلك الممارسات مع هذه القاعدة.

ومن البديهى أنّه متى ما انحرف أحد المجالس عن نظرية الشورى الإسـلامية من حيث مواصفات المشاورين أو الامور الاخرى ويُصار إلى انتخـاب أفرادٍ غير واعين أو غير ملتزمين، أو يتحول المحيـط الحر لابـداء الرأى إلى جوّ من الضـغوط، أو يتمّ اقرار شـىء مـا خلافاً

للقوانين الإسلامية والضوابط الدينية المسلّم بها، فإنّ هذا المجلس سوف لن يكون مجلساً اسلامياً للشورى ولن ندافع عنه اطلاقاً.

المسؤولية الرئيسية لمجلس التشريع الإسلامى:

إنّ تعبير «السلطة المقننة» أو «المجلس التشريعى»- المقتبس من الأجانب- يؤدّى أحياناً إلى أن يتداعى إلى الذهن بأنّ المراد به قيام ممثّلى الشعب فى هذا المجلس بوضع القوانين، أى قيامهم بتشريع الحلال والحرام، فى حين أنّ الأمر ليس كذلك، إذ كما أشرنا إلى ذلك فى بحوثنا السابقة أنّ العمل الرئيسى للممثلين فى هكذا مجلس هو تطبيق الأحكام

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۹۹

الكلية على المصاديق، والفهم الموضوعى للُامور، أى ينبغى عليهم الجلوس والتشاور لتحديد المواضيع المعقدة التى يحتاجها المجتمع، بهدف تطبيق الأحكام الإسلامية عليها.

وعلى سبيل المثال، يعدّ الدفاع عن دولة الإسلام ضد الغزو الاجنبى وقتالهم أمراً واجباً، كما أن عقد الصلح معهم فى ظروف خاصة يؤدّى إلى تعزيز وتقوية دعائم الإسلام وردّ كيدهم وشرّهم، إلّاأنّ تشخيص هذا المعنى وتحديده، وهو هل أنّ الحرب مثلًا فى الظروف الحالية، تؤدّى إلى دفع شرّهم، أم الصلح؟ هذا الأمر بحاجة إلى الفهم والخبرة الموضوعية، ويعقد المجلس فى هذه الحالة جلسة خاصة، ومن خلال دراسته للموضوع من كافة جوانبه، يختار مافيه الصلاح للُامّة.

وكذلك فيما يتعلق بكيفية إنفاق أموال بيت المال، وكيفية تنظيم الخزينة وتوزيعها بشكل عادل، لتصبح مصداقاً للعدل والمساواة، فإنّ المجلس يعقد اجتماعه الخاص لمناقشة هذا الموضوع، ويختار ما يراه المصداق الحقيقى للأصلح.

ومن الممكن طبعاً فى بعض الاحيان أن يُخطِىء المجلس فى محاولته لتطبيق الأحكام الإسلامية على مصاديقها، لأنّ أغلب النواب عادةً ليسوا من الفقهاء والمجتهدين، ولهذا السبب بالذات ولغرض الحد من الوقوع فى هذه الأخطاء، فقد تم تشكيل (مجلس صيانة الدستور) فى نظام الجمهورية الإسلامية، ويضم نخبة من الفقهاء والحقوقيين، إذ يقوم هذا المجلس بالاطمئنان على إسلامية القوانين، والدراسة الموضوعية لها.

ومن خلال هذا الكلام يمكن الوصول إلى هذه النتيجة، وهى وجود اختلافين رئيسيين بين المجالس التشريعية الإسلامية، والمجالس التشريعية للأنظمة العلمانية والغربية:

۱- تقوم المجالس التشريعية غير الدينية بتشريع الأحكام فعلًا ويضعون الحلال والحرام والمجاز والممنوع، دون أن يستندوا فى ذلك إلى حكم إلهى، ولكن فى المجالس التشريعية الإسلامية، يتمثل العمل الرئيسى فيها بتطبيق الأحكام الإلهية الكليّة على مصاديقها أو الدراسة والدراية الموضوعية لها.

۲- إنّ الهدف المطلوب فى المجالس التشريعية الغربية والعلمانية هو السعى لتحقيق

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۱۴۹

متطلبات الناس، سواء كانت هذه المتطلبات منحرفة وتؤدّى إلى انحطاط المجتمع، أو إيجابية وبنّاءة ومفيدة، ولهذا السبب فإننا نشاهد ونلاحظ أنّه يتمّ فى هذه المجالس التصويت على قوانين مخزية وحمقاء من قبيل السماح بالاختلاط الجنسى، والاعتراف الرسمى بعقد الزواج بين الذكور، ونظائرها من القوانين المخزية!

بينما نجد أنّ الهدف الأساسى فى المجالس التشريعية الإسلامية يتمثل بتحقيق إرادة اللّه سبحانه وتعالى والاصول المعروفة فى الدين الإسلامى، والاهتمام بتلبية المتطلبات السليمة للناس.

وحل المشاكلهم وتطوير المجتمع الإسلامى فى جميع المجالات الإيجابية ضمن إطار التعاليم الإسلامية، مع رفض تلبية الحاجات والرغبات المنحرفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۱

الركن الثانى: السلطة التنفيذية

اشارة

القوانين بشكل مجرد، عبارة عن كلمات مدونة على الورق، ولا تظهر قيمتها الحقيقية إلّا بعد أن تصل إلى مرحلة التطبيق العملى، وهى بالضبط تشبه وصفة الطبيب، التى مهما كانت دقيقة وصحيحة فى تشخيصها للداء والدواء، لن يكون لها أدنى تأثير يذكر على حالة المريض إلّابعد أن يُعمل بها، إذ إنّ تشخيص المرض، والقيام بجميع التحليلات وبدقة، والمعرفة الصحيحة بكمية ونوعية الأدوية كلها على حدة، والتطبيق العملى لها، على حدة، بل إنّ الركن الأساسى يتمثل بالجوانب العملية.

إنّ أى قانون مهما كان مثالياً وقيّماً، لن يكون له أدنى تأثير مالم نتحرك نحو تطبيقه، ف «السلطة التنفيذية» هى التى تحفظ ماء وجه السلطة التشريعية.

وبالرغم من أنّ هذه المسألة تعدّ من الواضحات، إلّاأنّ القرآن الكريم لديه إشارات غنيّة المعنى بشأنها، ومن ذلك:

۱- عندما بُلّغ النبى موسى عليه السلام بالرسالة فى جانب الطور فى الوادى الأيمن، وأخذ الأمر بالتصدى لفرعون وانقاذ بنى اسرائيل والدعوة إلى التوحيد والحق والعدالة، طلب من اللّه تعالى أن يعينه على تنفيذ ذلك وقال: «وَاجْعَلْ لِّى وَزِيْرًا «۱» مِنْ أَهْلِى هَارُونَ اخى اشْدُدْ بِهِ ازْرِى* وَاشْرِكْهُ فى امْرِى». (طه/ ۲۹- ۳۱)

۲- ونطالع فى قصة «بنى اسرائيل» و «طالوت»: عندما انتفض بنو اسرائيل من ظلم

---

(۱) يقول «الماوردى» فى الأحكام السلطانية: من الممكن أن يكون وزير من مادة «وزر» اى مشتق من الثقل، ذلكانه يتحمل المسؤولية، أو من مادة وزر بمعنى الملجأ والملاذ (لانه ملجأ الناس)، «أومن» مادة «أزر» بمعنى السند (لأنّ السند الرئيسى هو اللّه تعالى (الأحكام السلطانية، ص ۲۴).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۲

«جالوت»:، ذلك الرجل الذى أخرجهم من ديارهم وأسّر أبناءَهم، فخططوا لقتاله وخوض الحرب ضده، ولتطبيق هذه الخطة، لابدّ من قائد خبير وجدير، ومدبّر من جميع الجوانب، ومن أجل اختيار مثل هذا الرجل، قصدوا نبى زمانهم «اشموئيل» وقالوا له: «ابْعَث لَنا مَلِكاً نُّقَاتِلْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ». (البقرة/ ۲۴۶)

فأوحى إليه اللّه تعالى بأن يختار طالوت، ذلك الشاب المؤمن الواعى والشجاع، وقال:

«إِنَّ اللَّهَ قَد بَعَثَ لَكُم طَالُوتَ مَلِكاً». (البقرة/ ۲۴۷)

۳- ونقرأ فى قصة النبى يوسف عليه السلام كذلك: عندما تنّبأ بسنين عجاف من الناحية الاقتصادية لأهل مصر، ووضع لهم برنامجاً حكيماً لتجاوز هذه السنين الصعبة، اختار سلطان مصر النبى يوسف عليه السلام لتنفيذ ذلك البرنامج والاشراف عليه، وتمّ ذلك الاختيار باقتراح من النبى يوسف عليه السلام، إذ يقول القرآن الكريم بهذا الشأن: «قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيْظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

وتمكن النبى يوسف عليه السلام بما يمتلكه من القدرة الجيدة والإدارة الرشيدة، أن يعبر ببلاد مصر من تلك السنين العجاف ويحافظ

عليها.

۴- ممّا لا شك فيه أنّ الأرض شهدت قيام حكومة النبى سليمان عليه السلام والتى تعدّ من أكبر الحكومات التى قامت على وجه البسيطة، ولغرض دفع عجلة تطور المجتمع البشرى إلى الأمام، ونشر العدالة فيه، لجأ النبى سليمان عليه السلام إلى الاستفادة القصوى من جميع الوسائل والسبل الممكنة، وبدرجة عالية من الحنكة الإدارية والضبط العالى، وبعبارة أُخرى فقد سخّر اللَّه تعالى له كل الامكانيات اللازمة لتحقيق تلك الأهداف، وتمكن هو أيضاً ومن خلال الاستفادة من هذه الوسائل، أن يحقق اهدافاً هامّة وسامية.

ويشير القرآن الكريم فى سورة النمل المباركة فى شرح قصة حكومة داود وابنه سليمان عليهما السلام، إلى العلم الواسع والجم الذى يتمتعان به عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ وَسُلَيْمانَ عِلْماً ...» ثم يضيف قائلًا: «وَوَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَقالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيءٍ». (النمل/ ۱۵- ۱۶)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۳

ويتحدث القرآن الكريم فى سورة سبأ المباركة عن الأب وابنه عليهما السلام إذ يقول تعالى

«وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الحَديدَ* أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير* وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَواحُهَا شَهْرٌ وَاسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِاذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ* يَعْمَلُون لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ».

(سبأ/ ۱۰- ۱۳)

إنّ القوّة الإدارية التى كان يتمتع بها سليمان عليه السلام وشدة انضباطه فى الأمور التنفيذية وإدارة البلاد، كانت إلى درجة أنّه عندما قضى فيها نحبه وهو متكىء على عصاه (ولهذا السبب مات واقفاً)، كان عماله من الجن يؤدّون واجباتهم بمنتهى الدقة، حتى أكلت دابة الأرض منسأته وسقط على الأرض، كما جاء ذلك فى القرآن الكريم:

«فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيهِ المَوتَ مَادَلَّهُم عَلَى مَوتِهِ إِلَّا دابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَنْ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ». (سبأ/ ۱۴)

وكل هذه الامور تحكى عن مدى الإدارة المحكمة والقوية لسليمان عليه السلام وشدّة التزامه وانضباطه فى العمل.

وكما يلاحظ فى عالم الخلقة من أنّ المكلّفين من قبل اللَّه تعالى بتنظيم وإدارة العالم فى مختلف المجالات والمشار إليهم فى القرآن الكريم: «وَالْمُدَبِّراتِ أَمْرًا». (النازعات/ ۵)

ووردت الكثير من الإشارات الاخرى أيضاً بشأن أعمال الملائكة فى هذا المجال، ففى عالم البشرية أيضاً لا يمكن اشاعة النظام وتنفيذ القوانين بدون جهازٍ تنفيذى قوى ومنظّم ومعتبر يتمّ فيه تقسيم الأعمال وتوزيع المسؤوليات.

ويتضح هذا الأمر بشكل جلى فى كتاب الإمام على عليه السلام لمالك الاشتر رضى الله عنه الذى يضم النموذج الكامل للنظام التنفيذى من حيث كيفية ادارة الدولة.

فبعد أن يشير الإمام على عليه السلام فى هذا الكتاب إلى مسألة المستشارين ينتقل للإشارة إلى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۴

واجبات مالك الاشتر رضى الله عنه باعتباره حاكم بلاد مصر، إذ يأمره عليه السلام ويقول: «اختر وزراءك من الأفراد ذوى السيرة الحسنة والأذكياء».

ومن ثم ينتقل إلى ذكر الامور والجوانب الإدارية والتنفيذية المختلفة للدولة، فيشير فى البداية إلى مسألة القوّة الدفاعية والجيش

الإسلامى المقتدر، ومن ثم يشير إلى الموظفين والعمال الحكوميين، وبعد ذلك يشير إلى القضاة، ثم ينتقل إلى التجّار والامور التجارية والصناعية والاقتصادية، وأخيراً يتناول المسائل المتعلقة بالمحتاجين، والمعوزين فى المجتمع، ويتطرق إلى شرح وواجبات ومسؤولية كل منهم فى هذا المجال من خلال شرح مستفيض ودقيق، ويذكر فى ذلك أدق الامور وأظرفها.

إنّ هذا العهد الذى يعدّ فى الواقع مستخلصاً من آيات القرآن الكريم والروايات النبوية الشريفة، تمّ تنظيمه بالشكل الذى لم تتمكن فيه القرون الأربعة عشر أن تغطيه بغبارها وتجعل منه عهداً تقادمت عليه السنون فعادَ قديماً فحسب، بل إنّ عظمته واشعاعه أصبح أكثر بهاءً بمرور الزمان عليه، حيث بعدُ نموذجاً بارزاً من التخطيط الإسلامى فى مجال الاصول التى ينبغى أن تسيّر الإدارة الإسلامية، والنظام التنفيذى فى الحكومة الإسلامية عليها.

النظام التنفيذى للحكومة الإسلامية فى عصر النبى الأكرم صلى الله عليه و آله:

بالرغم من أنّ الحكومة الإسلامية على عهد النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كانت بسيطة جدّاً فى تكوينها، إلّاأنّ كل ما تحتاجه الحكومة القوية والمقتدرة، كان منظوراً فى تركيبة تلك الحكومة، إذ كان مسجد الرسول صلى الله عليه و آله بما يعنيه من بساطة عجيبة، يمثل القاعدة الأساسية للحكومة ونظامها التنفيذى.

فهو من جانب يمثل الجامعة الإسلامية، ذلك لأنّه يمثل مهداً لتعلم الدين والقراءة والكتابة والتربية فى الليل والنهار.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۵

ويمثل من جانب آخر مقر الجيش الإسلامى، ومركز القائد العام لهذا الجيش.

ومن جهة ثالثة يمثل محكمة القضاء أو كما يقال بيت العدالة.

ومن جهة رابعة يمثل مركز بيت المال وجمع الزكوات والغنائم الحربية، وبالرغم من صغر حجمه وبساطته التى كان عليها فإنّه كان يسع لاستيعاب جميع هذه الامور!

وقد اختار النبى الأكرم صلى الله عليه و آله لكل أمرٍ من هذه الأمور، مسؤولًا أو عدداً من المسؤولين، واستمر هذا الأمر بعده صلى الله عليه و آله على هذا المنوال، وخاصةً فى عصر الإمام على عليه السلام، إذ اتخذ طابعاً جديداً وتنظيمات أوسع بموازاة توسّع رقعة الدولة الإسلامية وتطورها فى العالم، إذ تمّ توضيح قواعده فى عهده عليه السلام لمالك الاشتر رضى الله عنه.

وكل ذلك يدل على أنّه لابدّ من النظر إلى مسألة النظام التنفيذى بعد مسألة الشورى إذ بدون ذلك يفقد أى قانون قيمته واعتباره.

صفات وشروط المسؤولين التنفيذيين:

تناول القرآن الكريم وبشكل صريح فى ثلاثٍ من آياته المباركة- وعلى نحو الإشارة فىالعديد من الآيات الاخرى صفات وخصائص العمال اللائقين فى الحكومة.

نقرأ أولًا فى قصة طالوت وبنى اسرائيل: «عندما اعترض بنو اسرائيل على انتخاب طالوت من قبل نبيهم (اشموئيل) لقيادة الحكومة، وقالوا بعدم جدارته بسبب عدم امتلاكه المال والثروة (وعدم انتسابه إلى احدىالاسر المعروفة فى بنى اسرائيل)، خاطبهم نبيهم قائلًا: لقد أوتى اثنتين من الصفات: سعة العلم، وقدرة فى الجسم، وبسبب هاتين الصفتين (العلم والقوة) اختاره اللَّه تعالى ، «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بسَطَةً فِى العِلْمِ وَالجِسْمِ»

(البقرة/ ۲۴۷)

وبناءً على ذلك فقد عدَّ القرآن الكريم صفتى العلم والقوة على أنّهما يمثلان الشرطين الأساسيين لرئيس الحكومة الإسلامية أولًا، ومن

ثم يشمل ذلك جميع العاملين فى تلك الحكومة أيضاً.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۶

ويشير القرآن الكريم فى قصة يوسف عليه السلام إلى شرطين آخرين أيضاً فيما يتعلق بالمدراء والموظفين فى المستويات العليا للحكومة كالعاملين على حفظ بيت المال (وزير المالية) إذ يقول تعالى «قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ انِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

وفى قصة موسى وشعيب عليهما السلام أيضاً أشارَ القرآن الكريم على لسان بنات شعيب إلى شرطين آخرين أيضاً بخصوص العمال اللائقين: «قالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الامِينُ». (القصص/ ۲۶)

وبناءً على ذلك فإنّ القرآن الكريم يشترط العلم والوعى والعقل، والقوة والقدرة، والامانة والاستقامة فى جميع المستويات، بدءاً برئيس الحكومة ومروراً بالوزراء وحتى العاملين الصغار- مع تفاوت المناصب.

وقد تمّت الإشارة أيضاً فى العديد من الآيات المباركة فى القرآن الكريم، إلى هذا المطلب، وذُكر فيها بعض الشروط التى ينبغى توفرها فى العاملين فى الحكومة، ومنها:

۱- اجتناب التعاطى مع المسرفين: «وَلَا تُطِيعُوا امْرَ الْمُسْرِفِينَ». (الشعراء/ ۱۵۱)

۲- اجتناب التعاطى مع السفهاء: «وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ امْوالَكُمُ التَّى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا». (النساء/ ۵)

۳- اجتناب اتخاذ المضلِّين: «وَمَاكُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً». (الكهف/ ۵۱)

۴- اجتناب المكذبين: «فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ». (القلم/ ۸)

۵- اجتناب الهمّازين والنمامين والمنّاعين للخير والمعتدين الآثمين والحاقدين والسيئين: «وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ* هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ* مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ* عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ». (القلم/ ۱۰- ۱۳)

۶- عدم اتباع هوى النفس: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا». (النساء/ ۱۳۵)

۷- وأخيراً ضرورة اتباع المؤمنين والتعاون معهم وعدم الاستفادة من غير المسلمين فى المناصب الحساسة والذى يؤدّى إلى تسلطهم على المسلمين: «وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۴۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۷

وتمثل هذه بعض الشروط والصفات التى من‌الضرورى مراعاتها لدى القائمين على أعمال الحكومة الإسلامية.

شروط القائمين على الحكومة فى الأحاديث الإسلامية:

اشارة

وردت فى الاحاديث الإسلامية أيضاً شروط ثقيلة جدّاً وكثيرة للقائمين على الحكومة، والتى لا يمكن بدونها تحقيق إقامة الحكومة الإسلامية بشكل كامل مطلقاً.

۱- العلم والوعى فى أعلى مستوياتهما

نقرأ فى حديثٍ عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ أَمَّ قوماً وفيهم من هو أعلَمُ مِنه لم يَزَلْ أمْرُهُم إلى السِّفال إلى يوم القيامة!»

«۱».

ونقرأ فی حدیث آخر عن الإمام الصادق علیه السلام: «مَنْ دعی الناسَ إلی نفسه وفیهم من هو أعلم منه فهو مبدع ضالّ!» «۲».

۲- سعة الصدر وانفتاح الفکر والاستعداد لتحمل الحوادث المختلفة

نقرأ فی أحدی الکلمات القصار المعروفة للإمام أمیر المؤمنین علیه السلام:

«آلةُ الریاسة سعة الصدر» «۳».

۳- الوعی بمسائل الزمان

نقرأ فی حدیث عن الإمام الصادق علیه السلام:

«العالمُ بزمانِهِ لا تهجُمُ علیهِ اللوابسُ!» «۴».

---

(۱) الوسائل، ج ۵، ص ۴۱۵ (الباب ۲۶ من ابواب صلوة الجماعة).

(۲) سفینة البحار، ج ۲ مادة (العلم).

(۳) نهج البلاغة، الکلمات القصار، الکلمة ۱۷۶.

(۴) اصول الکافی، ج ۱، ص ۳۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۰۸

۴- مراعاة العدالة وعدم التفریق بین الناس

ونقرأ فی حدیثٍ أنّ الإمام أمیر المؤمنین علیه السلام قال لعمر بن الخطاب:

«ثلاث إن حفظتهن وعملت بهنّ کفتک ما سواهنَّ، وإن ترکتهنَّ لم ینفعک شیء سواهنَّ».

قال: «وما هُنَّ یا أبا الحسن»؟

قال: «إقامة الحدود علی القریب والبعید، والحکم بکتاب اللّه فی الرضا والسخط، والقِسْمُ بالعدلِ بین الأحمر والأسود».

«فقال عمر: لقد أوجزْتَ وأَبلغت»! «۱».

۵- الاهتمام بمکافأة المحسنین والعفو عن المذنبین الذین یؤمل بتوبتهم وعودتهم عن ذنوبهم

نقرأ فی حدیثٍ عن الإمام الصادق علیه السلام:

«ثلاثة تجبُ علی السلطان للخاصة والعامة: مکافأةُ المحسن بالاحسانِ لیزدادوا رغبةً فیه، وتغمُّدُ ذنوب المسیء لیتوبَ ویرجع عن غیّه، وتألفهم جمیعاً بالاحسانِ والانصاف» «۲».

۶- النظر لمصالح الناس ومصالحه بعين المساواة!

ومن بين الأوامر التى أصدرها الإمام على عليه السلام لمحمد بن أبى بكر عندما اختاره لولاية بلاد مصر مايلى:
«أحِبَّ لعامة رعتيك ما تحبّ لنفسك وأهل بيتك، واكره لهم ما تكره لنفسك وأهل بيتك، فإنّ ذلك أوجبُ للحجة وأصلح للرعية» «۳».

۷- الارتباط العاطفى مع الناس

لقد اعتبرت بعض الروايات الإسلامية السلطان العادل بمنزلة الوالد، وأوصت الناس أن

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۳۴۹، ح ۵۳.
(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۲۳۳.
(۳) بحار الأنوار، ج ۷۲، ص ۲۷.

يحترموه احترام الأب، والمراد بهذا الحديث أنّه ينبغى للسلطان أيضاً أن ينظر للناس بعين الابوة ويعتبرهم بمنزلة ابنائه، وبناءً على ذلك لابدّ من إقامة روابط عاطفية قوية بينه وبين الناس كما هو الحال بين الأب وابنائه، ويقول الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فى حديثٍ ورد عنه:
«إنَّ السُّلْطانَ الْعادِلَ بِمَنْزِلَةِ الْوالِدِ الرَّحيمِ فَأحِبُّوا لَهُ ما تُحِبُّونَ لأنْفُسِكُمْ وَاكْرهُوا لَهُ ما تَكْرَهُونَ لأنْفُسِكُمْ» «۱».

۸- الابتعاد عن البخل، والجهل، والجفاء والظلم

يقول الإمام أمير المؤمنين علىّ عليه السلام فى هذا المجال:
«وَقَدْ عَلِمْتُمْ أنَّهُ لا يَنْبَغِى أنْ يَكُونَ الْوالى عَلَى الْفُرُوجِ وَالدِّماءِ وَالْمَغانِمِ وَالاحْكامِ وَامامَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ الْبَخِيلُ، فَتَكُونَ فِى امْوالِهِمْ نَهْمَتُه، وَلا الْجاهِلُ فَيُضِلَّهُمْ بِجَهْلِهِ، وَلا الْجافى فَيَقْطَعهُمْ بِجفائِهِ، وَلا الخائِفُ لِلدُّوَلِ، فَيَتَّخِذَ قَوْماً دُوْنَ قَوْمٍ، وَلا الْمُرتشِى فِى الْحُكْمِ فَيَذْهَبُ بِالْحُقوقِ وَيَقِفُ بِها دُوْنَ الْمَقاطِعِ، وَلا الْمُعَطِّلِ لِلسُّنَّةِ فَيُهْلِكَ الامَّةَ» «۲».

۹- عدم المصانعة والتعاطى مع أهل الباطل

يقول إمامنا ومولانا أمير المؤمنين عليه السلام فى كلماته القصار فى نهج البلاغة:
«لا يقيم أمر اللَّهِ سبحانَهُ إلّامن لا يصانعُ ولا يضارعُ ولا يتّبع المطامع» «۳».

۱۰- النظر بعين الامانة لمقامه ومنصبه

وهـذه الملاحظـة أيضاً جـديرة هى الاخرى بالاهتمام، وهى أنّ المناصب والمسؤوليات فى الحكومة الإسـلامية، تمّ اعتبارها فى العديد من الروايات أمانة إلهيّة، دون اعتبارها

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۷۲، ح ۱.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۱۳۱.

(۳) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۱۲۰.

وسيلة للتعالى والاستفادة منها للاغراض الشخصية، حتى أنّه أُشير لهذا الأمر فى بعض الآيات المباركة فى القرآن الكريم، قبل الروايات الإسلامية، إذ نقرأ فى قوله تعالى

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الامَانَاتِ الى أَهْلِهَا وَاذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ». (النساء/ ۵۸)

وقـد ورد فى نهايـة هـذه الآيـة فى كتب التفسير والحـديث روايات متعـددة على أن المراد بالامانة، هو الولاية والحكومة، وعلى رأس ذلك ولاية الأئمّة المعصومين عليهم السلام، ومن ذلك ما نقرأه فى إحدى الروايات الواردة فى تفسير الآية الآنفة:

«يعنى الإمامة، والإمامة الامانةُ»! «۱»

وينقل فى كتاب دعائم الإسلام أيضاً فى حديثٍ عن الإمام علىّ عليه السلام أنّه كتب إلى «رفاعة» قاضى الأهواز مايلى:

«إعلم يا رفاعـة، أنَّ هذه الامارة أمانة، فمن جعلها خيانةً فعليه لعنةُ اللَّه إلى يومِ القيامةِ، ومن اسـتعملَ خائناً فإنّ محمداً صـلى الله عليه و آله برىءٌ منه فى الدنيا والآخرة» «۲».

وينقل فى تفسير الدر المنثور عن الإمام علىّ عليه السلام أيضاً أنّه قال:

«حقّ على الإمـام أن يحكمَ بمـا انزلَ اللَّهُ وأن يؤدّىَ الأمانـةَ، فـاذا فَعـل ذلك فحق على الناس أن يسـمعوا له وان يطيعوا وأن يجيبوا إذا دُعوا» «۳».

ونطالع فى نهج البلاغة أيضاً، أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قال فى كتابه إلى والى آذربايجان:

«وإنّ عملك ليس لك بطعمةٍ ولكنه فى عنقك امانة» «۴».

ومن البـديهى أنّ هـذه الروايات لا تحجّم المفهوم الواسع للآيـة التى توصـى بالمحافظة على جميع الامانات، بل وكما هو واضح لدينا فإنّها تمثل المصداق الواضح للامانة الإلهيّة.

وممّا لا شك فيه أيضاً أنّ الذى ينظر إلى هذه المناصب بعين الأمانة الإلهيّة، فإنّ اسلوبه

---

(۱) نُقل فى تفسـير البرهان سبع روايات على الأقل فى هـذا المجال، وتلاحظ فى كتاب بحار الأنوار أيضاً فى الجزء ۲۳ و ۶۷، و ۱۰۲ (فى الصفحات ۳۸۰، و ۲۸۰، و ۲۵۳ على التوالى)، روايات متعددة بهذا الشأن.

(۲) دعائم الإسلام، ج ۲، ص ۵۳۱.

(۳) تفسير الدر المنثور، ج ۳، ص ۱۷۵.

(۴) نهج البلاغة، الخطبة ۵.

فى التعـاطى مع هـذا الأـمر يختلف كثيراً عن ذلك الـذى ينظر إليها على أنّها ملك مطلق له، وكـذا الحال بشأن الأموال والثروات، فإنّ القرآن الكريم يعبّر عنها أيضاً بأنّها عبارة عن أمانة إلهيّة بين يدى الناس، موضـحاً بأنّ المالك الأصـلى لها هو اللَّه تبارك وتعالى وهو

الـذى أودعها بأيدى الناس أيّاماً معدودات، كما ورد فى قوله تعالى «آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ». (الحديد/ ۷)

ومن المسلَّم به أن صـرف الأموال المودعـة بعنوان أمانـة لدى الإنسان فى الموارد الخاصة التى يجيزها صاحب تلك الأموال لا توجد فيه أية صعوبة، فى حين أنّ الإنسان لو كان هو المالك الأصلى لها، فإن صرف تلك الأموال ليس سهلًا عليه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۳

هيكلية السلطة التنفيذية

اشارة

يتألف النظام التنفيـذى عادةً من شـبكة واسـعة، يقف على رأسـها رئيس الحكومـة، ويليه الوزراء فى المرتبـة التاليـة، ويأتى فى المرتبة الثالثة منهم المديرون العامون والمحافظون، ورؤساء الاقسام والنواحى التابعة، وكل دولة سواء كانت كبيرة أم صغيرة، فإنّها بحاجة إلى هذه التقسيمات، سواء كانت بهذه المسميات أو بغيرها.

والواقع أنّ هذه الشبكة الواسعة تمتلك فلسفة واضحة، تستمد قوتها من مسألة ضرورة تقسيم الأعمال.

وتمثل هـذه المسألـة فى عالم التشـريع والانظمة البشـرية، صورة واضـحة عن تركيبة النظام التكوينى، فعندما ننظر إلى بدن الإنسان من حيث تشـكيلاته الداخليـة والخارجيـة، نرى أنّ هـذا «العـالم الصـغير» الـذى انطوى فيه «العـالم الكبير»، يمتلـك نظاماً تنفيـذياً غايـةً فى الانسجام، مع شبكةٍ واسعة لتقسيم الأعمال.

وعندما يقرر العقل أداء عملٍ ما، ويصدر الأمر النهائى بذلك، يبدأ كل جزء من أجزاء جسم الإنسان بأداء نشاطه الخاص به، ويواصـل تنفيذ ذلك العمل إلى مراحله النهائية بانسجام كامل.

وكمثال بسيط على ذلك، عنـدما يشـعر الإنسان بالخطر، كأن يُـدرك بواسطة العين أو الاذن، وجود حيوان مفترس بالقرب منه (كأن يرى هيكله أو يسـمع صوته)، ولاـ يملـك سـلاحاً يـدافع به عن نفسه، وبـالقرب منه ملجأ يمكن أن يلوذ به، فإن أمر الفرار نحو ذلك الملجأ سيصدر له من العقل، وسرعان ما تبدأ شبكات الاعصاب والعضلات بالعمل، وتزداد

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۴

ضربات القلب بشدّة عالية لإيصال المزيد من الدم إلى العضـلات، وتزداد سـرعة عمل الرئتين لتنقية الدم وتصـفيته، وايصال المزيد من الاوكسـجين اللاـزم لحركـة العضـلات، وتزول جميع آثار التعب والكسل والنوم من الإنسان بشـكل مؤقت، ويراقب أوضاعه وحركاته بمنتهى الذكاء واليقظة، وبعبارة اخرى يطير الكرى عن مقلتيه.

وينسـى الإنسـان فجأةً وبشـكل لاـ إرادى جميع الاـمور التى من الممكن أن تشـغل فكره وتعيقه عن أداء هـذا العمـل من قبيل الجوع، والعطش، والألم!

ويسـتنفر الجسم جميع طاقاته الكامنة فيه، ويصـبح مستعداً لأداء أصعب الاعمال وأكثرها مشقة، ويبدى أحياناً عشرة أضعاف ممّا يبديه من الطاقة فى الحالات الاعتيادية، وجميع هذه الامور تتم بشـكل تلقائى واتوماتيكى تماماً وبمسـتوى عالٍ من الدقة والظرافة، بحيث أن مجرّد مطالعة هذا الموضوع لوحده يكفى للوقوف على علم اللّه تعالى وعجيب قدرته، والاطلاع على حقيقة التوحيد.

وكلّ مجتمع بشـرى ينطبق عليه نفس الحكم الذى ينطبق على الجسم، ولهذا السبب لا بد من تقسيم الأعمال فيه بشكل دقيق، ومواصلة تـأمين متطلبـاته الثقافيـة، والاقتصاديـة، والعسـكرية، والماديـة والمعنويـة، من خلاـل التخطيـط الـدقيق لـذلك، وبـالرغم من الاختلاف

الموجود بين كل منها، فإنّ التناغم والتنسيق وإكمال كل منها للآخر يعدّ أمراً فى غاية الضرورة.

ولهذا السبب أيضاً فإنّ جميع المجتمعات البشرية- سواء المتدينة أو البعيدة عن الدين، شرقيّها أو غربيّها، قديمها أو جديدها- رضخت لهذه القاعدة فى حياتها الاجتماعية، بالرغم من التفاوت الموجود فيما بينها فى كيفية تقسيم الاعمال والمناصب والمسؤوليات، إذ إنّ البعض منها بدائى جدّاً فى ذلك والبعض الآخر تعمل بشكل دقيق للغاية.

النظام التنفيذى فى عالم الوجود:

بالرغم من اللّه تبارك وتعالى قادر على كل شىء، وكل مايريده يتحقق بارادته تعالى فوراً:

«إِنَّما امْرُهُ اذَا ارَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». (يس/ ۸۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۵

وبالرغم من ذلك كله فإنّ الآيات المباركة فى القرآن الكريم توضح وبشكل جلى، أنّ اللّه تبارك وتعالى قسّم الأعمال فى هذا العالم، إذ خلق طوائف من الملائكة ليقوم كل منها بانجاز إحدى الأعمال المهمّة فى هذا العالم.

فيشير القرآن الكريم أحياناً بشكل عام إلى هذه المسألة وهو قوله تعالى

«جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا اولِى اجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ». (فاطر/ ۱)

ويقول فى موضع آخر: «فَالْمُدَبِّراتِ امْراً». (النازعات/ ۵)

وينقل فى موضع آخر قول الملائكة: «و مَا مِنَّا الَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ* وَانَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ* وَانَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ». (الصافات/ ۱۶۴- ۱۶۶)

وأحياناً اخرى يشير إلى طوائف خاصة منها لها وظائفها الخاصة، إذ يمكن أن نشير فيما يلى إلى المجاميع التالية كنموذج على ذلك:

۱- الملائكة المبلغين للوحى والمنزلين للكتب السماوية:

«يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوْحِ مِنْ امْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ». (النحل/ ۲)

۲- مجموعة حَمَلَةِ العرش:

«الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ». (غافر/ ۷)

۳- مجموعة المراقبين لأعمال الناس:

«وَانَّ عَلَيْكُمْ لَحافِظِينَ* كِراماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ ما تَفْعَلُونَ». (الانفطار/ ۱۰- ۱۲)

۴- مجموعة جند اللّه الذين يعززون المؤمنين فى الحروب وحوادث الحياة القاسية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ اذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَارْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً». (الاحزاب/ ۹)

۵- مجموعة حفظة الناس ازاء الكثير من الاخطار والحوادث:

«وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً». (الانعام/ ۶۱)

۶- مجموعة المكلفين بقبض الأرواح:

«قُلْ يَتَوفَّاكُمْ مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ». (السجدة/ ۱۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۶

وكذلك: «الَّذِينَ تَتَوفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ». (النحل/ ۳۲)

۷- الملائكة المكلفون بتقسيم الأرزاق:

«فَالْمُقسِّماتِ امْراً». (الذاریات/ ۴)

إذ یقول البعض فی تفسیر هذه الآیة الکریمة، وجریاً مع تناسب الآیات الواردة قبلها:

إنّها تشیر إلی الملائکة الذین یقسمون الأرزاق بین العباد، بینما یقول البعض الآخر: إنّها تشیر إلی الملائکة المکلفین بتقسیم جمیع الأعمال فی عالم الوجود.

۸- الملائکة المکلفون بنشر السحاب ونزول الأمطار والمکلفون بتشتیتها بعد هطول الأمطار:

«وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً* فَالْفارِقَاتِ فَرْقاً». (المرسلات/ ۳- ۴)

۹- الملائکة المکلفون بدفع وساوس الشیاطین عن قلوب المؤمنین، والذین یصدون هجوم الشیاطین عن افکار المؤمنین، فیقضون علی وساوسهم:

«فَالزَّاجِرَاتِ زَجراً» «۱». (الصافات/ ۲)

۱۰- الملائکة الذین ینزلون فی لیلة القدر، والمکلفون بإبلاغ تقدیرات اللّه تعالی علی مدی سنة کاملة، تلک المقدرات التی تحُدد وفقاً لاستحقاق الأفراد وحسن أعمالهم، ولیس بدون حساب وبشکل اجباری:

«تَنَزَّلُ الْمَلائِکَةُ وَالرُّوحُ فِیهَا بِاذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ کُلِّ أَمْر». (القدر/ ۴)

وکما تلاحظون فإنّ اللّه تبارک وتعالی وبالرغم من قدرته التامة علی جمیع الأعمال، فإنّه یقسم تدبیر أمور هذا العالم بین الملائکة، وجعل لکل مجموعة منهم واجباً وتکلیفاً محدداً.

ونلاحظ فی الروایات الإسلامیة أیضاً تعبیرات متعددة وبلیغة بشأن أصناف الملائکة، من حیث تقسیم المسؤولیات، ومن جملة ذلک ماورد فی نهج البلاغة فی خطبة الأشباح:

---

(۱) قیل الکثیر من الأوجه فی تفسیر هذه الآیة، وأحد تلک المعانی ماجاء أعلاه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۷

«ومنهم من هو فی خلق الغمام الدُّیح، وفی عظم الجبال الشمَّخ ... وفی فترةِ الظلام الأیهم، خَرَقت اقدامُهمُ تخومَ الارضِ السّفلی فهی کراياتِ بیضٍ قد نفذت فی مخارقِ الهواءِ، وتحتها ریحٌ هفافة، تحبسُها علی حیثُ انتهت من الحدود المتناهیةِ، قد استفرغتهم اشغالُ عبادتِهِ، ووصلت حقائق الایمانِ بینهم وبین معرفته ... قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالکأس الرویَّة من محبتِهِ!» «۱».

ولدینا المزید من الروایات الاخری بشأن تقسیم المسؤولیات فیما بین الملائکة، لو ذکرناها جمیعاً لطال بنا المقال «۲».

ویمکننا أن نستخلص ممّا تقدم ذکره آنفاً المفهوم القرآنی التالی: لو أرادت البشریة أن تساير نظام ربوبیة الباری‌ء جلّ وعلا فی الوجود وتطبق نظام ادارته فی عالم التکوین، لابدّ لها أن تهتم وبکل دقة بمسألة تقسیم الأعمال والمسؤولیات فی المجتمع الإنسانی، لکی تقترن حیاة أفراد المجتمع بالموفقیة والنجاح.

وبعبارة أخری نحن نعلم أنّ نظامی التکوین والتشریع یجب أن یعملا بشکل متناغم، ولابدّ لحیاة البشریة أن تستلهم فلسفتها من خلقة الباری جلّ وعلا وتصطنع بصبغة اللّه تعالی وأنّ کل ما هو حاکم هناک یجب أن یکون هو الحاکم هنا.

إنّ الاهتمام والالتفات إلی هذه الحقیقة یدعونا إلی مسألة تنظیم الامور التنفیذیة.

النظام التنفیذی فی عصر النبی صلی الله علیه و آله:

بالرغم من أن الحکومة الإسلامیة علی عهد الرسول صلی الله علیه و آله کانت بسیطة جدّاً، إلّاأنّه فی‌نفس الوقت کانت مسألة تقسیم

المسؤوليات فى النظام التنفيذى لهذه الحكومة، واضحة جدّاً ومدروسة بشكل دقيق.

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۹۱ (خطبة الاشباح).

(۲) وللمزيد من الايضاح بشأن أصناف الملائكة عليكم بمراجعة بحار الأنوار، ج ۵۹، ص ۱۷۴ ومايليه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۸

ومن ذلك أن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله كان يختار للمعارك- التى لا يشارك فيها بشخصه- قائداً أو عدداً من القادة، وحتى أنّه صلى الله عليه و آله أحياناً كان يعيّن خليفة للقائد الأول لتلافى الحوادث المحتملة الوقوع للقائد الأول، وعلى سبيل المثال فى معركة مؤته كان القائد الأصلى للجيش جعفر بن أبى طالب ثم أضاف قائلًا: لو حصل أمرٌ لجعفر فبعده «زيد بن حارثة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ أيضاً «فعبد اللّه بن رواحة» على الجيش، ولو حصل له أمرٌ ما أيضاً، على المسلمين أن يختاروا شخصاً من بينهم عن طريق الشورى لقيادة الجيش «۱».

وجاء فى التواريخ أيضاً أنّه كان للرسول صلى الله عليه و آله كتّاباً للوحى وللُامور الاخرى إذ يمكن أن نذكر من بينهم الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام وكذلك «زيد بن ثابت»، و «علاء بن الخصرى» و «أبى بن كعب» «۲».

واختار صلى الله عليه و آله بعض الأفراد لجمع أموال الزكاة والامناء على بيت المال، إذ يمكن أن نذكر من بينهم «مهاجر بن أبى اميّة» المكلّف بجمع أموال بيت المال فى صنعاء، و «زياد بن لبيد» فى «حضرموت» و «عدى بن حاتم» فى قبيلة «طى» و «مالك بن نويره» فى «بنى حنظلة»، و «زبرقان بن بدر» فى قبيلة «بنى سعد» و «العلاء بن الحضرمى» فى «البحرين» «۳».

وعين الرسول صلى الله عليه و آله أيضاً بعض الخبراء لتحسين محصول بساتين النخيل لغرض دفع الزكاة، ومنهم «عبداللّه بن رواحة».

كما أنّه صلى الله عليه و آله كان يعين الأمراء للمناطق المختلفة، ويمكن أن نذكر من بينهم عليّاً عليه السلام، و «معاذ بن جبل» على اليمن، و «عتاب بن اسيد» على «مكة» و «عثمان بن أبى العاص» على منطقة «بنى ثقيف».

لقد كان للرسول صلى الله عليه و آله، العديد من الرسل الذين أرسلهم للملوك ورؤساء البلدان المجاورة، ومنهم «عبداللّه بن حذافة» الذى بعثه إلى «كسرى ملك الساسانيين، و «دحية

---

(۱) سيد المرسلين، ج ۲، ص ۴۴، ونقل بعض المؤرخين الأمراء الثلاثة بشكل آخر، ولا يوجد بينهم وبين مرادنا اختلاف.

(۲) الكامل لابن الأثير، ج ۲، ص ۳۱۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۴، ص ۲۴۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۱۹

الكلبى» إلى «قيصر» ملك الروم، و «حاطب بن أبى بلتعة» إلى «المقوقس» ملك مصر، و «عمرو بن اميّة» إلى «النجاشى» ملك الحبشة «۱».

وبهذا الشكل نشاهد أنّه فى تلك الحكومة الخالية من أى نوع من أنواع التشريفات، نجد نظاماً تنفيذياً منسجماً بشكل كامل ويتألف من اقسام مختلفة، وقد اختار صلى الله عليه و آله لكل قسم منها مسؤولًا أو عدّة مسؤولين، يحكمون فيها.

وهذا كله يوضّح لنا بشكل جلى، أن مسألة تقسيم المسؤوليات والإدارات فى الأقسام المختلفة للنظام التنفيذى للحكومة الإسلامية، يعد أمراً مسلّماً به ولا يمكن اجتنابه.

كيفية انتخاب رئيس السلطة التنفيذية والمسؤولين الآخرين:

فى النظرة الكونيـة الإسـلامية الـتى تقول: إنّ الحكم للّه، وإنّ مصـدر شـرعيتها فى المجتمعـات البشـرية تسـتند إلى الاجـازة والتفويض الإلهى، ومن الطبيعى أن يتمّ فى الأنظمة التنفيذية تعيين المسؤولين فى جميع المستويات من قبل النبى الأكرم صلى الله عليه و آله ومن ثم الأئمّة المعصومين عليهم السلام وبعدهم خلفائهم ونوّابهم أى الفقهاء العظام.

ولهـذا السـبب نجـد أنّ النبى الأكرم صـلى الله عليه و آله عنـدما شـرع ببناء الدولة الإسـلامية فى بداية الهجرة إلى المدينة، وعمل على توسيعها فيما بقى من عمره الشريف، كان يقوم صلى الله عليه و آله بتعيين الولاة وامراء الجيش والقضاة والسفراء بنفسه، ومن المحتمل أنّه كان صلى الله عليه و آله يقوم باستشارة أصحابه فى الحالات المهمّة بشأن انتخاب أولئك الأشخاص.

ومن المؤكّد عنـدما يتحـول الأـمر إلى الفقيه الجـامع للشـرائط، وخاصـةً فى عصـرنا وزماننـا- إذ تعتـبر المشاركـة الجماهيريـة فى أمر الحكومـة من البـديهيات، ذلـك أنّه بـدون مشاركتهم لن تتوفر دواعى المساهمـة والتعاون مع الحكومـة مطلقاً- يجب أن تكون مسألة الشورى والمشاورة مع الناس على رأس البرنامج الخاص باختيار المستويات الرفيعة للسلطة التنفيذية.

وبعبارة أخرى لابدّ أن يكون للناس المعرفة الكافية برئيس السلطة التنفيذية، الشخص

---

(۱) بيت النبوّة (خاندان وحى)، ص ۲۶ بالفارسية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۰

الأـول فى هـذه السـلطة، والتعـاون فى هـذا المجـال- ومتى مـا كـان الفقيه الجـامع للشـرائط غير معنىً بهـذا الأـمر، فإنّه يعرض مصالح المسلمين للخطر ويتسبب فى زعزعة النظام الإسلامى، وبناءً على ذلك فإنّه يفقد شرعية ولايته أيضاً.

وليس بوسع الولى الفقيه أن يقول: أنـا خليفـة المعصوم، وأنا الـذى أعين جميع المـديرين التنفيـذيين ورئيس الوزراء والوزراء ورئيس الجمهورية فى الحكومة الإسـلامية مطلقاً، ذلك لأن هذا الأمر لا ينسـجم مع مصالح الناس وغبطة المسـلمين وشـروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويؤدّى إلى زعزعـة دعائم الحكومة، وتضـعيف اسسـها وقدرتها، بل إنّ أساس مثل هذه الحكومة سـرعان ما ينهار وتمحى من صفحة التاريخ والمجتمع.

إذن، يجب عليه أن يحترم قاعـدة الشورى القرآنيـة فى هـذا الأمر، ويعطى الاهميّـة لاختيار الناس، ويـدعوهم للمساهمـة فى هـذا الأمر المهم، وإحدى أفضل الطرق لذلك هو ما نص عليه دسـتور الجمهورية الإسلامية، من أنّ انتخاب رئيس الجمهورية يتمّ فى البداية من قبل الشـعب، ويكتسب دعمه الشـعبى من خلال آرائهم، ثم يصار فى المرحلـة النهائيـة إلى صدور الأمر بتنصـيبه من قبل الفقيه الجامع للشـرائط، لكى يصـار إلى تثبيت جنبته الشـعبية من جهـة، ويضـمن من جهـة أخرى الجنبـة الإلهيّـة التى تشـكل أساس هـذا الانتخاب. (فتأمل).

وهـذه الملاحظـة هى الاخرى جديرة بالاهتمام، وهى أنّ التجربة أثبتت أنّ انتخاب الناس فى مجتمع مؤمن وملتزم متى ما تّم من خلال الإعداد الصحيح والمسبق والتدريب والمعرفة الكافيين، غالباً مايكون صحيحاً.

بينما لو حصل فى بعض الموارد خطأ معين فى تشخيص الشعب وضمير الامة- وهذا قليل ونادر- فيجب على الفقيه الجامع للشرائط أن يستفيد من صلاحياته، ويُعرض عن تنفيذ تنصيب مثل هذا الشخص، ولكن بما أنّ الولى الفقيه منتخب هو الآخر من قبل الشعب، (كما سنشـير لـذلك لاحقاً)، فيجب أن يقوم بتنوير الأذهان من خلال التـدبير والدرايـة الصـحيحة وإرائـة الوثائق والأدلة، ويعمل على توعية الضمير الشعبى تجاه هذا الأمر، ولو حصل خطأٌ معين فعليه أن يقف بوجهه ويتصدى له.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۱

ولكن كما قلنا إنّ هـذا الأمر يحصل فى موارد نادرة جـدّاً، خاصة وأنّ صـلاحية المرشـحين لهذا الأمر يجب أن تؤيد من قبل مجموعة

من أهل الخبرة والدراية، لذا من المستبعد أن تحصل مشكلة مهمّة فى هذا المجال.

طبعاً من الممكن أن يتحقق اختيار الشعب بشكل غير مباشر، بمعنى أن يختار الناس نوابهم لمجلس الشورى الإسلامى، ومن ثم يقوم النواب بترشيح إحدى الشخصيات لمنصب رئاسة الوزراء، وبعد المداولة اللازمة واحرازه الصلاحية يمنحونه رأى الاعتماد والثقة، ولغرض تنفيذ هذا الحكم يراجعون الولى الفقيه بعد ذلك، ومن ثم يقوم الولى الفقيه أيضاً- إما بشكل مباشر أحياناً، أو بشكل غير مباشر (كما نشاهد ذلك بخصوص فقهاء مجلس صيانة الدستور)- بتأييد هذا الرأى والموافقة عليه وتنفيذه.

وبالرغم من أن رئيس السلطة التنفيذية، أى رئيس الجمهورية فى نظام حكم الجمهورية الإسلامية يتمّ انتخابه فى الوقت الحاضر من قبل الشعب، إلّاأن مسؤولى الدرجة الاولى أى الوزراء، يتمّ تعيينهم بواسطة اقتراحه وانتخاب نواب الشعب فى مجلس الشورى ، وبهذا الشكل فإنّ الشعب يشاركك ويساهم عن طريقين فىانتخاب الوزراء: أولًا: عن طريق نواب المجلس، وثانياً: بواسطة رئيس السلطة التنفيذية، والاثنان منتخبان عن طريق الشعب.

كما أنّ الفقيه الجامع للشرائط، يشرف على هذا الأمر أيضاً عن طريق مجلس صيانة الدستور، من خلال المصادقة على تنفيذ تنصيب رئيس الجمهورية أيضاً.

إنّ هذا الاسلوب غير المعقّد نسبياً يضمن من جهة، تدخل الفقيه الجامع للشرائط فى هذا الانتخاب طبقاً للموازين الشرعية، ومن جهة أخرى مشاركة الشعب أيضاً، وبهذا الشكل تتمّ مراعاة الجنبتين الشرعية والشعبية بشكل دقيق، (فتأمل).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۳

الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية

اشارة

هذا الجزء من المسائل المتعلقة بالحكومة الإسلامية يعد من أهم الأجزاء وأكثرها حيوية، لأنّ من الممكن أن نفهم ممّا تقدم عن النظام التنفيذى فى الحكومة الإسلامية، أنّها تسير بنفس الاسلوب الذى يسير عليه الحكام غير الإسلاميين.

أى أن تقسيم المسؤوليات، وتشكيل الوزارات وانتخاب الوزراء، والمديرين الكبار والأدنى منهم، ورئيس الجمهورية أو رئيس الوزراء مطلوب هنا أيضاً، وكذا الحال بالنسبة لمسألة الانتخابات الشعبية، والاستناد إلى آراء وإرادة الشعب، والانتخاب المباشر أو غير المباشر من قبل نواب الشعب فى مجلس الشورى وامثال ذلك، موجودة هى الاخرى أيضاً.

وبناء على ذلك فإنّ الفرق الوحيد لهذه الحكومة مع سائر الحكومات، يكمن فى الاسم والعنوان فقط!

إلّا أنّ ذلك يعد خطأً فاحشاً، لأنّ الشىء الاهم الذى يفرّق بين الشعوب والحكومات والجمعيات يكمن فى الثقافة الحاكمة عليهم، خاصة وأن الحكومة أو المؤسسات والجمعيات هى بمنزلة الجسم فقط، وروحها يكمن فى الثقافة الحاكمة عليها.

ولغرض الوقوف على الثقافة الإسلامية الحاكمة على هذه التنظيمات، يلزمنا المزيد من البحوث، وهى بحاجة إلى كتاب أو مجموعة من الكتب المستقلة، وما تطالعونه هنا يمثل فى الواقع فهرساً من تلك البحوث، هذا الفهرس الذى بإمكانه أن يوضح للقراء الكرام الكيفية الاجمالية لهذه المسألة وأهدافها وأهميتها.

وبشكل عام فإنّ ثلاثة أصول أساسية تتحكم بنظام الحكومة الإسلامية. والتى تميّزها عن سائر الحكومات الشعبية:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۴

۱- معرفة المسؤولين التنفيذيين بأنّهم المؤتمنون على أمر اللّه تعالى ويجب عليهم المحافظة على ما أودع بأيديهم من أمر الحكومة

والمناصب الحكومية كوديعة وامانة إلهيّة، وبأنهم بمثابة حلقة الوصل بين اللّه سبحانه وتعالى وعبادة، وأن ينفّذوا بدقة كل ما أمر به تعالى بشأن عباده، وليس بأمكانهم مطلقاً أن ينشغلوا بالتفكير فى المحافظة على مناصبهم أو مصالحهم الشخصية أو مصالح جماعة معينة.

فى حين أنّ الحكام الماديين يفكرون فى كيفية المحافظة على مناصبهم ومصالحهم الشخصية أكثر من أى شىء آخر، ومن الممكن أحياناً ان يعمدوا إلى صرف الملايين من أجل الوصول إلى أحد المناصب، والمؤكد أنّهم وبعد استلام الحكم يقومون بتعويض ما أنفقوه ويزيدون عليه أضعافاً مضاعفة، أو على الأقل يتعلق هؤلاء الأفراد بطبقة معينة من المجتمع، ومن أجل المحافظة على مصالح تلك الطائفة التى ينتمون لها، والتى رصدت مبالغ طائلة لإيصالهم إلى سدة الحكم، يقومون بشتى الجهود، من أجل أن تعود على تلك الطبقة بالمزيد من الفوائد والارباح المضاعفة.

ولذا فإنّ اختلاف هذا المنظار عن المنظار الذى يعمل بموجبه الحكام والمديرون الإسلاميون واضح جدّاً وفى جميع المجالات.

۲- ينظر الناس إليهم كمبعوثين من قبل اللّه تعالى ذلك لأنّ طاعتهم تعد فرعاً من طاعة اللّه تعالى وأوامرهم بمنزلة أوامر اللّه.

ويعتبرون قوانين الحكومة الإسلامية- فى حالة قيام تلك الحكومة على الاسس الصحيحة- بمنزلة قانون اللّه، ويعتقدون بأنّ طاعتها توجب النجاة فى الآخرة، وأنّ مخالفتها يعد ذنباً ويوجب العذاب يوم القيامة.

هذه النظرة تختلف كثيراً عن النظرة السائدة فى الحكومات الماديّة، إذ يرى الناس أنّ الحكّام عبارة عن أفرادٍ مثلهم، وهم غالباً فى صدد المحافظة على مصالحهم الشخصية أو مصالح الحزب والجماعة التى ينتمون لها، وإذا شعروا بأنّ النّاس غير راضين بالقوانين المشرّعة، وأمنوا من العقاب، فإنّهم سرعان ما يتخلّون عن واجبهم فى تحمّل مسؤولياتهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۵

۳- فى الحكومة الإسلامية وبشكل عام يجب أن تلقى الروح المعنوية والقيم الاخلاقية بظلالها على جميع الامور، وأن تأتى المسائل الاخلاقية والإنسانية على رأس قائمة الاعمال، ويجب أن تكون الدوافع أبعد بكثير من الدوافع الماديّة، أوليس الهدف النهائى من تشكيل الحكومة والحياة الأفضل إنّما يتمثل فى توفير المقدمات اللازمة للسير إلى اللّه والقرب من البارى وايجاد التكامل الروحى والمعنوى؟!

فهل يمكن أن تتساوى هذه الأهداف والدوافع مع أهداف ودوافع الشعب والعاملين فى حكومة ماديّة؟

طبعاً لغرض الوصول إلى تحقق حكومة إلهيّة تامة وكاملة، لابدّ أن نطوى طريقاً طويلًا وشاقاً، ولابدّ من اعطاء دروس كثيرة للمجتمع، ولكن مهما يكن الحال فإنّ محتوى هذه الحكومة قياساً للحكومات المادية، من حيث العنصر الثقافى «متفاوت» للغاية بل و «متباين» أيضاً.

ومن خلال هذا التحليل ننتقل إلى الآيات القرآنية المباركة، ومن ثم إلى الروايات الإسلامية، لغرض الوقوف على الثقافة الحاكمة على المحاور المختلفة للحكومة الإسلامية ومناقشتها:

۱- نقرأ فى قوله تعالى

«فَبِما رَحْمةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حولِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمرِ فَاذِا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ».

(آل عمران/ ۱۵۹)

وبناءً على ذلك فإنّ الحاكم الإسلامى وبالاضافة إلى الحزم والعزم الشديدين، فهو مطالب ومكلف بالعفو والصفح، وحتى الاستغفار واللين والانسجام، وأن يرى فى اللّه تعالى السند والملاذ الأول والأخير فى كل حال من الأحوال.

۲- وفى سورة فصلت المباركة يأمر البارى تعالى بغسل العداوة والبغضاء بماء المحبة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۶

والاحسان، وتلافى مواجهة الأحبّة بالمثل كلما أمكن ذلك، إذ يقول تعالى «إِدْفَعْ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَاذِا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ». (فصلت/ ۳۴)

إنّ سيطرة مثل هذه الثقافة على النظام الإسلامى التنفيذى والتى تقف على نقيض الثقافة المادية تضفى عليه نورانية وصفاءً، وتعطى له معنىً ومفهوماً آخرين.

۳- ويقول تعالى فى سورة الكهف المباركة تجاه اصرار الذين يعتقدون بأنّ واجب النبى الأكرم صلى الله عليه و آله أن يُبعد الفقراء وإن كانوا مؤمنين ومخلصين، ويقترب من الطبقات الغنية والمتنفذة، إذ تقول الآية بكل صراحة وحزم:

«واصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَداةِ وَالعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاتَعْدُ عَينَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنيا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكانَ أَمْرُهُ فُرُطاً». (الكهف/ ۲۸)

وشتان بين هذا المنطق الذى يرى فى الحب والإيمان باللَّه تعالى لدى هؤلاء الأفراد أثمن وأغلى شىء لديهم، ويأمر بصد الأغنياء الغافلين عن ذكر اللَّه، وليس الفقراء المخلصين المؤمنين، وبين منطق الذين يعلنون اليوم بكل صراحة فى العالم، بأنّ القيمة العليا تكمن فى المصالح والمنافع المادية، ويضحّون بجميع القيم الاخرى فى سبيل تلك المصالح.

۴- وتخاطب سورة ص وبلهجة حازمة وشديدة، النبى داود عليه السلام:

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّه». (ص/ ۲۶)

وكما نرى فإنّ الآية الكريمة تنذر هذا النبى المعصوم والقدوة للنّاس بأن يحذر وساوس النفس الأمارة، لئلا تصبح سبباً لانحرافه عن طريق الحق والعدالة.

وعلى هذا الأساس، يجب على الحاكم الأسلامى أن يراقب نفسه جيداً ويحذر من الأهواء والدوافع الدنيوية والحبّ والبغض أن تتحكم فى أعماله وتصرفاته فيضيع بها حقاً أو يرتكب باطلًا، وما أشد ما اختلف هذا الميزان للحاكم مع من يقول إنّ القاضى يعتبر

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۷

مسؤولًا فقط أمام القانون لا أكثر، ذلك القانون الذى له أكثر من ألف طريقة للفرار والتبرير.

۵- وفى سورة النساء يخاطب القرآن الكريم جميع المؤمنين ويذكّرهم بأصل مهم، وهو تقديم الأصول والضوابط على الروابط، ويقول:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ للَّهِ وَلَوْ عَلَى انْفُسِكُمْ او الْوالِدَيْنِ وَالاقْرَبِينَ انْ يَكُنْ غَنِيّاً اوْ فَقِيراً فَاللَّهُ اوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى انْ تَعْدِلُوا وَانْ تَلْوُواْ اوْ تُعْرِضُوا فَانَّ اللَّهَ كَانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً». (النساء/ ۱۳۵)

وبهذا لا ينبغى للروابط بين الأب والأم والأبن والأخ أن تكون حجر عثرة أمام تطبيق القانون وإجراء العدالة، بل حتى المنافع الشخصية لابدّ من نسيانها وتركها فى مقابل الحق.

ومن البديهى أنّ مثل هذه الكلمات يمكن أن تطرح فى المحافل المادية، ولكن مضافاً إلى عدم وجود الضمانات العملية فى تطبيقها، لا يمكن تصوّر مفهوم صحيح عنها، ولهذا نجدهم يقدّمون المنافع الشخصيّة والحزبية دائماً على القيام بالعدل والقسط، فالروابط حاكمة هنا على الضوابط، وأحياناً يتم هذا المعنى من تجاوز القوانين علناً فى التصرفات المتناقضة للحكّام الماديّين فيما لو تشابهت المفردات، أحدهم يسير وفق المصلحة، والآخر على نقيضه، فهنا يتضح زيف الشعارات المتعلقة بالقسط والعدل وحقوق البشر ويثبت بطلانها.

هناك ملاحظات ملفتة للنظر فى الروايات الإسلامية لبيان الثقافة الحاكمة على الحكومة الإسلامية يطول شرحها، ولكن يمكن الإشارة إليها باختصار:

۱- رعایة الاصول الأخلاقیة فی حرب مع الأعداء

بالرغم من أن الحرب تمثل منتهی الخشونة لدی الإنسان، وتکون مع الأسف ضروریة فی بعض الأحیان مقابل من لا یدرک سوی منطق القوة، مع ذلک نجد أنّ الإسلام فی برنامجه الحربی قرن المسائل الإنسانیة مع وحشیة الحرب، وأوجب علی المسلمین رعایة الأصول

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۸

الأخلاقیة فی حربهم مع الأعداء الشرسین.

وعندما کانت مجموعات المجاهدین من جیش الإسلام تتوجه إلی میادین القتال کان رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یدعوهم إلیه ویوصیهم بوصایاه، ویقول:

«سِیرُوا بِسْمِ اللَّهِ وَبِاللَّهِ وَفی سَبیلِ اللَّهِ وَعَلی مِلَّةِ رَسُولِ اللَّه لا تَغُلُّوا، وَلا تُمَثِّلُوا وَلا تَغْدِرُوا وَلا تَقْتُلُوا شَیْخاً فانِیاً، وَلا صَبِیّاً وَلا امْرَأَةً وَلا تَقْطَعُوا شَجَراً الّا انْ تَضْطَرُّوا الَیْها، وَایُّما رَجُلٍ مِنْ ادْنَی الْمُسْلِمینَ اوْ افْضَلِهِمْ نَظَرَ الی رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِکینَ فَهُوَ جارٍ حَتّی یَسْمَعَ کَلامَ اللَّهِ فَانْ تَبِعَکُمْ فَاخُوْکُمْ فِی الدِّیْنِ وَانْ ابی فَابْلِغُوهُ مَأْمَنَهُ وَاسْتَعینُوا بِاللَّهِ عَلَیْهِ» «۱».

ونقرأ فی حدیث آخر:

«نَهی رسُولُ اللَّهِ أنْ یُلقی السُّمُّ فی بلادِ المشرکین» «۲».

«ما بیّتَ رَسُولُ اللَّه صلی الله علیه و آله عدوّاً قَطْ» «۳».

ونقرأ أیضاً فی حدیث آخر من وصایا النبیّ صلی الله علیه و آله الحربیة إلی الإمام علی علیه السلام عندما کان الإمام عازماً للتوجه إلی الیمن:

«لا تقاتلن أحداً حتی تدعوه، وأیم اللَّه لأن یهدی اللَّه علی یدیک رجلًا خیر لک ممّا طلعت علیه الشمس وغربت» «۴».

۲- الآداب الإسلامیة فی جمع الضرائب

ونقرأ فی الآداب المتعلقة بجمع الزکاة والأموال لبیت المال أنّ الإمام علیّاً علیه السلام کلما بعث رجلًا لجمع الزکاة أوصاه بوصایا عدیدة. منها ما یلی:

---

(۱) فروع الکافی، ج ۵، ص ۲۷- ۲۸- ح ۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۲۸، ح ۲.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۸، باب وصیة رسول اللَّه ...، ح ۲۳.

(۴) المصدر السابق، ح ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۲۹

«انْطَلِقْ عَلی تَقْوَی اللَّهِ وَحْدَهُ لاـ شَریْکَ لَهُ، وَلاـ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلا تَجْتازَنَّ عَلَیْهِ کارِهاً، وَلا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ اکْثَرَ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِی مالِهِ فَاذا قَدِمْتَ عَلَی الْحَیِّ فَانْزِلْ بِمائِهِمْ مِنْ غَیْرِ انْ تُخالِطَ ابْیاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ الَیْهِمْ بِالسَّکِینَةِ وَالْوَقارِ حَتّی تَقُومَ بَیْنَهُمْ، فَتُسَلِّمَ عَلَیْهِمْ وَلا تُخْدِجْ بِالتَّحِیَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبادَ اللَّهِ! ارْسَلَنی الَیْکُمْ وَلِیُّ اللَّهِ وَخَلِیفَتُهُ لآخُذَ مِنْکُمْ حَقَّ اللَّهِ فی امْوالِکُمْ فَهَلْ لِلَّهِ فِی امْوالِکُمْ مِنَ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ

الی وَلِیِّهِ، فَانْ قالَ قائِل: لا، فَلا تُراجِعْهُ، وَانْ انْعَمَ لَکَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَیْرِ انْ تُخِیفَهُ او تُوَعِّدَهُ اوْ تُعَسِّفَه أو تُرهقه» «۱».

وبعد هذه التعلیمات، یوصیه الإمام علیه السلام بوصایا مؤکدّة عن کیفیة الإنتخاب العادل لزکاة بیت المال من بین الأموال الجیدة والسقیمة، ورعایة الرفق والمداراة والمحبة، وغیر ذلک ممّا یعتبر نموذجاً واضحاً علی حاکمیة القیم الإسلامیة فی هذه الأمور فی المعاملة مع الناس.

قد یتصور البعض أنّ طریقة المعاملة هذه فی مسألة الضرائب الإسلامیة توجب الضعف والفتور لدی الناس، وتختلف کثیراً عمّا نشاهده الیوم من کیفیة جمع الضرائب.

ولکن لا ینبغی الغفلة عن أنّ هذه التعلیمات واردة فی المجتمع الإسلامی الذی تربی أفراده تربیة إسلامیة وشعروا فیه بالمسؤولیة.

کما أننا نجد الآن وفی بعض المجتمعات غیر الإسلامیة، کثیراً من الأشخاص- وبسبب الثقافة الحاکمة هناک- یدفعون الضرائب عن طیب خاطر من دون أن یطالبهم أحد، وأکثر من ذلک وأفضل ما یجری فی مجتمعنا الإسلامی حیث تأتی الناس زرافاتٍ ووحداناً إلی مراجع الدین لیؤدوا ما علیهم من الخمس الواجب وبدقة متناهیة حتی یحسبوا حساب عدّة کیلو غرامات من السکّر أو الشای الموجودة فی بیوتهم ممّا زاد عن مؤونة السنة، حیث إنّ النّاس یشعرون جمیعاً بالمسؤولیة، وهکذا بالنسبة لزکاة الفطرة وشعور الناس بالمسؤولیة تجاهها.

وکلما انتشرت وتعمقت هذه الثقافة والشعور بالمسؤولیة اتّضح الجواب عن هذا الإشکال کاملًا.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۲۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۰

۳- الإقتصاد فی کلّ شیء

من ممیزات الثقافة الإسلامیة أیضاً الاقتصاد والدقّة فی صرف أموال بیت المال بعنوان أنّه ودیعة وأمانة إلهیّة بید المسؤولین یحاسبون علیها یوم القیامة حساباً عسیراً، والحادثة المعروفة التی وقعت لعقیل بن أبی طالب أحد الشواهد علی ذلک حیث طلب من أخیه الإمام علی علیه السلام أن یفضله علی الآخرین فی العطاء، فنجد أنّ الإمام علیّاً علیه السلام رفض وضع أدنی امتیاز بین أخیه والآخرین حتّی أنّه علیه السلام أحمی له حدیدة وقربها من یده وحذّره من عذاب اللّه یوم القیامة.

وهناک موارد اخری کثیرة ولا- نظیرلها ستبیّن دقة المسؤولین ورجال الإسلام فی هذا المجال ومن ذلک تعلیمات الإمام علی علیه السلام إلی الکُتّاب فی الحکومة الإسلامیة حیث یقول علیه السلام:

«ادِقُّوا اقْلامَکُمْ وَقارِبُوا بَیْنَ سُطُورِکُمْ وَاحْذِفُوا عَنّی فَضُولَکُمْ، وَاقْصُدُوا قَصْدَ الْمَعانی، وَایّاکُمْ وَالاکْثارَ، فَانَّ امْوالَ الْمُسْلِمینَ لا تحتمل الاضْرارَ» «۱».

وقد بیّن الإمام الصّادق علیه السلام هذا المعنی بصورة کلیة حیث قال:

«انَّ الْقَصْدَ امْرٌ یُحِبُّهُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ وَانَّ السَّرَفَ یُبْغِضُهُ حَتّی طَرْحَکَ النواةَ فَانَّها تَصْلحُ لِشَیءٍ وَحَتّی صَبَّکَ فَضلَ شَرابِکَ» «۲».

وقد ثبت فی هذا الزمان أن کل شیء لا ینبغی أن یطرح، فیمکن الاستفادة حتی من القمامة والمواد الزائدة للمصانع وغیرها، وحتی أنّ میاه المجاری مع قذارتها ورائحتها النتنة یتم تصفیتها من جدید وإرسالها إلی المزارع، وکذلک یتم جمع القمامة فیصنعون منها منتوجات مختلفة، ونختم هذا الکلام بحدیث کریم من دعاء الصحیفة السجادیة للإمام علی بن الحسین علیه السلام فی هذا المجال حیث یدعو اللّه تبارک وتعالی ویقول:

«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ وَاٰلِهِ وَاحْجُبْنِى عَنِ السَّرَفِ وَالازدِيادِ، وَقَوِّمْنِى بِالبَـذْلِ وَالاقْتِصادِ، وَعَلِّمْنِى حُسْنَ التَّقْـدير، وَاقْبِضْـنِى بِلُطْفِكَ عَنِ التَّبْذِيْرِ» «۳».

---

(۱) الخصال، ج ۲۱، الباب ۲۵، ح ۸۵؛ بحار الأنوار، ج ۷۳، ص ۴۹، ج ۱۰۱، ص ۲۷۵.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۸، ص ۳۴، ح ۱۰.

(۳) الصحيفة السجادية، الدعاء ۱۳۰ (دعاؤه فى المعونة على قضاء الدين).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۱

۴- المعيار الفضيلة وليس العمر

لقدتم انتخاب عتاب بن أسـيد من قبل النبىّ صـلى الله عليه و آله أميراً على مكة المكرمة، وكان شاباً شجاعاً ذكياً، فكتب له رسول اللّه صلى الله عليه و آله فى كتاب تنصيبه كلمات منيرة توضح الثقافة السامية للإسلام فى المجال التنفيذى فى الحكومة الإسلامية ونقرأ فى بعض كلماته:

«فَهُوَلَنا خادِم وَفِى اللَّهِ اخ وَلَاوْلِيائِنا مُوالٍ، وَلَاعْدائنا مُعادٍ، وَهُوَ لَكُمْ سَماء ظَلِيلَة، وَأَرْض زَكِيةٍ، وَشمس مُضِيْئَة وَلا يَحْتَجُّ مُحْتَجٌّ مِنْكُمْ فِى مُخالَفَتِهِ بِصِغَرِ سِنّه، فَلَيْسَ الَاكْبَرُ هَوَ الافْضَلَ، بَلِ الافْضَلُ هُوَ الاكْبَرُ!» «۱».

۵- الرأفة الإسلامية

الإمام على عليه السـلام عنـدما أراد بيان الرأفـة الإسـلامية وشـفقة الحاكم الإسـلامى على سائر الرعيـة فى عهده المعروف بعهد مالك الأشتر الذى يعتبر حقاً أفضل مرسوم إدارى كتب لحد الآن ولم يصبه غبار النسيان على مرور الزمان، كتب يقول فيه:

«وَاشْـعِرْ قَلْبَـكَ الرَّحْمَـةَ لِلرَّعِيَّةِ وَالمَحَبَّةَ لَهُمْ وَاللُّطْفَ بِهِم، وَلَاـ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَـبُعاً ضارِياً تَغْتَنِمُ اكْلَهُمْ، فَـانَّهُمْ صِـنْفان: إِمّا أَخٌ لَكَ فِى الدِّيْن اوْ نَظِيرٌ لَكَ فِى الْخَلْقِ» «۲».

وفى الحقيقة أنّ الثقافة الإسلامية الحاكمة على العلاقات بين المسلمين وبين غيرهم تتلخّص فى هذه الجملات المعدودة.

۶- الإعتماد على الشعب

فى مكان آخر من كتاب العهد هذا، يوصى الإمام عليه السلام بأن يجعل الوالى اعتماده على

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲۱، ص ۱۲۳.

(۲) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۲

الطبقـة العامـة والكادحـة، والإجتنـاب عن الطبقـة المترفـة وموالاتها، والسـعى دائماً لكسب رضا الطبقـة الأولى دون الثانيـة، يقول عليه السلام:

«وَلْيَكُنْ احَبَّ الامُورِ اليْكَ اوْسَطُها فِى الْحَقِّ وَاعَمُّها فِى الْعَدْلِ وَاجْمَعُها لِرِضَى الرَّعِيَّةِ، فَانَّ سُخْطَ الْعامَّةِ يُجْحِفُ بِرِضَى الْخاصَّةِ، وَانَّ سُخْطَ الْخاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَى الْعامَّةِ، وَلَيْسَ احَد مِنَ الرَّعِيَّةِ اثْقَلُ عَلَى الْوالِى مَؤُونَةً فِى الرَّخاءِ وَاقَلُّ مَعُونَةً لَهُ فِى الْبَلاءِ وَاكْرَهُ لِلْانْصافِ وَاسْأَلُ بِالْلحافِ وَاقَلُّ شُكْراً عِنْدَ الاعْطاءِ وَابْطَأُ عُذْراً عِنْدَ الْمَنْعِ، وَاضْعَفُ صَبْراً عِنْدَ مُلِمّاتِ الدَّهْرِ مِنْ اهْلِ الْخاصَّةِ، وإنّما عِمادُ الدّينِ وَجِماعُ الْمُسْلِمينَ وَالْعُدَّةُ لِلَاعْداءِ، الْعامّةُ مِنَ الامَّةِ، فَلْيَكُنْ صِغُوكَ لَهُمْ وَمَيْلُكَ مَعَهُمْ».

ويأمر عليه السلام فى محل آخر بأن يبتعد كل البعد عن أهل الحسد والذين يبحثون عن عيون الناس، ويقول:

«وَلْيَكُنْ ابْعَدُ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ وَاشْنأُهُمْ عِنْدَكَ، اطْلِبُهُمْ لِمَعايِبِ النّاسِ، فَانَّ فِى النّاس عُيُوباً الْوالِى احَقُّ مَنْ سَتَرها، فَلا تَكْشِفَنَّ عَمّا غابَ عَنْكَ مِنْها، فَانَّما عَلَيْكَ تَطْهيرَ ما ظَهَرَ لَكَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلى ما غابَ عَنْكَ!».

۷- الإتصال المستمر بالعلماء

التعاون والإتصال المستمر مع المتخصصين والمفكرين والعلماء من كل فن أحد النقاط المهمّة فى الثقافة الإسلامية الحاكمة على الجهاز التنفيذى، وقد جاء فى عهد مالك الأشتر أيضاً:

«وَاكْثِرْ مُدارَسَةَ الْعُلَماءِ وَمُناقَشَةَ الْحُكَماءِ فِى تَثْبيتِ ما صَلَحَ عَلَيْهِ امْرُ بِلادِكَ واقامَةِ مَا اسْتَقامَ بِهِ النّاسُ قَبْلَكَ» «۱».

ويستفاد من هذه العبارة بصورة جيدة أنّ على المسؤولين والحكام الإسلاميين أن يكون لهم دائماً مستشارون فى مختلف المسائل السياسية والاجتماعية، ولا يتخذوا قراراً أو يبرموا أمراً فى المسائل المهمّة من دون مراجعة هؤلاء المستشارين.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

۸- الثقافة الحاكمة على الجهاز القضائى

يستفاد أيضاً من الصفات المذكورة للقضاة فى هذا العهد نكات مهمّة جدّاً لم يُتطرق إليها بهذه الدقة فى أى مذهب أو دين، وتوضح جانباً من الثقافة الحاكمة على الأجهزة القضائية فى الحكومة الإسلامية، يقول عليه السلام:

«ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُكْمِ بَيْنَ النّاسِ افْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِى نَفْسِكَ مِمَّنْ لا تَضيقُ بِهِ الامُورُ، وَلا تُمَحِّكُهُ الْخُصُومُ وَلا يَتَمادى فِى الزَّلَّةِ، وَلا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيءِ الَى الْحَقِّ اذا عَرَفَهُ، وَلا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلى طَمَعٍ وَلا يَكْتَفى بِادْنى فَهْمٍ دُوْنَ اقْصاهُ، وَاوْقَفَهُمْ فِى الشُّبُهاتِ وَآخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ، وَاقَلَّهُمْ تَبَرُّماً بِمُراجَعَةِ الْخَصْمِ، وَاصْبَرَهُمْ عَلى تَكَشُّفِ الامُورِ وَاصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّضاحِ الْحُكْمِ، مِمَّنْ لا يَزْدَهيهِ اطراء، وَلا يَسْتَميلُهُ اغْراء وَاولئِكَ قَليل!» «۱».

۹- الإرتباط المباشر مع الناس

الارتباط المباشر مع الناس ارتباطاً واقعياً وصحيحياً لا ظاهرياً تشريفاتياً، من النقاط المهمّة الاخرى التى استند إليها فى هذا العهد، حيث يأمر الإمام عليه السلام مالك الأشتر بعنوانه حاكماً مطلعاً على الثقافة الإسلامية بهذه الصورة:

«وَاجْعَلْ لِذَوِى الْحاجاتِ مِنْكَ قِسْماً تُفَرِّغُ لَهُمْ فيه شَخْصَكَ وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِساً عامّاً فَتَتَواضَعُ فيه للَّهِ الَّذى خَلَقَكَ وَتُقْعِدُ عَنْهُمْ

جُنْدَكَ وَاعْوانَكَ مِنْ احْراسِكَ وَشُرَطِكَ حَتّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ فَانّى سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِى غَيْرِ مَوْطِنٍ: «لَنْ تُقَدَّسَ امَّةٌ لا يُؤْخَذُ لِلضَّعيفِ فيها حَقُّهُ مِنَ الْقَوِىِّ غَيْرَ مُتَتَعْتِعٍ» «۲».

وقد أثبتت التجارب أنّ الارتباط غير المباشر بالشعب، يكون سبباً لتزييف الواقع وعدم الإطلاع الكامل على الأوضاع الجارية، غالباً، وعدم حصول الضعفاء من النّاس على

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

(۲) المصدر السابق.

الأخص على حقوقهم، مضافاً إلى أنّ الارتباط المباشر يوجب ازدياد المحبّة يوماً بعد آخر بين المسؤولين وبين أفراد الشعب.

۱۰- الإهتمام بالمحرومين

آخر نقطه مهمّة اخرى نذكرها كخاتمة فى بحث الثقافة الحاكمة على الجهاز التنفيذى فى الحكومة الإسلاميّة بالرغم من المطالب الكثيرة فى هذا المجال، وهى الأهميّة القصوى للاهتمام بالمحرومين فى‌الثقافة الإسلاميّة، ففى العهد المذكور لمالك الأشتر وعندما يصل الإمام على عليه السلام إلى هذا الموضوع يتغيّر لحن كلامه كلّيّاً، ويقول:

«ثُمَّ اللَّهَ اللَّهَ فى الطَّبَقَةِ السُّفْلى مِنَ الَّذينَ لا حيلَةَ لَهُمْ مِنَ المَساكِينِ وَالْمُحْتاجِينَ وَاهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنى فَانَّ فى هذِهِ الطَّبَقَةِ قانعاً وَمُعْتَرّاً وَاحْفَظْ للَّهِ مَااسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فيهِمْ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْماً مِنْ بَيْتِ مالِكَ، وَقِسْماً مِنْ غَلّاتِ صَوافى الإِسْلامِ فِى كُلِّ بَلَدٍ، فَانَّ لِلأَقْصى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِى لِلأَدْنى، وَكُلٌّ قَدْ اسْتُرْعِيتَ حَقَّهُ فَلا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطَر، فَانَّكَ لا تُعْذَرُ بِتَضْييعِكَ التّافِهَ، لاحْكامِكَ الْكَثيرَ الْمُهِمَّ، فَلا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ وَ لا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لَهُمْ» «۱».

إنَّ هذا التّأكيد والإصرار الشديد الذى لا نظير له لأمير المؤمنين عليه السلام بالنّسبة إلى هذه الطبقة يعتبر من أوضح معالم العدالة الاجتماعيّة فى الإسلام لحفظ حقوق النّاس وخاصّة الطبقة المُستضعَفة، والأسلوب العملى الّذى اتّبعه الإمام عليه السلام فى أيّام حكومته شاهد على هذا المدّعى

النّتيجة:

ما تقدّم يعتبر جانباً من الثّقافة الحاكمة على النّظام التنفيذى فى الإسلام ونموذجاً من

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

مجمل الثّقافة الإسلاميّة فى هذا المجال يبيّن أبعاد هذه الحكومة الإلهيّة والشعبيّة، وبواسطته يمكننا الوصول إلى هذه الحقيقة وهى أن ما يطرح فعلًا بعنوان الحكومة الإسلاميّة تفصله عن الشكل الأصلى لهذه الحكومة فاصلة واسعة بالرّغم من الحركة نحو ذلك الهدف المنشود:

کیفیّة انتخاب رئیس الجهاز التنفیذی

هناک طرق مختلفة فی عالمنا المعاصر لانتخاب رئیس السلطة التنفیذیّة والمسؤولین من الدّرجة الاولی فتارة عن طریق الانتخاب المباشر، وأخری الإنتخاب غیر المباشر، وثالثة تنصیبه من قبل مسؤولٍ أعلی

وأمّا بالنسبة لمن ینصبهم النبی صلی الله علیه و آله فتارة یکون تنصیبه أمراً إلهیّاً وأُخری یکون التنصیب عن طریق النبی نفسه، وهذا ما لاحظناه فی حیاة الرسول صلی الله علیه و آله

و بالنسبة لمن ینصبه النبی صلی الله علیه و آله عن طریق الأمر الالهی فذلک أمر واضح، وقد أشارت إلیه الآیات التالیة:

۱- «النَّبِیُّ أَولَی بِالمُؤمِنِینَ مِن أَنفُسِهِم». (الأحزاب/ ۶)

۲- «یَا أَیُّهَا الَّذِین آمنَوُا أَطِیعُوا اللَّهَ وَ أَطِیعُوا الرَّسُولَ وَ اولِی الأَمرِ مِنْکُمْ».

(النّساء/ ۵۹)

۳- «فَلَا وَرَبِّکَ لَایُؤْمِنُونَ حَتَّی یُحَکِّمُوکَ فِیما شَجَر بَینَهُمْ، ثُمَّ لَایَجِدُوا فِی أَنفُسِهِم حَرَجاً مِّمَّا قَضَیْتَ وَ یُسَلِّمُوا تَسلِیماً». (النّساء/ ۶۵)

۴- «فَلیَحذَرِ الَّذِین یُخَالِفُونَ عَن أَمرِهِ أن تُصِیبَهُم فِتنَةٌ أو یُصِیبَهُم عَذَابٌ أَلِیمٌ». «۱» (النّور/ ۶۳)

ومن الواضح أنّ الإطاعة المطلقة للنّبی صلی الله علیه و آله الواردة فی هذه الآیات الشّریفة ملازمة لتنصیبه صلی الله علیه و آله قائداً للمجتمع الإسلامی.

---

(۱) ذهب بعض المفسّرین إلی أنّ، الضمیر فی (أمره) یعود إلی الرّسول صلی الله علیه و آله، والبعض الآخر ذهب إلی رجوعه إلی اللّه تعالی ولکن الأوفق لمحتوی الآیة الشّریفة هو المعنی الأول، وإلیه ذهب صاحب المیزان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۸

وهناک آیات اخری فی القرآن الکریم تؤیّد هذا المعنی أیضاً.

أمّا بالنّسبة إلی الأئمّة المعصومین علیهم السلام فاعتقادنا أنّهم أیضاً منتخبون من قبل اللّه تعالی وتّم نصبهم بواسطة الرّسول صلی الله علیه و آله، وهناک آیات من سورة المائدة تشیر إلی ذلک «یَاأَیُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلیکَ ...». (المائدة/ ۶۷)

الواردة فی واقعة الغدیر والمذکورة فی التّفسیر الأمثل بشرح کاف، وکذلک روایات عدیدة من مختلف الفرق الإسلامیّة حول انتخاب الإمام علی علیه السلام ونصبه خلیفة واماماً بعد الرّسول صلی الله علیه و آله، وکذلک الرّوایات الواردة عن الرّسول صلی الله علیه و آله، حول تعیین الأئمّة الإثنی عشر، والرّوایات الواردة عن الأئمّة والمعصومین علیهم السلام (تعیین کلّ إمام لما بعده) (وتمّ شرحها فی الجزء التاسع من نفحات القرآن) کلّها شاهدة علی هذا المدّعی ولا حاجة لنا إلی التّکرار.

هذا بالنسبة إلی النبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله والأئمة المعصومین علیهم السلام، وامّا بالنسبة إلی من یأتی بعدهم وفی الفترة اللاحقة، فیمکن للولی الفقیه الجامع للشرائط أن یعیّن شخصاً لذلک المقام، لأنّ الولی الفقیه والصالح والذی تتوفر فیه سائر الشروط المعتبرة هو النائب عن الأئمّة المعصومین علیهم السلام کما فی بحث ولایة الفقیه والذی سنشیر إلیه فیما بعد، ویجب علی الحاکم الشرعی والفقیه الجامع للشرائط أن یضع نصب عینیه مصلحة الامّة فی جمیع الشؤون الاجتماعیة والسیاسیة، وبلاشک أن مصلحة الامّة توجب أن یکون انتخاب مسؤولی الجهاز التنفیذی بمشورة الناس ومشارکتهم حتی یتسنی لهم التعاون بینهم بشکل أفضل فیما بعد، وهذا لا یکون إلّابانتخاب الشعب لهؤلاء المسؤولین، سواء کان بطریقة مباشرة أو غیر مباشرة وخاصة فی عصرنا الحاضر الذی سادت فیه ثقافة مشارکة الشعب فی الحکومة فی المجتمعات البشریة.

وعلی هذا الأساس یُرشح عدّة أشخاص تتوفر فیهم الصلاحیة الکافیة والشروط اللازمة لإحراز هذا المنصب المهم والحساس طبقاً

لتأييد مجلس الخبراء الصالحين، ويتمّ عرضهم على الناس، ثم ينتخب الشعب آخر هؤلاء الأشخاص ضمن برنامج انتخاب صحيح وسالم، ومن المعلوم أنّ من يتمتع بشعبية أكبر وأوسع هو الذى سيفوز بالإنتخابات،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۳۹

ومن خلال تأييد الناس له وتكاتفهم معه أكثر فسيكون هو الأصلح لهذا المنصب.

ثم تأتى النوبة لتنفيذ الحكم من قبل الولى الفقيه الجامع للشرائط لكى ينتهى بالأمر إلى الأئمة المعصومين عليهم السلام والنبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله حيث ينتهى فى الواقع إلى إذن اللَّه تعالى ورضاه.

ومن المعلوم أن تنفيذ حاكمية هذا الشخص والذى يتمتع بشعبية أكبر، وتدلّ أكثرية الأراء التى حصل عليها على أنّه يتمتع بحماية أوسع من الشعب هى بصلاح الشعب ومصلحته، وسوف لا يمتنع الولى الفقيه الموظّف برعاية مصالح الامّة من تنفيذ هذا الحكم.

النتيجة: هى أن الحكومة الإسلامية التى تطوى مسيرها من الأعلى- أى حكومة اللَّه- إلى الناس، يمكنها أن تتوافق بصورة كاملة مع موازين الحكومة الشعبية، مع فارق بينهما، وهو أنّ المرشحين لإشغال منصب رئاسة السلطة التنفيذية فى الحكومة الإسلامية لابدّ أنْ تتوفر فيهم عدّة شروط من الإسلام والإيمان والامانة والتقوى، بخلاف نظام الحكم غير الإسلامى الذى لا اعتبار فيه لهذه الشروط مطلقاً، وهذا فارق مهم يفرق بين الحكومة الإلهيّة والحكومة المادية بالرغم من اشتراكهما فى شكل الحكومة الشعبية.

كان هذا بالنسبة إلى المسؤول الأول للجهاز التنفيذى، أمّا بالنسبة إلى المسؤولين الكبار من الدرجة الثانية فما فوق، فيمكن أن تكون مشاركة الشعب فى انتخابهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، مثلًا يمكن للشعب أن يدلى بأصواته للوزراء، أو يتمّ ذلك عن طريق نوّابه فى مجلس الشورى الإسلامى، وفى كلا- الصورتين يكون لرأى الناس ومشاركتهم دخل فى انتخاب الوزراء، ولكن فى هذه المرحلة أيضاً لابدّ من توفر بعض الشروط كالإسلام والإيمان والأمانة فى المنتخبين، لأنّهم إنتخبوا من أجل إجراء أحكام الإسلام وتحقيق العدالة الاجتماعية ونشر الثقافة الإنسانية والفضائل الأخلاقية، فلو كان لا يملكها فكيف يمكنه السعى إلى إيجادها ونشرها؟

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۱

الركن الثالث: السلطة القضائية

تمهيد:

إنّ القضاء والحكم لحلّ الاختلافات ورفع المشاجرات موجود بين الناس من قديم الأيام. حتى فى المجتمعات البدائية كان هناك نوع من التحكيم لحلّ الاختلاف من قبل رئيس القبيلة أو بعض أقربائه أو يتم تعيين شخص لهذا الغرض، وفى الحقيقة أنّه من العسير أن يذكر تاريخ بداية القضاء، سوى أن نقول أن عمره يتزامن مع عمر المجتمعات البشرية.

والدليل على ذلك، لأنّه كما نعلم أنّ حياة الإنسان هى حياة اجتماعية، وبدون شك فإنّ هذا النوع من المعيشة بالرغم من الإيجابيات يعتبر ميداناً خصباً لنشوء الاختلاف والتضاد، وبعبارة اخرى، إنّ هذه الحياة الاجتماعية وبالرغم من أنّها تعتبر مصدراً لمنافع كثيرة وبركات للمجتمعات البشرية وتؤدّى إلى التطور المادى والمعنوى، إلّاأنّها تحتوى أيضاً على نقاط سلبية ومشكلات عديدة، وتتلخص فى الصراعات التى تظهر دائماً لدفع الاعتداء وإرجاع الحق إلى أهله، فلولا وجود الجهاز القضائى الصحيح لحلّها، لتبدلت المجتمعات البشرية إلى ميدان للصراع الدائم والدامى يحرق الأخضر واليابس.

ومن الجدير بالذكر أنّ هذا الصراع والاختلاف والذى يكون تارة بين اثنين أو أكثر من الأشخاص، وتارة اخرى بين قبيلتين أو دولتين، ليس من الضرورى أن يكون نابعاً من روح العدوان والأنانية واتباع الهوى. بل لو فرضنا وجود مجتمع يكون مصداقاً تاماً للمدينة الفاضلة، وكان جميع من فيها على أعلى مستويات الإيمان والأخلاق والتقوى والثقافة الإنسانية، فمع ذلك يمكن لاختلاف الأذواق

وعدم الإطلاع على جزئيات الحقوق

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۲

الاجتماعية والقوانين الموضوعة أن تكون سبباً لظهور الخلافات فى تشخيص الحقوق المُستَحقّة للأفراد.

على هذا الأساس يكون وجود السلطة القضائية على كل الأحوال جزءاً لا يتجزأ من المجتمعات الإنسانية وبدونها لا يمكن العيش فى مختلف السطوح والمستويات الثقافية والفكرية.

ومن البديهى أنّ السلطة القضائية تتوسع وتتعمق بموازاة توسع المجتمعات البشرية، لأنّه مضافاً إلى زيادة التعداد الكمىّ وكثرة الصراعات بسبب كثرة الروابط، نلاحظ زيادة فى كيفية الصراعات وتنوعها، فلو لم تتوسّع السلطة القضائية بموازاة توسع المجتمع لكان الجانب الاجتماعى مهدداً بالخطر بسبب الاختلافات العميقة والخطرة.

وخلاصة الكلام: إنّ من الضرورى وجود جهاز قضائى مقتدر مع ضمانات كافية لأجراء الأحكام وتعميم العدالة الاجتماعية ومنع الظلم والفساد، ووضع نهاية للصراعات والمنازعات والتنفيذ الصحيح للقوانين، وكذلك الرقابة الدقيقة على الأجهزة التنفيذية، وتعريف المسؤولين فى مختلف المراتب بوظائفهم، وبذلك أعطى الدين الإسلامى أهميّة بالِغَة لهذه المسألة ووضع لها المقررات الكثيرة والمتنوعة، لأنّه دين الحياة الحقيقية للبشرية بمضمون قوله تعالى:

«يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للَّهِ وللرَّسُولِ إذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحييكُمْ». (الأنفال/ ۲۴)

نكتفى بهذه الإشارة ونرجع إلى القرآن الكريم حيث أشار إلى هذا الموضوع فى عدّة آيات، منها:

۱- يقول القرآن الكريم مخاطباً النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله:

«انَّا انْزَلْنَا الَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا اراكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِّلْخائِنِينَ خَصِيماً». (النّساء/ ۱۰۵)

۲- ويقول فى موضوع آخر مخاطباً الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بالنسبة إلى التحكيم لغير المسلمين:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۳

«وَانْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ انَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (المائدة/ ۴۲)

۳- ويقول فى مكان آخر مخاطباً جميع المؤمنين:

«انَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ انْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ الَى اهْلِهَا وَاذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ انْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ انَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ انَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً». (النساء/ ۵۸)

۴- ومن جهة اخرى يوصى المؤمنين بالخضوع والتسليم لحكم النبى صلى الله عليه و آله وعدم إظهار التبرم لا- فى الظاهر ولا فى الباطن، والقبول بالحق والعدل بالروح والبدن مهما كان الحق مرّاً، ويقول:

«فَلَا وَرَبِّكَ لَايُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَايَجِدُوا فِى انْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّموا تَسْلِيماً». (النساء/ ۶۵)

۵- ويقول أيضاً:

«انَّما كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ اذَا دُعُوا الَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ انْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَاطَعْنَا وَاولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (النور/ ۵۱)

۶- ويؤكد القرآن الكريم حتى على مسألة الشهادة فى المحاكم والتى هى أحدى المقدمات المهمّة فى القضاء بالحق والعدالة، ويخاطب جميع المؤمنين قائلًا:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ اقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ انَّ اللَّهَ خَبِير بِما تَعْمَلُونَ». (المائدة/ ۸)

فعلى هذا الأساس لا يمكن لأىشىء أن يخلّ بالحق والعدل فى المجتمع الإسلامى، فالشهادة ينبغى أن تكون عادلة سواءً فى حق الصديق والعدو، والقضاء يجب أن يدور حول محور العدالة ويكون الأقرب والأبعد بالنسبة إليه على حد سواء.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۵

من یکون له حق الفصل والقضاء؟

تمهید:

کما أن حق الحکومة والحاکمیة یعود إلی اللّه تعالی علی أساس أصل «التوحید الأفعالی» المسلّم به، کذلک حق القضاء أیضاً یعود إلی من له الإذن من اللّه تعالی.

«التوحید الأفعالی» یقول: إنّ کل الأفعال تعود إلی اللّه تعالی، و «توحید الخالقیة» یقول:

إنّ کل شیء فی هذا العالم خُلق منه و «توحید الحاکمیة» الذی هو فرع توحید الخالقیة یقول: إنّ الحکومة للّه‌تعالی خالصة، وهذا هو السبب فی کون القضاء فی محیط حکومته من اختصاصه تبارک وتعالی ومن یأذن له بذلک.

من جانب آخر یقول توحید الطاعة: إنّ الأمر المطاع والمقبول إنّما هو أمر اللّه تعالی ومن یعود أمره إلی أمر اللّه تعالی، فعلی هذا الأساس لابدّ أنّ یکون الحکم القضائی المقبول أیضاً بإذن منه تعالی.

لو نظرنا إلی المجتمع البشری من هذه الزاویة فسوف نجد أنّ مبدأ القضاء واضح جدّاً، فلا نقع فی حیرة فی تشخیصه مطلقاً، لأنّ أنظارنا متوجهة إلی نقطة واحدة وهی التی صدر منها الوجود، وانبعثت منها الخلائق، والأمر النافذ فی کل شیء هو أمره، إذن فلابد أن نسعی کی تکون محاکمنا القضائیة خاضعة لأمره ومصطبغة بصبغة إلهیّة کی نحصل بذلک علی مشروعیتها.

نعود بعد هذا التمهید إلی القرآن الکریم لنکتشف مسألة انحصار القضاء والتحکیم باللّه تعالی:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۶

۱- نقرأ فی قوله تعالی

«انِ الْحُکْمُ الَّا لِلَّهِ یَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَیْرُ الْفَاصِلِیْنَ». (الأنعام/ ۵۷)

وقد جاء صدر هذه الآیة الشریفة «انِ الْحُکْمُ الَّا لِلَّهِ» فی سورة یوسف الآیة ۴۰ کذلک.

ویمکن أن یکون ما جاء فی سورة یوسف له مفهوم أوسع بحیث یشمل الحکومة والقضاء، ولکن ما جاء فی الآیة المذکورة فیه إشارة أقوی إلی القضاء وحل الاختلافات بقرینة ذیل الآیة الکریمة، وقد أشار إلی هذا المعنی مجموعة من المفسرین:

أمثال الطبرسی فی مجمع البیان والفخر الرازی فی التفسیر الکبیر «۱».

۲- نقرأ فی قوله تعالی:

«وَمَنْ لَّمْ یَحْکُمْ بِمَا انْزَلَ اللَّهُ فَاولَئِکَ هُمُ الْکافِرُونَ ... فَاولَئِکَ هُمُ الظَّالِمُونَ ... فَاولَئِکَ هُمُ الْفاسِقُونَ». (المائدة/ ۴۴- ۴۵، ۴۷)

فهم کفّار لأنّهم خرجوا عن جادة التوحید (توحید الحاکمیة)، وظالمون لأنّهم ظلموا أنفسهم والآخرین وحُرموا من مصالح الأحکام القطعیة وغرقوا فی دوّامة مفاسد الأحکام الجاهلیة، وفاسقون لأنّهم خرجوا عن دائرة الطاعة، والفسق کما تعلم هو الخروج عن طاعة المولی، وهذه الآیات الشریفة لها مفهوم واسع کذلک بحیث یشمل الفتوی فی الأحکام الإلهیّة، ومسألة القضاء والتحکیم، ومسألة الحکومة أیضاً، فیجب أن تکون فی کل من الأبعاد الثلاثة موافقة ومطابقة لحکم اللّه تعالی (لاحظ جیداً).

۳- القرآن الکریم یعتبر کل حکم غیر إلهی حکم طاغوت، واتّباعه یمثل السیر علی خطی الشیطان، فیقول:

«الَمْ تَرَ الَی الَّذِینَ یَزْعُمُونَ انَّهُمْ آمَنُوا بِمَا انْزِلَ الَیْکَ وَما انْزِلَ مِنْ قَبْلِکَ یُرِیدُونَ انْ یَتَحاکَمُوا الَی الطَّاغُوتِ وَقَدْ امِرُوا انْ یَکْفُرُوا بِهِ وَیُرِیدُ الشَّیْطانُ انْ یُضِلَّهُمْ ضَلالًا بَعِیداً». (النساء/ ۶۰)

۴- القرآن الکریم یعتبر أیضاً الأحکام التی تصدر عن مبدأ غیر إلهی أحکاماً جاهلیة،

---

(۱) تفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۳۱۰؛ التفسیر الکبیر، ج ۱۳، ص ۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۷

ویعبّر عن الأشخاص الذین یریدون أحکاماً غیر إلهیّة (کبعض الیهود الذین اختلفوا فیما بینهم فجاؤوا إلی النبیّ صلی الله علیه و آله وکانوا یریدون منه أن یصدر حکماً مطابقاً لرغبتهم) بقوله:

«افَحُکْمَ الْجاهِلِیَّةِ یَبْغُونَ وَمَنْ احْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُکْماً لِقَوْمٍ یُوقِنُونَ». (المائدة/ ۵۰)

۵- یقول القرآن الکریم فی مکان آخر معلماً للنّبی الکریم صلی الله علیه و آله بأن یقول:

«افَغَیْرَ اللَّهِ أَبتَغِی حَکَماً وَهُوَ الَّذِی انْزَلَ الَیْکُمُ الْکِتابَ مُفَصَّلًا». (الأنعام/ ۱۱۴)

۶- ویأمرنا القرآن الکریم بحل اختلافاتنا بواسطة تحکیم اللَّه تعالی، بقوله:

«وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِیهِ مِنْ شَیءٍ فَحُکْمُهُ الَی اللَّهِ». (الشوری/ ۱۰)

یستفاد من مجموع هذه الآیات وآیات اخری بصورة واضحة أنّ نظریة القرآن فی هذا الموضوع تقضی بأنّ الحاکم والقاضی هو اللَّه تعالی، وکذلک من جعله اللَّه تعالی قاضیاً وحاکماً من قبله، وما سوی ذلک فهو حکم الشیطان والطاغوت والجاهلیة.

وعلی هذا لابدّ فی سلسلة مراتب القضاة فی الحکومة الإسلامیة أن تنتهی إلی أمر وإذن اللَّه تعالی وتکتسب المشروعیة منه، فالرسول الکریم صلی الله علیه و آله قد حصل علی هذا المنصب من اللَّه تعالی، والأئمّة المعصومون علیهم السلام أیضاً قد انتخبوا لهذا المقام من قبل اللَّه تعالی وبواسطة النبیّ صلی الله علیه و آله، والقضاة الإسلامیون یکتسبون مشروعیتهم من الأئمة علیهم السلام.

وقد بیّن القرآن الکریم هذا المعنی بوضوح فی قوله تعالی

«وَاللَّهُ یَقْضِی بِالْحَقِّ وَالَّذِینَ یَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَایقضُونَ بِشَیءٍ». (المؤمن/ ۲۰)

إذن فقضاء اللَّه تعالی وأولیائه هو المقبول والصحیح، لا التحکیم الجاهلی وغیرالإلهی.

وهذا المعنی أیضاً ورد بصراحة أکثر فی الروایات الإسلامیة فی أبواب القضاء منها:

۱- ورد عن الإمام الصّادق علیه السلام قوله:

«اتَّقُوا الْحُکُومَةَ فَانَّ الْحُکُومَةَ إِنَّما هِیَ لِلامامِ الْعالِمِ بِالْقَضاءِ الْعادِلِ فِی الْمُسْلِمینَ، لَنَبیٍّ أو وصیّ نبیٍّ» «۱».

---

(۱) وسائل الشیعة، ج ۱۸، أبواب صفات القاضی، باب ۳، ح ۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۸

۲- وفی حدیث آخر ورد عن الإمام الصّادق علیه السلام بأن الإمام علی علیه السلام قال لشریح القاضی:

«یا شُرَیْحُ قَدْ جَلَسْتَ مَجْلِساً لا یَجْلِسُهُ الّا نَبیّ، اوْ وَصِیّ نَبیٍّ اوْ شَقیّ» «۱».

۳- وفی حدیث آخر عن الإمام الصّادق علیه السلام أیضاً أنّه قال:

«وَالْحُکْمُ لا یَصِحُّ الّا بِاذْنٍ مِنَ اللَّهِ وَبُرْهانِهِ» «۲».

وهکذا نجد أنّ الأدلة العقلیة الناظرة إلی التوحید الأفعالی وتوحید الحاکمیة والمالکیة تثبت اشتراط القضاء بالإذن الإلهی، وکذلک الآیات القرآنیة والأحادیث الشریفة الواردة فی هذا المجال، وما یقال إنّ المجتهد الجامع للشرائط (الولی الفقیه) له ثلاثة مناصب: منصب الإفتاء، ومنصب القضاء، ومنصب الولایة، فهوناظر إلی هذا المعنی.

والآن نبحث صفات القاضی فی الإسلام، وکذلک آداب القضاء، والفرق بین القضاء فی الإسلام والقضاء فی الثقافة الغربیة ومسائل

اخری فی هذا الباب.

---

(۱) وسائل الشیعة، ج ۱۸، ابواب صفات القاضی، باب ۳، ح ۲.

(۲) مصباح الشریعة، ص ۴۱ (إنّ اعتبار هذا الکتاب مشکوک عند العلماء، وبالاخص فإنّ مؤلفه لم یُعرف لحدّ الآن).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۴۹

صفات القاضی

اشارة

ذُکرت فی المصادر الإسلامیة شروط صعبة للقاضی لعلّنا لا نجدها فی أی مدرسة ودین آخرین، وإن اختلف فی عددها علماء الإسلام وفقهاء الشیعة والسنّة.

ولمّا لم یکن هذا الکتاب کتاباً فقهیاً استدلالیاً، فسنشیر فقط إلی المجمع علیه منها عند فقهائنا، ثم نستعرض استعراضاً خاطفاً تلک الشروط التی وقعت محل بحث ونقاش بین العلماء والتی اعتبر البعض اشتراطها والبعض الآخر کونها أموراً کمالیة فی القاضی.

أمّا الشروط المتفق علیها بین فقهائنا، وکما عبرّ عنها الفقیه الماهر صاحب الجواهر رضوان اللّه علیه: «لا خلافَ أجِدُه فِی شیء منها»، وکما عدّها المرحوم الشهید الثانی من موارد الاتفاق، فهی سبعة:

۱- البلوغ: فلا یقبل قضاء الصبی الذی لم یبلغ، ولا حکومته حتی لو کان یتمتع بدرجة عالیة من التقوی والعلم والاطلاع، لأنّ غیر البالغین غیر مکلفین بالأحکام الإلهیّة، ولذا فهم خارجون عن دائرة القوانین والأوامر الإسلامیة، وبهذا الدلیل لا یعتمد علی قضائهم وحکومتهم.

۲- کمال العقل: فلا یحق للمجنون ولا لناقص العقل ومن یفقد التعادل الروحی، أن یجلس علی مسند القضاء، ودلیله واضح.

۳- الإسلام والإیمان: فلا تقبل حکومة الخارج عن زمرة المسلمین ومن لم یعتقد بمبانی مذهب أهل البیت علیهم السلام ودلیله واضح أیضاً.

۴- العدالة: وهی مرحلة عالیة من التقوی تمنع صاحبها من ارتکاب الکبائر والاصرار

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۱۹۹

علی الصغائر، والحق أنّ من لا یتمتع بمثل هذه الدرجة من التقوی لا یُتوقع أن یقضی قضاءً صحیحاً.

۵- العلم والإطلاع علی القوانین الإلهیّة: فی موارد حقوق الناس والحدود والدیات والقصاص والمعاملات، وکذلک مقررات العدالة الإسلامیة. فهل ینفذ حکم من یفقد مثل هذا الشرط (الاجتهاد المطلق أو علی الأقل المتجزیء) أو غیر المجتهد المطلع علی کل المسائل الحقوقیة ومقررات العدالة الإسلامیة؟ فیه بحث ونقاش بین العلماء والفقهاء، وإن کان المشهور بینهم اعتبار الاجتهاد، حتی أنّ بعضهم اشترط أعلمیته علی کل علماء مدینته، ولکن هذا الشرط ضعیف.

وعلی کل حال، فإنّه وفی حالة عدم الحصول علی العدد اللازم من المجتهدین- المجتهد المطلق- فلا مناص من الاعتماد علی غیر المجتهدین، والمطلعین منهم علی کل المسائل عن طریق التقلید.

۶- طهارة المولد: وبعبارة أخری ولد الحلال، لأنّ ولد الحرام وإن لم یکن له ذنب فی کونه ولد حرام، إلّاأنّه غیر مقبول فی المجتمع

الإسلامی، فلا تکون کلمته نافذة، ولا شک فی ضرورة نفوذ کلمة القاضی وقبولها- مضافاً إلی ذلک، فإنّ احتمال الانحراف والذنب فی مثل هذا الإنسان أکثر من احتمالهما فی غیره وإن لم یکن مجبوراً علی الذنب والانحراف، (لاحظوا ذلک بدقة).

۷- الذکورة: المشهور والمعروف بین علماء الإسلام أنّ القاضی لابُدَّ أن یکون رجلًا، وإن خالف وتردّد بعض فقهاء العامة کأبی حنیفة فی هذا الحکم «۱».

ومن الواضح أن سیطرة العواطف والاحاسیس عند المرأة لایسمحان لها بالقیام بوظیفة فیها شدّة وصرامة کمسألة القضاء والحکومة، مضافاً إلی أنّ هذا الموضوع مورد اتفاق وإجماع علماء الشیعة.

---

(۱) نقل عن أبی حنیفة قبول قضاء المرأة فی الأموال، ولکن حکی عن الطبری جواز ذلک بقول مطلق. (بدایة المجتهد، ج ۲، ص ۴۶۰، کتاب الاقضیة).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۱

وهنا ثلاثة شروط وقع البحث فی شرطیتها بین العلماء:

۸- الحرّیة (وعلیه لا یمکن أن یکون العبد قاضیاً) ولکن الکثیرین لم یقبلوا هذا الشرط.

۹- البصر.

۱۰- السمع.

والواقع، لا یوجد ای دلیل علی اشتراط هذه الثلاثة، وعلیه فلا فرق فی صلاحیة القضاء عند الحر والعبد (ومن حسن الحظ أنّ موضوع الرقیّة منتفٍ فی زماننا).

وأمّا فی خصوص السمع والبصر، فإنّ لم یکن القضاء فی الموارد التی یحتاج فیها إلی الإبصار أو إلی السمع، فلو کان القاضی أعمی ولکن کان بإمکانه الاستماع والقضاء بدقّة، أو کان أصماً ولکن کان بإمکانه النظر وقراءة ملف الدعوی والقضاء بشکل صحیح، فلا مانع من حکومته، وإن کان الأغلب هو أنّ الأعمی أو الأصمّ لا یمتلک القدرة الکافیة للقضاء فی کل الموارد، وعلیه تکون رعایة هذین الشرطین واجبة غالباً من باب المقدمة.

وما ذکرنا هنا من الشرائط السبعة ولزومها، وعدم لزوم الشرائط الثلاثة الأخیرة، کان فی‌الواقع بنحو الإشارة، وأمّا تفصیل الکلام فی ذلک فموکول إلی الکتب الاستدلالیة الفقهیة «۱».

الشرائط الکمالیة:

وبالاضافة إلی الشرائط العشرة الانفة، فقد قلنا فی البحث السابق أنّ هناک شروطاً وصفاتٍ اخری اعتبرت فی الروایات الإسلامیة للقاضی والتی لابدّ من عدّها من شروط الکمال، وقد وردت إشارة إلی القسم المهّم منها فی عهد أمیر المؤمنین علیه السلام إلی مالک الاشتر (فی ضمن الشروط الواجبة)، وهی:

۱- «ثُمَّ اخْتَرْ لِلْحُکْمِ بَیْنَ النّاسِ أَفْضَلَ رَعِیَّتِکَ فِی نَفْسِکَ».

۲- «مِمَّنْ لا تَضیقُ بِهِ الْأُمُورُ».

---

(۱) یمکن فی هذا المجال مراجعة من کتاب الجواهر، ج ۴۰، ص ۱۲- ۲۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۲

۳- «ولا تُمَحِّكَهُ الخُصوم»، سعة الصدر.

۴- «وَلا يَتمادَى فى الزَّلَّةِ»، عدم اللجاجة.

۵- «ولا يحْصُر مِنَ الفىء الى الْحَقِّ اذا عَرَفَهُ»، التسليم للحق.

۶- «ولا تُشرِفُ نفسُهُ عَلى طَمَعٍ».

۷- «وَلا يَكْتَفى بِادْنى فَهْمٍ دُونَ أقْصاهُ»، عدم الاكتفاء بالتحقيق السطحى.

۸- «وَأَوقَفُهُمْ فى الشُّبُهاتِ».

۹- «وآخَذُهُمْ بِالحُجَجِ».

۱۰- «وأقلُّهُمْ تَبرُّماً بِمُراجَعَةِ الخَصْمِ».

۱۱- «وأصْبَرُهُمْ عَلى تَكَشُّف الأُمُورِ».

۱۲- «وأصْرَمُهُمْ عِنْدَ اتَّضاحِ الْحُكْمِ».

۱۳- «مِمَّنْ لا يَزْدَهِيه اطْراء وَلا يَسْتَميلُهُ إغْراء».

۱۴- «وَافْسَحْ لَهُ فِى الْبَذْلِ ما يُزيلُ عِلَّتَهُ وتَقِلُّ مَعَهُ حاجَتُهُ إلى النّاس» «۱»، ينبغى أن يكون مكتفياً من بيت المال.

ومضافاً إلى ذلك فقد وردت بعض الإرشادات فى الروايات الإسلامية فى القاضى والتى يمكن عدَّها من جهة ما، شرائط كمالية منها: عدم قبول دعوة الناس إلى طعام، عدم قبول الهدية وأن لا يذهب بنفسه للسوق لشراء حوائجه، وأن لا يدعو احد طرفى الدعوى إلى ضيافته، والورع عن كل الامور التى قد تؤدى إلى تاثير الناس فى حكمه وتغيير قناعاته فيحكم بغير الحق عالماً أو جاهلًا.

القرآن وصفات القاضى:

لم ترد الصفات والشروط بشكل مفصل ومبسوط فى القرآن الكريم، ولكن وردت

---

(۱) نهج البلاغة، عهد الإمام علىّ عليه السلام لمالك الاشتر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۳

تعبيرات جمعت فيها أكثر الشروط المذكورة.

۱- ففى موضع نجد القرآن الكريم يعتبر أنّ اتّباع الهوى يمنع من الحكم بالعدل، حيث يقول تعالى

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للَّهِ وَلَو عَلَى أَنْفُسِكُمْ أوِ الْوَالِدَيْنِ وَالاقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَولَى بِهِما فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوى أَنْ تَعْدِلُوا».

(النساء/ ۱۳۵)

۲- ونفس هذا المعنى جاء بشكل آخر فى قصه حكومة وقضاء داود عليه السلام، حيث خوطب داود بقوله تعالى

«يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». (ص/ ۲۶)

وبذلك يعتبر القرآن أنّ الورع عن «أمِّ المفاسد»- وهو اتباع هوى النفس- يمثِّل أحد الشروط الأساسيّة للحكومة بالحق، والنقطة المقابلة لها، هى الدرجة العالية من التقوى والمانعة من الانحراف عن مسير العدالة والحق، إلى درجة أنَّ أقوى العواطف الإنسانية كالعلاقات الأُسرية لا تستطيع أن تؤثر سلباً فى تلك التقوى

۳- وفى موضع آخر من القرآن- نجد أنّه يعتبر الحكم بما أنزل اللّه من شروط الإيمان والعدالة «۱»، ويؤكد على نبى الإسلام صلى الله

عليه و آله أن يكون حكمه مطابقاً لما علّمه اللّه «إِنَّا أَنْزَلْنَا اَلَيكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكَمَ بِيْنَ النَّاسِ بِمَا أَراكَ اللَّهُ». (النساء/ ۱۰۵)

۴- وفى موضع آخر نجد القرآن الكريم يُحذّرُ النبى صلى الله عليه و آله من اتباع أهواء الناس، فيقول:

«وأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ اَلَيكَ». (المائدة/ ۴۹)

۵- كما ويحذرهُ من أن تؤثر العداءات الشخصية فى القاضى فيحكم بغير عدل، بل لابدّ أن يكون الحكم والشهادة مطابقين دائماً للعدل والحق، سواءً كانا فى حق الصديق أو كانا

---

(۱) المائدة، ۴۴، ۴۵، ۴۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۴

فى حق العدو، يقول تعالى «وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَومٍ عَلَى الَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى . (المائدة/ ۸)

النتيجة:

من خلال الآيات المذكورة والروايات الإسلامية وفتاوى كبار الفقهاء فى الصفات اللازمة للقضاء والشهادة، وكذلك الصفات الكمالية فى القاضى، يمكن أن نستفيد هذه النتيجة وهى: أنّ الإسلام اعتنى عناية خاصة بهذهِ المسألة، وتابع بدقة فائقة قضية العدالة القضائية، وألزم معتقديه بها بشكل يمنع عن أدنى درجة من الانحراف عن الحق والعدالة فى القاضى مهما كانت قليلة حتى أنّه اهتم بأصغر الامور التى قد تؤثر فى عدالة حكم القاضى وتحرفه عن الحق، وحذّر منها.

ومتى ما اضفنا الشرائط الآتية فى الفصل اللاحق حول «آداب القضاء» سيتضح لنا أكثر فاكثر اهتمام الإسلام بهذا الأمر بشكل تتصاغر معه شعارات العدالة التى ترفعها المدارس الاخرى

آداب القضاء فى الإسلام:

المسألة المهمّة هى: إنّ الأديان الإلهيّة قد تقدمت على المدارس المادية بخطوات كثيرة فى مجالات القضاء والحكومة والقواعد التى تقتضيها المجالس القضائية، بل لا يمكن المقارنة بينهما فى هذا المجال، وما ذاك إلّامن أجل الاسس الأخلاقية القوية التى تمتكلها الأديان الإلهيّة فى تلك المجالات.

ففى هذه الأحكام نجد لطائف ودقائق كثيرة، وعلى الرغم من أن بعضها مرتبط بالزمان السابق وقد لا يكون له اليوم مورد، ولكنّها من وجهة النظر الاصولية تمتاز بمفهوم قيّم بالنسبة للمسائل القضائية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۵

ويكفينا للاستشهاد على ذلك ماجاء على لسان «المحقق الحلى» فى كتاب الشرائع فى بحث آداب القضاء والذى يعتبر فى الواقع عصارة ما ورد فى الروايات الإسلامية وكلمات الفقهاء.

حيث يقول: يستحب للقاضى رعاية عدّة امور:

۱- أن يطلب من أهل ولايته من يسأله عمّا يحتاج إليه فى أمور بلده (أى يتعرف على عادات الناس واوضاعهم الاقتصادية، وأن يتعرف على العلماء والصالحين وحتى القضاة السابقين ليحصل على بصيرة كافية فى عمله، إذ إنّ الاطلاع بأوضاع المنطقة والمحل والثقافة الحاكمة على الناس، له تأثير بالغ فى مسألة القضاء والحكومة العادلة).

۲- أن يسكن عند وصوله فى وسط البلد حتّى ترد الخصوم عليه وروداً متساوياً.

۳- وأن يُنادى بقدومه إن كان البلد واسعاً ولا ينتشر خبره فيه إلّابالنداء.

۴- أن يجلس للقضاء فى موضع بارز، مثل رحبة أو فضاء ليسهل الوصول إليه (لا خلف الأبواب المغلقة محاطاً بالحرس).

۵- أن يبدأ بأخذ ما عند الحاكم المعزول من حاجات الناس وودائعهم، لأن نظر الأول سقط بولايته. (وقد كانت العادة فى تلك الأزمنة أن يودع الناس ودائعهم عند الحاكم، وكذا الأموال المتنازع فيها).

۶- لو حكم فى المسجد، صلّى عند دخوله تحية المسجد، ثم يجلس مستدبراً القبلة ليكون وجوه الخصوم إليها (ليستشعر الخصوم أنّهم فى محضر اللّه).

۷- ويسأل عن أهل السجون، ويثبت أسماءهم وينادى فى البلد بذلك ليحضر الخصوم ويجعل لذلك وقتاً فإذا اجتمعوا أخرج اسم واحد واحد، ويسأله عن موجب حبسه، وعَرَض قوله على خصمه، فإن ثبت محبسه فوجب اعادته، وإلّا اشاع حاله بحيث إن لم يظهر له خصم اطلقه.

وكذا يسأل عن الأوصياء على الأيتام، وأمناء الحاكم، والحافظين لأموال الأيتام (الذين يليهم الحاكم) فيعزل الخائن، ويستبدل به الصالحين بحسب ما يقتضيه رأيه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۶

۸- أن يحضر من أهل العلم من يشهد حكمه، فإن أخطأ نبّهوه.

۹- أن لا يتولى البيع والشراء بنفسه (حذراً من مراعاة الناس لحاله فيبيعونه بأقل من القيمة السوقية، فيتأثر بذلك).

۱۰- أن لا يقطب وجهه فى مجلس القضاء، فيخاف الناس من بيان مطالبهم بصراحة، وأن لا يكون ليّنا فيتجرأ الخصوم.

۱۱- أن لا يضع فوارق بين الشهود (أن يكون الشهود سواءً الذين يعرفهم أم الذين لايعرفهم، القريب والبعيد سواسية أمام القضاء).

۱۲- أن يجمع الدعاوى المقدمة فى كل اسبوع مرّة، ويرتبها ويحفظها، وكذا ينظم الدعاوى المقدمّة فى كل شهر وكل سنة، فينظمها بتواريخها (أو يصدر أوامرهُ بهذا الصدد).

ويقول هذا الفقيه الكبير البارع فى بحث وظائف القاضى وما يلزم عليه مراعاته:

فى وظائف القاضى وهى سبع:

۱- المساواة بين الخصمين فى السلام والجلوس والنظر والكلام والانصات والعدل فى الحكم، (بمعنى أنّه إذا سلّمَ على أحدهما سلاماً مميزاً بالاحترام فعليه أن يسلّم على الآخر بنفس الكيفية، وكذا فى ردِّ السلام دونَ أن تؤثر فيه العلاقات الاجتماعية والمقامات الاجتماعية، وإذا نظر إلى أحدهما بلحاظات معينة فعليه أن ينظر للآخر بنفس الكيفية وحتى إذا استمع إلى كلام احدهما بدقة فعليه أن يستمع لكلام الآخر بنفس الدقة، والحاصل أنّ عليه مراعاة المساواة الكاملة فى مجلس القضاء والحكومة فى كل الجوانب حتى التشريفات والاحترامات الجزئية، وما ذاك إلّاللحدّ من الانحراف الكلى الكبير).

۲- لا يجوز له أن يُلقِّنَ أحد الخصمين مافيه حذر على خصمه ولا أن يهديه لوجوه الإحتجاج.

۳- إذا سكت الخصمان، استحبَّ أن يقول لهما تكلّما، أو ليتكلم المدّعى.

۴- إذا ترافع الخصمان وكان الحكم واضحاً، لزمه القضاء، ويستحب له ترغيبهما فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۷

الصلح، فإن أبيا إلّاالمناجزة، حكم بينهما.

۵- إذا ورد الخصوم مترتبين، بُدء بالأول فالأول، فإن وردوا جميعاً، قرع بينهم.

۶- إذا قطع المدّعى عليه دعوى المدّعى بدعوى لم تسمع حتى يجيب عن الدعوى وينهى الحكومة ثم يستأنف.

۷- إذا بدر أحد الخصمين بالدعوى فهو أولى «۱».

ونكرر هنا إنّ البحث الجامع والمستدل حول هذه المسائل موكول إلى كتب الفقه الاستدلالية ومصادر الحديث المعروفة، وما ذكرناه هنا عصارة ما جاء فى تلك الكتب ليتضح النظام الحاكم على المؤسسات القضائية الإسلامية، وليتضح الفرق بينه وبين سائر المدارس الوضعية.

والنقطة الاخرى المهمّة هنا هى أن الروايات الإسلامية أوصت القاضى بأن لا يجلس مجلس القضاء حال الغضب «۲».

كما ينبغى عليه أن لا يقضى بين الناس وهو عطشان أو جائع أو حال النعاس (إذ قد تؤثر تلك الامور فى قضائه سلباً) «۳».

تفاوت كيفية القضاء فى الإسلام عن المدارس المادّية:

توجد اليوم فى العالم مجالس قضائية كثيرة وهى جذابة بظاهرها ولكن متى ما قارّنا محتوى تلك المجالس القضائية مع المجالس القضائية الإسلامية، نجد بأنّ تلك المجالس المادية خاوية وسخيفة وسوف نجد اختلافات واضحة وبينة فيها، ومن جملتها:

۱- ينبغى على القاضى الإسلامى أن يكون صاحب نظر ورأى، ولا يقتصر على مواد القانون فقط، بل لابدّ أن يكون عارفاً بجذورها ومبانيها، مجتهداً فيها، وبعبارة أخرى الاجتهاد فى القضاء شرط من شروطه، بينما لا نجد مثل هذا الاشتراط فى دنيا اليوم

---

(۱) جواهر الكلام، ج ۴۰، ص ۱۳۹- ۱۴۹.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۵۶.

(۳) كنز العمال، ج ۶، ص ۱۰۳، ح ۱۵۰۴؛ اللمعة الدمشقية، كتاب القضاء.

ومجالسها القضائية حتى يكتفى بمعرفة مواد القانون فقط والاقتصار على تلك المواد، وهذا فرق واضح بين هذه المجالس والمجالس القضائية الإسلامية.

وبتعبير أوضح، أنّ الاطلاع على الأحكام التى جاءت فى تحرير الوسيلة (مثلًا) قد يكون عن طريق التقليد وقد يكون عن طريق الاجتهاد، وإن كانت وظيفة القاضى على أى حال تطبيق هذه الأحكام فى موارد الدعوى وتشخيص صاحب الحق عن غيره، ولكن هناك فرق واضح بين ما إذا كان مطلعاً على أحكام تحرير الوسيلة عن طريق التقليد، أم عن طريق الاجتهاد وتتبع جذور تلك الأحكام ومبانيها من الكتاب والسنّة والإجماع والعقل، فالإسلام يوحى بالطريق الثانى.

۲- فى النظم القضائية الحديثة، يُكتفى بلياقة القاضى فى حدود القضاء والحكومة فقط، أمّا فى الإسلام فإنّ هذا المقدار غير كافٍ، بل لابدَّ أن يكون القاضى نزيهاً فى كل المجالات، إذ إنّ العدالة تعنى الورع عن كل أنواع الذنب سواءً كان فى دائرة المسائل القضائية، أم فى دائرة غير القضاء.

ومن الواضح أن هناك فرقاً كبيراً بين من يكون ورعاً فى كل المجالات عن الذنب وبين من يكون ورعاً فى مجال معين ودائرة ضيقة، فاحتمال انحراف الثانى أكثر من احتمال انحراف الأول.

۳- إذا قضى قاضى المجالس القضائية الحديثة بالحق دون أن يكون مطلعاً، فإنّه لا يكون مسؤولًا، بينما وكما أشرنا آنفاً فإنّ مثل هذا القاضى مسؤول أمام اللّه فى نظر الإسلام، فالوصول إلى الحق لا يكفى وحده لعدم تحمل المسئولية، بل لابدّ أن يكون عن تحقيق

واطلاع.

۴- يعتبر الارتشاء فى نظام القضاء الإسلامى ليس من الذنوب الكبيرة فحسب، بل طبقاً لبعض الروايات فإنّه فى حدِّ الكفر والشرك، قال الإمام الصادق عليه السلام: «أمّا الرُّشا فِي الْحُكْمِ فَهُوَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ» «۱».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۱۶۳، باب تحريم الرشوه، ح ۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۵۹

فالإسلام يمنع القاضى حتى من قبول الهدية (بطبيعة الحال الهدايا التى تقدم له باعتبار أنّه فى مقام القضاء، سواء قبل الحكومة والقضاء أم بعده) وقصّة الأشعث بن قيس معروفة، حيث جاء ليلًا بهدية إلى دار الإمام علىّ عليه السلام وهى طبق من الحلوى اللذيذة، فقال له الإمام علىّ عليه السلام ما هذا؟

فقال: هدية جئت بها إليك! فغضب الإمام عليه السلام وصاح به:

«هَبَلَتْكَ الْهَبُول أَعَنْ دِيْنِ اللَّهِ أَتَيْتَنى لِتَخْدَعَنى»؟!

أى تريد أن تعطينى الرشوة باسم الهدية «۱».

والملفت للنظر هو أنّ الإسلام يلعن الراشى والمرتشى والواسطة بينهما، وقد ورد فى حديث عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله: «لَعَنَ اللَّه الرّاشِى والْمُرْتَشى وَالرّائشَ الَّذى بَيْنَهُما» «۲».

وقد وردت آيات من القرآن الكريم وبشكل مكرر تشير إلى مسألة الرشوة وتذمها، منها قوله تعالى

«وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وتُدْلُوا بِهَا الَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ امْوال النَّاسِ بِالأِثْمِ وَانْتُمْ تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ۱۸۸)

وللفخر الرازى هنا تعبير جميل وهو أنّ «الادلاء» مأخوذ من «الدلو» وهو الإناء الذى يستخرج الماء من البئر بواسطته، «والرشاء» بمعنى «الحبل» فكما أنّ الإنسان يستخرج الماء الموجود فى الدلو بالحبل، فكذلك الراشى يأكل أموال الناس بواسطة الرشوة التى يعطيها للقاضى.

نعم، فالتعبير ب «ولا تدلوا بها إلى الحكّام» تشبيه وإشارة لطيفة لهذا الموضوع.

ويستفاد أيضاً من سورة المائدة بأنّ علماء اليهود حرّفوا الأحكام الإلهيّة لمنافعهم الخاصة، وقد ذمّ القرآن الكريم هذه الظاهرة، فقد قال تعالى

«وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتى ثَمَناً قَلِيلًا وَمَن لَّم يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَاولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ».

(المائدة/ ۴۴)

---

(۱) نهج البلاغة، الخطبة ۲۴۴.

(۲) ميزان الحكمة، ج ۴، ص ۱۳۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۰

فمن هذهِ الآيات يمكن الاستنتاج بأنّ القضاء والحكومة للّهبالدرجة الاولى ومن ثَمَّ نقلت منه إلى من يرى فيه المصلحة، وبتعبير آخر: إنّ غير اللَّه يأخذ مشروعية أحكامه وقضائه من اللَّه تعالى وهذا ما يقتضيه التوحيد الأفعالى وحاكمية اللَّه أيضاً.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۱

الحدود والتعزيرات فى الإسلام

اشارة

فى معرض البحث عن النظام القضائى فى الإسلام، لابدّ من الإشارة السريعة إلى مسألة «الحدود والتعزيرات» (وتفصيل ذلك موكول إلى كتاب أو كتب مستقلة) وهذا البحث فى الحقيقة مكملُ لأبحاث القضاء فى الإسلام، لأنّ وظيفة القاضى هى «احقاق الحقوق» و «اجراء الحدود» ليردع المجرمين، ويحذّر المنحرفين والذين تلوثت أيديهم بالاجرام، وهنا لابدّ من بحث وتسليط الضوء على عدّة مواضيع.

۱- فلسفة الحدود والتعزيرات فى الإسلام

لا شكّ فى أنّ تشريع الأحكام الإلهيّة إنّما هو من أجل دعوة الناس إلى القسط والعدل، وهداية المجتمع إلى طرق الأمن والامان، ليتمكن الناس من كسب الفضائل والتخلص من الرذائل، والسير إلى اللّه ومقام القرب الإلهى والذى هو أعلى مقصد للخلق.

ولما لم تكن الأحكام الإلهيّة بمفردها مؤثرة فى كل النفوس، كان من اللازم أن تقترن بالانذار والتبشير من أجل خلق الدافع لدى الناس للتحرك باتجاه العمل بها.

ولمّا لم تكن الانذارات والبشارات الاخروية كافية لردع بعض الناس من ارتكاب المخالفات وداعية لقيامهم بالواجبات والوظائف الفردية والاجتماعية، كان من اللازم تعيين مجازات دنيوية لاولئك الذين يتجاوزون الحدود الإلهيّة المرسومة، ويسحقون الحق والعدالة باقدامهم، لتكون تلك المجازاة ضامناً لإجراء هذه الأحكام بين أولئك الذين لم يتربوا تربية دينية كافية والذين يفتقدون التقوى الدينية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۲

ولا شكّ فى أنّ النظام الإسلامى يختلف فى هذا المضمار عن النظم المادية، إذ لا يوجد فى تلك النظم أى ضامن إجرائى غير تلك المجازاة الدنيوية والمادية، ولذا فإنّ كل حكم فاقدٍ لمعاقبة المتخلف لا يعدُّ فى نظر تلك النظم قانوناً وحكماً، وإنّما يعتبر فى نظرهم توصية أخلاقية فحسب.

وأمّا فى النظم الإلهيّة، فإنّ الاعتقادات القلبية، والإلتزامات المعنوية والإيمان بمحكمة العدل الالهى العظيمة يوم القيامة والاعتقاد بمراقبة اللّه فى الدنيا، كل ذلك يعتبر من الدوافع المهمّة وضامناً إجرائياً قوياً، ولكن لما لم يكن ذلك الداعى موثراً فى كل النفوس لوحده، كان من الضرورى أن يكون إلى جنبه ضامناً إجرائياً ماديّاً، وعقوبة دنيوية.

واهتمام الشارع المقدس بإجراء الحدود والمجازاة ضد المتخلفين وصل إلى حدٍّ بحيث ورد فى الروايات المتعددة:

«حدٌّ يُقام فى الأرض أزكى من مطر أربعين ليلة وأيّامها».

وهذا الحديث مروى عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله وعن الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام أيضاً، وفى بعض النصوص وردت كلمة «أفضل» أو «أنفع» بدلًا عن كلمة «أزكى «۱».

ونقرأ فى حديث عن الإمام السابع موسى بن جعفر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى «يُحيى الأرض بعد مَوْتِها» قال عليه السلام: «لَيْسَ يحييها بالقَطر ولكن يَبْعَثُ اللّه رجالًا فَيُحيونَ العَدْلَ فتحيى الأرضُ لاحياء العَدْلِ ثمَّ قال عليه السلام: ولإقامَةُ الحَدّ فَيه أَنْفَعُ فى الأرضِ من القَطر أربعين صباحاً».

وكيف لا يكون إجراء الحدِّ «أنفع» و «أفضل» و «أزكى من قطر أربعين صباحاً، وسلامة وأمن المجتمع إنّما هى فى ذلك الأصل، وأنّ جذور كل خير وبركة فى إجراء الحدود، إذ إنّ الأحكام المباركة التى تجلب الخير والنعمة والمنافع الاقتصادية لا تفيد بلا وجود أمن

وأمـان فى المجتمع، كمـا أنّ أمن المجتمع لاـ يحصل بـدون إجراء الحـدود واحقاق الحق، ولولا ذاك لعمَّ الفساد والظلم فى المجتمع ولقتل الناس بعضهم بعضاً وخُرِّبت المدن واستضعف

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، باب ۱ من أبواب مقدمات الحدود، ح ۲، ۳، ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۳

عباداللَّه، ولهذا فإنّ أول ما طلبه إبراهيم الخليل عليه السـلام من ربّه عندما بنى الكعبة، هو أن يجعل ذلك البيت آمناً فقال: «رَبِّ أَجْعَل هَذَا بَلَداً آمِنَاً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ». (البقرة/ ۱۲۶)

وبذلك طلب نعمة الأمن قبل الأرزاق الاخرى لأنّه كان يعلم أنّ فقدان الأمن يمنع من الاستفادة من المواهب الاخرى

۲- معنى الحدِّ والتعزير

«الحـدود»: جمع «حـدّ» وهو لغةً بمعنى «المنع»، وانتخاب هذا الاسم لقسم من المجازاة الشـرعية هو لأنّها تمنع الناس من ارتكاب بعض المخالفات القانونية الشرعية. وهى فى الاصطلاح الشرعى فى عبارات الفقهاء، مجازاة خاصة تجرى فى حق المكلفين لارتكابهم بعض الذنوب.

وأمّـا «التعزير» فى اللغـة فهو بمعنى «التأديب» وقـد يأتى أحياناً بمعنى «التعظيم» أو «النصـرة» و «المنع»، وفى الاصـطلاح بمعنى المجازاة والاهانـة، حيث لم يرد فيها مقـدار معين فى الشـرع وإنّما أوكلت إلى نظر القاضـى، فهو الـذى يحـدد مقدار ونوع التعزير طبقاً «لميزان الجرم» الذى يرتكبه المذنب و «مقدار تحمله».

وعلى هـذا فالفارق بين «الحـدِّ» و «التعزير» هو أنّ مقـدار الأول ثابت ومحدد، وأمّا التعزير فهو فى الأغلب غير معين، وقلنا (فى الأغلب) لأنّ بعض التعزيرات ورد فيها مقـدار معين فى الروايات الإسـلامية، وتفصـيل ذلك فى كتاب الحـدود، ومع ذلك وقع الخلاف فى أنَّ تعيين المقدار فى تلك التعزيرات هل هو معيّن قطعى أم أنّه مذكور من باب المثال والمصداق؟

وتوجـد بعض الفوارق الاـخرى بين الحـدِّ والتعزير، حتّى عَـدَّ الشـهيد فى كتاب «القواعـد» عشـرة وجوه للاختلاف بينهما ولامجال هنا لتفصيل الكلام فيها «۱».

---

(۱) القواعد، الشهيد الأول، ج ۲، ص ۱۴۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۴

۳- تعداد الحدود الإسلامية

اشارة

ورد فى الإسـلام عشـرة حدود أساسـية لعشرة ذنوب كبيرة، وذكرت أربعة منها فى القرآن المجيد صريحة، واستفيدت الستة الباقية من السنّة الشريفة.

۱- حدُّ الزنا

جاء فی قوله تعالی

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِيْنِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُما طَآئِفَةٌ مِّنْ المُؤمِنِينَ». (النور/ ۲)

ففی الآیة إشارة إلی حد زنا المرأة والرجل، ولم یرد فیها «الاستثناءات» و «الجزئیات» الاخری مثل أحکام زنا المحصن والمحصنة والزنا بالمحارم والامور الاخری من هذا القبیل والتی بیّنتها السنة والروایات الإسلامیة بشکل مفصل.

۲- حدُّ السرقة

جاء فی قوله تعالی

«وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُما جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

(المائدة/ ۳۸)

ویوجد فی هذا المورد أیضاً بعض الشروط والاستثناءات فی قطع ید السارق التی وردت فی السنّة والروایات الإسلامیة، ونحن نعلم بأنّ القرآن الکریم یذکر غالباً أصول المسائل فقط ویترک التفصیل والشرح للسنّة.

۳- حدَّ القذف

ورد فی قوله تعالی فیما یرتبط بنسبة الأعمال المخالفة للعفّة للأشخاص المنزهین عنها، ما یلی:

«وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمحصِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَداً وَأُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». (النور/ ۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۵

فهذه المجازاة الثلاثیة للقاذف، ذکرت لتطهیر المحیط الاجتماعی وحفظ احترام وکرامة الناس، وللحد من اشاعة الفحشاء والفساد، کما أنّ هناک بعض الشروط والخصوصیات والاستثناءات ذکرت فی الروایات الإسلامیة.

۴- حدُّ المحارب

وردت فی القرآن المجید مجازاة ثقیلة لأولئک الذین یحاولون الاخلال بأمن المجتمع، وأولئک الذین یتعرضون بالأسلحة لأنفس وأموال وأعراض الناس، وهذهِ الشدَّة والصرامة فی المجازاة إنّما هی لردع الأشرار، یقول تعالی

«إِنَّما جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصلَّبوا أَو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (المائدة/ ۳۳)

والمقصود من المحارب، وکما أشرنا أیضاً، هو الشخص الذی یحمل السلاح ویتعرض لأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم بالسلاح، سواء أکان ذلک من قطّاع الطرق أو من أهل المدن أو من الأشقیاء الذین یتعرضون للناس بالسکّین والأسلحة الباردة فیعتدون علی أنفس الناس وأموالهم ونوامیسهم، والملفت للنظر أنّ القرآن عدَّ هولاء من المحاربین للّه ولرسوله صلی الله علیه و آله وهذا دلیل علی اهتمام الإسلام الفائق بالحریات والأمن الاجتماعی وحقوق الناس.

وهناک کلام بین الفقهاء والمفسرین فی أنّ هذه الأنواع الأربعة من الحدود المذکورة فیالمحارب، هل هی علی التخییر وبإمکان القاضی أن ینتخب أیّها شاء، أم أنّها معینة ولکنها تختلف باختلاف الجنایة التی یرتکبها المحارب؟ فمثلًا المحارب الذی یقتل الأبریاء، جزاؤه الاعدام، والذی یتجاوز علی أموال الناس فجزاؤه أن تقطع أصابعه، وإن ارتکب الجنایتین معاً فجزاؤه الاعدام والصلب لاعتبار

النّاس، وإن شهر السلاح فقط فى وجه الناس وأرعبهم بدون أن يرتكب جناية أخرى فإنّ جزاءَهُ النفى عن بلده، ولا مجال

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۶

هنا لبيان اختلاف الفقهاء والمفسرين بشكل مفصل، ومن أراد التفصيل فليراجع كتب الفقه المطولة (كتاب الحدود بحث «حدّ المحارب») وتفاسير القرآن ومن جملتها «التفسير الامثل» «۱».

هذهِ الحدود الأربعة وردت فى القرآن المجيد، وأمّا الحدود الستّة التى وردت الإشارة إليها فى السنّة فهى كالآتى.

۵- حدُّ المرتد

اشارة

والمراد به، الشخص الذى يعتنق الإسلام ثم يعود إلى الكفر ويعلن كُفره، وقد ذكر الإسلام له حدّاً شديداً (ولذلك فلسفة خاصة سنشير إليها فيما بعد).

فى القرآن الكريم وردت الإشارة فقط إلى ذمِّ هولاء المرتدين بشدّة وتوعدهم بالعذاب الإلهى العظيم، بدون أن يتعرض إلى الجزاء الدنيوى لهم، قال تعالى

«مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالايمانِ، وَلَكِنْ مَّنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». (النحل/ ۱۰۶)

ويقول عزوجل فى موضع آخر:

«كَيْفَ يَهدِى اللَّهُ قَوماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيْمَانِهِمْ وشَهدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ البَيِّناتُ وَاللَّهُ لَايَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِين* أُولئِكَ جَزَائُهُمْ أَنَّ عَلَيهِمْ لَعنَةَ اللَّهِ وَالمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ». (آل عمران/ ۸۶- ۸۷)

وكما أسلفنا فإنّه لم ترد إشارة فى القرآن الكريم إلى حدِّ الارتداد، ولكن العذاب العظيم الذى وعِدَ به المرتد يحكى عن الجزاء الدنيوى الثقيل أيضاً.

والمشهور بين الفقهاء هو أن المرتدّ إن كان فطرياً (وهو الذى انعقدت نطفته من أب وام مسلمين أو على الأقل أحدهما مسلم) فحدُّه القتل ولا تقبل توبته (إذا كان رجلًا)، وإن كان

---

(۱) التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۷

مرتداً ملياً، وهو الذى ولد من أب وام كافرين، يستتاب فإن تاب وإلّا قُتل، ومن جملة من يلحق بالمرتد، الشخص الذى يسبّ النبى الأكرم صلى الله عليه و آله- نعوذُ باللَّهِ- ويهينهُ، ويلحق بالنبى والأئمّة المعصومين عليهم السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام، وفى الحقيقة أنّ هذا العمل يعد من جملة أسباب الارتداد، وعليه فلا داعى لذكره كحدٍّ مستقل، وإن عنونه بعض الفقهاء فى كتاب الحدود فى الفقه الإسلامى بعنوان حدٍّ مستقل، وتوجد بعض الروايات الخاصة فى اباحة دم مثل هذا الشخص، وردت فى المصادر الإسلامية «۱».

لماذا كلُّ هذه الصرامة فى المرتدّ؟

الملاحظ هو أنّ الإسلام لم يتعامل بشدّة مع أولئك الذين لم يقبلوا الإسلام أصلًا، وإنّما يدعوهم إلى الإسلام بالاعلام والتبليغ المنطقى، فإن لم يقبلوا الإسلام وقبلوا العيش مع المسلمين بشرائط الذّمة فإنّه لا يكفّ عنهم فحسب بل يتكفل برعاية أموالهم

ومنافعهم المشروعة وأنفسهم.

وأمّا بالنّسبة إلى أولئك الذين اعتنقوا الإسلام ثم ارتدوا فإنّه يتعامل معهم بشدّة، وما ذلك إلّالأنّ الارتداد عن الإسلام يؤدّى إلى زعزعة المجتمع الإسلامى ويعدُّ نوعاً من الانتفاضة ضد الحكومة والنظام الإسلامى، ويكون غالباً دليلًا على سوءُ نوايا المرتدّين.

ولذا وكما سبقت الإشارة فإنّ مثل هذا المرتد الذى انعقدت نطفته من أب أو امٍ مسلمين، وعدل عن الإسلام وأعلن ذلك وثبت ارتداده فى المحكمة الإسلامية، فإنّ الإسلام يهدر دمه، وتقسم أمواله على أقربائه المسلمين وتنفصل عنه زوجته ولا تقبل توبته ظاهراً، أى أنّ هذه الأحكام الثلاثة تجرى عليه على أيّة حال.

وأمّا إذا كان نادماً حقاً فإنّ توبته تقبل مابينه وبين اللّه (هذا فى الرجل أمّا فى المرأة فإنّ توبتها تقبل ولا تقتل)، وأمّا إذا لم يندم ولم يتب، ولكنه لم يتفوه ظاهراً بما يدل على ارتداده، لم يتعرض له أحد باذى

---

(۱) وسائل الشيعة ج ۱۸، ص ۴۵۸، كتاب الحدود الباب ۲۵، ح ۱- ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۸

وإذا لم يكن المرتد عن الإسلام مولوداً من مسلمين أو من مسلم من طرف واحد فإنّه يؤمر بالتوبة، فإن تاب قبلت توبته ولم تجر عليه تلك الأحكام، وأمّا إذا لم يتب جرت عليه (ويكفى فى ذلك التوبة الظاهرية، ولم نؤمر بالتّحقيق فى حقيقة أمره).

ومن وجهة النظر السياسية قد يبدو أنَّ حكم المرتد الفطرى نوع من الارهاب العقائدى والفكرى، خصوصاً لأولئك الذين لم يطلعوا على حقيقة محتوى هذهِ الأحكام، ولكن الانصاف أننا إذا لاحظنا أنّ هذهِ الأحكام غير مرتبطة بأولئك الأشخاص الذين يعتقدون بامور لم يظهروها للملأ وإنّما هى مختصة بالمرتدين الذين يعلنون ارتدادهم، فهم فى الحقيقة يعلنون عن ثورتهم ضد الحكم الإسلامى، وعليه فمن الواضح أنّ هذه الصرامة والشدّة فى حقهم ليست خالية من الدليل، كما أنّها لا تتنافى أبداً مع حرية الرأى والعقيدة، فكم من دولة شرقية وغربية تجرى قوانيناً شبيهة بهذا القانون مع اختلافات بسيطة حيث إنّها تهدر دم كل من يحاول التعرّض والثورة ضد الحكومة.

وينبغى الالتفات إلى هذه النكتة وهى أنّ قبول الشخص للإسلام لابدّ أن يكون طبقاً للمنطق والعقل، خصوصاً أولئك الذين ولدوا من أبوين مسلمين وترعرعوا فى محيط اسلامى، فإنّه من البعيد جدّاً أنّهم لم يتعرفوا على محتوى الإسلام، وعليه فإنّ ارتدادهم عن الإسلام أقرب ما يكون إلى سوء النيّة والخيانة منه إلى الاشتباه وعدم درك الحقيقة، فمثل هذا الشخص يستحق جزاء الارتداد.

ورد فى القرآن الكريم الآية ۷۲، ۷۳ من سورة آل عمران، الحديث عن طائفة من المتآمرين على الإسلام الذين يظهرون الإسلام أولًا ثم يظهرون الكفر بعد ذلك ليوهموا الآخرين أنّهم لم يجدوا فى الإسلام من عناصر القوة شيئاً يدفعهم إلى البقاء على اعتناق الإسلام، ولذا فإنّهم عدلوا عنه، وهدفهم من ذلك زلزلة اعتقاد المسلمين بإسلامهم وإيمانهم، فقد ورد فى قوله تعالى

«وَقَالَتْ طائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِى انْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ». (آل عمران/ ۷۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۶۹

وخلاصة الكلام: أولًا: إنّ حكم توبة المرتد الفطرى مختص بالرجال المتولدين من مسلمين، وقبلوا الإسلام أولًا ثم رجعوا عنه، فمن لم يقبل الإسلام عند بلوغه، لا تشمله تلك الأحكام!

ثانياً: الأشخاص الذين لازالوا فى حال التحقيق والفحص، غير مشمولين بهذا الحكم حتى لو كانت نتيجة تحقيقهم هى الرجوع عن الإسلام واعتناق عقيدة أخرى لكن بشرط أن لا يظهروا خلافهم وعداءهم للإسلام بالقول، فلا يتعرض لهم حينئذٍ أحدٌ، ويعفون عن تلك العقوبات.

ثالثاً: متى ما سُئِلَ عن المرتدين، خيف على الإسلام من التآمر عليه يومياً من قبل جماعات (كاليهود فى صدر الإسلام) وخيانة

المسلمين وزلزلة اعتقادات الناس والثورة ضد الحكومة الإسلامية عن طريق اظهار الارتداد، ومن هنا يعمّ الهرج والمرج العظيمين فى المجتمعات الإسلامية، خاصة وإن مثل هذهِ الأعمال التخريبية لها آثار سريعة وخطيرة، ولذا فإنّ الإسلام تعامل معها بشدّة وصرامة.

۶- حدّ شرب الخمر

بحثت مسألة شرب الخمر وآثارها الوخيمة فى عدّة آيات من القرآن الكريم، ولكن لم يرد فى القرآن حدُّ شرب الخمر، وإنّما ورد ذلك فى الروايات الإسلامية، وحدّ شرب الخمر هو ثمانين جلدة، فقد ورد فى حديث عن بريد بن معاوية عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«إنَّ فِي كِتابِ عَلِيّ يُضْرَبُ شارِبُ الْخَمْرِ ثَمانِينَ وَشارِبُ النَّبيذِ ثَمانينَ» «۱».

(والخمر هو الشراب المتخذ من العنب، والنبيذ: الشراب المتخذ من التمر وقد يطلق أحياناً على معنى أوسع).

وقد ورد فى بعض الروايات تعليل هذا الحدّ بأنّ شارب الخمر يسكر فاذا سكر افترى وتعرض بالقذف (لناموس الناس، ومن هنا كان حدُّه حدِّ القذف) «۲».

---

(۱) مرآة العقول، ج ۲۳، ص ۳۳۰، ح ۴.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۳۱، ح ۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۰

۷- حدُّ اللواط

لقد بيّن القرآن الكريم قبح هذا العمل وعظمة هذا الذنب حين استعرض قصة قوم لوط عليه السلام، وباعتقاد بعض المفسرين فإنّ إشارة إجمالية وردت فى بيان حدِّه فى قوله تعالى

«وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَاعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً». (النساء/ ۱۶)

وهذا مبنى على أنّ «اللّذان» إشارة إلى الرجلين وأنّ الضمير فى «يأتيانها» إشارة إلى اللواط، فى حين أنّ هذا الضمير يعود إلى كلمة «الفاحشة» التى وردت فى الآية السابقة على هذهِ الآية إشارة إلى «الزنا».

وعلى أيّة حال فإنّ حدّ اللواط طبقاً للروايات الإسلامية هو الاعدام، فى صورة تحقق الادخال، فإن لم يتحقق فالجلد وقد وردت روايات كثيرة فى هذا المعنى عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام «۱».

۸- حدّ المساحقة

وللمساحقة فى الإسلام حدُّ شديد، وهو طبقاً للمشهور، كحدِّ الزنا، مائة جلدة، ولا فرق فيه بين المحصنة وغيرها.

وهذا المطلب ورد فى روايات عديدة عن أئمّة الدين «۲».

ولا يوجد فى القرآن الكريم ما يدلُّ بصراحة على هذا الحكم، ولكن بعض المفسرين يرى أنّ فى سورة النساء إشارة إلى ذلك، يقول تعالى

«وَاللَّاتى يَأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِنْ نِّسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُم فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوفّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

ولكن أغلب المفسرين عدَّ هذهِ الآية إشارة إلى حكم الزنا قبل نزول حكم الجلد فى سورة النور، والقرائن الموجودة فى هذهِ الآية

والآية التالية لها تؤيد هذا المعنى أيضاً.

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۱۶ أبواب حدّ اللواط.

(۲) المصدر السابق، ص ۴۲، أبواب حدّ السحق والقيادة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۱

۹- حدّ القيادة

القيادة أو الوساطة بين النساء والرجال الذين يرتكبون الأفعال المنافية للعفّة، لها حدٌّ ثابت ومعين فى الإسلام أيضاً (وأن لم يُذكر ذلك الحدُّ فى القرآن)، وطبقاً للمشهور فإنّ حدّ القيادة هو الجلد ۷۵ جلدة، أى ثلاثة أرباع حدِّ الزنا «۱».

۱۰- حدّ الساحر

يذمُّ القرآن المجيد السحر والسحرة بشكل واضح، حيث نقرأ فى قصة موسى وفرعون، على لسان موسى عليه السلام: «وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيثُ أَتَى . (طه/ ۶۹)

وفى قصة هاروت وماروت (المَلَكَيْن) ورد ذمٌّ شديد، حيث عدّت الآيات القرآنية الواردة فى هذِهِ القصة السحر كفراً، حيث جاءت فى سورة البقرة، الآية ۱۰۲.

ولكن لم ترد إشارة فى القرآن الكريم إلى حدِّ الساحر، وإنّما ورد فى الروايات الإسلامية إنّ حدَّ الساحر القتل «۲».

وهناك خلاف بين الفقهاء فى أنَّ هذا الحدَّ مطلق وبدون قيد وشرط أم أنّه خاص بأولئك الذين يحلّون السحر ويفعلونه أو بتعبير آخر «المرتدين»؟

كما أنّ هناك كلام بين العلماء فى حقيقة السحر، وإنّه هل للسحر واقعية أم أنّه نوع تخّيل؟ أم أن بعضه واقعى وبعضه تخيّل؟

ومن هنا، بحثت مسألة السحر بشكل مطول فى الكتب الفقهية «۳».

وما ينبغى معرفته هنا هو أنّ شدّة الإسلام وصرامته فى مسألة السحرة قد يكون باعتبار أنّ هؤلاء السحرة وقفوا بوجه الأنبياء وحاربوهم كما هو واضح من قصة سحرة فرعون،

---

(۱) راجع كتاب جواهر الكلام، ج ۴۱، ص ۴۰۰؛ وكتاب وسائل الشيعة، أبواب حدّ السحق والقيادة، الباب ۵، ج ۱۸، ص ۴۲۹.

(۲) وسائل الشيعة ج ۱۸، ص ۵۷۶.

(۳) وهذا البحث تارة عنون فى المكاسب المحرمة فى مبحث تحريم السحر، وتارة فى كتاب الحدود، فى مبحث حدِّ الساحر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۲

وأحياناً يقوم هؤلاء السحرة بدور إغواء الناس البسطاء فيحرفونهم عن الاعتقاد بمعاجز الأنبياء، وهذا ذنب عظيم يستوجب عقاباً شديداً.

كان ذلك، فهرسة للحدود الإلهيّة فى الإسلام، الهدف منها تطهير المجتمع والحدّ من انتشار الفساد والمنكرات وضياع الأمن بين الناس.

ومضافاً إلى هذهِ الحدود، وكما أشرنا سابقاً، فإنّ بعض العقوبات الاخرى مقررة فى الإسلام، سمّاها الفقهاء «التعزيرات» (والتعزير ياتى بمعنى المنع، التأديب، التعظيم والاحترام والنصرة أيضاً كما بينا ذلك سابقاً، وكل هذهِ المفاهيم تجتمع مع التعزير بمعنى «العقاب»، وذلك لأنّ التعزير يمنع المجرم والمذنب من الذنب، ويؤدبه، ويبعث على احترامه وتعظيمه فى المستقبل، وينصره على هواه ونفسه

الأمارة).

قلنا بان «التعزيرات» هى العقوبات التى تجرى فى الذنوب التى لم يرد فيها حدٌّ معين.

وتوضيح ذلك:

إنّ كل قانون لابدّ من ضامن لتنفيذه، بمعنى السند الّذى يوجد دافعاً عقلائياً لاجرائه، فإن خلى القانون من هذا السند تبدل إلى توصية أخلاقيّة بحتة، وخرج عن النطاق العملى.

صحيح أنّ الدوافع الإلهيّة والثواب والعقاب يوم القيامة، من الدوافع القوية عند المؤمنين، ولكن الإسلام لم يكتف بهذهِ الحوافز الاخروية وإن كان يحترمها ويقدسها، ولكنه أضاف إليها دوافع دنيوية ومادية، ليعمل من كان ضعيف الإيمان والذين لا تؤثر فيهم الوعود الاخروية كثيراً، على رعاية تلك القوانين خوفاً من العقاب على أقل التقادير، كى لا يتحول المجتمع إلى ميدان يجول ويصول فيه المفسدون الفاسدون عديمو أو ضعيفو الإيمان.

ولما كانت الذنوب يختلف بعضها عن البعض الآخر، كما ويختلف المرتكبون لها من جهة الاطلاع والعمر والسوابق الاخلاقية، وكذا المكان والزمان، وقدرة تحمل تلك

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۳

العقوبات، اختلفت التعزيرات أيضاً، فأوكل تعيينُها إلى نظر القاضى فيراعى فيه الشروط بدّقة من كل الجهات فيعين ما يراه مناسباً للمجرم.

وفى الحقيقة، إنّ كل العقوبات الإسلامية متفاوتة- ماعدا بعض الموارد التى ادرجت فى الحدود المعينة، فيؤثر فى التعزير ومقداره أحوال المجرم وكيفية وكميّة الذنب الذى يرتكبه، ولذا فتعيين مقدار التعزير موكول إلى نظر القاضى.

عدّة نكات مهمّة فى التعزيرات الإسلامية:

۱- وحدة القرار

إنّ حرّية القضاة فى تعيين مقدار التعزير وإن كانت امتيازاً ونقطة قوة مضيئة تمنحهم إمكان تعيين التعزيرات المناسبة للمجرمين كلٌّ بحسب جرمه، ولكن هذه المسألة تصير سبباً أحياناً فى اختلاف القضاة فى المناطق المختلفة فى كمية التعزيرات للجرم الواحد، وهذا الأمر لم يكن يشكل مشكلة فى الزمن الماضى حيث كانت المناطق متصلة بعضها عن البعض الآخر، ولكن اليوم وبالالتفات إلى الاتصالات السريعة والواسعة بين المناطق المختلفة، يشكل ذلك مشكلة حقيقية.

ولهذا الدليل، فلا مانع من أن يجلس أهل النظر والقضاة البارعون فى جلسات مشتركة لتعيين حدود للتعزيرات، ولكن ينبغى أن لا تكون تلك التعزيرات معينة وإنّما كحدٍ أعلى وحدٍّ أدنى كالحبس والغرامة المالية والعقوبات الإسلامية وامثال ذلك لتكون التعزيرات على نسق واحد فى المناطق المختلفة.

وهذا الأمر ينسجم تماماً مع الموازين الإسلامية، وعلى أقل تقدير يمكن الاستدلال على مشروعيته بالعناوين الثانوية.

۲- عدم اقتصار التعزير على الجلد

التعزير- وكما أسلفنا- له معنى واسع يشمل كل ردع وتأديب، ولا يوجد أى دليل على

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۴

أنّ هذا المعنى قد تغيّر فى الشرع الإسلامى المقدس أو فى اصطلاح الفقهاء (وبالاصطلاح ليس له حقيقة شرعية أو متشرعية)، كما أنّه لم ينقل إلى معنى جديد فى اصطلاح الفقهاء، وإن كان كثير من الفقهاء وتبعاً للروايات اعتمدوا على مصداق خاص منه (الجلد)، ولكن بيان هذا المصداق المعروف لا يُعدُّ دليلًا على انحصار مفهوم التعزير بالجلد، وإن توهّم بعضٌ أنّ التعزير مساوٍ للضرب والجلد.

ولكن التحقيق والتدقيق فى كلمات الفقهاء يثبت بطلان هذا التصور.

يقول العلّامة الحلّى- قدس سرّهُ الشريف- فى «التحرير» بعد أن يبيّن أنّ التعزير ورد للجنايات والذنوب التى لم يرد فيها حدٌّ معين: «وَهُوَ يَكُونُ بِالضَّرْبِ وَالحَبْسِ وَالتَّوبِيخِ مِنْ غَيْرِ قَطْعٍ وَلا جَرْحٍ وَلا أَخْذِ مالٍ» «۱».

ويقول فى كتاب «الْفقه على المذاهب الأربعة» بعد نقل كلام «ابن القَيِّم» وإن ظاهر عبارته أن الحاكم له تعزير المجرمين بأى طريقة يرى فيها الصلاح- سواءً الحبس أو الضرب-: «وَبِالْجُمْلَةِ فَإِنَّ التَّعزِيرَ باب واسع يُمْكِنُ لِلْحاكِمِ أنْ يَقْضى بِهِ عَلَى كُلِّ الْجرائم الَّتى لَمْ يَضَعِ الشّارِعُ لَها حدّاً أَوْ كَفّارَةً عَلَى أنْ يَضَعَ العقُوبَةَ المُناسِبَةَ لكلِّ بَيئةٍ ولكلِّ جَرِيْمَةٍ مِنْ سَجْنٍ أَوْ ضَرْبٍ أَوْ نَفيٍ أَوْ تَوبيخٍ أَوْ غَيْرِ ذلِك» «۲».

هذهِ مقتطفات من كلمات فقهاء الخاصة والعامة.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ روايات كثيرة وصلتنا فى ابواب مختلفة من الفقه، تدلُّ بوضوح على سعة معنى مفهوم ومصداق التعزير يطول المقام بذكرها هنا، ومن رغب فى الوقوف عليها لابدَّ له من مراجعة بحث التعزير فى كتاب الحدود والتعزيرات.

ومن مجموع ماورد فى كتب «اللغة» و «كلمات الفقهاء» و «الروايات الإسلامية» فى أبواب الفقه المختلفة، يمكن الاستنتاج بوضوح أن الحاكم الإسلامى غير مقيد بانتخاب نوعٍ معين من أنواع التعزير، والموارد ادناه كلها من جملة التعزيرات، بشرط رعاية حال المجرم

---

(۱) التحرير، ج ۲، ص ۲۳۹.

(۲) الفقه على المذاهب الأربعة، ج ۵، ص ۴۰۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۵

والمحيط الاجتماعى وكمية وكيفية الذنب وسائر الجهات:

۱- الضرب باشكال مختلفة.

۲- الحبس بكيفية وكمية متفاوتة.

۳- الغرامة المالية، أى أخذ مقدار من المال، وتوقيف أموال المجرم لمدة معينة (كحجز سيارات المتخلفين عن قوانين المرور).

۴- التوبيخ العلنى والسرّى.

۵- النفى إلى منطقة اخرى لمدّة طويلة أو قصيرة، وترك المراودة، أو ترك التعامل مع المجرمين.

۶- المنع من السفر إلى خارج البلدة، أو الدولة، أو حتى الإقامة الجبرية فى المنزل.

۷- المنع من التكسب والاشتغال لمدّة معينة.

۸- حرمانه من العمل فى بعض المناصب، والحقوق الاجتماعية.

۹- التشهير بالمجرم عن طريق وسائل الاعلام بشكل محدود أو موسع.

۱۰- حرمانه من بعض الامتيازات، كمنعه من ارتداء زى الروحانيين، بالنسبة إلى الأفراد الذين يرتدون ذلك الزى.

وامور اخرى يمكنها أن تردع المتخلفين والمجرمين، وتحدَّ من تكرار تلك الذنوب من قبلهم ومن ارتكابها من قبل الآخرين.

۳- معنی تخییر الحاکم فی التعزیرات

هناک کلام طویل بین الفقهاء فی مقدار التعزیرات التی یُخیّر فیها القاضی، ولکنهم متفقون علی أن التعزیر لابدّ أن یکون اقلَّ من الحدِّ وإن اختلفوا فی الحدِّ الذی لابدّ أن یکون التعزیر أقلَّ منه، وهل هو حدُّ الزنا، أم أقل الحدود، أم أنّه یتناسب مع الذنب المرتکب؟

وما ینبغی التنبیه علیه هنا هو أنّ المراد من تخییر القاضی فی انتخاب کمیة وکیفیة التعزیر، لا یعنی أنّه یتبع میوله الشخصیة فی ذلک، بل المراد فی التخییر هو فسح المجال

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۶

للقاضی لکی یأخذ بنظر الاعتبار مناسبات «الجرم» و «الجریمة» من کل الجهات، فالقاضی وإن کان ظاهراً مخیّر فی تعیین التعزیر إلّاأنّه فی الحقیقة لیس مخیراً، لأنّه یُعیّن لکل جرم مقداراً من العقوبة یتناسب مع ذلک الجرم، بمعنی أنّ الجرم إذا کان یقتضی الحبس لمدة شهر من الزمان، أو عشرین جلدة فلا یمکنه زیادة تلک المدّة أو عدد الجلدات حتی یوماً واحداً أو جلدة واحدة، أو فلساً واحداً فی الغرامة المالیة.

۴- التعزیرات فی القرآن الکریم

اشارة

ذکرت فی القرآن الکریم بعض موارد التعزیر یمکن أن تکون نموذجاً للحکم الکلی الإسلامی:

أ) قصة المتخلفین عن غزوة تبوک

وتوضیحه: نقرأ فی قوله تعالی

«وَعَلَی الثَّلاثَةِ الَّذِینَ خُلِّفُوا حَتَّی اذَا ضاقَتْ عَلَیْهِمُ الارْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَیْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا انْ لَّامَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ الَّا إِلَیْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَیْهِمْ لِیَتُوبُوا انَّ اللَّهَ هُوَ التَّوابُ الرَّحِیمُ». (التوبة/ ۱۱۸)

فقد بُیِّنَ فی هذه الآیة بنحو الإشارة، وفی الروایات والتفاسیر بنحو التفصیل، التعزیر العجیب الذی مارسه النبی الأکرم صلی الله علیه و آله فی حق أولئک النفر الثلاثة الذین تخلّفوا عن غزوة تبوک (والذین لم یأتمروا بأمر رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وترکوا الجهاد بدون عذر وجیه).

وهؤلاء الثلاثة طبقاً لتصریح بعض الروایات هم «کعب بن مالک» و «مرارة بن ربیع» و «هلال بن امیّه»، ومع أنّهم لم یکونوا من المنافقین ولکنهم تخاذلوا عن الجهاد فی تبوک، ثم انتبهوا إلی أنّهم ارتکبوا ذنباً عظیماً، وندموا علی ذلک.

وعندما رجع الرسول الکریم صلی الله علیه و آله من غزوة تبوک، جاء هؤلاء الثلاثة إلیه وقدموا الاعتذار، ولکن الرسول صلی الله علیه و آله لم یکلّمْهُمْ وأمر المسلمین بأن لا یکلّموهم، فلم یکلّمهم أحدٌ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۷

وقاطعهم الناس حتی أنّ نساءهم وأولادهم جاءوا إلی النبی صلی الله علیه و آله وطلبوا منه الرخصة فی الانفصال عنهم، فلم یسمح لهم الرسول صلی الله علیه و آله بالانفصال التامِّ عنهم وإنّما أمرهم بعدم مقاربتهم.

وعندما وجَدَ هؤلاء المتخلفون أنفسهم فى حصار اجتماعى رهيب وضاقت عليهم الآفاق على سعتها اضطروا إلى ترك «المدينة» هرباً من الفضيحة والذلّ، والتجأوا إلى الجبال فى أطراف المدينة، فكان أهلوهم يأتونهم بالطعام ولكن كانوا لا يكلمّونهم حتى بكلمة واحدة!

وحينئذٍ قال أحدُهم لصاحبيه: والآن وقد قاطعنا الناس تعالوا ليقاطع أحدُنا الآخر، فلعلَّ اللَّه يقبل توبتنا!

وتحقق هذا الاقتراح عملياً، وبعد خمسين يوماً من التضرع والتوبة إلى اللَّه، قبلت توبتهم ونزلت الآية الآنفة الذكر «۱».

وبمختصر تدقيق فى هذه الحادثة التاريخية العجيبة، يتضح لنا أنّ هذا الأمر فى الواقع نوع مهمّ من التعزير، وإنّه سجن معنوى شديد مقترن بالتحقير والتشهير والطرد المؤقت من المجتمع، وقد ترك أثراً بليغاً فى نفوس المسلمين وفى نفوس هؤلاء المجرمين الثلاثة، وصار سبباً فى ترك مثل هذهِ الذنوب فى المستقبل.

وهذهِ القصة شاهد حيٌّ آخر على عمومية مفهوم التعزير وعدم اختصاصه بالجلد بالسياط، وتدلّ أيضاً على أنّ بعض أنواع التعزيرات لها تأثير أقوى وأبلغ بكثير من الجلد بالسوط، وإنّه يكون موجباً للنهى عن المنكر بشكل أوسع فى المجتمع.

ب) قصة ثعلبة

والمورد الآخر هو قصة أحد الأنصار (ثعلبة بن حاطب) والتى ورد ذكرها فى الآيات وهى قوله تعالى

---

(۱) تفسير مجمع البيان؛ وتفسير روح الجنان، ذيل الآية مورد البحث؛ وسفينة البحار.

«وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَّهُم مُعرِضُونَ* فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ* أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الغُيُوبِ». (التوبة/ ۷۵- ۷۸)

يعتقد كثير من المفسرين أنّ هذهِ الآيات نزلت فى شأن أحد الأنصار واسمه «ثعلبة بن حاطب»، لقد كان هذا الرجل فقيراً، يأتى إلى المسجد دائماً ويطلب من رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أن يدعو اللَّه أن يعطيه مالًا كثيراً، فكان النبى صلى الله عليه و آله يقول له: «قليلٌ تؤدّى شُكْرَهُ خيرٌ من كثير لا تُطيقُهُ»، ولكن ثعلبة كان يصرُّ ويلِحُّ على النبى صلى الله عليه و آله، ويُقسم بأنّه سيؤدّى كل ما عليه من حقوق فيما لو أعطاه اللَّه المال الكثير، فاضطر النبى صلى الله عليه و آله إلى أن يدعو اللَّه أن يعطيه مالًا كثيراً.

لم تمض فترة طويلة إلّاومات ابن عمّ ثعلبة وكان غنيّاً، فورث ثعلبة ثروة طائلة، وكانت ثروته تزداد يوماً بعد آخر، فصار يملك قطعاناً من الأنعام.

وعندما حان موسم الزكاة بعث الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله الجباة لجمع الزكوات، فلم يمتنع ثعلبة الذى ذاق لتوّه لذَّة المال عن دفع الحق الإلهى فحسب، بلْ أخذ يُشكل على أصل تشريع الزكاة أيضاً! وادّعى أنّها «شبيه الجزية» التى تؤخذ من أهل الكتاب! (عاد مأمور رسول اللَّه صلى الله عليه و آله صفر اليدين، فنزلت الآيات المذكورة أعلاه فى ذمِّ ثعلبة وبخله ونفاقه ونقضه العهد!).

نزول هذهِ الآيات بنفسه يُعدُّ تعزيراً شديداً فى حقه، لأنّها فضحت افعاله القبيحة.

وطبقاً لبعض الروايات فإنّ ثعلبة ومن أجل استعادة حيثيته وجبر هذهِ الخسارة الاجتماعية الفادحة، جاء بنفسه إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأعلن عن استعداده لدفع زكاة أمواله، ولكن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله رفض قبولها منه!

رَحَل رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى جوار ربّه، فجاء ثعلبة ثانية إلى الخليفة الأول ليؤدّى زكاة ماله، فلم يقبلها منه الخليفة الأول!

وفى زمن الخليفة الثانى والثالث جاء ثعلبة ليدفع زكاة أمواله، فكان جواب كل منهما له

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۷۹

هو: لا نقبل منک لأنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله لم یقبل منک، ومات ثعلبة فی آخر أیّام خلافة عثمان «۱».

ففی الآیات الآنفة الذکر، وإن لم یُصرَّح بمسألة التعزیر، ولکن نفس هذا الأمر (نزول الآیات فی ذم فعل ثعلبة وفضحه، ومعاملة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والخلفاء لثعلبة بتلک الکیفیة)، یعتبر من مصادیق التعزیر، وقد ترک ذلک أثراً عمیقاً فی نفسه ونفوس الآخرین، ولا یراد من التعزیر إلّاردع المذنبین سواءً بالعقاب المادی أو المعنوی.

ج) آیة الایذاء

وکما أشرنا سابقاً، فإنّ القرآن قد أمر بمعاقبة الرجال والنساء (الذین لا أزواج لهم) ویرتکبون الزنا، حیث یقول تعالی «والَّذَانِ یَأْتِیَانِهَا مِنکُم فَآذُوهُمَا ...». (النساء/ ۱۶)

فإن کان المراد من الایذاء هنا هو نفس الحدّ الشرعی الوارد فی الآیة ۲ من سورة النور:

«الزَّانِیَةُ والزَّانی ..»، فحینئذٍ لا علاقة له ببحث التعزیرات بل یدخل فی بحث الحدود، ولکن متی ما قلنا أنّ المنظور من «الایذاء» هو العقاب بنحو مطلق والذی لیس له حدٌّ وحدود معینة مذکورة وإنّه یرتبط بما قبل نزول حدِّ الزِنا- کما قاله جمع من المفسرین- فإنّه حینئذٍ سیرجع إلی التعزیرات، لأنّه عقاب غیر معین فی حق الزناة غیر المحصنین کان موجوداً فی الإسلام قبل تشریع حدّ الزنا.

وقد ذکر المرحوم «الطبرسی» فی مجمع البیان معنیین لجملة «آذوهما» کلاهما یتلائم مع التعزیرات، الأول: هو أنّ المراد منها توبیخهما بالألفاظ وضربهما بالنعل! والثانی: هو أنّ المراد منها توبیخهما بالکلام فقط «۲».

د) آیة النشوز

---

(۱) القسم الأول من هذهِ الروایة نقله کثیر من المفسرین، والقسم الأخیر منها ذکر فی تفسیر الکبیر، ج ۱۶ ص ۱۳۸؛ وتفسیر روح الجنان، ج ۶، ص ۷۴.

(۲) تفسیر مجمع البیان، ج ۳، ص ۲۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۰

نلاحظ فی القرآن الکریم حکماً یرتبط بالنساء الناشزات، ویعتبر هو الآخر من مصادیق التعزیرات، مع أنّ الأزواج قد امروا بمراعاة الاحتیاط فی إجراء هذا الحکم، یقول عزوجل:

«وَاللَّاتِی تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِی المَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَانْ اَطَعْنَکُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَیْهِنَّ سَبِیلًا». (النساء/ ۳۴)

والمراد بالناشزات أولئک النسوة اللاتی یمتنعن عن أداء وظائف الزوجیة، واللاتی تظهر فیهنَّ علامات عدم الوئام المختلفة «۱».

ففی الآیة أعلاه، ذکرت ثلاثة أنواع من التعزیر لمثل هؤلاء النسوة، الأول: الوعظ والنصیحة (ویجب أن لا ننسی بأنّ الوعظ فی کل مورد یعدُّ من مراتب التعزیر، لما له من الأثر الرادع)، الثانی: الهجر والابتعاد عنهُنَّ فی المضاجع، الثالث: العقاب البدنی، وکل من المرحلتین الثانیة والثالثة إنّما تجری مع عدم نجاح المرحلة السابقة لها فی التأثیر.

فإن سُئلنا: هل یجری ذلک فی الرجل إذا نشز وطغی

قلنا فی الجواب: نعم! ولکن لما کان مثل هذهِ العقوبات خارجة عن طاقة النساء، فإنّها أوکلت إلی الحاکم الشرعی، فیکلف الحاکم بمعاقبة الرجال الناشزین بوعظهم ونصیحتهم أو ضربهم فی موارده.

وقصة الرجل الذی أجحف بحق زوجته ولم یقبل الرضوخ إلی الحق فأجبره الإمام علیّ علیه السلام علی التسلیم بکل الطرق حتی

اضطر إلى تهديده بالسيف، معروفة.

ومن هنا يتضح الجواب عن السؤال الذى قد يخطر فى أذهان الكثير من الناس عند ذكر هذهِ الآيهٔ وهو: كيف يمكن أن يسمح الإسلام للرجال بضرب نسائهم، فى حين أنّ هذا الأمر يسىء إلى كرامهٔ الإنسان وخصوصاً شريك الحياهٔ، وذلك:

«أولًا»: أنّ المراد من الضرب والعقاب البدنى هنا ليس أن يأخذ الرجل السوط وينهال على زوجته ضرباً حتى يختلط لحمها بدمها، ولا أن يضربها بكفّه على وجهها حتى يسودّ وجهها، فإنّ كل ذلك غير جائز فى شرع الإسلام المقدس، بل وعليه الدّيهٔ لو فعل ذلك، بل

---

(۱) «نشوز» من مادهٔ «نشز» على وزن «نذر» وفى الأصل بمعنى الأرض المرتفعهٔ، وإذا اطلق على أحد الزوجين كان معناه طغيان ذلك الزوج وامتناعه عن أداء وظيفته تجاه زوجه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۱

المراد هو الضرب الخفيف الذى لا يؤدّى إلى الجرح ولا إلى احمرار واسوداد الجسم، حتى قال بعض المفسرين فى توضيح الآيهٔ: ضرب كضرب اليد بالسواك! أو ما شابه ذلك ممّا يؤدّى إلى ايلامها، ولكن ينبغى أن لا يكون شديداً فيجرحها.

«ثانياً»: يجب أن لا ننسى أنّ النساء على أربعهٔ أقسام:

القسم الأول: النساءٌ المؤمنات الصالحات، الواقفات على مسؤوليتهنَّ فى الأسرهٔ وذلك على أثر اللياقات الذاتيهٔ والتربويهٔ المكتسبهٔ عندهُنَّ، ومثل هؤلاء النسوهٔ لابدّ من احترامهن من قبل أزواجهن على أتمّ وجه، وهُنَّ مصداق الآيهٔ: «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالمعَرُوفِ». (النساء/ ۱۹)

والقسم الثانى: أولئك النسوهٔ اللاتى يتخلفن عن أداء وظائفهنَّ فى محيط الأسرهٔ، فيتسبّبْنَ فى ايذاء أزواجهنَّ، ولكن تخلفهن ليس عميقاً وفاحشاً، بل يمكن أن يتأثرن بالوعظ والنصيحهٔ خوفاً من اللّه، ويرجعن إلى الحق لتقواهُنَّ، فهؤلاء مشمولات بقوله:

«فعِظوهُنَّ» فى الآيهٔ المذكورهٔ.

والقسم الثالث: النسوهٔ اللاتى يكون نشوزهُنَّ عميقاً، ولا ينفع معهن الوعظ ولكن ولأرواحهنَّ الشفافهٔ يؤثر فيهن الهجر، فانّهن لا يرغبن إلّافى العيش بصلح وصفاء، فهؤلاء يشملهنّ: «وَاهجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ». (النساء/ ۳۴)

فيبقى القسم الرابع: فقط من النساء اللاتى يتمردنَّ على أزواجهن ويمتنعن عن أداء وظائفهنَّ، ويتمادَين فى غيهن وعنادهنَّ، ولجاجتهنَّ، فلا تقوى عندهن فتمنعهن عن ذلك، ولا وعظ ينفع ويؤثر فيهن، ولا هجر فى مضجع يكدِّر أرواحهن، فلا سبيل إلّاالشدّهٔ، ومن هنا فإنّ الإسلام فى هذا المورد فقط يجيز للزوج أن يؤدب زوجته بالضرب الخفيف ويعزّرها، وهذا الأمر رائج حتى فى المجتمعات الشرقيهٔ والغربيهٔ المعاصرهٔ، حتى أنّ المعترضين على هذا القانون الإسلامى يمارسون ذلك بأنفسهم أيضاً فى مثل هذهِ الظروف والحالات، فمع تلك الظروف التى بيّناها لا يُعدُّ هذا الأمر عجيباً لا يتلائم مع احترام كرامهٔ الإنسان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۲

«ثالثاً»: هذا الأمر لا يختص بالنساء، بل يشمل الرجال إذا ما نشزوا وامتنعوا عن أداء وظائف الزوجيهٔ، وبنفس تلك المراحل المذكورهٔ، ففى البدء لابدّ من وعظهم ونصيحتهم، فإن لم يؤثر ذلك، فالتعزير المعنوى كالهجر وعدم الاكتراث بهم فى المجتمع حتى يرجعوا عن غيهّم، فإن لم يؤثر ذلك، فلابدّ من اتباع سبيل الضرب وأمثاله من العقوبات، ولكن وكما قلنا سابقاً: بما أنّ هذا العمل لايمكن للنساء القيام به وأنّ سلطهٔ الرجل تحول دونه، أرجع الأمر إلى الحاكم الشرعى فهو المكلف بايقاف هؤلاء الرجال عند حدّهم.

وبالالتفات إلى النكات الثلاثهٔ السابقهٔ، لا نظن أن منصفاً يعترض على هذا الحكم ويدعى أنّه خلاف كرامهٔ الإنسان.

ولابدّ من التنبيه إلى أنّه ورد فى ذيل هذهِ الأحكام الثلاثهٔ مباشرهٔ قوله تعالى: «فَإنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۳۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۳

أحكام السجن فى الإسلام

تمهيد:

اشارة

كما ذكرنا فى بحث التعزيرات، فإنّ «السجن» من أنواع «التعزيرات» والوسائل الرادعة للمتخلفين والمجرمين، مضافاً إلى أنّه لا مفر من الحبس، والتوقيف فى بعض الأحيان وذلك للحد من فرار المتهمين، أو الضغط والتضييق على المدينين لاجبارهم على أداء ديونهم، ولهذا فإنّ أحكام السجن لها موقع خاص فى الفقه الإسلامى، وسنشير هنا ببعض الإشارات لتكميل البحث المرتبط بالحكومة الإسلامية، وإن كان أداء حق هذا البحث يتطلب تأليف كتاب أو كتب مستقلة، وبعض المحققين قد كتب أيضاً فى هذا المجال بعض الكتب «۱».

۱- تأريخ السجن

اشارة

لا يتأتى لأحد أن يحدد تاريخاً دقيقاً لتاسيس أول سجن فى تاريخ البشرية، لأنّ هذهِ المسألة تعود تقريباً إلى بدايات الحياة الاجتماعية للبشرية، ومنذ ذلك اليوم الذى وجدت فيه الحكومات فالسجون كانت موجودة، بل وحتى غير الحكام كالملّاك الجبّارين والاقطاعيين الظالمين، قد اعدوا بعض الأمكنة لسجن عبيدهم ورعيتهم، حتى أنّ بعضهم كان يحبسهم فى اصطبلات الحيوانات!

وأمّا فى خصوص تاريخ تأسيس السجن فى الإسلام، فقد اتفق المؤرخون تقريباً على

---

(۱) من جملتها كتاب «أحكام السجون» للدكتور الشيخ أحمد الوائلى، وهو أحد المصادر التى اعتمدنا عليها فى بحثنا هذا.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۴

أنّه لم يكن فى عصر النبى صلى الله عليه و آله سجن بشكل رسمى، لا لأنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لم يكن يُجوِّز ذلك، بل لعدم اتساع المجتمع حينذاك وخاصة فى بداية الإسلام حيث كان الناس يلتزمون بالقوانين الإلهيّة، وقلّما كان يوجد شخص متخلف عن تلك القوانين.

ولذا لا نرى فى القرآن الكريم عبارة أو جملة واحدة تدل على وجود السجن فى ذلك العصر مطلقاً.

ولكن وفى نفس الوقت كانوا يستعينون بطرق اخرى بالنسبة إلى المجرمين الذين لابدّ من توقيفهم حتى يتعين التكليف فيهم، أو المَدينين الذين يمتنعون عن أداء ديونهم مع امتلاكهم المال اللازم لذلك، أو الأسرى الذين يؤسرون فى حروب المسلمين، ومن جملة تلك الطرق:

۱- كان المجرمون يحبسون أحياناً فى المسجد، ولّما لم يكن فى ذلك الوقت قفلٌ وقيدٌ ونحو ذلك، كانوا يوكلون شخصاً لمراقبة ذلك السجين كى لا يفَّر من المسجد، أو أنّهم كانوا يخطُّون دائرة حوله ويوصونه بعدم اجتياز ذلك الخط المستدير، وإلّا فهو مسؤول عن ذلك! والمتهم أيضاً ولأسباب اجتماعية خاصة ولأجل أن لا يتضاعف عقابه، لم يكن يتخطى ذلك الخط المرسوم حوله، ولعلَّ التعبير «بالترسيم» فى بعض الروايات إشارة إلى هذا المطلب.

۲- الحبس فى دهليز المنازل إذ إنّ أكثر المنازل كان لها دهليز طويل بين باب الدار وباحتها وفى أكثر الأحيان كان لها باب يفصلها

عن باحة الدار، فلو اغلقت البابان تحوّل الدهليز عملياً إلى سجن.

۳- نفس المنازل كانت نوعاً آخر من السجون، وكما ورد فى القرآن الكريم الأمر بحبس النساء فى المنازل، يقول تعالى: «وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ اربَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمُوتُ اوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

ولا يخفى أنّ هذا الحكم كان قبل نزول حدِّ الزنا، وعندما نزل، نسخ الحكم المذكور.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۵

۴- «الملازمة» وهى شكل آخر من السجون، وتكون بهذا الترتيب مثلًا، بأن يلازم الدائنُ المدين المتمكن ولا ينفصل عنه حتى يأخذ حقه.

۵- مسألة «استرقاق الأسرى تعتبر أيضاً قائمة مقام السجن، وقد وردت أحكامها مفصلًا فى الفقه الإسلامى.

هذه أشكال بدائية وبسيطة للسجون، وقد تغيرت وتعقّدت بمرور الزمن واتساع المجتمع الإسلامى وتعقيد الحياة وزيادة عدد المجرمين، وأصبح السجن على شكل بناء مخصص، وإن كان السجن موجوداً وبشكل كامل فى بلدانٍ اخرى وقبل قرون من الزمن.

أولُ سجن أُسّس زمن عمر بن الخطاب:

على الرغم من اصرار بعض المؤرخين على عدم وجود سجن بمعنى المحل الخاص لحجز المجرمين فى زمن الخلفاء الثلاثة الأُوَل، وإن السجن بُنى فى زمن أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام، إلّاأنّ هذا الادّعاء مخالف لكثير من الروايات التى ورد فيها أنّ «عمر» كان أول من أقدم على تأسيس السجن فى الإسلام.

والشاهد على هذا الأمر هو ما ذكره «ابن همان» فى كتاب «شرح فتح القدير» المصنف فى الفقه الحنفى حيث يقول:

«لم يكن السجن موجوداً فى زمن النبى صلى الله عليه و آله ولا زمن خلافة أبى بكر، بل كان المجرمون يُحجزون فى المسجد أو فى دهليز المنازل، حتى جاء «عمر» فاشترى بيتاً فى مكة بأربعة آلاف درهم وجعله سجناً «۱».

وقد ذكر هذا المطلب فى كتب أخرى أيضاً ككتاب «النظم الإسلامية» وكتاب «الجنبات المتحدة بين القانون والشريعة»، فقد صرّح هؤلاء أنّ «عمر» اشترى تلك الدار من «صفوان بن أميّة» أحد زعماء مكة، وقد ذكر هذا المطلب أيضاً فى كتاب «المهذب» لأبى إسحاق

---

(۱) شرح فتح القدير، ج ۵، ص ۴۷۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۶

الشيرازى، المصنف فى الفقه الشافعى، وأنّ عمر اشترى تلك الدار وبدّلها إلى سجن «۱».

ومن هنا نجد أنّ بعض الشعراء فى زمن الخليفة الثانى قد ضمنوا أشعارهم ببعض الأبيات التى لم ترق للخليفة أو أنّها كانت مخالفة للشرع فكان عمر يأمر بحبسهم فى تلك السجون، ولذا نظم بعضهم بعض الأبيات معتذراً ومبيناً براءته من التهمة، ومن مجموع هذه الأمور يتضح الشاهد الحى على وجود السجن فى زمن خلافة عمر.

ومن جملة هؤلاء الشعراء، «الحطيئة» الذى حبسه عمر فانشد هذين البيتين وأرسلهما إلى عمر:

ماذا تقول لأفراخ بذى مرخٍحُمرِ الحواصِل لا ماءٌ ولا شجرُ!

أَلْقَيتَ كاسِبَهُمْ فى قَعرِ مُظلمةٍفارحَمْ عليك سلامُ اللّه يا عُمَرُ!

ومن تعبيره «قعر مظلمة» بالخصوص يستفاد أنّ ذلك السجن كان عميقاً ومظلماً فكأنّه كان طامورة.

وهناك قرائن اخرى تدل على وجود مثل هذا السجن فى زمن عمر، إذ مع اتساع رقعة العالم الإسلامى يزداد عدد الجرائم والمجرمين لا محالة، فلا يمكن تصور عدم وجود سجن ومحبس للمجرمين.

السجن فى زمن أمير المؤمنين على عليه السلام:

والوجه الوحيد الذى يبقى للجمع بين كلام أولئك الذين نفوا وجود السجن فىزمن عمر وبين كلام أولئك الذين يصرّون على وجوده هو أنّ عمر لم يقدم على بناء السجن وإنّما اكتفى بشراء دار «صفوان بن أميّة» بأربعة آلاف درهم واستفاد منه فى هذا المضمار.

وأمّا فى عصر أمير المؤمنين على عليه السلام فإنّه أقدم شخصياً على بناء السجن (لكى تراعى المسائل الإنسانية بشكل أفضل فى حق المسجونين، وللحدّ من فرارهم).

والظريف فى هذا المقام هو أنّ التواريخ نقلت أنّ الإمام عليه السلام بنى أولَّ سجن من «البوارى»

---

(۱) المهذب، ج ۲، ص ۲۹۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۷

لتوفير الاضاءة والتهوية الكافيتين وسمّاه «النافع» (ولعلّ هذه التسمية لأنّ الحبس كان من أجل تربية المجرمين وإصلاحهم)، ولكن وللاسف فإنّ بعض المجرمين استغلَّ شفقة الإمام عليه السلام وأساء الاستفادة من هذا السجن، فقام بعض اللصوص بثقب حائط ذلك السجن وهربوا منه، فاضطر الإمام عليه السلام إلى بناء سجن محكم من الطين وسمّاه «المخيَّس».

وكما أشرنا آنفاً فإنّ الدولة الإسلامية كانت قد اتسعت رقعتها فى زمن عمر بن الخطاب بشكل لا يمكن معه إدارة المجتمع دون وجود سجن للمجرمين، والظاهر أنّ الاصرار على انكار هذا الموضوع يعود إلى الأوضاع السياسية والتوصيات القومية، وإلّا فإنّ التاريخ يشهد هو الآخر على هذا الأمر مضافاً إلى قرائن الأوضاع والاحوال.

وعلى أيّة حال كان السجن فى ذلك الوقت مجرد محلٍّ لحجز المجرمين والمدينين والسارقين وأمثال هؤلاء، ولم يكن ذلك السجن محلًا للمخالفين السياسيين أبداً، فلو صار وجودهم مضراً فى المجتمع فإنّهم كانوا يرسلون إلى المنفى كما هو الحال فى قضية أبى ذر الغفارى التى نقرأها فى التاريخ، حيث إنّ عثمان وحاشيته لم يتحملوا صراحة لسان أبى ذر الذى كان على الدوام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فاضطروا إلى نفيه إلى أرض وعرة بلا ماء ولا كلأ باسم «الربذة» وبقى هناك إلى أن ودّع دار الفناء وانتقل إلى جوار ربّه، ولكن سنرى أنّ السجن قد تغيّر جدّاً فى عصر بنى أمية وصار مقراً لاعتقال الخصوم السياسيين والمعارضين المؤمنين والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر.

۲- فلسفة وأقسام السجون

اشارة

ينبع عشق الإنسان للحرية من عشقه الملتهب للتكامل والرقى، ولا يمكن لأىموجود سجين أن يستمر فى سيره التكاملى، وحتى الحيوانات تتغرب فى أقفاصها مهما تهيأت لها ظروف العيش فى تلك الأقفاص، فهى ترجح الحرية على أسر القفص وإن كانت الأخطار تهددها خارج القفص.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۸

ولهذا، فإنّ الحيوانات الاسيرة فى الأقفاص لا تبدى أى مظهر من مظاهر الفرح والراحة كالتغريد واللعب إلّاإذا كانت قد ولدت فى

نفس تلك الأقفاص ولم تذق طعم الحرية.

وإذا كان ذلك غريزة كامنة فى الحيوانات، ففى الإنسان يتلاحم هذا الشعور العاطفى مع الإدراك العقلى، فيطلب الإنسان بالدليل والبرهان حريته، ولهذا الدليل نفسه يعتبر السجن وسلب الحرية منه نوعاً من أنواع العقاب الصعب والمُرِّ.

ولا شك فى أنّ أكثر السجون على طول التاريخ كانت تعبر عن أبشع صور الظلم من قبل الطغاة والحاقدين للوصول إلى مقاصدهم الدنيئة اللامشروعة، ولكن ذلك لا يمنع فى أن يكون للسجن فلسفة وأهميّة واقعية، وآثار إيجابية فى إصلاح الأفراد ومحاربة الفساد الاجتماعى.

فالاعتقال وسلب الحرية، يُعدُّ وسيلة ثقيلة للضغط على المسجونين لتحقيق أحد الامور العشرة التالية التى تشكل فلسفة الحبس.

۱- السجن الايذائى

هذا النوع من السجن يكون عادة للأشخاص الذين يرتكبون المخالفات، فالسجن يسلبهم الحرية ليقفوا على قبح أفعالهم، ويردعهم عن تكرارها فى المستقبل، ولكى يعتبر الآخرون بذلك. وهذا السجن موجود منذ القدم وحتى الآن، وكل حكومة لها مثل هذا السجن (إلّا فى بعض الموارد الاستثنائية).

۲- السجن الإصلاحى

وهذا السجن يستفاد منه لحبس الأفراد الذين يعتادون على الامور السيئة (كالمعتادين على المخدرات) والذين لا ينفع معهم النصح والإرشاد، فلا مهرب من حبسهم فى هذا السجن وعزلهم عن المجتمع لمدّة قصيرة أو طويلة، لإصلاحهم واجبارهم على ترك ما اعتادوا عليه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۸۹

۳- السجن الاحتياطى

كأن تحدث حادثة مهمة كمقتل نفس محترمة، ولم يُعرف القاتل ولكن يُتهم البعض بالقتل، وحينئذٍ لابدّ من التحقيق للتعرف على القاتل، ولمنع هروب المتهمين وعدم التمكن من القبض على القاتل بعد ثبوت الأدلة الكافية، لابدّ من توقيف المتهمين فترة التحقيق المؤقتة، فمن ثبتت براءته قدّم الاعتذار إليه وأُطلق سراحه، ومن ثبت جُرمه عوقب بالعقاب الذى يستحقه.

وهذا النوع من السجون كالأنواع السابقة كان ولا يزال موجوداً فى كل مكان تقريباً، ومن الطبيعى أنّ التحقيقات لابدّ أن تتمّ على وجه السرعة، إذ قد يكون المتهم بريئاً فى الواقع، فينبغى أن لا يبقى فترة طويلة فى الحبس.

۴- السجن التأديبى

وهذا السجن يُستفاد منه عادة فى حق الأطفال الذين لا تشملهم القوانين، والذين لو اطلق عنانهم لأساءوا استغلال الحرية الممنوحة لهم وسلكوا طريق الانحراف، ومن هنا كان لابدّ من ايداعهم فى مثل هذا السجن فى مقابل ارتكابهم بعض الذنوب. ليتم تأديبهم وتربيتهم.

۵- السجن السياسى

يطلق لفظ «السجين السياسى» على أولئك الأشخاص الذين يقومون بنشاطات سياسية معارضة لمصلحة المجتمع والنظام الحاكم، وقد تكون تلك النشاطات أحياناً غير معارضة لمصلحة المجتمع، بل قد تكون فى‌مصلحته ولكنها مخالفة لمطامع الحكم المتسلط على

رقاب أبناء المجتمع (كالسجناء السياسيين فى أكثر البلاد هذا اليوم، حيث يتمّ حبس هؤلاء الأفراد حتى لو كان الحق معهم).

۶- السجن الاستحقاقى

ونقصد بالاستحقاق هنا، أخذ الحق، فمثلًا، لشخص على آخر دينٌ يمتنع عن أدائه إليه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۰

مع أنّه متمكن من الأداء، فهنا قد يحبس المدين حتى يضطر إلى دفع ما عليه للدائن، ولكن هنا لابدّ من الافراج عنه فوراً بمجرد أن يقبل دفع حق الدائن إليه، لأنّ فلسفة الحبس تنتهى بهذا المقدار.

۷- سجن الحفظ

اشارة

وهذا السجن قد يوجد ولكن بندرة، وهو مورد بعض الأشخاص الذين اشتد غضب الناس عليهم إلى درجة أنّ وجود هؤلاء الأشخاص فى المجتمع يشكل خطراً على حياة الناس، فى حين أنّهم على فرض ارتكابهم ذنباً فإنّهم لا يستحقون الاعدام، ومن هنا تضطر الدولة وهى الحافظة لمصالح الناس إلى نقل هؤلاء الأشخاص إلى سجن معين حتى تهدأ ثائرة المجتمع ضدهم، ومتى ما عادت الأوضاع إلى حالتها الطبيعية اطلق سراح هؤلاء الأشخاص، وكما قلنا فإنّ مثل هذا السجن نادر التحقق، وقد تحققت مصاديقه فى حالات الثورات والانتفاضات الشعبية والحركات الاجتماعية.

ما ذكرناه من الاقسام السبعة أعلاه، فلسفة معقولة يمكن تصورها للسجن.

وفى قبال هذه الفلسفة المعقولة، توجد أهداف ومبررات لا معقولة وظالمة كانت العامل الأصلى لكثير من السجون فى دنيا الأمس واليوم ولا تزال، ويمكن هنا ذكر عدّة أنواع منها:

۱- السجن الانتقامى

سجن ليس له هدف معقول اطلاقاً، إلّاأنّ الجبّارين والظلمة والاقطاعيين وللانتقام من الاحرار والرعية حيث يحمل هؤلاء الجبّارون حقداً أعمى فى قلوبهم على الناس، فيلقون بهم فى السجون، وكم من شاهد من التاريخ أنّ بعض هؤلاء الناس يبقون فى تلك السجون حتى يموتوا وتتهرأ أجسادهم؟

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۱

۲- السجون المعدة لقمع التحرر

يحاول الجبّارون كسر روح المقاومة المعنوية أو الجسدية عند المناضلين الثائرين ضدهم، فيلقون بهم فى السجون لأجل ذلك، وأحياناً يكون الحبس توأماً مع الاهانة والتعذيب الروحى والجسدى، ومن الواضح أنّ الأفراد المقاومين الصامدين سيخرجون من هذه الحلبة سالمين غانمين، بل يزدادوا أحياناً صلابة وتجربة وعزيمة كالفولاذ الذى يصهر فى الحرارة فيصير أكثر صلابة ونقاءً، ولكن قد يؤثر هذا السجن سلباً فى بعض الأشخاص الضعفاء أو ممن هم فى مستوى متوسط من الإيمان والعزيمة، فنراهم بعد التحرر من السجن يغيرون مسيرحياتهم ويتركون نضالهم، وقد ينحرف بعضهم ويعمل ضمن أجهزة القطاع الظالم، وذلك للضغوط التى واجهوها فى السجن.

۳- السجن لعزل القيادة عن القاعدة

هذه السجون خاصة بقادة الدين والقادة السياسيين، حيث إنّ الجبّارين وعندما يضيقون ذرعاً بجهاد هؤلاء يحاولون التفكيك بينهم وبين قواعدهم ومؤيديهم، فيلقون بالقادة فى السجون، والملفت للنظر أنّ هذه السجون يكون لها فى أكثر الموارد نتيجة معكوسة بحيث تؤدى إلى زيادة الانسجام والتآلف بين القواعد والقيادات، فتعزز مكانة القادة فى قلوب مؤيديهم، وتزيد من جماهيريتهم.

۴- السجن لرفع المضايقات

أحياناً يكون وجود العالم، المخترع، القائد، أو أى فرد لائق، مزاحماً لوجود الحكام الجبّارين، فما يكون من الجبّارين إلّاأن يودعوا هؤلاء فى السجون ليرتاحوا من مضايقاتهم ومزاحمتهم، ويستمروا فى تسلطهم وتجبّرهم دون مزاحم.

حتى أنّ التاريخ نقل لنا أنّ بعض الجبّارين قام بسجن أزواج نساء جميلات من دون ذنب سوى السيطرة على نسائهم!

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۲

۵- السجن بسبب النزاهة

ومن أعجب أنواع السجن على طول التاريخ، السجن الذى يبتلى به بعض الأشخاص بسبب نزاهتهم وبراءتهم، ولابدّ من الإلتفات إلى النزاهة والطهارة تعدُّ جُرماً فى المحيط الملوث بالذنوب والآثام!! لأنّ ذلك يؤدّى إلى افشال مخططات هؤلاء الملوثين، فكم من يوسفٍ على مرِّ التاريخ أودع السجن بذنب الطهر والعفة والرغبة عن الذنوب.

كما فى يوسف الذى دخل السجن بسبب طهارته وعفته.

ومن الواضح أنّ مثل هذه السجون التى ليس لها أية فلسفة عقلية وشرعية خارجة عن موضوع بحثنا، وإنّما أشرنا إليها للتوضيح والضرورة.

۳- السجن من وجهة نظر القرآن الكريم

لا شك فى أنّ كثيراً من الامور التى ذكرت فى فلسفة السجن أمور معقولة، وفى الواقع يعتبر السجن تبعاً لتلك الامور ضرورة اجتماعية، سواء كان لمعاقبة المجرمين أو كان لإصلاحهم وتأديبهم، أو كان لقطع خطرهم أو قطع جذور الفساد وغير ذلك من المسوغات، وقد وردت إشارات عديدة لهذا المعنى فى القرآن المجيد.

ولا يخفى أنّ الألفاظ التى تدل على مفهوم «السجن» كثيرة فى لغة العرب وقد استعملت فى القرآن والسنّة الشريفة، وبعض تلك الألفاظ بشكل واضح الدلالة على هذا المعنى، وبعضها قابل للبحث والنقاش.

ومن جملة المصطلحات، لفظة «السجن» التى وردت فى تسعة موارد فى آيات القرآن الكريم فى سورة يوسف بمناسبة حبس هذا النبى الكريم الطاهر «بنفسها أو بمشتقاتها».

واستعملت فى مورد واحدٍ فى قصة فرعون فى سورة الشعراء حيث خاطب فرعون موسى عليه السلام مهدداً ايّاه بالسجن وحكى هذا القول القرآن الكريم بقوله تعالى «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ الَهاً غَيْرِى لَاجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ». (الشعراء/ ۲۹)

فمن هذه التعبيرات يُستفاد أنّ السجن بمعناه الواقعى كان موجوداً فى عصر موسى وفرعون، وحتى قبل ذلك أى فى زمن يوسف وعزيز مصر، فكانوا يودعون المذنب والبرىء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۳

فى السجن بحيث إنّ بعض السجناء كان يبقى سنوات عديدة حتى يأتى عليه النسيان.

والمصطلح الآخر هو «الحبس» الذى استعمل فى القرآن الكريم فى موردين، ولكن ليس فى معنى السجن، وإنّما استعمل فى هذا المعنى فى الأحاديث الإسلامية كثيراً «۱».

مصطلح «الإمساك» الذى استعمل فى مورد واحد فى القرآن المجيد بمعنى السجن، وهو مورد النساء اللاتى يأتين الفاحشة، وذلك قبل نزول حكم حدِّ الزنا (الجلد)، وقد ورد هذا التعبير فى الآية ۱۵ من سورة النساء وسيأتى تفصيل الكلام عنه لاحقاً.

مصطلح «النفى» عن «الأرض» الذى ورد فى الآية ۳۳ من سورة المائدة وفسّره البعض بالسجن.

وكذا مصطلح «الإرجاء» الذى ورد فى سورة الأعراف الآية ۱۱۱ فى قصة موسى وفرعون، حيث يعتقد البعض أنّه بمعنى السجن، وذلك عندما اقترح ملأ فرعون عليه أن يرجىء موسى وأخاه هارون حتى يجمع السحرة، قال تعالى «قَالُوا ارْجِهْ وَاخَاهُ وَ ارسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

ولكن أغلب المفسرين لم يفسر الإرجاء بهذا المعنى، بل قالوا إنّ معناه التأخير، وبالالتفات إلى المعجزات التى جاء بها موسى أمام فرعون، واستعداد فرعون لنزال السحرة مع موسى، يستبعد جدّاً أن يكون فرعون قد حبس موسى وهارون عليهما السلام.

وعلى أيّة حال، فإنّ المتيقن أنّه يوجد فى القرآن المجيد مورد واحد على الأقل من موارد حكم السجن، وكما أشرنا آنفاً فإنّه ذكر بعبارة «الإمساك» حيث يقول عزوجل:

«وَاللَّاتِى يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسائِكُمْ فَاستَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَربَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَامْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا». (النساء/ ۱۵)

والمعروف بين المفسرين هو أنّ هذه الآية ناظرة إلى عقاب النساء اللاتى يرتكبن الزنا، قبل نزول حكم حدِّ الزنا وهنا ذكر حكمهن وهو السجن المؤبد، وإن تبدل هذا الحكم فيما بعد إلى حكم الجلد أو الرجم.

---

(۱) راجع كتاب ميزان الحكمة ج ۲ ص ۲۴۶- ۲۵۱ للاطلاع على تلك الأحاديث، حيث ذكرت أبواب مختلفة فيمن يجوز حبسه ومن يحكم عليه بالحبس المؤبد وكذلك حقوق المحبوسين وموارد حرمة الحبس.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۴

وجملة «أَمْسِكُوهُنَّ فِى الْبُيُوتِ حَتَى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوتُ»، وإن لم يذكر لفظ السجن فيها، ولكن الإمساك فى البيوت إلى آخر العمر أمرٌ شبيه بالسجن.

وهذا هو المورد الوحيد المتحقق فى القرآن حول حكم السجن.

۴- موارد السجن فى الروايات الإسلامية

اشارة

وردت فى الروايات الإسلامية موارد متعددة للسجن المؤبد وغيره، من جملتها:

۱- فى مورد الإعانة على القتل

إذا أمسك شخص شخصاً آخر فقتله ثالث، فحكم القاتل هو الإعدام، وحكم المعاون هو السجن المؤبد، وهذا الحكم مورد اتفاق وإجماع فقهائنا، وقد وردت روايات كثيرة فى المصادر المعتبرة تدل عليه.

ففى حديث عن الإمام على عليه السلام فى رجلين أمسك أحدهما بثالث فقتله الثانى، قال عليه السلام:

«يُقتل القاتل ويحبس الآخر حتى يموت غمّاً كما حَبَسه حتى مات غمّا» «۱».

۲- الأمر بالقتل

يرى الفقه الإسلامى أنّ الشخص إذا أمرَ آخراً بقتل ثالث برىء، لا يحق للمأمور أن يقتل ذلك البرىء حتى لو هدده الآمر بالقتل إذا لم يفعل، إذ لا تقية فى الدماء وما يقال من أنّ المأمور معذور لا أساس له من الصحة.

فلو أنّ شخصاً لم يعتقد بهذا الحكم الإسلامى، فقتل بريئاً حفظاً لنفسه من تهديد الآمر الظالم، فحكمه فى الإسلام هو القتل وحكم الآمر هو السجن المؤبد!

قال الإمام الباقر عليه السلام فى حقّ مثل هذا الشخص: «يُحبَسُ الآمر بقتله حتى يموت» «۲».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۹، ص ۳۵، ح ۱، الباب ۷ من أبواب قصاص النفس.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۲، ح ۱، الباب ۱۳ من أبواب القصاص.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۵

۳- فى مورد تكرر السرقة

يحكم فى مورد تكرر السرقة فى المرّة الثالثة بالسجن المؤبد على السارق، وقد نقل هذا الحكم بعض كبار أصحاب الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عنهما «۱».

۴- فى مورد المرتدة الفطرية:

إذا لم تتب، حيث يحكم عليها بالسجن المؤبد، وقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر والإمام الصّادق عليهما السلام:

«والمرأةُ إذا ارتدت عن الإسلام استتيبت فإن تابت وإلّا خُلِّدَتْ فى السجن» «۲».

وقد ذكرت موارد أخرى للسجن المؤبد، لابدّ من مطالعتها فى كتب الفقه المطولة.

وتختلف السجون المؤقتة التى لها جنبة تعزيرية، ويرتبط ذلك بميزان «الجرم» و «مقدار تحمّل المجرم» وشرائط أخرى.

والمتهمون بالقتل فى صورة خوف فرارهم، ومن يساعد القاتل على الفرار بعد ثبوت جرمه، والمرأة الحامل التى يثبت عليها الزنا والتى يحتمل فرارها والتى ينبغى أن تسجن حتى تضع حملها، والسارق من غير حرز، والمدين الذى يمتنع عن أداء دينه مع تمكنه من ذلك، وشهود الزور، ومن يكفل مجرماً فيسجن حتى يحضر المجرم إلى المحكمة، وكل من يرتكب منكراً ولا يتركه إلّاأن يحبس، كل هؤلاء من المساجين المؤقتين.

۵- التعامل الإنسانى مع المساجين

كما أشرنا سابقاً، فإنّه على الرغم من سوء استغلال موضوع السجن بشكل واسع وعلى مرِّ التاريخ، فإنّ السجن من وجهة النظر الاجتماعية والإنسانية، أمرٌ ضرورىلمكافحة الجرائم والجنايات وتربية النفوس المريضة، ولكن بحدود وشروط معينة ومحسوبة!

أحد تلك الشروط، هو مراعاة المعاملة الإنسانية مع السجناء، فلابدّ من التعامل معهم على أساس أنّهم بشر، فينبغى ترك المضايقات الظالمة، وأن لا يحبس أحدٌ بذنب غيره، وأن

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۴۹۲، الباب الخامس من أبواب حدِّ السرقة.

(۲) المصدر السابق، ص ۵۴۹، الباب الرابع من أبواب حدِّ المرتد، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۶

لا يعاقب أحدٌ أكثر ممّا يستحق حتى لساعة، ولابدّ أن تكون كل البرامج فى سبيل تعليم وتربية السجين، وبتعبير آخر، ينبغى أن يكون السجن مركزاً للتربية والتهذيب لا مركزاً لتخريج المجرمين والحاقدين، فلابدّ أن يتصف السجن بمواصفات درس التربية.

ومن قصة النّبىّ يوسف عليه السلام ومدّة سجنه فى مصر، يستفاد بشكل جيد أنّ تلك السجون كانت على درجة عالية من الظلم والإضطهاد بحيث أنّ بعض السجناء كان يبقى طيلة عمره فى السجن، وفقط بعض المصادفات أو الحوادث غير المترقبة هى التى كانت تلفت انتباه الظلمة والحكام إلى السجناء، ولو لم تقع تلك الحادثة لبقى السجين إلى آخر عمره فى السجن، بالضبط كما حصل ليوسف حيث إنّ الملك لو لم يرَ تلك الرؤيا ولو لم يعرف يوسف تفسير الأحلام، لما التمس عزيز مصر تفسير رؤياه من يوسف ولما بعث خلفه ولبقى يوسف، إلى آخر عمره فى السجن، فى حين أنّه لم يرتكب أى ذنب، وذنبه الوحيد هو طهارته وتقواه وعدم انصياعه لرغبات وأهواء زوجة عزيز مصر (زليخا)، وبطبيعة الحال فإنّ هذه التقوى والطهارة ليست ذنباً صغيراً فى قاموس مثل هذه البيئة المنحطة المتسافلة!

والقرآن الكريم يحدثنا كيف أن يوسف الصديق حاول أن يحوّل بيئة السجن إلى محيط للتربية والتعليم والإصلاح، فكان يعلم السجناء درس التوحيد وعبادة اللَّه وهو أصل كل طهارة وحسن، فمتى ما سُئل يوسف عن مسألة بسيطة، أو طلب منه تفسير رؤيا عابرة، كان يطرح المعارف الإلهيّة ويبين المسائل التربوية للسجناء.

قال تعالى حكاية عن لسان يوسف:

«يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ ءَارْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ امِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ* ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ الَّا اسْماءً سَمَّيْتُمُوهَا انْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا انْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطانٍ انِ الْحُكْمُ الَّا للَّهِ امَرَ الَّا تَعْبُدُوا الَّا ايَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ اكْثَرَ النَّاسِ لَايَعْلَمُونَ». (يوسف/ ۳۹- ۴۰)

فصحيح أنّ يوسف عليه السلام كان سجيناً من السجناء، ولكن عمله ذلك كان دليلًا على أنّه لو كان على رأس السلطة لكان يمارس نفس العمل التربوى مع السجناء فى محيط السجن بالأولوية، ولحوّل بيئة السجن إلى مركز للتعليم والتربية الإلهيّة، ولبذل كل جهده من أجل

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۷

استغلال الفرصة التى يمتلكها السجناء فى السجن لإعادة النظر فى تصرفاتهم السابقة وإعادة حساباتهم لبناء أنفسهم من جديد، وتبديل سلوكهم المنحرف إلى سلوك قويم.

وقد أثبتت لنا التجارب أنّ كثيراً من السجناء الأشرار الملوّثين بالذنوب والجرائم سرعان ما يتمّ إصلاحهم إذا ما وجدوا قريناً صالحاً يرشدهم إلى الطريق الصحيح، إذ إنّهم خارج السجن لم يكن لديهم الفرصة الكافية من أجل التفكير والتأمل فى تصرفاتهم الفائتة وإعادة حساباتهم للمستقبل، فالسجن توفيق إجبارى لمثل هؤلاء.

ونلاحظ فى الروايات الإسلامية اهتمام الدين بحقوق السجناء ومنحهم الإجازات للاشتراك فى صلاة الجمعة والإلتقاء بذويهم وأصدقائهم.

ومن جملة ذلك ماورد فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام حيث يقول:

«عَلى الإمام أنْ يُخرجَ المُحْبسِين فِى الدّين، يَومَ الْجُمعَة إلى الجُمعَة، وَيَومَ العِيدِ إلى العِيد فَيُرسلُ مَعَهُم فَإذا قَضَوا الصّلاة وَالْعِيد رَدَّهُم إلى السِجن» «۱».

وينبغى الإلتفات إلى أنّ لكلٍّ من صلاة الجمعة والعيد خطبتان ولهما أثر بالغ فى التربية.

وفى حديث آخر يتوسع أكثر من نطاق الأول، حيث ورد فيه: «إنّ علياً عليه السلام كان يخرج أهل السجون- مَنْ حُبِسَ فى دَيْنٍ، أو

تُهْمَه- إلى الجمعة فيشهدونها ويُضمنهُمْ الاولياء حتى يَردُّوهمْ» «۲».

كما ويستفاد من حديث آخر أنّ علياً عليه السلام كان كل جمعة يتفقد السجن والسجناء بنفسه، فيجرى الحدَّ على أولئك الذين ينتظرون إجراء الحدِّ عليهم (ويطلقهم) ويطلق من ليس عليه حدَّ «۳».

ومن خلال الآيات والروايات والأحكام الواردة فى هذا المجال يمكن استنباط وتنظيم إرشادات جامعة، من نماذجها:

۱- عندما القى القبض على عبد الرحمن بن ملجم قاتل الإمام على عليه السلام وأودع السجن،

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، ص ۲۲۱، باب من يجوز حبسه، ح ۲.

(۲) المستدرك، ج ۱۷، ص ۴۰۳، ح ۱.

(۳) ميزان الحكمة، ج ۲، ص ۲۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۸

أوصى الإمام عليه السلام بمداراته والإهتمام به، ومن جملة وصاياه لأولاده فى حق ابن ملجم، قال:

«أطعموه واسقُوه وأحسنوا أسارَهُ» «۱».

والمعروف هو أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ضربه ابن ملجم على رأسه الشريف فشقّه ورقد الإمام عليه السلام فى الفراش يغمى عليه أحياناً ويفيق أحياناً، ناوله الإمام الحسن عليه السلام قعباً من لبن، فشرب منه قليلًا ثم نحّاه عن فيه وقال: إحملوه إلى أسيركم، ثم قال للحسن عليه السلام: بحقّى عليك يا بنى إلّاما طيبتم مطعمه ومشربه ... «۲».

ويروى العلّامة المجلسى حديثاً آخر، وذلك عندما جىء بابن ملجم إلى الإمام على عليه السلام فتكلم معه الإمام بكلام ثم قال لولده الإمام الحسن عليه السلام: «ارْفِقْ يا وَلَدى بِاسيرِكَ وَارْحَمْهُ وَاحْسِنْ الَيْهِ وَاشْفِقْ عَلَيْهِ، الا تَرى الى عَيْنَيْهِ قدْ طارَتا الى امِّ رَأْسِهِ وَقَلْبُهُ يَرْجِفُ خَوْفاً ورُعباً وَفَزَعاً، فَقالَ لَهُ الْحَسَنُ عليه السلام يا اباهُ! قَدْ قَتَلَكَ هذَا اللَّعينُ الْفاجِرُ وَافْجَعَنا فيكَ وَانْتَ تَأْمُرُنا بِالرِّفْقِ بِهِ؟! فَقالَ لَهُ نَعَمْ يا بُنَىَّ نَحْنُ اهْلُ بَيْتٍ لا نَزْدادُ عَلَى الذَّنْبِ الَيْنا الّا كَرَماً وَعَفْواً وَرَحْمَةً وَالشَّفَقَةُ مِنْ شيمَتِنا لا مِنْ شيْمَتِهِ، بَحَقّى عَلَيْكَ فَاطْعِمْهُ يا بُنَىَّ مِمّا تَأْكُلُهُ، وَاسْقِهِ مِمّا تَشْرَبهُ وَلا تُقَيّدْ لَهُ قَدَماً، وَلا تَغُلَّ لَهُ يَداً» «۳».

۲- يقول المرحوم الشيخ الطوسى فى كتاب الخلاف: من أمسك بصبى صغير وحبسه، فسقط عليه جدار، أو قتله حيوان مفترس، أو لدغهُ عقرب أو ثعبان فمات، فهو ضامن لدمه، ثم يقول الطوسى بعد ذلك: «دليلنا إجماع الفرقة وأخبارهم» «۴».

فمن هذه العبارة يستفاد ضرورة كون السجن مأموناً ونظيفاً فلو مات السجين بسبب عدم تحقق ذلك فدمه مضمون.

۳- ونقل المرحوم الشيخ الطوسى فى كتابه «المبسوط» عن بعض الفقهاء، لو سجن شخصاً فى غرفة واغلق عليه الباب فاختنق ومات فهو ضامن لديته «۵».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۲۳۹.

(۲) بحار الأنوار، ج ۴۲، ص ۲۸۹.

(۳) المصدر السابق، ص ۲۸۷- ۸۸.

(۴) كتاب الخلاف، ج ۳، ص ۹۴، (كتاب الجنايات، المسألة ۱۹).

(۵) أحكام السجن فى الإسلام، ص ۲۶۳ (فارسى).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۱۹۹

ونفس هذا الكلام قيل فى مورد الجوع ونحوه.

ومن مجموع ذلك يستفاد تأمين الغذاء ومراعاة التهوية الكافية فى السجن كى لا تتعرض حياة السجين وسلامته للخطر.

۴- ذكر كثيرٌ من الفقهاء فى بحث آداب القاضى، أنّ على القاضى إذا دخل المدينة أن يطالع أحوال السجناء وملفاتهم ويحقق فيها ويدرسها بشكل جيد، ليطلق من انتهت فترة محكوميته أو حُبس بلا دليل كافٍ، فوراً.

وصرح بعض الفقهاء أنّ على القاضى حين وصوله إلى المدينة أن يعلن للملأ بأنّه سيدرس قضايا السجناء فى موعدٍ يعينه لهم ليتسنى لذوى السجناء الحضور ساعة التحقيق، وعندما يحضر أطراف النزاع يقرأ أسماء السجناء واحداً بعد الآخر.

ويسألهم عن علة حبسهم، ثم يسأل من طرف الدعوى الآخر، فإن كان عنده دليل مقنع على حبسه، ردّه إلى السجن، وإن لم يكن هناك مدعٍ، أعلن عن إسمه ليأتى من يدعى عليه شيئاً ويطرح دعواه عند القاضى، وإلّا أطلق صراحه «۱».

۶- الطرح التّاريخى لأبى يوسف لحماية السّجناء

يعتبر العصر العباسى من فترات التّاريخ الإسلامى المظلمة، واحد الشّواهد الحيّة على ذلك هو ازدياد عدد السّجون والضّغط الشدّيد على السّجناء، واعتقال الأبرياء بتهم واهية، وتعذيب القرون الوسطى.

لقد تسربت أخبار هذه السّجون الرهيبة إلى الخارج على الرّغم من التعتيم الشّديد من الحاكم فىذلك العصر، حتى تعالت صرخات النّاس من هنا وهناك، وطالبت العلماء فى ذلك الوقت للتدّخل فى الأمر لوضع حد لهذا الإرهاب والظّلم.

ومن جملة الأمور الايجابية التى تحققت فى هذا المجال، الطرح الذى قدمّهُ أبو يوسف

---

(۱) جواهر الفلاح، ج ۴، ص ۷۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۲۴۹

الفقيه السّنى المعروف وتلميذ أبى حنيفة، حيث إنّ هارون الرّشيد ومن أجل أنْ يكمّ أفواه المعارضين طلب من أبى يوسف أنْ يكتب طرحاً فى كيفية التعامل مع السّجناء من وجهة النّظر الإسلاميّة والفقه الإسلامى، وقد أكدَّ هارون الرّشيد على كيفية التعامل مع السّارقين والأشرار والمخالفين عندما يلقى عليهم القبض، وإنّه هل يجب تهيئة الطّعام لهم؟ وإن كان واجباً فهل يجب أخذه من مورد الزكاة أم من محل آخر؟ وكيف يتعامل معهم بنحو كلى؟

ومن الواضح أنّ هارون الرشيد لم يكن يهمه أمر السّجناء وإنّما اضطره الضّغط الجماهيرى لذلك.

فكتب أبو يوسف طرحاً مفصلًا وموسعاً فىهذا المجال وأرسله إلى هارون الرّشيد وكان طرحه متسماً بالصّراحة والشّجاعة فى عدّة موارد من فقراته، وقرن ذلك بالإنتقاد الشّديد للوضع الرّاهن حينذاك من دون أن يحدد الإجابة بالموارد التى أرادها لهارون الرّشيد، لإنّه كان يعلم جيداً بأنّ أكثر سجناء الحكم العباسى هم من السّياسيين!

وتتلخص هذه الرّسالة التّاريخية بإثنتى عشرة فقرة نذكرها هنا:

۱- إذا لم يكن للسجناء شىء ممّا يأكلون منه، فيجب أن يُصرف عليهم من الزكاة أو «حق الفقراء» أو من بيت المال أو من «الأموال العامة».

۲- يجب أن يصرف على أى من السجناء مبلغ من بيتالمال وذلك لتأمين قوتهم، ويحرم عدا ذلك.

۳- واعلم أنّ الأسير من أسرى المشركين لابدّ وأن يُطعم ويُحسن إليه حتى يحكم فيه، فكيف برجل مسلم قد أخطأ أو أذنب أيترك ليموت جوعاً؟

۴- ولم تزل الخلفاء، يا أيّها الخليفة تجرى على أهل السجون ما يقوتهم فى طعامهم وكسوتهم فى الشتاء والصيف، وأول من فعل

ذلك الإمام على بن ابى طالب عليه السلام وحذا من جاء بعده حذوه.

وحدثنى بعض الرواة، حيث قالوا: إنّ عمر بن عبدالعزيز كتب إلينا ما نصه: لا تدعن فى سجونكم أحداً من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائماً، ولا يبيتن فى قيد إلّا رجلًا مطلوباً بدم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۱

۵- أوصى بأنّ تدفعوا للسجناء دراهم فى كل شهر، فإنّك إن أعطيتهم الخبز ذهب به ولاة السجن والقوام والجلاوزة فلايصل إليهم شىء.

«و هنا كشف أبو يوسف اللثام عن فساد ولاة السجون فى زمان خلافة بنى العباس واوضح ذلك بكل جلاء».

۶- ووَلَّ رجلًا من أهل الخير والصلاح يثبت أسماء مَن فى السجن فتجرى عليهم الصدقة وتكون الأسماء عنده ويدفع ذلك إليهم شهراً بشهر، يقعد ويدعو باسم رجل رجل ويدفع ذلك إليه فى يده ويكون للأجراء عشرة دراهم فى الشهر لكل واحد.

۷- سمعت أنّ بعض السجناء يغلون بالسلاسل كى يتصدق عليهم الناس، فإنّ هذا عظيم أن يكون قوم من المسلمين قد أذنبوا واخطأوا وقضى اللَّه عليهم ما هم فيه فحبسوا يخرجون فى السلاسل يتصدقون، وما أظن أهل الشرك يفعلون هذا بأسارى المسلمين الذين فى أيديهم فكيف ينبغى أن يفعل هذا بأهل الإسلام؟

وإنّما صاروا إلى الخروج فى السلاسل يتصدقون لما هم فيه من جهد الجوع فربّما أصابوا مايأكلون وربّما لم يصيبوا «وهذه من المصائب الكبرى .

۸- ومن مات منهم ولم يكن له ولى ولا قرابة يغسل ويكفن من بيت‌المال ويصلى عليه ويدفن.

وقد بلغنى وأخبرنى به الثقات أنّه ربّما مات منهم الميت الغريب فيمكث فى السجن اليوم واليومين حتى يستأمر الوالى فى دفنه وحتى يجمع أهل السجن من عندهم وما يتصدقون ويكنزون لمن يحمله إلى المقابر فيدفن بلا غسل ولا كفن ولا صلاة عليه، فما أعظم هذا فى الإسلام وأهله.

۹- ولو أمرت بإقامة الحدود لقل أهل الحبس ولخاف الفساق وأهل الدعارة ولتناهوا عمّا هم عليه، وإنّما يكثر أهل الحبس لقلة النظر فى أمرهم، فأمُر ولاتك جميعاً بالنظر فى أمر المساجين، فمن كان عليه أدب أُدب وأُطلق، ومن لم يكن له قضية خلى عنه.

۱۰- وعليهم أن لا يسرفوا فى الأدب ولا يتجاوزوا بذلك إلى ما لا يحل ولا يسع، فإنّه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۲

بلغنى أنّهم يضربون الرجل فى التهمة وفى الجناية الثلاثمائة والمائتين ضربة وأكثر أو أقل، وهذا ممّا لا يجوز ولا يحل فى الإسلام، فظهر المؤمن حمىً ولا يجوز أذيته.

۱۱- كل من أتى بما يجب عليه الحد أو القصاص وقامت عليه البيّنة بذلك، يجب أن تقام عليه الحدود الإسلامية، فمن جُرح منهم جراحة فى مثلها قصاص، وقامت عليه البينة بذلك، قِيسَ جرحُه واقتُصَّ منه إلّاأن يعفو المجنى عليه، فإن اقتُصَّ منه أو عَفا عنه صاحب الدم، فيطلق سراحه ولا يبقى فى السجن.

۱۲- إذا لم يستطع الجانى تحمل القصاص حكم عليه بالأرش واطيل حبسه حتى يحدث توبه ثم يخلى سبيله «۱».

فهذه الرسالة التاريخية تحكى عن رؤية فقيه عاصر العباسيين عن أحكام الإسلام فى السجناء، ويمكن أن تكون نموذجاً صغيراً من مجموعة كبيرة من الشواهد والأدلة على التعليمات الإسلامية فى هذا المجال.

---

(۱) كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف، ص ۱۴۹- بتصرُّف.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۳

الحسبة والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر

تمهيد:

إنّ قيمة أى قانون مرتبطة بميزان إجرائه، فأفضل القوانين إذا لم تطبق على الأرض لا تعدو أن تكون مجرّد حبر على ورق، ولا تحلُّ أى مشكلة من مشاكل المجتمع، وبالعكس فإن أضعف القوانين إذا طبقت بشكل جيد ودقيق فإنّه يمكنها أن تحلَّ كثيراً من مشكلاته. ولهذا، وردت فى الإسلام، والحكومة الإسلامية برامج موسعة وكثيرة لضمان إجراء القوانين والحدّ من التّخلف عنها، وهذه البرامج تشتمل على الأمور التّالية:

١- الجهاز القضائى.

٢- وظيفة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

٣- مسألة الحسبة.

وقد تكلمنا بالمقدار الكافى حول وظائف الجهاز القضائى وإجراء الحدود والتّعزيرات، والآن نكرس الكلام للبحث فى مسألة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وموضوع الحسبة.

يعتبر إجراء الحدود والحسبة فى الواقع من فروع الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، لإننا نعلم بأنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر له ثلاث مراحل، إثنتان منها وظيفة عامة النّاس بنحو الواجب الكفائى، ومرحلة واحدة من وظائف الحكومة، والمراحل هى:

١- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بالقلب (أى أنْ يتأذى القلب من المخالفات والذنوب التى يرتكبها الآخرون، ويميل إلى الخير والصلاح، (وقال البعض أنّ المقصود من

هذه المرحلة هو أن يظهر انزجاره أو ميله القلبيين بوجهه أو عمله بصورة قطيعة أو صلح للمرتكبين) وهذه وظيفة عامة الناس فى‌قبال ترك الواجبات والإتيان بالمحرمات.

٢- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر باللسان، ويكون إبتداءً بالكلمات اللطيفة اللينة الحبيبة والوعظ والحكمة، ثم بالكلمات الحادّة الخشنة (وهى وظيفة عامة النّاس أيضاً).

٣- الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر باليد، وبتعبير آخر اتخاذ الأجراءات العملية والقاسية أحياناً فى قبال تاركى الواجبات ومرتكبى المحرمات سواءً عن طريق العقاب البدنى أو الحبس أو الأعمال المشابهة الاخرى

وكما قلنا فى الابحاث الفقهيّة فإنّ هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلامية ولا يمكن أن يسمح للناس بالقيام بها، لأنّ ذلك يؤدّى إلى وقوع الهرج والمرج وأنواع الفوضى الاخرى

وهذا الأمر هو بالضّبط ما جاء بعنوان وظيفة الحسبة فى الفقه الإسلامى وكلمات الفقهاء ومؤرخى الإسلام.

وبعد هذه الإشارة نرجع إلى الآيات القرآنيّة فى هذا المضمون:

١- «كُنْتُمْ خَيْرَ امَّةٍ اخْرِجَتْ لِلْنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ». (آل عمران/ ۱۱۰)

٢- «وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ امَّةٌ يَدْعُونَ الَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». (آل عمران/ ۱۰۴)

٣- «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ اهْلِ الْكِتَابِ امَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْرَاتِ وَاولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ». (آل عمران/ ۱۱۳- ۱۱۴)

۴- «وَالْمُؤمِنُونَ والْمُؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ اوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۵

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ اولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ انَّ اللَّهَعَزِيزٌ حَكِيمٌ». (التوبة/ ۷۱)

۵- «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ». (التوبة/ ۱۱۲)

۶- «الَّذِين انْ مَّكَّنّاهُمْ فِى الارْضِ أَقامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَامَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلهِ عَاقِبَةُ الامُورِ». (الحج/ ۴۱)

۷- «يَا بُنَىَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا اصَابَكَ انَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ». (لقمان/ ۱۷)

جمع الآيات و تفسيرها

خطوة مهمة فى طريق إجراء الأحكام:

ما جاء فى هذه الآيات هو أكثر ما جاء من آيات القرآن المجيد فى خصوص فريضة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر المهمّة، والتى تبين أبعادها المختلفة.

فالآية الأولى تصوّر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر بعنوان أمرٍ عام وتعتبره من خصائص الأمة الإسلامية، لا بمعنى أنّه لم يوجد فى الأمم السابقة أصلًا، بل بمعنى أنّه يعدُّ أصلًا أصيلًا فى الأمة الإسلاميّة وركناً ركينا فيها حيث يقول: «كُنْتُمْ خَيْرَ امَّةٍ اخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤمِنُونَ بِاللَّهِ».

والملفت للنظر أنّها من جهة تعتبر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر خصوصيّة من الخصائص التى أدّت إلى أفضلية الإسلام على سائر الأديان وأنّ الأمّة الإسلامية هى الأمّة النموذجية المثلى ومن جهة أُخرى تقدم هذه الوظيفة على الإيمان باللَّه! وهذا يدل على أنّه إذا لم تؤدّ هذه الوظيفة على المستوى العام بصورة أصلين أساسيّين اجتماعيين، فلا ضمان لاستمرار إيمان الناس.

نعم، فهو كذلك، فلو نُسِيتَ هاتان الوظيفتان، ضعف الإيمان فى القلوب، وذبلت غصونه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۶

وأوراقه، والنّتيجة هى اضمحلال الإيمان والإسلام.

ثُمّ إنّه من هذا البيان يتضح جيداً أنّ المسلمين إنّما يكونون أُمّة متميزة وممتازة ما داموا يدعون إلى الخير والصلاح ويجاهدون المنكر والفساد، فإذا ما نسوا ذلك لم يعودوا خير أمة ولم يترشح منهم النفع للمجتمع البشرى!

نعم .. فالمسلمون إنّما يمكنهم أن يكونوا قادة الأمم فى العالم وأن تستفيد البشريّة جمعاء من وجودهم، فيما لو طبقوا هاتين الوظيفتين الكبيرتين.

وبتعبير آخر: كل واحدٍ من أفراد الأمة الإسلاميّة، لابدّ أن يشعر بالمسؤولية، وخلافاً لما نراه اليوم حيث توكل مسؤولية مكافحة الفساد إلى مجموعة معينة من المأمورين الحكوميين ويبقى سائر أفراد المجتمع فى حلٍّ من تحمل هذه المسؤولية الاجتماعيّة المهمّة فيبقون متفرجين على الممارسات الاجتماعية السلبية بلاحراك.

فالآية تؤكد على أنّ هذه المسؤولية مسؤولية عامة لابدّ أن يتحملها الصغير والكبير، الشّاب والشّيخ والرّجل والمرأة والعالم والجاهل.

واستعمال كلمة «المعروف» و «المنكر» فى الآية لنكتة مهمة أُخرى، إذ هى من جهة، تبيّن أنّ الواجبات والمحرمات امورٌ يدركها ويعرفها عقل الإنسان وروحه جيداً، فهو يعشق الواجبات، فى حين أنّ المنكرات أُمور بعيدة عن ذوقه فهو يجهلها وينفر منها.

ومن جهة أخرى، فإنّ من البديهى إننا لو نسينا هاتين الوظيفتين واعتاد المحيط على المنكرات والبعد عن الخير والمعروف، صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً فى نظر الناس، وهذه أكبر خسارة يمكن أن يتحملها مجتمع من المجتمعات، وهذا البلاء هو الذى عمَّ

اليوم كثيراً من المجتمعات العالمية، حيث تبدل المعروف عندهم منكراً والمنكر معروفاً!

والآية الثانية ناظرة إلى قسم آخر من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتى تختص

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۷

بها مجموعة من الامّة الإسلاميّة، وبتعبير آخر هى مختصة بالحكومة وموظفى الحكومة حيث ورد فيها: «وَلْتَكُنْ مِّنْكُمْ امَّةٌ يَدْعُونَ الَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

وعندما نضع هذه الآية فى قبال الآية السّابقة نجد أنّ الآية السّابقة تتحدث عن مرحلة من مراحل هاتين الوظيفتين المهمتين غير المرحلة التى تتحدث عنها هذه الآية، فتلك مرحلة القلب واللسان وهذه مرحلة استخدام القوة والشدَّة، والملفت للنظر هو أنّ هذه الآية تحصر الفلاح بأولئك الأشخاص الّذين يؤدون هاتين الوظيفتين العظيمتين (إلتفتوا إلى أنّ جملة أولئك هم المفلحون تدل على الحصر) «۱».

والتعبير بالأمَّة، قد يكون إشارة إلى أنّ هذه الوظيفة لابدّ أنْ تؤدّى بصورة «جماعية»، وأن تكون مقترنة «بمنهج تنظيم»، ونحن نعلم بأنّ الأمور الّتى تحتاج إلى شدة والتى تؤدّى من قبل الحكومة لا تكون ممكنة بغير الشّرطين.

وذيل الآية يبيّن بوضوح أنّ كل فلاح ونجاح فى الدّنيا والآخرة وفى الفرد والمجتمع، لا يتحقق إلّافى ظل هاتين الوظيفتين.

وفى الآية الثّالثة، إشارة إلى نكتة ظريفة اخرى فى مجال هاتين الوظيفتين العظيمتين، تتضح لنا من خلال دراسة سبب النزول.

فقد ورد فى سبب نزول هذه الآية أنّ مجموعة من علماء وأخبار اليهود كانوا قد أسلموا والتحقوا بصفوف المسلمين، ممّا أدّى إلى غضب زعماء اليهود جدّاً، فمن أجل إذلال وتحقير هؤلاء المؤمنين ادّعى زعماء اليهود أنّ ثلّة من أشرارهم قد اعتنقوا الإسلام وإنّهم لو كانوا صالحين ما تركوا دينهم!!

---

(۱) ما قاله البعض من أنّ «من» التى وردت فى الآية زائدة أو أنّها للبيان، وأنّ مفهوم الآية شاملٌ لكل المؤمنين، مخالف لظاهر الآية، فالظاهر منها هو أنّ «من» تبعيضية، أى أنّه يجب على مجموعة منكم فقط القيام بهذه الوظيفة.

وكذلك فإنّ ما قاله البعض من أنّ «من» تبعيضية للواجب الكفائى، مخالف للظاهر أيضاً، لأنّ الواجب الكفائى واجب على الجميع، غايته أنّ نوع الوجوب فيه يختلف عن نوع الواجب العينى (وتوضيح ذلك موكول إلى علم الأصول).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۸

فالآية المذكورة أعلاه تجيب هؤلاء وتقول: «لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ اهْلِ الْكِتابِ امَّةٌ قائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آناءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ* يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِى الْخَيْراتِ وَاولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ».

فالآية تلخص خصائص الصّالحين من أهل الكتاب الذين اعتنقوا الإسلام فى ثلاثة أمور: الإيمان بالمبدأ والمعاد، ثُمّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وفى النّهاية المسارعة فى الخيرات. وهذا يدل على أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر يعدُّ من أبرز مظاهر الصّالحين بعد الإيمان باللَّه ويوم القيامة، وأنّه أصل كل الخير.

وفى الآية الرّابعة، يعتبر الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أول خصوصيّة من خصائص المؤمنين، حتّى أنّ إقامة الصلاة وأداء الزّكاة وإطاعة اللَّه والنّبىّ صلى الله عليه و آله جاءت بعدها، وهذا يدل على أنّ هاتين الوظيفتين العظيمتين إذا لم تطبقاً، فإنّ أساس العبادة والطّاعة وعبوديّة اللَّه تتعرض للخطر.

يقول اللَّه تعالى: «وَالْمُؤْمِنُونَ والْمُؤمِنَاتُ بَعْضُهُمْ اوْلَياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ اولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ انَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

وقد احْتُمِلَت عدّة أمور فى تفسير جملة «بَعْضُهُمْ اوْلِياءُ بَعْضٍ»، من جملتها أنّ هؤلاء منسجمون فى الإيمان باللَّه ومبانى الإسلام- والآخر هو أنّ أحدهم ينصر الآخر فى امور الدين والدنيا، والثّالث هو أنّ هؤلاء بالتّعليم والتّربية يخرجون الآخرين صوب درجات

الكمال العالية.

ومن الواضح أنّ هذه التفسيرات الثّلاثة لا منافاة فيما بينها، ويمكن أن تجتمع فى مفهوم الآية، لأنّ الولاية فى الآية جاءت مطلقة فتشمل ارتباط المؤمنين ببعضهم فى أبعادٍ مختلفة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۰۹

وفى الآية الخامسة وبعد ذكر التجارة المربحة التى يتّجر بها المؤمنون الحقيقيون مع اللّه، أى الجهاد فى سبيله، حيث يشرون أنفسهم وأموالهم بالجنة الغالية، وبعد بيان أنّ اللّه عزّوجلّ يبارك لهم هذه المعاملة ويعدها فوزاً عظيماً، يلخّص أوصاف هؤلاء فى تسعة أمور ويقول: «التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ والنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ».

وفى الواقع فإنّ الأوصاف السّتة المذكورة أوّلًا، إشارة إلى مراحل العبادة والطّاعة والعبوديّة فى هؤلاء، والأوصاف الثّلاثة الأخيرة (وهى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وحفظ الحدود) إشارة إلى جهاد هؤلاء الاجتماعى فى طريق إرساء مبانى الحق والعدالة وإجراء الأحكام الإلهيّة، وبعد هذه الأمور جاءت البشارة الإلهيّة لهم بشكل مطلق.

وبتعبير آخر، فإنّ الأوصاف الستة الاولى ناظرة إلى علاقة الخلق بالخالق، والثّلاثة الأخيرة ناظرة إلى علاقة الخلق بأنفسهم وهذه البشارة الّتى ذكرت فى آخر الأمر تشمل سعادة الدّنيا وسعادة الآخرة معاً.

وفى الآية السّادسة، إشارة إلى بُعدٍ آخر من هذه المسألة وهو البعد الحكومتى، وبتعبير آخر تعتبر الآية الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر أحد وظائف الحكّام الإسلاميين المهمّة، حيث يقول عزّوجلّ:

«الَّذِينَ انْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الارْضِ أَقامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَامَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الامُورِ».

وفى الحقيقة فإنّ الوعد بنصر اللّه، الوارد فى الآية السّابقة لهذه الآية «ولَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» مختصة بمثل هؤلاء الأشخاص، الذين إذا ما تسلموا زمام القدرة والحكم فى الأرض فإنّهم مضافاً إلى أدائهم الصّلاة وحدهم، يقيمونها أيضاً فى كل مكان، ويؤتون الزكاة لمستحقيها، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۰

هذا على الرّغم من أنّ البعض يتصور أنّ مراد الآية، المهاجرون فقط، ولكن من الواضح أنّ الآية الشّريفة لها مفهوم أوسع وتشمل الجميع حتى قيام القيامة.

والنكتة التى لابدّ من الإلتفات إليها أيضاً هى أنّ القرآن الكريم غالباً ما يعبر بلفظ «الإقامة» فى خصوص الصّلاة إلّافى مورد المنافقين حيث عبر بالقيام بدل الإقامة، حيث يقول واصفاً إيّاهم، «وَإِذَا قَامُوا الَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالى . (النّساء/ ۱۴۲)

وهذا التعبير قد يكون إشارة إلى أنّ المؤمنين الحقيقيين لا يؤدّون الصلاة بأنفسهم فحسب، بل إنّهم يحاولون إقامة الصلاة فى كل المجتمع، وقال البعض إنّ ذلك إشارة إلى أنّ هؤلاء المؤمنين ليس فقط يأتون بظاهر الصّلاة وصورتها بل إنّهم يحاولون إقامة الصلاة بكل محتواها الحقيقى وشرائط صحتها وكمالها (والجمع بين هذين التفسيرين ليس مشكلًا).

وفى الآية السّابعة والأخيرة نلاحظ نكتة اخرى حول الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وهى أنّ هذين الأمرين المهمين ليسا من مختصات الشريعة الإسلامية فقط، بل إنّ هناك تأكيد شديد عليهما فى الأمم السّالفة أيضاً (وإن كانتا قد أخذتا شكلًا موسعاً وأساسياً فى الشّريعة الإسلاميّة).

فينقل لنا القرآن الكريم عن لسان لقمان ذلك الرّجل الحكيم العالم:

«يَا بُنَىَّ اقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى ما اصَابَكَ انَّ ذلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ».

فهنا اعتبرت الآية أنّ رمز انتصار الإنسان فى أربعة أُمور:

إقامة الصلاة، الأمر بالمعروف، النّهى عن المنكر، والصّبر.

وجملة «إِن ذَلِكَ مِنْ عَزمِ الأُمُورِ» قد تكون إشارة إلى خصوص الصبر المذكور فى الذيل، وقد تكون شاملة للاصول الأربعة جميعاً.

ولابدّ هنا من التدقيق فى هذه النّكتة وهى أنّ اقتران الصّبر بمسألة الأمر بالمعروف

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۱

والنّهى عن المنكر إشارة إلى الارتباط الوثيق بين هذين الأمرين، إذ إنّ أداء هاتين الوظيفتين الإلهيتين المهمتين يقترن أحياناً بالمشاكل والصعوبات، ولا يمكن تحقق الأمر بالمعروف، والنّهى عن المنكر إلّابالصّبر والإستقامة. كما أنّ هذين الأمرين على ارتباط وثيق أيضاً بالصلاة، لإننا نعلم جيداً بأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أو بتعبير آخر هى الأساس الأصلى للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحشَاءِ والمُنكَرِ». (العنكبوت/ ۴۵)

الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الروايات:

نلاحظ فى الروايات أيضاً تأكيداً كبيراً على هاتين الوظيفتين المهمتين، وتعتبرهما الضّامن لإجراء كلّ الفرائض الإلهيّة والسّبب الرئيس فى الأمن والأمان وتحقيق العدالة.

۱- ورد فى حديث عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ أمَرَ بالمعروفِ ونهى عن المنكرِ فهو خَليفَةُ اللَّه فى أرضِهِ، وخليفةُ رسول اللَّهِ وخليفةُ كِتابِهِ» «۱».

۲- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله نلاحظ تعبيراً أوضح، حيث كان النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله على المنبر فقام إليه رجل وقال: يا رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «مَنْ خير النّاس؟» فقال النّبى صلى الله عليه و آله: «آمَرَهُمْ بالمعروفِ وأنهاهُمْ عن المُنكر وأتقاهم للَّهوأرضاهم» «۲».

۳- وفى حديث آخر عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «لتأمُرُنَّ بالمعروف ولَتَنْهُنَّ عَن المُنكر أو لَيَعُمَنَّكُمْ عذابُ اللَّه» «۳».

۴- وفى حديث معروف أيضاً عن على عليه السلام قال: «وما أعمال البرّ كلِّها والجهاد فى سبيل اللَّه عِنْدَ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر إلّاكنفثةٍ فى بحرٍ لُجىّ» «۴».

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۲، ص ۴۸۴، ذيل الآية ۱۰۴ من سورة آل عمران.

(۲) المصدر السابق.

(۳) وسائل الشّيعة، ج ۱۱، ص ۴۰۷، ح ۱۲، الباب ۳ من أبواب الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

(۴) نهج البلاغة، الكلمات القصار، الكلمة ۳۷۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۲

۵- وأخيراً نقرأ عن الإمام الباقر عليه السلام بياناً لفلسفة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى كلام مختصر مفيد حيث يقول عليه السلام: «إنَّ الأمرَ بالمعروفِ والنّهىَ عَنْ المُنكر فريضةٌ عظيمةٌ بها تُقامُ الفرائِضُ وتأمنُ المذاهبُ وتحلُّ المكاسبُ وتُردُّ المظالم وتعمُرُ الأرضُ ويُنتَصَفُ من الاعداء ويَستَقيم الأمر» «۱».

والأحاديث الواردة عن أئمّة الدين الإسلامى عليهم السلام فى هذا المجال كثيرة جدّاً إلى درجة أنّها لو جمعت لصارت كتاباً مستقلًا.

وهنا ينبغى الإلتفات إلى عدّة نكات ضرورية:

۱- إنّ أحسن أنواع الحكومات، تلك الحكومة التى يشترك فيها كلّ النّاس، وبتعبير آخر الحكومة التى يحمل أركانها أكتاف النّاس،

والأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الواقع تصميم لمسألة الحكومة وتثبيت لاشتراك عامة الناس فيها، إذ عن هذا الطّريق يمكن الحدّ من الكثير من المخالفات، وتعريف النّاس بوظائفهم الفردية والاجتماعيّة، ومع الأخذ بنظر الاعتبار قلّة المأمورين الحكوميين (كالشّرطة وقوى الأمن الداخلى) قياساً إلى عدد المتخلفين، تتضح لنا أهميّة هذه الوظيفة الإسلاميّة أكثر فأكثر، إذ لا يمكن نظم المجتمع والحدِّ من وقوع المخالفات والجرائم إلّاعن هذا الطّريق.

وما قيل من أنّه لو كان فى داخل البيت ولد مجرم فإن أباه وأُمّه مسؤولان تجاهه، وأنّ الولد البالغ مسؤول عن أبيه وأُمهُ إذا ما ارتكبا ذنباً، وأنّه إذا صدر ذنبٌ فى شرق العالم وكان فى غربه رجل يمكنه الحدَّ من ارتكابه، فلم يفعل كان شريكاً له، هذا القول، له تأثير عميق بلا شك فى الحدِّ من ارتكاب الذّنوب والمخالفات والدّعوة إلى القيام بالفرائض والمسؤوليات.

هذا فى حين أنّ مجتمع اليوم والحكومات الالحادية، قد أوكلت مسؤولية الحدّ من

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱، ص ۳۹۵، الباب ۱، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۳

المخالفات والمفاسد على عهدة مجموعة صغيرة خاصّة فقط، ولذا فإن نتاج هذه المجموعات محدود جدّاً وقليل.

ومن هنا يتضح لنا عظمة وأهميّة هذه الفريضة الإسلاميّة من جهة، وجماهيرية الحكومة الإسلامية من جهة أخرى.

ولكن هذا لا يعنى أن يتصرف جميع النّاس وكأنّهم رجال شرطة، بل إنّ وظيفتهم على مستوى الدّعوة إلى الخيرات ومكافحة المنكرات والشّرور عن طريق النّصح والموعظة، وأحياناً عن طريق قطع الرّوابط والعلاقات الاجتماعيّة مع الفاسدين والمفسدين.

۲- قد أشرنا فى بحث التعزيرات إلى أنّها قسمٌ من أقسام الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وهو نفس القسم الذى يجرى من قبل الحاكم الشرعى والذى لا يحق للآخرين التدّخل فيه، وكما جاء هناك، فإنّ التّعزير بمعنى المنع من ارتكاب الذنب أو الحدّ من الاستمرار على ارتكابه أو تكراره، وفى هذه الطريق لابدّ من الإستفادة من قاعدة الاسَهَل فالأسَهل أى ينبغى البدء بالمراحل البسيطة أولًا، فإن لم تقع مؤثرة انتقل إلى المراحل المعقدة والخشنة.

فيبدأ بالتذكير الأخوى أو الأبوى، ثّم العتاب الخفيف، ثُمّ الشّديد، ثُمّ عدم الإكرام وقطع الرّوابط، وفى النّهاية الحبس والجلد والغرامات المالية والتوبيخات الاجتماعيّة وأمثال ذلك، فهذه هى المراحل فى طريق التعزير عن المنكر، وبعبارة أُخرى المصاديق المختلفة للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

ولهذا فإنّ العلماء يعتمدون على أدلة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر فى الفقه عندما يبحثون الحدود والتّعزيرات لإثبات مشروعيتها.

۳- لا يمكن إنكار تأثير فريضتى «الأمر بالمعروف» و «النّهى عن المنكر» فى تأمين العدالة الاجتماعيّة وإجراء القوانين ومحاربة المنكرات والحدِّ من الجنايات وتقليل عدد السّجناء، وتطوير الثّقافة الاجتماعّية، وقد أثبتت التجارب أنّ المجتمعات التى تؤدّى هاتين الوظيفتين بشكل صريح وقاطع ومدروس، تكون عادة مجتمعات نظيفة وسليمة ويعم الأمن والأمان فيها، وبالعكس فإنّ المجتمعات الّتى نسيت هاتين الوظيفتين والتى وقفت

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۴

مكتوفة الأيدى قبال التّخلفات والمعاصى، ابتليت بعواقب سيئة، فدخل الفساد حتّى فى المنازل والبيوت، وفى هذا المجتمع لا يأمن أى فرد من أفراده من المخاطر، وبالضبط كما ورد فى الحديث الشّريف عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله فإنّ البلاء والعذاب سيعم الجميع، وكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «فيُولّى عليكُم شَراركم ثُمّ تَدعُونَ فلا يُستجاب لَكُمْ» «۱».

۴- إنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، يبدءان عادة كما نعلم من العمل الثّقافى، وعليه، فإن كلّ أجهزة الإعلام الجماعيّة، وكلّ

مراكز الإذاعة والتلّفزيون لها دخل فى رفع مستوى الإطلاع والثّقافة الجماهيرية وتوجيه النّاس نحو الخير والصلاح والطهر والأخلاق الإنسانيّة الرفيعة والفضيلة، والتّنفر من الفساد والقبائح، فلكلٍ من هؤلاء موقعه فى دائرة الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وحتّى مراكز التّربية والتّعليم بمستوياتها المختلفة والّتى تُعرِّف الشُبّان والصّبيان أُصول العقائد الصّحيحة والموازين الإنسانيّة والقوانين والأداب الاجتماعيّة، والتى تخطو من أجل التّعليم والتّربية الصّحيحين، لها موقعها الخاص فى تلك الدّائرة، وذلك لأنّ كل هذه الأمور يمكن أنْ تساهم فى الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وعليه فإنّ دور هذه المراكز فى تحقيق هذين الأصلين الاجتماعيين المهمين، واضح وجلّى.

والنّكتة المهمّة الاخرى هى أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وإنِ اعتبرا قسمين من فروع الدّين، إلّاأنّهما من جهة أخرى، بدرجة من السّعة والأهميّة بحيث يشملان قسماً عظيماً من أصول العقائد، لأنّ تلك الأمور مؤثرة فى هذا المسير وعن طريق تحكم أُسس الإعتقادات يمكن محاربة المفاسد الاجتماعية، كما أنّ العبادات أيضاً تعتبر مقدمة لها.

۵- خلافاً لما يراه البعض، فإنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر ليسا وظيفة عبادية، بل فلسفة عقلية واضحة (التفتوا جيداً).

وتوضيح ذلك:

بالإلتفات إلى العلاقات الاجتماعيّة، وأنّ أى عمل خير أو شرّ فى المجتمع الإنسانى لا يتحدد بنقطة خاصة، بل يسرى بأى صورة إلى النقاط الاخرى، فكل عمل قبيح يعتبر كالنار

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۴۷.

التى إذا لم تطفأ فإنّها ستسرى وتحرق كل ما فى طريقها وتحيله إلى رمادٍ، فمحاربة الفساد حقٌّ اجتماعى.

وأفضل تعبير عن هذا المطلب هو ما ورد فى الحديث النبوى حيث يقول:

«إنّ مثل الفاسق فى القوم كمثل قوم ركبوا سفينة فى البحر فاقتسموها فصار لكل واحد منهم [مكان فعمد أحدهم الى مكانه لخرقه تعالى فقالوا أتريد أن تهلكنا فقال وما انتم من مكانى فإن تركوه غرقوا وغرق معهم و إن أخذوا على يديه نجوا ونجا فذلك مثل الفاسق» «۱».

ومن هنا يتضح لنا، أنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، ليسا تدخلًا فى حياة الآخرين الخاصّة، فلا شك فى أنّ الإسلام يعتبر التدّخل فى حياة الآخرين والتجسس عليهم حراماً، والقرآن الكريم تحدث عن هذه الحقيقة فى (سورة الحجرات)، ولكن حدود الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر هى الإضطرابات والمفاسد الاجتماعيّة الفاضحة، والتى لها مدخلية مباشرة فى تحديد مصير المجتمع، وأنّ مصير المجتمع معقود عليها، والتّخلف والانحراف فى كلّ فردٍ من أفراد المجتمع له أثر بالغ على المجتمع ككلّ.

وبناءً على هذا، فإنّه لا يحق لأحد أن يعترض على أولئك الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى مثل هذه الموارد ويقول لهم: إنّ هذا الأمر لا يهمكم فلا تتدخلوا فيه، فإن جواب هذا الشخص، هو أنّ هذا الأمر يخصّنا جميعاً، فإنّ مصيرنا مرتبط بنا جميعاً، فهل يحق لأحد أن يعترض على الدولة إذا ما عينت مأمورين للتلقيح ضد الأمراض المسرية إذا ما سرت تلك الأمراض فى المجتمع ويقول لمسؤولى الدولة: إنّ هذا الأمر لا يعنيكم؟ فأنا الذى أتمرّض وأنا الذى أعرّض نفسى للخطر فلماذا تتدخلون فى حياتى الشخصية؟!

فلا شك فى أنّ الجميع سيجيبون ذلك الشّخص بأنّ سلامتك ليست منفصلة عن سلامة المجتمع، ومرضك سيسرى إلى أفراد المجتمع الآخرين، ولذا فإن الأمر يهمّ الجميع.

وعليه فلابدّ من الإذعان بأنّ هاتين الوظيفتين (الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر) تعتبران من أثار الحياة الاجتماعيّة للإنسان ومن

الحقوق والواجبات الاجتماعية.

كان هذا ملخصاً لبحث الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، وأثرهما فى تحقيق أهداف الحكومة الإسلاميّة.

---

(۱) راجع تفسير روح الجنان، ج ۳، ص ۱۴۲؛ المعجم الاوسط، ج ۳، ص ۱۴۹.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۶

جهاز الحسبة والمحتسب فى الحكومة الإسلاميّة:

هذا البحث مرتبط تماماً ببحث الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر وهو فى الحقيقة فرع من فروعه، إذ كما أشرنا فإنّ الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر له شقّان، شقّ عام يشمل جميع النّاس، وشقّ خاص تختص به الحكومة الإسلاميّة، ففى هذه المرحلة قد يلزم إبداء الخشونة والشّدّة وهذا ليس من شأن النّاس، بل لابدّ أن يقوم مأمور الحكومة المدربون على القيام بهذه الوظيفة، وهذا يشكل أساس «الحسبة» «۱».

توضيح ذلك:

«الحسبة»: فى اللغة، إسم مصدر من مادة «إحتساب»، وكما ذكر أرباب اللغة فإنّه بمعنى التّسليم والصّبر حيال المشكلات طلباً للأجر الإلهى، وكذلك السّعى فى أداء أعمال الخير لتحصيل الثّواب.

ولما كان هذا الشق من الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر سعىٌ واجتهاد وجدٌّ فى طريق إطاعة اللَّه ومكافحة المنكرات لنيل رضا اللَّه، سُمى «حسبة».

يقول فى كتاب «التّحقيق» حول معنى مادة «حسب»: الأصل فى هذا المصطلح بمعنى التّحقيق والبحث والتّدقيق بقصد الإمتحان.

وهذا التعبير يناسب كثيراً شغل المحتسب الذى يستخبر عن شرائح مختلفة من المجتمع ويبحث ويحقق ويراقب حركاتهم، فإن وجد انحرافاً نبهّهم إليه، فإن لم ينفع واجههم بشدّة.

وكانت دائرة «الحسبة» من الدوائر المعروفة فى زمن الخلفاء وتشرف على نشاطات الكسبة والتجّار والفلاحين وشرائح المجتمع الاخرى من حيث المخالفات والمنكرات، وكلما رأى المحتسبون مخالفة كانوا ينهون مرتكبيها لها، فإن لم يؤثر فيهم النهى والتذكير والموعظة، كانوا يعاقبون المخالف فى نفس المكان مباشرة، أو يقبضون عليه ويسلّمونه إلى القاضى فيأمر بحبسه.

---

(۱) التّحقيق فى كلمات القرآن الكريم، ح ۲، مادة (حسب).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۷

وباعتقاد البعض، فإنّ جذور هذه المسألة تعود إلى عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله حيث كان صلى الله عليه و آله يمارس عمل المحتسب بنفسه الشّريفة، وتارة كان يوكل الأمر إلى شخص ينتخبه لهذا الغرض، ولكن لابدّ من الإلتفات إلى أنّ استعمال هذا المصطلح لم يكن معمولًا به فى ذلك العصر، ولم يكن موجوداً فى كلام الفقهاء المتقدمين، ويبدو أنّ هذا المصطلح استعمل لأول مرّة، فى عصر خلفاء بنى أُميّة وبنى العبّاس، حيث انتخب لهذا الشق من الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر.

وعلى أيّة حال، فإنّ الأخبار الواصلة عن عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله تدل على أنّ كلمة «الحسبة» وإنْ لم تكن متداولة فى ذلك العصر بمعناها ومفهومها المعهود اليوم، ولكن مفهومها الواقعى أى، النظارة على المسائل الاجتماعيّة من قبل الحكومة الإسلاميّة، كان مراعىً تماماً حينذاك، فتارة كان الرسول صلى الله عليه و آله يقوم بنفسه بهذه الوظيفة، واخرى يوكلها إلى آخرين.

ومن جملة الشّواهد على ذلك، ما ورد من أنّ الرّسول صلى الله عليه و آله قد أمر سعيد بن سعيد بن العاص- بعد فتح مكة- بالاشراف على السّوق، حيث ورد فی‌الحديث: «استعملَ رَسولُ اللَّهِ سعيد بنَ سَعيد بن العاص بَعْدَ الفَتح على سُوق مكّة» «۱».

حتى أنّ المستفاد من بعض الرّوايات، أنّ بعض النّساء كنَّ يمارسن وظيفة الاشراف على المسائل النّسائية (كمسائل الحجاب وأمثال ذلك)، ومن جملة تلك النّسوة امرأة باسم «سحراء» بنت نهيك «۲» الذی أدرك عصر النّبیّ صلى الله عليه و آله، كانت مأمورة بالقيام بتلك الوظيفة، فكانت تدور فی الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر (وإن ذهب البعض إلى أنّها لم تقم بذلك الدور فی عصر النّبیّ صلى الله عليه و آله وإنّما كان ذلك فی زمن عمر بن الخطاب) «۳».

وفی كثير من المواضع، كان النّبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله يتولى ذلك بنفسه، خاصة فی مسائل الإحتكار والغش والتدليس فی المعاملة وأمثال ذلك، ومن جملة ما ورد فی ذلك: «إنّ

---

(۱) التّراتيب الإدارية، للكتانی، ج ۱، ص ۲۸۵ (ينقل الرّواية عن إبن عبد البرّ فی الإستيعاب).

(۲) «نهيك» على وزن شريك، وفی‌الأصل بمعنى الجمل القوی، والسّيف القاطع، ويقال للرّجال القاطعين الحازمين أيضاً.

(۳) المصدر السابق.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۸

رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مرَّ بالمحتكرين فأمر بحكرتِهم أنْ تخرج إلى بطون الأسواق وحيث تنظرُ الأبصار إليها» «۱»، فاقترح النّاس أن تُعيّن أسعارها، فرفض النّبیّ صلى الله عليه و آله ذلك.

وفی حديث آخر، أنّ النّبیّ صلى الله عليه و آله مرَّ على رجل خلط طعاماً جيداً بردیء، فقال له النّبیّ صلى الله عليه و آله فی ذلك، فقال الرجل: أردت أن أبيعه جميعاً فقال صلى الله عليه و آله: «ميِّزْ كُلَّ واحدٍ منهما على حِدة، ليس فی ديننا غشّ» «۲».

وجاء فی عهد الإمام علیّ عليه السلام إلى مالك الأشتر:

«إمنَع من الإحتكار فإنّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله مَنَعَ مِنهُ، وليكن البَيْعُ بيعاً سَمحًا بموازين عدلٍ، وأسعار لا تجحِفْ بالفريقين من البائع والمبتاع، فمن قارفَ حُكْرَةً بعد نهيك إيّاه، فنكِّل به وعاقبهُ فی غير إسراف» «۳».

ونقرأ أيضاً فی أحوال الإمام علیّ عليه السلام أنّه كان يتولى بنفسه الأُمور المرتبطة بالحسبة، فكان أحياناً يمرُّ فی سوق القصابين وينهاهم عن المخالفة «۴».

وكان عليه السلام يمرَّ تارة فی سوق السّماكين وينهاهم عن بيع الأسماك المحرّمة «۵».

ولكن، وبمرور الزّمان، اتسعت مسألة «الحسبة» واتخذت تدريجياً صورة دائرة مهمّة من دوائر الدولة الإسلاميّة، فكان المأمورون باسم «المحتسبين» يدورون فی الأزقة والأسواق والشّوارع الكبيرة ليل نهار ويراقبون الأمور الاجتماعيّة، المختلفة، فيعاقبون المخالفين فی‌محل ارتكاب المخالفة أحياناً، وأحياناً أخرى يأخذونه إلى القاضی (كما فی مأموری شرطة المرور هذه الأيّام).

واتّسعت دائرة «الحسبة» إلى درجة أنّ «جرجی زيدان» المؤرخ المعروف ذكر فی كتابه «تاريخ الحضارة الإسلامية» يقول:

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۲، ص ۳۱۷، ح ۱، الباب ۳.

(۲) كنز العمال، ج ۴، ص ۱۵۹.

(۳) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

(۴) كنز العمال، ج ۴، ص ۱۵۸.

(۵) وسائل الشيعة، ج ۱۶، ص ۳۳۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۱۹

«الحسبة»: وهى احدى المناصب الإسلامية، شأنها شأن منصب القضاء وللمحتسب حق ردع الناس عن القيام بالمنكرات، وله حق الاشراف على التعزير والتأديب، وأمر الناس بضرورة رعاية المصالح فى المؤن، ومنعهم من الوقوف فى الطرقات، ومراقبة شؤون النقل، ومنع أصحاب السفن من تحميل السفينة أكثر من طاقتها، وذلك حفاظاً على أموال وأرواح الناس، ويأمر بإقامة وتعديل الجدران المشرفة على السقوط وكل شىء من شأنه تعريض المارة للخطر، وكل شىء يلحق بهم الضرر، ويمنع الغش والتدليس فى الكسب والعمل، ويأمر بمراعاة المكيال والميزان والاشراف على منع كل ما من شأنه أن يلحق الاذى والاجحاف بالناس.

وكل ما ذكر هو مسؤوليات القاضى، ولكن لكون القاضى لا- يستطيع ممارسة كل هذه الأعمال بشكل عملى، لذا فُصلت هذه المسؤولية من مهامه، وأصبحت مستقلة.

المتصدى لهذا المنصب أو المسؤول يجب أن يكون فرداً صالحاً ومن ذوى الوجاهة، لأنّ هذه المسؤولية تمثل خدمة دينية «ومن دون هذه الوجاهة لا يمكنه القيام بهذه المسؤولية».

ورئيس امور الحسبة يقوم بتعيين ممثلين عنه فى كافة المناطق ويستطيع أن يجلس كل يوم فى أحد المساجد المهمّة، ويقوم مُمثّلوه يقومون بممارسة الأعمال المختلفة الملقاة على عاتقهم فى الاشراف على المشاغل المختلفة والسوق.

وفى مصر، كان رئيس امور الحسبة يجلس يوماً فى مسجد القاهرة ويوماً فى مسجد الفسطاط، ويرسل ممثليه إلى الشوارع والأزقة لكى يقوموا بالاشراف على وضع اللحوم ومراكز الطبخ والأغذية، وكذلك الاشراف على الحمولة التى تحملها الحيوانات، حيث لا يسمحون تحميلها أكثر من طاقتها، ويأمرون سقاة الماء بأن يغطوا أوانيهم بقطع من القماش، وأن يراعوا الموازين الصحية والإسلامية فى أعمالهم.

ويحذرون معلمى المدارس والمكاتب بأن لا يضربوا تلامذتهم ضرباً شديداً إذا ما أذنبوا، وإذا ما ضربوهم فليتجنبوا المناطق الحساسة والخطرة من الجسم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۰

والمحتسب له حق الاشراف على محل ضرب العملة لكى لا يحصل الغش أثناء ضرب السكة فتخرج عن العيار المطلوب.

وفى الأندلس كان يسمى هذا المنصب لاخطة «الاحتساب» والمسؤول عنه أحد القضاة، ويقوم هذا الشخص بركوب مركباً والتجوال فى الأسواق يحيط به أعوانه وموظَّفوه، ويحمل معه ميزان ليزن به الخبز، فاذا كان أقل مِمّا هو مقرر فيعاقب البائع.

ويجب على القصاب أن يعلق قيمة للحومة فى دكانه، وذلك لكى لا يتلاعب بالاسعار.

وفى بعض الأحيان يقوم المحتسب بإرسال طفلٍ أو امرأة لكى يشتريا من السوق، ويقوم المحتسب بوزن ما اشترياه، فاذا راى نقصاً فى الوزن فيقوم بمجازاة البائع.

هؤلاء، لديهم قوانين واسعة لها علاقة بالحسبة يقومون بتدريسها فى مدارسهم، كما يدرس فقهاء الإسلام دروسهم «۱».

ومن مجموع هذا الكلام والمطالب الاخرى المذكورة فى الكتب المصنفة فى «الحسبة»، يظهر أنّ «دائرة الحسبة» كانت تتولى كثيراً من الأمور التى تتولاها اليوم الدوائر الحكومية كأمانة العاصمة والقوى الدّاخلية، وقوى التعزيرات والغرامات الحكومية، والتّربية والتعليم، والقضاة، وأنّها أحد أركان الحكومة الإسلاميّة الفعالة، وخاصة فى دورها الواضح والبارز فى محاربة المنكرات، ولذا فإنّ قصائد الشعراء تضمنّت مصطلح «المحتسب» ووظائفه بشكل موسع.

والمستفاد من مجموعة من المصادر أنّ القيام بوظيفة «المحتسب» كان من الواجبات الكفائيّة بين المسلمين، إذ كما قلنا فإنّ «الحسبة» فرع من فروع الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، حتّى أنّ بعض النّساء كنَّ يُنتَخَبْنَ لهذه الوظيفة ليشرفن على تحركات النّساء الاجتماعيّة.

ونقرأ فى «دائرة معارف دهخدا» (فارسى) فى بحث «وظائف المحتسب»: «إنّ وظيفة المحتسب، أوّلًا: الاشراف على إجراء المقررات الشّرعيّة والمنع من ارتكاب

---

(۱) تاريخ الحضارة الإسلامية «جرجى زيدان»، ج ۱، ص ۲۵۲، مع التصرف.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۱

المحرمات، وثانياً: الاشراف على صحة سير الأمور المرتبطة بالمصالح العامة للمجتمع ورفاههم وحياتهم، وكذلك الحدِّ من سدِّ الطّرقات العامة والأزقة من قبل بعض المخالفين والباعة ... والإشراف على الوزن، وما هو اليوم فى عهدة «البلديات» من هذه الوظائف كان فى الأصل فى عهدة القاضى، ولكنّهم جعلوها شغلًا مستقلًا لكى لا يبتلى القاضى بها» «۱».

ويذكر فى نفس الكتاب وظائف المحتسب نقلًا عن كتاب «معالمُ القُرْبَة» والذى قد يكون أجمع كتاب كتب فى أحكام الحسبة، حيث يذكر ما يظهر منه أنّ شغل المحتسب يشمل الاشراف على أنواع الكسب والتجارات وموارد الإنتاج والخدمات والتّربية والتعليم.

ومن جملة الموارد: منع وقوع المنكرات فى‌الأزقة والأسواق ومراقبة صحة الوزن والمكيال وأمور الأفران والمخابز، والأمُور الصّحية والمسالخ والتّدقيق فى صحة الذّبح وشرائطه، والحمّامات العامة، والأطباء والمعلمين والمؤذنين وخدمة المساجد والوعاظ والكتّاب، وكذا النظارة على أشغال التّجارة، والملاحين، والمعمارين والبنّائين، والسماسرة والصرّافين والصاغة وأمثالهم «۲».

وفيما يرتبط بالفرق بين مسألة «الحسبة» ومسألة «الأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر» ذكرت بعض الكتب مثل «الأحكام السلطانية» فروقاً كثيرة بينهما بلغت تسعة فوارق «۳».

ويمكن فى الواقع تلخيص تلك الفروق فى جملة واحدة وهى أنّ «الحسبة» هى الشّق الحكومى للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر والذى يمكن التّوسل به فى موارد اللزوم، وعليه فالمحتسب يُعَيَّن من قبل الحكومة، وله أعوان وأنصار، وظيفتهم الإشراف والنظارة على المسائل الاجتماعيّة المذكورة، وهؤلاء يستلمون مرتباتهم الشّهرية من صندوق بيت المال، ويلقون القبض على المخالفين ويعزّرونهم ويعاقبونهم على النحو الذى مرَّ، وأما الشّق العام للأمر بالمعروف والنّهى عن المنكر، فلا يكون بهذا النحو.

---

(۱) لغتنامه دهخدا، مادة (حسبة).

(۲) المصدر السابق.

(۳) الأحكام السلطانية، ص ۲۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۳

الرّكن الرّابع: التربية والتعليم

تمهيد:

اشارة

يعتبر نشر الثقافة الصّحيحة والتّربية والتّعليم أحد الأركان المهمّة فى الحكومة الإسلاميّة، وبالنظر إلى الإنسان كموجود ثقافى، أى أنّ أعماله وسلوكه نتاج لمجموعة افكاره واستعداداته، لذا فأىّ إصلاح وتحوّل فى وضع المجتمع غير ممكن ما لم يتمّ النفوذ إلى فكره وروحه.

ولـذا تحـاول الـدول العظمى النّفوذ فی ثقافـة المجتمعات ووسائل الإعلام العامـة كالمطبوعات (الكتب والجرائـد والمجلات) والإذاعة والتلفزيون وأمثال ذلك، من أجل تحقيق أهدافها السياسية والاجتماعيّة والعسكرية والاقتصادية المختلفة، ويعتبر ذلك ركناً من أركان تلك الحكومات وقوة رابعـة تضاف إلى القوى الثّلاث (القوة التشـريعيّة والتنفيذيّـة والقضائية)، بل إنّ الكثيرين يعتبرون ذلك من أهم أركان المجتمع ويراهنون عليه كثيراً.

وهذه حقيقة لا مبالغة فيها، إذ إنّ وسائل الإعلام العامة لو اسـتغلت فی طريق نشـر الثقافة الصحيحة السالمة المبرمجة المؤثرة، لكان جو التّشـريع والقضاء والتّنفيـذ سالماً، ولخففت كثيراً من ذلك العبء الثقيل عن كاهل المسؤولين، ولأدّى أفراد المجتمع وظائفهم بشـكل طبيعی ومنظم.

والملفت للنظر هو أنّ منهج الحكومة الإسـلاميّة المسـتنبط من القرآن المجيد والسّنة النبوية، والمقرر قبل أربعة عشر قرناً، كان قد اهتم فوق حد التصور بمسائل التّربية والتّعليم والتّبشير والإنذار، وقد اعتمد برامج عديدة ومتنوعة لتحقيق هذا الغرض.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۴

والموضوع القابل للتّأمل هو أنّ أبرز أنواع الحكم الإسـلامی وهو حكومة الرّسول الأكرم محمّد صـلى الله عليه و آله، بنيت على أساس ثورة ثقافيّـة، فقـد إهتم الرّسول صـلى الله عليه و آله طيلة الثّلاثة عشـر عاماً التی قضاها فی مكة بالتربية والتّعليم ونشـر الثّقافة الإسـلاميّة والعقائد، وقد ربّى أصـحابه وعلّمهم بحيث صار كلٌ منهم لُبنَةً أساسـية فی بناء الحكومة الإسلامية، أی أنّ الثّورة السياسيّة والاجتماعيّة للنظام الإسلامی قامتا على أساس نفس تلك الثّورة الثّقافية.

ويعتبر إحياء الفكر والتّفكر، المادة الأولية لكل البرامج الإسـلاميّة، حتّى أنّ الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله كان يطلب من مخالفيه هذا الأمر فقط وكما ورد فی القرآن المجيد: «قُلْ إِنَّما أَعِظُكُم بِوَاحِدةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّه مَثنَى وَفُرادَى ثُمَّ تَتَفكَّروُا ...». (سبأ/ ۴۶)

وفی حديث عن النّبیّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «إنَّ التّفكر حياةُ قَلْبِ البَصيرِ، كما يمشی المُستَنِيرُ فی الظّلمات بالنّور» «۱».

وفی حديث عن الإمام علیّ عليه السلام قال: «بالفِكْرِ تَنْجلی غياهِبُ الأمور» «۲».

وورد فی حديث آخر معروف: «تفكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادةِ ستّين سنة» «۳».

وعلى هذا الأساس، سنتناول بالبحث الأمُور التّالية، مستلهمين من القرآن الكريم:

۱- التّربية والتّعليم فی الإسلام.

۲- أهميّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدينيّة.

۳- تعلم العلوم المفيدة، فی الرّوايات الإسلاميّة.

۴- مقام المعلّم فی الإسلام و ...

۱- التّربية والتّعليم فی الإسلام

وردت فی القرآن الكريم آيات كثيرة فی «التّعليم» و «التّعلّم» و «نشر العلم»، وذكر كلّ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۸۹، ص ۱۷.

(۲) غرر الحكم.

(۳) بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۹۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۵

تلك الآيات لا يَسَعُهُ هذا المختصر، ولذا سنشير هنا إلى بعض تلك الآيات:

١- «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيءٍ عِلْماً». (الطلاق/ ١٢)

٢- «كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آياتِنَا ويُزَكّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ». (البقرة/ ١٥١)

٣- «رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمُ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». (البقرة/ ١٢٩)

۴- «وَمَا ارْسَلْنَا مِنْ قَبلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي الَيْهِمْ فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَا تَعْلَمُونَ». (النّحل/ ۴۳)

۵- «وَمَا كَانَ الْمُؤمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ». (التوبة/ ١٢٢)

۶- «يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِىَ خَيْراً كَثيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا اولُوا الالْبَابِ». (البقرة/ ٢۶٩)

٧- «انَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ». (البقرة/ ١۵٩)

فبنظرة إجماليـة إلى هـذه الآيات السبع التى انتخبناها من بين عشرات الآيات القرآنيـة حول التّعليم والتّربيـة، يتضح لنا اهتمام الإسـلام البالغ بهذا الأمر المهم.

ففى الآيـة الأولى، يعتبر العـالم كلّه بمثابـة جامعـة خُلِقَت جميع الموجودات فيه لتعليم الإنسـان وزيادة اطلاعه، والهـدف هو أن يتفكر الإنسان فى أسـرار هـذه الكائنات، فيتعرف على علم وقـدرة الخالق، وبتعبير آخر، الهـدف من عالم الخلقة كلّه هو العلم والمعرفة حيث يقول عزّوجلّ:

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٢٢۶

«اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَماوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ... لتَعلَموا أنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٍ ...» «١».

وهذا فىالحقيقة موضوع ظريف وهو أنّ خلق السـماوات وخلق الأرضين وتدبيرهما الدائمى، يكون وسيلة لتحريك حسّ الإطلاع عند الإنسـان للتفكر والتّأمـل فى أسـرار العالم، وبالنّتيجـة التّيقن من علم اللَّه وقـدرته، فكل تلك الأمور إذن مقدمـة لتربيـة النفس الإنسانيّة والقرب إلى اللَّه، وللإطلاع على أنّ أحكام الشّريعة كأحكام الخلقة، مبتنية على حسابات دقيقة، فالخلقة إذن من أجل العلم.

وتشـير الآية الثّانية إلى الهدف من بعثة نبىّ الإسـلام صلى الله عليه و آله، وتعتبر أنّ الهدف هو التّعليم والتّربية فى ظل تلاوة آيات اللَّه، حيث تقول:

«كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ويُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

فهنا لم يحصر الهدف من البعثة فى تعليم الكتاب والحكمة، بل تعليم الأمور التى لم يكن بالإمكان التعرف عليها إلّابنزول الوحى، ولذا يقول: «وَيُعَلِّمُكُمْ مَّالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ».

وبهذا يكون الهدف من الخلقة تطوير المعرفة، والهدف من البعثة كذلك هو توسعة ونشر العلم والحكمة وتهذيب وتربية النفوس.

---

(١) فُسرّت السّماوات السّبع بتفسيرات عديـدة، منها تفسير معروف وهو أن كلّ ما نراه من سـماوات وكرات سـماوية ونجوم سـيارة وثابتة، مرتبط بالسّماء الأولى، وما بعدها ستة عوالم أخرى عظيمة جدّاً، واحد تفاسير الأرضـين السـبع هو أن ما يوجد فوقنا من عوالم يوجـد مثله تحت أرجلنا وهذا المعنى بينه الرّسول الأكرم صـلى الله عليه و آله فى عبارة رائعة حيث سأل أصـحابه هل يعرفون ما تحت أرجلهم؟ فقالوا: اللَّه ورسوله أعلم فقال صـلى الله عليه و آله: «الأرض وتحتها أرض اخرى بينهما خمسـمأة عام» (تفسير روح البيان، ج

۱۰، ص ۴۴). وللإطلاع أكثر على معنى السماوات السبع راجعوا الى ج ۲، ص ۱۴۴ من هذا التفسير.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۷

والمستفاد من الآية الثالثة هو أنّ هذا الهدف الكبير أى التّربية والتعليم والحكمة، ورد فى دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام لهذه الأمة، حتى إنّه يطلب ذلك من اللَّه عزّوجلّ ويقول:

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وهذا يدل على أنّ هذين الهدفين (التربية والتعليم) كانا من الأهداف المعروفة فى الأمم السّابقة أيضاً.

والملفت للنظر هو أنّه ورد فى هذه الآية وبعض الآيات الاخرى الواردة فى هذا المضمار، الحديث عن تعليم الكتاب وتزكية النّفس إضافة إلى تعليم الحكمة، وفيما يرتبط بمعنى «الحكمة» وردت تفسيرات كثيرة ومختلفة.

الأول: إنّ المراد منها هو العلوم الدّينيّة والتّعرف على أحكام الدّين.

والثّانى: إنّ المراد منها هو سنّة النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، لإنّها ذُكرت إلى جنب كتاب اللَّه. وقال البعض الآخر إنّ المراد من الحكمة هو العلامات والفوارق التى تميز الحق من الباطل، وقيل أيضاً إنّ الحكمة بمعنى الآيات المتشابهة التى لابدّ أنْ يُعلِّمها الرّسول بنفسه للآخرين «۱».

لكن وبالتأمل فى أصل لفظ «الحكمة» فى اللغة، والتى جاءت بمعنى المنع من الجهل والخطأ، ووضع كلّ شىء فى موضعه، يبدو أنّ المراد من الحكمة هنا الإطلاع على أسرار وعلل ونتائج الأحكام، وأسرار خلقة الكون والإنسان، ومصيره ونهايته.

وفى الآية الرّابعة إشارة إلى قاعدة كلية هى أساس مسألة التّربية والتعليم، حيث يقول عزّوجلّ: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَاتَعْلَمُونَ».

وهذه الآية وإنْ وردت فى صفات الأنبياء السابقين عليهم السلام وإنّهم كانوا من جنس البشر، وأنّه لا فرق بينهم وبين سائر البشر فى الظّاهر، ولكننا نعلم أنّ مورد الآية لا يحدّد مفهومها

---

(۱) التّفسير الكبير، ج ۴، ص ۶۶ (ذيل الآية مورد البحث).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۸

الوسيع، بل الحكم باقٍ على عموميته.

وهذا فى الواقع أصلٌ أساسى يذعن بصحته كل عقلاء العالم، وهو أن غير أهل العلم يتعلمون من أهل العلم، إذ إنّ العلوم والمعارف الحقيقية محصول التفكر والتأمل والتجارب التى اكتسبها القدماء، والّتى يضعونها تحت تصرف الأجيال القادمة، وهؤلاء يضيفون عليها ويسلمونها للأجيال اللاحقة، وهكذا يتكامل العلم والمعرفة البشرية يوماً بعد يوم، ولهذا الدّليل تعتبر مسألة التّربية والتّعليم الأساس الأول لكل تطور ورقّى اجتماعى فى البعد المعنوى والمادى.

ونُقِلَت عبارة عن الغزّالى توضح هذا المطلب أكثر، وهى أنّه سئل عن كيفية حصوله على هذه الإحاطة العلميّة باصول وفروع الإسلام، فأجاب بتلاوة هذه الآية: «فَاسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُم لَاتَعْلَمُونَ» «۱».

وقد فَسَرَّت الروايات العديدة الواردة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام، أهل الذكر، بمعنى الأئمّة المعصومين عليهم السلام «۲» ولكن وكما تعلم أنّ هذه التفاسير ليست بمعنى الحصر، بل فى بيان المصداق الأتمّ والأكمل لها، وشبيه هذا المعنى نلاحظه فى تفسير كثير من آيات القرآن.

والآية الخامسة تقسم المسلمين إلى مجموعتين: «المعلمين والمتعلمين» وفى الواقع لابدّ أن يكون المسلم فرداً من أفراد إحدى المجموعتين، فإمّا أنْ يكون معلماً أو متعلماً حيث يقول عزّوجلّ:

«وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ اذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

وقد استند كثير من العلماء على طول التّاريخ إلى هذه الآية الشّريفة لإثبات لزوم تعلم

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۵، ص ۳۷.

(۲) للإطلاع على هذه الروايات يراجع من تفسير البرهان ج ۲ ص ۳۶۹، والملاحظ أنّ هذا التعبير ورد فى رواياتأهل السنّة أيضاً (راجع شواهد التّنزيل للحسكانى ج ۱، ص ۳۴۴، وإحقاق الحق، ج ۳، ص ۴۸۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۲۹

العلوم الإسلاميّة لإبلاغها إلى الآخرين بعنوان الواجب الكفائى، مضافاً إلى أنّهم يوجبون التّعلُّم على الجميع وجوباً عينياً.

وفى عالم اليوم، يعتبر طلب العلم فى كثير من الدّول إلزامياً، فيجب على كلّ طفل أنْ يتعلم وإلّا استدعى وليّه من قبل الجهات المسؤولة، ولكن التّعليم ليس إلزامياً فى أى مكان من العالم، بل الناس مخيرون بين انتخاب التعليم وعدمِه.

وأمّا فى الإسلام، فإنّه كما يعتبر تحصيل العلم واجباً، فكذلك تعليم الآخرين فإن فيه جنبة الإلزام والوجوب وأحد الأدلة على ذلك هو نفس آية النّفر هذه، فإنّها من جهة توجب تحصيل العلم بجملة «فَلَولَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طائِفَةٌ» «۱».

ومن جهة أخرى فإنّها توجب التّعليم، بجملة «وَلِيُنْذِرُوا قَومَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ»، ولا شك فىأنّ كلّ ذلك مقدّمة للقيام بالتّكاليف الإلهيّة، والذى تخلّصَ فى جملة: «لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ».

ولهذا، فإنّ بعض علماء الإسلام، كان أحياناً يطوى المسافات البعيدة لأيّام عديدة وينتقل من بلدٍ إلى آخر لتعلّم حديثٍ واحد!، ومن جملة هؤلاء- كما ذكر التاريخ- «جابر» الذى سافر من «المدينة» إلى «مصر» ليسمع حديثاً واحداً من أحد العلماء الذى كان يروى ذلك الحديث، ولذا قيل إنّ أحداً لا يصل إلى مرحلة الكمال إلّابالسفر (والإلتقاء بعلماء البلاد المختلفة والاستفادة من علومهم وتجاربهم)، وإنّ أحداً لا يصل إلى مقصوده إلّا بالهجرة «۲».

ونقرأ فى قصة الخضر وموسى عليه السلام والتى وردت الإشارة إليها فى سورة الكهف كيف أنّ هذا النّبىّ الكبير (موسى)، كان قد طوى طريقاً طويلًا وشاقاً حتى وصل إلى هذا العبد الصّالح (الخضر) وتعلم شيئاً من علومه.

---

(۱) طبقاً لأقوال علماء الأدب فإن «لولا» تحضيضية، وهى فى مقام اللَوم والتّقريع ومن الواضح فإن التقريع إنّما يكون على ترك الواجب أو فعل الحرام.

(۲) تفسير روح البيان، ج ۳، ص ۵۳۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۰

وفى الآية السّادسة، نواجه تعبيراً مهماً آخر حول تعلُّم العلم والمعرفة، يقول عزّوجلّ:

«يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ اوتِىَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا اولُوا الالْبَابِ».

بداهة أن المنظور من تعبير «مَنْ يَشاءُ» ليس هو أنّ يعطى اللَّه الحكمة والعلم لهذا وذاك بلا مبرر وبدون مقدمة، بل وكما تعلم فإنّ «مشيئة» اللَّه وإرادته منسجمة دائماً مع «حكمته»، أى أنّه يؤتى الحكمة من كان لائقاً بها، وهذه اللياقة إنّما يحصل عليها الإنسان عن طريق الجد والسّعى وتحمل عناء ومشقة تحصيل العلم، أو بواسطة جهاد النفس والتقوى التى تعتبر منبع النّظرة الصائبة والفرقان الإلهى.

واللّطيف فى هذا الأمر هو أن الآية الكريمة تعبر عن العلم والحكمة بعبارة «خَيْراً كَثيراً» وهو تعبير جامع يشمل كل الحُسْن والخَير، خير الدنيا والآخرة، والخير المادى والمعنوى، والخير فى كل الجهات.

وللمفسر الكبير، المرحوم العلّامة الطّباطبائى (ره) نكتة فى هذا المقام يقول: «إنّ جملة «وَمَنْ يُؤتَ الْحِكْمَةَ» جاءت بصيغة المبنى للمجهول، فى حين أنّ الجملة التى قبلها جاءت بصيغة المعلوم حيث قال تعالى «يُؤتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ» وماذاك إلّالِيبيّن أنّ الحكمة

والمعرفة ذاتاً منبع خير كثير، لا من جهة الإنتساب إلى اللّه المتعال فقط، بل إنّ ذات وحقيقة العلم خير كثير» «۱».

والآية الأخيرة، أشارت إلى بُعد آخر فى هذه المسألة، حيث ورد فيها ذمٌّ شديد لأولئك الذين يكتمون العلم والمعرفة، حيث يقول تعالى:

«انَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ أُولئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ».

---

(۱) تفسير الميزان، ج ۲، ذيل الآية مورد البحث.

والتعبير بلعن اللّه ولعن اللاعنين من أشدّ التّعبيرات التى استعملت فى القرآن المجيد فى ذنب من الذّنوب، وهذا دليل على قبح كتمان العلم والهدى إلى أبعد الحدود، بالخصوص تلك العلوم والمعارف التى تكون أساساً لهداية النّاس.

وفى الآية التى تلى هذه الآية مباشرة من سورة البقرة، ذكر تعالى الطريق الوحيد للتوبة من هذا الذّنب الكبير وهو تبيين المسائل المكتومة بعد النّدم والعودة إلى اللّه، وهذا بنفسه دليل واضح على أنّ جبران «كتمان العلم» لا يتحقق إلّابتبيينه حيث يقول تعالى: «إِلَّا الَّذِين تَابُوا وَأَصلَحُوا وبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوابُ الرَّحيمُ». (البقرة/ ۱۶۰)

وهذه الآية وإن نزلت فى أهل الكتاب الّذين كتموا علامات نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله المذكورة فى كتبهم، إلّاأنّ مفهومها أوسع من ذلك، فتشمل كتمان كلّ علم من العلوم يكون سبباً فى هداية النّاس، والرّوايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام تشهد بهذا الأمر وأنّ المراد من العلم مفهومه المطلق، يقول النّبيّ الأكرم صلى الله عليه و آله: «مَنْ سُئِل عن عِلْم يَعْلَمُهُ فَكَتَمه، الجِمَ يوم القيامة بلجام من نارٍ» «۱».

وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله نلاحظ تعبيراً أوضح من الأوّل حيث يقول صلى الله عليه و آله: «مَنْ كَتَمَ عِلمَاً نافِعاً عِنْدَه، أَلْجَمَهُ اللَّهُ يومَ القيامَة بلجامٍ منْ نارٍ» «۲».

ومن الواضح أنّ هذا التّعبير يشمل كلّ العلوم المفيدة للإنسان فى مجالٍ من المجالات.

وقد نُقل هذا المعنى بصراحة فى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله أيضاً حيث يقول صلى الله عليه و آله: «مَنْ عَلِمَ شَيئاً فلا يكتمه» «۳».

۲- أهميّة العلم لا تنحصر بالعلوم الدينيّة

قد يتصور البعض أنّ كلّ تلك التأكيدات الواردة فى الآيات القرآنية والرّوايات الشّريفة فى التعلّم والتّعليم ونشر العلوم، ناظرة إلى العلوم الدينيّة فقط، ولا تشمل ما يرتبط ببحث

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱- ۲، ص ۲۴۱، ذيل الآية مورد البحث.

(۲) كنز العمال، ح ۲۹۱۴۲، ج ۱۰، ص ۲۱۶؛ بحار الأنوار، ج ۲، ص ۷۸.

(۳) كنز العمال، ح ۲۹۱۴۵.

الحكومة الإسلاميّة ونشر كلّ العلوم وهو مورد حديثنا!

ولكن هذا اشتباه كبير، إذ إنّ المستفاد من آيات القرآن، ومن الرّوايات الإسلامية أيضاً، هو أهميّة العلم والتّربية والتعليم بشكل مطلق.

والشواهد على هذا المعنى كثيرة، من جملتها الآيات القرآنيّة الشّريفة التالية:

۱- ورد فى قصة آدم عليه السلام، مسألة تعليم الأسماء، وهى إشارة إلى العلم والإطلاع على أسرار خلقة تمام الموجودات، لا فقط العلوم الدينيّة، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسَماءَ كُلَّهَا». (البقرة/ ۳۱)

۲- تعرضت الآية الرّابعة من سورة الرحمن التى تعدّد نعم اللّه تعالى وآلائه إلى تعليم البيان، واعتبرته موهبة إلهيّة عظيمة، يقول تعالى:

«عَلَّمَهُ البَيَانَ». (الرحمن/ ۴)

۳- ورد فى سورة يوسف عليه السلام إشارة إلى علم تفسير الأحلام التى تحكى عن المستقبل والتى قد يكون لها أثر فى مصير الأمم كشعب مصر، وتأويل تلك الأحلام، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف ويقول:

«ذَلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى». (يوسف/ ۳۷)

۴- وفى نفس تلك السّورة، يشير إلى مسألة تدبير أمر دولة كاملة والإطلاع على إدارة بيت المال، حيث يحكى القرآن عن لسان يوسف مخاطباً عزيز مصر:

«قَالَ اجْعَلنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ». (يوسف/ ۵۵)

۵- (وفى أمر إدارة الدّولة هذا) قصّة طالوت وجالوت، عندما يُبين دليل انتخاب طالوت ملكاً من قبل نبيّ ذلك العصر (اشموئيل)، تقول الآية:

«إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيكُم وَزَادَهُ بسَطَةً فِى العِلْمِ وَالجِسْمِ». (البقرة/ ۲۴۷)

ومن الواضح أنّ امتياز طالوت على سائر بنى إسرائيل لم يكن فى العلوم والمعارف الإلهيّة فقط، بل كان العلم والقدرة الإدارية للأمور العسكريّة والسّياسية عند هذا الشّاب الذكّى المدبّر، مورد نظر فى الاستدلال.

۶- وفى قصة داود عليه السلام يعتبر تعليم (صنعة لَبوس من امتيازاته الكبيرة بل على رأى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۳

الطبرسى فى مجمع البيان أنّ «لبوس» يشمل كلّ أنواع الأسلحة الدفاعيّة والهجوميّة، ولا تختص بالدّروع «۱»، يقول عزّوجلّ:

«وَعَلَّمْنَاهُ صَنعَةَ لَبُوسٍ لَّكُم لِتُحْصِنَكُمْ مِّنْ بَأْسِكُمْ». (الأنبياء/ ۸۰)

۷- وتتحدث سورة الكهف عن قصّة موسى والخضر والعلوم والمعارف التى تعلمهاموسى عليه السلام من الخضر عليه السلام، ونلاحظ أنّ أياً منها لم يكن من العلوم الدينيّة، بل كانت من العلوم التى تدير المجتمع الإنسانى طبق نظام أحسن، يقول تعالى:

«فَوَجَدَا عَبْدَاً مِّنْ عِبَادِنَا آتينَاهُ رَحمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وعَلَّمنَاهُ مِنْ لَّدُنَّا عِلْماً». (الكهف/ ۶۵)

ثم يذكر فى الآيات اللاحقة ثلاثة نماذج لهذه العلوم وهى ليست من العلوم الدينيّة، بل مرتبطة بتدبير الحياة.

۸- ورد فى سورة النمل الحديث عن اطلاع سليمان عليه السلام وعلمه بحديث الطير ومنطقه، ويعتبر ذلك من الأمور التى كان سليمان يفتخر ويتباهى بها، يقول تعالى

«وقَالَ يَا أَيُّها النَّاسُ عُلِّمنَا مَنطِقَ الطَّيرِ». (النمل/ ۱۶)

۹- وفى أواخر سورة الكهف وفى قصّة ذى القرنين، ورد الحديث عن بنائه السّد وإنّه حادثة مهمّة حتى أنّها تبيّن بعض الجزئيات فى عملية بناء ذلك السّد وكيفيّة تدبير أمر بناء سدٍّ محكم قوى حديدى للحدِّ من هجوم القبائل الفاسدة والمفسدة (يأجوج ومأجوج)، يقول تعالى:

«آتُونِى زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَينِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتونِي أُفْرِغْ عَلَيهِ قِطْراً». (الكهف/ ۹۶)

۱۰- وفى سورة لقمان أيضاً، وردت آيات فى بيان وصايا لقمان لابنه، حيث نرى مجموعه من الإرشادات لها جنبة اجتماعيّة وإداريّة،

يعتبر رعايتها والاهتمام بها من الأمور المهمّة فى حياة كلّ فردٍ، من جملتها إنّه قال:

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية ۸۰ من سورة الأنبياء عليهم السلام ولكن هناك قرائن فى الآية تشير جميعها إلى أنّها إشارة إلى الدّرع.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۴

«وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمشِ فِى الأَرضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ كُلَّ مُختَالٍ فَخورٍ* وَاقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوتُ الحَمِيرِ».

(لقمان/ ۱۸- ۱۹)

هذا فى حين أنّ اللَّه تعالى كرَّم لقمانَ لعلمه وحكمته ومعرفته، حتى قرن كلامه بكلامه تعالى!

۱۱- وفى سورة سبأ وفى بيان أحوال سليمان عليه السلام ورد الحديث عن برامجه العمرانية والفنيّة المتشعبة والتى كان الجن يقومون بها تحت إشرافه:

«يَعمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ».

(سبأ/ ۱۳)

وفى الآية السابّقة لهذه الآية، وردت إشارة إلى تعلم سليمان إذابة الفلزات، حيث يقول تعالى: «وَاَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ». (سبأ/ ۱۲)

۱۲- يقول تعالى فى سورة البقرة، فى ما يرتبط بحكومة داود النّبىّ:

«وَقَتَلَ دَاوَدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ المُلكَ وَالحِكمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ». (البقرة/ ۲۵۱)

ومن الواضح، فإنّ العلم والحكمة هنا، هى‌المعرفة اللازمة بتدبير المُلك والمملكة وإن كان لها معنى أوسع من ذلك، فإنّها بلا شكّ تشمل هذا القسم من العلوم وهو المرتبط بالحكومة وإدارة الدّولة.

ومن مجموع الإشارات التى وردتْ فى الآيات المذكورة والبعض الآخر من آيات القرآن المجيد، يمكن الإستفادة بوضوح أنّه وخلافاً لتصور البعض أنّ القرآن الكريم قد اهتم فقط بالعلوم الدينيّة والمعارف الإلهيّة، وأنّه لم يتعرض لأهميّة العلوم الاخرى، يتبين لنا أنّ القرآن الكريم قد اهتمَّ بتعلّم وتعليم هذه الأقسام من العلوم وعدَّها من المواهب الإلهيّة العظيمة، وهو يحفِّز المسلمين على تعلُّمها وتعلُّم كلّ علم مفيد ونافع فى الحياة المادية والمعنوية.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۵

۳- تعلّم العلوم المفيدة فى الرّوايات الإسلاميّة

وفى الأحاديث الإسلاميّة أيضاً (وتبعاً لآيات القرآن المجيد) فلم تكتف بالحث والتّرغيب لتعلم العلوم الدينيّة فقط، بل نجد أنّ الرّوايات قد اهتمت بالترّغيب لتعلم العلوم المفيدة فى الحياة المادية والمعنوية مضافاً إلى العلوم الدينية، وإليك نماذج من تلك الرّوايات الشّريفة:

۱- ورد فى حديث معروف عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«اطلبُوا العِلمَ ولو بالصّين فإنّ طَلَب العِلم فَريضَةٌ عَلى كُلّ مسلم» «۱».

وينبغى الإلتفات إلى أنّ الصيّن فى ذلك الوقت كانت أبعد دولة معروفة، وعليه فإنّ المراد من ذكر الصين هو التمثيل للبعد فى المسافات فى هذا الحديث.

ومن البـديهى، فـإنّ مـا كـان فى الصّـين من العلوم لم يكن من العلوم الدينيّـة والمعارف القرآنيّـة، إذ لم تكن الصـين مركزاً من مراكز الوحى، بل كان المراد هو العلوم الدنيوية المفيدة.

۲- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين الإمام على عليه السلام، قال: «الحِكْمَةُ ضالةُ المؤمنِ فاطلُبوها وَلو عِنْدَ المُشرِك» «۲».

ومن الواضـح، أنّ ما عنـد المشـركين ليس من العلوم الدينيّة ومعارف التوّحيد، بل كان عندهم بعض العلوم المفيدة الاخرى النافعة فى الحياة.

ومن مثل هـذه الأحاديث، يتـداعى إلى الذّهن الشّـعار المعروف «العلم ليس له وطن» ويؤكد على أن العلم ضالة المؤمن، وقد ورد فى حديث آخر: «كلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيثُ وَجَدها فهو أحقُّ بها» «۳».

۳- وفى حديث معروف عن النّبىّ الأكرم صـلى الله عليه و آله: «العلمُ عِلْمان عِلمُ الأديانِ وعِلْمُ الأبدانِ» «۴» (فالعلم الأول أساس سلامة الرّوح والثّانى أساس سلامة جسد الإنسان).

۴- وفى حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله قال:

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۱۸۰؛ وكنز العمال، ح ۲۸۶۹۷.

(۲) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۳۴.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۹۹، ح ۵۸.

(۴) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۲۰، ح ۵۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۶

«العِلْمُ ثلاثَةٌ: الفِقْهُ للأديان والطِّبُ للأبدان والنّحو للِّسان» «۱».

فهنا يبيّن صـلى الله عليه و آله ثلاثـة أقسام مهمـة من العلوم الإلهيّـة والبشـريّة، وهى العلوم الدينيّـة وعلم الطّب والنحو الـذى هو مفتاح العلوم الاخرى

۵- وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام:

«العلُوم أربَعَةٌ الفقه للاديانِ والطّبُّ للأبدان والنّحو للِّسان والنّجوم لمعرفة الأزمان» «۲».

۶- وفى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام يقول فيه:

«وكـذلك أعطى (الإنسانَ) علم ما فيه صـلاح دُنياه كالزّراعة والغِراس واسـتخراج «۳» الأرضـينَ واقتناء الأغنامِ والأنعام واستنباط المياه ومعرفة العقاقير التى يُستَشـفى بها من ضـروب الأسـقام، والمعادن التى يستخرج منها أنواع الجواهر، وركوب السَّفن والغوصِ فى البحر ... والتصرُّف فى الصّناعاتِ ووجوه المتاجرِ والمكاسبِ» «۴».

وبهذا، يعتبر الإمام الصّادق عليه السلام أن جميع هذه العلوم من المواهب الإلهيّة وأنّه يحفِّز ويرغب النّاس على تعلّمها.

۷- وفى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ضمن بيان حقوق الأبناء على الآباء، قال:

«ويُعَلِّمُهُ كتابَ اللَّهِ ويُطَهِّرَهُ ويَعلِّمَهُ السِّباحَةَ» «۵».

فمن هذا الحديث، يستفاد بوضوح أن تعليم فنِّ السباحة أيضاً اخذ بنظر الاعتبار لدّى مشرع الإسلام، وأوصى بتعليمه للأبناء.

۸- وفى حديث عن الإمام موسـى بن جعفر عليه السلام: «وبَعْدَ عِلْمِ القرآنِ ما يكون أشرفَ من علم النّجوم وهو علم الأنبياء والأوصياءِ وورثة الأنبياءِ الذّين قال اللَّه عزّوجلّ: وعلاماتٍ وبالنّجم هم يهتدون» «۶».

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۷۵، ص ۴۵، ح ۵۲.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۲۱۸.

(۳) بما أنّ استخراج المعادن ذکر فی الفقرات اللاحقة، فلا یبعد أن المقصود من استخراج الأرضین هو تحضیرالأراضی الموات لزراعتها.

(۴) بحار الأنوار، ج ۳، ص ۸۳.

(۵) وسائل الشّیعة، ج ۱۵، ص ۱۹۹، باب ۸۸ ح ۷.

(۶) بحار الأنوار، ج ۴۷، ص ۱۴۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۷

فالمستفاد من مجموع الآیات والروایات المذکورة، وروایات أخری یطول المقام بذکرها جمیعاً، هو أنّ الإسلام أسَّس نهضة علمیة واسعة، وأنّ هذه النهضة المبارکة نمت وترعرعت خلال قرنین أو ثلاثة وتشعبت تلک الشّجرة المبارکة حتی عمَّت غصونها کلّ العالم الإسلامی، وأثمرت فی فترة وجیزة ثماراً کثیرة منها الکتب الکثیرة التی أُلِّفتْ وصُنِّفتْ فی مختلف الفروع العلمیّة کالمعارف الإلهیّة والفلسفیّة والطّب والصّحة والجغرافیا والفیزیاء والکیمیاء وغیر ذلک، وتُرجِمَ بعضها وحققّ البعض الآخر ونشرت بصورة تحقیقات جدیدة لعلماء الإسلام.

العلماء الذین بحثوا تاریخ الحضارة الإسلامیّة وکتبوا کُتُباً فی‌ذلک، ومنهم علماء الغرب خصصوا فصلًا مهما من تاریخ الحضارة الإسلامیّة للنهضة العلمیّة عند المسلمین، وعدّدوا فروع علوم مختلفة انتشرت وإتخذت رونقاً خاصاً عندهم مع ذکر روّاد تلک العلوم المسلمین فرداً فرداً.

والنکتة المهمّة هنا هی اعتراف المؤرخین الغربیین الصّریح بأن النّهضة العلمیّة فی أوربا قد استندت إلی نهضة المسلمین العلمیّة وأنّ الأوربیین مدینون فی نهضتهم لعلماء الإسلام!

ففی کتاب «تاریخ الحضارة الغربیة ومبانیها فی الشّرق» والذی کتب من قبل مجموعة من علماء الغرب، جاء: «عندما نطالع خدمات البیزنطیّة «۱» والمسلمین للثّقافة الغربیّة یمکننا القول بأنّ نوراً عظیماً أشرق من الشرق علی الغرب»!

یقول الدکتور ماکس یرهوف فی کتاب «میراث الإسلام»: «لقد کانت علوم العرب (المسلمین) کالقمر المنیر الذی یضیء ظلمات لیالی أوربا القرون الوسطی، ولما ظهرت العلوم الجدیدة خفت نور ذلک القمر، ولکن کان ذلک القمر هو الذی هدانا فی تلک اللیالی الظلماء حتی وصلنا إلی هذا المستوی، ویمکننا القول بأنّ نور ذلک القمر لا زال معنا» «۲».

ونقرأ فی ذلک الکتاب أیضاً: «.... والخلاصة، وبهذه الوسیلة (ترجمة کتب علماء

---

(۱) «البیزنطیّة»، إمبراطوریة روما الشّرقیة وعاصمتها البیزنطیّة وهی الآن تشمل قسماً من ترکیة، وتعتبرإسطانبول الفعلیة محلًا لعاصمتها البیزنطیّة.

(۲) میراث الإسلام، ص ۱۳۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۳۸

الإسلام) هطلت علوم الشّرق کمطر الرّحمة علی أرض أوربا القاحلة، فحولتها إلی أرض خصبة مثمرة، وشیئاً فشیئاً تعرّف الأوربیون علی علوم الشرق!».

ویقول هذا الکاتب فی مذکرات تحت عنوان «العلوم الطبیعیّة والطّب»: «إنّ ما اکتشف فی‌السنین الأخیرة کان نوراً جدیداً علی تاریخ علوم العالم الإسلامی القدیم، ولا شکَّ فی أنّ هذه الإکتشافات لیست کافیة لحد الآن، وأنّ العالم سیقف أکثر فأکثر علی أهمیّة العلوم الإسلامیة فی المستقبل» «۱».

وفی مقالة اخری عن البروفسور «کیب» أستاذ اللغة العربیة فی جامعة لندن، تحت عنوان «نفوذ الأدب الإسلامی فی أوربا» یقول:

«عندما نلقی نظرة علی الماضی نلاحظ بأنّ علوم وأدب الشرق کان بمنزلة المادة الأولیة للحضارة العربیة بنحو أضاءت معنویات وأفکار الشرق، الروح الکدرة لأهل القرون السّالفة الغربیین، وهَدَتْهُم إلی عالم أوسع» «۲».

وکتب «جرجی زیدان» المؤرخ المسیحی المعروف فی کتابه «تاریخ الحضارة الإسلامیّة» فی مبحث تأثیر الإسلام فی العلوم والمعارف التی وردت دائرة الإسلام من الخارج، قائلًا: «عندما وصلت الحضارة الإسلامیّة إلی مرحلة الکمال، وانتشرت العلوم الأجنبیة فی بلاد المسلمین، بدأ المسلمون بتعلُّم تلک العلوم، فاستفاد بعض (علماء الإسلام) من نبوغهم وسبقوا أهل تلک العلوم الأصلیین، وأضافوا إلیها آراء واکتشافات جدیدة، وبهذا تنوعت العلوم وتکاملت وانسجمت مع الثّقافة والآداب الإسلامیّة، واتخذت شکل الحضارة الإسلامیّة.

وعندما نهض الغربیون لاستعادة علوم الیونان، أخذوا أکثر هذه العلوم بنفس ذلک اللون الإسلامی من اللغة العربیة!» «۳».

ویقول فی موضوع آخر: «وممّا قلناه حول دور التّعلیم فی الحضارة الإسلامیّة، یمکن

---

(۱) میراث الإسلام، ص ۱۱۱.

(۲) المصدر السابق، ص ۱۸۱.

(۳) تاریخ الحضارة، جرجی زیدان، ج ۳، ص ۱۹۶.

الجزم بأنّ العلم والمعرفة نشأتا فی جهات مختلفة عند المسلمین، وأنّ العلماء والفقهاء والأطباء والفلاسفة قد أبدَوا نبوغهم وإبداعهم فی هذا المجال» «۱».

وخلاصة الکلام، إنّ الکتب التّاریخیة العالمیّة العامّة، أو تلک الخاصّة بتاریخ الحضارة الإسلامیة، قد ذکرت بوضوح اعترافات مؤرخی الشرق والغرب بتأثیر النهضة العلمیّة عند المسلمین علی تأریخ وعلم وثقافة المجتمع البشری علی المدی البعید أو القصیر، وتفصیل الکلام فی ذلک یحتاج إلی کتاب مستقل، وما ذکر إنّما هو جانب مختصر من ذلک.

۴- مقام المُعَلِّم فی الإسلام

کما نعلم فإن التعلّم فی نظر الإسلام واجب عینی، وقد یکون فی بعض العلوم واجباً کفائیاً، أی أنّ بعض العلوم یجب علی الجمیع تعلّمها، وأمّا ذلک القسم الذی یتمیز بمیزة تخصّصیة وتعلّمة لیس میسوراً للجمیع، فهو واجب کفائی.

وکذلک الکلام فی تعلیم العلوم، فقسم من العلوم لابدّ أنْ یتم تعلیمه للجمیع من قبل الذین یحملون تلک العلوم، فی حین أنّ تعلیم البعض الآخر، واجب کفائی.

فعلی کل حال، فإنّ تَعلُّم وتعلیم کلّ العلوم التی یرتبط بها قوام المجتمع البشری مادّیاً ومعنویّاً لازم وضروری، سواءً کان واجباً عینیّاً أو کفائیاً، ولهذا فإنّ أی مسلم لا یحق له أن ینفصل عن التّطورات العلمیّة الحدیثة، بل علیه ومن أجل تقویة أرکان الحکومة الإسلامیّة، أنّ یبذل کل ما بوسعه لتعلّم وتعلیم تلک العلوم، ولا شک فی أنّ المسلمین لو قصّروا فی هذا المجال وصاروا سبباً فی تأخر الدّول الإسلامیّة عن المجتمع البشری، فإنّهم سیکونون مسئولین أمام اللّه!

یعتبر القرآن المجید أنّ المعلم الأوّل هو اللّه عزّوجلّ، وأنّ التّلمیذ الأوّل هو آدم علیه السلام، وأوّلُ عِلمٍ تعلمه آدم هو، علم الأسماء «ویحتمل قویاً أنّ المراد من ذلک هو الإطلاع علی أسرار الخلقة وموجودات الکون».

(۱) تاریخ الحضارة، جرجی زیدان، ج ۳، ص ۲۲۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۰

وآدم لم یکن الوحید الّذی تعلَّم من اللَّه عزوجل، بل عَلَّمَ اللَّه یوسف الصّدیقَ أیضاً عِلْمَ تفسیر الأحلام: «وَعَلَّمتَنِی مِن تَأوِیلِ الأَحَادِیثِ». (یوسف/ ۱۰۱)

وعلَّمَ سلیمان لغة الطیور وقال: «یَا أَیُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّیرِ». (النّمل/ ۱۶)

وعلَّمَ دواد علیه السلام صنعة الدّروع: «وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّکُمْ». (الأنبیاء/ ۸۰)

وعلّم الخضر علْماً واطلاعاً کثیراً: «وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَّدُنّا عِلْماً». (الکهف/ ۶۵)

وعلَّمَ الملائکة علماً جمّاً: «سُبْحَانَکَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمتَنَا». (البقرة/ ۳۲)

وعلَّمَ البشر النّطق والبیان: «عَلَّمَهُ البَیَانَ». (الرحمن/ ۴)

وفوق کلّ ذلک فإنّه علَّمَ نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله علوماً ومعارف لا یمکن تحصیلها عن طرق طبیعیة «وَعَلَّمَکَ مَالَم تَکُنْ تَعْلَمُ». (النساء/ ۱۱۳)

کما أنّ المَلَک العظیم سفیر الوحی جبرئیل قد علَّمَ النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله علوماً کثیرة «عَلَّمَهُ شَدِیدُ القُوَی «۱». (النجم/ ۵)

والأنبیاء علیهم السلام بدورهم یُعتبرون فی زمرة أکبر معلمی العالم حیث إنّهم علَّموا البشریّة علوماً ومعارف کثیرة فی مجالات الدّین والدّنیا، یقول القرآن الکریم فی نبیّ الإسلام صلی الله علیه و آله أعظم الأنبیاء: «ویُعَلِّمُهُمُ الکِتَابَ وَالحِکمَةَ». (الجمعة/ ۲)

ونفس هذا المنهج سلکه کلّ نبیّ من الأنبیاء علیهم السلام مع أمّته وعلَّمهم علم الدّین والدّنیا.

والعلماء وهم ورثة الأنبیاء، جلسوا مقعد التعلیم بعد الأنبیاء وعلّموا النّاس العلم والمعرفة، ولذا فإنّ مقامهم فی نظر القرآن شامخ وعظیم حتّی قال تعالی فیهم: «یَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِینَ آمَنُوا مِنْکُم وَالَّذِینَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجاتٍ». (المجادلة/ ۱۱)

وأمّا مقامُ المعلِّم فی الرّوایات الإسلامیّة فإنّه شریف وعظیم حتّی أنّ اللَّه وملائکته وکل الموجودات- حتّی النملة فی جحرها والحیتان فی البحار- تصلّی علیهم کما ورد فی الحدیث المروی عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله حیث قال:

(۱) أکثر المفسرین، فسروا «شدید القوی بأنّه جبرئیل، ولکن البعض یری أنّ المقصود (بشدید القوی) هو الذات الإلهیّة المقدّسة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۱

«إنَّ اللَّهَ وملائِکتَهُ حَتَّی النَّمْلَةَ فِی جُحْرِها وَحتّی الْحُوتَ فِی الْبَحْرِ یُصَلُّونَ عَلی مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَیْرَ» «۱».

وهذا المضمون ورد فی أحادیث عدیدة اخری أیضاً.

وفی حدیث آخر عن النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أیضاً:

«ألا أُخْبِرُکُم بأجودِ الأجْوَدِ؟ اللَّه الأجْوَدُ الأجْوَدُ! وأنا أجْوَدُ وُلدِ آدم! وأجْوَدُکُم مِنْ بعدی رَجُلٌ عَلَّمَ عِلْماً فَنَشَرَ عِلْمَهُ، یُبعَثُ یومَ القیامة أُمَّةً وَحْدَهُ!» «۲».

والتّعبیر بالأُمّة، یبین لنا بوضوح سعة وجود المعلمین فی موازاة سعة انتشار تعلیماتهم بین المجتمع البشری، وکلمّا کان عدد تلامذتهم أکثر کانت سعة شخصیتهم المعنویة الاجتماعیّة أوسع، حتّی تصل أحیاناً إلی سعة أمَّة کاملة.

وقد بلغت أهمّیة نشر العلم والمعرفة والثّقافة فی‌الإسلام إلی درجة أنّه ورد فی حدیث معروف أنّ مجلس العلم روضة من ریاض الجنّة «۳».

والملفت للنظر أنّ أی عمل فی الإسلام یکون مقدمة لنشر العلم أو یتناسب معه، یعد عبادة، فقد ورد فی حدیث عن النّبیّ الأکرم صلی

الله علیه و آله: «مُجالَسةُ العُلماءِ عِبَادَةٌ» «۴».

وفی حدیث آخر عن الإمام موسی بن جعفر علیه السلام قال: «النّظرُ إلی وجهِ العالم حُبّاً لهُ عِبادةٌ» «۵».

وفی حدیث آخر عن النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله قال لأبی ذر: «الجلُوسُ ساعةً عِندَ مُذاکَرةِ العِلْمِ

---

(۱) کنز العمال، ح ۳۸۷۳۶.

(۲) میزان الحکمة، ج ۶، ص ۴۷۴.

(۳) هذا الحدیث وإنْ لم نعثر علی نصّه فی المصادر الإسلامیّة، إلّاأنّه ورد فی بعض الرّوایات عن النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله أنّه قال: «بادروا إلی ریاض الجنّة، قالوا: یا رسول اللّه وما ریاض الجنّة؟ قال: حَلَقُ الذکر»، وبعد أن ذکر المرحوم الفیض الکاشانی هذا الحدیث فی المجلد الأوّل من الوافی، قال: والمراد من حلقة الذّکر هنا، وکما ورد فی أحادیث اخر فی هذا الباب، هو مجلس العلم (الوافی، ج ۱، ص ۱۷۷).

ونقل الترمذی فی صحیحه هذا الحدیث بتفاوت بسیط «إذا مررتُم بریاض الجنّة فارتعوا. قالوا: وما ریاض الجنّة؟ قال: حَلَقُ الذکر» صحیح الترمذی، ج ۵، ص ۵۳۲، باب ۸۳، ح ۳۵۱۰).

(۴) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۰۴.

(۵) المصدر السابق، ص ۲۰۵.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۲

خیرٌ لکَ مِن عبادة سَنة، صِیامُ نهارها وقیامُ لیلها، والنّظرُ إلی وجه العالم خیرٌ لکَ من عتق ألف رقبةٍ» «۱».

والأحادیث الواردة فی هذا المضمار کثیرة ومتنوعة، یطول المقام بذکرها ونختصر الحدیث هنا ونختم هذا البحث بحدیث عن لقمان الحکیم، الذی قُرِنَ کلامُه بکلام اللّه تعالی فی القرآن الکریم، یقول لقمان لولده: «یا بُنَیَّ جالسِ العلماءَ .... فإنّ اللّهَ عزّوجلّ یُحیی القُلُوبَ بنورِ الحِکْمَة کما یُحیی الأرضَ بوابل السّماءِ» «۲».

وممّا ذکر، یتضح جیداً أنّ مسألة التّعلیم والتّربیة ونشر العلم والثّقافة، تتمیز فی المنهج الإسلامی عموماً وفی برنامج الحکومة الإسلامیّة بشکل خاص، (ومن وظیفة الحکومة الإسلامیّة الإهتمام الفائق بأمر التّربیة والتّعلیم).

۵- التّعلیم المباشر وغیر المباشر

ماذکر فی البحوث المتقدمة، کان فی اطار التّربیة والتّعلیم بالطّرق المباشرة، کتشکیل حلقات الدّرس، والمدرسة وأمثال ذلک، ولکن توجد فی الإسلام طرق تعلیم غیر مباشرة کثیرة، وتأثیرها من بعض الجهات أوسع وأعمق من تأثیر الطرق المباشرة.

فالعبادات الإسلامیّة، وخاصّة تلک التی تؤدّی بشکل جماعی کصلاة الجماعة والجمعة ومناسک الحج، من جملة الأمور التی لها تأثیر قویّ فی التّعلیم الجماعی للنّاس.

فصلاة الجماعة الّتی تقام خمس مرّات بالیوم واللّیلة تُعَلِّم المسلمین درس الوحدة والإتحاد ورصّ الصفوف والمساواة والأُخوة، فتجمع شرائح المجتمع المختلفة والتی قد لا تلتقی فی السّنة مَرّةً واحدة فی غیر الصّلاة علی أثر المشاغل والمسؤولیات المختلفة التی ینشغلون بها عن بعضهم، فصلاة الجماعة تعلّم هؤلاء درس وحدة التّفکیر ووحدة الهدف فی المسائل الاجتماعیّة.

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۱، ص ۲۰۳.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۲۰۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۳

فصفوف صلاة الجماعة، ومضافاً إلى روحانيتها الخاصة الحاكمة عليها واقترانها بنور المعنوية والصّفاء، خير وسيلة لاطلاع عامة النّاس على المسائل المصيريّة للمجتمع الإسلامى.

لقد استطاع المسلمون الأوائل ومن خلال صلاة الجماعة- وهو لقاء يوفرلهم اللقاء صباحاً ونهاراً ومساءً- كسب الوعى الكافى ووحدة الصف والكلمة مقابل اعدائهم ذوى العدة والعدد، حيث استطاعوا أن ينشروا برنامج الحكم الإسلامى وتعاليم الدين بسرعة فائقة. ففى صلاة الجمعة والجماعة، وطبقاً للتعاليم الإسلامية، فإنّ الإمام وحده هو الذى يقرأ الحمد والسورة نيابة عن الجميع، وبهذه الطريقة يبعث الانضباط الاجتماعى فى نفوس الناس التى تعتاد على الإدارة المقرونة بالروح والمعنى اللذين توفّرهما مضامين السورتين اللتين يقرأهما إمام الجماعة.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ للإمام الحق أنْ ينتخب سوراً مختلفة وآيات متنوعة من القرآن لقراءتها بعد سورة الحمد بحسب المناسبات المختلفة، وكلّ واحدة من هذه السور يمكنها أنْ تشتمل على دروس فى المعرفة الإسلاميّة، والأخلاق، والتّربية السّياسية والاجتماعيّة، فعندما يقرأها الإمام بشكل جذّاب والكلّ قائم يصغى لها بسكون عميق، يكون لها أثرٌ تعليمى قوى منقطع النّظير فى نفوس المأمومين، يضطرهم إلى التّفكر والتّعمق فى محتوى الآيات، ويضاعف روحانيّة العبادة وتأثيرها، ولو أنّ هذه المراسم العبادية تؤدّى بآدابها الإسلاميّة المقررة وحضور القلب وتمركز الحواس وهى الشرط الأساسى لقبولها، لكانت مدرسة عظيمة لتربية المجتمع الإسلامى، وفضلًا عن ذلك فإنّ هذه المراسم تكون درساً تربوياً لأعداء الإسلام والأجانب، وغالباً ما يلاحظ أنّ هؤلاء يقفون متأملين متفكرين فى هذه العبادة عندما يشاهدون المسلمين فى صفوف منظمة ومرصوصة يُقيمون الصلاة.

ومن هنا ورد عن الإمام على بن موسى الرّضا عليه السلام أنّه قال:

«إِنَّما جُعلتْ الجَمَاعَةُ لِئَلا يَكُونَ الإِخلاصُ وَالتُّوحِيدُ وَالإِسْلامُ وَالْعِبادَةُ للَّهِإِلّا ظاهِراً مَكْشوفاً مَشْهُوراً، لأنَّ فِى إِظْهارِهِ حُجَّةً عَلى أَهلِ الشَّرقِ وَالْغَرْبِ ... مَعَ مافيهِ مِنَ المُساعَدَةِ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۴

عَلَى البِرِّ وَالتَّقْوى وَالزَّجْرِ عَنْ كَثيرِ مِنْ مَعاصِى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ» «۱».

وخلاصة الكلام هى إنّ تأثير صلاة الجماعة فى إيقاظ المسلمين وتربيتهم، وتأثيرها فى افشال مخططات الأعداء وكسر شوكتهم، لا يخفى على أحد.

ولهذا فإنّ هذه العبادة العظيمة، من أهَم وآكد العبادات الإسلاميّة، وقد ذكر لها فضل عظيم وثواب جزيل فى الرّوايات إلى درجة يبهت الإنسان لها.

ففى حديث عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قال: «مَنْ مَشى إلى مَسْجِد يَطْلُب فيه الجَماعَةَ كانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ سَبْعُونَ أَلْفَ حَسَنَةٍ وَيُرْفَعُ لَهُ من الدّرَجاتِ مِثْلُ ذَلِكَ، فَإِنْ ماتَ وَهُوَ عَلى ذلِكَ، وَكَّلَ اللَّهُ بِهِ سَبْعينَ أَلْفَ مَلَكٍ يَعُودُونَهُ فِى قَبْرِهِ وَيُبَشِّرُونَهُ وَيُؤنِسُونَهُ فِى وَحْدَتِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ حَتّى يُبْعَثَ» «۲».

۶- صلاة الجمعة وآثارها التّربويّة

وصلاة الجمعة هى الاخرى إحدى أهم الاجتماعات العباديّة السيّاسية الإسلاميّة، والتى لها تأثير قوى فى التّربيّة المباشرة وغير المباشرة. فهذه الصّلاة الرائعة، تقام كل أسبوع مرّة ومسلموا المدينة الواحدة مكلّفون بالإشتراك فى صلاة واحدة فقط «۳».

ولصلاة الجمعة خطبتان قبل الصلاة، تشتملان على مواعظ وعبر وأمرٍ بالتّقوى، وخصوصاً على المسائل الاجتماعيّة السّياسية المهمّة للمجتمع، فهي من جهة تُلَطِّفُ الرّوح والنّفس وتغسلها من أوساخ الذنوب والمعاصي، ومن جهة أخرى تعلم النّاس الإطلاع على المعارف الإسلاميّة والأحداث الاجتماعيّة والسّياسية المهمّة، وكيفية اتخاذ المواقف

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۵، ص ۳۷۲.

(۲) المصدر السابق، ح ۷.

(۳) هذا بحسب الفقه الشّيعي التّابع لأهل البيت عليهم السلام وهناك من الفرق الإسلامية السنيّة من يجيز إقامة العديد من صلوات الجمعة في المدينة الواحدة، كصلوات الجماعة التي تقام في مساجد متعددة (الفقه على المذاهب الأربعة، ج ۱، ص ۳۸۵).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۵

الصّحيحة قبالها، ومن جهة ثالثة توفر الجو المناسب للعمل الجماعي لحلِّ المشاكل في إطار تجديد الروح الإيمانية والنشاط المعنوي.

والخطبتان من واجبات الصّلاة، وورد في الرّوايات الإسلاميّة والكتب الفقهيّة أن من آداب الخطبة هو أن يرفع الخطيب صوته بحيث يسمعه كلّ النّاس، وأن عليهم أن يصغوا لكلامه ويراعوا السكوت التام، وأن يستقبلوا الخطيب بوجوههم.

والأفضل أن يكون الخطيب رجلًا فصيحاً بليغاً مُطّلِعاً على أوضاع وأحوال المسلمين، خبيراً بمصالحهم، شجاعاً، صريح اللهجة في بيان الحقّ، مضافاً إلى حسن سيرته وسلوكه في المجتمع فيكون ذلك سبباً لنفوذ كلامه في قلوبهم وأن يُذَكِّر سلوكه النّاس باللّه.

ولابدّ من بيان المسائل المهمّة المرتبطة بالدِّين ودنيا المسلمين في الخطبتين، وكذا ما يحتاجه النّاس فيداخل وخارج الدّول الإسلاميّة والمنطقة، وطرح المسائل السيّاسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة المهمّة مع مراعاة الأولويات، فيزود النّاس بالمعلومات اللازمة ويخبرهم عن مؤامرات الأعداء، ويشير إلى البرامج القصيرة والبعيدة المدى لإفشال خُطَطِهم.

ولابدّ أن يكون الخطيب ذكيّاً جدّاً وفطناً، مفكراً، مطّلعاً على المسائل المعنوية والمادية في الإسلام، وأن يستغل هذه الشعيرة العظيمة أفضل استغلال لتوعية المسلمين وتطوير الأهداف الإسلاميّة.

وفي حديث جامعٍ عن الإمام عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام، يُبين فيه ضرورة خطبة الجمعة وأنّ ذلك لتعميم الفائدة وأنّ اللّه يريد أن يفسح المجال لأمير المسلمين ليعظ النّاس ويُرغبهم في الطّاعة ويحذرهم المعصية، إلى أن يقول الإمام الرضا عليه السلام: «وَتَوْقِيفِهُمْ عَلى ما أرادَ مِنْ مَصْلَحَةِ دينِهِمْ وَدُنْياهُمْ وَيُخبِرُهُمْ بِما وَرَدَ عَلَيْهِمْ مِن الآفاقِ مِنَ الأَهْوالِ الَّتى لَهُمْ فِيها المَضَرَّةُ وَالمَنْفَعَةُ».

ثُمّ يبين الإمام عليه السلام فلسفة وجود خطبتين فالأولى للحمد والثّناء والتّمجيد والتّقديس للّه (والمسائل المعنوية والأخلاقيّة)، والثّانية لبيان باقي متطلبات الوعي والإنذار والأدعية

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۶

وغير ذلك من الأوامر والنّواهي والإرشادات المرتبطة بصلاح وفساد المجتمع «۱».

والدّور الّذي تلعبه اليوم صلاة الجمعة في توعية النّاس في المسائل السياسية والاجتماعيّة غير خافٍ على أحد، وكثيراً ما يتم إفشال مخططات الأعداء التي يبثونها من خلال وسائل إعلامهم على طول الأسبوع ومع كل إمكاناتهم وتجهيزاتهم، في خطبة واحدة من خطب الجمعة المدروسة والدقيقة، ولو أنّ المسلمين يعون أهميّة هذا البرنامج الأسبوعي المهم، ويقيمونه كما أراد الإسلام، وأن لا يمسخوا هوية هذه العبادة العظيمة كبعض الدول ضعيفة الإرادة أو المأجورة من قبل الاستعمار، فإنّهم- أي المسلمون- سيستثمرون هذه الشعيرة الإسلاميّة ويتعرفون على عمق تأثيرها الثّقافي والتّربوي.

ولصلاة العيدين (عيد الفطر وعيد الأضحى) وهما تشابهان صلاة الجمعة كثيراً وخصوصاً من جهة الخطبتين اللتين يؤتى بهما بعد الصلاة هنا، نفس آثار وبركات صلاة الجمعة.

۷- الآثار الثّقافيّة لمؤتمر الحجّ العظيم

ومن العبادات الاخرى التى لها تأثيرٌ مهم فى تربيّة المسلمين ونشر العلم والمعرفة ووحدة الصّفوف وقوة شوكة المسلمين هى مراسم الحجّ، التى يجتمع فيها كل سنة الملايين من المسلمين من شتى بقاع الأرض فى مؤتمر عظيم فيتعلمون فى هذا المؤتمر شتى أنواع العلوم والمعارف وفى كلّ الجهات الماديّة والمعنويّة.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ الإشتراك فى هذا المؤتمر العالمى واجب على كلّ مُسلم يستطيع الحج مرّةً واحدة فى العمر، وأمّا باقى المرّات فهى مستحبة، ولا فرق فى هذا الحكم

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۵، ص ۳۹، ح ۶.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۷

بين المسلمين، فالحج واجب على الرّجل وعلى المرأة، والشّاب والشّيخ، والأبيض والأسود والمتعلم والجاهل، ولهذا نجد كلّ سنة مجموعة عظيمة من كبار الشّخصيات العلميّة والثّقافيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة من المسلمين بين صفوف الحجّاج يتشرفون بزيارة بيت اللّه الحرام، وفى طول المدّة الّتى يقضونها فى مكة والمدينة وسائر المشاهد والمواقف يلتقى بعضهم بالبعض الآخر فيتبادلون العلوم والمعارف والمعلومات والأخبار فيما بينهم.

وفى الآونة الأخيرة وبعد وقوف المسلمين على أهميّة هذا الاجتماع المعنوى العظيم نجد أنّ علماء الدّول الإسلاميّة المختلفة يعقدون المؤتمرات المصغرة والموسعة على هامش مؤتمر الحجّ العظيم، فيلتقون ويتبادلون العلوم والمعارف والثّقافات عن هذا الطريق.

يذكر القرآن الكريم جملة مختصرة فى بيان فلسفة الحجّ حيث يقول: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ». (الحج/ ۲۸)

وللمفسرين كلام طويل فى تفسير معنى كلمة (منافع) ولكن من الواضح أنّهُ لا يوجد حدٌّ لمفهوم هذا اللفظ، فيشمل كلّ المنافع والبركات المعنويّة والماديّة والنّتائج السّياسيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة.

وقد سأل الرّبيع بن خيثم الإمام الصّادق عليه السلام عن تفسير هذه الكلمة، فبيّن له الإمام عليه السلام أنّها تشمل المنافع الدنيويّة والأخرويّة «۱».

وفى رواية أخرى عن الإمام الصّادق عليه السلام يجيب فيها هشام بن الحكم عن فلسفة الحجّ، فيشير الإمام عليه السلام إلى عدّة أبعاد مهمة، منها تعرف مسلمى العالم بعضهم على البعض الآخر، ثُمّ المنافع الاقتصاديّة، ثُمّ إيجاد كثير من مجالات العمل فى إطار موسم الحجّ ثم يشير عليه السلام إلى آثاره الثّقافيّة ويقول: «ولِتُعْرَفَ آثارُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه و آله وتُعْرَفَ أخْبارُهُ ويُذْكَرَ وَلا يُنْسى» «۲».

وعلى أيّة حال، فلو أنّ أحداً دقّق وتأمل فى جزئيات مراسم الحجّ، وخاصة إذا شاهد تلك المراسم عن قرب، فإنّه سيقف على أهمّية البعد الثّقافى والتّربوى للحجّ بنحو يقل نظيرُهُ.

---

(۱) تفسير نور الثّقلين، ج ۳، ص ۴۸۸.

(۲) وسائل الشيعة، ج ۸، ص ۹، ح ۱۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۴۸

نعم، فالحجّ يمكن أنْ يكون مؤتمراً سنوياً ثقافيّاً عظيماً- بل مؤتمرات- فيلتقى العلماء من كل أنحاء العالم الإسلامى فى الأيّام التى

يتواجدون فيها فى مكة المكرمة، فتُتبادَل الأفكار والإبداعات الّتى يحملونها فيما بينهم مضافاً إلى آثار الحجّ المعنويّة الخاصّة.

وفى الفترات المظلمة لحكومة السّلاطين الظّالمين والطّغاة الّذين لم يفسحوا المجال لانتشار العلوم والمعارف الإسلاميّة، كان المسلمون يستفيدون من الظّرف الّذى يتاح لهم فى موسم الحجّ لحلّ الكثير من مشاكلهم، وبالإلتقاء بائمّة الهدى عليهم السلام وكبار علماء الإسلام، حيث كانوا يطّلعون على المعارف والقوانين الإسلاميّة وسنة النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، وعندما يعودون إلى بلادهم، يعودون وهم يحملون رسالات مهمّة فى الأخلاق والثّقافة وشتى العلوم.

۸- تأثير المساجد والأماكن المقدّسة

من جملة المراكز التى يمكنها أن تشارك فى نشر الثّقافة الإسلاميّة، وتكون مؤثرة فى زيادة اطلاع عامة المسلمين، هى الأماكن المقدّسة التى يرتادها الزّائرون لزيارة مراقد قادتهم العظام حتّى يشدُّ هؤلاء الرحال من بلدانهم فى سفر معنوى باتجاه تلك المشاهد الشّريفة، وهذا بنفسه وسيلة جيدة لتبادل المعلومات والمعارف، ومواجهة الهجمة الثّقافية المضادة للإسلام.

وهناك بعض المساجد الشّهيرة فى الإسلام، امرنا بشدِّ الرحال إليها، لتسبح الروح ويغوصُ القلب فى بحر متلاطم من الرّوحانيّة والمعنويات والنّور، ولتقوية الارتباط بين المسلمين الذين يفدون من مناطق قريبة وبعيدة لزيارة تلك المساجد.

وقد ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «لا يُشَدُّ الرّحال إلّاإلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرّسول ومسجد الكوفة» «۱».

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۳، ص ۵۵۲، أبواب أحكام المساجد، الباب ۴۴، ح ۱۶.

وهذا المعنى جاء أيضاً فى كتب أهل السنّة المعروفة، فقد رووا عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله إنّه قال: «لا تُشَدُّ الرِّحال إلّاإلى ثلاثة مساجد: مسجدى هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى «۱».

ومن الواضح أنّ هذين الحديثين لا تنافى بينهما، ومتى ما ضممناهما إلى بعضهما، يكون المقصود أربعة مساجد، كما أنّه من الواضح أنّ الهدف من بيان مثل هذه الأحاديث هو بيان أهميّة المساجد الثّلاثة أو الأربعة ولا يعنى أنّ الإنسان إذا ماشدَّ الرّحال إلى مسجد آخر فإنّه يكون قد ارتكب مخالفة، كما تصور بعض الجّهال، إذ لو كان مفهوم هذا الحديث هو التّحريم، فإنه يَحُرم كل سفرٍ مطلقاً إلّاإلى هذه الأسفار الثّلاثة فى حين أنّ هناك أسفاراً مشروعة اخرى كثيرة.

(ولابدّ من الإلتفات إلى أنّ «لا تُشَدُّ الرّحال» مطلقة تشمل كلّ سفر).

وشبيه هذا المعنى ورد فى بحار الأنوار مع تفاوت مختصر «۲».

فمثل هذه المساجد فى الحقيقة، تعتبر من المراكز الإسلاميّة الثّقافية وقد كانت لسنين عديدة فى صدر الإسلام وما بعد ذلك محلًا لإقامة حلقات الدّرس والبحث العلمى، وكان كبار العلماء يتواجدون فيها للتّدريس وتعليم العلوم والتّربية، وكذلك اليوم فإنّ المسجد الحرام ومسجد النّبىّ غاصٌّ على طول السّنة بالطّلاب والأساتذة وحلقات الدّرس، كما أنّ كثيراً من المساجد الإسلاميّة المهمّة فى البلاد الاخرى كسورية وإيران والعراق تعتبر منتديات للتّربية والتّعليم، حتّى أنّها تصير أحياناً مركزاً لأكبر حلقات الدّرس، وقد يكون التّحفيز من قبل الرّوايات على شدِّ الرّحال إلى هذه المراكز إنّما هو لأجل ذلك، مضافاً إلى كسب المعنويات والرّوحانيات فى تلك المساجد، والاستفادة من السّوابق العلميّة التّاريخية لهذه المساجد.

ونفس هذا المعنى متحقق فى المراقد المقدّسة لأئمّة الدّين عليهم السلام، حيث يكون صحن

(۱) صحیح مسلم، ج ۲، ص ۱۰۱۴، کتاب الحجّ، باب ۹۵، ح ۱۳۹۷.

(۲) بحار الأنوار، ج ۶۶، ص ۲۴۰، باب ۴۴، ح ۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۰

نفحات القرآن ج ۱۰ ۳۰۱

وروضة تلك المراقد مركزاً للدّرس والتّعليم ونشر العلوم والمعارف الإسلاميّة، وأنّ زيارة تلك المراكز تكون عادة مقترنة بالاستفادة العلميّة.

وممّا يلفت النّظر هو أن بعض هذه المشاهد الشريفة كحرم الإمام علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام يَغصُّ على طول السنّة بالزّوار حتّى يصل عددهم إلى ۱۲ مليون زائر سنوياً، ولذا فإن اجتماعات عظيمة تعقد على طول أيّام السنّة، وتقام مؤتمرات وجلسات رائعة، ولذلك كله تأثيره العميق فى تربية المسلمين.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۱

دور الصحف والمجلات فى الحكومة الإسلامية

تمهيد:

لاشكّ فى أنّ الصحف والمجلات تعتبر اليوم من أهم وسائل التّربية والتعليم فى العالم، والتى انتشرت بفضل التّقدم العلمى وتطور التّكنولوجيا والصّناعة، ولذا فهى عاملٌ مهم فى تهذيب الأفكار العامة أو تخريبها وتضليلها، وقد يصل عدد النّسخ المطبوعة لمجلة من المجلات أو صحيفة من الصحف، إلى عدّة ملايين نسخة، توزع فى عدّة قارات من هذا العالم فى نفس الوقت تقريباً، فتؤثر فى توجيه أفكار المجتمعات فى العالم نحو جهة معينة.

ولاشك فى أنّ دور الصّحف والمجلات لم يكن واسعاً ومؤثراً فى السّابق كما هو عليه اليوم- كما فى كثير من الأمور الاخرى أيضاً- ولكن وعلى أيّة حال، كان للكتاب والمكتبات على طول التّأريخ أثرٌ بالغٌ فى التربية والتعليم وانتقال العلوم من جيل إلى آخر وفى تكامل الثّقافة البشريّة.

وبعد هذه الإشارة الخاطفة، نعود إلى القرآن الكريم، ونتأمل فى الأهميّة التى أوْلاها للكتاب والكتابة والتى كانت بلا شكّ مبرراً من مبررات الحركة العلميّة للمسلمين فى صدر الإسلام.

وفى القرآن المجيد آيات كثيرة تتعرض لهذا الموضوع، منها:

۱- «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ». (القلم/ ۱)

۲- «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ». (العلق/ ۳- ۵)

۳- «وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الحَقُّ ...». (البقرة/ ۲۸۲)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۲

۴- «وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ». (البقرة/ ۲۸۲)

۵- «وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا». (سبأ/ ۴۴)

۶- «ائْتُونِى بِكِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ اثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». (الأحقاف/ ۴)

۷- «رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفاً مُّطَهَّرَةً* فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ». (البيّنه/ ۲- ۳)

جمع الآيات و تفسيرها

يستعمل القرآن الكريم فى بعض الآيات صيغة القسم للتأكيد على أهميّة الموضوع الذى يريد بيانه، والقسم تارة يكون بالذات الإلهيّة الطّاهرة، وفى كثير من الموارد يكون بالموجودات المهمّة كالشّمس والقمر والأرض والسّماء وأمثال ذلك.

وفى الآية الأولى الّتى ذكرناها وهى أوّلُ آية من سورة القَلم، يقسم عزّوجلّ بالقلم، وكل ما يكتبه القلم: «ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ».

وفى الحقيقة أنّ ما وقع القسم به هنا، وإن كان فى الظّاهر موضوعاً صغيراً، فهو قطعة خشب وقصبة بسيطة أو ما شابه، وشىء من السّوائل الملونة، وأسطرٍ على صفحات متواضعة، إلّاأنّه فى الواقع منبع ظهور الحضارات الإنسانيّة وتقدم العلوم والمعارف ويقظة الفكر وتصوير المذاهب والأديان بصورتها الحقيقية، ومصدر التّربية والتعليم والهداية للبشرية.

ومن هنا، فإنّ العلماء يقسّمون أدوار حياة الإنسان إلى دورين رئيسيين هما «مرحلة ما قبل التّاريخ» و «مرحلة ما بعد التّاريخ»، ويقولون إنّ مرحلة ما بعد التّاريخ تبدأ من حين اختراع الخط والكتابة، وعندما استطاع الإنسان أن يمسك القلم بيده ويكتب أحداث حياته على الصفحات، وأمّا قبل ذلك فيسمى بمرحلة ما قبل التّاريخ.

ويجب أن لا نغفل عن أنّ هذه الآية نزلت فى محيط جاهلى أكثر من أى محيط آخر، حيث لم يكن هناك من يهتم بالقلم والكتابة، ولم يصل عدد الذين كانوا يعرفون الكتابة فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۳

مكة- وهى أكبر مركز عبادى سيّاسى واقتصادى فى الحجاز حسب قول بعض العلماء- إلى أكثر من عشرين شخصاً!

فالقَسَم بالقلم فى مثل هذا المحيط له من العظمة والجلال الكبيرين مالا يخفى!

ومن فلسفة القسم فى القرآن هو أنّه كان يحفز المسلمين على التأمل فى الأمور التى يُقسَمُ بها، وفى هذه الآية كان الأمر كذلك، فصار ذلك سبباً فى اتساع أمر القراءة والكتابة والتّأليف وترجمة كتب المجتمعات الاخرى، وانتشار العلوم فى العالم الإسلامى.

وتعتبر الآية الثّانية، من أولى الآيات- طبقاً للرأى المشهور- الّتى نزلت على قلب النّبىّ الطّاهر فى جبل النور فى غار حراء، وكانت أولى ومضات الوحى، ولذا فإنّها إشارة إلى أَهم المسائل، فعندما يأمر تعالى الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله بتلاوة آيات القرآن، يقول له: «اقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ* الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* عَلَّمَ الانْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ».

وبهذا فإن أوّل وصف للّه‌تعالى بعد الرّبوبيّة والكرامة هو وصف التّعليم بواسطة القلم وهو منبع تعليم «مالم يعلم».

ومن هنا فإنّ بداية الوحى نشأت مع بداية الحركة العلميّة، وهذا المعنى عميق ودقيق ومربٍّ لكل مسلم.

فمثل هذه العبارات، حفّزت المسلمين باستمرار على الإهتمام بالكتاب والمكتبات وتعلم العلوم والمعارف، وإذا كانت الرّوايات قد صرحت بأن «مداد العلماءِ أفضل من دماءِ الشُّهداءِ»، فإنّ ذلك من أجل أن أسس دماء الشهداء مبتنية على المعارف والعقائد التى تنبع أساساً من القلم، كما أنّ سند بقاء دماء الشهداء هو مداد أقلام العلماء.

إنّ تفاهم النّاس فيما بينهم وانتقال الأفكار ينحصر فى طريقين عادة: البيان والقلم مع تفاوت بينهما وهو أنّ البيان وسيلة للارتباط بين الحاضرين فى مكان وزمان واحد، أمّا الارتباط بالقلم فلا ينحصر فى الحاضرين، وإنّما يعتبر القلم وسيلة للارتباط بين أبناء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۴

الأجيال والعصور المختلفة وفى الأمكنة المختلفة، فهو يربط أهل القرون السّابقة بالقرون السائدة واللاحقة، ولذلك يقول أحد العلماء: «بيانُ اللِّسان تُدرِسُهُ الأعوام وما تُثبتُهُ الأقلام باقٍ على مرِّ الأيّام».

وكذلك قال بعض العلماء: «ينبغى أن لا تسقط برايا الأقلام تحت الأقدام، فإنّها محترمة أيضاً!».

والنّكتة الملفتة للنّظر هى أنّه كما أنّ البيان من خصوصيات الإنسان، فإنّ القلم أيضاً من مختصاته، بل إنّ القلم أعقد بكثير من البيان باللّسان، وليس عبثاً أن يكون أمرُ تعليم الكتابة بالقلم من قبل اللّه نفسه- بشكل مباشر بواسطة أحد الأنبياء (آدم أو إدريس) أو بطريق غير مباشر، أى منح موهبة وقابلية القراءة والكتابة للبشرية- من أكبر النعم الإلهيّة على الإنسان، وأنّ الآيات القرآنية الأولى للوحى قد استندت إلى القلم، وأشارت إليه بعد الإشارة إلى عظمة اللّه.

وفى الآية الثّالثة وهى مقطع من أطول آيات القرآن المجيد، والنّاظرة إلى تنظيم العلاقات اليوميّة بين النّاس، نجد اهتماماً خاصاً بمسألة القلم، يقول عزّوجلّ: «وَلْيَكْتُبْ بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ» ثُمّ يضيف: «وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيهِ الحَقُّ ...».

فهنا تعتبر الآية أنّ القدرة على الكتابة موهبة إلهيّة، ويوصى أولئك الّذين شملتهم هذه العناية الرّبانيّة أن يعينوا أولئك الاميين لإحقاق حقوقهم، فيستفيدوا من هذه القدرة ويكتبوا لهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۵

والظّريف هو أنّه جاء فى بقية هذه الآية: «وَلَا يُضارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ» أى لا ينبغى أن يتضرر كاتب أو شهيد، فإن وسّعنا مفهوم هذه الآية الّتى وردت فى مورد خاص (وهو كتابة وثيقة القرض) أى لو ألغينا الخصوصية وألحقنا بها الموارد الاخرى التى يمكن الاستفادة فيها من موهبة الكتابة لإعانة أفراد المجتمع، وكذلك عدم إضرار الكتّاب، وبعبارة أُخرى حفظ حرية القلم، نصل إلى نكتة مهمّة وصلت إليها البشريّة بعد قرون من نزول هذه الآية، مع أنّها تواجه مشاكل عديدة فى تطبيق ذلك عمليّاً.

وفى الآية الخامسة، يذّم القرآن المجيد أولئك الّذين يخالفون الآيات الإلهيّة، ويحاججهم ويطالبهم بالمبررات المنطقية التى دعتهم إلى ذلك، يقول عزّوجلّ:

«وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِّنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَّذِيرٍ».

وبالرغم من أن المراد من الكتب، الكتب السّماوية، ولكن ماذكر من موضوع الكتاب ودراسته وتعلمه فى هذه الآية إلى جانب إرسال الأنبياء، وأنّ الكتاب أحد الدليلين المعتبرين، يكفى لمعرفة أهميّة ودور الكتاب، ونظير هذا المعنى نجده فى سورة القلم، فى مقام المؤاخذة وذم منكرى الإسلام والقرآن، حيث يقول تعالى: «أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ». (القلم/ ۳۷)

وهذا إشارة إلى أنّ الكتاب يمكن أنْ يكون فى عدّة موارد سنداً معتبراً يُستند إليه فى الإحتجاج.

والحقيقة أنّ اعتماد القرآن المجيد على مسألة الكتاب والكتابة فى مورد الكتب السّماوية للأنبياء سواءً فى أمور الدّنيا، أو فى صحيفة الأعمال والمحكمة الإلهيّة، كلها تبيّن أهميّة هذا الموضوع من وجهة نظر القرآن والإسلام.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۶

توضيحات

۱- أهميّة الكتاب والقلم فى الرّوايات

وردت روايات كثيرة عن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام فى بيان أهميّة الكتاب والكتابة، وإليك نماذج من تلك الروايات:

۱- ورد فى حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله أنّه قال:

«قَيِّدوا العِلْمَ فقيل: يا رسول اللّه، وَما تَقْييدُهُ».

قال صلى الله عليه و آله: «كِتابَتُهُ» «۱».

۲- وفى حديث آخر عنه أيضاً: «اكْتُبُوا العِلْمَ قَبْلَ ذَهاب الْعُلَماءِ وَإِنَّما ذَهاب العِلْم بِمَوتِ الْعُلَماءِ» «۲».

۳- قال الإمام الصّادق عليه السلام لأحد أصحابه: «أُكْتُبْ وبُثَّ عِلْمَكَ فِى إخوتِكَ فإنْ مِتَّ فورِّثْ كُتُبَكَ بنيك، فإنَّهُ يأتى على النّاس زَمانُ هَرَجٍ ما يأنسونَ فيه إلّابِكُتبِهِمْ» «۳».

۴- وفى حديث آخر عنه أيضاً: «مَنَّ اللَّهُ على النّاس بَرِّهم وفاجِرِهِمْ بالكتاب والحساب ولولا ذلك لتغالطوا» «۴».

۵- يقول أمير المؤمنين عليه السلام فى حديث رائع جدّاً ومختصر: «الكُتُبُ بَساتُينُ العُلَماءِ» «۵».

والبساتين لها هواء لطيف، ولها مناظر خلّابة، وفيها أنواع الثمار، وفيها أنواع الأوراق والورود والأعشاب الطبيّة، وفى الحقيقة، فإنّ الكتاب له كلّ تلك الآثار.

۶- وفى حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، ورد بتعبير رائع جدّاً يُبيّن فيه أهميّة الكتاب والكتابة بطرز محيّر للعقول، يقول صلى الله عليه و آله: «ثلاث تخرِقُ الحجبَ، وتنتهى إلى مابين يدى اللَّه:

صريرُ أقلامِ العلماءِ، وَوَطءُ أقدام المجاهدينَ، وصوتُ مغازلِ المُحصَناتِ» «۶».

وفى الواقع، كلّ واحدٍ من هذه الأصوات الثّلاثة خفيٌّ فى الظّاهر إلّاأنّه فى باطنه وواقعهِ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۵۱.

(۲) كنز العمال، ح ۲۸۷۳۳.

(۳) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۱۵۰.

(۴) فروع الكافى، ج ۵، ص ۱۵۵.

(۵) غرر الحكم.

(۶) الشهاب فى الحكم والآداب، ص ۲۲.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۷

جوهرى، وكلّ واحدٍ منها إشارة إلى إحدى المسائل الاساسيّة فى المجتمعات البشريّة «العلم والكتابة» «الجهاد والشّهادة» «السّعى والعمل»!

۷- يقول الإمام الصّادق عليه السلام للمفضّل ضمن بيان نعم اللَّه العظيمة على البشرية:

«وكَذلِكَ الكِتابَةُ الَّتى بِها تُقَيَّدُ أخْبارُ الْماضِيْنَ لِلْباقينَ وَأَخْبارُ الْباقينَ لِلآتينَ وَبِها تُخَلَّدُ الْكُتُبُ فِى الْعُلُوم وَالآداب وَغَيْرِها وَبِها يَحْفَظُ الإنْسانُ ذِكْرَ ما يَجْرى بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ مِنَ الْمُعامِلاتِ وَالْحِساب، وَلَوْلاهُ لانْقَطَعَ اخبارُ بَعْضِ الأزْمِنَةِ عَنْ بَعْضٍ، وَأَخْبارُ الْغائبينَ عَنْ أوْطانِهِم، وَدَرَسَتِ الْعُلُومُ وَضاعَتِ الآدابُ، وَعَظُمَ ما يَدْخُلُ عَلَى النّاسِ مِنَ الْخَلَلِ فِى أُمُورِهِمْ وَمُعامِلاتِهِمْ، وَما يَحْتاجُونَ إلَى النَّظَرِ فِيهِ مِنْ أمْرِ دِينِهِمْ وَما رُوِىَ لَهُمْ مِمّا لا يَسَعُهُمْ جَهْلُهُ» «۱».

۸- ونختم هذا البحث برواية عن رسول اللَّه صلى الله عليه و آله تكشف الستار عن أهميّة بقاء الآثار العلمية بواسطة الكتابة، وتدعو العلماء وتحفزهم وتشدُّهُمْ إلى ذلك، يقول صلى الله عليه و آله:

«الْمُؤمِنُ إذا ماتَ وَتَرَكَ وَرَقَةً واحِدَةً عَلَيْها عِلْمٌ، تَكُونُ تِلْكَ الْوَرَقَةُ يَوْم القِيامَةِ سِتْراً فيما بَيْنَهُ وَبَيْنَ النّارِ وَأعْطاهُ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعالى بِكُلِّ حَرْفٍ مَكْتُوبٍ عَلَيْها مَدينَةً أوْسَعُ مِنَ الدُّنْيا سَبْعَ مَرّاتٍ» «۲».

۲- وصايا مهمة للحكومات الإسلامية

من مجموع ما قرأناه فى الآيات والرّوايات، تتضح لنا هذه النّقطة، وهى أنّ المسلمين فى القرون الأولى لظهور الإسلام لما توجهوا للعلوم والفنون والمعارف، وأوجدوا نهضة علميّة واسعة عمّت بركاتها وثمارها اوربا أيضاً، فإنّ جذور ذلك موجود وكامن فى‌الثّقافة الّتى علمهم إيّاها الإسلام، ومن الواضح جدّاً أنّ على الحكومات الإسلاميّة أن تهتم بهذه المسألة

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۵۸، ص ۲۵۷.

(۲) المصدر السابق، ج ۱، ص ۱۹۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۸

الّتى تعتبر أساس حياتهم وتقدمهم فى دينهم ودنياهم.

وفى هذا المجال، فإنّ الحكومة الإسلاميّة وبالاستفادة ممّا ذُكر، عليها أنْ تراعى القواعد والأمور التّالية.

۱- لابدّ أن تنتشر القراءة والكتابة بشكل واسع فى كلّ طبقات المجتمع حتّى لا يبقى فرد جاهل بهما، بل يتنعم الجميع بنعمة القراءة والكتابة، وأى تقصير فى هذا المجال تكون الحكومة الإسلاميّة مسؤولة عنه.

۲- تأسيس المكتبات العامة والخاصّة لعامة النّاس ولخصوص المحققين والعلماء، والمكتبات التى تضم مختلف الكتب فى شتى العلوم من وظائف الحكومة الإسلاميّة أيضاً.

وكلّ جهد فى هذا المجال، فضلًا عن كونه مطلوب من قبل الشّارع المقدّس، فمع ذلك سيكون سبباً فى قوة واقتدار المسلمين، ومواجهة النواقص والمفاسد الفردية والاجتماعيّة المختلفة، وهو أيضاً سبب فى تطور المجتمع الإسلامى ورقيه.

۳- ينبغى أن لا تقتصر وسائل الإعلام العامة فى الحكومة الإسلاميّة على الأخبار والمسائل السيّاسية وبرامج التّسلية، بل لابدّ أن يخصص جزءٌ كبير منها لنشر العلوم والمعارف وبما يتناسب مع كل الأمزجة لجميع أفراد المجتمع ونشر آخر التطورات والإكتشافات العلميّة فى أوّل فرصة ممكنة بشكل واسع فى المجتمع الإسلامى، للحدِّ من أى تخلف حضارى وعلمى عند المسلمين.

۴- على الحكومة الإسلاميّة أن تشجِّع العلماء والمحققين والكتّاب على الاستفادة من كل الوسائل العلميّة الحديثة وأن توفر ما يلزم لتعزيز هذه القدرة عندهم، وعليها من أجل إنتاج حصيلة علمية تشجيع الابداعات والإبتكارات العلميّة، وتوزيع الجوائز والإمتيازات، وإن تكرم العلماء والمحققين بنحو يحفز الآخرين على الجدّ والسعى فى هذا المجال.

۵- توسعة المدارس والجامعات وتعميق برامجها وتطويرها واستثمار الإبتكارات العلميّة للعلماء المسلمين، وحتى المحققين الأجانب، وفى هذا المجال لابدّ أن يكون ذلك على رأس برامج الحكومة الإسلامية، وأن يتبلور ذلك طبقاً لما أراده الإسلام والذى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۵۹

انعكس فى الآيات والروايات المذكورة وهى نموذج من تعاليم الإسلام.

والإطلاع على الصنّاعة والتّكنلوجيا ليس أمراً منفصلًا عن ذلك بحال، لأننا نعلم أن تعلّم كل الأمور المهمّة بنحوٍ من الأنحاء لحفظ المجتمع الإسلامى، واجبٌ عينى فى الفقه الإسلامى، ولا يحقّ لأى‌مسلم أن يغفل عنه.

۳- تأسيس المكتبات

إحدى مسؤوليات الحكومة الإسلاميّة المهمّة فيما يرتبط بمسألة التّربية والتّعليم هو تأسيس المكتبات العامة، وذلك لأنّ أكثر النّاس غير قادرين على شراء كتب مختلفة وعديدة، فى حين أنّهم يطلبون العلم ويريدون المعرفة، وحتى لو كانوا قادرين على ذلك، فإنّه لا يلزم أن تُجَمّد أموال طائلة فى المنازل، فالأفضل أن يتمّ تأسيس مكتبات عامة ليتم استغلال الثروات فى أمور أخرى، ولكى يتمكن الفقير والغنى ومتوسط الحال والصغير والكبير من اقتناء الكتب المختلفة ومطالعتها، سواءً الكتب الدينيّة أو العلميّة أو الأدبيّة أو

التّاريخية والسياسية.

وفلسفة تشكيل المكتبات معروفة من قدم الدهر، ولهذا نجد أن مكتبات عديدة قد اسست منذ آلاف السّنين فى نقاط مختلفة من هذا العالم وإن كان بعضها بسيطاً وابتدائياً.

وفى المجتمع الإسلامى، وللتأكيد الكبير الذى ورد فى التعاليم الإسلامية على مسألة العلم والمعرفة نجد أنّ المكتبات العظيمة كانت قد اسست منذ القرن الثّانى للهجرة فى البلاد الإسلاميّة، حتّى أظهر المؤرخون غير المسلمين إعجابهم وتقديرهم لمثل تلك المكتبات.

ولجرجى زيدان، المؤرخ المسيحى الشّهير، بحث مفصل حول مكتبات بغداد والأندلس ومصر وسائر نقاط العالم الإسلامى، الأمر الذى يُبيِّن انفتاح المسلمين العلمى العظيم فى القرون الأولى للإسلام.

ومن جملة المكتبات العظيمة المهمّة التى يذكرها هى مكتبة بيت الحكمة فى بغداد،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۰

والتى يُحتمل وبشكل قوى أنّ هارون الرّشيد هو الّذى أسسها، والتى جُمِعَ فيها كل الكتب المؤلفة فى الطّبّ والعلوم الاخرى وكذا العلوم الإسلاميّة المدوّنة «۱».

وقد قام كثير من رجال بغداد بتأسيس مكتبات أخرى تبعاً لمكتبة بيت الحكمة، جمعوا فيها آلاف الكتب المختلفة.

ولقد كان المأمون العبّاسى، من السّباقين فى تأسيس المكتبات فى الدّول الإسلاميّة، وكان بعض حكام الأندلس قد اقتدوا به فى هذا المجال.

ومن جملة من اهتم بهذا الأمر «المستنصر العبّاسى» فى القرن الرّابع للهجرة، حيث أسس مكتبة عظيمة فى «قُرطبة» جمع فيها الكتب من أنحاء العالم، وكان قد كلَّفَ جماعة من التّجار بالترحال والسّفر إلى نقاط الدنيا وشراء الكتب العلمية لتلك المكتبة، حتى أنّ البعض قال إنّ عدد الكتب الموجودة فى تلك المكتبة بلغ «أربعمائة ألف كتاب» «۲».

وهذا العدد كبير جدّاً بعد الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كل الكتب حينذاك كانت مخطوطة، وكانت كتابة الكتاب الواحد تستغرق أسابيع أو أشهر أو سنين.

وقد اقتدى به كثير من ملوك «الأندلس» فأسسوا مكتبات عديدة فى سائر البلاد، حتى قيل إنّ «غرناطة» كانت تضم سبعين مكتبة عامة ضخمة، وكل ذلك إنّما هو لأجل الرغبة الشديدة واللهفة لطلب العلم والمعرفة عند النّاس، حتى صار جمع الكتب وتأسيس المكتبات من علامات العظمة والشخصية، فحتى الرؤوساء والملوك الذين لم يكونوا من أهل المطالعة، كانوا يحاولون تأسيس مكتبة معتبرة خاصة فى منازلهم!!

وفى زمن «الفاطميين فى مصر» تأسست مكتبات كبيرة أيضاً، كانوا يسمون بعضها «خزانة الكتب» ويصرفون أموالًا طائلة فى جمع الكتب حتى أنّهم كانوا أحياناً يجمعون عدّة نسخ من الكتاب وبخطوط مختلفة وزخرفة متنوعة، حتى ذكر التاريخ أنّ المكتبة التى أسسها «يعقوب بن كلس» كانت تضم ۳۴۰۰ نسخة مختلفة من «القرآن المجيد» و ۱۲۰۰

---

(۱) تأريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۲۲۸.

(۲) تاريخ الحضارة، جرجى زيدان، ج ۳، ص ۲۲۸.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۱

نسخة من «تاريخ الطبرى» وقيل أن عدد الكتب فى تلك المكتبة بلغ ۱ /۶۰۰ /۰۰۰ كتاب منها ۶۵۰۰ نسخة فى النّجوم والهندسة والفلسفة «۱».

يقول «ول ديورانت» فى كتابه «تاريخ الحضارة»: كانت مكتبات الخلفاء الفاطميين تضم مئات الكتب المزينة بالنقوش من جملتها

(۲۴۰۰) نسخة من القرآن، وكان فى «مكتبة الخليفة» فى القاهرة ۱۰۰/۰۰۰ كتاب فى عهد الخليفة «الحاكم بأمر اللّه» و ۲۰۰/۰۰۰ كتاب فى عهد الخليفة «المستنصر» «۲».

ومتى ما قارنا بين هذه الأعداد وبين أعداد الكتب فى المكتبات اليوم فى كثير من البلدان، نلاحظ تفاوتاً واضحاً بينها، مع أنّ أمر طبع ونشر الكتب اليوم أسهل بكثير من ذلك الوقت خصوصاً مع تطور وسائل الطّباعة الكبير، حيث لم يكن فى السّابق إلّاالكتب المخطوطة، وهذا التفاوت فى الأعداد والأرقام مسألة مهمّة لابدّ من دراستها، ونختم هذا الحديث بعبارة أخرى للمؤرخ الشّهير «ول ديورانت» حيث يقول: كانت أغلب المساجد تشتمل على مكتبة، وكان فى أكثر المدن أيضاً توجد مكتبة عامة تحتوى على عدد كبير من الكتب، تفتح أبوابها لطلّاب العلم ... وكان فهرست مكتبة «الرىّ» فقط عشرة مجلدات، وكان روّاد مكتبة «البصرة» يحصلون على مخصصات وإعانات مالية!

وكان «ياقوت الحموى» الجغرافى الشهير قد قضى ثلاث سنوات فى مكتبة «مرو» و «خوارزم» لجمع المعلومات لكتابه «معجم البلدان»، وعندما خرَّب المغول «بغداد» كان فى بغداد ستة وثلاثون مكتبة عامة، غير المكتبات الخاصة العديدة، إذ كان المتعارف أن يكون لكل من الأغنياء مكتبة تضم عدداً من الكتب!

ولقد دعى «أمير بخارى» طبيباً معروفاً إلى بلاطه، فلم يستجب الطبيب لدعوته واعتذر بأنّه يحتاج إلى أربعمائة بعير! لحمل كتبه، وعندما توفى «الواقدى» ترك ستمائة صندوق مملوءة بالكتب، يلزم لحمل كل منها رجلين.

---

(۱) تاريخ الحضارة «ول ديورانت»، ج ۳، ص ۲۳۱.

(۲) المصدر السابق، ج ۴، ص ۳۶۷.

وكان لبعض الأعاظم مثل «الصاحب بن عبّاد» كتبٌ بعدد كتب كل مكتبات أوربا! ولم يكن فى أى بلد من بلدان العالم- إلّاالصين أيّام «مينك هوانك»- شوق وشغف بجمع الكتب نظير ما كان عند المسلمين فى الفترة ما بين القرن الثامن وحتى القرن الحادى عشر الميلادى (الثانى- الخامس الهجرى) وقد وصلت الحياة الثّقافيّة للمسلمين إلى أوجها فى تلك الفترة «۱».

لقد كانت الدوّل الإسلاميّة مهداً للعلم والحضارة والثقافة فى القرون الوسطى وفى أكثر القرون حيث كان الأوربيون يعيشون فى أحلك فترات تاريخهم المظلم.

ولكى لا نبتعد عن صلب الموضوع، نقول: إنّ الهدف هو أن يتضح مدى تأثير تعاليم الإسلام فى تطور التّربية والتّعليم وتأسيس المكتبات وانتشار العلم والمعرفة، ومن هنا تتضح لنا خطورة مسؤولية الحكومة الإسلاميّة فى هذا الأمر المهم.

---

(۱) قصّة الحضارة، ول ديورانت، ج ۴، ص ۳۰۴.

الركن الخامس: الدفاع (القوات المسلحة)

تمهيد:

لو كانت الدنيا خالية من الظّلمة الطّامعين والمعتدين والمتجاوزين، لما كان هناك أيّة ضرورة لوجود القوات المسلحة لحفظ الحدود، ولعاش النّاس فى بلادهم آمنين مطمئنين تربطهم روابط تجارية وثقافية وسياسية واجتماعية واقتصادية سالمة وطبيعيّة.

ولكن حب الإستعلاء والتّسلط الذى قد يوجد أحياناً عند بعض الأفراد، وأحياناً عند بعض الشعوب، يؤدّى غالباً إلى اعتداء هذا الفرد أو ذلك الشعب على فرد آخر أو شعب آخر، وفى مثل هذه الحالات يحق للجميع أن يتسلحوا ويستعدّوا لحفظ أمنهم وحياتهم، إذ إنّ النّظام الذى يحكم العالم اليوم وللأسف هو نظام الغلبة للقوى وهذا الأمر يبرر لنا فلسفة تشكيل القوى المسلحة وقوات الدفاع.

فصحيح أنّ وجود مثل هذه القوى لم ينجح بشكل كامل لمنع مثل هذه الإعتداءات العدوانيّة، ولكنّها بلا شك كانت ولا تزال مانعة بنسبة معينة من ذلك، إذ فى كثير من الأحيان يتحتم على القوى المعتدية أن تغامر وتخاطر بوجودها فى اعتدائها، حيث إنّ النتيجة لا تكون معلومة، فقد تتحمل خسائر جسيمة وتدفع ضريبة غالية فى طريق الغلبة على البلد المعتدى عليه وهذا نفسه يمنع فى كثير من الأحيان مثل هذه الإعتداءات والحروب.

ومضافاً إلى ذلك، فإنّ الأُمّة ذات الحضارة والثقافة والتى تريد الحصول على ميدان حرٍّ لتنشر ثقافتها بين الأمم الاخرى تحتاج إلى قوة عسكرية للحصول على ذلك الجو الحرّ، ولا يمكنها ذلك بدون الإتكاء على القوة، وهذه فلسفة اخرى لتشكيل القوى العسكرية.

ولو أردنا بحث هذه المسألة فى بعد أوسع، لابدّ أن نقول إنّ الحياة غير ممكنة بلا

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۴

«جهاد»، إذ إنّ الكائن الحى يواجه دائماً فى طريق استمرار حياته، بعض الموانع والصعوبات التى تهدد كيانه فى كل لحظة، وإذا لم يكن مجهزاً بقوة دفاعية فسوف ينهزم بسرعة.

وجسم الإنسان وهو «عالَمٌ صغير» يتجلى فيه العالم الأكبر، هذا الجسم نموذج بارز لهذه المسألة، وذلك لأنّ حياة الإنسان مهددة دائماً بخطر التلوث «بالميكروبات» و «والفايروسات» التى ترد البدن عن أربعة طرق (التّنفس، الأكل، الشّرب، والجلد إذا ما أصيب البدن بجراحات)، فلو لم يكن بدن الإنسان مزوداً بالقوى الدفاعية المجهّزة، لابتلى بأنواع الأمراض الخطيرة التى تشلُّ حركته وتقتله.

نعم، فكريات الدّم البيضاء تهب لمواجهة أى عدو خارجى يرد البدن، وتجاهده عن طريق حروب فيزيائية وكيميائية، وحتى لو انتصر العدو مؤقتاً ومرض الإنسان، تستمر تلك الكريات بدفاعها حتى تتغلب على العدو وتؤمّن السلامة الكاملة للبدن.

وعدد هذه الخلايا الدفاعية الموجودة فى بدن الإنسان يصل إلى عدّة ملايين كما يقول العلماء، وعند ملاحظة عمل هذه القوى يحتار عقل الإنسان حيث تحكى عن نكات عجيبة من أسرار الخلقة تجعل الإنسان يضطر للركوع أمام قدرة الخالق عز وجلّ.

والمجتمع الإنسانى والدّول المختلفة غير مستثناة عن هذا القانون العام، وتحتاج إلى إدامة حياتها واستمرارها لقوى عسكرية مجهّزة ومتطورة.

وبعد هذه الإشارة نعود إلى القرآن الكريم.

ففى القرآن الكريم آيات عديدة فى مجال الجهاد وفلسفته وأحكامه، وكذلك آثاره ونتائجه، وقد إنتقينا إحدى عشرة آية من بين تلك الآيات:

۱- «اذنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِانَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ* الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَ هُمْ بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَواتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ». (الحج/ ۳۹- ۴۰)

۲- «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ فَإِنِ انْتَهَوا فَإِنَّ اللَّهِ بِمَا يَعمَلُونَ بَصِيرٌ». (الأنفال/ ۳۹)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۵

۳- «وَاعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ».

(الأنفال/ ۶۰)

۴- «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ». (الصف/ ۴)

۵- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِّنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ». (الأنفال/ ۶۵)

۶- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذابٍ أَلِيمٍ* تُؤمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ* يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ* وَاخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ».

(الصف/ ۱۰- ۱۳)

۷- «إِنَّ اللَّهَ إِشْتَرَى مِنَ الْمُؤمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». (التوبة/ ۱۱۱)

۸- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

(آل عمران/ ۲۰۰)

۹- «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ». (التوبة/ ۷۳) (التحريم/ ۹)

۱۰- «لَّايَستَوِي الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ اوْلِي الضَّرَرِ وَالْمجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِامْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمجاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً». (النساء/ ۹۵)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۶

جمع الآيات و تفسيرها

روح الجهاد، دفاعٌ لاغزو:

فى الآية الأولى من الآيات الآنفة الذكر، والتى يعتقد جمعٌ من المفسرين أنّها أول آية فى الجهاد، تزيح الستار عن أهم فلسفة للجهاد، وتجيز للمسلمين الذين حوصروا من قبل الأعداء الشرسين الجائرين، أن يحاربوا هؤلاء عسكرياً ويجاهدوهم، يقول تعالى.

«اذنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِانَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

فهنا حصل المسلمون على إذن بالجهاد، مضافاً إلى أنّهم وُعدوا بالنصر من قبل اللَّه تعالى، وقد ذكر لذلك دليل، وهو أنّ العدو هو الذى بدأ الحرب العدوانية عليهم، ولذا فالسكوت عنه خطأ، لأنّه يؤدّى إلى تجرؤ العدو وتجاسره وإلى ضعف المسلمين.

يقول المرحوم الشيخ الطبرسى فى مجمع البيان: وكان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله ويشكون ذلك إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فيقول لهم صلوات اللَّه عليه وآله: إصبروا فإنّى لم أؤمر بالقتال، حتى هاجر فأنزل اللَّه عليه هذه الآية بالمدينة وهى أول آية نزلت فى القتال» «۱».

والملفت للنظر هو أنّ القرآن المجيد يقول فى الآية السّابقة لهذه الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»، أى أنّ هذا الكلام لا يعنى أن يجلس هؤلاء فى زاوية من زوايا المسجد ويضعون يداً على يدٍ وينتظرون دفاع اللَّه، بل إنّ سنة اللَّه اقتضت أن يكون دفاعه عن المؤمنين بعد أداء وظيفتهم فى أمر الجهاد ومواجهة العدو، إذن، فالذين يحقّ لهم الإطمئنان للحماية الإلهيّة هم الذين لم يتركوا وظيفة الجهاد.

كما أن النكتة الاخرى التى ينبغى الإلتفات إليها هى أنّ الآية اللاحقة تقول فى تحفيز المؤمنين على الدفاع المقدس: «الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ». (الحج/ ۴۰)

(۱) ومن جملة من صرّح بأن هذه الآية هى أوّل آية نزلت فى الجهاد- مضافاً إلى ما جاء أعلاه- المرحوم العلّامة الطّباطبائى فى الميزان» و «البرسوئى) فى (روح البيان) والعلّامة المشهدى فى (كنز الدقائق) و «الآلوسى»، فى روح المعانى، وإن ادّعى البعض أن الآية الأولى فى الجهاد هى قوله تعالى: «قاتلوا فى سبيل اللَّه الذين يقاتلونكم ...» (البقرة/ ۱۹) وقال البعض إنّها قوله تعالى: «إن اللَّه اشترى من المؤمنين ..» (التوبة/ ۱۱۱).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۷

أى أنّ المشركين أخرجوكم من وطنكم ومنازلكم لا لذنب إلّالإيمانكم باللَّه، ولذا إذا لم تقفوا فى وجوههم وتقاتلون تعرضت دنياكم ودينكم وإيمانكم ومساجدكم للخطر.

وبما أنّ الأمر بالجهاد صدر بعد الهجرة، فيدل على أنّ أصل الجهاد فى الإسلام هو الدفاع ضد الأعداء، لأنّ المسلمين لم يحملوا السلاح طيلة السّنوات الثّلاث عشرة على الرّغم من كل أساليب الإيذاء والضرب والجرح، لعل المشركين يعودون إلى الرّشد، ولما لم تنفع الأساليب السّلمية مع المشركين وكانت نتيجة الصبر والتّحمل هو الهجرة العامة والضّغوط الاجتماعية والاقتصادية حتى بعد الهجرة، لم يكن هناك أى مبرر عقلى لجلوس المسلمين مكتوفى الأيدى ناظرين قساوة الأعداء واضطهادهم واعتداءاتهم!؟

وفى الآية الثّانية إشارة إلى فلسفة أُخرى للجهاد، وهى كالفلسفة المذكورة فى الآية السّابقة يمكن أن توجد فى كل زمان ومكان، يقول تعالى: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ».

والظّريف أنّ القرآن الكريم يشير فى ذيل هذه الآية بصراحة ويقول:

«فَإِنِ انْتَهَوا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ».

وذهب جمع من المفسرين إلى أنّ المراد من «الفتنة» هو «الشرك»، وبعض قال إنّ المراد منها الضّغوط التى استعملها المشركون لإرجاع المؤمنين إلى الشرك وردّهم عن إيمانهم.

وفى تفسير الميزان- واعتماداً على جذور هذا المصطلح الأصلية- فسَّر الفتنة بمعنى الأمور التى يُمتَحن النّاس بها، وبالطّبع فإنّ تلك الأمور تكون ثقيلة على النّاس وتستعمل عادة بمعنى زوال الأمن والصلح.

وقد ذكرنا فى التفسير الأمثل، فى ذيل الآية ۱۹۳ من سورة البقرة خمسة معانٍ لهذا المصطلح استناداً إلى آيات القرآن وهى:

۱- الإمتحان.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۸

۲- المكر.

۳- البلاء والعذاب.

۴- الشّرك وعبادة الأوثان.

۵- الإضلال والإغواء.

وقد اشير فى بعض كتب اللغة كلسان العرب إلى أغلب هذه المعانى أيضاً، ومن البديهى أنّ الفتنة فى الآية مورد البحث لا يمكن أنْ تكون بمعنى الإمتحان أو المكر والبلاء، وعليه فهى بمعنى الشّرك أو ضغوط المشركين لإضلال الآخرين، ويمكن أن تكون بمعنى جامع شامل للشّرك وضغوط المشركين والعذاب والبلاء، وعليه فما دامت الضغوط مستمرة من قبل الكفّار لتغيير عقيدة المؤمنين، يكون القتال فى مواجهة ذلك مأذوناً فيه، ويجوز الجهاد للحصول على الحريّة والحدِّ من الضّغوط والتّعذيب، ولكن متى ما رفع الكفّار أيديهم عن ممارسة ذلك، ينبغى الكف عن قتالهم، وعليه فالجهاد هنا نوع من أنواع الدّفاع.

وفى الآية الثالثة ورد أمرٌ للمسلمين لإعداد كلّ لون من ألوان القوّة لقتال الأعداء، يقول عزوجلّ: «وَاعِدُّوا لَهُمْ مَّا اسْتَطَعْتُمْ مِّنْ قُوَّةٍ» ثُمّ

يشير إلى مصداق واضحٍ لذلك كان يعدُّ حينذاك من وسائل القتال المهمّة، يقول عزّوجلّ: «وَمِنْ رِّبَاطِ الخَيْلِ».

وفى العبارة اللاحقة يشير تعالى إلى الهدف النّهائى لهذا الإعداد ويقول: «تُرهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم».

وعليه فالهدف من الإعداد وتهيئة القوى ليس غزو الآخرين والهجوم على أحد، وإنّما الهدف هو إخافة الأعداء، ذلك التخويف الذى يكون رادعاً من نشوب الحرب والقتال.

وفى الحقيقة، فإنّ تقوية البنية الدّفاعيّة، كان دائماً عاملًا مؤثراً فى الحدِّ من هجوم الأعداء، وهذا هدف مقدّس جدّاً ومطابق للعقل والمنطق.

ولابدّ من الإلتفات إلى هذه النّكتة وهى أنّ مفهوم الآية الكريمة أوسع بكثير، ويشمل كلّ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۶۹

نوع من أنواع إعداد القوى المعنويّة والماديّة والعسكريّة والاقتصاديّة والثّقافيّة، وخصوصاً وأنّها تؤكد على القوى المتناسبة مع كل زمان، ويدل ذلك على أنّ المسلمين يجب أن لا يتوانوا، بل عليهم أن يسعوا جاهدين لتوفير أحدث الأسلحة المعقدة فى زمنهم، بل ويسبقوا الآخرين فى ذلك، ولكن يبقى الهدف الأصلى لهذا الإعداد والاستعداد ليس غزو الآخرين والإعتداء عليهم، بل هو إطفاء نار الفتنة والحدّ من الإعتداء، وبعبارة اخرى خنق هجوم الأعداء فى مرحلة النّطفة.

ولما كان إعداد المعدات العسكريّة المتطورة والحديثة فى قبال الأعداء يحتاج إلى أموال طائلة، وهذا الأمر لا يمكن بدون اشتراك جميع أفراد المجتمع، تعقّب الآية الكريمة بهذا المعنى بالقول: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَىءٍ فِى سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيكُم وَأَنْتُم لَا تُظْلَمُونَ». (الانفال/ ۶۰)

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ الآية اللاحقة لهذه الآية: «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ». (الأنفال/ ۶۱) فذكر هذه الآية بعد تلك له معنى دقيق وعميق، وهو تأكيدٌ آخر على روح حب الصّلح والسّلام فى الإسلام، أى أنّ أمر المسلمين بإعداد أفضل أنواع الأسلحة والقوى إنّما هو من أجل تحكيم اسس السّلام والصّلح لا الإعتداء على أحد.

والآية الرّابعة وفى ضمن التّرغيب فى الجهاد، تقّيد الجهاد أوّلًا بالأهداف المقدّسة، ثُمّ تؤكد على توحيد صفوف المسلمين، وهى من أهم عوامل الإنتصار فى الحرب مع الأعداء، يقول عزوجلّ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ» وعبارة «فى سبيله» الواردة فى كثير من آيات الجهاد تكشف لنا هذه الحقيقة وهى أنّ الجهاد يجب أن لا يكون من أجل حبّ التسلّط والإستعمار والإستعلاء وغصب حقوق الآخرين وأراضيهم أو الإنتقام منهم أو اتباعاً للهوى والرّغبات، بل لابدّ أنْ يكون الهدف هو الحقّ والعدالة وما يوجب رضا اللّه تعالى فقط، وتكرار هذا التّعبير فى آيات عديدة من القرآن إنّما

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۰

هو للحدِّ من وقوع الحروب التى يكون الهدف منها وساوس ورغبات شيطانيّة وماديّة، وهذا الأمر هو الفارق الأساسى بين القوى المسلحة الإسلاميّة وبين غيرها! (التفتوا جيداً).

ثُمّ أنّ التّعبير بجملة بنيان مرصوص (وهو البناء الذى استُعمل فيه الرّصاص الذّائب بدلًا من الإسمنت، لكى يكون صلداً وقوياً) ويمكن أنْ يكون إشارة إلى أنّ أعداء الإسلام كالسّيل الجارف المخرب، وأنّ صفوف المجاهدين المسلمين كالسدِّ الحديدى المنيع الذى يصمد أمام السُّيول. أو هو إشارة إلى السّدِّ الحديدى الذى بناهُ ذو القرنين لمقابلة قوم «يأجوج ومأجوج» السّفاكين للدّماء، أو كناية عن كلِّ سدٍّ يقام فى وجه الأعداء وهجومهم.

وعلى أيّة حال، فإنّ هذا التّعبير يدلّ على أنّ الجهاد فى الإسلام له صفة دفاعيّة فى الأصل، لأنّ السّدود وسيلة دفاعيّة مؤثرة فى قبال أمثال «يأجوج ومأجوج» على مرِّ التّاريخ، ولا يوجد سدٌّ لهُ ميزة الغزو والهجوم والإعتداء.

وكما أنّ السُّدود إذا أصابها خَللٌ أو ثغرة فإنّها ستكون معرضة للخطر والتّلاشى، فكذلك صفوف المجاهدين الرّساليين فمتى ما برز

فيها اختلاف وفرقة وعدم انسجام، فستكون محكومة بالإندحار والفشل، فاللّه عزّوجلّ يحب الصّفوف المتراصفة المتحدة المتفقة والمنسجمة تماماً.

وفى الآية الخامسة، يأمر نبى الإسلام صلى الله عليه و آله أن يحفز المسلمين على قتال الأعداء، وهذا الأمر وارد بعد تلك الآيات التى تحرض على إعداد القوى لإخافة العدو والحدّ من وقوع الحروب المدمرّة، وكذلك بعد الآية التى تحرضهم على الصّلح والسّلم.

وفى الحقيقة، الحرب فى نظر الإسلام آخر وسيلة مشروعة تستعمل للحدّ من اعتداءات الأجانب الأعداء، ففى البدء تعدُّ القوى لترهب الأعداء، ثُمّ دعوتهم إلى السّلم من موضع القدرة لا من موضع الضّعف، ثُمّ يصدر أمر القتال والجهاد إذا لم تنفع تلك السّبل، يقول عزّوجلّ: «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»، ثُمّ يشير إلى أهم عوامل النصر يعنى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۱

الإستقامة والصّمود، ويقول: «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُن مِّنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَايَفْقَهُونَ».

فغباء هؤلاء وجهلهم يكون من جهةٍ سبباً فى مخالفتهم للمنطق والعقل وإصرارهم على روح العدوان فلا يفهمون إلّامنطق القوّة، ومن جهة اخرى يكون جهلهم سبباً لضعفهم وعدم اقتدارهم فى ميدان الحرب، وذلك لأنّهم يفتقدون الهدف والمبرر الواقعى فى حروبهم، ومن هنا فإن بإمكان المؤمن الواحد أن يغلب عشرة منهم إذا ما استقام وصمد، وبإمكان العشرين أن يغلبوا مائتين من الكفار.

يقول الراغب فى مفرداته: التّحريض فى الأصل بمعنى التّحريك نحو شىء بعد تزيينه وتسهيل طريق الوصول إليه عن طريق إزالة الموانع- وفى الحقيقة فإنّ الإيمان باللّه والإعتقاد بيوم المعاد والأجر العظيم الذى أعدّهُ اللّه للمجاهدين والشّهداء فى سبيل اللّه يزيل كل الموانع عن طريق جنود الإسلام، ويهوّن عليهم هذا العمل الثقيل والصّعب جدّاً.

هذه الآية تُخطّىء كلّ حسابات الموازنة بين القوى الظّاهريّة والماديّة، وتدل بوضوح على أنّ سلسلة من القوى المعنويّة موجودة عند المسلمين يمكنهم بالإتكاء عليها كسر شوكة جيش العدوّ المتفوّق صورياً بعدته وعدده عليهم، وكسب المعركة لصالح المسلمين.

الآية السّادسة تحرض المؤمنين على الجهاد بطريق آخر، بواسطة تشبيه الجهاد بالتّجارة المربحة الّتى توجب النّجاة من عذاب أليم، والنصر فى الدّنيا والآخرة، يقول تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ* تُؤمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ»، وفى الآيات اللاحقة لهذه الآيات يَعد المؤمنين بدرجات عظيمة، حيث يقول: «يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ* وَاخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤمِنِينَ».

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۲

ففى هذه الآيات يعتبر رأسمال هذه التّجارة المربحة فى الدّنيا والآخرة مُركّب من الإيمان والجهاد، أى أنَ «العقيدة» و «الجهاد» هما ركنا هذه التّجارة، ذلك الجهاد الذى يكون بالمال والنّفس معاً، إذ إنّ إعداد الوسائل والمعدات العسكريّة اللازمة للنّصر لا يمكن إلّا بصرف الأموال، والملفت للنّظر هنا هو أنّه لم يذكر أن نتيجة الجهاد هى المغفرة والرّحمة الإلهيّة والنّعم الخالدة فى الجنّة فقط، وإنّما يذكر النّصر القريب فى هذه الدّنيا ويعتبره أعزّ من آثاره الاخرى. (دققواجيداً).

والتّعبير بالتّجارة، إشارة إلى نكتة أنّ الإنسان على أيّة حال له رأسمال، وهذه الدّنيا كالمتجر يمكن استغلال رؤوس الأموال، فيها وتشغيلها وتبديلها إلى رؤوس أموال خالدة وباقية، وهذا لا يتمّ إلّابالتّعامل مع الوجود المقدسّ للبارى تعالى، الوجود الذى بيده كل مفاتيح الخير والسّعادة، والتّجارة مع هذا الوجود مقترن على الدوام مع الكرامة والمواهب وأنواع النّعم.

كما أنّ النّكتة الجديرة بالذكر هنا هى أنّ المخاطب فى هذه الآيات هم المؤمنون، مع أنّها تدعوهم فى نفس الوقت إلى الإيمان!

والهدف من ذلك هو أنْ يرتقى هؤلاء المؤمنون من مراحل الإيمان الابتدائية والصُورية إلى المراحل العالية المقترنة بالجهاد والأعمال الصّالحة، وذلك لأنّ الإيمان شجرة مثمرة تبدأ من شجيرة صغيرة حتّى تصير أغصانها عالية إلى عنان السّماء، فتثمر أنواع الفضائل ومكارم الأخلاق، وهذا يحتاج إلى طى مراحل تكامليّة مختلفة.

وفى الآيةالسّابعة، نجد نفس مضمون الآية السّابقة ولكن فى صورة جميلة أخرى، فهى تصور المعاملة وكأن اللّه هو المشترى والمؤمن هو البائع، والمتاع هو الأموال والأنفس، والثمن هو الجنّة الخالدة، وأسناد هذه المعاملة العظيمة المربحة ووثائقها، ثلاثة كتب سماوية هى التّوراة والأنجيل والقرآن، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۳

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوراةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ».

وهذه التّجارة المربحة بأركانها الأربعة ووثائقها المضمونة، من أهم التّجارات التى يمكن أن يقوم بها الإنسان فى طول عمره ولهذا يبارك عزّوجلّ للمؤمنين بصورة مباشرة هذه المعاملة المربحة حيث يقول: «فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

نعم لقد كانت هذه الدّواعى هى السبب فى وصول معنويات المقاتلين المسلمين إلى أعلى مستوياتها الممكنة، فمع قلة عَدَدهم وعدّتهم استطاعوا أنّ يتغلبوا على عدوهم فى شرق العالم وغربه.

وفى الآية الثّامنة يخاطب المؤمنين مرّةً أُخرى ويأمرهم بالصبر والمثابرة والإستعداد لصدّ هجمات الأعداء، يقول عزّوجلّ:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا ورَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ».

ففى هذه الآية أربعة أوامر مهمّة تضمن عزّة المؤمنين وانتصارهم: الأوّل، الأمر بالصّبر والصّمود أمام الأحداث المختلفة وهوى النّفس والشهوات، فيقول: إصبروا وهو فى الواقع أساس كل انتصار.

ثُمّ يأمرهم بعد ذلك بالمصابرة، وهى من باب مفاعلة بمعنى الصّبر والإستقامة فى مقابل صبر واستقامة العدو، وبتعبير آخر فإنّ مفهومها هو إنّه مهما كانت المشاكل كثيرة وصعبة فإنّ صبركم واستقامتكم أيها المؤمنون لابدّ وأنْ يكون أكبر، وكلما زاد العدو من هجومه، عليكم أنْ تزيدوا من استقامتكم وصمودكم حتى تغلبوا العدو (وصابروا).

وفى الأمر الثّالث يأمرهم بالمرابطة ويقول: «ورَابِطُوا»، وهذه الجملة مأخوذة من مادة «رباط» وهى بالأصل بمعنى ربط شىء فى مكان ما (كربط الفرس فى محلٍ معين) وهى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۴

كناية عن الإستعداد الذى يعتبر الصمود وحماية الثّغور من أوضح مصاديقه، إذ إنَّ الجنود يحفظون دوابهم ووسائلهم ومعداتهم فى ذلك المحل.

ولذا فإنّ بعض المفسرين فسرها بحفظ الخيل والدّواب المركوبة فى الثغور فقط، والإستعداد فى مقابل العدو حتّى قالوا إنّ مفهومها الواسع يشمل الإستعداد لصناعة المعدات الحربية الحديثة- أعم من تلك التى يستفاد منها فى حروب الجو أو الأرض أو البحر «۱».

ولا شك فى أنّ هذا لا يعنى أنّ الآية الكريمة لا تشمل الحدود الثّقافيّة والعقائديّة، فإنّ مفهوم «رابطوا» واسعٌ إلى درجة أنّه يشمل كلّ استعداد للدّفاع مقابل العدو، ولذا شبّهت بعض الروايات الإسلاميّة، العلماء بحراس الحدود حيث يقف هؤلاء صفّاً بوجه جنود إبليس، ويحولون دون هجومهم على الأشخاص الفاقدين لقدرة الدفاع عن أنفسهم، يقول الإمام الصّادق عليه السلام: «عُلَماءُ شيعتِنا مُرابطون فِى الثّغر الّذى يلى إبليسَ وعفاريتَه ويمنَعونَهُ عن الخروجِ على ضعفاءِ شِيعَتنا وعن أنْ يَسَّلطَ عليهم إبليس» «۲».

حتّى أنّه ورد فى بعض الرّوايات عن الإمام علىّ عليه السلام تفسير جملة «رابطوا» بانتظار الصّلوات الواحدة بعد الاخرى «۳»، وهو فى الحقيقة كالإستعداد فى مقابل جنود الشّيطان (تأملوا جيداً).

وفى الأمر الرّابع، يأمرهم بالتّقوى، إشارة إلى أنّ الصّبر والإستقامة والمرابطة لابدّ أن تكون جميعاً منسجمة ومعجونة بالتّقوى والإخلاص، وأن تكون منزهة عن كلّ رياء وتظاهر.

وفى الآية التّاسعة، يأمرهم عزّ وجلّ بأن يقاتلوا على جبهتين ويغلظوا فى القتال، جبهة الأعداء الدّاخليين والعناصر المخربّة الّذين تغلغلوا فى صفوف المسلمين والّذين يستغلون

---

(۱) تفسير المراغى، ج ۴، ص ۱۷۲.

(۲) بحار الأنوار، ج ۲، ص ۵.

(۳) تفسير مجمع البيان، ج ۱ و ۲، ص ۵۶۲.

الفرص لتضعيف الحكومة الإسلاميّة وزعزعة الأمن الداخلى، ويأمرهم أن يقفوا أيضاً بوجه الأعداء فى الخارج الّذين أشارت الآية إليهم بعنوان الكفار، يقول تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

وبطبيعة الحال فإنّ الجهاد له معنى واسع، فكما يشمل المواجهة المسلحة يشمل أيضاً المواجهة الثقافية والاجتماعية والغلظة فى الكلام والكشف عن الهويات والتهديد أيضاً، وعليه فما ورد فى الرّوايات عن الإمام الصّادق عليه السلام: «إن رسولَ اللَّهِ لم يُقاتِل منافقاً قط» «۱» لا ينافى ما جاء فى هذه الآية.

ومضافاً إلى ذلك فإن ما جاء فى الآية الشرّيفة يعتبر أمراً كلّياً، فإن لم يتجاوز المنافقون الحدود المعينة لابدّ من مواجهتهم بالأساليب غير المسلحة فقط، وأمّا إذا كانت مؤامراتهم تشكل خطراً جدّياً، لم يكن إلّامواجهتهم بالجهاد المسلح وكسر شوكتهم، كما حدث مراراً فى زمن الإمام على عليه السلام.

وبتعبير آخر، فإنّه وإنْ كان رسول اللَّه صلى الله عليه و آله قد سلك طريق المداراة واللين مع المنافقين ولكن، كما وذكر ذلك سيد قطب فى تفسير الظلال فإن اللين له مواضع وللشدّة مواضع اخرى، وإذا لم يتصرف فى كل موضع بما يناسبه، أدى الأمر إلى تضرر الشّريعة والمسلمين، وعليه فلا مانع من المداراة فى شرائط معينة، واستعمال الشّدّة والخشونة وحتّى الجهاد المسلح فى شرائط وظروف اخرى «۲».

وفى الآية العاشرة إشارة إلى مقام المجاهدين والقوى العسكريّة الإسلاميّة الشّامخ، وأفضليتهم وامتيازهم على الآخرين، يقول تعالى «لَّايَستَوِى الْقاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ اوْلِى الضَّرَرِ وَالْمجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِامْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ

---

(۱) تفسير مجمع البيان، ج ۱۰، ص ۳۱۹.

(۲) تفسير فى ظلال القرآن، ج ۴، ص ۲۵۵.

وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسنى وَفَضَّل اللَّهُ الْمجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً».

وبهذا يقسّم القرآن المجيد المسلمين إلى مجموعتين «المجاهدين» و «القاعدين»، ثُمّ يقسم القاعدين إلى قسمين «اولى الضّرر» و «غير اولى الضّرر» الذين يمتنعون عن الإشتراك فى القتال لتخاذلهم ثم يعتبر أنّ الدرجات العظيمة والفضل الكبير والمغفرة والرّحمة الإلهيّة لا تشمل إلّاالمجاهدين.

ومن هنا يتضح تماماً أنّه، وخلافاً لما هو المعروف اليوم فى العالم من أنْ وظيفة القتال مع الأعداء مختصة بمجموعة خاصّة من النّاس.

إنّ وجوب القتال فى الإسلام يكون فى عهدة كلّ من يقدر على حمل السلاح وجهاد الأعداء ولهذا لم نعهد فى عهد رسول اللَّه صلى

الله عليه و آله تشكيل جيش خاص بعنوان القوات المسلحة، وعندما تندلع الحرب كان كلّ من يقدر على حمل السلاح وباستلهام من القرآن المجيد يحمل سلاحه ويتجه نحو ميدان القتال، وبتعبير اليوم، فإنّ لكل فرد من المسلمين مكانه الخاص فى صف التعبئة العسكريّة، وهذا الأمر صار سبباً فى تعاظم القدرة العسكريّة عند المسلمين.

توضيحان

۱- الجيوش المنظمة والتعبئة الجماهيريّة

من خلال آيات كثيرة اخرى واردة فى أبعاد مسألة الجهاد الإسلامى المختلفة يتضح الهيكل العام للقوات المسلحة فى الحكومة الإسلاميّة وخصائصها، وتبدو امتيازاتها على سائر مناهج المجتمعات الاخرى فى الأمور العسكريّة.

وبطبيعة الحال فإننا نعيش فى عصر تعقدت فيه الفنون العسكريّة جدّاً، واكتسبت طابع التّخصص، فلا مفرَّ من الاستفادة من القوى المتخصصة فى هذه الفنون من كبار الضّباط وذوى الرتب العسكريّة الذين درسوا فنون الحرب وتمرنوا عليها، وعليه فمن اللازم إبقاء

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۷

مجموعة من هؤلاء بعنوان «الكوادر الثّابتة» فى الجيش، ليهتموا ليلًا ونهاراً بالأمور الدّفاعيّة والتّخطيط والبرمجة والإستعداد فى كلّ لحظة لمواجهة الخطر الخارجى والدّاخلى، ولكن مع كل ذلك، فدور التّعبئة الجماهيريّة العامّة محفوظ فى محله، بل لا يمكن أنْ تؤدّى المجاميع المذكورة دورها بشكل فاعل ومثمر بدون التّعبئة العامة والقوات الجماهيريّة، كما شاهدنا دور هذه القوات الجماهيريّة فى الحرب العدوانيّة التى فرضت على الجمهوريّة الإسلاميّة ولمدّة ثمان سنوات، إذ لولا وجود قوات التعبئة الجماهيريّة، لاحتلت القوات العراقيّة المعادية مساحات عظيمة من أراضى إيران، وقد كانت هذه القوات العظيمة البطلة هى التى صدت قوات صدام المدعومة من القوى الإستكباريّة العظمى كلّ الدعم.

ولذا، فإن تصور البعض أنّ دور التعبئة الجماهيريّة العامة خاص بذلك الزمن الذى لم تكن الفنون العسكريّة قد تعقدت وتطورت فيه كما هى عليه اليوم- كزمن النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله، تصور خاطىء جدّاً.

واليوم أيضاً لا يمكن إنكار دور قوات التّعبئة الجماهيريّة فى الدّفاع عن الدّول الإسلاميّة، والشّاهد الأخر على هذا الموضوع مجاهدو فلسطين المحتلة، فنحن نعلم جيداً أنّ الذى أقلق إسرائيل وسلب النوم من عينيها فى الأراضى المحتلة هو القوات الجماهيريّة غير النظاميّة والتى تتشكل غالباً من الشبّان والصّبيان ذوى الأعمار الصّغيرة، والذين لا يمتلكون السلاح إلّاالحجارة فى مواجهة إسرائيل!

فلو لم نكن نعيش نماذج عينية لهذه القضيّة، فسوف يصعب تصديق وجود أفراد يقاتلون بالحجارة ويؤرقون العدو فى عصر الأسلحة المتطورة والقنابل الذّرية والصّواريخ العابرة للقارات!

ففى فلسطين المحتلة، لا يوجد جيش نظامى يواجه إسرائيل، وكلّ ما يوجد إنّما هو قوات تعبوية وقوات جماهيرية غير منظمة، اكتسبت بمرور الزّمن تجربة جيدة وخبرات كثيرة حتى صارت عملياً وكأنّها جيش مدرب، مع وجود مجاميع لا تزال تحارب بنفس

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۸

الطرق البدائيّة ومع ذلك فقد أقلقت العدو المجهز بأحدث أنواع الأسلحة!

وعليه ينبغى على الحكومة الإسلاميّة أن لا تتساهل فى مسألة الاستفادة من قوات التعبئة الجماهيريّة مطلقاً.

وعدم وجود قوات تعبوية جماهيريّة فى الدّول الصّناعيّة المتطورة، وعدم استفادة تلك الدوّل من الجماهير، ليس إلّالعدم اعتقاد هؤلاء بوجوب الجهاد بعنوان فريضة إلهيّة عظيمة، فهؤلاء يرون أنّ الحرب مسئولية الدّولة فقط، أمّا فى الإسلام فإنّ الجهاد وظيفة كلّ فرد

من أفراد المسلمين.

إنّ عظمة الشّهادة وعظمة مقام الشّهداء فى الإسلام أمر غير معروف عند غير المسلمين، ومن هنا فإنّ دواعى التعبئة الجماهيريّة غير موجودة عند الآخرين، أمّا عند المسلمين فهى موجودة دائماً.

وطبيعة الحال، فإنّ تلك الدّول التى لا تعتقد بمثل هذه الثّقافة عندما يصل حدُّ السيف إلى رقابها، وتتعرض بلادهم لخطر الفناء فإنّها قد تفكر فى الإستعانة بتشكيل قوات تعبئة جماهيريّة، أمّا فى الإسلام فإنّ هذه القوات موجودة على الدّوام.

ولذا، فعلى الحكومة الإسلاميّة وبعد الإفتخار بهذه الثّقافة الدّينيّة، أن تهتم جيداً بقوات التعبئة الجماهيريّة حتى فى زمن الصّلح، بل عليها أن تدرب قوات التبعئة الجماهيريّة بمرور الزّمن على الفنون العسكريّة المتناسبة مع عصرها، حتّى يتمكن كل من يقدر على حمل السلاح من التّوجه إلى ميدان المعركة ساعة الخطر.

ومن ذلك الوقت، أصبح تكريم مقام الشّهداء واحترام أُسرِهم وتقديرهم المادى والمعنوى جزء من إرشادات الإسلام، ومن التّدابير الأساسيّة لحفظ روح التّعبئة الجماهيريّة الجهاديّة وبقائها فى أوساط المسلمين، ولو نُسى الأمر فإنّه سيترك بدون شك تأثيرات سلبية خطيرة وكثيرة فى تضعيف الرّوح الجهادية عند المسلمين.

وكم هو جميل أن يكون إلى جنب كل مسجد من مساجدنا وحدات للتعبئة الجماهيرية، وأن تعتبر التّعبئة الجماهيريّة عبادة كبيرة إلى جنب الصّلاة، وهذه الأمور لا يمكن تحققها إلّا

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۷۹

فى ظلّ الإعتقادات الصحيحة والثّقافة الدّينيّة، وهى من الأسلحة الإستراتيجية التى نمتلكها اليوم والتى حرمت منها الدّول الإلحادية وإن كانت مجهزة بأحدث أنواع الأسلحة والتّدريبات العسكريّة:

ويتضح لنا من خلال الآية الشريفة: «وَأَعِدُوا لَهُم مَّا استَطَعتُم مِّن قُوَّةٍ». (الأنفال/ ۶۰)

والتى مرَّ الحديث عنها فى البحث السّابق، أنّ على المسلمين أن يحفظوا استعدادهم وقدراتهم العسكرية حتّى فى زمن الصّلح، فإذا تطورت الفنون العسكرية الحربيّة يوماً بعد آخر فإنّ على المسلمين أنْ يتدربوا باستمرار بحسب ما يتناسب مع ذلك التّطور، كما أنْ عليهم أنّ يحصلوا على تلك الأسلحة المتطورة بأى ثمن كان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كلمة «قوّة» تشمل كلّ أنواع القوى الماديّة والمعنويّة، البشريّة وغير البشريّة، فلابدّ من إعداد كلّ ذلك.

ونقرأ فى القرآن الكريم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعاً». (النساء/ ۷۱)

وبعد الأخذ بنظر الاعتبار أنّ «الحذر» بمعنى اليقظة والفطنة والإستعداد الدائم لمواجهة المخاطر، وقد تأتى أحياناً بمعنى الوسيلة التى يمكن بها مواجهة الخطر، يتضح لنا جيداً لزوم الإستعداد الكامل الدّائم عند المسلمين فى مقابل الأعداء.

وجملة «فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعاً» مع الإلتفات إلى أنّ النّفر هو الرّحيل والهجرة، تدلّ على أنّه لا ينبغى للمسلمين الجلوس فى البيوت انتظاراً لهجوم العدو، بل عليهم أنْ يستعدوا لاستقباله ومواجهته- قبل أنْ يهجم عليهم- ويهجموا عليه مستفيدين من الأساليب القتاليّة المختلفة لهذا الأمر، فتارة يهجمون بصورة مجاميع متفرقة، واخرى بصورة حرب عصابات، وتارة بشكل جيش منظم يبدأ بالهجوم على العدو، فيقاتلون فى كلّ ظرف بما يتناسب معه.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۰

۲- السّبق والرّماية

وبالنسبة إلى التّدريب العسكرى، نجد أنّ الإسلام مضافاً إلى ترغيبه المسلمين بمسابقة الخيل والرماية، فإنّه أجاز للمسلمين إقامة

المسابقات والرّهان والرّبح والخسارة فی هذا المجال أیضاً، مع أنّ الإسلام یحرم القمار والرّبح والخسارة ویعتبر ذلک من الذّنوب الکبیرة، أمّا فی هذا المورد فهناک حکمة وفلسفة واضحة استثنی فیها هذه الموارد.

یقول الإمام الصّادق علیه السلام: «إنّ الملائکةَ لَتَنْفِرُ عِند الرِّهان، وتلعن صاحبه ما خلا الحافِرْ والخّفّ والرّیش والنّصل» «۱».

والملفت للنظر أنّ مثل هذه المسابقات کانت تقام بحضور رسول اللّه صلی الله علیه و آله وأحیاناً بدعمه المادیلها، حتّی ورد عن الإمام السّجاد علیه السلام أنّه قال: «إنّ رسول اللّه صلی الله علیه و آله أجری الخیل وجعل سبقَها أواقی من فضة».

حتّی أنّ المستفاد من بعض الرّوایات أنّ النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله کان یشترک بنفسه فی بعض تلک المسابقات «۲».

---

(۱) وسائل الشّیعة، ج ۱۳، ص ۳۴۷، ح ۶، الباب ۱ من کتاب السبق والرمّایة، واحتمل بعض الأعاظم أنّ مصطلح «نصل» لا یختص بالسهم بل یشمل کل سلاح له رأس مدبب کالرّمح والخنجر، حیث کانوا یستبقون برمیها، کما أنّ مصطلح «الخف» یشمل السّباق بالجمال والفیلة، وإن «الحافر» یشمل ذوات الأربعة غیر الحصان، وأن «الریش» إشارة إلی السهم، الذی یکون فی آخره عادة عدّة ریشات لتنظیم حرکته.

(۲) المصدر السابق، ص ۳۴۹، ح ۵، وص ۳۵۱، ح ۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۱

آداب الجهاد

اشارة

أحد أفضل الطرق لمعرفة أصالة المدارس الفکریة هو دراسة کیفیة سلوک أنصار تلک المدرسة مع العدو وخاصة فی میدان الحرب وما بعدها أی مع أسری الحرب وما تفرزه تلک الحرب.

ودراسة الآیات القرآنیة والرّوایات الإسلامیّة الواردة فی آداب الحرب توضح هذه الحقیقة وهی أنّ الإسلام لم یتخلَّ عن الإهتمام بالمسائل الأخلاقیّة والإنسانیّة حتّی فی أخشن لحظات الحیاة، یعنی میدان القتال، فنجده قد عجن مورد الغضب باللطف والخشونة بالرحمة، ولا شک أنّ علی الحکومة الإسلامیّة أنّ تهتم بهذه الأخلاقیّة الرّفیعة التی لها أثر عمیق فی کیفیة نظرة الأجانب للإسلام والتی یمکنها أن تکون وسیلة لاستقطاب هؤلاء وتأملهم فی الدین الإسلامی علّهُمْ یرجعون.

وقد وردت تأکیدات کثیرة فی آیات القرآن علی رعایة العدالة وعدم تجاوز الحدود المعقولة والإنسانیّة فی مقابل الأعداء.

من جملة تلک الآیات، قوله تعالی:

«وَقَاتِلُوا فِی سَبِیلِ اللَّهِ الَّذِینَ یُقَاتِلُونَکُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَایُحِبُّ المُعتَدِینَ».

(البقرة/ ۱۹۰)

ففی الآیة إشارة إلی ثلاث نقاط، الأولی هی أنّ الحرب لابدّ أن تکون للّهوفی سبیل اللّه لا من أجل السلطة والإنتقام.

والاخری هی أنّ الحرب لابدّ أنْ تکون ضد المعتدی، أی مالم تُشنَّ الحرب علیکم، لا تمدوا أیدیکم إلی السلاح.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۲

والنقطة الثّالثة هی عدم تجاوز الحدود فی میدان الحرب، ورعایة الأصول الأخلاقیة.

وعلیه، فإن وضع العدو سلاحه واستسلم، فلا ینبغی قتاله، وکذا الحال بالنّسبة لأولئک الذین لا یقدرون علی الحرب والقتال کالعجزة

والشّيوخ والأطفال والنّساء، فلا ينبغى إلحاق الأذى بهم، كما أنّ تدمير البساتين والمزارع وهدم الأماكن الّتى يمكن أن يستفاد منها، واللجوء إلى استخدام الأسلحة ذات الدّمار الشامل، كل ذلك من مصاديق التعدّى على الأبرياء والأساليب غير الإنسانيّة، وهى ممنوعة فى نظر الإسلام.

وفى نفس السورة (بعد تلك الآية بعدّة آيات) يؤكد تعالى مرّة أخرى على هذا المعنى ويقول:

«فَمَنِ اعتَدَى عَلَيكُم فَاعْتَدُوا عَلَيهِ بِمِثلِ ما اعتَدَى عَلَيْكُم وَاتّقُوا اللَّهَ وَاعلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ المُتَّقِينَ». (البقرة/ ۱۹۴)

وفى هذا إشارة إلى أنّكم إذا أردتُم نصر اللَّه لكم والإنتصار فى الحرب، فعليكم اجتناب التّعدى والّتمادى فى القتال.

ونفس هذا المعنى أكدت عليه سورة المائدة بشكل آخر، حيث تصرح الآية قائلة: «وَلَا يَجرِمَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا». (المائدة/ ۲)

(وتسيطر عليكم روح الإنتقام الناشئة من سلوك أعدائكم الخشن فى الحديبية).

وفى الرّوايات الإسلاميّة أيضاً وردت تعبيرات مختلفة وإرشادات كثيرة فى مورد رعاية الأصول الأخلاقيّة الإنسانيّة فى ميدان الحرب وبعد الإنتهاء منها تجاه الأعداء، وتتجلى فى هذه الرّوايات العواطف الإنسانيّة وروح السّلم بشكل واضح.

كتب أرباب السّير فى سيرة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله أنّه متى ما أمرَ جيشاً بالسّير إلى حرب، كان يستدعى الجيش وقادته ويعظهم ويرشدهم بمواعظ وإرشادات منها: «إذهبوا باسم اللَّه تعالى ...» «۱».

اغزوا بسم اللَّه وفى سبيل اللَّه تعالى، قاتلوا من كفر باللَّه ولا تغدروا ولا تغلّوا ولا تمثّلو،

---

(۱) منتهى الأمال، ج ۱، ص ۱۶، فى باب الفضائل الأخلاقية عند النّبىّ صلى الله عليه و آله وذكر العلامّة المجلسى شبيه هذا المعنى فى بحار الأنوار، ج ۹۷، ص ۲۵.

ولاتقتلوا وليداً ولا متبتلًا فى شاهق ولاتحرقوا النخل ولا تغرقوه بالماء ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تحرقوا زرعاً وأنّكم لا تدرون لعلكم تحتاجون إليه ولا تعقروا من البهائم ممّا يؤكل لحمه إلّاما لابدّ لكم من أكله وكان ينهى عن إلقاء السم فى بلاد المشركين ورسول اللَّه صلى الله عليه و آله نفسه لم يتعامل مع الأعداء بغير هذا التّعامل الإنسانى، فلم يتوسل بالإغارة لتحقيق النصر، وكان يرى جهاد النّفس مقدّم على كل شىء.

والتّدقيق فى هذه الإرشادات الدّقيقة جدّاً، يبيّن بوضوح أنّ الإسلام لم يغفل عن المسائل الأخلاقيّة المرتبطة بالحرب أبداً، وإن شخص الرسول صلى الله عليه و آله كان يعمل بها بحذافيرها تجاه العدو، لا مثل الأشخاص الذين يدافعون عن حقوق الإنسان بألسنتهم فقط، وأمّا أعمالهم فلا تشير إلى شىء من ذلك.

ومضافاً إلى ذلك فإنّ التأكيد على أنّ جهاد النّفس أفضل الجهاد، إشارة إلى أنّ المسلم الحقيقى هو المسلم الذى يراعى الأصول الإنسانية فى ميدان الحرب.

وممّا ذكر يتّضح أنّ الإسلام يمنع من استخدام الأسلحة الكيميائية وكل سلاح ذى دمار شامل، وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تجتنب استخدام مثل هذه الأسلحة.

وفى حديث آخر عن أمير المؤمنين على عليه السلام قال: «فإذا كانت الهزيمة بإذن اللَّه فلا تقتلوا مُدْبِراً ولا تصيبوا مُعْوراً ولا تجهزوا على جريح ولا تهيجوا النّساء بأذى وإن شَتَمْنَ أعراضكم وسببنَ امراءَكُم» «۱».

ومن خلال التأمل فى حديث النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله الذى ذكرناه وأوامره إلى الجيش وقادته قبل الحرب، يتضح لنا أنّ هذه الإرشادات إنّما هى من متبنيات الإسلام الأساسيّة فى الجهاد والحرب ضد الأعداء، وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تعمل كلّ ما بوسعها

من أجل إحياء تلك المبانى والمحافظة عليها.

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۱۴.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۴

أقسام الجهاد:

اشارة

الجهاد الإسلامى وإن قسَّمهُ المحققون إلى قسمين هما: الجهاد الابتدائى والجهاد الدفاعى، ولكل منهما فروع اخرى، ولكن فى الواقع حتى الجهاد الإبتدائى يعتبر جهاداً دفاعيّاً كما سيتضح لنا لاحقاً، وبعد هذه الإشارة نعود إلى آيات القرآن المجيد، ونتناولها بالبحث والتحقيق:

۱- الجهاد الإبتدائى

ورد فى سورة الحج، والتى يعتقد بعض المفُسرين أنها أول آية نزلت فى الجهاد: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِم لَقَدِيرٌ». (الحج/ ۳۹)

ثُم يضيف تعالى فى توضيح المطلب ويقول: «الَّذِينَ اخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

والتعبير (بالإذن) فى الآية يناسب ما ذهب إليه القائلون بأنّها أول آية نزلت فى الجهاد، وتدلّ على عدم وجود مثل هذا الإذن قبل ذلك.

وعلى أيّة حال، فهى تدلّ بوضوح على أنّ بداية تشريع الجهاد هو الجهاد الدّفاعى فى مقابل العدو، ذلك العدو الذى أجبر المسلمين على الهجرة وترك منازلهم بلا ذنب اقترفوه، نعم إن كان لهم ذنب فهو الإعتقاد باللَّه تعالى وحده.

ويذهب البعض الآخر من المفسرين إلى أنّ أوّل آية فى الجهاد هى قوله تعالى:

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ». (البقرة/ ۱۹۰)

وحتى لو قبلنا هذا الرأى فإنّ أساس الجهاد مبتنٍ على كسر هجوم العدو وعدوانهم، وكلّ عاقلٍ يدرك أنْ السكوت على عدوان العدو السّفاك لا يتلائم مع أى منطق.

والتّعبير ب «فى سبيل اللَّه» يدلُّ على أنّه حتّى الدّفاع الإسلامى، إنّما يكون للَّهوعلى أساس الموازين الشّرعية الإلهيّة لا طلباً للتَّسلط والجاه والهوى.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۵

هذا أول شكل للجهاد فى الإسلام، ولكن لا ينبغى أن يُفهم من معنى «الجهاد الدّفاعى» أنّ الحكومة الإسلاميّة لابدّ أن تجلس مكتوفة الأيدى بلا حراك حتّى يدخل العدو بيتها ويغزوها فى عقر دارها، ثم تهب للدفاع، بل على العكس من ذلك، فبمجرّد أن تشعر باستعداد العدو للهجوم والقتال وأن غرضه هو الإعتداء على بلاد الإسلام، عليها أن تأخذ بزمام المبادرة وتكسر شوكة العدو وقدرته فى مهدها.

۲- الجهاد لإخماد نار الفتنة

ورد فی قوله تعالی «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّی لَاتَکُونَ فِتْنَةٌ وَیَکُونَ الدِّینُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَی الظَّالِمِینَ». (البقرة/ ۱۹۳)

وکما أشرنا فیما سبق فإنَّ فی تفسیر مصطلح «الفتنة» بین العلماء کلام، ولکن مهما فسرنا «الفتنة»، تارةً بإیجاد الفساد، وإیذاء المؤمنین أو بالشّرک وعبادة الأوثان المقترنة بفرض هذا الإعتقاد علی الآخرین، أو کان بمعنی إضلال وإغواء وخداع المؤمنین، کلّ ذلک أنواع من الهجوم من قبل العدو علی المؤمنین، ولذا فإنّ الجهاد فی مقابل ذلک یأخذ شکلًا دفاعیّاً.

وجملة «فَإِنِ انتَهَوا فَلا عُدوَانَ إِلَّا عَلَی الظَّالِمِینَ» تدل بوضوح علی أن الهدف هو الحدُّ من ظلم الظّلمة الجائرین.

والملفت للنّظر أنّه ورد فی الآیة نفس السورة:

«وَاقْتُلُوهُمْ حَیْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَاخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَیثُ اخْرَجُوکُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ». (البقرة/ ۱۹۱)

فهذه الآیة وبملاحظة الآیة السّابقة الّتی تتحدث عن المشرکین المهاجمین، تدعو بصراحة إلی قتال ومحاربة أولئک الذین أغاروا علی المسلمین وأخرجوهم من دیارهم ومنازلهم والذین لا یمتنعون من ارتکاب أی جریمة فی حقّ المسلمین خاصّة من أجل تغییر عقیدتهم، فکانوا یمارسون الضّغوط والتّعذیب الوحشی ضدّهم، فالقرآن لا یجیز قتال هؤلاء فحسب، بل إنّه یوجب ذلک علیهم.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۶

والفتنة وإن فُسّرت فی بعض الأحادیث وکلمات جمع من المفسرین بالشّرک وعبادة الأوثان، ولکن قرائن کثیرة فی هذه الآیة والآیات السّابقة واللاحقة تدلّ بوضوح علی أنّه لم یکن المنظور منها الشّرک أبداً، بل أعمالٌ کأعمال مشرکی مکّة الّذین کانوا دائماً یمارسون الضّغوط والتّعذیب ضدّ المسلمین لتغییر عقیدتهم، ولذا ورد فی تفسیر «المنار» فی معنی الآیة قوله: «حتّی لا تکونَ لَهُم قوَّة یفتنونَکُم بها ویؤذونکُم لأجلِ الدّین ویمنعونکم من إظهارهِ أو الدّعوة إلیه» «۱».

ولا شکَّ فی أنّ مثل هذه الفتنة وسلب الحریات والتّعذیب والضّغوط لتغییر العقیدة ودین اللّه أشدُّ من القتل.

وعلیه فجملة «ویکون الدّینُ کُلُّهُ للّه إشارة إلی أنّ رفع الفتنة إنّما یکون فی أن یعبد شخص خالقه بحریة، وأن لا یخشی أحداً، لا أنْ یکون المشّرکون أحراراً فی عبادة الأوثان فیبدلوا الکعبة إلی محل عبادة الأصنام، ویُسلَبُ المسلمون حقّ قول «اللّه أکبر» و «لا إله إلّا اللّه» علناً.

وعلی أیّة حال، فالآیات «۱۹۰» و «۱۹۱» و «۱۹۳» من هذه السّورة والمرتبطة بعضها مع البعض الآخر، تدلّ جمیعاً علی أنّ إخماد نار الفتنة باعتباره هدفاً للجهاد الإسلامی له جنبة دفاعیّة فی الواقع، ویحفظ المسلمین فی مقابل الهجمة الثّقافیّة والاجتماعیّة والعسکریّة لأعداء الإسلام.

۳- الجهاد لحمایّة المظلومین

یدعو القرآن الکریم المسلمین إلی الجهاد من أجل حمایة المظلومین وقتال الظالمین وتقول: «وَمالَکُمْ لَاتُقاتِلُونَ فِی سَبیلِ اللّهِ والْمُسْتَضْعَفینَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالْوِلْدانِ الَّذِینَ یَقُولُونَ رَبَّنا اخْرِجْنا مِنْ هذِهِ الْقَرْیَةِ الظّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْکَ وَلیّاً وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَدُنْکَ نَصیراً». (النساء/ ۷۵)

---

(۱) تفسیر المنار، ج ۲، ص ۲۱۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۷

ففی الآیة أوّلًا دعوة للجهاد فی سبیل اللّه، ثُمّ تعقب مباشرة بالکلام عن المستضعفین والمظلومین الذین مارس الأعداء القساة معهم أشدَّ الضّغوط حتی أجلوهم عن وطنهم ودیارهم ومنازلهم وأهلیهم، ویبدو أنّ هذین المعْنیین یعودان فی الواقع إلی معنی واحد، إذ إنّ نصرة مثل هؤلاء المظلومین مصداق واضح من مصادیق الجهاد فی سبیل اللّه.

وينبغى أن لا نغفل عن الفرق الواضح بين «المستضعف» والضّعيف، فالضّعيف يطلق على الشّخص العاجز، أمّا المستضعف فهو الشّخص الذى أُضطهد على يد الظّلمة الجائرين، سواءً كان اضطهاداً فكرّياً أو اجتماعيّاً أو اقتصادياً أو سياسيّاً (إلتفتوا جيداً).

ومن الواضح أنّ هذا الجهاد جهادٌ دفاعى أيضاً، وهو الدّفاع عن المظلومين ضد الظّالمين.

والأهداف الثّلاثة المذكورة، هى أهم أهداف الجهاد الإسلامى، وبالرغم من تقسيمه إلى قسمين (الجهاد الابتدائى والجهاد الدّفاعى) إلّاأنّ حقيقتهما دفاعيّة- ولهذا لا نجد فى تاريخ الإسلام مورداً واحداً يدلّ على استعداد الكافرين للعيش بصلح وسلام مع المسلمين ومواجهة ذلك بالرّد والرّفض من قبل الإسلام.

واليوم أيضاً، ليس للحكومة الإسلاميّة هدف عدوانى ضد أحدٍ، ومالم تفرض عليها الحرب فإنّها لا تقاتل أحداً أبداً، ولكنّها تعتقد أنّ الدّفاع عن المظلومين من أهم وظائفها ومسؤولياتها، وأنّ حبّ الفتنة وإيجاد الرّعب والوحشة والتّضييق والضغوط وسلب الحريات من قبل أعداء الإسلام نوعٌ من أنواع إعلان الحرب، ولذا تعتبر نفسها مسؤولة عن الدّفاع ضد المعتدين.

ونكرر ثانية، إنّ مفهوم الدّفاع ليس أنْ يجلس الإنسان مكتوف الأيدى حتّى يُغزى فى عقر داره، بل عليه أنْ يتحرك إيجابياً ضدّ تحركات الأعداء ويحفظ قدرته العسكريّة القتاليّة وخاصة فى الظرّوف الحسّاسة، وأنْ يبادر بضرب الأعداء قبل أن يفاجئه العدو المتآمر.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۸۹

الحكومة الإسلاميّة والسّلام

اشارة

لا شك فى أنّ الحرب وإراقة الدماء والتّخريب مضافاً إلى منافاتها للفطرة السليمة، فإنّها لا تنسجم أيضاً مع قوانين عالم الوجود.

فالحرب، هى نوع من المرض والانحراف واللجوء إلى العنف للوصول إلى الأهداف الظالمة، وحتى الحروب المقدسة التى تتميز بصفة الدفاع عن الحق والعدالة، إنّما تنشأ نتيجة انحراف مجموعة من النّاس عن الصّراط المستقيم، وتارة تفرض على بعض الأفراد أو الأمم.

فحصيلة الحرب دائماً هى الدّمار وإزهاق الأرواح وإتلاف الأموال وتخريب المدن وتعطيل الإعمار، وتأصيل العداوات والبغضاء.

ولذا ينبغى اجتناب الحروب كلما استطعنا إلى ذلك سبيلًا، واستغلال القوى البشريّة والمنح الإلهيّة فى طريق بناء المجتمعات.

نحن نعرف أنّ جهاداً وقتالًا دائماً يدور فى داخل وجود كلّ إنسان، وهو الجهاد ضد الميكروبات الخارجية، فكريات الدّم البيضاء الّتى تعتبر فى الواقع جنوداً مدافعة عن الجسم فى حالة قتال دائم ومرير مع أنواع الميكروبات التى ترد إلى الجسم عن طريق «الماء» والغذاء و «الهواء» و «الجروح».

وهذه الحرب فى الواقع، حرب دفاعيّة أيضاً، فلو توقفت الميكروبات عن مهاجمة جسم الإنسان لتوقف دفاع كريات الدم، وعندها فلا حرب.

يحاول بعض المفكرين الذين جنّدوا طاقاتهم لخدمة المستعمرين أنْ يصوروا الحرب

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۰

على أنّها أمرٌ ينسجم مع الطبع البشرى، فيضفون الشّرعية على استخدام المستعمرين القوّة والعنف لتحقيق أهدافهم الخبيثة التّوسعية، فهؤلاء يتوسلون بأصل الصّراع من أجل البقاء وهو أحد أصول (دارون) الأربعة ويقولون: «ينبغى أنْ تكون الحرب والصّراع بين البشر

قائمـة على قـدمٍ وساق وإلّا عمَّ الخنوع والضّعف الأرض، وتأخر نسل البشـر إلى الوراء! وأمّا الصّراع والحرب فهو سـبب لبقاء الأقوياء واضمحلال الضعفاء وزوالهم وبهذا تتحقق مسألة انتخاب الأصلح!!».

وقد يُستدل أحياناً ببعض آيات القرآن- التى يفسرونها تفسيراً محرّفاً بالإعتماد على الرأى- لإثبات هذا الموضوع.

ولكن هـذا الاسـتدلال ضـعيف جـدّاً، إذ على فرض قبـول هـذا الأصـل- الصّراع من أجـل البقـاء- فى خصوص الحيوانـات المفترسـة المتوحشـة- وهو رأى مردود من قبل العلماء الـذين نقدوا الأصول الداروئية- فلا يمكن أن نقبل ذلك فى عالم الإنسانيّة، إذ إنّ البشـر يمكنهم أنْ يتكـاملوا عن طريق التعاون البقائى والإسـتباق السّالم للرقى، كما يفعلون ذلك فى ميـدان الصّناعة والسّياسة بين الأحزاب والجمعيات المتنافسـة فى دنيا اليوم، وعلى هـذا الأساس فإنّ حياة البشـريّة اليوم مبتنيـة على أصل التّعاون من أجل البقاء لا الصّراع من أجل البقاء.

وعلى كل حال، لا نجد أى دليل يمكنه توجيه الحرب وإضـفاء الشـرعيه عليها وخاصة فى مثل حروب هذا العصر التى لا يمكن جبران الخسائر النّاجمة عنها فى قرون، سواءً الخسائر البشريّة أو الصّناعية والزّراعيّة وغيرها.

والفكر السّقيم المريض فقط هو الذى يمكنه تبرير مثل هذه الحروب.

وبعد هذه الإشارة نعود للقرآن المجيد، ونحقق فى روح السّلم فى الحكومة الإسلاميّة:

۱- «يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ». (البقرة/ ۲۰۸)

۲- «وَانْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ». (الأنفال/ ۶۱)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۱

۳- «فَانِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَ الْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

(النساء/ ۹۰)

۴- «وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الاخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتَّى تَفِىءَ إِلَى امْرِ اللَّهِ فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ». (الحجرات/ ۹)

۵- «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ». (النّساء/ ۱۲۸)

۶- «وَاذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ». (البقرة/ ۲۰۵)

۷- «وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ الْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤمِناً». (النساء/ ۹۴)

جمع الآيات و تفسيرها

تـدعو الآيـة الاولى المؤمنين فى كـل العالم إلى الصّلح والسّلام والاسـتقرار، وتعتبر الحرب من مؤامرات ومخططات الشّيطان، يقول تعالى:

«يَا ايُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ».

فمن جهة تخاطب الآية المؤمنين، وهذا يدلّ على أنّ السّلام والصّلح لا يتحقق إلّافى ظل الإيمان.

ومن جهة أخرى، فإنّ الإعتماد على مصطلح «كافَّة» يدلّ على عدم وجود أى استثناء فى قانون الصّلح، وأنّ الحرب أمرٌ مخالف لتعاليم الإسلام والقرآن، ولا يمكن تصورها إلّا بشكل مفروض.

ومن جهـة ثالثـة، فإنّ التعبير «بخطوات الشـيطان» إشارة لطيفة إلى أنّ أسـباب الحرب تنشأ بشـكل تدريجى وأنّ شـياطين الجنّ والإنس يسوقون النّاس خطوة خطوة نحو

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۲

الإقتتال، وكما ورد فى المثل المعروف «بَدْو القِتال اللّطام» أى الصفعه، ولذا ينبغى إخماد نار الحرب فى مراحلها الأولى.

ومن جهة رابعة، يستفاد من الآية أنّ كلّ عمل يؤدّى إلى عرقلة عملية السلام والصلح، إنّما هو عمل شيطانى، ولم لا يكون كذلك والحال أنّ الحرب نارٌ محرقة تأكلُ كلّ القوى والطّاقات الماديّة والمعنوية البشريّة وغير البشريّة وتحيلها إلى رمادٍ، وخاصّة فى مثل عصرنا الحاضر والذى تكون الحروب فيه أفضع وأكثر تخريباً وخسارة من الحروب السابقة، وطبقاً للحسابات والاحصائيات فإنّ جبران الخسائر النّاجمة من بعض الحروب تستغرق أحياناً قرناً من الزمن، وهذا بالنسبة إلى الخسائر المادية فقط، أمّا الخسائر البشريّة فهى غير قابلة للتعويض والجبران أبداً.

وقد يكون ذلك هو السّبب فى أنّ الملائكة اعتبروا أنّ من أهم العيوب فى الإنسان هو إراقته للدّماء والحروب المدمرّة، وذلك عندما قال تعالى: «إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً» فكان جواب الملائكة: «قَالُوا اتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ». (البقرة/ ۳۰)

فيتضح أنّه لا عيب أقبح من هذا العيب.

وما ينبغى التّأمل فيه هنا هو أنّ أرباب اللّغة صرّحوا بأنّ «السِّلم» و «السَلَم» كلاهما بمعنى «الصّلح» وقد اخذا من مادة «السّلامة» وإن أحد أسماء اللّه تعالى هو «السلام»، وذلك لإنّ ذاته المنزهة هى مصدر الصّلح والإستقرار والسّلامة، وطبقاً لما ورد فى «التحقيق» فإنَّ مادة «سِلْم» فى الأصل ما يقابل «الخصومة» ولازمها الخلاص من الآفات والبلايا والوصول إلى السّلامة والعافية، وإنّما سُمى الإسلام (إسلاماً) لأنّه منشأ الصّلح والسّلامة فى الدّنيا والآخرة، (والسِّلْمْ) هو الآلة التى يصل بها الإنسان سالماً إلى النقاط العالية ثم يعود كذلك.

والعجيب أن بعض المفسرين الكبار فسّروا «السِّلْمَ» فى هذه الآية بتفسيرات لا تتناسب مع ظاهر الآية.

وفى الآية الثّانية، إشارة إلى جماعة من الّذين يحاربون المسلمين، يقول عزوجلّ: «وَانْ

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۳

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

والمهم هنا هو أنّ هذه الآية فى سورة الأنفال وردت بعد آية شريفة تأمر المسلمين بالإستعداد الدّائم وتهيئة كافة أنواع القوى لإخافة الأعداء.

أى أنّ الهدف الأصلى ليس هو الحرب، بل من أجل تقوية دعائم الصّلح أيضاً، إذ لو لم يكن المسلمون مستعدين تماماً، لسيطرت الروح الاستعمارية والتسلط على تفكير العدو.

والنّكتة المهمّة الاخرى هنا هى استخدام لفظ «جَنَحُوا» المأخوذة من مادة (جَناح) بمعنى الخضوع والرّغبة والتّحرك نحو الشىء، ومفهومها التّرغيب فى قبول حتّى المحادثات الأوليّة للصّلح.

والتّعبير ب «توكّل على اللّه» قد يكون إشارة إلى أنّ بعض المسلمين أخذ يروّج أنّ رغبة العدو فى الصّلح إنّما هى خدعة منهم، ولذا خالفوا ذلك، أو على الأقل دبّت فيهم بعض الوساوس.

فالقرآن يخاطب الرّسول الكريم ويأمره بعدم الأخذ بآراء هؤلاء ووساوسهم إذا ما رغب العدو فى الصّلح، وإنّما عليه أن يتوكل على اللّه ويجنح للسّلم مع رعاية موازين الإحتياط اللازم.

فهذه الآية من الآيات التى توصى الحكومات الإسلاميّة باتخاذ الرّغبة فى الصّلح أصلًا أساسياً فى سياساتها، وما قاله البعض من أنّ هذه الآية نسخت بآيات الجهاد «۱» لا أساس له، إذ لا دليل عليه، حيث لا تنافى بين آيات الجهاد وهذه الآية، فلا ضرورة للقول بالنسخ.

وفى الآية الثّالثة إشارة إلى مجموعة من الكفّار من أنصار الحرب، حيث تقول: «فَانِ اعْتَزلُوكُمْ فَلَمْ يُقاتِلُوكُمْ وَ الْقَوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا».

وتعبير «فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا» تأكيد كاملٌ على قبول دعوة الصّلح التى تقدم

---

(۱) راجع تفسير الكبير، ج ۱۵، ص ۱۸۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۴

بها العدو، ذلك الصّلح العادل الحقيقى لا الصّلح الكاذب الذليل.

وذكر فى سبب نزول هذه الآية، إنّها تحكى عن طائفة «الاشجع» حيث جاء جمع منهم بزعامة مسعود بن رجيله إلى مقربة من المدينة، فأرسل الرسول صلى الله عليه و آله ممثلين عنه إليهم للتّعرف على نواياهم من هذا السّفر، فقالوا:

جئنا للتّعاقد مع محمّد على ترك المخاصمة (وأن نكون على حياد فى نزاعكم مع الآخرين). فأمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله أن يأخذوا إليهم مقداراً من التّمر بعنوان الهديّة، ووقع على عقد ترك التّعرض معهم.

ومن البديهى أنّ مفهوم الآية قانون كلّى عام وخالد، وإن كان سبب نزولها مورداً خاصّاً، لإنّنا نعلم بأنّ سبب النّزول لا يحدد مفهوم الآيات العام.

وفى الآية الرّابعة، حديث عن الحروب المحتملة فى داخل الدّولة الإسلاميّة بين الاجنحة المتخاصمة، أى طوائف من المؤمنين، ففى الآية أمرٌ أكيد على إقرار الصّلح بينها، فإن أُغلقت كلّ الطّرق إلّاقتال الفئة الباغيّة لتحقيق الصّلح والسّلام، كان ذلك واجباً على المؤمنين، يقول تعالى:

«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا» ثُمّ يضيف «فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الاخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّى تَفِيءَ إِلَى امْرِ اللَّهِ»، وفى الختام يعود إلى مسألة الصّلح ويقول: «فَانْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَاقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

فالمستفاد من صدر الآية هو أنّ ترك الخصام وإقرار الصّلح داخل الدّول الإسلاميّة أصل أساسى أيضاً، ولذا فإنّ الشّارع جوّز القتال باعتباره آخر الحلول المتصورة لتحقيق هذا الهدف!

ويستفاد من ذيل الآية أنّ الصّلح لابدّ أن يكون عادلًا ومن موقع القوّة، لا أنْ يكون جائراً ومن موقع الضّعف والإستسلام، إذ إنّ مثل هذا الصّلح الأخير يكون دائماً متزلزلًا وغير ثابت ويُربّى فى داخله نطفة الحرب.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۵

والنّكتة المهمّة هنا هو أنّه ورد التعبير فى الآية ب «العدل» أحياناً، واخرى بتعبير «القسط»، وعلى رأى الرّاغب الأصفهانى، فالعدل لفظ يحمل مفهوم المساواة، و «القسط» يعنى «النّصيب العادل» (غاية الأمر، إذا جاء هذا المصطلح بصيغة الثّلاثى المجرّد فإنّه يعنى أخذ نصيب الآخرين، وعليه فإنّه يعطى مفهوم الظّلم، وتارة يستعمل على وزن أفعال- أقساط- ومفهومه إعطاء نصيب وسهم الآخرين، وحينئذٍ يحمل معنى العدالة).

وطبقاً لهذا البيان، وتعبيرات اخرى للراغب، فإنّ كلمة «القسط» و «العدل» واحدٌ من حيث المعنى والمفهوم، ولكن يمكن أنْ يكون بينهما فارق وهو أنّ مصطلح «القسط» و «الإقساط» يستعمل فى الموارد التى يشترك فيها جماعة إذا اعطى لكل واحد منهم نصيبه الكامل فذلك القسط، وإلّا فهو «الجور».

وأمّا «العدالة» التى يُقابلها «الظّلم» فإنّ لها مفهوماً أوسع من ذلك فهى تستعمل فى موارد الشّركة وفى غير موارد الشّركة، وعليه، فإن كان مالٌ حقاً مُسَلَّماً لشخص ما، وأُعطى ذلك الحقّ فتلك هى العدالة وإن أُخذ ذلك الحق منه فهو «الظلم» «۱».

والآية الخامسة ناظرة إلى الخلافات الشخصية الخاصة، فتأمر بإقرار الصلح بين الرجل والمرأة إذا برزت الخلافات بينهما، يقول تعالى: «وإِنِ امرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أو إِعَراضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيهِمَا أن يُصلِحَا بَينَهُمَا صُلحًا وَالصُّلحُ خَيرٌ».

وعلى الرّغم من أنّ مورد الآية هو الصّلح فى الخلافات الزوجية، ولكن مفهوم العبارة واسع جدّاً يشمل كل صلحٍ وصفاء بين شخصين

أو مجموعتين أو شعبين ودولتين. (تأملوا جيداً).

والملفت للنّظر هو أن الصّلح الوارد فى هذه الآيات المتعاقبة ورد فى ثلاث صور هى:

---

(۱) وفى الواقع أن النّسبة بينهما هى نسبة العموم والخصوص المطلق، فللقسط مفهوم خاص يستعمل فى موارد الشّركة فقط، والعدالة مفهوم أوسع يشمل غير موارد الشّركة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۶

الصّلح بين المسلمين وأعدائهم الّذين يرغبون فى الصّلح.

والصّلح بين المجاميع المتخاصمة من المسلمين أنفسهم.

والصّلح بين فردين متنازعين.

إنّ الصّلح العادل الشّريف مطلوب بكل أشكاله، حيث الإسلام يدافع عن مثل هذا الصّلح، ومسئوولية الحكومة الإسلاميّة هى تقويّة أُسس الصّلح فى هذه المراحل الثّلاثة أيضاً.

والآية السّادسة التى لا تشير إلى مسألة الصّلح بشكل مباشر ولكنّها تحمل رسالة بيّنةً بشكل غير مباشر فى هذا المجال، إذ إنّها تقول فى ذم بعض المنافقين (إنّ له ظاهراً خادعاً) وعندما يخرج من عندك: «وَاذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَايُحِبُّ الْفَسَادَ».

وفى الآية اللاحقة فى نفس هذه السّورة يُهددَّ أمثال هؤلاء الأشخاص بالعذاب الإلهىّ الأليم، ومن الطّبيعى، فإنّ الحروب لا تثمر إلّاالفساد فى الأرض وهلاك الحرث والنّسل والأموال سواءً المزارع وحقول تربية الحيوانات وغير ذلك، ولذا فإنّها منفورة فى نظر الإسلام، ومالم يكن هناك موجب ومسوغ مشروع للحرب، ينبغى الإنتهاء عنها، وبعبارة اخرى (الصّلحُ أصلٌ والحرب استثناء).

النّتيجة:

من مجموع ما جاء فى الآيات الآنفة الذكر، يُستفاد أنّ أساس الحكومة الإسلاميّة قائم على الصّلح والصّفاء والصّداقة، وقد اعتبر القرآن الكريم ذلك أصلًا ثابتاً فى كلّ الأحوال سواء فى مورد الأعداء، أو فى مورد الاصدقاء والأحبّة، وحتى فى داخل الأُسرة الواحدة

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۷

وآحاد النّاس، وإذا لم يكن هناك مبرر وموجب لفرض الحرب، فلا يرجح القرآن الحرب أبداً.

ولكن هذا لا يعنى أنْ يفقد المسلمون استعدادهم العسكرى فيرغب الأعداء فى الهجوم عليهم، كما أنّه لا يعنى أنْ يقبل المسلمون الصّلح غير العادل ومن موقع الضّعف، إذ إنّ هذين الأمرين من عوامل الحرب، لا الصلح العادل الثّابت.

وكذلك الرّوايات الإسلاميّة فإنّها تؤكد على ضرورة السّعى والجدّ فى إقرار السّلام والصّلح فى المجتمعات البشريّة، حتّى ورد فى الحديث:

«أجْرُ المُصْلِح بين النّاس كالمجاهدِ فى سبيلِ اللّه»، أى لا تتصوروا أنّ كلّ ذلك الثّواب العظيم المذكور «للمُجاهِدينَ فِى سَبيل اللّهِ» لا يشمل «المُصلحين»، بل إنّ السّاعين إلى إقرار السّلام حالهم حال المجاهدين المترصدين للعدو فى المتاريس، وورد فى حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«من كمال السّعادة السّعى فى صلاح الجمهور» «۱».

ويمكن أن يكون لهذا الحديث مفهوم أوسع يشمل كلّ صلاح اجتماعى، ولكنه بلا شك يدل على الصّلح فى قبال الحرب.

وجاء فی عهده علیه السلام لمالک الأشتر الذی یعتبر أفضل مصدر للأبحاث المرتبطة بالحکومة الإسلامیّة، حول إقرار الصّلح:

«ولا تَدْفَعَنَّ صُلْحاً دعاک إلیه عَدُوُّکَ وللّه فیه رضی فإنَّ فی الصّلح دَعَةً لجنودک وراحة من همومک وأمناً لبلادک».

فالإمام علیه السلام یبیّن هنا فلسفة الصّلح فی ثلاث ثمرات: الأمن للنّاس، وفرصة لتجدید قوی المقاتلین، وراحة لفکر رئیس الدّولة.

والنّکتة المهمّة هنا هی أنّ الإمام علیه السلام لا یعتبر کل صلح مفید، بل ذلک الصّلح الّذی فیه

---

(۱) غرر الحکم، نقلًا عن میزان الحکمة، ج ۵، ص ۳۶۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۸

رضی للّه‌تعالی، أی، ذلک الصّلح الذی یکون سبباً فی عزّة المسلمین ونشر العدل، ولکنه یحذّر مالکاً من العدو بعد عقد الصّلح ویقول:

«ولکنّ الحَذَرَ کُلَّ الحَذَرِ من عَدُوِّک بعد صُلْحِه فإنّ العَدو رُبّما قاربَ لیتغَفَّلَ فَخُذْ بالحَزْم واتَّهِمْ فی ذلک حُسْنَ الظَّنِّ» «۱».

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۲۹۹

أسری الحرب

تمهید:

یقع عادةً فی أکثر الحروب عددٌ من الأسری، وذلک لحصول ظروف قاهرة فی أثناء الحرب لم یَعُد بإمکان المقاتلین الاستمرار بالقتال أو التّراجع إلی الخلف، کأن تنفذ معداتهم أو ینفذ طعامهم أو یحاصروا من قبل القوات المعادیة، حتّی یصبح القتال بالنّسبة لهم نوعاً من الإنتحار، ولذا یضطرون إلی التّسلیم.

والعقل والمنطق یحکمان بعدم جواز قتل هؤلاء، بل ینقلوا إلی الخطوط الخلفیة للجبهات، ویحبسون فی أماکن محروسة، إلی حین الاستفادة منهم فی تبادل الأسری، أو الاستفادة منهم فی ممارسة الضّغط علی العدو والحرب النّفسیة لإجباره علی الکفّ عن الاستمرار بالقتال أو کسب امتیازات معینة حین الصّلح.

والأهم من هذا کله، فإن إراقة الدّماء تحتاج إلی مسوغ ومبرر، وفی حالة استسلام العدو لا یبقی وجه لذلک.

ولذا فإنّ مسألة وقوع الأسری فی الحروب أمرٌ عادیّ وکذلک الحال فی الإسلام، ونلاحظ أنّ الإسلام قد شرّع أحکاماً عدیدة ومهمّة بالنسبة للاسری ینبغی علی الحکومة الإسلامیّة العمل بها وتطبیقها مع الاسری الذین یقعون فی حوزتها.

وبعد هذه الإشارة نعود إلی القرآن لنری أحکام أسری الحرب من وجهة نظره:

۱- «فَإِذَا لَقِیتُمُ الَّذِینَ کَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّی إِذَا اثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً». (محمّد/ ۴)

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۰

۲- «مَا کَانَ لِنَبِیٍّ أَنْ یَکُونَ لَهُ اسْرَی حَتّی یُثْخِنَ فِی الارْضِ تُرِیدُونَ عَرَضَ الدُّنْیَا وَاللَّهُ یُرِیدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِیزٌ حَکِیمٌ». (الأنفال/ ۶۷)

۳- «یَا ایُّهَا النَّبِیُّ قُلْ لِّمَنْ فِی ایْدِیکُمْ مّنَ الأَسْرَی إِنْ یَعْلَمِ اللَّهُ فِی قُلُوبِکُمْ خَیْراً یُؤْتِکُمْ خَیْراً مِّمّا اخِذَ مِنْکُمْ وَیَغْفِرْ لَکُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِیمٌ». (الأنفال/ ۷۰)

جمع الآيات و تفسيرها

تخاطب الآية الأولى المسلمين وتذكّرهم باستعمال الشدّة والحزم فى الحرب، فتقول أوّلًا: «فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ».

وواضح أنّ كلمة «لقيتُم» هنا مأخوذة من «اللقاء» بمعنى الحرب لا كلّ لقاء، وخير دليل على ذلك هو ذيل الآية حيث تتحدث عن أسرى الحرب.

وبعد التأمل فيما مرَّ من أنّ الحرب فى الإسلام كانت دائماً دفاعية ومفروضة على المسلمين، تتضح منطقية الأمر أعلاه وذلك لأنّ المسلمين إذا لم يظهروا الشدّة والحزم قبال هجوم الأعداء، فإنّ الفشل سيكون حليفهم لا محالة، فكل إنسانٍ يواجه عدواً سفاكاً للدماء، إذا لَم يوجه الضربات المهلكة له، فإنّ ذلك يعنى الهزيمة أمامه.

ثُمّ تضيف الآية: «حَتَّى إِذَا اثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ».

وأكثر المفسرين قالوا: إنّ هذه الجملة تعنى التّشديد على العدو والإكثار من قتلهم، ولكن وبعد الإلتفات إلى أنّ هذه الجملة مأخوذة من مادة «ثخن» بمعنى «الغلظة» والصّلابة فإنّه يمكن حينئذٍ تفسيرها بالنّصر والغلبة التّامّة على العدو والسّيطرة الكاملة عليه، أى ينبغى أن يستمروا بالقتال بقوّة واقتدار حتّى يغلبوا العدو (وعليه فليس الهدف هو إراقة الدّماء وإنّما الهدف هو الغلبة على العدو).

وعلى أيّة حال، فإنّ الآية الاولى ناظرة إلى أمرٍ عسكرى مهم وهو وجوب متابعة الحرب وعدم إيقافها مالم يتمّ التّغلب على العدو وكسره وأخذ الأسرى، لأنّ إيقاف الحرب يكون

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۱

سبباً فى زعزعة صمود المسلمين فى الحرب، وأنّ الإنشغال بنقل الأسرى إلى الخطوط الخلفية يشغل المقاتلين عن أهدافهم الأساسية.

وتعبير «شُدّوا الوَثاق» إشارة إلى ضرورة إحكام قيد الأسرى والتّدقيق فى حبسهم، كى لا يهربوا من الأسر، فينقلبوا إلى مقاتلين ضد المسلمين.

ثُمّ تبين الآية حكم الأسرى وتقول: «فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً».

فهنا تخيّر المسلمين بين أمرين، إطلاق الأسرى بلا مقابل، أو مقابل الفدية (ويراد بالفدية «الغرامة» التى يتحملها العدو فى أزاء إطلاق سراح أسراه، وهى فى الواقع جزءٌ من الخسائر التى تسبب بها فى عدوانه).

والنّكتة المهمّة هنا هى أنّ فقهاء الإسلام وتبعاً للرّوايات، ذكروا طريقاً ثالثاً فى المسألة وهى استرقاق الأسرى، ولكن لم ترد إشارة إلى ذلك فى الآية الشّريفة على الرّغم من مسألة استرقاق الأسرى كانت أمراً عادياً فى ذلك الزّمان، وقد يكون ذلك باعتبار أن «الإسترقاق»- وكما ذكرنا ذلك مفصلًا فى محله- كان حكماً مقطعياً متناسباً مع شرائط خاصة، وكان نظر الإسلام هو أن يتمّ تحرير هؤلاء العبيد تدريجياً حتّى لا يبقى شىء بإسم الإسترقاق، ولهذا فإنّ الآية إشارة فقط إلى الطريقين الأولين أى الإطلاق بلا مقابل أو فى مقابل الفدية (وتبادل الأسرى بين الطرفين نوعٌ من أخذ الغرامة فى مقابل إطلاق سراح الأسرى).

كما أنّهم ذكروا طريقاً رابعاً فى الكتب الفقهية للأسرى (وهو قتل الأسرى) ولم تذكره الآية أيضاً، وذلك لأنّ قتل الأسير ليس حكماً أساسياً فى الأسرى، بل هو استثناء يتمّ إجراؤه فى خصوص الأسرى من ذوى الخطر ومجرمى الحرب لا فى كل أسير «۱».

وممّا ذكرنا يتضح أنّ حكم الآية ليس منسوخاً، ولا دليل على نسخة، وعدم ذكر بعض أحكام الأسرى فيها، له دليل وجيه.

---

(۱) وللفخر الرازى فى تفسير هذه الآية وعدم ذكر القتل والإسترقاق، رأى يشابه ما ذكرناه أعلاه (تفسير الكبير، ج ۲۸، ص ۴۴).

وفى الآية الثّانية إشارة إلى كيفية أسر الأسرى، تقول: «مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ اسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الارْضِ».

وتعبير «يُثْخِنَ فِى الارْضِ» وكما أشرنا سابقاً لا يعنى المبالغة فى إراقة الدّماء والإكثار من القتل، بل ومن خلال جملة «فِى الارْضِ» يتضح أنّ المراد هو تحكيم المواقع على أرض المعركة والتّفوق على العدو، والسّيطرة على المنطقة، وحتّى لو فرضنا أنّ معناها هو إراقة الدّماء فإنّما هو من أجل كسر شوكة العدو والغلبة عليه.

وفى الواقع فإنّ هذا التّعبير شبيه جدّاً بما جاء فى ذيل الآية حيث يقول تعالى «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» وهذا خير شاهد على تفسيرنا.

والنّكتة المهمّة هنا هى أنَّ هذا تحذير للمسلمين من أخذ الأسرى قبل تحقيق الأهداف المرسومة، بسبب أنّ بعض المسلمين الذين أسلموا حديثاً، كان هدفهم الأساسى هو أخذ الأسرى، ليحصلوا على مبلغ أكبر من المال عند الفداء، وكان ذلك يؤدّى إلى تماهل هؤلاء فى أداء مسؤولياتهم الخطيرة فى الحرب وعدم اكتراثهم بالأخطار المحتملة ضد المسلمين، وانشغالهم بالأمور الثّانوية، فيتعرض جندُ الإسلام إلى ضربة ماحقة، كما حدث ذلك فى معركة أُحد وانشغال بعض المسلمين فى جمع الغنائم.

ولذا يقول تعالى فى ذيل الآية: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ».

ثُمّ إنّ المستفاد من الآية هو أن أخذ الأسرى لم يكن فى عصر نبىّ الإسلام صلى الله عليه و آله فقط، بل كان ذلك أمراً جارياً فى عصور الأنبياء السّابقين أيضاً، غاية الأمر أنّ هذه الآية تؤكد على أنّ أخذ الأسرى ينبغى أنّ لا يكون لأجل الربح المادى، فكم من مورد تقتضى فيه مصلحة المسلمين أنْ يطلق المسلمون سراح أسرى العدو بدون أخذ الفدية منهم.

والملفت للنظر هنا هو أنّ القرآن الكريم يُحذِّر فى الآية اللاحقة أولئك الذين يضحّون بالمصلحة العامة وأهداف الحرب المهمّة من أجل مصالحهم الشّخصية الماديّة، فيعّرضون مصلحة المجتمع للخطر، تقول الآية: «لَّولَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ» (وهو أنّه لا يعذب أمة بلا

حجة) «لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُم» (الأسرى الذين أخذتموهم لأغراض دنيوية) «عَذابٌ عَظِيمٌ». (الانفال/ ۶۸)

ومن مجموع هذه العبارات، يستفاد بوضوح أنّ أخذ الأسرى لابدّ أنْ يتمّ أولًا بعد السّيطرة الكاملة على العدو (ولو فى موقع معين من ميدان القتال)، وثانياً إنّ أخذ الأسرى يجب أنْ لا يكون لأغراض مادية أى لأخذ الفدية مقابل إطلاق سراحهم فيما بعد، إذ فى كثير من الأحيان تستوجب المصالح الإنسانيّة ومصلحة المسلمين أن يتمّ إطلاق سراح هؤلاء الأسرى بلا مقابل، وفى مثل هذه الظروف يصعب على المسلمين الذين أسّروا هؤلاء الأسرى لأغراض مادية إطلاق سراحهم والإمتثال للحكم الإلهىّ.

وفى الآية الثّالثة، نجد حديث عن مسألة الرفق بالاسرى بما يَدّلُّ على احترام الإسلام لَهُم ولأحاسيسهم، تقول الآية: «يَا ايُّهَا النَّبِىُّ قُلْ لِّمَنْ فِى ايْدِيكُمْ مِّنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا اخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُم وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

وكلمة «خيراً» فى الجملة الأولى إشارة إلى الإيمان والإسلام وإتّباع الحقّ، والمراد من «خيراً» فى الجملة الثّانية هو الثّواب الإلهى المادىّ والمعنوى الذى يحصل عليه هؤلاء فى ظلّ الإيمان باللّه، وهذا أفضل بكثير من المبالغ التى دفعوها بعنوان الفدية أو الّتى خسروها فى ساحة الحرب.

وجملة «إنْ يَعْلَمِ اللَّهُ» وكما ذكرنا ذلك مِراراً، بمعنى التّحقق- المعلوم- إذ إنّ علم اللّه شمل كلّ شىء من الأزل، ولا يحدث شىءٌ فى علمه أو يزيد أو ينقص، إلّاالمعلومات التى تتحقق على أثر مرور الزّمن مثل وجود نيّة أوْ اعتقاد فى قلب الأسير.

ومضافاً إلى هذا الثّواب، فإن لطفاً إلهياً آخر يشملهم وهو غفران ذنوبهم، والذى يُشغل بالهم لا محالة بعد إيمانهم ويُعذب روحهم، فالمغفرة الإلهيّة تسكين لهم.

كان هذا تفسيراً مختصراً للآيات القرآنيّة الواردة فى الأسرى، واستنتاجاتها.

الأسرى فى الرّوايات:

وردت روايات عديدة عن الأئمّة الأطهار عليه السلام فى التّعامل العطوف مع أسرى الحرب، ورعاية الأخلاق الإنسانيّة معهم، وهذه الرّوايات تبيّن عظمة التّعاليم الإسلاميّة فى هذا المجال.

١- ورد فى حديث عن أمير المؤمنين على عليه السلام بعدما ضربه إبن ملجم (لعنه اللّه) ثمّ قبض عليه، قال الإمام عليه السلام لولده الحسن عليه السلام: «إحبسوا هذا الأسير، وأطعِمُوه واسْقوه وأحسنُوا أسارَهُ» «١».

٢- وفى حديث آخر عنه عليه السلام قال: «إطعام الأسير والإحسانُ إليه حق واجبٌ وإن قَتْلَتُهُ من الغَدِ!» (أى وإن كان محكوماً بالإعدام غداً كإبن ملجم) «٢».

وهذا الحكم شامل لجميع الأسرى ويعمّ المسلم والكافر، ولذا نجد فى حديث آخر عن الإمام الصّادق عليه السلام ما يدلّ صراحة على هذا الحكم، يقول عليه السلام: «إطعامُ الأسِير حقّ على من أسَرَهُ وإنْ كان يراد من الغدِ قتلُهُ فإنّهُ ينبغى أنْ يُطعم ويُسقى ويُرفَقَ به كافراً كان أو غَيْرَهُ» «٣».

وهناك روايات اخرى فى قصّة أسر ابن ملجم قاتل الإمام علىّ عليه السلام تحكى جميعاً عن غاية لطف الإمام علىّ عليه السلام بالإسرى (سواءً كانوا أسرى حرب أو غير حرب).

ومن جملة ذلك ما ورد عن الإمام علىّ عليه السلام عندما كان راقداً فى فراش الشّهادة يوصى ولده الحسن عليه السلام بمداراة أسيره والتّرحُم عليه والإحسان إليه، ثُمّ يغمى على الإمام عليه السلام، وعندما يفيق يأتيه ولده الحسن بقدح من لبن فيشرب الإمام عليه السلام منه قليلًا ثُمّ ينحيه عن فيه ويأمرهم أن يَسقُوا ابن ملجم، ويضيف قائلًا: «وحقّى عليكَ يا بُنّى إلّاما طَيّبتُمْ مطعَمَهُ ومَشْرَبَهُ وارْفِقوا بِه إلى حينِ موتى وتُطعمهُ ممّا تأكُلُ وتسقيه ممّا تَشربُ» «۴».

---

(١) مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ٢٥٧.

(٢) وسائل الشّيعة، ج ١١، ص ۶۹.

(٣) المصدر السابق، ص ۶۸.

(۴) مستدرك الوسائل، ج ٣، ص ٢٥٨، ح ۴.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٥

وهنا نكتة مهمّة اخرى وهى أنّ إطلاق سراح الأسرى مقابل فدية لابدّ أن يتناسب مع مكنتهم، كما راعى ذلك النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله مع أسرى بدر، بل ويجوز إطلاق سراحهم فى قبال عملٍ ثقافى يقدمونه كما ذكر المؤرخون، واعتبروا ذلك خطوة تاريخيّة مهمّة بعد معركة بدر الكبرى من قبل رسول اللّه صلى الله عليه و آله وهى إطلاق سراح كل أسير من المشركين فى قبال تعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة «١» فى حين دفع البعض الآخر من الأسرى أربعة آلاف درهم فدية لحريته، أمّا الفُقراء والمعدمين فقد أطلق سراحهم بلا مقابل.

---

(١) سيرة الحلبى، ج ٢، ص ١٩٣.

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٧

علاقة المسلمين بغير المسلمين، الأقليات الدّينيّة والحكومة الإسلاميّة

تمهيد:

من المسائل الّتى تثار ضدّ الحكومة الإسلاميّة ويُطبَّلُ ويزمَّرُ لها من قِبل الأعداء هى مسألة كيفيّة تعامل الحكومة الإسلاميّة مع الإقليات الدّينيّة غير المسلمة، ولكن ليس هذا بسبب وجود تعقيد فى المسألة، بل من أجل أمرين هما:

الأول: عدم اطلاع الكثير من النّاس على قوانين وتعاليم الإسلام فى هذه القضيّة، والوقوع فى شباك التّعصبات الجافة.

الثانى: وسائل اعلام العدو المضللة وسعى الأعداء لابعاد أتباعهم عن الشّريعة الإسلاميّة، لأنهّم يعلمون جيداً أنّ جاذبية التّعاليم الإسلاميّة قويّة إلى درجة أنّها تؤثر على أتباع الأديان الاخرى بمجرّد تفهمها، ولذا يقول هؤلاء لأتباعهم: إنّ الإسلام يتعامل بخشونة مع أتباع الأديان الأُخرى، فابتعدوا عن المسلمين!!

فى حين أنّ الإسلام يتعامل تعاملًا أخوياً مع أتباع المذاهب الاخرى ويدعوهم دائماً للعيش بسلام جنباً إلى جنب، وتفصيل الكلام فى ذلك سيتضح فى الأبحاث القادمة.

وبعد هذه الإشارة، نرجع إلى القرآن الكريم ونتعمق فى دراسة الآيات القرآنيّة ثُمّ الرّوايات الواردة فى هذا المجال:

١- «لَّايَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ انْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا الَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَاخْرَجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». (الممتحنة/ ٨- ٩)

نفحات القرآن، ج ١٠، ص: ٣٠٨

٢- «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَومِ الآخِرِ وَ لَايُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ اوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

(التوبة/ ٢٩)

٣- «وَلَا تُجَادِلُوا اهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ إِلَّاالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى انْزِلَ إِلَيْنَا وَ انْزِلَ إِلَيْكُمْ وَ إِلهُنَا وَ إِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

(العنكبوت/ ۴۶)

۴- «قُلْ يَا اهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَايَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِانَّا مُسْلِمُونَ». (آل عمران/ ۶۴)

۵- «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ اشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ اقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ انَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». (المائده/ ٨٢)

جمع الآيات و تفسيرها

الآية الأولى الّتى وردت بعد آيات تحذر المسلمين من عقد الصّداقة مع أعداء اللّه، وتذكرهم ببغض هؤلاء للنّبىّ صلى الله عليه و آله والمسلمين، وإيذائهم باليد واللسان للمسلمين الأبرياء، تقول: «لَايَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِى الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ انْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا الَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ».

ثُمّ تضيف للتأكيد الأقوى فى مورد الذين يحاربون المسلمين وتقول: «إِنَّما يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِى الدِّينِ واخْرَجُوكُمْ مِّنْ

دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ».

من ملاحظة سبب نزول هاتين الآيتين والآيات السّابقة لهما فى سورة «الممتحنة»، وبملاحظة القرائن الموجودة فى نفس الآيات، يتضح تماماً أنّ هذه الآيات ناظرة إلى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۰۹

المشركين وعبدة الأوثان، فهى تقسِّمُهُمْ إلى مجموعتين: مجموعة قاتلت المؤمنين وآذتهم ولم تتردد عن كل مخالفة وممارسة عدائية ضدهم، ومجموعة ثانية كانت مستعدة للعيش معهم بسلام.

ففى هذه الآيات نجد منع إنشاء العلاقة والتّعامل مع المجموعة الأولى وقد أجازت ذلك منع المجموعة الثّانية، وعدّت الّذين يرتبطون بالمجموعة الأولى من الظّالمين، أمّا المتعاملين مع المجموعة الثّانية فاعتبرتهم الآية الشريفة من أنصار العدالة.

وإذا كان الحكم الإلهى فى مورد المشركين وعبدة الأوثان على هذا النّحو، فهو بالنسبة للكفار من أهل الكتاب من باب أولى.

واعتبر بعض المفسرين أنّ الأمر الوارد فى هذه الآية قد نُسِخ، وأنّ ناسخة هو قوله تعالى: «فَإِذَا انسَلَخَ الأَشهُرُ الحُرُمُ فَاقتُلُوا المشرِكِينَ حَيثُ وَجَدتُمُوهُمْ». (التوبة/ ۵)

ولكن وبقرينة أنّ هذه الآية بشهادة سائر آيات سورة التّوبة، نازلة فى شأن المشركين الذين ينقضون العهد، والّذين أعلنوا العداء للمسلمين، يتضح لنا تماماً أنّ الآية لم تُنْسَخْ، بل إنّ آيات سورة التّوبة مرتبطة بالمجموعة الأولى.

وروى بعض المفسرين فى تفسير هذه الآية أنّ زوجة أبى بكر المطلّقة قد جاءت لإبنتها «أسماء» ببعض الهدايا من مكة، ولما كانت لا تزال مشركة، امتنعتْ أسماء من قبول تلك الهدايا منها، حتى أنّها لم تسمح لأمِّها بالدّخول عليها، فنزلت الآية المذكورة، وأمرها الرّسول الأكرم صلى الله عليه و آله أنْ تستقبل امَّها وتقبل هديتها وأنْ تحترمها «۱».

وعلى أيّة حال، يستفاد من هذه الآيات، أصلٌ عام كلّى فى كيفية تعامل المسلمين مع غير المسلمين، بلا تحديد ذلك بزمانٍ أو مكانٍ خاص، وهذا الأصل هو أنّ المسلمين مكلّفين بسلوك طريق السّلم مع كلّ فرد أو مجموعة أو مجتمع أو دولة لا تتخذ موقفاً معادياً تجاههم، أو تحارب الإسلام والمسلمين وتنصر أعداءهم، سواءً كان هؤلاء مشركين أو كانوا من أهل الكتاب.

---

(۱) تفسير روح البيان، ج ۹، ص ۴۸۱، كما نقلت هذه الرواية فى كثير من كتب التفسير، وفى صحيح البخارى بتفاوت.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۰

وحتى لو كانت مجموعة أو دولة تقف فى صف أعداء الإسلام ثمّ تراجعت عن ذلك وغيرّت سياستها، فإنّ على المسلمين أنْ يقبلوهم وأن لا يعادوهم، فالمعيار هو الموقف الراهن لأولئك تجاه الإسلام والمسلمين.

قصّة «الجزية»:

والآية الثّانية وهى من سورة التّوبة أيضاً، وبعد بيان الأحكام الخاصّة بالنّسبة للمشركين وعبدة الأوثان، تتعرض لبيان موقف المسلمين من كفار أهل الكتاب (اليهود والنّصارى) وتقول:

«قَاتِلُوا الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَومِ الآخِرِ وَ لَايُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ اوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»

ولا شكَّ فى أنّ لهجة الآية فى خصوص أهل الكتاب «شديدة» وذلك لأنّ أهل الكتاب وخاصة «اليهود» كانت لهم مواقف سلبية جدّاً تجاه الإسلام والمسلمين، فقد وافقوا الأعداء فى حرب الأحزاب وبعض الحروب الاخرى مضافاً إلى أنّهم وقفوا فى وجه الإسلام فى

بعض الحروب كحرب «خيبر» وتآمروا على قتل رسول اللّه صلى الله عليه و آله، وكانوا يتجسسون على المسلمين لصالح الأعداء.

وبالنظر لأن الآيـة أعلاه من آيات سورة التّوبـة، ونعرف أنّ سورة التوبة نزلت فى السّنة التّاسعة للهجرة، حيث كان المسلمون قد غزو غزوات عديدة، وكان من الضّرورى أن يحددوا موقفهم من كل القوى المخالفة لهم.

ففى البـدء تحـذر المشـركين وتطلب منهم تحديـد موقفهم، فتعلن الحرب ضـد أولئك الـذين نقضوا عهدهم إلّاإذا أذعنوا للحق، وأمّا أولئك الذين وفوا بعهدهم فتطلب منهم الاستمرار بالوفاء حتّى النّهاية (وهذا المعنى ذكر فى الآيات الأولى من السّورة).

ثُمّ تعلن الحرب على أهل الكتاب الّذين لا زالوا يُنسّقون مع المشركين ضد المسلمين،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۱

فتصـفهم بثلاثـة أوصـاف، الأـولى: «لا يُؤمِنُونَ بِاللَّهِ ولَا بِاليَومِ الآخِرِ»، فصـحيح أنّ اليهود والنّصارى كانوا فى الظّاهر يقبلون المبـدأ والمعـاد، ولكنّهم من جهـة اخرى كـانوا قـد دنّسوا هـذا الإعتقـاد بالخرافـات، فـأداروا ظهورهم للتّوحيـد الصّحيح وتمسّكوا بـالتثليث والشّـرك، وقالوا بانحصار المعاد غالباً فى المعاد الرّوحانى، والأهم من ذلك هو أنّ إيمانهم بالمبـدأ والمعاد لم ينعكس على أعمالهم وأفعالهم، وانغماسهم فى الخرافات والضّلال كان إلى درجة يمكن القول معها أنّهم ليسوا بمؤمنين بالمبدأ والمعاد.

والصّفة الثّانية هى: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ».

وتاريخ هؤلاء يشهد بأنَّهم لم يلتزموا عمليّاً باجتناب المحرمات وكانوا يرتكبون الذّنوب المحرمة فى كلّ الشّرائع السماويّة، فكان الدين عنـدهم مجرد طقوس خاوية صوريّة (كما أن الدين عندهم اليوم عبارة عن مسألة شخصيّة تقتصـر على الدّعاء الأسـبوعى وذكر بعض الأمور الأخلاقيّة التى ليس لها أى أثر على حياتهم عملياً، مثالهم الصـهيونيّة التى لا تتورع عن القيام بأى جريمة نكراء من أجل تحقيق أغراضها).

والصفة الثّالثة هى: «وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ».

لأنّهم غيّروا مفهوم الدّين كليّاً وعزلوه عن هموم البشريّة وخلطوه بالخرافات.

وهذه الأوصاف الثّلاثة، تعتبر متلازمة لهم فى الواقع، وهى التى كانت تدعوهم مجتمعة لمواجهة الإسلام ومخالفته.

ولكن مع كلّ ذلك فإنّ الآية تفتح باباً للصّلح أمامهم وتقول: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ».

يقول الرّاغب فى مفرداته: «الجزيـة» ما يؤخـذ من أهل الذّمـة (وهم غير المسـلمين الـذين يتعاهدون معهم للعيش جنباً إلى جنب داخل الدّول الإسلاميّة)، وتسميته بذلك لإنّه بمنزلة الجزاء والأجر الّذى يدفعونه لحفظ أنفسهم (وأموالهم).

وجاء فى كتاب التّحقيق، أنَّ الجزيّة نوع من الجزاء والأجرة، وهو نفس ما يؤخذ من غير المسلمين.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۲

وعلى كـلّ حـال، فـإنّ أصـل «الجزيـة» هو «الجزاء»، لأـنّ مـا يـدفعونه من مـال لا يكون مجاناً وبلا عوض، بل عوضه هو أنّ الحكومة الإسلاميّة تكون مسؤولة عن الدّفاع عن أموالهم وأنفسهم وأعراضهم وتوفير الأمن اللازم لهم.

وقد احتمل البعض أنّ «الجزيّة» مأخوذة من «الجزء» لأنّ الجزية عادة مبلغ قليل من المال يدفعه كلّ فرد منهم سنوياً.

والتّعبير ب «عن يدٍ» إشارة إلى أنّ «المعاهد» لابدّ أنّ يدفع «الجزيّة» بيده شخصيّاً، ولا يحق له توكيل شخص آخر للقيام بذلك، ولكن البعض يعتقد أنّ هذا التّعبير إشارة إلى أنّ الجزية لابدّ أن تكون نقداً، وعليه فيحق للذّمى أنْ يُوَكِّل عنه شخصاً آخر لدفع الجزيّة ولكن يجب أن تكون نقـداً لا نسـيئة، أو أن المراد من ذلك هو أنّ «الجزيـة» تؤخـذ من الأغنياء فقط، وأمّا الفُقراء فيعفون عن أداء الضـرائب الإسلاميّة.

وأيّاً كان المعنى من هذه الثّلاثة فلا يؤثر على أصل المسألة مع أنّه يمكن جمعها جميعاً.

وأمّا تعبير «صاغِرُونَ» والذى ذكرت له معانٍ وتفاسير غير مناسبة، فهو فى الأصل مأخوذ من مادة «صَغَر» بمعنى الاستصغار والخضوع،

فيكون المراد هنا هو خضوع هؤلاء واحترامهم للإسلام والمسلمين ولمقررات الحكومة الإسلاميّة، وبعبارة اخرى علامة على العيش بسلام وقبول أنَّهُم أقلية مسالمة ومحترمة فى قبال الأكثرية.

وماذكره بعض المفسرين من أنّه بمعنى «التّحقير والإهانة والسّخرية بأهل الكتاب» لا يمكن استفادته لا من المفهوم اللّغوى للكلمة ولا من روح التّعاليم الإسلاميّة، ولا من أحكام التّعامل مع الأقليات الدّينيّة الواصلة إلينا، وفى الواقع فإنّ هؤلاء المفسرين يفرضون عقيدتهم الخاصة على الآية.

ومن هنا تتضح لنا حقيقة تلك (الزوبعة) التى يثيرها البعض حول هذه الكلمة من هذه الآية، وأنّها مخالفة لكرامة الإنسانية ونهج العيش المشترك المسالم، فهى ضجَّةٌ وزوبعة لا أساس لها من الواقع.

والنكتة المهمّة هنا هى أنّ «الجزية» عادة مبلغ قليل من المال كان أهل الكتاب يدفعونه

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۳

فى قبال تعهد الحكومة الإسلاميّة على حفظ أموالهم وأنفسهم ونواميسهم، وطبقاً لما ورد فى بعض الرّوايات فإنّ مقدار الجزيّة كان ديناراً واحداً فى السنة!!

حتى أنّ بعض أهل الكتاب الذين كانوا يعجزون عن دفعه كانوا يعفون من الجزية (وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ البعض يرى أنّ جملة «عن يدٍ» إشارة إلى ذلك).

إختيار الأسلوب الأفضل فى النقاش:

والآية الثّالثة تتناول كيفية مجادلة المسلمين لأهل الكتاب، فهى توصيهم بانتخاب أفضل أسلوب للنّقاش والبحث وتقول: «وَلَا تُجَادِلُوا اهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ».

وهذا مفهوم عام وجامع وأساسى.

و «الجدال»: فى اللغة هو إبرام الحبل وإحكامه، فإذا تباحث اثنان فى أمرٍ وأراد كلٌ منهما حرف صاحبه عن رأيه يقال «جادله» والمراد منه هنا النّقاش والبحث المنطقى.

أمّا فيما يرتبط بالمراد من جملة «بِالَّتِى هِىَ احْسَنُ»، فإن بعض المفسرين قالوا إنّ المراد منها هو التعامل معهم بلين ولطف ومحبة، ففى قبال الخشونة اللين، وفى قبال الغضب، الصّبر، وفى قبال الشرّ، حب الخير، وفى قبال التسرُّع، التأنى.

وعلى أيّة حال، فإنّ تعبير بجملة (بالتى هى أحسن) جامع جدّاً يشمل كلّ الأساليب الصّحيحة والمناسبة للبحث والنّقاش، سواءً كان ذلك بالألفاظ أو فى محتوى الكلام، أو فى لحن القول أو فى الحركات والسلوك العملى، وعليه يكون مفهوم الجملة هو أنّ الحديث معهم لابدّ أنْ يكون مؤدباً، وأنْ لحن القول لابدّ أنْ يكون حبيباً وأنْ محتوى الكلام لابدّ أن يكون منطقيّاً وبرهانيّاً، فينبغى أنْ يكون الصّوت خالياً عن العربدة والغوغاء والضجيج، وأن تكون حركات اليد والعين والحاجبين المكمّلة للبيان على هذا المنوال.

وكلّ ذلك من أجل أنّ الهدف من النّقاش والمجادلة ليس حب السّيطرة والإستعلاء، وإنّما هو إقناع الطّرف المقابل ونفوذ الحقّ إلى أعماق روحه، وأنْ يتخذ الموقف الصّحيح فى

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۴

قبال الإسلام، فهؤلاء المعاهدون لابدّ أنْ يعرفوا أنّ روح الإسلام روح السّلام والصّفاء، والآية توصى المسلمين بأن يتعاملوا مع غير المسلمين معاملة سلمية.

وبطبيعة الحال، فإنّ هذه الأمور يجب أنْ لا تكون بنحو يتصور المقابل أنّ المسلمين ضعفاء عاجزين فيسىء استغلال عطفهم ولينهم.

ثُمّ تستثنى الآيـة مجموعة من هؤلاء وتقول: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ» وهى إشارة إلى الذين رفضوا العيش بسلام إلى جنب المسلمين، وأساءوا استغلال محبّة المسلمين لهم ومداراتهم ولينهم، حيث عادوا الحق وعاندوه مع أنّهم كانوا قد قرأوا علامات نبيّ الإسلام صلى الله عليه و آله فى كتبهم، وكانوا يحاولون إخفائها وكتمانها، وكانت ميولهم ميول عدوانية وغير مسالمة، بعيده عن الاحترام والمحبّة، فمثل هؤلاء لا شكّ فى ضرورة استثنائهم من تلك الأحكام الرّؤوفة.

وجاء فى تتمّة الآيـة عدّة جمل لطيفة اخرى فى هذا المجال حيثُ يقول تعالى: «وَ قُولُوا آمَنَّا بِالَّذِى انْزِلَ إِلَيْنَا وَ انْزِلَ إِلَيْكُمْ وإِلهُنَا وَ إِلهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ».

وهذا فى الحقيقة نموذج واضح ورائع للمجادلة بالّتى هى أحسن، أى أنّ القرآن الكريم لم يكتفِ بذكر الكليّات فى هذا المجال، بل عرض مصاديق واضحة فى الأثناء.

وهذه العبارة تدل بوضوح على ضرورة الإعتماد على النّقاط المشتركة لتحكيم اسس العيش السّليم المشترك، وهى الإيمان باللّه الواحد والإيمان بكل الكتب السّماوية وأمثال ذلك.

ولكنّ التّأكيد والإصرار على الجهات المشتركة لا يعنى قبول المسلمين لبدع هؤلاء وانحرافاتهم وتراجعهم عن معتقداتهم، وقد تكون جملة «وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»، إشارة لطيفة لهذا المعنى.

ونقرأ فى حديث مفصل عن الإمام الصّادق عليه السلام الذى يرشدنا فيه إلى نموذج «للمجادلة بالتى هى أحسن» ويأمرنا بالتّأمل فى آخر سورة «ليس»، وملاحظة كيفيّة مجادلة منكرى المعاد بطرق مختلفة وبمنطق لطيف وبرهانى قوى فى نفس الوقت «۱».

---

(۱) إقتباس من تفسير نور الثّقلين، ج ۴، ص ۱۶۳، ذيل الآية مورد البحث.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۵

هذا وقد جاء مضمون الآية بشكل آخر فى سورة النّحل، حيث يقول تعالى «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ». (النّحل/ ۱۲۵)

والملفت للنّظر هو أنّ هذه الآيـة هى أول الإرشادات الأخلاقيّة العشرة التى وردت فى تلك السّورة فى مورد التّعامل الصّحيح مع المخالفين.

وفى الواقع فإن الجملة الأولى أى: «أدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكمَةِ» ناظرة إلى الاستدلالات العقليّة فى قبال أرباب الاستدلال والفكر.

وعبارة «والمُوعَظِةِ الحَسَنَةِ» إشارة إلى الأسلوب العاطفى فى المجادلة مع غير أرباب الإستدلال العقلى، أى أولئك الذين يدورون مدار المسائل العاطفيّة، وخصوصاً وأنّ وصف «الموعظة» بالحسنة، إشارة إلى ضرورة خلوها من الخشونة والإستعلاء وتحقير الطرف المقابل وإثارة إحاسيسه وأمثال ذلك، ولا شك فى أنّ مثل هذه الموعظة تكون مؤثرة.

و «وجَادِلْهُمْ بِالَّتِى هى أَحسَنُ» إنّما هى مع أولئك الذين مُلِئَت أذهانهم بالشّبهات والشكوك، فينبغى مجادلتهم عن طريق المناظرات الصّحيحة وإخلاء أذهانهم من تلك الشّبهات تمهيداً لقبول الحق.

الدّعوة إلى أصلٍ أساسى مشترك:

والآية الرابعة تخاطب أهل الكتاب وتدعوهم إلى أصل أساسى مشترك وهو التّوحيد وفروعه، يقول عزّوجلّ:

«قُلْ يَا اهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَانُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لَايَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَاباً مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِانَّا مُسْلِمُونَ».

والدعوة إلى القدر المشترك خير طريق للعيش بين مذهبين مختلفين، إذ لا يمكن عادة أنْ نطلبَ من طرف واحد أن يتخلى عن معتقداته ويتبع الطّرف الآخر، وحتّى لو كان ذلك مقبولًا ومنطقيّاً فإنّه غير ممكن عملياً، فالأفضل أن نترك أتباع الأديان الاخرى على

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۶

معتقداتهم إذا رفضوا قبول الإسلام بعد بيان الأدلة على حقانيته، وأنّ نعمل ضمن القدر المشترك بيننا وبينهم، وخير مشترك بين كلّ الأديان السماوية هو أصل «التوحيد» فى الذات والصفات.

وحتّى أنصار التّثليث (وينبغى التّنبيه هنا إلى أنّ الإعتقاد بثالث ثلاثة لم يكن موجوداً فى عصر المسيح والقرن الأوّل بعده، كما صرح بهذا المعنى علماء المسيحيّة) فإنّهم يفسرّون التّثليث بشكل يتلائم مع التّوحيد، ويسمّونَهُ ب «الوحدة فى التثليث»، وعلى الرغم من أنّ ذلك تناقض واضح، ولكنه فى نفس الوقت دليل على أنّ هؤلاء يرغبون فى بقائهم أوفياء لأصل التّوحيد.

وهذه الدّعوة إلى الحياة السّلميّة المشتركة المستمرة من المعتقدات المشتركة يعتبر فى الحقيقة مصداقاً واضحاً «للمجادلة بالّتى هى أحسن» الذى ورد فى الآية السّابقة، ويدلّ بوضوح على أنّ الإسلام لا يرغب أبداً فى إجبار أتباع الأديان الاخرى بالقوة على اعتناق الشّريعة الإسلاميّة.

والظّريف هنا، هو أنّ النّبىّ صلى الله عليه و آله بعد صلح الحديبيّة فى السّنة السابعة للهجرة وعندما أرسل كتباً إلى زعماء وملوك الدّول العظمى فى ذلك الوقت مثل «المقوقس» ملك مصر و «هرقل» ملك الرّوم، و «كسرى» ملك إيران، دعاهم فيها إلى الإسلام، ذكر هذه الآية المباركة فى ذيل تلك الكتب ودعاهم على الأقل إلى الأصل المشترك بين كل الأديان السّماويّة، أى أصل «التّوحيد»، ثُمّ العيش بسلام جنباً إلى جنب.

وهذا بنفسه خير دليل على روح السّلام والصّلح فى الإسلام والرّغبة فى العيش السّليم مع أتباع سائر الأديان السّماوية، والذى لها جذور منذ عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله.

وفى خامس وآخر آية من الآيات الّتى ذكرناها فى صدر البحث، إشارة إلى اختلاف مواقف أتباع الأديان الاخرى تجاه المسلمين، فتتحدث الآية عن كلٍ من هؤلاء بحسب حاله، يقول تعالى:

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۷

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ اشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ اقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى .

ثُمّ تبين الآية الكريمة دليل محبة المجموعة الثّانية للمؤمنين وتقول:

«ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَ رُهْبَاناً وَ انَّهُمْ لَايَسْتَكْبِرُونَ».

وهذا التّعبير يدلّ بوضوح على أنّ الإسلام مضافاً إلى أنّه يرفض مواجهة من لا يكنُّ للإسلام العداء والبغضاء، فإنّه يعتبر هؤلاء من أقرب الأصدقاء إلى الإسلام، ويثنى على زعماء هؤلاء ويعتبرهم من أهل العلم والمعرفة وترك الدّنيا والإستكبار وبهذا يستقبل هؤلاء بصدر رحب ويفتح لهم ذراعى المحبّة والصّداقة ويكنُّ لهم احتراماً خاصاً.

وإذا كان موقف الإسلام تجاه اليهود والنّصارى متفاوتاً، فإنّ ذلك ليس لعداوة خاصة يكنّها لليهود، بل من أجل مواقفهم العدائيّة ضدّ المسلمين واتفاقهم مع المشركين العرب السّفاكين، على العكس من النّصارى، ولذا جمع فى الذكر بين اليهود والمشركين فى هذه الآية، وأمّا المسيحيين فكانوا على صلة حسنة بالمسلمين.

والملفت للنّظر هنا هو أنّ المسيحيين كانوا أبعد من اليهود عن المسلمين لاعتقادهم بالتّثليث بينما كان اليهود يقولون بالتّوحيد صراحة، ولكن لما كان اليهود عملياً يضمرون العداء ويحيكون المؤامرات ضدّ المسلمين بخلاف المسيحيين فإنّ الإسلام يهتم بالعيش بسلام مع النّصارى أكثر من اليهود.

وللأسف، فإن وضع اليهود اليوم هو الإستمرار فى ميولهم العدوانيّة السّالفة، حيث نجد أنّ اليهود اليوم قد جنّدوا كلّ قدراتهم ضدّ

الإسلام والمسلمين، فى حين أنّ بين المسيحيين أفراد أو دول تربطهم روابط حسنة مع المسلمين.

ومن مجموع ما ذكر، يتّضح تماماً أنّ سعة صدر الإسلام وعظمته تميل إلى الرّغبة فى العيش بسلام مع الأديان السّماويّة الاخرى بشرط أن يدخل هؤلاء من باب الصّلح والصّفاء والصّداقة والإحترام المتقابل- ويأمر المسلمين بالتّعامل الحسن معهم، وأن يجادلوهم بالموعظة الحسنة وإتباع المنطق والأدب والإنصاف، وبهذا الطّريق يرشدونهم إلى تعاليم

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۸

شريعة الإسلام، لا عن طريق ممارسة الخشونة والشّدّة والتّصرفات المرفوضة إسلامياً.

العيش المشترک مع أتباع الأديان الاخرى فى الرّوايات:

نلاحظ فى الروايات الإسلاميّة إرشادات كثيرة فيما يرتبط بكيفية التعامل مع أتباع الأديان الاخرى:

۱- جاء فى عهد أمير المؤمنين المعروف لمالك الأشتر:

«وأشعِرْ قلبك الرحمة للرعيّة والمحبّةِ لهم واللّطف بهم ولا تكوننَّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم أكْلَهُمْ، فإنّهُمْ صنفان، إمّا أخ لَك فِى الدين أو نظيرٌ لك فِى الخلْق» «۱».

ونحن لم نعهد تعبيراً أوضح وأبلغ من هذا التّعبير حول العيش بمحبّة وسلام مع غير المسلمين، وبملاحظة أنّ الإمام عليّاً عليه السلام يبيّن فى هذا العهد أنَّ إبداء المحبّة والمداراة والرحمّة واللطف تجاه غير المسلمين هو من وظائف رئيس الحكومة الإسلاميّة، يتضح لنا جلياً تكليف سائر أفراد المجتمع الإسلامى تجاه بعضهم البعض.

۲- وفى حديث عن الإمام الصّادق عليه السلام أنّ عليّاً عليه السلام صاحب رجلًا ذمّياً فقال له الذمّى:

أين تريد يا عبداللّه؟

قال عليه السلام: أُريد الكوفة. فلمّا عدل الطّريق بالذمّى عَدَل معه الإمام علىّ عليه السلام، فقال له الذمّى: أليس زعمت تريد الكوفة؟

قال الإمام عليه السلام: بلى.

فقال له الذّمّى: فقد تركت الطّريق.

فقال الإمام عليه السلام: قد علمتُ.

فقال له الذّمى: فَلِمَ عدلت معى وقد علمت ذلك؟

فقال له الإمام علىّ عليه السلام:

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۱۹

«هذا من تمام حسن الصُحْبَة أن يُشيِّعَ الرَجُلُ صاحِبَهُ هُنَيْئَةً إذا فارقهُ، وكذلك أمَرَنا نبيّنا».

فقال له الذّمى: هكذا؟ قال: نعم.

فقال له الذّمى: لا جَرَم إنّما تبِعَهُ مَنْ تبعه لأفعاله الكريمة، وأنا أُشهدك أنّى على دينك.

فرجع الذمّى مع علىّ عليه السّلام، فلمّا عرفَه أسْلَم «۱».

۳- ونقرأ فى حديث عن رسول اللّه صلى الله عليه و آله قال:

«من ظَلَمَ معاهداً وكلّفَهُ فوق طاقته فأنا حَجيجَهُ يومَ القيامة» «۲».

۴- وجاء فی کتاب «الخراج» لأبی یوسف أنّ «حکیم بن حزام» شاهد «عیاض بن غنم» وقد حبس قوماً من أهل الذمّة فی الشّمس لمّا امتنعوا عن إعطاء الجزیة (وکان یرید أن یضیق علیهم لیضطرهم لدفع الجزیة) فقال له حکیم: ما هذا یا عیاض، لقد سمعت رسول اللّه صلی الله علیه و آله یقول:

«إنَّ الذینَ یعذّبونَ النّاس فی الدنیا یُعَذَّبونَ فی الآخرة» «۳».

وقد کان هذا الأمر معروفاً بین المسلمین إلی درجة أنّهم نقلوا أنّ أحد ولاة عمر بن عبد العزیز واسمه «علی بن أرطأه کتب له بأنّ قوماً عندنا لا یدفعون الخراج مالم یجبروا علی ذلک بالضرب والإیذاء! فکتب له عمر بن عبد العزیز: عجیب حقاً أن تطلب منی أن أجبرک بتعذیب النّاس، أتریدأن تجعلنی درعاً أمام عذاب اللّه، وتظن أن إذنی ینجیک من عذابه!؟

فإذا جاءک کتابی فمن دفع خراجه وإلّا حلّفهُ علی عجزه عن دفع الخراج، واکتفِ بذلک الحلف.

ثم یضیف: وأیم اللّه إنّه لأحب إلیّ أن ألقی اللّه یوم القیامة وهؤلاء لم یدفعوا الخراج من أن ألقاه وقد عذّبْتُهُمْ «۴».

وکما تلاحظون فإنّ الوارد فی الحدیث هو «تعذیب وإیذاء الإنسان» وهذا یدلّ علی أنْ

---

(۱) بحار الأنوار، ج ۴۱، ص ۵۳.

(۲) فتوح البلدان، البلاذری، ص ۱۶۷.

(۳) الخراج، ص ۱۲۴.

(۴) الخراج، ص ۱۱۹.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۰

الممتنعین عن أداء الخراج لم یکونوا من المسلمین.

ونفس هذا المضمون ورد فی حدیث آخر، ولکن ورد فیه عنوان «النّاس»، حیث ورد أن «سعید بن زید» رأی أنّ قوماً یُعذَّبون لعدم دفعهم «الجزیة» فقال: سمعت من رسول اللّه صلی الله علیه و آله قال: «من عذَّبَ النّاس عذّبهُ اللّهُ» «۱».

۵- ورد تعبیر رائع فی نهج البلاغة، خطبة الجهاد، یقول علیه السلام: «وَلَقَد بلغنِی أنّ الرّجُلَ مِنهُم کان یدخل علی المرأة المسلمة والأخری المعاهدة فینتزع حِجْلَها وقُلْبَها وقلائدها ورُعْثَها ما تمتنعُ مِنهُ إلّابالإسترجاع والإسترحام .... فلو أنَّ امرءً مُسلماً مات من بعد هذا أسفاً ما کان به ملوماً، بل کان به عندی جدیراً».

(عندما أَخبروا أمیر المؤمنین علیه السلام بأنّ سرایا من جیش معاویة هجموا علی الأنبار وقتلوا والیهِ علیها «حسان بن حسان» ونهبوا أموال المسلمین وغیر المسلمین، فدعی أمیر المؤمنین النّاس إلی الجهاد وخطب خطبة الجهاد المعروفة، جاء فیها المقطع أعلاه) «۲».

فهنا نجد أنّ الإمام علیه السلام یعتبر المرأة المعاهدة والمرأة المسلمة فی رعیل واحد فی وجوب الدّفاع عنهما، وأن من مات أسفاً علی سلبهما أموالهما فهو عنده جدیر، ولا نجد تعبیراً أبلغ من هذا فی الدّفاع عن حیثیة أهل الذّمة وأموالهم وأنفسهم وأعراضهم.

۶- روی أنّ علیاً أمیر المؤمنین علیه السلام رأی رجلًا مکفوفاً کبیراً یسأل، فقال أمیر المؤمنین علیه السلام ما هذا؟ قالوا: یا أمیر المؤمنین هو نصرانی. فقال أمیر المؤمنین علیه السلام:

«استعملتموه حتی إذا کبر وعجز منعتموه، أَنفقوا علیه من بیت المال».

تعامل المسلمین مع غیر أهل الذمّة:

قد یُتصور أحیاناً أنّ غیرَ المسلمین صنفان، هما «أهل الذمّة» و «المحاربون»، وعلیه فکلُّ من لم یکن من «أهل الذمّة» فهو محارب وأنّ

ماله ودمه مهدوران.

---

(۱) الخراج، ص ۱۲۴ و ۱۲۵.

(۲) نهج البلاغة، الخطبة ۲۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۱

ولكن فى الحقيقة أنّ غير المسلمين أربعة أصناف، إذ يوجد مضافاً إلى الصنفين المذكورين صنف ثالث وهم «المعاهدون» (وهم الذين يرتبطون بالمسلمين بعهدٍ وميثاق وإن كانوا يعيشون خارج المحيط الإسلامى ولم يكونوا أقليّة) و «المهادنون» وهم غير الأصناف الثّلاثة، بل هم قوم يعيشون فى بلادهم ولا يزاحمون المسلمين.

وفى دنيا اليوم، يوجد لهذه الأصناف الأربعة مصاديق واضحة:

۱- الأقليات التى تعيش داخل الدّول الإسلاميّة، والتى تشملها قوانين تلك الدّول، وتكون الحكومات الإسلاميّة ملزمة بحفظ أموال ودماء ونواميس أفراد هذه الأقليات والدّفاع عن حقوقها، وهؤلاء يدفعون بعض الضّرائب للحكومة الإسلاميّة، ويمكن اعتبارها بمقام «الجزية» لأنّ «الجزيّة» كما ذكرنا مأخوذة من «الجزاء» بمعنى الشىء الذى تأخذه الحكومة الإسلاميّة كأجرٍ أو معونة للدّفاع عنهم، وهؤلاء هم «أهل الذمّة».

۲- بعض الدّول «كإسرائيل» و «أمريكا» الذين يحاربون المسلمين اليوم، ولا يتورعون عن أى عدوان ضدهم ولا يُقصرون فى إيذائهم، فهؤلاء كفرة حربيّون، لَسْنا ملزمين بأى تعهد فى قبالهم.

۳- هناك شعوب غير مسلمة تربطهم معنا علاقات صداقة، ونتبادل معهم السّفراء، ونعقد معهم أحياناً بعض المعاهدات الإقتصاديّة والتجاريّة والثّقافيّة، أو نلتزم بمقررات معينة فيما بيننا من خلال المنظمات الدّولية وكل هؤلاء مصاديق «للمعاهدين» وعلينا أنّ نتعامل معهم بما تقضيه الإلتزامات التى تربطنا معهم بشكل مباشر أو غير مباشر (عن طريق المنظمات العالمية) وأن نرعى الإحترام المتبادل فيما بيننا.

۴- وهناك بعض الدّول التى ليست فى حالة حرب معنا، ولا- معاهدة لنا، ولا- يوجد بيننا سفراء، ولا تربطنا بهم مواثيق، ولكن لا يزاحموننا ولا نحن نزاحمهم، فعلينا أنْ نراعى الأصول الإنسانيّة والأخلاقيّة معهم، وهؤلاء هم (المهادنون).

وممّا ذكر أعلاه، يتضح لنا أنّ «أهل الذمّة» هم فقط ذلك الصنف من أهل الكتاب الذين يعيشون داخل الدّول الإسلاميّة، وأنّ أحكام الجزية أو عدم التّظاهر بالمعاصى والذنوب

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۲

الكبيرة وأمثالها، خاصة بهم.

وأمّا أهل الكتاب من الذين يعيشون فى دولهم، فلا يعتبرون من مصاديق أهل الذمّة، حتى لو ارتبطوا بمواثيق وعهود معنا، وإنّما هم مصداق «المعاهدين» وقد يكونون «محاربين» وقد يكونون «مهادنين» فى بعض الظروف. (إلتفتوا جيداً).

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۳

الحكومة الإسلامية والأجهزة الأمنية

تمهيد:

لا شک فی أنّ التجسس علی أحوال النّاس الخاصة والبحث عن أسرارهم عملٌ مذموم وقبیح، فإنّ اللّه «ستّار العیوب»، وینبغی علی عباده أن یکونوا کذلک أیضاً، إلّابالنسبة للذین یهتکون السّتر ویترکون الحیاء جانباً ویتظاهرون بارتکاب الذّنوب، فإنّه لا حرمة لهم، لإنّهم هم الذین هتکوا حرمهم.

والقرآن الکریم یحذِّر بصراحة من التّجسس، کما ورد فی سورة الحجرات، حیث یقول تعالی:

«یَا ایُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا کَثِیراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا یَغْتَبْ بَّعْضُکُمْ بَعْضًا». (الحجرات/ ۱۲)

فهنا إشارة إلی ثلاثة ذنوب کبیرة «سوء الظن»، «التجسس» و «الغیبة» وکل واحدٍ من هذه الثّلاثة فی الواقع مقدّمة للآخر، فإنّ إساءة الظّن بالأشخاص مقدّمة للتّجسس علیهم، والتجسس سبب فی الإطلاع علی العیوب والأخطاء، فتکون الغیبة، التی تعتبر من أکبر الذّنوب، وأساس العداوات والاختلاف وفقدان الثقة.

و «کرامة الإنسان» فی الحقیقة، أهم شیء فی کیانه من وجهة نظر الإسلام، حتّی أنّها أهم من حاله وحیاته أیضاً، وقد ورد فی حدیث عن النّبیّ الأکرم صلی الله علیه و آله:

«إنّ الدِّرْهَمَ یُصیبُهُ الرَّجُل من الرِّبا أعْظَمُ فِی الخطیئة من سِتٍّ وثلاثین زَنیَةً یزنیها الرَجُلُ، وأربی الرّبا عِرضُ الرّجل المُسْلِم» «۱».

---

(۱) المحجّة البیضاء، ج ۵، ص ۲۵۳.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۴

والواقع هو أنّ رأسمال الإنسان فی المجتمع هو کرامته، وکل المسائل الاخری تابعة لها، ولا شک فی أنّ سوء الظنّ والتّجسس والغِیبة تعرِّض رأسماله الغالی إلی الخطر، أو تفنیه.

ولکن ومع ذلک، فإنّ هناک بعض الموارد إذا واجهناها بحسن الظن، ولم یُتَجسَّسْ علیها وتفضح أسرارها، فإنّها ستشکل خطراً علی المجتمع الإسلامی، سواءً کان هذا الخطر مؤامرة من قبل المنافقین فی الدّاخل، أو مخططات مشئومة من قبل الأعداء من الخارج تنفذ علی أیدی عملائهم فی الداخل.

فمثل هذه الموارد لابدّ من مواجهتها بریبة واستفهام، والتّجسس لحفظ الأهداف الأهم، وهذه هی فلسفة تشکیل الأجهزة الأمنیّة والأمن المضاد، وهی فلسفة معقولة ومنطقیّة وموافقة للعقل والشّرع، وإن کان طلّاب الدّنیا والحکومات المستبدة والإستکباریة تسیء استغلال ذلک، ولکن هذا لا یمنع من بقاء أصل هذا الأمر منطقیّاً ومعقولًا، فلا یقال ما هی الضرورة لمثل هذه الأعمال؟ فأی قانون مقدس لم یُستغل استغلالًا سلبیاً من قبل ضعاف النّفوس؟!

وخلاصة الکلام، هی أنّ عدم التّجسس علی أوضاع الآخرین وحیاتهم الخاصة «أصلٌ» لابدّ أن یحفظ، ولکن التّجسس فی موارد معینة «استثناء» ولابدّ أن یُحفظ هو الآخر فی حدود وشرائط خاصة باعتباره وظیفة شرعیة واجتماعیة.

وفی الواقع إنّ هذا الاستثناء یخضع لقانون الأهم والمهم ویخضع للعناوین الثّانویة، فحفظ کرامة الأفراد مهمٌ جدّاً، ولکن حفظ وجود المجتمع الإسلامی ونظام الحکم والأمن والإستقرار أهم من ذلک وأوجب، ولذا ففی مثل هذه الموارد یقدم الثانی علی الأول.

وممّا تقدم یتضح أن التّجسس واستقصاء أسرار الآخرین یحتاج إلی مجوّز ودلیل کافٍ، وأمّا التّصرف الشّخصی فغیر مجاز.

هذا ما یرتبط بالتّجسس فی داخل المجتمع الإسلامی.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۵

وأمّا فی خارج المجتمع الإسلامی، فالمسألة أوضح، فإنّ علی المسلمین دائماً أنْ یتعرفوا علی ما یجری فی ظاهر وباطن المجتمعات الأجنبیة والذی قد یرتبط بمصیر المجتمع الإسلامی، فعلیهم أنّ یحبطوا المؤامرات فی مهدها ویخنقوها وهی فی مراحلها الاولی وبغیر ذلک فإنّهم سیطلعون علیها بعد فوات الأوان، ویکون القضاء علیها صعباً حینئذٍ، أو یکلف ثمناً باهضاً جدّاً!

وهناك نوع آخر من التّجسس فى الحكومة الإسلاميّة (وكل حكومات العالم) وهو التّجسس على أحوال موظفى وكوادر الحكومة الإسلاميّة ومسؤوليها، ليحصل الإطمئنان بأنّهم يؤدّون وظائفهم بشكل صحيح، وأنّهم لا يجحفون ولا يتعدّون على حقوق المسلمين، وأنّهم لا يسيئون استغلال مناصبهم.

وعلى أيّة حال، فالمستفاد من آيات القرآن هو أنّ مسألة التّجسس كانت موجودة فى تلك الأعصار، وأنّ النّبىّ صلى الله عليه و آله كان له أجهزة للأمن المضاد لمواجهة عمليات التّجسس لصالح أعداء الإسلام، وبهذا الطريق كان يحبط مؤامراتهم وتحركاتهم.

وقد حذّر اللَّه عزّ وجلّ، المسلمين وأمرهم بمراقبة تحركات جواسيس المنافقين، وقال:

«لَو خَرَجُوا فِيكُم مازَادُوكُم إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيْكُمْ سَمّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ» «۱». (التوبة/ ۴۷)

وقد يكون لفظ «سمّاع» بمعنى «الجاسوس»، أو من يتميز بقوة السمع والإستقبال، والاحتمال الأوّل أنسب لمورد الآية.

هذا فى حين أنّ اللَّه تعالى قبل عدّة آيات يأمر النّبىّ صلى الله عليه و آله ببذل الجهد للتعرف على المنافقين، ويقول: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعلَم الْكَاذِبِينَ». (التوبة/ ۴۳)

---

(۱) و «أوضعوا» من مادة «إيضاع» بمعنى السّرعة فى الحركة، فالمراد هنا هو أنّ المنافقين يوجدون الفتنة فى قلوب البسطاء من المسلمين والفرقة والنّفاق بسرعة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۶

توضيحات

۱- قصة تجسس حاطب وسارة

يظهر أنّ النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله كان له جهاز أمنى قوى من خلال قصة «حاطب بن أبى بلتعة» التى وقعت قبيل فتح مكة المكرّمة.

وتوضيح ذلك: كان النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله يستعد لفتح مكة وكان حريصاً على عدم انتشار أخبار ذلك وإنتقالها إلى أسماع المشركين وكان هناك رجل من المسلمين يقال له «حاطب بن أبى بلتعة» اشترك فى غزوة «بدر» و «بيعة الرّضوان»، وكان يخاف على أهله فى مكة من كيد المشركين فوسوس له الشيطان، فأراد أن يقدم خدمة لهم ليأمن كيدهم على عياله، فاتفق مع امرأة تدعى «سارة» كانت قد جاءت من مكة إلى المدينة، وعندما أرادت العودة إلى مكة كتب حاطب كتاباً معها لتوصله إلى أهل مكة يخبرهم بنية رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وأعطاها عشرة دنانير، وقيل عشرة دراهم، وكان قد كتب فى الكتاب: من حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة أنّ رسول اللَّه يريدكُم فخذوا حذركم، فخرجت سارة، ونزل جبرئيل فأخبر النّبىّ صلى الله عليه و آله بما فعل حاطب، فبعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله علياً وعماراً وعمر والزّبير وطلحة والمقداد بن الأسود وأبا مرثد، وكانوا كلهم فرساناً وقال لهم: إنطلقوا حتّى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين فخذوه منها، فخرجوا حتى أدركوها فى ذلك المكان الذى ذكره رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت باللَّه ما معها من كتاب، فنحّوها وفتشوا متاعها فلم يجدوا معها كتاباً، فهموا بالرجوع فقال على عليه السلام: واللَّه ما كذبنا ولا كُذِبنا وسَلَّ سيفه وقال لها: أَخرجى الكتاب وإلّا واللَّه لأَضربنَّ عنقك، فلما رأت الجدَّ أخرجته من ذوائبها فقد أخبأته فى شعرها، فرجعوا بالكتاب إلى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فأرسل إلى حاطب فأتاه، فقال له: تعرف الكتاب؟ قال: نعم، قال ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رسول اللَّه، واللَّه ما كفرت منذ أسلمت، ولا غششتُك منذ نصحتك ولا أحببتهُم منذ فارقتهم ولكن لم يكن أحدٌ من المهاجرين إلّاوله بمكة من يمنع عشيرته وكنت عزيزاً

فيهم- أى غريباً، وكان أهلى بين ظهرانيهم فخشيتُ على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يداً وقد علمت أنّ اللَّه ينزل بهم بأسه وأنّ كتابى لا يغنى عنهم شيئاً، فصدقه رسول اللَّه صلى الله عليه و آله وعذره،

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۷

فقام عمر بن الخطاب وقال دعنى يا رسول اللَّه أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: وما يدريك يا عمر لعلَّ اللَّه إطَّلع على أهل بدر فغفر لهم، فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

فنزلت الآيات الأولى من سورة «الممتحنة» وحذَّرت بشدّة المسلمين من تكرار مثل هذه التّصرفات، لأنّها تذهب بدنياهم وآخرتهم «۱».

ففى هذه القصة، نجد أنّ هناك تجسساً لصالح الأعداء، ولكن جهاز الأمن المضاد عند النّبىّ صلى الله عليه و آله- سواءً كان عن طريق اطلاع جبرئيل الأمين أو أى طريق آخر- أحبط مؤامرة العدو، بنحو لم يصل أى خبر عن تحرك النّبىّ صلى الله عليه و آله ومخططه لفتح مكة إلى أسماع قريش وفوجىء مشركو قريش بدخول جيش الإسلام إلى مكّة، وكان ذلك سبباً فى تحرير أقوى قلاع الشرك بلا إراقة دماء ولا حرب، ولو كانت الجاسوسة قد أوصلت ذلك الكتاب إلى مكّة، كان يُحتمل أن تراق دماء كثيرة فى هذا الطّريق، وهذا يدل على أهميّة دور الأجهزة الاستخبارية أو الأمن المضاد فى تحديد مصير مجتمع وأمّة بكاملها.

۲- قصة استخبار حُذيفة

نموذج آخر من النشاطات الأمنية فى عصر النّبىّ صلى الله عليه و آله، هو قصّة «حذيفة» فى حرب الأحزاب.

فقد روى فى التواريخ؛ ذات ليلة من ليالى حرب الأحزاب، وبعد اختلاف الأحزاب فيما بينهم، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: مَن رجلٌ يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع- يشرط له رسول اللَّه صلى الله عليه و آله الرجعة- أسأل اللَّه تعالى أن يكون رفيقى فى الجنّة؟ قال حذيفة: فما قام رجل من القوم من شدّة الخوف وشدّة الجوع وشدّة البرد، فلما لم يقم أحد دعانى رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فلم يكن لى بدّ من القيام حين دعانى، فقال: «يا حذيفة إذهب فأوغل فى القوم فانظر ماذا

---

(۱) ذكر أكثر المفسرين هذا المعنى فى شأن نزول الآيات الأولى من سورة الممتحنة.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۲۸

يصنعون ولا تُحدثَنَّ شيئاً حتى تأتينا».

قال فتهيأت فدخلت فى القوم والرّيح وجنود اللَّه تفعل بهم ما تفعل لا تقرُّ لهم قِدراً ولا ناراً ولا بناءً، فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ مَنْ جليسه؟ قال حذيفة:

فأخذت بيد الرجل الذى كان إلى جنبى فقلت: من أنت قال: فلان بن فلان ثم قال أبو سفيان:

يا معشر قريش إنّكم واللَّه ما أقمتم بدار مقام، لقد هلك الكُراع والخفّ وأخلفتنا بنو قريظة وبلغنا عنهم الذى نَكره ولقينا من شدة الرّيح ما ترون ما يطمئن لنا قِدر ولا تقوم لنا نار ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا تحلوا فإنى مرتحل، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثبَ به على ثلاث فواللَّه ما أطلق عقاله إلّاهو قائم، ولولا عهد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلىّ «أن لا تحدث شيئاً حتى تأتينى» ولو شئت لقتلته بسهم.

والمستفاد من آيات القرآن، أن وجود الأجهزة الأمنيّة والتّجسسية كان أمراً رائجاً حتّى فى زمن الأنبياء الذين سبقوا نبيّنا محمّداً صلى الله عليه و آله، حتّى استفيد من الطيّور فى هذا المجال كما فى قصّة سليمان عليه السلام والهدهد، الذى كان يأتى بأخبار البلدان البعيدة إلى سليمان، ثُمّ يحمل رسالة سليمان- التى كانت تبين علاقته بالدّول الاخرى إلى تلك الدّول «۱».

۳- المنظمات الأمنية فى الروايات الإسلاميّة

لهذه المسألة فى الروايات الإسلاميّة وكتب التاريخ صدىً واسعٌ، فمن خلال الاطلاع عليها يمكن الوقوف على هذه الحقيقة وهى أنّ الحكومة الإسلاميّة ينبغى أن لا تغفل عن هذه المسألة المهمّة، وأنّ عليها أن تمارس نشاطاً موسعاً فى اتجاهين: أن تطّلع على تحركات العدو العسكريّة والسّياسية والاقتصاديّة التى لها تأثير على مستقبل ومصير المسلمين، وأن تواجه الفعاليات الجاسوسية، للعدو الذى يحاول النفوذ واختراق المسلمين للتعرف على أسرارهم وسرقتها.

وسنتعرض هنا إلى بيان نموذج من هذه الرّوايات والوقائع التّاريخية:

---

(۱) الآية ۲۰ إلى ۲۶ من سورة النّمل (وللتّفصيل راجع التفسير الأمثل، ذيل الآية مورد البحث).

۱- ورد فى حديث عن الإمام علىّ بن موسى الرّضا عليه السلام: «كان رسولُ اللَّه صلى الله عليه و آله إذا بعثَ جَيشاً فاتَّهمَ أميراً بَعَثَ مَعَهُ من ثقاتِه مَنْ يتجسس خَبَرَهُ» «۱».

فقد يكون ذلك الأمير معتمداً من بعض الجهات، ولكن خطورة مسؤوليته توجب وجود ناظرٍ ومفتش عليه، تحسُّباً من انحرافه- لا سمح اللَّه- وارتكابه ما لا يمكن جبرانه من قبل المسلمين.

وهذا الحديث موافق لما ورد فى متن الوسائل وقرب الإسناد، الطّبعة الجديدة (مؤسسة آل البيت)، ولكن ورد فى بعض الكتب كلمة «فأمَّهُمْ» أى، عيّن لهم أميراً، بدلًا من «فاتَّهَمَ»، ولكن تعيين المفتش والجاسوس أنسب بلفظ «فاتَّهَمَ»، وانتخاب مثل هذا الأمير يكون لتميزه ببعض الميزات المفقودة فى غيره، (التفتوا جيداً).

۲- ورد فى حديث آخر حول سَرِيّة «عبد اللَّه بن جحش» (والسّرية، الحرب التى لم يحضر الرسول بنفسه فيها)، أنّ النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله بعث عبداللَّه بن جحش بن رئاب الأسدى ومعه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به. فلما سار عبداللَّه يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت فى كتابى هذا فامضى حتى تنزل نخلّة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم من أخبارهم (والقصة طويلة وقد جاء فى ذيلها أنّه اشتبك معهم وأسر منهم جماعة وغنم غنائم ... «۲».

۳- بعد غزوة بدر «۳»، لما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى: إنّ موعدكم بدر للعام القابل.

فقال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لرجل من أصحابه قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد.

ثم بعث رسول اللَّه صلى الله عليه و آله على بن أبى طالب عليه السلام وقال له: أخرج فى آثار القوم، فأنظر ماذا

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱۱، ص ۴۴.

(۲) سيرة ابن هشام، ج ۲، ص ۲۵۲؛ والكامل، لابن الأثير ج ۲، ص ۱۱۳.

(۳) سيرة ابن هشام، ج ۳، ص ۱۰۰.

يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنّهم يريدون مكة وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنّهم يريدون المدينة، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرن إليهم فيها ثم لأُناجزنّهم!

قال علىّ: فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنبوا الخيل وامتطوا الأبل وتوجّهوا إلى مكّة.

وكان هذا النّشاط التّجسسى للنّبى على يد أمير المؤمنين عليه السلام، عملٌ مهمٌ جدّاً ومؤثر فى تحديد مصير المسلمين، وكان ينقذهم

من أن يُفاجأوا.

۴- ونقرأ «۱» فى قصة حرب أُحُد أنّ النّبىّ صلى الله عليه و آله أرسل رجلين يتجسسان على أحوال جيش قريش قبل أن يردوا أُحُد ليتعرفوا على عدد قوات العدو وعدتهم، كما أنّه أرسل «الحباب بن المنذر» سراً ليستطلع أوضاع قريش بعد أن نزلوا أحداً، وطلب منه أن يأتيه بالخبر سرّاً إذا كان عددهم كبيراً، وإذا كان قليلًا فلا مانع من أنْ يخبره علناً.

ولمّا كان عدد المشركين كبيراً، جاء الحباب وأخبر رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعددهم سرّاً.

۵- وكتب نهج البلاغة، تبيّن لنا بوضوح أنّ الجهاز الأمنى للإمام على عليه السلام كان مطّلعاً على الأمور فى كلّ بقاع الدولة الإسلاميّة.

ومن جملة ذلك «عهده لمالك الأشتر» فى تعيين المفتشين السّريّين للنّظر فى كيفيّة قيام العمّال- الولاة بوظائفهم، يقول عليه السلام: «وابعثِ العيونَ من أهل الصّدق والوفاء عليهم فإنَّ تعاهُدَكَ فى السّرِّ لأمورهم حَدْوَةٌ لَهُمْ على استعمال الأمانة والرفق بالرعيّة».

وبطبيعة الحال، فإنّ هذا النّشاط واحد من نشاطات العيون التّجسسيّة، وهو أن يتجسسوا على كيفية قيام مأمورى وموظفى الدولة الإسلاميّة بوظائفهم.

۶- وفى كتاب آخر له عليه السلام إلى واليه على مكة «القُثم بن عباس» وهو أخو عبد اللّه بن عباس، يقول فيه: «أمّا بعد، فإنَّ عَينى بالمغرب «۲» كتب إلىّ يُعلِمُنى أنَّه وُجِّهَ إلى الموسم

---

(۱) المغازى للواقدى، ج ۲، ص ۲۰۶ و ص ۲۰۷.

(۲) الشام، وعاصمتها دمشق، التى تقع إلى الغرب (أو الشّمال الغربى) من الكوفة مركز خلافة الإمام علىّ عليه السلام.

اناس من أهل الشّام العُمى القلوب الصُمِّ الأسماع الكُمهِ الأبصار الذين يَلبسُونَ الحقَّ بالباطل ويطيعون المخلوق فى معصية الخالق .... فَاقِمْ على ما فى يَدَيك قيامَ الحازم الصَّليب» «۱» ويبدو أنّ معاوية كان قد أعدَّ مخططاً لخداع «القثم بن عباس» ودعوته لخيانة على عليه السلام، وإيجاد الفوضى فى موسم الحج، فأخبر عيون الإمام عليه السلام المخترقين جهاز حكم معاوية، الإمام عليّاً عليه السلام بهذا الخبر بسرعة فأسرع الإمام عليه السلام فى إحباط تلك المؤامرة.

والكلام هنا فى المأمورين السّريّين الذين يخترقون قلب أجهزة العدو وينفذون فيها لنقل المعلومات السرية.

۷- ونقرأ كتاب أمير المؤمنين عليه السلام إلى «عثمان بن حنيف»، حيث يقول عليه السلام: «أمّا بَعدُ يا ابن حنيف فقد بلغنى أنّ رجلًا من فتية أهل البصرة دعَاكَ إلى مأدُبَة فأسْرَعْتَ إليْها تُستطابُ لك الألوانُ وتُنقَلُ إليكَ الجفانُ» «۲».

فمن هذا الكتاب يتضح لنا بأنّ عيون الإمام عليه السلام السريّة لم تكن تنقل له المسائل السّياسية والعسكرية فقط، بل وكذلك المسائل الأخلاقيّة التى لم تكن مناسبة لمقام الولاة وموظفى الحكومة الإسلاميّة وغير المنسجمة مع أُصول التّعاليم الإسلاميّة وخاصّة فيما يرتبط بالزّهد، وأنّ جزئيات حركاتهم غير خافية على عيون الإمام التّجسسية الفطنة.

وشبيه هذا المعنى نراه فى كتابه عليه السلام إلى «المنذر بن جارود» واليه على «اصطخر» حيث ورد فى هذا الكتاب:

«أمّا بعدُ فإنَّ صلاحَ أبيك غرَّنى مِنك، وظَننتُ إنّك تَتَّبعُ هَدْيَهُ، وتَسلُكُ سَبيلَهُ فإذا أنت فيما رُقّىَ إلىَّ عَنْكَ لا تَدَعُ لِهَواكَ انْقياداً ولا تبقى لآخرتكَ عِتاداً تعْمُرُ دُنياكَ بِخَرابِ آخرتِكَ وتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعةِ دِينِكَ» «۳».

والمستفاد من الرّوايات أنّ خيانة إبن الجارود هى أنّه اختلس أربعمائه الف درهم من

---

(۱) نهج البلاغة، الرسالة ۳۳.

(۲) المصدر السابق، الرسالة ۴۵.

(۳) المصدر السابق، الرسالة ۷۱.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۲

بيت المال، له ولأقربائه، فعزله الإمام عليه السلام من ولايته وحبسه مدة من الزمن «۱».

ونرى هنا أنّ عيون الإمام عليه السلام قد نقلوا خيانة هذا الوالى الخفيّة بعد أن كشفوها، وأنّ الإمام عليه السلام أبدى موقفاً شديداً تجاهه.

۸- جاء فى تاريخ حياة الإمام الحسن المجتبى عليه السلام لمّا بلغ معاوية بن أبى سفيان وفاة أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة النّاس ابنه الحسن عليه السلام دسَّ رجلًا من حِمْيَر إلى الكوفة، ورجلًا من بنى القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار، ويفسدا على الحسن الأمور، فعرف ذلك الحسن عليه السلام فأمر باستخراج الحميرى من عند لجّام بالكوفة، فأُخرج وأمر بضرب عنقِه، وكتب إلى البصرة باستخراج القينىّ من بنى سليم فأُخرج وضُربت عُنُقه» «۲» وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية: أمّا بعد فإنّك دسست الرّجال للإحتيال والإغتيال وارصدت العيون كأنك تحب اللقاء وما أشكُّ فى ذلك فتوقعه إن شاء اللّه.

۹- بعد حرب صفين أعلن جماعة من «بنى ناجية» يتزعمهم «الحريث بن راشد» مخالفتهم للإمام ونقضهم البيعة، فأرسل الإمام علىّ عليه السلام إلى الحريث وطلب منه المثول عنده ليبيّن له السُّنَن وأموراً من الحق، فلم يحضر الحريث وفرَّ برجاله، وفى الطريق قتلوا رجلًا مسلماً من أتباع الإمام عليه السلام، وتركوا يهودياً واعتبروه من أهل الذمّة، فكتب الإمام عليه السلام كتاباً إلى عمّاله فى تلك المناطق، مضمونه: أنّ قوماً مذنبين هربوا، ونظن أنّهم قصدوا البصرة، وكان ممّا جاء فى ذلك الكتاب: «واجْعَل عليهم العيون فى كل ناحية من أرضك ثم اكتب إلىّ بما ينتهى اليك عَنْهُمْ» «۳».

---

(۱) سفينة البحار، مادة (نذر).

(۲) بحار الأنوار، ج ۴۴، ص ۴۵، ح ۵.

(۳) شرح نهج البلاغة، لابن ابى الحديد، ج ۳، ص ۱۳۰.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۳

من مجموع الروايات الآنفة الذكر، والرّوايات والتّواريخ الاخرى التى يطول المقام بذكرها، يتضح جيداً أنّ أجهزة التجسس والتفتيش كانت تعمل دائبة فى عصر النّبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله والأئمّة المعصومين عليهم السلام سواءً فى مجال كشف مؤامرات الأعداء، أو فى إبطال خطط الأجهزة الجاسوسية للمخالفين، أو فى التحقيق فى سلوك موظفى الدّولة الإسلاميّة، وكذلك كشف مؤامرات المنافقين فى داخل الدّولة الإسلاميّة.

وبطبيعة الحال، فإنّ أساليب «التّجسس» و «ضد التّجسس» فى زماننا تغيرت كثيراً كغيرها من المسائل عمّا كانت عليه فى ذلك الوقت واتسعت وتعقدت كثيراً واستفيد فيها من التّكنولوجيا الحديثة المتطورة بشكل واسع.

ولا شك، أنّ الحكومة الإسلاميّة فى هذا العصر لا يمكنها الإكتفاء بالأساليب القديمة والبدائيّة للوصول إلى أهدافها الأمنية بواسطة الأمن المضاد، بل لابدّ أن تتجهّزَ بكلّ الوسائل المتطورة، لكى تكشف كل مؤامرات الأعداء ومخططاتهم الرامية إلى تضعيف الدولة الإسلامية وقهرها، كما أنّ عليها أنْ تراقب بدقة تصرفات المسؤولين فى الدوّلة الإسلاميّة، ونشاطات الأحزاب والتجمعات السياسيّة المتواجدة، لإقرار الأمن والحدِّ من المفاسد والتخريب.

وعلى الحكومة الإسلاميّة أن تستعين بالتّكنولوجيا الحديثة وكلّ أساليب التّجسس ولا تكتفى بالأساليب القديمة.

وعلى الرّغم من أنّ هذا يكلِّفُ الدّولة أموالًا طائلة، إلّاأنّه قد يكون صرف أموال قليلة فى هذا المجال سبباً للحدِّ من ضياع أموالٍ طائلة

فی المجالات العسکریّة والسیاسیّة والإقتصادیّة، أو تکون سبباً فی الوقایة من خسائر کثیرة لا یمکن تعویضها.

فمثلًا لو أنّ أجهزة التّجسس فی الدّولة الإسلامیّة، کشفت عملیة تفجیر تستهدف زعزعة أمنها، فإنّها ستمنع من حدوث خسائر فادحة فی القوی البشریّة والاقتصادیّة، والأهم من ذلک أنّها ستکشف مؤامرة الأعداء العسکریّة الخطیرة وتمنع من مضاعفات مثل هذا العمل.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۴

۴- إستراق السّمع

لا شک فی أنّ مراقبة المکالمات الهاتفیة الشّخصیة والتّجسس علی محتواها للإطلاع علی أسرار النّاس، مصداق من مصادیق الآیة الشّریفة فی سورة الحجرات الدّالة علی حرمة «التّجسس»، کما أنّ الرّوایات الإسلامیة تؤکد هذا المعنی.

فقد ورد فی حدیث عن رسول اللّه صلی الله علیه و آله: «لا تتّبعوا عَثَرات المسلمین فإنه من تَتَبع عثراتِ المسلمین تَتَّبَعَ اللّهُ عَثْرَتهُ، ومن تَتَّبَعَ اللّهُ عَثرتَه یَفْضَحُهُ».

والملفت للنظر هو أنّه ذکر المخاطبین فی هذا الحدیث بقوله: «یا معشرَ من أسْلَمَ بلسانهِ ولم یُسلمْ بِقَلْبِه» «۱».

وفی أصول الکافی، فی باب من طلب عثرات المسلمین وعوراتهم ذکرت أحادیث کثیرة أخری- غیر الحدیث أعلاه-.

وحرمة هذا الأمر کانت مسلّمَةً بین المسلمین إلی درجة أنّ عمر بن الخطّاب کان ذاتَ لیلة یتجول فی أزقة المدینة، فسمع رجلًا یُغنّی فی داره، فتسلق عمر حائط الدّار وصاح بالرّجل یا عدوّ اللّه أتعصی اللّه هنا وتظن أنّ اللّه لن یفضحک؟!

فقال الرجل: مهلًا أیّها الخلیفة، فإن کنتُ قد ارتکبتُ ذنباً واحداً فإنّک قد ارتکبت ثلاثة ذنوب، فإن اللّه عزّوجلّ یقول «وَلَا تَجَسَّسُوا» وأنت تتجسس، وإن اللّه عزّوجلّ یقول «وَأْتُوا الْبُیُوتَ مِنْ أَبْوابِهَا» (البقرة/ ۱۸۹) وأنت سطوت من علی الجدران، وإنّ اللّه عزّوجلّ یقول:

«لَا تَدْخُلُوا بُیُوتاً غَیْرَ بُیُوتِکُمْ حَتَّی تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَی أَهْلِهَا» (النور/ ۲۷) ولم تفعل أنت ذلک!

فاستحی عمر وقال: لو عفوتُ عنک فهل تترک اقتراف هذا الذنب؟

قال الرجل: نعم، فعفی عنه عمر وخرج «۲».

وعلی أیّة حال، فلا شبهة فی أنّ استراق السّمع، بمعنی مراقبة مکالمات النّاس، العادیة منها أو الهاتفیة، وحتّی التّجسس علی الرّسائل والمکاتبات الخاصّة، کل ذلک من مصادیق التّجسس الواضحة الحرمة.

---

(۱) أصول الکافی، ج ۲، ص ۳۵۵، ح ۴.

(۲) کنز العمّال، ج ۳، ص ۸۰۸، ح ۸۸۲۷.

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۵

ولکن، قد تقتضی الضرورات أحیاناً، أن ترتکب الحکومة الإسلامیّة مثل هذا الفعل فی بعض الموارد، وهو مورد احتمال وجود مؤامرة ضد الإسلام والمسلمین، واحتمال وجود خطر علی الأنفس والأموال المحترمة، ففی مثل هذه الموارد لا مفرَّ من استراق السمع والتفتیش فی الأعمال، بالضّبط کما یتمّ ذلک فی التّفتیش عن المواد المخدرّة وأمثال ذلک فی الطرق العامة ووسائل النّقل أو تفتیش الأشخاص فی مداخل المدن!

والواقع أنّ هذه المسألة فرع من فروع مسألة تزاحم الواجبات أو تزاحم الواجب والحرام، ولابدّ من مراعاة «المرجحات» ومسألة «الأهم والمهم».

وبتعبیر أوضح، التّجسس علی أفعال المسلمین حرام ولکن حفظ نفوس أفراد المجتمع، ونظام الدّولة الإسلامیّة، وإحباط مؤامرات

الأعـداء، أهم من ذلك، وعليه ففى كلّ مورد يخاف فيه من تعرّض مثل هذه الأمور للخطر، يجوز استراق السّـمع للحدِّ من وقوع تلك المخاطر.

۵- التعذيب الجسدى لأخذ الإعترافات!

اشارة

لاشكَّ فى أنّ إيـذاء أى إنسان بلا مبرر غير جائز، وقلنا فى الأبحاث السابقـة أيضاً: إنّه لا يجوز تعذيب أحدٍ لأخذ الإعترافات منه، وأنّ كل إقرار مأخوذ بهذا الأسلوب غير معتبر شرعاً وليس له أيّة قيمة قانونية.

ففى حديث عن أمير المؤمنين الإمام علىّ عليه السلام قال: «مَنْ أقرَّ عِنْدَ تجريدٍ أو تخويف أو حَبسٍ أو تهديد فلا حدَّ عَلَيْه» «۱».

ولكن إذا كان المتهم قد ارتكب جرماً بيّناً غير ذلك الجرم الذى لم يثبت عليه، جاز تعزيره لأجله، كما لو ألقى القبض على سارق فى أثناء اقتحامه منزل أحد الناس ولم تثبت سرقته، فلو عزّر لاقتحامه المنزل واعترف أثناء التّعزير بالسّرقة ظناً منه أنّ هذا التّعزير

---

(۱) وسائل الشّيعة، ج ۱۸، ح ۲، الباب السابع من أبواب حدِّ السرقة.

تعـذيب لأخـذ الإقرار، وثبت بالقرائن صدق اعترافه هذا (كما لو دلَّ على مواضع إخفاء تلك المسـروقات وتبين صـحة ذلك)، أمكن الأخذ بهذا الإقرار واعتباره شرعيّاً، وذلك لأنّ القرائن القطعيّة هى التى تثبت صحة هذا الإقرار.

كما يمكن اتباع هذا الأسـلوب فى خصوص الجواسـيس الأجانب حتى لو لم يرتكبوا مخالفة قطعيّة، وكان الحاكم الشرعى يعتقد يقيناً أو ظناً قوياً بأنّ هذا الجاسوس يحمل معلومات سـريّة خطيرة تهدد مصـير الدّولة الإسـلاميّة والمسلمين بالخطر، فإنه فى مثل هذه الحالة يمكن تعذيب هذا الجاسوس والتّضييق عليه بشرط مراعاة التّعامل الإنسانى.

وقـد مرَّ بنا فى قصـة «حاطب بن أبى بلتعـة»، عنـدما امتنعت «سارة» تلك الجاسوسـة، عن الإعتراف وتسـليم الكتاب الـذى كتبه حاطب لأهل مكة، سلّ على عليه السـلام سـيفه وهدّدها بالقتل، فخافت «سارة» فأخرجت الكتاب من شـعرها وسـلمته للإمام عليه السـلام. فهذا الإقرار كان مقروناً بالتّعذيب الرّوحى ومع ذلك حكم بصحته.

فمن الواضح أنّ مثل هذه الضّغوط فى مثل هذه الموارد، ليست أمراً مخالفاً للعقل ولا للشّرع لأنّ أهميّة المسألة تكون إلى درجة يجوز معهـا مثل هـذا التّعـذيب، ففى تلك الحادثـة، لو أن خبر عزم الرّسول صـلى الله عليه و آله على فتـح مكـة، كان قـد وصل إلى أسـماع قريش، لأريقت دماء كثيرة فى ذلك البلد الآمن مع أنّ نتيجة الحرب كانت واحدة.

وفى قصة قضاء أمير المؤمنين عليه السـلام نجد موارد كثيرة مارس الإمام عليه السـلام فيها التّعذيب النفسـى ضد المجرمين وخاصّة فى القضايـا المهمّـة التى كـانوا يرفضون الإعتراف والإقرار فيها، فكان الإمام يمارس مثل ما مرَّ ذكره من الأساليب للحصول على إقرارهم، فمثلًا جاء فى قضـيته: أنّ رجلين تداعيا عنده، وكان كل منهما يدعى أنّه السـيّد وأنّ الآخر غلامه، فقال الإمام عليه السـلام لقنبر: يا قنبر على بسـيف رسول اللَّه صلى الله عليه و آله لأجل أن أضرب رقبة العبد (بعد أن أدخل رأسيهما فى ثقبين أعدّهما خصّيصاً لهذا الأمر)، قـال: فـأخرج الغلام رأسه مبـادراً، فقـال علىّ عليه السـلام للغلام: ألست تزعم أنّك لست بعبـد، ومكث الآخر فى الثقب، قال: بلى إنّه ضربنى وتعدّى على «۱».

---

(۱) وسائل الشيعة، ج ۱۸، أبواب كيفية الحكم، باب ۲۱، ح ۴، ص ۲۰۸.

فلا شك فی أنّ هذا التهديد كان مؤذياً للغلام الواقعی ولكن هذا المقدار جائز للكشف عن واقع حقٍّ مهم ففی موارد التجسس يكون الأمر كذلك، بل هو أعلى وأولى.

وبتعبير آخر، فإنّ قانون «الأهم والمهم» و «تزاحم الواجبات والمحرمات» يُجيز مثل هذا التعذيب فی مثل هذه الموارد.

ولكن، ينبغی أن لا يُستغل هذا القانون بهذه الذّريعة ويُعذَّب المتهمّون تعذيباً شديداً لا يطاق أو يطبق هذا القانون والإستثناء لأدنى سوءِ ظنٍ بالأشخاص.

وينبغی أن لا ننسى أنّ هذا مجرد استثناء، ولا يجوز الاستفادة من مثل هذه الأساليب إلّا فی موارد الضّرورة مع رعاية الحقوق الإنسانيّة كمّاً وكيفاً.

ومن هنا تتضح لنا مسألة أخرى وهی أنّ بعض المأمورين لجمع المعلومات والأسرار يضطرون- ولكسب الأخبار الحسّاسة والمصيرية- أن يتزيّوا بزی الأعداء ويتقمصوا شخصيات أفراد العدو فی الملبس والمأكل كی يتمكنوا من اختراق العدو، وفی مثل هذه الحالات قد يضطرون إلى ارتكاب بعض الذّنوب كأكل الحرام أو الحديث ضدّ الإسلام والمقدّسات الإسلاميّة لتحقيق أغراضهم، فالحكم هنا مشمول لقاعدة «تزاحم الواجب والحرام» و «الأهم والمهم»، فمتى ما كان الهدف أعلى وأهم من الذّنب، كان ارتكاب ذلك الذّنب جائزاً، لتحقيق الهدف.

سؤال: هل الغاية تبرر الوسيلة؟

قد يقال، إنّ ما ذكرنا من استثناءات أليس تعبيراً آخر عن ما هو معروف عند بعض زعماء المدارس الإلحادية المادية من أنّ: «الغايات تبرر الوسائل»؟

و الجواب:

وفی الإجابة عن هذا السّؤال، لابدّ من الإلتفات إلى نكتة واحدة وهی أن هؤلاء الذين يقولون بهذه المقالة لم يحددوا قيداً ولا شرطاً لها، أی إنّهم يقولون: للوصول إلى الأهداف

نفحات القرآن، ج ۱۰، ص: ۳۳۸

(بلا استثناء) يمكن التّوسل بأيّة وسيلة (بلا استثناء)، ولذا فإنّهم يوجهون الحروب المدمِّرة الداميـة من أجل الحفاظ على مصالحهم الإقتصاديّة، فيذهب آلآف النّاس ضحيّة من أجل عدم تضرر مصالحهم بأقل ضرر.

أمّا أتباع الأديان السّماويّة، فهم ينكرون هذه العموميـة فی الشّقين معاً، أی أنّه لا يكفی كل هدفٍ لتبرير وتجويز الوسيلة، كما أنّه ليست كل وسيلة مجازة وإن كان الهدف سامياً، فالحاكم هنا هو قانون «الأهم والمهم»، تلك الأهميّة المقررة عقلًا وشرعاً، لا كلّ أهميّة وإن كانت مصلحة شخصيّة، وهوى وهوَساً شيطانيّاً.

فقانون الأهم والمهم ليس أمراً يمكن إنكاره- فمثلًا يجوز ضرب وجه من استعمل الترياق ويريد النّوم- ذلك النّوم الذی يؤدّی بحياته- بعدة صفعات على خدّه ليفيق من نومه من أجل إنقاذه من الموت، وأكبر من ذلك يمكن أخذ الضّرائب المالية من النّاس من أجل إعداد القوة المناسبة لحفظهم من أخطار الأعداء وغزوهم، أو حبس كلّ أفراد المجتمع فی منازلهم لعدة أيّام، لتلقيحهم بلقاح ينقذهم من وباءٍ خطير يهدد حياتهم جميعاً.

هذا ما يقوله أتباع مدرسة الأنبياء عليهم السلام، بينما نجد أنّ أتباع المدارس الماديّة الإلحادية لا يشترطون أی شرط لتطبيق قاعدتهم، فيجيزون كل وسيلة للوصول إلى أی هدف من أهدافهم.

وبهذا ينتهی الجزء العاشر من نفحات القرآن والذی تناول البحث حول الحكومة والولاية، وبهذا تنتهی الدورة الكاملة فی المعارف

والعقائد الإسلاميّة من وجهة نظر القرآن الكريم وعلى أساس التّفسير الموضوعى فى عشرة أجزاء. نشكر اللّه ونحمده على هذا التّوفيق الذى شملنا لأداء هذا الأمر المهم.

إلهنا: تقبل منا جميعاً هذا المجهود المتواضع واجعله ذخراً لنا فى يوم الجزاء، ووفق كلّ من يود الإطلاع على المعارف والعقائد الإسلاميّة من وجهة نظر القرآن الكريم، للإطّلاع عليه.

تمّ فى آخر شهر صفر يوم ذكرى استشهاد

الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام

سنة ۱۴۱۶ ه ق

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافىّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذى" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلميّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائيّ و اليدويّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخريّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹